كتاب الشهر

فندق الرعب

بقلم هنري هوريت

ليلة رأس السنة الجديدة هي أعظم المناسبات لدى سلسلة الفنادق الفخمة التي تزيّن الشاطىء المشبع بنور الشمس في سان خوان عاصمة بورتوريكو. في اليوم الاخير من العام ١٩٨٦ كان فندق "ديبون بلازا" الانيق يعج بالنزلاء ولم تبق فيه غرفة خالية. نحو ألف شخص استغلوا اجازاتهم وشغلوا فيه ٤٢٣ غرفة وجناحا. وأكثر من ٤٠٠ مستخدم كانوا في تصرف النزلاء.

ولكن خلف واجهة الفندق الهادئة احتدم شجار حاد يتعلق بشؤون العمل والعمال. كانت ادارة الفندق مشغولة بمفاوضات مع "المركز ٩٠١" لاتحاد "الاخوة" (★) وهو أحد اكثر الاتحادات الاميركية تشدداً. في منتصف الليل

(★) Brotherhood of Teamsters

Illustration Gary Meyer



تنتهي مدة التعاقد مع مستخدمي الفندق غير العاملين في الملهى، والمفاوضات وصلت الى نقطة ركود.

في الاسبوع السابق حذر الاتحاد عبر الاذاعة نزلاء ديبون بلازا من أن الفندق سيكون في وضع غير مرضٍ ليلة رأس السنة الجديدة. وخلال الايام العشرة الفائتة شبت أربعة حرائق مشبوهة، اثنان منها على الاقل استلزما جهوداً لاجلاء النزلاء. أمّا الادارة ففسرتها كانذارات من الاتحاد واستخدمت حراساً اضافيين.

بعد ظهر الحادي والثلاثين من ديسمبر (كانون الاول) عقد أكثر من مئتي شخص من ممثلي الاتحاد وأعضائه اجتماعاً في قاعة الحفلات الشمالية في الفندق ليبحثوا في آخر عرض قدمته الادارة. وبعيد الساعة الثالثة انفض الاجتماع، وتقرر اضراب عند منتصف الليل. وخرج معظم اعضاء الاتحاد من قاعة الحفلات وعادوا الى أعمالهم.

لكنّ اثنين من الاتحاد، نادلاً وعامل صيانة، تسللا الى قاعة الحفلات الجنوبية الخالية.

تنين الموت

لهب ثقاب واحد، نور ضئيل خافق، حمل مصيراً رهيباً منذ لحظة اشتعاله قرابة الثالثة والثلث عصر اليوم الاخير من العام ١٩٨٦.

وضعت الشعلة على نحو جعلها تلامس كمية صغيرة من مواد عجينية سريعة الالتهاب تعتمدها المطاعم الانيقة لحفظ الصحون المغسولة ساخنة. امتد اللهب الازرق الناعم من العجينة الى صناديق مضلعة من الكرتون والى نسيج بلاستيكي يغلّف أثاثاً سلّم حديثاً الى الفندق ووضع في قاعة الحفلات الجنوبية.

اخذ اللهب طريقه الى الاثاث القابل للاشتعال. اتقدت النار بسرعة ممتصة الاوكسيجين ورافعة الحرارة الى ١٧٥ درجة مئوية. نفثت الى الخارج دخاناً حاراً أسود شق طريقه الى قاعة الحفلات الشمالية الملاصقة والى سطوح الشرفات ثم الى المداخن وعبر السلالم الى الردهة الرئيسية فالى الانابيب المؤدية الى الردهة والملهى.

ثم سُمع الصوت: صفير الهواء المندفع يتبعه دوي تحطم زجاج النوافذ بقوة الحرارة. وفي هدير راعد انبثق اللهب والدخان بحرارة تتجاوز ٨٠٠ درجة مئوية، من اللباد الاخضر ومن الخشب في صالة التسلية. صرخ الناس وكموا أفواههم حينما شعروا بالدخان الحار الخانق الذي انتشر في الملهى أمام محرقة من اللهب.

في أقل من ثلاثين ثانية تفشت النار الخافقة في الملهى. وانطلق تنين الموت ملتهماً في طريقه كل شيء حيّ وهو لا يزال يطلب الاوكسيجين، وخرج من نوافذ الملهى في الجانب الغربي من الفندق.

النار التي أكلت مفروشات الملهى والردهة نفثت مزيداً من الدخان الاسود الذي انتشر في طبقات الفندق الاخرى الثماني عشرة. أما النزلاء الذين راوح عددهم في الطبقات العليا بين ٢٠٠ و٢٥٠ فشعروا بالحريق ليس من طريق سماعهم أصوات صفارات الانذار بل من رمعان خفيف في الانوف. في ذلك الاصيل

المشمس، قليلون هم الذين تخيلوا عنف الجحيم الثائر أو أدركوا أن كثيرين من النزلاء الآخرين لقوا حتفهم.

المستجمّون

لم تمضِ خمس عشرة دقيقة على شبوب الحريق حتى اكتسح الملهى. وبعد وصول الانباء الاولى عن الكارثة في الثالثة والدقيقة الاربعين طفقت الجهود اليائسة تبذل للسيطرة عليها وانقاذ الواقعين في شرك النار. واذ استعد أطباء مشافي سان خوان وممرضاتها لمعالجة المصابين، انطلقت صفارات سيارات الاسعاف والاطفاء وغصت الشوارع بهذه السيارات التي كانت كلها تحاول الوصول الى ديبون بلازا.

في جملة النزلاء بوني ونِك بوتشي. كانا مسترخيين في غرفتهما في الطبقة الثانية عشرة بعد غداء متأخر. انهما يريدان أن يأخذا قسطاً كبيراً من الراحة قبل حلول المساء ليتمكنا من الاستمتاع مع أصدقائهما في سان خوان بليلة رأس السنة.

بوني سيدة ذات شعر أشقر وعينين بنيتين وبشرة صبغتها شمس بورتوريكو بسمار ذهبي. تزوجت قبل أربع سنوات، ولا يفصلها عن ولادة طفلها الاول الا أشهر قليلة. غادرت هي وزوجها نِك بلدة نيوبرغ الباردة في ولاية نيويورك الى سان خوان طلباً للدفء. موَّلا هذه العطلة النادرة من أجر ثمانين ساعة عملاً اضافياً مضنياً قاما به على مدى اسابيع في ادارة مركز للياقة البدنية.

قالت بوني لزوجها: "أعتقد أنني أتنشق دخاناً. ونزلت من سريرها وتطلعت عبر النافذة فرأت دخاناً يتصاعد من الطبقات السفلى من الفندق.

قال نك: "انه حريق آخر." وتوقع شراً. فقبل أن يحجزا في الفندق شب حريقان، وظن أن لهما علاقة بخلاف الاتحاد مع الادارة. واذ أدركا الخطر المحتمل رأى نك أن عليهما مغادرة المكان. أخرجا ثياب الرياضة وارتدى كل منهما سروالاً أحمر وقميصاً أزرق وفتحا الباب.

قبل سنوات اصطحب هيو ومارج كورتز أولادهما الثلاثة الى بورتوريكو بعد الميلاد. انهما صاحبا مؤسسة عائلية تتعاطى زراعة الخضر والشتول في شيشاير بولاية كونتيكت الامريكية. وبعد انهاء الموسم الميلادي بتسليم ٢٠٠ ألف نبتة طارت العائلة الى سان خوان في ٢٦ ديسمبر (كانون الاول).

قدم هيو الى الجزيرة للمرة الاولى عندما كان في الثامنة عشرة من عمره، وذلك لزيارة بعض أبناء بورتوريكو الذين يعملون صيفاً في مزارع عائلته. ثم تكررت زياراته. بالنسبة اليه كانت الجزيرة اسماً مرادفاً للهو والاسترخاء. هيو يستمتع بقاعة التسلية ومارج تغتنم الفرصة لتنصرف الى المطالعة. أما الاولاد فيحبون الشاطئ. قضى هيو صباح ٣١ ديسمبر مع أولاده جنيفر (١٤ عاماً) وجانيت (١٣ عاماً) وهيو الابن (١١ عاماً).

بعد الظهر جرّب كورتز حظه على طاولة اللعب فشعر بأن هذا اليوم ليس يومه. وبسرعة، كما يفعل دائماً حينما يحس

بسوء حظه، وضع نقوده في جيبه وغادر الملهى. كانت الساعة قاربت الثالثة والنصف حينما توجه نحو الردهة الرئيسية. لاحظ دخاناً ضعيفاً يتصاعد في الجانب البعيد. فتناول سماعة الهاتف الداخلي وطلب الغرف المجاورة التي يشغلها هو وعائلته. فابلغته جنيفر ان والدتها ستتبضع في السوق. فسألها بعجب: "آه، ألا تزالون هناك؟"

فردت مازحة: "لا يا أبي، أنا لست هنا." تحدثا بضع ثوان ثم أخبرها أن ثمة حريقاً آخر. ولما لم تكن هناك مشكلة لدى حدوث الحريق الاول فهو لم ير داعياً الى العجلة واقترح أن تبقى العائلة حيث هي.

قالت جنيفر بانفعال: "نحن خارجون في هذه الدقيقة، وجانيت تمسك باب المصعد." وأعادت سماعة الهاتف الى مكانها قبل أن يتمكن والدها من الكلام.

ما كاد هيو كورتز يرجع السماعة الى موضعها حتى سمع ضجيجاً قوياً في الطبقات الدنيا، فالتفت الى يمينه عبر الردهة.

في الثالثة الا ربعا ترك مايكل وليندا ولف الفندق للتبضع في السوق. كل عام في مثل هذا الوقت كانا يخططان لقضاء اجازتهما مع ابنتيهما في رحلة الى مكان ما. كانت اجازة مقبولة للهرب من شتاء نيوإنغلند شمال شرق الولايات المتحدة حيث يملك مايكل سلسلة متاجر للدراجات.

توقفا عند مسبح الفندق ليبلغا ابنتيهما انهما نالتا قسطاً كافياً من حرارة الشمس وقد حان الوقت لترجعا الى غرفتهما وترتديا ثيابهما. حدقت الفتاتان جودي (١٧ عاماً) وساندي (١٥ عاماً) الى والديهما. وتوسلت اليهما ساندي: "سنبقى خمس عشرة دقيقة فقط." فقال الأب: "حسناً، ولكن ليس أكثر."

جودي وساندي، كسائر المراهقات اينما كن، لا تفعلان دائماً ما يقول لهما أبواهما. لكنهما في ذلك العصر ظلتا في حرارة الشمس خمس عشرة دقيقة ثم دخلتا الفندق قرابة الساعة الثالثة وأخذتا المصعد الى غرفتهما في الطبقة الخامسة.

جلست ساندي امام التلفاز تشاهد فيلماً فيما انصرفت جودي الى الاستحمام. ظنت ساندي أنها تشم دخاناً، ثم رأت دخاناً رماديا يخرج من ثقب في الحائط. نادت أختها واستغرقتا في الضحك. فقد سبق لوالدتهما ان استوضحت ذلك الصباح بعض المستخدمين صحة ما يشاع عن خطر حريق، فأكدوا لها أن ليس ثمة ما يقلق.

فتحت ساندي الباب المؤدي الى الرواق لتلقي نظرة على ما حولها، فتسرب الدخان الاسود الى الغرفة، وسرعان ما ملأها بحيث لم يعد هناك انقشاع يتعدى مسافة متر. فادركت الفتاتان أن عليهما مغادرة المبنى.

لم يكن خوسيه أبونتي من نزلاء الفندق ليلة رأس السنة، لكنه يعرف المكان كأي شخص آخر. انه جزار بورتوريكي في الاربعين. يملك ذاكرة تصويرية، استطاع بما تخزنه أن يصبح مقامراً ماهراً.

بعد ظهر هذا النهار ذهب أبونتي، البدين القصير القامة ذو العينين السوداوين، في جولة في ملهى الفندق متمنياً لاصدقائه سنة جديدة خيرة. وبينما هو في الجانب الغربي من الملهى، تطلع نحو الجانب الشرقي فرأى الدخان من خلال النوافذ المطلة على المسبح فمشى بهدوء نحو باب مفتوح في الجانب الغربي من الملهى يؤدي الى الردهة الرئيسية. وما أن اقترب منها حتى رآها تغص بالدخان فعاد الى الداخل وتطلع نحو المخرج الوحيد الآخر في الجهة الشرقية الذي يؤدي الى الردهة أيضاً، فاذا هناك حشد كبير لم يتمكن من الخروج بسبب الدخان.

شم رائحة قوية مقيتة وشعر بحرارة تنخس بشرته، فأدرك أن درجة الحرارة ترتفع بسرعة. رأى ما يشبه أفاعي سوداً من الدخان تزحف عبر السقف القرميدي المانع للصوت في الجانب البعيد من الملهى، فاذا بالسقف يصبح أسود ويبدو كأنه يتجعد والافاعي السود تتسابق في اتجاهه.

وثبة من أجل الحياة

حين أعاد هيو كورتز سماعة الهاتف التفت نحو قاعة الحفلات حيث الضجة الغريبة، فاضطرب مفكراً في أفراد عائلته النازلين في المصعد، وتمنى لو أسرعوا ليتمكن من اخراجهم من الفندق. أصبحت الضجة خافقة مخيفة ثم رآها مجسدة.

حائط من الدخان الاسود يصل السقف بالارض يتحرك نحوه، وأمامه ثلاثون أو أربعون شخصاً يتراكضون كأنما الدخان الكثيف يقذفهم فيتدافعون وهم يولولون بجنون.

أما كورتز، رجل الاعمال والمزارع الاسمر المفتول العضل، فكان نادراً ما يخاف، لكنه الآن خائف. راقب حائط الدخان يتحرك نحو المصاعد وأدرك أن المصعد الذي يحمل عائلته سيصل في أي لحظة الى الردهة وتخرج العائلة منه وتضيع في الدخان الاسود فلا تعرف الى أين تتوجه أو كيف تخرج من الفندق.

غطى وجهه بقميصه وركض نحو المصاعد، آملا أنه، ساعة تفتح أبوابها، يستطيع أن يرشد عائلته الى مكان آمن. التقط انفاسه، اذ ان السحابة الدكناء غلفته. ابتعد خمسة عشر متراً نحو سلّم لولبية تنفذ من الردهة الى المسبح. هناك كان الدخان أقل كثافة. ظن أنه يستطيع الوقوف على رأس السلّم حتى اذا ما لمح عائلته اندفع وسط الدخان وقادها الى الخلاص.

لكنه حين حدّق ملياً عبر الدخان أدرك أن عائلته اذا خطت نحو الردهة قضي عليها، لان الدخان الاسود يغمرها في ثوان. بدأ أجيج النار يشتد وسمع الناس يولولون في هلع. واذ فكر في أن هذه هي اللحظة الاخيرة المتاحة، قفز من رأس السلم عن علو ستة أمتار الى حافة المسبح. خيل اليه أن قدميه انكسرتا، لكنه وقف وأخذ يركض.

للمسبح سياج بني على نحو يبقي غير النزلاء خارج منطقة السباحة. أما الآن فقد غدا هذا السياج جدار سجن للجمهور المضطرب الذي يحاول الهرب. وثمة باب

دوّار يؤدي الى المسبح كان مزدحماً بأناس استولى عليهم الرعب. وهناك آخرون ألقوا بأكوام من مناشف المسبح على الشريط الشائك الموضوع على طول الجدار تمكينا لهم من الزحف فوقه من دون ان يصابوا باذى. وفوق منطقة المسبح يقع الجانب الغربي من الملهى حيث كان الرواد اليائسون يلقون بأنفسهم من النوافذ فيقعون احياناً على اشخاص في منطقة المسبح يسببون لهم جروحاً وكسرواً ورضوضاً.

أخذ كورتز طريقه فوق الجدار الى المسبح حيث سقط على الارض مصعوقاً. واذ التفت الى الوراء بدا له أن الملهى سينفجر. النار مندلعة من كل نافذة. نهض وأسرع نحو نقطة يستطيع منها أن يعود الى المدخل الرئيسي للفندق.

يقول كورتز: "كل ما أمكنني فعله هو أن أصلي آملا أن يكون "شيء ما" اعاق عائلتي عن دخول المصعد."

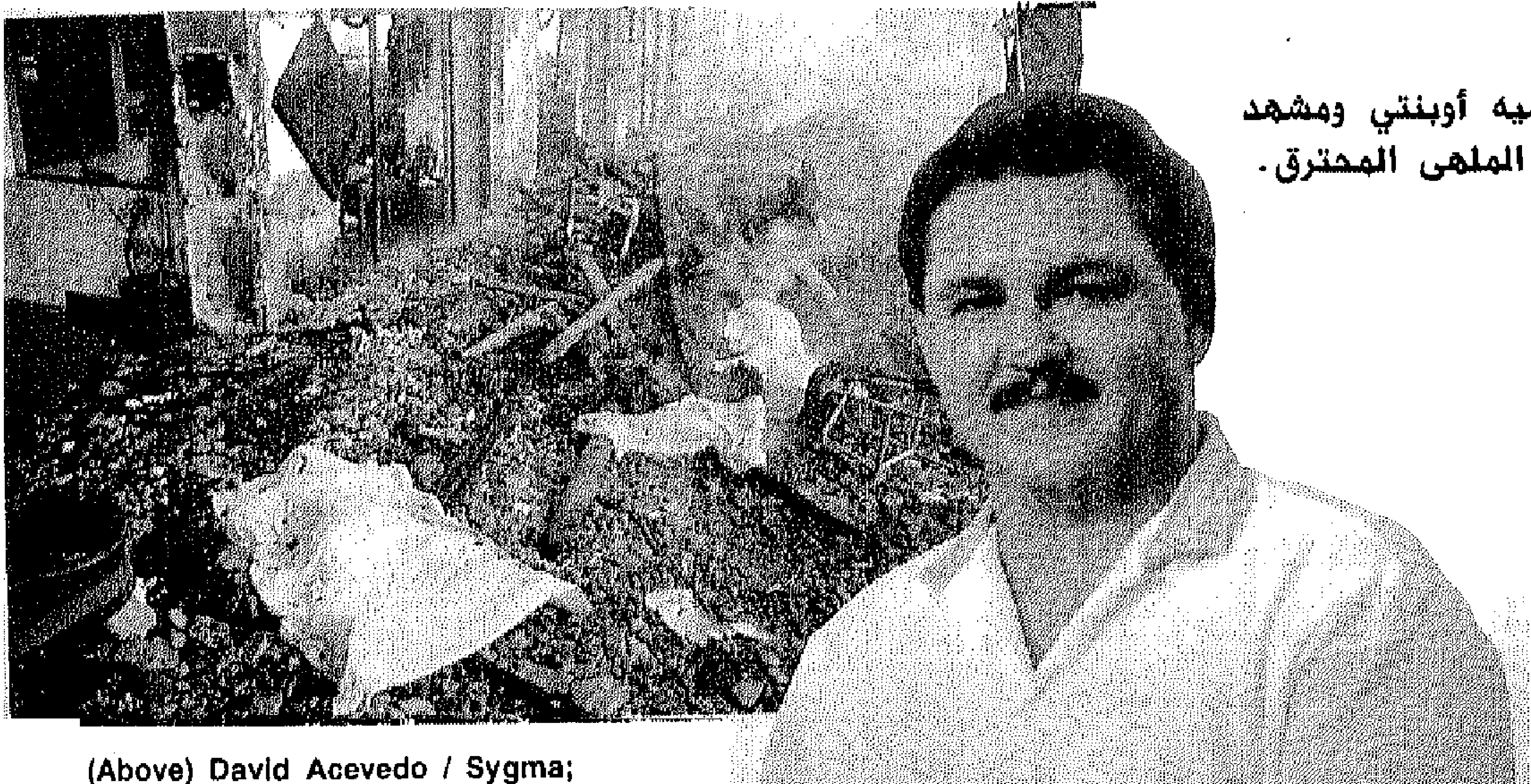
لكنه تصور أن الحظ اذا حالف عائلته ولم تدخل المصعد فمن الصعب أن يحالفها وسط الزحمة، والدخان المنتشر في كل فجوة من الفندق.

صعق خوسيه أبونتي لحظة حدق الى البقعة السوداء المسرعة نحوه عبر السقف. انها تشبه جوانب صندوق من الكرتون موضوع في موقد قبل ان ينفجر ناراً مستعرة. انتشرت رائحة الدخان الكريهة من البلاستيك المحترق فبدأ أبونتي يسعل وكاد يختنق.

رأى ان مخرجي الملهى أصبحا مقفلين وأن أمله الوحيد في النجاة كان أن يقفز من النافذة. الحرارة أعظم مما هي في غرفة بخار.

التقط أبونتي كرسياً خشبياً وطفق يضرب به النافذة الزجاجية، لكنه لم يتمكن من كسرها. وعلى بعد مترين منه حطّم أحدهم الزجاج بكرسي معدني. وعلى رغم بقاء نتوءات زجاجية كبيرة في الفجوة التي فتحت قفز الناس من خلالها الى منطقة المسبح.

تسلّق أبونتي عبر النتوءات جارحاً يده



خوسيه أوبنتي ومشهد في الملهى المحترق.

(Above) David Acevedo / Sygma;

ووقف على حافة النافذة. جثم هناك وهو ما زال يأمل الاّ يضطر الى القفز من علو ستة امتار. في تلك اللحظة سمع صوتاً مدوياً كهدير طائرة نفاثة قريبة، فالتفت الى الخلف نحو الملهى. كل جزء من المشهد الذي رآه انطبع في ذاكرته التصويرية الى الابد:

كرة نارية ضخمة تتوجه نحو الغرفة، وصراخ، وتحطّم زجاج، ودمار لكل شيء أصابته الكرة. رأى صديقه العامل في الملهى سنتياغو توربن يجمع نقوداً، واذ ضربته الكرة النارية تقلّصت بشرته واشتعل جلده.

حين بدت الغرفة كأنها ستنفجر اندفع أبونتي الى الوراء ممزقاً يديه بالزجاج وسقط نحو الارض فوقع على رأس رجل آخر مما سهّل سقوطه لكنه كسر رسغه. وهبطت قطعة زجاج كبيرة على رأسه فافقدته الوعي. في أي حال، ابتعد أبونتي عن ألسنة اللهب البرتقالية المندلعة من نوافذ الملهى.

يقول خوسيه أبونتي: "عندما نظرت الى فوق أدركت أن الجميع ماتوا، لانه لم يكن هناك أي صوت بشري. أما في ما خصني فقدّرت أن هذا اليوم هو أسعد أيام حياتي، ولكن كل ما استطعت فعله هو البكاء."

نادت جانيت كورتز العائلة للاسراع لانها لا تريد ان تمسك باب المصعد كل النهار، وبأسرع ما يمكن كان الافراد الاربعة داخل المصعد يهبطون من الطبقة العشرين. توقف المصعد في الطبقة الثامنة ودخله رجلا امن يحمل كل منهما مطفأة مما ذكّر أولاد كورتز بقول أبيهم: "يبدو أن حريقاً آخر سيحدث في الفندق."

جانيت، الفتاة الطويلة القامة السوداء الشعر العسلية العينين، سبقت اختها جنيفر وأخاها هيو الى مقدم المصعد وهو ينزل ببطء نحو الردهة. ولحظة فتحت الابواب قفزت الى الخارج، وتوارت أمام عيني والدتها في مرجل الدخان الاسود. اندفعت مارج حالا لتلحق بابنتها، لكن باب المصعد بدأ ينغلق قبل أن تجتاز رجلي الامن، فلم تستطع الخروج. صرخت. وأخذ الدخان الاسود يتسرب الى عربة المصعد.

في الردهة قرب المصعد ذهلت جانيت متأثرة بالرعب الاسود الذي أطبق عليها. وشعرت بانهيار قواها حين حاولت التقاط أنفاسها. كل من حولها كان يتنفس بشدة. جمدت في مكانها اذ ليس ثمة موضع تنتقل اليه. الى جانبها رجل يطلق صراخا ممزوجاً بدم جامد، ثم تحول صراخه نشيجاً خانقاً مؤلماً. ثم امتدت يد من ورائها مخترقة ستار الدخان وأمسكت بها وجذبتها الى المصعد. تلك كانت يد أحد رجلي الامن. وقفت جانيت بين يدي والدتها تجهش بالبكاء وتسعل.

وما ان دخلت حتى بدأ المصعد ينزل وقد غص بالدخان.

سباق الى السطح

عندما فتح نك وبوني بوتشي باب غرفتهما في الطبقة الثانية عشرة تسرّب اليها الدخان من الرواق، وأنذرتهما البقع السود المتطايرة بالخطر. واذ تذكرا

أنهما، خلال أحد الحرائق السابقة، كانا نائمين، دفعا الباب بعنف وصرخا آخذين طريقهما الى السلم اللولبية وشرعا في النزول. كانت الطريق مزدحمة بالباكين والساعلين. اجتازا جماعة تتسلق السلالم وتابعا نزولهما بغية الخروج من الفندق غير عالمين بما يجري في الطبقات السفلى.

وحين اقتربا من الطبقة العاشرة ازداد الدخان سواداً. تحوّل الاضطراب رعباً، وعلا صراخ الاطفال والاباء والامهات. بدأت بوني تشعر بانهيار في قواها متأثرة بالدخان وقلقت على جنينها. ازداد الدخان كثافة فاضطر الزوجان بوتشي الى الرجوع مدركين ان لا سبيل لخلاصهما غير الصعود الى سطح الفندق.

يحتل الطبقة الحادية والعشرين أفخم مطاعم الفندق: "بنتهاوس." وعندما وصل الزوجان الى هناك أحسا بخيبة ذريعة. فالدخان، بدلا من أن يتحسن، اشتد سوءاً وأخذ يتدفق من مدخل المصعد كأنه مدفوع بمروحة عملاقة.

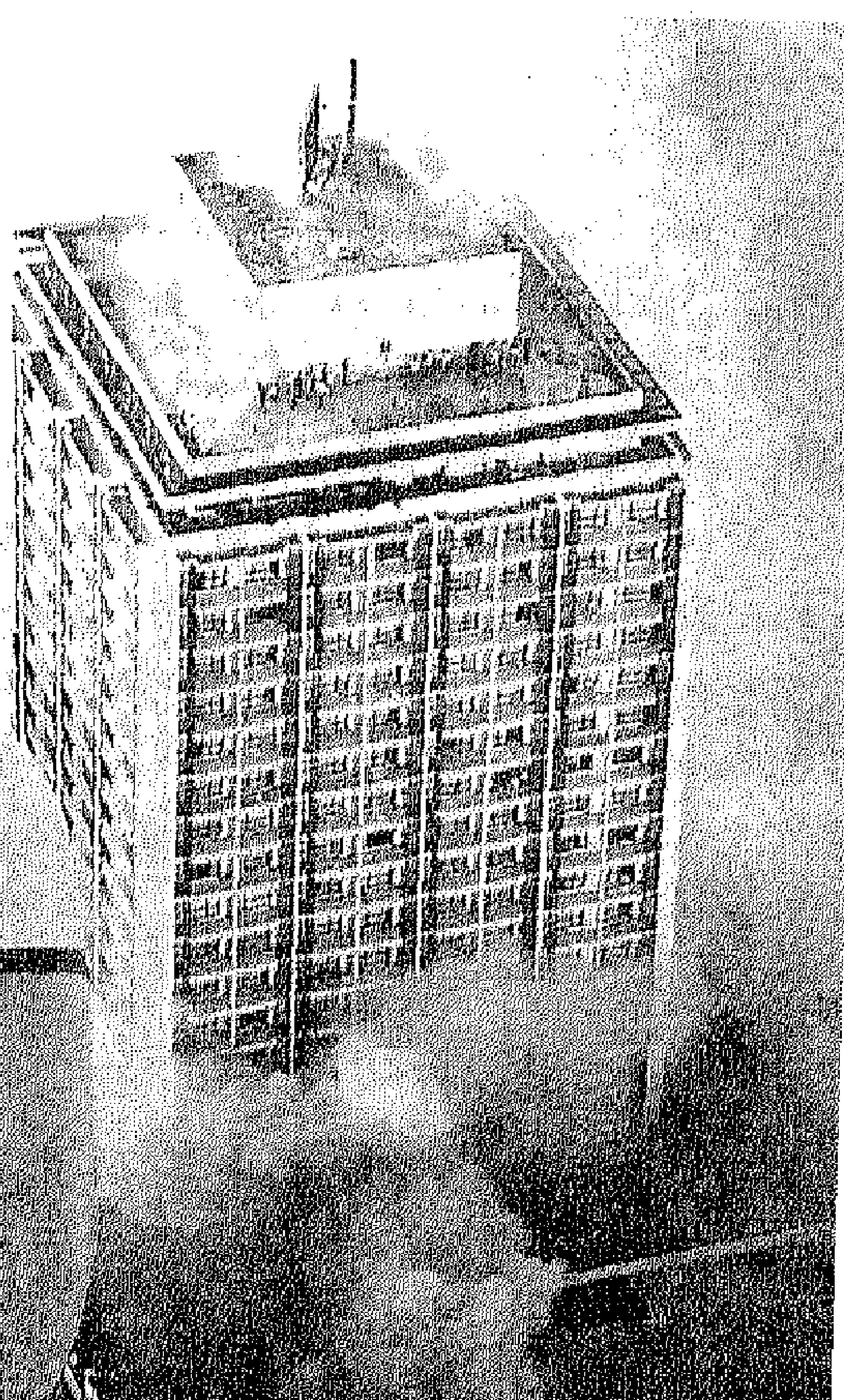
عَبَر نك وبوني مطبخ المطعم والمدخل الخارجي المكشوف الى الشرفة التي تحوط المطعم ويبلغ عرضها نحو ستة أمتار. كان فوقهما حاجز مصنوع من قدد خشبية تفصل بعضها عن بعض فتحات يبلغ عرض كل منها حوالى نصف متر. بقي نك وبوني دقيقة يتفحصان المكان قبل أن يقررا التسلق.

ومن دون تردد أمسك نك دعامة منتصبة وجذب نفسه الى السطح من بين قدتين. وبعد ثوان فعلت بوني مثله.

وبعدهما خرج الى الشرفة جوريس برنسون وزوجته وابنتهما. فجثم نك على الحاجز وانتشلهم الى السطح. كذلك صعد



بوني ونك بوتشي.


Jose Fernadez / SIPA-Press

الى السطح زوجان شابان. أما الآخرون الذين ظهروا على الشرفة فبقوا هناك شاعرين بأنها المكان الاكثر أماناً ريثما تصل النجدة.

علم بوتشي أن طوافات تحوم على مسافة قصيرة من المبنى، وكان يلمحها عندما تفرّق الريح الدخان المنبعث من المطعم. قال: "انها أملنا الوحيد." لكن الطوافات لم تهبط. وأدرك بوتشي أنه اذا ما لف الدخان سطح الفندق دقائق قليلة أو اكتسحه اللهب. فستحصل كارثة ماحقة. وازداد عدد الذين على الشرفة.

سمع نك هدير طوافة، وكفراشة خشنة اقتربت من السطح وحامت على نحو غير منتظم، تضربها الريح وتلفحها الحرارة. وما كادت تظهر حتى ابتعدت وتوارت في الظلام.

وتلاشت آمال الملتجئين الى السطح والشرفة.

رقص الفراشات

بعد ثلاثين دقيقة عادت الطوافات فأدرك نك وبوني أن ثمة خطة انقاذ تدبّر. والهبوط الاول الذي نفذته طوافة للشرطة كان عملاً بطولياً حقاً. أجرى الملازمان خوليو كولون وانخل روخاس محاولتين فاشلتين للهبوط أثناء هبوب رياح متقلبة وتيارات عنيفة. وفي المحاولة الثالثة سكنت الريح فجأة وهمد الدخان. اقترب الملازمان بطوافتهما من الشرفة. ولتجنب البناء كان عليهما أن يحفظا الطوافة على علو نصف متر من السطح ليتمكن الناس من الصعود اليها.

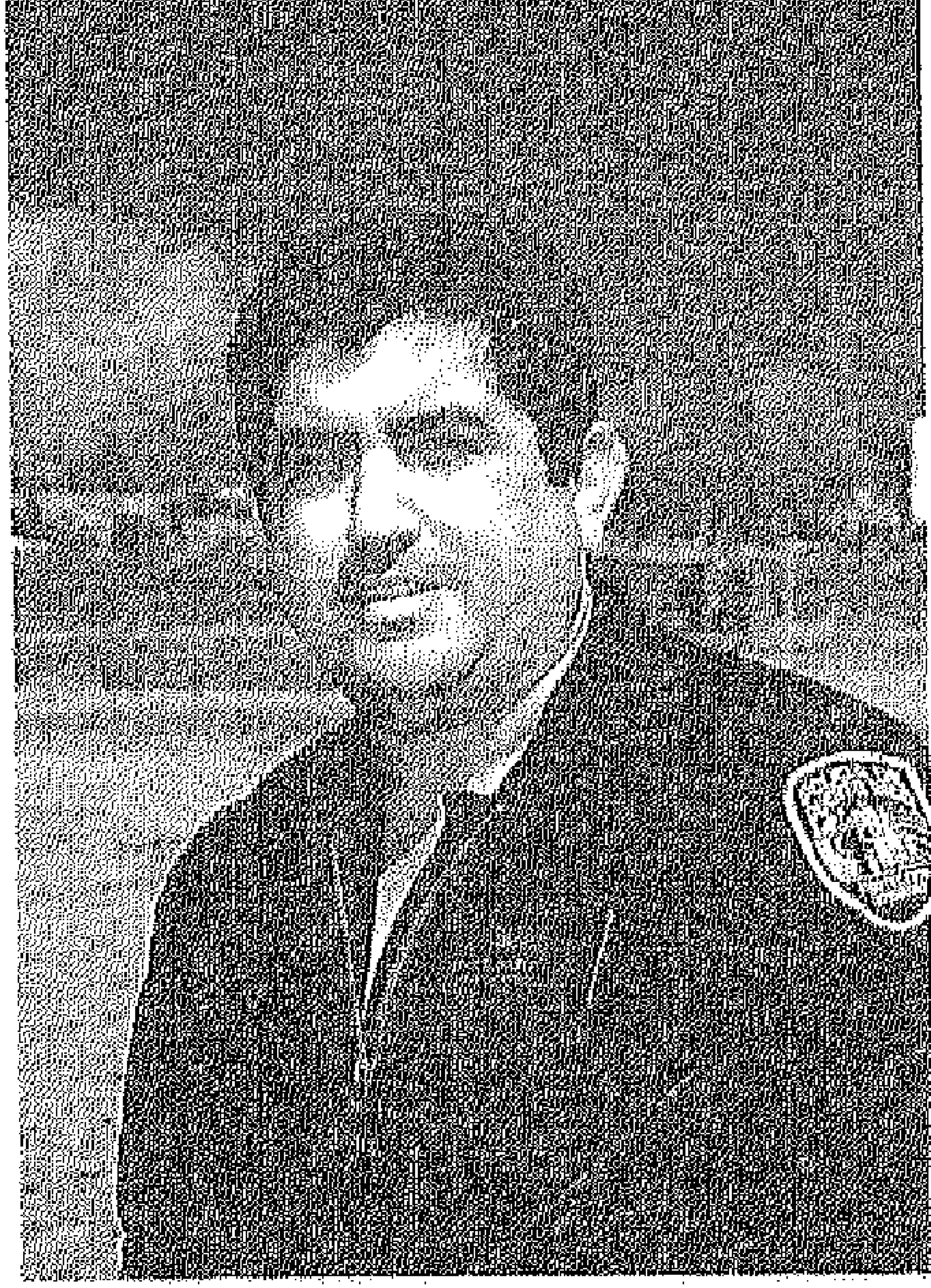
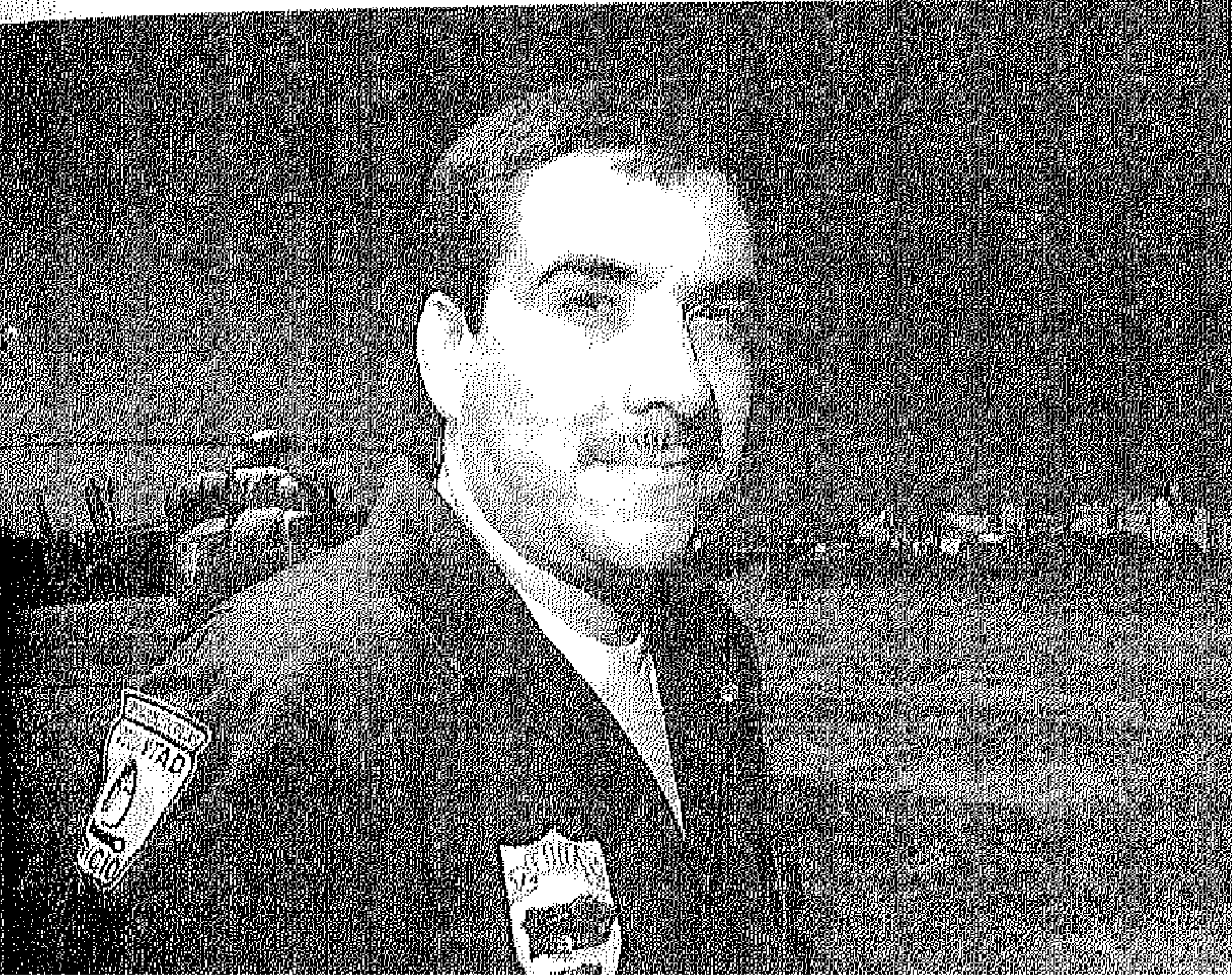
لم يفوّت نك الفرصة لانقاذ زوجته الحامل، فأسرعا نحو الطوافة، ووثبت بوني اليها بعدما قبلها زوجها مودعاً. أما نك فعلى رغم معرفته بأن هذه السانحة قد تكون فرصته الاخيرة لمغادرة السطح فآثر البقاء ومساعدة الآخرين.

كان بات وولتر مولعاً بسباق السيارات. بعد ذلك تعلم قيادة الطوافات التي أثارته وأمنت له طريقاً لكسب معيشته. أسس شركة صغيرة للنقل بالطوافات في جزيرة سانت توماس الامريكية القريبة من بورتوريكو، وقاد طوافة لامعة من نوع "بل جت رينجر" مدهونة بالاحمر والابيض والازرق تدعى "ألفا تانغو."

بعد ظهر مشرق في ٣١ ديسمبر (كانون الاول) كان وولتر ينقل فريقاً سياحياً رباعياً في رحلة قصيرة لا تتعدى ١٢٠ كيلومتراً من سانت توماس الى سان خوان بغية حضور الاحتفال بليلة رأس السنة.

لاحظ وولتر، وهو على بعد ثلاثة عشر كيلومتراً من سان خوان، دخاناً ادكن يتصاعد من مكان هناك. وحينما اقترب سمع من الاذاعة أن "ديبون بلازا" يحترق وان الحاجة ماسّة الى المساعدة. فقال لمن معه انه سيؤمن نزولهم ويتركهم لانه سيستجيب للحال الطارئة، فهناك عدد كبير من الناس محتجزون على سطح بناية تحترق.

اندفع بات وولتر في طوافته "ألفا تانغو" بسرعة ١٦٠ كيلومتراً في الساعة وهبط في مطار قريب حيث نزل المسافرون وملأ ميكانيكيو الشرطة خزان

الملازم خوليو كولون (الى اليمين) والملازم أنخل روخاس (الى اليسار) والشرطي أوسكار آريا (تحت).

الطوافة بالوقود والمحرّك دائر. وفي دقائق كان وولتر يحلق ومعه ضابط الشرطة أوسكار آريا البالغ من العمر ثلاثين عاما والذي إنتدب للوصول الى سطح الفندق وادارة عملية الاجلاء.

حين اقترب وولتر من السطح المغطى بالدخان أدرك ان الجزء الاعلى من البناء سيحول دون تمكنه من الهبوط الكامل، اذ ليس ثمة مكان كاف لفراش الطوافة. وكما فعل قائد طوافة الشرطة قبله كان عليه أن يوقف الطائرة في زاوية. انه يستطيع أن يضع مزلقة واحدة من الطوافة على السطح، لكن ذلك لن يوفر له أكثر من فسحة متر واحد.

وكراقصة صامتة جثمت "ألفا تانغو" على حافة المبنى. وركز وولتر على

Photos: (left) Shelly Katz; (right and below) Ray Fisher

العوامل التي تؤثر في الطوافة، اذ ان أقل هفوة قد تجعلها تضرب الجزء الاعلى من البناء وهي مخزنة بالوقود فتتحطم على الجمهور اليائس.

بعدما أجرى وولتر طيراناً تجريبياً نحو الشاطىء عاد الى نقطة فوق السطح استطاع الضابط آريا القفز منها وشرع في ادخال الناس الى الطوافة التي أقلعت بعدما امتلأت كفراشة جبارة. حامت فوق الشاطىء وهبطت بسرعة وأنزلت ركابها. وبعد دقائق عادت الى السطح ترقص بخفة على الشرفة بينما كان آريا ينقل العالقين اليها يساعده نك بوتشي.

برج مراقبة

قبل دقائق من اندلاع النار الثائرة أقلع العقيد خوسيه مالدونادو رئيس الفوج الجوي في الحرس الوطني البورتوريكي في طوافته العسكرية الكبيرة من مطار إسلاغراندي.

وطوافته من نوع "هيوي" الذي قاده مالدونادو أثناء الغارات الحربية وعمليات اجلاء المصابين في حرب فيتنام. أما الآن وقد بلغ الاربعين من عمره فقد أدرك، عندما رأى الفندق، أن عمله سيكون التجربة العظمى لمهارته كطيار وقائد.

النار تستعر في الفندق والدخان يتصاعد على جوانبه. وكل ما يعرفه مالدونادو هو أن الفندق قد ينهار في لحظة من جراء اللهب. واجلاء الناس عن السطح امر خطر كالقتال.

حين اقترب مالدونادو من مكان الحادث سمع مكالمة اذاعية تفيد أن قائد الطوافة "ألفا تانغو" تطوع لعمليات الانقاذ. استغرب الشجاعة وانكار الذات


Ray Fisher

العقيد خوسيه مالدونادو.


Jose Fernadez / SIPA-Press

في هذا القرار. حام على مسافة قصيرة مدركاً أنه اذا ما اندلعت النار على السطح فسيشرع الناس في القفز، فقرر أن يجازف بالوصول الى السطح على رغم ضخامة بدن الطوافة وكبر فراشها.

خفّف مالدونادو سرعة المحرك وسط الدخان الكثيف وهو يطير نحو شرفة المبنى. انه لم يتمكن من وضع مزلقة واحدة على السطح، لكنه تدبر أمر التحويم قرب حافة الشرفة. فكان على الناس أن يقفزوا الى باب الطوافة حيث يمسك بهم مساعد الطيار خوليو روبلز ويجذبهم الى الداخل.

تناوب مالدونادو العمل مع "ألفا تانغو" وطوافة الشرطة منجزاً ثلاث رحلات. وعندما وصلت طوافات البحرية الامريكية وخفر السواحل بسلال الانقاذ أيقن أن شخصاً ما يجب أن يتولى الامر، اذ ان اكبر تهديد للعملية قد يأتي من تشوش يقع بين ثمانية طيارين يحاولون التحليق وسط الدخان. كانوا يستعملون ثماني ذبذبات اذاعية مختلفة. بعضهم يتكلم الاسبانية وبعضهم الآخر الانكليزية.

حلق مالدونادو بطوافته "هيوي" الى علو ١٢٠ متراً فوق السطح وجعل منها برجاً جوياً للمراقبة. ومن هذه النقطة المميزة أرشد كل طوافة دخولاً وخروجاً وأطلع كل طيار على ما يجري بانتقاله من ذبذبة الى أخرى ومن لغة الى أخرى.

كانت خطة نك بوتشي ان يلتحق بزوجته بأسرع ما يمكن. ولكن لما نزل أوسكار آريا من "ألفا تانغو" وطلب منه البقاء غيّر فكره. اذا كانت لآريا شجاعة النزول من الطوافة فمن الصعب عليه أن يغادر ويتركه.

حتى هذا الوقت استطاع مئة شخص الوصول الى الشرفة خارج المطعم، ويتوجب رفعهم الى السطح. فبدأ نك،


بات وولتر.
Jose Fernadez / SIPA-Press
muel Thaler

القوي الجسم والبالغ طوله ١٧٣ سنتيمتراً، بجذب كل واحد من خلال فتحات الحاجز. كان عليه أن ينحني ويسحب كل شخص قرابة ثلاثة أمتار الى فوق. فعل ذلك ببرودة ليحتفظ بقواه كاملة.

وصل معظم الناس الى السطح وهم هادئون. غير أن بعضهم كان منفعلاً، وبعضهم الآخر كان يصلي أو يجلس مصدوماً.

تم العمل السريع المرتجل بهدوء في المساء، اذ ان الطوافات العسكرية الكبيرة عجّلت الاجلاء بسلالها. وقرابة السابعة والنصف كان جميع النساء والاولاد أُجلوا. وحين هبط الظلام صعد نك مرهقاً الى سلة ورفع الى الطوافة. كان ذلك أدعى الى الذعر من أي شيء آخر حدث له ذلك اليوم.

الساعات اليائسة

أنجزت "ألفا تانغو" خمس عشرة رحلة الى السطح قبل أن تسلم عمليات الانقاذ الى الطوافات العسكرية. وفي النهاية حام وولتر فوق الموقع مسلطاً مصباحاً بقوة ٣٠٠ ألف شمعة ليضيء السطح المظلم. وحين أنزل فريق الشرطة على السطح لاجراء آخر تفتيش في الطبقات العليا ظل هو يراقب. عاد الفريق بعشرين شخصاً ظلوا محتجزين في الطبقة السادسة عشرة مدة خمس ساعات. أخذوا الى السطح وأرسلوا جواً.

ولما انتهت العمليات كان عدد الناجين من السطح الخطر أكثر من ١٦٠ شخصاً.

بينما كان هيو كورتز يخطو وسط الموضع المضطرب، مديراً ظهره الى الفندق ولفحات الحرارة والدخان تضربه، ظل يفكر في كلمات ابنته جنيفر: "نحن خارجون في هذه الدقيقة."

يظهر أن هذه الكلمات المدمرة ختمت قدر العائلة.

رأى كورتز أن عشرات غيره يبحثون في الفندق عن عائلاتهم. وقد تشاطر الالم لبرهة مع رجل ما زالت زوجته في الفندق. هناك أزواج يقفون بصمت يمسك أحدهم يد الآخر مغمضي العيون يصلون، وآخرون ينتحبون وأعينهم تحدق الى شرفات الفندق، ومن حين الى آخر يتحول نحيبهم فرحاً جنونياً.

للمرة الاولى يشعر كورتز بأنه يائس تماماً. لا يمكنه أن يفعل شيئاً، ولا أحد يتوجه اليه. قدر عائلته في يد الله، وكل ما يمكن أن يفعله هو الصلاة الهادئة. عاد بالذاكرة الى كل المسرّات التي عرفها مع أولاده الرائعين. فكر في مارج وفي زواجهما السعيد.

كان كورتز دارياً بالطوافات المحلقة وسط الدخان الكثيف. ظن أنها تنقل مصورين وصحافيين. بعد الساعة الاولى لم يعد يرى لهباً. لكن الدخان الاسود ظل ينبعث من المبنى ويرتفع على جوانبه مغلفاً الفندق بحجاب خانق سام. افترض أن الفندق لا بد أن يكون امتلأ بالدخان فاختنق كل من حجز داخله.

تقدم كورتز داخل خطوط الشرطة، وبات قريباً جداً من الفندق بحيث يرى كل من يخرج منه. لكن جميع الذين نقلوا الى الخارج كانوا أمواتاً.

تضاءلت آماله حتى التلاشي. وقف منذهلاً يحاول أن يتصور كلًا من أفراد عائلته، يرى وجهه، يسمع صوته، يخال أنه يضمه الى صدره. وطفق يصلي.

كان مايكل وليندا ولف على بعد بضع عمارات من الفندق عندما ظنا أنهما يشمان شيئاً يحترق. وفيما هما يتبضعان من متجر تطلع المحاسب من النافذة وقال: "الفندق يحترق!" فتركا كل شيء وأسرعا. كل ما كان مايكل يفكر فيه أنه أبلغ ابنتيه جودي وساندي أن تصعدا الى غرفتهما.

واذ اقتربا من الفندق كان الانطباع الاول لديهما أن مجزرة حصلت. وسط الصراخ وصفارات الانذار انتشرت في الهواء رائحة كريهة. هرع الزوجان الى منطقة المسبح. فاذا بالاجسام الدامية منطرحة في كل مكان، والسنة اللهب البرتقالية مندلعة من النوافذ المطلة على المسبح.

مرت دقائق مؤلمة والزوجان يفتشان. بعد ذلك أسرعا الى صديقهما توماس سزالا، فهو يعرف الفتاتين وكان في المسبح بعد ذلك الظهر. أكد لهما وهو متجهم الوجه أن جودي وساندي صعدتا الى غرفتهما في الطبقة الخامسة. تطلع الزوجان الى فوق فلم يتبينا نوافذ تلك الطبقة بسبب الدخان.

أسرعا الى أمام الفندق علهما يحددان غرفة الفتاتين، لكنهما لم يشاهدا شيئاً من خلال الدخان المنتشر. فتأكد لهما أن ابنتيهما محجوزتان في مكان ما في قلب الفندق العابق بالدخان.

عندما تسرّب الدخان من الرواق الى الغرفة ذات الرقم ٥٢٥ تأكدت ساندي وجودي ولف أنهما في خطر. الدخان أسود كثيف مما جعلهما تفترضان أن النار أصبحت في طبقتهما، فقررتا النزول بأسرع ما يمكن.

سبق لساندي أن شاهدت فيلماً على شاشة التلفاز حول النجاة من حريق، فأخبرت جودي ماذا يجب أن تفعلا. وضعت كل منهما منشفة مبللة على رأسها ثم أخذتا مفتاح الغرفة وزحفتا الى الرواق الممتلىء دخاناً. وبينما هما تبحثان عن مخرج كانتا تسمعان أصوات صفارات الانذار. زحفتا على أيديهما وركبهما على مدى الطبقة نحو الباب الذي ظنتا أنه يؤدي الى سلم سطح الفندق. ولما وصلت اليه جودي وجدته مقفلا.

عادتا زحفاً الى غرفتهما وأغلقتا الباب وأسرعتا الى الشرفة التي لم تكونا تعرفان أنها فوق أسوأ قسم من ذلك الجحيم. غشيهما دخان أسود تصاعد على جوانب المبنى، وسمعا تحطم الزجاج وولولة الناس.

شعرت جودي بأنهما محجوزتان وأنهما ستموتان. كل ما تستطيعان فعله هو أن تحفظا المنشفتين المبللتين على وجهيهما وأن تحاولا تنشق بعض الهواء على الشرفة. أما ساندي فكانت أكثر تفاؤلا. انها لا تعرف كيف ستنجو، لكنها تعلم أنها لن تموت. فثمة أماكن كثيرة تريد أن تذهب اليها وأناس كثيرون تريد رؤيتهم. تفاؤل ساندي وهدوءها ساعدا أختها على البقاء.

كان شابان من بورتوريكو يقفان على سطح الردهة الواقع تحت غرفة الفتاتين، فناداهما وحضاهما على القفز الى السطح الذي يقع تحتهما بثلاث طبقات. كانت الفتاتان تشعران بدوار: جودي في حالة تقرب من التشنج العصبي وساندي في حالة تجربة عالمة أن هذه الفرصة ستكون الاخيرة للنجاة. لكنهما قررتا أنهما تستطيعان الثبات وقتاً أطول.

بعد ساعة من بدء محنة الفتاتين قادهما رجال الاطفاء الى سطح الردهة. وكان هؤلاء وصلوا الى الشرفة على سلالم وأمسكوا بالفتاتين وسلموهما الى المنقذين دونهم. وعندما وطئتا الارض ألقت كل منهما بنفسها بين ذراعي الاخرى وهي تبكي وشعرها يتماوج وسط الريح والدخان.

لمح مايكل وليندا ابنتيهما عن بعد خمسة وأربعين متراً فاندفعا داخل حواجز الشرطة يصرخان ويبكيان وضما ابنتيهما بفرح كبير.

هبط الظلام على سان خوان، لكن شيئاً أشد سواداً ضغط قلب هيو كورتنز. وقف بكآبة يراقب واجهة الفندق حيث كانت الاشياء الوحيدة التي تخرج منه هي أكياس الجثث. مئات من الناس يدورون مضطربين قانطين وقد قطع معظمهم الرجاء.

كان كورتنز دائماً يحسب الاحتمالات. قدر فرصة بقاء عائلته قيد الحياة بنسبة اثنين في المئة، وربما أقل. وكان عليه أن يتقبل فكرة دخولها المصعد والنزول الى جحيم من الدخان والحرارة.

وحين بدا له أن العائلة لن تظهر في أي مكان اندفعت اليه جانيت وجنيفر وهما تصرخان فرحاً. وللحظة سريعة ارتبك بين الوهم والحقيقة ثم وقع أسير قبلات ابنتيه وعناقهما.

قالت جانيت مبتسمة والدموع تتساقط من عينيها: "يا أبي، لم أشاهدك تبكي من قبل." أما جنيفر فاخبرته أن مارج وهيو الابن بخير وسيرفعان عن السطح باحدى الطوافات الآتية.

كان كورتنز قرر أن يبقى رابط الجأش، لكنه لم يقو على ذلك حين رأى ابنتيه. انهما تبدوان جميلتين جداً. وأدرك أن لا شيء آخر يهمه في العالم. طوّق ابنتيه بذراعيه حانياً رأسه في اكبر فرح عرفه. ثم انهار وأغرق في البكاء.

حزن وشفقة

في الثامنة والنصف مساء انتشل الشخص الاخير من بين أنقاض "ديبون بلازا" المفشاة بالدخان.

من مجموع النزلاء والمستخدمين مات سبعة وتسعون شخصاً وأصيب مئة وأربعون بجروح أو حروق. ظل الدخان السام وألسنة اللهب تنبعث من بين الركام والانقاض أياماً، كما أن جثثاً عدة لم تنقل فوراً من المكان وبعضها لم تعرف هوياته. وتلفت سجلات الفندق، لذلك لم تكن ثمة لائحة جاهزة بالمستخدمين والنزلاء يعوّل عليها. ومرت أيام وأسابيع والسلطات تنتظر تقارير أطباء الاسنان لتحديد الهويات.

وعبر ابناء بورتوريكو عن حزنهم وأسفهم للضحايا. مئات من نزلاء "ديبون

بلازا" أصبحوا بلا ثياب ولا مال ولا هوية. وبتدبير سريع غدت سان خوان، المدينة الكبيرة الفظة، بلدة صغيرة ودية فتحت الابواب والقلوب للغرباء.

يقول هيو كورتز: "ظهر الناس من كل مكان للمساعدة. أضافتنا عائلة بورتوريكية لم نكن نعرفها، ورافقتنا الى ملاجىء موقتة مختلفة الى أن اجتمع شمل العائلة، ثم أعادتنا الى منزلها حيث قدّم الينا الطعام وأعطينا مكاناً للمنامة."

تطوع أصحاب المطاعم والفنادق بتقديم وجبات مجانية. وتبرعت متاجر الالبسة بالثياب. فتحت الفنادق أبوابها ومدت موائد الطعام ووضعت في ردهاتها أسرّة للاطفال. أما حكومة بورتوريكو فوزعت قسائم بثلاثمئة دولار للاستعمال الشخصي. وقد أخبر ناجون أن مواطنين كانوا يلاقونهم في الشوارع ويقدمون اليهم المال وهم يذرفون الدموع.

أما سائقو سيارات الاجرة في سان خوان، وهم معروفون بفظاظتهم، فنقلوا مجاناً كل من شملتهم الكارثة. ذكرت ناجية أن سائقاً قضى ست ساعات يجوب بها شوارع سان خوان وهما يبحثان في المشافي والملاجىء عن قريب لها، وأبى أن يأخذ منها أي أجرة.

وأقامت جمعيات خيرية ومنظمات مدنية ملاجىء موقتة. وأدت تدابير المساعدة المستقلة هذه عملا عظيماً، شأن فرق الطوارىء.

التحري

غداة الكارثة، بعدما أخمد كل لهيب، تحرّك المحققون الى ركام "ديبون بلازا." بدت الطبقة الارضية التي تضم الردهة الكبرى والملهى كأنها مدمرة بانفجارات. وبقي اعلى البناء سالماً، غير أن الطبقات الدنيا خربت فعلا.

واجه المحققون مهمة رهيبة عندما شرعوا يحددون كيف بدأ الحريق وأي مسلك أخذ، ويجمعون الادلة على جريمة الاحراق عمداً. والجدير بالذكر أن جسامة الكارثة اوجدت رباطاً من التعاون المثمر بين وكالات تحقيق عدة في بورتوريكو والولايات المتحدة.

وصلت أنباء الحريق الى واشنطن فانتدب "مكتب الكحول والتبغ والاسلحة النارية" فريقاً خاصاً للذهاب الى سان خوان. بدأ هذا الفريق المتدرب والمؤلف من خبراء في جرائم الاحراق المتعمد "تشريحاً" فورياً للانقاض بغية العثور على أدلة. وأسفرت التحقيقات عن تحديد الطريقة التي شب بها الحريق.

بمساعدة "الجمعية الوطنية الامريكية للوقاية من الحرائق" بدأ خبراء من "مركز أبحاث الحرائق" تحقيقات مضنية لتحديد عملية اندلاع الحريق وانتشاره في الفندق. ولاحظوا أمراً غير عادي في الحريق: ان دخاناً كثيفاً مرتفع الحرارة ومشبعاً بالوقود انتقل من مكان (قاعة الحفلات الجنوبية) الى مكان آخر (الملهى) حيث حصل تدفق مفاجىء للاوكسيجين جعل الوقود يلتهب مكوّناً كرة نارية مميتة. مثل هذه التحديدات مهمة جداً في تطوير مقاييس السلامة من الحرائق في الفنادق الجديدة كما هي مهمة في تطوير علم الوقاية من الحرائق.

خلال ثلاثة اسابيع بعد الحريق أوقف

ثلاثة من مستخدمي الفندق هم هكتور اسكوديرو ابونتي (٣٥ عاماً) وخوسيه فرنسسكو ريفيرا لوبيز (٤٠ عاماً) وأرماندو خيمينيز ريفيرا (٣٩ عاماً) وجميعهم أعضاء في "المركز ٩٠١" التابع لاتحاد "الاخوة." اتهم اسكوديرو، عامل الصيانة في الفندق، باشعال النار، وريفيرا النادل بمساعدته، وخيمينيز المسؤول عن انارة الملهى باحضار العجينة النارية لبدء الحريق. ووصف المحققون الجريمة كالاتي: عندما انفض الاجتماع استعمل اسكوديرو مفتاح سيارة ليفتح علبة الوقود التي كانت موضوعة على كومة أثاث. وحجبه ريفيرا عندما أولع الثقاب وأشعل الوقود.

بعد أشهر اعترف الرجال الثلاثة بجرائم مختلفة وحكم عليهم بالسجن مدداً تراوح بين ٧٥ و٩٩ سنة. وقد تضاف جرائم جديدة نتيجة التحقيقات التي ما زالت جارية.

ومن دواعي السخرية أن خيمينيز، أصغر المحكومين، أشيد به كبطل لمساعدته في أعمال الانقاذ.

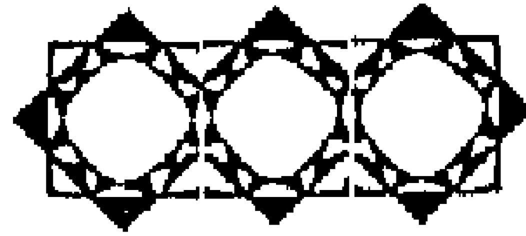
أما بات وولتر فتابع عمله كقائد طوافة. وقد أصرّ هو ونك بوتشي على أنهما لم يفعلا شيئاً غير عادي. انهما استعملا مهاراتهما بأفضل ما يستطيعان، وهذا كل ما في الامر.

كلاهما منح مكافآت مختلفة على بطولته من حكومة بورتوريكو ومن ولاية نيويورك.

وفيما عادت حياة معظم الناجين والمنقذين الى طبيعتها حدث تغير مدهش في منزل نك وبوني بوتشي. في ٢٥ ابريل (نيسان) ١٩٨٧ وضعت بوني طفلة دعيت ميغان ماري. وقد بدأ نك وبوني يعلمان هذه الناجية بعض نشاطات اللياقة البدنية.

هنري هورت

ترجمة السفير هنري أبو فاضل



"أمي!"

هناك منظر مألوف في المطارات حيث يشاهد أشخاص يحملون لافتات كتبت عليها أسماء الركاب القادمين الذين يودون لقاءهم.

في أحد هذه اللقاءات شوهدت امرأة تقترب من احدى المسافرات وقد حملت لافتة كتبت عليها كلمة واحدة: "أمي."

ي.ش.

الطريق الى الثراء

يقول الممثل الفكاهي روبرت أوربن: "أستيقظ كل صباح فأتصفح مجلة "فوربس" التي تذكر أسماء أغنى رجال أمريكا، فاذا لم أجد اسمي بينها انصرفت الى عملي."

ب.م.

اصداء من عالم الطب

الباركنسون والشلل الرعاشي

داء "اركنسون"، أو الشلل الرعاشي، هو اضطراب عصبي يتسم بالارتعاش اللاإرادي وتصلب الاطراف وعضلات الوجه. وليس هناك ما يخفف طويلا معاناة المصابين، حتى عقار "ليفودوبا" الشائع وصفه، اذ انه يسكّن الاوجاع لكنه يفقد فاعليته بعد بضع سنوات.

والآن يفيد الدكتور جوناثان بنكوس من مستشفى جامعة جورج واشنطن أن بعض مرضى باركنسون قد يستطيعون تحسين فاعلية الليفودوبا بتجنب تناول أي نوع من البروتيين قبل العشاء.

ويبدو أن بعض الاحماض الامينية في البروتيين المهضوم تنتقل من الدم الى الدماغ بواسطة "الناقل" الذي ينقل الليفودوبا. وعندما يحوي الدم الاحماض والعقار في آن، يحصل تزاحم على الاستئثار بالناقل، فتحول الاحماض الامينية دون دخول قسم من العقار الى الدماغ حيث تتحقق فاعليته. لذلك فان تجنب تناول البروتيين يتيح للعقار أن يصل الى الدماغ بالمقدار المطلوب معظم النهار.

وشملت دراسة الدكتور بنكوس ١١ مريضاً منعوا من أكل اللحم والخضر والالبان والاجبان والدجاج والبقول والمكسرات والاطعمة المشوية التي تحتوي على حليب وبيض، حتى الساعة الخامسة مساء. فنعم تسعة منهم "بارتياح محققّ من الاوجاع." وتمكن ثمانية من خفض جرعاتهم من الليفودوبا بمعدل ٤١ في المئة مع الابقاء على فاعليته.

ويحذّر الدكتور بنكوس أي مصاب بمرض باركنسون من اختبار هذه الحمية بغير اشراف طبيب.

نشرة جامعة تافتس

المخدرات تؤخر النطق

يرى يان سنافلي الاختصاصي بأمراض النطق في لوس انجلس، بعدما أجرى دراسة على ألف مراهق، أن تعاطي المخدرات قد يضعف قدرة المراهقين على فهم اللغة واستخدامها. وهو يقول: "نظراً الى عدم اكتمال الاجهزة العصبية لدى المراهقين، فانهم معرضون لخطر تضرر الجهاز العصبي المركزي والقدرة على التكلم." واذا كان تعاطي الكحول يستغرق نحو عشر سنين لالحاق ضرر بدماغ البالغين، فان المقدار ذاته من الكحول لا يستغرق سوى ستة أشهر للاضرار بالمراهقين.

ان مناطق اللغة والتعلّم المتضررة في الدماغ تشمل الذاكرة وحل المسائل الحسابية واشتقاقات المعاني واتخاذ القرارات وترقب النتائج. ويقول سنافلي: "يشعر هؤلاء الاحداث بأن لا قيمة لهم وبأنهم فاشلون ثقافياً واجتماعياً وعملياً، لكن اعادة تأهيلهم قد تقوي الوظائف الكلامية الباقية



لديهم، فيتعلمون طرقاً تعوض ما فاتهم، كفقد الذاكرة، وتمكنهم من العودة الى الحياة الاجتماعية العادية.

نشرة "جمعية النطق واللغة والسمع"

ربّوط للجراحة

استخدم الجراحون حديثاً ذراع ربوط (رجل آلي) يسيرها دماغ الكتروني للمساعدة في اجراء جراحة في الدماغ البشري. وفي خمس جراحات اختبارية تولت الذراع قياس الزوايا وأمسكت المثقب الجراحي وابرة فحص الانسجة ووجهتهما بينما كان الاطباء يضغطون الآلات لايلاجها في الجمجمة والدماغ.

وقال مخترع الجهاز يك سان كوو مدير الابحاث في قسم الاشعة بالمركز الطبي التذكاري في لونغ بيتش بولاية كاليفورنيا: "ان ذراع الربوط آمنة وأسرع وأقل خطراً على الانسجة من الوسائل الجراحية الحالية."

وأضاف كوو ان الدقة العظيمة التي تتسم بها الذراع الآلية والتي تتيح لها تحديد نقاط معينة داخل الدماغ بحدود ٠،٠٥ مليمتر تقلل من احتمالات الحاق ضرر بالدماغ وتغني عن التخدير العمومي وتسمح للمريض بالعودة الى منزله بعد يوم من اجراء الجراحة بدلا من أسبوع أو أكثر. وقد استخدمت ذراع الربوط لمساعدة الجراحين في استخراج عينات من أنسجة أورام مريبة في الدماغ كان من العسير الوصول اليها بالوسائل العادية. وصرح كوو ان هذا الجهاز قد يستخدم مستقبلا لتصريف افرازات الخراجات وزرع حبيبات مشعة في الاورام مباشرة ورفء الاوعية الدموية وتوجيه اشعة لايزر الى الاورام، كما قد يساعد جراحي العظام في لأم قرص فقري (ديسك) أو رباط عضلي أو غضروف ممزق.

صحيفة الـ"نيويورك تايمس"

حشوات سامة للاسنان؟

بعد التقارير التي نشرت عن أخطار بخار الزئبق المنبعث من حشوات الفضة في الاسنان، عُمد الى ابدال تلك الحشوات بمادة غير معدنية. ونظراً الى هذا الاجراء المضني والكلفة اللذين لا مبرر لهما، عكفت جمعية طب الاسنان الامريكية على النظر في الدراسات التي قاست مقدار بخار الزئبق المنبعث من الحشوات والذي قد يدخل جزء منه مجرى الدم.

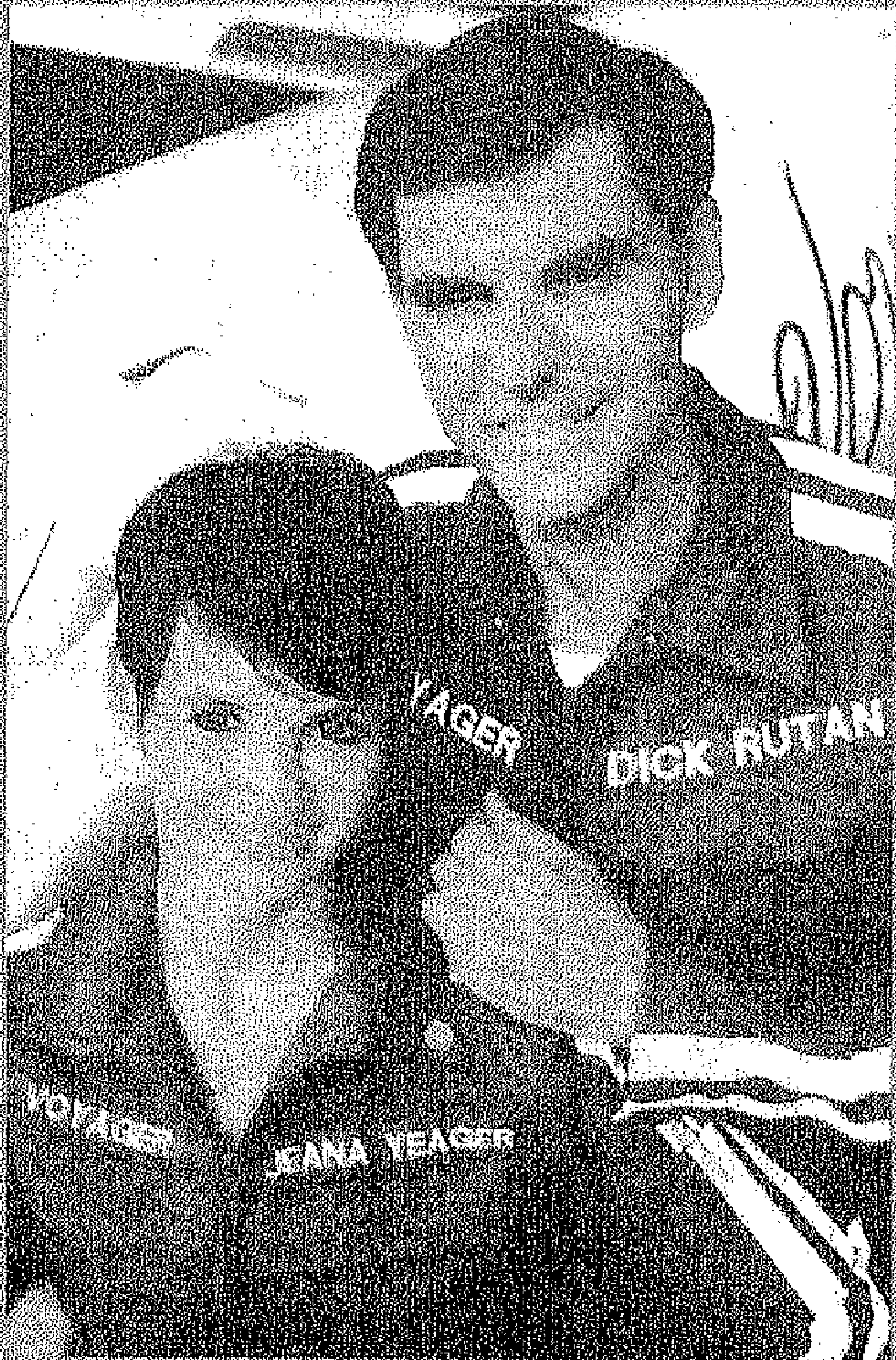
وأشار الدكتوران دان لانفان وب. ل. فان من جمعية طب الاسنان الى أن في كل غرام من دم الاشخاص الذين يضعون حشوات فضية، نحو ٠،٧ نانوغرام (جزء من مليار) من الزئبق يقابله ٠،٣ نانوغرام لدى الذين لا حشوات لهم. وتعتبر "ادارة الغذاء والدواء" في الولايات المتحدة أن مستوى عشرين نانوغراماً من الزئبق في كل غرام من الدم آمن ولا يشكل خطراً. ويقدر الباحثون أنه يقتضي وضع ١٠٠ حشوة لبلوغ هذا المستوى، وألف حشوة لبلوغ أدنى مستوى يصبح فيه الزئبق ساماً. ويضيف ب.ل. فان: "كل ما يمكن قوله عن بخار الزئبق في الحشوات هو أن قياسه ممكن. وليس هناك من الادلة ما يكفي لكي ينسب اليه تسمم شخص لا يعاني حساسية تجاه الزئبق." وفي الولايات المتحدة أقل من واحد في المئة من السكان يعانون حساسية للزئبق.

نشرة "جمعية طب الاسنان الامريكية"

كتاب الشهر

فوق بحر لا

رحلة حول العالم في ٩ أيام


ملخص من كتاب بقلم

جينا ييغر و ديك روتان

مع

فيل باتون



كانت "فويجر" جميلة الشكل لكنها مشاكسة وعنيدة ومفاجئة في الطيران،
رفرف جناحاها الطويلان كجناحي عصفور، وتمايلت في الفضاء
كمركب في الماء. كانت في وزن سيارة صغيرة،
وقمرتها في حجم حجرة للهاتف. حُشر طاقمها في الداخل
فشعر طيّاراها برهاب الضيق وانتابهما غثيان.
إلّا أن "فويجر" كانت مركبة ثورية صممت لمدى بعيد واستهلاك طويل
للوقود. في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨٦ حلّق بها الطيّاران
جينا ييغر وديك روتان فوق المحيط الهادئ في سعي الى هدف بارز
في الملاحة الجوية، وهو التطواف حول العالم بلا توقف
ومن دون تزود وقود إضافي. وهنا الرواية المثيرة
لتلك الرحلة البطولية كما رواها الطيّاران

فوييجر

رحلة حول العالم في ٩ أيام

بدا الفجر كالصوان الزهري فوق قاعدة إدواردز الجوية في جنوب كاليفورنيا، وطفت غيوم رمادية مبعثرة تفصلها خيوط زهرية رفيعة من الفضاء. لكن الهواء هادىء وناعم، والطائرة تستعد للانطلاق. انتظرنا هذا النهار ست سنوات.

أخذت أنا وديك مركزينا في قمرة القيادة وتتبعنا قائمة المراجعة. كنا نرتدي بذلتين رياضيتين زرقاوين كُتب عليهما بخيوط حريرية "فوييجر"، وجوارب صوفية فوق جوارب قطنية، وأحذية جلدية مبطنة بالصوف. بدا زيّنا غريباً لكنه مريح وعملي. كذلك ارتدى ديك سترة طيران جلدية وقبعة كاوبوي. الّا أنه تخلّى عنهما في الدقائق الاخيرة.

تلاقت نظراتنا بصمت. جثمت على مرفقيّ وركبتيّ في الفسحة الضيقة الى جانب مقعد الطيار حيث يمكنني مراقبة سرعة الهواء ومؤشر الحرارة. وأرخى الطاقم الارضي الجناحين عن دعاماتهما، فتدليا مثقلين بالوقود الى الارض. ثم ركع أحدهم على ركبتيه وأدار المروحة. ابتعد قليلا وراقبها تدور ثم تبطىء. لقد حان الوقت للتوقف عن النظر خارجاً والتركيز على المعدات.

بيدي اليسرى سأدير المفاتيح باستمرار لتقرأ جينا مستويات الحرارة والضغط في المحرك. كما علي أن أستعمل يدي اليمنى بليونة لاقلاع هادىء.

المسألة الأهم هي القدرة على السيطرة. أثناء الرحلات التجريبية كانت زيادة السرعة والحمولة تزيد الوضع سوءا. بلغت الحمولة ٣١٨٠ كيلوغراماً من الوقود، أي ثلاثة أضعاف وزن الطائرة و١٨٠ كيلوغراماً فوق الحد الأقصى الموصى به. خلال الرحلات التجريبية تهاوت فوييجر بحمولتها وتمايل جناحاها الى أعلى فأسفل في أقواس من ٦٠ درجة. لم أكن واثقاً من قدرتي على قيادتها في هذا الوضع في رحلة عالمية.

قلت: "حسناً، سننطلق." أرخيت الكوابح ودفعت المخنق الى الامام. علينا بلوغ سرعة حاسمة هي ٨٧ عقدة(١) أو الاخفاق. بدا الاقلاع طبيعياً إلا من بعض التموج والارتجاج اللذين لم نشعر بهما من قبل. عللت ذلك بثقل الطائرة وتدفق الوقود. لكن المحرك بدا قوياً وسليماً.

راقبت بانتباه تراكض لافتات المسافة على المدرج وربطتها بزيادات السرعة التي كانت تعلنها جينا: ٥٥، ٦٧، ٧٦. لم يتبقَّ سوى أربع عقدات عند العلامة الثالثة الأخيرة. فُرض علينا الاخفاق تقنياً، إلّا أن تسارع الطائرة كان سَلِساً وأيقنت من نجاحنا. ما عليّ سوى رفع مقدّم الطائرة عند الأوان.

اثناء انطلاقنا تبعنا مايك ميلفيل في

(١) العقدة «knot» وحدة للسرعة تساوي ميلاً بحرياً في الساعة. والميل البحري «nautical mile» يساوي ١٨٥٢ متراً.

Condensed from «Voyager,» copyright © 1987 by Jeana Yeager, Dick Rutan and Phil Patton, published by Alfred A. Knopf, Inc., New York, N.Y. Photos: page 119 (background) Peter Gridley / FPG, (inset) Mark Greenberg/ Visions, pages 120 — 121 Jeffrey Vock / Visions

طائرة مطاردة، وهو عضو في فريق فويجر.
"إدفع المقدم الى فوق يا ديك!"

وصرخ شقيقي برت وهو مصمم الطائرة: "إسحب عصا القيادة الى الوراء، بالله عليك!"

لكن هاجساً واحداً سيطر عليّ؛ ركّزت التفكير على ٨٧ عقدة، ٨٧ عقدة.

أخيراً، مع اقترابنا من لافتة الـ٣٣٥٠ متراً على المدرج، دنت سرعة الهواء من الثمانينات. حدثت نفسي: كن رقيقاً كما لم تكن من قبل. وعندما أعلنت جينا "٨٧ عقدة" دفعت عصا القيادة برفق موجهاً مقدم الطائرة تدريجاً الى فوق وعاكساً وجهة تقوس الجناحين. ومع ٩٢ عقدة ارتفعت الطائرة وازدادت سرعتنا.

صرخت جينا: "١٠٠ عقدة."

وسمعت برت يهتف عبر الجهاز اللاسلكي: "ووبي! برافو!" ذاك الرقم الذي كان ينتظره. أدركنا أننا سنتمكن من التحليق. نحن نطير سعياً الى إنجاز بارز في الملاحة الجوية. بعد ذلك أنبأنا برج المراقبة بتحقيقنا المميز لأطول إقلاع من قاعدة إدواردز الجوية. لقد استهلك انطلاقنا من الارض ٤٢٧٠ متراً من المدرج الذي يبلغ طوله ٤٥٧٠ متراً.

تلا ذلك نبأ سيىء. سمعنا مايك من طائرة المطاردة يقول: "لا تقلقا، تعطل الجنيّح الايمن."

لا تقلقا؟ نحن نخطط للتحليق عشرة أيام حول العالم وها قد بدأت أجزاء من مركبتنا تتعطل! فهمت الآن سبب التموج والارتجاج. كانت أطراف الجنيح تعوق انزلاق الهواء على بدن الطائرة. لكننا تحققنا من قدرتنا على السيطرة على الوضع، وما من مؤشر الى تمزق خزّانات الاجنحة. قد نتخلص من الجنيح المعطل بهز الطائرة مع انحراف مفاجىء. لذا لم نفكر في الهبوط. سنطير حول العالم من دون جنيح، إلّا اذا أثّرت أطراف الجنيح في الانزلاق الهوائي وأداء الطائرة.

تمام الثامنة صباح ١٤ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨٦ بلغنا ارتفاع ١٤٠٠ متر وتوجهنا نحو الجنوب الغربي.

كاوبوي في الجو

مطار موهافي، حيث استهللت وشقيقي برت عملنا، يرقد تحت ظل جبال تهاتشابي على بعد ٣٥ كيلومتراً شمال غرب ادواردز. إنها الصحراء العالية موطن الافاعي المجلجلة والارانب الطويلة الآذان والقوائم. سماؤها الصافية هي المعقل الاخير لطيران الكاوبوي، اذ تنطلق مرتفعاً حالما تبلغ السرعة الدنيا الضرورية وتعلو الى الارتفاع الأقصى ثم تندفع بعنف فوق الصحراء بسرعة قصوى. تحلّق متمايلاً وملولباً على ارتفاع ١٥ متراً فوق الشوارع ثم تحوم باحثاً عن أحد المغفلين ليشاركك في معركة زائفة، ولا يثير ذلك المراقبين في برج المراقبة.

إنه المكان الملائم لفحص "الطائرات المنزلية الصنع" لأن "الادارة الاتحادية الامريكية للطيران" تصنف الصحراء المحيطة بالحقل "منطقة غير مأهولة." لذا قصد برت موهافي في العام ١٩٧٤ لفتح مصنع "روتان" للطائرات ووضع التصاميم وبيعها.

أثناء نشأتنا في دينوبا في كاليفورنيا كانت الطائرات تستحوذ على أفكار برت.



مسار فويجر غرباً، يبدأ وينتهي في قاعدة إدواردز الجوية في كاليفورنيا.

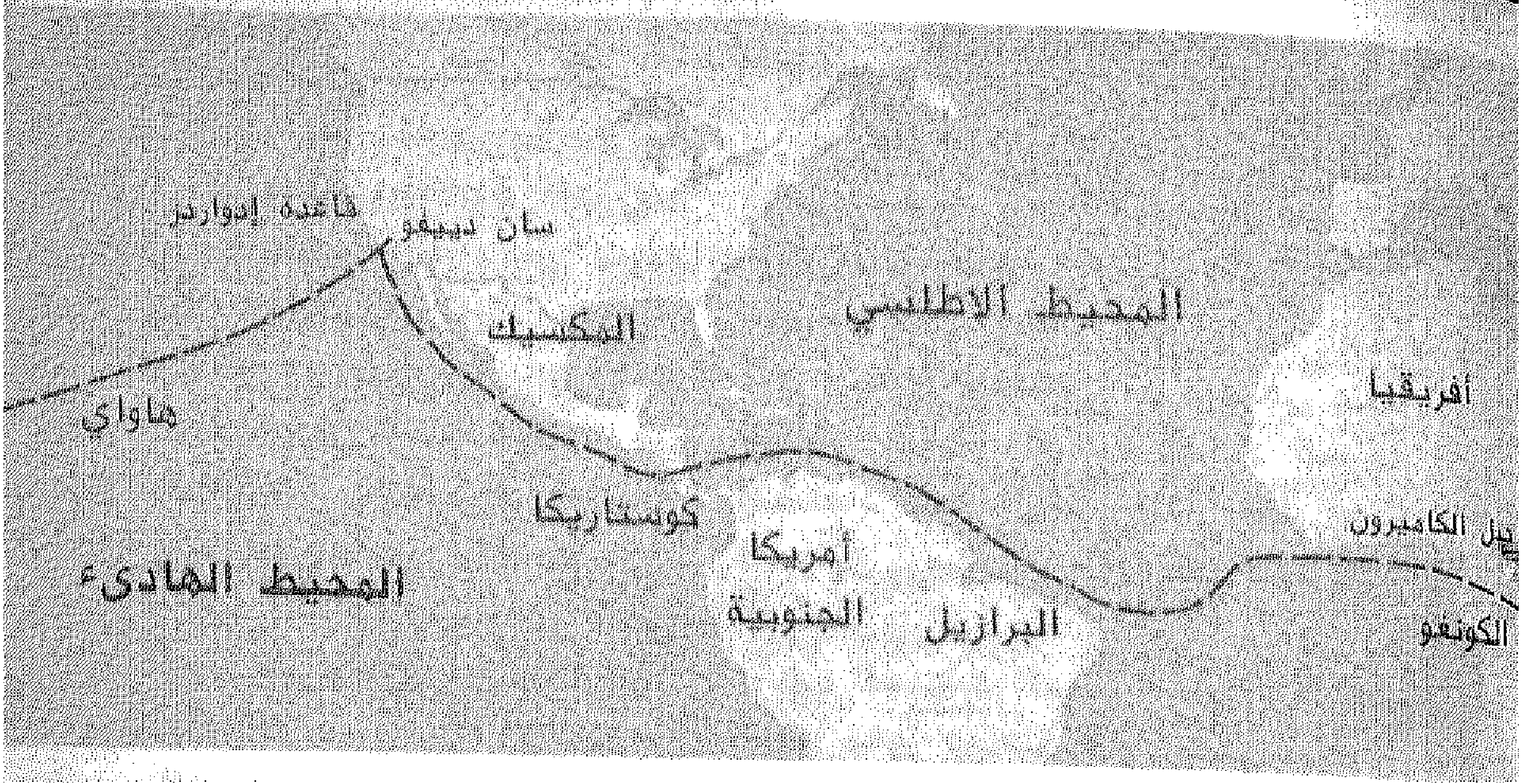
بدأ يبني النماذج وهو في الحادية عشرة من عمره. وفي إحدى المرات عرضت عليه والدتي شراء مجموعة اجزاء لطائرة مفككة ذات طراز معين. فضحك طويلاً. اذ كان يبني طرازاته الخاصة. وبعد تخرجه في الجامعة باشر العمل في إدواردز كمهندس مدني لاختبارات الطيران. ثم غادر المنطقة لينشىء مصنع "روتان" ويصمم طائراته الخاصة التي ساعدت في احداث ثورة في تصميم المركبات الجوية.

واستبدت بي أنا أيضاً هواجس الطائرات، خصوصاً الحقيقية منها. بدأت متابعة دروس الطيران وأنا في الخامسة عشرة من عمري. واقتضى دفع أجرة كل درس شهراً من العمل في قطف العنب وحمل أطباق الزبيب. وفي العام ١٩٥٨ بعد تخرجي في المدرسة الثانوية، انخرطت في سلاح الجو كملاح. لكنني طالما أعجبت بالطيارين الحربيين. وأخيراً في العام ١٩٦٦ سنحت لي فرصة التدرب كطيار ونجحت بتفوق. وفي العام التالي أرسلت الى فيتنام للخدمة العسكرية. أنجزت ٣٢٥ مهمة قتالية قبل إصابتي وتسريحي من الجيش.

تقاعدت بعد ٢٠ سنة من الخدمة في سلاح الجو وتوجهت الى العمل في موهافي كطيار اختباري مع برت. التقيت جينا في العام ١٩٨٠ حين زارت معرض "روتان" للطائرات في تشينو.

أثناء نشأتي في تكساس أدركت أني أستطيع تحقيق أي أمر إن ركزت عليه وبذلت جهدي، لم يحاول والداي فرض أي عمل عليّ. كنت أحياناً أرتدي أحسن الملابس وأبدو كسيدة أنيقة، وأحياناً أخرى أتصرف باستهتار وأتسلق الاشجار وأصطاد الضفادع.

كانت أولى الجمل التي تفوهت بها "أريد حصاناً." وحين بلغت الثالثة حصلت وأختي جودي على حصان. بعد ذلك أصبحت الجياد محور حياتي، ولم أعتبر المدرسة سوى فرض واجب. لكني أحببت الرسم وقررت متابعة مقرر دراسي في رسم الخرائط والتصاميم. وفي العام



١٩٧٧ غادرت المنزل وتوجهت الى سانتا روزا في كاليفورنيا حيث تقطن جودي. ثم انتقلنا معاً الى منزل جديد وحظيت بوظيفة في الرسم.

حلم أم كابوس؟

جذبني الى الطيران افتتان بالطائرات المروحية، فهي ذكّرتني باليعاسيب تحوم بخفة وتناور في الهواء. ولكن قبل تعلّم قيادة المروحيات وجب علي الحصول على رخصة قيادة طائرة ذات جناحين ثابتين، وقد نلتها في العام ١٩٧٨. ثم عملت مع الكابتن روبرت ترواكس أحد رواد علم الصواريخ، فصممت له منصة للاطلاق.

في هذه الفترة حضرت عرضاً للطائرات حيث لفتتني صناعات روتان، وأولاني ديك روتان كثيرا من الاهتمام. وعندما حان موعد الذهاب كنت على يقين أني سألتقيه ثانية. والواقع أني بدأت أقصد موهافي لزيارته.

في أحد مطاعم موهافي عام ١٩٨٠ برزت فكرة فويجر. كنت أتبادل الحديث مع جينا حين عرض برت فكرة الطيران حول العالم.

اعتبرته مشروعاً جنونياً كالسفر الى المريخ. ولكن عندما حدقت الى عيني برت لاحظت جدّيته غير المريبة. رسم برت على فوطة شكل طائرة بدت مثل جناح عملاق مع جناح آخر صغير في المقدم. كانت قمرة القيادة على شكل سيجار قصير عريض مع محرك ساحب في الامام وآخر دافع في المؤخر. وفيها مقعد قيادة واحد، وإلى جانبه فسحة نوم للطيار المعاون.

نظرت الى جينا التي أظهرت اهتماماً وتصميماً مثل برت. وأخيراً قالت: "لمَ لا؟ لنفعل ذلك." فكرنا جميعاً لبرهة ولم نجد سبباً لعدم تنفيذ المشروع. ومع خروجنا الى شمس موهافي الحارة كنا عقدنا العزم على الامر.

حمل برت الفوطة الى المنزل ووضع رسوماً أكثر تفصيلا. بدت الطائرة في التصميم الاخير ذات عاتقين توأمين(٢)

(٢) Twin booms or outriggers

Map: Howard Friedman

فظهرت فويجر مثل هجين بين مركب القطمران الشراعي والطائرة الشراعية المنزلقة. إنه أسلوب بارع في توزيع متساوٍ للوزن الذي يشكّل الوقود معظمه. يجب أن تكون الاجنحة والعواتق وبدن الطائرة سلسلة من خزانات الوقود. في المركبات الجوية التقليدية خزانات داخلية منفصلة. أما في تصميم برت فالطائرة هي الخزان، وستحمل حوالى ٥٧٠٠ ليتر من الوقود بنسبة ١٠٠ أوكتان.

ليس الطيران حول العالم سهلا كما يبدو. كان ويلي بوست السبّاق الى تحقيقه منفرداً في طائرة "لوكهيد فيغا" عام ١٩٣٣، لكنه توقف بضع مرات خلال الرحلة. أما الرحلة الاولى حول العالم من دون توقف فأجريت على متن طائرة "ب – ٥٠" تابعة لسلاح الجو في ١٩٤٩. وتمت الرحلة في ٩٤ ساعة وزودت الطائرة وقوداً أربع مرات أثناء الطيران.

ولكن، كيف لنا ان نطير من دون التزود وقوداً؟

تبلغ المسافة حول العالم فوق خط الاستواء حوالى ٤٠ ألف كيلومتر، لكن فويجر ستسلك طريقاً أطول لتفادي الريح المعاكسة والطقس الرديء. صمم برت طائرة تجتاز حوالى ٤٥ ألف كيلومتر من دون التزود وقوداً. يجب أن تتميز بمحركات فاعلة وبنسبة عالية من قوة الرفع في مقابل المقاومة الهوائية، أي نسبة كبيرة من الجناح للكيلوغرام الواحد. هناك حاجة الى محركين للاقلاع والارتفاع، ويوقَف المحرك الأمامي من أجل تطواف فاعل.

استخدم الاخوان رايت جنيح توازن في أعلى المقدم، وهو علامة تميز طائرات برت. عندما يهدد الانهيار طائرة مجهزة بجنيح توازن، يخسر الجنيح قوة الرفع قبل الجناح الرئيسي. ثم ينخفض جنيح التوازن ومقدم الطائرة فتزداد السرعة وتستعاد قوة الرفع. ولقد غدا جنيح التوازن رباطاً طبيعياً للعاتقين التوأمين.

في السنوات الست التالية بات هذا الحلم محور حياتنا. وفي بعض الاحيان كاد يتحول كابوساً. ومع ذلك، اقتنعنا بأن تلك الرحلة هي قدرنا المحتوم.

طائرة منزلية

انتقلت من سانتا روزا الى موهافي لمساعدة برت وديك في بناء الطائرة المميزة. كانت فكرة عظيمة ومشروعاً مثيراً. لا شك في أننا سنجد أنصاراً له. فمنذ البدء دعمت الحكومة الامريكية والشركات والأفراد مشاريع الملاحة الجوية. لكننا لم نكن لنجعل الطائرة لوحة إعلانات للمشروبات أو السجائر. كما اننا لم نشأ أن تتولى الحكومة المشروع.

كنا في منتهى السذاجة. مع أصحاب الأموال كان الجواب من نوع: "أعرف شخصاً يعرف رجلًا..." كذلك كان دعم المؤسسات صعب المنال. كان كل كفيل إعلاني يتصور فويجر تتحول كتلة نارية هائلة كاشفة رمز الشركة وسط اللهب.

في النهاية قررنا بناء الطائرة بأنفسنا وتمويلها على طريقتنا. فابتكرت فكرة "نادي فويجر للمعجبين." يساهم كل عضو بمئة دولار. ولم يضم

النادي أنصاراً مموِلين فقط، بل شخصيين أيضاً كانوا يتصلون باستمرار للاطمئنان الى سير الامور، وهم أتوا بأصدقائهم أيضاً. ما كنا لننجح لولاهم، أولئك المساهمين بمبالغ ضئيلة أيضاً. لهذا السبب علّقنا على جدار حظيرتنا رسالة من شاب تبرع بدولارين: "لا تسخروا مني،فلن أحظى بغداء اليوم."

ستكون تركيبة فويجر شطيرة من قرص عسل "هكسيل"، وهو نسيج ليفي شبيه بالورق ومشبع بالصمغ، محاطة بطبقتين من قماش ليف الكربون المشبع بالصمغ أيضاً. وعندما باشرنا فحص الأجهزة في أوائل ١٩٨٢ لم نعرف الكثير عن المواد الغريبة التي كنا نستعملها.

بنينا معظم الاجزاء في موهافي باستخدام فرن منزلي صنعناه من موقد غاز للتدفئة، ومروحة عثرنا عليها في سوق للبضائع المستعملة، وألواح قديمة من الالمنيوم ثُبتت جميعها بمسامير تبشيم عادية. ومع حلول ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨٢ نجح ديك أخيراً في جعل الفرن يحافظ على حرارة ثابتة من ١٥٠٠ درجة مئوية. لم يبق متسع في مصنع "روتان" حتى لوضع تصميم خيالي. رُفع الفرن الى السقف ببكرات ووضعت القطع تحته ثم أنزل فوقها.

في ٩ ديسمبر (كانون الاول) أجرينا فحصاً لاحدى القطع وجاءت النتيجة مذهلة. وفي اليوم نفسه وصل بروس إيفانس. كان آنذاك بنّاء يشيد البيوت في سان دييغو. وهو ركّب أحد تصاميم برت واستمد منها رضا لم يحظَ به قط. قرر المكوث ستة أشهر فقط، إلّا أنه بقي أربع سنوات وأصبح رئيس طاقمنا الأرضي وصديقنا المفضل وقلب مشروعنا.

عندما بدأت العمل مع بروس كانت تعابير وجهه تقول لي: "انك فتاة. لن تكوني سوى عقبة في الطريق." إنما مع مرور الوقت اكتشفنا حسن العمل معاً، فبات يقول: "إسعي نحو الكمال، وارضي بأفضل ما تستطيعين تحقيقه."

وخلال اليومين الاخيرين من العام ١٩٨٢ صنعنا قالباً للجزء الاسفل من بدن الطائرة. استغرقت العملية ١٥ ساعة، لكن معالجة ذلك الجزء نجحت وأخرج من قالبه. احتفلنا للمناسبة ودوّنت في السجل: "نحن مستعدون لصنع فويجر." ورسمت على الهامش وجهاً كبيراً باسماً.

ومع حلول الخريف بدأ شكل الطائرة يبرز. وكتبت في السجل: "١٩ سبتمبر (أيلول)، اليوم ركّب خزان العاتق الامامي." وواظبت على تدوين سير العمل. في العام ١٩٨٤: "٧ يناير (كانون الثاني)، قولبة المقطع الخارجي من الجناح."

وفي مايو (أيار) تم تجميع معظم القطع. طلي بدن الطائرة والاجنحة وأغطية المحرك بطبقة تمهيدية من الدهان الرمادي استعدادا للطلاء النهائي. وبعد سنتين أصبح عندنا أخيراً ما يشبه الطائرة.

خوف الطيران

في ٢٢ يونيو (حزيران) ١٩٨٤ سدلت جينا غطاء ركن الطيار، وأدرجت فويجر خارجاً ودفعت أذرعة المخنق الى الامام وباشرت عملية الاقلاع. وعندما أرخيت

عصا القيادة الى الوراء انزلقت الطائرة مرتفعة، وصحت: "رائعة أنت يا فتاتي!"

بعدما ارتفعت قليلا انزلق مايك ميلفيل تحت فويجر في طائرة مطاردة. وألقى نظرة شاملة على جسم الطائرة، فرأى الزيت يتدفق ويسيل الى الوراء في خط أسود. قال بهدوء: "هناك تسرب زيت خطير - وأكرر: خطير - في المحرك الامامي."

أجبت: "حوّل، أوقفت المحرك الامامي." وسحبت جهاز السيطرة الى الوراء، فدارت المروحة كدولاب طاحونة ثم توقفت.

قال برت: "لهذا السبب نجهز طائراتنا بمحركين." ثم أكملنا رحلتنا الاختبارية.

في النهاية أصبحت لدينا طائرة حقيقية، لكنها مثل طائر غريب. في الرحلة الثانية فوق موهافي العاصفة تعرضت لبعض التقلبات الحرارية، وللمرة الأولى رأيت الاجنحة تترجح فعلا. ومع انخفاض السرعة والحمولة الخفيفة أثناء الفحص، همدت الحركة. لكن ما حصل أقلقني وزرع بذور الريبة في ذهني.

رافقت ديك في الرحلة الثانية. خيّل إلي أني في زورق. تمايلت فويجر وترجحت كما لو كانت في المحيط. لم نشعر بالارتجاج، ولكن خيل الينا طوال الوقت أننا نركب الامواج، فكنا نستعد لاشعورياً للموجة التالية. واختبرت للمرة الاولى في حياتي ما يشابه دوار الجو.

بدا الازعاج الذي تعين عليّ تحمله واضحاً منذ اللحظات الاولى. فليس هناك سوى مقعد واحد، ويجب أن أجثم على مرفقيّ وركبتيّ في الفسحة الضيقة بجانب ديك. كانت الارضية في "ليونة" الاسمنت. ومع أنها رحلة قصيرة فقد عدت بمرفقين داميين.

في البداية حسب برت أننا سنجري عشر رحلات اختبارية قبل الاستعداد للانطلاق. لكن الامور جرت على نحو مختلف. برزت العقبات يومياً وكنا نضطر الى توسيتها. وتركز قلقنا الاكبر على امكان اصطفاق الجناحين الطويلين وانفصالهما. فمراقبتهما وهما يتحركان في قوس من ٦٠ درجة مشهد مقلق ومقزز. وساء الوضع مع زيادة كمية الوقود لرحلات أطول.

في أغسطس (آب) بعد شهرين من الطيران الاختباري قررت وديك أخذ فويجر إلى المعرض السنوي لاتحاد المركبات الجوية الاختبارية في أوشكوش بولاية وسكونسن. واعترضتنا بقايا الرياح الموسمية المكسيكية بما فيها من حمل حراري(٣) ومطر غزير. خرجت من الرحلة منهكة ومرضوضة ومصابة بخدوش. كما أرهقت ديك قيادة الطائرة بين الجبال.

للمرة الاولى شعرت برهاب الاحتجاز. كانت "المقصورة" التي بلغ ارتفاعها متراً واحداً سجن عذاب وعلينا القبول به بشهامة. لم نبق فسحة لنا أكبر من حجيرة هاتف بلغ طولها ٢٣٠ سنتيمتراً، وكأننا وسط هدير المحركات "نسلك طريقاً مرصوفة بالحصى في شاحنة كبيرة من دون كاتم صوت" كما قال ديك.

كدحنا ١١ ساعة ثم هبطنا في كانساس. لبرهة وجيزة سئمنا المشروع.

(٣) Convective activity

بكامله. وهدد ديك بإحراق فويجر والعودة في القطار. ولم أثق بقدرتي على احتمال الضيقة. ومرت ساعات يائسة.

عند ذاك أدركنا أن المغامرة العظيمة في التطواف حول العالم ستكون عسيرة. وحين سألنا الناس عن مدى انحناء الجناحين أجبنا مازحين: "حتى يمسّا الارض." ولكن اذا أفلتت عصا القيادة أو تعطل جهاز الطيران الآلي لانفصلت أجزاء هذا الطائر في عشر ثوان.

أقرّ ديك بأنها الطائرة الوحيدة التي أخافته. لقد أرهبتنا جميعا. مجنون أي طيار لا يرهبها.

حدث عظيم

واظبنا على الاصلاح والتعديل. وفي ربيع ١٩٨٦ شعرت وجينا بأننا قهرنا جميع العقبات في المحركين والاجزاء الالكترونية. وفي ٨ يوليو (تموز) انطلقنا في أطول رحلاتنا. اقتضت الخطة القيام بدورة فوق شاطىء كاليفورنيا بين سان لويس اوبيسبو وسان فرنسيسكو لمدة أربعة أيام ونصف يوم. والسؤال الأهم: أنستطيع البقاء حيين داخل فويجر طوال هذه المدة؟

وكانت هناك مشاكل. تعطل محرك جهاز التحكم بدرجة الانحدار، وتعرض أحد سطيحات التوازن لخلل خطير. لكنني تمكنت من النوم في الطائرة للمرة الاولى، بينما تسلمت جينا القيادة. لقد فرضت علي جميع خبراتي في الطيران البقاء مستيقظاً، وكلما تسلمت جينا القيادة قمت بدور المراقب. لكنني الآن أدركت وجوب الثقة بها، وفعلت ذلك حقاً. في

الليلة الثالثة استسلمت للنوم خمس ساعات. وعندما استيقظت وجدتها تؤدي مهمتها على أحسن وجه.

هبطنا في موهافي الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والثلاثين صباح ١٥ يوليو (تموز). خلال ١١١ ساعة و٤٤ دقيقة قطعنا مسافة ١٩٠٨٢ كيلومتراً من دون توقف، أي ما يقارب نصف المسافة حول العالم. إنما في المرة التالية حين نمضي هذه الفترة الطويلة في الفضاء، لن نكون على مقربة من اليابسة، سنحلّق فوق المحيط الهادىء الواسع المظلم.

أنجزنا إقلاعنا الذي اقتضى مسافة ٤٢٧٠ متراً من المدرج. عظيم! لكننا لم نعرف ما قد يحصل لدى تأدية الألاعيب البهلوانية بالطائرة للتخلص من الجنيح الايمن المعطل. لذا لبست وديك مظلتي القفز وراجعنا تفاصيل الهبوط بالمظلات وأدرنا جهاز الطيران الآلي. شغّلنا الموجّه الايمن فانزلقت الطائرة جانبياً بعنف. اهتز الجنيح ورفرف للحظة ثم أفلت.

هتف برت: "أحسنتما. لقد انفصل باتقان وهدوء." وكان برت يتبعنا في طائرة مطاردة مع مايك وسالي ميلفيل.

لم نصدق ما حدث. مصمم الطائرة يبتهج لانفصال جزء منها!

بعد وقت وجيز اصطدمنا بهواء هائج فوق سلسلة من التلال، فنظرت من النافذة لاكتشف انفصال الجنيح الايسر أيضاً. بدت الاطراف مريعة. ونتأت منها رغوة زرقاء تشبه المادة المستعملة لعزل الاوعية عن الحرارة. اختفت الانوار الليلية وخرجت الاسلاك البالية. قد تزيد الاطراف

الخشنة الاحتكاك بالهواء مما يؤثر في استهلاك الوقود. أجرى برت بسرعة بعض العمليات الحسابية وأنبأنا ان خطة عملنا قد تتعثر بنسبة ٦ في المئة في أسوأ الحالات. لا شك في أن ذلك قلّص راحتنا، لكننا نستطيع الاحتمال.

تكاثرت الغيوم فوقنا وتحتنا ونحن نحلق فوق المحيط الهادىء. أراد برت ومايك وسالي مرافقتنا أطول مدة ممكنة في طائرتهم المطاردة، لكنهم اقتربوا من المسافة القصوى التي تستطيع مركبتهم اجتيازها من غير حاجة الى تزود الوقود. تبادلنا التحيات والتمنيات ثم ألقينا نظرة أخيرة على رفاقنا الذين مالوا بطائرتهم جانبياً. كانت لحظة مؤثرة. وقد لا نراهم ثانية.

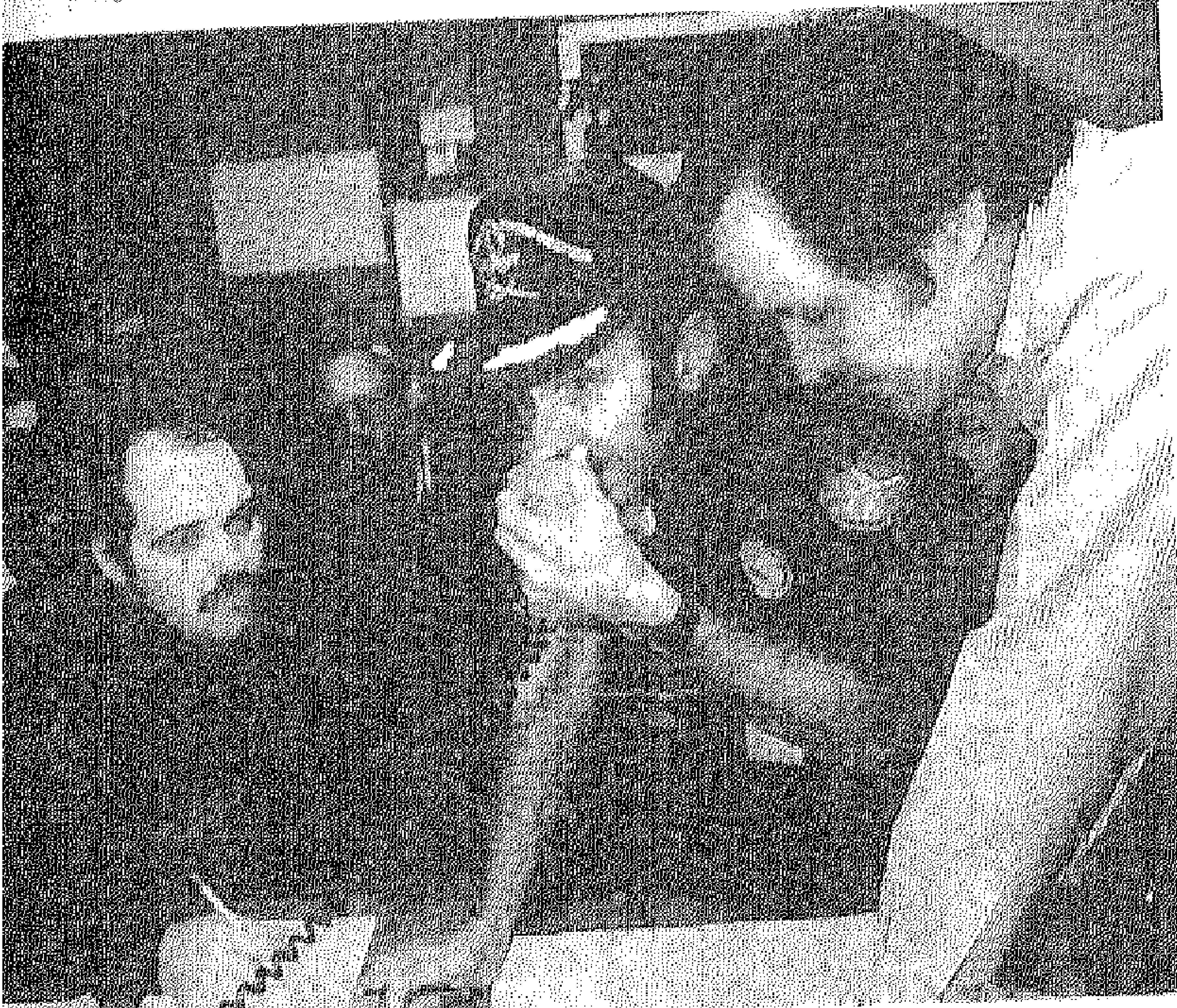
نظر ديك الي وقال: "حسناً، انها لحظات حاسمة."

لم أذرف دمعاً، غير اني كنت على وشك ذلك. بدأت الحقيقة تظهر جلية، سنقطع هذا المحيط الواسع. ودوّنت في السجل: "أصبحنا الآن وحدنا."

تلقفتنا رياح خلفية جيدة فبدأنا نستريح. وواظبت على مراقبة الرادار لمعرفة أحوال الطقس. وبعد ساعات شاهدت سحابة مكدسة تمر بجانب النافذة وفكرت: "من أين أتت هذه السحابة؟" وأدركت أن بعض الرياح لا يحمل كمية كافية من الرطوبة ليكتشفها الرادار، مما يعني ضرورة الاستكشاف البصري المستمر والتيقظ من أي اضطرابات قد تدمر هذه المركبة السريعة العطب.

إقتضت خطتنا سلوك اتجاه جنوبي غربي عبر المحيط الهادىء وفوق المحيط الهندي وعبر القارة الافريقية. بعد ذلك نعود الى الوطن عبر الاطلسي والبحر الكاريبي. أدركنا أن الرياح التجارية المدارية ستكون عوناً كبيراً لنا لاتجاهها نحو الشرق. لكن معظم طريقنا سيكون في "نطاق التقارب الاستوائي"(٤) المروع حيث تهب الرياح الاستوائية والعواصف الرعدية العنيفة.

يمدنا مركز مراقبة مهمتنا، الكائن في عربة مقطورة بحجم المنزل في موهافي،



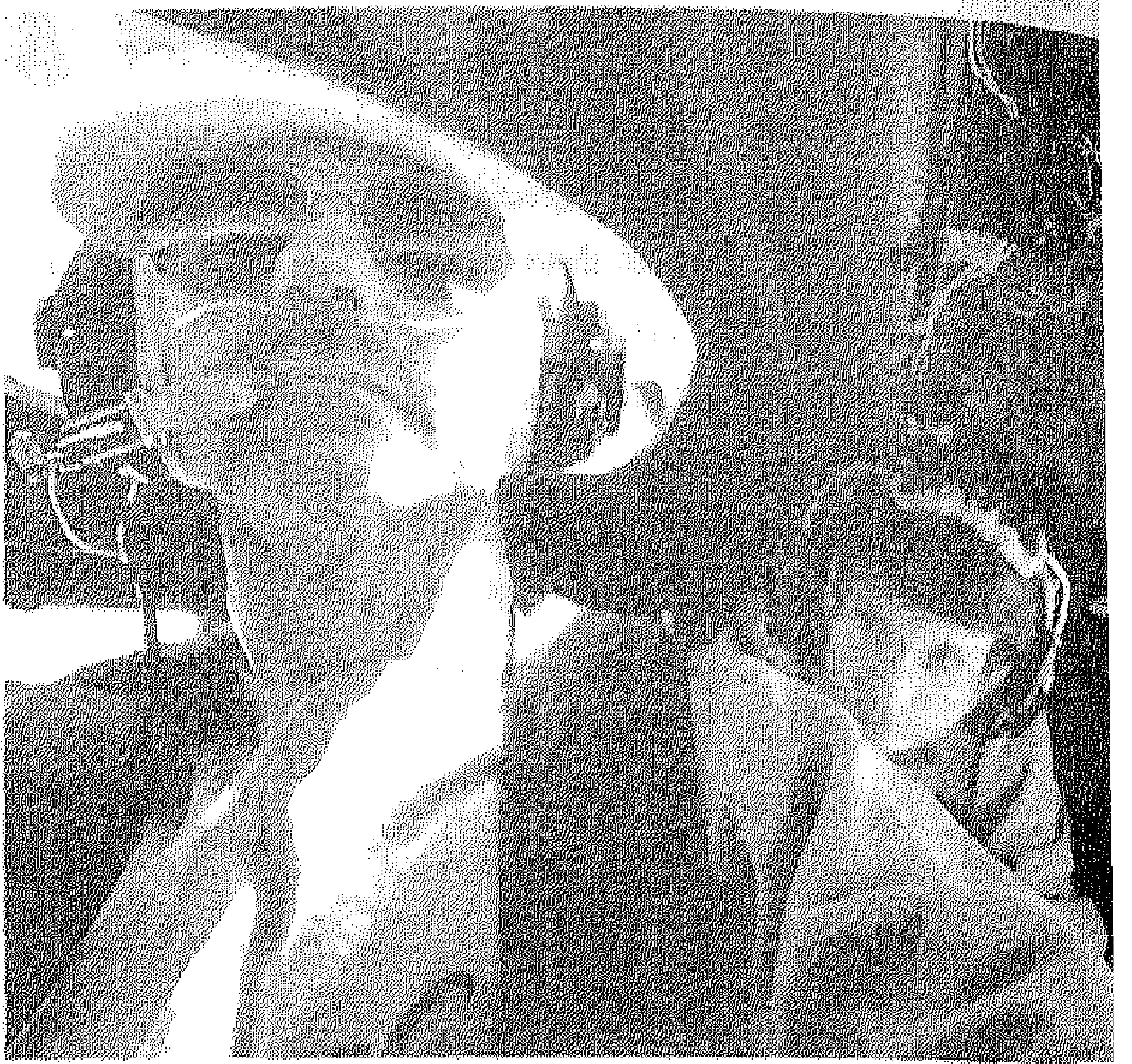
(من اليمين) برت روتان ومايك ميلفيل وستو هاجدورن في مركز

(٤) Intertropical Convergence Zone

Photos: Mark Greenberg / Visions

تحققت من شربنا الكمية اللازمة من الماء يومياً لتجنب الجفاف. تناولت البسكويت الهش والزبدة. وأحب ديك الوجبات المعلبة التي تشبه طعام المنزل حين تسخن على أنبوب التدفئة.

قبل إقلاعنا أشار زميلنا لين سنيلمان الاختصاصي بأحوال الطقس إلى موقع فوق المحيط الهادىء تتنامى فيه عاصفة استوائية تسمّى "مارج." أما الآن بصورة شاملة للطقس مرتكزة على معلومات يستمدها من قمر اصطناعي. واستخدم مركزنا، مثل سواه، جهاز اتصال عبر القمر الاصطناعي، ذا تردد عال للحصول على انباء الطقس والملاحة وسير الرحلة. واذا سقطنا في البحر يحدد جهاز تلقٍّ موقعنا لفرق الانقاذ عبر اتصالات بالقمر الاصطناعي.



روتان يقود الطائرة وييغر جاثمة على مرفقيها وركبتيها.

غابت الشمس للمرة الاولى قبل وصولنا الى هاواي بساعات قليلة، لكن الانوار العلوية أضاءت قمرة القيادة. كنت مستندة الى مرفقي ومديرة ظهري الى النوافذ فلم أتمكن من رؤية ما يجري في الخارج.

في الايام الثلاثة الاولى على الاقل سيتولى ديك القيادة. وكان في بعض الاحيان يستسلم لنوم خفيف بينما أراقب أنا أجهزة التحكم من خلف كتفيه.

فقد تركزت العاصفة فوق جزر مارشال وعنفت واتجهت نحو الشمال الشرقي في طريقنا. ابتهج لين لأنها عاصفة خلفية مساعدة، وتحمس لاقترابنا من مارج. كانت غايته أن يوقعنا في حضن العاصفة الدائرة كدولاب هواء، فنكون مثل متزلج مائي يحاول ركوب أعلى الموجة المتكسرة.

في وقت متقدم من اليوم الثاني سمعنا صوت لين عبر الجهاز اللاسلكي ذي التردد العالي: "حان الوقت للتصويب نحو العاصفة."

كنا شديدي الثقة بلين. لكننا وجدنا صعوبة في التحليق قرب مارج في هذه الطائرة. وزاد الامر سوءاً اقتراب ريح أمامية قطبية آتية من الشمال. إنه نموذج رديء للطقس شمال غرب المحيط الهادىء. كانت الريح تدنو أكثر فأكثر،

مشكّلة قناة ضيقة بينها وبين مارج التي هددت بالانغلاق وخنقنا قبل أن نتمكن من اختراقها. قال لين: "نحن وسط معصرة حقيقية."

بعيداً الى اليسار استطاع ديك رؤية جدار هائل من الغيوم يمتد ١٥ ألف متر، وحاجز آخر من الطقس الكالح في الجهة اليمنى. نجحنا بطريقة ما في المناورة لشق طريقنا بين السحب. وركبنا ريحاً خلفية بلغت سرعتها أحياناً ٣٠ عقدة وزادت سرعتنا الارضية الى ٣٠٠ كيلومتر في الساعة إذ قذفتنا مارج بين جزيرتي سيبان وغوم من جزر ماريانا. ومنحنا ذلك زخماً معنوياً فتابعنا الطيران نحو الفيلبين.

لا تعليق

بدأ نهاري الثالث وأنا في مقعد القيادة، فانتظرت شروق الشمس لأنعم ببعض النوم. ازداد شعورنا بالارهاق. كان جهاز الطيران الآلي يعمل مدة ساعة أو نحوها ثم نستيقظ فجأة فنجد أن السرعة الجوية استنزفت اذ باشرت فويجر الارتفاع. لهذا السبب لم يكن في وسعي أن أستسلم حتى لنوم خفيف من دون تسليم جينا عملية المراقبة الدقيقة.

كان جهاز الطيران الآلي ينذرنا إن انحرفنا صعوداً أو هبوطاً، بضوء ومضي وبوق محذّر. لكن انطلاقه في معظم الاحيان كان مثيراً جداً. حدثته وهددته بقلعه من الجذور. ولعله سمعني فثار غضبه. اذ في وقت قصير تعطل نصفه "الاعلى" مما استوجب انتباهاً أشد وجهداً أكبر.

وجدنا عبء العمل في قمرة القيادة أثقل مما حسبناه. وجب تحويل الوقود باستمرار للحفاظ على التوازن، وكان عليّ مراقبة جهاز الطيران الآلي وأجهزة الارسال وفحص الزيت ومعيار الحرارة والتبريد والاهتمام بتناول الطعام والماء وطرح الفضلات. كما عليّ تسجيل السرعات والمواقع والرياح وعدد الدورات في الدقيقة والمعلومات عن تحويل الوقود.

لا بد من فحص جهاز الزيت كل أربع أو ست ساعات. إن وجد نقص في الزيت جرى ضخّه الى المحركات بواسطة كرنك يدوي. كانت المضخة في الزاوية اليمنى العليا من الفاصل الخلفي. كنت استلقي على ظهري وأمد يدي فوق كتفي اليمنى لأدير الكرنك. تطلب نقل ليتر واحد الى الجهاز ٤٠٠ دورة للكرنك.

كانت الملاحة مهمة صعبة أخرى. نبهنا الدماغ الالكتروني القيادي "أوميغا" الذي كان موضع ثقتنا، الى انحرافنا عن الطريق المخطط لها. ولكن كلما زودنا مركز التحكم مساراً جديداً كنا نلقم الدماغ الالكتروني عشر نقاط جديدة.

بسبب ضيق حجرة القيادة تعين علي بسط الهوائي الذي بلغ طوله نصف متر، وتوجيهه الى قمر اصطناعي كما أشار ديك. كان جهازاً غريباً معقداً. ومن أجل التقاط ذبذبات في جهاز الراديو العالي التردد، أبقينا جهارة الصوت مرتفعة. وبعد فترة منعنا التشوش المستمر من الاصغاء بوضوح.

وعلى الدوام انتابنا القلق بشأن تزوّد الوقود.

بدأت وديك نتفحص باهتمام الرسم البياني للوقود الذي حدد الوزن الاجمالي التقريبي في مقابل المسافة المقطوعة. كشف المنحنى الناشىء عدد الاميال البحرية التي سنقطعها بكل كيلوغرام من الوقود. لم تكن النتيجة مشجعة. هل كانت الاطراف الممزقة المتبقية من الجنيح تسبب مقاومة هوائية أكبر مما اعتقدنا؟

حاولنا مرتين توقيف المحرك الامامي، لكننا لم ننجح في الحفاظ على مستوى الطيران بواسطة المحرك الخلفي وحده. الوزن والارتفاع الظاهران كانا يخولاننا ذلك. "وَجُب" أن نفعل. ما من طريقة لاكمال دورتنا حول العالم باستعمال المحركين معاً في التطواف. ربما كانت الطائرة أثقل مما أشارت اليه الارقام. ترى ما الأمر؟ هناك خطأ لسنا على علم به، أو لا نستطيع تداركه.

في اليوم الرابع بعد قطع ١٠ آلاف كيلومتر حاولنا ثانية إيقاف المحرك الامامي. ما زالت فويجر عاجزة عن المحافظة على ارتفاعها. ازداد شعورنا بالتعب. واستمرت رداءة الطقس ولم يتمكن ديك من النوم، وانتاب القلق جميع أعضاء الفريق في موهافي. اتصل جرّاح الطيران الدكتور جورج جوتيلا وسأل ديك إن كان سينام قليلاً.

أجاب ديك وكأنه يتحدث الى صحافيين: "لا تعليق."

تسلم مايك ميلفيل جهاز الارسال، وكانت الحكمة من ذلك أن ديك سيصغي دائماً الى طيّار آخر مهما شعر بالتعب.

أخيراً تنحى ديك متردداً نحو اليسار لأتمكن من الانزلاق الى مقعده. نزع سماعتي الرأس وعلقهما، ثم وضع سدادتين في أذنيه ولف بطانية حول رأسه لكبح الضجيج. اما أنا فمددت يدي وبسطت البطانية فوقه.

في ١٨ ديسمبر (كانون الاول) نجحنا أخيراً في قيادة الطائرة بمحرك واحد. لكن الطقس فوق غرب الفيلبين كان سيئاً، وكنا نقاوم مرهقين. رفرف الجناحان في كل اتجاه، وارتفعت الاطراف وهبطت باستمرار. كان ديك الطيار الافضل بيننا، عليه مواجهة هذا الوضع الرديء.

واقع مريب

طار بروس إيفانس وشخصان آخران الى سنغافورة وركبوا طائرة من طراز "بايبر نافاهو" ليلتقونا فوق تايلند. سيكون اللقاء ليلا. لكني وجينا تأملنا أن تمنحنا الاضواء الفوقية في "بايبر" فكرة عن حالة أطراف الاجنحة لنعرف إن كان هناك أي تسرب في الزيت أو الوقود. ولسوء الحظ، حين هبطوا في مطار تايلندي في هات هاي، رفض المسؤول منحهم اذناً بالاقلاع. تحدثوا الينا عبر جهاز الارسال في المطار. سألتهم: "كيف شكل المدرج هناك؟" ويبدو أنهم أساؤوا فهمي وظنوا أننا نبغي الهبوط.

سمعت أحدهم يقول: "لا تخبره أن طوله ثلاثة آلاف متر. قل له انه غير ملائم."

أجاب بروس: "طوله حوالى ٤٦٠ متراً وهو مغطى بالجلاميد والجواميس." وأضحكني ذلك.

تحدثنا عن الارقام السيئة للوقود. وأدرك بروس أننا نستطيع شيئاً واحداً: "خفف المزيج يا ديك، وإبقِ عدد الدورات في الدقيقة منخفضاً واخترق ذاك الطقس. والاّ حجزت لكما غرفتين في فندق في غرانادا."

فكرنا جدياً في تعليمات بروس الذي زودنا شجاعة وعزماً. فأمامنا اجتياز فاصل مائي آخر. وطالما شعرت بالخوف من المحيط الهندي، كما سمعت عنه قصصاً مزعجة وعرفت عدداً من الاشخاص الذين غرقوا فيه مدعين عدم الخوف. إنه يمثّل ألوف الكيلومترات من الماء تطوق "نطاق التقارب الاستوائي" المروع من جهة اليسار وتتخللها اتصالات لاسلكية مشوشة.

مع تحليقنا بمحاذاة الساحل الغربي لشبه جزيرة ملايو صادفتنا رياح شديدة وكان علينا تفادي العواصف. قاومنا مدة ٣٠ دقيقة منطلقين بأقصى سرعة ومواجهين العاصفة بعناد، ثم مديرين المحرك بهدوء شديد حتى كاد يتوقف. وكدنا نفقد رباطة جأشنا ليلا فوق المحيط الهندي. كذلك ما زلنا نستهلك ١٦،٧ ليتراً في الساعة. هناك خطأ ما، لكننا على الاقل حرقنا وقوداً كافياً لانزال سرعتنا المثلى إلى أقل من ٨٢ عقدة، وهي الحد الخطير الذي يسبب تجاوزه تضخما في درجة الانحدار. لا بد من وجود الكثير من سمك القرش في تلك المياه الداكنة، الاّ أننا نجحنا في تخطي هذا الذعر.

أيقنّا ضرورة مراقبة الطقس بعناية. كان القمر تلك الليلة مصادفة سعيدة غير منتظرة، كذلك فرحنا بمنظار النجوم، وهو "ناضور" متطور ذو عدسات صغيرة ثاقبة يثبته الطيارون على خوذاتهم. يكبّر المنظار ضوء النجوم، ومثل عين الهر يمكّنك من رؤية الاشياء في الظلمة كما لا تفعل العين البشرية. أدرته فبدا منظر الليل أمامي غريباً مبلّراً أخضر. انطبع ما شاهدته في ذهني: سحابة رعدية كبيرة تبعد ٣٠ درجة الى اليسار، وسحابتان أخريان الى اليمين. ثم أدرت جهاز الطيران الآلي في مسار لمراوغة هذه السحب وتفاديها. وكررت العملية غير مرة خلال الليل.

في منتصف اليوم الخامس وصلنا فوق سري لانكا. حدثتنا مراكز المراقبة المحلية بلغة انكليزية مكسرة وطلبت منا الاتجاه جنوباً، بينما أفادت التعليمات من موهافي بالانحراف شمالا. أخيراً قررنا تجاهل الجهتين وواصلنا الطيران عبر سري لانكا.

في وقت متقدم بعد الظهر، في منتصف الطريق بين الهند وأفريقيا، أفدنا باجتياز المسافة القياسية المستقيمة لطائرة "ب - ٥٢" البالغة ٢٠١٦٨ كيلومتراً. ذاك حدث مهم، لكننا نصبو الى اتمام رحلة حول العالم، وكل ما هو دون ذلك سيعتبر فشلاً. كما بتنا نواجه الواقع المرير، أن حسابات الوقود لن تمنحنا أي فرصة. انتابني شعور مؤلم في معدتي وضيق في حلقي وأردت أن أبكي.

قلت لجينا: "نتمكن من قطع المحيط الاطلسي، واني احاول تخفيف استهلاك الوقود. واذا كانت لدينا حقاً هذه الكمية الضئيلة فسنضطر الى الهبوط."

أجابت: "نستطيع المحاولة ثانية."

قلت: "لست أدري يا جينا إن كنت استطيع مواجهة هذه التجربة ثانية. لا أعتقد أني أملك العزم الكافي."

فردت: "حسناً، كان علينا المحاولة في أي حال."

القارة السوداء

انه اليوم الخامس وأمامنا اجتياز ١٨١٠٠ كيلومتر. كان ديك مستلقياً جانباً بينما توليت أنا القيادة نحو الشاطىء الصومالي. وغمرنا شعور بالخطر اذ ظهرت لنا افريقيا. نحن لم نحب المحيط الهندي، وحري بنا أن نبتهج لابداله بأي بقعة من العالم... الا القارة السوداء. وأخبرنا لين أنه لا يدري كيف يمكن أن نعبرها.

أيقظت ديك بطرقة خفيفة على قدمه. أفاق من غفوته فكررنا الحركات البهلوانية لتبديل مواضعنا.

راجعت في ذهني المترنح جميع خططنا لاجتياز أفريقيا، جبالها وعواصفها الرعدية وموانعها السياسية. تقدمنا من القارة بالقرب من مقاديشو، لكننا أنذرنا بعدم المجازفة فوق الصومال حيث كانت تدور حرب، لذلك انحرفنا في محاذاة الشاطىء. قررنا عبور كينيا والالتفاف حول أوغندا وجنوب السودان ثم عبور زائير.

أردنا تجنب كل بلاد تملك صواريخ ارض - جو من طراز "سام". عرفت الكثير عن هذه الامور خلال خدمتي في فيتنام، فتلك الصواريخ ترتفع نحوك مثل أعمدة الهاتف محاولة النيل منك. فإما المجازفة بمواجهة هذه الصواريخ وإما سلوك الطريق الأطول جنوباً.

واصلنا الابحار فوق الشاطىء. ونظرت الى أسفل فشاهدت فقاقيع الوقود تتسرب من الصمامات البلاستيكية الظاهرة التي تنقل الوقود من الخزان الرئيسي للمحرك إلى أحد الخزانات الجانبية. نبهت جينا، لقد هبط علينا الحادث كانهيال صخري. الوقود يتدفق الى الوراء! هذا مستحيل، لكنه يحدث فعلاً مما يدل على قياس مضاعف لاستهلاك الوقود، مرة في مروره عبر جهاز القياس في عجلة التفديف(٥) إلى خزان التلقيم، وأخرى في طريق العودة. هذا هو الواقع، الوقود لم يكن يحترق بل كان يعود الى الخزانات جاهزاً لدورة جديدة داخل المضخة.

كان علينا أن نعرف ذلك من طريقة تحليق الطائرة. لقد بدت أثقل مما ظهر في حساباتنا للوقود. وكانت في الحقيقة أثقل. لدينا كمية وافرة من الوقود. ما من طريقة لمعرفة مقدارها، لكننا بخير. لن نضطر الى الهبوط في افريقيا. يا الهي، كم نحن سعيدان!

عبرنا الشاطىء جنوب الحدود الصومالية - الكينية. بدأت الاراضي تبدو مأهولة ومضيافة، اذ انتشرت المساحات المزروعة والطرق والقرى وحتى الفيلة والزرافات. تمكّنا من سماع مرشدي الرحلات في الغابات عبر جهاز التردد العالي. ومع اقترابنا من نيروبي تلاشت

(٥) Paddle wheel

السهول الساحلية في مرتفعات وهضاب ذكرتنا بالتلال السفحية في سييرا نيفادا شرق كاليفورنيا. كنا على موعد مع دوغ شاين، أحد طيارينا المطاردين، بالقرب من نيروبي. وفي العاشرة والنصف صباحاً، قرابة اكتمال يومنا الخامس في الجو، لمحنا الطائرة المطاردة. اندفع دوغ تحت النافذة اليسرى وطمأننا الى أن كل شيء على ما يرام، لا خطوط من الزيت البني القبيح، ولا تسرب في الوقود الاخضر البشع.

هلوسة

نفّذنا بعض فحوص التسلق لتخمين وزننا وبالتالي كمية الوقود المتبقية. بعد ذلك أجرت جينا حسابات كشفت أننا في منتصف منحنى الوقود في الجدول. اذاً نحن بخير!

وإذ بدأنا نرتقي جبال كينيا التي تعلو ٥٣٠٠ متر، وضعنا كمامات الاوكسيجين. كانت الاضواء الوامضة في الجهاز تسجل درجة تنفسنا. لكننا كنا مرهقين، ولم نكن نتنشق الاوكسيجين بفاعلية. لم نتنبه للأمر. الا أن جسدينا بدأا يفتقران الى الاوكسيجين.

ودّعتنا الطائرة المطاردة وعادت الى نيروبي. أصبحنا بمفردنا من جديد.

دبّ القلق بين علماء الارصاد الجوية في موهافي بشأن الطقس فوق آفريقيا. فبحسب توقعاتهم هناك عواصف شديدة تنطلق من وادي ريفت الكبير خلف الجبال. وإذ اقتربنا من الجبال بدا الطقس مروعاً فعلاً، لذا انحرفنا شمالاً.

حُذّرنا من التحليق فوق موقعين آخرين غير الصومال، هما أوغندا وتشاد بسبب الصراعات الاهلية. أما الآن فإننا على وشك ولوج أوغندا والطيران فوق مطار عنتيبة. تساءلنا عن احتمال وجود صواريخ مضادة للطائرات في المنطقة. لكننا أيقنّا أن الطقس أخطر من أي سلاح، ورجّحنا عدم فاعلية أي رادار هناك.

هكذا انطلقنا نحو الجبال بأقصى سرعة غير آبهين لاستهلاك الوقود. زعقت المحركات ونحن نحاول الارتفاع فوق الغيوم التي كانت تغلي. لقد قذفها الهواء الارضي الحار إلى علو ١٦ ألف متر حيث نحتت العواصف أعلاها فبدت كسندان مشؤوم يهدد بالسقوط فوق رأسينا في أي لحظة. ثابرنا على التحليق آملين ومصلّيين وشاقّين طريقنا بينها. أدركنا أن نهايتنا محتمة اذا علقت فويجر داخل إحدى تلك الغيوم.

عند ذاك لاحظت أن جينا صامتة. ورأيت وضعها الشاذ. كانت مستلقية كهرّة على ركبتيها ومرفقيها، باسطة يديها الى الامام وملصقة وجهها بالارض، ناديتها عبر جهاز الاتصال الداخلي: "جينا، يجب أن تبقي مستيقظة."

مددت يدي ولمستها. انها باردة، والاضواء غير وامضة في جهاز الاوكسيجين. لم تكن تتنفس!

قدت الطائرة بيدي اليمنى، ورحت أحك ظهرها وعنقها بيدي اليسرى. ما من تجاوب. هززتها بعنف ثم فركت كتفيها وهززتها ثانية. فجأة دبت فيها الحياة وانتفضت فكادت تصطدم بالسقف.

قلت مترنحاً: "يا إلهي، ظننت أنك

متّ." ولاحظت أني أنا أيضاً لم أكن على ما يرام. أضفت: "لم أقصد إيقاظك، بل أردت التأكد من أنك حية."

كانت تشعر بصداع فعادت الى النوم. لقد تعطل النور الوامض في مؤشر الاوكسيجين، والطريقة الوحيدة للتأكد من حصولها على الاوكسيجين هي مراقبة مقياس الضغط في الخلف الذي يسجّل نبضاتها. علينا العناية بأمر الاوكسيجين. إن لم نفعل فقد لا نستيقظ أبداً وقد نصاب بألم في الرأس يبقى الى الابد. شككت في قدرتي على اختراق العواصف الرعدية والاهتمام بمراقبة تنفسها وحصولها على الاوكسيجين في آن. إن هي ماتت، فماذا أفعل؟ أهبط؟ أتابع الرحلة؟ ولم يكن في وسعي التحليق على ارتفاع دون ستة آلاف متر لأن ذلك سيعرضنا كلينا للموت، لذا عمدت الى إيقاظها من حين الى آخر.

لقد استخففنا بقضية الاوكسيجين. فبسبب تعب جينا والزكام الذي أصابها قبل اقلاعنا، لم تتمكن من تنشق كمية كافية من الاوكسيجين، فقوّيت صمامها.

حالفنا الحظ حتى حلول الظلام. وأخيراً اجتزنا منطقة الخطر وبدأنا ننزل نحو السهول. انتهينا من المراوغة والمناورات وها نحن نتجه نحو البحر مباشرة. جينا تتحرك. انها تشعر بألم مبرح في الرأس واضطراب في المعدة. ثم بدأت تتقيأ.

ما زال أمامنا ١٢ ساعة وليل مظلم من الطيران فوق افريقيا. غلّف ضباب كثيف حوض نهر الكونغو. وعجزنا عن رؤية حتى ما هو تحتنا مباشرة، ربما بسبب شعوري بدوار الارتفاع.

أخذ الارهاق ونقص الاوكسيجين يدبان في جسدي أنا أيضاً. بدأت ألاحظ أمراً غريباً، لوحة المفاتيح تنتفخ نحوي. هززت كتف جينا قائلا: «أنظري، انها تنتفخ، ربما ستنفجر!"

كانت صورة غامضة. هلوسة. بدت شاشة جهاز الرادار متضخمة مثل بثرة زجاجية كبيرة. خزان التلقيم ينتفخ أيضاً. ففكرت: "اذا انفجر الخزان انتهى أمرنا." مددت يدي محاولا دفع اللوحة الى موضعها. ثم أدركت أني لا أستطيع شيئاً. وغمرني هدوء غريب.

طال جلوس ديك خلف المقود. وواصل الثرثرة بشأن لوحة المفاتيح ومحاولة دفعها.

في ذلك الوقت لم يتسلم أي منا قيادة الطائرة. تابعت التحدث الى ديك محاولة تهدئته واقناعه بالنوم. مال جانباً وانزلقت الى مقعده وقدت الطائرة مسافة طويلة في الليل للمرة الاولى. أحسست بألم في رأسي واهتياج في معدتي. تقيأت ثانية في كيس لكني واصلت القيادة. كانت حالي سيئة، إنما حال ديك أسوأ.

قبل استغراقه في النوم طلب مني إيقاظه في ياوندي عاصمة الكاميرون. كنت على يقين بأنه يحتاج الى كثير من الراحة، لذا لم أوقظه حين اقتربنا من ياوندي. وفي آخر الامر استيقظ ونظف أسنانه وتسلم القيادة من جديد.

تنحت جينا جانباً فانتقلت باضطراب الى المقعد. عيّنت الاحداثيات على

الخريطة مستعيناً بالدماغ الالكتروني الملاحي «أوميغا.» لقد اجتزنا ياوندي وبتنا فوق الشاطىء.

بعد وقت قصير حلقنا فوق المحيط الاطلسي. اتصلت بموهافي وبثثت مجموعة من إحداثيات المواقع.

رد الرفقاء في موهافي: "نحن نرافقك على الخريطة يا ديك."

سألتهم: "وماذا يعني ذلك؟"

فاستوضحوني بارتباك: "ماذا قلت؟"

رددت: "ماذا يعني ذلك؟" ثم أخبرتهم: "ذلك يعني أننا نجحنا في اجتياز افريقيا يا شباب، ونحن في طريق العودة! ومعكم الآن شخصان قابعان هنا يبكيان كما لم يبكيا من قبل."

ثم رأت جينا ضوءاً أحمر. انه ضوء ضغط الزيت.

طفح الكيل

خففت قوة المحرك وخفضت مقدم الطائرة لادخال اكبر مقدار ممكن من الهواء في المشعاع لتبريد الزيت وخفض الضغط في المحرك الخلفي.

استمر تدني ضغط الزيت وارتفاع حرارة المحرك، انه على وشك الانفجار. واذا حدث ذلك فعلاً فسنجبر على الهبوط في جنوب المحيط الاطلسي. باشر ديك تحديد احداثيات موقعنا عبر الجهاز اللاسلكي ليتمكن المنقذون من العثور علينا إن هبطنا. ثم أخذ ينقل الزيت الى المحرك بواسطة الكرنك. اننا على ارتفاع ٣٧٠٠ متر، وبحسب التقديرات يجب النزول ٩٠٠ أو ١٢٠٠ متر قبل إشعال المحرك الامامي، هذا اذا نجحنا في اشعاله. وحتى اذا نجحنا فمن المحتمل أن نضطر الى الهبوط.

انتظرنا انتشار الزيت داخل الجهاز، لكن الحرارة بقيت مرتفعة. لكأن دهراً سيمضي قبل أن يغلّف الزيت المحرك ويبرده. إنما بعد نصف ساعة ارتفع الضغط وأخذت الحرارة في الانخفاض. كيف غفلنا عن فحص الزيت؟ روّعني ارتكابنا أخطاء سخيفة كهذه. كان المحرك على ما يرام، لم نحرق أي جزء منه. الاّ أن ذلك الحادث أوشك أن يودي بنا في قعر المحيط.

أخذت قسطاً من النوم ثم تسلمت القيادة فيما كنا نقترب من الشاطىء البرازيلي. توقعنا رحلة سهلة فوق هذا الجزء من العالم ما دمنا بعيدين عن "نطاق التقارب الاستوائي" المروع الذي يقع شمالاً الآن. ولكن يمكن أن يتضخم النطاق ويتسع على نحو مفاجىء فتنتشر الوحدات الناقلة للحرارة. فجأة، بعد حلول الظلام وقبل بزوغ القمر، ساء الطقس حولنا. قرأت جينا بصوت عال عن شاشة الرادار المسافات التي تفصلنا عن الغيوم العاصفة. لقد طوّقتنا العواصف. اخترق طرف أحد الجناحين غيمة فانخفّضت الطائرة كزورق تتقاذفه الامواج. إن كان ذاك طرف غيمة، فما حال وسطها؟

اكتشفنا حقيقة الامر، لقد أمسكتنا العاصفة. ارتفع طرف أحد الجناحين وانخفض طرف الآخر. كان الطقس يحرك الطائرة، فتمايلَت ببطء حتى كادت تنقلب تماماً، وفقدت السيطرة عليها. أستدرت نحو جينا وهززت كتفي قائلاً:

"هذه النهاية يا عزيزتي. لن نكمل مهمتنا."

إلّا أن ذلك دام لحظات وجيزة، لأن العاصفة قذفتنا خارجها فجأة مثلما اختطفتنا، وتمكّنا من السيطرة على الطائرة من جديد. ومع ذلك كانت زاوية انحنائنا ٩٠ درجة، وفويجر لم تصمم لأوضاع مماثلة. اعتقدنا أننا لن نستعيد وضعنا السوي، أو أن الوقود المتجمع في الاجنحة المرفرفة سيقتلع أحد الحواجز التي تقينا.

تركز أملنا في تحويل الطائرة من وضعها المنحني الى وضع انقضاض، ثم الانسحاب تدريجاً. دفعت عصا القيادة الى الامام لخفض الجاذبية الى الصفر كي تتمكن الاجنحة من تفريغ حمولتها. وطارت محتويات قمرة القيادة بينما نفذنا الانقضاض الاكثر انحداراً في رحلتنا. بعد ذلك أدرت الدفة برفق الى أقصى اليمين لانتشال فويجر من وضعها المريع. أرخيت عصا القيادة الى الوراء وبدأنا ننسحب من وضع الانقضاض. لم نتمكن من رؤية الجناحين في الظلام، لكننا عرفنا أنهما ينثنيان أعلى من أي وقت سابق. ومع ارتفاع المقدم زدنا قوة المحرك لكسب مزيد من الارتفاع.

أخبرت مركز المراقبة في موهافي: "كدنا نفقد كل شيء. اعتقدنا أن الامر انتهى. لقد ملنا ٩٠ درجة. أتصدقون ذلك؟ في فويجر؟"

عدنا الى المناورات بين العواصف الرعدية حتى وصلنا الى نسيم هادىء على ارتفاع ٣٧٠٠ متر. استسلمت جينا للنوم ورحت أحدّث نفسي لأبقى مستيقظاً، وواصلنا الاقتراب من الشاطىء البرازيلي.

وسرعان ما ظهرت أمور جديدة تدعو الى القلق. بدأنا نشعر بارتجاج في المحرك الخلفي مما لا يدعو الى العجب لأنه عمل ببطء طوال ١٤٠ ساعة. وتطلّب جهاز الملاحة "أوميغا" اصلاحاً، وبدأ جهاز الطيران الآلي يعمل بغرابة. اذا تعطل فسنضطر الى قيادة فويجر بأنفسنا طوال يومين آخرين. سيكون ذلك كحكم اعدام. لاطفته قائلا: "أكمل العمل، هيا يا عزيزي،" وواصلت التحدث اليه.

ومع انتصاف النهار كنا نطير تحت الشمس الساطعة. كان الابحار سهلاً ولا بد من أني غفوت. لا أذكر المرة الاخيرة حين نعمت ببعض النوم. وكانت جينا تحاول إقناعي بالتنحي والاستراحة.

حينذاك طفح كيلي. فأنا أكون بخير لبرهة، وبعد قليل لا أعود أذكر شيئاً. لقد تعطل عقلي عن العمل. وبسطت يديّ أمامي متسائلًا: كيف أجعلهما تديران هذه المفاتيح؟ بتّ غير مبالٍ. ما من شيء يهمني بعد الآن.

صحت في جهاز الطيران الآلي: "ما هذا الصوت؟ ماذا تريد أيها الجهاز اللعين؟ توقف عن الصراخ!"

كان عقلي يتكثف مثل الدبس، وشعرت بأني أطفو دافئاً مبتهجاً. ثم لمحت صورة جينا منعكسة بغموض على شاشة الرادار، وطرأت فكرة على رأسي: لست مضطراً الى تولي الأمر، جينا هنا.

"جينا، احتاج الى مساعدتك."

سمعت صوت ديك الملح وأيقظتني لكمة خفيفة على قدمي.

سألته: "أنا هنا. ما الخطب؟"

أجاب: "لا أعرف شيئاً ولا آبه لشيء. لقد فقدت السيطرة على أعصابي."

قلت: "انك في حاجة الى النوم، وستكون بخير. تعال الى هنا."

بعد برهة مال ديك الى اليسار وارتمى على الحائط واستلقى ساندا رأسه الى قارورة الاوكسيجين. وفي لحظة وجيزة غرق في النوم.

بعد ثلاث ساعات استيقظ مرتاحاً. وتأكدت من سلامته حين قال: "يا الهي كم أتوق الى حلاقة ناعمة!"

ذراع مخملية

بعد سبعة ايام من الطيران المتواصل بقي أمامنا ٧٧٣٥ كيلومتراً. وكأنما الوقت توقف. كانت الطريق من البرازيل الى ترينيداد آمنة، لكنها بدت بلا نهاية. وبعد عبورنا البحر الكاريبي وأمريكا الوسطى وانحرافنا شمالا نحو كاليفورنيا، سنواجه رياحاً معاكسة فتخف سرعتنا.

اجتزنا كوستاريكا وتوجهنا شمالا فوق الشاطىء في يومنا الثامن. تدنت سرعتنا الى ٨٠ عقدة، ثم صادفتنا رياح معاكسة فأبطأنا الى ٦٧ عقدة. ان تلك العقد المعاكسة هي أشبه بكيلومترات تضاف الى الرحلة.

تحدثنا الى برت وأخبرناه ان مؤشر وضع الطائرة يعمل بطريقة شاذة. قال ديك: "إنما اذا تعطل المؤشر يا برت فسوف نقود بأنفسنا هذه الطائرة العزيزة ونعود بها مهما كلّف الأمر."

تأثر برت لدى سماع هذا الكلام. فيوم اقلاعنا تقمص برت طبع المهندس البارد. إنما مع سير الرحلة بدا عاطفياً أكثر فأكثر. جف حلقه وعجز عن الرد. وأخيراً قال: "يمكنك ذلك. فأنت تملك ذراعاً مخملية."

أخيراً دخلت وجينا يومنا التاسع الأخير. ما زال أمامنا اجتياز ١٩٠٠ كيلومتر ومواجهة رياح معاكسة بسرعة ٣٠ عقدة فوق طرف شبه جزيرة باها. بدأنا الآن نقلق فعلا بشأن الوقود.

أعلمنا مركز المراقبة ان ١٠٦ ليترات في خزان التلقيم تكفي لذلك. ولكن هل هذه الكمية متوافرة؟ باشرنا تحويل الوقود المتبقي في الخزانات الى خزان التلقيم، أربعة ليترات من هنا وليتر من هناك. واصلنا الضخ حتى رأيت الفقاقيع تعبر الانبوب، ثم حولناه بسرعة الى خزان التلقيم كي لا يختنق المحرك بالهواء. ولكنني كنت أسحب الوقود من خزان جنيح التوازن الايمن وأتحدث الى مركز المراقبة، فلم ألاحظ الفقاقيع الا بعدما تسرَّب الهواء الى المحرك. "سعل" المحرك وتوقف. فأصبحنا من دون محرك على علو ٣٤٠٠ متر.

دفعت مقدم الطائرة الى أسفل آملا ان يدور المحرك، انما الآن أصبح مستوى الوقود أدنى من المضخة فصعب ارتفاعه الى المحرك. لم يبق سوى صوت الريح.

بدا ديك مركزاً وسمعته يتمتم: "الآن خسرنا كل شيء."

وضعت يديّ على كتفيه وقلت بهدوء وإلحاح: "أصبر. لن يطول الامر. نحن على ارتفاع واف. تنفس بعمق." ودققنا معاً في قائمة فحص الاجهزة.

اتجهت الطائرة الى أسفل بحركة لولبية. بدت الاحداث بطيئة مثل انتظار رحيل قطار داس قدمك. أعلن ديك لمركز المراقبة: "٢٣٠٠ متر." ثم سمعنا قرقعة خافتة في المحرك.

قال ديك بالحاح: "هيا يا حبيبي، دُر." وكان العرق يتصبب من جبينه.

ثم تلاشت القرقعة. تحدث ديك عبر الجهاز: "لا تدفق للوقود."

فرد مايك ميلفيل محاولا الحفاظ على هدوئه: "لمَ لا تحاول اشعال المحرك الامامي يا ديك؟ ارفع مقدم الطائرة."

ربما، ولكن حتى اذا نجحنا في اشعاله فقد يتعطل هو ايضاً. لكن المحاولة ضرورية. فاما القيام بذلك واما الهبوط الى الماء. ولطالما صليت: "إن كان الاخفاق مصير رحلتنا، فليكن ذلك في اليوم الاول." أيعقل ان نخفق ونحن على وشك الانتهاء؟

راجعنا لائحة تعليمات المحرك الامامي حتى التوجيه النهائي: "إستعد، انطلق!"

"١٢٠٠ متر".

قرقع المحرك الامامي ثم توقف. "هيا، اللعنة!" بعد ذلك اشتعل ودار. دفع ديك المقدم الى فوق فتدفق الوقود عائداً الى المحرك الخلفي الذي دبت فيه الحياة.

استعدنا الوضع المستوي، ولم نجرؤ على إطفاء المحرك الامامي. ولكن فوق ارتفاع منخفض صادفنا ريحاً معاكسة خفيفة. حتى مع اشتعال المحركين قد يشكل ذلك مانعاً لعودتنا.

اخيراً جمعنا فضلات الوقود من الخزانات اليمنى. وفي منظار النجوم تمكن ديك من رؤية الانوار في انسينادا بالمكسيك ثم في سان دييغو بكاليفورنيا. سلكنا طريق العودة مترنحين وآملين عدم تعطل المحرك أو نفاد الوقود.

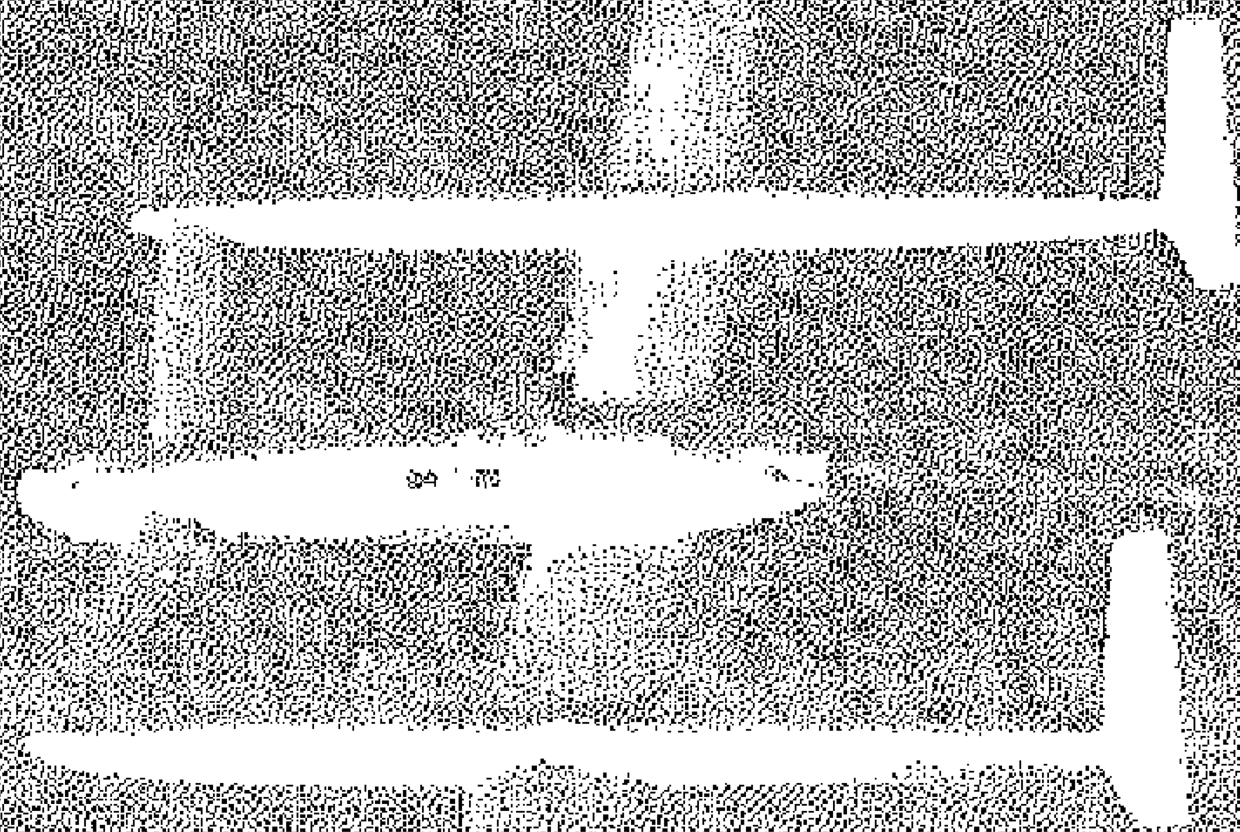
انجاز تاريخي

أعلمَنا مركز المراقبة بانطلاق برت ومايك وسالي ميلفيل في طائرة مطاردة لملاقاتنا. اتفقنا على نقطة اللقاء جنوب لوس انجلس في كاليفورنيا. اقتربنا من الموقع قبل شروق الشمس بعشرين دقيقة، وأشعلنا الاضواء الومضية. اعتقد مايك أنه رآها. وللتأكد من ذلك طلب مني ان أومضها. ولدى رؤية الاضواء تختفي ثم تظهر هلل الجميع وبكوا من الفرح. وانتابنا شعور غامض.

رأينا وهج لوس انجلس. في البداية كان خفيفاً أصفر يكتنفه الضباب والدخان، ولكن مع اقترابنا شاهدنا أنوار المدينة الواسعة تتقد تحت الضباب. غمرنا دفء لدى رؤية الاضواء حول الطرق الفسيحة المألوفة. اننا على عتبة الوطن!

اتصلنا ببرج ادواردز للاستخبار عن الحركة الجوية. فكان الجواب: "ليست هناك أي حركة. الفضاء بأسره محجوز لكما."

كنا داخل الغيوم، لكننا أُخبرنا أن الجو صاف فوق ادواردز. ومع اقترابنا من القاعدة نظرت جينا من النافذة وشاهدت بزوغ الشمس وكأنها تشرق من أجلنا. وفي السابعة والدقيقة الثانية والثلاثين من صباح ٢٣ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨٦ ظهر مجمّع ادواردز امامنا. لقد



حطت طائرات شهيرة هناك، طائرات "إكس" ومكاكيك فضائية ونماذج غريبة أولية. إنما الآن لا شيء يطير، وجانب البحيرة الجافة يغص بألوف الناس المحتشدين. أنهم يستحقون عرضاً فريداً.

حدَّثتُ الطائرات المطاردة: "ابتعدوا أيها الرفاق. سنقوم بعرض منفرد." عبرنا حوض البحيرة بمفردنا ثم انضمت الينا الطائرات المطاردة لتنفيذ جولات اخرى.

قالت جينا: "ديك، حان وقت الهبوط. يكاد الوقود ينفد."

قال مايك ميلفيل: "حسناً، هيا بنا."

كان هبوطنا متوازناً مستوياً ناعماً. ومع اقترابنا من الارض، بدأ مايك يقرأ ارتفاعنا: "تسعة أمتار، سبعة، ثلاثة، اثنان... هائل!" لقد لامسنا الارض بعدما أنهينا أول رحلة طيران حول العالم من دون توقف أو تزود وقود، في ٩ ايام و٣ دقائق و٤٤ ثانية.

وكما اكتشفنا لاحقاً، لم يكن الهبوط فكرة سيئة اذ لم يتبق في الخزانات سوى ٦٩،٣ ليتراً.

قادني لي هيرون ملوحاً بيده، وهو أحد أفراد طاقمنا الارضي. درجت الطائرة أمام الصحافيين وعدسات المصورين. وأعلن المسؤولون في "الاتحاد الوطني للطيران" أن الختم الذي أحكموه على غطاء ركن الطيار لم يفضّ. ثم رفعت ديان ديمبسي، من أفراد طاقمنا، الغطاء الشفاف وأعادت اليّ قبعة الكاوبوي السوداء. اعتمرتها وزحفت خارجاً على بدن الطائرة. ثم بدأت وجينا نلوح للحشود.

بعد ست سنوات شغلت فيها فويجر أفكارنا، حان الوقت لتقويم جهودنا. اكتشفنا أن ملايين الناس راقبوا أقلاعنا وهبوطنا على التلفزيون.

انه حدث فريد وسّع دائرة أسرة فويجر خارج نطاق موهافي ونادي فويجر للمعجبين والولايات المتحدة، فشمل كل رقعة من العالم. حتى صحيفة "برافدا" السوفييتية وصحف الصين تابعت اخبار رحلتنا. انه تحقيق مذهل لأمل تحدثت عنه جينا سابقاً ولخص احلامنا وتصوراتنا: "رحلة واحدة وعالم واحد."

بعد ستة أيام، في ٢٩ ديسمبر (كانون الاول)، ارتدينا اللباس الرسمي وتوجهنا لمقابلة الرئيس الامريكي رونالد ريغان وزوجته نانسي في لوس انجلس. قدما الينا والى برت "ميدالية المواطنية الرئاسية."

في ٦ يناير (كانون الثاني) حلقنا أنا وديك عائدين بالطائرة الى موهافي. لقد صممت فويجر لعشرين رحلة، وكانت هذه رحلتها الـ٦٩ والاخيرة. ثم نقلتها قاطرة جرارة الى المتحف الوطني للجو والفضاء.

قمنا بجولات في الولايات المتحدة واوروبا. وفي كل مكان طُرح علينا السؤال نفسه: "هل ستكرران ذلك؟"

وكان جوابنا دائماً أن رحلتنا كانت حدثاً مهماً في تاريخ الطيران، وهذا ما يجعلها فريدة. هل سنكررها ثانية؟ لا أحد يمكنه تكرارها. وهذا أفضل ما فيها.

جينا ييغر وديك روتان

مع فيل باتون

ترجمة أسنسيون فيصل

كتاب الشهر

مجرى الدموع

بقلم

لورنس إليوت

بحر الدموع

ذات أمسية شتائية مكفهرة من مارس (آذار) ١٩٨٧ كانت الباخرة الفخمة "هيرالد أوف فري انتربرايز" تستعد لاحدى رحلاتها المعتادة بين بلجيكا وبريطانيا.

كان البحر هادئاً والطقس ساكناً. ولم يكن في الجو ما يوحي بقرب وقوع احدى أسوأ الكوارث البحرية التي عرفتها بريطانيا في زمن السلم منذ غرق "التيتانيك."

في هذه الرواية المثيرة يسرد لورنس إليوت، المحرر المتجول في الـ"ريدرز دايجست"، أحداث ذلك المساء الرهيب من شهر مارس (آذار) واصفاً الشجاعة والبطولة اللتين تجلّتا في احدى عظمى عمليات الانقاذ في القرن العشرين

في ميناء زيبروغ، البلدة الزاخرة بالحركة على الساحل البلجيكي، كانت المعدّية(١) "هيرالد أوف فري إنتربرايز" تهمّ بالابحار في اتجاه ميناء دوفر البريطانية. وكانت تلك الباخرة الفخمة، ببدنها البرتقالي وسطوحها البيضاء ومداخنها الزرقاء، احدى ابرز القطع التي تؤلف اسطول "تاونسند ثورسن" للمعدّيات.

كان عدد الركاب المسجّلين نحو ٤٦٠، وهو رقم إفتقر الى الدقّة نظراً الى وجود أطفال على متن المعدية لم يشملهم العد، الى أعداد إضافية من الركاب داخل السيارات المنقولة وآخرين اختبأوا داخل الشاحنات تهرباً من دفع بدلات الانتقال. ومهما يكن المجموع، فانه يبقى كبيراً بالنسبة الى ليلة مثل ليلة الجمعة الباردة تلك من شهر مارس (آذار). وكان على متن المعدية، الى الركاب، ٨١ سيارة و٤٧ شاحنة وقطيرة.

شعر الركّاب ومعظمهم بريطانيون، بالدفء والامان، فاستقروا في أماكنهم المختارة في انتظار انتهاء الرحلة التي تستغرق أربع ساعات ونصف ساعة. وما لبث المطعم والمقهيان ان امتلأت بالروّاد. وظهر صف من الناس أمام المخزن الذي يبيع سلعاً مخفوضة الرسوم. الا ان معظم الركاب قصدوا قاعات الاستراحة حيث خلعوا معاطفهم وتمددوا. بعضهم استغرق في الحديث والبعض الآخر غلبه النعاس فاستسلم للنوم.

في الظلمة المبكّرة لم يكن على ظهر الباخرة سوى القبطان وعدد من الملاّحين المسؤولين عن حبال الارساء. كان القبطان بحاراً عريقاً أمضى ١٧ سنة في خدمة الشركة، وعشراً منها قائداً للباخرة. وهو وقف على منصة القيادة في الميمنة استعداداً لتوجيه الباخرة خارج المرفأ عبر الحاجز الصخري الواقي من الامواج. كان يتطلع الى عبور هادىء. ومع أن الطقس كان بارداً إلا ان الرياح الشرقية كانت خفيفة والبحر هادئاً. وبعد ابحار قليل في بحر الشمال كان على المعدية أن تنعطف غرباً في اتجاه مضيق دوفر في الطرف الجنوبي الشرقي من بريطانيا.

كان القبطان ديفيد لوري رجلاً عميق التفكير خفيض الصوت في السابعة والاربعين من عمره، وهو أحد خمسة ربابنة تعاقبوا على قيادة "هيرالد" منذ وضعها في الخدمة عام ١٩٨٠. وبلغ طول المعدية ١٣٢ متراً ووزنها الاجمالي ٧٩٥٠ طناً، فكانت بحسب المقاييس السائدة آنذاك باخرة قياسية الحجم وفخر أسطول "تاونسند ثورسن" المؤلف من ٢٢ قطعة والتابع لشركة «P & O Group» اللندنية.

في الخامسة من مساء الجمعة ٦ مارس (آذار) ١٩٨٧ اقتربت "هيرالد" ببطء وحذر من مرساها الاخير في ميناء زيبروغ. وبعدما أفرغت حمولتها ونزل منها الركاب، انهمك الملاّحون في تجهيزها لرحلة العودة، فكنسوا الممرات والحجرات ونظفوها وحضّروا طعاماً يكفي لمئات الاشخاص ثم بدأوا استقبال الركّاب والعربات من جديد.

كان عدد أفراد طاقم الملاحين ثمانين موزعين في ثلاث فرق مناوبة وخمس

(١) المعدّية (ferry) مركب يعبر به من شاطىء الى شاطىء.

مجموعات من الضباط. وكانت الفرق تتناوب العمل كل ٢٤ ساعة بمعدّل رحلتين ذهاباً واياباً لكل فريق قبل أن تحق له فرصة من ٤٨ ساعة للراحة. ولم يكن هذا الترتيب ليرضي الجميع، اذ لا بد من أن يدير الباخرة أحياناً فريق مرهق، فضلاً عن أن الربّان كان يعمل مع فريق مختلف كل مرّة، الأمر الذي سبّب ارباكاً في المسؤوليات الموكولة الى كل فريق.

الا أن أموراً مستجدة شغلت القبطان لوري وأقلقته، فهو كان وجّه قبل ستة أشهر رسائل الى الربابنة الآخرين وكبار المهندسين العاملين في "هيرالد" يلفتهم الى أن مقدم الباخرة يبقى منخفضاً فترة طويلة بعد تعبئة الخزانات الامامية بالماء حفظاً لتوازن الباخرة. ومع أن ذلك اجراء عادي والغرض منه تسهيل انتقال العربات الى ظهر الباخرة في ذروة المدّ، إلا أن تفريغ المياه بالمضخّة كان يستغرق نحو ساعتين. وكتب لوري أن الموج كان يرتفع احياناً ليغطي الابواب في مقدّم الباخرة.

ومع أن الدائرة البحريّة أُخطرت بالمشكلة، إلا أنها لم تتّخذ اي اجراء، وإن راج كلام عن تزويد الباخرة مضخة سريعة في ورشة الصيانة السنوية التي عيّن الاسبوع التالي موعداً جديداً لها بعدما فات على موعدها زمن. وكان لوري يعلم يوم الجمعة ذاك أن "هيرالد" ستغادر مرفأ زيبروغ ومقدمها غائص متراً.

بعيد السابعة مساء دخل لوري حجرة ادارة الدفّة التي غشاها الظلام لولا بعض الرسوم المضيئة على شاشة الرادار والوهج الأخضر المنبعث من لوحة المفاتيح. وكان جميع العاملين على منصّة القيادة مرتاحين الى عملية الابحار. وكان لوري حافظاً التفاصيل عن ظهر قلب، وهو أصدر أوامره المألوفة بصوت منخفض، وبصوت منخفض أيضاً جاءه الاشعار بتنفيذها.

ولكن ما لم يعرفه لوري هو أن الابواب الفولاذية الضخمة في جانب الباخرة المقابل للرصيف والتي كانت مشرّعة لاستقبال العربات، لم تغلق، وأن السفينة كانت على موعد مع الموت بعد حوالى كيلومتر.

"كم نحن محظوظان!"

في الاولى والنصف بعد ظهر الجمعة غادرت سوزان هيمز وخطيبها روبرت هيرد فرنكفورت قاصدين زيبروغ في شاحنة مستأجرة. كانت سوزان مدققة حسابات دولية في الثالثة والثلاثين من عمرها باشرت لتوّها العمل مع شركة أمريكية في ألمانيا الغربية. وهي استأجرت شقة خارج فرنكفورت، وأمضى روبرت نهاية الاسبوع يساعد على ترتيبها.

مع بعض الحظ ربّما تمكّن روبرت وسوزان من ادراك المعدّية التي تغادر الساعة السابعة متوجهة الى دوفر. كان روبرت بنّاءً وهو كرّس السهرات وأيام نهاية الاسبوع للعمل على بناء بيت له ولسوزان من تصميمهما في كوفنتري وسط بريطانيا. وكان يأمل أن يتيح له الابحار المسائي الباكر العمل في البناء صباح اليوم التالي.

في طريقهما الى البيت شعر روبرت

وسوزان بالتعب، لكنهما كانا في سلام، كل مع نفسه. كان لديهما الكثير ليجعلهما ممتنين وشاكرين. فكل منهما خاض تجربة طلاق مؤلمة، إلا أن لقاءهما قبل ثلاث سنوات امدّهما بالقوة لرأب حياتهما الممزقة.

أما بريان غيبونز، الذي قبع في شاحنته ينتظر دوره للصعود الى المعدية، فبدا له أن أياما أفضل في انتظاره. فقبل اسبوعين كان مجرّد سائق حافلة عاطل عن العمل ضحية أزمة اقتصادية ضربت منطقة ميدلاندز الصناعية في بريطانيا. كان بين وقت وآخر يؤدي أعمالاً غير منتظمة، فينقل بضائع لحساب شركة خاصة. إلا أن دخله من هذه الاعمال لم يكن يكفي لاعالة زوجته وأولاده الخمسة الذين أسكنهم بيتاً صغيراً يكاد يخلو من الاثاث.

وسمع بريان أن الشركة تبحث عن سائق ذي خبرة يملك شاحنة ليقوم برحلات منتظمة الى مدينة بروج في بلجيكا لتسليم حُصر صناعية والعودة منها بالخردة. وبعد أقل من ساعة كان في غرفة الانتظار والأمل يغمره. صحيح أنه لا يملك شاحنة، قال للمسؤول، إلا أنه سيشتري واحدة.

فاز بريان بالوظيفة وحصل على قرض من أحد المصارف مكّنه من شراء شاحنة "فورد" مستعملة.

في الخامسة والنصف بعد الظهر، أخبر موظف التحميل بريان أنه سيبدأ استقبال الشاحنات. فأدار هذا المحرك وتسلق بشاحنته المعبر الشديد الانحدار واجتاز البوابة الكبيرة ثم النفق الطويل المؤدي الى السطح العلوي المخصّص للعربات. واحدى الخصائص المميّزة في ذلك الاسطول البحري الحديث أن المكان المخصص للعربات يمتدّ على طول الباخرة من طرف الى آخر ولا يعترضه جدار فاصل أو حاجز واق كما في المراكب الأخرى. وهذا الأمر ساهم في تعجيل انتقال العربات الى السفن ومغادرتها اياها. وكانت المعدية "هيرالد" تستوعب ٣٥٠ سيارة أو ٨٠ شاحنة في الموقعين المخصصين للعربات والبالغة مساحتهما اكثر من ٤٠٠٠ متر مربع أي ما يساوي مساحة ملعب كرة قدم. وكان لا يلزمها أكثر من ساعة لدخول الرصيف وتفريغ حمولتها وتحميلها من جديد.

أوقف بريان غيبونز شاحنته وقطع المساحة المخصّصة للسيارات سيراً ونزل الى الطبقة «H» وحجز مقصورة ثم صعد الى الطبقة «C» ليتناول شيئاً من الطعام.

أوقف العريف فيليب ولسون سيارته في الطبقة «H» وصعد السلم مع زوجته كريستينا وهما يحملان طفلتيهما انجلينا (١٨ شهراً) وسابرينا (٩ أشهر) وعدّتهما من ألعاب وحفاضات وطعام.

بالنسبة الى عائلة ولسون كانت تلك الرحلة انتقالاً نهائياً. فبعد خدمة تسع سنوات في الجيش اختار فيليب أن يسرّح ليستقر مع عائلته في مدينة مانشستر حيث كان يأمل بوظيفة تقدم بطلبها. وباستثناء بعض قطع أثاث شحنت مقدماً كانت جميع ممتلكات العائلة محشورة داخل السيارة.

سأل فيليب زوجته: "هل كل شيء على ما يرام؟" فأجابته بابتسامة. وتابعا السير في الممر وعيونهما تبحث عن مكان مناسب "يخيّمان" فيه ويراقبان ابحار الباخرة وابتعادها عن اليابسة.

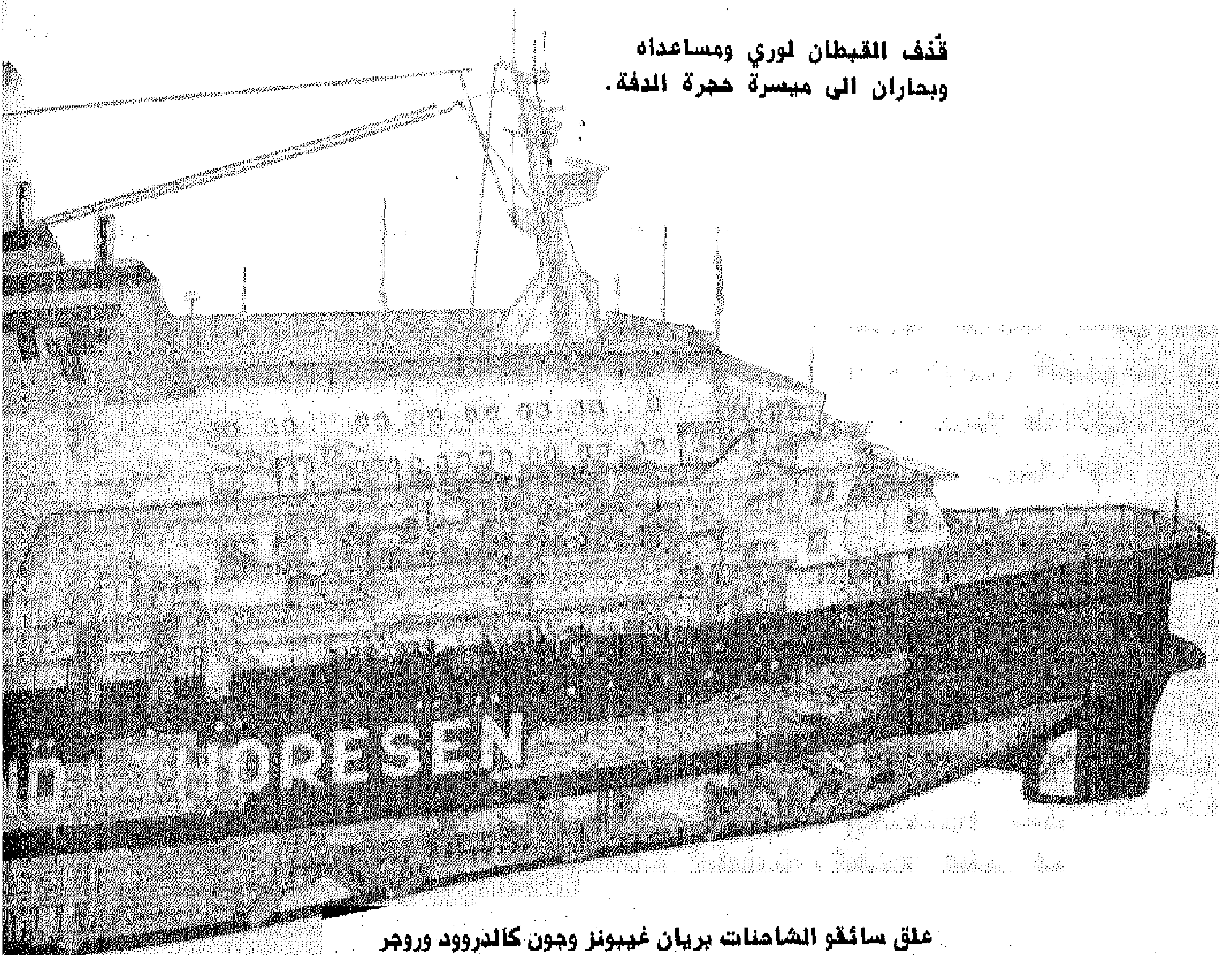
وصلت سوزان هيمز وخطيبها روبرت هيرد الى مرسى السفن في زيبروغ قرابة السابعة مساء. وكانت المعدية "هيرالد" ما زالت راسية والابواب في مقدّمها مشرعة.

"كم نحن محظوظان!" - قالت سوزان.

بداية الرعب

في تمام السابعة توجّه ضابط التحميل في الطبقة «C» لسلي سيبل الى لوحة التحكم وأبلغ منصة القيادة أنه يسحب العبّارة الواصلة بين الشاطىء والباخرة. وكان القبطان تلقّى اشارة من برج المراقبة في زيبروغ تفيده أن القناة سالكة. وبعد لحظات سُمع نداء عبر المذياع العمومي يدعو جميع العمال الى الالتحاق بمراكزهم.

في السابعة والدقيقة الخامسة بدأت "هيرالد" تبتعد عن الرصيف. نظر سيبل



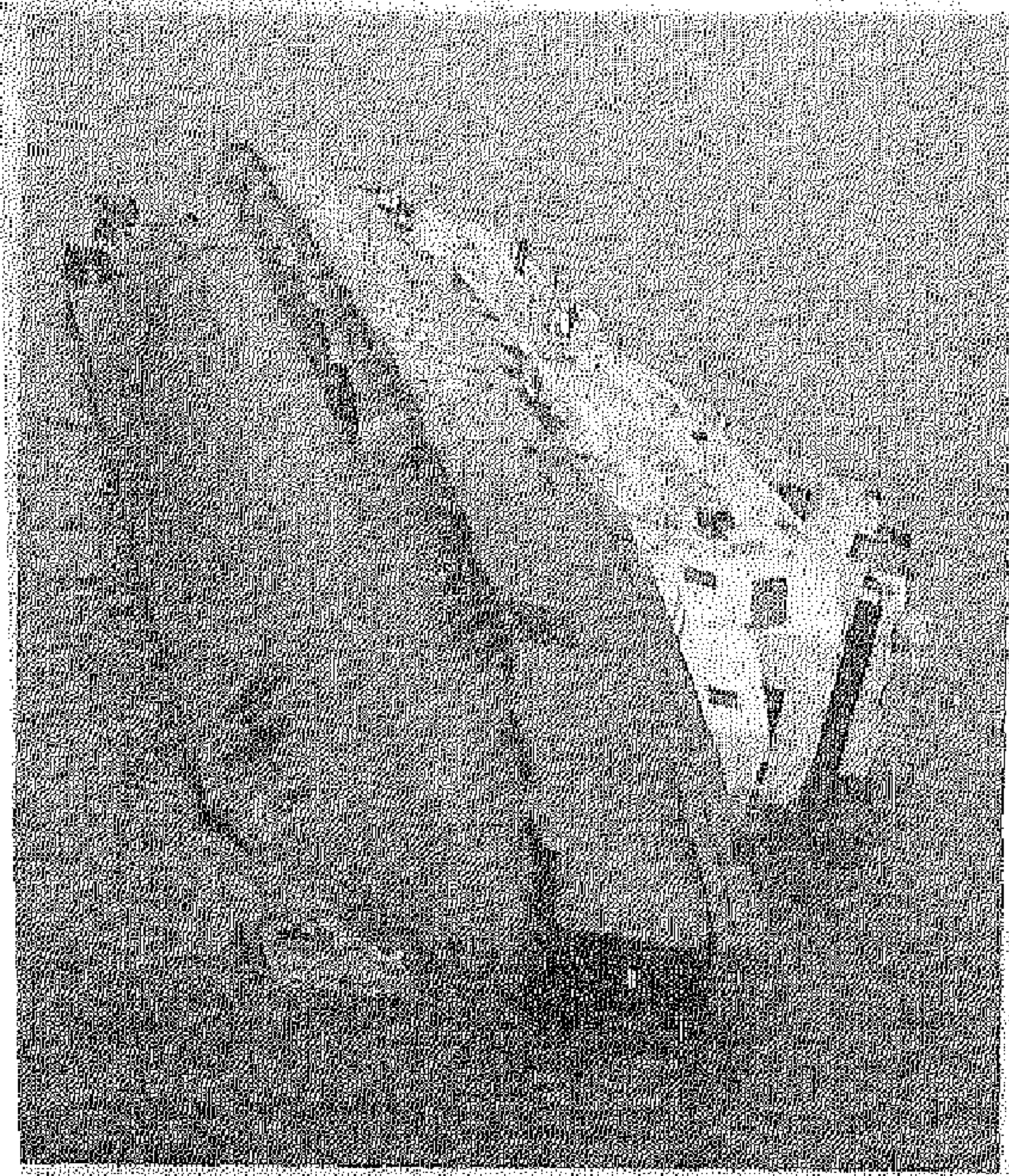
قُذف القبطان لوري ومساعداه وبحاران الى ميسرة حجرة الدفة.

علق سائقو الشاحنات بريان غيبونز وجون كالدروود وروجر برومفيلد في الطبقة «H».

حوله ليرى من سيغلق الابواب الامامية. وفي الضوء الباهت على السطح، رأى - أو ظن أنه رأى - المعاون مارك ستانلي في مئزره البرتقالي يشق طريقه بين السيارات المتوقفة متجهاً نحو لوحة التحكّم. وكانت مهمة ستانلي اغلاق الابواب الضخمة التي تزن ١٢ طناً وتحرّك هيدروليكياً.

اكتفى سيبل بما رأى. ولأن مركز عمله كان على منصة القيادة تابع سيره في اتجاه مؤخر الباخرة وقطع السطح الذي بدا مهجوراً وراح يتسلق السلم المؤدية الى حجرة الدفّة. ولم يكلّم الرجل في المئزر البرتقالي.

ولكن إذا كان سيبل رأى رجلاً يرتدي مئزراً برتقالياً عندما بدأت "هيرالد" تبتعد عن مرساها ذلك المساء فإن الرجل لم يكن المعاون مارك ستانلي. وكان مارك رب عائلة في الثامنة والعشرين من عمره يتمتع بخبرة ١٣ سنة من الخدمة البحرية.



عندما غرقت المعدّية "هيرالد" كانت سوزان هيمز وروبرت هيرد في المطعم بالطبقة «B». وفي الطبقة «C» تحتهما كان العريف فيليب ولسون وزوجته كريستينا وابنتاهما أنجلينا وسابرينا.

وهو انهمك عصر ذلك اليوم في أعمال الصيانة والتنظيفات قبل أن يتوجّه الى الموقع المخصص للعربات ليساعد في إحكام ربط بعض القطيرات الثقيلة. وبعدما انتهى من عمله التقى عريف الملاحين تيري آيلنغ الذي أبلغه أنه لم يعد هناك أي عمل آخر، فعاد الى مقصورته ينتظر فيها النداء الموجّه من الميناء الى العمّال للالتحاق بمراكزهم، فيعود إذذاك الى السطح ليغلق الأبواب إن لم يكن أحد سبقه الى اغلاقها. وفي تلك الاثناء حضر فنجاناً من الشاي وتناوله.

شعر بالبرد فأغلق الكوة وتمدد على السرير يقرأ. وما لبث ان استغرق في النوم. حتى نداء العمال حين اطلق لم يوقظه من سباته العميق.

أثناء تحرك الباخرة خلفياً للخروج من المرسى كان على القبطان أن يقف على المنصة في مواجهة مؤخّر "هيرالد" وليس مقدّمها. ولولا ذلك للاحظ لوري تحت الأضواء الساطعة أن الابواب الامامية ما زالت مفتوحة. وعندما استوت الباخرة في سيرها كان الظلام يلفّها وهي تشق الامواج بسرعة متعاظمة ومقدّمها الذي ناء بثقل الموازنة غائص في الماء وأبوابها الامامية المشرعة لا تعلو عن البحر سوى ثلاثة أمتار. وهكذا اكتملت عناصر الكارثة.

قبل ان يأوي سائق الشاحنة بريان غيبونز الى مقصورته الصغيرة الرقم ٧٢٨ في ميمنة السفينة في الطبقة «H» تناول عشاء جيّداً وقصد "المخزن الحرّ" وابتاع زجاجة شراب. كانت مقصورته تحت الطبقة المخصصة للسيارات وتحت سطح الماء. وهو أمر لم يقلقه، كما لم يزعجه ضيق المقصورة وجوّها الخانق. وعزم على تمضية الرحلة نائماً. وبعدما استحمّ صعد الى السرير واستعدّ للنوم. وهو قال في نفسه ان اهتزاز الباخرة وترجحها بعد أن تجتاز الحاجز البحري سيساعدانه على الاغفاء.

وفوقه بأربع طبقات كانت سوزان هيمز وروبرت هيرد يراقبان حشود الناس في المقهى. قالت سوزان: "لم نتناول اليوم أي طعام. دعنا نذهب الى المطعم ونتناول عشاء فخماً على نفقتي."

"على نفقتكِ؟" سألها روب. واضاف "اتفقنا!" وتبادلا الابتسامات وتوجها الى المطعم في الطبقة «B».

في السابعة والثلث اجتازت المعدية "هيرالد" المنارة على الحاجز الداخلي وسلكت خط الملاحة الرئيسي. عندئذ أذن القبطان لوري للضابط الأول سيبل بالانصراف لتناول العشاء. وعندما اجتازت السفينة الحاجز الخارجي أذن القبطان للضابط الثاني بول مورتر. ومع ازدياد السرعة أخذ الموج يرتفع عند مقدّم السفينة ويتكسر تحت قيدومها الكليل. إلا أن الجزء الامامي الممتدّ من طبقة العربات والمعروف بلغة البحّارة بالمجراف، تمكّن لفترة وجيزة من كبح المياه. لكن المعدية استمرّت تزيد من سرعتها. وعندما بلغت ١٥ عقدة(٢) بدأت الامواج المزبدة تتكسر على ظهر المعدية

(٢) العقدة وحدة قياس للسرعة البحرية وتساوي ١٨٥٢ متراً في الساعة.

المخصص للعربات بمعدّل ٢٠٠ طن في الدقيقة.

وفي السابعة والدقيقة السابعة والعشرين بدأت الباخرة تميل على جانبها الأيسر. وبصوت مفعم بالرعب صرخ ضابط الاشارة جون هوبز: "لقد أدرت الدفّة يساراً لكنها تتجّه يميناً!"

وصرخ القبطان لوري: "ما الذي يجري هنا؟" وبسرعة أدار جهاز القيادة الى أقصى درجة في الاتجاه الخلفي آملاً أن يكبح المسيّرات الثلاث الرئيسية ويوقف الباخرة التي مالت الى اليسار على نحو خطر وبزاوية بلغت ٣٠ درجة.

لم يجدِ ذلك. ومرّت برهة وجيزة موجعة استكانت فيها الباخرة ثم دارت فجأة على عارضتها الرئيسية وانقلبت في الماء وبدأت تغرق قاذفة جميع الذين كانوا على الجسر الى اليسار. أما القبطان الذي كان واقفاً قرب افريز الميمنة فهوى ١٢ متراً، وهي عرض حجرة الدفّة، ممّا تسبّب في اصابته اصابة بالغة في جنبه الأيسر واطباق احدى رئتيه.

شعر لوري بالمياه الجليدية حوله. وحاول ان يظلّ طافياً ولكن مضّه ألم مبرح وعجز عن تحريك ذراعه اليسرى وراح يغيب عن الوعي على نحو متقطع.

"أين أنت؟"

لم يدر في خلد سوزان هيمز، عندما بدأت الاطباق والأواني الفضيّة تنزلق عن المائدة في مطعم الباخرة في الطبقة «B»، انها عالقة في سفينة غارقة. فالسفن عادة تترنح وتميل ثم تعود فتستوي. إلا انها ما كادت هي وخطيبها يطلبان من النادل إحضار الطعام حتى بدأت الاكواب تنزلق وتتكسّر. واضطر روبرت الى التشبّث بالطاولة لكي يبقى في مكانه. وصرخ: "ما الذي يحصل؟"

فجأة وقعت امرأة على الطاولة حيث جلسا ولم تعد سوزان تجد مكاناً تتشبث به. فقفزت وتعلقت بالحافة خلفها وتسلقتها الى ظهر الباخرة الذي راح يميل بشدّة. وجعلت تضرب الهواء بيديها بحثاً عن شيء تتمسّك به. وتمكنت أخيراً من التشبث باطار أحد الابواب، فتعلقت به بيديها واحدى ساقيها. وأصبح روبرت تحتها يفصله عنها حوالى متر، وهو ظلّ متشبثاً بالطاولة فيما واصلت الباخرة الانقلاب. كانت الاطباق وسكاكين المائدة تتناثر والناس ينقذفون في الهواء قبل أن يقعوا ليتحطموا على الحاجز الفاصل بين حجيرات السفينة. وعندما بدأ المطعم يمتلىء بالمياه المتدافعة من الأبواب، أدركت سوزان للمرّة الأولى أن السفينة على وشك الغرق.

خفتت الانوار ولم تعد سوزان ترى روبرت. ولسعتها برودة المياه التي راحت ترتفع حتى غمرتها ممّا دفعها الى افلات إطار الباب. شعرت ان الماء حملها الى الرواق خارج المطعم. وتعثرت غير مرة وغاصت تحت الماء مما أفقدها أي حس بالمكان والزمان. وحين طفت اخيراً راحت تبصق المياه المالحة. وما لبثت الانوار أن انطفأت تماماً وانغمست الباخرة في ظلام دامس. سمعت سوزان أصواتاً تنادي أحباء ابتعدوا. "جورج! هل تسمعني! هل تسمعني؟ أين أنت؟" وظلّت معظم الصيحات من دون جواب.

كانت سوزان ترتدي سترتين صوفيتين، وهي شعرت بثقلهما يشدها الى أسفل ويكاد يغرقها لكثرة ما امتصتا من مياه، فخلعتهما. ونزعت أيضاً جزمتها ذات العقب العالي.

شعرت بنبضات قلبها وكأنها تدق في أذنيها. لكن ذهنها ظل صافياً. واعتادت عيناها الظلام. وفي الضوء الخافت المنبعث مما بدا لها كوّة بعيدة في سقف الباخرة – وكانت بالواقع نافذة في الميمنة – ميزت رفاً مرتفعاً فوق الماء. ربما كان ذلك مقصف الباخرة، قالت في نفسها، وبطريقة ما تمكنت من الوصول اليه وتسلّقه.

جثمت هناك لحظات وهي ترتعش من البرد والارهاق. ولم تكن ترتدي سوى سترة وسروال جينز. وراحت المياه ترتفع بسرعة حتى وصلت الى ركبتيها، ثم توقفت فجأة. وخيل اليها انها سمعت روبرت يناديها، لكنها عندما صاحت "أهذا أنت يا روب؟" لم تلق جواباً.

رأت سوزان بالقرب منها رجلاً تشبّث بإحدى ذراعيه بساق كرسي وأمسك بالأخرى فتاة في نحو التاسعة من عمرها غمرتها المياه الى الخصر. مدّت سوزان يدها نحو الفتاة وجذبتها الى الافريز حيث كانت. "شكراً،" قالت لها الفتاة بأدب وأسنانها تصطك من البرد.

قالت لها سوزان: "يا مسكينة!" وضمتها اليها وراحت تدلّك ساقيها لتبعث فيهما بعض الحياة ثم سألتها: "ما اسمك؟"

– كلير.

– "هل انت خائفة يا كلير؟"

– نعم، انني خائفة جداً. لا أعرف لماذا يجب أن أموت وقد حاولت دائماً ان أكون فتاة طيّبة. انني لا أكذب أبداً.

اغرورقت عينا سوزان وقالت بصوت منخفض: "لن تموتي يا كليرا أعدك."

البحر الهاجم

في الطبقة «F» وقع مارك ستانلي عن سريره وكان الظلام دامساً. شعر أن هناك خطباً، فهو لم يقفل الابواب الامامية لانه كان مستغرقاً في النوم عندما انطلق النداء فلم يسمعه. اندفع الى الممر الخارجي ورأى عريف الملاّحين وعدداً من أفراد الطاقم يتوجهون صوب السلم.

كانوا يشقون طريقهم بجهد الى الطبقة «E»، وعندما بلغوها عبروا مدخلاً قادهم الى الخارج وستانلي في اثرهم. وقف الجميع في ميمنة الباخرة والظلام من حولهم. صمّت أذني ستانلي صرخات منبعثة من وراء كل نافذة مغلقة.

تلمّس طريقه متعثراً الى أحد قوارب النجاة، حيث وجد فأساً انهال بها على احدى النوافذ. رأى الناس تحته يتخبّطون في المياه تفصلهم عنه مسافة ستة أمتار أو تسعة. رجع الى قارب النجاة وعاد منه بحبل ربطه ودلاّه اليهم من النافذة، وراح ينتزع الزجاج المحطّم في النافذة بيديه العاريتين لئلا تصيب شظاياه الناس العالقين في الأسفل والذين راحوا يستنجدون به. لم يشعر بدمه يسيل من الجروح التي أحدثتها الشظايا الحادّة في يديه وساعديه.

انزلق ستانلي على الحبل ونزل الى عالم مقلوب عمّته الفوضى. كانت الثياب

والمقتنيات الشخصية التي تناثرت من الحقائب اليدويّة طافية على سطح الماء والحقائب الكبيرة على الأرض تدوسها الاقدام. وراح الناس حوله يتوسلون اليه ويستنجدون به. ومن استطاع منهم الوقوف وقف في المياه الباردة التي غمرته حتى الرقبة. وكان معظمهم يبذلون محاولات يائسة لمساعدة الاطفال والشيوخ والمصابين. إلا أن أحداً لم يستطع أن يتسلّق الحبل.

راح ستانلي يطمئنهم قائلاً لهم ان الباخرة استقرّت وان النجاة أصبحت قريبة وان السلالم في طريقها اليهم فلا خطر عليهم. لكن الخطر كان في الواقع يحوق بهم من كل صوب. فحرارة المياه لم تكن تتعدى درجتين أو ثلاث درجات مئوية، ومعروف أن جسم الانسان لا يتحمّل مثل هذه البرودة اكثر من ١٥ دقيقة قبل أن تفارقه الحياة. ومع ذلك استمرّ يطمئنهم.

لم يدر ستانلي كم من الوقت انقضى، لكنه وصل الى مرحلة أدرك معها أنه إذا كان له أن يتسلّق الحبل فيجب أن يتسلقه في الحال وإلا تعذّر عليه ذلك لاحقاً. فبرودة المياه شلّت حركته وجروحه النازفة استنفدت قواه. بدأ يتسلق الحبل وهو عازم على ايجاد سلّم. وعندما وصل الى أعلى جذبه جنديان وسحباه من النافذة.

في مكان ما عثر الثلاثة على سلّم قابلة للتفكيك. وفيما هم يدلّونها انفصل نصفها الاسفل ووقع. أرسل ستانلي احد الجنديين ليحضر حبلا ثانياً، وفي تصوّره أنه سيربطه الى الجزء المتبقي من السلّم ويتمكن بذلك من سحب المنكوبين. لكن الجندي عندما عاد بالحبل وجد ستانلي يرتعش بلا وعي، فوضع عليه معطفاً واقتاده الى حيث كان يجري إجلاء المصابين.

ما كاد فيليب وكريستينا ولسون يستقران في المقهى حتى مالت الباخرة على جانبها الأيسر. ظنت كريستينا ان ذلك حصل بفعل الطقس العاصف، لكن فيليب الذي جلس قبالة النوافذ رأى البحر يرتفع فصرخ: "لنخرج من هنا!"

حمل كل منهما طفلة وهرعا في اتجاه الباب الذي ما ان بلغوه حتى أصبح فوق رؤوسهم كالسقف. كان الضجيج من حولهم يصمّ الآذان، وسمعوا جلبة وتكسر زجاج وهدير مياه متدفّقة واستغاثات ركاب مرتعبين راحوا يتشبثون بقوائم الكراسي وبالمصابيح وبكل شيء وصلت اليه أيديهم.

عدد كبير منهم فقد السيطرة فوقع. وشاهدت كريستينا رجلا "يطير" بمحاذاتها قبل أن يهوي على إحدى النوافذ فيهشمها ويبتلعه البحر. في تلك اللحظة تدفقت المياه المجلّدة السوداء وراحت ترتفع من دون رحمة. وفي سباق مع البحر الهاجم راح فيليب وكريستينا يتنقلان من كرسي الى طاولة، وتسلقا جداراً قائماً ووصلا الى حاجز زجاجي في اعلى المكان كان حطّمه جندي من الجهة الأخرى. إلا أن الفتحة كانت صغيرة بحيث لا تسمح لأي منهما ولا حتى لطفلتهما أنجلينا بالمرور. رفع الزوجان طفلتهما الثانية سابرينا الى الجندي الواقف فوق

فتناولها منهما وهي تبكي على فراقهما. وسمعت أمها بكاءها لكنها قالت في نفسها: لا بأس عليها، فسوف تنجو مهما حدث. ثم نظرت كريستينا الى أسفل فرأت أن المياه وصلت الى الكرسي الذي وقفت عليه مع فيليب، لكنها توقفت عن الارتفاع.

عملية الانقاذ

فيما سفن الانقاذ تهرع الى المكان لاحظ الملّاحون أن المعدّية "هيرالد" انحرفت عن القناة واصطدمت بقاع البحر في مكان ضحل المياه لا يتعدى عمقه تسعة أمتار ولا يبعد عن الميناء سوى ٢٠٠٠ متر. بدا بدنها البرتقالي والمسيّرات في ميمنتها ناتئة من البحر، وقوارب النجاة ما زالت ثابتة في مواقعها. لكن الباخرة، لحسن الحظ، لم تكن غارقة في أعماق البحر، وعلى متنها أحياء يستنجدون. فهل يتمكّن رجال الانقاذ من الوصول اليهم في الوقت المناسب؟

في السابعة والدقيقة السادسة والثلاثين مساء كانت السفينة "ساندروس" في طريقها الى المعدية المنكوبة معلقة عملها في صيد المحار. وكان زورقا قطر التقطا نداء الاستغاثة فهرعا الى النجدة. وبعد أقل من نصف ساعة من غرق المعدية شوهدت في الجو مروحية من سلاح الجو البلجيكي راحت تحوم فوق الحطام، وما لبثت مروحيّات أخرى أن انضمّت اليها.

وعلى الشاطىء، في تلك الاثناء قرر مدير المرفأ اعتماد خطّة عمل لجبه الكوارث الاقليمية لم يكن تمّ اختبارها بعد. وهو اتصل هاتفياً بالرقم ٩٠٠ وأصدر أمراً بتطبيق خطّة "زيبروغ" على أن يكون الملتقى في دائرة المراقبة في الميناء. وخلال ثوان وصلت كلماته الى ثمانية أشخاص في مراكز مسؤولة مهمّتهم درء الكوارث في مقاطعة وست فلاندرز البلجيكية والاهتمام بالضحايا والمصابين.

كان الحاكم الاقليمي ومنسّق أعمال الانقاذ أوليفر فانيست يشاهد في التلفاز نشرة الأخبار المسائية عندما تلقى النبأ. ومن دون ان يتفوه بكلمة هرع الى سيارته وانطلق بها.

أما النقيب في البحرية والقائد الاقليمي في وست فلاندرز جاك تاس فكان يحضر حفلة اقيمت للضباط في أحد فنادق كوكسيجد على بعد ٣٢ كيلومتراً من الكارثة. وعندما سمع النداء استدعى سيارة شرطة لتنقله بسرعة الى برج المراقبة في ميناء زيبروغ. وهو تزوّد، قبل أن ينطلق، كل ما يلزم من وسائل الاتصال. ولم يكن يدري أنه سيمضي هناك ٦٠ ساعة من أصل الـ٦٥ التالية.

وتقاطر الى موقع الكارثة الحاكم فانيست والقائد تاس وضباط الشرطة والاطفاء والعاملون في مجال الصحة العسكريون والمدنيون ومسعفو الصليب الأحمر والدفاع المدني، وكانت الخطة التي اطلقت لانقاذ المرفأ قطعت شوطاً. وكل نداء ولّد عشرات غيره عبر شبكة متعاظمة من الاتصالات عملت على تأمين متطوعين وأخطرت المستشفيات واستدعت سيارات الاسعاف.

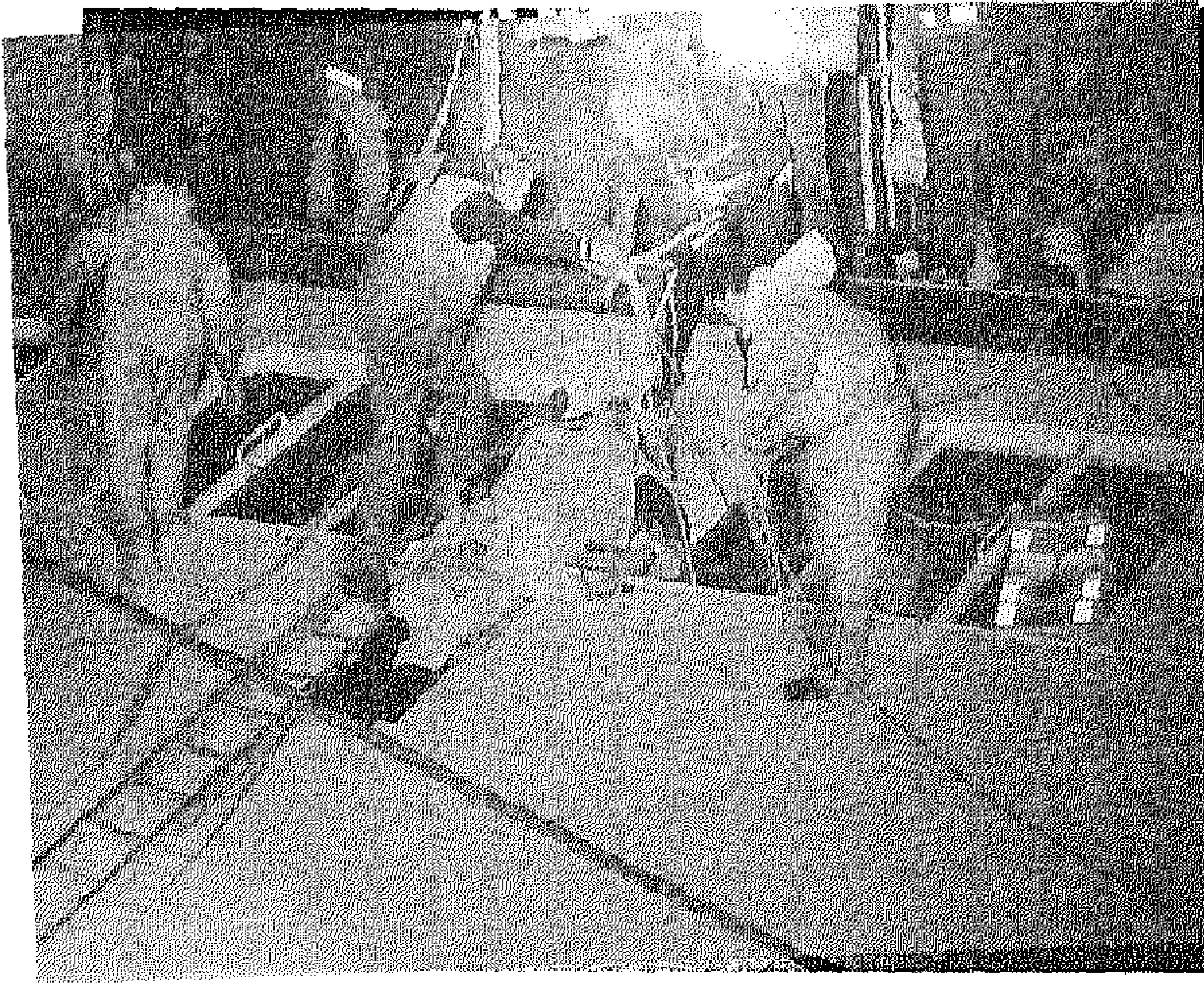
في القاعدة الجوية في كوكسيجد جهزت ثلاث مروحيات. وحرصت محطة الارسال اللاسلكي في أوستند على ألا تعطي أي معلومات عن الحادث ولا حتى عن وجهة الطائرات إلا بعدما أصبحت هذه جميعها في الجو. وعندما اقتربت من الميناء شاهد ملاحوها الباخرة المقلوبة وقد غمرتها الاضواء الكاشفة المسلطة من بضعة زوارق قطر وقوارب صغيرة تجمعت حولها فبدت وسط نوع من الفوضى المنظمة.

في محاذاة الحاجز الواقي من الامواج كان أول زوارق الانقاذ التي هرعت الى مكان الحادث بدأ نقل الناجين الى الشاطىء حيث كان المصابون يوضعون في سيارات الاسعاف والآخرون في حافلات لتوزيعهم على مراكز استقبال مستحدثة.

ملأ الليل هدير المروحيات. وكانت على متن إحداها الرائد البحري غي كوينبرغ، وهو ضابط غواص وقائد الاحتياط في القاعدة البحرية البلجيكية في القطاع الشرقي من ميناء زيبروغ. كان في الخدمة تلك الليلة منهمكاً في مناورة بحرية على الشاطىء. وقرابة السابعة والنصف مساء قصد نادي الضباط، وما كاد يصل حتى أبلغه ضابط الخدمة أن باخرة انقلبت بالقرب من مدخل الميناء. فسأله: "أتقصد أن ذلك جزء من المناورة؟"

فرد الضابط: "كلا يا سيدي، إنها الحقيقة. واحدى المروحيات في الطريق الى هناك."

في الوقت الذي هرع كوينبرغ الى سيارته وتناول منها بذلة الغطس وارتداها واتخذ بعض الاجراءات الاعدادية، كانت المروحية الضخمة "ملك البحر" جاهزة ومحركاتها دائرة. وحين صعد اليها إنضم اليه غطاسان آخران. وخلال دقائق أنزل الرجال الثلاثة على بدن الباخرة المقلوبة.


منقذون في ميمنة السفينة المنكوبة ينقلون ضحية الى الامان.

وجدوا النوافذ محطمة، ومن إحداها تدلت سلم الى ما كان يوماً قاعة استراحة للركاب. عشرات الأشخاص وقفوا في الماء أو تشبثوا بسترات النجاة الصفراء لا تفصلهم عن الموت صقيعاً، سوى لحظات. وفي الضوء الكاشف الذي سلطه البلجيكيون الثلاثة، بدت العيون شاخصة والوجوه متوسلة تستجدي العون.

Photo: Y. Deweerdt / Gamma-Liaison

هبط كوينبرغ درجات السلّم، وسرعان ما اكتشف أنها تنتهي في منتصف المسافة وتصل الى حوالى أربعة أمتار فوق الماء. صرخ للغطاسين الآخرين أن يحضرا حبلاً ثم قفز. وجد نفسه محاطاً بركاب في حال صدمة راحوا يتشبثون بكل ما طاولته أيديهم. واستأثر المصابون والمنهارون والغائبون عن الوعي بعنايته الأولى. وهو شاهد فتاة شقراء صبغ الدم شعرها فظنّها ميتة، لكن عينيها استجابتا لنور مصباحه. فأحكم الحبل حولها وأمر بسحبها صارخاً: "انقلوها الى المروحيّة للحال!" وما ان أعيد اليه الحبل حتى ربطه حول رجل مسنّ بدت على عينيه أعراض الصدمة.

في تلك الاثناء جثم أحد البحارة على طاولة وراح يساعد في ايصال الناس الى السلّم.

كانت ثيابه رقيقة. وهو رفض كل فرصة أتيحت له لينجو بنفسه. وأثار مصباحه الكشاف الطريق أمام كوينبرغ الذي كان يعمل في الأسفل.

كان على كوينبرغ أن يكافح ضد البرد وضد الوقت كذلك، كفاحاً يائساً وغير متكافيء. فالناس يفقدون الوعي ويقضون غرقاً قبل أن يتمكن من ربط العقدة حولهم. وعذّبه عبء الاختيار، إذ تعين عليه ان يختار مَن يخلّص أولا.

خضع كوينبرغ لحكم الضرورة. ومضى يعقد الحبل حول الاشخاص الذين ارتأى سحبهم. إلا أن الحبل ابتلّ وبات يفلت من اليد بسرعة وكان بعض المنقذين، لشدّة ما خارت قواهم، ينزلقون ويسقطون مجدداً في الماء. وحدث أن انزلق أحدهم فوق كوينبرغ قاذفاً اياه في المياه الباردة. وتسرّب الماء من فتحة العنق في بذلة الغطس التي ارتداها، فلسعته برودته وهو ينساب الى ساقيه. ومع ذلك ظلّ يعمل كرجل آلي الى أن خلا ذلك الرمس البارد من كل حيّ.

بطلة إنقاذ

بدا الوقت دهراً منذ انقلبت الباخرة، لكن سوزان هيمز علمت أنه لم يكن ليتعدى ربما ثلاثين دقيقة. وهي حملت كريستوفر، شقيق كلير، بين ذراعيها. كان طفلا في سنته الاولى وراح يرتجف بعنف. ضمّته اليها وشعرت بنبضات قلبه المتسارعة.

وكانت والدة الطفل طلبت من سوزان أن تحمله ريثما تتدبّر مكاناً آمناً تلوذ به. وهي راحت تتسلق الكراسي والطاولات بحثاً عن ذلك المكان. أما سوزان التي قبلت المهمة بسرور فكانت تقف في ٣٠ سنتيمتراً من الماء، فتعذر عليها أن تضع الطفل جانباً لتريح يديها لحظة. وكلير أيضاً غلبها التعب لكنها لم تنفك تنادي والديها وتسألهما عن حالهما، وهما ما انفكا يطمئنانها.

بدا رفّ المعاطف مكاناً مناسباً للخلاص، فهو كان جافاً وعريضاً، لكن سوزان عجزت عن الوصول اليه. وهي خاطبت الوجوه الباهتة حولها: "هل من احد يساعدني في إخراج هذين الطفلين من الماء وايصالهما الى الرف؟"

شق الظلام شاب حط على الرف فوقها. وبصوت واضح قال: "حسناً ناوليني الطفلين." كان الشاب ممدداً على بطنه

وذراعاه مدلاتين اليها. ناولته كريستوفر أولا ثم كلير. وانطلقت أصوات أخرى: "من فضلك، هل تستطيع ان تتناول طفلي؟"... "طفلي في الماء..."

تناولت سوزان الاطفال الآخرين واحداً واحداً ورفعتهم الى الشاب الجاثم على الرف فوقها. فجأة لمع ضوء وجذبت انتباهها أصوات منبعثة من مكان فوق رأسها. لا بد من أن فرق الانقاذ وصلت. وصرخت سوزان: "غطّوا الاطفال! هناك من يحطّم النافذة!"

تلا ذلك صوت ارتطام وتهشيم زجاج ونداء من وراء الباب في "السقف" يقول: "إصمدوا! سنرمي اليكم حبلا."

إلا أن الجهود ضاعت إذ لم يكن بين الركاب أحد يقوى على تسلق ٣٠ متراً من الحبال. وعندما حاولت إحدى النساء أن تتسلق هوت في الماء واضطر رفقاؤها الى انتشالها. وصرخ أحدهم: "اسحبونا!" وسرعان ما وصله الجواب المثبط ان عدد المنقذين اثنان فقط.

صرخت سوزان: "أرجوكم، معنا أطفال هنا. هل يمكنكم أن تنزلوا إلينا شيئاً يحملهم الى الامان؟" وأنزلت سلة كبيرة من الاماليد المجدولة. وما ان شوهدت تهبط حتى تعالت الاصوات من كل صوب: "أرسلوها الى هنا." أمسكت سوزان السلة وقالت بحزم: "الاطفال أولا." ثم شرع الشاب الرابض على الرف فوقها يضع الاطفال في السلة فيما هي تهمس لهم عبارات التشجيع. كان كريستوفر أول الناجين. وعندما حان دور كلير قالت لها سوزان: "أترين؟ ألم أعدك بأنك ستخرجين من هنا؟"

"وماذا عن أبي؟"

– سيخرج سريعاً.

"وأنت؟"

– وأنا أيضاً.

وابتلعت سوزان غصة.

تمّ إخراج الاطفال جميعهم في عشر دقائق، فاستراحت سوزان بعد عياء وسمحت للسلة بأن تذهب الى من استطاع تلقفها. عندئذ قال لها الشاب المنبطح على الرف: "حسناً، فلنخرجك الآن أنت ايضاً من الماء." وأمسك ذراعيها وجذبها الى أعلى حيث تمكنت من التشبث، ثم انحنى الى الامام وأمسك سروالها وجذبها ثانية فاستقرت على الرف. وقفت على قدميها والكدمات تغطي جسدها المرتعش، فناولها سترته.

فجأة أنزلت سلم كبيرة وثبتت، وعندما بلغت والد كلير ألحت عليه سوزان كي يتسلقها. بدا واهناً ومرتعشاً، وحبست سوزان انفاسها وهي تراقبه يصعد.

أخيراً جاء دورها. كان عليها أن تقفز، فدونها والسلم تلك المياه السوداء المجلدة. لكن ذلك لم يخفها، فهي لم تعد تشعر بأي وجل منذ خرج الاطفال. وبات كل اهتمامها ان تجد خطيبها روبرت، وقد شعرت في قرارتها بأنه سالم في مكان ما، وربما على الشاطىء. أحكمت قفزتها وحطّت بعنف على السلم وبدأت تتسلق درجاتها. وعندما وصلت الى أعلى السلم سُحبت من النافذة واقتيدت الى زورق قطر.

طالعتها وجوه المصابين. تفرّست فيهم فلم تجد روبرت بينهم. وجال في ذهنها خاطر: لا بد من أنه قلق علي.

مع اقتراب زورق القطر "فرس البحر" من الباخرة المنكوبة لم يصدق الملاحون على متنه ما رأته أعينهم تحت الانوار الكاشفة. فهم أتوا ليفتشوا عن أحياء في البحر، لكنهم لم يجدوا أحداً. وهم أدركوا لاحقاً أن جميع الذين غرقوا قضوا داخل السفينة وليس في البحر.

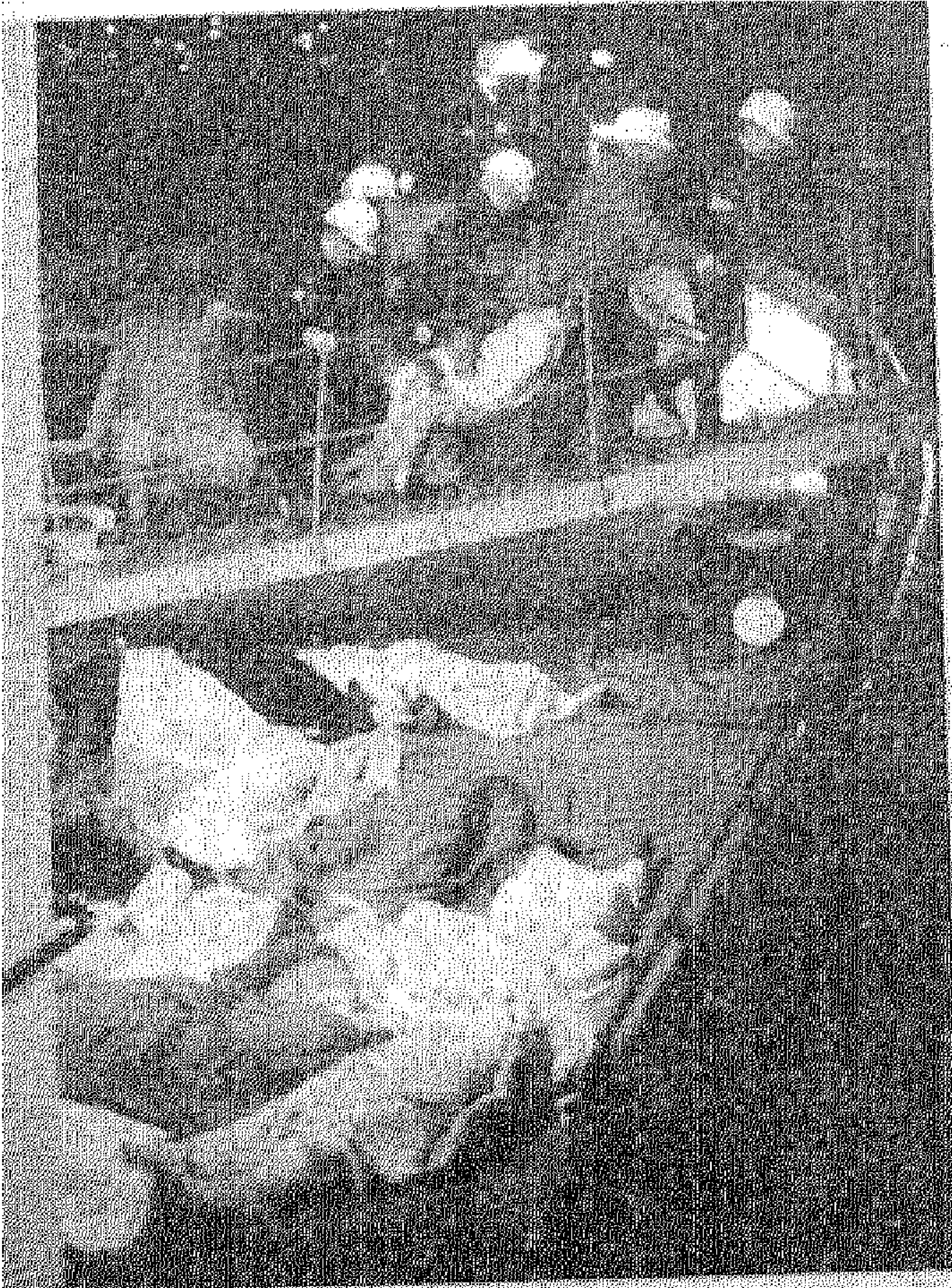
في الثامنة الا ربعاً "نطح" الزورق "فرس البحر" بمقدمه مؤخر المعدية "هيرالد" في الوقت الذي لامس زورق قطر آخر وسطها. وفيما أبقى القبطان أندريه باب مقدّم "فرس البحر" منخفضاً ليقيه من المد المنحسر، قفز الملاحون الاربعة الشجعان الى الباخرة المقلوبة. وتناهت اليهم أصوات الركاب المحاصرين، فانهالوا على النوافذ في الميمنة وحطّموها. وأحضروا حبالا وراحوا يجلون المصابين وينقلونهم الى زورق القطر حيث الامان والدفء.

تمركز البحار باتريك، ابن القبطان باب، بين المركبين واضعاً قدمه اليمنى على "هيرالد" واليسرى على "فرس البحر"، وهو وضع أتاح له مساعدة الناجين على الصعود الى زورق القطر.

ملأ الناجون كل ركن في الزورق، من حجرة الطعام الى المقصورات الى غرفة الدفة. وبين هؤلاء من خلَع ثيابه المبتلة وارتدى أخرى جافة. وتدثرت بعض النساء بالبطانيات وبعضهن بالستائر التي اقتلعنها عن النوافذ. أما الذين كانوا يعانون صدمات عصبية فجلسوا في كراسيهم محدودبي الظهور مترهلين، أو تمددوا على الأرض فيما علا النحيب خوفاً وألماً وغطّت الدماء كل مكان.

أبحر الزورق "فرس البحر" حاملا على متنه ١٤٠ ناجياً في اتجاه الرصيف ٥٣ حيث انتظرت سيارات الاسعاف، وحلّ مكانه زورق القطر البلجيكي "المحارب."

في السابعة والدقيقة الاربعين مساء كان الدكتور كونراد هيلترمان يعاين آخر مرضاه في عيادته ببلدة فيرن عندما دوت صفارة الانذار. ومن دون كلمة اعتذار واحدة (تولت زوجته الاعتذار الى



في ساعة متقدمة من عملية الانقاذ.

Photo: Lovzance / Gamma Liaison

المرضى) هرع الى سيارته وانطلق بها نحو قاعدة كوكسيجد الجوية التي تبعد ستة كيلومترات، وتوقفت تحت مروحية هادرة. وفي ثوان قليلة كانت المروحية في الجو. أما الوقت الذي استغرقه كل ذلك فلم يتعد عشر دقائق.

كان الدكتور هيلترمان متطوعاً يؤدي خدمته العسكرية في سلاح الجو البلجيكي ويعاين، في أوقات محددة، بعض المرضى في عيادته الخاصة. لكن الاولوية كانت دائماً للنداءات الطارئة التي يتعلق معظمها بصيادي سمك يتجمدون في العواصف او ببحارة يتعرضون لحوادث في حجرة المحركات.

حالما حلّقت المروحية راحت تفاصيل الحادث ترد عبر سمّاعات الرأس الى الدكتور هيلترمان وأفراد الطاقم الخمسة. فعلموا ان مركباً كبيراً جنح خارج المرفأ وان سفن الانقاذ جاهزة لنقل الناجين القادرين على المشي. أما مهمة إجلاء ذوي الإصابات الخطرة فعهد بها الى المروحيات التي ستنقلهم الى قاعدة زيبروغ حيث تنتظر سيارات الاسعاف.

في الدقائق القليلة التي سبقت تحليق المروحية فوق الحطام تفقّد الدكتور هيلترمان التجهيزات الطبية على متن الطائرة وبدأ ينشر البطانيات استعداداً لاستقبال المصابين. وما ان بدأت المروحية تحوم فوق السفينة المنكوبة حتى شرع أفراد طاقمها في اجلاء الضحايا الذين لفّوهم بشباك ورفعوهم الى الطائرة بآلة ونش. كان معظمهم فاقدي الوعي يعانون هبوطاً مفاجئاً وخطيرا في الحرارة، وهي حالة تسبب الوفاة. لكنهم سرعان ما استعادوا وعيهم بفعل الحرارة التي بلغت عشر درجات مئوية داخل المروحية. راح هيلترمان يقدم اليهم اسعافات سريعة. فغطّاهم بالبطانيات وسقاهم ماء فاترا. والذين لم يستجيبوا لتلك الاسعافات أعطاهم أوكسيجيناً.

لم يطرح الناجون الأول أي مشكلة. إلا أنه مع تقدم الليل بدأت تفد الى هيلترمان حالات عصى عليه إسعافها: اناس يترجحون بين الحياة والموت انقضى على محاصرتهم في الماء وقت طويل فلم يستجيبوا للاسعافات الاولية مما اقتضى نقلهم سريعاً الى المستشفيات القريبة.

قرابة العاشرة مساء كان انقضى وقت طويل على انتشال آخر الناجين، فأنزل هيلترمان بالونش الى الباخرة المنكوبة اذ أراد أن يعاين الاجساد الهامدة التي انتشلها الغطاسون ويتحقق من وفاة أصحابها، فربما كان بينها أحياء.

فحصها واحداً واحداً. سلّط نور مصباحه على العيون التي خمدت فيها الحياة وضغط بابهامه البآبىء التي انطفأ نورها. ومن بين "الجثث" الثلاثين التي عاينها وجد في اثنتين رمقاً من حياة. فأمر بنقلهما الى الطوافة التي أنزلت اليه شبكة من الحبال لرفعهما.

وحين شارفت الساعة التاسعة مساء كانت ثلاثون سيارة إسعاف في أوج عملها في ميناء زيبروغ وفي القاعدة البحرية. وكانت هناك أيضاً سبع وحدات طبية متنقلة شاركت جميعها في نقل ذوي الاصابات البالغة الى المستشفيات.

اما متطوعو الصليب الأحمر الذين هرعوا الى تلبية النداء فوقفوا متأهبين في فسحة الاستقبال على أحد الأرصفة الداخلية. وكانوا كلما وطئت قدم احد الناجين الأرض يبادرون الى اسعافه ويلفونه بالبطانيات ويقتادونه برفق الى سيارة اسعاف.

لكن عدد الناجين الذين نقلوا الى الشاطىء فاق التوقعات والتدابير المتخذة. وعندما أُعلم الحاكم فانيست بذلك لم يتردد في إصدار أوامره الى رجال الشرطة لكي يصادروا الحافلات المدنية ويخلوها من الركاب ويرسلوها الى مكان التجمع على الرصيف. وهو قال: "لا أظن أن أهل زيبروغ سيشتكون."

وكانوا عند حسن ظنه، فلم يشتكوا بل قدموا خدماتهم وساهموا في التصدي للكارثة بما أوتوا من مقدرة. واتصل مدير فندق "نوفوتيل" في بلدة بروج القريبة بمركز العمليات وعرض أن يستقبل الناجين في فندقه من دون مقابل. وبادر عدد من الافراد الى وضع سياراتهم الخاصة في تصرّف الاهل الذين يفتشون عن مفقودين ونقلوهم الى المستشفيات ومراكز الاستقبال. وتوجه عدد كبير من أهالي بلدة بروج الى مستشفى سان جان ليتبرعوا بالثياب وبالدم.

وبعيداً من الشاطىء تواصلت أضخم عملية انقاذ عرفتها القناة البريطانية (بحر المانش) في زمن السلم. أكثر من ٣٠ سفينة، بعضها عائد الى البحرية البلجيكية والهولندية والبريطانية والالمانية الغربية، راحت تجوب البحر بحثاً عن ناجين، فيما نزل غطاسوها الى المعدّية المنكوبة. وانضمت الى الاسطول الجوي المتنامي اربع مروحيات من البحرية البريطانية.

في التاسعة مساء وصل خبر الحادث الى الباخرة "هورويرث" وهي كاسحة الغام بريطانية كانت راسية في أوستند. وللحال أرسل قبطانها الغطاس الوحيد على متنها البحار ايمون فولن مع كامل عدّته، وكان بحاراً شجاعاً في التاسعة عشرة من عمره. وعندما وصل الى الباخرة المنكوبة كان الأول بين ٤٢ غطاساً بريطانياً نزلوا الى المعدية "هيرالد" تلك الليلة.

عالقون في الأسفل

بعد لقائه مارك ستانلي توجه عريف الملاحين تيري ايلنغ الى منصة القيادة في الجناح الايمن بحثاً عن ناجين في غرفة الدفة. وهو لم يجد سوى أربعة بينهم الضابطان سيبل ومورتر اللذان كانا في غرفة الطعام عندما بدأت السفينة تميل الى اليسار، وهما عادا جرياً الى غرفة الدفة، لكن الباخرة انقلبت عندما بلغاها. وأفاد سيبل الذي أصيب بجرح في ظهره، أنه شاهد القبطان يهوي عندما غمرت المياه ميسرة السفينة، وقد عثر عليه ايلنغ في الجهة اليسرى من غرفة الدفة يعاني إصابة بالغة وقد فقد كل حس بالمكان والزمان. وكانت المياه تجري ملتفة حوله كالدوامة. فطلب ايلنغ من نيكولاس ديلو الذي أُخرج لتوه من غرفة الطعام، ان يخرج القبطان من الباخرة قائلا: "إنه مصاب، وليس في

وسعه أن يؤدي أي عمل هنا." فما كان من ديلو إلا ان اقتاد القبطان خارجاً.

واذ تبين لايلنغ ان القبطان والضابطين مصابان، تولى بنفسه مسؤولية تنظيم عملية الانقاذ. فجمع فريقاً من الملاحين وعاد بهم الى الباخرة. وفي التاسعة والنصف مساء أذن لهم بالانصراف وحلّ مكانهم فريق انقاذ آخر.

نقل جميع الاحياء الى المستشفيات ومراكز استقبال المصابين. أما الضحايا فوضعت في مكان موقت على الشاطئ كي يتعرف عليها ذووها.

ولكن بقي في "هيرالد" اربعة أحياء تجمعوا في الطبقة «H». انهم سائقو شاحنات لم يدر أحد بوجودهم، حاصرتهم المياه القذرة وتاهوا في الممرات المعقدة التي كلما توغلوا فيها قادتهم الى المياه السوداء في الاسفل. وكان بريان غيبونز بين هؤلاء. وبدل أن تهدهده الباخرة لينام كما كان يأمل، قذفته من سريره بعنف. وأدرك بالغريزة أن خطراً يحوق به. وفيما هو يتناول ثيابه ليرتديها قذف مجدداً مسافة طويلة واستقر قرب الحاجز في ميسرة الباخرة.

انطفأت الانوار فزحف عائداً الى مقصورته التي استقرت على جنبها وأصبح بابها في السقف. رفعه كما لو كان باباً مسحوراً. لفّه ظلام حالك ولم يميز شيئاً حوله. سمع صوت المياه المتدافعة التي ما لبثت أن غطت "الارض" وراحت ترتفع حتى أغرقت قدميه الحافيتين وخدّرتهما ببرودتها. وبجهد بالغ شق طريقه صعوداً الى ممر آخر مرتفع عن الماء قليلا.

من مكان ما تحته تناهت اليه وسط الضجيج والقعقعة اصوات لهاث وأنين صادرة عن أشخاص يكافحون للخلاص، فناداهم. وهكذا تم الاتصال بينه وبين سائقي الشاحنات الثلاثة الآخرين جون كالدروود وروجر برومفيلد وثالث بقي اسمه مجهولا. وكان جون كالدروود نجح في التسلق الى مكان آمن لاذ به موقتاً. أما روجر برومفيلد فجرفته المياه المتدافعة. وكان الرجل المجهول الهوية يحاول التسلق الى حيث وقف غيبونز متشبثاً.

أخذتهم الحيرة وراحوا يحدقون في الظلام محاولين أن يميزوا ملامح بعضهم بعضاً. وانتشرت في الجو حولهم رائحة الوقود المنبعثة من العربات المحطمة في الطبقة الاعلى.

لاحظ الرجال الاربعة أن الباخرة سكنت وأن المياه توقفت عن الارتفاع. وارتأى غيبونز أنهم اما استقروا في قعر البحر واما داخل جيب هوائي. واقترح أن يصعد واحد أو إثنان منهم الى السطح بحثاً عمن يمكن أن يساعدهم.

لم يلق اقتراح غيبونز تجاوباً لدى برومفيلد الذي كان ينزف من جرح بالغ في قدمه ويرتجف برداً، ولا لدى كالدروود الذي أصيب بكسور في أضلعه. اخيراً تطوع الرجل الرابع فقال له غيبونز: "هيا بنا."

سار غيبونز في المقدم لا يرتدي سوى ثياب داخلية، فهو تخلّص من سرواله وحذائه لئلا يعوقاه في السباحة إن هو إضطر اليها. والى تلك اللحظة لم يكن شعر بالبرد. شق طريقه الى أعلى الممر حيث طالعه باب فولاذي فتحه واجتازه



عمال الانقاذ على الرصيف وسيارات الاسعاف تنتظر لنقل الضحايا الى المستشفيات

زحفاً. وجد نفسه في مكان داخلي من الباخرة مليء بالانابيب. تابع تقدمه متلمساً طريقه وهو يبحث عن مخرج.

بعد دقيقتين من توغله في تلك الممرات المسدودة تبين لغيبونز ان التقدم لن يجدي. وأعلن السائق الآخر عزمه على العودة الى المقصورة، فنصحه غيبونز: "هنا أفضل لك. في الاسفل ستشعر بالمياه تلعق قدميك."

إلا انه أصر على الرجوع، وكانت غلطة قاضية. وبعد نصف ساعة من غيابه، فيما غيبونز يتلمس طريقه بين الانابيب والحواجز بحثاً عن طريق تقوده الى أعلى، سمع سقوط جسم في الماء تبعته صرخة حادة رهيبة. فصرخ: "ماذا حصل؟"

أجابه كالدروود: "إنه الشاب الآخر! لقد سقط في الماء!" وظل صراخ الرجل يرن في أذني غيبونز الذي تابع طريقه باضطراب وقلق. فهو ما فتىء يبحث عن مخرج. ثم سمع صوتاً كالرعد آتياً من خارج الباخرة فأدرك للحال أنه صوت مروحية. فأرهف سمعه واستطاع تمييز أصوات بشرية تصرخ وتنادي.

غمرته موجة من الامل. لا بد من أنهم ينقذون أحداً. ضرب الحاجز الفولاذي بقبضته محدثاً صوتاً مكتوماً. وانتزع ساعته من معصمه وراح ينقر بها بدن السفينة محدثاً صوتاً واضحاً وإن ضعيفاً. ثم إنتقل الى أحد الانابيب ووجد أن النقر عليه يحدث صوتاً أفضل.

Photo: Photo — News / Gamma Liaison

عندما اندفع الرائد كوينبرغ من قاعة الاستراحة التي غمرتها المياه كانت الساعة الحادية عشرة والنصف ليلا. وفي العتمة الباردة وجد رجال الانقاذ منهمكين في نقل الاحياء الى الشاطىء فيما الاجساد الهامدة ممدّدة صفوفاً في بدن السفينة. ولاحظ بين الوجوه الساكنة وجهاً ظنّه مألوفاً فانحنى فوقه يتفحصه. كان وجه الفتاة الشقراء التي صبغ الدم شعرها وكانت أول من انتشل من القاعة.

شق عليه ذلك كثيراً، فمنظر الفتاة كان أقسى ما شاهده من مآسٍ تلك الليلة. انقبض صدره وأطبق عليه شعور باليأس والخيبة.

حطم رجال الانقاذ لوحاً كبيراً من الزجاج في المقصف. وكان فيليب ولسون وزوجته كريستينا وابنتهما انجلينا بين الناجين الذين نقلوا الى زوارق الانقاذ. نظروا حولهم يفتشون عن سابرينا. لكن سابرينا لم تكن على مرأى منهم. سألوا الناس عنها وأعطوهم اوصافها: طفلة في الشهر التاسع ترتدي بذلة زرقاء. وفي مركز الاستقبال على الشاطىء أعطوا لائحة بأسماء المستشفيات وأرقامها، لكن الاتصال الهاتفي تعذّر عليهم نظراً الى الضغط الهائل على الخطوط الذي أحدثه مئات الناجين الذين يبحثون عن أقربائهم المفقودين وألوف من ذوي الركاب في بريطانيا الذين سمعوا الخبر عبر الاذاعة والتلفزيون. ووصل آل ولسون الى حافة القنوط، فعرض عليهم طبيب محلي أن ينقلهم بسيارته في جولة على المستشفيات بعدما استشف اليأس والألم في أصواتهم.

وفي الثانية من صباح اليوم التالي وجدوا سابرينا في أحد مستشفيات بروج مستغرقة في نوم هنيء، وقد علقت على سريرها بطاقة حملت العبارة "الطفلة الرقم ٥" فهي لم تكن تحمل أوراق هوية.

نقلت سوزان هيمز الى فندق "نوفوتيل" حيث أمضت الليل في الردهة تنتظر خبراً ما عن روبرت. وهي لفّت نفسها ببطانية اتقاء للبرد. ومع انقضاء الوقت تعزز شكها بأن روبرت سالم. فهي راجعت جميع اللوائح وأجرت جميع الاتصالات الممكنة من دون جدوى. وأيقنت أخيراً أن ليس كل من أخرج من المركب نجا وأن بعض الجثث انتشلت وتعذر الوصول الى جثث كثيرة أخرى.

انصرم الليل وحلّ الصباح ثم انتصف النهار وسوزان لم تتلق بعد أي خبر عن خطيبها.

ثم رأت كلير في ردهة الانتظار تسير الى جانب والدتها التي حملت كريستوفر بين ذراعيها، وأفادتها الام أنهم في طريقهم الى المستشفى للقاء زوجها هناك. خاطبت سوزان الفتاة: "كيف حالك يا كلير؟"

"بخير." أجابتها الطفلة بأدب ولكن من دون أي اشارة تدل على معرفة سابقة.

آلم ذلك سوزان. لكنها وجدت ما يبرر تصرف كلير فقالت في نفسها: كان الظلام مخيماً، أو ربما هذه طريقتها لطرد صورة ما حدث من ذهنها. وراحت سوزان تبكي بلا انقطاع حتى المساء عندما وصل والدها وكان محققاً عسكرياً بريطانياً ومركزه في ألمانيا الغربية.

وما ان وقع نظره على ابنته حتى قال:

"حسناً انتهينا. إننا عائدان الان الى البيت." وهو عاد الى زيبروغ بعد يومين وعرض الجثث هناك وكان عددها نحو خمسين فلم يجد روبرت بينها. واخبر ابنته بذلك.

قال لابنته: "أصغي اليّ جيداً يا سوزان. لقد تحدثت مع شخص، وهو أراني خريطة المطعم وقال لي انه مغمور بتسعة أمتار من الماء بحيث يتعذر على الغطاسين الوصول اليه. هل تفهمين معنى كلامي؟"

"نعم يا أبي، فهمت."

"أشعر بالبرد"

وقف السائقان روجر برومفيلد وجون كالدروود عاجزين وقد أسقط في أيديهما فيما صراخ الرجل الرابع يدوّي في آذانهما. وشعرا بأنهما في مأمن وإن موقتاً. وهما كانا في ناحية من الممر لم تبلغها المياه فظلّت جافة.

في تلك الاثناء واصل غيبونز النقر على الانبوب بساعة يده بايقاع منتظم آملا أن يُعرف أن النقر صادر عن انسان وليس عن قطعة معدن متدلية.

كان غيبونز يؤمن بقدرة العقل على التحكم بالجسد. وهو أقنع نفسه بأنه لا يشعر بالبرد، ولم يحاول أن يحسب الوقت قبل ارتفاع المد ولا مدى ارتفاعه، لأنه سيكون كمن يعد ساعاته الاخيرة.

على أن تفكيره في زوجته شارون وأطفاله الخمسة شكّل الثغرة الأهم والاخطر في خط دفاعه العقلاني. فصورتهم لم تبرح خياله. ترى ماذا سيحل بهم؟ وشارون كيف ستتدبر امورها إن هو غاب؟ وماذا كان يفعل في ذلك المكان البارد المظلم؟ هل كُتب له أن يموت فيه؟

أخذ نفساً عميقاً وعاد ينقر.

وفي مكان ما في عمق المركب التقط أحد الغطاسين الصوت. ولا شك في أن ذلك الغطاس الذي ظل اسمه مجهولا من غيبونز، لم يكن ليعير الصوت أي انتباه لو لم يأت في ايقاع منتظم. وردّ الغطاس بنقر مماثل.

وقع صوت النقر على غيبونز كصدمة كهربائية. وهو خشي أن يكون ما سمعه من نسج خياله المحموم فراح ينقر مجدداً. هذه المرة أتاه الرد أوضح وأقرب. عندئذ صرخ: "انهم يعلمون أننا هنا! إنهم قادمون لنجدتنا!"

كان مضى على غيبونز نحو ست ساعات وهو واقف محدودباً داخل ذلك الممر المغلّف بالفولاذ. أطلق صفيراً وردّ عليه أحدهم بصفير مماثل. صرخ بأعلى صوته: "مرحباً." واتاه الرد مخترقاً الظلام: "مرحباً!"

ثم سمع برومفيلد يصرخ: "مقصورات السائقين! مقصورات السائقين!" وفي مكان قريب كان ايمون فولن، الغطاس ابن التاسعة عشرة، يشق طريقه سباحة عبر بدن السفينة وقد مضت عليه ساعتان داخل المركب المقلوب. وقضت التعليمات التي تلقاها هو وسائر الغطاسين أن يبحثوا عن أحياء. إلا انهم ايقنوا أنه لم يعد هناك أحياء، فهم لم يعثروا منذ بعض الوقت على سوى جثث لركاب قضوا غرقاً. وكانوا كلما وجدوا جثة ربطوها بالحبال ورفعوها الى خارج المركب. ولم يكن عملهم ممتعاً.

في الثانية صباحاً سمع فولن صراخاً فنادى غطاساً آخر: "هناك أحياء في الداخل!"

عاد غيبونز الى باب الممر، فطالعته أضواء ووجوه ارتسمت عليها أمارات الفرح التي لم يكن يضاهيها إلا الفرح الذي غمر قلبه.

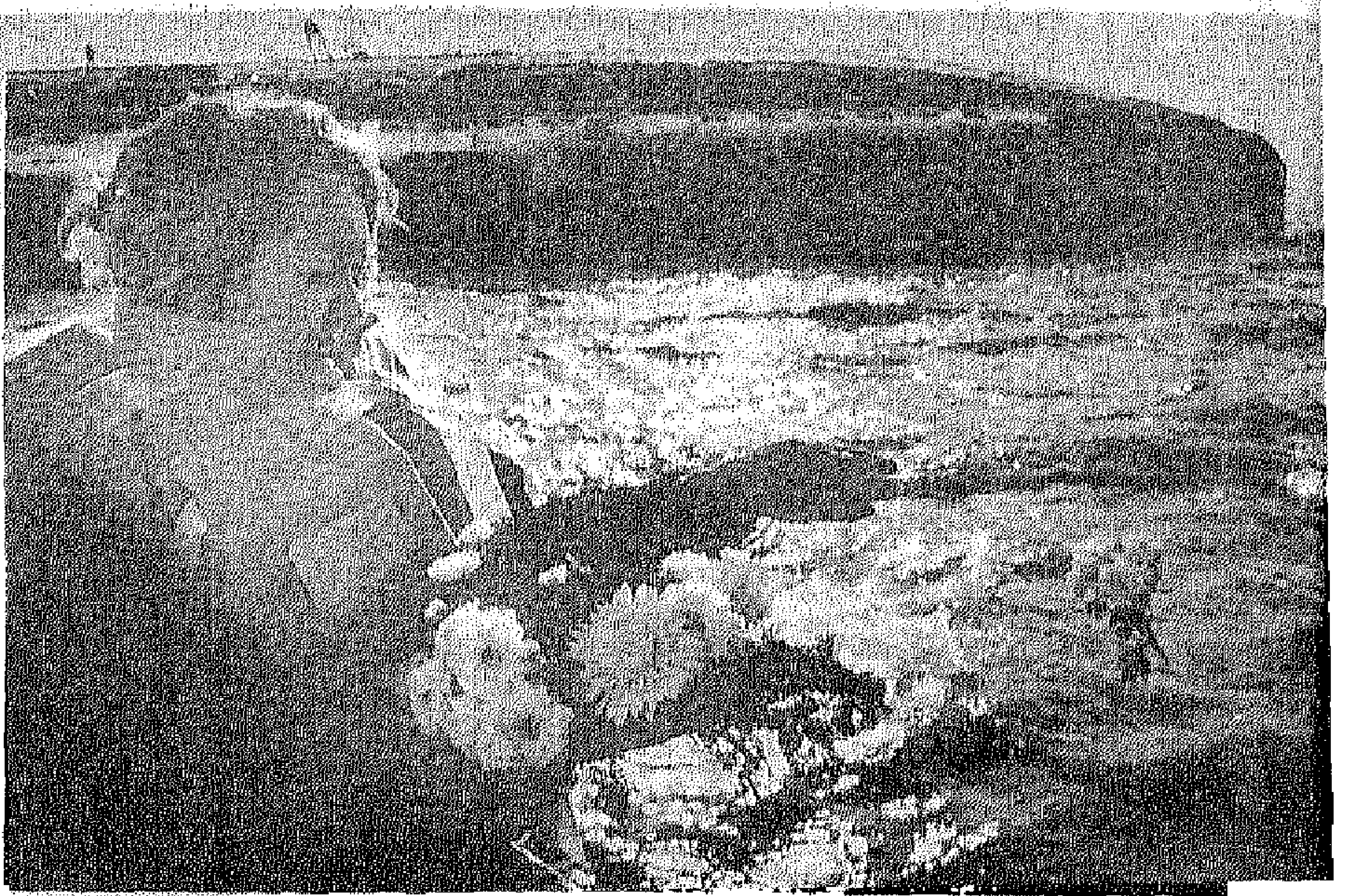
سأله أحدهم: "هل انت على ما يرام؟" فاعترف: "أشعر بالبرد."

على السفينة أحياء ينقذون." وما ان تفوّه بهذه الكلمات حتى اختنق صوته بالعبرات فأحنى رأسه وتوقف عن الكلام.

بعد ظهر ذلك اليوم حلقت طائرة مروحية بلجيكية فوق الباخرة المهجورة ثم هبطت في مركز قيادة العمليات ونزلت منها رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر للاطلاع على تفاصيل الحادث وظروفه. وهي خاطبت الصحافيين الذين تجمعوا هناك: "كانت ليلة كرب بالنسبة الى الجميع، لكنها أيضاً ليلة تجلّت فيها الشجاعة والاقدام والاحتراف والاهتمام الصادق."

ثم توجهت بالشكر الى رئيس الوزراء البلجيكي ويلفرد مارتنز الذي جلس الى جانبها متجلداً على رغم الحزن الذي بدا عليه، وعبّرت له عن امتنان الشعب البريطاني للجهود الباسلة التي بذلها ابناء بلاده لانقاذ الضحايا ومساعدتها.

بلغ عدد الذين قضوا في حادث تحطّم المعدية "هيرالد أوف فري إنتربرايز" ١٩٠ رجلا وامرأة وطفلا بمن فيهم ٣٨ من أفراد طاقم الملاحين. وخلّفت وفاة هؤلاء الحزن والانفطار في بيوت كثيرة في بريطانيا وبلجيكا. كما أن بعض الناجين مُنوا بخسائر مدمرة لا تعوّض:



"أرقدوا بسلام"

السابعة والنصف من الصباح التالي، وكان يوم سبت، عقد القائد الاقليمي جاك ثاس مؤتمراً صحافياً لخص فيه عملية الانقاذ. قال إن سائقي الشاحنات الثلاثة كانوا آخر الناجين، وإن المد المرتفع جعل السفينة متقلقلة مما حمله على اصدار أوامره الى الغطاسين بالتوقف عن البحث. وأضاف بغصّة: "أصبح التفتيش محفوفاً بالخطر، ولا مبرر لان يعرض الغطاسون حياتهم للخطر وليس

Photo: Etienne Werner / UPI — Reuters / Bettmann Newsphotos

□ كيري سميث طفلة في الخامسة من عمرها فقدت عائلتها كلها: أمها وأباها وأخاها الطفل.

□ مارتن هارتلي صبي في الثامنة فقد أبويه وجدّيه ولم يبق له أقارب سوى شقيقه وعمتين.

□ جورج لامي ساعي بريد من لندن فقد أربعة أجيال من عائلته: والدته وزوجته وابنته وحفيده.

بعد خمسة أيام، وكان يوم أربعاء، جاء عدد من أقرباء الضحايا وبعض الناجين في رحلة وداعية الى الباخرة المنكوبة. وهم توجهوا الى الموقع على متن زورق القطر البلجيكي "المحارب". وهناك، أمام الهيكل الحزين الذي عرف العزّ يوماً، وقف أفراد طاقم الانقاذ بتأهب والجميع صامتون فيما زورق القطر يدور حولها. ثم تليت صلوات وألقي الزهر تخليداً لذكرى الضحايا: "الى أبنائنا وبناتنا، أزواجنا وآبائنا، أمهاتنا وزوجاتنا، لكم أصدق مشاعرنا، ولترقدوا في سلام ومحبة."

وستبقى ذكريات زيبروغ حيّة في مخيلات أناس كثيرين.

سوزان هيمز وصفت الحادث كنهاية فصل من حياتها، وأضافت: "كل ما أبغيه هو إخراج روبرت من الماء وإرقاده بسلام. عندئذ فقط يمكنني أن أواجه الحياة." لكن وحتى بعد انتشال جثة روبرت هيرد ودفنها في كوفنتري في ١٦ ابريل (نيسان) ١٩٨٧ اعترفت سوزان بأن الفصل التالي من حياتها لم يبدأ: "هناك أيام أفضل من سواها. لكنني أفتقد روبرت الآن أكثر من أي وقت مضى. والالم لم يبرح فؤادي."

العاشرة والنصف من صباح ٢٧ ابريل (نيسان) قُطرت المعدية "هيرالد" الى ميناء زيبروغ وبوشر التحقيق في أسباب الكارثة.

وتبين لاحقاً أن المسؤولية كبيرة وللجميع حصة منها: مارك ستانلي الذي لم يغلق الابواب الامامية، والضابط الأول سيبل الذي لم يتحقق من إغلاقها، والقبطان لوري الذي لم يكن جائزاً أن يعطي الامر بالابحار ما لم يتأكد من إغلاق الابواب.

أما أقسى الاتهامات فوجّهت الى شركة "تاونسند ثورسن" التي وصف التقرير ادارتها بأنها "موبوءة بمرض الاهمال."

ولم تنجُ المعدّيات الحديثة من الانتقاد. فالتصميم الذي جعلها تحقق نجاحاً تجارياً باهراً هو نفسه الذي يعرضها لما يسميه المهندسون "التزعزع السطحي" الناتج من وجود مساحات كبيرة مفتوحة وبلا عوائق. فعندما تتدفق ألوف الاطنان من المياه الى تلك المساحات تتجمع في جانب واحد من السفينة وتميلها كدمية في حوض استحمام، وعندئذ تنقلب.

وكان من نتيجة الحادث أن وضعت أنظمة جديدة لضمان سلامة السفن، كما يُدرس إمكان إجراء تغييرات تتناول التصميم. فنأمل أن تكون المأساة درساً لاستخراج العبر وتضييق الهوّة بين ثقة الانسان العارمة بمهارته التقنية ومطالب البحر التي لا ترحم.

لورنس إليوت

ترجمة الدكتورة باسمة سكرية عيد

كتاب الشهر

بقلم

ميرندا وروبرت رصل



أيها العالم ما أجملك!

بدأت مأساتنا في ربيع ١٩٨٥ وقد مضت على زواجنا ثلاث سنوات. وكنا مقيمين في بوسطن بولاية مساتشوستس، وكان بيل يعمل في التجارة، وفي أوقات فراغه يصمم قطع أثاث ويصنعها. لم ننجب أولاداً في بادئ الامر ريثما تتحسن أحوالنا المادية فنتمكن من تأمين عيش لائق لهم. الا أننا ربينا قطتين.



وكنت في منتصف سنتي الاولى أدرّس الفن في المدرسة الثانوية، وكان ذلك أول عهدي بساعات التعليم الطويلة المضنية والتوتر الدائم. وقد اعتدت حديث والديّ في هذا الشأن، وهما أستاذان جامعيان. لكن الوهن أخذ ينال مني.

بدأت أشعر بالصداع. وكلما ذكرت ذلك لزميلاتي في التعليم ابتسمن كمن يعرف السبب وقلن لي ان هذا هو تماماً ما أصابهن في سنوات التعليم الاولى. غير أن ذلك لم يطمئنّي كثيراً. كنت أحس الالم يبدأ في قفا رأسي كأنه ينبعث من داخل عظم الجمجمة. ولم تُجدِ المسكنات كالاسبيرين والتايلينول لانني كنت كمن يتناول حبوب سكاكر.

كنت حين ينتابني الصداع في المدرسة أقبض يدي بشدة وأركز على كل عبارة وأصلّي لكي لا أنفجر غضباً لدى طرح

Illustrations: Rick McCollum

أبسط الاسئلة علي، وفي نهاية النهار أذهب الى الموقف وأجلس في سيارتي في انتظار أن يخف الالم فأتمكن من القيادة الى البيت.

عاد بيل في احدى الامسيات فوجدني منهارة في الاريكة غارقة في دموعي تحت وطأة الالم، فقال: "ان هذا الامر لخطير ويستدعي طلب مساعدة."

استشرنا الأطباء واحداً بعد آخر الى أن باتت أسماؤهم تملأ قائمة طويلة، فمنهم من قال لي: "امتنعي عن تناول القهوة،" ومنهم من قال: "تناولي هذه الحبوب أربع مرات في اليوم،" وآخر سألني: "هل أنت سعيدة بزواجك؟"

وفيما اختلفت وصفاتهم وتعددت فانهم أجمعوا على أن فحوصهم الدقيقة لم تكشف أي شيء يثير المخاوف.

مرّ شهر ابريل (نيسان) وتبعه مايو (أيار) فاذا باوجاعي تزداد سوءاً من دون أن يكون هناك أي مسكّن لها. وما ان يسعدني الحظ فأغفو قليلاً حتى يوقظني ألم مبرح في كتفي اليسرى أشعر معه كأن هناك ما يسحن العظم في الداخل، ثم ينساب الالم نزولاً الى الذراع ومن ثمّ الى المرفق. فأقول في نفسي ربّما كنت على وشك أن أفقد عقلي.

وفي هدأة الليل كان بيل يقرأ لي أو يفرك ظهري أو يروي لي قصصاً الى أن يغلبه الارهاق فينام. عندئذ أجاهد لكي أرقد بلا حراك لئلا أوقظه، لكنني لم أكن لاستطيع ذلك فأنسلّ من فراشي وأجول في البيت محاولة خنق تنهدي وبكائي.

انتهت السنة الدراسية في يونيو (حزيران) فوددت لو أن لي القدرة أن أهتف جذلة. قال لي بيل: "ان ما نحتاج اليه كلانا هو الذهاب في عطلة." فزرنا والديه لقضاء عطلة نهاية الاسبوع في كوخ استأجراه. كان اليوم الاول على أتم ما حلمنا به، اذ نمت الليل بطوله. ربما كان بيل على صواب.

ولكن لا، لقد خاب فألنا. ففي صباح اليوم التالي أخذ الالم المبرّح يخترق عظامي متنقلا في جسدي، وبذلت وسعي كي أكبت دموعي التي كاد الالم أن يفجرها خوفاً من أن أفسد العطلة على بيل ووالديه. كانت تلك الاوجاع شبحاً يخيفني ويدفعني الى العزلة والابتعاد عن هؤلاء الاشخاص الذين أعيش بينهم ويغمرونني بعطفهم.

مخاوف وأوهام

رقدت قليلاً تلك الليلة ولزمت الهدوء الى أن أغفى بيل فانسللت خارج المنزل ومشيت في ظلمة الليل الى حقل مجاور والعشب الندي يدغدغ قدمي، ورفعت نظري الى السماء المرصعة بالنجوم. فرجعت بي الذكرى الى سنوات خلت حين كنت أحلم بلقاء أمير أحلامي والعيش حياة هنيئة رغدة. وها أنا الآن أقف حافية في ثياب النوم، وحيدة أستلهم لمسة سحرية من الليل، من هواء الصيف المنعش، من النجوم، لمسة تبعث فيّ الثقة، شيئاً ما يطمئنني: لا داعي الى الخوف، سيكون كل شيء على ما يرام. فانتظرت، وصلّيت، لكنني لم أحظ بتلك اللمسة.

صباح اليوم التالي لرجوعنا الى بوسطن رتب لي بيل موعداً مع طبيب بارز

للامراض العصبية، هو الدكتور ريتشارد تايلر في مستشفى بريغام للامراض النسائية في بوسطن. ذهبت بمفردي لأن بيل كان مشغولا. وفي الطريق الى عيادة الطبيب كان علي أن أمشي مسافة قصيرة بعدما أودعت سيارتي الموقف، فاضطررت الى التوقف ثلاث مرات لكي أرتاح بسبب اعيائي الشديد. وتجلّت حالتي اليائسة للطبيب فور وصولي، فسألته متلهفة عما أشكو. أجابني بلطف: "لست متأكداً، لكنني لا أعتقد أنه مرض عصبي. حسناً فعلت بمجيئك الى هنا. انه المكان الصحيح لك وسنساعدك."

أجريت لي سلسلة من الفحوص باشراف طبيب شاب متمرن، وراحت ممرضات مرحات يأخذن العينات الواحدة بعد الاخرى. ونصحني الدكتور تايلر بالبقاء في المستشفى لاجراء مزيد من الفحوص الضرورية في اليوم التالي.

اتصلت ببيل وأخبرته، فأتى ومعه فرشاة أسناني وقميص نومي، وقد بدا شاحباً قلقاً. وكان أن جاء طبيب آخر لاجراء فحوص اضافية، فالتفت الى بيل وقال له: "سيكون يومها حافلاً غداً، فيجب أن ترتاح جيداً. لذلك أرى من الافضل لها أن تتركها وتذهب الى البيت."

غادرني بيل وهو مضطرب الاعصاب. أما أنا فسيطر عليّ الخوف. وبعد أخذ مزيد من عينات الدم دخل الطبيب ووقف الى جانب سريري ووضع يده على كتفي وقال لي: "يجب أن تتشدّدي، اذ ربما اضطررنا غداً الى استخراج عينة من السائل الشوكي في العمود الفقري واجراء فحص مجهري لنقي العظم(١)، انما هذا يتوقف على النتائج التي تظهرها الفحوص."

قلت في نفسي: ولماذا يجب أن أتشدد؟ ما الذي يحاولون اخفاءه عني؟ هل هناك بعد ما هو أسوأ مما أنا فيه؟ ان صدري يؤلمني وأكاد أعجز عن التنفس.

ورحت أبكي، لخوفي من كل شيء.

ثم جاء الطبيب والممرضة فهدّأا من روعي وأعطياني حبوباً مسكنة لم تزدني الا قلقاً. وبعدما انصرفا نهضت أتمشى في الاروقة الخالية، متنصتة لعلها تتناهى الى سمعي تحركات ذلك الوحش الذي أعلم أنه كامن في داخلي. فلم أسمع سوى أصوات جرّ الاقدام والهمسات الخافتة وأنات المرضى تتردد في الممرات التي يغلفها السكون. لكنني كنت متيقنة أن الوحش هناك متربص في المنعطف التالي ويداه مبسوطتان لضمّي اليه. وخيّل الي أنني في أي لحظة سأحس سعير أنفاسه يلفح وجهي ويديه اللزجتين تطبقان علي. كانت تلك أسوأ ليلة مرت علي... الى ذلك التاريخ.

طلعت الشمس في اليوم التالي فبددت أشباح الظلام. وعجبت اذ وجدتني أفيض بهجة وحبوراً بدلاً من أن أشعر بالانقباض والارهاب. وتملكتني نشوة غريبة من الثقة والطمأنينة. فرأيت نفسي بعد أشهر طويلة من القلق والمعاناة قد اتخذت قراراً جازماً: فها قد دخلت المستشفى، وأنا الآن في هذا السرير أنتظر بلهفة ما ستسفر عنه الفحوص. واليوم، ٩ أغسطس (آب) ١٩٨٥، سيكون يوماً حسن الطالع. ولم لا؟

(١) النقي (marrow) هو مخ العظم.

انه يوم جميل! سيأتي الاطباء بعد الفطور ويطلعونني على ما ظهر في التحاليل ويحددون مرضي ويزودونني وصفاتهم ويطمئنونني وينصحونني بألا أقلق. ومن ثم أغادر المستشفى الى البيت.

ولكن ما ان جاء طبيبان بالنتيجة بعد الفطور حتى تبددت أحلام اليقظة. فبدلاً من أن يتمنيا لي شفاء عاجلاً ويرسلاني الى البيت، أبلغاني أنهما سيسحبان عينة من النقي لفحصها مجهرياً، وأنهما سيفحصان أيضاً عينة من السائل الشوكي. ولم تخفّ عنهما خيبتي.

سألني أحدهما: "ألم يخبرك أحد أنك ستخضعين اليوم لعملية سحب النقي؟"

أجبت بصوت خافت: "أظن أنني نسيت ذلك، ولكن هذا الفحص كان يتحتم اجراؤه في حال أظهرت التحاليل..." وعجزت عن اكمال الجملة.

فرد الطبيب الآخر: "لقد صح ما توقعناه، فالتحاليل تشير الى ضرورة فحص النقي كخطوة لاحقة."

وسألت: "ما هي عملية فحص النقي؟"

فشرحا لي: "سنغرز ابرة في العظم الحوضي لاستئصال عينة من النقي. انها ليست بالعملية السهلة، لكننا سنحاول أن نخفف عنك الالم ما أمكن."

أطبقتُ أسناني بشدّة وانكمشتُ متوتّرة. ثم شعرت بوخز الابرة ومعها مخدر موضعي. وبعد نحو دقيقتين باشر الاطباء عملهم بتحريك الابرة دائرياً، وكنت أحس بكل حركة لتلك الابرة الكبيرة وأسمع صوت احتكاكها داخل عظمي.

وشعرت، على رغم المخدر، كأن هناك سيّافاً يطعنني ويحز عظمي بسيف غير مرهف الحدّين.

غرز الطبيب الابرة حتى العمق في عظمة الحوض المجوّفة، وأخذ يسحب النقي من الداخل. لم أكن أتوقع أن أعاني أوجاعاً بتلك الشدة، فأخرجت يديّ من تحت المخدة وأطبقت بهما على فمي لتفادي الصراخ، ورحت أهمس للمخدة تهديدات أتوعد بها الاطباء بالويل والثبور وبمعاملتهم بمثل عملهم.

سأل أحد الاطباء رفيقه عن سير العملية فأجابه: "سننتهي بعد بضع دقائق."

فصرخت: "دقائق! دقائق!" وخنقت الوسادة صراخي وانسكبت عليها دموعي الساخنة. ثم شعرت بيد تربّت كتفي بلطف وسمعت صوتاً هادئاً يقول لي: "سمِّنا ما شئت، لو كنت في وضعك لفعلت الامر ذاته."

لم أكفّ عن الصراخ. وتابع الطبيب الحفر الى أن انتهى، فنزع الابرة.

قال لي: "لقد كنت عظيمة، وعليك أن تأخذي قسطاً من الراحة قبل فحص السائل الشوكي. أعدك بألا يكون الالم شديداً."

حاولت تحصين ذاتي والاختباء في زاوية في عمق أعماقي، لكن الاطباء والممرضات عادوا ومعهم ابر أخرى. حاولوا أن يخففوا عني الالم، ولكن هيهات، وطعن العمود الفقري بالابر هو الالم عينه. شعرت بأني منهكة. وبعد انصرافهم كان الارهاق بلغ مني الذروة فنمت طويلاً ولم أعد أعي شيئاً، الى أن

استيقظت لاجد الممرضة قد أتت بطبق الطعام. نظرت اليه ولم أدر ماذا أصنع به. واذا بمعذبيَّ يدخلون غرفتي ومعهم مساعدان.

وقف طبيب شاب أسود الشعر الى جانب سريري وقال لي: "لقد تلقينا النتائج."

نظرت اليه مستطلعة ولم أجرؤ على السؤال.

أخبرني أن النتيجة لم تكن حسنة. وبعد صمت قصير أضاف: "أنت مصابة باللوكيميا (٢)." صعقت للنبأ وبدا كأنه سهم يخترق صدري. وقلت في نفسي: اذاً هذا هو اسم ذلك الوحش الذي يتربص به.

ثم قال الطبيب: "انه مرض خطير. يولّد النقي خلايا الدم البيضاء والحمراء واللويحات. وهذه الخلايا تتلف باستمرار، ويجب صنع خلايا بديلة، والنقي هو المصنع الذي ينتج الخلايا البديلة. ويحدث أحياناً أن يصاب المصنع بخلل فيأخذ في توليد كميات كبيرة من الخلايا البيضاء وقليل من الخلايا الحمراء. وهذا هو سبب ضعفك الشديد، اذ لم تكن لديك الخلايا الحمراء الكافية لنقل الاوكسيجين الضروري الى الجسم. والانتاج المفرط للخلايا البيضاء زاد الضغط على العظام من الداخل، مما سبب لك الصداع والالم في الكتفين."

فسألت عندذاك: "اذاً ما العمل؟"

أجاب الطبيب: "آه، حسناً، سنباشر العلاج منذ اليوم، وستشعرين بتحسن سريعاً."

قلت: "وهل هذا يعني أني سأشفى؟"

فهز رأسه قائلا: "ان تلك الاوجاع ليست سوى مؤشرات. فالمرض أكثر تعقيداً، ولكن علينا أن نكون شاكرين لما نقدر عليه. هل زوجك آت لرؤيتك قريباً؟"

قلت: "سيأتي بعد الظهر ليأخذني الى البيت."

قال: "أخشى ألا يكون هذا ممكناً، ولكن سيكون لنا حديث معه. ولا تقلقي، لانك ستحتاجين الى كامل قوتك." ثم انصرفوا جميعهم بوقار.

أحسست بخدر يسري في عروقي وبدوار في رأسي. كنت كمن فقد حسه ودخل غيبوبة نفسية. جاء بيل فوجدني شاحبة وقد صدمني النبأ، فكنت أحاول عبثاً كفكفة دموعي المنهمرة. فقال لي والعبرات تكاد تخنقه: "لقد أخبروني، وأراني مذنباً بحقك لانني حسبتك ستتغلبين على أوجاعك وتستعيدين عافيتك. وها قد بانت فداحة خطأي. انني آسف جداً."

قلت له: "لا، لم تكن مذنباً أو مخطئاً، انما أنا كنت قاسية عليك. فأنى لك أو لسواك أن تعرفوا الحقيقة المخيفة؟"

انحنى بيل وقبلني مطمئناً فامتزجت دموعنا. وقال: "انها معركتنا نحن الاثنين، وسينتهي كل شيء على ما يرام، لست أدري كيف، لكنني أعرف أننا سننجح وستتم لنا الغلبة."

كان أبي وأمي يقضيان فصل الصيف في جزيرتنا في سان لورنس بكندا. ووصل أخي مارك الى هناك مع عروسه نانسي لتمضية عطلتهما، وتبعهما أخي جايمس

(٢) اللوكيميا أو ابيضاض الدم نوع من السرطان.

قادماً من واشنطن. وكانوا كلهم على علم بالصداع الذي أشكو منه، لكنهم لم يعرفوا السبب الى أن اتصلت بهم. فحمّلوا أمتعتهم في سيارة وجاؤوا الى بوسطن قاطعين مسافة ٦٥٠ كيلومتراً.

أقبل علي أفراد العائلة جميعهم، باستثناء أخي ريتشارد الذي كان يعيش في أوستراليا. كانوا قلقين على مصيري، فمنهم من بكى فيما حاول الآخرون حبس دموعهم. واتضح لي فجأة أنني أنا مصدر حزن العائلة كلها. لكنني اكتشفت من خلال حزنهم مبلغ محبتهم وعطفهم. كانوا يخشون علي من الموت أكثر مما كنت أخشاه أنا. ورأيت أن محبتهم لي ألقت علي مسؤولية تحفزني على أن أتعافى وأبقى قيد الحياة.

دخل الاطباء، وأفراد عائلتي متحلقون حولي. فشرح لنا أحدهم أن لوكيميا الكريات اللنفاوية الحادة(٣) التي أنا مصابة بها خطيرة جداً. وقد خطا العلم خطوات كبيرة متقدمة في معالجة اللوكيميا لدى الاولاد، وكانت النتائج حسنة بحيث بلغت نسبة النجاح ٨٥ في المئة وربما أكثر، بعدما كانت كلمة "لوكيميا" الى عهد قريب تعني حكماً بالموت. ولكن، لسوء الحظ، لم تكن هناك خطوات مماثلة في معالجة البالغين الذين تندر اصابتهم بلوكيميا الكريات اللنفاوية الحادة.

فكم كانت نسبة حظي في البقاء قيد الحياة؟ ذلك كان السؤال الخطير الذي جال في خاطر كل منا ولم يجرؤ أحد على طرحه. أدرك الطبيب ما أردنا معرفته فشرح لنا أن مرضي نادر جداً ولكل حالة منه ميزة خاصة، وليس هناك سوى أساس واه للتكهن بتطوره. كان ذلك كلاماً لطيفاً كيّساً صيغ بلغة غير جازمة قابلة للتأويل مفادها أنه غير متيقن من مصيري: أأعيش أم أموت؟

سيباشرون معالجتي ذلك المساء بحقنة وريدية بمقدار من الـ "أدرياميسين" الذي يلقب "الشيطان الاحمر" بسبب لونه وقوته، وتكفي نقطة

(٣) Acute lymphocytic leukemia



منه على الجلد لكي تخترق طريقها وصولاً الى العظم. أما لماذا لا يتلف الاوردة التي يحقن ضمنها فلم يفدنا أحد بهذا الامر. انه بدء الهجوم الكبير: الحرب الكيميائية ضد الخلايا السرطانية في مجرى دمي.

وما هو الا يوم أو يومان وأعود الى البيت وأتبع نظاماً أتناول بموجبه عقاقير مختلفة. عيّن الاطباء بدقة جميع الاعراض الجانبية التي يحتمل أن تترافق وتناول العقاقير. كان هناك عدد لا يحصى من تلك الاعراض الجانبية، وكل منها خطر ومخيف. وعلي أن أخضع أسبوعياً للفحوص والحقن بالابر في عيادة أمراض الدم. واذا تمكن الاطباء من الوصول بمعالجتي الى حد لا يبقى فيه اي مؤشر على وجود المرض، فسأكون أصبحت في طور الخمود(٤) أي خفة حدة المرض.

واذا استطعت العودة، وإن الى تلك الحالة الغامضة، فستكون خطوة جبارة في الطريق الى... الى ماذا؟ الشفاء؟ الحياة الطبيعية؟ ان الاطباء لا يسمّون الحالة التي قد أعود اليها. لكن بلوغي مرحلة الخمود يعني أننا ربحنا الجولة الاولى في المعركة. ولكن من المحتمل أن يكون العدو تسلّل الى عمودي الفقري أو الى دماغي حيث يكمن ريثما تهدأ الامور ثم يعود الى الظهور. واذا أسعدني الحظ في بلوغ الخمود، فيجب مهاجمة المرض في مخبأه، ويعني ذلك معالجة الجمجمة بالاشعة، تتبعها سنتان من المعالجة بالادوية التي تؤخذ من طريق الفم وحقناً ضمن الاوردة، هذا اذا لم تلمّ بي انتكاسة في تلك الاثناء، والانتكاسات كثيرة الحدوث.

شعرت بالاحباط. وتساءلت: هل قدر لرأسي أن يشوى في لهب الاشعة؟

صحوت الى نفسي وتبصّرت في ما آلت اليه حالي فوجدت أني فقدت السيطرة على حياتي وأصبحت ضحية لا حول لها ولا قوة. ولكن لا، لن أذعن، فهناك دائماً خيارات، منها أن أدير ظهري لكل هذه التدابير الوقائية وأغادر المستشفى متأبطة ذراع بيل وأعود الى ممارسة عملي وأحقق كل أمانيّ وأحلامي. ثم، من يهتم؟ لكن هذا ليس بالتفكير الصحيح، اذ ان هناك أناساً دأبهم الاهتمام الشديد بما أعانيه والغيرة عليّ. ربما كتب لي أن يحجبني الموت باكراً، ولكن لا يسعني أن أختار طوعاً هذا المصير ما دامت هناك خيارات بديلة.

عينت الساعة الثامنة مساء موعداً لحقني بالادرياميسين. فاجتمع الكل حول سريري صامتين مترقبين، وبدوت كنجمة مسرح في ليلة افتتاح.

دخل طبيبان ومعهما عدة العملية. وكنت أعطيت كمية مكثفة من المسكنات. فتراجع أفراد عائلتي حتى التصقت ظهورهم بالحائط. وتقدم بيل وأمسك بيدي وقال لي: "سأبقى معك هنا الى أن تنتهي العملية."

استيقظت في الصباح التالي فوجدت بيل يغط في نومه الى جانب سريري وهو لا يزال ممسكاً بيدي. وكنت نمت طوال الليل فتخطيت أشدّ الاوجاع التي يسببها "الشيطان الاحمر." لم أشعر بالصداع أو

(٤) Remission

بأي آلام أخرى، بل بسلام داخلي يغمر كياني.

غادرت المستشفى بعد بضعة أيام عائدة الى البيت. ورجع أبي وشقيقاي جايمس ومارك مع زوجته الى الكوخ الصيفي في كندا، وبقيت أمي معي مدة أسبوعين لتساعدني في ترتيب أموري. بعدما انصرفت أمي أقامت معي صديقة طفولتي ماري أسبوعاً، فكانت تجبرني على لزوم فراشي وتحشو الثلاجة بالاطعمة التي يسهل طهوها في الفرن وتفعل كل ما يدخل البهجة الى نفسي.

ذاع نبأ مرضي الخطير فتدفقت علي الاتصالات الهاتفية والرسائل التي تحمل وصفات من أناس أحبوا ان يساعدوني. فمنهم من نصحني بأن أصبح نباتية فلا أتناول سوى الخضر والحبوب والفاكهة، ومنهم من أشار عليّ بمزاولة التأمل والاستغراق في التفكر، وأشار آخرون بالغناء لفترات معينة في اليوم.

واشتكيت من الوضع المزعج الى أحد الاطباء، فقال لي: "كثيرون من الناس يجدون راحة وعزاء في هذا الاهتمام الذي يغدقه عليهم الآخرون، فلا تقللي من أهميته."

أما المسؤولون في مدرستي فتعاطفوا معي حين أطلعتهم على وضعي وطبيعة مرضي، وقبلوا أن أعود الى التعليم بعد أن أتعافى تماماً. في تلك الاثناء تابعت زياراتي للعيادة بانتظام. وكان الطبيب الشاب دوغلاس تايك، المكلف العناية بي، رائعاً في غاية اللطف يبعث الامل والطمأنينة في نفوس مرضاه ويبدد مخاوفهم.

كانت الحقن وفحوص النقي والسائل الشوكي تجرى لي بانتظام. كنت أشدّ شعري من حين الى آخر لكي أطمئن الى أنه لا يزال في مكانه، فقد حذرت من أنه مهدد بالسقوط. ثم أخضعت للمعالجة بالـ"ستيرويد" مما أيقظ فيّ نهماً شديداً، وسررت لمعاودتي التلذذ بالطعام. لكن الستيرويد حمل جسمي على الاحتفاظ بالسوائل فنتج من ذلك انتفاخ وجهي ومعدتي انتفاخاً كبيراً.

وبنتيجة تناولي عقار "فينكريستين" كنت أفقد الاحساس برؤوس أصابع يديّ وقدميّ. وعلى رغم الاعراض الجانبية التي ترافقه، أصر الاطباء على أن أتناوله لكونه عنصراً رئيسياً في المعالجة. واستمرت الحال على هذا المنوال وأنا أنتظر. لكن الاطباء لم يعرفوا كم سيطول الانتظار.

كان ذلك بعضاً من مشاكلي التي شاركني بيل في تحملها، الى ما هنالك من مشاكل خاصة به، ومنها النهوض باكراً للوصول الى عمله في السابعة صباحاً. وأذن له رئيسه بأن يغادر عمله حين يصطحبني الى العيادة أو يضطر الى مساعدتي في مئات الامور التي أفتقر فيها الى مساعدة. ولكي يعوّض الوقت الذي ضيعه كان يشتغل في محل النجارة الذي يملكه الى منتصف الليل أحياناً. ولم يشتكِ ولم يتذمّر. أما أنا فكنت أرى أن في وسعي تحمّل مأساتي برحابة أكبر لو أنها لا تعقد حياة كثيرين أحبهم.

وأظهرت الفحوص أني بلغت مرحلة الخمود، فاحتفلت وبيل للمناسبة بوجبة

من الاطعمة اللذيذة المجلّدة التي هيأتها صديقتي ماري قبل أن تعود الى عائلتها في مونريال.

ما أروع أن تكون لديك أخبار سارة تذيعها، وإن حدّ من بهجتها التفكير في معالجة الدماغ بالاشعة التي تستلزم خمس عشرة جلسة. حضرت والدة بيل لتساعدنا في هذه المرحلة. وذهبت الى الجلسة الاولى فأجريت لي خلالها مقابلات مع عدد من الناس وضبط وزني واستخرجت عينة من دمي.

كانت غرفة المعالجة بالاشعة باردة مظلمة. وطلبت مني الاختصاصية نزع مجوهراتي والتمدد على طاولة معدنية كبيرة. ثم أخذت تحرك فوقي جهازاً ضخماً الى أن ظهرت نقطة حمراء. وحين ركزت النقطة فوق المكان الصحيح من صدغي عمدت اختصاصية ثانية خلف نافذة زجاجية كثيفة الى ادارة مفاتيح على لوحة ضبط كأنها تسيّر عربة فضائية.

قالت لي الاختصاصية التي الى جانبي، قبل أن تخرج مسرعة: "لا تتحركي." وسمعت أزيزاً غريباً وشعرت بوخز خفيف في فمي وبنكهة معدنية تملأه. كنت غارقة في التفكير في ما حل بي، واذا بالباب يفتح على مصراعيه وتدخل الاختصاصية بلهفة تهنئني على حسن ما فعلت. فتساءلت متعجبة: وما الذي عملته؟ فان كان هذا كل ما في الامر، فعلام يستبد بي القلق؟

وتوالت الايام وفي كل منها تكرار لسابقاتها، الى أن أفقت ذات صباح لاجد حزمة من شعري سقطت على الوسادة. راعني المشهد وان كنت حذّرت منه، فسماع الكلام عن احتمال حدوث أمر ما هو غير رؤيته يتحقق فعلاً. لقد دخلت مرحلة الانهيار، وها أنا أتساقط قطعة قطعة وأرى شعري الملقى على الوسادة جزءاً من تلك القطع.

لم يزد قلقي على ما كان في الاسبوع المنصرم. ولكن مهما يكن فها هي الحقيقة المرة ماثلة أمام عيني تنبئ بالحرب الخفية الدائرة داخلي، وتلك هي الضحايا، خصل طويلة من شعري سقطت في المعركة وزالت من كياني.

قصصت شعري الى الكتفين موهمة نفسي بأن ما سيسقط منه سيكون أقل فيخف قلقي. لكنه استمر في السقوط، فحلقت رأسي وتخلصت نهائيا منه ومن قلقي عليه.

قال بيل وهو ينظر الي مندهشاً: "اني أرى رأسك بلا شعر يتلاءم ومظهرك، أنت تبدين كاحدى رائدات الفضاء في أفلام الرحلات الى النجوم. لن يطول بك الامر قبل أن تعتادي مظهرك." وهذا ما كان.

في منتصف أكتوبر (تشرين الاول) كان مضى شهران على خضوعي للمعالجة. ولحسن حظنا كنت أقبض تأميناً بموجب عقد وظيفتي المدرسية، وتعويضات مرَضية واعانات مالية، ولولا ذلك لأعلنّا افلاسنا منذ بداية المأساة. وكان برنامج معالجتي الكيميائية يقضي بزيارة العيادة أسبوعياً على مدى سنتين. ومع ذلك شعرت برغبة ملحة في معاودة عملي، فاعتمرت شعراً مستعاراً كنت أكرهه وأعجز عن تثبيته على رأسي كما يجب، وعدت الى مزاولة مهنتي في التدريس.

أقبل نوفمبر (تشرين الثاني) وزال

تأثير الصدمة الاولى فبدأنا نشعر أن أمورنا آخذة في الاستقرار وأننا نعود تدريجاً الى حياتنا العادية.

أثناء احدى زياراتي المنتظمة للعيادة طرح الدكتور تايك موضوعاً جديداً: زرع النِقي (مخ العظم). ويقضي ذلك باجراء فحوص دم لجميع أفراد عائلتي علّ نقي أحدهم يطابق نقيي أنا. وبما أن كياني نسخة مركّبة من كيان أبي وأمي فالاحتمال ضئيل أن يتطابق نقي أي منهما مع نقيي. ولكن قد يتطابق نقي أحد أشقائي: ريتشارد ومارك وجايمس.

قال الدكتور تايك: "متى حصلنا على النقي الملائم نبحث في طريقة زرعه." فقلت له اننا نعلم أن الاطباء يلجأون الى الزرع في محاولة أخيرة للشفاء، ترى هل أصبت بالانتكاس؟

فطمأنني الدكتور تايك وقال ان هناك نظريتين في ما خص الزرع، وان في وسعنا البحث مطولا اذا تحقق امكان معالجتي بهذه الطريقة.

الخيار الحاسم

أظهرت نتائج التحاليل أن نقي مارك وجايمس لا يطابق نقيي. ثم وصلت نتائج ريتشارد من اوستراليا فكانت متطابقة. فعقد الدكتور تايك اجتماعاً في أوائل ديسمبر (كانون الاول) مع الدكتور جوزف أنتين عضو فريق الزرع في مستشفى بريغام لشرح الايجابيات والسلبيات.

وتسهيلاً لفهم الطريقة شبّه الطبيبان النقي بتربة حديقة تنتج الخُضر واللوكيميا بوبأ أعشاب برية تخنق الخضر. واذا قدّر للجسم أن يبقى حياً فيجب اتلاف الاعشاب البرية. لكن هذه الاعشاب قوية الجذور الى حد يفوق التصور. فقد ترشها بالمبيدات - المعالجة الكيميائية - وتزيلها، لكنها قد تعود فتنبت أقوى مما كانت. والمعالجة بالزرع هي جزء من مرحلتين لمواجهة هذه المشكلة.

في المرحلة الاولى يتم اتلاف الخضر والاعشاب البرية بالاشعة والمعالجة الكيميائية، وتصان التربة. وعلى أمل عدم بقاء بذرة واحدة من الاعشاب البرية حية، يجلب الطبيب (الحدائقي) بذوراً جديدة من حديقة خالية من الاعشاب البرية، فتضرب هذه البذور جذورها في التربة وتنبت خضراً جديدة. وهكذا يعود كل شيء الى الوضع الصحيح. لكن هذا الامر لا يبلغ درجة الكمال، لان هناك خطوات كثيرة قد تطرأ خلالها تفاعلات قاتلة.

قد يعجز المريض عن تحمل الاشعة والمعالجة الكيميائية القوية. وهناك أيضاً النقي الجديد المزروع الذي قد لا يتجذر وينمو في العظم. وحتى اذا نما فربما نبذ النقي المزروع الجسم المضيف، وهو لا يملك اي دفاعات لأن جهاز مناعته الذي يعتمد على خلايا الدم البيضاء قد أتلف، أما النقي الجديد فيحتفظ بجهاز مناعته كاملا وقد يرى في الجسم المضيف عدواً غريباً فيهاجمه في حين جيء به لينقذه.

واذا أمكن ضبط عامل النبذ هذا فتلزم المريض بضعة أشهر لكي يتمكن من انشاء شبكة دفاع تامة، وأي اصابة أو عدوى خفيفة قد تتحول خلال هذه المدة مرضاً قاتلاً.

بعد استيعاب هذا الشرح المفصل، لماذا أفكر في معالجة كهذه؟ كان الجواب عن تساؤلي واضحاً، لكن كلا الطبيبين أورداه بطرق لبقة. وأخيراً قال الدكتور أنتين: "لو كانت المصابة زوجتي أو ابنتي، أو كنت أنا المصاب، لاخترت اجراء الزرع."

عندئذ سأل بيل: "وماذا عن النفقات؟"

فكان الجواب أن التأمين الطبي يتكفل بذلك عادة.

وفي عطلة الميلاد اجتمعنا في منزل مارك ونانسي. وذات ليلة بعد انصراف والديّ كنا نتسلى بلعبة الـ"مونوبولي"، فاستدار مارك نحوي فجأة وحضني على اجراء عملية الزرع. وعضده جايمس في ذلك. الا أن بيل أبدى معارضته. فالمعالجة الكيميائية أزالت دلائل المرض، فلماذا المغامرة بعملية الزرع التي قد تقضي علي. وهو كان التقى امرأة خضعت للمعالجة الكيميائية كانت لا تزال في حال جيدة.

فنبهته نانسي، وهي طبيبة أيضاً: "لكن الذين بقوا قيد الحياة هم الذين تقدر أن تكلمهم. انني أشاهد الآخرين وكم يتحملون من عذاب شديد، وأرى بعينيّ انحلالهم البطيء. على الاقل، اذا أخفقت عملية الزرع فستكون النهاية سريعة." وخيم الصمت على الجميع وأكملنا لعبتنا.

كان الجدل يدور بينهم في شأن حياتي أنا، وكان علي أنا أن أختار. وبعد بضعة أيام من الحيرة والتردد اتخذت قراري: الزرع.

لكي أتمكن من اجراء عملية الزرع كان علي انهاء الفصل الدراسي الاول في آخر يناير (كانون الثاني) وانتظار خلو سرير في جناح الزرع. وفي هذه الفترة كان علينا أن نجد شقة سكنية جديدة أقيم فيها لدى مغادرتي المستشفى بعد عملية الزرع، لان شقتنا كانت في بناية قديمة ملأى بالغبار والشقوق. ذلك بأنه لن يكون لدي جهاز مناعة بعد العملية، فيتعين أن تكون البيئة التي أقطنها نظيفة من الجراثيم.

حفل شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٨٦ بالنشاط، وفي نهايته بتنا نقيم في شقة جديدة أكثر نظافة. وأبلغ الي أنني سأدخل المستشفى في منتصف فبراير (شباط). ووعد ريتشارد بالوصول في الطائرة التالية الآتية من أوستراليا. وغلبت المخاوف شعوري بالاثارة، وتركزت آمالنا وحياتنا على نقطة واحدة هي الزرع. وكنت تخليت عن المعالجة الكيميائية وغاب عني الدوار الذي كان يلازم تناولي الادوية. وشعرت بالقوة جسدياً وعدت سليمة عاطفياً وعادت الي قدرتي الكاملة على ضبط نفسي.

قدم ريتشارد من صيف أوستراليا الى شتاء بوسطن الجليدي. وتوجه رأساً الى العيادة لاجراء فحص كامل. ثم عاد الى منزلنا وهو مضطرب وقال: "صحيح أني لم أتوقع أن يستقبلوني بعزف الموسيقى، ولكن لدي انطباع أنهم لا يريدونني هناك."

كان هناك خطأ ما. وجاء الجواب في كتاب مرسل بالبريد من شركة التأمين الطبي جاء فيه أن التأمين لا يشمل زرع

النقي في مرحلة الخمود الاولى لمرض لوكيميا الكريات اللنفاوية الحادة. اذاً، ذلك كان سبب امتناع المستشفى عن فحص ريتشارد. ووقع النبأ علينا وقوع الصاعقة وشعرنا كأن العالم حولنا يتداعى وينهار.

اعترضنا على هذا التدبير متذرعين بقول الدكتور تايك لنا في ديسمبر (كانون الاول) ان شركة التأمين ستدفع النفقات. وأوكل الامر الى الدكتور جويل رابيبورت رئيس جناح زرع النقي، فاذا سوّيت المشكلة سرنا على الخطة المرسومة، والى حينه سنعود الى المعالجة بالمواد الكيميائية.

غلب علينا اليأس والغضب والتعاسة، فكم قاسينا من شك وحيرة ومرارة الى أن توصلنا الى القرار الخطير بقبول اجراء عملية الزرع. وها قد ضاعت معاناتنا وشجاعتنا، وتوقفت عن عملي قسراً وتكبد ريتشارد مشقة السفر من أوستراليا، كل ذلك لكي نصل الى حيث يقال لنا: "قضيتكم هي الآن قيد الدرس."

[illegible]

أقام ريتشارد مع والديّ في منزل قديم استأجراه في لانكاستر بولاية بنسلفانيا. وكنا على اتصال مستمر بالدكتور رابيبورت لمعرفة ما يجري.

شرح لنا الدكتور رابيبورت أن سياسة شركة التأمين الطبي لا تسمح بدفع نفقات الجراحات الاختبارية التي يندرج فيها زرع النقي في مرحلة الخمود الاولى لمرض لوكيميا الكريات اللنفاوية الحادة، لذلك أرسل تقريراً يشرح فيه أن وضعي الخاص يجعل عملية الزرع معالجة أصولية صحيحة لا عملية اختبارية.

ولكن كم من الوقت يستغرق التوصل الى معرفة النتيجة؟

قد يستغرق ذلك شهراً وربما شهرين أو أكثر. لكننا قدّرنا مدى صعوبة اقرار سياسة جديدة خاصة تؤدي الى دفع تعويضات كبيرة. فعمليتي وحدها تكلف نحو ٢٠٠ ألف دولار.

ذاع نبأ المأزق الذي علقنا فيه فهب الانسباء والاصدقاء لمساعدتنا. وذات يوم تلقى والداي كتاباً من صديق يتضمن حوالة بقيمة ألف دولار وجاء فيه: "أنفقوا هذا المبلغ على الاتصالات الهاتفية أو بطاقات السفر بالطائرة أو الكافيار أو أي شيء آخر." وأرسل آخرون بطاقات مؤاساة وتمنيات حارة لقرب شفائي.

في هذه الاثناء لم تكن المعالجة الكيميائية كما يرام. وعلى رغم تخفيف جرعات الادوية ازداد وهن الاحساس بأصابع يديّ ورجلي، ثم فقدت صوتي. وهذه الاعراض الجانبية قد تتحول عللاً دائمة، لذلك يجب وقفي عن تناول الفينكريستين.

وفي وقت لاحق بدأت أعاني مشاكل من جراء تخثر الدم في القسطر (أو الميل) (٥) المولج في العرق. ويستعمل القسطر للمرضى الذين يغرز فيهم عدد كبير من الإبر (في حالات أخذ عينات الدم بانتظام والحقن في العروق ونقل الدم). وبما أن العثور على العروق الصالحة يصبح

(٥) القسطر (catheter) أنبوب معدني أو مطاطي يدخل في العرق أو مجرى البول.

صعباً مما يزيد في مشاكل المعالجة، يصار الى استخدام القسطر النقال وقسطر "هيكمان"(٦) المصممين لتلافي هذه الصعوبات. ففي كل منهما أنبوب يولج جراحياً في أحد الاوردة الكبيرة ويترك أحد طرفيه مفتوحاً لكي يسهل ادخال السوائـل وعقاقيـر المعالجـة الكيميائية وسحب الدم. وكان هناك قسطر نقال مغروزاً في جهة صدري اليمنى تحت عظم الترقوة. والفكرة في غاية البساطة، فهي تتيح اختراقاً واحداً وصحيحاً بدل الغرز في كل مكان للتفتيش عن عروق صالحة طال عذابها.

لكن هذه الطريقة لا تعمل في أحيان كثيرة. فقد كانت خثرات الدم تسد القسطر النقال فتحول دون سحب عينات من دمي ومعالجتي بالمواد الكيميائية. واستغرق اصلاح هذا الخلل بقائي بضعة أيام في المستشفى.

من ثم أبدل القسطر النقال بقسطر "هيكمان" مجهز بثلاث قنوات لاستيعاب المواد الكيميائية والحقن الوريدية ونقل الدم. ورجعت الامور الى طبيعتها. وكان أبي على اتصال دائم بالاطباء، وعيّن محامياً لحض شركة التأمين على معالجة قضيتي.

في بداية أبريل (نيسان) بعد ستة أسابيع من الموعد الذي كان حدد لعملية الزرع، طرأت مضاعفات جديدة بسبب خثرات الدم، فكان لا بد لي من دخول المستشفى. وعلمنا في تلك الاثناء أن التأمين وافق أخيراً على دفع نفقات الزرع.

تعيّن اجراء فحص لصدري بالأشعة السينية (إكس) لكي يتأكد الاطباء من عدم وجود أي عدوى قبل الاستعداد للعملية. كانت العملية ستودي بجهاز مناعتي مما يعرضني للاصابة بأي مرض. وأظهر فحص الاشعة عُجرة على رئتي اليسرى. في الاحوال الطبيعية تغرز ابرة ويستخرج بواسطتها جزء صغير من العجرة لفحصه، انما للتأكد من عدم وجود أي عدوى لدي كان على الاطباء أن يشقّوا صدري ويستخرجوا جزءاً كبيراً لدراسته.

وصلت والدتي بالطائرة الى بوسطن في اليوم الذي سبق الجراحة. وقد أظهر فحص العجرة أنها خالية من العدوى.

وكان بيل قبل محنتنا يعزف على الغيتـار مـع بعض الاصـدقـاء في بروفيدانس بولاية رود أيلاند. ولما علموا بمصابنـا نظمـوا حفلـة مـوسيقيـة لمساعدتنا. وأعلن عن الحفلة بدعاية واسعة فحضرها أناس كثيرون وكان ريعها مساعدة كبيرة لنا بمقدار ما كان العطف الذي أثارته مواساة وعزاء في محنتنا.

في منتصف ابريل (نيسان) أعلن الاطباء أنني أصبحت مؤهلة للعملية التي تهدف الى اتلاف نقي عظامي. تبدأ العملية بمعالجة كيميائية قوية على مدى سبعة أيام، تتبعها ثلاثة أيام من المعالجة بالاشعة صباحاً ومساء للجسم كله. وسأعطى مرة كل يوم جرعات كيميائية قوية. وفي ١٥ ابريل (نيسان) ١٩٨٦ باشر الاطباء العملية.

(٦) Port-A-Cath and Hickman catheter

وضعت في غرفة معقمة لها ثلاثة جدران عادية وستارة بلاستيكية ثقيلة مكان الجدار الرابع. وفي وسط الستارة ثقبان يمتد منهما قفازان بلاستيكيان طويلان يستطيع الطبيب عبرهما أن يقوم بأعمال كثيرة من دون أن يدخل الغرفة. وفي الجدار فوق رأسي مراوح تغذي الغرفة بالهواء النقي.

يجب أن يكون كل ما في الغرفة معقماً. وتمسح الغرفة بمواد مطهرة قوية، وتؤدي هذا العمل ممرّضة ترتدي برنساً وقفازاً وخفاً وكمامة جميعها معقمة. حتى الطعام يجب أن يكون معقماً.

كان علي أيضاً أن أعقم جسمي أربع مرات يومياً، مما يستدعي تنظيف كل فتحة بمطهّر قوي، وتنظيف داخلي بتجرع شراب كريه يطهر القناة الهضمية. وتستغرق العملية كلها خمساً وأربعين دقيقة.

كانت المعالجة الكيميائية قاسية جداً، لكنني كنت مسرورة لبدء العملية التي ستقرر مصيري. يوم الثلثاء في الثاني والعشرين من شهر ابريل (نيسان) لفّتني الممرضات بملاءة وقدنني في عربة للفحص بالاشعة. وطلبت أمي أن تبقى الى جانبي وأبدت استعدادها لارتداء أي شيء يطلب منها.

في غرفة الاشعة مُددت على طاولة معدنية باردة وعمدت اختصاصية الى تقويم وضع جسمي، ثم خرجت عبر باب معدني ثقيل أقفل وراءها بصوت مدوٍ. ثم سمع أزيز عندما أديرت المفاتيح وأخذ الهدم الصامت يعمل في عمق كياني.

قلت لاحقاً لأمي: "ان هذا يجعل من أحلامي بالانجاب هباء منثوراً."

فردت أمي: "لكنه يؤكد لنا بقاءك معنا يا حبيبتي."

قلت: "انني أخشى هذه الرحلة كثيراً، فكأنني أنحدر الى سجن مسحور تحت الارض."

فردت: "سأكون دائماً الى جانبك، وسنخرج معاً من السجن."

"شكراً يا ريتشارد"

نهار الاربعاء في ٢٣ أبريل (نيسان) أدخل ريتشارد المستشفى على أن يخضع الخميس لاستئصال عينات من نقي الحوض فيما تجرى لي جلسة خامسة من المعالجة بالاشعة. والخطة هي كما يأتي: يخدَّر ريتشارد، ويأمل الاطباء سحب ألف سنتيمتر مكعب من النقي من خلال ثلاثمئة ثقب في عظمه مما يستغرق بين ساعتين وأربع ساعات. وفي لغة الاطباء تدعى هذه العملية "حصاد" النقي. لكن "ثقب الآبار" قد يكون أكثر تعبيراً.

ويقلَّص النقي المستأصل من ألف سنتيمتر مكعب الى خمسين، ويعالَج لتخفيف حدة نبذه للجسم المضيف. ويزرع النقي في الثامنة مساء الخميس بعد أن يستعيد ريتشارد وعيه وتنتهي الجلسة الاخيرة من معالجتي بالاشعة.

كان والداي وبيل بجانبي قبل الموعد المقرر. وفي الثامنة الا ربعاً سمعت ريتشارد قادماً يجر قدميه ببطء وألم كي ينضم الينا.

هتفت أمي: "آه، يجب أن تلزم سريرك يا بني. هل سمحوا لك بالمجيء الى هنا؟"

قال ريتشارد: "قدمت من اوستراليا قاطعاً مسافة ١٦ ألف كيلومتر، ولن أحجم عن قطع ٤٥ متراً الى هنا."

ضحكنا بعصبية وفي خاطر كل منا سؤال واحد: "هل ستثمر تضحية ريتشارد فينقذني؟ لقد راهنت بحياتي على هذا الامل: لحم من لحمي وعظم من عظمي."

ثم جاء الدكتور رابيبورت الذي سلمته حياتي. فأدخل يديه في القفازين الطويلين في الستارة، ووضعت ممرضة محقنة كبيرة بين يديه.

فسألته غير مصدقة: "أهذا كل شيء؟ كل شيء داخل هذه المحقنة؟"

"نعم، انه كل شيء،" أجابني الطبيب وقد بدأ حقني عبر قسطر "هيكمان." وأضاف: "انه لامر مدهش حقاً. نضع خلايا النقي في مجرى دمك فتهتدي وتجد سبيلها الى عظمك فتستقر في داخله وتبدأ توليد دم طبيعي جديد من دون أن يرشدها أحد الى أين تذهب وماذا تعمل."

فما أشبه هذا بالعجيبة اذا تم فعلاً! ولكن اذا لم يتمّ... وخيّم علينا الصمت فيما نقي الحياة يدخل جسدي. ثم سمعتني أقول بصوت واهن: "شكراً لك يا ريتشارد."

فهمهم أخي. وبعد ثوان قلت: "انني أسحب كل كلمة سيئة قلتها في حقك."

فانفجر ريتشارد والآخرون ضاحكين.

كنت بلغت في معاناتي نهاية المطاف، وبدا لي في تلك اللحظة أنني أنهض من عمق الهاوية لأعود فأتبوأ مكاني وأشارك في الفرح والخيبة والبهجة والحب التي يقوم عليها كيان العائلة.

لدى انتهاء العملية تنفسنا الصعداء. طلب أبي من الطبيب أن يريه المحقنة، فناوله اياها وانصرف. وبقيت المحقنة في يد أبي وهو يتحسسها ويتفحصها فيما الجميع منهمكون بالحديث. ثم مرّرها الى بيل وقال: "هذه هي التحفة التي ستتصدر رف الموقد في بيت بيل وميرندا، عسى أن تنظرا اليها لسنين كثيرة آتية بملء الشكر والعرفان."

لم يبق سوى الانتظار. ولكن كم سيطول الانتظار ومن أجل ماذا؟ من أجل تولّد خلايا دم حمراء جديدة هي الدليل على أن "المصنع" باشر الانتاج. ثم تؤخذ عينة من الدم بعد النهوض صباحاً وقبل النوم مساء لتبيّن الارتفاع الثابت في عدد الخلايا البيضاء ولاحقاً في الكروموزومات الذكرية(٧).

وهتفت: "كروموزومات ذكرية! ماذا تعني بذلك؟"

فشرح لي الطبيب: "لن يسرنا كثيراً ان نجد كروموزومات أنثوية في خلايا دمك، لان ذلك يدل على أن هناك بعضاً من نِقْيك القديم لا يزال ينتج. وهدفنا استئصال النقي القديم بكامله وابداله بنقي شقيقك. ولكونه ذكراً، فان النقي المستخرج منه سينتج خلايا دم تحوي كروموزومات ذكرية."

سألت: "وهل يعني هذا أنه سينبت لي شاربان؟"

فأجاب ضاحكاً: "لا، لن يحدث ذلك. لو لم أخبرك بالامر لما عرفت شيئاً عنه."

فقلت وأنا ما زلت غير مقتنعة: "حسناً، ولكن إياك أن تطلع زوجي على ذلك."

(٧) Male chromosomes

مكث أبي وأمي الى يوم الاحد ثم غادرا عائدين الى عملهما في التدريس. وتقدم من ريتشارد طبيب يبدو أنه لم يتبرع بنقي عظمه إذ قال له: "انك قد تشعر ببعض الانزعاج لفترة لن تتجاوز الاسبوع، وتعود بعدها الى عملك." ولكن مرت ستة أسابيع قبل أن يستعيد ريتشارد نشاطه ويعود الى أوستراليا.

كنت آنذاك في ذروة الخطر من العدوى اذ لم يكن لدي جهاز دفاع. ولئن يكن النقي الجديد المزروع وجد مقصده وبات في طور النمو فانه لم يكن قادراً بعد على صيانة دمي، وعلي الاعتماد على نقل الدم بمعدل مرة في اليوم للخلايا الحمراء وأخرى للويحات أي الخلايا التي تمكن الدم من التخثر. ويوماً بعد يوم كانت تطل أزمة تختلف عما سبقها، لكن عدد خلايا الدم بدأ الارتفاع.

كانت في جناح الزرع في المستشفى خمس غرف معقمة أخرى، وكانت غرفتي الاقرب الى مركز الممرضات. ولم أرغب في معرفة ما يجري في عمق الجناح أو سماع التشاور الخافت بين الاطباء والممرضات وصرير عجلات أجهزة الاشعة وخزانات الاوكسيجين والاعلان في مكبر الصوت عن حالة طارئة يتبعها وقع أقدام في الرواق.

كانت في غرفتي أصوات ناعمة وهمس الهواء المنقى وهو ينفخ فوق رأسي ثم يخرج من الباب عند قدمي. وبين وقت وآخر يعلو صوت جهاز الهواء وينخفض فكأنه يطلق تنهّدة ارتياح تنفيساً.

في الاسبوعين الاولين لوجودي في المستشفى كان السعال والتقيؤ لنزيل الغرفة المجاورة يخيفني. وأخبرتني احدى الممرضات: "اسمه خوان، وهو في حال سيئة."

بدا كل من تشنجاته كأنه الاخير. ووجدتني أشاركه في نوباته القوية وكأن جسمي أنا يتمزق. فأتنفس بارتياح وترتخي قبضتاي عندما تنتهي نوبته، ثم يعاودني التوتر تحسباً للنوبة التالية. وعجبت حين استيقظت ذات صباح فوجدت أنني نمت الليل بطوله. فأصغيت، لكني لم أسمع سعال خوان وتشنجاته.

وأخبرتني الممرضة التي جاءت لاخذ عينة من دمي: "خوان مات ليلة أمس."

سألتها: "متى أجريت له عملية الزرع؟"

أجابت من دون مبالاة وهي تتفحص المحقنة في يدها: "أوه، قبل مدة، قبل ثلاثة أسابيع تقريباً." ثم خرجت وتركتني لوحدي تتقاذفني الافكار والهواجس.

كانت حاجتي شديدة الى العزلة والانفراد بنفسي، وأحسست في الوقت ذاته بحاجة الى الاتصال بالعالم. وجاءني أصدقاء كثيرون، فصُدموا وعز عليهم أن يشاهدوا صديقة تشوّه وجهها وانتفخ بفعل الادوية وتعرى رأسها من الشعر وبرزت أنابيب من صدرها، وكل ذلك من خلف ستارة ومن دون أن يسمح لهم بالاقتراب منها لمواساتها بكلمة عطف أو لمسة حنان.

طلب جايمس اذناً بالتغيب عن عمله في واشنطن ليبقى بقربي. وكان يأتي كل يوم فيَلبس بذلة معقمة لكي يتمكن من

دخول غرفتي. فأقمنا طاولة بيننا وكنا نلعب بالنرد (الطاولة) ونشاهد مباريات البايسبول وكرة السلة على التلفزيون ونستمع الى اشرطة مسجلة.

لم أعد أتقيأ كثيراً، انما كان الاكل لدي واجباً رتيباً بغيضاً، وكان مناسبة يظهر لي فيها جايمس مبلغ اهتمامه من خلال حضه اياي على الاكل، تارة باضحاكي وطوراً بالخداع والمراوغة، كي لا أقف عند تناول ثلاث لقمات أو أربع بل أزدرد العشر اللقمات المقررة لي أو أتجاوزها. وكنت أشعر بالامتنان العميق لما يبديه من اهتمام بغذائي وبادخال البهجة الى نفسي، وأرى في عمله تكريماً لي وتكريساً للمحبة التي طبعت علاقة افراد عائلتنا بعضهم ببعض.

كانت مأساتي مستمرة لم تكتمل فصولها. ففي نهاية الاسبوع بدأ أنفي ينزف بغزارة وشعرت بالانحلال وكأن داخلي يتقوّض. وتراءى لي أن ما هي الا دقائق وأصبح مجرد بركة من الدم على الارض والى جانبها جلدي كأنه بالون فرغ منه الهواء. ضغطت ضمادة من الشاش المعقم على أنفي لكن الدم استمر في التدفق.

ثم أقبل الطبيب وقال لي: "استمري في ضغط الضمادة يا ميرندا." ونادى ممرضة: "أسرعي اجلبي محلول الكوكايين."

شعرت بالدوار في رأسي يزداد باطراد وكأني أسبح وقد غلب علي التعب وأخذت أغرق على مهل. لكنني لم أكن لأبالي. كنت أسمع كلمات غامضة تتردد: "نقل الدم... اللويحات..." ثم شعرت بيدين مقفزتين تدفعان برأسي الى الوراء وتحشوان أنفي بضمادة مشبعة بمحلول الكوكايين دخلت اثرها غيبوبة فارقني فيها الخوف وحملتني الى عالم الاحلام.

كان لدي في غرفتي جهاز فيديو، وفي كل ليلة كان بيل يأتي ومعه فيلم جديد. وسمح لي أيضاً بقراءة كتب معقمة. لكنني كنت أفضل زيارات الاصدقاء على كل الكتب والافلام. ولدى انتهاء موعد الزيارات كان أقرباء المرضى الآخرين وأصدقاؤهم يتوقفون للتحدث الي قليلا.

تلك كانت لحظات سعيدة حقاً أحرص عليها ما حييت. ولكن مهما بلغ بهاء تلك اللحظات فهي لم تبدد الظلام الذي حاقني اذ كنت لا أزال معزولة عن العالم وعن الحياة العادية الهانئة وراء ستارة بلاستيكية. وكم تساءلت: هل سيسعدني الحظ فأخرج من وراء تلك الستارة؟ واذا خرجت فكيف سيكون شعوري وقد أصبحت حرة طليقة معافاة في هذا العالم الواسع بعدما كنت سجينة المرض والقلق والخوف؟

وتساءلت أيضاً: اذا كانت هذه حالي فكيف عساها أن تكون حال ماريا جارتي في المستشفى.

جاءت ماريا من احدى جزر البحر الكاريبي وهي لا تتكلم الا الاسبانية. وكان الاطباء والممرضات يستعينون بمترجم كلما أرادوا ابلاغها - أو ابلاغ عائلتها - أمراً ما.

لم تكتب لماريا الحياة فماتت. وفي ليلة وفاتها، وللمرة الاولى منذ دخولي

المستشفى، هطل المطر بغزارة. كان ذلك في العيد الثلاثين لمولد بيل، فجلسنا معاً في ظلام الغرفة نبكي، وقد أثار فينا موت ماريا المخاوف الدفينة وأدركنا كيف ينتهي كل شيء الى الزوال. انه لامر مخيف جائر، فالموت حقيقة ثابتة قد تدركك في أي لحظة ولا يد لك فيها.

اليوم الأكبر

في أواخر يونيو (حزيران) أبلغ الي الاطباء النبأ السار، انهم "سيعيدون تلويثي." فعدد خلايا دمي آخذ في الارتفاع ببطء وشهيتي تعود اليّ.

لو كنت شاعرة لنظمت قصيدة عصماء ولو كنت موسيقية لوضعت لحناً جميلا يشيد بالتلوّث. لقد سئمت الطهارة اذ كان لدي منها ما يكفيني مدى الحياة. تلك الطهارة حتمت عزلي كلياً عن الناس. وقد مضت ثلاثة أشهر لم يلمسني فيها أحد، حتى بيل. ولن أنسى ما حييت مبلغ السعادة والبركة الكامنتين في لمسة انسان آخر.

لكن اللمس كان لا يزال محرماً علي، فسيَعمد أولا الى اعادة تلويث معدتي بتغذيتي باللبن الرائب الذي يحتوي على جراثيم من النوع المفيد الذي لا ضرر منه. واذا كانت النتيجة حسنة فسأرقى الى تناول "الطعام الملوث" غير المعقم. وقد تمر سنة قبل أن يرفع الحظر عن تناولي جميع الاطعمة. لكن اللبن كان الخطوة الاولى الواضحة والثابتة في طريقي الى استعادة الحياة العادية التي تركتها منذ أمد بعيد.

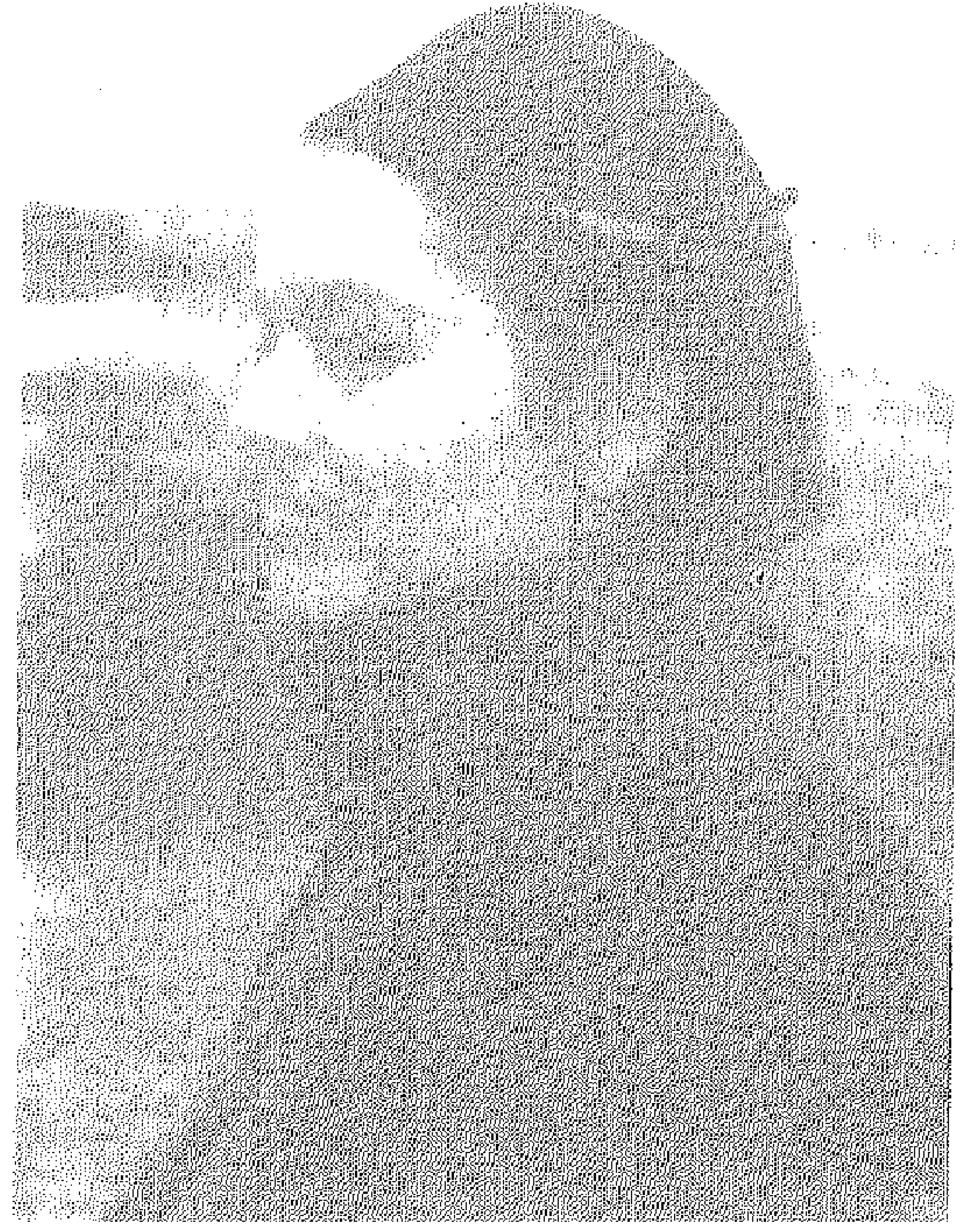
أعطى اللبن نتيجة باهرة، ومن ثم أجيز لبيل أن يدخل غرفتي من دون قفازين وأن يلمسني ويعانقني. كانت تلك أمنية عذبة اختلجت في صدري وراودت أحلامي طويلا. وكان عناقنا الاول قوة سحرية أعتقتني من ليل الموت وشدتني الى حضن الحياة. فبوركت أيها التلوّث وبوركت النعمة التي حملتها الي!

أذن لي بعد ذلك بالنهوض والخروج من غرفتي على أن أضع كمامة وقفازين. وقفت بباب الغرفة فتملكتني قشعريرة من الخوف وترددت في الخروج ووددت أن أرجع الى خلف الستارة. لكن النزعة الى الحرية غلبت علي فخرجت وطفقت وبيل نروح ونجيء في الجناح ونصعد السلم ونهبطها لكي تستعيد رجلاي نشاطهما.

وبعد انتهاء موعد الزيارات كنت أطوف على غرف النزلاء الذين كنت أتصل بهم عبر الهاتف ولا أعرفهم شخصياً، فاعرّفهم بنفسي ونتحادث. وكنت أشعر بغصة لقرب مفارقتهم اذ صهرتنا المصيبة ووحدت آلامنا وآمالنا وأصبحنا كأننا عائلة واحدة.

كان ٧ يوليو (تموز) يومي الاكبر. فارتديت ملابسي وحذاء رياضياً. وكان هذا حدثاً رائعاً بالنسبة الي، وطفت مترنحة على النزلاء أودعهم والأسى يعصر قلبي للمحنة التي ما زالوا يعانونها.

ثم جاء بيل وخرجنا في السيارة الى العالم الرحب، عالم الحرية والامل والكفاح. كنت كمن يخرج من الظلمة الدامسة الى النور الساطع، فبهرتني مشاهد جموع البشر المتدافعة والملابس الزاهية والسيارات والشوارع والارصفة والاشجار والطيور. دَهشت واصبت بالدوار



ميرندا رصل في يناير (كانون الثاني) ١٩٨٨.

لروعة هذا العالم الواسع وتعدد صوره المتلاحقة التي بدت كأنه لم يسبق لي أن رأيتها.

توجهنا الى الشاطىء حيث كان ملتقانا الاول، وتمشينا هناك وتمددنا على الرمل وتنشقت الهواء الطبيعي النقي الذي لم يمر عبر مصفاة. وكانت الشمس ترسل أشعتها الدافئة والريح تحمل رائحة البحر القوية. كان كل شيء حولي حقيقياً، وكنت أنا هناك في قلب الحقيقة.

وعندما عدنا الى البيت مساء دخلت الحمام وصرفت وقتاً طويلا أتلهى بفتح الصنابير واقفالها وتعويم المرحاض بالماء. وكان مضى علي وقت حسبته دهراً لم أغتسل.

كنت لا أزال معرضة للعدوى وكانت لا تزال هناك قيود كثيرة مفروضة علي: فلا أكل فاكهة أو خضر طازجة، بل يجب أن تطهى لمدة طويلة قبل تناولها. ولا أكل محار ولا مصنوعات المخابز التي ربما سعل عليها أحد أو لمسها، ولا أطعمة معلّبة أو جاهزة. وسمح لي بالسير في الشوارع وانا مرتدية كمامة وقفازين، كما سمح لافراد عائلتي بأن يزوروني اذا لم يكونوا مصابين بالزكام أو بألم في الحنجرة. وأذن لبيل بامساك يدي، لكن القبل بقيت ممنوعة.

ومع ذلك لم تكن مشاكلي انتهت، اذ كنت أتعذب من داء العقبولة المنطقية (٨). ولكن طرأ علي تحسن عام، فأزيلت قيود الاطعمة الواحد بعد الآخر. وفي عيد الشكر في الخميس الاخير من نوفمبر (تشرين الثاني) ذهبنا في السيارة الى واشنطن لزيارة والدي بيل، ثم توقفنا في لانكاستر لزيارة والديّ. وأخذ شعري ينمو وازدادت قوتي. وأقام لي بيل محترفاً في المستودع حيث كان مشغله للنجارة. أعددت معظم هدايا الميلاد في المحترف وعدت الى مزاولة الرسم.

في ربيع ١٩٨٧ توجهنا شمالا الى كوخنا الصيفي في الجزيرة بكندا، وانضم الينا أبي وأمي واحتفلنا بانقضاء السنة الاولى على اجراء عملية الزرع. كانت أزهار الربيع في كل مكان تملأ الارض بهجة، فجمعت منها باقات كبيرة. وكنا نجلس في المساء أمام الموقد نصطلي

(٨) herpes zoster وهو ما يعرف بالـ"زونا".

ونصغي الى أصوات الاوزّ المهاجر ونسمع حفيف أجنحته وهو يحط على سطح الماء.

وعندما رجعنا الى بيتنا بعد أسبوع عدنا الى الاعتناء بالحديقة وزرعها، وكنا نجلس في الغسق وسط جمال الازهار والشتول النامية الزاخرة بالحياة. وكان الهواء الدافىء يحمل الينا شذا الربيع العاطر، والسكون شاملا لا يقطعه سوى مواء هرة أو صراخ طفل في المنزل المجاور. وكم نعمنا بتلك الامسيات الهادئة التي عشنا فيها لحظات من عمرنا كما يحلو لكل انسان أن يعيش حياته: عذوبة وسكينة وطمأنينة.

وبعودة الربيع بعد هجوع الشتاء دبت الحياة في كل الكائنات وارتدت الطبيعة أبهى حللها. كذلك عاد الي ربيع الحياة بعد شتاء مأساتي الطويل. وقد اكتشفت من خلال محنتي أمرين: أولهما مبلغ محبتي للناس ومحبتهم لي، وهي محبة ما زالت تبعث الدفء في قلبي. فليس هناك من يعول عليه في الشدة والأسى سوى الناس بعطفهم وغيرتهم. وثانيهما أن الحياة هي الحاضر. فالذي فات فات والغيب في يد الله وللانسان الساعة التي هو فيها. وخيل الي أن معاناتي لم تكن سوى فترة تثقيفية جعلتني أعي أهمية اللحظة الحاضرة وما تأتي به. لم يكن لدي متسع من الوقت للتفكير في ما يحمله الي الغد، لانني كنت منهمكة أتعلم كيف أعيش في الحاضر.

ربما كان أهم ما تعلمته في محنتي أن العالم جميل جداً لكنه حافل بالاخطار. وانني سعيدة لكوني أتيت اليه، وأنوي أن أستمتع ما أمكنني بفترة اقامتي على هذه الارض.

ميرندا وروبرت رصل

ترجمة الياس عقل

ميرندا رصل هي اليوم رسامة وشريكة زوجها بيل كروزبيه في مؤسسة للتجارة في بوسطن. أبوها روبرت رصل، الذي عاونها في كتابة هذه القصة، هو أستاذ اللغة الانكليزية في كلية فرنكلين ومارشال في بنسلفانيا. وفي سيرته الذاتية التي نشرتها الـ"ريدرز دايجست" عام ١٩٦٣ يروي كيف يكون شعور من ينشأ أعمى.

أمّ في الحافلة

كانت الحافلة العائدة بي من بيت أمي مزدحمة بالركاب. ولكي أهدّىء الاولاد كنت دائماً أشير الى أشياء مهمة ينظرون اليها في الخارج. وهكذا، فما ان شاهدت محلا لبيع الحيوانات الاليفة حتى صرخت: "أنظروا، أرانب!"

كل الرؤوس في الحافلة استدارت مطيعة لتشاهد تلك الحيوانات الجميلة ذات الفراء الابيض في قفصها خارج المحل. بعد ذلك راح الجميع ينظرون الي كما لو كانوا ينتظرون تعليمات إضافية. ولكن لم يعد هناك ما يقال، إذ تذكرت فجأة أني تركت أطفالي عند أمي!

ك.غ.

كتاب الشهر



ملخص من كتاب

بقلم ويل ستيجر و بول شورك



عندما بدأ ويل ستيجر وبول شورك رحلتهما الى القطب الشمالي في مارس (آذار) ١٩٨٦، كانا اختبرا عدة رحلات شمالية ومغامرات على المزالج التي تجرها الكلاب. وها هما الآن يرئسان "بعثة ستيجر القطبية الدولية" وهي فريق مؤلف من سبعة رجال وامرأة و٤٩ كلباً عزموا على الوصول الى القطب الشمالي من دون اعادة تموّن. وفي حال نجاحهم يضاهون ما زعم ماثيو هانسون وروبرت بيري أنهما حققاه في العام ١٩٠٩







في ضوء الفجر الرمادي ربطنا حمولتنا بأصابع قضمها الصقيع المتدني الى ٥٧ درجة مئوية تحت الصفر. كان الهواء اللاذع يهب علينا من الجبال والكتل الجليدية في جزيرة ايلزمير الكندية في طريقه الى البحر. للمرة الاولى وزعنا حمولتنا من الاجهزة والعتاد على مزالج بلغ طول الواحدة منها خمسة أمتار. وكان وزن الحمولة ثلاثة أطنان وقد جمعناها على مدى ثلاث سنوات. وحجبت هذه الحمولة الهائلة الرؤية أمامنا.

في الثانية بعد ظهر ٨ مارس (آذار) ١٩٨٦ حان الاوان. اطلق رفيقي بول شورك كلابه أولا دافعاً مزلجته الى الامام بالبيفة، وهي ذراع خشبية ذات نتوءات معدنية، بينما دفعها من الجوانب ثلاثة آخرون من اعضاء الفريق. وقد أفلتت المزلجة واندفعت مطلقة صريراً مزعجاً.

كنت التالي. عاونني ريتشارد ويبر وجيف كارول... وانطلقت المزلجة.

نظرت الى الوراء. برنت بودي وروبرت ماكيرو يدفعان ويلعنان، لم يتمكنا من التزحزح فوق الثلج المتكدس. نزلت آن بانكروفت للمساعدة. واخيراً تململت المزلجة وتحركت. وحان دور بوب مانتل وتبعته مزلجة جيف في المؤخر. ثم عاد السكون فيما الكلاب تجر والفرق تدفع الى الامام.

قبل أسبوع قصدنا الشمال في الطائرة ونقلنا العتاد والكلاب على مراحل الى الشاطىء الشمالي لجزيرة ايلزمير في التخوم الكندية في الدائرة القطبية الشمالية. امتد أمامنا السطح المتجمد والمتفتت للمحيط الشمالي. وذكّرني الجليد بصور عاد بها الرواد من القمر.

أمضينا ثلاثة أيام في "مخيم دريب" وهو كوخ طوله ستة أمتار وعرضه ثلاثة أمتار ونصف متر تديره "مؤسسة الابحاث الدفاعية للاطلسي" التابعة للجيش الكندي.

كنت أنا وبول شورك المسؤولين عن هذه الرحلة، وقد فكرنا كثيراً في المصير الذي يخبئه لنا البحر القطبي. كان هدفنا، في رجعة متعمدة الى الايام الغابرة، الوصول الى القطب الشمالي معتمدين على قوتنا الذاتية وعلى ٤٩ كلباً تجر مزالج. خلال هذه الرحلة التي ستستغرق نحو ٦٠ يوماً عزمنا الاّ نتكل على طائرة تحلق فوقنا في الامتدادات الصعبة أو تقدم الينا مساعدة أو مؤناً إضافية.

خلافاً لجميع الرحلات البرية الى القطب منذ العام ١٩٠٩، حين أعلن طاقم روبرت بيري أنه الاول في الوصول الى "قمة" العالم، ستكون رحلتنا اعتماداً على النفس وتحدياً لأحد أطراف الارض الاكثر انعزالاً. والى ذلك كنا نأمل أن نلقي ضوءاً على السؤال التاريخي المشكك في صحة وصول بيري الى هدفه.

تقصياتنا لطبيعة المحيط الشمالي قلصت التفاؤل بنجاحنا، إذ يفصلنا عن جدار الجليد المتراص، وهو كومة من كسارة الجليد تحدد حافة القطاع الناشط للمحيط، ١٦٠٠ متر من الجليد المتراكم الذي يغطي اليابسة وينزلق تدريجاً نحو

البحر. وحتى هنا بدأت مزالجنا تخذلنا. كانت الكلاب تعمل فوق طاقتها وتتعب سريعاً.

بعد ساعة من الانطلاق وصلنا الى الجليد المتراص او "الجدار العظيم" كما دعيناه. أذهلتنا روعة المنظر. كانت الكتل الجليدية المتراكمة تمتص نور الشمس وتعكسه في أطوال موجية متفاوتة ملقية ظلالاً زمردية ونيلية وزرقاء باهتة. وأمام الكتل الهائلة من الجليد الازرق المرصوفة عبر الطريق شمالاً بدت مزالجنا الخمس صغيرة جداً.

توقفت المزالج عند كل انعطاف. وغالباً ما اضطر ثلاثة منا الى استخدام المخل والأربعة الآخرون الى الدفع لتسييرها من جديد. كان السطح خشناً كورق الزجاج. ووفرت البكرات المغلفة بالسيليكون انزلاقاً شبه معدوم في برودة دون ٤٠ درجة مئوية تحت الصفر.

أما أحذيتنا المصنوعة من جلد الموظ(١) فأمنت احتكاكاً التصاقياً هزيلاً بالكتل الجليدية. قد تسبب أي هفوة حادثاً خطيراً. لكن الانزلاق صعوداً وهبوطاً على التلال الشديدة الانحدار بدا أقل خطورة من المناورة في الاودية المستترة حيث تجمع ركام عميق من الثلج الناعم. كانت بكرات المزالج تغرق في هذه الفخاخ فنضطر الى جرف الثلج لانتشالها.

قدّمتنا جهود اليوم الاول كيلومترين فقط شمال مخيم دريب. حين نصبنا الخيم هبت ريح من الرف الجليدي في ايلزمير. لم أشعر من قبل بهذا الصقيع القاسي. تجمّد خدّاي. أما برنت بودي وجيف كارول اللذان صارعا حبال الكلاب المتشابكة طوال النهار، فشعرا بألم مبرح في أصابعهما التي قضمها الجليد.

كرّ السائقون الاسلاك والمشابك التي تربط بها الكلاب أثناء الليل، وتصارع ريتشارد وآن وماكيرو مع الخيمتين المقببتين محاولين بسط النايلون الذي تصلب وانكمش بفعل الصقيع فوق أعمدة الالمنيوم. النايلون البارد شل أصابعهم. كانوا يعملون بضع دقائق ثم يركضون متلاصقين ليكسبوا بعض الدفء.

صدمني الواقع القاسي لما نحن مقدمون عليه. لكني ركزت تفكيري على أننا "سنعيش مهما بدا هذا المشهد يائساً." ستكون هذه الرحلة امتحاناً عظيماً في الايمان بقوة روح الانسان وبالقدرات والمعرفة والدهاء التي اكتسبناها أنا ورفاقي خلال سنوات من الاسفار. ومع أننا كنا على عتبة دخول التاريخ بانجاز الرحلة الاولى الى القطب الشمالي من دون "إعادة تموّن،" فإن هذا الامتحان في الايمان هو الذي منحني أنا وبول الزخم الحقيقي للسعي الى تحقيق حلمنا.

خطة طوارئ

في أي رحلة، تبقى الليلة الاولى في الخلاء هي الاصعب. لدى تسللي داخل خيمتي رأيت ما حيّرني وروعني. لم يتمكن ريتشارد وبير (٢٦ عاماً) وهو الفرد الاصغر في البعثة، من إشعال المواقد. وحاول باهتياج شديد أن يكتشف الخلل. وتكدست حوله آنية الطبخ وأكياس

(١) الموظ حيوان ضخم في أمريكا الشمالية شبيه بغزال الالكة.



في نهاية النهار نصبت الخيم وربطت الكلاب.

الطعام والفرش وأكياس النوم في الفسحة الضيقة التي يبلغ قطرها مترين. ثم دخل بوب مانتل فضاقت الفسحة أكثر. بات مصيرنا متعلقاً بتلك المواقد.

جرّب مانتل حظه ونجح أخيراً في إشعال أحد المواقد. امتنع الغاز الابيض البارد عن التبخر على نحو جيد واكتشفنا أن الحل هو تدفئة قوارير الغاز. لكن الدخان الناتج من الاحتراق غير التام سبب لنا سعالاً حاداً. ثم دخل جيف ولم تعد هناك فسحة للتحرك. مرت ساعتان طويلتان قبل أن يحضر العشاء. ولم يتمكن معظمنا من الاكل كفاية لأن الدخان كبح شهيتنا.

لبسنا سترات فراء وقبعات وقفازات وزحفنا داخل أكياس النوم الباردة. في المحيط القطبي الذي لا يعرف الهدوء واجهنا دائماً خطر انزلاق الجليد تحت خيمنا ونحن نيام. لذا اضطررنا الى النوم بكل ثيابنا مستعدين لمغادرة الخيمة لدى أدنى اشارة.

كانت أكياسنا أكثف ما صنع، إذ غلفتها طبقة ليفية عازلة بسماكة ٣٦ سنتيمتراً. ومع ذلك مضت ساعات من الارتجاف والتململ قبل أن تبث أجسادنا دفئاً كافياً جعل حرارة الاكياس مريحة. ومرّ الليل بارداً يكاد لا ينتهي.

استغرق تحضير طعام الفطور في اليوم الثاني أكثر من ثلاث ساعات. أنبأنا مانتل أن السائل تجمد داخل ميزان الحرارة المعلق على مزلجته. كان الميزان مرقماً الى ٧٠ درجة مئوية تحت الصفر، لكن الحرارة انخفضت دون ذلك. وقبعنا نسعل في غمامة من دخان الموقد منتظرين ظهور شعلة صفراء تحوّل الثلج مياهاً غالية نحضر بها وليمة من دقيق الشوفان. وأخيراً، بعد ساعة، نفث البخار من الوعاء.

أمضينا أربع ساعات ذاك الصباح، قطراً وجذباً وسحباً ورفعاً ودفعاً ولعناً، لنقطع مسافة ٨٠٠ كيلومتر. كان الصقيع غادراً. وغطت أقنعتنا ولحانا طبقة كثيفة من الثلج المتكثف من اللهاث المرهق. واستطعنا نحن والكلاب دفع المزالج بضعة امتار قبل التوقف من جديد.

عرضت خطة رسمتها خلال الليل: نخفف ١١٥ كيلوغراماً عن كل مزلجة ونرتحل مدة يومين، ثم تعود مزلجتان لاستعادة الحمولة المتروكة فيما يشق الرفقاء الآخـرون طريقـاً الى محطة متقدمة.

أيقن الجميع عدم توافر أي خيار آخر. ولكن مع مرور النهار أسفر تخفيف حمولتنا عن تقدم ضئيل، فما زال دفع كل مزلجة يتطلب سبعة أفراد. واستسلمنا ليوم آخر من النتائج اليائسة وبذلنا أقصى جهدنا، فلم تنقلنا ثماني ساعات من الكفاح الشاق سوى كيلومترين.

صباح اليوم الثالث اكتشفت الاذى الذي حلّ بنا بفعل الصقيع. كان برنت بودي (٣١ عاماً)، وهو كندي خبير بقيادة الكلاب، يجفل من الالم حين يمسك بأسلاك المزلجة.

أما روبرت ماكيرو (٣٧ عاماً) فهو من نيوزيلندة ويعمل مدرباً على مهارات القفار وله خبرة في القطب الجنوبي، وقد كسر أنفه أثناء أحد التمارين اذ اندفعت مزلجته فوق تلة شديدة الانحدار فتورم أنفه والتوى وغطته طبقة شنيعة من اللحم الميت فاسودّ بفعـل الصقيع الشديد. لكن المذهل أن الالم لم يوهن نشاطه واندفاعه. والحقيقة أن أحداً لم يتذمر من البرد أو من الظروف المزعجة.

خففنا ٤٥ كيلوغراماً أخرى عن كل مزلجة ذاك النهار وجعلنا معدل الحمولة ٤٥٠ كيلوغراماً. واقتضت خطتنا التقدم يوماً آخر قبل استرجاع المؤن. لكن ذلك لم يؤثر الاّ قليلًا في تقدمنا.

قطعنا ثلاثة كيلومترات خلال ست ساعات. وظهرت على بول وبرنت وماكيرو أعراض الانفلونزا بسبب الاجهاد والتزام حمية غنية بالدهن، فعانوا غثياناً وألماً في المعدة واسهالا، وهذه أسوأ الأعراض. أما جيف كارول (٣٥ عاماً) وهو عالم بالحياة البرية في منطقـة القطب الشمالي فمضّه ألم مبرح في أربع أصابع اسودّت بفعل قضم الصقيع وكانت كلابه تعقد الحبال فاضطر باستمرار الى خلع قفازه الدافىء السميك والعمل بقفاز رقيق لفك العقد المتشابكة.

وأما بوب مانتل (٣٣ عاماً) الرفيق الامين في رحلات سابقة، فقد حلت به مصيبة غير متوقعة. لقد تسرب الثلج والجليد داخل أحذيتنا المصنوعة من جلد الموظ، لكن حذاء مانتل بلي لذا أبدله بجزمة من جلد الفقمة لعلها تؤمن دفئاً أكثر. واذ أمضى النهار منتظراً تقدم المزالج التي تسبقه خدّر الصقيع أصابع قدميه وعقبيهما فخاف أن تتجمد. وتنبه الباقون الى الأمر فأخذوا يضحون بوقت النوم لرتق أحذيتهم البالية في ساعات الليل.

بوابة الجحيم

في اليوم الرابع تفرّق طاقمنا، فتوجه نصفنا شمالاً وعاد النصف الآخر لاسترجاع

المؤن. اتفقنا على اللقاء في المخيم قرابة منتصف الليل. بلغنا اول طبقة جليدية رقيقة ذاك اليوم. كاد برنت يقضي وهو يجتاز ثغرة ضيقة تبلغ سماكتها سنتيمترين ونصف سنتيمتر.

كنا نسمع دمدمة مخيفة ومنتظمة تحت الجليد، لكننا لم نشعر بأي حركة. وألمحت ألواح الجليد المتقلقلة الى جبروت المحيط.

وصلنا الى امتداد واسع من كسارة الجليد فشققنا طريقنا خلاله لثلاث ساعات. دعوناه "بوابة الجحيم." وللمرة الاولى حالفنا الحظ اذ اجتزنا كسارة الجليد سريعاً. وانبرت أمامنا صفحة فسيحة من الجليد الاملس غير المكسر. وعززت هذه الواحة ايماننا استعداداً للتحدي التالي.

اليوم الخامس كان الأشقى. قررنا دفع المزالج بحمولتها الكاملة فأمضينا النهار ومعظم الليل في اجتياز "بوابة الجحيم" ووصلنا الى طرف الواحة الملساء. أخيراً لجأنا الى خيمنا في الثانية فجراً بعد ١٤ ساعة من العناء.

في الصباح أرسلنا عضوين من الفريق على مزلجتين لاسترجاع العدّة المتروكة. وحمّل الباقون المزالج الاربع نصف الذخيرة المتبقية وزنتها نحو ٨٠٠ كيلوغرام، وأمضينا النهار ندفع مسافة ١١ كيلومتراً.

اظهرت هذه المحطات أننا أمام مجازفة واضحة ومدروسة. فقد انتشرت المؤن على مساحة كبيرة وباتت عرضة لأن تطمرها عاصفة أو تخربها الدببة القطبية أو تبعثرها ألواح الجليد المنزلقة. ولحسن الحظ أن الدببة نادرة شمال ايلزمير، وإن نكن تسلحنا ببندقيتين. كما أن البرد القارس ثبّت ألواح الجليد. ولكن قد تهب عاصفة ثلجية أو يحصل ابيضاض قطبي(٢) فتطمس آثار المؤن، لذا علّمناها بعصي التزلج ووضعنا على الاطراف أكياس قماش من علب طعامنا، ووصلناها بأسلاك قصيرة ربطت بها قطع قماشية زاهية الالوان.

مساء ١٣ (آذار) استعملنا للمرة الاولى مواقد صغيرة تشتعل بالخشب عوض الغاز.

ابتهجنا لاشتعال المواقد. غمر الدفء خيمنا وجفت ثيابنا واحتفلنا بالامسية. وعلت فرقعة الفشار (بوب كورن) فوق المواقد، وتلاشى الانقباض الذي كبّل أجسادنا وعقولنا.

عندما انطفأت الجمرات الاخيرة طرحنا المواقد خارج الخيم وغصنا في أكياس النوم. وللحال تحولت خيمنا جليداً قارساً وغطاها ظلام الليل القطبي القاتم.

القناة الكبرى

في ١٥ مارس (آذار) وهو اليوم الثامن، كنا اجتزنا ٨٠ كيلومتراً في رحلتنا البحرية أي عشر المسافة الى هدفنا. وبعد الظهر عبرنا سلسلة من التلال الى سطح أكثر ثباتاً، فاسترحنا بعض الوقت في انتظار آن وجيف. وبينما كنا نرشف الشاي متلاصقين لننعم بمزيد من الدفء شعرنا بالجليد يصرّ ويئن، ثم

(٢) الابيضاض القطبي ظاهرة تمتزج فيها الارض المغطاة بالثلج بالسماء والافق فيضيع كل حس بالعمق والاتجاه والمسافة.

بدأ يتململ باعثاً دمدمة منتظمة متسارعة. رفعت الكلاب المتمددة على الجليد رؤوسها مذعورة. ثم سمعنا من تلة قريبة صوتاً كريح سريعة. أخذ الجليد يتزحزح ويهتز تحت أقدامنا مثل زلزال. عدونا نحو قمة قريبة وشاهدنا الهزة تتمخض عن قمة جديدة ارتفعت ١٢ متراً الى شرقنا.

كان جيف وآن يحضران المزلجة الاخيرة عبر تلة الى السهل حين حدثت الهزة. وعندما شعرا بتزحزح الجليد تحتهما عبرا الى التلة وتسلقاها سعياً الى الامان. ثم اكتنفتهما الروعة لدى رؤيتهما آثار مزلجتهما في الطرف الآخر من التلة تتزحزح تسعة أمتار نحو الشرق.

تمتم برنت: "لا بد من أننا نلج نطاق المقصّ(٣)" وغمرت الجميع موجة من التوتر.

طالما تساءلنا خلال فترة التدريب كيف سيلعب بنا القدر في هذا الجزء من البحر القطبي حيث تلتقي ألواح الجليد المجروفة من عرض البحر ألواحاً التصقت بالشاطىء. ويحرك نطاق المقصّ سهلاً جليدياً واسعاً موازياً للشاطىء على بعد يراوح بين ١٥ و٨٠ كيلومتراً تبعاً للسنة. وفي بعض السنوات يشمل حزاماً مائياً يدعى قناة(٤).

تصاعدت أصداء التاريخ في أفكارنا ونحن نثبت مخيمنا بسرعة ونرجع مزلجة لاحضار المؤن المتروكة قبل أن يتزحزح ممرنا أكثر. وتوجهت أفكارنا الى روبرت بيري ومساعده ماثيو هانسون. لقد انحرفا نحو الشرق وكادا يغرقان قبل أن يعثرا على الشاطىء الشمالي لجزيرة غرينلند. وخلافاً لوضعنا لم يملكا جهازاً لاسلكياً لطلب النجدة عند الحاجة ولا وسائل جوية تعيدهما الى موطنهما. وكانت رحلتهما ذهاباً واياباً، أما رحلتنا فذهاب فقط.

تمددت ذاك المساء داخل كيسي مصغياً الى الجليد الجبار وهو يدمدم ويتهشم من حولنا، ولكن مع الصباح خمدت الحركة أو كادت. ارتفعت معنوياتنا وابتهجنا لأن نطاق المقص بدا معتدلا تلك السنة. وفي وقت متقدم بعد الظهر أفرغنا حمولتنا في موقع التخييم وعدت مع جيف ومانتل لنقل بقية الذخيرة بينما أكمل الرفقاء سيرهم شمالا. ثم عادوا باسمين.

هتف برنت: "أخبار رائعة. تمتد أمامنا كيلومترات من الجليد الاملس." لقد شكل الجليد جسراً فوق "القناة الكبرى" بسماكة ٣٠ سنتيمتراً.

يا لمتعة الابحار في المحيط القطبي ومجاراة الكلاب الثائرة. في أقل من ساعة صباح اليوم التالي اجتزنا أكثر من ستة كيلومترات ووصلنا الى الحمولة التي تركها الفريق المتقدم. هناك أعدنا تحميل كل شيء. وللمرة الاولى منذ تلك الساعات اليائسة بعد مغادرة مخيم دريب كانت رحلتنا في اتجاه واحد: نحو القطب.

وداع حزين

بعدما تغلغلنا في نطاق المقص بدا واضحاً، وأسفاه، أن الجليد أمامنا يشبه

(٣) The shear zone

(٤) Lead . وهي قناة عبر حقل جليد.

تماماً ما قطعناه وربما أسوأ. والواقع أننا صادفنا تلالا مضغوطة ارتفع بعضها ١٨ متراً فوق السهول حتى كادت مزالجنا تنقلب عنها. وتدحرجت احدى المزالج فوق ماكيرو وصدمت قفصه الصدري. فشعر بمزق في العضل أو الغضروف لكنه لم يكترث للأمر حينذاك على رغم حدة الالم.

أصبح جلياً أن الرحلة بمجملها ستكون محنة طويلة وقاسية. وهزت صعوبة المراحل معنوياتنا. وبات مزاج الفريق يترجح وفق تقلبات الطقس والجليد، لكنه ازداد تشاؤماً.

قضمات الصقيع شوهت الجميع فبدوا أبشع مما مضى. وقال لي جيف اني قد أفوز بجائزة أبشع وجه اذا أجريت مباراة لذلك.

حظينا ببعض الراحة ليوم ونصف يوم عندما ألزمتنا عاصفة ثلجية عنيفة البقاء داخل خيمنا. بلغت برودة الثلج العاصف والريح القارسة نحو ٩٥ درجة مئوية تحت الصفر وانعدمت كل الروابط مع الفضاء والوقت. ونامت الكلاب آمنة تحت الثلوج.

في اليوم السابق، أي اليوم ١٦، زاد ماكيرو مشكلة أضلعه الملتهبة اذ حاول تقويم مزلجة منقلبة، وأخذ يعرج محاولا مجاراتنا. وأخيراً، في صباح اليوم ١٩، أعلن دامعاً أنه مضطر الى الانسحاب من الرحلة. وتفاقمت اصابته مع كل خطوة وتعاظمت نوبات الالم فلم يعد يتحملها. وإذ عجز عن المساعدة في دفع المزالج شعر بأنه يعيق تقدم الفريق.

خلال التخطيط للرحلة، التمسنا أنا وبول أفضلية حاسمة لم تتوافر لبيري. فقبل عصر الطيران كانت القاعدة الذهبية لدى مستكشفي القطب تجيز إطعام الكلاب القوية لحم الكلاب الضعيفة خلال الرحلة. أما نحن فلم يكن هذا خيارنا. فكلابنا ثمينة جداً. لذا قررنا الحصول على كلاب إضافية تنقل جواً حين تخف حمولتنا. وكان موعد وصول الطائرة الاولى بعد بضعة أيام، وفي وسع ماكيرو أن يعود فيها.

أحزننا قراره ووهنت معنوياتنا خلال الايام التالية. وكان جيف مصدر تفاؤلنا الدائم، لكنه قال: "أشعر للمرة الاولى بأننا قد لا ننجح."

ومع اليوم ٢٢ عكس بطء خطواتنا توتراً لدى الآخرين. لقد اجتزنا حوالى ١٦٠ كيلومتراً خلال ثلاثة اسابيع. ذاك المساء صارع بول نوبة شديدة من الحنين الى زوجته وابنته. كان هو وسائر الآباء الثلاثة في الرحلة، ماكيرو وجيف وبرنت، يعانون من حين الى آخر شعوراً واخزاً باللامسؤولية بسبب ابتعادهم عن عائلاتهم.

كان نهار آن بانكروفت شاقاً أيضاً. انها مدرّسة رياضة بدنية ومتسلقة جبال في الثلاثين من عمرها، لكنها لم تختبر الرحلات القطبية سابقاً. أمسكت زمام كلابي في الصباح بينما مشيت أمامها. وفي أحد المواقع سقطت على الجليد فأسرعت لمساعدتها. واذ دفعنا المزلجة الى الامام ترقرقت الدموع من عينيها. كان أملها بالنجاح كبيراً. فهي أصرت على تحقيق هدفها لرضاها الذاتي ولتمثيل المشاركة النسائية في الرحلات الكبرى.

بات ماكيرو عاجزاً عن المشي. ومن حين الى آخر كان يسعل ويخرج بلغماً أصفر مما أشار الى أذى أصاب رئتيه.

في اليوم ٣٣ كان يمشي أمامي مثل "أرنب" يحض الكلاب على الانطلاق. وعندما أدركته توقف واستدار الي. شعرت بالشفقة عليه وأنا أتأمل وجهه المتجلد.

تقدمت منه وعانقته وأجهشنا بالبكاء: "لا أريدك أن ترحل،" قلت ناشجاً وتعانقنا بصمت.

ارتفعت معنوياتي بعدما غمرني الأسى. كنا في حاجة الى هذه اللحظة من الارتباط الذي يعزز العلاقات الانسانية وسط الجليد. لقد أبعدتنا الشدّة والضيق. وفي تلك البرهة الوجيزة استمددنا قوة منحتنا عزماً وراحة ذاك النهار.

في الصباح التالي كانت الاجواء ما زالت كئيبة. عملت أنا وبول على حض الآخرين، وكان ماكيرو هو من أوقد شعلة الحماسة من جديد. فهو أزال الشكوك في فرص فوزنا. وعلى رغم انفصاله أيقن أننا سننجح في الوصول الى القطب.

وصلت الطائرة في اليوم ٣٦ الثاني من ابريل (نيسان). رافق الطيار فريق صغير من الصحافيين ومندوبي الاذاعة والتلفزيون. من ناحية، اعتبر هؤلاء جزءاً من الطاقم المساند للطيار، كما أن تغطيتهم للأحداث ستؤكد صحة وثائق الرحلة. ومعلوم أن عدم توافر وثائق حسية هو ما جعل اعلان بيري وصوله الى القطب عام ١٩٠٩ موضوع جدل وارتياب.

ظهرت علامات الصدمة على وجوه الصحافيين وهم يحدقون الى مظهرنا السخامي المنتفخ المتقرح. بددت أنا وبول قلقهم بتصريح تفاؤلي، اذ أخبرونا بانتشار اشاعات مفادها أن فرص نجاحنا ضئيلة. وحاول ماكيرو تغيير نظرة الصحافيين بحديثه الحيوي المتفائل، لكنه اكتشف أن بعضاً من انصارنا فقدوا الأمل أيضاً.

جسر من جليد

أصبحنا الآن سبعة أشخاص و٤٩ كلباً نكافح جميعاً للوصول الى قمة العالم. أحسنّا التقدم خلال ساعات "الليل" معتمدين الشمس لترسم مسلكنا نحو الشمال.

وبصفته بحاراً متمرساً واظب بول على قراءة مواقع الشمس يومياً بآلة السدس (٥) وتحديد نقاط على خريطته في الخيمة مساء. ومن باب الوقاية حملنا مرشداً لاسلكياً ينقل تحركاتنا ومواقعنا الى قمر اصطناعي يبثها الى قاعدتنا الرئيسية في حال تعطل الجهاز اللاسلكي أو في حال حدوث طارىء. لكننا اعتمدنا طوال الرحلة ملاحة بول اليدوية، وهي أسلوب تقليدي يحفظ للرحلة روحية حلوة.

اقتضت خطتنا، كخطة بيري، "ضربة" أخيرة. في العام ١٩٠٩ قلّص بيري فريقه الاساسي من ٢٤ رجلا و١٣٣ كلباً الى ٥ مرافقين و٤٠ كلباً. وأكمل هذا الفريق طريقه من خط العرض ٨٨ على بعد ٢٢٥ كيلومتراً من القطب. والسرعة التي سجلها، ومعدلها ٤٢ كيلومتراً في كل مسيرة، هي محور جدل ما زال يثير الشوك حول ادعائه أنه حقق هدفه. ويصرّ

(٥) Sextant . وهي آلة لقياس ارتفاع الاجرام السماوية من سفينة أو طائرة متحركة.

مناقضوه على أن تحقيق هذه السرعة على الجليد في يوم واحد أمر مستحيل. ولكن كان علينا نحن تحقيق هذا النوع من تخطي المسافات.

قررنا أيضاً انزال "ضربتنا" عند خط العرض ٨٨ ومباشرة التحضير للرحلة الجوية الثانية لنقل الكلاب وموعدها ٩ أبريل (نيسان) أي اليوم المتوقع لوصولنا الى خط العرض ٨٦. بعد هذه النقطة استلزمت خطتنا اجتياز مسافة ٣٢ كيلومتراً في ١٢ ساعة وتعجيل خطانا مع تخفيف حمولتنا يوماً بعد يوم والوصول الى القطب مع نهاية ابريل (نيسان). انها معادلة ذات عنصرين: الكلاب والوقت. تجب المحافظة على كلابنا الواحد والعشرين في حال سليمة. فاذا وهنت قواها قبل وصولنا الى خط العرض ٨٨ فستتزعزع ضربتنا. واذا نفد الوقت وعجزنا عن سباق الطقس الربيعي الآتي، فسيذوب الجليد.

بعد ظهر اليوم ٣٠ اعتدل الطقس وارتفعت الحرارة الى ٣٤ درجة مئوية تحت الصفر. صاح برنت الذي كان يشق المسلك أمامنا، أنه توقف بسبب قناة مفتوحة. تقدمنا جميعاً وحدقنا الى سهل من المياه البرونزية امتد في طريقنا. انها ثغرة ضيقة لا يزيد عرضها على ثلاثة أمتار ونصف متر لكنها تتسع ببطء.

توجه ريتشارد شرقاً وتوجهت أنا غرباً بحثاً عن معبر لكننا لم نوفق. وفي هذه الاثناء شرع بول في بناء جسر بدحرجة كتل جليدية كبيرة الى الثغرة وتثبيتها بعضها الى جانب بعض. وشاركه الباقون حتى حصلنا على كتلة هائلة عائمة من الكسارة مرصوفة بإحكام بين جانبي الثغرة.

أدنينا مزلجة برنت باعتناء من الجسر. كنا في غاية الاثارة، فهذه مجازفة خطرة. وتملكنا التوتر لأن أدنى خطأ في التقدير سيؤدي بالمزلجة الى المحيط. شعرت الكلاب بالخطر فخطت برشاقة من كتلة الى أخرى فيما برنت يقودها الى الجانب الآخر، وهناك رتبها في موقع ملائم لجرّ المزلجة عبر الجسر. ثم عبرت المزالج الاخرى تتابعاً.

مخيم اليأس

في ١١ ابريل (نيسان)، اليوم ٣٥، وصلت الطائرة الثانية ناقلة ٢١ كلباً. لقد بلغنا الآن أسوأ أنواع الطقس القارس والجليد المتراكم. قصرنا طول مزالجنا الثلاث المتبقية الى ثلاثة أمتار ونصف متر أي نحو ثلاثة أرباع طولها الاصلي، وحمل كل منها ٢٧٠ كيلوغراماً. هكذا بات لدينا ثلث الحمولة وأقل من نصف عدد الكلاب منذ مغادرتنا مخيم دريب. ومع ذلك ما زال القلق مستتباً. فالمزالج الثلاث الباقية تحمل ٦٨ كيلوغراماً أكثر مما كانت تحمل قبل وصول الطائرة، وستجرها فرق أصغر من الكلاب أُحسن إطعامها لكنها تفتقد الى الحيوية.

تابعنا السير نحو الشمال. وغطى المنطقة غلاف سميك مما سميناه "الثلج الربيعي" الذي يشبه الرمل الخشن ويصعب دفع المزالج فوقه.

عندما أرغمت فرق الكلاب على التوقف أعدت أنا وبول ترتيب مواقع أعضاء الفريق آملين توزيعاً أفضل للقوة.

واصلنا المسير لساعات واجتزنا بضع مئات من الامتار. وأدركت من نظرات رفاقي الذاهلة أننا توصلنا الى الاستنتاج نفسه: لن نصل الى القطب ابداً.

بحثت أنا وبول في الوضع ونحن قابعان خلف مزلجتنا. اتفقنا على أن الفرصة الوحيدة لنجاح رحلتنا هي في تقليص أعضاء الفريق الى شخصين مع أفضل كلابنا لتكفي المؤن المتبقية حتى مايو (أيار) أو يونيو (حزيران). ولكن كيف نذيع الخبر على الآخرين؟

سبق أن أوضحنا للرفقاء قبل بداية الرحلة انه اذا تعسرت الامور جداً فسيطلب من بعض الافراد الانسحاب. واذا لزم ابقاء عضوين فقط لاكمال الرحلة فالافضلية هي لي ولبول. وسلّم الجميع بذلك قبل أشهر. ولكن الآن، بعدما عانوا مشقات الطريق، فهل سيوافقون؟

نظرت الى الوراء. لم تكن المزالج تتحرك. كان جيف يمشي مجهداً نحونا. وقال لاهثاً: "نود عقد اجتماع. لا يمكننا الاستمرار على هذا النحو."

هززت أنا وبول رأسينا موافقين. نصبنا الخيم ثم احتشدنا داخل إحداها، تلك التي دعوناها لاحقاً "مخيم اليأس."

افتتح بول الاجتماع قائلا: "من الواضح أن مزيداً من هذه المشقات سيحول دون وصولنا الى القطب. نحن نحتاج الى خطة فورية وطويلة الأمد."

دهشت أنا وبول حين تقدم برنت بالعرض الذي كنا نفكر فيه. اقترح توفير مؤن كافية لثلاثة أشخاص وفريق كلاب واحد لتحقيق الهدف النهائي. وأومأ مانتل وجيف برأسيهما موافقين.

بعد الفطور في الصباح التالي التقينا في اجتماعنا الثاني. شعرت بأن الوقت حان لتوضيح عرض "فريق الطوارىء" واقتراح وضع طعام في "المصرف" لهذه المحاولة. وأجمع الرفقاء على الاكتفاء بشخصين، وهذا يعني بالطبع أنا وبول. ولتهدئة مخاوفهم من أننا تخلينا عنهم اقترحنا توفير مؤن لثلاثة أشخاص.

وجد الجميع خطتنا مقبولة. ولكن اذا أكملنا بثلاثة أعضاء فمن سيكون الثالث؟ سيكون جيف أو مانتل أول رجل من الاسكا يصل الى القطب. وبرنت من التخوم الشمالية الغربية الكندية التي قدمت دعماً عظيماً الى المشروع. وريتشارد كندي أيضاً، وهو متزلج ممتاز وقد نحتاج الى سرعته. أما الأهمية التاريخية لرحلتنا فقد تكون ببقاء آن إذ انها الامرأة الاولى التي تشق طريقها الى القطب.

كنا على وشك فضّ الاجتماع حين أعلن مانتل: "إن استطعتم تدبر الامر فأنا أفضّل الانسحاب الآن. أشك في أن قدمي ستقودانني الى القطب، فأنا لا أستطيع التزلج ٥٠ كيلومتراً في اليوم الواحد."

منذ ارتدائه الحذاء المصنوع من جلد الفقمة في بداية الرحلة قاسى مانتل قضم الجليد في أصابع قدميه.

وبينما انصرف الباقون الى مهماتهم الروتينية أخذت أنا وبول مانتل في نزهة لاكتشاف حقيقة شعوره. وقد أظهر قلقاً شديداً من أن طلب طائرة أخرى سينعكس خسارة وزيادة في الديون. فأكدنا له أن اهتماماته هي في الطليعة. وعندئذ أقر بأنه يرغب في بذل أي جهد أو تضحية في سبيل نجاح الرحلة. وخنق



ريتشارد يقطّع مزلجة لاستعمالها وقوداً بعد تخفيف الحمولة.

الأسى صوته لكني أعتقد أنه استراح. وأجرينا الترتيبات اللازمة، وغادرنا مانتل في اليوم ٤٠.

الحاسة السادسة

بعد يومين من مغادرتنا مخيم اليأس انطلق جيف متزلجاً للمرة الاولى. واعترضته ثغرة عرضها متران. انعطف الى الشرق بينما توجه بول غرباً باحثاً عن معبر. وعلى بعد ٤٠٠ متر اكتشف بول أن الثغرة ضاقت الى متر، فأشار الى آن لتأتيه بفريق الكلاب الأول.

لدى الاقتراب من الحافة أخذت آن تلاطف الكلاب الفزعة لتقفز فوق الثغرة. فجأة انهار الطنف الثلجي حيث وقفت فغاصت في المحيط الى خصرها. جاء رد فعلها سريعاً اذ فتحت ذراعيها مستندة الى جانبي الثغرة وخرجت من الماء. وأسرع بول بالكلاب الى بقعة آمنة وأخذ يبعثر الاغراض بحثاً عن ثياب جافة.

خلال دقائق بدلت آن ثيابها وجواربها وعادت الى العمل لتستعيد حرارة جسمها.

في يوم رحيل مانتل اجتزنا بضعة كيلومترات بسهولة في طقس صفا طوال الصباح، ولكن بعيد الظهر صعقتنا الحقيقة ثانية. لاح أمامنا جدار من الجليد المتراكم بدا في هول "الجدار العظيم" في الصين. امتد حوالى ثلاثة كيلومترات. وخيمنا في منخفض منبسط تحته بعدما قطعنا ١٩ كيلومتراً ذاك النهار.

بقيت فكرة "فريق الطوارىء" تقلقني أنا وبول. منطقياً، ما من حسنات لابقاء عضو ثالث، فقد يتمكن شخصان من التنقل بسهولة وفاعلية أكثر. وأخيراً استنتجت أنه ما دامت المسألة تمزق الفريق فالغاء العضو الثالث هو التصرف الافضل.

دعوت الى عقد اجتماع لعرض اقتراحي. غضب برنت وآن وسخط

ريتشارد. حتى جيف الهادىء انفجر غاضباً وقال انه "مستميت" للوصول الى القطب. أما ريتشارد فلم يفتش عن عبارات لائقة بل قال: "هذه الخطة مقرفة. وما من قوة تركبني الطائرة." واعتبر الاقتراح تغطية لما سماه "مكيدة ستيجر وشورك" التي تقضي بوصول شخصين فقط الى القطب. وألحّ في طلب اسقاط خطة "فريق الطوارىء" واخراج المؤن المخزونة من "المصرف". تجادلنا طويلا ثم قررنا ابقاء الامور على حالها يوماً آخر.

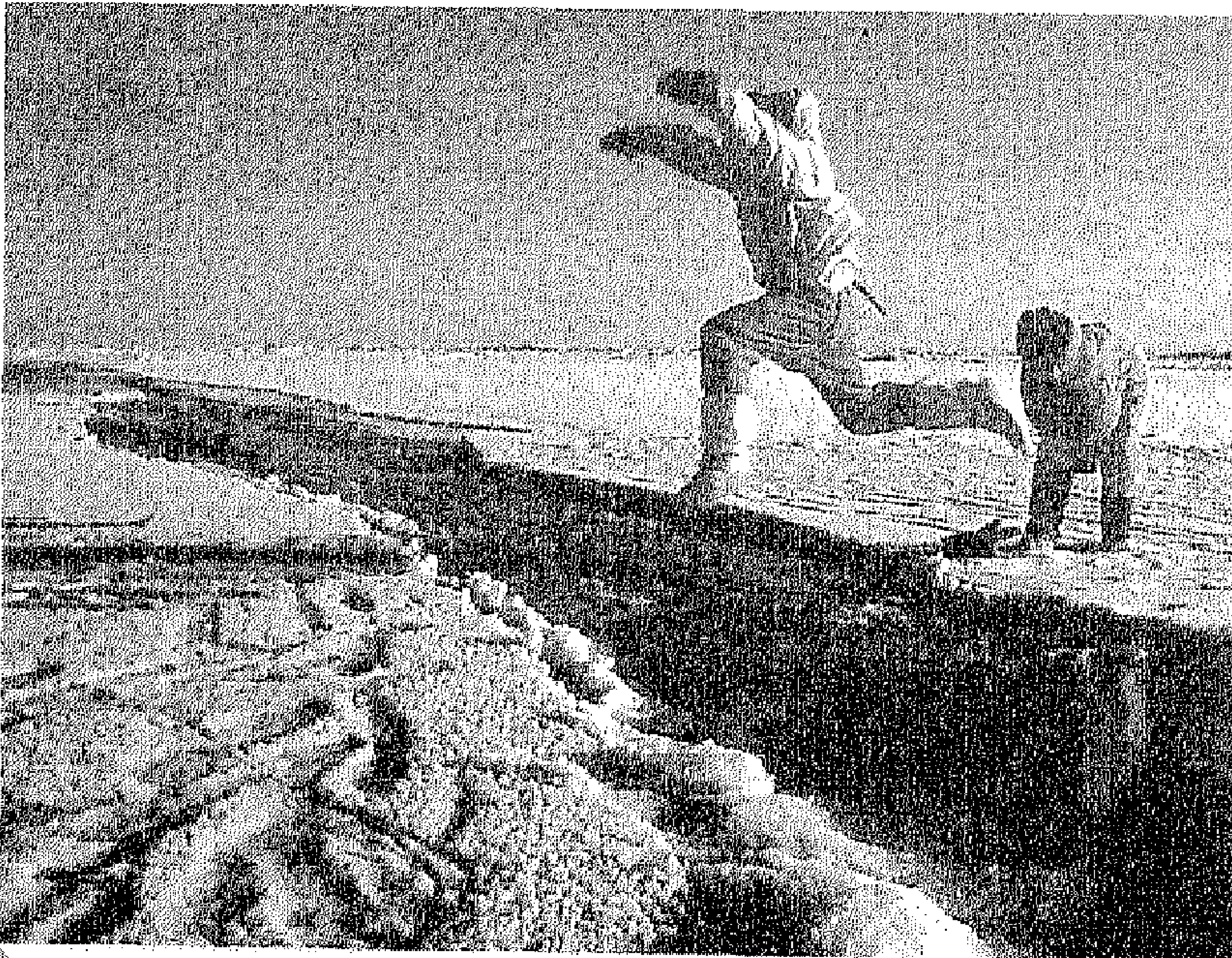
أعاقتنا الانجرافات البطيئة والتلال المتفتتة القديمة. كان جيف يتقدمنا مستكشفاً، وازدادت خيبته إذ بدا اننا نغوص أكثر فأكثر في متاهة من التلال المتقاطعة. وفي وقت متقدم بعد الظهر انحرف جيف شرقاً من دون سبب ظاهر. كنا ندرك أن الكشاف يعتمد أحياناً نوعاً من الحاسة السادسة حين يحاصر. ومع ذلك رحنا نتساءل عما به ونطرح تعليقاتنا الشخصية الناقدة.

راقبنا جيف يتقدم في الطريق. تسلق قمة عالية ثم تأمل الافق وبدأ يلوّح بذراعيه باهتياج. لحقت به أنا وبول فلم نصدق ما رأيناه: على بعد مسافة قصيرة شرقاً قناة كبيرة متجلّدة امتدت غير متناهية نحو الشمال.

سألت جيف: "كيف عرفت أنها تقع هنا في الشرق؟"

أجاب هازاً كتفيه: "انه مجرد إحساس."

أسرعنا بالمزالج الى "الشارع" الجليدي الاملس وانطلقنا شمالا بسرعة راوحت بين ستة وثمانية كيلومترات في الساعة. وكتبت آن في يومياتها: "ابتهجت قدماي الصارختان." وراح بول وريتشارد يعرضان مهارتهما في التزلج



جيف يقفز الى الجانب الشمالي من القناة.

وينزلقان في دورات من ٣٦٠ درجة على السطح الجليدي. وبعد بضعة كيلومترات وصلنا الى شق من المياه الضحلة. بلغ عرضه أربعة أمتار. استكشفنا المكان وعثرنا على موقع ضاق فيه الشق الى مترين، فوثب ريتشارد الى الجهة الاخرى.

ربطت حبلا بفريق كلابي ورميت الطرف الآخر الى ريتشارد، فسحبه ريتشارد فيما دفعت المزلجة الى الامام. وغطست الكلاب في الماء واحداً تلو الآخر.

كانت آن الاخيرة في اجتياز الممر. رمقت المياه بعصبية متذكرة غطستها الاخيرة. وبعد ركض تحضيري عَدَت نحو الشق وقفزت فوقه، ثم رفعت قبضتيها وراحت ترقص فرحاً. ابتهجنا جميعاً لفوزها.

في الصباح التالي غطى المنطقة ابيضاض كثيف. كان أملنا الوحيد للمضي في هذا السديم هو امتداد القناة شمالا الى ما بعد الجزيرة فتمنحنا مسلكاً مرئياً. وانطلق بول وريتشارد على زلاجاتهما للاستكشاف.

عادا بعد ساعات حاملين أخباراً سارة: امتدت القناة الى الشمال والشمس متقدة بين الغيوم. وللحال تلاشت حزازاتنا التافهة وحل مكانها شعور بالحماسة والتحدي. سحبنا المؤن من "المصرف" وأجرينا جردة سريعة ووضعنا برنامج طعام جديداً لنا وللكلاب. واتخذنا قراراً حاسماً: سنذهب جميعاً الى القطب.

ما الأمر؟

بعد ظهر اليوم ٤٥ كنا نعبر طبقة جليدية حديثة تتخللها قنوات صغيرة.



استخدم الفريق كتلة جليدية عائمة لعبور القناة.

وكانت القطع الجليدية تنجرف ببطء. في ذاك اليوم انشق مجرى مائي بلغ عرضه عشرة أمتار وانحرف شمالا شرقاً. وأملا بالعثور على معبر أكملنا المسير عبر حافة المجرى بضعة كيلومترات، لكننا اضطررنا الى التوقف اذ انعطف الى أقصى الشرق. وتسمرت عيوننا في كتلة جليدية متراصة تبعد خمسة أمتار عائمة على سطح القناة قرب المنعطف.

بسط برنت يده ونخس الكتلة برمح صيد كان يحمله لجسّ الممرات. كانت الكتلة قابلة للطفو. قفز بول وريتشارد اليها وراحا يجذفان برفش الثلج وقادا الكتلة بلباقة الى الجانب الاقصى حيث نزل ريتشارد لربط حبل. وسحبنا الكتلة ثانية وأصعدنا اليها فريق كلاب ومزلجة.

توليت أنا وآن تتبع ذلك الطوف الجليدي المترنح بآلات التصوير. كان حدثاً مثيراً ومسلياً. لقد تعلمنا هذه التقنية من رواية بيري.

في ٢٢ ابريل (نيسان)، اليوم ٤٦، كنا نقترب من درجتي العرض الاخيرتين وهما المرحلة النهائية لمستكشفي القطب. في اليوم التالي قطّعنا احدى مزالجنا الثلاث لنلقيها في النار. وانطلقنا في سباقنا السريع في اليوم ٤٨ محرزين تقدما بارزا:



٤٠ و٤٨ و٥٦ كيلومترا في ايام متتالية. وتوقعنا بلوغ القطب بعد اسبوع. لكن بول واجه صعوبات في آلة السدس التي جاءت قراءاتها متناقضة. وبدأنا نفقد القدرة على الاحتمال. انحرافنا البسيط في بداية الرحلة لم يؤثر فينا كثيراً، أما الآن فعلينا أن نتأكد من صحة توجهنا نحو القطب. فالانحراف بضع درجات سيكلفنا المزيد من الكيلومترات.

أخيراً في اليوم ٥٣ قرر بول اعتماد سلسلة من التخمينات الشمسية بعدما أربكته القراءات المضللة المتكررة. وبعد ٢٠ دقيقة من الجهد أذاع الخبر اليقين. حددت الآلة موقعنا على خط العرض نفسه كما في اليوم السابق. وقال بول مكتئباً: "هناك خطأ ما، فإمّا أننا شردنا عن المسلك واما أن آلة السدس لا تعمل على نحو صحيح." لم يكن في مستطاعه سوى فحص الآلة قطعة قطعة علّه يكتشف العطل. وإذ كنا عاجزين عن تقديم العون فقد نصبنا خيمنا ودببنا داخل أكياس النوم فيما تابع بول عمله.

فجأة خرق الصمت هدير فوق رؤوسنا. قبل أيام أنبأنا جيم غاسبريني، وهو عضو مساند في قاعدتنا في ريسوليوت، أن طائرة كندية عسكرية ستجري مناورات في ٢٩ ابريل (نيسان) وتحاول تحديد موقعنا. وسط لحظة القلق تلك كانت طائرة تناور فوقنا على علو منخفض لالتقاط الصور، فأدركنا أن مرشدنا اللاسلكي للطوارىء كان يعطي تحديداً دقيقاً لموقعنا.

وضع بول آلة السدس جانباً وسحب هوائياً وأدار جهاز الاتصال اللاسلكي. فسمعنا صوتاً واضحاً: "صباح الخير، كيف حالكم؟"

تردد بول قبل الاجابة وهتف بنا: "ما رأيكم؟"

فهمنا جميعاً قصده، ورأى عدد من الرفقاء أن عليه أن يستفسر. وكرر الطيار السؤال.

فأجاب بول بتأنٍ: "نحن بخير، ولكن هناك عطل بسيط في آلة السدس. ما هي احداثيات الموقع عندكم؟"

رد الطيار: "اني آسف، فمدير قاعدتكم أمرنا بعدم افشاء هذه المعلومات." ثم أحس بتوتر في صوت بول فأضاف: "أخبرونا أنكم لن تقبلوا أي مساعدة. هل غيرتم رأيكم؟"

صمت بول ثم اتخذ قراراً مصيرياً: "لا يا سيدي، سنتدبر الامر."

بدأ بول يرتاب في أن مشكلة آلة السدس تقع في رابط الفقاعة، وهو علبة مختومة تحتوي على مرايا وعدسات وفقاعة عائمة لتحديد أفق مستوٍ. رفع بول الغطاء الخارجي. لم يسبق له أن رأى رابط الفقاعة، لكنه كان يرجو اكتشاف قطعة في غير محلها. وهو اكتشف ذلك فعلاً. لقد تكثف جليد بين إحدى المرايا الدقيقة وبراغيها المرصوفة، فزاحت المرآة قليلاً عن موضعها وسببت قراءات مشوشة. ثابر بول طوال الليل على اصلاح الجهاز.

صحا الفريق على نبأ حل المعضلة. وحددت قراءات بول أننا على مسافة ٤٥ كيلومتراً من القطب. ولسوء الحظ تكثف الضباب حين انطلقنا من جديد، ولم يبق لدينا من دليل سوى البوصلة. حاول ريتشارد ضبطها مع الشمس ذاك الصباح، لكنه حذرنا من الاتكال عليها بعدما اندفعت نحونا كتلة سحابية.

مع مرور الساعات بات واضحاً أنه يصعب التوفيق بين وجهة البوصلة والتيارات الهوائية. ما من مجال لأي خطأ. تضاءلت المؤن الى أربعة كيلوغرامات ونصف كيلوغرام من طعام الكلاب وسبعة كيلوغرامات لنا. أخيراً توقفنا راجين أن نوفق بقراءة صحيحة على آلة السدس. لم يتلاش الضباب فنصبنا خيمنا. وأشرقت الشمس في الصباح فأجرى بول سلسلة من التخمينات. واحسرتاه! لقد انحرفنا غرباً خلال ست ساعات من المسير في الأمس، ولم نتقدم الاّ بضعة كيلومترات نحو الشمال. لقد جازفنا وأخفقنا.

لم نعلم الاّ في وقت لاحق أن وجهتنا الخاطئة جاءت لمصلحتنا. فخلال استكشاف جوي قبل أيام من تعطل آلة السدس، حدد الطيارون شبكة هائلة من القنوات تقع في مسلكنا تماماً. وفي ريسوليوت اطّلع جيم غاسبريني على مواقعنا التي حددها القمر الاصطناعي، وراقب بقلق اقترابنا من الثغرات المائية المفتوحة التي يبلغ عرضها أكثر من كيلومتر.

أعلم الطيارون جيم أن الطريق الوحيدة لتفادي القنوات تقع على بعد كيلومترات غرباً. وذهل جيم والصحافيون ومتتبعونا في الوطن حين كشفت صورة الرادار التالية أننا، بأعجوبة، غيّرنا اتجاهنا غرباً

حول القنوات قبل أن نصل اليها. "كيف تمكنوا من ذلك؟" تردد هذا السؤال في أذهان الجميع في ريسوليوت ذاك اليوم.

"اننا في القطب!"

كان ذلك في اليوم ٥٥ وموقعنا ٨٩ درجة و٣٨ دقيقة. وكما دونت آن في يومياتها: "لو كان هناك برج على القطب لرأيناه من هنا."

كان الجليد مسطحاً تتخلله قنوات ضيقة، فأنجزنا تقدماً بارزاً. في تلك اللحظات تبددت كل الهموم والتوترات والقلق على الطقس والمؤن وحلّ مكانها شعور هائل بالرضا والاقتناع. تغير مظهر الاجساد الستة المنهكة والنفوس المضناة. وباتت خطواتنا خفيفة ووجوهنا ضاحكة. أخذنا نثرثر مبتهجين ونمشي جنباً الى جنب كأطفال يلهون في متنزه. تأملنا بدهشة ملايين الظلال الزرقاء حولنا في حديقة من الجليد المنحوت تتألق بألوان لا تحصى.

نصبنا خيمنا في استراحة قصيرة وتناولنا العشاء في العاشرة "ليلاً". اننا على مسافة ١٦ كيلومتراً من القطب بحسب قراءات بول. وقرابة الثانية عشرة جهّزنا الكلاب. وبعد ثلاثة كيلومترات وصلنا الى النطاق الاكثر نشاطاً في رحلتنا. انفصلت الكتل الجليدية وشكّلت ثغرات هائلة يراوح اتساعها بين أربعة هكتارات وأربعين هكتاراً. انها بحيرات محيطية تدعى "بولينيا"(٦). وبلغت الحرارة ٤٠ درجة مئوية تحت الصفر.

قادنا بول بعيداً نحو الغرب متخطياً شبكة من البحيرات، ثم غاب عن أنظارنا في جولة استكشافية. اذذاك وصلنا الى شق اتسع ليكوّن قناة عرضها ثلاثون متراً. واذ وقفنا حائرين بدأ الجليد يتململ. وانغلقت أطراف القناة كجسر متحرك فأسرعنا عبره قبل أن ينفصل الجليد من جديد.

واصلنا السير بضع ساعات شاقين طريقنا في هذه المتاهة مسحورين بالمناظر الرائعة. زينت الشمسُ عقود من الانوار الباهرة التي تلاقت في قوس قزح منحنا أملاً طاغياً. بدت بقع المياه بركاً هادئة عاكسة. وغطت بعضها طبقة رقيقة من الجليد زينت سطحها "أزهار ملحيّة" ناعمة. ورسا امتداد من الرطوبة المتكثفة فوق المياه المتجمدة حديثاً فبدا كأوراق القيقب البيضاء أو كسعف السرخس تومض مع كل نسمة، وكالموشور جعلت السطح يتوهج ويلمع بكل الالوان.

كان الجليد ينزلق في كل اتجاه فيملأ الهواء هديراً منتظماً يقطعه دوي وصيحات وأنين عميق. قال جيف: "هذه أجمل لحظات حياتي." وأضاف: "إذا حالفنا الحظ فسنجد مهبطاً ملائماً على القطب تماماً."

كان ذاك تحدينا التالي: العثور على مهبط للطائرة في هذه المتاهة الواسعة. وبعد دقائق صادفنا امتداداً مسطحاً زاد طوله على كيلومتر. تبادلنا الابتسامات وتابعنا المسير متأكدين من عثورنا على ضالتنا. كنت مستعداً للسير الى الابد. ولحسن الحظ كان ريتشارد وبرنت أكثر تعقلاً وبدأا يقلقان من أننا قد نتجاوز القطب. أسرعا اليّ والى بول مصرّين على

(٦) Polynyas



أعضاء الفريق الستة (من اليمين: ريتشارد ويبر وجيف كارول وبول شورك وويل ستيجر وبرنت بودي وآن بانكروفت.

التوقف واجراء دفعة أخرى من القراءات.

سحب بول آلة السدس بينما نصبنا نحن الخيم. كان موقعنا الى يسار القطب وعلى بعد بضعة كيلومترات منه بحسب قراءاته. لكنه حذرنا من أنه غير متأكد من ذلك ريثما يجري قراءة أخرى في الصباح. فخلدنا الى النوم في الرابعة صباحاً.

في ٣ مايو (أيار) تمام العاشرة الا ربعاً صباحاً، كان ثلاثة منا انتهوا من تحضير دقيق الشوفان للاكل وجلسوا يدوّنون يومياتنا. كانت المواقد مطفأة لكن الخيمة دافئة. فأدركنا أن الحرارة في الخارج هي فوق الصفر. وسمعنا بول يحاول اصلاح آلة السدس وبرنت يتحدث الى الكلاب.

قاطع كتابتي دوي انفجار في الخارج. ثم سمعنا برنت يصيح: "اننا على القطب!" واحتفالاً بذلك أطلق النار من بندقية حملناها لابعاد الدببة عن المخيم.

خلال الساعات الماضية أظهرت قراءات بول أن التغير في زاوية الشمس بقي ثابتاً. لقد بلغنا هدفنا في الليلة السابقة أي في اليوم ٥٥ من رحلتنا. لكن الغريب في الامر أننا لم نهتف أو نتصافح، بل غمرنا شعور بالارتياح. لقد انتهينا من المشي الطويل والعوائق الشاقة والاصابع المتجمدة.

نقلنا مخيمنا الى مهبط الطائرات الذي عيّنه جيف في الليلة السابقة، ثم نعمنا بما كنا في أمس الحاجة اليه: النوم.

بعد الظهر سحب بول هوائي الجهاز اللاسلكي للمرة الاخيرة. وتلقى طيار فوق ايلزمير رسالة بول ونقلها الى ريسوليوت. وجاء الرد من قاعدتنا: "تهانينا! ستغادر ثلاث طائرات الى يوركا الآن للتزود وقوداً ويتوقع وصولها الى القطب ظهر غد."

العودة

كان اليوم التالي صافياً ومعتدلاً مثل طقس هاواي، وبلغت الحرارة ١٠ درجات مئوية تحت الصفر. أجرت آن مقابلات

سريعة مع كل منا مستخدمة الفيلم المتبقي في آلة التصوير السينمائية. واغتنم جيف هذه الفرصة ليؤدي عرضاً بطولياً فريداً: تزلج حول العالم ثلاث مرات قاطعاً دائرة بلغ اتساعها كيلومتراً ونصف كيلومتر.

كنا نتوقف من حين الى آخر ناظرين حولنا متأملين أهمية ذاك المكان الذي يدور حوله كوكبنا. لقد أحاطت به تلال وكتل جليدية فبدا مشابهاً لجميع المواقع التي اجتزناها. ما من نصب تذكارية أو لوحات معدنية أو تذكارات من رحلات سابقة، فالجليد يجرف كل شيء.

ان وجود القطب لا يعدو كونه مفهوماً حسابياً: نقطة التقاء الخطوط. بدا وجودنا هناك مربكاً بعض الشيء. التوجه نحو الشمال استقطب عقولنا وقوانا لمدة طويلة. وسيطر هذا الهاجس علينا ليل نهار. وها نحن الآن في هذه البقعة من كوكبنا حيث لا نواجه سوى الجنوب من كل صوب.

لقد ثبت خطأ نظرية معارضي بيري من أن اجتياز مسافة تراوح بين ٥٥ و٨٠ كيلومتراً في اليوم على الجليد القطبي أمر مستحيل. في بداية الرحلة جرّت كلابنا ثلاثة أضعاف حمولة بيري. ومع وصولنا الى الدرجة ٨٨ كانت كلابنا منهكة أكثر من كلابه. ومع ذلك، كان معدل المسافة التي اجتزناها في مسيراتنا الخمس الاخيرة يساوي ما سجله في سباقه الاخير. كما خيل الي أن بيري وهانسون امتلكا "حسّ التعقب" بعد خبرتهما الطويلة في الاستكشاف. كانا مراقبين حاذقين حللا الاشارات والالغاز بديهياً وبرعا في تحديد المواقع بواسطة البوصلة والسرعات والمسافات. والاشخاص الذين أمضوا أوقاتاً طويلة في تلك الطريق الشاقة يدركون قدرة الانسان على تنمية "حاسة سادسة" لديه. قد يصعب اثبات وصول بيري وصحبه الى القطب الشمالي في ٦ أبريل (نيسان) ١٩٠٩، لكني أعتقد أنهم فعلوا.

في منتصف النهار انحدرت ثلاث طائرات تحمل إحداها وقوداً كافياً لطريق العودة، وحطت على البقعة الملساء. أسرع بول فرحاً ليفتح حقيبة أرسلتها اليه زوجته سوزان. كانت مليئة بقطع الحلوى والشوكولاتة وعلب الحليب والشراب وقطع الهامبرغر وشطائر اللحم والمحار المدخّن. أكلنا بنهم حتى التخمة.

أثناء التهام الطعام انحلت مشاعرنا الدفينة. جلست كئيباً سانداً ذقني الى يدي. طوقتني آن بذراعيها. وتمالك بول عن البكاء الناتج من السعادة والحزن والارتياح. ووصف ريتشارد تضارب المشاعر الذي أحسسناه: "في هذه الرحلة تفور المشاعر في أقصى درجاتها، فأنت إما في منتهى السعادة واما في منتهى الكآبة. الجميع سعداء للرحيل من هنا، لكني بدأت أفتقد هذا المكان. يا لسرعة ما تنسى المشقات حقاً."

توقفنا في يوركا لوقت وجيز وبلغنا ريسوليوت بعد ثماني ساعات من مغادرة القطب. أحاط الطائرة حشد من الوجوه الباسمة. كان أسعدَها وجها سوزان زوجة بول ونالا زوجة برنت. وكانت هناك ابنتاهم بريا وكريستال مختبئتين تحت قلنسوتي الثلج.

ظهرت على المدرج طائرة نفاثة كبيرة رسم على جانبها علم ولاية منيسوتا، وهي ملك لصاحب المحطة التلفزيونية التي غطت رحلتنا، وقد حضرت لنقل أعضاء الفريق الامريكي الى منيابوليس في اليوم التالي. لن يتسنى لنا أن نرتاح.

في الصباح ودّعنا ريتشارد وبرنت. سيعودان الى منزليهما في كندا لاحقاً. ثم صعدنا الى الطائرة وسط حشد من المراسلين. وعيّن توقيت وصولنا مع بداية نشرة أخبار السادسة مساء في مدينتي سان بول ومنيابوليس. كنت أنا وآن وبول من منيابوليس، وكانت المدينتان مصدر دعم لعملنا.

واذ هبطت الطائرة فوق سان بول بهرت الطبيعة الربيعية الخضراء أحاسيسنا. لقد استحوذ البياض على أنظارنا مدة طويلة واستغرقنا بضع دقائق للتكيف مع الاخضر المفعم بالحياة. وعندما هبطت الطائرة تغلغلت الى أجسادنا حرارة بلغت ٢٧ درجة مئوية، وغمرتنا بدفء يزيد ٧٥ درجة عما اختبرناه أثناء رحلتنا. اختلسنا النظر من النافذة وذهلنا لرؤية حشد هائل من الانصار المبتهجين يلوحون بلافتات ورايات.

لدى نزولنا من الطائرة أحاط بنا الحشد وشعرنا برضا وارتباك في آن. لمَ شغلت رحلتنا عقول أولئك الناس؟ هي ليست الرحلة القطبية الاولى أو الاطول، ولن تكون الاخيرة بالطبع.

وخلال الايام التالية شغلتنا المؤتمرات الصحافية والمقابلات الكثيرة في أنحاء البلاد، وأدركنا لغز ذلك الاهتمام حين تصفحنا الجرائد الصادرة منذ مغادرتنا في منتصف يناير (كانون الثاني). لقد صعقت العالم كارثتان: انفجار المكوك الفضائي "تشالنجر" في يناير (كانون الثاني) ١٩٨٦، والكارثة النووية السوفييتية في تشيرنوبيل في ابريل (نيسان) ١٩٨٦.

أدركنا أن ثقة الناس بسحر التكنولوجيا تزعزع كثيراً. أما نحن الستة فقد قادنا نوع مختلف من الايمان. لقد كافحنا طويلاً لتحقيق هدفنا من خلال عزم وطيد وإرادة جماعية. ووضعنا ثقتنا بالعناية الالهية.

وهكذا مثّلت رحلتنا، لنا وللناس كثيرين، تجدداً لقوة الايمان والروح الانسانية التي لا تقهر.

ويل ستيجر وبول شورك

ترجمة أسنسيون فيصل



عصفوران بحجر

يولي زوجي المقتصد اختيار هداياي اهتماماً كبيراً. وذات مرة أهدى الي علبة جميلة لادوات الكتابة. وبما أني نادراً ما أكتب رسائل سألته ماذا حمله على اختيار هذه الهدية الخاصة. ومن دون أن يشيح ببصره عن جريدته أجاب: "فواتير الهاتف."

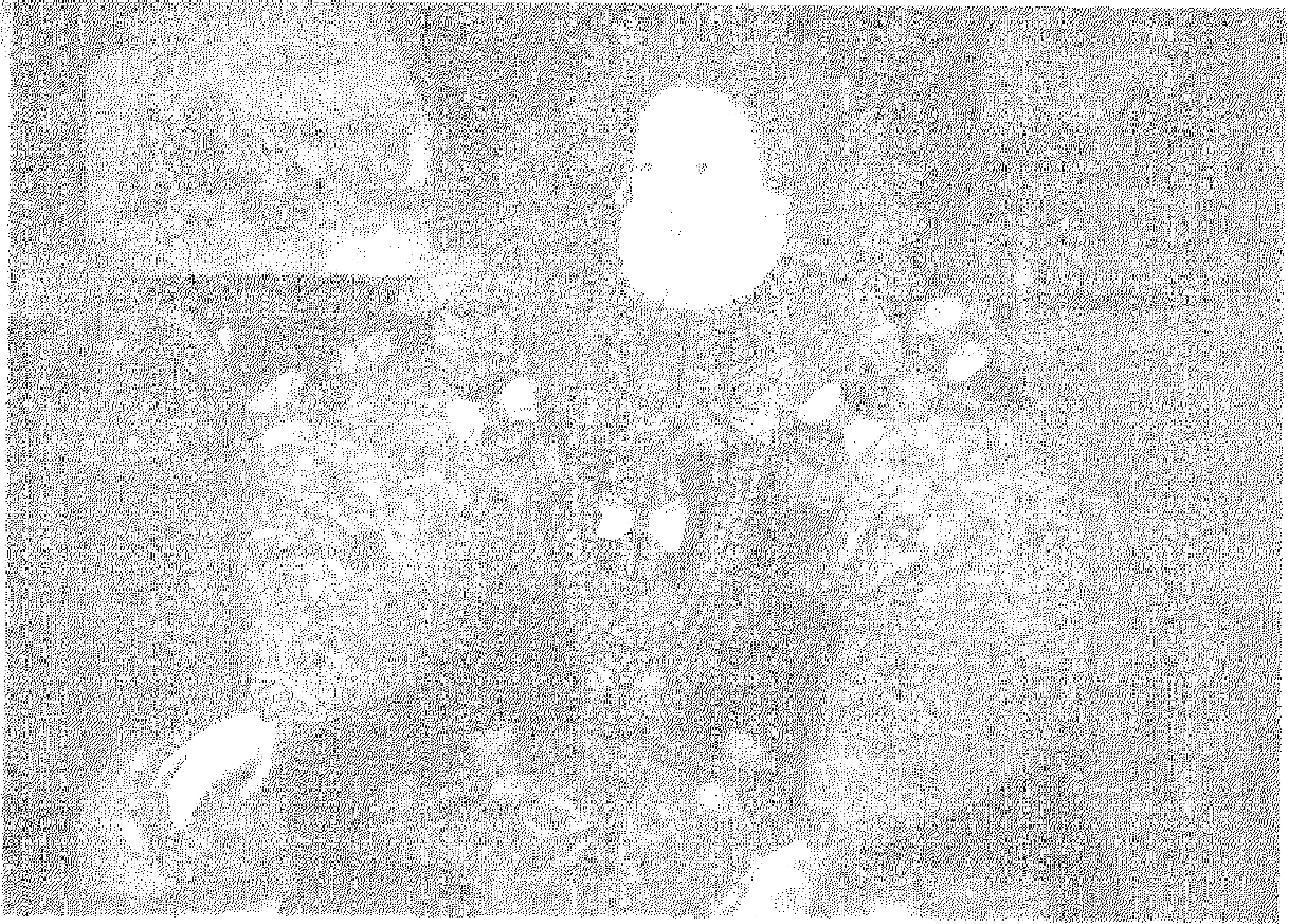
١٠٣٠



نهاية
الآرمادا الاسبانيّة
بقلم إرنست هوسر
انه الغزو! صرخة أيقظت الشعب البريطاني للدفاع عن بلده وملكته.
استحوذ ذلك الحدث المثير على خيال الأجيال، فنسجت
حوله الاساطير والخرافات. فماذا يقول التاريخ؟

كان المشهد رائعاً
حين أبحرت ١٤٠ سفينة مصنوعة من خشب
السنديان وهي ترفع اشرعتها المنتفخة وراياتها الخفاقة،
مندفعة الى الامام كأنها جسم واحد. انها "الأرمادا،" الاسطول
الذي لا يقهر والذي وجهه الملك فيليب الثاني، عاهل اسبانيا،
لهزم انكلترة. وقد اعتبر هذا الاسطول، نظراً الى علو سفنه الشاهق
البالغ اكثر من ٣٠ متراً والى تسلح مراكبه بالمدافع واحتشاد الرجال
فيها، اضخم حملة بحرية تجمعت في اوروبا على الاطلاق، عاقدة
العزم على انتصار يسحق الملكة "الهرطوقية" العنيدة
اليزابيت الاولى.





رسم مشرق للاسطولين الانكليزي والاسباني يحوطان اليزابيت في "لوحة الأرمادا" (١٥٨٨ - ٨٩) المنسوبة الى الرسام الانكليزي جورج غوار.

كان هدف الأرمادا الإبحار عبر بحر المانش لملاقاة الجيش الاسباني في بلاد الفلاندر بالاراضي المنخفضة، بقيادة دوق بارما الذي كان يعتبر ابرع عسكري في اوروبا. وبعد تلاقي القوتين كان عليهما عبور بحر الشمال وإقامة رأس جسر على شاطىء مقاطعة كنت، في بلدة مارغيت على الأرجح، ثم التوغل داخل الاراضي الانكليزية لاحتلال منطقة لندن وعزل اليزابيت البغيضة "الوقحة."

اعتبر الملك فيليب هذه الحملة واجبه المقدس. وبعدما أبحرت الأرمادا من لشبونة في ٢٨ مايو (ايار) من العام ١٥٨٨ قضى الملك أربع ساعات يصلي راكعاً على بلاط قصره "الاسكوريال"(١) الذي يشبه ديرا كئيبا.

ومع ذلك، فإن "مغامرته الانكليزية" الطموحة هذه بدأت بشكل سيىء. فالرياح المعاكسة أخرت تقدم السفن، فأنتنت المؤن او شحت، وكان لا بد من استبدالها. وما كاد الاسطول يتهيأ لدخول كورونا في شمال اسبانيا حتى شتتته عاصفة هوجاء وألحقت الضرر ببعض سفنه كما فقدت السفينة المستشفى. ولم يتمكن الاسبان من الاقلاع إلا في ٢٢ يوليو (تموز).

كانت الأرمادا مزيجاً متنافرا من السفن الاسبانية والبرتغالية، والمراكب

(١) يضم هذا القصر عدداً كبيراً من المخطوطات العربية.

Photographs: National Maritime Museum; by kind permission of the marquess and marchioness of Tavistock and the trustees of the Bedford Estates; Prado, Madrid. Collection of the Art Gallery of New South Wales, Sydney; National Portrait Gallery, London. Courtesy of the duchess of Medina



فيليب الثاني ملك اسبانيا، خصم لدود لاليزابيت.

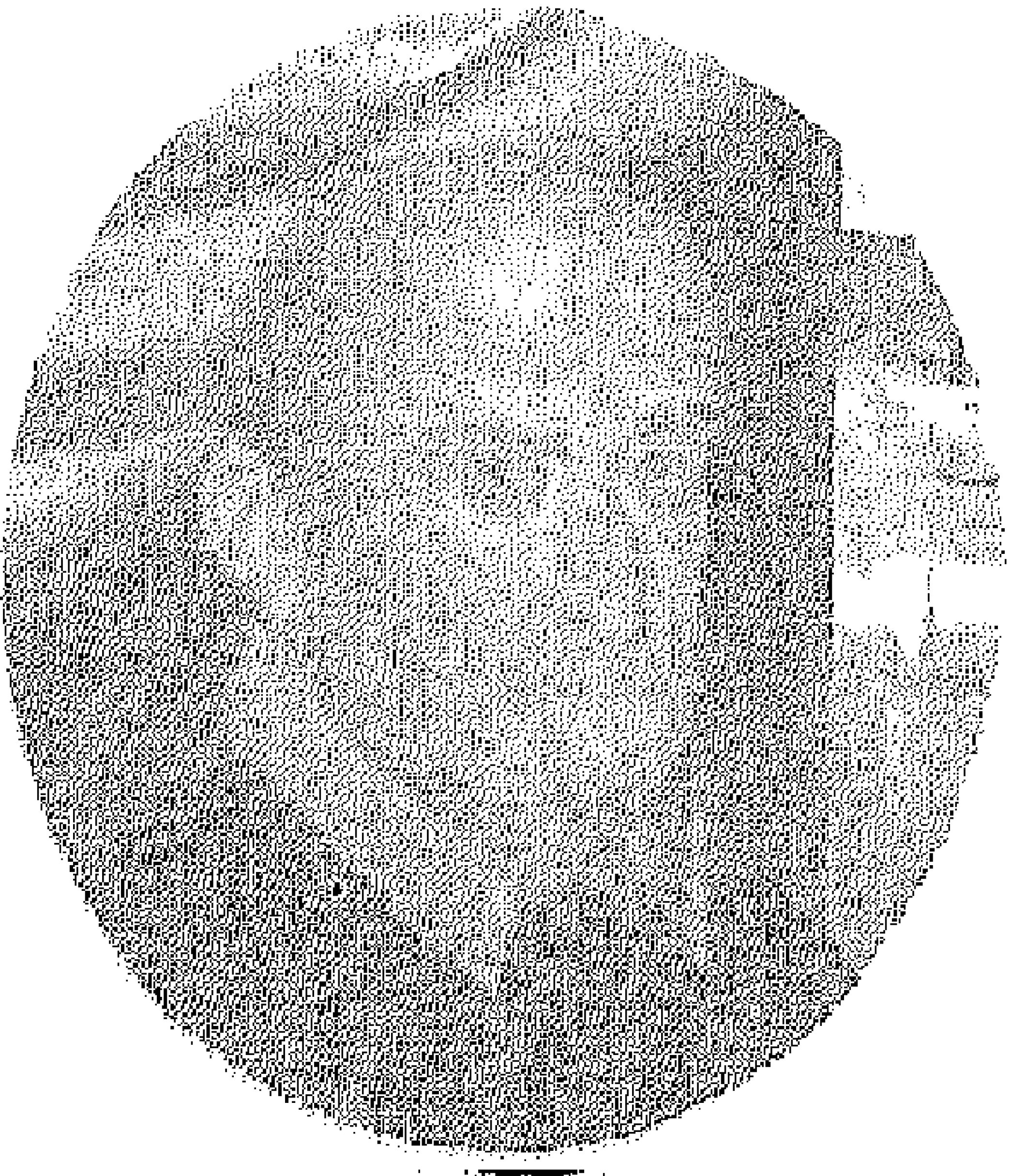
الايـطالية والألمـانيـة المستـأجـرة او المشتراة او المصادرة. أما فخر الاسطول فكان ١٩ غليونا حمولة الواحد ١٠٥٠ طناً، وهو مجهز بـ٣٠ موقعاً ثقيلا أو أكثر ويحمل على متنه ٥٤٠ رجلا. كما كانت الآمال معقودة على اربعة غلياسات طول واحدها حوالى ٤٥ متراً من الكوثل حتى الجؤجؤ ومزود ٥٠ مدفعاً ومسير بالاشرعة والمجاذيف التي يحركها ٣٠٠ من الرقيق.

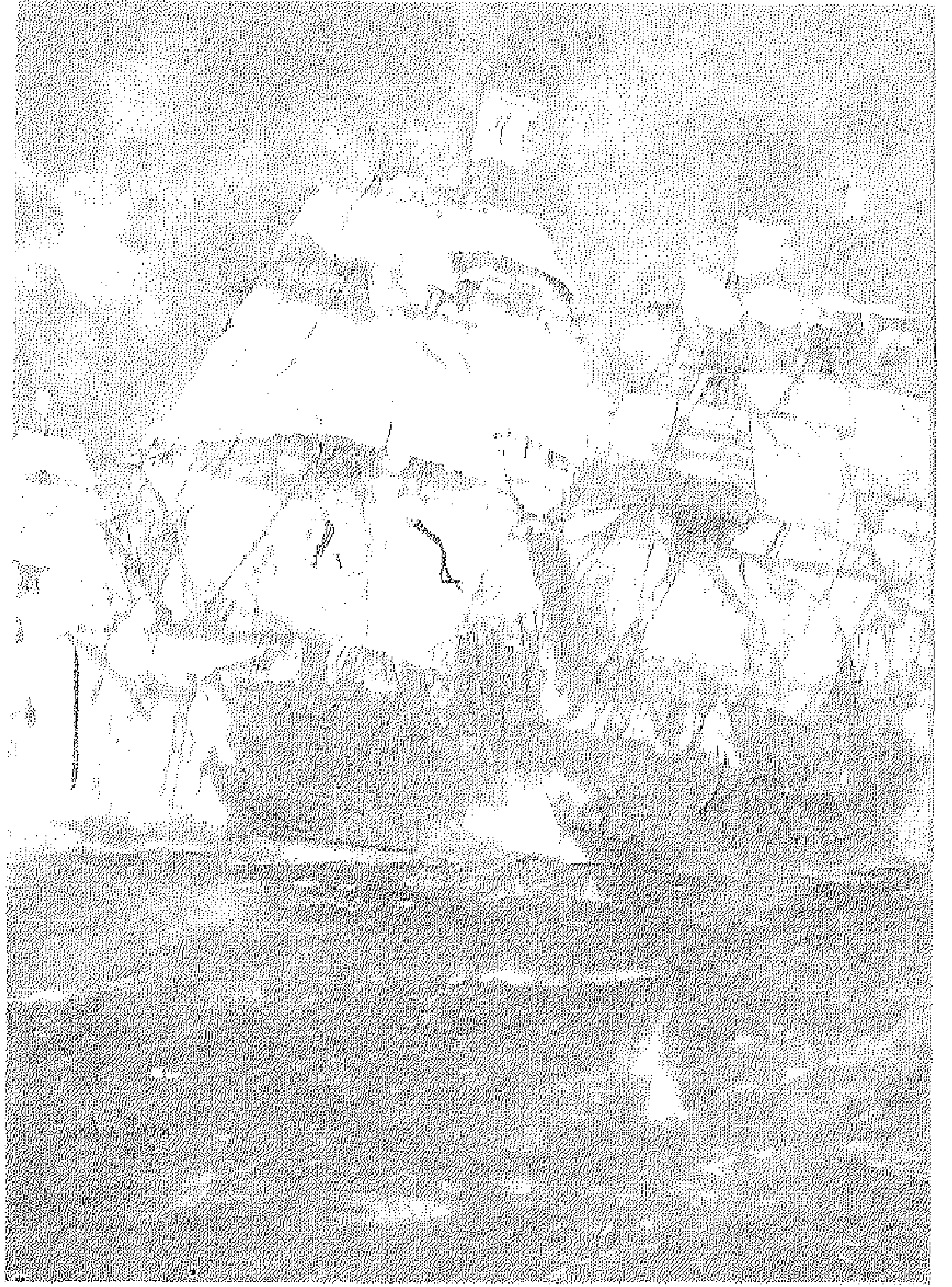
وكانت البوارج الحربية مدعومة بسفن تجارية مسلحة وزوارق صغيرة وسريعة لنقل الرسائل، بالاضافة الى اطواف غير متقنة محملة بالمؤن والامدادات على مختلف انواعها، من رصاص والواح خشبيـة وجلود ثيـران لسـد فوهـات المدافع، الى ٥٠٠٠ زوج احذية. وكانت السفن محملة ايضاً بالبغال والخيول وكل انواع معدات الحصار لاحتلال انكلترة. اما المؤن فتضمنت المياه والاطعمة الجافة والسمك المملح واللحم والجبن والزيت والنبيذ والارز.

كانت التجهيزات الحربية تتألف من ٢٥٠٠ مدفع، ومن اكوام من ذخيرة المدافع، الى جانب الرماح والبنادق والمطارد والسيوف. وقد بلغ عدد رجال هذا الاسطول نحو ٣٠ الفاً منهم ١٩ الف جندي والباقون من البحارة والنجارين والحـداديـن والجـراحيـن والنـبـلاء المغامرين.

وكان على المتن ايضاً "حكومة ظل" تضم موظفين رسميين وكهنة وقضاة لادارة انكلترة المحتلة. وعقدت قيادة







القائدان الخصمان اللورد هوارد (فوق) ودوق مدينة سيدونيا على بارجتيهما "الفلك الملكي" (الى اليمين) و"سان مارتين." الى اليسار: درايك يلعب البولينغ، وفق أشهر النوادر التي تحكى عن الأرمادا.

الحملة لرجل ريفي يتعاطى زراعة البرتقال في الاندلس المشمسة يدعى ألونسو برث دِ غوثمان الملقب "الصالح"، دوق مدينة سيدونيا (٢).

عندما وصلت الأرمادا الى مسافة ٨٠٠ كيلومتر شمالا ضربتها عاصفة أدت الى تشتيتها فانفصلت خمس سفن عن الاسطول الى غير رجعة. وعندما اقتربت من بحر المانش في ٢٩ يوليو (تموز) وجدت الانكليز في انتظارها، لأن مخابراتهم كانت تراقب تحركاتها منذ اقلاعها.

لم يكن الاسطول الانكليزي متكافئاً مع الاسطول الاسباني، ولكن كانت له ميزة التحرك قرب الوطن مما ساعد المراكب على التوجه بسهولة الى أقرب مرفأ لتزود المؤن والامدادات. فوق ذلك كانت السفن الانكليزية آلات حربية فعالة، غير مثقلة

(٢) هذه المدينة هي فينيقية الاصل (صيدون) واشتهرت كمركز للترجمة في الاندلس.

بحمولة إضافية وجاهزة لتناور بسهولة. وقد علق احد رجال مدينة سيدونيا بدهشة: "كانت سفنهم من السرعة والرشاقة بحيث كانوا يستطيعون ان يديروها كيفما شاؤوا."

كان اللورد شارلز هوارد افينغهام في الخمسين من عمره وكان يقود الاسطول في بليموث من بارجته "الفلك الملكي" الرباعية الصواري. وكان يعاونه السير فرانسيس درايك، أشهر بحار في انكلترة، قبطان السفينة "ريفنج" (انتقام) البالغة حمولتها ٥٠٠ طن. وورد في التقليد الانكليزي ان الاثنين كانا يلعبان البولنغ في "بليموث هو" عندما أبلغ اليهما: "إنهم آتون!"، فكان جواب درايك التاريخي: "لدينا الوقت الكافي لننهي لعبتنا."

وكالحباحب في ليلة دافئة ظهر المرشدون فوق التلال في جميع انحاء إنكلترة ليرصدوا اقتراب الاعداء. لم يكن هناك أي هلع. هرع رجال الميليشيا المحليون الى البنادق والرماح وحفرت الخنادق تحسبا لنزول العدو الى اليابسة. وسدت شوارع لندن بالسلاسل. وشكل المدنيون مجموعات قتالية، كما نظمت القوى المسلحة دوريات حراسة على مدار الساعة.

في الضاحية الغربية كان السر والتر رايلي ينظم الدفاعات الساحلية وقوات الميليشيا المجندة. اما إيرل ليسستر، القائد العام للقطاع، فكان يجهز معسكراً لقرابة ١٧ الف رجل، بمن فيهم الفرسان، في تيلبوري على مصب نهر التايمز.

في ذلك الحين كانت الأرمادا تتقدم بهدوء على طول الشاطىء الجنوبي لانكلترة نحو موعدها في اتجاه بلاد الفلاندر. وفي ٣١ يوليو (تموز) تواجه الاسطولان في اول معركة لهما قرب اديستون روكس قبالة بليموث، مظهرين بكثير من الدوي ورباطة الجأش ما يستطيعان القيام به. وقد دهش الانكليز الذين لم يكونوا قد رأوا مثيلا لفن الملاحة الاسبانية، عندما شكلت السفن الاسبانية هلالا ضخماً يتجه قاباه الى الوراء. وكان عليهم أن يحذروا المغامرة بين هذين القابين حيث وضعت اقوى سفن الاسطول بحيث يواجه الدخيل مأزقاً حرجاً.



اتى الاسبان وفي ذهنهم النظرية التقليدية القائلة بانك اذا شئت ان تكون لك اليد الطولى، عليك بالاقتراب من السفينة المعادية ورمي الكلاب عليها والصعود الى متنها والمحاربة بالسلاح





الابيض. لكنهم لم يستطيعوا تطبيقها ابدا. فالانكليز استطاعوا اختيار مسافاتهم بفضل سفنهم الرشيقة. وكانت مدافعهم، المحمولة على عربات، سهلة الحركة والتلقيم، فتطلق النيران بسرعة، بعكس مدافع الأرمادا المثبتة بقوة والمصممة لتطلق نيرانها دفعة واحدة.

في اليوم الاول من القتال استطاع الانكليز ضرب واحدة من افضل السفن الاسبانية، "سان خوان دِ برتغال." فقد قصفت بشكل متواصل حتى اسرعت شقيقاتها لنجدتها، وعندما ابتعدت توقف الانكليز عن اطلاق النار. يومها حارب الاسبان بشجاعة وقد قال درايك معلقاً باحترام: "انهم مصممون على بيع ارواحهم مع كل هجوم."

في اليوم التالي اسر الانكليز سفينتين معاديتين: "سان سلفادور" التي تعطلت إثر انفجار مخزن البارود واندلاع حرائق، وامتلأت بالجثث، فقطرت الى مرفأ وايموث، اما "سيدة الوردية"، وهي احدى اضخم سفن الأرمادا وتحمل ٤٣٠ رجلا و٤٦ مدفعاً وشحنة من الذهب، فقد تحطمت إثر اصطدامها بسفينة اسبانية اخرى، فاستولى عليها درايك بنفسه.

شرح قائد السفينة، النبيل بدرو دِ فالدس، لدرايك انه كان اقسم على الموت في المعركة لكنه لم ير عيباً في الاستسلام لبحار عظيم مثله، فأنزله درايك في مقصورته الخاصة وقدم اليه افضل الطعام.

القتال الضاري

بينما كان الاسطولان يبحران بشكل مترادف نحو هولندة كان مئات من المدنيين الفضوليين يشاهدون تقدمهما من فوق التلال والصخور. وفي ٢ اغسطس (آب) تقارب الاسطولان لمواجهة اخرى. واظهرت السجلات الحية واليوميات والرسائل ان احداً من الفريقين لم يكن يدرك ماذا كان يجري بوضوح. فالدخان الصاعد من مئات المدافع حجب الرؤية والضجيج صم الآذان. ومن الجانبين كانت تنهمر قذائف المدافع من الحجارة والحديد وشظايا الطلقات النارية التي تنشر الموت، ونيران البنادق السريعة.

وتجمع كل الروايات على وصف هذه المواجهة غير الحاسمة بـ"الجهنمية". وقد حشرت سفينة الملكة "ترايومف"، وهي الاكبر في هذه المعركة، بين اربع غلياسات اسبانية، فقاتل قائدها مارتن فروبيشر، المشهور بلقب "كلب البحر" والذي قاد بعثة البحث عن الممر الشمالي الغربي عام ١٥٧٦، بشجاعة حتى أنقذه اللورد هوارد.

وثمة مشهد آخر من مشاهد هذه المعركة يبرز دوق مدينة سيدونيا على متن بارجته "سان مارتين" يصد بمدافعها الـ٤٨ مجموعة من السفن الانكليزية، وظل

سفينة اسبانية في مرمى النيران. وبرزت في المعمعة
سفينة السر فرانسيس درايك (الى اليسار) "ريفنج" وسفينة الملكة "ترايومف"

يقصفها ساعة حتى اتت بعض الغليونات الاسبانية لنجدته. وعلق هوارد على هذه الحادثة بالآتي: "لم ير احد قتالا اشد ضراوة من هذا." وعندما توقف القصف أعاد الاسبان تنظيم هلالهم وتابعوا التقدم، وكانوا وصلوا الى نصف الطريق تقريباً عبر المانش.

كان على الاسبان ان يحولوا سفنهم مشاغل خلال إبحارهم وذلك لترميم ما تخرب وتهدم نظراً الى عدم توافر اي مرفأ لهم. اخيراً في ٦ اغسطس (آب)، وبعد مواجهتين غير حاسمتين قرب جزيرة وايت، بدت لهم نهاية بحر المانش الذي يبلغ طوله ٥٦٠ كيلومتراً. ويا للأسف، كان مرفأ كاليه، الذي يبعد ٣٥ كيلومترا فقط عن انكلترة، تحت سيطرة رجل فرنسي وقف بدقة على الحياد فسمح للاسبان بتزود المؤن الطازجة ولكن من دون ان يستعملوا مرافق المرفأ.

رسائل من الاسطول

حان موعد اللقاء، فانتظرت الأرمادا قبالة مرفأ كاليه أخبار مراكب دوق بارما الناقلة ٤٠ الف جندي، وكان مفترضاً فيها ان تأتي من دنكرك ونيوبورت القريبتين.

في تلك الاثناء شن الانكليز هجوماً جديداً، فوجهوا مع الريح ٨ زوارق انتحارية محملة بمواد سريعة الالتهاب ومتفجرات، نحو السفن الاسبانية التي كانت معرضة للاشتعال بسهولة بسبب هياكلها الخشبية وحبالها المطلية بالقطران.

عندما رأى الاسبان اللهيب المحمول فوق البحر يقترب منهم تفرقوا في كل اتجاه، فمرت زوارق النار من غير أذى واشتعلت على الشواطىء. لكنّ الأرمادا تبعثرت.

وبدأت الرسائل تتوالى من سفن الاسطول المبعثرة. احدى تلك الرسائل أتت من بارجة الاميرال الاسباني، دوق مدينة سيدونيا: "إنني على بعد فرسخين من كاليه وسفن العدو تهدد جانبي وفي وسعها قصفي بالمدافع في اي وقت، فيما انا عاجز عن الحاق كبير اذى بها." اما دوق بارما فلم يستطع حتى ذلك الوقت تجميع سوى القليل من المراكب البدائية لنقل الجنود.

ومما زاد الطين بلة أن الهولنديين المتمردين، أصدقاء بريطانيا، كانوا يجوبون الشاطىء وهم على استعداد لمحاربة الاسبان. عندها بدت خطة الملك فيليب العظيمة كأنها أخفقت في تحقيق اي هدف.

"[illegible]"

كانت الأرمادا لا تزال مبعثرة عندما شن الاسطول الانكليزي هجوما تسلم طليعته السر فرانسيس درايك. فاحتدمت المعركة يوما كاملا قبالة غرايفلاينز، وهي قرية تقع بين دنكرك وكاليه.

قاوم الاسبان بعناد على رغم تفوق الانكليز عليهم بالمدافع وبالقدره على

المناورة. وكانت احدى سفنهم تنزف – كان الدم يتقطر من بالوعاتها – ومع ذلك ظل الاحياء عليها يطلقون النار. وان سفينة اخرى ذات خمسة مدافع مدمرة ونصف رجالها قتلى استوقفها ضابط انكليزي عارضاً استسلاماً مشرّفاً على قائدها، فقتل فوراً بطلقة بندقية سُددت اليه.

بعد ذلك رست سفينتان اسبانيتان مدمرتان على الشاطىء، كما غرقت بارجة اخرى في عرض البحر واصيبت "سان مارتين"، سفينة دوق مدينة سيدونيا، قرابة مئتي مرة. أما سفينة درايك فقد تلقت اربعين إصابة ومقصورته الخاصة اصيبت مرتين. ويقول الرواة ان ضابطاً انكليزياً قتل في غرفة درايك بطلقة جاءت من تحته.

عند الغسق وضعت عاصفة من الامطار حداً للقتال. وفي اليوم التالي تراجع الانكليز عندما ضربت الريح السفن الاسبانية وقادتها الى الشواطىء الرملية. وبعدها تغير اتجاه الرياح فعادت السفن الى عرض البحر. وكانت اسبانيا قد خسرت حتى ذلك الحين ستاً من سفنها على الاقل، اما انكلترة فلم تخسر ولا واحدة. وقد كتب اللورد هوارد الى وزير خارجية الملكة، السر فرنسيس والسينغهام، قائلا: "ان قوتهم عظيمة ومذهلة ومع ذلك فاننا ننتف ريشهم."

برهن ذلك على ان المعركة حاسمة، ومع تواري الامل بلقاء دوق بارما بدأ انضباط الأرمادا يشهد علامات تفكك. وتجاهلت بعض السفن الأوامر بشن هجوم ثان.

اقام دوق مدينة سيدونيا، الذي اظهر شجاعة قتالية فذة على رغم عدم تمرسه بحياة البحر، مجلساً عسكرياً على متن سفينته المصابة. وقد حكم على عشرين من ضباطه بالاعدام ولكنه شنق واحداً منهم فقط في طرف عارضة الشراع. ومنذ دخوله بحر المانش لم يذق الاميرال النوم او الطعام الا نادراً. شاهد الضباط والرجال يموتون حوله، وهو ايضاً اصيب في فخذه. وقد صرخ مرة لربان سفينة اسبانية مرت من قربه قائلا: "ماذا عسانا ان نفعل؟"

النزاع الاخير

طارد هوارد الاسطول الهارب شمالا حتى المياه الاسكوتلندية ثم قفل عائداً الى الديار بعد فقدان الطعام. وحتى إن تجرّأ الاسبان على العودة الى القتال في محاولة اخيرة للقاء دوق بارما، لمنعتهم الآن الرياح المعاكسة. فاختاروا مضطرين طريقاً طويلا للعودة الى اسبانيا تلتف حول شمال اسكوتلندة وايرلندة الغربية.

هكذا بدأ نزاع الأرمادا الاخير. فالسفن الكثيرة التي قاومت الضربات الانكليزية أصبحت الآن توابيت عائمة مندفعة الى الامام تُضرب بالعواصف وترشح المياه الآسنة من عنابرها. اما رجالها فقبعوا في الزوايا القذرة المليئة بالجرذان يعانون الامراض كالحَفَر والتيفوس والزُحار. مؤنهم كانت فاسدة وحصص طعامهم غير كافية.

اما الأسوأ فلم يكن قد أتى بعد. فبعدما دارت السفن حول اسكوتلندة واتجهت نحو شمال الاطلسي المخيف، تعرضت لعواصف شرسة، فاقترب بعضها من ساحل ايرلندة المنيع. وحاول عدد من رجالها المتعبين ان يجروا انفسهم الى داخل الجزيرة بحثاً عن الطعام والمأوى، فكان نصيبهم الذبح على يد المحتلين الانكليز. اما بعضهم الآخر فقد وجدوا من يؤويهم وتمكنوا من الهرب لاحقاً خارج البلاد. لكنَّ الآلاف منهم غرقوا في البحار الغادرة. وعندما وصلت انباء الكارثة الى انكلترة، علّق الانكليز قائلين: "انه قضاء الله."

لدينا اليوم بيّنات مؤثرة عن الفصل الاخير من هذه المأساة التاريخية. فستة من حطامات السفن العشرين او اكثر وجدت قبالة الشاطئ الايرلندي، وانقذت محتويات ثلاث منها. اما السفينة الاكبر والاغنى التي تم التعرف اليها فهي "خيرونا" التي كانت ذات يوم أضخم غلياس، وقد جمعت على متنها الناجين من اربع سفن محطمة بالاضافة الى رجالها الـ١٣٠٠ – قضوا جميعاً باستثناء ستة منهم عندما غرقت قرب جاينتس كوزواي على شاطئ الانتريم. ويعتقد انها لم تتمكن من العودة الى اسبانيا بسبب اصابتها وثقل حمولتها، لذلك توجهت الى اسكوتلندة على امل ان تستقبل هناك بحفاوة.

لقد خسرت الأرمادا قرابة ١١٠٠٠ رجل قضوا غرقاً او مرضاً او في القتال، بالاضافة الى ثلاثين سفينة او اكثر. والسفن القليلة التي وصلت اخيراً الى اسبانيا حُوِّلت الى الكسر. اما دوق مدينة سيدونيا الذي ظل على متن سفينته "سان مارتين"، فوصل الى سانتندِر في ٢٣ سبتمبر (ايلول) مصاباً بالحمى، ونقل على حمالة الى بيته في الجنوب ولم يستعد عافيته الا في الربيع التالي.

لم يخسر الانكليز اي سفينة كما لم يفقدوا اكثر من ١٠٠ رجل قضوا في اثناء المعارك، الا ان الكثير منهم قضوا بالامراض قبل تسريحهم. لكن الشعب الانكليزي ظل في شك حول رحيل الاسطول الاسباني نهائياً. لذلك قامت الملكة اليزابيت برحلة تهدف الى رفع معنويات جنودها، فقصدت على متن بارجة ملكية تيلبوري في ١٨ اغسطس (آب) لعرض الجنود الذين كانوا لا يزالون ينتظرون عودة الاعداء. وقد استقبلت الملكة بهتاف مدوٍّ وهي في ثوب ابيض من المخمل، تمتطي جواداً ابيض.

في اليوم التالي خاطبت الملكة جنودها قائلة: "فليخَف الطغاة. لقد جئت اليكم مصممة على الحياة او الموت بينكم جميعاً لاقدم الى ربي ومملكتي وشعبي شرفي ودمي. اعلم اني املك جسد امرأة ضعيفة ولكني املك قلب ملك وشجاعته. اني لأزدري كل عاهل اوروبي يحاول غزو مملكتي."

صلوات الشكر

بعدما تم التأكد اخيراً من ان انكلترة ربحت معركة العصر انفجر الناس بالاغاني الشعبية وشرعوا يشعلون النار ابتهاجاً ويسيّرون المواكب. وسكّت الانواط

تخليداً للانتصار. واستقبلت الملكة بالزغاريد انّى ظهرت، فلم يُعرف قبلها حاكم انكليزي احبه الشعب مثلما احبها.

وفي ٤ ديسمبر (كانون الاول)، بعد اسبوع على احتفال الملكة بالذكرى الثلاثين لتنصيبها، حضرت قداس شكر احتفاليا.

ماذا تعني هزيمة الأرمادا؟ لو انتصرت اسبانيا لهبط حجاب كثيف على وجه انكلترة المهزومة. وفي الواقع، لم يكن للانتصار الانكليزي نتيجة فورية لان حال الحرب بين اسبانيا وانكلترة استمرت ست عشرة سنة. وعلى رغم ذلك، فان العام ١٥٨٨ سجل انتصاراً تاريخياً. فقد تأمن مستقبل انكلترة كأمة وصار في وسعها بلوغ آفاق جديدة، متحدية بذلك اسبانيا في امبراطوريتها عينها التي جعلتها اغنى بلدان اوروبا واقواها. ومنذ ذلك الوقت ازدادت قوة بريطانيا البحرية مهابة واحتراماً، واصبح تحولها من امة صغيرة مكافحة الى قوة بحرية عظيمة آخذاً مجراه الطبيعي.

إرنست هوسر ■

ترجمة سام نجار



سلالة الغنم

أحدثت سلالة جديدة من قطعان الغنم الخالية من الصوف في مقاطعة ويلز في بريطانيا. واعتمد منشىء هذه السلالة، إيبولو أوون، نوعين من القطعان المعروفة جيداً، هما "ويلتشاير هورن" و"ولش ماونتِن". والخراف الجديدة لا يُجز صوفها الا قليلا، ولا تحتاج الى رعي كثير ولا الى التغطيس بالماء الا عند مكافحة الجرب. وقد بدأ أوون اختباراته في الستينات. وبعد تسعة اجيال كوّن قطيعه الكامل واطلق على كلّ من افراده صفة "سهل الرِّعاية"، هادفا من ذلك الى انتاج اللحم فحسب.

يقول أوون: "كان عندي ٢٥٠٠ رأس غنم ووجدت أن ايرادي يتأتّى بنسبة ٩٠ في المئة من اللحم و١٠ في المئة فقط من الصوف. والآن تدنت نسبة الصوف الى ٥ في المئة فقط."

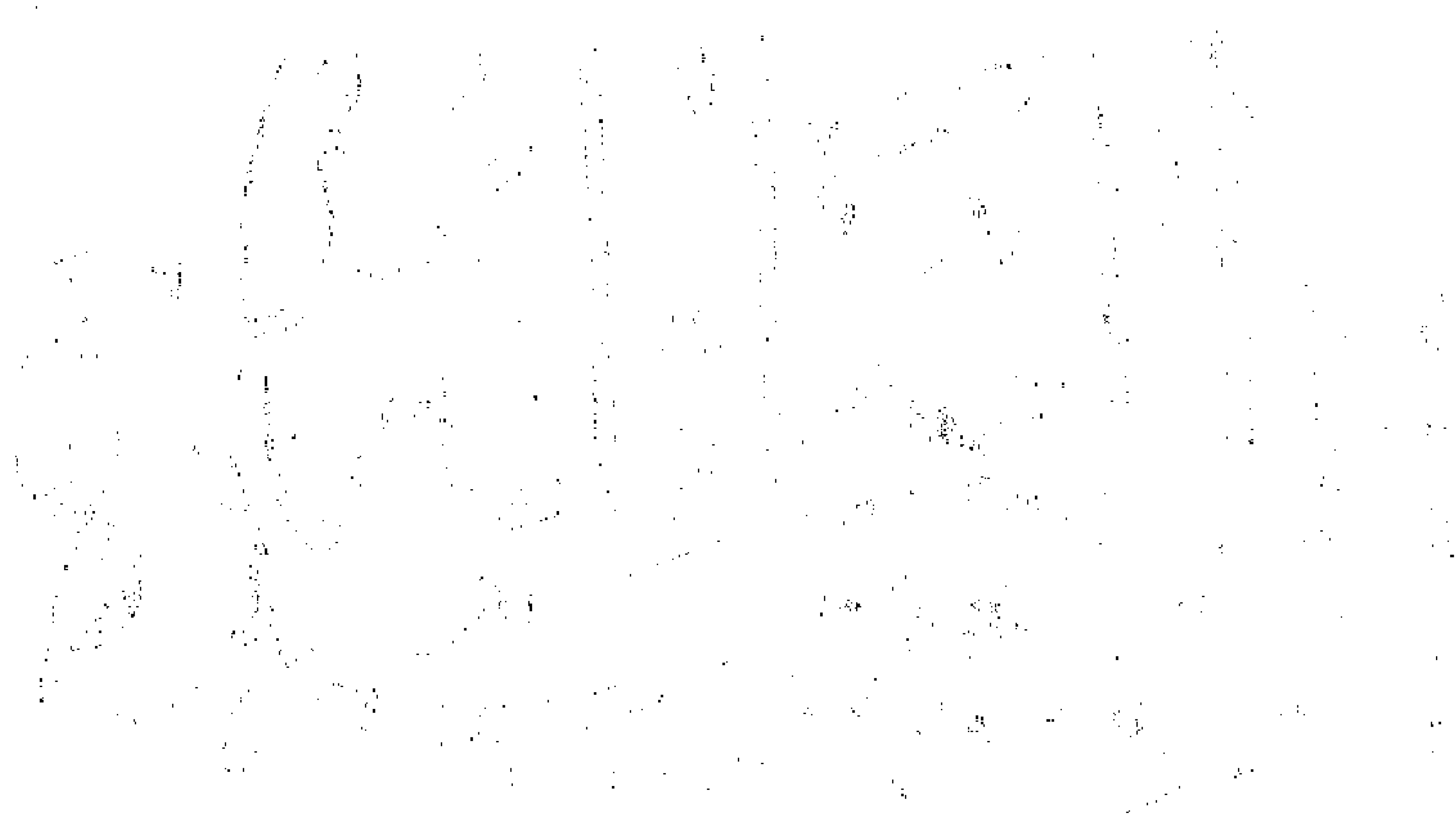
الـ"صنداي تايمز"، لندن

الضعف والقوة

يقول لاعب كرة السلة الشهير لاري بيرد: "ان الفائز هو الذي يدرك المواهب التي حباه اياها الله فينميها ويصقلها لتغدو مهارات ويستخدم المهارات في بلوغ اهدافه. حتى حين كنت الخاسر تبيّنت مواطن ضعفي وعملت على تحويلها مصادر قوة."

ج.ب.ب.

كتاب الشهر





بقلم جيرالد دورال

العائلة السعيدة

كانت عائلتنا الجوّالة المؤلفة من أم ارملة واولادها الاربعة تقيم على الساحل الجنوبي لبريطانيا. وتلك السنة ابتلينا بطقس قاس ارهقنا. كان كل شيء حولنا رمادياً. فالسماء في شهر اغسطس (آب) بدت رمادية والرذاذ عندما حملته الريح تحوّل كتلا رمادية كمداء راحت تتدحرج كالموج. حتى البحر بدا اخضر رمادياً. وكنا جميعنا نعاني عللا واعراضاً مرتبطة بالطقس، من التهاب في الأذن الى التهاب في المفاصل، كل حسب سنّه - ذلك الجو الرمادي الكئيب الذي خيّم علينا كان بالفعل من النوع الذي يصلح امتحاناً لطاقة اي انسان على الاحتمال.

بدا ان شقيقي الاكبر لاري كان اكثرنا معاناة واقلنا احتمالا. وذات يوم، كان البرد استثنائياً فجلس لاري في المنزل وراح ينقل بصره في ارجائه بكآبة وضجر ثم انفجر فجأة في وجه أمنا وخاطبها محتداً وكأنها سبب المشكلة. ومما قال لها: "لماذا نتحمّل هذا المناخ؟ ان ما نحتاج اليه جميعنا هو اشعة الشمس وبلداً ننمو فيه ونترعرع. لماذا لا نحزم امتعتنا ونذهب الى اليونان؟"

فاجابته بغموض: "لا تكن سخيفاً انه امر غير وارد على الاطلاق."

لكن لاري، كالعادة، نال ما اراد. فبعنا البيت الذي كنا اشتريناه لتوّنا وحزمنا امتعتنا. وكسرب من طيور السنونو المهاجرة، توجهنا الى عالم

Condensed from «My Family and Other Animals,» copyright 1956 by Gerald Durrell

اليونان المشرق كمرآة وضّاءة. حططنا رحالنا في جزيرة كورفو. وهذه قصة اقامتنا في تلك الدرّة من جزر اليونان المغمورة بالشمس.

بثبات وكبرياء، ووسط حديقة صغيرة عبقت بأريج مئة نوع من الأزهار وضجّت بهمس الحشرات وطنينها، انتصبت الدارة مربعة، صغيرة، وردية اللون. اما مصاريعها التي كانت يوماً خضراء زاهية، فحولتها الشمس قشدية اللون باهتة وتركت عليها بصماتها شقوقاً وفقاقيع. لكننا، وما ان وقعت عيوننا عليها حتى وقعنا اسرى هواها وعلمنا انه لا بد ان تكون من نصيبنا. وغمرنا شعور اننا في بيتنا.

بالنسبة الى صبي في العاشرة، بدت الايام نابضة بالحياة، زاهية. وكنت كل صباح استيقظ على رائحة الفحم المنبعثة من المطبخ وعلى نباح الكلاب ولهاثها وعلى رنين الاجراس المدلاة من اعناق الماعز وهي في طريقها الى المراعي، رنين متواصل كئيب يثير في النفس شجواً. درجنا على تناول طعام الفطور في الهواء الطلق تحت اشجار المندرين. وكنا ونحن حول المائدة نعرض بحماسة وحيوية النشاط اليومي لكل فرد فينا. كنت اعرف تماماً برنامج يومي ولذا التهمت طعامي المؤلف من بيض وخبز محمص بسرعة جعلت امي تتمتم: "تمهّل في الاكل يا عزيزي، ليس هناك ما يدعو الى السرعة."

ليس ثمة ما يدعو الى السرعة؟ اجل، ولكن ماذا افعل بولعي الشديد بالتاريخ الطبيعي، وتوقي الى حقول الزيتون؟ فأنا أكاد لا اصبر على الانطلاق اليها والتوغل فيها حاملا علب الكبريت الفارغة وشبكة صيد الفراشات. كنت اجلس القرفصاء ساعات طويلة او اتمدد على بطني اراقب مخلوقات الله حولي واجمع العينات لمجموعتي النباتية.

نظرت الى كلبنا روجر، وكان سبقني الى بوابة الحديقة، فبدا لي شبحاً اسود متأهباً. فهو القى كفّه السوداء الكبيرة على البوابة ورسم على فمه ابتسامة ملتوية اظهرت انيابه البيضاء، وراح يهز ذنبه باهتياج حتى اصبح منظره كلطخة ضبابية متحركة. والحقيقة ان روجر اثبت انه خير رفيق لي في مغامراتي واستكشافاتي تلك، فهو تحمّل نزواتي بصبر ومزاج سمح. وما ان فتحت الباب حتى انطلق كالسهم مستقبلا النهار بنباح عميق.

تعرّفنا، خلال استكشافاتنا الاولى، الى عدد كبير من الريفيين. تعرفنا مثلا الى اغاثي السمينة، وهي امرأة مرحة تسكن كوخاً متداعياً في اعلى التلة، وقد اعتادت ان تجلس في الخارج وبين يديها مغزل، تفتل، تجدل، تجذب، محولة صوف الخراف خيوطاً ثخينة خشنة.

ومن اغاثي تعلمت بعض اجمل الاغاني المحلية التي لا تُنسى. تعرفنا ايضاً الى الراعي العجوز ياني، وهو رجل طويل القامة منحني الظهر له انف كبير اعقف يجعله يبدو كالنسر، وشاربان غريبان. توثقت معرفتي بياني اكثر إذ غالباً ما التقيته اثناء غزواتي وكنت ازوره احياناً في بيته الصغير حيث تعرفت الى زوجته

الوردية الوجنتين افروديت. وكان الزوجان يغدقان علي الفاكهة كلما زرتهما.

اكثر الاشخاص غرابة بين الذين تعرفت إليهم، كان رجل الخنافس الذي التقيته للمرة الاولى فوق طريق مرتفعة غير مطروقة تؤدي الى قرية جبلية نائية. والواقع اني سمعته قبل ان اراه، فهو كان يعزف على المزمار لحنا متماوجاً ويتوقف احياناً عن العزف ليغني بصوت أنفي حاد مميز. وعندما ظهر من وراء المنعطف تسمّرنا، روجر وانا، في مكانينا ورحنا نحدق اليه بانشداه.

كان رجلا قصير القامة ضئيل الحجم، له وجه حاد الملامح كوجه ثعلب. ويوحي الهزال الشديد في رسغيه وعنقه، افتقاره الى الطعام. اعتمر قبعة عديمة الشكل، رثة ذات حافة عريضة متهدلة. ومع ان منظرها دلّ على انها كانت في ما مضى خضراء زيتية الا انها بدت ذاك النهار غبراء مرقطة ببقع من التراب وحروق السجائر. اما قميصه فكان قذراً بالياً، وهو ارتدى فوقه سترة داكنة اللون ومرقعة. ومن عنقه تدلت ربطة من قماش الساتان الازرق المبهر للنظر وانتفخت جيوب سترته بما حشر فيها من امشاط وبالونات ومرايا رخيصة وصور ملونة ومجموعة كبيرة من المناديل وقطع من خشب الزيتون حفرت عليها اشكال لأفاعٍ وجمال. وعلى ظهره حمل اقفاصاً من خيزران وضع فيها حمائم وصيصاناً وتدلت من احدى يديه اطوال من مصيص قطني علق في طرف كل منها خنفسة بحجم حبة لوز بدت تحت اشعة الشمس خضراء ذهبية متوهجة. وفي محاولات يائسة للافلات من الخيط المربوط باحكام حول وسطها راحت الخنافس تطير جميعها في آن باهتياج، دائرة حول رأسه وهي تئز وتتلوى.

حييته بأدب، ثم سألته هل هو عائد من مهرجان ما. فأومأ برأسه ايجابا وراح يثب ويقفز فوق الطريق الترابية وقد ارتسمت على وجهه امارات الفرح. وعندما انتهى من الرقص، ربت جيوبه ثم فرك سبابته بإبهامه على الطريقة اليونانية التي تشير الى الدراهم. وفجأة ادركت انه لا بد ابكم. بدأت اتحدّث اليه وهو اجابني باشارات تنمّ عن ذكاء ومهارة. سألته ماذا يفعل بالخنافس. وافهمني وبإشارة من يده انها للأولاد. ثم تناول خيطاً تدلت من طرفه خنفسة، وبحركة دائرية سريعة برمه حول رأسه ثم راح تارة يميل بجسده جانبياً وطوراً ينقضّ على الطريق وهو يصدر ازيزاً انفياً عميقاً. اخيراً فهمت قصده: انها طائرة العوبة.

بعد ذلك انزل عن ظهره قفصاً واخرج منه زغلولا بديناً يقزز منظره النفس بريشه غير المكتمل وجلده القرمزي المغضّن. لكنني ما ان رأيته حتى شعرت برغبة جامحة في اقتنائه.

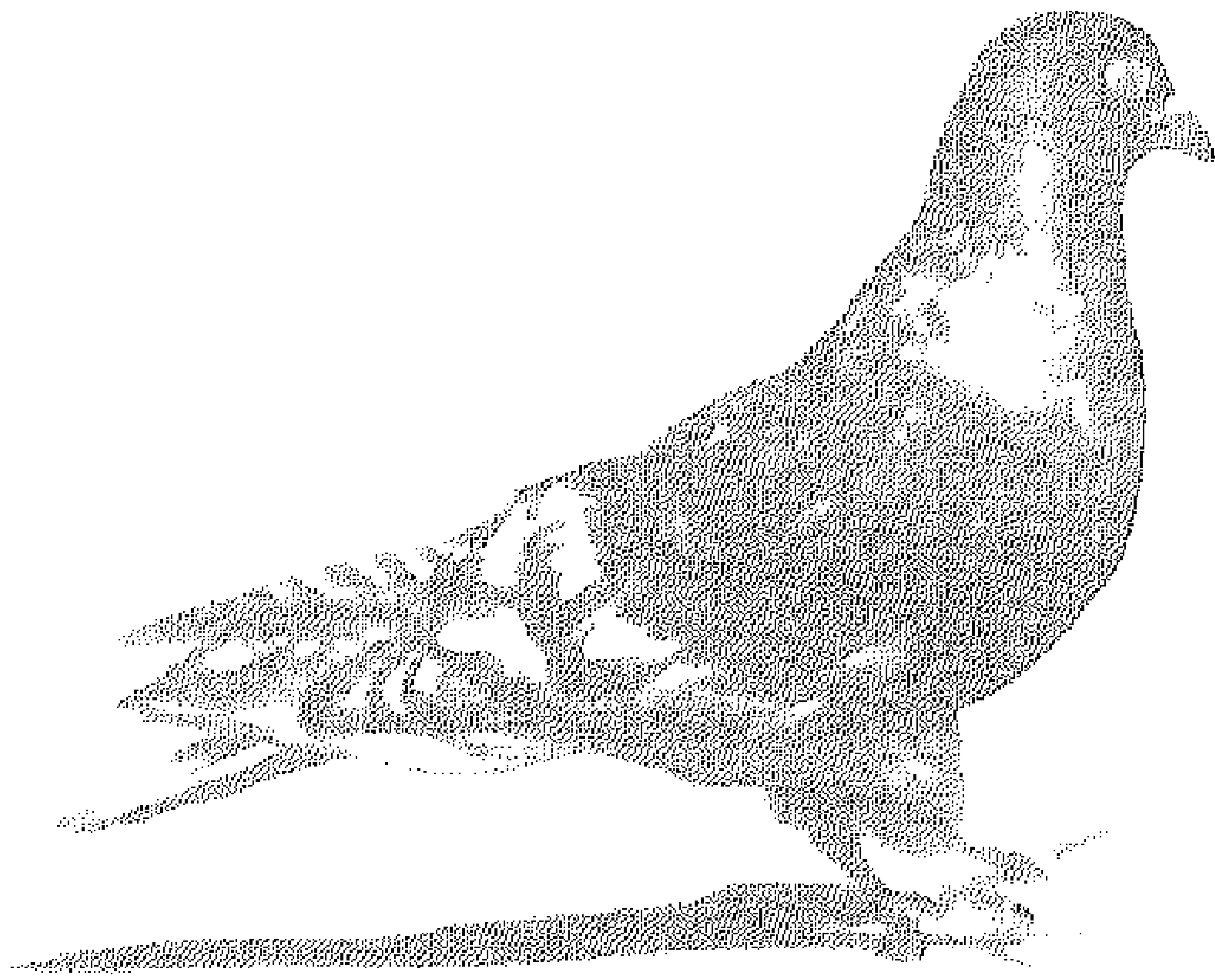
استفسرت عن الثمن فرفع الرجل يديه الاثنتين باسطا اصابعه العشر. ولانني كنت تعلّمت المساومة من الفلاحين، فقد هززت رأسي بحزم ورفعت اصبعين. فاغمض عينيه وكأنه صُدم ورفع تسع اصابع. فرفعت بدوري ثلاثاً، فرفع هو ستاً.

في النهاية اصبح الطائر ملكي في مقابل خمس دراخمات دفعتها لرجل الخنافس شاكراً وودعته قبل ان انطلق عائداً الى البيت وانا اكاد اطير فرحاً.

قبل ان انعطف الى الطريق التي تعبر حقول الزيتون والتي اخترت ان اسلكها اختصاراً للوقت والمسافة، نظرت خلفي فاذا بصاحبي ما زال في مكانه لم يبرحه، بل راح يثب ويتمايل في رقصة مرحة سريعة ومزماره يصدح لحنا بهيجاً.

بعد هذا اللقاء، اعتاد صديقي الجديد، رجل الخنافس، ان يظهر فجأة في الدارة حاملا كل مرة حيواناً جديداً أضيفه الى مجموعتي. وهو احضر مرة سلحفاة ومرة ثانية ضفدعاً ومرة ثالثة عصفوراً دورياً مكسور القائمة. وكان يختفي فجأة كما جاء.

عندما وصلت بطائري الى البيت، علّق لاري على منظره السمين المنفر وفي الحال سمّاه "كوزميدو." اعجبني الإسم من دون ان اعرف معناه فوافقت عليه. ربما بسبب نشأته غير القويمة. كان كوزميدو مقتنعاً بأنه ليس من فصيلة الطيور، فهو استنكف عن الطيران حتى بعدما اكتمل ريشه وكان إذا رغب مثلا في الصعود الى طاولة، يقف تحتها ويروح يهدل بصوت رنان عميق حتى يرفعه أحدنا ويضعه عليها. والى ذلك، فهو اصرّ على النوم داخل المنزل وليس في العلية التي بنيتها له. اما مكانه المفضل للنوم، فكان طرف سرير اختي مارغو التي اضطرت في وقت لاحق الى نفيه الى الاريكة في قاعة



الاستقبال لانه كان يستيقظ كلما تقلبت هي في فراشها ويروح يحجل قبل ان يحط بالنتيجة على وجهها وهو يهدل بتودد وصخب.

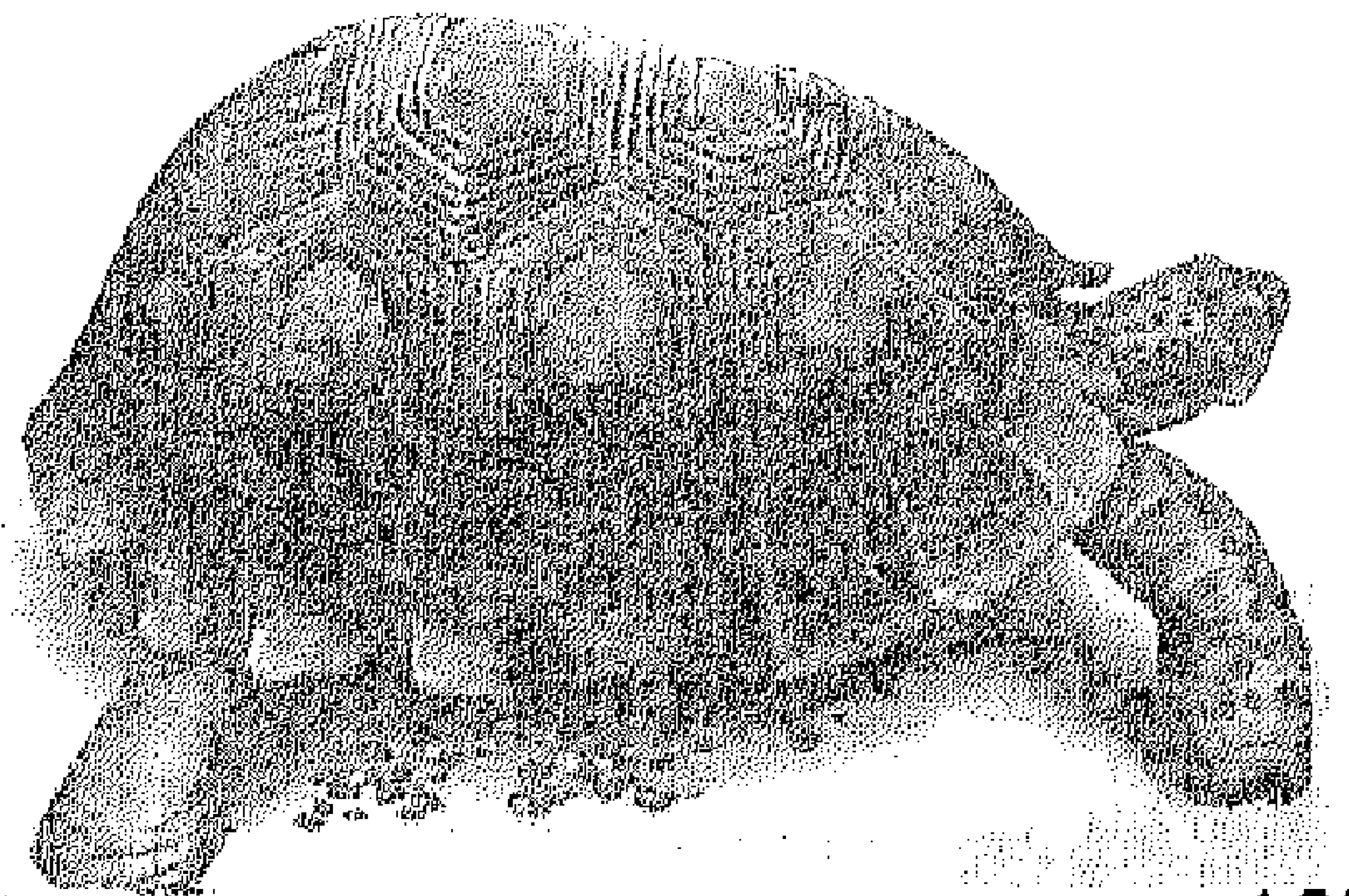
استأنس كوزميدو بالموسيقى. والواقع انه بدا قادراً على تمييز نوعين منها: الالحان العسكرية وموسيقى الفالس. وكانت هذه تجعله، ما ان يسمعها، يطوف حول المنضدة وهو ينحني ويهدل بصوت مرتعش وجل. اما استجابته للالحان العسكرية، وخصوصاً الحان سوسا، فمختلفة تماماً. فقد كان يقف منتصباً منتفخ الصدر ثم يروح يذرع المكان وهو يضرب الأرض بقائمتيه ويهدل هديلا عميقاً متحشرجاً الى حد خشينا عليه مرة ان يختنق.

وذات صباح اكتشفنا ان كوزميدو استطاع ان يخدع الجميع، إذ وجدنا على الاريكة بين الوسائد بيضة صقيلة بيضاء. ولم يكن لكوزميدو، بعد ذلك النهار، ان يعود الى وضعه السابق، فهو اصبح كئيباً سريع الاهتياج ينقد كل من يحاول حمله بنزق وغيظ. وما لبث ان وضع بيضة ثانية واصبح، او بالأحرى، اصبحت اكثر شراسة.

آخر مرة رأيتها كانت جاثمة في شجرة زيتون وهي تهدل بخفر ودلال وعلى مسافة غصن منها جثم طائر حمام ذكر راح يهدل، هو الآخر، بنشوة وإعجاب تامين.

استغرق اشقائي الكبار وشقيقتي في أعمالهم الروتينية، ناظرين اليّ والى نشاطاتي باستسخاف. أخي الاكبر لاري (٢٣ عاما) كان كاتباً. وهو امضى معظم النهار مع الآلة الكاتبة. شقيقي الثاني لسلي، (١٩ عاماً) كان مولعاً بالسلاح وبالصيد وهو حمل الى الجزيرة مسدسين عاديين وآخر هوائياً وكتاباً عنوانه "إعتنِ بسلاحك بنفسك." وكان، عملا بتعليمات الكتاب، ينظّف مسدسيه بنفسه ويتدرب على الرماية يومياً مسدداً طلقاته الى علب من تنك. اما اختي مارغو (١٨ عاماً) فكانت لا تزال مراهقة وهي احضرت كتباً حول النحافة والسبُل المؤدية اليها، بالاضافة الى فوج من الزجاجات الصغيرة تحتوي كل منها على إكسير يضمن الشفاء من حبّ الشباب. ولقد تعوّدنا ان نرى مارغو متوجهة الى حقول الزيتون طمعاً في "حمام شمسي".

وكنا احياناً أخرى نراها بفساتين



طويلة وهي تخطر امامنا ساحبة وراءها امتاراً من القماش الشفاف ومخلفة في المكان شذى عطرها. اما والدتنا الارملة التي غالباً ما بدت كمبشّر دقيق الحجم منهك وسط ثورة محلية لا تنتهي، فلقد حاولت جاهدة ان تدير المنزل بنظام وتوازن.

على ان استكشافاتي الحيوانية سرعان ما تقلّصت عندما قررت امي انني في حاجة الى تعليم رسمي اكثر مما تلقيته على شقيقيّ لاري ولسلي ومن خلال كتب اربعة كنت حملتها معي. وسرعان ما اصبح لي مدرس خاص اسمه جورج كان صديقاً للاري ومثله قصد كورفو للكتابة. وبكثيرٍ من الجدية والرزانة بدأ جورج يعلمني مبادىء اللغة الفرنسية والجغرافيا والتاريخ والرياضيات. وسرعان ما ادرك انه إن كان له ان يحظى مني بإجابات عليه ان يصوغ اسئلته باللغة التي أفهمها. ولكي يثير اهتمامي بالدرس أخذ يطرح عليّ اسئلة من نوع: "إذا لزم اسبوع كامل ليسروعين ليلتهما ثماني ورقات شجر، فكم من الوقت يلزم لاربعة يساريع لالتهام العدد نفسه من اوراق الشجر؟" اما دروس التاريخ فاستهلها بحكايات من نوع: "فيما الاسطول الفرنسي يتقدم، جلس هوراشيو نلسن فوق الجسر يصنّف بيض الطيور التي تألفت منها مجموعته."

لكن حياتي في الجزيرة لم تقتصر على العمل وحده، إذ كان لي متسع من الوقت لممارسة استكشافاتي ومغامراتي. وهكذا اكتشفت بعد ظهر احد ايام الربيع المالك الحقيقي للتلال المحيطة بالدارة.

قبعنا روجر وانا خلف اجمة حجبتنا عن الانظار، ورحنا ننتظر بصبر عودة فراشة خطافية الى البقعة التي اعتادت ان تتشمس فيها. كان ذاك النهار اول ايام الحرّ وبدا كل شيء حولنا مخدراً هامداً تحت اشعة الشمس. فجأة راحت بقعة الارض التي كنت اراقبها، ترتفع. للوهلة الاولى، لم اصدق عيني ولكنها ما لبثت ان إنشقت عن صدفة بنية وصفراء. ثم اخذ يظهر من الثقب، بحذر وبطء شديدين، رأس مغضّن محرشف تبعه عنق طويل هزيل. تفحصتني السلحفاة بعينين طارفتين غائمتين وبعدما اطمأنت الى منظري غير المؤذي رفعت جسدها من الزنزانة الترابية وخطت بضع خطوات قبل ان ترتمي على الارض بتكاسل ونعس تحت اشعة الشمس.

فجأة تغطت التلال بالسلاحف. وبدا كأن ظهور تلك السلحفاة الاولى من مهجعها الخفي تحت الارض، كان إشارة الانطلاق. سلاحف من كل حجم ولون، صغيرة بحجم فنجان شاي، كبيرة بحجم صحن شورباء، اجداد بلون الشوكولاته، احفاد باهتة بلون القرون – سرحت كلها صوب تلك البقع الخضراء من الارض المكسوة بالبرسيم.

ما كادت السلاحف تلتهم الوجبة الاولى من الطعام حتى هاج الشوق لدى الذكور وراودتهم افكار رومنطيقية فانطلقوا باعناق ممدودة وسرعة متعثرة يبحثون عن رفيقات يشاطرنهم الصب والهوى. وكانوا يتوقفون بين الفينة والاخرى ويطلقون صيحات مشبوبة غريبة.

في ذلك السباق اللاهث والمحموم للفوز بأنثى، غالباً ما التقى ذكران او ثلاثة حول انثى واحدة. وكانوا اذذاك يتبادلون نظرات غاضبة متوعدة وحناجرهم تفصّ بتشنج استعداداً للمعركة.

اما الأنثى موضوع الإعجاب والحرب، فكانت تتابع سيرها بتمهل واتزان وكأن الامر لا يعنيها، غير آبهة على ما يبدو بقرقعة الصدف وراءها. ولم يكن مؤكداً ابداً ان يفوز بها في النهاية واحد من المتحاربين. وكم من مرة شاهدت إناثاً تمضي في سبيلها متخلية عن من خاض حرباً من اجل عينيها ليحظى بها في النهاية سلحف غريب لم يكلّفه الفوز بها ولا حتى شظية من ترسه.

ومن مخبئنا وراء الاجمة كنا نراقب الفصول الرومنطيقية الاخيرة من المسرحية. والواقع ان ليلة الزفاف، او بالاحرى نهار الزفاف، عند السلاحف لا يلهب الاحاسيس او يلهم المخيلة. فبكثير من الخرق وقلة الرشاقة يحاول الذكر ان يعتلي ترس الانثى. وفي محاولاته اليائسة تزل به القدم مرات عدة وينزلق ويتلوى متلمساً ببراثنه موطىء قدم.

راقبت مرة ذكراً في منتهى الخرق والفركشة، فهو وقع عن ترس الانثى ثلاث مرات متتالية، ولما نجح اخيراً في اعتلاء الترس تقدمت الانثى، وقد اضجرتها المحاولات الخرقاء، بضع خطوات الى الامام فهوى الذكر، وراح يتدحرج على الارض بغير وقار حتى استقرّ على ظهره. وكانت هذه الحركة الضربة القاضية بالنسبة اليه فتقوقع داخل ترسه حزيناً

يندب سوء حظه، اما انثاه القاسية القلب، فراحت تمضغ ورقة طرخشفون بصوت طاحن.

مع مرور الوقت، اصبحت اميز بين السلاحف. وتوثقت العلاقة بيني وبين إحدى الاناث، وكانت عوراء فسميتها "السيدة سايكلوبس." وهي اعتادت ان تمد عنقها اليّ بثقة واطمئنان كي تتناول اوراق الخسّ التي احضرتها اليها. ومع انني لم احضر زفافها، الا ان الحظ اسعدني واتاح لي ان أشهد حصيلة شهر العسل.

رأيت السيدة سايكلوبس ذات يوم وهي تحفر ثقباً في الارض الطرّية في اسفل منحدر من الارض وهي راحت تكشط التراب بقائمتيها الاماميتين وتركمه بترسها حتى اصبح كومة مرتفعة. ثم انزلت مؤخرتها في الثقب وجلست فيه شاردة الذهن منتشية ووضعت تسع بيضات ناصعة البياض. بعد ذلك شرعت تهيل التراب فوق البيض. وعندما انتهت من الردم سوت الارض ومهدتها. وهي لجأت في عملها الى طريقة بسيطة إذ وقفت فوق التراب المردوم وإرتمت على بطنها عدة مرات. بعد ذلك الانجاز استراحت فترة ثم تقبلت مني باقة من البرسيم.

على رغم رغبتي الشديدة في بيضة سلحفاة اضيفها الى مجموعتي، لم اشأ ان اتناولها في حضورها لذلك انتظرت بصبر حتى ابتعدت عن المكان فاخرجت واحدة من الارض. وحتى لا تشك هي في الامر اعدت تسوية التراب ثم اسرعت بغنيمتي الى البيت. وبعدما تخلّصت من المح الدبق بواسطة النفخ، وضعت القشرة كاملة في علبة صغيرة ذات غطاء زجاجي ووضعت بجانبها شرحاً مزجت فيه العلم بالعاطفة. إذ كتبت: "بيضة تستودو غريكا وضعتها مدام سايكلوبس."

ما كدنا نستقر في الجزيرة ويطيب لنا العيش فيها، حتى كتب لاري الى جميع اصدقائه - تبين في النهاية ان عددهم ثمانية - يدعوهم بكرمه المميز الى الاقامة عندنا. ولم يخطر في باله ان الدار صغيرة وبالكاد تتسع لأهل البيت. وعندما لفتت الوالدة نظره الى هذه الحقيقة رد عليها بالآتي: "ان كنت تقصدين ان الدارة غير واسعة كفاية، فالحل البديهي هو ان ننتقل الى غيرها." فردت عليه وبشيء من الصرامة وبحزم: "الحل البديهي هو الا تدعو الناس الى الاقامة عندنا. حتى وإن انتقلنا الى دارة تتسع لثلاثة عشر شخصاً، فماذا نفعل بالمساحات الاضافية عندما يغادرنا الضيوف؟"

فاجابها فوراً: "ندعو ضيوفاً غيرهم." فرمته بنظرة غضب وقالت: "لن ننتقل الى دارة اخرى!" لكننا ما لبثنا ان فعلنا.

كانت الدارة الجديدة قصراً مربعاً ضخماً، ذا جدران صفراء باهتة بلون النرجس الاصفر. وشمل الايجار بستانياً وزوجته عجوزين هرما مع العقار. وفي لحظة حماسة في غير محلها اتفقت الوالدة وزوجة البستاني لوغاريتزيا على ان تعمل هذه عندنا. وهي كانت امرأة ناحلة، كئيبة الملامح، تجد متعة في التحدث عن امراضها المزمنة.

بالنسبة الينا كانت الحدائق المحيطة بالدارة جنة كبيرة ممتدة الى البحر الايوني المتألق والى مساحات جديدة شاسعة للاستكشاف. ولقد صادفت في تلك المنطقة المتعددة التضاريس والالوان الكثير من اصدقائي القدماء من الخنافس والنحل والدعاقيس والعناكب واليعاسيب. اما مخلوقات لاري فقد وجدتها اقل إلفة واكثر غرابة.

عجّت الدارة ذلك الربيع واوائل الصيف بسيل لا ينقطع من اصدقاء لاري، فكنا نودّع فوجاً ونستقبل آخر. وهم كانوا مجموعة من الشعراء والفنانين والكتاب امتلأت بهم الدارة والحدائق. فجلسوا تارة يتباحثون ويحتسون الشراب وطوراً يرسمون ويؤلفون. وتبين في النهاية انهم جميعهم، من دون استثناء، من اكثر الناس غرابة.

بين اول الوافدين كان زاتوبيك، وهو شاعر ارمني قصير القامة ممتلىء الجسم له انف عقاب وشعر فضي متدل حتى الكتفين. وقد وصل الى الدارة بعربة حملها اكداساً من الاغراض وكان يرتدي عباءة سوداء فضفاضة وقبعة سوداء ذات حافة عريضة. وعندما دخل هز صوته الدارة كما تهزها الرياح الشرقية. وطوال إقامته بيننا لم ينقطع عن الكلام.

الغزو الثاني نفذه ثلاثة من الفنانين هم: جونكيل ودوران ومايكل. بدت جونكيل اشبه ببومة فظة صوتاً ومظهراً، وانما بشعر مقصوص غرة فوق الجبين. وكان دوران هزيلاً، كئيباً، عصبياً الى درجة انه كان يقفز من مكانه اذا تحدث اليه احدهم فجأة. اما مايكل فكان رجلا قصير القامة بديناً، اشبه بقريدسة مسلوقة جيداً. وعبّر الثلاثة عن رغبتهم في العمل، خصوصاً جونكيل التي خصت الوالدة بشرح اضافي إذ قالت لها بجدية وحزم: "لم آت لامضي عطلة تافهة، فانا جئت لأعمل، لذلك لا تهمني النزهات ولا المشاوير. الا ترين اني على حق؟" فوافقتها الوالدة على ذلك بكثير من الشعور بالذنب وكأنها كانت تخطط لتقيم على شرفها ولائم كبيرة.

انسحبت جونكيل على الفور الى الحديقة، وتحت اشعة الشمس الساطعة استسلمت للنوم. وعلى هذا المنوال امضت عطلتها بيننا.

دوران ايضاً اعلن انه يرغب في العمل ولكن ليس قبل ان يستعيد انفاسه ورباطة جأشه لأنه، كما قال لنا، تعرّض حديثاً لتجربة حطمته. فهو خلال اقامته في ايطاليا، عمل يوماً كاملا على خطوط رائعته الفنية وكان موضوعها "بستان لوز في اوج إزهاره." لكنه عندما عاد في اليوم التالي ليكمل اللوحة فوجىء بأن عاصفة هوجاء اجتاحت البستان في الليل وعرّت الاشجار من اوراقها فبدت هزيلة كئيبة. واهتز صوته حين قال: "هذا الحادث اصابني في الصميم واقسمت على انني لن ارسم ما حييت... مستحيل! لكنني بالطبع ساعاود الرسم في أحد الأيام."

وتبين لنا، بعد الاستفسار، انه مضت على هذا الحادث سنتان.

اما مايكل فقد سحرته الوان الجزيرة واعلن انه سيشرع في رسم زيتية ضخمة تجسد روح كورفو المميزة. لكن المحزن في الامر انه وقع فريسة نوبة من الربو. فقد

استفقنا في منتصف الليل على صوت بدا كأنه صادر عن فرقة من الكلاب الدماديم تتعرّض لاختناق بطيء. وتبين ان السبب حرام احصنة تركته لوغاريتزيا في غرفته من دون انتباه، وما ان ازيل السبب حتى عاد مايكل الى حاله الطبيعية. لكن النوبة أثرت في الرجل المسكين كثيراً الى درجة انه لم يستطع، طوال اقامته بيننا، ان يمد يده الى الفرشاة، وان مرة واحدة. فانضم الى دوران واستلقى الاثنان جنباً الى جنب في الشمس، كل في كرسي بحري، يستعيدان رباطة جأشهما معاً.

وفيما نحن نحاول التغلّب على المشاكل التي احدثتها إقامة هؤلاء بيننا، وصل الى الدارة ضيف جديد هو ميلاني كونتيسة تورو. وهي ذات وجه شبيه بوجه حصان هرم وحاجبين اسودين بلون الغراب وشعر قرمزي يشبه الوسادة. ولم يمض على وجودها في المنزل خمس دقائق حتى بدأت تتذمر من الحرّ وما لبثت، امام عيني والدتي المذعورتين، أن أمسكت بشعرها المستعار ونزعته عن رأسها مظهرة صلعة كنبتة فطر. وعندما لاحظت الذهول في عيني امي شرحت لها بصوت اجشّ ناعب: "لقد شفيت لتوي من مرض جلدي رهيب اتى على كل شعري... لم أجد في ميلانو شعراً مستعاراً وحاجبين من اللون ذاته... ربما وجدت شيئاً مناسباً هنا في اثينا."

كانت وجبات العشاء مع الضيوف الاربعة رائعة مفعمة بالحيوية. ولقد سحرني حديثهم الى درجة انني لم ادر الى من أصغي.

ودونت من حديث للكونتيسة مع أخي لاري حول الشعر المقطع الآتي: "... لا بد انك تتمتع بصفاء عيني طفل... خذ مثلا اروع بيت اساسي من الشعر... "همبتي دمبتي". هذا شعر... خال من الابتذال".

ومن حديث بين جونكيل ودوران حول الفن دونت المقطع الآتي: "... وهكذا قلت له: لن ارسم بأقل من عشرة جنيهات في المرة الواحدة. وهذا رخيص بخس... نعم قلت له هذا..."

"... وفي صباح اليوم التالي اصابني شلل... الوف الازهار والبراعم ممزقة ومجرّحة... اعصابي تحطمت..."

إنبعثت من القناديل سحب رقيقة من الدخان واضواء خافتة أضفت على الموائد لوناً عسلياً دافئاً، وراح أخي لسلي يتلهى بصنع كرات من الخبز يقذف بها الفراشات الحائمة حول القناديل فيما الوالدة تسكب الطعام للضيوف بالمغرفة وعلى فمها ابتسامة مبهمة. وكانت تراقب لوغاريتزيا بيقظة ودقة. اما روجر فربض تحت الطاولة واخذ يضغط بأنفه البارد ركبتي في استرحام صامت.

عقارب على المائدة

السور الحجري المتداعي الذي احاط بالحديقة الغائرة حول المنزل شكّل لي ارضاً خصبة للصيد، وهو كان جداراً قديماً من الأجر كُسي بالجص الذي سقطت اجزاء كبيرة منه. ولقد امضيت ساعات طويلة انعم النظر فيه واراقب "سكانه".

كان هناك نوعان من السكان: الصيادون والفرائس. صيادو الليل كانوا العلاجم والبرص الشاحبة اللون والجاحظة العينين. وفيما العلاجم تتربص

بفرائسها في العليق النامي في اسفل الجدران، اتخذت البرص مساكن لها في الشقوق في اعالي الجدران. وكانت الفرائس من الذباب الغبي الطائش الذي اقحم نفسه بين اوراق الشجر، ومن الخنافس والفراشات من كل لون وحجم. اما صيادو النهار فكانوا الزنابير التي تقتات باليساريع والعناكب وهذه تفترس بدورها الذباب. اما السحليات السريعة الحركة والمتعددة الالوان فقد اصطادت كل شيء.

لكن العقارب، تلك المخلوقات الحيية والاكثر خجلا بين سكان الحائط، هي في الواقع الاشد فتكاً. ولكي تراها، ما عليك الا ان تُدخل سكيناً في شق في الحائط وتقبّ الجص عن الاجر برفق، كمن يرفعه بمخل، فيظهر امامك عقرب يصل طوله الى سنتيمترين ونصف سنتيمتر تظنه مصنوعاً من الشوكولاته اللماعة. إنها بالفعل مخلوقات غريبة، تلك العقارب ببراثنها الضخمة الموصولة كالدروع بمفصلات والتي تشبه براثن السلطعون وبأذنابها التي تبدو كعقد من خرز تنتهي بزبان مثل شوك في شجرة ورد. ولقد وقعت في هوى تلك المخلوقات العجيبة التي تعاملك باحترام ما لم تأتِ بعمل أخرق كأن تضع يدك على إحداها مثلا. ولولا ان وجود العقارب امر محظور في بيتنا، لكنت احتفظت بمجموعة منها في غرفتي.

وذات يوم وجدت في الجدار عقرباً انثى سمينة، كانت ترتدي ما ظننته للوهلة الاولى معطفاً من فراء كستنائي اللون، وسرعان ما تبين بعد التدقيق والفحص ان ذلك الرداء الغريب لم يكن سوى مجموعة من صغار العقارب تشبثت بظهرها. طرت فرحاً وعزمت على تهريبها الى غرفتي كي تتسنى لي مراقبتها تكبر وتنمو. وبتحايل ولباقة ادخلتها وصغارها في علبة كبريت.

ما ان دخلت المنزل حتى وجدت، ولتعاسة حظي، ان العائلة على وشك تناول الغداء فوضعت علبة الكبريت على رفّ المستوقد في غرفة الاستقبال وانضممت الى العائلة. سار كل شيء على ما يرام ونسيت غنائمي المثيرة. وعندما فرغ أخي لاري من الغداء توجه الى غرفة الاستقبال بحثاً عن سيجارة، فتناول واحدة وحمل علبة كبريت وجلس في احدى الارائك. وضع السيجارة في فمه، ثم فتح علبة الكبريت، وهو يتحدث بعفوية.

وما كاد يفتح العلبة، حتى اندفعت العقرب مهرولة وصغارها على ظهرها. وهي اغتنمت اول فرصة للهرب من ذلك السجن الذي ازعجها طوال مدة احتجازها فيه. وقفت على ظهر يد لاري وزبانتها مقوسة استعداداً للسع. فشعر لاري بحركة على يده فنظر اليها متفحصاً وما كاد يفعل حتى بدأت الامور تتطور نحو مزيد من التشويش وما لبثت ان دبت الفوضى.

اطلق لاري صرخة رعب مدوية جعلت روجر يندفع من تحت الطاولة وهو ينبح باهتياج. ثم نفض يده قاذفاً العقربة الى المائدة حيث استقرت في منتصف المسافة بين مارغو ولسلي. وتطايرت صغارها حولها كالنثار. جنّ جنون العقربة فاندفعت، وزبانتها تهتز غيظاً، في

اتجاه لسلي الذي هبّ وانهال عليها بمنديل المائدة فتدحرجت المسكينة صوب مارغو التي اطلقت صرخة داوية يفخر القطار إن هو اتى بمثلها.

وفي ذهول وارتباك، وضعت والدتي نظارتيها على عينيها مستطلعة "السبب" الذي ادى الى كل ذلك الهرج والمرج. في تلك اللحظة، وفي محاولة يائسة لايقاف تقدم العقربة، رشقتها مارغو بكوب من الماء لكنها اخطأتها وبدل ان تصيبها اصابت الوالدة وبللتها وقطعت انفاسها وهي لا تحتمل المياه الباردة وجعلتها تجلس على طرف المائدة وهي تلهث.

واغتنمت العقربة الفرصة فاختبأت تحت صحن لسلي فيما اندفع صغارها في كل اتجاه.

صرخت مارغو: "انتبهوا! انها تقترب...!" وزمجر لسلي، "كتاب! لا ترتعبوا! اضربوها بكتاب!"

واضاف: "انظروا الى المائدة... إنها تعِجّ بالعقارب. حمداً للرب انني لم ألدغ!"

وسألت امي بتوسل: "ولكن كيف وصلت العقارب الى المائدة يا عزيزي؟"

"انتبهوا! هناك عقارب أخرى...! بسرعة...! إفعلوا شيئاً! اضربوها بالسكين! السكين... اضربوها!"

ومع عودة بعض الهدوء والنظام، تبين ان العقارب الصغيرة اختفت جميعها تحت الصحون والسكاكين والاكواب، فاقترح لسلي ان نقضي عليها جميعها. لكن اقتراحه سقط على يد الوالدة. وما ان انسحب افراد العائلة الى غرفة الاستقبال، وهم في غليان ورعب، حتى اغتنمت الفرصة وحملت الصغار بملعقة صغيرة واعدتها الى ظهر امها ثم نقلت الجميع بحذر شديد الى صحن صغير وانطلقت بها الى الحديقة حيث اطلقتها على مضض قرب السور حيث وجدتها.

ووجدت ان الحكمة تقضي بأن اتيح لافراد العائلة، قبل ان اراهم ثانية، فرصة لقيلولة هم في حاجة اليها، فاصطحبت روجر وخرجنا الى التلال حيث امضينا فترة بعد الظهر.

على اثر ذلك الحادث المؤسف، خصصت العائلة غرفة في الطبقة الاولى لي ولحيواناتي على امل ان يحصرها هذا التدبير في مكان واحد من المنزل. وفاحت من الغرفة التي سميتها "مكتبي" وسمتها العائلة "غرفة البق والحشرات" رائحة الاثير اللطيفة. وضعت مجموعاتي التي ضمت، الى بيض الطيور، البيرقات والخنافس والفراشات، في صناديق كبيرة من الكرتون. اما المخلوقات الاخرى المثيرة، مثل الدجاجة ذات الاربع قوائم والانواع الغريبة من الافاعي والضفادع التي لم يكتمل نموها بعد، فقد وضعتها في زجاجات كبيرة ملأتها بمحلول الكحول الممزوج بمادة "الميثيل."

وعلّقت على أحد جدران الغرفة، وطواطاً مبسوط الجناحين صبّرته بنفسي. ونظراً الى خبرتي المحدودة في علم التحنيط فقد سرّني انه بدا كالوطواط الى درجة كبيرة. ولكن مع حلول فصل الصيف، ترهل الوطواط قليلا وفاحت منه رائحة

غامضة تسرّبت الى جميع اجزاء المنزل، وعندما وصلت الى غرفة شقيقي لاري، ادركت انه بات عليّ ان اتخلص من الوطواط.

ومع ان الجهود التي بذلتها للحصول على وطواط آخر اخفقت، الا انها لم تذهب سدى. فذات يوم أقحمت يدي في ثقب في جذع شجرة زيتون كثيرة العقد والالتواءات، واذا باناملي تطبق على شيء ناعم الملمس صغير راح يتلوى وانا اسحب يدي. ظننته للوهلة الاولى حزمة كبيرة من بذور الطرخشفون مزودة زوجاً من العيون الكبيرة الذهبية. وبعد التدقيق تبين انها ليست سوى بومة صغيرة مكسوة بالزغب. نظر واحدنا الى الآخر قبل ان تغرز البومة براثنها في ابهامي تعبيراً عن سخطها.

حملت "البويمة" في جيبي وعدت الى المنزل وقدمتها الى افراد العائلة. وفوجئت بما قابلوها به من ترحاب غير متحفظ. وبعد جدل طويل سميناها "يوليسيس." وخطر لي انه من المستحسن ان تتوثق العلاقة بينها وبين روجر فوضعتها على الارض وطلبت من روجر ان يتودد اليها. وبما ان روجر اعتاد مصادقة مختلف انواع المخلوقات التي تبنيتها، فقد اقترب منها بثقة وهو يهز ذنبه بحبور. حدّقت اليه بشراسة من دون ان تطرف لها عين فجمد في مكانه وتوقف ذنبه عن الاهتزاز ونظر اليّ مستلهماً، فامرته بأن يتقدم.

بعد تردد قصير، قرر الكلب ان يجرّب معها رأسه بين كفيه وراح يزحف صوبها ببطء وهو يصدر عواء خفيفاً. لكنه عندما اصبح على مقربة منها، اقترف غلطة فادحة اذ دفع بوجهه الصوفي نحوها وراح "يشمشمها" بفضول وتحبب. ولا بد ان يوليسيس قررت ان تجعل ذلك المخلوق البشع غير المجنح يلزم حدوده فقفزت في الهواء وهي "تطقطق" بمنقارها وحطت على خطمه مباشرة غارزة مخالبها الحادة كالسكين في انفه الاسود فانتفض وهو يعوي من الألم ولاذ تحت احدى الطاولات.

الا ان الطائر، بعدما اثبت جدارته كمحارب قوي، راح يتودد الى روجر واصبح الاثنان خير صديقين. واحيانا، ونحن في الطريق الى البحر من اجل سباحة مسائية، كان يركب على ظهره متشبثاً بصوفه الاسود الجعد وما ان نصل الى الشاطىء حتى يجثم على قميصي وسروالي القصير ويروح يرمقنا باستنكار ونحن نقفز ونثب في الماء الضحل الدافىء.

اعتادت العائلة، مع اكتمال القمر في فصل الصيف، ان تسبح في الليل تجنباً لحرارة شمس النهار الحارقة. وكنا نرسي زورق التجذيف الذي سميناه "ثور البحر" في المياه العميقة ونغطس منه الى البحر. ولطالما قطعت الخليج طافياً على سطح المياه الدافئة برفق ومن غير جهد وعيناي معلقتان بالقمر.

استرخيت ذات يوم على صفحة البحر كوشاح من حرير شفاف ورحت اراقب المجرة واعد نجومها. حملني الموج برفق فغرقت في الاحلام. فجأة سمعت بالقرب مني صوت ارتطام وقرقرة مياه. عدلت وضع جسدي وخطوت بضع خطوات في الماء مستكشفاً. فهالني انني ابتعدت

مسافة كبيرة ليس من الشاطىء فحسب بل من الزورق ايضاً. ولم اكن مطمئناً الى ذلك المخلوق الذي كان يسبح في المياه الداكنة تحتي.

كنت على وشك اطلاق صرخة استغاثة عندما انشق البحر على مسافة تبعد عني نحو ستة امتار عن ظهر اسود لماع. تنهد المخلوق تنهيدة رضا قبل ان يغطس في البحر ثانية. وما كدت اقرر انه دلفين حتى برز ثمانية غيره راحت تتنهد بترف وظهورها تلمع في ضوء القمر. واقترب احدها مني حتى كدت المس رأسه الاسود كالابنوس، ظلت الدلافين فترة تلهو في مياه الخليج حولي، تارة ترتفع في الهواء واخرى تغطس في الماء بايقاع منتظم وهي تلهث وتتنهد. فجأة، وكأنها تلقت إشارة ما، دارت على اعقابها وسبحت مبتعدة في اتجاه ساحل البانيا. فراقبتها وهي تبتعد مهتدية بضوء القمر وراقبت النشوة في حركاتها عندما لامست اجسادها المياه الدافئة كالحليب الطازج.

قصة غرام

مع حلول فصل الصيف ومغادرة جورج الجزيرة، حل علي مدرس خصوصي جديد اسمه بيتر، وكان شابا وسيماً طويل القامة تخرّج حديثاً في جامعة اوكسفورد وله آراء محددة وواضحة حول اصول التربية. كانت دروسه في البدء موجهة الى درجة متناهية: مصارعة لا تنتهي مع الكسور والاسماء واسماء الحال وطبقات الارض. لكنه سرعان ما ادرك، تحت التأثير السحري للجزيرة، ان تلك الامور يسهل شرحها اثناء السباحة مثلا.

الى ذلك، برز لدى بيتر ومارغو ميل مفاجىء الى التنزه في الحديقة ومراقبة الازهار. وادهشني ان الإثنين اصبحا فجأة يهتمان بالنباتات. ولاحظت ان زيادة اهتمامهما بالحدائق والبساتين رافقها انخفاض في عدد ساعات دروسي المزعجة.

مع اقتراب نهاية فصل الصيف، اكتشفت والدتي ان مارغو وبيتر اصبحا، على حد تعبيرها الرقيق، "متعلقين واحدها بالآخر اكثر من اللزوم." اما لسلي فلعب دور الشقيق الذي امتهنت كرامته فاقترح انِ نرمي بيتر بالرصاص. ومع ان خطته اعتبرت غير عملية، الا ان لسلي زيّت مسدساته وعاد يتدرب على الرماية مستخدما تمثالا من الحجم الطبيعي صنعه من الكرتون وثبته في الواجهة الامامية للمنزل. اما الحل الذي اقترحه لاري فقضى ان نرسل الاثنين ليعيشا فترة معاً في اثينا كي "يتخلصا من مشاعرهما." بالطبع رفضت الوالدة هذا الاقتراح على اساس انه غير اخلاقي. وفي نهاية الامر، إستغنت الوالدة عن خدمات بيتر الذي سرعان ما غادر الجزيرة خلسة.

تعين علينا بعد ذلك ان نتعامل مع مارغو جديدة: مارغو مفجوعة، ساخطة، دامعة العينين. وهي في تلك الاثناء حرصت على ارتداء ملابس كئيبة قاتمة تليق بالمناسبة. والحق انها أدت دورها ببراعة رائعة. وهي، افهمتنا، بالاشارة، ودموعها تنهمر على خديها ان حياتها تدمرت وسرعان ما اعتزلت في العلية ورفضت ان تقابل احداً سواي لأنني، كما قالت، العضو الوحيد في العائلة الذي لم

يكن متحيزاً. وهي قبعت في العلية تقرأ لتنسون وتبكي بغزارة. وكانت احيانا تسمح لنفسها بفترة استراحة تتناول فيها وجبة طعام كبيرة.

ظلت مارغو معتكفة في العلية اسبوعاً وفي النهاية طرأ امر اخرجها من عزلتها وشكل الذروة في تلك القصة العاطفية. إكتشفت لسلي ان اموراً صغيرة كثيرة أختفت من زورقنا "ثور البحر" واشتبه بالصيادين المحليين الذين يعبرون الفرضة في الليل. وأراد ان يردعهم فعمد الى تركيب ثلاث بندقيات رشاشة ذات مواسير طويلة على نافذة غرفته وصوّبها في اتجاه الفرضة. وببراعة وابتكار، ربطها بحبل بحيث يستطيع ان يطلق النار من كل منها على حدة وحتى من دون ان ينهض من فراشه. ومع ان مجال الرمي كان من الاتساع بحيث يجعل اطلاق النار غير مؤذ، الا ان لسلي قدّر ان أزيز الرصاص في كروم الزيتون وصوت إرتطامه بالبحر لا بد ان يشكلا رادعاً فعالا. وجرفه اعجابه بنفسه وبألمعيته بعيداً فنسي ان يخبر احداً منا عن الفخ الذي نصبه للصوص.

وذات ليلة خيّم فيها الصمت ولزم الجميع غرفهم، هزت المنزل فجأة سلسلة من الانفجارات المتتالية. إنه لسلي يجرّب الفخ. لكن الوالدة التي لم تكن تعلم شيئاً عن الفخ، ظنت ان مارغو لا بد اقدمت على الانتحار، فاندفعت من غرفتها وهي في ثياب النوم الفضفاضة، تصرخ وتولول باهتياج. ولاري بدوره هرع الى الخارج مستطلعاً سبب تلك الجلبة التي حسبها شجاراً.

اما مارغو فهجمت على باب العلية وهي تصرخ، وراحت تدفعه، متلمسة موضع القفل بارتباك وفي اعتقادها ان بيتر عاد ليطالب بها وانه يتعرّض لمجزرة على يد لسلي.

وسمعت امي تقول وهي تنتحب: "لقد قامت بعمل احمق... لقد قامت بعمل احمق." ودوى صوت لاري مزمجراً: "لا يمكن احداً ان ينام بسلام في هذا البيت! هذه العائلة تدفعني الى الجنون!"

وسمعت خربشة مارغو على باب العلية واتى صوتها باكياً ثاقباً وهي تصرخ: "لا تؤذوه... دعوه وشأنه ايها الجبناء!"

"اخرجوني من هنا!"

وامتزج صراخ مارغو بصراخ الوالدة التي اندفعت الى العلية وهي ترتجف وتولول: "انها على قيد الحياة... ما زالت على قيد الحياة" ثم دفعت الباب ووجدت نفسها وجهاً لوجه مع مارغو التي لم تكن لتقل عنها شحوباً وانفعالا. وبعد وقت غير قليل من الهرج والمرج، إتضحت الحقيقة وعندما استوعبت الوالدة ما جرى انهالت على لسلي توبيخاً وتأنيباً، وهي قالت له: "على الاقل أعلمنا يا عزيزي عندما تطلق النار." فقال بسخرية: "بالطبع، اصرخ "خشب" او اي شيء آخر."

وكان من نتيجة هذا الحادث العرضي ان تخلّت مارغو عن العلية وما لبثت ان عادت، قدر الامكان، الى طبيعتها الأصلية.

إنقضى الخريف وحل الشتاء وامتلأ الريف باوراق الشجر الذهبية والقرمزية. واستفقنا ذات صباح لتطالعنا رؤوس

الجبال الخمرية اللون من وراء البحر وهي تعتمر قبعات من الثلج الابيض. إنه موسم الصيد ولسلي في اسعد حالاته. وقد درج على الذهاب الى البرّ في رحلات صيد مع زمرة من الصيادين المتحمسين امثاله.

وكانوا يصطادون الطيور والخنازير البرية. وذات يوم عاد لسلي من احدى رحلات الصيد منتفخاً بالغرور واخبرنا بتباه انه، وللمرة الاولى، اطلق عيارات "يميناً ويساراً" مسقطاً مع كل طلقة طيراً.

قالت الوالدة، وهي تنتف بطة لتحضرها للعشاء: "عظيم. لا بد انه كان صعباً."

فتساءل لاري: "لا افهم لماذا هو صعب."

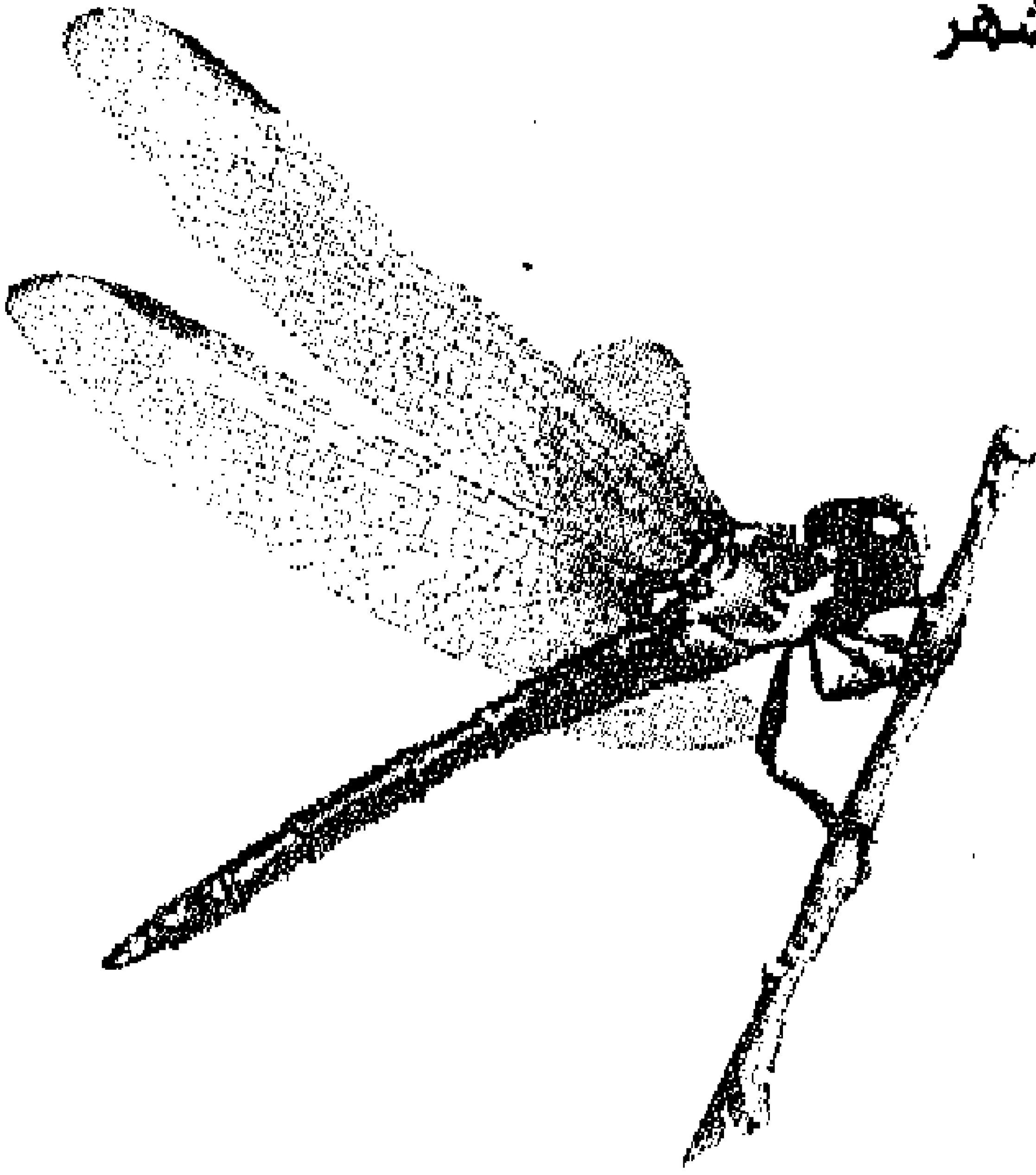
حملق لسلي بلاري مغضباً. وبعدما كان على اهبة الانطلاق مجدداً في وصف المشهد، توقف فجأة وسأله باستفزاز:

"لا تفهم؟ وماذا تعرف انت عن هذا الموضوع؟ انك لا تستطيع ان تصيب شجرة زيتون على بعد ثلاث خطوات منك."

وبصوت تغمره السلاسة والتملّق اجابه لاري: "يا صديقي العزيز، إن الامر لا يتعدى التصويب الصحيح. وهذا يبدو لي امراً سهلا."

فاجابه لسلي بتحد: "ما دام الامر سهلا ارنا نفسك تطلق يميناً ويساراً على الشنقب في المستنقع غداً."

قبل لاري التحدي وقال وهو يتنهد: "انا لا اجد متعة في قتل الطيور التي تبدو معاقة منذ ولادتها. ولكن بما ان الامر



متعلق بكرامتي، فلا مناص من التضحية بها."

انهمر المطر طوال الليل وعندما انطلقنا في الصباح الباكر لنشاهد لاري يقوم بعمله البطولي، اضطررنا الى ان نخوّض في الوحل. شكّ لاري، احتراماً للمناسبة، ريشة ديك رومي في قبعته المصنوعة من قماش التويد وبدا فيها اشبه بروبن هود صغير وبدين. وهو لم ينقطع عن التذمر والشكوى طوال الطريق المؤدية الى المستنقع. فالطقس بارد والارض زلقة والبندقية ثقيلة الوزن ولا اظن ان هناك طائراً يتمتع بقواه العقلية كاملة يخرج في مثل ذلك النهار. لكن لسلي استحثه ببرود، على متابعة الطريق.

كان المستنقع ارضاً مسطحة تستخدم في فصل الصيف للزراعة. وكانت تتخللها خنادق متصالبة للري اعمق من ان يقطعها المرء سيراً واعرض من ان يقفز فوقها. وهي طفحت بقرابة مترين من الوحل وبمتر ونصف متر من الماء. واقيمت فوقها جسور من الواح خشبية ضيقة، هزيلة، متداعية.

ما كدنا نعبر الجسر الاول حتى سمعنا خرخرة ثلاثة شناقب زوّمت كالطائرة من تحت اقدامنا. رفع لاري البندقية الى كتفه وضغط الزنادين معاً. لكننا لم نسمع دوياً. فقال لسلي يزهو المنتصر: "من المستحسن ان تلقمها!" فرد عليه لاري بحدة: "اعتقدت انك انت فعلت ذلك،" ثم لقمّ البندقية وتابعنا تقدمنا.

وقع الحادث في منتصف الجسر الثاني الذي راح يترنح تحت قدمي لاري. وفيما هو يعبره، انطلق من العشب النامي في الجهة المقابلة من الجسر، شنقبان كالصاروخ. رفع لاري البندقية الى كتفه واطلق "ضربين" فارتدت البندقية وصرخ لاري برعب وهوى الى الوراء مستقراً في خندق الري. اما الشنقبان فتابعا تحليقهما من دون ان يمسهما اذى.

صرخت مارغو بذعر: "لا تحاول الوقوف وإلا غرقت!"

لكن لاري الذي استلقى في الخندق باسطاً ذراعيه، لم يأبه لتحذيرها. فكرة وحيدة سيطرت على ذهنه وهي الخروج من الخندق. جلس في الوحل وحاول ان ينهض مستنداً الى ماسورة البندقية الامر الذي احزن لسلي وازعجه. وما ان رفع لاري جسده حتى ارتجّ الوحل حوله وارتفع الى خصره مبتلعاً البندقية.

فاحتج لسلي بحنق: "انظر ماذا فعلت بالبندقية!" فرد عليه لاري مزمجراً: "أرفض ان انقذ البندقية ما لم تنقذني. اللعنة... اخرجوني من هنا!".

فصرخ لسلي في وجهه: "دعني امسك بطرف البندقية وبذلك يسعني ان اخرجك ايها المعتوه."

باهتياج وتململ مد لاري يديه في الوحل متلمساً مكان البندقية. غاص عدة سنتيمترات اخرى قبل ان يعثر عليها ويخرجها ملطخة بوحل كريه الرائحة.

وعلق لسلي على الامر كمن يندب حظه: "انظروا اليها!"

قال لاري: "كف عن البكاء على تلك البندقية الملعونة واخرجني من هنا!" فتناول لسلي طرف البندقية ورحنا جميعنا نشد معاً بكل ما اوتينا من قوة.

اخيراً سمعنا صوت تجشؤ آتياً من الوحل واندفع لاري الى السطح وقد تغطى بطبقة من الوحل الاسود النتن. سحبناه الى الضفة حيث وقف كتمثال من الشوكولاته خرج لتوه من أتون.

سألته مارغو: "هل انت على ما يرام؟"

فاجابها لاري بتهكم: "بخير ولولا طرف من ذات الرئة والتواء في الظهر وفردة حذاء في قعر خندق يزيد عمقه على عمق قامتي خمس مرات، لكنت في افضل حالاتي!"

رسمت خطوات لاري في المنزل لدى عودتنا اليه، خطوطاً جعلت الارض تبدو كحقل محروث. وهو رفض اي مساعدة من الوالدة وتناول من خزانة الطعام زجاجة شراب، وبمقدار ما سمح له الظرف من كرامة ووقار، انسحب الى غرفته ونام.

قالت الوالدة: "سوف يشعر بتحسن في الصباح،" لكنه لم يكن في الصباح التالي عند حسن ظنّها.

جلسنا ذات يوم ربيعي منعش في الشرفة نقرأ ما ورد علينا من بريد، وفجأة

صرخت الوالدة: "بحق السماء!... كلا... يا الهي!"

– ما الامر؟

– إنها العمة هيرميون. فهي كتبت الآتي: "بما انكم تقيمون في منزل ضخم، فلن تبخلوا بالتأكيد على عجوز مثلي بزاوية منه تمضي فيها ما تبقى لها من ايام."

والعمة هيرميون التي ظلت طوال الاربعين السنة الاخيرة تعتقد انها تعيش ايامها الاخيرة، هي على حدّ تعبير لاري "الشخص الأقل شعبية بين جميع اقاربنا العجائز المتحجرين والمختلي الإدراك." وهو شرح الامر للوالدة بغضب وقال: "في الواقع يا امي انني كنت اتطلع الى صيف هادىء لطيف امضيه برفقة عدد قليل من الاصدقاء المختارين ولكن سوف نتعرض للغزو من اقارب غريبي الاطوار مهووسين، والامر الوحيد الذي يمكن ان نفعله هو الانتقال الى دارة اصغر حيث لا متسع لأحد منهم."

فردت عليه الوالدة: "ولكن يا عزيزي، سوف يبدو الامر في منتهى الشذوذ إذا استمررنا ننتقل في الجزيرة من دارة الى اخرى."

كانت الدارة الجديدة بيضاء كالثلج وبدت وسط حقل الزيتون الذي احاط بها هرمة متداعية انما في غاية الاناقة والروعة. ومما زادها سحراً في عيني انني وجدت على مصراع النافذة في إحدى الغرف وطواطاً يسقسق بحقد اسود. لكنه، ولسوء الحظ، وجد، عندما انتقلنا الى الدارة، ان المكان اصبح مكتظاً فقرر الذهاب.

على بعد اقل من كيلومتر من الدارة، ارتفعت تلة كبيرة، الى حد ما، وجدتها ملائمة لصيد السحليات. وذات يوم صيفي في تلك التلة تسلقت شجرة زيتون عتيقة، وفي مكان عال بين الاغصان وجدت اربعة من صغار الغربان. اعترف بان منظرها لم يكن جميلاً او جذاباً. رؤوسها صلعاء، جلدها مغضّن متهدل. قررت ان آخذ إثنين واترك الاثنين الآخرين لأمهما. حملت طائري المدللين الجديدين وقد بدا بطناهما مثل بالونين منفوخين، وتوجهت بهما الى البيت. استقبلهما افراد الاسرة، كل بطريقته.

"اليسا لطيفين؟" تساءلت مارغو.

"انهما يثيران الاشمئزاز" لاحظ لسلي.

ولأن احداً لم يجد لهما اسمين مناسبين، فقد صرنا نشير اليهما بكل بساطة بكلمة "العقاعيق" اي الغربان المبقعة الطويلة الذيل. ووصف لاري العقاعيق بانها لصوص بالسليقة. واضاف: "يجب ان نزوّد غرف المنزل بنادق ونضع على ابوابها حرساً مسلحاً." لكنني قطعت وعداً للعائلة بالا اسمح لطائري بممارسة السرقة فسُمح لي بالاحتفاظ بهما.

سار كل شيء على ما يرام، الى ان تعلم الغرابان الطيران. وبعدما اتقنا هذا الفن رسما خريطة المنزل غرفة غرفة واصبحا جاهزين للسرقة. والحقيقة انهما بدوا انيقين في حلّتهما السوداء والبيضاء وهما يتنقلان في الدارة.

اكتشف الطائران ان افضل مكان هو المطبخ. وتأكد لهما، من حرارة استقبالي لهما في غرفتي، انهما دائماً على الرحب

والسعة فيها. اما الوالدة ومارغو فما فتئتا تذكّرانهما كلما زاراهما بما هو ممنوع عليهما فعله، وهما وجدا ذلك مملا. ومع ان لسلي سمح لهما بزيارته شرط الا يتخطيا عتبة النافذة، الا انهما امتنعا عن دخول غرفته بعدما انطلقت البندقية مصادفة. بقيت غرفة لاري تلك الأرض المحرّمة التي اسرتهما واثارت فضولهما، وهما لم يتسنّ لهما حتى التفرّج عليها إذ كانت تنهال عليهما القذائف والصواريخ بمجرّد اقترابهما من النافذة. وكان صوت لاري يعلو مزمجراً.

والظاهر انهما خلصا الى ان لاري يخبىء شيئاً ما وإلا لماذا قابلهما بكل تلك الجلبة؟ واخذا على عاتقهما كشف هذا الشيء. واتيحت لهما الفرصة بعد ظهر يوم احد عندما ذهب لاري للسباحة ونسي ان يغلق نافذة غرفته.

على رغم ان العقاعيق هي في العادة ثرثارة صاخبة، إلا ان هذين الطائرين نفّذا غارتهما بصمت. فقد تناوبا الحراسة على حافة النافذة، حسب رواية لاري. والواقع ان هذا رأى من بعيد احدهما على عتبة النافذة فصرخ فيه بغضب. قوقى الطائر بذعر وانضم اليه رفيقه وطار الاثنان الى شجرة مغنوليا وهما يقوقيان بصوت أجش كأنهما تلميذان ضُبطا وهما يغيران على بستان. فاندفع لاري الى البيت بغضب وصعد الى غرفته جرياً وجرّني معه. وما ان فتح الباب حتى اطلق عويلا اذ رأى كوماً من اوراق الطباعة المخرّمة بجاذبية وإتقان مبعثرة على الأرض هنا وهناك. وكحصان انتزعت احشاؤه في حلبة مصارعة الثيران، تمدّدت آلة لاري الكاتبة بشريطها الملتف المتدلي ومفاتيحها الموشّحة بقطرات من الروث. وظهر جلياً ان الطائرين اشتبها بان لاري مهرّب مخدرات، فسكبا محتوى علبة من بيكربونات الصودا على صفٍّ من الكتب. وظهرت على الطاولة وعلى إحدى المخطوطات، خصوصاً على المخدّة، رسوم فنية نفّذتها بالحبر الاحمر والاخضر اقدام صغيرة تركت اثاراً حمراء وخضراء، وهما اللونان المفضلان لديهما، على ما يبدو، لان زجاجة الحبر الأزرق لم تمس.

قال لاري بغضب: "لقد طفح كيلي."

فبيّنت له انه لا يمكنه ان يلقي اللوم على الغرابين لانهما، كبقية الطيور، تثير اهتمامهما كل الاشياء. وهما لا يستطيعان كبح غريزتهما.

فرد: "الناحية الاخلاقية لدى العقاعيق لا تهمني!" واضاف متوعداً: "انني احذرك، فإن لم تتخلص من هذين الحيوانين المتوحشين او تحتجزهما فسوف اقطعهما إرباً!"

الكلب المتقذر

ساعدني احد اصدقائي على صنع قفص من الاسلاك لاضعهما فيه. وعندما ادخلتهما القفص ثارت ثائرتهما، لكنهما، وبنتيجة احتجازهما، اصبحا يكرسان مزيداً من الوقت لدروسهما. وبفضل لغتهما اليونانية المتينة بات في وسعهما ان يناديا كل فرد من العائلة بإسمه مما اربك الجميع وشوشهم.

في غضون ذلك، زاد عدد سكان الدارة من الكلاب. ولمناسبة عيد مولدي، اهدت الي إحدى عائلات الفلاحين الذين

عرفتهم، جروين احدهما اسود بلون الفحم والثاني أبيض مرّقط ببقع بلون الكبد. ومع ان اقتراح لاري ان نسميهما "وِدل" و"بيوك" اثار قرف والدتي وإشمئزازها، إلا ان الاسمين التصقا بهما. ثم جاءت "دودو،" وهي مخلوقة ذات مظهر مضحك الى درجة ان العقعاقين لم يصدقا انها من فصيلة الكلاب واصرّا على معاملتها بازدراء وتعالٍ. لقد كانت سليلة نوع من الكلاب تعرف باسم "داندي دنمونت" (وهو اسم احد ابطال رواية "غي مانيرينغ" للسير وولتر سكوت) وبدت كبالون مستطيل سمين، كثيف الشعر، ذات قوائم صغيرة مقوّسة وعينين جاحظتين واذنين طويلتين متدليتين. لقد وفدت الينا بصحبة الوالدة التي عادت بها ذات يوم من عند اصدقاء لها.

هتفت مارغو: "اليست لطيفة؟"

فقال لسلي: "يا الهي إنها تبدو كالبزاقة." وسأل لاري والدته وهو يحدق الى الكلبة باشمئزاز: "هل تعرّضت لحادث ما أم انها ولدت هكذا؟" فردت عليه الوالدة: "كفوا عن هذا الهرآء إنها كلبتي واحبها."

وسرعان ما اكتشفنا ان دودو كانت ذات ذكاء محدود جداً وان رأسها لم يكن ليتسع لاكثر من فكرة واحدة تتشبث بها بضراوة بمجرد ان تستقر في رأسها. وفي وقت مبكر من إقامتها بيننا، قررت ان والدتي تخصّها وحدها وهي لذلك لن تدعها تغيب عن نظرها ولو للحظة واحدة. ثم التصقت بها كالبطلينوس ولم تعد تفارقها.

إذا قامت والدتي لتتناول كتاباً،



لحقتها دودو، وإذا دخلت الحمام، جلست دودو قرب المغطس حزينة كئيبة تحدّق اليها على نحو محرج. وبدا ان لديها انطباعاً بان والدتي ربما هربت من خلال المصرف.

في البدء قوبلت دودو من روجر وودل وبيوك بتسامح ساخر، اذ اعتبرت إضافة مضجرة الى افراد العائلة الى ان اكتشفت هذه الحيوانات ان الاضافة تتميز بخاصة مبهجة وهي انها تصاب بالنزاء، اي الاهتياج الجنسي، بانتظام رتيب.

اما دودو فاظهرت، حيال حقائق الحياة، براءة تمس شغاف القلب وبدت فعلا حائرة بسبب الهبّات المفاجئة في شعبيتها، وربما بسبب تلك البراءة وقعت دودو فريسة سهلة لسحر رموش بيوك الرائعة. وهي واجهت قَدَراً اسوأ من الموت يوم وضعتها الوالدة مع بيوك في غرفة الاستقبال.

وفوجىء الجميع، بعد حين، ودهشوا عندما ابصر النور، نتيجة ذلك اللقاء، مخلوق غريب كالكبتولة راح يموء ويبكي كالاطفال. وقد ورث عن امه بنيتها وعن ابيه لونه المميز وبقعه الغريبة.

كادت دودو ان تصاب بانهيار عصبي بسبب الامومة، فهي تمزقت بين رغبتين: واحدة تدعوها الى البقاء مع الجرو في مكان واحد، واخرى تدفعها الى الالتصاق بالوالدة. وما لبثت في النهاية ان توصلت الى حل وسط فراحت تتبع الوالدة، من مكان الى آخر، حاملة الجرو، من رأسه، في فمها. ولدى صدور ادنى حركة من الوالدة، كانت دودو، المتأهبة دوماً، تلتقط الجرو (من رأسه) وتبدأ المطاردة.

وذات مرة قال لاري معلقاً على الوضع: "إذا استمرت الحال هكذا طويلاً، فلن يلبث هذا الجرو ان يتحول زرافة."

فردت عليه والدته: "اعلم ذلك ولكن ماذا في وسعي ان افعل؟"

والواقع ان الحل كان بسيطاً، اذ استخدمت الوالدة فتاة تدعى صوفيا، وهي احدى بنات الخادمة، لحمل الجرو تخفيفاً عن دودو. وهكذا عادت الوالدة تتنقل في المنزل بحرية من غرفة الى اخرى ودودو في اثرها وصوفيا في المؤخر حاملة الجرو على وسادة.

اعتادت الوالدة أخذ الكلاب في نزهة الساعة الخامسة بعد الظهر. وكان الموكب يتألف من كبير الكلاب روجر الذي كان يسير في المقدم يتبعه ودل وبيوك ثم الوالدة التي اعتمرت قبعة ضخمة من القش جعلتها تبدو كنبتة فطر متحرّكة. اما دودو فكانت تسير متهادية وراء الوالدة وعيناها جاحظتان. اما صوفيا فكانت تحتل مؤخر الموكب وهي تحمل الجرو على وسادة.

اصطحبت الكلاب ذات يوم في رحلة استكشاف الى قناة بالقرب من البحر. وهناك وجدنا بين العشب مصادفة حيّتين مائيتين بنّيتين ملتفتين واحدتهما على الاخرى بحب وهيام. فراحتا تحدّقان الينا بعيون فضّية. يا لها من لقية مثيرة، ولطالما تمنيت ان اعثر على حيّة من ذلك النوع، وها هما الآن اثنتان في الشمس امامي وما علي إلا ان التقطهما.

رفعت الاولى على قضيب وما ان فتحت فمها الوردي وراحت تهس، حتى طوّقت عنقها بيدي وبرقة متناهية وضعتها في السلة. في تلك الاثناء انسلّت الافعى الثانية الى القناة فنزعت حذائي وغطست في الماء الدافىء وراءها شعرت بالطين بين اصابع قدمي وفجأة احسست بجسم ينزلق تحت قدمي وما لبثت الحية ان اندفعت الى سطح الماء على مسافة نحو متر مني.

اطلقت صرخة انتصار ورميت بنفسي فوق الافعى وقبل ان يتسنى لها ان تستجمع قواها وتعضني. باغتها بأن اطبقت يدي حول عنقها وعدت الى الشط مخوّضاً.

فوجئت لدى خروجي من الماء بان رجلا يجلس على الشاطىء كان يتسلى بمراقبتي. كانت عيناه زرقاوين كبيرتين فيهما بريق لطيف، وانفه قصير اشبه بمنقار صقر. حسبته صياداً وهو حيّاني بصوت صاف عميق وقال: "بصحتك." فرددت التحية بمثلها وانا اضع الحية الثانية في السلة.

أخرج الرجل بعض التبغ ولفّ سيجارة واشعلها ثم قال: "اني ذاهب الى البحر وفي زورقي بعض الكوكل. في وسعك ان تأخذ بعضها إن شئت."

أجبته ان ذلك يسعدني جداً ومشيت معه الى الزورق. وفي الطريق سألته من اين جاء فاجابني: "من التلال، ولكنني الآن في فيدو." حيّرتني إجابته ففيدو هي الجزيرة - السجن هنا.

لاحظ الدهشة في عيني فربت على روجر وقال موضحاً: "هذا صحيح، فانا سجين لكنني سجين جدير بالثقة ولذلك يسمح لي بان اذهب الى منزلي بالزورق في نهاية الاسبوع."

كل شيء جائز في كورفو، قلت في نفسي. ولاحظت في مؤخر الزورق نورساً ضخماً اسود الظهر له منقار معقوف وعينان صفراوان ضاريتان، وقد ربطت ساقه الصفراء بمقعد. تقدّمت نحوه خطوة ومددت له يدي. فصرخ بي الرجل بالحاح: "انتبه، انه شرس متنمر." لكن الطائر الضخم سمح لي بان امسّد ريشه الناعم كالحرير.

وفيما نحن جالسان في الزورق نأكل المحار اخبرني الرجل انه امسك بالطائر في البانيا وكان ما زال صغيراً رقيق الزغب. واضاف: "اما الآن فانه بطة سمينة بشعة مفترسة. هل ترغب فيها؟"

بالطبع ارغب فيها! والواقع انني كنت على استعداد لان اضحي باي شيء في سبيل نورس مثله. شكرت الرجل بحرارة وقبل ان يغيّر رأيه، حملت السلة التي وضعت فيها الحيتين واستعددت للانطلاق الى البيت حاملا آخر غنائمي. اما كيف ستستقبل العائلة طائراً بحجم الوزّة له منقار كالموسى، فمسألة لم تخطر في بالي.

فكّ الرجل الحبل وحملت الطائر تحت إبطي. قال لي الرجل وهو يودعني: "ان اسم الطائر "اليكو" وهو يلبيك إذا ناديته باسمه."

وبكثير من العفوية سألته عن إسمه ولماذا هو في السجن.

"اسمي كوستي، وقد قتلت زوجتي."

أجابني هكذا وصعد الى الزورق وراح يجذف مبتعداً.

سار كل شيء على ما يرام. وفي طريق العودة الى البيت توقفت تحت شجرة تين لارتاح. ويبدو ان المكان راق "اليكو" لانني عندما هممت بالسير، افهمني بوضوح انه يود البقاء حيث هو فاطلق صراخاً عالياً مزعجاً. تجاهلت احتجاجه العنيف وحاولت حمله فما كان منه الا ان فاجأني بضربة سريعة من منقاره اصابت يدي فشعرت كأنها شُرطت بمعول للثلج وظهر فيها جرح بليغ عمقه خمسة سنتيمترات راح يتدفق منه الدم بغزارة.

بدا اليكو، بعد ذلك الهجوم، راضياً معتداً مما اغاظني وافقدني صبري فانهلت عليه بشبكة صيد الفراشات وهجمت عليه وامسكت بمنقاره بشدة وربطته بمنديلي ثم نزعت قميصي ولففته حوله مقيّداً جناحيه المتخبطين. اخيراً لملمت اغراضي بانفعال وغيظ وحملت اليكو وتوجهت به الى البيت.

في المنزل، أوثقت الحيتين موقتاً في مكتبي ثم حملت اليكو الى غرفة الاستقبال. بدأت بفك وثاقه، فجعل، على رغم الكمامة الملفوفة حول منقاره، يطلق صرخات مخنوقة شبيهة بصوت البوق، الامر الذي اثار افراد العائلة فهرعوا الى مصدر الصوت مستطلعين.

كان لاري اول السائلين: "من تراه ذا الذي يعزف الآن على مزمار القربة؟"

رمقه اليكو ببرود واستخفاف ثم اطلق صرخة فظة عنيفة وتقدم منه بضع خطوات جعلت لاري يتراجع بسرعة وهو يصرخ: "يا الهي! ما هذا؟"

اما لسلي فابدى اعجابه به: "ما اضخمه!"

وسألت مارغو: "هل هو نسر؟"

الحقيقة ان جهل عائلتي بعلم الطيور كان دائماً مصدر إزعاج لي. وبعصبية شرحت لهم انه نورس اسود الظهر. ولمزيد من الايضاح نزعت المنديل المربوط حول منقاره. فارتعد بسخط وفتح منقاره واطبقه عدّة مرات مطلقاً فرقعة حادة كصوت الجلد بالسياط.

قال لاري بجزع: "اسمع هذا! إنه يصر باسنانه!"

فرد لسلي: "ليست له اسنان."

ثم توجه لاري الى والدته: "حسنا، إنه يصر بشيء ما. آمل انك لن تسمحي له بالاحتفاظ به."

في تلك اللحظة لاحظت دودو، للمرة الاولى، وجود اليكو بيننا. فتقدمت منه متهادية وقد جحظت عيناها فضولا وراحت تشمشمه. فانقضّ عليها اليكو بمنقاره كالبرق، ولو لم تدر رأسها في اتجاهي استجابة لصرخة الذعر التي اطلقتها لكانت خسرت شريحة لا بأس بها من انفها. لكنها لم تسلم تماماً، فهي تلقت لطمة جانبية على رأسها جعلتها تعوي مما اعطى اليكو انطباعاً بان مباراة صوتية تجري فبذل اقصى جهده ليتفوّق عليها في الصياح.

وفيما انصرفت الوالدة ومارغو الى تدليل دودو، كي تهدأ وتصمت، انشغل اليكو بتزيين الارض بسخاء ومن دون حساب وراح يهزّ ذنبه بخيلاء وتباه كمن اتىٰ عملا فذّاً وعيناه تراقبان دودو.

قال لاري: "انه لشيء جميل! والآن علينا ان نخوّض في البيت يغمرنا الغوانو، (سماد طبيعي من ذرق الطيور البحرية) حتى الخصر. اننا لن نسمح بذلك."

حملت اليكو الى الشرفة وربطته بحبل بحيث يستطيع التحرك وهو مقيّد وتركته هناك ريثما انتهي من تقسيم القفص بين الغرابين والنورس.

ذلك المساء اخبرت العائلة، ونحن حول مائدة العشاء، عن لقائي وكوستي الذي اعطاني الطائر. "ومن يكون كوستي هذا؟" سألني لاري. فاجبته بعفوية "انه نزيل السجن." وهنا تدخلت الوالدة وقالت: "لست على يقين يا عزيزي ان فكرة معاشرتك سجيناً تروقني. إنك لا تعلم ماذا فعل."

جبهتها بما اعلم وقلت لها انه قتل زوجته.

"إنه قاتل إذاً!" قالت الوالدة بانشداه وقد بدا عليها الذعر.

"بالطبع إنه قاتل. لقد علمت ذلك لتوك." قال لاري.

"ولكن كيف علمت بهذا يا عزيزي؟" سألته الوالدة بفضول.

"بسيطة، ليس سوى قاتل يعطي جيري مثل ذلك الوحش المفترس" قال لاري وهو يتنهد ويبتسم باستنكار وشماتة.

ساد الدارة جو من النشاط والحركة وبدأت سلال النتاج وافواج الدجاج تصل الى المنزل من الباب الخلفي. وسرعان ما بلغت العدوى الغرابين فراحا يطلقان اصواتاً حادة ويتفوهان بكلام خشن عن أهل البيت الذين كانوا يتدافعون بسرعة واهتياج. وكانت الوالدة في المطبخ تبدو كأنها في جوف بركان، فكيفما اتجهت سحب من بخار ونار متقدة وفقفقة قدر وصفير ماء يغلي. ولم يبق فرد في العائلة الا قام بعمل مفيد ما عدا لاري الذي استسلم للنوم في الطبقة العليا. كان الجميع يعدون لوليمة غداء صغيرة.

كل شيء سار حسناً حتى صباح يوم الحفلة حين اخذت الامور تسوء. فبادىء ذي بدء، اكتشفت الوالدة ان دودو اختارت ذلك النهار لتصاب بالنزاء، فاستأجرت فتاة من الجزيرة واوقفتها في الباب وزوّدتها مكنسة وتعليمات لطرد جميع "طالبي يد دودو."

وقبيل وصول اول المدعوين، لاحظت ان حوض التنك الذي يضم الحيّتين قد نقل من مكانه ووضع تحت اشعة الشمس الحارقة وكانت الحيتان طافيتين مترهلتين على وجه الماء وبدتا على آخر رمق لا ينقذهما سوى اسعافات اولية سريعة. فحملتهما، بعدما حصلت على إذن من أمي، الى حمّام في الطبقة العليا حيث وضعتهما في ماء بارد منعش. وسرعان ما عادت اليهما الحياة.

عدت الى الشرفة كي القي نظرة على المائدة. فرأيت العقعاقين يتمايلان برفق من جانب الى آخر في وسط ما كان نسقاً من الأزهار جذاباً جداً وُضع في منتصف المائدة لتزيينها. لقد هربا من القفص! تفصدت عرقاً بارداً وانا اتفحص المائدة. على غطاء المائدة، بالطول والعرض، آثار قوائم رُسمت بالزبدة. الملح والفلفل استُخدما بفاعلية وتأثير لتزيين ما تبقى من ملء سلطانية من صلصة التوابل. اما ابريق الماء فقد أُفرغ فوق كل شيء مضفياً على المائدة تلك اللمسة المميزة التي يصعب تقليدها: لمسة العقاعيق!

الى كل ذلك، كان في "المجرمين" شيء غريب. كانا يتمايلان بايقاع منتظم بين بقايا الأزهار الممزقة. ثم قفز احدهما الى الطاولة وراح يمشي على حافتها مترنحاً ومحدقاً الي بنشوة عارمة، وكأنه سابح في عالم آخر، قبل ان يهوي الى الارض. فاسرعت اليهما وحملتهما واعدتهما الى القفص. وهناك اكتشفت ان ما خشيت حدوثه قد حدث. فاليكو ايضاً اغتنم الفرصة وهرب. فتشت عليه في كل مكان ولكن من دون جدوى. لا بد انه ذهب الى البحر ليستحم.

في تلك الاثناء، كان وصل بعض المدعوين وجلسوا يحتسون الشراب على الشرفة حيث كانت تنشب بين الحين والآخر معارك ضارية بين "خطّاب" دودو من الكلاب المزمجرة. وكانت امي بعد كل مقاطعة من هذا النوع، تعاود الحديث وقد رسمت على وجهها ابتسامة مشرقة. وكانت فعلت ذلك ثلاث مرات قبل ان تدوي في البيت فجأة زمجرة هائلة ظهر على اثرها لسلي متدثراً بمنشفة صغيرة وهو يقوم بحركات عصبية من يديه

يرافقها صراخ واهتياج: "١٠٦ حيات! ذلك الولد اللعين ملأ البيت بالافاعي الدامية!"

فقالت له والدته، "لغتك يا عزيزي، لغتك" وذكّرته بضرورة حسن انتقاء الالفاظ واضافت وهي شاردة الذهن: "قد تتعرض للبرد اذا بقيت هكذا."

"حيات لعينة كخراطيم المياه،" تمتم لسلي وهو يختفي في الداخل متشبثاً بالمنشفة التي كادت تنزلق عن جسده. اما الوالدة فشرحت الامر للضيوف وافهمتهم ان الافاعي تعرّضت لضربة شمس.

فرد لاري: "هذا البيت خطر كشرك الموت!" واضاف: "في البدء هاجمتني العقارب، ثم تعرّضت غرفتي للهجوم من عقاعيق عاثت فيها تخريباً وتمزيقاً، وتجوب المنزل اسراب من طيور القطرس وهي ترفرف باجنحتها..."

فقاطعته الوالدة: "نعم" ثم توجهت الى الضيوف قائلة: "هلا جلسنا الى المائدة؟"

توزّع الضيوف حول المائدة يتبادلون الابتسامات. وفجأة هبّ إثنان وهما يصرخان بذعر وقال احدهما:

– "شيء عضّني... في ساقي."

على الفور نهض لاري وحذر الحضور: "لا تتحركوا، إبقوا في اماكنكم من دون حراك إلا إذا كنتم تفضلون ان تقطع ارجلكم من الركب!" لكن تحذيراته ذهبت ادراج الرياح إذ هبّ الجميع على نحو جماعي، كأنهم جسد واحد، وغادروا المائدة.

انطلقت صرخة اليكو من تحت الطاولة ثاقبة، مهدّدة، متوعدة. فرفعت الغطاء ونجحت في الامساك بمنقاره ثم كبّلت جناحيه وعدت به الى القفص وهو يصيح ويشتم. بعد ذلك عاد الجميع الى المائدة.

تدرّجنا من صنف فاخر الى آخر على موسيقى طقطقة الشوك والسكاكين وقرقرة الشراب وهو يسكب في الكؤوس. اكلنا حتى انتفخنا ثم انتقلنا الى غرفة الاستقبال ورحنا نتبادل الاحاديث على نحو متقطع، مفكك، حالم. في تلك الاثناء قررت دودو وقد اضجرتها الحفلة، ان تخرج الى الحديقة لتطارح الطبيعة العواطف والاحلام. ولشد ما كانت خيبتها عندما وجدت في استقبالها مجموعة من الكلاب الشرسة امضت يوما شاقا ملتهباً في محاولات يائسة للتعرف إليها وهي لم تكن على استعداد للتخلي الآن عن تلك الفرصة الذهبية.

دارت دودو على عقبيها وهرولت عائدة الى المنزل وهي تعوي بذعر وتبعتها على الأثر الكلاب مزمجرة، لاهثة، مستنفرة. اثار المشهد الرعب في نفوس روجر وودل وبيوك، ومع ذلك شعرت هذه انه ان كان لأحد ان يغوي دودو فيجب ان يكون واحداً منها فهي أحق فيها من اي كلب غريب شارد. وباندفاع وحيوية القت الكلاب بانفسها في المعركة وهاجمت مطاردي دودو. وخلال دقائق تحوّلت الغرفة كتلة مختلطة من الكلاب المتحاربة والضيوف المتدافعين بجنون محاولين تفادي العضّ. قال لاري وهو يقفز الى كرسي برشاقة وخفة:

"إنها ذئاب... ومعنى هذا ان الشتاء سوف يكون قاسياً."

فخرج لسلي صارخاً في الكلاب: "إلزمي الهدوء!" ثم تناول وسادة قذفها بها اقرب زمرة من الكلاب المتحاربة فالتقطتها ومزّقتها ناثرة في الجو سحباً من الريش المتطاير.

وهتفت مارغو: "اوقفوا هذه المجزرة اوقفوها!" وتناولت مشعباً للصودا وراحت ترش الضيوف والكلاب على السواء من دون تمييز او تحيّز!

اخاف هذا العمل الكلاب لسبب ما، فولّت الادبار مخلفة وراءها اشلاء مبعثرة ومنظراً يحبس الانفاس. اما الضيوف فراحوا يدورون في الغرفة بغير نظام او هدف كقطعان الماشية وقد اكتسوا بطبقة من الريش الذي التصق بثيابهم المبللة. واما الوالدة فحملت دودو بين ذراعيها ووقفت تعاين المشهد ثم قالت برقة: "اني آسفة لما حدث. انها دودو، فهي تثير اهتمام الكلاب الآن."

الوداع

عندما ابلغ آخر معلم خصوصي الى الوالدة انه لم يعد لديه شيء يعلّمني إياه وان الوقت حان لارسالي الى انكلترة من اجل متابعة دروسي، وافقت في الحال.



ولم يكن نقاشي معها مجدياً، على رغم تأكيدي لها انني افضل ان اكون نصف متعلّم إلا انها اصرّت على رأيها ولم تتزحزح عنه.

حزمنا امتعتنا وحضرنا اقفاصا جديدة للسلاحف والطيور ووضعنا اطواقاً جديدة حول اعناق الكلاب واستعددنا للرحيل. ووداعا للجزيرة واهلها قمنا بنزهات اخيرة بين حقول الزيتون وجلنا على الاصدقاء الكثر وبكينا ونحن نودعهم وهم بكوا كذلك. ثم وضعنا امتعتنا في السيارة وانطلقنا ببطء الى المرفأ.

مررنا بالجمارك وصعدنا الى المركب المتوجه الى "بيرينديسي" في ايطاليا وعندما ابحر المركب وهو يشق المياه الكحلية تعلقت عيناي بكورفو حتى اختفت وراء الافق الغائم بفعل الحرارة، وهّاجة متألقة. وعلى رغم علمنا اننا عائدون يوماً، إلا ان شعوراً بالانقباض اطبق على صدورنا. وفي القطار المكسو بالسخام الذي نقلنا من ايطاليا الى سويسرا جلنا بصمت نراقب الساحل الايطالي وهو يتوارى عن الانظار. على الرف فوق رؤوسنا راح العقعاقان يطرقان بمنقاريهما طرقات متتالية متكررة فيما اليكو يرسل بين فينة واخرى نعيباً حزيناً. وبين اقدامنا استسلمت الكلاب للنوم.

عند الحدود السويسرية، دقق في جوازاتنا مسؤول كفي الى درجة مخزية. وسلم الوالدة مع الجوازات بطاقة صغيرة ثم انحنى امامها وانصرف. بعد دقائق، قرأت والدتي ما كتب على البطاقة وتصلّبت اوصالها وصاحت بغيظ: "انظر ماذا كتب هذا الوقح!"

حملق لاري في البطاقة ثم قال بتهكم وشماتة: "هذا ما ينال المرء من عقاب عندما يترك كورفو!"

على البطاقة الصغيرة، في المكان المخصص لوصف الركاب كتب الموظف بخط انيق واضح الآتي: "سيرك متجول وعماله."

قالت امي وهي لا تزال غاضبة: "يا لها من كتابة، حقيقة ان بعض الناس في غاية الغرابة!"

وتابع القطار تحركه الضاج في اتجاه انكلترة.

جيرالد دورال ■

ترجمة د. باسمة سكرية عيد

الكاتب عالم طبيعي مشهور وصاحب اكثر من ٤٠ مؤلفاً رائعاً عن الحيوانات.



صياد سمك

كان في قديم الزمان صياد سمك يحمل كل يوم صنارته من قريته الى ضفة النهر حيث ينتظر بصبر ان تعلق سمكة بالصنارة. وبعد ان يصطاد ثلاث سمكات تماما يغادر النهر ويتابع طريقه ببطء الى كوخه حيث يعيش مع زوجته وابنه. وكان هذا الروتين العجيب مثار تعليق في القرية. وذات يوم وصل سائح وأخذ يمضي في نزهات يومية الى ضفة النهر. وبعدما راقب الصياد لعدة ايام قرر التحدث اليه:

"اعذرني، ولكني اراقب منذ عدة ايام طريقتك في التصرف على وتيرة واحدة، فما إن تصطاد ثلاث سمكات بالضبط حتى تغادر المكان.

- ولماذا تريدني ان انتظر هنا بعد ذلك؟

"من اجل مزيد من السمك"

- لكني احتاج الى ثلاث سمكات فقط، واحدة لكل منا نحن الثلاثة.

"ألم تفكر ابداً في محاولة اصطياد سمك اكثر؟

- ولماذا اصطادها؟

"لبيعها، فتتمكن من شراء شباك ومركب صيد.

- ما الغاية منها؟

"حتى تستطيع ان تشتري منزلا اكبر وربما مركبا آخر فيعمل عندك الناس؟

- ولماذا كل هذا؟

"حتى تقتني اشياء اخرى وتغدو غنياً جدا وتفعل ما يحلو لك.

- ما يحلو لي؟ ولكن ما يحلو لي هو ان اصطاد السمك!

م.ا.م.ا.

اعرف نفسك

اهم شيء لا غنى للانسان عنه هو ان يعرف كيف يفيد من المعرفة التي حصّلها.

افلاطون


كتاب الشهر
الحشاش الكبير
بقلم كارول سالين

الحشاش الكبير

تربع لاري لافين على ذروة النجاح. ولم لا؟ فالدكتور "سنو" (نسبة الى الكوكايين الابيض كالثلج) كما اصبح اسمه لاحقاً، كان طبيب اسنان لامعاً ومليونيراً ولما يتجاوز السنوات العشرين من عمره. وكان تخرج اولا في إحدى ثانويات النخبة ومن ثم في إحدى أرقى كليات طب الانسان واعلاها شأناً. لكن المصدر الحقيقي لثرائه فكان الكوكايين. ولم تكن المخاطر المحيطة بتجارة المخدرات لتخيفه او تثنيه عن عزمه فهو اثبت "منذ صغره" ان في وسعه ان يتخلص من عواقب اعماله والا يقع في شرها ابداً. ودفعه غروره الى ان يتباهى بنفسه امام إثنين من رجال مكتب التحقيقات الاتحادي الاميركي، احدهما من ريف فيرمونت والثاني من جبال تنسي الشرقية. وآلى الرجلان على انفسهما ان يسوقا تاجر المخدرات خريج المدارس الراقية ذاك، الى العدالة. وفي ما يأتي رواية لصراع الإرادات الذي نشب بينهم لأثبات من هو الأقوى.

لافين... لافين... لافين. اسم ظل يقفز امام عيني رجل المباحث تشك ريد وهو جالس في مكتب التحقيقات في فيلادلفيا يمحص السجلات العائدة الى قضية إفلاس احتيالي. وكان ريد عضو في فرقة مكافحة الجرائم التي يرتكبها اصحاب المهن الحرة وذوو الرواتب العليا الذين تقتضيهم وظائفهم الظهور امام الناس مظهراً انيقاً.

هنا، في الدفاتر امامه: ٣٣ الف دولار مدفوعة ثمن سيارة BMW فضية اللون للدكتور لاري لافين؛ ٣٥ الف دولار راتبه من "مؤسسة مارتن لوثر كينغ للرياضة"، حوالات اخرى محررة لامره من "شركة إمباكت للإنتاج" التي تتولى إدارة اعمال الرياضيين المحترفين ولاسيما الملاكمين منهم؛ الوف الدولارات مدفوعة للشخص نفسه من شركة اسطوانات مفلسة متخصصة بتسجيل الاغاني الزنجية الايقاعية وتدعى "يوموت - تيك." تساءل ريد: من يكون لاري لافين هذا؟

وكانت القضية احيلت على ادارة مكتب التحقيقات الاتحادي في يوليو (تموز) ١٩٨٢، اثر دعوى اقامها مغن زنجي يؤدي شعراً منثوراً بمرافقة موسيقية ايقاعية، على صاحب شركة "يوموت - تيك" متهماً إياه بثعب جعالته من ثمن الاسطوانات المبيعة. وكان هذا يدعى مارك ستيوارت، في الثامنة والثلاثين يعمل سمسار عقارات ومقاولا ومتعهداً يجري صفقات مالية وهمية، واحياناً كثيرة غير مشروعة.

وذات مرة، احتاج ستيوارت الى مبلغ نقدي بسبب عمليات نصب واحتيال قام بها، ولم يكن امامه من سبيل للخلاص من هذا المأزق سوى سند التأمين المعقود على مجموعة المباني التي تؤلف "مؤسسة كينغ للرياضة والترفيه" التي يملكها. وفي عتمة مساء ٤ اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٨١ تسلل الى المبنى المهجور شخص مجهول فدخله بواسطة مفتاح كان في حوزته، وهناك صنع حبلا طويلا من خرقة قماش ثم اضرم فيه النار بعود ثقاب بعدما شبعه بالفازولين.

وصدف في تلك الاثناء مرور سيارة إطفاء بالقرب من المكان، كانت عائدة من مهمة، فشاهد من فيها السنة اللهب في المبنى فاسرعوا الى اخمادها. وتبين لاحقاً ان بين البقايا المسفوعة ادلة كافية لتوجيه تهمة افتعال الحريق الى ستيوارت ولإقامة الدعوى عليه.

ونتيجة الجهود المتضافرة التي بذلها "مكتب التحقيقات الاتحادي" و"دائرة جباية الضرائب" و"دائرة الكحول والتبغ والاسلحة النارية" - باعتبار ان لهذه سلطة النظر في دعوى الحريق المفتعل والفصل فيها - صدر امر بمصادرة جميع السجلات والدفاتر العائدة الى ستيوارت والتي توزعت بين ٤٠ شركة. وبأناة وصبر جلس المحققون يوماً بعد يوم حول طاولة خشبية مستطيلة وراحوا يمحصون الاوراق المختلطة المكومة امامهم. وبدأت تتضح لهم تدريجاً معالم الطريق، وقادتهم من شركة يوموت الى حساب في احد المصارف ظهرت فيه سلسلة من الحوالات المحررة

 Condensed from «Dr. Snow, how The FBI Apprehended an Ivy League Cocaine King» copyright © 1988

للاري لافين. واكتشفوا ان هناك شركة تدعى "لارمارك" (نسبة الى لاري ومارك) سمحت للافين وستيوارت بان يملكا معاً عدة شركات اخرى.

لم يكن العميل الخاص تشك ريد، الشاب الطويل القامة العريض المنكبين ابن الحادية والثلاثين، غريباً عن الاعمال المكتبية. وهو تدرب على اعمال المحاسبة واصبح محاسباً قانونياً، وكان يحلو له التبجح انه بفضل الطريقة التي يحللون بها البيانات، فإن المحاسبين هم افضل عملاء للمباحث. وكان ريد يجد متعة في مراجعة البيانات المالية، على ان السجلات لم تكن بالنسبة اليه اكثر من اداة. فهو كان مفتوناً بالبشر، يخترق بعينيه المحجوبتين بنظارتين عقل المشتبه به وينفذ الى صميمه محاولا ان يجيب عن السؤالين الآتيين: لماذا يتصرف هذا الانسان على هذا النحو؟ وماذا افعل لو كنت مكانه؟

المقابلة الاولى التي اجراها ريد كانت مع زوجة ستيوارت السابقة. وهي اقترحت عليه ان يتحرى امور ثلاثة من خريجي الجامعات الراقية وهم: لاري لافين، طبيب اسنان في السابعة والعشرين، وشريكه كن ويدلر، وديفيد اكرمان الذي درس مثل زميليه في كلية بنسلفانيا لطب الاسنان في فيلادلفيا لكنه تركها قبل التخرج. وعدا ان الثلاثة درسوا في الجامعة نفسها، فقد كان بينهم امر آخر مشترك، هو انهم كانوا جميعهم يتقاضون رواتب مرتفعة من مؤسسة كينغ للرياضة في مقابل اعمال من الواضح انهم لم يؤدوها.

كان اقتراح المرأة مفيداً ولكن ليس بأهمية كلمة ترددت اثناء المقابلة وهي: "كوكايين".

هل من الممكن ان يكون ستيوارت يخضع المال الذي يجنيه تجار المخدرات لعملية "غسل" كي يجعله يبدو "نظيفاً" اي مشروعاً؟ ولمعت في فكره صورة السيارة الفخمة الباهظة الثمن والمنزل القرميدي الابيض الانيق ذي الطبقتين اللذين يملكهما طبيب الانسان لاري لافين، وعزم على زيارته.

في وقت متأخر من بعد ظهر أحد ايام شهر فبراير (شباط)، اوقف ريد سيارته في الجهة المقابلة لعيادة لافين وراح يراقبه من النافذة وهو يعمل، انتظر حتى خرج آخر زبون، فتوجه نحو العيادة ودخلها من دون ان يقرع الباب فوجد لافين واقفاً خلف مكتبه.

كان الطبيب يرتدي قميص رياضة ابيض وسروالا من قماش البوبلين الاصفر وينتعل حذاء من جلد طري خفيف، ولم يكن يرتدي جوارب. كان طويل القامة، هزيلها، ذا كتفين متهدلتين بعض الشيء وكتلة من شعر كثيف خشن جامح غطى جزءا من جبهته. القى انفه المستقيم البارز ظلا على عينيه الخضراوين المفعمتين بالحيوية على رغم صغرهما.

بصوت منخفض ولهجة اهل فيرمونت الانفية "المعدنية" المميزة، خاطب رجل المباحث الطبيب وهو يريه شارته الذهبية التي تحمل صورته: "اسمي تشك ريد

واعمل مع مكتب التحقيقات الاتحادي ونحن الآن نحقق في قضية الحريق المفتعل في مؤسسة كينغ الرياضية وفهمت انه في امكانك ان تساعدنا."

أفاد لافين انه ولد في ١٤ مارس (آذار) ١٩٥٥ في هيفريل مساشوستس وانه يقطن حالياً في ديفون إحدى ضواحي فيلادلفيا، وان اسم زوجته مارشيا وانه تخرج في كلية طب الاسنان عام ١٩٨١.

وعن علاقته بمارك ستيبوارت اجاب انه التقى الرجل قبل عامين ونصف عام وانهما اسسا معاً شركة "لارمارك." وعن المبلغ الذي وظفه في الشركة قال انه لم يدفع شيئاً بل قدم الى شركة الاسطوانات اعمالا ترويجية ودعائية.

كانت إجابات لافين مقتضبة وكأنه، بابتسامته المتكلفة، كان يقول: "انك تضيع وقتك ولن تثبت شيئاً."

ونفى ان تكون له علاقة بالحريق الذي شب في مؤسسة كينغ واضاف ان مارك اخبره انه هو ايضاً لم تكن له علاقة بالحريق.

بعد فترة صمت قصيرة سأله ريد فجأة: "هل بعت يوماً مخدرات؟"

- كلا.

"...وسيارة الـ BMW المتوقفة امام العيادة، كيف حصلت عليها؟"

هنا تحولت البرودة في صوت لافين جليداً فاجاب: "رهنت منزلي واشتريتها بقيمة الرهن. اعتقد ان اسئلتك طالت اكثر مما ينبغي ولن اجيب عن اي سؤال آخر إلا في حضور محامي."

في الخارج، شعر ريد بنار تنهش معدته. لم يكن ذلك بسبب كذب لافين، فالكثير من الناس يكذبون على المباحث، لكن الرجل تصرف وكأنه فوق القانون. اذذاك، وفي ذينك المكان والزمان، قرر ريد انه مهما كلفه الامر من وقت فإنه لا بد سائق لاري لافين الى القضاء.



"رولز المخدرات"

كان والدا لاري لافين محسوبين من نخبة القوم في هيفريل بلدة الطاحون الهادئة في ضواحي بوسطن. وعلى رغم الصعوبات المالية التي ما فتئت تعترضهما، فهما حرصا دائماً على الظهور مظهر الاستقرار والرخاء شأن جميع جيرانهما. وكان لاري الاصغر بين اولاد اربعة في تلك العائلة الايرلندية الاصل. وهو نشأ فتى فقيراً في ضاحية للاثرياء.

كان لاري حتى الثانية عشرة من عمره طفلا مثالياً وتلميذاً متفوقاً لكنه بدأ، في سنواته المدرسية الاخيرة اي من الصف السابع والثامن وحتى التاسع احياناً، يتعاطى المخدرات. وكان يتسلل من المنزل ليلا وينضم الى زمرة صاخبة. وذات مساء قبض عليه وزميل له بتهمة سرقة سيارة ثلجية عائدة الى احد التجار كانت معروضة ضمن قطعة ارض مسيجة. ولعدم وجود سوابق في سجله الناصع، فقد خلي من دون كفالة او جزاء مما حمله على الاعتقاد ان السرقة سهلة. لكن الغلطة التي اقترفها هو انه اتاح للشرطة القبض عليه وهذا ما لن يسمح بتكراره مستقبلا.

في السنة الثانية من المرحلة الثانوية، تقدم بطلب انتساب الى مدرسة "فيليبس إكزيتر" المقصورة على اولاد العائلات الثرية واصبح في العام ١٩٧١ طالباً داخلياً يتمتع بمنحة دراسية. ومع ان المدرسة حافظت على مستوى اكاديمي صارم، إلا ان تعاطي المخدرات فيها لم يكن اقل شيوعاً من حفلات "البيتزا."

وما لبث لاري وزميله في الغرفة ان اشتهرا بين رفاقهما باعمالهما الجريئة. وبعدما طرد زميله، وهو في سنته الأخيرة، لم يتوقف لاري عن اقامة حفلات "الانشراح" في غرفته واستمر في توجيه الدعوات الى زملائه الطلاب. وهو حول حجرة الثياب في غرفته مختلى للتدخين وكان اصحابه يتجمعون فيها كل ليلة ويدخنون. ومنعاً لتسرب الدخان ورائحته، عمد هؤلاء الى سد شقوق الابواب بالمناشف. واكتشف احد المدرسين مختلى التدخين ذاك اثناء جولة تفتيشية روتينية على غرف النوم. ووجد في الغرفة ايضاً نارجيلة وكومة من اغراض مسروقة. وفي شهر مايو (أيار) ١٩٧٣، وقبل تخرجه بشهر، طرد لاري لافين من المدرسة. ولكن، لحسن حظه، كان تسلم قبل طرده وثيقة قبول من جامعة بنسلفانيا من دون الشهادة الثانوية.

في تلك الحقبة، كانت الماريوانا متفشية بين طلاب الجامعات. وشعوراً منه بأن انتسابه الى الجامعة هو الطريق الافضل الى الكسب المادي، تحول لاري من مستهلك للمخدرات الى متاجر بها، بعدما اقنع احد تجار الجملة الذي يتعاطى بيع الماريوانا بان يصبح شريكه. لم يفتقر لاري يوماً الى زبائن ولا كان امراً غير عادي بالنسبة اليه ان يبيع شحنة كاملة من الماريوانا تبلغ ٥٠ كيلوغراما في يوم واحد وحتى قبل تسلمها. وبفضل حسن إدارته ودقته في العمل استطاع ان يدمج، على نحو طبيعي، تجارة المخدرات بحياته الجامعية.

كان لاري ما زال في سنته الجامعية الاولى، حين التقى مارشيا اوسبورن بعد ظهر احد ايام الخريف في الساحة الرباعية الزوايا في الجامعة. كانت مارشيا صبية بهية الطلعة، دقيقة الحجم، ذات عينين بنيتين كبيرتين وانف افطس. وبخلاف لاري الشاب الاجتماعي الجريء، كانت مارشيا "بيتوتية" متحفظة وهادئة. وفيما هو ادخل عنصر الإثارة الى حياتها، اضفت هي على حياته استقراراً وثباتاً. وفي سنتهما الجامعية الثانية، كان الاثنان يسكنان معاً. لم تكن مارشيا ضد المخدرات صراحة على رغم امتعاضها الشديد من بعض رفقاء لاري ومن الوقت الذي كان يصرفه في تجارة المخدرات. وكان يعدها مرة تلو اخرى بانه سيقلع عن هذه العادة السيئة حالما يجمع ٥٠ الف دولار فيسدد قرض الجامعة ويجدد سيارته العتيقة. لكنه كان، كلما بلغ دخله ٥٠ الف دولار طمع في ١٠٠ الف، وكلما بلغ المئة الف طمع في المليون. وكان دائماً يجد ذريعة لرفع المبلغ.

تخرج لاري عام ١٩٧٧ وفي السنة ذاتها انتسب الى كلية طب الاسنان في بنسلفانيا. وفي إحدى حفلات الأنس والسمر التي اعتاد الطلاب اقامتها ليالي الجمعة، التقى لاري زميلا له يدعى كن ويدلر. وبعدما اديرت عليه سيجارة مخدرة، قال ويدلر للاري انه هو ايضاً كان يتاجر بالمخدرات في كلية موهلنبرغ في إلنتاون، بنسلفانيا، وقد صمم على التخلي عنها، غير انه سحر بثقة لاري العارمة بنفسه. فعدل عن قراره وعاد الى بيع المخدرات التي كان يمده بها صديقه الامين لاري لافين.

وذات ليلة من ربيع ١٩٧٨، جرب الإثنان معاً الكوكايين وكان أحد زبائن لاري قدمه اليه هدية. وبخلاف الماريوانا التي ترسل المنتشي بها الى عالم خاص به بطيء الحركة، متكاسل، وتبقيه فيه ساعات طويلة، فإن الكوكايين منشط قوي والنشوة به قصيرة، حلوة، حادة!

وعندما استعادا وعيهما قال لافين لصديقه: "اظن ان في وسعنا ان نجني المال الكثير من هذه المادة، مالا وفيراً. سوف اوظف اموالي في الاتجار بها".

"شروته" الاولى بلغ وزنها ١١٥ غراماً، ولم يجد مشقة في تصريفها. وهو حقق منها ربحاً جيداً. اما ويدلر فكان اكثر حرصاً من صديقه واقل اندفاعاً، فلم تتجاوز الكمية الاولى التي تعامل بها الثلاثة غرامات ونصف غرام ولكنها درت عليه ١٥٠ دولاراً ربحاً صافياً. لم يطل الوقت بويدلر حتى استقطب طالباً آخر من كلية طب الاسنان شديد البراعة في الرياضيات يدعى ديفيد اكرمان، واعتمد عليه في توسيع تجارته وتطويرها. وخلص الاثنان الى استنتاج واحد: الكوكايين هو "رولز رويس" المخدرات والمستقبل له.

حفنات من الدولارات

توسعت شبكة لاري خلال تنقلاته بين الولايات وبمساعدة زملاء صف له قدامى من مدرسة اكزيتر وجامعة بنسلفانيا. وكان يدفع للمهرب الذي يعرف عادة بـ"البغل"

ليؤدي المهمات الخطرة مثل نقل المال بالطائرة الى فلوريدا وتسليمه الى الذي يمده بالكوكايين والعودة منها بكميات من هذه المادة - مبالغ تراوح بين ١٠٠٠ و٢٥٠٠ دولار للرحلة الواحدة. وكان مطمئناً الى انه لن يعدم من يقوم بهذه الأعمال. فهناك دائماً طالب او ربما صديق في حاجة الى مبلغ من المال يشتري به مخدرات او يسدد ديناً من جراء التعامل بالمخدرات. وكانت تعليماته للمهرب ان يخبىء المال والمخدرات بين ثيابه او في حقيبة يده تحت العدة التي يحتاج اليها الناس عادة في العطل وهكذا يبدد كل شيء طبيعياً عبر اجهزةً التدقيق بالاشعة في المطار.

في البدء كان لاري يشتري الكوكايين من تجار الشوارع في ميامي بواسطة الهاتف ثم تحول الى "توظيف" طلاب الجامعة المتعاملين معه متسوقين لديه فيجعلهم يقطعون مسافة الالف والستمئة كيلومتر الى فلوريدا بين ثلاث وخمس مرات في الشهر لكي يعاينوا البضاعة ويبرموا الصفقات ويعودوا بالكوكايين. غير ان زيادة حجم البضاعة المنقولة جعلت الانتقال بالطائرة مسألة غير عملية. وانتهى الامر بالشركاء الى ان استخدموا سائقين للتنقل بين فيلادلفيا وميامي عدة مرات في الشهر.

لكن شريكي لاري في التجارة أكرمان ويدلر بدأا يتحولان الى شريكين في ارتياد حفلات الانس والانشراح كذلك واصبحت كلية طب الاسنان تحتل مركزاً منخفضاً في سلم اولوياتهما، فاخذا يتخلفان عن حضور الصفوف ويشتريان المحاضرات من مكتب للخدمات. ومع حلول شتاء ١٩٨٠ اختلط الليل بالنهار وانقلبت ايامهما رأساً على عقب. فكانا مثلا يتناولان الفطور في المساء، وقت العشاء ثم ينتقلان الى الملاهي الليلية ولا يعودان منها الا مع الفجر ليستسلما للنوم طوال اليوم التالي.

غير ان لاري لم يشارك كن وديفيد في لهوهما. وبسبب ضغط مارشيا عليه خفف كثيراً من تعاطيه المخدرات. والى ذلك، فان اعماله استحوذت على كل نشاطه ومعظم وقته فكان، في يوم نموذجي، يندفع من الصف الى البيت لتناول الغداء ويستمع الى آلة تسجيل المكالمات الهاتفية الواردة في غيابه وهو يقضم شطيرة، ثم يرد على بعض المكالمات ويوصي ببعض الطلبات ويقابل عدداً من الزبائن ثم يعود الى الكلية وقد ازداد ثراء. وكان يبيع في المتوسط ثلاثة كيلوغرامات في الشهر محققاً في كل كيلوغرام ٢٠ الف دولار ربحاً صافياً.

في تلك الاثناء كانت الصلة توثقت بين لاري ومارك ستيوارت الذي كانت وظيفته "غسل" المال الوارد على لاري بحيث تبدو الارباح الهائلة التي يحققها من تجارة الكوكايين تبدو مشروعة. فكان لاري وشركاؤه يسلمون الى مارك مبالغ نقدية فيحرر لامرهم، في المقابل، شيكات باسم شركته من اجل اعمال لم يؤدوها.

وعندما باعت شركة "يوموت" للاسطوانات التي يملكها ستيوارت، مليون اسطوانة من اغنية زنجية اسمها "دوبل دتش بص"، بات في وسع لافين ان يتبجح باستثماره الذكي مستشهداً باسطوانة مصغرة من ذهب ترمز الى المليون نسخة،

علقها على الجدار في منزله. (الحقيقة ان الشركة كانت ترزح آنذاك تحت خسائر مادية فادحة.)

ثابر لاري على قراءة صحيفة "وول ستريت جورنال" وعلى اسداء نصائح وارشادات مالية الى كل من يطلبها منه، حتى اساتذة الجامعة توافدوا عليه افواجاً طالبين منه استشارات في شأن توظيف اموالهم.

ولئن يكن اندفاع لاري لافين في العمل كبيراً، الا ان اقباله على اللهو والعبث لم يكن ليقل عنه. وهو استعمل حبه للتزلج على الجليد والغوص تحت الماء حجة ليذهب بمفرده في الحفلات خاصة مع اصحابه. فكان تارة يقول لمارشيا انه سوف يذهب مع "افراد الشلة" في "عطلة جماعية"، وطوراً انه سوف يحضر "حفلة للرجال العازبين" وانها من "مقتضيات العمل"... الى ما هنالك من اعذار مختلفة. والحقيقة ان تلك اللقاءات لم تكن سوى حفلات تميزت بالعربدة والمخدرات والكحول وبنات الهوى.

شاع الخبر عن تجارة لاري في الضاحية الغربية، حيث يقطن. وفي وقت متقدم من مساء احد الايام، وفيما كان لاري ومارشيا يشاهدان التلفاز، اقتحم المنزل رجلان ملثمان شاهرين مسدسيهما والقياهما ارضاً وصوب احدهما مسدسه الى رأس لاري واجبره على البوح بالمكان الذي يخبىء فيه النقود والكوكايين.

اثار هذا الحادث الرعب في قلب مارشيا، فراحت تتوسل الى لاري ان يتخلى عن هذه التجارة. وبدلا من ان ينصاع الى توسلاتها، قوم لاري الوضع ببرودة أعصاب واتخذ قراراً عقلانياً يقضي بنقل تجارته الى ضاحية اكثر اماناً.

وخلال يومين اشترى منزلا فخماً على تلة فيلادلفيا حيث السكن مقصور على الاثرياء، بلغ ثمنه ١٥٠ الف دولار. ودفعاً للشبهات رهنه في مقابل ٩٠ الفاً. واندفع، هو ومارشيا، في شراء اثاث له من الطراز الامريكي القديم. وفي يونيو (حزيران) ١٩٨٠ اقاما احتفالا فيه. وافاد اصدقاؤهما انهم لم يروا مارشيا في مثل تلك السعادة العارمة.

تشك وسيد

بعد الزيارة التي قام بها لعيادة لاري لافين في فبراير (شباط) ١٩٨٣، لم يجد تشك ريد مشقة في إقناع رؤسائه بالسماح له بالتركيز على عناصر من شأنها تكوين دعوى مخدرات بدل الاستمرار في التحقيق في قضية إفلاس مارك ستيوارت.

امضى ريد ذلك الربيع يبحث عن ادلة ومفاتيح لحل عقد ذلك اللغز. فبين يديه قضية ذات نهاية ولكن من دون بداية او وسط. وهو علم ان هناك شبكة للاتجار بالمخدرات، ولم يبق له الا ان يضبط المادة نفسها او ان يضع يده على صفقة مخدرات. ومع حلول فصل الصيف، بات في حوزته من معلومات ما يفيد ان قضية متشعبة مثل هذه تحتاج الى اكثر من عميل واحد. وكم حزن عندما ضم اليه سيدني بيري.

كان بيري جنوبياً حاضر البسمة ذا عينين زرقاوين صافيتين. وكان يكبر ريد بسنتين. ومثله سبق ان تدرب على اعمال المحاسبة في فينكس. والحاقه بريد في هذه القضية ازعج الأخير الذي كان في طبعه انساناً مستقل الرأي نزاعاً الى العزلة يؤثر العمل بطريقته الخاصة وبسرعته الخاصة كذلك. وكان بيري اكتسب، خلال ثماني سنوات من العمل في مكتب التحقيقات الاتحادي، شهرة كعميل كثير البراعة وواسع الخبرة. لكن ريد صنفه انتهازياً واصولياً.

والصورة التي رسمها سيد بيري في ذهنه لتشك ريد لم تكن بأفضل من تلك ابداً. فهو سمع ان ريد متصلب وتعوزه المرونة، وان العمل معه غير سهل. ومثل ريد، لم يسبق لبيري ان عمل على القضية نفسها مع احد من قبل. وهو لم يتوان عن اعلام رئيسه انه لا يتطلع برضى الى العمل مع ريد.

على انه لم تتسن للرجلين فرصة للتحقق من صحة نظرة الواحد الى الآخر، اذ تلقى أحد محللي البيانات في دائرة مكافحة المخدرات، كان تشك زاره قبل خمسة اشهر للاستعلام عن لاري لافين - استعلاما مماثلا غير متوقع من زميل له في فينكس يتولى التحقيق في قضية تاجر مخدرات هناك يدعى وين هينوير، تردد انه اشترى كوكايين من تاجر في فيلادلفيا اسمه لاري. فأحال المحلل كلا من العميلين على الآخر. وهما تمكنا، بالتعاون في ما بينهما، من تركيب آلة تنصت وتسجيل على خطوط هاتف هينوير في فينكس.

في ٢٣ اغسطس (آب) ولم يكن مضى اكثر من اسبوعين على العملية توقف لافين في كشك عمومي للهاتف واجرى مكالمة مع اريزونا: "مرحبا وين، هنا لاري، كيف حالك؟"

استدل من الحديث ان هينوير هو من أهم زبائن لاري، وكان زميله في جامعة بنسلفانيا لكنه تخلى عن الدراسة قبل التخرج. تحدث الاثنان عن حفلة يجري التحضير لها وعن حنينهما الى ايام الدراسة. وتطرقا الى امكان ملاحقة لاري بتهمة التهرب من دفع الضرائب. وقال لافين: "سمعت ان مكتب التحقيقات الاتحادي يجمع القرائن في قضية الضرائب وان مأموريه يعرفون تقريباً ماذا يجري وراء الكواليس لكنهم عاجزون عن إثباته."

على ان الغرض الحقيقي من الاتصال كان إعلام وين ان لافين، بسبب مضايقات قانونية من جهة، وبعض مشاكل ادارية من جهة اخرى، عازم على التخلي عن تجارة الكوكايين التي يملكها (والتي تتألف في شكل رئيسي من قائمة باسماء الزبائن)، وان عميلا جديداً اسمه فرنسيس - او "فراني" - بيرنز، سيتولى اعمال الاتصال والتنسيق محل المدير الحالي بروس تايلور، وان فراني متعامل كبير "يصرف من ٦٠ الى ٨٠ كيلوغراماً في الشهر." واكد لافين ان فراني موثوق به ويمكن الاعتماد عليه واضاف: "بفضل آلة طنانة تشعره بوجود مكالمات هاتفية، باستمرار، يستطيع الرد على المكالمات بسرعة ولا يحتاج في ذلك الى اكثر من خمس دقائق." واعرب عن

اعتقاده ان موظفيه وعماله المهمين يجب ان يكونوا دائماً على اهبة الاستعداد لتلبية نداء الزبائن المحتاجين الى مخدرات كما الاطباء الذين هم على استعداد دائم لمساعدة المرضى.

استمع ريد وبيري الى شريط التسجيل بحماسة متعاظمة وقال ريد: "لقد ضبطنا لاري في حديث عن المخدرات وعن صلة وصل فيها."

ومن اجل ختم التحقيق، بقي عليهما انجاز الجزء الاصعب فيه ألا وهو الحصول على ادلة يعتد بها. وهما علما من تحرياتهما ان فراني بيرنز في التاسعة والعشرين، سمين وقذر، لا بل اكثر من المألوف، وانه أمضى اثنتي عشرة سنة في تجارة المخدرات ووقتاً في السجن تنفيذاً لحكم قضائي.

وكانت لدى فراني بيرنز خصائص مميزة عدة. فهو لا يتعاطى المخدرات على رغم انه يجني الملايين من الاتجار بها. وهو لا يودع امواله المصارف او الخزائن الفولاذية في البنوك، بل يدفنها او يخبئها - كل مليون دولار على حدة - في صناديق السيارات التي يستأجرها. والى تجارة المخدرات، حرص فراني دائماً على القيام باعمال مشروعة. فقد سبق له مثلا ان عمل في النجارة وفي فرز البريد واشرف على محل للمثلجات والحلوى يملكه في بنسلفانيا.

امضى تشك وسيد القسم الاخير من صيف ١٩٨٣ واوائل الخريف، يراقبان فراني في محل المثلجات الذي يملكه. وكان هدفهما الايقاع بجميع افراد الشبكة. وأيقنا ان الطريق الاسرع الى اكبر عدد من الناس هو استراق الاسلاك الهاتفية على نطاق واسع.

ولإقناع القاضي الاتحادي بمنحهما إذنا باستراق الاسلاك، تعين عليهما ان يستشهدا بنمط من استخدام معين لاجهزة الهاتف التي يودون استراق اسلاكها. ومن اجل ذلك، جلس ريد وبيري، يوماً بعد يوم، كل في سيارته، يراقبان فراني بيرنز وهو في محله للمثلجات ويرصدان تحركاته. وهو يغادره كل يوم متوجهاً الى واحد من ثلاثة اكشاك عمومية للهاتف درج على استخدامها بانتظام للرد على المكالمات التي تشعره بها الآلة التي يحملها.

استغرقت المراقبة، وهي الجزء الأقل جاذبية وإثارة في التقصي، مدة اسابيع كسر العميلان خلالها رتابة العمل بالتعرف الى بعضهما بعضاً عن كثب. تشك ريد، الاكثر صمتاً بين الاثنين، تحدث عن نشأته في نيو انغلند وعن ذكرياته فيها. اما سيد بيري، الاكثر انفتاحاً، فروى حكايات محببة عن صباه الباكر في الريف النائي وكيف كان بعد عمل ١٢ ساعة في حقول التبغ يومياً يقصد النهر للاسترخاء والاغتسال. وقال تشك في نفسه: إنه ليس سيئاً، هذا البيري.

وبسبب ملازمتهما الوثيقة بعضهما بعضاً، يوماً بعد يوم، بات الرجلان يتبادلان الافكار بسهولة ويسر واصبح الواحد منهما مصدر الهام للآخر.

وفي كل الامور التي خططا لها، كان عليهما دائماً ان يوازنا بين الخطر الناجم عن

اكتشافهما قبل الاوان، واهمية الحصول على المعلومات التي يحتاجون اليها.

ومن دون ان يعيا ذلك، صاغ الرجلان رباطا متيناً بينهما جعل قضية لافين، وعلى امتداد ثلاث سنوات، اهم شيء تمحورت حوله حياتهما. وكانا كل يوم يراهنا على تطورات اليوم التالي والخاسر يدفع ثمن الغداء. وكان رهانهما يدور على امور مثل: هل سيحصلان على إذن باستراق اسلاك الهاتف؟ هل سيمسكان بلافين وبيرنز بالجرم المشهود وهما يتبادلان المال؟

وذات مرة قال ريد: "اني اراهنك على ان لافين سوف يهرب عندما نقبض عليه. وان فعل فسوف ادفع ثمن غداءين."

– كلا، مستحيل. إنه ليس بهذا الغباء.

"هذا خطأ. سوف يظن ان ذكاءه سيحميه."

ابرما الشرط بهز الايدي علماً ان كليهما كان قلقاً خشية ان يكون تشك على صواب.

عهد اكرمان

فكرة وقوعهم في قبضة العدالة، راودت لاري وصحبه وهم في الجامعة. وفي خريف ١٩٨٠، شعر الجميع بالرعب عندما دهم رجال الشرطة منزل لاري في فيلادلفيا بحثاً عن مخدرات. ومع انهم لم يعثروا على شيء، الا ان الحادث هز كن ويدلر ولكن ليس بقدر الهزة التي ضربته عندما قيل له انه اذا كان يأمل في التخرج في الجامعة عليه ان يحسن اداءه جداً. هذا الكلام صعقه وجعله يتوقف عن ارتياد



الحفلات مع ديفيد اكرمان وينصرف الى الدرس ولكن من دون ان يتخلى عن توظيف امواله في تجارة المخدرات.

لافين ايضاً راودته، لفترة وجيزة، فكرة التخلي عن تجارة المخدرات والتحول الى اعمال تجارية ومالية اخرى. وبدأ يبتعد عن العمليات اليومية اكثر فأكثر. وفي النهاية اتفق الثلاثة على ان يؤسسوا شركة تجمع كل الزبائن ويتولى فيها ويدلر دور الممول ولافين دور رئيس مجلس الادارة، فيما تسند الى اكرمان مسؤولية العمل والادارة بكاملهما.

في ذلك الوقت، كان في وسع ديفيد تكريس وقت كاف لهذه الاعمال. فهو كان انقطع عن الجامعة بناء على طلبها، فابعد عنها وفصل موقتاً. وعلى رغم ذكائه الشديد وموهبته الخارقة في طب الاسنان، فقد ظهرت لديه بعض الاعراض الدالة على تدهور خطير في شخصيته بسبب افراطه في تعاطي الكوكايين. فكان احياناً كثيرة يهتاج ويثور في وجه الاساتذة في الجامعة والزبائن في العيادة.

فرح لاري لخبر طرد ديفيد من الجامعة لانه لانه علم انه سيكون في وسعه تكريس وقت اكثر للتجارة.

بعيد عيد رأس السنة، اتصل ديفيد بسوزان نوريماتسو، وهي صبية "اوراسية" في الرابعة والعشرين من عمرها ذات قامة كغصن البان وهو كان تعرف عليها في سنته الاولى في كلية طب الاسنان. وقد طارت فرحاً عندما قال لها: "انني في حاجة اليك واريدك ان تأتي لتعملي معي." لم تقو سوزان على رفض طلبه. واصر ديفيد على ان تكون لها شقتها الخاصة بالقرب من منزله في "اولد سيتي" وهي ضاحية سكنية قديمة في فيلادلفيا جرى تحديثها واصبحت تعج بالمهذبين الطامحين.

وعلى رغم ادمانه المخدرات، كان ديفيد اكرمان رجل اعمال داهية. وخلال عام ١٩٨٠ قفز بيع الكوكايين بفضله من ٢ - ٣ كيلوغرامات في الشهر الى ١٠ كيلوغرامات فالى ١٥ كيلوغراماً. وكان التسليم يتم بواسطة البريد او بواسطة مهربين. وشمل التوزيع، الى ١٣ ولاية امريكية، مقاطعة كولومبيا وكندا.

ودرءاً للاخطار وتخفيفها الى حدها الادنى، وزع ديفيد الكوكايين والمال بين خمس شقق مستقلة اختار ان تكون جميعها في احياء راقية حتى يطمئن زبائنه الى انهم في امان حين يعرجون لتسلم طلباتهم. وهو استعمل اثنتين من هذه الشقق - شقة سوزان وشقة شابة اخرى - للاقامة وكمكتبين للبيع. وكانت سوزان تستقبل الزبائن وتقدم اليهم الجعة وتبادلهم الحديث.

اما الشقق الثلاث الباقية، فقد حولها معامل مصغرة لإنتاج اصناف مختلفة من المخدر. وكان ديفيد يؤمن بضرورة ضبط النوعية وهو استعمل لذلك ميزاناً الكترونياً شديد الحساسية ثمنه ٢٠٠٠ دولار، كي يزن به الكوكايين والحشوة المستعملة لشعشعته وتخفيفه. وكانت الاصناف المنتجة تعرض على الجدران مثبتة بمسامير مستدقة صغيرة وعريضة الرأس. وراوحت اسعار الاونصة الواحدة بين ١٤٠٠ و١٦٠٠

و١٨٠٠ و٢٠٠٠ دولار. اما الكوكايين الصافي، غير المشعشع، فكان ديفيد يبيع الاونصة منه بالفين ومئتي دولار.

شكلت نيو انفلند ارضاً خصبة لتجارة لافين، إذ كانت شقيقته جيل وشقيقه رستي اصبحا في عداد العاملين معه. وكانت جيل تدير تجارة مخدرات كبيرة لحسابها الخاص. ومع ان رستي لم يكن مدمنا، الا انه - مثل كثيرين سواه - علق في الشبكة لانه لم يستطع ان يفي دينه للاري.

وكان لاري موهوباً في تطويع عملاء جدد بهذا الاسلوب. وهو شرحه لسوزان ببلاغة وايجاز: "اولا نرمي الصنارة مع الطعم. تقضم الفريسة منه قضمة صغيرة ثم قضمة اخرى كبيرة وعندها نسحب الصنارة. وهكذا تعلق الضحايا في الفخ."

سجين المخدرات

طوال سنوات الدرس في كلية طب الاسنان، لم ينقطع لاري لافين وكن ويدلر من الاتجار بالمخدرات. وبعدما تخرجا فيها عام ١٩٨١، اشترى كن عيادة في جنوب فيلادلفيا داوم فيها ثلاثة ايام في الاسبوع، بخلاف لاري الذي صرف سنة كاملة في سوق القطع وفي تجارة العقارات، ولكن على نطاق ضيق وعلى سبيل الهواية، قبل ان يستقر ويباشر العمل كطبيب اسنان.

وفي الصيف الذي تلا تخرجه، تزوج كن الفتاة التي احبها منذ ايام الدراسة. وكان مفترضاً في ديفيد اكرمان ان يكون شاهداً على هذا الزواج لكنه تخلف عن حضور الاحتفال لانه كان مخدراً!

مع حلول الخريف، بدأ ديفيد ينزلق في عالم الاوهام مبتعداً عن الواقع اكثر فأكثر. وبات يتخلف عن مواعيده ويرفض الرد على الهاتف ويمتنع عن فتح الباب. وتحول الى تدخين الكوكايين بدل تنشقه إمعاناً في اللذة وطلباً للاستمتاع به في اصفى اشكاله واقواها. فوقع فريسة الارق وراح يمضي اياماً حابساً نفسه في غرفة مغلقة لا يذوق للنوم طعماً ولا يكلم احداً ويروح يترجح بين نوبات من الابتهاج العارم والفزع القاتل. وكان إذا زاد العيار او الجرعة، يصاب بحكة فينقض على جلده حكاً ونهشاً حتى يسيل منه الدم. وهكذا غطت الجروح والخدوش ساقاه. واصبحت تعتريه نوبات من الهلوسة، فكان يتخيل جدران القرميد في غرفة نومه تتحول، على نحو مريع، جدران زنزانة من العصور الوسطى وهو سجين فيها.

ثم ظهرت عليه اعراض من جنون الشك وتكون لديه اعتقاد راسخ ان رجال الشرطة يراقبونه من خلال اجهزة متطورة قادرة على اختراق جدران القرميد التي احتمى وراءها في شقته، وان كل شخص غريب يسير في الشارع هو شرطي متنكر. وكان يحل الفجر وهو على هذه الحال، يتوسل النوم الذي يعصى عليه من دون حبوب منومة فيختار زاوية في الغرفة يتكور فيها ويغرق في كآبة سوداء ريثما ينحسر عنه تأثير الكوكايين.

وعندما كان يصحو من غيبوبته تلك، كانت تنتابه في الغالب نوبة جامحة من الاسراف في الانفاق، فيندفع في الشراء. وذات مرة ذهب مع سوزان ليتسلما سيارتها الجديدة (BMW 528) والتي بلغ ثمنها ٢٤ الف دولار، ولأن الطقس كان بارداً جداً ذلك اليوم، فقد قرر انها في حاجة الى معطف من الفرو. وعندما ترددا في الاختيار ما بين معطف من فرو "المنك" وآخر من فراء الثعلب، اشترى الاثنين، كما اشترى لها سترة من فرو فأر المسك.

مع اقتراب عيد الميلاد، سعى ديفيد يائساً الى احداث تغيير في حياته وخيل اليه ان زواجه من سوزان ربما بدل حاله الى الأحسن.

ولإعلان خطبتهما، دعا اصدقاءه ليلة رأس السنة الى مأدبة عشاء فخمة اقامها في قاعة خاصة بمطعم فرنسي الطابع كان هو يفضله. وكانت فعلا سهرة رائعة تألق فيها المدعوون بلباسهم الرسمي وبلغت تكاليفها ٣٥ الف دولار، ذهب ٥ آلاف منها بقشيشاً.

شرب ديفيد نخب سوزان واطراها بكلام جميل وهو يضع حول اصبعها خاتماً يحمل فصاً من الماس زنته ٤ قراريط.

وفي وقت لاحق من تلك الليلة اعلم العاملين معه في تجارة المخدرات أنه سوف ينتقل من "اولد سيتي" وأن عليهم ان يجدوا شخصاً آخر يتولى الادارة اليومية للمصلحة.

التنصت

منذ الستينات، اصبح التشريع الاتحادي الامريكي اكثر تشدداً إزاء منح مكتب التحقيقات الاتحادي اذونات باستراق السمع بواسطة اجهزة الكترونية، ولم يعد يسمح بها الا في حالات خاصة مثل جرائم التزوير والخطف والمخدرات.

ولكي يجمع ادلة يحمل المحكمة على الموافقة على طلبه استراق اسلاك الهاتف العائدة الى افراد شبكة المخدرات، استخدم مكتب التحقيقات العداد القلمي، وهو جهاز الكتروني يسجل ارقام جميع المكالمات الهاتفية الصادرة عن هاتف ما والوقت الذي تجري فيه المكالمة والمدة التي تستغرقها.

ركب ريد وبيري عدادات على ١٤ خطاً. واظهر تحليل البيانات بواسطة الدماغ الالكتروني ان الارقام نفسها تتلقى اتصالات متكررة من اكثر من شخص من افراد المجموعة المراقبة. فاستصدرا اذذاك امراً قضائياً بمراجعة سجلات شركات الهاتف. وكلما توغلا فيها، برزت اسماء جديدة اضيفت الى قائمة المشتبه بهم.

وتبين ان معظم المكالمات التي اجراها فريق لافين هي اما مع اشخاص عاطلين عن العمل او طلاب مدارس وجامعات يقطنون شققاً فخمة ويقتنون سيارات باهظة الثمن.

بدأ العميلان، كل بمفرده، اعداد جداول بالتواريخ الدقيقة للمراحل التي مرت بها

نشأة شبكة لافين وتطورها وترتيبها حسب تسلسلها الزمني. وكانت خلاصة عملهما، بعد خمسة اشهر من الجهد، مذكرة قانونية قدماها الى المحكمة، وبلغ طولها ١٨٥ صفحة، وقد ضمناها جميع الوقائع والمعلومات التي جمعاها حول هذه القضية والاسباب الموجبة لمنحهما الاذن باستراق اسلاك هاتفية. وهما اديا اليمين على صحة ما ورد فيها.

اخيراً، في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨٣، حصلا على الاذن.

في العادة، تسترق اسلاك هاتف او اثنين على الاكثر. اما استراق اسلاك اربعة خطوط فيعتبر استنزافا مهماً للطاقة البشرية العاملة وعبئاً مرهقاً عليها. واستلزمت عملية لافين استراق اسلاك ثمانية اجهزة هاتف بينها ستة اجهزة عمومية وجهازان منزليان، واحد لمنزل فراني بيرنز وآخر لمنزل تاجر مخدرات من زبائن لاري يدعى بروس تايلور.

استمر استراق السمع طوال عطلة عيد الميلاد وامتد حتى ٢٠ يناير (كانون الثاني). وتعاقب على التنصت افراد فرقة من ١٢ عميل مباحث وشمل تنصتهم الوف المكالمات.

حال صدور اي مكالمة، او ورودها، كانت الاجهزة المثبتة على الاسلاك تعمل تلقائياً فيثبت العميل السماعة على اذنيه فوراً ويبدأ التنصت. وكان عليه ان يقرر في الحال مواصلة التنصت او انهاءه، فاذا كانت المكالمة متعلقة بموضوع مخدرات بادر الى تسجيلها والا اقفل الجهاز. وكان محظوراً عليهم تسجيل المكالمات التي تجرى مع المحامين كذلك المحادثات الشخصية.

تجمع لدى كل عميل كدسة سميكة من البيانات المطبوعة المستخرجة من الدماغ الالكتروني والتي تضم اسماء اشخاص مرتبطين بالمؤامرة التي حاكها لافين، وارقام هواتفهم. وكانت المكالمات المهمة تبلغ في الحال الى بيري وريد.

وتبين ان هاتف بروس تايلور كان بمثابة منجم الذهب بالنسبة الى المباحث. فقد كان الرجل مولعاً، الى حد الجنون، بالدراجات النارية وهو ترك لدى عارفيه انطباعاً بان خيطاً رفيعاً يفصله عن التحول من انسان غريب الى انسان خطر. وكان لافين يتحمل قصوره لانه سبق له ان عمل لهذه المصلحة باخلاص وجد قبل ان يتحول مدمناً. وعندما تخلى لافين عن تجارته لفراني بيرنز، كافأ تايلور بأن تخلى له عن بعض صغار زبائنه. لكن تايلور اضاع ارقامهم، وكان من حين الى آخر يطلبها من لافين على الهاتف فيما رجال المباحث يسجلون الاسماء والارقام الكاملة التي كان لافين يتلوها عليه.

كل ما توصل اليه ريد وبيري اصبح على اشرطة ولم يعد ينقصهما سوى قليل من الحظ ليلتقطا هفوات اخرى مماثلة فيصبح لديهما مبرر قانوني لدهم منزل بروس تايلور وجعل الدكتور لاري يعلم ان التهرب من دفع الضرائب هو اقل مشاكله شأناً.

احتفال جنوني

بعد سنة من تخرج لاري، اشترى الزوجان منزلا قرميديا ابيض رائعاً ذا طبقتين بلغ ثمنه ٢٥٠ الف دولار يقع في حي تمبرلين الفخم في ديفون احدى ضواحي فيلادلفيا الراقية. واضاف اليه لاري حوضاً للسباحة اولمبي الحجم وبيتاً زجاجياً لوقاية النباتات الخضراء وحوض استحمام تسخن مياهه بواسطة الطاقة الشمسية.

ثم حول إحدى غرف النوم مكتباً كامل التجهيز بما فيه الدماغ الالكتروني، وعلق الاسطوانة الذهبية على الجدار تفسيراً لسبب الثراء الذي وقع فيه. وبالقرب من المغطس في حمام غرفة النوم الرئيسية، ركب قابساً اضافياً لوصل الهاتف الذي كان حبل النجاة بالنسبة اليه. ولم يكن غريباً عليه ان يمضي ساعتين او ثلاثاً كل ليلة وهو يتحدث فيه.

الزم لاري جميع العاملين معه استخدام الهاتف العمومي لمكالماتهم المتعلقة بالمخدرات، لكنه شذ هو عن هذه القاعدة بفضل اجهزة متطورة ضد التنصت اشتراها بخمس وعشرين الف دولار.

وكان يجري معظم مكالماته من هاتف نقال يضعه في حقيبة يده. وكانت المكالمات التي يجريها منه، بعد وصله بقابس خاص، تظهر انها صادرة من جهاز هاتف موجود في مكتب يبعد نحو ثلاثة كيلومترات.

في مايو (ايار) ١٩٨٣، رزق الزوجان صبياً احتفل لاري بقدومه على طريقته الخاصة.

في اليوم التالي، وكان الطفل بلغ يومه الثاني، ترك لاري مارشيا في المستشفى وتوجه بسيارته الى منزله في تمبرلين وهو يشعر بسعادة هائلة ويقود سيارته، كالعادة، بسرعة جنونية مدفوعاً برغبته الشديدة في ان يشاطره اصدقاؤه فرحته بمولوده البكر.

اخرج الهاتف من الحقيبة وبدأ يدير القرص. اول اتصال كان مع شخص هو له مصدر معلومات وامور اخرى... وطلب احضار بعض الكوكاكيين - وهو كان توقف عن الاحتفاظ بهذه المادة في منزله. بعدها اتصل بثمانية من اصدقائه الخلص ودعاهم الى سهرة في منزله. وقد امضى هؤلاء ليلة مجنونة.

في الجهة المقابلة من البلدة، كانت الامور بين ديفيد وسوزان في تدهور مستمر، وكانت جولات الصراخ تنتهي احيانا الى عراك وتشابك بالايدي. وقرابة عيد الميلاد، إنفصلت سوزان عن ديفيد نهائياً وهامت... الى ان انتهى بها المطاف مع بروس تايلور الذي تزوجته ولما يمض على انفصالها عن ديفيد سوى ثمانية اشهر.

وادراكا منه ان المخدرات تقوده الى الانتحار، بدأ ديفيد يتردد على اخصائي بمعالجة الإدمان وتمكن بعد بضعة اشهر من ان "يفطم" نفسه عن الكوكايين وعاد الى كلية طب الاسنان انساناً جديداً وقد اصطلح عقله وثاب الى رشده. وأكب على الدرس والتحصيل باجتهاد وكد ادهشا كل من عرفه قبل سنتين طالبا مدعياً متهوراً



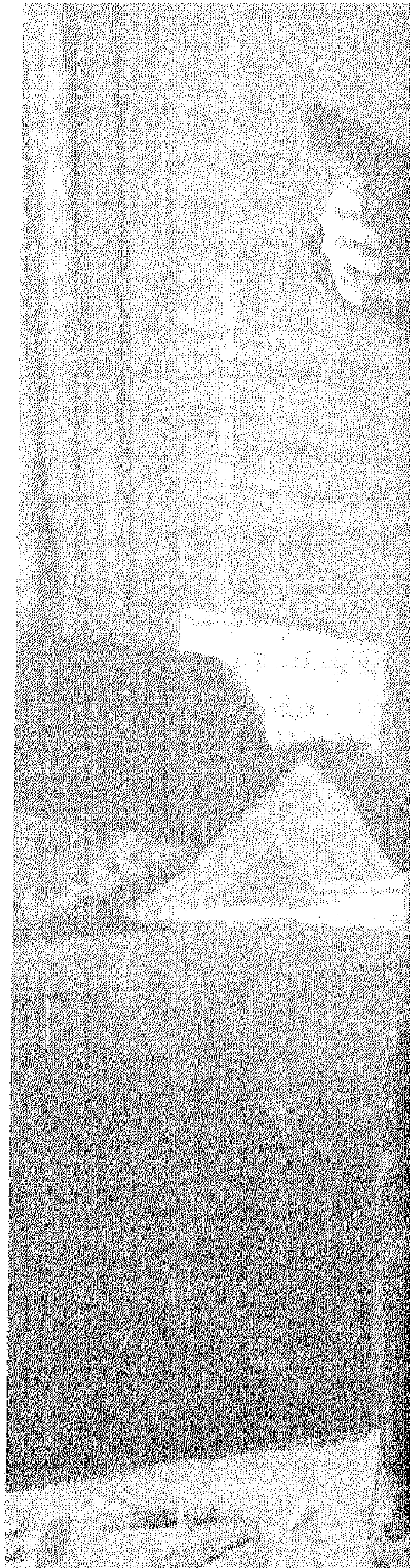
وقحاً وهو انهى السنتين المتبقيتين قبل الوقت المحدد بستة اشهر. وفي الامتحان المطلوب لمنح الترخيص الرسمي بمزاولة المهنة، نال اعلى العلامات وكان بين العشرة الأول في امريكا كلها.

...وسقط القناع

في ١٧ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٤، دهم رجال المباحث المنزل القرميدي المزخرف بالجص الذي يسكنه بروس تايلور وسوزان نوريماتسو تايلور. وفي تمام الساعة ٩،٣٠ صباحاً تمركز رجلا مباحث خلف المنزل فيما انهال ثلاثة آخرون على الباب الامامي طرقاً وهم يصرخون: "مباحث، افتحوا الباب!"، قبل ان يخلعوه ويندفعوا الى الداخل.

تحت الضوء الخافت في وسط الردهة التي تضم غرفتي الاستقبال والطعام، توقفت دراجة نارية لمع معدنها باليد. بدت الغرفة كياخور بستائر النوافذ المصنوعة من المخمل وكمم المصابيح المصنوعة من جلد الحمار الوحشي المخطط. وغطت الأرض محاقن مستعملة.

مرة ثانية صرخ الرجال: "مباحث" ومرة اخرى لم يتلقوا اي جواب. ثم راحوا يتنقلون، ببنادقهم ومسدساتهم، من غرفة الى اخرى الى ان وصلوا اخيراً الى غرفة نوم في الطبقة السفلية فطالعهم فيها منظر بروس وسوزان منبطحين وقد افقدتهما المخدرات أي حس. فلم يسمعا الجلبة التي احدثها اقتحام المنزل. وعلى الارض قرب الفراش، شاهد الرجال مسدساً وصندوقاً فيه خمسة اكياس من البلاستيك تحتوي كوكايين.



نقل الزوجان الى الطبقة العليا، وما ان وصلا اليها حتى غرقا مجدداً في النوم لفرط ما تناولا من مخدرات. كلف احد الرجال حراستهما فيما انصرف اكثر من عشرة آخرين الى تفتيش المنزل غرفة غرفة. وضمت قائمة المصادرات الى المخدرات، ادوات ومعدات متصلة بالمخدرات. كانت هناك مصفاتان وسبع زبديات معدنية ذات احجام مختلفة تحتوي كل منها على ترسبات بيضاء اللون، وميزانان الكترونيان، وعشرات المحاقن وجهاز لتلقي النداءات وآخر لإرسال النداءات. كذلك كانت هناك بنادق صغيرة وخنجر يعود الى الحرب العالمية الثانية، ودفتر لتسجيل المواعيد وكشوفات حسابات في مصارف ومحفظة جلد ثمينة تحمل حرفي "ل.ل." من ذهب.

وصادر رجال مباحث آخرون سجلات مالية وبيانات بمخدرات واوراقاً نقدية من فئة الخمسة والعشرة دولارات والمئة دولار، بلغت قيمتها ٣ آلاف دولار، كانت ملقاة على الارض هنا وهناك كأنها نفايات. ووجدوا في خزانة حديد ٨٩٩٤٠ دولاراً ملفوفة بورق اخضر خاص بعيد الميلاد.

قبل القبض على تايلور، قرر ريد وبيري ان يتيحا له فرصة يصبح بفضلها شاهداً متعاوناً، فاجلساه في غرفة خلفية وقالا له: "لدينا المخدرات والسجلات وكل شيء بيدينك. انها فرصتك لتساعد نفسك."

راح بروس يطرف عينيه ويفرك يديه، مبدياً صعوبة في التفكير ومردداً: "لا اعرف."

الحقيقة ان خوف بروس من فراني بيرنز كان مميتاً. وبعدما اختلى بزوجته خمس دقائق قال لرجال المباحث: "كلا. لا صفقات. لا استطيع، سوف يقتلنا." وضع بيري يده على كتف بروس وقال له: "لقد اخطأت في القرار." كبل رجال المباحث يدي بروس وناولوا سوزان لوائح المصادرات لتوقعها. وفيما كانوا يسوقون الرجل لتوجيه التهمة اليه رسميا قبل اطلاقه بكفالة، سمع وهو يقول لزوجته: "اتصلي بعمك في اسرع وقت ممكن."

لم يكن الشخص المقصود بكلمة "عمك" سوى لاري. وهي بالفعل اتصلت به وقالت له: "كانوا يحملون مذكرة تفتيش واقتحموا المنزل بالبنادق. انه تشارلز ريد نفسه الذي اتى اليك طارحاً اسئلة. اتذكره؟"

هو بالطبع يذكره، ويذكره جيداً لكنه حتى تلك اللحظة، لم يكن لينظر اليه إلا كتحر غبي يحمل شارة ورأسه خال من الذكاء. فسألها بعصبية: "أتعرفين كيف توصلوا اليكما في المنزل؟"

اجابت: "قالوا انهم كانوا يراقبون بروس وان لديهم صوراً له مع تاجر من فينكس متعامل معك، تعود الى اكثر من سنة."

تسارعت ضربات قلب لاري وقال: "آه.. يا الهي... منذ سنة." هذا يعني انهم على علم بالآخرين ايضاً، وانهم كانوا في الحقيقة يراقبون صفقات المخدرات طوال الوقت الذي ظن فيه ان مشاكله ضريبية، وان ما دفعه غروره واعتداده بنفسه الى

الظن انه تلمس بطيء وغير واضح، لم يكن في الواقع سوى عمل مباحث حثيث، منهجي ومتقن لجمع عناصر قضية محكمة.

كلام سوزان صعق لاري وافقده صوابه، وهو خشي ان يتكلم بروس ويفشي كل ما يعلن. لكنه، على رغم ذلك، ظل واقعياً، عملي التفكير. ذلك المساء ناول سوزان ٣٥٠٠ دولار، فتدفع منها ٢٥٠٠ قيمة الكفالة لبروس، و١٠٠٠ مصاريف ربما احتاجت اليها لإخراجه. وفي وقت لاحق، احضرت سوزان بروس الى المنزل.

في الاشهر التي تلت، عقد لاري وفراني بيرنز اجتماعات لا تحصى لوضع الخطط الرامية الى ادارة العمليات وتداول شؤونها. وكان همهما الاساسي ان يوقفا القضية عند هذا الحد ويحولا دون توسعها إدراكا منهما انها إذا وصلت الى نيو انغلند، فإن جيل ورستي لافين سيقعان حتماً في الشرك. وكانا كلما تعمقا في البحث، ادركا عمق المشاكل التي كانا يتخبطان فيها.

بالنسبة الى لاري، فإن الحكم عليه في قضية مخدرات قد يعني حبسه من ١٠ الى ١٥ سنة. وربما انخفض الحكم الى ثلث المدة ان هو أقر بذنبه في المحكمة. اما خياره الثاني فكان الهرب مع زوجته وابنه وماله.

بدأ لاري يعرض الكتب والكراريس المعلن عنها في مجلة "هاي تايمز" التي تدور حول المخدرات، بحثاً عن مادة تتناول طريقة اكتسابه هوية جديدة. وفي مقابل ٢٠٠ دولار، استخرج كدسة من نسخ طبق الأصل عن وثائق ولادته هو ومارشيا. وكانت النسخ تحمل مساحات بيضاء خالية جاهزة لتملأ ببيانات شخصية جديدة.

الهروب او المقاومة

من اجل جمع بيانات تثبت تهماً جرمية معينة على اشخاص معينين، انصرف ريد وبيري، طوال فصل الربيع من العام ١٩٨٤، الى فرز جبال من المعلومات. ست مرات متتالية جلس بيري في منصة الشهود امام الهيئة الاتهامية العليا يدلي باقوال ومعلومات حول قضية المخدرات التي بدأت في كلية طب الاسنان في بنسلفانيا وامتدت الى اجزاء مختلفة من الولايات المتحدة. واحيانا كثيرة كان مثوله امام المحكمة يمتد خمس ساعات او اكثر. وفي ٩ سبتمبر (ايلول) من السنة نفسها، اصدرت الهيئة قرارها الظني وسطرت مذكرات اتهام رسمية بحق ١٤ شخصاً بينهم الدكتور لاري لافين وفراني بيرنز وبروس تايلور وسوزان نوريماتسو – تايلور. وشملت موجة تحقيق لاحقة مشاركين آخرين كباراً في اللعبة.

صباح يوم ١١ سبتمبر (ايلول)، وفيما لاري يوقف سيارته بالقرب من عيادته، اعترضته سيارتان كانتا متوقفتين هناك وصوب ستة اشخاص مسدساتهم الى رأسه وصرخوا: "مباحث، إرفع يديك."

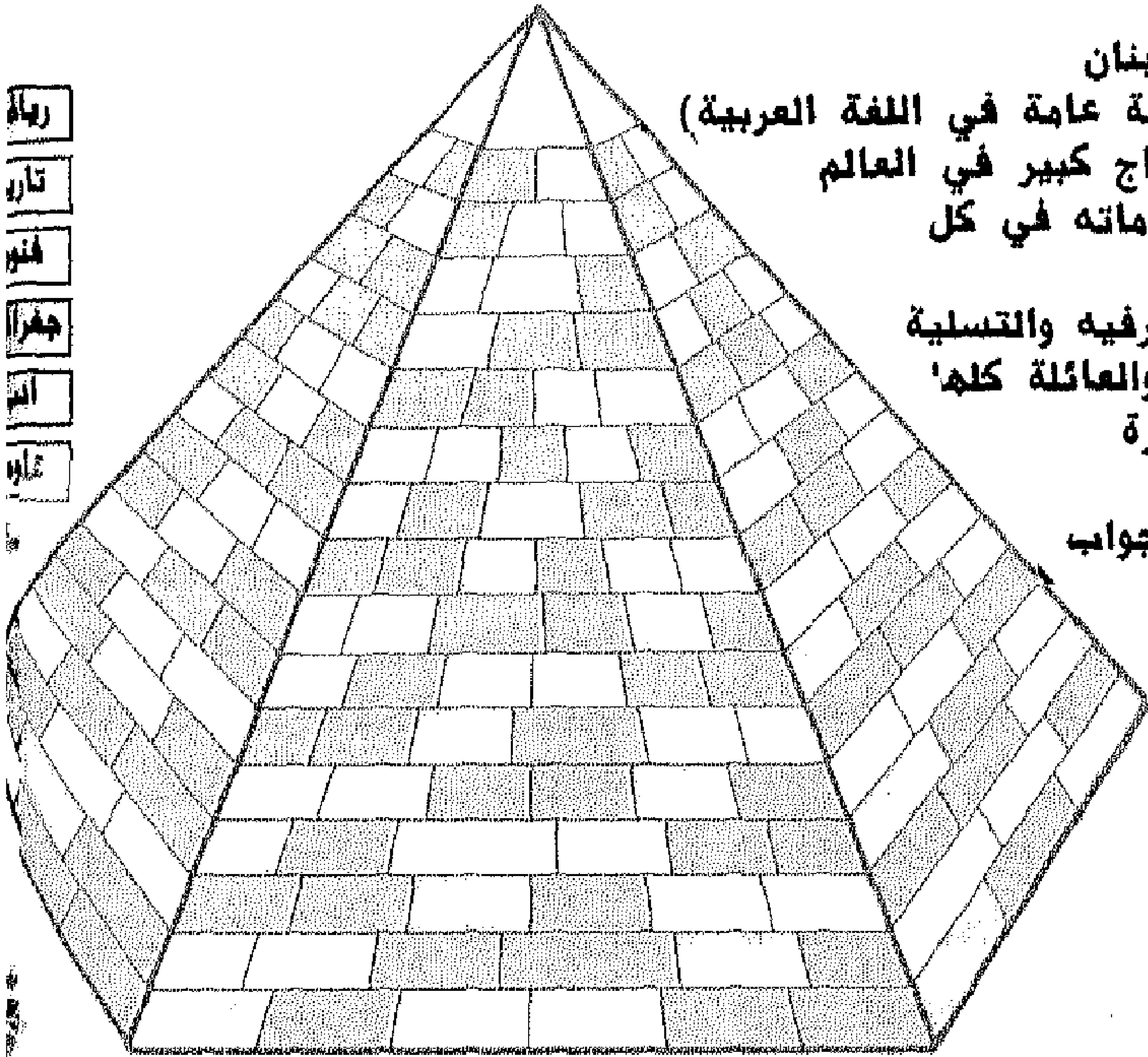
قال في نفسه: يا له من توقيت سيىء. فهو حمل في حقيبته ذلك الصباح خازن المعلومات الالكتروني الذي يحوي اسماء الزبائن وارقامهم، وإيصالا بقيمة اشتراك

لعبة التحدي في الثقافة والمعلومات

هرم المعرفة

لعبة عربية تثقيفية مشر

هرم المعرفة: صممت وانتجت في لبنان
هرم المعرفة: اول لعبة معرفة (ثقافة عامة في اللغة العربية)
هرم المعرفة: لعبة من التي لها رواج كبير في العالم
هرم المعرفة: لمن اراد توسيع معلوماته في كل الميادين والحقول
هرم المعرفة: طريقة جديدة في الترفيه والتسلية
هرم المعرفة: لعبة تسلية للشباب والعائلة كلها
هرم المعرفة: من سن الخامسة عشرة وما فوق
هرم المعرفة: ٣٦٠٠ سؤال و٣٦٠٠ جواب
هرم المعرفة: ستة مواضيع مختلفة



هرم المعرفة: تجدونها في جميع محلات الالعاب والمكتبات
انتاج شركة انتاج وتسويق الالعاب التثقيفية ش.م.م. PROMEGA S.A.R.L.
ت: ٩٢٦٧٢٠ (٠٩) - تلكس: LE 45100 AJAKKA

في صندوق بريد عزم على استعماله في حال الهرب، ودفتراً دون فيه بعض العناوين.

ذلك الصباح ايضا، اعترض تشك ريد وخمسة رجال مباحث آخرون، فراني بيرنز وهو في طريقه الى محل المثلجات الذي يملكه، "ذي ديري كوين."

لم يجدوا في سيارة بيرنز سوى صندوق خشبي وضع فيه الف دولار وعلبة بلاستيك اودعها ما قيمته ١١٢ دولاراً قطعاً معدنية من فئة الربع دولار. وقال في تبريره وضع هذه النقود في الصندوق والعلبة انه يجري مكالمات هاتفية كثيرة من اكشاك عمومية. لكن رجال المباحث، بعدما استصدروا مذكرة لتفتيش منزل والدته، وجدوا في الدور التحتاني، بندقية اوتوماتيكية ورشاشاً حربياً وميزاناً للمخدرات وعلبة من كرتون تحتوي على قائمة باسماء ١٥ من زبائنه وارقام هواتفهم والحدود العليا لقيم اعتماداتهم المصرفية.

وفي جلسة تحديد الكفالة، تليت على لافين التهم الموجهة اليه وشملت ٤٤ تهمة جمعت في مذكرة اتهام واحدة استندت الى المادة ٨٤٨ من قانون المخدرات التي تتحدث عن "الاشتراك المستمر في عمل جرمي." وتراوح احكامها بين عشر سنين سجناً لا يسمح خلالها باطلاقه في مقابل عهد يأخذه على نفسه بالا يهرب وأن يعود الى السجن إذا طلب اليه ذلك، كعقوبة دنيا، والسجن مدى الحياة، كحد اقصى. حدد القاضي قيمة الكفالة بمئة وخمسين الف دولار. ارسل لافين عشر المبلغ بالبريد وغادر السجن حراً طليقاً وإن موقتاً.

اما قيمة الكفالة بالنسبة الى فراني بيرنز ذي السجل الحافل بالسوابق، فكانت ٢٥٠ الف دولار، ولم تدفع إلا في الصباح التالي. في تلك الاثناء، شاهد رجال المباحث والد بيرنز ينطلق من المنزل بسيارته، وهم كانوا يتوقعون ان يعمد بيرنز الى نقل مبالغ ضخمة من المال وكميات كبيرة من المخدرات. وعندما اوقفوه وجدوا في السيارة كيساً ارجوانياً من تلك المستخدمة لتوضيب زجاجات الكحول، وفيه آلات تلق خاصة كانت السبيل الوحيد للاتصال بالزبائن، وبمن هم اهم منهم اي بالمصدرين. وكان الاتفاق بينهم انه إذا لم يرد فراني عليهم بعد اتصالين، فمعنى ذلك انه في مأزق، وفي هذه الحال تقطع العلاقة بينهم وبينه أوتوماتيكيا.

كان مهماً جداً بالنسبة الى السلطات المختصة ان تضع يدها على آلات التلقي الخاصة بفراني نظراً الى دورها في اي اتفاق تأمل هذه السلطات ان تعقده مع فراني. وفي يوم اطلاقه بكفالة توجه فراني مع محاميه الى مكتب المباحث وعرض التعاون مع رجال المباحث. وإثباتاً لحسن نيته، حمل معه ثلاث كيلوغرامات من الكوكايين الصافي.

من جهة اخرى، لم يفكر لاري في التعاون مع المباحث واستمر في الاعتقاد ان القوانين تطبق على سواه فقط. وعلى رغم ان الفرار سراً وبناء حياة جديدة في مكان ما، هما من الامور المحفوفة بالمخاطر، إلا انه لم يشك لحظة في انه لن ينجح فيها.

اظهاراً لولائها له، اصرت مارشيا على البقاء الى جانبه، وكانت في الشهر الثالث من حملها الثاني. فراحا يتداولان موضوع المكان الذي يتوجهان اليه. واستقر رأيهما في النهاية على منتجع سياحي صغير في ولاية فيرجينيا يعرف باسم "فيرجينيا بيتش" ويقع بالقرب من عدة قواعد بحرية عسكرية. ويعتبر هذا المكان نقطة مفضّلة لدى العسكريين المنقولين يتوقفون فيها وهم في طريقهم الى مراكزهم الجديدة. على هذا الاساس قررا ان "فيرجينيا بيتش" هو المكان المناسب لهما لانه يتيح لزوجين شابين مثلهما الاختلاط بالناس. وكون هذا الموقع لا يبعد سوى مسافة ست ساعات بالسيارة الى الجنوب من فيلادلفيا، فانه آخر مكان يتوقع رجال المباحث ان يجدوهما فيه.

علم لاري من فراني بيرنز انه يتعاون مع المباحث في الاعداد لعمليات دهم ضد المتعاملين معه في فلوريدا وان هذه العمليات سوف تنفّذ في آخر عطلة نهاية الاسبوع من شهر اكتوبر (تشرين الاول) فقرر لاري الفرار في ذلك الوقت حيث يكون انتباه رجال المباحث مركزاً على عمليات الدهم.

كان عليه ان يودّع، الى الابد، ديوناً له كثيرة. ومن ١٠ ملايين دولار جناها من الاتجار بالمخدرات، حصل على ستة ملايين فقط. وقد انفق نصف هذا المبلغ اما النصف الثاني فربطه باستثمارات عقارية وغيرها من الاعمال التجارية. ولم يسعه ان يبيع ايا منها من دون ان يثير شبهات حوله. ولهذا السبب قرّر ان يهرب بما استطاع ان يحوّله الى اموال نقدية، اي ١،٦ مليون دولار.

وُضبت الثياب والمقتنيات الثمينة الخفيفة الوزن في صناديق صغيرة اودعها لاري شركة تخزين. ويوم السبت الواقع فيه ١٧ اكتوبر (تشرين الاول)، أخرج شقيقه رستي الصناديق الصغيرة ووضعها في سيارة شحن صغيرة قادها بنفسه من ولاية مساشوستس. في ذلك الوقت خرج لاري ومارشيا من منزلهما ومعهما ابنهما كريستوفر وقطتهما وكلبهما اللبرادور، وصعدوا الى سيارة مستأجرة وبدوا كأنهم ذاهبين الى عطلة نهاية الاسبوع.

التقى الشقيقان في مرأب أحد الفنادق وتعانقا قبل ان يصعد الهاربون ومعهم الكلب والقطة الى الشاحنة وينطلقوا في اتجاه مفترق نيوجيرزي. حمل لاري في محفظته رخصة سوق باسم مستعار صادرة عن ولاية مساشوستس. وكان وزع بطاقات الاعتماد التي يستعملها بين بعض اصدقائه مع تعليمات بألا يستخدموها إلا للمشتريات الصغيرة بغية تضليل رجال المباحث.

وفي وقت لاحق، توقّف رستي في المنزل الذي خلا من سكانه وأخذ منه اغراضاً كان وُعد بها، ثم عاد بالسيارة الى مساشوستس. وبعد يومين، التقى لاري صديقاً له في واشنطن وسلّمه الشاحنة لإعادتها الى اصحابها.

لم يغب عن بال تشك ريد ان اطلاق لاري بكفالة كان كمن يسلّمه سمة للخروج. لكن الحقيقة ان دائرة المباحث لم تستطع تبرير طلبها وضعه قيد المراقبة المتواصلة

لغياب الدليل القاطع الثري يثبت انه يبيّت نية للهرب، فضلا عن النفقات الباهظة التي يرتّبها ذلك الإجراء. وجلّ ما في الامر، ان ريد كان في اوقات فراغه يتوجه بسيارته الى تمبرلين لمراقبة المنزل. وهو فعل هذا يوم السبت واطمأن باله عندما رأى سيارة الـBMW التي استعارها طبيب الاسنان، متوقفة في الطريق الخاصة امام المنزل.

كان ريد وبيري تلقيا إخبارية تفيد ان لافين ينوي الهرب يوم الثلثاء التالي، فامضيا طوال صباح الاثنين يراقبان المنزل الابيض الضخم الذي يملكه طبيب الاسنان، ولكن عبثاً. فالحركة الوحيدة التي لاحظاها صدرت الساعة التاسعة مساء حين توقفت امام المنزل سيارة شحن كبيرة ما لبث ان تبعها ويدلر بسيارته الخاصة. ثم راح ويدلر وسائق الشاحنة ينقلان، تحت جنح الظلام، الاثاث من المنزل ويكدّسانه في الشاحنة. وعندما إنتهيا من العمل قرابة منتصف الليل، غادرا المكان وريد في اثرهما، فيما بقي بيري يتابع المراقبة.

انتهي التعقّب في طريق مسدود أمام بيت ويدلر. فبعدما ان أُفرغت الحمولة، صعد السائق الى شاحنته وانطلق بها فيما اطفأ ويدلر الانوار وخلد الى النوم. وكلما مرّت ساعة توضحت الامور اكثر فاكثر. فلافين قد هرب حتماً.

عندما انضم سيد الى تشك في الثالثة فجراً قال له هذا: "ألم اقل لك ذلك؟ قلت لك منذ اليوم الأول انه سوف يهرب." وكانت نبرة صوته اقرب الى التسليم بالامر الواقع منها الى الغضب. هو فعلا ربح الشرط لكن ذلك لم يفرحه.

حجار "الدومينو" تتهاوى

لم يبق امام المباحث سوى خيار واحد هو التركيز على سائر افراد الشبكة. وكان عليها، الى إعداد العشرات من مذكرات الاتهام وإصدارها، ان تستجوب المدَّعى عليهم الذين اختاروا التعاون معها. وكان المحققون كلما توغلوا في الاسئلة، فتحت امامهم ابواب جديدة وبرز متهمون جدد.

وقد بلغ عدد الذين طاولتهم التهم ٨٠ شخصاً وبينهم زبائن صغار وتجار كبار ومروجون. وراح هؤلاء يتهاوون مثل صف من حجار "الدومينو"، يساومون تارة ويعرضون تعاونهم طوراً في مقابل احكام مخففة، فيما امتنعت حفنة صغيرة منهم عن الإقرار بجرائمها امام المحكمة.

في البداية التزم بروس تايلور الصمت. ولكن عندما صدر حكم بسجنه عشر سنين وضع خوفه من فراني بيرنز جانباً وقرر ان يبوح بكل شيء. وفي مقابل تعاونه هذا خفّض القاضي الحكم الصادر ضده الى خمس سنوات.

وفي فبراير (شباط) ١٩٨٥، وجّه معاونا المدعي العام تينا وليمز غابريلي ورونالد ل. نوبل، سؤالا الى محامي ويدلر مؤكداً ان لا امل له البتة في حكم براءة إذا ما وصلت قضيته الى المحكمة. ان اتخاذ قرار في هذا الشأن عذّب ضمير طبيب الاسنان

اسابيع طويلة حتى كان يوم ٨ مارس (آذار). وعلى رغم ان مذكرة الاتهام لم تكن صدرت بحقه بعد، إلا انه إستبق صدورها ووصل الى مكتب المدعي العام يرافقه محاميه، وهناك شرّع لذاكرته الابواب فتدفقت كالسيل.

شملت مذكرة الاتهام التالية التي صدرت يوم ١٧ يونيو (حزيران) ٣٠ شخصاً. وكان بين الموقوفين هذه المرّة ويدلر وشريكه السابق ديفيد أكرمان.

اوقف أكرمان في مدينة نيويورك وهو حُرم حق طلب تخليته بكفالة لأن السلطة لم تكن ترغب في رؤية متهم آخر هارباً. وامضى الصيف يتلظّى في سجون نيويورك في انتظار واحد من قرارين، اما تحديد وعد لمحاكمته واما اتخاذ الترتيبات اللازمة ليصبح شاهداً لمصلحة السلطة.

وفيما الاستجواب مستمرّ، ادلى ويدلر بمعلومات وقعت كالصاعقة على الجميع، بمن فيهم تشك ريد المعروف ببرود اعصابه. وهو قال مخاطباً تشك: "هناك قرار بقتلك." وان كل ما يعرفه هو ان فراني بيرنز ضالع في الأمر.

مواقف حرجة

عندما استجوب فراني بيرنز في هذا الشأن ادعى انها مجرد اشاعة اطلقت كنكتة.. لكن مزيداً من التحقيق اظهر ان بيرنز لم يكن صادقاً وانه كتم معلومات عن زبائنه وانه كان يستوفي ديونه سراً من غير علم السلطة. وبسبب انتهاكه القانون مجدداً، اعيد توقيفه وسحبت كفالته.

ومن المخالفات الأخرى التي ارتكبها بيرنز انه لم يسلم كل موجودات تجارة المخدرات التي كانت في حوزته. وفي يوم شديد الرطوبة من شهر يوليو (تموز)، طلب سيد بيري الذي كان في منزل عم فراني، معولا. وعندما أحضر له شمّر عن ساعديه وراح يحفر في الارض الى ان ظهرت انابيب من بلاستيك بطول ٤٠ سنتيمتراً من النوع الذي يستخدم في الامدادات الصحية. وكانت الانابيب مسدودة من طرفيها. فانهال عليها بفأس فتحطمت وتناثرت منها لفات من الاوراق النقدية من فئة المئة دولار. وكانت كل لفة تحتوي على عشرة آلاف دولار. وبلغ المجموع ٥٢٨ الف دولار.

في منتصف شهر يوليو (تموز) وُجّهت الاتهامات الى سبعة اشخاص آخرين جميعهم من بنسلفانيا. وفي خريف ١٩٨٥ كان عدد الذين طاولتهم التهم ٥٧ شخصاً موزعين كالآتي: ٥٦ مُداناً وواحد فار. جاء دوره وآن اوان مطاردته.

راق العيش في فيرجينيا بيتش لبرايان ومارشيا اونيل (لافين سابقاً). وخلال شهرين اشتريا منزلا، كان قيد الانشاء، ذا طبقتين وسطح من قرميد أحمر. دفع لاري ٢٠٠ الف دولار ثمناً له و٥٠ الف دولار ثمن اضافات خاصة طلباها وشملت تسوية الأرض المحيطة بالمنزل وبناء بركة للسباحة ووضع جهاز لضخّ المياه واطفاء الحرائق تلقائياً واقامة حديقة مسقوفة خلف المنزل وبيت زجاجي لحماية الشتل. ودفعاً للتساؤلات، اشاع لاري انه باع شركة للكومبيوتر كان يملكها.

في ابريل (نيسان) ١٩٨٥، رزقا بنتاً سمياها تارا إرين اونيل.

خطوة خطوة كوّن لاري ملفاً خاصاً يحمل اسمه الجديد وحصل ومارشيا على أجازتي سوق صادرتين من فيرجينيا. وهو وضع صورته على بطاقة توظيف وصلته بالبريد، بناء على طلبه، وطبع عليها معلومات تفيد انه مبرمج في شركة "إبسون" للكومبيوتر. وحصل على لوحة معدنية من الضمان الاجتماعي حفر عليها اسمه الجديد "برايان اونيل" الى جانب رقم مزور، فبدت كاللوحة الرسمية. ولانه لم يعتد ابقاء امواله من دون توظيف، فقد انتحل بمهارة فائقة عشرات الهويات المزورة واستخدمها في الاستثمار في سندات ائتمان.

منذ نجح لافين في الهرب من امامهما، استحوذ على بيري وريد حافز قوي دفعهما الى الجدّ في اثره. واعتبر ريد عملية الهرب تحدياً شخصياً له وكان يردد: "صعب جداً ان نسلّم بانه حرّ طليق، يظن في كل يوم يمرّ انه سخر من السلطة وتغلّب على القانون، لكن الاصعب ان نتخيّله وهو يسخر منا باستخفاف ظناً منه انه هزمنا وقهرنا." اما بيري، فقد اعتبر عملية القبض على لافين مباراة او لعبة يجيد خوضها وهو عازم على الفوز فيها.

ذلك العزم وذاك التصميم تحوّلا التزاماً عنيداً من جانب المباحث للقبض على لافين، وهو التزام لم يتوقعه لاري ولا راهن عليه. فهو كان يعتقد إستناداً الى جميع الكتب التي قرأها عن موضوع العيش كهارب، ان المباحث ستظل جادة في اثره مدة ستة اشهر تفتر همّتها بعدها وتتخلى عن المطاردة. وفي حساباته ان الزمن يعمل لمصلحته. إلا ان ريد وبيري لم يشاطراه رأيه هذا وهما كانا على يقين ان الوقت الى جانبهما ويعمل لمصلحتهما. فلقد ثبت تكراراً ان الهاربين يصبحون اقل تحفظاً ويسترخون كلما مرت عليهم الاشهر وتبعتها السنون ولافين لن يشذّ عن هذه القاعدة.

الواقع انه مرّ اكثر من سنة منذ ترك لافين فيلادلفيا وهو لم يشعر يوماً بسعادة مثل تلك التي شعر بها ذلك الوقت. وهو صرف معظم وقته، في تلقي دروس في الغطس تحت الماء وحاز شهادة فيه حتى انه وظّف مالا في محل لبيع أدوات الغطس. وعندما لم يكن يغطس، كان يصطاد السمك في زورق سريع اشتراه بثمانين الف دولار.

اهم قاعدة بالنسبة الى انسان فار، هي الا ينظر الى الماضي ابداً. لكن لاري، وهو من لم يكن يوماً ليأبه للقوانين، لم يستطع ان يبتعد عن ماضيه وظل على صلة به يدفعه اليه حنين لا ينطفىء وحاجة ملحة الى معرفة اخبار اقرانه القدامى. ولانه لم يكن على يقين اياً من شركائه القدامى سوف ينهار تحت ضغط المباحث ويذعن لمشيئتها، فقد اعتمد على شقيقه رستي ليكون صلة الوصل بينه وبين ماضيه. وكان الشقيقان يتحدثان عبر الهاتف مرة كل اسبوعين يحدد فيها لاري زمان المكالمة التالية ومكانها، وكان المكان عادة واحداً من سبعة اكشاك عمومية جميعها في مساشوستس. وفي اليوم المحدد، كان لاري يتوجه بسيارته الى المكان المتفق عليه

والذي يبعد عادة عن منزله مسافة ساعة او اكثر بالسيارة. ولم يكن يستعمل الهاتف نفسه مرتين متتاليتين ابداً.

عاش لاري حاضره معظم الوقت بهناء وسعادة لولا انه تعرّض لمفاجأتين كبيرتين. كانت الاولى عندما التقى باتريك اودونيل. والحقيقة ان الرجلين انسجما واحدهما مع الآخر في الحال، فكلاهما ربان قدير مولع بالزوارق مستعدّ لولوج البحر حتى في أعتى العواصف. وأخذ الرجلان يقومان برحلات صيد سمك بانتظام يرافقهما فيها عادة عدد من الرجال. وذات رحلة، جلس الرجال يتبادلون الاحاديث والذكريات. وامتع بات الحاضرين بروايات شائقة عن اعماله البطولية وهو عميل للمباحث. ومن حسن حظ لاري ان احداً لم يلاحظ الشحوب الذي ظهر عليه على رغم اسمرار بشرته من التعرّض لاشعة الشمس.

تلك الليلة، لم يعرف لاري ومارشيا طعم النوم وظلا يتداولان الموضوع حتى بزوغ الفجر. ترى، هل هما في خطر؟ هل يشدّان الرحال؟ لكنهما قررا في النهاية انه لا يعقل ان يظلا في حال تأهب وفرار فينطلقان كلما لاحت امامهما اشارة خطر.

المفاجأة الثانية، حصلت في ابريل (نيسان) من العام ١٩٨٦ عندما نشرت مجلة فيلادلفيا مقالا مطولا عن مؤامرة لافين ضمنته صوراً للاري ولمارشيا. وعندما قرأ رستي المقال لشقيقه عبر الهاتف، قوبل بصمت رهيب في الطرف الثاني.

وخشية ان يطلع أحد في فيرجينيا بيتش على المقال ويتعرّف عليهما من خلال الصور المرافقة له، درس لاري ومارشيا فكرة الانتقال الى مكان جديد.

السمكة في الشبكة

أُقنع كن ويدلر بان تعاونه سوف يكون له تأثير على الحكم الذي سيصدر في حقه، فوافق على المساعدة لايجاد لاري وهو طلب من والدة مارشيا ان تبلغ رسالة الى زوج ابنتها مفادها ان كن مشتاق الى سماع اخبار شريكه القديم. مرّت اسابيع قبل ان يتلقى الجواب وفيه يطلب لاري منه ان يكون في ٨ يونيو (حزيران) الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً في كشك عمومي للهاتف عيّنه له.

رنّ جرس الهاتف ورفع كن السماعة وصرخ مهللا "يو لاري!" وفي الحال استرجع الرجلان الماضي. استمرت المكالمة اكثر من نصف ساعة، فيما المباحث تسترق السمع، وتحدّث الصديقان عن امور شتى: عن اولادهما، وعن اصدقائهما، وعن طب الاسنان والرياضة ووضع كن القانوني (لم تكن صدرت مذكرة الاتهام ضده بعد). ثم حددا موعداً لمكالمة ثانية وطلب لاري من كن ان يبلّغ الى والدة مارشيا ان ثمة رسالة في الطريق اليها.

لم يحصل في حياة كن قط ان ترك حديث في نفسه مثل ذلك التأثير الجميل والسيىء في آن الذي تركه حديثه هذا مع لاري. وهو عندما خرج من كشك الهاتف لفّ بطنه بذراعيه وتقيأ.

كانت المباحث تأمل ان تتمكن من تعقّب المكالمة ولكن كل ما عرفته هو ان المكالمة اجريت من "مكان ما" في شمال ميريلاند.

وبموجب إذن من المحكمة، تمكنت المباحث من اعتراض الرسالة التي بعثت بها مارشيا الى والدتها، وقراءتها. وصفت مارشيا لوالدتها وقائع حفلة عيد مولد ابنها كريستوفر كالآتي: "اصطحبناه مع اعز اصدقائه الى احد محلات البيتزا التي تقدّم العاب فيديو ووسائل ميكانيكية للركوب. وخرج دب وهو يحمل كعكة العيد وغنّى له. وهو فرح كثيراً."

علم بيري ان سلسلة "شوبز" للطعام السريع تستخدم شخصاً في زي دب ويحمل كعك العيد الى المحتفى بهم. ووزعت إدارة الشركة نشرة، تسلمتها من المباحث، على جميع فروعها طالبة اليها مراجعة سجلاتها بحثاً عن قيد لحفلة عيد مولد اقيمت لطفل اسمه كريستوفر.

واسفر التقصي عن ١٠ اطفال او ١١ طفلا يحملون هذا الاسم. غير ان فرع "شوبز" الذي قصدته عائلة لافين افاد انه لا يحتفظ بقيود الحجوزات ويتلفها بانتظام.

تجنّب رجال المباحث حتى تاريخه، الضغط على عائلة لافين لئلا يؤدي ذلك إلى ترويع لاري فيهرب. اخيراً، في شهر ديسمبر (كانون الأول)، بدأوا يمارسون ضغطاً على شقيقه رستي بقولهم له أن القضية سوف تتوسع لتشمل مساشوستس وانه وشقيقته جيل مشمولان بالتحقيق، ولكن إذا قرّر رستي ان يتعاون مع المباحث فذلك قد يعني ان الاتهام لن يطاولهما. وكان رد رستي:

"سوف اعطيكم جوابي لاحقاً."

امضى رستي اسبوعاً مضنياً، ولطالما ردد امام والديه انه يكاد ينهار تحت الضغط. وهو قال: "انني هنا وحدي في المعمعة فيما لاري بعيد لا يفكّر إلا في نفسه. لقد وفّر على نفسه رؤية ابيه وامه يتعذبان. عليّ ان اضع حداً لهذه المعاناة". وفي المكالمات الثلاث التي اجراها مع لاري لاحقاً، كانت المباحث تسترق السمع.

في ذلك الوقت، كان اصبح في الامكان تعقّب المكالمات الخارجية خلال ٢٤ ساعة. وتبيّن ان المكالمات الثلاث التي تلقاها رستي صدرت عن اكشاك عمومية تبعد مسافة نصف ساعة بالسيارة عن "فيرجينيا بيتش" حيث صادف ايضاً وجود فرع لمحلات "شوبز." واثناء استجواب رستي، برزت معلومة اخرى مفيدة شكلت مفتاحاً مهماً لحل اللغز. فلقد تذكّر رستي ان لاري ذكر مرّة ان احد رفاقه في الصيد عميل مباحث متقاعد.

استحصل سيد بيري على اسماء ١٧٠٠ عميل مباحث متقاعدين يقطنون ميريلاند وفيرجينيا وكَرُولينس. بعد ذلك، أوصى على صور فوتوغرافية ملوّنة للاري لافين وحرر كتابا يناشدهم فيه المساعدة على ايجاده منبهاً إلى ان الرجل "تاجر مخدرات كبير" وان هناك معلومات تشير الى انه دفع مالا لشريك له في الجريمة في مقابل قتل زميل لهما يتعامل مع المباحث.

الدفعة الاولى المؤلفة من ١٠٠ رسالة غادرت فيلادلفيا يوم الاثنين الواقع فيه ١٢ مايو (ايار)، اي بعد ثمانية عشر شهراً ونصف شهر من فرار لافين. وأرسلت مغلفات اخرى ايام الثلثاء والاربعاء والخميس.

في صباح ١٥ مايو (ايار)، وكان يوم خميس مشمساً، فتح عميل المباحث الخاص المتقاعد بات اودونيل صندوق البريد متسائلاً: ترى ماذا في ذلك المغلّف الذي يحمل طابع بريد فيلادلفيا؟ وعندما فضه ووجد ما في داخله، صُعق. حدّق بالصورة التي حملت اسم "لاري لافين – تاجر مخدرات فار." لم يكن هناك شك. ان الرجل هو صديقه برايان اونيل نفسه. قرأ اودونيل الرسالة مرتين قبل ان يرفع سمّاعة الهاتف ويطلب رقم دائرة نورفولك للمباحث.

في اللحظة التي تقرر فيها مصيره، كان لاري لافين على مسافة ٣٠ كيلومتراً من الساحل الاطلسي. لم يكن ينوي الصيد ذلك الصباح، لكن الطقس كان جميلاً، عندما طلب اليه احد اصدقائه مرافقته، ووافق في الحال. قبّل طفليه مودّعاً تاركاً مارشيا في المطبخ تحضّر العشاء.

كان سيد بيري جالساً خلف مكتبه يعدّ قائمة باسماء الدفعة التالية من عملاء المباحث الذين سيوجه إليهم الرسالة التي حضرها، عندما رنّ جرس الهاتف. كانت المكالمة من مكتب نورفولك للمباحث وسمع المتحدث في الطرف الثاني يقول: "لقد وجدنا الرجل المطلوب وهو معروف بأسم برايان اونيل. انه الآن في رحلة صيد سمك وسوف يجدنا في انتظاره عند عودته."

قفز بيري من كرسيه مطلقاً صرخة فرح وابتهاج وطلب من غرفة الإرسال والاستقبال اللاسلكيين ان تتصل بتشك ريد.

في الحال، اتصل تشك ريد بالهاتف بمباحث نورفولك وتحدث معهم في شأن الترتيبات اللازمة لاعتقال لافين. وهو قال محذراً: "انه ماهر جداً وإذا اخطأتموه، فلن تتسنى لكم فرصة ثانية للقبض عليه."

قرابة الرابعة بعد الظهر، كان رصيف حوض السفن في "فيرجينيا بيتش" حيث كان متوقعاً للاري ان يوقف زورقه، يعجّ بعشرين رجل مباحث وهذا العدد هو عملياً مجموع العاملين في فرع المباحث هناك. وحرصاً منهم على الاختلاط بالناس، ارتدوا ملابس غير رسمية وتوزعوا بين الناس الذين منهم من انهمك في تنظيف السمك ومنهم من انصرف الى تناول المثلجات وشراب الفاكهة. وعلى مقربة من الشاطىء، رسا زورق سريع وضع في حال طوارىء خشية ان يلجأ لافين الى الفرار ثانية.

وفيما زورق الصيد الذي يبلغ طوله ثمانية امتار يقترب من منزلق السفن، شاهد لاري بات واقفاً على الرصيف مع رجل وامرأة فدعاهم الى الصعود معاً الى الزورق.

قفز الثلاثة الى الزورق. توجه اودونيل الى دفّة القيادة مباشرة وانتزع المفتاح، فيما جبه العميل الثاني الرجل ذا الشعر الاسود والقميص الرياضي بسؤاله، وهو يريه شارته:



"هل انت. لاري لافين؟"

"نعم" اجابه لاري بصوت منخفض.

علم الرجل انها النهاية. وشعر بخدر يسري في جسده تماما كما كان يشعر بعد ليلة يمضيها في تنشق الكوكايين. امسك رجل المباحث بذراع لافين وانحنى صوبه ليبلغه رسالة تخصّه وقال: "تشك ريد يقول لك مرحبا."

نهاية خفيفة نظيفة

جميع من وُجّهت اليهم التهم اما اقروا بذنبهم امام المحكمة او صدرت ضدهم احكام إدانة. بيرنز ولافين باعا مجتمعين اكثر من ١٥٠٠ كيلوغرام من الكوكايين يبلغ ثمنها ١٥٠ مليون دولار على الاقل. صادرت المباحث ٨٣ كيلوغراماً من الكوكايين و١٣ سيارة واستعادت مليوني دولار نقداً بما فيها ١،٤ مليون من لاري لافين. وصادرت ايضاً منزله في "فيرجينيا بيتش" وزورقه. اما بقية املاكه فلقد وضعت مصلحة جباية الضرائب يدها عليها.

يوم الخميس الواقع فيه ٤ سبتمبر (ايلول) ١٩٨٦ مثل لاري لافين ابن الحادية والثلاثين امام المحكمة وكان ممتقع الوجه هزيلا، فيما جلست مارشيا بين الحضور وكانت حاملا للمرة الثالثة.

خاطب القاضي الحضور الذين اكتظّت بهم القاعة قائلا: "انزل الدكتور لاري لافين بمجتمعنا ضرراً فادحاً بتوزيعه سماً فتاكاً. إن جرائمه الفظيعة لا تستأهل رقّة العاطفة ولا التمويه، بل إنها تستحق العقاب."

بعدما اقرّ لاري بذنبه في خمس تهم متصلة بجريمة المخدرات، اصدر القاضي حكماً قضى بسجنه مدة ٣٢ سنة وبتغريمه مبلغ ١٠٠ الف دولار. وفي وقت لاحق من اليوم نفسه واجه تهمة التهرّب من دفع الضرائب ونال حكماً قضى بتغريمه ١٤٠ الف دولار وبسجنه ٣٠ سنة بغير انقطاع ينفذها بعد تنفيذ الحكم الأول. وبذلك اصبح مجموع السنوات التي عليه ان يمضيها في السجن ٦٢. ولم يكن يحق له تقديم طلب تخلية في مقابل عهد بعدم الفرار وبالعودة الى السجن عند الاقتضاء، إلا بعد انقضاء ١٧ سنة.

اما ديفيد اكرمان، فلقد تنازل للدولة عن موجودات بقيمة ٤٠٠ الف دولار. وهو تقدّم بطلب - قبل - لخفض مدة العقوبة من ١٥ سنة الى عشر سنين. وهو يتوقع ان يخرج من السجن في السنة ١٩٩١.

ونال كن ويدلر حكماً قضى بسجنه ٣٠ شهراً وبتغريمه مبلغ ١٠ آلاف دولار وهو امضى ١٣ شهراً ونصف شهر في السجن واطلق في يونيو (حزيران) ١٩٨٧ ويعمل حالياً في شركة إعلانات.

ويوم تلاوة الحكم عليه، بكى فراني بيرنز وراح ينشج كالطفل ويتوسل الرحمة. وهو نال ١١ سنة سجناً بجريمة المخدرات وخمس سنوات اخرى لأنه حاول ان يخدع المباحث وحنث بوعده. وإذا كان سلوكه جيداً فسوف يحق له التقدم بطلب تخلية في مقابل تعهّد بالعودة الى السجن إذا طلب منه ذلك وبعدم الفرار، بعد عشر سنين ونصف سنة.

اما شقيق لاري رستي وشقيقته جيل فلم تُوجَّه اليهما اي تهم.

بعد عمل دؤوب استمر اربع سنوات مُضنية ختم عميلا المباحث تشك ريد وسيد بيري هذه القضية التي انطوت على ملايين الدولارات، كما اشتهيا دائماً ان يختماها: نهاية خفيفة نظيفة، ٨٣ مُدانا ولا فار واحدا!

كارول سالين ■



مفارقة!

أما لاحظت قط ان الاشياء الوحيدة التي يحتفظ بها معظمنا للايام الممطرة هي الاحذية الجديدة والنزهات في الهواء الطلق؟

كتاب الشهر

المغامرة

ملخص من كتاب

بقلم بيريل ماركهام



لم تكن طفولة بيريل ماركهام عادية ولا المجرى الذي اتخذته حياتها والمهنة التي اختارتها مألوفين، فهي نشأت في كنف والد هجرته زوجته هرباً من الحرمان وشظف العيش في شرق افريقيا البريطانية مطلع هذا القرن. واتخذت بيريل من افريقيا وطناً لها: افريقيا الأسود والفيلة والخنازير البرية، افريقيا الجمال الأصيل الصارخ الصرف. اما منزلها فكان في الاسطبلات وحلبات السباق مع مدربي الخيول المحترفين، وفي السماوات مستكشفة القفار والدروب ومواطن الفيلة في زمن اعتبر مجرّد التحليق في طائرة مغامرة فذة محفوفة بالمخاطر.



كانت بيريل شجاعة، مقدامة، حسّاسة، ذات مشاعر مرهفة تهتز لكل ما يصادفها، وقبلت في وقت لاحق أن تتحدى الاطلسي غير هيّابة، فعبرت فوق مياهه الجليدية بطائرة قادتها وحيدة من بريطانيا الى أمريكا الشمالية. وفي الثمانينات كانت مذكراتها التي أعيد نشرها بعد أكثر من أربعين سنة من صدورها، بين الكتب الاكثر رواجاً في تلك الحقبة، واقتبس منها مسلسل تلفزيوني وثائقي.



جميع شخصيات الابطال في أحلامي. أصواتهم هادئة متزنة مثل صوت ذلك الرجل الذي كلمني على الهاتف صباح ذلك اليوم من شهر سبتمبر (أيلول) ١٩٣٦ ليبلغني أن الطقس المتوقع فوق غرب بريطانيا ينذر بأمطار غزيرة ورياح معاكسة، وفوق وسط الاطلسي برياح متقلبة وسماء صافية، أما ساحل نيو فاوندلند فيلفّه الضباب.

"اذا كنت ما زلت مصممة على الطيران فوق الاطلسي في هذا الوقت المتقدم من السنة، فإن وزارة الجو ترى أن الطقس هذه الليلة وصباح غد هو أفضل ما يمكنك أن تتوقعيه." قال الصوت ذلك ثم تلاشى.

تمددت على فراشي يخامرني شك في أن المخابرة لم تكن سوى حلم سيعاودني إن أنا أغمضت عيني ويتبدّد ما ان أفتحهما. ولكي أتحقق من صحة الرسالة ما علي الا أن أغمض عيني وأفتحهما ثانية فيطالعني يوم عادي آخر.

لكنني بالطبع لم أقوَ على اغلاق عيني أو عقلي.

كان في وسعي أن اسأل نفسي السؤال ذاته الذي ما انفك الناس يطرحونه علي منذ ذلك اليوم: "لماذا المخاطرة؟" وكان في وسعي أن أجيب: "لكل انسان قدره." وقدر البحّار أن يبحر والطيار أن يطير. وكما أحصيت ٤٠٠ الف كيلومتر من الطيران في حياتي، تكهنت لنفسي بمزيد من الطيران. ولم يخامرني شك في أنه ما دامت في الوجود سماء وفي تصرفي طائرة، فلن أنقطع عن التحليق.

كان آل كاربيري يقطنون لندن. وما زالت صورة جون كاربيري وضيوفها والرجل الذي اسمه مكارثي وهو منحن فوق المائدة، مرسومة في مخيلتي. وما زال صوت مكارثي يرن في أذني حين قال لجون كاربيري: "جي سي، لماذا لا تموّل رحلة قياسية بالطائرة تقوم بها بيريل؟" كذلك صوت جي سي الجاف حين أجابه: "هناك عدد كبير من الطيارين الذين قطعوا الاطلسي بالطائرة من الغرب الى الشرق. وحده جيم موليسون فعل العكس بمفرده ومن دون توقف، الامر الذي لم يأت مثله أحد من بريطانيا الى الآن. ان اهتمامي محصور في هذا الامر وليس في أي شيء سواه. إن كنتِ ترغبين في المحاولة يا بيريل، فسوف ادعمك. أتريدين أن تخاطري؟"

قلت: "نعم."

وما زلت أذكر جوابي ذاك اكثر من أي شيء آخر، اللهم الا ابتسامة جي سي الخبيثة. وإجابته التي أبرم بها الاتفاق. وهو قال "إتفقنا. أنا أقدم الطائرة وأنت تقطعين الاطلسي. أنا شخصياً لا أقدم على مثل عملك وإن أغريت بمليون جنيه استرليني. فكّري في كل تلك المياه السوداء تحتك! فكّري كم هي باردة، تلك المياه!"

والحقيقة أن الامرين لم يغيبا عن بالي.

على أن أموراً أخرى استرعت تفكيري إذ كنت انتقلت في ذلك الوقت الى إلستري التي تبعد مسافة نصف ساعة بالطائرة عن مقر شركة "بيرسيفال" لصنع الطائرات وصيانتها في غريفز إند. ودرجت طوال ثلاثة أشهر على الانتقال بالطائرة يومياً الى المصنع لاراقب سير العمل في بناء طائرة الـ"فيغا غل" التي كانت تصنع خصوصاً لي.

كان بدن الطائرة أزرق فيروزياً وجناحاها فضّيين، وكانت ذات طراز رياضي وفق المعايير السائدة، لا تتعدى المسافة التي تستطيع اجتيازها من دون تجديد الوقود ألف كيلومتر. لكن محملها صمم بحيث يتحمّل الثقل الإضافي لخزانات الزيت والوقود التي ثبتت في الجزء الأوسط من الطائرة وفي الجناحين وفي مقصورة القيادة لتشكّل جداراً حول مقعدي.

والى مراقبة بناء الطائرة كنت في تلك الاثناء أتمرّن استعداداً للرحلة كأي رياضي محترف. وفي اليوم المنتظر نهضت من سريري واستحممت وارتديت ثياب الطيران الخاصة وحملت علبة من كرتون وضبت فيها لحم دجاج بارداً، ثم توجهت بالطائرة الى المدرج العسكري في ابنغدون حيث وقفت الـ"فيغا غل" في انتظاري.

أسد إلكنفتون

إحتشدت الساحة خارج المدرج العسكري في ابنغدون بسيارات الصحافة وطائراتها وبالمصورين. فأهل الصحافة الكرماء وجدوا في الرحلة مادة صحافية مثيرة وفخمة.

وكان سبق لي أن سافرت بالطائرة الى أماكن نائية وبعيدة عن الحضارة، ولكن ليس بينها مكان واحد يمكن أن أصفه بالمثير أو الفخم. فالرحلة من نيروبي الى نانجوي ليست سوى قفزة صغيرة، وهي غير مثيرة، بل مملة، بالنسبة الى انسان يجهل افريقيا وأصواتها والصمت الذي يلفها أحياناً. لكن افريقيا بالنسبة الي كانت نفحة الحياة التي تفتحت فيها طفولتي.

كنت سعيدة ببساطتي وبتلك المسحة القروية الساذجة التي طبعتني منذ وصولي الى افريقيا وأنا في الرابعة، تلك السنّ الحيادية غير المكترثة. وقبل تلك السنة من عمري التي عشتها في لندن لم يكن في مقدوري أن أناقش موضوع سأم الوجود بذكاء وفهم.

ما زالت افريقيا الى اليوم تثير في نفسي مشاعر الخوف والرعب، وما زلت أرى فيها موطن الاسرار والالغاز. إنها في ذاكرتي الشمس المضيئة والتلال الخضراء والمياه المنعشة والصباح الذهبي الدافىء. قاسية كالبحر، عنيدة متشبثة أكثر من صحاريها، مفرطة في قساوتها وفي عطائها، لا تعرف الاعتدال. إنها لا تمنح شيئاً من دون مقابل، لكن الفرص فيها سانحة لكل البشر من كل الاعراق. إفريقيا، بالنسبة الى عدد كبير من الناس بمن فيهم أنا، هي "الوطن" بكل ما في الكلمة من معنى. إنها كل هذا، ومع ذلك فهي ليست باهتة ولا يعوزها البريق أبداً.

وكان هناك، في محاذاة محطة كابيت، مكان اسمه مزرعة إلكنفتون يقع بالقرب من نيروبي عاصمة كينيا على حافة أرض كيكويو التي يحظر فيها الصيد. وكنت وأبي نذهب اليه أحياناً على جوادين وأحياناً في عربة يجرّها حصان واحد. واعتاد أبي أن يحدّثني في الطريق عن افريقيا.

وذات يوم حدثني أبي عن الاسود، قال: "الاسد اكثر ذكاء من بعض الناس، وأكثر شجاعة من معظمهم. إنه يحارب من أجل الاحتفاظ بما يملك ومن أجل الحصول على ما يحتاج إليه. هو يحتقر الجبناء ويحترس من الانداد، لكنه لا يعرف الخوف. يمكنك دائماً أن تتأكدي من أن الاسد هو دائماً أسد وليس أي شيء آخر البتّة."

ثم أضاف: "... في ما عدا ذلك الأسد الملعون، أسد إلكنفتون."

كان أسد الكنفتون شهيراً ذاع صيته في الجوار ضمن مساحة قطرها ٣٠ كيلومتراً. والسبب أن كل امرىء يصادف وجوده ضمن ذلك الإطار، كان يسعه أن يسمع زئيره. وهو كان يزأر إذا جاع أو إذا حزن أو إذا عنّ له الزئير.

وحدث في ذلك الوقت أن بضعة مستوطنين في شرق افريقيا اصطادوا أشبالا وربّوها داخل أقفاص. لكن بادي، أسد الكنفتون، لم يكن عرف قفصاً في حياته. فهو استكمل نموه وأصبح اسداً قوياً نامي العضلات ذا لون اسمر ذهبي من دون أن يعترضه هم أو يكدّره غمّ. وهو أمضى معظم ساعات يقظته - التي تطابقت مع ساعات نوم الناس - يجوب حقول الكنفتون ومراعيها كأنه امبراطور دمث الاخلاق أنيس المعشر. وعلى رغم غياب حواجز تحدّ حريته وتقيّد تجواله فانه لم يتخط حدود الكنفتون قط، ونشأ أسداً اليفاً. والسبب في ذلك يعود الى أن أسود الغابات لا تقبل بينها وحوشاً يحمل فراؤها رائحة البشر.

قلت لوالدي: "إنني دائماً حذرة من ذلك الاسد، وإن يكن غير مؤذ. ولقد شاهدت السيدة الكنفتون تمسّد جلده وتربّته."

فردّ: "هذا لا يثبت شيئاً. فالاسد المدجّن أو المروّض أسد غير طبيعي. وكل ما هو غير طبيعي لا يؤمن جانبه."

همزت حصاني فانطلق، يخبّ المسافة المتبقية الى مزرعة الكنفتون. لم تكن المزرعة كبيرة لكنها حوَت منزلا جميلا له شرفة كبيرة جلس فيها والدي وجيم الكنفتون والسيدة الكنفتون واثنان من المستوطنين وغرقوا في حديث بدا لي كئيباً.

قُدم الينا الشاي. وكانت هناك مائدة صُفّت عليها أصناف الكعك والفطائر. ولكن لم يكن ذلك ليغريني أو ليحوّل رغبتي عن متعتي الحقيقية. فسلّمت على الحاضرين باقتضاب وعجلة وانطلقت اعدو الى الخارج. وفيما أنا قرب سقيفة التبن لمحت بيشون سينغ وهو رجل من السيخ يعمل في مزرعة والدي وكان سبقنا الى ذلك المكان ليحضر لنا الجياد. وهو ايضاً رآني ورفع ذراعه يحييني بالطريقة السواحلية فيما تابعت عدوي في اتجاه فسحة من الارض مكشوفة خالية من الاشجار.

لماذا عدوت؟ ولأي غرض؟ سؤالان لا املك إجابة عنهما. إلا انني اعتدت أن اركض بأقصى سرعتي عندما لم يكن لدي مكان معيّن أقصده، علّ ذلك يهديني الى المكان المنشود. وكنت دائماً أجده.

رأيت أسد الكنفتون وانا على بعد ٣٠ متراً منه. كان متمدداً في الشمس باسطاً قوائمه، وعندما رآني رفع رأسه باطمئنان ورشاقة وحدّق الي بعينين ذهبيتين رأيت فيهما نوعاً من التصميم المقصود.

جمدت في مكاني وغرزت اصابع قدمي الحافيتين في التراب وأنا أحدّق الى الأسد - فتاة صغيرة تعرف الكثير عن الاسود. تذكرت ما كان يجب أن اتذكره: القوانين

وأصول التعامل مع الاسود. لم أركض، بل تقدمت ببطء شديد وأنا أردد اغنية تحدّ، وتابعت سيري في خط مستقيم متجاوزة بادي الذي ومضت عيناه من خلال العشب وراح ذنبه يعلو ويهبط على ايقاع أغنيتي البسيطة وكأنه يقيس الوقت.

أسرعت الخطى وأنا أغني، وتوجهت الى تلّة آملة أن يحالفني الحظ فأجد في منحدراتها بعض شجيرات الكشمش. كانت الأرض خضراء رمادية وشعرت بسخونتها تحت قدمي. كانت الريح ساكنة تماماً وأطبق على المكان صمت ثقيل. حتى بادي الذي انطلق بخفة في اثري لم يصدر عنه أي صوت.

كل ما أذكره من الدقائق التي تلت لا يتعدى أموراً ثلاثة: صرخة لم تتعدَّ الهمسة، ولطمة طرحتني أرضاً فدفنت وجهي بين ذراعي فيما أنياب بادي تنهش لحم ساقي، وعمامة تهتز على نحو غريب كانت عمامة بيشون سينغ الذي اقترب من حافة التلة.

لم يُغم عليّ، لكنني أغمضت عيني وحاولت أن أغيب عن الوعي، ليس من الألم بل لأن زئير بادي كان يضجّ في رأسي. طرح السيخي الصوت ولبّى نداءه بضعة من رجال الكنغتون الذين هرعوا إلينا يتقدمهم جيم إلكنغتون حاملا كيبوكو وهو سوط مصنوع من جلد البرنيق (جاموس البحر).

تبيّن من رواية بيشون سينغ لاحقاً أنه لولا بونا الكنغتون لأجهز عليّ الأسد، وله الفضل في أنني ما زلت حية. قال بيشون: "تركك الاسد ليهجم على بونا الذي اندفع الى شجرة مباركة وتسلّقها."

سألته: "وأنت من حملني يا بيشون سينغ؟"

فأخفض رأسه ذا العمامة الضخمة وأجاب: "اسعدني القيام بواجبي وحملك الى السرير يا بيريل ثم إعلام والدك الذي كان يتفقد خيول بونا الكنغتون بأن اسداً كبيراً كاد يلتهمك."

تلك الليلة فتك بادي بحصان وفي الليلة التالية أجهز على عجل وفي الثالثة افترس بقرة. وفي النهاية أسر ووضع في قفص حيث تسنى للناس أن يحدقوا اليه فيحدّق اليهم بدوره. واستمرت الحال هكذا الى أن هرم وشاخ وأكره السكان على قتله رمياً بالرصاص.

وما زلت أحمل الندبات التي خلفتها أنيابه وبراثنه في جسدي، لكنها ندبات صغيرة أصبحت في عالم النسيان. والحقيقة أنني لا أحمل له أي ضغينة، فهو عاش ومات على نحو لم يختره، وعمل أقصى وسعه ليصبح أسداً أليفاً، وليس من العدل أبداً أن ندينه على أساس غلطة وحيدة.

كلب غير عاطفي

لم تكن نجورو مزرعة بالمعنى الصحيح إلى ان حوّلها والدي بكثير من الكدّ والجلد مزرعة حقيقية مترامية الاطراف. وهو بناها بالعرق وبالصبر، حمل اليها تراباً جديداً ونقل اليها الصخور وضمّنها الأحراج تعاونه شمس مشرقة وأمطار غزيرة دافئة.

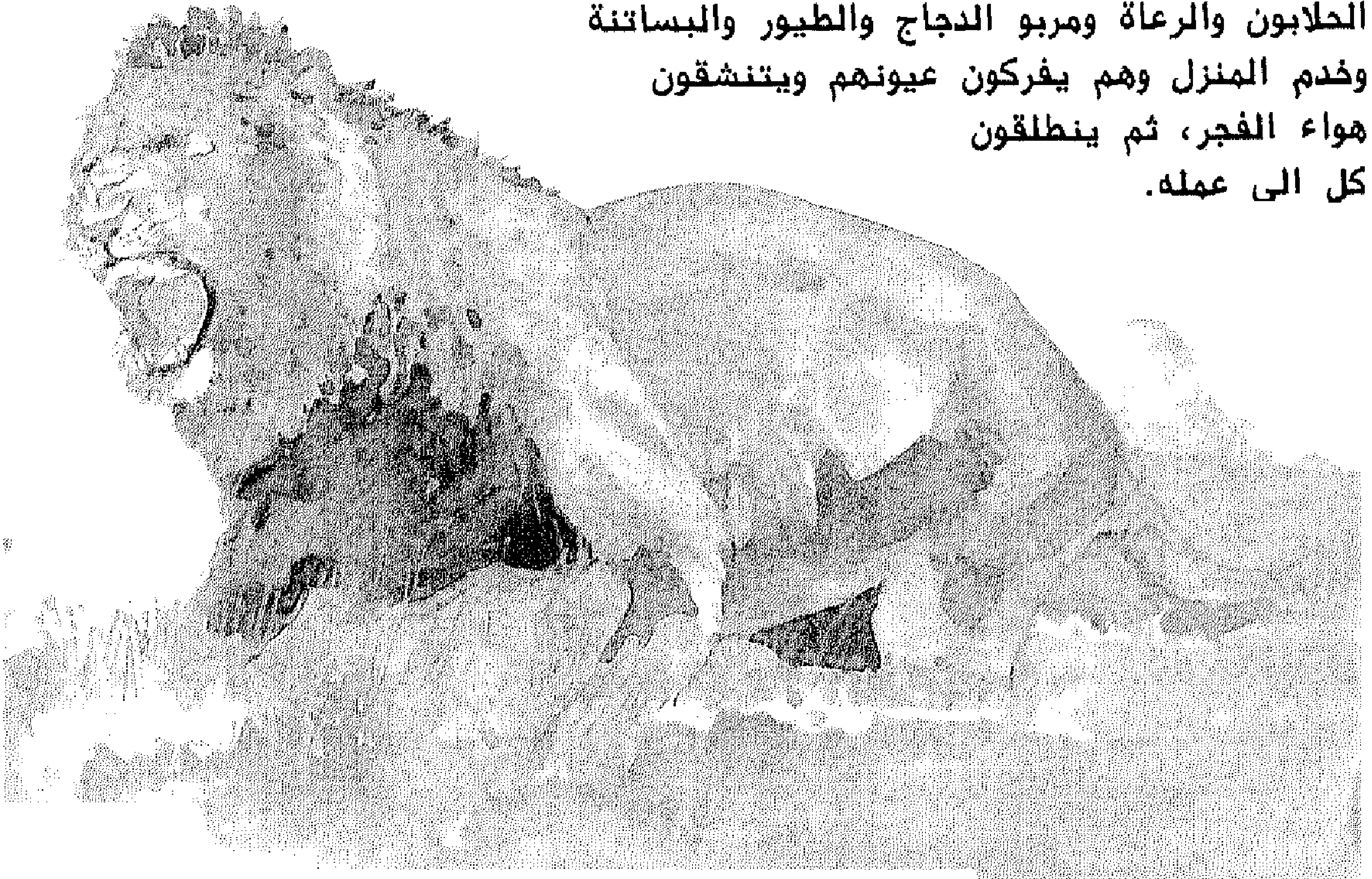
لم يكن والدي مزارعاً، لكنه ابتاع الأرض نظراً الى رخص ثمنها وخصبها والى أن شرق افريقيا كان ارضاً بكراً تَعِدُ بمستقبل باهر يحسّه المرء تحت قدميه.

في البدء بدت المزرعة كالآتي: أرض شاسعة واسعة وسهول ممتدة بعضها مكشوف ومعظمها يحوي اشجاراً كثيفة حجبت السماء وقد التفت حول جذوعها نباتات متسلقة بلغ ارتفاعها خمسة أمتار تشبّثت بها كالأفاعي. أما رؤوس الاشجار فلا مجال لرؤيتها إلا بعد أن تهوي تحت ضربات الفؤوس، فتجرّها الثيران في اشراف فرق من العمال الهولنديين المستوطنين الذين لم تكن سياطهم لتكف عن القرقعة طوال النهار.

اشترى والدي مولّدين بخاريين وثبّتهما في الأرض من أجل انتاج طاقة كافية لتسيير طاحونة قمح. ولم تكن الطاحونة لتكفّ عن الدوران ولا عمال كافيرونو المحليون عن العمل. فكانوا يعملون من الفجر الى المساء، يفرغون الاكياس الثقيلة ثم يعودون فيحمّلونها بعد أن يكون القمح تحوّل طحيناً ناعماً أصفر. وكانوا في عملهم أشبه براقصي الباليه على أنغام نفث البخار ودوران حجار الرحى.

نمت اسطبلاتنا وكبرت من بضعة مرابط الى صفوف طويلة من الزرائب المفتوحة. وتدرّج عدد خيولنا الاصيلة المدربة من اثنين الى عشرة فالى مئة، وهكذا استعاد والدي غرامه القديم ووقعت أنا على حبي الاول الذي رافقني بقية حياتي.

اعتاد رئيس السوّاس أن يقرع الجرس كل صباح فتفيق المزرعة على صوته الصدىء وتدبّ فيها الحياة. فيشد الهولنديون ثيرانهم الى العربات ويسرج السواس جيادهم وتروح المولدات تنفث بخارها ويهب الحلابون والرعاة ومربو الدجاج والطيور والبساتنة وخدم المنزل وهم يفركون عيونهم ويتنشقون هواء الفجر، ثم ينطلقون كل الى عمله.



في الايام العادية كنت أنا وكلبي بولر جزءاً من كل ذلك، أما في مواسم الصيد فكنا نتسلل من المزرعة قبل قرع الجرس. ومثلما كانت لدي دروس يتوجب عليّ انهاؤها، كذلك كانت لدي دروس أهرب منها.

وما زالت ذكرى أحد تلك الايام حيّة في مخيلتي.

بزغ النهار على حركة من بولر الذي كان نائماً كعادته عند قائمة سريري في كوخنا المبني بالتراب والطين. كان بولر هجيناً. وكان خطمه ناتئاً وعضلاته قوية مفتولة كالحبال وهو أشبه ما يكون بكلاب السباق المنحوتة في الافاريز الحجرية في بلاد فارس القديمة.

كان بولر يصارع أي شيء تتوجّب مصارعته. وقد حمل جلده الاسود والابيض خريطة عجيبة من الخطوط والندوب الطويلة والقصيرة والمنحرفة شهدت له بتاريخ حافل من الصراعات والحروب. وعلى رغم أن ولاءه لي كان خالصاً لا يتزعزع، فإنني لم أتخيله قط بطلا لقصة عاطفية رقيقة من النوع الذي يمس شغاف القلب. فهو كان مفرطاً في خشونته وفي قوته وحتى في عدوانيته.

ذلك الصباح تسلّلنا انا وبولر الى الساحة. وفيما أنا أجول بنظري حول كوخ والدي القريب من كوخي، تبينت سائسين يهمّان بفتح أبواب الاسطبلات مما يعني أن والدي جاهز للخروج وأنه سيظهر في أي لحظة بغية إرسال الدفعة الاولى من أحصنة السباق التي يملكها الى عملها الصباحي. ولو رآني برفقة كلبي والرمح في يدي حول خصري لصعب عليه أن يتصور أن ذهني منشغل بمبادىء الصرف والنحو، ولاستنتج في الحال - وعن حق - اننا في طريقنا الى أقرب قرية في ناندي كي نذهب مع أهل مورانی الى الصيد.

قطعنا البيوت عدواً وانعطفنا في الطريق المتعرّجة التي حجبها العشب النامي ولم يكن يعرفها أحد سوانا وسوى أهل المنطقة الذين شقّوها بأقدامهم.

مع اقترابنا من مستوطنة ناندي، كان آراب مينا يحمل قربة مليئة بالحليب المتخثّر ونظره مرفوع الى الشمس. وسمعناه يبتهل: "المجد لله الذي أعطانا الحليب الذي يقوي عضلاتنا ويدفىء صدور أحبائنا."

كان وجهه فتياً قاسياً وفي ملامحه مسحة ظرف ودعابة. وأوحت تقاسيمه حباً كبيراً للحياة وللصيد وللقوة التي حباه بها الله ولجمال رمحه وفائدته.

تجرع آراب ما في القربة ثم أطلق جشأة صعدت من أحشائه ودوت في صمت الصباح، ذلك الصمت الذي لم يقطعه أحد منا نحن الذين وقفنا حوله. فعمله ذاك كان بين أهالي ناندي جزءاً من الشعائر المرعية وطقساً يسبق الانطلاق الى الصيد.

"إننا جاهزون،" قال آراب كوسكي وهو يسحب سيفه من غمده ويتفحص حدّه. وتابع: "بحق رحم والدتي سوف نقتل الخنزير البري اليوم."

ثم تقدم حاملا ترسه العريض ورمحه المستقيم حتى اصبح وراء آراب مينا مباشرة، وسرت أنا وراء آراب كوسكي وفي يدي رمحي الجديد النظيف الذي كان

أخفّ وزناً من رمحيهما. سرنا معظم الوقت في صفّ منفرد بمحاذاة غابة مو ثم انحدرنا شمالا في اتجاه وادي رونجي الذي كان على بعد ٣٠٠ متر تحتنا. ركض بولر في اثري وانتشرت خلفه كلاب المحلّة.

أعرف حيوانات تفوق خنزير افريقيا البري شهامة وكياسة، لكنني لا أعرف حيواناً أشجع منه ولا أكثر جرأة. إنه فلّاح السهول وحفّار التراب الزري. صحيح أن الوسامة تنقصه، لكنه الحامي الشجاع الذي يتصدى للدفاع عن موطنه وبيته وعاداته ببسالة وإقدام. هو مستعد دائماً لمحاربة أي متطفل مهما بلغ حجمه. وأسلحته عادية مبتذلة: أنياب معقوفة حادة ومميتة هي أبعد ما يكون عن الجمال.

لا يتعدى ارتفاعه عند إكتمال نموه ارتفاع خنزير داجن. جلده خشن ترابي اللون يغطيه هلب غليظ صلب. عيناه صغيرتان خاليتان من أي تعبير الا واحداً: الشك. إنه يرتاب بكل شيء لا يفهمه. وما لا يفهمه يحاربه. وسرعته في الخروج من وجاره ظاهرة غريبة غير عادية.

لا يعوزه المكر وهو يدخل وجاره الصغير المحجوب عن الانظار خلفياً، ذيله اولا، كي لا يؤخذ على حين غرّة. ومع أنه يفهم معنى التراجع الفني إلا انه عاجز عن الاستسلام. لا يرضخ ولا يستسلم. وإذا كان خصمه كلباً تنقصه الخبرة والحنكة، او رجلا حديث العهد بالصيد مبتدئاً وإن شجاعاً، فإن الدم المراق لن يقتصر على دم الخنزير.

صيد دامٍ

الاشارة الاولى الى وجود خنازير برية في الجوار كانت صرخة حادة اطلقها خنزير صغير باغتته خنازير هجينة وهو في بقعة معشبة، أعقبتها صرخات خلتها صادرة عن جميع صغار الخنازير في افريقيا. ثم راحت الخنازير تتراكض مذعورة في كل الاتجاهات وأذنابها منتصبة كفئران يطاردها قط. والقصد من الصرخات كان أن يلتقطها الأب الذي لا بد من أن يهرع لنجدة صغاره والشر نصب عينيه.

لم يخب ظن الصغار إذ سرعان ما هبّ الاب الى النجدة. ووسط كل ذلك الهرج والمرج انشق العشب أمام آراب مينا كائنا بمنجل، وانقضّ على الموراني خنزير بري أبيض ضخم أعماه الغضب. لمع الرمح في يد اراب مينا-الذي انحرف جانباً. لكن العفر اختفى وانطلق آراب في إثره.

ولو لم يركض بولر خلف طريدة أخرى لكانت الامور اتخذت منحى آخر. فأنا وآراب كوسكي تركنا آراب مينا يعالج الطريدة الأولى وانثنينا نجري خلف بولر الذي كان ينبح بقوة واهتياج. وبعدما قطعنا حوالى خمسة كيلومترات وجدناه بالقرب من وجار كبير وقد نجح في محاصرة الخنزير الذي طارده.

اقتربت من مؤخر الوجار بحذر شديد فيما وقف آراب كوسكي جانباً. قلت له: "ليت معنا ورقاً نحدث به خشخشة داخل الثقب.."

هزّ الموراني كتفيه وأجاب: "علينا ان نلجأ الى حيل أخرى يا طفلتي."

قد يبدو ذلك سخيفاً، لكننا نجحنا مرات كثيرة في إغراء الخنازير بالخروج بخشخشة الورق في مداخل جحورها بعد اخفاق جميع الاساليب الأخرى.

ولكن لم يكن في حوزتنا هذه المرة أي ورق. ولما لم تجدِ جميع الطرق التي حاولناها قررنا أن نتخلى عن المحاولة وننضم الى آراب مينا.

كنا على وشك الابتعاد عندما تغلّب فضول آراب كوسكي على احترازه. انحنى أمام الوجار فخرج الخنزير.

ما حدث كان أقرب الى الانفجار منه الى الهجوم. حجبت سحب الغبار المتطاير الرؤية ولم أرَ من خلالها سوى أطراف تتحرك: ذنب الخنزير وقدمي آراب كوسكي وأذني بولر وطرف الرمح.

كان رمحي غير ذي فائدة وخشيت إن أنا طعنت به الخنزير أن أصيب الكلب أو الموراني. كان ذلك اشتباكاً فظيعاً مروعاً دام خمس ثوان اندفع الخنزير بعدها من وسط الكتلة البهلوانية كقطعة من طين حملتها ريح مدوّمة عاتية، واختفى في دهليز من كثيبات النمل وبولر في إثره.

جلس آراب كوسكي على الأرض في بركة من دمه، وكان ينزف من جرح عميق في فخذه بدا كأنه من ضربة سيف. وما لبث أن انتصب واقفاً وهو يضغط جرحه بطرف قفطانه الفضفاض. وكان نباح بولر اصبح بعيداً خافتاً.

سألته: "هل تستطيع السير يا كوسكي؟ عليّ أن ألحق ببولر فربما قضى عليه الخنزير."

ارتسمت على وجه الموراني ابتسامة وأجابني: "بالطبع ايتها الطفلة. هذا جزاء حمقي. سوف أعود لأهتم بجرحي. الافضل أن تلحقي ببولر فالشمس شارفت المغيب. هيّا اذهبي. إجري بسرعة."

عضلاتي تؤلمني. ساقاي تنزفان وقد خدشهما الشوك وأنصال الحشائش الاستوائية. يدي التي بللها العرق ينزلق منها الرمح. أتعثر، انهض، أعدو في اتجاه نباح بولر الذي يعلو ويقترب. أختفى الصوت. لا شيء في الدنيا مهم في نظري أكثر من كلبي.

على سيقان الحشيش نقاط من الدم، وبقع من الارض الترابية مشبّعة بالدم. نباح بولر ضعيف وغير منتظم لكنه أقرب. خيط الدم على الأرض أكثر كثافة. في هذه البقعة من السهل شجر. شجر كبير صامت.

ينقطع النباح. أتابع العدو وأنا ألهث. أخترق بنظري نور النهار المتلاشي. في بقعة من الأرض المعشوشبة تحت شجرة زعرور شيء يتحرك.

فجأة كنت أنا هناك تحت الشجرة أقف في خليط من التراب والدم. هناك تحت الشجرة ارتمى الخنزير الضخم الذي يبلغ حجمه ستة أضعاف حجم بولر. ورأيت الكلب رابضاً يلعق بطنه. واذ رآني الخنزير لمح فيّ عدواً آخر. فاندفع في اتجاهي

بشجاعة رائعة. قفزت جانباً وسددت برمحي طعنة الى قلبه. هوى الى الامام هامداً. تركت رمحي مغروزاً في جسده واستدرت صوب بولر والدموع في مقلتي.

الكلب مبقور كالخروف المذبوح. جنبه الايمن كوادٍ من اللحم المكشوف من الذنب الى الرأس. أضلاعه البيضاء كأصابع يد مغموسة بالدم. ينقل بصره من الخنزير اليّ فيراني جاثمة بقربه. يريح رأسه بين ذراعي.

يعلق يدي. يرى اليأس في ملامحي. أنا لا أستطيع أن أتركه وحده، فنور النهار على وشك الغياب وهناك نمور وضباع تهيم في الليل وتفترس الجريح والعاجز: أنا وبولر والخنزير الهامد تحت شجرة الزعرور.

أراقب هبوط الظلام. شيء يتحرك في العشب النامي ويصدر صوتاً أشبه بحفيف تنورة امرأة. الكلب يتحرك بوهن. أريح رأسه على العشب ثم أقف واسحب رمحي من جسد الخنزير. صوت آت من الجهة اليسرى يتناهى الى سمعي.

"هل أنت هنا يا طفلتي؟"

صوت آراب مينا منعش كالمياه الجارية بين الصخور المظلّلة.

– إنني هنا يا مينا.

"إنك وحدك ولقد تألمتِ وعانيتِ. كيف تجرأ كوسكي وتركك وحدك؟ لقد خان ثقتي به."

– كوسكي جريح. لقد بقر الخنزير فخذه.

"إنه ليس طفلا وكان عليه أن يكون اكثر إحترازاً. استريحي الآن. وعندما يسطع القمر في منتصف الليل ننقل بولر الى المنزل."

آراب مينا يقطع بسيفه حفنات من العشب ويصنع منها وسادة يضعها تحت رأسي. بولر بين ذراعي غائب عن الوعي. يمزّق السكون زئير أسد يجوب الغابة في الليل. ننتظر وقد أرهفنا السمع.

إنك ترتجفين

في ضوء القمر نقل بولر الى المنزل. ظل فترة طويلة ساكناً لا يتحرك ولا يرى شيئاً. أخيراً تمكن من رفع رأسه ومن ثم السير. وذات يوم، راح يتشمم رمحي وهو يهزّ ذنبه المترقّب دائماً وأبداً. لكن ذلك جاء في وقت كان ولّى زمن صيد الخنازير البرية الى غير رجعة، ومع انتهائه تغيّرت دنيايا وتبدلت.

علمتني الايام درساً هو أنه إذا أراد المرء أن يهجر دياراً عاش فيها وأحبها وخلف فيها ذكريات وماضياً دفنه، فعليه أن يغادرها بأسرع ما يمكن. لكنني، ويا للاسف، غادرت تجورو بأبطأ ما يمكن. والسبب أن الأمطار نسيتنا. تلك الامطار التي تغذي البذور التي بدورها تغذّي الطاحون. فعندما ينحبس المطر تتوقف حجار الرحى عن الدوران، وإن استمرت في الدوران فلن تطحن سوى الخيبة والاسى لمالكها.

أما مالكها فكان والدي.

وهو قال: "علينا أن نفكّر." وفكّرنا.

جلسنا في مكتبه ساعة تحدث معي خلالها بجدية لم آلفها فيه من قبل. قال إنه عزم على الرحيل الى البيرو، البلد الخالي من القيود والعوائق مثل شرق افريقيا والذي يحب الجياد ويحتاج الى من يرعاها ويفهمها. اراد أبي أن أصحبه لكنه قال: "الامر عائد اليك." وشعرت بأنني لم أعد طفلة، وكان عمري ١٧ عاماً وبضعة أشهر.

لم اكن تعرّفت إلا على القليل القليل من افريقيا. وما عرفته منها أحببته وتعلّقت به. البيرو بالنسبة الي مجرّد لطخة بنفسجية في خريطة مدرسية، ألمسها بأناملي. أما قدماي فكانتا على أرض افريقيا وفوق ترابها.

لسنوات طويلة اعتنيت بخيول والدي. أطعمتها وركبتها وسستها وأحببتها. ترى هل اعتبر والدي أنني أملك خبرة كافية تؤهلني للبقاء وحدي في افريقيا واحتراف تدريب الجياد الاصيلة؟

الجواب كان نعم.

هل لي أمل بحيازة إجازة تدريب رسمية في ظل قوانين نادي الفرسان البريطاني؟

أيضاً نعم.

"إذهبي الى مولو،" قال والدي، ثم تابع: "إن فيها اسطبلات يمكن أن تفيدي منها. ولكن لا تنسي أنك مجرد فتاة ويجب ألا تتوقعي الكثير. لن يكون هناك سوى عدد ضئيل من أصحاب الاحصنة على استعداد لأن يعهدوا اليك بجيادهم. عليك أن تعملي بجدّ وتفان وألا تفقدي الأمل. لكن آمالك يجب أن تكون على مقدار جهودك."

بدأت بخمسة جياد ثم أصبح العدد ثمانية ثم عشرة. دربتها في مقابل كوخ واسطبل للتدريب. مرّت تحت يدي جياد بليدة وهرمة ومعاقة، لكن العمل عمل مهما يكن. شرعت في تدوين بعض الملاحظات، وأدهشني ارتفاع ثمن العلف. ومع ذلك دأبت على العمل وحصلت على إجازة تدريب رسمية. وكان اقترب موعد سباق نيروبي.

إمتلأت الفنادق بالنزلاء واكتظت الشوارع بهواة سباقات الخيول وعجّت المدارج بالناس من كل لون وزي بحسب القبيلة التي ينتمون اليها. وكم من مدرّب سُمع وهو يشرح ما كان في الامكان أن يكون "لولا كذا أو كذا..." كانوا جميعهم رجالا أكبر مني سناً وأكثر خبرة من سنواتي الثماني عشرة. حملوا معرفتهم. وتعلمت منهم ما كنت أجهله. لم يكن كثيراً على ما أظن وآمل. على كل حال سوف نرى. سوف نرى.

إنه سباق سان ليغر الكبير وآمالي معلقة على مهرة ذات كتفين صقيلتين كالحرير اسمها "وايز تشايلد" أي الولد العاقل.

"ما هو حظها في الفوز؟" سألني إريك غوش المزارع الذي يملكها. انه يحب جميع الحيوانات وخصوصاً الجياد.

قطبت جبيني وهززت رأسي وأجبته: "حظها ممتاز ما لم ينافسها الحصان راك."

غريب هذا القول صادراً عني، فكل عضلة في جسد ذلك المهر القوي النشيط الكستنائي الذي اسمه راك، شكلتها أنا بعرقي وجهدي ومعرفتي. براعته أنا أكسبته إياها. إنه من دون شك أفضل حصان في سباق ليفر ولا يضاهيه آخر. لكنه، ويا للاسف، سيركض ضدي.

نُقل راك من عهدتي الى عهدة مدرّب آخر قبل ١٢ أسبوعا فقط. وكان تحوّل تحت رعايتي واشرافي من مهر عنيد جامح ناحل القوائم الى حصان سبق مكتمل النمو متين العضلات سريع متغطرس يرى في المنافسة احتقاراً له ويزدريها. كان بحق واثقاً من نفسه معتداً بقدرته.

الذي حصل أن صاحب الحصان أقلقه ما سمعه من نصائح وبراهين عن أن اللمسات الاخيرة البالغة الدقة والتّي تتعلق بتغطية العظام بالعضلات، لا يُعهد بها الى فتاة في الثامنة عشرة، مما ألقى ظلالا من الشك حول مقدرتي. فنقل حصانه من عهدتي الى عهدة مدرب آخر، غير آبه بالاساءة التي ألحقها عمله بسمعتي كمدربة خيول.

لكن الهمس لا يقتصر على الاخبار السيئة، وهناك أناس يشتمّون رائحة الظلم مهما كان ضئيلا ويعترضون عليه.

كان اريك غوش يعلم أنني سوف آتي الى نيروبي بعدد من الاحصنة للاشتراك في السباق الكبير، وأن بين الاحصنة من هو مرشح للفوز في سباقات أقل شأناً من السباق الكبير. وكان يعلم أيضاً أنني، وقد حُرمت راك، لا أملك حصاناً واحداً اشترك به في السباق التقليدي الكبير، السباق القيّم الوحيد.

قال غوش: "الفكرة تعذّبني لكنني لا أرى لها مخرجاً، وراك مرشح للفوز ولن يقف في طريقه شيء. بالطبع هناك وايز تشايلد لكنك تعرفينها."

أعرفها؟ لقد ولدت على يدي وفي عروقها يجري دم اصيل يعود الى ٢٠ جيلا من الجياد المجلّية. انها من معدن راك... لولا قوائمها.

مشكلة وايز تشايلد أنها تعرّضت وهي في سنتها الثانية لسوء معاملة على يدي مدرّبها الأول الذي أنزلها الى الحلبة قبل الاوان وأشركها في سباقات قاسية مما أحدث ارتجاجاً مفاجئاً في أوتار قوائمها وأضعفها. فمع كل تلك النار المتقدّة في صدرها وكل تلك الطاقة الهائلة المختزنة في جسدها الكميت الريّان، لم تكن قادرة بعد على حمل انسان على ظهرها. والآن، هل من المعقول يا ترى أن نعمل خلال ١٢ أسبوعاً على تلك القوائم الموجوعة الراغبة والمستجيبة وننجح في تقويتها وتحصينها لتصبح قادرة على أن تجري مسافة ٢٨٠٠ متر وتفوز؟

لم يكن ذلك ممكناً في رأي اريك لكنه كان على استعداد للمحاولة إن أنا قبلت.

وأنا قبلت. لن تكلّفني المحاولة سوى الجهد والعمل الحثيث، وهذا أهون على نفسي من رؤية راك - مهري أنا - يكتسح الحلبة حاملا ألواناً غريبة.

وهكذا تم الاتفاق بيننا، فأكببت أنا والمهرة على العمل. عملنا معاً وتعذبنا معاً وقلقنا معاً. وسرعان ما انقضت الاسابيع الاثنا عشر. وكنت مرتاحة الضمير، فقد عملت بكل ما أوتيت من مهارة وها أنا هنا أخيراً.

أصدرت تعليماتي الى الجوكي (١) وقلت له: "خذ موقعاً ثلاثة أطوال وراء راك الى أن تحمى المهرة. إبق هكذا حتى المنعطف الاول، وإذا تبيّن أن قوائمها ما زالت صامدة ابتعد بها الى الجانب المستقيم من الحلبة. خذ مركزاً في المقدم وابق فيه. وإذا وهنت قوائمها وقصّرت فلن يكون ذلك بسبب غلطة اقترفتها."

راك مزهو بالانتصار حتى قبل أن يفوز. إنه مهر جميل صقيل الجسم، انه السرعة مجسّدة. كملاكم في حلبة يثب ويرقص بقوائم سريعة متلهفة. أهنىء نفسي على شكله المثير للاعجاب، فإلي يعود الفضل فيه، لكنني في الوقت عينه أشعر ببعض الشماتة عندما أرى جلده المتعصّد عرقاً. ترى هل أفرط مدرّبه الثاني في تدريبه فأرهقه؟ أم تراني أخنق صوت العقل بالتمني؟

لمس إريك غوش كتفي وقال: "لم أستطع أن أتمالك نفسي، فالمهرة تبدو جذابة جداً، ولقد راهنت على فوزها باسمي وباسمك. لن اضطر الى رهن بيتي العتيق إن هي خسرت، لكننا سنحقق ربحاً - وإن ضئيلا - إن هي فازت. ترى هل لها حظ في الفوز؟"

أجبته: "قوائمها ضعيفة كقصب الشوفان، لكنها بالتأكيد سوف تحاول."

عبرت وإريك المدرّج المسقوف الى احدى الزرائب. كل شيء أصبح جاهزاً: الحكم الذي يعطي اشارة الانطلاق جاهز، الجمهور جاهز، اريك جاهز، وأنا جاهزة. خيّم على المدرج صمت جليل. وأخيراً دقت الساعة وهب الجميع وقوفاً وأعناقهم مشرئبة.

"اهدأي،" قال لي إريك، وأضاف: "إنك ترتجفين."

كنت فعلا أرتجف. استدرت صوب إريك وقد ارتسمت على وجهي ابتسامة بلهاء. وعندما أدرت وجهي ثانية كانت الاحصنة انطلقت.

شعلة البسالة

راك في المقدم كما توقعت وكما توقع الجمهور. توقفت عن الارتجاف وحتى عن التنفس. تملكني هدوء تام وسكن روعي. الجياد في الحلبة وصوت حوافرها كقصف الرعد.

راك في المركز الاول ووراءه فحل أسود يعدو بقوة. وفي المركز الثالث الى جانب الحلبة قرب السياج مهرة بنية تحاول أن تتشبث بمركز تبدو فيه مقلقلة غير مستقرة. إنها فرس لا تتميز بالسرعة بل بأسلوب خاص. إنها وايز تشايلد.

"انها تتقدم جيداً،" صرخ إريك وهو يقفز صعوداً وهبوطاً كأنه فاز في السباق. أما أنا فاكتفيت بالابتسام.

(١) الجوكي هو فارس السباق.

يعلو صوت: "هيا يا راك!"

إنه تشجيع للعدو. أعبّر عن ازدرائي بشخرة. الجوكي الذي اخترته أنا ليس أحمق. ألا ترون كيف تنزلق وايز تشايلد الى المقدم؟ أين هو راك الآن؟ تكاد تدركه، أليس كذلك؟

اندفعت المهرة كالبرق متجاوزة المهر كما تعصف الريح بالحجر وكما يطارد الفهد الكلب. مسكين راك. سوف ينفطر فؤاده.

لا. فؤاد راك لا ينفطر. أراه يرفع رأسه قليلا وأعرف أنه يبذل قصاراه ويعطي المزيد. انه فحل، وكبرياء الذكر تشعل في صدره شجاعة تطغى على الالم الذي يعصر عضلاته المحمومة. لقد نسي ذاته ونسي الجوكي على ظهره. أمامه هدف واحد. اراه يخفض رأسه وينطلق وراء المهرة مرعداً.

لم تبلغ بي قساوة القلب بعد درجة تحجب عن عيني بسالة راك الرائعة. هيا! اركض يا راك. راك الذي عرفته عنيداً جامحاً متخلف الآن ستة أطوال عن وايز تشايلد.

ولكن كم سيدوم ذلك والى متى؟ ما زالت وايز تشايلد في محاذاة السياج، سريعة كالظل، هادئة، متزنة، عاقدة العزم. نظري مشدود اليها ومنظاري مصوب عليها. ألوف العيون معلّقة بها تراها الآن تميل وتترنح.

إنها تترنح. تأوهات الجمهوَر تحجب أنيني وتغرقه. تبتعد وايز تشايلد عن السياج، تترجح متداعية. قوائمها تنهار، سرعتها تنهار، سباقها ينهار.

الجوكي على ظهر راك يراها. راك أيضاً يراها. يستجمع قواه ويروح يقتلع الاطوال التي تفصله عنها واحداً واحداً.

"هيا يا راك!" الصرخة الصادرة من جميع الجهات تكاد تكون همجية.

اصرخوا، اهتفوا له، استحثوه. الا ترون قوائمها تنهار؟ الا ترون أنها تركض الآن بقلبها فقط؟ فليفز راك بالسباق، دعوه يفوز.

"إريك..."

لكن إريك اختفى. فهو قفز فوق الزريبة وراح يعدو في اتجاه السياج. جمدت في مكاني عاجزة عن أي حركة. لم يعد يفصلها عن راك والمهر الثاني سوى طول واحد. راك الآن بجانبها يكاد يلامس خاصرتها. إنه يدركها، يتجاوزها، يخزيها، وهي تنهار.

أرى المشهد بوضوح كلي وتلتقط عيناي أدق تفاصيله كما تلتقط الكاميرا الصور بأمانة وصدق.

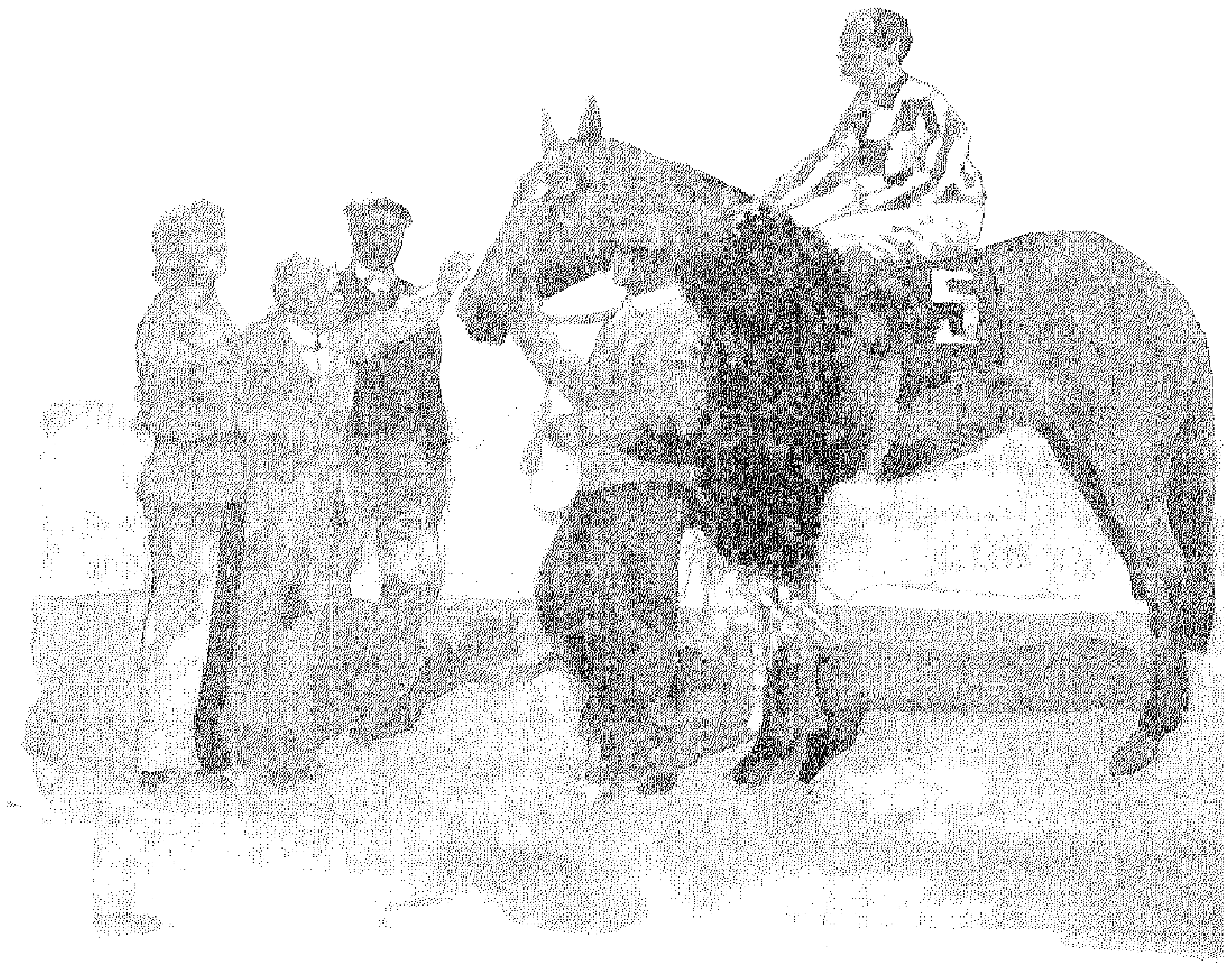
أرى وايز تشايلد تتعثر ثانية ثم تنهض. أراها تتحول من مجرد ظل الى شعلة مضيئة من البسالة، صغيرة، سريعة. أبتلع الشك الذي غزا فؤادي. ها هي في نهاية الشوط تكتسح المسافة الاخيرة على قوائم منتفخة متورمة والغبار يتطاير من حوافرها ويعفر وجه راك وفمه.

صراخ الجمهور يرتفع. اسمع هتافاته المشجعة المستحثة ووايز تشايلد على قابي قوس من خط الفوز. تصمّ أذني هتافات الاعجاب والإكبار ثم يهبط صمت مفاجىء كأن أحداً أغلق أبواب بابل.

تمّ وزن الفرسان وانتهى كل شيء وتوقفت الفرقة الموسيقية عن العزف وتلاشت أنغامها وحلّ السكون. راح الجميع يتدافعون في اتجاه الابواب مخلفين فضلات إنتثرت على الارض وفي الهواء مع الريح وفي كل مكان. أخذ إريك ذراعي وسرنا نحو بوابة الخروج نشق طريقنا بالمناكب.

"لقد حطمت رقم ليفر القياسي – وبهذه القوائم!" قال إريك وهو يحكّ ذقنه ويحاول بكل ما أوتي الذكور من عزم ألا يبدو عاطفياً، ولكن عبثاً. أخيراً نجح في إضفاء بعض الفظاظة والخشونة على صوته حين قال: "ربما بدا كلامي سخيفاً، لكنني أعرف أنك ستوافقينني الرأي، وهو أنه من حق وايز تشايلد ألا تشترك في أي سباق بعد اليوم مهما تكن المبالغ التي يمكن أن نجنيها بواسطتها."

ومنذ ذلك اليوم لم تشترك وايز تشايلد في أي سباق.



البحث عن الفيلة

كنت دائماً أعتقد أن التغيرات المهمة والمثيرة في حياة الانسان تحدث عادة عند مفترقات الطرق في عالم نسجته في خيالي. عالم يتحرك فيه الناس على أنغام موسيقى متسارعة لم يدر في خلدي قط أنه سيأتي يوم أسمعها حقيقة. في اي حال، لم يكن توقي الى ذلك العالم كبيراً ليقيني أنه موجود في عالم الكتب فقط ولا سبيل الى ادراكه إلا في خيالنا، تماماً مثل ذكريات الطفولة التي أحملها في مخيلتي لبغداد بلد شهرزاد.

ومولو كانت الوجه الآخر في هذا الحلم: حقيقية، هادئة، مملة.

التقيت طوم بلاك في احدى طرق مولو الترابية. كان واقفاً بالقرب من سيارة معطّلة يحاول بيدين اكتستا بالسخام أن ينفخ في محرّكها الصامت هدير الحياة. توقفت عنده عارضة عليه مساعدتي فتحدثنا. أخبرني أنه يملك مزرعة صغيرة، وان هي درّت عليه ربحاً وفيراً فسوف يشتري طائرة.

كنت سمعت بالطائرات، وكان ابي بين الحين والآخر يأتي على ذكرها وهو يهز رأسه عجيباً. لكنها، هي أيضاً، كانت بالنسبة الي من عالم آخر، عالم بغداد.

بين لقائنا الأول على الطريق في مولو ولقائنا الثاني فاصل كبير من الايام والاشخاص. قال لي طوم عندما التقينا ثانية: "بالطبع سوف تقودين طائرة، لا شك عندي في ذلك. أنه مكتوب في النجوم."

علمني طوم قيادة الطائرات مستخدماً طائرة "دو هافيلند جيبسي موث" (٢). بدأنا كل صباح نستخدم ما حلا لنا أن نسميه مطار نيروبي. فكنا نقلع منه ونحلق فوق التلال والبلدة ثم نعود. ورأيت بأم العين كيف يكون الانسان سيداً للآلة الطائرة وكيف تكون هذه سيدة القوى والعوامل الجوية.

لم يسبق أن علّم طوم احداً قيادة الطائرات. ولم تكن الدروس تقتصر على الامور الميكانيكية بل تعدّتها الى أمور لا يُعبَّر عنها بالكلمات وحدها. فالحدس والبديهة والسليقة ما زالت من الاسرار والاحاجي، وكان طوم يتمتع بتلك الصفات وبسواها.

وما شركة خطوط "ولسون" الجوية - المشروع التجاري الاول من نوعه في افريقيا الشرقية - سوى وليدة خيال طوم وبعد نظره وبصيرته. وهو كان، عندما أخذ على عاتقه تعليمي التحليق، المدير المسؤول والطيار الأول والروح الملهمة في تلك الشركة الصغيرة المفعمة بالأمل والواعدة بمستقبل زاهر.

كانت وظيفة طوم في الشركة ريادة الطرق الجديدة من أجل استكشاف الاجزاء الداخلية الواقعة في عمق افريقيا وايجاد مواطىء قدم لتقدم إضافي في المستقبل. وكان غالباً يقلع من نيروبي ويحلق فوق أرض لم تعرف العجلات، ناهيك بالاجنحة، يحدوه أمل بايجاد مكان صالح للهبوط في نهاية الرحلة.

ولم يكن ذلك يتم دائماً في وضح النهار، إذ كان عليه أحياناً أن يقود طائرته في

(٢) De Havilland Gipsy Moth

الليل من دون منارة ترشده أو اتصال لاسلكي يرجع اليه، وبصرف النظر عن تقلبات الطقس وعن أي شيء يمكن أن يحمله الليل. ولم يكن يجد في طريقه معظم الاحيان شيئاً يستعين به، لا أنوار قرية ولا طرقاً عامة ولا أسيجة ولا مزارع. وكان، عندما يفاجئه الضباب أو العواصف، يقود طائرته في الظلام ساعات طويلة من دون معدات خاصة، ومع ذلك لم يضل طريقه مرة. كان يتمتع بتلك الصفة التي تسميها الكتب "الارتكاس الحسي"(٣).

بعد نحو ١٨ شهراً من شروعي في تلقي دروس الطيران حزت إجازة رسمية من الفئة "ب"، وهي في الانظمة البريطانية الشهادة العليا تمنح في هذا المجال. وكان في رصيدي آنذاك الف ساعة طيراناً، وكنت تخليت تماماً عن تدريب الخيول.

السحر الذي لازمني في رحلاتي الاولى سرعان ما اختفى وابتلعته مئات من ساعات التحليق جلست فيها أمام جهاز القيادة في طائرة من نوع "أفيان" أنقل البريد لشركة الخطوط الجوية لشرق افريقيا. كان علي أن أكسب قوتي، فعملت في الشركة على امتداد أشهر حتى مات في ذلك الاندفاع المتفائل. بعد ذلك بدأت أنقل الركاب في كل الاتجاهات. ولأن عددهم كان في تصاعد فقد استأجرت طائرة أكبر من نوع "ليبرد موث" واضفتها الى أسطولي المكون من طائرة واحدة.

كنت أقلع براكبين، وأمّنت لي الطائرتان دخلا شهرياً بلغ نحو ٦٠ جنيهاً استرلينياً.

كنت سعيدة بهذا المبلغ، لكن ايراداً يبلغ خمسة أضعافه لا بد من أن يكون افضل منه. وهذا هو المبلغ الذي كنت سأجنيه إن أنا عملت في البحث عن الفيلة. لم يهمني أن أحداً سواي لم يرضَ بهذا العمل وأن طوم أرسل الي رسالة تحذير من بريطانيا. لكنني أثبتُ أنه عمل معقول وممكن.

أعرض في فكري جميع المخاطر المترقبة في البحث عن الفيلة بواسطة الطائرات. ولكن في اليوم الذي وصلتني رسالة طوم بالبريد تلقيت برقية جاء فيها:

"بيريل،

"كوني في مكيندو غدا السابعة صباحاً. خبر من ماكولا عن قطيع فيلة يضم ذكراً ضخماً. بابو في مكيندو يسلّمك تعليماتي الخطية.

بلكس."

بلكس، بليكي، بارون فون بلكسن، جميعها أسماء يعرف بها ذلك الاسوجي (السويدي) اللطيف الذي يبلغ طوله ١٨٣ سنتيمتراً. ومعلوماتي أنه أصلب الصيادين البيض وأكثرهم صموداً وتحملاً. فهو الوحيد الذي يضحك في سره من التبويق في رحلات القنص والذي يسدد بندقيته الى جاموس هائج ويصيبه بين عينيه وهو يجادل في أي نوع من الشراب سيتناول عند غروب الشمس.

كانت فرحتي برؤية البرقية مذيّلة باسمه أكبر من أن اتجاهلها.

---

(٣) Sensory reaction

من السخف أن يقتل الانسان الفيلة. فالى أن حجمها وجمال تكوينها يجعلانها أكثر ملاءمة منّا نحن البشر ذوي الشكل المزوّى لوطء هذه الأرض، فإن متوسط ذكائها تمكن مقارنته بذكائنا.

كما أنه من الخطأ اعتبار الفيل حيواناً مسالماً تماماً. والاعتقاد الشائع أن الفيل الشارد عن قطيعه فقط يشكّل خطراً على الانسان هو اعتقاد خاطىء أيضاً، وخاطىء الى حد أن كثيراً من الرجال الذين آمنوا به قضوا محرومين حتى من حق الاموات في الانحلال التدريجي. فذكر الفيل، وقد أثارته رائحة البشر، يهجم للحال معظم الأحيان. وسرعته، كما خفّة حركته، مدهشتان لا تصدَّقان. سلاحه خرطومة وقوائمه، على الأقل في المهمات الكريهة التي يفتك فيها بالبشر الضعفاء. أما ناباه، ذانك السيفان العاجيان المتألقان، فإنه يدخرهما لاعدائه المتألقين.

لا يسعني القول إن بلكس وأنا مصنفان ضمن هذه الفئة المتألقة، خصوصاً بعد مطاردتنا الذكر الضخم، او بالاحرى بعد مطاردته إيانا. وما زلت الى اليوم أشعر بمسرّة صادقة لاننا خرجنا سالمين، لكن ذكرى ذلك النهار ما زالت تراود أحلامي.

كانت رحلة قنص متواضعة ضمّت ثلاث خيم: واحدة للزبون الامريكي الثري ونستون غست والثانية لبلكس والثالثة لي. وكان هناك ايضا عدد من الخيم - الملاجىء لحملة البنادق من الرجال المحليين ولمقتفي الآثار. أما شجرة الباوباب الاستوائية في المخيم فأفاد منها الجميع كشرفة.

بعد هبوطنا بأقل من نصف ساعة كنت وبلكس في طائرة "أفيان" نستكشف موائل قطعان الفيلة قبل وصول ونستون ذلك المساء. واذا وجدنا قطيعاً، وإن على مسافة يومين أو ثلاثة أيام سيراً، لكان ذلك حظاً خارقاً.

ليس أمراً غير عادي بالنسبة الى صيادي الفيلة أن يمضوا أشهراً في تقفي ذكر فيل واحد. والاستكشاف بالطائرة يغني عن الكثير من الاعمال التحضيرية. وحتى إن وقعنا على قطيع من الفيلة على بعد ٥٠ أو ٦٥ كيلومتراً من المخيم، فإن ذلك يعني أنه لا زال يتعيّن على الصياد أن يقطع تلك الكيلومترات سيراً أو زحفاً أو حتى تلوياً في طقس خانق وعبر أدغال كثيفة تكتنفها أشجار الزعرور الشائكة وتعجّ بالبعوض والعقارب والافاعي وذباب التسي تسي الذي يحمل مرض النوم. وهذه المشقات الهائلة هي جوهر رياضة صيد الفيلة، ووحدهم الأغنياء قادرون على تحمل تكاليفها.

كان الحظ الى جانبنا، فعلى بعد خمسة كيلومترات من شجرة الباوباب التي كانت مشاعاً شاهدنا اربعة فيلة بينها ثلاثة ذكور رائعة. لم يكن ذلك عدلاً، إذ كان في وسعنا أن نحط بالطائرة في المخيم ثم نتقدم من الفيلة سيراً ونتفحصها عن كثب ونتعرف الى نواياها.

كان معنا ماكولا، مقتفي الأثر الاسطوري في مكمبا. يأتي الناس في رحلات صيد ويذهبون، لكن ماكولا ماضٍ في عمله الى آخر الايام. وأظن أنه من أعقل الناس الذين عرفتهم. وما زلت أذكر ملاحظة أبداها لأحد مقتفي الأثر الجدد حين أظهر

حماسة مفرطة. قال له: "الرجل الابيض يدفع مالا ثمناً للأخطار. نحن الفقراء لا يسعنا ذلك. أعثر على الفيل ثم ابتعد لكي تظل على قيد الحياة وتجد سواه."

كان ماكولا يشق طريقه أمام بلكس بحذر وبطء حين أشار اليه فجأة أن يتوقف. وبخفّة وصمت تسلق شجرة ثم نزل منها. أشار الى شق في الاجمة وأخذ ذراع بلكس ودفعه الى الامام قبل أن يختفي. سار بلكس الى حيث أشار وأنا في اثره.

توقف بلكس. قال لي شيئاً بالاشارة وفهمت منه. راقبي الريح، هو قال، دوري حولهما. أريد أن أرى أنيابهما.

دوري، حقاً! فإكمال مجرد نصف دائرة قطرها ٥٠ متراً استغرقنا أكثر من ساعة! كان الفيلان ذكرين كبيرين ولديهما ما يكفي من العاج: ٤٥ كيلوغراماً أو أكثر.

كان بلكس مسروراً يتصبب عرقاً حين رفع أحد الفيلين رأسه فجأة وشمخ بخرطومه وتحرك ليواجهنا باسطاً أذنيه العملاقتين كأنه يلتقط بهما حتى صوت خفقات قلبينا. وهو كان مرّ صدفة ببقعة غادرناها لتوّنا فالتقط أنفه رائحتنا، ولم يكن يحتاج الى أكثر من ذلك.

نادراً ما رأيت شيئاً يضاهي ذلك الفيل الذكر هدوءاً أو تصميماً على التدمير. ويصح القول فيه إنه ذهب الى القتل وهو يرقص. ولأنه شبه أعمى كجميع الفيلة، لم يرنا، ولكن كان في امكانه أن يهتدي الينا بواسطة الصوت والرائحة، وذلك لن يستغرقه أكثر من ٣٠ ثانية.

أومأ بلكس الي وهو يلوي أصابعه في اتجاه الأرض، وهذا معناه "ارتمي على الارض وازحفي."

من المدهش كم يرى المرء من حشرات عندما يكون على بعد بضعة سنتميترات من الأرض. ولم أكن زحفت أكثر من متر واحد حين امتلأت ثيابي بممثلين لأكثر من ٥٠ نوعاً من الحشرات.

كادت عيناي تلامسان قدمي بلكس الذي كان يجر ساقيه بين الشجيرات النامية تحت الاشجار الكبيرة وكأنما بحبال. لا أعرف كم مضى علينا من الوقت ونحن نزحف هكذا. وما كدنا نقطع حوالى ١٠٠ متر على هذا النحو حتى تحولت لسعات الحشرات في جسدي بقعاً متسعة حارقة.

كنا نتنفس بسهولة. أو على الأقل كنت أنا أتنفس بسهولة عندما جمدت ساقا بلكس وقدماه فجأة. رأسه فقط كان يتحرك وهو اشرأب بعنقه وراح يحدّق الى أعلى. كان الفيل الضخم على بعد ثلاثة أمتار منا، وهي مسافة لا تكون الفيلة ضمنها عمياء.

إنتصب بلكس ببطء ورفع بندقيته وعلى وجهه تعبير حزين يفوق الوصف.

إنه يفعل ذلك من أجلي، قلت في نفسي، وهو يعلم علم اليقين أن الفيل سيسحقنا كثمرتي مانغو وإن أصابه في الدماغ. فرصاصة واحدة لا تكفي لايقاف فيل بذلك الحجم.

لو كان المكان خالياً من الاشجار لتمكنا من المراوغة إجتنابا للمحتوم. لكنه لم يكن كذلك. وكنا كالعالق في شرك يراقب جلمود صخر يترجح على حافة جرف شاهق قبل أن يهوي عليه ويسحقه وعملا بتعليمات بلكس، وقفت وراءه ويداي على خصره على رغم شعوري بأن ذلك لن يجدي.

خطر لي أن تلك كانت اللحظة المناسبة لاطلاق النار.

لم يأت بلكس أي حركة. سدّد بندقيته بثبات وبدأ ينشد أغنية من أدهش ما سمعت في حياتي من عبارات التجديف. ومع أنها كانت أغنية مبتكرة نابضة بالحياة والالوان، وقد أداها برقّة واناقة، فاني شعرت بأنه أساء اختيار الوقت لاختبارها.

تقدّم الفيل نحونا وأطلق بلكس سيلا جديداً من الشتائم، انما باللغة الاسوجية هذه المرة. كنت أرتجف، لكنه لم يطلق النار.

"ربما اضطررت الى اطلاق النار،" أعلن بلكس. واستوقفني اعلانه ذاك ووجدت فيه تصريحاً مكبوتاً رائعاً.

لا يتصور الانسان أن للفيل فماً لأنه لا يراه أبداً عندما يكون خرطومه منخفضاً. لذلك يُصدم عندما يقترب منه وهو رافع خرطومه ليُفاجأ باكتشاف ذلك الشق المستطيل الأحمر القاني والاسود. وكنت أراقب فمه بنوع من الفضول الغبي عندما اطلق الفيل تلك الصرخة المدوية التي باعتقادي أنقذت حياة بلكس وحياتي.

كانت صرخة أصيلة رنّانة اعتبرتها بقية الفيلة التي كانت ترعى في الاجمة تحذيراً مشروعاً، فانصرفت بجلبة خِلت معها أن العالم اقتُلع من جذوره. أخذت كل شيء في طريقها من شجر وعشب وتراب، كذلك الوحش الذي جبهنا. توقف برهة ثم أرهف سمعه، وكبوابة سرداب دار على عقبيه ببطء وابتعد مخلفاً إعصاراً من الشجيرات المتداعية والغصون المتساقطة.

عندما خيّم الصمت أخيراً بعد طول انتظار خفض بلكس البندقية. كنت منهكة منفعلة ورحت ألعن الحشرات من كل نوع. وعدنا أدراجنا الى المخيّم من دون أن ينبس أحدنا بكلمة. ولكن عندما ارتميت أخيراً في كرسيّ من قماش القنب تنكّرت لقواعد اللياقة والأدب المفروضة تاريخياً على بنات جنسي وسمحت لنفسي بسؤال وقح فقلت مستفهمة: "أعتقد أنك أفضل صياد في افريقيا يا بليكي، ولكن هناك أوقات تكون فيها روح الدعابة لديك رهيبة. لماذا لم تطلق النار؟"

رفع بلكس نظره وأجابني وهو يحدّق الى أوراق شجرة الباوباو: "لا تكوني سخيفة، إنك تعلمين مثلي تماماً لماذا لم أطلق النار. تلك الفيَلة هي لصاحبنا ونستون."

وداعاً يا افريقيا

فاز طوم ومساعده في السباق الجوي الدولي الذي يقام بين ملدنهول في بريطانيا وملبورن في اوستراليا قاطعين ما يقارب نصف المسافة حول العالم.

يجب أن اذهب الى بريطانيا بالطائرة. لماذا؟ لانني فضولية ولانني أصبحت جوّالة لا سبيل الى اصلاحي.

سألته: "أتريد أن تطير الى لندن يا بلكس؟" وهو أجابني بنعم من دون أن يرفع نظره عن البندقية التي كان يداعبها بأنامله وكأنها كمان.

لم تكن الرحلة بالطائرة قياسية لا من حيث السرعة ولا من حيث الاحتمال. ومع أننا أخذنا الوقت الكافي ولم نحاول أن نتجنب أياً من نقاط التوقف الضرورية، فانها لم تكن رحلة باهتة أو مملّة. ففي مارس (آذار) ١٩٣٦، كانت الرحلة بالطائرة من نيروبي الى لندن ما زالت غير مألوفة وبعيدة عن الابتذال. وعلى رغم وجود مهابط ومطارات في الطريق بين المدينتين، فان الارض الفاصلة بينهما لم تكن لتقلّ عن سطح القمر وعورة وانعزالا. فبعد الصحراء كان أمامنا البحر لنقطعه. وبعدما قطعنا خليج سيدرا هبطنا أولا في طرابلس الغرب ثم في تونس، ثم لاحت أمامنا تلال خضراء وكنا بلغنا نهاية القارة الافريقية. ربما كان علي أن أستدير بالطائرة وأنحدر تحيّة لتلك الأرض التي، وإن كانت ستبقى في مكانها لا تحول ولا تزول، إلا أنها لن تكون عند عودتي افريقيا نفسها التي عرفت. ومن يعود الى افريقيا بعد طول غياب لا بدّ من أن يجد أنها تغيّرت.

أمضينا تلك الليلة في باريس. وبعد ظهر اليوم التالي جلسنا أنا وطوم بلاك وبلكس في فندق "ماي فير" في لندن وسط جميع كماليات الحضارة ومتطلباتها.

عاجزة فوق البحر

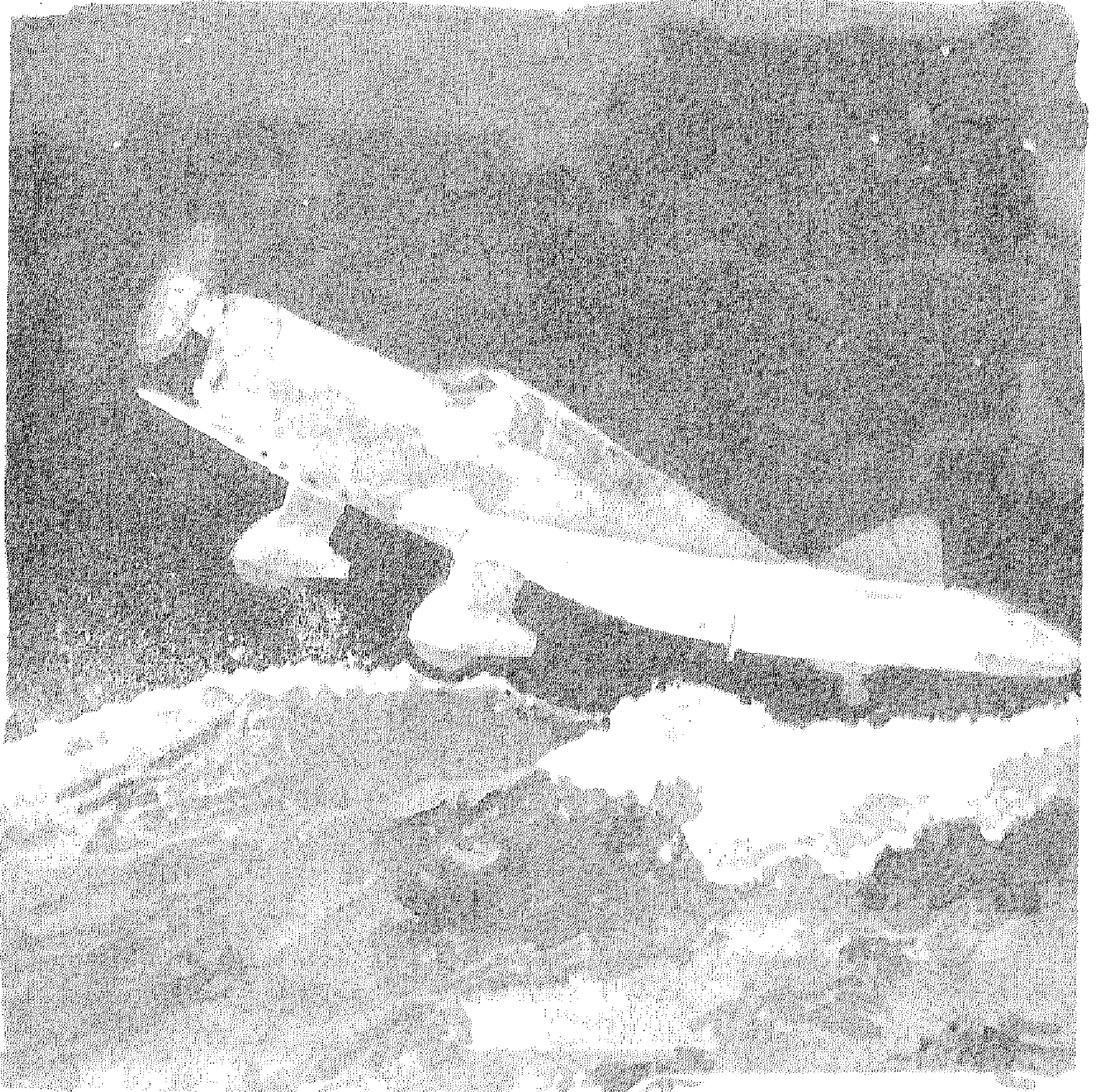
ها أنا أغادر لندن بمفردي هذه المرة. انني أقود طائرة الـ"فيغا غل" أشق بها الظلام في رحلة فوق الاطلسي آملة أن تحطّم الرقم القياسي.

ها أنا الآن فوق جنوب ايرلندا وقد مضى على إقلاعي من بريطانيا أكثر من ساعة. ويلز الآن ورائي، كذلك بحر ايرلندا وكأنهما وقت استنفدته.

في الرحلات الطويلة ينصهر الزمن بالمسافة ويصبح الاثنان واحداً. ولكن كان هناك لحظة خلت فيها أن الزمن توقف، لحظة حاولت أن أرتفع بالطائرة الفضية والزرقاء عن أرض المطار تحت عيون آلات التصوير المصوّبة الينا، لكن الطائرة تمرّدت على حملها الثقيل وحرنت وتشبثت بالأرض. كانت لحظة تجمّد فيها الزمن قبل أن يتناهى الى سمعي أخيراً دليل استجابة عصا القيادة.

أخيراً أقلعت بها. وعندما أصبحنا في الجو همست لي: "ها انني ارتفعت بالحمل. والآن ما هي وجهتنا؟" سؤال وجيه أرهبني. "وجهتنا مكان يبعد ٥٨٠٠ كيلومتر من هنا بينها ٣٢٠٠ كيلومتر من الطيران المتواصل فوق المحيط. سفرنا معظم الوقت في الليل، إننا نتجه غرباً مع الليل."

كورك ورائي، وأمامي منارة برهافن. إنها المنارة الاخيرة على اليابسة. أجتازها الآن وليس أمامي سوى البحر.



ينهمر المطر. الظلام دامس خارج مقصورة القيادة. مقياس الارتفاع في الطائرة يشير الى أنها على ارتفاع ٦٠٠ متر، و"الافق الاصطناعي"، وهو اداة لمعرفة زاوية الشمس أو النجوم حين تتعذر رؤية الافق الحقيقي، يشير الى أن الطائرة في وضع أفقي مستوٍ. في تقديري أن الطائرة منحرفة ثلاث درجات أكثر مما يوحيه جدول الطقس، أعدّل مسارها وفق المطلوب.

تجربة مدهشة أن تجد نفسك وحيداً في شبه ظلام وفي موقع لا سبيل الى تغييره وليس لك عنه رجوع، وإن لفترة وجيزة كنهار وليلة، ولا شيء يكسر وحدتك، لا شيء تتأمله سوى أدواتك ويديك، لا شيء تقلّبه في فكرك وفي تأملاتك سوى مقدار ما تملك من شجاعة متواضعة، لا شيء يثير في نفسك العجب والتساؤلات سوى الوجوه

والمعتقدات والآمال المتجذّرة في وجدانك وفي ضميرك. انها تجربة تشبه الوهلة التي تصيبك عندما تكتشف فجأة أن غريباً يسير الى جانبك في الليل. هذا الغريب هو أنت.

انها العاشرة مساء. أحلّق في الدائرة الكبرى ووجهتي مرفأ غريس في نيو فاوندلاند. تواجهني ريح معاكسة وسرعتي ٢١٠ كيلومترات في الساعة. لا أدري كم ساعة من الطيران تلزمني بعد، بسبب الطقس. أعتقد انه ما زال أمامي بين ١٦ و١٨ ساعة.

إنها العاشرة والنصف مساء. ما زلت أحلّق بالوقود المعبأ في الخزّان الكبير على أمل أن استنفده وأضع حداً لذلك السائل المدوّم الذي جعل الطائرة تترجج وتهتز منذ أقلعت بها. أجهل سعة الخزان ولكن على جانبه كتابة تؤكد أنه يخدم أربع ساعات.

إنها كفالة واضحة لا لبس فيها، وأصدّقها. ولكن ما ان بلغت الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين مساء حتى "سعل" المحرك ثم توقف. ومع توقفه أصبحت الطائرة عاجزة تماماً.

أتصور أن المقصود بعبارة "احتفظ بهدوئك" هو أن ينكر المرء الدافع الطبيعي ويرفضه. إلا أن لهذا الدافع مبرراً. والدافع الطبيعي عند الانسان الذي يجد نفسه جالساً في الليل في طائرة تحلق على ارتفاع ٦٠٠ متر فوق البحر ومحرّكها متوقف يأبى أن يدور، هو أن يشد عصا القيادة الى الخلف مضيفاً بضعة أمتار الى تلك السنتمئة التي تفصله عن الكارثة. فالفكر والمعرفة وجميع القواعد والقوانين التي تقول له إن خلاصه ليس بهذا العمل بل بعكسه، أي بتحويل الطائرة نحو الماء، تبدو له تخلياً رهيباً عن العقل السليم. قلبه يرفضها وعقله يرفضها. يدا ذلك الغريب فقط تمتثلان لها، وتعملان بحذافيرها، انما من دون حس أو شعور.

انني هناك في الطائرة. أراقب. أرى يدين تتحركان، تدفعان عصا القيادة الى الامام. أشعر باستجابة الطائرة التي بدأت انحدارها نحو المحيط. بالطبع إن الامر بسيط، فالوقود نفد من الخزان بسرعة غير متوقعة وما علي إلا أن أدير صنبوراً صغيراً آخر.

المقصورة غارقة في الظلام. وعلى رغم أنه من السهل رؤية القرص المضيء في مقياس الارتفاع الذي أشار الى أن الطائرة على ارتفاع ٣٣٥ متراً، إلا انه ليس سهلا رؤية صنبور صغير مثبت في مكان ما قرب أرض الطائرة. أرى يداً تتلمس طريقها في الظلام وتعود حاملة مشعلا كهربائياً، وأرى أيضاً أنامل تتحرك بهدوء ورباطة جأش فتجد الصنبور وتديره. اني أنتظر.

الطائرة على ارتفاع ٩٠ متراً والمحرّك ما زال هامداً. اني أعي تماماً أن ابرة مقياس الارتفاع تتحرك دائرياً كشعاع في دولاب مغزل ملتهمة المسافة المتبقية بين الطائرة والمياه.

يستحيل علي أن أطرد من رأسي فكرة أن تلك هي نهاية رحلتي الجوية. غير أن ردود فعلي غير تقليدية وغير مألوفة. فأحداث حياتي لا تمر أمام عيني كشريط سينمائي مجنون. أشعر فقط بأن كل ذلك حدث من قبل. وهو فعلا حدث مئة مرة، في مخيلتي وفي نومي، ولهذا السبب لا أشعر بالخوف ولا يتملكني الرعب.

لا أعرف مدى المسافة التي كانت تفصلني عن الماء عندما عادت الحياة تدب في المحرّك. استرخت يدي على عصا القيادة وعادت إبرة الارتفاع تدور كالمغزل مبعدة المسافة التي فصلتني عن البحر.

يجب أن أحمد الله. أتوجه اليه بالشكر وإن على نحو غير مباشر. اني أشكر جيفري دو هافيلاند الذي صمم محرك الطائرة الذيّ لا يقهر. أشكر جيفري الذي هو أولا من ابداع الله.

مستنقع من دون إسم

فيما أنا أراقب انبلاج الفجر رأيت السفينة، ولاحت أمامي صخور نيوفاوندلاند يلّفها شريط من الضباب، بكل ما تحمله للطيار من معان لن تتغير. غمرني شعور بالابتهاج ممزوج بالذنب لأنني تحدّيت سلطة الطقس الصارمة وجبروت البحر وتغلبت عليهما بالمراوغة والحيلة.

شعرت بالبرد وبتعب شديد وبدأ الجليد يغشي زجاج المقصورة والضباب يداعب الأرض في ألعاب سحرية. الأرض كانت هناك. صحيح انني لا أراها الآن، إلا أنني قد رأيتها. لم يسعني أن أصدّق أن الأرض التي رأيتها كانت مجرد أرض وليست أرضي أنا التي قصدت.

جنوباً الى كيب ريس وغرباً الى سيدني في كيب بريتون. استعنت بالمنقلة والخريطة والبوصلة لأحدد مساري الجديد. لن يطول الوقت قبل أن تظهر نيوبرنزويك ثم مين وبعدهما نيويورك. يمكنني أن أتوق وأتوقع.

النجاح يولد الثقة. كنت أحلّق في اتجاه الريح وما زال خزان الوقود الاخير مليئاً الى ثلاثة أرباعه والدنيا براقة مشرقة. لو كنت أكثر حكمة ووعياً لأدركت أن تلك اللحظات لا تدوم طويلا. بدأ المحرّك يرتعد ثم توقف ثم بقبق ثم عاد فدار لكن بصعوبة وبطء. "سعل" ثم نفث دخاناً أسود في اتجاه البحر.

لكل شيء إسم، واسم ما حدث "انحباس هواء." ظننت أن في امكاني أن أعالجه وأتخلص منه بإدارة الخزانات الفارغة جميعها على نحو متقطع. وهذا ما فعلته. كانت مماسك الصنابير أشبه بدبابيس معدنية حادة صغيرة أدمت يديّ. وبعدما فتحتها وأغلقتها عشرات المرات رأيت يدي داميتين وقطرات من الدم تسقط على الخرائط وعلى ثيابي. ومع ذلك لم يأت الجهد ثمراً. واصلت التحليق في محاذاة الساحل بمحرّك مترنح أعرج عليل.

بدأت الطائرة تنحدر ببطء، وتسرّب الى قلبي شعور بالاخفاق. لو انني نجحت

فقط في الهبوط على اليابسة لكنت أول انسان يقطع المحيط الاطلسي بالطائرة آتياً من بريطانيا . والهبوط الاضطراري في نظري اخفاق لان هدفي كان نيويورك . لو أمكنني أن أهبط في مكان ما ثم أعود فأقلع ثانية لاستطعت بلوغ الهدف. لو أنه فقط...

المحرك يتعثّر، يتوقف، يبقبق، تعود اليه الحياة. وفي كل مرة كنت أحلق بالطائرة الى أقصى ما يمكنني الوصول اليه من علو قبل أن يعود المحرك الى البقبقة والطائرة الى الانزلاق. الرؤية الآن ممتازة وأرى أرضاً أمامي لا يفصلني عنها أكثر من ٨٠ كيلومتراً. إن كانت الطائرة في مسارها الصحيح فإن ما أراه الآن لا بد من ان يكون كيب بريتون.

انني أحلق فوق اليابسة. أتفحص الخريطة لاتحقق موقعي. أجد أنني حتى بسرعتي المشلولة كنت على بعد ١٢ دقيقة طيراناً من سيدني، حيث يمكنني أن أهبط وأصلح الاعطال التي أصابت طائرتي ثم أقلع ثانية وأتابع رحلتي.

يتوقف المحرك من جديد وتبدأ الطائرة الانزلاق. لكنني لست قلقة، سوف يدور ثانية، وسوف أرتفع بها وأصل الى سيدني.

لكن المحرّك ساكن لا يدور. تتابع الطائرة انحدارها نحو اليابسة. إنها أرض ترابية سوداء أجهلها وأجهل اسمها . طائرتي معلقة فوقها وأنا معلقة بالامل وبمروحة ساكنة لا حراك فيها . أميل بالطائرة، أدور بها، أنزلق جانبياً، أحاول أن أتفادى الصخور. تلامس عجلاتي الأرض، أشعر بها تغرز في التراب. مقدم الطائرة مطمور في الوحل. يندفع جسدي الى الامام ويرتطم رأسي بزجاج واجهة المقصورة. أشعر بالدم يسيل على وجهي ويغطيه.

جررت نفسي ونزلت من الطائرة بخطى متعثرة. غمرني التراب والوحل الى الركبتين. وقفت هناك أحدّق بغباء ليس الى الأرض حولي بل الى الساعة حول معصمي.

احدى وعشرون ساعة وخمس وعشرون دقيقة رحلة جوية فوق الاطلسي. من ابنغدون في بريطانيا الى مستنقع من دون اسم – من دون توقف.

صياد من أبناء جزيرة كيب بريتون عثر علي اتخبط في وحل بلاده الذي طوقني من كل صوب. وهو كان يقطع المستنقع بمشقة عندما رأى الطائرة، ذنبها في الهواء ومقدمها مدفون في التراب. اصطحبني الى كوخه على الساحل حيث أجريت اتصالا هاتفياً بمطار سيدني ذاكرة أنني سالمة وبخير لكي أحول دون حملة تفتيش لا لزوم لها .

صباح اليوم التالي نزلت من طائرة حطت في مدرج فلويد بينيت في نيويورك. وكان في استقبالي حشد ظل ينتظر وصولي ليحييني. فأنا من قطع المحيط الاطلسي الشمالي من الشرق الى الغرب . وقفت مبهورة وسط الوجوه المتلهفة ورنين الاجراس والبرقيات، وسط أناس حرصوا على التعبير لي عن اعجابهم وتقديرهم لما

فعلته إذ كدت أصل الى نيويورك، وهل أوقع لهم اسمي بخط يدي إن سمحت؟

وعلمت أن الـ"فيغاغل" لم تخذلني، إذ تبين عند الفحص أنه في مكان ما بعد ساحل نيو فاوندلاند استقرت كمية من الثلج في مسرب الهواء في خزان الوقود الاخير موقفة جزئياً تدفق الوقود الى المكربن. ولطالما تساءلت منذ علمت ذلك كيف استمرت الـ"فيغا" في التحليق كل ذلك الوقت رغم ذلك العائق.

شعرت بامتنان عميق للدفء والكرم اللذين أحطت بهما في أمريكا، ولست أتذمر من أن شهرتي كانت عابرة وسريعة الزوال، فذلك كله حصل فعلا، وإذا ما ساورني الشك احياناً في صحته فما عليّ الا الرجوع الى سجل الطائرة والى الوثائق والاوراق التي أحفظها وأعتز بها من برقيات عن رحلتي الجوية فوق الاطلسي وقصاصات مختارة من الصحف وصورة فوتوغرافية للـ"فيغا" تظهرها ومقدمها غائص في وحل نوفاسكوشا الاسود العضوي. إنها ذكريات مسطّرة بالحبر.

لم أكن احتاج الا الى شخص يقول لي: "تعرفين، يجب أن تكتبي ذكرياتك تلك. إنه حقاً واجب عليك!".

بيريل ماركهام ■

ترجمة د. باسمة سكرية عيد

(سقط سهوا في العدد الماضي اسم د. باسمة سكرية عيد مترجمة كتاب الشهر "الحشاش الكبير").



الصمت خير علاج

راحت راكبة اوتوبيس ثرثارة تمتع رفيقتها بما يشبه قصة ابريق الزيت حول مشاكل اسنانها المتنامية بحيث ازعجت الركاب الآخرين. وتابعت المرأة حديثها: "لقد صرفت ثروة على فمي."

فسألتها رفيقتها: "هل جرّبت طبيب اسنان آخر؟ هل جرّبت مسكّنات الالم؟"

وقبل ان تستطيع المرأة الرد دوّى صوت عال واضح: "هل جربت شريطاً يُثبت على الفم؟"

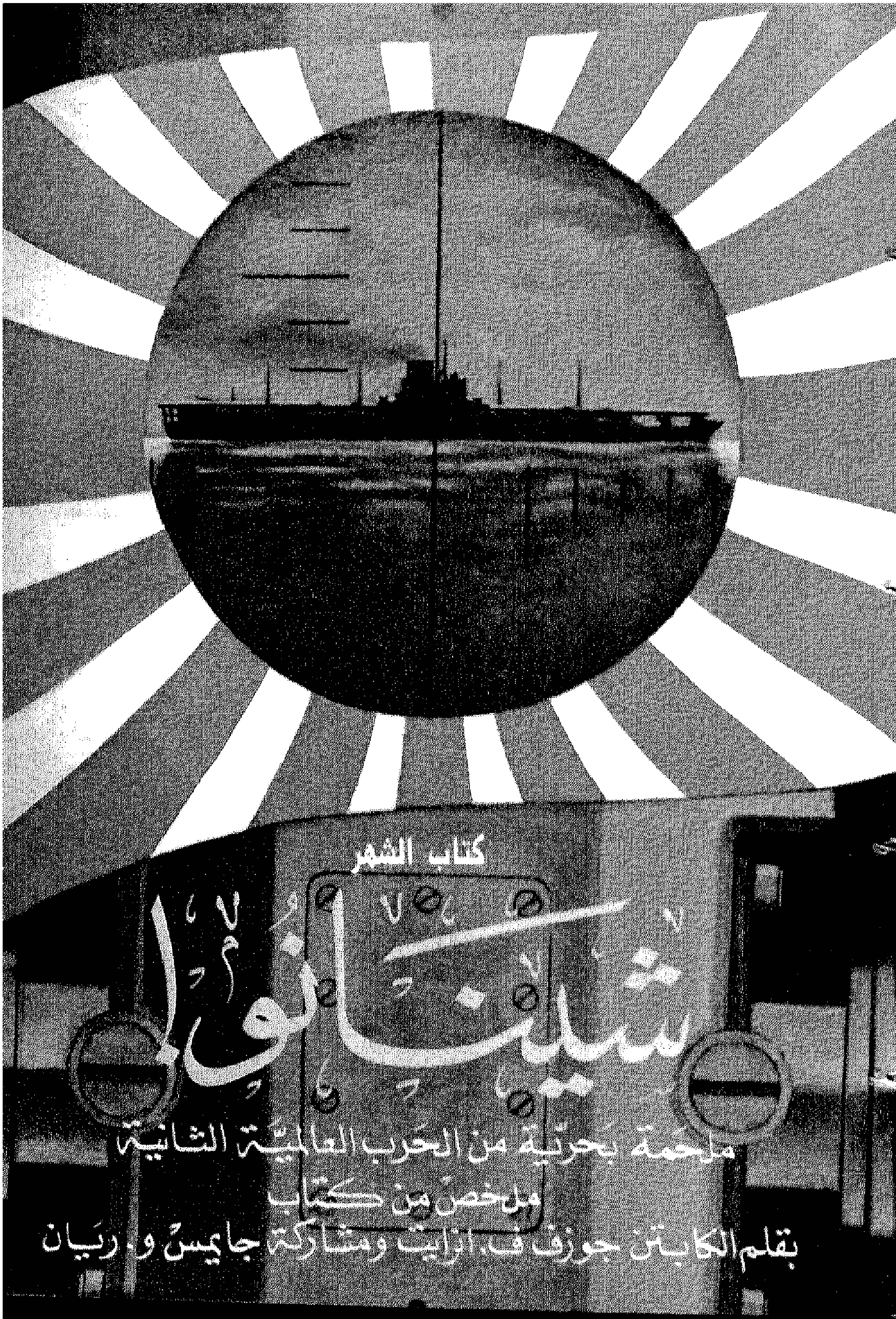
ج.ل.

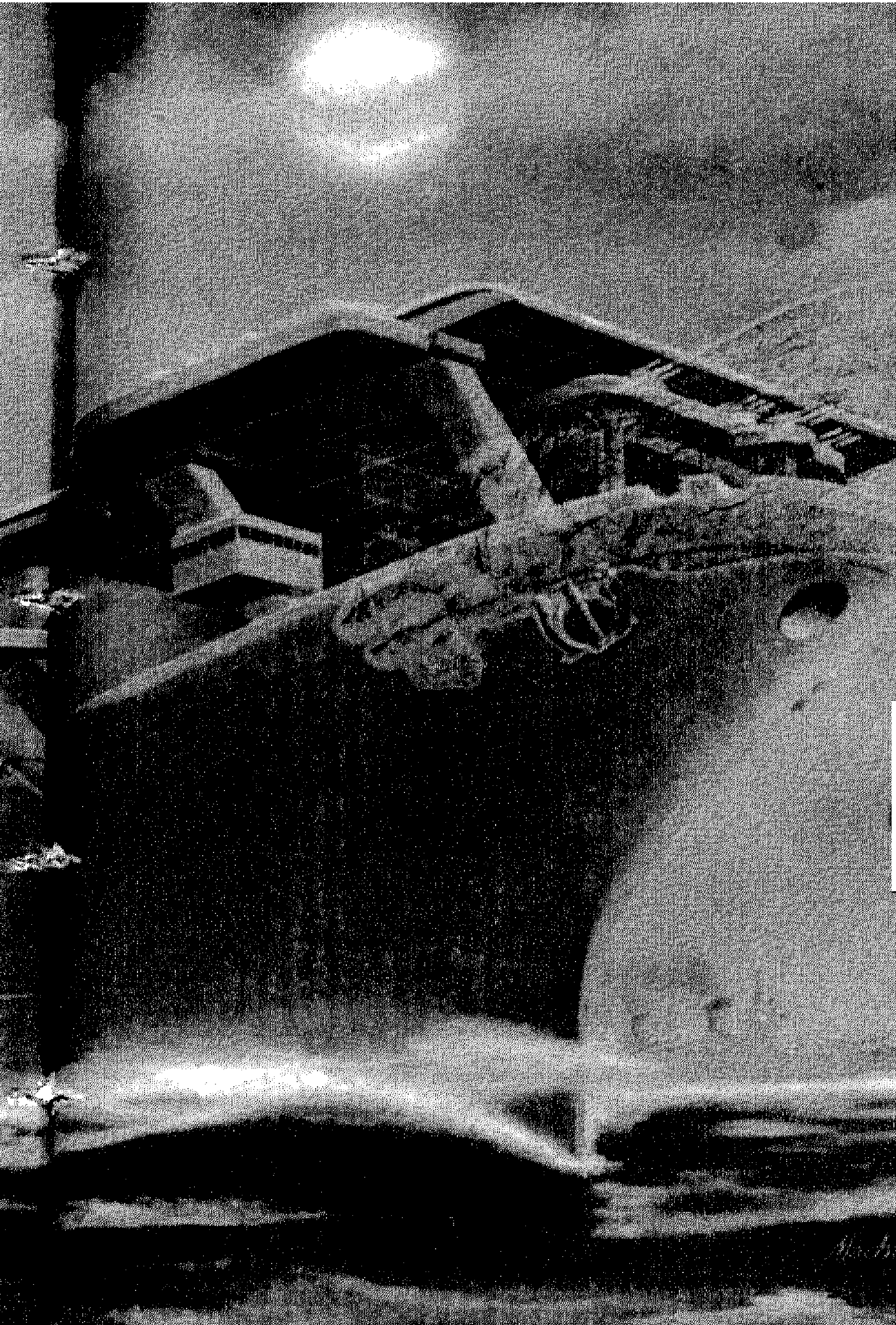
سبق صحافي!

بعدما عمل مروان فراشاً في الصحيفة لمدة طويلة، رُقّي حديثاً الى وظيفه محرر. وخلال يومه الاول "في الشارع" لاحظ عشرات من ضباط الشرطة يتحركون دائرياً في غير نظام امام مبنى قديم، فضغط بعنف فرامل سيارته وقفز منها مسرعاً نحو قائدهم. وبعدما ابرز بطاقته الصحافية سأل القائد بحدة: "ماذا يجري هنا؟"

فاجاب القائد بعد تردد قصير: "نقوم بعملية تبديل روتينية."

ج.س.


كتاب الشهر
شينانو!
ملحمة بحرية من الحرب العالمية الثانية
ملخص من كتاب
بقلم الكابتن جوزف ف. انرايت ومشاركة جايمس و. ريان

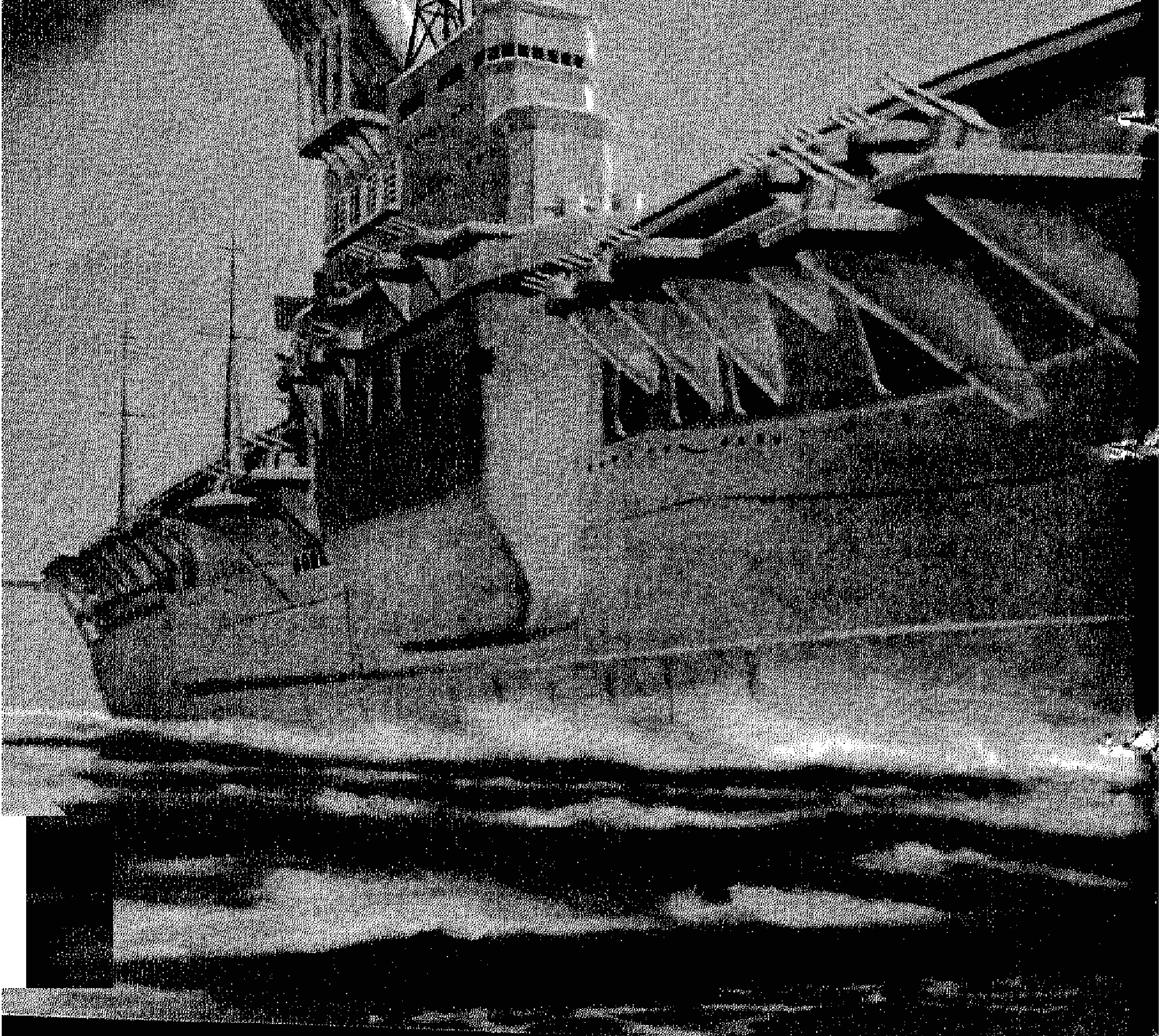


كانت "شينانو" أكبر حاملة طائرات عائمة. سفينة حربية بالغة الضخامة والقوة أمل اليابانيون أن ينتزعوا بها النصر من أشداق الهزيمة ابان الحرب العالمية الثانية.

لكن غواصة أمريكية اسمها "آرشر - فيش" اكتشفتها فيما كانت تجوب مياه العدو في المحيط الهادىء.

وأعقبت ذلك مواجهة ملحمية.

وهنا، على ألسنة امريكية ويابانية شاركت في تلك المعركة، القصة الاخاذة لتلك الملحمة.





شينانو!

وردت التعليمات المرموزة على الغواصة "آرشر ـ فيش" في ٢٧ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٤. وهي تنص على طوافها المياه قبالة خليج طوكيو، جنوب جزيرة هونشو وغربها.

ما استقبلت اذناي من قبل رسائل لاسلكية بمثل هذه الحفاوة. وقد ابلغنا ان القاذفات "ب ـ ٢٩" الأمريكية لن تغير على مدينة طوكيو خلال ٤٨ ساعة. واذ لم يكن من غواصة أمريكية في المنطقة سوى غواصتنا، فقد كنا مخولين ان نسرح وحدنا كيفما شئنا على مساحة مترامية الأطراف من مياه العدو. وقد اختتمت الرسالة اللاسلكية بهذه العبارة: "صيداً سميناً!"

إنه تحول محظوظ في طواف رتيب، إذ كانت مهمتنا الاساسية إنقاذ الغرقى من الطيارين الذين يسقط اليابانيون طائراتهم من طراز "ب ـ ٢٩". وإيقاف الغارات يعني قدرة "آرشر ـ فيش" في اليومين المقبلين على صيد فريستها، وهذه هي المهمة التي صممت من أجلها.

كل من على متن الغواصة عازم على الفوز بتنويه مشرف في المعركة، وأنا في الطليعة. إذ يندر أن تبرز فرص اخرى للغواصات البحرية. وكنت في السنة الماضية اضعت فرصة لا تعوّض لإغراق حاملة طائرات يابانية في هذه البقعة، واني لسعيدُ الحظ، إذ لاحت لي فرصة أخرى.

وكنت محبطاً في الآونة الاخيرة، إذ فقدت زوجتي وإبني ذا السبعة الأعوام. كما توفيت أمي في شهر اغسطس (آب) من ذلك العام في داكوتا الشمالية، إثر نزف دماغي مباغت. وقد دأبت على التفكّر في أدائي الهزيل حين كنت رباناً للغواصة الأمريكية "ديس" العام الماضي. وكان والداي سافرا في القطار لحضور الإحتفال بإنزال "ديس" إلى المياه. ولم أتمالك نفسي عن فكرة ساورتني: إن أمي قضت قبل أن تفتخر بي.

Condensed from «Shinano! The Striking of Japan's Secret Supership,»

بدأ يومنا الأول عادياً بعد التعليمات الجديدة. أبحرنا ٩٣ كيلومتراً شرقاً وراقبنا مداخل خليج طوكيو بمنظار "بريسكوب" (١) فيما جبل فوجي يلوح في الافق. ولم نسجل أي اتصالات.

رادار الغواصة متوقف عن العمل. وقد أكد لي الملازم جوزف بوزا، وهو ضابط الرادار، أن العطل طفيف وسيفرغ من اصلاحه قبيل الغسق. أما الآن، وقد غطست الشمس غرباً فبدأت همومي تعتمل في ذهني. ينبغي أن نطفو على السطح لشحن البطاريات، لكن تنفيذ ذلك في الظلام من دون رادار يعني أن نكشف أنفسنا للعدو ونحن معصوبو الأعين.

ومع ذلك أصدرت الأوامر بالعوم في الخامسة والثلث. ولفتنا العتمة بسرعة فيما قسم المراقبة يتبصّر الافق. وإزاء الحاحي الذي لم ينقطع على الرادار، كانت اجابات الملازم بوزا هي ذاتها: "سيجهز عما قريب." لم يقنعني كلامه، فعزمت على البقاء على منصة القيادة مترصداً.

في السابعة والنصف أعاد الفنيون تجميع الرادار، ولكن لزمتهم ساعة إضافية لاختباره. في غضون ذلك حسبت أن ثمة اشارات أرسلت منبئة باكتشاف موقعنا. وحاولت أن أهدئ طبعي الايرلندي الحار في الرذاذ القارس المتطاير وهواء الليل المنعش.

في الثامنة والنصف مساء ناداني بوزا من خلال الكوة المفتوحة: "يا كابتن، لقد أنهينا الاصلاحات."

سلمت بصحة كلامه وفي لحظات، بعد تركيب الرادار، أبصر حرس الغواصة جزيرة اينامبا خارج خليج طوكيو. وقد أبلغ مضمون الرؤية الى بوزا الذي رد أن الرادار لم يتبينها.

زاد حنقي إذ أخبرني بوزا أنه سجل اتصالاً عند الدرجة ٣٠. أخبرته بفظاظة أن الجزيرة تقع على زاوية من ٦٠ درجة وأن محمل الرادار في وضع خطأ، على ما يبدو. وهممت غاضباً: "أصلحه!"

قال عبر الكوة: "حاضر، حاضر يا سيدي." وما لبث بوزا أن ناداني: "يا كابتن، جزيرتك تتحرك."

وفي ثوان هتف أحد المترصدين: "تماس! شكل أسود يبعد نقطتين من ميمنة الغواصة."

ثبتّ منظاري، مزهواً، على نتوء طويل منخفض في الأفق، وأصدرت أمري: "تقفّوا الأثر!" آملاً أن أحصل على رصد تقريبي لمسار الهدف. وخلال ثماني دقائق حددنا سرعة الهدف بـ٣٧ كيلومتراً في الساعة، متجهاً جنوباً غرباً، لكنه متعرج في سيره. لو أمكن "آرشر - فيش" استكشاف خط السير والإبحار في موازاته، بصرف النظر عن التعرج، لتمكنا من الانسلال إلى الأمام وسبق الهدف واتخاذ وضع إطلاق النار.

ها قد بدأنا نمسك بطرف الخيط. التفتّ إلى الملازم جون آندروز، ضابط متن الغواصة وأصدرت اليه اوامري: "جون، أبحر بالسرعة القصوى،" أي بزيادة سرعتنا لتبلغ نحو ٣٣ كيلومتراً في الساعة.

وفيما "آرشر - فيش" بمقدمها البديع

(١) البريسكوب (periscope) أو منظار الأفق يستخدم في الغواصات والمتاريس.

تشق العباب بيسر، شعرت بذهني مدوماً كأنه في اعصار. ما العمل؟ فكرت في الغـوص إلى عمـق يبلغـه منظـار البريسكوب، لأننا في وضع هجومي من الدرجة الأولى، في حال استمرار الهدف في مسراه الحالي.

ذهني يمور منقباً، مقلباً أوجه الفكر، نابذاً الاحتمالات. ثمة أمور كثيرة لا نزال نجهلها.

السفينة اللغز

حاملة الطائرات اليابانية العظمى "شينانو" تبحر بين الجزر البعيدة عن الشاطىء، والقمر منير يوشك أن يكون بدراً يتربع في السماء على ارتفاع ٣٥ درجة. انها ليلة مثالية لرحلة الـ ٩٠٠ كيلومتر التي توشك الحاملة أن تنطلق فيها بسرية مطلقة. بدت "شينانو" والمدمرات الثلاث "هاماكاز" و"يوكيكاز" و"ايسوكاز" حولها كحوت أملس يزيد سرعته كاشحاً ثلاثة دلافين متقافزة.

على منصة القيادة في "شينانو" يقف القبطان توشيبو آهبي، أحد الخريجين اللامعين في الأكاديميـة اليابـانية البحرية، وهو ضابط مقاتل تزينه أوسمة كثيرة.

لكن الاحتياطات صارمة. لم تظهر "شينانو" ومواكباتها أي أنوار ملاحية. وفي أرجاء الحاملة تفتيش مستمر للتأكد من انعدام أي إضاءة داخلية ترى من بعيد. والمثول أمام المحكمة العسكرية مصير كل من لا يغطي ضوءاً على الوجه الصحيح.

وكانت الاجراءات الأمنية المشددة والسرية التامة أحاطت "شينانو" منذ البداية. إذ أن اليابانيين، إثر قصفهم القاعدة البحرية الأمريكية "بيرل هاربر" في ٧ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤١، أعادوا النظر في برنامج بناء سفنهم. ولدى ادراكهم تفوقهم البارز في البوارج الحربية أوعزوا بإبطاء بناء الباخرة "شينانو"، احدى المدرّعات التي لا تقهر من مرتبة "ياماتو". وكان العمل فرغ من بناء شقيقتيها "ياماتو" و"موساشي".

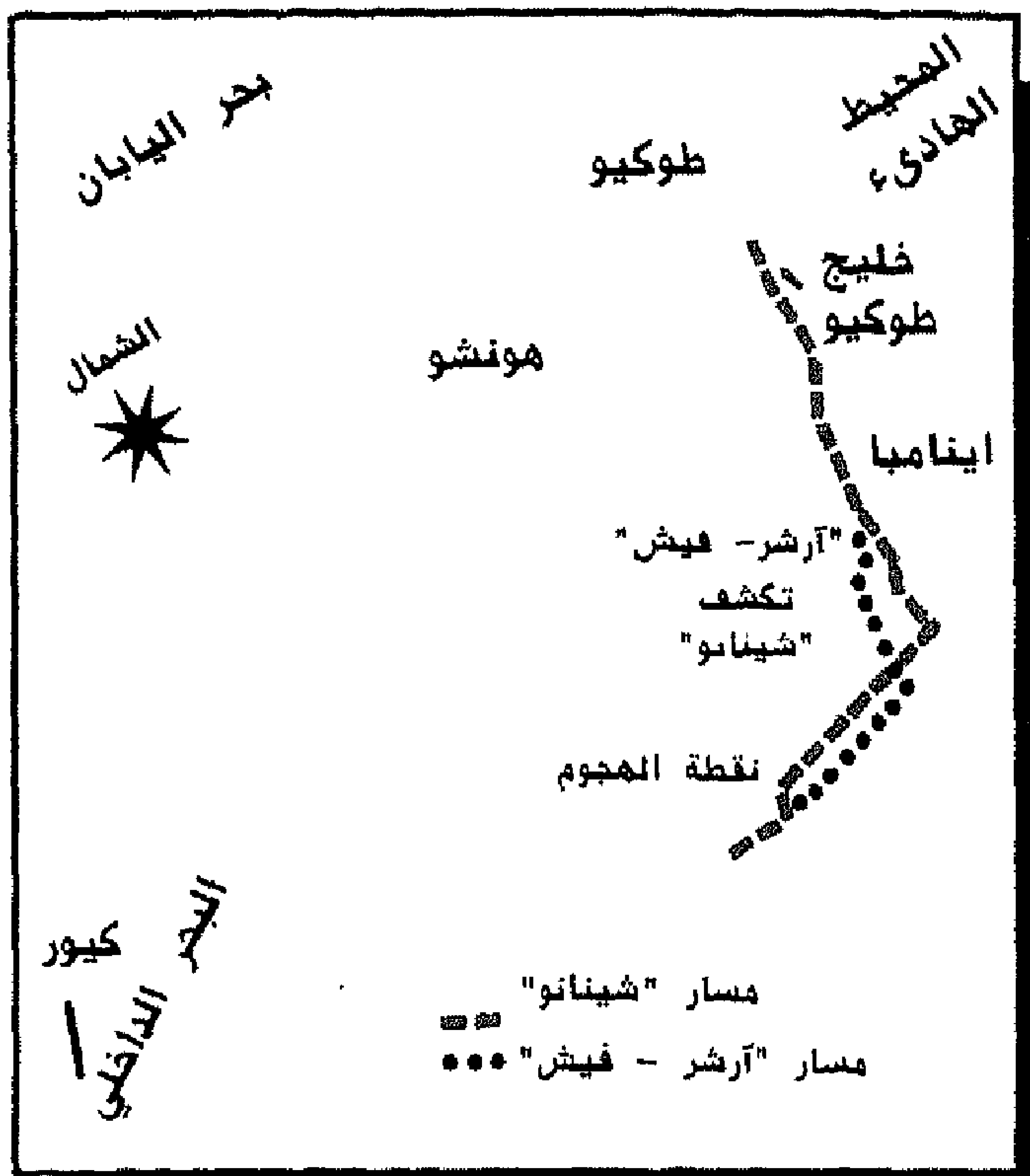
ثم انقلب التباطؤ فجأة اسراعاً بعد ستة أشهر من جراء هزيمة اليابان في معركة ميداوي في يونيو (حزيران) ١٩٤٢. وقد ألحّ المخططون الحربيون على تحويل "شينانو" فوراً من بارجة كبيرة إلى حاملة طائرات عملاقة.

حُجز ألوف البنائين العاملين عليها في ساحة المجمع تحت تهديد بالحبس أو الاعدام إذا ما تلفظ أحدهم بحرف عن وجودها.

ركزت خطط التحويل على تصفيح الباخرة بالدروع. وقد زُودت نتوءات كبيرة تحت خط الماء للتخفيف من الأضرار عبر تفجير صواريخ الطوربيد قبل بلوغها الهيكل الأساسي.

كما كانت "شينانو" حسنة التجهيز لتحمل هبوب العواصف. وبلغ وزن الفولاذ المركب على سطوحها الحاملة للطائرات، اضافة إلى مواد وقاية أخرى، ١٧٧٠٠ طن، ووزن الماء المنزاح بنزولها ٧١٨٩٠ طناً. وفي العام ١٩٤٤ كانت "شينانو" اكبر حاملة طائرات على وجه الأرض.

في نهاية العام ١٩٤٤ تدهورت حال اليابان في الحرب. وحين ذاعت النتائج



الفاجعة لمعركة خليج ليت في أواخر اكتوبر (تشرين الأول) مارس القادة الحربيون اليابانيون ضغطاً لاتمام "شينانو". فعمل البناؤون جاهدين في اعداد الحاملة لانزالها الى البحر.

وضعت "شينانو" رسميا في الخدمة في ١٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٤. وزينت منصة القيادة فيها لوحة مؤطرة للأمبراطور هيروهيتو.

وقرّ القرار آنذاك على نقل "شينانو" حالاً إلى مسافة ٩٠٠ كيلومتر من منطقة طوكيو - يوكوسوكا حيث كان من المتوقع شن غارات جوية واسعة النطاق، إلى مناطق أكثر أمناً في كيور في البحر الداخلي. هناك يتم تجهيزها وتزود العدد اللازم من الطائرات المقاتلة والقاذفة القنابل.

وقد نجحت الجهود في ابقاء بناء "شينانو" طيّ الكتمان، إذ لم يرد ذكرها في "دليل التعرف"، الصادر عن البحرية الامريكية. وكانت أخواتها الثلاث معروفة منذ عهد طويل، لكن قوات الحلفاء كانت تجهل كل شيء عن الحاملة العملاقة، حتى عند إبحارها من خليج طوكيو ليلة ٢٨ نوفمبر (تشرين الثاني).

اما الآن وقد بلغت "شينانو" البحر المنسرح فقد نبه ضباط المراقبة على متنها المراقبين الخمسة والعشرين إلى البقاء يقظين. فقد تكون الغواصات محومة حولها مترصدة تنتظر مهاجمتها من مكمن وهي في رحلتها البحرية البكر.

هجر القبطان آهبي مقعده في ميمنة المنصة فوق سطح الطيران. وظل واقفاً على قدميه يتلقى التقارير الواردة.

"سيدي، لقد اكتشفنا راداراً معادياً. إن الموجة وسرعة الذبذبة تشيران إلى ان مصدرهما غواصة أمريكية. لا اتجاه محدداً."

أطبق القبطان آهبي فكيه: "ما الساعة؟"

- التاسعة عشرة والربع يا سيدي.

همهم القبطان آهبي كأنه يحدث نفسه: "هل بلغ حمق الامريكيين درجة ظنوا معها أن في وسعهم استعمال رادارهم - وإن لفترات وجيزة - من دون أن نأخذ علماً بوجودهم؟"

بعد لحظات اتجه القبطان آهبي إلى

الملاح ناكامورا قائلاً: "يقيني أن ثمة سرب غواصات معادياً ينتشر حول شينانو. لا ريب في أن الغواصة التي اكتشفنا رادارها تنوي أن تشكل طعماً يغرّر بمدمراتنا الواقية لشينانو ويبعدها."

إقتفاء ومطاردة

جلستُ على منصة "آرشر - فيش" مستغرقاً في التفكير. وراقبت من خلال منظاري النقطة السوداء في الأفق تتشكل ببطء. ما هي؟ لكم وددت أن تكون بارجة كبيرة!

تابعنا جمع المعلومات عن الهدف الغامض. لقد عرفنا إلى الآن مسراه العام وسرعته، لكننا في حاجة إلى معطيات أخرى قبلَ أن نفكر في هجوم ما.

راقبت والملازم سيغموند (بوب) بوبزنسكي الشكل يلوح طويلاً منخفضاً في الأفق. لا منصة ولا صوار يمكن تبينها بعدُ، على رغم البدر المنير.

أخيراً اجترأت على البوح بحدسي: "أظنها ناقلة نفط يا بوب. هذا ما يدل عليه الشكل."

"اوافقك الرأي يا كابتن."

نادانا بوزا من برج المراقبة وأخبرنا أن الفريق العامل على جهاز الرادار التقط إشارة لامعة صغيرة إلى يسار الهدف. وأضاف: "انها تجري بسرعة. لعلها حامية مواكبة."

اتفقت وبوب على أن الرؤية في الليل واضحة، لذا ينبغي أن نفكر في هجوم من سطح الماء.

قلت مفصحاً عن خططي: "أولاً، سننسحب من مسارنا متجهين غرباً، مما سيضع الهدف مسامتاً للقمر. وهذه الغيوم الداكنة فوق اليابسة إلى الشمال الغربي من شأنها أن تحجب غواصتنا عن نقاط مراقبة العدو."

في هذه الاثناء كان ضابط رادارنا يمشط دائرته في نطاق ٣٦٠ درجة كل بضع دقائق، لتأمين عدم تسلل أي عدو بقصد هجوم مفاجىء.

أوجست خيفة من السماح باستعمال الرادار بحرّية اذ نكون على مقربة من العدو. وكنت مدركاً أن ذلك مخالف لمبادىء البحرية. لكني مضطر إلى معرفة الشيء المبحر هناك.

حسبت أن السفن اليابانية اكتشفت الاشارات التي أطلقها رادارنا. أغلب الظن أن اليابانيين على معرفة بوجود غواصات معادية في هذه البقعة قبالة هونشو. انها منطقة شهيرة سهلة الاكتشاف وعرضة لهجوم الغواصات الأمريكية منذ باكورة حرب المحيط الهادىء.

في العاشرة الا ثلثاً مساء نادى البحار اروين ستيوارت المعروف بحدة بصره ليلاً، من نقطة مراقبته على المنصة: "يا ملازم آندروز، تلك السفينة تشبه حاملة طائرات."

تدخّل بوبزنسكي مقاطعاً: "يا كابتن، انها حاملة طائرات حقاً، لا ريب في ذلك، لا ريب."

ثبتّ منظاري على الهدف. يا سعدنا! بدلاً من ناقلة نفط ها نحن على موعد مع بارجة كبيرة تدنو منا. كنت منشرح الصدر. ينبغي أن نوقع بهذه العدوة.



أفراد طاقمنا في حاجة إلى انتصار. وأنا أهفو إليه أيضاً. ذكرياتي تراودني عن أيام أمضيتها قبطاناً للسفينة "ديس" الأمريكية قبل عام. لقد أضعت فرصة كبرى آنذاك إذ اتبعت التعليمات الحربية الموحدة بحذافيرها عوض الاصغاء إلى حدسي. كنت قبلاً في هذه المنطقة قبالة خليج طوكيو، حين أرسل قائد أسطول الغواصات في المحيط الهادىء ايعازاً سرياً إلى "ديس" مبيناً موقع حاملة طائرات يابانية ضخمة ومسارها وسرعتها. كانت في حوزتنا معلومات

وافية عن العدو، أو هذا ما غلب على ظني.

وإذ اتجهنا صوب الموقع المسمّى، أبلغني الملاح أن التيار "كوروشيو" يجري بنصف سرعته المعتادة. وبسبب هذا التغير الاستثنائي، حسب قوله، ستظهر الحاملة على مسافة ١٧ كيلومتراً من الموقع الذي حددته أجهزة الاستخبار. إذاً ينبغي أن نجري تعديلات طبقاً لذلك.

شعرت في سريرتي بأن الملاح محق. ولكن هبه أخطأ؟ لم أشأ أن أكون الرجل الذي سيخبر قائد الاسطول بأننا لم نلتزم تعليماته. ودفاعاً عن رتبتي في البحرية، توجهت إلى الموضع المحدد لي. لكن الحاملة ظهرت على بعد ١٧ كيلومتراً تماماً، بعيداً عن مرمى مدافعنا.

وإني عانيت من ذلك القرار أشد المعاناة. أما الآن، وبصفتي قبطان الغواصة "آرشر - فيش"، فقد أدركت أن التفكير الجامد ليس السبيل إلى النجاح في سلاح الغواصات. وعرفت حق المعرفة أن الأوسمة والميداليات في المعارك ينالها الجسورون، أولئك القادرون على اتخاذ قرارات فورية حازمة.

وإذ عاينت وبوب الشكل الضخم البارز في الأفق، شاهدنا ثلاث مدمرات تواكبه. وكلانا يعرف أن الشروع في هجوم على بارجة حربية تحميها عدة سفن هو التهور في ذاته.

فرصتنا الوحيدة في إصابة الحاملة هي في مواصلة الابحار بالسرعة القصوى في مسار موازٍ للعدو، داعين أن يبدّل الهدف مسراه المتعرج في إتجاهنا.

طقطقت حبات مسبحتي القابعة في جيب سروالي الكاكي المبلل المتغضن، وهي هدية أمي إليّ أيام صباي، راجياً أن يتم التحول المطلوب.

لقد مرت ساعة بحالها على تحديدنا موقع حاملة الطائرات، وشرعنا في الغوص ببطء خلفها. المحركات الأربعة في غواصتنا تزودنا الطاقة القصوى لبلوغ سرعة ٣٥ كيلومتراً في الساعة. بدا أن النصر يتعمد أن يفوتنا. فمن المنصة التي أجلس عليها لمحت الحاملة منسحبة. استمطرت عليها اللعنات.

أمسكت بسياج المنصة فيما غواصتنا البالغ طولها ٩٥ متراً تندفع إلى الأمام محاولة أن تبقى على مسافة ضاربة. أخذت أفكر في قبطان الحاملة. من تراه يكون؟ وكنا استعملنا رادارنا مراراً خلال ساعات. لا شك في أنه مدرك حضور "آرشر - فيش." إن نقاط المراقبة في أقرب مدمرة قادرة على اكتشافنا. لم لا يبالي بنا؟

أيقظني من سرحاني صوت بحارنا المراقب الحاد البصر سيتوارت: "يا كابتن، احسب أن المدمرة الكبرى في سبيلها إلينا." ليس في ذلك شك. فنحن نرى الحاملة والسفن المواكبة كألعاب بالغة الصغر في ضوء القمر. اليابانيون يتخذون وضع الهجوم!

ومن دون حركة واحدة تضيع الوقت أصدرت أمري: "نقاط المراقبة في الأسفل: استعدوا للهجوم!"

هيكل "شينانو" الفولاذي يجوب المحيط الهادىء في سكون. حركتها

انقذاف وئيد مهدهد من مقدم السفينة إلى مؤخرها. وعلى منصة القيادة ينهمك الملاح ناكامورا ومساعده انساين تاداشي ياسودا في رسم خريطة تبدل مسار السفينة. ياسودا ما زال حديث العهد على تحمل مسؤوليات كهذه. انه خريج جديد في الاكاديمية البحرية، وهو مقرّب من القبطان آهبي، وقد وُهب ذهناً متقداً وتمالك نفس عجيباً.

ناكامورا أيضاً ينفذ مهماته رابط الجأش. لكنه مثل كثيرين من أفراد طاقم السفينة، يخشى عدم وجود مجاز آمن. وهو على علم بأن القبطان آهبي قلق إذ طلب ارجاء موعد الابحار.

وورد في الالتماس الذي رفعه القبطان آهبي إلى القيادة العليا للبحرية الامبراطورية أن "شينانو"، بسبب التعجيل في إنجاز بنائها، تنقصها قطع لمراجلها. إذ ان ثمانية مراجل فقط من أصل أثني عشر مرجلاً عاملة، مما يعني خفض السرعة القصوى من ٥٠ كيلومتراً إلى ٣٧ في الساعة. كما أن آهبي ذكر أن غالبية الحجيرات المانعة للهواء في الحاملة، وعددها ١١٤٧، لم تفحص، وأن عدداً من بحارته لم يتلقَّ تدريباً كافياً.

لكن ما يدعو إلى الاستغراب أن طلب آهبي رفض فوراً. ومنذ ذلك الحين تطيّر أفراد طاقم السفينة وتوجسوا شراً.

بعد ذلك وردت على القبطان آهبي أنباء مقلقة. إذ أن الغواصة اليابانية "إ - ٣٦٥" أنجزت دورية دامت ٥٠ يوماً في المنطقة وأبلغت عن رؤية أفواج من الغواصات الامريكية، بينما جوّابات في أسراب من ست أو سبع.

كما أن مركز القيادة أبلغه أن جميع أسراب الطائرات المتوافرة منهمكة في مهمات قتالية، أي لا غطاء جوياً لأغلى الحاملات اليابانية!

رأى آهبي أن سلوك مجاز مجرد من الغطاء الجوي صباحاً هو عمل جنوني. فطائرات الاستطلاع الأمريكية قد تعثر على "شينانو" فترسل اشارات لاسلكية إلى أسراب طائرات الطوربيد لمهاجمتها والقضاء عليها.

ولتفادي ذلك قرر آهبي أن تندفع "شينانو" جنوباً عند الغسق نحو مياه عميقة الغور. إن العبور ليلاً يستغرق وقتاً أطول ويؤدي إلى نقطة أبعد في البحر.

لكن القبطان آهبي يركن إلى سرعة "شينانو" الفائقة لسبق الغواصات العدوة. ونهى آهبي ايضاً عن استعمال رادار "شينانو" أو أي رادار آخر في السفن المواكبة لها، اجتناباً لاكتشافها. وعوض ذلك تتصل السفن في ما بينها بأنوار الاشارة. كما أمر بأن تظل السفن المواكبة متيقظة وقريبة جداً من "شينانو"، وألا تتحول عن مراكزها استجابة لأي مكيدة.

اعتدل ناكامورا في وقفته أمام خرائطه وقد نال منه التعب قليلا، لكنه أحس بالغبطة إذ عرف أن "شينانو" ستكون في غضون ساعات مبحرة بأمان في مضائق البحر الداخلي.

في تمام الحادية عشرة إلا ربعاً ليلاً أزّ الجرس الطنان في هاتف الاتصالات ناقلاً رسالة من منصة المراقبة. فانكمش إنساين ياسودا متخوفاً.

"أنا ناظر نقاط الرصد يا سيدي. لقد

شاهدنا جسماً مجهول الهوية إلى ميمنتنا."

هرع القبطان آهبي إلى مقدم المنصة وقال: "أجل، ها هو، على بعد نحو ١٥ أو ١٦ كيلومتراً أتراه؟"

أجاب ناكامورا: "يبدو كسفينة صغيرة يا سيدي."

قال إنساين ياسودا متحزرا: "لعلها غواصة يا سيدي. فخطوطها تشبه خطوط الغواصات."

سأل ضابط الاتصالات: "أنطلق النار يا سيدي؟"

أجاب القبطان آهبي: "لا تطلقوا شيئاً! وإلا تأكد لهم أننا بارجة كبيرة. لعلهم لم يشاهدونا."

برج المراقبة يغلفه صمت تقطعه بعد دقائق صرخة من أحد المراقبين:

"يا كابتن آهبي! المدمرة ايسوكازا! لقد تركت موقعها، وهي تندفع بأقصى سرعة صوب السفينة المجهولة."

المناظير كلها تنفتل في اتجاه مقدم الحاملة. "ايسوكاز" ليست في وضعها الصحيح أمام "شينانو" على شاشات الرادار. انها تمخر العباب وترسل أثراً على سطح الماء مطبقة على الجسم الدخيل. أقل من ثمانية كيلومترات تفصل بينهما. مدافع "ايسوكاز" من عيار ١٣ سنتيمتراً يمكنها أن تقصف على بعد ضعفي تلك المسافة.

انتوارى

أمرت بإخلاء المنصة ونقاط المراقبة في الأسفل، باستثناء ضابط متن الغواصة، في حال اطلاق المدمرة المندفعة النار نحونا. إذ كلما قل عددنا في القسم الأعلى انخفض عدد الاصابات.

ركزت منظاري على المدمرة. يا لسرعتها! سألت: "ما المسافة يا جون؟"

ـ أقل من تسعة كيلومترات.

أدركت أن لدي لحظات لأتصرف. عنّ لي الغوص أولاً. ولكن إذا أصدرت الأمر بالغطس فسيدرك قبطان المدمرة هويتنا. لعله في شك من أمره الآن، ظاناً أننا قارب صيد. ولذا، على الارجح، لم يطلق النار. وإذا ما غطسنا فإننا يقيناً نخسر كل فرصة لأن نغدو في وضع يمكّننا من مهاجمة الحاملة، وذلك بسبب سرعتنا المخفوضة.

قررت أن أبقى على سطح الماء، وألا نغطس إلا إذا ما بادرتنا المدمرة باطلاق النار. وفي حال حدوث ذلك تستدير "آرشر ـ فيش" ٩٠ درجة مبتعدة، وتطلق ثلاثة صواريخ طوربيد أمامية على السفينة المقتربة، ثم نغطس في المياه راجين أن نصيبها مباشرة. فثمة غواصات أمريكية أخرى سجلت اصابات بهذه الطريقة. ولا جدوى من المطاردة على سطح الماء، إذ إن المدمرة ستدركنا تواً فتفجّرنا مدافعها في لحظات وتتناثر غواصتنا قطعاً.

حافظنا إذاً على مسارنا. وتشبثت والملازم آندروز بقضبان المنصة فيما "آرشر ـ فيش" تجري في خط مواز لمسار الحاملة. اندفعت المدمرة أقرب فأقرب كأنها تنوي دكّنا. وراقبناها وهي تدنو بأقصى سرعتها كي تسحقنا وترسلنا إلى قاع المحيط. وكنت متنبها إلى وجوه تحدث من خلال الكوة المفتوحة.

الرجال يصغون إلى أوامري كي يعملوا بمقتضاها فوراً. الأمر بالغطس ينفذه الملازم كازنز في غرفة التحكم. ومن ثم يهبط ضابط متن الغواصة بسرعة إلى برج المراقبة. وأتبعهما أنا بعد ضمان إقفال الكوة فيما تباشر "آرشر ـ فيش" الغوص إلى الملاذ في المياه العميقة. كنا على قاب قوس من تلك اللحظة. المدمرة المعادية قد تجري فوقنا في دقائق. لِمَ لمْ تطلق النار؟

صرخت: "استعد يا جون. استعد للهبوط إذا ما استمرت في الاقتراب. أسرع!"

كنت مستطاراً فرحاً كصبي في قطار سريع بمدينة الملاهي. انه زمن محفور في ذاكرتي لا يمحي. أنا وجون وحدنا على المنصة نتمسك بالقضبان الزلقة بفعل رشاش الماء ونحافظ على مواطىء أقدامنا. "آرشر ـ فيش" تجري بسرعتها القصوى عبر المياه السوداء بلون الحبر مخططة بنور القمر. والسفينة المعادية تجهد لتجعلنا في قبضتها.

فجأة، على مسافة بعيدة، لمع ضوء أحمر على رأس شراع الحاملة بارقاً عبر البحر. ما الداعي إلى ذلك؟ تساءلت متعجباً. لم أر قط بارجة حربية ترسل أنواراً في الليل. انطفأ النور ثم أضاء عشر ثوان لينطفىء ثانية.

صحت في جون: "أظنه يأمر المدمرة باطلاق النار."

وقبعت منتظراً الومضات الرهيبة والرذاذ، ولكن ما من شيء.

صرخ آندروز: "انها تستدير يا كابتن. انها تستدير مبتعدة عنا."

لم أصدق ما سمعت. المدمرة تبتعد من دون طلقة واحدة من مدافعها.

"لا أفهم ما يجري يا كابتن. لا شك في أنها سفن يابانية. نحن نعلم أنها غادرت خليج طوكيو. لعلهم رأوا أننا لا نستأهل الضرب."

قلت: "هذا أغرب ما رأته عيناي."

أصغيت إلى الرجال وهم يثرثرون بارتياح في الاسفل. ما العمل الآن؟

جاء تقرير من الكوة المفتوحة: "كابتن، الحاملة تغير مسارها. المدى يزداد. لقد استدارت ٣٠ درجة إلى اليسار. الاتجاه الآن ١٨٠ درجة."

قلت: "أوعز إلى المراقبين بأن يعودوا إلى مراكزهم." وإذ حملقت في الهدف من فسحة المحيط، كان شكل ظله متبدلاً بسبب المسار الجديد. كان يصغر وينأى إلى الأفق الجنوبي. وتلاشت المدمرات في أضواء الليل.

ارتقى بوبزنسكي أعلى الغواصة استجابة لأوامري. ولبثنا ساكنين لهنيهات محدقين إلى السفن وهي تبعد عنا أكثر فأكثر. لا سبيل إلى اللحاق بالحاملة في مسارها الجديد، فهي تجري بسرعة فائقة.

أملنا الوحيد أن يكون مسراها الجنوبي الغربي، البالغ نحو ٢١٠ درجات والذي سلكته منذ رأيناها، هو المسار العام، وأن يكون الهدف من تبدّل اتجاهها الابتعاد عنا.

وقر رأينا على أننا إذا ما بقينا مقتفين المسار العام للحاملة، مفترضين أنها ستسلكه في نهاية المطاف، لاستطعنا اعتراضها.

نظرت من الكوة الامامية إلى البحر الفسيح. الحاملة تكاد لا ترى حتى عبر المنظار. لقد غابت عن الانظار وابتلعتها الظلمة بسرعة. تساءلت خائباً عما إذا كنت سأراها مرة أخرى.

"شينانو" التي لا تقهر

ثبت القبطان آهبي نظره على المدمرة "ايسوكاز" الهاربة مزبداً إذ وقف على منصة المراقبة في "شينانو". لقد شدد على الحذر وجاءت تعليماته محددة: لا يقعنّ أحد في شرك أمريكي فيندفع في اشتباك بمفرده. كيف تجرأ قبطان المدمرة على عصيان الأوامر تاركاً "شينانو" من دون حماية؟

سأل الملاح ناكامورا والالحاح ملء صوته: "أنشير اليها بأن ترجع إلى موقعها يا سيدي؟"

أجابه القبطان آهبي: "انتظر لحظة. هل تستدير؟" كان القبطان وضباط الاركان والمراقبون يحدقون إلى "ايسوكاز" من خلال مناظيرهم. لم ينبس أحد بكلمة.

سأل ناكامورا: "أتظنها السفينة نفسها التي كانت ترسل اشارات رادار يا سيدي؟"

- من دون شك. لقد بقيت عائمة على رغم أن قبطانها يعرف تماماً أنها مرئية لنا. انها طعم بلا ريب. وهي تسعى إلى استدراج حامياتنا لمهاجمتها فيما تقترب الغواصات الأخرى إلى شينانو من تحت الماء.

"يبدو أنها نجحت في مسعاها يا سيدي."

لم يحر القبطان آهبي جواباً، وأبقى منظاره مثبتاً على "ايسوكاز" وهدفها بالتناوب. وقد تساءل لماذا لم تعمد المدمرة، المتحرقة الى مطاردة السفينة المعادية، إلى اطلاق النار. واستنتج أن "ايسوكاز" عازمة على صدم الغواصة.

التفت القبطان آهبي إلى الملاح قائلاً: "يا ناكامورا، أشر إلى ايسوكاز بأن تعود حالاً إلى مركزها الصحيح."

تلقى إنساين ياسودا أوامر القائد ونقلها. وفي الأعلى ومض نور اشارة أحمر. وعلى بعد ١١ كيلومتراً لبى مدير دفّة "ايسوكاز" الأمر بادارة الدفة إلى أقصى اليسار.

راقب القبطان آهبي عابساً انكفاء "ايسوكاز" ودنوها من المسار الذي يعيدها إلى موضعها السابق عند ميمنة "شينانو"، ثم خاطب ناكامورا ثانية: "ستستمر شينانو في مسارها على ١٨٠ درجة حتى اصدار أوامر أخرى. إذا كانت تلك غواصة عدوة فسنخلفها وراءنا. انها ستجري بسرعة ٣٥ كيلومتراً في الساعة في حدها الأقصى، وإذ تبلغ سرعتنا ٣٧ كيلومتراً في الساعة فسنسبقها عما قريب."

رد الملاح: "مفهوم يا سيدي."

وعندما قصد القبطان آهبي مقدّم المنصة في نوبة مراقبة بمفرده، لم يساوره قلق في شأن أي غواصة معادية وجدها. كان يهدف إلى تفادي انقضاض سرب من الغواصات المغيرة. ولتأكيد ثقته هذه استعاد في باله أحاديث شتى مع نائب قائد الاسطول كيجي فوكادا، المصمم الياباني الاشهر للسفن. وهو

طمأنه إلى أن اغراق "شينانو" قد لا يكون مستحيلاً لكنه صعب التنفيذ. فقد أخذ مصمموها كل احتمال في الحسبان كي يجعلوها لا تغرق. ما من غواصة تستطيع منفردة الاجهاز على "شينانو".

قرابة الحادية عشرة والثلث ليلاً أبلغ مناوب الحراسة في غرف محركات "شينانو" أن محمل عمود الادارة أفرط في سخونته على نحو خطر. واتخذت اجراءات طارئة للاصلاح، بينما غسل المحمل بخرطوم من ماء البحر. لكن ذلك لم يجدِ، فأرغمت الحاملة على خفض سرعتها. عندئذ بدأت حرارة المحمل تتدنى. وإذ بلغ القبطان آهبي أن "شينانو" عاجزة عن الابحار بسرعة تفوق ٣٣ كيلومتراً في الساعة ريثما يتم اصلاح المحمل في حوض السفن، هزّ رأسه باشمئزاز. الآن في وسع أي غواصة مترصدة ان تجاري "شينانو" في سرعتها.

مراقبة وانتظار

دأبت على تمرير منظاري بلا طائل على مشهد البحر المتلاطم بحثاً عن أثر للسفينة التي نستهدفها. ابتهلت ثانية راجياً أن يكون بوبزنسكي مصيباً إذ قال ان الحاملة ستدور في آخر المطاف عائدة إلى مسارها العام على ٢١٠ درجات.

ورداً على أفكاري أبلغ عن شكل ظليل في النور الأحمر المنبعث من برج المراقبة: "يا لسعدنا أيها القائد! الرادار يشير إلى أن الهدف بدّل من مساره جذرياً، قاصداً الغرب."

بعد هنيهة أخبر الملازم آندروز أن الحاملة هي في مجال الرؤية ثانية. سددت منظاري فرأيتها مع حاميتها. وودت أن أصيح جذلان.

هبطت إلى برج المراقبة، وبوب خلفي. رحنا نذرع الارضية جيئة وذهوباً كأسدين في قفص. تفحصنا الخريطة محاولين تخمين مقاصد الحاملة لكي تقطع مسافة كبيرة من مسارها العام يجب الا يبقى مسلكها متعرجاً لوقت طويل، إذ انها آنئذٍ قد تدنو منا في أي حين.

مرت الدقائق ومنتصف الليل يدنو. لو أنها استدارت إلى مسارها لكنا في موضع مناسب لمهاجمتها.

عقارب الساعة تشير إلى منتصف الليل تماماً. يوم جديد يطل: الاربعاء ٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٤. والحاملة الملعونة لم تستدر بعد. ارتقيت المنصة منهكاً وحدقت إلى الحاملة. ان قيض لنا أن نهاجمها، فلا بد لها من أن تخفف سرعتها بمقدار ملموس او تستدير في اتجاهنا. وددت لو أنها تفعل أحد الأمرين، أو أن تبدل مسارها. وسوى ذلك ما علينا إلا أن نراقب وننتظر.

رذاذ ماء بارد يبلل وجهي ويدفعني إلى تركيز انتباهي. وجدت أننا نتخطى اتجاهنا بضع درجات. اما أن نكون زدنا سرعنا واما أن الهدف أبطأ سيره لعل التيار ذو سرعات متفاوتة تؤثر على السفينتين على نحو مختلف، إذ لا يعقل أن تعمد حاملة في منطقة ملأى بالغواصات المعادية إلى خفض سرعتها قصداً.

الفرصة مؤاتية على بعد نحو ١٥ كيلومتراً. الحاملة في مرمى مدافعنا. لكن ذلك شبيه برشق عشبة على فيل. علينا

أن نقرّب "آرشر ـ فيش" كفاية لاطلاق صواريخ الطوربيد. هذا ما سيجعل الفرصة واقعاً.

أفول القمر متوقع في الخامسة والدقيقة السابعة فجراً. وإذ يحدث ذلك أفقد النور الذي يخوّلني الهجوم بمساعدة البريسكوب. بعد ذلك ستنير السماء شمالاً اشارة إلى قرب بزوغ الصبح، فنضطر إلى الغوص كي لا نرى.

الانعطاف

في الثانية والربع من صباح الاربعاء ٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٤ كانت حاملة الطائرات اليابانية "شينانو" مبحرة إلى الغرب. وقد مضى عليها في رحلتها البكر ما يزيد على ثماني ساعات. وقف القبطان آهبي متسمراً على المنصة. تفكر موسوساً في أن الغواصة الأمريكية قد تكون في أي مكان.

لو أن في مستطاعه اكتشاف اشارات رادارها، لبقيت طافية ولما شكلت خطراً على "شينانو"، إذ ستتمكن نقاط المراقبة لديه من تحديد مكانها قبل أن تبلغ مرمى الطوربيد بوقت طويل. لكن إذا لم تكشف اشارات الرادار فذلك يعني أن الغواصة غطست في الماء عازمة على الهجوم.

وطرد آهبي خاطراً لاح لذهنه: صورة الحاملة "هيريو" التي أغرقت ذات صباح من شهر يونيو (حزيران) بعد معركة ميدواي. كانت الحاملة المتغطرسة لا حول لها مائلة على جنبها. وقد طلب العميد البحري تامون ياماغوشي، قائد كتيبة الحاملات الثانية في ميدواي، وتوميو كاكو قبطان الحاملة "هيريو"، من مدمرات القبطان آهبي أن تقصف "هيريو" بالطوربيد للحؤول دون وقوعها أسيرة في أيدي الامريكيين. وإذ حملق آهبي بحدقتين واسعتين في النافذة المظلمة على المنصة، استعاد ذكرى غرق "هيريو". انه لا يزال يرى قائد الاسطول العميد ياماغوشي والقبطان كاكو متعانقين ببسالة على منصتها. لقد أوثقا جسديهما اليها بالحبال جاهزين للموت. وهكذا سيذكرهما أبداً.

في الساعة ٢،٤٢ هرع القائد يوسا آراكي، ضابط الاتصالات، إلى آهبي قائلاً: "سيدي، لقد اكتشفنا ارسالاً لاسلكياً آخر للعدو. ويبدو من قوة الارسال أنه قريب جداً، على بعد ١٨ كيلومتراً أو ٣٦."

انهم الأمريكيون. عليهم اللعنة! ثم قال آهبي كلاماً بليغاً: "حسناً أيها السادة، لا شك في أنها رسالة من قائد سرب الغواصات إلى مركباته الأخرى، فيها بلاغ عن موقعنا وسرعتنا. ولعله أمر بالاستعداد للهجوم. لا علم لنا بموقعه. إلى أي اتجاه نستدير؟"

لا جواب حاضراً. الدقائق تتكّ فيما القبطان آهبي يتفكر ملياً ويمحّص الخيارات. ثم نطق أخيراً: "يا ملاح، ستتجه شينانو يساراً مرة ثانية إلى درجة ٢١٠. دوّن ذلك."

انحنى انساين ياسودا على الخريطة، علّم المسار وذكر الوقت: انها الساعة ٢،٥٦ من ٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٤. وإذ فعل ذلك شعر بهيكل "شينانو" الضخم يستدير يساراً.

وأسرّ القبطان آهبي إلى نفسه: الفجر

يمنح نقاط ترصدي الأفضلية. وعندئذ ستكون "شينانو" قريبة من مدافع الشاطىء التي تحمي مضائق البحر الداخلي.

كان واقفاً وحده في مقدم الحاملة حين ظهر القائد آراكي إلى جانبه: "سيدي، لقد انقطع ارسال رادار العدو فجأة في الساعة ٣،٠٥."

الغواصة إذاً توارت تحت سطح الماء. أعطى آهبي توجيهاته: "أيها القائد آراكي، أشر إلى المدمرات بأن شينانو في خطر محدق. الغواصة المعادية قد تباشر الهجوم في أي لحظة."

"اغطسوا! اغطسوا!"

نظرت إلى ساعة يدي. انها ٢،٥٠، ولا تحوّل في مسار حاملة الطائرات. دعوت بصمت لكي تستدير. كانت الساعة تقارب الـ٢،٥٦ عندما أشاح الحظ عن "شينانو."

ها هي تستدير بغتة في اتجاهنا ماضية صوبنا. الحاملة العملاقة والمدمرات المواكبة تتجه مباشرة إلى حيث "آرشر ـ فيش". أريد أن اثب فرحاً على المنصة.

ناديت بوبزنسكي في برج المراقبة: "لقد استدار الهدف يا بوب. انه يتجه الينا. لا أود أن نغوص إلا عند الضرورة. ولكن ينبغي أن نتوارى قبل أن يرانا العدو."

جرت "آرشر ـ فيش" غرباً بسرعة مدة خمس دقائق للتمركز في أحد المواقع على مسافة قريبة من أحد جوانب المسار المرتقب للحاملة. اردت أن أهاجم الجانب الأعرض لأحظى بأكبر هدف أسلط عليه صواريخ الطوربيد الستة الأمامية، ولأكون في مدى يراوح بين ٩٠٠ و١٨٠٠ متر. وإذ قدّرت أن "آرشر ـ فيش" بعيدة على نحو كافٍ من المسار، انعطفت يميناً في خط موازٍ للحاملة. ثم استدارت "آرشر ـ فيش" يميناً- بعد دقيقتين لتصبح في موضع مثالي لاطلاق النار.

بعد مرور ثوانٍ على الساعة ٣،٠٤ صاح بوب: "يا كابتن، المدى الآن ١١ ألف متر."

انفتلت صوب الملازم آندروز: "حسناً يا جون، أغطس."

فجأر جون تواً: "أغطسوا! أغطسوا!" وطنّت صفارة الانذار في أرجاء الغواصة.

كل الامور مضبوطة كالساعة. وبين تردد صفارة الانذار واستوائنا على عمق البريسكوب انقضت دقيقة واحدة. ضغطت رأسي على البريسكوب الرقم ٢ محدقاً من خلال عدسة الرؤية. الخطان المتصالبان مثبتان على هدفنا. هممت: "تعالي، تعالي يا حلوتي."

نحن الآن في المراحل الختامية من الاعداد للهجوم. الحاملة اليابانية الضخمة تدنو بسرعة ٥٥٠ متراً في الدقيقة. ان الخطوة التالية خطوتنا إذا لم يتعرج الهدف في مساره.

أمرت: "املأوا المواسير. وحددوا عمق صواريخ الطوربيد بثلاثة أمتار."

وأعلنت لطاقم الغواصة: "نحن قريبون من التماس مع مقدم الهدف. سنطلق النار إذ يدخل نطاق مرمانا."

منظار البريسكوب صاعد، نازل، بصمت ضمن غلافه الصقيل، متيحاً نظرات سريعة مختلسة، لم أشأ أن يطفو فوق

السطح أكثر مما تستلزم الضرورة، إذ من السهل أن تكتشفنا مراصد العدو في هذه الحال.

كنت متشوقاً إلى التعرف إلى الحاملة. فوصفت سماتها للرجال المحيطين بي. كان انساين غوردون كروسي إلى جانبي ممسكاً بدليل التعرف البحري. رسمت شكلاً تخطيطياً سريعاً للسمات البارزة في الحاملة المعادية. فنظر غوردون إلى رسمي ثم تصفح الدليل. وقال أخيراً: "لا يملك اليابانيون حاملة كالتي رسمت."

– لا يملكون؟ هراء! إني أنظر اليها!

أصبناها!

تبينت مناورة غير متوقعة من المدمرة الواقية لميمنة حاملة الطائرات. علي اللعنة إن لم تكن تبدل مسارها وتتجه مباشرة إلى بقعتنا. آن الأوان لاتخاذ قرار آخر بسرعة. أعلنت بصوت مرتفع: "هناك مدمرة معادية تتجه صوبنا. وستمر على بعد نحو ١٨٣ متراً أمامنا."

في الواقع كنت أعلم أن مسارها سيقربها أكثر، ولكن لِمَ زرع الذعر في نفوس الجميع ما دام أحد منهم لا يستطيع شيئاً؟ وكان لزاماً علي أن أعرف هل تستعمل المدمرة مسبار الصدى(٢) لتحديد موقعنا.

سألت ريتشارد سكانلان العامل على مسبارنا: "هل تستعمل المدمرة مسبارها؟" إن كانت تفعل، فهي قد تكتشفنا، وينبغي علي إذاً أن أغطس "آرشر – فيش" في الماء مجتنباً قذائف الاعماق.

أدار سكانلان جهاز مؤالفة التذبذب (٣) في المسبار على محطات الاستقبال كلها ثم قال: "لا يا سيدي، انها لا تستعمله."

أمرت بخفض المنظار وناديت ضابط الغوص: "إنزل إلى عمق ١٩ متراً." في عمق كهذا تصبح المسافة ثلاثة أمتار بين "آرشر – فيش" وصلب المدمرة.

البارجة اليابانية تدنو أكثر فأكثر، وضوضاء رفاصاتها ومراوحها تعلو إذ تمخر العباب. داخل "آرشر – فيش" لم ينطق أحد بكلمة. كان كل منا ينظر إلى الآخرين منصتاً. ولعل البعض تلا صلاة، وأنا منهم.

المدمرة تكدر المياه فوقنا تماماً. خفقان مراوحها قريب جداً يحبس الانفاس. انها ترعد فوقنا كقاطرة. الغواصة بأسرها تهتز متمايلة بفعل المويجات الصادمة. لبثنا ننتظر، هل سترسل قذائف الاعماق؟ تجمدنا منصتين. ثم جازتنا المدمرة وتلاشى صوت مراوحها سريعاً.

أومأت اشارة "إلى أعلى" بنترة من إبهامي، وحدّقت في المنظار المرفوع. كنا سنرسل صواريخ الطوربيد لو لم تكرهنا المدمرة علي المراوغة.

ركزت خطي المنظار المتصالبين على هيكل الحاملة وأصدرت أمري على عجل: "أطلقوا الطوربيد الأول."

ضغط الريّس جين كارناهان زر الاطلاق، فارتدّت "آرشر – فيش" وكأن حوتاً صفعها. انطلق الطوربيد الأول في غمامة من الفقاعات. الآن يسعني أن أحدق إلى

(٢) Echo - ranging sonar
(٣) Frequency tuner

الحاملة مفصلاً. رباه، يا لضخامتها! انها تملأ عدسة المنظار.

انتظر كارناهان انقضاء ثماني ثوان ثم أطلق الطوربيد الثاني. جنحت "آرشر ـ فيش" ثانية. وتلا طوربيد ثالث ثم رابع. مكثت مراقباً الحاملة عبر المنظار. أين ضربات صواريخنا؟

انطلق الطوربيد الخامس، ورأيت من زجاج منظاري كرة نار ضخمة تنفجر قرب مقدم الحاملة. ومن دون أي انفعال أطلق القائد كارناهان الطوربيد السادس.

ترجحت "آرشر ـ فيش" مجددا . ثم تناهى إلى أسماعنا صوت الضربة الأولى، وشعرنا بتموجاتها المنبعثة من ٣٠٠ كيلوغرام من المتفجرات.

صحت: "لقد نلنا منهم!" ولكن من المبكر الاحتفاء بالنصر. فثمة قذائف أعماق ينبغي علينا تفاديها بسرعة. رأيت الانفجار الثاني يمزق هيكل الحاملة بعد ثماني ثوان، على بعد نحو ٤٥ متراً من الانفجار الأول.

حركت البريسكوب لأراقب رد فعل المدمرات. كانت احداها في سبيلها الينا منطلقة من ميمنة الحاملة. والمدمرة التي مرت متخبطة فوقنا قبل دقيقة واحدة، كانت تنهي استدارة كاملة قبل أن تعاود الابحار تجاهنا. يا للعار! الحاملة بدأت تغرق. لا شك في أن مياه المحيط شرعت تتدفق إلى أحشائها، بدت كأن عاليها سينقلب أسفلها.

سمعت صوت طوربيدات أخري تصدم الحاملة من دون أن احصيها. لشد ما رغبت في أن أبقى ناظراً اليها عبر البريسكوب وهي تغرق، لكن المدمرات كانت في هياج جامح. "آرشر ـ فيش" هي الهدف الآن.

"شينانو، بانزاي!"

في الساعة ٣،١٧ هشّم الطوربيد الأول بدن "شينانو". أعقبه دوي هائل، وتدحرجت كرة لهب حمراء وبرتقالية على ميمنة الحاملة منقذفة إلى السماء المظلمة. وفي غضون الثواني الثلاثين التالية صدمت "شينانو" ثلاثة طوربيدات في فترات فاصلة من ثماني ثوان، وشقت سبيلها إلى مقدم الحاملة.

أدرك القبطان آهبي أن الارتجاجات منبعثة من رؤوس طوربيد تخرق حاملته. حسناً، قال في سره، ليقدم العدو أحسن ما لديه. فقد كان راسخ الاعتقاد أن "شينانو" تعصى على الضرر.

أمر آهبي: "انها صواريخ طوربيد معادية أيها السادة. ليلزم كلّ مركزه. أمدوني بتقارير فورية عن الأضرار. ايها الملاح ناكامورا، أصدر أمراً إلى مدير الدفة ليحافظ على سرعته القصوى."

نظر من خلال النافذة المواجهة للمنصة. "شينانو" تتمايل بسرعة فظيعة. أيمكن ان تتسبب أربع ضربات طوربيد في هذه الأضرار؟ سفينة في هذه الضخامة وهذه الدروع الكثيفة يصيبها ما اصابها؟ لا شك في أن ثمة خطأ ما. ألم تُجدِ النتوءات المضادة للطوبيد؟

وردت تقديرات الأضرار سراعاً. ومعظمها ذكر فجوات كبيرة والتواءات في القواطع بين حجيرات الحاملة. لقد أدت الانفجارات إلى ضرر أولي محدود، لكن سرعة "شينانو" المتعاظمة وضغط



غمر الماء مقصورات كثيرة بسبب ثقوب في القواطع والابواب. مئات من الضباط والبحارة ذوي الشهامة شكلوا فريقاً لرفع الماء بالدلاء، لكن المياه تابعت ارتفاعها. بدت العملية كأنها افراغ قارب من الماء تحت شلال منهمر. صيحات الرجال المحتجزين تُسمع في أرجاء الحاملة.

القبطان آهبي مدرك أن المقصورات لو كانت محكمة السد لأتاحت حصر الضرر والتحكم بتدفق الماء. ولكن فيما أمواه البحر تنسكب في جسد "شينانو" المحطم كانت الحال تزداد سوءاً. اذا تعذر وقف الدفق فالحاملة هالكة لا محالة.

قرابة الخامسة صباحاً ماء البحر المندفع إلى مقصورة تلو أخرى أديا إلى دمار أعمّ. وإذ تداعت القواطع زاد وزن أعلى الحاملة لا محالة.

التفت القبطان آهبي فألقى إنساين ياسودا ناظراً إليه، وعلى ملامح الضابط الشاب سيماء الكرب الشديد كأنه يحاول ابلاغ قائده تعاطفه واخلاصه. هزّ آهبي رأسه إذ رأى إنساين، وهذا ليس من خُلُقه، ثم أشاح عنه.

الشمس طوق هزيل زهري يكلل الأفق. صورة الحاملة "هيريو" الهالكة، كخيوط الفجر، تحوّم في ركن من ذاكرته. هل سيعيد التاريخ ذاته؟

بلغ مَيَلان السفينة ١٨ درجة، وتوقف مبخّر المياه الحلوة عن العمل. وفي السابعة تعطلت المحركات لنقص البخار، وعند التاسعة خارت قوى "شينانو". مقدمها الضخم يكاد لا يهز مياه البحر. "شينانو" ماتت.

أذن القبطان آهبي بنقل صورة الامبراطور إلى مكان أكثر سلامة. مدّ بحار فتي يده لرفع اللوحة حاني الرأس في خشوع. غلّف الصورة في ورق مانع للماء وقماش "كانفا" وربط الرزمة إلى وسطه، وارتدى سترة نجاة كي تبقى الصورة طافية مهما جرى له.

في أثناء ذلك دنت المدمرات من "شينانو" لانزال الجرحى وانتشال المذعورين والواثبين عن متن الحاملة. وفي الساعة ١٠،١٨ أذن القبطان آهبي لبحارته وضباطه بمغادرة الحاملة ولكن لم يكن معقولاً مطلقاً أن يصدر أمراً باخلائها. فكيف تطاوعه نفسه بالتخلي عن "شينانو"؟

أخيراً بقي وحيداً مع ضباط الاركان. ثم حان الوقت ليودعوه بسرعة. شكر لهم القبطان آهبي شهامتهم ونبلهم واخلاصهم وقال لهم: "أنا فخور بكل واحد منكم. فلتذهبوا مباركين."

صمت القبطان آهبي هنيهة ثم اضاف: "سأبقى على متن شينانو. هذا قراري أتخذه بمفردي. كنت في معركة ميدواي وشهدت قرار القائد ياماغوشي والقبطان كاكو بعدم هجر الحاملة هيريو. وقد استنتجت أن ما فعلاه هو عين الصواب لكل قائد. وداعا أيها السادة."

كان الضباط مشرّبين تقاليد الساموراي ومنها احترام رؤسائهم. فلم يحتجوا على ذلك القرار. وحده انساين ياسودا انتحى جانباً.

أمره آهبي: "أدِّ تحية الوداع وانصرف بسرعة. فالحاملة ستكون عما قريب في خبر كان."

ـ سيدي، أودّ أن أسجّل اللحظات حتى نهايتها، بعد اذنك.

تنهد القبطان آهبي. وحدقا معاً إلى العلم الجديد المرفوع بشمسه الحمراء المشعة في فراغ ابيض.

تحرك بعض بحارة "شينانو" مبتعدين وقد عاموا على قطع خشب في مياه المحيط الباردة. وما لبثوا أن سمعوا هسيساً هائلاً وصرخة ممطوطة ناجمة عن اندفاع البحر إلى المداخن الحارة. حملق البحارة بأحداق واسعة في نظرة أخيرة إلى حاملتهم.

هيكل "شينانو" الأحمر منتصب، ومقدمها يناطح السماء. بقيت للحظة فيما غمرت مياه البحر المساحة المتبقية، واطلقت دوياً موجعاً قبل أن تغور إلى قاع المحيط الهادىء. هتف البحارة بصوت واحد: "شينانو، بانزاي!"

وغرق معها القبطان آهبي وانساين ياسودا. ابتلعهما الهواء الماص الناجم عن غرق الحاملة، مع الاحياء والموتى الذين بقوا داخلها ومئات الرجال المتشبثين بيأس بهيكلها وسطوحها.

في الثانية بعد الظهر كانت مضت على "شينانو" ثلاث ساعات في قاع المحيط، وتوقفت كل عمليات الانقاذ وأمر قائد المدمرات ببث الرسالة الآتية إلى مركز قيادة البحرية اليابانية: "من بين ٢٥١٥ شخصاً على متن شينانو، المفقودون ١٤٣٥ والناجون ١٠٨٠. صورة الامبراطور في أمان على المدمرة هاماكاز. كل المستندات السرية في خزنة محكمة الاقفال وقد غرقت مع الحاملة إلى عمق أربعة آلاف متر."

لقد غرقت كبرى حاملات الطائرات في العالم آنذاك بعد ١٧ ساعة من انطلاقها في رحلتها البحرية الأولى.

"يوم الشكر"

"آرشر ـ فيش" المعَدّة لعمليات الاعماق والغوص الصامت انحدرت إلى

عمق ١٢٠ متراً منتظرة انقضاض المدمرات اليابانية. لم يستمرئ أي منا فكرة قذائف الاعماق. فقد قاسينا أهوالها في اشتباكات أخرى.

همست: "يا رب، ساعدنا."

ثمة مدمرتان فوقنا، نسمعهما بوضوح قرب المسبار. وهتف سكانلان المسؤول عن المسبار: "ها هي القذيفة الأولى آتية يا كابتن."

استجمعنا قوانا. صوت انفجار مكتوم يسمع من بعيد. التموجات لا تحرك الغواصة إلا قليلاً. وفي فترة ١٥ دقيقة احصيت ١٤ قذيفة أعماق. وعلى نحو لا يصدق لم تلامسنا أي منها.

قلت: "انهم لا يعرفون مكاننا."

ثم سمعت همهمة: "الحمد لله."

أبلغنا سكانلان: "انهم يبتعدون يا كابتن."

فعلّق أحد الضباط: "لعلهم ذهبوا لانتشال الناجين."

ـ انهم يخلون الحاملة من دون شك.

بقي سكانلان قرابة ٢٠ دقيقة راصداً ما حسبناه ضجيج تصدع الحاملة. وزاد ارتياحنا مع مضي كل دقيقة، وخلجات "شينانو" الاخيرة تحملها إلينا المياه.

مياه المحيط تمزق "شينانو" وتلوي قواطعها.

في الساعة ١٠،٦ ارتفعت "آرشر ـ فيش" إلى مستوى البريسكوب، فألقيت حولي نظرة فاحصة. الشمس صفراء لامعة. البحر أزرق قاتم يتمور بموجات متفرقة مزبدة. الرؤية ممتازة. لا أثر للحاملة ولا أي قطعة من حطامها.

أصدرت أمري: "استرخوا وابقوا على حذر." وهبطت إلى قمرتي. كنت منهكاً، فاستلقيت على مرقدي وغرقت في سبات عميق.

الخميس ٣٠ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٤ يوم عطلة. طباخونا تمونوا جيداً قبل أن ننطلق في رحلتنا. لقد قدموا الينا كل ألوان الطعام على العشاء مساء

Illustration: Victoria Vebell



العطلة. وحززت بيدي لحم الديك الرومي على المائدة.

أمور كثيرة تدعونا إلى حمد ربنا. لقد فكرت ذلك اليوم - واني موقن بأن كل من كان في الغواصة فكر إيضاً - في مئات الالوف من الجنود المنتشرين في المحيط الهادىء وهم يخوضون حرباً مروعة في المستنقعات والادغال. كلنا على متن الغواصة "آرشر - فيش" كنا نكره الحرب مثلهم، وأملنا أن يتوقف الموت والقتال قريباً.

عدنا في ١٥ ديسمبر (كانون الأول) إلى غوام لاعادة تأهيل "آرشر - فيش". رسونا مترقبين استقبالاً للابطال.

القائد جون كورباس، صديق العمر والقائد السابق للغواصة بوفين، كان أول الصاعدين الى متن "آرشر - فيش" وقد هنأ طاقمها على الانتصار. ثم انتحى بي جانباً وسألني أمتأكد أنا من أن الهدف الذي أصبناه حاملة طائرات. أخبرته أني متأكد من ذلك، لكني لم اعرف أي حاملة هي، إذ انها تختلف عن جميع الحاملات المدرجة في دليل التعرّف.

وجاءتني الصدمة: "آسف يا جو، لكن الاستخبارات البحرية لا تؤيد زعمك. يقولون ان ليس ثمة حاملة في خليج طوكيو، فكيف أغرقتها إذاً؟"

نظرت إليه غير مصدق كلامه. لحظة المجد والفخار تولّي الأدبار.

قال جون: "أتوافق على إبدالها بطرّاد؟ ثمة دلالة على وجود طراد معاد في البحر."

خاطبته مغتاظاً: "لا يا جون، لا، انها حاملة طائرات." وذكرت له الرسوم التقريبية التي رسمتها واضفت: "كأني أراها بعيني."

سأل مستفسراً باهتمام: "أين تلك الرسوم؟ هل هي في حوزتك؟ يمكنني أن أرفقها بتقريرك."

- لست أكيداً من احتفاظي بها. فهي لم تفدنا في التعرف إلى الحاملة.

هزّ جون رأسه خائباً وقال: "كانت ستساعدنا أيما مساعدة يا جو."

لاح لي خاطر فطلبت استدعاء إد مانتزي أمين اللوازم في الغواصة. لعله على علم بما جرى لتلك الرسومات.

قال مانتزي: "أجل يا سيدي، انها معي. أخذتها من القمامة حيث ألقيتها أنت. لقد علموني، عندما التحقت بسلاح البحرية، ألا أرمي شيئاً."



ليباركه الله. في بضع دقائق كان جون يتفحص الرسوم وأنا أشرح له مغزاها.

قال: "هذه رائعة يا جو. سأعرضها مرفقة بتقريرك. ولنرَ ما سيحدث."

ساهمت الرسوم في تعزيز دعوانا. وعندما اطّلعت عليهما الاستخبارات البحرية نسيت فكرة الطراد. وتقرر أن هدفنا الذي أصبناه كان البارجة الحربية الثالثة المفقودة من مرتبة "ياماتو".

الكابتن جوزف ف. إنرايت

بمشاركة جايمس و. ريان ■

■ لدى استسلام اليابان في نهاية الحرب العالمية الثانية كانت "آرشر - فيش" في عداد ١٤ غواصة دخلت خليج طوكيو مع الاسطول الامريكي لحضور الاحتفالات بالاستسلام المقامة على متن البارجة "ميسوري" في ٢ سبتمبر (أيلول) ١٩٤٥.

وفي لحظة توقيع المستندات والوثائق حلق سرب من الطائرات الامريكية المنطلقة من حاملاتها على علو منخفض. لقد انتهت الحرب.

ومنح القائد إنرايت وسام البحرية في ٥ مارس (آذار) ١٩٤٥، لمطاردته "شينانو" وإغراقها.

وورد في التنويه أن وزن "شينانو" بلغ ٧٢ ألف طن، ما يجعلها أكبر بارجة في التاريخ أغرقتها غواصة. ومنحت "آرشر - فيش" تنويهاً رئاسياً. ■



ضجة في مطعم

في اثناء زيارتنا مدينة هيوستن بولاية تكساس قررنا ان نجرب مطعماً أُوصينا به. كان كل صنف من الاطعمة في القائمة مسعّراً على حدة وغالي الثمن. فصحن السلطة المتبلة بدولارين، والبطاطا المقلية باربعة دولارات ونصف دولار، والهليون بستة دولارات وربع دولار. صُدمنا ومع ذلك تناولنا طعام العشاء.

وبعد ان خُدمنا، علت ضوضاء في الغرفة المجاورة حيث كان يجري احتفال بمولد احدهم. فدقّ الخدم النفير وعلا صليل الصقاع. وسأل احد الرواد: "ما هذا الذي يجري هناك؟"

فاجاب احد مرافقينا: "لا بد ان أحدهم طلب صحن هليون!"

هـ.ب.أ.

عالمة آثار

كنت مع زوجتي في سياحة عبر ايطاليا. وأمضينا ذات نهار بين خرائب مومبايي المحفوظة بالرماد البركاني. وخلال لقاء لاحق في فندقنا ناقشنا ما شاهدناه. فسألتني احدى النساء: "هل أعجبتك الخرائب؟" فأشرت بالايجاب. فقالت وهي تهزّ رأسها: "لقد شاهدت خرائب بابل، فلم أجدها حسنة الصنع."

أ.ب.هـ.

كتاب الشهر

ممر الموت

صُوَر مأسَوِيّة من أيّام «حَرب المخيّمات» في بَيروت

بقلم بولين كاتنغ





ممر الموت

كان المستشفى المشرف على مخيم للاجئين الفلسطينيين في بيروت رمزاً للعنفوان والتحدي. وعلى رغم اصابته بقنابل المدافع والدبابات وبالصواريخ ورصاص القناصين، وافتقاره الى الادوية والتجهيزات،
فقد أمكن معالجة عدد كبير من المصابين
وكانت اصابات كثيرين منهم خطرة.
وحين ضاق الحصار وجدت الجرّاحة البريطانية المتطوعة
بولين كاتنغ نفسها مهددة بالموت،
ومع ذلك لم تكن نادمة على بقائها في المخيّم.
وسط القذارة والجوع وخطر الموت كانت تشارك سكان المخيم في روحهم العالية وارادتهم الصلبة في الصمود والبقاء على قيد الحياة. وكتابها "أولاد الحصار" هو القصة المثيرة لذلك الكفاح الذي أنقذ حياة كثيرين في احوال تكاد تقرب من المستحيل. انها قصة فريدة في ذاتها تحمل كل معاني الشجاعة والمشاركة والايمان.

في ٢٦ مايو (أيار) ١٩٨٦، منذ الخامسة والنصف صباحاً، تعرض مخيّم اللاجئين في برج البراجنة ببيروت الغربية للهجوم. حتى في الطبقة التحتية للمستشفى كنا نسمع أصوات الطلقات النارية والانفجارات. وبصفتي الجرّاحة الاولى كان علي اتخاذ قرار مؤلم.

لم نكد ننتهي من اجراء جراحات لأربعة من المدافعين الفلسطينيين المصابين ونجلس لتناول الشاي العربي المحلّي، حتى أدخل جريحان في حالة الخطر الشديد. كان أحدهما، ويدعى فادي، مصاباً بجروح في بطنه وفي جنبي صدره. وكان تنفسه مخنوقاً وهو يتلهف لاستنشاق الهواء. أما خالد الجريح الآخر، فكان اسوأ حالاً، واقتضى أن يتنفس بواسطة أنبوب وكيس تهوئة كان يضغطه ديرك فان دوبين الطبيب البلجيكي الشاب.

كانت لدينا غرفة عمليات صغيرة واحدة وآلة تخدير واحدة وطبيب تخدير. لذا كان علينا اجراء الجراحات افرادياً. وكان الجريحان على شفا الموت، وربما أمكنني انقاذ احدهما. ولكن أيهما أنقذ؟ علي أن اتخذ قراراً فورياً.

قرّ رأينا على انقاذ فادي لانه أوفر حظاً في النجاة، اذ كان تنفّسه ذاتياً. ودامت الجراحة ست ساعات وكانت أول اختبار لي في معالجة جروح الرصاص والشظايا المعقدة. ولكن لم يكن ثمة مجال للتردد. فاستأصلنا طحال فادي واحدى كليتيه وقطّبنا ثقباً في الشريان الأبهر وآخر في الامعاء، ورأينا تمزقاً في الحجاب الحاجز. وتوقف قلب فادي مرتين خلال العملية، فأعدنا خفقانه بالتدليك. وحقنّاه خمسة ليترات دماً فبقي حياً.

لكن خالداً توفي، فشق ذلك كثيراً على الدكتور ديرك اذ شعر بأنه لم يعمل كفاية لانقاذه. فحين أدخل الجريحان المستشفى أعطي فادي أنبوب الاوكسيجين الوحيد لدينا بسبب الجرح في صدره.

وقد لاحظ خالد ذلك فقال محشرجاً: "تريدونني أن أموت؟" ثم انهار وفارق الحياة. ومع علم ديرك بما يقرب اليقين أنه لم يكن في الامكان انقاذ حياة خالد، فانه أبى أن يتعزى.

استقبلنا خلال ثلاثة أيام ما يزيد على ٥٠ جريحاً، كثيرون منهم في حالة الخطر الشديد وأربعة منهم توفوا قبل الوصول الى المستشفى. وبلغ مني الارهاق حداً لم أعد معه قادرة على أن أتذكر أيهم أجريت له جراحات في الليل وأيهم في النهار. واذا بالدبابات تتمركز وتضرب حصاراً حول المخيم. وفي ٣١ مايو (أيار) استيقظت باكراً

ولدت الكاتبة عام ١٩٥٣. ودرست في جامعة ليفربول ببريطانيا. وبعد نيلها شهادة عضوية الكلية الملكية للجراحين عملت مستشارة في مستشفى ميدواي في غيلينغهام. وقبل سفرها الى لبنان كانت طبيبة في قسم الحروق والجراحة التجميلية في مستشفى كوين ماري في سوثمبتون. وكثيرون ممن ورد ذكرهم في كتابها لا يزالون مقيمين في بيروت، انما أبدلت أسماؤهم حفاظاً على خصوصياتهم.

مذعورة اذ تلقى المستشفى اصابة مباشرة بقذيفة استقرت فوق غرفتي الارضية. فأحسست لطمة على صدري لشدة الصدمة. ووسط جلبة تحطّم الزجاج والطوب المتناثر سقطت قذيفتان مباشرتان اخريان.

ومن المدهش أن أحداً لم يصب في المستشفى. وأخبرني ولد مصاب بكسر في رجله بلهجة مثيرة كيف اخترقت قذيفة زجاج نافذة غرفته منطلقة تحت سريره عبر الباب الى الممشى فالى غرفة وضعت فيها امرأة مسنّة، ودفنت في الجدار من دون أن تنفجر.

وفيما استمر القتال أخبرني أحد الممرضين أن قنابل الدبابات تنطلق في خط مستقيم حين اطلاقها، فتصيب طبقات المستشفى العليا البارزة فوق المنازل المحيطة به، بينما تنطلق قذائف مدافع الهاون صعوداً ثم تسقط على نحو شبه عمودي.

وذات يوم كنت أعالج مصاباً بشظية في صدره حين سقطت قذيفة هاون، على الارجح، كادت تودي بحياتي. وكنت أستعد لسحب الدم النازف من صدر الرجل وهو ملقى على فراش تحت النافذة حين حدث التماع ودوى انفجار قوي في الممشى الملاصق.

انهمرت علينا الحجار وعلا الغبار. فنهضت وتحققت من أن أحداً لم يصب، ونقلت الجريح الى سرير آخر. وانتهى كل شيء قبل أن أعي ما حدث تماماً. وكان خوفي من سقوط قنابل بالقرب مني أخف وقعاً مما تصورت.

ميدان المعركة

بدأت رحلتي الى لبنان ذات مساء من صيف ١٩٨٥ اذ كنت أتصفح المجلة الطبية "بريتيش ميديكال جورنال" ووقعت على اعلان للجمعية الخيرية البريطانية «MAP» (١) تطلب متطوعين للعمل في مخيمات اللاجئين.

وكانت لي معرفة قليلة بلبنان، لكن الوظيفة أوحت إليّ التحدي. وكجرّاحة مؤهلة متخصصة بالحالات الطارئة، رأيت أن مهارتي ومؤهلاتي قد تكون مفيدة. لقد راعني وحزّ في نفسي أن هناك مرضى يموتون بسبب غياب العناية الطبية في مستشفى.

زوّدتني «MAP» معلومات عن التعقيدات السياسية في لبنان، ونبهتني الى ترقب مواجهة الخطر والقلق. ولكن ليس من وصف، مهما يكن دقيقاً، يهيىء المرء للمأساة الفاجعة التي تعانيها بيروت.

تبدو المدينة من الجو جاثمة على صخور رأس بيروت البارزة، تحتضنها سلسلة جبال لبنان المكلّلة بالثلوج، فتوحي إلى الناظر جمالا أخّاذاً سرمدياً. لكن هذه الصورة الرائعة سرعان ما تلاشت حين حطت الطائرة في مطار بيروت. فقد تجلّت آثار عشر سنين من الحرب المدمّرة في الابنية المهدّمة المحيطة بالمطار. وكان رجال

(١) Medical Aid For Palestinians وتعني "إعانة طبية للفلسطينيين."

الميليشيات منتشرين على مفترقات الطرق، وآثار الرصاص ظاهرة على سيارة الاسعاف التي أرسلت لتنقلني الى المخيّم.

كان مخيّم برج البراجنة أحد أربعة مخيمات في بيروت الغربية، تحولت ساحات قتال في ما عرف بـ"حرب المخيمات." ولدى وصولي صدمتني مشاهد البؤس والعوز والقذارة في هذا المخيم القائم منذ الخمسينات ومساحته عشرون هكتاراً. وقد بني بالطوب وأصبح مدينة أكواخ مزدحمة مهدّمة بفعل القنابل، تخترقها أزقة ضيقة تعج بالاولاد الذين يلعبون وسط مجار مكشوفة للمياه القذرة تفوح منها الروائح الكريهة وتنتشر فيها الجراثيم والاوبئة.

أما "مستشفى حيفا" الذي تديره جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني فهو في شكل «L» ويتألف من أربع طبقات، وهو يقع في طرف المخيّم الذي تصله به طريق ترابية ضيقة. وقد أصيبت الطبقتان العلويتان بأضرار حالت دون استخدامهما. ويجاور غرفة العمليات في الطبقة التحتية للمستشفى مختبر وغرفة طوارىء وغرفة للاشعة.

وكانت "وحدة العناية الفائقة" مجرد غرفة حُشر فيها خمسة مرضى كانوا يتماثلون بعد جراحات رئيسية، ومضاءة بمصباح كهربائي عار من أي غطاء. وفي زاوية، طاولة للممرضة وضعت حجار اسمنت في مكان احدى قوائمها. أما أكياس المصل فكانت مثبتة بمسامير في الجدران.

كانت في المستشفى ثلاثون ممرضة يعملن بأقصى طاقاتهن في فرق مناوبة تضم كل منها عشر ممرضات. كنا نجري الجراحات يومياً في محاولات لانقاذ مصابين ميؤوس منهم، أملا بنجاح غير مرتقب.

كانت عائلات الجرحى عوناً لنا وعائقاً في آن. كان الاقرباء يأتون بالثياب والطعام، لكنهم كانوا عثرة في طريقنا. وكانت الامهات والزوجات والعمات والخالات والاخوات ينمن بين الاسرة وتحتها وبين أنابيب التمييل وقوارير أنابيب الصدر. وقد ألغينا هذه العادة عندما انقلبت احداهن وهي نائمة ففصلت أحد الانابيب عن قارورته.

عالَم بكامله كان يفصل بين مستشفى حيفا و"مستشفى كوين ماري" في روهامبتون في بريطانيا حيث عملتُ. وعلى رغم كوننا ستة أطباء في المستشفى، منهم جراحان زميلان كنت أبحث معهما في تعقيدات المرضى، فلم يكن لي مرجع من الاختصاصيين المتمرسين الجأ اليهم للاستنارة بنصائحهم.

وغالباً ما شعرت بوحدة موحشة قاتلة.

فترة راحة

صباح يوم سبت، مباشرة بعد اتخاذ القرار بمعالجة فادي، سقطت على المخيم ١٥٠٠ قذيفة في ثلاث ساعات.

أثناء قتال كهذا كنا نضطر الى سحب المرضى، على سبيل الوقاية، الى المماشي

الداخلية. وكان بين المرضى رجلان مصابان بكسرين في فخذيهما ومربوطان الى جهاز مصّ. وكانا دوماً مرحين. وكلما اشتد القصف ازدادا مرحاً وزادت نكاتهما التي أنعشا بها من حولهم وساعداهم على الاحتفاظ برباطة جأشهم. وذات مرة تصنّع أحدهما الارتجاف خوفاً وناداني لمشاهدته، فغلب علي الضحك وقهقهت عالياً.

في ١١ يونيو (حزيران) بعد قتال دام أكثر من ثلاثة أسابيع أُعلن التوصل الى اتفاق لوقف النار. وكتبت في مذكراتي اليومية: "أجْلَوا ثلاث نساء ورجلين. ثم بدأ قصف المخيم من جديد، فأسرع المسعفون الى مغادرة المخيم من دون أن يأخذوا المريض الذي كان في حاجة ماسة الى معالجة في الخارج. اللعنة!"

وعلى رغم وصول قوة فصل في ٢٤ يونيو (حزيران) تكررت المأساة بعد أربعة أيام اذ عاد القصف فجأة فطاول السكان وهم في الشوارع خارج بيوتهم. وما هي الا بضع دقائق حتى وفدت الينا تسع اصابات. الجرحى يملأون المقاعد في غرفة الطوارىء ومدخل المستشفى والمماشي. والدماء في كل مكان. وزاد في المأساة صراخ الاهل والاصدقاء الذين رفضوا مغادرة أحبائهم المصابين. وقد توفي ثلاثة من الجرحى حالاً، وتبعهم آخر، واحتاج اثنان الى جراحة فورية.

وبعدما أنهينا كل ما وجب عمله سمعت أحد اطبائنا يتمتم مرتعشاً: "هذا فظيع، فظيع جداً."

كان الممرض الهولندي بن ألوفس الذي أصبح صديقاً حميماً لي، غادر مخيم برج البراجنة قبل ١١ يونيو (حزيران) تاريخ وقف اطلاق النار، للعمل في مستشفى آخر في بيروت. ثم رجع وأخبرنا عن الجرحى الذين تم اجلاؤهم من المخيم.

قال: "أخذوا اولا الى "مستشفى بيروت." ثم جاء مسلّحون واندفعوا داخل المستشفى شاهرين مسدساتهم واقتادوا الجرحى الى مستشفى آخر بادارة نسيب لأحد المسلحين، وهذا طلب مالا لمعالجتهم. فغلب علي الأسى.

متطوعون جدد

ثبت وقف اطلاق النار فأجلي ٤٥ مصاباً بواسطة الصليب الاحمر الدولي. وكانت تسمع أصوات المطارق طوال النهار فيما سكان مخيم برج البراجنة يصلحون بيوتهم. وركّب لنا درويش، وهو سمكري بدين، بضعة أنابيب جديدة، فتوافر لنا الماء الجاري ثانية. وأصلح بن ثقوب الشظايا التي أصابت خزان الماء المخصص للاسعاف الاولي في العيادة على بعد ١٥٠ متراً من المستشفى، مستنبطاً وسائل لسدّها من مطاط القفازات والخشب والعلكة.

في آخر يوليو (تموز) طرت الى بريطانيا لزيارة والديّ ولتقديم تقرير الى جمعية «MAP». وكما في زيارتي السابقة في فبراير (شباط) لم يغب عن فكري ما أنجزت في بيروت، كشفاء ندب في قدم فتاة عمرها ١٣ سنة، وتدعى سوزان مما مكّنها من انتعال حذاء للمرة الاولى في حياتها. ولم أنسَ كل ما ينتظر عودتي، كجراحات لمرضى

آخرين. فلازمني شعور بأنني أضيع وقتي في بريطانيا. ووافقت «MAP» على رجوعي الى برج البراجنة لمدة ثلاثة أشهر.

وصلت الى مطار بيروت في أغسطس (آب) وكان بن في استقبالي في جو لاهب. وكنت مسرورة لعودتي الى بيروت على رغم الخطر الماثل دائماً، فقد اجتذبني، كما اجتذب سواي من الذين عملوا في لبنان، حسن ضيافة السكان ومحبتهم وعزمهم وقدرتهم على الاستمرار وسط ظروف الحرب القاسية.

ثم وصلت الى مخيم برج البراجنة سوزي وايتون وهي عاملة صحية اسكوتلندية، وهانس وهو نمسوي خبير في العلاج الفيزيائي، كمتطوعين من «MAP». وكانت اقامة ديرك وزوجته لسنة واحدة في لبنان شارفت نهايتها، وكانت البلاد على أحسن ما عرفت من الهدوء. فاعتزمت أنا وبن أخذ عطلة قصيرة قبل مغادرتهما. وذهبنا نحن الاربعة الى جبل الشوف.

في قرية بيت الدين زرنا قصر الامير بشير الشهابي، وهو آخر الامراء اللبنانيين الحاكمين وكانت وفاته عام ١٨٥٠. وفي سهل البقاع الخصب توقفنا في بعلبك حيث رحب بنا العاملون في عيادة للهلال الاحمر هاتفين: "أهلا وسهلا." وشددوا على أن نتناول وجبة لبنانية من البيض المسلوق والخبز والحمّص والزيتون.

يحكى أن بعلبك كانت مأهولة منذ خمسة آلاف سنة وأن سيدنا آدم عاش قريباً منها وأن سيدنا نوح دفن في قرية كرك نوح الواقعة غرب بعلبك.

أمضينا أربعة ايام جميلة في الريف، وبتّ أعرف شيئاً عن تاريخ هذه الارض العريقة. لكنني لم أتوصل الى فهم "حرب المخيمات" التي حاول بن شرح أسبابها، ووجدت أن تفهمها يفوق ادراكي، اذ كان لكل فريق تفسيره الخاص.

لكن الواضح أن العداء بين الافرقاء كان تعمّق وبلغ حدا من المرارة جعل معاودة القتال أمراً لا مفرّ منه. واذا بالميليشيات تتجمع حول مخيم برج البراجنة يوم الاحد ٢٩ أكتوبر (تشرين الاول).

المستشفى الملجأ

عصر ذلك اليوم سمعت الناس يركضون صارخين: "افتحوا الطريق." واذا بأربعة رجال يحملون على نقالة مصاباً يغطي الدم وجهه. وكانت الكهرباء مقطوعة – كما يحدث تكراراً – فوضعنا الجريح في مدخل غرفة الطوارىء حيث كان النور شحيحاً.

جثوت الى جانبه فوجدت نبضه متوقفاً. فمسحت الدم المتخثر من فمه وعنقه وبدأت انعاشه بالتنفس من الفم الى الفم. وكان بن يدلك قلبه.

وكان ثمة أناس في حال هيجان يزدحمون حولنا ويحجبون ما تبقّى من الضوء. فهتفت أن علينا نقل الجريح الى غرفة العمليات حيث لدينا مصباح كهربائي يضاء ببطارية. هناك تفحّصت حلقه بمنظار الحنجرة لأتبين إمكان ادخال أنبوب للتنفّس، فوجدت ثقب رصاصة في جنب رقبته الايسر وثقباً أكبر في الجنب الايمن، وهذه هي

الجروح النموذجية المخيفة التي تحدثها بندقية "إم - ١٦"، اذ تنطلق الرصاصة بسرعة فائقة فتولّد ما يشبه موجة صادمة تخترق الجسم فتسبّب أضراراً هائلة.

كانت حنجرة الرجل متلفة كلياً. كان ميتاً.

وحصل قتال عنيف آخر. وفي تلك الليلة، على سبيل الوقاية، وضعت خزانة الثياب بين النافذة وفراشي الممدود على الارض لتوفّر لي بعض الحماية.

كانت هناك ٣٠ عائلة تحتمي في مدخل المستشفى. وقد جاء أفرادها لكون منازلهم لا تحتمل اصابة مباشرة أو لأنهم يسكنون في أطراف المخيم. كان المستشفى لهم الملجأ الأمين، فوفدوا اليه حاملين الحرامات والطعام ومواقد الكاز.

والى المصابين في القتال، كان هناك مرضى في المخيّم يحتاجون الى عنايتنا، منهم امرأة جبرت ذراعها بعد جراحة لمرفقها، وفتاة من عائلة فقيرة تعالج بسلسلة من الجراحات بغية تصحيح تشوه في رجلها سببه الشلل.

كان المسلحون يمرون أمام المستشفى ليتخذوا مواقعهم القتالية في أطراف المخيّم، وقد شاهدت بينهم أولاداً لا تتجاوز أعمارهم ١٢ سنة. وشرح لي أحد الرجال قائلا: "هذا هو واقع حياتهم. يشبّون في مناخ من العنف والحرب ويريدون أن يكونوا كآبائهم. انهم لا يقاتلون، بل يذهبون الى الجبهة للتدرّب على النظام ونبذ الخوف. إنهم الجيل الطالع الذي سيتولى حمايتنا، فالافضل لهم أن يتمرسوا في القتال منذ الآن."

خلال احدى دورات القتال العنيف شاهدت فتى جعد الشعر في الخامسة عشرة من عمره يدخل المستشفى راكضاً في بدلة القتال الجديدة ويجلس في مقعد وبندقيته في يده. بدا خائفاً والعرق ينصبّب منه بغزارة. وأخذ يتطلع الى غبار المعركة من خلال الباب. وما هي خمس دقائق حتى نهض وهو يصر بأسنانه، فتنفّس عميقاً ورجع راكضاً الى موقعه. وقد رأيته مراراً في ما بعد، انما ليس في حال ذعر كما كان في المرة الاولى.

مغامرة جراحية

في ٤ نوفمبر (تشرين الثاني)، وعلى رغم اعلان وقف اطلاق النار، سقطت قنبلة في احدى الساحات حيث كان أولاد يلعبون، فكانت الفاجعة. هرع الينا الاهل ملتاعين، حاملين أولادهم وهم ينزفون.

فاستقبلنا ١٥ مصاباً كدفعة أولى. وكان منظر الاولاد والدماء تسيل من أجسادهم الطرية يفتت الاكباد.

وكانت الحصيلة ٢٥ ولداً جريحاً وثلاثة قتلى. وقد دعونا ذلك اليوم "يوم مجزرة الاولاد."

في الليلة التالية تلقى بيت درويش السمكري قنبلة أدت الى أصابة زوجته بجرح بالغ في رأسها كشف الدماغ الذي استقرت شظايا داخله. اتصلنا بالميليشيا

المحاصرة لاسلكياً طالبين السماح باخراج المرأة لاجراء جراحة عاجلة لها. فلم نلق جواباً.

أمام هذا الواقع لم يعد أمامنا سوى خيارين: فاما أن نجري نحن الجراحة واما أن نترك المرأة تموت. لم يسبق لاحد من أطباء المستشفى أن أجرى جراحة في الدماغ. ولكن كانت لي خبرة نظرية في هذا المجال. فتباحثنا في الامر مع درويش وقرّ الرأي على اجراء الجراحة.

ساعدني الدكتور رضا، مدير المستشفى، وهو فلسطيني في أوائل الثلاثينات من عمره. كنت في غاية الخوف، فلدينا عدّة جراحية غير متقنة لمثل هذا العمل الدقيق. وكانت الممرضة الشابّة نُهى التي تشرف على غرفة العمليات، شهدت اجراء جراحات دماغية في لندن وباريس، فكانت خير عون لي.

وفيما كنت أشق رأس المرأة نصحتني نهى: "يجب أن توسّعي الشق أكثر لاجراء الجراحة بسهولة أكثر."

انتزعنا بالكلّابات شظايا القذيفة والعظم المحطّم، وأزلنا نسيج الدماغ التالف بجهاز مصّ منخفض القوة. وبيّنت لنا نهى كيف نوقف النزف باستخدام محلول "هيدروجين بيروكسيد."

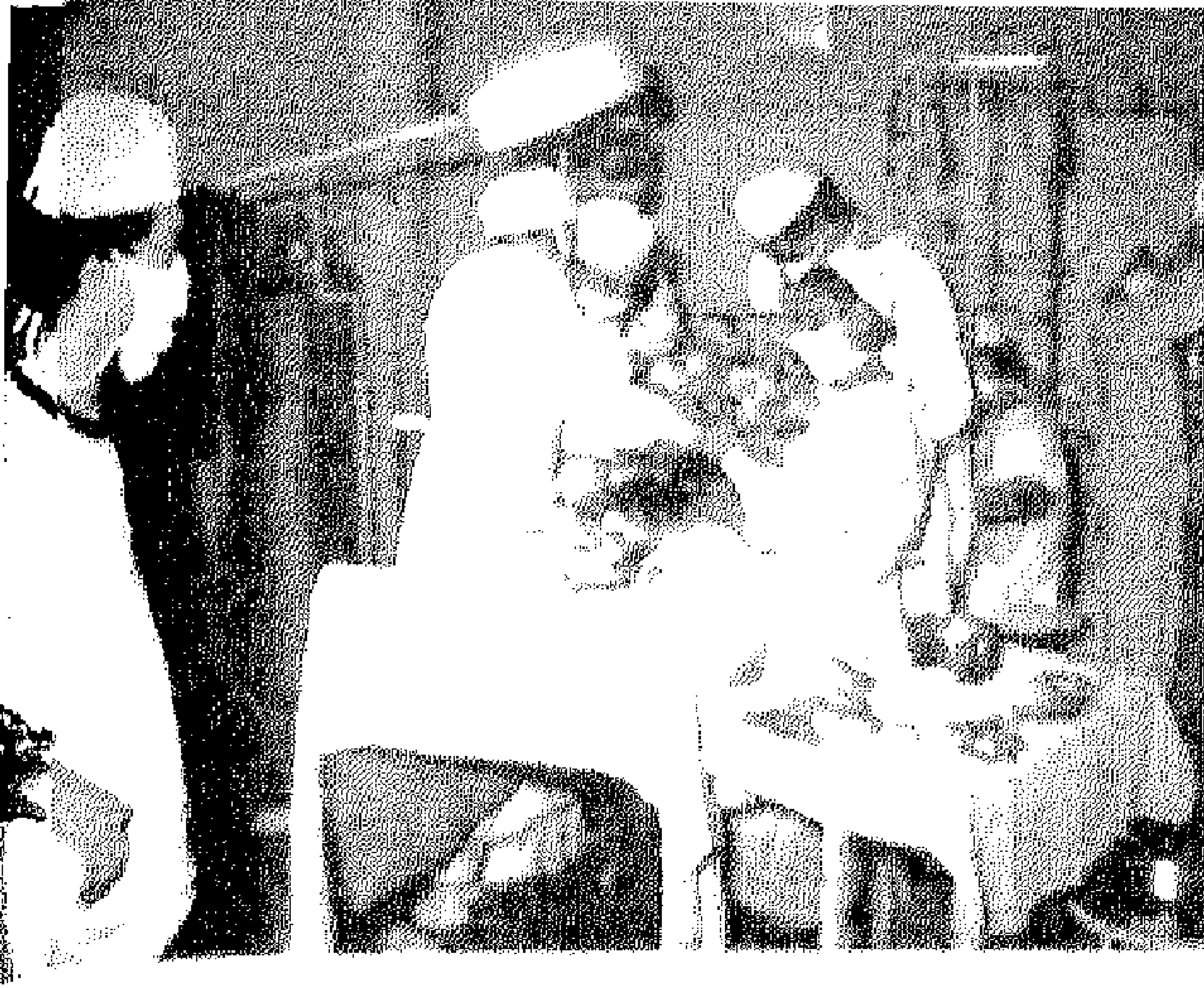
استغرقت الجراحة خمس ساعات وانتهت في الرابعة والنصف صباحاً. ولم اشعر بألم الظهر والارهاق والتيبّس الا عندما بدأت المرأة تستعيد وعيها.

وشفيت زوجة درويش. ويعود الفضل في بقائها حية الى نهى.

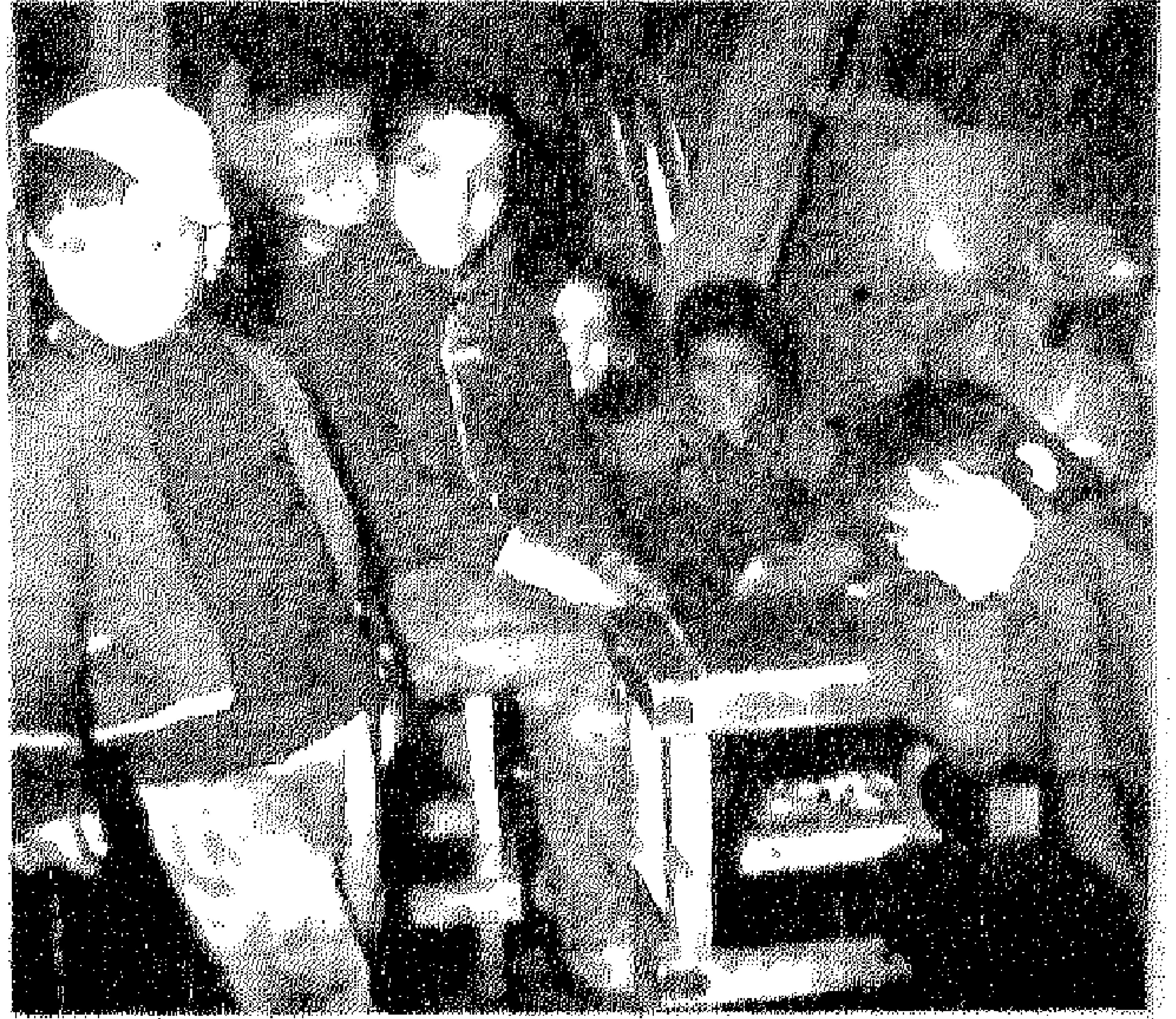
أصدقاء في الضيق

في الاسبوع التالي انقطع التيار الكهربائي عن المخيم كله، فاعتمد المستشفى مولّدين يعملان بالديزل. ومن حين الى آخر كانت تسقط قذائف على المستشفى فيصاب خزان الماء فيجري منه الماء الى المماشي ويتجمّع بعمق بضعة سنتيمترات يستحيل معها الحفاظ على الاقدام جافة. وعقد المطر المشكلة.

في ١١ نوفمبر (تشرين الثاني) دوّنت في مفكرتي: "كان الطقس بارداً ورطباً طوال خمسة أيام. والى استحالة تجفيف ملابسي المبللة، كانت ملابسي الجافة تتحول رطبة. ولكم حلمت بالجلوس أصطلي بنار تتوهج في الموقد فتبعث فيّ الدفء، وبطبق يخنة شهية وزلابية تشدد عزيمتي المتراخية. بدأت أشعر بالوهن يدب في نفسي ومفاصلي. لقد سئمت هذه الحرب الفارغة إلّا من هدف الهيمنة والخطف والارهاب وقتل الأبرياء وهدم بيوتهم على رؤوسهم. هؤلاء السكان الغارقون في ظلام اليأس والعتمة باتوا رهائن في لعبة القوى الدولية المتصارعة، وضحايا سياسة التفرقة التي تفجّر الأحقاد والصراع بين أبناء الشعب الواحد والوطن الواحد والمذهب الواحد بغية التسلّط. فعسى أن تكون معاناتهم وآلامهم قرابين تشفع بهم فيخلصون ويخلّص لبنان من الجحيم الذي زجته فيه الأطماع والمؤامرات الدولية والاقليمية.



في غرفة العمليات.



عائلة فلسطينية في كوخها داخل المخيم.



امرأة فلسطينية تحتضن الدكتورة كاتنغ امتناناً.

كنت قلقة على بن. وحين جيء بثلاثة قتلى في ذلك اليوم حدثتني نفسي أن أتطلع تحت البطانيات لاتأكد من أن بن لم يكن أحدهم. لذلك بت أدرك شعور أهل المصابين حين يصرّون على البقاء خارج غرفة الطوارىء لشدة لهفتهم لمعرفة حال أعزائهم.

بدا المستشفى كأنه أصبح هدفاً متعمداً للقصف. ففي ١٥ نوفمبر (تشرين الثاني) انتقلت الى الطبقة التحتية مع العاملين في غرفة العمليات بعدما حطمت الشظايا نوافذ غرفتي. كذلك فعل الدكتور رضا مدير المستشفى. وكان عشرة منا ينامون في تلك الرقعة الضيّقة على أسرّة وفرش معدة للمخيمات. كان المكان أكثر دفئاً وودأ. انما الافتقار الى الخصوصية كان مصدر ازعاج كبير في كثير من الاحيان.

فشلت المساعي لوقف القتال وبقي المخيم صامداً. واستمر القصف على مستشفى حيفا فتحطمت النوافذ التي كانت لم تزل سالمة. وبترت احدى القذائف قدم فتاة كانت تلعب في مدخل المستشفى، وطاولت شظايا سيارة اسعاف متوقفة. وبعد قصف طويل بقذائف الدبابات انهارت الطبقة العليا من المستشفى.

وحين قدم أحد القادة الفلسطينيين ذات ليلة الى غرفة العمليات ليرى ما نحن في حاجة اليه، سألته نهى كم سيستمر الحصار. فأجابها: "تسعين يوماً على ما أعتقد."



"مستشفى حيفا" بعد فك الحصار.

هجمات انتحارية

كانت رؤية الاولاد المصابين يستعيدون عافيتهم مكافأة طيبة لجهودنا. والاولاد يتماثلون أسرع من البالغين. ولكن ما ان استعادت الدفعة الاولى منهم نشاطها حتى أصيب آخرون بجروح. وفقدت ابنة ١٨ شهراً بصرها من جراء شظية صغيرة متلّمة في حجم حبة فستق اخترقت احدى عينيها وخلفيّة أنفها وأتلفت عينها الثانية واستقرت تحتها.

وأصيب بالتفجير ذاته صبي عمره ١١ سنة في صدره وبطنه. فأجريت له جراحة. وعندما أفاق غلب عليه الأسى حين رأى ثمانية أنابيب مربوطة بجسمه. فكان يبدو رزيناً كلما نزعت عنه أحد الانابيب ويحاول الظهور مظهر الرجال. لم يصرخ



الدكتورة بولين كاتنغ والعاملة الصحية سوزي وايتون في برج البراجنة.

ولم يتأوه مرة وأنا أغيّر ضماداته، بل كان يساعدني في نزع قطب جروحه وهو يضحك.

كان القتلى يسقطون في المخيم بمعدل قتيل واحد يومياً. وبعد اقامتي هناك لمدة سنة بت أعرف كثيرين من السكان. وكان الحزن والالم يكادان يصعقان الدكتور رضا كلما مات قريب له أو صديق.

كان التبرع بالدم في مستشفى حيفا أفضل منه في مستشفيات أخرى لأن عائلات المصابين وأصدقاءهم في المخيم كانوا جاهزين للتبرع في أي لحظة بدم جديد. وحين أصيب شاب بشظايا قنبلة خلفت فيه ٥٠٠ جرح من رأسه الى قدميه، نقلنا اليه ستة ليترات من الدم (علماً أن الجسم يحتوي على أربعة ليترات فقط) وبذلك أمكن إنقاذه.

واذا احتجنا الى مزيد من الدم كان النداء يعلن في مكبّر صوت في الجامع، وسرعان ما يفد المتبرعون للعطاء. ولم تُجْدِ توسلاتنا المتكررة للسماح لنا بنقل الطفلة الضريرة الى مستشفى آخر. وكان أحد الاطباء يوليها عناية دائمة، فينظف عينيها يومياً ويمسحهما بمرهم مطهّر. وبعد أسبوعين فتحت عينيها قليلا وظهر أن في امكانها الرؤية بإحداهما، فاذا حُرك شيء أمام عينيها كانت تتابعه بتحريك رأسها.

كان هانس، الاختصاصي بالعلاج الفيزيائي، مؤمناً تقياً. فأخذ يبكي. وقد أخبرني لاحقاً أنه كان يصلي بحرارة ويطلب من الله أن يشفي الطفلة.

في أوقات الهدوء كنت اتحدث الى نهى التي، ادراكاً لمسؤوليتها، نادراً ما غادرت مركز العمليات التي تشرف عليه. فسألتها ذات مساء عن أهلها.

قالت لي: "قتلت شقيقتي خلال إحدى الغارات الإسرائيلية. وذهب والدي يفتش عنها فعثر عليها ميتة. وفي طريق عودته الى البيت قتل بانفجار سيارة ملغومة. وقد قررت ألا اتزوج وأنجب، لأن الاولاد والازواج يموتون بكثرة في هذه البلاد."

لم أدرِ ماذا أقول لها. وتابعت: "فكّرت في أن أواصل عملي في "مستشفى غزة" في مخيم صبرا. لكن الاسرائيليين جاؤوا ودمروا كل شيء. ثم أعيد بناء المستشفى. لكنه وقع لاحقا تحت سيطرة الميليشيات. وفي الشهر الاول لحرب المخيمات نُهب المستشفى وحطمت المعدات ثم أحرق البناء. وقد قتل بعض العاملين والمرضى في المستشفى وهرب الباقون. ومستشفى غزة خال تماماً الآن."

وتبادر الى ذهني: وسيلقى مستشفى حيفا المصير ذاته. لكنني حاولت كبت هذه الأفكار التشاؤمية التي راودتني.

تضييق الحصار

ثم برزت مشكلة دفن القتلى. في بعض الاحيان كان البراد الذي يتسع لستّ جثث يحمّل فوق طاقته فتحشر فيه ١٥ جثة كانت تدفن دفعة واحدة. وذات مرة خلال دفن جماعي في المقبرة الواقعة في طرف المخيم، وقف أحد الحمّالين في مكان مكشوف.

وما ان صرخ رفيق له محذراً حتى دوى طلق ناري فسقط على وجهه يعضّ الرمل ومات لاحقاً. على أثر هذا الحادث أصبح الدفن يجرى في بقعة مصوّنة قريبة من المستشفى.

بدأ الحصار المرهق ينال من الشباب المدافعين عن المخيم. كانوا يتناوبون القتال لفترات طويلة في خط الدفاع الاول، ويشاهدون رفقاءهم يموتون الى جانبهم، ويتساءلون عمن سيليهم. وطلب بعض المقاتلين مسكّنات من بن في عيادة الاسعافات الدولية، بحجة أن أمهاتهم وشقيقاتهم لا يستطعن النوم.

كان سكان المخيم على قسط وافر من الاخلاق العالية والسلوك القويم، انما كانت هناك تجاوزات وانحرافات.

قرابة نهاية ديسمبر (كانون الاول) أصبحت الاحوال المعيشية قاسية جداً واستمر القصف عنيفاً من دون توقف. وكانت مئات العائلات تجمعت في الملاجىء والطبقات السفلى طوال شهرين. وكانت النساء من دون غيرهن يخاطرن بالخروج لجلب الماء من صنابير في أطراف المخيم. ولم تكن للملاجىء أية نوافذ أو وسائل صحية أو اضاءة. وزارت سوزي وايتون بعض المرضى في تلك الملاجىء وقالت ان الروائح فيها لا تطاق.

جُمعت النفايات في الساحات وفي مواقع المنازل المهدّمة، وكانت الجرذان تسرح وتمرح في كل مكان. وذات يوم بعد الظهر جيء بامرأة مسنّة الى المستشفى كانت مقعدة بسبب سكتة دماغية (فالج) ولازمت فراشها ثلاث ليال. ولكونها عاجزة عن طلب المساعدة فقد أكلت الجرذان إصبع احدى قدميها. وأنقذها أهلها أثناء فترة توقف القتال ونقلوها الى المستشفى. لكن الالتهاب السام كان تفشى في قدمها الى حد أنها توفيت بعد عشرة أيام.

وزادت صعوبة الحياة بعدما انهارت الطبقة الثالثة من المستشفى، اذ دُمّر خزان الماء ولم يعد الماء الجاري متوافراً لدينا. وكاد وقود الديزل للمولّدات الكهربائية أن ينفد. لذلك كنا نستخدم الكهرباء للحالات الطارئة فقط. وكان المستشفى، وأكياس الرمل تسدّ نوافذه، مظلماً حتى في النهار.

وحين نفدت كل شموع الاضاءة لديّ زوّدتنا بن شموعاً مصنوعة في المنازل من مادة دهنية للطهو جرى تذويبها وسكبها في فناجين قهوة وصنعت فتائلها من الشاش. حاولت وبن أن نكون متحفظين، لكن ابنة أم جمال التي كانت تعمل في التنظيف أحبت بن. وكانت الطفلة في السادسة من عمرها، واسمها شمس، تصحب والدتها الى المستشفى، وكانت تسألني بصوت عال كل يوم: "هل سيأتي بن ليقابلك؟" وكانت امها تنهرها لكي تلزم الصمت.

كانت الخضر نفدت قبل وقت طويل، في ما عدا القليل من البصل والبطاطا. وأصبحت وجباتنا مزرية. كان غذائي اليومي رزاً مسلوقاً وبرغلا وعدساً، فضلا عن بعض أطباق كان يجلبها لنا الاصدقاء أحياناً، ووجبات سريعة يحضرها بن بخبز مقلي محلى بالسكر والزبدة والحليب.

كان موضوع حديثنا المفضّل في أي من المطاعم سنأكل بعد انتهاء القتال. وكنا

نعدّ الوجبات والمآكل الشهية التي تناولها كل منا في مناسبات كثيرة، فيسيل لها لعابنا.

وفيما اقترب عيد الميلاد بدأنا نحن الاربعة الاجانب العاملين في المستشفى تحضير بطاقات معايدة بما تيسر لنا من علبة الالوان لدى سوزي وكرتون العلب وأقلام الحبر الملوّن. فرسمتُ لصديقي بن مستشفى حيفا وفوقه نجمة الميلاد والقذائف تتساقط عليه. وابتدعت سوزي روزنامة رسمت فيها صورة من وحي العيد. وصنع هانس بطاقات كتب فيها آيات جميلة. وكان بن يهيىء طعام العيد.

ولم تكن هناك أية هدايا نتبادلها.

عشاء لا يُنسى

كانت مهمتي الاولى صباح عيد الميلاد مساعدة الطبيب المولّد في جراحة قيصرية عسيرة. ولدت الطفلة في الثامنة والنصف صباحاً، وذهبت بعد ذلك لتفقد عماد، الشاب الذي بترت ساقه.

تبعنا نظاماً يقضي باخلاء الغرف من الزائرين في أوقات تغيير ضمادات الجرحى، أكثرهم لم يريدوا كشف أجسادهم. وإذ تباطأ الزوار هتف عماد بنزق: "اخرجوا كلكم." وكان الى جانب سرير عماد شاب يدعى صافي كانت عيناه مضمدتين على أثر سفع رملي ولده انفجار كاد يفقده بصره. فنادى أصدقاءه: "هاي، الى أين أنتم ذاهبون؟"

فرد عماد بغضب: "ان هذا أوان تغيير ضماداتي." فاحتج صافي واحتدم الجدل بين الشابين. فهتف عماد مهدداً: "أسكت والا قطعت رأسك."

فصرخ صافي: "أسكت أنت والا قطعت رجلك."

عندئذ ساد الوجوم الجميع. فهمست في أذن عماد بالعربية: "هل يعلم أنك فقدت ساقاً؟"

أجابني: "نعم، وهو ينوي بتر الساق الاخرى!"

وتنفست الصعداء حين عادا بعد قليل الى الضحك والممازحة.

وبعد الظهر أُدخل شابان على عجل غرفة الطوارىء. وكان أحدهما ميتاً بشظايا القنابل والآخر مصاباً بكسور عدة في جمجمته. وحاولنا على مدى ساعتين أن نبعث فيه الحياة بضخ الهواء يدوياً الى رئتيه، ولكن لم يبدر منه أي جهد للتنفس.

ألقى موته ظلا كئيباً على عشاء الميلاد الذي أقمناه في العيادة على طاولة بين محفّات الاسعافات الاولية وعربة التضميد. كان بن جمع من الجيران علبة لحم معلب وقليلا من رب البندورة (الطماطم) وبصلة وقطعة جبنة، وطها بها معكرونة. وكان هذا التغيير عن أكل الرز المسلوق لذيذاً ومنعشاً.

كان الماء يرشح من سقف المستشفى، وكان فطر أخضر وأسود أخذ يتكون ويزحف نزولا على أحد الجدران. لكن غرفة العيادة ظلت جافّة. وكانت الرفقة جيدة والطعام والشراب لذيذين بعثا فيّ الدفء والنشاط.

كانت مأدبة عشاء لن أنساها أبداً.

في ٢٩ ديسمبر (كانون الاول) أعلنت هيئة الاذاعة البريطانية (BBC) في نشرة أخبارها العالمية أن الميليشيات قررت وقف اطلاق النار كتعبير عن حسن نية لمناسبة عيد رأس السنة. وبعد يومين أدخل بلال، وعمره سبع سنوات، منقولا على حمّالة.

كان منظر الصبي بشعره الجعد وعينيه البنيتين الغامقتين ووجهه الملائكي مؤثراً لن أنساه ما حييت. كان بلال يجتاز أحد الازقّة فيما انتصب أحد القناصين في بناية عالية خارج المخيّم يرصده، الى أن مرت صورته في منظار التسديد فضغط الزناد. واذا بالرصاصة تخترق ذراع بلال اليمنى وجنبي صدره وتخرج من ذراعه الثانية. وفي غرفة الطوارىء كان بلال يختنق وهو يشهق ناشدا الهواء كسمكة خارج الماء.

أولجنا أنبوبا لسحب الدم من جنبي صدره. فانتفخت رئتاه وتحسن تنفسه. ولدى نقله لتصويره بالاشعة لاحظت أنه لم يحرك رجليه منذ وصوله الى المستشفى. فأجريت الفحوص اللازمة للحال. أخذت أقرص رجليه، لكنه لم يحس شيئاً. كانت الرصاصة قطعت الحبل الشوكي وسببت له شللا نزولا من خصره سيلازمه مدى الحياة.

كنت رأيت قبلا كثيرين من الاولاد المصابين، لكني وجدت في مأساة بلال فاجعة أثارت فيّ الشفقة والمرارة والنقمة. اذ ماذا جنى هذا الولد البريء الطري العود ليستحق هذا المصير المؤلم؟ ألمجرد أن شاءت المصادفات أنه كان في المكان غير المناسب في الوقت غير المناسب؟

شكرت الله لأن الجروح في ذراعي بلال كانت سطحية، فهو سيحتاج اليهما كثيراً. ثم أجلسناه في السرير ورأسه مرتفع قليلا مما يساعد في استكمال سحب الدم من صدره النازف.

تبسّم بلال للاهتمام الذي أوليناه اياه. وكتبت تلك الليلة في يومياتي: "السلام على من يصدق وقف القتال."

نهش الجوع

في منتصف يناير (كانون الثاني) غدا قصف المخيم متقطعاً. وكان معظم المصابين ضحايا القناصين حين يخرجون الى الازقة من كابوس الملجأ الذي لم تبقَ لهم قدرة على احتماله.

ثم حدث أن انهارت أحدى رئتي بلال. فأولجنا في صدره أنبوباً آخر للسحب، فلم يتذمّر وكان يتماثل وروح المرح تغلب عليه. كنت أعوده يومياً وكان يلعب بسمّاعتي ويصغي الى نبضه. وكان بن يجلب له لعباً. وخفّت حدة أزمة الوقود في المخيّم حين وصل رجل أمضى ثلاثة أسابيع يحفر نفقاً بلغ طوله ٤٠ متراً، الى خزانات في الارض تحت محطة وقود في الطريق قبالة المخيّم. كانت الخزانات شبه ملآنة وكافية لتشغيل المولّدات الكهربائية ١٢ ساعة يومياً لمدة ستة أسابيع.

رفع ذلك معنوياتنا الى حد كبير، وإن لم يكن من السهل المحافظة على معنويات عالية.

وكنا نشاهد التلفزيون ذات ليلة، فاذا بنا أمام مباراة يسعى فيها المشتركون الى تحطيم الرقم القياسي العالمي في صنع أكبر شطيرة (سندويش). وكدنا لا نصدق ما رأينا حين أخذوا يحشون النقانق وسمك السلمون والمخللات وكثيرا غيرها في شطيرة بلغ طولها ٣٠٠ متر. كنا نشاهد هذا العرض والألم يحزّ في نفوسنا اذ كانت مؤونتنا من الطعام نفدت. لم يعد هناك حليب مجفف للاطفال، فاستعضنا عنه باعطائهم الشاي مع السكر. ونفد الدقيق أيضا فلم يعد لدينا خبز.

ثم بدأ الجوع يعضني بنابه. كنت أعلم ان الجميع جائعون، لكن أحداً لم يتكلم في هذا الامر. وكان أدهم، شقيق أحد المرضى السابقين، يجلب لي بعض الرز والزيتون، فأحتجُّ لأني لا أريد حرمان عائلته الطعام.

فيقول لي: "ما دام لدينا القليل فسأجلب لك القليل. وحين لا يعود لنا شيء فلن أجلب لك شيئا."

استغاثات ملحّة

لم تعد "حرب المخيمات" تستأثر بنشرات الاخبار التي ركز معظمها على موجة الخطف التي اجتاحت بيروت الغربية، بما فيها خطف تيري ويت المبعوث الخاص لرئيس أساقفة كانتربري. فغلب علينا اليأس اذ شعرنا أن العالم نسينا.

في الاسبوعين الأخيرين من يناير (كانون الثاني) زادت مخاوفي من اجتياح المخيم والقضاء علينا جميعاً. وعزز خوفنا مقتل نبيلة برابر من منظمة اليونيسيف، وكانت مسؤولة عن معالجة شؤون الفلسطينيين في بيروت وتأمين العون والمأوى لهم.

فأرسل الدكتور رضا نداء عبر جهاز اللاسلكي الى وكالة "الاونروا" يناشدها ادخال المؤن الى المخيم. لكن نداءه لم يلق جواباً. وذلك لم يدهش بن الذي قال: "لم يعد أحد يهتم بالفلسطينيين. لقد باتوا مشكلة يود العالم كله أن يتخلص منها."

لذلك، على رغم تعرضنا شخصياً للخطر بسبب جنسياتنا الاجنبية، قررت أن علينا نحن اسماع صوتنا للعالم وايقاظ الضمائر المتحجّرة. ووافق بن وسوزي وهانس على الفكرة. فلن نقف مكتوفين عاجزين ونرى سكان المخيم الأبرياء من أطفال ونساء وشيوخ يتضورون جوعاً ويعانون البرد ويموتون تحت سمع العالم الغافل اللامبالي وبصره، ضحية السياسة المجرمة التي لا يد لهم فيها.

فحررت بياناً أرسله الدكتور رضا لاسلكياً بعد ظهر ٢٣ يناير (كانون الثاني) الى الطبيب المسؤول في مخيّم مار الياس للاجئين الفلسطينيين الذي يبعد كيلومترين ونصف كيلومتر، وجاء فيه:

"الحال في مخيم برج البراجنة خطيرة جدا. ويعيش السكان في ظروف قاسية.

فالمخيم لا يزال محاصراً منذ أكثر من ثلاثة أشهر، ونحن وسكان المخيّم العشرة آلاف نعاني البؤس والحرمان. وهناك عائلات كثيرة ينقصها الغذاء وتكاد تقضي جوعاً."
واختتم البيان بالآتي: "نرجو باسم الانسانية والرحمة رفع الحصار حالا." الامضاء: "الدكتورة بولين كاتنغ، جراحة بريطانية، بن ألوفس، ممرض هولندي، سوزان وايتون، عاملة صحية اسكوتلندية." وشاء هانس أن يبقى مجهول الهوية لان أمه، كما شرح لنا، عصبية المزاج. واذا عرفت بالمأزق الذي هو فيه فقد يقضي ذلك عليها.

طلبنا من طبيب مخيّم مار الياس أن يوزع بياننا على منظمتي "الاونروا" والصليب الاحمر وعلى أي هيئة فاعلة كما يرى هو مناسباً. وفي اليوم التالي أخبرتني احدى ممرضاتنا أن البيان أذيع في نشرات الاخبار باللغة العربية. ورأينا في ذلك بارقة أمل. ورجوت أن تتصدر "حرب المخيمات" الاولوية في مباحثات مؤتمر القمة الاسلامي الذي كان من المقرر عقده في ذلك الاسبوع.

في المؤتمر احتلت حرب الخليج بين العراق وايران معظم أعمال الجلسات. ونوقشت "حرب المخيمات" وأعلنت إدانتها.

لكن الحصار استمر.

المجاعة

اشتد الجوع فعمد السكان الى ذبح بغلين وزع لحمهما. وقد حزن بن لذبح أحد البغلين اذ كان عالجه لاصابته بشظية.

وفي ٢٨ يناير (كانون الثاني) حاول بعض الانصار ادخال علب حليب مجفف، لكن الشاحنة التي كانت تنقلها تعرضت للرصاص لدى اقترابها من مدخل المخيم مما أفزع السائق فتركها ولاذ بالفرار. في تلك الليلة تسلل ثلاثة أولاد الى الشاحنة وأخذوا بعض علب الحليب وعادوا بها الى المخيّم. فتسنى لنا أن نشرب حليباً مغذياً. ولكن سرعان ما نفدت الكمية.

في ٢٩ يناير (كانون الثاني) أصيبت امرأة في ساقيها حين جازفت بالخروج لاقتلاع بعض العشب من أطراف المخيم لتقيت أولادها الجياع. وهي لم تذق طعاماً منذ ثلاثة أيام.

كتبت في مذكراتي: "يسيطر الخوف على السكان ويعضّهم الجوع. إنها التعاسة تستحيل ألماً صارخاً في عيونهم." الا أن بعض الشبان ما زالوا يسترون لوعتهم بمظاهر الشجاعة. وأحدهم، وهو متزوج امرأة بدينة، قال مازحاً انه في أتم حال لان في امكانه أكلها اذا ازدادت الأمور سوءاً. وهذا أضحك الجميع. فما كان من زوجته الا أن شدّته بأذنيه. أما في ما يختص بي فقد وافق الجميع على أني نحيفة لا أصلح لان أؤكل.

كان السكان الجياع يتجمعون خارج مطبخ المستشفى أملا بالحصول على بعض فضلات الطعام. لكننا نحن أيضاً لم يعد لدينا طعام ولا فضلات طعام لنعطيهم.

واجتمع ذات يوم نحو ثلاثين شخصاً حاملين طاسات وهم يتصايحون ويتزاحمون طالبين بعض الفتات. فبكيت تأثراً لهذا المشهد المفجع.

وقلت للممرضة الفلسطينية التي كانت الى جانبي: "انه لامر فظيع جداً أن تصل بهم الحالة الى هذا الدرك من البؤس."

فأجابتني: "ارجوك، كفي عن البكاء، ان هذا لقدرنا."

وعلى رغم انه كان لا يزال لدينا في المستشفى ما يؤمن أودنا، فقد خفف استهلاكنا الى ٨٠٠ وحدة حرارية يومياً. وأخذنا نفقد وزننا بمعدل ينذر بالخطر. فقد نهض هانس ذات صباح فشعر بدوار ووقع على الارض فلازم فراشه. وأصبحت تحركاتنا بطيئة حذرة، نمشي ساهمين سادرين كأننا في حلم. أما أنا فشعرت بأنني أموت جوعاً، واضطررت الى البقاء جالسة لعجزي عن الوقوف طويلا.

كتبنا بياناً ثانياً هو التماس يائس للمساعدة:

"بلغت الحال في مخيم برج البراجنة حداً لا يطاق. نناشد جميع الافرقاء المتقاتلين أن يوقفوا الحرب. ونلتمس من منظمة الامم المتحدة أن تعمل على وقف فوري للنار لكي تتمكن وكالات الغوث الدولية من ادخال الغذاء والدواء الى المخيّم."

في اليوم التالي سمعنا هذا النداء مذاعاً في نشرة أخبار هيئة الاذاعة البريطانية (BBC) مع ذكر اسمي. فقلت في نفسي: أخيراً لا بد من أن يحصل شيء ما.

حزن وفرح

كانت دورتنا الصباحية على المرضى محبطة في ١٣ فبراير (شباط). كان هناك فتى في الحادية عشرة من عمره وفتاة في السادسة على وشك الموت بسبب جروح ملتهبة. لم تعد لدينا مضادات حيوية (أنتيبيوتيك) ولم يكن في مقدورنا سوى رؤية الولدين يموتان. وكنت في حال اعياء شديد ولم أكن تناولت طعام الفطور.

بدأ القصف في العاشرة صباحاً. فذهبت الى غرفة الطوارىء حيث راعني أن أرى وصول اول الجرحى. كان مراهقاً يغطيه الغبار وقد بترت كلتا ساقيه.

وتتابع وصول الجرحى. أحضر سبعة رجال وأولاد بترت ساقا كل منهم، وسبعة آخرون يعانون اصابات خطيرة. وعلمت أن قنبلة سقطت وسط جماعة من السكان كانوا يشربون الشاي وأدت الى هذه الكارثة الكبيرة. وبدت غرفة الطوارىء مثل مسلخ.

ومن الذين قطعت سيقانهم مات أربعة للحال. وعمّ الذعر المخيّم لدى انتشار النبأ، وأقبل الأهلون ينوحون ويولولون فيما انصبّت جهودنا اليائسة على انقاذ الباقين. وكان ستة منهم يحتاجون الى جراحات رئيسية. وما ان مضت ساعة حتى سقطت قنبلة على الطريق المؤدية الى المستشفى، فقتل شخصان وجرح أربعة. فهرعنا وثيابنا ملطخة بالدم الى غرفة الطوارىء حيث رأيت أحدهم يحاول اسعاف رجل على الارض بانَ جلياً أنه ميت. فصحت: "اتركه واهتم بغيره."

كان ذلك كابوساً رهيباً، والحصيلة ستة قتلى و٤٢ جريحاً.

توقف القصف في المساء. وكنت مستلقية في سريري منهكة واذا بشاب يدخل ليخبرني انني مطلوبة على اللاسلكي. واضاف: "تعالي بسرعة، انه أمر مهم جداً."

كانت بطاريات اللاسلكي في المستشفى قد خبت. فتوجهت الى مقر احدى المنظمات في المخيم برفقة بن. أخذت سمّاعة اللاسلكي هناك وقلت: "هالو" واذا بي أتكلم مع جيم موير، مراسل هيئة الاذاعة البريطانية في قبرص. فشرحت له تفاصيل أحداث النهار. وكم كانت دهشتي كبيرة حين سمعت بعد ذلك صوت والديّ. وعلى رغم سوء الاتصال فقد هتفت عالياً انني بخير وأتطلع الى تناول يخنة وزلابية من صنع أمي.

سألني جيم موير عما اذا كنا نحن الاجانب نريد أن "نُنقذ." لم تكن الفكرة مرت في خاطري قبلاً. واذ عرضت علينا الآن فقد بدا التخلّي عن مرضانا وزملائنا وأصدقائنا منافياً للمهمة الانسانية الشاقة التي ندبنا لها أنفسنا، وخصوصاً في هذه الظروف القاسية حيث يموت سكان المخيم قصفاً وجوعاً ومرضاً ويتعذر إنجادهم بالمساعدات الحياتية الضرورية.

أجبت موير: "لن أترك المخيم قبل أن تنتهي المأساة."

ووافقني بن على ذلك.

رجعنا الى المستشفى في ضوء القمر. بعد كل ما جرى، رأيت أنه قد لا يكون هناك وقف للقتال مطلقاً. وقلت لبن: "من المحتمل أن نموت هنا." فرد: "أعرف ذلك."

غادرنا المستشفى وعدنا الى غرفتي التي لفّها الظلام. ولم يكن لدينا شيء للأكل ولا للشرب. فقال بن: "لست بنادم على مجيئي الى هنا على رغم كل شيء."

أجبته: "وأنا أيضاً." فمنذ نشأتي غرس فيّ والداي الايمان بالعدالة والحق. ورأيت أن ما يجري في مخيم برج البراجنة ظلم صارخ وقتل متعمّد للاطفال والعجزة والنساء الابرياء. وعزمت على أن أبقى مع سكان المخيم وأشاطرهم مأساتهم ومصيرهم حتى الرمق الاخير وأموت معهم اذا اقتضى الامر.

ثم سمعنا صوت سيارات فهرعنا متعثرين الى مدخل المستشفى. وهناك رأينا سيارتين متوقفتين مملوءتين صناديق فيها دقيق وحليب مجفّف. وكان السائقان تمكنا من رشوة بعض الرجال لادخال السيارتين، وهو ضرب من الشجاعة الفائقة. فافرغت السيارتان وغادرتا المخيم في ظلام الليل.

دوّنت في مذكراتي: "كان هذا النهار الاغرب والافظع في حياتي."

ممر الموت

توفي أحد الذين بترت أطرافهم وبدأ الباقون يتحسّنون جسدياً. ولم يطل الوقت حتى كان أصغر الاولاد يؤدي تمارين لتقوية ذراعيه. لكن التأثير النفساني في بعضهم بعد فقدانهم أرجلهم كان عميقاً فجر في نفوسهم الغضب والمرارة والاحباط، وأصبح مراسهم صعباً معنا وأسوأ مع عائلاتهم. وكان تغيير ضمادات جريح في الخامسة

والثلاثين من عمره معاناة للجميع. فلكي يلهي نفسه عن أوجاعه كان يردد أبياتا من الشعر بأعلى صوته ويقبض على ذراعي بشدة كانت تؤلمني.

كان الشريط اللاصق للضمادات نادراً جداً. فجاء أحد المقاتلين الى العيادة وطلب قطعة منه. فسألته سوزي عن الغاية من طلبه وقد ساورها الشك، لأنه كان يمسك شيئاً في يده بحذر شديد. فقال لها: "لقد ارتخت حلقة الأمان في قنبلتي اليدوية."

فصرخت فيه: "اخرج حالا قبل أن تنسفنا جميعاً أشلاء ممزقة." فانسحب الشاب بهدوء على رؤوس أصابعه وقصد رجلا أكبر منه سناً فثبّت له حلقة القنبلة.

من خلال اتصالات الصحافيين بي لاسلكياً علمت أن الميليشيات منشغلة في تصادمات في بيروت الغربية، مما خفف الحصار على مخيّم برج البراجنة. وفي ١٧ فبراير (شباط) أعلن السماح للنساء بالخروج ساعتين يومياً لشراء الطعام. فكان على النساء المشي مسافة ٥٠ متراً في أرض مكشوفة الى نقطة تفتيش. ومن هناك يذهبن تحت الحراسة الى متجر كان يحاسب بضعفي - أو ثلاثة أضعاف - ثمن الحاجات الغذائية.

في ٢١ فبراير (شباط) دخلت دبابات الجيش السوري بيروت الغربية لوقف القتال. وكان السوريون يرددون أنهم سيتقدمون الى الضاحية الجنوبية. فانتظرناهم كل يوم، ولكن مرت أسابيع ولم يظهر منهم أحد.

دامت موجة الصقيع الى أواسط مارس (آذار) خلافاً للعادة في لبنان. ورأيت فتاة قضم الصقيع أصابع قدميها. وكان المستشفى كثلاّجة، فلا كهرباء ولا وقود. ولكي أدفأ ذهبت الى العيادة حيث أعطي بن موقداً صغيراً. وبعدما أشعل كل ما كان متيسراً لديه من الحطب قطع إحدى خزانات الكتب.

ودعاني أدهم، الفتى الذي كان يأتيني باطباق الرز والزيتون، الى بيته لتناول وجبة من البيض والخبز واللحم اللذيذ كان أحضرها عبر "ممر الموت." كان شعوري بالفرج والارتياح عظيماً لرؤية هذا المقدار من الطعام، الى حد أن عينيّ غشيتا بالدموع حين فقس البيض في المقلاة.

في ٤ مارس (آذار) أجرت "الاونروا" ترتيبات لادخال أربع شاحنات ملأى بمواد غذائية، بشرط ان تأخذ الميليشيات اثنتين منها. فارتفعت معنوياتنا موقتاً، وما لبثت أن هبطت حين جيء الى المستشفى بفتاة قتيل عرفتها للحال. فندت مني صرخة ألم عميق، اذ انها كانت سوزان التي عالجت ندباً في قدمها بتطعيم الجلد فشفيت وبات في امكانها انتعال حذاء للمرة الاولى في حياتها. وتذكرت كم كانت فخورة وهي تريني حذاءها الجديد.

تهديدات واشاعات

أصبح "مستشفى حيفا" رمز المقاومة في المخيم. وصممنا على ألا نتوقف عن العمل. وحين غامرت زوجة صلاح، رئيس الممرضين، بعبور "ممر الموت" ذات صباح

سألها مقاتلو الميليشيات عن المستشفى: "من يعمل فيه؟" فذكرت لهم بضعة أسماء، وذكرت أيضاً "طبيبة أجنبية." فعبس المسلحون وقالوا لها: "سنقطّعها إرباً."

كتم الناس عني هذا الخبر حرصاً منهم ولباقة. ولكن حين ذكرت للدكتور رضا أنني في حال خروجي من المخيم أنوي الذهاب الى صيدا في عطلة لبضعة أيام، أجابني: "لا أعتقد هذا ممكناً." ثم أخبرني لماذا.

وأعترف بأني خفت كثيراً لأن توقيع البيانات التي أرسلناها أثار نقمة الميليشيات وقيل لي إن مسلحين هاجموا بلدة بالقرب من صيدا وقتلوا شخصين أتهموا بمساعدة الفلسطينيين. لكن ذلك لم يزدني الا اصراراً وعزماً على متابعة ما كرست له حياتي. فلن أسكت عما يعانيه سكان مخيم برج البراجنة من جوع وبرد وقهر ومهانة وخوف على حياتهم، وخصوصاً حياة اولادهم، فلا يعرفون إذا هم خرجوا أيرجعون اليهم سالمين أم تتلقفهم قنبلة مفاجئة في الأزقّة فتمزّق أجسادهم الندية وتنثر أشلاءهم الدامية على جدران أكواخهم.

كنت عاهدت نفسي منذ نشأتي على أن أتكلم بالصدق وقررت: سأقول الحقيقة ولن يرهبني التهديد. ان الحقيقة أقوى من المدفع ولن تموت، ولا بد من أن يعلو صوتها فوق أصوات القنابل والصواريخ.

وخطر لي أن أرسل كتاباً الى أهلي أشرح فيه الظروف التي أعيشها ليطلعوا عليه في حال وفاتي. ودونت ملاحظة في مفكرتي: "سأكتب اليهم غداً." لكني لم أفعل.

وعاد القتال متقطعاً.

في بداية شهر ابريل (نيسان) انتشرت اشاعات في المخيم أن السوريين ومسعفي الصليب الاحمر الدولي هم في طريقهم الينا. لم أصدق الخبر الذي خلته كسابقاته من نسج الخيال. وقلت في نفسي: لن أصدق حتى أراهم هنا. لكن الاشاعات هذه المرة كانت صحيحة. ففي ٨ ابريل (نيسان) أوقفت الميليشيات اطلاق النار ودخل السوريون مخيم برج البراجنة حيث قوبلوا بمزيج من الفرح لانتهاء القتال، والمرارة لتأخرهم ستة أسابيع. فخلال هذه الاسابيع قتلت في "ممر الموت" ١٨ امرأة وجرح أكثر من خمسين.

وفي اليوم التالي دخل مندوبو الصليب الاحمر ومعهم ١٣ سيارة. فقررنا اجلاء أكبر عدد ممكن من المرضى لأن المستشفى كان أصيب بأضرار بالغة وكان الموظفون منهكين. وعمّت الفوضى وعلا الصياح فيما الاهل يتزاحمون حول المرضى الذين سيُخرجون للمعالجة. وعندما حان دور المرأة التي أصيبت وهي تجمع العشب لتقيت عائلتها، انفجرت باكية فبكيت معها.

وهكذا، بعد ١٦٣ يوماً رفع الحصار عن مخيم برج البراجنة. ولكن كانت لا تزال هناك مفاجأة. فقد قادنا أحد أصدقاء بن الى بناء من خمس طبقات قائم بمفرده في الزاوية الشمالية الشرقية المهدّمة من المخيم. وكان عدد كبير من الابنية المحيطة هدم



بولين كاتنغ اليوم.

في يونيو (حزيران) ١٩٨٧، استقبلت الدكتورة بولين كاتنغ الصبي بلال، وعمره سبع سنوات، لدى وصوله الى مستشفى ستوك ماندفيل في بكنغهامشير لمعالجة خاصة يدفع تكاليفها "صندوق جيمي سافيل."

وكان في رفقة بلال صبي فلسطيني آخر هو سمير وعمره ثماني سنوات، مصاب برصاصة حطمت عموده الفقري. وقد عولج الولدان وبات في امكانهما المشي مستعينين بعكازات خاصة. وعادا بعد ذلك الى مخيم برج البراجنة.

في يوليو (تموز) ١٩٨٧ مُنحت الدكتورة كاتنغ "وسام الامبراطورية البريطانية" لعملها الانساني في المخيم. وسيعقد قرانها على بن في وقت لاحق من هذه السنة. وهي تسعى حالياً الى العمل في امستردام حيث يعمل بن كطبيب متمرن.

وسوّي بالارض. فصعد بنا الشاب الى الطبقة الثانية. وفي غرفة محصنة من جميع جهاتها بالفرش والخزانات والكراسي جلست امرأة فائقة البدانة ترتدي وشاحاً وثياباً للنوم.

فشرح لنا الشاب: "انها عاجزة عن المشي، لذلك لا تستطيع مغادرة المكان. ونحن نحضر لها الطعام والماء يومياً."

وقالت المرأة بامتنان: "هؤلاء الشباب كانوا يهتمون بي كل الوقت."

ان ذلك لا يصدّق. انها في أخطر نقطة على خط النار. وقد بقيت هناك طوال الحصار.

العودة

ودعت أنا وبن وسوزي وهانس زملاءنا وأصدقاءنا وداعاً عاطفياً. ثم أخذنا السفير البريطاني في سيارته المصفحة الى منزله خارج بيروت. وصدمت بذلك التغيير المفاجىء، من المخيم القاتم المحاصر الى قاعة فسيحة مفروشة بالسجاد الفخم. وجلسنا للطعام، فبسطنا فُوط السفرة في أحضاننا وتناولنا وجبة لذيذة من حساء ودجاج وخضر وحلوى.

ركبنا معدّية نقلتنا الى لارنكا في قبرص. ومن هناك طار هانس الى النمسا وطرنا نحن الثلاثة الباقين الى مطار هيثرو في لندن.

ذلك المساء أخذنا قسطاً من الراحة في منزل والديّ. وأثناء الاحتفاء المؤثر بنا لاحظت سوزي وبن ساهمَين يحدقان الى الفراغ ولا يصغيان الى ما يجري حولهما من أحاديث. فعلمت أنهما راجعان بالذكرى، كما كنت أنا، الى مخيم برج البراجنة، يفكران في الاشخاص الذين عشنا واياهم أشهراً عدة عيشة قاسية وشاطرناهم محنتهم ومصيرهم.

وتساءلت عن احتمال رؤيتهم ثانية. هل سيكونون في مأمن من خطر القتل والاضطهاد؟ وهل سيعرف الاولاد حياة يعيشونها غير مهددين برصاص القناصين وسقوط قذائف الهاون على رؤوسهم؟

قد ينسى العالم هؤلاء الناس والمأساة التي يعيشونها. أما أنا فلن أنساهم ابداً وسأعود اليهم ذات يوم.

الدكتورة بولين كاتنغ ■

ترجمة الياس عقل



عودة الى الطفولة

اشترى صديق لي سيارة جديدة، ونظرا الى ان القديمة لم يكن فيها شيء ذو قيمة باستثناء عجلاتها الاربع، قرّر ان يبيعها بمئة دولار. وقد اشتراها منه رجل محترم في نهاية العقد الثامن من عمره يعيش في الجهة المقابلة من الشارع، فقادها صديقي الى منزل الشاري واوقفها تحت شجرة كبيرة.

في كل صباح كان هذا الشيخ النشيط يخرج الى السيارة مبتهجا لينفض الغبار عنها. ثم يمضي بعض الوقت جالسا في المقعد الامامي. ونادرا جدا ما كان يرفع غطاء المحرك او يفتح الصندوق. وبعدما راقب صديقي هذه التصرفات المتكرّرة بعض الوقت سأل جاره: "هل لي ان اعرف لماذا اشتريتِ هذه السيارة العتيقة؟"

فاجاب: "حسناً، الامر بسيط: لقد رغبتُ طوال حياتي في اقتناء سيارة ولكني لم احظَ بواحدة. والآن تحقق حلمي!" واكمل نفض الغبار عن السيارة وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة رضى.

ب.ك.ب.

كلنا شعراء

سئل الشاعر وليم ستافورد مرة: "متى قررت أن تصبح شاعراً؟" فأجاب ان السؤال في طريقة طرحه غلط. وأضاف: "كل منا يولد شاعراً بطبيعته، فيكتشف أسرار الكلمات ويهتم بها ويبتهج. أنا ثابرت على ما يشرع فيه كل انسان. والسؤال الحقيقي الذي ينبغي أن يطرح هو: لماذا توقف الآخرون؟"

ج.م.

كتاب الشهر

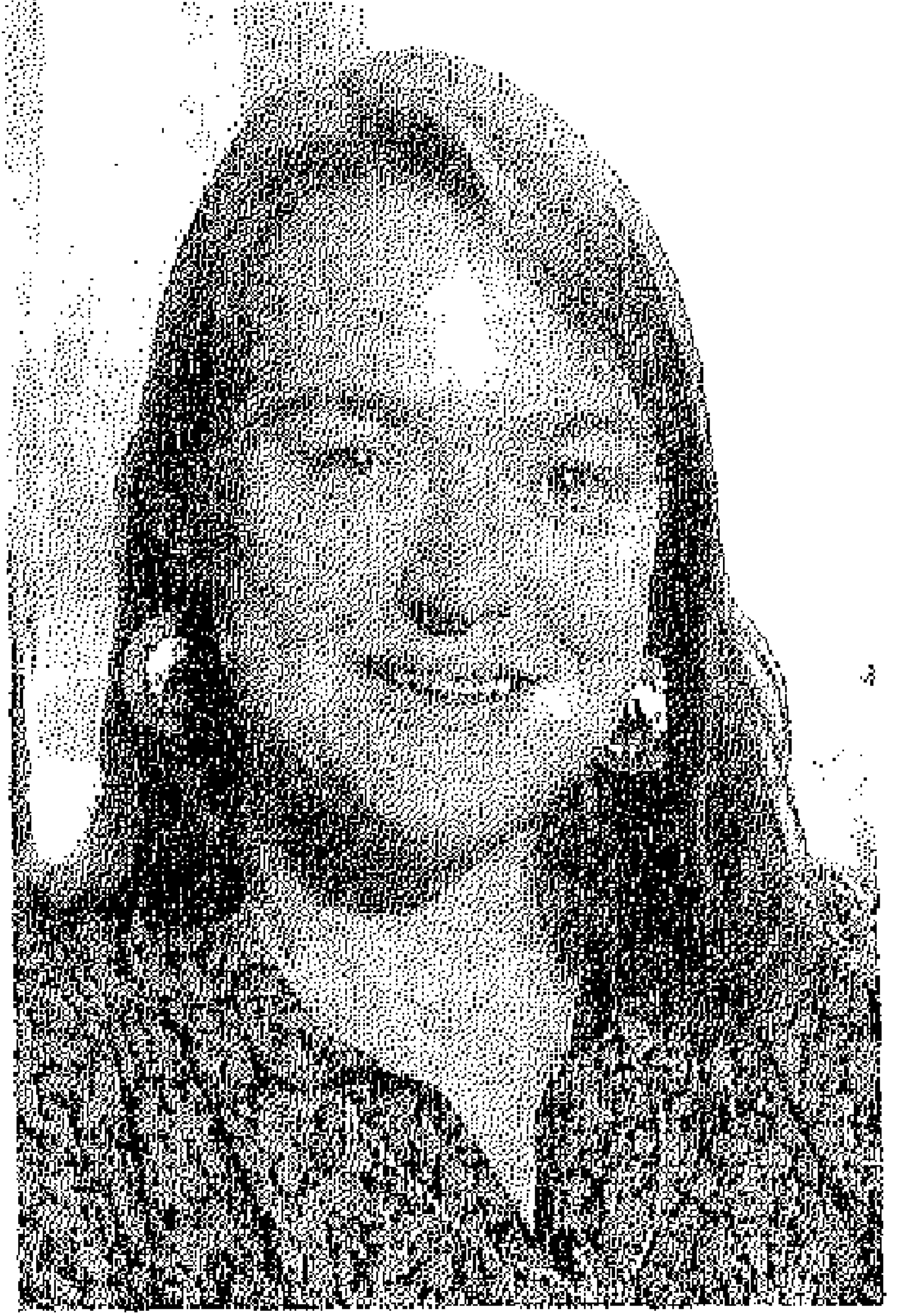
قصتي مع السكري

هواجس مريضة حاول "الوحش" افتراسها

بقلم تيريزا ماكلين



قصتي مع السكري



ولدت في ٥ ابريل (نيسان) ١٩٥١.
ومنذ الحادية والعشرين من عمري
وأنا مصابة بداء السكري. واليكم قصتي
التي تبين حال من يبتلي بهذا الداء، وما فعله فيَّ، آملة أن تساعد هذه المعلومات أناساً آخرين أصيبوا به أو يعيشون مع شخص مصاب. ذلك بأن هذا المرض، الذي ابتُليت بنوع منه حادّ ومتقلب، أعطاني أكثر مما أخذ مني.

وأكره التفكير في أني قد أُقلق قارئاً أصيب حديثاً بالسكري من خلال سرد حوادث وصدمات لا يرجح أن تقع له.

ان كثيراً من الاختبارات التي أشرحها هو خاص بي، لأن لدي، ككل مصاب، أعراضاً فردية ونموذجية على السواء.

وبحسب تجربتي، ليس للسكري التأثير ذاته في شخصين، وهو لا يؤثر طويلا في الشخص الواحد على نحو واحد، لانه في تغيير دائم. والامر الثابت حضوره الدائم في حياتي، وهو حضور أتاح لي فرصاً واختبارات لم أكن لاحلم بها، منها مخيف ومنها مضحك ومنها رائع لم يكن في الحسبان.

Condensed from «Metal Jam,» © 1985 by Teresa McLean,
Published by Hodder and Stoughton, London, England. Photos: Ian Bradshaw

كانت فترة دراستي في جامعة أكسفورد مرحاً دائماً. وتخرجت بشهادة في التاريخ. وقد أحسست حاجة ملحة الى مساعدة الناس الذين لم يحظوا بحياة مريحة ممتعة خالية من الهم، كالتي عشتها.

كتبت الى الأم تيريزا ملتمسة أن أساعد "أخوات المحبة" في الهند. في هذه الايام ينتظر كثيرون دورهم للخدمة مع الاخوات تنقية لضمائرهم. انما في العام ١٩٧٢ لم يكن علي سوى ارسال كتاب بطلبي، وأتاني الجواب بقبولي.

بعيد وصولي الى الهند أصبت بالزحار الاميبي (١) الذي لازمني ستة أشهر تملكتني خلالها رغبة جامحة في الشرب، فكنت أشرب السائل الاقرب الى متناولي: زجاجات ليموناضة وماءً عكراً وأكواباً لا حصر لها من الشاي. وكنت أبوّل باستمرار، نحو عشر مرات في النهار وأربع مرات في الليل. وهبط وزني بحدة فخسرت ١٩ كيلوغراماً. وانتابني عياء شديد افقدني الراحة. عندئذ أقنعتني الأخوات بالرجوع الى الوطن.

لدى استقبالي في مطار غاتويك بلندن لم تعرفني والدتي، اذ اني غادرت الى الهند وأنا ممتلئة الجسم ورجعت نحيفة غائرة العينين منهكة. واشتد الالم في صدري في ليلتي الاولى في البيت، الى حد اني استيقظت شبه عاجزة عن التنفس. فاستدعت والدتي الطبيب الذي شخص دائي بذات الجنب (٢) وأرسلني الى المستشفى في سيارة إسعاف.

وفي المستشفى طلب الطبيب المعالج عيّنة من بولي. ولدى فحصها تبين أنها غنية بالسكّر. وسألني اذا كان جلدي جافاً، فأجبت بنعم. فعزا هذه الاعراض وكل اضطراباتي الأخرى الى مرض الزحار. وأحار كيف فاتني إدراك أني مصابة بالسكري، وكيف فاتت هذه المعرفة الطبيب أيضاً. ولكن ما أعلمه هو أني غادرت المستشفى لأواجه أربعة أشهر مخيفة.

كنت أعاني ارهاقاً عميقاً، فأفيق صباحاً وبي كره لليوم الذي ينتظرني. كنت أعيش خدراً ووحشة وكآبة استنزفت قدرتي وأخمدت فيّ كل أمل بالتمتع بالحياة.

وكان لي صديق يدعى مايكل لا يستسيغ رؤيتي بائسة محطمة، وهو ايرلندي رائع به نهم دائم للحياة. وقد أسبغ عليه الله نعمه فكان يملك سيارة ومنزلا في احدى ضواحي لندن ومالا ينفقه بلا حساب. ولم يكن لديه وقت لتفاهات كالمرض. وكان، مثل الجميع، يعزو ما حلّ بي من هزال وانحطاط الى فترة اقامتي في الهند.

أعلن مايكل أنني، كبطارية، أحتاج الى تعبئة فأتجدد ويسير كل شيء على ما يرام. فاتصلت بوكالة توظيف في لندن لتتدبر لي أي عمل موقت، في الكتابة أو التنظيف أو توزيع الرسائل او تسليم البضائع. وساعدني مايكل على الانتقال الى غرفة في البيت تصلح للنوم والجلوس.

---

(١) Amoebic dysentery

(٢) Pleurisy

ولم يكن يتصور أن هناك علة أسهل علاجاً من الظمأ. لذلك كنا نطوف على المقاهي الايرلندية في لندن بغية ارواء ظمأنا. وكلما زاد انحطاطي كثف برنامجه في الشرب. وأنا محظوظة لبقائي على قيد الحياة بعد خضوعي لعلاجه.

كنت دوماً صحيحة معافاة، فلم يخطر لي أنني مصابة بعلة خطيرة. ولدى سؤالي طبيب والديَّ عن سبب انقطاع حيضي (الحيض غير المنتظم شائع لدى المصابات بالسكّري) قال ان لا اهمية للأمر. ولكن من أجل اراحة فكري أحالني على اختصاصي في لندن. فأخبرني هذا أنني في حال حسنة على رغم نحافتي، ونصحني "بمآكل مسمِّنة." ثم نظر الى رسغي قدميّ وسألني عن سبب تورمهما. فأجبته انني لا أعرف السبب. فطلب مني أن أرفعهما أعلى من رأسي عند الجلوس.

بعد الانتهاء من عملي كنت أجلس وقدماي مرفوعتان على رافدة النافذة، وألتهم كل أنواع الحلوى بطاعة انتحارية، وتهالكت لفترة أسبوعين آخرين محاولة بعث النشاط في كياني المتهدّم. وأخيراً، ذات مساء، رأيت بالقرب من محطة لحافلات النقل لافتة معدنية على باب تعلن أن هناك عيادة لمجموعة جراحين. ولسبب لن أعرفه أبدا دخلت من دون موعد، ولم يكن لي أي سجل في العيادة. لكن طبيبة هناك شاهدتني، وكانت ايطالية.

فحصت رسغيّ اللذين كانا لا يزالان متورمين، ثم أجرت فحصاً للبول فوجدت معدل السكّر فيه مرتفعاً. فكتبت تقريراً على الفور وطلبت مني تسليمه بأسرع ما يمكن الى عيادة خارجية بالقرب من مستشفى وستمنستر.

فقلت لها: "سأسلّم التقرير في الاسبوع المقبل لانني فتاة عاملة." فهزّت رأسها وألحّت: "أتركي كل شيء وخذي التقرير في الصباح."

جبه الحقائق

كان في العيادة طبيب اسكوتلندي شاب بهي الطلعة يشوبه نوع من الجمود المطبق. طرح علي أسئلة عن سلسلة من الاعراض بما فيها وخز كوخز الابر. فأكدت له أنها تنتابني جميعها.

قال: "لا يخامرني أدنى شك في أنك مصابة بداء السكّري، وأرى ان تقيمي بضعة أيام في المستشفى ريثما نجلو علتك الحقيقية."

شكرته وسألته هل يمكنني تأجيل ذلك الى الاسبوع التالي، فابتسم وقال: "لن أدعك تصعدين الدرج بمفردك، حتى الى غرفتك. سأستدعي ممرضة لتعتني بك."

فأطبقت عيني شعوراً مني بالارتياح لأن هناك أخيراً سبباً جوهرياً للانحطاط الشديد الذي يلازمني. وها أنا أستحق، طبياً، أن أكون متعبة.

كان فريد المصاب الوحيد بالسكري الذي عرفته، وهو ابن الحدائقي في مدرسة بمقاطعة ساري حيث تعلّمت. كان يزور والده في أيام الاحاد ويبتسم دائماً ويبدو كأنه عنوان الصحة والعافية.

فحصني الدكتور جايمس بدقة. وكان من جيل الاطباء الجدد، ذكيا وسريعا. قال انّ انتفاخ رسغيّ يعود الى ترسب الماء، وذلك عارض جانبي لداء السكّري. فأعطاني مدرّات للبول لم ترحني أبداً لأنها زادت حاجتي الى التبويل، لكن رسغيّ عادا الى طبيعتهما في غضون بضعة أسابيع.

وزودني الدكتور جايمس كتيباً عن مرض السكّري، يفيد أن المعدة تحوّل الكربوهيدرات (السكر والنشويات) سكراً في الدم. وفي الجسم الطبيعي يتحول هذا السكر طاقة بواسطة هرمون الانسولين الذي يفرزه البانكرياس. والبانكرياس غدة ذات صفرة باهتة يبلغ طولها حوالى ٢٠ سنتيمتراً وهي كائنة في أعلى البطن.

المصابون بالسكّري عاجزون عن تحقيق خطوة الأيض التحويلية الثانية بسبب عدم توافر الانسولين الكافي. فلديهم تركيز مرتفع من السكر في الدم، ويجري التخلص من السكر الزائد بالتبويل غير الطبيعي، مما يسبب هبوطا سريعاً في الوزن كمثل ما أصابني في الهند.

"الزَّرَب السكري" (٣) هو الاسم الكامل للداء، وهو يعني إفراز ماء معسَّل. فالمصاب الذي تنقصه الطاقة ولا يحظى بالمعالجة ينتابه عياء شديد يتعمق فينتهي بغيبوبة، واذا بقي من دون معالجة فهو يؤدي الى الوفاة.

ولكن في حال ٧٠ في المئة من المصابين بالسكري هناك نقص جزئي في مستوى الانسولين. وكثيرون، خصوصا أولئك الذين تجاوزوا الاربعين من العمر، لا يشكون الا من زيادة في الوزن تجعلهم لا ينتجون من الانسولين ما يكفي لتأييض (٤) السكر الذي تكوّن في الدم. فمن السهل ضبط هذا النوع من السكّري باتباع نظام حمية خاص، واذا اقتضى الأمر فبحبوب لتنشيط انتاج الجسم للانسولين.

أما الثلاثون في المئة من المصابين الذين يعتمدون على الحقن بالانسولين، فغالبيتهم تجد فائدة في الحقن بجرعات ثابتة الى حد ما. ويدعى هؤلاء "مصابين مستقرين." لكن القلة من المصابين الذين يتجاوبون والأنسولين على نحو شاذ وتراوح مستويات السكر في دمهم بين ارتفاع وهبوط، فيدعون "مصابين سريعي الانكسار"، وأنا منهم.

ويطمئن الكتيب كل "ضحية" الى أن في امكانها أن تعيش حياة نشطة وتتزوج وتنجب أولاداً. وللمرة الاولى شعرت بالتعاسة تعصر نفسي، فاتصلت بوالدتي لأطلعها على حالي.

أُعطيتُ حقنة من الانسولين، وهو سائل لا لون له، فعاد مستوى السكّر في دمي الى معدله الطبيعي.

وصلت أمي في اليوم التالي متعبة بعد رحلة بالقطار، وبدت قلقة. وكان الدكتور

---

(٣) Diabetis mellitus

(٤) الأيض (metabolism) هو مجموع العمليات الكيمبائيه فى الحلايا الحيه التي بها تؤمّن الطاقه الضروريه وتمثل المواد الجديده لتعويض المندثر منها.

جايمس متعباً أيضاً لانهماكه في عمله ليلا ونهاراً، لكنه تلطّف فخصص لنا وقتاً في مكتبه لمحادثتنا عن داء السكّري. قال لي: "من حسن حظك أنك ما زلت على قيد الحياة. ستتعلمين العيش مع داء السكري اذا عرفت أن تأخذيه على محمل الجدّ." وكان أكثر تفاؤلا في شأن المعالجة التي كان واثقاً تماماً بجدواها. واذا اتبعت التعليمات فلن يسبب لي مرضي أي مشاكل.

خفّفت أمي من بكائها فأجلستها على سريري وساد التفاؤل محادثتنا. لم تكن لدي فكرة عما يخبئه لي هذا الداء. وكنت قرأت في الكتيب أنه حين يبتلي المرء بالسكري يلازمه أبداً. ولم أعِ حينئذ أن ذلك لم يكن مجرد نمط حياة، بل حكم مؤبد.

توازن صعب

بعد انصراف والدتي حاولت التكيف مع الامرين الاكثر ازعاجاً في المستشفى: الضجة والضجر. كانت الانوار مطفأة في الجناح، ولا بد ان الساعة كانت تجاوزت العاشرة ليلا. فجأة رأيت مايكل في الباب. كانت مواعيد الزيارات في المستشفى سمحة، لكن تلك الزيارة كانت محظورة قطعاً. غمرني السرور لرؤية صديقي وقد ارتدى برنساً أبيض للاطباء وجده معلقاً وحمل زجاجة شراب ايرلندي.

بعد ذلك جاء الدكتور جايمس لاجراء فحص منتصف الليل، وبدا غاضباً بسبب الشراب الذي أفسد مراقبته الدقيقة. قال لي: "سيكون دمك مليئاً بالسكر، ولن تكون لهذا الفحص من فائدة." ثم استدار ليعطي مايكل رأيه فيه، فكان هذا توارى بالخفة ذاتها والمرح ذاته كما جاء.

أكتشف أن ضبط داء السكّري يقتضي توازناً بين مستوى الانسولين وكميات الكربوهيدرات المتناولة. فاذا لم يُحقن المرء كفاية من الانسولين فان جسمه يعجز عن استهلاك ما يكفي من سكر الدم، فيشعر بالظمأ والتعب والانهيار. وتعرف هذه الحال باسم "ارتفاع سكر الدم" (٥).

فاذا حقنتَ كمية مفرطة من الانسولين ولم تقابلها زيادة من الكربوهيدرات، أكلا أو شرباً، فان الانسولين يستنفد سكر الدم الحيوي الذي يغذي الدماغ. فينهار الفكر والجسم تدريجاً وبسرعة في غالب الاحيان، بدءاً بالجهاز العصبي. فتشعر بأنك مريض على نحو مختلف وغامض. ومرضك هو "هبوط سكر الدم" (٦). واذا كان الهبوط خطيراً ولم يجر ما يعكسه فانه قد يؤدي الى فقدان الوعي.

أصبت بنوبة الهبوط الاولى في مستشفى وستمنستر. كانت اصابة خفيفة نسبيا، لكنها كانت لي اختباراً مروعاً.

حضرت لقاء ترفيهياً في الطبقة العليا من المستشفى. لكني كنت بعيدة جدا عن واقعي ولم أستطع المشاركة فيه. فزاد حزني وتملكتني تعاسة دفعت بي الى

(٥) Hyperglycaemia

(٦) Hypoglycaemia

حضيض اليأس. وأخذت آلام الجوع تحز في معدتي، وبللني عرق بارد كالثلج، وشعرت بأنه لم تعد لي صلة بكل ما يجري هناك.

بعد القداس توجهت على غير هدى الى المصعد وخرجت منه لدى توقفه الاول. ولحسن الحظ كان توقفه في الطبقة حيث أقيم. سرت في الممشى وأنا أسحب قدمي على الارض، فوصلت الى غرفتي واستلقيت على سريري وأجهشت في البكاء من غير أن أكفكف دموعي. وشددت قدميّ محاولة وقف ارتجافهما. فأحسست بجلدهما يتشقق لكونه أصبح جافاً محرشفاً بعد أشهر معاناتي الطويلة.

جاءتني احدى الممرضات بكوب كبير من الحليب الساخن المحلّى وقالت: "اشربيه كله." وقد توقفت عن الارتجاف قبل أن أبلع الجرعة الاخيرة. وتبسّمت اذ شعرت بتحسّن.

قال لي الدكتور جايمس: "حسناً، بتِّ تعرفين الآن. فاذا عاودك هذا الشعور كلي، أو اشربي، شيئاً محلّى على الفور ولا تجولي هنا وهناك."

لزمت سريري وقد أخذني العجب لاحساسي بعودتي الى الحياة. وفي ذلك المساء أعطيت كمية مخفضة من الانسولين لاجتناب نوبة هبوط أخرى فأصبت بنوبة ارتفاع في سكر الدم بدلا منها، ففترت همتي واشتد ظمأي وتواصلت زياراتي الى المرحاض. وجفاني النوم فرحت ألعب الورق (الكوتشينة) مع العاملين ليلا في المستشفى.

إصابة مفاجئة

في مستشفى وستمنستر كنت أحقن نفسي كل صباح ومساء، فقد تعلمت اجراء الحقن يوم دخولي. والتعلم الباكر هو الافضل لانه يغنيك عن الاعتماد على الغير. والامر ليس صعباً، اذ عليك ادخال الابرة تحت جلدك، انما ليس في وريد، بزاوية من نحو ٤٥ درجة، في موضع تنتقيه مكتنز باللحم كمثل المعدة او الفخذ أو أعلى الساعد أو الردف.

غادرت المستشفى بعد ستة أيام لقضاء عطلة مع والدتي في البيت. وتلبية لرغبة أمي أريتها طريقة الحقن الذاتي وأنا فخورة بذلك. وفي مساء اليوم التالي كنت في غرفة النوم على وشك حقن نفسي حين دخلت شقيقتي الصغرى دو وسألتني إن كنت أسمح لها بالمشاهدة. وبان عليها قلق شديد حين رأتني أولج المحقنة في ساقي وأميلها لأثبت لها أنني أقدر أن ابقيها مولجة بمقدار ما أشاء من دون أن تؤلمني.

أغمي على دو وانهارت كشجرة مقطوعة فأحدثت دوياً حمل والدتي على الهرولة صعوداً الى غرفتي. وساعدنا شقيقي الاكبر أنطوني على حمل دو الى السرير حيث ظلت مغمى عليها الى حين قدوم الطبيب الذي استدعته أمّي. قال هذا ان دو مصابة بارتجاج خفيف في الدماغ، وقد أضحكه أن تكون دو هي المحتاجة الى عنايته.

في تلك العطلة خبرت، للمرة الاولى، المتعة الحزينة في كون المرء موضع اهتمام. ولا يمكن وصف الفائدة التي تعود على المصاب بالسكّري من خلال هذا النوع من العناية. ففي الغالب يمثّل هذا الاهتمام كل ما يقدر الناس على منحك اياه، وفي ذلك الكفاية.

جاء جون وليم، صديقي منذ كنت في أكسفورد، للاقامة معنا. وذهبنا معاً الى السوق. وكان ملماً بالملاحم الاغريقية ولا خبرة لديه في أمور التسويق وقوائم المشتريات. لكنه دأب على تفحص الأطعمة في محلات البقالة ليتبين، بحسب كتيبي عن السكّري، كم تحتوي من الكربوهيدرات.

رجعت مع مايكل وجون الى غرفتي وشرع مايكل يقص علينا ما حدث حين ذهب لعيادتي في المستشفى ووجدني قد غادرته. فهناك عزز السحر الذي طبع حياته، اذ ان زيارته اختتمت بتناول الشاي مع الدكتور جايمس واعطائه وصفة لطريقة صنع الشراب الايرلندي.

الوحش الوافد

في طريق عودتي الى لندن شعرت بهبوط سكر الدم في جسمي. واقترح علي مايكل تناول بعض الشراب، فتمنيت من كل قلبي لو أمكنني تجرع كوب واحد. وطلبت منه ان يشتري لي شطيرة بدلا من الشراب.

لقد مات شيء ما داخلي، وعرفت أن الأمور ستختلف عما سبق. فلن تكون للطعام لذة الاكل، أنما سيصبح دواء. وكان علي موازنة حقني بالتهام مقادير هائلة من النشويات: لفطور الصباح قطعتان من الخبز المحمّص مع رقائق الذرة (كورن فليكس)، وللغداء مغرفتان من البطاطا وبعض الفاكهة (ولم اكن أدري أن تفاحة واحدة تحوي من الكربوهيدرات مقدار ما تحويه قطعتان من البسكويت)، وللعشاء مغرفتان أخريان من البطاطا وقليل من الفاكهة أو الجيلاتي.

وتناول بعض الحلوى من حين الى آخر هو ما يبعث العزاء في نفس المصاب بالسكّري. والسكّر هو كربوهيدرات مركّز جداً بحيث يحصر استخدامه في نوبة هبوط طارئة.

ان معظ الشوكولاتة والحلوى والمربّيات المخصصة بمرضى السكري مصنوعة بمادة "سوربيتول" ولا بأس في طعمها. و"السكرين" أقل كلفة من السوربيتول وله قوة تحلية أفعل كثيراً، لكنه لا يستخدم في أطعمة السكّري لانه يخلّف مذاقاً مرّاً معدنياً. واذا استخدم السكّرين بمقدار كاف لصنع المربّى فينتج منه "مربى معدني."

في كتاب "الكلب والصقر" (٧) للمؤلفة أنطونيا وايت التي كانت تصاب بجنون دوري، أطلقت الكاتبة على جنونها اسم "الوحش." وهو ألقى ظله على كل ما كانت

(٧) The Hound and the Falcon

تفعله وحتى حين كانت في عافيتها الكاملة واعتقد الجميع أنها خالية من الجنون كانت تدرك خلاف ذلك، لانها كانت في خوف دائم من عودته. وكان "الوحش" على الدوام متربصا مترصدا للهجوم.

وعلى نحو مماثل أخاف أنا أن يسبب لي الانسولين الذي اتناوله هبوطا في سكر الدم. وفي زاوية صغيرة من فكري، أنا في انتظار دائم لنوبة هبوط، أترقبها بقلق ورهبة.

في البداية عالجت كل نوبة هبوط كأنها تحدث مرة واحدة لن تتكرر، ونسيتها. لكنني مللت الوظائف الموقتة في لندن. وفي خريف ١٩٧٣ سافرت الى فرنسا لاعمل مدرّسة للغة الانكليزية. وكان الاطباء أوصوني بتناول أقل ما أمكن من الكربوهيدرات، بهدف خفض حاجتي الى الانسولين. وقد عملت بتوصيتهم حرفيا، فتبعت نظاما صارما يحد من أكل النشويات الى أدنى مستوى مقبول، فكنت أشعر بهبوط خفيف ودائم في سكر الدم، وأترقب انقضاض نوبة هبوط تفتك بي.

من الصعب الجزم أي الأيام كانت الاسوأ: أتلك التي شعرت فيها بأني مريضة أنحدر على مهل الى الهبوط، أم تلك التي شعرت فيها بتحسن وكنت كمن ولد مجددا محبا للحياة ولكن ليعود فينهار كليا في اللحظة التالية؟

في العاشرة والنصف صباحا من يوم سبت كنت أنظر الى ساعة قديمة في سوق للسلع المستعملة، وكانت الشمس ساطعة نقية تتوهج أشعتها على نحاس الساعة الأصفر فتكسبه روعة. واذا بي بعد دقيقة أتطلع الى الساعة فلا أراها. وبلّل العرق كنزتي الصوفية. وامتدت مناضد السلع مخيفة مغشاة أمامي، وبدا العالم كله ثقيلا ومجنونا.

كنت في فرنسا حين بدأت أعتاد نوبات الهبوط. لقد دخل "الوحش" حياتي. لم أصرفه عني أبدا، ولا أرى أي سبيل الى ذلك في المستقبل. ولكن ما يشكر عليه هو أنه أمدّني بالقوة والثبات العنيد.

. . .

دخلت نوبات الهبوط مرحلتها المأسوية حين كُلفت، على أثر عودتي من فرنسا، تعليم مادة التاريخ في كلية تشلتنهام للسيدات. عرفت ادارة الكلية منذ البداية أنني مصابة بداء السكري، فكان علي استئذان المديرة لتناول بعض الحلوى اذا انتابتني نوبة خلال الدروس. وفي أحد اجتماعات الأساتذة شعرت بخمس وستين معلمة يحدجنني بنظراتهنّ لرؤيتي آكل سندويشاً فيما كنا نتباحث في شأن أقلام الحبر السائل وأقلام الحبر الجاف (كانت الكلية لا تسمح الا باستعمال اقلام الحبر السائل). لم تكن نوبات الهبوط تثير فيّ كآبة، لكنها جعلتني مؤرقة يقظة دائماً، وهذه هي علامة "الوحش".

لم يحدث خلال سنة أي أمر خطير لافت. ثم فعلت أمرا يصعب تجاهله. كنت

أدرّس الحصة الاخيرة قبل الغداء حين شعرت بتغير غريب في حالي، اذ ألقيت برأسي فجأة على الطاولة. وأخذت اكرر الجملة ذاتها مرة بعد مرة. وللحال خرجت طالبة من الصف ثم عادت ومعها معلمة كانت في الغرفة المجاورة، تتبعهما سكرتيرة حاملة الي فنجان شاي محلى.

خرجت من غرفة الدرس وجلست في مقعد في الممشى. وكانت السكرتيرة تبعد الطالبات وتجرعني الشاي. ولفتني احداهن بكنزة وجلست صامتة بضع دقائق عدت بعدها الى طبيعتي.

في اليوم التالي درّست الصف ذاته. وكانت الطالبات كلهن رائعات ولم تصدر عنهن أي ملاحظة ساخرة.

غيبوبة في قطار

من حسن حظي ان نوبة مماثلة فاجأتني، تحت تأثير السكري، في بيت احدى الصديقات. وانني أشكر الله على الاصدقاء الظرفاء الذين يتمتعون بروح الفكاهة، فبعدما أكلت من البسكويت ما يكفي للعودة الى حالي الطبيعية، دافعت عن نظريتي التي تقول بأن هبوط سكر الدم يبرز طبيعتك المشوّهة لا الحقيقية. وهذا من الاسباب التي تجعله مروعاً.

وفي حالة مرعبة أخرى قد تجد نفسك بعد نوبة هبوط في مكان تجهل معالمه، مثلما حدث لي حين ركبت قطار العاشرة مساء من بادينغتون الى أكسفورد. كان العشاء يحتوي على نشويات أقل مما ترقبت، وآخر ما أذكره كان قاطع التذاكر في بادينغتون وهو يقول لي: "لا تنسي أن تغيّري القطار في ديدكوت."

ولم أعِ الا وأنا أتجول في مدينة غريبة كبيرة شبه فارغة أبحث عن معالم مألوفة فلا أجدها. ودرت حول منعطف فرأيت محطة للسكة الحديد كتب في أعلى مدخلها "بريستول تمبل ميدز" وساعة حائط تشير الى الاولى والنصف بعد منتصف الليل.

في تلك اللحظة تمّ انعتاقي من نوبة الهبوط ويبدو أنني اصبت بغيبوبة في القطار وفاتني التغيير في محطة ديدكوت وسافرت الى آخر الخط. وأخبرني الاطباء في ما بعد أن هذه الحالة تدعى "غيبوبة بيضاء" (٨): يسير المرء في حال تبدو طبيعية، فيما يكون عقله هامداً كأنه يعمل آلياً. وحاولت حجب فكري عن الساعات التي أضعتها. ماذا فعلتُ منذ نزولي من القطار؟ ربما عرف بعض سكان بريستول الجواب، انما لن يتاح لي أنا معرفته أبداً.

أخبرت الرجل في مكتب التذاكر في المحطة أني مصابة بداء السكّري وأني قدمت الى بريستول خطأ. فتأملني الرجل مشككاً في أمري.

سألني: "وماذا تنوين أن تفعلي؟"

– أريد كعكة محلّاة.

(٨) White-out

"تريدين كعكة محلاة؟"

– نعم، سأنهار اذا لم آكل واحدة.

"ننهارين اذا لم تأكلي كعكة؟"

بقينا نتحاور على هذا المنوال الى أن تدخل عامل آخر في المحطة سائلا ما عسى أن تكون المشكلة.

قال قاطع التذاكر: "انها مخبولة."

قلت: "اني مصابة بداء السكري."

كان العامل الثاني رائعاً، فقادني بيدي الى مكتب. دخلت، وكانت هناك نار مشتعلة وصحف على طاولة وأكياس شاي وعلب بسكويت.

قال لي الرجل: "والآن اجلسي هنا ايتها النحلة المتعطشة الى الرحيق." فأطعت راضية مغمورة بالسعادة.

وتابع: "انني ملمّ بكل ما يتعلق بالسكّري، فأنا خبير بالاسعافات الاولية."

حضّر لي كوباً من الشاي المحلى لم أذق ألذ منه في حياتي، وقدم الي معه كعكة محلاة من جعبته. يشعر المرء عادة بالغثيان حين يقدم اليه طعام حلو، فلا يستسيغه. لكن الشاي جعلني هذه المرة أشعر بتحسّن، فالتهمت الكعكة المحلّاة بنشوة ونهم. قلت لعامل السكة الحديد انه رجل رائع، وأخذنا نتبادل أحاديث مختلفة.

وفي الرابعة والنصف صباحا أعطاني تذكرة للسفر الى أكسفورد من دون مقابل، وأصعدني الى القطار ولوح لي بقبعته مودعاً. لقد التقيت رجلا عطوفاً كريما رائعا، وكانت رحلتي الى بريستول جديرة بهذا اللقاء. وقد وصلت الى اكسفورد متأخرة تسع ساعات.

قلب كسير

من ذيول السكّري أن الحياة اليومية العادية أصبحت مصدر تعجب دائم بالنسبة الي، يفاجئني أحيانا. ففي السوق أتذكر فجأة أني لا أؤدي مجرد عمل رتيب، انما أشعر بأني أعيش أيضا. فتعتريني رهبة وأمضي قدماً أحاول أن أحرص على هذا الشعور وأذكيه في نفسي خشية أن تطمسه تكاليف الحياة الملحّة، كتأمين المشتريات ودفع الفواتير المستحقة.

ويسرّني أن أسمع أحدهم يقول لي: "انك تبدين بصحة جيدة." وقد ساد اعتقادي سابقاً ان ذلك كان مجرد مجاملة ومزاح، لكني بت أحبه. فهو لأمر حسن، حين يكون داؤك مخفياً، أن تبقيه مخفياً.

كان مايكل عطوفاً علي بسبب ما أعانيه من نوبات الهبوط، لكنه لم يفهم هذه النوبات على حقيقتها. وأعتقد أن الرجال عموما يجدون صعوبة في تصديق علل كهذه لا ترافقها أعراض وظواهر جسدية. فالمرض بالنسبة الى مايكل يعني رجلا

مكسورة أو حمى قرمزية أو سوى ذلك من العلل المنظورة. وفي عهد صداقتنا لم تكن نوبات الهبوط سيئة جداً، واني لأتساءل هل كان الأمر سيختلف لو ساءت حالي. لكن ما مضى مضى. وقد انفطر قلبي حين تزوج مايكل فتاة ايرلندية خلال الأشهر الأخيرة من اقامتي في تشلتنهام التي دامت سنتين ونصف سنة.

لم يكن السبب التباين في حالينا، لكونها في تمام العافية وكوني عليلة، انما لانها كانت ايرلندية كاملة النسب فيما كنت أنا نصف ايرلندية فضلا عن أن لهجتي كانت انكليزية. وثمة جانب آخر للخيبة التي منيت بها بزواج مايكل، وان يكن ذلك الجانب غير ذي شأن فانه كان ماثلا أبداً في عمق نفسي. وحقيقة الأمر أني فقدت تلك الروح النابضة بالحياة التي ميزت أيام صداقتنا الذهبية الهانئة، وغابت عني تلك اللامبالاة وخفّة الثقة بالنفس التي طبعت سلوكي في السابق.

المعتدي الغامض

ان السكّري المعتمد على الانسولين، والمتميز عن السكّري الخفيف الذي يلتقطه المريض بسبب الأكل الكثير والتمرين القليل، قد يصيب أيا كان في أي وقت كما جرى لي. والى الآن لا أحد يعرف سبب هذه الاصابة، فثمة احتمالات ودلائل واستعدادات جمّة لا تحصى.

ويشير بعض التقديرات إلى أن الفيروسات قد تكون هي المسؤولة. وقيد البحث ٣٦ نوعاً من الفيروسات، منها فيروسا الحصبة الالمانية والنّكاف (أبو كعب). ومن المسببات المشبوهة أيضاً الزكام والسعال الشتائي والانفلونزا. وقد أظهر مسح شمل بريطانيا أن غالبية المصابين بالسكّري المعتمد على الانسولين التقطوا الداء بين شهري سبتمبر (أيلول) ومايو (أيار). وشهدت أشهر الصيف اصابات أقل.

وتكفي صدمة قاسية - كحادث سيارة أو وفاة عزيز أو أزمة عاطفية - لتسبيب داء السكّري. ونظراً الى عدم ظهور أي سبب واضح لمرضي استنفد الاطباء أسئلتهم لي في ما يختص بالفترة التي بدأت تظهر فيّ علامات المرض، ومنها: هل خاصمت صديقاً أو حبيباً؟ هل لدي مشكلة عائلية؟ هل اصطدمت بجدار؟ هل أضعت ثروة؟ وفي كل ذلك لم تسعني مساعدتهم. لقد كنت سعيدة سابقاً ومطمئنة.

الى أي حد قد يكون السكّري وراثياً؟ هذا سؤال محرج لا يسع أحداً أن يعطي جواباً جازماً عنه. فاذا كان أحد الوالدين مصاباً بالسكّري المعتمد على الانسولين، فاحتمال اصابة الولد بالداء ذاته هو ٣ في المئة. واذا كان أحد الوالدين مصاباً بالسكّري غير المعتمد على الانسولين، فخطر اصابة الولد بالداء ذاته، في حياته لاحقاً، هو بنسبة ٣٠ في المئة. واذا كان كلا الوالدين مصاباً بالسكّري المعتمد على الانسولين، فان خطر اصابة الولد يرتفع الى ١٢ في المئة. وفي المقابل يرتفع الخطر الى ٤٠ في المئة اذا كان الوالدان مصابين بالسكّري غير المعتمد على الانسولين.

كان جد أمي مصابا بالسكّري. لكن تلك صلة نسب بعيدة، ولا علم لي بمعاودة هذا المرض أحدا في العائلة. وقد لزم جد امي سريره لمدة عشر سنين كان يشرب خلالها الشاي وهو أشبه بهيكل عظمي، منقبض ومنهوك لا يقوى على أي عمل باستثناء التبويل. ومات كمعظم المصابين بالسكري قبل العام ١٩٢٢، ذلك العام السحري الذي شهد جراحا كنديا شابا هو فريدريك بانتنغ ومساعده تشارلز بيست ينتزعان هورمونا سمياه "إنسولين" من بانكرياسات الماشية فيحقنانه في جسم فتى في الرابعة عشرة من عمره يدعى ليونارد طومسون كان يحتضر بداء السكري في مستشفى تورونتو. فتعافى الفتى سريعا. وان جميع المصابين بالسكري المعتمد على الانسولين في العالم حاليا، والبالغ عددهم تسعة ملايين بمن فيهم أنا، مدينون بحياتهم لاكتشاف بانتنغ وبيست.

وكان هناك رجال دولة مصابون بالسكري، منهم الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر والرئيس السوفييتي الراحل يوري أندروبوف. ومن المصابين أيضا الممثل الفكاهي ستان لوريل الشريك الناحل في ثنائي "لوريل وهاردي" الذي أضفى عليه السكّري نحافة فوق نحافته، وليونيل بارت كاتب نصوص الفيلم الاستعراضي "أوليفر" والممثل الشكسبيري ألان هوارد.

ولسبب ما، يبدو أن السكري هو صفة مميزة للكتاب الاشداء، ومنهم ارنست همنغواي. وكان هـ.ج. ويلز مصابا بالسكري أيضا، وهو الذي أسس عام ١٩٣٤ "جمعية مصابي السكري البريطانية" وهي أولى المؤسسات البريطانية لتعزيز المساعدة الذاتية والتعويل على النفس. وفي ذروة شهرته أعطى ويلز السكّري مكانة اعلامية لا تثمّن. فقد محق خرافة الموقف الانهزامي التقليدي من السكري الذي كان يروّج أن المصابين بالداء محكومون بالموت وعاجزون ولا يمكنهم تأدية أي وظيفة.

تضم جمعية مصابي السكّري أكثر من ١٠٠ ألف عضو. ويزود الاطباء مرضى السكّري بطاقة للجمعية يعلن فيها: "انني مصاب بالسكّري وأعالج بالانسولين. فاذا وجدني أحد مصابا بنوبة فأرجو اعطائي ملء ملعقتين كبيرتين من السكر أو الغلوكوز، مذوبا في الماء اذا أمكن. واذا لم أعد الى وعيي فالرجاء استدعاء سيارة إسعاف."

وأثبتت بطاقتي فاعليتها غالباً. كنت مدعوة الى الغداء عند بعض الاصدقاء، فقدت دراجتي في طريق جبلية طويلة. وتوقفت في منتصف الطريق عاجزة عن المتابعة، وألقيت بدراجتي جانباً واضطجعت الى جانبها. واذا بسيارة شرطة تتوقف بقربي وينزل منها شرطيان شابان. استفسرا عما اصابني فلم أقو على الجواب. ثم سألني أحدهما: "هل أنت مصابة بعلة ما؟". فأومأت برأسي ايجاباً. ففتح ذلك الشرطي حقيبة يدي معتذرا وفتش محتوياتها الى أن عثر على بطاقة جمعية مصابي السكري. فتوجه فورا الى متجر قريب وعاد بعد دقيقة ومعه كوب من الحليب

المحلى، فيما بقي رفيقه الى جانبي. فشربت الحليب وشعرت حالا بتحسن. وهما لم يدعاني أقود الدراجة الا بعدما أخذاني الى المستشفى حيث أفاد الطبيب أنني على ما يرام.

نجمة رياضية

أنا، عموماً، أمقت الأشياء المفيدة لي، باستثناء الرياضة. ولا تزال الكريكيت (٩) لعبتي المفضّلة التي أحببتها دائماً. فقد اعتدت أنا وأخي أنطوني ممارستها في حديقة منزلنا. والكريكيت لعبة مثالية لمرضى السكري، فهي تستدعي الحركة النشطة (تستهلك السكر) وتتيح فرصاً للتأمل وفرصاً للاكل أيضاً.

بعد التدريس في كلية تشلتنهام التحقت بجامعة كمبردج لاجراء أبحاث في تاريخ القرون الوسطى. وكنت واحدة من ١٢ خريجة قُبلن في كلية ترينيتي عام ١٩٧٦ قبل أن تفتح الابواب على مصاريعها لقبول الطالبات غير المتخرجات. انضممت الى فريق الكريكيت في الجامعة ولعبنا ضد فريق أكسفورد على أرضه. سلّمتني القائدة الكرة فلعبت ببراعة وشعرت بسعادة لا حد لها. وحين جلسنا لتناول الشاي هنأتني لاعبات الفريق فاحمرّت وجنتاي. ثم انتبهت: لقد نسيت مرضي لوهلة. وها ان الوحش اختفى موقتاً.

وهناك نشاط آخر أحببته في الجامعة وما زلت أتمتع به، وهو الرقص. كانت معلمة الرقص تعتبر مهمتها ترفيهاً وتسلية في الدرجة الاولى. وكانت نشيطة ممتلئة حيوية، وكانت دروسها تستهلك منا سكّر الدم بنسبة هائلة.

وفي احدى الحفلات التي نظمتها أكلت ثلاث فطائر محشوة، محظرة علي عادة، واستهلكت الكربوهيدرات التي احتوتها ودرت مراراً وتكراراً في حلبة الرقص. وتفوقنا على فريق اللياقة البدنية وفريق التجذيف. وفيما كنا عائدين الى غرفنا ذكرت عَرَضاً انني مريضة بالسكري. فسألتني معلمة الرقص: "هل عولجت بالحقن؟ ما هي أفضل الابر وكم تكلّف؟" فأجبتها بتهذيب ان مصلحة الصحة العامة تؤمن الابر والمحاقن من دون مقابل، وهي صالحة للعمل، الا أنني أفضل الابر التي تطرح بعد الاستعمال والتي نشتريها من الصيدليات. فهذه أدق وأكثر حدة وأسهل ولوجاً في الجسم.

ولم أعر ذلك الحديث اهتماماً الى أن كان اليوم التالي حين وجدت في صندوق بريدي شيكاً بقيمة ٥٠ جنيهاً استرلينياً (١٠) مع ملاحظة من المعلمة تقول انها مساعدة طبية من احدى المؤسسات، وأن ادارة كلية ترينيتي لم تجد سبيلا لانفاقها طوال سنوات لان الجميع في الكلية كانوا في صحة تامة. وطوال فترة اقامتي في الكلية كانت الادارة تدفع لي ثمن الابر والمحاقن.

(٩) الكريكيت لعبة بالكرة والمضرب.

(١٠) الجنيه الاسترليني يعادل اليوم نحو ١،٨ دولار.

وأثناء وجودي في الكلية اختبرت نوبة هبوط هي الاكثر صعوبة في ما خص الوصف. عدت الى البيت لقضاء عطلة نهاية الاسبوع، وكان النهار مشمسا فرحت أعمل في الحديقة حيث حرثت رقعة الخضر وأنا مرتدية قميصاً وسروالا قصيرا. وغلب علي التعب والانقباض، وكلما نكشت الارض زاد انقباضي. فكرهت الاعشاب العنيدة والتراب، وكرهت حتى الحياة.

دخلت المنزل وأخذت من الثلاجة علبة شراب معدّ للسكري وخال من السكر، وشربتها وأنا مستلقية على العشب في حال بؤس وذهول. ولو تجرعت شرابا عاديا مع السكر لما أصابني مكروه، لكن عقلي لم يكن يعمل على النحو الصحيح، فتناولت علبة الشراب الخالي من السكّر.

تلاطمت أمواج في رأسي ودخلت غيبوبة دامت ساعات وغرقت أكثر فأكثر في الضياع. ورأيت نفسي محمولة في شراع يبتعد بي رويدا عن شاطىء الحياة الى اللانهاية حيث لا قياس للزمن. وطال اغترابي فحسبتني أقمت دهرا في مكان عرفته: انه الجحيم، لان أبوابه موصدة في وجهي ولا أمل لي في الخلاص. وتوقف الزمن واستحال مملكة للشر ومقراً أبدياً حيث لا رجاء ولا سعادة ولا صلاح ولا أمل لي أن يتصل بي أحد فينقذني.

قالت لي أمي إن غيبوبتي في الحديقة دامت اقل من خمس دقائق حاولت فيها اعادتي الى وعيي فأخفقت. فاستدعت الطبيب، لكني أذهلتها اذ نهضت قبل وصوله ودخلت المطبخ فأكلت فاكهة وكأن شيئاً لم يكن. وحين حضر الطبيب وجدني جالسة في المطبخ التهم البسكويت محاولة طمس ما حدث في فكري.

وحالما رجعت الى الزمن البشري اختفى زمن الشر فحمدت الله. ولكن لم يسعني التوقف عن التفكير في ما حدث لايام عدة، ولم أستبعد احتمال معاودته وتجذّره فيرسّخ بعداً آخر للوحش.

[illegible]

غالبا ما كنت أدرك في ناحية من دماغي، أنني على وشك الاصابة بنوبة هبوط، لكني أشعر حينذاك بأني عاجزة عن تفاديها. ولم يسعني الاعتراف بمشكلتي لاي شخص يكون معي.

حدث ذلك في أمستردام بهولندا حيث ذهبت مع أمي لقضاء عطلة نهاية الاسبوع. مشينا حتى تورمت أقدامنا. وفقدت كثيراً من السكر. عرفت أمي أني في طريق الانهيار، وكان وقت العشاء. فرأت أن من الافضل دخول أحد المطاعم بأسرع ما أمكن واعطائي شيئاً آكله. وكانت المشكلة أني رفضت دخول كل المطاعم التي اجتزناها مرددة أن لا حاجة بي الى الطعام. وفي النهاية جرّتني أمي قسراً الى أحدها حيث بدأت أعاني تشنجات لا يمكن وصفها.

ثم لم أعد أعي شيئا، الى أن أفقت فوجدت رجلا هولندياً يشبك ذراعي وراء

ظهري وأمي تسكب في حلقي مشروباً حلواً ويداها ترتجفان. فيا للمسكينة! فأنا لم أخبرها بالتطور الذي طرأ علي أخيراً، لذلك كانت شديدة الاضطراب.

لكني استعدت وعيي سريعاً، فطلبنا شطيرتي هامبرغر. ولدى انتهاء الهولندي وزوجته من طعامهما همّا بالخروج، وتقدم الرجل مني وقال بعطف: "ليباركك الله وَيَحْمِكِ في حياتك."

أجبته: "شكراً لك" والدموع تكاد تتفجر في عيني.

ولطالما دفعت بي نوبات الهبوط الى رمي مشترياتي في الطريق، أو ركوب حافلة فأستلقي على أرضها وابتسم للاشخاص الذين يعبرون فوقي للنزول، أو النوم في مؤخر سيارة ثم الاستيقاظ واتهام الطبيب النفساني الذي كان يقودها، وزوجته، بأنهما مجنونان. ومن المؤسف أن مساعدة الاصدقاء والغرباء – وهذه احدى البركات التي أنعم بها علي بفضل السكّري – لم تكن دائماً جاهزة في مثل هذه المواقف الغريبة الطارئة.

بعد حفلة حضرتها بالقرب من كمبردج دعتني المضيفة، وهي زوجة رجل ديبلوماسي، إلى البقاء لأن الوقت كان ليلا. كانت غرفة نومي فخمة، لكنها كانت في الطرف القصي من المنزل وتبعد كثيراً عن غرف المقيمين فيه.

اذا هبط معدل سكر الدم ليلا، مثلما يحدث لي، فانك لا تدري به لكونك نائماً. فاذا هبط الى حد الاصابة بنوبة هبوط جدية فانك قد تستيقظ مرتعشاً فتدرك ما أصابك وتتناول بعض السكر. وأنا أحتفظ قرب سريري بحبوب دكستروز لمثل هذه الحالة الطارئة. أما اذا استمر الهبوط ولم أستيقظ، فان السكر يبلغ مستواه الادنى قرابة الرابعة صباحاً، وعندئذ فإما أن أدخل غيبوبة او أستيقظ مشلولة.

استيقظت ذلك الصباح – ولم تكن تلك المرة الاولى – فوجدتني مشلولة من الرقبة نزولا. وجهدت لكي أتحرك فأتناول حبوب الدكستروز الموضوعة الى جانبي، فلم أستطع ذلك. فأخذت بالصراخ وأنا مخجولة، لأن صراخ مشلول قبل فطور الصباح كان أمراً مبالغاً فيه.

صرخت بنغمة مهذبة لمدة خمس دقائق، فلم ألقَ صدى. ثم صرخت بقوة لخمس دقائق أخر فلم ألق جواباً. كنت عاجزة حتى عن التحرك للسقوط عن السرير لعلّ الصدمة توقظ أحداً. وغشي العرق عيني فلم أَقدر أن أمسحه، ولم أقو الا على الصراخ، فرحت أصرخ وأصرخ ثم أتوقف منهوكة. وبقيت على هذه الحال ثلاث ساعات.

في السابعة والنصف صباحاً سمعت باباً يفتح وجر أقدام في اتجاهي. وما هي لحظات حتى رأيت مضيفتي العجوز، وكانت في الخامسة والسبعين، تدخل غرفتي مرتدية قميص نوم.

لم تتردد السيدة لحظة حين شاهدت حبوب الدكستروز. فسألتني عما اذا كانت هي التي أحتاج اليها، فأومأت ايجاباً. لقد أسعفني الحظ هذه المرة، كما في

السابق دائما، فغابت السيدة ثم عادت ومعها ابريق شاي وفنجانان. فجلست على حافة سريري وسكبت الشاي في الفنجانين ووضعت حبة دكستروز في كل منهما، ورفعت فنجاني الى فمي كأنها كانت تفعل ذلك كل يوم. وحالما استعدت قوة النطق، شكرتها.

قالت: "العفو يا عزيزتي، فأنا أتناول الشاي باكرا كل صباح وأجده لذيذا جدا محلّى."

ثم تناولت فوطة ومسحت الشاي الذي انسكب على الوسادة وطلبت رأيي في ما يجب أن تعمله لتقوية نبتة زينة ذاوية.

في كثير من الاحيان حين تنتابني نوبة هبوط أُنقل في سيارة اسعاف الى المستشفى. والتكرار أكد انطباعي أن رجال الاسعاف هم، من غير استثناء، ألطف مجموعة من الناس في العالم. وأنا أشعر بالارتياح في أقسام الطوارىء. فالصفاء الذي يعقب النوبة هو الحسنة الوحيدة التي تشفع بالوحش. فأجدني بعدها مفعمة بالحياة أتألق صحة وعافية وأعود قادرة على التفكير والتحرك.

أستلقي فأتأمل "الزينة" المألوفة. ففي كل أقسام الطوارىء رفوف وابر ومحاقن وأنابيب وأدوات مشؤومة في أكياس النايلون ذاتها. وهناك الضوء ذاته في السقف، مسطحا دائريا، وفيه مصباح كهربائي أبيض ضارب الى البنفسجي.

فاذا أسعدني الحظ وفات القوم هناك اغلاق الستارة، فاني أراقب الاطباء والممرضات والمرضى الذين يمرون في الخارج. فأسترق السمع فيما تتباحث الممرضات في أخطاء الاطباء. إنه لأمر فاتن، بشرط ألا تكون أنت المعني.

نُقلت ذات صباح الى المستشفى وأنا مصابة بنوبة هبوطٍ حادة ومشلولة من رأسي الى أخمص قدميّ. وكل ما أمكنني تحريكه عيناي اللتان بتّ أرى بهما صوراً مكررة، ورأسي الذي كان يتمايل من جانب الى آخر. ولدى وصولنا الى المستشفى أخبر رجال الاسعاف الطبيب أني مصابة بالسكري. فنظر الى عيني وقال: "انها ستدخل غيبوبة، فالافضل حقنها بالانسولين على عجل."

أثار فيّ كلام الطبيب رعباً قاتلا، فحاولت أن أنقل اليه أن ما أحتاج اليه هو سكّر لا انسولين، وأنه اذا أعطاني حقنة انسولين قضى عليّ. خرج مني صوت وحاولت هزّ رأسي لكنه سقط جانباً من دون حراك.

تقدم الطبيب وفي يده محقنة الانسولين. ففرك ذراعي بمادة معقمة استعداداً للحقن. فأبدلت صلاتي من "أرجوك ساعدني يا الهي" الى "أرجوك أوقفه يا إلهي." كنت في ذروة الاهتياج فرحت أضرب برأسي يمنة ويسرة محاولة بكل ما فيّ من قدرة بائسة مجنونة أن أقول له "لا!"

وكانت احدى الممرضات تمسح العرق عن جبيني بقماش مبلّل وتطمئنني.

فأطلقت أنّة باقصى قوتي، فتنبهت وقالت للطبيب: "يا دكتور، لعل هناك شيئاً على غير ما يرام."

أطلقت عندئذ أنّة ايجابية وأنا ممتنّة لها من أعماق قلبي. فتطلع الطبيب الي مشككاً واجاب: "لا أعتقد ذلك، إنما من الافضل أن نجري فحصاً للدم احتياطاً." فتنفّست الصعداء وخف نبض قلبي.

وخز الطبيب اصبعي فأبدى دهشة، لكنه لم يهتم كثيراً لان الفحص أظهر هبوطا في سكر الدم لا ارتفاعاً. ثم قال: "سنعطيك بعض الغلوكوز بدل الانسولين." فأدخل محقنة مليئة بالغلوكوز في ذراعي، وما هي الا ثوان حتى بت قادرة على البوح بكل ما عندي. فشكرت الممرضة ثم الطبيب، وبان الارتباك على الممرضة أما الطبيب فاكتفى بالقول: "لا بأس." كان رجلا بارداً رابط الجأش.

أوضاع مربكة

خلافاً لمعظم مصابي السكري أنا لا أفتقد الطعام الذي أُنهى عنه، وان تملكتني من وقت الى آخر رغبة ملحة في الحلوى والشوكولاتة، خصوصاً بعد السباحة وفي أعياد الميلاد. وكثيراً ما أحلم بهذه الملذات.

وما يمضّني هو الإلزام بحيث أجبر على تناول ما لا تكون لي رغبة فيه. أعرف أن علي تناول بعض النشاء في الحادية عشرة صباحاً، سواء أكنت جائعة أم لا. كذلك علي الاكل في الرابعة عصراً، اضافة الى الفطور والغداء والعشاء. لقد ولّت الأيام حين كنت أعمل وأتسلى وأجوع طوال ثلاثة أيام أعود بعدها الى الأكل والشرب والنوم ثلاثة أيام تالية.

في السنوات الاولى لاصابتي بالسكري بلغت من النحافة حداً دفع مايكل الى أن يقول لي إني أبدو كلوح خشبيّ، وقال طبيبي في كمبردج إن علي أن أزيد وزني، وان بعض الانسولين الاضافي سيكون مفيداً لي. ولكن في حين كان معدل السكر في دمي يرتفع ويهبط كان وزني يرتفع ويرتفع.

ان معرفة كثير من الناس بالسكّري محدودة، وهذا الامر، اضافة الى محيط خصري الواسع، أدّى الى سماعي ملاحظة مؤلمة يوماً.

فقد دعيت الى مأدبة عشاء وكانت المضيفة محميّة، فهيأت أنواعاً من الطعام تحتوي على أقل مقدار ممكن من الكربوهيدرات. ولم يكن لي علم بذلك، بل ما كنت اعلمه هو اني حُقنت بالانسولين في ذلك اليوم. وكان هناك لحم وسمك وخبز فرنسي مقلي بالحليب والبيض.

لم أكن على معرفة وثيقة بالمضيفة، فلم أطلب خبزاً عادياً لان ذلك ربما بدا إهانة لحسن طهوها. فاستعضت عنه بالتهام كثير من الخبز الفرنسي المقلي وسط دهشة المدعوين الذين كانوا يأكلون على مهل. واذا بهم يدفعون الي بسلّة الخبز كلها ليشاهدوني ألتهمها. فشعرت اذذاك بالاساءة والعزلة.

ثم قدّم الينا دجاج. وفوجئت بكومة من البطاطا الرائعة تمر تحت أنفي وعليها رشة من البقدونس. فشككت شوكتي فيها حالا ووضعت ست قطع في صحني من دون انتظار أحد، كما تقضي اللياقة. فران الصمت على الجميع، لكني لم آبه لشيء وتابعت الأكل ألتهم البطاطا قطعة بعد قطعة بنشوة وارتياح.

واذا بالرجل الجالس الى جانبي يقول لي: "هل من عادتك تناول هذا المقدار الكبير من الطعام؟ عليك أن تعتني بنفسك ومظهرك."

وما زالت كلماته ترن في أذني.

من ناحيتي، أنسى أحياناً كم ستكون صدمة الناس كبيرة حين يرونني أحقن نفسي، حتى بعد انهيار أختي دو ذلك اليوم. وذات أمسية في المسرح حقنت نفسي في غرفة السيدات، وشرحت لسيدة كانت تراقبني باستغراب أنني أحقن نفسي بالانسولين. فما كان منها الا أن أسرعت الى المرحاض وتقيأت.

لكن بعض الناس لا يهتمون اطلاقاً لهذه المشاهدة. فذات صباح كنت اسمع خطبة في قاعة فسيحة احتشد فيها الحضور. وكنت واقفة قرب رجل جليل يضع نظارتين ويرفع رأسه عالياً ليرى الخطيب. مما حملني على الاعتقاد أن في وسعي حقن نفسي آنذاك من دون أن يراني. وكان علي ان أفعل ذلك لأني كنت سأتناول طعام الفطور بعد قليل. فطأطأت رأسي وباشرت الحقن.

واذا بي اسمع الرجل يقول لي: "أرجو ألا يؤلمك ذلك."

فرفعت بصري ورأيته ينظر الي من خلف نظارتيه باهتمام بالغ.

أجبته بصوت منخفض وقد احمرت وجنتاي خجلا: "لا."

فهمس: "حسناً." ولم يسألني ماذا كنت أحقن نفسي.

فبارك الله مثل هؤلاء الناس الرقيقي الحاشية الذين يترفّعون عن التطفل، لأن مصابي السكّري المرتبكين والمنطوين على أنفسهم يجدون فيهم عضدا وقوة وعزاء

أكون مجنونة اذا اعتقدت أني سأعود فأتوهج صحة وعافية، لكني على استعداد دائم كيما أختبر طريقة جديدة لمعالجة داء السكري.

داومت فترة عقاقير "السّلفا"(١١) التي تنشط انتاج الانسولين لدى بعض المصابين بالسكّري الخفيف. كانت تلك رمية في الظلام والهدف منها، في حال انتاجي قليلا من الانسولين، تنشيطي لانتاج ما يكفي للعيش.

كنت آخذ حبة صغيرة بيضاء صباحاً ومساء. وذهبت في عطلة الى ايرلندا حيث قضيت أسبوعين ممتعين مارست فيهما المشي وقطف توت العلّيق والتجذيف في البحيرات. لكن السكّر كان يزداد لدي باطراد، فقد كان اعتمادي على حقن الانسولين كلياً، وليس في مقدوري أن انتج ذلك الهرمون بنفسي. فرجعت الى

(١١) Sulpha drugs

بريطانيا وقد غلب علي العياء والظمأ والشوق المدمن الى المحقنة المريحة.

واختبرت أيضا الكربوهيدرات الغنية بالالياف التي لا يتم امتصاصها بالسرعة ذاتها كالكربوهيدرات المكرّرة، والتي يقل احتياجها الى الانسولين. وقبل أربع سنوات عاينني احد الاطباء الجدد الذين يؤمنون بالكربوهيدرات الغنية بالالياف، فزودني عدداً من الكتيبات التي تشرح فوائد الفاكهة غير المقشورة والدقيق الكامل.

كان برنامج الحمية المعدل صدمة للنظام الذي اتبعته سابقاً. فبعد عشر سنين خفضت خلالها ما أتناوله من الكربوهيدرات تمشياً مع الرأي الطبي آنذاك، توجهت الى الفرن واشتريت رغيفاً كاملا كنت متشوقة الى أكله، بل تعيّن علي أن آكله. تأملت الرغيف معجبة به كأنه تمثال منحوت. وأخيراً قطعت طرفه وأكلته فوجدت طعمه رائعاً. لكني سئمت الخبز الآن، فلا مجال للنجاح بهذه الوسيلة.

والابحاث العلمية في ميدان السكري كثيرة ودائمة. وهناك جامعات، منها بريستول وداندي ونيو كاسل، ترعى دراسة عمل الانسولين ضمن خلايا الجسم، وهذا حقل جوهري في طب السكّري. ويتم اختبار كثير من الافكار، واحدى الافكار التقنية زرع البانكرياس.

أجري أول زرع للبانكرياس في بريطانيا في مستشفى أدينبروك، كمبردج، في أغسطس (آب) ١٩٧٩. كانت المريضة امرأة مصابة بالسكري المتقلب وبداء خطير في الكليتين، وكانت عملية الزرع أملها الاخير في الحياة. زُوّدت كلية جديدة وبانكرياساً جديداً وغادرت المستشفى وقد زال عنها السكّري. وهناك ستة من أصل ١٧ مصاباً أجريت لهم عملية الزرع منذ العام ١٩٨٣ انتفت حاجتهم الى تناول الانسولين.

يرى الامريكيون في البانكرياس الاصطناعي أمراً مقبولا بلا جدل: انه مضخة تحقن باستمرار كميات قليلة من الانسولين تحول دون تقلب سكر الدم بين ارتفاع وانخفاض، مما يشكل علة تنغص حياة المصاب بداء السكري المتقلب.

رُكّبت لي "مضخة" عام ١٩٨٤. وكانت ضخمة، طولها ١٣ سنتيمتراً وعرضها ٩ سنتيمترات، تتألف من محقنة وبطارية ومحرّك (موتور) لضغط الابرة المولجة. كنت أبقي الابرة ٢٤ ساعة متواصلة في معدتي أو فخذي أو ذراعي أو أي مكان آخر في جسمي أولجها فيه.

اعتدت التعايش ومضختي، انما لم أتقبلها كلياً لذلك لم تدم علاقتنا أكثر من شهر. فقد سئمت كوني مقيدة بها لا أستطيع الاستحمام أو تغيير ملابسي الا بعد فصلها وتغطيتها وضبطها. وأثناء لعب كرة المضرب كان علي ربط المضخة بشريط لاصق لا يلبث أن ينفك. وتعذّر علي التحرك بخفة وعفوية، ورأيت فيها عائقاً مربكاً ووحشاً أصغر.

ويبدو أن نصف مجموع المرضى الذين يجهزون بمضخات لا يحبونها. والرجال



يرضون بها أكثر من النساء، اذ يشعرون بالأمان لوجود المضخة ولا يبالون كثيرا بمنظرها البشع. وحتى أولئك الذين يمقتون المضخات يعترفون بافادتها في ضبط معدل السكر في الدم.

ومن دواعي الاسف أن ليس في الامكان تناول الانسولين من طريق الفم لانه بروتيين تفقده السوائل الهضمية فاعليته. فاذا انبلج الفجر يوما وكان هناك من اكتشف وسيلة لتناول الانسولين من غير طريق الحقن. فسأطير فرحا وأغني عالية ليسمعني العالم كله.

أكتب هذا وأنا جالسة الى مكتبي وجسمي منخور بثقوب الإبر ودمي يملأه السكر وأصابع قدمي خدرة ورؤوس أصابع يدي بيضاء. إنني تعبة ومتكاسلة، كأنني أعيش أبدا في الثالثة بعد الظهر. وتلزمني حقنتان أو ثلاث حقن يومياً، وقد تلقيت إلى الآن أكثر من عشرة آلاف حقنة. أحمل معي دائماً حبوب دكستروز وقطع حلوى في حقيبتي التي أتمسك بها تمسكي بحبل نجاة. انني أعيش كعصفور في مهب العاصفة، أصارع هواجس نوبات الهبوط التي تعاودني مرة كل أسبوع.

أعرف أن لا بد لي من أن أعاني مضاعفات كلما تقدمت بي السنون، فقد حذرني الدكتور جايمس في مستشفى وستمنستر على اثر تشخيصه اصابتي بالسكّري قائلا: "كل ما يصيب المرء في أواخر حياته، كأمراض القلب والدورة الدموية والكليتين والعينين، تصيب مرضى السكري أكثر من سواهم وفي وقت مبكر."

ولكن، لحسن حظي، لم يتمكن السكري من اخماد جذوة الفرح فيّ. إن قلبي كبير يتسع لفيض من السعادة، وغالبا ما رأيت نفسي سعيدة على رغم شبح الوحش الرابض. حين أشعر بالعافية أستغل الايام الموهوبة. لا أدعي أني أفعل الكثير، لكني أعتز كثيرا بما أفعل. ولا أتلفّت حولي لكي لا أرى الوحش، وأظل اذكّر نفسي كل نصف ساعة بأني في حال جيدة، لكي لا يغيب ذلك عن ذهني.

لقد منحني السكّري أكثر مما أخذ مني. فقد كشفت لي نوبات الهبوط التي اجتاحتني نواحي انسانية كثيرة في البشر، لولاها لفاتتني. وحملتني على أن أكون أكثر تسامحا، وغذّت فيّ روح العطف وطول الأناة والتفهم والصفح. ويتسع صدري

الآن لتشكيات الآخرين الناتجة من العياء والانحطاط والضعف. وكنت، على أثر عودتي من الهند حيث راعني ما شاهدته من فقر مدقع، أعزو ذلك الى الترف في مجتمعنا والانغماس في الملذات والرثاء الفارغ للذات. أما الآن، بعدما مضّني السكّري لسنوات وعانيت من الآلام النفسية والجسدية ما عانيت، فاني أحجم عن إلقاء التهم جزافاً على أولئك الذين يشتكون، اذ ما من أحد قادر على معرفة الأسباب الخفية وسبر الاعماق التي أوصلتهم اليها مآسيهم.

أستيقظ كل صباح فتأخذني الدهشة لكوني ما زلت حية. وطالما تساءلت بخفة وقلة اكتراث: أحقاً أنا حية؟ لماذا؟ أنا لا أتوقع معرفة الجواب، تماماً كما لا أتوقع أن أعرف لماذا خُصصت بشعر بنّي ووجه نمش، ولماذا أحب التفاح، ولماذا أصبت بداء السكّري.

لم أطرح على نفسي مرة هذا السؤال الأخير. فلئن أُصبت بالسكّري فتلك هي ارادة الله، والتساؤل عن السبب ليس سوى اضاعة للوقت. واتكالي على الله، وفي عمق أعماقي ايمان راسخ بأنه يقضي على "الوحش" متى شاء.

تيريزا ماكلين ■

ترجمة الياس عقل

للكاتبة مؤلّفان آخران هما "حدائق انكليزية من القرون الوسطى" و"لهو الانكليز." وهي تعمل حالياً على كتابة رواية. وبعيد انتهائها من كتابة "الوحش" في ربيع ١٩٨٤ تزوجت أستاذ تاريخ وانتقلت الى كمبردج حيث تسكن حالياً. وفي يناير (كانون الثاني) ١٩٨٥ أنجبت إبناً سمته بيتر.



لص عصري!

يقع مكتبي في قطاع من المدينة اشتهر بسرقة السيارات، لذلك علقت لافتة صغيرة على نافذة سيارتي تقول: "تحذير! جرس انذار قوي!"

وذات يوم بعد تركي العمل لاحظت أن جهاز الراديو الغالي الثمن سُرق من السيارة. وقرأت بوضوح تحت لافتتي هذه الكلمات: "جهاز انذارك يحتاج الى اصلاح."

ك.ب.س.

خالة دهرية!

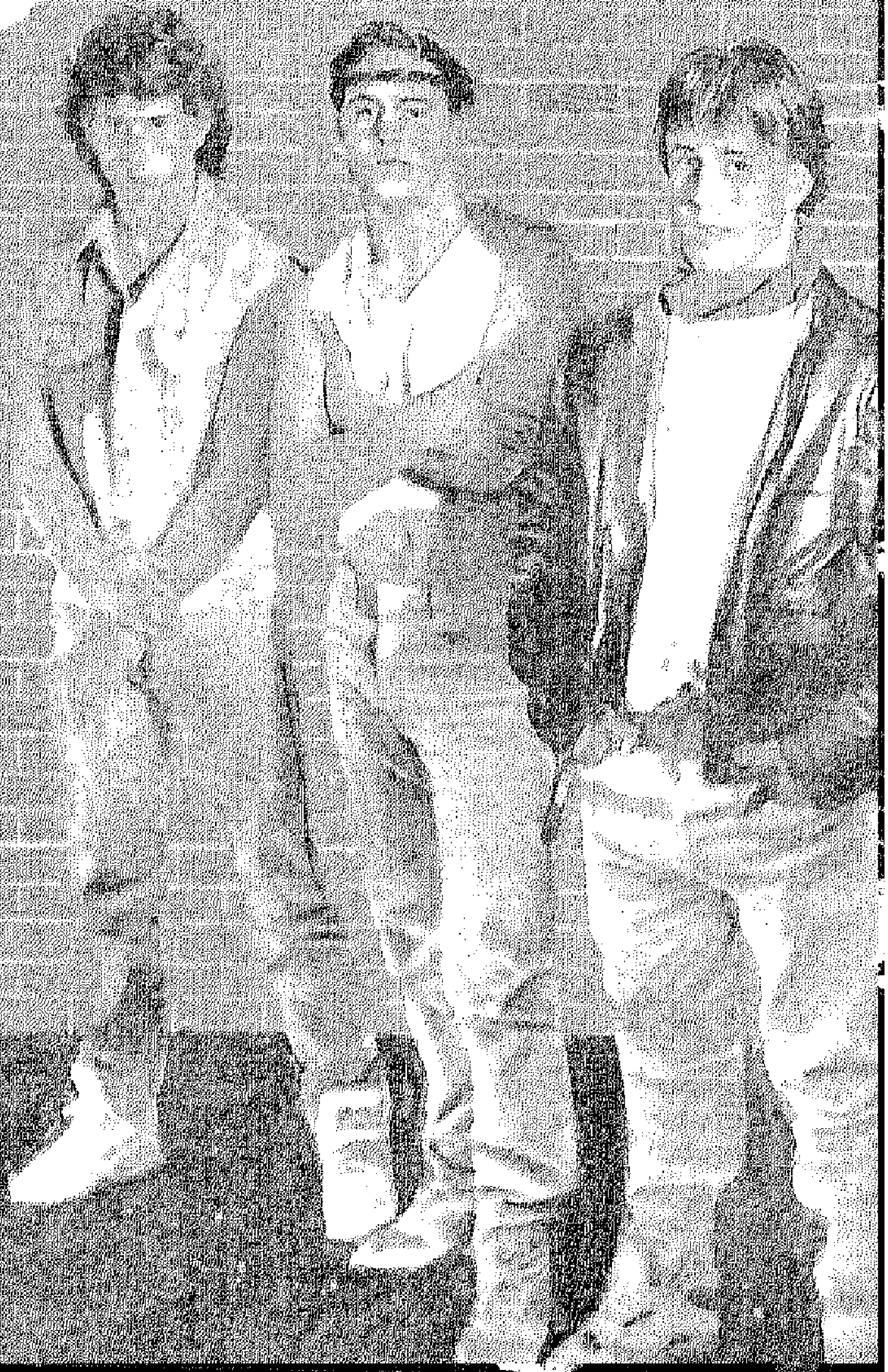
كنت أعمل في مخزن بقالة، وغالباً ما ساعدت كبار السن من الزبائن. وكانت هناك امرأة تتبضع يومياً مكتفية ببضع سلع كل مرة. وبعد شهر قالت لي: "أفترض أنك تعجب لماذا آتي الى هنا كل يوم. القصة هي أنني أعيش مع ابن أختي. وأنا لا أطيقه، ولا أريد أن أموت وأترك له ثلاجة مليئة بالطعام!"

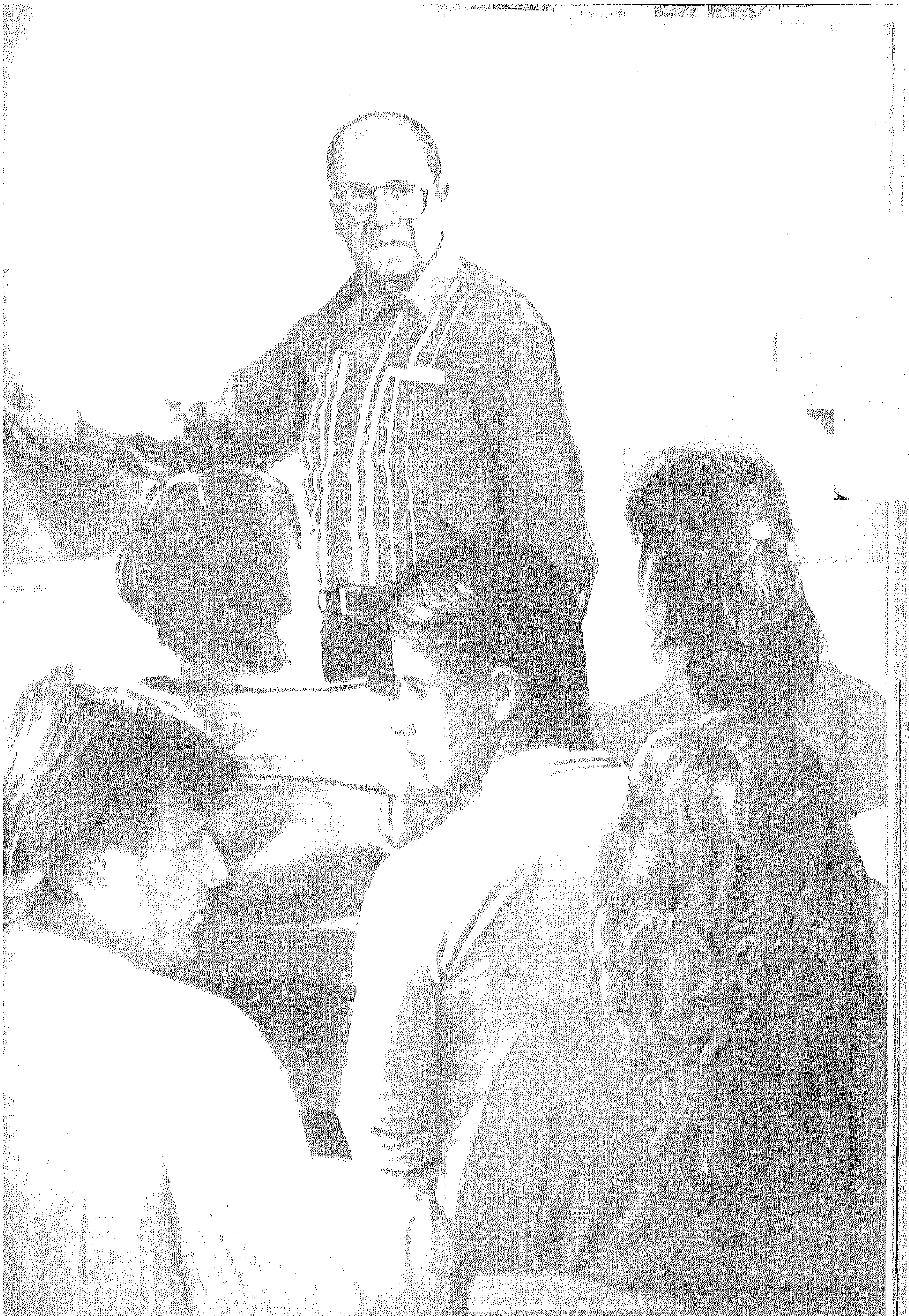
ش.ف.

كتاب الشهر

الأستاذ الممتاز

ملخص من كتاب
بقلم جاي ماثيوز





استولى المشاغبون على المدرسة الثانوية. وبعد نصف قرن في خدمة الجاليات الفقيرة الوافدة من أمريكا اللاتينية الى شرق مدينة لوس انجلس في ولاية كاليفورنيا، ضعفت مدرسة غارفيلد الثانوية الى حد الانهيار الكامل.

كان التلاميذ يتنقلون بين القاعات وهم يحملون، بدل الكتب، أجهزة الراديو الملعلعة بموسيقى "الروك - اند - رول." وغطت الكتابات البذيئة الجدران والمقاعد والطاولات. ومع مرور الايام ترسخ العنف والتخريب المتعمد في المدرسة فباتا جزءاً لا يتجزأ من المنهاج اليومي.

ثم ظهر نوع آخر من مثيري المتاعب: هايمي إسكالنتي مدرّس الرياضيات الجديد.

كان هايمي رجلا قوياً متطلباً وغير تقليدي. وهو سرعان ما شرع يقلب المدرسة والصورة السائدة



الأستاذ الممتاز

عن الطلاب في الاحياء الفقيرة.
تطلعوا الى فوق! هكذا حث اسكالنتي تلاميذه. في البدء قابل هؤلاء تطلعاته العالية بكثير من الحذر والشك، لكنهم أصغوا اليه، ولم يمض وقت طويل حتى بدأوا يفدون الى المدرسة في السابعة فجراً ويتوجهون رأساً الى صفوفهم لدراسة مادة الرياضيات.
وهنا قصة ذلك المدرّس الفذّ، عربون تقدير وإجلال لموهبته وللمهنة التي يمارسها بكثير من الشغف والاندفاع.

في يومه الأول في مدرسة جايمس غارفيلد الثانوية في شرق مدينة لوس انجلس أوقف هايمي اسكالنتي سيارته الـ"فولكس فاغن" الخضراء الباهتة في بقعة خالية. لاحظ الجدران المغطاة برسوم وشعارات استفزازية ونابية. ولاحظ أيضاً الحجار والنفايات الملتصقة بالسياج المعدني والعالقة بالزوايا حيث تلتقي أرصفة المشاة المعبّدة جدران البنايات المشيدة بالاسمنت.

مجموعة من الفتيان في لباس عصابات الشوارع وقفت تتسكّع بالقرب من المكان. وصاح أحدهم مخاطباً اسكالنتي بلهجة شارعية: "يا رجل، ممنوع أن توقف سيارتك هناك. أوقفها هنا!"

وأشار الى مكان ضيق بين سيارتين. أوقف اسكالنتي سيارته حيث أرشد ثم ترجّل منها وهو يكاد يعجز عن التحرّك لضيق المكان.

شاب أكبر سناً من أن يكون طالباً وأحسن هنداماً من أن يكون مدرّساً، سأله وهو يخرج من أحد المباني القريبة: "هل من مشكلة يا سيدي؟"

فردّ اسكالنتي: "آه، كلا أين يقع المكتب الرئيسي؟"

– عبر هذا الباب، ثم صعوداً على السلم.

Condensed from «Escalante: The Best Teacher in America,» copyright © 1988 by Jay Mathews, published by Henry Holt and Co., Inc., New York, and used by permission of Sanford J. Greenburger Associates, Inc., New York. Illustrations: Alan Reingold. Photos: Ken Rogers/ Black Star

"شكراً يا سيدي. هل أنت مدرّس؟"

ارتسمت على شفتي الشاب ابتسامة متكلفة ثم قال: "نوعاً ما."

في تلك اللحظة صرفت انتباه الشاب زجاجة ألقيت في صندوق للنفايات، فاستدار بحدة نحو مصدر الصوت، ولمح اسكالنتي مسدساً تحت معطفه. الشاب إذاً ضابط أمن في ثياب مدنية. قال اسكالنتي في سرّه: هكذا يتعلمون إذاً!

إنقضت ساعة وإسكالنتي جالس منهولا في المكتب الرئيسي قبل أن يتمكن الناظر العام من أرشاده الى صفه الاول. وكان الوقت فات، فتابع اسكالنتي سيره بحثاً عن صفه الثاني. وكان الناظر أبلغ اليه أن أحدهم سيوافيه هناك ليعطيه التعليمات بخصوص صفوفه التالية الممتدة من الثالثة بعد الظهر الى السادسة مساء. تساءل عن جدوى المكوث في المدرسة الى ذلك الوقت المتقدم، خصوصاً بعد الاحتكاك المزعج الذي حصل بينه وبين الطلاب في مستهل يومه.

لم يملك ذلك المدرّس إبن الثالثة والاربعين إلا أن يسأل نفسه عما حداه على اختيار تلك المدرسة من بين سواها من المدارس التي عرضتها عليه "الادارة الموحدة للمدارس" في لوس انجلس. والواقع أنه عندما تفحص مواقع المدارس في الخريطة التي بدت أمامه كمتاهة من الخطوط الحمراء والخضراء والصفراء، حاول أن يتجنب المدارس في أحياء السود ومهاجري الشرق الأقصى، ودل باصبعه على لطخة على الخريطة، معظم سكانها من أصل مكسيكي. كانت أمنيته أن يعلّم هؤلاء، فهو مثلهم مهاجر من المكسيك ويتقن الاسبانية.

عندما دخل الغرفة "٨٠١" بدا له أن الطلاب سيطروا عليها تماماً. فطاولاتها صُفّت في شكل نصف دائري، وعلا منها ضجيج وأصوات ثرثرة وتدافع أقدام. وكان اسكالنتي يكره أن تزاح الطاولات أو يبدّل توزيعها من دون إذن منه. كما لم يسبق له أن سمع أبناء السادسة عشرة يتفوهون بمثل تلك الالفاظ التي سمعها.

كتب اسمه على اللوح الاسود. وبمزيج من الشعور بالضيق واليأس استمع الى السؤال الأول من تلميذ في مدرسة غارفيلد الثانوية: "ها، ماذا ستعلمنا؟"

"الجنس!" رد تلميذ آخر في الصف الامامي. وانفجر الآخرون بضحك مكبوت. أخرج اسكالنتي قائمة بأسماء الطلاب وراح يتلوها. كان عليه أن يفعل شيئاً من أجل انقاذ وظيفته.

حاول أن يشرح بعض أنظمة الصف. ورسم على اللوح مخططاً لمسألة رياضية. لكن التركيز كان متعذراً بسبب اللغو والجلبة. وصاح أحد التلاميذ من الصف الخلفي: "هاي، يا رجل! عما تريد أن تتكلم؟"

ابتسم اسكالنتي وأجاب: "عن الرياضيات."

- لا يا رجل، إنه موضوع بارد. فلنتكلم عن الجنس.

بعد انقضاء أسبوعين من الفصل الاول أعلم اسكالنتي مدير المدرسة برغبته في تركها في نهاية العام.

انقطع اسكالنتي عن التعليم زمناً طويلا. وهو كان قبل عشرين سنة مدرّس رياضيات وعلوم محترماً في عدة مدارس مرموقة في مدينة لاباز عاصمة بوليفيا. واعتاد طلّابه أن يفوزوا بجوائز كبرى كل سنة. ولم يكن في وسعه أن يلبي جميع عروض التعليم التي انهالت عليه. وفي سنه الحادية والثلاثين بلغ هايمي وزوجته فابيولا وابنهما هيميتو مستوى عالياً من المعيشة لم يعرف مثله معظم أهل بوليفيا.

ولكن هل تدوم النعم؟ فالحكومة غير مستقرّة واقتصاد البلاد يترجح صعوداً وهبوطاً وأفضل الخريجين وألمعهم فضلوا مغادرة البلاد لمتابعة تحصيلهم او لممارسة مهنهم في بلاد أخرى. وكان أشقاء فابيولا، مثل والدهم قبلهم، هاجروا لمتابعة دراستهم الجامعية في جنوب ولاية كاليفورنيا. فأسرَّت الى زوجها ذات يوم أنه ربما حان الوقت لتفكّر عائلة اسكالنتي في الرحيل هي أيضاً.

البدء من الصفر

في البدء كان هايمي يصغي الى زوجته تتحدث عن الهجرة من دون أن يرد. ولكن بعد سنة أخرى من العمل في أربع وظائف مختلفة ليعيل عائلته، بات يشعر أن فابيولا على حق. وذات مساء صرّح لاشقائه وهم الى مائدة العشاء: "ليس في وسعي أن أتقدم هنا. سوف أغادر الى الولايات المتحدة، وسوف أنجح هناك وإن اضطررت الى البدء من الصفر."

إتفق هايمي وفابيولا على بيع جميع ممتلكاتهما من أثاث وسيارة وقطعة أرض كانا يخططان لبناء منزل فيها. واتفقا كذلك على أن يسبق هايمي العائلة ليتدبر أموره، وأن يمكث موقتاً مع سام تابيا شقيق فابيولا الاصغر في باسادينا بولاية كاليفورنيا.

وليلة سفره كتب هايمي رسالة الى والدته العجوز جاء فيها: "أمي العزيزة، إن شاء الله سأعود الى وطني يوماً لاعيش فيه بسلام. إنه قدري أن أرفع اسم عائلتي عالياً، وكلي أمل وتفاؤل بأنني سوف أنجح. لا تقلقي على ابنك هايمي الذي يحمل صورتك في فكره دائماً. دروس الأمس وأمثولاته سوف أجعلها ركيزة الغد."

ما ان وصل اسكالنتي الى كاليفورنيا حتى بدأ البحث عن عمل. وسرعان ما وجد أن الحاجة كبيرة الى عمال متوسطي العلم والخبرة، فيما الفرص ضئيلة لمدرس في الثالثة والثلاثين من بوليفيا.

بعدما حفظ من الكلمات والعبارات الانكليزية ما يكفي للتعبير عن مراده، وجد عملا في مطعم كعامل تنظيف. ناوله المدير ممسحة وأشار الى الارض الوسخة. كنس اسكالنتي الأرض وفركها ومسحها. وفي السابعة مساء رفع الكراسي على الطاولات ومسح الارض مرّة أخيرة.

صباح اليوم التالي مضّه ألم شديد في الظهر جعله يتحرّك بصعوبة. وجلس متوجعاً الى طاولة المطبخ وتناول فطوره ببطء كرجل يبلغ ثلاثة أضعاف عمره.

لم يسع سام تابيا أن يفهم كيف يسقط صهره الى هذا الدرك الوضيع.

فابيولا أيضاً لم يعجبها ذاك العمل. لكن هايمي أكد لها عندما وصلت الى باسادينا في العام ١٩٦٤ مع ابنهما هيميتو (٨ سنوات) ان ذلك عمل موقت، فهو انتسب الى معهد ليلي في جامعة باسادينا للحصول على شهادة في الهندسة طالما تمناها. قال لزوجته: "انني أتعلم الانكليزية، ويمكنني الآن أن أكتب الى مجلس الولاية وأرسل الى المسؤولين صوراً عن شهاداتي وجوائزي لعلّهم يجدون لي عملا كمدرّس."

ولكن في أغسطس (آب) ١٩٦٤ رفضت دائرة التربية في كاليفورنيا طلبه في رسالة مقتضبة. فدراسته في بوليفيا والمواد التي نال شهاداته على أساسها ليست مقبولة في كاليفورنيا. ويترتب عليه، إن هو رغب في التعليم في الولايات المتحدة، أن يدخل الجامعة كطالب جديد ويعيد جميع السنوات الدراسية، فضلا عن سنة إضافية من الدروس العليا بعد نيله الاجازة. ومعنى ذلك إنه سيمضي عشر سنين في معهد ليلي وأنه سيُحرم وهو في الثلاثينات والاربعينات من عمره، أي في عزّ عطائه، دخول الصفوف المكان الوحيد الذي يمكنه أن يقدّم فيه شيئاً الى وطنه الجديد.

لم يسبق أن شعر اسكالنتي بمثل ذلك الاحباط.

حضت فابيولا زوجها على أن ينسى التعليم ويبحث عن عمل آخر في مجال الالكترونيات. فربما وجد مركزاً في وكالة الفضاء الامريكية (ناسا). أولم يكن البحث عن فرص وآفاق جديدة من الاسباب التي دفعتهم الى الهجرة الى الولايات المتحدة؟

سمع اسكالنتي كلام زوجته ووجد عملا في شركة "باروز" في باسادينا. بدأ عمله في مخزن التموين، لكنه تقدم بسرعة. وفي العام ١٩٧٢ عُرضت عليه وظيفة ناظر في مصنع جديد في غودا لاجارا في المكسيك، فرفضها خشية أن يعوق ذلك دراسة ولديه، وكان رزق في العام ١٩٦٩ ابناً ثانياً سماه فرناندو. وعلى رغم كل أحلام فابيولا لم يكن هايمي على يقين أنه سيظل يعمل في مجال الالكترونيات.

ذات مساء شديد البرد في يناير (كانون الثاني) ١٩٧٣، فيما كان اسكالنتي يزرر معطفه استعداداً للانصراف الى البيت بعد انتهاء دروسه المسائية، رأى أستاذه يحدّق اليه بفضول.

خاطبه الاستاذ: "هل لي أن أسألك عن أمر يا هايمي؟"

فرد: "بالطبع يا سيدي، فأنا رجل الاجابات!"

وكان السؤال: "ماذا تنوي أن تفعل بشهادتك؟" أجاب هايمي: "سوف أدرّس."

بدا الاستاذ مندهشاً، فتابع هايمي: "كنت أدرّس مادتي الفيزياء والرياضيات في وطني الاول. وأعتقد أن في وسعي أن اؤدي في مجال التدريس عملا أفضل."

– ولكن يسعك ان تؤدي عملا مميزاً في مجال الصناعة، ولديك حظ كبير.

"سوف أدرّس. هذا ما أرغب فيه."

عندئذ، بعدما لمس الاستاذ إصرار اسكالنتي وعزمه، أخبره عن برنامج تموّله "المؤسسة الوطنية للعلوم" يمكن أن يتيح له فرصة التفرّغ للدرس. وهذا يعني تمكينه من معاودة التدريس في غضون سنة واحدة!

حان الوقت لمواجهة فابيولا. قال لها: "انها فرصتي الوحيدة. سوف يختارون شخصاً، لمَ لا يكون أنا؟"

قالت فابيولا وهي تحدّق الى زوجها: "تذكر يا هايمي بعض الامور التي اعتاد هيميتو ان يشاهدها في مدرسة باسادينا الثانوية. الاولاد هنا ليسوا حسني السلوك كما هم في بوليفيا. وهم لا يتصرفون باحترام. وأنت تعرف ردود فعلك على ذلك."

بذل اسكالنتي جهداً كبيراً ليُفهم زوجته ما عقد النية عليه. قال: "انني أجد متعة كبيرة في التعليم، وكل ما أتعامل به الآن هو أوراق... اوراق... أوراق. لن أستمر هكذا."

عندئذ لزمت فابيولا الصمت. ولم تتدخل عندما فاز هايمي بمنحة في "المؤسسة الوطنية للعلوم" حيث أنهى تدريبه، ولا عندما إكتشفت ان راتبه السنوي سوف يهبط عندما يبدأ التعليم من ١٦ ألف دولار الى ١٣ ألفاً. فهي كانت راقبت هايمي في الصف ورأته يرقص أمام اللوح الأسود ويملأ المساحات الخالية رسوماً وخرائط جاعلا من الرياضيات الجافة مادة سهلة واضحة. كان في وسع أي شخص أن يرى أن هايمي يتمتع بموهبة خارقة في التعليم.

أرض العصابات

تقع مدرسة غارفيلد الثانوية في وسط القطاع الشرقي بمدينة لوس انجلس. ولا تفصلها الا أمتار عن "جادة أتلانتيك" التي تعج بوكالات بيع السيارات المستعملة ومرائب تصليح السيارات والحانات وأكشاك الهمبرغر والشطائر.

وفي سبتمبر (أيلول) ١٩٧٤، عندما وصل هايمي ليباشر عمله، كانت المدرسة على شفير الكارثة، ومعظم تلاميذها من المهاجرين الفقراء وشبه الاميين من أمريكا اللاتينية. وكان فتيان من أفراد العصابات يتجولون بين القاعات. وبلغت نسبة الذين يقطعون الدراسة قبل انهاء المقررات المطلوبة للتخرّج ٥٥ في المئة، وقد أخفق المدرسون المحبّطون في استمالة التلاميذ اللامبالين أو التأثير فيهم.

بعد أسبوعين كُلف اسكالنتي تعليم أحد الصفوف في مبنى متداع من طبقة واحدة يقع في الطرف الشمالي الشرقي من المدرسة. ومع أنه كان عازماً على ترك المدرسة بانتهاء العام الدراسي، فانه كان رجل أعمال لا رجل أقوال وشكاوى. فدعا طلاباً ذوي أجسام قوية ممن يستطيع أن يأتمنهم على صفيحة من الدهان، الى الحضور في يوم سبت من أجل المساعدة في رفع مظهر الصف الى مستوى لائق. كشطوا الرسوم والكتابات عن الطاولات وعلقوا على الجدران ملصقات تحمل صور رياضيين أحبهم الاستاذ.

وبعد أيام زار مدير المدرسة الصف وعبّر عن سروره البالغ بما أنجزه الطلاب. قال اسكالنتي في سره: من المؤسف أنني لن أكون هنا السنة المقبلة لاتمتع بالنتائج.

عزم اسكالنتي على الافادة الكاملة من الوقت المتبقي له، فاستعان بخبرته السابقة في مدارس بوليفيا حيث تعيّن على المدرسين أن يستنبطوا أساليب وحيلا لاسترعاء

انتباه التلاميذ في غياب أدوات الشرح ولوازمه المتوافرة في الولايات المتحدة. حاول، مثلا، أن يستخدم في التدريس لغة الرياضة والتجارة، وهما موضوعان يلقيان اهتماماً في شرق مدينة لوس انجلس. فصمّم آلة مزودة ساعة توقيت، وخصص حصة اضافية بعد انتهاء الصفوف لتعليم الطلاب قواعد الضرب والكسور وشروط العمل في الولايات المتحدة، في مقابل سنت واحد في الساعة. وكان التلاميذ كل يوم يسجّلون الوقت الاضافي على بطاقات خاصة ثم يحسبون المبلغ المستحق عليهم.

إكتشف اسكالنتي ان هؤلاء التلاميذ، مثل أقرانهم في بوليفيا، يستسيغون التحدّي إذا ما قدم اليهم كما ينبغي أن يُقدم. وهو قال ذات مرة لأحد نجوم الرياضة في المدرسة: أتحداك بجولة في كرة اليد. إذا غلبتني أعطيتك علامة عالية، واذا لم تغلبني فعليك أن تتمم الفرض المنزلي."

صباح ذلك السبت، وفي سبوت تالية كثيرة، التقى المتبارون والمتفرجون في ملعب كرة اليد. كان حضور بعضهم ناجماً عما سمعه عن مهارة اسكالنتي، لكن معظم الطلاب رفضوا أن يصدقوا الحكاية، فالرجل في منتصف العمر وله كرش ناتىء. وكانت المباريات تنتهي سريعاً إذ تئز الكرات كالقذائف بين قدمي التلميذ العاثر الحظ. وكان الفوز دائماً من نصيب اسكالنتي الذي كان بطلا في تلك اللعبة في بوليفيا. وكان ذلك يثير الاهتمام بالمباراة التالية.

التحدّي بالنسبة الى اسكالنتي كان أن يبعث الحماسة في نفوس التلاميذ الاكثر خمولا واحباطاً، وبينهم عدد كبير من الكسالى. وهو لمس أن عليه أن يصادقهم ويخيفهم في آن. وحاول أن يفتعل معهم مشاجرات حول أمور مثل الملبس والتأخر وأي شيء آخر يستثير غضبهم ثم اهتمامهم. فكان يسأل أحدى الطالبات مثلا: "انك تكثرين من استخدام المساحيق ومستحضرات التجميل اليوم. هل لديك عقد عمل مع دراكولا يا آنسة؟"

نادراً ما تذكر اسكالنتي أسماء الطلاب. فكان غالباً ينادي الفتيان "جوني". وهو حاول دائماً أن يفيد مما يعرفه عن خلفيتهم، فيقول مثلا: "كان شعب المايا (١) متقدماً على الجميع في مفهومه للصفر يا جوني. ان الرياضيات تسري في عروقكم أيها الاغبياء."

لكنه وجد حدوداً لما يسعه أن يفعله. وعندما فاتح رئيس دائرة الرياضيات بضرورة ابدال الكتب المعتمدة بأخرى اكثر تشويقاً، أجابه هذا بتهذيب: "لا أعتقد ان هؤلاء الاولاد أهل لذلك يا هايمي. أكثر ما يسعني أن أفعله هو أن أجعل تلاميذي يجلسون بهدوء ويجمعون عموداً من الارقام. هل رأيت نتائج امتحانات السنة الفائتة؟"

– لا يا سيدي. ولكن ربما أفاد بعضهم من التشجيع والحث.

"لا اظن ذلك يا هايمي. ثم ليس لدينا مال لمزيد من الكتب."

– شكراً لك يا سيدي. انني أقدر لك إعطائي بعضاً من وقتك.

---

(١) المايا شعب قديم سكن أمريكا الوسطى وكانت له حضارة مرموقة.

اعتاد المدرسون والنظار ورجال الامن أن يفضوا كل سنة عشرات المشاجرات والمعارك بين افراد عصابات متنافسة. وفي محاولة غير موفقة لكسب ثقة الطلاب، سمحت الادارة للعصابات المختلفة بتقاسم السلالم ومطعم المدرسة مما حول المطعم أرضاً محرّمة أشبه بحديقة حيوان تعمها الفوضى.

كان أفراد العصابات يتسلون بالصاق السمن النباتي على الجدران. وكان التلاميذ المحايدون يتجنبون المطعم والسلالم حيث درج أولئك على الجلوس وتبادل الحديث. حتى المدرسون تجنبوا المرور بينهم متحوّلين الى طريق أخرى.

وفي زيارة تفقدية عام ١٩٧٥ لفريق التحقق من سلامة تطبيق الشروط التعليمية، تبين استشراء الفوضى والفساد في المدرسة. وعلى أثر ذلك نقل جميع العاملين في الادارة من مراكزهم، ولم يُسمح للمدرسة بالاستمرار إلا بعد مساع جاهدة.

اعتبر اسكالنتي ما حدث خطوة ايجابية، وقرر أن يبقى في المدرسة سنة أخرى. على أن ذلك لم يكن كافياً في نظره، بل أحب أن يلمس نوعاً من الاستجابة لدى التلاميذ يشجعه على الاستمرار. وذات يوم كان له ما أراد ومن مصدر غير متوقع. إذ ظهر امام طاولته فجأة تلميذ أدكن البشرة على خده ندبة من جرح قديم. كان الفتى يحرز علامات متوسطة في صف مبادىء الرياضيات، وهذا أكثر مما أمله اسكالنتي.

صاح بصوت خشن: "هاي، اني لا أحب اسمك. أنت في حاجة الى اسم حقيقي."

اجابه اسكالنتي: "شكراً لك، لكن اسم إسكالنتي يعجبني."

- كلا يا رجل، مستحيل. لذيّ إسم لك: "كيمو سابي". هل فهمت؟

وكان "كيمو سابي" (أي الجوال المتوحد) البرنامج التلفزيوني المفضل لدى الفتى، وهو دأب على مشاهدته صباح كل سبت. وقد أعجبه الاسم ووجد فيه نكهة محببة توحي المعرفة والجدارة والمودة.

حار اسكالنتي جواباً. وأخيراً قال بتهذيب: "افضّل أسم اسكالنتي."

لكن الفتى أصرّ: "كيمو! أنت كيمو!"

مستشفى المجانين

خريف ١٩٧٥ بدأ في مدرسة غارفيلد عهد جديد أكثر تشدداً وصرامة. اكثر من ٢٥٠ شاباً من "غير الطلاب"، الذين راوحت أعمارهم بين ١٩ و٢٥ عاماً، أُبعدوا عن القاعات وأقفلت أبواب جميع المداخل. وجاب الحرّاس حرم المدرسة طوال النهار. ورسمت على الجدران لوحات جدارية بدل الكتابات البذيئة التي كانت تغطيها.

تشجّع إسكالنتي فانغمس في التعليم. كان عليه أن يفعل شيئاً ليجعل المادة أكثر تشويقاً وجاذبية. فمعظم التلاميذ ما زالوا غير مكترثين ولا يصغون وكان يعلو من الصفوف الخلفية صفير استهجاني كلما أجاب واحد من القلة المجتهدة عن سؤال أو أتم واجباته.

واثناء حصة لتدريس الكسور حضر اسكالنتي الى الصف معتمراً قبعة طاه ومرتدياً

وزرة بيضاء، كان احتفظ بهما منذ عمله الأول في المطعم. وصفّ أمامه على لوحة خشبية عدداً من التفاحات. قهقهت الفتيات فيما صرخ أحد التلاميذ من الصف الخلفي: "حان وقت الغداء!" وبساطور جزّار انهال اسكالنتي على احدى التفاحات وسحنها مستدراً الضحك والانتباه معاً. ثم قطع التفاحات الأخرى برشاقة أنصافاً وأرباعاً وأخماساً، وقذف بقطعة الى فتاة جالسة في الصف الامامي وسألها: "كم من التفاحة معك الآن يا صونيا؟"

- ربعها يا أستاذ.

"وكم بقي منها؟"

- ثلاثة أرباعها يا أستاذ.

وكان تناول واحدة من القطع المتبقية وقضمها، فقال للفتاة وهو يبتلع: "أبطأت في الاجابة يا صونيا. لم يبق سوى نصفها."

سرّه أن التلاميذ استجابوا لهذه الطريقة، فبدأ يبحث عن أساتذة ملتزمين مثله ومؤمنين بالتغيير. وسرعان ما وجد حليفاً مثالياً في بن هيمينيز، وهو مدرّس جديد في الرابعة والعشرين من العمر.

منذ وطئت قدما هيمينيز مدرسة غارفيلد شعر بأن سلامته النفسية تتآكل تدريجاً مع هؤلاء التلاميذ. فهم كانوا يفدون الى الصفوف متأخرين ويهملون فروضهم ويتبادلون النكات فيما هو يشرح المسائل على اللوح ويحلّها. وبشعور من الغثيان في معدته أدرك أن جميع سنواته في الجامعة أخفقت في تهيئته لمثل ما تعرّض له. فكأنه في مستشفى للمجانين.

شعر أحد الاداريين في المدرسة بمعاناة هيمينيز، فأشار عليه بأن يتحدث مع اسكالنتي.

ما استوقفه عندما دخل صف اسكالنتي كان الهدوء والصمت المخيمان عليه. بدا الطلاب مستغرقين في عملهم حتى ان هيمينيز لم يسمع سوى صرير أقلام الرصاص على الورق.

قال: "ليتني أستطيع أن أفعل ذلك في صفوفي."

أشرق وجه اسكالنتي بابتسامة عريضة وقال: "دعنا نتبادل الصفوف ليومين يا بن."

دهش هيمينيز لطلبه لكنه وافق عليه. وعندما دخل غرفة اسكالنتي في اليوم التالي كان الهدوء مخيماً عليها كما في الامس. ولم يكن على هيمينيز أن يفعل الكثير، إذ كان اسكالنتي أعطاه مخطط الدرس فوزع في مستهل الصف أوراق امتحان قصير ثم أجاب عن بضعة أسئلة، وأخيراً عيّن الفرض المنزلي للغد قبل أن ينتقل الى الحصة التالية.

أما في صفه الاصلي فلقد علم لاحقاً أن الحياة أصبحت فجأة اكثر إثارة.

خاطب اسكالنتي التلاميذ ما ان دخل صف زميله: "لقد طلب مني الاستاذ هيمينيز أن أتحدث اليكم أيها الأغبياء." وراح يذرع الممشى أمام اللوح ذهوباً واياباً وعيناه

تقدحان شرراً، وبدا كممثل قصير القامة ممتلىء الجسم يؤدي دور الملك لير(٢) وهو ثائر هائج. خاطبهم بلغته الانكليزية ذات النبرة الفارقة ووشحها ببضع عبارات اسبانية وبلكنتين مختلفتين لهنود بوليفيا. وقال لهم: "أنا الآن الرئيس، هل تسمعون؟"

اندفع بين الكراسي وانتزع من يد أحد التلاميذ مجلة للسيارات كان يقرأ فيها وقال له: "سوف تسمع كلامي، وإن لم تفعل فستطير من هنا. في وسعنا أن نرسلك الى عدة أمكنة أخرى لن تعجبك! هل من أسئلة؟"

تابع اسكالنتي شرح الدرس وهو يسمع الاحاديث الخاصة والضحكات المكبوتة المعتادة. لكن الضجيج بدأ يخفّ بعدما طرد من القاعة ثلاثة تلاميذ. وسأله أحد المطرودين: "الى أين اذهب؟"

فأجابه: "لا يهمني. إذهب فحسب. اذهب وطِرْ! إننا هنا لندرس الرياضيات." ثم تابع الشرح واعداً التلاميذ بامتحان في الصباح التالي.

وفي الغد منح اسكالنتي تلاميذ زميله علامات جاء معظمها دون المعدل. أكد لهم كم هم محظوظون لأن السيد هيمينيز أستاذهم. وأضاف: "انكم تضيعون وقته. أنا شخصياً أسقطكم جميعكم ايها اللصوص الاشقياء. قد يمنحكم هو فرصة أخرى، لكنني انا أشك في ذلك."

"يا لسهولة الحساب!"

عندما عاد هيمينيز الى صفه بعدما أمضى يومين داخل ماكينة اسكالنتي التي تضج بالنشاط، وجد في انتظاره مجموعة من التلاميذ الهادئين الوديعين. وهو علم أن جو الهدوء والاحترام لن يدوم طويلا، ولكن باتت لديه فكرة عما يسعه أن يفعله لإصلاح الوضع. وهو أدرك أن سر الهدوء في صفوف اسكالنتي الاجراء الصارم السريع لدى أول بادرة لمشكلة. إن في وسع المدرِّس، طبعاً، أن ينتظر الى حين تخطي التلاميذ العتبة الاخيرة في رداءة السلوك، لكن صعوبة ضبط الصف واصلاح الموقف تتضاعف عندئذ.

مع بدء الدرس رفعت إحدى الفتيات يدها وقالت بأدب: "أبلغنا الاستاذ اسكالنتي أنك غير مسرور منا، وعدد كبير بيننا متأسفون. لقد كنا وقحين نوعاً ما." وهنا صرخ تلميذ من الصف الخلفي: "هذا لن يتكرر أبداً يا أستاذ." ثم سُمعت في القاعة بضع ضحكات عصبية.

رد هيمينيز: "شكراً لكم، أظن أنني أنا أيضاً تعلمت شيئاً."

في السنوات القليلة التي تلت لاطف اسكالنتي تلاميذه وتملقهم ودللهم وناورهم وحيّرهم. كان يختال أمامهم منتفخاً، وفضل أن يطلق على نفسه لقب "البطل" بدل "كيمو" الاسم اللطيف المعتدل. وعندما كان يشعر بأن مغالاته وموهبته في التمثيل تعملان لمصلحته، كان يرفع تطلعاته اكثر ويوزع الفروض المنزلية كأنها فيتامينات مقوّية.

(٢) بطل احدى مسرحيات شكسبير.

كان يرسل التلاميذ المنحرفين الى مرشد صديق له احتفظ في آلته الكاتبة بقائمة وهمية من الاسماء. وكان اسكالنتي يقول لهم: "انه في حاجة الى اسم واحد فقط لكي يكتمل عدد التلاميذ الذين سينقلون الى مدرسة جاكسون الثانوية." وكانت تلك المدرسة تبعد ثمانية كيلومترات عن مدرسة غارفيلد ويقتضي الوصول اليها رحلة طويلة في الحافلة.

إتبّع اسكالنتي سياسة خاصة تقضي بالاتصال بأهالي التلاميذ المتغيبين أو المتعثرين في الدراسة. كان التهديد بالاتصال أفعل وأشد تأثيراً من الاتصال ذاته، خصوصاً عندما يذكّر التلاميذ بأن المبالغة في الكلام هي نقطة ضعفه. كان يقول لأحدهم مثلا: "علي أن أتوجه الى منزلك لأكلم والدتك. وأنا دائماً أتكلم بسلبية. لا أدري سبب ذلك، لكنني قد أقول لها، إن أنت تغيبت مرة واحدة، انك تغيبت مرتين أو ثلاثاً. أنها أحدى نقاط ضعفي."

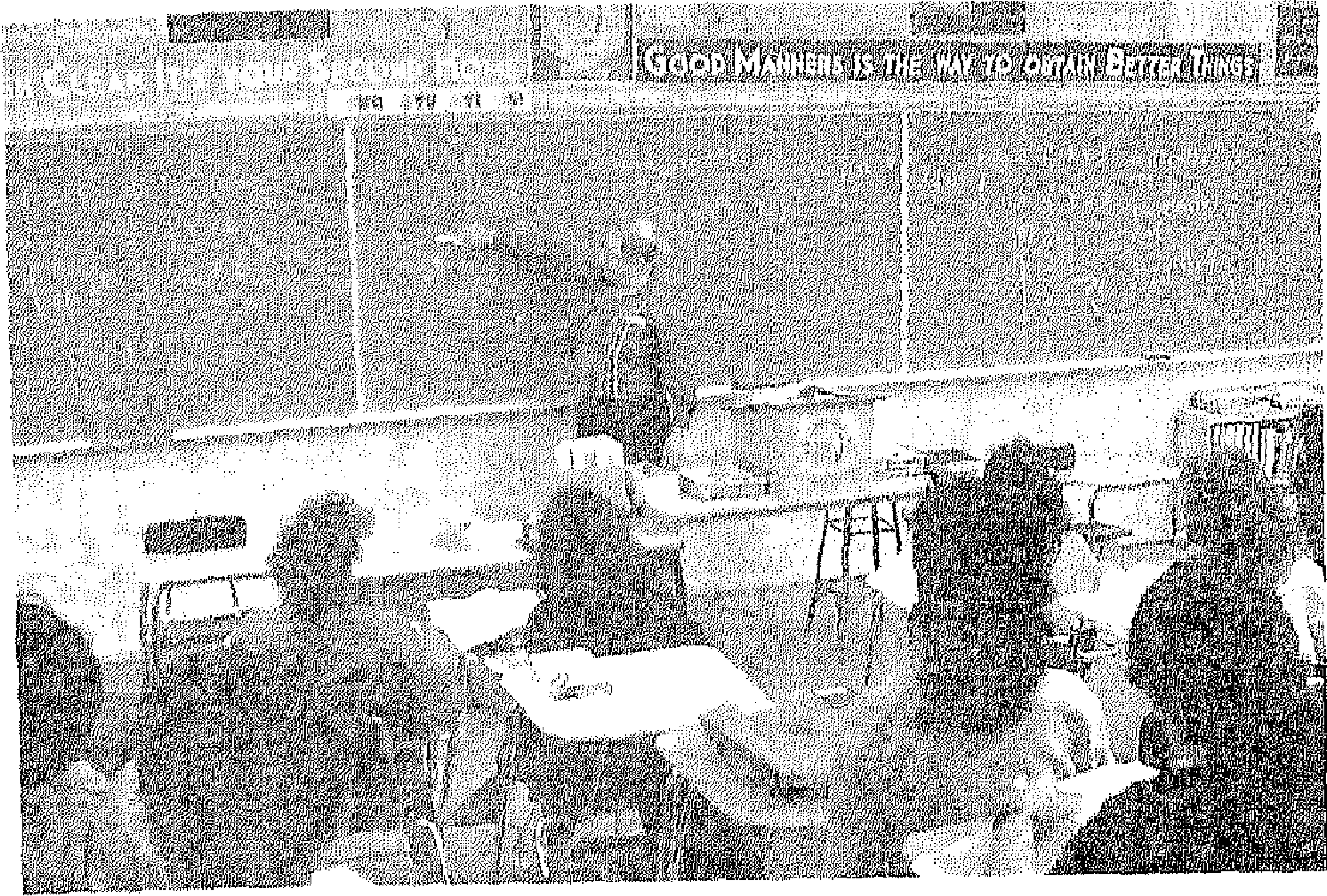
كان مضى على اسكالنتي اكثر من سنة في مدرسة غارفيلد قبل إن يسمع بـ"الامتحان العالي" في الرياضيات التي يخوّل الطالب، اذا ما نجح فيه، أن تحتسب له علامات ومقررات جامعية وهو لا يزال في المدرسة. وكانت الجهود الاولى لتهيئة طلاب غارفيلد لهذا الامتحان ماتت في المهد منذ زمن. واشتهر عن التلاميذ الذين تقدموا الى آخر امتحان أجري أنهم كانوا يقذفون كتب الحساب من النوافذ في الطبقة الثانية لاختبار الصدى الذي تحدثه في باحة المدرسة. ولم ينجح في ذلك الامتحان سوى قلة.

هذه الرواية وسواها أثبطت عزيمة اسكالنتي ودفعته الى رفض عرض أولي لتعليم مادة الحساب التي تؤهل الطلاب للتقدم الى ذلك الامتحان. لكنه سرعان ما عدل عن قراره. فهو شعر بأن تلاميذه يحتاجون الى هدف أكثر الهاماً من لعبة كرة اليد أو مجرد مهمات توضيحية في الصف. وبدعم من جون بينيت، مدير برنامج التعليم العالي في مدرسة غارفيلد، شرع اسكالنتي في العمل.

جمع في صفه الأول بعض تلاميذ صفيّ الحساب التحليلي وحساب المثلثات، الذين علمهم في السنة السابقة. ومع حلول خريف ١٩٧٨ كان ١١ طالباً مسجلين في الصف، لكنهم شعروا جميعهم، بمن فيهم اسكالنتي نفسه، كأنهم أطفال تائهون في غابة.

أدرك اسكالنتي منذ البدء أن عليه تلطيف صورة المادة. فاعتمد أساليب قوامها روح النكتة ورباطة الجأش واستنهاض حسّ الجماعة لدى التلاميذ. اختار شعاراً للصف جعل منه ملصقاً كبيراً علقه على الجدار: "لا يحتاج علم الحساب الى تبسيط، انه بسيط أصلا."

وأحضر له مدرّس زميل اسمه رالف هيلند نسخة من امتحان قديم في الحساب العالي. مرر اسكالنتي اصبعه بحذر على الورقة ورأى أنها تضم أسئلة "الاجابة الحرّة" السبعة، وهي مسائل كلامية وجزء من الامتحان. وعلم ان مجموعة الطلاب تلك لم يكن لها أي حظ في الاجابة الصحيحة، وتساءل الى أي مدى يمكن أن يتقدم هؤلاء في فترة ثمانية أشهر.



رسم على وجهه تعبيره الاكثر صرامة وخاطب تلاميذه: "سوف تتمكنون من اتمام هذا الصف، ولكن يلزمكم أن تراجعوا مواد الجبر والحساب التحليلي وحساب المثلثات. يعقد الدرس الأول في تمام الثامنة صباحاً، والمدرسة تفتح ابوابها في السابعة. سوف تعطون امتحاناً قصيراً مدته خمس دقائق كل صباح، وامتحاناً عاماً كل يوم جمعة."

كان التلاميذ في حاجة الى "شيء" إضافي منه هو شخصياً ليعجل استيعابهم ويعزز فهمهم.

بدأ اسكالنتي جمع وسائل ايضاح مختلفة. فأحضر دمية من زوجي أحذية يتحركان بعد تعبئتهما بمفتاح، واتخذ منها رمزاً للاسلوب الحذر الذي يجب اتباعه في معادلات الجبر ودلائله. ولتوضيح الدالة العكسية(٢) في الجبر استعان بدمية أخرى تمثل قرداً من البلاستيك يتسلق عموداً صعوداً وهبوطاً. واختار صورة مهرّج هي رمز لمجموعة معروفة من مطاعم الأكل السريع وقال للتلاميذ: "إذا أخفقتم في انجاز فروضكم فسوف تعملون في المطاعم بقية أيام حياتكم."

وعلى رغم جهوده الصادقة خسر نصف عدد التلاميذ قبل انقضاء اسبوعين. فقصد احدى المرشدات في المدرسة وسألها: "لماذا ينسحب هؤلاء التلاميذ؟"

نظرت اليه بعطف وأجابت: "هذه الدروس صعبة جداً يا أستاذ اسكالنتي، وليس في وسع التلاميذ أن يفوا بالمطلوب."

إرتمى بتثاقل في أحد الكراسي وبانت في عينيه نظرة انهزام وضيق. كان على يقين من قدرته على تعليم مجموعة من كلاب البحر تسلق الحبال اذا هي حضرت الى الصف. وفي النهاية لم يبق في الصف سوى خمسة تلاميذ: ثلاث فتيات وصبيين. وهم صمدوا حتى الربيع. ولانت معاملة اسكالنتي وأصبحت اكثر رفقاً. وكان دوماً يطمئنهم الى

(٢) Inverse function

قدرتهم على معالجة اسئلة المادة. وهو درج بعد كل درس مضن على اصطحابهم في سيارته الى أحد المطاعم.

ولتشويقهم للحضور الى الصف يوم الامتحان كان يوزع عليهم الحلوى والسكاكر. وكان يهمس في أذن من يظهر عليه خوف: "إجعل حياتك حلوة، ولا تخف من الامتحان." ثم يناوله الحلوى وهو يتنقل بين الكراسي مثل أرنب مرح.

في مايو (أيار) ١٩٧٩ تقدم الطلاب الخمسة الى الامتحان وعادوا منه وعلى وجوههم امارات الاكتئاب والصدمة.

وفي يوليو (تموز) استدعي اسكالنتي الى "مكتب الارشاد" لاعطائه النتائج. كانت العلامة الكاملة خمس نقاط، واعتبرت علامة من ثلاث نقاط وما فوق مقبولة وتخوّل الطالب الانتساب الى معظم الجامعات والمعاهد العالية. أما تلاميذ اسكالنتي فتوزعت نتائجهم كالآتي: اثنان نال كل منهما أربع نقاط، واثنان نال كل منهما ثلاث نقاط، وواحد نال نقطة واحدة.

"جيدا!" قال اسكالنتي لدى سماعه النتائج. لكنه أضاف في سرّه: انما ليس بالمقدار الكافي.

كانت النتائج أفضل في العام ١٩٨٠. وجاءت نتائج العام ١٩٨١ أكثر تحسناً. فمن اصل ١٥ طالباً تقدموا الى الامتحان نجح ١٤ توزعت نتائجهم كالآتي: نال طالب واحد خمس نقاط من خمس، ونال اربعة طلاب أربع نقاط، ونال تسعة طلاب ثلاث نقاط، ونال واحد نقطتين. وإن دل ذلك على شيء فعلى أن أبناء العائلات المحرومة في شرق مدينة لوس انجلس نجحوا في الامتحان وبات في امكانهم متابعة تحصيلهم في الجامعات والمعاهد العالية. وذلك الامتحان هو من الصعوبة بحيث أن نسبة أدنى من ٢ في المئة من تلاميذ المدارس الثانوية في الولايات المتحدة تتجرأ على التقدم اليه.

هنري غراديلاس رجل شديد البأس الى حد الاذهال. خدم في مدرسة غارفيلد كمدرس أولا ثم كإداري رأس الهيئة التأديبية في السبعينات. وفي العام ١٩٧٧ ترك غارفيلد ليتولى منصب رئيس معاون في مدرسة أخرى، لكنه ما لبث أن عاد اليها في العام ١٩٨١ ليتولى منصب الرئيس.

نشأ غراديلاس في شرق مدينة لوس انجلس حيث تلقى علومه. وكان في مطلع شبابه ميالا الى الكسل والانحراف من دون هدف، تماماً كشباب الثمانينات. وهو كان، اذا نال علامة ناجحة من دون أن يبذل جهداً، يتساءل: لمَ التعب اذاً؟ وإذا رسب قال: من يهتم؟ لكنه بات يدرك أن ذلك التوجه لم يساعده اطلاقاً كتلميذ، لذلك فإنه، كرئيس، لن يتوانى عن ملاحقة التلاميذ وحضهم حتى النهاية.

لدى عودة غراديلاس الى غارفيلد وجد اسكالنتي جذلا متهللا، وهو راح يمتدح آخر فريق من تلاميذه. قال مبتهجاً: "سوف يكون لدينا ثمانية عشر تلميذاً السنة المقبلة.

ثمانية عشر! تعال وتحدث اليهم يا سيدي. سوف يجلّون في الامتحان."

·كان اسكالنتي تخلى نهائياً عن فكرة ترك تلك المدرسة الثانوية المتداعية. لكنه كان ما زال يتوجع من الاحباط الذي أصابه بسبب الجهل والكسل المستشريين حوله. وهو وظّف غضبه كله في محاولة لتغيير المدرسة.

في غضون ذلك كان بن هيمينيز أنهى خمس سنوات من التعليم في المدرسة، وظل محتفظاً بالمقدار نفسه من الحماسة والاندفاع كما حين بدأ عمله. وهذه بطولة نادرة.

بدأ يشعر أنه واسكالنتي يحظيان بفرصة ليصنعا معاً شيئاً خارقاً غير عادي. ففي امكان كل منهما في صفّه الصغير أن يقوّض الفكرة السائدة أن الامريكيين مقسومون فئتين واضحتي المعالم والحدود: فئة الاغنياء وفئة الفقراء. فئة المتعلمين الناطقين الانكليزية وفئة الاقليات التي ينقطع افرادها عن الدراسة قبل التخرّج. وأن لا مجال لدمج الفئتين.

كل ما يحتاجان اليه هو مقدار بسيط من المساعدة من الرئيس الجديد، وربما حادث مثير يُحدث في المدرسة صدمة كهربائية.

جميع التلاميذ في صف حساب التكامل والتفاضل(٤) للسنة ١٩٨١ - ١٩٨٢ تبنوا - وإن بدرجات متفاوتة - أخلاق العمل وقواعده التي سنها اسكالنتي. كانت التلميذة هوزي ريكارداي تقطن مع عائلتها المؤلفة من ستة أشخاص في منزل يضم غرفتي نوم. وكانت لدى عودتها ليلا من التدرب في فريق للهاتفين في المباريات الرياضية، تحاول أن تتمم فروضها المنزلية وسط هرج ومرج، ثم لا تلبث أن يغلبها النعاس فتستسلم للنوم على الارض فيَ غرفة الطعام أمام جهاز التدفئة. وهذا الوضع التعس جعلها تستيقظ كل يوم في الثانية أو الثالثة صباحاً فتستغل نعيم الصمت المخيم على البيت لتنهي دروسها. وتظل مستيقظة حتى وقت الفطور.

وكانت والدتها تقول لها: "ارتاحي قليلا وإلا انتهى بك الامر الى قرحة في المعدة. إذهبي واستمتعي بوقتك."

وكانت هوزي ترد: "إطمئني يا أمي، فأنا أعرف ما أنا فاعلة. ما أفعله هو المتعة عينها."

لويس سيرفانتس تلميذ آخر غالباً ما أمضى أوقات فراغه يسابق بسيارته سيارات أخرى. الا أنه في الاسابيع القليلة قبل الامتحان توجسّ شراً إن هو ابتعد أكثر عن كتبه، فتخلى عن هوايته.

وعندما حُذّرت إلسا بولادو من أن رياضة العدو التي تمارسها تعوق تحصيلها في الرياضيات انقطعت عنها. كذلك راوول هارو، رئيس الفرقة الموسيقية في المدرسة، وضع البوق جانباً.

وقد طار اسكالنتي فرحاً عندما سمع بهذا التفاني في الدرس. وهو كان دفع تلاميذه الى وضع آمل جعلهم يطفرون كخيول السباق.

---

(٤) Calculus

ليلة الامتحان، المقرر في ١٩ مايو (أيار)، نصح اسكالنتي تلاميذه بأن يخلدوا الى الهدوء والراحة ويتناولوا عشاء جيداً ويأووا الى الفراش باكراً. وكفريق رياضي تجمع هؤلاء في اليوم التالي وأحدثوا جواً استمدوا منه قوة لمحاربة الخوف والقلق. لقد كانت المباراة الكبرى، وهم منتصرون.

كانت أندريدا برويت، المشرفة في غارفيلد والتي كُلِّفت مراقبة الامتحان، تنتظرهم في الغرفة ٤١١ في الطبقة الارضية من المبنى الرئيسي. وهي رأتهم يدخلون القاعة بهدوء وثقة وأجلستهم في مقاعد متباعدة. وبكثير من الاعتزاز والفخر رأتهم يشرعون فوراً في الاجابة عن أسئلة الجزء الاول من الامتحان، وهي مشتملة على عدة أجوبة يختار التلميذ الصحيح من بينها. وفي فترة الاستراحة استمتعت بأحاديثهم وبما لمسته فيهم من ثقة واطمئنان. وعندما وزعت اسئلة الجزء الثاني من الامتحان، وهي تتطلب اجابات حرة اجتهادية، أيقنت أن النتائج الاجمالية ستكون جيدة جداً.

في تلك الاثناء قبع اسكالنتي في الغرفة ٢٣٣ في الطبقة العليا من المبنى الذي يضمّ قسمي العلوم والرياضيات، وكانت أصبحت مقرّه الرئيسي. وأمضى الساعات الثلاث شاعراً بغثيان وتلو في معدته. هل فاته شيء يا ترى؟ هل هو في حلم أم ان تلاميذه فعلا في المستوى الذي اعتقده؟

قبيل الثانية عشرة والنصف بعد الظهر بدأ تلاميذه يظهرون في الرواق امام الباب. رفع أحدهم يده فوق رأسه باشارة النصر، وقال: "كيمو، لقد كان الامتحان في منتهى السهولة." وأضاف لويس سيرفانتس: "لم نصادف أي مشكلة يا أستاذ."

الجميع أموا غرفته. كانوا يضحكون ويتعانقون ويطالبونه بغداء في المطعم.

تكدسوا في سيارة الاستاذ الـ"فولكس فاغن" وفي سيارات اخرى وانطلقوا بمسيرة استعراضية الى "جادة أتلانتيك" لتناول الغداء. والى المائدة طمأنوا اسكالنتي الى أن كل شيء كان على ما يرام.

ربما أصبح لمدرسة غارفيلا ما تراهن عليه، هكذا حدّث اسكالنتي نفسه. اليوم ١٨ تلميذاً وغداً ربما ٢٥. "لقد أبدعنا يا كيمو. مسحنا الجميع!" ألم يكن ذلك ما قاله التلاميذ؟

في أواخر مايو (أيار) وصل الى مبنى دائرة الامتحانات التربوية في برنستون بولاية نيو جرزي ٣١٩١٨ مسابقة في امتحان الرياضيات، بينها مسابقات التلاميذ الثمانية عشر من مدرسة غارفيلد الثانوية.

تصحيح المسابقات يجرى على مرحلتين. يصحح الجزء الاول من الامتحان بواسطة الدماغ الالكتروني، ويتولى مصححون بشريون تصحيح الجزء الثاني من الامتحان المتطلب اجابات حرة. واستدعي لهذه الغاية ١٥٣ مدرساً.

في منتصف عملية التصحيح استرعت انتباه أحد المصححين مسابقتان تحملان أخطاء متطابقة في الاجابة عن السؤال السادس. فرفع الأمر الى باتريشا هنري رئيسة فريق مصححي امتحان حساب التكامل والتفاضل.

كانت باتريشا استاذة رياضيات في جامعة أوغدن بولاية يوتاه. وعندما تسلمت المسابقتين، ضمتهما الى مسابقات أخرى تحمل اجابات خاطئة من نوع المصادفات الغريبة. وقبل أن تبت المسألة انتظرت الى ان تكومت عندها ستة كراريس تحمل الاخطاء ذاتها. كان عليها ان تتحقق مما اذا كانت الاخطاء من النوع الشائع والمعقول ام ان في الامر غشاً، خصوصاً اذا كانت الكراريس جميعها من مركز واحد للامتحانات. وعندما فضّت المسابقات وظهرت أسماء التلاميذ ومدارسهم، أصابها الوجوم.

بعد الدرس توصلت لجنة المدققين في نزاهة الامتحانات الى قرار ان ١٤ مسابقة من الثماني عشرة الواردة من مدرسة غارفيلد الثانوية توحي الغش.

مواجهة العالم

كانت إلسا بولادو في مهجعها بجامعة كاليفورنيا في لوس انجلس عندما اتصلت بها شقيقتها لتزف اليها النبأ السار أنها نالت أربع نقاط في امتحان الحساب. وكانت إلسا تتابع برنامجاً صيفياً مدّته سبعة أسابيع لتعليم طلاب السنة الجامعية الاولى الرياضيات قبل دخولهم الجامعة. وبعد أسبوع اتصلت بها شقيقتها ثانية حاملة اليها خبراً تعذّر عليها تفسيره، وهو أنها تلقت رسالة من دائرة الامتحانات تنبىء أن نتيجتها باطلة.

شعرت إلسا بارتباك ما لبث أن تحوّل خوفاً. فاتصلت بإسكالنتي هاتفياً.

سألته: "كيمو، ما معنى هذه الرسالة؟ ما الذي يقولونه فيها؟".

وهو أجابها: "هدئي من روعك يا إلسا. سوف نحلّ الإشكال، لا تقلقي."

ركب سيارته وانطلق الى مدرسة غارفيلد حيث وجد رالف هيلند ممثل اتحاد المدرسين في انتظاره. بدا الرجل متجهماً وبادره:

"هذا لا يجوز يا هايمي. هذا خطأ لا يغتفر!" وأراه نسخة من رسالة باردة تلقاها ١٤ من التلاميذ الثمانية عشر في غارفيلد من دائرة الامتحانات. وجاء فيها:

"... يرى مجلس المدققين في صحة النتائج، موجباً للشك في النقاط التي حصلت عليها في امتحان الحساب المتقدم في شهر مايو (أيار) ١٩٨٢. فلقد تبين من مراجعة المسابقات أن هناك تطابقاً شديداً بين اجاباتك وإجابات أخرى في كراريس وردت من المركز ذاته. هذا التطابق غير عادي ويوحي الغش."

وأوردت الرسالة خمسة خيارات: إلغاء النتيجة واعادة الرسم المدفوع، إعادة الامتحان، التحكيم، مناشدة الجامعة التي ينوي الطالب الالتحاق بها، تقديم معلومات إضافية تثبت نظافة الاجوبة.

ان دائرة الامتحانات لا تملك المال الكافي ولا الوقت ولا جهاز موظفين للتحقيق في مزاعم الغش، لذلك فان الهدف من الرسالة ليس احداث حال من الذعر او التسبب في رفع دعوى قضائية، بل انذار الطلاب وتنبيههم الى خطورة وضعهم. لكن دائرة الامتحانات أخفقت في ايصال قصدها ذاك الى مدرسة غارفيلد.

فالتلاميذ الاربعة عشر الذين تلقوا الرسالة اعتبروها اتهاماً صريحاً وأصروا على براءتهم مستشهدين بأندريدا برويت التي تولت المراقبة ولم تسمح بأي غش، بحسب قولهم.

والى ذلك فإن التقدم الى امتحان ثان ليس اقراراً بالتهمة فحسب، بل إنه يتطلب إنعاشاً لذاكرتهم واستحضاراً لمعادلات ودلائل انقطعوا عنها مدة شهرين وهم باعوا كتبهم منذ فترة طويلة وأصبحوا لا يملكون سوى ملاحظاتهم المدونة وأشخاصهم الكريمة وذكرى حية للثمن المعنوي الباهظ الذي كلّفهم إياه الامتحان الأول.

في اعتقاد اسكالنتي، ربما كانت التمارين المكثفة وأسلوب التكرار الذي اعتمده في التدريس سبب التشابه الظاهر في اجابات تلاميذه. فاتصل هاتفياً بدائرة الامتحانات وتكلّم مع الموظفة المختصة التي تحملت وطأة الخلاف القائم بين الدائرة ومدرسة غارفيلد. وقال لها: "سيدتي، إسمي اسكالنتي، وأنا مدرّس الرياضيات لهؤلاء التلاميذ الذين تلقوا رسائل منكم. أتسمحين لي بأن أوضح لك الامر؟"

اجابته الموظفة: "يا أستاذ اسكالنتي، انني آسفة، فلا يسعني أن أناقش الامر معك من دون إذن من التلاميذ. إنها مسألة سرية بين وزارة التربية وبينهم. ولا يمكننا أن نسمح بأي بحث أو نقاش خارجي."

لكن اسكالنتي استرسل في الكلام: "أعتقد أن في وسعي أن أزيل الاشكال القائم. فأنا أتبع اسلوباً في التعليم..."

فقاطعته الموظفة: "انني آسفة. لا أعتقد أن ذلك مسموح." ثم أفهمته أن كل ما في مقدورها أن تفعله هو تشجيع التلاميذ على التوصل الى اتخاذ قرار باكر، لان نقاطهم لن تجدي بعد بدء الفصل الجامعي في الخريف.

بدأ الوضع يسخن. فبعدما وصل الخبر الى فاعليات الجاليات المكسيكية انتقدت هذه وزارة التربية لاستفرادها مدرسة معظم تلاميذها من أبناء جاليات أمريكا اللاتينية. وراحت تحض التلاميذ على رفع دعوى على دائرة الامتحانات. واقترح أحد النافذين تنظيم جولة يقوم بها اسكالنتي على الجامعات الكبرى شارحاً الوضع وتوزع خلالها رسائل تنديد واستنكار لموقف الوزارة.

وفيما الجميع حول اسكالنتي في غليان بدأ هو يهدأ. فوزارة التربية لم تبدِ أي تراجع، فلا بد من أن لديها سبباً يدفعها الى الاصرار على أن هناك غشاً. والطريقة الوحيدة لحل الاشكال على نحو يرضي الجميع هي أن يتقدم الصف كله ثانية الى الامتحان. وعندما جمعت بولادو التلاميذ بناء على طلب اسكالنتي خاطبهم: "عليكم أن تتخذوا قراراً الآن. رأيي أن تتقدموا الى الامتحان ثانية."

فانبرت له إلسا بولادو: "يا كيمو، لست أنت من سيجلس للامتحان. لماذا لا تخرج من القاعة لنتناقش في ما بيننا؟"

خرج اسكالنتي متمهلا. وما أن أغلقت بولادو الباب خلفه حتى التقطت نفساً سريعاً وواجهت المجموعة الصغيرة قائلة: "أود أن أعيد الامتحان. أريد أن أعبر لإسكالنتي عن

مدى تقديري لما علّمنا إياه وللوقت الذي بذله من أجلنا. وأريد أيضاً أن أثبت للمدرسة أننا لم نغش، ولأنفسنا أن في مقدورنا أن ننجح ثانية."

إرتفعت الاصوات بالموافقة. وسُمع تلميذ يقول: "أجل، لست في حاجة الى امتحانهم السخيف. انما يستحسن أن نعيده من أجله هو. إنه يستحق منا ذلك."

ثم راح الجميع يهتفون معلنين بدء الحملة الحماسية لاستجماع نشاطهم واستنهاض عزيمتهم بعد الصدمة التي تعرّضوا لها. كان ذلك يوم جمعة، وليس أمامهم سوى نهاية أسبوع واحد ليتحضروا للامتحان الذي حُدد يوم الثلثاء موعداً له.

هتفوا مجدداً: "الثلثاء! الثلثاء! الثلثاء!"

لقد عاد السحر القديم. سيلعب فريق الرياضيات ضد العالم.

ردّ الاعتبار

يوم السبت في السابعة صباحاً وصل اسكالنتي الى غارفيلد. أراد أن يكون كل شيء جاهزاً لاستقبال التلاميذ الآتين للمراجعة. الباب الامامي مفتوح، القاعة ٢٣٣ مفتوحة، على الرف أمام اللوح الاسود عدد من الطباشير الجديدة وكومة من مسابقات قديمة لمراجعتها.



سمعت هوزي ريكاردي نفسها تقول بذعر: "ليس هناك وقت كاف، ليس هناك وقت كاف." وتساءل لويس سيرفانتس كيف يمكنه أن يتذكر أموراً تعود الى بداية الصيف. أما إلسا بولادو فكان شعورها مزيجاً غريباً من الجذل والخفة كالمحكوم عليه بالاعدام قبل تنفيذ الحكم، أو كمن وقع في شرك لا خروج منه.

أمضى اسكالنتي ساعات طويلة معهم عارضاً واياهم النقاط الرئيسية والمعادلات والدالّات التي لا بد وأن يُسألوا عنها في الامتحان. وعندما عاد التلاميذ الذين أرسلهم الى المطعم ليحضروا شطائر، توقف الجميع عن المراجعة وجلسوا يتناولون الطعام ويتحدثون. حاول اسكالنتي أن يغريهم بالبقاء بعد الظهر لمزيد من الدرس، إلا انهم رفضوا عرضه. فلم يملك الا أن يتمنى لهم التوفيق ويرسلهم الى منازلهم.

مع أن القاعة ٢٣٣ حيث سيجرى الامتحان كانت مدفأة جيداً فان ليتيسيا رودريغز كانت ترتجف عندما وصلت اليها في تمام الثامنة من صباح الثلثاء. وكانت في الغرفة امرأتان لم يسبق أن رأتهما، ترتديان بذلتين رسميتين وعلى وجهيهما تعبير يفوق الطقس برودة. كانت المرأتان موظفتين أرسلتهما وزارة التربية لمراقبة التلاميذ في أثناء الامتحان، بعدما رفض هنري غراديلاس السماح لأي من موظفيه بالمراقبة.

أجلست المراقبتان التلاميذ في مقاعد متباعدة، ثم قرأتا عليهم التعليمات ببرودة وأعطتا إشارة بدء الامتحان.

سُمع في القاعة حفيف إثني عشر كراساً فتحها التلاميذ بعصبية. ثم ما لبث أن خيّم سكون تام من جراء الصدمة التي أصابت بعضهم. فالامتحان الثاني بدا لهم أصعب كثيراً من الأول. وفكرت بولادو: يا إلهي! أنا لا أعرف شيئاً على الاطلاق. أما سيرفانتس فراح يصارع الاسئلة. إنه يعرف المبادىء الاساسية، فليته يستطيع أن يغوص الى أعماق دماغه المشوش بذكريات الصيف ويخرجها الى النور. أحس أن في بعض الاسئلة الحرة خدعاً صغيرة تجرّحه كشفرات حلاقة. ولشدة ما ضغط على القلم تركت إجاباته علامات واضحة على الطاولة حيث جلس.

ودفعاً لأي مقولة من أن وجوده أثر في التلاميذ، لازم اسكالنتي منزله. وهو راح يذرع المكان ويعد الدقائق فيما زوجته فابيولا تشجعه على الاسترخاء.

اخيراً في الثانية عشرة والنصف رن جرس الهاتف وكانت المتكلمة إلسا بولادو.

قالت: "كيمو، كان الفحص صعباً."

فرد: "لا تقلقي، اللعبة انتهت."

غير أن الفتاة تابعت: "لكنني أريد أن أعرف كيف فعلت."

فقال: "أنا أيضاً أريد أن أعرف. ولكن عليك أن تنتظري."

في الثالث عشر من سبتمبر (أيلول) بعد أسبوعين من إرسال المسابقات الى وزارة التربية، قصد اسكالنتي رئيس المدرسة وقال له: "يجب أن تتصل ببرنستون يا هنري."

أحنى غراديلاس رأسه موافقاً وتناول سماعة الهاتف وأدار القرص وسأل عن النتائج، ثم قال لمكلمه: "لا يسعني أن أنتظر أكثر. فالضغط عليّ من الجالية كبير."

ثم راح غراديلاس يومىء الى اسكالنتي باهتياج، فناوله هذا ورقة بدأ يكتب عليها وعيناه تزدادان إتساعاً. سمعه اسكالنتي يقول: "نعم، نعم، أربع، ثلاث، خمس، خمس." وما لبث ان رآه يثب عن كرسيه مثل كرة ثم يتابع. "نعم، ثلاث، خمس، أربع، ياي! رائع!"

راح يلوح بالورقة باهتياج. الجميع نجحوا، وليس بينهم من حصل على أقل من ثلاث نقاط، وهو المجموع الذي يخوّلهم الانتساب الى أي واحدة من ٢٠٠٠ جامعة وكلية أمريكية.

لم يكن مثل ذلك الحدث ليموت بسرعة. فما ان شاع أن حفنة من التلاميذ من شرق لوس انجلس تفوقت في حيازة مؤهلات برنستون وشروطها الصارمة والمقتصرة عادة على الطبقات الميسورة اجتماعياً وأكاديمياً، حتى التقطت الصحافة الخبر وتداولته فذاع ووصل الى مطارح نائية.

ذات صباح غائم من شهر ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨٢ استيقظت أولمبيا شقيقة هايمي من نومها باكراً. ادارت جهاز الراديو الى محطة "صوت أمريكا" وبدأت تحضير الفطور. استمعت الى المذيع يتلو أولا الاخبار العالمية، ثم جاء دور الخبر الخاص. ماذا

تسمع؟ اقتربت من جهاز الراديو وسمعت المذيع يقول: "اعتقدت دائرة الامتحانات أن التلاميذ غشوا، لكن الاستاذ اسكالنتي حثّهم على إعادة الامتحان. جميعهم نجحوا. انها لحظة رائعة في حياة مدرس ممتاز."

انهمرت دموعها. إنه هايمي، ومن سواه؟ الكثير الكثير من أهل بوليفيا هاجروا الى الولايات المتحدة واختفوا هناك. ولكن ليس هايمي. يجب أن تتصل بالوالدة.

شهوة النجاح

أغوت شهرة اسكالنتي المفاجئة مزيداً من الفتيان وأوقعتهم في شباكه. ومع ذلك ظلّ يجهد نفسه وعقله بحثاً عن أساليب وطرق جديدة لابقائهم معه.

تحوّلت القاعة ٢٣٣ صالة لعرض أصول التدريس وأساليبه. وحملت الجدران صوراً ملونة لنجمي كرة السلة ولت تشمبرلين وجيري وست وملصقات ضخمة للمكوك الفضائي "كولومبيا" ولعلماء الرياضيات القدماء. وبجانب ساعة الحائط، محط أنظار الطلاب، وضع المعادلة الآتية: "تصميم + إنضباط + اجتهاد = الطريق الى النجاح."

ملصق آخر علّقه فوق اللوح الاسود حمل كلمة «ganas» (غاناس) الاسبانية ومعناها "حافز" أو "دافع" - حافز على النجاح، حافز على التحصيل، حافز على النمو. وتلك كانت كلمة السر التي اعتمدها في صفّه واتخذ من مدلولها شعاراً بات تلاميذه ينشدونه بتناغم رائع فيهتفون: "تصميم + اجتهاد + تركيز = غاناس."

وفي أوج حملات الدعاية التي أعقبت امتحان ١٩٨٢ اعتكف اسكالنتي في الطبقة الثالثة عابساً مقطب الجبين. فموظفو الادارة المركزية لمدارس المنطقة، ومركزها قلب المدينة التجاري، ادعوا لأنفسهم الفضل في ما حصل. وتناهت اليه إشاعات مفادها أن بعض التلاميذ غشوا في الامتحان فعلا. والحقيقة أن قلة من الناس صدقت ان هؤلاء التلاميذ القادمين من بيئة محرومة يمكنهم أن يبرعوا في مادة حساب التكامل والتفاضل. وشعر اسكالنتي بأن عليه أن يثبت جدارتهم بواسطة الصف التالي.

كان لدى اسكالنتي ٣٣ تلميذاً على استعداد لأن يثأروا لمشاكل العام ١٩٨٢. وهو بدا في معظم فصل الربيع عكر المزاج عصبياً، وكان دائماً يردد على مسامع تلاميذه أنه مهما كتبت الصحف عن براعته فلا يحسبّن أحد منهم أن في وسعه أن ينجحه في الامتحان بضربة من عصاه السحرية. وراقب برضى مكتوم التأثير الذي أحدثه كلامه فيهم.

كأي مبشر ناجح أو مدرب أو وكيل مبيعات أو رئيس مجلس ادارة أو أي ملهم مبدع، لم يستقر اسكالنتي على أسلوب واحد بل لجأ الى الارتجال مستخدما أساليب مختلفة مع تلاميذ مختلفين.

لكن الاجتهاد كان الاسلوب الأجدى في جعبته، كما رسخ في أذهان تلاميذه القدماء. ولقد درج اسكالنتي وهيمينيز وسواهما من المعلمين الذين شاركوا في تدريس مواد الامتحان المتقدم، على بذل كثير من الوقت مع التلاميذ. فكانوا يجتمعون بهم في

الصباح قبل بدء الدروس، وفي وقت الغداء، وبعد انتهاء الدروس حتى هبوط الظلام، مما جعل تجاهلهم غير ممكن.

في أعماق معظم المراهقين احترام للجهد الصادق يتخطى الحواجز الطبقية والفئوية. حتى وإن أراد هؤلاء المراهقون أن يستسلموا للكسل واللهو فانهم لم يستطيعوا الى ذلك سبيلا مع معلم يبذل قصاراه كما يفعل اسكالنتي، مهما كان رأيهم في لكنته وفي غرابة أطواره. قالت تلميذته دليا مورا لجمع من الأصحاب عام ١٩٨٢: "أنا لا أذهب الى الصف رغبة في الذهاب. ولكن حين ترون الجهد الذي يبذله في الصف فانكم ترغبون في بذل جهد مماثل، بل أكبر."

أجري امتحان ١٩٨٣ في قاعة المكتبة في مدرسة غارفيلد حيث توزع التلاميذ في مقاعد متباعدة جداً في إشراف مراقبيَن عدّا عليهم كل حركاتهم. ولدى اعلان النتيجة بعد بضعة أسابيع بدت على اسكالنتي علامات الرضى. فمن بين التلاميذ الثلاثة والثلاثين نجح ثلاثون، وجاءت نتائجهم كالآتي: ستة نالوا خمس نقاط، وأحد عشر نالوا أربع نقاط، وثلاثة عشر نالوا ثلاث نقاط، وثلاثة نالوا نقطتين. وقد ساوره خوف بسيط من ورود رسائل كريهة من وزارة التربية على غرار السنة الفائتة، لكن أحداً لم يتلقَّ أي رسالة. وهكذا ثبتت سلامة تجربة غارفيلد.

في العام ١٩٨٣ طوِّر برنامج التدريس في مدرسة غارفيلد. وكان هنري غراديلاس وافق على اجراء تجربة مماثِلة لتجربة مادة حساب التكامل والتفاضل في مادة تاريخ أوروبا، وهي مادة دراسية قلما سمع بها أحد في مدارس الاحياء الداخلية حيث غالبية السكان من أصحاب الدخل المتدني. فطلب من مدير برنامج الامتحانات المتقدمة في المدرسة جون بينيت أن يبدأ اعطاء دروس التاريخ وإن لم يزد التلاميذ المسجلون على خمسة. وفي وقت لاحق أضاف بينيت وزملاء له مواضيع أخرى، فأدخلوا في الامتحان مواد علم الاحياء واللغة الفرنسية وعلم الالكترونيات.

أدرك اسكالنتي وهيمينيز ان في وسعهما تعجيل برنامج تدريس الرياضيات وتوسيعه جذرياً ان هما درّسا المتطلبات الأساسية اللازمة لدرس حساب التكامل والتفاضل، أي علم المثلثات والهندسة التحليلية(٥)، على نحو مكثّف خلال شهري الصيف في كلية لوس انجلس الشرقية. وهذه المواد تدرّس عادة على امتداد السنة الدراسية. أما التلاميذ الضعفاء فيمكنهما تقويتهم خلال السنة الدراسية باعطائهم دروساً إضافية أيام السبت. كما أن في وسعهما "إستعارة" بعض الوقت الذي يخصصه التلاميذ عادة للراحة أو للنوم أو لكرة السلة أو لمشاهدة التلفاز لتدريس مزيد من الرياضيات.

كانت نسبة تلاميذ غارفيلد الذين ينقطعون عن الدراسة قبل التخرج ما زالت مرتفعة في ذلك الوقت. ولكن كانت في حوزة غراديلاس قائمة باسماء ٤٠٠ تلميذ من خارج المنطقة التي تقع فيها المدرسة، ينتظرون دورهم للالتحاق بها. وكان المجلس

(٥) Trigonometry and analytic geometry

الاستشاري في المدرسة، وهو المرادف التقريبي لرابطة المعلمين والاهالي، أقرّ مشروع غراديلاس القاضي بتعليم متطلبات برنامج الرياضيات في ثلاث سنوات، مما استلزم خفض ساعات تدريس مواد الميكانيك والتدبير المنزلي وتربية الاولاد وسواها من ١١٢ ساعة الى ٤٢.

أما عدد تلاميذ غارفيلد المشاركين في الامتحانات المتقدمة فارتفع من ٧١ في العام ١٩٨٣ الى ١٤٣ في العام ١٩٨٤. وتضاعف عدد تلاميذ صف حساب التكامل والتفاضل فأصبح ٦٨ بعدما كان ٣٤. وبلغت نسبة النجاح ٩٣ في المئة في مقابل ٧٦ في المئة هي نسبة النجاح العامة في البلاد. وفي العام ١٩٨٣ احتلت مدرسة غارفيلد المرتبة ٥٤٤ بين جميع المدارس الامريكية في عدد التلاميذ المشاركين في الامتحان، وما لبثت في العام التالي أن صعدت الى المرتبة ١٥٠.

كان هنري غراديلاس قرأ عن بعض مدارس المهاجرين الممتازة في الساحل الشرقي للولايات المتحدة، مثل مدرسة بوسطن اللاتينية ومدرسة ستوفسانت في نيويورك. كانت تلك المدارس تمثل جاليات مهاجرة واجهت مشاكل وصعوبات جمة ومع ذلك ساندت مدارس ثانوية متطلبة ودعمتها. وهذه، في المقابل، خرّجت رجالا عظماء وبدلت حياة كثير من الناس.

أوَليس في وسع غارفيلد أن تحقق مثل ذلك الانجاز؟

"إنها تفاسبه"

لم يشاطر الجميع هنري غراديلاس حماسته. أناس كثيرون أشاروا على التلاميذ بالاسترخاء وبالاستمتاع ما امكن بمرحلة الدراسة الثانوية، لئلا يُستنفد مخزونهم الذهني والعاطفي.

والى ذلك تعرّض غراديلاس لانتقاد شديد من أهل الحي. فهؤلاء التلاميذ في نظرهم يعانون مشاكل عائلية وضغوطاً كبيرة. ولكن ما هم؟ فللسود مشاكلهم وللمهاجرين من أمريكا اللاتينية واسبانيا والبرتغال مشاكلهم أيضاً، كذلك البيض. أوَيعني ذلك أن تمتنع المدارس عن حثّ تلاميذها لبذل قصاراهم واعطاء أفضل ما لديهم؟ كيف يقنع الأهالي والتلاميذ وحتى أفراد الهيئة التعليمية بأنهم ليسوا ملزمين بأن يعكسوا صورة الأوضاع السائدة في المجتمع؟

كان بين اسكالنتي وغراديلاس توافق في الفلسفة والتطلعات، وكان اسكالنتي يقول بإصرار: "هؤلاء الفتيان يحتاجون الى حافز يدفعهم الى العمل، وهم حين يذهبون الى منازلهم في أوقات فراغهم لا يجدون ما يفعلونه سوى مشاهدة التلفزيون. أما اذا نجحوا في حساب التفاضل والتكامل فهذا يعطيهم شيئاً مفيداً."

كان على اسكالنتي أن يخوض معركة مستمرة مع علماء النفس العاملين في المدرسة. وهو أمر مفهوم. وجوهر الخلاف أن اسكالنتي شعر بأن عدداً كبيراً من التلاميذ يأتون الى الصف مزودين أعذاراً مستعارة من الكبار. وغالباً ما اضطر غراديلاس الى

الفصل في هذه النزاعات. أما نصيحته الى علماء النفس فكانت: "إفعلوا ما في وسعكم، ولكن ابتعدوا عن اسكالنتي، فإن له مدرسته الخاصة في علم النفس، وهي تناسبه."

ستيف روبلز مثال نموذجي. انه فتى طويل القامة ناحلها، اسمر البشرة، بهي الطلعة، سكوت، وعندما يتكلم تتفجر الكلمات من فمه بتتابع سريع. وكان هو واخوته الثلاثة يقيمون مع والدتهم المطلقة في منزل خشبي خرب من غرفتي نوم تعمّه الفوضى ويقع بالقرب من حديقة اوبرغون في منطقة بائسة اسمها "الثقب." ولاعالة أولادها الاربعة كانت الام تعمل من حين الى آخر في وظائف مختلفة. لكن العائلة كانت دائماً تفتقر الى المال.

كان اسم روبلز على قائمة التلاميذ "الموهوبين." وكان مولعاً بالرياضيات، إلا أن المرشد إد مارتن حاول دائماً ان يحفزه على الاهتمام بالصفوف الأخرى، وغالباً ما اضطر الى استدعائه وتوبيخه لإهماله فروضه المنزلية. وكان الفتى يرد بهز كتفيه، فهو نادراً ما تبادل ومدرسيه أكثر من كلمة أو اثنتين، الامر الذي استرعى انتباه اسكالنتي واهتمامه.

تعرّف اسكالنتي الى روبلز في صف الجبر في السنة الثانوية الثانية. جلس روبلز في الصف الخلفي وراقب ذلك المدرّس صاحب اللهجة الغريبة وهو يطرد من الصف تلميذين وصلا متأخرين. إنه لامر مسلٍّ، قال في سرّه، فمع مدرّس كهذا لن يكون الدرس مملا كسواه من الدروس.

لم تكن مادة الرياضيات لتؤثر في روزنامة روبلز الاجتماعية. فهو اعتاد، ما ان ينهي فرضه المنزلي، أن يخرج الى الشارع ليتمشى مع زمرة من الفتيان عرفت باسم "راشقي الحجار". وكان اكتسب من معارك خاضها بعض الندبات الصغيرة، ومن السهر وقلة النوم تعبيراً منهكاً لا يخلو من شراسة. وهو عمل قارع طبل في عدد من الفرق الموسيقية التي درجت على عزف الايقاعات الصاخبة الرائجة ولكم سخر منه أقرانه في الفرقة عندما ذكر لهم أنه تسجل في صف حساب التكامل والتفاضل. واكتفى بعد ذلك بالقول انه يحضر صفاً في الرياضيات.

حاول اسكالنتي أن يستفز الفتى بإشارات ساخرة الى شعره المنسدل الى الكتفين، مهدداً بقصه. لكن روبلز اعتبر ذلك مديحاً، فالرجل لا يُملّ. والاحاجي والشعارات والالعاب التي يستخدمها تساعد فعلا على تذكّر بعض المعادلات.

اما في مادة حساب التكامل والتفاضل فلقد عُيّن روبلز في صف هيمينيز. ومع أن هذا كان أقل إثارة من اسكالنتي فانه نجح في استمالته بما أبداه تجاهه من صبر واهتمام. ثم ما لبث روبلز أن عاد في السنة الأخيرة الى درس حساب التكامل والتفاضل المتقدم الذي كان اسكالنتي يدرسه بعد الدوام في كلية لوس انجلس الشرقية.

نجح اسكالنتي في جعل روبلز يتوسع في حديثه ولا تقتصر كلماته على القصيرة ذات المقطع الواحد. وشجعّه على التقدم الى مباراة في الانشاء تنظم لـ"مهندسي

المستقبل" وجائزتها ٥٠٠ دولار. وهو قال له: "بالطبع يا ستيف، اذا ربحت الجائزة فإن نصيبي منها ١٠٠ دولار. هذا هو الاتفاق بيننا."

ووافق ستيف بجلال ووقار. وعندما فاز في المباراة فاوضه اسكالنتي في شأن اتفاق آخر: سيقرضه مالا لكي يشتري ثياباً لحضور حفلة تسلم الجائزة. وفي المقابل يقص روبلز شعره.

في الاسبوع التالي عندما وصل ستيف الى مكتب اسكالنتي كاد هذا لا يعرفه. فهو بدا انساناً آخر بثيابه الجديدة وشعره القصير وأذنيه الظاهرتين. وبلهجة رجل اعمال قال: "لقد أحضرت المبلغ. هاك المئة دولار."

فرد اسكالنتي: "إنها مزحة يا ستيف، فالمال مالك."

بدا روبلز مندهشاً، ثم مرتبكاً، ثم قال: "اني آسف، فلم يسبق أن فعل أحد شيئاً من أجلي. إن لي أباً لكنني لا أراه كثيراً. أنا أعرفك الآن وأنت تعرفني."

فرد اسكالنتي: "يؤسفني أن معرفتي بك استغرقت ثلاث سنوات. لقد كنت من أفضل تلاميذي."

الابطال

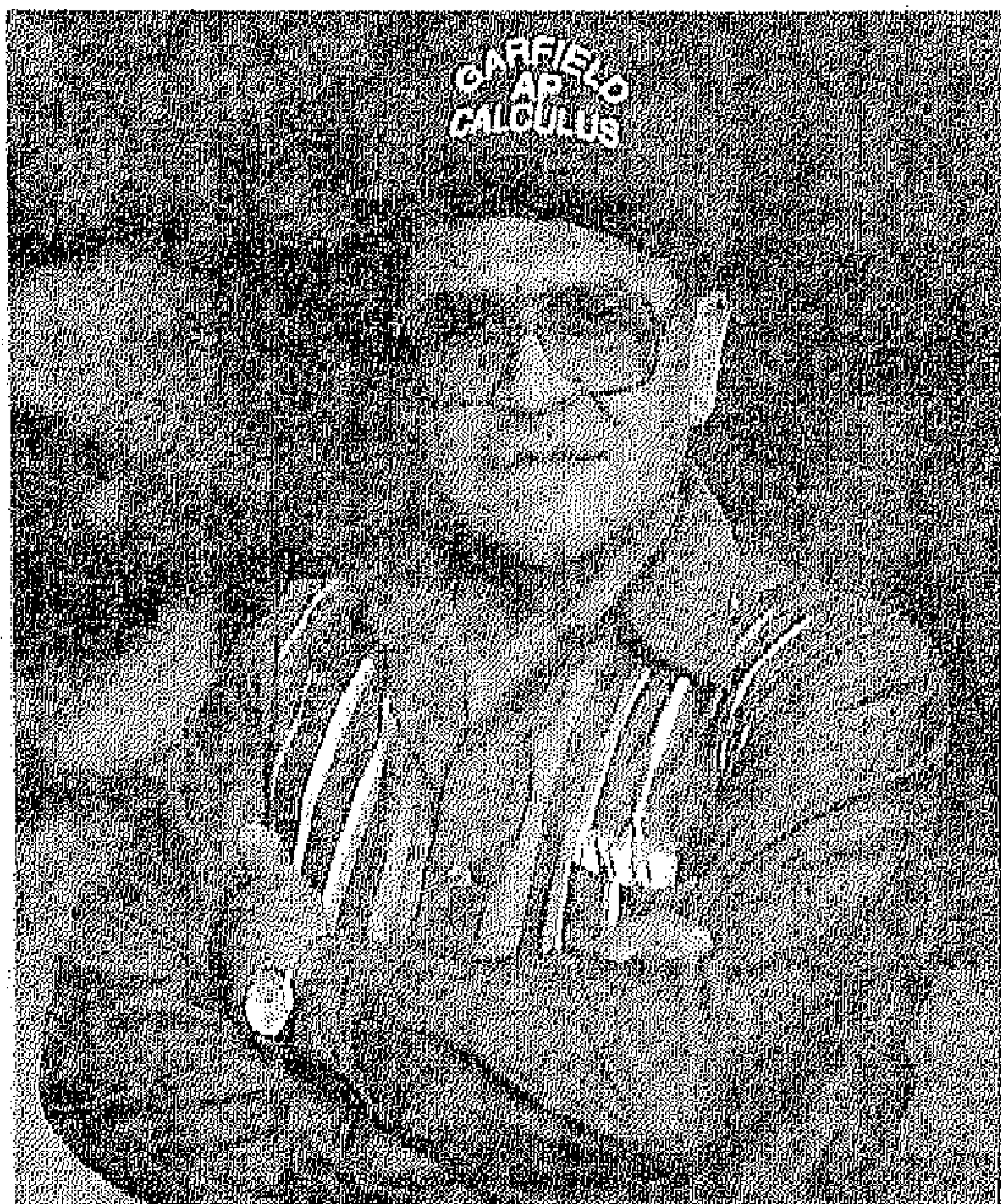
ذات يوم في أوائل صيف ١٩٨٧ أطلّت الشمس من فوق أسلاك الكهرباء في "جادة أتلانتيك" وأنارت واجهة مدرسة غارفيلد ذات الجص الأصفر المزخرف. قبل بضعة أسابيع اشترك في الامتحانات المتقدمة ٣٣٠ تلميذاً. وكان عدد تلاميذ صف حساب التكامل والتفاضل وحده كبيراً جداً بحيث وزعوا على أربع غرف.

ويوم ٧ يوليو (تموز) وصل هيمينيز واسكالنتي في وقت واحد الى صندوق بريد غارفيلد الذي يحوي نتائج الامتحانات.

ارجأ الاثنان فض المغلفات الى حين وصولهما الى مكتب اسكالنتي حيث يتسنى لهما تصوير المستندات للاطلاع على النتائج في الوقت ذاته والتفكير فيها ملياً. فالنتائج بالنسبة اليهما كانت بمثابة تقرير ليس كسواه. فعلى ضوئها يقوّمان عملهما، وهي المقياس الحقيقي لمقدرتهما ومهارتهما، وهي لذلك مثيرة بمقدار ما هي مخيفة.

تفحصا الوثيقة ذات الصفحات الثماني بعناية ودقة. إلا إن ذلك لم ينبئهما على الفور بالنجاح المدهش الذي أحرزاه مع جميع مدرّسي غارفيلد. وتعين عليهما أن يرجئا أحكامهما عدة أسابيع يعرضان خلالها نتائج مدارس أخرى.

أظهرت النتائج أن ٧٤ في المئة من التلاميذ الـ٣٣٠ الذين تقدموا الى الامتحان نالوا ثلاث نقاط وما فوق. وتبين أن غارفيلد وحدها باتت تخرج ٢٦ في المئة من جميع التلاميذ الامريكيين من أصل مكسيكي الناجحين في امتحان حساب التكامل والتفاضل المتقدم.



بعد اثنتي عشرة سنة، منذ أوشكت مدرسة غارفيلد على الاقفال، تبوأت المرتبة الرابعة بين جميع المدارس الثانوية الرسمية في الولايات المتحدة قياساً بعدد تلامينها المتقدمين الى امتحان حساب التكامل والتفاضل المتقدم.

اثنتان من المدارس المتقدمة عليها تعتمدان نظام تسجيل تنافسياً. اما المدرسة الخاصة الوحيدة التي تفوقت عليها في النتائج فكانت معهد فيليبس في أندوفر بولاية مساتشوستس.

وعلى رغم التقدم الخارق الذي حققته مدرسة غارفيلد، ظل هناك من يراهن على بطلان المعجزة. ماذا سيحصل اذا غاب اسكالنتي؟ ماذا سيحل بهؤلاء التلاميذ اذا افتقدوا من يحفزهم؟ هل سيحفزون انفسهم؟ ولقد علّق أحد المشككين في غارفيلد قائلاً: "انها كعملية إنقاص الوزن. المهم هو الاستمرار في المدى الطويل."

أما السؤال الذي ردده معظم الناس فكان: "ماذا سيحل بتلاميذ اسكالنتي عندما يدخلون الجامعة؟"

وفي تقرير كتبه عام ١٩٨٦ أرمان راموس رينولدز مدير برنامج الهندسة المخصص بالأقليات في جامعة كاليفورنيا الجنوبية في لوس انجلس: "شكّل تلاميذ غارفيلد خلال السنتين الاخيرتين أكبر مجموعة من الاقليات في السنة الجامعية الاولى. وفاق عددهم عدد نظرائهم الآتين من بقية مدارس لوس انجلس الشرقية مجتمعة. وأهم من ذلك أن تحصيلهم الاكاديمي أفضل كثيراً من تحصيل أي طالب هندسة عادي في جامعة كاليفورنيا الجنوبية. وهم يبدون مقدرة فائقة على الاستيعاب والتذكر."

في ربيع ١٩٨٨ احتفل هايمي اسكالنتي بتخريج سبعة من تلاميذه في كلية الهندسة بجامعة كاليفورنيا الجنوبية. كما تخرج سواهم في جامعات أخرى مرموقة.

وباعتزاز وفخر راقب اسكالنتي تلاميذه من فوج العام ١٩٨٢ يقتحمون الحياة ويتبوأون مراكز رفيعة ويلفتون الانظار بانجازاتهم الرائعة.

□ بعد خمس سنوات من نجاح إلي تابيو في امتحان حساب التكامل والتفاضل، باتت تحمل شهادة بكالوريوس وشهادة ماجستير في ادارة الاعمال وتشغل منصب مدققة حسابات في إحدى كبرى شركات النفط.

□ حازت مرغريت زاماريبا شهادة جامعية ونجحت في امتحان المحاسبة العامة ودخلت الجامعة لدراسة الحقوق.

□ نالت إلسا بولادو شهادة جامعية في علم النفس الاجتماعي وفي التاريخ من جامعة كاليفورنيا في لوس انجلس. وهي تعلم حالياً في مدرسة ابتدائية في شرق لوس انجلس.

□ ما زال راوول هارو يتابع دراسته، وقد نال شهادات جامعية في الهندسة الفضائية وعلم الادمغة الالكترونية من جامعة بوليتكنيك في كاليفورنيا. وهو في الوقت نفسه يروّج بنشاط وفاعلية لمهنة الهندسة بين أفراد الجاليات المهاجرة من أمريكا اللاتينية.

□ نال لويس سيرفانتس شهادة بكالوريوس في علم المناعة وعلم الأحياء المجهري من جامعة كاليفورنيا في بيركلي. وهو يعمل حالياً في مختبر للمنتجات التشخيصية.

□ مثل معلّمه، اختار روي ماركيز الانخراط في الهيئة التعليمية في مدرسة غارفيلد الثانوية. وبدأ عمله في سبتمبر (أيلول) ١٩٨٦ مدرساً لعلم الدماغ الالكتروني. وبعد تسعة أشهر احرز تلاميذه أعلى نقاط شهدتها غارفيلد منذ بدأ تلاميذها التقدم الى الامتحان المتقدم في علم الدماغ الالكتروني.

جميع الاشخاص الذين مر ذكرهم أتوا من بيئات أمية محرومة. ولو راوحوا في مكانهم لما استغرب ذلك أحد. إلا أن هايمي اسكالنتي شق أمامهم طريقاً للخروج الى العالم.

جاي ماثيوز ■

ترجمة د. باسمة سكرية عيد



اذا لم تكن ذئباً...

ت. بون بيكنز مدير شركة تعمل في المضاربات التجارية. وهو خبير ماهر في معرفة الناس وإدارة الاعمال على حد سواء. كتب:

عندما كنت في نهاية العقد الرابع من عمري دعيت الى الانضمام الى مديرين تنفيذيين كبار لشركات أضخم من شركتي، في لقاءات اجتماعية ورياضية. كنت فضولياً ومروّعاً في آن في انتظار لقاء هؤلاء الناس الشديدي الاهمية.

يمكنك أن تعرف الناس في لقاء غير رسمي، كمخيم صيد مثلا، على نحو أفضل مما لو كنت تتفاوض وإياهم على صفقة. وأنا لم يلزمني وقت طويل لأكتشف الكاذبين (الذين ادعوا أنهم أصابوا في حين أنهم اخطأوا الهدف)، والمتبجحين (الذين عرضوا بنادقهم الغالية الثمن).

بعدما عاشرت هؤلاء "الشباب" العاملين في شركات المضاربة تعلمت كيف يفكرون. فقررت أن شركتي الصغيرة يمكنها أن تفوق شركاتهم الكبرى حيلة ودهاء.

ب.هـ.م.



السرير الرقم ١٠

ملخص من كتاب

بقلم سو باير و ماري زيمث شوميكر

السرير الرقم ١٠



استيقظت سو باير ذلك الصباح في فراشها الوثير في منزلها الخاص في هيوستن بولاية تكساس. وما ان مرّت ٤٨ ساعة حتى وجدت نفسها مقعدة في غرفة "العناية الفائقة" في السرير الرقم ١٠. كانت رهينة مرض فاتك نادر الحدوث، أعجزها عن الكلام والتنفس والحركة.

وتركز تفكيرها على أمر واحد: أين تجد القوة والايمان للتحرر من سجن جسدها؟ هنا روايتها.

شعرتُ بوخز خفيف في أصابع قدميّ فلم أر في ذلك ما ينذر بالخطر، لكنه كان شعوراً غير عادي. ولم يكن لدي في ذلك الصباح متسع للقلق اذ كان علي الذهاب الى مدرسة ابنتي الثانوية بصفتي المسؤولة عن "الامهات المتطوعات" هناك.

تساءلت عما يسبب الوخز في أصابع قدميّ. وطمأنت نفسي أنْ لم يكن هناك طبعاً أي داع الى القلق. وفيما أكمل زوجي بيل حلاقته ارتديت ثيابي وأكملت هندامي ونزلنا الى المطبخ لتناول فطور الصباح.

سكبت لبيل كوباً من عصير الليمون وآخر لي، وتناولت علبة رقائق الذرة من الخزانة وبدأت تحميص الخبز. ثم رشفت العصير بحكم العادة.

واذا بي أحس العصير يحرق لساني وشفتيّ. فقلت في فكري: يا للغرابة!

واكتمل تحميص الخبز فدهنته بالزبدة وحملت الأطباق والرقائق والخبز المحمّص والعصير الى الطاولة. ورشفت من العصير ثانية فشعرت بالحريق كالمرة الاولى. فرأيت في ذلك مجرد وهم من ثمار خيالي. وكيف لا وقد حضّرت العصير في الليلة السابقة.

راقبت بيل وهو يشرب عصيره فسألته: "هل تجده حسناً"؟ فنظر الي مندهشاً، فأضفت: "انه يحرق لساني وشفتيّ."

فقال: "أما أنا فأجده ممتازاً."

ثم تذوقت الرقائق فوجدتها طبيعية.
غادر بيل البيت الى عمله، وتمنّيت لو لم يكن ذلك النهار يوم الاثنين. لقد كان أمامي عمل مرهق بعد عطلة نهاية الاسبوع، وساءلت نفسي علامَ انخرطت في صف المتطوعات.
كانت الساعة السابعة والدقيقة الخامسة، فجمعت الاطباق ووضعتها في غسّالة الصحون وهرعت فارتديت ملابسي.
انه الاول من ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨٠، وكان هواء الصباح في هيوستن عاطراً لدى توجهي الى المرأب. ضغطت دواسة الوقود فأحسست الوخز في قدميّ. وتوقفت في المحطة لتزود الوقود، وتحدثت مع العامل هناك، لكن افكاري كانت بعيدة عن التركيز. هززت رأسي وأخذت أفرك أصابع يدي لأوقف الوخز الذي بدأ فيها هي أيضاً، وحرّكت كذلك أصابع قدميّ.
في المدرسة عبرت القاعة الرئيسية الى المكتب، فبدا الرواق أكثر عتمة من المعتاد مع أن كل المصابيح كانت مضاءة. وبدت القاعة أطول مما عهدتها.
شعرت بالارتياح حين جلست في مكتب المتطوعات. أخذت بطاقتي التعريفية ورحت أصارع دبّوسها الذي أبى أن ينغرز في سترتي. وأحسست فجأة تعباً شديداً عزوته الى الطقس والى الاسترخاء في عطلة نهاية الاسبوع.
اشتد الوخز في أصابع يدي وقدمي وأصبح أكثر الحاحاً، انما لم يكن لدي وقت للتوقف والالتفات طويلاً الى هذه المضايقات. فانهمكت في تلقي الاتصالات ونقلها وتسجيل الملاحظات والرسائل. وكان رنين الهاتف متواصلاً، وشعرت بأن قدرتي على الكتابة تزداد صعوبة.
وما ان أزفت الساعة العاشرة حتى تعذر علي الاستمرار في تجاهل حالتي. نهضت الى حجرة الاستراحة كي أدعو احدى المعلمات لتلقي اتصال هاتفي، ووجدتني أجاهد بقوة للعودة الى مكتبي.
رحت أراجع أسماء الاطباء الذين وعتهم ذاكرتي. ولم يكن لعائلتنا الا طبيب أطفال وطبيب نسائي لا حاجة بي اليهما ذلك النهار. فمرّ في فكري طبيب والدتي الدكتور لوهمان الاختصاصي بالطب الداخلي، وكانت عيادته قريبة وهو يعرفني اذ كنت أرافق أميّ.
اتصلت بزوجي وقلت له: "انني لست على ما يرام، وأراني في حاجة الى طبيب."
وما هي الا دقائق حتى وصل بيل، وتبعه الدكتور لوهمان الذي عاينني للحال. وأظهر الفحص أن كل شيء كان طبيعياً مما أدهش الطبيب. لكنه وجد مفتاحاً للحل حين ذكر بيل أنني في الاسبوع المنصرم أصبت بفيروس معوي. فاستنتج الطبيب أن علتي ربما كانت جفافاً (١) أو اختلال توازن في الذوائب الكهربائية (٢). فوصف لي الراحة وتناول

(١) Dehydration
(٢) Imbalance of electrolytes

الكثير من السوائل، وأضاف: "اذا لم تتحسن حالتك قبل الخميس فسنجري بعض فحوص الدم."

وكانت أمي تسكن في الجوار، فذهبت الى منزلها لقضاء فترة ما بعد الظهر، وخلدت الى الراحة بحسب توصية الطبيب.

في ذلك المساء حضّرت ابنتي اليزابيت طعام العشاء، وسرعان ما انقضت السهرة. ولم أجد صعوبة في صعود السلم الى غرفة النوم. وارتحت في سريري متيقنة أنني سأستيقظ في الصباح معافاة تماماً وقد زال كل احساس بالوخز.

وفي الصباح عندما رن جرس المنبّه نهضت نعسانة وتوجّهت متثاقلة الى الحمام. وما ان تناولت كوباً من الماء وحاولت الشرب حتى وقفت مصعوقة والكوب في يدي. كنت عاجزة عن البلع.

عالم كوابيس

أسرع بي زوجي الى المستشفى حيث كان الدكتور لوهمان حجز لي سريراً. ناولتنا الموظفة المسؤولة الاوراق المطلوبة وناولتني قسيمة لتوقيعها. لكن يدي جمدت بالقلم فوق القسيمة وعجزت عن التوقيع. فهتفت في سري: ما الذي أصاب جسدي يا ترى؟

أقبل تقنيون وممرضات الى غرفتي وضبطوا وزني وحرارتي وضغط دمي. وتأخر وصول الدكتور لوهمان الى الحادية عشرة بسبب انتظاره نتيجة الفحوص التي لم تنبىء بشيء. فطلب الدكتور مونكيل لاستشارته في أمري، وهو طبيب أعصاب بارز.

وطوال النهار حاولت الممرضات حملي على الاكل والشرب، ولكن من دون جدوى فقد عجزت عن ابتلاع أي شيء. وجاء الدكتور مونكيل أخيراً في السابعة مساء، وكان مؤكداً أنه سيحل لغز علّتي. فدقق في ارتكاساتي العصبية التي رآها حسنة، ثم وخزني بدبوس. قال: "في هذه المرحلة يمكنني أن أقدّر العلة بأحد ثلاثة: تصلّب مضاعف أو وهَن عضلي أو متلازمة "غيان - باريه" (٣). وعلينا الانتظار الى الغد لاجراء فحص لسائل النخاع الشوكي، وبعد ذلك نعرف السبب".

واذ غادر الطبيب أخذت أردد أسماء العلل التي ذكرها، وكل منها يثير الهلع. فجأة أظلمت الدنيا في عيني وكأني غرقت في برد وظلام. فتطلّعت الى الليل في الخارج وهتفت في أعماقي: يا الهي، أريد الذهاب الى البيت. واعترتني رعدة فطوقني بيل وقال لي ونحن نغالب دموعنا: "سيكون كل شيء حسناً، أنا أعلم ذلك".

في العاشرة والنصف دخلت رئيسة الممرضات وقالت بكلمات مدروسة: "أرى من الافضل يا سيد باير أن ننقل زوجتك الى غرفة العناية الفائقة".

سمعت عبارة "العناية الفائقة" فهتفت جزعة وقد كاد يخونني النطق: "لا، بحق السماء، لست في حاجة الى العناية الفائقة". ورجوت الممرضة وبيل أن يستجيبا لطلبي.

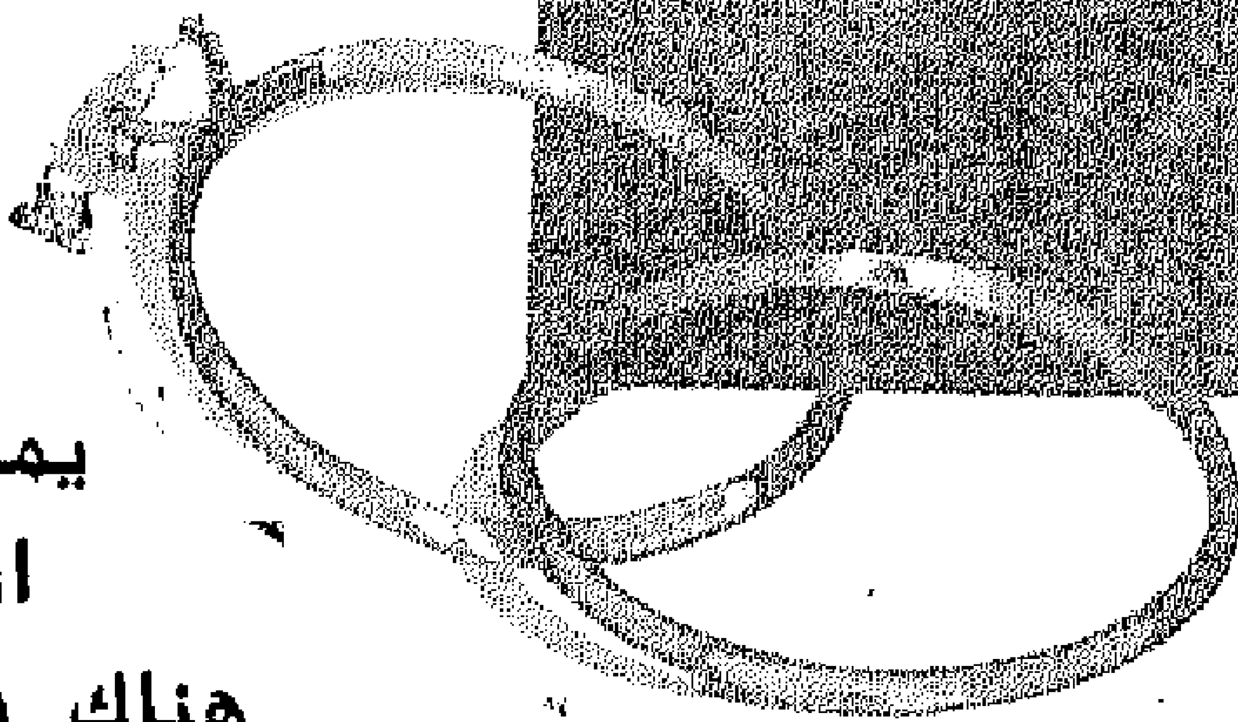
(٣) Multiple sclerosis, myasthenia gravis, or Guillain — Barré syndrome



قلت له: "اذا نُقلت فلن تستطيع البقاء معي." فهمس: "لا بد من ذلك، فقد عجزت عن الاكل والشرب طوال النهار. يجب أن تنقلي الى هناك لكي يتمكنوا من الاعتناء بك."

أحسست كتلة من الضيم تتكون داخلي اذ جمعت أمتعتي وقدمت الممرضة بكرسي لمقعدين جلست فيه. وسرنا في القاعات الساكنة الخافتة الانوار كأننا نسير تحت أجنحة الموت.

فتح بيل الباب الى غرفة العناية الفائقة. فتطلعت حواليّ فرأيت عدداً من الأسرة في مهاجع صغيرة مجزأة على امتداد جدران غرفة كبيرة. وكل من المهاجع مفتوح على الغرفة الرئيسية حيث مركز التمريض. وكان المرضى في معظم الاسرة مربوطين الى أدوات وآلات، وهسيس أجهزة التنفّس يملأ المكان. وعلى رغم صلاتي الحارة أن أعفى من الاحتجاز هناك فقد وضعت على سرير كتب فوقه رقم على الجدار.



تلك كانت بداية حكايتي مع "السرير الرقم١٠".

قال لي ممرض شاب اسمه بروس وهو يساعدني الى سريري: "سأكون ممرضك في المناوبة المسائية. عليك الآن أن ترتدي قميص نوم". والتفت الى بيل قائلاً: "يمكنك أن تأخذ جميع أمتعتها الى البيت. فهي لن تحتاج الى شيء ما عدا فرشاة أسنان".

حين عاد بروس طلب مني أن أستلقي. وتناول أنبوباً بلاستيكياً وأولجه في حلقي. فتقيأت، فأخرجه قائلاً: "أريدك أن تعرفي تماماً ماذا سنفعل حين تسوء حالتك".

لم أصدق أن ما حلّ بي حقيقي. فلا بد من أنه مجرد كابوس رهيب. وطلب مني بروس أن أنزع خواتمي. فرجوته أن يستثني خاتم الزواج الذي لم يسبق أن نزعته. فرفض جازماً: "عليك أن تنزعيه هو أيضاً".

نزعت خواتمي والغصة تملأ قلبي. وكدت أنفجر باكية حين أعطيتها زوجي من دون أن

أقدر على التطلع اليه. فجمعها في كيس أعطاه اياه بروس، وهمّ بالانصراف.

استبدّ بي الجزع لمفارقة بيل وعصفت بي المخاوف. فهو كان حصني الأمين وملاذي والصخر الذي ألقي عليه رجائي وأستمدّ منه قوتي وأهرب اليه فأدفن فيه خيبتي وكآبتي. لقد فوجئنا بما جرى وكأنه من نسج الوهم والخيال. أما الآن فقد حان موعد ذهاب بيل، وهو أمسك يدي وألقى علي نظرة أخيرة ورحل. فغلبني اليأس وشعرت بفراغ هائل كأن كل ما في العالم رحل معه وانتهى.

لا شيء يتحرك!

في الصباح التالي أخذت عينة من السائل الشوكي في عمودي الفقري. ثم أدخلت احدى الممرضات قثطرة (ميلاً) في مجرى البول، ووصلت بأنبوب حقن وريدي لتغذيتي.

وصل بيل في الحادية عشرة والنصف قبل الظهر. فحاولت الجلوس لكنني عجزت عن ذلك. وقبلني فأردت أن أقول له "اني أحبّك"، لكن شفتيّ بقيتا مطبقتين لأن الشلل كان يتعاظم باطراد. خفض بيل بصره وقال بصوت متهدج: "اتصل بي الدكتور لوهمان وأطلعني على نتيجة التشخيص. إن مرضك، يا عزيزتي، هو غيان - باريه".

وتابع: "ليس لدي كثير من المعلومات عن هذا المرض، ولست واثقاً بأن هناك من يعرفه جيداً. يقال انه نادر الحدوث. وقد عرف الدكتور لوهمان حالة واحدة أخرى، وكانت خفيفة الوطأة. لكن حالتك قد تكون أشد خطورة".

فندت عن شفتيّ كلمة "لا!" طويلة، خفيضة، مثقلة بالرهبة. "لا!لا!لا!"

فشبك بيل يده بيدي بحنان وقد بان قلق شديد في محياه وأضاف، محاولاً طمأنتي: "مررت بالممرضة المداومة في شركتنا، فقرأت لي ما جاء في أحد كتب الطب عن مرض غيان - باريه، وهذا مفاده..."

وأخرج ورقة من جيبه وقرأ: "انه التهاب يصيب الاعصاب، ويأتي عادة على أثر عدوى سابقة كالفيروس المعوي الذي أصابك. وهو يحدث شللاً، بدءاً بالرجلين صعوداً الى أعلى بسرعة".

يجيز قانون زيارات المرضى في غرفة العناية الفائقة ثلاث زيارات في اليوم تدوم كل منها ١٥ دقيقة. وانتهت مدة زيارة بيل فقبلني مودعاً وقال انه سيعود في الخامسة والنصف مساء بصحبة أمي وابنتنا اليزابيت.

تساءلت عن مدى قدرة والدتي وابنتي الصغرى على مواجهة كل هذه المشاكل. وكنت وزوجي قررنا ألا نطلع ابنتنا الكبرى كاترين على خطورة مرضي، اذ كانت عاكفة على التحضير لامتحانات الفصل الدراسي الأول في الجامعة.

أما الآن فلن أزيد من قلق والدتي وابنتي الصغرى، وسأحاول جهدي أن أظهر مبتهجة لدى قدومهما لزيارتي.

حين دخلت اليزابيت غرفتي كانت تبتسم مؤكدة لي بابتسامتها الدافئة الصادقة أنني سأشفى. لكن ما بدا على وجه أمي لم يخف علي.

كانت أمي متصفة دائماً بالقوة ولكن في تلك اللحظة كانت صدمتها لرؤيتي أقوى من أن تحتمل. فاستأذنت بحجة رغبتها في افساح مكان لبيل. وشاهدتها تخرج مصعّدة آهات صامتة والحزن يحني قامتها.

بعد مغادرة أهلي الغرفة دخلت ممرضتان تجران عربة محمّلة رزماً وأنابيب بقصد ربطي الى جهاز تنفس اصطناعي. فأولجتا أنبوباً في انفي وصولاً الى رئتي لتسهيل التنفس.

الى هذا الدرك اذاً بلغت اصابتي. لكني كنت منهكة الى حد جعلني لا أبالي.

استيقظت بعد ساعات فهالني ما أنا فيه. كانت رقبتي مرتخية ورأسي منحرفاً جانبياً، وسمعت صوتاً غريباً عرفت أنه صوت جهاز التنفس. حاولت الكلام فلم يصدر مني أي صوت. واشتد ذعري اذ أدركت أنني لا أستطيع طلب النجدة.

كانت احدى الممرضات اتصلت ببيل وأخبرته أنني رُبطت الى جهاز تنفس، فاذا به يظهر فجأة قرب سريري ويسألني عما اذا كان الانبوب يضايقني. لكني عييت عن الجواب، فلم أقدر أن أحرك فمي الا بارتعاشة جانبية خفيفة. كذلك عجزت عن تحريك رأسي ويدي وأي عضو آخر في جسمي.

سيطر علي الخوف وغمرني الاحباط. وقرأ بيل ذلك في عيني المتسعتين هلعاً فقال لي: "انك تطرفين بعينيك. فهلا طرفت مرة واحدة علامة أنك قادرة على ضبط حركة جفنيك؟"

أرغمت نفسي على الهدوء. ثم طرفت عيني مرة ببطء.

فابتسم بيل: "حسناً جداً. والآن، يبدو أن فمك يميل الى جانب واحد. حاولي أن تحركيه. ثم اطرفي بعينيك مرة واحدة علامة قدرتك على ضبط ذلك أيضاً".

حركت فمي بجهد. ثم طرفت بعيني. فصاح بيل: "عظيم! ستعني طرفة عينيك أنْ نعم، وارتعاشة فمك أنْ لا. هل تتضايقين كثيراً من الانبوب في حلقك؟"

هكذا تمكنت من الاتصال ببيل والاجابة عن أسئلته الكثيرة. إنما كنت اتساءل بمرارة في قرارتي: ماذا لو فقدت القدرة على تحريك عيني وفمي؟ وكأن بيل أدرك ما يجول في خاطري فقال لي: "لنصلِّ يا سو."

أخذ أصابعي المشلولة وحنى رأسه على سريري وصلينا بصمت. فشعرت في تلك اللحظة الوجيزة بسلام وطمأنينة يغمران كياني.

حروف الابجدية

صباح اليوم التالي تفحصت كل جزء من جسمي. فوجدت أن رجلي وأصابع قدمي لا تتحرك، وأني عاجزة عن تحريك رقبتي وفمي، وجذعي خامد لا يتحرك الا بفعل التنفس الاصطناعي.

فيا للمصيبة! كيف أقدر على التفاهم مع بيل وأنا عاجزة عن تحريك فمي؟ تسارعت دقات قلبي. انه لا يزال يخفق على الاقل.

عادني بيل في السابعة والنصف وسألني: "هل نمت جيداً في الليل؟"

فرفرفت جفني بفزع ظاهر.

فقال لي: "اطرفي بعينيك كما اتفقنا اذا كنت تعنين نعم، وحركي فمك اذا كنت تعنين لا."

ولما أعدت رفرفة جفني أدرك أني عاجزة عن تحريك فمي. فقال: "لنجرب هذا اذاً. اطرفي بعينيك مرة ايجاباً ومرتين نفياً."

وكرر سؤاله: "هل نمت جيداً في الليلة الماضية؟"

طرفت بعيني مرة، وتوقفت لحظة ثم طرفت مرتين.

فقال بيل مبتسماً: "نعم ولا. أليس هذا ما تقصدين؟" فطرفت مرة أن بلى.

مرّ الوقت بسرعة وحان موعد انصراف بيل فقال لي: "سأعود في الحادية عشرة."

وحين عاد أخذ يفرك يديه مبتهجاً. فعرفت أنه اهتدى الى فكرة مدهشة.

قال: "ان أجوبتك نعم ولا غير كافية. فهلا فكّرت في كلمة تودين أن تنقليها الي؟"

فأطبقت جفني لحظة طويلة علامة الايجاب، وانتقيت كلمة "حار." ومن خلال سلسلة من طرفات عينيّ مكّنت بيل من تهجئة الكلمة.

فكان سروره عظيماً وهتف: "حار! تعنين أنك تشعرين بالحرّ." وكنت فعلا أشكو من الهواء الحار الذي ينفثه جهاز التنفس قريباً من سريري.

ولمس بيل جبيني: "أنت ساخنة حقاً." ومسح العرق عن وجهي ورقبتي. "هل تريدين أن أنزع هذه البطانية عنك؟"

آه، نعم، أرجوك افعل.

سررت لمعرفتي أنني قادرة على التفاهم مع بيل وابلاغه ما أحتاج اليه. ونعمت بهذا السرور لبضع دقائق بعد انصرافه.

ثم دخلت الممرضة المناوبة لتضبط أنبوب التقطير الوريدي. فرأتني مكشوفة من دون غطاء فقالت: "لا بد أنك ترتجفين من البرد يا سو." ثم غطتني جيداً وانصرفت.

وخطرت لي فكرة نقلتها الى بيل بالتهجئة، مفادها أني في حاجة الى لائحة بأسئلة مكتوبة. ففكّر قليلا ثم وضح له قصدي. فسألني: "تريدين لائحة كتبت عليها أسئلة كي تستطيعي ابلاغ العاملين في المستشفى بحاجاتك؟"

أجبت بطرفة عيني. ونقلت اليه الكلمات - الاسئلة وهي: حار؟ بارد؟ أدِر الراديو؟ أسكت الراديو؟ أقلب؟ ويقتضي أن تكون جميعها أسئلة تجاب بنعم أو لا.

في اليوم التالي جاءني بيل ومعه لائحتي التي علقها على الجدار خلف سريري.

في الايام الاوائل لدخولي المستشفى أُخضعت لاجراءات صعبة غالباً ما كنت أتجنب مواجهتها بالهرب الى عالم الخيال والتمني. فيغيب عني الاطباء والممرضات المتحلقون حول سريري، وأرجع الى الماضي فاحتمي بعذوبة ذكرياته من مرارة الحاضر.

ها أنا أعود بالذاكرة فأرى نفسي قد أتخرج في جامعة ساذرن ميثوديست، وأعمل في دائرة المحاسبة في شركة "شل"، وأنضم الى فريق البولينغ في الشركة. وذات يوم

جمعة كنا نتبارى ضد فريق بين أعضائه لاعب يدعى بيل باير. فأغاظتني مهارته الهائلة اذ كان المجلّي دائماً، وفي كل رمية كان يسقط جميع القوارير الخشبية. الا أنه كان شاباً وسيماً فلم أتمالك عن الاعجاب به. وفي اليوم التالي فتشت في سجل الشركة لأكتشف شيئاً عن بيل باير...

سمعت طبيباً يقول لي: "سوف نشق الرغامى" (٤).

حاولت ألا أصغي، لكنني شعرت بابرة تخترق حنجرتي وبألم شديد ثم بخدر وأيد خشنة تعبث بي. فأغمضت عيني لاطرد هذا الواقع المؤلم. وامتزجت الاحلام بالحقيقة. واذا برؤية ضبابية بيضاء غامضة تهزني، وسمعت صوتاً يهتف بي: "سو... سو."

عدت الى واقعي، فرأيت الاطباء قد هيأوا أنبوباً طلبوا من أحد الممرضين ادخاله من أنفي الى معدتي. وحاول الممرض مرة بعد مرة أن يولجه من دون جدوى بسبب بثرة داخل أنفي. كنت كلعبة بين يديه، وكانت تلك اللحظات كابوساً رهيباً من العذاب والغضب والخوف. كل ذلك والممرض صامت كأبي الهول لا يتكلم ولا يطمئنني ولا يعتذر عما يسببه لي من ألم وشقاء، كأنه كان يعتبرني فاقدة الوعي. أخيراً، بعدما أسقط في يده، كفّ عن المحاولة وتولى أحد الاطباء العملية.

الاستقرار

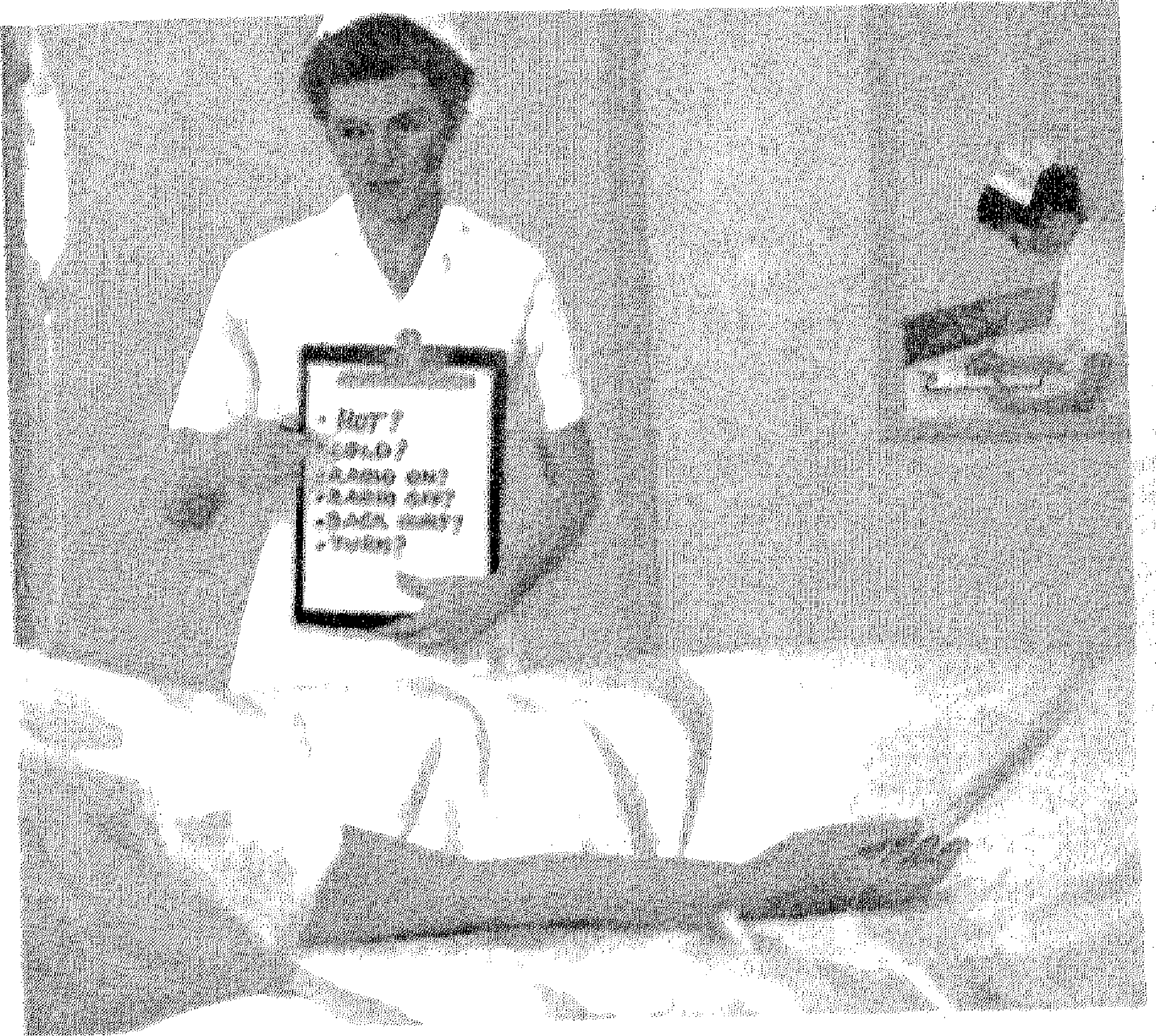
منذ ذلك الحين بتُّ أتلقى تغذية مكمّلة عبر أنبوب الانف – المعدة، وعبر أنبوب تقطير وريدي تحت الترقوة مغروز في كتفي بديلا من الانبوب الذي كان في ذراعي. كان وزني ينخفض على نحو مفرط، ولذا عمد الاطباء الى امدادي بالغذاء بأسرع ما أمكن.

وأصبح لدي أنبوب لكل وظيفة: أنبوب الانف – المعدة، والانبوب تحت الترقوة، وأنبوب التنفس، وقثطرة مجرى البول وأربعة مجسّات تصلني بأجهزة المراقبة في مركز الممرضات.

وكلما غادرني بيل في المساء كان الانقباض يعصر نفسي. فكم من ساعات فراغ مخيفة قضيتها وحيدة. وحين يتركني الممرضون كان ينتابني خوف شديد لعجزي عن التحرك وطلب المساعدة. ومن وقت الى آخر كان أحدهم يأتي ليقلبني أو يضبط أنبوب التقطير الوريدي أو جهاز التنفس أو يدفع بمحلول غذائي في أنبوب الأنف – المعدة. وكنت أرى حالي مفجعة حقاً.

لكني أخذت أعنف نفسي لانتفاء ما يبرر الاغراق في الخوف والقلق. فلدى الممرضات أجهزة للمراقبة، وهن يعرفن أني لست في حاجة الى شيء. وليس في وسعهن البقاء كل الوقت مع شخص مثلي عاجز حتى عن النطق. فقد يذهب ذلك بعقلهن. ثم ان الدكتور لوهمان يعودني كل يوم ويقرأ لائحتي ويصدر تعليماته. وهو يرى أن حالي مستقرة – أي أنها غير خطرة – وأن هذا المرض الوبيل يجب أن يأخذ مجراه. وعلى رغم ذلك كنت لا أزال خائفة.

(٤) الرغامى هي القصبة الهوائية.



بعد الدورات الصباحية كان الاطباء يجزمون بأن حالي مستقرة ولا تبعث على القلق. ووددت لو استطعت أن أصرخ في وجوههم: "هاي! تمهلوا لحظة، لو كنت مستقرة وفي حال حسنة فلا داعي الى ابقائي في غرفة العناية الفائقة."

تفرّست في وجوههم جميعاً وتساءلت هل بينهم من يهمّه الاتصال بي.

بعدما علق بيل لائحة الاسئلة فوق رأسي ازددت أملا، وأحسن بعض العاملين في المستشفى استخدامها ووجدوها مفيدة. لكن كثيرين منهم تجاهلوها كلياً. كنت في نظرهم كائناً صامتاً جامداً لا يعي شيئا ولا يحتاج الى شيء.

لكن الحظ كان يسعدني أحياناً، خصوصاً حين توكل العناية بي الى الممرضة فيكي. فهي كانت مرحة ممتلئة حيوية ونشاطاً ومنفتحة تود البوح بمكنونات صدرها. وفيما كانت تغسلني بالماء الحار والصابون كانت تضحك وتتكلم مع كل المرضى في الغرفة. كانت كشعاع دافىء ينسكب على حجيرتي المقفلة فينيرني ويبعث فيَّ الأمل. وهي أخبرتني عن زوجها وروت لي قصصاً مضحكة عن حياتها البيتية.

ومع الوقت توضّح الامر لي. فعرفت أن وحدة العناية الفائقة ليست مكاناً لاقامة طويلة. والعاملون فيها مدربون على العناية بالحالات الفائقة الخطورة، وهم ليسوا مجهَّزين للسهر على حاجات مريضة طويلة الامد وعاجزة كلياً. فعاهدت نفسي، إن شفيت، أن أوفر مساعدة لمن هم مثلي: مرضى يائسون عاجزون عن الحركة سأتكلم باسم العاجزين عن التكلم على حالهم.

في المرة الأولى حين انطلق جهاز انذار التنفس اعتراني خوف شديد لانه كان قريباً جداً مني. في البدء كان الانذار يحرك الموظفين فيهرعون الي حالا. انما مع التكرار، ولدى معرفتهم أني "مستقرة"، باتوا يتباطأون غير مبالين كثيراً بطلباتي. وكانت أمور صغيرة تسبب انطلاق الانذار، كارتخاء المجسّ المرتبط بأنبوب الترقوة. وكانت صعوبة تحريكي حائلا دائماً دون بقاء المجسّات موصلة بالقوابس.

ذات ليلة رن جرس الانذار خطأ فيما كان الممرض بروس جالساً يدرس. فتطلع الي كأنه يقول: لماذا تزعجينني؟ وأتى ليضبط الجهاز فلم يجد أي خطأ فأعاد المجس الى مكانه.

وتكرر انطلاق جهاز الانذار وتكرر ضبط الموصل وعيل صبر بروس. فتركه أخيراً يرن في أذني قائلا: "إنك بخير، وعليك التكيف مع هذا الواقع."

وبعد برهة خلتها دهراً هرع اختصاصي بالتنفس الى حجرتي وسأل: "كم من الوقت مضى وجرس الانذار يرن؟ ولماذا لم يستدعني احد؟" وكان سؤاله موجهاً الي.

حين قدم بيل أخبرته بحادث جرس الانذار وبحوادث مماثلة وقعت في المستشفى ودلّت على عدم احساس العاملين بواجبهم الذي يدعوهم الى معاملة المرضى برفق وعطف وتلبية حاجاتهم. ولكن صعب على بيل تفهم خيبة المرضى من الاهمال واللامبالاة. فكيف يقدر ارتياح المرضى وحاجتهم الى أن يقلبوا حين يغلب عليهم التعب والوجع، لا عندما يحين الموعد المقرر لهذه الخدمة أو عندما يطيب لاحدهم أن يقلبهم بحسب مزاجه. فالمريض انما هو كائن بشري يحتاج الى الاستئناس بأمثاله. والاهتمام به ومؤانسته يشبعان رغبة عميقة في نفسه، فينتعش وتغيب عنه المرارة.

"[illegible]"

عادت كاترين من الجامعة. وكان بيل في حيرة من أمره كيف يهيئها لعيادتي. سيصدمها تحولي الشديد وكثرة الاجهزة والانابيب الموصولة بي.

صُعقت كاترين لدى وقوفها بجانب سريري. وجاهدت لاخفاء صدمتها وإن لم تصدق ما رأته عيناها. ولكونها تجيد التمثيل فقد غلّبت ارادتها. وبعد برهة صمت ابتسمت واشتركت معي بحماسة في تهجئة الكلمات. بعد أشهر أخبرتني والدتي أنها اجهشت في البكاء بعد مغادرتها المستشفى، وانهارت قائلة: "أنا لا أصدق أن تلك هي أمي."

وذات صباح جاء بيل ووقف صامتاً عند مؤخر السرير. كان في عينيه بريق وفي يده وردة. فاغرورقت عيناي، لكن نفسي أشرقت غبطة وحبوراً.

بعد زواجنا كنت دوماً ألمّح الى بيل أن ما من أحد قدّم الي ورداً. وبعد سنوات من التلميح العقيم أدركت أن تلك الطريقة لا تجدي أبداً مع بيل باير. فهو كان يحب أن يفاجئني. وأخيراً، في عيد فالنتين (٥) ذات سنة، أهدى الي ست غرسات ورد، احداها من نوع "تيفاني" وهي ذات لون زهري فاتح ويفوح منها أريج رائع.

رجوت ألا يتنبه الممرضون الى هذه الوردة المقطوفة من حديقة منزلي. وخشيت أن تؤخذ مني عملا بالنظام الذي يحظر ادخال نباتات حية الى وحدة العناية الفائقة لاحتمال تسببها في التلوّث.

ولحسن الحظ فات الجميع الانتباه الى الوردة اليتيمة بجانب سريري. وحرص بيل على احضار وردة ناضرة كل بضعة أيام.

وبعد أسابيع اسرّت الي ابنتي اليزابيث: "غالباً ما أرى والدي يدخل غرفتكما بعد العشاء ويختلي بنفسه. وأسمعه يبكي، فأقف أمام الباب أهم بالدخول. لكني لست أعلم ماذا أقول له لاعزيه. غير اني أعرف أنك ستشفين. وهو يعرف ذلك أيضاً. أليس كذلك يا أمي؟"

نعم يا اليزابيث، انه يعرف. ولولا ايمانه بالله وبشفائي ومحبته لي لما استطعت التحمل ولما لاح لي أي أمل عذب.

هدية ميلاد

ليلة الميلاد جاءني الثلاثة، بيل واليزابيث وكاثرين، تعلو وجوههم ابتسامات مشجعة ومعهم شجرة بلاستيك صغيرة لا يتجاوز ارتفاعها ٣٠ سنتيمتراً طولا. انها هدية الميلاد.

أثار في حنانهم حزناً لحالي. لكني لجمت دموعي وحاولت الظهور مظهر الامتنان.

وكان على بيل والفتاتين الالتحاق ببعض الاصدقاء لتمضية سهرة العيد. فاختصروا زيارتهم. لكني وددت لو انهم لا يغادرونني أبداً.

كانت ليلة الميلاد سيئة جداً في ما اختص بي، اذ كانت الممرضة المناوبة جديدة وقليلة الخبرة ولا تفهم ما أريد نقله اليها بعينيّ. ودأبت على سؤالي وهي تقلبني مراراً وتكراراً عما اذا كنت مرتاحة. وأنا لم أكن مرتاحة في أي وضع رتبته لي. فقضيت ليلتي ساهرة أعد الساعات وأترقب فريق المناوبة الاكثر خبرة في الصباح.

في السابعة صباحاً قدم بيل ووالدتي واليزابيث وكاثرين ليتمنوا لي ميلاداً سعيداً. فسردت لهم ما عانيته طوال الليل من قلق وسهاد، فغابت عنهم أمارات البهجة التي أرادوا مواجهتي بها صباح العيد، وغامت وجوههم كمداً ورثاء لحالي.

كرهت نفسي لما فعلت.

وحين عادوا الي بعد ساعات كنت أكثر مرحاً، فانفرجت أساريرهم وراحت اليزابيث وكاثرين تحدثانني عن الهدايا التي تلقتاها. ولا شك في أن بيل كان يتذكر مثلي كيف كانت ابنتانا الصغيرتان تندفعان الينا لكي نرى هداياهما في العيد.

---

(٥) عيد فالنتين هو عيد العشاق.

وقدم زائرون آخرون لمعايدتي. وبعد المجاملات المعتادة أخبرني أحدهم وقد بدا مكتئباً: "ان صديقتنا نانسي تخضع أيضاً للمعالجة في وحدة العناية الفائقة بعد اصابتها بنوبة قلبية. ويحسن أن تصلي لشفائها، فلا ندري أتبقى على قيد الحياة أم لا."

أحزنتني حال نانسي التي كنت تلقيت منها بطاقة معايدة لبضعة أيام خلت. لكن مصابها حمل الي بعض العزاء لادراكي أنني لست الشخص الوحيد الخاضع للعناية الفائقة.

وزاد اهتمامي بمراقبة المرضى الاخرين الذين كانوا يدخلون وحدة العناية الفائقة من غرف العمليات أو من قسم الطوارىء. وتمنيت لو قدرت على الكلام لاشجع المستوحدين منهم وأبث فيهم الامل والثقة بالشفاء، خصوصاً بعدما ابتليت بالاهمال واللامبالاة واختبرت مبلغ الانتعاش الذي يشعر به المرضى حين يلقون في المستشفيات معاملة انسانية حقة مشمولة بالعطف والشفقة. لكني شعرت بالمرارة والاحباط لكوني مشلولة، وزادني احباطاً عجزي المطلق عن الحركة والكلام.

ومرت بذهني كلمات ذاك الصديق الذي طلب مني أن أصلّي لنانسي، فعلمت أني قادرة على الصلاة للمرضى هنا. وغمرني شعور جديد أنار ظلمة اليأس الذي عصر نفسي. فعلى رغم عجزي يسعني أن اكون عوناً للمرضى بالابتهال الى الله تعالى لشفائهم.

بعد مرور أسبوع فقط على دخولي وحدة العناية الفائقة بدأ يعودني رجل يرتدي سترة مختبر زرقاء وتعلو وجهه بسمة هي أكثر البسمات التي حظيت بها في حياتي دفءاً واشراقاً. كان الرجل يدعى تشارلز، وهو اختصاصي بالمعالجة الطبيعية. وقد منحته ثقتي منذ اللقاء الاول. وكان يأتي مرتين يومياً لمعالجة جريان الدم في جسمي، فيدلك يديّ ورجليّ وأصابعي.

وفي كل يوم كنت أفحص طاقتي الجسدية. كنت على قناعة أن في امكاني التحرك اذا ما ركزت بقوة وشددت عزيمتي، وأثمرت فكرتي. فبعد أسبوعين أحسست بعضلة في ركبتي تنتفض، فاعتقدت أننيَ نجحت. وأثارني هذا



الاكتشاف الذي توافق مع ما أكده لنا بعض الاطباء من أن مرض "غيان - باريه" يبلغ مستوى يستقر عليه، ثم يبدأ المريض العودة الى حاله الطبيعية. فهل يصح ذلك علي؟ وهل بدأتُ طريق العودة الطويلة؟

كنت مغتبطة أنتظر بصبر نافد لكي اخبر بيل النبأ السارّ. فحالما وصل تهجأت له كلمتي "رجلي تتحرك،" وجعلت العضلة تنتفض لكي يرى بعينه.

فصاح: "هاي! إنها تتحرك حقاً. أعيدي تحريكها!"

ولكن صعب علي كبت شعوري بالخيبة حين توالت الايام من دون تحسّن.

كنت طلبت من بيل أن يبتكر شيئاً كإشارة او زر كهربائي لدعوة الممرضات. وأخيراً جاء ذات يوم ومعه رزمة فيها أجراس مجلجلة مربوطة بسلسلة وضعها بعناية على فخذي. ثم قال: "حركي ذلك العضل." ففعلت، وسقطت السلسلة وجلجلت الاجراس. وكانت ممرضة مارة من هناك فتوقفت وسألت ما سبب الصوت. فأخبرها بيل بالامر، وشرح لها وللموظفين الآخرين أن الاجراس ستكون اشارة دعوتي اياهم. وبيّن لهم كيف يعيدونها الى وضعها الصحيح.

وعلى رغم هذا الاختراع المبدع استمرت مخاوفي ولم تهدأ. واستيقظت ذات يوم، فاذا بممرضة قد أتت لضبط جهاز التنفس ففصلت جهاز الانذار لكي لا ينطلق أثناء عملها ونسيت أن تعيد ربطه.

شعرت بالخوف ينهشني. ماذا لو كان هناك خطأ في ضبط جهاز التنفس؟ فأنّى لي أن ألاحظ ذلك وكيف أنبه الممرضات اليه؟

كنت مستلقية على جنبي. فحاولت أن أنظر نزولاً لاتحقق مما اذا كانت رئتاي تعملان. وقد كنت اتنفس فعلا، اذ لولا ذلك لغبت عن الوعي.

حدّقت الى جهاز التنفس، فبان في حال حسنة. لكني خشيت الا يكون كذلك، فأخذ قلبي يخفق بسرعة.

لمحت بطرف عيني حركة فقلبت الاجراس، ولكن أحداً لم ينتبه الي. وبقيت أكثر من ساعة لا سبيل لي الى طلب المساعدة. وانتظرت وجِلة الى أن أقبل أحدهم.

أومأت بعيني الى جهاز الانذار، ففهم الممرض وأعاد ربطه. فرحت أبكي. فمسح الممرض دموعي وقال: "سأتأكد من أن الموظفين سيعيرون هذا الأمر انتباهاً أكثر."

ولكن هل سيفعلون ذلك حقاً؟

في نهاية ديسمبر (كانون الاول) لاحظ أحد الاختصاصيين بالمعالجة الطبيعية بعض القوة في رئتيّ. لكن بطء الاستجابة على أثر انتفاضة عضلة رجلي جعلني أتحاشى التأثر والابتهاج لعلامة صغيرة. وفي اليوم التالي توقفت الرئتان عن كل حركة تلقائية. ولكن بعد يومين ظهرت دلائل على قدرتهما على العمل، فسمحت لنفسي ببعض التفاؤل.

في ١٥ يناير (كانون الثاني) تحرك رأسي قليلاً، انما بارادتي. وكان بيل يجري بحثاً عن طبيعة مرض "غيان - باريه" في مكتبة كلّية الطب في بايلور. فشرح لي كيف

يهاجم المرض غلاف الاعصاب الخارجية، وأحياناً الاعصاب ذاتها فيتلفها ويسبب الشلل.

وتعود ألياف الاعصاب الى النمو ببطء بمعدل ٢،٥ سنتيمتر في الشهر. ونظراً الى طول قامتي البالغ ١٨٣ سنتيمتراً سيستغرق اكتمال النسيج وقتاً طويلاً.

خطوات الى الامام

فيما زادت قدرة رئتي على مساعدة جهاز التنفس قليلاً بدأ المعالجون يعدّون قوة الجهاز لفترات قصيرة لكي تعمل رئتاي بجهد أكبر. وكان هذا الوضع الجديد مخيفاً، اذ كان الجهاز يتوقف ليدفعني الى التنفس. واذا مرّ عدد معين من الثواني لم أتنفس فيها كفاية، وكانت تبدو لي كأنها الابدية، زودني الجهاز بضع تنفسات ثم توقف ثانية.

أرهقني هذا التنفس غير المنتظم وأستنزف قوتي.

وتدريجاً، كل ثلاثة أيام أو أربعة، كان يخفض عدد "التنفسات في الدقيقة" بواسطة الجهاز. وأخيراً في يناير (كانون الثاني) ١٩٨١ عدلت الممرضتان المفضلتان لدي، هاريبيت وكاي، سرعة جهاز التنفس بحيث أتنفس لفترة وجيزة من دونه.

لكني لم أشعر أن ثمة جديداً قد حدث. فقالت لي كاي مشجعة: "انك تفعلين حسناً يا سو، ركزي على التنفّس."

هتفت هاريبيت: "أنظري، أنها تتنفس قليلاً."

ومرت دقيقة، ثم نصف دقيقة.

فهتفت الاثنتان: "ثابري يا سو، لا تتوقفي. ها أنت تتنفسين. حاولي لثلاثين ثانية أيضاً."

ثم أعادت كاي ربطي بجهاز التنفس وأعلنت: "تنفّسْ لدقيقتين! لقد نجحت!"

كانت تلك لحظة مجيدة حاسمة نقلتني من جحيم اليأس الى نعيم الامل بالحياة الطبيعية والانعتاق من عبودية جسدي.

لقد خطوت خطوة الى الأمام في طريق الشفاء. وسَرَت عدوى ابتهاج ممرضتّي في أرجاء المستشفى وكدت لا أقوى على انتظار موعد قدوم بيل في المساء لأزف اليه الخبر. وحين جاء لم أبادره بأي تذمر أو شكوى. وقبل مغادرته طلبت منه بالتهجئة أن يضمّني، فأزاح غابة الانابيب والاجهزة من حولي. وحين شدّني اليه انهملت دموعه.

سرت قُدُماً في طريق الشفاء. وبدأت أجلس في كرسي المقعدين لبناء قوتي. في اليوم الاول بقيت في الكرسي لمدة ٣٠ دقيقة.

واذ جلست تمكنت أخيراً من رؤية رجليّ وذراعيّ. فراعني ما شاهدت. قدر تشارلز وزني بـ٤٠ كيلوغراما. وكانت عظامي ناتئة من كل الجهات، وتلك كانت مشكلة تضايقني حين أكون مضطجعة وتزداد لدى جلوسي، اذ يتركز ثقلي في مساحة ضيقة. فبعد بضع دقائق في كرسي المقعدين كانت عظامي النافرة تخز جلدي الهزيل.

وازدادت قدرتي على الجلوس في الكرسي حتى بتّ أستطيع البقاء لمدة ساعتين ونصف ساعة في منتصف فبراير (شباط).

وكانت الخطوة التالية نزع الانبوب المغروز تحت الترقوة والذي ظل يغذيني على مدى شهرين. فشعرت بارتياح هائل، ليس فقط لخلاصي من الانبوب وإنما أيضاً لخلاصي من روابط المجسّات التي غالباً ما أطلقت جهاز الانذار.

وبعد أسبوعين قطعت مرحلة مهمة اذ أستطعت البلع وان قليلاً. ومضت عدة أيام قدم الدكتور مونكل بعدها وأخذ لائحتي ودرسها.

وسأل: "ماذا قدمتم اليها من الاكل والشرب منذ بدأت الابتلاع؟"

أجابت الممرضة: "لا شيء في علمي."

فقال: "اعطوها بعض رقاقات الثلج." وكانت فكرة رقاقات الثلج رائعة، ووقفت اليزابيث مأخوذة مترقبة.

أقبلت الممرضة حاملة كوباً من الثلج المسحوق ومدّت يدها نحو الدكتور مونكل لا تدري ماذا تعمل، فأخذ من الكوب رقاقة صغيرة وضعها على لساني. كانت الرقاقة باردة رطبة ولذيذة، لكني أخذت أفكر في طريقة ابتلاعها. ركّزت كل تفكيري وأغمضت عيني منعاً للتشتت. واذا بي أحسّ عضلات حنجرتي تتحرك في منتهى البطء، وتنزلق رقاقة الثلج ذائبة فيها. فيا للحدث المثير! ها قد اجتزت مرحلة سعيدة أخرى في كفاحي الطويل، وسعادتي تفوق الوصف.

قال الدكتور مونكل للممرضة: "أعطيها كل ساعتين بعض رقاقات الثلج وأي شيء يسهل عليها تناوله."

سررت جداً لكون اليزابيث شهدت الحدث المثير، وهي غالباً ما شهدت أموراً سيئة. وقالت: "أكاد أعجز عن وصف غبطتي، ولا يسعني الانتظار لأخبر والدي النبأ السار."

في ٩ مارس (آذار) تنفّست من دون مساعدة جهاز التنفّس منذ الصباح الباكر حتى المساء، وكنت من قبل أتنفس من دونه إنما مدعومة بالأوكسيجين. وفي اليوم التالي قررت التخلي كلياً عن التنفس الاصطناعي.

في تلك الليلة كان تنفّسي خافتاً ضعيفاً لكنه لم يتوقف فقد بتُّ أقدر أن أنام وأتنفس تلقائياً. وبعد يومين أخرج جهاز التنفس من حجرتي وصرت مؤهلة للخروج من غرفة العناية الفائقة الى غرفة عادية.

لازمني التعب في كل الاوقات وعرفت أني أعاني مشكلة. فأمر الدكتور لوهمان باجراء فحص بالاشعة السينية (اكس). فتبين أنني مصابة بذات الرئة. قيل لي: "انها اصابة خفيفة ليس فيها ما يقلق." ومع ذلك فقد غرقت في اليأس لدى اعادة جهاز التنفس الى حجرتي بعدما شارفت الخروج من غرفة العناية الفائقة.

بلغت القرارة في هذه المأساة التي تأبى الا أن أبقى صريعة المرض. ورحت أتساءل: هل من نهاية؟ وهل سيتاح لي التخلص من هذه البراثن المرعبة؟

مّر شهر مارس (آذار) وعبقت الطبيعة بأنفاس الربيع وزاد اعتمادي على التنفس

الطبيعي، الى أن حلّ ١٧ ابريل (نيسان) وتقرر نقلي الى غرفة عادية في قسم العناية المتوسطة.

على رغم صراعي أشهراً طويلة في غرفة العناية الفائقة فقد كانت لي فيها ذكريات عاطفية مؤثرة لأناس عطوفين حقاً، كعاملات التنظيف. فقد كنّ يربتن يدي مطمئنات حين يدخلن حجرتي. وقالت لي احداهن: "كنت البارحة أصلي لك."

وأخيراً أقبل تشارلز وجرّني في كرسي المقعدين خارج الغرفة.

أُدخلت الغرفة الرقم ٢١٩. فلقيت أمي وبيل في انتظاري. وزادت سعادتي حين لاحظت أن هناك نافذة الى جانب سريري، نافذتي أنا!

أمضى بيل تلك الليلة نائماً في غرفتي على الأريكة. وللمرة الاولى منذ أربعة أشهر ونصف شهر شعرت بعالمي الصغير مستكناً دافئاً آمناً.

كانت ممرضات خاصّات يقمن على خدمتي، هنّ إيلين وايفون في بحر الاسبوع، ومارجان في نهاية الاسبوع. وحين تأتي إيلين في السابعة صباحاً أتناول فطوري وأدويتي عبر الانبوب. وتبدأ على الاثر المعالجة الفيزيائية. ويحين وقت الغداء فتدفع ايلين ما أمكن من الطعام في فمي وحنجرتي لكي تتحرك الاعصاب. لكن ذلك كان مؤلماً جداً وبطيئاً. وبعد ذلك أعود الى المعالجة الفيزيائية.

واذ بدأ بعض أجزاء جسمي يتحرك طلب مني تشارلز تأدية بعض التمارين في الليل.

كنت أنام عادة طوال الليل، مع انقطاعين قصيرين حين كانت الممرضة تقلبني بحسب التعليمات. وابتكر بيل طريقة تمكنني من طلب الممرضات، وهي مفتاح كهربائي رَبَطه بحاجز سريري بالقرب من مرفقي ووصله بزر استدعاء الممرضات. وبلمسة من مرفقي الذي غدوت قادرة على تحريكه قليلا، كان ضوء الاستدعاء ينبعث في غرفتي وعلى بابها وفي مكتب الممرضات.

وذات يوم، وقد يئست من رؤية شعري الطويل المبعثر، وجدت إيلين حلاقاً قصّه لي وهندمه. ولدى انتهاء القصّ قال: "انظري الآن كم تبدين أنيقة."

وأدار الكرسي غير مكترث لاحتجاجي. وتطلّعت في المرآة فرأيت صورتي للمرة الاولى بعد خمسة أشهر. فهالتني حالي المريعة وكاد يغمى علي. فقد كان نحولي مخيفاً ووجهي هزيلا ملتوياً الى جانب واحد تشده عضلات تالفة، وأنبوب المعدة يمتد من منخري الأيسر الى تحت ذقني.

حاولت رفع يدي لالمس جلدي، لكني عجزت عن تحريكها. فقلت في نفسي: لا بأس، لم يبقَ شيء من المرأة التي أذكرها.

كان العلاج الفيزيائي يدوم ساعتين في الصباح وساعتين بعد الظهر. وكانت عضلاتي كلها تلفت، فتعين علي وعلى تشارلز أن نعيد القوة الى كل منها، مما يعني تحريك المفاصل أولا.

خلال أشهر الشلل الطويلة تكونت في المفاصل ترسّبات كلسيوم اقتضى تحللها كي استعيد قدرتي على التحرك. كنت استجمع قواي وأستعد لتحمل الالم حين يدفع تشارلز كتفي ويخلخل تصلّب المفاصل، ويدفع بأطرافي الى أبعد ما أمكن ويقسو فيزيد في دفعها قليلا.

كنت أجاهد للاحتفاظ برباطة جأشي وتفادي الانهيار. لكني كنت أعاني آلاماً مبرّحة لا قبل لي بتحملها، فأصرخ من شدة العذاب وتنسكب دموعي مدرارة كل يوم.

في ١١ مايو (أيار) بعد الانتهاء من جلسة المعالجة بعد الظهر أجلسني تشارلز على الطاولة، ورفعني بيديه القويتين لكي تتدلى رجلاي عن جانب الطاولة في محاولة لكي أتمسك بطرفها وأقف لوحدي.

وقال وهو يبتسم: "حان الوقت يا سو لتتمرني على الوقوف." وأمسك جنبيّ بيديه وساعدني على النهوض ببطء. فتمكنت من الوقوف بعد جهد مضن. تأثرت لهذا الانجاز المدهش وطفحت عيناي بالدموع وارتسمت ابتسامة الظفر والرضى على شفتي.

وقفت متمسكة بالطاولة نحو دقيقتين ثم أسندني تشارلز وقعدت. وكانت تلك وقفتي الاولى، فاحتفل المعالجون الفيزيائيون بهذا التطور العظيم.

تبعت ذلك احتفالات بانجازات لاحقة. ولكن خلال تناوب هذه الاحتفالات كنت أعاني الكثير من الاوجاع والخيبة.

في ١٤ مايو (أيار) أزيل أنبوب الرغامى من حنجرتي، وأخبرت أني سأستعيد قدرتي على الكلام حالما يندمل الثقب فيها.

واذ وافاني ذلك اليوم المرتقب عجزت عن التفكير في ما أقوله، ولم أكن على يقين مما اذا كان صوتي سينبعث. ووقف بيل في الباب مترقباً، متلهفاً، صامتاً، في قلبه صلاة وفي عينيه وجل.

وبعد تردد طويل ناديته: "هاي، بيل!" فكانت تلك لحظة خالدة في تاريخ حياتي جاءت مكافأة لما عانيته من عذاب نفسي وجسدي. وكدت أطير فرحاً. فتبسّم بيل وتبسّمتُ انا وغلب علينا التأثر فبكينا.

وحين آذنت زيارته بالانتهاء انحنى ليقبلني. فقلت له هامسة وقلبي يفيض غبطة: "أحبك."

قال: "لكم انتظرت آملا أن أسمعك تقولين لي هذا، يا سو."

الخطوة الاولى

بعدما كان تشارلز سندي وعضدي وصديقي في البداية، أصبح آمراً يوكل الي الاشغال الشاقة.

ذات يوم ساعدني فوقفت على قدميّ. وأمرني: "حسناً، يا سو، إرفعي قدمك وامشي خطوة واحدة."

فركزت جهدي على كل عضلة ومفصل في قدمي اليسرى. فأبت العضلات والمفاصل

أن تتحرك في البداية، لكنها عادت فاستجابت ببطء لاوامري: فخطوت خطوة واحدة!

"والآن حاولي الخطو بالقدم الاخرى."

كرّرت المحاولة، فركزت كل فكري وقوتي وأصدرت الاوامر الى قدمي اليمنى. جررتها ببطء قليلا جدا، إنما كانت تلك خطوة.

هتف تشارلز: "لقد نجحت يا سو، لقد نجحت! كثيرون في هذا المستشفى راهنوا على أنك لن تستعيدي تحركك، لكنهم على خطأ. فقد مشيت!"

ولكن في مقابل كل طلعة كانت هناك نزلة. ففي ١٥ يوليو (تموز) بعد انقضاء سبعة أشهر ونصف شهر شعرت بأنني ما زلت عاجزة بائسة وأسيرة مرضي. في غرفة العناية الفائقة تغلبت على الخوف والحنق والتذمّر، والآن أكافح للتغلب على كآبتي ولرفع معنوياتي المنهارة بفعل أوجاع المعالجة.

وفي سبتمبر (أيلول) كانت هناك خطوة مهمة أخرى. فقد التقطت شوكة بيدي الاثنتين، ووضعت شيئاً في فمي. وأحضرت لي مارجان كوباً ذا مسكتين فأصبح في امكاني الشرب من دون مساعدة أحد. ولفت مسكة فرشاة الاسنان بقماش فصار في إمكاني القبض عليها.

وتسارعت البدايات السعيدة. وكان أول استحمام محبباً، وأول همبرغر لذيذاً جداً. وبدأت أمشي في أرجاء المستشفى. وساعد الاجهاد في تقوية رئتي، وما لبثت أن بدأت أمشي في ممرات الجناح حيث غرفتي من دون توقف للراحة.

في أكتوبر (تشرين الاول) مُنحت اذناً بقضاء أول عطلة أسبوع خارج المستشفى، تبعته أذونات أخرى. وأخيراً قرر الدكتور لوهمان انني أصبحت مؤهلة لمغادرة المستشفى، لكنني أحتاج الى ممرضة لخمسة ايام في الاسبوع للعناية بي وبعلاجي ولأخذي في أوقات منتظمة الى المستشفى لتلقي العلاج الفيزيائي الضروري. وما ان علمت الممرضة مارجان بذلك حتى انبرت فعرضت أن تكون ممرضتي.

وهكذا بتّ جاهزة للعودة الى البيت نهائياً.

كان يوم الجمعة ١٣ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٨ يوم سعدي. فقد أوصلت الى غرفتي كعكة حلوى كبيرة رائعة، وعم الخبر المستشفى أن سو، بعد اقامة نحو سنة، هي الآن على أهبة مغادرة المستشفى. فاحتشد الموظفون في غرفتي للاحتفال بالحدث السعيد ولتهنئتي على خلاصي. وتأثرت بعاطفتهم النبيلة وشكرتهم ممتنة.

غادرت المستشفى وكأنني عصفور طال سجنه فانطلق في سماء الحرية يبسط جناحيه لأشعة الشمس الدافئة ويسكب روحه تغاريد شجية ساحرة. شكراً لله المبدع، خالق الكون والجمال.

وما ان لمحت منزلنا حتى خفق فؤادي تأثراً. وكانت الشجرة الكبيرة أمامه ملفوفة بشريط أصفر رمز ترحيب بعودتي. وأغصانها كأنها أكف مرفوعة بابتهال الى الله لشفائي. وغمرتني النشوة. وضمّني المنزل. وكانت ليلة فرح وشكر. لقد بات في امكاني أخيراً بناء قوتي وحياتي طليقة من قيود المرض.

مرت سبع سنوات على مغادرتي المستشفى. وما زلت أندهش لتقدمي. فها أنا اليوم (١٩٨٩) قادرة على استخدام عضلات كانت لستة أسابيع خلت عديمة الفائدة.

لدى عودتي الى البيت كنت لا أقوى على المشي من دون عكازات ولا على قضاء حاجاتي الخاصة وارتداء ملابسي. كنت كطفل صغير، أتلقن كل شيء مجدداً.

في مايو (أيار) ١٩٨٢ شعرت بأنني بتّ قادرة على ضبط شؤوني الخاصة وأن الوقت حان للاستغناء عن ممرّضة، إذ بفضل تدريب مارجان صرت قادرة على خدمة نفسي والقيام بمعظم الاعمال المنزلية.

الا أني بقيت أعاني مشاكل في التوازن. وفي ابريل (نيسان) ١٩٨٣ غلبت علي الحماسة فخطوت في منعطف من دون أن يكون هناك ما أستند اليه. فسقطت أرضاً وانكسر مرفقي مما قهقرني.

وحتى بعد مرور خمس سنوات لم يمكنني أن أنهض عن الارض فأركع على ركبتيّ ثم أستوي واقفة من دون مساعدة. لكنني قادرة على ذلك حالياً، وتوازني في تحسن مطرد. في استطاعتي تحريك أصابع قدمي، لكنني أعجز عن عقفها لاتمكن من حفظ توازني. وفي الخارج أضع رجلي في مشبكين بلاستيكيين، لكن تشارلز أكّد لي أنني سأستغني عنها حالما أصير قادرة على رفع أصابع قدمي وعقفها.

أركب دراجة ثابتة "أقطع" بها كيلومتراً ونصف كيلومتر يومياً. وأقضي ٢٠ دقيقة على الارض أمرّن خلالها كل أعضاء جسمي. وأسبح ساعة كل مساء في الفصول الدافئة.

ويعتريني بين الفينة والاخرى شعور بالأسى لما أعجز عنه، ثم لا ألبث ان اعود بالذكرى الى ما كنت فأشعر بالعزاء. واني أحمد الله الذي أسبغ علي نعمة الشفاء، وأشكر عائلتي وأصدقائي الذين واسوني وعضدوني بمحبتهم وصلواتهم فعدت الى حياة تكاد تكون طبيعية، بل هي حياة مميزة!

سو باير وماري زيمث شوميكر ■

ترجمة الياس عقل

تلقي سو باير حالياً محاضرات في الهيئات الطبية والاجتماعية حول أهمية العناية الانسانية العطوفة بمرضى المستشفيات. وكتابها "السرير الرقم ١٠" هو ضمن المقررات الدراسية في عدد من كليات الطب والعلاج الفيزيائي.



المال لا يصنع الرجال

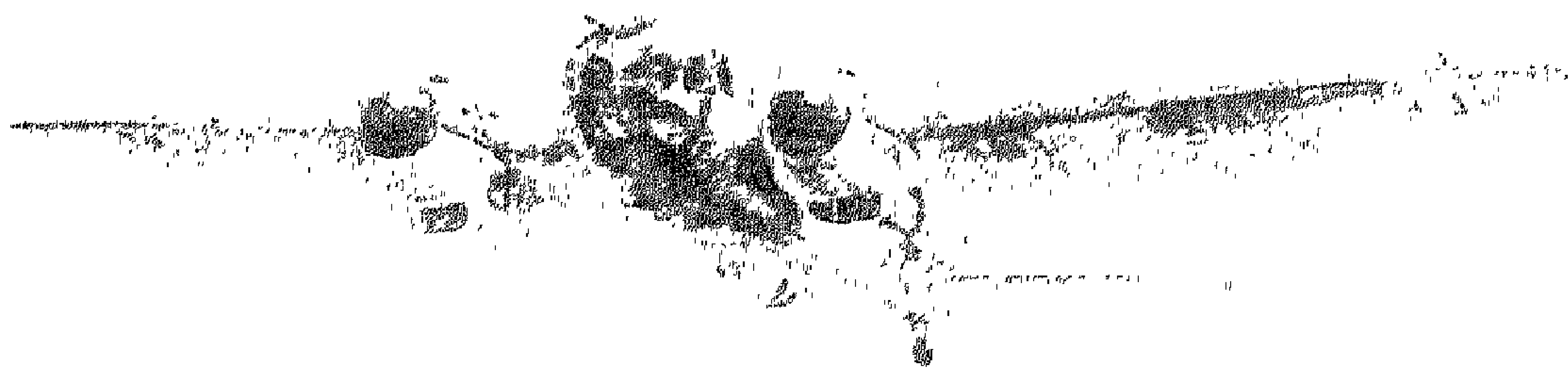
لا قيمة كبيرة للمال. فمن يملكه هو القيِّم، واذا لم يكن كذلك فحري به أن يكون فقيراً. فلا شيء أكثر اثارة للاشمئزاز من مغفل يملك مالاً.

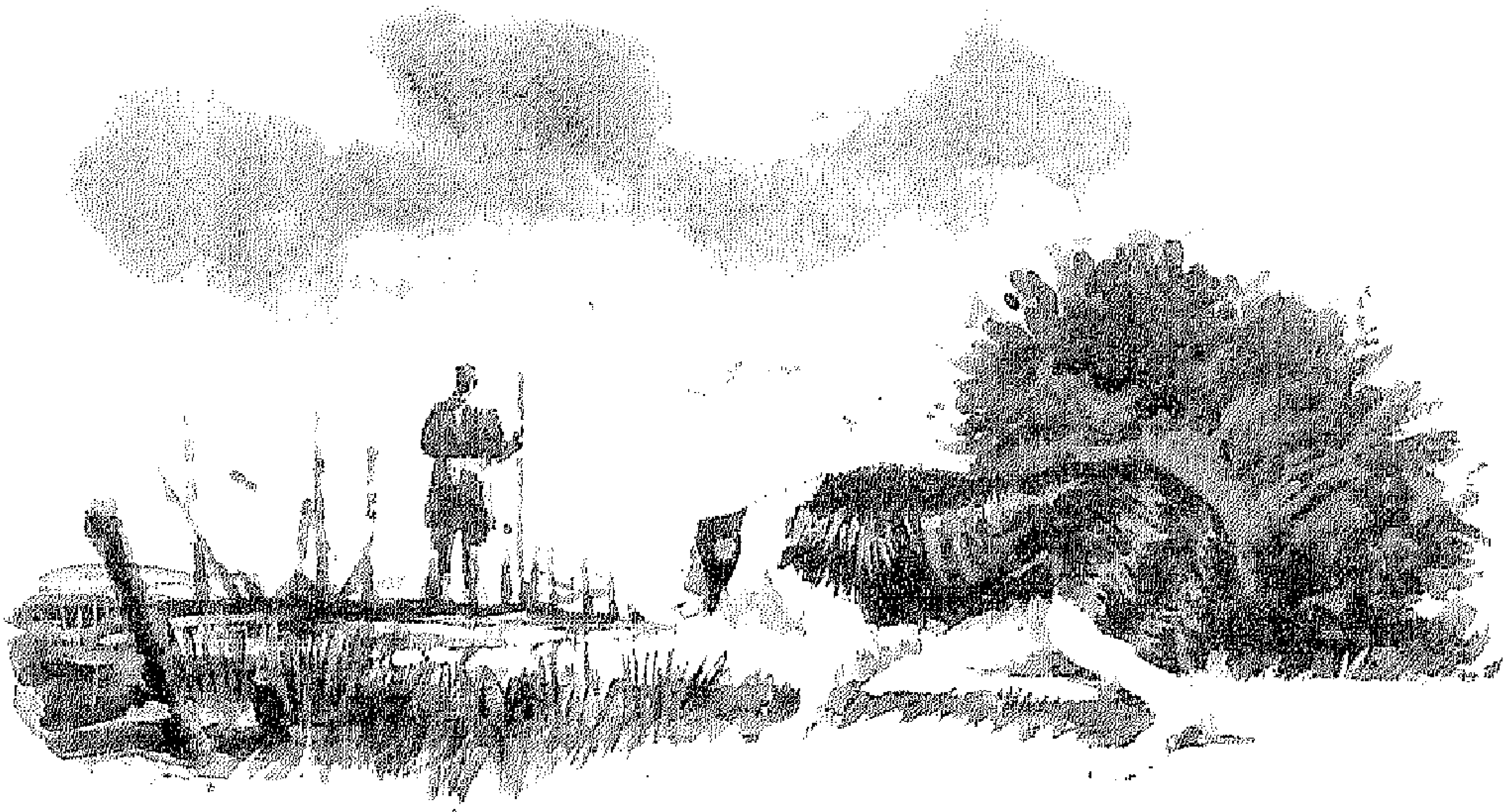
خ. ف.

كلبُ الحَربْ

ملخص من كتاب

بقلم آلن لويد





كلبُ الحَربْ

كان سراً غامضاً ومخلوقاً محيّراً.
وبدا أنه لم يأت من مكان ما، وظل يبتعد... ويبتعد!
يقولون: "من ضلّ مرة ضلّ أبداً."
ان الكلب الهجين ذا العينين المتوسلتين جلب الفرح والضحك
لاسرة مزارعة آوته.
فرد ضيافتها بشجاعة لا تجارى.
جعل آلن لويد ريف همشاير، جنوب انكلترا، مسرحاً لقصته الاخيرة،
فجاءت رائعة كلاسيكية غنية بالايحاء.
تبدأ القصة في العام ١٩٤٠ زمن ما يسمى
"الحرب المزيفة."

Condensed from «The Farm Dog,» (C) 1986 A.R.LLoyd,
published by Century Hutchinson Ltd., London. Illustrations: Pat Owen

هبت الريح عاصفة من الشمال، واندفعت السحب الباردة أمامها فيما الكلب يرتجف في السياج. كان نحيف الجسم ذا عينين مترقرقتين تراقبان عناء المزارع.

أمسك المزارع بجعبته، فاذا بالكلب يتلوى مقترباً شيئاً فشيئاً، ولعابه يسيل. ثم راح يشم القارورة الحافظة الحرارة وما معها من طعام. وما لبثت نظرات ولف تك أن التقت عيني الكلب. وتساءل الرجل: "أي مخلوق أرى أمامي؟ فانت متسوّل فقير قلّما يناسب جزاراً."

قطع تك بعنف كسرة خبز ونقفها باصبعه، ثم أتبعها بقطعة جبن. أما الكلب وهو هجين خشن فتشمم الفضلات. قال تك: "لن تسمن على الفتات، فعد الى منزلك، اذا كان لك منزل، لأن لدي حقلا أريد أن أسيجه."

توانى الكلب بعناد وقد شدته غريزته الى الرجل. وعندما حل الظلام تبعه الى بيته في المزرعة. حك الباب بمخالبه وهو يعوي. الى حين، لم يحدث شيء، ثم ارتفع مزلاج وفتحت فجوة في أسفل الباب فدخل وقد أذهله الضوء والدفء.

صاحت المرأة بصوت أجش: "ما هذا يا تك، قل لي، بحق السماء."

الحطب يلتهب في الموقد، والسراج يبعث في الجو نوراً ضعيفاً. خزانة ترتفع حتى السقف وعليها فواتير وبضائع.

ربض الكلب في زاوية. انه ضعيف يفتش عن ملجأ ولا يبدو أنه يريد اكثر من ذلك. ان مصيره بين ايدي المزارع وزوجته، يستطيعان أن يفعلا به ما يشاءان.

قال تك: "اسم "زاك" محفور على طوقه، ولا أثر لاي عنوان."

فردت المرأة والاستياء باد عليها: "لن نحتفظ به."

- يا روز، اذهبي واملأي له طاسا من الطعام."

أجلست المرأة الكلب على مقعد قرميدي في المطبخ قرب الموقد. فأكل ككلب بحر، وكانت شفتاه مقلوبتين وأسنانه تنهش الطعام. قالت روز بتململ: "الحيوان يتضور جوعاً."

صعد المزارع وزوجته الى الطبقة العليا تاركين زاك في الظلمة. قالت روز لزوجها: "انه ليس جرواً."

فرد: "لقد أمضى شبابه... مثلنا."

- لا بد أنه سيغادرنا غداً.

الليل ساكن، والجليد يزنر النوافذ، فيما طيور البوم تنعب.

استرخى زاك الى جانب الموقد. كان متألماً من تعب المرج والغابة، ومن قضاء النهار والليل شارداً.

لا بد أنه نام. وفجأة امتلأت الغرفة دخاناً كثيفاً كضباب. وفي الضباب يستوطن الرعب. ذعر زاك، فهرع نحو السلالم وراح يعوي عواء لجوجاً كأنه يحض على عمل معجل. كاد تك أن يختنق من الدخان، فأخذ يترنح وهو يهبط الى الطبقة السفلى مرتديا ثياب النوم. قال: "انه البساط."

وتناهى اليه صوت زوجته متهماً: "اهمالك للنار كاد أن يقضي علينا."
- حسناً، الآن نحن في أمان، ولو تأخرنا دقيقتين لشوينا.
"انه الكلب، نذير شر." - لماذا تلعنينه يا امرأة، ألأنه أيقظنا؟
"انت على حق لقد فعل ذلك من أجلنا ويجب ان نكافئه."
جرى الكلب صباحاً يستمتع بالجليد وقد امتلأ جوفه طعاماً جيداً. عند ذاك لانت المرأة وقالت: "أنت تحتاج الى أن تسمن، ولكن تذكر انك لا تزال قيد التجربة."

حيوان بارع

ادار تك محرك شاحنة المزرعة، ثم فتح باب مقعده لزاك قائلا: "أدخل ولا تضع الوقت." قاد تك سيارته القديمة بسرعة فائقة مندفعاً ومتمايلا بين السياجات. وكان يكلم نفسه أكثر مما يكلم زاك الذي جلس مستقيماً. وما لبث أن تمتم: "اللعنة على الغجر وأمهارهم!"

تنشق الكلب الهواء وأذناه مرخيتان. صاح تك: "تلك هي الكائنات المتسولة." خمسة أمهار صغيرة ترعى بين زرع الشتاء. شد تك كابح الشاحنة وترجل منها ملوحاً بيديه: "تخلص منها أيها الكلب. سنرى الآن أي نوع من الكلاب أنت!" وشرع تك يركض صارخاً، فيما أسرع زاك الى الامام طبقاً لمزاجه. في لونه احمرار قاتم، واسمرار ضارب الى الاصفرار، وبياض قليل. لكن السواد كان غالباً. أما الامهار الصغيرة فجرت عالية الرؤوس مفتحة المناخر، مسرعة نحو المرج، عائدة الى حيث مجمّع أكواخ الغجر قرب حدود الغابة.

عوى زاك. انه كان مزهواً.

قال تك لروز: "يحمل زاك ملامح كلب قطيع."

وأظهر زاك براعته ثانية عندما حلقت طائرات حربية في تمرينات فوق أرض تك. ففرت خرافه من الحظيرة طارحة الحواجز المشبكة أرضاً وهي في رعب أعمى. وثارت متدافعة صاخبة عبر الممر الضيق. فتح تك باب الحظيرة وقال لزاك: "أرجعها." فرمى الكلب بنفسه نحو الخرفان الامامية مزمجراً، مفرقعاً. وعندما وصل راع معمر وكلباه - ذكر وانثى - كانت الخراف منقادة نحو الحظيرة.

أصبح زاك حديث قرية مورتون. وقال عنه البيطار: "ما دام في هذه البراعة فسيأتي من يطالب به."

أما ستيف سائق جرار تك الذي أتى بالفدان لبيطرته فقال: "ربما،" ورمى الى زاك قشرة حافر ليلوكها.

ولاحظ البيطار أن "كلباً شارداً يقطع مسافات، وقد يكون مطروداً من مكان ما."

فرد على ستيف: "لن يتخلى تك عن الكلب بسهولة."

أكب البيطار على مطرقته وقال: "انه متشبث برأيه، جميع أفراد أسرة تك عنيدون. روي رحل للالتحاق بالجيش، وشقيقته داي تعمل في لندن."

أزهر الزعرور البري فذهب زاك مع ستيف في الشاحنة لاستقبال داي في محطة السكة الحديد. بدت الفتاة بقبعتها وقفازيها وحذائها المديني أنيقة جداً. أما في البيت فأبدلت بثيابها ثياب مزرعة. فاستحسن زاك ذلك لانه يعني بالنسبة اليه انها باتت تنتمي الى الاسرة.

تذمر تك من رحيل روي قائلا: "كان يجب أن يبقى في المزرعة."

فقالت داي: "ان المزرعة هي كل ما تفكر فيه!"

فاضاف تك: "الاعشاب تحتاج الى عزق، والبطاطا الى قلع. يجب أن يكون هنا من يساعد في الكفاح."

جلست داي الى طاولة غرفة الجلوس، ووضع زاك رأسه في حضنها، فقالت: "أستطيع ان اعزق الاعشاب وان أقلع غلة البطاطا المبكرة."

– لكنك ستعودين قريباً الى المدينة."

دللت الفتاة الكلب الهجين وتمتمت: "ما هي أجرة العمل يا والدي؟ اعتقد أنه ما دام زاك استطاع أن يبقى هنا، أستطيع أنا كذلك."

جمع شمل العائلة

عاد روي الى البيت في اجازة بعد موقعة دنكرك. كان طويل القامة مثل تك ولكن أنحف منه. شم زاك رائحة الطبخ الذي صنع خصيصاً للعريف وهو قالب من شرائح اللحم المطبوخ. أما روي، ذو الوجه النحيف المتعب، فكان ينقد الوجبة نقداً. سمَّر زاك عينيه على الجندي وتقدم نحوه، فأطعمه روي فضلاته سائلا: "من أين جئتم بصندوق القمامة العتيق هذا؟"

قالت داي: "زاك سرّ المزرعة الغامض. انه لغز."

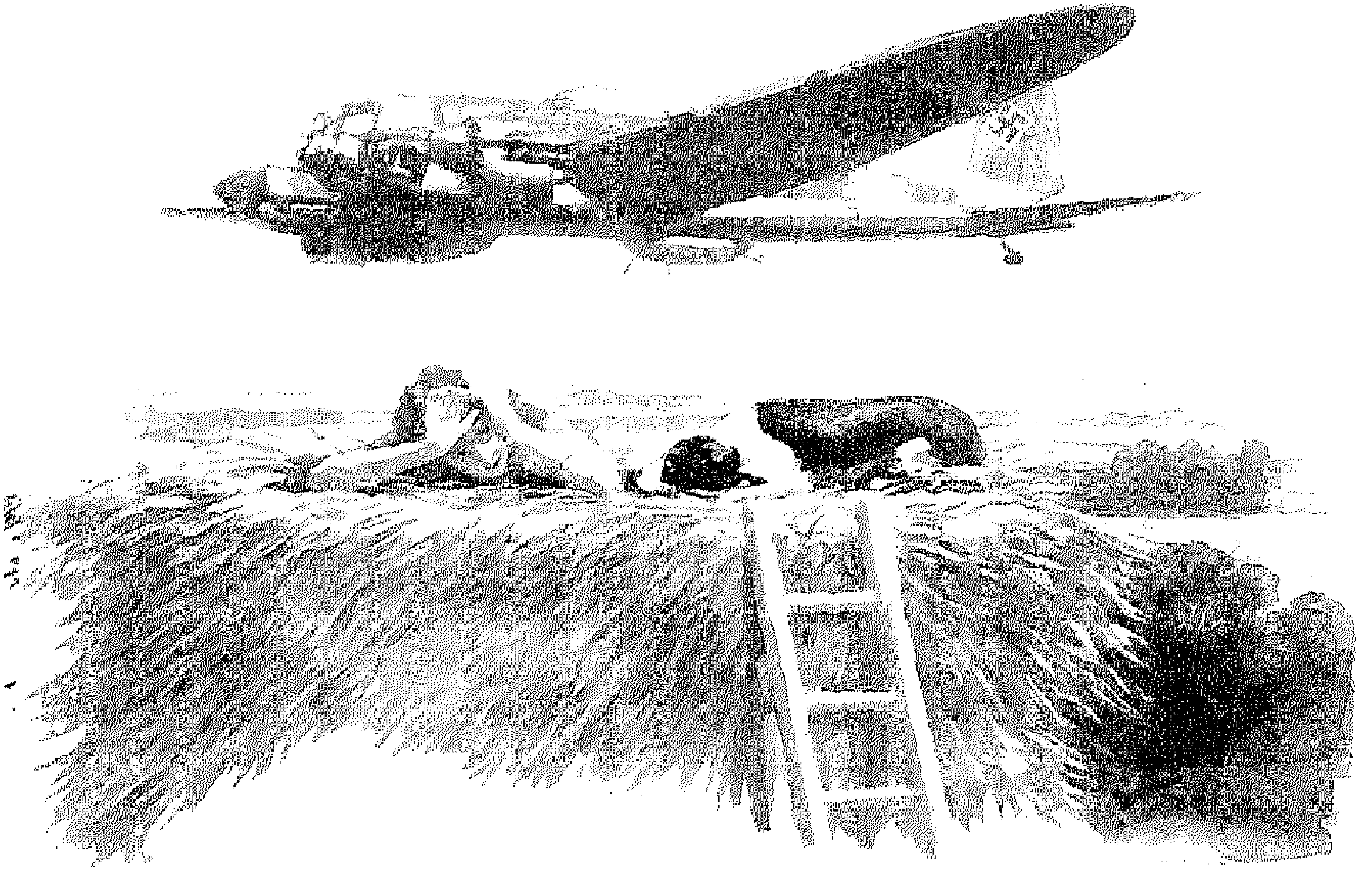
فعلق تك مفتخراً:" انه مفيد جداً يا بني."

من مهارات زاك في المزرعة تسلق السلالم. وذات يوم صعد السلم مع داي الى سطح كدسة التبن حيث جلست هي تراقب نبات الذرة المتماوج وتمتع عينيها بالمناظر الجميلة. فجأة هدرت محركات من بعيد، ثم اقترب الصوت فاجفل زاك. وحينما ارتفع الهدير انبطحت داي، ثم تصاعد الضجيج واندفعت قاذفة القنابل "هنكل" بعنف فوق كومة التبن.

وتوارى زاك من غير أن يأكل طعامه. فطمأن تك روز قائلا: "لا بدّ أن يعود."

بحث تك وروي حول المزرعة عن زاك. وتناهى الى مسامعهما هديل الحمام من الغابة واضحاً في سكون المساء. قال تك لروي: "عندما تنتهي الحرب ستتولى أنت شؤون المزرعة." لكن الجندي فكر ملياً في زملائه في السرية. فبعضهم مات وبعضهم الاخر ما زال مفقوداً. وكان التطويع بدأ في فرقة مغاوير جديدة، ففكر في تقديم طلب للتطوع.

بلغ زاك الغابة. وما ان توّغل فيها حتى حلّت العتمة. ثم وصل الى أرض زراعية حيث كان حطابان يقطعان شجرة. رآها زاك تتداعى فوقه وأغصانها تتقصف.



قال أحدهما: "يا للهول! هناك كلب تحت الشجرة!" هرب زاك مسرعاً. وبدأت الاغصان تتكسر وتتساقط حوله، فجرى راكضاً بين الحطام.

وأضاف الرجل: "لقد أخطأته الشجرة، وهذا سيلقنه درساً في الشرود. ففي هذه المستنقعات عظام حيوانات نافقة تفوق ما في سمك القدّ من عظام."

حرب في الجو

عاد تك الى بيته في المزرعة، وواصل روي البحث. كانت الخفافيش تحوم فوق الزريبة عندما وصل روي الى مدخل الفناء منادياً: "مرحبا ، أنظروا ما وجدت." واذا زاك يبرز من الظلمة وهو يهز ذنبه.

كان الهجين متعباً، لكنه لاقى أصحابه بحرارة، فاستجابوا له وقد ارتاحوا للقياه.

أشرق وجه تك وصرخت داي مغمومة: "ان جلده مملوء شوكاً، ساعدنا يا أبي على نزعه."

سر زاك اهتمام الجميع به. وأطعمته روز برفق.

غادر روي المزرعة في الاثنين التالي. وقاد ستيف الجرّار لاقتلاع البطاطا بينما العمال يتصببون عرقاً في شمس يوليو (تموز) اللافحة. وكان معظم عمّال القطاف نساء قويات ألِفن احوال الطقس القاسية والعمل في الحقل، وليس في قرية مورتون أي مجال آخر للعمل. فجلبن معهن أطفالهن الذين أخذوا يتشاجرون.

اضطجع زاك بجانب تك وهو يزن المحصول. وكانت أصوات الصفار عالية، لكن صوتاً

عميقاً يشبه طنين النحل في شجرة ليمون وصل الى مسامع الهجين من دون غيره. وازداد الهدير فاذا بالآخرين يتطلعون الى فوق.

فتمتمت داي: "انها طائرات!"

رأى تك المقاتلات، لكن نور الشمس بهره فأضاعها. ولمعت مجموعة أخرى جاءت بأعداد كبيرة على نحو تشكيلات. وسرعان ما انصب وابل من الرصاص المستهلك الفارغ، فقال تك بلهجة الآمر: "أنزلوا الصغار الى القنوات." وأخذ يركض مع داي ممسكين بالاطفال. وانضم زاك الى الجموع المتشتتة. واذا بصبي يستغيث وقد تعثر، فوقف زاك الى جانبه، وجلس الاثنان وسط جذور النبات والصغير ممسك بالكلب. صرخت داي: "جيء به الى هنا." فأمسك زاك بثياب الطفل وجره بلطف الى الامام بينما امتدت الايادي لمساعدته.

رسمت البقع الفضية دوائر من ذيول البخار وهي تسرع منعطفة بعنف في الفضاء. واذا باحداها تزداد حجماً وتضاعف دوران محركها الهادر وهي تتجه نزولا نحو الارض نافثة لهباً.

تنفس تك الصعداء وهو يقول: "لقد قفز من الطائرة." ولكن ليس ثمة من مظلة فتحت. وسقطت الطائرة في الغابة وراء المرج. فصمت الجميع ثم سمع صوت انفجار تبعه تصاعد دخان أسود خانق. فأسف تك: "مسكين، من سيعثر عليه في المستنقع؟"

قالت داي لستيف وهو يصعد الى الجرار: "الآن بدأت الحرب جدياً. الله أعلم بما سيحدث."

فأجابها ستيف: "أنا أعلم شيئاً واحداً فقط، وهو انني لن أبقى هنا طويلا بينما الآخرون يموتون."

أفاد ستيف من أسبوع عطلته في أكتوبر (تشرين الاول) للذهاب الى لندن بغية الاتصال بمجلس انتقاء طواقم الطيران. وذهب زاك وداي لتوديعه في المحطة، وكان يبدو فتياً في سترته المنظفة حديثاً وشعره المقصوص.

قالت داي: "لاطف الكلب، فهو سيجلب لك حظاً سعيداً."

فربّت ستيف الهجين.

(ارتفع الصوت الهادر واندفعت الطائرة نزولا وقد تأججت النار فيها.) أخذ الكلب يلهث لهاثاً حاداً. ثم استيقظ وصدره يعلو ويهبط. كانت غرفة الجلوس هادئة والموقد دافئاً. فقالت روز: "حسناً، ابتعد عن الموقد، فأنت حار جداً، ولا بد أنك كنت تحلم."

وذات مساء توجهت قاذفات القنابل الى ميدلاندز، وسمعت روز هدير محركاتها بينما كانت تعمل في توضيب غلة اليوم من البيض. ثم دخلت داي لتبلغها الخبر: "أمي، ستيف سيلتحق بسلاح الجو، وهو يخبر والدي بذلك الآن."

اتجهت روز بنظرها الى الموقد، فرمقت صورة روي الموضوعة على الرف فوقه، ثم فكرت ملياً وقالت: "الكل يرحل. وستيف كان ملزماً بالرحيل، لكنه بقي حتى الآن من أجلك. هل ستشتاقين اليه؟"

تفادت الفتاة الجواب، فهي لم تكن متأكدة من شعورها، ثم قالت: "ألن نفتقده كلنا؟ مسكين والدي، فالأمر سيكون صعباً عليه."

قالت روز متجهمة: "اذا كان هذا أسوأ ما سيحدث لنا قبل انتهاء الحرب فسنكون محظوظين." ثم مسدت تنورتها واضافت: "حرّكي النار يا بنية، فهي خامدة لا ترضي والدك. أما أنت يا زاك فلا تنتقل من مكانك ولا تفكر في مغادرتنا الا بعد مرور بعض الوقت."

البحث

الموسم موسم حصاد. وستيف، وهو الآن في سلاح المدفعية الجوية، أتى في أجازة أسبوع. اقترب من المزرعة عبر الطريق المألوفة فالتقى بديله الضخم جيم ابن شقيق الحدّاد. فأخبره جيم: "معلمّي طريح الفراش، والكلب رحل."

كان ترحيب روز ودياً، لكن الاجهاد كان بادياً عليها. فقالت: "انهار تك كعجل مذبوح. وقد قال الطبيب انه مصاب بالتهاب الرئة. يمكنك أن تصعد لرؤيته لاحقاً فهو نائم الآن." تفحّص ستيف غرفة الجلوس وكان يفوح منها أريج الازهار ورائحة التشميع. شتّان ما بينها وبين السريّة العسكرية ورائحة طائرات "بلنهايم" الحربية. وعلى رف المدفأة وضعت صورة مغاوير في جزائر لوفوتن شمال النروج يظهر فيها روي بينهم. في هذه المرحلة من الحرب بدت هجمات المغاوير كوخز الإبر إذ كانت البواخر البريطانية تتعرض لضرب عنيف في شمال الاطلسي، لكن تلك الهجومات شكلت قوة داعمة.

قال ستيف: "ليتني عرفت، لكنت جلبت له شيئاً ما."



فردت روز: "كل ما يحتاج اليه هو ذلك الكلب الهائم دائماً والله يعلم الى أين يصل في تجواله."

قال ستيف وداي معاً: "نحن سنبحث عنه."

في محلة الغجر في المرج قالت لهما غجرّية ان زاك في الغابة وانها سمعت عواء في الليل. فمشيا نحو الغابة. وكان الجو يزداد برودة والاشجار كثافة. ناديا زاك، فاخترق صراخهما الاشجار. وكانت ارض الغابة المقطوعة ساكنة وقد غطتها طبقة من الاعشاب التي نمت حديثاً. توغلت داي في الغابة وهي تتقدم ستيف، فاعترضهما ضباب مشبع بالبخار يزحف حول جذور الاشجار. كان عمق الغابة مليئاً بالاخطار. هنا اختفت أمهار برية وابتلعتها المستنقعات.

توقفت داي وهتفت: "انها الطائرة الحربية! " فقد ظهر مؤخرها في المستنقع. وأضافت: "أتتذكر ذلك اليوم عندما كنا في حقل البطاطا؟" قال ستيف منذهلاً: لا بد من أن الطيار في قاع المستنقع."

قالت داي: "زاك ليس هنا، لنعد الى البيت."

هناك وجدا تك مستيقظاً مستنداً الى وسادات. عبر ستائر روز ظهرت الابقار وهي تسير متثاقلة بضروع ملأى الى الملبنة. استدار تك بوهن مصغياً. ثم تنفس بجهد قائلاً: "لقد تأخرتْ، كان على الكلب أن يقودها. أين زاك؟ أريده."

أصبح الرجل الضخم ناحلاً كظل وعيناه تحدقان من تجويفين رماديين. قال ستيف: "استرح، أنا سأساعد في العمل يا معلّم."

- لقد نفق الكلب، لدي شعورَ بذلك.

في نهاية يوم مضن من تجميع الحزم وتكديسها في الحقل خبأت داي في راحة يدها حبوب ذرة. كانت الحبوب قاسية وذهبية اللون، فقالت داي: "ستكون الغلة جيدة، وهذا ما سيبهجه ويبعد فكره عن الهجين. شكراً لك يا ستيف على مساعدتك ."

نظر اليها ستيف بحب وقال: "أمك تدعونا." وكانت روز عند بوابة الحقل تنادي: "الطعام جاهز." والتقت عيناها عيني ستيف، فأضافت: "قد تفتقد رفقاء مائدتك الرقباء، ولكن عندي طعام وافر."

لفت انتباه داي باب البيت وقد ترك مفتوحاً. كان ثمة وحل على الدرج الصواني ممتد الى عتبة الباب وعبر أرض الطبقة الاولى الى السلالم، وهي آثار واضحة للبد أقدام حيوان. سبقت داي امها وستيف الى اعلى السلالم وهي تلهث. وتطلع الثلاثة الى غرفة تك فرأوا الفراش مبعثراً وقد غطاه الوحل، وذيل زاك يهتز بهياج. التقاهم بسرور وقد نحل جسمه وتبلل وتلوث. حدقت روز الى تك منذهلة، فقد كان جالساً مستقيماً مفترّ الاسارير.

قال ضاحكاً: "يمكنك أن تصرفي الطبيب. فانني أشعر بتحسن. لا تتذمري، وأطعمي هذا المتنسول، فهو كلب مسكين فارغ البطن." أجابت روز وقد أفاقت من ذهولها: "كلب مسكين؟ أنظر الى غطاء السريرا"

نظر ستيف الى المرأتين. كانتا دامعتي العيون بين ضحك وبكاء. فرفت عيناه وقد سرت اليه العدوى.

عرض سينمائي

لازم زاك تك وهو يتماثل الى الشفاء. وبين حين وآخر كان يقود البقر ويتدبر امور الفئران ويراقب الأبنية. تأكد لتك أن المزرعة غذت أمينة برجوع الكلب. وقال لروز: "لقد ترتبت أمور المزرعة، انها مكان مختلف الآن."

وذات مساء تعقّب زاك الدرّاجين وهم في طريقهم الى السينما. وكان ركوب الدراجة يبعث في داي النشاط خلال أوقات فراغها النادرة. فشعرت بارتياح اذ انطلقت وستيف على دراجتيهما. وكانت عظام ستيف ترتجّ فوق دراجة روز فيتمايل كمهرج ويمازح داي قائلا: "طائرات بلنهايم اللعينة أكثر أماناً من دراجة أمك." نظرت موظفة شباك التذاكر بفضول الى ستيف وسألت ببرودة: "مقعدان خلفيان؟" ثم أضافت: "لا يمكنكما ادخال الكلب."

"الكلب؟" التفت الاثنان فوجدا الهجين وراءهما. هممت داي منزعجة: "لقد تركته في البيت." فغمزها ستيف بعينه وقال: "جدي المقعدين." ثم اخذ زاك خارجاً الى الجهة الخلفية وأومأ اليه بأن ينتظر عند الباب. عاد ستيف الى ردهة السينما. وعندما اطفئت الانوار في الداخل، فتح باب المخرج فانسل زاك الى الداخل وهو يهزّ ذنبه."

حذرت داي ستيف: "سوف يشخر!" وما لبث شخير زاك أن ارتفع وبلغ أعلاه خلال مشهد عاطفي. ذرفت داي الدمع من شدّة الضحك، وعندما انتهى الفيلم نبح الكلب، وصاحت داي: "أراهن أنه يكون هنا في السينما عندما يختفي."

في الطريق الى المنزل بدا زاك رمادي اللون في ضوء النجوم. وكان يتقدمهما مسرعاً وهو يهرّ. فقال ستيف: "لا بدّ أن هناك ثعلباً أو غريراً." ترجلت داي حينما أصبحت الطريق شديدة الانحدار، وتوسلت الى ستيف قائلة: "كن حذراً، سأشتاق اليك."

قال لها ستيف: "تستطيعين ان تتزوجيني."

فأجابت بصوت أجش: "أطلب مني ذلك ثانية، في مابعد. فأنت ستعود." فطمأنها قائلا: "مثل الكلب."

هبت ريح شرقية. فحملت داي المخالي الى الحقل حيث كان جيم يقود فرس المزرعة ممهداً التربة. وخيل اليها أنها سمعت صوتاً بعيداً، فقال جيم: "انها طائرة وأظن انها ستنخفض."

جثم الكلب مرتعداً، فانحنت داي تمسد شعر رقبته وقالت: "زاك لا يتحمل الطائرات، خصوصاً المنخفضة منها." واذا بنقطة سوداء تتسع وتجنح تحت الغيوم وهي تكاد تلتطم بالغابات. شرق جيم بريقه قائلا: "ها هي آتية، تثلم السماء مقتربة منا."

فرّ الهجين مسرعاً. فوصل الى عربة واختبأ تحتها. انه يعرف هدير تلك المحركات جيداً، فهو ما زال يرى ذلك الكابوس في المنام.



(في ذلك اليوم البعيد كانت الطائرة تجرّ ألسنة النار وراءها، وانفصلت عنها أجزاء انطلقت مدوّمة تخرق عباب الظلام. اهتزت الطائرة الهالكة هادرة وانثنت بقوة ثم عبرت مسرعة وقد تحطم جناحاها.)

صرخ جيم: "انها طائرة بلنهايم!"

واذ عبرت الطائرة فوق أبنية المزرعة قفز قلب داي من مكانه ثم ما لبثت الطائرة أن مالت محلّقة برشاقة ونظرات داي ترافقها في تحليقها. فتجرّأ جيم وقال لها: "آنسة داي، يبدو أنك تجمدت من البرد، فأنت وزاك ترتجفان."

البرقية

قال روي انه سيكون في البيت يوم عيد الميلاد، لكن اجازته الغيت. وقد سلب المقعد الفارغ لذّة العشاء وأفسد على الآخرين متعتهم. زاك وحده كان مسروراً، فقد سُمح له بوجبات اضافية.

أبحرت فرقة المغاوير التي ينتمي اليها روي أول الاسبوع الذي تلا عيد الميلاد، للاغارة على فاغسو، وهي جزيرة صغيرة مقابلة للشاطىء النروجي كانت آنذاك قاعدة للعدو. وبعد أيام قلائل عرج موزع البريد تحت المطر الشديد على منزل تك في المزرعة.

المياه تسيل على زجاج النوافذ. مشت روز الى غرفة الجلوس وهي تفكر في المرّات التي عاشت فيها تلك اللحظة بذهنها. تركت الظرف مختوماً، لكنها فتحته في فكرها وقرأت بلاغ وزارة الحربية. لم تكن في حاجة الى مراجعة الكلمات، فأنزلت الصورة وضمت وجه روي اليها.

بعد لحظة أنّ زاك شاكياً. كانت نظرته تعكس حزنها، وعندما جثمت على المتكأ ألقى برأسه على وزرتها. فتنهدت المرأة وقالت: "بلى، أنت تعلم."

واظب زاك على مرافقة تك وهو يحرث الارض، حارساً قارورة مشروبه الحافظة للحرارة. وكان تك يواظب على عمله بحكم العادة معتمراً قبعته المائلة المتسخة وعيناه مركزتان على الحقل أمامه، قائلا في نفسه: "هذا هو المستقبل، هذا ما كان روي يعوّل عليه."

موت ولده ملأ حياته ظلاماً.

ذات مساء كانت داي تمشط زاك واذا بالهاتف يرن، فهرعت اليه وبعد لحظة بلغ صوتها غرفة الجلوس وهي تقول: "ستيف!" نظر تك الى روز في ضوء القنديل. لم ينبس أحد بكلمة، لكنه عرف ما يدور في فكرها: لماذا لا يكون روي؟

لخصت داي لوالديها ما قاله ستيف: "انه عُيِّن في فرقة جديدة. لا عمليات حربية في الوقت الحاضر. يقول ان عمله الجديد ممل ويتطلب مزيداً من التدرب، لكنه آمن على الاقل. يبدو أن قطر الطائرات الشراعية ينطوي على مخاطر أقل."

دليل حيوي

في أعالي ساوث داونز تحررت الطائرة من الحبل القاطر. وراقب ستيف من مؤخر طائرة الـ"هاليفاكس" طائرة الـ"هورسا" وهي تبتعد منحدرة. فقال في نفسه: "تعال يا يوم الجمعة!" اذ تنتهي دورته التدريبية ويحصل على خمسة أيام اجازة يقضيها في مورتون مع داي وزاك.

توجهت قاذفة القنابل الى موطنها. واذا بصوت على الجهاز اللاسلكي الداخلي يقول: "الوقود يتدفق. واحد، اثنان. الضغط يهبط." تأوه ستيف. انها طلعته الجوية الاخيرة قبل الاجازة. لقد خسروا قبل أيام رفقاء في حوادث احتراق المحركات. وشعر بتسارع نبضه.

زحف المدفعي الآخر الى ستيف وهو يبتسم وصرخ: "نسيت أن أجلب طعاماً." فناوله ستيف شطيرة فقال له: "شكراً يا رفيقي، فأنا أشعر بالجوع." تلمس الاوسترالي جيبه وأخرج فأرة صغيرة بيضاء قائلا باشراقة: "ماتيلدا جائعة أيضاً." قضمت الفأرة فتات الخبز. ثم قال: "قرقعة المحركات الباقية تدل على أنها بالية."

وعندما هبطا أخيراً هرعت سيارتا اطفاء واسعاف لنجدتهما. وقهقه الاوسترالي قائلا: "ماتيلدا جالبة حظ، أنا لا أطير من دونها."

التقى ستيف داي عند محطة السكة الحديد، فعانقها وقال: "اكتشفت سر زاك." فسألته: "وهل أخبرك به عصفور صغير؟" فأجاب مازحاً: "لا، بل فأرة صغيرة، اعتقد أن الكلب أتى الينا من طريق الجو."

في بيت المزرعة جلس الجميع لشرب الشاي، فسألت روز ستيف: "أحقا يصطحبون الكلاب في الجو؟"

فنهرها تك: "طبعاً لا!" لقد كان دائما سريع الغضب في غياب زاك.

تدخلت داي قائلة: "أبي، لقد أتى زاك في بداية الحرب عندما كانت الامور أسهل وأكثر حرية. يا لها من حرب زائفة حقاً."



أومأ ستيف برأسه موافقاً وقال: "لقد كان اصطحاب الحيوانات الجالبة للحظ في الطلعات الاستكشافية رائجاً في تلك الايام."

قالت روز متأملة: "أذكر الطائرة الاولى في الغابة، لا أحد يعرف أين تحطمت. اضطرمت فيها النيران ثم توارت كالنجم المذنّب."

كان ستيف يصلح محرّك الجرار في ساحة المزرعة عندما جاءت داي ولمست ذراعه قائلة بحماسة: "شوهد زاك في الغابة. نستطيع أن نقتفي أثره بمساعدة كلب آخر. كلبة الراعي الاسكوتلندية تستطيع مساعدتنا، فهي في شوق عارم الى زاك."

تحرك زاك بحذر كثعلب وكأن توحش الغابة انتقل اليه. نشطت تيارات الهواء ودندنت الريح المتغلغلة في الاغصان لحناً رتيباً. عرف زاك الطريق من زياراته السابقة. كانت تتصدرها اشجار الخنشار والبتولا وجذوع ضخمة مكسوة بالأشنة.

(في ذلك اليوم البعيد ضحك الرجل قائلا: "لا ينبغي أن نأخذ الكلب معنا، فهو لن يحب ذلك." لكن الطيار الآخر رفع الهجين قائلا: "انه يؤثر ألا يترك هنا. هيا اصعد يا زاك.")

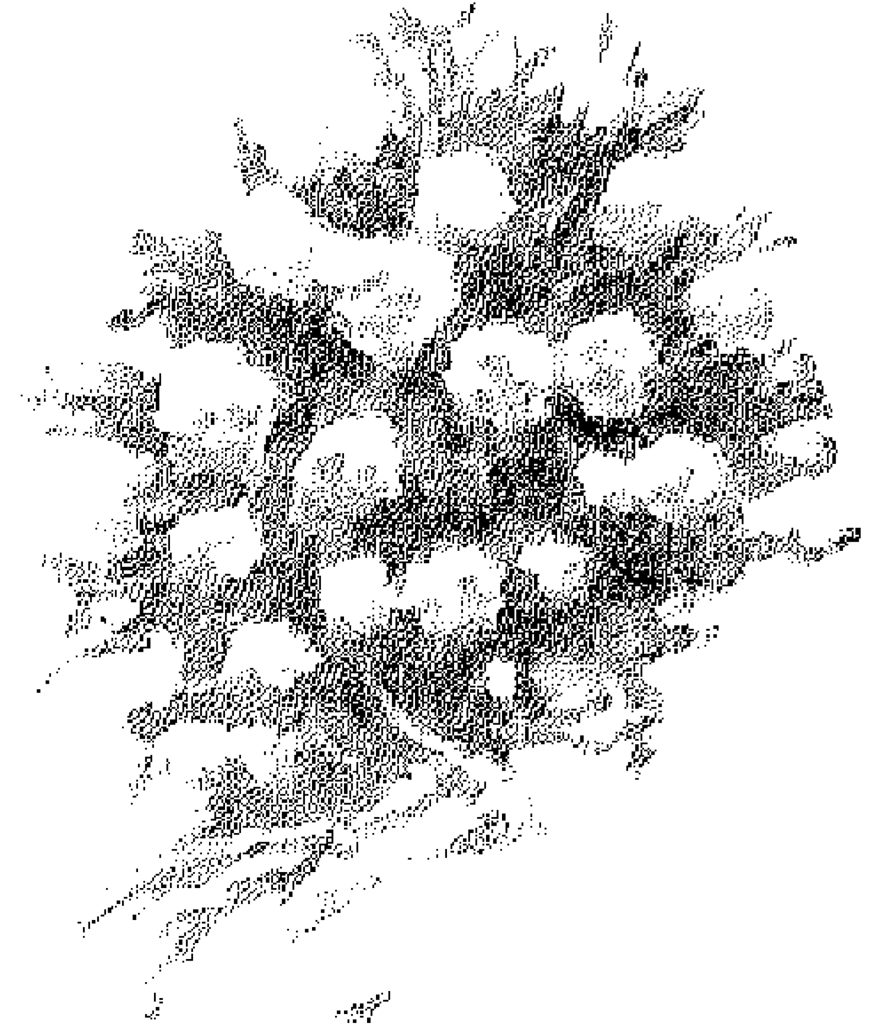
سألت داي: كم علينا أن نسير بعد؟" نبحت كلبة الراعي عندما شمت رائحة زاك عند حدود الغابة. نظر ستيف الى ساعة يده فوجد أن ساعة مضت منذ بدأوا تعقب زاك. اسودت سماء الغابة ودوّم فيها بخار ابيض. كانت المستنقعات قريبة.

(في ذلك اليوم البعيد مالت الطائرة ثم وثبت بعد اصطدامها بالأرض. ولبضع لحظات لم يدر الكلب المندسّ في ركن الطيار ماذا حصل.

رشح الوقود واختفى نصف ركن الطيار فقفز زاك من الركن ليستقر في الوحل. رأى الوقود يشتعل بعنف. صاحباه ما زالا في الطائرة. حاول ان يقترب، لكن الحرارة اللافحة صدته.)

نبحت الكلبة باهتياج، فقال ستيف لداي بصوت أجش: "أظنّ أننا اقتربنا. أول ما وجداه كان محرّكاً غطى العليق جزءاً منه. عندئذ توقفت داي خائفة. العثور على الطائرة الحربية في المرة السابقة جمّد الدم في عروقها، فكيف اذاً وهذه الطائرة أكبر بكثير.





كان جناحها الضخم المقطوع يرتفع عالياً حاملا علم ألمانيا الأسود.

قال ستيف: "انها طائرة هنكل."

طغا رعب داي على شفقتها عندما رأت مقعد الطيار. ما تبقى من قائد الطائرة الذي كان ما يزال معتمراً الخوذة الجلدية، مال نحوها.

ثمة ظل انسلّ وهو يهرّ. تنفست داي الصعداء قائلة: "انه الهجين." فحذرها ستيف: "حذار، انه غاضب."

قالت داي: "أنا حذرة." وصرخت: "زاك!" وخطت نحوه. واذ شم الكلب رائحتها مشى منحرفاً وذيله يرتعش، وأخذ يتمرغ بينما كانت داي تبدي اهتمامها الزائد به وتضمه الى صدرها وهي تنهره قائلة: "لا بدّ انك جائع. أنت عائد الى البيت، فأنت تعيش معنا الآن."

زاك الشجاع

عندما أخبر ستيف تك أنه سأل داي الزواج منه قال له المزارع: سألتها؟ مع داي، لن تحصل على شيء بالسؤال. حدد موعداً يا ولدي، وأبلغها به."

نجحت الخطة، وتزوجا في فصل الشتاء.

قال تك: "أظن أن الواحد منهما يليق بالآخر." فأجابت روز: "انهما مغرمان." وقال تك: "انها بداية حسنة يا روزي."

ارتعشت شفة روز وقالت: "تقول حسنة؟ وماذا عن التقنين والقنابل وتشتت العائلات؟"

أجاب تك: "ستكون لهما المزرعة."

عندما عادوا الى البيت كان زاك في الانتظار. لقد بان عمره أو كاد. وفكرت داي: "أربع سنوات في انكلترا، ربما هي ثلث عمره."

ما فتىء الكلب يغيب أحياناً وإن قصرت فترات غيابه. وقال جيم متأملا: "زاك كلب غريب، فهو وفيّ للطرفين."

فأجابته داي: "انه كلب، لا أكثر ولا أقل."

أما "الكلب اللاأكثر واللاأقل" فسدد دينه لاسرة تك يوم أفلت الثور.

انطلق تك الى الملبنة بسيارته، فوجد راعي البقر منطرحاً على حافة الطريق والثور مطرق الرأس ونظره مسمر في ضحيته. وكان جيم يصرخ ملوحاً بيديه ويرشق الثور بالحصى محاولا الهاءه.

كانت زوجة تك تكره الثور. قالت لزوجها: "ذات يوم سيقتل احدهم."

صرخ تك: "لا تتحرك." ترجل من الشاحنة ومعه عصا واقترب متوتراً. قال بصوت

يشبه نعيب الغراب: "أهدأ، استقر." فاضطرب الثور ودار طارحاً تك على ظهره كأنه لعبة من خشب. دنا الحيوان الضخم من المزارع ببطء. رأى تك الرأس العظيم فوقه. وفكر جيم: "لا حظ له في النجاة."

ثم جاء زاك، فربض في الطريق وكشر عن أنيابه. أما الثور فنفخ بمنخريه. رأى تك الثور يهجم على الهجين، والكلب العجوز عاجز عن التخلص منه. كان له مكان أمين واحد: تحت عنق الثور.

تعلق زاك بعنق الثور وعضه بفكيه المحكمين.

أخذ الثور يرجّحه وقد ثارت ثائرته. اما هو فاستمر ممسكاً بالعنق. وقف تك على قدميه بحذر بينما ذهب جيم لمساعدة الراعي. في هذه الاثناء كان زاك ما زال ممسكاً بالثور الذي جرّه نحو باب زريبة البقر حيث حاول أن يسحقه.

تلمّس تك طريقه الى سيارته. أدار المحرك واندفع نحو خاصرة الثور. أحس تك بصدمة. وتمنى أن يخرج الكلب سليماً

خار الثور إذ أجبر على دخول الزريبة بالقوة.

ترجل تك قائلا: "هل أصابك مكروه ايها الراعي؟"

- أنا صحيح معافى. أين الهجين؟

كان زاك تحت الشاحنة. توسل اليه تك: "أخرج أيها الكلب"، وجثا قرب اللوحة الخلفية فبان له زاك.

أمسكه المزارع وقال: "انك أفضل كلب حصلت عليه."

وصلت روز. حدقت الى ما حولها وصرخت: "هل قتل أحد؟" فأجابها جيم برصانة: "زاك كان هنا."



نظرت روز بحزن وحنو الى أنف الكلب وفمه الرماديين والى عينيه الراشحتين، وقالت: "زاك المسكين يموت. ماذا سيفعل تك من دونه؟"

ليلة طويلة

كانت الشمس غاربة عندما افتقد تك زاك. قد يكون منتظراً في سياج الاشجار. وقالت داي: "ربما هو في البيت." لكن روز لم تره.

في ذلك الصباح بدا زاك ضعيفاً، وقلما تحرك وقت الفطور. وبعد الغداء كان لا يزال هناك. جاء الى روز مرة واحدة ينشج على نحو مؤثر، فاوقفت تنظيف البيض لتواسيه. وفكرت بأسى: كان عليها أن تعطيه مزيداً من الوقت.

قالت: "لقد ذهب نهائياً يا تك."

فأجاب تك وهو مضطرب الوجه: "نعم."

ذرفت داي الدمع قائلة: "لقد عوّدنا أن يتيه بعيداً. أنا سأجده؟"

أمسكها أبوها بمرفقها وقال: "لا، ليس ليلا في الغابة. دعيه يذهب فهو مصمم على ذلك."

اما الكلب فقد تعثر وسط الاجمة التي لفّها الظلام، وخدشت الاشواك جانبيه وتثاقلت خطواته اذ خانته قواه. وكان الظلام يزداد.

انحسرت موجة الحياة، لكنه استجمع قواه المتلاشية بعناد. كان القمر مرتفعاً عندما وصل الكلب الى الحطام زاحفاً المتر الأخير بالسنتيمترات. وارتمى الى جانب ركن الطيار. لقد أتمّ رحلته.

نعم زاك بالسلام لفترة وجيزة قبل أن يلفظ أنفاسه الاخيرة.

لم يغمض لتك جفن. كان الليل غائماً في معظمه. تطلع من النافذة، وفكر في الغابة، في عمقها، وأحس بفراغ.

نهض تك وانتعل حذاء مطاطياً ثم تناول معطفه. في الخارج أنعشه الهواء. وكان الظلام ما زال مخيماً، لكن الهواء كان جافاً. حرك مصباحه في كل اتجاه ولكن لم يرَ اي شيء يتحرك. كان يعلم أنه يبحث عبثاً، الا انه تابع البحث. انه يحتاج الى برهان.

الفجر يقترب، وعصفور واحد يزقزق. واذا بهدير كبير يسكت العصفور المفرد ويرعب تك. ارتفع الصوت. بدا كأنه يرتفع من الظلمة ويصعد من الغابة. ثم رأى سرب الطائرات في الفضاء.

اندفع نحو المنزل ونادى: "روز،



تعالي وانظري."تعثرت روز الى الخارج بثوب المنامة، ورافقتها داي مشعثة الشعر. كانت الطائرات تملأ السماء. جاءت أسراباً وفي كل مكان هدير يدوي.

هرع تك الى الخراف وكانت خائفة سريعة الاضطراب. وباندفاع مفاجىء هدرت طائرة فوق رأسه. صرخ الراعي في القطيع الفار، وأرسل كلبه ليوقفه.

سأله تك: "أين الكلبة؟ "أومأ الى كوخه قائلا: "أنظر في الداخل."

كان الكوخ مظلماً. حدق تك في الزاوية فاذا بكلبة الراعي مضطجعة هناك تراقبه والجراء التي ترضعها تتلوى مستكنّة. صاح تك: "أهي من زاك؟"

– ماذا تظن؟

قال تك بنعومة: "نعم، انها من زاك."

آلن لويد ■

ترجمة السفير هنري أبو فاضل

أمضى الكاتب البريطاني حياته في الريف. وفي صغره قاد الجرارات. وبعدما خدم في احدى فرق الفرسان القليلة في الجيش تحوّل الى الصحافة. والآن يعيش في مزرعة في جنوب غرب مقاطعة كنت. ومن رواياته الرائجة التي تدور أحداثها في الريف: "ثعلب الماء الأخير" و"كاين" وهي قصة ابن عرس يتم تحويلها حالياً فيلماً طويلا للرسوم المتحركة.



الكتابة نوع لا كم

كتب إرنستو ساباتو، الروائي والصحافي وكاتب المقالات الارجنتيني:

«لا حاجة الى الاكثار من الكتابة. فان أنت عرضت مشاكل الحياة والموت والمصير والامل ومغزى العيش، فحري ان تضعها في كتابين أو ثلاثة كتب. اذ لا فائدة من تدبيج ١٠٠ كتاب، والا كانت أغاثا كريستي أعظم من شكسبير."

أ. س.

علماء الاقتصاد

علماء الاقتصاد أناس يكسبون رزقهم بالتكهن بأن اغسطس (آب) سيكون لهاباً وينايرِ (كانون الثاني) سيكون بارداً – ولكن ليس حتماً.

ك. ك.

عندما نعجز عن ايجاد الرضى داخل نفوسنا فلا جدوى من البحث عنه في مكان آخر.

لاروشفوكو، كاتب فرنسي

غريق البئر المهجورة

بقلم يانيس تيرويت

حين انتشل الطفل بيلي بليك من بئر مهجورة في فناء منزل والديه في منطقة نائية بمقاطعة كولومبيا البريطانية في كندا، كان متراخياً ممتقع اللون وقد مضت ٤٨ دقيقة على بقائه في الماء. فاتصل سائق سيارة الاسعاف لاسلكياً بمركز هيوستن الصحي قائلا: "نحن قادمون ومعنا ولد غريق."

كان من المفترض أن يموت بيلي بليك لان جميع العوامل كانت ضده. انما بفضل جهود رجال الطوارىء تجاوز المحنة الاولى وبقي حياً. ومنذ ذلك الحين تولت أمه رعايته بمحبتها وبارادة لا تقهر.

ظهر الثلثاء في ٢٣ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٤ كانت دون بليك (٢٤ عاماً) في فناء منزلها في بلدة بيرو النائية في كولومبيا البريطانية تطعم فرسها. وبالقرب منها كان ابنها الاكبر بيلي يلتقط باقات من البرسيم ويقحم رأسه في سياج الزريبة ويقدمها الى الفرس الكستنائية. وكان بيلي، وعمره ٣٠ شهراً، طفلا طويل القامة قوي البنية، بني الشعر والعينين كأمه. وكان يلازمها كظلها. ولكن حين استدارت لتملأ الدلو

Illustrations: Earl Norem



ماء كان بيلي اختفى من ورائها. فارتاعت وأخذت تدور متفقدة اياه في كل مكان.

نادت ملهوفة: "بيلي!" فلم تلق جواباً. فتعاظم قلقها وراحت تتفحص الزريبة والفناء. لقد اختفى بيلي في أقل من دقيقة. وكانت ساعتها تشير الى الثانية عشرة والدقيقة الثالثة. فهتفت في داخلها: لا يمكن أن يختفي. انه لا يفارقني أبداً. ثم هرعت الى جدول صغير وراء السياج الغربي وكان جافاً، فلم تحظ بابنها. فاندفعت راجعة الى المنزل حيث كان ابنها براندون، وعمره خمسة أسابيع، ينام نوماً عميقاً. وأخذت تذرع البيت والفناء وتنادي بيلي وفكرت: انني في حاجة الى من يساعدني!

كان زوجها بيل في عمله ينقل الوقود الى قاطعي الاشجار في الغابات. وكانت شقيقتها إيلين بايكر في مكتبها في شركة الوقود في هيوستن على بعد ٤٠ كيلومتراً. فاتصلت دون بابن خالها وين هولز وأخته كارين المقيمين على بعد كيلومتر واحد، فأجابها وين: "أنا قادم للحال."

ومن ثم نادت أقرب جيرانها، المقاول جورج كلوريك. وما لبث وين أن وصل، وانضم اليهم ١٥ شخصاً أخذوا يمشطون الطرق والغابة والجدول. واوضحت لهم دون أن بيلي يرتدي سترة زرقاء زاهية تمكن رؤيتها عن بعد بوضوح.

وفي الساعة ١٢،٣٥ تأكد لهم أنهم تجاوزوا أبعد نقطة يمكن أن يصل اليها بيلي الصغير ماشياً. فاتصل وين هولز بفرسان الشرطة الكندية في هيوستن وأبلغهم نبأ اختفاء بيلي.

وخطرت للجار كلوريك فكرة: اذا لم يكن بيلي في فناء المنزل، فلعله تحت الارض. فقال لدون: "دلّيني أين كان بالضبط حين اختفى."

في الفناء، على بعد نصف متر من المعلف الملاصق لسياج الزريبة، كانت هناك سقيفة خشبية ذات سطح مائل. وكان بيلي يقف على العشب في فسحة ضيقة تعلوها سقيفة. فتذكر كلوريك: يا الهي، هذه السقيفة هي غطاء البئر القديمة! وحين حدّق الى الفسحة الضيقة بان له ثقب قطره ٣٠ سنتيمتراً، فأحس قلبه يهبط. وصرخت دون: "ان هذا الثقب لم يكن موجوداً! اذا كان بيلي سقط في البئر فلا شك في انه مات!" واخذت ترتجف، فقادها الجيران الى منزلها.

قال كلوريك لزوجته فيرنا: "يبدو أن التراب حول أعلى البئر سقط داخلها، فانزلق بيلي معه."

اتصلت فيرنا بمركز الاسعاف في برنس جورج، ثم بالشركة حيث يعمل زوج دون وشقيقتها. وسألت دون بمن يمكنها أن تتصل أيضاً. فقالت لها: "أطلبي والدي وندل هولز في هيوستن." ولدى مكالمته قالت له دون مذعورة: "قد اختفى بيلي، أرجوك ساعدني يا أبي!"

وفي الخارج عمد كلوريك وهولز والجار فانر بايمان الى هدم السقيفة، فلم يروا سوى كومة من النفايات وألواح خشب تحجب الماء. وكان هولز أصغر الثلاثة، وهو سائق شاحنة في السابعة والثلاثين من العمر قوي البنية يعمل بالمعدات الثقيلة. فدلّى

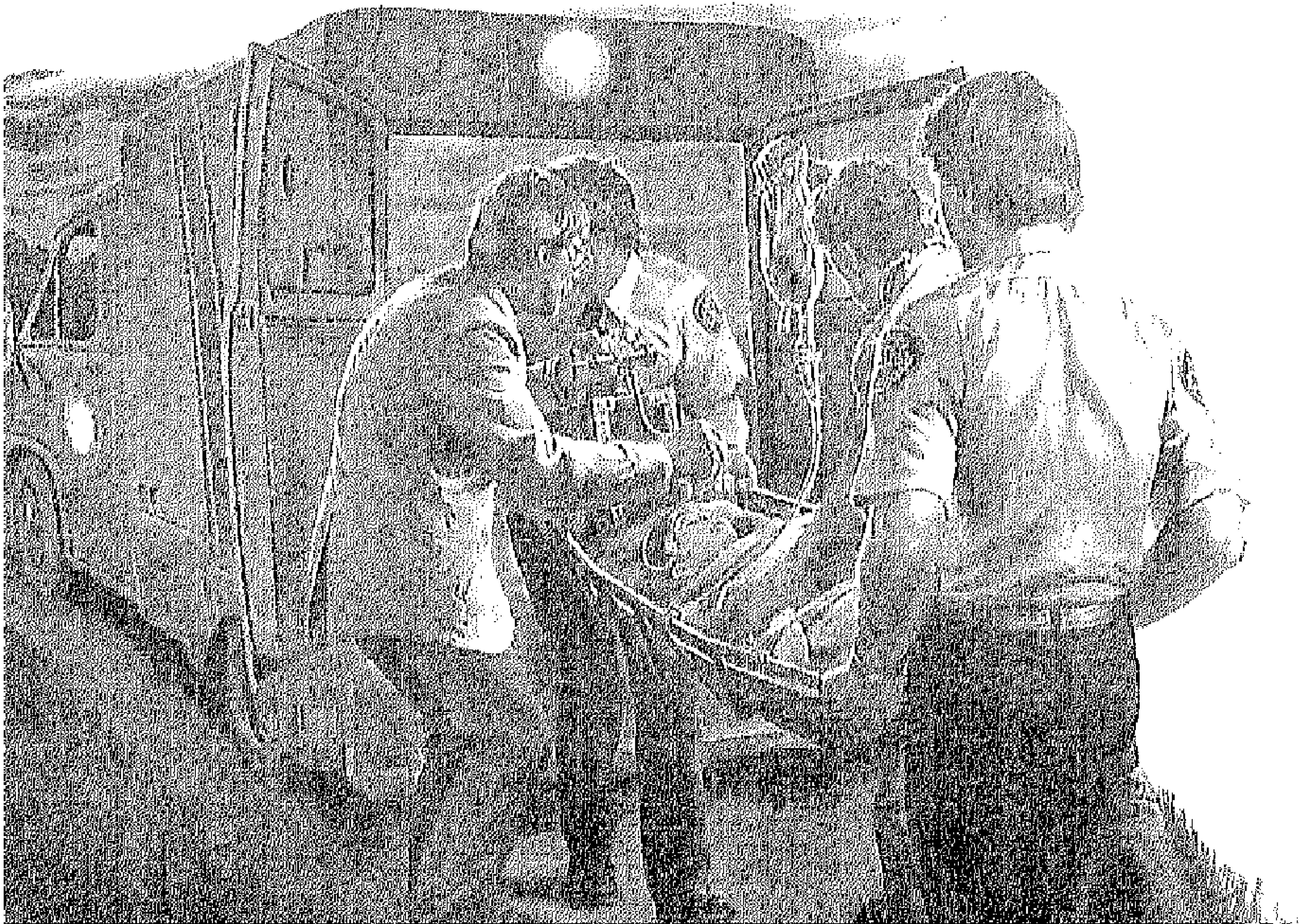
نفسه في البئر وأخذ يتحسس بحذر موطئاً جانبياً لقدميه. واستقر على رف خشبي متداع على عمق مترين من سطح الارض. وهرع كلوريك فجلب سلّم درج يستخدمها في عمله ويبلغ طولها خمسة أمتار، وناولها لهولز. فحرك بها هولز الحطام على عمق أكثر من متر تحته وأزاح قطعة من الخشب، فظهر بيلي عائماً ووجهه الى أعلى طافياً بسترته المحشوة. فشهق هولز: "يا الهي، انه هنا!"

نبض خافت

عقد هولز قدميه وتطاول متدلياً الى أبعد ما أمكنه. واستطاع بجهد الامساك بطرف سترة بيلي. ثم استوى ورفع الولد الى أعلى. فانحنى كلوريك وأخذ بذراع بيلي وانتشله خارج البئر.

في تلك اللحظة وصل والد دون من هيوستن وخرجت هي من البيت فيما كان كلوريك ينتشل بيلي. وما ان رأته حتى صرخت متفجعة: "لا، لا!" وارتمت بين ذراعي والدها.

كان بيلي شاحب اللون مطبق العينين متهدلا ينضح بالماء، وبدا شبه ميت. وكانت الساعة ١٢:٥١ وقد مضت ٤٨ دقيقة وهو في البئر. ألقاه كلوريك على الارض وأخذ ينعشه بالتنفس من الفم الى الفم، ثم ضغط صدره بقوة فخرج الماء من فمه. وفيما تابع كلوريك ضغط صدره تولى بايمان عملية التنفس. وبعد خروج هولز من البئر شارك في عملية ضغط الصدر الى أن وصل المسعفان توم ليونارد وجايمس ستيلز قبيل الاولى بعد الظهر. وهما أيقنا أن بيلي مات، لكن ستيلز فكر: انه طفل صغير، علينا أن نحاول شيئاً. وبدأ ستيلز يضغط صدر بيلي مرة في الثانية، وبعد كل خمس ضغطات كان ليونارد يزفر مرتين في فمه.



وبعد ثلاث دقائق وصلت سيارة اسعاف وصفارتها تدوي عالياً وفيها المتطوعان لويس آركي مدير مركز هيوستن التجاري وبارم بريهار المسؤول عن الاسعافات الاولية في منشرة خشب. وفيما حمل آركي الصغير الى سيارة الاسعاف على لوح نقّال، عمل بريهار على انعاشه بالتنفس من الفم الى الفم، وتابع ليونارد ضغط صدره. وفي الطريق ركع بريهار وهو يتنفس في فم بيلي كل خمس ثوان، وجلس ليونارد متابعاً ضغط صدره. واتصل آركي بمركز هيوستن الصحي قائلا: "نحن قادمون ومعنا ولد غريق."

وصلت سيارة الاسعاف في الساعة ١٢،١٠ بعد الظهر الى عيادة المركز حيث كان ينتظرها ثلاثة أطباء في غرفة الطوارىء. فهرع الدكتور وليم دوران بكمامة وجه للتنفس، وتسلم الدكتور بريان فينيمور عملية ضغط الصدر، ونزعت الدكتورة دافني هارت ملابس بيلي. ولم يظهر الفحص السريع ما يدل على نسمة حياة في الطفل: لا تنفس ولا نبض ولا ارتكاس في العينين الجامدتين اللتين اتسعت حدقتاهما. وكانت حرارته ٢٤ درجة مئوية أي أدنى ١٣ درجة من الحرارة الطبيعية. وأظهر جهاز تخطيط القلب أن هذا ما زال يولّد نشاطاً كهربائياً خفيفاً، وهو أمر يستمر لفترة وجيزة بعد الوفاة.

قرر دوران، رئيس الفريق، أن يجرب انعاشه، اذ عرف أن الاطفال ينتعشون أحياناً لدى تغطيسهم في الماء البارد، ذلك بأن أجسادهم الصغيرة تبرد بسرعة الى الحد الذي يستجيب القلب ويضخ الاوكسيجين والمغذيات الى الدماغ في مجرى دم بارد يحدث هبوطاً واقياً في الحرارة. فاذا أمكن بعث الحرارة في بيلي بسرعة فهناك أمل ضئيل في انعاشه.

تولى فينيمور عملية التهوئة فيما أولج دوران أنبوباً داخل الرغامى (القصبة الهوائية) ليبقي مجرى الهواء مفتوحاً. ثم أولج أنبوباً وريدياً في عرق صغير في الجانب الايمن من رقبة بيلي ينقل محلولا مِحلياً وجرعات صغيرة من منبه للقلب. وأولج هارت أنبوباً في بطن بيلي ليدفىء داخل جسمه بجريان محلول ملحي فاتر. وبقي بريهار وليونارد وآركي يعملون بتوجيهات دوران. فتناوب بريهار وليونارد ضغط صدر بيلي فيما كان آركي يساعد الممرضات في تسخين الحرامات وملء قوارير الماء الفاتر لوضعها خلف رجلي بيلي.

تفحص دوران ميزان حرارة المعي المستقيم وشاشة جهاز تخطيط القلب وضغط الدم والشرايين السّباتي والفخذي (١) في رقبة بيلي وفخذه، فأنبأه غياب النبض أن القلب ما زال هامدا. وفيما ارتفعت حرارة بيلي تدريجاً الى ٢٨ درجة مئوية كان يقترب من نقطة مصيرية حيث قد يتعرض القلب، وان كان متوقفاً، لانبعاث نشاط كهربائي متقلب يعرّض الانتعاش للخطر. قال دوران لمساعديه: "تفاءلوا، ستظهر النتيجة قريباً."

لكن جهاز تخطيط القلب لم يظهر نتائج شاذة فيما كانت حرارة بيلي آخذة في

(١) Carotid and femoral arteries

الارتفاع. وحين بلغت الحرارة ٣٠ درجة مئوية في الثانية والنصف بعد الظهر كان تغلّب على الازمة الاولى. وبعد ١٥ دقيقة أحسّ دوران نبضاً في الشريان السباتي، وأثبت ميزان ضغط الدم أن القلب بدأ الضخ تلقائياً. فجسّ آركي معصم بيلي وهتف مغالباً دموعه حين لمس نبضاً خافتاً: "لقد ظفرت بالنبض! انني أحسّه!"

في هذا الوقت بدا بيلي يتنفس ذاتياً، تقطع تنفسه بين الحين والآخر شهقات يرتج لها صدره الصغير. فأوقف دوران عملية ضغط الصدر، لكنه طلب من فينيمور أن يواصل ضخ الاوكسيجين الى رئتي بيلي. كانت حاله لا تزال خطيرة، لكنه كان على قيد الحياة.

ارتياح ممزوج بقلق

في منزلها في بيرو كانت دون تحت تأثير صدمة قاسية، فريسة للهستيريا ونوبات الاغماء. فما ان تصحو حتى تجد نفسها في دوامة مأسوية فتغرق في لجة من الحزن والتفجع وتعود الى الاغماء. ولم يتصل أحد بزوجها. وكان أخوها مارشال وصهرها ديل بيكر عائدين من هيوستن غافلين عما حدث. واذا بزوجة ديل تتجاوزهما بسرعة خاطفة في شاحنتها. فقال ديل: "ان ايلين لا تقود سيارتها أبداً بسرعة كهذه. أسرع، فلا بد من أن يكون قد حدث أمر خطير."

كانت إيلين بيكر هرعت خارج مكتبها حالما اتصلت بها زوجة كلوريك، وها قد انضمّت الى شقيقتها. ولما كان جميع الذين شاهدوا بيلي اعتقدوا أنه ميت، فما من أحد رأى أن يأخذ دون الى العيادة حيث نُقل، خوفاً من إطالة عذابها. وحين بدأت تصرخ: "أريد أن أموت معه، انه حياتي، لا أستطيع أن أحيا من دونه" ضمتها إيلين اليها.

قالت لها بحزم: "لن تموتي يا دون." والتقطت براندون الذي كان نائماً والقته بين ذراعيها مضيفة: ان هذا الطفل في حاجة اليك." فاحتضنت دون براندون وشعرت بدفق عظيم من الحياة يغمر كيانها وقالت في نفسها: لا استطيع ان أستسلم لليأس. وسألت شقيقتها: "هل كلّمت المستشفى؟" فطلبت إيلين المستشفى وناولتها سماعة الهاتف، فقيل لها: "قبل دقيقتين نجحنا في حمل القلب على النبض."

فقالت دون وهي ترتجف: هل أقدر ان آتي؟"

فقيل لها: "متى تشائين."

فقالت في نفسها: حين احتضنت براندون وشعرت بالحياة تدب فيه، شعرت بالحياة تدب في بيلي أيضاً.

كان بيل بليك في احدى طرق الغابة حين أبلغه رئيسه النبأ. وكان بليك (٣٦ سنة) سائق شاحنة طويل القامة لا يدع العواطف تجرفه، لكن زوجته وولديه كانوا كل شيء في حياته. فما ان عرف بالحادث حتى اندفع هادراً بشاحنته في الطرق المتعرجة الوعرة الى هيوستن.

في العيادة أخبره دوران: "لقد نجحنا في اعادة الحياة الى قلبه." فتنفّس بيل عميقاً. وحين وصلت دون ضمها اليه وكلاهما يبكيان.

قال لهما دوران: "لا ترتعبا لدى رؤيته، فهو منتفخ وهذا أمر طبيعي، وفي رجليه بقع حمراء إذ حتى زجاجات الماء الفاتر تسبّب حروقاً حين تكون الحرارة ٤٢ درجة مئوية. لكنه حي يرزق وفي حال حسنة."

وفيما دخلا غرفة الطوارىء أمسكت دون بيد بيل. وكانت عينا الطفل مضمدتين بالشاش وشفتاه زرقاوين متورمتين ورجلاه حمراوين. وكان جسمه استعاد لونه الطبيعي. أخذت دون بيده فصدمت ببرودتها الشديدة. لكن ارتياح الطبيب كان ممزوجاً بالقلق على القلب والرئتين، اذ حين تبدأ بالعمل يحتمل حدوث صدمة وضغط داخلي قد يؤديان الى ارتكاسات مدمرة في الاعضاء والجهاز العصبي المركزي. فالطفل يحتاج الى معالجة طارئة اكثر تعقيداً مما يستطيعه أي طبيب عائلي.

اتصل دوران بمستشفى الاطفال في فانكوفر وطلب إرشادات وارسال طائرة اسعاف. فأشار عليه الدكتور روبرت أدلي المناوب في وحدة العناية الفائقة بأن يعطي بيلي عقار "بنكورونيوم" لشلّ عضلات التنفس وغيرها، لان هذا يجعل التهوئة الاصطناعية اكثر سهولة ويخفض التقلصات غير الطبيعية. وتعين على فريق دوران مواصلة تزويده الاوكسيجين وتدفئته حتى تصل طائرة الاسعاف.

طلب دوران من فرسان الشرطة الكندية أن يجلبوا له عقار بنكورونيوم من سيمنزر التي تبعد ٦٠ كيلومتراً. وفيما واصل فينيمور الضخ بجهاز التنفس اليدوي حافظ هارت على جريان السائل الدافىء عبر بطن بيلي. وكان دوران يتفحص باستمرار علامات الحياة لدى بيلي، وقلبه يخفق خشية كلما تقلب ضغط الدم. وقرابة الثالثة بعد الظهر تقلّص البؤبؤان في عيني بيلي الى حجمهما الطبيعي، مؤكدين وجود الحياة في قاعدة الدماغ التي تضبط الوظائف الآلية كالتنفس ومعدل نبض القلب وحركة العين. لكن بيلي بقي في غيبوبة. وكان هدف دوران ابقاء الولد في حال مستقرة كي لا يحدث طارىء يتلف أجزاء أخرى من الدماغ يتعذر شفاؤها.

في الرابعة الا ربعاً أخذ بيلي يضرب الهواء من وقت الى آخر بذراعه أو برجله بحركات لاإرادية توقفت حين أعطاه دوران جرعات من البنكورونيوم ضمن الوريد في فترات متقطعة. وكانت كل اشارات بيلي الحياتية طبيعية حين وصل فريق الاسعاف الطائر في الساعة ٦،٣٥. وشمل الفريق مساعدين طبيين وطبيب أطفال من وحدة العناية الفائقة في مستشفى الاطفال هو الدكتور تشارلز كولدويل واختصاصياً بمعالجة التنفس هو جيف فايكون.

لدى فحص الصبي قال كولدويل لدوران: "انني معجب جداً بعمل فريقك." وأمضى ٩٠ دقيقة يحضّر بيلي للرحلة مع فايكون، اذ ان استقراره كان أهم من سرعة نقله. فأبدل كولدويل أنبوب الرغامى في فم بيلي بآخر في أنفه بحيث لا يتعرض للازاحة خلال الطيران. وفي سبيل وقاية الحقن الوريدي أحدث شقاً في رسغ قدمه وأولج أنبوباً في عرق هناك كبديل من الذي في رقبته. وأجرى الفريق تدقيقاً تاماً لكي لا ينفصل شيء من مكانه أثناء نقل بيلي، لان بيلي في مصاف المرضى الاشد خطورة.

قبل مغادرة الفريق الطائر تكلم كولدويل الى بيل ودون: "ان حالة بيلي مستقرة لكنه لا يزال مريضاً جداً. فبعض الاولاد لا يبقون أحياء بعد الغرق، واذا نجوا فقد يصابون بتلف في الدماغ. لذا رأيت من واجبي أن أنبهكما."

فسألته دون: "هل يمكنني الذهاب معكم؟"

فأجابها: "انني آسف لان لا مكان لك معنا."

غادر فريق الاسعاف الطائر الى فانكوفر في الساعة ٨،٠٥ مساء. وخلال الرحلة التي استغرقت ٦٠ دقيقة كان أعضاؤه يراقبون تنفس بيلي ومعدل نبض قلبه وحرارته. وابقاه كولدويل في حالة شلل باعطائه بنكورونيوم. وباستخدام جهاز تنفس نقّال كان فاكون يكثّف تهوئته لخفض معدل ثاني أوكسيد الكربون في دمه. وقد وصلوا الى مستشفى كولومبيا البريطانية للاطفال في الساعة ١١،٤٥ مساء ونقلوا بيلي مباشرة الى قسم العناية الفائقة في أدرلي.

"انه جزء من روحي"

حالما علمت دون أن بيلي سينقل بالطائرة الى الجنوب اتصلت بوالدتها إليانور هولمز وهي عاملة صحية في مصح للمعاقين عقلياً في كاملوبس. فبادرت هذه الى حجز مقعد في طائرة الى فانكوفر، ووصلت الى هناك في التاسعة مساء وراحت تذرع غرفة الانتظار في المستشفى حتى منتصف الليل حين أفيدت: "ان حفيدك في غرفة العناية الفائقة." فاسترقت النظر وشاهدت بيلي مربوطاً الى شبكة من الانابيب يحيط به ستة أطباء. وجاءها أحدهم قائلا: "انه مستقر، لكننا لا نعلم ان كان سيعيش."

اتصلت الجدة بابنتها التي قالت: "سأركب أول طائرة متوجهة الى هناك." فتعهدت الجدة بالبقاء في المستشفى طوال الليل. وأعطيت غرفة قرب وحدة العناية الفائقة، وكانت تنهض كل ساعة وتسترق النظر الى بيلي فتجده بلا حراك مغمض العينين شبه نائم - أو قد يكون ميتاً. لكن الجدة قالت في نفسها: لو لم يكن هناك أمل لما كانوا يبذلون أقصى جهدهم.

لم تستطع دون النوم في بيتها. فأخذت تحشو حقيبتها بلعب بيلي وحرامه وبدمية كلب أهداها اليه أبوه عند ولادة براندون. ثم حزمت ملابسها وأخذت تذرع أرض المنزل حتى الصباح.

وفي الصباح اصطحبتها ايلين الى برنس جورج على بعد ٢٥٠ كيلومتراً شرقاً حيث ركبت طائرة الى فانكوفر في الساعة ١٠،١٠. وفي الطائرة تكوّمت في مقعدها وفي يدها حرام بيلي تحجب به وجهها ودموعها عن عيون الفضوليين.

وفي فانكوفر ركبت سيارة أجرة اوصلتها الى وحدة العناية الفائقة حيث كانت والدتها في انتظارها، وقد انهارت بين ذراعي والدتها التي قالت لها: "اعلمي يا ابنتي انه مريض جداً، لكنه مقاتل مثلك." واقتادتها احدى الممرضات الى بيلي وقالت لها: "تقدرين أن تمكثي معه ما شئت من الوقت."

كان بيلي لا يزال مشلولا ويتنفس اصطناعياً لمنع تورّم الدماغ. وكان مسجّى عاريا على بطانية تبريد للحفاظ على حرارته بدرجة ٣٦،٤ مئوية. وكان جهاز التنفس ينقل اليه ٨٠ في المئة أوكسيجيناً من منخر، وفي المنخر الآخر أنبوب امتد الى المعدة أولج فيه دواء مضاد للحموضة في معدته. ووضع على صدره جهاز لمراقبة القلب، وفي معصمه الايمن أنبوب شرياني، وفي رقبته وذراعه اليسرى ورسغه الايسر أنابيب وريدية تحمل اليه التغذية والمورفين وعقار "ديازيبام". وكانت زجاجات الماء الفاتر في هيوستن سببت له حروقاً شديدة في ربلتي ساقيه. لكن امه ذكرت نفسها ان هذه كانت ثمناً زهيداً لاحيائه.

أمسكت دون بيد بيلي وهمست: "اني أحبك يا بيلي، لا تخف، سيكون كل شيء على ما يرام." وقالت في نفسها: أنا أعرف أنه لا يقدر أن يسمعني، ولكن ربما أدرك أنني هنا معه.

في صباح اليوم التالي قال لها أدرلي: "يتوقف شفاء بيلي على ما حدث له في البئر وكيف كانت استجابة جسمه، فتلك أمور تفوتنا معرفتها. إنما لا بد من أن يكون دماغه برد قبل أن يتوقف قلبه، فلولا ذلك لما كان حياً. لقد كان حظه كبيراً الى الآن، ونرجو أن يبقى كذلك."

استمعت دون الى طمأنة أدرلي بامتنان، لكنها أحسّت بدهشته لكون ولدها بقي حياً. فتمتمت: "يا الهي، لا تدع بيلي يعود الى أحضان الموت."

كانت دون لا تزال بجانب ولدها في العاشرة ليلا. فقالت لها أمها: "إنك في حاجة الى الغذاء والنوم يا دون." وكان أحد العاملين الاجتماعيين هيأ لهما غرفة في النزل التابع للمستشفى. وفيما خرجت بها والدتها من الغرفة احتجت قائلة: "لكني لا أستطيع مفارقته يا أمي."

جلست دون طوال النهار التالي الى جانب بيلي تكلمه برفق: "أمك هنا يا بيلي، كذلك جدتك ووالدك وبراندون. جميعنا نحبك ونريدك أن تعود الى البيت." وراحت تكرر أسماء أنسباء كثيرين يفتقدونه وذكريات حلوة وأغنيات وتهويدات طفولية سعيدة.

وفيما كان أدرلي يدقق بصورة منتظمة في مؤشرات الحياة لدى بيلي دهش اذ وجد خطوط مرسمة موجات الدماغ (٢) أكثر انتظاماً مما كان يتوقع. فقال في نفسه: لعل عجيبة حدثت عندنا.

صباح الجمعة في الساعة ١٠،٠٨، بعد مرور ثلاثة أيام على الحادث، أوقف أدرلي حقن عقار بنكورونيوم. وبدأ بيلي يفيق تدريجاً وفتح عينيه، فخفق قلب دون. انما نظراً الى الحد الادنى من الاستجابة لديه عرف أدرلي أن العجيبة لم تتم، فقال لأمه: "بعد كل الذي تعرّض له تبدو حاله حسنة، لكن تلف الدماغ قد يكون شديداً. فعلينا الآن أن نفكر في نوعية حياته."

أجابته: "يكفيني أنه بقي حياً." لكن ارتياحها كان مشوباً بالخيبة، لأنها مع ادراكها

(٢) Electroencephalograms

أن بيلي قد لا يشفى كلياً فانها كانت في قرارتها تصلي لكي تحصل أعجوبة.

كانت دون صغيرة القامة، نحيفة، ووجدت صعوبة خلال حمل طفليها ، فقد ولدا بجراحة قيصرية. وهي حين رأت بيلي بعد ولادته وحملته تملكتها نشوة وقالت في نفسها: انه جزء من روحي. والآن صممت على أن تكون حياته سعيدة وان تكن مختلفة.

لم يكن ذلك تصميماً فارغاً، فقد خبرت تأثير تلف الدماغ اذ انها وهي في الرابعة عشرة من عمرها عملت كمتطوعة في كاملوبس. وبعد تخرجها في المدرسة الثانوية تابعت مقرراً مدته عشرة أشهر وتأهلت كعاملة للعناية بالاولاد. وعملت في كاملوبس الى حين ولادة بيلي في ٨ فبراير (شباط) ١٩٨٣. ثم وجد زوجها بيل عملاً في الشمال فانتقل والعائلة الى بيرو.

بسمة على شفتيه

مساء أول يوم جمعة بعد الحادث طار بيل الى فانكوفر مع براندون. وخيل اليه أن بيلي عرف صوته. ومع أن دون كانت مفعمة بالآمال فقد قالت لزوجها: "إنك غير واقعي."

أجابها: "انني مثقل بالالم أيضاً."

وقالت لها أمها بعد ذلك: "كوني شاكرة لأن زوجك متفائل، فبعض الازواج قد يقولون لك ان بيلي عاجز عن سماع صوتك، فهلمّي الى البيت واعتني بي وببراندون. إنما بيل يقدّر ما تفعلينه."

في عطلة نهاية الاسبوع تلك بقي بيل مع بيلي ليتسنى لدون قضاء الوقت مع براندون.

وحالما شفي بيلي من الشلل بدأ يتحرك على نحو تشنّجي مثلما توقّع أدرلي. أخذت أطرافه تضرب الهواء، ثم تهدأ متوترة استجابة لرسائل غير طبيعية من الدماغ المعطوب. وحين نزع عنه جهاز التنفس وحملته دون بين ذراعيها أخيراً، أخذ جسمه ينتفض وبدت عيناه زجاجيتين وكان يئن انينا متواصلا كالبكاء انما غير مصحوب بدموع.

بعدما نجا بيلي من خطر الموت نقل في ٣٠ أكتوبر (تشرين الاول)، بعد سبعة ايام من الحادث، الى جناح الحالات العصبية. وأزيلت من جسمه كل الاجهزة والادوات المساندة باستثناء الانبوب الممتد من الانف الى المعدة والذي يزوده الغذاء والفيتامينات والمضادات الحيوية لمنع العدوى والادوية المسكّنة لتخفيف آلامه. كانت رجله اليسرى لا تزال ممدودة جامدة واليمنى مطويّة بشدة على بطنه. وكان ظهره مقوّساً وساعداه متصالبتين فوق صدره وقبضتاه مطبقتين. وتوقفت تشنجاته وأنينه أثناء نومه. عندذاك كان يبدو هادئاً وكأنه في أتم حال، ما أيقظ في دون أملا بشفائه وأمدها بالقوة للبقاء الى جانبه ١٢ ساعة يومياً وهي تغني له وتتكلم اليه ممنّية اياه بالشفاء والعودة الى البيت.

حين رجع بيل الى فانكوفر يوم الجمعة التالي حدّق اليه بيلي لبضع ثوان. فقال لدون التي غلب عليها البكاء: "هل رأيت ذلك؟ لقد تبسّم!" وتساءلا لاحقا عما رأيا من بيلي، أكان حقيقياً أم من نسج خيالهما؟ لكنهما كانا متيقنين من رؤيتهما في عيني بيلي الجامدتي النظرات ومضة ابتسامة.

هذه المرة تركت دون براندون في عهدة إيلين لكي يتسنى لها أن تخرج قليلا. إنما كان عليها طوال نهاية الاسبوع تحاشي مراسلي الصحف ومصوري التلفزيون. كانت تتضايق من الحاح فرق التلفزيون في متابعة أخبار بيلي ومن عناوين الصحف التي جاء فيها: الطفل الميت قد يسعده الحظ فيعيش. واقترحت ادارة المستشفى عقد مؤتمر صحافي. وفي هذا المؤتمر واجهت دون المراسلين برباطة جأش وقد بذلت أقصى جهد لضبط مشاعرها، وقالت لهم: "كل رجائي هو أن يعود بيلي قادراً على أن ينعم بالحياة، وكل تحسن آخر نعمة فائضة."

قلة من الذين شاهدوا دون وهي تتكلم في التلفزيون رأوها على وشك الانهيار. كانت تشدد عزيمتها بالعناية بشؤون بيلي. وبيّن لها أحد الاختصاصيين بالمعالجة الفيزيائية كيف تغير وضعه لتخفيف شدة تشنجاته. وكان لا يزال يغذى بواسطة الانابيب، لكنها أقنعت الممرضات بالسماح لها باعطائه نقطاً قليلة من الماء والعصير بواسطة محقنة ورشفات من اللبن تعلّم أن يمتصها.

وجاء بيل في نهاية الاسبوع التالي ومعه براندون، فأصرت دون على أن يبقيه معها قائلة: "انني في حاجة الى بعض الحياة الطبيعية."

فقال لها بيل: "لديك ما يكفيك من العمل والهم، واذا بقي براندون معك فذلك يزيد قلقي على ثلاثتكم." ولكن كان لها ما أرادت، وقدمت المستشفى عربة وسجادة وضعتا الى جانب سرير بيلي ليتسنى لبراندون اللعب والنوم. وعادت أم دون الى عملها في كاملوبس، وكانت دون مغتبطة لوجود طفلها معها ليؤنسها ببهجته ومرحه.

كان بيلي لا يزال معرضاً للتشنجات، يئن ويظهر استجابات أساسية فقط. وكانت دون ترهب عملية كشط الجلد المحروق عن ربلتي ساقيه حتى ينكشف لحمه الاحمر الحيّ. وفي ٢٢ نوفمبر (تشرين الثاني) بعد عملية كشط تامة وبعدما أصبح قادراً على تحمل المخدر، طعّم أحد جرّاحي التجميل ربلتيه بجلد نزع من فخذه الايمن، وغلّف رجليه بقالبي جصّ من أعلى الفخذ حتى أصابع القدمين.

بعد ستة أيام أزيل القالبان، وكان صوت المنشار وهو يقطع الجص يروّع دون. لكن الاطباء طمأنوها الى أن صراخ بيلي وتوثبه بسبب صوت المنشار كانا استجابة طبيعية ما يؤكد أن عملية التطعيم نجحت.

بعد ذلك أصبح بيلي مهيأ للانتقال الى مستشفى سوني هيل، وهو مركز لتأهيل الاولاد المصابين بتلف شديد في الدماغ. وكانت دون متيقنة من أن اقامة بيلي هناك ستكون قصيرة، لكن أدرلي حذرها: "انه لا يتحسّن بمقدار ما كنا نتوقع، فعليك وزوجك ألا تبالغا في التفاؤل."

كانت السيدة هولز تعضد ابنتها في تصميمها، وهي قالت لها: "لا أنت ولا بيل ولا أنا يمكن أن نستسلم. انت مع بيلي كل يوم، وستشاهدين اولى علامات الشفاء."

وحين نقل بيلي الى مستشفى سوني هيل في ٥ ديسمبر (كانون الاول) عزز أطباء الاطفال هذه الكلمات. فعلى رغم تشنجاته وبكائه الغامض من دون دموع، وكون ذلك دليلا على تلف شديد في الدماغ، فقد رأوا أن بقاء دون مع بيلي قد يساعد في تحسّن حاله. فاتخذت دون مقراً لاقامتها في نزل للوالدين في جوار المستشفى.

أثناء تجوال بيلي في أرجاء المستشفى في كرسي خاص صمم لسند ظهره، لاحظت دون ومضات خافتة تدل على تيقّظ عقله. ففي غرفة اللعب بدا كأنه يسمع ثرثرة ببغاء. وذات يوم فيما كانت تدور حوله راح يتبعها بعينيه، وذلك يدل على تقدم حقيقي. فهتفت دون: "بيلي، إنك تتطلع الى أمك!"

دموع حقيقية

أظهرت استجابات بيلي أن قسماً من دماغه على الاقل كان في حال تمكنه من التعلّم. وحين التقت دون الفريق الطبي في ١٩ ديسمبر (كانون الاول) للتباحث في شأن تقدم بيلي، أفادت الاختصاصية بالمعالجة الفيزيائية كريستنا نلسون أنه كان يتعقبها بعينيه وكان يلاحظ الالوان الزاهية. ولاحظ طبيب الاطفال ملفن دو ليفي أن بيلي يغار حين تحمل دون براندون، وذلك أمر طبيعي. وكان جسم بيلي يزداد رخاوة وخفت تشنجاته، واقترح على دون أن تمرّنه في بركة المستشفى لتنشيط عضلاته.

بعد أسبوعين كوفئت دون بمفاجأة أخرى اذ تبسّم لها بيلي عندما انحنت فوقه وهي تدفع كرسيّه في المستشفى. فكادت لا تصدق ما رأت، وسألت امرأة مسنّة كانت الى جانبها: "أحقيقة تبسّم ولدي أم انني واهمة؟"

فأجابتها المرأة وقد أخذتها الدهشة: "بكل تأكيد، أنا رأيته يتبسم."

وحين تكلم أحدهم من ورائهما رفع بيلي رأسه ومال بجسمه متابعاً مصدر الصوت.

في اليوم التالي بعد تمرين السباحة غنّت له دون احدى أغنياته المفضلة. ولدى سماعها انفجر بيلي باكياً، وتلك كانت أولى دموع يذرفها منذ وقوع الحادث. فانتزعته دون من الكرسي وركضت به في المستشفى هاتفة: "لقد ذرف دموعاً حقيقية!"

ومنذ ذلك اليوم بات بيلي يسكب دموعه بحرّية. انما في نهاية يناير (كانون الثاني) كان زاد ابتسامه وقل بكاؤه وباتت دموعه تنسكب في الاوقات المناسبة. وفي ٥ فبراير (شباط) قهقه حين دغدغت دون كتفه، ثم شهق متعجباً من ذاته. وبدأت دون تسلّيه بألعاب طفولته، واستطاعت بذلك أن تجعله يضحك ويبتسم.

في أوائل مارس (آذار) أخبرت دون الفريق الطبي أنها ترغب في أخذ بيلي الى البيت في نهاية الشهر. لكن أعضاء الفريق رأوا أنه سيكون من الصعب على دون معالجة بيلي لوحدها في بلدتها الصغيرة النائية. الا انهم احتراماً لارادتها قبلوا بقرارها، وعلمتها الاختصاصية بالمعالجة الفيزيائية بعض التمارين والالعاب. وفيما

دون وزوجها يحزمان أمتعتهما للرحلة، خشخشت مفاتيح الشاحنة أمام بيلي فامسكها بيده اليسرى.

كانت دون مرتاحة لانهم لم يكونوا عائدين الى منزلهم السابق المليء بالذكريات المؤلمة، بل نقلوا الى مسكن مجاور لايلين وديل. وكانت دون تحمل بيلي في أرجاء البيت من غرفة الى غرفة وهي تقوم بأعمال الطهو والتنظيف، وتسنده بالوسادات لانه كان لا يزال عاجزاً عن الجلوس. ومرة في الاسبوع كان يأتي مستشار في شؤون تنمية الاطفال فيساعد دون في تمرين عضلات بيلي ويحضر ألعاباً لتقوية حركاته ورؤيته. وقد تعلّم بيلي وبراندون الزحف معاً. فكان براندون، وعمره ثمانية أشهر، يزحف على يديه ورجليه فيما كان بيلي يرمي بيديه الى الامام ويجر رجليه. وحين استعاد قوته بات يقف عندما يمسك يد أبيه أو أمه. ولما رجع الى فانكوفر في يونيو (حزيران) سر الفريق الطبي لتقدمه. وقال آدرلي لزملائه وهو يحتضنه جذِلا: "أنظروا الى بيلي بليك!"

مساعدة الأخ الصغير

كانت يد بيلي اليمنى تأثرت بالتلف الذي أصاب الدماغ، الا أنه تعلم استخدام يده اليسرى بحركات تشنجية. وفي أغسطس (آب) أصبح براندون قادراً على الوقوف بمفرده ومساعدة بيلي على الوقوف بعد ذلك بشهر. وهو علّم بيلي أن يصعد الدرج زحفاً.

لكن بيلي ظل عاجزاً عن الكلام، وكان تشنجياً. وبدأت دون تعي أنه سيبقى مصاباً ببعض العوائق. وهي أمضت معه أكثر من خمسة أشهر مترجحة بين اليأس والامل، تستمد القوة من محبتها لولديها ولزوجها. لكن ما عانته استنزف قواها عقلياً وجسدياً حتى باتت عاجزة عن مقاومة اليأس الذي اعتصر قلبها وكيانها.

وفيما اقتربت الذكرى السنوية الاولى للفاجعة طغت على العائلة ذكريات مؤلمة. ولم يكن بيل قادراً على التحدث عنها.

وقالت دون: "انني لا أستطيع البقاء هنا." واصطحبت ولديها جنوباً الى إندربي على بعد ألف كيلومتر لتقيم مع صديقة قديمة كانت تعلم ما قاسته دون من حزن وكبت وعذاب حين كان بيلي في المستشفى.

مساء ٢٣ أكتوبر (تشرين الاول) ليلة الذكرى السنوية الاولى للحادث اتصلت دون بزوجها لتقول له: "لست مهيأة بعد لاعود الى البيت." فنزلت عليه كلماتها نزول الزلزال المدمّر، فقاد سيارته طوال الليل الى إندربي وفي الصباح عاد مع زوجته وولديه الى البيت.

تعلم بيلي أن يزحف على أطرافه الاربعة ويمشي بضع خطوات ويمسك كوباً ويأكل بالملعقة. وكان فهمه جاوز قوة تحركه فبات يشعر بالخيبة لعجزه عن الكلام. لكن أفكاره كانت تشعّ في عينيه البنيتين، وكان فمه يلتوي وهو يجاهد لنطق كلمة، وأخيراً يرتفع صوته فيلفظ المقطع الاول منها. وكانت أمه تنتظر صابرة الى أن يتمكّن من لفظ كلمة مثل "حليب" أو "عصير" أو "كعك" قبل أن تعطيه ما يريد. وجعلت التعليم جزءاً من


بيلي مع أمه في صورة حديثة.

حياتها. وفيما كانت تغسل الصحون كان بيلي يتعلم عدّها على لوح التجفيف. وكل نشاط حولته لعباً، مشجعة بيلي على تعيين أسماء الاشياء والالوان وتمرين طاقات تحركه.

عندما بلغ بيلي الثالثة من عمره أُدخل حضانة خاصة في سيمذرز. وكانت دون تقود سيارتها مسافة مئة كيلومتر الى الحضانة مرتين في الاسبوع لكي يمضي بيلي خمس ساعات في برنامج للاولاد المعاقين. وقد تأثرت المديرة بوليت ماكفيليفراي بطبيعة بيلي المشرقة وتصميمه. وكان تنسيقه لا يزال ضعيفاً، ومع ذلك كان يثابر نصف ساعة ليتعلم التحكّم بلعبة عصت عليه. وبعد كل نجاح كان وجهه يشع بابتسامة كمن يقول: ها اني نجحت.

وكل بضعة أشهر كانت دون تأخذ بيلي الى مستشفى سوني هيل في فانكوفر لفحصه. وقد أفاد أطباؤه أنه يتقدم باطراد. وهو تمكن من أن يتعلم أشغالا ماهرة وأفكاراً فاقت تلك التي كان يعرفها قبل ٣٠ شهراً. وكانت قدرته على الاستيعاب والفهم أكبر من قدرته على التعبير. وسر الدكتور دو ليفي لرؤيته مبتهجاً وقادرا على الاتصال بواسطة عينيه ونطق بضع كلمات.

نعمة الحياة

الرجال الذين أنقذوا بيلي يتعجبون لشفائه. قال وين هولز: "لم يكن لدي أي أمل في انقاذه، ولكن كان علي أن أحاول. ولا أصدّق أنه بلغ هذا الحد في الشفاء، وأرجو أن ينعم عليه بالشفاء التام."

وعندما وقع الحادث كان بارم بريهار ينتظر عودة زوجته من الهند. وحال وصولها كان أول ما قالته: "أريد أن أرى بيلي بليك."

ليلة نقل بيلي في الطائرة الى فانكوفر لم يتمكن لويس آركي من الاكل أو النوم. وقال: "خلال سبع سنوات في عملي كمتطوع كانت نجاة بيلي أعظم مكافأة لي. قد تنقضي سنوات، لكني أعتقد أنه سيتغلب على عوائقه ويعيش حياة طبيعية كاملة."

وتعيش العائلة حالياً في مدينة فيكتوريا حيث يتردد بيلي على مركز ج.ر. بيركس للاولاد. هناك يتلقى علاجاً فيزيائياً وعملياً وكلامياً.

Photo: Gerry Kahrmann / Vancouver Province

تقول والدته دون: "سيظل يجد بعض الصعوبة في الكلام والمشي كمن أصيب بشلل خفيف في الدماغ، ولكن في استطاعته الآن رصف جملة متكاملة، وهو يقدر أن يمشي مستعيناً بعربة أطفال ويخطو بعض الخطوات بمفرده. يودّ أن يعامل كولد طبيعي. وهو عنيد ومثابر وطويل الأناة فلا يكف عن المحاولة. ان الناس يترقبون حدوث عجائب، لكن بيلي أسبغت عليه نعمة الحياة مرتين."

يقول الدكتور أدرلي: "ان بيلي بليك حي اليوم بفضل جهود الاشخاص الذين شهدوا الحادث: المنقذين ورجال الشرطة ورجال الاسعاف والفريق الطبي في مستشفى هيوستن، كلهم قاموا بعمل رائع."

وبيلي الان في حال أفضل كثيراً مما كان يرجى له بفضل تفاني أمه ولهفتها في العناية به. وكأن حنان الامومة وتضحيتها شعلة ايمان تحقق من آيات الشفاء ما يعجز عنه الطب.

يانيس تيرويت ■

ترجمة الياس عقل



خطوط الاطباء

خلال دراستي في كلية التمريض رحت أفك ذات يوم "رموز" طلب لاجراء فحص بالموجات فوق الصوتية. كان خط الطبيب كاتب الطلب مروّعاً، ولم أتمكن من تحديد العضو المطلوب فحصه بسبب رداءة الخط. عرضت معضلتي على مدرّستي التي راحت تقلب الرأي في هذه الكتابة "الهيروغليفية" ثم قالت: "مفتاح السر هنا، على الهامش، حيث رسمت كبد."

ولحسن الحظ سمعت احدى الممرضات هذه الملاحظة فتدخلت قائلة: "هذا امضاؤه!"

ج. ت.

شمس الريف

نشأ زوجي في الريف. لذلك كنت أعجب لماذا لا يثيره شروق الشمس البديع، مثلي. فجاء الشرح من صديق نشأ هو أيضاً في الريف: "لعله يتذكر شروقات كثيرة من فوق ظهر بغل."

أ. هـ.

سبحان مقسّم العقول الذي أرضى كل انسان بحصته.

مثل اسباني

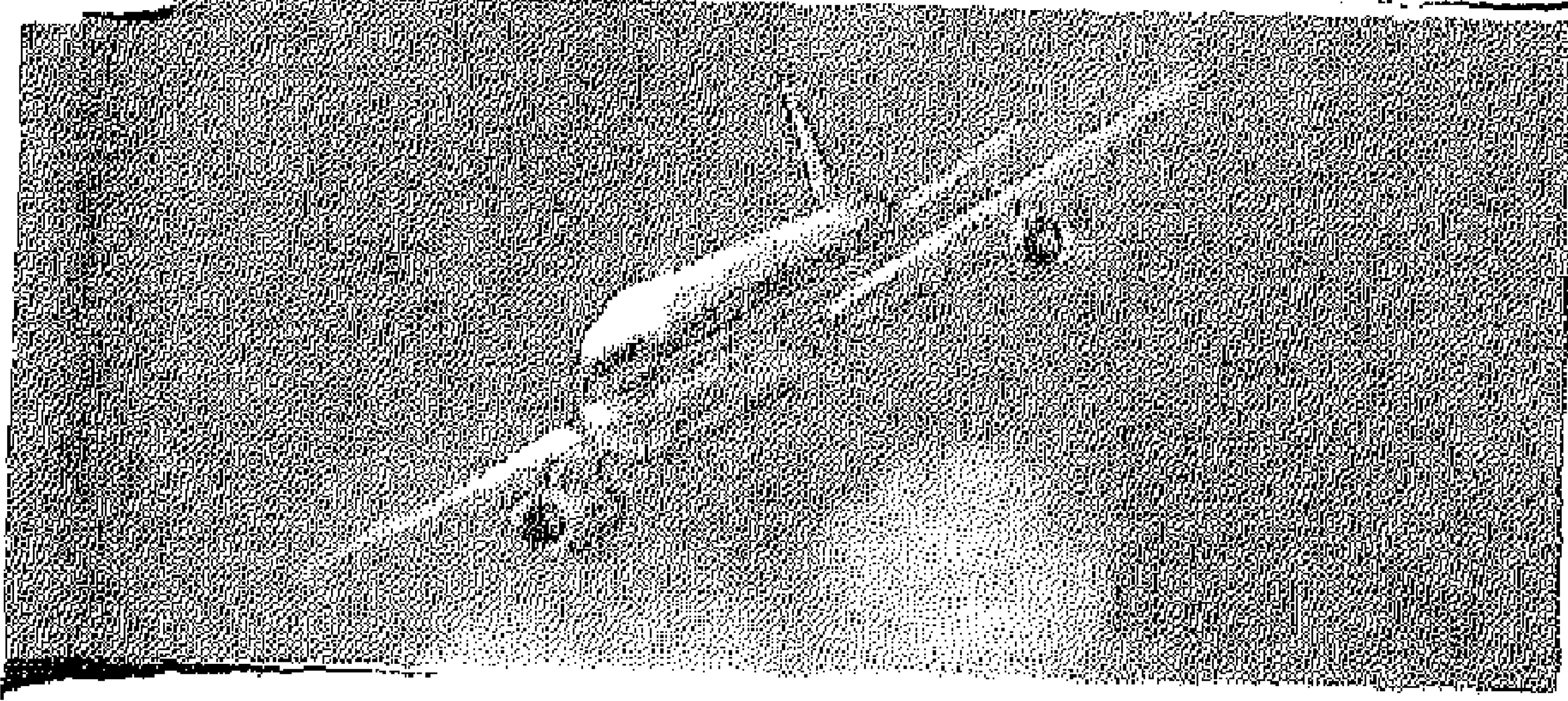
كتاب الشهر

٧ في مهب الرّيح

ملخص من كتاب

بقلم وليم هوفر و مارلين منى هوفر

لم يشعر مايك لورد بالارتياح يوماً وهو على متن طائرة محلقة في الجو. وها هو الآن يشعر بحزام المقعد يشدّ على حضنه، ويعقب ذلك احساس بالسقوط المريع كالذي يخالج المرء في مدينة للملاهي عندما يسقط قطار أفعواني فائق السرعة من قمة سكة شبه عمودية.



وتلاشت سرعة الطائرة فيما مايكل لورد وستون راكباً آخرون يراقبونها بهلع من النوافذ الصغيرة وهي تشرع في هبوط مفاجىء غير محسوب. كانت الطائرة تسقط من الجو.

بوينغ ٧٦٧ في مهب الريح

ابتلع القبطان روبرت بيرسن آخر لقمة من عشائه واسترخى في مقعده. كانت طائرته التابعة للخطوط الجوية الكندية تشق الجو على ارتفاع ١٢٥٠٠ متر فوق ريد ليك في أونتاريو بسرعة ٨٦٠ كيلومتراً في الساعة في طريقها من مونريال وأوتاوا الى ادمونتن.

بالنسبة الى بيرسن، وبضعة ربابنة آخرين في العالم مؤهلين وحدهم لقيادة طائرات "بوينغ ٧٦٧"، كانت قيادة تلك الطائرة متعة. فقوة دفع محركها الذي يديره دماغ الكتروني، وجناحاها المتطوران، تجعل إقلاعها قصيراً وسهلا وسرعة ارتفاعها مثيرة. واليوم، فيما البوينغ ٧٦٧ تهدر في الجو، أبقاها الربان الآلي في المسار الصحيح من دون ارتجاج. أما بيرسن، الربان العريق الذي أمضى ٢٦ سنة في خدمة الخطوط الكندية، ومساعده موريس كينتال، فأجريا اتصالا بمقرّ الشركة في وينيبيغ في مانيتوبا.

زودهما ضابط عمليات معلومات عن تقلبات الجو خلال الرحلة التي تستغرق أربع ساعات. أبلغهما أن الطقس ممتاز، فالجو متلألىء والرؤية تمتد ٢٤ كيلومتراً. افترّ ثغر بيرسن عن ابتسامة عريضة وقال مازحاً: "سأجلس هنا وأراقب السمك في البحيرة."

Condensed from «Freefall,» copyright © 1989 by William and Marilyn Hoffer, published by St. Martin's Press, Inc., New York, N.Y. Illustrations: Rick McCollum

وتولى كنتال نقل هذه المعلومات المطمئنة بالانكليزية عبر مكبّر الصوت الى الركاب الواحد والستين والمضيفين الستة على متنها. ثم كررها على مسامعهم بالفرنسية، لغته الاصلية.

ودخل زائر مقصورة القيادة، فاستدار القبطان ومعاونه لاستقباله. كان ريك ديون رباناً يقود طائرة خاصة. وكان حلمه أن يشغل مقعد القبطان في طائرة تجارية، لكنه عوض ذلك شغل منصباً عالياً في دائرة الصيانة في شركة الخطوط الجوية الكندية.

ذلك اليوم، ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٨٣، كان ديون وزوجته بيرل وابنهما كريس (ثلاث سنوات) في طريقهم لزيارة والد بيرل في ألبرتا. وفي مطار مونريال، قبل أن يبدأ الركاب الصعود الى الطائرة، لمح بيرسن ديون، وكانت تجمعهما معرفة سابقة، فدعاه الى مقصورة القبطان بعد العشاء. وهي دعوة مغرية قبلها ديون من دون تردد، إذ كانت تلك واحدة من أربع طائرات "بوينغ ٧٦٧" تسلمتها شركة الخطوط الكندية حديثاً ودفعت ٤٠ مليون دولار ثمناً لكل منها.

اتسعت عينا ديون وهو يشاهد الميزات البارزة في مقصورة القيادة التي بدت أشبه بمركز لألعاب الفيديو، خصوصاً حيث أنبوب أشعة "كاثود" الذي ينير الشاشة بألوان ثمانية. وفي الاسفل حملت الرفوف المخصصة للأدوات الالكترونية ١٤٠ جهازاً، بينها أدمغة الكترونية، مهمتها رصد أدنى حركة تصدر عن الطائرة. والواقع أن هذه المعدات كانت من التطور والتعقيد بحيث ان الربابنة بدوا كأن لا حاجة اليهم.

استغرق بيرسن وديون في حديث عن العمل، وراح كنتال يدون على عجل آخر المعلومات عن مقياس الوقود. كانوا متقدمين سبع دقائق على البرنامج المحدد، وهو أمر مرضٍ بعدما كانت الطائرة تأخرت ٢٤ دقيقة عن موعد إقلاعها من مونريال بسبب صعوبات بدت بسيطة في مقياس الوقود. أما الآن، بعد توقف اقصر من المعتاد في أوتاوا وتحليق على ارتفاع ١٢٥٠٠ متر بدلا من ١٢ ألفاً كما كان مخططاً، فقد كانت الطائرة تعوّض الوقت الضائع. وقال كنتال في نفسه: انه لحدث عظيم أن يعمل كل شيء على ما يرام.

ولكن ما ان أنهى تدوين ملاحظاته حتى انطلق من أحد أجهزة الانذار صفير حاد تردد أربع مرات.

"ما الامر؟" تساءل كنتال بصوت مرتفع. اما بيرسن الذي لم تعوزه الكلمات فأطلق شتيمة ساخطة. وما لبث سبب العلة أن ظهر مفصّلا على إحدى الشاشات.

كان كل من خزانات الوقود الثلاثة يُعبّأ بواسطة مضختين. أما الآن فكانت المضخة الامامية في الجناح الايسر تجهد تحت ضغط متدن على نحو غير طبيعي. فتح بيرسن صماماً عرضياً كي يسمح للخزان في الجناح الأيمن بتغذية الخزان الايسر ثم قلّب "دليل الارشادات السريعة" الذي يقدم شرحاً موجزاً للاجراءات المتخذة في الحالات الطارئة.

أفاده الدليل ان لا داعي الى الهلع ما دام العطل لم يصب سوى واحدة من المضختين اليسريين. وقرأ: "تابع العمليات العادية."

أقفل بيرسن صمام التغذية. ونعمت مقصورة القيادة بالهدوء.

كان ثابتاً من تجارب سابقة أن الأعطال التي تطرأ على طائرة حديثة كهذه تكون غالباً ناجمة عن خلل في الدماغ الالكتروني لا في الجهاز الميكانيكي. إلا أن قلق بيرسن الخفيف تحوّل مع الوقت خوفاً حقيقياً.

مرة ثانية انطلق في مقصورة القيادة، التي خيّم عليها جو مشحون، صفير حاد تردد أيضاً أربع مرات. وسرعان ما ظهرت على الشاشة رسالة جديدة تحمل نذير شؤم آخر: المضخة الثانية للخزان الايسر على وشك التوقف هي ايضاً.

على الفور اتخذ بيرسن قراراً ثانياً: "لنتوجه الى وينيبيغ. الآن!"

كان العطل الثاني لافتاً بحيث استبعد إمكان ردّه الى خلل في الدماغ الالكتروني. وأصبح واضحاً للعيان أن المحرّك الايسر يعاني مشكلة كبرى. فصل بيرسن القبطان الآلي وتولى القيادة بنفسه، عازماً على إكمال المسافة المتبقية بقيادة الطائرة يدوياً والهبوط بها في أقرب مطار.

تشبّث كنتال بالمذياع. وما ان نجح في الاتصال ببرج المراقبة حتى قال: "وينيبيغ. هنا الرحلة ١٤٣ للخطوط الجوية الكندية. اننا نواجه مشكلة."

للمرة الأولى في حياته تمنى موريس كنتال لو أنه في أي مكان آخر غير الجو.

سقوط مفاجىء

في مؤخر الطائرة على بعد ٤٥ متراً من مقصورة القيادة كانت المضيفة سوزان جويت تتقدم في الممشى الأيمن في طريقها من مطبخ الطائرة، دافعة أمامها عربة ترفع عليها أطباق فضلات الطعام وتسجل طلبات الركاب من قهوة وشاي وتتبادل واياهم الاحاديث الخفيفة من غير كلفة.

حتى تلك اللحظة كان انطباع الراكب مايك لورد عن الرحلة مختلطاً. فالسمك الذي تناوله عشاء كان ممتازاً، لكن الفيلم السينمائي الذي عرض على شاشة الطائرة جاء مخيّباً. والحقيقة أن لورد لم يشعر يوماً بالارتياح التام وهو في الجو. وتأكدت مشكلته تلك عندما اشترى تذكرة السفر قبل ستة أسابيع. ويبدو أن الموظفة المسؤولة شعرت بارتباكه لانها انطلقت في حديث دعائي عن تلك الطائرة – المعجزة التي اختار لورد ان يأتمنها على حياته. وراحت تمجد صفاتها قائلة انها تحفة فنية متطورة ومؤكدة أن مزاياها البارزة مستمدة من برنامج المكوك الفضائي الذي ترعاه حكومة الولايات المتحدة. وأضافت أن البوينغ ٧٦٧ هي من الحداثة بحيث أنها، خلافاً لجميع الطائرات التي يضمها أسطول الخطوط الجوية الكندية، تحتسب الوقود بالنظام المتري العشري وليس بالمقاييس البريطانية الرسمية القديمة. وختمت حديثها قائلة: انها تكاد تطير بلا طيّار. هذا يوم سعدك!"

لكن مايك لورد لم يشعر بالسعد على الاطلاق يوم ٢٣ يوليو (تموز). وما ان صعد الى الطائرة وجلس في مقعده حتى أوثق حزام الامان مذكّراً نفسه بأنه لن يجدي إذا

تحطّمت الطائرة. وعندما أعلن القبطان أن هناك تأخيراً بسيطاً بسبب مشاكل متعلقة بقياس كمية الوقود، أحكم مايك شد الحزام.

تابعت سوزان جويت تقدمها في الممشى. ولمحت بين الركاب رجل أعمال رأته في رحلة سابقة، فتوقفت لتتبادل معه حديثاً ودياً. وكان الرجل طياراً، فخطر لسوزان أن تدبر له جولة في مقصورة القيادة. وهذه فرصة نادرة على متن طائرة أمريكية نظراً الى أن قوانين مديرية الطيران الاتحادية في الولايات المتحدة تحظر على الزوار دخول المقصورة، أما في كندا حيث المشاكل الأمنية أقل فالقوانين أكثر ليونة. والى ذلك كانت سوزان تعلم أن ليس من طيار أكثر كياسة من القبطان بيرسن. وما ان تهيأت لمفاتحته في الموضوع حتى شعرت بهبوط مفاجىء.

أحس مايك لورد حزام المقعد يضيق على حضنه. وتطلّع حوله بقلق وهو يشعر كمن يهوي من عل. انه الإحساس ذاته الذي ينتاب المرء في مدينة للملاهي عندما يسقط قطار أفعواني فائق السرعة من قمة سكة شبه عمودية.

حاولت سوزان جويت إقناع نفسها بأن لا داعي الى القلق وبأن عوامل كثيرة قد تسبب تغيراً في ارتفاع الطائرة، كتصحيح مسارها ورداءة الطقس وتحليق طائرات أخرى وتغير اتجاه الريح. ومع ذلك وجدت نفسها ترصد تحركات القبطان وتسترق النظر من النافذة علّها تستشفّ رسالة ما في حجب الغيوم الرقيقة تحتها.

عندما وصل نداء كنتال الى مركز مراقبة الطيران الكندي، كان في الخدمة موظف قدير يدعى رونالد هويت أمضى في عمله ٢٢ عاماً. وهو سمع كنتال يقول بلهجته الفرنسية - الكندية انهم يواجهون مشكلة ويطلبون الهبوط في وينيبيغ.

وكان في تصرف هويت نوعان من أجهزة الرادار. ففي العام ١٩٨٣ كان الرادار المباشر الذي يلتقط أي إشارة في مجاله ويردّها في شكل صورة على شاشة يُستخدم في قلة من قطاعات الرادار في كندا. وكان هويت يراقب ست محطات رادار، والرادار المباشر الوحيد متوافر في وينيبيغ.

في تلك اللحظة التقط هويت الاشارة من محطة بالقرب من ثندر باي في أونتاريو، حيث يستخدم نظام ثانوي للرادار أكثر تطوراً ويعتمد معدات موجودة في الطائرة المراد اقتفاؤها. وفي طائرة "الرحلة ١٤٣" كما في جميع الطائرات النفاثة جهاز استقبال يلتقط الاشارة التي يطلقها الرادار ويرسل إشارة جوابية تتم معالجتها بواسطة دماغ الكتروني يعيّن مصدرها وارتفاعها وسرعتها، ثم يعرض هذه البيانات في مثلّث على شاشة الرادار.

بهذه الطريقة، ومن بين جميع الصور المعروضة على الشاشة أمامه، تمكن هويت من التعرّف الى طائرة "الرحلة ١٤٣" وتحديد ارتفاعها وسرعتها بالنسبة الى الطائرات الأخرى في الجو، وإصدار إذن يجيز لها الهبوط في وينيبيغ.

بعد أربع ثوان من التقاطه نداء كنتال أجاب هويت: "الرحلة ١٤٣، الخطوط الجوية

الكندية. الطريق سالكة أمامك. توجّه الى وينيبيغ من موقعك الحالي. استخدم المدرج ٣١. يمكنك الهبوط من ارتفاع ١٨٠٠ متر أو حسبما ترى مناسباً."

كانت الطائرة على مسافة ٢٠٥ كيلومترات الى الشمال الشرقي من وينيبيغ. وفي الساعة ٨،١٤ مساء بتوقيت وينيبيغ باشر بيرسن الهبوط. وتعيّن عليه أن ينحدر بطائرته من ارتفاع ١٢٥٠٠ متر الى ١٨٠٠ دفعة واحدة. أرجع ذراع مخنق المحرّك الى الوراء فاستجابت الطائرة للحال وكأن أحداً كبحها. ومع انخفاض سرعة تقدمها اندفعت نزولا منجزة المرحلة الأولية من أسلوب في الهبوط ليس في الحقيقة الا سقوطاً من الجو مسيطَراً عليه.

عمل بيرسن وكنتال بسرعة. برمجا مؤشر الموقع الافقي، وهو مرقاب مستقبل بين عدة مراقيب يشغّلها الدماغ الالكتروني، ووظيفته اظهار صورة جانبية لعملية الهبوط.

أحداث مقلقة

جلس ريك ديون خلف القبطان ومعاونه وراح يبحث في عقله عن سبب يفسر ما جرى، فيما انصرف بيرسن وكنتال الى مراجعة جميع الاحداث التي شاهداها أو سمعاها بعد ظهر ذلك اليوم في مونريال اثناء خضوع الطائرة للفحص. والحقيقة أنها كانت أحداثاً مقلقة.

في البدء برزت مشكلة في الاجهزة الثلاثة الخاصة بقياس كمية الوقود. وعند التدقيق وجد أحد التقنيين عطلا في إحدى قناتي ميزان الوقود، وهو جهاز الكتروني يراقب تدفق الوقود ويضبطه. ولتعاسة الحظ لم تكن قطعة الغيار المطلوبة لاصلاح العطل متوافرة في الطائرة. واعتقاداً من التقني ان الطائرة تحتوي على جهاز بديل يسيّره الدماغ الالكتروني ويقوم تلقائياً مقام الجهاز المعطل، اعتبر أن المشكلة محلولة. ولكن عندما صعد بيرسن الى الطائرة في مونريال وجد أجهزة القياس خالية من أي إشارة.

ومع ان التقنيين فشلوا في تشغيلها، إلا ان بيرسن تلقى تصريحاً بالإقلاع بعد إخضاع خزانات الوقود لعملية تقطير يدوي عملا بالقواعد المفروضة التي تقضي بتحديد كمية الوقود بدّقة قبل ملء الخزانات وبعده. ومرة ثالثة طبّق هذا الإجراء الذي يشبه عملية قياس كمية الوقود في السيارة بواسطة قضيب مدرّج، بعد إضافة كمية من الوقود تصحيحاً لاختلال توازن في خزان الجناح الايسر وبناء على إلحاح بيرسن.

والحقيقة أن بيرسن لم يكن يفهم كيف تعمل هذه الاجهزة. وفي أي حال لم يكن ذلك مطلوباً منه، إذ لم يكن أحد يتوقع أن يهتم الطيارون بأمور من إختصاص قسم الصيانة، خصوصاً عندما تكون الطائرة على تلك الدرجة من التطور والتعقيد. فقد كانت القاعدة غير المدونة: الطيارون يطيّرونها والميكانيكيون يصلحونها.

إلا أن كنتال لاحظ أن موظفي الصيانة يلاقون صعوبة في تطبيق المعادلة الحسابية البسيطة لتحديد كمية الوقود، مما خلّف في نفسه شعوراً مبهماً بالقلق.

ومع ذلك تساءل بيرسن: "أي شيء أبسط وأكثر دقة من التقطير اليدوي؟" ولنفترض أن قراءة مؤشر الزيت في لوحة أجهزة القياس في سيارتك مختلفة عن القراءة الظاهرة في قضيب القياس، أفلن تعتمد الثاني على أنه أكثر دقة؟" ثم أراح نفسه في مقعده وحوّل تفكيره الى مشاكل أخرى.

الامر الذي كان بيرسن يجهله هو أن فريق الصيانة وقع في حال من الارتباك كتلك التي ما زال يعانيها عدد كبير من الكنديين بسبب التحوّل من نظام المقاييس البريطاني الى النظام المتري العشري. والواقع أنه بعد انقضاء سبع سنوات على اعتماد النظام المتري بقي عدد كبير من الكنديين يتذمرون من أنه فُرض عليهم فرضاً.

واستجابة للضغوط الحكومية أوصت شركة الخطوط الجوية الكندية ببناء ١٢ طائرة جديدة من طراز "بوينغ ٧٦٧" على أساس مواصفات النظام المتري.

وأثار ذلك موجة نقد في أوساط المعارضة التي أنذرت بالمتاعب. وحذّر نيل فريزر الذي كان يطمح الى رئاسة الحزب التقدمي المحافظ وشن حملة قاسية على تطبيق النظام المتري: "اذا كانت شركة الخطوط الجوية الكندية راغبة في تجربة حساب وقود الطائرات بالنظام المتري، فأنا أقترح اجراء ذلك في الطائرات التي يسافر فيها الوزراء."

طالع عمال الصيانة الذين تولوا خدمة الطائرة ٧٦٧ في مونريال، مزيج محيّر من النظامين المتري والبريطاني في مقاييس الوقود. وفي وقت ما تجمع في مقصورة القيادة القبطان ومعاونه وستة أشخاص آخرون راحوا جميعهم يراجعون أعمدة الارقام في كتيّب خاص بالتقطير في محاولة لاجراء تحويلات لم يألفوها.

كان بيرسن متململا حتى قبل إجراء عملية التقطير الثالثة. وقال بصوت أجشّ: "أروني أرقامكم." وراح يدقق في الحسابات التي ملأت قصاصة ورقة حملها أحد التقنيين. وهو استعان بمسطرة حاسبة دائرية أخرجها من حقيبته. لكنه، من دون قصد، وقع في الخطأ نفسه الذي وقع فيه الآخرون، إذ استخدم رقماً مضروباً فيه يعيّن الوزن بالأرطال الانكليزية (الباوند) وليس بالكيلوغرام. وهكذا زُوّدت الخزانات نصف كمية الوقود من نوع «A — ١» اللازمة لايصال الطائرة الى إدمونتن. ولأن المقاييس كانت معطلة لم يتنبه أحد الى الخطأ الحاصل.

فيما طائرة "الرحلة ١٤٣" تهمّ بالاقلاع طرح أحد المضيفين سؤالا أخيراً مستفسراً عن كمية الوقود، مما أثار التقني الذي أجابه بانزعاج: "لديكم أكثر مما تحتاجون اليه، وفي وسعكم الطيران الى فانكوفر."

كانت الطائرة على علو ٩٨٠٠ متر في الجو. وخيّم على المقصورة جو مشحون فيما هي تهبط صوب حجاب الغيوم تحتها ولما يمضِ على الانذار الأول سوى خمس دقائق.

فجأة انطلقت في المقصورة أربعة أصوات انذار تلتها أربعة اخرى معززة بأضواء كهرمانية متوهجة أضاءت لوحة جهاز القيادة. لم تعد المشكلة مقتصرة على خزّان الوقود الايسر، بل تعدّته الى المضخات الست التي تغذي الخزانات الثلاثة. وأيقن

الطيارون عندئذ أن المشكلة تكمن في تدفق الوقود وليس في المضخات. ومع هذا اليقين سرت قشعريرة في أجساد الرجال الثلاثة.

رهاب الاحتجاز

وجد المضيف الأول روبرت ديجاردان صعوبة في تهدئة الركاب أثناء عرض الفيلم. وهو كان طلب من الركاب في مؤخر الطائرة الذين يشاؤون مشاهدة الفيلم أن ينتقلوا الى المقاعد الامامية بسبب عطل في العارضة السينمائية في مؤخر الطائرة. وفيما استجاب عدد منهم لطلبه بقي كثيرون في مقاعدهم وهم يتذمرون.

أخيراً وجد ديجاردان وقتاً للراحة. فسخّن عشاءه وحمله الى الجانب الايسر من مقصورة الدرجة الأولى.

وما ان بدأ تناوله حتى شاهد ريك ديون يفتّش بعينيه عن أحد ما. وهو قال له: "القبطان يطلب حضورك للحال الى مقصورة القيادة."

لم يكن ديجاردان ليجزع بسهولة. وكان هو نفسه طياراً متمرساً. فدعوة القبطان قد تعني أمراً من جملة أمور، مثل عطل في المذياع العمومي أو شكوى من وجبة العشاء أو أي شيء آخر من هذا القبيل. ومهما تكن المشكلة فسوف يحلّها. أزاح طبق الطعام، وهو من اعتاد الوجبات المقطوعة، وسار خلف ديون الى مقصورة القيادة حيث بادر القبطان: "نعم يا كابتن."

جاءه الجواب من كنتال: "إننا متوجهون الى وينيبيغ. ونعتقد أننا نعاني مشكلة في جهاز الوقود. نحن الآن على بعد ١٩٣ كيلومتراً منها، وسوف يستغرقنا الوصول اليها نحو ٢٠ دقيقة."

عندئذ تدخل بيرسن قائلا: "إجمع المضيفين وأعطهم تعليمات الهبوط الاضطراري." لكنه اكدّ عليه ضرورة وضع أفراد الطاقم في حال تأهب من دون إرعاب الركاب.

غادر ديجاردان مقصورة القيادة وفي رأسه شبه دوامة. فالمشكلة أكبر مما تصور. وهو شاهد من اشارات الإنذار المتوهجة ما يكفي للاستنتاج أن الاعطال ممتدة الى أكثر من جزء من الطائرة. بدا له أن الممشى الضيّق الممتد من مقصورة القيادة يطبق عليه ويحتجزه باعثاً فيه شعوراً برهاب خانق. أمَرَ نفسه بالهدوء وباتخاذ جميع الاحتياطات الممكنة لحماية الركاب. أمرٌ واحد كان يقيناً: اذا كان مكتوباً له أن يعلق في طائرة منكوبة فإن الطيار الوحيد الذي يتمنى أن يقودها هو روبرت بيرسن.

تناول ديجاردان كتيّب التعليمات من حقيبته في مقصورة الدرجة الأولى وانتزع منه البطاقة التي تفصّل الاجراءات المتخذة في حال الهبوط الاضطراري. ثم حاول أن يتظاهر برباطة الجأش وبرودة الاعصاب اللتين أظهرهما القبطان ومعاونه.

في مؤخر الطائرة، في الصف الاوسط من مقاعد الركاب، جلست المضيفة آن سويفت وفي حضنها مفكرة صغيرة. رفعت بصرها الى ديجاردان المتوجه نحوها ولاحظت التعبير الجدي الذي ارتسم على وجهه.



نهضت سويفت من مكانها، فأمسكها ديجاردان من ذراعها قائلا: "لنذهب الى المطبخ."

التقطت المضيفة دانيبيل ريندو نبرة الالحاح في صوته، وهي كانت على بضع خطوات منهما. فتصلّب جسدها فجأة واغرورقت عيناها. ربّت ديجاردان كتفها مطمئناً وقد أدرك أن صوته خانه، وقال: "لا تقلقي يا دانيبيل، لعلّ الامر ليس خطيراً."

وصلت الرسالة الى أفراد الطاقم جميعهم، فتحلقوا حول ديجاردان الذي راح يتفحص كتيب الطوارىء مردداً بصوت خافت: "لا تقلقوا."

انهيار محرك

ترددت الاصوات الاربعة المشؤومة مرة أخرى في مقصورة القيادة. واستمرت الانذارات تتوالى على الشاشة معلنة انهيار كل من مضخات الوقود الست. تمتم بيرسن: "آمل أن تكون هذه انذارات مضلّلة." ثم سأل ديون: "هل يسعك أن تفكر في أي شيء لم نفعله بعد؟"

فأجابه: "كلا يا بوب."

سمعت أربعة أصوات أخرى أعقبتها بضع دقائق من الصمت المطبق ما لبثت أن

قطعته الأصوات الاربعة إياها. وللمرة الاولى في حياته وجد بيرسن نفسه في وضع يصعب توقع نتائجه. لقد اتضح أن المحركات كانت عطشى الى الوقود. ولم يملك الرجال سبيلا لتقدير الوقت المتبقي قبل أن تتوقف المضخات نهائياً عن التغذية... فتتوقف المحركات.

راح بيرسن يوجه الطائرة برفق وحذر خشية تحميل المحركات عبئاً يفوق طاقتها. تباحث مع ريك ديون حول الطريقة الفضلى للمحافظة على الوقود أطول فترة ممكنة. واتفق الإثنان على حفظ الطائرة في وضع أفقي بدل أن يكون مقدمها منحدراً، كي تفيد المحركات من الوقود المتبقي في الانابيب.

أربعة أصوات ملحاحة أخرى قطعت عليهما الحديث، وأغارت على مقصورة القيادة أصوات غريبة وأضواء مخيفة تنذر بالشر وتنبّه الى سلسلة من المشاكل بلغت أوجها عندما تبيّن أن ضغط المحرّك الايسر منخفض، كذلك حرارته.

مضت على بدء المحنة تسع دقائق بدت دهراً، حينما علا في المقصورة رنين حاد روّع الرجال الثلاثة.

قال بيرسن مؤكداً الإنذار: "حسناً، لقد خسرنا المحرك الايسر."

بدأ الطياران عملية مدروسة جيداً:

قال كنتال بنبرة حادة: "الطاقة المحرّكة والتروس كما ينبغي."

"تأكد،" أجابه بيرسن.

- المخنق مقفل، حلّ المخنق الآلي.

"حسناً."

أربعة أصوات منذرة جديدة قطعت كلامهما معلنة انخفاض ضغط الزيت في المحرّك الأيمن وانخفاض حرارته ايضاً.

رمق كنتال بيرسن الذي بدا هادئاً وهو يمسك جهاز القيادة. فذكّر نفسه بواجباته كضابط أول: لن يسعني أن أسدي أي مساعدة الى هذا الرجل إذا فقدت اعصابي. أمَرّ يديه بالتوقف عن الارتجاف وفكّر في أن يتكلم. فاذا نجح في التحكم بصوته فسيكون كل شيء على ما يرام.

شعر بانفراج وهو يشرح وضع الطائرة لبرج المراقبة في وينيبيغ، فهو لمس في صوته نبرة أوحت ببرودة أعصاب واحترافاً. قال: "لقد فقدنا محرّكنا الأول. سوف نحتاج الى جميع الشاحنات في الخارج."

وجاءه الإشعار بتلقي الرسالة من رون هويت الذي قال: "الرحلة ١٤٣، أخذنا علماً، سوف نلبي."

ما ان سمع لين دازكو، الضابط المسؤول عن تنظيم عملية هبوط الطائرات، رسالة كنتال عبر المذياع بصوته الذي أغرق القاعة، حتى تناول هاتفاً للطوارىء موصولا مباشرة ببرج المراقبة في المطار، وأعلم المسؤولين هناك بقضية الطائرة المنكوبة طالباً تجهيز معدات الطوارىء في المدرج.

كان واضحاً أن الطائرة تتدهور بسرعة، بدليل ما سمعه المراقبون من كنتال عندما طلب ابدال المدرج الذي عينوه له بآخر.

كان المدرج ٣١ الذي عُيّن في البدء لهبوط الطائرة يمتد من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي. ويتعيّن على بيرسن للوصول اليه أن يدور جنوباً مستهلكاً مزيداً من الوقت والوقود، وكلاهما ثمين، خلافاً للمدرج ١٨ الذي طلب بيرسن الهبوط فيه، فهو يمتد من الشمال الى الجنوب في خط مستقيم ويقع في طريق الطائرة تماماً.

أدرك بيرسن أن عليه الهبوط من دون أن يضيّع دقيقة واحدة.

خوف ملموس

مع اقتراب الطائرة من وينيبيغ انحدرت فجأة الى ارتفاع ٨٠٠٠ متر. وفي الساعة ٨،٢١ مساء بالتوقيت المحلّي غرقت مقصورة القيادة في ظلام دامس.

واختفت جميع البيانات والارقام التي تُبثّ على الشاشة وتظهر سرعة الريح وارتفاع الطائرة واتجاه ابرة البوصلة ومؤشرات الضغط والحرارة ومجموعة الادوات والمعدات الالكترونية، في مقصورة قيادة إحدى أكثر الطائرات تطوراً وتعقيداً في العالم.

تساءل بيرسن غير مصدّق: "كيف حصل هذا؟"

كان الجواب بسيطاً بمقدار ما كان مرعباً. فالمحرّك الايمن انهار هو أيضاً. ومع انهياره توقفت المولدات الكهربائية عن العمل وانقطع التيار الكهربائي. وبدت المقصورة لعيني بيرسن المكان الأحلك ظلاماً في العالم.

مستحيل، قال في نفسه. فهذه الامور لا تحصل.

لكنها حصلت. وألفى القبطان روبرت بيرسن والضابط الأول موريس كنتال طائرتهما محلقة في الجو فوق كندا الوسطى على مسافة ١٣٠ كيلومتراً من وينيبيغ، وفي حوزتهما أجهزة وضوابط عاملة هي أقل مما يتوافر في طائرة خاصة صغيرة.

لقد نفد الوقود من خزانات الطائرة. أدار كنتال مجموعة المولدات الكهربائية للحصول على بعض الطاقة، ثم راح يقلّب صفحات كتيّب الارشادات السريعة بحثاً عن التعليمات التي تمكنه من تحرير المحرّك الذي يدار بقوة الهواء وانزاله من موضعه بالقرب من "بئر" الدولاب الايمن. وهذا المحرّك ذو الغطاء المستقل يستخدم قوّة الريح متيحاً للطيار مجالا – وإن محدوداً – للسيطرة على الطائرة. فالهواء الذي يغرفه عبر خطمه، يدير داسراً (مروحة) يوفر مقداراً من الطاقة يتيح لبيرسن، بكثيرمن الجهد والمداراة، السيطرة على الاجزاء المتحركة من جناحي الطائرة وعلى المصاعد والدفّة الموجّهة. وهو تذكر حادثاً حصل له عندما تعطّل محرك سيارته محولاً المقود الهيدروليكي أداة عديمة النفع، ولكي يبقى مسيطراً على السيارة اضطر الى ادارة المقود بقوة يديه. إنه الآن في وضع مماثل، والمهمّ أن يبقى مسيطراً على الطائرة.

اتصل كنتال بمحطة وينيبيغ معلناً تعطّل المحركين.

أنعم هويت النظر الى شاشة الرادار أمامه. فوجد أنه، مع توقف أجهزة الارسال

والاستقبال في الطائرة المنكوبة، اختفت الإشارة التي تبين موقعها، كذلك البيانات المفيدة الأخرى التي يبثها الدماغ الالكتروني في شكل مثلّث من الارقام.

بدا كأن طائرة "الرحلة ١٤٣" اختفت من الجو.

ما ان خرجت عبارة "لا تقلقوا" من فم روبرت ديجاردان الذي أراد طمأنة زملائه حتى تناهى اليهم صوت القبطان بيرسن عبر مكبّر الصوت يطلب من ديجاردان بكثير من الجديّة التوجه للحال الى مقصورة القيادة.

كانت تلك الرسالة بالنسبة الى الركاب أول نذير حقيقي بالخطر.

في حديث مع ديجاردان طرق القبطان الموضوع مباشرة. قال: "لقد نفد منّا الوقود. ونحن مضطرون الى الهبوط في وينيبيغ. أعط الركاب وأفراد الطاقم التعليمات الخاصة بالهبوط الاضطراري."

عاد ديجاردان الى مؤخر الطائرة عبر الممشى الذي سلكه الى مقصورة القيادة. ولاحظ نظرات التساؤل في عيون الركاب، وأحس جو الخوف الذي ساد صفوفهم.

عندما بلغ المطبخ قال بحدة لزملائه المضيفين: "أخرجوا بطاقاتكم الزهرية. يجب أن نقدّم شرحاً حيّاً."

إختاروا شخصاً قوياً

تمركز أفراد الطاقم في أماكن مختلفة من الطائرة. وتناول ديجاردان المذياع وبدأ يخاطب الركاب. لكنه فوجىء برعشة في صوته، فتوقف عن الكلام وتنفّس بعمق قبل أن يتابع. وفيما هو يشرح التعليمات قدم أفراد الطاقم عرضاً حيّاً أمام الركاب.

وممّا قاله ديجاردان: "أصغوا الى هذه التعليمات جيداً. انزعوا أحذيتكم ونظاراتكم وأسنانكم الاصطناعية وأي شيء حاد في جيوبكم. تأكدوا من أن أحزمتكم مثبتة باحكام حول أدنى نقطة من أوراككم. كتفوا أذرعكم وتمسكوا بأعلى المقعد الذي أمامكم. واسندوا رؤوسكم الى أذرعكم."

وفيما ديجاردان يكرر التعليمات ويسهب في شرحها، راح أفراد الطاقم يتنقلون بين الركاب طالبين من كل فرد أن يؤدي الحركات المطلوبة في حال الهبوط الاضطراري.

أما ردّ فعل الركاب فكان مزيجاً من الخوف المكبوت واليأس. فهم، لدقائق خلت، فرغوا من تناول العشاء واسترخوا في مقاعدهم يتابعون الفيلم المعروض أو يقرأون أو يحتسون شراباً أو يتبادلون الاحاديث أو يرسمون الخطط للايام المقبلة. أما الآن فحياتهم في خطر، ولا أحد يدري ما السبب. وتملّك بعضهم شعور كئيب بالعجز، فيما راح آخرون يبكون بصمت.

إكتشفت المضيفة آن سويفت أن في عقلها زاوية تختزن قوة كامنة مكنتها من تأدية وظيفتها على رغم الخوف الذي غزا كيانها. كانت اللحظات المقبلة تنذر برعب يجهل الجميع مداه. وضجّت أسئلة في رأسها: الى متى سيظل القبطان بيرسن مسيطراً



على الطائرة؟ هل ستهبط الطائرة بسرعة فائقة بحيث يتعرض ركابها لفقدان الضغط؟

على رغم خوفها الشديد لم يغب عن بالها أن الركاب يعتمدون عليها. يجب أن تتحقق من أن كل غرض في مكانه بحيث لا يبقى شيء فالتاً ويتحول قذيفة تلحق الاذى بالركاب في حال الاصطدام العنيف. وهي شاهدت إحدى المضيفات ترتب معدات المطبخ بدقة وعناية واضعة كل غرض في المكان المخصص له. فقالت لها: "تخلصي منها فقط." وراحت تقذف كل ما وصلت اليه يداها من غلايات قهوة وشاي وزجاجات صغيرة في سلة كبيرة للنفايات.

فجأة سمعت رنيناً متواصلا لا يُخطأ. نظرت الى أعلى فرأت ضوء الطوارىء متوهجاً. وأوصلتها معرفتها الضئيلة بعمليات الطيران الى استنتاج رهيب: لقد شغّلوا بطاريات الطوارىء لان المحركات توقفت عن مد المولدات، أي انهم فقدوا المحركين الاثنين في الطائرة.

لم تنبس سويفت بكلمة خشية أن ترعب الركاب وتفقد هي نفسها أعصابها إن عبّرت عن مخاوفها بالكلام.

شعرت دانييل ريندو بخدر يسري في جسدها، وأدركت أنها تعاني أعراض صدمة، لكنها استمرت تنتقل بين الركاب وتشرح لهم التدابير المتبعة في الحالات الطارئة. بدت أصواتهم مكبوتة كأنها آتية من بعيد. ولاحظت دانييل ان تنفسها أصبح سطحياً وسريعاً وشعرت ببرد شديد.

بعد شرح التعليمات الخاصة بالهبوط الاضطراري والتحقق من أن كل فرد من الركاب بات يعي ما هو مطلوب وتحرير مقصورات الركاب من أي عائق أو عقبة قد تعترض

طريقهم، انتقل افراد الطاقم الى المهمة التالية المدوّنة في بطاقاتهم الزهرية والتي قضت بأنْ يختار كل منهم راكباً قوي البنية - ومن الأفضل أن يكون ذكراً في مقتبل العمر - ويجلسه قرب أحد مخارج الطوارىء ويجعله مسؤولا عنه وعن إجلاء الركاب في حال إصابة الموظف المسؤول أو وفاته.

سمع روبرت ديجاردان يقول للراكب نيجيل فيلد: "تبدو لي رجلا رابط الجأش. هل تسمح بتغيير مقعدك؟ نودك أن تجلس قرب مخرج الطوارىء في محاذاة جناح الطائرة."

أجابه فيلد بامتنان إذ اتاح له عملا يؤديه بدل الاستسلام لما هو آت: "يسرّني أن ألبي طلبك." ثم نهض وسار خلف ديجاردان الى مخرج للطوارىء في الجهة اليمنى.

وبعدما استقرّ في مكانه الجديد وأحكم حزام المقعد حوله، علّمه ديجاردان كيف يُفتح الباب وشرح له نوعين من الاجراءات. النوع الاول يطبّقه في حال وجد القبطان سطحاً مناسباً للهبوط وتمكن من انزال العجلات. عندئذ، بناء على إشارة من ديجاردان، يفتح فيلد الباب وينشر منزلقات الطوارىء كي ينزلق عليها الركاب خارجاً. أما إذا اضطر القبطان الى الهبوط على الماء من دون انزال العجلات - وإن حصل ذلك فسوف يكون على الأرجح في مياه بحيرة وينيبيغ غير المضيافة - فيتعين على فيلد عندئذ أن يستخدم مخلا مختلفاً يؤمن فتح الباب من غير انزال المنزلقات. وأنهى ديجاردان كلامه قائلا: "إياك أن تفتح الباب قبل أن أعطيك الاشارة."

حاول فيلد التركيز وراح يسترجع التعليمات في ذهنه. ومع ذلك لم يستطع كبح نفسه عن مراقبة المنظر من النافذة الصغيرة المربّعة. بحيرة وينيبيغ ما زالت بعيدة، لكنها تقترب مع كل ثانية تمر.

طغا على آن سويفت إحساس شاركها فيه كثيرون حولها. شعرت كأنها تراقب نفسها من مسافة بعيدة. للناظر اليها من الخارج بدت تؤدي وظيفتها. أما من الداخل فلم تكن تملك السيطرة على الغليان.

عليّ أن أجد شخصاً قوي البنية، هذا ما رددته سويفت في نفسها وهي تجول بعينيها في الجانب الايسر من مقصورة الركاب حيث جلس بضعة رجال تتوافر فيهم الصفات المطلوبة لكنهم جميعهم في صحبة عائلاتهم، وهي لم ترغب في فصلهم. لا بدّ من أن تجد شخصاً مسافراً بمفرده، ولكن مَن؟ وأين؟ انتقلت الى الجانب الايمن، وهناك لمحت شاباً قوي البنية ممتلىء الجسم يجلس وحده قرب الحاجز الذي يقسم الطائرة حجيرات.

تقدمت منه سويفت وركعت قربه في الممشى واستهلت حديثها معه قائلة: "إننا في حاجة الى مساعدة."

أدرك مايك لورد فجأة أنها تخاطبه. وتابعت: "هل أنت بمفردك؟"

- نعم.

"ما اسمك؟"

- مايك لورد.

"إسمي آني واحتاج الى مساعدتك. أود أن تتولى عني فتح باب الطوارىء وتثبيت المزلقة إذا حصل لي أي مكروه. أتظن أن في وسعك أن تفعل."

- آمل ذلك، أعتقد ذلك.

"تفضل معي إذاً."

سار لورد خلفها الى الجهة اليسرى من مؤخر الطائرة حيث أرته موقع باب الطوارىء، وقالت وهي تشير الى مقعد في الصف الاخير قرب الممشى الايسر: "إجلس هنا."

جلس لورد حيث اشارت وأوثق الحزام حوله ثم سألها: "ماذا تريدينني أن أفعل؟"

قالت: "عندما تحطّ الطائرة، احتاج الى خمس ثوان أو نحوها ريثما يفتح الباب وتنتفخ المزلقة. كل ما أطلبه منك هو أن تسد الممشى ولا تدع أحداً يمرّ. أعطني بين خمس وسبع ثوان فقط، وما ان تسمعني أقول "الآن" إستدر صوب الباب وانزلق الى الخارج وقف في أسفل المزلقة لمساعدة الآخرين وهم يهبطون. هل يمكنك أن تفعل ذلك؟"

هز مايك لورد رأسه ايجاباً.

تغيير في الخطط

واصل دون هويت، ضابط حركة الهبوط، تفتيشه عن إشارة ما على الشاشة التي ظلت خالية. إتصل بالطائرة وقال بنبرة يائسة: "لقد فقدنا إشاراتكم." ثم راح يدير الأقراص أمامه بارتباك ظاهر لتحويل الاتصال الى وينيبيغ، الوحيدة التي تملك جهاز رادار مباشر. أنعم نظره في الشاشة، فظهرت عليها صورة مضيئة في المنطقة التي افترض ان الطائرة المنكوبة فيها. ولم يلبث أن نجح في اعادة الاتصال بها. وكان ذلك أول تحوّل حسن في حظ الطائرة.

في مقصورة القيادة راح بيرسن يفكر بصوت مرتفع: "حسناً، ما هي أفضل سرعة للهبوط؟" لم يجد في دليل الطيارين أي تطرق أو إلماع الى موضوع الانزلاق الهوائي كطائرة شراعية، والهبوط بطائرة "بوينغ ٧٦٧" توقف محرّكها. لكن بيرسن كان يجمع، الى خبرته في الطيران، معرفة بالانزلاق الهوائي بحكم عمله سنوات طويلة مدرباً على الطيران الشراعي.

كان بيرسن يعلم، استناداً الى خبرته الشخصية، أن هناك سرعة مُثلى لابقاء الطائرة في الجو أطول فترة ممكنة. فالهبوط الفائق السرعة والهبوط المفرط في البطء كلاهما خطأ مميت.

قدّر بيرسن ان سرعة ٤٠٠ كيلومتر في الساعة تتيح للطائرة بلوغ المدى الأقصى، لكن الطريقة الوحيدة لمعرفة سرعتها في الهبوط كانت التخمين. إنه أسلوب في الهبوط لم يسبق أن جرّبه أحد. لم يكن أحد يدري مقدرة الـ"بوينغ ٧٦٧" على الانزلاق.

في تلك الاثناء ورد تقرير من ضابط حركة الهبوط هويت يقول فيه: "تشير أجهزتنا الى انكم على مسافة ١٠٥ كيلومترات من وينيبيغ وحوالى ٧٢ كيلومترا من جيملي."

قال كنتال وهو يرمق بيرسن: "جيملي، إنه مدرج طويل." فذلك المطار العسكري كان ذات يوم يضج بالحركة، لكنه مقفل منذ العام ١٩٧١.

عرض بيرسن البدائل المتاحة ثم سأل: "هل هناك معدات للطوارىء في جيملي؟"

فأجابه هويت بالنفي، وأضاف: "ليس فيها سوى مدرج واحد، على ما أعتقد، ولا نملك أي معلومات عنه، وليست فيه أجهزة مراقبة." بعد تردد قصير قال بيرسن "إننا نفضّل وينيبيغ إذاً."

لكسب مجال أوسع للمناورة أراد بيرسن أن يصل بطائرته الى المطار وهي على علو كيلومتر ونصف كيلومتر. وكان موريس كنتال رسم صورة سريعة لخطة الهبوط مسجلا ارتفاع الطائرة وبُعدها عن وينيبيغ معتمداً المعلومات الواردة من المراقبين والتي أفادت أن أمامهم مسافة ٩٠ كيلومتراً فيما الارتفاع المتبقي لا يتعدى ٣٠٠٠ متر. ومعلوم أنه مع اقتراب الطائرة من الأرض حيث الهواء أكثر كثافة تخفّ سرعة هبوطها. ولكن أتراها ستخف بالمقدار المطلوب؟

نظر كنتال الى بيرسن وقرأ في إطباقة فكيّه تصميماً، فهو بدا أشبه براعي بقر (كاوبوي) متشبث بجواد يشب مهتاجاً في مباراة لعرض البراعة. قال كنتال: "لن ننجح. سنكون على ١٩ كيلومتراً دون الهدف."

وما لبث لين دازكو في وينيبيغ أن أكد هذا الامر على أساس الدوائر التي ارتسمت على شاشة الرادار أمامه. وهو قدّر أن الزاوية التي اعتمدتها الطائرة للانزلاق الهوائي ستوصلها الى الأرض في نقطة تبعد ١٦ كيلومتراً عن المدرج.

سأله بيرسن عن المسافة التي تفصل الطائرة عن جيملي، فأجاب: "حوالى ١٩ كيلومتراً."

- استفسر بيرسن: "الى اليمين؟"

– نعم، الى يمينك.

اتخذ بيرسن قراراً نهائياً. كانت الحكمة تقضي بأن يتوجه بالطائرة الى بقعة من الأرض معبدة بالاسفلت. وكان على يقين أنه سوف يجدها. وخامره شك بالنسبة الى وينيبيغ، لكنه كان واثقاً بقدرته على الوصول بالطائرة الى جيملي. فسأل: "هل لك ان ترشدنا اليها؟"

أعطاه دازكو تعليمات كي يستدير بالطائرة ٣٤٥ درجة الى اليمين. وهكذا، بعد ٢٤ دقيقة من سماعه الانذار الأول، وجد بيرسن نفسه "يكدح" بآلاته منجزاً انعطافاً حاداً الى اليمين أتبعه بانزلاق صامت الى ما تحت حجاب الغيم. ثم أكمل تحليقه متجهاً من الشمال الى الشمال الغربي في محاذاة الضفّة الغربية لبحيرة وينيبيغ، مفضلا المجهول الذي ينتظره في قاعدة عسكرية مهجورة خارج بلدة جيملي الريفية على الامن المتوافر في مطار من أعظم المطارات وأكبرها، فهذا الآن أمن مشكوك فيه.

كان المدرج الشرقي في مطار جيملي مفتوحاً أمام الطائرات الخفيفة، أما المدرج الغربي فتحوّل ميداناً لسباق السيارات تستخدمه النوادي الرياضية في المنطقة. وكان نادي السيارات هناك شق حلبة للسباق طولها كيلومتران، وشكل فيها المدرج القديم الخط المستقيم النهائي.

ذلك السبت نظّم الهواة سباقاً للسيارات في الطرق الخلفية لبلدية جيملي. وعند انتهائه عادوا الى مقطوراتهم وخيمهم المنصوبة في القاعدة العسكرية السابقة وفي بقعة متاخمة للمدرج الغربي الذي توقف استخدامه. واستعدوا للاستمتاع بوجبة شواء وأمسية هادئة من أمسيات الصيف في كندا حيث يتأخر غياب الشمس، والاستراحة تحضيراً لسباقات الاحد.

مناورة لا تصدّق

بعدما أضحت الطائرة تحت الغيم تحقق بيرسن وكنتال بأم العين من أنها تتجه شمالا في موازاة ضفة بحيرة وينيبيغ. جعل بيرسن مقدم الطائرة مصوباً على امتداد طريق عامة ممتدة في محاذاة الماء. ورأى الطياران تحتهما أرضاً زراعية تتخللها مجموعات من البيوت الصغيرة والمنازل المتواضعة. وما لبث ان ظهر أمامهما قرب الشاطىء المنظر المألوف لمدرج مستقيم.

انساب صوت لين دازكو عبر مكبّر الصوت في مقصورة القيادة: "يبدو أنكم متوجهون نحو المدرج. أظن أمامكم ١٦ كيلومتراً طيراناً."

من دون الجنيحين المتحركين لتخفيف حدة الاندفاع راحت الطائرة تقترب من المدرج بسرعة. وهذان الجنيحان يعملان، في الاحوال الطبيعية، على تخفيف سرعة الطائرة الى ٢٤٠ كيلومتراً في الساعة، أما في غيابهما فسوف يتعين عليها أن تحط بسرعة ٣٣٠ كيلومتراً. ومعنى هذا ان الطائرة ستحاول الهبوط بكوابح تعمل جزئياً، ومن دون محركات تسمح بالمناورة. ومعناه أيضاً أن تلك كانت فرصتها الوحيدة.

أجاب بيرسن: "حسناً، إننا في الطريق اليه. هل هناك معدات... أي معدات للطوارىء يسعكم احضارها من البلدة؟"

- نعم. سوف نحضر كل ما يمكننا احضاره.

لم يعد لدى ريك ديون ما يفعله في مقصورة القيادة. جالت في ذهنه فكرة صامتة وهي أن ايقاف الطائرة في الوقت المناسب سيشغل بيرسن الى أبعد حد ويستحوذ على كل اهتمامه. ففضّل ان ينضم الى زوجته بيرل وابنهما كريس. فقال لبيرسن: "انني عائد الى مقعدي يا بوب."

نظر ديون من النافذة وهو يجتاز الممشى الايسر ورأى حقول العشب تقترب. اما في الداخل فطالعه مشهد يوحي الانذهال والهلع. عدد كبير من الركاب أقاموا حولهم دعائم من الوسادات والحرامات، فيما جثم عدد آخر متخذين الوضع الملائم للهبوط الاضطراري. امرأة واحدة فقط جلست في مقعدها مستقيمة الظهر وراحت تنشج.

قال ديون لزوجته متكتماً: "سوف تهبط الطائرة في جيملي لتتزود الوقود."
فسألته: "هل فيها ما يكفي من الوقود لتهبط بسلام؟"
أدرك ديون أن جميع من كانوا في مرمى السمع منه ينصتون، فأجابها كاذباً: "نعم." وتمنى لو تتوقف عن التكلم في الموضوع.

تابعت الطائرة انحدارها السريع فيما سمّر كين موهر نظره على المشهد من النافذة قرب كريستال. شاهد طريقاً عامة وعدداً من السيارات. ولم يرغب في رؤية المزيد فأسدل ستار النافذة وقال: "سيكون كل شيء على ما يرام يا حلوتي." ثم انتظر متوقعاً أن يسمع صوت تحطم الطائرة التي باتت على ارتفاع منخفض جداً.

الا ان بيرسن وكنتال كانا مقتنعين بخلاف ذلك. فارتفاع الطائرة ما زال في نظرهما اكثر مما يجب، وإذا هما لم يتصرفا بسرعة فسوف تتجاوز الطائرة المدرج لتستقر في الحقول وراءه أو، في حال أسوأ، فوق إحدى مجموعات البيوت شمال المطار.

فكّر بيرسن في لحظة أن ينعطف بالطائرة ٣٦٠ درجة، لكنه خشي أن تنخفض أكثر من اللزوم فتقصِّر عن بلوغ الهدف. من جهة أخرى، إنزال جهاز الهبوط يساعد في تخفيف السرعة. فقال: "حسناً يا موريس، إخفض جهاز الهبوط."

جذب كنتال الرافعة الى أسفل، وانتظر الاثنان الصوت الانفجاري المطمئن الذي يعلن استجابة الجهاز. لكن شيئاً من هذا لم يحدث. وبدل الدوي المألوف، خيّم على المقصورة صمت ثقيل.

كانت الطائرة تفتقر الى الضغط الهيدروليكي الكافي لتحريك الجهاز في الاتجاه المطلوب. مدّ كنتال يده الى محوّل بديل موصول بالجهاز الاصلي يستخدم لسحب المسامير المعدنية التي تبقي أبواب الجهاز موصدة أثناء الطيران وبالتالي تبقي العجلات مرفوعة. وكم كان سرور الرجلين بالغاً عندما سمعا صوت تحرر العجلات وشعرا بالاهتزاز الناشىء من المقاومة الهوائية المتزايدة. عندئذ فقط تضاعفت سرعة انحدار الطائرة.

على لوحة جهاز القيادة أمام كنتال ظهر ضوءان أخضران اشارة الى أن جهازي الهبوط الاساسيين اللذين يضعان العجلات الكبيرة تدليا وثبتا في مكانيهما، وظهر ضوء ثالث كهرماني متوهج أنبأهما أن الجهاز الامامي نزل جزئياً من مكانه لكنه لم يثبت. وهو، بخلاف الجهازين الاساسيين اللذين تدليا جانبياً ما ان هبطا من محاجرهما، كان يجب أن يندفع الى الامام، لكنه قصّر امام مقاومة الريح.

لكن انشغال بيرسن الفائق بمشكلة أخرى حال دون ملاحظته ما حصل. فهو شعر للحال، استناداً الى خبرته السابقة وحدسه المرهف، بأن المقاومة التي نشأت كانت دون المطلوب وهي بالتالي لن تمنع الطائرة من الهبوط في نقطة متقدمة ومن مواصلة اندفاعها خارج المدرج. كان عليه أن ينحدر بالطائرة اكثر وأسرع.

أدار بيرسن المقرن (yoke) الى يساره وضغط بقدمه دوّاسة الدفة اليمنى منتزعاً استجابة فورية من الجنيحين المتحركين في الخارج، اذ ترجّح الجنيح الايسر صعوداً

فيما هبط الايمن، وهذا من شأنه، في ظروف طبيعية، أن يعطف الطائرة الى اليسار. لكن بيرسن أبقى قدمه على الدواسة دافعاً الدّفة الخلفية الى اليمين ومتصدياً لقوة الجنيحين.

القوتان المتقابلتان اللتان انبثقتا من الاجهزة المتعارضة، جعلتا الطائرة تميل بحدة الى جانبها الايسر وعرّضتاها لضغط كبير، لكنهما في الوقت ذاته ولدتا مقاومة شديدة أحدثت هبوطاً مفاجئاً وسريعاً في سرعة الهواء وفي الارتفاع.

وفي مناورة جديدة لم يسمع بها في عالم الطائرات النفاثة، جعل بيرسن الـ"بوينغ ٧٦٧" العملاقة تنزلق جانبياً.

شعر ريك ديون بالطائرة تميل فجأة على نحو خطر. وأعقب ذلك شعور متسارع بالسقوط. ثم بدأت الطائرة تترجج وتهتز وتثب وترتد وتقعقع، وكانت اقتربت من الارض كثيراً فراحت تمسح رؤوس الاشجار.

فكر ديون: إنه يفقد السيطرة عليها، وسوف تكون نهايتنا إذا ضرب طرف الجناح بأي شيء.

والحقيقة ان امكان إقدام بيرسن على تنفيذ انزلاق جانبي لم يخطر في باله قط، ولا هو اعتقد أنه يملك القوة لابقاء أجهزة القيادة في وضع متعارض.

قرار موجع

نظر كنتال من النافذة. كانت الطائرة اقتربت من المهبط كثيراً بحيث رأى، ليس فقط علامات الحروق السوداء التي تخلفها إطارات المطاط، بل شيئاً آخر أيضاً. رأى أشخاصاً يقفون وسط المدرج غير منتبهين للطائرة المقتربة منهم بصمت. كانت الطائرة متجهة صوب المدرج المهجور. فالاسفلت الاسود الذي غطى المدرج المستعمل كان قاتماً جداً بحيث تعززت رؤيته من الجو.

ركّز بيرسن انتباهه على حدّ المدرج حيث الامل الوحيد. من دون معدات، كان عليه أن يقدر سرعة الطائرة. وهو لم يجرؤ أن يحوّل نظره لحظة عن نقطة الهدف. فكل ذرة من طاقته استنزفها الجهد الذي تطلبه الانزلاق الجانبي. وتصبب العرق من جبينه بغزارة.

بتصميم وعناد أبقى بيرسن الطائرة في وضع الانزلاق الجانبي مدة طويلة حتى أن كنتال نفسه خشي أن يضرب طرف الجناح الايسر بالأرض. وعندما أرخى بيرسن قبضته عن جهاز القيادة كانت الطائرة على ارتفاع ١٢ متراً فقط.

جال في ذهن كنتال أن بيرسن لم يكن متنبهاً الى وجود اشخاص يتحركون على المدرج. هل أنبهه يا ترى؟ لا، فالاوان لذلك قد فات.

اتخذت الطائرة وضعاً أفقياً. وما لبثت، في الوقت المحدد تماماً، أن بلغت الهدف. ومن مكان ما في مقدّم المقصورة انطلقت صرخة: "استعدوا!"

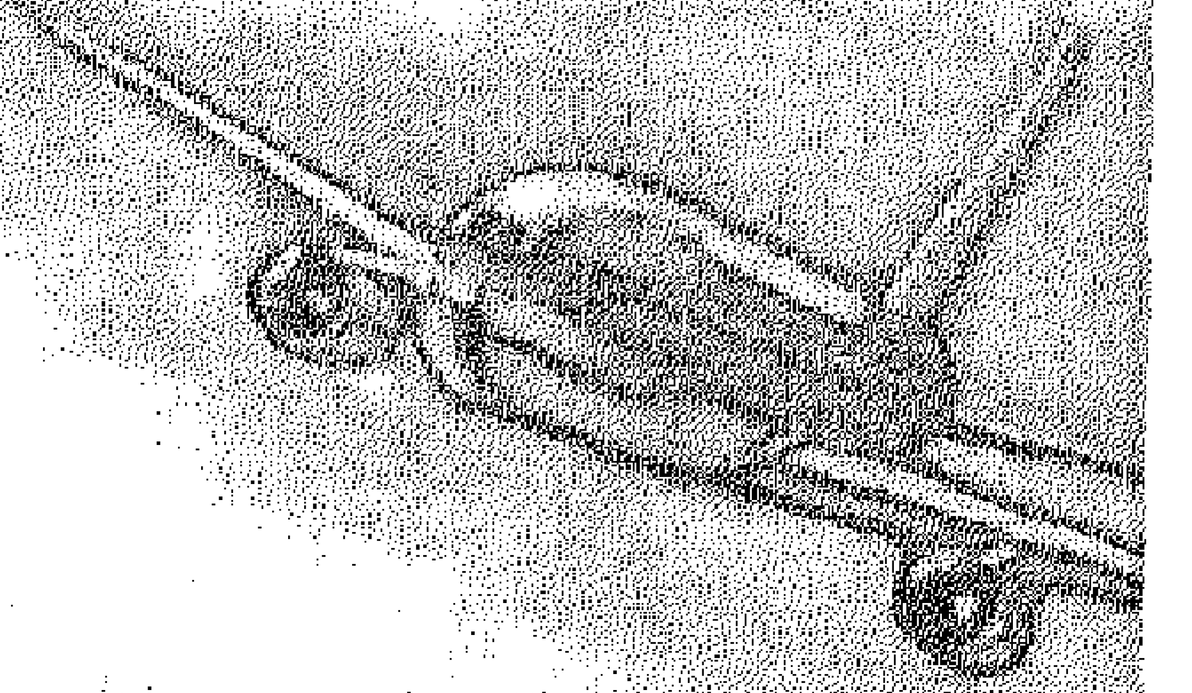
كان كام بيرغلند، وهو فتى في الثالثة عشرة من عمره، يقود دراجته الهوائية بنشاط محاولا سبق أقرانه. فساعات المساء الأولى في جيملي كانت دائماً مهمة بالنسبة الى

الصبية. وهم اعتادوا أن يغتنموا خلو الحلبة من السيارات بعد السباق ليحولوها ملعباً لانواع المباريات والالعاب. وذلك اليوم ركبوا دراجاتهم وانطلقوا بها جنوبا صوب ما كان يوماً المدرج الايسر الرقم ٣٢، مبتعدين عن جماعة المخيمات والعربات والشاحنات المتوقفة قرب الجزء المستقيم من المدرج.

كان كام يقود دراجته بحماسة حين رفع بصره مصادفة، فشاهد الشبح الصامت لطائرة ضخمة وقد هبط جناحها الايسر ومالت على نحو غريب. راحت الطائرة تهبط بسرعة. جمد الفتى في مكانه كمن مسّه تيار كهربائي. ثم رأى الطائرة تستوي وتوجه مقدمها نحوه مباشرة.

على الفور دار الصبية على أعقابهم وانطلقوا على دراجاتهم مبتعدين. وكانت ساقا كام ترتفعان وتنخفضان باهتياج على دواستيه، وهو صرخ في الناس المتجمعين عند حافة المدرج: "هناك طائرة تسقط."

في الساعة ٨،٣٨ مساء مالت الطائرة بثقلها فوق المدرج ونجح ببرسن في اصابة



١٩٨٩ بوينغ في مهب الريح



الهدف بإحكام شبه تام محققاً عملا بطولياً لافتاً. فهو تمكن من الهبوط بطائرة نفّاثة توقفت محركاتها متجاوزاً الحدود بـ٢٤٥ متراً فقط. (تجاوز الحدود بـ٣٠٠ متر يعتبر طبيعياً في الهبوط). انه نجاح باهر لم يتسن له أن يستمتع به لحظة.
فبعد انفجار عجلتين في جهاز الهبوط الرئيسي الايمن اندفعت الطائرة بسرعة ٣٣٠ كيلومتراً في الساعة، وهي تفوق السرعة الطبيعية كثيراً. أدرك بيرسن أن عليه ايقافها قبل أن تصطدم بشيء.
ضغط دواسة الدفة بعقبي حذائه، وشد الكوابح ما تبقى له من قوة. انخفض مقدّم الطائرة قليلا. وانتظر بيرسن أن يسمع صوت العجلة الامامية وهي تضرب الأرض. ولكن بدل ذلك الصوت المكتوم والمألوف سمع صوتاً انفجارياً قريباً أشبه بصوت طلقات نارية. كانت الطائرة تنزلق على مقدمها فوق المدرج وحولها سحابة من الدخان الابيض.
رفع بيرسن نظره الى المدرج فلمح بطرف عينه فتى يمتطي دراجة. تلك كانت أصعب لحظة واجهها في مهنته. إذ تحتم عليه أن يتوصل الى قرار سريع... القرار الاشد إيلاماً في حياته.
لا، لن أصدم أحداً، وإن اضطرني ذلك الى الانحراف بالطائرة عن المدرج. ذلك كان العهد الذي قطعه على نفسه وأقسم أن يلتزمه.
من دون عجلة أمامية توجّه الطائرة لجأ بيرسن الى الكبح التفاضلي، فراح يضغط بقدميه دواستي الكوابح اليمنى واليسرى مناوبة في محاولة لإبقاء الطائرة وسط المدرج. رأى الآن أناساً كثيرين يتبعثرون يميناً ويساراً مندفعين خارج المدرج.
اصمد! اصمد! أمر نفسه وهو يعدّ الثواني قبل أن يضطر، ربما، الى الكبح في أقصى اليمين بعيداً عن السلامة النسبية التي توفرها الطريق المعبدة.
وما لبث أن برز خطر آخر، يعيد الاحتمال انما محيّر. فعلى طول المدرج في الوسط، كتدبير احترازي، أقيم سياج معدني للحماية. ضاعف بيرسن ضغطه الكابح الايمن مما جعل غطاء المحرّك الايمن يكشط الأرض محدثاً شلالا من الشرر. انحرفت الطائرة قليلا وتابعت انزلاقها فيما صدم الجانب الايسر من مقدمها السياج المعدني الواطئ مقتلعاً الاعمدة الخشبية.
ترددت في الغسق أصداء تكسّر حاد فيما تابعت الطائرة اندفاعها والناس حولها يتراكضون طلباً للامان. بعضهم جمدوا في أماكنهم عاجزين عن أي حركة، مسمرين قرب خيمهم ومشاويهم. ومع تكسّر مزيد من الاعمدة خف صوت صرير المعدن على المدرج وخفت سرعة الطائرة الى أن توقفت تماماً، وكانت لا تزال على المدرج.
كان بدن الطائرة سليماً غير مخدوش. وهي على الأرض! رفع الركاب رؤوسهم وتطلعوا حولهم بذهول. وعندما أدركوا أنهم ما زالوا أحياء يرزقون غمرتهم موجة من الابتهاج العارم ودوّت في الطائرة أصوات التصفيق وصرخات الفرح.
هبّ المضيفون الى العمل. صحيح أن الطائرة أصبحت على الأرض، الا أن خطر الحريق ما زال داهماً وما زالت صورة المأساة التي حلّت بشركة الخطوط الجوية الكندية

حية في أذهانهم. فقبل شهر شبّ حريق في حجرة المغاسل في طائرة من طراز "دوغلاس دي سي ٩" وهي في الجو. ومع أن الطيارين تمكنوا من الهبوط بها الا أن ٢٣ راكباً قضوا اختناقاً بالدخان قبل أن يتم إجلاؤهم.

والآن بدأ الدخان يتصاعد مالئاً المقصورة. راح الموظفون يصرخون بالركاب: "هيا، أسرعوا! علينا أن نخرج من هنا."

إخلاء الطائرة

لحظة توقفت الطائرة فك مايك لورد حزام مقعده وقفز الى الممشى الأيسر في المؤخر. سدّ المخرج عملا بتعليمات سويفت في انتظار أن تفتح الباب وتحرر المزلقة. الا أن الركاب راحوا يتراكضون صوب الباب وقد استبد بهم الخوف.

ما ان سمع لورد سويفت تصرخ: "حسناً، الآن يا مايك،" حتى استدار صوب الباب المفتوح. لكنه فوجىء بالمنظر وبدا عليه الانشداه. فالمسافة بينه وبين الأرض بدت بعيدة، والقفز من فوق كان كالقفز عن سطح منزل.

لم يكن هناك وقت للجدل، فالطائرة قد تنفجر في أي لحظة.

بقفزة استقر مايك على المزلقة جالساً وراح ينزلق عليها بسرعة، فأمسك حافتيها غريزياً بيديه الاثنتين اللتين مزّق الاحتكاك جلدهما.

بسبب انهيار جهاز الهبوط الامامي استقرت الطائرة في وضع مائل، فانخفض مقدمها وارتفع ذنبها في الهواء مما جعل المزلقة تقصر متراً عن بلوغ الأرض. سقط لورد على الارض بعنف. دفعته قوة الصدمة الى الامام وظلّ يتقلب حتى استقر على بعد ثلاثة أمتار من المزلقة. نهض من سقطته وعاد الى أسفل المزلقة غير آبه بما أصابه.

أخذ صوت سوزان جويت يعلو حتى تحوّل صراخاً: "هيا! هيا! تحركوا جميعكم!" يا للحظا قالت في نفسها. فبسبب انحناء مقدم الطائرة باتت المزلقة في المؤخر شبه عمودية وقصرت بضعة أمتار عن بلوغ الارض. صعب عليها أن تصدق أن هؤلاء الركاب الذين نجوا من الموت المحتم وهم في الجو يواجهون اجراء للاخلاء ربما كان سبب هلاكهم على الارض.

حمل ريك ديون ابنه كريس بين ذراعيه وقاد زوجته بيرل في اتجاه باب الخروج بالقرب من الجناح الايسر.

وصلوا الى الباب تتقدمهم بيرل، فقال لها ريك: "هيا! هيا!" وكان عدد من الركاب بدأوا اخلاء الطائرة. لكن بيرل صُعقت عندما رأت الهوة أمامها والتي تجاوزت ثمانية أمتار فصرخت "لا أستطيع!"

لفّ ريك ابنه بذراعيه وقال: "سوف أنزل مع كريس. أنظري، إنه أمر بسيط." وقفز الى المزلقة وراح يتزحلق بسرعة. ضربت قدماه بالارض أولا، فراح "يتشقلب" ممتصاً الصدمة بجسده الذي شكّل لابنه الدرع الواقية. ظلت بيرل حارنة حتى دفعها أحدهم فجأة فانزلقت الى الامان.

أول النازلين اندفعوا الى الاسفل بسرعة كبيرة عجز معها مايك لورد عن صدّهم والحؤول دون اصطدامهم بالارض كما حلّ به قبلهم. لكنه الآن وقف جانباً وراح يحاول أن يمسك بهم من تحت آباطهم آملا أن يخفف ذلك من سرعة اندفاعهم. وسمع صراخ امرأة آتياً من فوق. وعندما رفع بصره رأى راكبة في حال من الاهتياج وقد تعلقت بطفل ووقف الاثنان في الباب.

وعدها لورد: "إقفزي وسوف أتلقى الطفل."

انزلق الاثنان صوبه: المرأة بجسم متصلب مشدود والطفل بين ذراعيها الأمينتين. ارتمى لورد الى الامام ونجح في تخفيف سرعة اندفاعهما. وعندما بلغا الأرض سمع لورد اصطكاك أسنان المرأة التي نجحت في ايصال الطفل سالماً.

واصل مايك لورد عمله عند أسفل المزلقة ممتصاً لطمات الركاب الهابطين. وداخل الطائرة كان نيغل فيلد يساعد الركاب على اخلاء المقصورة التي امتلأت بالدخان. أخيراً لم يبق في الطائرة سوى مضيفة وقفت في الباب.

وما ان قفزت الى المزلقة حتى ارتمى لورد في طريقها وتلقاها بذراعين مفتوحتين ما لبثتا أن أطبقتا حولها وتدحرج الاثنان الى الارض.

طائرة شراعية

على رغم الدخان الكثيف الذي ملأ قمرة القيادة راح بيرسن وكنتال يعملان وفق التعليمات المتبعة لاخلاء الطائرات في الحالات الطارئة. قطع كنتال التيار الكهربائي معطلا مفاتيح الوقود. لكنه سرعان ما تذكر أن الطائرة خالية من الوقود. يا للسخافة! قال في نفسه وتابعا العمل، فانتزعا محوّلات الزيت والكهرباء والطاقة الهيدروليكية ثم عطلا بطارية الطوارىء وأسرعا بالخروج من القمرة وهما يسعلان.

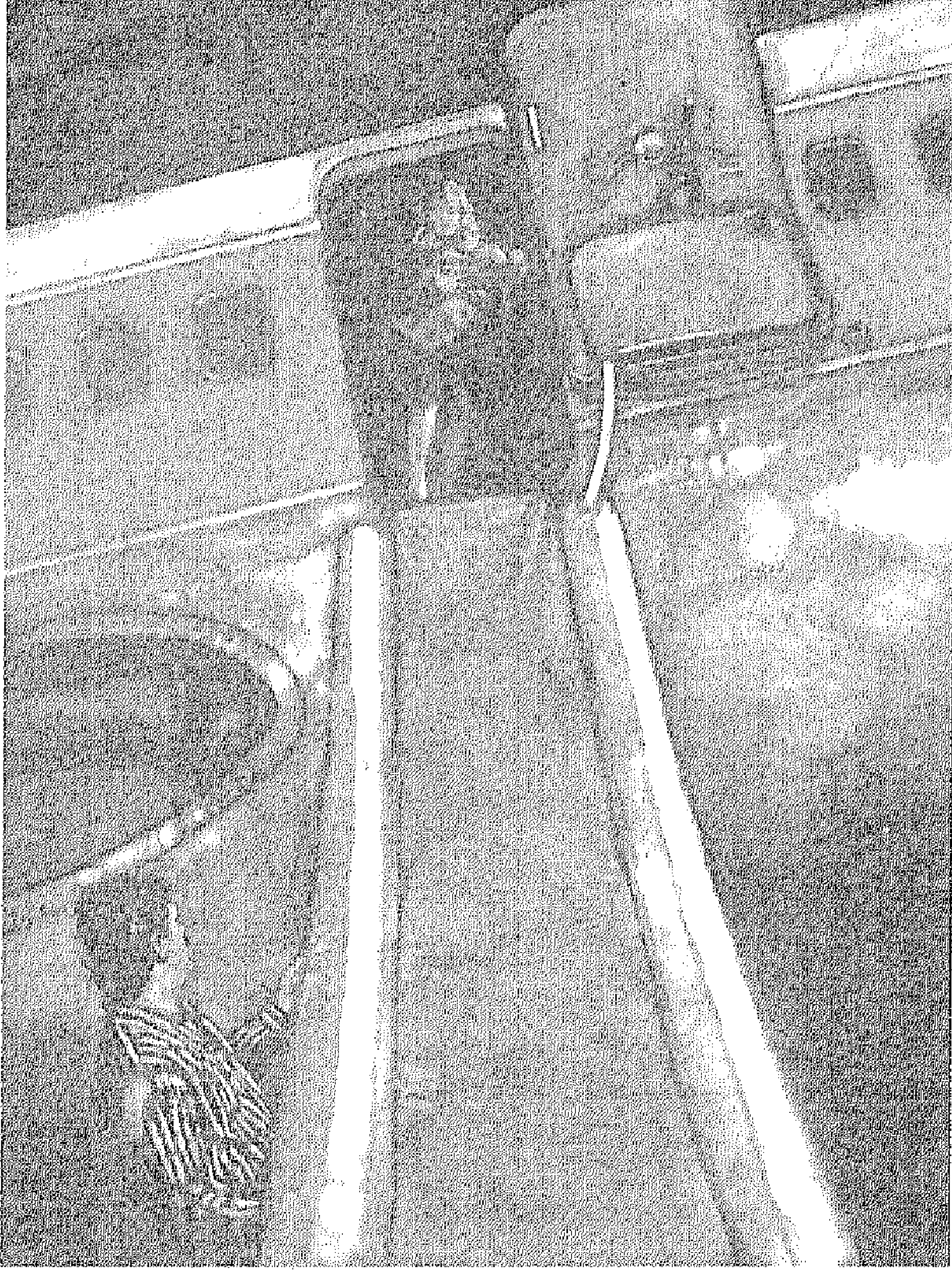
حمل كل من بيرسن وديجاردان مشعلا كهربائياً وجالا في الطائرة. وبعدما اطمأنا الى خلوها من الركاب حول القبطان انتباهه الى الطائرة ذاتها. أراد أن يعرف مصدر الدخان وان يطفىء النار قبل أن يستفحل ضررها.

في غضون ذلك أودع ريك ديون عائلته مكانر آمناً وعاد الى الطائرة. التقى بيرسن في الخارج قرب المقدم وهو يقلّب بين يديه مطفئة للحريق.

قال له بيرسن: "لقد قطعنا بها كل تلك المسافة ولن أدعها تحترق الآن!"

دخل بيرسن وديون الطائرة من الجهة الامامية حيث المخرج شبه مستو مع الارض. شاهدا دخانا بنياً مدوماً في قمرة القيادة وفي الجزء الامامي من مقصورة الركاب. رفعا بعض السجاد، وما ان فتحا الباب الصغير المؤدي الى مركز الخدمات الالكتروني في مقدم الطائرة حتى طالعتهما كتل من الدخان السام دفعتهما الى الوراء.

ظهر فجأة اطفائي من جيملي وقد غطى وجهه بقناع واق. أرشده ديون داخل الطائرة على نور المشعل الكهربائي. كانت المادة العازلة تحت "بطن" الطائرة تحترق ببطء



وقد اشتعلت فيها النار بسبب الاحتكاك الذي تولد عندما هبطت الطائرة على مقدمها. أخمد الاطفائي النار وفصل البطارية.

هتف أحد الركاب: "هذه ليست وينيبيغ! أين نحن؟" وراح الآخرون يتمتمون بدهشة. ولكن ماذا يهم؟ وسرعان ما تحوّل الارتباك ابتهاجاً، فهم أحياء يرزقون، وماذا يهمّ أين حطت الطائرة. وكما قالت سوزان جويت: "لقد شهدنا معجزة!"

على الفور باشرت سلطات المواصلات في كندا تحقيقاً في الحادث. وبعدما نزع المحللون عداد الوقود تبين أن الخلل في حلقة الوصل الأولى. ومع ذلك، بعد تحقيق داخلي اجرته شركة الخطوط الجوية الكندية، ألقي اللوم على القبطان بيرسن والضابط الأول كنتال وثلاثة من عمال الصيانة الذين زودوا الطائرة وقوداً. وأصدرت في حقهم تدابير تأديبية. وما لبثت الصحافة أن التقطت الخبر وتناولته في وسائلها آخذة جانب الموظفين.

الدعاية التي رافقت الحادث دفعت الحكومة الكندية الى تعيين مجلس تحقيق مستقل. وبعد الاستماع الى ١٤١ شاهداً أصدر المجلس تقريره في ١٩٩ صفحة وخلص

فيه الى أن مسؤولية ما حدث تقع على عاتق ادارة شركة الخطوط الجوية الكندية وموظفي الصيانة والطاقم العامل على الطائرة. واشار التقرير الى "خلل في الاتصال داخل المنظمة."

ومن أسباب القصور الواقع على الشركة والمتصل بسياستها وأساليب العمل والاجراءات المعتمدة فيها، أنها اتخذت قراراً بانتاج طائرة جديدة تعتمد الكيلوغرام وحدة لقياس الوقود، في وقت واصلت بقية الطائرات التي يتألف منها الأسطول استخدام نظام القياس البريطاني القديم الذي يعتمد الباوند وحدة للقياس. وكانت الشركة اقدمت على اتخاذ هذا القرار، جزئياً على الاقل، نزولا عند رغبة الحكومة في تعزيز الحملة الداعية الى اعتماد النظام المتري.

وفي التقرير أيضاً إشارة الى قصور من جانب الشركة في تعيين مسؤول عن حساب الوقود وفي تدريب الموظفين على إجراء مثل تلك الحسابات، وأخيراً في توفير قطع للغيار على الطائرة.

وخلص القاضي جورج هـ. لوكوود، الذي رأس المجلس، الى أن من السهل جداً انحاء اللوم على بعض الافراد، لكنه أضاف: "لولا مهارة القبطان بيرسن ومقدرته في الطيران، والمساعدة القيّمة من الضابط الأول كنتال، لكانت العواقب وخيمة. ومن المصادفات العجيبة ان المام القبطان بيرسن بالطيران الشراعي هو الذي حال دون وقوع الكارثة. وهو طبق معرفته تلك بمهارة ونجح في التحليق والهبوط باحدى اكثر الطائرات التجارية تطوراً وتعقيداً في العالم.

وبفضل احتراف طاقم العاملين على الطائرة ومهارتهم وتفاني المضيفين والمضيفات، تم التغلب على نواحي النقص في الادارة وفي المعدات، وأمكن تجنب كارثة كبرى."

أما بيرسن وكنتال فحظيا باستحسانِ زملائهم وتصفيقهم على المستويين الوطني والعالمي. ومن أسباب التكريم التي أسبغت عليهما شهادة استحقاق من رابطة الطيارين الكنديين وشهادة تنويه بمهارتهما الفذة في قيادة الطائرات من الاتحاد الدولي للطيران.

وحتى اليوم ما زال بيرسن وكنتال يعملان طيارين في شركة الخطوط الكندية.

أما الـ"بوينغ ٧٦٧" فنجت هي أيضاً. وبعدما أجريت لها بعض الاصلاحات الاولية تمكنت من الطيران الى وينيبيغ حيث عمل الفنيون أسابيع على اصلاحها. وما زالت هذه الطائرة الرقم ٦٠٤ التي باتت تدعى "طائرة جيملي الشراعية" في الخدمة الى اليوم.

وليم هوفر ومارلين منى هوفر ■

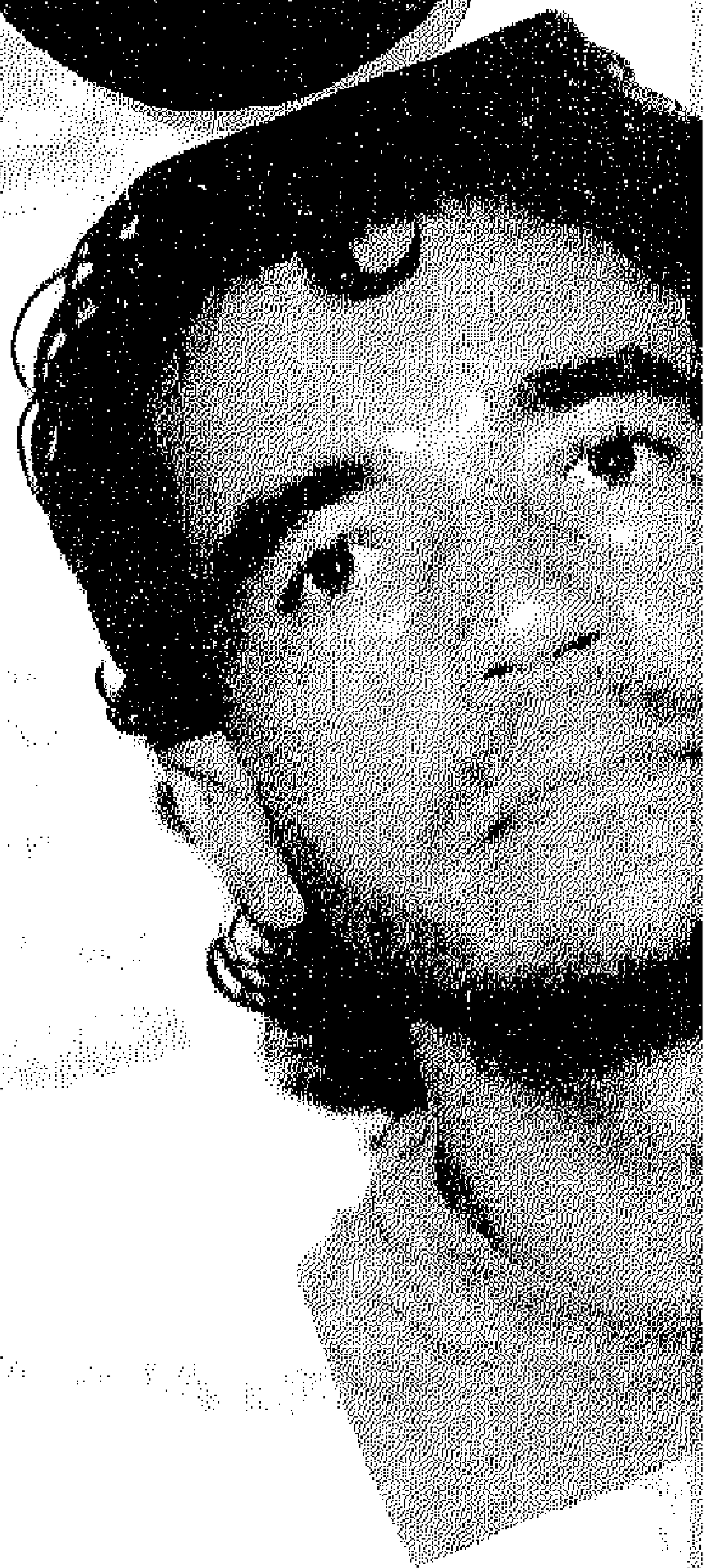
ترجمة د. باسمة سكرية عيد

الاسرع في الاستياء هو عادة الاكثر عدوانية. ل.ب.

كتاب الشهر

كارلوس

بقلم ناثان أدامس




LEHDER
VESSEL
DEA SURVEILLANCE PHOTO
COCAINE SEIZED
DEA SURVEILLANCE PHOTO
CARLOS LEHDER SNORTING COKE
DEA SURVEILLANCE PHOTO
PLANE USED TO TRANSPORT COKE
DEA SURVEILLANCE PHOTO
DOWN

كارلوس



لم يعرف تاريخ الجريمة المنظمة مثلها: أكثر من ٢٠ عائلة تمتهن تجارة المخدرات تكتلت في اتحاد اجرامي قوي جعلها، خلال العقد القصير من هيمنتها، شبه حكومة سرّية تفسد مجتمعات كاملة.

تعرف هذه العائلات بالـ"كارتيل" أي الاتحاد. ومن مقرها الرئيسي في مدينة ميدلين بكولومبيا، المستكينة في أحضان واد ظليل وارف في جبال الأندس، تحتكر سوق الكوكايين العالمية التي تطرح فيها مليارات الدولارات.

وتتمخض هذه التجارة عن كوارث حيثما راجت، وخصوصاً في الولايات

Inset photo: Sygma. All other photos:Courtesy

المتحدة حيث يبلغ استهلاك هذا المخدر ١٥٠ طناً في السنة.

وأولئك الذين يتجرأون على معارضة الكارتيل يُقضى عليهم بلا شفقة. وقد دفع الكارتيل كولومبيا الى حافة الفوضى الاجرامية، وقتل مسلحوه أكثر من ٣٠٠٠ شخص بينهم قضاة ومسؤولون كبار في الحكومة. قتلوا المئات في الولايات المتحدة ما بين ميامي (فلوريدا) ولوس انجلس (كاليفورنيا).

ويعود الجانب الاكبر من نجاح الكارتيل الاجرامي الى رجل واحد يعتبر بعبقريته اللوجستية(١) صانع الكارتيل ورأسه المدبر. اسمه: كارلوس ليهدر، وكان في وقت ما سارق سيارات وبائع ماريوانا في الشوارع. مثاله الاعلى: أدولف هتلر. هدفه: تدمير الولايات المتحدة وحكم مملكة الكوكايين. وهذه قصته.

نورمنز كاي، جزر باهاما. وقف شاب قوي البنية في منتصف العشرينات من العمر على منصة مشرفة على البحر، وراح يحدّق الى الافق متجهم القسمات قلق العينين، منتظراً هبوط الليل.

وكان في فترات منتظمة يلتقط جهاز اتصال لاسلكياً ويتكلم بصوت خفيض. وكانت مكالماته مرمّزة ولم تدم الا بضع ثوان.

بعيد هبوط الظلام أقبلت طائرة من جهة الجنوب محلقة على مستوى الموج وأنوارها مطفأة. لكن الطيارين كانا على معرفة جيدة بالجزيرة، وكانت الشعلات المضاءة التي تحدد المهبط الصغير كافية لارشادهما.

نهض الشاب وتكلم عبر اللاسلكي ثم مشى بسرعة الى سيارة "جيب" وُضع رشاش على مقعدها الامامي.

كانت حمولة الطائرة أفرغت لدى وصوله الى المهبط الذي يبعد بضعة كيلومترات في الطرف المقابل من الجزيرة. تكلم بايجاز مع الطيارين اللذين كانا في انتظاره بجانب المهبط وقد خطّ وجهيهما تعب شديد.

كانت الرحلة طويلة مرهقة تجاوزت ١٦٠٠ كيلومتر قطعاها من داخل كولومبيا ثم شمالا فوق البحر الكاريبي مجتنبين العواصف الرعدية والرادارات ومخترقين "ممر الرياح" الضيق بين كوبا وهاييتي.

بعدما اطمأن الشاب الى أن كل شيء على ما يرام مضى يدقق في الحمولة. كانت

(١) اللوجستية أو السّوْقيات هي فن نقل الجنود وايوائهم وتموينهم.

هناك عشرات من أكياس القماش الناعم المنتفخة التي تساوي أكثر من وزنها ذهباً. فأخذ مشعلا كهربائياً وفتح أحدها وانحنى ليتفحص محتواه.

مرر أصابعه بين طبقات أكياس النايلون المرمّزة كلها بهويات مالكيها. وكان كل كيس يحتوي على كيلوغرام واحد مختوم من أجود أنواع الكوكايين الصرف.

في اليوم التالي سيشحن هذا الكوكايين الذي يثمّن بأكثر من ٢٥ مليون دولار، في طائرات أصفر الى الشمال الغربي عبر "جرف باهاما الكبير" ومضايق فلوريدا الى المطارات السرية داخل فلوريدا وفي عمق ريف جورجيا.

خلال اسبوع يبدأ تسليم الموزعين المنتشرين في الولايات المتحدة. وما هي الا عشرة أيام حتى يكون الكوكايين بيع واستهلك في الاحياء الفقيرة وفي المدارس الثانوية وفي قصور الاغنياء والمشاهير.

لم يلتقوه مرة ولا سمعوا باسمه. لكنهم جميعهم زبائنه: فنانون ورياضيون ووسطاء ماليون وبغايا وعمال وعاطلون عن العمل. كلهم جعلوا من كارلوس ليهدر ملياردير وساهموا في تمويل امبراطورية امتدت فشملت نصف العالم.

جاكسونفيل، فلوريدا. جلس عميل المكافحة دوغلاس درايفر ضجراً في سيارته المعتمة مثبتاً على زجاج النافذة المفتوحة منظاراً قوياً مركّزاً على بيت في نهاية شارع يدعى "ممشى الاميرال." كان المساء حاراً في أوائل سبتمبر (أيلول) ١٩٧٧ وقد جثم الهواء فوق المدينة كبساط رطب. وفي أقل من ساعة كان درايفر يتصبب عرقاً، لكنه ظل يراقب وينتظر كما كان يفعل في الاسابيع الطويلة الماضية مغالباً الضجر والحر.

لم يكن على يقين عما يفتش، اللهم الا شكل صاحب المنزل الذي يشبه أشكال تجار المخدرات. فهو يعيش حياة مترفة من دون أن يمارس عملا ظاهراً يؤمن له دخلا مرموقاً. وما عدا ذلك مجرد وحي غريزي.

كان درايفر (٣٠ سنة) أحد ستة مخبرين يعملون في المكتب الاقليمي لمديرية مكافحة المخدرات في جاكسونفيل. ولم يكن انتشار الكوكايين عم الولايات المتحدة بكميات كبيرة، لذلك كان نشاط المخبرين موجهاً الى مهربي الماريوانا المحليين والى السفن غير المشروعة التي تموّنهم في نقاط التقاء بعيدة عن الشاطئ.

بدأ درايفر مراقبة ممشى الأميرال وفي اعتقاده أن ذلك سيقوده الى كشف عصابة من مهربي الماريوانا. لكنه في الواقع فتح الباب لتحقيق استنفد جهده طوال عقد وبات القضية العظمى في تاريخ مديرية مكافحة المخدرات.

بدأت قضية درايفر حين أسرّ اليه صديق يدير وكالة محلية لبيع السيارات: "ربما كلفني ما أخبرك به خسارة أفضل زبون عندي." وراح يصف له رجلا جاء الى صالة العرض واشترى منه عدة سيارات فخمة ودفع ثمنها أوراقاً مالية من فئتي المئة دولار والخمسين دولاراً تناولها من كيس للتسوّق. وقد تباهى بأنه أثرى كمن عثر على كنز، من طريق انماء جزيرة في باهاما تدعى نورمنز كاي.

لم يعنِ اسم نورمنز كاي شيئاً لدرايفر. ولكن لم يكن سراً خافياً أن الفساد المتفشي في حكومة باهاما حوَّل هذه الجزر ملعباً لنخبة المتاجرين بالمخدرات.

فاقترح درايفر على صديقه: "اتصل بي حين يأتيك في المرة المقبلة، وحاول أن تؤخره مدة تكفيني للاسراع الى هنا ورؤيته."

ولم تمض عشرة ايام حتى كان لدى درايفر اسم ساكن المنزل في نهاية ممشى الاميرال. وكانت السيارة مسجلة باسم إرنست فون إبرشتاين الذي حفل سجله الطويل بالسرقة والسجن والتشرد، ولكن لم يعرف عنه ولا عن أخيه غريغوري الذي يملك المنزل، أنهما متورطان في المخدرات.

تابع درايفر مراقبة الجوار حيث منزل فون إبرشتاين الفخم. وكان يلاحظ ارقام السيارات التي تؤمه. كان كثير من الزائرين ربابنة طائرات، انما لم يظهر أن أحداً منهم يعمل. وكانوا جميعهم يعيشون كأصحاب ملايين، وقد دفعت أثمان منازلهم نقداً.

ومن المشتبه بهم إدوارد هايس ورد، وهو في منتصف الثلاثينات من عمره، عمل سابقاً بائعاً في أحد المتاجر الكبيرة، واكتشف درايفر أنه يملك طائرتين على الاقل ويشغلهما. كان يشتري ملابس الفرو والمجوهرات بعشرات ألوف الدولارات وبسخاء كمن يروي حديقة. وكان يختفي أياماً من منزله في جاكسونفيل ثم يعود الى الاسراف في فورة مشتريات. ولم يطل الامر حتى اكتشف درايفر أن له عنواناً ثانياً في نورمنز كاي.

شرع درايفر يدقق في اتصالات ورد الهاتفية المسجلة. وكثيراً ما عمل حتى ساعة متقدمة من الليل وفي عطلات نهاية الاسبوع، متحققاً من مئات الاتصالات ومقابلا بينها. وهو لم يعثر على ضالته الا في شهر يونيو (حزيران) بعد مضي ثمانية أشهر، وذلك من خلال مكالمتين الى موزعي كوكايين معروفين في جنوب فلوريدا.

وعيِّن عميل محنك من جاكسونفيل لمساعدة درايفر في التحقيق، وهو يدعى بوبي ستارات وعمره ٣٣ سنة. للوهلة الاولى بدا العميلان كأنهما فريق شاذ. كان درايفر طويل القامة متقلب المزاج يعمل بهدوء ونظام. أما ستارات فكان قصير القامة ناحلا وقوياً كأنه كتلة من الطاقة العصبية. وعلى رغم تباين شخصيتيهما فانهما عملا معاً في السابق وأصبحا صديقين حميمين.

وكانت مصلحة البريد تزود العميلين عناوين الرسائل التي يتسلمها المشبوهان ويرسلانها. وفحص العميلان نفايات ادوارد ورد أملا بالعثور على أدلة. ثم بدءا اعتراض الاتصالات اللاسلكية، لكن المحادثات كانت موجزة ولم تبحث فيها شؤون المخدرات. ولم يلبث درايفر أن اكتشف مخبراً ثبتت علاقته بالمجموعة فاعتقل وفي حوزته ٥٠ غراماً من الكوكايين. وهو أبدى استعداده لمساعدة الشرطة، ولكن حين سمع اسمي المستهدفين تجمّد هلعاً وآثر دخول السجن على البوح بأي شيء.

ظلت علاقة المجموعة بجزيرة نورمانز كاي لغزاً مغلقاً. واستوضح درايفر وستارات وكالات حكومية، لكن التقارير عن الجزيرة ظلت هزيلة.

وكانت هناك شركة بانامية تدعى "انترناشنال دونش رسورسز" تملك مكتباً في باهاما وتشتري أراضي وأملاكاً تحيط بالميناء الصغير وبمهبط للطائرات طوله ٩٠٠ متر. وقيل ان ملكية الشركة تضم عدة مستثمرين من باهاما وأمريكا الجنوبية، لكن ادوارد ورد لم يكن واحداً منهم. الا أن مكتب مديرية المكافحة في ميامي أفاد أن ورد يشحن حمولات كبيرة من الاثاث الفخم ومعدات البناء وأجهزة الملاحة الجوية الى جزيرة نورمنز كاي.

ثم نقل مكتب التحقيق الاتحادي «FBI» معلومات استخبارية جعلت ستارات ينتصب جالساً في كرسيه.

ونمي الى مصدر في مكتب التحقيق الاتحادي أن مجموعة من المهربين الامريكيين بقيادة إدوارد هايس ورد التقت أخيراً في جزيرة نورمنز كاي مزود كوكايين كولومبياً كبيراً يدعى كارلوس ليهدر.

غرق درايفر في التفكير متسائلا: "ومن هو كارلوس ليهدر؟" ثم تذكر أن ليهدر هو أحد العاضدين الرئيسيين لشركة "إنترناشنال دونش رسورسز" العاكفة على شراء نورمنز كاي.

لقّم درايفر المعلومات دماغاً الكترونياً لدى مديرية المكافحة للتدقيق في خلفيتها. فهاله ما قرأ، وشعر بوخز في جلدة رأسه. لقد ورد اسم كارلوس ليهدر في أكثر من ١٥ ملفاً لدى مديرية مكافحة المخدرات.

جزيرة محصنة

ولد كارلوس ليهدر عام ١٩٤٩ في مدينة أرمينيا الكولومبية الصغيرة، وهو ابن مهاجر ألماني قدم بعد الحرب العالمية الثانية. انفصل والداه وهو في سن المرهقة فلحق بأمه الى مدينة نيويورك. وفي ١٩٧٣ قبض عليه لسرقته سيارة، ثم أفرج عنه بكفالة ٢٥ ألف دولار. واختفى، ليظهر لاحقاً في ميامي حيث قبض عليه وهو يهرب الماريوانا من كولومبيا. فسجن لمدة عامين جرى بعدها ترحيله من البلاد.

ومن كولومبيا أفاد عملاء مديرية المكافحة الامريكية في مدينتي بوغوتا وميدلين عن علاقة متينة بين ليهدر وتجار الكوكايين الكبار هناك. وقد اعتاد هؤلاء ان يعملوا منفردين، ولكن كانت هناك أدلة واضحة لا لبس فيها على تعاون بين المنظمات ومشاركة في التسهيلات ومصادر التموين والنقل.

عرف عن ليهدر أنه بارع في الشؤون اللوجستية، وكان في ذلك الحين يفاوض لشراء احدى شركات الطيران الكولومبية الداخلية الكبيرة وتدعى "ايروليناياس سنتراليس دي كولومبيا." ولم يخامر أحداً شك في أنه سيستخدمها لتوسيع شبكة نقل المخدرات.

تمكن درايفر وستارات من التعرف الى سكان سابقين في نورمنز كاي. وعلما أن ليهدر شوهد للمرة الاولى في الجزيرة عام ١٩٧٧. ولم يمض عام حتى اشترى دارة منعزلة في طرفها الجنوبي وأخذ يبسط سيطرته بشراء دارة بعد أخرى وقطعة بعد

قطعة من الجزيرة. وما لم يقدر على شرائه استولى عليه عنوة. ونظراً الى التهديد والترهيب اللذين واجههما السكان، فقد هجر كثيرون المنازل التي شادوها لقضاء عطلاتهم.

في ٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٨ طار ستارات ودرايفر الى باهاما. وتوقفا في ناسو لاجراء المعاملات الجمركية. وكما يقضي البروتوكول، أبلغا الى السلطات الباهامية أنهما ضابطان في حكومة الولايات المتحدة وأنهما في طريقهما الى نورمنز كاي. وكانا يخشيان كشف خططهما لاشتهار رجال الشرطة الباهامية بالفساد.

وفي المرحلة الاخيرة من سفرتهما حلقت طائرتهما فوق سلسلة من الجزر المرصوفة المتقاربة حتى لتبدو كأنها أسطول بحري راس في المياه. وعندما أطلّت جزيرة نورمنز كاي في الأفق ظهرت بشكلها المميز معقوفة كشص صنارة صيد.

وحين رأى ستارات المهبط طلب من الربان أن يطير على علو منخفض ليتمكن من تصوير الطائرات الجاثمة خارج المدرج، وما هي الا دقائق حتى كانت الطائرة تحط بالعميلين.

لم يُرق درايفر الجو الذي طالعه في الجزيرة. فقد بانت كأنها غير حقيقية، كأنها جزيرة أحلام رائعة كاملة، بل كأنها صورة في ملصق سياحي أتمّت فيها الطبيعة ابداعها.

لم يرخّص لاي من العميلين حمل مسدس في باهاما. فاذا تعرضا لمشكلة فلن يتمكنا من الدفاع عن النفس، في حين اشتهر ليهدر بالعنف.

استأجرا دراجتين ناريتين صغيرتين وأخذا يطوفان على امتداد الطريق الساحلية الضيقة مفتشين عن دارة ادوارد ورد. فوجداها جاثمة على هضبة تبعد ثلاثة كيلومترات عن المهبط، وقد نبتت على سطح الدارة غابة فاضحة من هوائيات الاتصال اللاسلكي والملاحة.

التقط ستارات خفية صوراً سريعة للجهاز الالكتروني وأرقام تسجيل سيارة جيب وشاحنة صغيرة ومركب صيد راس على الرصيف. أما فخامة الدارة فكانت أخّاذة كمنزل ورد في جاكسونفيل.

وكان منزل ليهدر الفخم على بعد ستة كيلومترات من دارة ورد، ينتصب شامخاً منفرداً كحصن على رأس "الشصّ" عالياً فوق البحر. فالتقطا صورة للمنزل من بعد بواسطة عدسة قوية. وكانت هناك سيارة "ڤان" واحدة متوقفة خارجاً.

بعد رجوعهما الى الفندق حاول درايفر محادثة عامل باهامي كان يشذب الشجيرات. فعلم منه أن ليهدر لم يكن في الجزيرة، كذلك ورد. وقال الحدائقي انهما يأتيان ثم يغيبان نحو أسبوع ثم يعودان. وعن شركة "انترناشنال دوتش رسورسز" قال ان معاملتها حسنة وانها تدفع أعلى الرواتب لمستخدميها.

قبل مغادرة الجزيرة مشى ستارات ودرايفر على طول الشاطىء نحو ساعة وتبادلا التقاط الصور تضليلا لمهمتهما. ومع ذلك شعرا ببروزهما على لوحة الجزيرة كذبابتين سوداوين في صحن أبيض فارغ.

وفيما درجت طائرتهما الـ"سيسنا" استعداداً للاقلاع، اذا بشاحنة صغيرة وسيارة "ڤان" خضراء تظهران فجأة الى جانب الطائرة. وانفتح باب السيارة الخلفي فبان داخلها رجل رابض يحتضن بندقية "إم - ١٦" مستعداً لاطلاق النار.

ومن خبرته كضابط مشاة سابق في فيتنام، عرف ستارات أنهما مهددان جدياً، فصاح بالربان: "لنخرج من هذا الجحيم بأقصى سرعة! أسرع بربك! أسرع! أسرع!"

فدارت الطائرة على ذاتها ثم أطلق لها الربان العنان فاندفعت بأقصى قوتها الى الامام. وواكبتها الشاحنة حتى قاربت الاقلاع. كانت الرسالة واضحة لستارات ودرايفر: ستكون زياراتهما التالية محفوفة بالخطر.

غارة صباحية

لدى عودة العميلين الى جاكسونفيل تمكنا من تحديد مالكي الطائرات التي صوراها، وكان معظمهم مرتبطاً بمهربين أمريكيين وكولومبيين. وكان على رأسهم ربان من كاليفورنيا في أواسط الاربعينات من عمره يدعى جاك كارلتون ريد، يشتبه بأنه يغذي شبكة لتوزيع المخدرات في ولايته. وعلما أيضاً أن ريد يملك دارة في جزيرة نورمنز كاي، وبدا كأنه مدير عمليات ليهدر.

كان ريد يقود طائرة مسجلة باسم شركة "ايرمونتيس" التي تملك عناوين في ناسو وباناما مثل شركة "انترناشنال دوتش رسورسز." وتضم قائمة طائراتها بضع عشرة طائرة بما فيها نفّاثة ليهدر الشخصية وهي من نوع "سابرلاينر" ويفوق ثمنها مليون دولار وهي مجهزة بأحدث المعدات التكنولوجية التي توفر لها مزيداً من الفخامة والسرعة.

كان الاسم "مونتيس" مألوفاً لدى ستارات ودرايفر، اذ كان أحد أسماء ليهدر المستعارة. وأظهر التدقيق في رحلات ربابنة ليهدر أنها شملت مدناً في أنحاء الولايات المتحدة.

في ٧ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٨ طلب ستارات ودرايفر امدادهما بالرجال. فوافقت مديرية المكافحة على تشكيل قوة ضاربة تستهدف كارلوس ليهدر ومنظمته، سميت "عملية كاريب."

وأُلحق مزيد من العملاء بالتحقيق، فيما تابع المنسقون تقصي الادلة وتعقب المشبوهين في مدينتي لوس انجلس وميامي. وتولت مصلحة ضريبة الدخل التدقيق في الضرائب التي يدفعها أعضاء منظمة ورد. وتابع ستارات ودرايفر جمع تسجيلات الاتصالات الهاتفية وكشف البريد المرسل والوارد. ولم تمض أسابيع حتى حددا هوية أكثر من ٥٠ مشبوهاً من الموزعين المنتشرين في مدن متباعدة مثل بوسطن ومونريال، ودنفِر وسان فرنسيسكو.

شُددت الرقابة على جزيرة نورمنز كاي. وكشفت الصور التي التقطتها طائرات مديرية مكافحة المخدرات، طائرات إضافية. وأفاد قائد زورق لخفر السواحل كان راسيا



طائرات لنقل المخدرات والاموال النقدية جاثمة قرب المدرج في نورمنز كاي.

على مقربة من الجزيرة، عن ٤٦ هبوطاً واقلاعاً في فترات آخر الليل خلال أسبوع واحد. وكشفت مقابلات مع أشخاص ما زالوا على اتصال بالسكان القلائل الباقين في الجزيرة أن ليهدر شدّد اجراءاته الأمنية. ويستعين رجاله العاملون بكلاب "دوبرمان" ضخمة ويحملون رشاشات من نوع "ماك - ١٠".

وتنكر عملاء مكافحة مدعين أنهم بحارة تعطلت مراكبهم، فرسوا على رصيف المرفأ بحجة اجراء الاصلاحات اللازمة وتنصتوا الى اتصالات ليهدر اللاسلكية وجمعوا الرموز (الشيفرة) التي يتخاطب بها ربابنته. لكنهم بقوا قيد المراقبة الدائمة لرجال ليهدر، ولم يسمح لاي منهم بالنزول الى الشاطىء.

وقام ستارات برحلات الى ناسو لمتابعة جمع الادلة، لكن جهوده كانت تنتهي بخيبة مؤلمة. وغالباً ما وقف عاجزاً يشاهد ليهدر نازلا من طائرته الخاصة في مطار ناسو، مرحاً متنقلا كيفما شاء بحرية ولا مبالاة.

مضت أشهر صادق درايفر وستارات خلالها أحد رجال الشرطة الباهامية اللذين اعتقدا أن في الامكان الوثوق به. فنزل هذا خفية في نورمنز كاي مجتنباً دوريات الشاطىء، ورصد تحركات ليهدر مباشرة. لكنه لم يلبث أن كشف خططه لادارة الشرطة، فاقترف بذلك خطأ سيندم عليه.

ففي الساعات الاولى السابقة للفجر في ١٤ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٩ هاجمت قوة من الشرطة الباهامية جزيرة نورمنز كاي في ما بدا خطة للقبض على رجال ليهدر في غفلة منهم. ولكن ما ان سمع هؤلاء طلقات الانذار الاولى حتى استسلموا للحال.

أما ليهدر فوثب الى يخته ورمى في البحر ٩١ كيلوغراماً من الكوكايين قبل أن يدهمه رجال الشرطة. وحين انتصف الصباح كان ٣٣ من المرتزقة الالمان والكولومبيين والامريكيين - بمن فيهم ورد وفون إبرشتاين - قد رحّلوا بطائرة الى ناسو تحت حراسة مشددة.

لكن ليهدر لم يكن بينهم، ففي الدقيقة الاخيرة عمد مسؤول عال في الشرطة الباهمية الى ابدال "صديق" العميلين بضابط أكثر "انقياداً". وأطلق ليهدر من دون توجيه أي تهمة اليه، بعدما سلّم حقيبة قيل إنها تحتوي على ٢٥٠ ألف دولار نقداً. أما المحتجزون فعادوا الى نورمنز كاي خلال ٤٨ ساعة.

بدت العملية لدرايفر وستارات كأنها تمثيلية أخرجت بحيث توفر حجة للسلطات الباهامية بأنها نفذت عملية وقامت بواجبها، مما يدحض اتهامات مديرية المكافحة.

ولاحظ درايفر بغضب: "ان كارلوس ليهدر لا يملك جزيرة نورمنز كاي فحسب، بل يسيطر على البلاد بأسرها."

اعتقالات أولى

فيما شدد درايفر وستارات الضغط على جزر باهاما، واصل رجال المكافحة الآخرون في منطقة الكاريبي مراقبة شركات ليهدر. وبحلول السنة الجديدة ١٩٨٠ تمت الاعتقالات الاولى.

في لوس انجلس تمكن رجال المكافحة من كسر حلقة أحد موزعي ليهدر وكانت تسوّق ١٨٠ كيلوغراماً من الكوكايين شهرياً. واعترف أحد الموقوفين بأنه حقق ربحاً "يناهز ٣٠ مليون دولار."

بدأت القوة الضاربة تخنق مصادر النقد الذي يجنيه ليهدر من الولايات المتحدة. ففي لوس انجلس صادر رجال المكافحة شحنة بقيمة ثلاثة ملايين دولار فيما كان يجري توضيبها لتسليمها الى "صرّاف" غير قانوني في هياليه بفلوريدا. وفي ٢٣ أغسطس (آب) ١٩٨٠ كشف عميل في الكاريبي شحنة أخرى موضبة داخل صناديق لعبة "مونوبولي" بقيمة مليون ونصف مليون دولار، كانت على وشك أن تسلّم باليد بواسطة ساعٍ خلال رحلة بالطائرة من بوغوتا الى ميامي.

وتحقق انجاز كبير في مايو (أيار) لدى اعتقال ربان ممشوق القامة يبلغ طوله ١٩٨ سنتيمتراً ويدعى جون فنلي روبنسون. وهو اعترف لستارات بأنه كان ينقل الكوكايين بالطائرة لحساب ليهدر وشركائه منذ ١٩٧٧. وقد نفذ رحلات جوية في أنحاء البحر الكاريبي ناقلا في رحلة واحدة اكثر من ٦٨ كيلوغراماً من الكوكايين. وفي رحلة أخرى نقل ليهدر بالطائرة الى ميدلين ومعه ٢،٧ مليون دولار.

وأوقف ربان آخر يدعى ليفريت ميريل فرنسيس، فحدد مع روبنسون مواقع التجميع في كولومبيا التي كان يديرها ليهدر واعوانه.

لم يكن الكوكايين والثروة ما دفع ليهدر الى هذه الاعمال. بل حافزه الرغبة في السلطان.

قال روبنسون لستارات: "أتعلم؟ انه يريد أن يحكم بلداً."

أوقف الربانان في انتظار الادلاء بشهادتهما أمام هيئة محلفين. وفي سبتمبر (أيلول) ١٩٨٠ أبلغ درايفر وستارات أن "عملية الكاريب" انتزعت انتباه ليهدر،

وتكوّنت لديه قناعة أن أخطاء ورد هي التي أتت برجال مكافحة المخدرات الامريكيين الى نورمنز كاي. لذلك عمد الى طرده ورجاله من الجزيرة.

وللتأكد من أن ورد تبلّغ الرسالة أطلق رجال ليهدر النار على طائرته النفاثة "ميرلين ٣". وخضوعاً لمشيئة ليهدر رفض المسؤولون الباهاميون تجديد اقامة ورد وشركائه. لقد كان ليهدر محترفاً، وحشياً، قاسياً، واقعياً، يعرف متى تتجاوز الشراكة مدة نفعها.

في ٨ يناير (كانون الثاني) ١٩٨١، بعد ثلاث سنوات ونصف سنة من التحقيقات الطويلة المتواصلة، صدر اتهام غيابي من ٣٩ بنداً في جاكسونفيل في حق ورد وليهدر و١٤ آخرين. اتهم ليهدر بالتآمر لتهريب الكوكايين في "مشروع اجرامي مستمر" قد يؤدي الى حكم بالسجن ٦٠ عاماً أو مدى الحياة. واكتشاف مكان ورد واعتقاله سيكونان المفتاح لادانة ليهدر. وكان درايفر وستارات يأملان أن ينهار ورد بفعل الضغط ويتعاون واياهما ضدّ "معلّمه" السابق.

ولما كانت لديهما قائمة بطائرات ورد فقد تعقباه الى بور – او برنس في هاييتي مروراً بالكاريبي. وهناك أفاد أحد المخبرين أن ورد اشترى اخيراً منزلا كبيراً في التلال المشرفة على المدينة.

لم تكن ثمة معاهدة لتبادل المتهمين بين الولايات المتحدة وهاييتي. ومع ذلك استعد درايفر في ١٩ فبراير (شباط) ليطير الى بور – او برنس، وقال لستارات: "سأعمل حسبما تملي الظروف."

إستدر وهاجم!

حين هبطت الطائرة في هاييتي لاحظ درايفر أربعاً من طائرات ورد جاثمة الى جانب احد المدارج. وكان يعرف ارقامها عن ظهر قلب.

أبلغ درايفر الى سلطات هاييتي الغاية من مهمته. لكن المسؤولين أعلنوا أنهم لم يسمعوا بادوارد هايس ورد. فلفت نظرهم قائلا: "إن طائراته جاثمة الآن في المطار."

كان المسؤولون لطفاء لكنهم لم يساعدوه. وكانوا يعرفون انه لم يملك سلطة للاعتقال في هاييتي. وقال له أحدهم: "أنا أقترح أن تعود الى بيتك وتدعنا نحن نتولى تدبير هذا الأمر."

لكن درايفر كان مصمما على ألا يعود الى جاكسونفيل الا ومعه ورد. لذا ظل يرود موقف السيارات خارج مقر ادارة الشرطة في بور – او برنس فيمسك الضباط ويحييهم قائلا: "صباح الخير أما من أخبار عن السيد ورد الى الآن؟"

عرف درايفر أنه كان يغامر بعمله هذا. فقد يطرده المسؤولون الهاييتيون من البلاد، أو يعلمون ورد بأمره فيهرب.

وفي النهاية أثمرت مضايقاته اذ خرج أحد الضباط وناوله قصاصة ورق من دون ان ينبس بكلمة. وعلى الورقة كُتب عنوان منزل ورد.

في تلك الليلة قصد درايفر منزل ورد للتحقق. فسار في طريق ضيقة متعرجة منارة

بمصابيح قليلة، ونزل من السيارة العمومية التي أقلته على بعد مسافة آمنة من المنزل.

تسلّق درايفر جداراً حجرياً يرتفع ثلاثة أمتار وتطلع حوله، فرأى نورين يسطعان في الطبقة العليا. وكانت الساعة قاربت الثانية صباحاً فندم على عدم ابقائه السيارة الى حين عودته. كانت طريق العودة طويلة مشياً الى الفندق الذي نزل فيه. وبعدما قطع حوالى ٨٠٠ متر رأى حانة مفتوحة فدخلها.

كانت الحانة مزدحمة بالزبائن وقد عبق جوها بالدخان وما ان حاول أن يستقر حتى جمد اذ شاهد ادوارد ورد جالساً الى احدى الطاولات. انه هو من دون شك! وتلاقت نظراتهما، وعرف ورد درايفر حالا من الصور التي التقطت له خفية حين كان مع ستارات في جزيرة نورمنز كاي.

انحنى درايفر وانسل من الباب وأخذ يعود في اتجاه المدينة، اذ خشي أن يبعث ورد أحد رجاله في اثره فيعود الى جاكسونفيل مسجى في تابوت. او ربما قررت جماعة ورد الفرار سريعاً من طريق المطار.

لم يبق له سوى سبيل واحد وهو أن يسبق ورد الى المطار. فجأة شعر بحركة وراءه فاستدار ورأى جماعة من الشبان الهاييتيين يتبعونه وقد خرجوا لتوهم من أحد الشوارع الجانبية.

ناداه أحدهم: "هاي! أيها الابيض! نريد أن نأخذ دراهمك."

زاد درايفر سرعة عدوه. كان خبيراً في لعبة الكاراتيه، وعرف ان في امكانه شل حركة واحد أو اثنين من مهاجميه. ولكن ماذا بعد؟ فقد تطبق عليه الجماعة كلها. فرأى أن أمله الوحيد هو في المخادعة.

كان كلما أحسّ أنهم اقتربوا كثيراً وقف واستدار وصرخ في وجههم صرخة هجومية فيتراجعون قليلا ثم يعودون الى المطاردة. بدأ داريفر يلهث، وغابَ عنه حس الوقت والوجهة التي يسير فيها، وشعر بالوهن يدب في رجليه، خصوصاً لأن الجماعة أخذت تفوقه سرعة وتزداد جرأة بعد كل توقف.

بلغ منه الاعياء أشده وكادت تخونه طاقته على الاحتمال ومتابعة السير واذا به يشاهد رجلا واقفاً الى جانب سيارته في مدخل أحد الازقة. فرمى له كدسة من الدولارات على المقعد الامامي للسيارة وصعد اليها وهو يلهث وقال: "يجب أن أصل الى المطار بأسرع وقت ممكن. لدي حالة طارئة!"

وصل درايفر الى المطار قبيل بزوغ الفجر، فرأى ورد وشركاءه يحمّلون طائراتهم على عجل. فما السبيل الى منعهم من الاقلاع؟ كانت المخادعة ساعدته الى الآن، فصمم على المضي. وثب الى برج المراقبة وأعلن للضباط هناك: "المطار مقفل حتى اشعار آخر."

سأله أحد المراقبين: "ولكن بأمر من؟"

فكر درايفر سريعاً وذكر لهم اسم رئيس الشرطة العسكرية. عندئذ اعترى المراقب خوف شديد فشحب وجهه وأمر بمنع كل الطائرات من الاقلاع. وتابع درايفر العمل

فاتصل هاتفيا بمديرية الشرطة محذراً: "ان هناك عصابة من المجرمين الخطرين تستعد للهرب من البلاد."

لم تمض نصف ساعة حتى قدم ضابط منفرد وبدأ استجواب ورد. وكان درايفر في برج المراقبة يشاهد ورد وهو يجادل ويلوح بيديه. من ثم اقتاد الضابط ورد والآخرين الى جهة مركز مديرية الشرطة.

عمل درايفر بسرعة، فنادى سيارة أجرة لتنقله الى مركز الشرطة، اذ كان يعرف النتيجة الحتمية. سيشرح ورد لرجال الشرطة حصول سوء تفاهم، ويدس لهم كمية كبيرة من النقد ويغادر البلاد بطائراته خلال ساعة واحدة.

وصل درايفر الى مركز الشرطة بعد ورد بدقائق. أهنئك، لقد قبضت على أخطر مجرم فار مطلوب في الولايات المتحدة."

فشهق القائد وقال: "هل فعلت ذلك حقاً؟"

أشرق وجه درايفر وصافح الرجل هازاً يده بقوة وأضاف: "ان حكومتي تعرب عن أعمق تقديرها لكم. ستكون صحفنا تبلغت الخبر الآن من دون شك."

– الصحف؟

قرأ درايفر علامة ذعر ترتسم على محيا القائد. لم يكن في الامكان معرفة المبلغ الذي دفعه ورد لاطلاق الجماعة، لكن الضجة الاعلامية قد تحمل خطرا لا تحمد عواقبه في حال اطلاق ورد.

أضاف درايفر: "وسيذاع الخبر في التلفزيون أيضاً، وستصبح أنت بطلا عالمياً."

فكر الضابط قليلا ثم اعتذر وخرج. وبعد لحظات سمع درايفر القرار الذي تمّ ابلاغه الى ورد. بعد ذلك عاد الضابط وأعلن لدرايفر أن لا داعي الى معاملات معقدة، فالأمور واضحة وتقضي بطرد ورد من هاييتي في اسرع ما أمكن.

وخلال ساعات أجرى درايفر تنسيقاً بين مكتب مديرية المكافحة في جاكسونفيل والمسؤولين في سفارة الولايات المتحدة في بور – أو برنس، وتم الاتفاق على التفاصيل. وفي تلك الليلة ذاتها وضعت اصفاد في أيدي ورد وإرنست وغريغوري فون إبرشتاين وأربعة متهمين آخرين، ونقلوا الى المطار ثم الى طائرة «DC — 3» أرسلتها مديرية مكافحة المخدرات.

وعلى رغم الانقلاب المفاجىء في حظ ورد فقد ظل يتحدث بهدوء ولطف مع شركائه خلال الرحلة الى فلوريدا. وبعد تعقبه طوال هذه المدة لم يجد فيه درايفر ذلك المغامر الذي تخيل، بل ان ظنه فيه خاب. كان يتوقع أن يرى سجيناً متجهماً، عدائياً، ذا ملامح قاسية، لكنه وجد بدل ذلك رجلا بديناً همه جمع المال بطرق غير شريفة، وقد بدا غير متأثر بما حل به.

وبعدما قرر ورد أن يتعاون مع السلطات، أفضى بمعلومات بما تكفي لادانة كارلوس ليهدر وتحميله أقصى العقوبات.

(*) حكم على ورد أصلا بالسجن ٣٠ عاماً، لكنه أطلق بعد خمسة أعوام لتعاونه مع الحكومة.

حكم الارهاب

ان اعتقال ورد والاخوين إبرشتاين والمعلومات التي أدلى بها روبنسون وفرنسيس دفعت ليهدر الى تقليص عملياته في جزيرة نورمنز كاي. فقد أصبحت الجزيرة عبئاً عليه ولا فائدة تجنى منها. لكنها أدت دورها على أحسن وجه، اذ درَّت مليارات الدولارات عليه وعلى شركائه الكولومبيين.

كانت نورمنز كاي الكور الذي صهر فيه ليهدر أقوى منظمة. اجرام في وقتنا الحاضر. وكان هدفه الرهيب توحيد العائلات المتاجرة بالكوكايين في كولومبيا في مجلس ادارة مشترك. وبرز أربعة من كبار مموّني الكوكايين في البلاد ليتبوأوا قيادة ما كان سيعرف قريباً في العالم بالـ"كارتيل." وكان عقلهم الموجّه كارلوس ليهدر.

وشملت المقدرات المشتركة النفوذ السياسي، ومصادر "عجينة" الكوكايين التي تسمى "باستا" في البيرو وبوليفيا، وجيشاً من المسلحين غايته تهديد الحكومات. وأي انتهاك لقوانين الكارتيل غير المكتوبة يقابل بالعقاب السريع الصارم. وكانت احدى العقوبات تسمى "ربطة عنق ميدلين"(٢) وتقضي بشق حنجرة الضحية وانتزاع اللسان وتدليته على الصدر. وقد خصّت هذه العقوبة بالمخبرين.

خيّم حكم الكارتيل الارهابي امتداداً من أمريكا الوسطى والجنوبية الى الكاريبي والولايات المتحدة ذاتها. وكان قادته يعززون سيطرتهم. ولم يبد أن أحداً كان بمنأى عن انتقام الكارتيل. وقضي على عائلات بكاملها فيما السلطات القضائية والتنفيذية عاجزة عن التصدي. فلم يكن بد من الاذعان للواقع.

كان داء الفساد المستشري حليف ليهدر الذي لا غنى عنه. فكان رجال الكارتيل يحشون أكياسهم بالمال ويرشون السياسيين البارزين ورؤساء الحكومات، من بوليفيا الى المكسيك ومن هندوراس الى هاييتي.

وفي كولومبيا أصبح تصدير كوكايين الكارتيل مصدراً رئيسياً لادخال النقد النادر الى البلاد، وبات في أهمية تصدير النفط في دول أخرى. فمليارات الدولارات التي دخلت البلاد بفضل المخدرات ساعدت في انعاش الاقتصاد المنهار. وتوظيفات الكارتيل المالية شملت المستشفيات والفنادق وشركات الطيران، وحتى فرق كرة القدم. وكان هناك حوالى ٣٠ ألف شخص يعملون لحساب الكارتيل أو في صناعات تحت سيطرته.

وظل نهم أمريكا للكوكايين يزداد. وكان الكارتيل تواقاً لاشباع هذه الرغبة. وزاد استيراد الكوكايين ثلاثة أضعاف خلال أربع سنوات حتى بلغ ٦٠ ألف كيلوغرام عام ١٩٨١.

وبقي ليهدر يتنقل حراً بين كولومبيا ونورمنز كاي. وعلى رغم ادانته في الولايات المتحدة ظل يتمتع بحماية بعض المسؤولين في الحكومة الباهامية، كما أنه قدر أهمية البلاد الاستراتيجية. وهو أوصى مرة بصوغ حلية "بروش" من الزمرد بقيمة ٣٠٠ ألف

(٢) Medellin cravat

دولار، تنفذ ببراعة فنية بهدف تقديمها هدية مفاجئة الى زوجة مسؤول كبير.

وكانت أشغال ليهدر تفرض عليه تمضية وقت أطول في ميدلين، وفي احدى المناسبات حجز رؤساء الكارتيل طبقة كاملة في فندق "انتركونتيننتال" الفخم لعقد اجتماعات يضعون فيها خططاً استراتيجية ولتسوية خلافاتهم واقتسام امدادات الباستا. وكانوا في حراسة رجال من الشرطة، خارج دوام خدمتهم، استؤجروا للمناسبة.

وشاد ليهدر مجمّعاً للمركز الرئيسي لمنظمته على ملكية واسعة بالقرب من مسقط رأسه أرمينيا، وسمّاه "لا بوسادا أليمانا" (بيت الضيافة الالماني). وكانت تحرس بواباته دوريات على مدى ٢٤ ساعة يومياً، مجهزة بأسلحة أوتوماتيكية. وشملت التجهيزات حديقة حيوان صغيرة، ومدرجاً معبداً للطائرات كاملا مع برج مراقبة، ومرقصاً زين مدخله بتمثال برونزي بالحجم الطبيعي تظهر فيه جروح رصاص مفتوحة، لنجم الروك المقتول جون لينون، وهو أحد "أبطال" ليهدر.

ولكن كان لكارلوس ليهدر أيضاً مثال مختلف يقتدي به: ذلك هو أدولف هتلر. ولكونه نصف ألماني فقد رأى في تطلعاته تطابقاً مع قوة هتلر وأحلامه بالفتح والسيطرة. والى ذلك فان جذوره الآرية جعلته يشعر برفعة على شركائه الكولومبيين الذين كانوا في غالبيتهم من العرق الهندي المختلط. وفي مكتبه الضخم في المجمع تمثال نصفي لهتلر من الذهب الخالص وصليب معقوف لامع شارة الحزب النازي الألماني.

واشترى ليهدر صحيفة في أرمينيا لتكون حقل دعاية لخطته الاكثر جرأة الى ذلك الوقت، الا وهي حزب سياسي كان أسسه عام ١٩٨١ وسماه "الحركة الوطنية اللاتينية." وكان برنامجه مزيجا من "النازية الجديدة" والنقد العنيف المناهض للامبريالية والموجه غالباً الى الولايات المتحدة.

وكان حين يظهر لمخاطبة الجماعات المحلية يحيط نفسه بصور ضخمة لهتلر وموسوليني.

كان قسم من خطة ليهدر الكبيرة يعتمد على تأييد المنظمات الثورية التي كانت تزداد قوة في كولومبيا. وكانت هناك منظمتان رئيسيتان: حركة "م - ١٩" و"قوات الثورة الكولومبية المسلحة." وكلتاهما تعهدتا حماية المختبرات ومهابط الطائرات التي يملكها الكارتيل في مقابل المال. وجند ليهدر بنفسه عدة وحدات أخذت ببرنامجه السياسي المناهض للولايات المتحدة، وكان في نيته دمجها في النهاية لتؤلف جيشاً خاصاً.

وقوع في الفراغ

كان اندفاع درايفر وستارات في التحقيق سريعاً لا هوادة فيه. ولكن بعد ادانة ليهدر واعتقال ورد تضاءلت أهمية "عملية الكاريب" وخبا وهجها. فعين الرجلان لملاحقة قضايا أخرى، منها قضية تهريب ٥٠٠ طن من الماريوانا الى فلوريدا، لكن كارلوس ليهدر لم يكن متورطاً فيها.

وصعب على ستارات أن يتقبل خيبته. فشكا حاله الى درايفر قائلا: "ها اننا نعتقل زمرة من المهربين التافهين فيما يسرح صاحبنا ويمرح حراً طليقاً وهو يهزأ بنا."

وفي فبراير (شباط) ١٩٨٣ سمع درايفر نبأ سقوط احدى الطائرات التي كان ليهدر ينوي استخدامها في نقل الكوكايين قبالة نورمنز كاي. وكانت الجزيرة شبه مهجورة وقد نهب رجال ليهدر معظم داراتها. وهو نفسه لم يزرها منذ أشهر. وكان حطام الطائرة المنكوبة على الشاطىء رمزاً كئيباً صامتاً لمصير الجزيرة.

كانت أنباء مؤتمرات ليهدر الصحافية وتجمعاته السياسية ترسل الى درايفر وستارات من طريق مكتب المكافحة في بوغوتا. وهو تباهى في احدى اذاعات الراديو بأنه ساعد في تهريب ألوف الكيلوغرامات من الكوكايين الكولومبي عبر جزيرة نورمنز كاي الى الولايات المتحدة. وكرّر مباهاته في اليوم التالي متحديا الولايات المتحدة وكولومبيا أن يقوما بأي عمل ضده. لكنه هذه المرة جاوز حده في الصلف.

أمام التحدي المباشر للسلطة الشرعية، وواقع حكومة أفسدتها أموال الكارتيل أو أرهبها مسلحوه، بدأت السلطات القضائية الكولومبية تفكر في طرد ليهدر استناداً الى الادانة التي أصدرتها القوة الضاربة عام ١٩٨١.

ودب النشاط في جاكسونفيل اذ عاد درايفر وستارات الى جمع الادلة والشهادات المحلّفة وادانة هيئة المحلفين الكبرى ضد ليهدر. وفي ٢٦ يوليو (تموز) طار العميلان الى بوغوتا يرافقهما المدعي العام في الولايات المتحدة العام روبرت ميركل ومساعده إرنست مولر، في حراسة أمنية واحتياطات مشددة.

وأبلغت مكاتب مديرية المكافحة في أنحاء أمريكا اللاتينية وأوروبا بالامر ووضعت في أقصى حالات التأهب. وأفادت التقارير أن ليهدر يختبىء في احدى مزارعه النائية في كولومبيا. لكن عزلته لم توهن قدرته على ضخ الكوكايين الى الولايات المتحدة. ففي أكتوبر (تشرين الاول) أظهر تحقيق لمديرية المكافحة، بعد تتبع عدة شحنات ضخمة للكارتيل في أريزونا، أنها شحنت جواً الى الجنوب الغربي من طريق المكسيك. وكانت تلك عملية التفاف وتملّص من جمارك الولايات المتحدة ودفاعات مديرية المكافحة، وقد اتقنها ليهدر وسيعاودها.

"انها لمزحة،" قال ستارات لدرايفر ذات صباح في اوائل ١٩٨٤. "علينا نحن أن نلعب مقيدين بالقوانين، وما عليهم هم ذلك. وها هم مواطنونا ينشقون الكوكايين كما لو أن أنوفهم مكانس كهربائية. قل لي بربك: هل سنغير نحن هذا الوضع؟"

القائد رامبو

في خريف ١٩٨٣ اطلقت مديرية المكافحة عملية تمويهية في شيكاغو بهدف اغراء شاري المواد الكيميائية المستخدمة في تحويل الكوكايين، مثل الأسيتون و"الايثر." وقبيل نهاية السنة باع رجال المكافحة ٢٨ برميلا من مادة الايثر الى اثنين من مموني الكارتيل. وغداة شحنها ثبت فنيو المكافحة جهاز تعقب داخل أحد البراميل.

وتولى قمر اصطناعي أمريكي لخفر السواحل تتبع الاشارات أولا الى نيو أوليتز ثم الى مزرعة كبيرة بالقرب من ميدلين يملكها هورهي أونشوا وهو أحد قادة الكارتيل. ومن هناك تتابعت الاشارات وصولا الى فسحة في دغل ناء على ضفة نهر ياري تبعد مئات الكيلومترات الى الجنوب الشرقي من بوغوتا. وكانت البقعة معزولة وغابة المطر الاستوائية صعبة الاختراق الى حد أن رجال المكافحة ارتابوا في أن يكون جهاز التعقب اكتشف وأنهم يضلّلون. لكن الصور الفوقية أكدت وجود عدة اكواخ هناك.

قبيل الفجر في ١٠ مارس (آذار) ١٩٨٤ هبط في فسحة الغابة سرب من الطوافات حمل ٤٠ من رجال الكوماندوس الكولومبيين وفريق مراقبي من مديرية المكافحة. واذ وثب الرجال من الطوافات جُبهوا بنيران أسلحة أتوماتيكية من خلف الأشجار سمّرتهم في أماكنهم. كان القتال شرساً ولم يدم طويلا وانسحب القناصون على أثره. فتقدم الجنود ورجال المكافحة بحذر وفوجئوا بما اكتشفوه. كانت الغابة تخفي مجمعاً صناعياً كاملا لانتاج الكوكايين على نطاق واسع، لا مختبرات بديلة موقتة كانوا يتوقعون وجودها.

وحين أبرقت نتائج الغارة الى مديرية مكافحة المخدرات أذهل الاكتشاف حتى درايفر وستارات. فقد ضبطت كمية من الكوكاين تزيد على ١٥ طناً. وكان اسم المجمّع "ترانكيلانديا" (الارض الهادئة) وفيه قاعات نوم للعمال والكيميائيين ومستوصف وقاعات للطعام ومكتبة في تصرّف العمال خلال ساعات فراغهم. وكانت مخازن التموين تضم ألوف البراميل التي تحتوي على وقود للطائرات ومواد كيميائية للمعالجة. وكانت المختبرات تنتج طنين من الكوكايين كل أسبوع، أي ما يقدر بخمسة مليارات دولار في السنة.

اعتقل عدد كبير من العمال، لكن معظمه انسلّ الى الادغال مع المسلحين الذين عرف أنهم من "قوات الثورة الكولومبية المسلحة."

بعد سبعة أسابيع رد رجال الكارتيل بانتقام وحشي من الرجال الذين اعتقدوا أنهم المسؤولون عن الغارة. ففي السابعة والنصف بعد ظهر ٣٠ ابريل (نيسان) اغتيل وزير عدل كولومبيا رودريغو لارا بونيلا(٣٣ سنة) برصاص مسدس اوتوماتيكي من عيار ٠،٤٥ مزق جسده فيما كان عائداً من مكتبه الى بيته وهو يقود سيارته. فصعق الرئيس بيتانكور لهول الجريمة وأعلن أن كولومبيا هي في "حال حصار." وأذاع أسماء رجال الكارتيل البارزين الذين يستطع الجيش أن يحتجزهم من دون اتهامات رسمية.

وأبلغ الكارتيل الحكومة في بوغوتا استعداده لعقد صفقة هدنة مع الرئيس بيتانكور. وفي مايو (أيار) ١٩٨٤ أصدر قادة الكارتيل بياناً سلّم الى الحكومة يتعهدون فيه وقف عملياتهم في مقابل الغاء جميع مذكرات الاعتقال الصادرة في حقهم والغاء معاهدة تبادل المتهمين الموقعة مع الولايات المتحدة عام ١٩٧٩. وتعهد الكارتيل تقديم تبرعات لبرامج الصحة والتعليم في كولومبيا وتسديد الدين الخارجي على الحكومة الكولومبية بكامله والبالغ ١٠،٥ مليارات دولار!

لم تكن ثمة سابقة مماثلة لعرض الكارتيل، اذ لم تعمد أيّ منظمة اجرامية الى املاء شروطها على دولة مستقلة بمثل هذه الجسارة الوقحة. فرفض الرئيس بيتانكور العرض، ولم تمضِ مدة وجيزة حتى وقع موافقته على طلب تسليم ليهدر.

في ١٥ نوفمبر (تشرين الثاني)، بناء على معلومات سرية من مديرية المكافحة، اعتقل رجال الشرطة هورهي أوتشوا في مدريد باسبانيا. وكان فرّ الى هناك مع أحد القادة و١٥ "ملازماً" بعد رفض الحكومة الكولومبية معاهدة الصلح التي تقوم بها الكارتيل.

في واشنطن عمدت وزارة العدل الى التحرك بسرعة لطلب تسليمه رسمياً. لكن الكارتيل عمل بسرعة أيضاً. فأرسل بالبريد الى قضاة المجلس الاعلى للقضاء الكولومبي - الذين سيصدرون أحكامهم في قضايا تسليم أخرى - توابيت مصغّرة مع أكفان وصور لزوجاتهم وأولادهم. وكانت فرق من المسلحين تبحث عن رجال الشرطة والمخبرين المشبوهين وتصرعهم من دون خشية من الملاحقة أو العقاب.

وفي ٢٤ نوفمبر (تشرين الثاني) دفعت اعمال العنف والتهديدات المستمرة سفارة الولايات المتحدة الى خفض عدد موظفيها الى الحد الادنى، وبات الديبلوماسيون يتنقلون في مواكب سيارات مصفحة. وجاءت هذه الترتيبات الأمنية في الوقت المناسب، ففي ٢٦ نوفمبر (تشرين الثاني) انفجرت قنبلة في الشارع المجاور للسفارة وتسببت في مصرع امرأة كولومبية.

أبى الرئيس بيتانكور أن يخضع للتهديد. وتحدى الكارتيل فسلّم أربعة من أعضائه ليحاكموا في الولايات المتحدة.

وكانت الحكومة الكولومبية استنفرت جيشها وشرطتها في أنحاء البلاد، ومع ذلك ظل ليهدر يتملص من الاعتقال. وكان في نظر درايفر وستارات وسائر عملاء المكافحة الذين أشرفوا على القاء الشباك لاصطياده كالظل ينتقل من كوخ في الغابة الى آخر، فيظهر ويختفي وليس بينه وبين يد العدالة التي تطارده الا قيد خطوة.

وكانت حياة ليهدر بالهرب والاختباء بعيدة عن حياته المترفة الهانئة في نعيم جزيرة نورمنز كاي. وهو كان في البدء يتعاطى الكوكايين للانتعاش والترفيه، واذا به يصبح مدمناً لا غنى له عن المخدر. واذ كان عاجزاً عن الظهور علنا فقد تداعت حركته الوطنية اللاتينية في أرمينيا. وكان في العام ١٩٨٣ نال ١٢ ألفاً من أصوات الناخبين وكاد يحصل على مقعد في الهيئة التشريعية الكولومبية. أما الآن فما لم يحققه في الانتخابات قرر أن يحصل عليه بالقوة. ودفعته الهلوسة المتأتية من تعاطي الكوكايين الى تصور قيادة جيشه المؤلف من رجال العصابات والخروج به من الادغال لاكتساح دول العالم.

وسد شعره على كتفيه وتمنطق بلباس القتال. وكان حرسه الخاص، وكثير منهم يكاد لا يتعدى سني المراهقة، يهتفون له محيين: "كوماندانتي رامبو" على غرار شخصية مقاتل محنّك تتدلى بندقيته من كتفه في فيلم للممثل سيلفستر ستالون. وقد

استساغ ليهدر هذه الصورة وبات يشاهد أفلام "رامبو" تكراراً على الفيديو.

وكلما اشتدت عزلته نما كرهه للولايات المتحدة. فجنّد ارهابيين لمعرفة كل الديبلوماسيين والموظفين الامريكيين الباقين في بوغوتا. وهدد بقتل خمسة أمريكيين في مقابل كل مهرب مخدرات كولومبي تكشفه مديرية المكافحة ويسلّم الى الولايات المتحدة. وعرض مكافأة بـ٣٥٠ ألف دولار لمن يقتل رئيس مديرية المكافحة آنذاك فرنسيس مولن، ومبالغ أخرى لقتل أي عميل للمديرية في الولايات المتحدة أو كولومبيا.

وظل ليهدر على اتصال دائم مع قادة آخرين للكارتيل ما زالوا طليقين. وفي واشنطن قدرت مديرية المكافحة كمية الكوكايين التي سلّمت في الولايات المتحدة في الاشهر الاثني عشر الفائتة بـ١٣٧ طناً، منها ٨٠ في المئة للكارتيل.

بيت الوفرة

فيما كان بوبي ستارات يستمع الى نشرة الاخبار المسائية في التلفزيون شاهد كارلوس ليهدر على الشاشة. كان جالساً في كرسي فخم يشبه العرش وسط فسحة في الادغال، يصوره فريق تلفزيوني اسباني.

أعلن ليهدر أن الكوكايين هو القنبلة الذرية التي يملكها العالم الثالث، وسوف تحول أمريكا الى حال مخيفة من العجز والشلل بفعل تأثير المخدرات، وتدمرها في النهاية. كان يؤدي دور "المناضل في سبيل الحرية" المدافع عن المضطهدين.

كاد ستارات يختنق من الغضب. فتناول الهاتف واتصل بدرايفر.

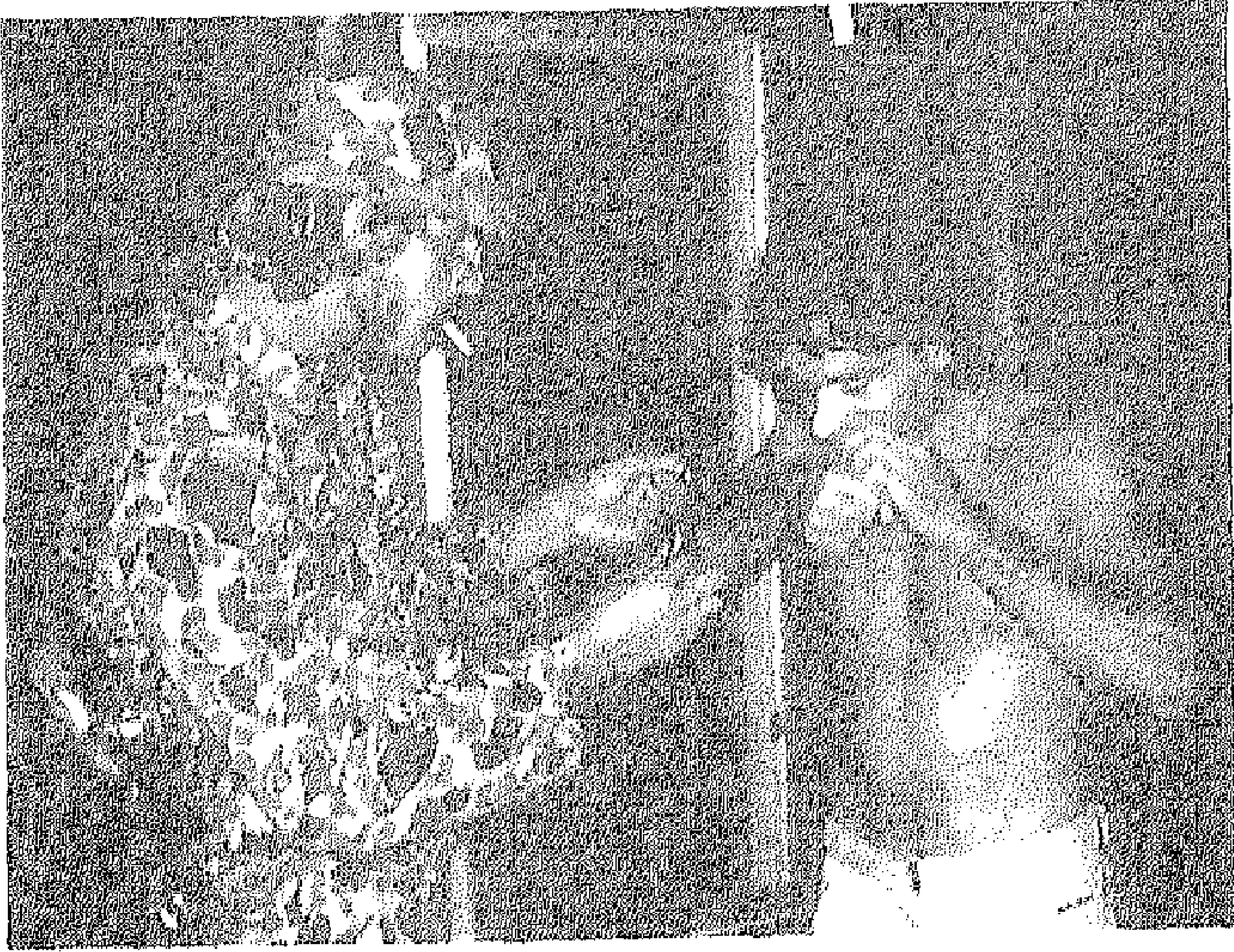
هتف درايفر: "ماذا تقول؟ أنا لا أصدق.".

فرد ستارات بحدة: "ها ان الجميع قد أضناهم البحث عن كارلوس في كل اتجاه، واذا به يظهر مع مصوري التلفزيون، أولئك لم يجدوا صعوبة في العثور عليه."

كذلك كان رد الفعل في مقر مديرية مكافحة المخدرات في واشنطن، فكثفت المطاردة بهمة اليائس. وامتنع مراسل التلفزيون الاسباني الذي قابل ليهدر عن البوح بمخبأه. ولم يملك رجال المكافحة لمتابعة بحثهم الا تقارير تفيد أنه كان مختبئاً في "هاسييندا أبوندانسيا" (مزرعة الوفرة) التي يقال انها في ناحية ما بعيدة الى الشرق من بوغوتا.

فهل هذا هو المكان حيث جرى تصوير ليهدر؟ اذا كان ذلك صحيحاً فهناك شعاع أمل ضئيل في العثور عليه. المفتاح هو شريط الفيديو، ولدى وكالة الاستخبارات المركزية «CIA» وحدها المهارة والاجهزة "لقراءة" الشريط وتحديد موقع تلك الفسحة في الادغال.

في مركز وكالة الاستخبارات الرئيسي في لانغلي بولاية فرجينيا التقى عميل من المكافحة وفني من قسم التصوير في الوكالة لمشاهدة الشريط. توسط ليهدر الشاشة وكان تركيز عدسات التصوير عليه. وشوهد رجال مسلحون يعتلون الخيل، وفي الخلفية



كارلوس ليهدر (الى اليمين) أصبح في النهاية مدمناً الكوكايين.

ومضة لخط نهر مجاور. وبعد انتهاء المقابلة تتبعت العدسات ليهدر وهو يتوارى داخل بناء أبيض من الجصّ.

ثم انتهى العرض.

سأل رجل الاستخبارات: "أهذا كل شيء؟"

أجاب رجل المكافحة: "هذا هو، أيمكنك أن تفعل شيئاً؟"

- سنحاول.

بعد عشرة أيام تلقى عميل المكافحة اتصالا في مكتبه من الخبير الفني. قال: "أعتقد أننا حددنا مكان صديقك."

التقى الاثنان في مختبر لوكالة الاستخبارات مغطى بالخرائط. وكانت هناك صور مكبّرة من شريط الفيديو، منضدة على طاولة والى جانبها لوحات بلاستيكية بيانية مرتبة لزيادة الايضاح.

وراح الخبير الفني يشرح معالم المنطقة الريفية الظاهرة في الشريط التلفزيوني: النهر، خط شجر نائياً وما ظهر كأنه أعمدة لأضواء الانارة الغامرة القوية التي ربما أقامها فريق التلفزيون الاسباني.

سأل الفني: "هل ترى الظلال التي تلقيها الاعمدة؟ بهذه نعرف الوقت التقريبي للمقابلة، وبقياس الظلال وزواياها يمكننا تحديد موقع الشمس مما يتيح لنا تخمينا قريباً من الواقع."

واشار باصبعه متتبعاً حدود النهر غير الواضحة تماماً، وقال: "هذه القطعة الطويلة الضيقة هي خط رملي. وبتفحص شكل التأكل الذي أحدثه مجرى الماء نستطيع معرفة اتجاه مجرى النهر."

وتقدم الخبير الفني من خريطة كولومبيا وحدّق الى منطقة طوقت بدائرة الى الجنوب من مدينة تدعى فيلافيسنشيو. وأخذ يقيس الكيلومترات، ثم وضع علامة بقلم رصاص

على الخريطة وأعلن: "يجب أن يكون في مكان ما هنا، لأن أوراق النبات التي تظهر في الفيديو تطابق تلك التي تنمو هناك."

ولكن ما السبيل الى تحديد الموقع بدقة؟ فاستخدام طائرة استطلاع في تلك الانحاء المنفردة ليس سوى كشف فاضح للمهمة. والبديل الوحيد هو "استئجار" قمر اصطناعي من "وكالة الامن القومي." وما هي الا أيام حتى نقل أحد الاقمار الى مدار فوق الجزء الشرقي من كولومبيا.

وفي عمق السكون في الفضاء كانت آلات التصوير تئزّ وتلتقط الصور ثم ترسلها الى محطات استقبال تنقلها الى مركز وكالة الامن القومي. وحين التقطت العدسات الفائقة الدقة منزل ليهدر المبني بالجصّ، برز كبقعة من الطلاء الأبيض الناصع على أرضية قاتمة.

في ساعات الصباح الأولى في ٨ أغسطس (آب) ١٩٨٥ تسلل فريق من الشرطة الاتحادية ورجال المكافحة داخل الغابة، مزودين أسلحة ثقيلة، واتخذوا مواقع لهم بالقرب من الموقع المقصود. ولم يكن يقطع السكون الا همهمة الحشرات.

وانبعث فجأة صوت تكسر زجاج ثم طلقات أسلحة أوتوماتيكية. فرد رجال المكافحة والشرطة على النار. واذا بصوت يرتفع من الداخل معلناً الاستسلام. وبعد لحظات خرج كثير من حرس ليهدر الخاص رافعين أيديهم.

أما ليهدر فلم يكن بينهم، اذ انه في اللحظة الاخيرة وثب من احدى النوافذ وهرب في الغابة لابساً سروالا قصيراً ومدلياً بندقيته من كتفه. فقد أتاحت له فترة القتال الوجيزة وقتاً كافياً للهرب.

داخل المنزل وجد رجال المكافحة ٥٤ كيلوغراماً من الكوكايين وقرابة مليوني دولار نقداً. لم يكن هناك من شك في أن ليهدر استقر في هاسييندا أبوندانسيا وفي نيته الاقامة طويلا. وكانت جدرانها مزينة بصور أدولف هتلر وعشيقته إيفا براون.

ثلاثة عشر قاضياً

كان فرار ليهدر بعد احكام الطوق حوله خيبة مريرة لمديرية مكافحة المخدرات. في هذه الاثناء كان مجلس القضاء الكولومبي الاعلى في بوغوتا يهم بأخذ القرار في شأن طلبات تسليم عدد من شركاء الكارتيل الى الولايات المتحدة.

في ٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٥ أخذ الكارتيل اجراءات تهدف الى منع صدور أوامر بالتسليم. فاقتحمت قوة من رجال العصابات مبنى قصر العدل فيما القضاة يهمون بالاجتماع. وعقب ذلك "حمام دم" طوال النهار اضطر فيه الجيش الكولومبي الى استخدام المدافع ضد الارهابيين المتحصنين في الداخل. فقُتل ٩٥ رجلا وامرأة. وكان بين الضحايا ١١ قاضياً من مجلس القضاء الاعلى. وأتلفت كل الادلة الثبوتية التي تدين أعضاء الكارتيل.

وفيما كانت كولومبيا لا تزال لابسة ثوب الحداد استعد الكارتيل لانزال ضربة في

مكان آخر. ففي ١٩ فبراير (شباط) ١٩٨٦ قتل رجل برصاص رشاشات في باتون روج بولاية لويزيانا. وهو شاهد لدى مديرية المكافحة يدعى باري سيل وكان ربانا للكارتيل أدت شهادته الى سجن ٣٠ مهرباً. واعتقل بضعة مسلحين كولومبيين ودينوا بتهمة القتل. وجاء في ادانة الحكومة الاتحادية أن فابيو شقيق هورهي أوتشوا هو أحد مأموري دفع الاجور للقتلة والتي بلغت ٥٠٠ ألف دولار.

رفضت اسبانيا تسليم المتهمين الى الولايات المتحدة وسلمت أوتشو الى السلطات في كولومبيا. وزُعم أن تسليمه الى وطنه مُهّد بدفع رشوة زادت على ١١ مليون دولار. وفي ١٥ أغسطس (آب) أُطلق بحكم من أحد قضاة الجمارك الكولومبية بعد دفع كفالة بـ١١،٥٠٠ دولار بتهمة "استيراد ثيران للمصارعة بطرق غير مشروعة" من مزرعته في اسبانيا.

واستمر الكارتيل في التحدي. ففي ٢٢ أغسطس (آب) كشف تقرير استخباري لمديرية المكافحة ان منظمة الكارتيل تنوي شراء أربع مقاتلات نفاثة من طراز "هارير" لمهاجمة طائرات المكافحة حين تقترب من مختبراتها للمراقبة. ولم يكن ممكناً تجاهل المعلومات، اذ كان معلوماً أن ليهدر وقادة آخرين للكارتيل يملكون الوسائل للحصول على صواريخ أرض - جو من كوبا ومن نيكاراغوا.

واستمرت ذراع الكارتيل الطويل في الاجرام وخطف الارواح.

في ٣٠ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٦ اغتيل قاض آخر في كولومبيا رفض التعاون، وهو كان القاضي الثالث عشر يقتل خلال ١٣ شهراً. وخارج بوغوتا، بعد ثلاثة أسابيع، تعقّب مسلحون ضابط الشرطة جيمي راميريز الذي قاد الهجوم على "ترانكيلانديا" قبل سنتين فقتلوه أمام زوجته وأولاده.

وفي ١٧ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨٦ اغتال قتلة الكارتيل غييرمو كانو رئيس تحرير الصحيفة الثانية الاكثر نفوذاً في كولومبيا، وكانت "جريمته" نشر سلسلة من المقالات تنتقد المنظمة. فعمد الرئيس الكولومبي الجديد فيرجيليو باركو الى عقد معاهدة تسليم أخرى مع الولايات المتحدة، متجاوزاً مجلس القضاء الاعلى الذي أصبح مروّعاً وخاضعاً كلياً لارهاب الكارتيل.

ومع نهاية العام ١٩٨٦ كان قتلة الكارتيل مسؤولين عن العدد الاكبر من قرابة ٢٥٠٠ حادث قتل سجلت تلك السنة في مدينتي ميدلين وكالي. وقد قتل ١٨٠ شرطياً في انحاء البلاد.

في اكتوبر (تشرين الاول) صادر عملاء المكافحة أضخم شحنة كوكايين فردية الى ذلك التاريخ، وهي أكثر من طنين مخبأة داخل حاويين في باخرة وصلت الى بالم بيتش في فلوريدا. وفي كاليفورنيا بلغ مجموع الكميات المصادرة ستة أطنان ونصف طن. وغمر الكوكايين الولايات المتحدة ولم يبق مكان آمن بمنأى من يد الكارتيل. فكان المجرمون يلاحقون المستهدفين في أماكن نائية مثل بودابست في هنغاريا حيث قتل أحدهم، صباح ١٣ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٧ العاصف بالثلج، السفير الكولومبي

إنريكي باريهو غونزاليس. أصيب السفير بخمس رصاصات لكنه نجا بأعجوبة. وكان جرمه أنه وقّع اوراق تسليم بعض أعضاء الكارتيل حين كان وزيراً للعدل.

"نادوه ليخرج!"

في صيف ١٩٨٥ نقل دوغلاس درايفر من جاكسونفيل الى مكتب مديرية المكافحة في بناما. واستمر في التنقيب في قصاصات المعلومات عله يكتشف مفتاحاً لحل القضية التي استنفدت نحو عشر سنين من حياته في المطاردة. وفي أوائل سبتمبر (أيلول) ١٩٨٦ تلقى كتاباً غفلا من التوقيع، ذكر فيه اسم يعود الى الماضي.

كان درايفر أدرك بحدسه أن جاك كارلتون ريد، مساعد ليهدر في جزيرة نورمنز كاي، سيعود الى الظهور، كما حصل فعلا. فقد كشف الكتاب أن ريد، بعدما اختفى مدة أربع سنوات، يعيش في كوخ بالقرب من القرية النائية بورتوبيلو في "برزخ بناما." وموقعها لا يبعد كثيراً عن خليج اورابا في كولومبيا وميناء توربو حيث خطط ليهدر، بحسب آخر التقارير، لانشاء مختبر للكوكايين وكانت كل المعلومات متطابقة.

نقل درايفر الخبر الى ستارات الذي كان رُقّي لتوه الى وظيفة عميل مكلّف في مكتب مديرية المكافحة في برمنغهام بولاية ألاباما. فانتشى ستارات جذلا. وسأل درايفر: "وكيف ستتدبر لعبتك؟"

أجاب درايفر: "سأتحلّى بالهدوء والصبر وطول الأناة، فلا بد من أن يظهر كارلوس يوماً."

جنّد درايفر مخبريه لكي يطلعوه للحال على هوية أي شخص يأتي لزيارة ريد. ولم تمض أسابيع على اكتشاف ريد حتى قدم أحد أقدم شركاء ليهدر لزيارته في الكوخ، وفي رفقته عدد من تجار المخدرات الكولومبيين.

لكن درايفر اضطر الى وقف المراقبة. فصباح ٥ فبراير (شباط) ١٩٨٧ تلقى اتصالا هاتفياً ملحاً من مكتب المكافحة في بوغوتا يعلمه: "اسمع جيداً: لقد اعتقل الكولومبيون ليهدر!"

وأضاف المتكلم في أذن درايفر المذهول: "أمس دخل قروي مركز الشرطة في ميدلين وأفاد أن مجموعة من الرجال المسلحين بأعتدة ثقيلة تركزت في أحد الاكواخ على بعد ٣٥ كيلومتراً خارج المدينة. فاستكشف رجال الشرطة المحلة وأثبتوا صحة قصة القروي. فهاجموا المكان قبيل الخامسة صباحاً. وجرى قتال فسقط أحد المسلحين واستسلم الآخرون. وكان بينهم كارلوس ليهدر."

فسأل درايفر وهو يكتب بسرعة كل ما جاء في المكالمة: "وأين هو الآن؟"

فأخبره المتكلم، وهو أحد رجال المكافحة، أن ليهدر هو على متن طوافة للجيش ذاهبة به الى بوغوتا. وقد وافقت السلطات الكولومبية بسرعة خاطفة على تسليمه الى الولايات المتحدة للحؤول دون تدخل محتمل للكارتيل. وتقرر وضعه في الليلة ذاتها في طائرة خاصة بمديرية المكافحة تنقله الى فلوريدا.

طلب درايفر تبليغه لحظة تحليق الطائرة في الجو. ثم اتصل هاتفياً بستارات في برمنغهام.

قال شريكه السابق: "أنا أعرف ذلك، ولقد وددت لو أن القبض عليه تم على أيدينا."

قال درايفر انه سيبذل قصاراه لادانة ليهدر. فسأله ستارات هل ينوي ملاقاة الطائرة، فأجاب درايفر: "كلا. أنا ذاهب للقبض على جاك ريد قبل أن يبلغه الخبر فيهرب."

في الخامسة صباح ٦ فبراير (شباط) التقى درايفر وحدتين من كوماندوس بناما وانطلق معهما الى بورتوبيلو. فسدّت مجموعة طريق البحر، وقاد درايفر الاخرى براً في طريق متعرجة داخل غابة كثيفة ثم فوق جرف صخري شاهق يعلو الشاطئ المثلّم.

في الاولى بعد الظهر كان الجميع أخذوا مواقعهم. وأمكن درايفر مشاهدة الفريق الذي سدّ مدخل الخليج الصغير. فسحب مسدسه (ماغنوم من عيار ٠،٣٥٧ ملم) وأعطى الاشارة لقائد الوحدة البنامية.

قال له: "أوكي، ناده الآن ليخرج."

اندفع من وراء الكوخ شخص طويل نحيف يعتمر قبعة مزارع مسرعاً الى الغابة. لكنه توقف فجأة لدى مشاهدته البنادق المصوّبة اليه. أكد للرجال أن ثمة خطأ ما، اذ انه يدعى جون وليمس دي لوبيز وهو مزارع عادي يكسب قوته ببيع جوز الهند.

ورأى درايفر أن الرجل يكاد يقنع الجنود بصحة كلامه. لقد تقدم كثيراً في العمر منذ ترك جزيرة نورمنز كاي.

وكان درايفر يعرف أن لدى ريد كلب صيد ذهبي اللون، وأن الكلب كان معه في جزر باهاما، حتى انه كان يعرف اسم الكلب أيضاً. وفيما هم وقوف خلف الكوخ دلف الكلب الى الفسحة وقعد بهدوء وهو في حيرة مما يجري من حركة. فصفر له درايفر وناداه: "الى هنا يا نورمان."

فأطاع الكلب وقفز مبختراً وهو يهزّ ذيله.

عندئذ أسقط في يد ريد.

ادانة صارخة

أرسل ريد الى جاكسونفيل حيث بدأت القصة قبل عشر سنين. فاحتجز هو وليهدر في زنزانتين منفردتين في غمرة احتياطات أمنية مشددة ومن دون القبول بدفع كفالة مالية لاطلاقهما. في هذه الاثناء أعيد تعيين درايفر وستارات في جاكسونفيل، حيث عكفا في أحد المكاتب التحتية لدار المحكمة الاتحادية على جمع الادلة الثبوتية ضد ليهدر وريد.

ولم يكن درايفر أو ستارات التقى ليهدر شخصياً. وفي مارس (آذار) اقتيد ليهدر الى قاعة مؤتمرات في المحكمة لكي يخط نموذجاً من كتابته اليدوية بهدف مقارنتها بالوثائق والرسائل التي اكتشفت خلال "عملية الكاريب."

قال درايفر وهو يدخل: "هالو كارلوس."

جلس ليهدر الى طاولة وهو يكاد يبدو رجلا آخر غير قائد العصابات الذي رآه العميلان في التلفزيون قبل سنتين. لقد غابت عنه صورة مقاتل الادغال بشعره الاشعث وحضوره الصاخب وتبجحه. بدا متأنقاً وشعره حسن الترتيب وأظافير يديه مقلمة.

عرف رجلا المكافحة أن محامي ليهدر - الذين قيل ان ليهدر وكلهم في مقابل مليون دولار - نصحوه أن يتلبس شخصية محافظة أثناء محاكمته. وهو بدا مطمئناً، متزناً، رابط الجأش، حتى ليصعب على المرء ان يصدق انه هو ذاته ذلك الرجل الذي نظم الكارتيل وأمر بقتل المئات واتسمت جرائمه بالوحشية واللامبالاة.

وما ان رفع ليهدر بصره ورأى درايفر وستارات حتى هتف وقد أشرق وجهه بابتسامة عريضة: "هاي! ألستما ذانك البطلان؟ انني أذكركما جيداً من جزر باهاما."

فقال ستارات: "أكتب فقط ما نمليه عليك."

مال ليهدر الى الوراء وصمت لحظة ثم قال: "حسناً، لقد غامرت في اللعبة وخسرت... في الوقت الحاضر."

بدأت محاكمة ليهدر في ١٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٧. وكان رجال الاستخبارات وفريق الادعاء جمعوا ١١٥ شاهداً ضده، بينهم ادوارد ورد وغريغوري فون إبرشتاين وجون فنلي روبنسون وليفريت ميريل فرنسيس.

ظهر ليهدر مرتدياً بذلة تقليدية، واستمع الى الشهادات من غير أن يرف له جفن. وفيما هو يوزع ابتساماته وتحياته على العملاء والمعارف في شرفة النظارة بدا كأنه رئيس مجلس ادارة يحضر اجتماعاً سنوياً لمالكي الاسهم... باستثناء عينيه اللتين تحولتا بركاناً من الحقد الوحشي القاتل كلما تعقبتا شاهداً أو عضواً في فريق الادعاء.

وفي سياق المحاكمة وردت أخبار طيبة من المكسيك. فاستناداً الى معلومات زودتها مديرية المكافحة، تمكنت السلطات المكسيكية من كسر حلقة تهريب كولومبية جديدة، وقبضت على اكثر من ٢٤ متاجراً بالمخدرات بمن فيهم ستة شركاء للكارتيل، وصودر أكثر من ألفي كيلوغرام من الكوكايين.

بعد أسابيع توجه الناخبون الكولومبيون الى صناديق الاقتراع للادلاء بأصواتهم. وفي بوغوتا انتخب لمنصب العمدة رجل شجاع قاد حرباً شعواء ضد التهريب، وكان خطفه ارهابيو الكارتيل واحتجزوه لمدة أسبوع. وفي ميدلين حيث قاعدة المنظمة انتخب لهذا المنصب محرر شجاع نجا من قنبلة ألقيت عليه قبل الانتخاب بثلاثة أيام.

أما في عمق كولومبيا فقد كان كارلوس ليهدر أحد المرشحين لعضوية المجلس التشريعي. لكنه لم ينل الا ٤١٥ صوتاً.

وفي مايو (أيار) ١٩٨٨، بعد محاكمة دامت ستة أشهر ونصف شهر قدمت خلالها أدلة واستمع الى شهادات، أصدر المحلفون حكمهم. فدين ليهدر وريد وجرّما بكل التهم الموجهة اليهما.

حكم على ريد بالسجن ١٥ سنة. وفي ٢٠ يوليو (تموز) اقتيد ليهدر أمام قاضي

الولايات المتحدة هويل ملتون ليستمع الى تلاوة الحكم. كان وجهه شاحبا منتفخاً بعد أشهر من الاحتجاز، وقد خانته ثقته بنفسه ورأى أحلامه الواسعة تحطمت بسقوط امبراطورية المخدرات التي أنشأها، فغابت عنه تلك العجرفة التي اتسم بها في بدء المحاكمة.

وأصدر ملتون الحكم بسجنه مدى الحياة، مضافاً اليه ١٣٥ سنة وغير قابل لاخلاء مشروط.

أما درايفر الذي أشعل شرارة القضية فجلس هادئاً الى طاولة الادعاء محاولا اخفاء مشاعره العميقة. وراقب ليهدر وهو يخرج مخفوراً من قاعة المحكمة. بعد ذلك نهض وغادر بهدوء كما جاء، وكأنما اختصر عشر سنين من حياته في يوم.

ناثان أدامس ■

ترجمة الياس عقل

على رغم ادانة ليهدر يواصل الكارتيل ادخال كميات ضخمة من الكوكايين الى الولايات المتحدة. وقد تحولت المدن الامريكية، من لوس انجلس الى واشنطن، ميادين معارك دامية تتقاتل فيها العصابات للسيطرة المحلية على تجارة الكوكايين.

أما مكافحة المخدرات فترتكز جزئياً على شرطيين يكرسون أنفسهم لفرض القانون. ولكن على المواطنين أن يتحملوا مسؤولياتهم أيضاً. واذا لم يفعلوا فان كارلوس ليهدر يكون ربح في النهاية.



العلم على الطريق

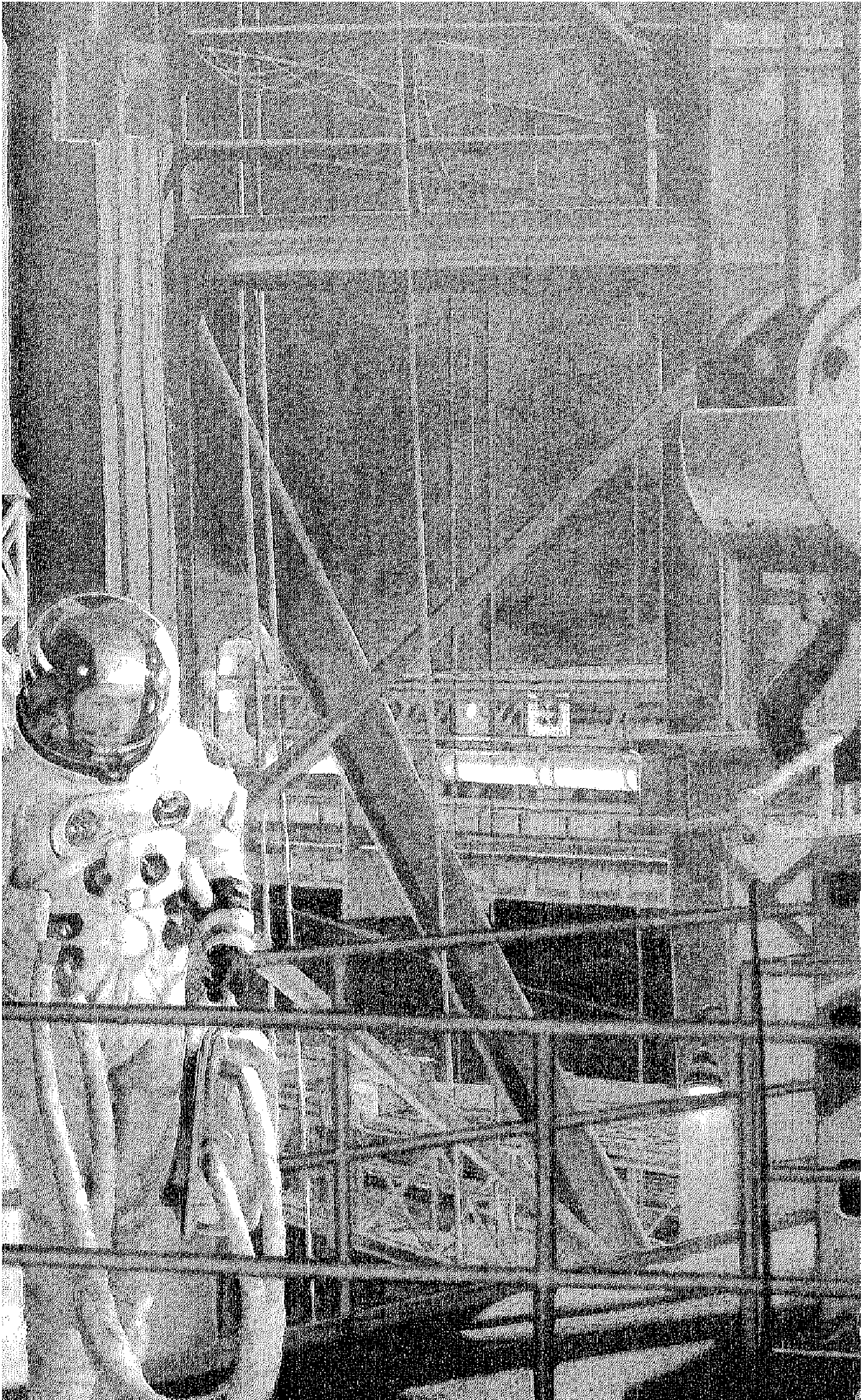
بينما كنت أقود سيارتي على الطريق العامة، رأيت شاحنة قديمة محملة بالرمل وهي تكاد تعجز عن اكمال سيرها صعوداً الى اعلى التلة الشديدة الانحدار. وإذ اسرعت لاجتيازها، لمحت ملصقاً على مؤخر الشاحنة يقول: "اتحمل كل هذا التعب لأنني لم أتعلم!"

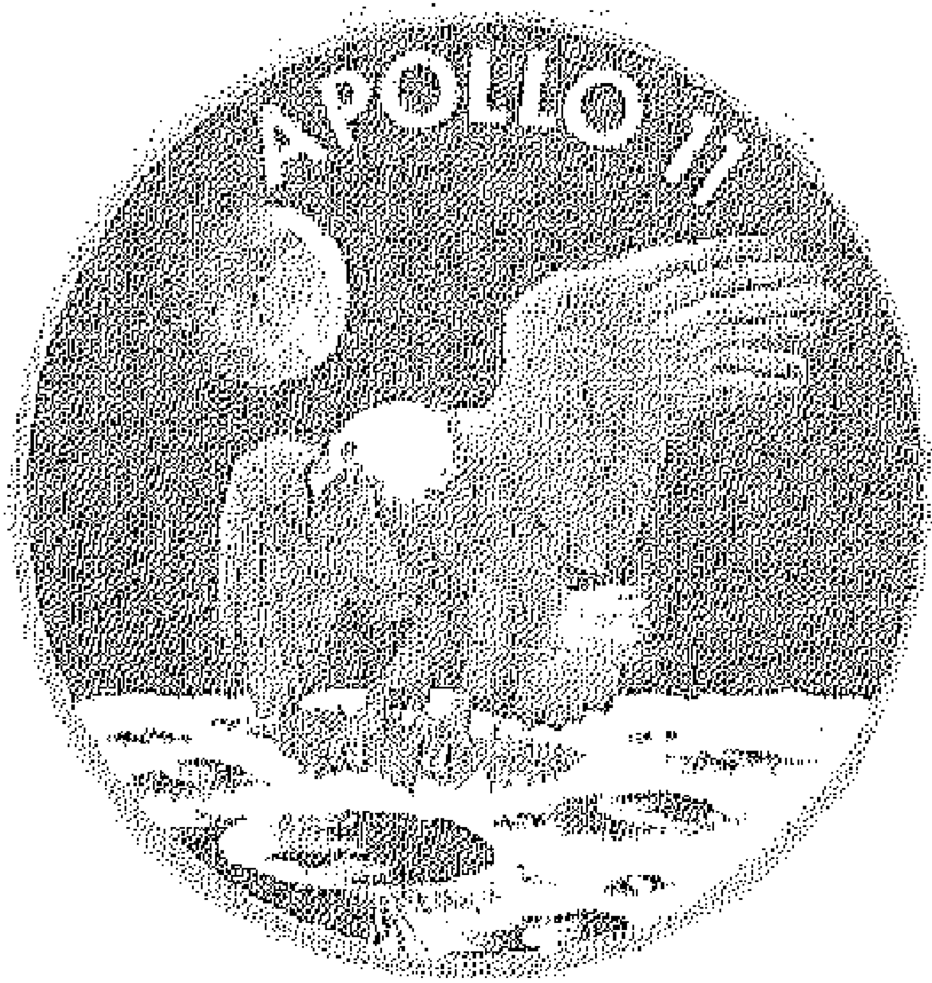
ن.ت.غ.

الترغيب والترهيب

اشترى زوجي اخيراً آلة لجزّ العشب يقودها سائق. وعندما استعملناها للمرة الاولى، امتلأت حديقتنا بالأصدقاء والجيران، يطالب كل منهم بدور لركوبها، بينما وقف ابني المراهق الذي يكره جزّ العشب، يراقب باهتمام. وأخيراً سألته هل يريد أن يجرّب بدوره ركوب الآلة، فأجاب: "لا شكراً، فربما استمتعت واعتدت الامر."

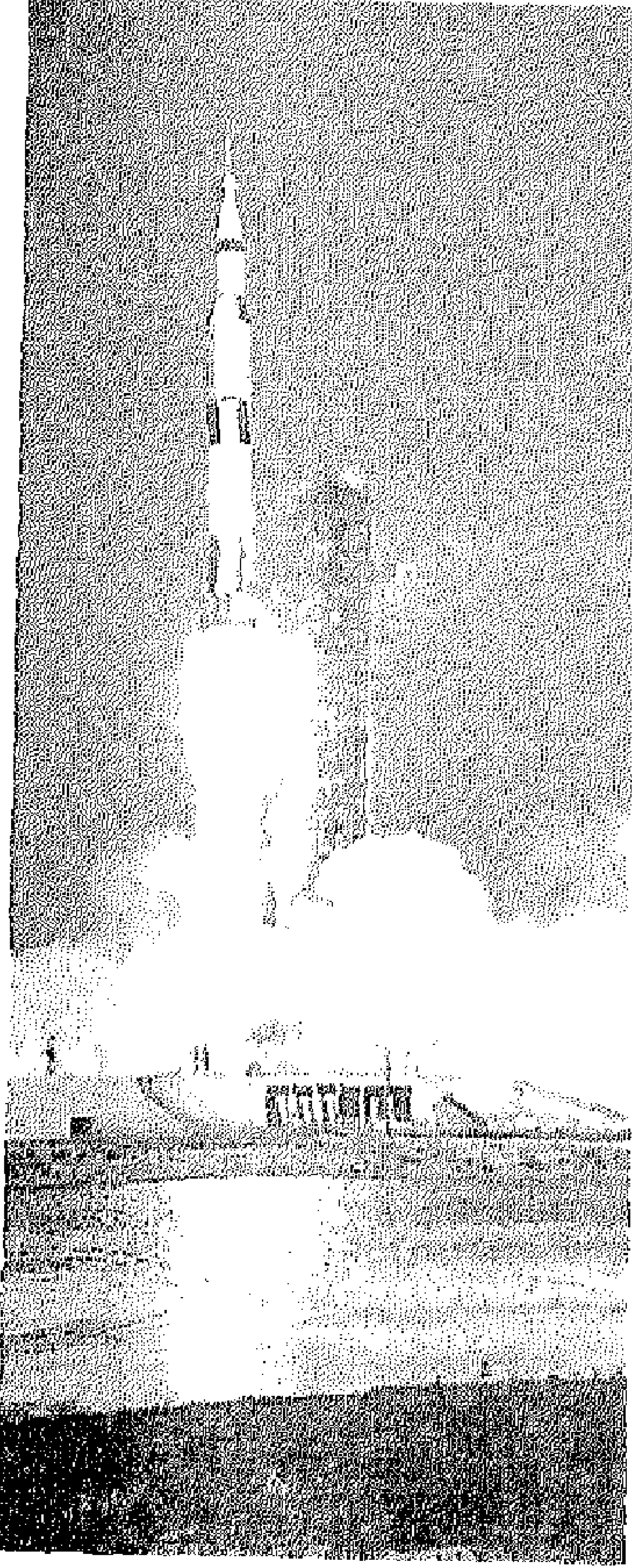
هـ.هـ.





الأسطورة

ملخص من كتاب
"رجال من الارض"
بقلم باز ألدرين
و مالكوم ماكونيل



الأسطورة

كان مشروع "أبولو" الخطوة الأكثر جرأة في تاريخ البشرية. ففي الخامس من مايو (أيار) ١٩٦١ أطلق آلن شيبارد من قاعدة كيب كانافرال في فلوريدا ليصبح أول رجل أمريكي يرتاد الفضاء. ولم تدم رحلته التي تحولت اسطورة، سوى خمس عشرة دقيقة. وبعد مضيّ عشرين يوماً فقط ألقى الرئيس الامريكي آنذاك جون كينيدي خطاباً أمام الكونغرس تحدّى فيه أمريكا أن ترسل رجالا الى القمر وتعيدهم الى الارض سالمين قبل نهاية العقد.

وإن قدّر لتلك المغامرة الجريئة أن تنجح فذلك يعني أن رجالا سيغادرون أمان الأرض ويعبرون ٤٠٠ ألف كيلومتر في الفضاء لكي يسيروا على أرض القمر المغبرة. وهنا يروي باز ألدرين، أحد الذين عاشوا تلك المغامرة، قصة الرحلة الاسطورية.

تلألأت نار المخيمات على الشواطىء والطرق القريبة من قاعدة كيب كينيدي(١) فقد أتى نحو مليون شخص لمشاهدة اطلاق "أبولو ١١". وتصبّب العرق من العالقين في زحمة السير التي سدّت الطرق المؤدية الى القاعدة، فحتى في الثالثة صباحاً كانت أنوار المصابيح الامامية لثلاثمئة ألف سيّارة تشق ظلام الليل الرطب الحار الذي سبق نهار الاربعاء ١٦ يوليو (تموز) ١٩٦٩. بعد ست ساعات ونصف ساعة تطلق وكالة

(١) كيب كانافرال سابقاً، وقد سميت كيب كينيدي بعد اغتيال الرئيس الامريكي جون كينيدي عام ١٩٦٣.

الفضاء الامريكية (ناسا) ثلاثة روّاد في أوّل محاولة بشرية للهبوط على القمر، وهو حدث لا يرغب أحد في تفويته.

في غرفة الاشعال الرقم ١ في مركز توجيه الاطلاق أشرف فريق الاقلاع على التعبئة الخطيرة لـ ٢٢٠٠ طن من الوقود الدافع المؤلّف من الهيدروجين السائل (LH2) والاوكسيجين السائل (LOX) الفائقي البرودة، في العمود الابيض الضخم للصاروخ "ساتورن ٥". وعلى رغم أن معدّل التعبئة بلغ ٣٨ ألف ليتر في الدقيقة فإنّ العملية استغرقت أربع ساعات، وكانت خطرة الى حدّ اخلاء منصّة الاطلاق التي تعجّ عادة بالشاحنات والعمال.

انحنى مئات المهندسين والتقنيين فوق نضد الادمغة الالكترونية لمراقبة ألوف الأجهزة المنفصلة على متن الصاروخ الثلاثي الاجزاء والمركبة الفضائية "أبولو". وكانت المركبة المتعددة الاجزاء أثقل من مدمّرات الحرب العالمية الثانية، وهي حوت ستة ملايين قطعة و٩١ محرّكاً مما جعلها أكثر الآلات المركّبة تعقيداً في العالم. من الناحية النظرية، كان على هذا المجمّع الآلي أن يعمل كلياً على أكمل وجه لكي تنجح مهمتنا.

في الرابعة والربع صباحاً أتى ديكي سلايتون، مدير عمليات طاقم الرحلة، لإيقاظنا أنا ونيل أرمسترونغ ومايك كولنز. ولم يكن بوسعنا في مقامنا الخالي من النوافذ تمييز الليل من النهار أو معرفة ما إذا كان الطقس مناسباً للانطلاق. لكن ديكي كان يحمل غلافاً مليئاً بتقارير الاحوال الجوية، وقال: "انه صباح جميل. لقد تمّت الموافقة على اطلاقكم."

تناول ديكي وراد الفضاء بيل أندرز طعام الفطور معنا، وكانا ودودين ومهذارين ولكن باردين قليلا. فنحن الثلاثة متوجهون الى القمر، أما هما فسيظلان على الارض.

رتّب التقني جو شميت معداتنا في غرفة التجهيز الساطعة الانارة، فتدلّت بذلات الفضاء من الرفوف كأنها رجال ثلج بلا رؤوس، وتكدست القفازات والجزمات بترتيب هنا وهناك. فبدا المكان كأنه مختبر لتشريح الرجال الآليين.

تمّ الباسنا وتجهيزنا بسرعة. وُصِلْتُ الى جهاز التهوئة النقّال، وشد جو على رأسي الخوذة البنية والبيضاء المجهّزة مسماعين ومذياعاً والشبيهة بفقاعة. وعندما ثبّتها غرق العالم الخارجي في صمت مطبق.

قبيل الفجر توقفت العربة قرب قاعدة منصّة الاطلاق الرمادية النقالة. وكانت عملية تعبئة الوقود أنجزت. ارتفع بنا المصعد سريعاً الى علو ٩٨ متراً حتى اضطررنا الى تثاؤب لفتح آذاننا. وفي أعلى البرج سلّمنا جو شميت الى غونتر ونت قائد منصة الاطلاق الذي تولى اغلاق أبواب جميع المركبات الفضائية الامريكية الآهلة منذ رحلة "ميركوري" في ١٩٦١.

حيّانا غونتر بابتسامة دافئة وسلّم نيل أرمسترونغ مفتاحاً من البلاستيك الاسفنجي طوله أكثر من متر وقد دونت عليه عبارة "مفتاح القمر." ولكن على رغم هذا الاحتفال البهيج لم نغفل لحظة عن الصاروخ الابيض الهائل الجاثم الى جانب منصتنا وهو يزفر

بخاراً في ذلك الفجر الوردي. لقد كنا واقفين قرب متفجرة تعادل قنبلة نووية صغيرة.

كان ترتيب دخولنا مركبة القيادة منظماً بحسب مقاعدنا المعينة. فقائد البعثة نيل أرمسترونغ سيجلس الى اليسار لوجود مقبض الاجهاض(٢) هناك. ومايك كولنز سيجلس الى اليمين. أمّا أنا ففي الوسط، وكنت مسؤولا عن احكام اغلاق الباب، وهذا يعني أنني آخر من يدخل المركبة.

"... اثنان، واحد، صفر!"

مشى غونتر أمام نيل ومايك الى المركبة، فوجدت نفسي وحيداً على المنصة حاملا جهاز التهوئة النقّال كمسافر يحمل حقيبته. وكانت جموع من الناس محتشدة على الطرق والشواطىء المحيطة بقاعدة كيب كينيدي. وكان نظر الجميع مسمراً على منصة الاطلاق. ومع ذلك وجدتني وحيداً أتنشق الأوكسيجين البارد داخل قوقعتي. وإذ أنعمت النظر في المجمّع المهجور لم أرَ أحداً هناك.

أجلت نظري جنوباً في الشاطىء، فرأيت منصّات الاطلاق القديمة تتضاءل حجماً وتقل تعقيداً كلما اقتربت من المنارة عند انعطاف الرأس البحري. ها هي المنصة الرقم ٣ حيث أطلقت الولايات المتحدة صاروخها الاول من كيب كانافرال، وهو صاروخ «V — 2» الذي غنمته من الحرب وتولى فريق المهندس الامريكي الالماني الاصل فون براون تجميعه بعد الحرب العالمية الثانية. وها هي جسور الرافعات "ردستون" الصدئة العائدة الى المرحلة الباكرة من "سباق الفضاء" ورحلة آلن شيبارد التاريخية غير المداريّة عام ١٩٦١. ووقع نظري على مجمّع "أطلس" حيث أقلع جون غلين في أول رحلة مدارية لمركبة فضائية أمريكية مأهولة.

تفرّست في البرج الرمادي لمنصّة الاطلاق ٣٤ حيث قتل غاس غريسوم وإد وايت وروجر شافي قبل ٣٠ شهراً في جحيم "أبولو ١". في أحد جيوب بذلتي الفضائية كان ملصق عن رحلة "أبولو ١". كذلك حملت معي ميداليتين سوفييتيتين تكرمان رائدي الفضاء فلاديمير كوماروف الذي قضى في رحلة "سويوز ١" في ٢٣ ابريل (نيسان) ١٩٦٧ ويوري غاغارين أول رجل أطلق في الفضاء في ١٢ ابريل (نيسان) ١٩٦١، وكان قضى في تحطم طائرة قبل سنة. لقد أردت ترك هذه التذكارات على القمر.

التفت فرأيت جو شميت على منصّة الاطلاق. انهم جاهزون لاستقبالي في مركبة القيادة.

قبل الاقلاع بستين ثانية ساد السكون غرفة الاطلاق الرقم ١. كان المهندسون والتقنيون جالسين الى نضدهم المرتبة في صفوف عندما تجاوز عقرب الساعة الثانية الخمسين من العد العكسي.

وفي المقصورة الزجاجية المخصّصة لاستقبال الزائرين الرسميين وقف فرنر فون براون يحمل منظاراً وهو يحدّق من خلال الشبابيك الطويلة المقاومة للانفجار نحو منصّة

(٢) Abort handle

الاطلاق ٣٩ - أ. وبات الدماغ الالكتروني يضبط كلياً تسلسل عملية الاطلاق، ولم يبقَ سوى ١٧ ثانية.

خفض فون براون منظاره وتبسّم وشرع يصلّي.

"عشرة، تسعة..." ترجّع الصوت الآتي من غرفة الاطلاق هادئاً في سماعتيّ. نظرت الى نيل فوجدت يده اليسرى المقفّزة على بعد سنتيمترات من مقبض الاجهاض. اذا طرأ أي خلل فقد تكون لديه ثانية لفتل المقبض الذي يحرّر مركبتنا من الصاروخ ويطلقنا الى ارتفاع آمن لفتح المظلة.

"... أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد، صفر. كلّ المحرّكات تعمل." أضاءت الأنوار الكهرمانية لوحة المعدّات. ألقيت نظرة على نيل الى اليسار، ثم التفتّ يمنة وابتسمت لمايك. وسمعنا قعقعة تشبه صوت قطار بعيد في ليلة صيف. "إقلاع! لقد أقلعنا!" كانت الساعة التاسعة والدقيقة الثانية والثلاثين صباحاً. وبدلا من القوى الفجائية لتسارع الجاذبية(٣) التي أذكرها من رحلة "جميني ١٢" عندما أطلقني الصاروخ "تيتان" في الفضاء في "نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٦"، حصل ترجح مترجرج غير متوقّع. وبدت السماء الزرقاء من نافذة الباب كأنها تتحرك قليلا إذ تهيأ الصاروخ الضخم لمغادرة البرج. ثم شعرنا بمزيد من الارتجاج المتمغط. وكنا جميعاً نعلم أنه اذا انقلب الصاروخ جانبياً في برج الاطلاق فقد يصبح جهاز نجاتنا غير ذي نفع. وعلت القرقعة، وبعد اثنتي عشرة ثانية سمعنا الكلمات السارة: "أخلي البرج."

كانت محركات «F — 1» الخمسة تعمل بدفع كامل ملتهمة أطناناً من الوقود في الثانية الواحدة. وأعلن الرائد بروس مكاندليس ضابط الاتصال بمركبتنا في هيوستن، أن الأمور باتت في عهدة مركز التوجيه في غرفة الاطلاق في القاعدة. وبعد دقيقة قاربنا نقطة الضغط الديناميكي القصوى (٤) ففاصت ذراعاي وساقاي في بذلتي مع تسارع قوى الجاذبية، وشعرت بفكي الاسفل يرتخي. ونادى بروس: "أنتم جاهزون للفصل."

أشار نيل بالموافقة وهو يحدّق الى الآلات على لوحته. كانت خصلة من شعره بارزة من مقدّم خوذته فبدا كصبي يركب مزلقة. ثم نادى: "فصل واشعال." واشتعل الجزء الاول الضخم من الصاروخ وانفصل ساقطاً نحو المحيط الذي ينخفض عنّا ٦١ كيلومتراً.

لم تحدث محركات الجزء الثاني ضجيجاً يذكر. وفي الخارج بدا أفق المحيط الاطلسي منحنياً في شكل قوس. وبعد ست دقائق أصبح في امكاننا التمييز بين غلاف الارض الجوي الأزرق المقنطر وسماء الفضاء السوداء. وسقط الجزء الثاني وتابع المحرّك الوحيد للجزء الثالث اشتعاله مدة دقيقتن ونصف دقيقة قبل أن يتوقف. فارتفعت أطرافي داخل ثنايا بذلتي، وارتعشت عروة "فلكرو" لاصقة على ساق البذلة في انعدام الجاذبية. لقد دخلت "أبولو ١١" مدار الارض.

---

(٣) G forces

(٤) Maximum dynamic pressure

قطعنا الخيط الفاصل بين نصف الكرة المنير ونصفها المظلم لنحلق فوق ليل مدغشقر. وبعد ساعتين و٤٥ دقيقة من الاقلاع دخلنا مدارنا الثاني المنحرف قليلا عن هاواي. كان على مركبتنا تحقيق "سرعة الهروب" لمغادرة مدار الارض وبدء المسار الذي سيؤدي بها الى الدوران وبدء المسار المتباطىء بفعل الجاذبية الذي سيؤدي بها الى الدوران في شكل أنشوطة حول القمر، وهذا ما دعاه مصمّمو الرحلة "العبور الى القمر"(٥).

انطوت اعادة تشغيل محرك الجزء الثالث في الفضاء على مخاطر جمة. فحرارة الهيدروجين السائل انخفضت الى الصفر المطلق (٢٧٣ درجة مئوية تحت الصفر) ومع ذلك كانت حرارة المحرّك كافية لاذابة الصلب، فاذا انفجر ثقّب مركبتنا بشاظاياه.

بدأ الاشتعال في عملية "العبور الى القمر"، ومال المحيط الهادىء تحتنا. وبعد ستّ دقائق توقف الاشتعال فجأة كما بدأ. وجاءنا صوت مكاندليس في هيوستن: "يبدو أنكم قطعتم شوطاً بعيداً." إنّ "أبولو ١١" مسافرة في اتجاه القمر.

حفلة "شواء"

حان وقت الانفصال والدوران والرسو بالمركبة القمرية. ولما كان مايك سيتولى قيادة المركبة الام فانه كان مسؤولا عن هذه المناورة الدقيقة. لقد تمرّن عليها مئات المرات في نماذج تجريبية، لكنّ الأمر يختلف الآن، فنحن نخترق الفضاء بسرعة ٤٧ ألف كيلومتر في الساعة ولا نودّ الحاق أذى بأي من المركبتين خلال رسوّنا.

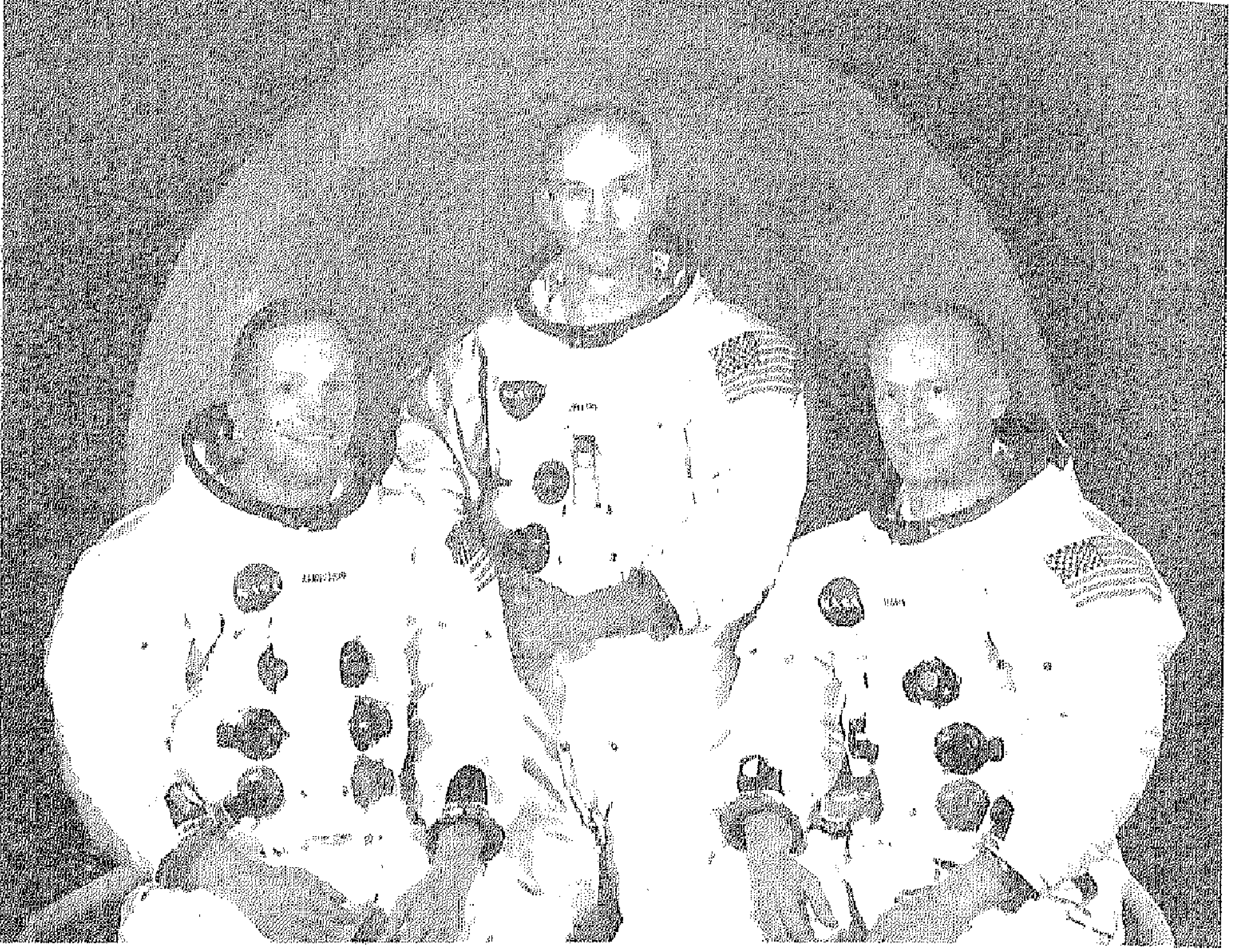
أدار مايك مفتاحاً أشعل الصواعق المتفجرة وفصل مركبتنا عن الجزء الثالث من "ساتورن" الذي يحوي المركبة القمرية. ثم أدارنا ١٨٠ درجة كاملة. وتجمّد الصاروخ الذي تعلوه المركبة القمرية في مكانه تجاه المحيط الهادىء.

ثم حرّك مايك مركبة القيادة الى أن ثبّت "أنفها" في الحلقة على سطح المركبة القمرية. وكان اقتران المركبتين شبيهاً باقتران محركات التحويل على خطوط السكك الحديد. وسمعنا قعقعة مطمئنة وطنين ارتطام اذ ثبتت المزاليج في أماكنها محدثة نفقاً محكم السدّ بين المركبتين. فاتصلتُ بهيوستن معلناً تشابك المزاليج الاثني عشر كلها. ثم أدار مايك المفاتيح لفصل مركبتنا الفضائية عن الجزء الثالث من "ساتورن" الذي سيندفع في محاذاة القمر ثم ينحرف بعيداً في مدار شمسي.

نزع مايك باب النفق وتفحص مجمّعة المسابر والمراسي التي تصل مركبة القيادة بالمركبة القمرية. وذهلنا اذ شممنا الرائحة المميّزة لاسلاك محترقة وهي رائحة ترعب روّاد الفضاء.

تجهم وجه مايك. ومع أننا لم نرَ أي دخان ولم يظهر خطر شبوب نار فقد اضطررنا الى التأكد من سلامة الاجهزة. وكانت نقطة ضعفنا جهاز الرسو، فهو شبكة معقدة من المزاليج والفكوك الكهربائية، ويجب أن يعمل مراراً ومن دون خلل في أثناء رحلتنا.

Translunar injection (٥)



طاقم "أبولو ١١": (من اليسار) نيل أرمسترونغ قائد البعثة، مايكل كولنز طيار مركبة القيادة، باز ألدرين طيار المركبة القمرية.

التقط مايك مزاليج الرسو وهزّها بقوة، فحصلنا على قراءات جيدة للفولطية على اللوحة الكهربائية، ولم يبدُ هناك أي خلل. فاستنتجنا أن حرارة باب الرسو ارتفعت اكثر مما ينبغي خلال عملية الاطلاق.

لدى وصولنا الى القمر ستدعى مركبة القيادة "كولومبيا" والمركبة القمرية "إيغل". وبدا شكل السفينة المؤتلفة غريباً قبل انفصال جزءيها: مركبة القيادة التي تشبه الرصاصة مقحمة في جبّالة الاسمنت القمرية.

نظرت من النافذة فلم أشعر بتضاؤل حجم الأرض على رغم سرعتنا الهائلة. ولكن اذ أزحت عيني عن النافذة ثمَّ عدت ونظرت منها تبيَّنت جزءاً أكبر من كوكب الارض. وعندما نظرت من جديد فوجئت لرؤيتي قرصاً براقاً مكتملا. كنا على بعد ٣٧ ألف كيلومتر عن كوكبنا، وسرعتنا تنخفض ببطء متأثرة بجاذبية الارض.

سمح لنا طيراننا المستقر برؤية منظر رائع للأرض، لكن ذلك عنى أن جهة واحدة من المركبة تتعرض لأشعة الشمس باستمرار فيما الجهة الاخرى غارقة في الظلام. ولم يسعنا الاستمرار على هذا المنوال وقتاً طويلا، فحرارة الشمس في الفضاء تشوي المعدات الدقيقة وتفجّر خزّانات الوقود الدافع في الجهة الساخنة، أما في الجهة

الظليلة فيتجمّد ناقل الحركة بفعل البرد القارس. لذلك بدأنا عملية "الشواء"، أي الدوران البطيء حول محور المركبة الطويل من أجل توزيع حرارة الشمس بالتساوي. أشعل مايك أجهزة الدفع وأمال المركبة جانبياً. لم تكن "أبولو ١١" منطلقة نحو القمر مثل رصاصة، بل كانت حركتها أشبه ببلبل يغزل.

و"الشواء" يعني أن الأرض تختفي كل ٢٠ دقيقة لتعود فتظهر متنقلة من اليسار الى اليمين ومن نافذة الى أخرى، يتبعها قرص الشمس المتلهب. وأمكننا رؤية هلال القمر عبر اثنتين من النوافذ، لكن قوائم المركبة القمرية ونتوءاتها اعترضت منظره.

كنّا نتسلّق خارجين من البئر العميقة لجاذبية الارض. وبعد ١٨ ساعة نكون قطعنا نصف المسافة الى القمر، ولكن بسرعة تدنّت الى جزء يسير من سرعة الهروب التي انطلقنا بها وهي ٤٠ ألف كيلومتر في الساعة.

حلم طيار

بعد سبع ساعات في الفضاء خلعنا بذلاتنا الثقيلة، فلن نحتاج اليها في الايام الاربعة الآتية أي حتى وصولنا الى القمر. وشعرنا بالراحة في بذلاتنا الرياضية الخفيفة، وبدت الحجرة فجأة أكثر رحابة. لقد كنا شديدي الحذر في تحريك رؤوسنا خلال الساعات القليلة الاولى من الرحلة، ونجحنا في اتقاء غثيان الفضاء. وشعرت بالجوع والتوق الى أول وجبة من القريدس (الجمبري) المجلّد وسلطة الدجاج ومرقة التفاح الحلوة المذاق.

بعد ذلك طلبت منا محطة الاتصال بعمق الفضاء في غولدستون بكاليفورنيا الجنوبية(٦) فحص جهازنا التلفزيوني. فتلا نيل تقرير الطقس في مكسيكو وأمريكا الوسطى فيما التقطت صوراً موفقة لمايك وهو يطفو من نافذة الى أخرى، ثم أمسك مايك بآلة التصوير بينما جلت بمشاهدي التلفزيون في أرجاء مركبتنا.

بعد انتهاء العرض التلفزيوني المرتجل شعرت بالارهاق. فقد كان يومنا حافلا وبتنا في حاجة ماسة الى النوم. وعندما تقوقعت في كيس النوم فكّرت في مدى قابلية الانسان للتكيّف. فها نحن، متنشقي الهواء الثلاثة، نمضي ليلتنا داخل فقّاعة صغيرة من الاوكسيجين. وسفينتنا الفضائية أشبه بكوكب مصغر من صنع الانسان، نعيش داخلها في راحة تامة مع أن بضعة سنتيمترات فقط من البلاستيك والمعدن تفصلنا عن الفراغ الخارجي.

لكنني شعرت بالأمان. كانت أجهزة التهوئة تئز أزيزاً خافتاً، وآلات الدفع تصدر ضجيجاً مخنوقاً بين الحين والآخر. خفضنا صوت الجهاز اللاسلكي، فهيوستن لن تتصل بنا الا في الحالات الطارئة. وسترنا النوافذ فأظلمت الحجرة. وتمددت طافياً في رفاهية انعدام الوزن. لقد حان وقت الراحة والتأمل.

عندما التحقت عام ١٩٤٧ بالمدرسة الحربية في وست بوينت كانت رحلات الفضاء ضرباً من الخيال بالنسبة الى صانعي السياسة الامريكية. فالحرب الباردة بدأت، ولدينا

(٦) كانت هناك محطتان أخريان، واحدة قرب مدريد في اسبانيا وأخرى قرب كانبيرا في أوستراليا.

أمور أكثر جديّة تشغلنا. وحتى في سنتي الاولى بدا لي بديهياً أنني سأحارب الاعداء يوماً، فقررت أن أشترك في الحرب - اذا حصلت - كطيّار.

وعنفت المنافسة في المدرسة الحربية، فعملت بكد وتخرّجت في يونيو (حزيران) ١٩٥١ وحللت ثالثاً بين ٤٧٥ طالباً. وبعد ١٨ شهراً من التمرين القاسي أصبحت مؤهلا لقيادة طائرة "إف - ٨٦ سابر". وذهبت الى كوريا في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥٢.

ان بعضاً من أفضل روّاد الفضاء بدأوا طيارين في كوريا: غاس غريسوم ووالي شيرا وجيم ماكديفيت وزميلي في الرحلة نيل أرمسترونغ. فالطيران الحربي يتطلب مهارات لا حاجة اليها في الطيران السلمي. وبعد مرور سنوات كنا، نحن الذين خدموا في كوريا، متحضرين لمخاطر الطيران في الفضاء لأننا ألفنا الخوف وتقبلناه.

بعد عودتي من كوريا قضيت فرصتي في منزل والديّ في مونتكلير بولاية نيوجرزي. وأول ما فعلته هناك البحث عن فتاة سمراء طويلة ورشيقة اسمها جون آرشر تحمل درجة ماجستير من جامعة كولومبيا وبدأت امتهان التمثيل في نيويورك. وبعد فترة من التعارف تطوّرت علاقتنا الى جدية وتزوجنا في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥٤. رزقنا ولدنا البكر مايك في سبتمبر (ايلول) ١٩٥٥، وفي الخريف التالي أرسلنا الى بتسبورغ في المانيا الغربية حيث تسلّمت مهمات في قوة نووية ضاربة. كان التدريب شاقاً والطقس في المانيا غير مناسب للطيران. ولكن سنحت لي فرصة العمل في فريق واحد، مع ادوارد وايت وهو رفيق عرفته في وست بوينت، فأصبحنا صديقين حميمين.

عندما بلغتني أخبار القمر الاصطناعي السوفييتي "سبوتنك" في ٤ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٥٧، لم أعرها اهتماماً. فقد كنت منهمكاً مع سرب الطائرات الذي أنتمي اليه في بتبورغ بتمرين طويل عن انذار بغارة جوية. وإذا ما أخذنا في الاعتبار أن رد فعل امريكا على تحدي "سبوتنك" كان في نهاية المطاف مشروع "أبولو"، لوجدنا في ذلك سخرية القدر.

ذات أصيل، وبعد تنفيذي ووايت معركة جوية وهمية فوق بحر الشمال، وقفنا معاً على المدرج. وأخبرني ادوارد انه ينوي الحصول على ماجستير في هندسة الطيران آملا أن يلتحق بمدرسة الطيران الاختباري في قاعدة ادواردز لسلاح الطيران في كاليفورنيا الجنوبية. وعندما وسّع سلاح الجو مشاريع الطائرات والصواريخ ذات الارتفاع العالي لتصبح مشاريع فعلية، كان ادوارد مرشحاً مناسباً لملء مقعد في قمرة القيادة.

مع حلول يناير (كانون الثاني) ١٩٥٩ كان لدى وزارة الدفاع الامريكية لائحة من ١١٠ مرشحين لتختار منها وكالة الفضاء الامريكية (ناسا) المرشحين النهائيين. وكان المرشحون يحملون شهادات في علم الفيزياء أو الهندسة وأكملوا تدريب الطيران الاختباري العسكري و١٥٠٠ ساعة طيراناً بأقل تعديل، ولم تتجاوز اعمارهم الأربعين عاماً.

وفي ابريل (نيسان) ١٩٥٩ قُدّم رواد الفضاء المختارون الى العالم. كان جون غلين أكبرهم سناً (٣٧ عاماً) وهو من "المارينز" وغاس غريسوم وديك سلايتون وغوردون

كوبر من سلاح الطيران والي شيرا وسكوت كاربنتر وآلن شيبارد من سلاح البحرية.

علمت باختيار الرواد، في وقت واحد، من اذاعة القوات المسلحة وادوارد وايت وكتب الي ادوارد أنه ارسل طلباً لدخول مدرسة الطيران الاختباري مهيئاً نفسه للاشتراك في عملية الاختيار التالي لرواد الفضاء. فقررت السير على خطاه والحصول على ثقافة أعلى، وأسرعت في ارسال طلب دخول الى برنامج الملاحة الفضائية في معهد مساتشوستس للعلوم التطبيقية.

سباق الفضاء

بعد حصولي على ماجستير في الملاحة الفضائية في مايو (أيار) ١٩٦١، شاهدت الرئيس كينيدي على التلفاز. كان السوفييت أرسلوا أول رجل الى الفضاء هو غاغارين الذي دار حول الأرض في ١٢ ابريل (نيسان) ١٩٦١. وفي ٥ مايو (أيار) كان آلن شيبارد اول امريكي يجول في الفضاء. وأطلق كينيدي تحدّياً بنبرة صوته المميزة: "أنا مؤمن بأن على هذه الأمة معاهدة نفسها على تحقيق هدف انزال رجل على سطح القمر واعادته سالماً الى الارض قبل نهاية هذا العقد."

تسلمت رسالة من وايت يقول لي فيها انه قدّم طلب ترشيح لرائد فضاء. وكانت الموجة العارمة لبرنامج الفضاء تكتسح البلاد، فأردت أن أكون جزءاً من هذا البرنامج. وإذ علمت أن الهبوط على سطح القمر يحتاج الى مهارات مختلفة عن تلك التي تلقن في مدرسة الطيران الاختباري، اخترت الحصول على دكتوراه في ميدان اللقاءات المدارية المأهولة (٧).

بعد حصولي على دكتوراه في العلوم عرض علي سلاح الطيران وظيفة في قسم انظمة الفضاء. ونقلت الى هيوستن في الوقت المناسب اذ اعلنت وكالة الفضاء أن الروّاد المرشحين لم يعودوا في حاجة الى مؤهلات الطيران الإختباري.

اختير وايت رائد فضاء في سبتمبر (ايلول) ١٩٦٢ فزوّدني معلومات مفيدة عن المقابلة التي تجرى مع الرواد. وفي صيف ١٩٦٣ نجحت في التصفية الاولى وبتّ مؤهلا لمزيد من الاختبارات. وذات عصر في أوائل سبتمبر (ايلول) تلقيت اتصالاً من ديكي سلايتون، وكان آنذاك رئيس المكتب الموسّع لروّاد الفضاء في "ناسا". وتطرّق ديكي مباشرة الى الموضوع: "نريدك أن تكون رائد فضاء. وأتمنى حقاً أن تقبل بذلك." شعرت بدوار وأجبته من غير تفكير: "هذا من دواعي سروري."

التحقت بـ"ناسا" رسمياً في يناير (كانون الثاني) ١٩٦٤ كعضو في الفريق الثالث للرواد. وكانت عشر رحلات للمركبة "جميني" قد قرّرت، كلّ منها يحمل رجلين. وهكذا استحوذت علينا جميعاً رغبة الفوز بمهمة في هذه الرحلات. وكان الاشتراك في رحلات "جميني" مهماً لأن هذه الخبرة تفسح المجال أمام رائد الفضاء للاشتراك في "أبولو" وغزوة القمر.

(٧) Manned - Orbital Rendezvous

عملت على التخطيط للمهمة وخصوصاً للالتقاء المداري. وقد سحرني البرنامج اذ كان تحقيقاً لكل نظريات الملاحة الفضائية العويصة التي تشرّبتها في معهد مساتشوستس للعلوم التطبيقية. وأحد الاهدافف الرئيسية لمشروع "جميني" كان الاثبات أن طاقماً مؤلفاً من رجلين يستطيع القيام بالرحلات الطويلة الضرورية لرحلة قمرية. كما كان "جميني" ضرورياً لاختبار تطبيق الالتقاء المداري والرسوّ.

ومن أهداف "جميني" المثيرة الاخرى "السير في الفضاء" أو ما يدعى "النشاط خارج العربة." فأحد رجال الطاقم يعوم بحرّية خارج المركبة منجزاً مهمات عدّة خارج الكبسولة، وصلته الوحيدة بـ"جميني" خرطوم لوصل الاوكسجين وحبل متين من النايلون يربطه بالمركبة. وللسير في الفضاء أهداف تفوق مجرد الاظهار للعالم أننا نستطيع القيام بحركات بهلوانية شجاعة. فقد كنا نحتاج الى تعلّم السير في الفضاء الخارجي الخاوي قبل أن يستكشف طاقم "أبولو" سطح القمر.

وبعد تجربتين ناجحتين لنموذجين غير مأهولين عن مركبة الفضاء، أعلنت "ناسا" في ابريل (نيسان) ١٩٦٤ أن "جميني ٣" ستكون أول رحلة فضائية مأهولة في البرنامج الجديد. وحدد موعدها في أوائل ربيع ١٩٦٥. ولكن في ١٨ مارس (آذار) ١٩٦٥، أي قبل خمسة ايام من اقلاع "جميني"، أعلنت موسكو اطلاق "فوسخود ٢"، وفتح رائد الفضاء ألكسي ليونوف باب المركبة وعام في خواء الفضاء، مشدوداً بحبل مدّة اثنتي عشرة دقيقة. ها هم السوفييت يغلبوننا مجددا.

أقلعت "جميني ٣" في ٣ مارس (آذار) ١٩٦٥ من دون خطّة للسير في الفضاء. وتقدّمت المهمة من دون تعثر وبرهنت بنجاح عن قدرة مركبتنا على الطيران والمناورة في مدار الارض. في يونيو (حزيران) كنت في كيب كينيدي لمشاهدة انطلاق "جميني ٤" التي شملت سيراً في الفضاء. وكان ادوارد وايت ملّاحاً في الرحلة وجيم ماكديفيت قائداً.

تمّ الانطلاق على ما يرام. وفتح ادوارد باب المركبة فوق المحيط الهندي ثم وقف في مقعده وأطلق "مسدس الدفع السريع" الذي كان يحمله بيده، فاندفع الى الخارج حتى طرف حبل النايلون الذي يربطه بالمركبة، واستطاع تحريك نفسه بواسطة المسدّس. كان نور الشمس الساطع ينعكس على مقدّم خوذته لكنه استطاع رؤية المحيط الهادىء الازرق الفسيح ينزلق تحته. ولم يفقد أبداً حس المكان والزمان كما لم يعانِ دوار الفضاء. وبعد ١٥ دقيقة أشار ماكديفيت على ادوارد بأن يلفّ خرطوم الاوكسيجين حول جسده لكي يعود الى المركبة ويتهيأ لاغلاق الباب. فقال ادوارد مذعناً: "انها أتعس لحظات حياتي."

لقد تقدّمني بدرجة واحدة ادوارد في جميع المراحل، وعندما أنجزت السير في الفضاء على متن "جميني ١٢" توقعت أن يتابع صديقي تقدّمه. لكن مأساة "ابولو ١" كانت له في المرصاد.

طرت ورائد الفضاء جيم لوفيل الى قاعدة ألينغتون لسلاح الطيران في تكساس في

وقت متقدم من مساء ٢٧ يناير (كانون الثاني) ١٩٦٧. وكنا لا نزال في الطائرة عندما سمعنا الخبر المشؤوم. تقدّم منا رئيس الطاقم الفني وقد شحب وجهه قائلا: "سيدي، وقع حادث رهيب في كيب كينيدي."

قتل كل من غاس غريسوم وادوارد وايت وروجر شافي على منصة الاطلاق خلال تجربة تسبق الرحلة قرابة السادسة والنصف مساء. فقد أشعلت شرارة كهربائية المواد القابلة للاحتراق في الحجرة التي يقتصر جوّها على الاوكسيجين الصافي، باعثة غازات سامّة في جو الغرفة. ورفعت الحرارة الضغط الى درجة استحال معها فتح الباب الذي انجذب الى الداخل.

"أبولو" تتعافى

جلست هناك في الظلام أتذكر عصر ذلك اليوم في بيتبورغ قبل عشر سنين عندما جلست وإد نتحدث عن حلمنا أن نصبح رائدي فضاء. كان هو واثقاً بذاته ومثالا للطيّار الحربي المتحلي بالروح الوطنية. لقد رحل الآن. كذلك غاس وروجر.

توصل التحقيق في "ناسا" الى أن السبب المرجّح للحريق هو مس كهربائي في حجرة التجهيزات. وانتشرت ألسنة اللهب سريعاً في الاوكسيجين الصافي، وهو جو داخلي طالما فضّله الخبراء لبساطته وجدارته. ونصحت هيئة المراجعة "ناسا" باستعمال مزيج من غازين اثنين كجو للحجرة في كل حالات الاطلاق المستقبلية، وبتحسين جهاز باب الحجرة.

بعدما خف أثر الصدمة والأسى نظرت في تفاصيل الحادث. لقد انشغل الجميع في توجيه اللوم الى هذا وذاك، ولم يشر أحد الى مدى حسن تصرّف الطاقم خلال اللحظات الأخيرة الرهيبة. فقد اتصل قسم اجراءات الطوارىء بهم طالباً من غاس غريسوم نزع الحزام، ومن إد وايت البقاء مكبّلا في مقعده وتشغيل جهاز الباب، ومن روجر شافي متابعة الاتصال بمركز مراقبة الاطلاق. وعلى رغم النار المستعرة فعل كل منهم تماماً ما طلب منه.

يصعب علي تخيّل الانضباط الذي تحلّى به إد لكي يبقي يديه على مقبض الباب وبعيداً عن الابازيم التي كانت تكبّله. انه يرقد الآن في وست بوينت حيث أراد دائماً أن يكون. ولا أستطيع تصور رمز أفضل للشجاعة تتمثل به أجيال المستقبل من طلاب المدرسة الحربية.

لدى استقرار الامور بعد الحادث المشؤوم حولت "ناسا" طاقتها الكاملة الى متابعة مشروع "أبولو." ومع حلول صيف ١٩٦٧ أنجز العمل على اعادة تصميم باب المركبة الفضائية وأمن لجو الحجرة مزيج جديد من غازين أكثر أماناً على الارض.

درس القيمون على مشروع "أبولو" تفاصيل بعثات متسلسلة تهدف الى انزال انسان على سطح القمر. ولم تدع الخطة مجالا لوقوع حوادث. لقد كان رهاناً تقنياً جريئاً.

ولكي تنفذ "ناسا" هذا المشروع الطموح كان عليها الاعتماد على توافر المعدات: صاروخ الدفع "ساتورن ٥" ومركبة القيادة والمركبة القمرية.

طوّر صاروخ الدفع ومركبة القيادة من سفينتي الفضاء "ميركوري" و"جميني"، أما المركبة القمرية فكانت ذات طراز جديد. وبما أنها ستعمل فقط في الخواء الفضائي حيث الوزن معدوم، وتحت تأثير جاذبية القمر التي تعادل سدس جاذبية الارض، فقد كانت تنقصها الانحناءات الانسيابية والستار الواقي من الحرارة التي تتميز بها سفن الفضاء. وأضفت النتوءات المنحرفة والانتفاخات والانابيب الظاهرة على المركبة القمرية شكلا قبيحاً بالمقارنة مع مركبات الطيران الانيقة. لكنها لم تصمم في الأصل لتبدو حسنة الشكل بل لتكون عملية وفاعلة. اما مرحلة الهبوط فيتعين التحكم بها بواسطة مخنق يدعمه دماغ الكتروني يسمح لروّاد الفضاء بالتحويم فوق سطح القمر من أجل اختيار مكان مناسب للهبوط. أما مرحلة صعود المركبة القمرية فتبدأ بالاندفاع نحو مدار قمري والتقاء مركبة القيادة. ومن المفترض أن تتم على أكمل وجه والّا تاهت السفينة ومات الرواد.

الرفقاء الذين كانوا يتدربون على رحلات مستقبلية الى القمر أبدوا اهتماماً كبيراً برحلة "أبولو ٥" المقررة في ٢٢ يناير (كانون الثاني) ١٩٦٨ حيث ستطلق للمرة الاولى مركبة قمرية في الفضاء. وهذه رحلة غير مأهولة في مدار حول الأرض، تختبر خلالها فاعلية نظام الدفع وأجهزة الحفاظ على الحياة ومحركات الصعود والهبوط.

بعد مرور ٤٥ دقيقة على انطلاق المركبة القمرية، بدأ فريق المراقبة في هيوستن امتحان قدراتها. وأتت نتيجة الامتحان الاول لمركبة قمرية ناجحة جداً.

وفي ديسمبر (كانون الاول) ١٩٦٨ كانت رحلة "أبولو ٨" محاولتنا الاولى لوضع أناس في مدار حول القمر، واشتركت في هذه المهمة كملّاح مساعد.

وقفت على منصة الاطلاق في الرابعة صباح ٢١ ديسمبر (كانون الاول) أضبط مفاتيح المركبة الفضائية وأساعد في التحقق من سلامة الأجهزة تمهيداً للاطلاق. وفي تمام السابعة والدقيقة الحادية والخمسين أطلق فرنك بورمن وجيم لوفيل وبيل أندرز في الفضاء. وبعد ثلاث ساعات أطلقوا صاروخهم لبدء عملية "العبور الى القمر." وللمرة الاولى في التاريخ قطع الانسان عرى الجاذبية التي تربطه الى كوكبه الأم.

بعد مرور أيام قليلة على عودة "أبولو ٨" الى الارض في ٢٧ ديسمبر (كانون الاول) أرسل ديكي سلايتون يستدعينا أنا ومايك كولنز ونيل أرمسترونغ الى مكتبه. ولم يكن ديكي يحب الاجتماعات المغلقة، لكنه هذه المرة أقفل باب المكتب. وأخبرنا أن المهمة التالية ستكون اختباراً شاملا لمركبة القيادة والمركبة القمرية معاً في مدار أرضي. ويتبع ذلك اطلاق "أبولو ١٠" في مدار قمري مدة يومين ونصف يوم وارسال المركبة القمرية الى مسافة تبعد ١٤،٥٠٠ متر فقط عن سطح القمر. واضاف ديكي أنه في حال نجاح هاتين المهمتين ستكون "أبولو ١١" أول مركبة ترسو على سطح القمر ونغدو أنا ونيل أول انسانين يحطان على القمر.

قادت زوجتي جون سيارتنا في الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم ناقلة سلال الغسيل الى المصبغة، فغسالتنا في البيت كانت معطلة. وداخل المصبغة العابقة بالبخار جلست وزوجتي على مقعد ننتظر انتهاء عملية الغسيل. فسألتني: "كيف كان يومك؟"

فأجبتها مغمغماً: "دعانا ديكي الى مكتبه هذا الصباح. المهمة ١١ ستكون الحاسمة."

فحدقت الي جون متسائلة عمّا أعنيه. فقلت: "محاولة الهبوط أوكلت الي والى نيل."

ربّما كانت المصبغة مكاناً غريباً تخبر فيه زوجتك أنك ذاهب الى القمر. ولكن هل ثمة مكان مناسب لزفّ مثل هذا الخبر؟

"للنسر جناحان!"

مرّ يومان على اطلاق "أبولو ١١" وانكمشت الأرض حتى أصبحت كرة مضيئة في حجم طابة الفولف. وكنّا نبعد عنها أكثر من ٢٦٠ ألف كيلومتر وسرعتنا أقل من ٣٩٠٠ كيلومتر في الساعة. أمّا القمر فتفصلنا عنه ٤٧ ساعة وحوالى ١٣٠ ألف كيلومتر.

أخرجنا آلة التصوير التلفزيونية مجدداً، فنحن سندخل المركبة القمرية للمرة الاولى، ومركز المراقبة الارضي أراد معاينة الامر معنا.

طفوت صعوداً في النفق حاملا آلة التصوير التلفزيونية النقالة.

كانَ سطح طيران المركبة القمرية لا ينطوي على أي أناقة. فتحديد الوزن منع استعمال الألواح لاخفاء حزم الاسلاك والأنابيب فكانت كلها ظاهرة. وأينما نظرت وجدت مسامير مبشمة ومفاتيح قطع للدارات الكهربائية. أمّا بَدَن المركبة فكان مرشوشاً بطلاء مقاوم للنار لونه رمادي أدكن.

لقد قيل أن أوّل هبوط على القمر هو ذروة الثورة الصناعية. ولا شك في أن الصفات الصناعية للمركبة القمرية برهنت عن ذلك.

في نهاية اليوم الثالث في الفضاء رأينا منظراً أذهلنا هو واحد من أروع مشاهد الرحلة. فقد دخلت "أبولو ١١" ظلّ القمر الذي كان يبعد عنا ١١ ألف كيلومتر. ومن

موقعنا كسف القمر الشمس لكنه أضيء من الخلف بهالة متألقة من نور الشمس المنكسر. كنّا نتجه بسرعة نحو جرم سماوي ضخم متجهم. فأبلغ نيل هيوستن: "ان منظر القمر رائع حقاً. انه مشهد يستحق تكاليف الرحلة."

بعد مرور ٧٦ ساعة على الاقلاع شددنا أحزمتنا مجدداً وتهيأنا للانعطاف خلف الحافة اليسرى للقمر. عندما نعبر "أفق الراديو"(٨) خلف القمر نفقد الاتصال بهيوستن، وهي حالة تسمى "فقدان الاشارة." وتمضي ٤٨ دقيقة قبل "اكتساب الاشارة" يضغط خلالها مايك زراً يشعل محرك مركبة القيادة لادخالنا مداراً حول القمر. وعلى الاشتعال أن يكون صحيحاً تماماً والاّ عزلنا في الفضاء.

أضاءت الأرقام الخضراء للعدّ العكسي على شاشة الدماغ الالكتروني، وعندما ظهرت شارة الانطلاق ضغط كولنز الزر فأشعل محرّك مركبة القيادة وأودعنا مداراً حول القمر. بدأ الاشتعال في الوقت المحدد تماماً محدثاً دمدمة خفيفة، واستمر كذلك ست دقائق خافضاً سرعة المركبة الفضائية الى حوالى ٦٠٠٠ كيلومتر في الساعة، وهي السرعة الضرورية لكي نقع تحت تأثير جاذبية القمر. وعندما توقف المحرك ارتفعنا مجدداً فاقدي الوزن تشدنا أحزمة مقاعدنا. انفرجت أسارير مايك، فغداً أصعد مع نيل الى متن المركبة القمرية وننحدر نحو سطح القمر.

بعد عشرين دقيقة وصلنا في دورتنا الى الجهة الامامية من القمر، فاستعدنا الاتصال اللاسلكي بهيوستن. وتبينت في صوت بروس ماكاندليس نبرة التوتر الذي عانوه وهم ينتظروننا: "أبولو ١١، هنا هيوستن – هل تسمعونني جيداً؟" فلأكثر من ٤٠ دقيقة لم يعرف أحد ما إذا تمّ الاشتعال بسلام.

وأجاب مايك: "هيوستن، نسمعكم بوضوح."

فأتانا الرّد: "هلّا تلوتم علينا تقرير وضع الاشتعال؟"

رحت أتخيل صفوف الوجوه المتلهفة في غرفة المراقبة. تبسّم مايك ابتسامته الشهيرة وقال: "لقد كان... لقد كان رائعاً."

في اليوم التالي وهو الرابع لنا في الفضاء، تهيّأنا لفصل المركبة القمرية عن مركبة القيادة. كنت ونيل نشعر بالاثارة، لكننا أجبرنا أنفسنا على العمل بأسلوب منهجي للتأكد من سلامة الاجهزة بعدما بتنا على متن المركبة الفضائية. وطلب منا مايك التريث بينما راجع هو بتأن قائمة الامور التي يتوجب عليه التأكد منها. كنا جميعاً نعي هشاشة آلية الترصيف والرسو، فبعد ٢٨ ساعة من الانفصال سوف نحتاج الى نفق التوصيل من جديد. وعندما انتهى مايك من عمله الشاق كنا دخلنا يومنا الخامس ومدارنا الثالث عشر في الفضاء.

اتصلنا بهيوستن من الجهة الاكثر قرباً الى القمر لكي يتمكن مركز المراقبة الارضي من استقبال سيل المعلومات من المركبة القمرية ومركبة القيادة وتنظيمها. أغلقت الابواب وباتت المركبة القمرية تدعى "إيغل" ومركبة القيادة "كولومبيا".

(٨) Radio Horizon

راقب نيل ارقام العد العكسي وهي تومض على شاشة الدماغ الالكتروني في المركبة القمرية تهيؤاً لفصلنا عن مركبة القيادة. تبادلنا مجموعات المعلومات مع مايك وهيوستن، وبدت الأرقام كأنها لن تنتهي. وأخيراً كافأتنا هيوستن بهذه العبارة الموجزة: "أبولو ١١، وافقنا على الانفصال."

تراجع مايك بـ"كولومبيا" فجأة محدثاً صوتاً حاداً. ورأيت وجهه من خلال نافذة التلاقي. وإذ انقلبت المركبة الفضائية على ذاتها بدا سطح القمر كأنه يدور ببطء عبر نافذتي الى أن تدلى فوق رأسي، فصاح نيل: "للنسر جناحان!"(٩).

انذارات فوق القمر

تعاونت مع نيل. وكنا نرتدي بذلتينا الضخمتين ونعتمر خوذتينا الفقاعتين ونحن مشدودان بحبال من مطاط الى السطح المرن للمركبة القمرية. وشعرت بخطورة التفاصيل مع ادارة كل مفتاح والابلاغ عما يجدّ من معلومات.

أبلغت هيوستن مايك أنه بات جاهزاً للانفصال، وعندما ابتعد بـ"كولومبيا" عنّا قال ببساطة: "حسناً أيها الشابان، الزما الحذر."

فرد نيل: "نراك لاحقاً." وكأنهما متجهان الى منزليهما بعد بضع ساعات من التدريب السهل.

قبل أن ننعطف مرة اخرى الى الجهة الخلفية للقمر أنبأنا رائد الفضاء تشارلي ديوك الذي تولى مهمة الاتصال بمركبتنا في هيوستن، بأن "إيغل" باتت جاهزة لعملية "الاقحام المداري الهبوطي"(١٠) وهي تنطوي على اشتعال محرّك الهبوط مدة ٢٩،٨ ثانية مما يخفضنا الى مدار يعلو ١٤ كيلومتراً عن سطح القمر. وإذا تم كل شيء على ما يرام فسوف توافق هيوستن على "بدء الهبوط الآلي"(١١). وبعد ١٢،٥ دقيقة إما أن نرسو أنا ونيل على القمر وإما ان نجهض المحاولة.

طارت مركبتنا القمرية خلفياً وكانت نافذتا حجرتنا متوازيتين مع سطح القمر. وأتى اشتعال عملية الاقحام المداري الهبوطي هادئاً بحيث لم أشعر بأدنى اهتزاز في جزمتي بل بارتخاء بطيء في ركبتيّ. قلب نيل صفحة من خطة الرحلة وتبسّم لي من خلال خوذته اللمّاعة.

دار القمر هادئاً خارج نافذتي. وتدريجاً بدت الحُفَر أكثر وضوحاً بينما كنا نهبط. ثم بدأ لون القمر يتحوّل من بيج الى رمادي فاتح، وعادت طقطقة اشارات هيوستن اللاسلكية تمسّ في مسماعيّ. ثم سمعنا صوت تشارلي ديوك: "إذا كنتما تسمعانني، لقد تمت الموافقة على هبوطكما الآلي." فأشار نيل بالايجاب وقد أدفأت آماله عينيه التعبتين. وتبسمتُ كطفل، فنحن سنحط على القمر.

أومضت الأرقام الخضراء معلنة بدء الهبوط الآلي. وتباطأت المركبة اذ خفف الدماغ

(٩) ايغل (Eagle) تعني النسر.

(١٠) Descent Orbit Insertion

(١١) Powered Descent Initiation

الالكتروني سرعتها باعاقة تدفق الوقود الى المحرّك. واقترب سطح القمر المنقّر من نافذتي فبدأت أشعر بوزن ذراعيّ الذي أحدثه أول تراجع مطوّل للسرعة، وأثره أشبه ما يكون بالجاذبية. وانثنت جزمتي المضغوطة وغارت أطرافي داخل بذلتي. وفي اتصال من هيوستن أعلن تشارلي ديوك الموافقة على متابعتنا مسارنا.

عبَر الأفق نافذتي ليستقر في القعر بينما اكملت المركبة القمرية دورة بطيئة حول ذاتها. وانحرف محورها تدريجاً لكي تثبت في وضع الهبوط النهائي الذي تقابل فيه أقدامنا سطح القمر. في وضعنا هذا استطعنا رؤية الارض وهي دائرة غير مكتملة من أزرق وأبيض وبني معلقة فوق أفق القمر.

ومضت المعلومات على الشاشة في المركبة، فقد عبرنا علوّ ١٠،٧٠٠ متر وبدأنا نشعر بهبوطنا السريع. وفي تلك اللحظة لمع انذار بضوء متقطع في أعلى الشاشة. فصرخت بصوت متوتر: "اثنا عشر – صفر – اثنان، اثنا عشر – صفر – اثنان." وتبادلت ونيل نظرات تساؤل قلقة. فإذ تجاوزنا في هبوطنا ارتفاع ١٠ آلاف كيلومتر أشار الدماغ الالكتروني الى مواجهته صعوبة في معالجة شلّال المعلومات المتدفق من رادار الرسوّ. ثم توقفت شاشته عن عرض المعلومات، ولم يبقَ لنا سوى انتظار مركز المراقبة الارضي ليحلّ لنا رموز هذا الانذار.

والانذار "١٢٠٢" يعني "اغراقاً تنفيذياً" أي أن الدماغ الالكتروني في المركبة القمرية مثقل بالمعطيات. ولم نكن مضطرين بعد الى اجهاض عملية الرسو، فمركز المراقبة الارضي استنتج أن آلات المركبة ما زالت على الأرجح في حال جيدة لأن الدماغ الالكتروني في "إيغل" عاود دورته. لكن المراقبين لم يستطيعوا التأكد من عدم وجود خلل آخر.

اتصل نيل بهيوستن معبّراً عن قلقنا المشترك: "زوِّدونا تفسيركم للانذار ١٢٠٢."

ونظرنا معاً الى زر الاجهاض الأحمر الكبير على اللوحة. إن الضغط عليه يدفع على الفور الجزء الاعلى المنتفخ من المركبة القمرية نحو "كولومبيا" منهياً أول محاولة بشرية للهبوط على القمر.

أجاب تشارلي -والتوتر باد في صوته: "حسناً، المجازفة مقبولة."

شعرت بهول الهاوية التي تفصل غرفة المراقبة الساطعة الانارة في هيوستن عن حجرتنا المعتمة في المركبة القمرية. وحيّاني نيل من وراء خوذته، فرأيت عينيه الكئيبتين في وهج لوحة المفاتيح. كان علينا ببساطة ان نثق بهيوستن. وعندما أضاء انذار ثان على شاشة المعلومات لجمت نفسي عن تنبيه نيل. فبعد سنوات من عملي كطيار مقاتل ورائد فضاء شعرت للمرة الاولى بالذعر الحقيقي.

ومرة أخرى صرفت غرفة المراقبة النظر عن الانذار باعتباره غير خطير، ولكن لم يتيسر الوقت لافهامنا السبب. انخفضنا الى ما دون ٦٤٠٠ متر، وكنا نهبط بسرعة ٣٧ متراً في الثانية. وكان علينا في هذه المرحلة التأكد من أننا نتوجه الى نقطة آمنة، لكن كل ما رأيناه كان فوهات براكين رمادية وحقولا تغطيها صخور ضخمة. وأومضت

الانذارات مجدداً ماحية المعلومات عن الشاشة. فاتصل نيل بهيوستن: "اثنا عشر - صفر - واحد، اثنا عشر - صفر - واحد." فأعلمه تشارلي بتلقيه الاتصال.

لحست شفتي الجافتين، فنحن في حاجة ماسة الى الانضباط، لكنَّ التوتر يبِّسني داخل بذلتي. لم يبق لنا سوى الوثوق بغرفة المراقبة.

وهنا اتصل شارلي قائلا: "تمسكا جيداً. لقد تمت الموافقة على رسوّكما."

لقد حطّ النسر

كنا نعلو ٤٩٠ متراً عن سطح القمر عندما أبلغنا تشارلي الموافقة النهائية. ومن ارتفاع ٣٣٠ متراً بدأت تزويد نيل وغرفة المراقبة معاً سلسلة متواصلة من المعلومات ووصفاً مفصلا لهبوطنا النهائي. واتفقت مع نيل على ان رادار الرسوّ يزودنا معلومات جيدة، فضغط هو زر الرسوّ في لوحة المفاتيح.

لم يتمكن أي منا من دراسة منطقة الرسوّ بينما كنا نقترب منها بسبب الانذارات المسعورة التي أذعرتنا. ولو أن هذا حصل خلال رسوّ وهميّ في كيب كينيدي لكنّا أجهضنا العملية على الأرجح.

أخيراً أبعد نيل نظره عن شاشة الدماغ الالكتروني وتطلّع من نافذته المثلثة. لقد كان بلا ريب غير راض عن السطح تحتنا، اذ اننا انخفضنا الى مستوى لم يسمح لنا بتحديد فوهات البراكين التي درسناها في الصور الفوتوغرافية التي التقطتها "أبولو ١٠". كان علينا ايجاد منبسط غير وعر للهبوط، ولكن بدا أن الدماغ الالكتروني يتوجه بنا الى حقل من صخور يحوط فوهة بركان قطرها ٣٥ متراً.

على ارتفاع ١٨٠ متراً قبض نيل على جهاز القيادة اليدوي وأبطأ هبوطنا من خمسة أمتار وثمانين سنتيمتراً في الثانية الى مترين و٧٥ سنتيمتراً، ومن ثمَّ، على ارتفاع ٩١ متراً، الى متر واحد في الثانية. وحوّمت المركبة القمرية فوق قمع لهبها وهي تهبط ببطء شديد. لم يعجب نيل ما رآه تحته، فمسّد الضابط اليدوي كسائق سيارة محترس يضبط سرعتها الآلية. وانطلقنا أفقياً عبر حقل من الصخور المتكسّرة.

أومض الضوء الكهرماني على لوحة المفاتيح الرئيسية أمامي منذراً بهبوط مستوى الوقود. لقد استهلكنا كل الوقود تقريباً وبتنا على ارتفاع يقل عن ٣٠ متراً، ومع ذلك خفف نيل سرعة الهبوط.

وفي الوقت ذاته، أنذرنا صوت تشارلي: "ستون ثانية."

كانت خزانات وقود محرّك الصعود ملأى لكنها مفصولة تماماً عن محرّك الهبوط الضخم. وما لدينا من الوقود يكفي على أبعد تعديل لستين ثانية من الهبوط. لكن نيل تباطأ مستكشفاً السطح تحته.

صرخت: "... انزل ٧٥ سنتيمتراً. الى الامام. الى الامام."

تحركت المركبة القمرية الى الامام مثل طائرة مروحية تستعد للهبوط. كنا في ما يدعى "منطقة الموت" ولا نستطيع البقاء هناك وقتاً أطول. فإن نفد الوقود منا على

هذا العلو سقطنا وتحطمنا قبل ان يتاح لمحرّك الصعود رفعنا الى مدار حول القمر.
"جيد. اثنا عشر متراً. التقطنا غباراً. تسعة أمتار...".

تسعة أمتار تحت القوائم الطويلة الناحلة للمركبة القمرية. تطاير الغبار الذي لم يعكّر سكونه طوال مليار سنة بفعل محرّكنا.

وأعلن تشارلي متهيباً الوضع: "ثلاثون ثانية." لكنّ نيل استمر في التباطؤ.

اشتعل محرّك الهبوط بصمت ملتهماً آخر ما بقي من مخزون الوقود. فحوّلت نظري الى زر الاجهاض. ثمّ ناديت وقد رأيت ظل مسبار قاعدة السلّم يلامس السطح: "انحراف الى اليمين." واهتز الافق قليلا ثم ثبت. وتوقف وميض مقياس الارتفاع. لقد هبطنا على سطح القمر.

لقد طار بنا نيل أقصى مدة ممكنة، وما تبقى من الوقود لم يكن يكفي لأكثر من عشرين ثانية. تهيأت لأجراء عملية اجهاض اذا ما ألحق أذى بالمركبة أو في حال لم يكن السطح قوياً كفاية لحمل ثقلها. وقلت لنيل: "لا بأس. توقّف المحرك." وهما عبارتان تلوتهما من اللائحة.

حرّر نيل جهاز القيادة اليدوي من قبضته وكلانا ما نزال نرتجف بتأثير توتر اللحظات الأخيرة التي سبقت ملامستنا سطح القمر.

تابعت التحقق من بقية فقرات اللائحة وكأنني أُنشدها، فقاطعني تشارلي من هيوستن: "إيغل. أشعرانا بهبوطكما."

نظرت الى صخور القمر وظلاله الغريبة فوجدتها مقفرة كما تصورتها دائماً. وانحنى الافق على بعد كيلومتر ونصف كيلومتر غائراً في سواد الظلمة.

اتصل نيل بهيوستن وأشعر المراقبين برسوّ مركبتنا: "هنا قاعدة الهدوء. لقد حطّ النسر."

فقال تشارلي: "حوّل، قاعدة الهدوء، أَشعرنا بهبوطكما. هنا مجموعة من الفتيان يحبسون أنفاسهم. لقد استرددنا أنفاسنا الآن. شكراً جزيلا."

مددت يدي وصافحت نيل بحرارة. كان ذلك يوم السبت ٢٠ يوليو (تموز) ١٩٦٩. لقد حط أمريكيان على سطح القمر قبل انتهاء العقد بخمسة أشهر و١١ يوماً. لكنّ الجزء الثاني من تحدي كينيدي، أي عودتنا سالمين الى الارض، ما زال نصب أعيننا.

قفر رائع

كان مفترضاً أن ننام أربع ساعات قبل استكشاف سطح القمر. ولكن يبدو أن من وافق على هذه الخطة لم يكن ملمّاً بعلم النفس. لقد هبطنا من فورنا على القمر، وكميات كبيرة من هرمون الادرينالين المهيّج تسري في جسدينا. ومحاولتنا النوم قبل بدء نشاطنا خارج المركبة كمن يطلب من طفل صباح العيد ان ينتظر حتى الظهر لكي يفتح هداياه.

وبدأت نشاطي بالصلاة. فطلبت من كل من يستمع الي، لا فرق من يكون أو في أي

مكان هو، أن يتوقف لحظة ويتأمل احداث الساعات القليلة الماضية ويرفع الشكر الى الله بطريقته الخاصة.

وشكرت ربي من اجل الذكاء والشجاعة اللذين أتيا بطيارين شابين الى "بحر الهدوء."

استغرق ارتداؤنا بذلتي الفضاء المخصصتين للسير على القمر ثلاث ساعات. فحقيبتا الظهر اللتان تبدوان بسيطتين تحويان ما يكفي من الاوكسيجين والماء المبرّد والطاقة الكهربائية ومعدات الاتصال اللاسلكي لابقائنا أحياء وعلى اتصال بهيوستن لمدة لا تتعدى اربع ساعات.

فتح نيل الباب ونزل درجات السلّم بتأن، ثمّ تطاول وسحب شريطاً لكي يجول بآلة التصوير التلفزيوني. فاتصل ماكاندليس قائلا: "التقطنا صورة على التلفزيون."

وقال نيل: "أنا عند قاعدة السلم." ومن نافذتي راقبته يخطو بحذائه القمري من القاعدة المعدنية المستديرة للسلم الى السطح الرمادي المغبّر.

"انها خطوة صغيرة لرجُل، وقفزة عملاقة للبشرية."

هبطت السلم لألتحق بنيل بعد ٢٠ دقيقة. وقد جعلت جاذبية القمر الخفيفة المهمة ممتعة ودقيقة في آن. قفزت الى جنب نيل فسألني: "أليس هذا رائعاً؟ انه لمنظر مهيب."

استدرت ببطء على نفسي فرأيت الافق ينحدر بحدة في كل الاتجاهات. كنا ننظر في اتجاه الشمس الغاربة، لذلك لم نرَ سوى فراغ أسود خلف حافة القمر.





"خطوة صغيرة لرَجُل،
قفزة عملاقة للبشرية."

وعلى مدّ النظر رأيت الحصى وشظايا الصخور وفوّهات صغيرة تغطي السطح المنبسط. أخذت نفساً عميقاً اذ شعرت بقشعريرة في رقبتي ووجهي. وقلت: "يا للجمال، يا لهذا القفر الرائع!"

وظهر نيل بجانبي كأنه شبح أبيض وربت كتفي بيده المقفزة. وتبسّمت ابتسامة عريضة مع أن مقدّم الخوذة الذهبي حجب وجهي، فها نحن واقفان معاً على القمر.

أحد الاختبارات كان الهرولة بعيداً عن المركبة لمعرفة مدى قابلية رائد الفضاء للتحرك على سطح القمر. وبعد دورات قليلة من العدو الوئيد بت قادراً على التحرك بسهولة. وشعرت بأن الوقت يمرّ بسرعة عندما أشار الي نيل لكي نكشف النقاب عن اللوحة التذكارية. ووقفنا قرب "إيغل" وقرأ نيل الكلمات: "هنا وطأ أول رجلين من كوكب الأرض سطح القمر في يوليو (تموز) ١٩٦٩. أتينا بسلام من أجل البشرية جمعاء."

جرف نيل عينات من تربة القمر ووضعها في علبة مخصصة بها، وركّبت أنا ستار الالمنيوم الرقيق للاقطة الريح الشمسية(١٤). فالقمر يمتصّ الريح المتواصلة لجزيئات الغاز المشحون المتدفقة من الشمس، وسيعمل علماء الارض على فحص اللاقطة لمعرفة المزيد عن هذه الظاهرة، ومن خلالها عن تاريخ النظام الشمسي. وشعرت بالرهبة إذ أخرجنا العلَم من حجيرة المعدّات في قاعدة المركبة، فمنذ طفولتي سحرتني مشاهد المستكشفين وهم يغرسون الاعلام على شواطىء غريبة. وها أنا الآن على وشك غرس علم على أغرب شاطىء تطأه قدم انسان. ومن بين كل المهمات الموكلة اليّ أردت ألّا يتعثّر رفع العلم.

على رغم أن سطح القمر تغطيه طبقة من التربة المسحوقة، فتحتها مباشرة تصبح التربة أكثر صلابة. وتناوبنا على غرز سارية العلم لكننا لم ننجح الا في تعميقها بضعة سنتيمترات في التربة، فلم تبدُ ثابتة. وعندما توصلنا الى تقويم العلم أدّيت له التحية العسكرية.

لم أشعر بمرور الوقت. وإذا بروس ينبئني: "لديك ثلاث دقائق للشروع في انهاء نشاطك خارج المركبة." كنت أتسلّق السلم عندما نبهني نيل الى التذكارات. فأخرجت من جيب صغير في كتف بذلتي رزمة صغيرة تحوي الميداليتين السوفييتيتين وملصق بعثة "أبولو ١" وغصن زيتون ذهبياً صغيراً هو واحد من أربعة، وكن أعطينا زوجاتنا ثلاثة

(١٤) Solar - wind collector

منها رمزاً لاشراكهن معنا في المهمة. وحوت الرزمة أيضاً قرصاً رقيقاً من السيليكون(١٢) عُلِّم "من كوكب الارض" وفيه رسائل ودية من قادة ٧٣ أمة.

رميت الرزمة على التراب بين آثار أقدامنا المبعثرة. ومرة أخرى فكّرت في إدوارد وايت. فقبل عشر سنين فقط تكلّمنا بحماسة الشباب عن حلمنا .

ليل طويل

داخل المركبة القمرية عبأنا ٢١ كيلوغراماً من الصخور القمرية في صندوقين معدنيين. واحتاجت هيوستن الى تبادل سلسلة لا تنتهي من المعلومات الضرورية لضبط الدماغ الالكتروني الخاص بالملاحة. ثم كان علينا طرح حقيبتي الظهر والحذاءين القمريين وغيرها من النفايات لخفض الوزن من أجل الارتفاع بالمركبة.

وأخيراً حان وقت الطعام والراحة. كان طعم النقانق أشبه بكرتون مالح وعصير الفواكه طبشورياً. وبدأ جوّ المركبة يبرد فتمددت على أرضيتها تحت لوحة التجهيزات واستند نيل الى غطاء المحرّك حاشراً جزمته في علاقة تحت شاشة الدماغ الالكتروني.

كسا الغبار القمري أرضية المركبة والجزء السفلي من بذلتينا . وكان مثل غبار الفحم ورائحته تشبه رائحة البارود المنبعثة من الالعاب النارية. ولم نستطع تفادي تنشق هذا الغبار. فاذا كان فيه أي جراثيم غريبة فأنا ونيل أول من يختبر أثرها.

بعد بضع ساعات تهيأنا للاقلاع. وكان الاتصال اللاسلكي المتواصل الثلاثي الوجهات يصلنا بـ"كولومبيا" وغرفة المراقبة الارضية. وفيما أنا أراجع اللائحة للتأكد من سلامة الاجهزة مددت يدي الى الجهة اليمنى من اللوحة لتهيئة مفتاح قطع الدائرة الكهربائية في محرّك الاقلاع. وجفّ حلقي ذعراً، فمسمار البلاستيك الصغير لم يكن هناك. وهذا التيار يرسل طاقة كهربائية الى المحرك الذي يرفعنا عن القمر. لا بد من أن حقيبة ظهري صدمته بينما كنت أتهيأ للخروج من المركبة.

حدّق كل منا الى صاحبه، فمن دون الطاقة الكهربائية لا يشتعل محرك الاقلاع. كان في امكاننا فتح لوحة المفاتيح ووصل الأسلاك مستعملين عدتنا المتواضعة، لكننا مرهقان ولن نعمل حسناً. وفتشنا حولنا عن شيء نولجه في مفتاح قطع الدائرة الكهربائية، وبعد محاولات عدة وجدنا قلماً رأسه من لِبْد يلائم تماماً الشق الصغير فأقحمناه فيه وحركناه فأومض الضوء على اللوحة. ابتسم نيل فأجبته بابتسامة مماثلة. ها نحن قد تغلبنا على أزمة أخرى.

وأخيراً وافقت هيوسن على اقلاعنا. فراقبتُ أرقام العدّ العكسي على الشاشة وأنشدتها: "ثمانية، سبعة، ستة، خمسة، أربعة... انطلق."

كان الاقلاع قوياً. ولم تهيئنا أيٌّ من تجارب الاقلاع الوهمية لمثل هذا الاندفاع المفاجىء من جاذبية القمر الضعيفة. وخلال ثوان كنا ننطلق بزاوية حادة من خمسين درجة مرتفعين فوق حقول فوهات البراكين.

(١٢) من الاقراص التي تلقّم بها الادمغة الالكترونية.

بعد سبع دقائق من انطلاقنا دخلنا مداراً حول القمر يبعد ١٨ ألف متر عن السطح وبتنا نطير بسرعة ١٥٠٠ متر في الثانية. وسقط الافق وتقوست "كولومبيا" عبر السماء السوداء فوقنا وخلفنا. وشرع رادار الالتقاء والدماغان الالكترونيان على متن المركبتين يفتش بعضها عن بعض، ثم تشابكت وتبادلت الاتصال بلغة رقمية صامتة وبعد مرور أربع ساعات على اقلاعنا من "بحر الهدوء" سمعنا صرير اغلاق المزاليج. لقد نجح مايك في الالتحام بـ"إيغل".

مرت علي أربعون ساعة بلا نوم. وشعرت بثخانة في صوتي وحركتي، لكن هدوءاً داخلياً سيطر عليّ. واشتعلت احدى آلات الدفع في "إيغل" فسرت رعشة في المركبتين.

بعد سبع ساعات دخلنا مدارنا القمري الأخير في محاذاة الخط الفاصل بين الليل والنهار. وكنا ألقينا بجزء "إيغل" المخصص للاقلاع في مدار حول القمر حيث قد يبقى مئات السنين.

كان مايك جاهزاً لبدء عملية "العبور الى الارض." وتستهلك عملية الاشتعال هذه خمسة أطنان من الوقود الدافع في دقيقتين ونصف دقيقة مضيفة ٣٥٠٠ كيلومتر في الساعة الى سرعتنا مما يكفي لخرق جاذبية القمر. وأردنا لهذه العملية نجاحاً أكيداً، فراقبنا ثلاثتنا العد العكسي على شاشة الدماغ الالكتروني فيما همس مايك: "ثلاثة، اثنان، واحد..."

حصل الاشتعال كما خطّط له تماماً. وبعد عشر دقائق درنا حول القمر للمرة الأخيرة، واتصل بنا تشارلي من الأرض: "لقد وضعناكم في طريق العودة الى الوطن."

انحنى أفق القمر عبر نافذتي، وبدت الأرض في الكون الأسود تنتظرنا بدفئها وترحيبها.

العبور الى الارض

ها نحن نوثق أنفسنا الى المقاعد مجدداً بعد ثمانية أيام من انطلاقنا من كيب كينيدي. ولم يبق من الصاروخ والمركبات التي وزنت ٣٢٠٠ طن لدى اطلاقها الى القمر سوى مركبتنا المخروطية الصغيرة "كولومبيا". وكانت الارض في الساعات الثلاث الماضية تحوّلت من دائرة مشعّة الى كرة ضخمة زرقاء. واتجهنا نحو غلافها الجوي بسرعة ٤٠ ألف كيلومتر في الساعة تحمينا من الامام الدرع الواقية من الحرارة، لنعبر الطوق الوضّاء لغيوم الشروق ونحط في المحيط الهادىء على بعد ١٤٠٠ كيلومتر جنوب غرب هاواي.

على ارتفاع ١٢٠ ألف متر صادفنا الكتل الاولى من الغلاف الجوي، وبعد دقيقتين وجدنا أنفسنا داخل "كرة الرجعة النارية" الهائلة المتوهجة باللونين الأخضر والزهري إذ دخلنا جوّ الارض. وثقلت أطرافنا مع قوى الجاذبية فلم يكن لنا سوى الاسترخاء في مقاعدنا في انتظار أن يخفف الغلاف الجوي سرعة هبوطنا بحيث يمكن فتح المظلّات



فتحت المظلات البرتقالية والبيضاء الثلاث بحركة مفاجئة في الموعد المحدد على ارتفاع ٧٠٠٠ متر. وإذ ترجحنا تحتها راجعنا لائحة التحقق النهائية تحضّراً للهبوط في المحيط. وشممت السديم الدافىء المالح يتصاعد من المحيط الاستوائي لملاقاتنا. انها الرائحة القديمة لكوكب الارض. وما هي الاّ لحظات حتى غطسنا في الماء.

محجرنا الصحي الاول كان قطيرة من الالمنيوم على متن البارجة الامريكية "هورنيت". هناك عرفت أجمل استحمام في حياتي. ثم نظرت من نوافذ الزجاج السميك لأرى الرئيس السابق ريتشارد نيكسون واقفاً وراء مذياع بين الطوّافات والطائرات وهو يلقي كلمة ترحيب بعودتنا. وكان نيكسون معروفاً بتحفّظه وبرودته، لكنه ذلك الصباح في شمال المحيط الهادىء رقص قليلا لدى رؤيتنا. وبدأت أدرك الأهمية التاريخية لرحلتنا.

زارتنا عائلاتنا بين جلسات الاستجواب التقني الطويلة، لكن الجميع اضطروا الى

البقاء خارج المختبر ومحادثتنا هاتفياً عبر نافذة غرفة تشبه حجرة المراقبة في محطة تلفزيونية أو رواق الزيارات في أحد السجون. وكانت زوجتي جون تبتسم لي من خلال عينيها الدامعتين. وأعتقد أننا في تلك اللحظة أدركنا أن حياتنا تبدّلت الى الابد بفعل رحلتي.

أخلينا من الحجر الصحي بعد ١٤ يوماً اذ لم تظهر على أحد منا أعراض مرضية وإن زكاماً بسيطاً بسبب الغبار القمري. وفي ١٣ أغسطس (آب) أرسلتنا "ناسا" في جولة، وذلك الصباح في مدينة نيويورك ركبنا ثلاثتنا سيارة مكشوفة عابرين شارع برودواي الشهير. وضجت الارصفة بالهتاف والتصفيق، وامتلأ الجو بقصاصات الورق الملون التي نثرت ابتهاجاً بالمناسبة. ومررنا بفرق كشفية تحمل أعلاماً أمريكية.

رأيت أن أمريكا ركزت فرحها علينا، نحن الذين غرسنا علمها على القمر. وشعرت بقشعريرة فخر ببلادنا التي أرسلتنا في مهمتنا الجريئة.

باز ألدرين ومالكوم ماكونيل ■

ترجمة نهلا رزق



فضول اختباري

علقت لافتات كبيرة في كلية علم النفس كتب عليها "اختبار في علم النفس"، وأشارت أسهم تحت اللافتات الى باب يحمل اللافتة الآتية: "اختبار في علم النفس اليوم." وبعد مروري مع صديقي غير مرة أمام الباب تساءلنا عما يجري في الداخل. وأخيراً دخلنا لنجد الغرفة خالية الا من امرأة جالسة الى طاولة. فابتسمت لنا شاكرة اشتراكنا في التجربة.

كانت التجربة عن الفضول لدى الانسان.

ج.س.

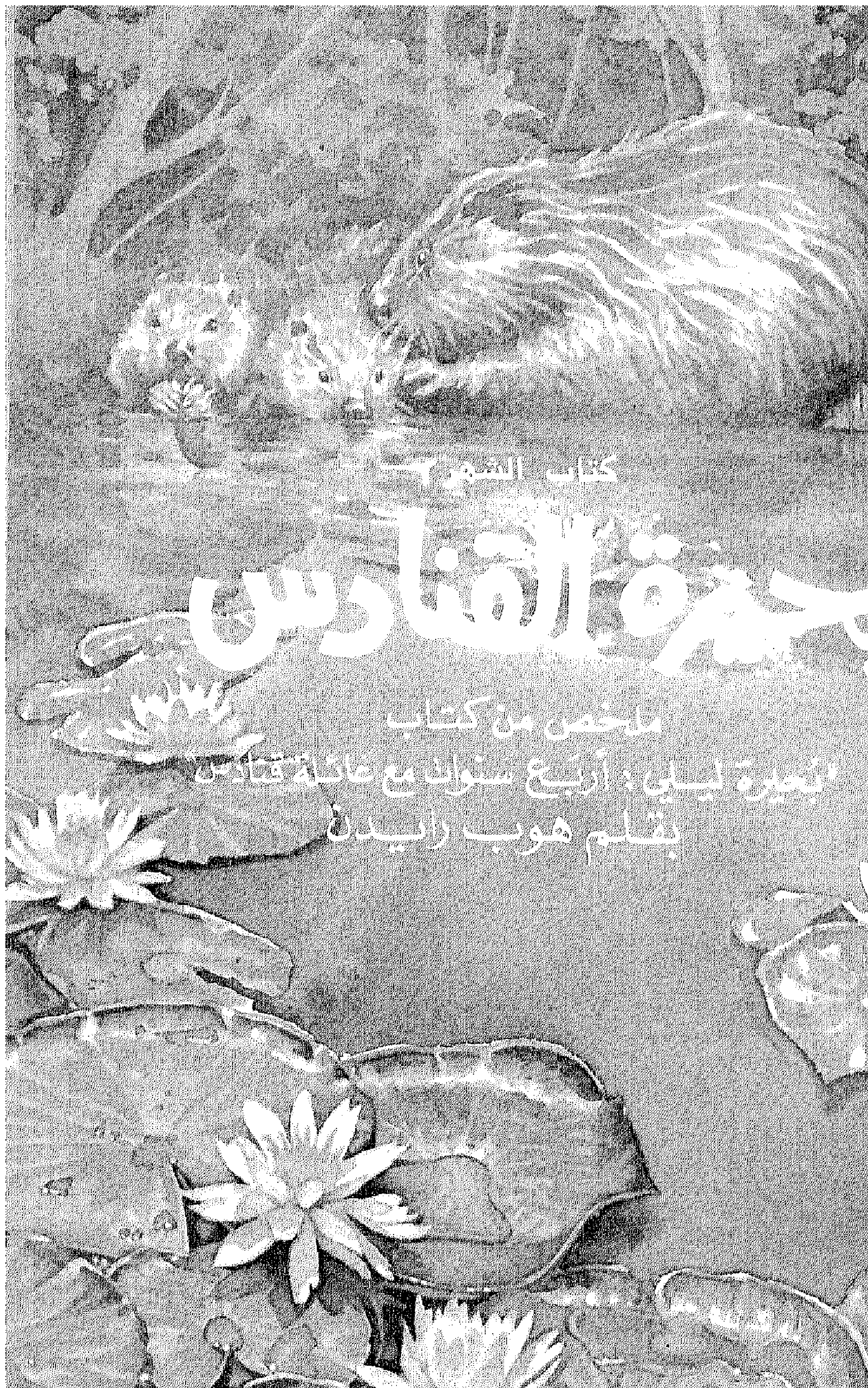
نفخة سحرية

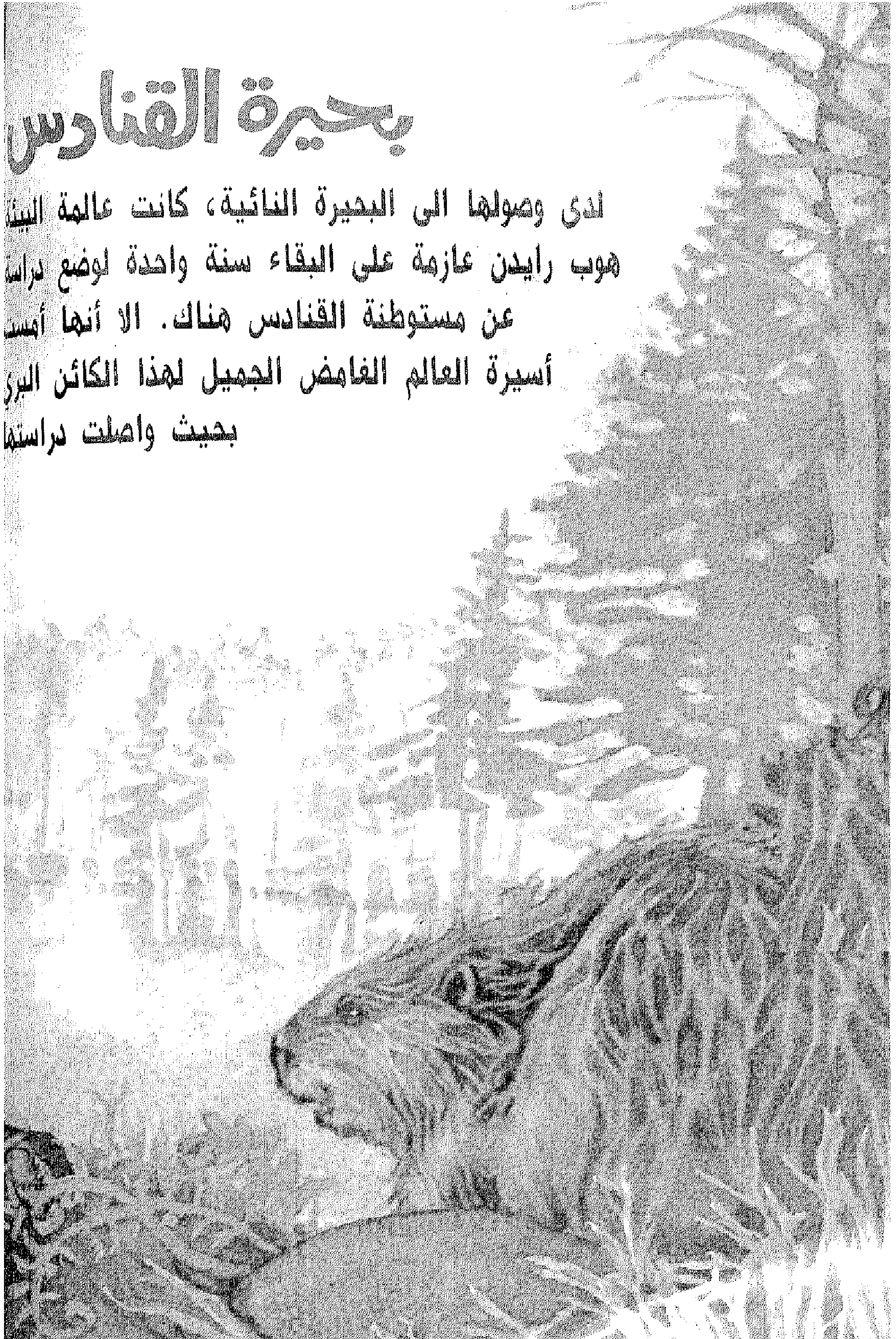
بينما كنت خارجاً من السوبرماركت حاملا أكياس مشترياتي لاسبوع كامل، لفتني طفل في عربة ينظر اليّ. وإذ دست البساط المطّاطي الذي يشغّل الباب الزجاجي الآلي، نفخت وجنتي وزفرت بقوة. وقد جعلني التعبير الذي ارتسم على وجه الطفل عندما فتح الباب ابتسم طول النهار.

ج.ت.

الأفكار شبيهة بالاولاد الى حد بعيد، فالمرء معجب بأولاده لا محالة.

أ.ب.

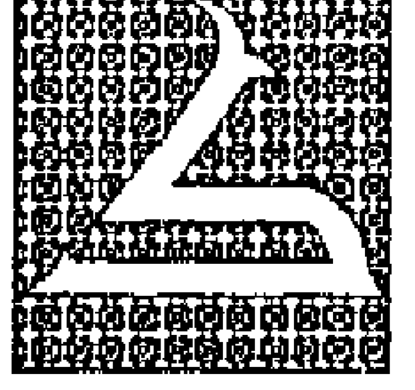

كتاب الشهر
بحيرة القنادس
ملخص من كتاب
"بحيرة ليلي: أربع سنوات مع عائلة قنادس"
بقلم هوب رايدن



بحيرة القنادس

لدى وصولها الى البحيرة النائية، كانت عالمة البيئة
هوب رايدن عازمة على البقاء سنة واحدة لوضع دراسة
عن مستوطنة القنادس هناك. الا أنها أمست
أسيرة العالم الغامض الجميل لهذا الكائن البري
بحيث واصلت دراستها

ثلاث سنوات أخرى.
وهي في كتابها هذا تفتح نافذة
على حياة القنادس في كفاحها لانقاذ موطنها
وتأمين غذائها وتربية صغارها
في مواجهة جور الطبيعة وأذى الانسان.


كان انتظاري وحيدة في الظلام أمراً لم أعتده فأحسست في نفسي نزوعاً الى النوم، ذلك لان حواسي لم تكن انتظمت ودورة الحياة الليلية للكائنات التي كنت مصممة على معرفتها.

وكانت القنادس(١) في بحيرة ليلي صامتة بمقدار ما كانت خفية. وفيما أنا على وشك أن أغفو سمعت صوت حيوان ينسل الى الماء. فاستيقظت حواسي كلها ولاحظت أمواجاً تنداح نحو الشاطىء بفعل حركة كائن يسبح تحت صفحة الماء.

ثم نبهني حفيف في العشب الى أن عضواً آخر من مستعمرة القنادس لا بد قريب مني. وتسارع خفق قلبي حين أدركت الصوت الحاد المتقطع لانياب تقرض خشباً وأيقنت أن ثمة قندساً في متناول مني.

وعبثاً حدقت في عتمة تلك الليلة التي احتجب قمرها لتحديد مصدر الصوت، وحاولت أن أنزع من ذهني صورة أنياب القندس الكبيرة البرتقالية، تلك الادوات الحادة القاطعة التي تتيح له نشر شجرة في غضون دقائق.

وأطبق صمت. جلست القرفصاء. ومع علمي أن القندس ليس حيواناً عدائياً اجمالاً، فأن عجزي عن تحديد مكانه جعلني مضطربة. واذ نبهني صوت ذيله المنبسط يجره خلفه الى أنه اتخذ موضعاً له خلفي مباشرة، قبعت في مكاني بلا حراك. وتساءلت: ماذا يبغي هذا الحيوان؟

كان بالتأكيد عالماً بوجودي بمقدار ما كنت عالمة بوجوده. بل ان حاسة الشم لديه تفوق تلك التي لدي الى حد بعيد. هل كان يراقبني؟

بعد لحظات تكرر صوت القرض آتياً هذه المرة من ناحية أبعد صعداً. فحدثت نفسي: حسناً، لم يعد القندس منشغلا بي، مع أنني كنت أرغب في معرفة أين كان يقطع كي أتمكن من الابتعاد تفادياً لما قد يصيبني من جراء سقوط الشجرة.

ومن دون أي انذار خرقت الهدوء صفقة مدوية، صوت مروع كقصف الرعد جعلني أثب منتصبة على قدمي وجعل القندس يعدو منطلقاً في محاذاتي نحو المنحدر فالى البحيرة.

لم يهدأ روعي ولم تتخل ساقاي المرتجفتان عن وضع الحيطة الا بعد مرور بضع دقائق. ولم تكن تلك المرة الاولى أسمع صفع قندس وجه الماء بذيله. لكن كوني مراقبة من حيوان بري تجربة أثارت أعصابي في تلك الليلة من صيف ١٩٨٤.

كنت مدركة منذ البداية أن النوع الذي قررت دراسته سيمثل لي تحدياً صعباً. وقد جئت الى محمية هاريمان الحكومية في جبال رامابو بولاية نيويورك لاراقب النشاط اليومي للقنادس وأطلع على طريقة عيشها وتواصلها وكفاحها للبقاء قيد الحياة. لكن حيوان القندس يمضي قسماً كبيراً من حياته تحت الماء، ويبقى ساعات النهار بعيداً عن الانظار نائماً في وجاره الذي لا نفاذ لغيره اليه.

ومع ذلك كان القندس وحده، بين كل الكائنات، الذي ملك علي مشاعري وأسر

(١) القندس أو السمّور (beaver) حيوان من القواضم ثمين الفرو.

مخيلتي. وعلى رغم الارتباك الذي داخلني نتيجة الاصوات الليلية، من زعيق فراخ البوم الى شجار الراكون بصخبه المخيف، قررت أن أواظب على عملي.

تنفست عميقاً وانتظرت الى أن هدأ روعي. وذكرت نفسي بالمهمة التي جئت لها: أن أبدو جزءاً من بحيرة ليلي مثلما هي القضاعات وفئران المسك والضفادع والسلاحف التي لم يكن وجودها يزعج سكنى القنادس. وتحقيق ذلك يتطلب وقتاً ومقدرة على الاحتمال وصبراً... وثمة أمر آخر: علي أولا أن أصادق الليل.

عائلة قنادس

كانت ورشة القنادس التي استقررت فيها للمراقبة تضم وجاراً مخروطياً عماده أغصان وطين لصوق، وسداً يمتد ٤٥ متراً أحدث بحيرة ناهزت مساحتها هكتاراً ونصف هكتار. وغطى صفحة البحيرة زهر النيلوفر (زنبق الماء) العطر بألوانه الزهري والابيض والاصفر، وظهرت خطوط دقيقة من المياه الرقراقة ترسم أشكالا في سجادة النيلوفر هذه. وغالباً ما تشق القنادس قنوات تنقل عبرها الخشب الذي تقطعه. وكانت هذه الممرات من المياه الصافية تمثل خطوط شحنها.

بعد فترة وجيزة من اكتشافي البحيرة بدأت مراقبتي جدياً. فكنت أبقى ليلياً حتى الساعة الاولى، او الثانية بعد منتصف الليل. وكل مساء كنت أشاهد قندساً ضخماً يمارس الشعائر اياها: في تمام السادسة والدقيقة العاشرة يخرج من وجاره عبر ثقب استحدث تحت الماء، مخلفاً وراءه فقاقيع هواء، ثم يتوجه مباشرة نحو السد ويشرع يتفحصه بعناية فائقة منعماً نظره في أنحائه ومنصتاً الى صوت تسربات محتملة عنه. ودفعني سهره على هذا البناء المدهش الى تسميته "المفتش العام".

كان كائناً ذا مظهر لطيف. فراؤه بلون خشب الماهوغاني البني الضارب الى الحمرة، يعنى به الى حد الكمال. ومع أن ضخامة حجمه - لم يكن لدي شك في أنه كان يزن نحو ثلاثين كيلوغراماً - دلت بوضوح على أنه كان معمراً، فلم يحمل شارباه أي أثر للشيب. وذات مرة، اذ جلس منتصباً على وركيه، لمحت قواطعه الطويلة ذات اللون البرتقالي الوضاء وكانت لا تزال في حال ممتازة.

بدا لي في بعض المناسبات أن المفتش العام كان يحاول التقرب مني. فاذا هو أحياناً يتوقف عن السباحة وتشخص عيناه الى شكلي الساكن، لكنه لا يلبث أن يثور لوجودي. فنفحة من رائحتي أو جلبة أحدثها من غير انتباه كانت تدفعه الى رفع ذيله حتى يلتف حول جسده ثم يضرب به وجه البحيرة بقوة هائلة بحيث ان قائمتيه الخلفيتين كانتا ترتدان خارج الماء وينبثق رشاش غامر يرتفع عالياً في الهواء.

لم يقتض الامر طويلا لأتعرف الى رفيقة المفتش العام، وسميتها ليلي. وأيقنت أن ثمة أربعة قنادس تعيش معاً في مسكن واحد. ولكن وحده المفتش العام كان يدنو مني ويبقى على مسافة قريبة في حين بقيت الثلاثة الاخرى أشكالا غير واضحة الملامح، تلزم أي شاطىء يكون بعيداً من حيث يصادف وجودي. واذ صممت على رؤية العائلة

مجتمعة عن كثب، قررت أخيراً - وبعض الشك يداخلني - أن استخدم غذاء لاستدراجها.

لم يكن الغذاء الشجري الذي تفضله القنادس - الحور والصفصاف والبتولا وجار الماء - متوافراً في محيط بحيرة ليلي، الامر الذي جعلني أتساءل لماذا لا تنتقل هذه الكائنات الى مكان آخر. وسرعان ما تبين لي أن لدى هذه المستعمرة من الغذاء ما يكفي حاجتها. فهي تقتات بزهر النيلوفر من اللحظة التي تترك وجارها مع ساعات المساء الاولى حتى قبل طلوع الفجر. وكثيراً ما كانت اصوات المضغ المرتفعة الاشارة الوحيدة لتحديد مكان قندس.

ومع هذا أملت أن تكون تقدمة من أغصان شجر الحور وليمة مغرية لا يمكن القنادس مقاومتها. وما ان حل الخريف حتى جندت لمساعدتي في هذا الامر صديقي دان بيرسون الذي كانت الاشجار في ممتلكاته تنمو بأعداد وافرة.

اختبأنا نحن الاثنين خلف صخرة كبيرة مستديرة على خطوات من المياه حيث ألقينا الاغصان. وبينما كنا ننتظر روى لي دان كيف كان يراقب القنادس وهو بعد صبي، وأنه رأى ذات مرة قندسين عند سد يتماسان بوجهيهما ويطلقان همهمات ناعمة، وأضاف: "بدا الامر كأنهما يتبادلان القبل."

لم افاجأ بتحليله لسلوكهما. فالقندس كائن اجتماعي ويقيم روابط عائلية متينة. تتألف كل مستعمرة، عادة، من زوجين بالغين لا يفترقان مدى الحياة، ومعهما صغارهما المولودة حديثاً، فضلا عن الحوليات وهي الذرية التي تكون ولدت قبل سنة. وتجد أحياناً عائلة يصل عدد أفرادها الى أربعة عشر قندساً تعيش في وجار واحد طوال فصل الشتاء.

بقينا أنا ودان عند البحيرة وقتاً طويلا بعد المغيب، وكل ما استطعنا رؤيته انعكاس القمر على قنوات من المياه الجارية. ثم سمعناه، ذلك الصريف الخشن لاسنان تقطع خشباً. وشيئاً فشيئاً استطعت تمييز أربعة أشكال: زوجين بالغين وحوليين بدا واضحاً أنهما ولدا في ربيع العام السابق، وسميت هذين لوريل وسكيبر. وراقبت الاربعة، مفتونة، وهي تغوص معاً لتعود فتطفو في انسجام مدهش.



تموج سطح البحيرة قليلا. وادركت أن كائناً يسبح تحت الماء فانحنيت فوقه لأتبين أياً من القنادس سيظهر.

وهتفت وقد أخذتني المفاجأة: "ياه، انه مولود جديداً وذاك مولود آخر!"

لم يكن مفترضا حدوث

ذلك. فالقنادس تولد في الربيع وليس في الخريف. ولكن ها هما اثنان طفلان ربما في الاسبوع الرابع من عمرهما.

بدا الصغيران وهما يناوران في بحيرة ليلي مثل حوريتين مائيتين. وبوحي مظهرهما هذا سميتهما "لوتس" (سنط) و"بلوسوم" (زهرة متفتحة).

فاتتني مراقبة نمو الصغيرين في الاسابيع الاولى، ذلك لانهما أبقيا في الوجار حيث تناوب الاعضاء الآخرون اشباع حاجاتها. وأملت أن ينشأ الصغيران صلبي العود ليتمكنا من البقاء قيد الحياة خلال الفصل القاسي المقبل. وأملت كذلك أن تجتاز كل قنادس بحيرة ليلي الشتاء بسلام. ولمساعدتها كان علي أن أعرف أنواع الطعام التي يمكن أن تمدها باسباب البقاء في الاشهر الباردة حين لا تعود نبتة النيلوفر تزهر. ثمة ستة قنادس يجب اطعامها.

هدية خضراء

بعد فترة أحضرت حزمة ثانية من أغصان الحور الى البحيرة لاستدراج القنادس الى مرأى مني، لكن محاولتي أحبطت اذ بدأت ليلي، بدل أن تأكلها، تسحبها غصناً غصناً عبر البحيرة. وراقبتها وهي تثبتها على نحو نظامي تحت الماء أمام الوجار، فتدفن كل غصن على حدة، من رأسه أولا، في بطن التربة الطينية. كانت تدخرها مؤونة للشتاء.

عندما يتجمد وجه البحيرة تنكفىء الحيوانات الى وجارها والى ما تبقى من مياه صالحة للسباحة تحت طبقة الجليد، علماً أن كل مخارج الوجار مفتوحة تحت سطح الماء. وتتحول القنادس، والحال هذه، حبيسة عالم قطبي. ولهذا السبب يتعين على المجموعة أن تخزن ما يكفي من الاغصان في قاع البحيرة قرب الوجار ليفتذي بها أفرادها مدة ثلاثة أشهر.

لكني، وأنا أراقب ليلي، أدركت أن القنادس الاخرى كانت تبري بنهم الاغصان التي كانت هي وحدها تجهد لجمعها. وكأنها أدركت هذا الأمر، فكانت تعود مسرعة بعد كل نقلة لتلتقط غصناً آخر وتعبر به البحيرة.

عملت ليلي بوتيرة غير معهودة في القندس الذي يعتمد عادة أسلوب عمل متمهلا. وهي تخلت تلك الليلة عن وجبتها المسائية ولم تهتم حتى بتذوق أغصان الحور. وتساءلت: ألم يكن أي من القنادس الاخرى شاعراً بالعوامل التي أيقظت في ليلي هذا الاندفاع الغامر لتخبىء طعاماً؟

في نقلتها الاخيرة التقطت ليلي في فمها ثمانية من أطول الاغصان المتبقية وسبحت بها عبر البحيرة. ولو لم أكن نفسي مدركة أن قندساً كان يشحن هذه الضمة لتملكتني الحيرة أمام مشهد دغل يتنقل في المياه مندفعاً بقوة ذاتية.

في صباح اليوم التالي حضرت ومعي صديقي جون ميلر وهو عالم بيئة أيضاً، وتفقدنا محيط البحيرة بحثاً عن دليل على أن القنادس بدأت تقطع أشجاراً لتخزنها في مخبأ المؤونة الشتوي. فلاحظنا أن شجرة قيقب مستنقعي بشرت لمعرفة مذاقها قبل أن

تترك، وأن أخرى قطعت لكنها ظلت عالقة بشجرة بلوط عالية. وبعدما شدها جون بقوة تمكن من انزالها فسقطت جزئياً في الماء. واملنا ان يعثر عليها احد القنادس فتضاف الى مخزون ليلي الهزيل من الاغصان.

عاينت بقلق كبير قمة مخبأ مؤونة القنادس القائم تحت الماء. وتساءلت: هل يعقل أن تبقى قيد الحياة وكل ما لديها من غذاء هذه الكمية الحقيرة؟ ولماذا لم تنتقل الى مكان آخر حيث الاشجار أوفر؟ هل مرد ذلك الى أن الصغيرين ولدا متأخرين كثيراً عن موعدهما من السنة؟ ايا يكن السبب، لا يمكن القنادس أن تغادر الآن، اذ لم يتبق لها متسع من الوقت للاهتداء الى موقع جديد وتحويله بحيرة وبناء وجار فيه وخزن كمية من الغذاء تكفيها حاجتها لفصل الشتاء.

اقترح علي دان، بعدما قوم الوضع، أن نمد يد العون الى المستعمرة فنلقي اليها قطعاً من خشب الحور. وأضاف: "لقد عثرت على مجموعة من هذه الاشجار في أرضي."

ترددت حيال هذا الامر، وكانت بدأت تتنازعني أحاسيس متعارضة ازاء تقديمي أغصان الحور الاولى. وحدثتني نفسي أن أترك القنادس لمصيرها، فالطبيعة دائماً على حق حتى عندما تقسو.

الموسم القاتل

ذات مساء قارس وصلت الى البحيرة لأجد أن معظمها تجلد، الا من حوض صغير من الماء الجاري أمام الوجار مباشرة ظل يفي حاجة الصغيرين الى الغطس واللهو.

قبعت بضع دقائق أراقب الصغيرين يلعبان قبل أن يلمحا المفتش العام يظهر على سطح البحيرة أمام الوجار. وبعدما لامس بخطمه خطميهما تحية، راح يعمل كاسراً الواحاً من الجليد على طول حافة حوض الصغيرين. كان يضغط الجليد بقائمتيه الاماميتين حتى تنكسر قطعة منه. وحيث طبقة الجليد سميكة كان يصعد اليها ويترك لثقل جسده أن يفصل جزءاً آخر. وكان يسبح تحت طبقة الجليد ويلطمها صعداً.

كانت مشاهدته تسلية عظيمة: ضربة قوية ويتفسخ الجليد، وفي الصدمة الثانية أو الثالثة من تحت يتحطم ليطل المفتش العام من خلاله.

بابقاء مجاري المياه مفتوحة كان هذا القندس يرجىء انحباسه في عالم مظلم معزول، ويكسب مزيداً من الوقت لاضافة اغصان أخرى الى مؤونته الضئيلة. وعلى رغم ذلك، في الليالي القليلة التي تلت، كانت طبقة الجليد تزداد سماكة فيما المياه الجارية تنحسر. وذات ليلة وصلت لأجد "حوض السباحة" حيث كان الصغيران يلهوان تجمد. وبذلك باتت قنادسي معزولة تحت الجليد. ودعوت لها بشتاء آمن.

تحولت بحيرة ليلي مشهداً قطبياً يعمي الابصار، مدى من البياض موسوماً بآثار قوائم حيوان هام على صفحته المتلألئة. والاطراف الملتزة لاشجار غار الجبل المصطفة عند الشاطىء الجنوبي انحنت مثقلة بالثلج على وجار القنادس فوارته.

الآن وقد صار في مقدورنا أن نسير على البحيرة المتجمدة عبرنا أنا وجون نحو الوجار

لنتفقده عن كثب. واذ اقتربنا من القلعة ذات القبة الثلجية دهشنا حين رأينا بخاراً يتصاعد من فوهة ثقب أنبوبي عند قمتها. وبدت كأنها مصغر لكوخ إسكيمو أضرم قاطنوه ناراً.

كان "الدخان" ناتجاً من الانفاس الدافئة للقنادس اذ تنبعث الى الخارج فتمتزج بالهواء البارد. وسمعت من الداخل همهمة من "حديث القنادس" حاكت نبراتها أصواتاً بشرية. واذ وقفنا نصغي الى وشوشاتها علق جون: "يبدو أن القنادس في صحة جيدة."

وكان تساقط الثلج قبل ليلة أضاف طبقة عازلة أخرى الى منزل القنادس الكبير. ومع وجود ستة حيوانات تولد حرارة جسدية فلا بد من أن حجراتها كانت دافئة.

شاهدت قنادسي مرة أخرى في ديسمبر (كانون الاول). وكان دان استشار خبيراً من جامعة مساتشوستس أبلغ اليه أن القنادس تواجه خطر المجاعة في فترة تبدأ مع دفء الربيع وذوبان الثلوج وتنتهي قبل أن يتوافر نتاج الطبيعة. وأقنعني بأن نقطع حملا من شجر الحور ونطرحه على الجليد كي يجد أي قندس بقي حياً بعد فصل الشتاء ما يستهل به غذاءه في الربيع.

أمضينا أنا ودان وابنته نينا وجون بعد ظهر يوم نقطع شجيرات جمعنا منها حزمات لنقلها الى البحيرة. وكنا انتهينا من افراغها من الشاحنة الصغيرة حين دوى صوت قوي نتج من انخساف الطبقة الجليدية تحت ثقل حمولة شجر الحور. وبعدما تراجع الصدى تأملنا بذهول ما أفضى اليه الحادث: كانت حزمة الحور المتشابكة طافية في مياه البحيرة. ولم تمر دقيقة واحدة حتى ظهر بجانبها وجه مفرى أخذ يحدق الينا طويلا. كان ذلك وجه ليلي.

بادرتها: "أحضرنا لك عشاء الميلاد."

ولدى سماعها صوتي عادت فغاصت. وبعد لحظة بدأت الاغصان العائمة تهتز في مكانها فيما كانت ليلي تعمل على سحب غصن منها. ثم ظهر الصغيران فحدقا أولا الى المشهد الشتوي ثم تفرسا فينا. وانتفض ذيلاهما في الهواء قبل أن يؤديا غطسة لولبية في انسجام تام. وبعد قليل سمعنا قرضاً آتياً من تحت حزمة الخشب الطافية.

وبدأ غصن طويل يختفي. وانقضى نصف ساعة وأنا أراقب ليلي وصغيريها تسحب أغصاناً الى مخزن المؤونة.

بعد ليال عدة زرت البحيرة القابعة تحت قمر كبير وضاء، واسترقت النظر الى قندس مبتل يتلألأ فراؤه على الضفة. كان ذلك المفتش العام. لمحته يجر احدى شجيراتنا الى شق من المياه الجارية بجانب السد. وبدت الفتحة ضيقة جداً، وعلى رغم ذلك استطاع أن يسحب مؤخر الشجيرة بجهد كبير ويدخله الشق. وبعدما نزل هو نفسه تحت الماء جذب بقية الشجيرة وراءه.

ثم استنتجت ان المفتش العام كان يسحب الشجيرة تحت الجليد نحو مخبأ الطعام على مسافة مئة متر. اقتفيت سبيله متتبعة الطقطقة والخربشة التي كانت تحدثها حمولته حين تصدم سقف الجليد أو تنجر على صخر في القاع. ولم أصدق انه كان قادراً على انجاز مهمته الا بعدما قطع ٧٥ متراً. وتساءلت: من أي نسيج رئتا هذا الحيوان؟ ذلك لانه، وفق تقديري، صرف اكثر من ٢٠ دقيقة من العمل الشاق من غير أن يتنفس.

جاء الربيع!

في مارس (آذار) تكدس نحو ثمانية سنتيمترات من الثلج البليل على المحمية، ثم سقط رذاذ من المطر البارد غلف الارض بقشرة زجاجية زلقة. انتعلت جزمتي العالية وسرت على البحيرة مدركة أن الجليد الرقيق سينكسر تحت خطواتي. وألفيت نفسي مرتين والمياه تغمر ركبتي. واذ وصلت الى الوجار ألقيت على الجليد بضعة أغصان من شجر البتولا آملة أن يظهر قندس. ثم جلست على صخرة رطبة وأنصت.

انقضت عشرة أسابيع مذ رأيت قندساً من مستعمرتي. ترى هل قسمت القنادس غذاءها على نحو كفاها مؤونة ثلاثة أشهر؟ هل الستة كلها لا تزال حية داخل وجارها؟

بدأ يتساقط ثلج خفيف. وبعد برهة سمعت صوتاً مكتوماً. كان ذلك قندساً قفز في فجوة الغطس التي تقود الى داخل البحيرة، وكان على وشك أن يسبح للمرة الاولى في المياه المفتوحة أمامي مباشرة.

ظهر على سطح الماء كائن بدا عليه نعاس شديد وعام بضع ثوان. وبعدما هز رأسه كما يفعل الكلب سحب نفسه الى صخرة تعلوها قشرة ثلجية على بعد مترين من حيث جلست. أغمض عينيه نصف اغماضة ولم يأت حركة. وأنا بدوري لم أحرك ساكناً. وأخيراً قلت له: "لا تخف، فأنت تذكرني."

بدا واضحاً أنه عرفني، ذلك لانه بعدما تفرس في لحظة شرع ينظف فراءه ويصففه مستخدماً قائمتيه الاماميتين. وفيما أنا أراقبه يمسح خديه ويفرك أذنيه ظهر بجانبه أحد الصغيرين جاء طلباً للهواء. فعاودت حديثي محيياً: "مرحباً يا هذا. تسعدني رؤيتك ثانية." وبدا الحيوانان كلاهما مشدوهين كما لو انهما أصيبا بدوار بفعل هذه الشحنة غير المعتادة من النور والرائحة والصوت.

وظهر قندس صغير ثان اتخذ مكاناً قرب القندس البالغ الناحل. وسرني كثيراً أن

أري الصغيرين اللذين ولدا متأخرين نجيا من فصل الشتاء وهما في صحة جيدة.

كان الليل خيم تقريباً عندما غادرت البحيرة. وسلكت طريق المحمية المغطاة بعشرة سنتيمترات من الثلج والبهجة تغمرني. فثلاثة على الاقل في مستعمرة القنادس استطاعت ان تنجو من الموسم القاتل. والجليد يكاد يذوب.

بعد بضعة أيام عدت لأجد الجليد اختفى كله وعكست المياه الزرقاء الراكدة قبة الفضاء كما لم تفعل قط عندما كانت أزهار النيلوفر متفتحة. وذهلت أمام هذا الامتداد الواسع للبحيرة، بعدما كنت عرفتها مغطاة بأوراق النبات. لكن وضعها هذا لن يستمر طويلا، فنبتات النيلوفر السريعة النمو تتبرعم تحت الماء وتتطاول الى النور. وفي غضون ذلك تتمتع القنادس بحرية الحركة ويسهل علي تحديد أمكنتها.

كان القندس الحولي لوريل الذي لم أشاهده طوال أربعة أشهر الاول يظهر في المياه الجارية. ومع أن طبقات الدهن كانت ذابت عن جسمه المستدير خلال الشتاء فلم أجد صعوبة في التعرف اليه.

المفتش العام كان القندس التالي يخرج من الوجار. وشرع هو ولوريل يثبان واحدهما على ظهر الآخر منهمكين في ألعاب مائية لا تتوقف: ينقلبان ويغوصان ويقفزان في عرض بهلواني يفيض حيوية ونشاطاً. وكان ذلك بلا شك متعة حيوانية.

حدثت نفسي أنهما لا بد سعيدان. انه الربيع، ويستطيعان الآن تنشق هواء منعش نقي ورؤية الضوء. وأكثر من ذلك أنهما، وان لفترة قصيرة، ليسا مكرهين على التقيد بقنوات شحن محددة بل يمكنهما التنقل حيث يشاءان. ويمكنهما الغوص والعوم واللهو على مساحة هكتار ونصف هكتار من الماء كما لم يعهدا من قبل.

واذ خرجت ليلي من الوجار يرافقها الحولي الثاني سكيبر، أيقنت أن القنادس كلها اجتازت فصل الشتاء، فوازت فرحتي تلك التي كانت القنادس تعبر عنها بمرح. لقد جاء الربيع.

ثم تبينت امراً مفاجئاً. مئات من جذور النيلوفر المسودة انتشرت على امتداد الضفة وكل واحد من هذه الجذور الليفية الطويلة التي لها مكونات البطاطس قضم جزئياً. اذاً هذا هو المورد الذي ساعد القنادس على تحمل الشتاء.

دروس تأديبية

كان القلق ينتابني منذ بعض الوقت من أن يؤدي وجودي المتكرر الى انتفاء الحس الطبيعي لدى القنادس بالخوف من البشر. وثبتت صحة مخاوفي. ذات يوم جاء بحيرة ليلي صياد. فسبح المفتش العام صوب البقعة التي رمى فيها الرجل شباكه وحدق اليه بتمعن من غير أن يظهر عليه أن الطارق الغريب أثاره فيصفع الماء بذيله. بل، على عكس ذلك، شرع يمضغ ورقة نيلوفر وهو على أقل من عشرة أمتار من الغريب.

لمت نفسي على ما اعتبرته خطأي. فهذه الحيوانات باتت تألف وجودي معها بحيث لم تعد تكترث لوجود أناس آخرين. وبواسطة منظار لاحظت أن الصياد كان شاعراً



بوجود القندس، بل كان يراقبه، واكتفيت للحظة بالمراقبة بينما واصل الصياد صيده والمفتش العام يقترب منه وفجأة الفى هذا نفسه في ورطة اذ سبح داخل الشبكة وعلق فيها.

أسرعت الى حيث كان الصياد الذي ما ان رآني حتى أرخى شباكه فتمكن المفتش العام من الافلات.

قال الرجل: "كان يحاول انتزاع سمكتي."

ففالطته: "هذا غير صحيح، فالقندس كائن نباتي. والحقيقة أن هذه بحيرته وهو لم يكن محترساً كما يفترض فيه، وهذا بسببي أنا."

بدا الرجل ودوداً وممن لا يتعمدون ايذاء قندس. وفي أي حال، أثبت الحادث كيف أن نشاطات البشر الطيبين يمكن أن تؤدي أحياناً الى كارثة تطاول الكائنات البرية.

في الاسبوع الذي تلا اخبرت جون بما حصل وأوضحت له مخاوفي مما يمكن أن يحصل اذا ما انتشر نبأ وجود مستعمرة للقنادس هنا. وأضفت: "يبدو أن الوقت حان لاضعاف ثقة القنادس بنا."

استيوضحني جون: "وكيف السبيل الى ذلك؟"

- التعاطي معها بلغة تفهمها.

خرجنا أنا وجون تلك الليلة الى البحيرة مزودين مجذافاً ورفشاً. واقتضت خطتنا أن نستخدم هاتين الاداتين كذيلين نخبط بهما صفحة الماء.

أحسست بتوبيخ ضمير عميق حيال ما كنا نعتزمه. فالقنادس باتت توليني ثقتها، وفي عالم مثالي تعتبر العلاقة الوثيقة التي نشأت بيني وبين أعضاء المستعمرة علاقة صحيحة، غير ان هذا العالم ليس مثالياً.

وقف جون على صخرة وانتظر حتى أوشكت ليلي أن تعبر أمامه سباحة وضرب سطح البحيرة بالمجذاف الخشب بقوة أدت الى كسره في الوسط. وحتى قبل أن تسقط قطرات رشاش الماء في البحيرة كانت ليلي غاصت عميقاً بعيدة عن النظر.

قلت له: "صفعة ذيلك هذه كافية،" وتأهبت لاقوم بالعمل نفسه بواسطة الرفش الفولاذ. راقبت المفتش العام وهو يتجه نحونا، واذ صار على أقل من عشرة أمتار مني رفعت الرفش فوق رأسي وخبطته بكل ما أوتيت، فتطاير الماء في كل اتجاه وغطس المفتش العام عمودياً نحو القاع بلمح البصر.

بدا أن الصوت اجتذب الصغيرين، لوتس وبلوسوم، اللذين اندفعا نحونا من الجهة

المقابلة. فقال جون مازحاً: "يبدو أننا عممنا استدعاء عاماً للقنادس."

توقف الصغيران وهما على مسافة ستة أمتار منا، ورمقانا بحشرية ظاهرة. أخذ جون الرفش مني وكان على وشك أن ينفذ ضربة عنيفة أخرى.

خضخضته: "هيا!"

وفي اللحظة التي صدم صحن الرفش الماء صفع الصغيران الماء بذيلهما، فاذا برشاشات ثلاثة ترتفع في الهواء في وقت واحد. غاصا ثواني ثم عاما في انتظار أن يعيد جون الكرة. وهو ما فعله. ومرة اخرى صفعا الماء بذيليهما في اللحظة نفسها التي لامس الرفش صفحة البحيرة.

قلت: "انهما يظنان الامر تسلية." ثم انتبهت الى ظهور جسمين آخرين على وجه الماء.

حين عاد المفتش العام وليلي لم يستطيعا تفسير العلاقة بين متعة الصغيرين وبيننا، وبدا أنهما يحاولان دفعهما تحت الماء وهما يطلقان هسيساً عدائياً تجاهنا.

فقلت: "حسناً. استطعنا استعداء الكبيرين على الاقل."

لم يسبق لي أن سمعتهما يهسان أو رأيتهما يتخذان خطوات لحماية صغيريهما. فالمفتش العام وليلي كما عرفتهما صاحبا طبيعة لطيفة، ولكن بعد الذي حدث صارت القنادس كلها تتحاشاني.

في الرابع من يوليو (تموز) الذي يصادف ذكرى استقلال الولايات المتحدة (تطلق في المناسبة العاب نارية) شاهدت مجموعة من المحتفلين يعاكسون القنادس فرموها بعدد من المفرقعات. واذا ما كانت مستعمرتي لم تزل تبدي أي استجابة للجنس البشري، فقد توقعت أن يبدد هذا العمل الأخرق ثقتها الى الابد.

البحيرة الجديدة

ذات ليلة اختفى لوريل وسكيبر. لقد آن أوان مغادرتهما وهما الآن على عتبة السنة الثالثة من عمرهما. تتبعت آثار ذيل سكيبر على الضفة الشمالية حيث اجتاز طريقاً فمنحدراً شديداً. واكتشفت في اسفل المنحدر جدولا كبح سد مجرى مائه فبدأت تتكون فيه بحيرة.

والواقع ان سكيبر ولوريل استقرا في واد ضيق يقطعه غدير صغير. واذ تفقدت الموقع ألفيت نفسي مفتونة به. فهو مليء بأنواع النبات من كل لون. أطلقت على المكان اسم "البحيرة الجديدة."

ساءلت نفسي: هل سيتحول الصغيران زوجين الآن؟ اذ يعرف في الكائنات التي تمارس حياة اجتماعية متطورة أنها تتوالد ضمن نسلها كوسيلة بقاء توفر للمستعمرات المعزولة ذرية متكيفة والحياة في بيئتها الخاصة.

كان الموقع الجديد في حاجة الى أمور كثيرة ليصبح صالحاً للسكن قبل حلول الشتاء. ووجب أولا اعلاء حدود السد. فبدأ سكيبر ولوريل يعملان على نحو متمهل. كانا

يستخرجان مقدار حفنة من الطين من أسفل البحيرة ويضغطانه باحكام على صدريهما ويسبحان ببطء نحو السد ليدسرا الطين على قمته. وفي حين بدوا غير متعجلين، كانا في واقع الامر ينجزان مهمتين في آن: يعمقان قناة ويعليان السد.

وزع لوريل وسكيبر وقتهما طوال شهري مايو ويونيو (أيار وحزيران) بين البحيرة الجديدة وبحيرة ليلي. وفي أحد الايام حلت المأساة. وصلت الى بحيرة ليلي قرابة الظهر ودرت حولها في اتجاه طريق المحمية. وهناك وجدت لوريل.

لم يكن مضى وقت طويل على نفوقها. وظهر اثر من الدم على الاسفلت كان بمثابة شهادة على الجهد الذي بذلته وهي تحاول الوصول الى جانب الطريق اثر تعرضها لصدمة قاتلة. وبدا أنها كانت متوجهة نحو وجارها الجديد بعد زيارة أخيرة لمسقط رأسها عندما صدمتها سيارة مسرعة.

داعبت فراءها بأناملي. نفوق لوريل بالنسبة الي كان خسارة مأسوية. فهي عاشت سنتين وتحدت كل الصعاب التي واجهتها بها الطبيعة وأثبتت أنها كفية بامتياز. لكن الذي أودى بها لا يمت بصلة الى الطبيعة.

جلست ذلك المساء عند البحيرة الجديدة أراقب سكيبر يعمل بمفرده على تدعيم السد. الا أنني ما أحسست نفسي مهتمة للامر. وهو لم يكن يدرك أن رفيقته قضت. غير أنه هجر المكان في الليلة التالية وعاد يقيم في بحيرة ليلي.

غامضة هي الحيوانات.

بقي الآن مكان واحد أراقبه. في هذا الصيف الذي تميز بالجفاف أضافت القنادس خمسة سنتيمترات الى ارتفاع سد بحيرة ليلي. وتركز معظم عملها تحت الماء تزيد وحلا الى القاعدة لتمنع أي تسرب. ونتيجة ذلك حافظت بحيرة ليلي على أعلى منسوب عال للمياه. وتحولت الى ما يشبه منتجعاً للحياة البرية يجتذب مزيداً من الكائنات المتنوعة.

بدا واضحاً أن سكيبر قرر البقاء في بحيرة ليلي. وأيا يكن الاحساس الذي داخله في مارس (آذار) ودفعه الى السعي الى حياة مستقلة، فقد همد الآن. أقام طوال الصيف في وجار والديه يعمل على سدهما ويتغذى بنبتاتهما ويلهو مع وليديهما. وكان في كل هذا كمن قرر البقاء هناك الى الابد.

ولكن اذ بدأ لون اوراق الشجر يتبدل، ذهبت في جولة تفقدية للبحيرة الجديدة. فوجدت، وقد أخذتني الدهشة، أن السد أعيد بناؤه والمياه عادت ترتفع في الوادي الصغير.

انتظرت بصبر نافد ظهور الاقزام الخرافية التي قامت بورشة الاصلاحات هذه. وقبعت على قمة منحدر أترقبها. لم يدم انتظاري طويلا اذ سرعان ما استوى قندس بني كبير - أتراه سكيبر؟ - على اعلى السد وغطس في البحيرة الجديدة. وبعد قليل ظهر قندس بني صغير سبح نحوه لتحيته فتلامسا بأنفيهما ثم راح كل واحد يجمع قضباناً لاضافتها الى السد.

القندس الكبير، كما استنتجت لاحقاً، كان لا بد أن يكون سكيبر، اذ اعتباراً من تلك الليلة لم أعد أشاهده في بحيرة ليلي.

ومن يكون القندس الآخر؟ دعوته "مايت."

راقبت القندسين يعملان حتى طمستهما الظلمة. وأدهشني كم أن مراقبة القنادس مليئة بتحولات غير متوقعة.

حال طارئة

ذات يوم جمعة من شهر يونيو (حزيران) عشية أول أيام الصيف كنا اتفقنا أنا وجون على الذهاب الى بحيرة ليلي بعد الظهر. وحتى قبل أن نطل على البحيرة عرفنا أن ثمة أمراً على غير ما يرام. فعبر الاشجار تناهى الينا صوت منذر، هدير متواصل لمياه تتدفق بسرعة. وكمن مسه تيار كهربائي انطلقنا نركض. وما ان بانت البحيرة حتى وقفنا مذهولين. كانت المياه تندفع بقوى هائلة عبر شق في السد الذي بلغ ارتفاعه متراً ونصف متر. كانت البحيرة تغور أمام أعيننا.

نتيجة الرعب الذي تملكني وقعت مرتين وأنا أهبط التلة مسرعة نحو السد. ثم تقدمت الى حافة المياه المتدفقة ووقفت هناك عاجزة. كانت المياه تصطخب حولي بقوة مذهلة كفيضان جارفة الاخشاب المكونة للسد ومدمرة ثمرة سنوات من العمل المضني للقنادس.

صعقت للكارثة. ثم انتبهت الى جون يتوجه نحو الصدع ويحاول جاهدا ان يرفع جلموداً. توقعت أن يوقف السيل بهذه الوسيلة وارتفعت معنوياتي قليلا. لكن الصخرة الضخمة التي ألقاها بدت ككرة حين جرفها السيل هي أيضاً. وفيما نحن نتابع سقوطها السريع الى اسفل التلة، تناهى الي صوت جون وسط الهدير الصاخب: "ستكون هذه البحيرة ذكرى في غضون ساعتين."

فصحت: "لماذا؟ لماذا حدث هذا؟ وكيف؟"

دفع تفجعي جون الى البحث عن جواب. فوجد آثار أقدام في كل مكان حول الشق، وقال: "هذا عمل مخرب. فالسد صدع بواسطة آلة ما."

قررنا بسرعة أن أذهب في السيارة الى أقرب كشك هاتف وأبلغ عن الحادث الى شرطة المحمية على أن ينتظر جون قدومها. وفي غضون ذلك أراد أن يتوسل أمراً خطر له. فأوضح لي: "سأحاول أن أصل السد بعضه ببعض بواسطة حائط من الحجار تحت الماء. واذا حالفنا الحظ فان قوة اندفاع المياه ستجعل الحجار متراصة على نحو محكم، وبذا نكسب بعض الوقت. اذذاك قد يستطيع حرس المحمية استنباط وسيلة لالقاء كمية كافية من الصخور في مكان الصدع.

حين عدت كان شرطيان سبقاني الى المكان، ورأيتهما واقفين قرب جون على ما تبقى من السد يهزان رأسيهما. بدا أنهما تأثرا جداً لحال القنادس وقر رأيهما على وجوب ملاحقة المسؤول عن الحادث كائناً من كان. لكنهما لم يعربا عن أمل كبير في

قصيرة وسعت قنادس بحيرة ليلي مألفها ليشمل البحيرة العليا المهجورة.

في غضون ذلك لم تكن تصرفات ليلي طبيعية وتهيأ لي أنها حامل. لكن الاعراض التي كانت تنتابها لم تشر الى أنها كذلك. وهي ظلت في بحيرة ليلي قريبة من شاطئها الجنوبي. وفي المناسبات القليلة حين رأيتها تسبح كانت تنحرف يمنة في اتجاه دائري. وحين اقتربت مني اتضح لي أنها في حاجة ماسة الى تنظيف وعناية.

القنادس حيوانات نيقة، تنظف نفسها تكراراً في فترات تمتد أحياناً ساعة كاملة، فتعمل على أجسامها القصيرة بقوائمها الاربع. والتنظيف يجعل الفراء صامداً للماء، اذ متى انتظمت كل شعرة منه في محلها لا يمكن الماء أن يتسرب الى جلد الحيوان.

لكن فراء ليلي كان مشعثاً جداً وبدا أنها لم تكن تعنى به. والى ذلك لفتتني قرادة (٤) كبيرة استقرت في أذنها، وهي جزء من الجسد لا ينفك القندس ينظفه.

وذات ليلة لاحظت أن قائمتها الامامية اليسرى متورمة جدا بحيث باتت كل "أصابعها" مفلطحة وجلد راحتها متشققاً فبرز لحمها الوردي. وبدت القائمة مشلولة اذ انها رفعتها عالياً ولم تكن تستخدمها حتى وهي تأكل.

وتضاءل مصدر غذائها. فالقنادس استهلكت طوال الشتاءات الماضية كميات كبيرة من جذور النيلوفر حتى أمست هذه النبتة عزيزة.

تحولت ليلي الي طلباً للمساعدة. وذات ليلة جرت نفسها خارج الماء وجهدت في صعود الضفة الى حيث كنت جالسة ورمقتني بنظرة حادة. أخذت على حين غرة. فقبل سنتين ثنيت المستعمرة عن الوثوق بي. شخصت الي بعينين متوسلتين و"خاطبتني" بنبرات متواصلة كأنها قندس صغير عاجز.

سألتها: "ماذا تريدين يا مسكينة؟"

استجابت بمزيد من الهمهمات المتملقة. تراجعت بعيداً وتسلقت صخرة حيث تمكنت من رؤية القندسة الهزيلة بوضوح، فاذا بعظمي وركيها ناتئان كعظمي حصان هرم. ولم يكن فراؤها يحجب هزالها. واذ استدارت وهبطت التلة مترنحة سقطت منقلبة على ظهرها وقوائمها الاربع في الهواء. ولزمها جهد عظيم لتستوي ثانية وتبذل قصاراها للوصول الى البحيرة.

وبينا كل هذا يحدث كان جون يتابعنا من مرقبه الخاص على مسافة صعداً. ثم انحدر صوبي وبادرني: "انها جائعة. وأيا يكن الذي حدث لها فانها في حاجة ماسة الى غذاء. ومن الافضل أن تطعميها."

في الليلة التالية أحضرت أغصاناً من شجر الحور الى البحيرة. وتلمست طريقي الى الضفة ووضعت غصناً مورقاً عند حافة المياه. وما ان رأته ليلي حتى سبحت صوبه. وبعدما قضمت منه عوداً جمعت أوراقه بقائمتها السليمة ووضعتها في فمها.

واذ فرغت من تقدمتي الاولى جئتها بأخرى، فثالثة. وفي كل مرة كان علي أن أدب لالقي غصناً في متناول أنفها، فيما ظلت هي هادئة كلياً ووجهها الرمادي يعكس

(٤) القرادة حشرة تمتص دم الحيوان.

اطمئناناً كبيراً جعلني أتساءل كيف يمكن انساناً أن يؤذي حيواناً مثلها.

وفضلا عن اعتلالها كانت ليلي حاملا فعلا. وهي أنجبت لاحقاً قندسين سليمي البنية، ما ان رأتهما القنادس الاخرى يسبحان في البحيرة للمرة الاولى حتى تحلقت حولهما تتناوب الترحيب بهما بملامسات أنفية وتراشق برذاذ الماء. وبين الفينة والاخرى يغوص قندس بالغ تحت أحد الصغيرين ويصدمه رافعاً اياه في الهواء، حتى اذا سقط في الماء تطاير حوله رذاذ كثير. كانت تلك أوقاتاً سعيدة في البحيرة. ولم يحل الالم الذي كانت ليلي تعانيه دون ممارستها أمومتها بحق.

وحين صار في وسع وليديها تدبر أمرهما في البحيرة اطمأنت ليلي الى تركهما وعادت تزورني. فنبهتها: "اني دللتك أكثر مما يجب. ليس مفترضاً فيك أن تأمني جانب الناس على هذا النحو. ان في ذلك خطراً عليك."

لكن تحذيري اياها لم يعد يفيد في شيء الان. فلن يجلب البشر لها الأسى. انها الطبيعة التي ستتكفل بذلك ولما يبق لهذا الحيوان الهرم الواهن في الدنيا سوى القليل. بدت قانعة اذ هي خرجت من الماء وجلست بجانبي تقرض أي عشبة تصادفها. فلم يطاوعني قلبي حرمانها متعة الاشباع هذه. وليلة بعد أخرى حملت أغصان حور الى بحيرة ليلي. وكانت ليلي تهمهم برقة وهي تتغذى بعطياتي.



دعاء بالتوفيق

أنبأت جون هاتفياً: "ان القنادس انتقلت الى البحيرة العليا." وكان جون هجر حياة الريف لمزاولة مهنة التعليم في مدينة نيويورك حيث ما لبث أن حن الى حياة العراء. وسرعان ما قبل دعوتي لزيارة المستعمرة. انتظرت قدومه بصبر نافد لأرى رد فعله على التحول الذي طرأ على المكان.

في أواسط سبتمبر (أيلول) لم تبق زنبقة نيلوفر واحدة في بحيرة ليلي. ولاحظت في ذلك الاسبوع قندساً يتسلق بعكس مجرى الجدول فوق سلسلة من سبعة سدود وعبر مجرور يفضي، من تحت الطريق العامة، الى البحيرة العليا

توقيفه، فعديد الشرطة كان دون ما يكفي لمواجهة كل ما يعترضها من مشاكل في هذه المحمية الواسعة.

لم يأت جون على ذكر الحائط الذي أقامه تحت الماء. لكني لاحظت ان السيل فقد بعضاً من قوة اندفاعه، فأقر لي: "انه يتدفق بسرعة أقل الآن، لكن مياه البحيرة لا تزال تنضب."

تسلقنا صخرة كبيرة وعاينا حدود الضفة. لاحظنا أن مستوى المياه انخفض أكثر من نصف متر. ولن تمضي فترة طويلة حتى يكون وجار القنادس قائماً على أرض جافة وأبوابه مشرعة للضواري.

فجأة تسارعت دقات قلبي اذ ظهر قندس من الوجار وراح يسبح في اتجاه السد بأقصى سرعة. كان ذلك المفتش العام. عاين السد المتصدع بنظرة غاضبة وهو يذرع المكان جيئة وذهوباً. ثم سارع بقطع نبتة غار كبيرة وغرزها في حافة الحائط الذي أقامه جون في محاولة للحد من تدفق المياه.

بدا لنا واضحاً أن ما فعله لم يكن ليفيد في شيء. ولا بد أنه توصل الى الاستنتاج نفسه، اذ سرعان ما حول انتباهه الى التسرب الحاصل تحت سطح الماء.

ولسد الشقوق الصغيرة التي لا تحصى في حائط الحجار عمد الى استئصال نبتات كاملة من النيلوفر وهو في حال من الارتباك الشديد. ثم غطس وبدأ يستخدمها كمادة اسمنتية.

فلاحظ جون: "انه يتوجه مباشرة الى أس المشكلة."

وأعجبت أنا أيضاً بسعة حيلة المفتش العام. فالقنادس عادة لا تستخدم نباتات صالحة للاكل في بناء مساكنها لكن الوقت كان عزيزاً ولا بد من انقاذ البحيرة. كانت نبتات النيلوفر الطويلة الساق مطواعة أتاحت حشو الشقوق بسهولة. وكان المفتش العام يعمل بوتيرة جنونية: يغوص، يقتلع، يغوص، يقتلع. وما ان يختفي تحت الماء حتى يعوم لمزيد من النبات.

ثم لمحنا ثلاثة قنادس أخرى تسرع نحو السد. وفي غضون ثوان اقتدت بالمفتش العام فراحت تقتلع نبتات النيلوفر وتغوص تحت الماء تسد الثغرات في حائط جون.



بدا أن القنادس أدركت أن بقاءها مرهون بعمل متواصل. فكانت تقوم برحلة تلو أخرى لجمع مزيد من المادة "الاسمنتية." واذ راقبتها وهي تعمل على هذا النحو خالجني أنها ستنقذ البحيرة فعلا.

بعدما حجب الظلام القنادس الاربعة

ظللنا حيث نحن نجهد في تتبع أشكالها الممتلئة وهي تتنقل في الماء. وقبل أن نغادر المكان تلك الليلة سلطت ضوء مصباح كهربائي على حاجز الماء المتقوس، فتبين لي، ويا للمفاجأة، أن المفتش العام كان في المقلب الاخر يعمل بكد على سد الثغرات من الخلف (القنادس تبني سدودها عادة من جهة البحيرة). ومع ذلك ظل الحائط يلفظ كميات كبيرة من الماء.

لازمني الارق معظم تلك الليلة. وفي الصباح وجدتني مستعدة لاسوأ الاحتمالات. قد يكون الحائط الصخري انهار. قد لا نجد شيئاً سوى الطين حيث كانت بحيرة ليلي.

واذ اقتربنا من البحيرة تباطأت قليلا وعيناي على جون أستشف من تعابيره ما يمكن أن ينتظرنا. وللحظة، بعد بلوغه أعلى التلة، أبقاني أسيرة ترقب قلق، ثم استدار نحوي وابتسامة عريضة تعلو وجهه. وهتف: "لقد صمد!"

انطلقنا نعدو جنباً الى جنب. ولاحظنا أن منسوب مياه البحيرة منخفض، لكن حائط الوصل الذي وصفه جون و"كملته" القنادس كان لا يزال قائماً متماسكاً. فتعانقنا وهللنا للقنادس التي آبت الى وجارها لاستراحة تستحقها فعلا.

ظلت العملية الهشة في حاجة الى تدعيم، فاستعنا بثلاثة صبية كانوا قصدوا الى البحيرة للصيد. وبدأنا جميعاً ننقل أحمالا من القضبان الى الموقع ونرميها في الماء. عملنا على هذا النحو طوال فترة الصباح مستخدمين بعضاً من ركام السد الاصلي.

جلست وجون عند البحيرة بعد ظهر ذلك اليوم ننتظر أن تستيقظ القنادس. قال جون: "أراهن أنها نامت متأخرة بعد تجربة الليلة الفائتة."

في السادسة والدقيقة الخامسة ظهر قندس من الوجار. انه المفتش العام. واذ وصل الاب المؤسس الى السد أخذ يسبح في هذا الاتجاه وذاك عبر الاخشاب المتشابكة التي كنا ألقيناها هناك، يستشمها غصناً غصناً ويطلق أصواتاً عالية تعكس اثارة لا يعرفها سوى القنادس.

همس جون في أذني: "يبدو كأنه يعبر عن بهجته." لجمت في حلقي صيحة فرح. مضى المفتش العام يدوم عبر الاغصان ككلب هائج ويثرثر عن لقيته.

بعد فترة وجيزة انطلق الى العمل متسلقاً الحجار ليدعم الناحية الخلفية للسد. عمل على نحو متواصل ولكن ليس بالاهتياج الذي ميز عمله في الليلة السابقة. فالحال الطارئة زالت.

ليلي في مأزق

في الربيع التالي كانت القنادس تحررت من سجنها الجليدي حين ساط المطر المنطقة مدى أيام حتى باتت التربة مشبعة وغمر السيل العارم ضفاف الانهر والجداول. وكان سكيبر ورفيقته الجديدة مايت انتقلا الى مكان آخر سميته "البحيرة العليا." ونتيجة الامطار الغزيرة ارتفعت المياه داخل الوجار المخروطي حتى غمرت داخله مما اضطر سكيبر ورفيقته وصغيريهما الى اخلائه. ولم أشاهدها ثانية. وبعد مدة

بحيرة القنادس

كان المكان يضج بالنشاط. والموقع نفسه الذي آوى سكيبر ورفيقته وصغيريهما لشتاء الفائت اتسع الآن وأعادت ترميمه أربعة قنادس أخرى من مستعمرة بحيرة ليلي. والنتيجة وجار وسط الماء مثير للاعجاب، ارتفع أكثر من متر ونصف متر عن سطح البحيرة وبلغ طوله ثلاثة أمتار وعرضه أكثر من ثلاثة أمتار ونصف متر. فبات مناسباً جداً لايواء ثمانية قنادس.

في غضون ذلك بقيت ليلي وأصغريها في بحيرة ليلي. وكانت صحة الام المؤسسة تتدهور باطراد. ولأطمئن الى أنها لا تزال حية تفقدت بحيرة ليلي قبل أن أرتقي التلة الى البحيرة العليا.

أخبرت جون ونحن في طريقنا الى البحيرة: "انها في حال سيئة جداً. فاذا عاشت فستضطر هي وصغيراها الى تمضية الشتاء في بحيرة ليلي. لا أعتقد أن في استطاعتها أن تحمل نفسها وتجتاز كل هذه السدود لتنضم الى بقية أعضاء المستعمرة."

واذ وصلنا الى نقطة في طريقنا بانت منها بحيرة ليلي، شاهدنا قندساً يشق المياه نحو الوجار القديم المتهدم. استعنت بمنظاري: "انه المفتش العام."

غاص ثواني ثم عام من الوجار وبجانبيه قندسان صغيران. انطلق الوالد بسرعة فائقة عجز الصغيران عن مجاراتها. لكنهما شرعا يضربان بقوائمهما بعنف، ومن وقت الى آخر يتشبث أحدهما بفروة عنق الذكر البالغ أو يمتطي ذيله كي لا يتخلف عن الركب.

علقت باعجاب: "انه يأخذ القندسين الى البحيرة العليا."

وفيما الثلاثة تجتاز العقبة الاخيرة عدونا لنصل في الوقت المناسب ونراها تظهر على سطح البحيرة العليا.

وهكذا بقيت ليلي وحيدة. وكنت متيقنة أنها افتقدت صغيريها. أخذت تزور نقطة مراقبتي وتحدق الي كأنها تسألني مؤانستها. عزت علي رؤيتها محرومة وبحيرة ليلي مهجورة على هذا النحو. وجئت في الصباح، قبل أن تفيق وتركت للقندسة المسنة ضمة أغصان حور قبل أن أتوجه الى البحيرة العليا.

ذات ليلة، وكان مر أسبوعان ونصف أسبوع على انتقال الصغيرين الى البحيرة العليا، لمحت ليلي هناك. وللحظة اعتقدت أني أتوهم رؤية أشياء. لكن الامر كان حقيقة، فالحيوان العاجز الذي وقع عليه نظري كان ليلي فعلا.

هتفت مبتهجة: "لقد استطعت الوصول!"

أجفلها رد فعلي الظاهر فاختفت بسرعة تحت الماء. ثم عادت فظهرت اذ عرفتني.

لم يسعني أن أتخيل كيف استطاعت حمل جسدها المشلول جزئياً الى أعلى التلة لتنضم الى المستعمرة. ولا يهم ان كانت ستعيش طوال هذا الشتاء، فهي الآن على الاقل ستمضي ما تبقى لها مع رفيقها والصغيرين.

حمل أكتوبر (تشرين الاول) مناخاً معتدلا وطمأنينة لم يعكرها طارىء. لكن

النهارات أخذت تقصر. ومع مطلع نوفمبر (تشرين الثاني) سقط الثلج بكثافة.

توجهت أنا ودان وجون الى البحيرة. وحدثتهما ونحن في الطريق: "حسنا. ان القنادس مستعدة الآن لتحمل الطقس القاسي. انتظرا حتى تشاهدا مخزن مؤونتها."

وكما توقعت، كانت المستعمرة في قمة نشاطها والقنادس تعمل على ازاحة الجليد وفراؤها الكث مصفف بعناية فيما هي تخوض في الماء.

قال جون: "كل ما آمله أن تبقى ليلي في الوجار هذه الليلة."

فأضفت: "اذا خرجت منه فالى مصيرها المحتوم. سيقضي عليها الطقس القاسي."

حان وقت انهائي دراستي عن القنادس والبحث عن تحد آخر. لكني أحسست غصة الفراق بمجرد التفكير في وداع هذه البحيرات الجميلة والقنادس التي تعيش فيها. ثم لمحت ليلي. كانت، ويا للهول، تكسر الجليد وتغوص كما تفعل الأخر.

وبصوت مخنوق نهرتها: "ايجدر بك البقاء في الوجار اتقاء للطقس الرديء." لم تسمعني. وبدت غير شاعرة بوجودي.

"آه يا ليلي!"

راقبتها وهي تختفي تحت طبقة الجليد. انتظرتها فلم تظهر ثانية. كانت البحيرة هادئة كما رقائق الثلج المتساقط. وتساءلت: ليلي. أبهذه الطريقة تغادريننا؟

وببطء، ومعاناة، عادت فأطلت من خلال الجليد. بدا واضحاً أنها كانت عاجزة عن نفض رقاقات الجليد عن فرائها. لم تعد قادرة على شق ممرات لها أو الحدب على صغيريها أو قطع أشجار أو بناء وجار. اكتفت بالتمدد على طبقة جليدية وجفونها مغمضة. ثم، بجهد جهيد، رفعت جسدها الواهن تحت صفحة البحيرة الجليدية ولم تصعد ثانية.

حدقت الى تلك البقعة حتى غطاها الثلج. وأدركت أني رأيت ليلي للمرة الاخيرة.

في الظلام واصلت القنادس الاخرى تنقلها. ثم سمعت جون يناديني. لقد ساءت حال الطرق وآن أوان الرحيل:

قريباً، سيحتجز الطقس القارس الحيوانات في وجارها. سأتفقدها في الربيع لاطمئن الى أنها، كلها، عاشت الشتاء. سأزور عائلة القنادس لاعرف ما اذا كان المفتش العام وجد رفيقة جديدة وأتحرى عن صغار جدد لهما.

ناداني جون ثانية.

"ها اني قادمة."

لبثت دقيقة أخيرة لاقطع غصناً طرحته عند الشاطىء. وتمتمت: "هذا لك يا ليلي، دعائي لك بالتوفيق أينما كنت."

هوب رايدن ■

ترجمة جورج أبو رزق

الوقت أفضل المعلمين لكن سيئته هي انه يقتل تلاميذه. أ.ك.


كتاب الشهر
أيام من عهد هتلر
ملخص من كتاب "الماضي هو أنا"

أيـام من عهد هتلر

فيما العروس الشابة تبدل جواز سفرها البريطاني بآخر يزينه نسر أسود، في سفارة المانيا بلندن عام ١٩٣٤، قال لها المسؤول في السفارة كلاماً مستغرباً: "أخشى ألا تكوني أحسنت بهذه المقايضة." ثم نظر الى زوجها وأضاف: "... الا في ما يتعلق بهذا الشاب الوسيم الذي تضمه الصفقة."

وفي السنوات الاحدى عشرة التالية أنجبت كريستابل ثلاثة أبناء وكانت سعيدة بزواجها. ثم انتهى بها الأمر الى مواجهة "الفستابو" في محاولة لاطلاق زوجها بعد كشف مؤامرة لاغتيال هتلر.

هنا قصة هذه المرأة البريطانية والكابوس الذي عاشته كمواطنة في ألمانيا النازية زمان الحرب.

في صيف ١٩٤٣، السنة التي ولد فيها ابننا كريستوفر، قرّ رأينا على أن لا قبل للاولاد بتحمل شتاء آخر في برلين. كان الوضع التمويني يزداد سوءاً شهراً بعد شهر. وحين طالت الليالي كنا على علم بوجوب التحسب مرة ثانية للغارات الجوية البريطانية. وكانت الاضرار التي يلحقها "قراصنة الليل"، كما دعاهم وزير الدعاية جوزف غوبلز، لا تزال غير جسيمة. وكانت الطائرات تشن غاراتها في الليالي الظلماء الملبّدة بالغيوم، لكن البريطانيين درجوا على عادة قاسية هي الاغارة المتواصلة، طائرة بعد طائرة وقذيفة في اثر قذيفة طوال ساعات.

وكان زوجي بيتر ألحق بمصنع للطائرات في غرودنز بغرب بروسيا. وبتقدم الجيوش الروسية في اتجاه الحدود الألمانية الشرقية رغب بيتر في ان أكون والاولاد في مكان قصي في الغرب هو أنأى ما أمكن عن خط القتال. ومع أنني صممت على البقاء في منزلنا في برلين أطول مدة تمكنني منها جرأتي، فلم يكن لنا بد من الرحيل عندما قررنا الانتقال الى روهرباخ في الغابة السوداء.

وصلنا في سبتمبر (أيلول) في قطار صغير لاهث توقف في محطة صفراء تعاقبت عليها عوادي الطبيعة. وقرأت على اللافتة الباهتة: "شونينباخ – الغابة السوداء." وجدنا أنفسنا على رصيف المحطة وحولنا أكداس من الحقائب والرزم. وتلفتنا حولنا

متسائلين أين تقع روهرباخ وهل نصل اليها قبل أن تغيب الشمس وراء التلال.

بدا أن وصول القطار قطع على ناظر المحطة عمله في تكديس التبن لأن البنور كانت تغطي قلنسوته وسترته الحمراوين، وقرب شباك قطع التذاكر أسندت مدقة خشبية طويلة لجمع التبن والقش. وجواباً عن سؤالنا قال لنا: "أوه، نعم، روهرباخ تبعد خمسة كيلومترات فقط على طريق الوادي، انما عليكم انتظار عربة الحليب. هانس بوش يجمع الحليب من المزارع ويأتي به الى المحطة. ولا شك في ان لديه متسعاً لكم في عربته. اذاً أنتم قادمون من برلين؟ لا بد ان الحال هناك قاسية جداً."

وما لبثت أن وصلت الى الرصيف عربة صغيرة خشبية مقعقعة يجرها جواد هرم سمين، ووثب منها رجل ممتلىء البنية يلتمع السرور في عينيه الزرقاوين، وشرع بمعاونة ناظر المحطة في تفريغ حمولة العربة من أوعية الحليب. وتمهل الرجلان في عملهما لتتاح لهما فرصة تبادل الاحاديث الطويلة اذ لم تكن الاوعية كثيرة العدد. وكانا يبتسمان لنا بين الفينة والاخرى. ولما فرغا من ترتيب الاوعية نضّدا حوائجنا في العربة مفسحين مقعداً لنِك الى جانب السائق، فيما قعدت أنا وجون وكريستوفر في مؤخر العربة وأرجلنا مدلاّة الى الخارج.

ولم يلبث هانس بوش ان سلّم نك العنان. وكان الجواد يعدو الهوينا في طريق متعرجة وعرة. وما عتمنا أن دخلنا القرية التي بدت لا تشمل الا نزلا صغيراً يسمى نزل "أدلر" ودكانين صغيرين وكنيسة وبناء كبيراً أبيض متداعياً مزخرفاً بالجصّ. فهتف جون فجأة: "هل سأذهب الى هذه المدرسة؟" كانت عيناه يقظتين لكل الدقائق، ومن الواضح أنه لمح لوحاً أسود عبر احدى النوافذ المفتوحة.

أجبته: "نعم، أرجو ذلك."

فسألني: "لماذا؟"

كان ذلك سؤالا جديراً بأن ينال مني أشد الاهتمام، اذ كنت أزداد يأساً كلما توغلنا صعوداً في الوادي. وقد كان حرياً بي أن أكون ممتنة لقسمتنا وما نحن فيه، اذ كان أفضل كثيراً من غيرنا. لكني سئمت حياة البداوة وفقدت كل متعة في التنقل خلال جلائنا المتكرر هرباً من مناطق الحرب الخطرة. وتعبت من النوم في غرف عارية الا من الاثاث الضروري، ومن التقتير والبحث عما يقوم بأود الاولاد، ومن مقاومة اغراء العودة الى بيتنا في برلين، ومن مجاراة ذلك الاغراء أحياناً لأستيقظ وأعي واقعي المرير وهو أن منزلنا صائر الى حصن غير حصين في خطوط القتال الامامية.

ألمانيا الجديدة

صرت مواطنة ألمانية في ٢٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٣٤ في السفارة الالمانية بلندن، حيث أبدلت جواز سفري البريطاني الموسوم بأسد جذل ووحيد قرن بجواز أخضر ضارب الى الرمادي عليه نسر أسود متسم بالشموخ والازدراء.

يُومذاك بادرني الموظف المسؤول في السفارة الالمانية بكلام لم أتوقعه: أخشى ألا تكوني أحسنت بهذه المقايضة." ثم نظر الى مرافقي وأضاف مبتسماً: "الا في ما يتعلق بهذا الشاب الوسيم الذي تضمه الصفقة."

كانت حفلة زفافي ذلك الصباح الى بيتر بيلنبرغ تمت على ما يرام. فوالده، وهو محام مرموق، ألقى خطاباً كان حفظه عن ظهر قلب. فرحب بي بكل محبة لانضمامي الى العائلة ولم يذكر أبداً أن ابنه الوحيد الذي لم يتجاوز الثانية والعشرين ولم يتأهل بعد للعمل في المحاماة وما زال غير قادر على تأمين حاجات عائلة، خرج على تقاليد موروثة. ورد أبي بخطاب اتبع فيه نهجاً مماثلا، فلم يذكر انه في طريقنا الى حفلة الزواج أوقف السيارة وقال لي ان الوقت لم يفت بعد اذا أردت تغيير رأيي.

أما بيتر وأنا فلم نأبه كثيراً لهذه التحذيرات التي طبعت تآلفنا على امتداد سنتين. وكانت فيَّ مميزات غير مألوفة لم تنطبق على صورة الزوجة الشابة كما يتصورها مواطنو هامبورغ. فهل لدي خبرة في الطهو ورتق الثياب؟ وهل لدي فكرة عما يُنتظر أن أتحلّى به من التواضع والاقتصاد لأتبوأ عن حق مقام ربة بيت؟ من الواضح أن ذلك لم يكن لينطبق علي. فقد نشأت في كنف الرفاهية، وكنت مستقلة مالياً باعتمادي على ذاتي، مما أضاف عنصراً آخر للتشكيك في قدرتي على الاستقرار، لأن الاستقلال الذاتي لم يكن بالشأن الذي يحسن تشجيعه في المرأة الالمانية.

في السنتين اللتين سبقتا زواجنا كانت ألمانيا أصبحت دولة ديكتاتورية، لكننا كنا أقل السكان اهتماماً بالشؤون السياسية. مرة وحيدة، في خريف ١٩٣٢، أقنعت بيتر بأخذي الى اجتماع حاشد للحزب الوطني الاشتراكي حيث كان هتلر سيخطب في الهواء الطلق. وضرب نطاق أمني حول مساحة واسعة. ووقفت صفوف من فرق "الصاعقة" بين الحشود تدفعها للانتظام في مستطيلات مرتبة. فاستمعنا الى الجماهير تنشد الاناشيد الحماسية والى قرع الطبول المدوّي. ولكن ما ان بدأت أعتاد لكنة الفوهرر النمسوية حتى قادني بيتر خارج الحلقة وأتحفني بأحد آرائه السياسية التي نادراً ما عبّر عنها. قال بصوت عال: "ربما اعتقدت أن الالمان بلهاء سياسياً يا كريس، لكني أؤكد لك ان الحماقة لن تبلغ بهم حد أن يؤخذوا بذلك المهرّج."

لكن الاحداث تسارعت بعدما تولى هتلر منصب المستشار في يناير (كانون الثاني) ١٩٣٣. وبحلول شهر يوليو (تموز) انتهت الانتخابات الحرة وحُلت النقابات وجميع الاحزاب السياسية. وللحال أنذر بيتر بما يُنتظر حدوثه. ففي العام ١٩٣٢، في نطاق تبادل المنح الدراسية، كان مُنح دراسة سنة في الولايات المتحدة، لكنه أعلم في ١٩٣٣ أن لجنة الاختيار الامريكية تفضل أن يكون صاحب المنحة ممثلا لـ"ألمانيا الجديدة." فهل بيتر عضو في الحزب النازي؟ كلا. اذاً، بكل أسف، يجب انتقاء شخص آخر ينتمي الى الحزب.

كان لبيتر عدد من الاصدقاء اليهود، وأكثرهم مقيم في ألمانيا. فلم يسعهم التصديق أن الدولة الوحيدة في أوروبا حيث كانوا يشعرون بالارتياح والطمأنينة كانت

على وشك الانقلاب ضدهم. وحصل عدد من الحوادث البغيضة أثارت فينا تخوفاً غامضاً من المستقبل.

انما ما صدمني وأثار حفيظتي هو ادارة المواطنين الشرفاء ظهورهم لما يحدث وتعاميهم عن التجاوزات الكثيرة، وذاك الاستسلام والخنوع للطغيان. وأدركت فجأة أن أمراً قذراً وخطيراً حل بألمانيا فعلا وأنه سيدوم.

"تحرير" النمسا

كانت السنوات الخمس التالية حافلة بعناوين صحافية مثيرة وأشرطة سينمائية تظهر الجماهير الهاتفة الهادرة وهي تحيي الفوهرر متموّجة كسنابل القمح أمام هبات النسيم.

ولاجتناب الانخراط في الحزب أو ضم أصواتنا الى هتافات التأييد قرر بيتر العمل في السفارة الالمانية في لندن كجزء من تدربه القانوني في متطلبات الادارة المدنية. كان هذا الترتيب غاية ما نرجوه. وفي أواخر صيف ١٩٣٥ ولد ابننا الاكبر نيكولاس. ولدى رجوعنا الى ألمانيا في السنة التالية لم أر ما يستدعي قلقي. فقد أنعم الله علي بزوج وسيم وابن وافر الصحة بريطاني المولد. وكنت مليئة بالثقة بمقدار جهلي فنون ربات البيوت الالمانيات.

لكن هامبورغ كانت تغيرت كثيراً. فقتالات الشوارع والبطالة والخوف من التضخم كانت مشاكل ساخنة لدى مغادرتي. أما الآن فبدا أنها غير موجودة. وغشي الاسواق جو من الازدهار المتواضع. ففي جعبة هتلر السياسية شيء لكل فرد. كانت هناك وظائف للعاطلين عن العمل، وجيش للجنرالات، ومنبر لاسماع الصوت عالياً في الشؤون الدولية للذين ما زالوا يكتوون بذل الهزيمة في الحرب السابقة. وكانت هناك أيضاً معسكرات اعتقال وتلميحات منسقة في الاذاعات عما يخبأ لكل من تزين له نفسه الاستعلام عن خطط الفوهرر ونياته.

في ربيع ١٩٣٨ شهدت وبيتر انتشار رسالة الفوهرر في النمسا المجاورة، هذا الانتشار الذي سمي في بريطانيا "اغتصاب النمسا." وكنا في عداد الالمان المدنيين الاوائل الذين اجتازوا الحدود بعد الجيوش الالمانية، اذ صادف أن كنا ذاهبين لقضاء عطلة في آرلبرغ النمسوية. وأيقظتنا أصوات باعة الصحف على أرصفة المحطة في مدينة أوغسبرغ البافارية. وتحرك القطار قبل أن يتاح لنا ارتداء ثيابنا والنزول منه. وكانت السكة الحديد من الحدود النمسوية الى الجنوب مكتظة بالحشود التي اصطفت على الجانبين تهتف وتضحك وترقص وتلوّح بالاعلام الالمانية. هكذا بدا "اغتصاب النمسا." كان الجميع يحتفلون! بادلنا الناس الذين كانوا يبتسمون لنا بالابتسام الفارغ وعدنا الى مقاعدنا واليأس جاثم على صدورنا. ووددنا لو أعفينا من دور المحررين النازيين الذي لبسناه لوجودنا مصادفة في القطار لحظة "التحرير."

في هذا الوقت كنا ننتظر مولوداً ثانياً وكان بيتر على وشك تقديم الامتحانات النهائية. وأدركنا أننا نعيش مشكلة مريبة. كان في وسعنا التكلم مع أصدقاء يفكرون مثلنا وابداء حيرتنا واشمئزازنا. لكننا بمقاطعتنا شيئاً لا نفهمه ولا نقرّه انحرفنا الى حياة منعزلة عن المجرى الرئيسي السائد.

ووافت ساعة الحقيقة عندما رجع بيتر ذات مساء بعد نهار أمضاه في قاعة المحكمة في هامبورغ يدافع عن عضو سابق في الحزب الاشتراكي الديموقراطي قبض عليه بتهمة توزيع مناشير غير قانونية. وكان نجح في اخلاء موكله وتصافحا خارج قاعة المحكمة. وبعدما مشى بيتر قليلا استدار ليلوح مودعاً، فرأى رجلين ببزات رسمية يدفعان موكله داخل حافلة خضراء ما لبثت أن اختفت في زحمة السير. ولم ينل هذا الحادث سوى لامبالاة في المحاكم وفي دوائر الشرطة. ألم يتبلغ بيتر أن هناك الآن، في سبيل حماية الامن، شيئاً يسمونه الحجز الاحتياطي؟ وكيفما كان الامر فان موكل بيتر اختفى من دون أن يعرف ماذا حلّ به. وباختفائه فقد بيتر كل رغبة في ممارسة مهنة المحاماة. وقال لي: "اذا كانت هذه هي ألمانيا الجديدة يا كريس فلا مكان فيها لنا ولاولادنا."

ان العالم واسع. وكنا في مقتبل العمر. وما لبثنا أن غرقنا في التخطيط للاقامة في أوستراليا ثم في كينيا ثم قر رأينا على ايرلندا. كنا غارقين في أحلامنا الى حد اننا لم نعِ الازمة التي أخذت تعصف بتشيكوسلوفاكيا. انما في أغسطس (آب) دعي بيتر الى الاستعداد للالتحاق بسلاح الجو خلال ٢٤ ساعة.

ثم حدث أمر مذهل غير متوقع. فقد نجح نيفيل تشمبرلين، وهو رجل فكتوري نحيف البنية كان في رأيي أبلد رؤساء الوزراء البريطانيين، في عقد اتفاق للسلام خلال اجتماعه بهتلر في ميونيخ مما أبعد شبح الحرب. تنفس الناس في ألمانيا الصعداء، لكن ارتياحهم لم يدم أكثر من أربعة أسابيع. فعلى أثر مقتل أحد موظفي السفارة الالمان في باريس على يد يهودي، تبدد الوهم لدى كل من اعتقد أن هتلر دُفع الى تغيير خططه في ميونيخ. وقامت أعمال عنف ضد اليهود فأحرقت معابدهم ودمرت متاجرهم ولم يقبض على أحد من مفتعلي الحوادث. ولم أرَ أياً من المارة يسرق شيئاً من المحلات المهدمة، بل تجمع الناس واجمين، قلقين، مذهولين، مشمئزين، حول أكشاك باعة الصحف. ولم يكن أحد من الذين تكلمت معهم راضياً عن العنف والتدمير.

ما لبث والد بيتر أن توفي، وكنت أكن له محبة كبيرة. وآساني أنه لم يعش ليرى كل القيم العزيزة لديه تتحطم وتتناثر هباء. ولو بقي على قيد الحياة لما رضي مطلقاً أن نذكر له عزمنا على الهجرة من البلاد.

وقبيل آخر السنة التقينا صديقاً راجعاً من الصين ولم نكن رأيناه منذ سنتين، وبعدما حدثه بيتر ألغى كل تفكير في مغادرة ألمانيا.

كان ذلك الصديق يدعى آدم فون ثروت زو سولتز. وكنت دائماً اعتبره مميزاً، ليس لحسن طلعته، ولا لنهجه في حمل كل من التقاهم على تصور أنهم أناس محترفون يلذ

التحدث اليهم، ولا لكفاحه على غرار بيتر لنيل شهادة المحاماة على رغم تقارير بعدم امكان الوثوق به سياسياً. لقد اعتبرته مميزاً لأنني لم ألتق رجلا نظيره قبلا.

كان آدم من عائلة تملك أراضي كثيرة، ومن تقاليدها امداد الدولة بموظفين حكوميين من درجة رفيعة.

وأمضى آدم سنتين في جامعة أوكسفورد بمنحة دراسية، وعاد الى المانيا عام ١٩٣٦. وهو اعتبر "الاشتراكية الوطنية" الالمانية داء عارضاً، وسلامة الحس في جوهر الناس كفيلة بالقضاء عليها. وبدا واثقاً بأن في كل أنحاء المانيا، كما في برلين، مجموعات من الناس - ومنهم في مراكز مهمة - مصممة على انهاء دور هتلر في وقت قريب. لهذا غادر "رايخ" هتلر في رحلة طويلة الى أمريكا والصين.

وغالبا ما تساءلنا ماذا عساه يكون رد فعله على الاحداث المتزاحمة علينا. وها هو قد عاد وفي كلامه من الثقة والانتشاء ما أقنع بيتر بخطأ التفكير في مغادرة المانيا. كان المد في انحسار، والأمور تتحول، اذ صارت أصوات المنشقين جوقة كبيرة، والجنرالات الذين يملكون السلاح الوحيد القادر على قلب النظام بدوا مستعدين للعمل، وتشكلت نواة حكومة مدنية قادرة على تسلم الحكم بعد القبض على هتلر.

كانت تلك أموراً مثيرة أوقدت فينا نشوة، فعدلنا عن كل قراراتنا السابقة وصممنا على الانتقال الى قلب الاحداث، الى برلين.

سجن مقلوب

لم تكن برلين مدينة جميلة، لكنها كانت مثيرة. انها العاصمة. وقد أخذنا بسحرها وبمناخها المنشط البهيج، ولكن سرعان ما تبين لنا أن خللا مخيفاً طرأ على السياسة، فقد غدت برلين هتلر مثل سجن انقلب داخله خارجه وتسلم المجرمون مراكز القيادة.

حين وصلنا الى برلين في فبراير (شباط) ١٩٣٩ كانت الاشاعات تتحدث عن استعداد هتلر للحرب في الخريف. فبعد اتفاق ميونيخ جرى احتلال تشيكوسلوفاكيا، وستتبعها بولونيا وأراضي أوكرانيا الزراعية الغنية. وكان شعاع الامل الوحيد النشاط المتنامي بين الجنرالات وقادة المعارضة المدنيين. وكان بيتر يعمل في وزارة الاقتصاد، وآدم في وزارة الخارجية. وهما انغمسا في هذه الحلبة بهمة لا تعرف الكلل. وأديت في هذا المجال دوراً صغيراً اذ سافرت الى بريطانيا حيث كان عمي اللورد روذرمير مالك صحيفة "ديلي مايل" وحاولت نشر الحدث.

وكان آدم يسافر الى بريطانيا، لكن سفراته كانت أكثر خطورة واثارة. كان يتعين منح المعارضة في ألمانيا دعماً واهتماماً كبيرين قبل أن يشن هتلر الحرب فيغيب هدفها في ضباب الاحداث المتعاظمة. تكلم آدم عن القضية مع وزير الخارجية اللورد هاليفاكس، كذلك مع تشمبرلين ومع أصدقاء وزملاء في أوكسفورد. لكنه كان على علم بالطبع الانكليزي. فقد أبدوا لامبالاة صامتة مصحوبة بالكياسة والحيرة.

وفي صيف ١٩٣٩ وجدت منزلا مع حديقة في منطقة داهلم في برلين. وكانت أبواق الدعاية تكيل الشتائم والاهانات لبولونيا. وأجريت تعبئة عسكرية جزئية ونشط المبعوثون غير الرسميين في السفر بين بريطانيا وألمانيا. واذا بآخر أمل لنا يتلاشى في ٣ سبتمبر (أيلول).

غرفة ضيقة

كادت الغرفة التي تكلم منها نيفيل تشمبرلين تضيق بصوته اذ راح يعلن: "أتكلم اليكم من مقر رئاسة الوزارة في ١٠ شارع داوننغ. في هذا الصباح سلّم السفير البريطاني في برلين الحكومة الالمانية انذاراً نهائياً بأنه ما لم نتبلغ منهم قبل الساعة الحادية عشرة أنهم مستعدون لسحب جيوشهم فوراً من بولونيا فستكون بيننا حال حرب. ويقتضي اعلامكم اننا لم نتسلم تعهداً بذلك. ولذا تكون هذه البلاد في حال حرب مع ألمانيا."

في الخارج قرع جرس داهلم الضعيف، فتنهد آدم وجلست وبيتر من دون حراك على الاريكة شابكي اليدين. قبل يومين فقط اتصلت بوالدي في بريطانيا، وكنا فرحين في حديثنا، وقال بيتر لأمي انه سيكون في مطار تمبلهوف لملاقاتها في نهاية الاسبوع التالي.

فجأة انتابني شعور بأن الغرفة تضيق بنا؛ فخرجت. وكانت رائحة أشجار الصنوبر من الغابة الخضراء عابقة في جو الحديقة وكان الظلام شديداً. وانبعث ضوء كهربائي أزرق من احد القطارات أضاء الجو المعتم والستائر المتموّجة في الغرفة العليا حيث ينام نكي وجون. ومن خلال شق في الستائر شاهدت بيتر وآدم على الاريكة منحنيين الى الأمام يحدقان الى الموقد، وترتسم على وجهيهما أخيلة النار المضطرمة فتضيئهما. جفاني النوم في تلك الليلة، وخلتني أشبه بمن يعتلي سياجاً. كانت الحياة تطيب لي، ونعمت باقتناع راسخ بانتصار الخير على الشرّ في النهاية. (كان شعوري أن "الخير" يتمثل في الاشياء البريطانية و"الشرّ" في كل من خالفني هذا الرأي.) وعلى رغم اقتناعي وايماني أحسست أن الطريق أمامنا قد تكون موحشة قاسية.

في هذه الليلة من أكتوبر (تشرين الاول) كان الهواء منعشاً شديد البرودة. وكان شجر الزعرور البري مدهشاً بثمراته الحمر اللامعة التي ناء بها لوفرتها. وقيل ان هذه هي علامة شتاء بارد.

مضى من الحرب ستة أسابيع ولم يحدث شيء مما ارتقبناه. فقد تمزق الجيش البولوني، وقبع الفرنسيون وراء استحكاماتهم، وكان الجو على الجبهة الالمانية - الفرنسية يوحي تزاملا بين المتحاربين اكثر منه مواجهة أو قتالا.

وكان آدم ذاهباً الى أمريكا استجابة لبرقية تطلب السماح له بحضور مؤتمر "معهد العلاقات السلمية" السنوي في فيرجينيا بيتش. وكان على يقين أن البرقية أتت من

أصدقاء على قناعة بأن هناك ألمانيا أخرى خلف السياسة النازية الرسمية التي تدين لارادة رجل واحد. ورأى في ذلك مناسبة لشرح الوضع الالماني في الخارج. وغلب عليه الابتهاج تشوقاً الى هذه الفرصة المتاحة وانتقلت عدوى الابتهاج الينا جميعاً.

كان آدم على ثقة بأنه في حال تصميم هتلر فعلا على اشعال حرب شاملة لا يرى الجنرالات أملا بربحها، فان أشد المترددين بينهم قد ينقلبون عليه ويشاركون في الجهود لاسقاطه. وجل ما يحتاج اليه نجاح انقلاب يقوم به الجنرالات هو اعلان صريح من الحلفاء عن أهدافهم من الحرب، مما يمحو الى الابد شبح معاهدة فرساي ثانية وربما وضع أساساً عادلا لسلام أوروبي.

قبل مغادرته سألني آدم هل أرى احتمالا أن تعقد بريطانيا صلحاً مع هتلر نظراً الى انتهاء الحملة على بولونيا. فأجبته: "كلا، وحق حياتك الغالية!"

لكني بعد رحيله تساءلت عن الدليل الذي أملكه والذي جعلني أتفوه بتلك العبارة المفعمة بالثقة. لم أكن بالتأكيد متأثرة بمسلك بريطانيا الذي اقتصر على إلقاء منشورات دعائية من الطائرات، ولا بالبيانات السياسية الرسمية المبهمة التي تركت انطباعاً ان لدى بريطانيا متسعاً من الوقت لتسوية نزاعاتها مع هتلر.

رجع آدم في فبراير (شباط) مريضاً باليرقان، محطّم النفس مكتئباً. ففي واشنطن استقبله السفير البريطاني، كذلك استقبل في وزارة الخارجية. وكان واثقاً بأن الرئيس روزفلت نفسه لن يرفض تمثيل دور صانع السلام بين المانيا والحلفاء حين تتخلص المانيا من هتلر. وتوالت الايام ولم يتلق أي جواب عن مذكرته الى الرئيس، مما دفعه الى الاعتقاد أنها اصطدمت بعراقيل في طريقها اليه أو أن رد فعل روزفلت كان سلبياً.

في ١٠ مايو (أيار) ١٩٤٠ عبرت جيوش هتلر حدود ألمانيا الغربية. وكانت تلك هي اللحظة المرتقبة التي انتظرناها، حين تتوقف تلك الجيوش الغازية امام خط "ماجينو" الفرنسي المنيع ويتلقى هتلر صفعة لهيبته لن يقوم له بعدها قائم. لكن هولندا وبلجيكا سقطتا في يده، وتراجعت القوة البريطانية عبر القنال، واستسلمت فرنسا في غضون ستة اسابيع، وأصبح الفوهرر سيد الموقف المنتصر الذي لا يقهر.

في عيد ميلادي في ١٨ يونيو (حزيران) كنت أستمع الى اذاعة "عدوة" فاذا بي أسمع ونستون تشرشل يتكلم عن أروع ساعات بريطانيا. فانهمرت الدموع من عينيّ.

في صيف ١٩٤٠ تزوج آدم. وفي برلين، حتى في أيام الحرب، احتفلنا بزواجه بمأدبة زينها القريدس (الجمبري).

وكنت عاكفة على تحضير الشطائر حين اتصلت احدى الصديقات وقالت لي انها كانت راجعة الى المدينة في قطار ريفي من دوبل - كلينماخنوف فشاهدت جنوداً يعملون على الخط بالقرب من المحطة، وفي امكانها التأكيد أنهم بريطانيون وأن الامر قد يهمني. تركت الشطائر واعتمرت قبعتي وأحسن ملابسي وخرجت. ولم ألبث أن نزلت من القطار في دوبل - كلينماخنوف كأني أنتظر لقاء الابن الضال.

كان الرجال يلبسون الكاكي في الجانب المقابل عبر خط السكة الحديد. وكانوا جنوداً

بريطانيين فعلا. وفي طريقي اليهم توقفت وساءلت نفسي لماذا أتيت. وقفت في أسفل درج الرصيف وغلب علي شعور بحماقتي. كان الجنود يعملون وهم أدنى مني قليلا، بقبعاتهم الكاكية وقلنسواتهم السوداء الصوفية الانيقة. وكان وراءهم حارسان يروحان ويجيئان وهما غارقان في الحديث.

رحت أخطر على رصيف المحطة تلاحقني غمزات الجنود وابتساماتهم فتزيد في ارتباكي. ولم يعد في وسعي تحمل المزيد، فعندما ابتعد الحارسان الى أقصى مدى ممكن خاطبت الجنود بما أتاني عفوياً، فقلت. "لم ننهزم بعد." فحدجني الجنود بنظراتهم. وكان عددهم بين ٣٠ و٤٠. وانبرى أحدهم، وهو قصير القامة أسمر اللون يلبس معطفاً ضخماً على رغم الحر وسألني: "وهل خطر لك مرة أننا هزمنا؟"

قلت: "كلا، كلا، أبداً، معاذ الله." ولم اكن أتعمد الكذب.

فأتاني الجواب: "حسنا، يا فتاتي العزيزة، انك على حق في هذا."

جيران طيبون

مضى وقت طويل قبل أن يتسنى لنا التعرف الى الجيران في الشقة الملاصقة. في الرايخ الثالث اقتضى اعتبار الجيران خطراً محتملا. ولم يتعمق تعارفنا الا لدى اكتشاف بيتر أن جارنا لم يكن سوى محام كان يستشيره من حين الى آخر. وفي ربيع ١٩٤١ دعينا الى العشاء عندهم، وعلمنا أن جارنا كارل لانغبيهن كان كشف مواقفه السياسية عام ١٩٣٣ بدفاعه الجريء عن أحد البرلمانيين الذي عيّن في وزارة هتلر الاولى وثبت أنه مصدر ازعاج، واذا به يواجه تهماً جنائية ملفقة.

مع ذلك ساد محادثاتنا تحفظ وعدم التزام للمواقف. لم يكن أحد منا ينتمي الى النازيين، ومع ذلك لزمنا جانب الحيطة والحذر.

وفي النهاية نقي الجو بيننا وبتنا قادرين على الجلوس مطمئنين وارتكاب "الخيانة العظمى." كنت أوزع سمعي بين ارمغارد زوجة كارل وبيتر الذي سمعته يخبر كارل عزمه ترك المحاماة وسبب مجيئنا الى برلين. وما لبثت ارمغارد أن توقفت عن محادثتي والاصغاء الى كارل في آن. وقالت لي معتذرة: "أنا أعيش في خوف دائم من تجاوز كارل الحد. ففي كل مرة يذهب الى مقر الغستابو (*) أتساءل هل سيعود الى البيت. ان هاتفنا مراقب ولأن كارل نجح في تعامله مع الغستابو، بات كل من رأى نفسه في مأزق...".

الى الجانب الآخر من المدفأة جلس كارل في كرسيه يتكلم عن هينريك هملر وفرق "الصاعقة" التي في امرته. لم يكن كبار النازيين هم الذين حكموا البلاد، بل فرق "صاعقة" هملر القادرون على تصفية كل من يعترض سبيلهم. مع ذلك كان هتلر هو الشخصية الرئيسية في نظر كارل لانغبيهن. وهو أخبرنا ان هتلر خال من نقاط الضعف

(*) الغستابو هي الشرطة السرية النازية.

الطبيعية. وكان الاعتقاد السائد انه متواضع ولا يهتم للجنس وليس نهماً ولا سكيراً. ولم يكن من سبيل الى التأثير فيه. كان مهووساً ماكراً نزّاعاً الى القتل، وقد أبقى جهاز الدولة كله متماسكاً بقوة شخصيته وسحره الغامض. وقال كارل وهو ينحني الى الامام وينقر ركبة بيتر: "تخلص منه فينهار البناء ويمسك الباقون بعضهم بخناق بعض."

اعترتني الرجفة من كلام لانغبيهن. فقد لمست فيه توتراً حيوياً كما في نمر متحفز للوثوب. لذا بت أدرك سبب مخاوف زوجته وتوتر أعصابها.

قال لانغبيهن وهو يبتسم لها: "يخامر امرأتي شعور بأنني أستمتع باللعبة. قد تكون على حق، فربما أصبح ذلك نوعاً من التحدي. وقد يكون كسباً آخر لحقوق الفرد. ولكن لا تنسَ يا بيتر أنها لعبة خطرة حقاً، ليس علينا فقط وانما على زوجتينا وأولادنا ايضاً. والوقت ينفد."

عزمت وبيتر على القيام بنزهة قبل العودة الى البيت. وكان الشارع مقفراً مظلماً وفي امكاننا التكلم وحدنا بحرية. لقد مضت سنوات عايشت فيها "الاشتراكية الوطنية" لكني لم أتمكن من سبر أبعاد شرها. وعلى رغم كل شيء بدت الحياة عادية، فما فتىء الناس يحبون ويطبخون. ولكن في لحظة يسفر الحجاب عما يخبىء ذلك النظام الجائر الآثم القذر، فترى رغبة الانسان الوحشية القاسية في التسلّط على أخيه الانسان.

حين صرنا الى بوابتنا تنهّد بيتر قائلا: "حسناً، اذا وقعت في مأزق فالذي أتطلع اليه ليساعدني هو كارل لانغبيهن." وتنهدت بدوري. لقد سرّنا أن نرى مملكتنا الصغيرة تجاوز حدود بيتنا وتمتد الى حدود جيراننا في الشقة المجاورة.

في أوائل ١٩٤٣ على أثر هزيمة ستالينغراد كانت الصحف تصدر منقطة بصلبان صغيرة سود تنبىء بموت الجنود في أبعاد روسيا. وأصدرت قسائم للامهات والأرامل لشراء ثياب حداد، فيما كان الاعلام الرسمي يطمئننا الى أنه على رغم كل شيء، تحقق الانتصار وحسم على الفولغا، وبعد ألف سنة سيتكلم الالمان عن المعركة برهبة واحترام.

وكان أصدقاؤنا، آدم وكارل وغيرهم، يزوروننا بانتظام لا لتناول القهوة وانما لكون بيتنا ملجأ آنياً. كان الهدف التكلم بحرية، وكنا احدى الجماعات الصغيرة الكثيرة التي تلتقي في انحاء المانيا، يشد كلا منها الى الاخرى عضو يثق به الجميع. وكان يجذبنا تشوقنا الى سماع "أحدث" الاخبار السياسية، لان العقبة كانت دائماً قلة نشر "أحدث" المستجدات.

بعد هزيمة فرنسا بقليل ترك بيتر الخدمة المدنية وانخرط في الصناعات الخاصة. كان يعتقد أن الحرب ستنتهي بالهزيمة لكنها ستدوم طويلا. لم يكن قادراً على تخريب جهود الحرب الالمانية، لذلك قرر أن ينأى عن القتال أطول فترة ممكنة.

كان حرياً بي أن اكون سعيدة، على الاقل لبقاء بيتر خارج الجيش، لولا تعيينه لمهمة جديدة في شمال النروج. فعشت والاولاد حياة بداوة بين فترات كنا نقضيها في برلين حيث كان التوتر يزداد وغارات الطائرات البريطانية تكاد لا تنقطع كل ليلة. ذهبنا أولا

الى منتجع على شاطىء البلطيق حيث كان النازيون الموالون وألمان الفولغا، يحتلون الفنادق. وألمان الفولغا هم أولئك الذين أعيدوا الى وطنهم من روسيا بعد توقيع الاتفاق الروسي - الالماني عام ١٩٣٩، مع ما رافق اعادتهم من ابتهاج ومظاهر عاطفية لم تلبث أن تحطمت على واقعهم. فقد بدوا في حالهم الحاضرة لاجئين من روسيا، كئيبين، يعتمرون قبعات الفرو السميكة وتتأكل الحسرة قلوبهم وهم يعيشون حياة كسل وينفّرون منهم السكان المحليين. ثم غادرنا الى النمسا حيث رحت أقوّم بعض آرائي القديمة. وبت لا أرى النمسويين أكثر تمدناً أو أقل تقبلا للايديولوجيا النازية من البروسيين التقليديين المخيفين. ربما كانوا أكثر جاذبية، لكن ذلك لم يغير واقع أن هتلر كان نمسوياً أو انه جند بعض أقذر أتباعه من جيران ألمانيا الضاحكين والمتهافتين على تقبيل الأيدي. انما خامرني شعور بأن النمسويين كانوا عاكفين على صوغ أسطورة هزيلة يدعون فيها أن "الأنشلوس" - أي الوحدة مع ألمانيا النازية - فرضت عليهم خلافاً لارادتهم. وأخيراً أقمنا في قلعة قديمة في سوابيا حيث كانت التسلية الوحيدة الاستماع الى نشرة الاخبار.

وعندما رجعنا الى برلين من سوابيا كنت والاولاد أتخمنا بحياة البداوة والتنقل. وبعد ولادة كريستوفر ونقل بيتر الى غرودنتز أدركت أن علينا التفتيش عن اقامة ثابتة.

لا شباب!

قضينا أول ليلة لنا في الغابة السوداء في مزرعة. وفي اليوم التالي اقتادنا هانس بوش الى نزل "آدلر" في روهرباخ. أعطتنا الآنسة موكلي، صاحبة الفندق الصغير، غرفة مجاورة للردهة لتكون لنا غرفة جلوس. وانتقلت من غرفة نومها فوقها وهيأت للاولاد غرفتي نوم صغيرتين عبر الممر. كان لغرفة الجلوس باب يفضي الى الشارع ويطل على عمق الوادي. وكان في احدى الزوايا، بجانب سلم ضيقة تقود الى غرفة نومي، موقد مكسو بالقرميد الاخضر. فأخذت به وأحببته للحال.

كان الشراب الذي يقدم في النزل من النوع الخفيف. ومع ذلك كان القرويون يجتمعون في الردهة كل يوم أحد وأحياناً في المساء. وعلمت أن أحد الخبازين هو العمدة وهو رجل يخاف الله ويقود قريته في أيام عصيبة. أما الكاتب فكان سيب كيرن الاسكاف، وهو رجل طيب القلب ذو قوة جسدية عظيمة. وطوال النهار، الا حين يساعد في توليد العجول أو جمع التبن قبل هبوب عاصفة، كان سيب يجلس في غرفة صغيرة يخيط الاحذية ويحرس جهاز الهاتف اليتيم في القرية. وفي المساء ينضم الى العمدة في مكتبه حيث يروح، تحت صورة زيتية للفوهرر، يطبع على آلة كاتبة ضخمة قديمة بطاقات اعاشة ووثائق ولادة ووفاة وأذوناً لقطع الحطب. وحين زادت معرفتي به سألته عن رأيه في الحرب. فقال وهو يرمقني بلطافة من فوق نظارتيه: "مهما تكن الحال يا دكتورة، فلن تنقص كومة أحذيتي، أياً يكن الرابح."

والى ذلك كانت هناك السيدة موكلي وهي أرملة قوية صغيرة كانت تطعمنا وتعتني بنا. وما لبثت أن أصبحت صديقتي المخلصة. وحالما رجع ابنها الرّبيب إرنست من الحرب وتزوج، عزمت على الرجوع الى موطنها في هولندا. وفي غضون ذلك حكمت نزل "آدلر" باقتصاد وقلب دافىء، وكانت تارة تقسو على خادمتها الصغيرة مارتينا وتارة تعاملها كابنتها.

كانت مارتينا تعمل من السادسة صباحاً حتى العاشرة ليلا بلا انقطاع، ما خلا حين تجلسها السيدة موكلي الى طاولة المطبخ وتطعمها حساء البطاطا مع اللحم أو تسقيها ابريقاً من مخيض الحليب. وكانت مارتينا أيضاً تنتظر عودة إرنست، وحتى ذلك الموعد ستعمل باخلاص للسيدة موكلي وتريد بعد ذلك أن تنقطع عن الدنيا.

تلك كانت قرية روهرباخ، عالم صغير غير ذي شأن في الدولة ولكن محكوم عليه بأن يحمل ثقل أحلام فتوحات هتلر وعواقبها. لم يكن هناك شبان في ذلك الوادي. وكل يوم كانت الصحيفة المحلية تغطي صفحتها الاولى بانباء الانتصارات، وتنشر في الصفحة الخلفية الاخبار التي تهم القرويين ومعظمها عن وفيات الجنود في جبهات القتال.

سقط الثلج في نوفمبر (تشرين الثاني). وفي كل صباح كانت تمر تحت نوافذنا جرّافة ثلج يجرها ثمانية ثيران. وكان القرويون الراكبون الجرافة يلوّحون بأيديهم للأولاد.

وقفت في النافذة ذات يوم أبادل القرويين تحيتهم وأدركت، على اثر زيارة قصيرة لبرلين، مبلغ حماقتي حين أتذمّر مما أنا فيه. ففي تلك الزيارة لُقنّت درساً أستحقه. اذ علمت بنبأ القبض على كارل لانغبيهن. وكان بيتر مرهقاً ومتوتراً ومنزلنا في داهليم أصبح مأوى للاصدقاء واللاجئين. وحدثت ثلاث غارات جوية خلال الليالي الثلاث التي قضيتها في برلين، بقنابل جديدة أشد تدميراً، قنابل ضخمة شديدة الانفجار تدك التحصينات وقنابل محرقة وفوسفورية تنفجر وتجري أنهراً من النيران المشتعلة التي يصعب اخمادها والتي تنساب الى الاقبية عبر السلالم فتسد مخارج الملاجىء. وعلمت وأنا في برلين أن هذا القتل الجوي المجرد من أي شعور انساني لم يولد الخوف بمقدار ما ولد في نفوس الذين تنهمر عليهم القنابل ايماناً راسخاً بالقدر وتصميماً عنيداً على البقاء قيد الحياة.

ليلة رجعت الى روهرباخ كانت جدران النزل تئن تحت وطأة الريح. فاستقبلتني السيدة موكلي قائلة: "ليلة سعيدة يا دكتورة، عسى ان تنامي براحة."

فقلت: "وأنت أيضاً يا سيدة موكلي."

ثم انصرفت في دورتها الأخيرة على مملكتها. وخففت نور سراج الزيت في زاوية بعيدة في الردهة. فالتقنين شمل كل شيء.

شكراً، شكراً يا سيدة موكلي. لن تعرفي أبداً مبلغ امتناني لك.

حين حلّ الربيع بعد الشتاء ازداد قلقي. كانت الليالي هادئة والطعام جيداً. كان جديراً بي أن أكون سعيدة لعلمي أن بيتر لم يكن في روسيا وأن الاولاد في أمان وبصحة

جيدة في هذه القرية النائية الغارقة في الوادي. لكني كنت أشعر بوحدة قاتلة، وقر رأيي على الرحيل. فاتصلت ببيتر الذي أجاب نداء استغاثتي على الفور وحجز لي مقصورة في القطار المتوجه الى غرودنتز. وكان ينتظرني في المحطة في سيارة للشركة، وقضينا معاً ثلاثة أيام جميلة حتى اننا رسمنا خططاً للمستقبل. لم يكن من فائدة في الادعاء أن الأخبار حسنة. فكارل لا يزال في السجن، وقد اعتقل أصدقاء آخرون. وأخبرني بيتر عن عملية افرادية للمعارضة، لكنها منيت بسوء الحظ وبحسن طالع هتلر وحظه الذي لا يصدق في البقاء حياً. لم يعرف أحد نوع العملية ولم يحاول أحد معرفته، لأنه في حال الاعتقال كان من الأفضل معرفة أقل ما يمكن.

أنف وذنب

حين ركبت القطار الى الجنوب في نهاية الايام الثلاثة عرفت أنني لم أعد أبالي بما قد يحدث على الجبهة السياسية. لننتظر انتهاء الحرب ولنرّ ما يحدث آنذاك. ذلك كان نمط تفكيري. وامتنعت عن التساؤل عما اذا كنت وبيتر سنبقى أحياء حتى ذلك اليوم.

في رحلة العودة توقفت في برلين وذهبت الى شقة آدام الذي لم أره منذ سنة. كان ناحلا جداً وعلى وجهه تعبير غامض لم أستطع سبره. جلسنا للغداء، لكنه لم يمد يده الى الطعام. وتكلمنا عن النظريات الثاقبة التي توصل اليها في أوكسفورد. وفي الصين حول التوقعات المحتملة لالمانيا ما بعد الحرب. كان فقد كل أمل في اقناع الذين خارج ألمانيا بوجود ألمانيا اخرى. وقال: "هذا الفصل حُسم وانتهى يا كريس."

فتنهدت: "وهل يأتي يوم تنتهي فيه هذه الحرب يا آدم؟"

– نعم يا كريس. سينزل الحلفاء في وقت ما، وربما لن يتأخر ذلك النزول. وددت لو أقدر أن أزيدك علماً، ولكن ستعرفين قريباً ما فيه الكفاية. نحن لم نتقاعس عن العمل.

أخرج آدم دراجته من القبو ليرافقني الى دالهيم. وخارج بوابتنا اسْتدار في الطريق وتقدم الى جانبي.

قال: "كريس، عليك أن تؤلفي يوماً كتاب عن الحياة بين البرابرة. ما رأيك؟"

أجبت: "اذا تسنى لي ذلك فسأجعل منك بطلا شجاعاً." ولم يسعني الا الضحك لمنظره وهو يعتلي دراجته ضاحكاً وقبعته الى الوراء وكأنه فتى صغير وسيم.

قال: "حسناً، انه رهان. اذا جعلت مني بطلا شجاعاً فسأقرأ كتابك النتن. ولكن لا، قد لا يكون نتناً الى هذا الحد يا كريس لاني بدأت أعتقد أنك تفهمين." وغابت عنه الابتسامة العريضة.

عندئذ فقط أدركت معنى التعبير الجديد في عيني آدم، فقد بدا انه يشعر بألم عميق.

وقبل أن يغيب عن نظري في المنعطف التفت الى الوراء ولوّح لي مبتهجاً ومودعاً. وكان ذلك آخر لقاء بيننا. فأنا لم أره بعد ذلك أبداً.

قال هانس بوش بعينيه الزرقاوين ونظرته الدافئة وفي بهجته إلحاح وهو يجيل نظره في الطريق صعوداً ونزولا: "دكتورة، عندي أمريكي!"

حاولت أن أظهر اهتماماً فقلت: "أمريكي يا هانس؟ رائع. هل هو طويل القامة؟"

نعم.

"أسمر اللون؟"

نعم.

"هل يلبس نظارة باطار عظمي ويدخن سيجاراً ثخيناً؟"

فاكمدّ وجه هانس: "كلا، انه يرتدي سروالا ذا جيوب على ركبتيه وجزمة مبطنة بالفرو. ومعه ساعة أيضاً، وأي ساعة! فيها ساعات صغيرة على مدار مينائها."

تطلعت الى هانس مفكرة: "أين وجدت هذا الامريكي يا هانس؟"

- وجدته مستلقياً على كومة الحطب. وهو الآن نائم في مطبخي.

رافقت هانس صعوداً في الطريق الى بيته الصغير في الجانب الآخر من الوادي. في المطبخ كان شاب ممدداً على مقعد خشبي، طويل القامة يرتدي لباس طيار ورأسه مسند على حذائه. وحالما نظرت اليه أدركت فجأة أن المانيا خسرت الحرب. والباعث لهذا الشعور كان صحته الوافرة وحسن العيش الذي بان عليه ونوعية قماشة بذلته وجزمته واللفاع الحريري المربوط الى خصره. واذا بي أرى نفسي هرمة رثة الثياب زرية محطمة. كان كل شيء يمت اليه أصيلا حقيقياً: صوف اصلي، جلد أصلي، حرير أصلي. والى ذاك بدا في مقتبل العمر. وبالمقارنة، بدوت أنا زائفة اصطناعية من قمة رأسي الى أخمص قدميّ، من الجلد الاصطناعي في حذائي الى القشّ الاصطناعي في قبعتي.

قلت وأنا أهز كتفه: "هاي!"

سألني: "من أنت؟"

قلت: "اسمي كريس بيلنبرغ. رآك بائع الحليب مستنداً الى كومة حطبه.".

اجاب بابتسامة ضعيفة وقد سرّني أن أسمع تشدّقه وهو يتكلم: "اظن أن هذا هو كل ما في الأمر. انني مسرور برؤيتك. لقد مشيت يومين ليلا ونهاراً. قفزنا من الطائرة فوق بلدة صغيرة وهبطنا في حقل."

قلت: "هل لديك فكرة من أين أتيت؟"

- لا يا سيدتي، نحن نطير، وطائراتنا تتبع بعضها بعضاً، كل واحدة منها يتبع رأسها ذنب الاخرى. ولست من الذين يعرفون الى أين نحن متجهون."

"حسناً، لا أظن أن لذلك أهمية كبرى الآن. انما ما يشغل بالي هو ماذا نعمل بك."

قال: "ان الحرب انتهت بالنسبة الي يا سيدتي." فعلمت انه مرهق وقد شارف الانهاك فقلت: "ابق جالساً حيث أنت وسأتصل بالعمدة."

كان العمدة الخباز فرغ من دوراته في توزيع الخبز واندفع نزولا يحث جواده بسرعة لم تُعهد به من قبل. انسحبنا الى غرفة مجلس القرية، فسألني العمدة: "ماذا ترين أن نفعل يا دكتورة؟" وتطلع بقلق الى صورة هتلر المعلقة خلف مكتبه.

فنظرت اليه والى الصورة مظهرة اكبر مقدار من الجدية والوقار: "لو كنت مكانك لاتصلت بالشرطة."

فبان الانفراج على وجه العمدة وقال: "سيب، الدكتورة مصيبة في رأيها. هيا، لنتصل بالشرطة."

اخترقنا الحشد المنتظر في دكان سيب الى الغرفة الصغيرة حيث يصلح سيب الاحذية ويحرس جهاز الهاتف. تكلم العمدة مع دائرة الشرطة النائية ثم استدار نحونا ونظّف حلقه وقال: "ليس في امكان الشرطة والعسكريين المجيء حالا. علينا أن نتكفل موقتاً أمر الاميركي. يجب أن نقفل عليه في القبو."

كان هناك قبو في كل قرية في الغابة السوداء في الايام الطيبة القديمة، يطرح فيه السكارى الى أن ينتعشوا ويستعيدوا وعيهم. ودهشت لاكتشافي ان الباب الصدىء المرصع بالحديد الى جانب بناء المدرسة يقود الى حظيرة مغلقة تملأها خيوط العنكبوت والقش العفن. فأصدر العمدة أوامره الى الجميع. بنات سيب لتنظيف القبو، ومدبرة منزل الكاهن لجلب الفراش والوسادات والشراشف، والسيدة موكلي لتحضير الطعام، وأنا للترجمة. ثم تقدمنا بكل تؤدة من منزل هانس بوش. فعرّفت الامريكي الى العمدة وأضفت أنه يريد أن يطرح عليه بعض الاسئلة.

قال الامريكي: "تفضل، لكني لن أجيب."

قلت: "حسناً، ولكن لن يحصل أي ضرر اذا أعطيت اسمك ورقمك." ولم أضف ان السؤال الاكثر الحاحاً الذي يرغب العمدة في طرحه هو ماذا يحب ان يتناول غداء. ورأيتني فجأة ممتعضة من هذا الصبي الطويل القامة، الجاهل، الذي يطير بمقدم طائرته وراء ذيل الطائرة التي تتقدمه ويجهل في أي بلدة خلّف قوافل من القتلى والمحتضرين. وبدا عمدتنا الساذج البسيط بحذائه المربّع وملابسه الخشنة اليدوية الصنع وهو يلقي أسئلته على غير طائل وينتظر بثقة أن أعطيه جواباً، أفضل من الامريكي الى أبعد الحدود.

تجمع سكان القرية خارج منزل هانس ليشاهدوا موكبنا ينحدر الى نزل "آدلر." وكانت طاولة العمدة وسط الردهة مفروشة بغطاء ناصع البياض. وكانت السيدة موكلي تجاوزت طاقاتها فقدمت قطعة مشوية شهية من اللحم مع بطاطا مهروسة وفراولة (فريز) وزلابية متوجة بالسكر المحروق.

كان الامريكي في جوع شديد وقد رأيناه يلتهم حصص اعاشة لأسبوع كامل في جلسة واحدة قبل أن يحين اقتياده الى القبو الذي جرى فيه تغيير لافت. فقد نظف وكنس وفرشت قطعة سجادة على أرضه. ووضع فراش ضيق على مقعد في الداخل وغطاء أبيض مخرّم فوق الوسادة المنتفخة. قالت مدبرة منزل الكاهن وهي تنظر بفخر واعتزاز الى عمل يديها: "انه يليق بملك." فتركنا الطيار هناك وأقفلنا الباب، ثم اختلسنا النظر فاذا به غرق لتوه في نوم عميق.

صباح اليوم التالي قدم رجلان متوسطا العمر ببزات رسمية لا تناسب مقياس

جسميهما، لتسلّم السجين. وانطلق الثلاثة الى المحطة فيما راح الامريكي يمشي متخطراً بخطوات كبيرة وحارساه ينسّقان خطواتهما ويندفعان بركضات قصيرة للحاق به.

رسالة من صديقة

كان ذلك في يوم صاف من خريف ١٩٤٤ وقد مضى شهران منذ ٢٠ يوليو (تموز) حين اندفعت زوجة سيب من كوخها صائحة: "لقد ألقوا قنبلة على هتلر!"

استمعت الى ذلك الصوت العذب المتزن على الراديو يعلن محاولة لاغتيال هتلر نفذتها مجموعة من الضباط، وأدركت للحال ان المحاولة فشلت. وفي وقت متقدم من تلك الليلة أعلن هتلر بصوت أجش أن العناية الالهية أنقذته لكي يكمّل عمله. ومنذ تلك اللحظة عشت كأني في حلم، اذ اتضح لي عمق الاحداث وما قد تتمخض عنه.

بعد ثلاثة أسابيع تلقيت بطاقة بريدية غير موقّعة من بيتر جاء فيها: "اعتقل آدم في ٢٥ يوليو (تموز). محبتي لكم جميعاً."

بعد ذلك لم يطرأ جديد لاربعة أسابيع كاملة. والآن قبل يومين فقط، نشرت أسماء المتآمرين المدنيين وكان آدم بينهم وهم يواجهون عقوبة الاعدام شنقاً.

تحول عصر النهار بارداً وأخذت ارتجف في طريق عودتي في الوادي الى النزل. كان نكي مكباً على دروسه حين فتحت باب الغرفة ورأيت الرسالة. كانت من احدى صديقاتي القدامى، مايبل، التي التجأت مع زوجها المحامي آنولد الى منزلنا في داهليم. وما جاء في الرسالة على غير ما توقعت: "عزيزتي كريس، اعتقل بيتر في غرودنتز في ٦ اغسطس (آب). سنعلمك بما يجد من أخبار حالما نتبلغها."

توقف نكي عن الكتابة وشخص الي وأمارات الارتياع على وجهه الذي بدا صغيراً وذاوياً.

وهمس: "هل مات أبي؟"

قلت: "لا، انه في السجن."

فانتصب فجأة وهتف: أبي في السجن؟ ولماذا؟"

ترددت لحظة في الاجابة مدركة أن علي التمسّك لاحقاً بالكذبة التي سأرويها له الآن. قلت: "حسناً، لوالدك عدو في غرودنتز لفق عنه أنواعاً من الاتهامات الباطلة وزجه في السجن."

– إذاً لماذا لم توقفه الشرطة؟ كانت ومضة من الشك تلتمع في عمق نظرة نكي الثابتة كأنها نظرة رجل بالغ. فقلت: "حسناً، عندما تكتشف الشرطة أن الاتهامات باطلة ستخلي سبيل والدك."

استدار نكي وانصرف غير مصدّق روايتي. مشيته واستقامة ظهره أوحيا لي ذلك. فقلت متصنعة بالخفة: "هذه هي روايتي يا نك، ولن أحيد عنها،" جاهدة في النفاذ وان

قليلا الى عمق ذلك الصغير المستوحش الواقف في النافذة. ومن غير أن يستدير انفجر صائحاً: "حالما تنتهي هذه الحرب أريد الرجوع الى بريطانيا. فهناك لا يقاد المرء الى السجن لذنب لم يرتكبه." وارتجف صوته وهو يتابع: "في بريطانيا تختلف الامور عن هنا."

فتقدمت الى جانبه، واذا بيده الصغيرة تمسك بيدي. ووقفنا شاخصين الى التلال المكسوة بالاشجار في الجانب الآخر من الوادي.

في تلك الليلة استمعت الى أخبار الراديو، فعلمت أن الحلفاء أخذوا في التحرك فعلا. فها هي دباباتهم تندفع الى بروكسيل وأنفير وفردان ولن يطول بهم الوقت حتى يقطعوا نهر الراين. وكم تمنيت أن أبلّغهم: "لا شيء يقف في طريقكم. نكاد لا نرى نازياً في هذه الايام. قد تحوّل أعداؤكم رجالا مسنين وأولاد مدارس. ثابروا على تقدمكم، انما أتيحوا لي فرصة أسبوعين للذهاب الى برلين والعودة منها!"

كانت الرسالة أيقظت همتي وحفزتني على العمل الجاد. ورأيتني فجأة أتّقد حيوية وتراودني خطط غامضة لم تكتمل لدي.

خطة قد تنجح

في ٢٤ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٤ توجهت الى برلين. وكان آرنولد اتصل بي وقال ان الغستابو رخصوا لي بزيارة بيتر في رافنزبروك وهو مخيم اعتقال بالقرب من برلين.

أيقظني منبّه السيدة موكلي في الثالثة صباحاً. فارتديت ملابسي الدافئة والتقطت حقيبتي وسترتي وجزمتي وتسللت الى البيت على رؤوس أصابعي. في غرفة الاولاد كان نك وجون ممددين وشعرهما كهالة حول رأسيهما. ولم يظهر من كريستوفر سوى خصلة من الشعر فوق وسادته الحمراء والبيضاء المحشوة بالزغب.

وقفت السيدة موكلي قرب الموقد في المطبخ وهي في ثياب النوم وقد ألقت شالا على كتفيها.

قلت: "لا يجوز أن تفعلي ذلك يا سيدة موكلي، لأن الوقوف في البرد مضرّ لمفاصلك الملتهبة."

قالت: "لن تذهبي في هذه الرحلة الطويلة من غير أن تأكلي شيئاً!"

ثم أخذت تكسر البيضة تلو البيضة وتلقيها في المقلاة، وتروح وتجيء وهي تعد المائدة وتتكلم فيما كنت أشد رباط جزمتي. كانت تحاول أن تظهر كأن المناسبة عادية، انما كانت كلتانا تعلم أننا قد لا نلتقي ثانية.

قلت: "هل تحتفظين برسالتي الى والديّ يا سيدة موكلي؟"

"نعم، بكل تأكيد، يا دكتورة، وهي في مخبأ أمين. واليك هذه الرزمة الصغيرة لتأخذيها معك. هي نقانق إرنست المفضلة، قد يتسنى لك اعطاء الدكتور شيئاً منها." ورمقتني بنظرة وادعة بعينيها الذكيتين التعبتين وتابعت: "أنقلي اليه تحياتي

وأخبريه أنني امرأة عجوز وخجولة بهديتي التافهة."

وارتجف ذقنها وطفرت الدموع من عينيها. فنهضت وقبلتها قائلة: "أرجوك، لا تبكي يا عزيزتي، سأعود باذن الله. لا يسعني أن اشكرك كفاية لقبولك أن اترك الاولاد هنا لكي تعتني بهم."

عند المنعطف استدرت لألوح لها، فرأيتها في إطار الباب المضاء ويدها مرفوعة في ايماءة كأنها تستلهم بركة من الله.

كان الثلج يصرّ تحت قدميّ فيما تابعت الخطى نزولا في اتجاه المحطة. وشعرت في ذلك فرجاً لي اذ وجدت ما أعمله بعد أسابيع من القلق المضني الذي بددته رسالة موجزة بخط بيتر خضعت للرقابة في أحد سجون برلين ثم في رافينز بروك، يعلمني فيها أنه لا يزال قيد الحياة.

ولدى وصولي الى برلين عزمت على طلب مقابلة المستنطق لانغ صاحب النفوذ. كانت خطتي أن أقنع لانغ بأن الحرب مشرفة على الانتهاء. ونظراً الى اعتقاد الغستابو أن لدي أنسباء ذوي نفوذ في بريطانيا، فقد أعقد معه صفقة تتضمن مساعدته بعد الحرب في مقابل اسقاط التهم عن بيتر أو اتلاف ملفه. كان الأمل ضئيلا، لكنه يستحق المحاولة.

كان الظلام مخيما لدى وصولي الى منزلنا في داهليم. فنبشت من حقيبتي هداياي الفقيرة وناولتها الى مايبل وآرنولد. وكانت رغيف خبز من صنع البيت ونصف كيلوغرام من الزبدة وقطعة من اللحم المدخّن.

بعد التهام كل كسرة تطلعت الى آرنولد الذي قال: "أعلم، يا كريس. تكادين لا تقوين على الانتظار. حسناً، لم يحصل شيء حاسم. بيتر لم تكن له علاقة بمؤامرة ٢٠ يوليو (تموز) ولكن له أصدقاء غارقون حتى الاذنين. ليس للشرطة أي اثبات ضده، لكني أراهن على أنهم يكرهونه شخصياً. بحق السماء يا كريس، ان بيتر متعجرف ولن يسترحمهم. أتخيله وهو يعاملهم كقذرين. أليس هذا ما ترينه أيضاً؟ لكن ما يجعل الاستجوابات شاقة هو أنه على الارجح لا يدري أن تروت ولانغبيهن ماتا، وقد يحاول تغطيتهما."

لم أكن سمعت بموت كارل. ولم أعلم أن آدم ورفقاءه المتآمرين شنقوا ببطء معلقين بكلابات الجزارين وصوّرا في فيلم وهم ينازعون. أحس أرنولد بالضيق الذي أطبق علي فقال معتذراً: "لم أكن لاروي لك هذه الاشياء يا كريس لو لم اكن على يقين منها. ولكن كما قلت لك، ربما كان بيتر يحاول حمايتهما. وهنا نورك. يمكنك التكلم معه لعشر دقائق فقط. وفي هذا الوقت عليك ابلاغه أن صديقيه توفيا ولن يقدرا على التكلم ضده، وأنهما أصبحا في ذمة الله وليسا في حاجة الى حمايته."

كانت محطة رافنزبروك الخشبية الصغيرة تئن تحت وطأة ريح باردة جليدية هبت من الشرق. أحنيت رأسي اتقاء للريح وسرت نحو المخيم مسافة طويلة الى أن بان سياج

تعلوه أسلاك شائكة وسط الثلج المتجمد. وانتهت الى حاجز مطلي بالاحمر والابيض والاسود، فأدخلت كوخاً خشبياً علق فيه الصليب المعقوف، شارة الحزب النازي. ثم قادني حارس الى كوخ خشبي ثان عبر ساحة في الجانب الآخر من المجمع الجليدي حيث تُركت لوحدي. كان الكوخ مزداناً بصور هملر وآخرين ببزات "الصاعقة" ذات اللونين الاسود والفضيّ. فجلت على تلك الصور أرفع الواحدة بعد الاخرى وهي لا تزال عالقة بكلابتها، متظاهرة بأنني أرغب في قراءة اسم الرسام الذي رسمها. وكنت في الحقيقة استكشف وجود ميكروفونات تحتها. فلم أجد شيئاً. ثم أفرغت حافظة نقودي على الطاولة فسقطت منها بضع قطع على الارض. فجثوت على ركبتي لالتقاطها، واذا بي أرى الميكروفونات تحت المقعد مثبتة الى الجدار.

فتح الباب ودخل منه شاب أنيق عرّف بنفسه، انه مفوض التحقيق الجنائي. سألني عن الكتاب الذي في يدي، فقلت له انه كتاب صور فوتوغرافية. فسأل بأدب أن يطلع عليه، فناولته اياه مع رزمة نقانق السيدة موكلي. وبدأ يقلّب صفحات الكتاب وكأننا في غرفة الانتظار في عيادة طبيب أسنان.

فتح الباب ثانية. فدخل أولا حارس بدين وبعده شخص طويل القامة منتصب هو كل أملي وكل ما رغبت في رؤيته تلك اللحظة. وثبت على قدمي فيما تقدم مني بيتر ويداه ممدودتان. وقفنا متماسكين ولمحت في وجهه نظرة ملحة وأحسست انه يدفع بشيء صغير مربع في راحتي. أدرت ظهري للمفوض والحارس وذهبت الى الطاولة لألتقط كيس نقودي. وبذريعة التفتيش عن محرمتي لمسح عيني أسقطت ذلك الشيء في جيبي. كان علبة ثقاب.

أشار الحارس الى بيتر بالجلوس على المقعد المسند الى الجدار. فجلست الى جانبه وأمسكت بيده. الى الآن سار كل شيء على ما يرام. كان بيتر ناحلا جداً وكان وجهه منتفخاً مرمداً وقد فقد تلك النظرة الصبيانية الثابتة. فقد كانت عيناه حذرتين غامضتين لا يدرك مغزاهما.

كان علي ابلاغه رسالتي للحال. ولم أجد صعوبة في التكلم على أي شيء وكل شيء، شأني حين أكون متوترة الاعصاب: "هناك أشياء كثيرة أخبرك اياها، وأنا في حيرة بماذا أبدأ." قلت هذا وأنا أفك أزرار معطفي، واذ غطّت حاشيته يدينا المتشابكتين أخذت احدى أصابعه وضغطت موجهة اياها الى أسفل المقعد. فحدّق الي فجأة بعينيه الحذرتين المتوثبتين.

أدركت انه فهم قصدي بشأن الميكروفون المزروع تحت المقعد. فغمرتني موجة من الارتياح لعلمي أنه سيفهم رسالتي على حقيقتها. قال: "هناك أشياء كثيرة أيضاً أود أن أعرفها يا كريس، ولكن أخبريني أولا كيف حال الاولاد."

قلت: "انهم في حال ممتازة، وكريستوفر اكتسب لكنة الغابة السوداء." أمكنني عندئذ الاحساس بتيقظه وتفهمه لمناورتنا الكلامية.

قال: "والسيدة موكلي، هل هي بخير؟"

أجبت: "أوه، نعم،" اذ اتضح لي المسار الذي يجب أن أنتهجه. "هي وحدها لديها أنباء محزنة. أتذكر شقيقها؟ تلك التي لها ثلاثة أولاد في الجيش وآخر في سلاح الطيران؟ حسناً، الابن الاكبر كارل، والثالث أرنولد... أدولف... ماذا كان اسمه يا ترى؟" لم أجرؤ على القول: "آدم" لأنه اسم غير مألوف في المانيا. لكن بيتر ضغط يدي ففهمت أنه فهم قصدي.

قال: "أعتقد أن اسمه كان أدولف. ماذا حصل؟"

تابعت بعجلة: "حسناً، لقد قتلا على الجبهة الروسية."

– قتلا؟ أم أفيد أنهما مفقودان؟

"كلا، لقد قتلا حتماً؟"

تبعت ذلك لحظة صمت ثم تنهد بيتر وقال: "مسكينة والدتهما."

بعد دقائق أزاح المفوض كرسيه وانتصب على قدميه وقال: "آسف، لقد طالت مقابلتكما على ما هو مسموح به قانوناً." فتبسم لي بيتر وقال: "ليباركك الله يا عزيزتي." واتجه نحو الباب. ولاحظت أن حذاءه كان مربوطاً بخيطين قصيرين من القنب. فأكبرت فيه حيلته وارتجاله لرباط الحذاء هذا مما عزز فيَّ الشجاعة، فلا قوة على الارض تقدر أن تجعل بيتر يجرّ قدميه!

حين خلوت بنفسي في القطار فتحت علبة عود الثقاب، فاذا فيها ورقة صغيرة ملفوفة كتب عليها بخط رفيع صف من الكلمات بدت للوهلة الاولى بلا معنى: "ذاتي غير سياسي لم أدل بشيء آدم صديق حميم أيام هامبورغ لانغبيهن جار فقط كريس ايرلندية..." معلومات نتفة بعد نتفة. طويت الورقة وكدت أبتسم. كانت هذه رسالة بيتر الي في حال أُخضعت أنا أيضاً للاستجواب.

ولم أكن طلبت للاستجواب، انما لا يزال هناك احتمال بذلك. وبومضة خاطفة أدركت أن خطتي قد تنجح اذا طلبت من الرجل المكلّف قضية بيتر أن يستجوبني.

مايل هتلر!

وافق المحقق الجنائي لانغ على مقابلتي في الحادية عشرة صباحاً في ٤ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٥. فانتقيت ملابسي بعناية لانه عُرف عن مسؤولي الغستابو أنهم من الطبقة المتوسطة وهم تقليديون يفضلون النظافة وحسن الهندام في نسائهم على الاناقة. فارتديت معطفي الاسود وقبعة سوداء عادية وثوبي الازرق الرمادي الذي بدا نظيفاً وأنيقاً على رغم كثرة ارتدائه، وآخر زوجين من الجوارب الخالية من اللفق، وحذائي الاسود الواطيء. كنت أنضح جدارة بالاحترام وبعداً عن التعامل في السوق السوداء. كان وجهي آرياً لا شك فيه، وغاب عني المظهر الصحي الصارخ.

كان المقر الرئيسي للغستابو في برلين بناء ضخماً قاتماً مدمراً جزئياً بفعل القنابل. ولدى وصولي الى مكتب لانغ في الطبقة الرابعة كانت ركبتاي تصطكان ويدي

ترتجف على الدرابزون الرخامي. قرعت الباب ففتحه أحد جنود "الصاعقة" وقال: "هايل هتلر! هل لديك موعد للمقابلة؟"

– نعم لدي موعد.

"ادخلي واجلسي من فضلك."

توجهت الى غرفة بثلاث نوافذ تشرف على بحر من الخراب. وحين نودي باسمي أدخلت عبر باب عالٍ الى غرفة صُعقت داخلها، اذ وجدتني عمياء كلياً لان أضواء قوية متوهجة كانت مسلّطة عليّ.

قلت: "هايل هتلر، سيدي المفوض. يسرّني لو سمحت لي بالجلوس في كرسي، لكني لا أجد واحداً. هل تتفضل باطفاء هذه الأضواء؟"

عقبت ذلك لحظة سكون سمعت بعدها طقة فانطفأت الاضواء.

دخل رجل قصير القامة ممتلىء البنية ورأسه شبيه بالاجاصة. كانت عيناه الزرقاوان متقاربتين جداً، باردتين، قاسيتين، تحدقان الي بفضول جامد من دون أن يرف لهما جفن. قلت: "سيدي المفوض، اني مدينة لك. لقد كانت لفتة كريمة منكم أن تسمحوا لي بمقابلة زوجي وتخصصوا لي جزءاً من وقتكم الثمين." واذ بدرت من رأسه حركة خفيفة أمسكت نفسي قائلة في داخلي: الحذر ثم الحذر. كانت لهجتي قوية النبرات الى حد العدوانية والصلف. فتابعت بلهجة استرضائية معربة عن سروري البالغ لكون قضية زوجي في يده لما يتمتع به من خبرة وحنكة.

– أنّى لك أن تعرفي قدراتي؟

"عرفت ذلك من اثنين من أصدقاء زوجي (ذكرت اسميهما) قالا لي لن تجدي افضل منه ولا أكثر معرفة لمعالجة قضية زوجك." وكأني استشففت استرخاء طفيفاً في موقفه فعللت نفسي بأمل ضئيل أن يكون فارغاً مزهواً بنفسه يتأثر بالاطراء.

تابعت: "سيدي المفوض، هناك شيء واحد ما زال يضايقني حيثما توجهت، وهو كوني أجنبية. هل يعقل أن يكون زواجه بي دليلا ضده؟ فلو حدث هذا في بريطانيا وكنت أنا ألمانية فقد يكون هذا هو الوضع..." وعلى رغم تحديقه الجامد الذي خلا من أي طرفة قدرت أن تلك هي اللحظة التي يجب أن أسلّط فيها من السحر ما تسمح به مؤهلاتي ورصانتي: "... سيكون ذلك عبئاً لا قدرة لي على تحمله. يا سيدي المفتش، اني أشعر دوماً بأن اتحادي بزوجي يتخطى الاعراف القومية والوطنية. فألمانيا هي الآن وطني، وقد تعلمت اللغة، وهنا أريد أن أربي أولادي. وحين أعلنت الحرب أصبنا بخيبة قاتلة. كنت أتتبع خطب الفوهرر، كل كلمة منها، حين كان مرة بعد مرة يحمل غصن الزيتون عارضاً السلام على شعبي فيقابل بالرفض. انني أؤكد لكم لو كان المسؤولون مثلي لكان بلدانا اليوم متحدين."

قال بالانكليزية: "كان ذلك كلاماً رائعاً يا سيدة بيلنبرغ، ومؤثراً جداً، انما أود أن أرى رجلا بريطانياً او امرأة بريطانية لا يشعران في أعماق قلبهما بخطأ بلادي." وكانت انكليزيته محطمة تكاد لا تفهم.

قلت وقد علت وجهي ابتسامة مفعمة بالاعجاب: "انه تعبير رائع يا سيدي المفوض، لم أكن أعرف أنك ملم بالانكليزية." واذا بي أرى تغييرا غريباً يطرأ على وجهه المترهل. ربما كان هو أيضاً يحاول الابتسام.

قال: "أعلم أنك ابنة شقيق اللورد بايارفربروك."

لم أدر في بادىء الأمر من يعني هنا. كان اللورد بيفربروك أحد أعضاء وزارة تشرشل، واذا عرضت على لانغ مساعدته بعد انتهاء الحرب في مقابل إتلاف ملف بيتر فان اللورد يشكل رهاناً حسناً. من ناحية أخرى كان الرهان على عمي اللورد روذرمير جديراً بالاعتبار. ففي أوائل الثلاثينات كان متأثراً الى حد كبير بهتلر، وقاد صحيفة "ديلي مايل" في حملة حماسية خاطئة. قررت الرهان على روذرمير وسردت ملخصاً لانزلاق عمي في خطأ سياسي يتفق وصالح ألمانيا.



"ولكن يا سيدي المفوض، لا تدع هذا الامر يقلقك. أنا أعلم أنك تسعى الى كشف الحقيقة. لم يكن هناك من أسرار بين زوجي وبيني، وقضيته في غاية الوضوح. انه لم يكترث يوماً للسياسة، وشخصيته ليست معقدة الى حد الدخول في متاهاتها. ولكن تريث أرجوك. لقد خطرت لي فكرة، واني أتساءل... ما رأيك؟ لماذا لا تستجوبني أنا؟ ربما كان في ذلك فائدة."

رمقني بنظرة طويلة فاحصة متمعناً، ثم أخرج من أحد الأدراج ملفاً ضخماً وقال: "حسن جداً يا سيدة بيلنبرغ، انما في حال لم تكن أجوبتك صادقة فانك تجازفين في لعبة خطرة."

واذ بعينيه تتحولان فجأة الى الازرق القاسي. قال: "ان زوجك شخص أحمق مغفل أبله، فضح نفسه في كل خطوة. وليست هناك صفحة في هذا الملف لم

يرد فيها اثبات يدل على بلاهته وجرمه. في يدي هنا قائمة بأصدقائكما، وكل واحد منهم خائن: تروت، لانغبيهن..." وتعاقبت الاسماء. "لا أخالك مزمعة على ان تخبريني أنه لم يجر بينكما وبينهم مباحثات سياسية من أي نوع."

اجبته: "لكن هذا تماماً ما أردت أن أخبرك اياه. انا امرأة بسيطة ساذجة لا أستسيغ السياسة، والرجال والنساء الذين يتباحثون فيها يثيرون في الملل والتعب. ولزوجي الشعور ذاته. سألتني عن آدم فون تروت، حسناً، كان زوجي يعتبره أفضل صديق له، لكن هذا لا يمت بشيء الى السياسة. ربما وجد الرجال الاذكياء المثقفون ارتياحاً في الاجتماع بأناس بسطاء مثلنا."

– هل تعتقدين ان تروت كان ذكياً؟

"أوه، نعم، أعتقد ذلك."

– تروت كان خائناً يا سيدة بيلنبرغ.

أجبته بحزن: "هكذا يبدو. لم يخطر لي ذلك قط. ولكن عن أي غيره أردت أن تسألني؟ الدكتور كارل لانغبيهن؟ حسناً، بالطبع. آل لانغبيهن كانوا جيراننا في داهليم..."

وطالت المبارزة وامتدت الى أن خيم الليل وأضيئت أنوار الشارع التي أخذت تومض عبر الخراب. وفي النهاية انتصب لانغ واقفاً.

قال: "كانت افادتك ممتعة. لقد تطوعت في الجيش، لكني أعدك بأني سأعالج قضية زوجك قبل أن أذهب. لا يسعني إعلامك بالنتيجة، لكني سأعمل على اغلاق القضية نهائياً."

أكدت له أن هذا هو كل ما أطلبه، فأومأ برأسه وأدار ظهره. فتوجهت الى الباب. نظرت الى ساعتي في أسفل السلم فبان لي أني قضيت في ذلك البناء تسع ساعات كاملة. ولدى وصولي الى منزلنا كانت المدافع المضادة للطائرات في الجوار تمزق حجب الليل وتصم الآذان.



"دكتورة! دكتورة!"

كان الليل لا يزال مخيما حين انطلق صوت سيب من تحت نافذتي وتبعته كتلة من الثلج أصابت زجاجها: "تعالي انزلي! لدي أخبار سارة!" فهرولت خارجاً حيث الثلج.

أنار ضوء المطبخ وجه سيب الذي قال: "الدكتور اتصل في الليل. انه حر." سادت لحظة صمت. فاذا بنا نتعانق بجذل. وراح سيب يدق ظهري كما لو كنت ابتلعت حسكة.

خرجت مارتينا من الباب مطقطقة بحذائها ومعها رائحة حادة من زريبة البقر. ولم تندهش لرؤيتي خارجاً في مثل هذا الوقت الباكر.

قلت وكأني مصابة بدوار: "مارتينا، ان زوجي حر."

فأجابت عابسة، وتلك كانت علامة دالة على تأثرها: "لقد سمعت بذلك، وقد حان الوقت."

في اليومين التاليين تركزت كل أفكاري على قطار بين برلين وروهرباخ يقلّ بيتر. وفي مساء اليوم الثاني لم ترد أي اشارة من بيتر. فاستبد بي القلق وتملكني اهتياج عصبي. فماذا قال سيب يا ترى عن أن الرجال الاقوياء لا يقدرون على مغادرة برلين؟ الوقفة الاخيرة، وماذا بعد؟ كنت عاكفة على لفلفة الاولاد في الفراش حين جمدت، واندفعت ففتحت النافذة مصغية بكل جوارحي. ها هي الاغنية تنطلق من عمق الوادي، أغنية بيتر! وكم من مرة سمعت "ياهوو" صيحته البعيدة الجامحة وهو يندفع بسرعة خاطفة على منحدرات التزلج طافحاً فرحا بسرعته. أقفلت النافذة وعدت الى الغرفة.

قلت بأهدأ ما أمكنني: "يا أولاد، يخيل الي أني سمعت صيحة في الوادي، واعتقد أن والدكم هو الذي أطلقها."

في الساعة صباح اليوم التالي كنت وبيتر والاولاد لا نزال في غرفة النوم. واذا بالسيدة موكلي تأتي بركوة القهوة الكبيرة ومقلاة مهسهسة ألقت فيها عشر بيضات عائمة في كومة ضخمة من اللحم وابريق شراب لذيذ. لم يكن هذا الطعام ما يصفه طبيب لرجل أمضى أشهراً وهو نصف مائت جوعاً. لكن بيتر التهم معظم البيض واللحم. وكان أمضى بقية الليل يذرع الغرفة وهو يعرج قليلا ويتكلم من دون توقف. وكانت قصصه المتفرقة تنتهي الى قصة متماسكة واضحة.

حين علم أن آدم اعتقل واقتيد الى مقر الغستابو كل صباح لاستجوابه، بدا له ان هناك شيئاً واحداً واضحاً للعمل. كان مستودع الاسلحة في غرودنتز مليئاً بالرشاشات، ولدى بيتر خطة لتخليص آدم بهجوم مسلح من أيدي الغستابو، وأخذه الى توكلر هايدي وهو مستنقع كبير يعج بالأنصار البولونيين. حسب بيتر أن آدم سيتمكن من الصمود هناك لبضعة اسابيع على الأقل. فلا أحد كان يعتقد ان الحرب ستستمر أكثر من ذلك. لكنه قال لي: "لم يقدّر للعملية ان تتم كما خططتها."

لم يمض على رجوعه الى غرودنتز ربع ساعة حتى جاء الغستابو واقتادوه الى زنزانة بقي فيها لوحده عدة أسابيع.

قال: "ما لبثت أن اكتشفت أنهم يعرفون القليل جداً. سألوني عن آدم فأخبرتهم أنه

أحد أعز أصدقائي. فالى قول الحقيقة كانت هناك فرصة لشراء الوقت. كل شيء يهون في سبيل شراء الوقت."

وحدث أن بيتر نقل الى رافنزبروك. وأخبرني: "لانغ لم يكن حديث العهد بالاستنطاق، وقد أفدت كثيراً من دراستي للقانون، فصرفت ساعات أستعيد في ذاكرتي اسئلته وأجوبتي، لان أجوبتي كان يجب أن تكون ذاتها يوماً بعد يوم. لقد لجأوا الى التكتيك المعتاد: يوم ملاطفة وحصص طعام استثنائية يتبعه يوم معاملة قاسية مع خبز وماء فقط. اذا التقيت لانغ هذه الايام فسأقتله كما قتل الآخرين. اذ ان أولئك الذين أمكنهم الوقوف على أقدامهم بعد الخضوع لاستنطاقه كانوا يمشون عائدين الى زنزاناتهم. اما الآخرون فكانوا يُحملون ملفوفين بسجادات ويرمون كالجثث. على الاقل، في ما خصني، كنت أحظى بزيارات بعض الاصدقاء. زارني أرنولد أولا، ثم أمي. وبعد عيد الميلاد أتيت انت يا عزيزتي، وكنت اعتقدت أنك اعتقلت ايضاً. كنت أسعى دائماً الى الاحتفاظ بتلك القصاصة في حوزتي. كانت تلك مجازفة، لكنها أقل خطراً من رواية قصة مختلفة عن روايتي. يا الهي، لم يمر في خاطري أن تطلبي الخضوع للاستنطاق، لكن ذلك كان مفيداً. نعم، كان استنطاقك مفيداً جداً. وأظنه رجح كفة الميزان لمصلحتي. لقد كان تأثيرك هائلا على لانغ، فهو ذكر لي لاحقاً أنه يعجز عن التصور كيف أن شخصاً تافهاً مغفلا مثلي استطاع الاقتران بتلك الزوجة الذكية. وكان يعني كل كلمة قالها، لأنه كان يكره شخصي وكياني أشد الكره."

وبعد أسابيع قليلة حدثت المعجزة. أبلغ لانغ بيتر أنه يعتزم اطلاقه، ولكن لتسليمه الى "فرقة القصاص" في الجيش للعمل في تنظيف حقول الالغام وأعمال شاقة خطرة اخرى. لكنه بدلا من ذلك أطلق مزوداً حفنة من بطاقات الاعاشة واذنا بالسفر الى بيته. قال بيتر: "لست أعلم لماذا يا عزيزتي، ربما كان هذا مجرد خطأ ارتكبته الادارة." ثم توقف عن الخطو جيئة وذهاباً وفتح النافذة متيحاً دخول هبة باردة وقال: "وها أنا هنا الآن يا كريس."

فتوة ضائعة

خلال شهري مارس وابريل (آذار ونيسان) كانت الحرب تزداد اقتراباً كل يوم من روهرباخ. وكانت الصحيفة المحلية توقفت عن الصدور، لكن اذاعات الراديو ظلت تذكرنا بأن الحكومة الالمانية ما زالت تؤدي وظيفتها. وأبى المزارعون أن يسمحوا لدوامة القتال المتوجهة اليهم بأن تغير نمط حياتهم الثابت. فظلوا يحرثون الحقول ويحلبون البقر ويطعمون الماشية. فانتهى بهم الامر الى بقائهم العنصر الوحيد السليم العقل في عالم مجنون. وكانت قعقعة الجنود الراحلين بمعداتهم كأنها مسرحيات عابرة.

كان الجنود يرتمون يومياً في غرفة جلوسنا وينامون على الارض: أولاد منهكون في بزات فضفاضة تتجاوز قياسهم، مزودون أسلحة فتاكة لا يعرفون أن عليهم حملها

وامساكها بحذر. ذات ليلة انحنى ضابط رمادي الوجه أحمر العينين ليغطي أحد هؤلاء المحاربين النائمين بمعاطفهم الخارجية الكبيرة، وهمس لي فجأة: "ان هؤلاء الوحوش في المراتب العالية ارتكبوا جرائم كثيرة، انما ما من واحدة توازي بفظاعتها جريمة ارسال هؤلاء الاطفال الى ساحات القتال."

كان نزل "آدلر" حتى اللحظات الاخيرة مقراً لفرقة كاملة من الجيش مع جنرالاتها ودراجاتها النارية، يأتون مقعقعين بها ويرتحلون ثانية في مهمات مجهولة. وفي احدى الليالي بدأ التحرك. وفي الصباح كان سيل من الجنود بلباس القتال الرمادي يتجه في الطريق الى شونيناخ مصحوباً بالثيران والمدفعية الثقيلة والدراجات الهوائية والمزالج. وكانت كل سيارات النقل مقلوبة ومتروكة في الحقل لفقدان الوقود. وفي اللحظة الاخيرة دخل ضابط شاب ليودعني.

قال: "حظاً سعيداً يا سيدتي، ستكونين قريباً في بيتك."

فقلت: "أرجو لك أن تكون أنت أيضاً في بيتك."

تبسم لي الضابط بوجهه الفتيّ ابتسامة البالغين الذين عركهم الدهر وقال: "لا أظن ذلك، بعد هذه المهمة." ثم انصرف.

بعد أمسيتين، في ٢ مايو (أيار) ١٩٤٥، ذهبت الى غرفة المجلس لمقابلة سيب والعمدة اللذين اعتبراني واحدة من أهل القرية ولم يكونا أقل احتراماً لي من ذي قبل. وكانت على الجدار خلفهما رقعة مربعة فارغة، فلاحظ سيب والعمدة أنني احدق اليها فتظاهرا بانهماكهما بالاوراق الملقاة أمامهما.

سألتهما بعد صمت طويل: "أين هو؟"

لم يرفع سيب رأسه، لكنه أومأ برأسه نحو موقد حديد ضخم يهدر في الزاوية.

قلت: "أليس الوقت باكراً على هذه النار القوية؟"

فرد سيب: "كلا، اعتقدنا أنه غير باكر."

وتابع: "اوه، بالمناسبة، أخبرني أحدهم أنه سمع بالراديو أنه مات الليلة الفائتة وهو يقاتل، كما قالوا، حتى النفس الاخير. لقد كنت منشغلا جداً ففاتني الاستماع الى النبأ."

منشغلا جداً! لا شك في أنه كان منشغلا. فمثل سائر سكان القرية أمضى الثعلب العجوز ساعات يفكك شاحنات الجيش المتروكة في الحقول وينقل قطعها في عربة يد.

غلب علينا الضحك، وكأن داخلنا رفاصاً ظل مشدوداً سنوات ثم أرخي فجأة، فانطلقنا متهللين في تشنجات عاصفة من الضحك بلغت حد الهستيريا. وكنت لا أزال أمسح عيني وأنفي وأنا أنزل السلم المتداعية وأتوجه الى نزل "آدلر". ولكن في أعماق نفسي كنت أعرف أن في ذلك الضحك شيئاً أقرب الى ذرف الدموع.

كريستابل بيلنبرغ ■

ترجمة الياس عقل

تعيش كريستابل وبيتر بيلنبرغ في مقاطعة كارلو بايرلندا في مزرعة اشترياها بعد الحرب.



كتاب الشهر

الضحية

ملخص من كتاب "قصة ستيفن ماكدونالد"

بقلم ستيفن وباتي آن ماكدونالد بالاشتراك مع إ. ج. كان III

الضحية

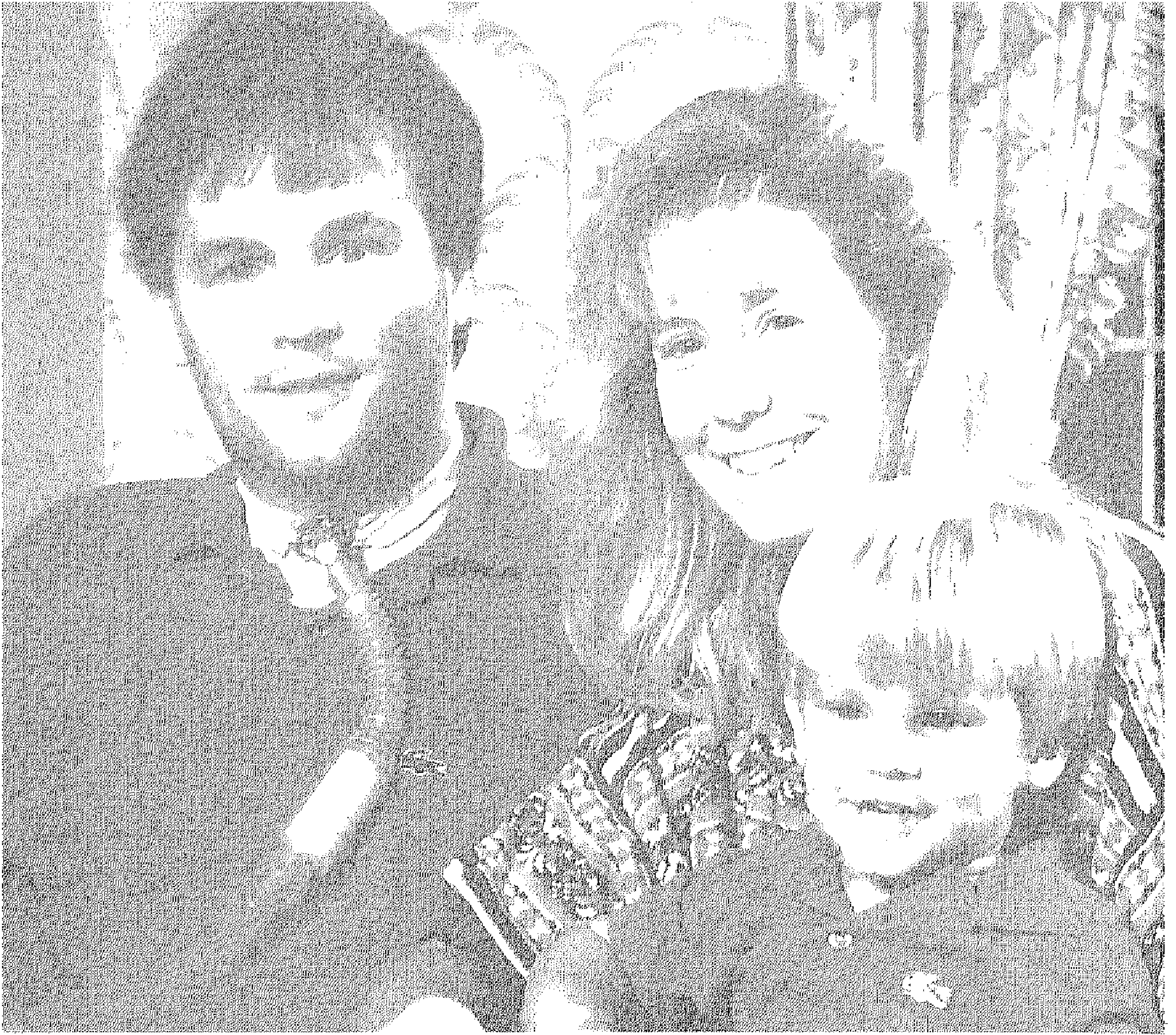
كان ستيفن ماكدونالد شرطياً مثالياً في مدينة نيويورك، عمره تسعة وعشرون عاماً، طويل القامة، رياضي البنية، وكانت زوجته باتي آن حاملاً بجنينها الأول حين تعرض ستيفن لحادث مريع بدّل حياتهما.

وهنا وقائع القصة كما يرويها الزوجان. ومغزاها أنهما، على رغم خسارتهما كل شيء، وجدا في عمق نكبتهما عزاء وحافزاً على اكمال مسيرة الحياة بآلامها وأفراحها.

غلب علي في ذلك الصباح شعور بالخيبة والاحباط وبهبوط في معنوياتي. فقد عملت مدة سنتين شرطياً في مدينة نيويورك، ولم أتغيب عن خدمتي الا يوماً واحداً. قد أطلب يوم عطلة بعد بضع سنوات، أما الآن فزوجتي باتي آن حامل ونحن ننتظر مولودنا الأول، ولا أريد أن أقدم على عمل يحدّ من نشاطي وترقيتي في عملي.

في ذلك النهار، ١٢ يوليو (تموز) ١٩٨٦، كان من المقرر أن أعمل من الرابعة بعد الظهر حتى منتصف الليل. ولدى خروجي من منزلنا في مالفين التي تبعد ٢٧ كيلومتراً عن نيويورك كان المطر يسقط رذاذاً. وفي منتصف الطريق الى المدينة كانت المغنية بيلندا كارليل تصدح على الراديو «أنا مجنون بك» [1]. وكنت أحب تلك الأغنية التي تعبر بصدق عن حبي لزوجتي، فرحت اردد معها: «أنا مجنون بك، ضائع في عينيك...»

حين وصلت الى متنزه سنترال بارك كنت لا أزال أهمهم الأغنية. أوقفت سيارتي قرب مخفر الشرطة قائلاً في نفسي ان هذا النهار سيكون على ما يرام.



في الرابعة بعد الظهر انطلقنا، أنا ورئيسي الرقيب بيتر كنغ، في دورية بسيارتنا الـ«بلايموث» الخالية من علامات الشرطة ومعنا دفتر الملاحظات ونسخة من صحيفة «نيويورك بوست.» وكنت أقود السيارة فيما الرقيب يسجل النداءات الواردة عبر الجهاز اللاسلكي.

تكلمنا قليلاً عن المباراة الرياضية التي جرت في الليلة السابقة، وعن وجود باتي آن خارج المدينة في زيارة لشقيقتها، وعن الهدوء التام الذي يسود منطقة «سنترال بارك». كان الجو نديّاً والسماء غائمة مما قلّص عدد راكبي الدراجات والمهرولين. في يوم كهذا يرى سارقو الدراجات الهوائية وناشلو الجزادين أن ليس هناك ما هو جدير بالسطو فتخف ممارساتهم أيضاً.

اقترحت على الرقيب التوجه الى الشطر الآخر من المدينة فوافق قائلاً: «حسناً، لا مانع لدي يا ستيفي.»

وإذ عبرنا الشارع «١٠٢» الشديد الانحدار توقفنا فجأة متوخين جانب

(١) Mad About You

الحذر. فقد شاهدنا ثلاثة فتيان واقفين على طرف الطريق وملامح وجوههم تنطبق على صور مجموعة من سارقي الدراجات رأيناها في تقارير الجرائم المحفوظة لدينا في مخفر الشرطة.

تمتم أحدهم: «انهم رجال الشرطة السرّية.» لم تخدعهم ملابسنا العادية كما لم يخدعنا تظاهرهم باللامبالاة ورباطة الجأش.

قال الرقيب كينغ بهدوء: «توجه الى سفح التلة.» وكانت على مسافة ثلاثين متراً من المراهقين الثلاثة طريق فرعية تنتهي الى موقف للسيارات. فتوقفت هناك وأطفأت المحرك.

كان المراهقون ينتظرون أن نرجع اليهم بسيارتنا. لكننا قررنا أن نتقدم منهم مشياً. وانفصلنا، على أن يأخذ الرقيب الطريق وأسلك أنا ممّر مشاة محاذياً للطريق على بعد ستة أمتار منها وينعطف عبر أجمة.

قلت في نفسي إن طريقي هي الأطول، فحثثت خطاي. وفي أحد منعطفات الممّر شاهدت الثلاثة يراقبون الطريق وظهورهم الي. فأبرزت «درعي»، وهي الشارة ذات الرقم ١٥٢٣١ وهو الرقم الذي حمله والدي حين بدأ عمله في جهاز الشرطة.

تقدمت معرفاً بنفسي: «أيها الفتيان، أنا شرطي وأريد التكلم معكم.»

لم يتفوه أي منهم بكلمة بل نظروا الي بتحدّ.

سألتهم: «ماذا تفعلون هنا؟ وأين تسكنون؟»

لا جواب أيضاً.

كان طولي ١٨٨ سنتيمتراً وكنت أعلو أياً منهم بما لا يقل عن ٣٠ سنتيمتراً. وبانوا لي كأنهم أولاد وان بدوا مخيفين لراكبي الدراجات. ثم لاحظت انتفاخاً مريباً تحت سروال احدهم فانحنيت لأتلمسه.

ولم أكد أنحني حتى رأيت بطرف عيني أحد المراهقين الآخرين يستدير ويسحب شيئاً ثم يواجهني ثانية. وإذ رفعت رأسي عاجلني بثلاث طلقات.

«بوم!» «بوم!» «بوم!»

شعرت كأن مدفعاً يخترق أذني. وأحسست الرصاصات تخترق جسمي. وعبق أنفي بدخان البارود، لكني لم أشعر بأي ألم.

فأين الألم اذاً؟

خلتني منفصلاً عن جسمي. وأحسست بخدر ووخز خفيف، وكأن عقلي خارج عني يراقب. وبادر الي الرقيب كينغ. رأيته منحنياً فوقي وهو يصرخ في الجهاز اللاسلكي: «أطلقت النار على أحد عناصر الشرطة!» أما الفتيان فقد لاذوا بالفرار.

كنت أفقد وعيي. وتصورت باتي آن أمامي ورحت أتصور مدى خسارتي، فهتفت في أعماقي مصلّياً: يا الهي، لا تدعني أموت.

حين يصاب شرطي يستجيب الجهاز بكامله. وفيما كنت ملقىً أنزف في الوحل سمع شرطيون في «سنترال بارك» والجوار نداء استغاثة الرقيب كينغ.

كان جون ماكاليستر ودنيس روبرستاد في دورية يطوفان الشوارع، فسمعا كينغ يصف المهاجمين: «ثلاثة فتيان سود قرب البحيرة.» وإذ انعطفا الى «سنترال بارك» خيل الى ماكاليستر أنه رآهم فتحول بسيارته الى الغابة.

وقال لاحقاً: «رأينا من خلال الأشجار شخصاً ملقى على الأرض. فنزلنا من السيارة بحذر لأننا لم نكن متيقنين مما سنجد. لم يكن أحد هناك، والرجل على الأرض لم يكن مرتدياً بزة نظامية. ثم رأينا الرقيب كينغ فهرعنا الى ستيفن.»

لاحظ ماكاليستر رقبتي أولاً وقال ان الدم يتدفق والجرح أسوأ ما شاهده في حياته. فعمد روبرستاد للحال الى الضغط على الجرح، وألقياني على مقعد سيارتهما الخلفي.

وفي الطريق الى مستشفى متروبوليتان الذي يبعد قليلاً جلس روبرستاد الى جانبي ضاغطاً رقبتي، لكنه لم يجسّ نبضاً.

في مستشفى متروبوليتان سارع المسعفون الى تغذيتي بالحقن الوريدي، وأولجوا أنبوب هواء نزولاً في حلقي. ولكن هيئة الطوارىء لم تأمل تحقيق الكثير، فقد ثلمت رصاصة عيني واستقرت في تجويفها، وأصابت أخرى ذراعي فأتلفت شرياناً، واخترقت الثالثة رقبتي فحطمت بشظاياها عمودي الفقري. وبتُّ عاجزاً عن التنفس والحركة.

بعد لحظات وصل برايان مولهيرن منسِّق الحوادث في دائرة الشرطة. فبادره جرّاح أعصاب مقيم: «ان ذلك الشرطي لن يعيش.»

قال برايان: «قد لا يعيش، لكننا سننقله الى مستشفى بيلفو حيث أحد أفضل مراكز معالجة الحبل الشوكي.»

حين وصلت سيارة الاسعاف الى مستشفى متروبوليتان كان رجال الصحافة بدأوا يتوافدون، والتقطت كاميرات التلفزة مشاهد الالحاح والاندفاع لادخالي. كنت لا أزال غائباً عن الوعي وحياً بفضل الهواء الذي كان المسعفون يضخونه فيَّ يدوياً.

أثناء سيرنا في المدينة كان المسعفون يحومون فوقي. واستعدت وعيي ببطء. أمكنني سماع صفارة سيارة الاسعاف وهي تخترق الشوارع. وكنت أرى الناس يتحركون حولي في اهتياج كالمسعورين وقد لفَّهم غشاء ضبابي. وكنت عاجزاً عن التركيز.

قال لي أحد «الأشباح»: «ستكون بخير، اطمئن.»

لم أصدقه، فكل ما فيَّ حطام وجسمي خدر وكأني مستسلم للنوم.

ثم غبت عن وعيي ثانية.

باتي آن: الجدار الأزرق

كنت نائمة في منزل شقيقتي جولي في يـاردلي، فيلادلفيـا، وكنت حامـلاً في شهري الثالث.

قرابة الرابعة والنصف بعد الظهر استيقظت على أصوات جولي وزوجها كين وولديهما. لم أرَ معنى لذلك. لماذا هم في البيت؟ قالوا انهم سيعودون بعد ساعة. أخذتني الدهشة ونزلت اليهم.

طلبت مني جولي أن أدخل معها غرفة الجلوس، وكان القلق بادياً على وجهها. قالت: «باتي آن، اجلسي، أريد أن أخبرك شيئاً.»

وَمَضَ في خاطري أن مكروهاً حلَّ بأبي. لقد أصيب بنوبة قلبية!

قالت جولي بهدوء: «أُطلقت النار على ستيفن. لقد اتصلت بي أمي وأنا في المكتب وقالت انه حي وان ضباطاً من الشرطة قادمـون الى هنا ليعـودوا بك الى نيويورك.»

ستيفن؟ هذا مستحيل! انه لم يبدأ دوريته بعد. قلت لجولي. «لا، لا، هذا غير صحيح.»

فتابعت: «أطلق عليه فتى النار.»

فتى! ما زلت غير مصدقة.

بدأ الهاتف يرنّ، وتوالت الاتصالات، فكان بادئها من شرطة مدينة نيويورك. فقلت في نفسي: يا الهي، لا شك في أن الخبر صحيح. ثم اتصال آخر من والدتي. ورن جرس الباب واذا برجال شرطـة بنسلفانيـا قد وصلـوا. وسألـوني ان كنت مستعدة للذهاب.

جلست وجولي في المقعد الخلفي. كان كين أجرى بضع مكـالمات، وكـل ما عرفته أنا هو أن ستيفن أصيب في ذراعه وأن حاله مستقرة.

مستقرة؟ ماذا يعني ذلك. أهو في حال جيدة؟

انطلقت سيارة الشرطة وأضواؤها تومض، فقلت في نفسي: لا داعي الى القلق، سيكون كل شيء على ما يرام.

وصلّيت.

وإذ اقتربنا من نيويورك زاد اقتناعي بأن ثمة أمراً سيئاً جداً. وحين سألنا الضبّاط عن حال ستيفن أيقنا أنهم تلقوا تعليمات بألا يبوحوا لنا بشيء.

قالوا: «لا معلومات لدينا.»

وشعرت برغبة ملحة في أن أهز أحدهم وأصرخ: «عليكم أن تخبروني.» وبدلاً من ذلك طلبت منهم مراراً التوقف عند محطات الوقود حيث كنت أهرع الى غرف

الحمامات واتقيأ. كانت أعصابي مهتاجة بحيث لم يسعني ابقاء شيء في معدتي.

لم أعلم أننا متجهون الى مستشفى بيلفو، وأن والدي ستيفن وأشقاءه وشقيقاته في طريقهم اليه في طائرة مروحية، وأن والديَّ متوجهان الى المستشفى بالسيارة وأن محطات التلفزة في نيويورك تذيع القصة مرفقة بصور لستيفن وهو ينقل الى سيارة الاسعاف، وأن أحد التقنيين كان يمدّ رئتيه بالهواء لابقائه حياً.

كلا، لم اعلم شيئاً من كل ذلك.

على حدود ولاية نيوجرزي، ومرة ثانية على حدود نيويورك، أبدلنا السيارات. وتوقفت بنا السيارة الأخيرة عند مدخل وحدة الطوارىء في مستشفى بيلفو. ادركت هناك، للمرة الأولى منذ اصبح ستيفن شرطياً، مغزى الأخوّة التي تربط عناصر الشرطة بعضهم ببعض.

ففي الخارج وفي المدخل وفي القاعات وأمام المصاعد وقف مئات الشرطيين يريدون المساعدة أو التبرع بالدم أو أي شيء في قدرتهم.

كان ذلك هو «الجدار الأزرق»، الشعار الذي سمعت عنه الكثير، وكل شرطي هو مدماك في ذاك الجدار.

لدى وصولي وجولي الى المستشفى كان متحدث باسم دائرة الشرطة أبلغ الى الصحافيين اصابات ستيفن وأن ثلاثة فتيان اعتقلوا بينهم شافود جونز. وكان جونز أطلق النار على ستيفن بمسدس من عيار «٢٢» رماه في بحيرة تبعد أقل من ١٠٠ متر عن مكان الحادث. ولتضليل الشرطة قفز جونز في البحيرة وادعى أن مجهولين هاجموه بهدف سرقة سلسلة ذهبية كان يضعها حول عنقه.

سأل الصحافيون المتحدث: «لماذا واجه ستيفن الفتيان؟»

فأجابهم: «تلك مهمته، إذ يفترض في عناصر شرطة مكافحة الجريمة أن يعترضوا الأشخاص الذين يعتقدون أنهم مزمعون على ارتكاب جرائم.»

سألوه: «هل عرف الفتيان أن ستيفن شرطي؟»

أجاب: «لا شك في أن ستيفن عرّف بنفسه انه شرطي، فهذا هو المسلك النظامي المعتمد حتماً.»

وأعلم المتحدث الصحافيين أيضاً أنني حامل.

كنت ما زلت أجهل هذه الأمور. واذا بي أشاهد والديَّ مع الجمع خارج غرفة الطوارىء.

«لماذا الكل هنا، ماذا يجري؟»

قالت أمي: «هدئي من روعك.»

قلت: «كلا، أين ستيفن، أريد أن أراه.»

حاول أهلي التهرب من الاجابة وقال لي أحدهم: «أجلسي، سنخبرك.»

صحت بحنق: «كلا، أريد أن أراه الآن.»

بعد بضع دقائق سمح لي بدخول جناح الطوارىء الحاوي ثلاثة أسرة. كان المكان ضيقاً وقد احتشد فيه اناس كثيرون. فأحسست باختناق. ثم رأيت ستيفن.

ستيفن؟ كان الرجل الذي في السرير بعيداً عن الشبه بزوجي. كان رأسه منتفخاً وملفوفاً بشاش مطهّر وفي حلقه أنبوب تنفس. وبدا عاجزاً كلياً عن الكلام، لكنه كان متنبهاً، وأدركت أنه عرفني.

ومع ذلك بقيت عاجزة عن استيعاب الحقيقة. عللت نفسي بأن الأطباء سيقولون لي غداً ان الأمور ليست سيئة كما تبدو. لم يسعني التصور أن ذلك حدث لنا فعلاً. سيكون لنا طفل بعد أقل من سبعة أشهر. ابتعدت عن سرير ستيفن، واذا بأحد الأطباء يقول لي وقد اعتقد أنني أُطلعت مفصلاً على حال زوجي: «ليس في قدرتك أن تفعلي شيئاً. اذهبي الى البيت وخذي قسطاً من الراحة والنوم وعودي غداً صباحاً.»

أوصلتنا سيارة شرطة الى مالفيرن، أنا وأختي جولي. ورحت أذرع البيت محاولة أن أتصور ماذا فعل ستيفن قبل مغادرته وماذا كان يجول في فكره.

أخيراً غلب عليّ الارهاق فخلدت الى النوم. كنت واثقة بأن الأمور ستكون أفضل في الغد، إذ لم يشر أحد الى أن ستيفن لن يكون في حال جيدة. وقلت في نفسي: لن ينقصني اسبوعان الا ويعود الى البيت.

لدى وصولي وجولي الى المستشفى صباح اليوم التالي طلب منا طبيب شاب أن ندخل مكتبه. وهناك شرح لنا الخيارات القليلة المتوافرة لمعالجة مريض في مثل حال ستيفن ـ وفي اعتقاده أنني ملمة بها ـ واستخدم عفوياً كلمة «مشلول.»

فسألته وقد صعقني كلامه: «عمَّ تتكلّم؟»

فرد متحفظاً: «أوه، ألم يخبروك؟ كان من الواجب أن يطلعك أحد على حاله.»

ثم أخذ يشرح لنا بسرعة وبرود كيف أن احدى الرصاصات الثلاث شلّت ستيفن امتداداً من رقبته نزولاً. ولم يحدد مدى الشلل بعد، لكن الطبيب قال إن الشلل سيكون دائماً على الأرجح.

كدت أختنق، فهتفت: «لا، لا، انك على خطأ. لا بد من أن يكون في هذه البلاد، في هذا العالم، من يقدر على شفائه. عليكم أن تجدوا ذلك الشخص الشافي، لأن ستيفن لا يجوز أن يبقى مشلولاً.»

هزّ الطبيب رأسه قائلاً: «نحن أفضل الأطباء.»

صرخت: «لا!» وقد أخذ مني الانفعال كل مأخذ. وعجزت عن التقاط أنفاسي، وأحسست كأن الجدران ستطبق عليّ وتسحقني، فقلت لاهثة: «جولي، أريد أن أخرج من هنا.»

كان ذلك أسوأ كابوس تواجهه زوجة شرطي، وربما كان أمرّ من الموت. وزاد في مرارته أني تلقيت الخبر من رجل غريب، بكلمات عابرة جافة خالية من المؤاساة. شعرب بالغضب والعجز في آن.

صعدت الى غرفة ستيفن ورحت أتفرس فيه. وأحسست بالجنين في أحشائي، ووددت لو ضمّني ستيفن وطمأنني الى أن كل شيء سيكون على ما يرام. ولكن أنى لنا ذلك وهو عاجز عن بسط يده الي ولا يقوى حتى على الكلام، وكأن أبدية تفصل بيننا.

نظر ستيفن اليّ وهمس شيئاً.

كان يحاول أن يقول لي: «إنني مشلول.»

فأومأت برأسي إني فهمت قصده، لكني لم أقوَ على الكلام إذ كدت أختنق بدموعي.

ستيفن النسال

بعد ظهر الأحد نقلت الى وحدة «العناية الفائقة» في الطبقة الخامسة عشرة من مستشفى بيلفو، حيث وضعني الأطباء في حجرة لها باب خاص وفيها مجموعة منوّعة من الآلات والأدمغة الإلكترونية لمراقبة العلامات الحيوية. واحتشد أهلي وأهل باتي آن وعناصر من الشرطة في المكان، وساد الجو بعض التشويش والفوضى. ولم أعِ ما كان يقال لي، وكيف كانت ردود فعلي على الأخبار في تلك الأسابيع الأول. وكان معظم ما يحدث يمر في مخيلتي كصورة ضبابية، ولم أتمكّن إلا لاحقاً من ربط الأحداث بعضها ببعض.

فجسمي لم يعد ملكي، بل أصبح خارجاً عن ارادتي، وكان متقّباً بالإبر والأنابيب ومربوطاً الى أجهزة مراقبة الكترونية. وكان أنبوب بلاستيكي كبير يضخ الهواء الى صدري من جهاز ضخم بجانب سريري. وثمة أنبوب آخر مولج في معدتي يغذيني بمزيج من الأطعمة. وكانت هناك أنابيب وريدية تحقن «الغلوكوز» والأدوية في ذراعيّ، ووصلت بي قثطرة «فولي» لإخراج البول.

لم أحس بأي من هذه العمليات، لأن أطرافي الأربعة كانت مشلولة وقد اقتصر حقل احساسي على مساحة تمتد من أعلى جبيني الى تحت حنكي فإلى جانبي رأسي حتى أذنيّ. وفقدت الاحساس بكل ما بقي من جسمي، ولم تكن لي قوة في عضلات رقبتي لكي أرفع رأسي وأبقيه مرفوعاً.

وأظهرت صور الأشعة السينية (إكس) والفحص الطبقي الموجه بالدماغ الالكتروني [٢] أن ثلاث شظايا استقرت في أعلى العمود الفقري بين الفقرتين الثانية

(٢) Computerized axial tomography "CAT"

والثالثة. وكان حبلي الشوكي قطع جزئياً في المكان ذاته، فأصيب جسمي بأفدح ضرر ممكن من دون أن يؤثر ذلك في عقلي.

أجرى الأطباء جراحة استكشافية في رقبتي لتحديد مسار الرصاصة، وهذا إجراء روتيني لاستكشاف الضرر اللاحق بالمريء والشريان السباتي والأوتار الصوتية. وأجروا عملية فتح الرّغامى (٣) بحيث أُحدث ثقب في أسفل حلقي أولج فيه أنبوب بلاستيكي لنقل الهواء من جهاز تنفس ميكانيكي الى رئتي.

والأنبوب الذي اختاره أطباء مستشفى بيلفو كان رغامى مثنية في طرفها أداة شبيهة بالبالون لمنع الهواء من التسرب. وكان بالون الهواء يضغط تحت أوتاري الصوتية بحيث تعذّر علي الكلام. وكنت لا أُفهَم الا بقراءة شفتي.

كل يوم كانت تصلني عشرات البطاقات والرسائل. وكان الأصدقاء والزوّار يدخلون ويخرجون وكنت أكاد لا أعي ما يجري حولي، وجلّ ما تمنيت أن أغمض عينيّ وانساب في عالم الخيال وانعتق من واقعي علّني أجد نفسي في ملعب كرة قدم أو على شاطىء أتلهى بمشاهدة الدلافين أو مع باتي آن في السينما.

لم يطرأ أي تحسن على حالي طوال الأسبوع الأول، ولم يُشر أي من الأطباء الى أنني سأتحسن. ولكن ما زال لدينا، أنا وباتي آن، إيمان راسخ بأن الله سيساعدني وإن عجز الأطباء.

يوم الجمعة في ١٨ يوليو (تموز) بدا أن هناك وميضاً خافتاً من الأمل. فاتّصل الدكتور جوزف رانسوهوف، رئيس قسم جراحة الأعصاب في مستشفى بيلفو، بزوجتي وبأهلي ليخبرهم أن نتائج الفحص أظهرت قدرتي على الإحساس بضغط خشن على ساقي اليسرى، ولكن ليس في أي مكان آخر أدنى من رقبتي.

لم يكن ذلك ليعني الكثير. إنما، بحسب قول الطبيب، كان هناك بصيص نور، وهو أضاف: «لدى ستيفن إحساس في جنبه الأيسر، واستناداً الى صور الأشعة السينية لا يُفترض أن يكون هناك احساس. ان شيئاً ما يحدث.»

كان الخبر مثيراً وجديراً بإبلاغه الى رجال الصحافة. فقد كانوا تواقين الى نشر كلمة ما عن ستيفن، ولكن لم يحدث بعد شيء إيجابي يستحق الذكر. فأجرى برايان مولهيرين ترتيبات مع الصحافيين للاجتماع بباتي آن خارج وحدة الطوارىء.

أوجزت باتي آن للصحافيين تشخيص رانسوهوف، وأضافت: «أن ستيفن مقاتل، وسيتعافى، وأريد أن يعرف الجميع أننا لا نزال نكافح وأننا لم نستسلم لليأس.»

في اليوم الذي تلا حديث باتي آن الى رجال الصحافة نقلني الأطباء من

(٣) Tracheostomy

جناح «العناية الفائقة» في الطبقة الخامسة عشرة الى وحدة الجراحة العصبية الخاصة في الطبقة السابعة. وكان من زواري المفضّلين الأب جون كوفسكي. كان جبينه عالياً يتوّجه شعر أبيض، وكان يضع نظارتين بإطار عظمي وفي زاوية فمه على الدوام غليون طويل.

قال لي: «سآتي يومياً.» وكان فعلاً يأتي كل يوم، وأحياناً مرتين في اليوم. وكان يحييني دائماً بهذه العبارة: «هالو يا ولدي ستيفن.»

وكنت أسرّ دائماً لحضوره، إذ أن أشياء كثيرة كانت تخيفني: جهاز التنفس بشخيره الدائم، والشلل، والاتكاليّة.

كان ابدال أنبوب الرغامى المثني أسوأ ما عانيت. فلا تمر برهة حتى يبدأ تسرّب الهواء من البالون فيتعذر علي ضخه الى رئتيّ. وتأتي الممّرضة وتقول: «حسناً يا ستيفن، لقد حان الوقت لإبدال الثنية.»

فأغمغم: «لا.»

فتؤكد الممّرضة: «بلى.» وما هي الا لحظات حتى يدخل الأطباء المقيمون بالبرانس الخضراء الخاصة بغرفة العمليات.

أحس شيئاً في رقبتي، ولكن لن يخاطر أحد فيعطيني مخدراً. وتمضي دقيقة رهيبة فيما ينتزع الأطباء والممرّضات الثنية القديمة من عنقي ويثبتون الثنية الجديدة. وتتسع عيناي رعباً إذ أرى الدم خارجاً من عنقي.

وتحاول إحدى الممرّضات أن تهدىء من روعي. ويروي الأب كوفسكي نكتة بقصد الهائي عن ألمي. وكنت أقدر محاولات الجميع، لكنني لم أرى منها جدوى إذ بدا لي أن الألم والانزعاج الشديدين مأساة لن تنتهي.

وكنت ازداد ادراكاً لمدى النكبة التي حلّت بي. وكان التفكير في المستقبل وما يحمله لي يدفعني الى حافة الجنون ـ عجز عن الذهاب الى الحمام وعن الحلاقة وعن تنظيف أسناني، والأشد ألماً تصوري مستقبلاً أعيشه عاجزاً عن ضمّ باتي آن.

خلال الايام السوداء حاول الأب كوفسكي انتشالي من وهدة اليأس. وكنت أصغي اليه وأرى فيه رجلاً باراً أرسله الله الي والى باتي آن لتعزيتنا وتقوية إيماننا في هذه المرحلة القاسية. وكان يفرك ذراعي الخالية من الإحساس، ويتكلم عن السنوات التي امضاها في خدمة الجيش، واحياناً يغني لي أغاني شعبية بصوته القوي الجميل.

باتي آن: المولود الجديد

كلما تقدمت في حملي هبطت معنوياتي وقوتي على الاحتمال والثبات. أردت أن أكون مع ستيفن كل ليلة ونصلي معاً. وكنت أغادره قبل أن يتهيأ للنوم. واستنبطنا

وسيلة للتحاور: يتفّ ستيفن على سماعة الهاتف تدنيها منه احدى الممرّضات أو الأب كوفسكي أو برايان مولهيرين: تفّة واحدة تعني نعم، واثنتان تعنيان لا.

وكنت أزوّد ستيفن آخر المعلومات عن الجنين، فأقول له: «شعرت بنبض قلبه» أو «أحسست برفساته هذا النهار.» وكنت أدنو منه ليتمكن من تحسس بطني بخدّه.

وإذ اقترب موعد الولادة طلبت مني الممرّضات أن أتوقف عن زيارة ستيفن: «الزيارات مرهقة، وعليك أن توفري قوتك الى حين الولادة.»

ولا شك في أن غيابي كان صعباً على ستيفن. لكنه حظي بزيارة النجمة السينمائية مورين اوهارا التي مثلت مع جون واين في فيلم «الرجل الهادىء» مما أضفى على ستيفن جواً من البهجة ورفع معنوياته. وكان ستيفن شاهد الفيلم مئة مرة على الأقل، واعتبر أفضل الأفلام السينمائية. وحين دخلت مورين أوهارا الغرفة انذهل ستيفن ولم يصدّق ما رأت عيناه.

كان أحدهم أخبر مورين أوهارا أن ستيفن معجب بها. وهي راحت تتكلم بلهجتها الايرلندية عن حياتها وعن كفاحها ضد السرطان وعن تصميمها على مواصلة الكفاح. ومكثت فشاهدت عرضاً آخر لفيلم «الرجل الهادىء.»

في ٢١ يناير (كانون الثاني) ذهبت الى مستشفى مرسي في مركز روكفيل لمقابلة الدكتور جيمس تورمي رئيس قسم التوليد والطب النسائي الذي قال لي ان باب الرحم لم ينفتح بعد، وأضاف: «ارجعي في الأسبوع المقبل وسنبدأ فحصاً للاجهاد.»

سألته قلقة: «ماذا تعني بفحص الاجهاد؟» فطمأنني: «انه لقياس معدل نبض قلب الجنين أثناء التقلصات التلقائية، فلا داعي الى القلق.»

إن الإشارة الى أن حياتي قد تمنى بضربة أخرى تزيد في مأساتنا، بعثت فيّ قشعريرة باردة وكأني غطست في مياه جليدية. وأفقت، كأنما للمرة الأولى، على أنني أحمل في أحشائي جزءاً من ستيفن، جزءاً من كياننا، وسأصبح أماً بعد وقت قصير جداً.

صباح ٢٩ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٧ بدأت تقلصات «الطلق.» وحين تهيأت للذهاب الى مستشفى مرسي اتصلت بستيفن وقلت له: «انني أشعر بالمخاض يا عزيزي، وأنا ذاهبة الى المستشفى للولادة.» وحاولت ألا تعكس نبرة صوتي حزني ووجلي.

طوال فترة الصباح وبعيد الظهر كان جهاز مراقبة يسجل نبضات قلب الجنين. وفي الثالثة بعد الظهر اشتدت التقلصات ووطأة الألم، ومع كل انقباضة كنت أئن وأتصبب عرقاً. ثم سمعت أحدهم يقول: «نبض القلب يتلاشى!»

لم أصدق ما سمعت. أيعقل أن يسقط الجنين بعد ما عانيناه؟

أُلصقت كمامة أوكسيجين على وجهي، فصلّيت: رحماك يا الهي، اجعل كل شيء يمر بخير وسلام لأن لك القدرة على كل شيء. ثم أحسست وخزة في ذراعي وبدأ المخدر يسيطر علي فغبت عن الوعي.

بعد ساعتين أفقت في غرفة النقاهة. وسألت طبيبي: «هل ولدت؟»

أجاب: «ولدت صبياً.» فانسابت دموعي فرحاً، وهي دموع السعادة الأولى منذ ستة أشهر. وقلت: «أريد رؤية أمي.»

وغلب علي البكاء، فلئن افتقدت ستيفن فقد أردت أن تشاركني أمي في هذه اللحظة الميمونة.

ولما أتت الممرضة بالطفل للرضاعة الأولى تفحّصت كل شيء فيه. كان يشبه ستيفن تماماً. إنها حقاً لمعجزة!

ستيفن: الأبوة

في الرابعة الا أربع دقائق عصراً جاءت البشرى من مستشفى مرسي: انه صبي، وهو بصحة جيدة والحمدلله. لقد اضطر الأطباء الى اجراء جراحة قيصرية. وستبقى باتي آن اسبوعاً في المستشفى ومعها الطفل.

تلاطمت عواطفي كموج متكسر على شاطىء. فقد غمرتني فرح عارم، كما شعرت بفراغ هائل، وكأن غيابهما عني لمدة أسبوع هو غياب لمدى الدهر.

أمّ الصحافيون المستشفى واحتشدوا حولي يحاولون معرفة شعوري ازاء ولادة كونور باتريك والفيديو الذي صور له في مرسي.

وانهالت علي أسئلتهم: كيف حال باتي آن؟

من أين أتيتم بإسم كونور؟ هل الطفل جميل؟ كان اهتمامهم البالغ مرهقاً لي خصوصاً أنني كنت في حاجة الى فترة من السكينة والهدوء استجمع فيها شتات افكاري. وقبل كل شيء، أردت أن أرى ولدي.

في ذلك النهار نشرت الصحف نبأ ادانة شافود جونز بتهمة محاولة قتل. وحكم عليه بالسجن مدة تراوح بين ثلاث سنوات وعشر سنين لكونه قاصراً ابن ١٥ عاماً. وحكم عليه أيضاً بمدة إضافية مماثلة لاعترافه بسرقة دراجة هوائية.

بعد أسبوع من الانقطاع عني رجعت باتي آني الى عيادتي يومياً. وكانت لا تزال تتألم بعد الولادة. وصباح السبت أُوقظت باكراً وأُجلست في كرسي للمقعدين وأدارت الممرضات وجهي الى جهة النافذة وظهري الى الباب. ثم انصرفن وتركنني لوحدي أحدّق عبر النافذة الى الأبنية المغلّفة بالفجر الرمادي، والنهر العظيم وراءها ينساب هادئاً في سكون الصباح.

غبت في اغفاءة خفيفة. وإذا بي أشعر بدغدغة في أذني أيقظتني. فاستدرت، ويا لدهشتي، إذ رأيت كونور للمرة الأولى. رحت أراقب حركات يديه وقبضتيه الصغيرتين وهو يركل برجليه في كل ناحية. فبدا لي أن في امكاني استعادة تحريك يديّ ورجليّ. كان كأنه أنا. لا، كان هو أنا. وكان نعمة أغدقها علينا الله لمؤاساتنا.

قرّبته باتي آن من وجهي وهي تبتسم وقالت: «كم أنا مسرورة بأن أكون معك. كان غيابي عنك شاقاً جداً، لكني سأبقى معك منذ الآن دائماً. لقد أصبحنا عائلة إذ رزقنا طفلنا الجميل الذي صلينا له وتمنيناه بكل جوارحنا.»

وقبلتني. وقبلتها. وإذا بكونور يركلني ركلة قوية ويقرقر، وكان ذلك تتويجاً لسعادتنا في تلك اللحظة.

ورحنا من ثم نتساءل: ماذا بعد؟ ها ان الله رزقنا الطفل الذي انتظرناه، وقد تحقق حلمنا وانتهى انتظارنا. فهل يمد الله في عمري لأعرف كونور ويعرفني؟

أردت أن ألمس تحسناً فيّ يدعو الى التفاؤل، لكن ذلك كان صعباً جداً. كانت ولادة كونور دليلاً على استمرار الحياة. أما أنا فرحت أتأمل كيف كنت وكيف صرت مقعداً عاجزاً عن مواكبة الحياة والسير في ركابها.

ستيفن: تقليد عائلي

إن تاريخ عائلتنا عريق في الخدمة في جهاز الشرطة إذ يرجع الى ١٧٥ سنة خلت. ولست الأول الذي أصيب أثناء القيام بالواجب.

ففي احدى ليالي نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٦ أطلق سارقان النار على جدي جيمس ج. كونواي في كتفه اليمنى في حي البرونكس بنيويورك. مشى جدي مترنحاً وركب سيارة ومسدسه في يده، وطلب من السائق مطاردة سيارة الشقيين. وأثناء المطاردة ثبّت جدي ذراعه اليمنى على يده اليسرى وأطلق النار على السيارة المطاردة فأصاب العجلة الخلفية اليمنى، مما حرف السيارة فاصطدمت بحاجز على حافة الطريق. وخرج الشقيان منها رافعين أيديهما. بعد ذلك سقط جدي منهاراً.

في تلك الليلة مُنح جدي وساماً للشجاعة واستمرّ في عمله ناشطاً وعين شرطياً سرياً. وهو اعتقل عشرات اللصوص والمغتصبين والنشالين. وأرسل اليه عمدة نيويورك، فيوريلو لاغوارديا تهنئة خاصة على تحقيقاته التي أدت الى كشف عصابة للسرقة في البرونكس والقبض على أفرادها.

وما زلت أذكر مأتمه. كان أحيل على التقاعد قبل عشر سنين. غير أنه كان يحمل وساماً، لذلك جرى تكريمه بثلة من حرس الشرف واكبته الى مثواه الأخير. كان نعشه مجللاً بالعلم، ومشت جدتي وصديقاتها باكيات وراءه، وكان بعض عناصر الشرطة يبكون أيضاً.

والتحق والدي بسلك الشرطة في العام ١٩٥١ أي قبل زواجه بسنة واحدة. وكم من مرة في صغري ركبت سيارته المجهزة باللاسلكي، وكم بهرتني الهالة التي تضفيها عليه بزته الرسمية. كان الشرطي في نظري أهم رجال الأرض.

في الصيف كنا ننتقل الى شمال الولاية حيث نقيم في فندق بمدينة تانرسفيل مع عائلات شرطيين آخرين. وكانت عائلتنا تضم ثمانية أشخاص وهي إحدى كبرى العائلات هناك. وكان الجمع خليطاً من عناصر دوريات وضباط صغار وكبار.

كان والدي يحبّ عمله ويردد: «إنه عمل فريد لا يضاهيه أي عمل آخر.» لكن المناوبات المتواصلة في النهار وفي الليل أرهقت عائلتنا كما أرهقت عائلات سائر أفراد الشرطة: من الثامنة صباحاً الى الرابعة مساءً، ثم من الرابعة مساءً الى منتصف الليل، وبعدها من منتصف الليل الى الثامنة صباحاً. وفي بعض الدوائر كان الشرطي يعالج بين ٢٠ و٣٠ قضية في ليلة واحدة.

لم أترقب أن أصبح شرطياً. فبعد تخرجي في المدرسة الثانوية تطوعت في البحرية. وحين انتهت خدمتي عام ١٩٧٩ عملت في دائرة التدبير المنزلي في «مونت سيناي» وهو مستشفى مرموق على أطراف حي هارلم الإسباني. ولم يمض عام حتى رقيت الى رتبة مدير.

عام ١٩٨٢ كنت أجني ٢٥ ألف دولار في السنة. وكنت جاوزت عتبة الخامسة والعشرين لكنني لم أقدر على التخلّي عن قناعتي بأن عمل الشرطي مميّز.

في ديسمبر (كانون الأول) ١٩٨٣ أعلنت دائرة الشرطة أنها ستجري امتحاناً للدخول. فتقدمت للامتحان. وبعدما اجتزت كل الفحوص الجسدية والنفسانية قُبلت في أكاديمية الشرطة فدخلتها في ٢٠ يوليو (تموز) ١٩٨٤.

تخرّج صفنا بعد خمسة أشهر، وأصبحت أحد عناصر شرطة نيويورك الذين يعدون ٢٥ ألفاً. صرت مدماكاً في «الجدار الأزرق.» وبعدما أكملت تدريباً ميدانياً لستة اشهر أُلحقت بمنطقة «سنترال بارك.»

ان سنترال بارك مجمّع رئيسي لكل الناس من جميع الأجناس والطبقات. وفي أيام الصيف الحارة بعد الظهر يرتفع عدد الناس في المتنزه الى عشرات الألوف.

في ٢ مايو (أيار) ١٩٨٦ وقعت وحدتنا على سبعة فتيان كنا نقتفيهم منذ مدة. في ذلك النهار سرقوا دراجة هوائية، وشهدنا الحادث بعيوننا. وقد شهر أحدهم مسدساً سحبه من تحت سترته الجلدية وأجبر راكب الدراجة على النزول.

اندفعنا خارجين من الدغل. فتجمّد خمسة من الفتيان في أماكنهم وطاردنا الاثنين الآخرين فقبضنا عليهما خارج المتنزه. ولما كانوا مراهقين ولم يرتكبوا مخالفات سابقة فقد خلي سبيلهم بعدما تعهدوا الحضور الى المحكمة عندما يحين الوقت للنظر في قضيتهم. وفاتني تسليم أوراق الدعوى الى عائلة بول (١٤ عاماً)

أحد الفتيان المشتركين في السرقة، فاعتزمت أخذها اليهم بعد انتهاء مناوبتي.

كانت الشقة حيث تسكن العائلة صغيرة معتمة تفوح منها رائحة طعام عفن. وكانت الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً، لكن الأولاد الخمسة كانوا كلهم مستيقظين.

أبلغت الى الوالدين سبب زيارتي. أخبرتهما أن ابنهما في مأزق وأني على استعداد لمساعدته في دخول احد نوادي كرة السلة أو التطوع في أحد البرامج البناءة. وكنت رأيت كثيرين من رجال الشرطة يعرضون خدماتهم لمساعدة الموقوفين، ووجدت ذلك ملائماً جداً في قضية الفتيان.

لم يكن الوالدان يفهمان الانكليزية جيداً، فتولى أحد الأولاد الترجمة فيما انتحى بول جانباً وبدا مضطرباً. واعطيتهما اسمي ورقم هاتفي.

ولكن ما ان خرجت حتى سمعتهم يضحكون عبر الجدران الرقيقة. فعرفت أن لا أحد سيتصل بي.

بعد شهرين اطلق عليّ النار فتى من مثل هؤلاء الأحداث. وفيما كنت ممدداً على سريري في مستشفى بيلفو أحدّق الى السقف لم يغب بول عن مخيلتي.

باتي أن: خطاب ستيفن

في اول مارس (آذار) ١٩٨٧ استيقظت باكراً وألبست طفلنا ثياباً جديدة وأخذت معي بعضاً من ثياب ستيفن وتوجهت الى مستشفى بيلفو. انتقيت ثياب ستيفن بعناية لأن الناس سيشاهدونه للمرة الأولى خارج سريره وسيجلس في كرسي. ذلك اليوم كان ذكرى ميلاده الثلاثين.

امتلأت ردهة المستشفى بالأهل والأصدقاء والصحافيين ومندوبي محطات التلفزة والاذاعة. وحضر أيضاً العمدة والنجمة السينمائية مورين اوهارا.

أعلن ستيفن أن لديه كلمة للصحافة. فساد السكون الغرفة الا من طقطقة آلات التصوير وطنين المسجّلات وشخير جهاز التنفس. فتحت الأوراق التي دونت عليها كلمة ستيفن ونظرت اليه. وقلت في نفسي: ركزي على الكلمات يا امرأة قبل أن تجهشي في البكاء.

قرأت: «في هذا اليوم، الذي هو أسعد أيام حياتنا معاً، طلب مني ستيفن أن أقرأ هذا الكتاب الموجه منه الى سكان مدينة نيويورك:

«دخلت سلك الشرطة بغية خدمة الناس في نيويورك ومساعدتهم ملء قدرتي. وتبعت في هذا خطى أبي وجدي اللذين كانت لهما الرؤيا ذاتها. وحين منحت شارة شرطي عزمت على العمل وفق التقليد السامي المبني على الشجاعة والعطف والرأفة.»

تطلّعت الى ناحية ستيفن فرأيت ابتسامة خفيفة تعلو وجهه.

تابعت: «في بعض الأيام أثور حين تسوء صحتي وأشعر بعجزي، لكنني أدرك أن الغضب انفعال فارغ فأعود وأتذكر لماذا أصبحت شرطياً. ويتملكني الغضب حيناً من الفتى الذي أطلق علي الرصاص، لكني غالباً أشعر بأسف له وأرجو أن يبدِّل حياته فيساعد الآخرين بدل إيذائهم. إنني أسامحه وأتمنى له ان يعرف السلام والطمأنينة ويضع هدفاً نبيلاً لحياته يسعى الى تحقيقه.»

اغرورقت عيناي ولم أتطلع ناحية ستيفن لكي لا يفتقد ما خسره وخسرناه، بل لزمت النظر الى الصفحات وتابعت القراءة: «لقد أحببت دائماً أبي وأمي وزوجتي وأشقائي. والآن أحب ولدنا كونور باتريك. وكنت ظننت أنني لن أحب غيرهم في حياتي، لكن ما رأيته في الأشهر الأخيرة أثبت خطأ اعتقادي.»

«وسأصدقكم القول. ان في هذه المدينة من المحبة والعطف ما يفوق الوصف. ان عطف الأصدقاء الجدد الذين عرفناهم، وأولئك الذين لن نعرفهم، قد بدّل يأسنا بالأمل وغمر حياتنا بالبهجة وأحلّ الفرح بدل الدموع والأسى. وها اني أرى كل يوم من أيامي مشرقاً بما تحمله الينا البطاقات والرسائل والزيارات من عائلتنا الجديدة الكبيرة.»

«أتوجه بالشكر الى سكان مدينة نيويورك لاحتسابي عضواً في عائلتهم ولمساعدتي فوق مدى قدرتي على مساعدتهم.»

(بلّلت الدموع خدّي لجمال أفكار ستيفن وفداحة نكبته. وكدت لا أرى الأسطر الأخيرة.)

«وأسألكم في الختام أن تتذكروا أنني اخترت حياة الشرطي بكل ما تحمله من مخاطر، والا تنسوا أولئك الذين هم أقل حظاً وعليهم أن يكافحوا للحياة والكرامة في غياب الاهتمام والعطف والمساعدة التي منحتني إياها هذه الحياة الجديدة.»

كان السكون مخيماً في الردهة ولا يسمع فيها سوى صوت جهاز التنفس.

وأنهيت الخطاب بكلام ستيفن: «ليبارككم الله جميعاً.»

غلب علي البكاء. وساد صمت طويل فيما الأهل والأصدقاء ورجال الشرطة والصحافيون يمسحون دموعهم. ثم دوّت في القاعة عاصفة تصفيق.

ستيفن: هذا هو صوتي

بيلفو مستشفى للصدمات. ومن وجهة نظري كشرطي، انه الأفضل في العالم. لكنه غير مؤهل لمعالجة مريض مزمن في مثل حالي. وعلى رغم جهود الدكتور رانسوهوف فلم يطرأ أي تغيير على حالي مطلقاً.

كنت في حاجة الى معالجة طويلة الأمد وتسهيلات للعناية هي متوافرة في

مستشفى كريغ في إنغلوود، كولورادو. كان المستشفى بعيداً عن بيتنا، لكنه كان مجهزاً بأفضل التسهيلات لإعطاء المرضى أكبر مقدار من الاستقلالية وفق امكاناتهم.

أما نفقات معالجتي فلن تكون قليلة. فبكلفة ألف دولار يومياً ستبلغ نفقات إقامتي في كريغ ١٥٠ ألف دولار، تضاف إليها أجرة الطائرة والممرضة على متنها وتبلغ ١٢ ألف دولار، وكرسي ذات محرك بـ ١٧ ألفاً، وحافلة مجهزة بالأدوات الضرورية بـ ٣٠ ألفاً. وبما أن الاصابة لحقت بي في أثناء تأدية الواجب فستغطى التكاليف بكاملها.

غادرت وباتي آن نيويورك في صباح مكفهر ماطر ووصلنا الى كولورادو في نهار مشرق مشمس. وكل شيء طالعنا كان جديداً ومثيراً. وتوسمنا خيراً في مستشفى كريغ. كانت غرفتي في الطبقة الثالثة ويشاركني فيها مرضى آخرون. نافذة مقوسة تطل على منظر جميل لجبال «روكي.» وبدا العالم بدائياً بنقائه الأصلي ونظيفاً وناضراً.

في أصيل ذلك اليوم الأول، بعدما أُلبست ووُضعت في كرسي محنية الى الوراء، قدمت غايل غيلنسكي وشارون بلاكبورن اللتان ستقومان على معالجتي. سألتني شارون: «هل هناك من أمر خاص تريد عمله؟»

أجبتها: «في الخارج.»

قالت: «حسناً.»

دفعتني شارون عبر الأبواب الآلية التي تؤدي الى السطيحة الخلفية. وكنت أمضيت تسعة أشهر في الداخل أتنشق روائح المستشفى وأسمع أصوات المستشفى الذي غدا لي عالماً ضيقاً كشرنقة اصطناعية. لقد عشت فيه آمناً مطمئناً ولكن عقيماً جامداً.

رأيت من السطيحة تلة معشبة صغيرة وجبال الروكي في الأفق القريب. وكان الجو أزرق نقياً كالبلّور والهواء ساكناً نظيفاً جافاً. فانتشيت بالمناظر الخلابة وبالجو المنعش وتنهّدت لعظم سروري. وما لبث تنهدي أن تحول حسرة. ترى هل سينعم علي بالتمتع بأيام جميلة كهذه كما كنت في السابق؟ كان ذلك ممكناً قبل تسعة أشهر، أي قبل تعرضي لاطلاق الرصاص، أما الآن فلا سبيل اليه، فأنا عاجز وسجين كرسي ولا أستطيع التمدد على العشب مع باتي آن على رغم شدة رغبتي في ذلك.

بقيت مع شارون في الخارج حتى شارفت الشمس المغيب وراء الجبال. وطلبت منها أن تأتي بي الى هنا كل يوم.

فاحتجّت: «ستيفن، علينا أن نعمل قليلاً.»



كانت مهمة شارون تمرين ذراعي ورجلي ومدّ جميع مفاصلي وارخاءها وتشجيعي على استخدام عضلات رقبتي. كنت أحتاج الى قوة في رقبتي لتحريك رأسي كي أستطيع الوصول الى ضوابط كرسي المقعدين. وكان الكرسي عنصراً أساسياً لتحقيق الاستقلالية التي سأتعلمها في مستشفى كريغ. يدار الكرسي بالرشف والنفث في أنبوبين بلاستيكيين مطواعين يمتدان صعداً من المحرك الالكتروني خلف مسند الظهر. فالرشف والنفث يضبطان سرعة الكرسي ووجهته. كانت الفكرة بسيطة، لكن التحكم بالجهاز كان في غاية الصعوبة.

صفّت غايل أكوازاً بلاستيكية برتقالية في قاعة الرياضة. وكان علي أن أسير بينها كسائق يخضع للفحص. وإذ أنحرف عنها تركض غايل ورائي، فيما باتي آن جالسة مع كونور تراقب وتكبت ضحكها.

أمضت غايل ساعات تعلّمني تلقيم الدماغ الالكتروني كلمات أدخل حروفها بطريقة شيفرة «مورس» عبر الرشف والنفث في أنبوب صغير آخر. وعلمتني أيضاً

ILLUSTRATION BASED ON A PHOTOGRAPH© BY MICHAEL SCHWARTZ/NEW YORK POST

أن أقلب صفحة كتاب مُسند الى قاعدة فوق رأسي باستخدام أداة أحركها بفمي.

ورأس فريقي الطبي الدكتور دانيال لاميرتس، وهو رجل أربعيني يهوى ربطات العنق والبذلات الرسمية. وكان واقعياً هادئاً. فنصحنا بألا نأمل كثيراً في شفاء نخاعي الشوكي، لكنه شجعنا على ترقب تحسن في نوعية حياتي نتيجة إقامتي في كريغ.

وشرح لنا أن عمري المتوقع قد قصر قليلاً. وأشار الى أن في المستشفى مريضاً مصاباً بتلف في الجزء الأعلى من حبله الشوكي ويعتمد على جهاز التنفس ولا يزال حياً بعد ١٨ سنة من اصابته. وختم: «إن لدى الناس طاقة كامنة تجعلهم ينجزون فوق ما يعتقدون أنهم يستطيعون إنجازه.»

أوقف الدكتور لاميرتس تغذيتي بالأنبوب وساعدني على اكتساب قابلية للأكل. كذلك أجرى سلسلة اختبارات للتحسّس العصبي في حجابي الحاجز [٤] واستنتج أن نشاط الأعصاب كان ضعيفاً الى حد يتعذر معه حفز الحجاب على العمل.

ولما كان حجابي عاجزاً عن التحرك نزولاً لخلق قوة مصّ لإدخال الهواء الى الرئتين، فلا قدرة لي على التنفس تلقائياً وإن لفترة قصيرة. واستغنائي عن جهاز التنفس كلياً أمر بعيد الاحتمال.

بعد ثلاثة أسابيع من إقامتي أمر الدكتور لاميرتس بإبدال أنبوب الرُّغامى المثني برغامى «جاكسون» التي تتيح عودة مرور الهواء على أوتاري الصوتية. كان الدكتور لاميرتس مصمماً على اعادة صوتي اليّ. ولم أكن متكلماً رديئاً بلغة الشفاه، إنما كنت أشعر بالخيبة لعجزي عن اجراء اتصال أفضل.

كانت عملية ابدال أنبوب الرغامى ذات الثنية في مستشفى بيلفو مؤلمة ومخيفة لكنها في كريغ تمت خلافاً لذلك. فقد لبثت هادئاً ولم أشعر بأي انزعاج. واستقبلتني باتي آن حين أُعدت الى غرفتي.

قلت لها بصوتي: «أحبّك.»

فأجابت وعيناها طافحتان بالدموع: «وأنا أحبك أيضاً.»

لقد انتظرت سنة لألفظ هذه الكلمات.

وفكرت كم عانيت من آلام مكبوتة حين أردت مئات المرات أن أقول لها «أحبك.» فكنت ألوك الكلمات في شفتيّ عاجزاً إلا عن تمتمة خفيضة فارغة. وبدا لي أن نطق هذه الكلمة بصوتي الطبيعي أهم المنجزات التي يمكنني تحقيقها.

باتي آن: بيت جديد

كانت لي شقة للسكن قريبة من مستشفى كريغ في كولورادو، وبتُّ أتنقل بين كولورادو ونيويورك. إلا أني أدركت أن ستيفن عائد الى البيت في وقت قريب. فقد

أحرز تقدماً كبيراً وصار في امكانه التخلي عن جهاز التنفس لمدة نصف ساعة كل مرة. واكتسى وجهه سمرة واكتسب ثقة قوية بالنفس شجعته على مغادرة المستشفى في نزهات الى التلال والجبال المحيطة بانغلوود.

وكان مضى على اقامته هناك أكثر من ثلاثة أشهر، والإقامة النموذجية لا تزيد على أربعة أشهر. وعلمت أننا، لدى رجوعه الى البيت، سنحتاج الى ممرضات، لكني رأيت أن ليس في إمكاني العناية به وبالطفل ما لم يكن اهلي قريبين مني.

في أوائل الربيع خلا منزل في ساحة ميتشيل في مالفيرن قريباً من بيت أهلي. وكانت المنطقة تشهد ارتفاعاً حاداً في أسعار العقارات، فقدّر ثمن المنزل بمئتي الف دولار.

وكان لستيفن في «صندوق جمعية عناصر الدوريات» ٢٠٠ ألف دولار، يضاف إليها نحو ٤٠ ألفاً من حفلة خيرية أقيمت في مايو (أيار) لمساعدة ستيفن. فطلبت من برايان مولهيرين الذي ساعدنا منذ اليوم الأول لإصابة ستيفن، أن يسأل عن إمكان استخدام المال لشراء المنزل. فاتصل بمدير المؤسسة ديك فاي.

كان ديك أحد المحسنين الى صندوق الشرطة والاطفاء، ورئيساً مشاركاً لـ «صندوق الأرامل والأولاد» في الدائرتين. وكان له ولزوجته باتريشا أجداد في سلك الشرطة، وهما جاءا مراراً لعيادة ستيفن في مستشفى بيلفو. فجلست وبرايان في مكتبه وشرحنا له خطتنا.

بعدما أصغى للحظات أستأذننا قائلاً إنه يريد التكلم مع آرثر كرايمس بصفته مديراً متقدماً في المؤسسة، وكان هذا ساعدنا عندما كان ستيفن لا يزال في بيلفو. ثم رجع ديك وطلب منا الانضمام اليه في مكتب كريمس. قال لنا: «لا حاجة الى صرف مال المؤسسة. سنشتري لكم المنزل.»

قلت مرتبكة: «أوه، لا، ليس هذا ما نريده، لقد سبق أن أسديتم إلينا مساعدات قيمة.»

لكن ديك فاي أصر على القرار وقال إن القضية منتهية. سيشتري هو وكريمس المنزل، وسينسق برايان مهمات ترميمه برعاية مكتب العمدة.

اتصلت بستيفن وأطلعته على ما جرى، فأثاره الخبر وبان ذلك في رنة صوته. وأرسل لاحقاً باقة زهر الى منزل والدي مع بطاقة جاء فيها: «لا مكان للمرء في العالم مثل بيته. مع حبي، ستيفن.»

أرسل برايان بنائين ومهندسين للكشف على البيت وتقدير ما يلزمه من اصلاحات، كتوسيع الأبواب والأروقة والمداخل وما شاكل ذلك.

قلت: «سننام أنا وستيفن في الطبقة السفلى.» فسألني أحدهم: «ألا تريدين أن

(٤) الحجاب الحاجز غشاء يفصل القلب والرئتين عن البطن.

يكون كونور الى جانبك فيراه ستيفن لدى وضعه في السرير ويشاهده يستيقظ في الصباح؟»

قلت انني أريد ذلك طبعاً، لكنه مستحيل. فحتى لو تمكنا من ايصال ستيفن الى أعلى السلم فلن يستطيع دخول غرفة النوم العليا بسبب سقفها المائل. عندئذ فاجأني المهندس قائلاً: «علينا إذاً هدم هذا المنزل والبدء من الصفر.»

ودهشت إذ وافق الجميع على هذا الكلام. فهم، في فترة الكشف القصيرة، أجمعوا على تصميم طبقة أرضية أرحب ومصعد وسلّم أوسع الى الطبقة العليا وغرفة للمعالجة في الطبقة السفلى.

طوال شهر درس البناؤون والمهندسون كل ما قد يحتاج اليه ستيفن. وذكّرهم الأطباء بأن ستيفن لا يتحمل الحر والبرد وأن من الأفضل له أن تكون مستويات التدفئة والتبريد والرطوبة مراقبة الكترونياً. وسيحتاج الى حمّام مع مرشّة (دوش) يمكنه ولوجه بكرسيه، والى مناضد يسهل عليه جرّها تحته وهو جالس في كرسيه. وكانت أمنية ستيفن الوحيدة ألا يذكّره البيت بالمستشفى.

في كل يوم كنت أذهب من بيت والديّ الى البيت الجديد للإشراف على التجديدات. وكان العمال كثيرين بغية إكمال الأعمال في المدة القصيرة المطلوبة وبدأ هدم البيت من الداخل. وبلغ من نشاط العمال وحماستهم أنهم اعتبروا المهمة رسالة عليهم أداؤها بأمانة.

ستيفن: في أحضان العائلة

في ٢١ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٧ طرنا أنا وباتي آن وبرايان مولهين من كولورادو الى نيويورك. وكان برايان عمل ١٦ ساعة يومياً طوال فصل الخريف لتأمين إتمام بيتنا وأخذنا إليه.

لدى نزولنا من الطائرة سفعتنا ريح جليدية. لكني كنت في غاية السرور لعودتي الى نيويورك، ولو استطعت لفككت عقالي ونزلت من كرسيّ وقبّلت الأرض. ولكن بدل ذلك هُرع بي الى الحافلة الخاصة ووصلنا الى مالفيرن خلال ٢٠ دقيقة.

لم أكن على يقين مما أرجو أن أرى لدى وصولنا الى المنزل. كنت رأيت صور المبنى وشرحت لي باتي آن الأوصاف، غير أن ما طالعنا حين انعطفنا الى ساحة ميتشل فاق كل تصوراتي. كان رائعاً. بل كان مروّعاً. تناهت الى سمعي أولاً صفارات الشرطة، ثم أنغام مزامير فرحة. وكان مئات الجيران والأصدقاء محتشدين في البيت وعلى جانبي الشارع، وأعداد من عناصر الشرطة وقفوا منتصبين على أهبة أداء التحية العسكرية.

أما البيت فكان آية في الروعة. لقد تحول المنزل القرميدي المتواضع الصغير

مبنى جميلاً ذا طبقتين. وكان العلمان الإيرلندي والأمريكي يرفرفان على المدخل، وكان العمدة كوخ وديك فاي وعمدة مالفين وعائلاتنا وأصدقاؤنا ومعارفنا ينتظرون على المصطبة المنحدرة التي تصل الى الباب الأمامي. وكان نافخو المزامير وقارعو الطبول في دائرة الشرطة يرتجفون برداً في تنانيرهم الإيرلندية القصيرة. وفوق المدخل تدلّى علم ضخم كتب عليه: «ستيفن! باتي آن! كونور! أهلاً وسهلاً بكم في بيتكم.»

أفسح لنا الحشد للمرور. وسلّمنا العمدة كوخ مفتاحاً ذهبياً. وإذ رأى أن جمهور الحاضرين يكاد يتجمد من البرد قال: «البرد شديد ولا يسمح بإلقاء خطاب. ليبارك الله هذا البيت.»

ثم قرّبت باتي آن المذياع من فمي فخاطبت الجميع: «هذه هي مدينة المحبة الأخوية الحقة. إني أحب نيويورك. أحبكم كلكم.»

فتح الباب المنزلق فدخلت وباتي. وأخذتني الدهشة لدى رؤيتي غرفة الجلوس والسلم المؤدية الى الطبقة العليا والمطبخ وغرفة الطعام والباب الزجاجي المنـزلق الذي يؤدي الى السطيحة الخلفية. يا الهي! يا للروعة! لم أحلم أبداً بأن المنزل سيكون هكذا، تماماً كما أردته، لا شيء فيه يذكر بالمؤسسات الطبية حيث أقمت ١٥ شهراً من حياتي. بدا المنزل كأنه بيت نبيل إيرلندي في الريف لا بيت مريض معاق.

بعد قليل غادرنا المكان الى مركز الاطفاء في مالفين لشكر كل فرد ساهم في عملية تجديد المنزل. كنت منهكاً، لكني سررت لرؤية الاطفائيين، ولا سيما أولئـك التابعين لدائرتنا. وكانت شارتي معلقة بافتخار في عنقي، والى جانبي زوجتي وابني. وكانت حياتي على عتبة مرحلة جديدة.

مرّ عيدا ميلاد علينا في منزلنا الجديد في مالفين، وها هو كونور في ينـاير (كانون الثاني) ١٩٨٩ يقارب السنتين ويناديني «دادي» ويعتـلي الكرسي معي في جولة ويحاول إطعامي الحلوى ورمي كرة القدم.

كم وددت لو أستطيع رميها واللعب معه. يستغيث بي كأنه في قبضة كابوس مرعب. فأناديه: «كونور، كونور، لا تخف، أنا هنا.»

ولكن هل أنا هنا حقاً؟ ان شخير جهاز التنفس يذكرني بأسري على الدوام.

عادت حياتنا الى نمط سوي وان اعترضتها صعوبات في بعض الأوقات. ومنذ عودتي الى نيويورك تلقينا سيلاً من الدعوات لحضور حفلات خيرية ودعوات الى مآدب. وشعرت بأن أصحاب معظم هذه الدعوات يظنون ان حالي لم تعد خطيرة. لكن الرصاصة التي استقرت تحت الفقرة الثانية في ظهري لا تزال تبين في فحوص الأشعة السينية. وعلى رغم تحسن حالي الصحيـة عموماً، فلم يطرأ إلا تحسن محدود في جهازي العصبي.

ذات يوم اصطحبني شرطي في حافلتي الخاصة للقيام بدورية في «سنترال



بارك»، مقتفياً الطريق حيث أطلق علي شافود جونز النار. وإذا بنداء يدعونا الى مطاردة في محاذاة النهر فأشعل زميلي الأضواء الوامضة في حافلتي وانطلقنا في المطاردة. وكم تمنّيت لو اشتركت في عملية القبض على الأشقياء التي تمّت آنئذ.

ولكوني عاجزاً عن الالتحاق بدائرة الشرطة فقد وُضعت على لائحة الاعفاء التي تعني دفع معاشي كاملاً. لكني بقيت على اتصال بـ «جميعة الشرطيين المكتفين» وهي مؤسسة تطوعية هدفها مؤاساة الشرطيين ومساعدتهم وعائلاتهم في مستهلّ اصابتهم بالضرر. وهذا مما ساعدني في تحديد دوري في دائرة الشرطة، وفي الحياة.

وقع حادث في مدينة نيويورك في أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٨٨ قتل فيه شرطيان. وساعدتني هذه المأساة في بلورة نظرتي المتعلقة بالجريمة والعقاب. إن حياة كل فرد انسان مقدّسة. فقتل الإنسان جريمة تدينها الشرائع السماوية والدنيوية. لكن قتل شرطي ببزته الرسمية الزرقاء خلال قيامه بواجبه يحمل بعداً أكبر في معانيه. إن المجتمع كله مسؤول عن الجريمة.

ليس في كلامي هذا ما يناقض موقفي من شافود جونز ومغفرتي له. فقد كان جونز مراهقاً يجتاز مرحلة حاسمة في حياته، وسهل عليه الحصول على السلاح، وغابت عنه معرفة الخير والشرّ. فليس من العدل أن يعتبر مسؤولاً كلياً عن عمله، خلافاً لنظرتنا اليه لو كان عمره ٢٥ سنة.

ما زلت وباتي آن نصلّي لكي يمنّ علينا الله بأعجوبة. ولكن هناك أمور كثيرة تنتظرني. علي إسداء النصح الى رجال الشرطة الذين يتعرضون للإصابة. وعلي أن أكلم الأولاد. وعلي أن أكون أباً صالحاً وقدوة حسنة لإبني كونور. وأنا مدرك أن فرص عودتي الى حالي الطبيعية وملاحقة الأشقياء والشعور بنشوة المطاردة والقبض عليهم هي في حدود العدم.

خلال فترة خدمتي كشرطي خبرت الخير والشر والرذيلة في شوارع المدينة، وبتّ على قناعة بأن الخير يتفوق على كل شيء.

وأعرف الآن أني كنت على حق في قناعتي، يشهد على ذلك العطف والتجرد اللذان لقيتهما منذ إصابتي، من رجال الشرطة ومن الجميع إجمالاً. ولن أنسى مئات الناس الذين شملوني بدعائهم ومحبتهم.

عام ١٩٨٥ أدّيت قَسَم التضحية والإخلاص في الخدمة وفي حماية المواطنين. ولا يزال هذا القسم قائماً وأنا مستعد لتكرار هذا القسم اليوم وغداً وبعد غد، أياً تكن النتائج.

ستيفن وباتي آن ماكدونالد
بالاشتراك مع إ. ج. كان III■

ترجمة: الياس عقل

ألفباء السياسة

في الليلة الاولى التي قضاها حاكم ولاية أوهايو ريتشارد سيليست في مسكنه الرسمي، اتصل بمطعم بيتزا يؤمن الطلبات الى المنازل وقال: «لست متأكداً من العنوان، ولكن هنا مسكن الحاكم.»

فرد العامل في المطعم: «ولا شك في أنك الحاكم.» وأقفل الخط.

واضطر سيليست الى الاتصال ثلاث مرات أخرى قبل أن يقنع العامل بأن الطلب حقيقي. وينهي سيليست قصته: «تحققتُ حينئذ، لدى انطلاقتي الاولى كأقوى رجل سياسي في أوهايو، أني لن أحصل دائماً على ما أريد.»

كتاب الشهر

سباق مع الموت

ملخص من كتاب

«في طرفة عين» بقلم آلن دولب

سباق مع الموت

يصل الى مركز الصدمات
في مستشفى الاطفال في واشنطن
صبي عمره ٤ سنوات مصاب بجرح بالغ
في رأسه نتيجة صدمة سيارة.
وتنقل الى المركز ايام فتاة مصابة برصاصة
في صدرها وهي ميتة تقنياً، وصبي آخر
مصاب بحروق خطيرة. وفي اجنحة الطوارئ
حيث اللحظة قد تعني الفاصل الفارق
بين الموت والحياة، يتأهب فريق الصدمات
ويبدأ صراع الطب والحياة



خرج ديفيد مايرز من المنزل وكأن القدر له بالمرصاد. لم يشاهد السيارة. وحين صدمته وقذفته عالياً في الهواء كلعبة كبيرة سقط في الشارع متكوّماً على ذاته كالجنين في الرحم، وعيناه مفتوحتان جامدتان بلا حراك.

اندفع والد ديفيد من منزل العائلة في جادة ألاباما في العاصمة الامريكية واشنطن وجثا الى جانب ابنه. فرك جبينه ولمس جفنيه -فلم يلمح أي حركة أو أثر للحياة في العينين المتّسعتين. ثم تنفّس ديفيد بعمق وارتجف وظهر على شفتيه زبد زهري.

كان عقل الوالد خدراً اذ أفقده الحادث المروّع حسه لكنه سمع أحدهم في الجمع المحتشد يذكر سيارة اسعاف، فهمّ بالتقاط ابنه وضمه بين ذراعيه، لكنه أحجم عن ذلك خوفاً من إيذائه، وقال: «أرجوكم، أطلبوا من الاسعاف الاسراع في المجيء.»

ووقف الأب خائفاً قلقاً غاضباً، متسائلاً عن سبب تأخر فريق الاسعاف. ورأى زوجته تبكي وقد أمسكت بها إحدى النساء تهدىء من روعها.

وأخيراً سمع ولولة صفارة الاسعاف. وترجل المساعدون الطبيون ومعهم نقالة، فركع أحدهم الى جانب ديفيد وسأل الجمع: «هل بينكم من يعرف اسم الصبي؟»

أجاب مايرز: «اسمه ديفيد وأنا والده.»

هتف المساعد: «ديفيد! أصغ الي! شدّ يدي يا ديفيد!»

ثم أخذ يفحص ديفيد بالمِسماع وتطلع الى والده وقال: «اذا كانت عنقه مصابة بأذى فان تحريكه يسبّب مزيداً من الضرر.» وخاطب رفيقه: «يجب نقله الى مستشفى الاطفال. وعلينا تقييده وأخذه الى هناك في مروحية الشرطة.»

وصلت سيارة إسعاف ثانية. فأمسك أحد المساعدين ذراع ديفيد وقرصها بأصابعه فسحبها الصبي بسرعة. فقال المساعد: «هذه اشارة حسنة.»

ثم أحضر سائق سيارة الاسعاف طوقاً بلاستيكياً لتجميد رقبة ديفيد. ومُدد الصبي على لوح خشبي مجهز بأربطة.

قال أحد المساعدين: «يجب أن نلبسه سروال ماسْت.» وهذا سروال مقاوم للصدمات مصمّم كالبذلات التي يرتديها ربابنة الطائرات. وحين يضخ فيه الهواء يضغط السروال على الاطراف الدنيا فتُدفع كمية أكبر من الدم الى الجذع. فاذا كان المصاب في حالة نزف داخلي فان سروال «ماست» يمدّه ببضع دقائق حاسمة في الطريق الى المستشفى. وهو فاعل أيضاً في جبر الأرجل المكسورة.

ما ان شدّ المساعدون السروال على جسم ديفيد وأخذوا بنفخه حتى حطّت المروحية قريباً، فلفوه بحرام وشدوه الى اللوح الخشبي.

وقف والدا ديفيد هادئين يراقبان. وسأل الأب المسعفين: «هل لكم أن تخبروني ما مبلغ اصابته؟»

أجاب أحدهم: «أنا لست طبيباً، لكني أعرف أن اصابته خطيرة. لذا نريد نقله الى مستشفى الاطفال، فهناك فقط أطباء مؤهلون لمساعدته.»

بعد تسع دقائق تلقى «المركز الطبي الوطني في مستشفى الاطفال» الذي يبعد ١٠ كيلومترات عن مكان الحادث اتصالاً لاسلكياً: «نحن في طريقنا اليكم. سنصل بعد نحو دقيقتين ومعنا صبي صدمته سيارة وقد تلقى اصابة خطرة في رأسه، وهو فاقد الوعي.»

أجاب المسؤول في المركز: «حسناً، نحن في انتظاركم.» ثم أطلق الانذار: «الى فريق الصدمات، ستصل المروحية في غضون دقيقة واحدة.»

ضغطت عاملة الهاتف في المستشفى زراً أزرق فومضت جميع اشارات الانذار الحمراء الى فريق الصدمات في أرجاء المستشفى. وللحال ترك الاطباء والتقنيون والممرضات في المستشفى أعمالهم وتراكضوا الى الطبقة الاولى. وما ان حطت المروحية حتى خف اليها الفريق. فرُفع ديفيد المشدود الى اللوح الخشبي الى محفّة ذات عجلات، ووضعت احدى الممرضات كمامة على وجهه لتغذيته بالاوكسيجين.

ثم هرع الممرضون بثيابهم المعقمة وأدخلوا ديفيد أحد أروع مراكز طب الصدمات في البلاد.

سيرة طبيب

كان ديفيد مايرز محظوظاً، لأن ٩٧ في المئة من الأولاد المصابين اصابات خطرة الذين يعالجون في هذا المركز تكتب لهم الحياة.

والواقع أن حوادث السيارات تتسبب في وفاة ٨٠٠٠ ولد تقل أعمارهم عن ١٥ سنة في الولايات المتحدة، ويصاب ٥٠ ألفاً آخرون بعجز دائم. وقبل اكتشاف لقاح الشلل (بوليو) كان الذعر يتولى الأمهات كل صيف. لكن الشلل لم يقتل في أي سنة ٨٠٠٠ طفل. وحوادث السيارات هي المسبب الاول لوفاة الأولاد الذين تراوح أعمارهم بين السنة الواحدة والاربع عشرة سنة.

صمم الدكتور مارتن ايكلبرغر على تغيير هذه الحال. فأسس في العام ١٩٨٠ «مركز صدمات الأولاد.» ولم يأت ايكلبرغر أي اكتشاف طبي، انما راح يطبق الطرق الطبية الاكثر تعقيداً بأسلوب منهجيّ. والامر الوحيد اللافت هو أن أحداً لم يفعل ذلك قبلاً.

ومن المفارقات أن سنوات كثيرة مضت قبل أن يقرّ هذا الطبيب بأن معالجة الأولاد هي عمله المفضل.. وكان ايكلبرغر، من العام ١٩٧٨ الى ١٩٨٠، عمل في

إشراف الدكتور إيفريت كوب متخصصاً بجراحة الأولاد في «مستشفى فيلادلفيا للاطفال» ببنسلفانيا. وكان كوب شهيراً بصفته «الجراح العام» رئيس مصلحة الصحة العامة في وزارة الصحة الامريكية بين ١٩٨١ و١٩٨٩، ويعتبر في مصاف أهم جراحي الأطفال في الولايات المتحدة. وفي رعاية كوب، اكتشف ايكلبرغر أنه موهوب بيدي جراح أطفال. فقد كان بارعاً في تحسس الاعضاء الصغيرة واجراء الجراحة اللازمة والتكلم مع المريض بعد العملية.

وكانت تلك مكافأة حقيقية، فقد وجد في موهبته النادرة وأعمال الشفاء الناجحة التي أنجزها تعويضاً عن ليالي العمل المضنية الطويلة وعودته الى البيت متأخراً منهكاً. فإذا كان كوب المعلم المثالي فقد كان مارتن ايكلبرغر التلميذ المثالي، نبيهاً، لامعاً، نشيطاً. وكان الرجلان يحققان معاً ما يقرب من العجائب.

عرف مارتن أنه سيكون جراحاً، لكنه احتار بين أن يكون جراحاً للاطفال أو جراحاً تقويمياً. وكان حبه لجراحة الاطفال طاغياً، لكنه يضطره إلى ملازمة المستشفى والعمل طويلاً في الليل. وشقّ عليه أن يسهر ليهتم بأولاد الآخرين بدلاً من أن يكون إلى جانب ولديه تود وليند ساي. فآثر أن يكون جراحاً تقويمياً لكي تتوافر له ساعات عمل مقبولة وأقل صرامة.

مارس ايكلبرغر الجراحة التقويمية مدة سنتين خلال خدمته العسكرية. واعتزم أن يكون جراحاً تقويمياً طوال حياته. ولكن زوجته ثنته عن ذلك قائلة: «ان هذا لجنون منك. إنك تريد أن تكون جراح أطفال. فاذا امتهنت الجراحة التقويمية لمجرد أنها مريحة أكثر من جراحة الأطفال فستكره نفسك مدى الحياة.»

وفي اليوم التالي اتصل ايكلبرغر بأستاذه كوب وانتقل مع عائلته إلى فيلادلفيا للتخصص سنتين فى جراحة الأطفال.

عندما انضمّ ايكلبرغر إلى مستشفى الأطفال في واشنطن عام ١٩٨٠ كانت غرفة الطوارىء عادية وموجّهة لمعالجة الحالات الطارئة الخفيفة، كالرضوض والجروح والحروق المتوسطة وكانت معالجة هذه الاصابات مرضية.

لكن الحال كانت تختلف وقت المجيء باصابة خطرة، إذ كان أطباء الأطفال الذين يديرون غرفة الطوارىء يطلبون مشورة جراحية. وحين يصل الجراح كان يضطر إلى ارسال سُعاة لجلب ملاقط وخيوط وابر خاصة.

وفي الحالات الخطرة جداً كان يتم جمع عدد من الأطباء الموهوبين في وقت قصير لدى إطلاق إنذار «الشيفرة الزرقاء.» وما ان ينطلق الانذار حتى يهرع ما بين ١٥ و ٢٥ شخصاً إلى غرفة الطوارىء، فيبدو المشهد كمناوشة بين لاعبين في مباراة كرة القدم أكثر منه استشارة طبية.

كان أول عمل للدكتور ايكلبرغر وهيئة ادارة غرفة الطوارىء إنشاء جناحين

للصدمات سميا «غرفتي الشيفرة» يكونان جاهـزين ٢٤ ساعـة في اليوم. وجهـز الجناحين بكل الادوات والمواد الجراحية لمعالجة الصدمات والحالات الطارئة.

وشكل فريق للصدمات له نظامه الخاص. واقتـرح ايكلبرغـر وضع لائحـة بالتدقيقات الطبية الاولية وتوزيع بنودها على أعضاء الفريق فيكون لكل منهم دور ويكتمل التدقيق بطريقة أسرع. والذين لم يتوجب عليهم أن يكونوا داخل غرفـة الشيفرة، مثل فنييّ المختبر والأشعة السينية (اكس)، تعيّن أن يكونوا في «القلب الخارجي» ويقفوا خارج الغرفة جاهزين للعمل فوراً. أما «القلب الداخلي» فشمل المرضات والأطباء الذين تقضي الضرورة بوجودهم لانجاز لائحة العمل.

أسفر النهج الجديد عن نتائج باهرة. فبدأت أعمال الطوارىء تسير بسهولة أكثر من قبل، وحقق مركز الصدمات، غير الرسمي بعد، نصراً غير منظور.

نصر أول

حين أدخلت المحفّة التي تحمل ديفيد مايرز «غرفة الشيفرة» كانت الدكتورة ماري فالات هناك. وهي كانت آنذاك كبيرة الجراحين المقيمين في مستشفى الأطفال، و «المنسّقة الجراحية» المسؤولة عن توجيه أعمال الهيئة الطبية والتمريضية وعندما تكون في الغرفة فهي الرئيسة المسؤولة من دون جدل.

أفاد أحد المساعدين الطبيين الذين كانوا في المـروحية مـع ديفيد: «منـذ الحادث والمصاب لا يبدي أي استجابة، وبؤبؤا عينيه جامدان وغير متساويـين، فالأيسر أوسع من الأيمن. وهو يتنفس تلقائياً لكن تنفسه غير طبيعي. وضغط دمه مستقر. وهو مصاب بكسرين جانبيين في عظم فخذه داخل سروال ماست. ولا شيء يذكر عن تاريخه الطبي، ولم تعرف لديه أي حساسية. وكان والداه شاهدين على الحادث، وهما في طريقهما إلى هنا.»

اومـأت فالات إلى المسـاعد اشـارة إلى حسن أدائه، فقـد زوّدها ملخصـاً لمعلومات ثابتة يصحّ اعتمادها أساساً لمعرفة ما أصاب الصغير ديفيد. وتركز اهتمام فالات على الاصابة التي لحقت برأسه. فمدّت رأسها من بـاب «غرفـة الشيفرة» وسألت: «جراح أعصاب؟»

اجابتها المرضة: «انه في الطريق.»

«شكراً»، قالت فالات، وعادت إلى وسط الغرفة وراحت تراقب فريق الصدمات وهو يعمل كفرقة باليه. وكان كل فرد يعرف أين يقف وأي دور يؤديه.

إلى يمين السرير جلس جراح مقيم يصغي بسماعته إلى صدر ديفيد، وأفاد: «إن أصوات التنفس جيدة.» تلك كانت علامة طيبة، خلافاً للتنفس المتشنّج غـير المنتظم. كان هناك خلل ما، لكن مجرى الهواء كان سليماً.

وكشف مقيم آخر وريداً وأولج فيه ابرة للحقن الوريدي وساعدت ممرضة الطبيب الاول على تثبيت أقطاب جهاز تخطيط القلب على صدر ديفيد.

وإلى يسار السرير سحب طبيب مقيم عينة من الدم وملأ خمس قوارير سلمها إلى أحد تقنيي المختبر الذي كان ينتظر على باب «غرفة الشيفرة.» وكانت احدى الممرضات تراقب ضغط دم الصبي. واشارت ساعة الجدار إلى الثالثة والدقيقة الثانية بعد الظهر، أي ان ست دقائق مضت منذ ادخال ديفيد المستشفى. وكانت مؤشراته الحيوية مستقرة.

قالت الدكتورة فالات للطبيب إلى الجهة اليسرى من السرير: «ابدأ مدَّه بالمصل الوريدي قبل نزع سروال ماست.» فقد يكشف هذا السروال اصابة خطيرة، وحين ينفّس قد يواجه الفريق الطبي أزمة كبرى. فاذا كانت الأنابيب الوريدية جاهزة فستكون في وضع أفضل لتعويض الدم النازف اذا كانت أطراف عظم الفخذ المكسور مزقت شرايين ساق ديفيد وبدأ ضغط دمه يهبط فجأة.

وكان صوت جهاز مراقبة القلب «بيب، بيب، بيب» يُسمع في أرجاء القاعة خارج «غرفة الشيفرة.»

كان الجميع منهمكين وكل واحد مأخوذ بعمله. وعندما دنا ذلك الرجل ببرنسه الابيض رآه الجميع لكن أحداً لم يضطرب أو يعره اهتماماً زائداً. فالدكتور ايكلبرغر كثيراً ما يأتي اليّ في زيارات غير متوقعة أيام الاحاد. وهو حيّا أعضاء الفريق من باب «غرفة الشيفرة» لكنه لم يدخل الغرفة لأنه كان جزءاً من «القلب الخارجي.» فالقانون هو القانون.

أكثر ما أقلق الفريق في شأن ديفيد كان هدوءه التام. فحين سحب الطبيب عينة دم من شريانه، رفّت عيناه ولكن لم يصدر منه أي صوت، علماً أن هذه العملية مؤلمة إلى حد إيقاظ ولد غارق في شبه غيبوبة. وسلّط جراح الأعصاب ضوءاً على عينيه وصرخ في أذنه وقرصه من دون جدوى. فهناك دم في كلتا العينين، وهذه إشارة سيئة. فأي صدمة كافية لتمزيق شبكة العين يمكنها رضّ الدماغ والتسبب في انتفاخه. ولا ينتفخ الدماغ الا قليلاً قبل أن «يخنق» إمداده الدموي أو قبل أن ينعصر نزولاً فخروجاً من الفتحة الصغيرة حيث يرتبط بالعمود الفقري.

قال جراح الأعصاب: «لنجر فحصاً طبقياً[1] للرأس.»

فردت فالات: «حسناً، حالما ننزع عنه سروال ماست ننقله إلى فوق.» وحلّت صمام الرجل اليسرى مخففة الضغط قليلاً. وجسّت قدم ديفيد اليسرى فوجدت أن نبضه أقوى. كان هذا حسناً لانه دلّ على إمكان سلامة الشريان الفخذي، ولكن لا ضمانات لذلك.

(١) CAT scan

انخفض ضغط الدم من ١١٤ إلى ١٠٧ في الثواني الستين الاول، كما سجّل جهاز المراقبة الآلي.
أما في القراءة الثالثة فكان الضغط مستقراً. فتنفّس الجميع الصعداء لأن انخفاضاً قليلاً في الضغط يؤدي إلى نزف دم قليل. ولو كان الشريان مقطوعاً لاتضح لهم ذلك. هذا أول نصر يسجله ديفيد في طريق الشفاء.
فتحت ماري فالات الصمام ثانية وأفرغت ثلثي الهواء من سروال «ماست» ثم توقفت حين هبط ضغط الدم إلى ١٠٢ ثم عاد فارتفع إلى ١٠٦. وأخيراً أفرغت الجانب الأيمن وحلّت السروال ونادت: «جاهز لفحص الاشعة السينية (إكس).»
باتت فالات على قناعة أن ديفيد كان مستقراً فانسلّت من «غرفة الشيفرة.» فبصفتها الطبيبة الأعلى رتبة، فان عليها مسؤولية أخرى: التكلّم إلى الوالدين.
أشار الكاتب في غرفة الطوارىء إلى والدي ديفيد لكي تتعرف اليهما.

شعور مقلق

لا تتضمن مناهج كليات الطب تعليمات رسمية وموحدة لطريقة التعامل مع أهل المريض. فهذا شأن يتعلمه الطبيب من زملائه، ولكل منهم طريقته الخاصة. وقد كانت ماري فالات لطيفة وصريحة في هذا المجال.
تقدّمت من الوالدين سائلة: «السيد والسيدة مايرز؟» وشرعت في احاطتهما بالوضع: «انّ ولدكما مصاب بأذى شديد، فهو فاقد الوعي وربما لحق بدماغه بعض الضرر. ولن نستطيع تحديد مدى الضرر إلى أن نجري فحصاً طبقياً. وهو يتنفس بصعوبة، فقد تكون رئتاه مصابتين برضوض نتيجة الحادث. فاذا كان هذا صحيحاً فسيحتاج إلى جهاز تنفس لعدة أيام.»
فسألها الاب بلهفة محاولاً ضبط نفسه: «كم سيستغرق شفاؤه؟»
ترددت فالات ثم قالت: «إذا افترضنا أن كل شيء سيسير حسناً، فان إصابات رجليه ستبقيه في المستشفى مدة، فكلتاهما مكسورتان. وفي حالات كسر الفخذ يلازم المصاب المستشفى قرابة ستة أسابيع.»
حاولت والدة ديفيد الكلام لكن زوجها سبقها إليه: «ما هي احتمالات بقائه حياً؟» وكان سؤاله سطحياً جافاً تغلب عليه الكآبة.
فردت فالات باحتراس: «سأجيب عن ذلك على نحو أفضل بعد أن نجري الفحص الطبي. انه مصاب في رأسه، ولا نقدر الآن أن نحدد مبلغ الاصابة، وستكون الساعات الاربع والعشرون الآتية حاسمة.» هكذا لم تتجنب فالات الاجابة عن السؤال، لكنها لم تقدم الجواب الشافي. والحقيقة أن أحداً لم تكن لديه أي فكرة عما إذا كان ديفيد مايرز سيبقى حياً أم يموت.

كان ديف هنتر في «مركز استعلامات الطوارىء» يضبط قنوات الاتصال أمامه، واذا به يتلقى مكالمة تفيد أن هناك مصاباً بحروق في طريقه إلى المستشفى. وكانت مضت ساعة من الهدوء في المستشفى والريح الباردة تعصف في الخارج، ولم يكن متوقعاً أن يخرج كثير من الاولاد إلى الشوارع.

قدّر وصول المصاب خلال عشر دقائق. فتوجه هنتر إلى غرفة الطوارىء المجاورة حيث يداوم طبيب أطفال حتى في أيام نهاية الاسبوع. فوجد الدكتور دانيال أوكسنشلاغر كبير أطباء الاطفال في غرفة الطوارىء. وهو معروف من زملائه ومن المرضى على السواء بـ«الدكتور أُو» اختصاراً لاسمه الطويل.

قال هنتر للدكتور أُو: «مصاب بحروق في طريقه الينا، درجة ثانية، عشرة في المئة. أتريد أن أبث نداء عاجلاً؟»

هزّ الطبيب رأسه: «دعنا نفحصه أولاً.» فاذا وصل الولد في حال أسوأ مما كان منتظراً، استدعي فريق الصدمات حالاً من غرفة الفحص.

كان الصبي في السن الخامسة. ومعظم الاولاد في هذا العمر ظرفاء، لكن هذا الصبي الذي يدعى ريتشارد كان ذا مظهر أشعث مهمل. وجهه معفّر، وقدماه الحافيتان وسختان، ويداه وذراعاه حمراء زاهية وقد أبعدها قليلاً عن جسمه. لكنه لم يكن يبكي.

«مرحبا يا ريتشارد، اسمي الدكتور أو.»

فرد ريتشارد بأدب: «مرحبا». لكنه لم يتطلع إلى الطبيب.

- ماذا حدث ليديك؟

«حرقتهما في الماء الساخن.»

وأضافت امرأة كانت تقف وراء الدكتور أو وهي مشعثة الشعر ومتّسخة مثل الصبي: «لقد سقط في حوض ماء ساخن.» سألها الدكتور أو وهو يبتسم: «هل أنت أمه؟»



أومأت المرأة برأسها، فتابع: «لا تبدو حاله سيئة جداً، لكنني أريد أن أفحصه بدقة للتأكد. تفضلي اجلسي في الردهة وسآتي إليك حالما أنتهي من عملي.»

عندما لا يكون الاولاد في حال خطرة يبقى الوالدان إلى جانبهم مما يساعد في لزومهم الهدوء. لكن ريتشارد كان في حالة هدوء بالغ مما أثار قلق الدكتور أو.

لمس الدكتور أو لحم ريتشارد الاحمر بمنتهى الرقة، فأجفل الولد. لكنه لم يسحب ذراعه. فحص الطبيب الذراعين فلم يجد أثراً لقروح. فرأى في ذلك علامة جيدة وأمر الممرضة بدهن مرهم لتخفيف الالم. كانت حروق ريتشارد ممتدة من منتصف ذراعيه صعوداً، وكان هناك خط فاصل واضح بين المنطقة المحمرّة والجلد الابيض فوقها. ولم تظهر آثار رذاذ حارق.

بدأ الدكتور أو العمل بمنهجية وتؤدة. ففحص جسم الولد ووجد أن قدميه خشنتان غليظتان دلالة على أنه يمشي حافياً. وكان يرتدي قميصاً رقيقاً وسروالاً قصيراً، وهذا غير مألوف في برد ديسمبر (كانون الاول). وكان جلده الشاحب وسخاً، وثمة أربعة ندوب، اثنان في ظهره واثنان أحدث منهما في صدره، وأثر حرق شفي وتجعد الجلد مكانه. وكانت الندوب في حجم ممحاة قلم رصاص أو سيجارة مشعلة.

قال الدكتور أو للممرضة: «سأدخله.» ثم خطا بسرعة نحو مركز الاستعلامات وسأل المساعد الطبي في سيارة الاسعاف: «ماذا تعرف عن ريتشارد؟»

أجاب المساعد: «اتصلت والدته بالمركز. وكان في البيت رجل لكنه بقي متوارياً. القذارة تغشى المكان. قالت امه انه سقط في حوض استحمام، فهل ترى أي أثر لرشاش الماء الساخن؟»

هز الطبيب رأسه ورجع إلى والدة ريتشارد وجلس إلى جانبها وسألها: «هل زوجك هنا؟»

أجابت المرأة: «كان خطيبي مضطراً إلى الذهاب إلى عمله.»

تبسّم الدكتور أو وقال: «حسناً، سيشفى ريتشارد على رغم أن حروقه خطرة، ولا أرى أنه سيصاب بضرر دائم.» وأضاف مشدداً: «سنبقيه في وحدة معالجة الحروق تحت مراقبتنا.» فأومأت المرأة برأسها إيجاباً.

صمت الطبيب لحظة ثم تابع: «من اللافت أن حروق ريتشارد بالماء الساخن لا تبدو طبيعية، لأن لا أثر على ريتشارد للرشاش الذي يعقب سقوط ولد في سائل ساخن. وسبق أن عالجنا حالات كانت الاصابات فيها مقصودة وغير عرضية لهذا سأطلب من قسم حماية الاولاد النظر في حال ريتشارد للتأكد من أن كل شيء على ما يرام.»

واستأذن الدكتور أو وهو لا يزال مبتسماً، وانصرف لاتمام المعاملات الضرورية في قسم التمريض. فثمة حالات كثيرة مشابهة ترد على قسم الطوارىء، وقد وضعت قاعدة لمعالجتها بالرفق والحكمة: تجنّب اصدار حكم متسرع، وتجنب المواجهات، وحماية الولد، وكبت الانفعال الذي لا بد من أن يتفجّر لدى رؤية ولد تعرّض لمعاملة سيئة وأذية جسدية.

رُفع ديفيد مايرز إلى سرير في وحدة العناية الفائقة، وربط خبير التخدير أنبوب الهواء إلى جهاز التنفس الآلي. وأظهر فحص للصدر بالأشعة السينية بقعاً سوداء في القسم الاعلى من الرئتين. وجهاز التنفّس هو المعالجة المعتادة للرئتين المصابتين برضوض وللاذى الذي يلحق بالرأس وينتج منه انتفاخ في الدماغ. فجهاز التنفس يدفع فائضاً من الاوكسيجين إلى الدم تفادياً لموت الدماغ.

أظهرت الفحوص الطبقية أن البطين[٢] داخل النصف الأيمن من دماغ ديفيد معصور وشبه مسدود. فاذا زاد حجم الانتفاخ كثيراً فسوف ينقطع امداد الدم فيموت الدماغ. فاذا ارتفع الضغط كثيراً فان عملية فغر البطين تتيح تصريف السائل الدماغي الشوكي.

سأل جراح الأعصاب الممرضة التي وقفت فوق البقعة المحلوقة في رأس الولد: «هل كل شيء جاهز؟» فأومت برأسها إيجاباً.

حُقنت جلدة الرأس بالـ «إبينفرين» الذي يقلص الاوعية الدموية. فعندما أعمل الجراح المبضع وشق الجلد مرّت عدة ثوان قبل نز الدم على العظم الابيض اللامع في عمق الشق. ثم استخدم الطبيب أداة مبعّدة فولاذية لفتح جانبي الجرح وكشف الجمجمة الصغيرة، وقال للممرضة: «حسناً، ناوليني مثقب الجمجمة.»

وهذا مثقب للعظم من الفولاذ الذي لا يصدأ. في رأسه لقمة تنفصل حالما يتمّ اختراق العظم. وعندما ضغط الجراح اللقمة على جمجمة ديفيد وأدار المثقب، كانت احدى الممرضات ترش ماء معقماً في الجرح. وما هي الا ثوان حتى خرق العظم فانفصلت اللقمة محدثة طقة، فرمق الجراح الغشاء المغلّف للدماغ.

تشبّه عملية فغر البطين، بادخال برغي، وهو تشبيه ليس ببعيد عن الحقيقة. فبعد وخز جلدة الرأس واحداث ثقب صغير جداً، ثبّت الجراح مرقاب ضغط فولاذياً صغيراً في حافة الثقب وراح يفتل واذا بأنبوب رفيع بارز من داخل «البرغي» يخترق وسط البطين الأيمن. فانبجست كمية قليلة من السائل الدماغي - الشوكي من أعلى «البرغي».

وأصبح ديفيد سالماً موقتاً، لكنه سيحتاج إلى مراقبة دائمة.

بعد ذلك، جاء جراحان تقويميان. والجراحة التقويمية للاولاد معروفة كحقل اختصاص بهيج، ويتندر الاطباء بأنهم اذا وضعوا الطرفين المكسورين لعظم طفل في غرفة واحدة فانهما يلتحمان تلقائياً بخط مستقيم. ولكن، زيادة في الضمان، أولج الجراحان مسامير ربط في جانبي عظم كل من فخذي ديفيد، في مستوى أعلى قليلاً من الركبتين.

ومن ثم وضع الجراحان جهازاً للجذب فوق سرير ديفيد. وكان الصبي مصاباً

(٢) (Ventricle) كيس طويل ضيق ملء بالسائل الدماغي - الشوكي.

ايضاً بكسر في أيسر الترقوة (عظم الرقبة) خفي على الاطباء لدى دخوله. وجلّ ما يمكن عمله في معالجة الترقوة هو تجميدها. وكان ديفيد كله مجمّداً.

في التاسعة والنصف مساءً، بعد سبع ساعات من الحادث، توجّهت ممرضة وحدة العناية الفائقة إلى غرفة الانتظار ورافقت والدي ديفيد إلى سريره.

كان ديفيد مستلقياً في السرير ورجلاه مرفوعتان. وقد بدا أصغر حجماً مما هو لأنه شغل ربع مساحة السرير الكبير وكان جهاز التنفس يهسّ ويطلق باستمرار مؤمناً له الهواء. وكانت الأنابيب الوريدية نابتة من رقبته وحقويه وذراعيه.

وعرض المرقاب الالكتروني إلى جانب سريره سلسلة من الاشكال المتموجة والأرقام باللون الأصفر الزاهي. ووسط هذه العناية التكنولوجية الرفيعة رقد ديفيد بسكون تام وصدره يعلو ويهبط ايقاعياً. وبدا نائماً هانئاً.

قالت الممرضة: «ديفيد! ماما وبابا هنا.»

وقف الوالدان بهدوء إلى جانب سرير ابنهما. وأمسكت الام بيده فيما راح الاب يمرر يده على كتفه. قالت بات: «انك في المستشفى يا ديفيد. وأنا وبابا معك هنا. نحن نحبك يا ديفيد وسنبقى معك.»

ثم جالت الممرضة على كل الانابيب المربوطة إلى ديفيد وأطلعت الوالدين على وظيفة كل منها مشيرة إلى أرقامها على شاشة المراقبة. وأضافت ان ديفيد يسمعهما ويحس ملمسهما من دون شك وإن يكن فاقداً الوعي ومخدراً. فليكلّماه، وليلمساه مقدار ما يريدان، فالاولاد يستجيبون للمس والمكالمة فيسيرون في طريق الشفاء على نحو أفضل.

ويعرف المختصون بالطبابة أن الإصابة بالصدمات يرافقها ارهاق يشمل كل العائلة وينغّص عيشها. وقلة من المؤسسات تعير هذه الناحية اهتمامها، و«مستشفى الأطفال» هو أحد هذه القلة.

قاعدة «تود وليندساي»

ان مقياس الدكتور ايكلبرغر في غاية البساطة: كل طفل يدخل المستشفى يحظى بالمعاملة التي يتوقع هو أن يحظى بها ولداه تود وليندساي. وهو من غلاة أنصار «الثقة النوعية» منذ قبل أن يصبح هذا التعبير شائعاً.

في مستشفى الأطفال تقع مسؤولية العناية الفائقة بالثقة النوعية على منسّقة الصدمات هايدي زفيك. فهي تنظر يومياً في لائحة كل ولد بغية تحديد أي مشاكل محتملة ومعالجتها قبل حدوثها.

زفيك ممرضة متمرسة في غرفة الطوارىء يحفزها دافع قوي إلى العمل. ولا أحد يمكنه اتهامها بالتواني أو إضاعة الوقت. فأول ما تفعله في الصباح هو أن

تملأ فنجاناً كبيراً قهوة وتتوجه إلى مكتبها حيث تتفحص القائمة الكاملة لكل الاشخاص الذين أدخلوا المستشفى.

في التاسعة والنصف كانت زفيك ملأت كدسة من البطاقات، وكانت الاولى بطاقة ديفيد مايرز. ثم نهضت لبدء جولتها الصباحيّة على المرضى.

حالما دخلت غرفة العناية الفائقة عرفت ديفيد مايرز، فقد كان محاطاً بأدوات الجذب من حبال وعوارض وبكرات رافعة. وعند طرف السرير جلست ممرضة في كرسي بلاستيكي وهي مستغرقة في الكتابة. والى يمينه جلست امرأة صغيرة الجسم أنيقة بدت منهكة. فقالت زفيك في نفسها: لا عجب في ذلك اذا كانت لا تزال هنا منذ بعد ظهر البارحة.قالت زفيك من دون مقدمات: «مرحبا، أنا هايدي منسقة حالات الصدمات. هل أنت السيدة مايرز؟ أومأت المرأة برأسها أن نعم. ثم التفتت زفيك إلى ديفيد وسألت: «كيف حاله؟»

أجابت مايرز: «لقد أمضى ليلة مضطربة جداً، فما فتىء ضغط دمه ينخفض والضغط في رأسه يرتفع.» كان كلامها هادئاً متزناً وفي صوتها من التعب والكآبة والالم ما قبض نفس زفيك شفقة وعطفاً.

تابعت مايرز: «أمس خشي الأطباء أن نفقده، لكن الدكتور كارمي - جونز طمأننا إلى أنه اجتاز الليل بسلام لذا ازداد الأمل في شفائه.»

سألتها زفيك: «هل كارمي - جونز هو الذي يعتني بديفيد؟» أومأت مايرز برأسها ايجاباً فتابعت زفيك هامسة: «إن كاي - جي هو أحد أفضل الأطباء.» وأشاع كلامها بهجة في نفس مايرز.

ثم قالت زفيك: «علي أن أذهب الآن، لكني سآتيكما مراراً. دعيني أعرف ما اذا جدّت معكما مشاكل أو أسئلة تريدان طرحها.»

كان مضى على ديفيد في المستشفى أقل من ٢٤ ساعة، ولكن لائحته البيانية ملأت ٢٤ صفحة. ويتعين على المستشفيات تدوين المعالجات الطبية بكل تفاصيلها، وتقضي زفيك قسماً كبيراً من وقتها في مراكز التمريض تطالع البيانات الطبية.

تفحّصت زفيك سجل ديفيد بدقة واطّلعت على اصاباته وملاحظات الاختصاصيين في شأن كل منها. أفاد تقرير فريق الإسعاف أن الحادث وقع قبل وصول ديفيد إلى المستشفى بساعة واحدة. فاتصلت زفيك بالمدير الطبي في مركز الاسعاف لمعرفة سبب التأخر الذي حصل. وغالب الظن أن ثمة ما يبرره، انما واجب زفيك يقضي بالتدقيق وفق «قاعدة تود وليندساي.»

خلال تنظيم خدمات الصدمات في المستشفى كان الدكتور ايكلبرغر يعلن لكل المعنيين أن الاولاد ليسوا راشدين صغاراً. فيذكر، مثلاً، أن رأس الولد هو أكبر

بالنسبة إلى بقية جسمه، مما يجعل الاولاد أكثر تعرضاً لاصابات الرقبة والرأس. كما أن جسم الولد يفقد الحرارة أسرع من جسم الراشد، فاذا أصيب الولد بصدمة فيجب التفكير في طرق لابقائه دافئاً.

ولدعم طلبه تأمين جرّاح للاطفال في مركز الصدمات، أورد ايكلبرغر مثالاً آخر عن الطحال. فمن المألوف لدى الراشدين أن يُنزع الطحال في حال نزفه من دون أن يتأثر المصاب بفقده. أما لدى الأولاد فالطحال حيوي وضروري لتنمية جهاز المناعة. فاذا نُزع فقد يتعافى الولد، ولكن بعد مضي أشهر أو سنين قد يصاب بزكام ويموت من دون انذار. والجرّاح الكفي لصدمات الاولاد يمكنه إصلاح الطحال، اذا كان ذلك في حيّز المستطاع.

وفي مطالعة الكتب الطبية وجد ايكلبرغر أمثالاً كثيرة للتباين العميق بين صدمات البالغين وصدمات الاولاد. وعمد إلى نشر هذه المعلومات في سلسلة من المحاضرات.

والكلام على اصابات الأولاد حمل ايكلبرغر على التساؤل عن طرق اجتنابها. فشدّد على أن في الإمكان تفادي معظم الحوادث، وأن اللوم يقع غالباً على الكبار.

كان مارتي دائماً لطيفاً مع الآباء والامهات، ومن أقواله المحببة: «إن الولد المصاب لديه دائماً عائلة مصابة.» ولكن بعد مشاهدة عدد كبير من الأولاد الذين أصيبوا نتيجة اهمال أوليائهم ربط أحزمة المقاعد أو اخفاء الادوات الكهربائية أو تغطية منافذ التيار الكهربائي أو اقفال النوافذ، بدأ مارتي يعلن بشدة أن الحوادث لا تقع الا نتيجة الاهمال. فالحادث مجرد كلمة نستخدمها لتغطية سقطاتنا.

استخدم ايكلبرغر خبيرة العلاقات العامة هيرتا فيلي لترويج فكرة انشاء مركز صدمات للاولاد. وهي طالما سمعت ايكلبرغر يردد: «ليس هناك حوادث، بل أفعال اهمال...»

فقاطعته أخيراً: «ولماذا لا نعمل شيئاً في هذا الشأن؟»

سألها مارتي: «ماذا تقترحين؟»

فردت: «لماذا لا نطلق حملة وطنية تتمحور على اجتناب وقوع الحوادث؟ حملة جامعة تشمل إعلانات في التلفزة والراديو، وتشكيل منظمات محلية، وتنظيم «أسبوع حماية الأولاد.» فالناس يعملون أي شيء من أجل الاولاد.»

كان من الواضح أن فيلي ملهمة للقيام بهذا العمل. فسعت وجمعت مالاً من شركة «جونسون وجونسون» صانعة الضمادات الصحية «باند - إيد...» وعام ١٩٨٨ حملت هي وايكلبرغر الرئيس الامريكي آنذاك رونالد ريغان على إعلان الاسبوع الواقع بين ١٦ و ٢٢ مايو (ايار) «أسبوعاً وطنياً لحماية الاولاد.» وبثت شبكات التلفزة اعلانين عن توزيع كتيبات مجانية في هذا الشأن.

كانت فيلي تأمل أن يصل عدد طلبات الكتيب إلى ٣٠ ألفاً خلال ثلاثة أشهر من الحملة. انما لم تمر عشرة أسابيع الا وكان عدد الطلبات بلغ ٧٠ ألفاً. وبدلاً من نشوء ١٢ تكتلاً لحماية الطفل في أنحاء البلاد بلغ العدد خمسين. وسلطت الحملة الضوء على مشكلة متفاقمة صدمت كل من سمع بها واهابت به الاندفاع إلى العمل.

اعتقدت فيلي أن في الامكان تفادي معظم الحوادث القاتلة في البلاد. وبهرها أن في وسعها انقاذ حياة ألوف الأولاد سنوياً فينشأون أصحاء أقوياء منتجين، فخراً لأهلهم ودعامة لأوطانهم.

طرق إلى الشفاء

في وحدة الحروق في مستشفى الاطفال اكتشفت الممرضات أن ريتشارد (عمره ٥ سنوات)مولع بالجيلاتي (البوظة) وأن هذه هي نقطة ضعفه. وبعد تنظيفه وشعوره بالاطمئنان قدم اليه كوب جيلاتي، فتناوله من يد الممرضة وراح يلتهم الجيلاتي بشهية. وتكلم قليلاً، لكنه صمت وتصلّب حالما دخل الطبيب. وبدا متوتراً.

حين يخامر المسؤولين في مركز الصدمات شك في أن ولداً أسيئت معاملته وتعرض للأذى، يطلبون اجراء فحص بالاشعة السينية (إكس). ولذا قال الطبيب للمرضات: «لا عجب، فقد رأيت صور الأشعة وفيها آثار ثلاثة كسور قديمة. ما من شك في أن هذا الولد ضرب بعنف.»

أمضت والدة ريتشارد ليلتها في غرفة انتظار وحدة العناية الفائقة. وحين سمحت لها الممرضات بعيادته بدا مسروراً وضمها اليه بلهفة وبكى قليلاً وقال لها: «أكلتُ الجيلاتي.»

بعد ذلك اجتمعت الممرضات وتباحثن في أمر ريتشارد. ورأين أن الأم ليست هي المذنبة، ودوَّنَّ هذه الملاحظات في سجل الصبي. ثم قدمت طبيبة من قسم حماية الأولاد لفحص ريتشارد وقرأت الملاحظات. فاتصلت بدائرة الخدمات الانسانية في واشنطن ثم بدائرة الشرطة. وبعد ساعة وصلت طبيبة نفسانية من قسم حماية الاولاد، وعاملة اجتماعية من دائرة الخدمات الانسانية، وشرطي سري، فاجتمعوا بوالدة ريتشارد وخطيبها. وكانت مواجهة متحفظة ذات طابع عملي.

قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام اجتمعت الطبيبة ماري فالات والدكتور رياض كارمي ـ جونز والأطباء المقيمون الآخرون عند سرير ديفيد للتباحث الصباحي المعتاد. فتم قرارهم على ازالة أنبوب الرّغامى. وللمرة الاولى منذ أسبوعين بدأ ديفيد يتنفس ذاتياً، وان بتشنج في البداية. ولكن تنفسه أضحى أكثر إيقاعاً. انما نظراً إلى المضاعفات التي طرأت لاحقاً، فقد اقتضى اخضاعه لجراحة فغر الرغامى.

بعد أسبوع سُرِّح ديفيد من وحدة العناية الفائقة. وكان الوالدان ممتنين لهذا التغيير، اذ ان في كل غرفة عادية في مستشفى الاطفال أريكة إضافة إلى السرير، حيث يسمح لأحد الوالدين بأن ينام، وهذا غير مسموح في كثير من المستشفيات. وفي مستشفى الاطفال لا يسمح للوالدين بالنوم فحسب، بل انهم يُحضّون على قضاء الليل مع أولادهم المصابين.

كان للحادث وقع قاس على والدي ديفيد، فقد استنزفهما عاطفياً وأهدر وقتهما واضطرا إلى التغيب أياماً عن عملهما. وكان الاب موظفاً في مكتب التحقيق الاتحادي (FBI) والام موظفة في مصلحة الارصاد الجوية. وكانا يجلسان قرب سرير ديفيد ويكلمانه، لكنه بقي أياماً لا يبدي اشارة إلى انه سمعهما. ثم في أصيل أحد الأيام انحنى الوالد فوق ديفيد وهمس له عبارة مألوفة كان يقهقه كلما سمعها: «مرحباً يا ذا الرأس المكبوس.»

ابتسم ديفيد الصغير ابتسامة عريضة فوثب الاب كمن صعقته الكهرباء.

بعد ذلك برزت علامات تحسن صغيرة، لكنها سرعان ما كانت تزول. وكان ديفيد يفيق ثم يعود إلى الغيبوبة. وحين يفتح عينيه كانتا تبدوان كعيني أعمى لا تتعقبان أي تحرك.

وصار لديفيد رفيق جديد هو جيم ريدل. وكانت مهنة ريدل في الظاهر جلب اللعب إلى غرف الاولاد ومساعدتهم على التسلّي بها، وكان مثل «بابا نويل» يوزع الهدايا على مدار السنة. لكن ريدل كان مراقباً متدرباً، وعمله يهدف إلى توفير حافز لتعافي ديفيد وتقويم مدى تقدمه في هذا المجال.

في أول زيارة لديفيد أحضر له ريدل جرس يد صغيراً، وضغط أصابع ديفيد على قبضة الجرس وحمله على التلويح بيده ليرنه. ابتسم ديفيد.

قال ريدل: «هيا يا ديفيد، اقرع الجرس.» فلم يحصل شيء.

تابع ريدل حث ديفيد على رن الجرس. وببطء شديد استجاب الصبي ولوح بيده أخيراً فرنّ الجرس. بعد ذلك رفعه في الهواء وهزّه فرنّ. فارتسمت على وجهه علامة البهجة وابتسم.

وابتسم ريدل أيضاً مبتهجاً. ففي سجل ديفيد الطبّي وجد ريدل ملاحظات تشاؤميه، اذ ان ديفيد، بحسب تشخيص الاختصاصيين، قد يكون فاقد النظر والنطق وكسيحاً ومصاباً بتلف شديد في دماغه. لكنه بعدما شاهد ما فعله ديفيد بات غير متيقّن مما دوّنه الاطباء.

انطلقت سيارة الاسعاف مولولة ومتواثبة في شوارع واشنطن محاولة كسب بعض الثواني في اندفاعها إلى مستشفى الاطفال. وفي المقعد الخلفي كان أحد

المساعدين الطبيين يكافح لحفظ توازنه وهو منحنٍ فوق مصابة يضغط ايقاعياً على صدرها.

كانت المصابة فتاة في الرابعة عشرة من عمرها. وهي كانت واقفة مع صديقاتها في ملعب المدرسة، واذا بثلاثة شبان يمرون على دراجات نارية فيطلق أحدهم النار من مسدس فيصيب تانيسا ستارنز. وحين وصلت سيارة الاسعاف كان النبض والتنفس غائبين. فكشف المساعدون الطبيون الاصابة تحت سترتها ووجدوا جرحاً صغيراً في الجانب الأيسر من صدرها. فأولجوا على عجل أنبوباً وريدياً، وفي أقل من خمس دقائق انطلقت السيارة إلى مستشفى الاطفال.

تنفس السائق بعمق واتصل بالمستشفى: «نحن في طريقنا إليكم ومعنا فتاة مصابة بطلق ناري في الجانب الأيسر من صدرها. النبض غائب كلياً. نجري انعاشاً قلبياً ـ رئوياً. نصل خلال أربع دقائق.»

حسناً. بعد أربع دقائق نكون جاهزين.»

ثم اتصل عامل الهاتف في المستشفى بغرفة الصدمات في غرفة الطوارىء معلناً وصول «حالة انعاش قلبي رئوي.»

ثقبان في القلب

وصلت هايدي زفيك، فبادرها عامل الهاتف: «رصاصة في الصدر.» تسارع فكر زفيك: إن غياض النبض بهذه السرعة يعني أن الرصاصة اخترقت القلب ومزّقت الغشاء المتين حوله. ففي هذه الحالة يمتلىء الغشاء دماً فينتج ضغط يمنع القلب من النبض. والعلاج الوحيد هو اجراء جراحة فورية للقلب في «غرفة الشيفرة.»

اتصلت زفيك بالدكتور كورت نيومان الذي كان يجري جراحة صغيرة لاحد الاطفال. وما ان سمع النداء حتى نزع قفازيه، وسلّم المبضع والمرقأة (أداة موقفة للنزف) إلى الطبيب المساعد لاكمال الجراحة وهرع إلى غرفة الطوارىء.

قبل وصول الجريحة بنحو ستين ثانية بدأ نيومان تنظيم فريقه. فأمر احدى ممرضات وحدة العناية الفائقة بفتح عدة جراحة الصدر. وقال للجراح المقيم: «وأنت، ابدأ بكشف الاوردة ونقل الدم. أين الدم؟»

أجابت احدى الممرضات: «لدينا وحدتان، وهناك وحدات أخرى آتية.»

يجري نقل الدم إلى المصاب بالطريقة الاسرع فيشق اللحم ويكشف أكبر وريد يعثر عليه ويولج فيه أنبوب، فيشكل ممراً واسعاً يُنقل الدم عبره إلى المجرى الدموي، فتتوافر أكبر كمية من الدم لتعويض الدم النازف بغزارة.

فتحت الابواب ودخل ثلاثة مساعدين طبيين يجرون المحفّة إلى «غرفة

الشيفرة». فقال أحدهم ملتقطاً أنفاسه: «لقد سجلنا نبضاً قبل لحظات. لكنه متقطع.»

وكان صدر الفتاة يعلو ويهبط من غير انتظام، وتنفسها يخرج أجشّ جافاً من حلقها. لصق الجراح المقيم قرصين لمراقبة القلب على صدرها. وبان جرح الرصاصة ثقباً صغيراً أسود متجعّداً، وظهرت كمية قليلة من الدم مضللة واقع النزف الحقيقي.

وخز أحد الأطباء وريداً وحقن عبره أدوية للقلب. وأعلنت الممرضة إلى اليسار: «لا أستطيع التقاط النبض، إنه غائب كلياً.»

أشار نيومان إلى المساعد الطبي: «نريد منك أن تقوم بانعاش قلبي - رئوي.»

فتقدم المساعد وراح يضغط صدر الفتاة ايقاعياً فيما نيومان يتفحص مرقاب القلب، فوجد أن ثمة نشاطاً كهربائياً ولكن لا نبض للقلب.

تناول نيومان قارورة تحوي مادة مطهرة، ومسح صدر الفتاة، وجنبها الأيسر. وناولته ممرضة قفازين معقمين فأدخل فيهما يديه. ومسح ثانية بقطعة شاش مغموسة بالمطهّر. وتناول المبضع.

شقّ نيومان بقوة بين الضلعين الخامس والسادس. ولم يحدث نزف، لأن ضغط الدم كان معدوماً. ولم يتسع الوقت حتى لتخدير المصابة، لكنها كانت فاقدة الوعي. وهي اعتبرت ميتة تقنياً.

أنهى الطبيب إلى اليمين عملية كشف وريد ثان في الأربية (أصل الفخذ) وعلق كيساً من الدم. فأمر نيومان احدى الممرضات: «اضغطي!» وكانت الفتاة تلقت عبر الانابيب الوريدية وحدة دم كاملة من فئة «O».

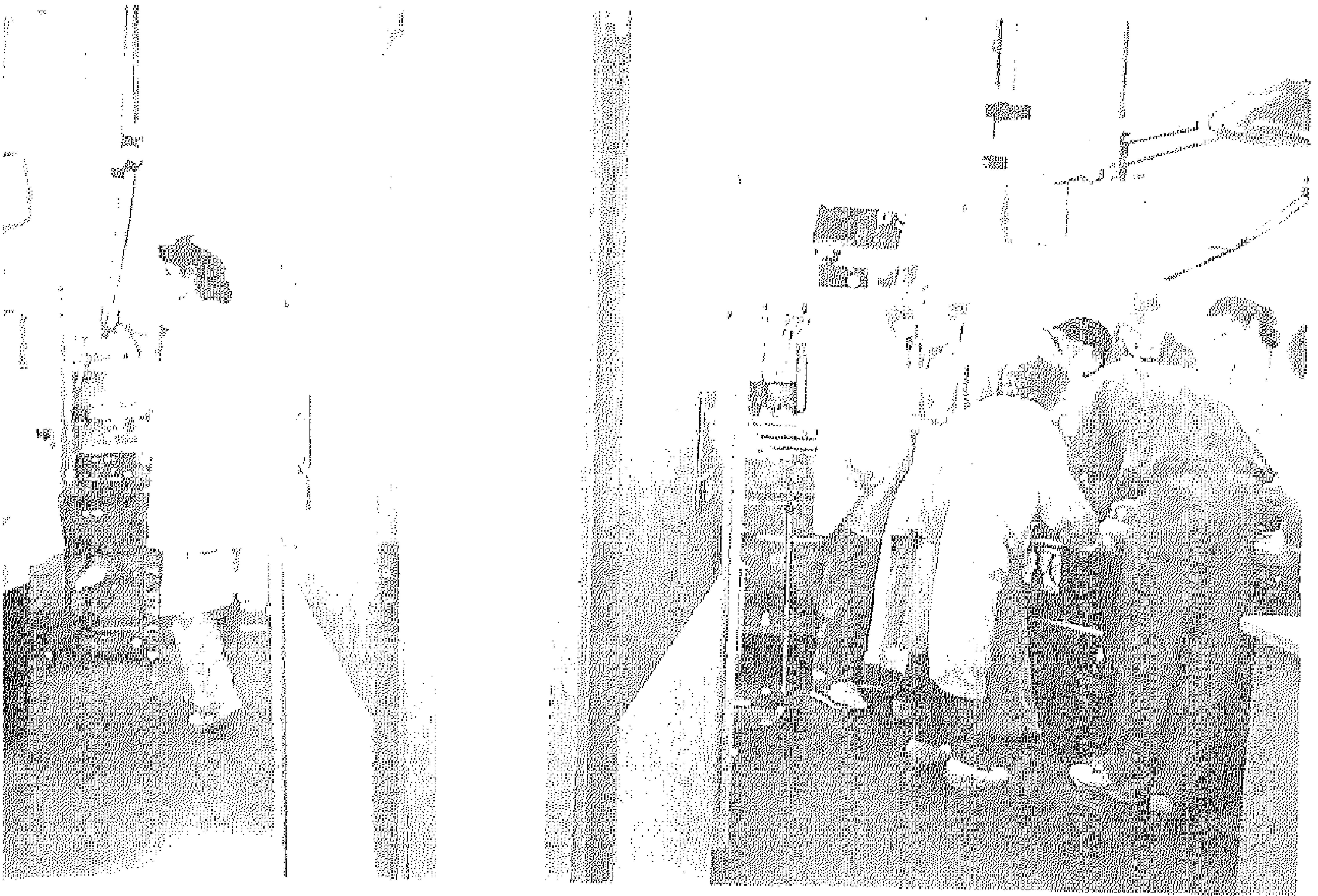
واندفع أحد تقنيي «بنك الدم» حاملاً وحدتين أخريين.

في هذه الاثناء كان نيومان يشق العضل طبقة بعد طبقة. وما ان اخترق المبضع تجويف الصدر حتى انبثق الدم. وفيما توسّع الشق تحول التنقيط فيضاً تدفق على الأرض وعلى سروال الجراح وحذائه.

تحسّس نيومان الشقّ باصبعه فوجده غير كاف، فطلب مقصاً من الممرضة وراح يعمل على توسيعه. وكان يقبض على المقص بكلتا يديه لقص الضلوع التي تعترضه. ثم عاد وفحص الشق فدخلت يده براحة.

قال للمساعد الطبي: «حسناً، حين أشير اليك أوقف جهاز التنفس لثانية واحدة فقط.» وجلس القرفصاء يتطلع عبر الجرح إلى الغشاء الذي يغلّف القلب، فقد كان أزرق داكناً ومنتفخاً وممتلئاً بالدم. وتعيّن عليه شقه لاخراج الدم ولكن بأقصى الحذر مخافة قطع عضل القلب.

اقتضى ذلك عدة محاولات خائبة قبل أن يلقط الغشاء ويشبكه بالمرقأة. ثم



في غرفتي «الشيفرة» في مستشفى الاطفال يتولى فريق «القلب الداخلي» معالجة الاطفال ضحايا الاصابات البالغة.

سحب قسماً من الغشاء مكوّناً «خيمةً» صغيرة ومدّ يده وقطعها فتدفق مزيد من الدم على الأرض. وانسابت أصابع يده اليمنى عبر الغشاء المفتوح والتفّت حول عضل القلب الناعم المرتعش. وراح يضغط ثم يرخي بحذر. فاستجاب القلب بانقباض تلقائي.

عندما تحرك القلب أحس نيومان الدم يجري على كفه. وراح يمرر أصابعه مستكشفاً سطح القلب إلى أن اهتدى إلى الثقب في أعلاه. فزلّق ابهامه عليه وراح يستكشف مؤخر القلب، فعثر على جرح الخروج وسدّه بالوسطى. عندئذ عاود القلب الانقباض.

هتفت احدى الممرضات: «إني ألتقط نبضاً!»

فقال نيومان: «لم ننته بعد. أني أضع اصبعيّ على ثقبين في القلب.»

١٧ دقيقة

وفق الجدول الزمني، عاد قلب تانيسا ستارنز يخفق بعد ست دقائق من ادخالها «غرفة الشيفرة». في الجراحات العادية يستغرق فتح الصدر ١٥ دقيقة، ولكن نيومان أتمّ العملية في أقل من ٥ دقائق.

وكانت يده اليمنى تحتضن قلب تانيسا، وبالابهام والوسطى ضغط بلطف

الثقبين في البطين الأيسر. وشعر بسرعة النبض الفائقة التي جاوزت القلب إلى اعادة الحياة إلى جسم نَهم للاوكسيجين. وبدأ يعاني ألماً في كتفه، لكنه لم يكن قادراً على التحرك وهو يسد باصبعه جرح الرصاصة القاتل في قلب الفتاة. كان يمسك بحياتها في راحة يده.

راح نيومان يستكشف بأنامله سطح العضل النابض وكوّن في ذهنه صورة ثلاثية الأبعاد. كان جرح اختراق الرصاصة قريباً إلى حد خطير من أحد الاوعية الكبيرة التي تمد القلب ذاته بالدم. فجسّ بسبابته سطح القلب لكي يهتدي إلى الشريان. فاذا كانت الرصاصة قطعت ذلك الشريان فان قسماً من امداد القلب الدموي مقطوع باصبعه. وللمرة الاولى تساءل نيومان: هل كتب لهذه الفتاة أن تبقى حية؟

وكان سبق لنيومان أن عالج ولدين بجروح مماثلة. وفي الحالتين عمد إلى فتح صدر الولد في «غرفة الشيفرة» في كفاح مرير ضد الموت. وفي المرتين لقي اخفاقاً تاماً. والاحتمال كبير أن يخفق ثالثة. فعلى رغم الجهود المضنية قد تكون الفتاة في الواقع ميتة الدماغ، أو أسوأ من ذلك، قد يكون دماغها تالفاً على نحو لا سبيل إلى اصلاحه.

وإلى ذلك هناك خطر العدوى، فلم تكن «غرفة الشيفرة» جناح عمليات معقماً على نحو شامل، بل هي غرفة لا تبعد سوى بضعة أمتار عن الخارج المشحون بالجراثيم.

عرف نيومان أن عليه اقفال ثقبي الرصاصة بسرعة، وعليه لذلك أن يستعين بجراح للقلب. وأدنت احدى الممرضات الهاتف من أذنه، فتحدث إلى الدكتور فرنك ميدجلي في جناح العمليات في الطبقة الثانية، ولخص له الحالة كما هي.

لم يكن من السهل رقع ثقب في قلب نابض لكون القلب في تحرك دائم مما يجعل الخياطة صعبة. فحالما ترفع الاصبع عن الثقب يتدفق الدم ويغطي كل المعالم البنيوية حوله.

لكن ميدجلي ونيومان توصلا إلى حل للمشكلة باستخدام ضمادات صغيرة هي سدادات لبّاد معقّمة تمتصّ الدم وتنتفخ فتتحول كتلة متخثرة توقف النزف. فرفع نيومان اصبعه عن الجرح الأمامي وأقفله بضمادة ثبتها بإصبعه فيما راح الدكتور ميدجلي يخيطها إلى سطح القلب.

اما قفا القلب فكان أقسى، وجُرْح خروج الرصاصة أكبر وأكثر تثلماً. ورفع الجراحان القلب واداراه لكي يتمكنا من رؤية الجرح. وعملا منحنيين فوق جسد الفتاة، ووضعا الضمادة الثانية في مكانها فوق الثقب وخيطت لتثبيتها.

وانتهى الجراحان، فاستويا واقفين وراح نيومان يلوي كتفيه التعبتين.

بقي على الجراحين اصلاح الثقوب في رئتي تانيسا التي أحدثها خروج الرصاصة. لكن الأزمة الملحّة انتهت، فقد عاد قلب الفتاة إلى النبض.

قال نيومان: «اعتقد أن في امكاننا نقلها إلى الطبقة العليا واجراء التنظيف هناك.» فوافق ميدجلي. فمشى نيومان في القاعة متوجهاً إلى حجرة الملابس مخلفاً آثار أقدام حمراء. وبحسب لائحة الوقت كانت مرت ١٧ دقيقة منذ باشر الشقّ، لكنها بانت كأنها لا تنتهي.

مرة في العمر

يسود جميع مستشفيات الاطفال جو من الدفء والعطف والثقة والطمأنينة، تساعد في مؤاساة المصاب وشفائه. ولا يحصل هذا الجو عفوياً، بل يصنعه مئات العاملين في المستشفى الذين يحبون الاولاد ويرون في هذه المحبة غاية سامية وواجباً انسانياً يأتي في طليعة اهتماماتهم.

يعرف مارتي ايكلبرغر وفريقه، من خلال خبرتهم الاليمة أحياناً، أن ليس في الإمكان معالجة كل الاصابات بنجاح مهما بذلوا من جهد وسكبوا من محبة.

غير أن معظم الحالات في مستشفى الاطفال تنتهي إلى خاتمة سعيدة. فها هو ريتشارد، الصبي الذي أسيئت معاملته وأحرقت ذراعاه، قد شفي تماماً إلى حد أن الجلد لم ينسلخ. ونقل إلى جناح آخر لدى ادخال ولد جديد مصاب بحروق.

وكانت علة ريتشارد آنذاك اجتماعية لا طبية. فقد أصدر أحد القضاة أمراً يحرّم على الأم وخطيبها زيارة ريتشارد من دون مراقبة أو اخراجه من المستشفى. ولم يطل الأمر حتى اعتقلت الشرطة الخطيب واتهمته بجناية الحاق الاذى بالولد.

أما ديفيد مايرز، فوفقاً لجميع الاعتبارات كان مكتوباً له مصير مأسوي. لكن ما تحلّى به من مقاومة طبيعية وصلابة، والاهتمام الدائم للاطباء والممرضات، جعلاه يتغلب على مأساته ويبقى حياً.

قال الأطباء أن أوتاره الصوتية مشلولة وقد لا يتكلم أبداً. ولكن وقت غادر إلى «معهد كينيدي للاولاد المعاقين» في بلتيمور كان تعلّم أن يضع أصبعه على أنبوب الرّغامى ويجمع قوة من الهواء تمكنه من قول «هاي!»

وقال الأطباء إن دماغه مصاب بتلف شديد وقد لا يرى أبداً. واذا بوالده يكتشف ذات يوم في مركز التأهيل أن ديفيد يبتسم حين يقف إلى يساره وتغيب بسمته حين يقف إلى يمينه. فعمد المعالجون إلى فحص نظر ديفيد ووجدوا أنه استعاد نظره جزئياً مما يمكّنه من التنقل.

وحين عاد به أبوه إلى مستشفى الاطفال للفحص بعد مضي ستة أشهر، كان ديفيد أصبح قادراً على المشي واللعب وتركيب الكلمات في جمل بسيطة.



أما الأكثر إثارة فكانت قضية تانيسا ستارنز. فبعد ثمانية أيام من اطلاق الرصاص عليها وقفت أمام مكبرات الصوت في ردهة المستشفى ونطقت بصوت هادىء كلماتها الاولى:

«هاي، أشعر أني بخير.»

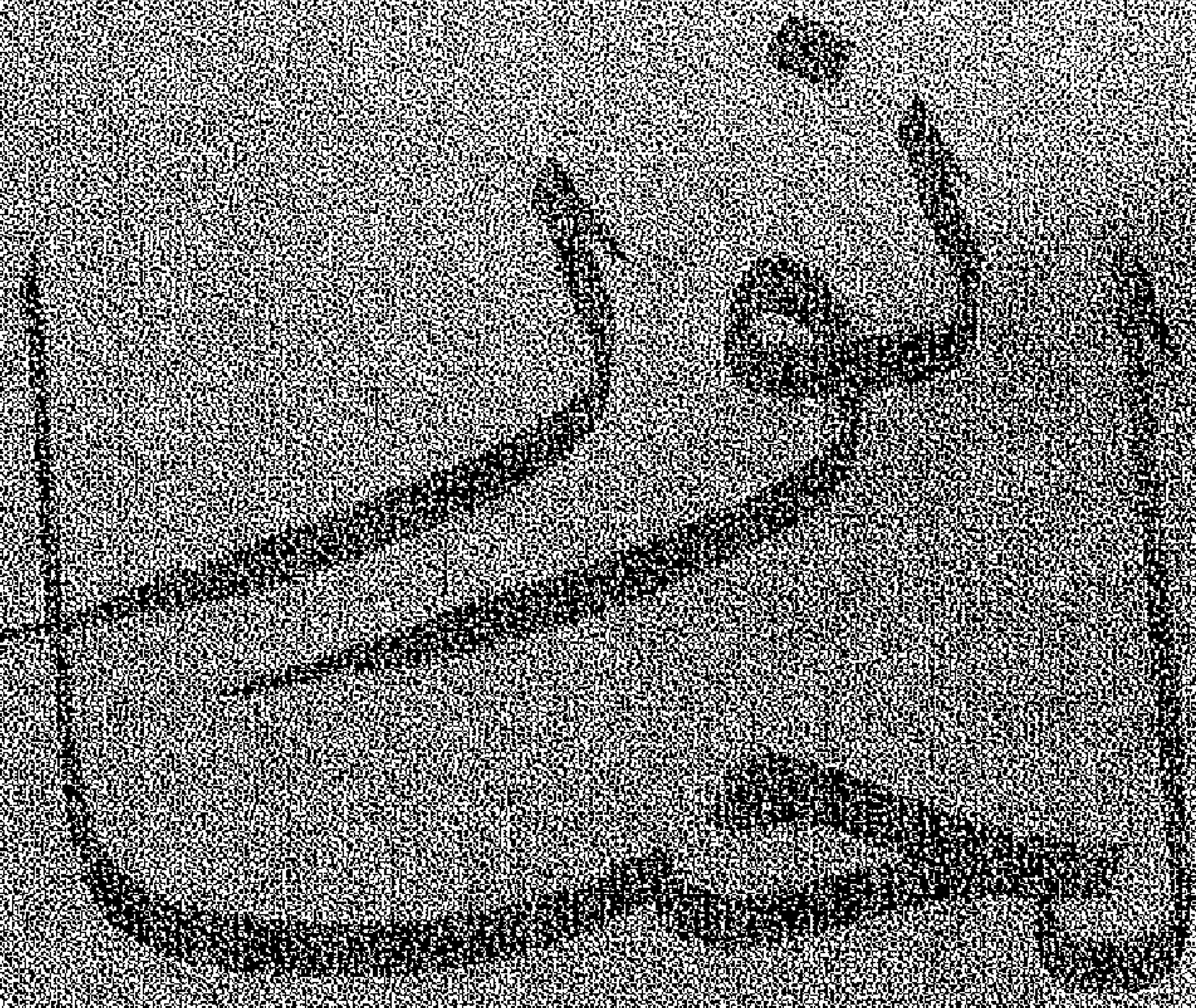
كان ذلك يوماً مشهوداً اذ راح المصورون يلتقطون صوراً للفتاة يحيط بها والدها والممرضتان اللتان تعتنيان بها والدكتور نيومان وثلاثة مساعدين طبيين في حضور الصحافيين ومندوبي التلفزة والاذاعة.

كانت تانيسا هي «الفتاة المعجزة.» وقال الدكتور كورت نيومان لاحقاً: «في الحقيقة ليس هناك كثير من العجائب ولكن هناك مقدار كبير من الحظ.» كانت تانيسا محظوظة لأن سيارة الاسعاف التي وصلت اليها ضمّت مساعدين طبيين حسني التدريب ومعاندين رفضوا أن يسلّموا بالفشل. وكانت محظوظة لأنها تقطن بالقرب من «المركز الطبي الوطني لمستشفى الاطفال» حيث أنشأ مارتن ايكلبرغر في العام ١٩٨٠ عيادة لمعالجة صدمات الاولاد.

هذه هي الغاية النبيلة التي تدفع الدكتور مارتي ايكلبرغر وجميع أعضاء فريق الصدمات في مستشفى الاطفال إلى العمل. ان انقاذ حياة طفل واحد هو عمل رائع، فكيف يكون انقاذ الوف الاطفال؟ انه حلم. وقد تحقق.

آلن دولب ■

ترجمة الياس عقل



ملخص من كتاب الطريق نحو النور

بقلم كريستي أوليفر بالاشتراك مع لوري نكلف وبيث بوليسن

عندما تعلم أن حبيباً لك سيموت تخال أن الزمان
توقف لحظة. وحين تعود الساعة الى الدوران لا يبقى شيء كما كان.
تتذكر كريس أويلر الخدر الذي أصابها عندما قيل لها
إن ابنها بنجامين (بن) ذا السنوات السبع مائت لا محالة.
قالت لنفسها: محال أن يحدث هذا لنا. لا بد أن يمنَّ الله علينا
بأعجوبة. لا بد أن يغير الأطباء تشخيصهم أو يجدوا علاجاً شافياً.
لقد عاش بنجامين ٩٤ شهراً مرت سريعة كحلم. واليوم يقف
على عتبة الموت مودعاً ولما يتسنَّ له أن يقود سيارة
أو يحضر حفلة أو يصبح أباً يحتضن طفلاً له بحنان.
الموت دوماً أمر يخاله المرء بعيداً جداً عنه.
وفجأة يصبح قريباً، قريباً جداً.

نور الحياة



ذهبتُ وأولادي الثلاثة الى «بارك سيتي» في ولاية يوتاه لقضاء عطلة الربيع مع أهلي. هناك التقى أولادي أبناء أخوالهم للمرة الأولى وأمضوا أوقاتاً ممتعة في التزلج واللعب. كانت حقاً أياماً ملؤها السعادة والوئام أمضيناها بعيداً عن كل مكدر.

وذات ظهيرة فيما العطلة تقارب نهايتها، تحلَّق الكبار حول المدفأة يرشفون القهوة فيما خرج الأولاد يلعبون ويتسابقون متزلجين نزولاً على تلة تكسوها الثلوج. خرجت الى الشرفة أراقب ما يجري، فرأيت أولادي الثلاثة وقد تـألقت وجناتهم بجذوة الحياة كأنها صور لاعلان عن علب عصير. فهذا بو بوجهه النمش وهذا بن بابتسامته العابثة وذاك آبر بعينيه البراقتين. لم يسمح لنا الوقت بأن نفكر حينئذ كم كنا سعداء.

بدأ اليوم الأخير من العطلة مثلما بدأت أيام كثيرة عندما كنت طفلة. سمعت امي تسألنا وهي تحضر قائمة المشتريات: «هل تريدون شيئاً؟»

فصاح بن: «أجنحة دجاج!» وكان في السابعة من عمره وقد ولد يوم ٢٨ يونيو (حزيران) ١٩٧٧ بعد سنتين من زواجي غرانت أويلر.

ان لكل أم وجبة خاصة يحبها أولادها. وكانت وجبة أمي المفضلة أجنحة الدجاج بالمرق المخلل. وعلى رغم اني كنت أتبع دوماً وصفة أمي في تحضير هذه الوجبة فإن بن لم يستسغ طعمها، وكان يتشوق دائماً الى أجنحة أمي. لذلك حين جلسنا الى المائدة بدا غريباً أنه لم يأكل شيئاً.

قال: «بطني يؤلمني.»

وفي اليوم التالي انتهت العطلة لكن ألم المعدة لم ينتهِ. وطوال الطريق الى بيتنا في كرمل بولاية كاليفورنيا لم يكن بن على عهدي به. كان يشكو من اسهال

حاد استوجب استدعاء طبيب العائلة. اذ لا بد أن يجد له الدكتور بان علاجاً، وهو الذي اعتنى به منذ ولادته.

وأذكر أنني حين ولد بن أُخبرت اني ناقلة لداء النزف الوراثي[1]. وكان أخي سكوت مصاباً بهذا الداء، كذلك أصيب به بن. ومعروف أن النساء ينقلن هذا الداء، أما الرجال فيصابون به. ومع كل حمل تبقى الاحتمالات الوراثية للاصابة هي ذاتها: يقدَّر احتمال اصابة المواليد الذكور بهذا الداء بنسبة ٥٠ في المئة، واحتمال كون المواليد الاناث ناقلات للمرض بنسبة ٥٠ في المئة كذلك.

وهكذا فإن احتمال اصابة أي من أولادنا بالداء هو واحد الى أربعة. ولكن على رغم هذه النسبة أصيب ولدانا الأصغران بو (٥ سنوات) وآبر (٣ سنوات) بالمرض اياه. واليوم، لحسن الحظ، يُعالج المصابون بداء النزف بجرعات من محلول الدم المركَّز والمتضمن بروتييناً مخثِّراً ينقصهم، مما يتيح لهم العيش حياة نشطة نسبياً.

وكنت اعتدت هذا الداء لاصابة أخي به، لكن الأمر كان جديداً على زوجي غرانت. وكم ازدادت محبتي له بعد أن تكيف وهذا الواقع وتعلم كيف ينقل الى الأولاد محلول الدم المعروف بـ «العامل ٨»[2] كلما نزفوا.

عندما عاين الدكتور بان بن اعتقد أن الأمر لا يتعدى اصابته بداء جرثومي. فوصف له مضاداً حيوياً (أنتيبيوتيك) وأخذ، على سبيل الاحتياط، عينات من دمه للفحص. وقال إن النتائج ستظهر بعد أسبوع.

توقعت أن يفيد الدواء، لكن اسهال بن تفاقم وازداد تقيؤه. اذ ذاك بدأت أشعر بالخوف والعجز. فأخذت بن في مطلع الأسبوع التالي الى عيادة الدكتور بان حيث أجرى له مزيداً من الفحوص وقال إنه يود مراجعة حالات سابقة في مستشفى الأطفال في ستانفورد حيث تقوم عيادة لداء النزف الدموي. ووعد بأن يتصل بنا هاتفياً فور تلقيه النتيجة.

اتصل بنا الدكتور بان في اليوم ذاته مقترحاً أن ننقل بن الى المستشفى في ستانفورد.

قلت: «سنأتي صباح غد.» لكن الطبيب نصحني: «كريس، أعتقد أن من الأفضل أن تذهبي فوراً.»

تلا ذلك أسبوعان من الفحوص الغامضة التي تطلبت مزيداً من عينات البراز والبول والدم. وذات يوم اقتادنا طبيب عبر باب مزدوج الى غرفة تختلف عن بقية الغرف. ظننتها «غرفة خاصة.» يا لحظنا الحسن! ثم لاحظت أن للغرفة حماماً خاصاً. طبعاً، بن يحتاج الى حمام خاص.

شجعتني الفحوص الناشطة أول الأمر. وراودني الأمل أن يتوصل الأطباء

الى تشخيص الداء بسرعة. لكن جميع النتائج جاءت سلبية مما استوجب اللجوء الى اجراءات طبية أخرى كان معظمها أليماً، ومنها تخطيط للدماغ وأخذ عينات من سائل النخاع الشوكي ومن نقي العظم.

لكن حال بن زادت سوءاً، واكتسى لسانه وحلقه بطبقة بيضاء بشعة وتورمت غدد رقبته وأصيب بطفح جلدي.

وفي مايو (أيار) ١٩٨٥ بلغني أن النتائج الأولية للفحوص التي أرسلت الى مراكز مراقبة الأمراض في أطلنطا بولاية جورجيا، ستصل في أواخر الأسبوع وربما يوم الجمعة.

وكان بو وآبر ذهبا للمكوث عند والدي غرانت، فيما واظب غرانت على قيادة سيارته أربع ساعات يومياً ليتمكن من متابعة عمله في ورشة بناء في كرمل وتمضية بعض الوقت معنا ليلاً في المستشفى. ولكن يوم الجمعة اتصل بي غرانت وأخبرني انه مضطر الى التأخر، وأنه سيأتي حالما ينهي التزاماته. وبقيت أراقب الساعة وموقف السيارات في الخارج، فلم ألمح زوجي. وعلمت أن عليّ أن أواجه الأطباء وحيدة.

تذكرت أني أجلت بصري في أنحاء غرفة الاجتماعات ورأيت عدداً من الأطباء في انتظاري. وبدا لي ان لا حاجة الى مثل هذا العدد من الناس لنقل خبر جيد. ثم ناولني الدكتور برتل غلادر، رئيس قسم أبحاث الدم الخاص بالأطفال، نتائج المختبر التي اكدت أن بن يعاني اصابة طفيلية، وتورماً في الغدد، والتهاباً فطرياً يتميز ببقع بيضاء على اللسان والحلق. لكننا كنا نعلم ذلك قبلاً.

ثم انبرت جودي لي، وهي ممرضة متمرنة تعمل لدى الدكتور غلادر، وسألتني: «أتفضلين يا كريس انتظار غرانت لسماع ما تبقى؟»

«كلا،» قلت وأنا أتساءل كيف يتوقعون مني مزيداً من الانتظار. «ارجوكم تابعوا.»

سألني الدكتور غلادر: «هل سبق أن سمعتِ بمرض قصور المناعة المكتسب[٣]؟»

فأجبته: «أتعني الايدز؟ هل بن مصاب بمرض الايدز؟» فجأة رأيت الأمور بوضوح. غرفة بن الخاصة، والفحوص التي أرسلت الى أطلنطا، والأمراض التي لم يقوَ بن عليها.

تابع الدكتور غلادر قائلاً إن محلول الدم الذي يحتاج اليه بن عولج بالحرارة

(١) Hemophilia

(٢) Factor VIII

(٣) Acquired immune deficiency syndrome

لبضع سنوات، وبما أن بن في السابعة من عمره فربما التقط الاصابة وهو طفل. فهو كان يخضع سنوياً لأكثر من ٢٤ عملية نقل للمحلول الدموي المركّز، يحصل في كل منها على خلاصة قدمها نحو ١٠٠٠ متبرع. وكان أحد المتبرعين مصاباً بالايدز.

كدت لا أسمع ما قاله الطبيب وسط طنين صم أذني. وسمعتني أسأل عن التفاصيل والعلاج وكل ما راودني من أفكار، الى أن قاطعني الدكتور غلادر قائلاً: «كريس، هل تدركين أهمية ما نقوله لك؟»

شعرت بخدر يعتريني. طبعاً، فهمت ما يعني. فالإيدز مرض قاتل. وعندما تُبلغ أن ابنك سيموت تخال أن الزمان توقف لحظة. وحين تعود الساعة الى الدوران لا يبقى شيء كما كان. تشعر كأن صوتك ينبثق من شخص آخر. وتحس عينيك تحدقان الى أشياء غير مهمة، كلطخة على نظارتي الطبيب أو بلاطة مختلفة في أرض الغرفة. عندما يكون الشخص الذي سيموت ابنك تدرك أن كل شيء تغير وأن الألم سيلازمك الى الأبد.

قلت: «هل لك أن تخبرني كم سيعيش؟»

أجاب الدكتور غلادر: «كل ما نعرفه إحصائياً أن ٨٥ في المئة من مرضى الإيدز يموتون خلال سنة.»

خلال سنة؟ كيف يحدث هذا؟ لقد عاش بن ٩٤ شهراً لا غير. وعادت بي الذاكرة الى يوم كان طفلاً يحبو.

قال الدكتور غلادر: «آسف لأني لا أستطيع اخبارك المزيد، اذ ان بن هو الأول عندنا.»

فقلت له: «وهو الأول عندي أيضاً.»

قائد القطيع

قبعت أنتظر غرانت وأنا أعلم أنه الوحيد الذي يمكنه تعزيتي على رغم أن حزنه سيكون كبيراً كحزني. وملأت الدموع عيني وأنا أخبره بحالنا. لكني قرأت في وجهه أنه كان يتوقع شيئاً من هذا القبيل منذ البداية. وكم من رحلة طويلة قطعها وحده والمخاوف ترافقه، لكنه حرص على تأجيل معاناتي أياماً قليلة أخرى.

ذهبنا معاً الى اللقاء الثاني والفريق الطبي. قالوا انهم سيباشرون معالجة الأعراض. وكان الطفح الجلدي بدأ يتلاشى، كما تمت السيطرة على الطفرة التي كست حلق بن بفضل الرشاش الذي كرهه وكان عليه تقبله في أي حال. وبالنسبة الى الطفيليات التي شكلت المعضلة الرئيسية، ارتأى الأطباء معالجتها بدواء اختباري جديد.

سألنا عن طريقة المعالجة، لأننا علمنا أننا اذا أتقنّاها ففي وسعنا نقل بن الى

البيت حيث نحيطه برعايتنا ودعمنا نفسياً وجسدياً. كما سيكون أخواه الى جانبه مع كلبنا دارسي للترفيه عنه.

ومع ذلك كنت متوترة حين بدأنا نوضب أغراض بن استعداداً للرحيل. فقد تيقنت أني سأكون المعنية مباشرة برعاية بن. وتذكرت أني حين بلغت التاسعة والعشرين من عمري شعرت بأني كبرت. لكني أحسست الآن أني صغيرة جداً ولا خبرة لي في مثل هذه الأمور. كان عليّ الاعتناء بثلاثة أولاد، وهناك رابع في احشائي. فكيف سأقوى على كل ذلك؟

تذكرت ما كانت والدتي تقوله لي في مثل هذه الحال: «لا ترتبكي، وعالجي كل يوم على حدة.» وهذا بالضبط ما يجب أن أفعله الآن.

كان يوماً جميلاً في أوائل الصيف عندما غادرنا المستشفى. لذلك قررنا سلوك طريقنا المفضلة عبر الغابة. استلقى بن على فراش وضعناه له في مؤخر شاحنتنا الصغيرة المقفلة (فان) وراح يسرح نظره في الاشجار الحمراء العملاقة والمشاهد العابرة. وبعد حين طلب أن يجلس في حضني. ولو طلب ذلك في الماضي لقلت ان في ذلك خطراً على سلامته، لكن خطر الحوادث بدا الآن مضحكاً.

جلس عند بطني المنتفخ ورأسه الى كتفي وقدماه في حضن غرانت. وسألنا: «هلا أخبرتماني مما أشكو؟ ماذا قال الأطباء؟»

وكنت اتفقت وغرانت على ما سنخبر بن. لكننا لم نتفق كيف ننتقي الكلام المناسب. وكنت نجحت سابقاً في انتقاء العبارات التي تطمئن أولادي، لكني لم أجد في تلك اللحظات عبارة مناسبة من تلك التي تلجأ اليها الأمهات.

بدأت: «حسناً يا بن، علمنا أن الدكتور بان كان محقاً في تشخيصه للداء الطفيلي، اذا أثبتت الفحوص أنك مصاب به في معدتك. ولهذا السبب تعاني الاسهال.»

وانتظرت سؤاله التالي، لكنه لبث ينتظر مزيداً من الشرح.

تابعت: «والسبب في صعوبة التغلب على هذا الداء هو أنك مصاب بشيء آخر يدعى الايدز. وهذا مرض مخيف قليلاً لأن الأطباء لا يعرفون الكثير عنه، خصوصاً لأنك أول صبي صغير شاهدوه مصاباً به.»

سأل بن: «متى يعتقدون أني سأتحسن؟»

أجابه غرانت: «ليسوا أكيدين من الوقت. لكنهم أعطونا أدوية ستحسن حالك، ومنها أقراص ورشاش أصفر للحنجرة ستحب طعمه.»

وهنا غيّر بن ملامح وجهه وقبض على حنجرته متظاهراً بالتسمم.

تابع غرانت: «سنعود الآن الى البيت وستشعر بالتحسن. فلنفكر بشيء مسلٍ نفعله معاً؟»

مددت يدي الى محفظتي وتناولت قلمي ودفتر الملاحظات لأن التدوين يمدني بحس تنظيمي. وقلت لبن: «لنضع لائحة بالأشياء التي تود عملها. اذا قيض لك أن تختار ما تفعله هذا الصيف، فماذا تختار؟»

فسارع بن الى القول: «ديزني لاند! واجتماع عائلة أويلر!»

كانت عائلة غرانت درجت على الاجتماع سنوياً على مقربة من بحيرة تاهو. ومن الأمور التي تعلمتُها خلال زواجي أهمية المساندة العائلية في الأوقات العصيبة والأوقات الطيبة. وكان لاجتماع عائلة أويلر طابع خاص، اذ كان بن الاكبر بين أربعة عشر حفيداً ويدعوه الجميع «قائد القطيع» وهو مركز ملأ قلبه سروراً. ولكن هذه السنة جُمِّدت المخططات بسبب مرض بن.

قال غرانت: «سأتصل بجدتك لدى وصولنا الى البيت لأرى اذا كان في وسعنا ترتيب ذلك.»

سألت ابني: «الى ماذا تتشوق أيضاً يا بن؟»

أجاب: «أود التعرف الى أصدقاء جدد عندما تبدأ المدرسة في سبتمبر (أيلول).»

قال غرانت: «قد تكون في مدرسة أخرى، لأننا نفكر في الانتقال الى منزل جديد قبل ولادة طفلنا في نوفمبر (تشرين الثاني).»

سأل بن: «هل يعني ذلك أني لن أرى جسيكا بعد الآن؟»

فطمأنته: «طبعاً لا، فالمرء لا يخسر الاصدقاء لمجرد انتقاله الى مدرسة أخرى.»

فتمتم بن: «نعم، معك حق. لكن هل أستطيع محادثتها عندما نصل الى البيت والاطمئنان الى صحتها؟»

فأومأت برأسي موافقة. لكن شعوراً ما جعلني أتردد في وضع اسم جسيكا على القائمة. والسبب أن جسيكا كانت رفيقة تعرف اليها بن ذات يوم عندما اضطر الى البقاء داخل الصف خلال الاستراحة لاصابته بنزف. وكانت جسيكا، «الفتاة التي لا شَعر لها،» في الداخل أيضاً. وهي أخبرته أن شعرها تساقط بعدما اكتشف الأطباء أوراماً في دماغها وعالجوها بالأشعة.

فهم بن أن جسيكا معرضة للموت. وقد حدثته أنا وأبوه حول هذا الأمر بعد مكالمة تلقيناها من والدة الفتاة التي لاحظت مدى الصداقة بينهما وأبدت قلقاً من أن يؤذي ذلك بن. حصل كل هذا قبل أشهر.

لاحظ بن ترددي فتناول القلم من يدي وكتب تحت عبارتي «منزل جديد» و«مدرسة جديدة» اسم جسيكا.

وهنا غيّر غرانت الموضوع: «ماذا تريد يا بن عندما تبلغ الثامنة؟»

أجاب: «سأحتفل بعيد ميلادي. أكتبي هذا يا أماه.»

ثم نظر الى القائمة الطويلة وقال: «هناك شيء ناقص... أخي الصغير.»

قلت مصححة: «تعني أختك تشلسي.» فنظر الي مبتسماً. لقد تكرر هذا الحوار بيننا حتى غدا شبيهاً بقصة مألوفة. أراد بن أخاً، وأردت أنا ابنة. قلت له مبتسمة: «لننتظر ونرَ. وستفرحنا النتيجة أياً تكن، أليس كذلك؟»

وافق بن، فكتبت كلمة «طفل» في أسفل القائمة.

شعرت وكأني أنجزت شيئاً. على الأقل، حددنا نقطة البداية في الرحلة الصعبة وبعض المعالم التي توجه مسارنا في طريقنا المجهولة. علمت بالتأكيد أن علينا أن نكون معاً

صور في القلب

حدد الأطباء حياة بن المتبقية بسنة واحدة، ولكن فاتتهم معرفة عائلتنا. وفاتهم مدى ايماننا.

كان غرانت مؤمناً بأن الله سيشفي بن. قال: «تعرفين يا كريس أن العجائب تحدث. كل ما يلزمنا هو الوقت. الوقت ليجد الباحثون الدواء الشافي.»

أصغيت الى كلماته ووجدت فيها قوة. فإذا استجمعنا كل مواردنا من الحب العائلي واخلاص الأطباء وايماننا بالله فقد نستطيع انقاذ بن.

كانت الأسابيع الأولى عصيبة بالنسبة الينا جميعاً، ولاسيما غرانت الذي اضطر الى العمل بين ١٢ و١٤ ساعة يومياً ليتمكن من تسليم تعهداته في الأوقات المحددة.

وفي البيت كان التحدي الكبير الذي واجهته مع الأولاد هو تفادي استنزاف طاقتي في الأمور التافهة والمزعجة. وكنت أملت أن أعوض الأولاد أجواء المرض والصعوبات برحلات الى الحديقة العامة ومربى الأسماك. لكن إسهال بن اضطره الى دخول الحمام كل ساعة أو ساعتين طوال النهار وطوال الليل أحياناً، فضلاً عن تقيؤه المتكرر. وكنت أغسل خمس أكداس من الثياب يومياً.

وكانت النظافة هاجسنا. والواقع أننا لم نخشَ الاصابة بمرض الايدز لعلمنا أن عدوى هذا الداء تتأتى من المجامعة أو انتقال السوائل الجسدية، كنقل الدم مثلاً. وقد أكدت الفحوص لاحقاً أن أياً منا لم يصب بالايدز. لكن أمراضاً أخرى أصيب بها بن كانت معدية، وخصوصاً القُلاع الذي أصاب حلقه. لذلك وضعنا في الحمام آلة لصب الصابون السائل وأكواباً من الكرتون. لكن مراقبة بو وأبر كانت صعبة جداً، كذلك التأكد من أنهما لا يشاركان بن في أكل الحلوى والبوظة (آيس كريم).

وازداد تشاركنا في أعمال بسيطة كالاعتناء بالحديقة وصنع أقنعة من ورق. وأحياناً، عندما يشعر بن بالتعب وأنا بالإجهاد من جراء الحمل والقلق، كنا نستلقي معاً على أرض غرفة الجلوس لأخذ سِنة من النوم. أنا لم أمض مثل هذه الأوقات مع بن مذ كان رضيعاً. وما مدَّني بالقوة على الاستمرار سوى بعض هنيهات هانئة، وإن تكن نادرة، قضيتها مع بن.

وفيما كنت ذات يوم في دكان البقال التقيت سائق الحافلة في مدرسة بن وعلمت منه أنه جسيكا توفيت قبل بضعة أيام. شعرت بأني قصَّرت مع بن اذ لم أتصل بوالدتها منذ رجوعنا الى البيت. والآن فات الأوان.

ذهبنا ذلك النهار الى الحديقة العامة، وجلست مع بن على حافة بركة رمل فيما مضى بو وآبر يلعبان على مقربة منا. قلت: «أريد أن أحدثك عن جسيكا يا بن.»

حدجني بنظرة سريعة ثم أطرق وبدأ يكتب في الرمل بأصبعه. قال: «أخبار غير جيدة، أليس كذلك؟»

وضعت يدي على كتفه وقلت: «أخبار سيئة. لقد ماتت جسيكا قبل أيام.»

تابع رسم دائرة في الرمل وقال: «أكان ضرورياً أن أخسرها بهذه السرعة؟ كانت أصغر مني سناً.»

أجبته وأنا غير واثقة من اختيار العبارات المناسبة: «لا يخسر المرء من يحبهم حقاً. ان في وسعك الاحتفاظ بهم دائماً... في قلبك.» وهنا تناولت من محفظتي صوراً له ولأخويه ووالده وناولته اياها قائلة: «أتعلم أن قلبك قادر على التصوير؟ صور القلب أجمل الصور لأنك تلتقطها في لحظات خاصة، وهي ملك لك وحدك.»

- هل ستذهب جسيكا الى السماء؟

«نعم.»

- هل سأراها يوماً؟

«أنا واثقة بذلك يا بن.»

تبع ذلك صمت طويل. وظل بن مطرقاً يكتب في الرمل. ثم قال: «متى يكون ذلك يا أماه.»

قلت: «لا أدري. لا أحد يعلم متى يموت. لذلك من المهم جداً أن نحب بعضنا بعضاً ما دمنا معاً.» وجهدت لكي أُبقي عينيّ مفتوحتين كي لا تنهمر دموعي.

لا أدري لماذا شعرت بأن بن عالم بدنو أجله. أردت أن أحوطه بذراعي وأهدهده وأبكي معه. لكني لم أفعل. كان عليّ أن أبقى قوية ومرحة. لذلك جلسنا هناك وكل منا غارق في أفكاره.

وأخيراً قال لي: «أماه، هلاّ دفعتِني في الأرجوحة قليلاً؟»

من الأمور المدرجة في قائمة بن واحد لن يتحقق: اللعب مع جسيكا غير أننا

بينا الى «ديزني لاند» خلال الصيف. وتمكن غرانت من جمع آل أويلر في وقت قصير بحيث التقى ستة فروع من العائلة في جمع كان له أبلغ الأثر في بن وفي جميع أفراد العائلة.

ولكن بعد وقت قصير اضطر بن الى دخول المستشفى مجدداً اذ أصيب بالاجتفاف[٤] من جراء الاسهال وقلة الطعام. وبدأ يستعيد وزنه بتغذيته وريدياً. وبعد أسبوع عدنا الى البيت وقد استعاد بن شكله المألوف.

ويوم عيد ميلاده أقمنا حفلة في حديقتنا. وفي تلك الليلة سألنا: «ماذا أفعل الآن وقد غدوت في الثامنة من عمري؟»

وددت ألا أفكر في مستقبل بن. وكان سادني شعور بأن بن سيغدو على أهبة الموت متى بلغ هذا العمر.

اجتمعت العائلة في تلك الليلة وانصرفنا بكليتنا الى ذكر الله ورحنا نصعد ابتهالاتنا بحرارة وايمان طالبين أن يمنّ الله علينا ببركاته ويشملنا برعايته متقبلين قضاءه العادل بنفوس رضية.

سأل بن ببراءة طفولية: «هل هناك أشجار في السماء؟ وهل هناك شوارع؟ وكم يلزم من الوقت للوصول الى هناك؟» أسئلة حزّت في نفسي لبراءتها وواقعيتها.

ثم سأل: «أبي، هل يعيش الناس هناك في منازل؟»

أجاب غرانت: «يعيش الناس في كنف الله جل جلاله وفي حرزه الحريز. تشعر كأنك عدت الى بيتك بعد رحلة طويلة، الى حيث يطيب العيش.»

وفي الصباح شعرنا براحة تغمر كياننا. نظرت الى بن طويلاً وراقبت كم يغير مرض الايدز جسد الانسان على نحو لا يصدق. ولاحظت كذلك أن التغيير لا يتناول الجسد فحسب، بل النفسية كذلك. كان جسد بن ينكمش مع تقدم مراحل المرض، لكن روحه كانت تنمو.

والتقط قلبي تلك الصورة.

حلو ومرّ

انقضى شهر يونيو (حزيران) وبدأ شهر يوليو (تموز)، فلف الضباب الصيفي منطقة كرمل كما في كل سنة. ووجدنا منزلاً أكبر يحوي حمّامين. وفيما انهمك غرانت في إعادة ترتيبه انصرف الأولاد كل الى شأنه. في هذه الاثناء أسقط بو اثنين من اسنانه اللبنية، وغدا آبر كبيراً على دراجته الثلاثية العجلات فأبدلناها بواحدة ذات عجلتين. ومر بن بأيام حلوة وأخرى سيئة. في الأيام الجيدة كنا نستمتع بكل

(٤) dehydration اي الجفاف بفعل استنزاف سوائل الجسم.

ابتسامة وضحكة. وفي الأيام السيئة كنا نشتاق الى الأيام الجيدة ونأمل عودتها.

لم يكن هناك من سبيل لتعويضه المعاناة الأليمة، ولا من وسيلة لاعادة الساعة الى الوراء، الى يوم تلقى بن تلك الحقنة اللعينة التي نقلت اليه العدوى، الى لحظة استطيع فيها أن أمنع ما حصل.

وهنا شعرت بالغضب يحل محل الخوف. أردت أن أوجه اللوم الى شخص ما.

وذات ليلة دخل بن المطبخ حيث كنت وغرانت نجهز طعام العشاء، وسأل: «ماذا يعني أن يكون المرء شاذاً؟»

قلت: «لمَ تسأل؟»

أجاب: «سمعت ذلك على التلفاز. قالوا إن الشاذين يصابون بمرض الايدز.»

تبادلت وغرانت النظرات ثم قلت: «إنهم لا يتحدثون عنك يا بن.»

وهنا اقترح غرانت أن نعود الى غرفة الجلوس. وكان بو وآبر يلعبان في الخارج.

وكان غرانت جلس وبن هكذا قبل سنة لدى عودته من المدرسة وقد سمع كلمة بذيئة لم يفهمها. ولم نكن خططنا أن نحدثه عن الجنس بعد، لكننا لم نود أن نتركه يتأثر بمفاهيم خاطئة. لذلك عمد غرانت الى شرح ما يكفي لافهامه عن ولادة الأطفال وماهية الجنس كجزء طبيعي من المحبة بين الزوج والزوجة.

وها هو بن يسأل الآن عن الشذوذ.

قال غرانت: «أنت تذكر ما قلناه لك عن اصابتك بمرض الايدز من طريق نقل الدم. ولكن هناك وسيلتان أخريان للإصابة. فمدمنو المخدرات يصابون بالمرض من جراء استعمال إبر ملوثة. أما الوسيلة الاكثر شيوعاً فهي انتقال العدوى بين الشاذين. وتعني كلمة شذوذ قيام علاقات بين افراد من الجنس المماثل. وعندما يتحدث الناس عن مرض الايدز لدى الشاذين فهم يعنون الرجال غالباً.»

بدا بن مرتبكاً، وهنا مددت يدي وعانقته متمنية لو أستطيع تبسيط الموضوع على نحو يفهمه. قلت له: «إن هذا المرض جرثومة انتقلت اليك تماماً كالزكام.» بدا بن مقتنعاً بهذا المنطق.

وحل يوم الجمعة وتأهبت وغرانت للسهرة خارج المنزل كما تعودنا أن نفعل كل أسبوع. وكنت أنتظر ليلة الجمعة على أحر من الجمر، لأن الساعات القليلة التي كنا نقضيها معاً كانت تمدنا بالقوة اللازمة لاحتمال الضنك الآتي وتذكرنا بقدرتنا على اجتياز المرحلة الصعبة معاً.

وفيما كنت أرتدي ملابسي رن جرس الهاتف. انها أمي تريد أن تتحدث الى بن، وكانت بينهما صلة مميزة. أصغيت وتبسمت لما كان يقوله بن.

وعندما أقفل بن السماعة أخبرنا أن جدته رتبت كل شيء. قال انه سيذهب لزيارتها هي وجده رالف. فقد أمضى بو وآبر أياماً لدى والدي غرانت حين كان بن في المستشفى، والآن جاء دوره.

فقال له أبوه اننا سنبحث في الأمر في الصباح.

ذهبتُ وغرانت الى مطعم صغير وجلسنا الى طاولة حميمة في الزاوية. بدا لنا ذلك أقصى ما نطمح اليه من رفاهية: شموع وطعام طيب وأنا وهو.

مد غرانت يده وتناول يدي بحنان.

استمتعنا بهذه الأمسية وبحثنا في امكان الذهاب معاً في عطلة وحدنا لبضعة ايام فيما بن يزور والديّ.

أعجوبة صغيرة

ذهب بن لزيارة جدته وذهبنا نحن الى الشاطىء لقضاء بضعة أيام. واتصلتْ امي لتخبرني أن بن بصحة جيدة وأنهما تبادلا حديثاً طويلاً. لقد بدا لها أن بن يعلم أنه على وشك الموت، وهو يخشى أن نغضب منه من أجل ذلك لأننا نحبه كثيراً.

فكرتُ كم كان ذلك صعباً على أمي. وكم أحببتها حينئذ. فهي لم تكن تراقب عذاب حفيدها وحده، بل عذاب ابنتها أيضاً.

نقلنا بن الى المستشفى بعد عودته، اذ بات عاجزاً عن الأكل وعاد يخسر من وزنه.

في تلك الليلة جلست وبن على حافة سريره في المستشفى وقلت له: «لقد اشتقت اليك كثيراً خلال غيابك عنا. لكنك تعلم أني لا أغضب منك أبداً لذهابك في رحلة، وإن استغرقت وقتاً طويلاً جداً. انني أشعر بالحزن فقط لأننا لسنا معاً.»

أجابني بن بايماءة من رأسه ثم تعانقنا بصمت. علمت أن عليّ أن أزيد على ما قلت، لكنني لم أقوَ على الكلام.

صعب علي أن أترك بن وحده في المستشفى في اليوم التالي، ولكن كان عليّ أن أعود الى البيت لحزم الأمتعة للانتقال الى منزلنا الجديد. وعند الظهر قبَّلت ابني مودعة.

كان ذلك يوم الخميس وعليّ الاستعداد لمغادرة منزلنا يوم السبت. لم أدرك مدى الجهد الذي يتطلبه حزم الأمتعة. كانت شقتنا صغيرة، ولكن عندما عدت بولديّ بو وآبر مساء من منزل أحد الأصدقاء تبين لي أني لم أنجز الا القليل.

ارتميت على الأريكة وأغمضت عينيّ. جلست هناك وأنا في الشهر الثامن من حملي يلفني الذهول والارتباك والاجهاد. لم أقو على التفكير إلا في ما ينتظرني من عمل وفي المخاوف السوداء التي غمرت كياني. ماذا لو كان الطفل المنتظر صبياً،

ماذا لو كان مصاباً بالنزف الدموي؟ لقد درجتُ على إخبار الجميع أني قادرة على مواجهة الأمور. لكن الأمور بدأت تزيد صعوبة مع تقدم الأولاد في السن وازدياد نشاطهم. وفي تلك اللحظة لم أدرك كيف أستطيع الاستمرار وانجاز ما يتوجب عليّ.

أخيراً تناولت الهاتف وطلبت والدتي. قلت بصوت حزين كأنه لامرأة أخرى: «أماه، لم أعد أقوى على التفكير. لا أعلم ماذا أفعل. ساعديني...»

أخبرتها بكل الأعمال المقبلة علي من حزم الامتعة وتنظيف البيت الجديد وتحضير الطعام للأولاد وعيادة بن وملاحقة مواعيد الأطباء.

قالت أمي: «رويدك يا حبيبتي.»

قلت: «ولكن علينا يا أماه أن نخلي هذا المكان يوم السبت.»

قالت أمي: «حسناً، سأملي عليك قائمة بأمور يجب أن تفعليها أولاً، ومن ثم يمكنك الاعتناء بنفسك وبغرانت وبالأولاد. أولاً، أريدك أن تخلدي الى النوم وأن تنهضي نشطة في الصباح. وعندما تستيقظين...»

وضعتُ القائمة الى جانب سريري، وعندما استيقظت في الصباح اتَّبعتها كآلة مبرمجة. «انهضي. ارتدي ملابسك. رتبي السرير ليكون لديك مكان نظيف تعودين اليه. حضري الفطور. احزمي أمتعة غرفة النوم، ثم الحمام...»

قرابة السابعة صباح يوم الرحيل سمعت صوت سيارة آل لايسي وهي تتوقف. كان جو عقيداً متقاعداً وزوجته ماري معلمة متقاعدة. وهما ساعداني كثيراً بالاعتناء ببو وآبر.

خرجتُ الى الحديقة لاستقبالهما، لكني لم ألقَ جو وماري فحسب بل آل يونغ وآل سميث أيضاً. ورأيت كذلك موكباً من السيارات والشاحنات ضم أصدقاء لنا من الجمعية الخيرية التي ننتمي اليها. أناس طيبون لم يتركوا مناسبة إلا وسألونا كيف تتسنى لهم مساعدتنا.

باشر الرجال نقل المفروشات والصناديق فيما ساعدتني النساء على استكمال التنظيفات. وأولى أحد الفتيان بو وآبر عنايته. ولم يحل المساء إلا وقد انتقلنا الى المنزل الجديد الذي وجدته نظيفاً وخزائنه مجهزة بأغطية من ورق والثلاجة ملأى بالأطعمة والحلوى.

ورأيت السرير الخشبي والمنضدة اللذين كانا للجد أويلر وهو صبي موضوعين في غرفة نوم بن ينتظران حضوره. وثبتنا على الحائط ملصق «حرب النجوم» الذي يحبه بن وعلقنا في السقف دينوصوراته الخشبية ونماذج طائراته المفضلة. وبذلك بدت الغرفة تتناسب وشخصية بن.

وأذكر أنني كنت مستندة وغرانت الى حائط غرفة الجلوس نرمق عملنا، فانزلقنا معاً الى أرض الغرفة وجلسنا جنباً الى جنب. سألته: «ما رأيك لو وضعنا

قرب المدفأة رفوفاً للكتب؟»
قال: «ربما علينا توسيع المطبخ وبناء طبقة أخرى. فقد نحتاج الى مساحة اضافية عندما تولد تشلسي.»
ملتُ نحوه وقبلته. وفي تلك اللحظة شعرت بأني أتحكم بحياتي من جديد. لقد عدنا نتحدث عن المستقبل كأنه يحمل شيئاً نتطلع اليه.

وصممت على ألا أدع الرياح تتقاذفني بعد الآن بسبب حال بن، خصوصاً وان الأمور ستزداد سوءاً، لذا يجب أن أكون مستعدة لمواجهتها.

وبعد مضي بضعة أسابيع اتصلت بوالدتي وطلبت منها أن تزورني. لم أبدُ هذه المرة كطفلة تتوسل من أمها المساعدة، بل كابنة ناضجة تدعو الجدَّة الى المشاركة في بهجة الاستعداد لاستقبال المولود الجديد.

أطلقنا على ابننا الرابع اسم دانيال، وهو ولد يوم ٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٥ وكان وزنه عند الولادة نحو أربعة كيلوغرامات.

مر الدكتور بان لزيارتنا وفحص الوافد الجديد. وهو دخل علينا بابتسامة عريضة وقال: «جاءتني نتائج الفحوص مؤكدة أن الطفل بصحة جيدة وهو غير مصاب بالنزف الدموي.»

غمرني شعور بالارتياح. لقد نال بن أخاً جديداً كما تمنى. ونلنا نحن أعجوبتنا الأولى.

منهل شجاعة

فيما كنا ننتظر ولادة دانيال قررتْ ادارة المدرسة عدم قبول تسجيل بن في الصف الابتدائي الثالث. وعلى رغم خيبتنا قررنا عدم معارضة هذا القرار علناً رغبة منا في تفادي مواجهة المصورين والصحافيين.

وكان بو الأكثر تأثراً بهذا القرار لأنه كان دائم الفخر بكونه شقيق بن أويلر. واليوم دخل مدرسة جديدة حيث لا يعلم عنه رفقاؤه سوى أنه شقيق الصبي المصاب بالايدز. وهو بدا عاجزاً عن التركيز في المدرسة، كذلك في المنزل حيث رأيته كثيراً يحدق الى الفضاء البعيد.

وذات يوم فيما كنت أنشر الثياب على حبل الغسيل جاءني بو راكضاً. وأخبرني أن بن طلب منه ومن آبر عدم دخول غرفته. وتساءل لماذا توقف بن عن اللعب معه ومتى يعود الى مرحه المعهود ومتى تتحسن حاله.

قلت له: «قد يبقى بن مريضاً فترة طويلة جداً. وعليك أن تجد ألعاباً هادئة تشاركه فيها، ألعاباً لا تتطلب الركض ولا تحدث ضجيجاً صاخباً. يجب أن تكون صبوراً معه كما كان هو معك عندما كنت صغيراً. هل أنت قادر على ذلك؟»

أطرق بو، لكني رأيت دموعه تتساقط عن أنفه. فحضنته وتركته يبكي بين ذراعيّ.

وفي الصباح التالي خرج بن من الحمام وهو يرتجف مترنحاً. نظرت اليه وقد أدار ظهره فهالني مدى هزاله. بدا جلده معلقاً فوق عظامه. رباه! متى استحال بن هيكلاً عظمياً؟ هل بالغت في تفاؤلي بشفائه فلم الحظ واقع مرضه الرهيب؟

أجرينا الترتيبات اللازمة لادخال بن مستشفى الأطفال في ستانفورد. ولدى وصولنا حاولت الممرضات ايلاج إبـرة المصل في أوردتـه، فلم يستطعن الى ذلك سبيلاً. لقد غدت أوردته واهنة الى حد الانهيار.

وفي اليوم التالي طالعني بعض الأمل لدى رؤيتي أحد الأطفال يسير في رواق المستشفى وقد تدلت منه قثطرة «هيكمان»، وهذه أنبوبة مطـاطية صغـيرة تولـج جراحياً في وريد كبير في أعلى الصدر. وهكذا يمكن ضخ الأدوية وسوائل التغذية المناسبة في الجسم. لم تَطرح هذه الوسيلة وعداً بأن بن سيعيش، لكن القثطرة ستوفر له الغذاء الذي سيحول دون موته جوعاً.

لم يكن في الامكان اجراء العملية قبل شهر أكتوبر (تشرين الأول). في هذه الاثناء قررنا التأكد من سلامة هذا الخيار الذي يستوجب تعليق بن بآلة خاصة بضع ساعات يومياً، مما يعني مزيداً من العناية الطبية والمراقبة المستمرة.

لذلك اتصل غرانت بصديقنا الدكتور جايمس رازباند وزوجته إستر ودعاهما الى زيارتنا. ولدى وصولهما شرح لهما غرانت الأمر، قال: «اذا استمر بن على هذه الحال فإن نهايته وشيكة. ويبدو أن قثطرة هيكمان هي الوسيلة الوحيدة.»

فرد الدكتور رازباند: «ربما. لكن ذلك قد يطيل عذاب بن. أهذا ما تريدونه؟»

كان وقع ذلك قاسياً على غرانت. لكن الدكتور رازباند أثار سؤالاً تداولناه مراراً وأسقطناه لأننا كنا ننتظر حدوث أعجوبة. غير أن بن لم يتظاهر يوماً بأن حاله تتحسن، كان التظاهر مقتصراً عليّ وعلى غرانت.

كان في صميم بن منهل يستمد منه الادراك والقبول وعدم الخوف. نحن كنا خائفين من النهاية، أما بن فكان يتطلع الى بداية، بداية تأخذه منا الى مكان علّمناه ألا يخشاه.

من أصعب الأمور على الوالدين تحضير طفلهما للموت ثم الأذن له بالموت. هل كنا نحاول الابقاء على بن حياً لخشيتنا مواجهة موته؟ هل كنا غير مستعدين لمثل هذه الساعة على رغم قبول بن بها؟ واذا لم نكن بعد على استعداد لتجرع هذه الكأس، فمتى يكون لنا ذلك؟

أُجريت الجراحة وبدأ بن يتحسن بعد اليوم الأول. وعندما أعدناه الى البيت بدأ الخسوف ينحسر في خديه ولم أعد أرى هيكله العظمي تحت الجلد. وبدا لنا

كأن الوقت يعود الى الوراء.

أيمكن أن نكون قطعنا المرحلة الأسوأ؟ أتحل الأعجوبة التي انتظرناها طويلاً؟ لا، فالأطباء حذرونا من أن قثطرة «هيكمان» ليست علاجاً للإيدز. وناجيت نفسي: تمتعي بحضور بن ما استطعتِ ولكن لا يساورنَّكِ ظن أن في الإمكان استبقاءه، لأن ذلك مستحيل.

«أريد العودة الى البيت»

بعد ولادة دانيال (داني) ومكوثي في المستشفى شعرت بالراحة للمرة الأولى منذ أشهر. أخذ غرانت إجازة وراح يساعدني في تجهيز الطعام والعناية بالأولاد، وانصرفتُ أنا الى الاهتمام بالمولود. لكننا اضطررنا الى توظيف ممرضة لابقاء سير الأمور طبيعياً في المنزل.

كان داني هدية الى العائلة كلها، ولاسيما بن ومن بين الأمور التي أدرجها بن في قائمته كان الاخ الأصغر هو الأهم بالنسبة إليه. وحتى بعد فتور حماسة بو وآبر بعد فترة من ولادة داني تابع بن اهتمامه به ورغبته في احتضانه.

ولكن بعد انصرام الخريف عادت صحة بن الى التدهور، وأصيب بسعال متكرر وعادت معدته الى التشنج. وبدا حائراً مضطرباً، فخامرني شك في أن الايدز بدأ يغزو دماغه. أخذناه الى المستشفى لاجراء تخطيط للدماغ، لكن الأطباء وجدوه سليماً وقالوا ان الايدز يسبب أعراضاً لا سبب ظاهراً لها.

ورحت أفكر في جسيكا التي وقعت في غيبوبة قبل الوفاة. أيمكن أن يحدث مثل هذا لابننا؟ لم نشأ أن يفوت الأوان قبل أن يطمئن بن الى ايماننا بالحياة الاخرى في دنيا البقاء.

لذلك دعونا الأولاد الى اجتماع عائلي في المساء. بدأ غرانت اللقاء قائلاً: «لنتحدث عن حال داني عندما وُلد. كان داني قبل ولادته روحاً ـ لنتصورها شبيهة باليد.» وهنا رفع غرانت يده وحرك أصابعه ثم تابع: «وعندما وُلد...» وهنا تناول من جيبه قفازاً وأدخل يده فيه وأضاف: «عندما وُلد داني اتَّخذت روحه بدناً كهذا القفاز.»

نظر اليه الأولاد ذاهلين ولم ينطقوا.

تابع غرانت: «وعندما يموت المرء يبدو الجسد كأنه ينزلق.» وهنا نزع غرانت القفاز ووضعه على الطاولة أمام الأولاد الذين راحوا يحدقون الى القماشة الخالية من الحياة.

«لكن الروح تبقى.» قال غرانت وهو يحرك أصابعه مجدداً. «أجسادنا تموت لكن أرواحنا باقية الى الأبد.»



قلت: «انها مشيئة الله ولا داعي الى الخوف لأن الموت شكل آخر من أشكال الحياة. فبعد الموت ننتقل الى حياة من نوع آخر في السماء." بدا بن صامتاً مما جعلني أتساءل عما اذا فهم أنه المقصود بهذا الدرس.

سمحت قثطرة «هيكمان» ببقاء بن اربعة أشهر في البيت اضطررنا بعدها الى ادخاله المستشفى. وكان عانى تقيؤاً واسهالا شبه متواصلين على مدى سبعة أشهر. والآن بدأ يقاسي آلاماً لا تطاق وغدت الأدوية المنزلية غير كافية لتسكين الألم.

وكانت له بضعة أيام جيدة، لكن أيامه السيئة زادت على ما قبل. وكان تحسن على نحو ملحوظ في الآونة الأخيرة، لذا غدا كل تدهور في صحته يسبب له ألماً وأسى مضاعفين. كانت تغمره الاثارة حين نحضر له مجموعة جديدة لتركيب طائرة، ثم يعجز عن اكمالها اذ تشرع يداه في الاهتزاز بعنف.

مرّت الأيام والأسابيع وغدوت لا أرى غرانت إلاّ لماماً لانصرافه هو الى العمل ولانصرافي انا الى المستشفى حاملةِ داني. وكنا نترك بو وآبر في عهدة أصدقاء لنا أو أقارب. وبتُّ أبكي أحياناً لأوهام عن مرضهم هم أيضاً، وأتوق الى رؤية وجوههم وسماع أصواتهم المرحة.

أخيراً قرّرنا فصل بو عن المدرسة والاتيان به مع آبر الى المستشفى للبقاء معي. وكان غرانت يعمل أيام الثلثاء والأربعاء والخميس ثم يأتي لقضاء أربعة أيام متتالية في المستشفى. وكانت ساعات عمله طويلة على نحو لا يصدق، وكان يعمل أحياناً طوال الليل.

استأجرت غرفة كبيرة في مبنى متاخم للمستشفى حيث ينزل أقرباء المرضى بأجر زهيد. وكان التحرك عسيراً داخل الغرفة لاكتظاظها بالأسرَّة، لكنها بالنسبة الى بو وآبر كانت كمخيم. وأسعدني وجودهما معي.

صباح السبت مكث غرانت مع بن فيما ذهبت انا أتمشى. فجأة سمعت مكبر

الصوت يعلن: «الغرفة ٢٠٥ فوراً!» وكانت تلك غرفة بن. لم أدرك ما يعنيه ذلك الاعلان، لكنني أدركت أن نبرته طارئة.

سارعت الى الغرفة. ومن خلال جمهرة من الأطباء والمرضات رأيت جسم بن يهتز صعوداً وهبوطاً في السرير. لم أرَ في حياتي جسداً ينتفض بمثل هذه الحركة العنيفة. فجأة توقف الاهتزاز وجمد بن في السرير. أخذت يده في يدي، وكان غرانت يمسك يده الأخرى من الجهة المقابلة. كان وجهه بلون الرماد. قلت: «نحن هنا يا بن، أنا وأبوك. اننا نحبك كثيراً.»

فهمس لي: «أماه؟ أريد العودة الى البيت.»

حدجتني ممرضة بنظرة أفهمتني أن الذهاب الى البيت أمر مستحيل.

قلت: «سيكون كل شيء على ما يرام.»

فهمس بإلحاح: «أماه، أريد أن أذهب الى البيت.»

ردد بن هذه العبارة مرتين قبل أن أفهم مراده. انه لم يكن يعني العودة الى منزلنا في كرمل، بل كان يتذكر ما قاله غرانت من أن الموت هو كالعودة الى البيت. وهو الآن أصبح جاهزاً.

قلت له: «لا بأس يا حبيبي، إني أفهم.»

ـ هل ستزورينني هناك؟

«نعم يا بن، سأفعل يوماً.»

أخبرنا الدكتور بان أن بن أصيب بنوبة صرع حادة يرجح أن سببها اقتراب مرض الايدز من جهازه العصبي المركزي. وقد يسبب ذلك عطلاً في الدماغ أو شللاً، وقد لا تكون له مفاعيل جانبية على الاطلاق. وأضاف الى قائمة الأدوية التي يتناولها بن دواء مضاداً للصرع قيل انه قد يغرق بن في نوم طويل.

نام بن يومين متتاليين. وفي صباح اليوم الثالث فتح عينيه ولم يتذكر نوبة الصرع التي أصابته. وبعد أيام قليلة بدا كأن النوبة لم تحدث أبداً.

غرانت في ورطة

لم نستطع ابداً نسيان نوبة الصرع التي أصابت بن. بتُّ أخاف أن أنام أو أن أتركه وحيداً. وعاد غرانت الى عمله لكنه ظل قلقاً وعاجزاً عن التركيز.

وذات يوم كنت أنتظر وصول غرانت الى المستشفى، لكن الساعة دقت الحادية عشرة ليلاً ولم يأتِ بعد. أخيراً رن جرس الهاتف وسمعت غرانت يقول متوتراً: «لا أُريدك أن تقلقي يا كريس، اني بخير.»

شعرت بالهلع وسألته: «ماذا جرى؟ أين أنت؟»

كان يكلمني من منزل صديق له في كرمل، قال: «أعتقد أني أصبت بنوبة

قلبية فيما كنت أنهي ورشة.»

أخبرني أنه عندما أنهى تبليط أرض أحد المطابخ تذكر أن عليه الذهاب الى متجر خردة في التاسعة ليلاً. لذلك ترك عمله وأسرع الى المتجر. ثم التهم لوحاً من الشوكولاتة في طريق العودة لأنه لم يأكل شيئاً منذ الفطور.

ولدى رجوعه عمل بهياج لازالة الاسمنت عن البلاط قبل أن يجف.

قال: «فجأة ضربني ألم انحدر في ذراعي. وعجزت عن التنفس وكدت أقع. والآن أنتظر قدوم جيم رازباند و«سأتصل بك حالما يأتي. أريدك ألا تقلقي علي.»

لا أقلق؟ كنت مذعورة الى حد شل حركتي. قبعت في سريري في الظلام أفكر في أسوأ الاحتمالات. كان غرانت في الحادية والثلاثين من عمره، والناس في هذا العمر يقضون من جرّاء النوبات القلبية.

وعندما كلمني غرانت ثانية كانت أخباره جيدة، اذ لم يجد الدكتور رازباند أثراً لنوبة قلبية. قال ان غرانت كان يعمل بجهد مضن. وصباح اليوم التالي جاء غرانت الى المستشفى وبدا صحيحاً معافى ووسيماً. قال انه بخير وانه يريدني أن أصدقه.

وفي أوائل يونيو (حزيران) أصيب غرانت بنوبة أخرى. شعر بأنه يختنق ولا يستطيع التنفس. وكان قلبه ينبض بسرعة، وخيل اليه أنه سيفقد وعيه. وانتهى به الأمر الى قسم الطوارىء في المستشفى.

أكّد الطبيب الذي عاينه تشخيص الدكتور رازباند، واقترح أن يستشير غرانت طبيباً نفسانياً ويأخذ إجازة ويحاول إزالة التوتر والاجهاد في حياته.

هذه المرّة قلقت فعلاً. لقد قلل غرانت من أهمية الحادث الأول، ولكن لا سبيل الى ازالة التوتر من حياته. كانت أجواء التوتر مهيمنة على حياتي وحياته.

وذات أمسية عدت وداني الى البيت، فاستقبلني بو وآبر دامعين. قال آبر: «لقد حطّم أبي سرير داني!» وقاداني الى الغرفة وأشارا الى السرير الذي نام فيه غرانت وهو طفل. رأيت ثقباً بحجم قبضة اليد في حافة السرير المتاخمة للرأس. هل فعل غرانت هذا؟ غرانت أويلر؟

هدأت من روع الأولاد ودخلت غرفة النوم. كان غرانت جالساً على السرير ورأسه بين يديه. فسألته أن يفسّر ما حصل.

قال: «تشاجر الولدان ولم يهدأا الى أن... فقدت أعصابي وضربت السرير. إني آسف.»

قلت: «انسَ السرير يا غرانت. اني قلقة عليك أنت. أنت وأنا والأولاد! أنا في حاجة اليك يا غرانت. ماذا حل بنا؟»

رمقني غرانت والدموع تترقرق في عينيه وقال: «اني خائف يا كريس وغاضب

جداً لأن بن يموت وليس هناك ما أستطيع فعله. هـل تعلمين كم يحفـر هذا في صميمي؟ لقد اعتدت طوال حياتي أن يساعدنا أبي في كل شيء. كان يجد حلاً لكل مشكلة مهما عظمت. الآن أجد نفسي عاجزاً عن مساعدة ابني وهو في أمس الحاجة إليَّ.»

ضم غرانت يداً وراح يضربها براحة الأخرى. ثم توقف فجأة ومال نحوي وعانقني وهو يبكي. فشددته الي بكل ما لديَّ من قوة وبكيت معه.

أظن أن ذلك كان يوم يئس غرانت من حصول أعجوبة. لقد آمن بذلك الى الآن، وهذا ما ساعده على اجتياز الساعات الصعبة التي كان يقضيها بعيداً عن عائلته. أما أنا فكنت قطعت الأمل من شفاء بن.

والآن حان لنا أن ننسى آلامنا ونركز على آلام ابننا.

ساعات حميمة

أصيب بن بالعقبولة المنطقية° وهي قروح جلدية حساسـة فوق الأعصـاب تسبب آلاماً حادة في أسفل الظهر. وكان بن يصرخ ألماً كلما لمسه أحد.

اتصلت بالمرضة جودي لي في عيادة الدكتور غلادر، فطلبت مني احضار بن الى المستشفى. ترددت في الامر وأخبرت غرانت، ثم اتصلت بالمرضة وأبلغتها أننا قررنا عدم أخذ بن الى المستشفى. قلت لها: «انه مريض جداً ويحتاج الآن الى أن يكون في البيت.»

وبدا أنهما فهمت ما أعني.

وذات يوم زارتنا رئيسة قسم التمريض المنزلي. وكانت الممرضات يتناوبن على خدمة بن ٢٤ ساعة في اليوم، وأظن أن إحداهن أخبرتها أن نهاية بن غدت وشيكة.

سألتنا السيدة هل نحتاج الى أي شيء. فترددتُ لحظـة ثم سألتهـا: «هل شاهدتِ كثيراً من الناس يموتون؟»

أجابت: «نعم.»

قلت: «ماذا يجب أن أتوقع؟ كيف هو الأمر بالنسبة اليهم؟»

أخبرتني أنها تحدثت الى كثير من المرضى الذين أشرفوا على الموت ثم شُفوا.

قالت: «يتحدث هؤلاء عن راحة غمرت كيانهم، وعن نور يقول بعضهم إنه كضوء في نهاية نفق مظلم، ويقول آخرون إنه كضوء ساطع في زاوية غرفة. لكنه في جميع الحالات نور طالعهم. وجميعهم شعروا بالتردد بين سلوك سبيلين: يـودون اللحاق بالنور لكنهم لا يريدون مغادرة أحبائهم. إن أفضل ما تفعلينه يا كريس هو إعلام بن أنك لا تمانعين رحيله وأنك تحبينه.»

(°) Herpes zoster or shingles

تابَعتْ الساعة دقاتها. وظلت الصحف توضع على بابنا كل يوم. واستمر علماء الأرصاد الجوية يصدرون تقديراتهم لحال الطقس كل يوم.

أردت إيقاف الزمن، وإيقاف الشمس في كبد السماء. لكنني لم أستطع ذلك. ثلاثة أيام كانت تفصلنا عن عيد الاستقلال في الرابع من يوليو (تموز).

ومذ قررنا عدم ادخال بن المستشفى دأبتُ وغرانت على تخصيص ساعتين أو ثلاثة ساعات له وحده كل يوم. كنا نجلس قرب السرير في غرفته، تلك الغرفة الرائعة المزينة بالملصقات الرياضية ونماذج الطائرات، فنلعب معه أو نقرأ له قصصاً مشوقة أو نتحدث اليه. أردنا من كل ذلك أن نكون معاً.

وذات ظهيرة حين استيقظ بن شعرت كأن الحياة بدأت تغادره سأل: «أماه، هل لك أن تعطي جدي هذه؟» كان ينظر الى نموذج سيارة سباق.

قلت: «طبعاً يا بن.»

لاحظت أنه يود أن يتكلم وأن الكلام صعب عليه.

سألته: «هل سمعت يوماً بشيء يدعى وصية؟» فأومأ بالنفي.

قلت: «حسناً، عندما يشعر بعض الناس بدنو أجلهم يودون اعطاء أحبائهم أشياء خاصة يعزّونها. لذلك يكتبون رغبتهم ويوقّعونها. تلك هي الوصية. فهل تحب أن تفعل شيئاً كهذا؟»

أومأ بالإيجاب.

قال غرانت: «ماذا لو أشرت الى أشيائك الخاصة الموجودة في غرفتك وأخبرتني من تود اعطاءها.»

تناولت القلم لأدون ما يقول فيما وقف غرانت وراح يمشي في انحاء الغرفة. وأشار بن الى نموذج لسيارة «جيب» أراد أن يكون لأخيه آبر. كان هناك شيء لكل واحد منا، لوالديه وأشقائه وجدوده وأبناء عمومه وأخواله.

قال بن: «اكتبي يا أماه. دراجتي أعطيها لأخي بو.» ورحت أكتب ودموعي تنهمر فوق وصية بن.

وعندما اكتملت الوصية وقعها بن في ٢ يوليو (تموز) ١٩٨٦. كان توقيعه بسيطاً كتوقيع طفل وواهياً كتوقيع رجل عجوز.

في طرفة عين

قاسى بن آلاماً مبرحة طوال الليل. كنت أسمع الممرضة وهي تفتح باب الخزانة ثم تقفله مرة تلو أخرى لتحضر مزيداً من الأدوية. حفرت تلك الأصوات في ذاكرتي ثلماً أبدياً.

جلست مع بن في الصباح. ورحنا نزيد الجرعة المسكنة للألم ساعة بعد

ساعة. ولم تنجح الأدوية في تسكين أوجاعه إلا بعد حلول الظلام ليل ٣ يوليو (تموز). كنا آنذاك وحدنا في الغرفة.

قلت: «لقد بدأ الستار الأسود يرقّ، أليس كذلك يا بن؟»

هز رأسه ثم قال: «ألن أشعر بالألم يا أماه؟» رفعت شعره المتدلي فوق جبهته وقبلته. ثم قلت له: «لا يا بن، لن تشعر بأي ألم. ليس بعد الآن. وليس هناك ما يخيفك الآن. ستشعر كأنك تعود الى البيت من رحلة طويلة. أتذكر؟ سوى أن عودتك لن تكون الى هذا المنزل، لكنك ستشعر بالدفء والراحة كأنك في البيت. وقريباً جداً سنكون معك، والدك وبو وآبر وأنا. سيمر الوقت كطرفة عين قبل أن نجتمع ثانية والى الأبد. سيحدث هذا بسرعة خاطفة، تماماً كطرفة عين.»

قال: «أنا... أحبك... يا أماه.»

واغمض عينيه. وجلست أحدق الى وجهه وأمسد شعره بحنان.

همَست في أذن الممرضة لدى دخولها الغرفة: «النهاية غدت وشيكة، أليس كذلك؟»

فردت: «نعم، ولكن من الصعب تحديد الوقت. ربما غداً.»

أخبرت غرانت بذلك فأتى وجلس بجانب سرير بن الذي تململ وفتح عينيه.

قال غرانت: «بن، أود أن أقول لك إني... إني فخور بكونك ابني.»

وانهار الدمع مدراراً من عينيه. فأضاف: «حاولت أن أكون أباً صالحاً وأن أعلمك التمييز بين الخير والشر. لكنك أنت من علمني ذلك. علمتني الكثير. علمتني ان أقدر قيمة الحياة ونحن نعيشها. علمتني الايمان والركون الى الله وإن تكن النهاية غير ما اشتهيت.»

قال بن: «أبي... أبي... لا عليك... أعرف ذلك.»

لكن غرانت تابع من غير أن يستطيع لجم دموعه: «أتعرف يا بن، لقد أردت دائماً أن أكون أباً. منذ نعومة أظفاري أردت أن أكون أباً. تزوجت والدتك ومنَّ الله علينا بك وكنا في غاية السعادة. كنت أحلم بأشياء كثيرة نفعلها معاً. حسناً، يبدو الآن أننا لن نتمكن من القيام ببعض تلك الأشياء. سأفتقد ذلك يا بني. ولن يمضي يوم لا أشتاق اليك. جميعنا سيفتقدك يا بن. ولكن مهما بلغ شوقنا اليك فأودك أن تعلم أننا لا نمانع في ذهابك. واني أعني ما أقول. حقاً أعنيه. لكني لا أستطيع أن اتركك تذهب... من دون أن أخبرك... كم أحبك.»

مال بن نحو غرانت وطوقه بذراعيه واحتضنه. كان غرانت غارقاً في بكاء مرير.

قال بن: «أحبك يا أبي... أحبك... أحبك.»

قبّله غرانت وخرج من الغرفة مسرعاً. لم يتحمل البقاء بجانب فراش موت

ولدنا. وأنا لم أتحمل مغادرته.

بقيت وحيدة مع بن وعلمت أننا سنكون آخر المودِّعين. لقد حانت ساعة الفراق لكننا رحنا نحدق كل في عيني الآخر من دون أن ننبس ببنت شفة. كانت معاناتنا أكبر من الكلام.

ضغط بن يدي وعيناه مغمضتان ثم استسلم لنوم عميق.

وبعد حين جاءت الممرضة وأخبرتني أن من الأفضل لي أن آخذ قسطاً من الراحة. قالت: «ستحتاجين الى كل قواك لاحقاً.» طلبت منها أن تبلغني أي طارىء يحدث.

في الخامسة مساء جلس بن فجأة في فراشه، فاستدعتنا الممرضة. وعندما دخلنا غرفته رأيناه ممدداً ثانية. كانت عيناه مغمضتين. جلست الى يمينه وجلس غرانت الى جانبي. أحطت بن بذراعيّ وهمست في أذنه: «بن، أنا وأبوك هنا. نحن نحبك كثيراً.»

شعرت بجسده يسترخي قليلاً.

قلت: «بن هل ترى النور؟ النور الدافىء المريح. استرخِ الآن واتبعه. ستكون بخير.»

تراخى جسده فجأة وشعرت بمدى الألم الفظيع الذي ينزاح عن كاهله. انفتحت يده على السرير وراحته الى أعلى. فمددت يدي عفوياً وتناولتها، تماماً كما كنت أفعل عندما كان صغيراً أخاف عليه أن يقع.

ثم تلاشى خوفي سريعاً كما حلَّ بي. انكفأت الى الوراء واستندت الى غرانت.

كان بن يملأ الغرفة. كان يحوطنا من كل جانب، محباً عطوفاً. وها هو تخلَّف برهة ليودعنا. ليقول لنا ألا نقلق وألا نخشى شيئاً اذ ليس هناك ما يخيف.

إنطلقْ الى النور يا بن.

إنطلقْ الى النور.

ضمة واحدة

توفي بن في ٤ يوليو (تموز). وفي اليوم التالي شعرت بفراغ رهيب يلف كياني. إنه اليوم الأول أقضيه بعيدة عن بن منذ تسع سنوات. تمددت على فراشه أتنسم رائحته، وأغمضت عينيّ مراراً محاولة أن أطبع في ذاكرتي تعابيره الحبيبة.

لم نشأ أن نتبع شعائر المآتم المألوفة. أردنا شيئاً يعكس خصائص عائلتنا، يعكس الحياة. لذا، بدلاً من عربة الموتى والليموزين السوداء، وضعنا تابوت بن المصنوع يدوياً من خشب الصنوبر في مؤخر سيارتنا التويوتا البيضاء.

اخترقت أشعة شمس الصيف الساطعة نوافذ القاعة التي سجي فيها جثمان

بن والتي امتلأت بالزهور وبالأصدقاء الذين جاؤوا يلقون نظرة الوداع الأخير.
ألقت الجدة أويلر كلمة تأبين مؤثرة، ثم تحدث غرانت ليضع دقائق عن بن. كان صوته قوياً فخوراً، ولكن خانته العبرات المنهمرة على وجنتيه.

أود القول اني وجدت عزاء في زوجي وأولادي الباقين. لكن ذلك غير صحيح تماماً، على الأقل في البداية. شعرت أول الأمر بهوة فارغة كبيرة في داخلي لم يقوَ أحد على ملئها.

وواجه بو الواقع الجديد بصعوبة كبيرة بحيث لم ينم جيداً لعدة أشهر بعد وفاة بن. وكثيراً ما كان يستيقظ مذعوراً من جراء الكوابيس. وأعتقد أنه سيصبح



عندما يكبر رجلاً رحيماً من جراء الآلام التي قاساها في ما مر به من أحداث.

أما غرانت فكان رد فعله الانصراف الى العمل. وقد ملأني نجاحه فخراً وخصوصاً عندما اختير ليحل محل الدكتور رازباند رئيساً لجمعيتنا. واعتاد الناس اللجوء الى غرانت ملتمسين النصح كما كانوا يفعلون في عهد رازباند. وهم يقولون إن غرانت يتفهم مشاكلهم ويعالجها من صميم قلبه.

أما أنا فقد عاودت نشاطي بادئة بوضع قائمة جاء في بندها الأول: «فتشي عما يسعدك.» وعندما فعلت وجدتني أعود كلياً الى الأمور التي كانت تمنحني السعادة في السابق. حدث ذلك بعد سنة ونصف سنة من وفاة بن حين كنا عائدين من رحلة تزلج. نظرت حولي فرأيت الناس يبتسمون والسماء زرقاء والشمس ساطعة وكل شيء على ما يرام.

مدَّني إدراك هذا الواقع بشعور من الراحة والاطمئنان. فالغد ملكي أقضيه مع أبنائي الثلاثة وزوجي المحب. بدا كل شيء على ما يرام.

لكني ما زلت أفكر في بن الذي، وإن قضى، فإن عاطفة الأمومة في قلبي باقية له أبد الدهر.

تصف كلمة «ثكلى» الام التي فقدت ولداً. لكن الأم تبقى أماً وإن ثكلت. فهي تحمل طفلها في أحشائها وتشارك في أعجوبة الحياة عندما تلده. ولا يمكن أن يضمحل كل هذا الحب وكل تلك التضحية من دون أثر يذكر.

ولأنني أم فأنا على يقين بأن الحياةلا تتوقف. قد تتبدل أو تتغير أو تأخذ شكلاً جديداً، لكنها لا تنتهي.

وأعلم حق العلم أني سأرى بن يوماً. كما أعرف أن شمل عائلتنا سيلتئم ثانية. لكن ذلك لا يعني أني لن أتخلى عن العالم كلِّه من أجل ضمة واحدة.

كريس أويلر ■

بالاشتراك مع لوري بكلنيد وبيث بولسن

ترجمة فريد شديد

متشائم ومتفائل

ذهب متشائم ومتفائل في رحلة لصيد البط. وبعد الطلقة الأولى ارسل المتفائل كلبه الجديد لاحضار الطريدة. فركض الكلب فوق الماء وأحضرها. ولم يعلّق المتشائم على الامر. ثمَّ أحضر الكلب الطريدة الثانية فالثالثة بالطريقة ذاتها - مشياً على الماء - والمتشائم محافظ على صمته. وأخيراً نفد صبر المتفائل فسأل رفيقه: "ألم يلفتك أمر غريب في كلبي الجديد؟"

فأجابه المتشائم: "بلى، انه لا يجيد السباحة."

ب.ف.

كتاب الشهر

إقتحموا

لم يسبق أن اقتحم أحد كامل مجاهل نهر الأمازون العظيم الغامض. فعمد فريق من المستكشفين الى تسلق أعالي جبال الأنديز، فبلغوا منبعه وانحدروا في قوارب تجذيف مندفعين فوق الشلالات والمنحدرات المائية في أحد أخطر أنهار العالم. ومن بقي من الفريق ليتابع المغامرة كان عليه أن يجذف حوالى ٦٠٠٠ كيلومتر في

مجاهل الأمازون



حوض الأمازون للوصول الى الأطلسي. كانت تلك مغامرة أصيلة قاسية حتّمت على أعضاء البعثة الصامدين بذل أقصى طاقاتهم لقهر نهر جامح شديد المراس.

فاذا كتب لهم البقاء أحياء فسيكونون أول من اقتحم أعظم أنهار العالم، متتبعين مجراه من منبعه الى مصبّه.

اقتحموا مجاهل الامازون

لو توقفنا قليلا للتفكير في تلك المغامرة لربما أدركنا الحماقة الرائعة التي كنا مقدمين عليها. فقد عزمنا على تحدي نهر مزبد زاخر بالشلالات والمنحدرات المائية هو أحد أشد الانهر جموحاً وغدراً في هذا الكوكب، بطاقم يفتقر الى مقدار كبير من الخبرة.

ولكن عوض مواجهة هذه الحقائق المرة شربنا نخب النجوم وأرسلنا تحية الى صقيع ليل الأنديز. ثم شرعنا في التحضير لرحلتنا. اذا سارت الأمور وفق الخطة المرسومة فلن نغادر النهر الا وقد اجتاز القارة بكاملها الى مصبّه.

يقع نهر الأبوريماك عند منبع الامازون. وخطره ليس في حجمه وانما في صخوره وانحداره الشديد. قد لا يفقد المرء وعيه بلطمة موجة عملاقة، لكنه قد ينشدُّ الى شرك حيث يعلق تحت صخر أو يُمْتصّ في "مصفاة" مغمورة من جلاميد، فلا يجد خلاصا.

ولحسن حظنا لم يضع قائد طوفنا الاخفاق في حسابه. وكان بيوتر شميلنسكي رجلا ناحلا مفتول العضلات وفي عينيه الزرقاوين برودة ورباطة جأش كعيني جرو ذئب. وهو من أشد الرجال الذين عرفتهم تصميما وبأسا. كان يحضّنا على النهوض قبل الفجر ويبقينا في النهر حتى ساعة متقدمة من النهار. وهو اكتسب بنفسه مهارة فائقة في قيادة زوارق الكاياك[1] وكانت لديه غريزة فذّة تجتذبه الى مساقط المياه المزبدة. كان يحسّ النهر يجري في دمه ويكنّ له الاحترام، كقائد يجلّ عدواً جديرا بالاكبار.

لم ينته اليوم الثاني الا وقد أكرهنا شميلنسكي على المجازفات وصنع منا طاقما لا بأس في كفايته. ومع أننا لم نكن أقوياء الا أننا بتنا قادرين على التجذيف معاً كفريق منظّم، نضرب بمجاذيفنا باهتياج مسعور استجابة لتوجيهاته الملحّة.

كانت وظيفتي "سائقا" في طوفنا اذ عُهد الي في استكشاف المنحدرات المائية بقدميّ قبل اقتحامها. لكن الحقيقة أن شميلنسكي هو الذي تولى الاستكشاف فيما كنت أنا أجر نفسي وراءه. ولكم زلت قدماي على الصخور الملساء، حتى اصطبغت ساقاي بعد يومين بلون أرجواني مزرقّ وغشت القروح والندوب وجهي ويديّ.

وندب شميلنسكي نفسه لعمل لا يحسد عليه هو تعليمي سبيل انتقاء مسار آمن عبر نهر الأبوريماك المتعرج. وكنت كلما طلب مني انتقاء طريق أختار دربا لو اقتفيناها لأدت بنا الى هلاك محتم، كأن نتسمّر تحت "مصفاة" من الجلاميد. كان

(١) هي زوارق تجذيف طويلة قليلة العرض يتسع كل منها لمجذف واحد.





(الى اليسار) فريق البعثة
عند منبع الأمازون
على علو حوالى ٥٢٠٠ متر.
(فوق) على نهر الأبوريماك،
بيوتر شميلنسكي يسترشد
من صياد سمك محلّي

شميلنسكي ينظر الي آنذاك باحباط يائس ثم يروح يدلني على طريق أكثر سلامة. واذ نستذكر الانعطافات والتوقفات والانطلاقات التي يتعين علينا القيام بها خلال اقتحامنا الفعلي للمساقط المائية كان يخاطبني بلغته الانكليزية الركيكة. فتجري محادثتنا كالآتي:

"حسناً يا جو، صخر بوينتي."

– صخر. بوينتي.

"انه قاتل من غير ريب. أضرب أنا بمجذافي، فتتوقف أنت. ننعطف الى اليسار ثم نستقيم في سيرنا. نقتحم. إننا نكافح حفاظاً على حياتنا. انه قاتل، لكنه ليس مشكلة."

– صخر بوينتي، قاتل، لا مشكلة.

ولكن ما ان ندخل أحد المساقط المائية حتى تتبخر خطتنا الايقاعية المرسومة والمدروسة في أذهاننا، فيضبط شميلنسكي تجذيفنا بأوامره الحازمة التي يصدرها بنبرة قاسية جافة.

في اليوم الاخير لاندفاعنا نحو جسر كونياك أخضع نهر الأبوريماك شميلنسكي لاختبار عسير كقائد ومعلم. فهناك واجهنا أسوأ منحدراتنا المائية. وهو كان في الواقع سلسلة من مساقط "الدرجة الخامسة" التي تنذر بعواقب مميتة في حال حصول صعوبات فنية. وتعتبر مساقط الدرجة الخامسة قريبة من الحد الاقصى للمياه القابلة للاقتحام.

استكشفنا هذه السلسلة البالغ طولها حوالى ٨٠٠ متر على مدى ساعتين. وبعد ذلك انتقى شميلنسكي خط النزول. كان هناك جلمودان يشكلان مسقطا ضيقا في أعلى السلسلة. واذ يشق النهر طريقه عبرهما يتفجر كالوقود المندفع من مكربن سيارة ويتساقط على شلال قصير مكونا في الاسفل "سجّانة" هي موجة تدور على ذاتها. والذين يعلقون في شرك السجّانة يدورون بضع دورات جنونية قبل أن يتسنى لهم التخلص منها.

وتحت كل ذلك تزبد المياه الكدرة الهائجة التي تدرك بمجرد النظر اليها انها قادرة على تهشيمك وارسالك الى البيت في كرسي للمعاقين.

قال شميلنسكي: "إنه قاتل."

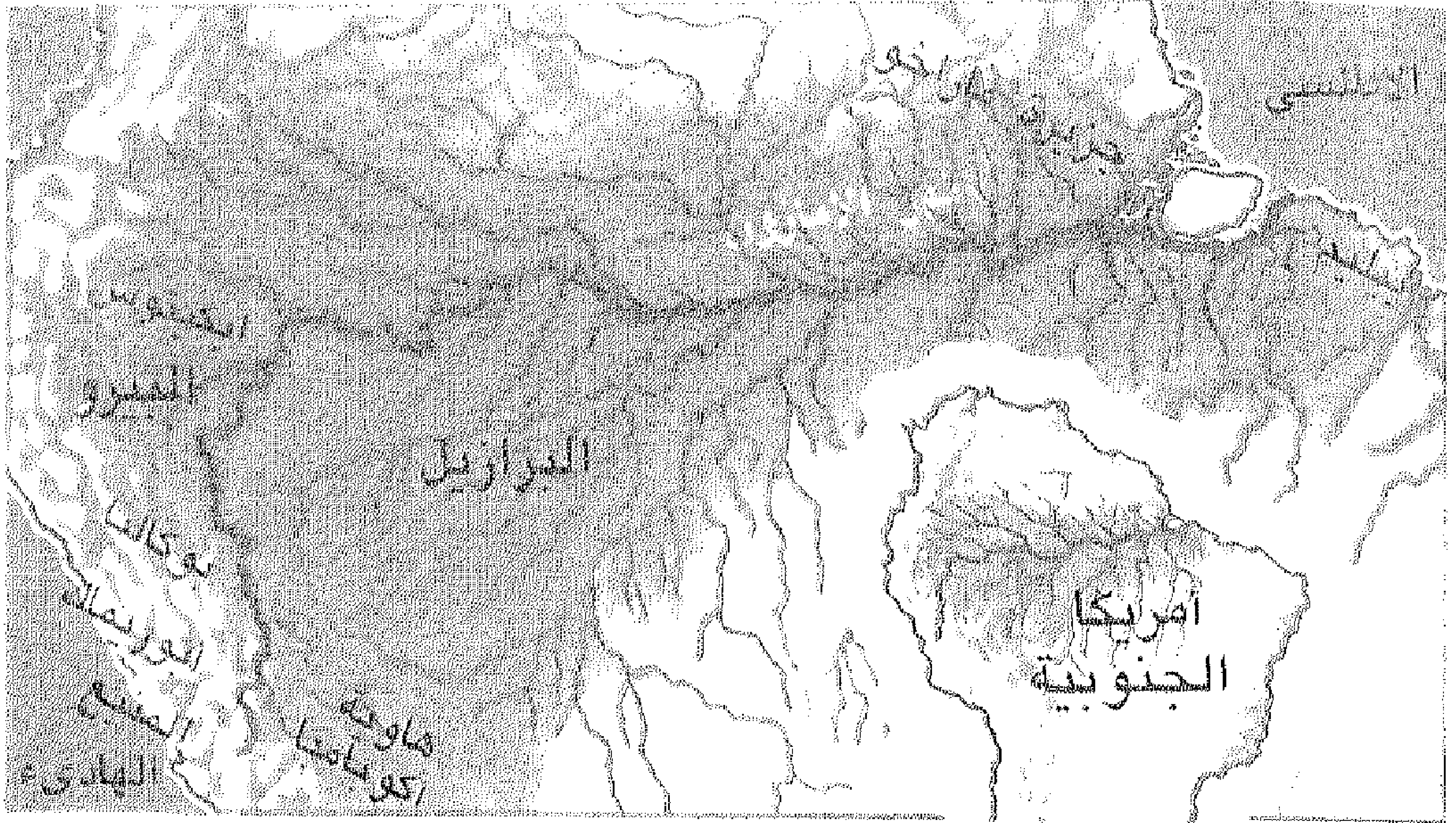
وكنت أعرف الرد الصحيح: "لا مشكلة."

صعدنا الى طوفنا وجذفنا الى الوراء متملصين من الدوّامة واستدرنا عكس مجرى النهر، (في التجذيف ضد التيار تسنى لنا ضبط الطوف الى حد ما) ثم أدرنا مقدم الطوف ودخلنا ببطء مجرى الماء المتسارع.

وفيما اندفعنا كلنا فوق الشلال أحسست انا كمن يهبط في قطار أفعواني سريع في مدينة الملاهي. وانتابني شعور مرضيّ لذيذ كمن يهبط في الفراغ. ارتفعت الامواج جدرانا حولنا ورمتنا على جلاميد عدة. وكانت أصوات ارتطامنا بالصخور تطغى على هدير النهر.

فجأة وجدنا أنفسنا مسمَّرين الى أحد الجلاميد وقد مال الطوف على جنبه. فتسلقنا الى الجانب المرتفع والشلال يهدر عند أقدامنا. وحدّقت الى صخر حاد كالسكين في أسفل الشلال، وتشبثت بالطوف بكل قوتي. وتعالى صراخ شميلنسكي يائسا وملحاحا محذرا كما لم أسمعه من قبل. واذا بنا بعد لحظات ننساب بهدوء في النهر تحت الشلال ونحن نلهث مجهدين. ولفّنا الصمت ونحن ماضون في المياه الساكنة وكأننا تمازجنا والنهر في كيان واحد ساكن. تمر بنا الجبال والجَلْد مواكب لا تلبث أن تغيب وراءنا.

قال شميلنسكي بعد برهة من التقاط الانفاس: "احسنتم يا شباب! ممتاز! كدنا ننقلب، لكننا لم ننقلب." ثم صافحنا واحداً واحداً فغمرنا الابتهاج بانجازنا الرائع.



من قمة جليدية في آعالي جبال الانديز، انطلق أعضاء البعثة في مغامرتهم لتتبع نهر الأمازون عبر القارة.

قال شميلنسكي: "ليست الفكرة أن نقهر النهر، فالنهر ينتصر دائماً، وهو لا يبالي. نحن نحاول اقتحام النهر لأن بنا حاجة الى المحاولة. المياه المزبدة تسري في دمنا. انه شيء لا يُنسى أبداً."

في تلك الليلة دلفت الى خيمتي منغلقاً على مخاوفي وحاولت القراءة. ولكن سرعان ما ألقيت الكتاب جانباً. كنت مضطرب الفكر. فقد طلبت البقاء على الطوف حتى اقتحام كامل النهر الزاخر بالمساقط المائية وحين استجيب طلبي لم أعد مقتنعاً بأنني أريد ذلك حقاً. فبدأت تنتابني كوابيس مخيفة أراني فيها أغرق في اللجج من دون أن أموت فعلاً. وبدأت أدرك الى أي حد يبعث النهر الخوف في النفس.

البعثة الرائدة

بدأت مغامرتي الغريبة باتصال هاتفي تلقيته من أحد الغرباء فيما كنت جالساً في مكتبي أسعى الى اكمال مقال أكتبه لصحيفة "سان فرنسيسكو كرونيكل." كان الرجل من جنوب افريقيا ويعتزم أن يصبح أول بشري يجتاز نهر الأمازون، أعظم الأنهار، من منبعه الى مصبه.

تنطلق البعثة في أغسطس (آب) ١٩٨٥ متسلقة الى حقل من الثلج في أعالي

جبال الأنديز حيث منبع الأمازون. ومن هناك يركب الفريق زوارق الكاياك المصممة للمجاري العنيفة ويجذف مسافة ٨٠٠ كيلومتر نزولا في أحد أخطر مساقط المياه على الأرض. ولدى بلوغ منطقة الأدغال تبدل هذه بزوارق كاياك بحرية لقطع مسافة ٦٠٠٠ كيلومتر الى المحيط الاطلسي.

أخبرني مكلِّمي أن بعض الاصدقاء أشاروا الى أني قد أستطيع المساعدة في جمع المال اللازم من أحد الناشرين على أن أكتب لاحقا عن البعثة. فاذا قررت الانضمام فسيتعين علي مرافقة الفريق عن كثب: في شاحنة مساندة أولا، وعندما تنتهي طريق الآليات أرافق البعثة في طوف أو زورق نهري أو أي شيء آخر.

درست الخريطة بدافع الاستطلاع. لقد رُسمت الجبال زاهية باللون البرتقالي المتوهج، والغابات الغائمة بالزهري والذهبي الصارخ، والأدغال بالأخضر.

وثملت بتتبع الخط الازرق الذي يرسم الرحلة. وسحرتني أسماء الأنهر: أبوريماك، يوكايالي، مارانيون، أمازون. انها تثقل اللسان، لكنها حافلة بالاغراء.

ورأيتني مأخوذاً بالبعثة. فهي ستتسلق الجبال وتقتحم الأنهر الجامحة، ومنها ما لم يقتحمه أحد من قبل، وستسير في مناطق لم توضع لها خرائط مفصلة بعد، مثل "المنطقة الحمراء" حيث كانت حكومة البيرو تخوض نزاعا شرسا مع ثوار "سانديرو لومينوسو" (الممر الساطع). كانت المنطقة الحمراء خاضعة لنظام طوارىء ومقفلة في وجه الغرباء، فتعين على البعثة التسلّل اليها خفية.

ولم اكن أنا مؤهلا للرحلة. صحيح أنني أتكلم الاسبانية وأنني كنت في وضع جسدي لائق، انما لم يسبق لي أن ركبت طوفا وانحدرت في مساقط الأنهر، ولم أكن سباحاً ماهراً. باختصار، لم أكن "مستكشفا." فلي صديقة، ونحن على أهبة الزواج. وان تكن وظيفتي غير مرموقة الا أنها كانت مضمونة. لذا فان رجلا مثلي ليس أهلا لمغامرة في نهر الأمازون.

ولكن لازمني شعور بأن حياتي هي في طور انتقالي، بعيدة قيد خطوة عن تحقيق ذاتها. وهكذا، بعد ستة أسابيع من تلقيّ الاتصال الهاتفي الأول، تركت وظيفتي وودعت صديقتي وركبت طائرة الى ليما عاصمة البيرو وأنا محموم مبلل بالعرق من جراء الحقن الكثيرة التي تلقيتها في الليلة السابقة.

وما لبثت أن وجدت نفسي في مؤخر شاحنة تتسلق جبال الانديز العالية وتعلو وتهبط في الطرق الوعرة. كانت طبيعة الأرض هناك شبيهة بما في القمر: مسطحة، خالية من الشجر، تطوقها قمم رمادية ناتئة حادة. وعلى ارتفاع ٤٥٠٠ متر يهبط مستوى الاوكسيجين في الهواء الى نحو نصف معدله على سطح البحر. فأحسست نبضاً في رأسي، وفي اللحظات التي جلا فيها الجو كان نور الشمس يخز عينيّ.

في سبيل الابحار في نهر الأمازون من منبعه الى مصبه للمرة الاولى في التاريخ، كان علينا اكتشاف مصدره الكامن في تلك الاعالي الجرداء جنوب البيرو. ولكن الى الآن لم نعثر الا على الغبار الذي ذرته الريح المولولة داخل أفواهنا وآذاننا وعيوننا ومسام أجسادنا.

الى المنبع

جلس الى يميني بولوني فظ في الثلاثين يدعى زبيغنيو بزداك، ربع القامة، ممتلىء البنية، ذو لحية حمراء عارمة وشعر أشقر. قال لي: "نادني زبيشك، فلفظه أسهل."

وهو أخطأ في تقديره، لكنه لم يكن يبالي لتعثري في لفظ اسمه. كان مصوراً فوتوغرافياً غادر بولونيا قبل ست سنوات مع صديقه بيوتر شميلنسكي الذي شارك في تنظيم رحلتنا، لخوض الأنهر في زوارق الكاياك في أمريكا الجنوبية. وحين أعلنت الحكومة البولونية في العام ١٩٨١ حل نقابة "التضامن" كان بزداك وشميلنسكي في أمريكا الجنوبية، فاختارا الذهاب الى الولايات المتحدة بدل العودة الى بلادهما.

وكان تيم بيغز الآتي من جنوب افريقيا، جالساً قبالتي وركبتاه مثنيتان تحت لحية صنو لحية أبراهام لنكولن. انه في الثالثة والثلاثين من العمر، ممتلىء العضلات، خبير بقيادة زوارق الكاياك مسافات طويلة. وكان يقضي أمسياته في مطالعة الكتب الدينية وقد تهيأ للاستقرار مع زوجته وانجاب الاولاد. لكنه حسِب أن لديه وقتاً لرحلة واحدة أخرى، خصوصاً مع صديقة ومواطنه الجنوب - الافريقي جيروم تروران أحد أبرز مجذفي الكاياك في العالم.

والى جانب بيغز جلست الدكتورة كايت دوران وهي تجيل نظرها معاينة الارض القاحلة وأسنانها تصطك. وصاحت بصوت علا هدير الشاحنة: "عجباً، لماذا أتيتُ الى هنا؟"

فأجابها بزداك صائحاً مثلها: "لأن الحياة هنا أفضل من حياتك المملة في البيت."

كانت دوران طبيبة في لندن أمضت السنة السابقة في اجراء أبحاث في الطب الاستوائي وطب المرتفعات. وحضَّرت عدة طبية خاصة لمعالجة أعضاء الفريق من الاصابات وحمايتهم من الملاريا والكَلَب والطفيليات المعوية ولدغات الحيات وسوى ذلك من الاصابات المخيفة.

وكنت الأمريكي الوحيد في البعثة. ووجدتني تعساً أكاد أتجمد من البرد وقد طغا علي الغثيان بفعل الارتفاع. فهذا المستوى - ٤٥٠٠ متر - هو أعلى من أي نقطة في الولايات المتحدة. ولدى مشاهدتي المناطق الريفية الموحشة من الشاحنة المترجرجة

ارتعبت اذ تبادر الى ذهني أني لم أدرك ما أنا مقدم عليه. وتناهت الي أصوات أفراد البعثة وهم يتكلمون لغات ولهجات متباينة. لقد ضمت بعثتنا تسعة رجال وامرأة واحدة.

من هؤلاء أربعة قدر لهم الوصول الى المحيط.

عصر ذلك النهار نزلنا في واد واجتزنا نهراً ودخلنا ساحة قرية تضم أكواخاً ترابية متداعية. وفي اليوم التالي استأجرنا حميراً وتوجهنا صعوداً في درب مغبرّ عبرناه خلال فترة بعد الظهيرة الحارة. وسجّل مقياس الارتفاع لدينا ٣٨٠٠ متر ثم ٣٩٠٠ ثم ٤٠٠٠.

كان الدرب يرتفع بحدة في جبال الأنديز المتآكلة، فبدأ حملي الثقيل يؤلمني. لكني كنت فخوراً به وبالهوية التي يضفيها عليّ. فقد كان بزداك حاملاً آلات تصوير وأفلاماً لها، ويتم بيغز حاملاً كتبه، وشميلنسكي خرائطه التي يكب عليها كل مساء. وحملت أنا مفكرتي وصوراً من البيت.

ان الطريقة الفضلى للتهيؤ للارتفاع هي شرب مقدار وافر من الماء والصعود ببطء. فعلى ارتفاع ٤٥٠٠ متر يتعرض المرء، اذا فاته التكيف الصحيح، لخطر الاصابة بالاستسقاء الرئوي والدماغي الذي قد يتسبب في الوفاة.

وكنا نحتاج الى أسبوعين لنتكيف جيداً، لكننا كنا متأخرين عن برنامجنا المقرر وعزمنا على بلوغ قمة "الفاصل القارّي"[٢] خلال أيام. فارتقينا الجبل في خط متمعج طويل.

اكفهرّ الجو وتساقط الثلج وعصفت الريح الى حد أنها كانت تعيدني منتصب القامة مهما جاهدت في الانحناء لاتقائها. وفقدت احساسي بوجهي.

شددت عليّ بذلتي المقاومة للريح ورحت أعد خطواتي: واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع... ولدى انتهائي الى الخطوة الـ٧٣١ انبسطت الطريق. ورأيت بيوتر شميلنسكي يرسم خطاً في الثلج ويقول لاهثاً: "الآن نجتاز الفاصل القارّي."

وفي لحظات كتب شميلنسكي الى جانب من الخط: "الهادىء"، والى الجانب الآخر: "الأطلسي." فاجتزت الخط وألقيت حملي. وعلى مسافة ٨٠٠ متر الى الشرق ارتفعت قمة مبقعة بشلال جليدي شاحب الزرقة. انه منبع الأمازون.

في وسط الفاصل انتصب ركام من الحجار ارتفع حوالى مترين، في أعلاه خشبتان ربطتا متصالبتين. وبموجب التقاليد، تقدمت وأضفت حجراً الى النصب. ثم استدرت نحو شميلنسكي وقلت له: "كل الرحلة نزول من هنا."

فرد: "نعم، مسافة ٦٨٠٠ كيلومتر."

(٢) Continental Divide

كانت الجداول تتفجر مبقبقة من الجبال متباعدة حوالى ١٠٠ متر، فتجري ولا تلبث أن تغيب في بطن الوادي. وعلى بعد ٨٠٠ متر من مخيمنا تجمعت الجداول في أول مجرى ثابت في الجانب الشرقي من الفاصل القارّي. ولكن مضت ثلاثة أيام قبل أن نبلغ نقطة على نهر الأبوريماك عميقة كفاية لحمل زوارق الكاياك.

مخاطرات قاتلة

يجري الأبوريماك شمالا غرباً مخترقاً قلب جبال الأنديز، وهو نهر فتيّ جامح يتدفق من قلب جبال فتية وحشية. إنه بعيد عن الحضارة، وعلى ضفتيه قرى وجسور قليلة. في الكيلومترات الثمانين الاولى يتلوى برفق مخترقاً الأنجاد العالية الجرداء، وبعدها ٥٠٠ كيلومتر ينحدر فيها على نحو شبه عمودي هو أكثر من خمسة أضعاف حدة انحدار نهر كولورادو الامريكي في "غراند كانيون" (الوادي الكبير). وقبل انهياله في حوض الأمازون يشق ممراً يزيد عمقه على ١٢٠٠ متر ويمتد كيلومترات.

في لا أنغوستورا (المكان الضيق) حيث لا يزيد عمق النهر على بضعة أمتار، أنزل شميلنسكي وتروران وبيغز زوارقهم الكاياك في الماء. وكنت أنا وبزداك ضمن فريق ثان نضرب سيراً في الأنحاء المقفرة، فيما اهتمت مجموعة ثالثة للمؤن. كان الدرب القديم منبسطاً وممهّداً أمامنا. وفيما تابعنا سيرنا كانت الدلائل قليلة جداً على وجود الانسان في تلك الاصقاع، والعلامات البشرية التي طالعتنا برزت بغتة كصور فوتوغرافية بعيدة عن واقع البيئة: لامة[٣] وحيدة تتدلى من أذنيها خيوط زاهية، دخان يرتفع من وراء قمة، امرأة من الكيخوا تعتمر قبعة مستديرة سوداء وتسير في الدرب مرتدية سترة مصبوغة بالازرق الصارخ وسط قتامة الطبيعة.

وتحتنا نزولا ازداد شق الابوريماك عمقاً في الارض، وبدأ بحارة الكاياك يلاقون فيه تحديا متعاظما. وعلى امتداد مئات الأمتار انتصبت صخور يزيد ارتفاعها على خمسة امتار غاب فيها النهر كلياً. فحمل البحارة زوارقهم ونقلوها فوق الصخور العائقة. واذ نال منهم التعب في الحمل ازدادت مجازفاتهم وأسباب الخطر عليهم.

ذات ليلة عاد شميلنسكي الى المخيم وأنفه مدمى وركبتاه متورمتان، فقد سقط من زورقه وجُرف حوالى ١٠٠ متر عبر ثلاثة مساقط قاتلة.

وبدا عليه القلق أيضاً، اذ بلغه من أحد المنقبين عن الذهب أن هناك رجلين أوروبيين في زورقي كاياك يتقدماننا ١٤ يوماً وهما في طريقهما الى الأطلسي. وأعلن شميلنسكي أننا لم نأت الى أمريكا الجنوبية لنكون الطاقم الثاني في قهر الأمازون، لذلك علينا أن نزيد سرعتنا. انه سباق!

(٣) اللامة حيوان جنوب - امريكي يشبه الجمل لكنه اصغر منه وليس له حدبة.

وكانت زوارق الكاياك تخوض النهر ببطء، وفي بعض الاحيان لم يجد المجذفون أكثر من ٤٥ متراً من المياه الصالحة للتجذيف يحملون بعدها زوارقهم ثم ينزلونها في النهر ليجدوه مليئاً بالمصافي والدوامات الغادرة وقد ازداد عنفا. وكانوا أحياناً يعتبرون أنفسهم محظوظين اذا أتيح لهم التقدم كيلومتراً ونصف كيلومتر في اليوم.

وصلنا أخيراً الى كوزكو حيث تقرر أن ننزل طوفا في النهر نركبه أنا ودوران وبزداك للانضمام الى المغامرة المائية. وتقع كوزكو في واد خصيب، شوارعها مرصوفة بالحصى وجدرانها مبنية بمداميك متداخلة وترتفع حولها جبال رائعة. ان لها تاريخها، أما لنا فهي كانت ملاذاً نأكل فيه وننام ونقلق لما تخبئه لنا المنحدرات الآتية.

استشار شميلنسكي صديقاً اتخذ المدينة مقراً لشركته التي تتعاطى صناعة الاطواف. قال الصديق انه لم يطرق الابوريماك منذ سنتين. فقد اشتد النزاع مع ثوار "الممر الساطع" ولا أحد يعرف في كوزكو ما ينتظره بين جسر كونياك ومستوطنة لويزيانا الباعدة ٣٢٢ كيلومتراً نزولاً.

وفيما كنا ننتظر الدليل الذي سيرشدنا في الكيلومترات الاربعين الاولى، تلقينا أنباء مشجعة ومقلقة في آن. اذ علمنا ان الفريق الاوروبي عدل عن ركوب النهر بسبب الاصابة البالغة التي لحقت بأحد عنصريه، وبلغنا أن ساق الرجُل سحقت بحجر كبير سقط عليه.

لم نتباحث في الأمر. ثم بلغتنا رسالة ثانية تفيد أن دليلنا هرب من كوزكو لأنه لم يشأ ركوب أي قسم من نهر الأبوريماك.

"لا تنظر الى الأسفل!"

بعد اندفاعنا العنيف الى جسر كونياك واقتحام طوفنا أول المساقط المصنّفة "درجة خامسة"، غادرنا المخيم تحت شمس الظهيرة في ثلاثة زوارق كاياك معدّة للمياه الجارفة. وعبرنا أشهر الجسور المعلقة التي بنتها قبائل الانكا. كان الجو حاراً والأرض مقفرة لا يرى فيها سوى لمحات من القمم الصخرية المثقلة بالثلوج.

اتسع مجرى النهر فبلغ حوالى ٤٥ متراً، وارتفعت أمام الطوف أمواج علت حوالى ثلاثة أمتار كأنها جدران خضر. ورأينا أمامنا سحابة دخان وجدنا لدى بلوغها أنها غبار وليست دخاناً. لقد انهالت مئات الأمتار من جدار الوادي في النهر.

وضاق نهر الأبوريماك فجأة على نحو صعقنا فوقفنا واجمين. لقد حُشر مجراه في مضيق لا يتعدى ربع عرضه السابق، ربما ١٢ متراً، مما ركز الريح المعاكسة بقوة شلّت تقدمنا. فعلى رغم الجهود التي بذلناها في التجذيف بقينا مجمدين في أماكننا،

فاضطررنا الى التخييم هناك. لكننا لم نجد حولنا منبسطاً من الارض صالحاً للتخييم، اذ لم نرَ سوى جدران عمودية من الصخر ضاربة في العلاء.

عثرنا أخيراً على كومة صخور بينها فسحات رملية تتسع لخيمة أو كيس نوم. وقبالتنا في النهر كان شلال يسقط ١٥٠ متراً فوق صخور ملساء، أطلق عليه شميلنسكي اسم "شلال الرجاء الاخير." وهو سماه كذلك من باب الفكاهة، ولكن تبين لاحقاً أنه لبس اسمه بجدارة.

كانت أعصابنا متوترة، وانعكس التوتر على عشائنا. بدأ المطر ينهمر بغزارة فهرعنا الى خيمنا. ونمت، لكن صوتاً كقصف الرعد أيقظني. كان ذلك صوت تساقط الحجار المنفلتة من الجدران بفعل المطر.

فكّر بزداك وهو في خيمته: "اذا بقيت هنا فربما سقط علي صخر، واذا خرجت فقد يسقط علي صخر، لكني سأتبلل بلا شك. سأبقى في الداخل."

وتوصل تروران الى قرار مماثل، ونام على جنبه لاعتقاده أن ذلك يحدّ من احتمال اصابة أعضاء جسمه. وحذوت حذوه، واعتمرت خوذتي على سبيل الوقاية. وتوالى انقضاض الصخور حتى مطلع الفجر فلم أذق طعم النوم.

في الصباح تقدمنا جيداً في النهر، فاستعدنا ثقتنا التي فقدناها في الليلة الماضية التي شهدت قصفنا بالصخور. ولكن ما عتم النهر أن انعطف بحدة الى اليسار وانساب في أخدود بلغ من انحداره أن جدرانه بدت كأنها تطبق علينا. كان ذلك عند الظهيرة، لكن نور الشمس لم يبلغ صفحة الماء. وضاق الاخدود في مسقط واحد بلغ عرضه ستة أمتار اندفع عبرها الأبوريماك الحانق متفجراً كبركان ثائر. تلك كانت "هاوية أكوبامبا."

صاح بزداك في أذني: "تسبح في تلك الهاوية فلا تخرج منها الى الأبد!"

كانت جدران المضيق شبه عمودية، ووجدنا أنفسنا في مأزق اذ لم يكن في امكاننا اقتحام المنحدر المائي العنيف ولا نقل الأطواف ولا التسلّق ولا نصب المخيم. فلم يبقَ لنا خيار سوى "ربط" الطوف، وتلك عملية شاقة مهدمة للاعصاب تقوم على ارسال طوف خال نزولا في النهر مسافة ٤٥ متراً كل مرة، أي طول الحبل المربوط اليه. وفيما أمسكت الطوف بحبل قصير في مؤخره، سار البولونيان نزولا فوق جلمود اثر جلمود ومعهما حبل لمقدم الطوف. ثم أرخيت حبلي وركلت الطوف الى الشلال الاول. وما هي الا ثوان حتى كان الزورق يندفع نزولا وهو يتراقص بعنف.

تهيأنا لارسال الطوف في الجزء الثاني من الشلال الثائر. فتسلّق بزداك افريزا ناتئا ممتداً على طول الجدار. وتبعته، لكن الصخر كان زلقاً فلم أجد ممسكاً متيناً، فاذا بي أصاب بما يسميه المتسلقون "أرجل ماكينات الخياطة" التي تعني رجفاناً

شبيهاً بحركة المكبس يستحيل ضبطه. وصاح بي بزداك بصوت علا هدير النهر: "لا تنظر الى أسفل!"

رحنا نتمعّج على امتداد الافريز زاحفين كالديدان حتى وصلنا الى جلمود حيث تسنّى لنا تثبيت أنفسنا محاولين تجاهل النهر الصاخب تحتنا.

أمسك بزداك الحبل وشد مشيراً الى شميلنسكي لارسال الطوف الينا. فلففت ساعديّ حول خصر بزداك وانحنيت الى الوراء لموازنة الثقل، فاستقام الحبل لسبب ما واخذ بزداك يسحب الطوف شبراً شبراً نحونا. ثم أمسكت أنا الحبل وقفز بزداك الى الطوف.

تدفقت مياه النهر الغاضب الى الطوف وضربت بزداك وأوقعته. لكنه نهض وجذّف بالطوف نحو الصخر. وما ان صار على بعد متر ونصف متر حتى قفز منه ببراعة خفيت علي، ونجح في ارسال الطوف المتواثب.

أشار اليّ شميلنسكي بالقفز الى الطوف، لكن الحبل كان حزّ في يديّ ولم أقوَ على تحريرهما. فهز بزداك الحبل وأرخاه فقفزت من علو متر ونصف متر عن الجدار الى الطوف.

ركبنا جميعاً، فجرفتنا المياه الى قلب التيار. فعلا صراخ شميلنسكي محذراً: "الى اليسار، الى اليسار!" انعطفنا الى اليسار فتجاوزنا حفرة بشعة، لكننا رأينا أنفسنا مندفعين الى صخر لم يره أحد، ولو ارتطمنا به لانقلب بنا الزورق.

"الى اليمين، الى اليمين!" تجاوزنا الصخر. ثم: "الى الداخل!" ضربت بمجذافي في العمق فاستدار الزورق يمنة، ولفني جدار من الماء ولم أعد أرى الا بياضاً مزبداً. وضربني الموج بقوة وأوشك الزورق أن ينقلب، فلم تكن لي حيلة الا الضرب بمجذافي في العمق على غير هدى، ثم: "بوم!" وتحررنا من جدار الماء وانطلقنا في اتجاه "ذيل" المسقط المائي والمياه المنبسطة الهادئة وراءه.

كان راكبو الكاياك جذفوا بعيداً الى الأمام وغابوا عن أنظارنا. وتملكنا قلق ممضّ في الطوف، اذ على بعد ١٢٠٠ متر منا بدا النهر كأنه توقف عن الجريان وابتلعه جدار اعترض طريقنا. في العادة يظهر خط أبيض بين النهر والجدار كدليل قاطع على وجود منحدر مائي، وانعدام هذا الخط دليل على أن هناك شلالاً.

قال شميلنسكي: "هذا شر ما نخشاه دائماً. لا مجال للخلاص منه ولا سبيل الى التراجع. حتى وان يكن هذا شلالاً، فالامر الوحيد الذي يمكننا عمله هو الانطلاق الى الأمام."

انطلقنا وكلنا عيون على خط المياه. اقتربنا من نهاية النهر ١٥ متراً ثم ١٢ متراً ثم رسونا الى جانب الجدار. تسلق شميلنسكي الجدار لالقاء نظرة على ما وراءه. ولكن

على ارتفاع أربعة أمتار ونصف متر أفلتت قبضته فسقط في الماء مثيراً رشاشاً عظيماً وانجرفت خوذته الحمراء متواثبة في اتجاه الشلال. فاندفعنا نحوه مجذفين بأقصى طاقتنا وانتشلناه لحظة انحدر الطوف فوق الشلال. ولكن... لم يكن ذلك شلالاً على الاطلاق، بل مسقط طويل هادئ لا صخب فيه، منحدر لكنه مستقيم يجري موجه برفق سلساً متكاسلاً. فيا للحظ!

المتقدم الإعدام

تقدمنا كيلومتراً ونصف كيلومتر فقط في أول يوم لنا في هاوية أكوبامبا، ثم ثلاثة كيلومترات في اليوم الثاني، وفي يومنا الثالث انطلقنا ولا أمل يحدونا في انجاز أفضل.

بعد خمس ساعات من الجهد واختراق أربعة منحدرات عنيفة لم نتجاوز ٧٢٠ متراً. فتوقفنا لتناول الغداء منهكين محطَّمي المعنويات. الى يميننا شرقاً ارتفعت قمة مكسوة بالثلج ذكرتنا بأننا ما زلنا على علو ١٨٠٠ متر شاقة فوق سطح البحر.

استكشفنا النهر أمامنا، فوجدنا أسوأ المساقط التي واجهت أطوافنا الى الآن. كانت هناك أربعة مساقط راعدة كثيفة الزبد لا يقل طول كل منها عن ١٨٠ متراً. فصنّفها ترووران كلا على حدة: "غرفة الرقص،" "مخفوق الحليب،" "المميِّع،" "الرجل الميت."

اتجهنا عكس التيار، ثم استدرنا نحو المجرى فقذفنا النهر في الهواء. وأفاق في ذاكرتي شعور مماثل خالجني أيام المراهقة عندما قفزت بدراجة نارية من جرف صغير.

ضرب الطوف الماء ثم ارتفع واستدار ١٨٠ درجة، فرجعنا الى مسقط "غرفة الرقص." وخلال ذلك تصادم رأسي ورأس شميلنسكي فكدت ان أقع عن الطوف لو لم أتمسك بالشبكة التي تثبت المؤن في قعر الطوف. وما هي الا ثانيتان حتى اندفعنا في قلب مسقط "مخفوق الحليب" وكنت لا أزال ممسكاً بالشبكة.

"الى الامام!" صاح شميلنسكي آخذاً وضع التجذيف. تخطينا "المميِّع" لكننا فقدنا السيطرة على الطوف لدى اندفاعنا في "الرجل الميت" اذ ارتددنا عن الجدار الأيسر فاصطدمنا بصخر واستدرنا ٣٦٠ درجة كاملة ثم اصطدمنا بالجدار الأيمن وحلّقنا فوق أحد الثقوب. فشاهدت للحظة الدوامة البشعة وسط الثقب. وهبطنا نزولاً في مياه هادئة.

جذّفنا الى جلاميد على الضفة ونزلنا من الطوف وجلسنا في سكوت تام. كنا قطعنا مسافة كيلومتر ونصف كيلومتر وبدا أننا قد لا نخرج من الهاوية اذ لم نرَ مياهاً

منبسطة بل منحدرات مائية متعاقبة. وخفض شميلنسكي حصصنا الغذائية الهزيلة الى النصف، على أن نملأ قِدر الطهو بالمادة الفائضة لدينا: الماء.

التهمنا زادنا الهزيل فيما الخفافيش تتدافع فوقنا. واشتمل زادنا على ثلاث علب من التشيلي (لحم مطبوخ بالفلفل الاحمر). وعلبة حساء مجفف وماء، ماء، ماء. ثم تجمّعنا على بلاطة من الصوان نراقب النجوم. في رهبة الليل وسكونه، وسط تلك الأصقاع الموحشة النائية، أحسسنا أننا في مكان جليل لم يطأه قبلنا بشري.

قال تروران: "إن للانهر لغتها الخاصة. نحن لسنا في البيرو. نحن هنا في مكان يتكلم بلغة الدوّامات والتيارات والمساقط والبرك. نعم، لم نقطع اليوم سوى مسافة كيلومتر ونصف كيلومتر، فهل تعرفون مسافة أجمل من هذه؟"

كان فصل الامطار بدأ في أعالي الأنديز وشرع نهر الأبوريماك يتغير يوميا بفعل الروافد فوقنا. فقد يكون في المساء هادئا مسالما، لكنه في الصباح قد يتحول هادرا مهدداً. وهذه التغيرات في "المزاج" أضفت على النهر ميزة كأنما له إرادة ذاتية. انما ما أعطاه خاصة الحياة في النهاية فهو صوته. فكلمة "أبوريماك" تعني "المتكلم الأعظم" بلغة الكيخوا وهذا ما هو فعلاً. انه يهدر.

ظُهر يومنا الخامس في الهاوية تطلعنا الى ما وراء أحد الانحناءات علّنا نجد مياها هادئة، لكننا رأينا المساقط تزداد عرضاً وارتفاعا وشراسة.

عدنا الى التجذيف، ولكن لم يتوقع أحد منا عنف التيار الجاري مباشرة تحت قمة

بيوتر شميلنسكي في شرك منحدرات الابوريماك الشرسة



المسقط التالي الهائل. كنت في الطوف، وفي لحظة خاطفة اذا بالظلمة والسكون يطبقان علي، مددت يدي لأتمسك بالطوف لكن يدي لم تقع الا على المياه القارسة. وحاولت السباحة لكني شعرت كأنما قبضة جبارة تعصرني وتخنق أنفاسي. ثم حاولت أن أتبيّن ضوءاً فشدُدت الى العمق ورحت أنقلب مرة بعد مرة. وفي لحظة هدوء ونقاء فكري أدركت أنني أغرق.

أرخى النهر قبضته عني فجأة فرأيت الضوء، فحاولت بكل قواي السباحة في اتجاهه لكني ابتلعت ماء وشرقته الى رئتي. وعاد النهر وشدّني الى أعماقه. فلفني الظلام واصطدم رأسي بالصخور.

هواء! ضوء!

طفوت على سطح الماء فرأيت جدار المضيق يندفع بقربي، ولمحت تروران في الكاياك عند أسفل المسقط المائي فصاح بي: "اسبح!"

لكن لطمة في ظهري دفعتني الى حضن الماء مجدداً، فدخل الماء رئتيّ عبر أنفي. ثم قفزت فوق شيء صلب فطلعت الى سطح الماء الى جانب تروران.

صاح تروران: "أمسك بوسطي!" فشققت طريقي متلوياً الى مؤخر زورقه ولففت ذراعي حوله بكل ما تبقى لي من قوة خائرة.

في تلك الليلة خامرني شك في ما اذا كان سيقدر لي، أو لأي منا، النجاة من الهاوية التي نتخبط في لججها. أشعلت شمعة ورحت أحدق اليها حتى تلاشى قبسها الاخير. وارتعت حين غمرتني ظلمة النهر فأشعلت الشموع واحدة بعد أخرى. وحين أنطفأت الشمعة الرابعة والاخيرة جلست في الظلمة وعيناي مفتوحتان. وأحسست جسمي يهوي في أعماق لا قرار لها.

"الممر الساطع"

حين دخلنا الوادي الادنى أخيراً شعرت كأننا نجونا من الجحيم. إنما خاب أملنا في اليوم التالي. كان ضوء النهار بدأ يتسرّب الى الوادي، وكنا على أهبة انزال الطوف في النهر في أعلى أحد المنحدرات المائية الكبيرة، حين تناهت الى سمعنا، أنا وشميلنسكي، أصوات أزيز تبعتها طلقات أسلحة نارية خفيفة.

صاح بيغز مشيراً عبر النهر الى ستة رجال فوقنا على بعد بضع مئات من الامتار ينحدرون على جدار الوادي. ركع أحدهم ورفع بندقيته وأطلق رصاصة سقطت في النهر على بعد ٦٠ سنتيمتراً من تروران الجالس في زورقه.

صرخ شميلنسكي: "هيا بنا!"

لم يسبق لي أن شعرت بالامتنان للاندفاع في منحدر مائي كما شعرت آنذاك. في

البدء غمرني ارتباك غامر طغا على الخوف. فأنا لم أتعرض للرصاص سابقاً ولم يحاول أحد قتلي. ومضت لحظات قبل أن استوعب ما جرى فعلا فارتعدت خوفاً، لكننا كنا عندئذ اختفينا في غمار المسقط المائي.

كنا في "المنطقة الحمراء" حيث لجدران الوادي العارية عيون ترى وآذان تسمع. ولشدة اضطرابنا اقتحمنا أحد المنحدرات من دون أن نستكشفه، فانقلب الطوف في "ثقب" وقذفنا نحن الاربعة الى النهر.

رحت أترنّح تحت المياه المتلاطمة. وحين أوشكت على الطلوع الى سطح الماء تساءلت: أتراني سأرمَى برصاصة في رأسي؟

لاح ظل فوقي فأمسكت بالطوف المنقلب وسحبت نفسي تحته، فوجدت بزداك يسعل ويحاول تجفيف مجاريه الهوائية. وسألني بصوت ملح أجش: "أين كايت؟ أين كايت؟"

طلعت رغما عني الى نور النهار.

وما ان قوّمنا الطوف الى الوضع الصحيح حتى هتف شميلنسكي: "أسرعوا!" ورأينا خلفنا، في قلب المنحدر المائي، شيئاً مستديراً يدور في الثقب. كان ذلك رأس كايت. وكان تروران خلفها في المياه الاخف سرعة، فجذف اليها وانتشلها وأسرع بها الينا.

كنا قبلا نسخر من القتال بين الحكومة وثوار "الممر الساطع" ولم يأخذه أحد منا على محمل الجد، جهلا منا وغباوة. كانت المجموعة تعد أشرس التنظيمات الثورية في أمريكا الجنوبية، وهي مسؤولة عن أكثر من ٣٠ الف عملية أسفرت عن مقتل ٦٠٠٠ خلال ست سنوات.

انحدرنا نزولا في النهر بالسرعة القصوى حتى العصر حين اضطررنا الى التوقف لاستكشاف منحدر مائي. تسلّقت وشميلنسكي الضفة ورحنا نعدو بين شجيرات الصبّار. ثم اعتلينا جلموداً ونظرنا الى رفقائنا في زوارق الكاياك فرأيناهم يلوحون باهتياج وإلحاح. ثمة خطب ما.

ركضت الى الطوف. واذ قفزت اليه متخطيا دوران وبزداك هجم رجلان من الغاب، أحدهما يحمل رشاشاً والآخر بندقية قديمة.

بقي حامل الرشاش صامتاً فيما راح حامل البندقية يصرخ كمجنون ووضع فوهة بندقيته على رأس بزداك. فتقدم شميلنسكي ماداً يده اشارة الى رغبته في المصافحة، لكن حامل الرشاش صوّب سلاحه في اتجاهه.

صرخ حامل البندقية: "نحن من الممر الساطع!" كانا حافيين وكل منهما يرتدي سروالا عسكرياً وسترة رياضية ويعتمر قبعة مموهة. كانا يبدوان كعاملين ريفيين لا



(فوق) نصب المخيم في هاوية أكوبامبا.
(تحت) حمل زوارق الكاياك في أعلى نهر الأبوريماك.

كمقاتلين في فرقة عسكرية حسنة التدريب. ثم ظهر من الغاب ١٢ رجلا آخرون.

سأل حامل الرشاش: "هل بلغتكم أخبارنا؟"

أجاب شميلنسكي: "نعم."

تبسم الرجل وقال: "لقد هاجم قائدنا مخيمكم هذا الصباح."

كان شميلنسكي يتكلم الاسبانية بطلاقة وبصوت خفيض. وحاول اقناع المسلحين

بالسماح لنا بالانطلاق، فقال: "نحن لسنا جنوداً."

بدا حامل الرشاش راغباً في الاقتناع. فمشى هو وشميلنسكي وحامل البندقية بعيداً عن مرمى السمع وجلسوا، فيما بقيت أنا وبزداك ودوران في الطوف تحت الحراسة.

بعد لحظات هرع شميلنسكي الى الطوف وأخرج أوراقا تثبت هويته وهوية بزداك على أنهما بولونيان، وهمس لي: "ابق على الطوف، اذا عرفوا أنك أمريكي فسنقع في مأزق كبير." ثم عاد لمتابعة التفاوض.

دام التباحث ساعة كاملة. وأخيراً توجه المتباحثون الى الطوف. كان الثوار يريدون اطلاقنا في مقابل هبة.

قال حامل البندقية: "سمك." فقبل شميلنسكي أن يعطيه خمس علب من مؤونتنا.

"ست علب، "قال حامل البندقية.

"خمس علب،" أجاب شميلنسكي بحدة مذهلة.

– ست.

"خمس. هذا كل ما أعطيك."

بقي شميلنسكي حازماً لا يتزحزح عن موقفه، فكدت أن يغمى علي. فبحسب تفكيري: ما هي الحكمة في أن نقتل بسبب علبة من سمك التنّ؟

وفي النهاية قبل حامل البندقية بخمس علب، وتبسّم. وتبسّم حامل الرشاش. فتنفسنا الصعداء وتبسمنا وتصافحنا جميعا. ثم وثبنا الى التجذيف وانطلقنا مسعورين نحو المسقط التالي من دون أن نلتفت الى الوراء.

وحل الغاب

لفّ أرجاء النهر ضباب رقيق ما لبث أن تبدد، فبانت لنا الهضاب والجبال مكسوة بغابات المطر. لساعة خلت كان الهواء جافا، والآن كثف وعبق الجو برائحة البلسم العطرة الحادة، وراحت الببغاوات تزعق فوقنا. ورأينا كرات بنية شبيهة بجوزات هند ضخمة، فتبين لنا انها قردة تترجح بين الأشجار الباسقة الوارفة والكرمات المتعرشة الملتفة.

ورأينا روافد جديدة تصب في الابوريماك متباعدة حوالى كيلومترين. وارتفعت مياه النهر وتضخم وازدادت سرعة جريانه. لكنه كان يتدفق سلسا عميقا، وانخفض صوته الى وشوشة. وانتصبت على ضفتيه أبراج مراقبة من جذوع الشجر ارتفعت فوق مظلة الغاب الكثيفة الخضراء. كانت ميليشيات القرويين تستخدم هذه الأبراج في حملتها ضد رجال العصابات، لكني كنت أكيداً من أنها تستخدمها أيضا في

مجذفو الكاياك يعبرون تحت جسر معلّق من جسور الانكا مصنوع من العشب المـ...



حماية المساحات الصغيرة المستخلصة من الغاب والمزروعة نبتات الكوكا[٤] التي رأيناها في كل بقعة هناك، تتوهج أوراقها الدهنية في نور الشمس كقطع نقد خضر.

بقيت أمامنا مسافة ٦١٠٠ كيلومتر من النهر، سنجتاز معظمها في زوارق الكاياك. أرعبتني الفكرة، اذ بالمقارنة مع الطوف الثقيل بدا الكاياك مثل حشرة خفيفة لعوب. هنا كان النهر حافلا بدوّامات مزبدة يصل اتساعها الى ١٢ متراً وتعلو دوائرها الخارجية أكثر من متر عن "عيون" قعرها.

كان الخوف من الغرق همي الاكبر. انما كانت لدي هموم آخر. فأخطر المشاكل التي ستواجهني في المسيرة الطويلة الى البحر ستكون التعب والتهاب أوتار معصمي اليدين، وهذا يحتاج الى راحة تامة أو جراحة. كان علي أن أتعلم التجذيف الصحيح باستخدام ساعديّ كنقطتي ارتكاز والدفع بيد واحدة من الخصر الى الامام.

وكثيراً ما رأيتني غارقا في التركيز على هذه الطريقة التقنية الى حد كنت أنسى وجهتي فأجدني مندفعا نحو دوامة أو ضفة أو جلمود. كان تروران يدربني وينهرني مرة بعد مرة: "ادفع، لا تجذب." وتراكمت خيباتي الواحدة تلو الاخرى حتى لم يسعني الا التفكير بيأس: ٦١٠٠ كيلومتر على هذا النحو؟

ما لبثنا أن لوّحنا بأيدينا مودعين نهر الأبوريماك الذي احتضننا طوال شهرين. وانعكست أشعة الشمس الغاربة على جدار الغاب، وتوهجت كل شجرة وكل كرمة بخضارها الفريد.

انتهينا الى منطقة الادغال. ويا للاستقبال الذي حظينا به. كانت الرطوبة في انتظارنا، وتراكم الطين والوحل في كل زاوية وشقّ. وأبى الحطب أن يشتعل والعرق أن يجف والجروح أن تندمل. وتسرّبت رائحة العفن الى مسامنا وأخذت ملابسنا في الاهتراء.

واجتاحتنا جحافل البق والعناكب والصراصير والعث والنحل والدبابير والنمل والقراد والبعوض. كانت تئز وتطن وتدندن وتصول وتجول حول أعيننا وآذاننا وتعضّ أقدامنا. وغرزت خراطيمها المستدقة النهمة في جلودنا التي سرعان ما تورّمت بالقروح. حتى الفراشات المسالمة تجمعت في حشود هائلة وأصبحت مصدر ازعاج، وهبطت على الطوف كبحر من الغيوم الكثيفة المرفرفة.

الى هنا كان تقدمنا مرهونا بالتغلب على عوائق مميتة. وقد شحذت هذه الأخطار هممنا واستحثت تركيزنا. إنما في جو الادغال المشبع بالرطوبة والنتن سيطر علينا الخمول وفترت همتنا وسادنا التوتر، فرحنا نتذمر ونتجادل في تفاهات مثل: من

(٤) الكوكا نبتة يستخرج منها الكوكايين.

سيجلب الحطب، وماذا نطهو للعشاء.

ذات يوم قال لنا شميلنسكي بعد مشاحنات تافهة: "انتبهوا يا شباب، إما أن نتجادل ونكون أفظاظاً وإما أن نتقيد بالمبادىء والانظمة."

كانت هذه قاعدة حملها شميلنسكي من "العالم القديم" وانعكست في العناية الفائقة التي كان يوليها كل عمل يؤديه. فحين كان دوره في الطهو كنا ندهش لأناقته المطبخية الممتازة: أدوات الطعام منضدة في متناول الايدي، الطاسات والملاعق والاكواب مرتبة في صفوف، سكب القهوة، العشاء يغلي في القدر على النار.

كان شميلنسكي يتهيأ كل يوم لركوب النهر وكأنه يتأهب للقتال. كان أول من يستيقظ، فيحزم أمتعته وينزل الى النهر. وبذلته اليومية – ملابس تحتية طويلة وسروال قصير للتجذيف – كانت نظيفة وأنيقة على الدوام اذا قورنت بملابسنا التي بدت كأسمال بالية، مما دفعنا الى الظن أنه خبأ ملابس احتياطية في قعر الطوف.

وفي الصباح اتبع طقساً هو الاكثر إثارة، اذ كان يخرج مرآة صغيرة فيمشط شعره بعناية ويطلي وجهه بمزيج من المستحضرات والمساحيق الواقية من أشعة الشمس، شبيه بالدهان الذي يطلي به محاربو القبائل وجوههم. ثم يتمطى وينفخ صدره ويهاجم النهر كمقاتل. فيمشي مشية حربية ويقبض على المجذاف كأنه رمح لخوض المعركة.

كان النهر في ذروة فيضانه كوحش هائج، مضخماً بمياه موسم الامطار. كان عكراً بنياً كالطين، يندفع هادراً بسرعة ١٩ كيلومتراً في الساعة كهدير الحصى المتساقط من مقلب شاحنة. في الضفة البعيدة كانت كتل ضخمة من التراب تنهال في النهر ومعها أشجار ترتفع ١٥ متراً.

وأقنعتني خبرتي القصيرة في الكاياك في المنحدرات المائية الخطرة بأن من الحماقة أن أحاول التجذيف ستة آلاف كيلومتر في مياه وحش كهذا. وقررت اجتياز المسافة مع بزداك ودوران على متن مركب كبير مسطح القعر ضيقه يبلغ طوله ١٢ متراً، وهو سيحمل مؤن شميلنسكي ويلاقيه حين يتسنى اللقاء. لكني لم أجد طريقة لائقة أعبِّر بها عن جبني، ولذا كتمت خطتي ولم أبح بها لأحد.

بعد ظهر اليوم التالي انفتحت كوى السماء وانهمر مطر غامر أعمى أبصارنا. انه نذير فصل الامطار الذي لا يبعد أكثر من بضعة أسابيع. تحول النهر مرجلاً هائجاً يغلي، وازدحمت فيه جذوع الشجر والأطواف المهجورة وسقوف أكواخ القش وكل غريب من حطام الغاب، تتصادم وتتباعد مندفعة في التيار الجارف، أرعبني المشهد

وجال في فكري أنني لو كنت في كاياك وسط ذلك الخضم لسحقت كحشرة.

وتناقص عدد أعضاء بعثتنا، فالتعب والخوف ومشاكل تأشيرات الدخول على جوازات السفر وسوى ذلك من المسؤوليات استحضرت في نفوس رفقائي الافكار ذاتها التي كانت تراودني. فترووران لم يستسغ فكرة التجذيف عبر كل تلك المنبسطات المائية، وكان على أهبة مغادرتنا ليبدأ التدرب للاشتراك في سباق عالمي.

وبقيت أنا وشميلنسكي وبزداك ودوران. كان من المفترض أن أنزل وشميلنسكي في زورقي كاياك فيما يحاول بزداك ودوران السفر على متن مركب تجاري الى مدينة بوكاليا. لكن اللعبة كانت انتهت عند هذا الحد بالنسبة الي. فقد رأيت الجبال والادغال وتحملت من المخاطر والاهوال فوق ما تعيه ذاكرتي، وحان الوقت لكي أتكلم وأفصح عن قصدي.

بدأت: "حسنا يا بيوتر، كنت أفكر."

"فيمَ كنت تفكر؟" رمقني شميلنسكي بنظرة ثاقبة وثبّت عينيه الزرقاوين الجامدتين في عيني كأنه يمسكهما بقبضة من حديد لا خلاص منها. لم يكن في نظرته انفعال أو تأنيب أو استضعاف، بل سبرٌ لأعماق النفس وسؤال خفي: من أي معدن أنت؟

وكان جوابي: معدني الشك والضعف. لقد غمرتني رغبة جامحة في أن أكون في وطني وفي بيتي ومع صديقتي، حاضري مضمون ومستقبلي لامع، وليبقَ الأمازون وشميلنسكي - ذلك الرقيب البولوني المدرب - بعيدين عني ألوف الكيلومترات.

أجبت شميلنسكي: "كنت أفكر في الاثارة التي تنتظرنا، أنا وأنت، ونحن في الكاياك نخوض هذا النهر العظيم مستكشفين غوامضه."

قال: "حسنا يا جو، هذا هو التفكير الصحيح."

"أنا أغني وأنت تكتب"

بدأنا رحلتنا أنا وشميلنسكي مجذفين بضربات قوية. لكن محاولتي تقليده كانت تزويراً. شعرت بألم في معدتي وبأني سأصاب بالانفلونزا.

انحدرنا في نهر يوكايالي الذي سيحملنا مسافة ١٨٠٠ كيلومتر، أي أكثر من ضعفي المسافة التي اجتزناها منذ بلوغنا منبع النهر قبل ثلاثة أشهر. من ثم سنجذف ٦٥٠ كيلومترا الى الحدود البرازيلية، ومنها ٣٢٠٠ كيلومتر الى المحيط الاطلسي.

الجزء الاعلى من نهر يوكايالي مجرى مائي ملتف كالامعاء ولا خرائط له موثوقا بها. وكل سنة تغير الفيضانات مجراه كيلومترات عدة. لكنه أيضا نهر يتسم بالجمال

الرفيع. ففيه تسبح الدلافين ويضرب السمك "الطائر" صفحة الماء. وعلى الضفة ينتصب تمساح كبير على قوائمه ولا يلبث أن ينزلق عن اليابسة ويغيب في الماء لدى اقترابنا.

كان علينا قطع نهر يوكايالي قبل الفيضانات. لذلك وضع شميلنسكي برنامجاً صاعقاً نتقيد به: ١٢ ساعة يومياً في الزوارق، التجذيف ٥٥ دقيقة كل ساعة لسبعة أيام في الاسبوع، ٥٠ ضربة في الدقيقة، ٣٣ الف ضربة في اليوم، مليونان وربع مليون ضربة الى الاطلسي.

بعد ثلاثة أيام أصبت بالتهاب مؤلم في أوتار معصمي، ونزل بي داء الانفلونزا ومضاعفات معدية - معوية واسهال حاد.

ولازمني الانهاك والارق، وكانت الحرارة والرطوبة رهيبتين، والشمس حارقة قاسية لا ترحم، فزاغ بصري وصرت أرى بقعاً وهمية.

كنا في الطوف كأننا عائلة واحدة من خمسة أشخاص، تملأ حياتنا النكات وممازحات الالفة والصداقة. وها قد أصبحنا اثنين فقط، شميلنسكي وأنا. وهنا أريد أن أفيه حقه، فهو أضفى على مغامرتنا رؤية مخالفة تماماً لرؤيتي. فقد بذل كل جهد في سبيل ابقائي على النهر، فحمل جميع أثقالنا وحشر المؤن في مقدم زورقه ومؤخره، وحزمها على ظهر الكاياك وثبتها الى أسفل هيكله برباطات مطاط. فكانت هناك أباريق الماء وعلب الاناناس وقوارير الوقود والموقد والمجاذيف الاحتياطية، حتى بدا زورقه كدكان خردة عائم. ونتيجة ذلك تحتم عليه التجذيف بصعوبة أكثر.

في اليوم الرابع غلبني الخجل والارتباك. فقلت لشميلنسكي: "أعطني شيئاً ما."

قال: "سأعطيك شيئاً يا جويسكي لدى وصولنا الى بوكاليا. سأعطيك أكبر قرن جيلاتي أكلته في حياتك."

كان هو الذي ينتقي مواقع التخييم ويطهو ويتأكد من تناولي الاقراص الواقية من الملاريا. وذات مرة أغمي علي في الكاياك من شدة الحمى، ولما استعدت وعيي وجدته يقطر زورقي وراءه. كان ينشد أغنيات بولونية شعبية، ويتحفني بأعلى صوته عند الفجر. كان صوته ينطلق ملعلعاً من النهر الى أشجار الغاب فيُجفل أسراب الببغاوات ويحمل القردة على الصراخ والولولة.

قال لي ذات عصر: "جو، غنِّ أنت الآن."

قلت: "لا أقدر أن أغني."

فألحَّ: "غنِّ أي شيء يطيب لك."

لم يكن لي بد من الاذعان، فبدأت أغنية: "ترا... لا... لا..."

فقاطعني فوراً: "هاي! أنا أغني، أنت تكتب."

فقدت الحس بالتواريخ وتتبع أيام الأسبوع. كان شميلنسكي يوقظني في الصباح، فأنهض وأتبع مؤخر زورقه المترجح. وفي الليل أنهار محموما. وأخيراً تعافيت من مرضي، ولم أعرف الى الآن نوع ذلك المرض.

في بلدة بولونييزي العامرة بالاكواخ والدجاج والحشرات والوحل، انطلق شميلنسكي يفتش عن فاكهة فيما تمددت أنا على ربوة معشبة تطل على النهر. وحين انقلبت على ظهري رأيت خمس نساء قرويات يحدقن اليّ.

سألتني احداهنّ: "الى آين أنت ذاهب؟"

فأجبتها: "الى البرازيل."

قالت: "عليك آن تطير الى هناك."

النهر — البحر

عزمت على الاحتفاظ بموقف ايجابي من مسعانا باتباع "طريقة شميلنسكي" كما بدت لي بعد روية وتفكير: التقيد بالتعليمات والامانة في التنفيذ سيوصلاننا الى المحيط. وكان هناك عامل آخر لمصلحتي في هذه المرحلة من الرحلة، وهو أننا في بوكالبا أبدلنا زوارق الكاياك المصممة للمنحدرات المائية العنيفة بزوارق كاياك بحرية أكبر. فهذه تحافظ على مسار مستقيم في التيارات القوية، وهي مجهزة بدفّات تحرك بالقدم مما يخفف الاجهاد على معصميّ وساعديًّ المتألمة.

شعرت بالفخر والاعتزاز كقبطان لزورقي الجديد. وعلى مؤخره خطًّ شميلنسكي اسم "إليز" تيمناً بصديقتي في الوطن. وكتب على زورقه اسم "جوانا" تيمناً بزوجته التي سمح لها آخيراً بمغادرة بولونيا وتوقع وصولها الى الولايات المتحدة في غضنون بضعة أسابيع.

كانت "إليز" مريحة الى الحد الذي يمكن أن يرجوه المرء اذا تعين عليه الجلوس للتجذيف ١٢ ساعة يوميا. فحجرة القيادة مكشوفة تتيح لي ثني ركبتيّ، وفي متناولي سكين الجيش السويسرية وقارورة الماء ومرهم واق من أشعة الشمس وملابس واقية من المطر ودواء طارد للبعوض وعُدة طوارىء طبية وصندوق مانع للماء يحتوي على أقلام ودفاتر.

وكنت تصورت الأمازون معتما شديد الرطوبة، ولكن على النهر ذاته كان الضوء قوياً والشمس ساطعة لفترة أطول من المستحب. ولا تُرى في البعيد جبال أو تلال أو أفق، بل امتداد من الغابات الخضر السرمدية المترامية الى اللانهاية. وليس في مجاهل تلك الأبعاد ما يوحي أمل الافلات من قبضتها.

وبعيداً عن بوكالبا عند ملتقى نهري يوكايالي ومارانيون يبدأ استحقاق ذاك

المجمَّع المائي لاسم "الأمازون" وان لم يطلق عليه الاسم بعد، اذ ان عرضه هناك يصل الى ثلاثة كيلومترات. وجذفت طوال ٣٥ دقيقة للوصول الى امتداد رملي مرتفع وسط النهر. وسبقني شميلنسكي الى هناك وراح يعدو جذلا على الرمل الابيض العاجيّ هازاً مجذافه كرمح وهاتفاً: "الأمازون! الأمازون!" ولم يسمع هتافه أحد سواي.

أنعمت النظر لرؤية الضفة البعيدة التي بانت خطاً رفيعاً أخضر فاصلا بين الماء والسماء. ولولا ذلك الشريط الأخضر لحسبتني شاخصاً الى المحيط. ويعرف الأمازون باسم "إل ريو مار" أي النهر - البحر.

وصل دوران وبزداك الى إيكيتوس، المدينة التالية، قبلنا بخمسة أيام. وكانت رحلتهما في النهر حافلة بلعب الورق (الكوتشينة) وموسيقى الديسكو الصاخبة. وهما حملا اليّ رزمة رسائل بريدية هي أول أتصال بي من الولايات المتحدة منذ شهرين ونصف شهر. وجددت دوران تموين عدّتي الطبية وأعطتنا صمغ شجرة قيل انه دواء ممتاز لألم المفاصل والعضلات.

غادرنا ايكيتوس قبل أربعة أيام من عيد الميلاد للعام ١٩٨٥ على أن نلتقي بزداك ودوران ثانية على الحدود البرازيلية. وعلّق شميلنسكي على مقدمي زورقينا شجرتي ميلاد صغيرتين. ومرة غرقت في النوم في زورقي، واستيقظت لاجد شميلنسكي يقطرني مهمهما ترنيمة ميلادية. ووصلنا يوم عيد الميلاد الى تاباتنغا على الجانب البرازيلي من الحدود حيث أخذت أول حمام ساخن منذ خمسة أشهر وتناولنا عشاء فخماً من الحساء والدجاج المشوي والسلطة.

أما عيد رأس السنة فكان مختلفاً، اذ كنا في نهر سوليمويس الذي يتعرج في ولاية أمازوناس القليلة السكان والتي تلقب "الغرب البرازيلي الموحش" تشبيهاً لها بالغرب الامريكي. نصبنا مخيمنا تلك الليلة في بقعة كريهة الرائحة من الطين والصلصال، وطها شميلنسكي طبقاً من التشيلي ثم جلسنا على جذع شجرة.

قال شميلنسكي: "في بولونيا، هذا هو أعظم أيام السنة. الكل يرقصون والاقارب يجتمعون ويحتفلون بعشاء فخم ويفتقدونني. وفي كل يوم رأس سنة منذ ست سنوات يفردون لي صحناً فارغا على المائدة."

قلت: "قد يأتي يوم لا يكون فيه الصحن فارغاً."

فرد: "هذا أمر لا يسعني التفكير فيه. كل عام وأنت بخير يا جو."

بعد ١٢ يوماً في نهر سوليمويس بدت قرية كواري مثل باريس. التقينا دوران وبزداك في فندق "بالاس" النظيف الذي كاد يكون فارغا، فأفرغنا زورقينا وأكلنا دجاجا مشوياً.

لم أكن عاينت شميلنسكي وهو منهك، ولم أدرك أن رد فعله للارهاق يختلف عن رد فعلي. فأنا أنهار كلياً على نحو مخز، فيما يزداد هو عزماً ويدفع نفسه الى المكافحة بجهد أشدّ مما سبق. كان ينام قليلا في النهر ويدرس خرائطه حتى ساعات متقدمة من الليل أو يجهز الزورقين لليوم التالي. وخلال النهار لم ينقطع عن الكلام، وفي فترة ١٢ يوماً استغرقتها رحلتنا من تاباتنغا سمعت منه تفاصيل تاريخ بولونيا منذ عهد السلافيين.

وفي كواري كذلك لم يعرف شميلنسكي الراحة، اذ أمضى يومين في اتصالات هاتفية محاولا جمع مزيد من المال. فهو راهن غاليا على بعثة الأمازون، فترك عمله وصرف مدخراته والتزم أدبيا لستة ممولين للبعثة. كان يتحتّم علينا اكمال الرحلة.

وعندما أبلَغنا أن مجموعة دعت نفسها "لجنة إنقاذ الأمازون" في كاسبر بولاية ويومنغ، جمعت ما يكفي من المال لاكمال الرحلة، تهلّلنا وتعانقنا. وفتش بزداك في مطبخ الفندق فعثر على جهاز راديو ترانزيستور والتقط محطة موسيقية. ورقصنا على سطح الفندق المعتم في أواسط ولاية أمازوناس، الموحشة.

"لا... لا... لا!"

كنت أجذف غارقاً في أفكاري منساباً مع أحلامي غافلا عن الواقع، فاذا بالأمواج تعلو وتزبد ولم أعِ الا وقد دهمتني وعلت فوق رأسي. وتحولت السماء حمراء ثم أرجوانية ثم سوداء كالحة التمعت تحت ظلامها فقاقيع الزبد البيضاء المتراكضة فوق ذرى الأمواج العاتية التي اجتاحت النهر.

تسمَّرت بلا حراك وأنا أراقب العاصفة تقترب. التوت رؤوس الاشجار وغابت الضفة وراء جدار من الزبد الأبيض. ثم أحسست كأن قفيراً من النحل لسع وجهي. وعصفت الريح ورحت أكافح بكل قواي لاحتفظ بالمجذاف الذي كاد يفلت من يدي. وانحنت شجرة الميلاد الصغيرة في مقدم الزورق كرفيقاتها الأشجار الجبارة على الضفة.

شددت جسمي كما علمني شميلنسكي، رافعا مجذافي كجسر على الماء. وملت عن الموجة وانزلقت على صفحتها. وحين عبرت الموجة تحتي قوَّمت وضعي في غورها ورحت أجذف في اتجاه الضفة، الى أن دفعتني الموجة التالية الى اعتماد التقنية ذاتها، وهكذا دواليك موجة اثر موجة. قد يوحي كلامي أنني كنت ممسكاً بزمام الموقف كبحار محنّك، لكن الواقع هو اني كلما اعتليت إحدى تلك الموجات الكاسحة سمعت صوتي المرتعش يردد بذعر: "لا... لا... لا!"

وجذفت مثابرا الى أن لمحت الضفة، وكانت فرائصي ترتعد لشدة الخوف. ولكن

ما ان رأيت الموج الجارف يتكسّر هادراً على الضفة حتى تملكني الذعر فانكفأت بزورقي وأدرت مقدمه في اتجاه مجرى النهر ورحت أجذف نزولا.

بعد ساعة من التجذيف هدأت العاصفة، فرأيت شميلنسكي وقد انعكست صورته على الافق وهو يلوّح لي بمجذافه.

هتف حين رآني أقترب منه: "هاي، أنت الآن مجذّف عظيم!"

لم اكن لأدعي ذلك، انما شعرت بأنني خضت تجربة قاسية عززت ثقتي بزورقي. هتف شميلنسكي مشيراً بيده، فالتفت وشاهدت قوسي قزح يضيئان النهر بألوانهما الرائعة لمسافة بعيدة.

يبدأ نهر الأمازون "رسمياً" حيث يلتقي نهرا نيغرو وسوليمويس. ونهر سوليمويس الغني بالطمي قاتم ضارب الى الصفرة، فيما النيغرو أسود كالفحم. وهما يجريان متوازيين مسافة عشرة كيلومترات قبل أن تلتقي مياههما.

ويخترق الأمازون سهلا تغمره الفيضانات حيث النبات على ضفتيه أقل كثافة وارتفاعاً مما رأينا سابقاً. والعامل الطبيعي في ذلك محدود، والسبب الرئيسي هو الانسان الذي لم يبقِ الا على قلة من الغابات العذراء على امتداد ١٥٠٠ كيلومتر من الضفتين.

ويعود اتلاف "غابات المطر" الى عدة عوامل، لكن العامل الرئيسي حديثاً كان مزارع تربية الماشية التي حوّلت غابات المطر مراعي، فعرّت التربة من غطائها الشجري فخف انتاجها. لكن المزارع التي أنشئت هناك قبل العام ١٩٧٨ هُجرت خلال ١٩٨٣، فتحولت ألوف الهكتارات التي غطتها غابات المطر سهولا جرداء قاحلة.

وفيما تابعنا التجذيف بدت الارض شبيهة بفكرة غامضة. وكادت ان تغيب عن ناظري ضفتا النهر الذي اتسع فأصبح عرضه حوالى ثمانية كيلومترات، وتعاظمت الامواج حتى طاول ارتفاعها الرأس. وقد أمضيت معظم وقتي مدفوناً في أغوار الموج.

أصبت بالانفلونزا ثانية، ومر علي يومان كابدت فيهما الامرّين من القشعريرة والارتجاف والعرق والصداع الحاد. وكان شميلنسكي خلالهما يجذف الى جانبي ويحدثني طوال النهار. وكنت أسمع صوته لكنني لم أفهم الا بضع كلمات. في هذا الوقت استبدّ بي هاجس التجذيف الى الأطلسي، وكانت للحمى يد في تصميمي لأني بتُ عاجزاً عن التفكير والتركيز.

استقام مجرى النهر - البحر واختفت الجزر التي كانت تعوقه، وكأنه في شهوة اشتياقه الى المحيط اندفع جارفاً كل العوائق التي تعترضه. وانكمش عالمنا فلم نعد نرى الا الماء والسماء وشريط الغابات الاخضر الرابط بينهما.

كان نهر الأمازون يتعاظم يوما بعد يوم ويتسع مثل بحر. وبدأنا نشاهد طيور النورس والخرشنة المائية. وإن كنا ما زلنا نبعد حوالى ١٣٠٠ كيلومتر عن الاطلسي الا أننا لاحظنا تغيراً غير مألوف في المدّ، اذ كانت المياه ترتفع وتهبط حوالى ثلاثة أمتار في يوم واحد.

قررنا استعمال المال الذي أمنته لنا "لجنة إنقاذ بعثة الأمازون" فاشترينا الزورق "روبرتو ٢" لكي يتسنى لنا نحن الاربعة الوصول معاً الى الاطلسي. وبلغ طول هذا الزورق ١٥ متراً.

وفيما أبحر "روبرتو ٢" في محاذاة الضفة، كنت وشميلنسكي نجذف في وسط الأمازون حيث يبلغ مجراه أقصى سرعته. وفي المساء كنا نتناول العشاء وننام على الزورق "روبرتو ٢." وقد حرمنا استخدام الزورق بعضاً من شوق المغامرة وبهجتها، لكنّ ذلك كان خسارة يسيرة في مقابل ما نعمنا به من مرح برفقة المصور والطبيبة.

على مصب الأمازون تقوم جزيرة تشطر النهر وتعادل مساحة سويسرا. فيجري سبعة أثمان دفق النهر شمالا حول جزيرة ماراخو، وتجري البقية جنوباً مخترقة متاهات من القنوات والجداول في طريق أطول. ولما كنا بدأنا رحلتنا من منبع النهر، أي من أبعد نقطة فيه، فكان جديراً بنا أن نتتبع أطول مجرى له الى المحيط.

راوحت سرعة المد في ذروته بين ستة كيلومترات وسبعة في الساعة، ولم تكن وجهته واحدة. ففي حين كان يجري معنا في إحدى القنوات، كان يجري عكس



لحظة الانتصار. جو كين (الى اليسار) وبيوتر شميلنسكي يبلغان هدفهما حيث يلتقي نهر الامازون المحيط الاطلسي.

وجهتنا في قناة أخرى، وفي قناة ثالثة نجده ساكناً جامداً.

وأفادتنا خرائطنا اننا صرنا على بعد ٢٥ كيلومتراً من كبرى المدن على نهر الأمازون، لكن غابات المطر عند المصبّ كانت رطبة معتمة خانقة. وعندما هبت عاصفة التجأنا الى قناة لا يزيد عرضها على طول مجذاف، وكانت معتمة يتسرّب اليها النور من فتحات صغيرة في مظلة الغابة. وما ان انعطفنا حول منحنى حتى انتصبت أمامنا ناطحات السحاب في بيليم.

بيليم هو اسم "بيت لحم" في البرتغالية، وهي كانت هدفنا خلال ستة أشهر قطعنا فيها ما يزيد على خمسة آلاف كيلومتر وجذفنا ثلاثة ملايين ضربة في زوارقنا الكاياك. لقد سئلت مئات المرات: "الى أين أنتم ذاهبون؟" فكان جوابي: "الى بيليم!"

كان "روبرتو ٢" في انتظارنا راسياً في الميناء. وهو بدا لنا عظيماً في النهر، الا أنه بدا كقزم الى جانب أصغر قارب للصيد هناك. وبعد العشاء تبادلنا العناق وكلمات الوداع مع أفراد الطاقم.

عند شقّ الفجر أنزلنا زورقينا الكاياك في المياه المنبسطة الرمادية. ورافقنا بزداك ودوران طوال الصباح في زورق آلي صغير، ثم عادا الى بيليم بعدما تمنيا لنا حظاً سعيداً ووعدانا باحتفال عظيم بعد ثلاثة أيام.

انعطفت وشميلنسكي الى خليج ماراخو ثم شرقاً. لم أكن واثقاً بقدرتي على خوض عرض البحر، ولكن لم يبقَ لي مجال للتراجع الآن، وكما فعلت على مدى خمسة أشهر، سأمضي بجلد وثبات مجذفاً وراء صديقي الطيب.

جذفنا بعيداً الى قلب الخليج للافادة من انحسار المد الى أن غابت عنا اليابسة كلياً. ويذكّر حوض الأمازون – البالغ عرضه ٢٥ كيلومتراً – بشيء في جبال الانديز العالية: إن عظمة اتساعه تبعث على الانقباض. وغالباً ما رأيت عالمي محصوراً كلياً برفيقي البولوني في الزورق أمامي. فقد رآني شميلنسكي في أسوأ حالاتي، مريضاً، وجلا، يائساً، ولم يتخل عني. وانني أرجو أن يكون وجدني رفيقاً طيباً وبي نصف ما أسبغه علي من لطف وعطف ومؤاساة.

لم تخبُ حماسته قط، اذ حين عدنا الى التجذيف انطلق هو في انشاد أغنيات بولونية شعبية بصوت عال مجهداً رئتيه الى أقصى مداهما. وحفظت الكلمات وإن فاتني معناها، فرحت أرافقه في الغناء. فازدادت ثقتي وحلّقت في أجواء التفاؤل. قريباً سأتخلى نهائياً عن زورقي الصغير، وسأعود الى كاليفورنيا في بداية موسم البايسبول، وسأنام – يا للبهجة والنعيم – في مكان واحد لاكثر من ليلتين متتاليتين. وسأكون مع صديقتي التي أحبها.

سرنا مع المد المتراجع، ولفّ خليج ماراخو سديم رقيق ما لبث أن تكثّف الى ضباب. لقد كان منبع الأمازون هو أيضا متلفعا بالضباب. وماذا قال البولوني الغريب لدى اجتيازنا خط الفاصل القارّي؟ "كل الرحلة نزول منْ هنا."

انساب زورقانا على صفحة الخليج يهدهدهما الموج الرفيق المتطاول. وما لبثت المياه العكرة أن تحولت خضراء شفافة. وتباطأنا عمداً كي يتسنى لنا الانتشاء حتى الثمالة بسحر انتصارنا. وأخيراً رفعنا مجاذيفنا. وفي غمرة تلك اللحظة التاريخية الرائعة التي توّجت مغامرتنا الفريدة، انحنى شميلنسكي ورفع قبضة من الماء الى شفتيه.

وقال: "ملح!"

جو كين ■

ترجمة الياس عقل



تعارف ربيعي

بعد شرائنا بيتاً قديماً مهجوراً، عملت ليل نهار طوال فصلي الخريف والشتاء لجعله صالحاً للسكن. ولم تكن نظرات الجارة المسنّة تفارقني انّى تحركت، لكنها لم تعر ابتساماتي وتحياتي اي اهتمام. وحل الربيع ونحن ما زلنا غريبتين.

وإذ كنت أجزّ عشب المرجة أمام المنزل للمرة الاولى، رأيت زهوراً بيضاء صغيرة منتثرة بين الاعشاب. فجززت العشب بتأن حولها ولم أمسّها لانها اولى بشائر الربيع. وبعد ساعة من العمل الرتيب اصبحت المرجة حسنة المنظر لولا البقع البيض المنتثرة هنا وهناك. وإذ انتهيت من العمل اوقفت الجزازة تحت الشرفة. فرأيت جارتي المسنة متجهة نحوي وفي يدها ابريق شاي وكُوبان. وبادرتني: "تساءلت طوال اشهر الشتاء اي نوع من الجيران انت. وعندما رايتك تجزين العشب حول هذه الازهار الصغيرة، عرفت أن ليس هناك ما يدعو الى القلق."

ك.ب.

حساب الامهات

قال الصبي لأمّه إنه يواجه صعوبة في حل مسائل الحساب. فأجابته على الفور: "اسأل والدك عندما يعود من العمل، فانا لم اكن يوماً بارعة في مادة الحساب."

لكنها ما لبثت أن سألته بدافع الفضول: "وما موضوع هذه المسائل؟"

فأجابها: "النسبة المئوية."

فقالت: "آه، استطيع مساعدتك. فهذا ليس حساباً بل تسوُّق."

إ.م

كتاب الشهر

جواسيس ... الكمبيوتر

بقلم لورنس اليوت

جواسيس الكمبيوتر..

تشكّل اللغز باكتشاف مدير أنظمة الدماغ الالكتروني في مختبر لورنس بيركلي رسماً غير معلل بقيمة ٧٥ سنتاً مسجلا كأجر لاستخدام الدماغ الالكتروني.



يبدو أن أحدهم يدبر شراً ما ولكن من يكون هذا المتطفل؟ وما قصده؟ وما لبثت قائمة اكتشافات ستول أن ضمت بعض المفاجآت. فمكتب التحقيقات الإتحادي (FBI) لم يبد اهتماماً، ووكالة الاستخبارات المركزية (CIA) توقعت أن يخوض ستول الحرب بمفرده، وهو بلغ منه الغضب مبلغاً جعله مستعداً لذلك

ذات يوم خميس من شهر أغسطس (آب) ١٩٨٦ بدأ كليفورد ستول عمله كمدير أنظمة في الدماغ الالكتروني (الكمبيوتر) في مختبر لورنس بيركلي على الخليج قبالة مدينة سان فرنسيسكو في كاليفورنيا. ويوم الجمعة وضع زميله ديف كليفلاند على طاولته مسألة مستعصية هي فرق في الحسابات مقداره ٧٥ سنتاً. ومن علياء أقدميته في العمل خاطبه قائلا: "حلّها أيها العبقري، وأدهش الجميع."

ILLUSTRATIONS: JEAN RESTIVO PHOTOS: QUICK MAGAZINE

لم يكن ستول، العالم الفلكي الحائز شهادة دكتوراه في علم الكواكب، ليشعر بأي عبقرية في ذلك الوقت. فليس من عادة العباقرة أن يدّعوا المنح المقدمة اليهم تنفد من دون اتخاذ تدابير احتياطية تضمن لهم مورد رزق مستمراً. وهو كان أمضى سنتين منهمكاً في تصميم عدسات مقرابية (تلسكوبية). وقبل أسبوع واحد نفد آخر دولار من منحته ووجد نفسه فجأة من دون عمل. ولكن لحسن الطالع عرض عليه مديرو المختبر وظيفة مدير أنظمة ضناً بمهارته في الدماغ الالكتروني وحرصاً منهم على ألا يخسروا باحثاً موهوباً. صحيح أن العمل لم يكن في مجال علم الفلك، لكنه يقيه الوقوف في طوابير العاطلين عن العمل منتظراً دوره لتلقي رغيفه اليومي. وها هو الآن في مكتب في الطبقة السفلى في مركز للدماغ الالكتروني يبحث عن إبرة قيمتها ٧٥ سنتاً في كومة قش.

كان في مختبر بيركلي اثنا عشر دماغاً الكترونياً رئيسياً يشرف عليها ستول مع مديرّين سواه، وهي في تصرف أكثر من ألف عامل وباحث. وتعمل تلك الادمغة ليل نهار لحل مسائل في الفيزياء ولتبادل المعلومات. ولكل شخص حساب خاص، وتتولى الادمغة ذاتها تسجيل الوقت وتحسبه حتى أجزاء من الثانية، ثم ترسل الفواتير الى الدوائر المعنية. اذاً لا مجال لاي خطأ. لكن السجلات تظهر فرقاً في الحساب مقداره ٧٥ سنتاً.

"وماذا يهمّ في ذلك؟" هذا ما كان ليقوله أي موظف عادي، ثم ينتقل الى مسألة حقيقية. لكن كليف ستول، الشاب الناحل القوي البنية ابن السادسة والثلاثين، ذا الرأس العبقري الرياضي الذي يغطيه شعر كثيف كالأسلاك، لم يكن مجرّد مشغّل للادمغة الالكترونية ممن تلتقيهم كل يوم، بل كان عالماً وكان عنيداً. وبعدما تفحص النظام مدّة كافية ليفهم الطريقة التي تتم بها عملية الحساب، تمكن من اقتفاء الـ٧٥ سنتاً المفقودة كأنها مذنّب محيِّر في الفضاء.

ومع حلول المساء انتهى ستول من تدوين برامج اختبار للتحقق من عدم وجود أخطاء في سجلات المختبر المحفوظة في الدماغ الالكتروني. وبعد ذلك أخذ يقارن الفواتير بقائمة الاشخاص المرخّص لهم استخدام الآلات، وما لبث أن عثر على ضالته إذ وجد حساباً فُتح حديثاً لشخص اسمه هنتر. ولم يكن الحساب يحمل عنواناً لتلقي الفواتير وتحصيلها. وكان هنتر هذا استخدم الدماغ الالكتروني وقتاً قيمته ٧٥ سنتاً. صحيح أنه مبلغ لا يستأهل التدوين، لكن الحساب لم يسدَّد.

ثم برزت مشكلة غير متوقعة. فعندما قدّم ستول تقريره في الصباح التالي مسجلاً نصره الصغير، أفاده مديرا الانظمة الآخران ان لا حساب لأي شخص اسمه هنتر.

وحمل يوم الاثنين لغزاً آخر، إذ أرسل الدماغ الالكتروني "دوكماستر" في ولاية ميريلاند شكوى مفادها أن شخصاً من مختبر لورنس بيركلي حاول في نهاية الاسبوع

أن يغزو مخزن المعلومات في "دوكماستر." وخلفت الشكوى عيوناً ازدادت اتساعاً عندما تبين أن "دوكماستر" هو ملك "مركز الكمبيوتر للامن الوطني" التابع لحكومة الولايات المتحدة والواقع خارج مدينة بالتيمور.

رجع ستول الى الملفات التي أظهرت أن شخصاً واحداً فقط من الذين يستخدمون الدماغ الالكتروني، وحسابه باسم "سفنتك"، قد سُجِّل في الساعة ٨،٣٠ من صباح يوم السبت، وهو التوقيت نفسه الذي سجِّل فيه "دوكماستر" محاولة الاقتحام. لكن جو سفنتك، الذي يذكره الجميع مبرمجاً ماهراً، غادر البلاد الى بريطانيا قبل زمن طويل، وحسابه في سبات منذ سنة.

اقترح ستول تفسيراً: "لعله وصل الى هنا من طريق شبكة أخرى ثم اتصل بدوكماستر من هنا."

هزّ ديف كليفلاند رأسه وقال: "جو سفنتك لا يقتحم أدمغة سواه. ولكن إن هو نوى ذلك فلن يسع أحداً أن يقتفي أثره."

من اذاً؟ ولماذا؟ سؤالان مقلقان حملهما ستول الى البيت وعرضهما على مارثا ماثيوز وهي طالبة حقوق في جامعة كاليفورنيا في بيركلي. وهي اضافت اليهما سؤالين آخرين: هل يحاول أحدهم التسلل الى الادمغة تهرباً من الدفع؟ أو لعله طالب مغرور في جامعة كاليفورنيا يلهو بالادمغة؟

ثم سألته: "لماذا لا تشطب اسمي هنتر وسفنتك من قائمة أسماء الاشخاص المرخص لهم استخدام الادمغة الالكترونية؟ وإذا جاءا يشتكيان فيمكنك عندئذ أن تطرح عليهما بضعة أسئلة."

فرد كليف: "سأفعل ذلك." لكنه علم في تلك اللحظة أن الامر لن يكون بتلك السهولة.

■ مسألة ثقة ■

كان كليفورد ستول شاباً وجودياً متمرداً، لا يزال متمسكاً ببزة بيركلي المميزة من سروال الجينز والحذاء القماشي الخفيف والقميص القطني. وفي ما عدا براعته الفائقة بالادمغة الالكترونية، لم يكن في حياته شيء يؤهله للمحنة التي كانت في انتظاره أو يفسِّر تلك الشراسة التي أبداها في الاندفاع لمطاردة ذلك الدخيل المتطفل المجهول عبر جميع الشبكات الالكترونية المتقاطعة في العالم.

نشأ كليف في بافالو بولاية نيويورك. وكان في الثانية عشرة من عمره عندما وضع أول برنامج صممه للدماغ الالكتروني، الحقل الذي ظلّ مفتوناً به، وإن أصبح علم الفلك في ما بعد غرامه الابدي مشاطرةً مع مارثا ماثيوز التي هام بها منذ التقيا حين كان يحضِّر لنيل درجة الدكتوراه في جامعة أريزونا. وهما أمضيا معاً اوقاتاً ممتعة

يستكشفان الكهوف ويتسلقان الجبال. وعندما توجهت مارثا شرقاً لمتابعة دراستها الجامعية، قبل كليف منصب عالم زائر في مرصد "الجبل البنفسجي" في نانجينغ بالصين. وظل هناك نحو سنة وعمل على إتقان اللغة الصينية. في وقت لاحق انتقل الاثنان الى بيركلي حيث شرعت مارثا في التدرب على الايكيدو، أحد الفنون القتالية اليابانية، وكانت في الوقت ذاته تحضّر لنيل درجة في الحقوق ودكتوراه في فلسفة القانون.

عاش الاثنان حياة هادئة يزرعان شتول الفراولة (الفريز) في حديقة منزل صغير في أوكلاند ويركبان الدراجة الهوائية الى العمل والى الجامعة (لم يقتنِ كليف سيارة في حياته) ويتسليان أحياناً بجمع قطع قماش صغيرة لصنع لحاف أو فراش، وبتلوين زجاج النوافذ.

ثم جاء المتطفّل رامياً ظلّه فوق ذلك النمط المشمس من الحياة.

شعر ستول بقلق إزاء ما هو حاصل داخل الدماغ الالكتروني. لماذا هو قلق؟ انه لا يعتبر نفسه بطلا في نصرة القانون والنظام. وفي أي حال، لماذا يُعتبر العبث بمخازن المعلومات أمراً مستنكراً الى ذلك الحد؟ الا يعقل أن يعبث هو نفسه بالمعلومات في زمن آخر؟ هل الامر أخطر من مجرّد مزحة؟ أوَليس محتملا أن أحد مهووسي الدماغ الالكتروني يمدّ لسانه ازدراء وسخرية؟

إلا ان ستول كان في قرارته يعرف الجواب. فاقتحام دماغ الكتروني يخص الآخرين خطأ غير مقبول.

حسناً، لماذا إذاً لا يجبه الشخص المعني مباشرة، فيوجه الى ذلك "الشبح" رسالة على الشاشة تطالعه ما أن يتسلل الى الجهاز في المرة المقبلة، من نوع: "هاي، أنت! أخرج من جهازي والا استدعيت الشرطة!" تلك هي الطريقة الوحيدة للاتصال به. لكن في وسعه أن يختفي قبل أن يتسنى لمهدِّده رفع سماعة الهاتف، ليعود من جهة مختلفة ويظهر متنكراً بزي آخر وفي أي وقت يشاء.

يجنح الناس الى الاعتقاد أن الادمغة الالكترونية آلات معزولة تعمل وحدها. والحقيقة أن بعضها فعلا كذلك، مثل أجهزة الكمبيوتر الشخصي التي لا صلة لها بالخارج وهي مثل كوخ في الغابة يختبىء فيه صاحبه متى شاء. ولكن، مثلما هي معظم المنازل في مجتمع ما متصلة بعضها بالبعض الآخر بواسطة شوارع وسكك حديد وأسلاك هاتف وكهرباء، كذلك هي الادمغة الالكترونية التي تتبادل المعلومات، إذ انها هي أيضاً جزء من مجتمع، فهي شبكة محلية أو وطنية أو عالمية، متصل بعضها بالبعض الآخر بوصلات هاتفية.

وهذه الادمغة شبيهة بشبكة طرق عامة إلكترونية تحمل ملايين الرسائل الى أنحاء العالم، فتصل أسواقاً دولية بالباحثين عن المعلومات وبالمساهمين في أقطار العالم من

علماء وباحثين وكتّاب ورجال أعمال وبحّاثة وحكوميين وصناعيين وعسكريين. وفي وسع هؤلاء، في سوق المعرفة هذه، أن يعرضوا ما يبغون وأن يحتفظوا بما يحتاجون اليه وأن يأخذوا ما هو متوافر ومتاح، ومن ثم يعودون الى أجهزتهم ليختزنوا فيها – بما يعتقدونه سرِّية تامة – كل تفاصيل خططهم ومشاريعهم ومسار أعمالهم.

ان شبكات الادمغة الالكترونية ابداع أفرزه العصر الالكتروني. لكنها ترتكز على الثقة العتيقة التي يستحيل العمل من دونها. ووغد فالت في هذه الادمغة هو أسوأ من لصّ ينهب أدراجك، إذ ان في وسعه، ليس فقط أن يسرق أسرارك وينقل افكارك، بل أن يتسلل اليك بصمت ليدمر – أو يبدل – المعلومات التي ربما أمضيت سنوات في جمعها. كما يمكنه أن يختفي من دون أن يترك أي أثر خارجي يشهد على الأذى الذي ألحقه.

ذلك ما عذّب كليف ستول اكثر من سواه. ففي هذه المرحلة لم يكن يعرف شيئاً عن خصمه، لا مَنْ يكون ولا أين هو ولا ماذا يدبر. لكن ستول شعر تجاهه بالاحتقار قبل أن يراه لاعتدائه على الثقة المتبادلة الذي ترتكز عليها شبكات الادمغة الالكترونية. وعندما أعلَم كليف السلطات قيل له أن يحرم ذلك المتطفل التسلّل ثانية، وهذا يمكن تحقيقه باجراء تغييرات تتناول الاسماء وكلمات السر. لكن كليف لم يعتبر ذلك التدبير حلاً.

قال: "لقد اعتبروا أن الأمر لا يتعدى سرقة ٧٥ سنتاً، فيما أنا اعتبرته ارهاباً الكترونياً. نعم، يمكننا أن نحرم ذلك الشخص متابعة التسلل، ولكن لن يسعنا عندئذ أن نعرف من هو، وسوف يظل حراً طليقاً قادراً على اقتحام أي دماغ آخر يجهل أصحابه كيف يمنعونه من الدخول." وشبّه ستول هذا الاسلوب بموقف المواطن الذي يدير ظهره لعملية سطو زاعماً أن الأمر لا يعنيه.

لكن كليف ستول قرّر أن الأمر يعنيه. وطلب من رؤسائه في العمل فرصة لضبط الوغد متلبساً بالجرم، والتشهير به. وهم منحوه ثلاثة أسابيع.

■ "هات الدليل" ■

"التسلل" هو التعبير المعتمد في عصرنا الالكتروني للاشارة الى عمليات اقتحام الادمغة الالكترونية. ويحتل التسلل حيّزاً متنامياً من أخبار الصحف. فمن تخريب متعمّد لسجلات الجامعات بفعل فتيان أذكياء وأشقياء، الى مزحات تطاول أنظمة يُفترض أنها محروسة جيداً. هذه أمور لا تثير ضحك الذين يدركون الى أي مدى أصبح الدماغ الالكتروني يدير حياة البشر في نهاية القرن العشرين، بل يدركون أيضاً أن كارثة تنتظر على الابواب:

موظف سابق في شركة للتأمين، وقد ساءه تسريحه، يقدم على محو معلومات في ملفات جداول الأجور.

تلميذ يرسل "فيروساً"، أي أمراً سرياً هدّاماً، عبر شبكة ذات نطاق وطني. ويتناسخ "الفيروس" بسرعة معطّلا الشبكة برمّتها، بما فيها ألوف الاجهزة العائدة الى مصالح جامعية وتجارية وحكومية.

مثل هذه الحوادث حصلت فعلا. ويلوح الآن في الافق احتمال استخدام الارهاب بواسطة الدماغ الالكتروني. وما العبث بنظام ضبط الملاحة الجوية في مطار كثيف الحركة، أو قطع الخطوط الهاتفية في مدينة كبرى، سوى طريقتين سهلتين نسبياً لاشاعة الهلع بين الناس. ومع ذلك لم يتخذ أي من الحكومات أو المصالح التجارية تدابير كافية للتحصن ضد مثل تلك الهجمات. ومن أسباب ذلك أن خطط الدفاع باهظة الثمن. وهي الى ذلك تعيق الاتصال، والاتصال هو السبب الرئيسي لاستخدام الادمغة الالكترونية.

أما كلمات السر فيسهل اكتشافها، إذ "يحزرها" المتسللون أو يتبادلونها علناً عبر الشاشات الالكترونية، أو ينسخونها عن ملفات الاجهزة المختَرَقة، أو يسرقونها من مركز العمل حيث تعلَّق غالباً على الجدار بالقرب من الجهاز. والى ذلك، فان كل كلمة سرّ جديدة تَعِدُ المتسلل بتوسيع متناوَله، اذ ان أعداداً كبيرة من الادمغة الالكترونية متصلة بشبكات مبرمجة على نحو يجعل كل جهاز يثق بالآخر. فالشخص الذي هو موضع ثقة احد الادمغة، هو تلقائياً موضع ثقة أدمغة أخرى.

ولم يكن موضوع الامن يحظى باهتمام كبير في مختبر بيركلي. فإلى كون المختبر لا يختزن معلومات سرية، فإنه لمن دواعي سرور العلماء – كما يقول ستول – أن يطلع الناس على نتائج أبحاثهم ويقرأوها. فما الضير إذاً إن اخترق أحدهم الاجهزة؟ وهذا من دون شك، أمر متيسر، إذ كان العلماء الزائرون يُعطون حسابات خاصة بالضيوف وكلمات سر مثل "لورنس" أو "بيركلي" أو اسم الشخص نفسه. وبديهي أن ذلك لن يرهب حتى فتى في الثانية عشرة من عمره يتمتع بومضة من خيال.

ولكن ماذا لو رغب أحد الدخلاء في أكثر من مجرد فرصة لقراءة الملفات العامة؟ ماذا لو كان يسعى الى أفضليات وامتيازات استثنائية مثل تلك المعطاة لمدير الانظمة مثلا؟

يمكن تشبيه مدير أنظمة الدماغ الالكتروني بقيِّم على بناء سكني، حيث الشقق مفصولة الواحدة عن الأخرى بجدران، وثمة أقفال في الابواب تؤمن السرِّية. ولكن إذا تسرّبت المياه من قساطل إحدى الشقق في غياب صاحبها، ففي وسع الناظر إصلاح العطل لان في حوزته مفتاحاً خاصاً يؤمن له دخول الشقة عند الاقتضاء. وبالمبدأ عينه، فإن اشتراك ألف شخص في شبكة واحدة يحد من حرية العمل بكلمة السر الافرادية، إذ ينبغي أن يكون بين المشتركين شخص يمكنه تخطي تدابير الحماية المفروضة ودخول الشبكة عند الضرورة، فيبدّل قرصاً ما أو يجد ملفاً ضائعاً في

الفراغ الالكتروني. ذلك الشخص هو مدير الانظمة. ومثل ناظر البناية ينبغي أن يكون موضع ثقة.

ماذا لو أن متسللا راح يفلّي النظام على نحو مشبوه بحثا عن الطريقة التي تمنحه مثل تلك الامتيازات. وإن هو اكتشفها، أصبح بمقدوره أن يطلع على "البريد" الالكتروني لأي مشترك وأن يضيف اليه أو يعدل فيه أو يشوهه أو يحذف منه ما حلا له، وبين يديه نحو ٥٠٠ ألف صفحة من المعلومات المختزنة في ذاكرة الدماغ الالكتروني. وسيتاح له أيضاً أن يتحكم بالنظام كله عبر تلقيم البرامج تعليماته الخاصة، كذلك أن يعطل الدماغ الالكتروني متى شاء من غير أن يستطيع أحد أن يوقفه عند حده. وبعد كل ذلك، يمكنه أن يبرمج الدماغ على نحو يمحو أي دليل أو بيّنة على أنه "مر من هنا."

هل هذا ما يحدث الآن في الدماغ الالكتروني الذي يديره ستول؟ لم يكن الرجل يملك الجواب عن هذا السؤال.

يوم الاربعاء قصد ستول رئيس القسم ليروي كيرث. فهزأ به هذا وقال: "إنك لست متأكداً من أن غريباً تسلل الى هنا فعلا. تابع بحثك وعد الي بدليل."

يوم الخميس دخل سفنتك الخط مرة أخرى، وما لبث أن اختفى بعد دقيقة واحدة، لكنه خلف آثاراً. فالطرف الذي اتصل منه أثبت أنه يستخدم "مودم" وهي آلة ترسل بيانات الدماغ الالكتروني عبر خط هاتفي بتحويل الموجات الالكترونية أصواتاً. ربما لم



يكن ذلك الشخص جو سفنتك ذاته، لكن أحدهم في الخارج يستخدم حسابه مدخلا الى المختبر ليقيم نقطة انطلاق مشروعة يتوغل منها في الشبكات.

يوم الجمعة توقف ستول عن التظاهر بالعمل في وظيفته الحقيقية وسلّط كل انتباهه على الدخيل. وهو صرف النهار كلّه يجهّز سلسلة من ٥٠ مرقاباً وآلة طابعة جمع معظمها من المكاتب التي تفرغ عندما يُخلى المختبر، وتبرع ببعضها موظفون أذهلهم عمله. ووزع ستول الآلات والمراقيب، واحدة على كل خط من خطوط الاستقبال الهاتفية.

وهو قال: "سيكون الثمن باهظاً يوم الاثنين، لكن الاعتذار أسهل من الحصول على إذن. ولدي عطلة نهاية الاسبوع بكاملها."

هكذا أصبح الوضع مقلوباً، وبات كليف قادراً على تتبّع جميع تحركات المتسلل متى عاد، ومن دون أن يراه هذا أو يشعر به. وفي الحادية عشرة مساء ودّع مارثا وامتطى دراجته صعوداً الى المختبر.

في المختبر، تكوّر ستول على الأرض وسط الضجيج والازيز وحاول أن يغفو. وانحشرت قدماه في غابة من الشاشات والآلات الطابعة التي دبّت الحياة في اثنتين منها فراحتا تومضان وتقرقعان كلما أدار أحدهم قرصاً بغية دخول النظام. وكان الورق ينفد من كل واحدة بدورها في فترات متقاربة على نحو مغيظ، فتروح تزعق معلنة النبأ الخطير، فيضطر كليف الى النهوض والسير متعثراً بين الاسلاك المتشابكة كي يلقم الآلة ويسكتها.

وفي الصباح التالي تبيّن أن إحدى الالتين سحبت حوالى ٢٥ متراً من الورق وطبعت عليه، بأمانة وإخلاص، جميع الاوامر الصادرة عن لوحة المفاتيح الرئيسية التي يستخدمها المتسلل، كذلك الاستجابات الصادرة عن الدماغ الالكتروني الذي يشرف عليه ستول. واتضح أن أحدهم استغل وجود هنة صغيرة في البرنامج وتمكن من سرقة امتيازات استثنائية، وأمضى ثلاث ساعات يجوس في نظام مختبر لورنس بيركلي.

أورمل وهاغبارد

اسمه الحقيقي ماركوس هيس، و"أورمل" اسمه المستعار عندما يقتحم الشبكة. بلغ الرابعة والعشرين من عمره في ذاك الصيف (١٩٨٦) وقطع دراسته الجامعية ليعمل ميرمجاً للدماغ الالكتروني في مدينة هانوفر شمال ألمانيا.

عمله، مثل دراسته من قبل، لا يثير اهتمامه. إنه يعيش لليالي التسلل. يجلس في الوهج المتألق المنبعث من المرقاب أمامه ويروح يضرب على الآلة رموز دخول غير مرخّص لها وأخرى ملفقة تتيح له حرية التجول في أنحاء العالم من خلال اختراق

الادمغة الالكترونية في ألمانيا الغربية وفرنسا والولايات المتحدة واليابان وبلدان أخرى.

في ليلة مثل تلك يكون هيس في شقة مستأجرة في غلوكسيسترلس مؤلفة من غرفتين فُرشتا كيفما اتفق باستثناء دماغ الكتروني هو قطعة الأثاث الوحيدة القيّمة. وحول الجهاز أوراق دونت عليها لوائح بكلمات سر وأسماء أصحاب حسابات. وحوله أيضاً كتيّبات تقنية وغلافات سكاكر وأكواب متسخة ومنفضة ضاقت بأعقاب السجائر المسحوقة من ماركة "بنسن اند هدجز." ولا يضيء المكان سوى طيف نور منبعث من شاشة الدماغ الالكتروني، تتراقص فيه سحب دخان السجائر ناشرة في الجو رائحة كريهة.

أقام هيس صداقة مع مهووس آخر بالادمغة الالكترونية عمره ٢١ عاماً واسمه كارل كوك لكنه يفضل أن يُدعى هاغبارد. ويتناوب الصديقان الجلوس أمام لوحة المفاتيح يعملان فيها نقراً وضرباً ويعرضان على المرقاب مواكب الحروف والارقام. وهما لا ينفكان يتنقلان بين الشبكات لاختراق "بنوك" أخرى للمعلومات والتسلل اليها. تمرّ الساعات مسرعة فلا يشعران بها. وها قد انتصف الليل وهما أمام الجهاز منذ العصر، يخالان الساعات دقائق. عالمهما الحقيقي الآن هو عالم الضوء والظلال ذاك وارض المعركة تلك، حيث جاءا ليبزّا أصحاب السطوة والسلطان دهاء وحيلة.

وفي ما خلا ادمانهما ليالي التسلل، لا تجمع الصديقين صفة مشتركة أخرى. بل انهما شديدا الاختلاف. ولقد درج هيس منذ أكثر من سنة على التنقل بين دوائر المتسللين، كما انه يحضر أحيانا اجتماعات "نادي فوضى الكمبيوتر"[1] ومركزه مدينة هامبورغ. وهذا النادي ملتقى للمتسللين الذين يشتركون في أنهم جميعهم من أصحاب البراعة التقنية الفائقة ومن المؤمنين بأن لأي انسان الحق في أن يغزو مراكز المعلومات التي تخص أي جهة. وفي عالم المتسللين هذا اكتسب هيس نجومية خاصة بفضل مثابرته. وهو اشتهر بولعه باختراق الادمغة الالكترونية العائدة الى القوات العسكرية.

وعلى نقيض هيس، لم يكن كوك ماهراً في البرمجة. لكن موهبته الطبيعية في استخراج كلمة السر الصحيحة من اللاشيء تتيح له اختراق خطوط الدفاع المعتمدة.

وكان هيس ممتلىء الجسم محباً للابهة وابن عائلة ألمانية ميسورة. أما كوك فكان عاطلا عن العمل وغارقاً في الديون. وكان فوضوياً ثائرا وكتلة من الاعصاب. توفيت والدته وهو في العاشرة من عمره وتبعها والده بعد ثمانية أعوام. وكان والده صحافياً معروفاً، وتكفيراً عن اهماله اياه طوال سنوات نموّه، ترك له مبلغ ٥٠ ألف دولار. لكن المبلغ نفد قبل زمن بعيد. وهو أنفقه على شراء معدات الكترونية وعلى فواتير

(١) Chaos Computer Club

الاتصالات الهاتفية التي بلغت أحياناً الف دولار في الشهر (وهذا ما يكلّفه التسلل الجديّ) وعلى المخدرات. وهو حاليا مدمن كوكايين وقد تدرّج اليه عبر الماريوانا والـ«LSD» .

يفضّل كوك دائماً اسم هاغبارد. ويجنح به الخيال تحت وطأة الكوكايين الذي يتعاطاه، فيتقمص شخصية هاغبارد فعلاً. وهاغبارد هذا هو بطل سلسلة كتب "إلوميناتي" ذات المحتوى الخيالي – العلمي الذي يدور غالباً حول الخير والشر. والسلسلة مفعمة بالرموز والتلميحات الغامضة والارقام السحرية. وهاجس كوك هو الرقم ٢٣ الذي تعبّر عنه شارة النصر المرسومة برفع السبابة والاصبع الوسطى فيما الاصابع الثلاث الباقية مطوية. وهو يرمز في نظره الى ثنائية الخير والشر.

وهاغبارد الذي لا يهاب شيئاً يشنّ حرباً على جماعة "إلوميناتي" ذوي القلوب السوداء المتورطين في مؤامرات دولية هدفها استعباد الروح البشرية. وكوك، مثله، مجنّد في حرب يشنها على أسياد الادمغة الالكترونية، أولئك الذين يخنقون تدفّق المعلومات بإيصاد أبواب مخازنها بواسطة كلمات سرية ورموز تحظر الولوج. وهكذا يخفون الحقيقة عن الناس.

البحث عن شيء ضخم

في نهاية العام ١٩٨٦ تعرف كوك الى مهووس آخر بالادمغة الالكترونية اسمه هانس هوبنر وعمره ١٧ سنة. وكان هذا معروفاً في أوساط "نادي فوضى الكمبيوتر" كمبرمج باهر. وكان كوك في ذلك الوقت منهمكاً في نشاطات "المركز ٥١١" في النادي. والرقم ٥١١ هو في الوقت ذاته الرمز الهاتفي لمنطقة هانوفر في شمال ألمانيا الغربية. لكن مهمة كوك في المركز لم تكن تتطلب منه أكثر من بضعة اجتماعات في مقهى محلي، وبعض ليالي التسلل الطويلة في شقق مختلفة.

وما لبث المتسللان أن تعرفا الى ألمانيين يكبرانهما سناً هما ديرك برزنسكي وبيتر كارل.

كان برزنسكي آنذاك في السادسة والعشرين من عمره وصاحب طبع شرير. وعرف عنه انه في سورة غضبه يكسر أي زجاج تقع عليه يداه. لكنه كان مبرمجاً مبدعاً يجني أكثر من ١٠٠ دولار في الساعة من عمله خبيراً في تحديد مواطن الخلل في الاجهزة في عدد من الشركات، بينها شركة "سيمنز" الكهربائية العملاقة. وكان المال يختفي حال وروده، ينفقه برزنسكي على سيارات السباق وعلى مجموعة واسعة من المخدرات. وهو سُمع يقول بقناعة انه لا يخشى أن يصبح مدمناً، لانه يتعاطى أصنافاً عدة من المخدرات. أما بيتر كارل فكان في السابعة والثلاثين وقد عمل مديراً في ناد ليلي في هامبورغ. ومنذ خسر برزنسكي اجازة السَوْق على اثر مطاردة الشرطة اياه لسرعته

الفائقة، تولى كارل القيادة. وهو لم يكن يعرف شيئاً عن الادمغة الالكترونية. وكان يحمل مسدساً.

في أوائل العام ١٩٨٦، بعد تبدد المال الذي ورثه كوك وإدمانه الكوكايين الذي كان يكلّفه ٣٠٠ دولار في الاسبوع، بدأ يسأل علناً كيف يمكنه أن يسخر موهبته في التسلل لكسب المال.

وذات يوم من شهر سبتمبر (أيلول) إتصل كارل بوفد تجاري سوفييتي في برلين الشرقية. وهناك التقى رجلا أنيق الملبس لم يعرف عنه سوى أن اسمه سيرج وانه مع الـ«KGB» (وكالة الاستخبارات السوفييتية). حمل اليه كارل في اجتماعهما الثاني حقيبة مليئة ببيانات مسروقة من قواعد عسكرية غربية ومراكز أبحاث وصناعة. وهو أراد بذلك أن يريه عينة مما يمكن تحقيقه من طريق الخبرات التقنية. ذلك ما أرادت جماعة هانوفر أن تبيعه، وذلك ما عرضته: قائمة بأدمغة الكترونية يفترض أنها مصونة من الاختراق وموزعة في مجالات حساسة جداً. انها نوع من "افتح يا سمسم" تستجيب له مراكز المعلومات في الغرب. وهم طلبوا في مقابل ذلك كله مبلغ ٥٠٠ ألف دولار.

هز سيرج رأسه نفياً. فرؤساؤه يفضلون أن تستمر الجماعة في تدبُّر المعلومات وتسليمه اياها. وقال وهو ينقر على الحقيبة ان رؤساءه سوف يقوِّمون ما في داخلها وانهم يهتمون كثيراً بالمعلومات المجموعة من بنوك المعلومات العائدة الى السلطات والاجهزة العسكرية في الولايات المتحدة، وخصوصاً تلك المتعلقة بالبرامج الغربية لإنتاج "المنسِّقة المصغَّرة"[٢]، تلك الرقاقة الالكترونية الموجودة في قلب كل دماغ الكتروني.

وفي اللقاء الثالث اجتمع كارل بسيرج في مكاتب شركة "ماتا نوفيس" التجارية حيث سلمه هذا ظرفاً يحتوي على ١٠ آلاف دولار "دفعة أولى" على حدّ تعبيره.

وهو أضاف: "أتحفونا بشيء كبير."

هكذا بدأت "عملية المسوّي"[٣] الاسم الذي أطلقه المتسللون على عمليتهم مع سيرج. ومنذ ذلك الحين بات كارل يعبر بانتظام حاجز فريدركستراس بين برلين الغربية وبرلين الشرقية من دون أن يرتاب في أمره حراس الحدود في برلين الشرقية. وهو كان يسلّم أقراص المعلومات[٤] ويعود حاملا ماركات ألمانية. صحيح أن ما قبضه المتسللون لم يكن ليكفي تسديد فواتير الاتصالات الهاتفية، إلا أنهم كانوا كل مرة يوعدون بمبالغ أكبر كثيراً، وهذا ما حملهم على مواصلة البحث.

---

(٢) Microprocessor

(٣) Operation Equalizer

(٤) Data disks

وهكذا، في احدى ليالي سبتمبر (أيلول)، يجلس أورمل وهاغبارد في شقة هيس ويجوبان القارات أملا بالعثور على شيء ما يجعل وكالة الاستخبارات السوفييتية تفتح كيس النقود. يبدأان باجراء اتصال محلي بجامعة برمن، ومنها يتصلان بمؤسسة "داتكس ب" الشبكة الدولية للادمغة الالكترونية في ألمانيا الغربية. ومن ثم يتصلان بشبكة "تيمنت" التي تضم أدمغة الكترونية موزعة في أقطار العالم. والحقيقة أن في قدرة اي كان أن يفعل ذلك، لأن أرقام الاتصال بالشبكتين مدرجة في الدليل العام. ولمَ لا؟ فتسهيل تبادل المعلومات هو سبب وجود "تيمنت." أما الخطوة التالية ففائقة السهولة. انهما يستخدمان حساب سفنتك القديم الذي استوليا عليه مستغلين بعض العيوب في نظام الحماية. ويتمكنان في النهاية من التسلل الى مختبر لورنس بيركلي.

■ تعقُّب الدخيل ■

زيارة المتسللين هذه خاطفة. فهما حصلا في "زيارة" سابقة على أفضليات استثنائية. فمختبر لورنس بيركلي ليس هدفاً سهلا فحسب، بل هو أيضاً مدخل مثالي متصل بعشرات الشبكات. والشبكة التي يستكشفانها هذه الليلة هي شبكة "ميلنت" التي تملكها وزارة الدفاع الامريكية. انهما يقفزان من قواعد الجيش الى القوات الجوية الى مراسي السفن الى متعهدي الدفاع الى مواقع الصواريخ. إنهما كمن يختبر مقابض الابواب في شارع مظلم. الابواب موصدة ولا ينجح أي منهما في اكتشاف كلمة السر. وفي محاولات عدة يصدّهما النظام. لكنهما لا ييأسان، فأمامهما أهداف مختلفة. وفي حوزتهما كلمات سر كثيرة.

ينقضي الليل. يغفوان قليلا ثم يعاودان العمل. ينقران، يتلمسان، يديران "مقابض الابواب"، ويتصلان بـ"ميلنت." يطلب المرقاب كلمة السر. يحاول هيس أن يتذكر الكلمة التي استخدمها في المرة الاولى عندما استولى على الصلاحيات الاستثنائية. يحدّق الى علبة السجائر ثم يطبع كلمة "بنسن."

وتنبئه الشاشة: "ليست هذه كلمة السر. حاول ثانية."

يطبع كلمة "هدجز."

ثمة توقف بسيط، فالدماغ البعيد يفتش في ذاكرته. انهما منحنيان أمام الجهاز وعيونهما مسمّرة على الشاشة. يختفي العرض الأول وتحلّ عبارة "أهلا بكم في مستودع أنيستون للجيش في مدينة أنيستون بولاية ألاباما."

•

غداة اقتحامْ مركز المعلومات في مختبر لورنس بيركلي، فتح ستول سجلا يدوّن فيه اقتحامات المتسلل واستجابات المختبر لها.

أظهر السجل الثغرة التي استغلها المتسلل في المجال المحظور المخصص لمدير الانظمة، حيث تنص التعليمات صراحة: "امنح هذا الشخص امتيازات استثنائية فائقة." ولم يكن الجهاز الا ليذعن لها، هي الصادرة عن "الرئيس الكبير." ولم يكن الرئيس الفعلي في الساعات الثلاث التي تلت سوى المتسلل.

كان المتسلل ينظر خلفه باستمرار ليتأكد من أنه غير مراقب. وهو بدأ عمله بكتابة برنامج يتيح له قراءة كل البريد الوارد. وضمّن البرنامج تعليمات تقضي بالتحقق من كلمتي "حماية" و"متسلل" اللتين قد تعلمانه باكتشاف أمره. وكان بين الحين والآخر يطبع كلمة "من؟" فيجيبه الدماغ الالكتروني بقوائم تحمل أسماء جميع الداخلين على الخط في ذلك الوقت. وعندما عجز عن فهم اختبار علمي ينطوي على جمع معلومات وتسجيلها بانتظام، لم يتورع عن محوه متلفاً ثمرة أشهر من الجهد المضني.

وفيما البرنامج يعمل راح هو يطلب الملفات يميناً ويساراً كمن يدخل خلسة مكتباً خالياً ثم يروح يفتح خزائن الملفات الواحدة بعد الأخرى. وأظهر نمط تفتيشه أن جميع الكلمات الرئيسية التي استخدمها تتعلق بمواضيع عسكرية. فهو استخدم عبارات مثل "حق الدفاع الاستراتيجي" المعروف في وسائل الاعلام بـ"حرب النجوم" و«KH11» وهو قمر تجسس اصطناعي و«NORAD» وهو اسم "القيادة العامة للدفاع الفضائي – الجوي في أمريكا الشمالية" و"ريدستون" وهو صاروخ أرض – أرض.

ترى لماذا يبحث عن هذه الامور في مختبر لورنس بيركلي؟ أويكون الامر اختلط عليه فأخطأ بين مختبر بيركلي ومختبر ليفرمور الوطني الذي يبعد ٦٥ كيلومتراً ويتعاطى مشاريع سرية وذات توجه دفاعي وتتناول شؤون الليزر والذرة؟

ترى ماذا يبغي؟ وما الذي فعله ولم يكتشفه ستول بعد؟ أظهرت النشرة المطبوعة التي لفظها الدماغ الالكتروني المواد التي قرأها المتسلل وأخذ نسخاً عنها. وبينها قائمة بكلمات السر. ان في وسعه، وقد أصبح يملك أفضليات استثنائية، أن يفسد أي ملف في النظام المتبع في مختبر لورنس بيركلي، ويختفي من دون أن يخلف أي أثر يدل عليه. وفي وسعه أيضاً أن يزرع في النظام "فيروساً" يظل هامداً مدة أسبوع أو شهر أو سنة، قبل أن يتفجر ويلوّث المختبر كله، وبعد ذلك ينتقل الى الشبكات الأخرى فيتلفها.

قال ستول: "لم نعد نعرف هل نثق ببرنامجنا بعد الآن." والحقيقة أن الثقة كانت مستحيلة قبل معرفة ماذا فعل المتسلل. وهذا يقتضي معرفة ماذا يبغي ومن هو.

رجع ستول الى رئيسه ليروي كيرث طالباً أن يمنحه الضوء الاخضر. فقال له هذا: "أمسك به! ولا يهمني إن اقتضى ذلك ثلاثة أسابيع."

عمد ستول من فوره الى إقامة حراسة الكترونية. لن يحتاج هذه المرة الى ٥٠ مرقاباً وآلة طابعة. فدخول المتسلل مختبر لورنس بيركلي في المرات السابقة كان عبر

"تيمنت" المتصلة به عبر أربعة منافذ فقط. ولم ينقض النهار إلا وقد جمع ستول الاجهزة اللازمة بالاستعارة والتوسل.

يقتضي للامساك بالمتسلل تعقُبه الى لوحة المفاتيح التي يستخدمها. فلا يكفي أن يُعرف أنه كان هناك، أو أن يُعلم النبأ السيىء بالقراءة عنه بعد وقوع الضرر. وبات كليف يحمل جهاز تنبيه لاسلكياً لا يفارقه حتى حين ينام. وكان يكلفه ٢٠ دولاراً في الشهر رسم ايجار يدفعه من جيبه الخاص. وبرمج الدماغ الالكتروني بحيث يتصل بالمنبه حالما يدخل المتسلل الشبكة، فيسرع ستول الى المختبر في اللحظة التالية.

قال ستول: "لطالما قيل لي ان ذلك سيحصل ذات يوم. وها قد حصل. لقد أصبحت أنا امتداداً لدماغي الالكتروني."

"عسكر وحرامية"

بعد ظهر اليوم التالي انطلق من جهاز الاستقبال صوت حاد: لقد عاد سفنتك. وفيما الدخيل يتحقق من بقاء الثغرة التي جعلته مشتركاً استثنائياً، كان ستول المهتاج يتصل هاتفيا بجماعة "تيمنت" لكي يقتفوا الاتصال الصادر عن أحد المنافذ التي تربط شبكتهم بمختبر لورنس بيركلي.

لم يحملهم البحث بعيداً، إذ قادهم الى مكتب لهم في أوكلاند يبعد خمسة كيلومترات. ترى لماذا دخل المتسلل عبر شبكة وطنية ذات مراكز اتصال توسُّطية، في حين أن في أمكانه الاتصال بمختبر لورنس بيركلي مباشرة؟ انه، على حد تعبير ستول، "كمن يأخذ الطريق العامة التي تصل بين الولايات ليقود سيارته بضعة أمتار." وأضاف: "هذا الشخص خبير ويعرف كيف يختبىء. فاتصاله عبر تيمنت يضيف طبقة يتعيّن على متعقبه أن ينزعها."

اقتضت الخطوة التالية أمراً من المحكمة يجيز اقتفاء المكالمة الى الهاتف الذي أجريت منه، وذلك يقتضي مذكرة من أجهزة الشرطة، وفكر ستول في أن القضية تدخل ضمن صلاحيات "مكتب التحقيقات الاتحادي" (FBI) فاتصل بالمكتب. لكن المتكلم أجابه بصوت ينم عن شك كبير: "دعني استوعب الامر جيداً. إنك تتكلم عن ٧٥ سنتاً مفقودة، وتريد أن يجري الـFBI تحقيقاً؟" وأفهمه مكتب النيابة العامة في أوكلاند – وإن بدا أكثر تعاوناً – أن الأمر يستغرق وقتاً طويلاً.

يوم الاربعاء الواقع فيه ١٠ سبتمبر (أيلول) ١٩٨٦، اتصل المتسلل مستخدماً اسم "هنتر." إلا أنه غادر بسرعة قبل أن يصل ستول الى المختبر الذي انطلق اليه على دراجته. لكن الآلة الطابعة اقتفت الاتصال مسجلة أن المتسلل اتصل بـ"ميلنت" وهي شبكة صناعات عسكرية ودفاعية، ومنها اتصل بمستودع أنيستون التابع للجيش. وهو استخدم كلمة السر "هدجز" مرة أخرى.



(من اليمين) بيتر كارل وماركوس هيس وديرك برزنسكي

اتصل ستول للحال بمستودع أنيستون ونبه مركز الدماغ الالكتروني فيه الى أن دخيلا اقتحم نظامه.

وأصبح ذلك الاجراء في ما بعد السياسة المتبعة في مختبر لورنس بيركلي. وقال كيرث لستول: "كلما غُزي أحد المراكز، أعلم أصحابه للحال."

في الاسابيع التالية عمد مديرو الانظمة الذين تمّ تحذيرهم الى تجريد المتسلل من قدراته باتخاذ اجراءات تحرمه دخول شبكاتهم. فخيّل اليه، بلا شك، أن جميع الشبكات باستثناء شبكة مختبر لورنس بيركلي قد كشفت أمره. والحقيقة أن العكس هو الصحيح، إذ لم يتنبه اليه أحد سوى هذه. وكان كليف ستول يصدّ المتسلل بنفسه لدى اختراقه أنظمة تجهل أساليب حماية الذات. فكان يخشخش مفاتيحه قرب الاسلاك فتحدث ضجيجاً يعيق الاتصال، خصوصاً إذا حاول المتسلل قراءة وثائق حساسة فيظن أن الامر لا يعدو تشويشاً في الشبكة. ولم يكن ستول يتردد في قطع الاتصال تماماً إذا شرع المتسلل في محو أحد الملفات. لكنه لم يكن قادراً على تسجيل أي اختراق ما لم يمس المتسلل نظامه هو. وكان عليه أن ينطلق من فرضية أن مختبر لورنس بيركلي ليس نقطة الانطلاق الوحيدة للمتسلل.

بدأت النشرات الالكترونية المطبوعة في مختبر بيركلي ترسم صورة للطريدة. وبدا واضحاً أن المتسلل لم يكن يلهو ولم يكن مهتماً بألعاب الكمبيوتر. بل انحصر اهتمامه في أمور عسكرية وفي أوجه استخدام العلوم والصناعة لاغراض عسكرية. فالكلمات الرئيسية التي ترددت في برنامجه واستأثرت بأبحاثه تمحورت حول مواضيع مثل اطلاق مكوك فضائي، وانطلاق قوات جوية، والحروب الكيميائية والبيولوجية، وقواعد الجيوش، والتجسس، ووكالة الاستخبارات المركزية (CIA)، والاقمار الاصطناعية. وهو راح يبحث عن بيانات ومعلومات من ذلك النوع بتصميم منقطع النظير.

هل هو جاسوس يا ترى؟ هكذا تساءل كليف من دون أن يطلع أحداً على ما ساوره سوى مارثا.

الا أن ستول بدأ يشعر بأنه بات يعرف خصمه الخفي. فمهارته في الادمغة الالكترونية أوحت أنه في العشرينات من عمره. ولاحظ كليف أن أكثر الاسماء وكلمات السر ترددأ لديه هي "هدجز" و"بنسن" و"هنتر" و"ياغر." وقد اكتشف ستول أن "ياغر" بالالمانية تعني "هنتر" بالانكليزية اي الصياد. اويكون المتسلل يدرس اللغة الالمانية؟ أو لعله الماني الاصل؟ و"بنسن اند هدجز" ماركة سجائر، فهل هو من مدخنيها؟ إلا ان السؤال الجوهري ظل من دون جواب. ولم تفض هذه التساؤلات الى معرفة هوية المتسلل.

والواقع أنه مع دنو نهاية شهر سبتمبر (أيلول) وانقضاء مهلة الاسابيع الثلاثة لكشف القناع عن وجه المتسلل، اعترى ستول شعور بالاحباط. فأمر المحكمة الذي يجيز تعقب المكالمات والذي أصدر بعد انتظار طويل لم يفد أبداً. وهو لم يكن نافذاً إلا ضمن ولاية كاليفورنيا التي بدا أن المتسلل لا يستخدم شبكاتها إلا كمحطة في تحركاته عبر الولايات، متخطياً أحياناً الحدود الدولية.

وتشابهت استجابات الـ«FBI» والجيش لتوسلات ستول. فهما أفاداه أنهما لا يتعاطيان مثل تلك القضايا. وبدا له أن أحداً سواه لا يتعقب المتسلل. ولم تعجبه فكرة القيام بدور الشرطي، كما أنه كان يجهل كيف يمسك بالمتهم. وظل يقلّب في فكره تألّب الاحداث الغريبة التي جعلته – وهو زهرة أينعت في الستينات – يتورط مع الـ«FBI» ومع الـ«CIA» .

والى المائدة في مطعم مختبر لورنس بيركلي قال له لويس ألفاريز متعاطفاً، وهو كان حاز في العام ١٩٦٨ جائزة نوبل في الفيزياء: "عندما تجري أبحاثاً جدية، لا يمكنك أن تعرف مسبقاً كم ستبلغ كلفة البحث وكم سيستغرق من وقت وماذا سيكشف من نتائج."

فرد ستول: "لكن هذا ليس بحثاً، انه عملية عسكر وحرامية."

فقال ألفاريز بحدّة: "لا تدعه يكون هكذا! لا تحاول القيام بدور الشرطي! كن عالماً."

لم يقتنع ستول بهذا الكلام. ولكن اذ لم تكن امامه سبل واعدة أخرى عمل بالنصيحة. وضع رسماً بيانياً بتوقيتات عمليات الغزو. واستخلص أن معظمها تم قرابة الظهر بحسب توقيت الولايات الغربية، أي في الثالثة بعد الظهر بحسب توقيت الولايات الشرقية. وهو وجد ذلك منافياً للمنطق وسخيفاً، مما عمق كآبته. فتلك أوقات لا يعمل فيها المتسللون المعروفون بأنهم كائنات ليلية.

خطرت له فكرة أخرى. سوف يقيس الوقت الذي يفصل بين ارسال مختبر لورنس

بيركلي المعلومات ورجع الصدى، أي الفأفأة البسيطة التي يحدثها جهاز المتسلل إشعاراً بأنه تلقى المعلومات. وبالرجوع الى قواعد الفيزياء الاساسية – أي ضرب المدة التي يستغرقها رجع الصدى بنصف سرعة الصوت، مع أخذ مدة التأخر ضمن الشبكة في الحساب – لا بد وأن تتضح المسافة الفاصلة بين موقع المتسلل ومختبر لورنس بيركلي.

جهّز كليف مرسمة للذبذبات(٥). ولكي يتحقق من صحة نظريته طلب من أصدقاء له موزعين في أنحاء البلاد أن يجعلوا أدمغتهم الالكترونية تتصل بدماغه. فتبين له ان رجع الصدى من الاتصالات الواردة من مدينة لوس انجلس في ولاية كاليفورنيا التي لا تبعد عن المختبر سوى بضع مئات من الكيلومترات، لا يستغرق سوى عُشر ثانية، أما الاتصالات الواردة من نيويورك فاستغرق رجع صداها نحو ثانية كاملة. بعد ذلك سجل ستول الوقت الذي ورد فيه اتصال المتسلل، فتبين من المدة التي استغرقها رجع الصدى أن المتسلل يبعد أكثر من ١١ ألف كيلومتر.

طأطأ كليف ستول رأسه مكتئباً. فالاختبار نجح، لكن النتيجة جاءت في منتهى الغرابة، فهي أظهرت أن المتسلل لم يكن حتى في الولايات المتحدة. قد يكون في أي بقعة على وجه الارض، من أمريكا الجنوبية الى أوروبا الغربية.

تحت الضغط

انه وقت عصيب بالنسبة الى متسللي هانوفر. فلقد أصدرت إلمانيا الغربية في أول أغسطس (آب) ١٩٨٦ قانونا اعتبرت بموجبه التسلل في بعض الظروف جريمة يعاقب عليها بالسجن مدة قد تصل إلى ثلاث سنوات. وهم "طردوا" من مستودع الجيش في أنيستون وبدأوا يواجهون صعوبة كبرى في اختراق قواعد عسكرية ومراكز أبحاث أمريكية. ولئن لم يكن لديهم أي دليل حسي فانهم يشعرون بأنهم ملاحقون. ولجأ كوك الى استخدام آلة "مودم" ودماغ الكتروني يحمل باليد، واجراء اتصالاته من كشك عمومي للهاتف، حرصا منه على ألا يتعقبه أحد الى شقته.

بدأ السوفييت يضغطون من أجل الحصول على معطيات محدّدة. فهم تارة يطلبون رموزاً عسكرية تؤمن دخول الشبكات، وطوراً يريدون برامج كمبيوتر معدّة لعمليات التصميم والانتاج (CAD/CAM) ولتكنولوجيا الليزر. أما الطلب الدائم والملحّ فكان للرقائق الالكترونية. وكان كارل، الذي تولى دور الوسيط، يعود الى الجماعة بمبالغ ضئيلة – ٢٥٠٠ أو ٥٠٠٠ دولار – يتوزعها الخمسة. أما سيرج، منسّق العملية، فما انفك يطمئنهم الي أن لديه أضعاف تلك المبالغ مئة مرة ولكن في مقابل "شيء كبير".

بلغ عدد اللقاءات في برلين الشرقية ٢٥. والخمسة الذين قصدوا السوفييت علّهم

(٥) Oscilloscope

يبيعونهم بعض المواد ياتوا يحملون قائمة طويلة من الطلبات السوفييتية.

إنهم يبذلون قصارى جهدهم. وهم انتهكوا أدمغة الكترونية في فورت ستيورت بولاية جورجيا تابعة لقوة "الانتشار السريع" في الجيش الامريكي، واخترقوا قاعدة جوية في رامشتاين بألمانيا الغربية ومركزاً بحرياً أمريكياً نائياً في المحيط الهادىء ومعسكر بوكنر في جزيرة أوكيناوا شمال شرق تايوان. وتوصلوا أيضاً الى اختراق "أوبتيموس" وهو دماغ الكتروني في مبنى وزارة الدفاع الامريكية (البنتاغون) يستخدم مخزناً للوثائق العسكرية.

يبدي برزنسكي تحت الضغط جرأة وشجاعة. وكان لا يزال يجني مالا وفيراً من عمله خبيراً في تحديد مواطن الخلل في الادمغة الالكترونية. أما لقاءاته فكان يعقدها في المقاهي العامة، ويحرص على دفع حساب كل المجتمعين. لكن طبعه الشكس لم يفارقه، وما زالت كلمة واحدة غير مناسبة تمحو الابتسامة السهلة عن وجهه بلمح البصر ليحل مكانها تجهُّم عنيف. وهو تشاجر غير مرة مع هوبنر وهدّده بالقتل.

ومن عادته التبجح بأن الشرطة لن تنال منه أبداً. وإن هي هاجمته فسوف يقاوم ويقتل ثلاثة من عناصرها قبل أن تتمكن منه. والواقع أنه عندما قبض عليه فعلا في يونيو (حزيران) ١٩٨٧ بتهمة التهرب من الخدمة العسكرية، لم يبد أي مقاومة. وسار بهدوء مع رجال الشرطة. وحُكم عليه بعد ذلك بوضعه تحت المراقبة ثمانية أشهر.

ظلّ علي هيس أن يحاول اشباع نهم السوفييت الذين توالت طلباتهم. وهو دأب على السهر ليالي متتالية في شبه ظلام، يجوب القارات ويعبر المحيطات علّه يجد منفذاً. أما هوبنر فجبن أمام الضغط المتعاظم، فيما غرق كوك في دوامة لوّنها الكوكايين فتحوّلت ساحة وغى يقود فيها جيوشه – هو هاغبارد – للانقضاض على الالوميناتي الذين ظهروا على هيئة رأسماليين بدينين ومديري أنظمة كمبيوتر يعملون لديهم.

متسلل مراوغ

في نهاية سبتمبر (أيلول) انعش ليروي كيرث آمال ستول بتمديد مهلة الاسابيع الثلاثة. بعد ذلك تسارعت الاحداث. ففي نوفمبر (تشرين الثاني) تمكن ستول من اقتفاء المتسلل الى حلقة اتصال في مؤسسة "ميتر" في ماكلين بولاية فيرجينيا، وهي شركة تعهدات دفاعية ذات نظام أمني فائق الصرامة. ومع أن المؤسسة تحظر دخول الزوار ما لم يعرَّف بهم ويرافقهم أحد المسؤولين، فان أي شخص يقتني دماغا الكترونياً للاستعمال الشخصي وآلة "مودم"، يمكنه أن يقيم اتصالا مع "تيمنت" ومنها يتصل بـ"ميتر" من دون سؤال أو جواب.

لم يطل الوقت قبل أن يتخذ المتسلل من "ميتر" منفذاً آخر ومكاناً يختبىء فيه. حتى انها كانت تدفع رسوم اتصالاته من دون أن تدري.

وللحال بدأ ستول يعمل مع "ميتر" لتعقب المتسلل. وبعد بضعة ايام اتصل به عميل لمكتب التحقيقات الاتحادي في ألكسندريا بولاية فيرجينيا اسمه مايك غيبونز. ولم يكن ذلك العميل لترهبه الادمغة الالكترونية ومراكز المعلومات. وهو الى ذلك أدرك أن المسألة ليست قضية ٧٥ سنتاً مفقودة وأن ما يظهر منها ما هو إلا رأس جبل جليدي مغمور. وبعدما استمع بانتباه الى ستول الذي وضعه في جو احداث الاشهر الثلاثة الماضية، طلب منه نسخة عن السجل الذي دوّنه ويضمّ ٥٠ صفحة، ثم قال: "انها جريمة، جريمة خطيرة. الشخص الذي نحن في إثره يواجه حكماً بالسجن خمس سنوات وبغرامة مقدارها ٥٠ ألف دولار. انني معكم في هذه القضية."

وافق مدير الانظمة في مؤسسة "ميتر" على تزويد ستول قائمة بجميع مكالمات الدماغ الالكتروني التي سُجلت على حساب الشركة. لكنه سأله: "لماذا تريدها؟"

فرد ستول: "دعنا نعرف في أي مكان آخر تصرّف صاحبنا كأنه صاحب البيت."

وما لبث أن جاءه الجواب في ظرف منتفخ بفواتير التحصيل المرسلة من شركة الهاتف خلال الاشهر الستة الاخيرة. وكان على ستول، لكي يستخلص الجواب، أن يغوص في قوائم المكالمات الخارجية المسجّلة مع تواريخها وتوقيتاتها والارقام التي جرى الاتصال بها والمدن التي هي فيها. وبدأ ستول تبويب ما لديه. ووضع برنامجاً للدماغ الالكتروني على أساس الاهداف المعروفة التي اتصل بها المتسلل، أي "تيمنت" ومختبر لورنس بيركلي ومستودع الجيش في أنيستون. وعندما انتهى من ذلك ثبت له أن المتطفل الغامض اقتحم ما لا يقل عن ستة ادمغة الكترونية، وأنه أجرى من "ميتر" وحدها أكثر من ١٥٠ اتصالا بقواعد عسكرية وأحواض سفن وشبكات عسكرية موزّعة في أنحاء الولايات المتحدة.

أدخل كليف في سجله سؤالين: "ماذا اكتشف المتسلل؟" و"ماذا يفعل بالمعلومات التي حصل عليها؟"

وبعيد الثانية عشرة ظهر يوم السبت الواقع فيه ٦ ديسمبر (كانون الاول) إطلق جهاز الاستقبال المنبه الذي يعلقه ستول في حزامه ثلاث صفرات – نقاطاً ثلاثاً، أي رمز الحرف «S» في نظام "مورس." لقد عاد سفنتك إذاً. وعندما تبين أن الاتصال الذي تلقاه المختبر صادر عن "ميتر" التي وصل اليها المتسلل عبر "تيمنت"، رفع ستول سماعة الهاتف وطلب تعقباً داخل الشبكة. لم يستغرق ذلك طويلا، وأسفر عن أول دليل ملموس على ذلك الشبح الذي جرى وراءه طويلا.

سأله عامل الهاتف في "تيمنت": "هل أنت متأكد من أنه الشخص ذاته الذي تتعقبه؟"

وقبل أن يجيبه ستول راقب جَرْد المتسلل لقائمة الكلمات الرئيسية، وجميعها متعلق بأمور عسكرية. ثم قال: "نعم، اني متأكد."

فشرح له العامل سبب استغرابه: "انه يجري اتصاله من خارج نظام تيمنت، من خط دولي للهاتف والتلغراف، ربما كان مركزاً أرضياً يصل قمراً اصطناعياً بمحطة أرضية."

سأله كليف: "أتعني أن هذا الشخص ليس في أوروبا؟"

فأجابه: "قطعاً، هو ليس في أوروبا."

وعلى الأثر اتصل ستول بستيف وايت في شبكة "تيمنت"، الخبير في فك العقد المستعصية في المخابرات الدولية. وتمكن هذا من إقتفاء الاتصال الى أبعد من القمر الاصطناعي، الى النقطة الاولى التي أجرى منها المتسلل اتصاله بالخط الدولي.

سأله ستول: "والنتيجة؟"

فاجاب: "ان الرجل الذي تبحث عنه موجود في ألمانيا الغربية. وهو يتصل بنا من شبكة ألمانية اسمها "داتكس ب." ثم أضاف انه، يوم الاثنين، سيعطي العنوان الذي يجري منه المتسلل اتصالاته الى مصلحة البريد الالمانية الغربية لتحديد النقطة التي اتصل منها في شبكة "داتكس ب."

"أمسك به!"

ألمانيا الغربية إذاً! في وقت لاحق قال ستول: "لم أدر ماذا أفعل، أأضحك أم أبكي."

لقد ذرع الولايات المتحدة طولا وعرضاً بحثاً عن شخص افترض أنه أمريكي. ولو وثق بحساباته لكان اختبار الصدى الذي أجراه وضعه في الطريق الصحيح. وكان الاختبار أفاد أن المتسلل يبعد مسافة ١١ ألف كيلومتر. لكنه لم يصغ. ولم توقظه من سباته كلمتا "ياغر" و"هنتر" اللتان تحملان دلالة واضحة. ولم يهزه الجدول البياني المتقن الذي رسمه للاوقات التي تمت فيها الاتصالات. وهو كان خلص الى أن الظهر ليس وقتاً ملائماً للتسلل، ولكن فاته أنه عندما يكون الوقت ظهراً في بيركلي تكون الساعة التاسعة مساء في ألمانيا الغربية، وهذا وقت ممتاز للتسلل.

اتصل به ستيف وايت ناقلا اليه تقرير مصلحة البريد الالمانية الغربية الذي أفاد أن المتسلل اجرى اتصاله من جامعة برمن في شمال ألمانيا الغربية.

غاص قلب ستول في صدره. أيعقل أنه طلب مساعدة وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) ومكتب التحقيقات الاتحادي (FBI) لتجنب كارثة جاسوسية، ليتبين أن العدو ليس سوى فتى في الجامعة ذي حس دعابة ملتو؟ لكن لا. فشباب الجامعات لا يتميزون بفترات تيقظ تمتد خمسة أشهر، ولا يعانون تعلقا مرضيّاً بالخطط والمنشآت العسكرية.

مرّت أيام. واتصل "مركز الكمبيوتر للأمن الوطني" يسأل ستول كيف يمكنه أن يتأكد من أنه لا يلاحق دماغاً الكترونياً مبرمجاً على نحو شيطاني بحيث يتنقل بين

أدمغة الكترونية أخرى محاولا تعليقها. قلّب ستول السؤال في رأسه ثم أجاب: "أنا أكيد من أنه ليس دماغاً الكترونياً، لأن هذا المتسلل يرتكب أخطاء طباعية. وبرامج الكمبيوتر لا تخطىء هكذا."

توالت الاسابيع. وذات يوم أمال كيرث رأسه وقال ان رؤساءه يحشرونه. فتعقب المتسلل لا يدرّ ربحاً على خزائن مختبر لورنس بيركلي، وستول يهمل عمله، لذلك عليه أن يتخلى عن القضية. وفي اتصال اجراه العميل مايك غيبونز بعد الظهر أخبره ستول باكتئاب أنه لن يكون بعد الحين واجهة لمكتب التحقيقات الاتحادي في حرب الادمغة الالكترونية. فطلب منه غيبونز رقم هاتف رئيسه في العمل. وكان شعور كليف الدائم أن غيبونز الى جانبه. ولم يخذله حدسه، إذ جاءه كيرث ولما يمضِ على مكالمته مع غيبونز سوى ٣٠ دقيقة، وقال له: "حسناً يا كليف. انني أمهلك أسبوعين آخرين. ولكن، اللعنة يا كليف، أمسك به!"

واتصل أحد مديري شبكة "داتكس ب" في ألمانيا الغربية. وكان هو نفسه الذي تعقّب المتسلل الى جامعة برمن، وتقفّى اثره بعد بضعة أيام الى هاتف ما في مدينة هانوفر التي تبعد ٣٠ كيلومتراً. لكن التقنيين كانوا في حاجة الى مزيد من الوقت ليتمكنوا من تحديد رقم الهاتف.

أخيراً طلعت مارثا بفكرة "الفخ"، وهي خاطبت كليف قائلة: "اسمع، عليك أن تعطي ذلك الشخص سبباً يدفعه الى اطالة مكالمته مدة تمكنك من اقتفائه."

فسألها: "وأي سبب؟"

فأجابته: "السبب ذاته الذي من أجله اقتحم الشبكات. أعطه أسراراً. عن حرب النجوم مثلاً. شيئاً يتحرّق لمعرفته. شيئاً يستغرق نسخه في دماغه الالكتروني ساعتين."

رأى كليف للحال الامكانات المتاحة، وهتف لمارثا: "أيها العقل المدبِّر!" وأكبّ الاثنان على العمل. وهكذا ولدت "شبكة المبادرات الدفاعية الاستراتيجية" (سدينت) التي ضمّت سلسلة ملفات تحوي نصوصاً مزعومة لمشروع جديد لمختبر لورنس بيركلي هو عقد مع الحكومة الامريكية لاجراء دراسة حول دور الادمغة الالكترونية في "حرب النجوم." وهما جاءا بالمعلومات من وثائق حكومية أجريا عليها تعديلات بسيطة أضفت عليها طابعاً من السرّية، ومن معاهدات مطوَّلة من اختراعهما.

وهما ضمّنا الملفات قائمة بريدية نقلاها مباشرة من سجل بريد المختبر مبدلين عبارات مثل "السيد فلان" أو "الدكتور فلان" بعبارات مثل "العقيد فلان" أو "العميد فلان." كذلك ضمَّناها طلباً لموازنة مقدارها ٥٠ مليون دولار، وتلميحات مثيرة عن "معلومات إضافية" ترسل بالبريد. ولم يغفلا عنوان المشروع، فجعلاه صندوق البريد ٣٥١/٥٠. وبلغ مجموع الكلمات في ملفات المشروع ١٥٠ ألفاً، تلزم المتسلل

ساعتين على الأقل للتدقيق فيها وتقرير ما يريد أن ينسخه منها. وهما ألقماها الدماغ الالكتروني تحت حساب منفرد لا يحمل كلمة سره سوى ستول، أو دخيل ينتحل صفة مدير الانظمة.

مرت ايام عصيبة كان المتسلل أثناءها يدخل الشبكة بقصد الانطلاق منها الى سواها فقط. ثم، في يوم الجمعة ١٦ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٧، التقط الطعم. وعندما ظهر في الشبكة الساعة ٥،١٤ بعد الظهر، طلب للحال قائمة المشتركين الذين كانوا يستخدمون الشبكة في ذلك الوقت. وسرعان ما استرعاه ملف "سدينت" فتحوّل خلال دقائق مدير أنظمة وراح يعرض الملفات الواحد تلو الآخر ويقرأها بنهم أنساه أن يتحقق من أن أحداً لا يراقبه.

اتصل كليف بستيف وايت قائلا: "أطلب ألمانيا، انه هنا، وسوف يمكث بعض الوقت."

ظل المتسلل على الخط ٤٥ دقيقة أتاحت لعميل "داتكس ب" ولفنيي مصلحة البريد الالمانية ان يتعقبوا المكالمة ويحصروها في واحد من ٥٠ خطاً. وقال وايت لستول لاحقاً: "كان الشباب في غاية الحماسة هنا وظنوا أنه وقع في أيديهم."

فرد ستول مطمئناً: "لا تقلق، سوف يعود." وهو علم أن المتسلل لم يطلع على جميع ملفات "سدينت."

انتهت اللعبة

مرة أخرى أمضى ستول الليل مفترشاً الارض في مكتبه. وعندما صفر جهاز الاستقبال المنبه الذي يحمله في الساعة ٨،٠٨ صباحاً كان هو مستيقظاً. اتصل بوايت، إلا أن المتسلل قطع الاتصال بعد نصف ساعة فقط. وعاوده في الساعة ١٠،١٧ صباحاً، وكانت مارثا وافت ستول الى المكتب. وعندما رن جرس الهاتف عرف الاثنان أن ستيف وايت على الخط.

صرخ وايت في أذن كليف: "لقد اقتفوا أثره واكتشفوا الرقم!"

سأله كليف: "من هو؟"

فأجابه وايت: "إنهم لا يصرِّحون. ولقد أحالوا القضية على الشرطة."

هذه الليلة سيكون المتسلل خلف القضبان. هذا ما بدا لهما آنذاك. لكن الواقع تعدى جميع تصورات ستول وسواه تلك الليلة من شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٨٧. ولقد تبين في ما بعد أن على الشرطة الاتحادية في ألمانيا الغربية أن تعمل أكثر من سنتين لاستكمال الدعوى قبل أن تقوم بأي تحرّك.

مع حلول ربيع ١٩٨٧ شعر المتسللون بأن الشرطة تضيِّق عليهم الخناق. وكان هانس هوبنر ضبط وفي حوزته اوراق ثبوتية مسروقة من احدى الشبكات تخوّل حاملها

انتحال شخصية مشترك ذي امتيازات. وكان كوك وهيس شريكيه في هذه العملية. ولما لم يلحق هوبنر أي أذى شك الاثنان في أنه ربما أخبر الشرطة أكثر مما ينبغي أن يخبرها.

آخر اتصال أجراه ماركوس هيس بمختبر لورنس بيركلي كان في الحادي والعشرين من شهر يونيو (حزيران). وبعد يومين دهم فريقان من المحققين مكتبه وشقته وصادرا منهما الدماغ الالكتروني وكدسة من النشرات المطبوعة ومئة قرص (ديسك) ووثائق تصف "ميلنت."

لقد انتهت "حرب النجوم" بالنسبة الى هوبنر وهيس. وحده كوك، الذي كان يتجنب شقته ويجري اتصالاته من أكشاك عمومية للهاتف، واصل أعمال التسلل. لكنه مطارد من شياطين من نسج خياله. وفي بيان رسمي كتبه في وقت لاحق وطلب من "نادي فوضى الكمبيوتر" نشره، شبّه نفسه بهاغبارد "العبقري الذي خلص البشرية من حرب عالمية ثالثة." وتابع وقد جرفه جنون العظمة: "لقد بتُ شهيراً الى حدّ يردع أي محاولة لإلغائي بعنف... ان الفيروس الذي اكتشفناه يضمن لنا القوة لاطلاق الفوضى... فتتداعى الادمغة الالكترونية في الصناعات وينقطع التيار الكهربائي وتنهار شبكات النقل والاتصال... ويتعطل كل شيء... ولا يبقى شيء على حاله."

وفي ذلك الربيع كان صحافيان اسمهما اكسل ليرش وبيرند شونمان على علم بتورط كوك في العملية. فتعقباه الى حانة "تاباك" التي كان يتردد اليها. وجلس الجميع يحتسون الشراب. وحرص الصحافيان على اسماع كوك ما يشبع غروره. فراح يسرد عليهما بعض فصوله التسللية المدهشة، كاختراقه مختبراً للفيزياء النووية حين راح يحرّك مواد انشطارية "لمجرّد ان اختبر قدرّتي على ذلك."

افتتن الصحافيان بما سمعاه، وعرضا على كوك مبلغاً من المال في مقابل تزويدهما مادة تصلح لكتابة مقال مثير. ولاشتداد حاجته الى المال وافق للحال. فأخذاه الى شقة شونمان في هامبورغ حيث انضمّ اليهم هوبنر. ثم راح المتسللان، مستخدمين أجهزة كوك، يطوفان بنوك المعلومات في ألمانيا الغربية وايطاليا والولايات المتحدة، وتحت الحاح الصحافيين، أخبرهما المتسللان بعلاقتهما بالاستخبارات السوفييتية، وسمحا لهما بتصويرهما في شريط تلفزيوني وهما يتظاهران بالتسلل.

عجز كوك عن طرد المخاوف التي ساورته والضغوط الخفية التي لاحقته. فما كان منه الا أن التقى مندوباً لوكالة أمن هامبورغ يوم ٥ يوليو (تموز) واعترف له: "انني أنتمي الى مجموعة متسللين تزود وكالة الاستخبارات السوفييتية معلومات مسروقة."

وبعد أسبوعين، اثر تلقي هوبنر عرضاً أعجبه للمساهمة في انشاء شركة مشروعة لبرامج الادمغة الالكترونية، قرر الانسحاب من العملية، فأطلع سلطات ألمانيا الغربية على كل شيء.

ولكن لم يكن السجن من نصيبه، ولا من نصيب كوك الذي أُخضع لاستجواب دقيق. وأطلق الاثنان في وقت لاحق. وكانت الشرطة في صدد استكمال الملف الذي فُتح قبل ١٨ شهراً حين وصل تحذير كليف ستول من الولايات المتحدة بأن متسللين من ألمانيا الغربية يقتحمون أنظمة ادمغة الكترونية لمؤسسات عسكرية وعلمية موزعة في أنحاء العالم. وكانت سلطات ألمانيا الغربية بدأت تحقيقاً مكثّفاً وراحت تراقب المتسللين من بعيد وتسجل عبورهم المتكرر الى ألمانيا الشرقية.

كانت رحلة بيتر كارل الاخيرة الى برلين الشرقية في شهر ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨٨. فاللعبة انتهت، وقد بدأت وكالة الاستخبارات السوفييتية تتنصّل من العملية التي شارفت الإفلاس. ولم يتعد مجموع ما حصل عليه المتسللون من السوفييت ٥٠ ألف دولار، وهذا نزر يسير مما كانوا ليجنونه لو أنهم، خلال السنتين الماضيتين، استثمروا اوقاتهم في أعمال مشروعة.

في الأول من شهر مارس (آذار) تحرّكت الشرطة الاتحادية في ألمانيا الغربية للاطباق على متسللي هانوفر. وكان القانون الخاص بالتسلل أصبح نافذاً منذ أكثر من سنتين ونصف سنة. قُبض على بيتر كارل أمام شقته، وكان في الطريق الى اسبانيا. وفي اليوم التالي اقتيد هيس وبرزنسكي للاستجواب. وقد أطلق هيس في انتظار المحاكمة، فيما أوقف رفيقاه الباقيان في سجن كارلسروه ريثما يوجه اليهما الاتهام الرسمي. وكان كوك في تلك الاثناء يتلقى علاجاً لازالة اثر المخدرات من جسمه ولإعادة تأهيله، في مصحّ للامراض العصبية في ضاحية شمال هانوفر كان دخله قبل شهرين بكامل ارادته وفي ذروة اهتياجه. ولم توجه اليه ولا الى هوبنر اي تهمة، ولم يُقبض على أي منهما. والظاهر أن استسلامهما للشرطة وتعاونهما معها أثمرا.

وفي ٢٥ يوليو (تموز) أصدرت مذكرات اتهام بحق كل من هيس وبرزنسكي وكارل. وفيها أنهم تصرفوا كعملاء لدى وكالة الاستخبارات السوفييتية وعرّضوا أمن جمهورية ألمانيا الاتحادية وسلامتها للخطر. والمدهش أن الشريط التلفزيوني الذي يظهر فيه كوك وهوبنر وهما يشرحان امكان اختراق أدمغة الكترونية ذات حماية "مضمونة" لم يعرض على شاشات التلفزيون في المانيا الغربية. وساعدت الشرطة كوك في العثور على وظيفة، ويبدو أنه يتجاوب والعلاج ضد ادمان المخدرات.

في أواسط شهر مايو (ايار) ١٩٨٩ أخضع كوك لاستجواب دقيق ثان من الشرطة الاتحادية. وصباح الثلثاء التالي، وكان يوماً ربيعياً دافئاً، انطلق في مهمة عادية. وبدل أن يتوجه الى مكتب السجلات العامة حيث كان يعمل، قاد السيارة الى حرج يبعد حوالى ٨٠ كيلومتراً الى الشرق من هانوفر. وهناك سكب على نفسه صفيحة وقود وأشعل عود ثقاب.

وقد أنحى "نادي فوضى الكمبيوتر" باللائمة على وسائل الاعلام لانها دفعت كوك

الى "حالة من اليأس." وراجت أقاويل مفادها أن وكالة الاستخبارات السوفييتية قتلته تحذيراً لأمثاله من مغبة العمل مع الشرطة.

وعلى رغم أنه لم يُعثر على بقاياه المتفحمة الا بعد أسبوع من وفاته، فقد لاحظ معارفه أن اليوم الذي قضى فيه كارل كوك حمل الرقم ٢٣ "السحري"، فهو كان الثالث والعشرين من مايو (أيار).

■ شهر الورد ■

في الولايات المتحدة، كما في ألمانيا الغربية، انتهت القصة على نحو غير متوقع. فيوم الاثنين ٢٧ أبريل (نيسان) ١٩٨٧ وصلت الى صندوق البريد ٣٥١/٥٠ في بيركلي رسالة موجهة الى شبكة "سدينت." وكان المرسل لازلو ج. بالوغ يطلب ثماني من الوثائق المعروضة في ملف "سدينت" الذي لا وجود له الا في الخيال، كما يطلب آخر النشرات عن المشروع. بدا الامر محيراً جداً. لكن صدمة ستول أتت من عنوان المرسل: لم يكن العنوان في هانوفر بألمانيا الغربية، بل في مدينة بتسبرغ بولاية بنسلفانيا الامريكية.

وفهم مايك غيبونز أيضاً المعنى الضمني لما حصل. فعندما اتصل ستول بالمركز الميداني التابع لمكتب التحقيقات الاتحادي في الكسندريا بولاية فيرجينيا، قال له غيبونز: "ألمس هذه الرسالة أقل ما أمكن، وضَعْها داخل ظرف سميك وأرسلها الي في البريد السريع."

كيف يمكن أي انسان في بتسبرغ أن يعرف شيئاً عن "سدينت" التي لا وجود لها إلا في مخيلة كليف ستول وفي حساب دماغ الكتروني لا يصل اليه سوى ستول ومتسلل في ألمانيا الغربية؟

في الاسابيع التي تلت علم ستول من الصحافة في ألمانيا الغربية ان المتسلل الذي يجد في إثره هو واحد من مجموعة، لكن ماركوس هيس هو خصمه الرئيسي. ولم يدهش كليف أن المقصود شخص وحيد، فهو لاحظ أن أسلوب هيس في مقاربة الدماغ الالكتروني يتميز بنمط فريد كان يتعرَّف اليه كلما رآه وكأنه توقيع مميز.

مع انتهاء القضية تعرّض ستول لوابل عذل وتأنيب من بعض الزملاء والاصدقاء في بيركلي لتعامله مع وكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات الاتحادي. لكنه واجههم بحدّة مماثلة. صحيح أن عملاء مكتب التحقيقات لا يتحركون بسهولة، ولكن هل تبرع أحد سواهم بالسهر على المصلحة الوطنية؟

يقول كليف: "هناك أوقات يتعين عليك أن تقف وتُعدّ. أنا لست أمريكياً فقط، بل انني فرد في مجتمع دولي، مجتمع متصل الاجزاء بواسطة شبكات وأدمغة الكترونية. وعندما يتعرض بلدك أو مجتمعك لهجوم، فأنت لست مجرد يساري أو متمرد طويل

الشعر، بل انك مواطن وعليك مسؤولية تجاه أبناء بلدك وتجاه جيرانك الالكترونيين."

لقد تغيّرت حياة ستول. وهو يعد الآن مرجعاً في حماية الادمغة الالكترونية ويتلقى دعوات لالقاء محاضرات في واشنطن وللتشاور. لقد أبدى في ذلك الشتاء الكئيب بين العامين ١٩٨٦ و١٩٨٧ بصيرة وبعد نظر. وذات يوم سأل مارثا: "متى نتزوج؟"

أجابته: "في مايو (أيار) شهر الورد."

في صيف ١٩٨٨ انتقل الزوجان الى مدينة بوسطن في ولاية مساتشوستس حيث عاد كليف عالماً فلكياً في مركز هارفارد – سميثسونيان ووجدت مارثا وظيفة وقد أصبحت تحمل شهادة الحقوق. ثم اختيرت من بين مئات المتقدمين لوظيفة في إحدى المحاكم العليا، وهذا يعني أن الزوجين سيقيمان على الساحل الشرقي للولايات المتحدة فترة من الزمن يعودان بعدها الى بيتهما في أوكلاند والى شتول الفراولة التي غرساها.

في ١٥ فبراير (شباط) بعد محاكمة طويلة، دين المتهمون الذين ثبتت عليهم جميع التهم الموجهة اليهم. وصدرت الاحكام على النحو الآتي: سجن بيتر كارل سنتين، سجن ديرك برزنسكي سنة وشهرين، سجن ماركوس هيس سنة وثمانية أشهر. إلا أن الثلاثة عُلّقت عقوبتهم وأطلقوا على أن يبقوا تحت المراقبة مدة ثلاث سنوات يُعادون خلالها الى السجن إذا ارتكبوا أي عمل جرمي.

أما الكتاب الذي نشره كليف ستول بعنوان "بيضة الوقواق" وتناول فيه دوره في العملية، فكان من الكتب الأكثر رواجاً في الولايات المتحدة هذه السنة.

لورنس إليوت ■

ترجمة د. باسمة سكرية عيد



بلسم الكلمة

ركبت الحافلة في صباح غائم عاصف. وكعادتي كل يوم، بادرت الركاب قائلة: "صباح الخير." فرد أحدهم ساخطاً: وأي خير في هذا الصباح؟"

وكاد هذا التهجم يعكر مزاجي الجيد لولا تدخل راكب آخر نزل كلامه على قلبي مثلما يخترق نور الشمس الغيوم الملبّدة، اذ قال: "الخير في هذا الصباح أنها ركبت هذه الحافلة."

ا.ك.ب.

من السهل المحافظة على الوفق بين الاولاد في المنزل، فهذا لا يتطلب سوى صبر وتفهم وجهازي تلفزيون على الأقل.

ا.ك.

كتاب الشهر

المهرب الكبير

بقلم
لورنس إليوت

المهرّب الكبير

تميز ستانلي إسر بحضور لافت. فهو طويل القامة، بهيّ الطلعة، أنيق، وأب لولدين، يتكلّم تسع لغات ويقطن في حي راقٍ في بلدة هولندية صغيرة.



لكن إسر عاش خارج حدود القانون، اذ كان أكبر تجار الحشيشة في أوروبا، يدير شبكة من الشركاء والممونين تمتد من أمريكا الجنوبية الى باكستان. وهو نعم بحياة مترفة لعجز الشرطة عن اثبات خرقه القانون، الى أن أتى يوم تعرّف الى عميل سرّي شجاع وعنيد يدعى جاك شورت. وعندما حانت الفرصة المناسبة، نجحت جهود شورت ورفقائه في الايقاع باسر.

الجمعة ٢١ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٦. لقد شارفت المحاكمة نهايتها بعدما دامت يومين، وهو وقت طويل في الاعراف الهولندية. لم تشهد بلدة ألكمار في شمال هولندا عرضاً يضاهي تلك المحاكمة، اذ عجت القاعة بالحاضرين وتنوّع الشهود من عملاء في المديرية الامريكية لمكافحة المخدرات الى أفراد كبار وصغار في منظمات الاجرام الدولية. وضجت الشهادات بأسماء مطاعم ذائعة الشهرة ومخبرين سريين وتقارير تنصّت على المكالمات الهاتفية وصفقات مخدرات بملايين الدولارات.

المدعى عليه ستانلي إسر مهرّب حشيشة عاش حياة مترفة معتمداً على دخله من تجارة المخدر. وهو لا ينكر ذلك، اذ قال لي يوماً: "أنا ألبي حاجة ماسة، وسوف يدرك متهميّ يوماً أن جل ما فعلته هو توفير المتعة للناس."

الجميع يحبّ إسر الذي يدعوه أصدقاؤه كارلوس، فهو حسن الطباع صريح ومعروف في معظم مقاهي أمستردام وحاناتها. ويبدو كأنه بعيد عن متناول العدالة. وحتى الآن، وهو ماثل للمحاكمة لابساً سترته الزرقاء الفاخرة، يعلم الجميع أنه لن يلبث أن يغادر السجن بعد سنة في سيارته المرسيدس الفخمة اذا لم تثبت عليه تهمة غير تجارة الحشيشة. فهكذا هي الحال في هولندا. ويصل مبيع إسر من الحشيشة فقط الى أربعين طناً في السنة، تدر عليه ما بين ٦٠ و٧٠ مليون غيلدر هولندي (بين ٣١ و٣٧ مليون دولار).

لكن التهم الموجهة الى الرجل أخطر من تلك بكثير. وهو محتجز منذ اعتقاله قبل ١١ شهراً، ولم يطلق بكفالة. وأخطر التهم الموجهة اليه محاولة تصدير ١٠٠ كيلوغرام من الهيروين الى الولايات المتحدة، وهي ربما بحجم أكبر كمية من الهيروين صودرت في تلك البلاد. ويدعو النائب العام إسر "مدير شبكة دولية للمخدرات" ويذكّر المحكمة بالارباح الطائلة لتلك التجارة.

النائب العام إدوارد ف. بوينو شاب يضفي عليه الرداء الاسود التقليدي ملامح الجدّ. وتلفتك في صوته نبرة ملحة إذ يسرد أستنتاجاته عاكساً ادراكاً مفاجئاً بأن ساعة الحقيقة دقت.

فهذه القضية حدث فاصل. فللايقاع بالمتهم تعاونت السلطات الهولندية في مقاطعة ألكمار مع الامريكيين للمرة الاولى وعلى نطاق واسع. فهل يسمح القضاة بذلك، أم سيعتبرون الاجراءات الامريكية فى مكافحة المخدرات - كاعتماد العملاء السريين مثلاً - انتهاكاً للمفاهيم القانونية الهولندية؟ هذا ما سيرضي كثيرين في هولندا يؤكدون أن هناك ما هو أسوأ من الحشيشة ويعتبرون أن اختيار الناس تعاطي ذلك المخدر أمر لا يعني السلطات.

ووقفت محامية الدفاع، وهي شابة هيفاء اسمها أديل فان در بلاس، وقارعت حجة النائب العام منطلقة من أن استخدام عميل أمريكي سرّي للتسلل الى منظمة إسر يتعارض والعرف القانوني الهولندي، وطالبت باسقاط تهمة الاتجار بالهيروين كلياً لأن "السيد جاك شورت احتال على موكلي وجرّه وأوقع به."

نظرتُ عبر القاعة الى جاك شورت، وكان جالساً يتصفح بعض الاوراق. إنه رجل ناحل هادىء في عقده الخامس، شعره بني مائل الى الاحمرار وعيناه زرقاوان. ولا يوحي شكله أنه عميل لمديرية مكافحة المخدرات ولا أنه مروّج مخدّرات خطير كما ادّعى.

وقد قال لي إسر: "لم أفاجأ يوماً كما فوجئت لدى اكتشافي أن جاك شرطي."

وأضاف أنه يتفهم قيام شورت بواجبه ولا يضمر له شراً. لكن شورت يشك في هذا الكلام. فبينما كان يدلي بشهادته في جلسة سابقة لمح رجلا ضخم الجثة جالساً في

الصف الخلفي. وكلما نظر اليه كان الرجل يجمع قبضته تحت أذنه اليسرى ويمد ابهامه ويمررها على رقبته. وهذه اشارة لا تقتضي تفسيراً.

وسرعان ما أعلن رئيس القضاة أن الحكم سيقرر بروية ثم يعلن بعد أسبوعين. لكنه سأل المدّعى عليه هل يريد أن يقول شيئاً قبل رفع الجلسة.

وقف ستانلي إسر بثقة، وهو طويل القامة قوي البنية ذو لحية قصيرة أنيقة وبشرة سمراء. لم ينكر تهمة تجارة الحشيشة الموجهة اليه، وهو غير آسف فهذه طريقته في العيش. وأضاف: "أنا نادم فقط لأني لم أمضِ في طريقي عندما بدأ جاك شورت الكلام على الكوكايين والهيروويين."

واعتبر إسر المحاكمة عادلة، وأعلن استعداده لقبول قرار المحكمة. لكنه ألمح الى ان النائب العام ربما بالغ في اتهاماته، وأضاف: "حاولت تصدير الحشيشة، وهو الآن يحاول تصديري."

حتى بوينو ابتسم لسماع ذلك.

إسر: "قبل سنوات كانت أمي تجبرني على غسل فمي بماء مالح عندما أكذب. وما زلت أكذب من حين الى آخر. ومن يعلم؟ ربما نجحت هذه الطريقة مع النائب العام. ولو أنّ أمي في قاعة المحكمة اليوم، لنصحته بتجربتها."

وتلفَّت إسر حوله مزهواً لكسبه عطف مزيد من الحضور. ثم غادر قاعة المحكمة ملوحاً بيده لاصدقائه وهو يتبع شرطياً الى زنزانته.

مخبر سري

تعيِّن المديرية الامريكية لمكافحة المخدرات عملاء لها في السفارات الامريكية لدى الدول التي تعاني مشاكل تتعلق بالمخدرات وبتصدير هذه المواد الى الولايات المتحدة. ويعمل هؤلاء بالتنسيق مع الدول المضيفة عبر تبادل المعلومات والتعاون بين رجال المباحث متى دعت الحاجة. وقد مضى على وجودهم في هولندا أكثر من عشر سنين. وعندما عُيِّن باتريك مولر هناك في ربيع ١٩٨٤ بات واحداً من أربعة أمريكيين يعملون انطلاقا من مدينة لاهاي.

مولر: "خلال ستة أشهر من اقامتي هنا سمعت بكل الأسماء ذات العلاقة بتجارة المخدرات. لكن الاسم الذي تردد باستمرار هو ستانلي إسر. وبدا على علاقة بكل المتاجرين بالمخدرات هنا، وليس بتجار الحشيشة فقط. وتكلمت الى الشرطيين المتمرسين بقضايا المخدرات الذين ابدوا ارتيابهم الشديد في تورطه في تجارة الكوكايين والهيروويين. فسألتهم: لماذا لا نلاحق هذا الرجل؟"

لكن مولر لم يلقَ أي تشجيع، بل توالت عليه أخبار المحاولات الفاشلة لسوق إسر الى المحكمة والتي تعود الى عشر سنين. فهو ليس بمحتال عادي، بل تقني ماهر يتكلم

تسع لغات وما يكفي من العربية لمساومة مزوديه اللبنانيين. وفي حين كان المهرّبون الآخرون ما زالوا يعتمدون الوسائل القديمة في التهريب بواسطة المسافرين والتي تنطوي على كثير من المحاذير، كان إسر يملك أسطولا بحرياً وقوافل من الشاحنات تنقل رزم الحشيشة المموّهة تحت ستار بضائع مشروعة من سجاد وفاكهة مجففة.

ومع أن السلطات كانت على علم بكل هذه التجاوزات فلم يستطع أي عميل سري الاقتراب من إسر، وكأن لدى الرجل حاسّة شم تكشف كل رقابة. وكان يقود سيارته بسرعة فائقة يتعذّر معها ادراكه، كما أنه لم يتفوّه على الهاتف بأي عبارة قد تلصق به تهمة التهريب.

مولر: "تكلمت الى نحو خمسين محققاً حاولوا ضبط إسر في وقت ما. وبدا لي أنه طبع صورة أسطورية في عيونهم هي صورة الرجل الذي يستحيل القبض عليه."

ومولر ابن شرطي. وهو تخصص بتعليم الموسيقى قبل أن يكتشف دعوته الحقيقية. أما اليوم فهو يلقب "شرطي الشرطة" ويرفض فكرة المجرم الذي يتعذر القبض عليه. وأخذ قضية إسر على عاتقه كأنها مهمّة شخصية، وكان دائماً يقول للسلطات الهولندية: "هذا الرجل مطلوب في ثلاثة بلدان، وهو مجرم خطير. فكيف السبيل الى الايقاع به؟"

لكن الهولنديين، وقد أخفقت كل محاولاتهم للقبض عليه، لم يتجاوبوا وطرحه. وذات يوم من خريف ١٩٨٤ تلقى مولر معلومات من مخبر سري أمريكي. وكان المخبر تعرّف لتوّه الى تاجر حشيشة يدعى أنطونيوس كونينغز زعم أنه يمثل منظمة عملاقة ترغب في التعامل مع زبائن أمريكيين، وسأله هل يعرف أحداً منهم. فوعده المخبر بأن يستوضح ذلك، وعاد بالأنباء الى مولر سائلا اياه عن الخطوة التالية. فأتاه الرد على الفور: "أخبر كونينغز أن لديك زبائن، وأنهم يريدون الاجتماع برئيسه الأعلى لأنهم يطلبون كميات ضخمة ويودّون التأكد من قدرة جماعته على تنفيذ العملية."

لم يبدُ على مولر أنه تأثر بالنبأ على رغم أهميته. فقد كان أنطونيوس كونينغز أحد مساعدي ستانلي إسر. والمخبر جيري فيرغسون عميل سري تابع لمديرية مكافحة المخدرات. يبدو أن الطريق المسدود الى إسر بات سالكاً.

نبع المال

ولد ستانلي كاريل إسر في ١٥ مارس (آذار) ١٩٤٣ في كوراساو كبرى جزر الأنتيل الهولندية المنتشرة في جنوب البحر الكاريبي. وهو الابن البكر لعائلة مترابطة، وله أربعة أخوة. وقد بنى أبوه الآمال على أولاده الخمسة، أما طموحاته الكبيرة فبناها على ابنه البكر السريع البديهة والمليء بالحيوية والفضول.

إسر: "عندما كنت ولداً أمشي الى جانب أمي كنت أتوقف لدى رؤيتي صحيفة في الشارع و أقرأها. وما زالت هذه العادة ترافقني، فأنا أقرأ كل ما يقع بين يدي، بما في ذلك دليل الهاتف."

عندما بلغ إسر الثانية عشرة هاجر الى هولندا حيث يتمتع مواطنوه بالحقوق الكاملة للمواطن الهولندي. وهناك التحق بمدرسة ولمع كتلميذ خارق الذكاء. لكنه ما لبث أن انقطع عن الدراسة في السن السابعة عشرة. وبعد سنة دخل السجن للمرة الاولى، لا لسرقة ارتكبها مع انه فعل ذلك، بل لرفضه الخدمة العسكرية.

إسر: "يمكنني الادعاء أنها كانت قضية مبدأ وأنني ضد الحرب والجيوش وما الى ذلك. لكن الحقيقة هي أنني لم أنشأ أن يملي علي أحد أوامره."

ومكث في السجن أربعة أشهر ثمّ خرج الى الدنيا بعينين جديدتين. رأى مالا وفيراً حوله وهو لا يملك منه شيئاً. وعمل في لاهاي في متجر للخرق البالية. ثم انخرط في عصابة للسرقة سرّها التحاقه بها لأنه جريء ولا يحتاج الى من يلقنه الأمر مرتين. وسرعان ما مشى مختالا وفي جيبه كدسة من الاوراق النقدية وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة. وفي السنة ذاتها (١٩٦١) وقع في حب شقراء فاتنة اسمها هيلينا بوت. وهي أنجبت له ابناً وابنة. لكنه لم يلبث أن عاد الى السجن لنهبه مصرفاً. وفي سجن هارلم بدأت "دراسته العليا." فهناك شحذ ذكاؤه الفطري وتعرف الى طرق أصحاب السوابق والمحتالين. وكان السجن بالنسبة اليه فترة فاصلة أراد اجتيازها بأكبر مقدار من المعرفة وبأقل ضرر ممكن. واختارته سلطات السجن نموذجا لما تحاول انجازه خلف القضبان. فتابع مقرراً تعليمياً مهنياً مدة ثلاث سنوات وحصل بموجبه على شهادة في الالكترونيات. وخفض الحكم عليه عشرين شهراً، لحسن سلوكه، وأفرج عنه.

وكان العام ١٩٦٩ نقطة التحول الحقيقية الأخيرة في حياة ستانلي إسر. فهو في فترة ارتباك وضياع. لديه طفلان لا يعرفانه، وهيلينا لا تريد الرجوع الى عيشتهما القديمة وتطلب منه البحث عن عمل ثابت.

إسر: "حاولت البحث عن عمل ثابت. وربما أجريت ٣٥ مقابلة في الأشهر الستة التالية. والاشخاص الذين قابلتهم كانوا دائماً لطفاء، وأنا أكيد من أن بعضهم أراد توظيفي. لكن نهب مصرف ليس جرماً بسيطاً، كما تعلمون. والعروض التي تلقيتها لم تستحق عناء التفكير في قبولها."

وانساق إسر مجدداً الى أصدقائه القدامى وسبلهم المنحرفة. وأعال أسرته بغنائم من جرائم مختلفة، كنهب الشاحنات والتزوير وتهريب السجائر الامريكية. وعلمه الامريكيون الانكليزية. وكان قضى خمسة أشهر في سجن الماني غربي حيث الم بالألمانية. ثم أمضى سنة في سجن فرنسي فتعلم الفرنسية. وهو قال مبتسماً: "السجن مقرّر تعليمي مكثّف." وسرعان ما تعلّم الإيطالية على ذاته.

وحيثما ذهب كان يطرح أسئلة. وقد أحب الناس التحدث اليه فكانوا يخبرونه بكلّ ما يود معرفته. وما ود معرفته في نهاية الأمر كان سبب اهداره الوقت في نهب الشاحنات وتهريب السجائر بينما المصدر الحقيقي للمال هو المخدرات.

مهمة صعبة

صباح الجمعة ٢٦ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٤ عقد اجتماع في بناء يقع في الوسط التجاري لبلدة ألكمار حيث مكاتب شرطة المقاطعة. وفي كبرى غرف البناء اجتمع باتريك مولر، ممثلا المديرية الامريكية لمكافحة المخدرات، بعناصر من مكتب التحقيق الجنائي الهولندي وبعدد من ضباط الشرطة في مدينة أمستردام ومقاطعة ألكمار. وكان بين الحاضرين أيضاً النائب العام في المقاطعة إدوارد ف. بوينو.

هذه المرة أخذ حديث مولر منحى مختلفاً. فهناك فرصة سانحة، كما قال، لادخال أحد العملاء السريين الى منظمة إسر بصفة شار يفاوض في شحنة ضخمة من الحشيشة ينوي تهريبها الى الولايات المتحدة. وهذه الخطة، في حال نجاحها، تؤمن كل الأدلة الضرورية لمقاضاة إسر، اضافة الى معلومات قيّمة حول نشاطات عصابات تجارة المخدرات في هولندا.

مولر: "لقد وُفق إسر في تموين السوق الاوروبية بالحشيشة الى حد الاغراق. ولديه الآن، كما نعتقد، نحو ٢٠ طناً من الحشيشة مخبأة في منطقة روتردام. وعلينا نحن أن نكون زبائنه الامريكيين، وإلا بحث عن زبائن حقيقيين."

مرة جديدة عُدِّدت لمولر كل العقبات التي تعرقل التحقيق في أمر إسر. لكنّه حذر المجتمعين من أنهم إن لم يحاولوا فلن يصلوا الى أي نتيجة. وهل من خسارة في المحاولة؟ ذكرهم بمئات ملايين الغيلدرات التي يخسرها الاقتصاد الهولندي سنوياً ثمناً للمخدرات، والتي تتحول أرباحها الى حسابات سرية في المصارف السويسرية.

ثم انتقل النقاش الى تحديد السلطة القضائية التي ستتولى التحقيق. فبموجب القانون الهولندي لا يمكن تسليم إسر الى حكومة أخرى. وهو يحرص منذ مدة على عدم مغادرة البلاد طوعاً. وقد لمَّح مولر الى أنه إن أقدم على ذلك فلن تتردد الولايات المتحدة في السعي الى اعتقاله وتسليمه الى حكومته. أما في الوقت الحاضر، فان المديرية الامريكية لمكافحة المخدرات مستعدة للتعاون مع أي سلطة أمنية هولندية من أجل مقاضاة إسر في هولندا.

ولكن أي السلطات ستتولى المهمة؟

هنا تحولت الأعين نحو قسم التحقيق الجنائي في مقاطعة ألكمار والنائب العام بوينو الذي سيتولى فعلا ادارة هذه المهمة. وبلدة ألكمار الواقعة على بعد ٣٢ كيلومتراً من شمال أمستردام اشتهرت كسوق للأجبان، وهي الآن موضع اهتمام شخصي من

ستانلي إسر، فهو يملك منزلا بقيمة مليون غيلدر (٥٢٠ ألف دولار) في بلدة ليمن المجاورة وتروج اشاعة أنه ينوي شراء مطعم فخم هناك.

كان بوينو على أتم الاستعداد لتولي القضية، لكنه علم أن المهمة غير ممكنة من دون عون الامريكيين، كذلك خشي من أن يؤثر الوجود الامريكي سلباً في نتائج التحقيق. فاستخدام مخبرين وعملاء سريين لممارسة غير مضمونة النتائج قانونيا في هولندا، والقوانين المتعلقة بالإيقاع في الاشراك واضحة وصريحة.

مولر: "أخبرته أننا مستعدون لاتباع الطرق الهولندية، لأن الوسائل الاخرى غير مجدية. فإذا تعذر إرسال إسر الى الولايات المتحدة، توجب علينا أن نجمع الأدلة بالوسائل المقبولة في المحاكم الهولندية وإلا ضاع تعبنا."

تصافح المجتمعون وغادروا المكان وفي وجوههم سيماء من ألزموا أنفسهم مهمة صعبة. وبعد أسبوع تلقى مولر من السلطات الهولندية اذناً بمباشرة مهماته.

أربع عيون فقط!

التقى العميل السري الامريكي جيري فيرغسون إسر في روتردام يوم الجمعة ٢١ ديسمبر (كانون الاول) في مكاتب شركة "آركا بروموشنز" وهي واجهة تجرى خلفها عمليات تمويه الاموال المستخدمة في تجارة المخدرات. وقد أعدَّ أنطونيوس كونينغز لهذا الاجتماع بناء على رغبة فيرغسون.

بعيد الثانية عشرة ظهراً دخل إسر حاملا كيساً بلاستيكياً أخرج منه رزمتين مغلفتين من الحشيشة ووضعهما على إحدى الطاولات وفضهما. الرزمة الاولى كيلوغرام من الحشيشة الأفغانية (داكنة، باب أول، ثمنها ٣٢٠٠ دولار). والرزمة الثانية كيلوغرام من الحشيشة اللبنانية (سمراء، متوسطة الجودة، ١٤٠٠ دولار). فسأله فيرغسون مذهولا: "ألا تخشى السير في شوارع المدينة وأنت تحمل هذه الكمية من الحشيشة؟"

فأجابه إسر ضاحكا: "في هولندا؟ إذا أوقفني شرطي، يكفي أن أقول له إنها لاستعمالي الشخصي."

ثم انتقلا الى مناقشة الصفقة فأعلن إسر قدرته على تسليم خمسة أطنان شهرياً من أي خليط، موضبة على نحو يمنع الكلاب من اكتشافها. أما الشحنة فتوجه الى شركة أمريكية معروفة، ويتم الدفع نقداً أو بواسطة كتاب اعتماد أو تحويل مصرفي. ويدفع نصف المبلغ عربوناً والنصف الباقي لدى التسليم. ثم سأل فيرغسون عن الكمية التي يطلبها، فأجابه وقد توقع هذا السؤال: "إسمع، لقد أعلمت صديقك أنطونيوس بأن مهمّتي تقتصر على مقابلة المزوِّد وتخمين البضاعة. أما القرارات فيأخذها شريكي جاك في شأن الكمية المطلوبة والسعر المنوي دفعه. وهو مستعد

للقدوم الى هولندا ساعة تشاء للاجتماع بك واتمام الصفقة."

أنعم إسر النظر الى فيرغسون ثمَّ قال إن الاجتماع التالي يعقد "تحت نظر أربع عينين فقط" فإما فيرغسون واما شريكه، وليس الاثنان معاً. وأضاف أن استمراره في تجارته هذه المدة الطويلة يعود الى حذره والى "علاقات" بشرطة أمستردام وروتردام. وهو الآن يتكلَّم الى فيرغسون لأن كونينغز ضمنه، ولكن قبل تسليم أي كمية من الحشيشة فسيتحقق من سجلّي فيرغسون وشريكه. واتفقا على الاجتماع في أواسط يناير (كانون الثاني)، ثمَّ ذهب كل منهما في طريقه.

بحلول يناير (كانون الثاني) ١٩٨٥ أصبح النقيب فيبي بورسما مسؤولا عن مقاطعة ألكمار. وبطلب من المحكمة وُصلت أسلاك للتنصت على الهاتف في بيت قديم قبالة مركز قيادة الشرطة. وتناوبت فرق من ثلاثة رجال مراقبة اتصالات إسر الهاتفية في حجرة ضيقة في أعلى السلالم لا تكفي مساحة أرضها لجلوس الثلاثة معاً، ولا علّو سقفها لوقوفهم مستقيمين. وكان على هؤلاء أن يقرّروا غير مرة في اليوم الواحد هل سيصغون الى مكالمات مرموزة حول المخدرات أم الى هيلينا تتكلم مع أختها فعلا عن أزهار التوليب.

كانت تلك أطول عملية تنصت متواصلة على الهاتف أجريت في هولندا. واذ كان إسر يستخدم فتنته وماله للحصول على معلومات، مما أحبط التقصيات السابقة، فإن "فريق ألكمار إ" (مختصر إسر) قطع عهداً بالتزام الصمت التام حول القضية.

في هذه الاثناء كان جاك شورت يدرس ملف إسر في نيوارك بولاية نيوجرزي. وهو كان الرجل الثاني في مديرية مكافحة المخدرات هناك، لكنه اعتبر الأوّل في قسم العمل السري للمنظمة. وقد طلب منه التطوع لهذه المهمة لسببين، اوّلهما أنه خدم في الخارج من قبل وكان يملك جواز سفر وملفاً كاملا باسم جاك شميت، رجل الأعمال الامريكي الذي يملك مصالح في تكساس ونيوجرزي، والثاني أنه يستطيع أن يطلب من إسر شحن الحشيشة الى مرفأ نيوارك حيث يؤمن له مكتب مكافحة المخدرات الذي ينتمي اليه، الدعم اللازم.

وفي يوم اثنين من شهر ديسمبر (كانون الاول) طار جاك شورت سرّاً الى أمستردام حيث قضى يومين في فندق "غولدن توليب" قرب مطار شيبول لاستشارة بات مولر وأحد أعضاء "الفريق إ" حول القوانين والاعراف الهولندية المتعلقة بالإيقاع في الاشراك.

مولر: "نحن نعلم أن الإيقاع بشخص مشتبه به غير مسموح في الولايات المتحدة. فلا يمكنني أن أقول لأحدهم: "إذا وجدت من يؤمّن لي سيارة مرسيدس حديثة الطراز، فأنا مستعد لأن أدفع له مبلغاً كبيراً." هذا يشبه زراعة البزور. إنه إيقاع في شرك. ولكن إذا كنا نعرف أن أحدهم تاجر مخدرات، فنحن لا نتخطى

القانون إن طلبنا منه شراء كمية منها. أما في هولندا، فإن عملا مماثلا يجعلك "عميلا محرِّضاً" يدفع مواطناً الى ارتكاب ما يجرِّمه. كلنا يعلم أن ستانلي إسر هو أكبر تاجر حشيشة في أوروبا، ولكن إن بدأنا عمليتنا بمبادرته قائلين: "نريد شراء بعض الحشيشة" لأجهضنا هذه العملية قبل بدئها."

وسادت لحظة صمت قال بعدها شورت: "حسناً، إننا على أرض ملعبهم، وعلينا التقيد بأنظمتهم في اللعبة."

مهنة خطرة

ثمة نوعان من العملاء السريين. النوع الأوّل ينزل الى الشارع وينجز صفقة شراء بسيطة ثمّ يقبض على التاجر، فلا تستغرق مهمته وقتاً طويلا. أما النوع الثاني فيحدّد هدفاً بعيد المنال وتستغرق مهمته أشهراً على أمل كشف حلقة كبرى لتهريب المخدرات أو مصادرة شحنة كبيرة. ويتعرّض النوع الأول للخطر فترة وجيزة يستريح بعدها الى أن تحين المهمة التالية، بينما يواجه النوع الثاني خطراً دائماً كممثل في مسرح الحياة، اذ ان كلمة قالها أو أمراً فعله قبل أسابيع قد يرتدّان عليه ويكشفانه.

نفذ شورت مهمات من النوعين. فعمل متخفياً في الشوارع وأدار عمليات سرية من مكتبه. وقد أسفرت عملية أشرف عليها في نيوجرزي عن القبض على اثنين من أهم رجال المافيا، كما أدّت عملية أخرى له في المكسيك الى مقاضاة تاجر مخدرات مسؤول عن خطف عميلين لمديرية مكافحة المخدرات وقتلهما. وفي سنة واحدة عمل متخفياً في عشرة بلدان أجنبية.

شورت: "لا أحاول الادعاء أنني عضو في عصابة نيويوركية، لأن أحداً لن يصدّق ذلك. بل أتظاهر بأنني رجل أعمال أمريكي مغامر يدير تجارة كوكايين جانبية تدر عليه مالا وفيراً. وهذا الدور يتطلب ثقة كبيرة بالنفس."

إنه في مكتبه منذ السابعة صباحاً ولمّا يتناول فطوره بعد. إنّها العاشرة إلا ربعاً. يسحب شورت من حزامه مسدسا من عيار ٤٥،٠ ويقفل عليه درج مكتبه. وينزل السلالم الى مقهى حيث يأكل قطعة حلوى وقد بدا الهمّ على وجهه النحيل.

جاك ادوارد شورت أمريكي من الجنوب ولد في ٦ أغسطس (آب) ١٩٤٠، متزوج وله ابنة عمرها خمس سنوات. وهو يقول: "أنا مؤمن بأن كلا منا وُجد على هذه الأرض لهدف معين. ليست لدي أجوبة عن كل الأسئلة، لكنني مقتنع بأن نجاحي في وظيفتي نعمة من الله وتحقيق لمشيئته."

تخصص شورت بعلم الفيزياء وحصل على ماجستير في الرياضيات. ولم يكن أكيداً من العمل الذي يودّ امتهانه، فعيِّن في "المكتب الاتحادي للمخدرات" الذي أصبح في ما بعد "مديرية مكافحة المخدرات." حصل ذلك قبل ١٩ عاماً. أما اليوم، فزملاء

دراسته فيزيائيون ودكاترة يعيشون حياة آمنة مطمئنة تحسدهم عليها زوجته. ومع علمه بذلك فهو لا يستطيع أن يتخيّل نفسه يؤدي أي عمل آخر.

في العام ١٩٧٧ أرسل الى زوجته بطاقة بريدية من مكان ما، يقسم لها فيها أن تلك ستكون مهمته السرية الأخيرة. وهو الآن لا يذكر عدد المهمات السرية التي نفذها منذ ذلك الحين. وكان لكل مهمة عذابها، فمرّة رأت زوجته قتيلا ينتشل من قناة خلف منزلهما في فلوريدا، فاعتبرا ذلك بمثابة تحذير. وفي مرة أخرى أقسم تاجر مخدرات كولومبي على قتل عميل في مديرية مكافحة المخدرات لان هذه زجّت ابنه في السجن. وكانت زوجة شورت تعلم أن العميل المعني هو زوجها.

شورت: "عليّ التعامل جدياً مع هذه التهديدات، لأننا نعلم أن هناك اناساً يُقتلون في عالم تجارة المخدرات. قد لا يكون إسر تعاقد مع أحد لقتلي، لكن أحدهم فعل ذلك، وقد أكدت مصادر أخرى هذا الأمر."

يأخذ شورت فنجان قهوة معه الى مكتبه، لكن جرس الهاتف يرن، وتمر ثلاثون دقيقة قبل أن يتذكر قهوته التي بردت.

ممثلون انيقون

التقى شورت إسر للمرة الاولى يوم السبت ١٢ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٥ في غرفة جيري فيرغسون في فندق "غولدن توليب." وهو قال في ما بعد: "في الثانية الا ثلثا بعد الظهر عرفني فيرغسون الى "كارلوس" إسر على أنني جاك شميت. وللحال عرض علي كارلوس أن يبيعني ٥٠٠ كيلوغرام من الحشيشة. لم أطلب منه ذلك أبداً، بل هو عرض علي البضاعة بملء إرادته. وفي حال شرائي ٥٠٠ كيلوغرام من الحشيشة اللبنانية بسعر ١٤٠٠ دولار الكيلوغرام الواحد، اشترط إسر دفع ٥٠ في المئة من الثمن مقدّما و٥٠ في المئة لدى التسليم. لكنني رفضت عرضه. وبعد مزيد من المفاوضات عرض أن يسلّمني ٥٠٠ كيلوغرام من الحشيشة في الولايات المتحدة من دون دفع مقدّم، وتابعنا التفاوض الى أن قبل بتسليمي، في الولايات المتحدة، الكمية التي أستطيع بيعها."

أعجب إسر برجل الأعمال التكساسي اللطيف الذي ينتعل حذاء بنيّا ملمّعاً ويملك شركة إنشاءات في سان انطونيو ورخصة لتأجير السيارات في كامدن بنيوجرزي. لقد كان بعيداً كل البعد عن تجارة المخدرات، ومع ذلك بدا المامه بها واضحاً.

وأظهر شورت إعجابه بكارلوس إسر، إذ كان هذا شهماً في تصرفه ولطيفاً في حديثه، ويهرّب كمية من الحشيشة الى هولندا تصل الى ٤٠ طناً في السنة. ومضى بعد الظهر وهما مسترسلان في الحديث، يتبادلان "النصائح" المستمدة من خبراتهما السابقة في تجارة المخدرات. ومن ثمّ مرّا بجيري فيرغسون واصطحباه لتناول العشاء.

بعد العشاء اصطحب إسر الأمريكيين لمقابلة غيز فان دام، وهو رجل حاد الطبع بادرهما على الفور قائلا إنه شك في أنهما عميلان سريان. فرد شورت بهدوء أنه اذا كان يعرف أياً من تجار الكوكايين الكبار في الولايات المتحدة، فما عليه سوى سؤالهم عن جاك شميت. ثمّ أضاف أنه مستعد لالغاء الصفقة.

لكنّ إسر لم يتأثر بمخاوف فان دام، بل انه أعار شورت سيارته المرسيدس التي يبلغ ثمنها ٦٠ ألف دولار، ليقودها خلال عطلة نهاية الاسبوع. وعندما التقيا يوم الاثنين عرض عليه أن يبيعه كيلوغرام الحشيشة بـ١٢٠٠ دولار. فوافق شورت على عرضه. لكن إسر ما لبث أن اتصل به بعد بضعة أيام ليقول له إنه، اكراماً له، قرر أن يخفض السعر الى ٩٠٠ دولار الكيلوغرام.

الذراع لاحقا

الحشيشة مادة صمغيّة تستخرج من نبات القنّب ويمكن أن تبلغ قدرتها التخديرية عشرة أضعاف قدرة الماريوانا. تجفّف الحشيشة وتضغط بشكل أرغفة صلبة بسماكة سنتيمتر واحد. وتصل عادة الى شوارع أمستردام ومقاهيها في أكياس سعة الواحد منها خمسة غرامات أو ستة ويباع بـ٢٥ غيلدراً.

وكما في حال السكر، يحدث تدخين الحشيشة هذياناً وتضعف لدى المحشش القوى العقلية وقدرات الحركة الارادية.

ولكن خلافاً للسكران، فإن مدخّن الحشيشة المنتشي قد يبدو في حال طبيعية. ولا يمنعه أحد من قيادة السيارة أو الذهاب الى العمل، مما أدى الى ازدياد حوادث السير والعمل في البلدان التي يسود فيها تدخين الحشيشة. ومع أن هذا المخدر لا يؤدي الى الادمان، وهي الحجة التي يتمسك بها المدافعون عن تدخين الحشيشة، فإنه سرعان ما يفرض ذاته على مدخنه كرغبة نفسية ملحّة، وتغدو الطريق الى الكوكايين والهيرويين معبّدة، باطمئنان مدخّني الحشيشة الى أنهم محصّنون ضد الادمان!

لكن عدد الذين يتعاطون الحشيشة لا يقل. وهذا هو المؤشر الذي انطلق منه إسر في أواسط السبعينات.

وساعدته علاقاته وخبرته التي اكتسبها من تهريب السجائر. ولم يمضِ وقت طويل حتى ازدهرت تجارته وبات يدخل كميات متنامية من الحشيشة الى هولندا في الشاحنات والبواخر، من باكستان (حيث يدعى مزوده "عبد الولي") وبعلبك في لبنان حيث ازدهرت زراعة القنّب منذ قرون.

في البداية جال في العالم محاولا الاتصال بالتجار والشارين والمستثمرين. وقبض عليه مرة في سورية. ولكن بحلول الثمانينات أصبحت هذه مسائل من الماضي وبات إسر في قمة تجارته.

يستورد إسر ٤٠ ألف كيلوغرام من الحشيشة سنوياً لتوزيعها في أوروبا وكندا والولايات المتحدة، ويبلغ معدّل الكلفة لديه ٦٠٠ دولار، بما فيه كلفة النقل والنفقات العامة، بينما معدّل سعر المبيع هو ١٢٠٠ دولار، مما يؤمّن لإسر دخلا سنويا يبلغ ٢٥ مليون دولار.

والنفقات العامة لدى إسر قليلة. فمع أنه يقف على قمة مثلّث تجاري فيه من المال ما يعيل ألوف الرجال، فإن إسر لا يدفع أجوراً إلا لحفنة من المساعدين القريبين منه، أمّا الآخرون فيدفع أجورهم بضعة عشر موزعاً رئيسيا قادرون على شراء كميات ضخمة من بضاعته. ويأخذ الهولنديون ربع وارداته، أما البقية فتصدَّر الى الخارج.

وأكبر استثمارات إسر ادخال الحشيشة الى هولندا. فهو يملك ثلاث سفن عابرة للمحيطات وأسطولا من الزوارق السريعة لتفريغ البضائع على شاطىء اسبانيا، حيث تؤمن له ارتباطاته بشرطة الشاطىء تفريغ البضائع بأمان. بعد ذلك تحمَّل الحشيشة في شاحنات ضخمة وتموَّه ببضائع مشروعة وتبدأ رحلتها الى هولندا، حيث تخزن في مستودعات تحت الأرض، أو هكذا يقال، فلا أحد سوى القريبين جداً من إسر رأى هذه المستودعات، فالشارون يتركون شاحناتهم في نقاط التقاء يُتفق عليها، فيقودها رجال إسر الذين يثق بهم الى مستودع ويحمّلونها بالبضائع ثم يعيدونها الى نقطة الالتقاء.

الشرطة لا تستطيع النيل منه. فالتنصت الى هاتفه لا يفيدها بسوى بعض العبارات المرموزة المتعلّقة بالمخدرات أو بتعليمات غير مفهومة للاتصال بهاتف عمومي معيَّن. وفي بعض الأحيان، ترد اشارة الى محطة وقود أو فندق يمكن تحديدهما، ولكن حين تصل الشرطة الى هناك يكون إسر أتى ومضى.

لا أحد يقود سيارة مثله. فلا شيء يردعه، لا شوارع ذات اتجاه واحد ولا ضوء أحمر. وفي الطرق الخالية تقصر سيارات الشرطة عن اللحاق به.

وإن أوقفت شاحناته واكتشفت البضاعة غير المشروعة، فإن السائقين لا يذكرون إسر ولا يفضحون العملية. فكلّهم يدركون أن للوفاء أجراً. فإن هم أدخلوا السجن فلن تعاني عائلاتهم مشاكل مادية. وعندما يخرجون تكون وظائفهم في انتظارهم.

وثمة ارتباط خاص بين إسر ورجل اعمال لبناني يدعى لو شولا*. وهما اشتركا في أربع عمليات، أخفقت ثلاث منها اذ تدخلت الشرطة واشتبكت مع المهربين، فألقيت أطنان من الحشيشة في البحر الابيض المتوسط لتفادي مصادرته، لكن العملية الرابعة درّت عليهما أرباحاً وافرة عوضت جميع الخسائر السابقة. الا أن تجارة المخدرات محفوفة بالمخاطر. وقد خسر شولا شحنتين كبيرتين من الحشيشة في عمليتين نفذهما بمفرده، فغرق في الديون. وعندما عجز عن الدفع لمزوِّديه اللبنانيين، خطفوا والده

(*) بطلب من مديرية مكافحة المخدرات، لو شولا اسم مستعار لحماية المخبر.

وأخته وأخاه، وقطعوا اصبعاً من يد أخيه وأرسلوها اليه في البريد مع رسالة جاء فيها: "ستأتيكم الذراع لاحقاً."

إسر: "أتى شولا لمقابلتي، فرأيت أمامي رجلا يائساً. ولم أفكر في الأمر مرّتين، بل جمعت له مليوناً وثلاثمئة ألف دولار. هكذا تُعامل شخصاً تعرفه. وهو دفع المال لمزوديه فأفرجوا عن عائلته. ثم تصافحنا وذهب لو في سبيله."

في يناير (كانون الثاني) ١٩٨٥، بعد مرور ثلاثة أشهر على بدء استقصاء أمر إسر، اتصل به لو شولا هاتفياً من باريس وأخبره أنه أمضى السنوات القليلة الماضية في الولايات المتحدة وأنه يعمل حالياً مع شريك جديد هو مايك فولز، وعرض عليه التعاون مجدداً. فوافق إسر على الفور إذ كان سعيداً لسماع أخبار صديق قديم، مع أنه لم يسمع باسم فولز من قبل. فلا شكّ في أن شولا يحسن اختيار شركائه. لكن ذلك لم يثنِه عن أخذ احتياطات أولية، فعندما وصل فولز برفقة شولا الى أمستردام بعد أسبوع، كان بانتظارهما في المطار مصور وقف بعيداً وأخذ عدداً من الصور الأمامية والجانبية لوجه فولز مستخدماً عدسة مقرّبة. وسرعان ما وُزعت نسخ عن الصور على المتعاملين بتجارة المخدرات الذين يستطيعون التعرف الى وجه مخبر سري. وفي اليوم التالي عرض إسر على زائريه عينات من الحشيشة في غرفتهما في الفندق.

وسأله فولز هل يستطيع تأمين ٢٠ طناً. وأخبرني إسر في ما بعد: "بالطبع أستطيع تأمين ٢٠ طناً حتى لو لم أكن أملكها. أسلّمه ما لدي وآتي بالبقية من تجار آخرين. فكلمتي مسموعة في هذا المكان."

كانت بنية مايك فولز شبيهة ببنية لاعب كرة قدم محترف، وشخصيته تتلاءم وبنيته. ورأى إسر أنه يبثّ "ذبذبات" صامتة تشير جميعها الى أنه شرطي. ولكن كيف يرتكب صديقه شولا مثل هذا الخطأ؟

. وبعد تمرير الصور وورود التقارير التي تنفي عن فولز تهمة "الشرطي" ارتاح إسر قليلاً وأخبر فولز أنه يستطيع تأمين ٢٠ طناً. وخرجوا جميعاً لتناول العشاء. وهم تكلّموا أولاً عن الحشيشة ثم عن الكوكايين.

قال إسر إن صديقاً له في أمريكا الجنوبية يدير تجارة واسعة للكوكايين ويستطيع مساعدتهم. وأبدى فولز اهتمامه، لكن صفارات الخطر انطلقت مجدداً في دماغ إسر. وعندما خرج فولز ليغسل يديه أمسك شولا من ذراعه وجذبه اليه.

إسر: "قلت له: "إسمع يا لو، علمت انك واجهت مشاكل مع الشرطة. أريد أن أعلم ما اذا كان هذا الرجل شرطياً. فاذا كان كذلك وأنت ترافقه لأن لا خيار لديك، اخبرني الآن وأنا كفيل بمساعدتك كما فعلت من قبل. ولكن أقسم لي بأن هذا الرجل ليس شرطياً." وقد أقسم لي قائلاً: "لا يا كارلوس، انه ليس بشرطي. أقسم لك بأمي."

لكنه كان شرطياً. واسمه الحقيقي مايك بافليك. وقد بات لو شولا مخبراً لديه.

لو شولا ابن عائلة لبنانية موسرة. كان يتلقى العلوم في معهد خاص، ثم هاجر الى كندا حيث فتح مطعماً للوجبات السريعة في مونتريال بأموال حصل عليها من والده. وكان النجاح حليفه. فهو انتسب الى جامعة مونتريال، وتزوج، وحصل على اجازة للمطعم الأول ثمَّ افتتح مطعماً ثانياً. وقبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره كان لديه مال كثير في المصرف وبات قريباً من رجال أعمال مهمين. وأتاه أحدهم يوماً يطلب ٥٠ ألف دولار قائلا: "لا تطرح علي أسئلة. فأنا أضمن لك ربحاً أكيداً." فأعطاه شولا المال، وبعد ستة أشهر يسلّمه الرجل مليون دولار. فسأله شولا: "أخبرني شيئاً واحداً. هل هذا المال من المخدرات؟" وأتاه الجواب: "نعم."

انبهر شولا. ومنذ تلك اللحظة أصبحت تجارة المخدرات شاغله الوحيد، وتحولت حياته في اتجاه مختلف كلياً. وكان له في هذه التجارة سعوده ونحوسه، لكن اتجاهه العام استمر في انحدار حتى وصل الى الحضيض بعد وقت قصير من مساعدة إسر له في تخليص أخيه. وذات يوم، بعدما تراكمت عليه تهم تهريب الحشيشة، دخل مكتب مديرية مكافحة المخدرات في قبرص قائلا إن لديه معلومات يودّ البوح بها. وانتهى به الأمر الى التحدث مع مايك بافليك، ثم وصل الى دائرة الهيرويين في مديرية مكافحة المخدرات في واشنطن. وبدأ الرجلان العمل معاً في الولايات المتحدة.

بافليك: "إنه الأفضل. ومع إنه انتهى كمخبر، فهو يستمر في العمل معتمداً على حنكته. في ميامي يعمل على قضيّة، فيأتي بالمعلومات المطلوبة ويقدّم عميلا سرّياً الى جماعة مهربين ثم يختفي قبل أن تكشف هويته ويحترق. ثمَّ يظهر في دالاس وينخرط في مجتمع المخدرات ويعمل لدينا هناك. وأنا أتكلم على قضايا صعبة. لقد اعتقلنا أشخاصاً مهمّين."

خبر مشؤوم

عندما نُقل بافليك الى باريس في العام ١٩٨٤ تبعه شولا الى هناك. لقد تحدثا مراراً عن ستانلي إسر. فاتصل بافليك هاتفياً بيات مولر وسأله هل يهمه الأمر. وأخبر مولر بافليك عن التحقيق الجاري في هولندا، وأعلمه أن الأمر يهمه لكن عليه أولا استشارة بوينو. وحصل على إذن من بوينو ولكن بشرط أن تبقى العمليتان منفصلتين، كضمان في حال اخفاق واحدة منهما.

بعد اتصال مولر أعلم بافليك لو شولا: "حصلنا على الضوء الأخضر بالنسبة الى صديقك إسر."

في ٢٢ فبراير (شباط) ١٩٨٥ رست "سيلاند إندبندنس" في نيوارك آتية من روتردام، وعلى متنها حمولة تضم صندوقاً سجل عليه: "خرق قطن أبيض، باب أول."

وحجز الصندوق لحظة ملامسته الرصيف، وكشف النقاب عن ألف كيلوغرام من الحشيشة مخبأة تحت الخرق. وكانت نوعية الحشيشة رديئة، فاتصل جاك شورت هاتفياً بإسر قائلا له إن الحشيشة جافة جداً وإنه سيواجه صعوبة في بيعها. ولم يجادله إسر، بل خفض السعر الى ٦٠٠ دولار الكيلوغرام.

هذا لم يحلّ مشكلة شورت الاساسية، إذ ان تسليم مبلغ ٦٠٠ الف دولار الى تاجر مخدرات إجراء لا تقبل به مديرية مكافحة المخدرات وإن في سبيل ايقاف التاجر لاحقاً. ولكن اذا تعذر دفع المبلغ لإسر أو ارضاؤه على نحو ما، فمن الأفضل احتجازه ووقف التحقيق عند ذلك الحد. وتحايل شورت لكسب الوقت مستغلا صعوبة تحويل مبلغ كبير من المال. ثم حملت اليه الفَرَج ضربة حظ مذهلة.

كان بافليك أدخل رجلا ثالثاً في المؤامرة على إسر يدعى ريك باريت، وهو عميل سري آخر لمديرية مكافحة المخدرات. وكان باريت الممثل المباشر المزعوم للشاري الامريكي، وقد أُرسل للاشراف على شحن أربعة أطنان من الحشيشة من مرفأ روتردام (هولندا) الى فيلادلفيا (ولاية بنسلفانيا الامريكية). أما وظيفته الحقيقية فكانت تغطية شولا بانتحال دور العميل عندما يحين القبض على إسر.

وفي مارس (آذار) سأل إسر بافليك عما اذا كان صديقه باريت يستطيع أن يأتيه من الولايات المتحدة بمبلغ ٦٠٠ ألف دولار يدين له به أحدهم. فأجابه بافليك: "ولم لا؟" متظاهراً بعدم الاكتراث للأمر. وعندما أنبأ مكتب مديرية مكافحة المخدرات في نيوارك، دُبرت خطة لايقاف باريت عند نقطة الجمارك ومصادرة المبلغ منه.

في هذه الاثناء كان إسر أنجز الترتيبات الضرورية للقاء بافليك وشولا مع مصدره في أمريكا الجنوبية للتفاوض حول شحنة من الكوكايين. واسم المصدر جيوفاني كارلو غاندولا ويعمل انطلاقاً من أسونسيون عاصمة باراغواي حيث تحميه السلطات.

بافليك: **"كان غاندولا صاحب نفوذ يأتي كبار رجال العصابات في كولومبيا لمقابلته. وكان اثنان منهم هناك عندما حضرنا للاجتماع به. وعلمت أنهما يتحريان عنا، فقد أخذا جوازي سفرنا. لكن كل شيء مضى على ما يرام، وتفاوضنا لشراء مئة كيلوغرام من الكوكاين."**

لكنّ الامور لم تكن على ما يرام كلياً. فيبدو أن أحد المساعدين الثاقبي النظر في باراغواي لمح عبارة "موظف سفارة" على تأشيرة الدخول المختومة على جواز سفر "فولز"، أو أن أحد مصادر المعلومات تعرّف الى الصور التي التقطت لـ"فولز" في مطار شيبول بأمستردام، ففضح هويته الحقيقية: موظف في الحكومة الامريكية اسمه مايكل بافليك.

في هذا الوقت من أواخر مارس (آذار) كان بافليك وشولا على متن طائرة متجهة الى باريس، على أن ينتقلا في ابريل (نيسان) الى روتردام تلبية لدعوة وجهها اليهما إسر

لحضور مباراة يشترك فيها الملاكم أليكس بلانشار. فاشتريا بذلتين رسميتين لهذه المناسبة.

وإذ لم يتمكن غاندولا من الاتصال بإسر اتصل هاتفياً بجاك كانافاجيو، وهو عميل المنظمة في سويسرا، وأخبره أن عليه ايصال الخبر الى كارلوس بأي وسيلة. وفي تلك الليلة، ٢٧ مارس (آذار)، تلقت هيلينا بوت اتصالا هاتفياً من كانافاجيو الذي قال لها: "أصغي يا لين، عليك أن تجدي كارلوس فوراً وتخبريه أن صديقه مايك غير صالح."

تلقى إسر الخبر المشؤوم في وقت متقدم من تلك الليلة، لكنّه ادرك تماماً ما ينبغي ان يفعل. فهناك أربعة أطنان من الحشيشة مرسلة الى الصديق المزعوم لبافليك في فيلادلفيا، أي أربعة أطنان من الأدلة لموظفي مكافحة المخدرات في الولايات المتحدة بقيمة ثلاثة ملايين دولار. وهذه الشحنة إما غادرت مرفأ روتردام وإما ستغادره خلال ساعات قليلة... إلّا اذا حالفه الحظ.

اتصل إسر بأنطوني كونينغز في منزله قرب الحدود البلجيكية وطلب منه أن ينطلق الى روتردام بأسرع ما يمكن. فإذا كانت الباخرة لم تبحر بعد، فلينزل البضاعة عن متنها وبعيداً عن الأرصفة "مهما بلغت الكلفة." ثمّ راح يزرع المكان قلقاً لا يدري كيف ينقل الخبر الى صديقه جاك شميت. فإذا كان المدعو "فولز" موظفاً حكومياً، فلا شكّ في أن ريك باريت هو أيضاً كذلك، فهو الذي أكد لشميت أن باريت غير مشكوك في أمره عندما أرسله لقبض الـ ٦٠٠ ألف دولار.

وفي السادسة صباحاً اتصل كونينغز بإسر وأعلمه أن الباخرة لن تبحر قبل العاشرة وأنه "فعل اللازم."

أما بافليك وشولا فأنقذتهما أجهزة التنصت الهولندية التي كانت تسجل كل هذه المكالمات. وكانا ركبا الطائرة الى باريس غير متنبهين الى الخطر المحدق بهما. فاعتُرضا عند نقطة الجمارك وأُطلعا على آخر التطورات. وهكذا لم يلبيا دعوة إسر لحضور مباراة الملاكمة تلك الليلة مع أنه كان ينتظرهما. وهو سُمِع يقول لكانافاجيو بنبرة حاقدة ملؤها الوعيد: "دعهما يأتيان."

مولر: "ثبط هذا همّة الهولنديين. فقال بعضهم: "لا أمل بعد الآن، ومن الأفضل وقف التحقيق عند هذا الحد." فعارضتُهم قائلا: "مهلا، دعونا نفكر في الأمر، فقد نستطيع تحويل هذه النتائج الى مصلحتنا. لقد فضح أمر عميل ومخبر لدينا، وكادا أن يقتلا، لكنهما ما زالا قيد الحياة وفي مأمن من الخطر. ليس علينا أن نعيدهما الى هنا، كما انه لا داعي الى القلق على الـ ٦٠٠ الف دولار." لكنهم لم يقتنعوا بأننا ما زلنا ضمن اللعبة حتى اليوم التالي عندما سمعوا إسر يتكلم الى شورت."

ففي المكالمة الهاتفية التي سجلها شورت، لم يحاول إسر اخفاء تكدره وغضبه على

نفسه عندما أخبر شورت أن صديقه مايك "غير صالح." وكان شورت لا يزال يحاول تحديد مدى الضرر الذي لحق بالتحقيق، فقال لإسر ما كان ليقول له جاك شميت: "كارلوس، هذا الذي أرسله، ما اسمه، ريك؟ انه يعلم كل شيء عني: إسمي، أعمالي، مكتبي. لقد استقبلته في المطار واصطحبته الى مكتبي. إنه يعلم كل شيء. أعني انه يستطيع القضاء علي."

فرد إسر: "لقد اتصلت بك لأنني أشعر بالذنب. لم أرتكب خطأ مماثلا من قبل." ثمَّ أكد له إسر أنه لم يخبر مايك وريك عن مصدر الـ ٦٠٠ الف دولار. فأعرب له شورت عن امتنانه، لكنه عاد فأكد له أنه لن يغمض له جفن تلك الليلة.

كان ذلك موسم المشاكل لستانلي إسر. فقد أقام علاقة مع شابة تدعى ماري كوينبرغ، وعلمت الشرطة بالأمر لأنها وصلت أجهزة تنصت الى الهاتف في الشقة حيث كان يزورها. وهكذا عرف المتنصتون أنها حامل وأن هيلينا علمت بالأمر.

الخبز قبل الأخلاق!

استمرت الاتصالات الهاتفية بين إسر وشورت مرة في الاسبوع على الاقل، لكن علاقتهما أخذت منحى دقيقاً. وبات إسر يلتمس رضا شورت معتذراً باستمرار لأنه عرّفه الى موظف لدى الحكومة الامريكية. وعندما دعاه الى حضور مباراة الملاكمة في أمستردام، اعتذر شورت بلطف واضعاً اصبعه على الجرح، ثم قال: "أشعر بأن علينا الا نلتقي قبل أن أتأكد من مدى الضرر الذي لحق بي. لا تسيء فهمي يا كارلوس، فمن الافضل أن نوقف أعمالنا حتى تبرد المسائل." وأعرب إسر عن تفهمه، ثم طرح امكان الالتقاء في كوراساو، فلديه ثلاثة قوارب راسية هناك قد تفيد جاك في تجارة الكوكايين.

وكان هذا العرض مغرياً. فصحيح أن إسر يبقى في مأمن من خطر تسليمه الى السلطات الامريكية وهو على أراضي الانتيل الهولندي، ولكن لنفترض أن صديقه جاك شميت توجه بطائرته الخاصة الى هذه الجزر، وهي في الحقيقة طائرة تابعة لمديرية مكافحة المخدرات، ولنفترض أيضا أن إسر اقترح أن يركبا طائرة صديقه جاك الى جمهورية الدومينيكان حيث ينشيء شميت مختبراً مزعوماً للكوكايين، عندئذ يمكن اعتقال إسر وتسليمه الى حكومة الولايات المتحدة حيث يواجه عقوبة أقسى كثيراً.

وحُدّد موعد للزيارة في أواخر أغسطس (آب) يسبقها اجتماع في فلوريدا بين شورت ومارتن رويفن محامي إسر، للبحث في امكان استرجاع الـ ٦٠٠ ألف دولار التي يفترض أنها صودرت لدى الجمارك الامريكية، ولدرس امكان انشاء مشروع تجاري لا غبار عليه يكون واجهة لاعمال شورت في هولندا. وكان رويفن خبيراً في نقل الأموال وابتكار الشركات الوهمية التي تموّه أعمال منظّمة إسر، وهو منذ أمد بعيد لا يكتفي بدور المستشار القانوني، بل وقع في شرك التآمر الاجرامي مثل إسر. وكانت مظاهر

الترف تبهر هذا الغندور المتأنّق ذا الجثة الضخمة والأنف الدقيق، فانتشى بمظاهر الابهة التي استقبله بها شورت. فقد دعاه هذا الى تناول العشاء في أحد أفخم مطاعم ميامي، ثم انتقلا في سيارته الـ"مرسيدس ٤٥٠" الى فورت لودردايل حيث نزلا في فندق فخم وذهبا في رحلة بحرية على متن "أحد زوارقي" كما دعا شورت يختاً مصقولا بلغ طوله ٣٣ متراً هو زينة مجموعة اليخوت المصادرة لدى المديرية الامريكية لمكافحة المخدرات. وعندما اتصل رويفن بإسر هاتفياً في ١٦ أغسطس (آب) التقطت أجهزة التنصت الحديث الآتي:

إسر: "هل جاك شميت هذا هو حقاً ما يدّعيه؟"

رويفن: "نعم، وأكثر من ذلك."

بعد أيام من وصول رويفن بدأ شورت يتحدث عن عمليات المخدرات التي يديرها. قال إن لديه خطة لتوزيع الهيروبين مباشرة من المنشأ الى الشارع في اشرافه الشخصي. وهو يحتاج لتنفيذ هذه الخطة الى ٣٠ كيلوغراماً من الهيروبين في الشهر، لكنه لم يجد بعد مصدراً يعتمد عليه لتأمين هذه الكمية.

وأعرب رويفن عن اعتقاده أن أحد أعضاء المنظمة يستطيع تأمين تلك الكمية. لعله كانافاجيو أو المزوّد الباكستاني عبد الولي. وأضاف: "علينا مناقشة الامر مع كارلوس."

للمرة الاولى يُطرح امكان الصاق تهم خطيرة بإسر وعصابته. ففي الولايات المتحدة يحاكم مذنب كإسر بتهمة العمل الاجرامي المتواصل بصرف النظر عن نوع المخدر المتاجر به، بينما تختلف العقوبة في هولندا باختلاف نوع المخدّر. فقد كانت عقوبة استيراد الحشيشة أو تصديرها أربع سنوات وعقوبة الهيروبين ١٢ سنة.

يوم الاربعاء ٢٨ أغسطس (آب) انتقل شورت الى كوراساو على متن طائرة مصادرة لدى المديرية الامريكية لمكافحة المخدرات وبرفقته ثلاثة أعضاء من عصابته المزعومة هم في الحقيقة عملاء لدى المديرية.

وفي محاولة لاعادة الهدوء الى حياته البيتية، اصطحب إسر هيلينا، وتناولا العشاء تلك الليلة مع الامريكيين في فندق "برنسس بيتش" حيث كانوا ينزلون جميعاً. وبعد العشاء أخبر إسر شورت أنه علم من رويفن تفاصيل طلبه للهيروبين. فقال شورت: "لا أتوقع منك أن تورط نفسك في هذه القضية. اصرف النظر عن هذا الموضوع."

ولكن بعد يومين عاد إسر الى البحث في الموضوع. ثم في صباح نهار السبت ٣١ أغسطس (آب) طلب من شورت ان يرافقه للركض على الشاطىء. وبينما هما يمشيان عائدين الى الفندق قال إسر إنه أمضى الليل كله يفكر في حديثهما. وأضاف: "أنا متأكد من أن عبد الولي يستطيع تلبية طلبك. وهو خولني الكلام باسمه في هذه المواضيع."

كان الغموض يلف شخص عبد الولي. فالمديرية الامريكية ما زالت الى اليوم غير متأكدة من اسمه الحقيقي، هي التي تحتفظ بملفات مفصّلة عن تجار المخدرات في أنحاء العالم. وكان إسر تعرف الى عبد الولي من طريق أحد معارفه في تجارة السجائر قبل سنوات، وأخبره هذا أن عبد الولي يرئس قبيلة أفغانية يبلغ عديدها ٥٠ ألفا يأتمرون به جميعاً. وقد انشأ في الولايات المتحدة روابط غامضة بمشاريع تجارية متنوعة، وأقام في منزل بلغت قيمته ثلاثة ملايين دولار في احدى ضواحي ماليبو التي تجتذب نجوماً سينمائيين كثيرين. وفي هولندا التي تتساهل حيال تجارة المخدرات وحيث القوانين الصارمة ضد تسليم المتهمين الى حكومات أخرى، اشترى منزلا ووضع مليونا و٥٠٠ ألف دولار في تصرّف إسر لكي يستعملها في ترميم المنزل وتجديده.

ولطالما ردد النائب العام الهولندي إد بوينو أنه في حال طلب إسر شخصيا أن يركب طائرة الامريكيين فلا مانع من ذلك، ولكن إن هم ذهبوا الى حد التلميح الى الفكرة فقدت الدعوى كل مبرر في المحاكم الهولندية. والحقيقة أن إسر لم يطلب السفر في الطائرة، كما التزم الامريكيون الانظمة الهولندية بحذافيرها ولم ينفذوا خطتهم. وبعد مرور وقت قصير على عودة إسر من كوراساو الى هولندا، التقطت أجهزة التنصت هذه المكالمة بينه وبين عبد الولي:

عبد الولي: "هل قابلت الرجل؟"

إسر: "نعم، وأعتقد أنه واسع الثراء."

عبد الولي: "هل أنت واثق به؟"

إسر: "كلا، فأنا أريد أولا أن أرى المال بعيني، وعندئذ فقط آمن جانبه."

مسلسل بوليسي!

قال جاك شورت: "ستكون هذه مهمتي السرية الاخيرة." ثم أضاف: "في الحقيقة، ينبغي أن تكون الأخيرة."

كنا نتحدث في إحدى غرف الفندق. فأفصح شورت عن عواطفه المتجذرة في قضية إسر. فالتهديد بالقتل يرهق فكره، كذلك الواجبات المتأخرة المترتبة عليه تجاه عائلته.

فما رأيكم في هؤلاء الرجال الذين يخاطرون بحياتهم في كل مرة يذهبون الى العمل؟ وعندما يسافرون في مهمات سرية تنتظرهم واجباتهم الادارية على مكاتبهم لكي ينجزوها عندما يعودون، فيضطرون الى العمل ليلا وخلال عطل نهاية الاسبوع كي يتمّوا ما نقص من أعمالهم. وفي مهماتهم السرّية يخوضون معارك ضد رجال يجنون من صفقة واحدة عشرات أضعاف ما يكسبونه هم في سنة. وقد يذهبون الى أفخم المطاعم حيث يصل حساب الشخص الواحد الى ١٠٠ دولار، لكنهم يعلمون جيداً أنهم

يعيشون فصول تمثيلية لن تستمر، وأنهم عندما يعودون الى بلادهم ستكون سندات رهن في انتظارهم.

شورت: "أتمنى لو يصوِّر مسلسل تلفزيوني أو فيلم سينمائي شرطي مكافحة المخدرات على أنه انسان عادي لديه مشاعر ومشاكل كالناس الآخرين، طفل مريض مثلا أو سيارة لا تدور أيام الشتاء. ما نعيشه لا يشبه دائماً المسلسلات البوليسية التلفزيونية."

ويصمت شورت محاولا السيطرة على موجة عارمة من المشاعر العميقة، ثم يتابع:

"المسألة هي أننا نواجه معضلة رهيبة، ولا يريد أحد أن يعترف بأننا في حال حرب مع تجار المخدّرات وأنهم ليسوا في وضع المنهزم. وما نشاهده في وسائل الاعلام هو صورة لخطّنا الدفاعي الأمامي، أي خط شرطي مكافحة المخدرات، وهي ليست أفضل بكثير من صورة المجرم، اذ تظهره وهو يخلع الابواب ويضرب المشتبه بهم ويعاشر نساء كثيرات. صدّقوني، إن هذه الصورة لا تمثلني ولا تمثل أحداً من الذين أعمل معهم."

انفصل إسر عن هيلينا بعيد عودتهما من كوراساو، واتفقا على أن تحصل هيلينا على البيت في ليمن وعشرة آلاف غيلدر في الشهر. ولم يكن المال مشكلة بالنسبة الى إسر، فهو أسكن ماري في شقة رائعة في أمستردام بعدما اشترى المبنى الذي تقع فيه والمبنى المجاور. وفي زيارة شورت التالية لأمستردام قدم اليه إسر سيارته الـ"مرسيدس ٥٠٠" ومنزلا بقيمة مليون دولار ليسكن فيه. ويقول شورت: "لم أحتج الى سوى ثيابي وفرشاة أسناني."

خلال ذلك العام، ١٩٨٥، زار شورت هولندا أربع مرات فتعمقت صداقته مع إسر. ومرة اصطحبه هذا الى شقة ماري ولم يخفِ عنه تشوّقه الى ولادة طفله الجديد. وقال لشورت ضاحكاً: "احذر الهاتف هنا، فقد نبهني أحد معارفي في الشرطة الى أنه ساخن الى حد ينبغي معه أن أرتدي قفازاً لدى استعماله."

وفي الثاني عشر من أكتوبر (تشرين الاول) بينما كان إسر وشورت يتناولان طعام العشاء في فندق "أوكورا" في أمستردام، قال إسر إن لديه زبائن للكوكايين الذي في حوزة شورت. وفي اليوم التالي ذهبا لتناول العشاء في مطعم "غلاسترونوم" الذي اشتراه إسر بمبلغ ٥٠٠ ألف دولار. ورافقتهما ماري ورويفن والكسندر غورلي أحد مساعدي شورت المزعومين، وهو أيضاً يعمل لدى مديرية مكافحة المخدرات. وهناك طلبوا بضع زجاجات من الشراب الذي يتناسب والعشاء الفاخر. وكصاحب للمطعم، كلّفت الزجاجة الواحدة إسر ٣٣٥ دولاراً.

كلما انفرد إسر بشورت كانا يتكلمان على الأعمال. وكان إسر بارعاً في الحساب

الذهني، يجمع كلفة المنشأ وكلفة النقل والخزن والتسليم ويستنتج بسرعة هائلة سعر المبيع. لكنه شعر برهبة اذ لاحظ أن شورت يضاهيه في هذا المضمار وأنه، الى ذلك، يستطيع أن يحوّل السعر سريعاً من الغيلدر للكيلوغرام الواحد الى الدولار للرطل الواحد. وقال له مرة متحسراً: "كان يمكننا ان نجني مليار دولار معاً."

في سبتمبر (أيلول) نقلت شرطة ألكمار مقرها الرئيسي الى بناء أنيق في طرف المدينة، فبات لمراقبي أجهزة التنصت مكان أوسع، لكن مهمتهم الأساسية لم تتغير وهي التدقيق المضني في المكالمات الهاتفية المتواصلة ومعظمها بلا مغزى. وفُصل ثلاثة رجال أوكلت الى كل منهم مهمة تحقيق في موجودات إسر، وهو عمل استمر مضجراً الى أن أدّى التعقب الدقيق للوضع المالي لشركات إسر الوهمية في سويسرا وبناما وهولندا الى كشف شبكة مصالحه الموزعة بين سفن وشاحنات ومطاعم ونوادٍ ليلية.

ولم ينته التحقيق الا وقد استمع عناصر فرق المراقبة الى نحو ٥٠٠ ساعة من الكلام الذي لا علاقة لمعظمه بما أرادوا معرفته. لكن صبرهم العجيب ألقى في النهاية بعض الضوء على ما بدا لغواً تافهاً، وساهم في تعزيز اثباتات الدعوى.

وقد بُهر الهولنديون بالنهج الاحترافي الصرف الذي اعتمده الامريكيون في التحقيق. فقد كان جاك شورت يذهب الى المدينة مع إسر، فيتكلمان لساعات ويتفاوضان في صفقات معقّدة، ثم يعود شورت الى الولايات المتحدة ويكتب تقريراً شاملاً يشرح فيه تفاصيل لقائهما. وغدت هذه التقارير العمود الفقري لشهادته.

مولر: "انها ناحية من عمل التحري لا تخطر في بال أحد ولا تراها في المسلسلات البوليسية. ولكن عندما يحين موعد المحاكمة ويُطلب التحري السري للشهادة، فانه يكون سعيداً بلا شك لأنه صرف وقتاً في كتابة تلك التقارير المفصلة."

وخلال فترات اقامة شورت في أمستردام، كان مولر يحجز غرفة آمنة في طبقة أخرى من الفندق ذاته حيث يتسنى لشورت أن يخلع قناعه ويكون نفسه لفترة وجيزة.

ولكن خارج غرفة مولر في الفندق كان احتمال حصول مشكلة وارداً باستمرار. فقد بدا إسر كأنه يتذكر كل ما ينطق به شورت فلا يدع له مخرجا ان هو ناقض نفسه وإن مرة واحدة. اضافة الى واقع آخر هو أن إسر لم يتسلم بعد دولاراً واحداً من جاك شميت، فكم من الوقت يمكن ان يمر قبل أن يتنبه الى عدم الانسجام الواضح بين تصرفات شورت التي تحددها قوانين المخدرات الأمريكية والهولندية، وأسلوب تاجر مخدرات حقيقي في العمل؟

وتساءل الهولنديون هل حان الوقت لاعتقال إسر. لكن مولر اقترح عليهم الانتظار. فحتى ذلك الوقت لم يتجمّع لديهم سوى بضع مكالمات ليوجهوا اليه تهمة الاتجار

بالمخدرات الخطيرة. وكان لدى شورت احساس بأن إسر في صدد ابرام صفقة. فإذا تمت هذه الصفقة وسُلِّم الهيروويين، كان ضلوع رويفن وعبد الولي شبه مؤكد.

وفي السادس من ديسمبر (كانون الاول) طار شورت وآل غورلي الى أمستردام، ووافاهما إسر الى فندق "ماريوت" حيث كانا ينزلان في الاولى الا ربعاً بعيد الظهر، بعد اجتماعه بعبد الولي في وقت مبكر من ذلك الصباح. واصطحبهما لرؤية طفله المولود حديثاً. لكنهم انشغلوا تلك الليلة وطوال اليوم التالي في التخطيط لصفقة مثلثة الاتجاهات يسلِّم عبد الولي بموجبها ١٠٠ كيلوغرام من الهيروويين الى جاك شورت في مطار ملقة باسبانيا بثلاثة ملايين دولار. وكان على شورت أن يزوِّد إسر مئة كيلوغرام من الكوكايين، يسلم إسر نصفها الى زميله جاك كانافاجيو والنصف الآخر الى شخص لا يعرفه شورت.

وطلب عبدالولي من شورت أن يدفع له مليونا ونصف مليون دولار مقدماً، لكن إسر الذي كان على علم بتخوّف شورت الواضح من خسارة أمواله، عرض عليه يخته "باراكودا ٢" ككفالة. وكان هذا اليخت في تصرف شورت منذ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٥، اذ ان إسر أرسله اليه لكي يستخدمه في تجارة المخدرات. وقبل شورت بدفع المبلغ مقدماً حالما يأتيه التقرير الكيميائي بصلاح عينة الهيروويين. ووافق إسر على ذلك واتُفِق على أن يتم التسليم في اليوم التالي، أي السبت.

شعر إسر بنشوة عارمة وأكد لشورت ان عملية التسليم في ملقة خالية من أي مجازفة اذ ان المخدرات والاموال ستكون في حماية موظفين رسميين اسبان تربطهم علاقة بطبيب أحد النافذين، وأن سلطات الجمارك لم تفتش طائرة الطبيب يوماً.

في الثانية بعد ظهر السبت جلس بات مولر في ردهة فندق "ماريوت" وراقب رجلا قصيراً أصلع ذا ملامح شرقية يذرع المكان بعصبية ظاهرة. ففكر: "إذاً هذا هو عبد الولي." وفي احدى الطبقات العليا كان آل غورلي ينظر من نافذة الغرفة ١١٤٩ الى متنزه فوندلبارك حيث رأى جاك شورت يقود إسر الى مقعد باد للعيان انتقياه سابقاً. وسلّم إسر شورت رزمة صغيرة ملفوفة بورق ألومنيوم. وتمشيا في الحديقة قرابة ساعة ثم عادا الى الفندق حيث جلسا في المقهى وتكلما لفترة وجيزة. في هذه الاثناء التقطت أجهزة التنصت اتصالا اجراه عبد الولي بمنزل إسر في فترة غيابه. وأخيراً تمكن عبد الولي من مكالمته في المنزل في وقت متقدم بعد ظهر ذلك اليوم.

عبد الولي: "هل أعجبتهم السترة الجلدية؟"

إسر: "لا أعلم بعد ما اذا كانت تناسبهم. لكنني سأعرف ذلك خلال يومين أو ثلاثة."

التقى شورت وإسر مجدداً في فندق "ماريوت" على الفطور صباح الاثنين. واتفقا على أن يسافر رويفن والطبيب الى الولايات المتحدة الاسبوع التالي لتسلم الدفعة

العربونية من ثمن الهيروبين في نيوجرزي، ثم يعود الطبيب الى ملقة على متن طائرة شورت الخاصة لكي يبرهن قدرته على اجتياز الجمارك الاسبانية من دون أن تفتش أمتعته. وبعد القطور أوصل إسر الأمريكيين بسيارته اليه المطار بعدما انطلت عليه الحيلة ولم يبق الا أن يطبق عليه الفخ.

خلف القضبان

في الصباح الباكر من الجمعة ٢٠ ديسمبر (كانون الاول) طوق فريق خاص من الشرطة من ثمانية رجال شقة ستانلي إسر في أمستردام. وتمام السادسة حطّم قائدهم الباب الزجاجي الجرّار لشرفة غرفة نوم إسر وقبض عليه وهو في سريره قبل أن يتسنى له وضع قدميه الحافيتين على أرض الغرفة. ولم يبدِ إسر مقاومة، بل سأل عن الجهة القضائية التي أصدرت أمر القبض عليه. وعندما أعلم بأنها شرطة مقاطعة ألكمار صفر متعجباً وقال: "لم أكن أعلم أن هؤلاء الشباب يتحرون عني." ولا بد أن "الفريق إ" وخصوصا المنسق تونس فان فولبن الذي عمل جاهداً طوال ١٤ شهراً مصر على سرية اسمه، يعتبر اعتراف إسر هذا وسام شرف من الدرجة الاولى.

وفي مكان آخر من أمستردام، بعد ساعة تقريباً، اقتاد فريق آخر من الشرطة عبد الولي من شقته الفخمة، وصودر من الشقة مبلغ ٢٢ ألف دولار امريكي و٢١ ألفا و٥٠٠ غيلدر هولندي.

منتصف الليل، في نيوارك بنيوجرزي، كان مارتن رويفن والطبيب وشميت وبعض "جماعته" في حانة قبالة المبنى البلدي يحتفلون باتمام صفقتهم، بعدما عاين رويفن والطبيب في غرفة بفندق مجاور حقيبة ملأى بأوراق نقدية من فئة ١٠٠ دولار هي عربون المئة كيلوغرام من الهيروبين. وكانت مهمة رويفن ايصال الاموال الى مصرف سويسري. اما الطبيب فأخبر شميت أنه يستطيع تأمين "فرقة ضاربة" من اللبنانيين في حال التعرض للمضاربة. ولم ينتبه أي من الرجلين الى أن حديثهما مع شميت في غرفة الفندق كان يسجل بكاميرا فيديو. وهكذا، عندما دخل رجال مكافحة المخدرات وضباط شرطة نيوارك الحانة وأعلما رويفن والطبيب أنهما موقوفان، ظن رويفن أن الأمر مجرد دعابة سمجة ولم ينقطع عن الضحك حتى أقفل عليه باب الزنزانة.

وعاد إسر الى سجن هارلم في هولندا. انه يوم الثلثاء ٢ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨٦، أي قبل يومين من موعد اعلان الحكم عليه. ونحن جالسان في احدى غرف الزوار الصغيرة قرب صالة الرياضة التي تتردد منها أصداء مباراة في الكرة الطائرة. قال لي إسر ان ليس لديه شيء ضد جاك شورت، "فهو قام بواجبه وقال الحقيقة معظم الوقت." ثم قست نظرته وضاقت عيناه، واضاف: "أما شولا فوضعه مختلف، وسنلتقي يوماً ما لكي أصفّي حسابي معه." وهو أمل أن يحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات لأنه

حسب أنهم سيسقطون عنه تهمة الهيرويين. وقد مضت عليه سنة في السجن منذ ايقافه، ولا بد أن يخفف الحكم لاحقاً نظراً الى حسن سلوكه.

واسترسل متذكراً طفولته في جزيرته الأم. لقد أمضى هناك طفولة سعيدة، ولكن عندما يعود اليها الآن يشعر بالقنوط لرؤية الفقر والفرص الضائعة.

إسر: **"الناس لا يريدون أن يعملوا، ويعتقدون أن العمل في خدمة شخص آخر أمر مشين. لماذا هذا الاعتقاد؟ أي امرىء أكثر فخراً من نادل فرنسي؟ كنت أراقب هؤلاء النذل وهم يخدمون على الموائد بعدم اكتراث ظاهر. وهذا ما أسأم حتى الامريكيين وثبط همتهم فسلّموا فندق "هيلتون" الى الحكومة وغادروا نهائياً."**

ولكن ماذا عن المستقبل وما الذي سيعمله بعد خروجه من السجن؟

إسر: **"سوف أعود الى تجارة الحشيشة، فكل ما عداها تافه." (ويجيل نظره في الغرفة باحثاً عن كلمات.) "كانت هيلينا تقول لي إنني أطلب الكثير من كل شيء وتسألني باستمرار: "لماذا لا نعيش حياة طبيعية؟" فهي لم تكن تدرك أن تلك هي حياتي الطبيعية، وهي الحياة الوحيدة التي اود أن أعيشها: السرعة القصوى. هيلينا لم تفهم ذلك أبداً، اتفهمه أنت؟"**

- كلا.

"لا بأس، سوف نبقى أصدقاء."

وقدت سيارتي جنوباً من هارلم، بحر الشتاء الى يميني والارض الساكنة المنبسطة أمامي تمتد الى ما وراء السديم. لقد أدركتُ أن ستانلي إسر هو الثمن الذي فرض على الهولنديين لتسامحهم مع "حضارة" المخدرات التي بلغت في انحلالها حدَّ الانغماس. وقد تضاعف عدد الجرائم خلال السنين العشر الماضية، ويشكل غير الهولنديين نسبة ٢٠ في المئة من نزلاء السجون، وكثير منهم جذبه الى هولندا انخفاض أسعار الهيرويين ووفرة الكوكايين وشرعية تعاطي الحشيشة التي تؤمنها "خدمة منزلية" ليلا ونهاراً.

وهناك ثمن يدفعه ستانلي إسر أيضاً. فتصميمه الرائع على النجاح ومواهبه الفطرية كانت كفيلة بايصاله الى أعلى المراتب في أي مهنة أخرى يختارها. وأخاله مديراً لذلك الفندق التعس في كوراساو، يكرس له نشاطه حاضاً الموظفين على الثقة به وبأنفسهم. لكن هذا ليس سبيل إسر "المهرب الكبير"، فهو يفضل دخول السجن على امتهان أي عمل آخر.

يوم الدهم اشترى بات مولر صندوق شراب وذهب الى ألكمار للاحتفال بالحدث مع إد بوينو و"الفريق إ." وشدّد القبض على إسر عزيمة قوّات الشرطة في أنحاء هولندا، فباشرت ملاحقة غيره من تجار المخدرات وأغلقت المتاجر التي تبيع مستلزمات الكوكايين. ورُفض التماس عبد الولي الحماية الهولندية، فسُلّم الى الحكومة الامريكية.

لكن مفاجأة مدمرة للجهود التي بذلت حصلت نهار ٢٩ مايو (أيار) ١٩٨٦. فقد التمس رويفن عفو المحكمة معترفاً بجزء من التهمة الموجهة اليه وهي التآمر لاستيراد الحشيشة وتوزيعها. فقبلت النيابة العامة التماسه وأسقطت عنه تهمتي الكوكايين والهيروين. وعقدت جلسة مغلقة برئاسة رئيس قضاة المقاطعة كلاركسون فيشر وحضور رويفن ومحاميه ومساعدة النيابة العامة كلوديا فلين، فأفرج عنه بعدما حكم عليه بالسجن عشر سنين مع وقف التنفيذ، وأُطلق لمدة سنة واحدة من دون مراقبة. وبعد ٤٨ ساعة من الافراج عنه عاد الى هولندا وصرّح للصحافة بان الامريكيين اضطروا الى الافراج عنه لأن الدعوى كانت ساقطة حكماً.

ولكن في الحقيقة، كما يتبين من سجل المحكمة، خلي رويفن بشرط تعاونه مع السلطات الامريكية والهولندية والكشف بصدق عن كل المعلومات المتعلّقة بمواضيع الاتهام، وهي استيراد الحشيشة والكوكايين والهيروين وتوزيعها وحيازتها، وتورّط مارتن رويفن وستانلي إسر والطبيب وعبد الولي وغيرهم في هذه العمليات. ولكن عندما استدعى محامي الدفاع مارتن رويفن للشهادة في نوفمبر (تشرين الثاني) خلال محاكمة إسر في ألكمار، أقسم على أنه وإسر كانا ضحيتي احتيال المديرية الامريكية لمكافحة المخدّرات.

لفّت غمامة يأس السلطتين الامريكية والهولندية اللتين توقعتا اصدار حكم متشدد على رويفن كخطوة أولى في سبيل تغيير سمعة هولندا كملاذ لتجار المخدرات. أما الآن فيكاد يُفقد الامل في أن يحكم على إسر بالسجن مدة طويلة. ونصحت احدى الصحف الامريكيين ألا يتوهموا أن بوينو سيدعو المحكمة الى انزال أقصى العقوبات بإسر، أي السجن عشر سنين وثمانية أشهر، استناداً الى شهادة "الزبون الامريكي الزائف." وحتى المواقف الاعلامية الاكثر اعتدالا عكست استياء من التدخل الامريكي في التحقيق. ولم تأمل المديرية الامريكية لمكافحة المخدرات أن يحكم على إسر بالسجن أكثر من أربع سنوات. ثم أجمع الرأي على أن العقوبة لن تتعدى ثلاث سنوات.

زمن المشاكل

الثانية بعد ظهر الخميس ٤ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨٦. دخل القضاة قاعة المحكمة الملأى بالحضور. وخلال عشر دقائق سيلفظ الحكم وتعلن العقوبة وتفض الجلسة.

سوّى رئيس القضاة ج.أ. يانسن اوب دي هار نظارتيه على وجهه المحبّب المستدير وبدأ القراءة: "لقد وجدت المحكمة ممارسات العميل السرّي الامريكي شورت سليمة تماماً وملتزمة نطاق القانون الهولندي. وتسليم المدعى عليه كمية ستة غرامات ونصف غرام من الهيروين كعينة في السابع من ديسمبر (كانون الاول) الماضي، أقنع

المحكمة بما لا يحتمل الشك بأنه حاول بيع الهيروبيين. لذلك حكمت عليه المحكمة بالسجن مدة سبع سنوات وشهر واحد، وبدفع غرامة مقدارها ٨٠٠ ألف غيلدر (٤٢٠ ألف دولار) وبمصادرة أسلحة وذخيرة وثلاثة جوازات سفر بنامية وكمية ضخمة من الحشيشة.

ونظر القاضي من فوق نظارتيه الى إسر وسأله هل فهم العقوبة.

فأجاب إسر أنه فهمها. ثم تداعى في كرسيه الى أن ربت أحدهم كتفه فوقف ومشى الى زنزانته.

وفي نيوارك قرّر عبد الولي في أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٩ أن يقدم التماس عفو معترفاً بتهمة التآمر لاستيراد الحشيشة. فحكم عليه بالسجن عشر سنين مع وقف التنفيذ، وبغرامة مقدارها ٢٠٠ ألف دولار.

أما إسر فأفرج عنه بكفالة، وتنقلت قضيته من محكمة استئناف الى أخرى في محاولات لتعديل الحكم. ولكن حتى كتابة هذه السطور، وفي انتظار مراجعة الدعوى لدى المحكمة العليا في هولندا، لم ينجح إسر الا بتمديد عقوبته الى عشر سنين.

لورنس اليوت ■

ترجمة نهلا رزق



رسالة الكاتب

تمنح "جائزة إرنست همنغواي" سنوياً لأفضل رواية منشورة. وعندما تسلّمت الكاتبة بوبي آن مايسون جائزة همنغواي عن كتابها "شيلو وقصص أخرى"، قالت في كلمتها: "والداي مزارعان لم يحظيا بفرصة الذهاب الى المدرسة. لكنهما فعلا المستحيل لكي تكون لدي كتب وأذهب الى الجامعة، مع جهلهما الى اين يمكن أن يؤدي قليل من العلم. لكنهما كانا يخشيان إن أنا نجحت أن أتغيّر وأخجل بهما. وهما ليسا من قراء الروايات. وكان علي أن أشرح لهما من هو همنغواي عندما أخبرتهما عن الجائزة. لكنهما مع ذلك قرأا قصصي واهتما لها وتعاطفا معها ووجدا فيها شيئاً من واقع حياتهما. وهذه أكثر الجوائز ارضاء لي، فما حاولت أن أفعله هو اسماع صوت اناس كوالديّ في العالم الذي أتيت منه.

أردت أن اقول هذا لكم، أيها الحاضرون الرفيعو الثقافة أدبياً، لأنكم باختيار روايتي لمنحها هذا الشرف أنما تقولون لي انكم سمعتم صوتهما. وأريدكم أن تعلموا أنهما يسمعانكم أيضاً. أشعر كأنني أنقل رسائل بين عالمين مختلفين، وهذا دور جيد يضطلع به كاتب.

صحيفة "بابلشرز ويكلي"

كتاب الشهر

"إنّي أرى"
هتفت العمياء منذ ٤٥ سنة

ملخص من كتاب
"كما أراه"
بقلم جودي تايلور

"إنّي أرى"

قد يبدو فقدان النظر نهاية لحياة منتجة، لكنه بالنسبة الى جودي تايلور كان بداية لمثل هذه الحياة. تذكر جودي أنها أحست وهي طفلة "بغيوم سوداء تهبط تدريجاً." وأخيراً أصيبت بالعمى التام ولم يجد الاختصاصيون سبيلا الى معالجتها. وعلى رغم الصعوبات تأهلت كمعلمة وعاشت زواجاً سعيداً وربت عائلة. ثم ابتسم لها القدر فاستعادت بصرها جزئياً بعد جراحة ورأت، للمرة الاولى، زوجها وولديها ومنزلها وكلابها الوفية التي قادت خطاها.

وكتبت جودي تايلور مذكراتها، فجاءت تروي بظرف ودفء ملحمة شجاعة وتصميم أبرزت عالم المعاقين بصرياً بأسلوب مؤثر



"ذات العيون الأربع!" عبارة طالما رددها الأولاد ساخرين مني في ملعب المدرسة القريبة من منزلنا المطل بشرفاته على أحد أزقة شلتنهام. كانوا يرقصون حولي ويشدون شعري هازئين من منظري المضحك.

كنت في السابعة من عمري وقد كرهت نظارتي الجديدة التي كانت بشعة مستديرة يحوطها إطار فضي. ولم تحسّن الزجاجتان السميكتان من نظري أو تخفيا الدموع المنبجسة خلفهما. امتلكني الخوف وشعرت بالاذلال ولازمني احساس بأني مختلفة.

ارتأى الطبيب في عيادة العيون أن أضع نظارة علّها تساعدني في رؤية الرصيف والسيارات والمارة، وإن لفترة وجيزة.

وكان والداي ارتابا في أن أمراً ما ليس على ما يرام عندما بدأت المشي. وقد أخبرتني أمي أنها كانت تتضايق مني حين أصطدم بالأشياء، الى أن تبين لها أني كنت لا أرى تلك الأشياء. وحار الاطباء في أمري، لكنهم اعتبروا أن الحصبة الشديدة التي أصابتني وأنا في شهري الثالث عشر أدت الى ضمور في الشبكيتين والعصب البصري. ووصف أحدهم حالي لأمي: "سيزداد نظر جودي سوءاً، وليس هناك من علاج لذلك."

وهذا يعني أني سأصاب بالعمى التام في النهاية.

وفي العام ١٩٤٤، وكنت بلغت التاسعة من عمري، لم أعد أرى الحروف في الكتب. وعندما بلغت الثانية عشرة اخذتني أمي لقضاء عطلة في بلدة بلاكبول، فحاولت أن أرى البرج المثير الذي حدثني عنه أبي عندما خدم هناك إبان الحرب، فلم أتبين سوى ضباب رمادي. وأذكر تلك الأمسية حين نُظِّم معرض ملاه في الملعب المجاور لمنزلنا، اذ جلست الى نافذة غرفتي أستمع الى الموسيقى المدوية الى ما بعد حلول الظلام. سمعتُ ضحك الفتيان والفتيات، وتاقت نفسي الى أن أكون بينهم، طبيعية مثلهم. لكني لم أتبين سوى بصيص أضواء الدولاب الكبير الدائر وقد تراءت عالية في الهواء.

لم أكن طفلة سهلة المراس. لذلك تجرَّحت "الأنا" الحقيقية في ذاتي، واختبأت خلف مظهر كاذب من النكات والآراء العنيدة في أي موضوع يطرح. بيد أني نجحت في امتحان كلية كورليوود في هرتفوردشير، وهي مدرسة داخلية مرموقة للفتيات المعاقات بصريا تنمّي التكيُّف الايجابي مع واقعهن.

وكورليوود منزل ريفي قديم على طراز القصور الفرنسية تفوح منه رائحة الشمع والصابون المعطر والخبز. انها مدرسة سبقت عصرها بسنوات. هناك دأب معلمونا على حفزنا – باللطف حيناً وبالتخجيل والارغام أحياناً – على حب الاستقلالية وتنمية روح المغامرة. كنا نجوب الغابات والدروب المتاخمة للقرية المجاورة برفقة احدى المعلمات حتى باتت كل تفاصيل المنطقة مألوفة. وغدوت قادرة على ملاحظة اي تغيير يحصل، وإن يكن شجرة اقتُلعت من مكانها. ولما كانت مدينة لندن لا تبعد سوى ٣٠ كيلومتراً

عن المدرسة، كنّا نؤم الحفلات الموسيقية في قاعة "ألبرت هول الملكية" ونشاهد مسرحيات شكسبير في دار "أولد فك."

وكنت أعزف على البيانو والكمان، لذا ظنّ معظم الاساتذة اني سأختار الموسيقى مهنة لي. ولكن ذات يوم من يونيو (حزيران) ١٩٥٢، وكنت في السابعة عشرة من عمري، مررت بتجربة قررت منحى حياتي.

كنت جالسة في مختلى ظليل أراجع كتاباً مطبوعاً بطريقة "بريل"[1] وأستعد لامتحان في مادة الجغرافية. فجأة أحاطت بي قوة امتلكت كياني. لم يتناهَ الى سمعي صوت من الأعالي، لكنني علمت من فوري ومن دون أي شك أنني سأصبح معلمة.

شعرت لبرهة بعجز عن الحركة. أنا لم أفكر يوماً في امتهان التعليم، وخيل الي أن شعوري ذاك ربما نجم من حرارة النهار وأن حالي ستتحسن متى برد الطقس. إلا أن هذا الإدراك الجديد لم يفارقني، ووجدتني في الصباح التالي ما زلت مقتنعة بأن خياراً أُخذ نيابة عني.

(١) "بريل" كتابة خاصة بالعميان تعتمد احرفا مؤلفة من نقاط نافرة.



نينا ترشد جودي الى صندوق البريد. (الى اليسار) الكاتبة مع كلب العائلة.

الخروج الى العالم

لم تصادف الآنسة ماكهيو، رئيسة كلية كورليوود، كفيفاً يلتحق بدار للمعلمين. غير أنها وجهت رسائل الى عدد من الكليات. فاستجابت كلية سانت غبريال في جنوب شرق لندن واستدعيت لاجراء مقابلة.

أذكر سؤالا واحداً وجه إليّ: "لماذا تودين أن تصبحي معلمة؟"

أجبت بأمانة تنبعث مني عادة من دون تصميم: "أنا لا أود أن أصبح معلمة، بل يجب أن أصبح كذلك." وقبل طلبي على أن ألتحق بالكلية في سبتمبر (أيلول) التالي. ووافقت وزارة التربية على تسديد رسوم التعليم والإقامة في منامة للشابات.

وهكذا بدأت مرحلة جديدة من حياتي. كنت في كورليوود محمية كطالبة بين طلاب عميان. أما في سانت غبريال فغدوت العمياء الوحيدة بين ٢٠٠ طالب لم يلتقِ معظمهم كفيفاً من قبل. وجاءت ردود فعلهم قاسية، وإن عن حسن نية.

أردت الاندماج بهم على نحو طبيعي. لكنني بدل ذلك غدوت محط الانظار. وكنت كلما اقتربت من باب أو سلم أو قطعة أثاث أمسكتني يد وسمعت صوتاً يقول: "انتبهي! قد تقعين!"

إلا أني، كغيري من العميان، كنت أتكل على سمعي وحواسي الأخرى لاستبيان طريقي بأمان. وسرعان ما آلِفت المبنى الكبير. فهناك تغيُّرات دالة في سطح الأرض وأصداء انحرافات صغيرة في دورة الهواء. وهناك أيضا احساس غريب في أسفل الساق ينبه الى المفروشات والمقاعد والطاولات المنخفضة.

أما تجربتي الكبرى فكانت السير مسافة ٨٠٠ متر بين الكلية ودار الشابات عبر شوارع مكتظة. رفضت حتى التفكير في الاستعانة بعصا بيضاء لعلمي أنها ستسبب لي ارتباكاً وخجلا. وبنبرة استقلالية مضلِّلة عمدت الى رفض عروض المساعدة لمواكبتي جيئة وذهوبا، علما أن كثيرين يتوقون الى المساعدة كحاجة ذاتية، ولا يحق لي حرمانهم هذه الغاية. بيد أن قبولي المساعدة كان بالنسبة الي اعترافاً بالهزيمة ورضى بالخروج من ركب الحياة.

ونجحت منفردة في اتمام الرحلة، لست أدري كيف. ولكن يا لهول ما عانيته من جهد أرهق كل عصب في كياني. فلكم اعترضتني عقبات ليس أقلها سلالم عمال التنظيف والطلاء والكلاب التي لم تحلُ لها القيلولة الا وسط الممرات التي أطرقها.

أما أسوأ ما عانيته فكان حركة المرور، اذ كنت أنتظر عند حافة الرصيف والسيارات تمر الواحدة تلو الأخرى. وبعد لأي أُطبق أسناني وأصابعي بشدة وأنطلق غير مبالية. ولطالما أوقفني صرير كوابح السيارات وما يستتبعه من شتائم. وفي السنوات التالية ألفت الغمز من قناتي في الملاعب المكتظة بالفتيان والفتيات، ولم أعد أبالي.

وبدأت أستمتع تدريجاً بحياة الكلية. كنت أرتدي قمصاناً هدلة وأقراطاً كبيرة

عصرية، وأقصد مع رفيقات لي مقاهي وست إند ومراكز اجتماعات الطلاب. كنا ندفع شلنين لنقف في الصفوف الخلفية من دار الأوبرا الملكية في حديقة كوفنت لنشاهد الأوبرات العظيمة. لم يكن ذلك شاقاً علي، فانا لم أكن لأرى الأداء المسرحي. لذلك كنت أجلس على الأرض وأتشرب ملذات الصوت وروائعه.

وذات ليلة عدنا الى دار الشابات من سهرة لنجد الباب الأمامي موصداً فاذا قرعنا الجرس توجب علينا دفع غرامة. ولحسن الحظ وجدنا نافذة صغيرة تعمدت احدى رفيقاتنا الشفوقات ألا توصد مزلاجها.

تسلقت الفتيات المتأخرات النافذة وهن يقهقهن بصوت خافت، وكنت واحدة منهن. وقد عني لي ذلك الحدث وحده أكثر ما عنته لي السهرة المرحة.

لقد قبلت، وغدوت جزءاً من المجموعة.

بعض ذكريات السنتين اللتين قضيتهما في سانت غبريال حلوة مرة. ففي حفلة أخرى التقيت شاباً يدرس في جامعة قريبة. فانخرطنا في حديث ساده الانسجام،



جودي تقرأ على تلاميذها في كتاب مطبوع بطريقة "بريل."

وتبين لنا أن اهتماماتنا متشابهة جداً. ولم تمضِ السهرة حتى دعاني الى حفلة موسيقية في "رويال فستيفل هول" الأسبوع التالي.

وبعد الحفلة تمشينا في محاذاة الجسر وسط ليل صيفي ساكن، ورحنا نتبادل أطراف الحديث وقد جلسنا على مقعد مواجه لنهر التايمس. فجأة وقف وقال لي بصوت أجش: "لا أريد أن أراك ثانية." وأخبرني أني أعجبته كثيراً - وربما كثيراً جداً - وأنه لن يسمح بنمو صداقة قد ينجم عنها ارتباط بينه وبين فتاة عمياء.

يا له من شاب مسكين. ربما خجل من اصطحابي بين أصدقائه. إني لا أحمل له أي ضغينة. بيد أن هذه التجربة كانت ضربة قاسية لكبريائي كشابة. شعرت كأنه يخبرني بأني أدنى مستوى. فلم أتقبل ذلك برزانة، ورحت أبكي صابة في وسادتي مرارتي وكبريائي الجريح.

"أتظنين أنها ترى؟"

في يوليو (تموز) ١٩٥٥ بعد سنتين في كلية سانت غبريال تأهلت كمعلمة. لكن غيمة سوداء لاحت في الأفق إذ تلقيت جواباً مماثلا عن جميع الطلبات التي تقدمت بها للتعليم: "آسفون، ليس لدينا ما يناسبك." ويظهر أن جميع مديري المدارس لا يخالون أن معلمة عمياء يمكنها التغلب على مصاعب التدريس المباشر.

إلا أن رسالة لم أتوقعها وردت علي من الآنسة باكستر، مديرة مدرسة "سانت أندروز بن" للبنات في رغبي، تقول فيها إنها سمعت عني من معلمة الجغرافية في كلية سانت غبريال، وأنها في "حاجة ماسة" الى بديل من معلمة الموسيقى واللغة الانكليزية التي توقفت عن العمل بسبب مرض مفاجيء.

فانضممت الى تلك المدرسة تجربة لمدة نصف فصل، على أن يُوفَّر لي لوح خاص مزود أخاديد أفقية تسهل لي الكتابة بالطباشير، وهو أمر أتقنه. وتولت معلمة متقاعدة مساعدتي في تصحيح الفروض بعد ساعات الدوام.

وذات أحد من سبتمبر (أيلول) نزلت من القطار في محطة رغبي حاملة حقيبتين حوتا كل ما أملكه في هذا العالم. وفي الصباح التالي قادتني الآنسة باكستر، ممسكة ذراعي، الى غرفة التدريس. وعرفتني الى الصف ثم تركتني هناك.

أحسست التساؤل الذي اعتمل في عيون ٣٢ تلميذة: عمياء؟ وشعرت كذلك بما بدأ يتضح لهن: رائع، سنتسلى كثيراً.

كان عليّ أخذ موقف فوري. فوقفت منتصبة الى أقصى ما تسمح به قامتي البالغة ١٦٠ سنتيمتراً، وقلت بنبرة أملت أن تكون بالغة السطوة: إسمعنني جيداً، لقد قيل لكنّ اني عمياء، لكن ما لم تعرفنه هو أني لست حمقاء. أقترح أن تنزعن هذه الابتسامات السخيفة عن وجوهكن."

كان ذلك تخميناً مُلهماً. وشعرت بردود الفعل كمثل موجة كهربائية. لقد أصبت الهدف. ومع الأيام تلقّت مني تلميذاتي مزيداً من المفاجآت. ذلك لأن حاسة الشم لدي أتاحت لي ضبطهن متلبسات بأكل الحلوى. كما وجدتني قادرة على تمييز أصوات نقر أقلام الرصاص وتمشيط الشعر وتصفح المجلات تحت الطاولات.

وعندما كنت استشعر أمراً يجري في الخفاء، كنت أمشي ببطء بين الطاولات، فأصغي ثم أنقضّ قابضة على رسالة مطوية تمرَّر عبر الممشى.

وفي فترة الراحة ذات صباح أخذت معي الى غرفة الأساتذة واحدة من تلك الرسائل. وقرىء لي على وجهٍ منها ما يأتي: "أتظنين أنها ترى؟" وعلى الوجه الآخر: "أعتقد ذلك. انها تعلم دائماً ما نفعل."

وسرعان ما تخلّت الفتيات عن محاولات النيل مني وتحولن جدياً الى التعلُّم.

افتُتنت بعملي وثبت لي أن التعليم هو حقاً قدري المرسوم. وعلمت أيضاً أن تلميذاتي قبلنني عندما بدأن يحضرن صور إخوتهن وأخواتهن وصوراً تظهرهن في مناسبات عائلية، كي ألقي "نظرة" عليها. كنت أمسك بكل صورة على حدة وأسأل صاحبتها وصفها لي، فتفعل ذلك بعفوية من يتحدث بغير كلفة بين أصدقاء.

"أرجوكم، أرسلوا كلباً!"

مضى نصف الفصل الدراسي. وذات يوم دعتني الآنسة باكستر الى مكتبها وأبلغتني أني ثبتُّ في عملي.

كان مسكني يبعد حوالى كيلومتر عن المدرسة. وقد نال من صحتي وأعصابي الجهد المضني الذي تطلبه قطع هذه المسافة عبر شوارع ناشطة ضاجة، خصوصاً وأني ما زلت أكره طلب المساعدة. فأصبتُ بارهاق ونزوع دائم الى النوم.

حين أرهقتني حركة المرور في سانت غبريال بلندن، قالت لي صديقة إني أعذب نفسي من غير طائل، واقترحت عليّ أن أقتني كلباً يرشدني. فكتبت الى "جمعية تأمين الكلاب المرشدة للعميان" وقبعت أنتظر حصولا سريعا على بغيتي. لكني تلقيت بعد مدة استمارة خاصة بالطلبات واشعاراً بأني "على لائحة الانتظار."

وانتظرت سنتين قبل أن أبلَّغ ما مفاده أن كلباً يُعتبر مناسباً لي قد دُرب في ادمونسكوت مانور، ليمنغتون، وأن عليّ قضاء شهر كامل هناك أتدرب على التكيف واياه. ولحسن الحظ صادف التوقيت عطلة الربيع.

شمل صفي في ادمونسكوت ستة أشخاص – ثلاثة رجال وثلاث نساء. تعلمنا كيف نطعم كلباً ونسوسه وندربه، وكيف نصدر اليه أوامر بسيطة مثل "اجلس" و"تقدم" و"انتظر". ولم يكن خطر لي وجوب ارفاق هذه الأوامر باشارات معينة باليد وبوضع مناسب للقدمين والجسم.

ولما اقتنع المدربون بأننا بتنا مؤهلين لامتلاك كلب، حانت اللحظة التي طال انتظارها. أخبرونا بأسماء كلابنا وفصائلها، وقادونا الى الزرائب التي آوت الكلاب.

كان اسم كلبتي "نينا"، وهي سوداء من فصيلة "لابرادور" وعمرها ١٣ شهراً. ركعت بحذر ومددت رأسي نحوها، فارتمت علي بثقلها (٣٢ كيلوغراما) وقوائمها الطويلة وذنبها المتلوي ولسانها الرطب وأسنانها القاضمة.

قلت متكلفة التهذيب: "ألستِ جميلة!"

ويبدو أن عبارتي نجحت في تهدئتها، فتوقفت عن ملاعبتي وتقبيلي وقد كوَّنت منذ تلك اللحظة انطباعها عني، فلم يبق ثمة شك في من هي الآمرة الناهية – التي لم تكن أنا أبداً.

وكغيرها من الكلاب المدرَّبة، تعلمت نينا كيف تحجم عن عبور الشوارع ما لم تكن آمنة، وكيف تحذرني من المارة بجلوسها لدى اقتراب الخطى، وكيف تقبع متكومة تحت مقاعد الحافلات.

ومع نهاية الشهر الاول تدرَّبنا على كل حال قد تصادفنا في تنقلاتنا في الريف والمدينة، بما في ذلك محطات السكك الحديد. وعندما جربنا التجول في مركز تجاري كبير، عجبت لمدى اليسر الذي شققنا به طريقنا بين جماهير المتسوقين.

عُدت بعد العطلة الى المدرسة في رغبي، وتجولت للمرة الاولى من غير أن أستند الى ذراع. ودخلت الصف برشاقة ومرشدتي الامينة الى جانبي.

كانت تلك بداية حرية لم أعرف مثلها مذ اصبحت كفيفة.

نينا القائدة

ذلك الصباح الاول في المدرسة جلست نينا بعظمة على صندوقها الى جانبي، وأظهرت بوضوح أني لم أعد مكلَّفة ادارة الصف. وقد أخبرتني الفتيات لاحقاً كيف راحت نينا تراقبهن بعينيها الواسعتين النافذتين، وكيف أبدت امتعاضاً عندما حلَّت فترة الاستراحة وأدخلت عربة الحليب المحملة زجاجة لكل واحدة من التلميذات. وكانت الفتيات يسترضينها بسكب هبات من زجاجاتهن في طبقها الفارغ. ومنذ ذلك اليوم بدأ عربة الحليب تحمل زجاجة اضافية – تُعطى قبل الجميع.

كان التجوال في رغبي، ورفيقتي الامينة تعدو الى جانبي، مبعثاً للبهجة. يجد الناس صعوبة في التحادث مع كفيف، بسبب الارتباك عادة، لكن حضور كلب مرشد يكسر الجليد. وقد ساعدتني نينا على كسب أصدقاء كثيرين، خصوصاً بين أصحاب المحال التجارية في رغبي. وبعدما تعلَّمت إطاعة أوامر مثل "خذيني الى الملحمة" أدركت بسرعة أن القصّاب – الذي يضع عظاماً على المنضدة ويهمه أن يتبرع بها – قد يفهم التلهف البادي في عيني كلبة أسيئت تغذيتها ومعاملتها.

تلك كانت أياما سعيدة ظننت فيها أني حظيت بكل ما أرغب فيه: مدرسة جيدة ومسكن مريح وحياة اجتماعية خصبة شملت حفلات راقصة مساء كل سبت. الا أن تململ الشباب وازدياد اتكالي على نينا أديا الى نتيجة مشابهة لما ينجم عن تعلم صغار العصافير الطيران: أردت أن أغادر العش وأنطلق الى تحديات جديدة.

ووجدت هذه التحديات في مدرسة بلبر التي تبعد حوالى ١٥ كيلومتراً عن دربي، حيث كانت حاجة الى معلمة لمادتي اللغة الانكليزية والموسيقى. وكانت هذه المدرسة المختلطة جديدة لم تمض على تأسيسها ثلاث سنوات، وقد بلغ عدد تلامذتها خمسمئة.

كان تطبيق النظام في الصفوف المختلطة أمراً أكثر صعوبة. وساهمت نينا بنصيب في ذلك. وذات مرة أرسلت تلميذاً ليقف في الزاوية لسوء تصرفه. وبعد انتهاء الدرس لاحظت نينا أنه ما زال واقفاً هناك، فظنت أني لم أوبخه بالقسوة التي يستحقها، فحشرته في الزاوية وراحت تنبح مؤنبة اياه بعبارات واضحة المعنى.

بلبر بلدة امتزج فيها الجمال الريفي بالنشاط الصناعي على نحو غير مألوف، بحيث تبين التلال والحقول – كما قيل لي – من كل جانب حول الشارع الرئيسي. وسرعان ما بدأت ونينا التجوال في البلدة. غير ان نزعتي الاستقلالية عادت تتبرعم. فشعرت بأن الوقت حان كي أتكل على نفسي كلياً ويكون لي مسكن خاص.

وذات يوم أخبرتني صديقتي جين التي تدرِّس مادة التدبير المنزلي: "هناك شقة للايجار فوق متجر الأدوات الكهربائية." فذهبت الى المكان، وأحببت الشقة على الفور. كانت السلالم تقود مباشرة من الشارع الى الطبقة الأولى حيث غرفة الاستقبال والمطبخ الصغير والحمام الذي كان بالغ الروعة بمقياس العام ١٩٦٢. ومن هناك يرتفع سلم عتيق الطراز الى غرفتين للنوم. أما المبنى فبالغ القدم، وقد شعرت بأن ذلك المنزل الصغير ظل قابعاً ينتظر مروري كي يتطاول الي ويلتقطني.

اشتريت أثاثاً وسجادات مستعملة، وأهدت إلى أمي لوازم المطبخ. وبقيت جين معي أسبوعين تعلمني المبادىء الأساسية لتدبير المنزل. واتفقت مع امرأة لكي تنظف لي المنزل مرة في الاسبوع. وكان للمنزل حديقة صغيرة خلف المتجر، مناسبة لتدريب كلب.

وكان مشغل المتجر مواجهاً للحديقة. وكان أحد المهندسين هناك لا يترك فرصة الا ويحييني بمرح. وذات يوم توجهت الى صندوق القمامة كي أرمي بعض النفايات، فطالعني صاحب الصوت المألوف جالساً يتشمس على صندوق القمامة. فنهرته باستياء: "هلا ذهبت من هنا؟ هذا ليس مقعداً في حديقة."

فاستجاب بلطفه المعهود، ثم عرَّفني الى نفسه: "إسمي يان تايلور."

بدأت بيننا صداقة سهلة غير معقدة، وساعدني يان في حل الأحاجي التي واجهتني كطباخة مبتدئة. كان يقرأ الارشادات ثم يوجهني وكأنه عرفني طوال حياته.

والى كتف يان اسندتُ رأسي باكية إذ علمت أن نينا التي تجاوزت الحادية عشرة مصابة بالتهاب في المفاصل وتجدر إحالتها على التقاعد. وكانت بدأت تبطىء حركتها الى حد لافت بحيث بت لا أعلم، ولا هي تعلم، من يقود من. فأخذتها الى منزل والديّ اللذين أحباها كثيراً. ولم تلبث أن نفقت هناك عن ١٤ عاماً ونصف عام.

خلفت نينا كلبة أخرى لا تقل عنها إخلاصاً اسمها دانا، وهي أيضاً من فصيلة "لابرادور" لكنها أصغر حجماً. وقال لي يان إنها جميلة، ظهرها ذهبي وصدرها وبطنها أبيضان ويحوط عينيها إطار أسود.

ومررتُ بتجربتين عاطفيتين لم تثمرا. وإذ شدني فجأة دافع التأهل معلمة للأطفال العميان، نقلني يان في سيارته الى جامعة برمنغهام لدراسة تستغرق سنة كاملة.

انحشرنا في سيارته الـ"موريس ماينور" المتوقفة في باحة منزلي وقد تراكمت فيها الحقائب والكتب والقدور والمقالي ودانا التي جلست في مضجعها بين هذه الأشياء.

وكان عصر الأحد من كل أسبوع محطة مهمة في حياتي في برمنغهام، اذ كان يان يزورني فنذهب معاً الى التلال نتمشى ودانا ترقص حولنا جذلة. لم نتكلم على المستقبل قط.

وعندما عدت الى بلبر لمعاودة التدريس لم يمضِ يوم لم "أر" فيه يان الذي ساعدني على الانتقال الى منزل صغير اشتريته.

وفي أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٠ قدَّم الي خاتم خطبة، وفيه حجر ياقوت بيضوي تحوطه حبات ألماس. كان مضى على تلاقينا ست سنوات، وأخبرني يان لاحقاً أنه انتظر كل هذه السنوات كي يتأكد من أن شعوره نحوي هو الحب، وليس الشفقة الناجمة عن كوني عمياء أو الاعجاب بطريقتي في مواجهة اعاقتي.

تزوجنا يوم اثنين. وامتلأت قاعة الاحتفال بالأصدقاء. وشعرت بالفخر اذ سرت بين الحضور تتقدمني جوقة مدرستي وفيها تلميذة غنت بصوتها الصافي الفتي أنشودة حب.

نعمة أم نقمة؟

لم أكن مولعة بالحياة المنزلية قبل أن أتزوج، اذ لم تكن من الضروريات. وكان فقر خبرتي الطهوية أمراً واضحاً. وحاولت أن أترك انطباعاً حسناً لدى يان في عطلة نهاية الاسبوع الاولى بعد عودتنا الى بيتنا من شهر العسل، فحضّرت طبقاً مؤلفاً من النقانق والفطر. وحملت المقلاة وسرت عبر المطبخ يغمرني شعور بالانتصار. لم أعِ أني أحمل المقلاة منحرفة، فاندلق عشاؤنا على الأرض مما أصابني بخيبة شديدة.

إلا أني أدركت في الأشهر التالية أن قليلة هي المهمات المنزلية التي لا يتقنها الكفيف مثل المبصر. لكن جميع الأعمال تحتاج الى بذل جهد أكبر وتركيز أشد

فسكبُ الشاي، مثلا، يعني الأصغاء الى صوت السائل وهو يقترب من حافة الفنجان. ويمكن التنبه الى بلوغ الخضر درجة الغليان ليس فقط بسماع البقبقة بل بتحسس ذبذبة يد المقلاة أيضاً. وسر كيّ الثياب يكمن في تلمس التجاعيد باليد اليسرى أمام مقدم المكواة.

وصممتُ على ألا أدع أحداً يعتقد ان عدم الترتيب في منزلي عائد الى كوني عمياء. فرحت أولي تنظيف الاثاث عناية فائقة. ودأبت على غسل الجدران في الطبقة العليا أسبوعاً والجدران في الطبقة السفلى أسبوعاً آخر. ولم أهمل قضبان الستائر التي أعملت فيها فركاً وتلميعاً.

فلكم أضعتُ من وقت ثمين في هذه الأعمال. ولم يطل بي المطاف حتى أدركت تدريجاً أن هذا السعي الى الكمال لم يكن تعبيراً عن حبي لزوجي بمقدار ما كان وسيلة لاشباع كبريائي الغبية. فما همَّ إن اعتقد الناس أن زواج يان بي كان تجربة حظ ونصيب؟ فجميع الناس يجربون حظهم في الزواج، مهما تكن الظروف.

وأخيراً تعلمت أن أضحك من أخطائي. ومنها ما حدث عندما أخبرني يان أنه في طريقه الى عمله قطف من الحديقة بعض قرون البازيلاء وقشرها. واذ كنت أحضر يومئذ يخنة كبد، تناولت من الثلاجة علبة هزتها للتأكد من احتوائها على البازيلاء، ثم أفرغتها في القدر. وفي المساء رفع يان غطاء القدر ووقف صامتاً مذهولا وقال: "لم أر في حياتي كبداً أرجوانية!" لقد نسي أن يخبرني أنه قطف أيضاً بعض ثمار العليق ووضعها في الثلاجة.



جودي ومارتن.

ولما عرضت الكبد على الكلبة أشاحت هي أيضا بوجهها.

وفي أغسطس (آب) ١٩٧٢ حدث ما فتح باباً جديداً للتشكيك في قدراتي المنزلية. لقد ولد لنا ابن سميناه أدام. وشرحت لي الممرضات الارشادات الاولية للعناية بالأطفال. وفي اليوم العاشر بت قادرة على العناية بطفلي.

أما الصعوبة القصوى التي واجهتني لاحقاً فكانت إطعام الطفل بالملعقة. كنت أجلسه وظهره إلي، وأضع سبابتي تحت شفته السفلى، ثم أسدد الملعقة الى فمه بعد



ملئها طعاماً. وفي لحظة وصول الملعقة الى فمه كان يدير رأسه الصغير فيقع الطعام في أذنه. وكثيراً ما لجأت الى دعوة أصدقاء الى تناول طعام الغداء عندنا آملة أن يسرهم إطعام الطفل بينما أكون في المطبخ أضع اللمسات الأخيرة على الطعام.

واذ تحوَّل أدام دارجاً ثم صبياً صغيراً، علَّمته إدراك الألوان. كنت أُلصق أوراقاً ملونة على بطاقة وأكتب الى جانبها اسم اللون بطريقة "بريل." وحاولت جاهدة التحدث اليه بالطريقة البصرية، كأن أحمله وأقول له: "هل ترى تلك الحافلة الحمراء الكبيرة؟"

لكن، ماذا كان رد فعل كلبتي دانا؟

فور عودتي مع أدام من المستشفى عرَّفتُ دانا الى العضو الجديد في عائلتنا. إلا أنها أشاحت بوجهها عن الرزمة المحتضنة ومكثت الى جانبي ملتصقة بي.

ومنذ تلك اللحظة درجت دانا على عادة جديدة، كانت تبقى على قيد أنملة مني مهما يكن العمل الذي أتولاه، ومن غير أن تلقي وإن نظرة خاطفة على أدام. وبعد أشهر صارت تهرّ بصوت أجش محذرة أدام كلما همَّ بالزحف نحوها. بيد أن عاطفة ما كانت تنمو بين الاثنين. فعندما كان الجيران يأخذون أدام لتناول الشاي عندهم كانت دانا تئن كلما سمعت صوته عبر الجدار الفاصل، ولا تتوقف عن الانين حتى يعود الى البيت.

وعندما أصيبت دانا بتصلب الكبد وتعين اعفاؤها من الخدمة، اقتنيت كلباً جديداً

اسمه مارتن، وهو هجين من فصيلتي "لابرادور" وكلاب الصيد الذهبية. وقيل لي إنه عاجيّ اللون. مررت يدي على رأسه المقبَّب وأذنيه الطويلتين الحريريتين وكتفيه القويتين، وأيقنت أنه أروع ما وجد من كلاب.

لكن القيمين على مركز تدريب الكلاب حذروني منه قائلين: "راقبيه. انه نشال!" وإذ كنا يوماً واقفين امام صندوق الدفع في متجر، شعرت بأن مارتن أحنى رأسه لحظة. وعندما خرجنا ووقفنا ننتظر الحافلة، هتفت امرأة في الحشد المنتظر: "مارتن يحمل كيساً بأسنانه!"

تظاهرت بأني لا أسمع تأوهات المنتظرين هناك، ولا عبارات مثل "أنظروا الى وجهه الطيب البريء." فانتزعت الكيس من فمه ومددت يدي داخله، فغاصت أصابعي في القشدة والمربى. وعلمت أن مارتن سرق كعكة محلاة.

سألت الناس المتحلقين حولي:

"ماذا أفعل به الآن؟"

فأجابوا بصوت واحد: "أطعميه الكعكة."

وهكذا أدخلت الكعكة الخبيص في فمه الذي بقي مفتوحاً.

وبعد ثلاثة أشهر اقتربت مني امرأة في الشارع وقالت لي ان مارتن أغار على كيسها في ذلك اليوم، وإنها عندما جلست لتناول غدائها الخالي من الكعكة سرها أن يكون مارتن هو من شاركها في الغداء.

كيف تقود أعمى؟

رزقنا في العام ١٩٧٧ طفلا آخر سميناه بنجامين. وفي السنة التالية جرني الفضول الى منزل منفرد قرب زاوية شارعنا معروض للبيع. كان مبنياً على جانب تلة شديدة الانحدار، وهناك سلّمان يقودان نزولا الى فنائه، وسلّم ثالثة الى حديقته. واذ لمس جيراني الطيبو النية إعجابي بالعقار، حذروني من أن المنزل غير ملائم اطلاقاً لامرأة عمياء لها ولدان صغيران.

لكن ذلك لم يزدني الا تصميماً. ولم أقوَ على مقاومة التحدي، أردت أن أسكن في هذا المنزل بالذات. وسرعان ما انتقلنا اليه.

وصف لي يان المشهد الرائع المطل من نافذة غرفة الجلوس على النهر المنساب متلألئاً تحت أشعة الشمس، ومعمل القطن المنتصب بكبرياء في الأفق، وبلدة بلبر المتمددة بكسل على التلال في الجانب الآخر من الوادي، والريف المترامي الى اليمين. فشعرت بانجذاب فوري الى هذه الأجواء المحبَّبة، وإن تكن غير مرئية بالنسبة الي.

وعندما بلغ ولدانا سن الدراسة أفدت من أوقات فراغي لحضور صفوف في الأدب

وعلم الآثار. كما تابعت إلقاء محاضرات عن نشاطات "جمعية تأمين الكلاب المرشدة للعميان" كنت بدأتها في العام ١٩٥٨.

وامتلأت مفكرتي بمواعيد المحاضرات في الجمعيات النسائية والنوادي الثقافية والمدارس في أرجاء دربيشاير. واذ يرافقني مارتن بتهذيب واحترام الى منصة الخطابة، كان يبدو مثالا رائعاً لمنجزات الجمعية.

وألِفني مارتن الى حد أني بت أدعوه "كلبي الآلي." كان "يقرأ أفكاري" فلا آمره الا بالقليل. ولكن حين بلغ عامه الثاني عشر تصلبت مفاصله وضعف سمعه. فأمنت له ما يستحقه من تقاعد مريح هانيء. كثيرون عرضوا ايواءه في منازلهم، لكننا قررنا ابقاءه معنا كي لا تنقص عائلتنا.

كان اسم الكلب البديل فكتور. وقيل لي انه يشبه الـ"لابرادور" لكنه كلب صيد ذهبي بنسبة ٧٥ في المئة. وكان جميلا، له صدر أبيض وعينان لطيفتان وعادة مربكة، فمتى سُرّ لرؤية أحدهم أمسك معصمه وجره الى الداخل.

في أيامه الأولى معي لم يتسم فكتور بأي صفة تقرِّبه من مفهوم الكلاب المرشدة. حاولت، وأنا ألقي المحاضرات، أن أبدو هادئة ويدي تمسك بقوة زمام هذا الصاخب الرقاص ابن العامين وهو يدمدم لحناً غير متناغم يحبه أكثر متى عض في فمه حذاء انتشله من شخص ما.

وعلى رغم مقاطعات فكتور نجحتُ في شرح ارشادات لتسهيل حياة العميان. فالناس غالباً يحجمون عن تقديم المساعدة لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون.

مثلا، عندما تقود كفيفاً على الرصيف، أبقِ يدك برفق على ذراعه كي يتحقق من أنك ما زلت معه لأن صوتك قد يضيع في غمرة الضجيج المحيق.

الاعمى الذي يود عبور شارع يفضل ألا يُمسك بمؤخر مرفقه ويُجر الى المجهول، كما يحدث أحياناً كثيرة. ولا يستحسن أن يُحمل ويُعبَر به، كما حدث لي يوم فاجأني سائق اسكوتلندي طيب القلب اذ أوقف شاحنته وحملني وعبر بي الى الرصيف المقابل. وهو ضحك كثيراً عندما أخبرته أني كنت واقفة أنتظر الحافلة.

دع الكفيف يتناول ذراعك بنفسه، ثم سِر أمامه مسافة ضئيلة كي يشعر بحركتك متى صعدت الى الطريق أو هبطت عنه.

وأهم من ذلك أن العميان لا يحبون أن يُعاملوا كأنهم طرشان أو مختلون عقلياً. فعندما كنت أعود الى البيت من المدرسة الداخلية، وأنا بعد في سن المراهقة، كنا نلتقي دائماً من يسأل حين يراني: "كيف هي؟"

وكانت أمي تعادلني حساسية لدى مخاطبتي على نحو غير مباشر، فتجيب السائل "لمَ لا تسألها هي؟"

وكان محتوماً أن يسألني أحد الحضور يوماً خلال احدى محاضراتي: "ما هو

شعورك حيال كونك لم تري ولديك أبداً؟" فأجبت إني أستشعر بحواسي الأخرى كل تفصيل في شكلي ولديّ، كما أدرك كل خصائصهما السلوكية.

ويبدو أن ولديّ، كما زوجي، لم يتضايقا أبداً من إعاقتي. وذات يوم فيما كان بن يمثل دور رائد فضاء في غرفة الجلوس، وأنا في المطبخ، أنبأني حدسي أن الأريكة باتت القمر وأن بن يمارس عليها السير القمري.

فناديته: "قم عن الأريكة!"

فأجاب: "أواه يا أماه، ليتك تبصرين."

فهزني شعور مروع وسألت نفسي: هل يشعر هذا الطفل المسكين بالحرمان لكوني عمياء؟

ثم تابع بن: "لا تعرف والدة صديقي متى نسير على الأريكة. ربما لأنها مبصرة."

على وشك الموت!

ليس عجيباً أن تكون امرأة عمياء زرية الملبس. لكني أحببت الثياب الجميلة، واهتممت كثيراً بالتبرج وفنون الماكياج. وحين بدأ معهد للتجميل عمله في بلبر، لم أنتظر دعوة ثانية لكي أحضر الجلسات الأسبوعية.

وخالج النساء الحاضرات شعور محسوس بأني في غير موضعي بينهن. ولكن



جودي تتامل بن.

سرعان ما كسبت ودهن وصداقتهن. ثم أخبرتني جماعة منهن أنهن ذاهبات الى دربي لحضور مؤتمر حول الشفاء بفعل الايمان، يستغرق أربع أمسيات. فانضممت اليهن، خصوصا لأن موضوع الشفاء يستحوذ على اهتمامي.

جلست في قاعة المؤتمر في المساء الأول، وكان يوم جمعة، أفكر في صديقة لي يعاني طفلها إعاقة بالغة ويلازمها حزن وحيرة. لم أفكر في طلب الشفاء لنفسي. وكنت في الماضي التمست العون من اختصاصيين كثر قالوا لي ان ليس في وسعهم مساعدتي.

وعلمت منهم أني أشكو من السُدّ[٢] ومن اضطرابات في عصبي العينين والشبكيتين. وتكيفت والعمى منذ وقت طويل.

مساء السبت اقتربت مني امرأتان غريبتان وقالتا لي إنهما واثقتان من إمكان استعادة بصري. ومساء الأحد والاثنين تجمهرت حولي صديقات ورحن يصلّين طالبات شفائي.

بدا كل ذلك رائعا أثناء المؤتمر. ولكن في اليوم التالي شعرت بأن صديقاتي يضحين بوقتهن من اجلي. وخشيت كذلك ان يُقال عني اني مهووسة. الا أن شيئا لم يثنِ صديقاتي عن الصلاة من أجلي.

وكانت حفلة العشاء في عيد ميلادي الثاني والخمسين في فبراير (شباط) ١٩٨٧ مناسبة مأسوية نجمت عنها نتائج بالغة الأثر. اخترت وبان مطعما أنيقا فيه ما لذ وطاب. ولكن ما ان تذوقت الطعام حتى شعرت بانحراف غريب في صحتي. ولمّا جيء بالحلوى كان وجهي ممتقعا وملتويا بغرابة. مما استوجب استدعاء سيارة اسعاف. وأذكر أني فكرت بهدوء بالغ في أني على وشك الموت.

وإثر فحوص أُجريت لي في قسم الحوادث بمشفى دربيشاير الملكي، طمأنني الطبيب الى أني غير مصابة بنوبة قلبية أو بسكتة دماغية. وأضاف ان بعض الناس يصابون بما أصابني اذا تناولوا وجبة ثقيلة بعد صيام طوال النهار.

ثم صعقني سؤاله: "متى أصبتِ بهذا الحَوَل؟" لقد نزعت عيني اليمنى دوما الى الانحراف نحو الزاوية، لكن تلك كانت المرة الاولى يقال لي إن هذا الأمر يدعى حَوَلا.

قلت لزوجي في طريق العودة الى المنزل: "سأعمد الى تقويم هذه العين."

الطبيب الاردني

نصحتني صديقة باستشارة الدكتور حسن سالم، وهو أردني اختصاصي بطب العيون، يقطن في دربي لكنه يقضي بضعة أشهر من كل سنة خارج البلاد. ولم يتسنَّ لي تحديد موعد معه قبل منتصف يوليو (تموز).

(٢) السُدّ (cataract) هو إعتام عدسة العين او ما تسميه العامة "الماء الازرق."

وحين دخلت عيادته قال لي من دون تردد إن تقويم الحول يتطلب عملية بسيطة. ثم تطرق الى موضوع إصابتي بالسُدّ.

بعد ذلك أجرى فحصاً شاملا لعيني. وشرح لي أن جراحة السُدّ تتطلب ازالة العدسة المعتمة وزرع عدسة بلاستيكية. وبعد وقت بدا لي دهراً سمعته يقول: "ثمة أجزاء سليمة في العصبين البصريين. إني على استعداد لإجراء الجراحة." ثم أخبرني أنه سيجري الجراحة الأولى لعيني اليسرى آخر الشهر، وأني سأمكث في المستشفى مدة أسبوع.

وأضاف: "ليس لديك ما تخسرينه."

ولكن هل هناك ما أربحه؟ وهل من أمل في استعادة بعض نظري؟ سؤالان تعذرت الاجابة عنهما قبل الجراحة.

عدتُ الى بلبر يغمرني ارتباك تام. فبعد أكثر من أربعين سنة من العيش في الظلام قيَّض الله لي من منحني بصيص أمل.

عينا مَنْ أُحب

أجرى الدكتور حسن سالم الجراحة لعيني اليسرى في مستشفى دربيشاير الملكي بعد ظهر يوم اثنين، واستغرقت ٤٥ دقيقة. وفي اليوم التالي حانت اللحظة المروعة التي طال انتظارها. دخلت علي ممرضتان قادتاني الى غرفة المعالجة. وهنا حُلَّت الضمادات عن عيني. فرفعت رأسي ببطء.

سألتني إحدى الممرضتين بتردد ظاهر: "ماذا ترين؟"

فأجبت: "خطاً افقياً ساطعاً." ثم أدرت رأسي يمنة وأضفت: "وثلاثة أضواء أخرى ساطعة، لكنها عمودية."

ولاحظتُ أن جوابي حيَّرها، وبدأ قلبي يخفق بعنف. ثم أدرت رأسي يسرة فرأيت شيئاً يسطع قبالتي. ولما مددت يدي مشيرة اليه أحسست الارتياح يعم الغرفة. لقد تبينت الابزيم الفضي على حزام الممرضة الاخرى. وفجأة اتضحت لي حقيقة هذه "الأضواء." فالضوء الأفقي كان الجزء الأعلى من اطار الباب، والأضواء الأخرى كانت ثلاث زجاجات على أحد الرفوف. في هذه المرحلة الباكرة من استعادة نظري كان أي لون خفيف يبدو لي فائق السطوع.

بعد ذلك مشينا الى غرفة استراحة تحلَّق فيها عدد من مرضى جناحي، وصحت بهم جميعاً: "إني أرى!" وفي غمرة حماستي أردت أن أقف على قمة جبل وأخبر العالم أجمع بواقعي الجديد.

ولساعات، لم أر شيئاً يمكنني تفسيره. بدت لي ملامح الناس في غير مواضعها، بانت العيون ماثلة في قمم الرؤوس. ولم أستطع تبيُّن الأنوف أبداً. ولكن مع تقدم النهار

بدأت أرى قضبان الستائر ومزيداً من الاشياء التي استدعت من يعرّفني بها.

وحين نظرت من النافذة أدركت أني نسيت وجود مصارف المياه على الجدران الخارجية للابنية. ولم أدرك أن تلك الأشياء المعدنية الطويلة الصقيلة هي سيارات. ثم، ما هو هذا الخط المستقيم الذي يعلو ويهبط فوق طبق الطعام كلما حاولت الأكل؟

فشرحت لي احدى الممرضات: "إنها سكينك."

وبعد الظهر سمعتُ وقع خطوات يان. كثيراً ما سمعتُ هذه الخطوات. لكنه، هذه المرة، اذ تقدم نحوي وأخذ يدي في يده، وجدتني أنظر اليه، الى زوجي، وأراه للمرة الاولى في حياتي. فلطالما رأيته بعين خيالي، بعينيه السوداوين وشعره الاسود، و"علمت" كيف يبدو. فلم أفاجأ الا حين وعيت أني أحدق الى عينيه. ولن أنسى لحظة تلاقت عيناي وعيني آخر للمرة الاولى وأنا بالغة. وأسعدني كثيراً أن تكونا عيني مَنْ أُحب.

وفي المساء جاء يان بولدينا أدام وبن اللذين عرفتهما لسنوات تعرف أم أولادها بتحسس كل تفصيل في مزاجهم واستباق كل رد فعل لهم. كان بن في العاشرة من عمره وأدام في الخامسة عشرة. وكان عليَّ استجماع كل هذه السنوات من انعدام الرؤية بين ذراعيّ فأدور معهما سريعاً كما في آلة زمنية، حتى أدركنا "الآن" ولحظة المشاهدة الاولى التي تأخذ بمجامع القلوب.

وعندما جاء الدكتور سالم لعيادتي شعرت أنه، حتى هو، دُهش لهذه النتيجة. قال: "صليت لك وأنا أُجري الجراحة. وشكرت الله بعد إتمامها. إني أفعل ذلك دائماً."

يوم السبت بعد الجراحة أخذني يان الى منزلنا. وكانت المسافة القصيرة الى بلبر بالنسبة الي رحلة سحرية عبر أرض مجهولة.

أدهشني أن أرى الخطوط العمودية الملتمعة في طريقنا، وأن أعلم أنها أعمدة الانارة وساريات التلغراف التي اعتبرتها لسنوات عقبات في طريقي. وسمرني الخط الأبيض وسط الطريق الذي راح يتراكض أمامنا محدداً وجهة السير وعابراً المنعطفات قبيل وصولنا اليها.

ولدى وصولنا الى البيت نسيت أن أتطلع حولي، بل انقدت الى أصوات وملموسات ألفتها: ممسحة الأرجل أمام الباب، والسجادة الناعمة في الداخل.

سمعت طقة مزلاج باب غرفة الجلوس وهو ينفتح، ثم رأيت مارتن وفكتور متلهفين لاستقبالي. كان فكتور يزعق ويتواثب جذلاً، فيما وقف مارتن جانباً ينتظر أن أمسد راسه. لقد علمتُ دوماً أن كلبيّ جميلان – كما أخبرني جميع من رآهما. لكن عيونهما الواثقة التي أرتني طريقي لسنوات اخترقت شغاف قلبي.

وبعد نصف ساعة وصل صحافي أراد أن يكتب مقالاً عن عودتي الى البيت. وهو وقف عند نافذة غرفة الجلوس يشيد بالمناظر الخلابة المطلة من هناك. ولم اكن مستعدة للصدمة التي أحدثها سؤاله: "هل ترين الأبواب الحمراء في مركز الاطفاء؟"

أنعمت النظر ولم أجب. فعلى مدى سنوات كونت صوراً شبه مرئية لكل ما هو حولي. لكني في تلك اللحظة لم أرَ سوى كتل ونتوءات مختلطة تتماثل ظلالا تراوح بين الأسود والأبيض والرمادي. وهنا أدركت أن هناك كثيراً أتعلمه عن النظر، وأن ما أراه بنظري الجديد لا يشبه ما يراه غيري. فأنا لم أكن أرى، حتى تلك اللحظة، إلا صوراً أحادية اللون. وكانت قدرتي على الرؤية لا تتعدى في أحسن الأحوال نسبة ٢٥ في المئة من البصر الطبيعي، وبعين واحدة.

بيد أني في تلك الليلة، حين أُضيئت أنوار الشوارع، نسيت أني لا استطيع رؤية أبواب مركز الاطفاء. ورحت أحدق الى عشرات الاضواء المتناثرة في الظلمة وهي تتلألأ بدءاً من أسفل نافذتنا صعوداً الى السماء. لم تكن تلك أضواء عادية، أنا خلتها خفيرات بواسل تحرس التلال بسيوف نارية ممتشقة.

شعرت في قرارتي بالذنب. فلماذا أُعطيت، أنا بالذات، هذه الهدية التي لا تصدق؟ أنا لست إنسانة مثالية. فطبعي نزق أحيانا، ولست شجاعة، بل أحجم حتى عن عبور حقل اذا ارتعت فيه أغنام. ولم يسعني سوى الاستنتاج أن ثمة أسئلة لن نجد لها أجوبة في هذه الفانية.

طرحت هذه الأفكار وبدأت اقتات بنهم من وليمة النظر. بدت لي أبسط الأشياء غاية في الروعة. أُعجبت بالفقاقيع المنبعثة من حوض الحمام، وخصل الوبر الحريرية في الفرش بعد تمشيط الكلاب. حتى قشور البطاطا سحرتني.

وذات صباح فيما كنت أتطلع من نافذة غرفة الجلوس رأيت في الخارج شيئا حياً يجري ويلتمع متكسرا مئات الأجزاء.

فناديت أحد ولديّ أسأله عن هذا الشيء.

فأجاب: "أوه، انه النهر فقط يا أماه."

النهر فقط؟ ليس هناك "فقط" بالنسبة الى نهر جاورته عشر سنين ولم تَرَه أبدا.

وعندما بدأت أذهب لوحدي إلى المتاجر أثارتني بهجة التسوُّق. فبدلا من السير في الممرات وتسمية الأغراض التي أبتغي شراءها لاحدى البائعات، بدأت أرى ما أريده. إذذاك اجتاحت كياني ثقة جديدة بالنفس. قد يبدو الأمر طفوليا بالنسبة الى من اعتاد هذا العمل. لكن عبور صناديق الدفع منفردة من دون صدم الناس بمقدم عربتي منحني شعوراً إنجازيا رائعا.

وأنا تلوح أمامي وجوه أُحب النظر اليها، أركز نظري محدقة، ومَن لم يفهم قصدي ظنني وقحة. حتى يان ارتبك كثيراً قبل أن يعتاد مراقبتي اياه. ولطالما شعرت به متوتراً وأنا أحدق اليه وهو يقود السيارة.

ولكم دهشت لدى لقاء أناس عرفتهم لسنوات وكوَّنت لكل منهم صورة واضحة في خيالي. وعندما التقيت فتاة تعمل في احد المحال واسمها سالي، عرفتها للحال من صوتها. لكني قلت لها من غير تفكير: "أنت لا تبدين هكذا! شعرك ليس أسود. لقد خلتك دوماً شقراء." فتلقت الفتاة كلامي بروح طيبة.

وكان أكثر ما أدهشني رد فعل صبي صغير في صف الموسيقى. لاحظت أنه ظل جالساً عندما دخلت غرفة الصف ودعوت التلامذة الى النهوض. فانتهرته. فنظر الي مشدوهاً. ان معلمته "العمياء" تراه.

ورحت أمتع نفسي بالجلوس ساعة بعد ساعة أتفرج من نافذة غرفة جلوسنا على المنازل المنتشرة قبالتي. وكثيراً ما كان الجيران يلوحون لي، كما علمت لاحقاً، لكني لم أستجب لأني لم أكن اراهم.

ويوماً بعد يوم أخذت أخترق حجاب الرؤية الأحادية المملة، وبدأت أرى الألوان. لكني طفقت أشكو لأسابيع من انعدام منظورية الأبعاد. وسألت يان مرة: "ما هو ذلك الشيء الابيض المرتفع في الهواء قرب المنزل المواجه. فتبين أنها الطريق التي مضيت لا أراها منبسطة حتى بعد ايضاح يان.

وكنت أرى الأشياء على نحو أفضل في بعض الأيام، ولا أراها جيداً في أيام أخرى، وفقاً لنوعية الضوء وحالي الجسدية أو الذهنية.

وذات صباح جاءني يان بفنجان شاي وبادرني من فوره: "أراك مرتعبة." وخانتني الألفاظ وأنا أخبره أني لا أرى المنازل عبر الشارع. فضحك، ثم أزاح الستائر، فلاحت السطوح والمدافىء والنوافذ والطريق التي استقامت في وضعها الصحيح.

لم أدرك حتى تلك اللحظة كم عنى لي بصري، وإن ناقصاً ومشوشاً، وكم خشيت فقدانه.

أحسست بالزيف وأنا أسير في الشارع الرئيسي ومعي كلب مرشد على رغم أني بت قادرة على قراءة أسماء المحال. بيد أني شعرت بالارتياح عندما زارني مدرب في مركز تدريب الكلاب في ليمنغتون وقال لي، بعدما لاحظ إجفالي لدى دخول شيء نطاق رؤيتي المحدود، إني لن أكون آمنة بين الحشود ووسط حركة المرور من دون كلب يرشدني.

وقدرت مدى ذكاء فكتور وحسن اهتمامه بي. فقبل إجراء الجراحة لاحظت أربعة أمكنة أَلِفَ فكتور أن يبطىء عندها أو يتوقف تماماً. وإذ لم يجد المبصرون لذلك تفسيراً، افترضت أن لفكتور أسبابه الخاصة.

لكني اكتشفت لاحقاً أن الرصيف غير مستو في مكانين حيث يمكن أن أتعثر. وفي المكانين الآخرين برك صغيرة موحلة تتكون إثر هطول الامطار. ولذا كان صديقي الوفي يتوقف لكي يتبين أفضل سبيل يتبعه تحاشياً لهذه العقبات.

رحلات الى الماضي

تطلعت بشوق ونفاد صبر الى اجراء الجراحة الثانية. فلطالما تمنيت وأنا طفلة أن أرى هطول المطر. أما الآن فبت أحدث نفسي قائلة: "أود رؤية القرميد على السطوح." وغدا ذلك هدفاً جديداً أتوق إلى تحقيقه.

وفي نوفمبر (تشرين الثاني) بعد أربعة أشهر من الجراحة الاولى، أجرى الدكتور حسن سالم الجراحة الثانية على عيني اليمنى. وحالما رُفعت الضمادات علمت أن الجراحة الثانية كان تستأهل العناء. اذ تبين بنتيجتها أن الحول قد زال وأن عيني تتحركان معاً للمرة الاولى في سنوات. وعلى رغم أني لم أرَ ضعفي ما كنت أراه سابقاً – اذ أن الرؤية بعيني اليمنى كانت أدنى درجة وأقل وضوحاً – الا أني رأيت قرميد السطوح. وبت، الى ذلك، قادرة على التمتع بالسفر.



ميلاد ١٩٨٧، العينان تبصران.

واجتذبت قضيتي وسائل الاعلام، ودعيت الى محطات الاذاعة والتلفزة لاجراء مقابلات. حتى أننا دعينا مرة الى حفلة في الحديقة الملكية حيث عبرت "ذات العيون الأربع" وزوجها أبواب قصر بكنغهام.

وارتحلنا الى امكنة لم أعرفها إلا سمعاً. ومنها كاتدرائية سالزبوري بعظمتها وجمالها، وحديقة الحيوان "لونغليت" (لم أتصور أن على المرء ان ينظر هذه المسافة البعيدة كي يرى عيني زرافة)، ورحلة مثيرة في عربة معلقة (تلفريك).

وكانت لي أيضا رحلات الى الماضي. فذهبنا الى بلاكبول حيث رأيت البرج الذي حاولت رؤيته في زيارتي السابقة مع أمي.

وكان حنيني الأشد الى معهد كورليوود حيث أمضيت معظم سنوات مراهقتي. وذهبت الى هناك. كان المختلى الظليل خلف المبنى ما زال قائماً، كذلك المقعد الذي جلست عليه يوم شعرت بدعوة الى مهنة التعليم قبل أكثر من ٣٠ عاماً.

يصعب على من تمتع دوماً بنظر صحيح أن يبدي امتناناً لما أمتلكه الآن.

كثير من الأمور الدُنيوية يثير فيَّ أعمق العواطف. فذات مساء نبش يان مجموعة من صور العائلة. وفيما رحت أنظر اليها بدأ يشوب اعجابي رعب من صور امرأة لم اعرفها. وإذ تكررت صورها، ومعها كلب أحياناً، لم يبق شك في أن الماثلة أمامي هي أنا.

انغمست في هذه التجربة الجديدة أشارك عائلتي في عرض صور تبعث ذكريات شبه منسية. وبدا غريباً أن أرى أدام يعتلي دراجته البلاستيكية التي طالما حملتها الى الحديقة.

وعندما نظرت الى رأس أدام الذي بدا، وهو بعد في السادسة، حكيماً ومهيباً، اغرورقت عيناي. وفي اللحظة التالية وضع أدام في يدي صورة تظهرني في تسريحة عجيبة مروعة، فتبدلت سحنتي وحل الضحك مكان الدموع.

يحدوني الأمل، وانا أتطلع الى المستقبل، أن أواصل محاضراتي عن "جمعية تأمين الكلاب المرشدة للعميان" وإرساء مفهوم أن المعاقين بشر لهم عواطف طبيعية ويتوقون الى عيش الحياة على نحو خصب ومنتج ما امكنهم ذلك.

ويبقى التدريس، بعد عائلتي، موضع اهتمامي وحبي الاكبرين. فأتطلع بشوق الى حصص الموسيقى في سانت اندروز، وهي مدرسة محلية للأولاد الذين يعانون مشاكل تربوية. ولا أنظر الى تلامذتي على انهم معاقون عقلياً. فهم مجرد أطفال، مثل أولادي.

وما زلت أحتفظ بكلبيّ الامينين: مارتن الذي بات في السادسة عشرة من عمره وفكتور الذي غدا في السادسة. وهما يذكرانني بسنواتي التي قضيتها في الظلام. وأسأل نفسي أحياناً ألا أشعر بمرارة لأن النور لم يدخل حياتي قبلاً. فيتردد الجواب: لا.

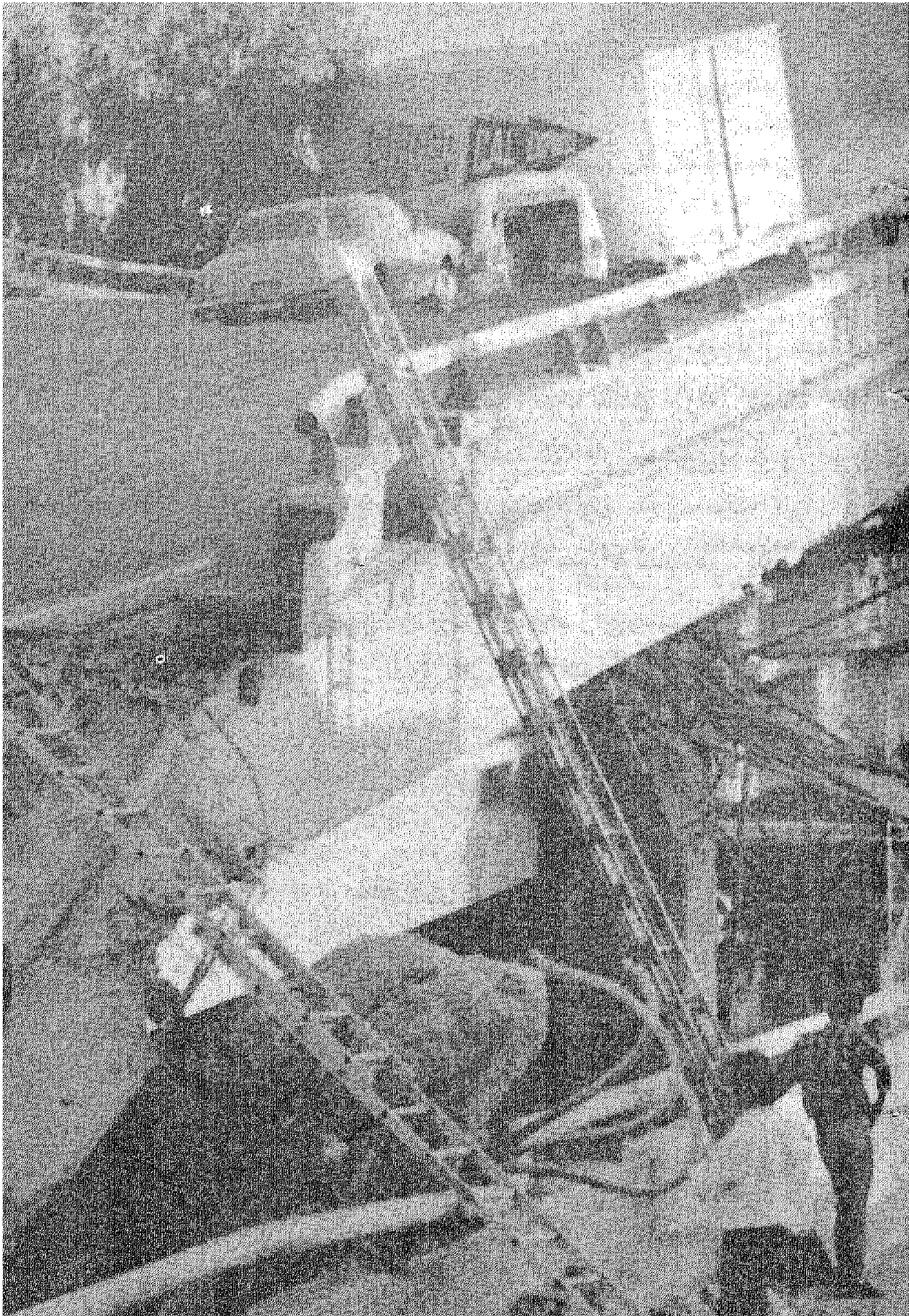
لا تنظروا الى إعاقة كالعمى على أنها مأساة تلفّ المعاق.

فالظلام الذي لفني لم يكن سيئاً بمقدار ما يتصوره الناس. فلولاه لما تمتعت بفرح الرؤية التي طالعتني في حياتي الراشدة. رؤية الجبال البعيدة والندى المستقر على خيوط العنكبوت وحقول الذرة المتألقة تحت شمس الغروب وعشرات الأشياء الرائعة الماثلة لعينين نهمتين متفتحتين كعيني طفل.

جودي تايلور ■

ترجمة فريد شديد





الزلزال

في ١٧ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٩ ضرب شمال كاليفورنيا زلزال عنيف رصد موقعه في صدع على عمق ١٨ كيلومتراً تحت سطح الارض. فخلّف ٦٣ قتيلا و٣٧٠٠ جريح وأحدث أضراراً في الممتلكات قدرت بمليارات الدولارات وشرّد ألوفاً تهدمت منازلهم وباتوا من دون مأوى.

لفّت غلالة قاتمة من الحزن واليأس مدينة سان فرنسيسكو، تلك الدرّة المتلألئة على الشاطىء الغربي للولايات المتحدة. وتبيّن أن الكارثة البشرية الكبرى وقعت في أوكلاند، الى الشرق عبر خليج سان فرنسيسكو، حيث انهار جزء زاد طوله على ١٦٠٠ متر من جسر عملاق ذي طبقتين. وحصل الانهيار في أوج زحمة السير، فأغرق المكان في جحيم من الهول لم يشهد نظيره تاريخ الكوارث في أمريكا.

وتحولت "نيميتز فريواي" كابوساً رهيباً من الرعب والموت والدمار وتجلّت فيها البطولة في ذروة روعتها وعطائها.

الثلثاء ١٧ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٩، الساعة ٥،٠٤ بعد الظهر.

منذ ١٤ سنة يجوب جون ديفريتاس طرق كاليفورنيا الرئيسية في شاحنة قاطرة، ولم يقع له حادث. وهو قطع ما يزيد على مليون ونصف مليون كيلومتر من دون أن ينظم في حقه محضر مخالفة لقانون السير.

ديفريتاس في الاربعين، وهو من جزيرة أروبا الهولندية الصغيرة في البحر الكاريبي. عيناه يقظتان وله لحية عارمة وخطّها الشيب. انه يحب قضاء أوقات طويلة

مع زوجته وأولاده، ويحلو له صنع المجوهرات الغنية بالالوان وعزف الموسيقى الشعبية.

في هذا النهار كان ديفريتاس متجهاً جنوباً في شاحنته على الطبقة العليا من "نيميتز فريواي"[1] وهي طريق قديمة ضخمة تصل جسر "باي بريدج"[2] بين سان فرنسيسكو وأوكلاند بعدة طرق رئيسية توصل الى المجمّعات السكنية الكثيفة جنوب أوكلاند وشرقها. فالطبقة العليا من الطريق خاصة بالسيارات المتجهة جنوباً، بينما تسلك الطبقة الدنيا السيارات المتجهة شمالا والى جسر "باي بريدج."

تحت هاتين الطبقتين تتقاطع الشوارع في غرب أوكلاند، أفقر الاقاليم في منطقة الخليج. ولاكثر من ثلاثة عقود كان المتنقلون يومياً في سياراتهم ينظرون الى أسفل حيث الشوارع الفقيرة، وكان سكان هذه الشوارع يتطلعون الى أعلى ليشاهدوا السيارات اللماعة تئز منطلقة فوقهم. ونادراً ما تلاقى شعبا هذين العالمين المتباينين.

في الخامسة عند الاصيل كانت طريق نيميتز مكتظة، كالعادة، بالسيارات والشاحنات. وكان ديفريتاس بين ألوف المتنقلين يومياً عائداً الى منزله لمشاهدة مباراة متلفزة في البايسبول (كرة القاعدة) بين فريق أوكلاند (وهو من أنصاره) وفريق سان فرنسيسكو "جاينتس." وكانت تلك المرة الاولى في تاريخ لعبة البايسبول يتقابل الفريقان متنافسين على بطولة العالم. وكان ديفريتاس متأخراً قليلا والمباراة على وشك أن تبدأ.

شهد ديفريتاس خلال قيادته الشاحنات حوادث اصطدام وجنوح مخيفة على الطرق الرئيسية صيَّرته حذراً حريصاً، حتى انه وضع خطة خاصة به في حال تجاوز شاحنته حاجز الجسر واندفاعها محلّقة في الفراغ. وكان يستحضر هذا المنظر الخيالي مراراً وهو يقود شاحنته على طرق كاليفورنيا. والآن، فيما هو يقترب بشاحنته من طريق نيميتز بسرعة ٩٠ كيلومتراً في الساعة، سمع عبر جهازه اللاسلكي صوت سائق يعرفه يعمل على بعد ٦٥ كيلومتراً جنوباً، قرب مدينة سان هوزيه يهتف: "إننا نتعرض لهزة أرضية قوية."

وردّ سائق آخر: "ليس الأمر مزاحاً."

في تلك اللحظة رأى ديفريتاس مشهداً مذهلا، اذ راح الاسفلت أمامه يتموج كأفعى ضخمة سوداء، ثم بدأ يتساقط عليه كأمواج بحر ثائرة زاد ارتفاعها على متر.

تطايرت السيارات في كل اتجاه كلعب مترنحة على سكة حديد للاطفال. واختفى بعضها عندما انشقت الطريق وابتلعتها، فيما انطلقت أخرى كصواريخ في الهواء

---

(١) Nimitz Freeway والـ"فريواي" طريق رئيسية.

(٢) Bay Bridge

وسقطت الى جانب الطريق. وما ان ضغط ديفريتاس دواسة الكابح حتى عبرت "موجة" الاسفلت الاولى تحت شاحنته فرفعت مقدمها في الهواء، ثم مالت الطريق نحو ٣٠ درجة الى يساره وعجز عن السيطرة على عجلة القيادة وابقاء شاحنته على الطريق.

وما هي الا ثوان حتى رأى ديفريتاس نفسه مندفعاً مباشرة الى حافة الطريق. وتواثبت الشاحنة فوق الاسفلت المتكسر واصطدمت بالحاجز واخترقته. في تلك اللحظة نفَّذ الخطة التي أعدها لمثل هذه الحال الطارئة والتي لم يتوقع اللجوء اليها يوماً. في لمح البصر فكّ عنه حزام المقعد وارتمى على ظهره في أرض الشاحنة تحت عجلة القيادة وستر وجهه بيده اليمنى فيما اولج اليسرى تحت المقعد وأمسك بالنوابض للثبات.

في هذا الوضع أحس ديفريتاس بالشاحنة القاطرة تحطم حاجز الطريق وتندفع محلقة في الهواء. فتنبه الى حمولة مادة مرقِّق الدهان السريعة الالتهاب التي كان ينقلها، وأدرك أن شاحنته قنبلة مندفعة على علو ١٥ متراً وستنفجر لدى سقوطها. فأغمض عينيه وهتف: "ساعدني يا رب! ساعدني يا رب!"

زوجة موؤودة

كانت دوروثي فرانز أوتو عائدة الى منزلها في اقليم مارين في الجهة المقابلة من الخليج، متجهة في سيارتها شمالا عبر الطبقة السفلى من طريق نيميتز. اتصلت بزوجها عبر هاتف سيارتها لتعلمه أنها في طريقها الى المنزل. وكانت أوتو جدة في الثالثة والاربعين، وقد اقتحمت عالم الاعمال وتغلبت على مصاعبه ونجحت كبائعة متفوقة ومكافحة شرسة تنعشها المنافسة أينما وجدتها. وهي اتسمت بالمرح والحيوية، واستهوتها صفقات البيع وشحذت همتها ونشاطها منذ حداثتها في غرب بنسلفانيا. وكان سبب تأخرها في العودة الى المنزل، كما ابلغت الى زوجها، هو اتمامها صفقة بيع اضافية بعد دوام العمل.

لم يكن هناك ما يبطيء دوروثي عادة. ولكن هذه المرة أوقفها سقوط دعامة من الاسمنت على سيارتها تزن ٢٠٠ طن، وهي واحدة من عشرات الدعائم التي سقطت من الطبقة العليا على السيارات في الطبقة السفلى. وكانت هذه الدعائم تسند ١٢٨ جزءاً من الطريق ويزن كل جزء ٦٠٠ طن. والدعامة التي سقطت متعارضة على سيارة أوتو سحقت المقدم ومعه المحرك حتى الحاجب الزجاجي، فتحول للحال كتلة متمعجة من الحديد لا تتعدى سماكتها ١٠ سنتيمترات.

لكن دوروثي أوتو نجت بأعجوبة من موت محقق على بعد بضعة سنتيمرات. الا ان

حظها ابى الا أن يتعثر، فقد طمرتها شرائح اسمنت انهالت حولها بكثافة ففجرت اطارات السيارة وخزان الوقود.

رأت دوروثي نفسها دفينة بين الركام تحوطها ظلمة يمتزج بها دخان. فاتجه فكرها الى زوجها. فتناولت قصاصة ورق كتبت له فيها رسالة تنبئه أنها نجت من الكارثة لكنها تخشى احتراق السيارة لأنها مبللة بالوقود والدخان يتصاعد منها.

اكتنفت الظلمة دوروثي وأطبق عليها سكون قاتل، وحبس عنها الركام صراخ الرعب والالم وأنين المصابين. وداخلها أنها ستموت حتى وان تمكن رجال الانقاذ من الوصول اليها، لانها كانت "معلّبة" باحكام في سيارتها بحيث يتعذر سحبها بسهولة. وهي أرادت أن يعلم زوجها جاك أنها تحبه. وبعد أسابيع عثر على الرسالة ملطخة بالدم.

في منزل آل أوتوفي سان رافاييل اطمأن جاك الى أن دوروثي لن تصل قبل ساعة، فجلس لمشاهدة التلفاز والاستماع الى أخبار الخامسة بعد الظهر. وعند وقوع الهزة كاد عنفها يقذفه عن الأريكة. فتمالك ذاته وقوّم الاضرار الطفيفة التي لحقت بالمنزل وحسب نفسه محظوظاً لعدم انقطاع التيار الكهربائي.

وفيما هدأ روعه بدأت الاخبار تتوالى على التلفاز. فراح يقدّر موقع دوروثي في الساعة ٥،٠٤ استناداً الى الوقت والمكان اللذين اتصلت منهما. وعرف أنها ستسلك طريق نيميتز شمالا على الطبقة السفلى التي تحولت مسرحاً داميا لفاجعة رهيبة.

قدَّر جاك أن زوجته هي حيث عرض التلفاز في نشرة الأخبار مشهد الدخان الاسود يتصاعد من جانبي طريق نيميتز المدمرة. فاذا كانت دوروثي هناك فمن المستحيل بقاؤها حية.

ثوانٍ في الجحيم

في عمق جبال سانتا كروز الباعدة ١٠٠ كيلومتر من جنوب سان فرنسيسكو، تفجرت أحشاء الارض في جوار مستوطنة صغيرة تدعى "بوني دون." فعلى عمق ١٨ كيلومتراً تحت سطح الارض، بالقرب من قمة لوما بريتا، رُصد احتكاك لوحين تكتونيَّين[٣] متقابلين على جهتي صدع سان أندرياس،[٤] بحيث "تطاحنا" مسافة مترين أفقياً ومتر عمودياً. فانطلقت هزة أولية استمرت ١٥ ثانية وأطلقت فيضاً عارماً من الطاقة الهائلة يعادل ٥٠٠ ألف طن من المواد الشديدة الانفجار.

---

(٣) Geotectonic plates . والتكتونية هي عملية التشويه التي تغير شكل قشرة الارض محدثة القارات والجبال وسواها.

(٤) San Andreas Fault


سحقت هذه السيارة عندما سقط جزء من الطريق.

وماجت أحشاء الارض كفراش مائي عملاق، واهتزت قشرتها بعنف رهيب. وعلى سطح الارض فوق بؤرة الزلزال اقتُلعت أشجار السيكويا الحمراء العملاقة وتقاذفتها الهزة صعوداً ونزولا كأنها وحوش ضخمة تتراقص في الهواء. وظهرت شقوق وفجوات فاغرة كأشداق الضواري يزيد عمقها على مترين.

امتد الزلزال شعاعياً في دوائر كالتي تنداح على صفحة الماء حين تُرمى بحجر، وفي سرعة تقارب ٢٠ ألف كيلومتر في الساعة. واجتاحت هذه القوة الراعدة البلدات والمدن المجاورة، فدُمّر الوسط التاريخي من مدينة سانتا كروز وانهارت المنازل في المنطقة وانتُزعت ألوف المداخن كأن يد جبار اقتلعتها. ونزلت أفدح الأضرار بمدن مثل لوس غاتوس ودافنبورت وأبتوس وواتسونفيل حيث أصبح ألوف السكان بلا مأوى.

واجتاح الزلزال الذي بلغت سرعته ستة كيلومترات في الثانية ملعب "كاندلستيك

PHOTO: © CHUCK NACKE / PICTURE GROUP

بارك" حيث احتشد ٦٠ ألف متفرج لمشاهدة المباراة الاولى في سلسلة المباريات السبع لنهائيات البايسبول العالمية.

وما هي الا ثوان حتى كان امتد الزلزال الى سان فرنسيسكو فدمّر منطقة "مارينا." وكانت أبنية كثيرة في تلك الواجهة البحرية مبنية على قواعد من الردم، فتحول هذا الردم مادة شبيهة بالهلام. لا تدعم شيئاً. ويدعو الجيولوجيون هذه الظاهرة "تميُّعا" اذ تتحول مواد الردم - رمل ووحل وحطام ممزوجة بالماء المتسرب - عصيدةً تشبه الرمل المتحرك. ولو وُضعت هذه المواد في خفّاقة مطبخ لأعطت النتيجة ذاتها. لذا انهارت مئات المنازل الفخمة اذ تحولت أساساتها وحلاً مائعاً.

واندلعت الحرائق في أماكن عدة من المدينة، وأكبرها حريق هائل شب في احدى مجموعات الابنية المتلاصقة في منطقة "مارينا." ذلك الحريق الذي غذته أنابيب الغاز المكسورة، عرض لساعات على شاشات التلفزة وأعطى انطباعاً خاطئاً أن قسماً كبيراً من سان فرنسيسكو ذهب طعاماً للنيران.

وتمايلت ناطحات السحاب العصرية في الوسط المالي بسان فرنسيسكو كالقصب في مهب الريح. وهي ربما كانت الابنية الاكثر أماناً ضد الزلازل في العالم كله. وانهمر حطام الزجاج وتناثر في الشوارع التجارية تحتها. وطغا على سكان هذه البنايات العملاقة المترنحة، وهم يتطلعون الى الخارج، خوف من ارتطام الواحدة بالاخرى المجاورة لها، ومن انهيارها على الارض بمن فيها.

وتتابعت التموجات العنيفة، فضربت ركائز جسر "غولدن غيت" الشهير فتمايل المعبر العظيم. وعندما هدأت الهزات شاهد سائقو السيارات من بعد سحب الدخان والغبار متصاعدة في سماء سان فرنسيسكو الغارقة في عتمة قاتمة.

وبعد دقائق شُعر بالهزة في لوس انجلس جنوباً ونيفادا شرقاً وأوريغون شمالاً. وبعد جمع المعلومات حدد العلماء قوة الزلزال بـ٧،١ درجات في مقياس ريشتر،[٥] وأطلق عليه اسم "لوما بريتا" نسبة الى المكان الواقع مباشرة فوق بؤرة انطلاقه. وتبيّن أنه الاقوى الذي ضرب منطقة رئيسية في الولايات المتحدة منذ الزلزال الذي دمّر سان فرنسيسكو عام ١٩٠٦ وكان أقوى كثيراً من زلزال ١٩٨٩.

لكن أفدح الاضرار وقع في شرق سان فرنسيسكو. فعلى جسر "باي بريدج" تطايرت السيارات كلعب في الهواء حين عصفت الهزة بالمداميك وانفصمت الصوامل في أحد أقسام الجسر مما أدى الى سقوط الطبقة العليا على الطبقة السفلى. وقتلت

(٥) مقياس ريشتر نظام يسجل قوة الزلازل متدرجة من صفر الى ٨،٩ درجات. وكل زيادة من درجة واحدة تعني زيادة قوة الزلزال عشرة اضعاف.

سائقة قُذفت سيارتها خارج الطريق من علو ١٥ متراً وتحطمت في الاسفل.

ووقعت "المجزرة" الكبرى بعد "باي بريدج" مباشرة حيث سوّى الزلزال بالأرض قسماً من طريق نيميتز الثنائية على امتداد كيلومترين، مما أدى الى مصرع ٤٢ شخصاً من أصل ٦٣ كانوا حصيلة قتلى الزلزال.

ولكن، اذا تجاوزنا الاحصاءات والكارثة البشرية المهولة، فسيذهلنا ما أبداه سكان هذه المنطقة البحرية الموبوءة بالجريمة والبطالة والمخدرات، من بطولة رائعة قل نظيرها.

أبطال الشوارع

أطبق شطرا طريق نيميتز باحكام هائل، كأنهما شطيرة (ساندويش) ضخمة. فسحقتا كل ما كان بينهما وتحولتا نعشا محكم الاقفال. فتفجر الوقود في خزانات السيارات والشاحنات فاشتعلت، واحترقت العجلات المطاطية. وتسرب الدخان الاسود الكثيف من جوانب "الناووس" الهائل. وكان أفظع ما طالع أول الواصلين الى مكان الكارثة منظر الدم ينساب من بين شطري الطريق المنهارة.

لحظة وقوع الكارثة كان إميليو لوبيز (٢٨ عاماً) وهو منجد أثاث، في منزل والدته القريب من طريق نيميتز. وبدا له أن العالم كله أنهار حوله في لحظة خاطفة. والتجأ وليم ماكلروي (٥٢ عاماً) وهو صانع مراجل، الى منزله القريب لدى مشاهدته طريق نيميتز تتداعى وتنهار. واذ انجلى غبار الاسمنت وحلت سحب الدخان الاسود، هرع لوبيز وماكلروي الى الموقع مع أصحاب مروءة كثيرين من القاطنين في الشوارع القريبة، وشكلوا فرق انقاذ فوري. قال لوبيز: "كان هؤلاء الضحايا في حاجة ماسة الى مساعدة فورية. ولم يكن هناك سوانا لأداء هذا الواجب. فعملنا أقصى ما قدرنا عليه."

وفي بعض الاماكن على طريق نيميتز انطبق الشطران ثم انهارا معا متحطمين على الشوارع تحتهما. وفي مواقع أخرى شوهد شطر من الطبقة العليا مرتكزاً على الطبقة السفلى ومعلقاً على ارتفاع ثمانية أمتار في الهواء. وشوهد أيضاً قسم من الطبقة العليا منهاراً على الطبقة السفلى ومائلا بزاوية ٤٥ درجة.

ولم يؤهل التدريب على مكافحة الكوارث أحداً لمواجهة هذا الكابوس المرعب الذي اجتاح شوارع أوكلاند.

وبعد استقرار كتل الصلب والاسمنت الضخمة وتوقفها عن السقوط خف لوبيز وماكلروي وكثيرون غيرهم الى العمل. ولم تتسنَّ لهم معرفة عدد المترجحين بين الموت والحياة تحت أنقاض الهيكل المتهدم الذي ظلّل جوارهم لثلاثة عقود. ولكن

تناهى اليهم صراخ الألم والاستغاثة وحشرجة المحتضرين التي تقطع نياط القلوب، من المدفن الهائل المغلّف بالاسمنت.

وعلى امتداد الطريق ارتفعت ألسنة النار وسحب الدخان الاسود من غابة قضبان الصلب الملتوية كعيدان المعكرونة والناتئة في كل الاتجاهات. وخرج بعض المحظوظين الناجين من سياراتهم في الطبقة العليا الى حافة الطريق صارخين طالبين النجدة. وحاول بعضهم الهبوط على قضبان الصلب المثلّمة الملتوية، فيما علق آخرون في شرك لا نجاة لهم منه الا بالقفز الى الارض من علو ١٥ متراً.

كان من الواضح للمنقذين وللضحايا أن الهيكل قد ينهار الى الارض في أي لحظة. وما هي دقائق حتى رُفعت السلالم واستُحضرت معدات الرفع والقطع والتحريك والرافعات الضخمة القوية والحبال للوصول الى أعلى، وانزال المصابين الى الأرض.

كان المنقذون الذين تسلقوا الهيكل المتهدم رجالا عاديين يقطنون في المنازل المجاورة ويفتقرون الى الخبرة والتدريب على الانقاذ. وكان اعتمادهم كليا على بداهتم ونباهتم وحسن ادراكهم التي كانت لهم في هذه المرحلة الاولى العصيبة خير بديل. وهم استعانوا بالمطارق والمقاطع والعتلات ورافعات السيارات وخلّصوا كثيرين من تحت الركام. فكانوا يجتنبون ألسنة اللهب والفجوات الخطرة ويأتون بالمصابين الذاهلين الى حافة الطريق حيث يتلقاهم آخرون وينزلونهم الى الارض. وفي بعض الحالات كانوا ينزلون الجرحى بالحبال. وهم استعانوا بأخشاب من مخزن مجاور لفتح أبواب السيارات وسحب المحتجزين فيها، وهدأوا من روعهم وقدموا اليهم الاسعافات الاولية.

وظل الهيكل يئن على امتداد كيلومترين فيما تابع هؤلاء المنقذون، أبناء الشوارع، عملهم البطولي بعزيمة لا تعرف الكلل. وكانت كل حركة منهم للوصول الى ضحية وانتشالها، تحمل خطراً داهماً. ولم يغب عن بال معظمهم أن البناء قد يكمل انهياره ويدفنهم تحت أنقاضه. لكنهم آثروا تجاهل هذه الفاجعة المحتملة.

وفي حالات عجزهم عن بلوغ المصابين بجروح قاتلة وانقاذهم، شفعوا جهودهم بمؤاساتهم واقتباس كلمات مشجعة عن الحياة وحتمية الموت. وغابت الفوارق الواسعة بينهم في الثروة والجاه والمقام، وحل مكانها قاسم إنساني مشترك.

وفي مجال الشجاعة والعطف، لم يكن في عداد من توافدوا لاحقاً للانقاذ من برّ هؤلاء المتطوعين الذين كانوا أول الواصلين الى مسرح الكارثة.

لم يتوقفوا عن المساعدة ساعة وصول الاطفائيين المحترفين والمسعفين الطبيين. قال الملازم الأول جون أيرونسايد أحد رجال الاطفاء الاوائل الذين وصلوا الى نيميتز فريواي: "كان هناك جيش من الناس يقوم بكل الاعمال اللازمة. ولما بدأنا عملنا

تنحوا ووقفوا جانباً في حال جهوز لتلبية الاوامر، كازالة كتل الاسمنت الضخمة ورفع المصابين من سلال الانقاذ وانزالهم الى الارض."

وأضاف الملازم الأول روبرت برامانتي: "بصراحة، لا أرى كيف كنا سننجح لولا هؤلاء المتطوعون. ولن يعرف أحد عدد الناس الذين أنقذوهم."

حيث لا يجرؤ الآخرون!

مارتي كودي (٣٠ عاماً) مسعفة طبية مرحة ذات شعر فاحم وعينين سوداوين ثاقبتين. طولها ١٦٠ سنتيمتراً ووزنها ٥٠ كيلوغراماً، وتتميز بقدرتها على الزحف الى الفجوات الضيقة الصغيرة وسط الركام حيث تبقى مع المحتجزين، تعتني بهم وترعاهم الى أن تتاح سبل لانتشالهم وانقاذهم. وتتمتع كودي ببنية قوية، وهي مدرّبة تدريبا حسناً. وخلال أربع سنوات من عملها مسعفة طبية استحقت احترام زملائها في هيئة "الاسعاف المتحد" في أوكلاند.

يقول رئيسها بروس هاغن: "انها تتمتع بشخصية قوية شجاعة، ويمكننا الاعتماد عليها في كل الاوقات."

كانت مارتي من أوائل المسعفين الطبيين الذين وصلوا الى مكان الكارثة. وعملت في الساعة الاولى على انتشال ضحايا من أماكن صعبة، متمعّجة الى أماكن يعجز سواها عن الوصول اليها. وكانت باكورة نشاطها التسلّق الى حافلة كانت تنقل ثماني نساء عائدات من عملهن في المركز الطبي بجامعة كاليفورنيا في سان فرنسيسكو، وكانت خمس منهن فارقن الحياة لدى وصولها. لكن المنقذين الذين تبعوها استطاعوا نقل الثلاث الباقيات الى عربات الاسعاف.

ثم دعاها هاغن الى مهمة بالغة الصعوبة في عمق أحد المواقع المنهارة والمسوّاة بالارض. فربما أمكن انتشال مصاب من سيارته المسحوقة اذا أمكن انتزاع عجلة القيادة. استلقت مارتي على ظهرها وأخذت تنشر عجلة القيادة بمنشار معدني. ولم تكن هناك فسحة للمنشار، فأمسكت الشفرة بأناملها وراحت تحزّ. واستهلكت أربع شفرات قبل أن تنشر العجلة وتحرر الرجل.

ولم تأخذ دقيقة راحة واحدة، بل عكفت على استكشاف الدمار والحطام بحثاً عن أحياء. فأقحمت جسدها بين كتلتي اسمنت تشعبت منهما قضبان مثلّمة من الصلب، وانزلقت كأفعى على بطنها الى عالم مغلق يسوده هدوء مريب ولا يسمع فيه سوى موسيقى راديو أو صوت منبّه لباب مفتوح في سيارة مطمورة. ومن حين الى آخر كان ضوء جانبي يومض منيراً ظلمة الفجوة. وتعين على مارتي التمعّج والتلوي في أماكن لا يزيد ارتفاعها على ٣٠ سنتيمتراً مما اضطرها الى نزع خوذتها الواقية.

في هذا المدفن الاسمنتي الرهيب شاهدت مارتي مناظر فاجعة غابت عنها خلال عملها كمسعفة طبية في شوارع أوكلاند: فهنا برك من الدم القاني، وهناك نتف من أجساد ممزقة. وعلى رغم قساوة تلك المشاهد لم تهن عزيمتها. وهي تقول: "كنت مدفوعة بحقيقة وجود أناس أحياء هناك. أحسست ذلك في أعماق قلبي وروحي، وعرفت أنهم هناك. فثابرنا، وتسنى لنا العثور عليهم."

كان الخطر جاثماً فوق مارتي والعاملين معها داخل الهيكل المتهدم. فقد كانت هزة لاحقة خفيفة كافية لانهيار ما بقي منه واقفا، فيدفعهم جميعاً في أحشائه.

وحدثت فعلا هزة خفيفة في الساعة ٥،٤١ بعد ٣٧ دقيقة من الهزة الكبرى، وبلغت قوتها ٥،٢ درجات بمقياس ريشتر. فاهتزت لها طريق نيميتز من أقصاها الى أقصاها

عملت مارتي من دون توقف حتى ساعة متقدمة من الليل، يحفزها أمل وطيد بالعثور على أحياء آخرين. وهي تقول: "كلما توقف الصراخ والأنين خيم سكون شامل. وأصعب ما عانيناه اضطرارنا الى تجاوز الميؤوس منهم والبحث عن آخرين يحتاجون الى مساعدتنا."

وكانت مارتي تخرج من سراديب الدمار وتدل رجال الانقاذ على محتجزين داخل سياراتهم، فيتوجه المسعفون الطبيون الى حيث تمكنهم المساعدة. وغالباً ما انسلّت الى حيث تنتشل ضحايا، فتتلوى وتزحف كالحية الى الفجوات حيث تكشف مزيداً من الضحايا تحت الركام وقد برز منها رسغ أو قدم أو ساعد.

ولم يكن سهلا ارسالها الى بيتها لكي تنام. اذ ما كادت تغفو حتى رأت في حلم أنها غفلت عن ولد بين الركام. فنهضت وعادت الى العمل.

بدا دور مارتي كود في ساعات الانقاذ الاولى نموذجا للتفاني والتضحية اللذين أبداهما كثيرون من المسعفين الطبيين والاطفائيين ورجال الشرطة والمتطوعين. وقد اشترك في عمليات الانقاذ أكثر من ألف شخص. ومنهم من خاطر بحياته لمساعدة الآخرين. وهم بذلوا في جبه هذا التحدي أقصى طاقاتهم، من مهارات جسدية وكبت للعواطف والانفعالات وعبقرية انسانية مبدعة.

أما الحادث المثير الذي خطف انتباه العالم فكان انقاذ الطفل هوليو بيرومن (٦ أعوام) الذي احتجز داخل سيارة عائلته سبع ساعات. وكان عالقاً تحت جثة امرأة ميتة، وقد اضطر الدكتور جايمس بيتس، وهو جراح اطفال، الى بتر ساق هوليو تحت الركبة لتمكين رجال الاطفاء من انتشاله.

قفزت الشاحنة – القاطرة من الطبقة العليا لطريق نيميتز، وجون ديفريتاس داخلها ينتظر الموت... الذي لم يأت. ويقول: "أثناء هبوطي ساورتني أفكار ضاغطة شتى،



(فوق) جون ديفريتاس.
(الى اليسار) الشاحنة
التي كان يقودها
بعد سقوطها ١٥ متراً.

لكني استسلمت لمشيئة الله اذ كنت عاجزاً عن عمل أي شيء الا الصلاة والانتظار."

بعد السقوط خيم الهدوء على كل شيء. ويتابع جون: "شعرت بألم هائل في ظهري، لكني استطعت تحريك يديّ ورجليّ. وكانت قمرة الشاحنة مستوية، وشممت رائحة وقود فتساءلت: هل شاحنتي تحترق؟"

نهض جون من أرضية القمرة ومد رأسه من النافذة مستطلعا. فوجد أن الشاحنة سقطت مستوية على عجلاتها ثم مالت الى اليسار في احد الشوارع تحت طريق نيميتز. فهرعت اليه احدى الممرضات وهي لا تصدق أن سائق الشاحنة الطائرة ما زال حياً. فصاح بها جون كي تتراجع لان حمولته قد تتفجر في أي لحظة.

زحف جون عبر النافذة وتطلع حوله فتبين له أنه قُذف أفقيا خارج الطريق وحلّق حوالى ٢٠ متراً ثم هوى ١٥ متراً الى الارض. وما ان استوعب ذلك حتى سمع الناس يصرخون وشاهد سحب الدخان تتصاعد من الانقاض ورأى طريق نيميتز قد تحولت بطبقتيها كومة من ركام.

حضّت الممرضة جون على ركوب سيارتها لكي توصله الى المستشفى. لكنه، بدل

PHOTOS: (LEFT) © MICHAEL GRAY; (INSET) © ROBERT HOLMGREN

ذلك، طلب ان توصله الى شاحنة أخرى كانت قفزت من الطبقة العليا وهوت عمودياً مستقرة على مقدمها في مكان قريب، فسحقت القمرة التي غدت مثل أكورديون.

وصل جون الى الشاحنة آملا مساعدة السائق، لكنه وجد رأسه مسحوقاً في لوحة أجهزة القياس واحدى ساعديه متدلية من الزجاج الامامي. وجس نبض الساعد فلم يحس شيئاً. في تلك اللحظة جال في فكره كم كان محظوظاً لتمدده على أرضية الشاحنة. واستدار وطلب من الممرضة أن تأخذه الى المستشفى حيث بقي يومين.

أما دوروثي أوتو فكانت أقل حظاً، اذ علقت قدمها اليسرى تحت حاجب الحرارة وانغرز الكابح اليدوي في رسغ قدمها. وأمام وجهها مباشرة ارتفعت دعامة الاسمنت الهائلة التي تزن ٢٠٠ طن والتي سحقت مقدم سيارتها وحولته فطيرة من الصلب لا تزيد سماكتها على ١٠ سنتيمترات. أخطأتها الدعامة فنجت، لكن قدمها شُبكت دونما أمل في تحريرها. وأصبحت دوروثي جزءاً من شطيرة اسمنت تعلو ثمانية أمتار عن الارض. ومرت ٣٠ دقيقة وعمال الانقاذ يروحون ويجيئون فوق الأنقاض، ولم يعرف أي منهم أن دوروثي هناك غارقة في الركام.

وشاءت العناية الالهية أن ينتبه الى صراخها ميكانيكيان هما توماس ايستهوب وكلايد موك اللذان يعملان في مرآب للسيارات يبعد أقل من ١٠٠ متر عن كارثة نيميتز، وكانا ممن خفوا الى المشاركة في عمليات الانقاذ.

ولج ايستهوب أولاً. فانسلّ عبر احدى الفجوات الصغيرة الى جانب سيارة دوروثي وشرع يعمل مستخدماً مخلا ورافعة سيارة. وكانت النار تشتعل الى الجانب الآخر وراء عمود من الاسمنت، وتهدد بالامتداد وإلهاب الوقود المنسكب حول أقدامهما. ومضى ايستهوب يعمل تحت خطر انهيار البناء المتداعي الذي ما فتىء يئن ويصرّ، ومع ذلك حاول أن يؤاسي دوروثي ويشجعها.

كان الألم الحارق في قدم دوروثي اليسرى لا يحتمل، وقالت إنه أشد ما عانته في حياتها، ولو كان في وسعها الوصول الى قدمها لقضمتها بأسنانها. وحتى عندما حدث الاهتزاز الثانوي الكبير الذي تلا الزلزال، مقيماً أطنان الاسمنت ومُقعدها، لم يتخلّ إيستهوب عن دوروثي، بل استمر في محاولة انقاذها وانضم اليه موك.

بعد مرور ٩٠ دقيقة على وقوع الزلزال دعي الاطفائيان لورنزو فرديانى وتشارلز غاردنر من أوكلاند ليحلا مكان موك وايستهوب في تخليص دوروثي أوتو. فحشدا جسديهما داخل فجوة ضيقة لا يزيد ارتفاعها على ٤٠ سنتيمتراً، وانسلا حتى وصلا الى دوروثي.

وعلى رغم أن نظام تدريبهما ينص على عدم تغليب العطف الشخصي على الواجب، فانهما أدركا فوراً أن دوروثي ستحظى منهما باهتمام يتجاوز ما نصّ عليه

قانون المهنة. وحين سألتهما دوروثي ماذا ينويان عمله بالتحديد لاخراجها، ومتى، أخبرها فردياني بلهجة حازمة أنه في غنى عن نصائحها، فلتكف عن الصراخ فيما تتركز جهودهما على انقاذها.

وكبائعة قديرة، رأت دوروثي أن من الحكمة الاذعان، وأن في ذلك فرصة لابرام صفقة رابحة مع الاطفائيين. قالت لهما، وهي تغالب السعال بفعل الدخان، إنها هي أيضا تكره صراخ النساء، فاذا ثبتا معها الى النهاية حتى تتحرر فهي في المقابل لن تقضّ مسامعهما بصراخها. وحين يتجاوز الالم قدرتها على الاحتمال ستدير وجهها الى الجهة الاخرى وتعضّ منشفة صغيرة تدفن فيها ألمها وصراخها.

يقول فردياني الذي نشأ قرب نيميتز: "كانت سيدة رائعة."

"سنخرج من هنا"

استخدم الرجلان رافعة هيدروليكية فائقة القوة تسمى "فكّي الحياة" وتعمل مثل كماشة متيحة خلع أبواب السيارات بسرعة والضغط بفاعلية لفتح أماكن مدمّرة بغية الوصول الى ضحايا عالقين. ولكن شق عليهما تشغيل الآلة التي تزن ٣٠ كيلوغراما في فجوة ضيقة لا يزيد ارتفاعها على متر. فعمدا الى فتح باب السيارة ثم أتيا بازميل يعمل بالهواء المضغوط لقطع الأرضية تحت قدم دوروثي.

يقول فردياني: "كان ألمها هائلا، لكنها وفت بما وعدت، فكانت تنذرنا حين يتجاوز الألم حدود احتمالها وتنوي الصراخ، فتدير وجهها وتصرخ وتعضّ منشفتها الصغيرة. وكان ذلك مفيداً من دون شك."

إبان المحنة استمر اهتزاز الطريق وغمر الجميع غبار اسمنت خانق. وكان واضحا أن الطريق قد تنهار كلياً فتسحقهم. ولم يطل الأمر حتى مرت أشد اللحظات هولا، اذ بعد ساعة من وصول المنقذين الى دوروثي، تساقطت كتل الاسمنت بكثافة حولهما منذرة بانهيار. يقول فردياني: "رأينا شريحة الاسمنت تنسلخ، وراقبناها وهي تنهال على سيارة دوروثي وتسحق ١٥ سنتيمتراً أخرى منها. وتوقفت عند هذا الحد. فعرفنا أن تلك كانت النهاية حتما."

اندفع الرجلان نحو الفتحة الصغيرة التي كانت أملهما الوحيد في النجاة، ثم توقفا وتبادلا النظرات. فكّر فردياني في زوجته ماريا التي كانت تنتظر مولوداً هو باكورة زواجهما، لم يتسنَّ له التأمين على حياته. أما غاردنر ففكر في ما اذا كانت أعماله مستقيمة في هذه الدنيا.

انتشر الخبر أن على كل العمال بين الانقاض اخلاء الموقع لانه متداع ومهدد بالانهيار. وكانت مضت ساعة على فردياني وغاردنر وهما يعالجان سيارة دوروثي أوتو


دوروثي اوتو مع المنقذين كلايد موك (الى اليمين) وتوم إيستهوب.

ولم يتقدما الا قليلا. فوجدا أنهما في مأزق هو كابوس يواجهه كل من يعمل على الانقاذ فيتنازعه عاملان: الشفقة التي تدعوه الى اتمام مهمته تحت الخطر، والخوف على حياته والتخلي عن المصاب وتركه يواجه مصيره.

فجأة سمعا دوروثي تستغيث: "أتوسل اليكما، لا تتركاني أموت وحيدة هنا." كان صوتها هادئاً تمازجه شجاعة غاب عنها أي أثر للهلع. وكان الرجلان أكبرا صلابتها خلال معاناتها ولاحظا أنها لم تذرف دمعة واحدة.

قال غاردنر هازاً كتفيه: "كيف نترك هذه المرأة الفريدة تصارع الموت وحيدة. كنا ندرك أن علينا مغادرة المكان حفاظاً على حياتنا، لكننا لم نفعل."

عاد الاطفائيان يحاولان انقاذ دوروثي. واستخدما جميع الوسائل الممكنة، ولكن لم تستجب أي منها لحاجتهما الاساسية الا وهي رفع دعامة الاسمنت عن حاجب النار وتحرير قدم دوروثي.

كررت دوروثي توسلاتها الى الاطفائيين لكي يبترا قدمها بفأس. وأخيراً، قرابة العاشرة ليلا أي بعد خمس ساعات من وقوع الزلزال، قرر الملازم الاول ريتش ساندرز رئيس الاطفائيين أن يرسل في طلب أحد الجراحين ويوكل اليه عملية البتر. واعترف ساندرز في النهاية أن من الافضل بتر قدمها واخراجها قبل أن ينهار البناء ويطبق عليهم جميعا.

بعد قليل انزلق الاطفائي روبرت سبلي الى الفجوة بغية المساعدة. فخطرت له فكرة مبتكرة لم تسبق تجربتها. فعمد الى تفكيك أحد جزءي الرافعة "فكّي الحياة"، ثم أدخله في الموضع الذي لم يقوَ شيء على تحريكه. انحنى سبلي في الظلام وأدار محرك الرافعة بغية احداث فسحة بين حاجب الحرارة وقدم المرأة. وعادت الآلام الحادة تمزق دوروثي. لكن طريقة سبلي البارعة نجحت في رفع الثقل ثلاثة مليمترات كانت كافية لتحرير قدمها.

هتف سبلي: "لقد نجحنا، وسنخرج من هنا."

PHOTO: © ROBERT HOLMGREN

مضى على وقوع الزلزال نحو ست ساعات. وكان البناء يطبق بعضه على بعض، وبات الخروج من الفجوة أصعب كثيراً من دخولها. فرفع الرجال دوروثي عبر فتحة لا تزيد على ٢٥ سنتيمتراً لوضعها في نقالة وانزالها الى الارض.

أكرهت دوروثي نفسها على التبسّم وسط أوجاعها. وحين تطلعت حولها لتشكر رجال الاطفاء الذين خاطروا بحياتهم لانقاذها لم تجد منهم أحداً. وحين انطلقت بها سيارة الاسعاف دفنت رأسها بين يديها وأجهشت بالبكاء.

كان جاك أوتو في منزله أمام التلفاز فلم يعرف شيئاً. ولم ير بدأ من الانتظار ساعات طويلة من العذاب. وحين رنّ الهاتف في وقت متقدم جداً كان على يقين أن المكالمة نذير شؤوم يحمل اليه أسوأ الاخبار.

قال له أحدهم: "السيد أوتو؟ زوجتك هنا تريد التحدث اليك."

قالت دوروثي لزوجها وقد عادت اليها حيويتها وطفحت بالرضى والارتياح: "لقد نجوت! نجحت في اقناع أولئك الرجال بانتشالي من هناك، وخشيت إن لم أعجبهم أن يتخلوا عني لانقاذ شخص آخر صراخه أخف من صراخي."

وفي المستشفى عادها توم إيستهوب وكلايد موك ترافقه زوجته ومولودهما. قالت دوروثي في وقت لاحق: "ان رؤية ذلك الطفل الوديع أيقظت فيَّ شعوراً بفداحة الخطر الذي جبهه الرجلان في سبيل انقاذي." وهي زارتهما لاحقا في المرأب، مكان عملهما، وشكرتهما على صنيعهما.

وبعد ثلاثة أسابيع من مغادرتها المستشفى، وكانت لا تزال تعاني من قدمها المسحوقة، ذهبت دوروثي مع زوجها الى مركز الاطفاء في اوكلاند لتقدم شكرها أيضاً الى الاطفائيين الذين ساعدوا في انقاذها.

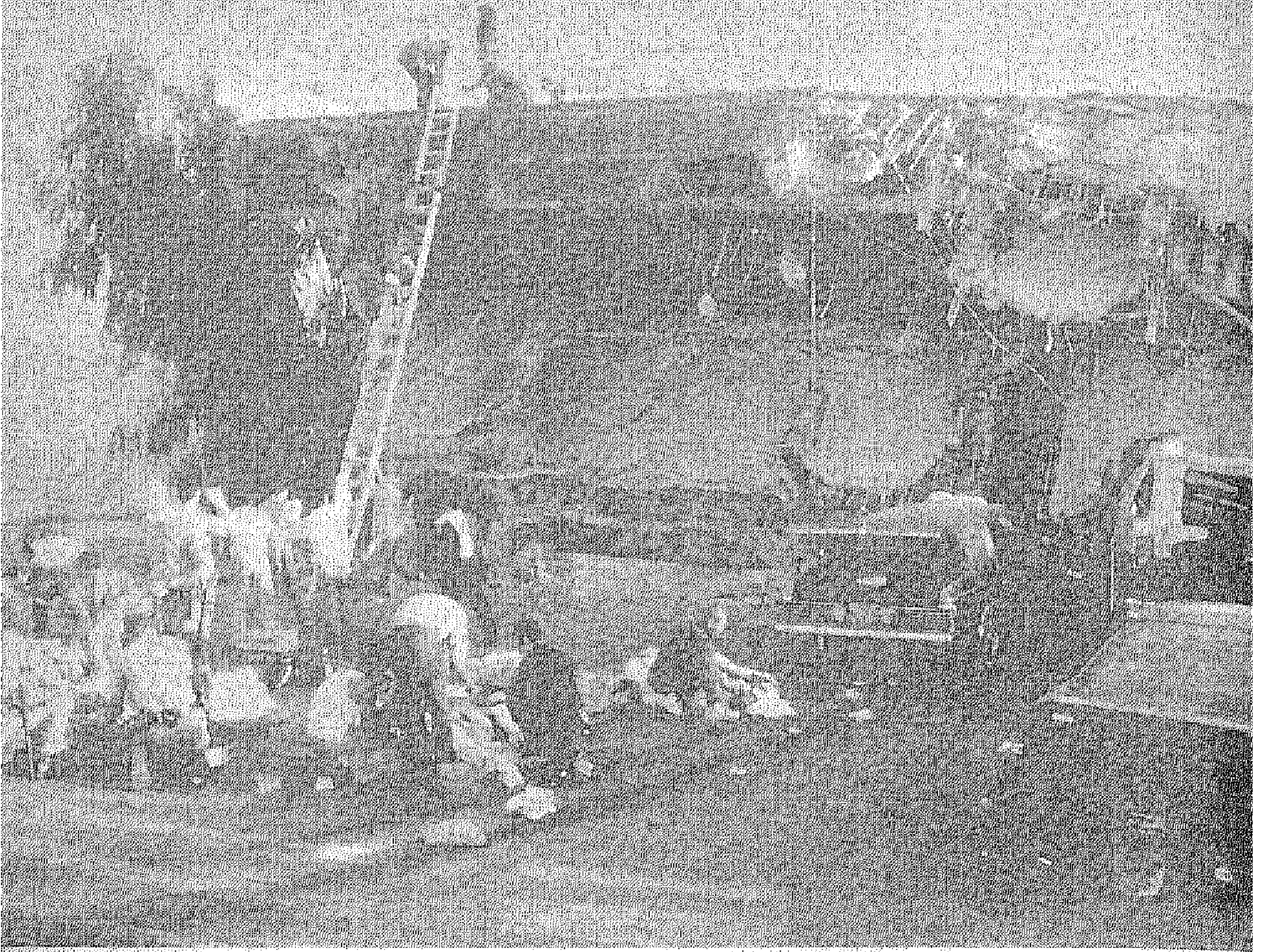
قطع الرجاء

بزغ فجر اليوم التالي، فارتسم الاطفائيون وعمال الانقاذ أشباحاً منعكسة على سماء كاليفورنيا، وهم يروحون ويجيئون فوق مقبرة الاسمنت المريعة. ولدى شروق الشمس بدا المشهد كأنه موقع دمرته القنابل في مدينة مزقتها الحرب.

عمّ مسرح الكارثة شعور بالرهبة والاجلال لمئات الضحايا البريئة التي شاء القدر الغاشم أن تدفن حية تحت الانقاض.

راجع مهندسو دائرة النقل في كاليفورنيا سجلات حركة السير والتنقلات اليومية، وأفادوا أن نحو ٢٠٠ سيارة تسلك هذا القسم من الطريق في الخامسة بعد الظهر. لذا فقد يكون هناك ما يزيد على ٣٠٠ شخص لحظة الانهيار.

وغذّت هذه الارقام، إحباط المنقذين، اضافة الى تقرير خاطىء ظل سائداً مفاده



منقذون يعالجون ضحايا الطريق المدمرة.

أن حافلة سياحية ملأى بالركاب. شوهدت الساعة ٥،٠٤ على الطبقة السفلى.

وتخللت كومة الركام المذهلة مئات الجيوب والفجوات غير المرئية من الخارج والتي توفر فسحة صغيرة كافية للحياة فترة تحددها حال المدفون فيها. ويستغرق الكشف عن هذه الزوايا والشقوق أياماً.

لجأ المشرفون على الانقاذ الى استخدام كلاب مدربة وأدوات متطورة تتحسس الحرارة، في البحث عن علامات الحياة بين الانقاض. وأشرف مهندسو دائرة النقل على تدعيم البناء الواهي بأخشاب قوية لجعله أكثر أماناً لدى معاودة عمليات الانقاذ.

وفي وقت متقدم من نهار الاربعاء أعلن المسؤولون أن أكثر من ٢٤ ساعة مرت منذ اكتشاف آخر الاحياء، فيما انتشلت ١٤ جثة فقط. واعتقاداً منهم أن هناك ما بين ١٥٠ و٢٠٠ جثة مدفونة في مقبرة الاسمنت، تعين على منسقي العمليات أخذ قرار بتحديد موعد وقف أعمال البحث والانقاذ ومباشرة هدم البناء لانتشال الجثث.

وأجريت صباح الخميس محاولات شاملة استخدمت فيها كاميرات تتحسس الحرارة وفرق كلاب مدربة اسفرت عن اقتناع المسؤولين بأن من العبث توقع

PHOTO: © PAUL MILLER / OAKLAND TRIBUNE / SYGMA

اكتشاف أحياء آخرين. وقوبل هذا اليأس باستياء مارتي كودي وزملائها المنقذين لاعتقادهم أن لا بد من بقاء أناس أحياء يتنفسون تحت طبقات الركام.

في هذه الاثناء دعم القسم الاكبر من الطريق المنهارة بأخشاب ضخمة. وكوّمت الجرافات التراب تحت أجزاء واهية. وبدأ العمال تكسير سطح الركام لانتشال الجثث مستعملين ثقابات الصخور ومناشير الاسمنت التي عكّرت قعقعتها الهدوء الحزين المخيم على المكان. وكلما عمق الحفر تعاظمت رائحة الموت.

همدت حماسة الساكنين في جوار "نيميتز فريواي" وخبا وهج البطولة الفذة التي أبدوها في الدقائق الاولى بعد وقوع الكارثة. وأخليت مئات المنازل بسبب الاضرار التي لحقتها، وأجلى المسؤولون عائلات أخرى من منازلها موقتاً ريثما تستقر الطريق وتصبح آمنة. وخيم الرعب وظلّ الموت على الناس الذين سعوا الى مزاولة أعمالهم، يلاحقهم شعور متنامٍ بالالم واليأس القاتل.

وعلى رغم الفوضى لم يقع الا قليل من التجاوزات. وانخفض عدد الجرائم وخصوصاً تجارة المخدرات في الشوارع. واختفت سيارات المروجين البراقة المترفة وحلّت مكانها سيارات الليموزين الأنيقة التابعة لوكالات الانباء ومحطات التلفزة. لقد اصبح كابوس نيميتز الحدث البارز الذي استأثر باهتمام جميع وسائل الاعلام.

حملت أمواج الاثير أنباء الزلزال الى أنحاء العالم فأقلقت الخواطر، وخصوصاً في شمال كاليفورنيا حيث هرعت العائلات الى أوكلاند للبحث عن أهل وأحباء مفقودين. وتبين أن معالجة أهالي أوكلاند لنكبة الزلزال كانت فاعلة ورائعة. ولكن ظل هناك مئات الاشخاص المفجوعين الذاهلين وقد احمرت عيونهم ونال منهم القلق والاعياء، يجوبون أطراف الأنقاض متلهفين لسماع كلمة تنبئهم عن أحبائهم. وزاد في تشاؤمهم ولوعتهم عدم السماح لهم بالوصول الى الركام للبحث بأنفسهم عن مفقوديهم.

في أصيل يوم الجمعة، بعد ٧٠ ساعة من وقوع الكارثة، عصفت بالمنطقة رياح شديدة وانهمر المطر مدراراً فتوقفت كل الاعمال. وبينت فحوص الاجهاد الهندسية أن الطقس العاصف قد يزيد خطر الانهيار.

ورأى المسؤولون أن لا مبرر لتعريض حياة العاملين للخطر فيما الامل ضئيل جداً بالعثور على أحياء، وكانت مضت ٦٥ ساعة لم يعثر خلالها على حي واحد.

تعيش ديانا مور مع جدتها في بركلي التي تبعد بضعة كيلومترات عن شمال أوكلاند، وهي شابة في الخامسة والعشرين ذات وجه لطيف وادع وعينين بنيتين



مارتي كودي (أعلى اليمين) تساعد منقذين آخرين في نقل احدى ضحايا الطريق المنهارة.
(الى اليمين) مارتي كودي وديانا مور.

واسعتين وشعر كستنائي طويل. وقد عملت ست سنوات مسعفة طبية تُشيع وداعة وهدوءاً يبعثان الطمأنينة في نفوس ضحايا الصدمات.

أمضت ديانا ٢١ ساعة بين أنقاض نيميتز يومي الاربعاء والخميس، وعادت يوم الجمعة، بعد راحة قصيرة، لثلاث ساعات ناشطة وزميلاتها في البحث عن أحياء. وقالت مستشهدة بالزلزال الذي ضرب أرمينيا عام ١٩٨٨ حيث عثر على ضحية حية تحت الركام بعد مرور ١١ يوماً على الكارثة: "ما حملنا على متابعة البحث ايماننا بأن هناك شخصاً لا يزال يحتاج الى مساعدتنا. وعندما أبلَغنا الخبراء أن ثمة مئات الضحايا تحت الانقاض غلب علينا اعتقاد أن ثمة قلباً ينبض بعيداً عن أنظار الجميع.

وعظمت خيبة ديانا وكثيرين غيرها من المنقذين لدى اعلان المهندسين ليل الجمعة أنهم اكتشفوا تحركاً خطراً في طريق نيميتز فأمر المسؤولون باخلاء المكان. وكان كثيرون عادوا الى منازلهم وفنادقهم بسبب الرذاذ البارد والضباب اللذين رافقا

PHOTOS: © AP / WIDE WORLD; (INSET) ROBERT HOLMGREN

الشعور العام بفقدان الأمل. في غضون ذلك غفت ديانا على سرير نقال داخل خيمة واسعة.

وقبيل بزوغ فجر السبت بعد ٨٥ ساعة من الزلزال، كان المهندس ستيف ويبل جاثماً على منصة رافعة معلاة ينعم النظر داخل أحد أقسام الركام غير المستقرة. وجه نوره الكاشف عبر فجوة تتسع خمسة سنتيمترات بين الطبقتين العليا والسفلى، فأضاء سيارة مسحوقة تبعد عن الحافة حوالى ١٠ أمتار.

شاهد ويبل رأس رجل حسبه ميتا. فأخذ يلاعب الضوء حول السيارة عله يكشف ضحايا أخرى. ولم يلبث أن جمد مذهولا، اذ تحركت يد الرجل.

لم يصدق ويبل ما رأى، فاستمر يلاعب الضوء حول السيارة غير مقتنع بامكان بقاء حياة في هذا الشرك الخانق الذي تفوح منه رائحة النتن والموت. ثم رأى الرجل يدير رأسه، فاتصل بمركز قيادته لاسلكياً وأطلع زملاءه على اكتشافه المذهل.

سرى الخبر في كآبة الفجر النديّ، فأفعم فرق الانقاذ بالامل. وأيقظ أحدهم ديانا زافاً اليها الخبر السار. لكن الاثارة اضمحلت حين عُلم أن الرجل مدفون في أخطر نقاط الطريق المنهارة.

رُفعت ديانا بمنصة رافعة لاجراء تقويم طبي فصاحت عبر الفتحة الصغيرة: "اذا سمعتني حرّك رأسك."

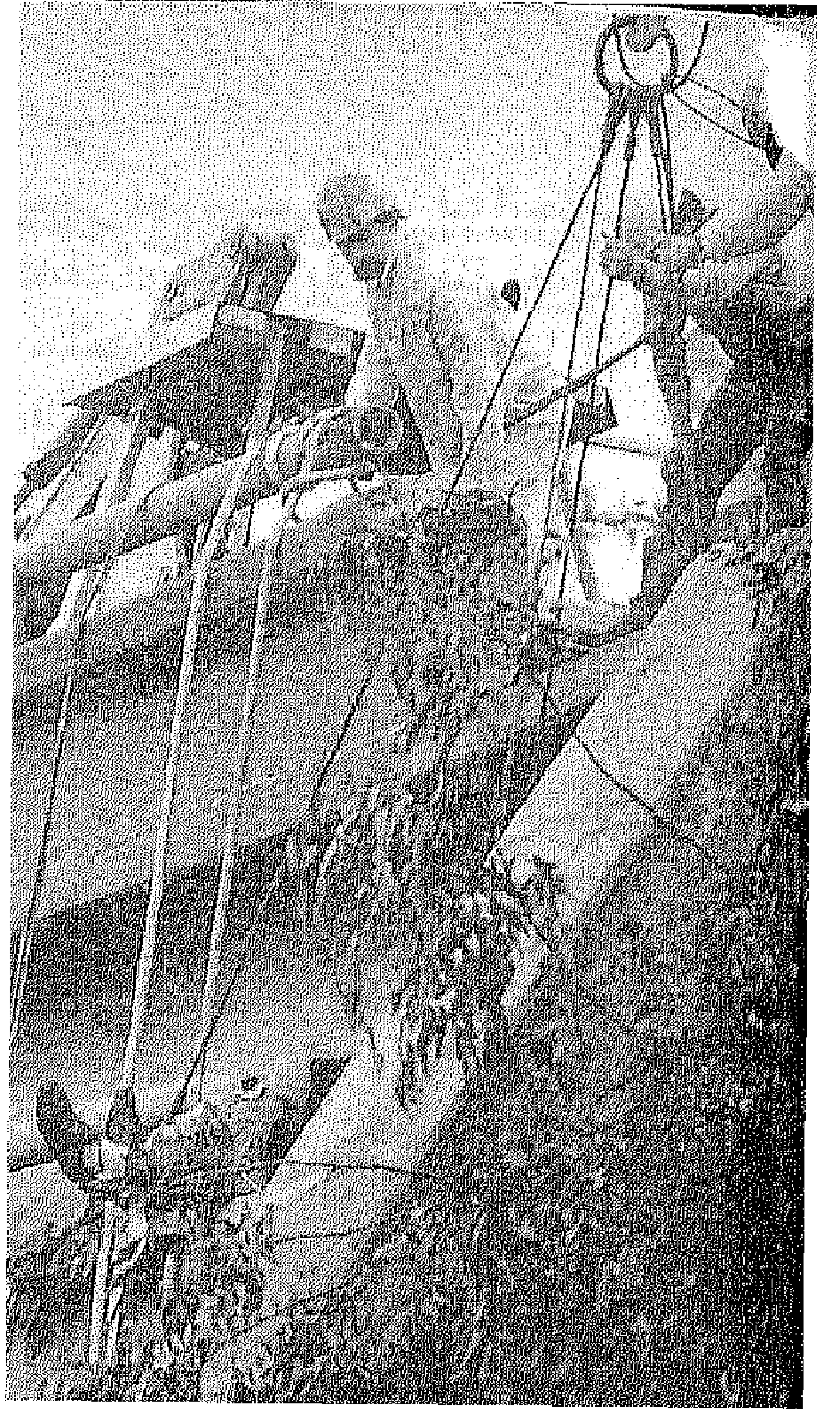
صاحت ثلاث مرات من دون استجابة. ولكن بعد الصيحة الرابعة رأت رأس الرجل يعلو ويهبط فهتفت: "اصمد، نحن قادمون لاخراجك."

وخلافاً لسبل الانقاذ العفوية التي استخدمت في الساعات الاولى للكارثة بات الخبراء مسؤولين عن العمليات. فطلبوا من العمال حفر نفق مدعّم الى "قبر" الاسمنت ثم حفر ثقب واسع في الاسمنت لتسهيل انتشال الرجل. فقد أراد المهندسون والمسؤولون عن السلامة العامة ايجاد وضع آمن تماما قبل السماح للمسعفين الطبيين بالدخول لمعالجة الرجل. وهذا ما لم يرق المسعفين الذين - كما تقول ديانا مور - "كان أي منهم على استعداد للمجازفة بالدخول ومد الرجل بالاسعافات الاولية والخروج بسرعة." علماً أنهم ظلوا منذ ٨٥ ساعة يخاطرون بحياتهم لانقاذ الضحايا.

ومرت أربع ساعات قبل أن يسمح لديانا بالولوج لاسعاف الرجل.

وانتهى المهندسون والمسؤولون عن السلامة الى اعتبار البناء آمنا. فزحفت ديانا على بطنها فوق الزيت والوقود وحطام الزجاج حتى دنت من الرجل، فلم تشاهد أي حركة منه.

ولدى وصولها الى السيارة سألت الرجل: "ألا تزال واعيا؟"



بوك هيلم بعد نحو ٩٠ ساعة من احتجازه تحت الركام، وهو آخر شخص انتشل حياً.

فاصدر الرجل أنَّة وتحرك.

كانت ديانا تدرك أن البناء آخذ في الانهيار على رغم دعمه. فأسرعت في انعاش الرجل بالاوكسيجين. كان ذاهلاً، ولكن بعد لحظات ازداد تيقظه ففتح عينيه ونظر الى وجهها القريب.

أسطورة الحي الأخير

قال الرجل لديانا: "أنا عطشان." فأخبرته أنها ستمده بالسوائل حالما يتسنى لها اكتشاف عرق في جسمه. أما الآن فلا سبيل الى ذلك لان لا شيء في متناولها الا رأسه.

سألته: "ما اسمك؟" محاولة ابقاءه واعياً يتكلم.

أجاب بهدوء: "بوك."

سألته: "هل أنت مصاب بأذى؟"

فرد بحزم: "كلا."

استنتجت ديانا أنه قوي صلب العود وأن صلابته هي سرّ بقائه حياً. وأخبرها أنه وحده في السيارة. ورأت ديانا أن أول واجباتها توطيد استقراره الصحي لكي تتمكن من تقويم اصاباته قبل انتشاله، لأن تلك عملية دقيقة، حذرة.

وآزر ديانا في عملها اطفائيو أوكلاند وفريق انقاذ من جنوب كاليفورنيا مجهز بمعدات ثقيلة. وهم علموا لاحقاً أن الشخص الذي يسعون الى انقاذه يدعى بوك هيلم، وهو موظف في وكالة لتفريغ السفن وتحميلها، نشيط في عمله متقشف في معيشته ومعروف باستقلاليته وصلابته. وهو محب لاولاده، وفي كل نهاية أسبوع يقطع ٨٠٠ كيلومتر ذهاباً واياباً الى حيث يعيشون في شمال كاليفورنيا لكي يكون معهم. وفي أيام العمل ينام بوك في مقطورة. وتحدث أصدقاؤه عن حبه للحياة ومشاكسته وعناده وولعه بلعب الورق (الكوتشينة). وابرز صفاته رفضه التخلي عن أي شيء صمم عليه. وكان عزمه الآن على التمسك بالحياة حتى وصول الاسعاف.

PHOTO: © ANGELA PANCRAZIO / OAKLAND TRIBUNE

بدأ الاطفائيون تفكيك أجزاء السيارة ليتسنى لهم سحب بوك، فيما حاولت ديانا تأمين استقراره الصحي. لكنها عجزت عن كشف أي وريد لايلاج حقنة مصل، بسبب الجفاف الشديد الذي لحق جسده. وحين جسَّت نبضه الواهي قال لها إن يديها باردتان، وتلك دلالة على تيقظه وادراكه الحسي.

قالت: "أنا أعلم أن ذلك يستغرق وقتاً طويلاً."

سألها بوك: "ماذا حدث؟"

فأخبرته: "وقع زلزال قوي، وأنت الناجي الوحيد بعد هذا الوقت الطويل."

تعمدت ديانا اطالة الحديث، فسألته كم عمره. "قال لي انه في التاسعة والثلاثين فصدقته، لكن عمره في الواقع ٥٧ عاماً. فيا له من رجل! كان يمازحني فيما نحن قلقون على حياته."

بعد ٩٠ دقيقة من دخول ديانا رُبط بوك الى لوح خشبي وحمل في سلة على الرافعة وجلست ديانا الى جانبه ويدها في يده.

وحين حطتهما الرافعة على الارض رفع بوك يده فدوى الهتاف والتصفيق. وقالت له ديانا: "التصفيق والهتاف لك." وساعدت في نقله الى سيارة اسعاف داخلها طبيبان.

أظهر التشخيص الطبي ثلاث أضلع مكسورة وشقاً صغيراً في الجمجمة وجفافاً شديداً وتضرراً في الرئتين والكليتين. لكن الاطباء بدوا راضين عن حال بوك عموماً. ولم يتمكن رجال الاعلام من مقابلته، فحاصروا ديانا لاستقاء الاخبار منها. وهي كانت أمضت ٣٢ ساعة من الخدمة المتواصلة لم تذق فيها طعم النوم، وقد نال منها الجوع والعطش وغطاها الزيت وامتلأت جيوبها بكسر الزجاج والاسمنت. فظهرت هنيهات أمام رجال الصحافة ثم توارت.

وأوضحت لاحقاً: "أنا أفضل الزحف والتفتيش بين الانقاض على الظهور على شاشات التلفزة. ثم إنني لا أستحق أن يُنسب الي فضل أكثر من المسعفين الآخرين في نجاح هذه العملية الرائعة. وكل ما في الامر أني كنت هناك حاضرة عندما حان موعد ارسال أحد المسعفين لمساعدة بوك."

ذاع خبر انقاذ بوك هيلم من بين الركام في "نيميتز فريواي" فأدهش ملايين الناس في العالم. وكان توقيت انقاذه مثاليا لبعث الامل في المكبّين على عمليات البحث والانقاذ المضنية، في وقت كان عشرات الالوف من المتضررين في شمال كاليفورنيا يكافحون لاعادة اللحمة الى حياتهم الممزقة.

لم تمرّ ساعات على الانقاذ العجائبي حتى غدا بوك هيلم رمزاً حياً للأمل والارادة القوية التي تقهر المحن. وغدا أسطورة تنمو وتتفاعل فتبعث الشجاعة والتفاؤل في

آخرين من ضحايا الزلزال الذين يخضعون لمعالجات طويلة الامد في المستشفيات بسبب اصاباتهم المدمرة.

المباراة المنقذة

تسارعت الاحداث التي أعقبت الزلزال، فمنها ما مرّ بسرعة وانتهى كأنه عادي عابر مثل حادث جون ديفريتاس، ومنها ما كان معاناة طويلة قاسية مثل حالتي دوروثي اوتو وهوليو بيرومن.

وتنازعت الناس عوامل الخوف واليأس والشك والامل. وتمت ألوف الاتصالات الهاتفية، فاطمأن كثيرون الى أن أهلهم وأحباءهم وأصدقاءهم كانوا بمنأى عن الخطر بعيدين عن مكان الكارثة. ومرّ آخرون بساعات مثقلة بالخوف واللهفة لمعرفة مصير أحبائهم. وأشد ما كان يمزق القلوب خاتمة مفجعة للانتظار والتلهف لحظة ابلاغ أحدهم بالتوصل الى تحديد هوية مجهولة في المشرحة.

كانت حصيلة قتلى زلزال "لوما بريتا" ٦٣ شخصاً قضى منهم ٤٢ تحت أنقاض طريق نيميتز. وانتشل ٣٠ أحياء من سياراتهم التي طمرها الركام، ونقل ١١٨ الى مستشفيات المنطقة في سيارات الاسعاف والمروحيات.

وكان عدد سالكي طريق نيميتز لحظة الانهيار أقل كثيراً مما قدر الخبراء. وعُزيت هذه الظاهرة غير العادية الى أن ألوف المتنقلين يومياً في الخامسة بعد الظهر كانوا في منازلهم أمام التلفاز يشاهدون مباراة البايسبول العالمية.

بلغت أضرار زلزال "لوما بريتا" في الممتلكات ستة مليارات دولار. وأصيب أكثر من ٣٧٠٠ شخص بجروح وشرّد ١٣ ألفاً وتهدم نحو ٢٥ ألف مسكن. وكان ٢٠ في المئة فقط من الملاكين يحملون عقود تأمين ضد الهزات. لكن العالم هبّ الى مساعدة المنكوبين، وتدفقت الاعانات لتأمين المساكن والملابس والغذاء والمال.

ان لحظة وقوع الزلزال – ٥،٠٤ بعد ظهر ١٧ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٩ – ستظل محفورة في ذاكرة ملايين الناس الذين لن ينسوا أبداً ما كانوا يعملون في أثنائها. تقول إرما باركر التي كانت في سيارة مع زوجها ونجت من كارثة انهيار طريق نيميتز لتأخرها ثواني عن بلوغ الجزء المنكوب: "إني شهدت في تلك اللحظة قوة خارقة أعظم من أي شيء عرفته في حياتي... قوة أعظم من كل ما صنعه الانسان. كان الصوت كقصف رعد ولم أسمع أشد منه، وظل يترجّع في الابعاد. ثم ارتفعت سحب دخان وغبار أبيض في كل مكان."

أما اليزابيث كوبلز التي ولدت في سانتا كروز الساعة ٥،٠٣ بعد الظهر فلن تتذكر ما حدث. ولكن سيروي لها أهلها أن الارض، بعد ولادتها بدقيقة واحدة، مادت

ورقصت كأن ملايين البراكين تفجرت في باطنها، وانتابت شمال كاليفورنيا نوبة مسعورة من الهلع.

وما كاد غبار نيميتز يستقر حتى أعلن الاختصاصيون بعلم الزلازل أن زلزال ١٩٨٩، وإن يكن خطيراً، ليس هو "الزلزال الكبير." وما زال العلماء مصرين على توقعهم كارثة ماحقة ستنفجر في كاليفورنيا وتحدث دماراً يفوق دمار أي زلزال ضرب الولايات المتحدة.

ولكن، على رغم التكهنات التشاؤمية، بينت استطلاعات الرأي التي أجريت بُعيد الكارثة أن عائلات قليلة جداً مستعدة لاقتلاع جذورها ومغادرة مساكنها خوفاً من هذا الخطر.

ويتساءل سكان كاليفورنيا: أين هو المكان الآمن فنذهب اليه؟ كيف يعيش الناس في الغرب الاوسط وهم يعرفون أن الاعاصير (تورنادو) هي من وقائع حياتهم. وكيف يعيشون في الولايات الساحلية الجنوبية التي تتعرض للاعاصير البحرية أكثر مما تتعرض كاليفورنيا للزلازل الخطيرة؟

في غضون ذلك ظل تحسن حال بوك هيلم يدهش العالم، على رغم عجزه عن الكلام لانه موصول الى جهاز تنفس. ولازمته زوجته لوري وأولاده منذ عملية انقاذه. وبعد مرور شهر على الزلزال في ١٨ نوفمبر (تشرين الثاني) اتصلت لوري بديانا مور وأخبرتها أن بوك يتحسن، فكليتاه تعملان ويفكر الاطباء في تحريره من جهاز التنفس. وطلبت لوري من ديانا أن تعود بوك لأن ذلك قد يساعده.

وتتذكر ديانا: "كان فعلا في حال جيدة، جالساً في سريره ومتيقظاً تماماً." أمسكت ديانا بيده وكلمته، فلم يتمكن من مبادلتها الكلام بسبب جهاز التنفس. وتحدثت الى زوجته التي أعربت عن تفاؤلها بشفائه. قالت لبوك: "اصمد، لا تيأس."

في اليوم التالي توفي بوك هيلم على نحو غير متوقع. فكان موته ضربة ساحقة لعائلته ومدعاة دهشة واكتئاب للملايين الذين هتفوا له وشجعوه.

وعزا أطباء المستشفى وفاته الى قصور في التنفس.

والثابت هو أن بقاء بوك هيلم حياً شهراً كاملا، على رغم كل العوامل المعاكسة المثبطة، ألهم الألوف كي يتحلوا بالشجاعة للتغلب على احباطاتهم. وهو غذّى التفاؤل في وقت كان المنقذون في أمسّ الحاجة اليه. وقد جاء شهادة نيّرة تتوج بطولة المتطوعين والمسعفين ورجال الشرطة والاطفاء الذين كافحوا ببسالة لرفع الكابوس الجاثم على "نيميتز فريواي."

هنري هورت ■

ترجمة الياس عقل

كتاب الشهر

الطريق إلى الحرية



ملخص من كتاب "رحلة نينا"

بقلم نينا ماركوفنا

الطريق إلى الحريّة

"رحت أعدو في محاذاة السكة الحديد وأنا أتفحص وجوه ركاب المقطورة الاخيرة وأنادي أبي. ثم انتقلت الى المقطورة التالية مرددة اسمه ورقمه فلم يجبني أحد. فرحت أصرخ بصوت عال: أبي! الرقم ٤١٠! هل هو بينكم؟

"وسألت ركاب المقطورة الثالثة، فالرابعة، فلم أعثر على أبي. واذا بالسائق يرسل اشارة الى المهندس فيهتز القطار بعنف. وعمد الحراس النازيون الى انتزاع الاولاد الملتصقين بأهلهم في عناق أخير.

"كررت ندائي: بابا! بابا! واذ تحرك القطار شعرت كأني أركض الى الوراء. وصرت الى جانب الحافلة الخامسة فالسادسة.

"واذا بيد تحاول التلويح. ثم ظهر وجه قلق. انه وجه أبي!

"صرخت متوسلة: مهلا! أبي! مهلا! لا تذهب.

"لكن القطار لم يتوقف."

كان افتراق نينا ماركوفنا عن والدها واحداً من الوداعات الفاجعة الكثيرة. وها هي تروي في مذكراتها معاناة أهلها وشعبها خلال فترة مروّعة من التاريخ. وقصتها هي قصة الشعب الروسي بأسره الذي وقع بين فكي كماشة في الصراع الدائر بين جبارين هائلين هما أدولف هتلر وجوزف ستالين. انها ملحمة عذاب ومعاناة وخسارة وضياع، لكنها أيضاً قصة محبة وعطف وإلهام وارادة بقاء قوية في وجه الموت.

كان الليل هادئاً. وتناهى الي هدير السيارة كأنه هزيم رعد هادر. فلا أحد يقتني سيارة في بلدتنا دولوفو الباعدة ١٠٠ كيلومتر عن موسكو. فلا شك اذاً في أنها "غراب أسود." وهذه سيارة طويلة رسمية كانت تستخدم في نقل المعتقلين الى أقبية الشرطة السرية (NKVD) . كان ذلك في منتصف ليل ٩ مارس (آذار) ١٩٣٨.

وهدرت السيارة وتوقفت خارج منزلنا.

قفز والدي من الفراش وشرع في ارتداء ملابسه التي كان هيأها على كرسي قريب. انها أدفأ ثياب لديه: سترة مبطنة، سروالان رماديان، قبعة فرو، قفازات، ولفاع صوفيّ. هي ثياب "الحالات الطارئة."

وقفت وأخي سلافا نراقب أبي وهو يرتدي ثيابه. كنا نرتجف، وبدا وجه أمي مغضناً وقد حز فيه الالم.

ثم أخذت أمي ترنِّم بنغم رتيب شجيّ كما تفعل النساء الروسيات حين يواجهن مصيبة شديدة: "يا زوجي العزيز مارك، حاول أن تنتبه لنفسك وترجع الينا حيا. يا عزيزي مارك."

ارتدى أبي ثيابه بسرعة. وبدا أنفه بارزاً دقيقاً شاحباً. وتغير لون عينيه اللتين كانتا في دكنة الكرز الناضج الى سواد قاتم قاس فيه كل معاني الكآبة الصامتة.

وسمعنا خطى الجزمات الجلدية الثقيلة وهي تغوص في الثلج. واقتربت الخطى من مدخل دارنا، وعلا صوت: "افتحوا! الشرطة!" وارتجّ الباب تحت وابل اللكمات وركل الجزمات.

هرع أبي الى أمي وضمّها اليه بقوة وأخذ يردد كأنه يحاول اقناع نفسه: "سأبقى حيا، سأبقى حيا، ولن أستسلم لليأس." واضاف محاولا أن يبتسم: "وأنت يا ناتاشا، لا تستسلمي، من أجل الاولاد."

تكرر القرع العنيف. فضمّني أبي أنا وسلافا مودعاً، ثم رفع مزلاج الباب وفي احدى يديه رزمة وفي الاخرى جواز سفره.

اندفع شرطيان الى الداخل. فأزاحا جواز السفر الذي تعيّن على كل مواطن روسي تسليمه الى السلطات لدى القبض عليه، وصاحا غاضبين: "اللعنة عليك وعلى جواز سفرك. نريد مطرقة لاصلاح السيارة."

تسمّر أبي في مكانه عاجزاً عن الفهم وكأنه يسمع لغة أجنبية لا يفقهها. فسدد أحد الرجلين لكمة الى فكه مزمجرا: "مطرقة!"

عندئذ فقط أدرك أبي أن هذين الرجلين لم يأتيا للقبض عليه. فأسرع الى زاوية في البيت ورجع بمطرقة. فخرج الشرطيان الى سيارتهما من دون أن ينبسا بكلمة. تشبثنا نحن الاربعة بعضنا ببعض عند الباب المفتوح غير مصدقين أن في إمكاننا

غلقه. وبعد طرقات صامة وشتائم كثيرة بدأ المحرك بالدوران ثم انطلق "الغراب الاسود" المرعب هادراً، وتوارى. عندئذ أجهشنا بالبكاء.

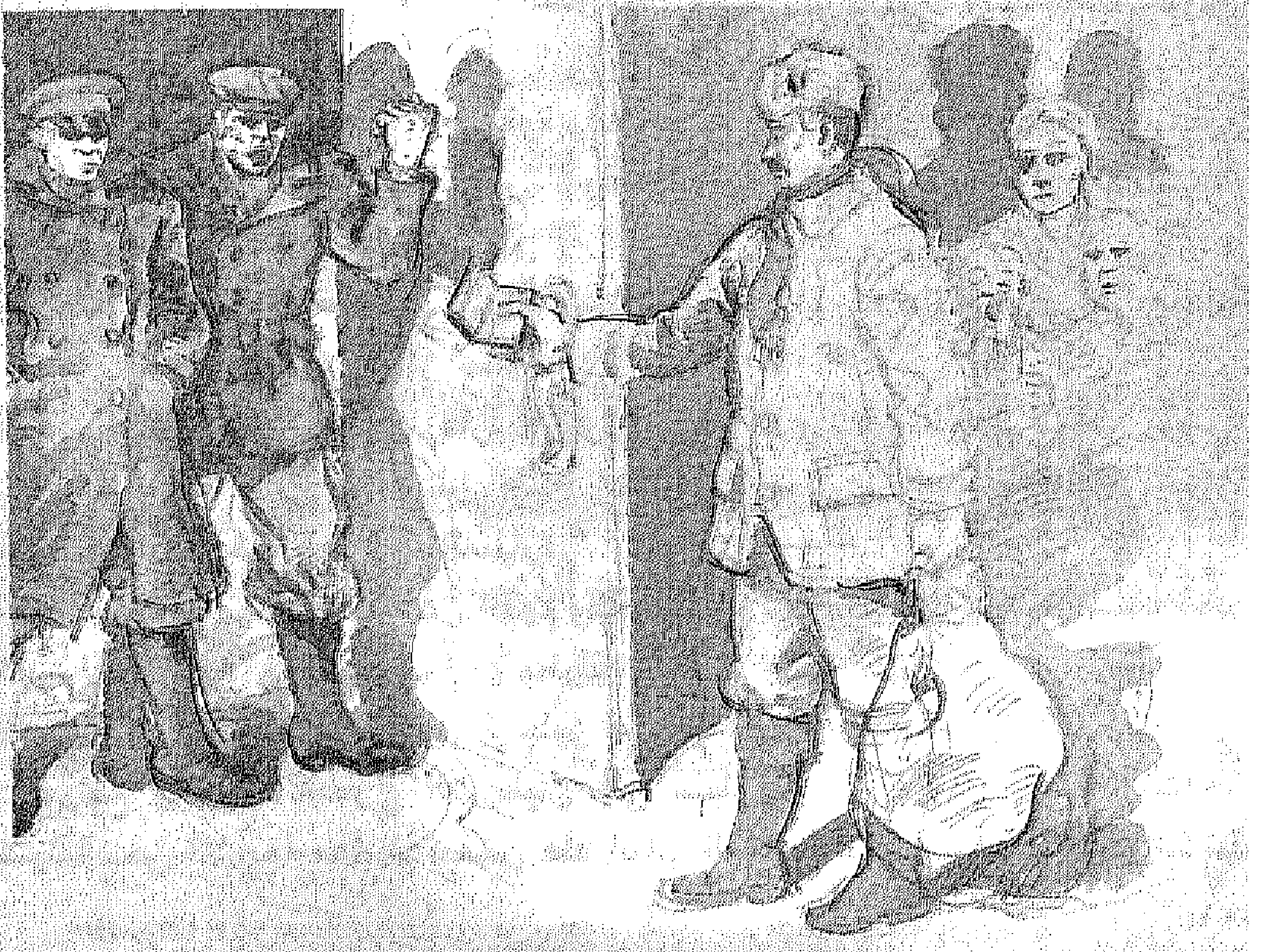
نمنا قليلا وافقنا شاحبين مرتعبين لنواجه يوماً جديداً. كانت موجة من الرعب تجتاح البلاد. وإن تجاوزتنا تلك الليلة فقد كنا نعلم أنها ستدق بابنا ثانية.

الهرب الى الجنوب

في الليلة ذاتها اعتقلت الشرطة السرية عمي فانيا الذي كان مريضاً بداء السل. ثم ورد أمر رسمي بمنعه من استقبال زائرين أو تسلم رسائل أو رزم. وليلة بعد ليلة كنا نشاهد "الغراب الاسود" تدهم منازل مواطنين آخرين في القرية. وفي ٢٧ مارس (آذار) توقفت السيارة امام البيوت المحيطة بنا يمنة ويسرة. وكان جميع الذين اعتقلوا غير منتسبين الى الحزب، مثل أبي وأمي.

ذات مساء في أوائل ابريل (نيسان) قالت أمي، ونحن جالسون الى مائدة العشاء: "اليوم فرغ كرسي آخر في مكتبي. أينما تطلعت فاني أرى الكراسي تفرغ الواحد بعد الآخر، فتتملكني رغبة ملحة في النزوح الى مكان ما. أي مكان يكون بعيداً عن قبضتهم!"

في تلك اللحظة قرر والداي أن نحاول الهرب. فرأينا أن نذهب الى فيودوسيا في



شبه جزيرة القرم على البحر الاسود حيث يساعدنا بعض الاصدقاء القدامى على السكن والاستقرار بعيدين عن موسكو. لكن الانتقال كان يتطلب جهوداً جبارة، اذ لا يحق للمواطن السوفييتي تغيير مكان اقامته من دون اذن. وقرر أبي أن يقصد الدكتور مويزي غريغوريفتش عله يعطيه شهادة طبية تبرر انتقالنا الى الجنوب.

كان أبي أملنا الوحيد. فهو مديد القامة يبلغ طوله ١٩٠ سنتيمتراً، لكن وزنه لم يتجاوز ٧٠ كيلوغراماً. ولما كان شقيقه مصاباً بداء السلّ، فليس بعيداً أن يصاب هو أيضاً بالمرض القاتل، وكان كثيرون يعتقدون أن هذا المرض متأصل في بعض العائلات وينتقل بالوراثة.

طلب والدي اجازة يوم من عمله لكي يذهب الى المستوصف المحلي ويخضع لفحص طبي. ورافقته علّني أساعده بطريقة ما.

انتظرنا ثلاث ساعات الى أن دعي والدي الى الفحص. واستقبلنا الطبيب الذي عرف عائلتنا لسنوات، وأغلق الباب وراءه بعدما تفحص الرواق. قال: "بلغني الخبر عن أخيك. يا للعار! ألا يسمحون لرجل مريض بأن يموت في بيته؟"

قال والدي بصوت متهدج وهو يكاد يختنق: "لعلهم كانوا يقصدون اعتقالي أنا، فخلطوا بين الاسمين. هذه الفكرة عذاب دائم لي. لذلك قصدتك. أخذوا فانيا أولاً، فهل يأتي دوري بعده؟ أنا في حاجة الى شهادة طبية منك ليُسمح لي بالانتقال الى الجنوب... للهرب." واذا بصوت دلو يسقط في الغرفة المجاورة.

وضع الطبيب اصبعه على شفتيه وهو يشير الى الجدار الرقيق الفاصل بين الغرفتين.

وساعد والدي على نزع قميصه، ثم راح يدق على ظهره العاري وعلى صدره مصغياً الى نبض قلبه.

قال الطبيب: "إنك ناحل جداً يا مارك. ولديك أسباب للقلق ما دام السل متأصلاً في سلالتكم." وكان يرفع صوته كمن يخاطب شخصاً آخر بعيداً عنه.

وتابع: "إنك على حق يا مارك. فالمناخ الدافىء سيكون سبيلاً الى خلاصك. سنفتقدك، لكننا نحتاج الى مواطنين أصحاء منتجين. أنا أرى أن مناخ القرم سيفيدك. وأنت مؤهل للحصول على شهادتي. إذهب الى الجنوب." وأضاف هامساً: "وابقَ هناك يا مارك."

غادرنا دولوفو الباردة الرمادية. وبعد يومين طالعتنا معالم القرم بمناخه المعتدل اللطيف. البحر الاسود زاخر بالسمك، والشواطىء منثورة بالحصى اللامع والصدف.

هتفت أمي: "فيودوسيا، نحن هنا! أسرع يا مارك. هيا يا أولاد. تعرفون ما عليكم أن تحملوه. سأجلب الساموفار. احملوا فرش الريش."

وما هي الا لحظات حتى ارتجّ القطار وتوقف. فقفزت وسلافا الى رصيف المحطة ورحنا نلتقط الامتعة الصغيرة التي راحت أمي ترميها لنا من النافذة. وكان رجال الميليشيا يطردون القادمين الجدد عن الرصيف، فصاح احدهم بأبي: "أنقل أمتعتك البالية من هنا! لا تكوّموا الاشياء في المحطة. تحرّكوا". وسدد جزمته الى الساموفار وهو غلاية شاي، لكن أمي التقطته ثم حملنا رزمنا وأمتعتنا وخرجنا من المحطة.

كانت تحفّ بالشارع الرئيسي في فيودوسيا أشجار حور تعود الى مئة سنة وتظلل مقاعد خشبية. وحين جلسنا على أحدها رفع أبي رأسه نحو السماء الزرقاء الصافية وقال مغتبطا: "أقدر أن أبقى هنا الى الأبد." كذلك فكرت أنا، وتمنيت لو أن لمسة سحرية تحول ذلك المقعد حجرة لنا نحن الاربعة.

كلام الغجرية

قدمت الينا امرأة متوسطة العمر حفنة من بزور دوّار الشمس. وفيما كنا نتذوقها اقتربت منا غجرية عجوز سمراء ترتدي طبقات من التنانير (الجونلات) الزاهية الالوان وصفوفا من عقود الخرز الزجاجي، وفي اذنيها قرطان طويلان متدليان. فوقفت أمامنا وأمسكت بيد أمي.

وبعد نظرة سريعة الى راحتها أعلنت بصوت سلطوي واثق: "سيدتي، أتعتقدين أنك ستكونين سعيدة هنا؟"

فهزت أمي رأسها ايجابا. فتابعت الغجرية: "كلا، يا سيدتي. لا سعادة. مشاكل كثيرة. ستفقدين زوجك."

عبس أبي في وجه الغجرية بعدما كان مسترخيا، وسحب يد أمي من قبضتها. لكنه لم يستطع محو المخاوف التي أثارتها كلمات الغجرية في صدر أمي. ومعروف عن الشعب الروسي، منذ القدم، أنه ينظر برهبة واحترام الى فن العرافة.

حدّقت العجوز الشمطاء الى عيني أمي بنظرة ثاقبة وتابعت: "مصائب كثيرة لكليكما." ثم تطلعت الى سلافا وإليّ، وتابعت: "مصائب لكم جميعا."

عندئذ هب أبي عن المقعد وقال بصوت مهتاج غاضب: "كفي عن نعيقك وهذرك الفارغ يا عجوز الشؤم. ألا يكفيك أنك ارعبت زوجتي، والآن تخيفين ولديّ؟ أغربي عنا!"

وقالت لها أمي بصوت هادىء: "كفى، كفى."

واستدارت الى والدي وهمست: "هنا ايضا اعتقالات."

سمعت الغجرية تلك الكلمات المهموسة فأقحمت نفسها على الفور قائلة: "لا اعتقالات... ولكن مثلنا نحن معشر الغجر.. تسافرون وتتنقلون من هنا الى هناك...

تركضون، تركضون. ولن تعرفوا عنه شيئا." ودلّت باصبعها الاسمر على أبي.
وضع أبي روبلا في يد العجوز وصَرّفها راكضاً وراءها على رغم احتجاج امي: "اذهبي أيتها المرأة الكاذبة. لم تخرج من فمك كلمة صالحة واحدة."
أخذت الغجرية الروبل وراحت تغني والتحدي في نبراتها: "سترون أن كلامي ليس أكاذيب."

رائحة الدم

سكنّا مع أصدقاء لنا في شارع كارل ماركس، الرقم ٧، وتسجلنا أنا وسلافا في المدرسة المحلية. هناك التقيت مايا ذات الشعر الرمادي. كانت رفيقتي في الصف، وقد أجلستنا المعلمة الى طاولة واحدة. كانت مايا تقيم مع والدتها وجدّتها بعد طلاق والديها. وما لبثنا أن أصبحنا صديقتين حميمتين.

وأصبحت أنا وسلافا ومايا "روّاداً" أي أعضاء في تنظيم الشبيبة، وهذا واجب إلزامي، وتلفّعنا بمناديل قطنية حمراء دمغتنا كمستكشفي المستقبل. كنا نمضي ساعات بعد انتهاء الدروس في اجتماعات سياسية نردد: "لتسقط الفردية! تحيا الجماعة!" وفي المدرسة عُرض علينا "رائد" حي الضمير مثلا أعلى نقتدي به. واسمه بافليك موروزوف. انه "بطل" لكل الاولاد السوفييت. وكانت قصته مألوفة لدينا:

إبان المجاعة التي اجتاحت البلاد بعد اقرار النظام الجماعي* الزراعي في أوائل الثلاثينات، رفض كثيرون من المزارعين التخلي عن أملاكهم. وكان والد بافليك أحدهم، فبدلا من تسليم كل شيء الى السلطات الحكومية راح يخبىء البطاطا لكي يطعم زوجته الحامل وابنه. عرف بافليك بأمر أبيه فذهب الى ممثلي الحزب ووشى به ودلّهم على مخبأ البطاطا.

أعدم الوالد رمياً بالرصاص. ورأى المسؤولون في الحزب أن بافليك "بطل"، فيما اعتبره سكان القرى خائناً. وفي احدى الأمسيات هاجمه القرويون الناقمون وقتلوه ضرباً بالهراوات.

صار بافليك شهيد الدولة السوفييتية. فسميت مدارس وشوارع وقرى باسمه وأقيم له نصب في موسكو.

وعلى رغم محاولاتي اليائسة عجزت عن ايجاد مبرر لوشاية بافليك بأبيه. ولكن حين كنا في دولوفو كدت أحذو حذوه.

في ذلك الوقت كان حكامنا يعلنون أنهم ضد هتلر. وذات يوم كانت معلمتنا تدرّسنا — نحن الصغار الاربعين — عن وحشية الفوهرر الألماني.

(*) Collectivization

قالت معلمتنا: "يا أولاد، الشعب الالماني جائع، حتى انه لا يتذكر طعم السكر! ألمانيا النازية سيئة كروسيا القديمة حين كان القياصرة وأشرافهم الطفيليون وحدهم قادرين على الحصول على السكر!"

جلست في البيت ذلك المساء أمصّ بهدوء قطعة سكر. فتذكرت الدرس وهتفت لأمي: "ماما! من الآن فصاعداً سأعطيك قسماً من حصتي من السكر."

غلب التأثر على والدتي لهذه البادرة الرقيقة، فالسكر غالي الثمن. وسألتني: "ولماذا تفعلين ذلك يا نينا؟"

فرويت لها بأمانة ما قالته المعلمة في الصف.

ضحكت والدتي وهزت رأسها وهي تنظف المائدة، وقالت: "سكر؟ هذا هراء! كان هناك سكر كثير. وكنت أمنع نفسي عنه حفاظاً على رشاقتي. في الماضي كان السكر أرخص كثيراً. يا لاولئك المعلمات!"

كانت تلك أحجية صعُب عليّ حلّها وأنا في التاسعة من عمري، خصوصاً لأني كنت أثق بوالديَّ وبمعلمتي. ورحت أتقلّب في فراشي وقد قضّني هذا التباين الفاضح في أقوالهم، وفي الصباح قررت أن أصارح معلمتي بغية توضيح سوء الفهم الذي شوش ذهني. فرفعت يدي في الصف وقلت بشجاعة: "تذكرين ما قلته لنا البارحة عن السكر في روسيا القديمة؟ لكن أمي ضحكت حين أخبرتها ذاك الكلام."

سألتني المعلمة: "لماذا؟"

فضحكت مثل أمي وتابعت بجرأة: "قالت أمي ان السكر كان متوافراً بكميات كبيرة آنذاك، وانها خشيت أن تأكل منه فوق حاجتها وتصبح بدينة."

لم تبادلني المعلمة الضحك. لكنها انصرفت لبضع دقائق بعدما أمرتنا بالصمت في غيابها. كانت تلك الدقائق حاسمة تقرر فيها مصير أمي. فحين عادت معلمتنا الى الصف كان أحد رجال الشرطة السرية يدخل مكتب أمي في المعمل ويأمرها بهدوء: "نا دوپروس!" (أي "الى التحقيق.") كلمتان تكفيان لتصبب العرق البارد من كل مواطن سوفييتي. "نا دوپروس" قد تكون الخطوة الاولى في مسيرة الموت الى مخيمات العمل الشاق.

لم تعد والدتي من عملها في الخامسة عصراً، بل زارتنا احدى زميلاتها وأخبرت والدي باختفائها. ومرت الساعات ونحن ننتظر مشلولين. وعادت في ساعة متقدمة من الليل بعدما أويت أنا وسلافا الى فراشنا. وسمعناها تتكلم مع والدي بهدوء وتقول: "الأطفال الأبرياء... كلهم ثقة..."

ثم هرعت الي وأخذت وجهي بين يديها وقبلتني بوقار، فلاحظت في وجهها شيئاً غير مألوف. كان فمها متورماً تنبعث منه رائحة قوية، رائحة دم. أبعدت وجهها عني كي اراه

بوضوح. ويا للهول! في الصباح الفائت ابتسمت لي أمي وبانت أسنانها بيضاء لماعة، وها أنذا أرى في مكانها فجوة فاغرة وسوادا، همست: "ماما، أين سِنَّاكِ، ولماذا ينزف فمك؟"

حاولت أمي أن تتمالك نفسها فقالت: "لا شيء يا نانا." ثم أضافت بانفعال: "دوبروس! لا تقولي شيئا لمعلماتك يا صغيرتي. لا شيء أبدا!"

ومنذ ذلك اليوم لم تعد لنا أنا وسلافا ثقة بالمعلمات. وأصبحنا متحفظين بدافع الغريزة حفاظاً على حياتنا. لم نغضب على معلمتنا، لان واجبها الاعلى لم يكن تعليمنا القراءة والكتابة فحسب بل كذلك طبعنا جميعا بطابع بافليك موروزوف.

الذهاب الى الحرب

عقب توقيع "معاهدة الصداقة" التاريخية مع الالمان النازيين في أغسطس (آب) ١٩٣٩، بدأت الصحف وصالات السينما السوفييتية تعرض صور الفوهرر "العطوف" وهو يقبل الأولاد الالمان الفاتنين. وظهرت على الفور كتب مدرسية جديدة بدلت الصور البشعة لهتلر والنازية. وتعلمنا التحية النازية. وأعلنت معلمتنا أنها "التحية التي كان أعضاء مجلس الشيوخ يؤدونها في روما القديمة."

وأتاحت معاهدة الصداقة للجيش الاحمر دخول بولونيا الشرقية وفنلندا التي لاقى فيها مقاومة شرسة فانسحب منها مكتفياً بانتصارات هزيلة. ثم دخل ليتوانيا ولاتفيا واستونيا وأخضعها، ونشر رايته فوق بيسارابيا. وحرصت الحكومة على اتحافنا المتواصل بحسنات "اتحاد الشيوعية والنازية" وكيف سيغير العالم الى الافضل.

لكن المعاهدة عنت لنا نقصاً مخيفاً في المواد الغذائية حاولنا سدّه بالبحث عما نقتات به. ومرّ صيف ١٩٤٠ بهدوء، وتابعت مايا دروس البيانو بحماسة وقُبلت في المعهد الموسيقي المحلي. وبدأت أنا أتقدم في رقص الباليه، وكانت الموسيقى لكلتينا سبيلا الى نسيان الذات والهرب من الواقع.

لم يوهن شيء حماستي لتعلم الرقص، وان كنت أعلم أنني قد لا أدخل مدرسة باليه مرموقة، اذ أُبلغت أن جميع المدارس ترفض قبول فتيات يزيد طولهن على ١٦٥ سنتيمتراً، وكان طولي ١٧٠ سنتيمتراً وأنا في الثالثة عشرة بعد وما زلت أنمو.

في ٢١ يونيو (حزيران) ١٩٤١ رافقني والداي وأخي الى المحطة لركوب القطار الى بلدة مجاورة حيث تعرض مسرحية راقصة. وكنت عُيِّنت للاشتراك في "أولمبياد باليه القرم." وفيما نحن جالسون على المقعد طالعتنا الغجرية ذاتها بوجهها الاسمر البرقوقي الداكن، وكانت عيناها شاردتين تبحثان عن زبائن جدد.

دلّت عليها أمي وضحكت كأنها تتحداها هي وتكهناتها. ونادتها: "أيتها الغجرية! لم

يتحقق شيء مما ذكرته قبل ثلاث سنوات. الحمد لله!"

مرت بنا الغجرية وتمتمت من دون أن تتوقف: "بحر من الدموع، محيط من الدموع سيأتي علينا جميعا."

صباح اليوم التالي أثناء التمرين الاستعدادي للباليه دوى صوت رجل مذعور عبر مكبِّر الصوت معلنا: "هوجمت بلادنا. هاجمها الالمان."

بدأ غزو هتلر للاتحاد السوفييتي تحت شعار "عملية بربروسا" فألغي الاولمبياد وأُمرنا بالعودة الى منازلنا. وحين وصلت الى فيودوسيا كان سلافا ينتظرني في المحطة، وأخبرني: "أن أمي قلقة جداً على أبي. سيذهب الى الحرب... وقد يقتل، ولا يعود."

سألته: "وكيف يأخذون أبي الى الحرب؟ انه في الثامنة والاربعين!"

قال سلافا: "وسأبلغ أنا السادسة عشرة في السنة المقبلة، واذا طالت الحرب فسأدعى أنا أيضا الى الخدمة العسكرية."

بدأ معنى كلمة "الحرب" ينطبع ببطء في عقلي الخالي من الهموم والمشغول بالمضض الشخصي الذي سببه الغاء أولمبياد الباليه.

وفي اليوم التالي لاختراق الالمان الحدود السوفييتية غطّت جدران فيودوسيا ملصقات تعلن مصادرة جميع أجهزة الارسال اللاسلكية. وبعد ثلاثة أيام أعلنت مصادرة السيوف وبنادق الصيد والآلات الكاتبة والمناظير والدراجات الهوائية.

وتعاقبت الاحداث على غير ما اشتهى الكرملين، اذ لم تنقض ستة أشهر على بداية الحرب حتى كان أكثر من ثلاثة ملايين جندي من الجيش الاحمر استسلموا للالمان. وتوالى الاستسلام حشوداً بعد حشود من الجنود مما دفع الكرملين الساخط الى أخذ تدابير صارمة تمنح المفوَّضين الحزبيين ورجال الشرطة السرية سلطة مطلقة لاعدام أي جندي يقبض عليه من دون سلاحه، على أنه جندي فار. وشمل القرار أفراد عائلات الجنود "غير الوطنيين" الذين أجيزت معاقبتهم هم أيضاً.

في ١٨ أغسطس (آب) بدأت معاناة عائلتنا الحرب، اذ بُلّغ والدي أمراً بالالتحاق بالجيش. كان جواز سفره الداخلي يتضمن اشارة الى أنه مريض بالقلب، وكنا متأكدين من أنه سيعفى من الخدمة العسكرية. ولكن خاب فألنا.

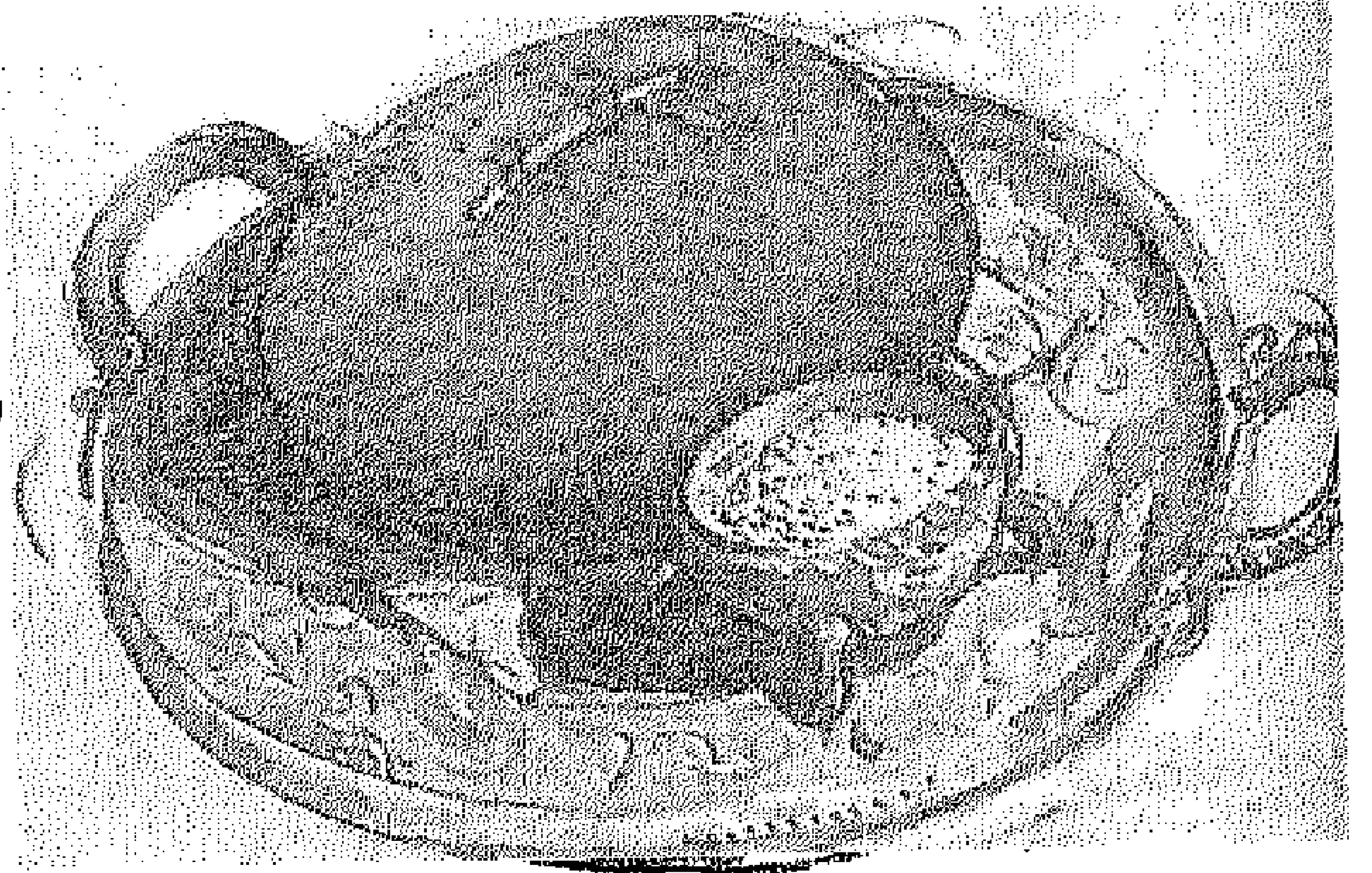
في اليوم التالي حملت أمي مكنسة صغيرة مصنوعة من أغصان طرية، ولوح صابون، وحوضي استحمام من صفيح، وقالت: "هيا يا زوجي العزين، استحم. وسأفرك ظهرك لكي تذهب اليهم نظيفاً."

ثم أخذت ملاءة وربطتها الى حبل الغسيل وأقامت شبه خيمة في فناء المنزل. واذ هممت بادخال مزيد من الماء الساخن الى الخيمة نهرني سلافا هامسا: "أيتها

الحمقاء، اتركيهما وشأنهما. ألا تعلمين أنهما سيفترقان؟ ومن يدري كم يطول الفراق؟"
ساد الهدوء الخيمة بعد أصوات الغسل، وسمعنا أبي يقول لأمي ملاطفاً: "عزيزتي ناتاشا، كيف أتركك على هذه الحال مع الاولاد..." ثم غاب صوته وخنقته العبرات.
وسمعنا أمي تتلو كلمات لم أسمعها قبلا... كلمات صلاة. وشاركها أبي في ذلك.
قلت: "سلافا، انهما يصليان!"
واستجاب سلافا وانضم اليهما في الصلاة.

الالمان قادمون

كانت بلدتنا في حال غليان واضطراب. فقد اقترب الجيش الالماني وبدأ أعضاء الحزب وعائلاتهم ينزحون عن فيودوسيا. كذلك فعل اليهود وعلى رأسهم الاعضاء في الحزب، ولكن بقي في البلدة نحو ألف يهودي.
وما لبث جنودنا أن رحلوا هم أيضاً. وكانت الشاحنات المليئة برجال الشرطة السرية والمفوضين المنسحبين تمر مسرعة على الطريق. وحين شاهدهم سكان البلدة هكذا خرجوا من بيوتهم مفعمين بحيوية غريبة. واقترح احدهم: "لننظف فناء منزلنا." وراح آخر يغسل النوافذ. وانبعثت رائحة الخبز الطازج شهية من عدة مساكن. وكانت العادة السلافية القديمة الترحيب بالغرباء بتقديم الخبز والملح اليهم.



أخرجت والدتي الدقيق والخميرة قائلة: "نينا، حضري العجين. اشعر بصداع شديد وأرى بعينيَّ ألوان قوس قزح، خصوصاً بعيني اليمنى."
كانت أمي تصاب غالباً بتلك النوبات الغامضة. لكنها لم تقلق لأن الاطباء عزوا ذلك الى انقطاع الدورة الشهرية.

وفيما كنت أعجن بنشاط نظرت الى أمي، وبعدما راقبتني قليلا قالت، وقد بان عليها الارتباك: "نينا، أنت جميلة، وطويلة جداً. تبدين كأنك في السادسة عشرة من عمرك. وهؤلاء الالمان جنود بعيدون عن نسائهم. من يدري كيف سيتصرفون؟ هيا، ارتدي سترتي البنية. ها هي. واليك تنورتي بدلا من هذه القصيرة."
عملت بما قالته أمي. وفي اليوم التالي وقفت واياها في الشارع مع الرجال والنساء المحتشدين في انتظار الالمان. وراح بعضهم يهتف: "الالمان قادمون!" فيما كان

آخرون يبكون ويضحكون في آن ويرددون: "محررونا قادمون!" وركع بعضهم على الرصيف وفي الطريق للمرة الاولى منذ سنين وبدأوا يصلّون جهاراً غير وجلين، وتساءلت ماذا أفعل، أأجثو على ركبتيّ؟

في تلك اللحظة اذ هممت بثني ركبتي قفز سلافا من فناء منزلنا حيث كان منزوياً وأمسكني حائلا دون ركوعي، وهمس في أذني: "لا تكوني حمقاء!" ثم جرني الى أمام سلمنا وتابع: "أتذكرين كيف كان جارنا يتكلم عن الثورة وعن التغيير الذي سيعمّ روسيا؟ ان الثورة لم تحرر أحداً يا نينا."

"اذا، الالمان لن يكونوا محررين هم أيضاً. ولن يجلبوا لنا الا فجراً كاذبا آخر."

تفرست في وجوه جيراننا فرأيتهم فرحين يفيضون حماسة ومرحا ورجاء. فقلت لأخي: "وأنت لست سوى فتى متشائم بالفطرة."

ثم سمعت مايا وأمي تهتفان: "أسرعي يا نينا، قد اقترب الالمان، اننا نراهم!"



حمل سكان فيودوسيا الخبز والملح الى الجنود المشاة. وأحنى بعض المسنين رؤوسهم وفق التقليد السلافي قائلين: "أهلا بكم الى روسيا الأم."

عند الغسق رجعتُ ومايا الى ساحة دارنا، فتبسمت لنا جدتها وقالت: "هؤلاء الالمان جماعة طيبون، فلا داعي الى القلق بعد الآن."

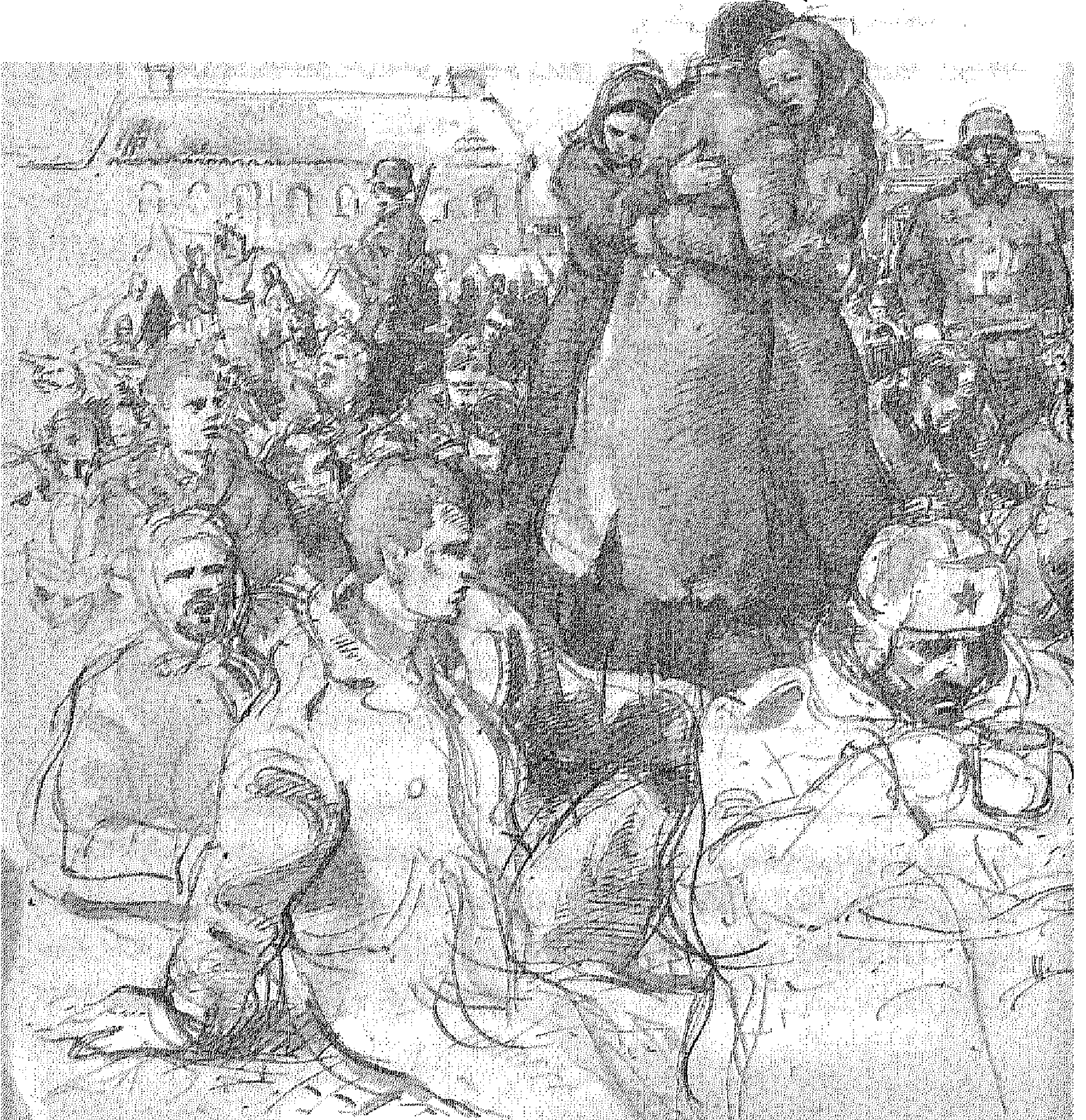
استقر الالمان في فيودوسيا، وجنِّد الاشخاص الملمون بالالمانية للعمل في وظائف كتابية في مركز القيادة أو كمترجمين. ونظمت الجوامع والكنائس وأعيد فتحها للمؤمنين.

وظهرت حشود من الخياطات والنجارين وصانعي الاحذية وراحوا يطوفون مبتهجين من مسكن الى آخر. وكان العمل بهذه المهن محظوراً الا تحت مراقبة الدولة. وأعلن اليهود استعدادهم لتعليم الالمانية والموسيقى. وانتظم البعض في خدمة الالمان

كمصلحي ساعات وأحذية. كذلك فعل الخياطون مبدين استعدادهم لاصلاح بذلات الجيش الالماني.

جمع الشمل

مرت ثلاثة أسابيع على الاحتلال الالماني خالية من الاحداث. وأطل ٢٠ نوفمبر (تشرين الثاني) بارداً منعشاً. واذا بجارتنا تهتف بأعلى صوتها في فناء منزلها: "يا نساء الحي!" فامتلأ الفناء بالنساء اللواتي أقبلن على الفور لاستطلاع الاخبار.
صاحت الجارة: "ان المئات من رجالنا موقوفون في الساحة... أسرى حرب!"
كانت الساحة تعجّ بالرجال. فشققنا طريقنا بين الأسرى. قالت أمي: "انظروا!"



وأومأت بحنان الى سجين يهرول نحو صبيَّة ويعانقها ويبكيان كلاهما فرحاً. وقال أحد الحراس الالمان للصبية: "خذيه، فتوفرين علينا اطعامه. ولكن حذار أن تخبئيه، لاننا قد نستدعيه ثانية."

رحنا نمشي هنا وهناك ونتفرس في كل رجل يشبه والدي ونسأل تكراراً هل أحد يعرفه. واذا برجل غاف يتحرك فجأة ويحاول النهوض. كان مصاباً في يده اليسرى وأصابعه سوداء متورمة وبارزة من تحت ضمادة رمادية فاحمة. فتحامل على نفسه ونهض وخطا في اتجاهي.

بدا في الستين من عمره وقد غطى وجهه سالفان رماديان أشعثان. وعلى صدره رقم ثبته الالمان، فهو الاسير الرقم ٤١٠.

دلت وقفته على إنهاك كلي، كأن لا قدرة لخصره على ابقاء جسمه منتصباً. فأخذ يسراه المجروحة بيمناه علّ ذلك يخفف الالم، وظل يقترب مني كأنه يريد استعطاء الخبز.

واتسعت عيناه السوداوان الكبيرتان عاكستين في أعماقهما الفرح والالم والدموع. هاتان العينان الملوّنتان بدكنة الكرز الناضج. اني أعرفهما من بين كل العيون على الارض. إنهما عينا أبي.

صرخت: "أمي! تعالي!" وجمدت أرتعد في مكاني غير مصدقة، حتى سمعت صوته العذب الحميم يتغلغل في حواسي. كان كما عهدته، لم يتغير أبداً.

قال: "نينا هذا أنا." وبسط يديه ليعانقني.

أسندت رأسي الى صدره وانهمرت دموعي وأنا أردد: "أبي! أبي!"

وهرعت أمي الينا دافعة الجمع في طريقها:

"عزيزي مارك!" وراحت تمرر يدها برفق على خده المنهك ويده اليسرى في يدها كأنها تريد مشاركته في ألمه. قالت: "أتذكر الغجرية يا مارك؟ كانت على خطأ! آه، كم كنت خائفة أن أفقدك."

ووقفنا نبكي ونتعانق وحولنا مئات الغرباء ينظرون الينا وفي عيونهم شيء من الحسد.

مثل رقاقة ثلج

بدأ الألمان يعانون عَوَزاً شديداً. وكان هتلر يخطط لاكمال عملية برباروسا قبل مطلع الشتاء، ولكن شاء القدر خلاف ذلك. ففي فصل الخريف هطلت أمطار غزيرة مصحوبة ببرد قارس أرجف العظام. فتحوَّلت الارض محيطات من الوحل، وهلكت ألوف الجياد وتعطلت أرتال من الدبابات والشاحنات.

وحلّ الشتاء منذراً بأنه أبرد شتاء عرف الى الآن. وحين اقترب الالمان من موسكو انقطعت عنهم الامدادات الغذائية لسوء أحوال الطرق، مما دفع الجنود الجائعين الى التهام جيادهم. ورافقت أكل اللحم النيء اضطرابات معدية خطيرة مصحوبة بتقيؤ شديد. وفي نهاية ديسمبر (كانون الاول) بلغ عدد ضحايا حرب هتلر الخاطفة ٨٠٠ ألف قتيل.

في غضون ذلك كانت سلطة فرق "الصاعقة" (الشرطة العسكرية النازية) امتدت الى فيودوسيا، الى شارع كارل ماركس وفناء منزلنا.

صباح اليوم الاول من ديسمبر (كانون الاول) وجدنا ملصقاً على بوابتنا يعلن أن على كل السكان اليهود الحضور الى الساحة خلال ٧٢ ساعة بغية "اعادة توطينهم" وألا يحملوا معهم الا "أغلى مقتنياتهم الشخصية." كان والدي جالساً، متجهماً على عتبة بابنا، فقال: "اليهود عندنا محكوم عليهم بالهلاك. لقد سقط المنجل على حجر."

فقاطعه أحد الجيران: "كفّ عن الثرثرة يا مارك، قل لنا ماذا تعني."

قال والدي: "أعني أن هتلر صنف شعبه على أنه الشعب المختار، وليس اليهود. هو منجل الحصاد، وهم الحجار. وتتعيَّن ازالة الحجار. هل تفهم؟"

أعقبت ذلك مناقشة حامية، وسأل أحدهم: "إذا كان هتلر يسعى الى إبادة اليهود، فلماذا تتركهم الحكومة السوفييتية هنا؟"

أجاب آخر: "لقد رحَّل السوفييت كل أعضاء الحزب من اليهود، وهم لا يهتمون للباقين."

واذا جارتنا ناديا تسرع نحونا هاتفة: "هناك اشاعة مفادها أن كل اليهود في فيودوسيا سيرحَّلون الى فلسطين!"

وسرت هذه الاشاعة كالنار في الهشيم.

مرت ٧٢ ساعة. وجلست في بيت مايا أودعها وقد غمرني الحزن لفراقها. رأيتها مرتدية معطفها الفرو الأبيض وجزمتها الجلدية وقبعتها البيريه البيضاء مائلة على رأسها. فحسدتها، بل شعرت بقليل من الامتعاض.

قلت: "ها أنت مهيأة للسفر الى العالم الواسع، وستشاهدين الكثير." وحدقت الى عينيها المتوهجتين.

قالت "أوه، نعم انها مغامرة." ثم تغيرت نبرتها فجأة وغابت عنها الابتسامة وأمسكت بيدي وقالت وجلة: "ولكن ماذا لو... ماذا لو..."

قاطعتها: "ماذا" وتلاشى فيَّ كل حسد.

قالت: "ماذا لو قرر الألمان قتلنا. ماذا لو صحَّت الاشاعات؟"

ساد الغرفة سكوت. فقالت أمي مواسية مطمئنة: "مايا، فكري يا ابنتي. لماذا يريد

أحد أن يؤذيك؟" ثم ضمتها اليها وراحت تمرر يدها على شعرها المجدول.

بعد لحظات اقتحم الغرفة عسركيان من "الصاعقة" من دون أن يقرعا الباب آمرين: "اليهود! الى الخارج! حانٍ وقت الرحيل."

تبادلنا القبل الاخيرة. ولحقتُ جيراننا الى الشارع فشاهدت مايا تجتاز المنعطف حاملة رزمتها بيد ويدها الاخرى في يد أمها.

مثل رقاقة ثلج! ذلك كان انطباعي الاخير عن مايا: مجلببة بالبياض، هشة، ذائبة، متلاشية، كرقاقة ثلج.

ازدحمت الطريق الرئيسية باليهود السائرين، وكانوا يمشون على مهل والى جانبيهم حراس من فرق "الصاعقة." وكانوا جميعهم مرتدين أحسن ما لديهم كأنهم في طريقهم الى حفلة عيد.

ورأيت معلِّم الرياضيات، والطبيب الذي لم يحمل الا حقيبته السوداء، وكلاهما سائران مع الجمع. فتبعناهما بأنظارنا الى أن غابا في بُعد الطريق.

جلست في رواقنا أتأمل منزل مايا الفارغ وقد سدّ بابه ونوافذه بألواح خشبية متصالبة. واذ بدأ الظلام ينسدل تناهت الينا أصوات رشاشات كتمها بعد المسافة.

وهتفت أمي قلقة: "الأنصار أيضا."

فقال أبي: "كلا، الرصاص غير متقطّع." وهمس في أذن أمي: "أصدقاؤنا. أرجو الا يكونوا يموتون في هذه اللحظة."

لكنهم كانوا يموتون!

وكانت الشاحنات تنتظر في الساحة لنقلهم الى الميناء، كما ادعى النازيون. لكنهم كلهم، وعددهم ٩١٧، اقتيدوا الى منطقة خارج البلدة محاطة بصفوف من الخنادق العميقة المضادة للدبابات. فأمروا بالقاء رزمهم وخلع ملابسهم وتسليم كل ما معهم من مجوهرات. ونقل الاولاد الى حافلات الصليب الاحمر. وهناك كانت عناصر طبية من "الصاعقة" في انتظارهم. فلقي الصغار حتفهم بسرعة وهدوء ووجوهم مغطاة بأقنعة مشبعة بمادة الاتير المخدرة كي لا يقلقوا والديهم بصراخهم.

وصُفَّ الباقون في مواجهة الخنادق. ثم انهمرت الطلقات الرشاشة التي سمعتها وأنا جالسة في رواق منزلنا. فتفجرت في حياتي وفي كياني ألماً صارخا.

في ٧ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤١ وقع الهجوم الياباني على بيرل هاربور في جزر هاواي. كان ذلك يوماً مأسوياً للأمريكيين، أما بالنسبة الي فكان يوما كئيبا مملا. كانت تلك الاحداث التي وقعت بعيداً جداً عن فيدوسيا عاملا بالغ الأهمية في تقرير مصيري، لكنها لم تغير نهاري ذاك.

في الايام الاخيرة من الشهر أمر الالمان والدي وبقية الأسرى بالتجمع في المحطة لنقلهم خارج فيودوسيا. وكم تمنيت لو أن يده شفيت، لو أنه أصغر سنا. رحت أعدو في محاذاة القطار وأنادي: "أبي، أبي!" واذا بيد تحاول التلويح، ثم ظهر وجه أبي وقد بان عليه القلق الشديد. وناداني من باب المقطورة السابعة بصوت أجش تخنقه العبرات: "نينا! نينا! الوداع!"

صرخت متوسلة: "مهلا! أبي! مهلا! لا تذهب. أوقفوا هذا القطار!"

لكن القطار لم يتوقف.

المسلولة

في غضون ذلك كانت البوارج الحربية السوفييتية تتسلل الى شواطئنا. وبعد بضعة أيام من رحيل والدي بدأت القنابل تسقط على فيودوسيا.

شمل القتال الضاري كل بناء وكل سلَّم وكل جزء من فيودوسيا. واحتمى بعض الجنود الالمان خلف بوابتنا ومعهم قنابل يدوية ورشاشات لقتال العدو الزاحف، وهم قُتلوا في مواجهة حامية. وكان سياج منزلنا مرصوفا على الجانبين بالجنود القتلى.

في الحادية عشرة صباحا كان شارع كارل ماركس نُظّف من الجنود الالمان.

ساد الهدوء فترة قصيرة قبل قدوم الموجة التالية من الجنود. وكانت أمي متخوفة، فارتدت هي ملابس قديمة رثة وقصّت شعرها الكثيف المتموج حتى جلدة الرأس وألبستني تنورة طويلة بشعة.

حضنتني أمي كأنها تبغي حمايتي من العالم، وقالت: "نينا، أتتذكرين ليدا صديقتك في دولوفو وشقيقتها كاتيا؟ لقد ماتتا بداء السلّ. وكانت كاتيا شاحبة وشفتاها زرقاوين والبقع الحمراء تغطي خديها والحمى تنهشها. هؤلاء الجنود يخشون داء السل أكثر مما يخشون الرصاص."

لذا عمدت الى تحويلي فتاة مسلولة بعملية تنكّرية دقيقة. فلزمتُ الفراش الذي عُلّقت حوله ملاءة تقي أهل المنزل الجراثيم الفتاكة. وأمسكتُ بيدي منديلا مدمّى، وكُسي أعلى الملاءة القريب من وجهي ببقع حمراء قانية من دم سلافا الذي جرح رجله بموسى أبي. وأطّرت عينيَّ ظلال عميقة قاتمة. وبانت على خدَّي بقع حمراء في أماكن متفرقة من عصير الشمندر المبشور ممزوجاً مع الماء.

قبيل الظهر دخل الجنود ساحة بنايتنا، فتفرقوا مجموعات واندفعوا الى الشقق السكنية، فتعالى صراخ النساء وكان ينفذ الى أعماق القلب. وكان الاولاد يبكون. وفي الشقق التي يسكنها مسنّون سمع تحطم صحون ونوافذ بأعقاب بنادق. ونهبت أكياس الاغذية فيما الناس يتوسلون الى الجنود: "اتركوا لنا بعض الغذاء! سيعضنا الجوع."



فيجيبهم هؤلاء: "موتوا جوعا أيها الاشقياء! تستقبلون الجنود الفاشيست الألمان بالخبز والملح!"

واندفع ثلاثة جنود الى شقتنا. وحاول أولهم انتزاع الملاءة التي تحجب ركني فبادرته أمي بحزن: "ابنتي المسكينة! أنها تحتضر. ستموت بداء السل قريبا."

أزاح الجندي الملاءة وراح يحدق الي.

فحركت شفتي الملطختين بالدم متذكرة منظر ليدا وهي على فراش الموت. وفتحت عينيَّ بعياء وقد غاب خوفي وغضبي خلف قناع المرض المهلك. وقلت لامي بصوت كاد لا يسمع: "ماما... عطشانة."

واذا بالجندي المقتحم يبصق علي ويخرج من بيتنا مع رفيقيه.

ركعت أمي الى جانب السرير وبكت. ورفعت شكرها الى الله مصلية فيما كان سلافا يردد: "يا للأشقياء! يا للأشقياء!"

وصليت أنا أيضا وحمدت الله. وداخلي شعور غامض ممزوج بالأسى لنجاتي من المهانة التي أصابت كثيرات.

بعد ثلاثة أسابيع من الاجتياح والاهتياج والوحشية انسحب الجيش الأحمر وعاد الالمان الى احتلال فيودوسيا.

في اليوم الاول من مايو (أيار) ١٩٤٢ وجدنا ملصقاً جديداً على سياج دارنا يدعو كل سكان فيودوسيا الاقوياء الذين تراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والخمسين الى تسجيل أسمائهم للعمل في ألمانيا، وسيكونون أحراراً في العودة الى منازلهم بعد انتهاء الحرب. وأمل الألمان أن يبلغ عدد المسجلين ألفاً في الدفعة الاولى، ولكنه تم تسجيل ثلاثة آلاف.

عمال من الشرق

بعد بضعة أيام من ظهور الملصقات كانت صديقتنا الممرضة تانيا تتناول الشاي معنا. واذا بأمي تئنّ ألما، وقالت: "عزيزتي تانيا، هل عندك شيء لهذا الصداع؟ أرى أقواس قزح. وأشعر بأني سأفقد بصري."

وضعت تانيا فنجان الشاي على الطاولة وقالت بنبرة حازمة: "لا تهلعي يا ناتاليا. لكني أعتقد أنك تفقدين بصرك فعلا. فهذه أعراض داء الزرق (غلوكوما). لماذا لا تسجلون أسماءكم أنتم الثلاثة للذهاب الى ألمانيا؟ فهناك تمكن مداواة عينيك. يجب أن تفعلي شيئاً والا استيقظت ذات صباح لتجدي نفسك عمياء تماما!"

فهتفت أمي: "وماذا عن مارك؟ قد يعيدونه الى البلدة في أي يوم."

فطوقتها تانيا بذراعيها سائلة: "أتريدينه أن يقوم بأود زوجة عمياء؟ ها هو زوجي أيضاً في الحرب، وأنا أدرك شعورك. ولكن اذا رجع مارك فأنا هنا. أرسلي الي عنوانك وسأتصل بك."

شعرت أمي بخجل من هذه المرأة الأصغر منها سناً والتي حطمت الحرب حياتها هي أيضاً. فوقفت وأعلنت بعزم أننا سنسجل أسماءنا في الغد للذهاب الى ألمانيا.

رحلنا في ٢٥ مايو (أيار) على متن قطار مؤلف من ٣٣ مقطورة لنقل المواشي. وكان هناك دلو قرب الباب كمرحاض. مررنا ببولونيا ويوغوسلافيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا. وفي اليوم الخامس توقفنا في بقعة جبلية رائعة. ففتح الحراس أبواب المقطورات صائحين: "انزلوا، لقد وصلتم!"

كنا في بافاريا في بلدة ماركتردفيتز القريبة من الحدود مع تشيكوسلوفاكيا. رحنا نتمطى، ونزلنا ومعنا رزمنا. ووقفنا على أرض المانية للمرة الاولى.

وما عتمنا أن اكتشفنا أننا "عمال من الشرق" محرومون الحقوق وأفضل قليلاً من العبيد. كان الملصق المليء بالوعود في فيودوسيا مجرد غش وكذب.

ومع ذلك تدبّر مُستخدمنا الاول – وهو صاحب معمل للخزف الصيني (البورسلين)

بالقرب من ماركتردفيتز - إجراء جراحة داء الزرق لأمي. فأرسلنا نحن الثلاثة الى ريغا، مسقط رأس أمي في لاتفيا، لان الاطباء الالمان في بافاريا لا يسمح لهم بمعالجة عمال من الشرق. وبعد الجراحة وضعنا ثانية في قطار انطلق من ريغا الى جهة مجهولة.

في القطار جلس قبالتنا زوجان متوسطا العمر وابنتهما التي كانت في عمر سلافا واسمها زينيا. كانت والدتها رايسا ميخائيلوفنا ووالدها بوريس فيودوروفيتش كلاهما معلمين في المدرسة الثانوية في لينينغراد. وقد طردت العائلة من ريغا حين انتهت مدة الاذن الذي مُنحه أفرادها لزيارة أقربائهم.

وبعد يومين توقف القطار. ففتحتُ النافذة لاقرأ اسم البلدة. كنا في بولونيا، في مكان يدعى لودز. قال لنا بوريس فيودوروفيتش: "في هذه البلدة معامل نسيج." تطلعنا حوالينا فبانت لنا المعامل مهجورة.

انكشاف كنز

سمح لأمي، بسبب الزَرق في عينها، بالبقاء في المخيم والاهتمام بأمور المطبخ وتنظيف الثكنة. واقتيد سلافا وبوريس فيودوروفيتش للعمل في مصنع للفرو حيث تعالج جلود الارانب لتبطين البذلات الرسمية ولصنع القفازات والقبعات. وأُرسلت أنا وزينيا الى بناء قرميدي من طبقتين كان في الماضي معمل نسيج وحوِّل مستودعا للملابس المستعملة. وغلبت علينا الرهبة أنا وزينيا. كانت هناك غرف واسعة ملأى بألوف الالبسة من قمصان وفساتين وسترات من أجود الفراء وأفخر المخمل، فمن أين أتت كل هذه الملابس؟ ومن كان يرتديها؟

"يا بنات! توقفن عن التحديق. اطبقن أفواهكن." كانت تلك رئيستنا، المشرفة علينا وهي تصفق بيديها لتخرجنا من ذهولنا. قالت: "أنا السيدة إيما، ناظرتكن الرئيسية. أنتن من لاتفيا، من بلدان البلطيق."

ولأننا لاتفيات لا روسيات بدا كأننا سنعيَّن للقيام بأعمال "امتيازية."

كان عملنا اصلاح الملابس، كما أخبرتنا السيدة إيما. ورمت الى زينيا تنورة فيها ثقوب عدة وقالت: "بما أنكما لا تحسنان الخياطة، فسأدعكما تفتّقان مثل هذه التنورة. فتّقيها واطوي قطعها بترتيب. سنخيط منها ثوباً لاحد الاولاد. وأنتِ، اليك هذا الفستان، ابدأي تفتيقه." ورمت الي ثوباً رثاً. أما رايسا ميخائيلوفنا فأسند اليها اصلاح الهوامش والاطراف.

وأكببنا أسبوعاً بعد أسبوع على تفتيق الملابس المستعملة. وكنت أتساءل من أين تأتي هذه الملابس كلها. ثم أسرت الينا إحدى الخياطات البولونيات التي وثقت بنا بعد

رفقة طويلة أن الحمولات الجديدة آتية من قرية أوشفيتز. لم يعنِ الاسم شيئاً لي، لكن العاملة البولونية وضعت اصبعها على فمها كأنها تأمرني بالسكوت.

وكنت أعمل على تفتيق سترة قذرة، فمررت اصبعي على شيء غير عادي. أهي رسالة؟ كنت على وشك مناداة السيدة إيما، واذا بورقة خضراء تنبسط في يدي وقد طبع عليها اسم "الولايات المتحدة الامريكية" بالأحرف اللاتينية وفي كل من زواياها طالعني الرقم مئة. انها ورقة مالية بقيمة ١٠٠ دولار.

تابعت عملي، لكن راحتيَّ ندَّتا عرقاً لشدة تأثري. ثم لمست أصابعي انتفاخاً في لفقة السترة واذا فيها مئة دولار أخرى. يا الهي! في هذا الوقت كانت رايسا ميخائيلوفنا لاحظت الارتباك على وجهي وأدركت أن أمراً غير عادي قد حدث. فمالت زينيا نحوها وهمست كلمة واحدة: "كلاد" أي كنز. وفهمت رايسا على الفور، اذ ترددت اشاعات عن العثور على قطع نقود ذهبية وساعات ومجوهرات مخبأة في لفقات الملابس.

أيا تكن صاحبة تلك السترة، فقد كانت لها غاية في تخبئة الكنز.

وحين شاهدت رايسا ميخائيلوفنا شدة اضطرابي هتفت الى الخياطات: "هيا يا فتيات! لننشد أغنية للسيدة إيما." وفيما الجوقة تنشد لناظرتنا بحماسة عدت الى تفتيق السترة فوجدت ورقة أخرى بقيمة ١٠٠ دولار وورقتين كلا بعشرة دولارات وثلاث أوراق كلا بخمسة دولارات.

صرفت أمي بعضاً من هذه الدولارات لترشو أحد الحراس عله يأتينا بخبر عن أبي. أهو ميت أم حي؟ ولكم تحرّقنا لمعرفة مصيره.

انهيار سلافا

في ابريل (نيسان) من عامي السادس عشر نقلنا الى مخيم في كروفنكل حيث عملنا عشر ساعات في اليوم من غير أن نرتاح حتى في بعض الآحاد.

وتعاقبت الأيام رتيبة. وأمضتنا العزلة التامة في الثكنة أكثر من رائحة حساء الملفوف ومن البطانيات التي تعج بالقمل ومن دلاء المراحيض. وخسرنا كلنا من وزننا بسبب الانهاك الجسدي، ولكن لم يكن ذلك وحده ما أثر في صحتنا. كانت كروفنكل مصنع ذخيرة حيث عملنا في تجميع ما يشبه القنابل اليدوية. وذات يوم سرت اشاعة أننا نصنع قنابل «V-1» الفتاكة.

وساءت صحة سلافا يوما بعد يوم. وبلغ منه العياء والضعف حداً فكاد لا يقوى على الوصول الى سريره مساء. وذات صباح وهو ذاهب الى العمل قال لي: "يا أختي، أشعر بغثيان وارتخاء وكأن الارض تنهار تحت قدمي."

أمسكته من جانب وأمسكته زينيا من الجانب الآخر. ثم تبادلت العمل واياه، فانتقلت الى طلي الحلقات التي توضع على القنابل، وكنت أستنشق الأبخرة الكريهة.

وقبل اطلاق صفارة استراحة الظهر ترنح سلافا وسقط عن كرسيه. فأسرع الينا الناظر صائحاً: "عودا الى العمل!"

قلت: "أخي مريض! دعني أخرجه الى الهواء المنعش." وباشرت سحب سلافا الى الباب. لكن الناظر رفع هراوته المطاطية وضربني، ثم انهال على سلافا مستهدفاً رقبته وأعلى رأسه.

صرخت: "توقف!" ورفع سلافا يديه فوق رأسه محاولا اتقاء الضربات العنيفة. ولم يتوقف الناظر عن ضربه كمسعور حتى كاد يغمى عليه.

كان سلافا منطرحاً على الارض شبه مائت وهو ينزف وعيناه مغمضتان. وراعني أن أتركه في هذه الحال. فركضت باكية الى مكتب الكولونيل، رئيسنا، وقلت له: "سيدي الكولونيل! الحارس ضرب أخي!"

قال الكولونيل: "العقوبة الجسدية القاسية ممنوعة في هذا المكان. أسرعي بأخيك الى الطبيب!"

بقي سلافا في غرفة الانتظار في العيادة طوال بعد الظهر. وقال لي الطبيب: "من الضروري أن يرتاح من العمل، ولكن ليست لي سلطة إعفاء أي منكم أنتم عمال الشرق لأكثر من أسبوعين."

بعد بضعة أيام جاء حارس في طلب أمي. ولدى دخولها مكتب الكولونيل ناولها شهادة ظهرت فيها كلمة "أوردروف" واضحة تماما.

تملك الذعر أمي فقالت للكولونيل: "هل يتعين على ابني الذهاب الى أوردروف؟ الى مخيم الاعتقال؟ هذا يعني موت فتايَ المريض حتماً."

ظل الكولونيل هادئاً جامد القسمات كأنه يأبى اشراك نفسه في الصراع الداخلي العاصف بهذه الروسية المنكوبة شبه العمياء الموشكة على فقد ولدها. ثم أدار لها ظهره وقال بهدوء: "الحرب قاربت الانتهاء. وقد تلقيت أوامر بارسال ثلاثين شخصاً الى بلدة تريبتيس. ستذهبين أنت أيضاً."

أصغت والدتي من دون تعليق ومن دون أن تفهم ما شأن ذلك بمصير سلافا. ثم سألت الكولونيل: "وماذا لو كانت مصانع الذخيرة في تريبتيس تحتاج الى عمال؟ لن يكون ابني قادراً..."

فانحنى الكولونيل فوق المكتب وقال لها بصوت خفيض: "لا مصانع ذخيرة في تريبتيس. سأزودكم أوراقاً موقتة تثبت أنكم من البلطيق. وفي امكان عائلة أخرى من ثكنتكم الذهاب الى تريبتيس أيضاً. والله معكم."

في مطلع فبراير (شباط) ١٩٤٥ تعيَّن تقرير مصيرنا في المؤتمر الخطير الذي سيعقده قادة الحلفاء الثلاثة في يالطا. مصيرنا نحن؟ يقرره ثلاثة غرباء؟ ومن يضمن لنا الحرية إن عدنا الى حكم ستالين؟

بعد انتهاء مؤتمر يالطا بدأ الحلفاء قصف ألمانيا بعنف لم يسبق له مثيل.

بروشكاي! بروشكاي!

قرابة الثانية فجراً في ١٤ فبراير (شباط) انطلقت صفارات الانذار تدعو الناس الى الملاجىء. وفي الشمال الشرقي توهج الأفق بلون وردي. أهو شروق الشمس؟ لكن الشمس لا تطلع في الثانية صباحاً.

قال بوريس فيودوروفيتش الذي جاء معنا من تريبتيس: "سمع أحدهم أن درسدن قصفت بالقنابل، ولكن من الصعب التصديق ان ذلك الوهج ناجم عن قصفها لأنها تبعد عنا ١٥٠ كيلومتراً."

وقال سلافا مفكراً بصوت مسموع: "اذا كانت تلك حرائق في درسدن فلا بد من أنها تكتوي بجحيم أرضي." وكان ذلك فعلا ما حدث، اذ أفيد أن مئة ألف قتيل ذهبوا ضحية القصف المدمر.

ثم وردت أخبار أن الامريكيين غير بعيدين عن تريبتيس. وأقبل الربيع واكتست المروج حلّة سندسية خضراء. ووافانا شهر أبريل (نيسان) حاملا الأماني والوعود البراقة. ومرّ أسبوعان، واذا بصوت بوريس العميق يدوي كجرس قوي. "الامريكيون هنا! انظروا جميعكم!"

شخصت الى الطريق العامة وقد اتسعت عيناي دهشة. كانت الطريق تموج بالرجال والعتاد من دبابات وسيارات "جيب" ودراجات نارية. كان ذلك صباح الاحد في ١٥ ابريل (نيسان) ١٩٤٥، وكان لنا يوم خلاص وحرّية. هرعنا جميعاً الى الطريق نهتف الكلمات الانكليزية التي نعرفها: "أمريكيون! أصدقاؤنا! شكراً لكم. أنتم محررونا!"

عدت بذاكرتي الى ذلك اليوم من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤١ في فيودوسيا حين قال لي سلافا ان النازيين ليسوا محررين حقيقيين وأن فجرهم الموعود ليس الا فجراً كاذباً. ولكم كان محقاً يومذاك. وها هو الآن متكىء على ساعد أمي، شاحباً عليلا وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره. واستدار نحوي كأنه قرأ أفكاري وقال: "يا اختي، ان فجر هذا اليوم هو فجر حقيقي. انه فجر تحرير حقيقي."

أغدق الامريكيون على مخيمنا بطانيات وملاءات ومناشف وأدوية وفيتامينات. وحلّ بيننا أطباء وممرضات. وكانت اليخنة الدسمة تقدم الينا يومياً، ولم يعد ينقصنا الحليب والبيض والدهن.

تبسّم لنا المستقبل. ولم يعتزم أحد في المخيم العودة. لم نكن شعباً كسولاً، بل كنا متشوقين الى العيش بجهدنا الذاتي ولا نطلب سوى السماح لنا بالبقاء على أرض حرة واثبات جدارتنا.

ذات يوم في مطلع يونيو (حزيران) قدم الى مخيمنا ضابط أمريكي كبير فدعانا جميعاً الى المقهى معلناً أن لديه أخباراً مهمة. وكان يرافقه مترجم أمريكي هو رقيب في أواسط العشرينات من عمره يدعى جوليوس.

أعلن الضابط: "يا إخوان! سيأتي الى المخيم غداً ضباط سوفييت لتدوين أسمائكم وأماكن ولادتكم واقامتكم قبل مجيئكم الى ألمانيا. سيقابلون كل واحد منكم ويشرعون في اعادتكم الى أوطانكم."

فصاح الجميع غاضبين: "لن نعود!" وكنا نرتعد خوفاً.

بدا الامريكي مستاء وقال: "ماذا في الامر؟ هل أنتم مجرمون أم خائفون لتعاقبوا كمجرمي حرب؟"

وكان بوريس بشخصيته القوية وصوته الغاضب يطغى على كل من في البناء. فصاح: "لسنا نحن المجرمين."

ثم سمعتُ صوتاً حميماً مألوفاً عرفته صوت أمي. تقدّمت وتوسلت الى الضابط الامريكي: "سيدي الضابط، أتوسل اليك، لا ترغمونا على العودة."

قال الضابط: "بحق السماء! كفّي عن هذه العاطفية المثيرة."

خيّم غمّ عميق على الجميع. فما العمل؟ والى أين نذهب؟ لكي نغادر المخيم كان يتعين علينا الحصول على اذن وجواز مرور من الامريكيين الذين لم يأذنوا لأحد لأن المطلوب منهم تسليمنا الى السوفييت.

جاءنا جوليوس ذات مساء تحدوه رغبة صادقة في تفهّم واقعنا. وسألني: "نينا، لماذا يبدي شعبك هذا الخوف الكبير من العودة؟"

كيف أشرح لرجل أمريكي مدى الشر والقساوة في واقعنا؟ أأخبره عن الجوع والوحشية والخوف المتواصل من السلطة الغاشمة والعزلة القسرية المطلقة عن بقية العالم؟

في تلك الليلة قلت لسلافا: "سنرحل بعد غد نحن الثلاثة. ولن نحمل معنا شيئاً. لا حقائب ولا رزماً. سنحشو جيوبنا سجائر أمريكية للمقايضة عند الحاجة." قلت له ذلك همساً وبصوت أجش قوي، كرئيس يصدر أمراً.

قال: "ولكن يا نينا، ما المسافة التي تعتقدين أننا سنقطعها قبل أن أنهار كلياً؟"

أجبت: "لهذا السبب لن نحمل شيئاً. ستسندك أمك من جانب وأنا أعضدك من الجانب الآخر، واذا عجزتَ عن المشي فسأحملك. لست سوى قزم بالنسبة الي."

صباح اليوم التالي قدم جوليوس لرؤيتي. قال: "هناك كثير من الناجين في تريبتيس سيعودون الى موطنهم في منطقة الراين. ويُعمل الآن على اصلاح حافلة ركاب قديمة لنقلهم الى هناك. وثمة مقاعد متوافرة، ففي إمكانكم السفر معهم الى فرنكفورت أو ماينز."

وزودني جوليوس جوازات مرور حررها بنفسه من دون تفويض رسمي. ثم قبّلني بلطف وأسرع الى سيارته الجيب.

غلي عليّ التأثر، فانسكبت دموعي بصمت وأنا أردد له كلمات الوداع الروسية: "بروشكاي، بروشكاي جوليوس."

بيت الضيْق

أعيد الملايين من مواطنينا الى الاتحاد السوفييتي، وها نحن مسافرون في حافلة راجين الخلاص من ذلك المصير البغيض، ولا يفصلنا عن تريبتيس الا ٣٠٠ كيلومتر.

توقف السائق في محطة للسكة الحديد وسألنا: "أتريدون النزول هنا؟" وأشار الى جسر متهدّم يقطع نهر الراين: "أنظروا، هناك ماينز عبر النهر."

كانت معاهدة يالطا تضغط تفكيرنا ككابوس، فأملنا أن يكون النهر سداً عائقا في حال قرر الجيش الاحمر دخول هذا الجزء من المانيا.

أضاف السائق: "لكني أحذركم. لقد سمعت أن ماينز ستسلَّم الى الفرنسيين. وعلى هذا الجانب من النهر سيبقى كل شيء في أيدي الامريكيين."

سألناه بقلق: "الفرنسيون؟ هل كانوا في يالطا؟"

أجاب السائق وقد حيَّره سؤالنا: "لا أعتقد أنهم كانوا هناك." كانت تلك نعمة، فاذا لم يشترك الفرنسيون في مؤتمر يالطا فمعنى ذلك أنهم لم يعقدوا اتفاقا مع ستالين لاعادتنا عنوة الى الاتحاد السوفييتي.

فقلنا للسائق: "خذنا الى محطة السكة الحديد في ماينز!"

لكن الفرنسيين وقعوا اتفاقا منفرداً يقضي بتسليمنا. وبدأت السلطات تفتش عن الرعايا السوفييت. وفي ٨ يونيو (حزيران) ١٩٤٦ توقفت سيارة جيب أمام بنايتنا وفيها رجلان سوفييتيان يرافقهما ضابط فرنسي.

ارتعشت يدا امي وامتقع وجهها. قالت: "لن يطلبوا سلافا. وسأقول لهم اني من لاتفيا. ولكن أنت!"

قرع الباب، فوثبت واختبأت في خزانة الملابس وأقفلتها باحكام. سمعت كلمات الضابط الفرنسي في سكون الغرفة كأنها لسع سياط. قال لأمي بألمانية ركيكة: "سيدتي، انت وولدان ستعودون الى الاتحاد السوفييتي. هذا أمر!"

"لماذا؟" سألته أمي بصوت قوي هادئ، "أنا لست سوفييتية. أنظر!" وأبرزت للضابط شهادة ولادتها دالّة باصبعها على الكلمة "ريغا." وتابعت: "أترى يا سيدي؟ ريغا. أنا مولودة في ريغا وليس في الاتحاد السوفييتي."

أجال الضابط بصره ناحية الخزانة ذات البابين والمرآتين. فعرفت أمي أننا كلنا في خطر. ثم شَخَصَ الضابط نحوها وعلى شفتيه سؤال صامت، فرأى في عينيها توسلاً واستعطافاً ينفذان الى عمق ضميره في رجاء يائس: "كن إنسانياً. لا تسلّمنا."

مشى الضابط نحو الخزانة، فسددت أذنيّ كي لا أسمع وقع خطواته المقتربة. واذا بباب الخزانة يقفل باحكام. يا الهي! أسند الضابط مرفقه الى المرآة ورفع أمر الترحيل وكتب بتأن: "لا ذهاب الى الاتحاد السوفييتي، هم لاتفيون."

وهكذا قدرت لنا النجاة.

وعملت أمينة صندوق في "نادي الصليب الاحمر." وكانت ليلة رأس السنة تقترب، فملأت حقيبتي بالكعك المحلى والبسكويت والشطائر التي تركها الامريكيون. وعرض علي جندي اسمه هنري أن يوصلني الى منزلي في سيارته الجيب.

حين دخل هنري الى علّيتنا أخذته الشفقة وقال: "يا لصعوبة عيشكم في هذا الفقر المدقع!"

ولكن هل كنا حقاً عائشين في حال فقر؟ لو كنا في الاتحاد السوفييتي لكانت غرفتنا الصغيرة نموذجاً للوفرة والخصب.

لقد خرجت روسيا منتصرة من الحرب، لكن المجاعة كانت تجتاح البلاد جمعاء. وشدد ستالين القيود التي كان أرخاها ابان الحرب، وراح يدفع الناس الى المزارع الجماعية الحكومية. وكانت لستالين قوة لا حد لها.

وها هو هنري، صديقي الامريكي، يرثي لحالي ولعائلتي في تلك الغرفة الصغيرة الدافئة التي تشعرنا فيها كأننا في النعيم. فعلى مائدتنا شاي ساخن وقطع سكر وطبق عارم بالكعك المحلى. رفعت كأسي الى أمي وسلافا وشربت نخب "بقائنا أحياء!"

رفع هنري كأسه أيضاً قائلاً: "وأنا أشرب نخبكم. لقد عاينتم الكثير من ويلات الحرب ووحشية النازيين."

أضفت: "ويالطا أيضاً."

تساءل هنري: "يالطا؟" فهو لم يفهم ماذا تعني لنا تلك الكلمة.

لكن كثيرين من مواطنيَّ الذين لم ينجوا من الترحيل القسري يعرفون جيداً المغزى العميق لهذا النخب! وبين هؤلاء زينيا ورايسا وبوريس. أما نحن الذين أسعدنا الحظ في البقاء أحياء فكانت كأسنا مترعة تفيض سعادة وحبوراً ولدينا بنعمة الله كل ما نحتاج اليه.

ثم دخل "نادي الصليب الأحمر" شاب أمريكي دخل حياتي أيضاً. وهو فهم – خلافاً لهنري – أبعاد مؤتمر يالطا. وفهمني. وتزوجنا. وعبرنا الاطلسي الى الولايات المتحدة.

وأرجو أن تكون قصتي يوماً جسر عبور للتفاهم بين شعبين عظيمين: الروسي شعب أسلافي والامريكي الذي تتحدر منه سلالتي.

وعسى أحفادي يفهمون رحلة المعاناة الطويلة القاسية التي قطعتها، وحياة الرعب والجوع واليأس التي عشتها، قبل أن يقودني القدر الى شواطىء الحرية والنور.

نينا ماركوفنا ■

ترجمة الياس عقل

● عاشت والدة نينا ماركوفنا في الولايات المتحدة حتى وفاتها عن ٩٠ عاماً. وبقي سلافا في المانيا الغربية للمعالجة في مؤسسات متخصصة، وما زال يعاني آثار المعاملة الوحشية التي تعرّض لها خلال الحرب. ولم تعرف العائلة شيئاً عن مصير الاب. تقول نينا: "لا يمر يوم من دون أن افكر في ذاك الرجل الوديع الطيب، وفي العذاب الرهيب الذي كابده مثل ملايين آخرين في ظل حكم الطاغية ستالين والطاغية هتلر وسأظل اذكر ابي وابكيه الى الابد."

مغامرات في ألاسكا

سوزان بوتشر بطلة سباقات المزالج التي تجرها الكلاب. وهي تصف السباق ما بين انكوراج ونومي في ألاسكا لمسافة ١٨٥٠ كيلومتراً بأنه "أقسى اختبار" للعيش في القفر لكن أول ما يتعلّمه المرء في قفار ألاسكا الجميلة والقاسية هو فن البقاء.

وتروي سوزان: "كنت ذات يوم أقتفي خط أشراك يقود الى كوخ. واذا بالجليد الرقيق ينهار تحتنا، فسقطتُ والمزلجة والكلاب في الماء. لكن الكلاب القوية تمكنت من الخروج وجرتني أنا والمزلجة الى بقعة صلبة. وبقي علينا أن نجتاز أكثر من ٤٠ كيلومتراً للوصول الى الكوخ حيث الدفء. ونجحنا في ذلك بعدما كادت رحلتنا ان تتحوّل كارثة. ان الاسكا لا تغفر الأخطاء دائماً. قد لا يكون المرء أكثر من نقطة في رحاب قفارها، ولكن عليه في هذه الحال أن يكون نقطة مفكّرة."

ف.ا.ف.

إطراء طفل

يتلقى الرسام ومؤلف كتب الاطفال موريس سنداك رسائل كثيرة من معجبين صغار. وهو يقول: "تضمنت احدى الرسائل رسماً فاتناً من والدة طفل. فرسمتُ شكلا غريباً على بطاقة بريدية وأرسلتها الى الطفل. فجاءني الرد من أمه: لقد رأى جيم رسمك فأحبه وأكله."

ويضيف سنداك: "كان ذلك أحد أرفع الاطراءات التي نلتها طوال حياتي."

كتاب الشهر

عاصفة النار

بقلم هنري هورت

تأهبت الطائرة للاقلاع وسط عاصفة ثلجية عاتية.
ولم يدر أي من الركاب بالكارثة الوشيكة.
وأقلع الربان بالطائرة غير آبه بالعوامل الجوية القاتلة.
وسرعان ما دوًّى انفجار قلَبَ الطائرة في الهواء
فبدت مثل لعبة ممزقة.

عَاصِفَةُ النَّار

بقلم هنري هورت

جثمت طائرة «DC-9» النفاثة على مدرج مطار "ستابلتون" الدولي في دنفر والثلوج تتساقط مدوِّمة والرياح تعصف عاتية خارج القمرة الدافئة. ومن المقعد المتحرك في مؤخر الطائرة راقبت المضيفة كيلي انجلهارت الممر الأوسط حتى باب ركن الطيار. وسط هذه "الشرنقة" الأمينة جلس ٧٧ راكباً ينتظرون الانطلاق في الرحلة ١٧١٣ للخطوط الجوية "كونتيننتال" وبينهم طفل يتهلل جذلا بين ذراعي والدته.

وكيلي في الخامسة والثلاثين من العمر، نحيفة البنية، فوّارة بالنشاط، ذات شعر أسود فاحم وعينين داكنتين. وهي راحت تفكر في زوجها تيم وطفليها الذين قبَّلتهم مودعة ذلك الاحد قبل سفرها في جولة تستغرق ثلاثة أيام.

حدث ذلك يوم ١٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٧.

لقد سبق أن سافرت كيلي انجلهارت في أحوال جوية سيئة خلال تسع سنوات من عملها مضيفة. لكنّ العاصفة الثلجية الاولى التي اجتاحت دنفر في ذلك الموسم كانت تتعاظم وتزداد خطراً، وعلى غير عادة، رجت كيلي صديقتين لها أن تصليا من أجل وصولها سالمة. ولم يكن خوف كيلي ناتجاً من شعور بالكارثة المرتقبة بمقدار ما كان عدم ارتياح للطيران وسط عواصف ثلجية.

وكانت كيلي، الى ذلك، غير مرتاحة الى طاقم الطيارين. وفي خطوة غير عادية قصدت الكابتن فرانك زفونك وسألته عن كفاية مساعده اذ أقلقها منظر هذا الرجل الذي بدا في ريعان الشباب.

والواقع أن لي بروشر (٢٦ سنة) أكمل تدرُّبه على طائرة «DC-9» قبل ثمانية أسابيع ولم يتسنَّ له القيام بأي رحلة فعلية منذ ذلك الوقت. وقبل التحاقه بشركة "كونتيننتال" كان طُرد من عمل سابق لعدم كفايته كطيار.

طمأنها الكابتن زفونك وأكد لها أنه لن يسمح لبروشر بأن يحط بالطائرة في رحلة الاياب الى دنفر لاحقاً ذلك النهار. ولم يخطر ببال كيلي أبداً أن الكابتن سيسمح لمساعده الشاب بالاقلاع بالطائرة من دنفر، فلم تسأله عن ذلك.

جلست كيلي في مقعدها وراحت تتحادث وزميلها كريستوفر (كريس) متز عن برامج العمل المقبلة. وجال بفكرها أن وقتاً طويلا مضى مذ أزيل الجليد عن الطائرة، لكنها لم تستطع رؤية جناحي الطائرة من مقعدها لتطمئن الى كثافة الثلج الجديد. وعلى رغم قلقها من حال الطقس وكفاية الطاقم، لم يخامرها شك في مدى صلاح الانظمة المتبعة في الطيران، اذ انها منذ طفولتها تشاهد الطائرات محلقة فوق منزلها، وكانت على الدوام تتصور نفسها على متن احداها.

وبعد إكمال دراستها التي تضمنت سنة في جامعة السوربون بباريس، ايقنت كيلي أن العمل مضيفة هو أقصى مناها. وكانت وزوجها تيم الذي يعمل مصرفياً في دنفر،

نظّما حياتهما كما يرومان. واستخدما مربية تعنى بالولدين أثناء غياب كيلي، ورتبا أمورهما بحيث تتلاءم وبرنامج طيرانها.

امتلأت الطائرة المتجهة نحو بواز في ولاية ايداهو بعدما ألغت شركة "يونايتد" رحلاتها الى بواز بسبب العاصفة. وتوزع الركاب السبعة والسبعون في مقاعدهم كما طلبوها هم أو كما عُيِّنت لهم: والدون يرشدون أولادهم الى المواقع الأنسب، وأناس يتبادلون المقاعد لأسباب شخصية. كانت دوائر القدر تهيأ فيما أختار كل راكب مقعده.

"علمتُ أن حياتي انتهت"

أخيراً تمركزت الطائرة في موقع الاقلاع. ولكن في غمرة الاستعدادات التقنية وكُشوف السلامة التي تبلغ أوجها حين تقف الطائرة عند نهاية المدرج مرخية العنان لمحركاتها المرعبة، فات القيمين الانتباه لأمر واضح جداً. اذ من المتبع في الطقس الجليدي الرطب أن يتفحص الطيارون الأجنحة بصرياً كل ٢٠ دقيقة، وعدم الاقلاع بالطائرة ان مضت اكثر من ٢٠ دقيقة على ازالة الجليد.

ومعروف أن حبيبات الجليد التي لا تزيد حجماً على حبيبات ورق الزجاج تعوق انسياب الهواء على سطح الجناح مما يؤثر سلباً في قدرة الطائرة على الارتفاع عند الاقلاع. وفي ذلك اليوم كانت ٢٧ دقيقة مرت على ازالة الجليد عن الطائرة، أي ما يزيد بضع دقائق على الوقت المسموح به، فأتاح ذلك تكدس طبقة جديدة من الجليد. ولم يتكلف أي من الطيارين عناء مغادرة ركن القيادة الى حجرة الركاب لتفحص سطح الجناحين.

وحلَّ عامل آخر لا يقل خطورة هو أن ربان الطائرة سلَّم قيادتها الى مساعده لي بروشر الذي، الى طرده من قيادة الطائرات التجارية الصغيرة، لم تكن خبرته في قيادة الطائرات النفاثة تزيد على ٣٦ ساعة. كما لم تكن للكابتن زفونك نفسه خبرة تزيد على ٣٣ ساعة كربان طائرة «DC-9» . وفضلا عن ذلك لم يكن أي من الرجلين قاد طائرة «DC-9» في مثل هذا الطقس.

في الساعة ٢،١٤ بعد الظهر أوقف بروشر الطائرة في موضع الاقلاع وأطلق محركاتها، وسار بها على المدرج ٦٠ ثانية حتى بلغت سرعتها ٢٧٥ كيلومتراً في الساعة وباتت جاهزة للاقلاع. شعرت كيلي بمقدم الطائرة يرتفع، ثم بالاطارين الكبيرين، فأطمأنت الى أن كل شيء على ما يرام.

ولكن بعد ثوان، على ارتفاع نحو ٣٠ متراً، مال الجناح الايمن بحدة، ثم عادت الطائرة برهة الى الطيران المتوازن. لكن الارتداد كان عنيفاً، فمال بدن الطائرة يسرة حتى بدا الجناح الأيمن متجهاً نحو الأرض.

فصاح كريس متز: "يا إلهي، كيلي، اننا نسقط!"

مدّ كريس يده الى كيلي. وفي تلك اللحظة سمع المضيفان خبطة مكتومة علمت كيلي أنها ناتجة من اصطدام الجناح بالأرض. ثم سمعت ثلاثة انفجارات صغيرة تلاها انفجار كبير عند مقدم الطائرة حيث رأت كتلة نارية برتقالية تملأ الحجرة. فراقبتها مشلولة القوى وهي تتجه نحوها، ثم أغمضت عينيها. وللحال انقلبت الطائرة وضربت الارض في انزلاقة ساحنة طويلة.

تقول كيلي: "تأكد لي أن حياتي انتهت، وفكرت في زوجي تيم وفي ابننا وابنتنا الصغيرين، وتصورتني أضم كلا منهم الى صدري."

وهي صلّت في تلك اللحظات: "يا رب، إني آتية. إني على استعداد. أرجوك ألا تجعل ذلك مؤلماً."

وأمتلأت أذنا كيلي بضجيج وحشيّ طاحن كهدير قطار مسرع. ثم عم الحجرة سواد دامس. واهتزت كيلي بعنف وهي مقيدة بحزام المقعد ورباط الكتفين، وشعرت بالثلج والوحل والحصى تحفر في وجهها وجسدها فيما جسم الطائرة المتقوِّض يتمزق في اندفاعه.

فجأة توقفت كل حركة.

أحست كيلي أنها معلقة مقلوبة برباط الكتفين وقد لفَّها سواد مدلهم. لم تعرف قبلا مثل هذا الصمت وهذا السكون وهذا السلام النقي. وسط ذاك الهمود لم تعرف كيلي هل هي حيَّة أم ميتة.

ثم ارتعش منخراها، فأدركت أن الوقود منتشر في كل مكان، وتذكرت الكرة النارية وقبعت تنتظر النهاية.

الدقائق الاخيرة

كانت أن سموك نصرالله شابة خَفِرة، لكنها بشعرها الداكن ووجهها الجميل وابتسامتها الرائعة كانت مصدر فرح وبهجة لأساتذتها وأصدقائها. وهي اجتازت مرحلة الدراسة الثانوية بتفوق، وشاركت في العزف مع فرقة بواز الموسيقية. وتلقت منحة لدراسة الموسيقى في جامعة مونتانا، ثم تحولت الى جامعة نورث وسترن حيث نالت اجازة في علم البيولوجيا الجزيئية.

وخلال سنتها الثانية في جامعة مونتانا تزوجت زميلا لها هو أنطوني ج. نصرالله الذي كان يدرس الكومبيوتر وإدارة الاعمال. وبعد سنة ولدت ابناً سمته أنطوني تيمناً بوالده. وفي مايو (أيار) ١٩٨٥، قبل سنة من تخرجها في جامعة نورث وسترن، ولدت بيتر.

وبعد التخرج انتقلت آن وزوجها والطفلان الى فلوريدا ليكونوا قريبين من آل نصرالله. وبدأ طوني العمل في برمجة الكمبيوتر، فيما انصرفت آن الى العناية بالطفلين. ومع أن تلك كانت الخطة المعتزمة منذ البداية، فلم يكن الأمر سهلا على والدي آن في بواز. ويقول فرانك سموك والد آن: "لقد انتقلوا الى أقصى مكان يمكنهم الذهاب اليه في هذا البلد."

لذا سَرَّ آن كثيراً أن تعود بالولدين الى بواز للاحتفال بعيد الشكر. وأثناء تغيير الطائرة في دنفر اتصلت بوالديها وقرَّبت بكرها أنطوني من السماعة فقال: "أني قادم يا جدتي! إني قادم!"

وتحدَّث فرانك سموك مع ابنته باقتضاب. وسرعان ما قالت آن إن الركاب يُدعون الى الطائرة، لذا عليها إقفال الخط. وقالت لأمها: "الناس يدخلون الطائرة الآن. سنراكِ قريباً!"

وعلى متن الطائرة كان روبرت لنك يشكو الى جاره من التأخير الحاصل. وكان لنك في الستين من عمره، وهو مدير في شركة مجوهرات كان قاصداً شمال إيداهو لصيد الغزلان ذوات الأذناب البيضاء. كان فظاً، بادي الرجولة، ومثالا لأبرع صيادي الطرائد الكبيرة. وكان، كعادته، يسعى الى غنيمة أروع من سابقاتها يضيفها الى مجموعته من الرؤوس المصبَّرة التي ضاقت بها جدران منزله في نيوجرزي.

ووفقاً لخططه المرسومة بعناية كان يعتزم، متى وصل الى بواز، الانتقال في طائرة محلية الى شمال الولاية. ومن ذلك المهبط النائي يركب السيارة مسافة أربع ساعات للوصول الى مخيم الصيد. ومن هناك يمتطي جواداً مسافة ساعتين الى موقع الصيد الرئيسي. وهو أمل ألا تعوق الثلوج وصوله، كما أمل أن تثلج في موقع الصيد لأن ذلك يحسن فُرَصه.

وعلى بعد صفين أمام لنك جلس ديفيد دانيال، وهو أستاذ زراعة من بلدة ملبا، والى جانبه زوجته تمارا. وكان ديفيد (٣٣ عاماً) رجلا هادئاً مفكراً ذا عينين رماديتين تطلقان بيسر ابتسامة ودودة. وكانت تمارا (٢٦ عاماً) شقراء ذات عينين زرقاوين تتقدان حماسة. وتحلَّق حولهما ثمانية طلاب كانا يصحبانهم الى "المؤتمر السنوي لمزارعي المستقبل" في كانساس سيتي. وكان هذا المؤتمر ذروة اهتمامات السنة الدراسية. وقد بذل فرع ملبا جهده لتأمين مصاريف الرحلة للفريق المؤلف من خمسة طلاب وثلاث طالبات. ووصل الفريق الى كانساس سيتي ذاك الصباح مرهقاً ولكن فرحاً لابداعه في المباراة الوطنية. وكان أعضاؤه يتطلعون بشوق الى العودة الى ديارهم، لكن وكيل "يونايتد" أخبر ديفيد دانيال أن الشركة ألغت رحلتها الى دنفر لسوء الأحوال الجوية.

واقترح وكيل "يونايتد" الحجز مع "كونتيننتال." فحار ديفيد في أمره: هل ركوب الجو مستحسن في مثل هذا الطقس؟ وفي النهاية قرر الطيران. ووقف على مدخل الطائرة يوزع بطاقات الركوب ويعيِّن المقاعد.

ثمانية من خيرة الطلاب وأكثرهم وعداً بمستقبل باهر، جلسوا في مقاعدهم في الطائرة، بعضهم يحاول القراءة فيما انصرف آخرون الى النوم أو التحادث بتكاسل.

وقبل دقائق من الاقلاع أبدى روبرت لنك مخاوفه من اضطرار الربان الى الغاء الرحلة. وأخذ يراقب الثلج وهو يتكدس على الجناحين، وتساءل لِمَ لم يأتِ الطياران الى حجرة الركاب لتفحص هذا الأمر. فهو طيار سابق، ويفهم أخطار تكدس الجليد على الجناحين.

أكملت كيلي عرضها سبل السلامة على الركاب، ثم ابتسمت لبيتر وعادت الى مقعدها في مؤخر الطائرة حيث جلست تنتظر الاقلاع.

أخطاء قاتلة

لم يلتقِ الربان ومعاونه قبل هذه الرحلة. ولكنهما حين استقرا في ركن القيادة واستكملا لائحة الفحوص التقليدية غرقا في محادثة سطحية سخيفة. وكانت الدقائق الثلاثون الأخيرة من محادثتهما التي حفظها جهاز التسجيل في ركن القيادة، اكثر تذكيراً بمراهقين في مخيم صيفي منها بمحترفين عُهد اليهما في سلامة ٨٠ راكباً من رجال ونساء وأطفال.

وقد كشف هذا الحديث أن الطيارين لم يبديا أدنى اهتمام لتأثير الطقس الجليدي في جناحي طائرتهما. وبلغ من لامبالاتهما بالاجراءات الاساسية المتبعة أنهما لم يطلبا اذناً بمغادرة "بوابة" الخروج الى منصة إزالة الجليد. وهكذا غدت طائرة الرحلة ١٧١٣ مثل شبح يتحرك ببطء وسط الثلوج المتساقطة، وغفل عنها العاملون في برج المراقبة الذين، بسبب سوء الأحوال الجوية، اعتمدوا كلياً على الاتصال اللاسلكي لتحديد موقع كل طائرة. وكان من شأن الارتباك الناجم عن "ضياع" طائرة "كونتيننتال" وسط خليط الطائرات اطالة الفترة الفاصلة بين ازالة الجليد والاقلاع.

كان الكابتن فرانك زفونك في الثالثة والاربعين من عمره، يقطن مع زوجته وطفليه في كارلسباد بكاليفورنيا، وقد عمل سابقاً طياراً غير مقاتل في البحرية الامريكية. وانتقل في العام ١٩٦٩ الى العمل مع "كونتيننتال" حيث خدم معاوناً أول ومعاوناً ثانياً على طائرات «B-727» و «DC-10». واثر فشله في نيل رتبة كابتن في العام ١٩٨٣ أضرب عن العمل فترة ثلاث سنوات مفضلا ذلك على القبول باقتطاع ٥٠ في المئة من رواتب

الطيارين، وهو اجراء اعتمده رئيس مجلس ادارة "كونتيننتال" فرانك لورنزو المعروف بصرامته.

وخلال إضرابه هذا الذي دام ثلاث سنوات لم يسجل فرانك زفونك أقدمية في أي نوع من الطيران. وبدلا من ذلك فتح مطعماً للبيتزا على مقربة من بلدته.

وعندما عاد زفونك الى عمله في أغسطس (آب) ١٩٨٦ خدم بصفة مهندس طيران ومعاون أول. ولم يعيَّن رباناً (كابتن) لطائرة «DC-9» الا قبل أسبوعين من وقوع الكارثة في ١٥ نوفمبر (تشرين الثاني) وكانت خبرته في هذا المضمار لا تزيد على ٣٣ ساعة طيراناً. وهو لم يتولَّ قيادة طائرة «DC-9» في مثل العاصفة التي واجهته ذلك اليوم. ولم يكن هذا الطيار متدرباً كفاية على الهبوط بطائرة في مثل هذه الظروف. واذا استمرت العاصفة فسيتعين عليه التوجه الى مطار بديل حيث الاحوال الجوية أكثر ملاءمة. وكانت الاجراءات المرعية تقضي باعلان مخططاته البديلة قبل ركوب الطائرة في دنفر. لكنه لم يفعل.

أما لي بروشر (٢٦ عاما) فكان عازباً يسكن مع والديه في هيوستن بولاية تكساس. وقد طُرد من عمله في احدى شركات الطيران عام ١٩٨٥ لعدم كفايته في تنفيذ اجراءات التدقيق. وحتى قبل ذلك الوقت لم يكن مستقبل بروشر واعداً لأنه، بحسب ما دوَّنه أحد مدربيه، كان يكرر الأخطاء ذاتها. وقد أتاحت له الشركة ثلاث فرص لاجتياز امتحان اجراءات التدقيق، لكنه سقط فيها جميعها.

وفي مارس (آذار) ١٩٨٥ عمل معاوناً أول في شركة طيران محلية في تكساس. وفي العام ١٩٨٦ رقي الى رتبة كابتن لاحدى الطائرات الصغيرة. وطوال هذه الفترة رافقه بلاء التقارير السلبية عن كفايته.

وفي يوليو (تموز) ١٩٨٧ التحق بروشر بشركة "كونتيننتال". ولما كان لم يقد طائرة نفاثة من قبل، فقد التحق ببرنامج تدريب خاص بطائرات «DC-9» أظهر فيه اخفاقات لطَّخت سجله المهني الذي امتلأ بتعليقات سلبية. وفي ٨ سبتمبر (أيلول)، قبل تسعة أسابيع من الكارثة، أمضى بروشر دورته التدريبية السادسة قبل الأخيرة في ركن قيادة وهمية يحاكي ركن القيادة في طائرات «DC-9». وقال مدربه: "أفلت بروشر زمام القيادة تماماً. وتجاوزت مؤشرات الارتفاع والسرعة الحدود المقبولة."

ولو لم يتدارك المدرب الأمر لتسبب بروشر، عملياً، في سقوط الطائرة.

وبعد شهر أجيز لبروشر بدء العمل. وفي ٢٢ أكتوبر (تشرين الاول) تجمعت لديه ٣٦ ساعة من الخبرة كمعاون أول لطائرات «DC-9». وفي الأيام الاربعة والعشرين التالية لم يمارس الطيران مطلقاً. وكان طيرانه التالي، وهو الثاني في سياق عمله على متن طائرات «DC-9» في الرحلة ١٧١٣.

وفي مفارقة رهيبة، لم يأخذ بروشر موقعه في ركن القيادة يوم ١٥ نوفمبر (تشرين الثاني) كمعاون أول غِرّ يعتمد على ربان متمرس. بل وضعه زفونك في موقع القيادة الفعلية وسط عاصفة ثلجية عنيفة تشكل تحدياً لأكثر الربابنة حنكة.

قد يبدو وجود هذين الرجلين في ركن القيادة أمراً عجيباً. وقد تكون خبرة زفونك وبروشر غير كافية لقيادة طائرة «DC-9» . لكنهما أظهرا "حسنة" مهمة جداً في حساب فرانك لورنزو، ألا وهي قبولهما العمل بأجر أدنى كثيراً مما يناله زملاؤهما العاملون في شركات الطيران الكبرى مثل "يونايتد" و"دلتا." (وقد جاء في مقال نشرته مجلة "بزنس ويك" أن معدل الاجر السنوي لربان طائرة هو ١٠٨ آلاف دولار بالمقارنة مع ٥٢٥٠٠ دولار في "كونتيننتال.")

ولن يعرف العالم أبداً ما كان سيقوله زفونك وبروشر دفاعاً عن مسلكهما، اذ أنهما ماتا في تحطم الطائرة.

كذلك مات ٢٦ راكباً آخرين.

نار وجليد

ارتفعت كتلة النار البرتقالية أمام ديفيد وتمارا دانيال واندفعت نحوهما وعَبَرت مكتسحة الحجرة بسرعة لم يشعرا معها بأنهما يحترقان. وحين مالت الطائرة بحدة الى اليسار، سمعا هديراً قوياً كقصف رعد مستديم تلته انزلاقة طويلة ساحنة حلّ بعدها سكون أسود.

التوت تمارا في وضع منعها من الحركة وراحت تنادي زوجها الذي سمع صوتها قريباً جداً لكنه كان عاجزاً عن الرؤية. وظن ديفيد للوهلة الاولى أنه أصيب بالعمى، ثم أدرك أنه مبلل بالوقود الذي غطّى فمه وعينيه وكل جسده. وإذ كان لثوان خلت رأى الكتلة النارية تكتسح الحجرة، حار لماذا لم يشعر بحرارتها تلهب جسده. ثم سمع زوجته مجدداً تناديه بنبرة غلب عليها التساؤل، لا الخوف. ولمّا أجابها راح كلاهما يحاول العثور على الآخر.

كان ديفيد معلقاً مقلوباً ومستقراً على كتفه اليسرى، وما زال مربوطاً الى المقعد. وكانت يده اليسرى مسمرة في وجهه، ويده اليمنى على قمة رأس تمارا، ووجهه مضغوطاً الى أسفل ظهرها.

قالت تمارا: "أهذا حلم؟" فقرص ديفيد وجهه بيده اليسرى متحققاً، وأجابها أنه ليس حلماً.

وكانت تمارا محشورة على نحو لم يتح لها سوى تحريك احدى يديها قليلا. وكانت أنامل ديفيد اليسرى ويده اليمنى فوق رأس تمارا قابلة لحركة ضعيفة بحيث إن مطّ

جسده استطاع لمس وجهها. وإذ فعل شعر بأنها مكسوة بالثلج والوحل ومبللة بالوقود. فحاول جاهداً إزالة ما طاولته يده عن وجهها.

نادى ديفيد وتمارا طلابهما، فلم يجب أحد. فساورهما ظن أن أحداً لم ينجُ سواهما.

ثم تناهى الى سمعهما صوت رجل يائس قال إنه يكاد لا يقوى على التنفس. فأملا أن يتمكنا من الصمود حتى يصل المنجدون.

وما هي إلا لحظات حتى سمع ديفيد وتمارا صوتاً غير مألوف لم يستوعبا مدلوله بادىء الأمر. وكان الصوت يعلو ويخبو محدثاً صريراً معدنياً خافتاً يتغير بتغير الضغط على جسديهما.

فأدركا أن بدن الطائرة ينهار بتباطؤ مستقراً في الاوحال والثلوج.

كانت الطائرة منقلبة وجهاز الهبوط والعجلات تشكل ضغطاً هائلا على قشرة أعلى بدنها الذي لامس الأرض. وكان ديفيد وتمارا محتجزين في الوسط.

خامر ديفيد أول شعور بالخطر عندما أدرك أن جسماً صلباً كان يضغط على خده ومؤخر رأسه بقوة جعلت أسنانه تخترق شفتيه تدريجاً. وتحسس جروح شفتيه بلسانه، بيد أن طعم الوقود طغا على طعم الدم.

وقبع ديفيد وتمارا وسط قوة طاحنة يجبهان مأزقاً لا يرحم. كان وجه ديفيد ملتصقاً بظهر تمارا، وكلما تنفس ضغط عليها بجسده فصعب عليها التنفس. وكانت هي بدورها تزيد الضغط على رأسه كلما أخذت نفساً عميقاً.

وغدا شبه مستعص تنشق مقدار كاف من الهواء. لكن ديفيد أكد لتمارا أنهما سينقذان قريباً، وإن يكن حمد ربه سراً لأنهما باتا مبللين بالوقود الى حد أن أدنى شرارة كانت كفيلة بالقضاء عليهما في طرفة عين. وتساءلا في الصمت المتمادي: تُرى هل لاحظ أحد أن الطائرة تحطمت؟

وازداد الصقيع درجة فدرجة. وغدت يد ديفيد خدرة بحيث تعذر عليه تحريك أصابعه لفرك جبين تمارا.

لكن تمارا بقيت على تفاؤلها ومضت بدورها تشجع ديفيد وتؤكد له أنهما سيكونان على ما يرام. تلك كانت طبيعتها، فهي دائمة الايمان بأن الأمور ستصطلح على نحو ما. لقد أمضى ديفيد وتمارا سنين زوجية رائعة، وعرف كل منهما الآخر تماماً، فلم يكن من داع لقول الكثير.

واستمر الصرير المتأتي من تداعي بدن الطائرة. وازداد الضغط حتى أحس ديفيد أن جمجمته ستتحطم في أي لحظة. وصلّى كي يموت في النار، ان كان عليه تجرع هذه الكأس، أو أن يتوقف قلبه عن الخفقان قبل أن يواجه الرعب الناتج من تحطم جمجمته ببطء تحت وطأة الضغط المتعاظم.

استقر هيكل الطائرة الممزق وسط السكون المخيف، وقد انقلب بدنها والتوى معظمه وانشطر مؤخرها انطلاقاً من الجناحين وارتفعت إطاراتها العملاقة عالية في الهواء. فجأة بددت سكون الموت صرخة حياة: طفل يبكي! ولاحت عبر الثلج الساقط حركة خفيفة وأشكال منفردة تتهادى مرتبكة حول بدن الطائرة المحطم.

خلال ثلاث دقائق وصل سائقو كاسحات الثلج الى موقع الكارثة بعدما أُمروا بالتوجه الى المدرج ٣٥ لمساعدة طائرة منكوبة. وكادوا لا يرون الحطام المتناثر وهم مسرعون وسط الثلوج المعيقة نحو موقع الحادث. وقد بلغ ارتفاع الثلوج الزلقة نحو ١٥ سنتيمتراً والحرارة درجتين مئويتين تحت الصفر وسرعة الريح حوالى ٣٠ كيلومتراً في الساعة. والى الثلوج المتطايرة في الريح اكتست الارض طبقة هزيلة من الضباب حجبت الرؤية.

قفز عمال جرف الثلج من شاحناتهم وراحوا يبحثون عن ضحايا يمكن إنقاذهم. وهم أدركوا أن الوقود ينتشر في الهواء وأن المكان قابل للانفجار في أي لحظة. الا أنهم تابعوا البحث عن ضحايا مخمدين بأقدامهم الحرائق الصغيرة المنتشرة حول الحطام. وعمدوا الى مواساة الضحايا وإلباسهم معاطف ونقلهم الى شاحناتهم الدافئة. وفي هذه الاثناء بدأ مئات الاشخاص من رجال اطفاء ومسعفين طبيين يفدون الى المكان. وجلجلت أجهزة اللاسلكي بأصوات عاجلة ملحاحة.

وجد مايكل ثالي، وهو أحد جارفي الثلج، طفلا هامداً على الثلج قرب ذيل الطائرة على بعد ٦٠ متراً من بقية الحطام. كان يتنفس، لكن عينيه كانتا مغمضتين. فأخذه ثالي بين ذراعيه وراح يهدهده محاولا تدفئته الى أن تناوله منه رجل إطفاء قال ان لا أمل في نجاته. فانصرف ثالي ناشجاً يبحث عن ضحايا أخرى.

كانت الطائرة قطعاً متناثرة وقد انفصل ركن القيادة والجناح الأيمن ومخروط الذيل عن بقاياها. فدخل عمال الانقاذ حجرة الركاب عبر فوهة صغيرة في مؤخرها حيث انشطر الذيل، ليجدوا أسلاكاً مختلطة بغير انتظام وسط الأوحال والثلوج والوقود المتناثرة في أرجائها. وكانت أدنى شرارة تنبثق من معدات الانقاذ كفيلة بتفجير الحطام كقنبلة.

كان الركاب معلقين بمقاعدهم مقلوبين. وصرف المنقذون وقتاً ثميناً في ازاحة الجثث وصولا الى الاحياء.

تقدم المنقذون من مؤخر الطائرة، وعمدوا الى حفر خنادق حولها بهدف الوصول الى الضحايا المحتجزين تحتها. لكن شعوراً رهيباً بالخيبة والاحباط غمرهم وهم يجدون الضحايا ولا يستطيعون الاقتراب لمساعدتها.

وحال انتشار الوقود دون استعمال مشاعل التلحيم لتقطيع المعادن وصولا الى

الضحايا. فعمد المنقذون، وهم يزحفون على بطونهم، الى تقطيع المقاعد وغيرها من العوائق بمقصات يدوية قوية. وكانت الجهود مضنية ومعقدة لأن الطائرة انغرزت في الأرض كمجرفة عملاقة. والى ذلك كان على المنقذين ازالة كميات ضخمة من الثلوج والأتربة من حجرة الركاب قبل الشروع في عملية الانقاذ.

استمرت العاصفة طوال بعد الظهر وخلال الليل مهددة بانخفاض حرارة أجسام الضحايا. ودرءاً لهذا الخطر استُقدمت سخانات في حجم سيارة ركاب لنفخ الهواء الساخن داخل الطائرة. وحال الانزلاق على المدرج دون نقل السخانات في آليات، الامر الذي استوجب حمل كل منها الى موقعها على أيدي نحو ٤٠ شخصاً.

وما إن بدأت السخانات عملها حتى ملأ الثلج الذائب الخنادق المحفورة حول بدن الطائرة. فأدى ذلك الى معضلة كأداء، اذ فيما راحت الأرض تسخن وتلين ازدادت الطائرة غرقاً مما سبب ضغوطاً اضافية مخيفة على الركاب المحتجزين داخلها.

يد حارسة

عمدت كيلي انجلهارت، وهي معلقة مقلوبة، الى فك حزام مقعدها، فسقطت على أرض الطائرة التي كانت في الواقع سقفها. واستناداً الى ما تعلمته أثناء تدريبها كمضيفة، أدركت أن بعد الانفجار، النار. وهي قالت لاحقاً: "علمت أن علينا إخراج أكبر عدد ممكن من الركاب قبل انفجار الطائرة." وحاولت جاهدة فتح أحد أبواب النجاة، ثم أدركها خاطر أوقفها في مكانها.

وهي تذكر: "خيل الي أني أسمع همساً في أذني يقول ان النار لن تندلع. فغمرني ذلك بسلام وسكينة لا يوصفان. كنت اعتقدت ان لا أمل في نجاة أحد. لكني أيقنت بعد حين ان عدد الناجين سيكون كبيراً. وأدركت أيضاً أن يداً حارسة خففت المصيبة."

وساعد كريستوفر متز زميلته كيلي في إخراج نحو اثني عشر ناجياً من مؤخر الطائرة. ثم انطلقت كيلي باحثة خارج الحطام عن ضحايا في الثلج. وسرعان ما وجدت من أعطتهم قفازيها ومعطفها. ثم وجدت رجلا مسناً يئن بين الثلوج ورجلاه ما زالتا عالقتين بالطائرة. فانحنت كيلي واحتضنته فاركة يديه وهي تطلب منه الصمود. قالت: "كان بادىء الأمر يرتعد خوفاً، لكنه ما لبث أن نظر اليّ مبتسماً وقال: لقد نجونا، أليس كذلك؟"

عندما وصل عمال الانقاذ المدربون أدركت كيلي أنها فعلت كل ما في وسعها. وعندما نقلت الى حافلة دافئة كان شعرها الأسود مبيضاً بالثلج وكساؤها مقتصراً على فستان رقيق. وركض اطفائيّ الى الحافلة حاملا بين ذراعيه طفلا. وللحال تعرفت كيلي

الى الصغير الذي كان يعبث بقناع الاوكسيجين عندما كانت تشرح للركاب أجراءات السلامة. لكنها أدركت أنه لن ينجو.

عندما عاد صياد الطرائد الكبيرة روبرت لنك الى وعيه كان الصمت ثقيلا بحيث اعتقد هو أيضاً أنه الناجي الوحيد. وملأت رائحة اللحم المحترق منخريه وشعر بأن يده اليمنى كانت العضو الوحيد القادر على الحركة في جسمه.

ثم أدرك أن رائحة اللحم المحترق منبعثة من يده المتفحمة والمسمرة على بعد ١٥ سنتيمتراً فقط من أنفه. وكان رأسه مشكوكاً بقطعة فولاذية طولها ١٥ سنتيمتراً استقرت بين جمجمته وجلدة رأسه.

بقي لنك مسمراً في الحطام طوال ساعتين انصرف خلالهما المنقذون الى تحرير الآخرين - أحياء وموتى - كي يصلوا اليه.

وعندما بلغوه وقطعوا حزام مقعده تحرر جسده باستثناء رأسه الذي بقي عالقاً بقطعة الفولاذ. وما أن تمكن الاطفائيون من حل القطعة الفولاذية حتى وقعت جلدة رأسه على وجهه وحجبت رؤيته. وفي وقت لاحق اضطر الأطباء الى تنظيف الطلاء المعدني عن عظام جمجمته قبل الشروع في تقطيب جلدة الرأس.

ديفيد وتمارا

طُمر ديفيد وتمارا دانيال تحت الحطام فغفلا عن أعمال الانقاذ الناشطة حولهما. وكوحش هائل يعاني سكرات الموت مضت الطائرة تئن متأوهة وضاغطة على جسديهما بمزيد من القساوة. فقبعا ملتصقين وسط الظلام الدامس وليس من اتصال بينهما الا إحساس كل منهما بالتنفس الواهن في جسد الآخر. ولم يبدد الصمت المطبق سوى همسة "أحبّك."

أما الرجل الذي كان على مقربة منهما فقد همد حسه كلياً بعدما نطق كلماته الأخيرة معرباً عن فقدانه القدرة على التنفس.

مرت أربع ساعات وديفيد وتمارا مدفونان في الظلام يفكران في حياتهما ولا يتبادلان الكلام الا لماماً حفاظاً على ما تبقى لهما من قوة. في غضون ذلك عَنُف الضغط على جمجمة ديفيد الى حد لا يطاق، لكنه لم يخبر تمارا بذلك. وأدرك أنه قد يفقد الوعي بين لحظة وأخرى. وكلما فكر في أن جمجمته لن تقوى على تحمل مزيد من الضغط مالت الطائرة أكثر وازداد انضغاط الزوجين معاً. ومن المضحك المبكي أن ديفيد كان عاجزاً عن تقديم أي مساعدة الى تمارا الا بحبس أنفاسه. وكان يستجمع ما تبقى لديه من قوة وينكفىء قليلا مما يخفف عنها بعض الضغط ويتيح لها التنفس بحرية.

وبين فينة وأخرى كان ديفيد وتمارا يناديان الطلاب الذين في عهدتهما من غير جدوى. لذا قرر ديفيد تركيز جهده على الصمود ريثما تأتي المساعدة. الا أن التحدي "البسيط" الذي بقي يواجهه كان أن يتنفس. ومضى الزوجان يتبادلان كلمة "أحبك" التي راحت تتردد في الهواء المتجمد بهمسات ازدادت خفوتاً.

لم يكن البرد غريباً عن ديفيد، اذ سبق أن عمل في تربية المواشي في أجواء تدنت حرارتها الى ٣٠ درجة مئوية تحت الصفر. الا أنه لم يشعر أبداً بمثل البرد الذي أحسه ذاك اليوم. شعر بحاجة جامحة الى الارتجاف، لكن ذلك كان محالا في وضعه المضغوط. وزاد الأمر سوءاً تشبُّع كل شيء بالوقود بحيث بات البرد لا يحتمل.

فكر ديفيد كثيراً في الفتيان والفتيات الذين رافقوه في الرحلة. كانت شيري نلسون بشعرها الأشقر وعينيها الزرقاوين لاعبة كرة ممتازة وعضواً مرحاً في فريق الهاتفات المشجعات في المباريات الرياضية. والى حبها للمرح وبراعتها في الحديث كانت عاملة زراعية أدخرت من أعمال خفيفة مالا اشترت به شاحنة مستعملة.

لم تكن شيري طالبة دائمة التفوق، لذلك كان تأهلها للاشتراك في "مؤتمر مزارعي المستقبل" انجازاً شخصياً يستحق الاعجاب. وإذ كانت لم تزر في حياتها بلدة أكبر من بواز فقد عصف بها الفرح لنيلها فرصة الاشتراك في هذه الرحلة.

وكان واين ديفيس معجباً بشيري، وهو أنهى دروسه الثانوية وبدأ العمل في مزرعة عائلته. وقبل أسبوع من الرحلة أرسل الى شيري وروداً لمناسبة عيد ميلادها الثامن عشر.

أما الفتاة الثانية جانين لدجروود فكانت تقطن مع صديقتها آنجي تلوسك بعد انتقال عائلتها الى ولاية واشنطن. وقد نجحت في إقناع والديها بالسماح لها بالسكن مع صديقتها لاكمال دراستها الثانوية. وسرَّتها الاقامة مع آل تلوسك، فكانت تساعدهم في مزرعة الابقار وفي أعمال انتاج الالبان والاجبان، فأتاحت لها خبرتها النجاح في مباراة المؤتمر.

أما صديقتها آنجي تلوسك فكانت بعينيها الزرقاوين الودودتين مثالا مصغراً لأفضل ما في المدرسة الثانوية. فالى تفوقها الدراسي، كانت قائدة لصفها، كما عرف عنها ايمانها العميق. وقد بدأت صداقتها مع شيري نلسون منذ كانتا في الصف الابتدائي الاول وإن تباينتا في صفات كثيرة.

وكان كريس ديفيس، شقيق واين الأصغر، على الطائرة أيضاً. وهو جرَّب السفر أكثر من الآخرين، وذهب مرة الى مدينة مكسيكو مع فريق من الشباب. وكان في السنة النهائية من المرحلة الثانوية، أما باتريك لوفليدي وجف هوغلاند فكانا في الصف ما قبل الأخير، وأما طوني نو ووراين ديفيس فقد تخرجا قبل عامين.

حققت رحلة فريق "ملبا" الى كانساس سيتي نجاحاً باهراً، اذ حل الفريق في المرتبة السادسة بين ٣٩ فريقاً من أنحاء البلاد. وقد عمد ديفيد الى آستئجار شاحنة مقفلة كي يتسنى للفريق زيارة حديقة الحيوان وملعب فريق "رويالز" للبيسبول ومكتبة هاري ترومان. وذات ليلة زاروا مطعماً يابانياً شاهدوا فيه الطهاة يقذفون القريدس (الجمبري) في الهواء ويُعملون فيه تقطيعاً بسكاكين ملتمعة. وقدمت اليهم مرطبات في أكواب ازدانت بمظلات صغيرة. ثم جاء دور العشاء، فأسرت شيري وآنجي الى النادل بأن المناسبة ذكرى ميلاد ديفيد دانيال. وما هي الا لحظات حتى عاد النادل بكعكة من الأناناس في شكل قارب تكلله الشموع. فغنى الجميع أنشودة العيد فيما أحمرت وجنتا المحتفى به وسط صخب الطلاب، فالامر مجرد مزحة والليلة لم تكن ذكرى ميلاد ديفيد.

قبع ديفيد في الظلام المحيق يفكر في أولئك الفتيان والفتيات الذين امتلأوا حيوية وحماسة وتميزوا بقوة الشخصية والمثابرة. واذ تذكر أنه مؤتمن على سلامتهم تغضن وجهه ألماً وهو يفكر في قراره بركوب الطائرة بعدما ألغت شركة "يونايتد" رحلتها. وقد هاله اعتقاده أنهم ماتوا جميعاً.

"المجهول الرقم واحد"

كان باتريك لوفليدي جالساً الى جانب جف هوغلاند عندما تحطمت الطائرة وقُذف ساقطاً في الثلج وهو في وضع الجلوس. فنقل الى المستشفى حيث عولج من جروح وكسور مختلفة. أما هوغلاند الذي كان نائماً من غير أن يربط حزام مقعده فقد استيقظ لحظة اقتُلع من مقعده. وهو طار في الهواء وحط فوق عدد من الركاب. ثم وجد فتحة فوق جناح الطائرة فعبرها قافزاً الى الخارج ولم يصب الا بجروح طفيفة.

وكان واين ديفيس وطوني نو جالسين خلف لوفليدي وهوغلاند. وبعد الحادث كانا لا يزالان في مقعديهما اللذين أفلتا من دعائمهما بحيث لامس رأسا الطالبين الأرض وغمرهما الثلج والوحل. وتعذر عليهما الحراك بادىء الامر. ثم راحا يترجحان الى الأمام والى الوراء حتى تمكنا من فصل جسديهما عن الحطام الذي احتجزهما. ثم حررا أيديهما وفكّا حزامي مقعديهما.

ولم تمض دقائق حتى خرج طوني من الحطام. أما واين ديفيس فأخذ ينادي شقيقه كريس من غير أن يسمع رداً. وعندما زحف الى الامام بحثاً عنه واجهه ظلام مدلهم. ولاح له ضوء في الجهة المقابلة، فاتجه نحوه، واذ بلغه رأى أسلاكاً عارية أقلقته. الا أنه جازف وزحف عبرها فوصل الى الخارج.

نظر واين الى الخراب حوله وتساءل عن مصير رفاقه. الا أن قلقه تركز على شقيقه كريس الذي كان جالساً في الجهة الأخرى من الطائرة. وفي هذه الأثناء وجد صديقه

طوني نو، فراح الاثنان ينظران يائسين الى الدمار الشامل. ولم يمض وقت طويل حتى نُقلا الى مخفر الاطفاء ومنه الى المستشفى.

بيد أن كريس ديفيس لم يحظ بمثل حظ رفاقه. وكان قبل وقوع الحادث جالساً في محاذاة النافذة يلتقط صوراً. وبعد ساعة من تحطم الطائرة نقل الى المستشفى شاب سمي "المجهول الرقم واحد" تبين لاحقاً أنه كريس. لم يعرف المنقذون عندما وجدوه هل هو حي ام ميت. كانت أصاباته مروعة: كسر في كاحله وجروح بالغة في ساقيه وكسور في سبع من ضلوعه وانهيار في رئتيه، وتوقف قلبه لاحقاً عن الخفقان. وغطت الجروح وجهه وجفونه وأُصيب عنق دماغه برضة أوقعته في غيبوبة عميقة.

وفي المستشفى لم يستطع الأطباء الجزم ماإذا كان كريس سيحيا أم سيموت ولا هم استطاعوا تقدير ما سيلحق دماغه من ضرر ان هو عاش. وانتقلت والدته ليندا الى دنفر حيث كانت تزوره كل يوم وتقرأ له وتتحدث اليه، لأن ذلك قد يفيده حسبما أرشدها الأطباء. وفي بلدته ملبا سجَّل له أصدقاؤه شريطاً ضمنوه تمنياتهم له بالشفاء، فعمدت ليندا الى اسماعه الشريط المسجَّل مرة تلو أخرى وهي تصلي بحرارة.

مصيبة المصائب

في هذا الوقت كان فرانك سموك يتابع مباراتين في كرة القدم على التلفاز في وقت واحد، وقد تأهب وزوجته للذهاب الى المطار لملاقاة ابنتهما آن نصرالله وحفيديهما. وفيما فرانك يقلِّب قناتي التلفاز التقط بث محطة «CNN» وسمع شيئاً عن تحطم طائرة في دنفر.

وعندما نقَّل القناتين مجدداً التقط كلمة في سياق خبر «CNN» وهي "كونتيننتال." فسأل زوجته: "ما رقم الرحلة لطائرة آن؟" وعندما أجابته أُصيب بذهول، فتلك كانت الطائرة التي ذكرت محطة «CNN» أنها تحطمت في دنفر. وللحال اتصل هاتفياً بوالدي صهره في فلوريدا سائلا ان كانا سمعا شيئاً. فأجاباه بالنفي.

فقال: "شاهدا محطة «CNN» . قد نكون في ورطة."

مرَّت ساعات اتصل خلالها ابن فرانك، جيف، بشركة "كونتيننتال" مراراً فلم تفده شيئاً عن الحادث أو عن أسماء الناجين.

في غضون ذلك بدأ الجيران يفدون الى منزل آل سموك بعدما سمعوا بأن آن وولديها كانوا على متن الطائرة. وتوالت مكالمات الأصدقاء للاطمئنان. لكن جين سموك كانت تعتذر لاضطرارها الى اقفال السماعة لأن آن قد تتصل بهم حالماً تستطيع الى ذلك سبيلا. وهي ظنت أن آن وولديها هم في المستشفى قيد المعالجة.

وفي العاشرة صباح الاثنين اتصل طوني نصرالله هاتفياً من دنفر. وكان ركب أول

طائرة مقلعة من جاكسونفيل في فلوريدا، لكنه لم يصل أبعد من دنفر لتأخير الرحلات بسبب سوء الاحوال الجوية. قال طوني لحميه: "أعتقد أني تعرفت الى آن. انها في المستشفى تحت اسم "المجهولة الرقم واحد." وهي غائبة عن الوعي، وقد عرفتها من خاتمها."

فسأله فرانك: "ماذا عن الولدين؟"

أجاب طوني: "لا أدري. قيل لي إن هناك طفلين في المشرحة لم تحدد هويتهما. سأذهب الى هناك على الفور."

لم تتصور جين سموك انها ستحيا وتصمد امام ما اختلط في دماغها وروحها من مشاعر في تلك اللحظة. قالت: "انها لمصيبة المصائب."

وفي المشرحة قال طوني نصرالله للمسؤول انه لن يكتفي بالنظر الى ولديه عبر الحاجز الزجاجي، بل يريد أن يحتضنهما مرة أخيرة. واذ رفض المسؤول طلبه ضرب طوني الحائط بقبضته وعاد الى المستشفى ليقف مسمراً الى جانب زوجته الجميلة الموهوبة الممددة فوق السرير.

كانت آن في غيبوبة عميقة تصارع الموت، فرئتاها مسحوقتان وطحالها ممزق وعظامها مكسرة وحوضها محطم. وأسوأ ما عانته جروح رأسها. وعندما سحبها المنقذون من بين الحطام لم يستبينوا فيها دلائل حياة، كما لم يقطع احد وعداً بنجاتها بعد مدها بكميات كبيرة من الدم. وقال الأطباء لعائلتها انها اذا عاشت فستعاني أعطالا في دماغها قد تمحو من ذاكرتها كل أثر للماضي وتبدد كل أمل في المستقبل.

قليل من الرجال عانوا ما عاناه طوني نصرالله من عذاب ساحق، اذ كان "يوم دنفر الأسود" أولى خطواته في ما وصفه صديق بـ"طريق الآلام." فلكَم أفاق في لياليه من كوابيس وهو يصرخ منادياً ابنه: "انطوني! إني قادم اليك! إني قادم!"

"أُحبك، أصمد!"

ساور ديفيد منذ البدء أن زوجته تمارا في حال أسوأ من حاله، اذ بدا تنفسها سطحياً كما بدأت تسعل سعالا واهناً صادراً عن جهازتنفسيّ يائس. وأحس بقوة العطاء لدى تمارا النابعة من القلب حتى في هذه الظروف الكالحة، فهي ظلت تحاول التقليل من تنفسها كي تتيح له التنفس. وكانت إن تكلمت لا تشكو ولا تتذمر، ورسالتها الوحيدة اليه نبرة تشجيع ومحبة.

مرت الساعات وازداد قلق ديفيد على تمارا وغمره انقباض شديد. وكانت تمارا ترعرعت في مزرعة للأبقار على ضفاف نهر سنيك. وعندما كانت طفلة كانت تتمتع بحس

رعائيّ غريزيّ وجدت له متنفساً في رعاية الحملان والعجول المولودة في المزرعة. ولم تقعدها عن ذلك يوماً خطورة حال كائن ما، مهما بلغ صغره أو ضعفه أو مرضه. قالت صديقة لها: "كانت تحوطها هالة غامضة فيخيل الى الناظر اليها أنها تمتلك سراً رائعاً." وحتى في هذا الخطب الملم فاض الوهج إياه زاخراً بالمحبة.

وخلال الساعة الرابعة بعد سقوط الطائرة لاحظ ديفيد أن تنفس تمارا بات مُجهداً، وبدت كأنها فقدت القدرة على تحاشي التنفس بعمق كي لا تعوق تنفسه. اذذاك شد جسمه الى الوراء في محاولة يائسة لتخفيف الضغط عنها. ثم أكره أنامله على الحركة وأخذ يفرك جبينها بتؤدة. ولما لمسها حاولت أن تتنفس، ثم قالت: "سأنام قليلا."

فرد ديفيد: "ولمَ لا. اخلدي الى النوم، وسأبقى ساهراً كي أوقظك حين تأتي النجدة."

فقالت: "أحبك. أصمد."

فجأة شعر ديفيد بجسدها يتراخى وبأنفاسها الواهنة تتوقف. فناداها فاركاً جبينها، لكنه أيقن انها فارقت الحياة، كما وجد نفسه فجأة يتنفس بيسر.

قبع ديفيد غير عابىء بالحياة بعد وفاة زوجته وجميع طلابه، كما ظن. لقد أراد هو أيضاً أن يموت. واعتقد أنه، وإن تحسن تنفسه، على وشك الموت من جراء انسحاق رأسه تحت وطأة الضغط الهائل. وأخذ يصلي، لا ليعيش، بل لكي يخلصه الموت من عذابه.

أما جانين لدجروود وشيري نلسون فتوفيتا فورا. وكانت شيري جالسة قرب النافذة الى جانب تمارا دانيال فيما كانت جانين جالسة أمام تمارا.

وكانت أنجي تلوسك جالسة في الجهة الأخرى في محاذاة دانيال. وقد تأكد لها ان الطائرة ستتحطم بعدما شاهدت كتلة النار البرتقالية تتجه نحوها وهي تذكر: "علمتُ أن شيئاً فظيعاً كان على وشك الحدوث، لكنني شعرت بسلام دافىء يغمر كياني."

وإذ بلغتها الكتلة النارية أغمي عليها فارتاحت ذاكرتها من تفاصيل ما حدث لاحقاً. وبعد أربع ساعات استيقظت في المستشفى فيما كان جسدها يُمرَّر عبر آلة كاشفة. وهي أصيبت بحروق من الدرجة الأولى في يديها وذراعيها ووجهها، وبإنهيار في رئتيها وكسور في أصابعها وتخثُّر في دمها.

بعد وفاة تمارا خيل الى ديفيد أنه رأى نوراً ظنه للوهلة الاولى بداية نهايته. ثم أقنع نفسه بأن النور هو حتماً نتاج هذيانه. وفجأة سمع فوقه صوتاً: "أعتقد أني وجدت شخصاً آخر في قيد الحياة."

فصاح ديفيد مؤكداً أنه حي، فطلب منه الرجل أن يصمد. وسرعان ما بدأ المنقذون العمل على تحرير ساقيه.

https://t.me/megallat
oldbookz@gmail.com

كان ديفيد آخر المنقَذين. وعندما تم سحبه كان أمضى بين الحطام فترة تزيد على خمس ساعات، وتبين أنه مصاب بالتواءات عظمية بسيطة وحروق وجروح طفيفة لا تقاس بما أصاب قلبه من جروح لا تبرأ.

وفيما بقي بعض الناجين في المستشفى لأسابيع، خرج ديفيد بعد خمسة أيام وعاد الى منزله ومدرسته في ملبا حيث يلازمه شعور بالذنب لا يبرح. فهو الذي قرر ركوب طائرة "كونتيننتال" وهو الذي عيَّن لكل طالب مقعده.

الناجون

مرت ثلاث سنوات منذ عصر ذاك الأحد في دنفر الذي غيَّر، في لمحة خاطفة، حياة مئات من الناس. وفي التقرير النهائي الذي أعده "المجلس الوطني لسلامة النقل" لم يُفد الخبراء الا قليلاً عن الكتلة النارية التي اكتسحت حجرة الركاب. واستنتج التقرير "أن الثلوج والأتربة التي اجتاحت الحجرة لحظة الاصطدام ربما منعت الكتلة النارية من احراق أي شيء في المكان. كما أن هبوط الثلج باعتدال وبرودة الطقس خففا من تبخر الوقود وحالا دون شبوب حريق لاحق. ولكن على رغم قِصَر فترة الحريق أصيب عشرة ناجين وست ضحايا بحروق من الدرجتين الاولى والثانية."

لم تنقض كيلي أنجلهارت هذه الاستنتاجات العلمية، لكنها لم تسقط من الحسبان ما تعلمته خلال سنوات من التدريب عما يعنيه تلازم النار والوقود. وهي تقول: "هناك أشياء كثيرة لا نفهمها، لكني أؤمن في صميم فؤادي بأن الله تعالى أطفأ الحريق بقدرته. إن بقاءنا أحياء لهو من المعجزات."

أما روبرت لنك فشفي من معظم اصاباته وعاد الى ممارسة هوايته صيد الطرائد الكبيرة، على رغم ما سيحمله دائماً من ندوب باقية من الحروق البالغة ومن سلخ فروة رأسه. إنه لا يدري كيف نجا، ويقول: "يعتقد بعض أصدقائي أني أعْنَد من أن أموت، لكني لست أدري ان كان ذلك صحيحاً. آمل ألا يكون خبيء لي ما هو أسوأ من تحطم طائرة."

وخرجت كيلي أنجلهارت من المستشفى بعد ساعات قليلة من الحادث وعادت مع زوجها الى منزلهما وسط العاصفة. وكان ابنها (٥ سنوات) وابنتها (٣ سنوات) لم يُخْبَرا شيئاً عن تحطم الطائرة، واذ ركضا لاستقبالها تحت الثلج غمرها ارتباك وهي تحاول استيعاب مشاعر الفرح والامتنان لعودتها الى عائلتها ورؤيتها وجهي طفليها من جديد. وكان سؤالهما هو إياه الذي طالعها كلما عادت من سفر: "ماما، ماذا جلبت لنا."

فأجابتهما: "لقد جلبت نفسي اليكما هذه المرة!" وغمرتهما بذراعيها واحتضنتهما بكل قوتها.



اجلاء احدى الضحايا

خلال الأسابيع التي تلت حادث تحطم الطائرة، تمسكت آن نصرالله بالحياة بعناد استمدته من جسدها القوي الفتي ومن تصميمها على البقاء. وفيما زوجها وافراد عائلتها حولها يحوطونها بكل رعاية أخذت هي تعود تدريجاً من غيبوبتها العميقة. وقد لف الضباب ذكرى ما أنجزته في حقلي الدراسة والموسيقى. ومع أنها استعادت بوضوح ذكريات ابنها أنطوني الذي هزت وفاته عواطفها الواهنة، امَّحت من دماغها كل ذكرى لطفلها بيتر وكأنها لم تلده أبداً.

عادت آن الى فلوريدا بعد ١٤ أسبوعاً من المعالجة في دنفر قضتها في غرفة العلاجات المتنوعة.

في هذه الأثناء ثابر طوني نصرالله على الاعتناء بزوجته. وعاملته آن بحنان محاولة التلطيف مما يعانيه من شقاء عظيم.

كذلك تحاول والدة آن، جين سموك، استيعاب الحدث بايمانها. تقول: "خسرت آن علمها وموسيقاها وولديها وذكرياتها النفيسة. احيانا يصعب علينا، نحن البشر، أن نفهم مثل هذه الأحداث البغيضة. ولكن هناك، في مكان ما، وعلى نحو ما، هدف لكل ذلك. صلاتي أن تجد آن بعون الله طريقة تعيد بها كل الجمال الذي جاءت به الى العالم قبل الحادث."

إن استمرار الحياة بعد خسارة ماحقة كهذه لهو أبلغ امتحان لايمان الانسان. لكن آن وطوني يجتازان هذا الامتحان. ففي ١٣ فبراير (شباط) ١٩٩٠ ولدت آن صبياً سمياه بنجامين باتريك، واستقبله الاهل والاصدقاء بكل الحرارة والبهجة اللتين يمكن أن يستقبل بهما طفل جديد.

عم الحزن واليأس بلدة ملبا. ورزحت عائلات شيري نلسون وجانين لدجroوود وتمارا دانيال تحت عذاب لا يعرفه سوى من فقد ابناً أو زوجة فتية. وساد معظم رفقاء الضحايا اعتقاد ان لا شيء سيبرىء الافئدة من الحزن والألم اللذين ألما بها. أما الراشدون فعلموا في قرارة أنفسهم أن الشفاء من الكرب أمر يتكفل به الزمن، وإن يكن بلوغه غير يسير.

وطغت ذكريات الحدث الرهيب على كل شأن آخر طوال ما تبقى من السنة الدراسية. وتحدثت أنجي تلوسك في خطبة التخرج عن أصدقائها الذين قضوا وما عنوه لها ولمحيطهم.

وفي السنة التالية عادت الأمور الى مجراها الطبيعي. ويعود بعض الفضل في ذلك الى والدة شيري مارثي نلسون التي أضفى محياها الطلق وحيويتها الفائقة أجواء طيبة في الصفوف الثانوية حيث كانت تقوم مقام الاساتذة الغائبين. وبُني منتجع للنزهات قبالة المدرسة لذكرى الشابات الثلاث اللواتي قضين في الحادث.

أما الشباب الأربعة الذين نجوا من الكارثة من غير إصابات بالغة فعاودوا نشاطاتهم المعتادة: عاد واين ديفيس وطوني نو الى العمل في الزراعة مع عائلتيهما، ودخل باتريك لوفليدي وجف هوغلاند الجامعة.

بيد أن كريس ديفيس مر بتجربة أكثر مرارة. ففي اليوم السابع عشر من غيبوبته سألته أمه السؤال إياه الذي كانت تطرحه كل يوم: "كريس، لِمَ لا تضمني اليك؟" فاستقام في سريره وتطلع حوله ثم ضم أمه اليه من غير أن يقوى على النطق. الا أن هذه الحركة كانت بداية حسنة. وخلافاً لجميع التوقعات عاد كريس الى منزله في منتصف ديسمبر (كانون الاول) والى مدرسته في فبراير (شباط). وفي نهاية العام الدراسي تخرج مع رفقائه. وقالت والدته في ذلك: "لقد تكاتفت جميع الجهود في المدرسة لمساعدته."

لكن قدرة كريس على التعلم ساءت، ففي سنته الجامعية الاولى مثلا لقي صعوبة في مادة حساب التفاضل والتكامل (calculus) اذ كان ينسى بعض ما اكتسبه في دراسته السابقة. غير أنه، بما حباه الله من شجاعة وإيمان، تابع دراسته ومرحه. وهو يقول: "إني حقاً، حقاً، لسعيد بأن أكون حيث أنا الآن." ووسط ما اكتنف حياته من غموض، ظل أمر واحد واضحاً تمام الوضوح، وهو عبَّر عنه بالآتي: "لن أدع هذه الفاجعة تدمر حياتي."

إلا أنَّ أحداً لم يشعر بمثل الحزن الذي ألمَّ بديفيد دانيال الذي اعتبر نفسه مسؤولا عما حدث لزوجته وطلابه. ولكن ما أن انقضت أسابيع ثلاثة على وقوع الكارثة حتى وجد ديفيد ان لا سبيل الى التخفيف من شقائه غير العودة الى التدريس. وفي السنة





ربان الطائرة المنكوبة
فرانك زفونك (الى اليمين)
ومعاونه لي بروشر.

التالية عاد ديفيد الى كانساس سيتي حيث حضر "مؤتمر مزارعي المستقبل" يرافقه فريق جديد من الطلاب. وهو يقول: "هذا حق تمارا وشيري وجانين عليَّ، لأن متابعة الأعمال التي كانت موضع اهتمامهن هي سبيلي الى إحياء ذكراهن."

ولم تزده المحنة الا إيماناً بالله. يقول: "لقد ملأ الغضب نفسي فترة، لا لأن تمارا ماتت بل لأني بقيت حياً حائراً في ما أفعل. إني أؤمن بأن الله يسيِّر أمورنا."

وفي نهاية المطاف خَلُص "المجلس الوطني لسلامة النقل" الى استنتاج أن الطيار ومساعده كانا يفتقران الى الخبرة التي تؤهلهما لقيادة طائرات من نوع «DC-9» ، وأن جمعهما في رحلة واحدة كان تدبيراً "غير ملائم." ذلك بأنهما في الدقائق الثلاثين التي سبقت الإقلاع أهملا الاشارة الى خطر تكون الجليد على الجناحين، كما أهملا إجراء كشف بصري عليهما.

وقرر "المجلس الوطني لسلامة النقل" أن السبب المحتمل لتحطم الطائرة هو "تقصير الطيار في إخضاع الطائرة مرة ثانية لعملية إزالة الجليد" وأن العامل المساعد الآخر هو "غياب المراقبة الادارية أو الاجرائية التي تنظم تولي طيارين مؤهلين جدد قيادة طائرات." وما زالت شركة "كونتيننتال" تدافع عن زفونك وبروشر باعتبارهما كاملي التأهيل، وتؤكد أنها لا تعرف سبب الحادث.

أما الآن وقد استُكملت التحقيقات وأقفلت الملفات فما زال على المتضررين أن يتحملوا مدى الحياة العذاب الجسدي الذي خلفته الرحلة ١٧١٣.

وأخيراً، ماذا يحمل المستقبل لديفيد دانيال؟ يقول انه لو سمح للمرارة بأن تتحكم بحياته ومصيره، لبات هو أيضاً ضحية. ويضيف: "آمل أن أتمكن يوماً من بناء حياة جديدة مع إنسانة لها صفات تمارا. لن تكون الحياة إياها، ومن الصعب أن أجد مثل هذه الانسانة، لكني أتمنى أن يتسنى لي ذلك."

في بقعة يلفها السلام جنوب ملبا تقع المدافن وسط واحة من النبات الاخضر والأجمات المزهرة والأشجار الوارفة التي تأوي اليها الطيور. في هذه البقعة التي يتعهدها السكان بعناية فائقة يرقد رفات أجيال من العائلات القاطنة في الجوار.

وفي ناحية جديدة من المدافن ترقد شيري نلسون في ضريح تجلله شجرة سامقة تحمل في أغصانها جرساً يرن بفرح مع نسيمات الخريف ورفرفة الطيور. تقول مارتي نلسون: "لا أتصور أن احداً عرف ابنة مثل شيري التي، وإن جاءتنا متأخرة، لم تكف عن زرع البهجة في قلوبنا. لقد أرادت طوال حياتها أن تعرف ماذا وراء الأكمة التالية."

لكن المرارة التي ملأت قلب مارتي نلسون قبل ثلاث سنوات غابت اليوم، وهي تعتقد أن ذلك نعمة من الله. وتقول باتزان "قد تكون أمهات أخريات عانين آلاماً تفوق آلامي. سنفتقد شيري ما حيينا، الا أني توصلت الى قناعة هي أني اذا تركتِ المرارة تجرني الى هوة اليأس فسوف أجر معي آخرين."

وتستمر الحياة في ملبا.

هنري هورت ■

ترجمة فريد شديد



أرقام النجاح

عمل دنيس ج. جونسون رئيس ادارة مجلس شركة "الكترولكس" ذات صيف بائع مكانس كهربائية متجولا، وكان لا يزال في السابعة عشرة من عمره. وكانت تلك أسوأ تجربة في البيع عرفها. يقول: "دخلت منزل مدير متجر متقاعد. وبينا أن أعرض له مميزات شافطة لتنظيف السجاد، تراجعت من غير انتباه فتعثرت بالآلة وألفيت نفسي على الارض. ثم بينت له كيف يمكن الشافطة القوية لآلتنا أن تلتقط ثلاث كرات فولاذ زنة واحدتها نحو نصف كيلوغرام. وأفلتت مني احدى الكرات لتسقط على ابهامه. قال لي: لازم مهنتك أيها الشاب، فانت ستبرع فيها. واشترى مني الآلة. وثبت لاحقاً صواب رأيه. وركزت اهتمامي على مبدأ الارقام: اذا طرقت عدداً كافياً من الابواب، فلا بد أن تتوصل أخيراً الى تقديم عرض لسلعتك. ولا بد أن تنجز صفقة بتقديم ما يكفي من العروض."

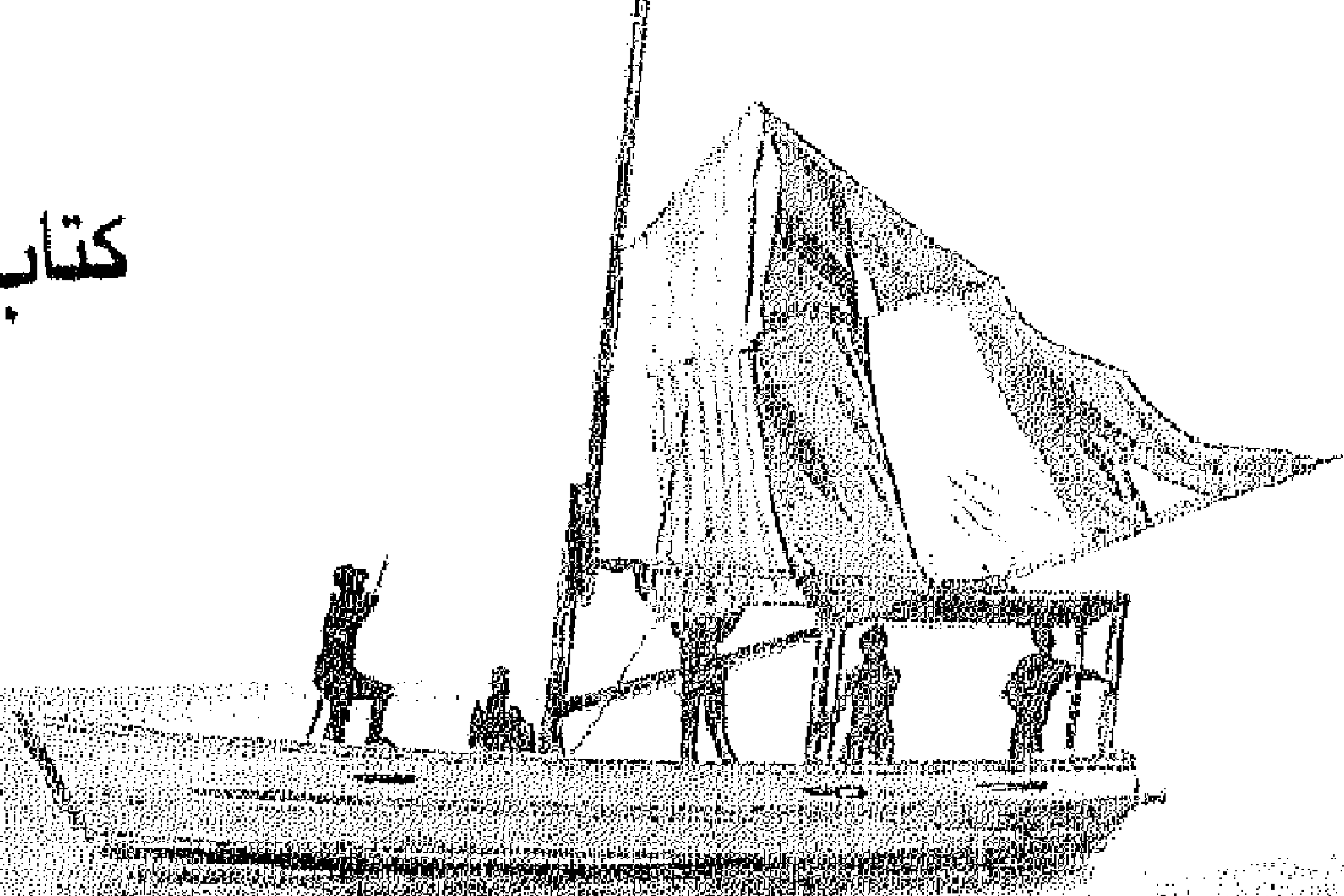
وقد اثمرت استراتيجية السبق التي طورها ابن السابعة عشرة ذلك الصيف. فبعد خمس سنوات عين جونسون في أول منصب اداري، وبات عام ١٩٨٦ رئيس الشركة.

م.س.

لماذا لا تبدو الامهات في المسلسلات التلفزيونية أكبر من بناتهن بسوى سنة واحدة؟

أ.ب.

كتاب الشهر



١٤٢ يوماً في سجن أزرق

ملخص من كتاب
"خمسة يصارعون البحر
قصة شجاعة وصمود"
بقلم رون أرياس

١٤٢ يومًا في سجن أزرق



بحارة المركب "كايرو – ٣"
(من اليمين): باستور لوبين، جويل عمر غونزاليس، جيراردو أوبريغون، خوان بوليفار وهورهي هيرنانديز.

تلك كانت مشيئة الله، وذلك كان قدرهم، أن يكافحوا بمرارة للبقاء على قيد الحياة. ذلك ما علّلوا به أنفسهم، أولئك الصيادون المنهكون في مركبهم التائه وسط العواصف الهوجاء.

أيقظت الأخطار المحدقة في صدورهم روح التحدي والعزيمة والتضامن، فكانوا يتقاسمون الماء والطعام والعمل والآلام والدموع والرجاء، بل كانوا مستعدين حتى لتقاسم الموت، لكنهم تعاهدوا على أن يموتوا مناضلين.

صباح الاحد في ٢٤ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٨ حدَّق القبطان جيراردو أوبريغون عبر النوافذ البلاستيكية الكثيفة في قمرة قيادة المركب "كايرو – ٣." فشاهد الأمواج تتلاحق سلسة هادئة، والجو صافيا. كان وبحارته الاربعة يصطادون السمك منذ خمسة أيام في المياه العميقة قبالة ساحل كوستاريكا. لكن حظهم كان عاثراً والصيد ضئيلا محبطاً كما في الرحلتين السابقتين. لكن القبطان جيراردو (٣٢ عاما) اذ أجال بصره

متجهماً في مياه المحيط الهادىء المنبسط أمامهم، صمّم على تفادي تكرار الاخفاق ما استطاع الى ذلك سبيلا.

وفيما المركب يبتعد أكثر عن الشاطىء، سمع جيراردو عبر الجهاز اللاسلكي تقريراً من مركب صيد آخر مفاده أن بحارته عائدون جذلين الى الميناء ومعهم ٢٧٠٠ كيلوغرام من السمك صادوها قبالة رأس بونتا غيونس. وأرفق التقرير بتحذير من اشتداد الريح التي كانت تهب "على نحو غريب."

وللحال يمّم جيراردو صوب بونتا غيونس. وهناك أسرع البحارة الى رمي شبكتهم البالغ طولها ٦٠٠ متر.

صباح اليوم التالي تعاظمت الامواج وزخرت الشبكة بالسمك، فراح البحارة يشدونها الى المركب مكافحين لحفظ توازنهم على متنه الذي ما عتم أن امتلأ بالاسماك، ومنها قروش ضخمة بلغ طول بعضها مترين. وتكدّس السمك حتى كاد الرجال لا يجدون متسعاً للتحرك. فقال جيراردو مسروراً: "لقد فعلناها هذه المرة."

بلغ ما التقطوه في ذلك المكان ٥٥٠ كيلوغراماً، فارتفع مجموع صيدهم الى ١١٠٠ كيلوغرام، وهو أكثر مما تغلّه عادة رحلة تدوم ثمانية أيام. ومتى تقاسموا ثمن الصيد فسيحصل صاحب المركب على ٩٠٠ دولار وجيراردو على ٣٠٠ وكل من البحارة على ١٥٠ دولاراً. واذا حالفهم الحظ يومين آخرين فسينالون ضعفي هذه المبالغ.

هنأ جيراردو الجميع، وبدا جذلا هو المتّسم عادة بالرزانة والهدوء. وهتف بصوته الأجشّ: "أخيراً ربحنا ورقة يانصيب! انه لصيد عظيم!"

مع الظهر اشتد النوّ، فولج البحارة الجائعون المنهكون قمرتهم لتناول الغداء الذي هيأه لهم الطاهي خوان بوليفار (٤٦ عاماً) أكبرهم سناً. واشتمل الغداء على البطاطا والرز والدجاج والفاصولياء.

أدار جيراردو جهازه اللاسلكي محاولا التقاط نشرة جوية عن حال الريح الشمالية "إل نورتي" التي تهبّ عادة غير مصحوبة بأمطار وتدفع الامواج الى ارتفاع ١٢ متراً.

فجأة هتف باستور لوبيز (٣٠ عاماً) الذي كان في الخارج، اذ شاهد مركبي صيد على بعد حوالى كيلومترين: "يبدو أنهما عائدان!"

فخرج جيراردو لكي يتحقق الخبر، وقال: "لا، لا، ان نظرك ضعيف، فهما باقيان."

فرد باستور قلقاً: "لا أظن ذلك. ما رأيك في العودة الى الشاطىء؟"

وقال هورهي هرنانديز (٢٦ عاماً) أصغر البحارة سناً، مبديا مخاوفه: "الريح تعصف بشدة."

فرد جيراردو متطلعاً من فوق ذرى الامواج الداكنة الى الشاطىء البعيد: "لقد مرّ علي أسوأ من ذلك كثيراً."

فهتف خوان، الاكبر سنا: "أما أنا فلم أرَ في حياتي أسوأ من هذا الاعصار، وقد كنت هنا أصطاد السمك قبل أن تولد أنت."

فرد جيراردو بحدة: "كفى! هذا المكان ليس للمتخاذلين الجبناء. سنمضي هنا ليلة أخرى ونرحل صباح غد."

وعاد القبطان الى قمرة القيادة فيما استمرّ البحارة في التذمر. وأخيراً قر رأيهم على أنه ربما كان أجدى لهم البقاء ليلة أخرى لجمع صيد وافر كالذي حظوا به الليلة السابقة، فيصبحوا "أثرياء." انها ليلة واحدة فحسب.

ريح غاضبة

قبيل الثامنة مساء دخل البحارة مخادعهم للنوم. ونظراً الى ان الشبكة تقوم مقام مرساة، فقد اطمأنوا الى انهم لن يجنحوا بعيداً.

ازدادت الأمواج ارتفاعاً وأخذ المركب يتمايل بعنف، فحُرم البحارة النوم على رغم عيائهم. وغمرت المياه سطح قمرة القيادة وتسرّبت الى الداخل من خلال شقوق.

وكان البحار جويل عمر يردد: "الحال مريعة حقاً."

فيهيب باستور برفاقه أن يصلّوا.

أما جيراردو فأصاخ بسمعه متنصتاً الى صرير المركب وهو يصارع الأمواج، لكي يستشف ما اذا كان ثمة تحطم أو تمزق في أي من أجزائه.

قرابة منتصف الليل ساد المركب فجأة هدوء مريب، لكن الرجال ظلوا يسمعون صفير الرياح. وبدا أن الأمواج الثائرة سكنت. قال جويل: "الحمد لله، يبدو أن العاصفة هدأت." وما هي إلا بضع دقائق حتى استسلم الجميع للنوم.

في الرابعة فجراً هبّ جيراردو من مخدعه وتلمّس خطاه في الظلام وفتح الباب الخلفي، فرأى أن الأمواج تعاظمت لكن حركة المركب ما زالت سلسة. فتساءل: "تُرى هل هدأت الريح؟"

وأصغى الى صوت الشبكة التي تضرب مقدم المركب عادة. ولما لم يسمع شيئاً هرع خارجا الى مقدم المركب وهو ممسك بالحاجز على متنه، وانحنى مستكشفاً فوجد أن الشبكة أفلتت.

عاد جيراردو الى الحجرة وأيقظ البحارة معلنا: "الشبكة أفلتت، ولا ريب في أنها تمزقت."

فوثب البحارة الاربعة من مهاجعهم. وقال هورهي: "ربما استطعنا العثور عليها."

أدار جيراردو المحرك وسلّط الانوار الكاشفة موجها مقدم المركب الى صدر الموج وقال: "سنبحث عنها، وان لم نجدها فسنعود الى الشاطيء."

تبادل الرجال نظرات القلق وهم يناضلون لحفظ توازنهم على متن المركب المترجرج. وصاح بهم جيراردو محذراً لكي يتمسكوا بأي شيء تحسباً لموجة عملاقة مندفعة نحوهم. فارتمى هورهي وباستور على الارضية، وتسلّق خوأن الى مهجعه، وتمسك جيراردو وجويل بدفة القيادة. وقبل أن تضربهم الموجة الجبارة غطس مقدم المركب في الماء، فخيم الظلام وغاب كل شيء.

في هذا الوقت كان الأفق الشرقي يتوهج بحمرة الفجر الطالع.

"لا تذهب يا أبي"

قبل أيام من بدء الرحلة ساور البحارة قلق حول متانة المركب "كايرو – ٣"، اذ انهم كانوا اكتشفوا، وهم في الميناء في مدينتهم بونتاريناس، ثقوباً في هيكل المركب بثخانة أصابع اليد، حفرتها قشريات بحرية في الخشب على الجانبين وقريباً من المقدم. وكانت الشقوق أسوأ حالا في الألواح الخشبية العليا المعرَّضة للشمس والقريبة من المؤخر. فأسرع الرجال الى سدّها بخيوط القنب. الا أن القلق لم يفارقهم.

وكان جويل (٢٧ عاماً) وعد امرأته بأن تكون هذه خاتمة رحلاته اذا حالفهم التوفيق، اذ اعتزم تأسيس مصلحة خاصة يفيد فيها من دراسته الثانوية.

كذلك أمل باستور التخلي عن صيد السمك وسيلة لكسب العيش في أيام العطل. وكانت هذه رحلته الثالثة على المركب "كايرو – ٣" وقد صمم على أن تكون الاخيرة. وكان لا يزال قلقاً، اذ لاحظ وهو يحرس المؤونة على متن المركب عشية الانطلاق ان المياه تتجمع تحت حجرة المحركات بمقدار ينذر بالخطر.

قال له ابنه الصغير ساعة الوداع: "لا تذهب يا أبي."

فرد مطمئناً: "اصغ اليّ يا بنيّ. أعدك بأن تكون هذه رحلتي الأخيرة. لذا أريدك أن تصلي من كل قلبك لكي يوفقنا الله. فهل تفعل ذلك من أجلي؟"

أومأ الصبي برأسه، فقبّله باستور وعانق زوجته وحمل كيسه وودعهما مبتسماً.

بعيد الظهر تهيأ البحارة للانطلاق. فعلى رغم الشقوق البادية كان المركب صلباً متين البناء. فطوله تسعة أمتار، وهو يضم حجرة تتسع لستة مهاجع ومطبخاً صغيراً وخزانة طعام. وكانت دفة القيادة في المقدم من الخشب، وثمة باب يؤدي الى مؤخر المركب حيث يخزن السمك في ثلاجة كبيرة تعلوها ظلّة متينة من الخشب المعاكس.

كان الجو صافياً والهواء رطباً دافئاً. واستعدّ البحارة للانطلاق عبر القناة المؤدية الى عرض البحر. ونادى مالك المركب، كارلوس رحمان، من الرصيف: "يبدو أن كل شيء على ما يرام، أليس كذلك؟"

فأجاب جيراردو: "بلى... حتى الآن."


فلوّح رحمان بكلتا يديه مشجعاً والقلق باد عليه: "ترفّقوا بالمركب في هذه الرحلة. وعندما تعودون سنجري له فحصاً كاملا يشمل الشقوق والمحرك وكل جزء."

فغمغم باستور من تحت الظلة: "بكل تأكيد، ترفقوا به يا شباب، ولكن عليكم أولا تلاوة صلواتكم الاخيرة." وكان خوان واقفاً الى جانب باستور يلف حبلا، فحملق فيه مستطلعاً مغزى كلامه وقد خامره الخوف. فربت باستور كتف زميله قائلا: "لا تقلق أيها العجوز، انني أمزح."

وفيما انطلق المركب في القناة لوح جويل بيديه مودعاً زوجته وبناته الواقفات على الرصيف. كذلك فعل باستور الذي "طيّر" قبلة الى زوجته وابنه الذي وقف يهز رأسه راجياً أن يحجم والده عن الذهاب. واذا بسحابة عابرة تلقي ظلاً قاتماً على المركب "كايرو - ٣." فتشاءمت زوجة باستور وضمت ابنها اليها. وما لبث المركب أن انعطف في آخر القناة وتوارى.

مصارعة الامواج

وصلت الموجة الجبارة التي نبّه اليها جيراردو وضربت جانب المركب، فصاح جيراردو: "هيا ننزح الماء!" فهرع الجميع الى الدلاء لغرف الماء الذي غمر أقدامهم. وتعاظم ارتفاع الموج حتى بلغ بعضه تسعة أمتار وأخذ يتقاذف



المركب كدمية، فما ان يرتفع من وهدة حتى تبتلعه موجة أخرى في قرارة غورها.

رأى جيراردو الأمواج المزبدة تضرب مقدم المركب من الجانبين، فراح يدير الدفة محاذراً أن يُضرب المركب جانبياً ثانية. فلو حدث ذلك وانقلب المركب فلن يكون لهم أمل بالنجاة.

منذ صباح الثلثاء في ٢٦ يناير (كانون الثاني) وحتى الاولى بعد الظهر والأمواج الجبارة تتتالى وجيراردو منتصب يدير عجلة القيادة مكافحاً لتوجيه المركب نحو الشاطىء. وهو اعتاد الصيد والشاطىء دائماً في نطاق رؤيته، لذلك لم يكن في حاجة، خلال الابحار، الى سوى نظر جيد وبوصلة. لكنه في هذا النهار، حتى عندما كان المركب يرتفع الى أعلى ذرى الموج، لم يشاهد الا امتداداً غير متناه من الامواج المتدافعة الكاسحة تحت سماء زرقاء. فأين الشاطىء؟ وكم يبعد عن المركب؟ اذا طال الأمر على هذه الحال فانه يخشى نفاد الوقود، وتلك هي الطامّة الكبرى.

أخيراً سلّم جيراردو قيادة المركب الى جويل الذي ظل يكافح طوال فترة بعد الظهر. وفي الخامسة مالت الشمس نحو المغيب فأشعل أحدهم الضوء في الداخل. وحاول جويل تبيّن ما في الخارج من خلال النافذة البلاستيكية، لكنه فوجىء بموجة شامخة دهمتهم ودفنتهم في طياتها.

ضربت الموجة بعنف فحطمت الباب والنوافذ الأمامية ورمت جويل أرضاً وأغرقت حجرة النوم وحجيرة المحرك. وتمسك الرجال بما طالته أيديهم، لكن المركب مال الى جنبه ثم استقام وأخذ يغرق.

علا صياح الرجال واستماتوا في نزح الماء عبر النافذة والباب الخلفي وبالوعة المطبخ. وعمد جيراردو وجويل الى دقّ مسامير كبيرة في هيكل المركب وفي الابواب والنوافذ الأمامية لتثبيتها وتفادي تدفق المياه. وفي أقل من نصف ساعة نزح البحارة من المياه ما أبعد خطر الغرق. وكانت أجسادهم شبه العارية تلمع في الضوء الخافت وهم يروحون ويجيئون عاملين كآلات.

وما لبثت أن ضربتهم موجة عاتية كالاولى عنفاً، فاقتلعت النوافذ والابواب وبعثرت مساميرها. فتدفقت المياه الى حجرة المهاجع. وكاد المركب ينقلب ثانية، فعاد الرجال يصرّفون المياه بهمة لا تعرف الكلل. وظلوا على هذا المنوال ثلاث ساعات متواصلة وهم يصارعون الأمواج في سباق يائس مع الغرق.

ولا بد ان فكرة جالت في رؤوسهم جميعاً: إن تكن موجتان هائلتان غمرتاهم وكادتا تغرقانهم، فماذا لو اجتاحتهم دفعات متلاحقة من أربع موجات عاتية أو خمس؟

قرابة الثامنة هدأت الامواج الغاضبة قليلاً، فطلب جيراردو من الرجال أن يرتاحوا، وأخبرهم أنه يعتزم القاء المرساة في البحر علّ ذلك يبطىء جنوح المركب. وبقي

الجميع صامتين وهم ممددون في مهاجعهم فيما تمتم باستور صلاة شكر وابتهال لكي يبقى الحظ حليفهم.

تكوّم هورهي تحت بطانية مشبعة بالماء. وكان خشي الغرق عندما ضربتهم الموجة الجبارة الاولى، لكن الخشية فارقته في غمرة الانهماك في نزح الماء من المركب. وها هو الخوف من الموت غرقاً يعاوده وهو يصغي الى صرير المركب وتكسر الامواج المتلاطمة على الحجرة حيث كان راقداً.

أين "كايرو - ٣"؟

في ٢٧ يناير (كانون الثاني) هبت "إل نورتي" عنيفة على بونتاريناس بسرعة ١٢٠ كيلومتراً في الساعة، فاقتلعت ألواح السقوف المعدنية وكسرت أغصان الاشجار وحطمت النوافذ.

وكان جيراردو وعد زوجته بألا يطول غيابه أكثر من ثمانية أيام. وها قد مرّت تسعة أيام، وزوجته قلقة وهي تشاهد العاصفة خارج النافذة، تلوي الاشجار. فطلبت من أمها أن تهتم بالاولاد وخرجت للاستطلاع علّ أحدهم شاهد المركب عائداً.

وكانت ايديث، زوجة جويل، تطعم بناتها فطور الصباح وهي تسمع أغصان الاشجار تضرب سقف المنزل كالسياط والنوافذ تهتز وتقعقع. وهي، منذ اشتداد الريح، لم تتناول من الطعام الا القليل، وراحت تهمس: "يا الهي، متى يعود؟"

دهشت الفتيات لرؤية والدتهن تروح وتجيء وهي تهمس وتعصر يديها. وكنَّ اعتدن أن يرينها، قبل عودة والدهن من البحر، بشوشة فرحة تسرع الى الباسهنّ أحسن الثياب والخروج معهنّ الى الميناء لانتظاره.

بعد فطور الصباح خرجت ايديث الى رصيف الميناء خلف المنزل تتسقط أخبار جيراردو ورجاله من بحارة المراكب العائدة. لكنها ما التقت أحداً رآهم أو عرف شيئاً عنهم. الا أنها سمعت البحارة يسردون روايات مرعبة عن أنواء تجتاح السفن فتغمر متونها وتحطم حجراتها. وتراجعت صامتة وهي تشاهد الرجال العائدين يعانقون زوجاتهم.

في اليوم التالي علمت ايديث أن جميع مراكب بونتاريناس عادت الى الميناء الا مركب جويل. فتعاظم يأسها. وحاول الصيادون طمأنتها قائلين ان بحارة "كايرو - ٣" ربما لجأوا الى أحد المراسي الآمنة على الشاطىء ينتظرون العودة حين تهدأ الريح. وربما كان الجهاز اللاسلكي في المركب معطلاً ولا سبيل لهم الى الافادة عن مكانهم.

حاولت ايديث أن تبعد عن مخيلتها صورة المركب وهو يصارع الامواج في عرض المحيط فيتحطّم، وزوجها جويل يتخبط في اللجج مكافحاً للبقاء حياً. كانت تلك الرؤية

فوق قدرتها على التحمل، فركبت الحافلة الى مركز خفر السواحل في وسط بونتاريناس وأفادت الضابط المسؤول عن تأخر المركب "كايرو - ٣": "من الواضح أن ثمة خطباً جللاً. فهل لحرس الشواطىء أن يبحثوا عنه؟"

وعدها الضابط بتنظيم عملية بحث وانقاذ ما ان يبادر مالك المركب كارلوس رحمان بالابلاغ عن فقدانه.

لكن رحمان تريَّث علَّ الرجال يعودون نهار السبت في ٣٠ يناير (كانون الثاني) وفق ما بثّه جيراردو سابقاً عبر الجهاز اللاسلكي. واذ لم يعودوا يوم السبت قدَّم التقرير المطلوب عن المركب المفقود. وأكد المسؤولون في مركز خفر السواحل لرحمان ولزوجات البحارة أن عدداً من المروحيات وزورقاً واحداً على الاقل ستتولى البحث عن المركب الصغير.

الفرصة الاخيرة

في الصباح الباكر من نهار الاربعاء ٢٧ يناير (كانون الثاني) أدار جيراردو المحرك وأمر برفع المرساة. كانت الريح لا تزال تعصف بالمركب، وواصل الرجال نزح الماء. وحاول جويل اصلاح جهاز اللاسلكي فباءت جهوده بالفشل.

في اليوم التالي اكتشف الرجال بعد ساعات من الكفاح الشاق أنه لم يبق في خزان الوقود الذي يتسع لـ٣٤٠ ليتراً الا ٣٠ ليتراً. فأوقف جيراردو المحرك لعلمه أنه يستحيل بلوغ الشاطىء بهذا المقدار الضئيل من الوقود، فمن الاجدى ابقاء المركب طافياً تتقاذفه الرياح والتيارات في انتظار احدى السفن العابرة. عندئذ يُستخدم ما بقي من وقود في دفع المركب نحو سفينة الخلاص.

في ١١ فبراير (شباط) خفَّت حدة العاصفة. وكان التيار المائي يسوق المركب في اتجاه الغرب، فخشي البحارة الانحراف عن خطوط الملاحة الساحلية الشمالية - الجنوبية لانها أملهم الوحيد في النجاة.

انطرح البحارة الخمسة منهكين على متن المركب مستسلمين لمشيئة القدر. وكانت أشعة الشمس الحارقة تكوي وجوههم الرمادية. خلال الاسبوع المنصرم نال كل منهم كوبين من الماء يومياً، ولم يبق لديهم سوى ليترين. فوافقوا على ألا تزيد حصة كل منهم على نصف كوب يوميا. لكن بعضهم، ولاسيما هورهي، رأى أن اطالة أمد العطش ليست الا تأخيراً لموعد القدر المحتوم.

ورأى باستور "ان الله يمتحننا، فاما أن ننجح في الامتحان واما أن نسقط."

"حسناً،" قال هورهي وهو يتسلق سقف الحجرة ليراقب الافق. وقرابة الرابعة عند الاصيل ألقى نظرة أخيرة قبل أن ينزل الى رفقائه، فشاهد خطين من دخان مرتفعين

في سماء الجنوب. فصاح: "سفن! هناك سفينتان!"

فنهض الجميع للحال، وهتف جيراردو: "بل ثلاث سفن، أترون الدخان؟"

صاح خوان: "هذه فرصتنا!" وأسرع الى الحجرة لاحضار مشعل من خرق باليه مشبعة بمادة الديزل لارسال اشارة استغاثة الى السفن.

مرت باخرتان على بعد حوالى كيلومتر غرباً فيما اتجهت الثالثة نحوهم، وبدت لهم ناقلة نفط.

أرسل بحارة "كايرو – ٣" اشارات استغاثة وراحوا يصيحون مسعورين. ولما أصبحت الناقلة الضخمة على بعد ٨٠ متراً عنهم شاهدوا على منصة القيادة رجلين يحدقان اليهم بمنظار.

لبث بحارة الناقلة، الذين بدوا آسيويين، دقائق عدة يحدقون الى المركب بحذر شديد. لكن الناقلة تجاوزت المركب بعد قليل، فكاد الصيادون الخمسة يجنّون وجثوا على ركبهم ورفعوا أيديهم ملتمسين العون وهم يلاحقون السفينة بأنظارهم.

"مهلاً،" قال هورهي، "انها عائدة."

وتمتم باستور: "حقاً انهم عائدون."

اقتربت الناقلة الى بعد ٤٠ متراً، فرمى أحد بحارتها حبلا وصل طرفه الى مسافة ثمانية أمتار من مقدم المركب.

ناشد خوان وجويل القبطان جيراردو لكي يقترب من الناقلة. فأدار هذا المحرك، وترنح المركب الى مسافة ٢٠ متراً من الناقلة. وللحال ربط باستور الحبل الى احدى قوائم الظلّة. وبان المركب "كايرو – ٣" كزورق تجذيف صغير الى جانب الناقلة العملاقة، وكان يعلو ويهبط مع حركة الأمواج فيما الناقلة جاثمة كالطود تكاد لا تتحرك. فصاح أحد بحارة الناقلة: "ما بكم؟"

فردّ عليه جويل باكيا، شارحاً معاناة الرجال الخمسة والخطر المحدق بهم وملتمساً العون. لكن بحارة الناقلة لم يفهموا شيئاً مما قاله جويل. وأخيراً صاح جويل بالانكليزية: "ماء!" فردد البحار الكلمة التي فهمها. وما هي الا لحظة حتى رمي خرطوم ماء الى باستور الذي التقطه وراح يملأ خزان المركب الذي يتسع لـ١٧٠ ليتراً. وفي تلك اللحظة خرج الى متن الناقلة ضابط في بزة رسمية وراح يأمر والغضب باد عليه، فأدرك جويل أن الضابط يرفض انقاذ بحارة المركب.

وللحال سُحب خرطوم الماء. لكن جويل لم ييأس، بل حاول القفز الى الناقلة حين ارتفع المركب بفعل الموج الى مستوى متنها، فصدّه بحارتها رافعين سواعدهم مهددين بدفعه الى الوراء. وعبثاً توسل السماح له بالصعود الى الناقلة، لكن هذه انسحبت على مهل وتابعت رحلتها دونما اكتراث. فعلا صراخ رجال "كايرو – ٣"

وظلوا على هذه الحال الى أن أصبحت الناقلة خارج مرمى السمع. فانهار البحارة على ظهر المركب منهكين محبطين تتأكلهم المرارة. ووقف جيراردو طويلا يحدق الى السفينة المتوارية حتى أصبحت نقطة ضبابية متلاشية في ظلام الافق.

لقد مرّ عليهم ١٧ يوماً وهم عائمون تائهون في مجاهل المحيط. وقال جيراردو وفي قرارته حطام أمل تألق ثم خبا سريعاً: "هذه مشيئة الله."

"لننشر شراعاً"

جثم جيراردو على ركبتيه يتفحص مستوى الماء المرتفع حول المحرك، ثم قال: "سنغرق ما لم نواصل تفريغ الماء. فالثقوب تزداد اتساعاً."

نظم البحارة في ما بينهم فرق عمل من رجلين تتناوب النزح كل ساعتين ليلا ونهاراً: رجل يغرف الماء ويرفع الدلو من الحجرة، فيتناوله رفيقه ويطرحه في المحيط. كان ذلك الجهد مضنياً. وقد اختلف الرجال حول أمور كثيرة، لكنهم لم يختلفوا في هذا الشأن.

وكانت الامواج الهائجة خفّت ارتفاعاً، وتحولت الريح نسيماً ثابتاً، فراح الرجال يبرّدون أجسادهم المكتوية بصبّ ماء البحر على رؤوسهم. تلك كانت الراحة الوحيدة التي نعموا بها منعتقين من افراغ الماء ومراقبة السمك لاصطياده.

ومرت أيام لم يذوقوا فيها الا فتات الاسماك الباقية من صيد سابق. فعضّهم الجوع ووهنوا واسترخوا على ظهر المركب ساهمين يرقبون الصفحة الخضراء وهي تعلو وتهبط علّهم يرون شيئاً يقتنصونه.

وما لبثوا أن شاهدوا سلحفاة رمادية تتهادى في المياه، فرأى فيها الرجال الخمسة الجياع مأدبة عائمة. فتناول باستور لفة من خيط الصيد النايلون وربط الى طرفها عقيفة وأثقالا من رصاص. ورمى الخيط على السلحفاة، فانزلق على ظهرها، وفي الرمية الثانية علقت العقيفة في ثنيات الجلد في رقبتها.

أخذ باستور يداعب السلحفاة وهو يسحبها الى جانب المركب كأنها متاع عزيز. ثم ساعده جيراردو في انتشالها.

اقترح جويل على رفقائه: "دعونا نحتفل بعيدنا الاول، فاليوم يصادف مرور شهر على بدء رحلتنا."

فقال خوان: "بل دعونا نأكل فحسب." وكان لديه من الغاز كفاية لطهو ما يصطادونه.

بعد ساعة أطلّ خوان على البحارة حاملا قدراً مغطاة وقال ضاحكاً: "أتيتكم بمفاجأة." وكشف الغطاء عن يخنة شهية ساخنة ينبعث منها البخار. وأضاف: "لقد ادخرت قليلا من الرز لمثل هذه المناسبة."

وزع خوان الحصص. ولم تستغرق الوجبة سوى عشر دقائق، لكنها رفعت معنويات الرجال وأنستهم مأساتهم لبرهة، واستطابوا طعم الرز اللذيذ الذي ذكرهم بمنازلهم.

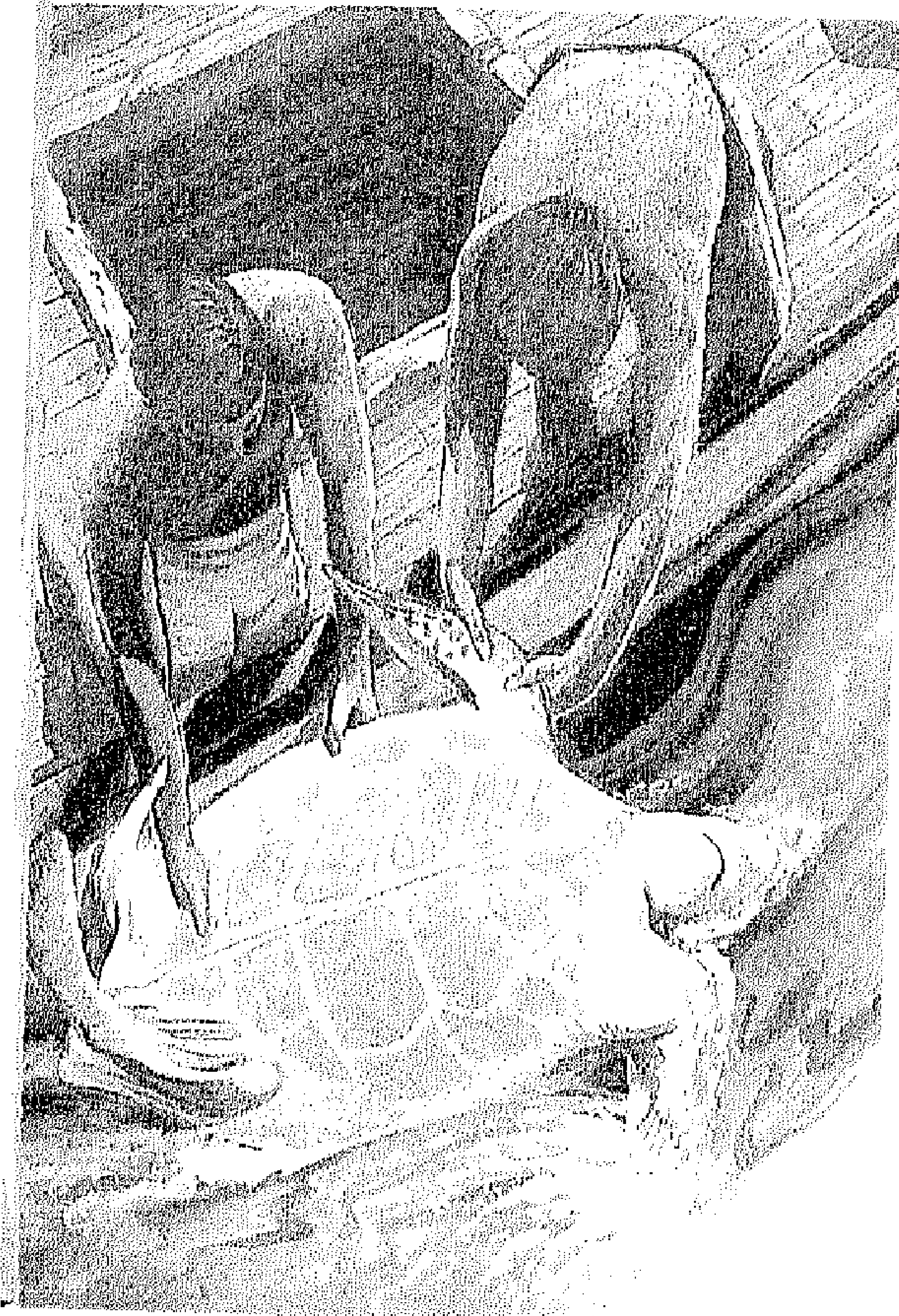
في اليوم التالي لم تفارقهم روح الثقة والامل، وظلت معنوياتهم مرتفعة، فتفتقت لباستور فكرة: "لماذا لا نرفع سارية وشراعا؟" فهكذا يستطيعون الابحار في اتجاه المطر الذي يأتي عادة من الجنوب.

قال أحدهم: "لنبدأ العمل الآن. دعونا نهدم الحجرة أولاً."

انطوت الفكرة على تفكيك القسم الاكبر من الحجرة وتوفير فسحة للسارية وذراع التطويل، وهي عمود يستخدم لاطالة قاعدة الشراع، على أن تصنع السارية والذراع من عارضات السقف الخشبية، وما بقي من الخشب يستخدم وقوداً لطهو الطعام.

أما الشراع فيصنع من البطانيات ونسيج الفينيل، وتستخدم خيوط الصيد في خياطتها. وتصنع الدفة وذراعها من ألواح خشب. ولا يترك من الحجرة الا قسمها الامامي ليكون قاعدة للسارية التي سترتفع ستة أمتار.

بدأ جيراردو تحطيم الحجرة بالمطرقة الوحيدة في المركب، واشترك الباقون في الهدم والتفكيك بواسطة أنابيب ومفاتيح انكليزية (رنش) ثقيلة. فاقتلعوا المهاجع والنوافذ وحطموا الجدران ومنضدة المطبخ بهمة لم يشعروا بها منذ أسابيع. لقد دب فيهم العزم وزال عنهم الهمود واليأس. وها هم يلوّحون بأسلحتهم ويضربون كسجناء يهدمون جدران سجنهم للانطلاق الى الحرية.



بعد خلع العارضات والألواح الخشبية ورمي أجزاء لا فائدة منها في البحر، بات المركب شبيهاً بزورق "غندول"* ضخم ارتفعت في مؤخره ظلة خشبية على أربع قوائم. وأنهى خوان وجيراردو صنع السارية والشراع، فرُكّبا في اليوم التالي. وكم كانت دهشة البحارة كبيرة عندما تحرك المركب والشراع يخفق مصفقا للريح باعثاً في الصدور أملا كبيراً بالنجاة.

(*) الغندول زورق طويل يستخدم للتنقل في قنوات البندقية في ايطاليا.

استمر نزح الماء بلا هوادة، وبات أكثر سهولة بعد ازالة الحجرة فاقتصرت المناوبة على رجل واحد كل أربع ساعات. ولكن قامت حاجة جديدة الى رجل يدير الدفة، فنُظمت مناوبة أخرى يتبادل فيها الرجال العمل كل أربع ساعات. وهكذا أصبح نصيب كل من الصيادين الخمسة في العمل تسع ساعات ونصف ساعة يومياً.

خلال الابحار جنوباً لم يظهر أثر للمطر أو الغيوم. وخوفاً من نفاد الماء سطّر جويل على علبة معدنية فارغة رسالة استغاثة: "من المركب "كايرو – ٣"، بونتاريناس، كوستاريكا. اذا التقطتم هذه الرسالة أبلغوا المسؤولين أننا لم يعد لدينا من الماء الا ما يكفي لمدة ١٥ يوما. ٢٣ فبراير (شباط) ١٩٨٨."

ورمى العلبة في البحر.

ملعقة ماء!

كان القبطان جيراردو ينام في مقدم المركب وتحت مهجعه أسوأ شق في القعر، تنبعث منه قرقرة وهسهسة متواصلتان مما عكر نومه وأحلامه على الدوام. وحاول جيراردو تكراراً سد الشق بالاسفنج والحبال ورقع القماش، لكن الخشب كان تالفا وعليه سدّه برفق خشية ان يؤدي الضغط الشديد الى توسيع الخرق بحيث يتعذر سدّه.

في أوائل مارس (آذار) تعين على البحارة تقنين الماء بمعدل ملعقة لكل رجل كل ساعة، وبذلك يكون لديهم من الماء ما يكفيهم أقل من أسبوع. فغلب اليأس على البحارة وراحوا يتساءلون: أيموتون عطشاً أم غرقاً أم فرائس لسمك القرش؟

قال باستور لجويل: "لا تقلق على الموت، فهو في يد الله. وليكن همك الاوحد أن تعيش."

فهز جويل رأسه: "اني أحاول ذلك، لكني لا أعتقد أننا سنتمكن من الاستمرار طويلا على هذه الحال. وأشد ما يؤلمني هو فكرة ترك زوجتي وأولادي." ثم استدار حاجبا وجهه.

عثر جويل لاحقاً في كيسه على ورقة وقلم، فانتحى زاوية في مؤخر المركب وراح يكتب بأحرف صغيرة، سطراً بعد سطر، رسالة الى زوجته جاء فيها:

"العاشر من مارس (آذار). زوجتي الحبيبة،

أحسّ رغبة عارمة في البقاء حياً، ولكن في حال موتي لا تدعي حياتك تنهار. كوني قوية واقبلي حكم الله، انه العارف بكل شيء. اعتني بالبنات وقولي لهنّ إني قضيت في سبيل تأمين حياة فضلى لهنّ. اني في انتظار ما قدّره الله لي. نحن تائهون منذ شهرين، لا طعام لدينا ولا ماء، وحولنا متاهات زرق لا نهاية لها. مياه، مياه، لا شيء الا المياه. لقد كافحت حتى النهاية. إنما، وان كنت على شفير الهلاك، فما زالت في حنايا ضلوعي شعلة تضطرم. أحبك يا عزيزتي ايديث. جويل عمر."

أنهى جويل الرسالة وأعاد قراءتها ثم زجّها في قارورة بنية صغيرة أخفاها بين أمتعته.

أيام ضائعة

رأت ايديث وليديا، زوجتا جويل وجيراردو، ان لا جهود كبيرة تبذل لانقاذ الرجال المفقودين. فطائرات ألاستكشاف لم تقم الا بجولتين وجيزتين، فيما لم يبدُ أن زورق خفر السواحل شارك في البحث. وقيل للمرأتين ان لا معنى لهدر أموال في البحث عن مركب قد لا يظهر أبداً. أخيراً قررت المرأتان تنظيم حملة خاصة، فنُشرت قصتهما في الصحف وبثت محطات الاذاعة مقابلات أجريت معهما. فكانتا تكرران السؤال: "لماذا لا تنظِّم عملية بحث وانقاذ جدية وشاملة؟ فكل يوم يمضي من غير ان يفعل رجال خفر السواحل شيئاً هو يوم ضائع."

في أوائل مارس (آذار) بعد زيارة غير مثمرة الى نائب الوزير المعني بشؤون خفر السواحل، طلبت ايديث مقابلة الوزير نفسه. وفي غضون ذلك كانت هي وليديا تجوبان الشوارع وتسألان كل من تتنسّمان فيه صلة بالبحر عن المركب "كايرو – ٣." فاعتبرهما الناس في عداد الأرامل، يقيناً منهم أن زوجيهما هلكا. فالاحتمال كبير أن تكون العاصفة المدمرة أدركتهما فابتلعهما البحر.

على رغم ذلك ظلت ايديث تصلي بحرارة لعودة جويل. ونصحتها أمها ألا تنتظر من السلطات انقاذ البحارة، وألا تكف عن الصلاة لكي يعيدهم الله سالمين الى منازلهم. فابتهلت ايديث: "يا رب، أعطني القوة لكي لا أفقد الرجاء."

بات المركب "كايرو – ٣" تائهاً على صفحة المحيط، فلا البحارة حظوا بالمطر الموعود ولا هم اتفقوا على مسار ثابت. وخشوا أن ينتهوا الى الدوران في حلقة مفرغة إن هم واصلوا تغيير مسارهم. وأخيراً اختاروا الانسياب مع التيار شمالاً فشمالاً – غرباً (٣٣٠ درجة) لان ذلك هو المسار الطبيعي والأسهل. وهم قرروا الاتكال على الله وحده يقودهم الى حيث يشاء.

وأمل جيراردو، اذا طال أمد الرحلة، أن يصلوا الى جزيرة مأهولة يكثر فيها الطعام. فهتف جويل: "هاواي ربما."

صار لهم هدف يتطلعون اليه، فتجددت ثقتهم بالنجاة، لكنها لم تدم الا برهة عادوا بعدها الى وهدة اليأس. فقد كاد ماء الشفة ينفد. انهم قاسوا كثيراً من الاهوال والمشقات حتى وصلوا في معاناتهم الى هذا الدرك. فهل يقضون ظمأ؟ كيف يعيشون من دون ماء؟

واذا بزخة مطر تنهمر ذات ليلة في الأسبوع الثاني من مارس (آذار). واحتجب

القمر وهدأ البحر، فانتعشت نفوس البحارة وفتحوا أفواههم ورفعوا وجوههم لاستيعاب المطر، وهرعوا الى الدلاء والقدور يملأونها بالماء المنسكب. وبسط اثنان قماشة وحولا الماء المتجمع الى الخزان. واقام الرجال أخدوداً على جانب من السطح جمعوا فيه الماء بإمالة المركب مجتمعين في جانب واحد منه.

بعثت الزخة العابرة في البحارة الخمسة نشاطاً وحيوية كانوا في أشد الحاجة اليهما. فشربوا حتى الارتواء ثم راحوا يتعانقون ويرقصون. ورفعوا الشكر الى الله العلي القدير.

هجوم القرش

هتف جويل ورمى نفسه في البحر، فشعر ببرودة الماء، وكان كل شيء حوله ساكناً. وانتصب أمامه بدن المركب الظليل وقد تدلت منه حصيرة من النبت الاخضر والبني. فركّز قناع الغوص على وجهه ودنا من قعر المركب المنساب بهدف تفحصه.

كان جويل يواجه في الماء خطر القرش ويخشاه أكثر من أي خطر آخر، اذ أن قرشا متوسط الحجم يستطيع تمزيقه إربا في ثوان.

حكّ جويل قعر المركب بسكينه، ففرت أسراب من السمك الصغير من "عرائش" الأعشاب المتدلية من طبقة القشريات على بدن المركب. ثم عاد الى المؤخر وطفا وتسلق حافة المركب وأبلغ زملاءه أن البدن مكسو بطبقة كثيفة من القشريات والديدان التي تنخر الخشب الى حد الاتلاف. وبات سد الشقوق والثقوب يحتم عليهم الغطس تحت المركب لكشط بدنه.

كان التضامن غير المعلن بين البحارة يقضي بأن يعمل الجميع سواسية في كل شيء. لذلك حملوا جميعاً أدوات الحك والكشط. وتفحص جيراردو الماء للتأكد من عدم وجود أسماك قرش، ثم غطس وتبعه جويل وهورهي. وتردد خوان قبل أن يغطس بحذر. أما باستور فأوكلت اليه مهمة البقاء على ظهر المركب ومراقبة القرش.

في البداية خشي البحارة أن يجتذب بياض الجلد في باطن أقدامهم أسماك القرش. فانتظروا هجومها في أي لحظة.

ثم لم يبقَ الا جويل وجيراردو في البحر، فيما راح الباقون يفرغون الماء ويراقبون القرش من مقدم المركب ومؤخره. كان نزع الاعشاب والقشريات عن البدن في منتهى الصعوبة، وظل جويل وجيراردو ساعات يحفران ويكشطان ويطفوان على سطح الماء للتنفس.

وأخيراً أعلن جيراردو لاهثا: "يكفي الآن، لقد أنجزنا المهمة."

ثم صعد الى ظهر المركب وارتمى الى جانب جويل المنهك. بازالة القشريات زال



خطر الكارثة الى حين، وان يكن ذلك أضعف متانة المركب.

ولم يطل الوقت حتى أخذ البحارة يصطادون سمك القادوح والدورادو والقرش، فتوافرت لهم كفاية من الطعام للمرة الاولى منذ بدء محنتهم. وفيما كان باستور يملّح بعض السمك ويقدده، اذا به يشاهد ثلاثة قروش تروح وتجيء على بعد ٢٠ متراً. فجأة هاجمت المركب فضربته بخطومها وارتدت ثم عاودت هجومها المسعور.

وانصرفت القروش بعد ذلك ولم يعرف أحد سبب الهجوم. لكن الحادث أثار القلق والخوف في صدور البحارة، فلو تحطم أحد الألواح الخشبية بفعل ضربات القرش لتدفقت المياه وحلّت الكارثة.

عاد القرش الى الهجوم بأعداد كبيرة بعد الظهر. وكان انقضاضه وجيزاً الا أنه كان عنيفاً روّع البحارة الذين راحوا يراقبون الاسماك القاتلة وجلين وكأنها ستندفع الى ظهر المركب وتقضم سواعدهم.

بعد هذا الهجوم الغريب شنّ جيراردو حملة وقائية، فراح كالمسعور يسدّ الشقوق والثقوب في خشب المركب مستخدماً مطرقة ومفكاً للبراغي وقطعاً من القماش والاسفنج والحبال. وتفحص البدن من الداخل وحشا كل الشقوق والثقوب الدقيقة التي يتسرّب منها الماء. ثم تدلى الى جانب المركب وحشا الشقوق الظاهرة فوق الماء. وكان أحد الرجال واقفاً فوقه متحفزاً لكي يسحبه في حال هجوم جديد للقرش.

هلَّ شهر ابريل (نيسان) بريح قاسية، فارتفعت الامواج عاتية جبارة كتلك التي أهاجتها ريح الشمال "إل نورتي." وراح المركب "كايرو – ٣" يعلو ويهبط ويرتج

متواثباً بجنون. وعلى رغم تسرب المياه اليه ظل عائماً يقاوم الغرق، كزجاجة فارغة فوق الامواج.

خلال الليل دأب الرجال على نزح الماء بهمة لا تعرف الكلل. وكانوا يعملون في الظلام وهم مبللون يرتجفون برداً. وكلما اندفع المركب في حنايا الموج كانوا يتمسكون بأي شيء ثابت لكي يظلوا واقفين. ومرت ساعات وهم يكافحون العاصفة بجلد. ومع الفجر عبرت العاصفة فهدأت الريح واستكان البحر ورفع البحارة الشراع. لقد كافحوا طويلا وانتصروا.

بدت عاصفة ابريل (نيسان) نقطة تحول للبحارة الخمسة التائهين في مجاهل المحيط. فحتى ذلك التاريخ كانوا يتبادلون الاتهامات ويرون في كل مشكلة نهاية محتومة وينظرون شزراً الى من فاته اصطياد سلحفاة أو زاد أكله وشربه على حصة رفقائه. ولكن بعد اجتيازهم تلك العاصفة غاب عنهم شبح الهلاك واطمأنوا وعاد اليهم الامل بالبقاء أحياء.

بعد بضعة أيام سنّ جيراردو سكيناً وقطع خصلة من شعر رأسه ورفعها معلناً: "قذارة!" ثم قصّ خصلة ثانية واغتسل بماء البحر من دون صابون. ودار في خلده أن بقاءه حياً رهن ببقائه سليما معافى.

وحذا الآخرون حذوه فقصوا شعورهم واستحموا. كانت هذه الرغبة الملحة المفاجئة في النظافة بداية موقف أكثر ايجابية. لقد مرت بهم فترات قاسية من الظمأ والجوع واليأس، تحملوها بشجاعة وخرجوا منها أشدّ تصميماً على البقاء. وقرروا البقاء مجموعة متضامنة، فعينت لكل رجل واجبات محددة، وصار مفهوماً أن كل شيء يجب أن يُعمل لمصلحة الجميع.

وما عتمت هذه الثقة الجديدة المكتسبة أن امتُحنت حين شاهد البحارة في الماء جسماً ضخماً أسود متجها نحوهم، ثم صعد الى السطح وأطلق نافورة هائلة في الهواء. فصعقوا حين رأوا أنه حوت. وتجمدوا في أماكنهم مترقبين الصدمة القاتلة، وتملكهم الرعب، اذ ان ضربة واحدة من ذنب الحوت أو لطمة من رأسه كافية لتحطيم هيكل المركب وارسالهم الى الهلاك.

وفي اللحظة الاخيرة غاص الحوت في الماء وكاد ذنبه الهائل يلامس بدن المركب. وظل الرجال صامتين لا يبدون حراكاً حتى بعدما هدأت دوامة المياه التي رافقت غطسة الحوت.

لكنه عاد الى الظهور بعد خمس دقائق وراح يقضم الأعشاب النابتة على بدن المركب. فلبث البحارة مترقبين يرتعدون خوفاً. واذا به يطفو على بعد ثلاثة أمتار ويطلق نافورة هائلة ويحدق الى المركب الصغير بعين واحدة.

هتف جيراردو: "يا الهي! انه جزيرة عائمة!"

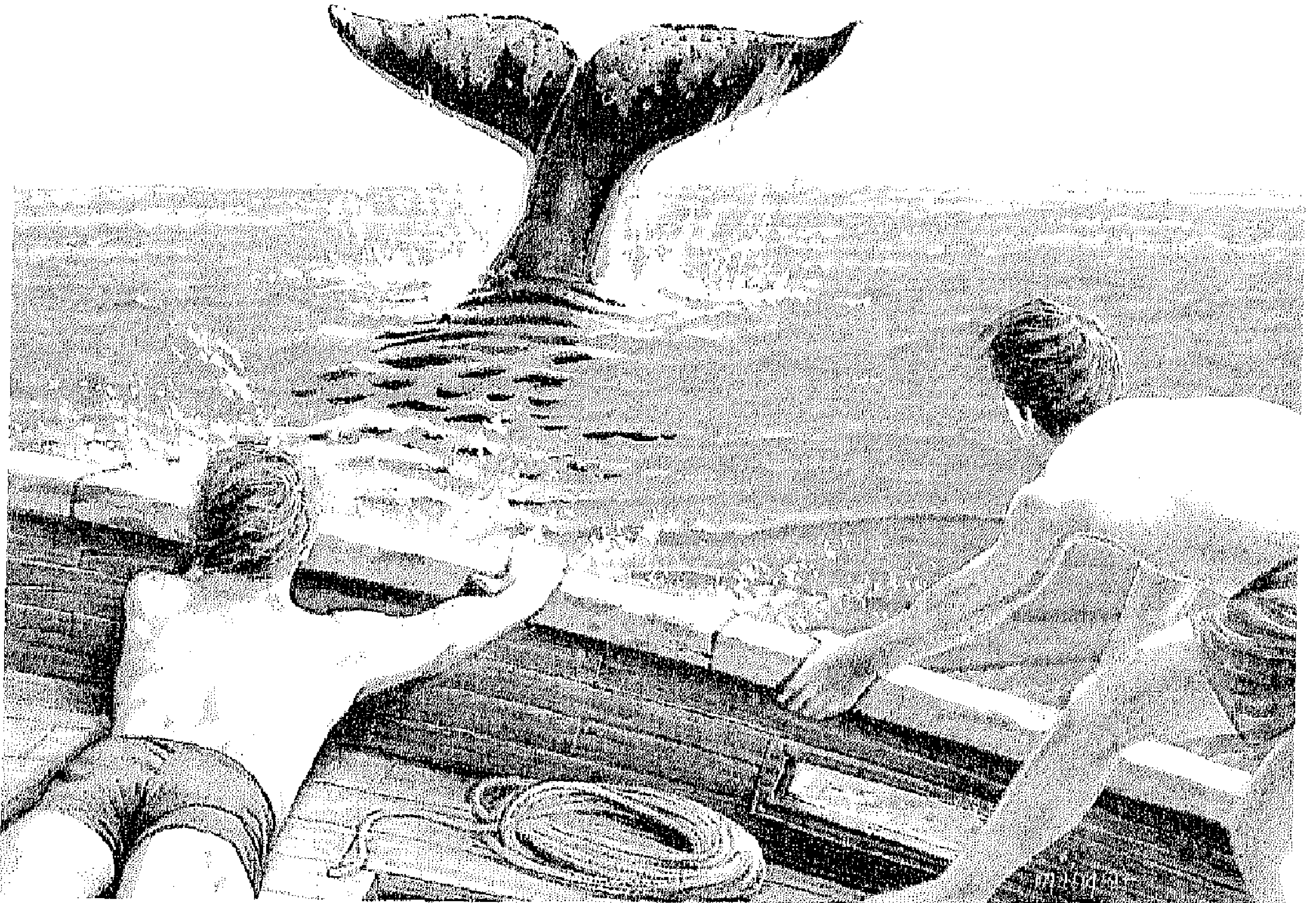
ظل الحوت الضخم على مدى ٢٠ دقيقة يغطس ويسبح حول المركب ويقترب منه ثم يبتعد كأنما طابت له مداعبة البحارة، وكاد هؤلاء يقضون هلعاً وهم يراقبونه منتظرين انقضاضه عليهم في أي لحظة.

وأخيراً غطس الحوت ولم يعد، فتنفسوا الصعداء وراحوا يهنئون بعضهم البعض بالسلامة.

وجوه مخيفة

في ١٠ مايو (أيار) سطّر جويل رسالة ثانية الى زوجته وبناته علّهن يتلقينها وإن بعد سنوات، فهو أراد أن يتذكرنه زوجاً وأباً محبا لا بحاراً منبوذاً يائساً قذفته الاقدار الى مجاهل المحيط.

ثم أولج الرسالة في القارورة البنية مع بضعة دولارات، وأحكم ختم القارورة ووضعها جانبا ليلقيها في المحيط عندما يحين الوقت. وأمل أن تكون الدولارات كافية لكي يرسلها من يلتقطها بالبريد الى زوجته.



حدّق جويل الى رفقائه فرأى في وجوههم انعكاساً لوجهه هو، منظراً مثيراً للشفقة. كانت الشمس الحارقة لوحت أجسادهم بسمرة قاتمة، ونفرت أضلاعهم وتشعثت شعورهم وبانوا كرجال بدائيين مخيفين لا يفكرون ولا يكترثون الا للأكل والشرب والبقاء أحياء.

لم تظهر في السماء الا مشحات بعيدة من الغيم لا توحي أملاً. وراح الرجال يتساءلون: "من منا سيموت أولاً؟"

في منتصف مايو (أيار) انكسرت دفة المركب فلم تعد هناك وسيلة لضبط الاتجاه. وازداد تسرّب الماء واشتدت الحاجة الى نزحه.

في هذه الاثناء أعلن باستور أن الغاز وحطب الوقود نفدا، مضيفاً: "من الآن فصاعداً علينا أن نأكل الطعام نيئاً." وهكذا كان. لم يستسيغوا ذلك بادىء الامر، الا أن الجوع الكافر دفعهم الى التهام كل ما تيسر لهم اصطياده.

ولم يبق لديهم من الماء الا ما يكفي لبضعة أيام. فخفضت الحصص الى كوب واحد في اليوم.

ومن جراء النقص المريع في الشرب ازداد جفاف أجسامهم فعنف ذعرهم واشتدت نزاعاتهم. فمنهم من شرب كامل حصته دفعة واحدة ومنهم من شرب نصفها في الصباح واحتفظ بالنصف الآخر لليل. وكانوا جميعهم يتبادلون الاتهام والملامة.

أخيراً نفد الماء كلياً. فبرَّح بهم العطش وقلّت رغبتهم في الاكل وصيد السمك وتملكهم اختناق حارق جاش في صدورهم ونال من حناجرهم وسرى في وجوههم. وكان مرَّ شهر على هطول آخر مطرة، ففكر جيراردو: "ربما كان الموت أهون من هذا الانتظار." واستنزفت طاقاتهم وضاقت حناجرهم وثقلت ألسنتهم وراحوا يفرغون الماء المتسرب وهم في شبه غيبوبة.

وسط هذا الجو القاتم جمع باستور طاقته وطرح تحدياً على رفقائه: "دعونا نصلح الدفة."

فنظروا اليه ذاهلين، فتابع: "لن يحدث شيء ما لم نجعله يحدث. لنصلح الدفة ثم نرفع الشراع فنتوجه الى حيث الغيوم ونحظى بالمطر. قد نواجه الموت، ولكن لنمت مكافحين كالرجال لا كالجبناء الخانعين."

حدق اليه رفقاؤه غير مصدقين. لكن تحدّيه انتشلهم من وهدة الخمول والاستسلام. فتولى جيراردو وخوان إصلاح الدفة فيما أصلح الآخرون الشراع ورفعوه فنفخت فيه الريح ووجهت المركب غرباً. وجلس جويل يدير الدفة وقد خامره احساس متجدد بالثقة. فها هم سائرون الى حيث الغيوم والمطر والامل المنشود.

ولكن ما ان حلّ أصيل اليوم الثالث حتى كان الرجال يدبّون على أيديهم وركبهم،

باكين احياناً، متضرعين الى الله بأصوات خفيضة ملتمسين أن يمنَّ عليهم بالمطر. وتملكهم الدّوار والغثيان وتورمت ألسنتهم وثقل عليهم الكلام.

صباح اليوم الرابع كان البحارة في المركب العتيق التائه وهنوا الى حد كادوا لا يقوون معه على التحرك. ولم يعد في إمكان أفرقاء المناوبة تفريغ الماء الا لمدة ساعة أو ساعتين. واجتاز الرجال نوبات هذيان محموم ونوبات دوار.

وثقلت ألسنتهم فعجزوا عن النطق بوضوح. فاقترح أحدهم أن يتحضروا للموت. وكانت عيونهم جاحظة كأنها زجاجية، وصعب عليهم التنفس فراحوا يتجرعون الهواء على دفعات. ونبشوا أحسن ثيابهم من حقائبهم الصغيرة، وهي سراويل قصيرة وقمصان رياضية متغضنة لكنها نظيفة.

وعملا باتفاق بينهم، ارتدوا "ثياب الموت" لكي يبدوا في أحسن حللهم اذا اكتشفتهم سفينة ما أو قذفتهم الامواج الى احدى الجزر.

بعد ذلك اضجعوا تحت الظلة جنباً الى جنب ووجوههم نحو العلاء. وضم جويل الى صدره القارورة التي تحوي رسالتيه الى زوجته ايديث، وفي نيته رميها في البحر لحظة وعيه الأخيرة التي تسبق إغماض عينيه الى الابد.

ووفق ما خططوا، لم ينبس أحد بكلمة ولم يقم أي جدل بينهم. سيواجهون الموت بهدوء وسلام، ويرحلون الواحد بعد الآخر الى رحاب الابدية.

نعمة من السماء

بعد ظهر ٤ يونيو (حزيران) كان جيراردو مستلقياً تحت الظلة شاخصاً الى السماء متسائلا عما اذا كانت الاطياف السود التي يلمحها في السماء غيوماً تحمل المطر. ولكن لطالما تبين له أن تلك الاطياف لم تكن الا سراباً خادعاً.

وحان دوره في تفريغ الماء بدل خوان، فنهض وتبادلا المواقع. لقد واصل الرجال نزح الماء وهم مرتدون بذلات الموت. لعلّهم ارتأوا أن الموت ظمأً أهون من الموت غرقاً وطعاماً للاسماك.

لذا سكب جيراردو على جسمه بعض ماء البحر وراح يغرف ويفرغ بهمة اليائس. وكاد الدوار لا يفارقه، فاشتدتْ به الرغبة في الاسترخاء والتنكّب عن العمل، لكنه قاوم هذه الرغبة وواصل الكفاح. ورأى في ابقاء المركب عائماً تحدياً للمحيط والأخطار المحدقة، وشدد ذلك من عزيمته وعناده.

عصر ذلك النهار أحسّ بحارة المركب بأولى شآبيب المطر تسقط عليهم، فطاروا فرحاً وخرجوا مترنحين من تحت الظلة فاتحين أفواههم رافعين وجوههم نحو السماء. فانهمر المطر على وجوههم وعيونهم وشفاههم المتشققة كأنه اكسير الحياة ينسكب في

حناجرهم. وتحولت قطرات المطر زخّات، فهرع الرجال الى أباريقهم يملأونها بالماء الجاري من سطح الظلّة. كان مذاق الماء حمضياً مالحاً، لكنهم رشفوا منه حتى الارتواء، وبلغت غبطتهم ذروة الانتشاء وان مازجها الالم. ومع أن الزخة لم تدم الا عشر دقائق فقد كانت كافية لارواء ظمأهم وجمع ليترين من الماء المالح الكريه المذاق.

ظل الرجال واقفين ووجوههم مرفوعة الى العلاء. قال هورهي: "كنت أعلم أنها ستمطر."

ورد خوان بصوت كالصفير: "الحمد لله."

مضى الليل والرجال يترقبون المطر ويتناوبون النوم وتفريغ الماء. وكانوا يرون في أفق الجنوب خطاً بعيداً من السحب. وعاودهم الظمأ بعد حين، فاقترح أحدهم التوجه نحو السحب، لكنهم كانوا في منتهى الضعف عاجزين عن بلوغ تلك الغاية.

رفع جويل الابريق البلاستيكي ونصفه ماء وقال: "لنشرب ما بقي لدينا." فشربوا جميعهم غير مبالين بمذاق الملح والشحم والاوساخ.

وما عتمت أن ظللتهم سحابة سوداء هائلة وهطل المطر غزيراً. فحاول الرجال الخمسة اطلاق صيحات ابتهاج لكن حناجرهم خذلتهم من جراء الجفاف الذي كاد يفقدهم الكلام. وندت عنهم أصوات جشّاء خفيضة كنعيب الغربان. فسارعوا الى توجيه المياه الجارية الى الخزان والاوعية الصغيرة، وبلغ ما جمعوه خلال المطرة العاصفة ٢٧ ليتراً.

كان جيراردو وباستور أول الذين عاودوا الاكل. ولم يكن الطعام كثيراً، واقتصر على قطع صغيرة من لحم السلاحف النيء استطاعا بلعها من غير أن يتقيأاها. وحذا الآخرون حذوهما، وأدركوا جميعا أن مصيرهم قد لا يكون الهلاك وأن حظهم العاثر ماض الى التحسن.

بعد ثلاثة أيام هطل المطر طوال النهار، فملأوا خزان الماء وخزانا احتياطيا وآخر نظيفاً لوقود الديزل، كما ملأوا الاوعية الصغيرة. فبلغ مجمل ما جمعوه ٢٦٥ ليترا تكفيهم أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. وفي اليوم التالي أنزلوا الشراع وانصرفوا الى صيد السمك والسلاحف.

بعد خمسة أيام من الانجراف تحت سماء صافية ازداد تسرّب المياه، فتدنى المركب عن مستوى صفحة البحر مما حفز الرجال على تسريع النزح. ولم تغب عنهم معاناة الظمأ التي مروا بها خلال أربعة أيام، فالتزموا تقنيناً صارماً وعُين أحدهم قيما على صرف الكمية المحددة لكل منهم.

كانوا يعملون كفريق متضامن في صيد الاسماك وشقها وتنظيفها وتقديدها. وباتوا يعرفون مواهب كل منهم وامكاناته ويحترمونها، فخفّت المنازعات بينهم.

ذات يوم قرابة الحادية عشرة قبل الظهر علق قرش بصنارة جويل، فسحبه الرجال الى متن المركب وأكلوا منه كفايتهم وناموا طوال بعد الظهر. فجأة شعر جويل باهتزاز سلك الصيد، فتطلع الى الماء وقال بلامبالاة: "قرش آخر!" ولم ينهزّ أي من الرجال لمساعدته.

مرت عشر دقائق وجويل منهمك في انتشال السمكة الكبيرة العالقة في الشص، فلم يرفع رأسه لحظة وفاته أن يلاحظ الشيء المقترب من المركب.

"ها هي تعود!"

الخامسة الا ربعا عصر ١٤ يونيو (حزيران) ١٩٨٨ كان المهندس الشاب فوميا ساتو (٢٢ عاما) على أهبة مغادرة منصة القيادة في سفينة الصيد اليابانية "كيناي مارو ١٢٨." فوقف محدقا من خلال الزجاج الكثيف الى الزبد الابيض المتكسر على ذرى الامواج.

كانت السفينة غادرت ميناءها الياباني في كيسينوما قبل أقل من ثلاثة أسابيع وشاءت المصادفات أن تكون بلدة كيسينوما سُمِّيت قبل عشر سنين "شقيقة" لمدينة بونتاريناس.

حين شاهد ساتو طيفا أسود يتواثب فوق الأمواج ظنه زورقا مهجورا أو جذع شجرة ضخما. ولكن حين سدد منظاره رأى شخصين يلوّحان باهتياج، فأعلم القبطان تاتسو كوياما الذي تباحث ومعاونه أوساو كوماغاي.

في البداية كان الرجلان غير مرتاحين الى المركب الغريب الشكل وركابه الذين بدوا متوحشين مخيفين. لكن الظلام أوشك أن يبسط جناحيه، واذا تقرر انقاذهم فستكون العملية صعبة وخطرة في الليل.

اقترح كوياما: "لنُحضر أحدهم ونرَ ما يقول."

في المركب "كايرو - ٣" كان جويل أول من شاهد السفينة "كيناي مارو" اذ رفع رأسه عن سلك الصيد فرأى الهيكل المستطيل الابيض على بعد نحو كيلومتر. فهتف غير مصدق: "سفينة! يا إلهي، كيف فاتتني رؤيتها؟"

حنق جويل من ذاته ومن رفقائه لتقصيرهم في مراقبة الافق، وصاح محذرا من أن السفينة تكاد تتجاوزهم من دون أن تعيرهم انتباها. فاعتلى باستور وخوان الظلة وراحا يلوحان ويصرخان كمجنونين.

بعد قليل هتف جيراردو: "ها هي تدور عائدة." واستمر الرجال في صياحهم واهتياجهم. وتذكر جويل القرش العالق بصنارته فربط خيطها بوتد. وكانت قروش أخرى تحوم حول المركب.

رست السفينة على بعد ٥٠ متراً. وشاهد الرجال الخمسة بحارة السفينة اليابانية يصيحون ويومئون بأيديهم.

قال جيراردو: "انهم يريدوننا أن نسبح اليهم."

تفحص جويل الماء حول المركب فلم يرَ أسماك قرش. أتراها كامنة تترصد تحت سطح الماء؟

واذا ببحارة السفينة يرمون حبلا سقط وسط المركب الصغير وفي طرفه عوّامة. فسارع الرجال الى التقاطه. ووقع اختيارهم على جويل ليكون أول الذاهبين.

لفّ جويل السلك حوله وأمسك بالعوامة ثم أُدلي الى الماء. وحذّره باستور: "لا تدع القرش يلمح بياض باطن قدميك."

أحس جويل بدفء المياه على ساقيه العاريتين، لكنه كان يرتجف خوفاً من القرش، وكان جل ما خشيه أن يهاجمه القرش قبيل انتشاله، فملأته هذه الفكرة رعبا. لقد عانى الكثير وكابد الأهوال وانتظر طويلا هذه اللحظة الفاصلة بين النجاة والهلاك. راح يجذف بيديه بقوة مهيباً ببحارة السفينة أن يسرعوا.

هلل الرفقاء على متن المركب حين رأوا جويل يُنتشل الى السفينة. ثم رمي الحبل ثانية فالتقطه جيراردو.

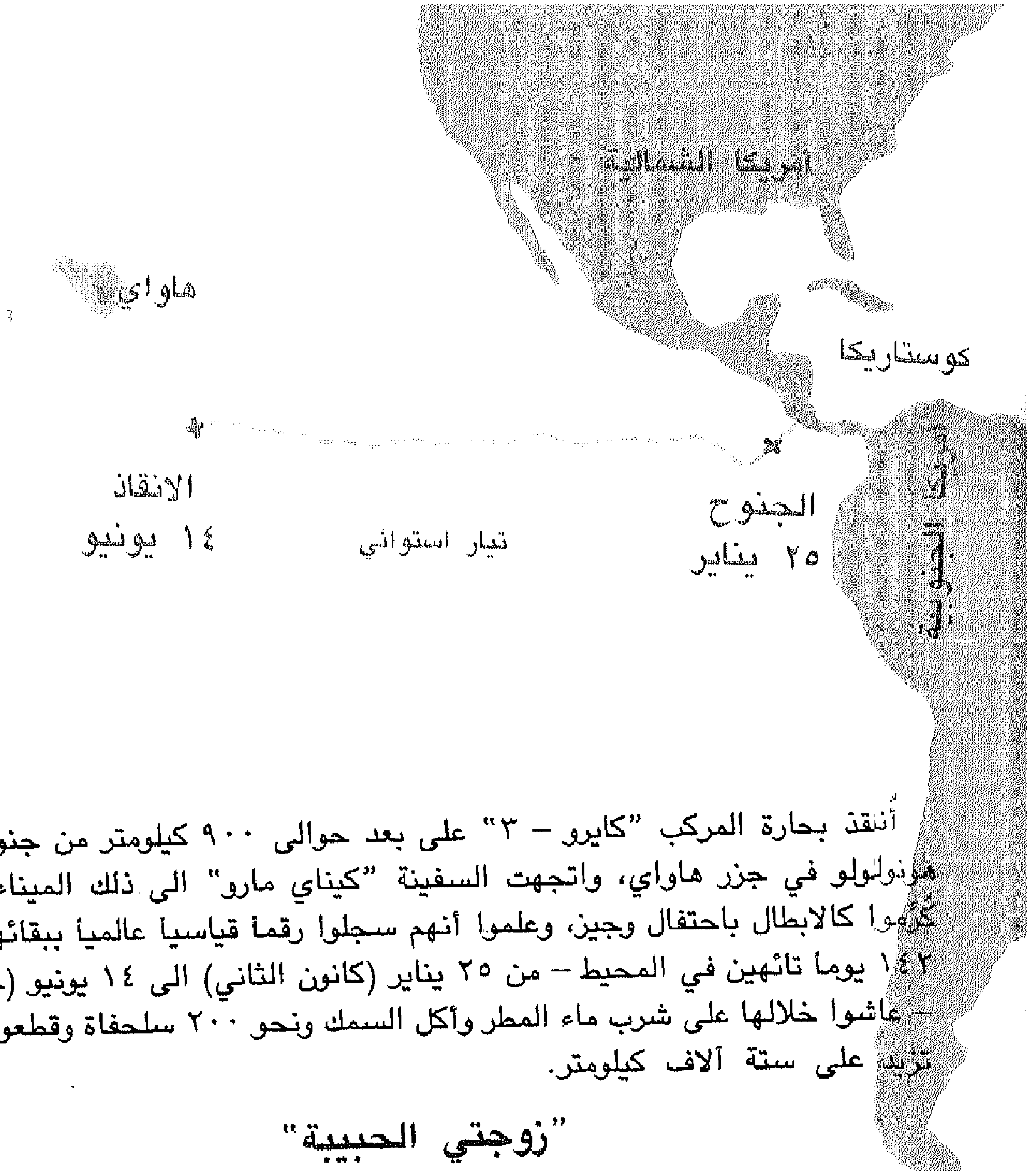
ناداه جويل: "هيا، تعال، نحن عائدون الى منازلنا."

وأُنقذ الباقون على النحو ذاته، واحداً بعد آخر، ومعهم بعض أمتعتهم الخاصة. وحين صاروا جميعهم على متن "كيناي مارو" وقفوا ينظرون الى المركب "كايرو – ٣" الذي بدا زرياً مثيراً للشفقة بهيكله الابيض الملطخ بالدم والزيت والصدأ والطحالب والقشريات. وارتفعت السارية القصيرة الموصَّلة بالمسامير فوق هيكل مفرَّغ مشبع برائحة نتنة. وتدلت راية كوستاريكا فوق الظلة ممزقة وقد ابيض لونها.

وقف الرجال الخمسة بضع دقائق على ظهر السفينة المنقذة شاخصين الى المركب المقوَّض الذي حضنهم خمسة أشهر وهو يخوض اللجج المزبدة متواثبا مترنحا.

وفوقهم، في طبقة عليا، وقف أحد البحارة يلتقط صوراً للمركب وهو يبتعد نحو مصيره المحتوم، ومن حين الى آخر يسدد آلته الى البحارة الناجين. وصوّر خوان الذي بدا ذاهلا عاري الصدر حافي القدمين، وبعد لحظات غلب عليه التأثر فجلس يبكي.

تلقى الرجال معاملة حسنة، فاغتسلوا وأُعطوا ملابس نظيفة وقدم اليهم الطعام حتى شبعوا. لم يغمض لهم جفن طوال الليلة الاولى، وقبل طلوع الفجر وجدهم الطاهي شينجي ايواتسوكي راكعين كلهم ووجوههم نحو الشمس الطالعة، يصلّون ويرفعون شكرهم الى الله المنعم عليهم بالنجاة.



أُنقذ بحارة المركب "كايرو – ٣" على بعد حوالى ٩٠٠ كيلومتر من جنوب شرق هونولولو في جزر هاواي، واتجهت السفينة "كيناي مارو" الى ذلك الميناء. وهناك كُرِّموا كالابطال باحتفال وجيز، وعلموا أنهم سجلوا رقماً قياسياً عالمياً ببقائهم أحياء ١٤٢ يوماً تائهين في المحيط – من ٢٥ يناير (كانون الثاني) الى ١٤ يونيو (حزيران) – عاشوا خلالها على شرب ماء المطر وأكل السمك ونحو ٢٠٠ سلحفاة وقطعوا مسافة تزيد على ستة آلاف كيلومتر.

"زوجتي الحبيبة"

صباح ١٥ يونيو (حزيران) تلقت ايديث زوجة جويل اتصالا هاتفياً من هورهي رحمان شقيق مالك المركب "كايرو – ٣" الذي قال لها: "هللي وارقصي يا ايديث، لقد عثر على رجالنا وأُنقذوا."

فسألته وقد كاد يغمى عليها: "أين؟ وكيف؟"

فرد هورهي: "الخبر صحيح، لقد وجدوا تائهين في المحيط قريباً من جزر هاواي."

ألقت ايديث السماعة جانباً واندفعت الى منزل ليديا زوجة جيراردو لتزفّ اليها الخبر. فراحت ليديا في نشوة فرحها تعدو في شوارع بونتاريناس صائحة مهللة ناشرة الخبر في كل مكان. وكانت زوجة باستور خارج المنزل فهرعت اليها امرأة صارخة: ريتا، لقد عثروا على زوجك. عودي الى البيت."

MAP: BETTE DUKE

العاشرة صباح الاربعاء ٢٢ يونيو (حزيران) وصل بحارة المركب "كايرو – ٣" الى مطار "خوان سانتا ماريا" في سان هوزيه عاصمة كوستاريكا. نزلوا من الطائرة منهكين مضطربين، فأدخلوا قاعة للمؤتمرات ازدحمت بمراسلي الصحف المصورين والمسؤولين الحكوميين... وبأهلهم. ولمح جويل زوجته ايديث فاندفع اليها شاقاً طريقه وسط الجمع المحتشد، فعانقها ورفع ابنته الصغرى بين يديه. وفي احدى الزوايا تعانق هورهي وأبوه، وفي مؤخر القاعة جلس خوان مع ابنه البكر يبكيان جهاراً.

سئل البحارة أن يسردوا وقائع رحلتهم الملحمية. فتكلم جويل معظم الوقت شارحا التفاصيل ومشدداً على تضامنهم الذي يعود اليه الفضل الاكبر في بقائهم أحياء، قال: "تقاسمنا كل شيء بعدل ومحبة: الطعام والشراب ونزح الماء وصيد السمك والنوم. لقد أنقذنا تضامننا وعملنا كفريق موحد."

بعد انتهاء المؤتمر الصحافي توجه الرجال الخمسة الى قاعة الاستقبال الكبرى في المطار حيث رحّب بهم حشد صاخب من المهنئين بسلامة العودة. ورُفعت فوق رؤوسهم لافتة ضخمة كتب عليها "أهلا وسهلا." ثم توجه الجميع في قافلة سيارات الى المدينة.

في المساء تمدد جويل على سريره يرتاح من ضجيج ذلك النهار ومن صخب بناته الاربع الفرحات بعودته. ومد يده الى كيسه وأخرج قارورة بنية وقال لزوجته: "افتحيها، لك شيء داخلها."

سألته: "وماذا عساه يكون؟"

أجاب: "رسالة سطرتها لك... حين كنت هناك."

ثم جلسا على السرير جنبا الى جنب وشرع يقرأ لها: "العاشر من مارس (آذار). زوجتي الحبيبة..."

رون أرياس ■

ترجمة الياس عقل

المعرفة كنز لا ينضب

كلما ازدادت قراءاتك تبين لك كم هي زهيدة معرفتك. ثق بانك لن تقدر على قراءة كل الكتب، وان ثمة روائع لن تتسنى لك مطالعتها. انا انام اربع ساعات كل ليلة، وأنهض في الرابعة صباحاً فاقرأ ساعتين، واقرأ احيانا اثناء الحلاقة او الاكل. وفي امكاني القراءة والتكلم في آن. اشتري طبعات رخيصة لانها عملية اكثر، واحب ثني زوايا الصفحات، واطلق لنفسي حرية التمتع بالكتب على هواي.

صحيفة "باري ماتش"، باريس

كتاب الشهر

مغامِرُون في بلاد الاسكيمو



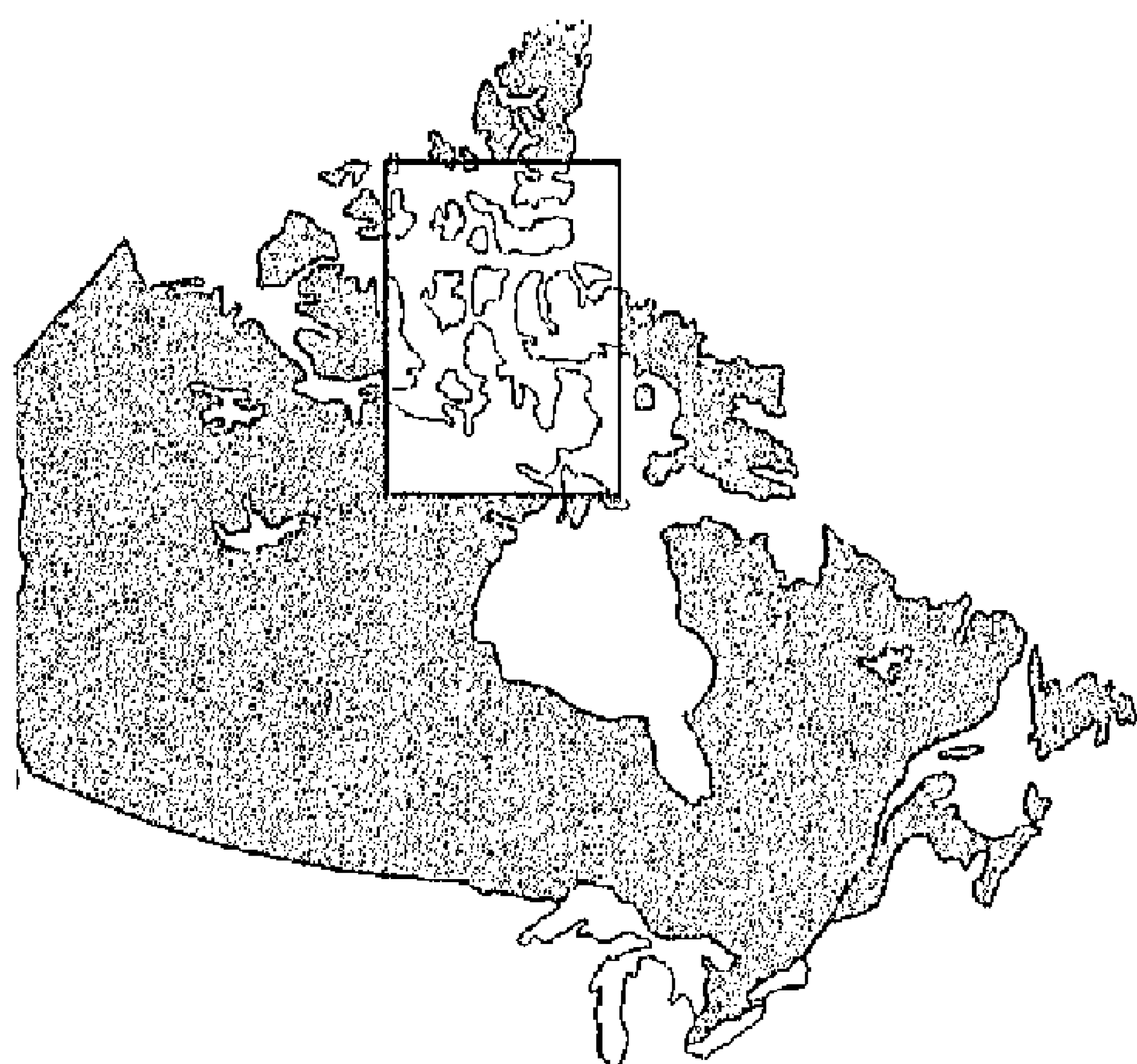
مُلخّص من كتاب "البحث عن الكأس"
بقلم بيار برتون



"الممر الشمالي - الغربي" طريق عبر "قمة العالم" من المحيط الاطلسي الى المحيط الهادىء. انتظر طويلا من يكتشفه، ثم أتى الرجال من كل صوب، ودام بحثهم معظم القرن التاسع عشر وأزهر عصراً ذهبياً للاستكشافات. مخرت السفن - بريطانية في البداية وأمريكية في ما بعد - بحاراً انتثرت فيها قطع جليد، ولاقت مصيراً مأسوياً أحياناً كثيرة. وكانت أفجع هذه المآسي رحلة السر جون فرنكلين الذي أبحر في العام ١٨٤٥ مع ١٢٨ رجلا ولم يعودوا أبداً. غزت مجموعات من الباحثين المنطقة القطبية الشمالية القاسية سعياً الى الشهرة والمجد، بحضّ من زوجة فرنكلين الجريئة العنيدة، وبتمويل منها أحياناً.

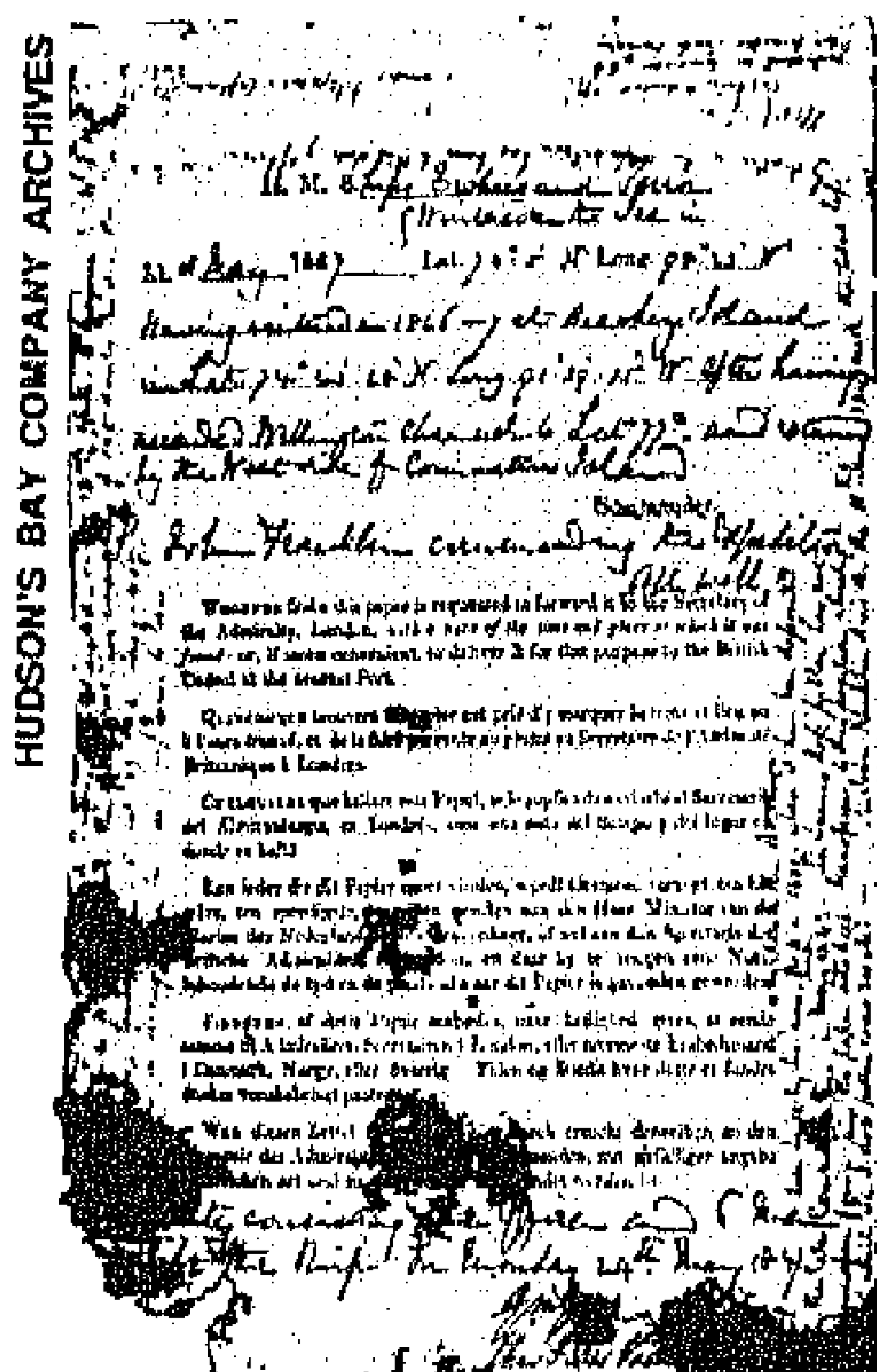
في هذه الصفحات، يعيد المؤرخ الكندي الشهير بيار برتون كتابة تفاصيل المغامرة بكل طرافتها ومأسويتها الانسانيتين ومواقف الخطأ والعناد والشجاعة التي حققت النصر ومنحت الليدي فرنكلين القلقة سلاماً.

احد أوسمة السر جون فرنكلين، استعيد في العام ١٨٥٤



شبه جزيرة غرينيل
جزيرة ملفيل
جزيرة باذرست
قناة ولينغتون
جزيرة كورنواليس
جزيرة بيتشي
مضيق فسكونت ملفيل
مضيق بارو
بورت ليوبولد
مضيق بيل
جزيرة سومرست
جزيرة برنس اوف ويلز
خليج برنس ريجنت
مضيق بيلو
جزيرة فيكتوريا
شبه جزيرة بوثيا
مضيق جايمس روس
جزيرة كينغ وليم
الدائرة القطبية
نهر باك
(نهر غريت فيش)





HUDSON'S BAY COMPANY ARCHIVES

H. M. Ships Erebus and Terror
Wintered in the Ice in
28 of May 1847 Lat. 70°5' N Long 98°23' W
Having wintered in 1846-7 at Beechey Island
in Lat 74°43'28" N. Long 91°39'15" W after having
ascended Wellington Channel to Lat 77° and returned
by the West side of Cornwallis Island.
Sir John Franklin commanding the Expedition
All well
[illegible]

وجد الباحثون في العام ١٨٥٩ في معلم بارز على جزيرة كينغ وليم، السجل الوحيد المكتوب للبعثة المفقودة.


الليدي جين فرنكلين.

تتضمن مذكرات المستكشف القطبي السر جون روس رسماً رائعاً لمواجهة بين ضابطين من البحرية البريطانية ومجموعة من الاسكيمو في غرينلاند.

يرتدي رجال الاسكيمو سترات وسراويل وأحذية مصنوعة من الفراء وجلود الفقمة تلائم قسوة المناخ في "ألتيما ثول."[١] أما الضابطان اللذان نزلا الى البر للسلام عليهم فيرتديان الثياب ذاتها التي كانا سيلبسانها لو أوفدا الى إحدى الجزر في جنوب المحيط الهادىء التي تكسوها أشجار النخيل. ها هما يقفان متألقين بقبعتيهما المردودتين ومعطفيهما الطويلين وقفازاتهما البيضاء وأحذيتهما التي طالما وطأت خشب القاعات الفخمة في دور مايفير بلندن، وهي الآن غارقة في الثلج. انهما غريبان في أرض متوحشة.

بدت الجبال المنحوتة حولهما كستارة مسرح فخمة. وخلفهما رست سفينتاهما، والرجال على متنيهما يرتجفون بألبستهم النظامية المحوكة من الصوف والجوخ، لان البريطانيين لم يكونوا أدركوا بعد الحاجة الى ملابس خاصة في القطب.

سجّل الفنان في هذا الرسم لحظة تاريخية: ١٠ أغسطس (آب) ١٩٨٨، أول حملة قطبية في القرن التاسع عشر تنظمها البحرية البريطانية. انها بداية جديدة لعملية بحث طويلة عن "الممر الشمالي – الغربي."

لقد تحولت تلك القناة المحيّرة الممتدة من المحيط الاطلسي الى المحيط الهادىء على امتداد الساحل الشمالي لامريكا، هاجساً ومصدر احباط للمستكشفين البريطانيين منذ أيام الملكة اليزابيت الاولى. كان المغامر مارتن فروبيشر، الذي عاصر درايك وهوكنز، أول من سعى الى اكتشاف "الممر" في رحلات ثلاث بين ١٥٧٦ و١٥٧٨، وأعلن بعد ذلك "انه عمل لم ينته بعد، وقد يأتي بالشهرة والثروة على صاحب عقل فذ."

تابع ديفيس وهدسون وبيلو وبافن عملية البحث، تاركين أسماءهم على أراض موحشة وبحار متجمدة. وعندما رجع لوك فوكس في العام ١٦٣١ بعد استكشاف "قناة

(١) التيما ثول (Ultima Thule) هي اقصى المناطق الماهولة في شمال الارض.


السر جون فرنكلين.

فوكس" و"حوض فوكس" شمال "حوض هدسون،" أفاد باستحالة وجود طريق الى الشرق تحت الدائرة القطبية. وهكذا تلاشى كل أمل بممر تجاري عملي وتضاءل الاهتمام بالمشروع.

لماذا اذاً أرسلت البحرية البريطانية سفينتين محمَّلتين رجالا لاعادة البحث عن خط بحري صالح للملاحة؟ الواقع أن أوروبا كانت في ذلك الوقت تنعم بفترة سلام، وعندما طرحت فكرة اعادة البحث عن الممر في العام ١٨١٧ كان ٩٠ في المئة من ضباط البحرية البريطانية عاطلين عن العمل. فقد أقصي نابوليون الى المنفى، ولم تعد هناك حروب يخوضها الاسطول الملكي. وما الضرر إن لم تكن للممر فائدة تجارية عملية؟ المهم هو المغامرة ذاتها، فكل بريطاني مقتنع بأن القرن التاسع عشر هو "مُلك" بريطانيا، والممر هناك، ينتظر من يقهره مثلما قُهرت أعالي النيل ومجاهل الكونغو. وكم سيبدو مهيناً لبريطانيا أن يتمكن بحار من أمة أخرى – روسي مثلا أو أمريكي مبتدىء – من الوصول الى الممر اولا.

كان السر جون بارو، من ادارة البحرية، هو محرّك هذا المنحى الجديد في التفكير. كان ذا وجه عريض وشاربين كثَّين وحاجبين غليظين وطباع عنيدة. ومع أنه سافر في افريقيا والصين، فانه أُخذ بالمناطق القطبية منذ زار غرينلاند عندما كان حدثاً على متن سفينة لصيد الحيتان. لم يرَ بارو جليداً طافياً خلال رحلته تلك، لكنه وقع في هوى المنطقة القطبية الشمالية. كان اكتشاف الممر بالنسبة اليه نزهة، رحلة رومانسية الى المجهول.

خطط بارو حملتين للعام ١٨١٨: جون روس الى الغرب وديفيد بوكان الى القطب الشمالي. كان بارو مقتنعاً، مثل كثيرين غيره لم يملكوا دليلا حسّياً، بأن حزاماً من المياه الدافئة الخالية من الجليد يحيط بالقطب. فاذا استطاعت سفينة شق طريقها عبر كتل الجليد المعترضة فسوف تسهل عليها بقية الرحلة.

لم يكن ذلك سهلا كما اكتشف القبطان بوكان سريعاً. فقد حطمت عاصفة هوجاء سفينتيه، وكان محظوظاً اذ استطاع مع رجاله القفز من كتلة جليد طافية الى أخرى

وعادوا منهكين الى سبيتزبيرغن حيث تقرر الغاء محاولة الوصول الى القطب.

لم يميز الحملة سوى أن مساعد بوكان الملازم جون فرنكلين كان في أولى رحلاته الاربع الى العالم المتجمد، ففي السجل المتشابك للاستكشافات القطبية تحتل مأثرة فرنكلين البطولية مركز الصدارة. أما حمى الاستكشافات التي أطلقها بارو والبحرية الملكية في العام ١٨١٨ فلم تكن الا بمثابة ازاحة الستارة. فقد أبحرت سفن كثيرة وتحققت اكتشافات مثيرة وفُقد رجال كثيرون، لكن كل محاولات اكتشاف الممر أخفقت. أتخمت عقول الناس خلال عشر سنين بقصص الجليد القطبي، وكلّت البحرية أيضاً من محاولات استكشاف المنطقة القطبية، وبدا كأن "المغامرة الكبرى" التي باشرها بارو قاربت نهايتها.

لكن أحداً لم يحسب حساباً لروح المغامرة القادرة على استعادة حيويتها. مرّ عقدان، وفي العام ١٨٤٥ تفشّت "حمى" الممر الشمالي - الغربي ثانية في بريطانيا.

لم يكن برزو المتفائل متأكداً من أنه يعرف موقع الممر. كان في الثانية والثمانين ومستعداً للتقاعد، لكنه كان يتطلع الى رحلة ناجحة تتويجا لانجازاته.

اختير جون فرنكلين للمهمة، وكان في التاسعة والخمسين وقد قارب هو ايضاً نهاية حياته المهنية. كُلف قيادة سفينتين والتوجه الى منطقة كبيرة "فارغة" على الخريطة هي شكل رباعي تبلغ مساحته حوالى ١٨٢ ألف كيلومتر مربع. لم يكن أحد يعرف ماذا يضم هذا الشكل، فأطرافه فقط كانت استكشفت.

أبحر فرنكلين في مايو (أيار)، وآخر من شاهده بحارة سفينة لصيد الحيتان في حوض بافن في ٢٥ يونيو (حزيران) ١٨٤٥، وكانت سفينتاه مربوطتين الى قطعة جليد طافية. ولم يشاهد رجل أبيض فرنكلين أو أيا من رجاله المئة والثمانية والعشرين بعد ذلك أبداً.

لو عاد فرنكلين خائباً، كما فعل آخرون، لتوارى اسمه في طي النسيان. لكن اختفاءه الغامض رفعه من مجرد بطل صغير في تاريخ استكشاف المنطقة القطبية الى مرتبة جلال وسمو. وأصبح، من غير قصد، رمزاً للاستكشافات القطبية في القرن التاسع عشر.

انطلق اكثر من خمسين حملة للبحث عن المستكشف الكهل بين ١٨٤٨ و١٨٥٩. بُددت ثروات لا حصر لها، وتحطمت سفن كثيرة أو ضاعت أو أخليت، ومات رجال كثيرون بأحداث مؤسفة أو بداء الاسقربوط.[٢]

لم يكن الامر يحتاج الى سنين طويلة، فلو اتّبع بعض الحملات الاولى بحثا أكثر شمولا لعُرف مصير فرنكلين منذ ١٨٤٩. لكن لغز المنطقة القطبية كان سيبقى. وهكذا،

(٢) الاسقربوط او الحفَر داء من اعراضه تورم اللثة ونزفها.

عندما انتهى "البحث الكبير" أخيراً أزيح ستار الجهل الابيض ورُسمت خرائط لمعظم الارخبيل الهائل بجزره وقنواته، كما انفكّ طلسم الممر الشمالي – الغربي.

لقد حقق فرنكلين في مماته ما عجز عن تحقيقه في حياته.

الرجل الذي أكل حذاءه

في العام ١٨١٩، بعد عودة فرنكلين من محاولة فاشلة للوصول الى القطب الشمالي، اختير لقيادة حملة لاستكشاف سهول التندرة الامريكية شمال بحيرة سلايف الكبرى. لم يكن فرنكلين المرشح الامثل للمهمة، فهو خاض البحر منذ بلغ الثانية عشرة من عمره، وانضم الى البحرية في الرابعة عشرة، وشارك في ثلاث معارك رئيسية في "الحروب النابوليونية" وجرح في احداها. لكنه الآن في الثالثة والثلاثين، سمين وغير معتاد العمل الشاق ولا يمتلك أي خبرة في السفر براً.

استطاع مسح ٣٤٠ كيلومترا من ساحل أمريكا الشمالية شرق نهر كبرماين، وهو انجاز رائع في تلك الاحوال. أما في ما عدا ذلك فقد كانت الحملة كارثة، بل ربما كانت الرحلة البرية الاكثر مشقة في تاريخ المنطقة القطبية الشمالية.

بعد عودة فرنكلين الى بريطانيا صار يشار اليه على أنه "الرجل الذي أكل حذاءه،" وهذا تعبير قوطي ساخر لكنه يدل على النواحي المرعبة في حملة مزقها النزاع والجوع والقتل و... أكلة لحوم البشر. ووصل فرنكلين نفسه الى حافة الموت لو لم تنقذه عصبة من الهنود، لكن عشرة من رجاله لم يكونوا محظوظين مثله.

مع كل ذلك اكسبته انجازاته شهرة واسعة ورقي الى رتبة قائد موقع. لكن ذلك لم يكفِه. ولم تمضِ سنتان حتى عاد متحرقاً الى السفر، وبلغت منه الحماسة حداً ترك معه عروسه التي لم يمضِ على زواجه بها ٢٠ شهراً وهي مريضة بالسل وفي حال النزع الاخير. فماتت بعد ستة أيام من رحيله.

كانت أوامره هذه المرة تقضي بأن يسافر براً الى بحيرة سلايف الكبرى ومنها هبوطا في اتجاه مجرى نهر ماكينزي لاستكشاف الخط الساحلي غرباً وصولا الى ألاسكا الروسية. أما مرافقه جون ريتشاردسون فيذهب شرقاً. قطع الرجلان ما مجموعه ٦٤٠٠ كيلومتر، معظمها غير ممسوح، وتلك مأثرة أكسبتهما لقب "فارس."

اعتقد فرنكلين أن الاعمال الاستكشافية الرئيسية قد أنجزت ولم يبق الا ربط المناطق التي اكتشفها هو بتلك التي اكتشفها السر وليم ادوارد باري على بعد حوالى ٥٦٠ كيلومتراً شمالاً، فيصبح "الممر" أمراً مفعولاً.

لكن الامر لم يكن بتلك البساطة. ومرت أربع عشرة سنة قبل أن تقترب حملة أخرى من تحقيقه. في هذه الاثناء كانت حياة فرنكلين المهنية في انحدار.

تزوج المستكشف الارمل ثانية بعد عودته من حملة نهر ماكينزي. كانت عروسه جين غريفيث في السادسة والثلاثين، امرأة أنيقة جميلة حيية لكنها متقدة الذكاء. وان وصفاً لنشاطاتها الكثيرة يناقض نموذج المرأة الثرية في العصر الفيكتوري. فهي لم تعبأ بشغل الابرة (التطريز) ولم تتكلف الاستمتاع بالمناسبات الاجتماعية. لكنها كانت مفعمة بالحيوية لا تهدأ، ورافقت والدها في كثير من الاسفار قبل زواجها. آمنت بالتطوير الذاتي، وفي التاسعة عشرة من عمرها أرست خطة لتنظيم وقتها واغناء عقلها مخصصة كل دقيقة لنوع من الدراسة.

كتبت مرة: "انني أحيا كثيراً من خلال آخرين." وهي بالتأكيد عاشت من خلال زوجها، تدفعه وتحضه عند الضرورة.

بعد عامين من الاسترخاء والتبطّل كُلف السر جون قيادة فرقاطة تحمل ٢٦ مدفعاً في البحر الابيض المتوسط. وعندما عاد الى بريطانيا في العام ١٨٣٣ كانت الليدي فرنكلين في الاسكندرية تستعد لرحلة الى أعالي النيل، فأعلمها أنه ينوي للانضمام اليها لاحقاً في نابلس، لكنها رفضت ذلك رفضاً قاطعاً، لانها اعتقدت أنه ببقائه قريباً من الاميرالية يمكن أن يحصل على تكليف بمهمة جديدة.

أرسلت اليه تقول ان إمرة باخرة أو مركز ما لا تقارن بحملة استكشاف، وفضلى المهمات حملة قطبية جديدة، "فالشخصية والمركز اللذان تتمتع بهما في المجتمع، والاهتمام – واسمح لي أن أقول الشهرة – المرتبطان باسمك، تعود كلها الى حملات الاستكشاف. ولم تكن لتحصل عليها من خلال النشاطات العادية لمهنتك." وأضافت: "يبدو أن للمناخ الجليدي تأثيراً مدهشاً يشدّ أعصابك ويقوّيك."

بدلا من ذلك، عرض على السر جون مركز حاكم أنتيغوا في الكاريبي. كان العرض مشيناً في نظر الليدي فرنكلين التي اعتبرته انحداراً مهيناً لبطل الحملات القطبية. وعندما سنحت للزوجين فرصة أفضل هي حاكمية فان ديمانز لاند (تاسمانيا) قبلاها لكنهما سرعان ما ندما على ذلك. والمشكلة كانت الليدي فرنكلين التي رفضت ممارسة الدور التقليدي لزوجة حاكم اقتصرت واجباتها على ارتداء الثياب الانيقة والزيارات واستقبال الضيوف والاهتمام براحتهم.

لم تكن جين فرنكلين تعنى بالاحاديث العادية بل فضلت مناقشة أمور تتعلق بالفلسفة والفنون والعلوم. ووصف أحد الضيوف غرفتها في القصر الحكومي بأنها "تشبه متحفاً أكثر من مخدع سيدة،" لانها غصّت بالطيور المحنطة والاسلحة التي استخدمها سكان البلاد الاصليون والعينات الجيولوجية والاحافير.

شكلت الليدي فرنكلين لجنة للنظر في الظروف التي تعيشها النساء المحكومات بجرائم، لكن "الحاكمة" التي اختيرت لادارة اللجنة استقالت بعدما زعمت احدى

الصحف أن هذه الوظيفة غير ملائمة لسيدات غير متزوجات. وعندما أبدت الليدي فرنكلين اهتماماً بالسكان الاصليين تعرضت للانتقاد. وحاولت انشاء كلية، لكنها منيت بالخيبة والاحباط اذ اكتشفت أن وزير المستعمرات ومسؤولين آخرين في بريطانيا يعارضون بشدة أي مشروع لا يفيدون منه. وقال عنها الوزير في أحد مجالسه الخاصة: "لم أرَ في حياتي امرأة أكثر ازعاجاً وحشرية."

اشتد النزاع بين الليدي والمسؤولين المعارضين مما هدد مركز زوجها الدمث المحبوب لاسلوبه البسيط العطوف. لم يكن فرنكلين ليؤذي ذبابة، وكان يقول وهو يكش ذبابة عن يده: "في العالم متسع لكلينا."لكن موقفاً كهذا لم يكن نداً للاحابيل والمناورات التي يزخر بها نظام استعماري محكم الحبكة، فاستدعي فرنكلين في العام ١٨٤٤ الى بريطانيا مهاناً وعلى شفا الانهيار، اذ وصلت مكانته الى الحضيض، فلم يعد جائزاً أن يستريح حتى يستعيد ما اعتبره شرفه الضائع عبر مأثرة استكشافية جليلة.

مريع ومقزّز!

تطابقت آمال فرنكلين وعودة الاهتمام بالممر. في ديسمبر (كانون الاول) ١٨٤٤ كان جون بارو وضع خطة تفصيلية لحملة جديدة، وفي فبراير (شباط) أُمهل فرنكلين ثلاثة أشهر للاستعداد.

وحده جون روس بدا قلقاً من امكان الفشل، فسأل فرنكلين: "هل تطوع أحد للحاق بك؟"

"كلا،" رد فرنكلين.

"اذاً، سوف أتطوع أنا للبحث عنك إن لم نسمع منك خبراً بحلول فبراير (شباط) ١٨٤٧. لكنني أتوسل اليك أن تترك رسالة في معلّم بارز حيث تمضي الشتاء تشير فيها الى الطريق التي ستتبعها اذا قررت المضي قدماً."

تلك نصيحة حكيمة. ولكن من يستمع الى روس الذي فقد ثقة الناس؟

كان جون روس في العام ١٨١٨ عبر "حوض بافن" ودخل "مضيق لانكستر" وهو "لسان" طويل ثبت لاحقاً أنه المدخل الى الممر الشمالي الغربي. لكن روسّ رأى، أو ظن أنه رأى بعدما قطع ٥٠ كيلومتراً داخل الخليج، سلسلة جبال تسد كل منفذ الى الغرب، فأطلق عليها اسم "جبال كروكر" وقَفل دونما سبب مبحراً الى الوطن.

بعد عام واحد قاد وليم باري حملة أخرى الى مضيق لانكستر وأبحر عبره أبعد مما وصلت أي سفينة شراعية، وبذلك حطم أسطورة جبال كروكر وجعل من روس مضحكة، ولم يتعافَ هذا قط من موجة السخرية والانتقاد التي نتجت.

أمضى روس خلال احدى الحملات أربعة شتاءات متعاقبة محتجزاً في الجليد، ثم أعاد رجاله الى الوطن سليمين من داء الاسقربوط الذي فتك بمستكشفين آخرين. لم تكن هذه مصادفة، فقد تعلم روس من مراقبة الاسكيمو أن "استخدام الزيوت واللحوم المدهنة هو سر البقاء في هذه المناطق المتجمدة، والسكان المحليون لا يستطيعون الحياة من دون هذه الاغذية، وهم يمرضون ويموتون ان اتبعوا نظاماً غذائياً أفقر."

اختزن فرنكلين ٢٩٠٠ كتاب في سفنه، من بينها تقرير روس واستنتاجاته الذكية. ولكن حتى في العام ١٨٤٥ كانت سطوة باري أقوى، وهو تمسك بالاعتقاد الساذج أن تفشي الاسقربوط يمكن وقفه بواسطة التسلية التي ترفع المعنويات وبكثير من التمارين. والحقيقة أن هذه تعجّل تفشي الداء.

معروف في الطب الحديث أن الاسقربوط يتأتى عن نقص في الفيتامين "ج" (C) الذي لا يمكن خزنه في الجسم البشري، واذا لم يتناول المرء مضادات للحَفَر فان الجسم ينحسر محتواه من الفيتامين "ج" وتظهر أعراض الداء خلال مدة تراوح بين ثمانية أسابيع وثلاثة عشر أسبوعاً، وينتج منها ضعف عام واسوداد في اللثة وتخلخل أسنان وبشرة اسفنجية غائرة بفعل النزف الداخلي. وينتهي الامر الى الوفاة.

لم يكن مستكشفو القرن التاسع عشر سمعوا شيئاً عن الفيتامينات، لكنهم مع ذلك أدركوا أن داء الاسقربوط مرتبط بالنظام الغذائي. كان فرنكلين يعتزم الاكتفاء بمخزونه من المؤن وابعاد الداء عنه وعن بحارته بتناول أونصة (٢٩ مليليتراً) من عصير الليمون يومياً، كما جرت العادة في البحرية البريطانية. لكن الفيتامين "ج" شديد التقلّب ويخسر فاعليته بسرعة أن لم يُخزن بطريقة صحيحة. أما الوجبات الغذائية فاعتمدت على اللحم المملّح الذي لا يجدي مضاداً للحفر وإن يكن الغذاء الذي اعتمدته البحرية البريطانية.

في المقابل، يمتاز دهن الفقمة بغناه بالفيتامين "ج"، لكن معظم البريطانيين لم يطيقوا أكله. ووجد باري غذاء الاسكيمو "مريعاً ومقززاً" ورائحة دهن الفقمة الذي يتناوله المحليون نيئاً "هي بالنسبة الينا لا تطاق." كان رجاله يعافون رؤية الاهالي يأكلون الدهن كي لا يصابوا بالغثيان، وصار الاسكيمو يلهون بملاحقتهم وهم يحملون قطعاً من هذا الدهن.

كان الاسكيمو بالنسبة الى البريطانيين كالاطفال: متوحشين، أميين، عاجزين عن الافادة من طرق حياة الرجل الابيض. لكن هذا الشعور الابدي بالتفوق لم يكن له ما يبرره، ففي المنطقة القطبية كان المستكشفون البيض هم الاطفال. وليس السبب الغذاء واللباس فقط، فمزالج الاسكيمو خفيفة ومرنة بينما مزالج البحرية البريطانية ثقيلة وبطيئة يجرها الرجال لا الكلاب. لم يتعلم رجل من البحرية تقنية الجر بواسطة

الكلاب أو فن بناء أكواخ ثلجية. فالرجل القوي، الذي يمشي حاملا عدته عبر الاراضي القطبية المترامية الاطراف ويتحمل مشاقً لا تصدق والابتسامة تعلو ثغره، يمثّل معاني النبل لدى البريطانيين لانه، كفرسان الايام الغابرة، يواجه مخاطر المجهول سعياً الى النصر والمجد. بعد خمسين سنة من حملة الاستكشاف الاولى كان البحارة البريطانيون لا يزالون يجرون أثقالا مُقعِدة ويحملون، الى معداتهم، خياماً مشبعة بالماء أو متجمدة.

لماذا هذا العمى في البصيرة؟ يعود بعض السبب الى النهج المحافظ في البحرية البريطانية، وبعضه الى الشعور بالاستعلاء لدى الطبقة البريطانية العليا التي اعتبرت نفسها متفوقة على معظم الشعوب الاخرى، أمريكيين أم أفارقة أم اسكيمو. لكن جزءاً آخر من السبب هو، بالتأكيد، خشية البريطانيين من العودة الى البداءة. فكيف يسير بريطاني أصيل مرتديا فراء الفقمة أو يأكل دهنا نيئا أو يعيش في كوخ بني من ثلج؟ لا، الانتصار الحقيقي هو في قهر الصعاب من دون أي تنازل لاعتماد وسائل السكان المحليين.

وهكذا أبحر فرنكلين في سفينتيه "اريبوس" و"تيرور" الصغيرتين المزهوتين بألوانهما السوداء والصفراء وكل واحدة محملة جبالا من المواد الغذائية والوقود والتجهيزات التي اقتضاها السفر في القرن التاسع عشر، من آنية خزفية أنيقة وكؤوس كريستال وفضيات ثقيلة من إلطراز الفيكتوري وبزات رسمية ذات أزرار نحاسية ورصاص لتبطين المراكب وخشب سنديان ثقيل لصنع المزالج. وقد عثر على معظم هذه التجهيزات لاحقاً، قطعا وبقايا من الحضارة الاوروبية فقدت بريقها وتأكّلت على السواحل الباردة لجزيرة قطبية لم تُرسم على خريطة.

بداية البحث

لم ينسَ جون روس وعده. وبدأ القلق على سلامة حملة فرنكلين يساوره منذ بداية العام ١٨٤٧. ففي يناير (كانون الثاني) ومن ثم في فبراير (شباط) ومارس (آذار) عمد الى لفت الاميرالية وكل من أصغى اليه الى أن فصل الشتاء التالي هو الثالث يمر على فرنكلين في المنطقة القطبية، وأن مؤونته توشك أن تنفد، وأنه هو نفسه، جون روس، على استعداد لقيادة فرقة انقاذ ذلك الصيف.

لكن الاميرالية اختارت أن تأخذ بنصيحة ما أصبح يدعى "المجلس القطبي" الذي ضم رجالا أمثال باري وجون بارو الابن (ابن بارو) وجايمس كلارك روس (ابن شقيق جون). وقد خذل هذا المجلس جون روس. وكان جايمس روس على خلاف دائم مع عمه، وهو قال لباري: "ليس هناك سبب للخشية على سلامة الحملة أو نجاحها."

كانت جين فرنكلين في هذه الاثناء أمضت صيف ١٨٤٦ في دوامة من الاسفار امتدت من جزر الهند الغربية الى الولايات المتحدة، قامت خلالها، كالعادة، بتسلق الجبال وزيارة مصانع ومدارس ومستشفيات. وعادت في خريف ذلك العام الى بريطانيا مستاءة وقلقة لغياب الاخبار من مضيق بيرينغ حيث افترض الجميع أن زوجها سيبعث برسائل الى الوطن. بدأت تعدّ نفسها للاسوأ، وكتبت الى صديقها جايمس كلارك روس تقول ان من الافضل، ربما، أن تبقى "جاهلة سعيدة" غافلة عن أي كارثة محتملة، وانها رفضت الاستماع الى عمه لان "خطط السر جون روس منافية للعقل" كما قيل لها.

لكن السر جون استمر في الحاحه، وواجه رئيس "الجمعية الملكية" مرتين، فأخبره هذا بجفاء: "انك تريد أن تذهب وتتجمد مثل فرنكلين، فنضطرّ الى ارسال حملة لانقاذك."

اغتاظ روس من هذا الرد القاسي، لكن الجمعية الملكية تلقت الرد ذاته عندما طلبت مشورة المجلس القطبي.

في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٤٧، مع اقتراب الشتاء الثالث، عقد اجتماع في منزل الليدي فرنكلين من دون معرفة جون روس. وزيادة في اغاظته، اختارت الليدي فرنكلين ابن شقيقه لقيادة أي حملة قد توافق عليها الاميرالية، وكان واضحاً أن الاميرالية ستوافق اذا تولى جايمس كلارك قيادة الحملة.

بدأ "البحث الكبير" في مطلع ١٨٤٨ بانطلاقة طموحة من ثلاث شُعب شملت أربع سفن وفريقاً برياً لاستكشاف متاهة الجزر والقنوات الشمالية من الشرق والغرب والجنوب. فيدخل جايمس روس الارخبيل بسفينتين من الشرق عبر مضيق لانكستر ثم يستدير جنوباً، فيما تبحر سفينتان أخريان حول "كيب هورن" وتتوجهان شمالا لتجولا في المنطقة القطبية الغربية. أما الحملة البرية بقيادة السر جون ريتشاردسون، مساعد فرنكلين في احدى حملاته، فسوف تتبع نهر ماكينزي الى الساحل القطبي لتفتيش المنطقة الشرقية. وأمل الجميع أن يتضح مصير حملة فرنكلين قبل نهاية السنة.

لم ينقص ريتشاردسون متطوعون متحمسون، لكنه رفضهم جميعاً مفضلاً جون راي الذي رُقّي الى وظيفة كبير تجار شركة "هدسون باي." وهذا الرجل دخيل على ذوي المعاطف الزرقاء الموشاة بالذهب من مستكشفي المنطقة القطبية، وقد بقي كذلك على رغم انجازاته الكثيرة اذ لم يلتزم النهج الذي اختطه باري وروس وفرنكلين. كان يرتدي ثياباً من جلود الغزلان ويتقن بناء أكواخ ثلجية ويقود فرقاً من الكلاب تجر مزالج. لم يكن قناصاً ماهراً بالبندقية فحسب، بل ثقف نفسه في عادات الحيوانات فبات خبيراً. وخلافاً لفرنكلين وريتشاردسون اللذين خططا لصيد قليل، كان راي يصر على اطعام

مرافقيه لحماً طازجاً يصطاده بنفسه. ولم يسبق أن عانت أي جماعة بقيادة راي داء الاسقربوط.

أبحر راي وريتشاردسون الى أمريكا الشمالية في أواخر مارس (آذار) ١٨٤٨. لم تمشط الحملة أراضي جديدة ولم تجد أثراً لفرنكلين، وكانت، بحسب تقرير أرسله راي الى جورج سمبسون حاكم شركة "هدسون باي"، "عالية الكلفة شديدة الازعاج وغير مرضية على الاطلاق." ولم يكن سمبسون نفسه واهماً. كان مقتنعاً بأن أحداً لن يسمع عن فرنكلين وجماعته ثانية.

لم تؤد الحملتان الاخريان الى نتائج أفضل. قامت مجموعة من الفرقة الغربية برحلة غير عادية لمسافة ١١٠٠ كيلومتر في قوارب صغيرة بمحاذاة ساحل ألاسكا الشمالي الى أعالي نهر ماكينزي، لكنها لم تجد شيئاً. اما الفرقة الثالثة بقيادة جايمس روس فاصطدمت بحاجز جليدي لا يُخرق. فبعد عبور مضيق لانكستر علقت السفن في الجليد نحواً من سنة في الطرف الشمالي الشرقي لجزيرة سومرست. من هذه النقطة انطلق روس ليستكشف ببطء خط الساحل الشرقي لمضيق بيل، مستخدماً الرجال لجر المزالج بحمولتها الثقيلة من الخيام والمواد الغذائية. قطعت المجموعة مسافة ٨٠٠ كيلومتر في ٣٩ يوماً، لكن الثمن كان قاسياً على الرجال. انهار أربعة من الجوع والتعرض لعوامل الطبيعة والانهاك وحُمل آخر الى السفينة. حتى روس نفسه اضطر الى ملازمة الفراش، ولدى عودته الى بريطانيا كانت صحته ساءت ولم تعد الى سابق عهدها أبداً.

لو استخدمت الفرقة كلاباً ومزالج خفيفة لأمكن أن تنجح في مهمتها، فقد وصل روس الى نقطة تبعد ٢٩٠ كيلومتراً عن السفينتين المفقودتين، لكنه لم يستطع أن يصدق أن فرنكلين ربما ذهب جنوباً عبر مضيق بيل، لان كل ما تمكن من رؤيته عبر مسافة ٨٠ كيلومتراً كان صفحة متماسكة من الجليد. الغريب أنه لم يدرك أن قناة ما قد تتجمد في سنة وتنفتح في سنة تالية.

الحقيقة أن "اريبوس" و"تيرور" سفينتي فرنكلين مخرتا هذا المعبر المائي قبل ثلاث سنوات بموجب الخطة المرسومة القاضية بالربط النهائي بين المناطق التي استكشفها فرنكلين في الجنوب وتلك التي استكشفها باري في الشمال.

لكن تعليمات فرنكلين تضمنت، لسوء الحظ، فكرة اضافية: اذا لم يستطع فرنكلين العبور جنوبياً، فعليه أن يسلك طريقاً بديلة الى الشمال عبر "قناة ولينغتون" غير المستكشفة التي افترض البعض (ولاسيما بارو) أنها تقود الى "البحر القطبي المفتوح."

بات روس مقتنعاً بأن فرنكلين، وقد واجه الحاجز الجليدي، عمل بموجب الخطة

البديلة. وأدى هذا الاقتناع لدى المستكشف القطبي المتمرس الى ارباك الاميرالية وتغيير وجهة البحث وساهمت في اطالته عقداً آخر.

"قبور! قبور! "

كان روس وعد الليدي فرنكلين بأن يعود في أكتوبر (تشرين الاول) ١٨٤٨ برفقة زوجها وسفينته. لكن أكتوبر أتى وراح من دون أخبار. فدهمها نوفمبر (تشرين الثاني) وهي، بحسب ما كتبت ابنة شقيقتها، "منهارة الصحة وفي حالة كآبة عميقة." وتنامى شعور بالحسميَّة بلغ ذروته بوفاة البسر جون بارو تلك السنة. وانتهى عهد من الاستكشافات القطبية.

رفعت الصلوات في يناير (كانون الثاني) ١٨٤٩ من أجل سلامة البعثة، وشارك فيها خمسون ألفا من الاصدقاء والاقارب ودعاة الخير في ٦٠ منطقة. وشنَّت الليدي جين حملة رسائل، فكتبت الى الرئيس الامريكي الجديد زخاري تايلور والى قيصر روسيا. واستقبلت سيلا لا ينقطع من الزوّار أي الذين حملوا أي اقتراح يتعلق بعملية البحث، حتى انها استشارت عرافة.

سافرت مع ابنة شقيقتها في صيف ذلك العام الى جزر شتلاند وأوركني في شمال اسكوتلندا لمقابلة صيادي الحيتان الذين ربما صادفوا الرجال المفقودين. وفي أغسطس (آب) ارتفعت معنوياتها عندما عرض القيصر، وقد هزّه التماسها، أن يرسل بعثة الى ساحل سيبيريا. وحلّقت آمالها في سبتمبر (أيلول) عندما انتُشلت قنينة من البحر ألقاها أحد مساعدي فرنكلين، ولكن تبين أنها تحمل أخباراً قديمة من العام ١٨٤٥ حين كانت السفينتان في بداية رحلتهما.

عاد ريتشاردسون وروس في نوفمبر (تشرين الثاني) يفصل بينهما أسبوع واحد، فسرت موجة من الحماسة الجنونية في أنحاء بريطانيا. أين هو فرنكلين؟ كيف تختفي سفينتان و١٢٩ رجلا؟ لماذا لم يتمكن أحد من العثور عليهم؟

استجابة لهذا الضغط الشعبي، أعادت الاميرالية تجهيز سفينتي روس لحملة هي الاولى من ست حملات انطلقت خلال العام ١٨٥٠. وتوجهت اثنتان من سفن الاسطول ثانية الى مضيق بيرينغ، وست أخرى لتفتيش المنطقة القطبية الشرقية.

وتوجهت سفينتان صغيرتان بامرة جون روس العجوز الى مضيق لانكستر. وكان في الثانية والسبعين، ولم يتمكن بعد من تغيير موقف "المجلس القطبي"، وقد اشتريت السفينتان بتمويل من شركة "هدسون باي" ومن تبرعات فردية. وهكذا برّ أكبر قادة الاسطول سناً بوعد قطعه لصديقه في العام ١٨٤٥.

في هذه الاثناء كانت عشر سفن بريطانية تتجه نحو المنطقة القطبية. وفي وقت

متزامن غادرت سفينتان أمريكيتان مرفأ نيويورك ليصبح عدد السفن المشاركة في هذه الحملة اثنتي عشرة. كانت الاضافة الاخيرة نتيجة جهود الليدي فرنكلين التي دأبت منذ مدة على مراسلة هنري غرينيل، وهو محسن من نيويورك وتاجر بحري بلغ تأثره برسائلها حداً جعله يتحمل النفقات.

لم يفارق القلق الليدي فرنكلين على رغم هذا المشروع الطموح، فهي لم تعد مبتدئة في ما يخص المنطقة القطبية. كانت الحملة تنطلق اثر الحملة، لكنها كلها تركزت على المنطقة الشمالية القصوى. فالسر فرنكلين اشتُهر باتباع الاوامر حرفياً، ولم يكن ليحاول سلوك طريق بديلة ما لم يسدّ الجليد الطريق الى الجنوب. وكانت الليدي فرنكلين واحدة من القلة التي آمنت بأنه وجد طريقة لالتزام أوامره الاساسية.

أدركت الليدي فرنكلين أن عليها أن تحل المشكلة بنفسها.

في ٥ يونيو (حزيران) كانت بعثتها الخاصة المتواضعة على أهبة للانطلاق على متن "برنس ألبرت" وهي سفينة ارشاد قديمة أعارها اياها أحد أصدقائها وجُهزت بتمويل من أصدقاء آخرين ومن ثروة الليدي فرنكلين نفسها. كانت البعثة بقيادة الملازم تشارلز فورسايث وهو رجل لا خبرة له في المناطق القطبية كانت الليدي التقته في فان ديمانز لاند. أما الضابط المدني فكان و. باركر سنو الذي تطوع للمهمة بعد حلم رأى خلاله فرنكلين في مكان ما من منطقة "القطب المغناطيسي الشمالي." كان سنو، كصاحب أحلام، أقرب الى استيعاب المغامرة من رجال البحرية المتمرسين، لكن حلمه لم يكن كافياً للتوصية به الى الاميرالية كمستكشف متزن عاقل.

أبحر فورسايث مسافة قصيرة جنوباً في خليج "برنس ريجنت"، وهناك، في مواجهة ما اعتبره حاجزاً جليدياً لا يمكن اختراقه، استدار وتبع سفينة أمريكية في مياه مضيق بارو الغاصّ بالجليد، ثم اتجه غربا الى لسان من الصخر الكلسي داخل في البحر يدعى "رأس رايلي" حيث عثر الباحثون عن فرنكلين، للمرة الاولى، على سلسلة من الدلائل المثيرة الى البعثة المفقودة.

وجدوا كوماً دائرية من الكلس تشير، ربما، الى مواقع خيام، كما وجدوا موقداً بدائياً وأسساً لحظيرة مثلثة الشكل وعظام طيور وغطاء صدئاً لعلبة طعام ونتفاً من شراع وبقايا ما بدا قارباً. لم يصل رجل أبيض الى هذه النقطة منذ وطئها باري في العام ١٨٢٠، لكن باري لم يخيم في هذه البقعة. كانت كل الدلائل تشير الى البعثة الضائعة.

وأفادت رسالة من سفن الاسطول البريطاني أن آثاراً أخرى وجدت على بعد ١٦ كيلومتراً على جزيرة بيتشي، وهي في الواقع تشبه جزيرة في أعلى قناة ولينغتون.

عاد فورسايث الى بريطانيا. لكن الامريكيين مضوا قدماً، ولم يكونوا الوحيدين. ففي

٢٧ أغسطس (آب) تجمعت قرب بيتشي ست سفن بامرة ثلاثة قادة أحبط القطب خططهم.

اجتمع القادة على ساحل الجزيرة للتشاور، وفجأة اندفع بحار بريطاني عبر الجليد وهو يصرخ: "قبور! قبور!" فتدافع الجميع فوق طبقة الطين والجليد الى قمة برزخ ضيق، وهناك وقعت أنظارهم على مشهد كئيب.

ثلاث كوم تحمل كل منها لوحة خشبية متآكلة تدل على المثوى الاخير لثلاثة من رجال فرنكلين. كانت البقعة مغطاة بقطع من الحبال والاشرعة والقماش المشمع والبراميل الخشبية والملابس والأغطية وقصاصات الورق، وثمة تلة من نحو ٦٠٠ علبة لحم فارغة. كما كان هناك قفّاز ضابط نُشر ليجف ولم يستعده أحد.

لكن هذه الاكتشافات ساهمت في تعميق الغموض. لقد ترك فرنكلين معلماً بارزاً، لكنه لم يحوِ رسالة عن حال البعثة أو وجهة السير التي اتبعتها. وتشبه جزيرة بيتشي صخرة جبل طارق بانحناءاتها، وتقع على مفترق الطرق الى المنطقة القطبية. قد يكون فرنكلين وصحبه اتبعوا أيما اتجاه. ان اغفال ترك رسالة هو أمر غير قابل للتفسير.

ثنائي متنافر

من أصل السفن التسع التي غادرت بريطانيا في العام ١٨٥٠ لاقتحام المنطقة القطبية من جهة الشرق، عادت واحدة فقط ذلك العام، أما الثماني الاخريات فبقيت خلال ليل القطب الطويل الحالك محتجزة في جليد مضيق بارو وقناة ولينغتون، تعد لسلسلة من الرحلات الطموحة. فمن هذه النقطة المركزية انطلق عشرات الرجال في ربيع ١٨٥١، يجرون المزالج الثقيلة ويدبون وينزلقون على الجليد على امتداد سواحل الجزر القطبية التي نادراً ما لحظتها خرائط. لم يشهد القطب حركة نشطة كهذه من قبل. أخيراً استسلم هذا العالم الصامت الغامض للفتح.

تقدر المسافة الاجمالية التي قطعها الرجال على الاقدام بحوالى ١١٥٠٠ كيلومتر، ألفان منها عبر "أراض" جديدة. لكنها كلها تقع شمال مضيق بارو، أما المنطقة الهائلة الرباعية الشكل الى الجنوب فبقيت بمعظمها غير مستكشفة.

حافظت الليدي فرنكلين على ايمانها بأن زوجها موجود في تلك المنطقة. وأغضبها فورسايث بمحاولته الفاترة لاستكشافها. لكنها لم تستطع شيئاً ازاء ذلك، وعليها أن تسحب مجدداً من أموالها الخاصة لايفاد "برنس ألبرت" ثانية بقيادة جديدة.

شكّل الرجلان اللذان اختارتهما ثنائياً متنافراً. كان القائد الجديد وليم كينيدي تاجر فراء كنديا صلب العود ابن امرأة من قبيلة كري الهندية ورجل من خليج هدسون. وهو قطع غابات أمريكا الشمالية ومراعيها وجبالها طولا وعرضاً، لكنه لم يتسلم قيادة سفينة

في حياته. أما مساعده جوزف رينيه بيلو فضابط صف في اجازة من البحرية الفرنسية لا يعرف شيئاً عن المنطقة القطبية سوى ما قرأه في الكتب.

كان الاثنان نموذجاً للتناقضات. فالاسفار الشاقة بالقوارب ومزالج الكلاب صقلت كينيدي، وكان وجهه المسطح بعظامه البارزة يشير الى اختلاط دمه، وبدا بملامحه القاسية ولحيته الكبيرة الكثة أكبر من الاعوام السبعة والثلاثين التي كانت سنه الحقيقية. أما بيلو النحيف الذي لم يكد يبلغ الخامسة والعشرين فكان شابا مستدير الوجه مرحاً قليل البوح بأفكاره.

رأت الاميرالية في المشروع ضرباً من الجنون. فكيف يعمل ضابط من بحرية أجنبية بامرة رجل "خليط" غير مؤهل من مجاهل أمريكا؟ لا يمكن أن ينسجما. سوف يتمرد البحارة عليهما!

لكن الرجلين انسجما على نحو رائع، ربما لانهما ارتبطا بما اعتبراه قضية، حتى انهما تطوعا للعمل من دون مقابل.

أعجبت الليدي فرنكلين ببساطة كينيدي وصدقه وطبعه المرح. وكان ترك عمله في شركة "هدسون باي" بعد خدمة ١٣ سنة لانه، هو الذي يعتبر المسكر حراماً، لم يرض ببيع شركته مشروبات الى قبيلة والدته.

أما بيلو فرأت فيه جين فرنكلين الولد الذي لم تُرزقه أبداً، وهو متحدر من أسرة عاملة فقيرة، وأحد سبعة أبناء، لكن ذكاءه حمل أهل بلدته على الاهتمام بنفقات دراسته. ولم ينس تضحيات والديه من أجله، وكان، كتلميذ ضابط بحري، يرسل اليهما قسماً من راتبه المتواضع ويملأ يومياته بعبارات تنم عن امتنانه. كان شجاعا متهوراً، أنقذ زميلا من الغرق معرضاً حياته للخطر، وجرح جرحاً بالغا في مناوشة في مدغشقر وصفه بأنه "مجرد خدش"، ونال لقب "فارس في جوقة الشرف" ولمّا يبلغ العشرين من عمره.

أحرزت البعثة بعض النجاح مع أنها لم تجد فرنكلين. انطلقت في يونيو (حزيران) ١٨٥١، وفي يوليو (تموز) وصلت الى مدخل خليج "برنس ريجنت" الذي يتجه جنوباً. استكشف كينيدي ميناء "بورت ليوبولد" الغاصّ بالجليد في قارب صغير مع أربعة من رجاله، لكن الجليد سد طريق العودة وحمل "برنس ألبرت" حوالى ٨٠ كيلومتراً في الخليج.

أصيب بيلو بالذهول وكتب في يومياته: "ليكن الله في عوننا. انني لا أفكر في النجاح الآن، وكل صلواتي هي لسلامة رفقائي. يا أهلي الاعزاء! يا أصدقائي الاعزاء! فلتكن ذكراكم سنداً لي."

قام بيلو بثلاث محاولات جريئة على الاقدام لانقاذ كينيدي، فأُكره مرتين على العودة

الى السفينة، وفي الثالثة اندفع الى بورت ليوبولد والتقت المجموعة كاملة على متن "برنس ألبرت" في ٢٥ اكتوبر (تشرين الاول).

خطط الرجلان لرحلة برية مطلع السنة التالية تستخدم خلالها مزالج تجرها الكلاب وتُحفر أكواخ ثلجية. كان موقف بيلو من الاسكيمو يختلف عن الموقف الرسمي، ولا شك في أن كينيدي صاحب الدم الخليط وابن هنود الكري، كان له تأثير في هذا الشأن. كان تاجر الفراء هذا يحب أن يروي قصة زعيم قبيلة الكري الذي رفض زواج ابنته بضابط في خليج هدسون وقال للخاطب المخيَّب: "ابنتي زوجة لك؟ انك لا تعرف حتى كيف تصطاد!"

رهان خطر

بدأت رحلة المزالج في ٢٥ فبراير (شباط)، وكانت واحدة من أطول الرحلات في تاريخ المنطقة القطبية: دورة غطت ألفي كيلومتر في ٩٥ يوماً، لكنها لم تجد أثراً لفرنكلين.

استمرت الرحلة ثلاثة أشهر وتوقفت فجأة عندما بدأ داء الاسقربوط يضرب أفراد المجموعة. وهي حققت نتيجة ايجابية واحدة، اذ شاهدت المجموعة ممراً مائياً ضيقاً يتجه غرباً من خليج "برنس ريجنت" عبر بوثيا. وتكوّن لدى كينيدي اقتناع بأن الممر ليس خليجاً وانما مضيق يقسم بوثيا شطرين ويفصلها عن جزيرة سومرست في الشمال. وكان على حق. هكذا أصبحت البعثة أول مجموعة من الرجال البيض تقف في النقطة القصوى في شمال القارة الامريكية، كما اكتشفت طريقاً أخرى الى "الممر الشمالي الغربي" مع أنها لا تصلح للملاحة. كانت الليدي فرنكلين حضّت بيلو على تسمية المعالم الجديدة، لكنه كان يؤمن أن هذا الشرف من حق البريطانيين. هنا أصر كينيدي على أن يطلق اسم بيلو على المضيق الجديد، ولا يزال اسمه كذلك.

عاد بيلو الى فرنسا متشوقاً للعودة الى القطب. وتطوع بعد سنتين على السفينة البخارية "فينيكس" التي تحمل الرسائل والطرود الى القوات البريطانية في قناة ولينغتون. وبينما هو يحمل الرسائل الى سفينة القيادة عبر الجليد شمال جزيرة بيتشي، انفتح تحت قدميه شق باتساع ثلاثة أمتار فاختفى في لحظات.

دب اليأس في نفس جين فرنكلين بحلول خريف ١٨٥١، فقد بُذلت كل الجهود الممكنة للاتصال بالبعثة المفقودة: كتب البحارة رسائل عملاقة على صفحات الجُرُف الصخرية. واستخدمت فخاخ لالتقاط ثعالب أُطلقت في ما بعد وحول رقابها أطواق تحمل رسائل، أملا أن يصطادها رجال فرنكلين. وأطلقت بالونات تحمل معلومات عن

مواقع سفن الانقاذ. وأومضت أضواء زرقاء وأطلقت مدافع وفُجِّرت أسهم نارية في سماء الليل القطبي. لكن المنطقة القطبية لم تحر جواباً.

ومع أن البحرية البريطانية تلكأت في اعداد حملة تفتيش جديدة، فان نقطة ضوء واحدة بقيت تشع: كان الرأي العام لا يزال الى جانب جين فرنكلين، فهي أصبحت بطلة عالمية.

رضخت الاميرالية للضغوط في ربيع ١٨٥٢ وعرضت ارسال خمس سفن بقيادة السر ادوارد بلتشر مع أوامر بالبحث عن المستكشف المفقود في منطقة شمال جزيرة بيتشي.

في هذه الاثناء سُمعت صرخة أخرى من القلب. فمن أصل ١١ سفينة بريطانية كانت توجهت الى المنطقة القطبية في العام ١٨٥٠، أبحرت اثنتان الى مضيق بيرينغ، وهما "انتربرايز" بامرة القبطان ريتشارد كولنسون و"انفستيغايتور" التي حملت مساعده الملازم روبرت ماكلور. لكن السفينتين افترقتا، وشوهد ماكلور للمرة الاخيرة في أغسطس (آب) ١٨٥٠ على مقربة من ساحل الاسكا الشمالي.

عمد والد أحد ضباط "انفستيغايتور" الى تذكير الاميرالية والرأي العام بأن ماكلور يحمل تجهيزات غذائية تكفيه حتى ربيع ١٨٥٢ المقبل، واذا لم يعثر عليه قبل ذلك الوقت فقد يلقى وطاقمه مصير فرنكلين.

لم تجرؤ البحرية على الاستمرار في التقاعس، فهي أبطأت في تحركها عندما فقد فرنكلين، وفقدان بعثة واحدة سيىء بما فيه الكفاية. فعمدت الى قسمة مجموعة بلتشر فرقتين، على أن تتحرك سفينة شراعية برفقة سفينة تموين بخارية الى جزيرة ملفيل بحثاً عن ماكلور.

ولكن أين هو روبرت ماكلور؟ يكمن الجواب في شخصية الرجل وخلقه. معظم مستكشفي القطب طموحون، لكن الطموح عند ماكلور كان أكثر ظهوراً وأقل اثارة للاعجاب. فهو أمضى ٢٦ عاماً في البحرية، وكانت "انفستيغايتور" أول سفينة يتولى قيادتها الى المنطقة القطبية، فاعتزم أن يحقق بها أقصى ما يستطيعه. فان عثر على فرنكلين أو اكتشف الممر الشمالي — الغربي أو حقق الامرين معاً، أصبح أشهر رجل في بريطانيا.

بعد وصول السفينتين الى مضائق ماجلان، أصبح واضحاً أنهما لن تتمكنا من البقاء معاً بسبب السديم والضباب، كما لم تكن ثمة حاجة الى ذلك قبل وصولهما الى الجليد. فحدد كولنسون موعداً للقاء قبالة ساحل الاسكا. وهكذا بات ماكلور مستقلا بقراره حتى ذلك الحين، وكانت هونولولو مرفأه الاول لتزوُّد الطعام والمواد الضرورية الاخرى.

كان الطقس خلال الرحلة مريعا. وفي ١٥ مايو (أيار) كادت السفينة أن تضيع وسط عاصفة هوجاء هشمت صواريها الثلاثة. ولدى وصوله الى هونولولو اكتشف ماكلور أن كولنسون أبحر صباح اليوم السابق بعدما انتظره أربعة أيام، واذا لم يلحق به ماكلور - كما قيل لهذا - فان كولنسون يعتزم مواجهة البحر الجليدي دونما تأخر مستخدماً سفينة امداد مرافقة من مضيق بيرينغ.

هل كتب على ماكلور أن يفوّت فرصة الشهرة هذه؟ كان متحرّقاً للانطلاق، فعمل وفريقه على مدار الساعة لاعادة تجهيز السفينة، وقرر القيام بمقامرة جريئة خطرة.

كانت أوامر الحملة تقضي بالالتفاف حول الجزر الخارجية لسلسلة "ألوشيان" في دورة تتجه غرباً وتحمل البعثة الى مقربة من شبه جزيرة "كامشاتكا" في آسيا. وكانت هذه الطريق التي التزمها كولنسون، لكن ماكلور اعتزم الابحار نحو الشمال مباشرة واختراق سلسلة جزر ألوشيان المغشاة بالضباب من طرفها الشرقي، وهي لم تكن منزلة على الخرائط بعد. واستطاع، على رغم الضباب الكثيف والمد العنيف والمياه الضحلة والصخور القريبة من سطح الماء، اتمام الرحلة في نصف الوقت العادي تاركاً كولنسون خلفه على مسافة بعيدة.

أبحر ماكلور الى نقطة اللقاء. وفي الطريق أوقفته فرقاطة من البحرية الملكية بقيادة القبطان هنري كيليت. هنا استخدم ماكلور كذبة لم تخدع أحداً ولم تمر قطعاً على كيليت الخبير المحنك. تظاهر ماكلور بأنه يظن أن كولنسون سبقه، وكان هذا أمراً مستحيلاً، لكنه أصر على ادعائه، حتى انه احتفظ ببريد شخصي لكولنسون أعلن أنه سيسلمه اليه عندما يلتقيان.

كان ماكلور يعتزم دخول المنطقة القطبية وحيداً مما يعتبر مخالفة لسياسة البحرية. وكان كيليت يعلوه رتبة ويملك سلطة ايقافه، لكنه توانى عن ذلك، فمضى ماكلور الى كتلة الجليد الطاحنة.

سد طريقه لسان من الجليد بصلابة الصوان. وعندما هب النسيم أمر ماكلور برفع كل قطعة شراع متوافرة، وحوّل مقدم السفينة بجرأة الى وسط العائق. اهتزت السفينة وقاربت الوقوف، وارتجفت الصواري بعنف حتى كادت السفينة تنهار. فجأة انشق الجليد بفعل الصدمة ومرت السفينة عبره الى المياه المفتوحة.

شقت السفينة طريقها على امتداد ساحل ألاسكا الشمالي، وواجهت خيبات محبطة في قنوات مسدودة. وأخيراً عبرت مصب نهر ماكينزي.

بدأت الارض ترتفع على ميمنة السفينة حتى علت الجُرف حوالى مئتي متر. حاول ماكلور الاستمرار باتباع الخط الساحلي، لكن الجليد عطفه شمالا في خط متعرج اتجاه أرض جبلية شامخة تعلوها قمم بارتفاع ٦٠٠ متر. هنا، في ٧ أغسطس (آب)

تحت قمة مطلة سماها ماكلور "رأس اللورد نلسون"، زرع علماً وأعلن ملكية المنطقة. لم يكن يعرف آنذاك أنه نزل على جزيرة "بانكس" وهي كتلة أرضية بعيدة لمحها باري قبل سنوات من الوجهة الأخرى.

كان الحظ حليف ماكلور ككل مستكشف ناجح في البحار المتجمدة. وجد نفسه في قبضة الجليد المتحرك، مشلول الارادة يُساق شرقاً وشمالا في قناة ضيقة تتبع خط الساحل الشمالي لجزيرة بانكس. هل هي خليج مقفل؟ أم مضيق؟

كتب في يومياته: "لا أستطيع وصف مشاعري المتأججة. أيمكن أن يتصل هذا الممر المائي بمضيق بارو فيكون هو الممر الشمالي – الغربي الذي طال البحث عنه؟ أيسمح القدر لضعيف مثلي أن يحقق ما حيّر الموهوبين والحكماء مئات السنين؟"

في ٢٣ سبتمبر (أيلول) أوقف الجليد الحديث تقدمه، وكان وصل الى أقصى ما يمكنه خلال ذلك الفصل من السنة. في اليوم التالي أرسل رجلا الى أعلى الصاري استطاع من منصة المراقبة أن يرى الى مدى ٣٠ كيلومتراً. في البعيد انحرف البرّ في اتجاه شمالي – غربي تاركاً امتداداً من الماء الصافي. لم يبق مجال للشك الآن، فالحلقة الاخيرة من "الممر" كانت في مرمى النظر. كان مضيق بارو يجثم الى الامام مباشرة، وخلفه جزيرة ملفيل التي بلغها باري قبل ثلاثين سنة.

لقد رأوا "الممر" من بعيد وإن لم يقهروه. وأدرك ماكلور أن اسمه سيدخل كتب التاريخ على أنه الرجل الذي حقق أضخم اكتشاف بحري في عصره.

خطة يائسة

اعتقد ماكلور أنه سيُحتجز في الجليد، لكنه بدلا من ذلك علق في قبضة كتلة متحركة. وهبّت ريح هوجاء عبر القناة دفعت كتلة الجليد والسفينة جنوباً، وحُمل ماكلور بوحشية عائداً من حيث أتى. بقي لاكثر من أسبوع في مواجهة خطر يومي، ثم استدارت السفينة بفعل حركة الجليد بعدما حُملت مسافة ٥٠ كيلومتراً في اتجاه الجنوب، وبدأت تتحرك شمالا لتواجه خطر التحطم على الجُرُف الصخرية.

في ٢٦ سبتمبر (أيلول) استعد ماكلور لاخلاء السفينة. فوضعت على ظهرها مؤونة تكفي لسنة استعداداً لالقائها الى القوارب في حال غرق الـ"انفستيغايتور"، ووقف الرجال يحملون حزماً من الثياب الدافئة وجيوبهم ملأى بالذخائر والبسكويت، مهيأين للقفز عند الضرورة.

كانت الليلة التالية أسوأ. سبع عشرة ساعة من المراقبة كانت خلالها قطع طافية من الجليد بثلاثة أضعاف حجم السفينة تصطدم بجوانبها وتمزق ألواحها الخشبية. وفيما السفينة تميل على جانبها، هددت كتلة ضخمة من الجليد المفتت بدفنها ببحارتها

الستة والستين. وبلغ الضغط حداً راحت معه الحبال التي يبلغ قطر ثخانتها ٢٢،٥ سنتيمتراً والتي تربط السفينة الى البر، تتقطع كالخيطان مقتلعة ست مراس مثبتة في الجليد. وعلى نحو عجائبي هدأ الاضطراب وأصلحت السفينة وضعها. لقد حوّل البرد القارس قطع الجليد المفتتة الثائرة كتلة متراصة غير متحركة.

وعاد ماكلور قائداً لسفينة يسودها الفرح.

لم ينس ماكلور هدف الحملة الرئيسي: البحث عن فرنكلين. فأرسل في الربيع التالي ثلاث فرق طموحة تستخدم المزالج، لكنها عادت كلها من دون أي دليل يشير الى مكان البعثة المفقودة.

تكسّر الجليد في ١٤ يوليو (تموز) لكنه ظل يسد الطريق الى المياه المفتوحة. فأخذ ماكلور قراراً جريئاً آخر: الابحار في القناة حول رأس نلسون ومحاولة الالتفاف حول جزيرة بانكس من الشمال (اذا كانت جزيرة فعلا).

لم يتخل عنه الحظ، فدار حول الرأس الجنوبي - الغربي واندفع أمام الريح شمالا بسرعات وصلت الى ١٣ كيلومتراً في الساعة. أبحر يوماً كاملا في ممر مائي عريض بين الكتلة القطبية الى يساره والجزيرة الى يمينه. ثم بدأ الممر يضيق وأصبحت الارض شديدة الانحدار واقتربت الكتلة القطبية حتى وجد نفسه في ما يشبه وادياً. وسرعان ما أصبحت السفينة قريبة من الارض بحيث اضطر البحارة الى رفع القوارب عن جانبيها لئلا تتحطم لدى اصطدامها بالجدران الصخرية.

وصلت "انفستيغايتور" أخيراً الى خليج واسع اختاره ماكلور لقضاء الشتاء وأطلق عليه اسم "خليج رحمة الله" (سمي لاحقاً "خليج الرحمة") مما دعا طبيب السفينة الى التعليق في وقت لاحق: "كانت الرحمة حلّت علينا لو لم ندخله أبداً." فالخليج زقاق بحري مسدود، وسوف يمضي البحارة عامين وهم محتجزون فيه، ولن تخرج منه السفينة أبداً.

خفض ماكلور حصص الغذاء خشية ألا يذوب الجليد في هذا الملجأ المائي خلال الصيف التالي. وبحلول ابريل (نيسان) ١٨٥٢ بدأ الرجال يفقدون من أوزانهم بمعدل آثار الذعر، لكن ماكلور أصر على الحصة المخفضة.

في الشهر ذاته أبحر أسطول السر ادوارد بلتشر بسفنه الخمس من بريطانيا.

في يوليو (تموز) كان ١٦ رجلا من طاقم السفينة أصيبوا بالاسقربوط. ومع ان اصطياد ثيران ايل المسك واقتلاع كمية من نبات الحمّاض ساعدا في وقف انتشار الداء، الا أنهما لم يكفيا لسد غائلة الجوع. وانخفضت حصص الرجال الى وقعة واحدة في اليوم. وكان معظمهم يلتهم حصته من اللحم المملح نيئة لان الطبخ يقلّص حجمها كثيراً.

انتهى العام كئيبا وكل رجل أخف من ذي قبل بكيلوغرامات عدة، ونحو عشرين بحاراً يعانون داء الاسقربوط. وأصيب رجلان بمسّ فأخذا في العواء طوال الليل مضيفين رهبة الى قتامة الكآبة.

في أوائل مارس (آذار) ١٨٥٣ أعلن ماكلور خطة يائسة: سوف يبقى ستة وثلاثون من أقوى رجاله مع السفينة، أما الذين لن يتمكنوا من تحمل شتاء آخر فسوف يحاولون الوصول الى مناطق مأهولة. عارض الطبيب الخطة لان الرجال في ضعفهم لن يتحملوا رحلة طويلة وشاقة كهذه. لكن ماكلور شعر بأن عليه أن يفعل شيئا.

ابتسامة القدر

في ٧ ابريل (نيسان)، وقد أعدت المزالج، توفي أحد الرجال بداء الاسقربوط، فدعا ماكلور جميع البحارة الى ظهر السفينة على عجل وألقى فيهم خطاباً بليغا لرفع المعنويات بدا أنه استنهض هممهم. كان نوع من التواضع غيّر تفكير القائد الاناني خلال العام الذي انقضى، وتكوّن لديه اقتناع بأن العناية الالهية تحميه وأنه ورجاله سيعودون سالمين الى منازلهم. وهو سأل الرجال أن يكونوا صادقين مع أنفسهم ومع واجبهم وألا ييأسوا وأن ينظروا الى الغد بعزم ويتحملوا كل المشاق بالجلد الذي اشتهر به البحار البريطاني. وأعلن أن الفرج قد يظهر في أحلك الساعات.

في اليوم التالي كان ماكلور يتمشى مع كبير ضباطه على الجليد ويبحثان في مشكلة حفر قبر للرجل الميت في الارض الصلبة كالصوان. فقاطعهما بحار اندفع نحوهما معلنا أن جسما أسود يتحرك على الجليد في اتجاه البحر وقد يكون ثوراً من ايل المسك. لكنه لم يكن كذلك، فقد ركض بحار آخر صارخا: "انهم رجال! مزلجة ورجال!"

هل كانوا جماعة من الاسكيمو؟ حبس ماكلور ورجاله أنفاسهم بينما اقترب أحد الاغراب.

صرخ ماكلور: "من أنتم بحق السماء؟" تقدم الغريب ونطق جملة سرت فيهم جميعاً كصدمة كهربائية: "أنا الملازم بيم من السفينة ريزوليوت بقيادة القبطان كيليت في جزيرة ديلي."

لا شك في أن هذا الخبر أربك ماكلور لثوان، فهو التقى كيليت للمرة الاخيرة على ساحل ألاسكا. لكن كيليت عاد الى بريطانيا ثم أبحر من جديد مع بلتشر في مهمة الانقاذ. ولم يكن ذلك بذي بالٍ لان أمراً واحداً كان واضحا: لقد حدثت المعجزة التي لم يجرؤ ماكلور على أن يأملها، والفرج الذي وعد به رجاله أصبح في المتناول. لقد ابتسم له القدر مرة أخرى في أحلك الساعات.

لم تكن ١٨٤٥ سنة خير بالنسبة الى جين فرنكلين. فمنذ مطلعها، في ١٢ يناير

(كانون الثاني) فيما لا تزال سبع سفن تفتش المنطقة القطبية، تلقت جين أولى الصدمات: أعلنت الاميرالية، من دون انتظار عودة بلتشر، انها اعتباراً من ٣١ مارس (آذار) ستشطب من سجلاتها أسماء كل الضباط والبحارة على متن "اريبوس" و"تيرور."

ذهلت جين، ففي أكتوبر (تشرين الاول) الفائت وصلت الى لندن أخبار اكتشاف ماكلور الممر الشمالي - الغربي. هل كان ذلك كل ما يعني الاميرالية؟

أمضت أسبوعاً حتى استعادت هدوء أعصابها، ثم أرسلت الى الاميرالية واحدة من رسائلها المصوغة باتقان والمتقدة سخطاً والتي أصبحت سمتها المميزة. لقد تزامن اكتشاف الممر ووقف البحث عن فرنكلين على نحو مريب. فكتبت الليدي فرنكلين: "أيها السادة الاجلاء، لا يسعني الا أن أشعر بأن لطخة ستسوّد صفحة من سجلات البحرية في بريطانيا عندما يسجل التاريخ هذين الحدثين بترابط لا ينفصم."

اندلعت حرب القرم قبل ثلاثة أيام من اعلان فرنكلين رسمياً في عداد الوفيات. ولم تعد الاميرالية قادرة على تحمل ترف حملات الى المنطقة القطبية، اذ احتاجت الى كل سفينة وكل رجل في صراعها ضد روسيا.

فقدت الاميرالية آخر ما تبقى من حماستها للاستكشافات القطبية مع عودة بلتشر الى بريطانيا في أواخر الخريف. كان تخلّى عن أربع من سفنه الخمس، وكلها في حال ممتازة، من دون تفسير معقول. وقد عثر أسطول أمريكي لصيد الحيتان على واحدة منها طافية قريباً من مضيق ديفيس. كانت خالية من قبطانها وبحارتها، واستطاعت أن تشق طريقها على نحو عجيب - من دون أشرعة أو بخار - من مضيق فسكونت ملفيل الى الاطلسي. لم تدفعها قوة بشرية، الجليد المتقلب الذي لا يرحم تولى عملية الدفع محوّلا السر ادوارد بلتشر مضحكة البحرية الملكية.

حاولت الليدي فرنكلين التحجج بأن مصير زوجها وبحارته ما زال مجهولا، لكن هذه النقطة أيضاً سقطت عندما وصل الرحالة القطبي البارع جون راي الى بريطانيا بأول الاخبار الاكيدة.

لم يكن راي يبحث عن فرنكلين، بل كان يستكشف شبه جزيرة بوثيا لمصلحة شركة "هدسون باي." وسافر كعادته على مزلجة تجرها الكلاب، من دون خيمة، يستدفىء في أكواخ ثلجية يبنيها في رحلة الذهاب ويؤوب اليها في رحلة العودة.

التقى في خليج بيلي رجلا من الاسكيمو روى له قصة غريبة. سمع الرجل من سكان محليين أن مجموعة من الرجال البيض راوح عددهم بين ٣٥ و٤٠ ماتوا جوعاً قبل سنوات في منطقة تبعد بين عشرة أيام و١٢ يوماً سفراً.

لاحظ راي أن محدثه يضع حول رأسه رباط قبعة ذهبياً. وأخبره الرجل أنه حصل

على الرباط من المكان الذي عُثر فيه على جثث الرجال. اشترى راي الرباط وأعلن استعداده لدفع ثمن جيد لاي تذكار يؤتى به بعد عودته الى القاعدة.

في أواخر ربيع ١٨٥٤ أحضر اليه سكان محليون كنزاً نفيساً من التذكارات سهُل التعرف الى أنها تعود الى فرنكلين ورجاله: شُوَك وملاعق فضية حفرت عليها شارات ضباطه، وواحد من أوسمة فرنكلين، وصحن صغير يحمل اسمه، وأغراض أخرى نقشت عليها أسماء وأحرف أولى.

الحلقة الاخيرة

لم يكن لدى الاسكيمو علم بمصير أي من سفينتي فرنكلين، كما لم يستطع راي أن يستخلص من رواياتهم الطريق التي اتبعها المستكشف عندما ترك مقره الشتوي في جزيرة بيتشي. لكنه جمع من المعلومات ما جعله يتخلى عن خططه لقضاء شتاء أخر في المنطقة القطبية وعاد الى بريطانيا بأسرع ما أمكن. فهو أراد، كما قال، منع اهدار تكاليف وأرواح اضافية في عملية بحث باتت عقيمة. وهو، بالتأكيد، رغب في استحقاق ١٠ آلاف جنيه استرليني كان البرلمان البريطاني أعلنها مكافأة لمن يأتي بدليل قاطع على مصير فرنكلين، وان يكن راي أصرّ على أنه لم يسمع بالمكافأة من قبل.

استقبلته الليدي فرنكلين ببرود عندما زارها اذ استاءت من أن يمنح امرؤ الجائزة قبل اتمام عملية بحث أكثر دقة. مع ذلك حصل راي على المكافأة التي ذهب ألفا جنيه منها الى رجال فرقته. لكن شعوراً استمر يساور الناس بأن ثمة جواً بعيداً عن النبالة يحيط براي، ذلك الرجل الذي عاش حياة السكان الاصليين. والشرف الوحيد الذي ناله هو "وسام المؤسس" الذي منحته اياه "الجمعية الجغرافية الملكية." لقد حصل معظم المستكشفين القطبيين الآخرين على رتبة "فارس"، وبقي راي وحده خارج الدائرة السحرية، رجلا عاميا حتى النهاية.

أما ماكلور فقد طغى طموحه الاناني مرة أخرى ورفض الاعتراف بفضل كيليت في أنقاذه وبحارته، وأصر بعناد على ادعائه أنه كان يستطيع الفكاك من الجليد والابحار في الممر وحيداً، وانه لم يلغِ الرحلة الا بناء على أوامر مباشرة. ولخيبة الليدي فرنكلين، نال وبحارته ١٠ آلاف جنيه استرليني مكافأة على اكتشافه، فضلا عن مجد النجاح في تحقيق ما افترض أن فرنكلين عجز عنه.

وهكذا فقد مصير فرنكلين بعضاً من غموضه المثير وكثيراً من بريقه. وفي خريف ١٨٥٤، عندما عاد رايِ وبلتشر ألى بريطانيا، كان الجمهور البريطاني حوّل اهتمامه الى اتجاه آخر. فقد شغل الناس بالحديث عن "هجوم الخيالة" الذي خلّده اللورد تنيسون شِعراً. وحدها الليدي فرنكلين مضـ ـة في معركتها يـصـول الى الحقيقة.

وضعت حرب القرم أوزارها في مارس (آذار) ١٨٥٦. ألا يمكن أن تستأنف البحرية عملية البحث؟ ألم تحفزها الادلة التي كشفها راي على محاولة نهائية؟ اذا لم تكن الحكومة مستعدة لذلك فان جين فرنكلين مستعدة الآن أيضا.

قالت لاحدى صديقاتها: "انني في صدد محاولة أخيرة لحل هذا اللغز."

لقد عُثر على تذكارات، ولكن لم يعثر على وثائق. فمن يستطيع الجزم بأن فرنكلين نفسه أو أحد رجاله لم يكتشف "الممر" قبل ماكلور بزمن طويل، رابطاً "الحلقة الاخيرة بحياته" بحسب عبارة جون ريتشاردسون المفعمة بالولاء.

هاجمت الليدي فرنكلين الاميرالية من جديد بكل ما ملكته من بلاغة. وعملت في الخفاء محاولة تسيير الامور لمصلحتها، لكن البحرية الملكية أصرت في عنادها، ولم تؤت جهود جين غير المباشرة أي نتيجة. لقد اعتبرت البحرية أن كفاية من الرجال ماتت وكفاية من السفن فقدت في عملية البحث التي دامت عشر سنين.

لكن جين فرنكلين لم تنثنِ. وهي اشترت في العام ١٨٥٧ يختا بخاريا دعته "فوكس" هو في نصف حجم أي من سفينتي فرنكلين، دفعت ثمنه ٢٠٠٠ جنيه استرليني وأقنعت ليوبولد ماكلنتوك، وهو قائد مزلجة متمرس، بقيادته الى جزيرة كينغ وليم، البقعة الوحيدة التي لم يبحث فيها أحد.

عرضت الاميرالية بعض العون بتأمين المواد الغذائية. لكن تلك لم تكن رحلة ترف، مما زاد حماسة ماكلنتوك الذي أعلن: "كلما قلت الموارد كان الانجاز أكبر والنجاح أروع والفشل أشرف." بذلك لخص فلسفة البطولة في العصر الفيكتوري: أين النصر ان لم تصارع مخاطر مستحيلة؟

أمضى "فوكس" شتاءه الاول محتجزاً في الجليد في خليج بافن، فلم يصل الى مقصده - مضيق بيلو - الا في أغسطس (آب) ١٨٥٨. كُرِّس الخريف وأوائل الشتاء لاعداد مستودعات للبعثات الثلاث الرئيسية التي تستخدم المزالج والتي خطط لها ماكلنتوك. سوف يغطي ألن يونغ جزيرة "برنس أوف ويلز" فيما يجول ماكلنتوك دلتا نهر "غريت فيش." أما الملازم وليم هوبسون فسوف يفتش السواحل الغربية والشمالية - الغربية في جزيرة "كينغ وليم." وكانت هذه المهمة الاخيرة كَرَما من جانب ماكلنتوك، لان غالب الظن أن اللغز سيُحلّ هناك، واذا حدث ذلك فان هوبسون سيحصل على المجد والترقية.

انطلق ماكلنتوك وهوبسون في ٢ ابريل (نيسان) ١٨٥٩. وقبل أن يفترقا بعد أسبوع، التقيا بعض رجال الاسكيمو الذين أخبروهما عن سفينتين، واحدة غرقت والاخرى جرفت الى الشاطىء. وقالوا ان رجالا بيضا شوهدوا يجرون قوارب جنوبا في اتجاه نهر كبير في البر.

التقى ماكلنتوك مزيداً من الاسكيمو وقد أصبح وحيداً على السواحل الشرقية لجزيرة "كينغ وليم." كان الخشب بالنسبة اليهم أغلى من الذهب في هذه الارض التي لا شجر فيها. وقد صنعوا مجاذيف لقواربهم ومقابض لحرابهم وأشياء أخرى من خشب حصلوا عليه من أفراد آخرين من الاسكيمو. كان واضحاً أن مصدر الخشب سفينة، لكن أحداً من هذه المجموعة لم يكن يعرف المزيد. كان الامر محيّراً ومثيراً، لكنه في النهاية مخيب للآمال.

تابع ماكلنتوك مسيرته في اتجاه دلتا نهر "غريت فيش"، ثم استدار شمالا في ٢٤ مايو (أيار) في اتجاه جزيرة كينغ وليم. وبعيد منتصف الليل، والشمس ما زالت ساطعة في السماء، كان يمشي متثاقلا على تلة من الحصى، فلمح هيكلا عظميا بشريا. انه الدليل المباشر الاول على الكارثة التي حلت بجماعة فرنكلين.

هناك تمدد الهيكل، شاهداً رهيباً على التاريخ. كان ملقى على وجهه وكأن صاحبه تعثر ووقع ولم يقوَ على النهوض ثانية. عظام بيضاء كالطبشور، وخرق من ملابس لا تزال ملتصقة بالاطراف المكشوفة التي بدا أن حيوانات نهشتها. وقف ماكلنتوك يحدق الى اللقية المحزنة ويستذكر ما قالته له امرأة عجوز من الاسكيمو: "كانوا يسقطون في سيرهم ويموتون."

شاي وشوكولاتة

تحركت الفرقة شمالا عبر الساحل الغربي الموحش الكئيب. وبعد "رأس هيرشيل" بمسافة ٢٠ كيلومتراً عثر ماكلنتوك على مَعلم حجري بارز بنته مجموعة هوبسون وتركت فيه رسالة. لقد مر هوبسون بالمكان قبل ستة أيام، لكنه لم ير حطام سفينة ولم يلتقِ أحداً من السكان المحليين، لكنه عثر، في معلم آخر في "فيكتوري بوينت" على الساحل الشمالي – الغربي لجزيرة "كينغ وليم" على وثيقة تتعلق بالحملة المفقودة هي الاولى التي يتم العثور عليها. لم تكن تحمل تفاصيل، لكنها كانت كافية لايضاح النقاط الرئيسية في اللغز.

كانت الرسالة الاولى مؤرخة ٢٨ مايو (أيار) ١٨٤٧ وموقعة باسم "الملازم غور" وتنضح تفاؤلا: "كل شيء على ما يرام..." وهي كشفت أن فرنكلين ذهب الى قناة ولينغتون وأنه، في الحقيقة، التف حول جزيرة "كورنواليس" قبل أن يستقر في جزيرة بيتشي لتمضية شتاء ١٨٤٥ – ١٨٤٦. أما الشتاء الثاني فقد دهمه في خضم جدول جليدي غرب الطرف الشمالي لجزيرة "كينغ وليم." ترك غور وسبعة من رجاله الرسالة في المعلم وهم على ثقة كاملة بأن السفينتين ستتحرران من الجليد قريباً وبأن الممر سيُخترق خلال ذلك الصيف.

كان هذا حلماً، كما أوضحت الرسالة الثانية التي كتبت بخط مختلف ووقعها نائبا فرنكلين، فرنسيس كروزييه وجايمس فيتزجايمس بتاريخ ٢٥ ابريل (نيسان) ١٨٤٨. أفادت الرسالة أن فرنكلين توفي في يونيو (حزيران) الفائت بعد شهر من كتابة غور رسالته. وحين كتبت الرسالة الثانية كان قد مر ١٩ شهراً على السفينتين وهما محتجزتان في الجليد، وقد توفي تسعة ضباط (بمن فيهم غور) و١٥ بحاراً، فتخلى الباقون عن السفينتين وهم يحاولون الوصول الى نهر "غريت فيش" بواسطة المزالج.

غثر ماكلنتوك، في مسيرته فوق الهضبات المحصبة في الساحل الشمالي – الغربي الموحش لجزيرة "كينغ وليم"، على واحد من هذه المزالج. كانت مصنوعة من الحديد وخشب السنديان وتزن ٣٥٠ كيلوغراماً على الاقل. على ظهرها جثم قارب نهري يبلغ طوله حوالى ثمانية أمتار ويزن نحو ٤٠٠ كيلوغرام اضافية. كان ذلك جنوناً مطبقاً بالنسبة الى ماكلنتوك الخبير في قيادة المزالج. فسبعة رجال أصحاء يعجزون عن جر هذه المزلجة فارغة. لكنها كانت مثقلة بالاحمال، مجموعة لا تصدق من الامتعة غير الضرورية: كتب وأحذية ومناشف وفراشي أسنان وأغطية بنادق وفتائل وصابون وصفائح رصاصية وسكاكين مائدة وصحون فضية مزينة بالشعارات وساعات جيب وحافظات خرزية وعلب سيجار.

عثر ماكلنتوك داخل القارب على هيكلين عظميين، وتكوّن لديه اقتناع بأن المجموعة لم تقدّر حاجتها من الطعام جيداً وبأنها كانت عائدة الى السفينة لاحضار المزيد، لكن السفينة كانت تبعد ١٠٠ كيلومتر شمالاً، ولما لم يستطع الرجال جرّ قاربهم أكثر، تركوا الرفيقين الاضعف بينهم في القارب مع قليل من الطعام لم يتبقَّ منه سوى بعض الشاي والشوكولاتة.

عندما وصل ماكلنتوك الى "فيكتوري بوينت" واجه مشهداً غريبا آخر – دلائل اضافية على أن الرجال الذين تخلوا عن سفينتيهم لم يعوا مدى الضعف الذي وصلوا اليه. فداء الاسقربوط الذي يوهن الجسم، يشوّش الدماغ كذلك، مما يوهم ضحاياه بأن في امكانهم انجاز أكثر مما هم قادرون عليه فعلاً.

لقد أثقل الرجال مزالجهم بعشرة أطنان من المعدات وتخلوا عن معظمها بعد ثلاثة أيام في هذه البقعة. بلغ ارتفاع كومة الثياب الصوفية متراً ونصف متر. ولكن أي نزوة غريبة أقنعتهم باحضار طلاء للازرار النحاسية ومواقد ثقيلة وقضبان ستائر وقضيب صواعق ومكتبة عامرة؟ لقد جروا هذا الجبل من المواد غير الضرورية مسافة ٢٠ كيلومتراً طوال ثلاثة أيام قبل أن يدركوا أنهم ليسوا على مستوى الجهد المطلوب. وهكذا، بعدما غطّ فيتزجايمس قلمه في المحبرة وخربش الرسالة الثانية، خفف الرجال من أحمال مزالجهم ثم ساروا على الشاطىء الموحش لملاقاة مصيرهم.

وبينما هم يدبّون ويتساقطون على الطريق كانت عيون تراقبهم بفضول. كان رجال الاسكيمو في جزيرة "كينغ وليم" جوعى هم أيضاً في ذلك الشتاء، لكن غذاءهم، على قلّته، أبقاهم أحياء.

"لقد هلكوا بعز،" هذا ما جاء في رسالة الى صحيفة "تايمز" بعد اكتشافات ماكلنتوك. لكنهم لو اهتموا أكثر لنمط حياة السكان المحليين لكان حظهم في البقاء كبيراً.

الرسالة الأخيرة

لم تكن الليدي فرنكلين في لندن عندما عاد ماكلنتوك، كانت على قمة في جبال البيرينيه (بين فرنسا واسبانيا) حيث أُرسلت لاستعادة صحتها. وبلغتها الاخبار في برقية موجزة نقلها القنصل البريطاني في بايون.

أسرعت عائدة الى لندن لتجد نفسها محطّ اعجاب المملكة. فهي انتصرت حيث أخفقت البحرية، اذ أشارت باصرار الى الاتجاه الصحيح سنة بعد سنة. فقد تلقى زوجها أمراً بالتوجه الى الجنوب، والى الجنوب ذهب، وكانت هي تعرف ذلك طوال الوقت.

عُرضت بقايا أمتعة البعثة التي أرسلت الى الاميرالية في "مؤسسة الخدمات الملكية المتحدة" وتجمع جمهور غفير اضطر معه المسؤولون الى اصدار بطاقات دخول.

وبدأت الصحافة تضغط على البرلمان لتعويض الليدي فرنكلين الاموال التي صرفتها على عملية البحث، لكن الارملة المفعمة بالحيوية رفضت قبول بنس واحد، الا أنها رغبت في ان تفعل شيئاً لماكلنتوك وبحارته، كما رغبت في تحصيل شرف أكبر لزوجها لاقتناعها بأنه هو، وليس ماكلور، يستحق الاعتراف بأنه الرجل الذي حل لغز "الممر" أولاً.

في مارس (آذار) ١٨٦٠، بعد جهود مثمرة في الخفاء، استثارت الليدي فرنكلين حواراً في البرلمان انتهى بلَحْظ مكافأة بقيمة ٥٠٠٠ جنيه استرليني لبحارة "فوكس" كما مُنحت هي "وسام المؤسس" من "الجمعية الجغرافية الملكية" لتصبح أول امرأة تحظى بهذا الشرف.

وأصدرت "الجمعية الجغرافية الملكية" مذكرة تشهد بأن حملة فرنكلين كانت الاولى لاكتشاف "ممر شمالي – غربي"، وعدم استخدام أداة تعريف في صوغ هذه العبارة جاء بمثابة ايضاح بأنه ليس ثمة ممر وحيد عبر المتاهة القطبية، بل ممرات عدة.

خفض هذا القرار من منزلة اكتشاف ماكلور، لاحقاً، ممراً أبعد شمالاً. لقد عبر ماكلور الممر فعلاً من الغرب الى الشرق، وإن لم يعبره كله ملاحة، لكن فرنكلين كان المفضل شعبياً. لقد منح طموح ماكلور السافر صاحبه لحظة قصيرة من المجد، لكنه في النهاية تآمر ضده وانزله الى المرتبة الثانية بين مستكشفي القطب.

حظي فرنكلين بتكريمات اخرى: لوحة في غرينيتش، وتمثال نصفي في دير وستمنستر في لندن وبيتين رائعين للشاعر تنيسون، فيهما: "الشمال الابيض يضم رفاتك يا روح البحّار البطولية."

أقيم النصب بتفويض من الليدي فرنكلين، لكنها لم تعش لتراه، اذ توفيت في العام ١٨٧٥ وهي في الثالثة والثمانين من عمرها. وكانت في سنواتها الاخيرة مفعمة بالحيوية كما دائماً، تسافر عبر الكرة الارضية وتتابع بحثها عن بقايا مغامرة زوجها المأسوية.

رُفع الستار عن نصب فرنكلين في وستمنستر بعد أسبوعين من وفاة جين، وقد نقشت عليه العبارة الآتية: "من جين، أرملته، التي، بعد انتظار طويل وايفاد كثيرين بحثاً عنه، غادرتنا هي نفسها سعياً للعثور عليه في مملكة الضوء."

بيار برتون ■

ترجمة فواز خوري

تاتشر والمساواة

عرف عن السيدة مارغريت تاتشر رئيسة الوزراء البريطانية السابقة انها ليست من القائلين بالمساواة بين الرجال والنساء. ولكن لها آراؤها الخاصة في شأن النساء.

فحين دعيت مرة الى مقر المفوض السامي الهندي في لندن لازاحة الستار عن تمثال نصفي لرئيسة الوزراء الهندية الراحلة انديرا غاندي، القى المفوض السامي م.ك. راسغوترا خطاباً ترحيبياً ذكر فيه ما قيل في السيدة غاندي من انها "الرجل الوحيد" في وزارتها.

وعلقت السيدة تاتشر على ملاحظة راسغوترا فقالت: "ان ذلك يفترض كون الرجال متفوقين على النساء قوة وتصميماً. وذلك، يا حضرة المفوّض، افتراض غير مقبول."

مجلة "صنداي"، الهند

حب وفكاهة

الحب ارتباط بذات أخرى. والفكاهة شكل من الانعتاق من الذات، هي نظرة للمرء الى أبعاد كيانه ومصائبه وانزعاجه. فاذا كان حبك حقيقياً، وعرفت فعلاً كيف تضحك، فالنتيجة واحدة: ان تنسى نفسك.

ك.س.

كتاب الشهر



وداعاً... شارع المخدّرات

ملخص من كتاب "المرأة التي استعادت شوارعها"
بقلم ريتا ويب سميث وطوني شابيل

وداعاً... شارع المخدرات

ريتا سميث امرأة نذرت نفسها لمكافحة المخدرات وتطهير حيِّها في هارلم بنيويورك، حيث نشأت، من المدمنين والمروجين الذين عاثوا فيه فساداً واجراماً. لدى هبوط الظلام كان المجرمون يسودون الشارع، فتخرج ريتا من منزلها وتتحداهم. وفيما انكمش سائر السكان داخل منازلهم خائفين صامتين، كانت ريتا تتصل بالشرطة لكي تتدخل وتفرض القانون وتلاحق المجرمين.

كانت تردد في نفسها: "لا يجوز أن تستمر الأمور على هذه الحال."

وذات يوم وجدت ريتا نفسها في غرفة الانتظار في مستشفى، منهكة قلقة على حياة ابنها الذي أصيب برصاص أحد مروجي المخدرات، فيما الاطباء منهمكون في انقاذه من الموت.

استبدت بها الحيرة وغلب عليها الشك: أتستمر في الكفاح؟ وهل كفاحها جدير بأن يحملها على تعريض حياة أولادها للخطر؟

في غمرة يأسها وحيرتها جاءها الجواب على لسان ابنها الجريح ديفيد. قال لها حانقاً: "أنتخلى عن كفاحنا؟ أنلوذ بالفرار ونترك حيَّنا ومنازلنا نهباً للشذاذ واللصوص والمروجين؟ لا يا أماه! سنصمد حتى النهاية."

قرابة الرابعة بعد ظهر يوم جمعة قائظ في أغسطس (آب) أنهى ديفيد سميث عمله في ورشة كهرباء. فخرج يمارس رياضة الهرولة. وبعد اجتيازه خمسة كيلومترات عبر شوارع هارلم[1]، من "الشارع ١٤٣" الى متنزه "سنترال بارك" ذهاباً وإياباً، بلغ زاوية الشارع الذي يقع فيه منزل العائلة.

فتمهل قليلاً وحيا جمعاً من الاصدقاء قرب متجر للمأكولات الصحية في جادة لينوكس. واذ توقف ليلتقط أنفاسه، شاهد شقيقه بيتر مع الجمع، فاقترب لينضم اليهم. وما هي الا لحظات حتى قطعت محادثاتهم جلبة على بعد نحو ٣٠ متراً، ورأوا فتى وامرأة يتصايحان ويتبادلان الشتائم.

لم يكترث ديفيد للامر في البداية، فهذا هو حي هارلم عام ١٩٧٩، وبائعو المخدرات منتشرون بالعشرات في الشارع ١٤٣ حيث يمارسون تجارتهم بجرأة متزايدة منذ نحو سنة. كانوا يقفون على الارصفة يترصدون الزبائن ويسرّون اليهم عبارات رمزية من نوع "أحد أسود" وهو رمز شارعيّ للهيروويين، أو "جرِّب سيز" وهذا مختصر لمخدِّر "سنساميلا" أحد الانواع النادرة والمطلوبة جداً من حشيشة الماريوانا.

تدفق المال على الحي كالسيل، كذلك تدفقت الدماء. فكم من جريمة ارتكبت وقتل فيها أحدهم بالرصاص لمجرد بيعه المخدر في "حرم" بائع آخر أو لتأخره في تسديد دين من ثمن المخدر الذي اشتراه.

كانت السلامة في الابتعاد عن المشاكل.

اقترب الفتى والمرأة المتعاركان، فعرف ديفيد صوت أخيه مارك. استدار، فرآه يدفع امرأة طويلة القامة شعثاء. كان مارك هو أيضاً يشتغل بالكهرباء، وقد عاد لتوه من عمله. وكانت في يده مطرقة يهزها بوجه المرأة، ثم دفعها الى شاحنة متوقفة وهو يصيح بها: "قالت لك أمي ألا تسوِّقي المخدرات أمام منزلنا. فاجمعي بضاعتك واغربي عنا. أفهمت؟"

كانت المرأة تدعى كليو وهي معروفة في الشارع. ولم تكن مصدر ازعاج فحسب، بل كانت وظيفتها العمل "مرشدة" تقف في الشارع وتوجه الزبائن الراغبين في شراء الهيروويين الى الباعة الذين يزاولون تجارتهم في مداخل المباني والاماكن الخالية. وكانت كليو وأفراد جماعتها ازدادوا وقاحة في الفترة الاخيرة، فراحوا يبيعون المخدر أمام منزل آل سميث وعلى عتبة البيت أحياناً.

وقف ديفيد متوتر الاعصاب يراقب كليو ومارك المستمرين في العراك. ثم رأى رجلاً ضخم الجثة يغادر سيارة كان متكئاً عليها ويتقدم نحوهما مهدداً. كانت عيناه نصف مطبقتين وشفتاه ترتجفان، مما أوحى الى ديفيد أنه مدمن ومروِّج يعمل حارساً لكليو.

(١) هارلم حي في مدينة نيويورك تسكنه غالبية من السود الفقراء.

عندئذ تحركت الجماعة من أمام متجر الاطعمة الى مكان المشاجرة، فوصل ديفيد قبل الجميع ووقف في طريق الرجل وصاح به: "لا تتدخل في ما لا يعنيك يا هذا."

لكن الرجل حاول تخطي ديفيد ودفعه جانباً، فصدَّه هذا وتشابكا. وعاجله ديفيد بلكمة على وجهه بقبضته اليمنى.

ترنح المروِّج وتراجع. وأيقظ فيه الالم كل غرائز الشارع الدنيئة، واعتلجت في صدره عوامل متضاربة من الخوف والواقعية والغرور. وشعر بأنه أمام خصم متفوق، فسحب من سترته مسدساً وأطلق سيلا من الشتائم ثم صاح: "سأقتلك!"

أجفل ديفيد اذ رأى المسدس، ووعى الخطر الذي يهدد حياته، ووجد نفسه عاجزاً عن نزع السلاح من يد الرجل لبعد المسافة بينهما، فصمم على الهرب. لكنه ما كاد يتحرك حتى أحس ألماً يلهب ذقنه: لقد أصيب قبل أن يسمع اطلاق الرصاص.

حاول ديفيد الاحتماء، وراح يعدو عبر الشارع، ثم التفت الى الوراء فلم يجد الرجل يلاحقه. لكنه أحس خدراً يسري في ذقنه من دون أن يرافقه ألم أو حريق أو وخز. وغابت عنه حاسة الذوق فقال في نفسه: "لقد تحطم فكي كله، ولم يعد لي ذقن!"

ركض ديفيد في الشارع بين السيارات، وحاول كالمسعور ايقاف سيارة أجرة. كان ينزف بغزارة والدم يسيل من ذقنه على صدره ويديه، فتلطخت ثيابه وبدا مظهره مرعباً، فلم يتوقف أي سائق لنقله الى المستشفى.

يئس ديفيد، وعرف أنه اذا ظل واقفاً ينتظر سيارة تنقله الى مستشفى فسينزف حتى الموت. عندئذ ركز اهتمامه على المشي الى مستشفى هارلم الذي يبعد حوالى ٣٠٠ متر.

صلاة صامتة

في أصيل ذلك النهار من أغسطس (آب) كانت ريتا سميث واحدى صديقاتها ترسمان خططاً لاعادة الرونق الى الابنية المحترقة في الشارع ١٤٣. وفي نهاية لقائهما ذلك اليوم قررت ريتا ان تمر بمنزلها لتفقد الاولاد والاطمئنان اليهم قبل أن توصل صديقتها الى منزلها.

كان الظلام بدأ يبسط جناحيه على حي هارلم. واجتمع الفتية والشباب أمام منازلهم يتحادثون مرحين فيما قبع المسنون في منازلهم لا يخاطرون بالخروج في الظلام خوفاً من التعرض لرصاص عشوائي أو لحماقة مدمن طليق قد يتصدى لهم في الشارع في أي لحظة. آثروا البقاء في منازلهم الخافتة الانوار وهم يحدقون الى الخارج من وراء نوافذ مجللة بالستائر.

لكن ريتا سميث أبت ان تكون واحدة من هؤلاء. فهي، كما علَّمها والداها، عاشت

حياتها بجرأة وأنفة وفقاً لاقتناعاتها. وكانت باشرت، حديثا، حملة على مروجي المخدرات في حيها. كانت تجبههم وتقول لهم: "هذه منازلنا حيث نعيش ونربي أولادنا. فلا شأن لكم هنا أنتم ومخدراتكم." وشفعت تحذيراتها بالاتصال بالشرطة تكراراً وحضّ جيرانها وأولادها السبعة على أن يحذوا حذوها.

انعطفت ريتا، كعادتها، من جادة لينوكس الى الشارع ١٤٣، وهي تفكر في مدى التقدم الذي أحرزته جهودها لتحسين الجوار. فقد رمِّم المبنى الذي تسكنه، وجُدِّد، وطلي أعلاه باللونين البيج والبني، وكُسي أدناه بالقرميد الاحمر، وأقيم أمامه حوض حجري لزرع الورود. لكم كان انجازها جديراً بافتخار والديها لو كانا على قيد الحياة!

أوقفت ريتا السيارة أمام المنزل، فرأت ابنتيها التوأمين أبينا وأيانا (٧ أعوام) جالستين على عتبة المبنى. فهمَّت بتوبيخهما لبقائهما خارجا بعد هبوط الظلام. واذا بها تشاهد مارك وبيتر أيضاً. وهرع الاربعة اليها، فسألتهم قلقة: "ما الخبر؟ ماذا حدث؟"

هتفت أبينا والدموع تكاد تخنقها: "ماما، أصيب ديفيد بالرصاص."

خفق قلب ريتا هلعاً، فسألت: "أين هو؟ كيف حدث ذلك؟"

فسرد لها مارك القصة وهو يرتجف. قال ان ديفيد تدخل ليساعده في اعتراض بيع المخدرات أمام منزلهم. ثم سمع اطلاق رصاص، ورأى ديفيد يسرع في الهرب فلم يعرف هل أصيب أم لا. واعتقد هو وأصدقاؤه أنه سيركض قليلا ثم يعود اليهم. فانتظروا طويلا، لكنه لم يعد.

وأنهى مارك سرد الحادث منتحباً: "هلا ذهبت الى المستشفى لتفقده يا أمي؟ لقد حدث ذلك بسببي."

ذعرت ريتا، لكنها حاولت إخفاء ذعرها عن الاولاد، فقالت لمارك مشيرة بيديها الى ما حولها: "لا يا مارك، ليس الذنب ذنبك، السوء في هذا المكان وليس فيك أنت."

ركبت السيارة هي ومارك، وألقت رأسها على مقود القيادة هنيهة وتلت صلاة صامتة.

وفكرت: ترى، هل مات ديفيد؟ هل هذا الحادث انذار لعائلتنا؟ هل أولادي الآخرون في خطر هم أيضا؟ ثم شعرت بالقوة الكامنة داخلها تتفجر عزما وثقة، تلك القوة التي مكنتها من شق طريقها وحيدة في الحياة والقيام بأود أولادها الصغار وتعليمهم في الجامعات وتمكينهم من الحصول على وظائف محترمة.

أدارت المحرك واتجهت الى مستشفى هارلم. وحاولت في الطريق أن تتشجع وتركن الى الطمأنينة، متذكرة كم مرّ بها من احداث كالحة وكم لاقت من صعوبات بدا تذليلها مستحيلا، لكنها في النهاية تغلبت عليها جميعها.

حياة كرامة

وُلدت ريتا ويب سميث في مستشفى هارلم ذاته، وعاشت معظم سني حياتها في الشارع ١٤٣.

تقول: "كنت في الواقع أحبَّ اخوتي الى أبي. وما زلت اغمض عينيّ فاستحضر صورتي فتاة صغيرة وأبي ممسكاً يدي ونحن نسير في الشارع ١٤٣."

كان والد ريتا ديفيد ويب رجلا مهيب الطلعة طويل القامة أسود اللون فاحمه، ذا أنف أفطس وجبين بارز. وهو خدم ٣٠ سنة في شركة كهرباء نيويورك "كونسوليديتد إديسون." لكن حيه كان محور حياته، فكان يروح ويجيء في الطرق الفرعية يلتقي المعارف ويتباحث وإياهم في شؤون السياسة ويتحدثون عن تطلعاتهم وأحلامهم.

كانت جزر الهند الغربية مسقط رأس والدي ريتا، لكنهما لم يلتقيا الا حين جاءا الى مدينة نيويورك. وكانت أمها امرأة جميلة امتزجت فيها دماء برتغالية وافريقية وهندية، وقد نعمت بنشأة رفيهة في محيط من الطمأنينة والرخاء. لكنها كانت على جهل تام بالاقتصاد المنزلي، فكان الزوجان يكافحان لتدبير أمورهما براتب ديفيد البالغ ٥٠ دولاراً في الأسبوع. كانت الاحوال صعبة، لكن ريتا غُمرت بمقدار كبير من المحبة وباعتزاز عميق ثابت بتاريخها وتاريخ هارلم.

كانت في طفولتها تستمع الى والدها يحدثها عن رحلاته المثيرة حول العالم حين كان بحاراً على متن احدى السفن. فأخبرها كيف سافرت عائلته الى جزر البحر الكاريبي حيث استقرت وكافحت وكسبت عيشها بالعمل في الارض.

تقول ريتا: "أيقظ فيَّ أبي شعوراً بالمسؤولية. وعلّمني أن أعطي أفضل ما عندي وألّا أقنع بأقل من بلوغ الذروة، وإلا شعر كثيرون بأني خذلتهم."

وفُتنت ريتا أيضا بروايات أبيها عن الملوك الافريقيين وعن توحيد مملكة سونغاي الوسيعة وتكديس الكنوز في امبراطورية مالي، وعن الجامعات العظيمة كجامعة تمبوكتو في مالي التي أنشأها أناس سود. وأخبرها أن العلم سيكون له شأن مهم في حياتها، فعليها ان تكون مثقفة إن هي أرادت أن تنال ما تطلبه لنفسها وللذين يعنيها أمرهم.

قبلت ريتا تحدي والدها، وثابرت على الدرس بجد واجتهاد. وهي تقول: "فُتنت بالنظام الديموقراطي وبما يتضمنه من ضوابط ومعادلات. وأتاح لي علم التربية المدنية وحقوق المواطنين وواجباتهم أن أدرك أنني، وان كنت مواطنة سوداء وغير ثرية، فلا موجب لأن أشعر بأني مقيدة في منزلة اجتماعية دنيا أو وضع خاص. فاذا لم ألقَ استجابة في مستوى ما، ففي امكاني الانتقال الى مستوى أعلى، فأعلى، حتى يتاح لي تغيير الأمور. ومن خلال هذا الادراك شعرت بأني حرة."

التحقت ريتا بمدرسة جوليا ريتشمن الثانوية في مانهاتن (نيويورك) المتميزة

بمستوى علمي عال. تقول: "لم يتعين علي اتباع مقرر تعليمي معين. كنت تواقة الى تحصيل علوم عالية، وأنست في نفسي القدرة على منافسة أي شخص آخر في حقل الثقافة."

كانت عائلة ريتا في تلك الايام تكافح لكسب لقمة العيش. وكانت منطقة "الوادي" في هارلم، حيث منزلها، معروفة بفقرها. وتتذكر ريتا: "مهما اشتدت الامور وساءت، لم ندع الآخرين يعلمون بحالنا. تلك كانت خطة والديّ: حين لم يكن لدينا ما نأكله، كنا نحضّر الشاي، أو ماء وسكراً، فنشربه لنملأ معدَنا، ونبدو مرحين كأن أمورنا كلها على ما يرام.

"وكان المال نادراً أيضا، ولكن كان في حوزتي على الدوام جواز لركوب الحافلات مكنني من الذهاب الى المدرسة. ومع أن ثمن الغداء لم يتجاوز ٢٥ سنتا، فلم يتوافر لدي مثل هذا المبلغ أحياناً كثيرة، فكنت أفوِّت وجبة الغداء. الا أني لم أنقطع عن المدرسة يوما، لتصوري أن العلم كنز لا يمكن انتزاعه مني."

التفكير الايجابي

في الخمسينات، حين كانت ريتا لا تزال في المدرسة الثانوية، أصيب والدها بارتفاع في ضغط الدم وبنوبات صداع حادة. وساءت صحته باطراد الى أن توفي في يناير (كانون الثاني) ١٩٥٦. وكان أبرم عقد تأمين على حياته بمبلغ زهيد أنفق كله في تسديد نفقات الدفن والديون المستحقة. ولم يبق لريتا مال لمتابعة دراستها.

في هذه الاثناء تعرّفت ريتا الى رجل من رايتسفيل في ولاية جورجيا يدعى ثيروين ديفيس. وتزوجا بعد ثمانية أشهر، وبعد نحو سنة زواجاً انجبا ابنة سمياها جودي.

كان زوج ريتا رجلا متهتكا ينفق راتبه على الميسر والحفلات والنساء. فدعتها أمها الى العودة الى المنزل الوالدي. وهي تتذكر: "لم أكن أملك ما يقيني شر الفاقة، فاضطررت الى العمل نادلة في مطعم ثم موظفة في مصبغة. فحزّ ذلك في نفسي وغمرني الأسى لعلمي أني لم أخلق لهذا العمل ولعجزي عن أن أكون الشخص الذي أريد."

وبعد وفاة والدتها عام ١٩٦١ ساءت أحوالها المالية كثيراً فغرقت في الكآبة ولم تجد مخرجاً، فطلبت مساعدة من صندوق الانعاش الاجتماعي: "كنت على يقين من أن جيراني يتساءلون كيف سأتدبر أموري الحياتية. وكنت أنا كذلك في حيرة من أمري. لكني ابتهلت الى الله وطلبت عونه، فاستجيب لي، وبدأتُ مساعدة ذاتي."

ذات يوم أهدى اليها أحد أصدقائها كتاباً عن التفكير الايجابي ترك أثراً عميقاً في تفكيرها وغيَّر نظرتها الى الحياة. وهي كانت تقية، صاحبة كبرياء، وتطالع كثيراً،

فاكتشفت أن قراءاتها لمآثر قادة أمثال مارتن لوثر كينغ[٢] تغذي كبرياءها وتزيدها قوة. وفي العام ١٩٦٤ توهجت في صدرها شعلة أنارت لها سبيل الحياة.

فقد لاحظت ريتا أن حياة الفقراء تختلف باختلاف المناطق التي يسكنونها. قالت: "ذهبت برفقة ثيروين مرة لزيارة أهله في جورجيا. ورأيت الفقراء هناك في منتهى النظافة، وكل ما لديهم نظيف. وكان الجيران يتقاسمون ما لديهم من مآكل بسخاء وطيبة، فتعطي امرأة جارتها بعض الفاصولياء، فتشاركها هذه في حبات البندورة (الطماطم) التي اشترتها أو قطفتها من الحديقة او في السمكة التي اصطادها زوجها في النهر. لكن هذه الروح الخيّرة السمحاء لدى السود ماتت حالما هاجروا الى المدن."

زهرة في هارلم

تطلعت ريتا حولها فلمست لامبالاة وفساداً وانحطاطاً أخلاقياً وانتشار جرائم قتل السود للسود في منطقتها. تقول: "أدركت للوهلة الاولى أن علينا نحن ايجاد حلول لمشاكلنا. وقررت أن من واجبي مباشرة العمل في الشارع الذي نسكنه. فلطالما استغلّ مالكو الابنية في هارلم فقر المستأجرين وضعفهم، فأهملوا طلاء الابنية وتدفئتها واصلاح الانابيب. وكان الماء يتسرب أياماً من الثقوب والشقوق."

في أواسط الستينات بدأت ريتا تتحدث الى جيرانها عن تأسيس جمعيات للمستأجرين في الناحية الغربية من الشارع ١٤٣. فاستجاب لها المستأجرون، وبدأوا تنظيم شؤونهم في البناء الذي يضم مسكنها. فانتخبوا مندوبين عنهم أوكلوا اليهم مسؤوليات مختلفة، وعُينت ريتا أمينة عامة للجمعية. فكان في طليعة مهماتها تنبيه مفتشي البلدية الى الحال المزرية للمبنى. وكانت تدون أرقام شارات المفتشين والاصلاحات التي يتعين على مالكي البناء انجازها وفق قوانين المباني.

ولم يغب عن بال المستأجرين أن عليهم هم واجب التزام مسؤوليات شملت الحفاظ على نظافة الردهات وشراء الفحم للتدفئة. وأقاموا في ما بينهم حفلات ومآدب عشاء رصد ريعها لمساعدة المستأجرين العاجزين عن تسديد بدلات ايجاراتهم.

ولاحظت ريتا كثرة الامهات اللواتي يغادرن بيوتهن صباحاً لأخذ أولادهن الى المدرسة. فاقترحت عليهن تناوب اصطحاب الاولاد في الصباح والعودة بهم بعد الظهر، فأنشأن ما سمَّينه "نادي الأمهات للمساعدة الذاتية" وتوافر لهن بذلك وقت لأعمال كثيرة أخرى.

(٢) مارتن لوثر كينغ (الابن) مصلح اجتماعي امريكي اسود ومن رواد الحقوق المدنية. منح جائزة نوبل للسلام عام ١٩٦٤ وقتل عام ١٩٦٨.

ثم أسست ريتا "رابطة المحلة الغربية للشارع ١٤٣" مركزة على قضايا مثل نظافة الشوارع. تقول: "أولينا الأحداث اهتمامنا أيضاً، وحاولنا ابقاءهم منشغلين، فأمّنا لهم وظائف صيفية، وطوّعنا الشبيبة لتنظيم رحلات ونزهات برية وحفلات ترفيهية لاولاد الحي."

عام ١٩٦٨ حصلت ريتا، قانوناً، على الطلاق من ثيروين، كما حصلت على وظيفة مساعدة معلمة لدى مجلس التعليم في مدينة نيويورك. قالت: "تزامنت ساعات عملي وساعات دراسة الاولاد. وكان همي الاكبر حمايتهم من الاغراءات الشائنة التي حفلت بها بيئتنا."

شمل نشاط ريتا رابطة أولياء الطلاب حيث التقت رجلا جذابا يدعى جيروم سميث. وما لبثا أن تزوجا وأنجبا توأمين عام ١٩٧٢. (بعد سنتين تمّ طلاقهما.)

بدأت ريتا، ضمن عملها في مجلس التعليم، تتولى أعمالا ادارية في البرامج المدينية. ورأت أنها في حاجة الى شهادة جامعية، فالتحقت بقسم الدراسة الليلية في جامعة فوردهام ونالت شهادة بكالوريوس في الآداب عام ١٩٧٦ ودرجة ماجستير في العمل الاجتماعي عام ١٩٧٨. ثم كرّست علمها لاعمال التدريب والارشاد في وكالات الانعاش الاجتماعي.

ولكن، ان تكن حياتها تحسنت فقد استمرت حال الجوار في التدهور. فاحتلّ مدمنو الهيروين زاوية تقاطع الشارع والجادة السابعة. وكانت تجارة المخدرات كثيفة في بعض الاحيان والازدحام شديداً بحيث لا يستطيع الواقف في طرف الشارع رؤية الطرف الآخر.

شعرت ريتا بالاحباط والعجز المرادفين للفقر. ثم بدأت تحلم بامكان وقف هذه الدوامة الهدّامة. قالت في ذاتها: "لا داعي الى هذا البؤس. ليس في قدرة كل فرد لملمة أمتعته والانتقال الى مكان آخر. لماذا أغادر هذا المكان حيث ترعرعت؟ ان هذا الشارع ... ١٤٣ ... يمكن أن يضاهي جادة بارك أفينيو الزاهية. لا، لن أستسلم لليأس، ولن أتوانى عن تحويل الخراب والتعاسة هنا لوحة من الجمال."

آنئذ باشرت ريتا زرع الازهار في الحوض الحجري أمام المبنى. لكن الجيران حذّروها من أن الناس سيقتلعون أزهارها. وهي تذكر: "كان ذلك مثيراً للاهتمام، لقد ألف سكان حينا مشاهدة الانحلال فلم يعد يزعجهم، وترسّخ في أذهانهم أننا عاجزون عن الحفاظ على الجمال والنظافة. كانت خرافة العجز هذه مشكلتنا الكبرى، ولا بد أولا من ازالتها من أذهان الناس. رأيت أني مدعوة الى القيام بهذا العمل، فكنت أنا الأداة وكانت الازهار الوسيلة. قلت لجيراني: قد يعمد العابثون الى اقتلاع أزهاري، لكني سأزرع غيرها."

وكثيراً ما رأت ريتا الازهار مبعثرة وقد داستها الاقدام، فلم تيأس، بل كانت تزرع غيرها. وما لبثت الازهار أن اجتذبت أولاد الحي. وكانت إحدى الامهات، لدى زيارتها ريتا، تصطحب ابنتها الصغيرة لتتمتع بمشاهدتها. وهي أخبرت ريتا ان الازهار تجتذب أنواعاً جميلة من الحشرات وأن ابنتها شاهدت النحلة والجندب واليسروع للمرة الاولى في تلك الرقعة الصغيرة من الطبيعة.

قالت ريتا: "كان ذلك دليلا على أن مخلوقات الله عز وجل تأتي حتى الى الشارع ١٤٣. وجاء وقت توقف اقتلاع الازهار، فكان ذلك أيضاً علامة على أن جيراني قبلوا الحقيقة واقتنعوا بأن الحياة يمكن أن تكون أفضل."

نخوة الشبيبة

حين اقتربت ريتا من مستشفى هارلم رأت ومض سيارة اسعاف فافاقت من غيبوبة أحلامها. تذكرت أن ابنها ديفيد مصاب بالرصاص، وقد تكون اصابته خطيرة، بل مميتة.

ولدى وصولها هي ومارك الى وحدة الطوارىء علما أن ديفيد مصاب في رأسه. وأخبرتهما احدى الممرضات أن ديفيد في غرفة العمليات وأن الاطباء يجهدون لانتزاع الرصاصة من أسفل فمه. ولم يسعْ ريتا ومارك الا الانتظار.

جلست ريتا في كرسي تنتظر قلقة ملتاعة. فكرت في أن ديفيد كان الاكثر تردداً حيال موقفها من مروجي المخدرات. فهو نشأ في حي هارلم فقيراً مكافحاً، وكانت آراء أصحابه تتناقض ومبادىء أمه أحياناً كثيرة. ألم يسألها قبل بضعة أيام: "اذا كان ما تقولينه هو الصواب، فلماذا نرى كل الجانحين الاشرار ناجحين جداً؟" فخلّفت كلماته في نفسها أثراً مضنياً، وغلبت عليها الكآبة وتساءلت هل يمكن أن تستقيم الامور على النحو الذي أملته وسعت اليه.

وها هو ديفيد الآن ضحية اتباعه مبادئها وتوجيهاتها.

طال انتظار ريتا وازداد قلقها، وأشارت عقارب الساعة الى الثامنة والنصف مساء ولمّا يخرج أحد من غرفة العمليات. فراحت تصلي من أجل سلامة ديفيد، وشاركها مارك في الصلاة.

أخيراً تقدم منها طبيب شاب وسألها: "هل أنت والدة ديفيد؟" هزت ريتا رأسها ايجاباً. فتابع الطبيب: "سيكون ديفيد بخير." فالرصاصة التي اخترقت فمه تناثرت ومزقت لسانه. ولم يجد الجرّاح الا كسراً صغيرة في فمه.

أضاف الطبيب: "نزف ديفيد بغزارة، وفقد عدداً من أسنانه. وهناك بعض الورم، وهو يحتاج الى مراقبة دقيقة لمدة يومين أو ثلاثة أيام. انه محظوظ."

تبعت ريتا الطبيب الى غرفة المعاينة، فوجدت ديفيد ممدداً على طاولة وقد غرزت ابرة مصل وريدية في ذراعه.

قال له الطبيب ممازحا: "حسناً يا صاحب الفك القوي، ها هي أمك أتت لتراك."

تبسم ديفيد لأمه مغالباً الاعياء. وبان فمه متورماً ومدمى، وفيه فراغ حيث كانت الاسنان المفقودة.

غمر ريتا فيض من الارتياح، وخانها صوتها فراحت تمسح دموعها. فربَّت ديفيد يدها مطمئناً، مما زاد في تأثرها. فهذا الفتى الذي شارف الموت يحاول الآن تعزيتها.

قال الطبيب: "سيدة سميث، سننقل ديفيد الآن الى غرفة ليرتاح، فهو في حاجة الى النوم."

أومأت ريتا برأسها وقالت: "أحبك يا ديفيد. أتمنى لك نوماً هنيئاً. سأعودك غداً."

عادت ريتا الى غرفة الانتظار والمخاوف تساورها حول سلامة أولادها. لكنها طمست هذه الافكار مركزة على فرحها بنجاة ديفيد.

ولكم كانت دهشتها كبيرة حين وجدت في غرفة الانتظار رهطا من أصدقاء ديفيد جاؤوا ليطمئنوا اليه وليعرضوا عليّ خدماتهم: "نحن مستعدون لأي خدمة. لقد كنا هناك، ونحن شهود على الحادث. فما عليك الا أن تقولي لنا ماذا نفعل."

جمدت ريتا اذ فاجأتها نخوة أولئك الشباب الذين كانوا حتى البارحة يجاهرون بعدائهم لجهودها في مكافحة المخدرات. كانت تلك صلاة تحققت فنفخت فيها الحيوية مجدداً وأنعشت آمالها وبرَّدت مخاوفها. وغلب عليها التأثر فلم تخرج من فمها الا عبارة: "شكراً لكم."

ورافقوها الى منزلها وقالوا لها مكررين: "سنقف الى جانبك يا سيدة ريتا. مُرينا ماذا نفعل."

"الستّ" كليو

في الصباح التالي لحادث ديفيد انهمكت ريتا في شراء الخضر والبقالة وطهو الطعام ومساعدة أولادها في فروضهم واتمام بعض المهمات، ريثما يحين موعد زيارة ديفيد بعد الظهر. وتساءلت: أمِن الحكمة أن تبقى في هارلم وتستمر في الكفاح على رغم ما يعني ذلك من تهديد لحياتها وحياة أولادها، أم تتخلى عن كفاحها وتعتكف في منزلها وتنشد السلامة؟ المهم، أولا، الاستماع الى رأي ديفيد في الامر. وعبرت مخيلتها مراحل التقدم الذي أحرزته في مكافحة المخدرات والمشاكل الكثيرة في حيها التي تنبت أبداً وتتراكم كسيارات في ساعة ازدحام.

في مطلع السبعينات خطت ريتا خطوتها الاولى في سبيل حل مشكلة المخدرات.

فنظمت "مشروع ناصية الشارع" الذي خوّل المدمنين الحصول على مساعدة المستشفى البلدي، وبعد تطهيرهم من السموم كانوا يجنّدون للعمل في مشاريع المحلة كزرع الحدائق وطلي الابنية. ولكن، ان تكن هذه الجهود أعطت ثمارها فالوضع كان سائراً الى التغيير، وكانت ريتا تراقب هذا التغيير بأسى وحذر.

مرت سنوات والمخدرات تباع في المنطقة، وكان مروجوها في البداية من سكان الحي الناشطين ضمن نطاق محدود. ثم غزا السوق تجار مخدرات أنشأوا سوقاً خاصة بهم. فعظُم حجم التجارة حتى باتت تتداول، في ساعة واحدة أحياناً، ١٠٠ ألف دولار ثمن هيرويين وكوكايين. كذلك ازدادت مخاوف السكان.

غصت المحلة بباعة المخدرات حتى استحال تعايشهم، وأدى اشتداد المنافسة بينهم الى صراعات دامية. كانت تحصل حوادث انتقام وحشية كل يوم تقريباً، ووقع أحدها في مكان قريب من منزل ريتا حين أمسكت ثلاثة رجال بأحد الباعة "الهواة" ودفعوه الى جدار بناء مهجور ومزقوا جسده بالرصاص فهوى ميتاً.

وكانت جرائم القتل ترتكب في قطاع صغير من الشارع ١٤٣، وأعنفها في "المنطقة ٣٢" حيث وقعت ٧٥ جريمة قتل في العام ١٩٧٩، معظمها عائد الى المخدرات.

كان الباعة يمارسون تجارتهم متخفين في مداخل الابنية. فكان السكان، لدى خروجهم ودخولهم، يفاجأون بهؤلاء الباعة الذين درجوا على تهديدهم ومضايقتهم. لم يكن أحد في أمان. لكن الاولاد والمسنين هم الاكثر عرضة للخطر.

بيل رجل في الستين يعمل في بلدية المدينة ويسكن قرب منزل آل سميث في بناء مهجور قطعت الكهرباء عن مدخله لأنه ملك البلدية ولم يهتم أحد بتسديد الفواتير المستحقة. كانت الكهرباء موصولة بمنزله، لكن الاروقة كانت معتمة، فاعتاد بيل اشعال مصباح كهربائي لدى دخوله المبنى.

وذات يوم احتل غرباء مدخل البناء المهجور، يبيعون المخدرات على رصيف الشارع.

شكا بيل أمره الى ريتا: "يا سيدة سميث، حين أخرج من شقتي أطلب من هؤلاء الاشرار السماح لي بالمرور. وهم تضايقوا من دخولي وخروجي، وحين أخبرتهم أني ساكن هنا شتموني وأمروني بالغروب عنهم. انهم يحملون مسدسات، وأنا مرتاع يا سيدة سميث وبت أكره الذهاب الى بيتي."

وكانت ريتا وأولادها كلما شاهدوا بيل في الشارع متوجها الى منزله يسيرون معه الى أن يدخله ويطمئنوا الى سلامته. وكان يشكرهم في كل مرة.

ذلك كان واقع الحال. فالجوار يعج بالغرباء الأشرار، مروجي المخدرات الذين لا يتورعون عن إرهاب رجل عجوز واطلاق الرصاص على شاب أعزل.

ذات يوم خرجت ريتا من منزلها لزيارة ديفيد في المستشفى، فلمحت امرأة ترتدي سترة جلدية تفترق عن جماعة من باعة المخدرات وتتجه نحوها.

تلك كانت كليو، المرأة التي كانت ترشد الزبائن الى باعة المخدرات أمام منزل ريتا حين تصدى لها مارك.

ولما اقتربت من ريتا قالت لها: "اذا بدر منك أي ازعاج بعد الآن، فسيحل البلاء بابنك الأصغر أيضاً."

لكن ريتا حدقت اليها متحدية الى أن استدارت وانصرفت.

يد العدالة

جلس ديفيد على سريره في المستشفى يمازح ثلاثة نزلاء آخرين في الغرفة ووجهه متورم والكدمات الزرقاء والسوداء والصفراء تكسو فكه. انحنت ريتا وقبّلت أعلى رأسه، ثم جلست الى جانبه على حافة السرير وطلبت منه أن يطلعها على تفاصيل الحادث.

قال ديفيد: "لم أرَ مطلق الرصاص من قبل، لكني أعرف المرأة التي كانت معه." وأفاض في الكلام عن الصدمة التي حلت به، وأبدى خوفه قائلا انه لا يريد أن يموت.

أصغت ريتا الى ابنها بكل جوارحها، وتركته يتكلم لأنها رأت في افصاحه عن مخاوفه المكبوتة علاجاً نفسانياً شافياً.

عندما أنهى ديفيد سرد قصته ضغطت أمه يده وقالت: "اني أفكر منذ فترة في النزوح عن هارلم."

فصاح ديفيد غاضبا: "نرحل؟ نلوذ بالهرب؟ لا يا أمي، هذا ليس من شيمك. لن أدع مروج مخدرات يجبرنا على النزوح."

قالت ريتا: "هذا الحي يعني لي الكثير، ففيه منزل والديّ، ومنزلي. لكنه ليس أهم منك ومن اخوتك. ان ضمان سلامتكم يعني لي كل ما في الحياة."

هز ديفيد رأسه وقال: "ماما، واجبنا هو الاستمرار في الكفاح."

نظرت ريتا الى ابنها الجريح فأكبرت فيه شجاعته وعزمه وأقرَّت: "أنت على حق يا ديفيد. سنكافح حتى النهاية."

لدى مغادرة ديفيد المستشفى كان الجاني ما زال طليقا. فصممت ريتا على السعي الى تطبيق العدالة انصافا لديفيد ولاخوته ولها ولأهل الحي. وتعيَّنت ملاحقة مطلق الرصاص قضائياً ومعالجة مسألة اقصاء تجار المخدرات والمدمنين عن الحي.

كانت ريتا تطلب دائماً تدخل الشرطة المحلية، ولكن حان الوقت لزيادة الضغط. فكثفت جهودها، وفي سبتمبر (أيلول) عقد أول اجتماع لـ"فرقة مكافحة المخدرات" التي كانت تسعى الى تشكيلها.

وصلت ريتا الى مركز الشرطة لحضور الاجتماع، فالتقت رئيس الفرقة الرقيب بيتر برانزو. كان انطباعها الاول أنه شرطي أبيض، فكيف يولي قضايا السكان السود الاهتمام الكافي؟ لكنها أنست منه تجاوبا واستعدادا للعمل.

استهل برانزو الاجتماع شارحا أن "القوة الضاربة" ستضمه وسبعة ضباط آخرين. وسيبادرون الى اقتحام الشارع ١٤٣ وفق اقتراحات ريتا. فسألته: "داخل الابنية أيضا؟" أجاب برانزو: "نعم."

"بما فيها الابنية المهجورة؟"

– تلك أيضا، وأوكار المخدرات وأماكن حقنها.

"وهل نأمل أن تكون الاقتحامات منتظمة لا اقتحاما يتيما؟"

– بكل تأكيد.

"متى تبدأون؟"

في هذا الوقت كان جميع أفراد القوة الضاربة وصلوا الى مكتب برانزو. وأجاب قائد المنطقة المفتش جو فنسنت عن سؤال ريتا الأخير: "بعد ثلاثة أيام. الخميس، في الثامنة مساء."

قالت ريتا: "حسنا، كم أتمنى أن أكون حاضرة."

ضحك فنسنت وقال: "لك الحق في أن تكوني حاضرة. فأنت المسؤولة عن هذه العملية كلها."

طلقات في الليل

انتظرت ريتا الموعد المحدد على أحرّ من من الجمر. وليلة الخميس المقررة للاقتحام وقفت أمام نافذتها تراقب سيارات وحافلات، مدنية ظاهرا، تتوافد الى الشارع. ثم وصل رجال شرطة مشاة في ثياب مدنية. وخلال ٣٠ دقيقة كان كل منهم في المكان المحدد له.

بدأ الهجوم بضراوة كما أملت ريتا. فسُدت جميع منافذ الشارع. وما هي الا ساعة حتى كان رجال الشرطة قبضوا على ٣٠٠ من متعاطي المخدرات. فصُف هؤلاء الى الجدار يدا بيد على امتداد ١٥٠ مترا.

صودرت مخدرات ومسدسات، ونقل المدمنون والمروجون في السيارات والحافلات. كان ذلك بالنسبة الى ريتا انتصارا رائعا اذ أُجبر المدمنون وباعة المخدرات على احترام القانون. وأطلّ السكان من شققهم وراحوا يهتفون مهللين شاكرين.

ثم خرجت ريتا من منزلها ومشت في الشارع بفخر واعتزاز واتجهت الى الرقيب برانزو قائلة: "أكاد لا أصدق هذا الحدث. لقد انتظرته لسنوات."

لكن أحد المطلوبين ظل طليقاً يتملص دائماً من دهم الشرطة. انه فريد "سوني" فيغرز، مطلق الرصاص على ديفيد. وأخيراً، بعد ستة أشهر على حادث ديفيد، تعرف اليه أحد المخبرين وأبلغ أمره الى الشرطة. وما هي الا ساعات حتى وقع فيغرز في قبضة العدالة. وكان، الى تهمة محاولة القتل، مطلوباً بتهمة الاتجار بالهيرويين.

كان روبرت ماكغيرل المدعي العام في قضية ديفيد. وهو أمَّن شهوداً كثيرين على الجريمة، بينهم صديق لديفيد كان وعد في المستشفى بالادلاء بشهادته. إلا أن الادعاء كانت تنقصه اثباتات جازمة. فمن المحتمل أن يزعم فيغرز أنه أطلق النار دفاعاً عن نفسه أو عن كليو. وقد لا تهتم المحكمة بنشاطات آل سميث في مكافحة المخدرات.

باشر ماكغيرل أعداد ملف القضية. وساعدته ريتا، فكانت تطمئن الشهود وتقوي عزيمتهم وترفع معنويات ديفيد. لكنها ظلت قلقة.

واشتدت مخاوفها قبل أسبوع من بدء المحاكمة حين دنا منها رجل وامرأة في مدخل المبنى الذي تقوم فيه شقتها. قال لها الرجل: "نحن على استعداد لمحاربتك في قضية فريد فيغرز."

فردت ريتا: "لن أتراجع، وسأكافح حتى النهاية."

فهددها الرجل: "سنرى، وسترين أنت كذلك." ثم انصرف هو ومرافقته.

لم يسمح لريتا بحضور المحاكمة لأنها كانت ستدلي بشهادتها لاحقاً. لكن ماكغيرل ثابر على الاتصال بها كل مساء واطلاعها على وقائع الجلسات.

استهل ماكغيرل مرافعته بوصف دقيق لواقع الحال. قال: "لم تبدأ المشكلة في ١٧ أغسطس (آب) ١٩٧٩، بل قبل ذلك بكثير، حين شهد الشارع ١٤٣ تدفقاً كثيفاً للمخدرات. كانت مشكلة المخدرات قائمة أصلاً، هذا صحيح، لكن الشارع لم يزدحم من قبل بزبائن توافدوا عليه من نيوجرزي وكونيتيكت."[٣]

صمت ماكغيرل هنيهة وأخذ يخطو جيئة وذهوباً ثم تابع: "في وقت ما، لا بد لكل شخص من أخذ قرار: أيبقى في الحي حبيساً، أم يلجأ الى وسيلة أخرى؟ هذا ما حدث في الشارع ١٤٣.

"هناك دائرة للشرطة. وقد بذل الاهالي جهوداً لابلاغها ما يجري علها تأخذ اجراءات قانونية. لكن الشرطة تعمل ضمن حدود لا تستطيع تجاوزها. لذلك قام آل سميث بنشاطات ستسمعون عنها لحماية الشارع ١٤٣ من وباء المخدرات."

هنا اعترض محامي الدفاع ادوين بول غونزاليس مدعياً أن لا علاقة للجريمة بالمخدرات، فهذه قضية هجوم لا لبس فيها، وقد أطلق فريد فيغرز الرصاص دفاعاً عن النفس وحماية لحياته وحياة المرأة.

(٣) ولايتان مجاورتان لنيويورك.

بدأ استجواب الشهود بالاستماع الى الشرطي الذي قبض على فيغرز، فنوّه بالمساعدة التي قدمها اليه آل سميث ومكنته من اعتقاله. وأبرز شهود آخرون جهود آل سميث التي أثمرت فحملت رجال الشرطة على شن حملات دهم للقبض على متعاطي المخدرات في الشارع ١٤٣. وعجز محامي الدفاع عن دحض هذه الشهادات. وأظهر استجواب الشهود دور آل سميث الفاعل في مكافحة المخدرات.

بعد بضعة أيام على بدء المحاكمة أتصل ماكغيرل بريتا وأخطرها: "عليك أن تلزمي الحذر. كلنا يعرف أن المحاكمة تتمحور على المخدرات، ولن يغفر لك أولئك المتورطون فيها اذ يجدونك تسدّين عليهم سبل رزقهم."

أجابت ريتا بهدوء: "أفهم ذلك."

وعرض بيتر برانزو، الضابط في "المنطقة ٣٢" تكثيف الدوريات في الشارع تحسبا لأي طارىء.

الحكم

التاسعة مساء، في الليلة التي سبقت الاستماع الى شهادة ديفيد، انهمر الرصاص على منزل آل سميث. فتحطم زجاج نافذة غرفة الجلوس وكانت ريتا في غرفة النوم فصرخت مرتاعة محذرة الاولاد: "انبطحوا على الارض!" ثم زحفت الى الهاتف وأبلغت الشرطة بما حصل. ولدى وصول رجال الشرطة اكتشفوا أن ثماني رصاصات أطلقت على المنزل من سطح بناية مجاورة.

قال برانزو لريتا: "حظكم كبير لأن أحداً منكم لم يُصَب. أين ديفيد؟"

فخرج ديفيد مرتعشا من غرفة النوم وقال: "أنا هنا."

سأله برانزو: "هل أنت بخير؟"

– نعم، الحمد لله. في امكانك ابلاغ فيغرز أني سأكون في المحكمة غداً باكرا."

في اليوم التالي بدأ ماكغيرل استجوابه بسؤال ديفيد عن كليو ونشاطها في الشارع ١٤٣. ثم تطرق الى عصر ذلك اليوم حين أطلقت النار على ديفيد، مشيراً الى أن هذا كان يرتدي آنذاك بذلة العمل الخالية من أي جيب، ما يدل على أنه لم يكن يحمل سلاحا.

ولدى سؤال ديفيد عما شاهده ذلك النهار، شهد أنه رأى المتهم متكئا على غطاء محرك سيارة، كما رأى شقيقه مارك في الشارع.

سأله ماكغيرل: "هل كان مارك يعمل في ذلك الوقت؟"

– نعم.

"ماذا كان يعمل؟"

– أشغالا كهربائية.
"هل كان يحمل أدوات؟"
– نعم.
"أخبرنا ماذا رأيت. قلت انك شاهدت مارك وكليو."
– كان مارك يهز المطرقة في وجه كليو بيده اليسرى ويمسك ياقتها باليد اليمنى.
"وأين كانت يدا كليو؟"
– كانتا مسبلتين الى جنبيها.
"هل رأيت شفتيها تتحركان؟"
– نعم، رأيتهما تتحركان.
"كم من الوقت ظل مارك وكليو يتكلمان؟"
– قرابة ثلاثين ثانية.
"ماذا حدث بعد ذلك؟"
– تقدم الرجل في اتجاه شقيقي، فهرعت لاعتراضه وقلت له ان الامر لا يعنيه. لكنه دفعني، فبدأنا العراك، فلكمته.

تطلع ديفيد حوله فرأى الانظار موجهة اليه. فتابع بلهجة حازمة: "عندئذ سحب مسدسه وقال لي مهدداً: سأقتلك."

سأله ماكغيرل: "ماذا فعل بعدما سحب المسدس؟"
– رفعه عالياً.
"هل صوَّبه الى أي شيء؟"
أومأ ديفيد ايجاباً: "صوَّبه الى رأسي."

خلال المرافعة الختامية استخدم ماكغيرل شهادة ديفيد ببراعة. كان محامي الدفاع ادعى أن كليو كانت مهدَّدة وأن المتهم خف لنجدتها، وأنه معذور في الدفاع عن امرأة في خطر. فنقض ماكغيرل هذا الادعاء مبيناً أن مشادات عدة حصلت سابقاً بين كليو ومارك وآخرين من آل سميث، كما أكَّد عدد من الشهود. وغاية هذه المشادات محاولة اقصاء كليو عن مدخل مبناهم حيث كانت تتعامل بالمخدرات. ولم يلجأ أي من أفراد العائلة الى العنف. فلم يستخدموا مضارب كرة ولا مسدسات ولا سكاكين. وفي هذا الحادث المحدد كان مارك يهز المطرقة فحسب. فهل شعرت كليو بأنها مهددة؟

ثم تدرج ماكغيرل في مرافعته الى الافتراض، فقال: "ترى شخصاً هاجماً عليك بسكين أو مصوباً مسدسه اليك، فماذا تفعل؟ في كلتا الحالين ترفع يديك محاولا اتقاء الخطر الذي يتهددك. ولكن أين كانت يدا كليو؟ كانتا مسبلتين الى جنبيها.

"ويفترض بك أيضاً، حين ترى نفسك مهدداً بسكين، أن تصيح طالباً النجدة. فهل

طلبت كليو النجدة؟ كلا، كانت منهمكة في الجدل والمشادة، تتصايح مع مارك، ما يدل على أنها لم تشعر قط بأن حياتها في خطر.

"فما هو الخطر الذي كان يتهددها اذاً؟

لم يكن ذلك خطر المطرقة، بل خطر خسارتها عملها.

لما حاول سميث التصدي لها كانت تخشى طردها من المبنى لاتجارها بالمخدرات."

حدّق ماكغيرل الى هيئة المحلفين وتابع: "ماذا فعل المتهم؟ تقدم نحو المتشاجرين. وماذا حدث؟ كان ديفيد سميث هناك. هل كان ديفيد سميث يحمل سلاحاً؟ ماذا كان يرتدي؟ كان يرتدي بذلة العمل. لا جيوب ولا مكان لحمل أي شيء."

انخفض صوت ماكغيرل حتى بات همساً فيما هو يتتبع الاحداث التي سبقت لحظة سحب المتهم المسدس. من ثم لفت انتباه المحلفين الى ما كانوا يعرفونه عن قصد فيغرز: "سحب المتهم المسدس. فماذا فعل؟ الى أين يُسدده للقتل؟ هناك موضعان، فاما القلب واما الرأس. الى أين صوَّب المسدس؟ لم يصوِّبه الى الساق أو الساعد، بل صوَّبه سوياً الى رأس ديفيد.

"أليس واضحا ما كان ينويه؟ لم يكن قصده اطلاق الرصاص دفاعا عن كليو، ولا دفاعا عن نفسه. كان قصده القتل."

ظلّ المحلفون يتناقشون في خلوتهم قرابة أربع ساعات. ولدى عودتهم الى قاعة المحكمة سادها صمت رهيب ترقباً للحكم. فسأل الكاتب المرأة المتقدمة في هيئة المحلفين: "ما هو قراركم في شأن الادانة بتهمة محاولة القتل من الدرجة الثانية؟"

— مذنب!

تظاهرة ليلية

بعث صدور الحكم واستمرار حملات الشرطة في نفوس الناس شعوراً بالانتصار وثقة جديدة بالغلبة. فصممت ريتا على أن تكون خطوتها التالية تنظيم مسيرة احتجاج على المخدرات. فكثفت اتصالاتها ووزعت مناشير تدعو الى الاشتراك في المسيرة. فاستجاب لدعوتها عدد من رجال الشرطة. وعين رجال أمن سريون لمراقبة المسيرة. ومع ذلك ظل كثيرون من الناس الذين تحدثت اليهم ريتا يخشون الاشتراك. وحددت ريتا صباح السبت موعداً للانطلاق.

انطلقت المسيرة وفي مقدمها ريتا وأولادها وبعض الجيران. وكلما تقدموا في الشارع انضم اليهم آخرون. كان الناس ينظرون اليهم من النوافذ. ومشت أمهات يجررن أطفالهن في عربات، ومشى مسنّون بعكازاتهم، ومشى فتيان وشباب وكلهم يهتفون: "لتسقط المخدرات! خلصونا من المخدرات!"

كان للمسيرة أثر فاعل لم يشهده حي هارلم قبلا. فالسكان الذين كانوا لامبالين حيال الجرائم المرتكبة في الشوارع راحوا يبلغون عنها رجال الشرطة. والضباط الذين كانوا يتلكأون في الاستجابة لاستغاثات السكان باتوا يكثفون وجودهم ويجرون اعتقالات فورية.

انما كثيرون من باعة المخدرات المعتقلين كانوا يعودون الى الشارع فور اطلاقهم ليمارسوا تجارتهم. ففهم السكان أن أجهزة الشرطة تحتاج الى أدلة ثبوتية تخولها القبض على تجار المخدرات وادانتهم. فأخذوا يراقبون الصفقات ويجمعون المعلومات ويدونون أرقام لوحات السيارات وأوصاف المتعاطين ومَن منهم باع ومن منهم اشترى.

واستخدمت احدى النساء في المراقبة منظاراً احتفظت به قرب نافذتها. وكان ساكنو الجوار يقومون بالواجب بحماسة، فيحدقون ملياً الى وجوه الباعة ويدوِّنون أعمالهم المشبوهة ويبلغون رجال الشرطة ما يرون.

وبعد حيازة أجهزة الشرطة معلومات دقيقة عن أفراد جماعة المخدرات، انتفت الحاجة الى شنّ حملات دهم وتوقيف جماعي واستعيض عنها بخطط أكثر فاعلية للقبض على باعة المخدرات افراديا وطردهم من الشوارع.

وفي سبيل ابقاء القضية ضمن اهتمامات المسؤولين والى السكان حضور جلسات المحاكمة، وحين كان ينادى على المتهم يقفون جماعات في قاعة المحكمة، فيشير اليهم المدّعي العام: "هؤلاء، يا سيدي الرئيس، هم سكان الشارع ١٤٣." وكانوا يرفعون لافتات كتب عليها: "خلصونا من المخدرات ومن تجار المخدرات."

وتنامى لدى الناس شعور بالثقة والقدرة على تحقيق أمور رائعة بالتضامن جماعياً. وحين كانت ريتا تتصدى لأحد باعة المخدرات، كان جيرانها يتدخلون لعضدها ولطرد مروجي المخدرات من أمام أبنيتهم.

قوّمت ريتا الوضع، فرأت أن ما انجز ليس كافيا. فالابنية المجاورة في الشارع ١٤٣ مرتع خصب لتجار المخدرات الذين تغلغلوا فيها. وما زالت الصفقات تعقد هناك في غياب القانون. فعقدت اجتماعا في ناد محلي مع جاراتها من الساكنات في الشارع ١٤٣، وشرحت لهنّ واقع الحال، وحضّتهن على مواصلة جهودهن بهدف اخراج باعة المخدرات من كل تلك الابنية.

وافقت المجتمِعات على خطة ريتا، فاتقدن حماسة وخرجن ليلا في تظاهرة ضمّت ٧٥ امرأة توجهن الى دائرة الشرطة وسجلن، افراديا، شكاوى تدين تجارة المخدرات وتطلب اقتلاع مروجيها من المباني في شارعهن. وانهمك رجال الشرطة في تسجيل الشكاوى حتى الاولى بعد منتصف ذلك الليل.

حفزت تلك الشكاوى الجماعية أجهزة الشرطة على التشدد في المكافحة. وبدأ

برانزو حملات دهم واسعة ومكثفة بمساندة رجال من مراكز أخرى للشرطة. فاعتقل عدد كبير من مروجي المخدرات حتى كادت البنية التحتية لهذه التجارة الخطيرة تتقوض. واستمرت حملات الدهم تقضّ مضاجع الباعة وتجلوهم عن الابنية.

أحلام تتحقق

لم تمض سنتان حتى انهارت سوق المخدرات في الشارع ١٤٣. لكن ريتا، البعيدة النظر، رأت أنه ما لم تُرمم الابنية الخالية وتُجدد فستعود حتماً أوكاراً لتجار المخدرات والمهربين وأعشاشاً للجريمة، فتكون جميع الجهود أهدرت. قالت: "ان السبيل الوحيد الى بلوغ هدفنا المنشود هو في الرؤيا والتخطيط والعمل على التغيير." ووضعت خطة آمنت بجدواها، وراحت تسعى الى كسب عضد لها. وهي صادفت عوائق كثيرة، لكن قلة المال كانت العثرة الكبرى.

تلخّصت الخطة في الاتصال بمالكي الابنية في الشارع ١٤٣ وحملهم على ترميمها وجعلها صالحة للسكن. كان معظم الأبنية ملكاً لبلدية نيويورك. وبحسب القوانين المرعية، يحق لَحْظ الاموال اللازمة لترميمها. لكن الاعانات الحكومية المخصصة للاسكان شحَّت كثيراً.

لم تيأس ريتا، بل استمرت في البحث والتنقيب، فأثمرت جهودها اذ عثرت على ما سمّي "الشعبة الثامنة" حيث أرصد مبلغ من المال لمشاريع في هارلم. وهكذا مُهِّدت الطريق الى الاصلاح، وبقي على ريتا الاتصال بالمسؤولين المعنيين.

ذهبت ريتا مع وفد من سكان المحلة لمقابلة المسؤولين. وحصلت على موافقتهم على قبض المبلغ المخصص للحي. وبعد التفاوض والتعاقد مع مهندسين ومتعهدين، جُدِّد المبنيان الاولان بين ١٩٨٢ و١٩٨٤، واحد في الشارع ١٤٣ وآخر في الشارع ١٤٤.

اقامت ريتا حفلة تدشين للمبنيين دعت اليها رجال الشرطة في فرقة مكافحة المخدرات. وألقت خطابا قالت فيه: "قد يكون التمييز العنصري متبادلا. ولكن ما ان تنشأ علاقة حسنة بين أناس مختلفي الاعراق، كأن يبدأوا عملا مشتركا، حتى تتطور الامور الى الافضل، فيزول الحقد بينهم ويعم السلام والوئام ويرى الناس بعضهم بعضاً من خلال ضوء جديد.

"نحن هنا نحتفل بالمشروع الاجتماعي الذي نشأ بفضل تطور هذه العلاقة. ففيما كان كل ما حولنا ماضياً الى الخراب والفساد والانحلال، اتّحدنا وضممنا جهودنا، بعضنا الى بعض، لاحداث تغييرات علّقنا عليها آمالنا. وقد تحققت آمالنا بهذا الانجاز الفريد الذي تشاهدونه الآن أمامكم.

"لكني أرجو أن تكون هذه بداية مسعى طويل."

في أواخر ١٩٨٤ منحت ريتا درجة دكتوراه فخرية للخدمات الانسانية من جامعة فوردهام. وفي حفلة التكريم أعلن رئيس الجامعة: "تفتخر جامعة فوردهام بأن تكون ريتا ويب سميث احدى خريجاتها. فالخدمات الاجتماعية الجلّى التي قدمتها تفوق كل تقدير، فبفضل جهودها شهدت المحلة التي تسكنها والتي كانت غارقة في اليأس والشقاء والانطواء، ولادة جبارة مشرقة أشاعت فيها الامل والثقة والطمأنينة. واذ تكرم جامعة فوردهام السيدة سميث، فهي تنضم الى موكب من المؤسسات والقادة الاجتماعيين الذين ينادون بأن ايمان مواطن واحد وجهوده الفردية كفيلة باحداث تغيير نحو الافضل."

عام ١٩٨٩ أقرَّت بلدية نيويورك صرف اعتمادات لتجديد منطقة في حي هارلم تضم أبنية عشرة شوارع واقعة ما بين الشارعين ١٣٨ و١٤٧. فكان ذلك لريتا خطوة كبرى في الطريق الى تحقيق رؤياها الواسعة. وبدأ العمل في مباني المحلَّة حيث تسكن ريتا غرب الشارع ١٤٣، فباتت تتألق بشقق سكنية مجددة. وعلى زاوية جادة لينوكس يجرى العمل على بناء ناد محلي يضم قاعة للرياضة وحضانة للاطفال ومكتبا للخدمات الاجتماعية.

أما التغيير الابرز فقد حصل في موقعين صغيرين في طرف الشارع. فقبل عشر سنين كان هناك مبنيان محترقان مطلان على الشارع، جعل منهما باعة المخدرات وكراً يختبئون فيه. فهُدم المبنيان ونُظف المكان من الركام والاوساخ، وحل مكانهما متنزهان صغيران يرتادهما سكان المحلة للتنزه واللعب.

وتقاعد بيتر برانزو وترك دائرة الشرطة، لكنه ما زال يزور ريتا في الشارع ١٤٣ ويساعدها في برامجها المختلفة. وهو يقول: "ثمة أماكن أخرى في أحياء هارلم وبرونكس ومانهاتن تشكل مسارح للجرائم وأوكاراً للمخدرات، لكني أعلم أن ريتا تقوم هنا بعمل رائع يساعد في ضبط الامور التي نراها تتحسن وتسير الى حال أكثر أمانا."

رسالة ريتا

شارفت أعمال الترميم والتجديد الانتهاء في ٤٦ مبنى مجاورة لمبنى ريتا سميث. فنظفت الواجهات القرميدية وأعيد طلاء داخل الشقق. ويضم بعض المباني شققاً فخمة من طبقتين، أرضيتها لماعة ومكسوة بخشب السنديان. والاحواض في مداخل المباني ملأى بالنباتات والازهار.

وقفت ريتا أمام المبنى ١٠١ في الناحية الغربية من الشارع ١٤٣، وتطلعت حولها وهتفت بافتخار: "من هنا انطلقت المسيرة."

بعد محاولتها تأليف جمعية تعاونية، استملكت ريتا المبنى في العام ١٩٨٠ ودفعت الضرائب المستحقة وجمعت تبرعات ومساعدات أتاحت لها تجديده وبناء سقوفه واصلاح أجهزة التدفئة وتجديد الطلاء.

وفيما كانت ريتا واقفة منتشية تتأمل مبناها بفخر واعتزاز، تقدم منها راي فلتشر الذي انتقل عام ١٩٨٥ من الشارع ١١٦ واستأجر محلا لبيع أجهزة الفيديو في الطبقة الاولى من المبنى. قال لها، كأن كلامه رجع أحلام ريتا البعيدة: "ان السكن هنا هو كالسكن في بارك أفينيو. كل شيء نظيف بهيج. فهنا سلامة وأمان تامان، ولا مخدرات، بل أبنية جديدة زاهية وزهور وشوارع نظيفة. انه أفضل مكان للسكن. وكل ذلك بفضل ريتا."

خجلت ريتا لهذا الاطراء، فحيَّت فلتشر ودخلت مكتبها في المبنى المجاور لمبناها، حيث علقت على الباب لوحة معنونة: "مركز الاستشارات العائلية لأنظمة العيش."

وتشرح ريتا وهي جالسة على أريكة في مكتبها الفخم: "لا أعتقد أن ثمة أموراً أهم من الحفاظ على كيان العائلة. لذا صممت على العمل في الحقل الاجتماعي، وهو اختصاصي، وبدأت العمل في هذه العيادة."

وفيما هي تتكلم، يدخل ابنها ديفيد. لقد مرّت ١١ سنة على محاكمة "سوني" فيغرز الذي أطلق عليه النار، وديفيد اليوم شاب جذاب لبق في الثانية والثلاثين من عمره، ناشط في مساعدة أمه ونصرة المبادىء والقضايا التي تناضل في سبيلها. وهو يعمل في تجديد المنازل وترميمها في أنحاء هارلم.

تقول ريتا مبتسمة باعتزاز: "أولادي جميعهم في أحسن حال. فالتوأمان تتابعان دراستهما الجامعية بمنح تعليمية. ومارك ضابط في شرطة نيويورك. ويعمل بيتر في مكتب محاماة في المدينة. وجودي موظفة في شركة "كونسوليديتد إديسون." من عندنا بعد؟ غلاديس ستعود الى كلية الحقوق في الخريف المقبل. ذكرنا السبعة، أليس كذلك يا ديفيد؟"

أجاب ديفيد مبتسما: "حتما."

علّمت ريتا أولادها ألا يدعوا بيئتهم تحطّ من ثقتهم بأنفسهم وتدفعهم الى الشعور بالعجز. وواضح أنهم حفظوا هذا الدرس جيداً، كما حفظه جيرانهم وسكان محلتهم.

وتلخص ريتا انجازها قائلة: "حين يسألني الناس كيف توصلت الى تحقيق كل ذلك أجيب: الخوف قرع بابي، والايمان فتحه، ولم يكن في الداخل سواي."

ريتا ويب سميث
وطوني شابيل ■

ترجمة الياس عقل

خاص

تائهون في المحيط الهندي

بقلم كورتني تاور



تائهون في المحيط الهندي

نفد الوقود
في قارب الصيادين
أول الأمر،
ثم الطعام فالماء.
ابتهلوا الى الله يائسين،
فهو وحده القادر
على انقاذهم من موت محتم.

ILLUSTRATIONS: JIM DENEAU



راح جيرار فاس ينتفض ويتأوه ثم يرتمي على جانبي الـ"سانتا جود"، وهو زورق صيد سري لانكي طوله نحو عشرة امتار، ظل يترجح وحيداً بين امواج المحيط الهندي. وكانت صور من الدم والعنف تضطرب في ذهنه وهو نائم على متن الزورق تحت شمس الظهيرة المحرقة. وقد تمكن، مترنحاً، من الوقوف بقامته النحيلة الفارعة، ثم استعان بيسراه التي تشقق جلدها ليثبُت في وقفته، مستندا الى حجرة المحرك. بانت عيناه الهائجتان تتقدان كجمرتين سوداوين محمرتين، عميقاً داخل إطار من الشعر الاسود اللبد ولحية شعثاء. أخذ يلوح بيمناه بعنف ممسكاً سكيناً يستخدم لاخراج احشاء السمك.

صرخ فاس: "يا رفاق! باتت حياتنا عقيمة. فلا طعام لدينا. وليس في الافق أثر ليابسة. أنتم الاربعة لديكم اولاد، أما أنا فلا أولاد لي. سأقتل نفسي وأفتديكم. ليبارككم الله!"

ولما كان فاس (٢٩ عاما)، صاحب السانتا جود، رجلاً زئبقياً، نظراً الى طبعه الحاد، لم يتردد الربان انطوني فونسيكا ومعه انطوني فرناندو في الانقضاض عليه والامساك بيده، وصاحا به: "ايها المالك، لا تأتِ عملاً مجنوناً!" وأيدهما في ذلك الشبحان الآخران المتسربلان في جلد متقرح سودته الشمس. فطمأنه الجميع: "أنظر، السماء تكفهر وستمطر. استرح ونحن نجمع الماء."

كانت المياه هي كل ما حولهم. مياه تمتد الى ما لانهاية داخل الافق الخالي. وإذا ما كانت تثور احياناً، فهي بدت في ذلك اليوم، كما الحال غالباً، صحراء من المياه، منبسطة، حارة، موحشة، ولا أثر من حياة يلوح للصيادين الخمسة المحمومين الهائمين في البحر في ١٤ فبراير (شباط) عام ١٩٨٨ لليوم الثاني والثمانين.

لم يكن تبقى لديهم من ماء الشرب سوى نزر يسير. وكانوا احياناً يُحرمونه تماماً مدة تكفي لدفعهم الى حافة الجنون أو شفا الموت.

تراجع فاس، مطوحاً بذراعيه لاطماً صدره، اذ كان لا يزال تحت تأثير حلمه المحموم. ثم دب الى تحت المتن الضيق للزورق، وتمدد في الفسحة القذرة الواطئة خلف المحرك الصامت. أمطرت السماء فعلاً، سيولاً منعشة، فسدَّ الصيادون الاربعة مصارف الزورق وجمعوا ماء عذباً فنجوا من معاناة العطش مرة أخرى. ودب فاس خارجاً من خلوته وقد خمدت ثورته. وجثا الخمسة يصلون سائلين الخالق ان يريهم "علامة، شيئاً ما - أي شيء - يبشرنا باننا سننجو."

منذ اكثر من عشرين سنة وانطوني فونسيكا، الربان القدير الهادئ، يمتهن صيد السمك قبالة ساحل سري لانكا الجنوبي. الثالثة فجر الاربعاء ٢٥ نوفمبر

(تشرين الثاني) ١٩٨٧، ترك فونسيكا منزله القرميدي الصغير في بنداروانه وهي قرية تقع قرب بروويلا، بهدوء لئلا يوقظ زوجته فيلومنا واطفاله الثلاثة، وتوجه الرجل النحيل الذي يتمتع بثقة مطمئنة وصوت هادئ، ناحية الشاطئ حيث صعد الى السانتا جود، الزورق المصنوع من مادة الفايبرغلاس(١)، ليجهزه لرحلة صيد تستغرق ثلاثة أو اربعة ايام. كان عليه ان يعود وافراد طاقمه الثلاثة بصيد من سمك القرش الذي يقدم في مطاعم العاصمة كولومبو، وسمك البالايا الرائج لدى العامة، الى أنواع الورنك والتونا اللحيم والكوبارا السمين التي تتميز بها الفنادق السياحية المنتشرة على امتداد الساحل ذي الشاطئ الرملي. وكان يؤمل ان يعود السانتا جود من رحلته بحمولة كاملة قيمتها نحو ٢٨٠٠ دولار يخصص نصفها لصاحب الزورق جيرار فاس، بعد حسم ثمن الطعام والوقود ومصاريف اخرى، وتوزع البقية بالتساوي على أفراد الطاقم.

بدا الربان الشاب البالغ السادسة والثلاثين منشغل البال، اذ ادرك، وهو يستعيد في ذهنه لائحة حاجات الرحلة، ان الزورق ليس مزوداً سوى ٣٠٠ ليتر من الوقود. كان يجدر بفاس ان يرفع هذه الكمية الى الضعفين، تحوطاً. الى ذلك، كانت تعوزهم الاشرعة، وهي تدبير احتياطي أولي يمكن الركون اليه اذا ما توقف المحرك الذي تبلغ قوته ثلاثة وثلاثين حصاناً. ثم ان السانتا جود لم يكن مزوداً أجهزة اتصال لاسلكي، اذ كانت الحكومة حظرت استخدام مثل هذه الاجهزة في محاولة للحؤول دون تسلل المهربين والارهابيين الى سري لانكا من البحر في مراكب صغيرة. في اي حال، كانت كمية الطعام تكفيهم عشرة ايام على الاقل، كذلك علب من عيدان الثقاب لايقاد نار الطهو، فضلا عن ٢٠ كيساً من الثلج حفظت في عنبر السمك، تصلح لخمسة ايام. وفي مؤخر الزورق احتفظ بنحو مئة ليتر من مياه الشرب في براميل بلاستيك ربطت الى خزان الوقود.

تفحص فونسيكا صنانير الصيد الـ١٥ بخيوطها الطويلة والخاصة بصيد التونا والبالايا. وبدت شباك متينة تطول عشرات الامتار ملفوفة امام حجرتين ترتفعان نحو نصف متر فوق المتن الذي يبلغ عرضه نحو مترين ونصف متر. وتحتل الحجرة التي فوق المحرك ويبلغ عرضها متراً ونصف متر وطولها نحو مترين، والحجرة الاخرى المماثلة حجما فوق عنبر السمك، معظم مساحة المتن، باستثناء مواضع الشباك والعدة وجهاز القيادة. وافردت تحت المتن، خلف المحرك ذي الهدير الضاج والى جانبيه، فسحات رطبة ضيقة يملأ الشحم انحاءها ويعبق فيها الدخان، لينام فيها اربعة أشخاص. وأخليت لفونسيكا فسحة مماثلة في مقدم الزورق.

وما هي الا دقائق حتى صعد انطوني روهيتا (روي) فرناندو (٢٣ عاما) الى الزورق.

---

(١) Fiberglass

وروي هذا شاب نشط قليل الصبر أحياناً، لكنه بحار مجتهد ومساعد خبير. وكان يسعى الى جمع المال ليبني منزلا في فترة قصيرة لزوجته الحامل دفيكا وابنهما تشامارا البالغ عامين من العمر.

بادره انطوني فرناندو (٢٥ عاما) الذي لا يمت اليه بقربى: "كيف حالك؟" وانطوني شاب هادىء مقل في الكلام لا يُظهر تأثره بسرعة. غير ان داخله يضطرم بكل انواع المشاعر، وقل بالغضب اذا شئت. وهو يعيش وزوجته اسونتا سريماثي وابنتهما دينوشا (عامين) وابنهما نيلانكا (عام واحد) مع اهل زوجته في قطعة أرض ريفية تبعد ثمانية كيلومترات عن بنداروانه. كان همه ان يسدد مبلغ ٧٠ دولاراً استدانها من شقيق زوجته ليقيم حفلة لابنه في عيد مولده الاول. ولأنه كان مستاء من تصرفات فاس التي لا تطاق احياناً، قرر في نفسه العمل في زورق آخر، مع مطلع السنة التالية.

انتاب القلق أنيل سويسا، الشاب العصبي، وهو ينضم الى الطاقم اذ سقط أمامه غصن شجرة من جوز الهند اثناء توجهه من كوخه الهزيل المصنوع من الواح خشب. وقال في نفسه: هذا نذير شؤم. لقد سبق ان حدث هذا لي وكدنا نغرق. شعر سويسا بالخجل امام فاس، وهو الذي يعتبره صياداً مغروراً تعوزه الخبرة، وبخيلا لا يأبه لمصلحة الآخرين. لكن الشاب كان في حاجة الى المال ليسدد مبلغا استدانه من مراب ليحج الى مزار كاتاراغاما، ويحمل اليه هدايا من الزهور والرز وجوز الهند المقشور والمال وافياً بذلك نذراً من اجل صحة اطفاله الثلاثة وزوجته بريانثي. أخيراً وصل جيرار فاس منهكاً بعد حفلة شارك فيها الليلة السابقة. وهو لم يكترث لتوسلات زوجته الشابة كاميني كانثي (١٧ عاماً) ألّا يذهب. وكان منجِّم في قرية الوثغاما القريبة ابلغ اليها أن الساعة التاسعة والدقيقة الثانية من صباح التاسع من ديسمبر (كانون الاول) ستكون بشير خير لانتقالهما من منزل والديها الى منزل كبير اعطاهما اياه والد جيرار. وعليهما قبل هذا التاريخ ان يكشطا الجدران ويسوياها ثم يطلياها كما ان عليهما اجراء بعض الترميمات العامة في المنزل.

لم يكن لدى فاس سبب حقيقي ليشترك في هذه الرحلة. ويبدو أنه فعل ذلك بدافع الضجر والرغبة في مغامرة صغيرة. وكان اشترى الزورق من مدخرات جمعها اثناء عمله نادلا في ناد للموظفين الاوروبيين في العراق، علماً انه لا يتقن عمل الصيادين مثل وضع الطعم في الصنارة وسحب الشباك والتنظيف. وقد حاول في رحلة صيد سابقة المطالبة بخمس حصة الطاقم من ارباح الصيد الى حصة النصف التي تحق له كمالك للزورق، لمجرد مشاركته في الرحلة، لكن الرجال هددوه بالاستقالة. وقال له فونسيكا: "لا ندري لماذا أتيت. أنت لا تعمل وليس من العدل أن تأخذ مالنا." وتراجع فاس عن مطلبه، لكنه ظل يكتم في نفسه ضغينة.

الساعة الرابعة فجراً، أبحر السانتا جود وزورق آخر من زوارق برووبلا الثلاثمئة يدعى "النسر"، متخطيين معا حائل الامواج وتوجها جنوبا غرباً نحو المحيط الهندي بسرعة ثلاثة اميال[٢] في الساعة. وتسافر زوارق برووبلا عادة في مجموعات غير محددة العدد لتبادل الحماية في حال توقف محرك احدها عن العمل. وكان السانتا جود والنسر يعتزمان الصيد معاً ثم العودة في غضون ثلاثة أو اربعة ايام.

بعد سبع ساعات كان سويسا وآل فرناندو اصطادا نحو ستين سمكة بالايا تزن الواحدة اربعة الى خمسة كيلوغرامات. انها بداية لا بأس بها، كانت كافية لاحتفاظ افراد الطاقم بشعور يكتنفهم منذ سنة بأن السانتا جود كما يقول فاس: "زورق محظوظ يعود دائماً بصيد ما." وظلوا يبحرون الشباك حتى الغروب حين توقفوا عن رميها في مياه البحر العميقة.

وتحول الربان فونسيكا طاهيا اخذ يحضر الرز المسلوق والخضر المنكهة بالكري على موقد ذي رأس واحد يعمل بالغاز. في هذه الاثناء تولى سويسا وآل فرناندو لف الشباك وتقطيع سمك البالايا ووضع الطعوم في صنانير الاسلاك الطويلة ثم بسطها. واذ اقتعد البحارة الخمسة ارض الزورق لاحظ فونسيكا أن: "الريح ليست قوية اليوم، لكن التيار يبدو قوياً بعض الشيء."

قرابة الساعة الثالثة من فجر الخميس، خرج الرجال من مضاجعهم وسحبوا الشباك. ولسوء حظهم لم يجدوا سوى عدد قليل متناثر من الاسماك عالق فيها. قال فونسيكا: "ثمة قطيع من الدلافين يتجه جنوباً. سنلحق به لأن سمك التونا يتقفى أثر الدلافين عادة."

ارتاح السانتا جود والنسر تلك الليلة، تفصل بينهما مسافة نحو ٤٥٠ متراً ليوفر واحدهما الحماية للآخر، وارخيا شباكهما. لكن صباح الجمعة طلع من غير ان يظهر اي اثر للنور الاحمر الذي ينبعث عادة من مستودع الفحم الحجري في النسر. قال فونسيكا: "كان التيار قوياً ليلة أمس. سنسحب الشباك ونبحث عنهم. لقد توغلنا اكثر من المعتاد والافضل ان نكون قرب اصدقائنا." وأقصى ما امكنه معرفته، ودليله المامه باحوال الطقس وبوصلة وغريزة مدربة، انهم تخطوا كثيراً الخمسين أو الستين ميلا التي تفصلهم عن شواطىء بلادهم. وبدا فونسيكا قلقاً حيال تضاؤل كمية الوقود.

سحب سويسا وروي وانطوني فرناندو الشباك، فتساقطت اسماك التونا الفضية والبالايا من ثنياتها. كان صيداً جيداً، ولكن دون المستوى الذي يريدون. قال فاس الذي يريد صيداً أوفر يكفيه ليدفع تكاليف الاصلاحات في بيته: "سنواصل الصيد."

(٢) الميل البحري الدولي يساوي ١٨٥٢ متراً.

ومع ان أياً منهم لم يعتد البقاء في البحر اكثر من ثلاثة ايام، لم يعترض فونسيكا على طلب المالك وامتثل الاخرون، على عادتهم، لرأيه. وطمأن سويسا نفسه: وثقنا دائماً بانطوني فونسيكا، وانا اثق به الآن.

تابع السانتا جود صيده وبحثه عن النسر مدى ثلاث ساعات قال بعدها فونسيكا: "أنني متأسف، ولكن لا نستطيع مواصلة البحث. علينا ان نعود في اتجاه الشاطىء."

وظل ركاب السانتا جود يبحرون طوال فترة بعد الظهر في اتجاه ما اعتقدوا انه اليابسة. وتحول لغو الصيادين قلقاً صامتاً. لم يكن في الافق اي زورق أو طائر أو اي مظهر للحياة. تفحص فونسيكا خزان الوقود والرجال يراقبونه من غير ان ينبسوا بشفة. ولاحظ بتجهم أنه "لم يبق سوى ٢٥ ليتراً تقريبا." واوقف المحرك. أخذ افراد الطاقم يتبادلون النظرات القلقة بحدة وهم يؤدون عملهم المسائي المعتاد من طرح الشباك ووضع الطعوم في الصنانير وبسط الاسلاك الى ما هنالك. أما فاس وقد بدا انه لم يشعر بالخطر المحدق، فانتحى جانباً وانهمك في تناول عشائه بنهم.

بدأت الامواج العاتية تلطم السانتا جود، فسارع الرجال الى سحب الشباك. وانجرف المركب على نحو متسارع مبتعداً أكثر فأكثر عن اليابسة. قال روي فرناندو: "البحر هائج. سأشغل المحرك من جديد لمقاومة التيار، وإلا جرفنا الى حيث لن نتمكن من العودة ابداً." ووافقه فاس الرأي وقد أصبح أقل ابتهاجاً. وراح الزورق الصغير يواجه ما تحول أخيراً أقوى تيار عرفه الرجال الخمسة. وطفقوا يجلسون ويقفون على متنه والقلق ينتابهم وفونسيكا يوجه الدفة. وواصلت الريح عصفها والتيار اندفاعه، والزورق يصارع. وفي ساعة متقدمة من الليل خيم الهدوء فجأة – لقد توقف المحرك. صرخ فونسيكا: "إنها النهاية. نفد الوقود."

فجر يوم السبت هرع الرجال اليائسون الى المستودع في مؤخر الزورق، حيث المصباح الليلي. التقطوا خرقاً وغمسوها في وقود المصباح ثم عصروها داخل زجاجة. وسكب فونسيكا السائل الثمين في خزان المحرك وهو مدرك ان هذه محاولة عبثية. بالطبع شغلت هذه الكمية الضئيلة المحرك مجدداً ولكن لدقائق معدودة. قال فونسيكا لرفاقه: "لقد توقف المحرك. نفد الوقود. كان الله في عوننا."

وقف فاس على متن الزورق، رافعاً ذراعيه، متضرعاً الى العلي بصوت عال. وحاول فونسيكا طمأنته: "لا تخف. لا بد أن نصادف زورقاً آخر أو سفينة." أما سائر افراد الطاقم الخائفين فصبوا جام غضبهم على صاحب الزورق بسيل من الاتهامات. قال أحدهم: "إنها غلطتك. كان عليك ان تجهز الزورق بكمية كافية من الوقود." ولاحظ آخر: "أنت دائماً تبخل بالوقود. انظر الى حالتنا الآن – ليس لدينا حتى شراع! هذه نتيجة

تقتيرك." وبالكاد سمعهم فاس، اذ كان غارقاً في نواح صاخب.

فجأة، كف الجميع عن ارهاصاتهم، وقد اعتراهم الخجل. وبدأوا يتضرعون الى الله.

اخيراً بادر الربان قائلاً: "حسناً، دعنا نأخذ هذه الاغطية البلاستيكية ونصنع شراعاً. سنحاول ابقاء الزورق في اتجاه اليابسة." وخاطوا شراعاً غير متقن ورفعوه على الصاري، حيث شرع يخفق محدثاً ضجيجاً. وبدا ان لا جدوى منه اذ أخذ ينتسل ويتمزق مع كل هبة ريح. ومع هذا رأى فونسيكا: "اننا نحاول ان نفعل شيئاً على الأقل."

اليوم السابع. يوم الثلثاء، قلّت كمية الطعام ونفدت الخضر الطازجة وذاب الثلج في عنبر السمك فألقي ما كان فيه من سمك مهترىء في البحر. وبقي لديهم من الرز والعدس والبسكويت ما يكفيهم اياماً أخرى. وحض فونسيكا كل فرد على احتساء نصف كوب فقط من الماء، علماً أنه كان بدأ خفض حصص الطعام منذ السبت.

فجأة ظهرت في الافق سفينة. وصرخ فاس وهو مفعم بالحماسة: "لقد نجونا."

لاحظ فونسيكا ان "الشمس وراءها تماماً، وهذا يعني انها آتية من اليابسة. وقد لا تكون اليابسة بعيدة كثيراً." وتبين للآخرين "انها سفينة شحن. وستكون مزودة كمية كبيرة من الوقود."

بدأ الرجال يلوحون بعصبية مستخدمين ملابس عقد بعضها ببعض. واذ صارت السفينة الصغيرة على مقربة منهم توقفت. فرفع السري لانكيون اوعية الوقود البلاستيكية الفارغة للدلالة على ان الوقود نفد منهم. وادار فونسيكا المحرك بما كان تبقى فيه من الوقود الذي سحب من المصباح واتجه بالزورق الى ان صار بجانب السفينة. والقي اليهم حبل لربط زورقهم.

لم يكن احد على السفينة، المجهولة هوية واسماً، يتكلم السري لانكية. فحاول فاس ان يشرح لهم الامر بالانكليزية، قال: "لا وقود لدينا. أين نحن؟ وكيف نصل الى كولومبو؟" وبعدما علم مَنْ في السفينة أن السانتا جود يقطع أربعة أميال في الساعة، أجاب أحدهم عبر مكبر للصوت: "انتم على مسافة ٢٤ ساعة من كولومبو." فابتهج الصيادون، اذ كانوا على مسافة يوم واحد من وطنهم.

ودلّيت اليهم بحبل آخر خريطة مرسومة باليد، تظهر ساحل سري لانكا، من كولومبو في الغرب الى غال في الجنوب ورأس دوندرا في اقصى الجنوب. كانت كولومبو تقع، من حيث هم، على خط مستقيم ذي ٣٤٠ درجة. رفع السانتا جود الى متن السفينة ستة اوعية بلاستيكية فارغة أعيد ثلاثة منها ملأى فقط، اثنان وقوداً والثالث ماء

للشرب، فضلا عن تسع رزم من عصائب الرز. وبرز الصوت عبر المكبر الامر بحزم: ان ركاب السفينة على عجلة. وابحرت هذه قبل ان تتاح للصيادين فرصة للاحتجاج.

تساءل فونسيكا بغضب وهو يشغّل المحرك: "٤٥ ليتراً؟ لأربعة وعشرين ساعة؟" وابحروا في الاتجاه الذي حدد لهم، بسرعة قصوى، مدة سبع او ثماني ساعات. اخيراً نفد الوقود وانجرفوا مع التيار مجدداً. وبينما هم في حال من الاحباط والخيبة، شاهدوا زورق صيد محملا بالسمك يمر بقربهم من غير ان يلتفت من فيه اليهم. وحلقت طائرتان فوقهم، مما أحيا فيهم الامل ثانية، لكن الخلاص لم يأت. قال فونسيكا: "لا تخافوا. سيجدنا أحد ما. لسنا مجرمين ولم نخطىء لنعاقب."

انقضت الايام التالية حارة حارقة، معرقة وقذرة، وأسوأ من ذلك كله، مضجرة على نحو فاق الوصف. أعد الرجال، من اكياس الثلج المصنوعة من القنب الاصطناعي، وقاء استظلوا به من الشمس. وكانوا لدى اشتداد الحر ينزلقون من الزورق الصغير في مياه البحر الدافئة. وقد اضطروا الى صيد السمك بالصنانير، لان وهنهم كان يمنعهم من طرح الشباك. وعندما تمطر، كانوا يجمعون مياه الشرب.

أخيراً، تمزق الشراع الذي صنعوه، فخاطوا ملابسهم بعضها الى بعض، شراعاً آخر. وانجرفوا مع الريح والتيار داخل الافق. ولبثوا يتحدثون عن ديارهم وعائلاتهم بلا انقطاع. أبقاهم فونسيكا على نظام التقنين الصارم — قليل من الرز مع سمكة طازجة وقطعة بسكويت — الى ان حل الاثنين، السابع من ديسمبر (كانون الاول)، يوم نفدت المؤن.

قال فونسيكا: "لم يبقَ لدينا سوى السمك الذي نصطاده، لكننا لا نزال نستطيع على الاقل طهوه." وكان يستعين لذلك بمياه البحر ويضيف بعض الكري المتبقي ومسحوق الفلفل الحار ليصبح سائغاً. ولما كادت مياه الشرب تنفد حرصوا على ان يشربوها باقتصاد في اكواب نصف ملأى. لكن فاس اتهم بشربها سراً من ابريق الشاي. وادعى الآخرون — وفاس ينكر بشدة — انه كان ينهض ليلاً ليشرب الماء وحده.

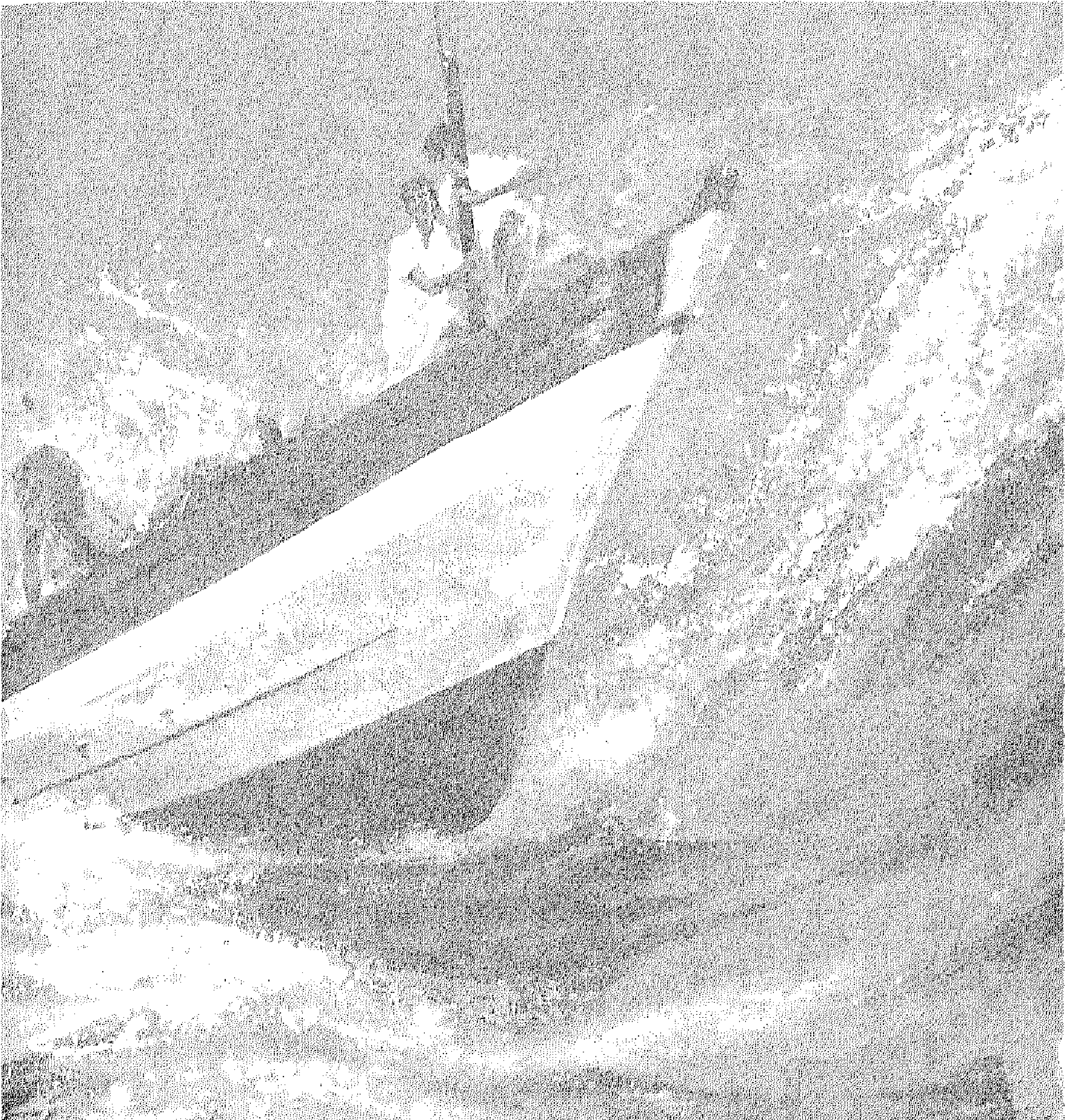
اليوم الرابع عشر. خفّت الانتقادات التي وجهت الى فاس لأنه مالك الزورق. ولكن في اليوم التالي عندما لم يبق على متن الزورق سوى ثمانية ليترات فقط، لم يتورع فاس عن عب الماء علناً. فنبهه فونسيكا بحدة: "استخدم كوباً صغيراً كما نفعل نحن! اذا تماديت على هذا النحو، سينفد الماء قريبا جداً."

صرخ فاس: "هذا ليس شأنك!"

فأجابه فونسيكا صارخاً بدوره: "بل انه شأننا جميعاً!" أمسك فاس فونسيكا بياقة قميصه، فلكمه فونسيكا على وجهه. اذذاك هب روي وانطوني فرناندو للفصل بينهما.

احتج فاس: "انه زورقي. ويحق لي ان افعل ما يحلو لي!" وحمل برميل ماء الشرب بغضب ورماه في البحر ثم أتبعه بكيس يحوي ما لديهم من فتات السمك المجفف. وقد أمكن انتشال برميل الماء لكن مياه البحر تسربت الى داخله. وعادوا الى رشدهم فجأة وجلسوا واجمين.

قال انيل سويسا والشابان فرناندو: "ليس هذا وقتاً للعراك. صحيح انك المالك، يا فاس، لكن الوقت يوجب عليك ان تتبع أوامر الربان. علينا ان نكابد لنجد اليابسة ونصل

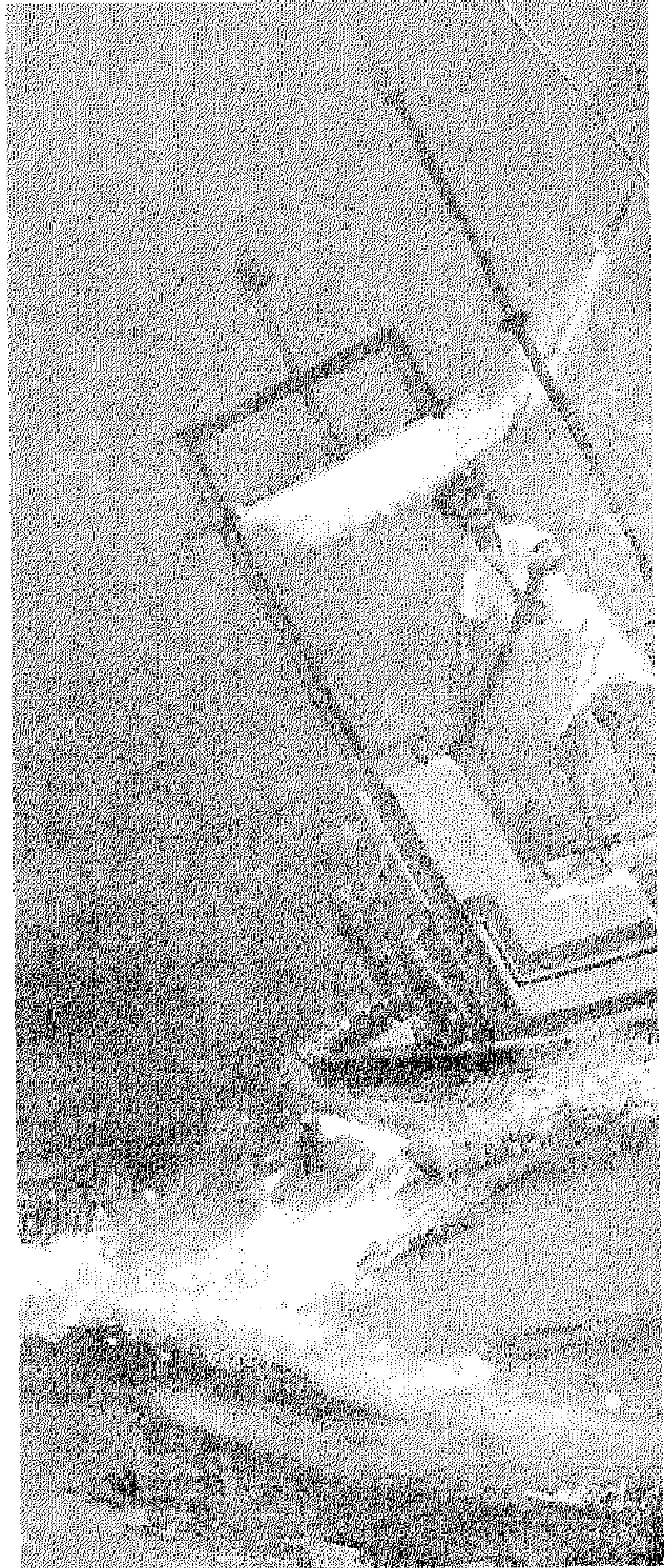


الى ديارنا وعائلاتنا.» واتفق الجميع على التزام التقنين، ثم صلوا معاً كي تمطر.

انهمر المطر طوال اليوم التالي فجمعوا كفافهم لايام عدة.

المطر والعراك نقيا الاجواء على متن الزورق. وادرك الجميع ان خلاصهم يعتمد جزئياً على رفع بعضهم معنويات البعض. قال انطوني فرناندو: "لا يمكننا ان نستسلم للخوف. اذا ما اصيب احدنا بالاحباط، فذلك يؤثر علينا جميعاً، ونستسلم."

مذذاك، كان كلما بكى أحدهم نادباً حظه لانه لن يرى عائلته ثانية، ينبري له الجميع مؤاسين: "بالطبع سترى زوجتك واولادك. سننجو وسيجدنا احدهم."



لكن الايام كرت ونفدت مياه الشرب، وظل الرجال ثلاثة أو أربعة ايام محرومين نقطة ماء. وهم كانوا أقروا رأي فونسيكا: "اذا شربنا مياه البحر، ادمنّاها فنصاب بالاسهال الحاد... ثم نموت."

أجل، ولكن ما العمل والشمس التي لا ترحم جففت حلوقهم والحناجر حتى باتت اصواتهم مجرد همس أجش؟ كان انيل سويسا أول من خرق الاتفاق، فتناول بهدوء زجاجة، فصاح به الآخرون: "حذار، يا أنيل! أنت تعرف ماذا سيحدث! أصمد قليلا بعد!"

لم يجب سويسا، ثم غطّس يده والزجاجة من فوق حافة الزورق، ورفع الزجاجة الملأى الى فمه وأفرغها في جوفه في لحظة ارتياح يائس. وكرت السبحة. قال انطوني فرناندو: "أعطني الزجاجة، يا أنيل." ثم ملأها وعب محتواها بشره. احس بالغثيان، ولكن بالاكتفاء الآني ايضاً. ثم اخذت اعراض الاسهال تظهر عليه بعد وقت قصير. في هذه الاثناء بدأ روي فرناندو وفاس شرب المياه المالحة، كذلك فعل فونسيكا الذي

قال في نفسه: "إنها فكرة سيئة جداً. يجب ان امتنع عنها، لكنني عاجز."

أعد فونسيكا حساء السمك، لكنهم تناولوا منه القليل. ودفعهم الظمأ الملحاح الى زجاجتهم اربع مرات او خمساً ذلك اليوم. وعندما اشتدت حرارة الشمس في الايام الاربعة التالية، اخذوا يعبون من المياه المالحة بغير حساب. وصاروا أوهن من ان يعدوا يخنة السمك او يتناولوا وجبتهم هذه فكانوا يكتفون بقضم السمك المجفف الذي يعده فونسيكا.

اليوم الرابع والعشرون. في الثامن عشر من ديسمبر (كانون الاول)، تمدد الرجال الخمسة واهنين على متن الزورق الضيق، ووجوههم المتورمة صوب الشمس المتوهجة. واستغرقوا في نوم محموم حفل باحلام محمومة. ألفى روي فرناندو نفسه في فندق ايمبالا في بروويلا. وبعدما اشبع نهمه من طبق من عصائب الرز بالكري، أثنى على صاحب الفندق: "طعامكم هذا شهي."

ولم يعد انطوني فرناندو شبحاً مرتعشاً على متن الزورق، يصعب تمييزه برأس ولحية يغطيهما شعر قذر متلبد. كلا، يا سيدي! إنه يرتدي الآن افخر الثياب ويقدم بكل اعتزاز الرز والكري الى عائلته واصدقائه في وليمة الذكرى الاولى لميلاد ابنه.

أما الآخرون فهم في منازلهم، أو مع اصدقائهم في فندق "النجم الجديد" في الشارع الرئيسي لمدينة بروويلا، حيث الجرار الزجاجية في النوافذ مليئة بالحلوى والسكاكر. انهم في مقهى "سريباثي" يبتاعون الكعك المحلى الطري يأكلونه مع الموز الطازج وجرعات كبيرة لذيذة من الشاي. جيرار فاس نقلته مخيلته الى مقهى حيث قدم المشروبات الباردة الى اصدقائه.

واذ أفاقوا وقد قاربوا الجنون من جراء احلامهم الجميلة، أدرك كل واحد منهم انه لا بد مشرف على الموت. لكن التصميم على عدم الاستسلام للخوف، لم يفارقهم، فعادوا يضرعون من أجل أن تمطر.

وانهمر المطر صباح اليوم التالي على الاجساد الخمسة المنطرحة على متن الزورق. انتعشوا قليلاً، فدبوا والالم يعتصرهم وسدوا مصارف المياه، ثم غرفوا ما تجمع على أرض الزورق، وخزنوا منها في عنبر السمك الذي بات خالياً نظيفاً، كمية كفتهم أربعة أو خمسة ايام توقف في اثنائها الاسهال. وأمطرت ثانية وأخذوا يستعيدون عافيتهم ببطء.

مساء ٢٣ ديسمبر (كانون الاول)، اي قبل عيد الميلاد بيومين، امتحنت الرياح العاتية الصيادين النحيلين. فراح المطر يجلدهم والريح تولول والامواج تعلو الزورق الصغير اضعاف ارتفاعه، فتجتاح السانتا جود لتعود فتفيض منه بينما الرجال

الخمسة جاثمون متلاصقين تحت حجرة المحرك أو ممددون في الامكنة الضيقة وباتوا في مهب الريح، يرتطمون بالمحرك تارة وبجانبي الزورق طوراً أو بعضهم ببعض، فأصيبوا برضوض وكدمات سببت لهم آلاما مبرحة. وما ان كانت الريح تهدأ لحظة حتى يغامر فونسيكا أو انطوني فرناندو بالخروج لسحب الصنانير التي يكون علق بها سمك فيأكلونه نيئاً، ذلك لان احداً منهم لم يقو على اكثر من القضم. وسكنت اخيراً اسوأ عاصفة واجهوها في حياتهم. فخرجوا من أماكنهم متألمين واهنين وجائعين، ولكن احياء من جديد.

اليوم الحادي والثلاثون. صبيحة عيد الميلاد لم يكن لديهم ما يسد جوعهم. بكوا جميعاً وهم يفكرون في عائلاتهم وبما كانوا سيفعلونه لو كانوا في منازلهم. وتذكر فونسيكا: "كانت زوجتي فيلومنا تعتزم خياطة ملابس جديدة لاطفالنا الثلاثة، وشراء ثوب جديد لها وسروال جديد لي."

وصلى فاس بصوت مرتفع: "لو كنت في بيتي مع أسرتي، لكنت قدمت اوراق التنبول الى والدتي ووالدي وبجلتهما، ولاشتريت الدجاج من السوق، وتناولنا وجبة عائلية في جو من الحبور."

الحادية عشرة والنصف ظهراً، وكان عضهم الجوع، لمح أنيل سويسا وانطوني فرناندو سلحفاة. فبدأا ينقران بلطف على حافة الزورق لاجتذابها، ودنت تسبح بمحاذاتهما. قال انطوني لأنيل: "التقطها بهذه الصنارة الكبيرة." اجابه هذا بعد لحظة: "حسنا. التقطتها. انها ثقيلة. طولها نحو ستين سنتيمترا. ساعدني من الطرف الآخر." وتمكنا من سحب السلحفاة الى متن المركب. وكانت قارورة الغاز قد فرغت بعد تسعة ايام من مغادرتهم برووبيلا، فصنعوا موقداً ذا محرق واحد من وعاء من الالمنيوم قلبوه رأساً على عقب وأحدثوا فيه ثقباً تمر عبره النار التي كانوا يغذونها بقطع من خشب الصناديق المكسرة. وضع فونسيكا وعاء آخر مملوءاً ماء على الموقد وراح يسلق قطع لحم السلحفاة.

يوم رأس السنة. لم يشعر احد بالبهجة، فهذا يوم للولائم والعائلة والاصدقاء. لكن انطوني فرناندو بدا مستاء بنوع خاص. انتحى بعيداً عن رفاقه وبكى. غير انه ما لبث ان شرح لهم الامر: "انها ذكرى مولدي، وليس لدينا طعام ولم يأت أحد الى نجدتنا."

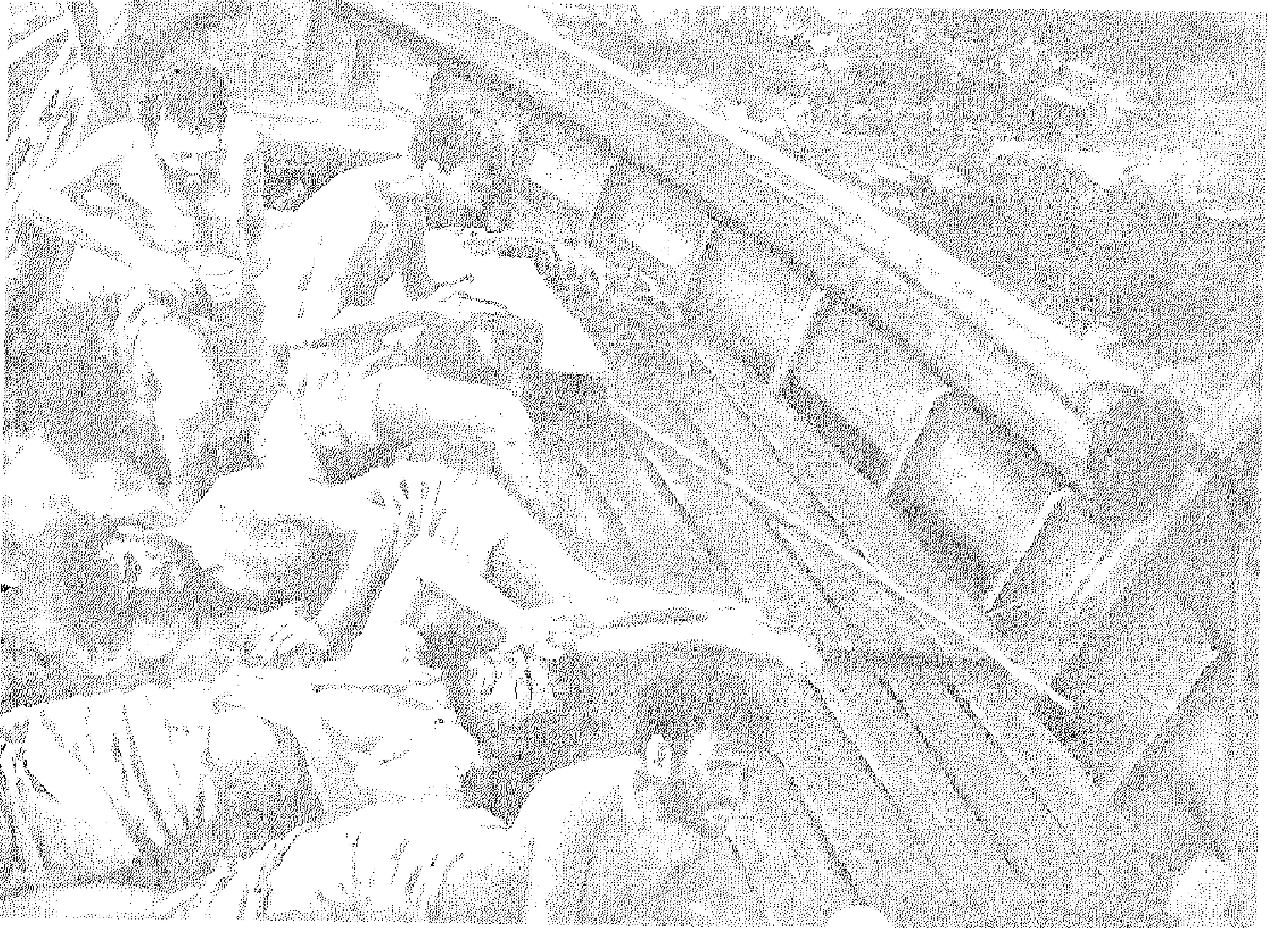
فجأة، رأى الرجال البائسون سمكة وانا، وهي من النوع الذي يبلغ طوله ٦٠ سنتيمتراً، خضراء اللون تشوبها بقع صفر، فالتقطوها. وتحولت هذه السمكة بعد سلقها مأدبة عشاء في ذكرى مولد انطوني فرناندو. وتبادلوا في أحاديث مقتضبة ما

اعتادوا ان يفعلوه وعائلاتهم في يوم رأس السنة. ثم أدوا الصلاة سائلين الله ان ينقذهم لاعياد مقبلة.

بعيداً في وطنهم، أضاءت فيلومنا فونسيكا وبريانتي سويسا والزوجات الاخريات المصابيح في منازلهن وصلين. هزت المصيبة والد انطوني فرناندو، وهو في الخامسة والستين، فأمسى طريح الفراش وفارق الحياة حزناً في فبراير (شباط). أما والد فاس فرفض حلق ذقنه قبل ان يعود ابنه.

وأقام رجال الدين صلوات خاصة من اجل الرجال المفقودين. وتركت الزوجات خمس شجيرات جوز هند وخمسة مصغرات قوارب وخمس صور صغيرة تمثل الصيادين المفقودين في كنيسة كوداغاما واضأن ٣٥ شمعة في كنيسة راغاما. وفي المعبد البوذي في كالوتارا نذرن تقديم ما يعادل زنة الرجال الخمسة زيت جوز الهند، وهذا مكلف جداً بالنسبة الى صيادي السمك. وفي مسجد اسلامي نذرن ما يعادل وزن الرجال ملحاً.

وأخذت بريانتي النسوة الاخريات الى كانده بانسالا حيث ظل الرهبان ينشدون طوال سبع ليال متواصلة، ترتيلة شعرية خاصة تدعى "سث كافي" كرروا فيها اسماء



الرجال المفقودين وانهم لم يعودوا من البحر بعد. وبطلب من الرهبان، أحضرت بريانثي الى المعبد سبع زهرات مختلفة وخمسة اصناف من الحلوى وجوزة هند كبيرة وزجاجة من زيت جوز الهند وعدداً من عيدان البخور وارزاً وتنبولا. وكانت تضيء كل يوم مصابيح زيت فيما الكاهن يرتل.

صبيحة الخامس عشر من فبراير (شباط) عام ١٩٨٨،
خرج الرجال من الفسحة الضيقة تحت متن الزورق. ووقف روي فرناندو وفونسيكا وسط الزرقة اللامحدودة، البحر تحتهما والسماء فوقهما يفرك واحدهما ظهر الآخر مستخدمين مياه البحر وقطعاً خشنة من الشباك لازالة الملح والسخام المجبول بالعرق. وفعل انطوني فرناندو وأنيل سويسا الامر نفسه قبل ان يصطادا خمس سمكات صغيرات ويقطعانها لتكون قوامهم ليوم آخر.

في التاسعة صباحاً، تطلع روي فرناندو نحو الافق، وهتف فجأة: "انظروا! طائرتان!" وهما كانتا الاشارة الاولى الى وجود بشري يرونه منذ شهرين. "إنهما قادمتان من كاتونایاك (مطار سري لانكا الدولي وقاعدة جوية). إذاً جرفنا التيار الى قبالة كولومبو."

بعد ساعتين لمح روي مركباً في الماء. تجمع الرجال حول روي باجسادهم الهزيلة وشعورهم الطويلة وجلودهم المتقرحة وظهورهم المقوسة وانعموا النظر الى المكان الذي اشار اليه. ولاحظ أحدهم متهللا: "أعتقد انه مركب صيد من النوع الذي يصنعونه في نغومبو في حوض كوماري." بكى الرجال فرحاً بصوت خافت.

قال فونسيكا آمراً: "لنصعد الى سطح الحجرة حتى يتمكنوا من رؤيتنا." كان روي اول من ارتقى السطح. ناوله فونسيكا السراويل المعقودة بعضها ببعض وقطعة من القماش الاحمر. وصعد كل منهم بدوره الى سطح الحجرة مستعيناً بكاحلين وركبتين تورمت وعصيت على الحركة، وانتصب يلوح ويلوح ويلوح. وتناوبوا مدى ساعة ونصف ساعة يومئون للحرية بأيد تورمت مفاصلها.

قال روي اخيراً بصوت اجش: "لقد رأونا. انهم آتون!" كان ذلك مركب صيد يتقدم نحو السانتا جود. دنا الى ان بات على مدى السمع منهم. لكن صيحات الصيادين على المركب الغريب لم تكن باللغة السري لانكية!

وتبين لهم، وقد صار المركب في محاذاتهم، انه ليس من نغومبو. وأبلغ الغرباء الى السري لانكيين بالاشارة، ان عليهم الانتظار، فعجبوا للأمر. وبعد اكثر من ساعة، وصل مركب صيد آخر. قال فونسيكا لفاس: "يشيرون اليك والي كي نصعد الى المركب الاول. هيا بنا."

مد صيادو المركب الاول ايديهم لفاس وفونسيكا ورفعوهما الى المتن، في حين رفع الرجال الثلاثة الاخرون الى المركب الثاني. ولم يتمكن الخمسة من فهم لغة الرجال الغرباء. ثم قدم اليهم أحد الصيادين علبة سجائره فقرأ فاس عليها عبارة "صنعت في اندونيسيا،" الامر الذي صعق له فاس فسقطت السجائر وعلبة الكبريت من يديه. وادرك الرجال على الفور ان مركبهم الصغير لم يكن على مقربة من سري لانكا، بل قبالة بادانغ في سومطرة، باندونيسيا. لقد جرف التيار السانتا جود مسافة ١٨٦٠ ميلا خلال ٨٣ يوماً!

قدمت القهوة القوية والحلوة الى الرجال، فاذا بها شهية لذيذة، لكن فنجانا واحداً لكل منهم ملأ معدهم المنقبضة فلم يستطيعوا احتساء المزيد. وفهموا من منقذيهم أنهم لا يستطيعون قطر السانتا جود الى الشاطىء. فبكى فاس وقبّل مقدم الزورق. وبكل مظاهر الاسى، دفعه لينجرف مع التيار من جديد، وقبع حزيناً يراقبه مدى ساعة ونصف ساعة حتى غاب عن ناظريه. وقال مخاطباً اياه: "اشتريتك بمال جنيته في بلد اجنبي، وها أنا أتخلى عنك لبلد اجنبي."

ظل مركبا الصيد ثمانية ايام اخرى يصطادان في البحر، الى ان ملأا عنابرهما ثم ابحرا الى مرفأ بادانغ. ولدى وصولهم الى الشاطىء بعد ٩١ يوماً، ركع الرجال السري لانكيون وقبلوا الارض.

احتجزت سلطات المرفأ الرجال في سجن محلي سبعة ايام. ثم انتقلوا في حافلة الى العاصمة الاندونيسية جاكارتا، ليعودوا في طائرة الى بلادهم.

في الاول من مارس (آذار) في بندارواته، كانت عائلة انطوني فرناندو وعدد من اصدقائه مجتمعين حول الغداء التقليدي في ذكرى مرور اسبوع على وفاة والده، فاذا بلوكاس فاس، والد جيرار، يطل من الباب المفتوح مبتسماً، حاملا شيئاً ما في يده. وبادر زوجة انطوني، اسونتا: "تسلمنا هذه الرسالة. انها من جيرار. جميعهم سالمون وفي صحة جيدة، في اندونيسيا!"

وفي الرابع من مارس (آذار) هبط الرجال الخمسة في مطار كاتونايان حيث استقبلهم ثلاثمئة صديق قروي مبتهجين. وتقدمت عائلات الرجال الجمع المحتشد. وعندما ترجل الخمسة بحياء ارتفعت الهتافات.

عاود افراد الطاقم عملهم في البحر مع اصحاب زوارق آخرين. أما فاس فيحاول حالياً شراء زورق جديد. لقد انقذهم ثباتهم وصلابتهم وايمانهم. لكن فيلومنا فونسيكا تقول، واثقة، بوجود سبب أبسط: "الله هو الذي انقذهم!"

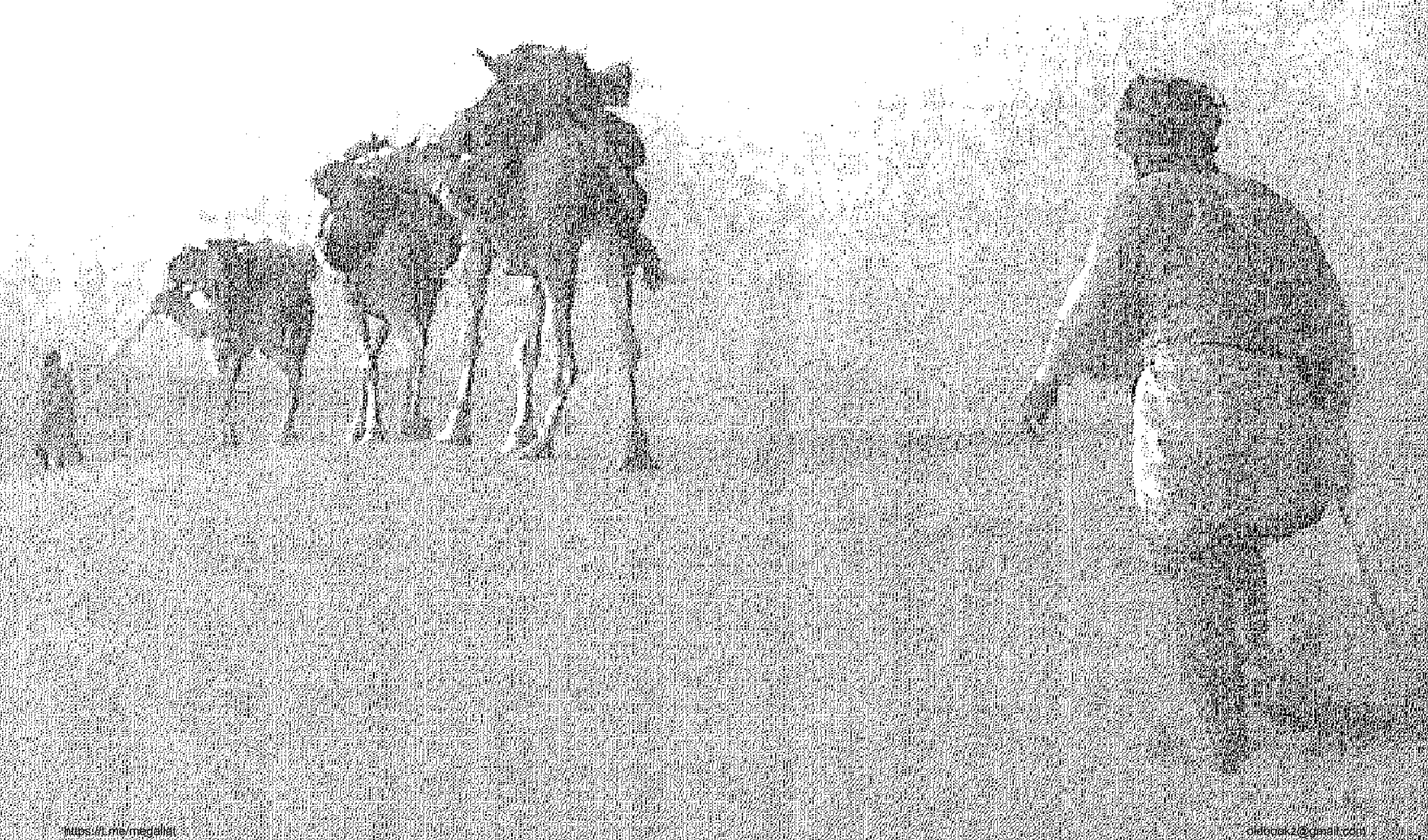
كورتني تاور ■

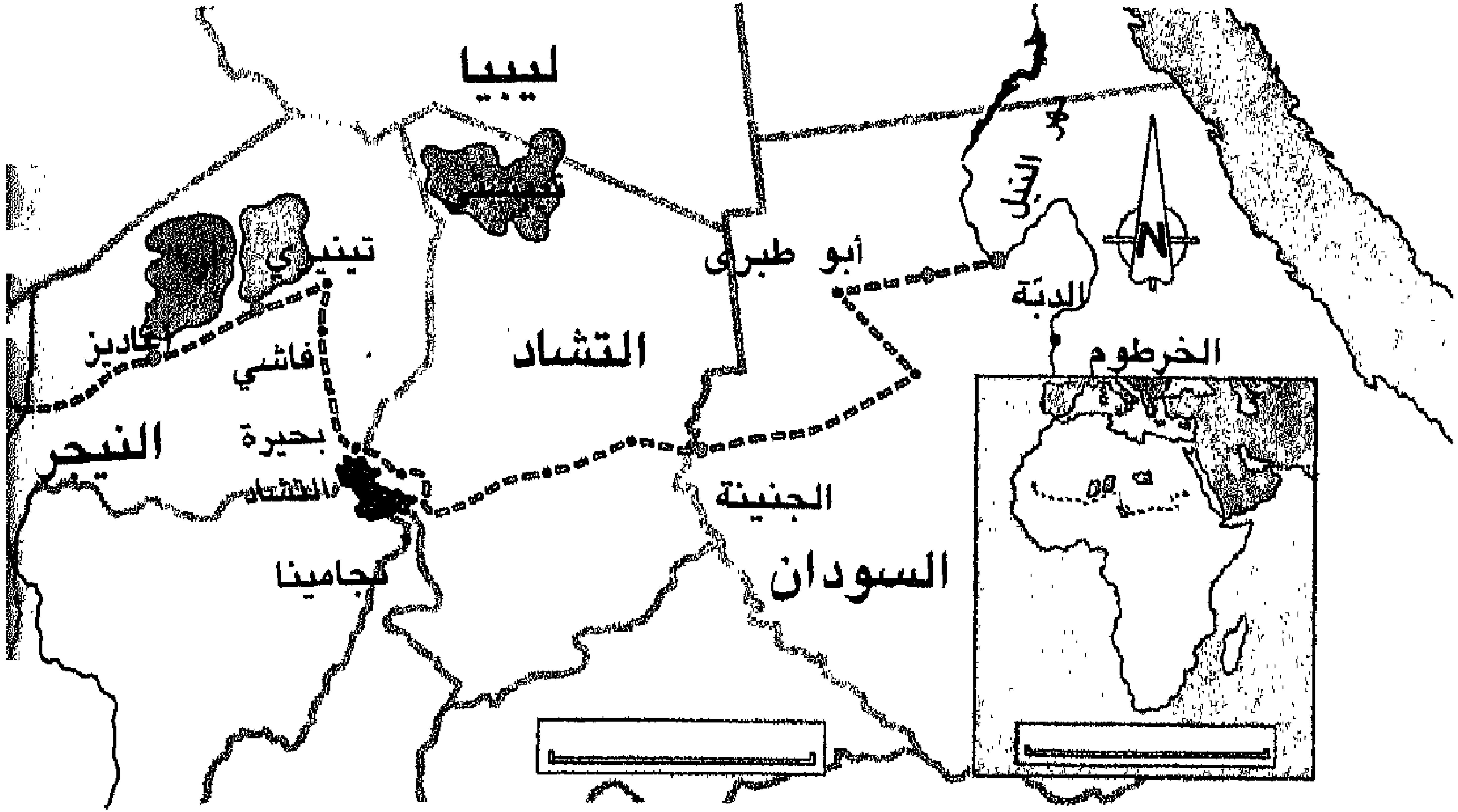
ترجمة سام نجار

كتاب الشهر

قاهرو الصحراء الكبرى

ملخص من كتاب "الرحلة المستحيلة:
اثنان يقتحمان الصحراء" بقلم مايكل آشر





قاهرو الصحراء الكبرى

كتب أحد رواد الصحراء الكبرى: "ان هذه الارض القاسية تأسرك بسحرها." وهذا السحر أسر مايكل آشر كما أسر آخرين قبله. فمنذ وقع نظره على تلك الصحراء الواسعة الموحشة استبدت به رغبة ملحة في كشف ما وراء أفقها البعيد.

حلم آشر بقطع الصحراء الكبرى من أقصاها الى أقصاها على متون الجمال. وتلك مغامرة لم يقدم عليها غربي قبله. كان التحدي كبيراً بحجم المغامرة التي تستنزف أقصى طاقات الشجاعة والاحتمال والتي اعتزم الشاب البريطاني خوضها مع عروسه الايطالية. وهما اختبرا في رحلتهما معنى المثل العربي: "يفعل اثنان ما يعجز عنه واحد."



اجتياز الصحراء الكبرى
على متون الجمال
من واحة تشينغيتي
الى نهر النيل.

وقفنا أمام باب منزلنا في واحة تشينغيتي على الطرف الغربي للصحراء الكبرى. وامتد أمامنا خضمّ من كثبان الرمل المنحدرة الى الوادي حيث تنتصب أشجار النخيل وينبسط الرمل أبيض ناعما كالثلج.

أنهضنا الجمال فأخذت ترغو وتهدر. فالتقط دليلنا محفوظ رسن جمل الطليعة وصاح: "بسم الله الرحمن الرحيم. هيا بنا، الطريق طويلة!"

وفيما انطلقت القافلة سمعنا هتافات داعية: "مع السلامة." ورافقنا سيد احمد، شيخ تشينغيتي ومالك المنزل، الى طرف الوادي حيث صافحنا مودعاً: "الله معكما. ابعثا الي برسالة لدى وصولكما الى نهر النيل." فودعناه وسرنا على بركة الله، وتركناه منتصباً على حدود ملكه، محارباً عجوزاً صلب العود فخوراً.

وما هي الا لحظات حتى اكتنفتنا كثبان الرمل وغابت بلدة تشينغيتي الصحراوية القديمة عن عيوننا الى الأبد. قالت لي زوجتي ماريا نتونيتا: "أشعر كأني في بطن حوت."

سرنا الصباح كله بين كثبان محدودبة شكّلتها الرياح وصخور طمرتها الرمال ولم يظهر منها الا أطرافها المسنّنة الحادة. واجتزنا جسوراً من الرمل حيث تعثرت جمالنا الثلاثة وانحرفت داخل ممرات ضيقة ارتفعت فيها جدران الرمال مقزِّمة قافلتنا الصغيرة المتغطرسة الطامعة بقهر الصحراء الكبرى.

توقفتُ والتقطت رأس سهم شائك. وتساءلت كم من السنين مضى وذلك الرأس مدفون هناك. ألعلّه لأحد الصيادين الذين جابوا الصحراء يوم كانت غابة خضراء؟ لقد

زالت الغابة وزال الصيادون، لكن السكان تشبثوا بالارض وعدّلوا نمط حياتهم فصمدوا وبقوا أحياء. فان تكيّفنا نحن وشظف العيش في الصحراء فسيتاح لنا البقاء أحياء مثلهم.

كان الهجير لاهبا، فجف فمي وكنت أرطبه كل نصف ساعة برشفة ماء. كذلك فعلت ماريا نتونيتا. قالت لي: "يا لهذا الماء! طعمه كالعسل! لم أذق مثله في حياتي."

مرّت ساعات ونحن نطوي مواكب من الكثبان الرملية. وقبيل غياب الشمس بلغنا سهلا مرتفعاً من الحجر الأسود، فتابعنا سيرنا بصمت الى أن غابت الشمس وتلاشى وهجها وراء الافق وأطبق ظلام دامس على السهل.

زوجة ورفيقة

أقمنا مخيّمنا تلك الليلة. وجمع محفوظ بعض الحطب وأشعل النار وحضّر الشاي فيما كنا منهمكين بترتيب عدتنا. وقال معتذراً: "يجب أن أشرب الشاي أولا، والا ثار غضبي."

بعد تناول الطعام والشاي اللذيذ شعرنا جميعاً بحال أفضل. فجلسنا على الرمل الدافىء نراقب النار تخبو رويداً. كانت السماء مرصعة بالنجوم، وسمعنا حفيف خفاف الجمال القريبة التي حجبها الظلام وهي تتنقل متلمسة طعامها من الاعشاب النامية.

تنسّم محفوظ الهواء فتوقع مطراً. قال: "غداً سيهطل بعض المطر الذي يتبع اشتداد الحرارة في هذا الوقت من السنة. وسيترك بركا في الارض. وحين يتوافر الماء لا يخشى الحرّ. الماء نعمة من الله."

ثم تناول حرامه وابتعد عنا لينام على الرمل. وبسطت أنا وماريا نتونيتا حرامينا ونمنا متلاصقين. قلت معلقا: "حسناً، هذا هو اليوم الاول من رحلتنا، فهل تعتقدين أننا سنصل الى النيل؟"

أجابت: "نعم." وبعد دقائق استسلمت للنوم.

لكني بقيت مستيقظا. وفي أفق خيالي جُبت ٧٠٠٠ كيلومتر عبر الرمال الافريقية وصولا الى السودان حيث نهر النيل هدفنا المنشود. فاستذكرت المياه العميقة المتدافعة، ونور الشمس يداعب رقرقة الموج، والمياه المزبدة البيضاء المقرقرة من الشلالات، ومشهد الصحراء للمرة الاولى عن ضفاف النيل، وكيف خفق قلبي إثارة وتشوقاً لاستكشاف تلك الارض الغامضة المترامية وراء الأفق.

وتذكرت لقائي ماريا نتونيتا للمرة الاولى.

في مدينة الخرطوم عاصمة السودان وقع نظري للمرة الاولى على المرأة التي أصبحت زوجتي. كان ذلك في مارس (آذار) ١٩٨٥ وقد مرّت ست سنوات على اقامتي

في البلاد حيث علّمت الانكليزية، لغتي الام، وارتحلت مع بدو الكبابيش. وأثناء مروري بالخرطوم ذات يوم تلقيت رسالة من أحد ممثلي منظمة الامم المتحدة للطفولة (يونيسف) يطلب نصيحتي في شأن استخدام الجمال في مشروع إغاثة. وطلب مني التكلم مع ماريا نتونيتا بيرو. وهكذا التقيت تلك الايطالية الناعمة التي سافرت الى كثير من أقطار الارض وأتقنت لغات عدة.

قالت بعدما نظرت الى سروالي الجينز ومظهري المشوَّش: "اذاً أنت هو الكاتب الخبير بالجمال! هل كانت رحلتك في السيارة طويلة الى هنا؟"

أجبتها: "لم آت في السيارة، فليست لدي واحدة. جئت ماشيا."

قالت: "أوه، أرى ذلك." ورمقت سروالي الجينز ثانية، فخيل الي أن أنفها شُكل خصوصاً لاظهار الازدراء.

ثم أخذت تطلعني على عملها مع اليونيسف وهي مقطبة الحاجبين. أحسست رغبة ملحة في الخروج من مكتبها. وبعد انتهائها من الشرح استدرتُ ماشيا الى الباب، فانقطع رباط لاصق في حذائي، فتعثرت واحمر وجهي ارتباكاً.

واذا بي أسمع قهقهة صبيانية عذبة صافية غيرت الجو وغيرت حياتي. قالت لي ماريا نتونيتا: "لا عليك، أنا سأصلحه." وأتت بدبوس صغير أزرق كتبت عليه عبارة "يونيسف هي للاولاد." وأنقذ الدبوس الموقف، وأسرتني تلك الضحكة المنعشة. ولا شك في أني وقعت في حب ماريا نتونيتا بيرو تلك اللحظة.

لم أطلعها الا لاحقاً على خطتي لاقتحام الصحراء الكبرى على ظهور الجمال عبر ستة من أشدّ بلدان العالم جفافاً وقحلا، وكانت الحرب مستعرة في إحداها. وهي لم توافق على الزواج بي فحسب، بل صممت أيضاً على مرافقتي في مغامرتي.

ترددت طويلا وقلت لها: "ستكون الرحلة محفوفة بالمخاطر في قلب الصحراء الواسعة، برمالها المحرقة وشمسها اللاهبة وعواصفها الرملية وبردها القارس ليلا، وبالطعام الرتيب والماء الآسن والسير المتعثر يوماً بعد يوم في متاهات من الهضاب والوهاد والنجود والسراب الخادع. إنها مغامرة لم يقدم عليها أحد قبلنا... ولاسيما من اهل الغرب."

احتجَّت ماريا نتونيتا: "انني أصلب وأشد مما أبدو لك. لا أريد أن أقضي حياتي كلها وأنا أعلّم البدو. أريد أن أتعلّم مما عندهم."

كان في اصطحابها فوائد جمة، منها أنها تتكلم الفرنسية والعربية، اضافة الى أنها مصورة ممتازة. وأهم من ذلك أني أحبها. فأقنعت نفسي بأن اصطحابها فكرة صائبة.

كنت حددت واحة تشينغيتي في موريتانيا نقطة لانطلاقنا نتوجه منها جنوبيا – شرقا الى مالي حيث نتوقف في تمبكتو، بلدة القوافل الأسطورية القديمة، ومن ثمّ ننعطف

شرقاً الى النيجر مخترقين جبال آر وبحر الرمال في تينيري. ثم يتعين علينا استكشاف طريق لعبور التشاد حيث تحتم علينا الحرب الناشبة في الشمال الانحراف مسافة طويلة عن الطريق الرئيسية. بعد ذلك نصل الى السودان حيث نكون في سلامة وأمان نسبيين، ونتابع من هناك مسيرتنا الى نهر النيل.

خطّطنا لاستئجار أدلاّء والاستعانة بالخرائط والبوصلات. لكن اعتماد التكنولوجيا المتطورة لم يحطّ من الروح الوثابة التي دفعتنا الى التحدي والمغامرة.

اعتزمنا الانطلاق في شهر أغسطس (آب) القائظ لكي لا نَعْلق خلال فصل الحر التالي في الجزء الشرقي الأقحل من الصحراء الكبرى حيث يكون الجفاف والحرارة على أشدهما ونكون نحن في أدنى دركات الضعف. وحتى إن هطل المطر فلن يكون لنا منه الا فرج موقت. واذا قدّرنا أن متوسط المسافة التي نجتازها يوميا على ظهور الجمال هي ٤٠ كيلومتراً، مع ما يرافق ذلك من تأخر وتوقف للاستسقاء، فستستغرق الرحلة قرابة تسعة أشهر.

في قلب الصحراء

في ٢٠ إبريل (نيسان) ١٩٨٦، بعد نحو سنة على لقائنا الاول، نزلت وماريا نتونيتا في موريتانيا الحارة حيث اعتزمنا قضاء ثلاثة أشهر نتدرب خلالها على العيش في مناخ الصحراء. ولكن ما لبث أحدهم أن أخبرنا أن اجتياز الصحراء على متون الجمال بات مستحيلا بسبب نضب عدد كبير من الآبار.

ارتاع الشيخ سيد أحمد حين بلغه عزمنا على السفر في فصل الصيف، وهتف: "السفر في الصحراء الكبرى محرم في هذا الفصل من السنة. فما من مغربيّ يعرف الصحراء يقدم على هذا العمل."

وحين خاب فأله في اقناعنا بالعدول عن رحلتنا الجنونية ضحك وقال: "ستكون هذه المغامرة امتحاناً عسيراً لكما." ثم علّمنا كيف نشدّ الرحل المغربي على ظهور جمالنا في شكل كرسي بذراعين، وكيف نربط قِرَب الماء بحيث تتدلى على جانبي الجمل. كانت تلك القرب أثمن ما لدينا من متاع. وقال لنا سيد أحمد: "من دون الماء لن تعيشا يوماً واحداً في هذا الحر الحارق."

وأتانا بدليل اسمه محفوظ، وهو بدوي رقيق القوام متين البنية كأن صدره لفّ بأمراس من فولاذ. كان محفوظ يعمل مع القوافل، وجهه أسمر لوحته الشمس والابتسامة لا تفارق ثغره. وهو وافق على مرافقتنا داخل موريتانيا وصولا الى بلدة والاتا قرب الحدود مع مالي.

في ٧ أغسطس (آب) ١٩٨٦، اليوم التالي لانطلاقنا، طالعنا نذير عاصفة. فاكفهر

الجو بالغيوم وحملت الريح رطوبة. فجأة التمع ومض برق في الطريق أمامنا متشعبا كشجرة كهربائية زرقاء أخترقت الارض، وتلاه قصف رعد.

نصحنا محفوظ: "يستحسن أن ننصب مخيمنا."

قلت: "كلا، دعنا نجازف ونواصل السير حتى غياب الشمس."

في ذلك المساء نصبنا خيمتنا العربية. ولم يهطل المطر الا في الخامسة صباحاً، لكنه ضرب خيمتنا بعنف كانفجار. وتغلغلت الريح داخل خيمتنا وقلبتها بهبة واحدة. وبين الفينة والفينة كان وميض البرق يشق حجب الظلام، ويدمدم الرعد فوق رؤوسنا كأنه قصف مدفعي. وكان الظلام لا يزال مخيماً، وتدفق المطر بغزارة مخترقاً الرمل ومتسرباً الى كل شيء.

بزغ الفجر كئيباً باهتاً، وتوقف المطر فعصفت ريح صرصر جليدية. فطفقنا نرتجف لاإراديا لشدة الصقيع، فيما انهمك محفوظ في إشعال النار لتهيئة شاي الصباح. قال إن علينا تجفيف كل شيء قبل الانطلاق، خصوصا الارحال التي تتمزق اذا استخدمت وهي مبللة.

قالت ماريا نتونيتا ضاحكة: "لم أشهد في حياتي ليلة كهذه".

فرد محفوظ: "الله كريم." ثم ضحك هو أيضا.

في الايام الثلاثة التالية اجتزنا أرضا عملت فيها مياه المطر فشقت في الرمل قنوات انساب فيها الماء الى برك بين الصخور. فكنا كلما سنحت لنا فرصة كهذه نملأ قربنا. ورأى محفوظ أن مياه المطر أفضل من مياه الآبار لانها ليست مالحة ولا كبريتية. ولا بأس لديه في أن يكون طعمها ملوّثاً بروث الجمال.

واذ أمعنا في السفر ازداد كل منا معرفة بعادات الآخرين. كان على محفوظ الاهتمام بأمور كثيرة. وكان يراقبني هازاً رأسه في الصباح وأنا أحاول ربط أمتعتنا بمتانة كما يفعل هو. قال لي مرة: "لا تقلق يا عمر" – وهو الاسم الذي كان العرب ينادونني به – "كل واحد يحتاج الى أن يتعلم."

كنا نمشي الساعات الثلاث الاولى من يومنا ثم نمتطي الجمال حتى الظهيرة، وعندئذ نبحث في كل اتجاه عن شجرة ننصب خيمتنا تحتها. ولم نكن نرى سوى أشجار قليلة عارية أشبه بهياكل عظمية، لكن شدة الحر كانت تدفعنا في النهاية الى القبول باحداها.

كانت ماريا نتونيتا تحضر طعام الغداء مما لدينا من الرز والمعكرونة والكوسكوس والسردين المعلب ولحم الغزال المقدّد. وكانت الحرارة تبلغ أشدها في منتصف النهار، فتقل شهيتنا للطعام ونرمي ما تبقى منه في الرمل، وهذا ما أثار محفوظ فكان يعبر عن إستيائه بهز رأسه. لكنه بدا أشد استياء لدى مشاهدته ماريا نتونيتا ترمي ماء القدر.

فقال لها مرة: "الماء عزيز جداً في الصحراء، ورميه جزافاً جريمة نكراء."

حين وصلنا الى تيجيكجا، الواحة الاولى في طريقنا، ضحكت ماريا نتونيتا وبادرتني: "قلت اني لن أقوى على القيام بالرحلة!"

بعد الواحة الخضراء اجتزنا مفازة بدت كأنها مقبرة واسعة. فقد انتصبت فيها أشجار عارية كأنها هياكل من فولاذ. وكانت الارض مكسوة بعظام الجمال والماعز المبيضة المبعثرة هنا وهناك. فتعبت جمالنا الثلاثة وحلّ بها الظمأ وقلت مؤونتنا من الماء ونال منا الحر الشديد. حتى محفوظ نفسه هتف لائعاً: "والله العظيم انه ليوم حار!"

أين الجمال؟

كانت الجمال تتعثر نزولا في منحدرات رملية حادة وتخوض أغواراً طويلة من الرمال العميقة. واذا بجمل ماريا نتونيتا يكبو فجأة ويقتعد الرمل ويطبق فكيه على رسنه. فأدركت أنه لولا تألمه لما فعل ذلك. واذ لم يسعنا أن نتوقف أرغمناه على النهوض ركلا وشداً وتابعنا مسيرتنا المضنية. وحين توقفنا لاحقاً تفحصناه فوجدنا بثرتين ملتهبتين في جانبيه مبعثهما احتكاك الرحل بالجلد.

ثبتُّ رأس الجمل بين يدي فيما استل محفوظ سكيناً من جيبه وبَضع الجلد ثلاث بضعات في كل من الجانبين لكي يتسرب السم من الورم. ولما انتهينا أطلق الجمل "غورڤاف" نهدة حارة فيما كنا نترقب أن يزمجر غضباً.

كان ذلك أحرّ الايام في أحرّ فصول السنة. بدت الارض كأنها كتلة مشتعلة. وكانت الريح تصفعنا بهبات كأنها شعلات منبعثة من قاذفات لهب. وقرابة انتصاف النهار رحنا نبحث عن شجرة نستظلّ بها فلم نعثر على واحدة. ولشدة الرمضاء استحال علينا الوقوف على الرمل الحارق، فنصبنا خيمتنا ولجأنا اليها، لكن الجو داخلها كان خانقاً. فهيأت لنا ماريا نتونيتا شراباً مغربياً يسمى "زريغ" محضراً من الحليب المجفف والسكر والماء. ثم ركعنا وطفقنا نصلي لكي يبعد الله عنا هذا الجحيم المستعر.

قالت ماريا نتونيتا: "يتكرر في مخيلتي ذلك الاعلان عن مشروب مرطب حيث تغطس فتاة في حوض سباحة أزرق وينفجر عصير الليمون المحلى من زجاجة هناك. وأرى أيضاً أطباق السلطة اللذيذة التي كانت أمي تهيئها لنا، بل اني أستطيع شمها."

ضحكتُ، وخيل الي أنا أيضاً أني أشمها.

في منتصف الطريق بين تيجيكجا وولاتا ازداد قلق محفوظ فقال: "من هنا الى ولاتا نجتاز أصعب المراحل. فلا واحات ولا مخيمات. ها نحن منفردون نواجه قدرنا بأنفسنا." وحجب ضباب العاصفة الرملية معالم الطريق وزاد تقدمنا صعوبة.



وصول القافلة الى واحة ديبيلا في النيجر.

وما أن توقفنا في الظهيرة وأنزلنا أمتعتنا عن ظهور الجمال حتى اختفى محفوظ في عباب الضباب الرملي. قالت ماريا نتونيتا: "انه قلق، لا شك في ذلك." ومرت ساعة ولم يبن لمحفوظ أثر، فعزمت على البحث عنه، لكن ماريا نتونيتا ردعتني قائلة: "إنه يعرف طريق العودة."

وما عتم محفوظ أن ظهر كأنه انبثق من العدم، وأكبَّ من فوره على اعداد الشاي. واذا بقسمات وجهه الدقيق المستطيل تنفرج عن ابتسامة عريضة، قال لنا: "لا تقلقا، سنعثر على بئر نرتوي منها."

تابعنا سيرنا متعثرين في الكثبان والضباب الرملي يلفنا والجمال تزحر جاهدة متسلقة المنحدرات الناعمة.

في تلك الليلة تعذَّر المرعى على الجمال فأطعمناها حبوباً وتركناها على الكثبان القريبة. وقبيل الفجر دوى الرعد فجأة وسطّرت البروق أخاديد مضيئة في سماء الليل وذرّت الريح الرمال على النجود والهضاب. لكن المطر انحبس. وفجأة صاحت ماريا نتونيتا: "أين الجمال؟"

تبادلت ومحفوظ نظرات يائسة اذ لم نكن لاحظنا اختفاء الجمال، وصحت به: "اعتقدت أنك قيدت قوائمها!"

فرد صائحاً: "وأنا اعتقدت أنك أنت قيدتها!"

كانت الريح طمست كل أثر لخفاف الجمال. وعند الفجر حمل محفوظ قربة ماء وانطلق للبحث عن مطيّاتنا التائهة. وارتقيت أنا أقرب الكثبان وربطت كوفيَّتي الزرقاء بعود مشكوك هناك لكي يستهدي بها محفوظ وتطلّعت الى مخيمنا فبان لي جزيرة

صغيرة وسط بحر من الرمال المتماوجة الى أبعاد الصحراء. وغاب محفوظ عن ناظري، وأدركت أنني لو كنت مكانه ولا بوصلة لدي لأضعت اتجاهي في عشر دقائق.

مضت ساعة على غياب محفوظ خلتها دهراً من القلق والخوف وتأنيب الذات. ولم أجرؤ على التفكير في ما قد يحل بنا إن لم يعثر محفوظ على الجمال أو اذا تاه لاحقاً بها. واذا بصفير محفوظ يتناهى الي من وراء الكثيب القريب وهو عائد يقود الجمال الثلاثة مربوطة بكوفيته التي أولجها في حلقات أنوفها. وعندما وصل الينا هتف: "الحمد لله انها لم تبعد كثيراً، والا وقعت الكارثة وهلكنا حتماً."

كنت خلال المسيرة أتفقد البوصلة فأجد أن اتجاهنا لم يتغير. فلو تابعنا السير شرقاً لوصلنا الى المرية، ربع موريتانيا الخالي. وترددت في تنبيه محفوظ، لكنني أخيراً ناديته: "محفوظ! إننا نتجه شرقاً، والبوصلة تشير الى أن الجنوب هو الى اليمين."

فرد ساخراً: "هذه هي طريق الجنوب، لا كما تدلك بوصلتك!"وضعت البوصلة على الرمل فاذا بالابرة الحمراء تشير الى أن الجنوب هو الى يميننا. لكن محفوظ رسم في الرمل بوصلة شمسية في شكل صليب وقال: "هذه هي اتجاهاتي! شمال – جنوب – شرق – غرب!" ثم غرز بينها عوداً وأضاف: "حين تميل الشمس الى المغيب وترتسم الظلال على الارض سنرى من منا على صواب!"

كان ذلك تحدياً، فانكفأنا الى الظل ننتظر حتى غلب علينا النعاس. واذا ماريا نتونيتا توقظني فجأة هاتفة: "انظر!"

كان الظل الذي يدل على الشرق واقعاً بوضوح حيث رسم محفوظ جهة الجنوب.

بدا ذلك نصراً فارغاً. وحين أقرّ محفوظ: "حسناً، انك دليل أفضل مني،" تمنيت لو كنت أنا على خطأ وليس هو.

كان أحد المعلمين في تشينغيتي أخبر محفوظ أن الارض مستديرة وأن المرء اذا سار في خط مستقيم فسيعود الى نقطة انطلاقه. وقال له المعلم أيضاً إن الارض تدور حول الشمس. وحين أكدت له الامرين استشاط غضباً منفساً عن عواطفه المكبوتة: "هذه ترهات! الشمس والقمر يسيران في كبد السماء. الشمس تدور لا الارض. لا جدل في ذلك."

سألته: "وماذا لو سرت في خط مستقيم أبداً؟"

قال: "تصل الى النقطة حيث تنتهي الارض، واذا تابعت سيرك سقطت."

في تلك الطبيعة المنفرة الموحشة كاد يغلب علي تصديق كلام محفوظ.

عثرنا مرة على بعض ماء المطر مختزناً في الصخور كأنه نثرات من الفضة. قال محفوظ: "هذه نعمة من الله. لا شيء أثمن من العثور على ماء في الصحراء حين لا تتوقعه." وكانت تلك هي "النعمة" الاخيرة التي أسبغت علينا.

ظمئت الجمال وظمئنا نحن أيضا وقلّ الماء في القرب التي انكمشت الى حد انذر بالخطر. ودخلنا متاهة من القحط والفراغ حيث لا أثر لماء المطر ولا لأقدام ماعز وجمال ورجال. لم يدب على تلك الارض القاحلة الجافة بفعل الريح والشمس الا بعض الغزلان البيض التي شاهدناها تثير سُحبا من الغبار. قال محفوظ وفي صوته رنة امتزج فيها الامل والاحباط: "ليتنا كالغزلان، فهي لا تشرب الا أيام الجمعة."

قرع طبول

خلّفنا كثبان الرمل وراءنا ودخلنا أرضا منبسطة حمراء قام في أحد جانبيها صدع صخري هائل يرتفع ٦٠ مترا ويمتد في الصحراء الغربية ما يزيد على ١٥٠ كيلومترا. والى الجانب الآخر امتد بحر مخيف من الرمال. ولم يبق لدينا من الماء الا قربة واحدة.

قدّر محفوظ أن في الطريق أمامنا بئرين، فما علينا إلا الحفاظ على ما تبقى لدينا من ماء وتعليل النفس بالعثور عليهما.

استيقظنا عطاشا، وما انتصف الصباح حتى كنا نتلوى على رحالنا بسبب آلام في الكلي. وانصبّت علينا الحرارة كالزيت الغالي، وكدنا نختنق بالغبار الذي أثارته مناسم الجمال والذي سبب وخزا في أعيننا. ولم يظهر أي دليل على بئر ماء.

انتصف النهار فانطلق محفوظ من المخيم مستكشفا. وتسلقت أنا جرفا رمليا قريبا وحاولت تحديد مواقع الهضاب الصغيرة المحيطة بنا على خريطتي، فلم أفلح. ولم تكن لبوصلتي أي فائدة، فعدت الى المخيم. ولدى دخولي كدت أصطدم بمحفوظ الذي ظهرت دلائل الخيبة على محياه. سألني: "بماذا أفادتك بوصلتك العظيمة؟"

فاعترفت: "لا شيء، لا شيء البتة."

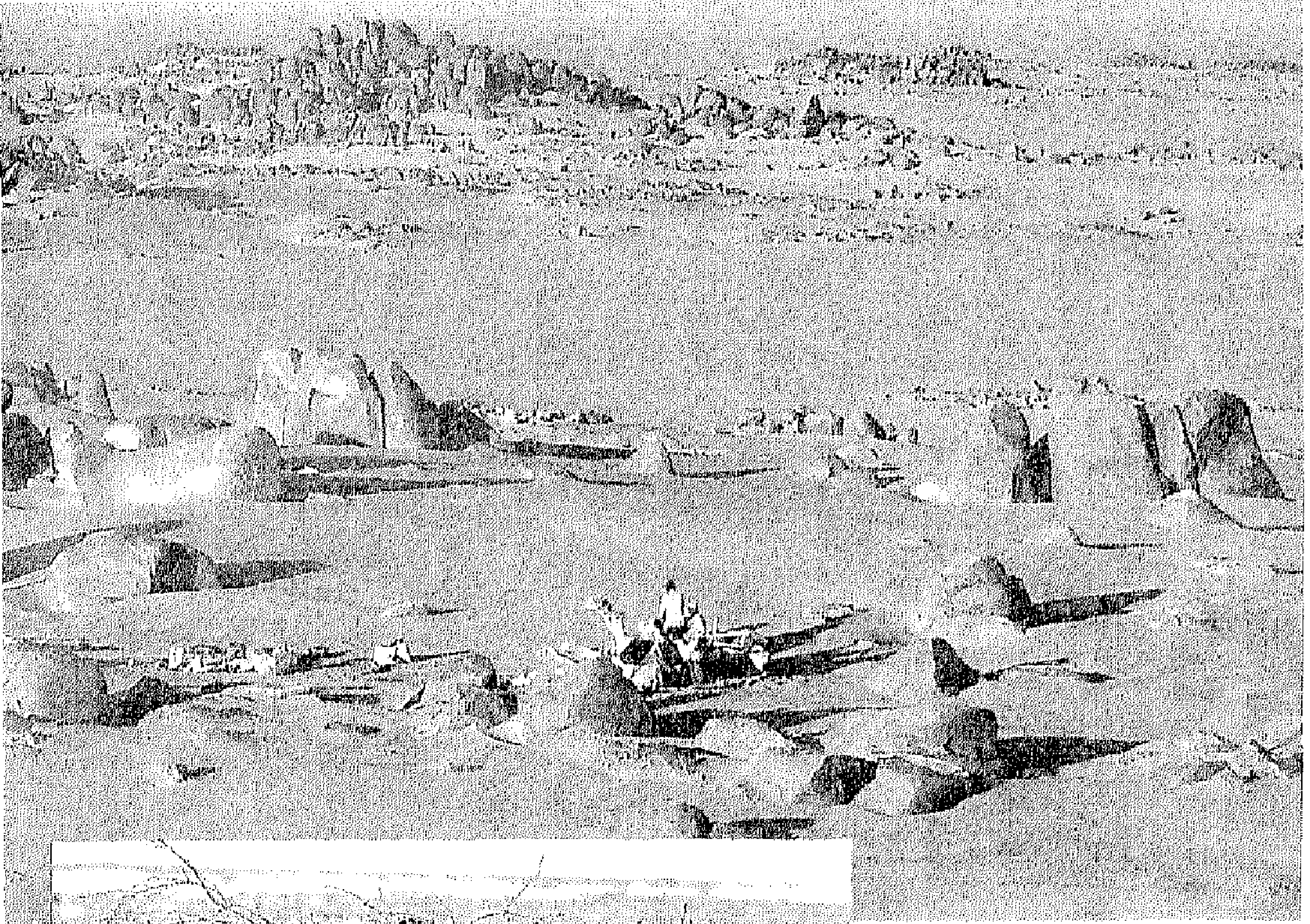
حلّ الاصيل وما زلنا نسير في محاذاة الصدع الصخري الذي بدا لا ينتهي. فجأة أوقف محفوظ جمله واستدار نحوي ووجهه ينمّ عن منتهى الانهاك واليأس والاخفاق، وقال: "لقد خاب ظني يا عمر. اعتقدت أن البئر هنا، لكني أخطأت التقدير."

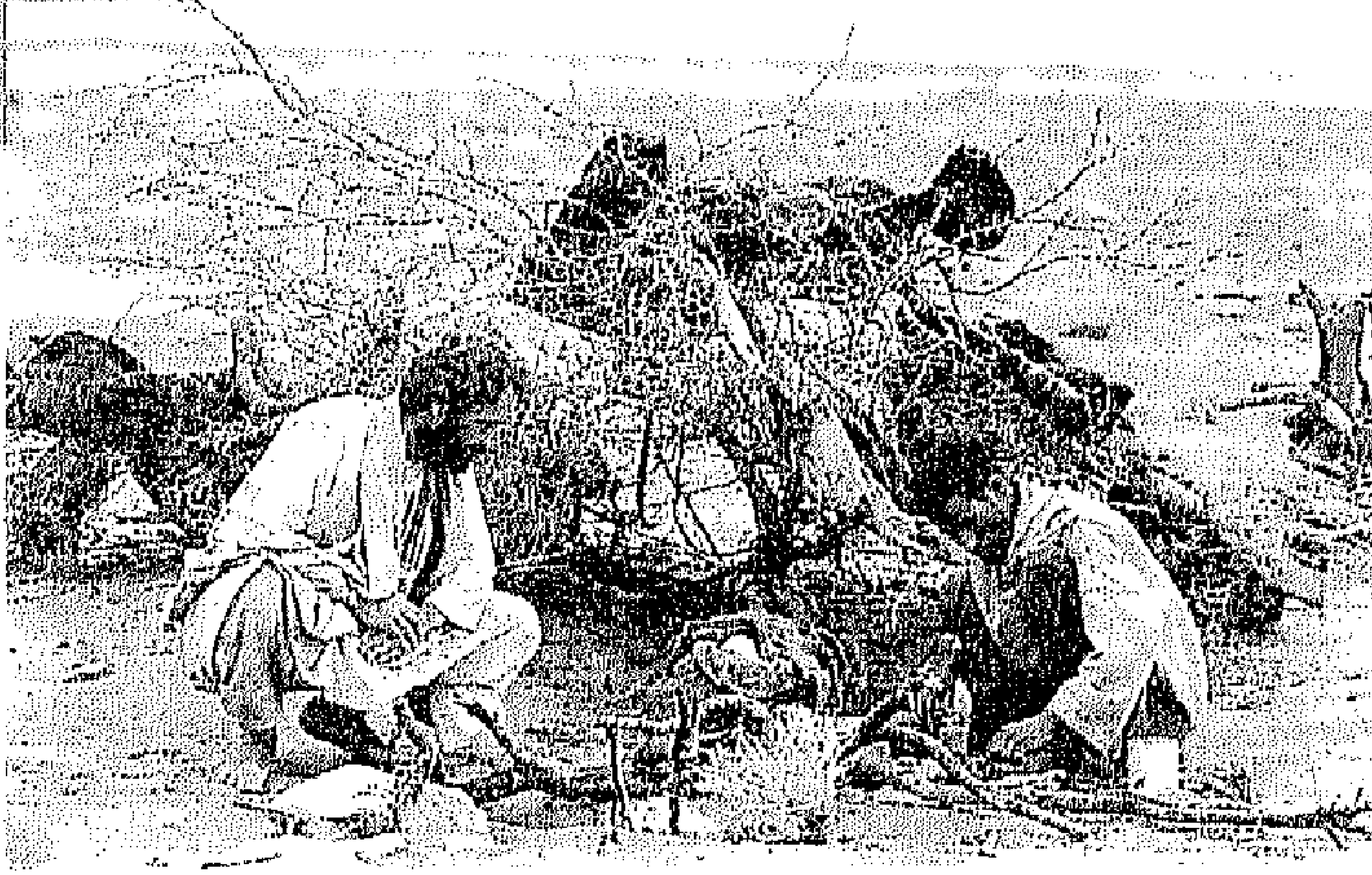
سألته: "أتعني أننا ضيعنا البئر؟"

أجاب لاهثا: "بل أضعنا البئرين."

نزل كلامه كالصاعقة علي وعلى ماريا نتونيتا، فارتعبنا لفشلنا القاتل في العثور على أي من الآبار الثلاث، علما أن أقرب بئر بعدها – واسمها بئر النصارى – تبعد مسيرة يوم. ولم يبقَ لدينا الا ما يكفي شربة واحدة لكل منا ليلا، وفي الغد لن تكون لدينا نقطة.

كان أملنا الوحيد في الخلاص أن نلتقي أناسا في الصحراء، لكننا لم نشاهد أحدا منذ تسعة أيام. وحين دللت محفوظ على رجل راكب جملا قال لي: "تلك شجرة، لا أناس في هذه البقاع، تجدهم فقط حيث يهطل المطر."





(فوق) البحث عن "ابو طبرى" البئر الوحيدة في السهل السوداني الصخري على مسيرة عشرة أيام من نهر النيل.

(الى اليسار) مايكل ومحفوظ يجففان اوراق الشاي.

وبعد مسيرة مضنية خلناها دهراً اقتربنا من "الرجل" فوجدناه شجرة.

كنت سابحاً في خيالي على الجمل، أرى أمامي زجاجات من الشراب المنعش وأفكر في نهر النيل ورغبتي اليائسة في الوصول اليه وهو ما زال على بعد ٥٥٠٠ كيلومتر. واذا بزوجتي توقظني من أحلامي صائحة: "ناس! ناس!"

أفقت وتطلعت فرأيت أشخاصاً بين شجيرات شائكة. وتبينت نساء في أثواب زرق ورجالا وجمالا وحميراً ترعى عشباً أخضر وقطيعاً من الماعز. تقدمنا وأنخنا جمالنا قريباً من خيمة شعر. فخرج رجل مسنّ أقبل نحونا وهو يعرج وصافحنا سائلا: "أنتم ذاهبون الى والاتا؟ انكم على وشك الوصول اليها!" ثم قدم الينا سلطانية من حليب الماعز الطازج.

فتناولتها وهمست: "الحمد لله!" خرجت الهمسة من أعماق قلبي ومأساتي ومعاناتي. فأنا لم أشعر في حياتي بالامتنان العميق لنعمة الله كما شعرت تلك اللحظة.

وصلنا في اليوم التالي الى بئر النصارى، فوجدنا حولها بسطة من العشب الاخضر الناعم كأنها طاولة بلياردو. واذ تفحص محفوظ البئر وجدها ناضبة فقال: "الحمد لله الذي أنعم علينا فالتقينا أولئك الناس ليلة أمس."

قبل غياب الشمس أطللنا على مدينة والاتا. ولدى اقترابنا تناهى الينا قرع طبول وعزف آلات موسيقية. بعد سكون الصحراء المطبق الذي لفنا طوال سفرتنا وجدنا الصخب أمراً غير عادي واعتقدت أن أذني تخدعانني.

نصبنا خيمتنا، ثم هيأ محفوظ الشاي فتبادلت وماريا نتونيتا نظرات الحنان. كنا حديثي الزواج، ولم تتح لنا الرحلة مختلى مريحاً.

كانت الموسيقى بهيجة كأنما ثمة حفلة. فسألت محفوظ: "يبدو أن في البلد عرساً. ألا ترغب في الذهاب الى هناك؟"

أضافت ماريا نتونيتا: "لا بأس بالفكرة، ولا بد أن الاكل والشرب متوافران بكثرة."

همّ محفوظ بالنهوض ثم قال: "لكنكما ستبقيان وحيدين."

أجبنا: "لا تقلق يا محفوظ. اذهب أنت واستمتع بوقتك."

وما هي الا دقائق حتى غسل محفوظ وجهه ولبس ثوبا نظيفاً وتوارى في الليل.

تنهدت ماريا نتونيتا قائلة: "أخيراً، ها نحن لوحدنا!" ودخلنا الخيمة.

في تلك اللحظة سمعنا صوتا ينادي "عمر! أين أنت؟" أطللت الى الخارج فرأيت محفوظ يبادرني بابتسامة عريضة: "لم أقوَ على الذهاب. ليس من الصواب أن أترككما وحيدين بعد كل ما عانيناه معاً."

لعنة الشيخ احمد

التقينا في أكبر متاجر والاتا تاجراً يدعى مولى علي، وهو رجل ضخم البنية ذو مظهر فظ يتناقض وأدبه. احتوى متجره على كل شيء، من قهوة "نسكافه" الى الفواكه المعلبة. وهو وعدنا بأن يجد لنا دليلا بدلا من محفوظ الذي اعتزم العودة الى عائلته في تشينغيتي.

كان الدليل الاول الذي عرض علينا حليق الوجه ذا عينين مراوغتين وشعر مزيت، تفوح منه رائحة عطرية خفيفة. وشعرت أن علي أخذ موقف حذر منه. قال وهو يشعل سيجارة: "اذا أنت هو الغربي الذي يطلب دليلا الى تمبكتو. أنا أفضل دليل في والاتا، وأريد أجرتي ٣٠ ألفاً اضافة الى أجرة الاياب."

قلت له: "لن ندفع أجرة اياب."

فصاح: "هذه حماقة." واتقدت عيناه غضباً.

قلت: "لا أعتقد أننا سنتفق. ألا ترى ذلك؟"

فرمى سيجارته وسحقها بصندله قائلا: "ستندم على ذلك!" وانصرف.

قال صاحب المتجر معتذراً: "ذلك كان الشيخ أحمد."

وعرَّفني لاحقاً الى دليل آخر اسمه مختار ولد سيدي، وهو طويل القامة نحيف اعتمر عمامة تدلت على وجهه الوسيم. صافحني مختار مشيحا بنظره، فرأيت فيه خجلا محببا.

وافق مختار على مرافقتنا الى تمبكتو. وقال: "هناك مشكلة واحدة يجب أن أذكرها. لم أقطع المسافة كلها على متن الجمال من قبل، بل قطعت ثلثيها والبقية بالسيارة."

أعجبتي صراحته. وكان محفوظ أبى مفارقتنا قبل أن نجد دليلا جديداً. وهو أحب مختار وطرح عليه أسئلة دقيقة ثم أخبرنا: "ان مختار هو من أفضل الأدلاء. خذاه معكما." فعرفت عندئذ أننا حظينا بدليلنا الثاني.

وعدت محفوظ بوجبة وداعية من اللحم الطازج. فابتهج للأمر، ووضع اللحم على نار مكشوفة وتناولنا معا عشاء شهيا.

تلك الليلة دفعت له بدل أتعابه، وسألته: "ماذا ستفعل بهذا المبلغ كله؟"

أجاب: "كله معروف أصلا، فالمبلغ الذي اعطيتنيه في تشينغيتي أُنفق لشراء مؤونة لعائلتي، وستذهب البقية لتسديد الديون الى الدكاكين."

وفكَّر لحظة ثم أشار الى كوفيته البالية اشارة نفذت الى أعماق مشاعري، وكان استخدمها رباطا لجرّ الجمال الثلاثة التائهة ذلك الصباح المريع. ورأيت أن أدفع له ثمن كوفية جديدة مكافأة له وإن زهيدة على مرافقتنا في رحلتنا القاسية في هذا الوقت المضني من السنة.

لقد أصبح محفوظ بمثابة أخ لنا، وشعرت بوحشة لفراقه.

صباح اليوم التالي تجمع بعض أهل المدينة لوداعنا، ووقف محفوظ معتمراً كوفيته وعقاله الازرقين الجديدين، وكانت نصيحته الينا في وداعنا: "لا تنسيا ملء قربكما كلها. اذا كان لديكما ماء فانكما قادران على أي شيء. الله معكما!"

امتدت أمامنا أبعاد ومفازات وكثبان لا نهاية لها. قال مختار: "يسير المرء أياما في هذه البوادي فلا يتغير عليه شيء، ومن السهل أن يضلّ السبيل."

سارت الجمال بخطى رتيبة كأنها دوابّ آلية. وحفظنا عاداتها فلم تعد تزعجنا: "غورفاف" الطمّاع يعضّ رفيقيه أثناء الاكل، و"ليشل" الصغير يئن ويبصق باستمرار، و"شيغار" رائع بغاربه النبيل وخطاه الواسعة وهدوئه وصبره على المكاره. كان "غورفاف" الوحيد بينها الذي سبب لنا المتاعب. فالقروح في جانبيه لم تكن

التأمت تماماً، وعالجها مختار كما عالجها محفوظ قبله ونصحنا بابدال "غورفاف" بجمل آخر لدى توقفنا في تمبكتو. فالجروح لن تندمل ما دام "غورفاف" مركوباً والرحل مشدوداً الى متنه.

كان مختار ملماً بكل الامور تقريباً، يعمل بكياسة ودراية ويعرف الابراج التي تدل على تغير الفصول. كان مقتفي آثار رائعاً، يدل عليها كأنه يقرأ في كتاب: "هذه آثار ناقة مضى عليها يوم واحد، وهذه آثار ابن آوى مرّ قبل لحظات من هنا."

إنما شانَ إلمام مختار اخفاقُه الذريع في العثور على بئر ملأى واحدة. سرنا جنوباً، وفقاً لنصيحة الشيخ أحمد الدليل المراوغ الذي رفضناه، أربعة أيام على غير هدى. فاستهلكنا معظم مائنا ولم يبق معنا سوى قربتين. قال مختار قلقاً: "لست افهم لماذا قال لنا الشيخ أحمد أن هذه هي الطريق الصحيحة."

لكني أدركت السبب فجأة فقلت لمختار إن الشيخ أحمد، بعدما رفضته، هددني قائلا: "ستندم على ذلك."

هتف مختار: "لا اله الا الله! لعنة الله على الشيخ أحمد!"

أخيراً حظينا ببئر قرب حدود مالي، فارتوت الجمال من الماء العكر حتى كادت بطونها تنفجر. وراحت في تلك الليلة تقضم العشب الغضّ بنهم. وفي مساء اليوم التالي خيمنا في مالي.

قالت ماريا نتونيتا: "للمرة الاولى أدخل بلداً جديداً من دون أن يُطلب مني إبراز جواز سفري."

خسوف في الصحراء

هطل المطر تلك الليلة. وأفقنا في الصباح فرأينا ألوفاً من الازهار الكبيرة الرائعة قد تفتحت وغطت السهل. وانعكس نور الشمس على قطرات الندى فحولها ملايين من الالماسات الأخاذة المتلألئة.

ولكن رافق الرطوبة ضيوف غير مستحبين. اذ فيما كنا نشد الرحال هبط منها على الارض عقرب ضخم أخضر شبه شفاف هو أكبر عقرب رأيته في حياتي. فسحقه مختار بعصاه، لكنه ظل يقاوم ويضرب بكماشتيه وذنبه. وخفنا من وجود عقارب أخر، فتوخينا الحذر في تحميل أمتعتنا.

كنا أحياناً نشاهد رجالا من البدو راحلين الى مراع خضر مع جمالهم ومعزاهم أو منهمكين في نصب خيمهم. وكان معظمها على شكل خيم المغاربة الهرمية. ثم بدأت تطالعنا مساكن بدو الطوارق البيضوية الشكل والمسطحة قليلاً.

وكنت أتوق الى مقابلة أولئك المحجبين من أبناء الصحراء.

حضر الطوارقي الاول الى مخيمنا ظهراً. ويعتمر الطوارق كوفيات نيلية يلفون بها وجوههم فلا تظهر منها الا عيونهم.

في ١٦ سبتمبر (أيلول) ظهرت في الأفق أبراج تمبكتو، مركز تجارة الذهب والملح منذ منتصف القرن الرابع عشر. وبانت أسوار المدينة عند الاصيل غارقة في كثبان الرمال، قاتمة منفرة أماتت فينا الرغبة في مغادرة "السلامة" التي ألفناها في الصحراء، وكأنما الصحراء صارت جزءاً منا.

غابت عن تمبكتو صورة "المدينة الذهبية" الاسطورية القديمة التي علقت بالاذهان. فرأينا من نافذة فندقنا شوارع عطشى وجمالا هزيلة ناتئة العظام وصبية صغاراً يسوقون حميراً. لكن الكهرباء وصلت الى المدينة. وطلبنا في أحد الدكاكين كوبين من عصير البرتقال، ولما فُتحت الثلاجة انبعثت منها نفحة جليدية، وشعرت بالعصير بارداً كماء القطب ولذيذا كالرحيق. قالت ماريا نتونيتا: "هذا العصير المنعش يستحق قطع ألف كيلومتر للتلذذ به."

مكثنا في تمبكتو ريثما تيسر لنا العثور على دليل جديد وشراء المؤن وابدال "غورفاف" المريض. كانت أغادين، في بلاد النيجر، محطتنا التالية، وهي تبعد ١٥٠٠ كيلومتر وتشكل علامة فارقة في منتصف طريق رحلتنا.

انحبست الامطار ووجدنا أنفسنا، وفق الارصاد الجوية، عالقين في "أرض حرام" واقعة بين موسم الامطار الصحراوي وفصل الشتاء الذي يشهد انبعاث حرارة الصيف. وبدأت تطغى علينا تأثيرات المسافات الهائلة الضاغطة، تلك التي خلّفناها وراءنا وتلك التي ما زالت أمامنا. وكأن حياتنا باتت رتابة فارغة من أي معنى، فكنا نسير كأننا ندور في حلقة مفرغة حيث لا تغيير الا في الوقت.

بدا القمر ذات ليلة كأن أحدهم قضم جزءاً من أعلاه. ثم أتسع القضم فأدركت فجأة أني أشاهد خسوفاً. فوقفت مفتونا فيما انحسر النور حتى لم يبقَ ظاهراً من القمر الا خط رفيع في أدناه. بعد أشهر من السفر في الصحراء اكتسبت حدساً بديهياً لحجم الكرة الارضية واتساعها وصغرها، وبدت لي رحلتنا حدثا صغيراً تافهاً في خضم الاحداث الأزلية الجسام التي تسيِّر الكون بدقة فائقة.

لم تخفّ شدة الحرارة ولم نعثر على برك ماء ولم نلتقِ أحداً. وتعبت الجمال وقل الماء لدينا وما زال نهر النيل حلماً بعيداً يراودنا كأنه خارج حدود الكون. ولكن لم يعد يخامرني شك في قدرة ماريا نتونيتا على إتمام الرحلة. فما حققته الى الآن كان عملا فريداً. وخلال ثلاثة أشهر منذ مغادرتنا تشينغيتي حدث أمر رائع أعجز عن شرحه. فقد بدأنا الرحلة شخصين يحملان هويتين مختلفتين، فامتزجنا تدريجا وصهرتنا المعاناة في شخص واحد.

دخلنا أغاديز صباح ٧ نوفمبر (تشرين الثاني). وكانت الشاحنات الثقيلة تمر بنا هادرة على الطريق الرئيسية. وقد ارتعبت الجمال لصخب تلك "الوحوش" التي تقذف الابخرة فأجفلت وراحت تشيح برؤوسها.

قصدنا السوق لابدال مطايانا، فأبدى اعرابي متجهم الوجه يدعى نجم رغبة في شرائها. لكنه لاحظ: "انها ضعيفة جداً!"

أجبته: "لو قطعتَ المسافات التي قطعتها هذه الجمال لكنت أنت ضعيفاً مثلها."

فضحك نجم وقبل شراء الجمال الثلاثة. وحين رأيته يقتادها شعرت بغصَّة وأسى لعلمي أنها ستغيب عنا الى الابد. فقد صرت، لطول الرفقة الحميمة، مولعا بها، خصوصا "شيغار" الصبور الهادىء الذي حملني طوال الرحلة من تشينغيتي التي تبعد ٣٠٠٠ كيلومتر. وهذه المسافة، بحسب خريطة "ميشلان" التي كنت أستهدي بها، تمثل نصف عرض القارة الافريقية من أدناها الى أقصاها، وقد اجتزناها في أقسى أوقات السنة. وكنت أعلم في أعماقي أن الفضل في نجاحنا يعود أولا الى تلك الجمال الرائعة التي حملتنا وسارت بنا ضاربة في البيد، طاوية النجود والوهاد، ظمأى، منهكة، جريحة أحياناً. فلا عجب اذا دعاها العرب "هبة الله" وقيل إنها "سفينة الصحراء."

مصاعب مع الجمال

استغرق حصولنا على اذن لاجتياز بلاد النيجر قرابة شهر، وذلك "لأسباب أمنية" كما أفاد مسؤولون رسميون. وبعد انجاز ترتيبات الرحلة انطلقنا في أوائل ديسمبر (كانون الاول) ومعنا خمسة جمال، اثنان منها لحمل العلف بسبب قلة المراعي في بيداء تينيري.

بدت جمالنا الجديدة قوية، خصيَّة ذوات أسنمة مكتنزة. وكان أحدها شائخاً متمرساً في قوافل الملح، فسميناه "شيبان."

وكان دليلنا الجديد أودونغو آغ ابرهيم رجلا في الستين، طيبا كجد عطوف، ذا وجه أجرد فيه براءة الاطفال وقد غطاه بكوفيته كعادة أبناء الطوارق.

في ١٣ ديسمبر (كانون الاول) عبرنا سوق أغاديز حيث هتف لنا الناس، ثم انعطفنا حول خزانات النفط الفضية اللامعة مروراً بأرتال من الحمير المحملة حطبا من التلال. وما ان صرنا خارج المدينة حتى أزاح أودونغو كوفيته عن وجهه اشارة الى أننا سنكون أصدقاء.

واذ توقفنا لشد أمتعتنا المحملة تملّص أحد الجمال، الذي سميناه "فلفل"، وراح يعدو بعيداً. فلحق به أودونغو على جمل آخر، وحين قاربه رمى بنفسه في الهواء وحط

على رحل "فلفل." فأجفل هذا وزمجر غاضباً وشرع يرفس بقوائمه الى أن ترنح أودونغو وسقط عنه. فهرعت اليه وقد نهض، فوجدت رسغه الأيسر مرضوضاً وغير مكسور. فدلكته ولففت ساعده بضماد قائلا في نفسي: "يا له من عجوز شجاع، لو كنت مكانه لما تجرأت على هذا العمل."

بعد لحظات تقدمت ماريا نتونيتا بهدوء من الجمل الشارد ولجمته كأنها اعتادت هذه الوظيفة منذ سنوات.

أهدر هذا الحادث ثلاث ساعات من يومنا، حملنا بعدها أمتعتنا وانطلقنا متثاقلين في مسيرة صامتة طوال الهجيرة حتى العصر. وحين بدأنا نحس البرد أرادت ماريا نتونيتا أن ترتدي جواربها القصيرة وهي على متن الجمل. فانحنت لكي تطاول قدميها، فمال الرحل معها على نحو خطر. فصاحت: "إنني أهوي!" وانقلب الرحل وسقطت هي تحت قوائم الجمل.

علق حزام الرحل حول قوائم البعير، واذ سحبتُ ماريا نتونيتا من تحته راح يرفس الرحل مسعوراً ويرغي ويزبد ويلتفّ يمنة ويسرة وعيناه تقدحان شرراً. وظل يدوس الرحل ولم يهدأ حتى سحقه. الا أني لبثت ممسكاً بزمامه حائلا دون فراره.

هتفت ماريا نتونيتا وهي ترتجف مصدومة: "الله أكبر!" ووقفت تحدق الى حطام رحلها.

لم يعد لنا خيار الا المشي ريثما نجد رحلا بديلا. وأمسكت يد زوجتي برهة فوجدتها باردة صغيرة ناعمة كيد طفل.

بحر الرمال

في غضون الايام القليلة التالية انحدرنا من مرتفعات آر فكان الطقس يزداد برودة مما حملنا على ارتداء ستراتنا وانتعال جزماتنا على الدوام. ولشدة البرد لم نكن نتوقف الا بضع دقائق لتناول الغداء الذي اشتمل على وجبة طهيت في المساء السابق وحفنة من التمر. وعاودنا الحنين الى أيام الراحة والتفيؤ بخيمتنا عند الظهيرة. واخترق البرد أجسادنا حتى العظام وأنسانا الحر اللاهب الذي كابدناه قبل أسابيع. وأضنى الصقيع الجمال فاشتد لهاثها وكادت تختنق. والتفّ أودونغو العجوز بحرام قديم رثّ وراح يعرج في مشيته وقد ارتسمت على محياه الاجعد تعابير البؤس والأسى. قال: "أنا مثل شيبان العجوز. لقد أنهكتنا صحراء تينيري نحن الاثنين."

كانت تلك الصحراء قاحلة مقفرة لا أثر فيها لبشري. ولئن كنا على احدى طرق القوافل الرئيسية فقد صعب علينا أن نتصور وصول أي كائن قبلنا الى هذه الارض البدائية. وطالعتنا لافتة من الفولاذ الاسود تشير الى أننا دخلنا بيداء تينيري المقفرة.

وما لبثنا أن رأينا قافلة ملح ضمت ١٠٠ جمل تسير مربوطة بحبلين فضيين كأنها دودة "أم أربع وأربعين." واذا بثلاثة رجال يندفعون نحونا عبر الرمال ولا غاية لهم الا مصافحتنا والاتصال البشري في هذا الفراغ.

ذات ليلة أقمنا مخيمنا الى جانب هيكل سيارة محترقة. سألت أودونغو عما اذا كان يعرف ما حل براكبي السيارة، فأجاب: "الله أعلم! هنا في تينيري تجد كثيراً من السيارات المدمرة." قال ذلك بخشوع نم عن احترام لذكرى أولئك الذين هلكوا.

كان كثيرون يموتون في هذا القفر كل سنة، الى أن باشرت الحكومة النيجرية نصب أعمدة معدنية لافتات تدل على الطريق الواجب سلوكها. ولولا هذه الاعمدة لاستحال السفر في الاتجاه السوي.

خلَت المنطقة كليا من معالم الحياة. كانت بحراً واسعاً من الرمال الاعظم في الصحراء الكبرى وتفوق الربع الخالي في شبه الجزيرة العربية اتساعاً. كان فراغها خانقا. فباستثناء أعمدة الارشاد لم تكن ثمة نأمة ولا حركة ولا رفة ظل عابرة تلفت النظر وتبعث شعوراً بالانفراج، بل سكون مطبق كسكون القبور وعالم من العدم والوحشة والفناء. وزاد السراب في ضياعنا، اذ تقدمنا الى مواضع حسبناها تلالا رملية فاذا بها تتبدد وتسفر عن تموجات خفيضة من الرمال لا يعدو ارتفاعها بضعة سنتيمترات.

قالت ماريا نتونيتا: "يا لعظمة الخالق الوهاب الذي أوجد هذا النظام الدقيق! ان هذه العظمة تشعرك بالاتضاع. الصحراء هي حقاً أرض الله."

فتذكرت قول محفوظ: "كل من لا يؤمن بالله هو أعمى."

كان شروق الشمس وغروبها المقياس الوحيد لدينا لضبط الوقت. فقد انبسطت الرمال أمامنا مواكب تليها مواكب من الكثبان والسهول والوهاد. وكالموج الجارف محا الرمل آثار الجمال والبشر وذرّته الريح فوق الرمال العذراء حاجبة الاودية تحتنا. فكنا اذا سرنا على حافة منحدر نخال أننا نسير على حافة العالم. تُرى أهذا هو المكان الذي عناه محفوظ "حيث تنتهي الارض، فاذا ظللت سائراً سقطت في الهاوية"؟

في ٢٤ ديسمبر (كانون الاول) رأينا غرابين يحطان على الرمل. وما لبثنا أن شاهدنا على امتداد الافق خطا رصاصيا لأجراف بلدة فاشي ارتسمت عليه أشكال أشجار النخيل الباسقة هناك. وكان منظر الاشجار الخضر في تلك الأرجاء المجدبة عجائبيا حقا.

وما ان نصبنا مخيمنا حتى أطبق علينا الظلام. وكانت تلك ليلة الميلاد، ولها ذكرياتها الماضية والمستقبلية في حياتي. كانت للميلاد رنة عاطفية حميمة تدعو الى اجتماع الشمل، لكني كنت واثقا بأني، في هذا العيد بالذات، أؤثر أن أكون مع زوجتي

وهذا الطوارقي العجوز في هذه الجزيرة الخضراء وسط عظمى صحارى العالم، على أن أكون في أي مكان آخر على الارض.

أفقنا على دمدمة مئات الجمال في قافلة الملح التي حطت رحالها ليلا بقربنا. وكانت الجمال باركة تحتنا بين أشجار النخيل وحولها جبال من أكياس الملح والرحال وبالات التبن.

وعندما استيقظت صباحا اذا بجورب ضخم ملقى على كيس نومي، وداخله بسكويت وتمر وفرشاة أسنان جديدة ومفكّرة صغيرة وقطعة سكر وقطعة صابون، وفي أسفل الجورب قطع من الفحم النباتي. وضحكت ماريا نتونيتا قائلة: "في ايطاليا يهدي بابا نويل فحماً الى الاولاد السيئي السلوك."

فقبّلتها وتمنيت لها ميلاداً سعيداً.

قطط وفئران

تناهى الى مسامعنا في المخيم صوت جهاز راديو بدا دخيلا نافراً متنافياً مع سكون الصحراء الذي لفنا طوال أشهر. للمرة الاولى نسمع صوت راديو في الصحراء. قال دليلنا الجديد مؤمن: "يدور في التشاد قتال مرير، اذ تحاول قوات الرئيس التشادي حسين حبري طرد المناوئين من تيبستي."

طفقنا نقوِّم هذا الخبر في أفكارنا غير عارفين ما اذا كان في مصلحتنا أم لا. كان النزاع دائراً حول جبال تيبستي الواقعة على الحدود بين ليبيا والتشاد. وبدت المشاكل السياسية المعقدة في العالم الكبير خارج مخيمنا غامضة تثير فينا رهبة.

كان الحر على أشده وجاعت الجمال وتشققت خفافها المضمدة فخلفت على الرمال آثار دماء. أما أنا فتقرّحت قدمي، وتورم رسغ ماريا نتونيتا. ولا عجب، فقد كنا نمشي ونركب الجمال ما يزيد على ١٢ ساعة في اليوم.

وكم تمنيت أن أرتاح من مشقة السفر، لكن حرب التشاد أقضّت مضجعي. ترى هل يتصدون لنا على الحدود ويمنعوننا من متابعة سفرنا؟ وفي حال دخولنا التشاد، ألا يحتمل أن يهاجمنا قتلة من الطرفين؟ واذا منعنا من العبور، فستكون محاولتنا قطع الصحراء الكبرى أُجهضت. ولكن على رغم جميع هذه المحاذير صممنا على المضي.

كنت في الماضي معلما في بلدة الجنينة على الحدود بين السودان والتشاد، في الجانب الآخر من البلاد. وغالبا ما سمعت قصف المدفعية وشاهدت ألوف اللاجئين يتدفقون عبر الحدود. وروى هؤلاء قصصا مخيفة عن حالات اعتداء وتعذيب وقتل. واذ اقتربت وزوجتي من حدود التشاد، عادت الي ذكرى تلك الروايات المفجعة عن تصارع الاحزاب وحوادث القتل والحرب الضارية.

وكم كانت دهشتنا حين عبرنا الحدود من النيجر الى التشاد من دون أن يقع لنا أي حادث.

وتعين علينا الذهاب الى العاصمة نجامينا للحصول على تأشيرة لدخول السودان. وقد تعرضنا مراراً للتوقيف والتفتيش والتهديد بالسلاح. وكان الناس يلتئمون حولنا في المدن. واحتجزنا مراراً وأجبرنا على دفع "رسوم تبغ" وهمية وأطلق سبيلنا تكراراً لنعود ونحتجز، حتى شعرنا كأننا ضحايا في لعبة "القط والفأر."

وزاد قلقنا أن أولئك الناس كانوا قادرين على سلبنا كل شيء ولا حماية لنا الا أنفسنا. فصممنا على المضي في خطتنا مهما حدث وعدم التنازل عن جمالنا ورفض الافتراق بعضنا عن بعض وعدم دفع أي رشوة.

وذات يوم بعيد الظهر شاهدنا جنديين على جملين مندفعين نحونا، وجنديا ثالثا يتقدم نحونا على قدميه. فأحاطوا بنا وفي عيونهم نظرات غضبى. سدد الجندي الراجل بندقيته الينا وقال: "أنتم لستم سياحا."

ثم نزل رفيقاه عن جمليهما وقال أحدهما: "لنفتش كل ما لديهم."

وقال الآخر: "افتحوا حقائبكم، اننا نبحث عن سلاح ومخدرات، والويل لكم اذا عثرنا على شيء غير شرعي."

خشيت أن يعثروا على مسدس الشعلات الذي احتفظنا به لحالات الطوارىء فيحسبوه سلاحاً.

خلال التفتيش عثر أحد الجنود على قطع صابون دبقة وفرشاة أسنان وسخة وجوارب تفوح منها رائحة كريهة، فعلت وجهه علامات اشمئزاز وقال لرفيقيه: "هيا بنا، لا شيء لديهم." ثم وقفوا يحدقون الينا ونحن نحمّل أمتعتنا وتنطلق.

وصلنا الى نجامينا بعد غروب الشمس. فأُخذنا الى أحد الفنادق حيث أدخلنا غرفة خالية الا من فراش على الارض. وفتش أحد الحراس أمتعتنا وجلس خارج الغرفة ورشاشه على ركبتيه. وعبرت فوقنا طائرة عسكرية اهتز لها البناء، ثم سمعت الباب يقفل علينا.

صباح اليوم التالي أُخذنا الى مقر أمن الدولة الذي بدا كحصن قاتم. وجلس أمام البوابة حارس في ثياب رثة ممسكاً رشاشا صغيرا ملقى على ركبتيه.

أُمرنا بالجلوس على مقعد في الفناء. وكان حولنا عدد من المجندين الاحداث في بزاتهم الرسمية الجديدة وهم يلعبون الورق (الكوتشينة) ويصخبون ودلائل الاعتزاز بادية عليهم.

جلسنا على المقعد وحيدين تحت أشعة الشمس الحارقة، ثماني ساعات لم يكلمنا فيها أحد ولم يدعُنا أحد الى الدخول.

وخشينا أن تتطور الامور الى الاسوأ فنُتَّهم بالتجسس ويفرّق بيننا ونودع السجن.

وأخيراً، اذا برجل يرتدي بذلة زرقاء يومىء الينا. تقدمنا منه فناولني ورقة باحترام قائلا: "اليك هذه." تطلعت الى الصفحة اليتيمة فوجدتها تصريحاً موقعاً من وزير الداخلية نفسه يجيز لنا عبور أرجاء التشاد.

غلبت علينا الصدمة وحدقنا الى الرجل مندهشين، فقال لنا: "الزما الطريق الرئيسية، لا تحيدا شمالا ولا يميناً. أبلغا عن وجودكما أي مركز للشرطة في طريقكما. رحلة موفقة، رافقتكما السلامة!"

أرض [illegible]

حمّلنا أمتعتنا بسرعة وكلنا شوق الى الرحيل، وودعنا دليلنا مصممين على ألا نأخذ دليلا آخر. رفع أحد الجنود حاجز بوابة المدينة وهتف: "حذار الوحوش الضارية!"

وخرجنا وغابت المدينة وراءنا.

في ظلام الليل بدت الظلال وهمسات الاجمات مخيفة خطرة. وكانت حدود السودان تبعد قرابة ألف كيلومتر. كنا وحيدين في تلك القفار الشاسعة الموحشة.

ولاننا صرنا اثنين فقد ازداد عملنا صعوبة. لكننا كوفئنا بشعور جديد بالحرية. وبتّ على يقين من أننا سنتمّ الرحلة معاً الى نهر النيل من دون حاجة الى دليل.

كانت ماريا نتونيتا تقوم بأعمال الرجال الاقوياء. فتحمل الصفائح الثقيلة وأكياس المؤن وتقود الجمال ماشية ساعات تعادل الساعات التي كنت أمشيها. وازدادت سرعة مسيرنا على ما كانت حين رافقنا دليل، فسرنا بمعدل ١٢ ساعة قاطعين حوالى ٥٠ كيلومتراً يومياً.

في الليل كان الحنان والسكون يغمراننا، وما ان ينبثق الفجر حتى ننهض فنحزم أمتعتنا على متون الجمال ونعاود السير ونحن نتطلع الى السودان التي أضحت لنا كأرض ميعاد، وبات عبور التشاد بوتقة اختبار تنصهر فيها قوة احتمالنا.

ذات مساء اقتربت منا ضباع فتجمدنا رعبا لدى سماعنا جرّ أقدامها وعويلها الشرير. وتوقفت الجمال عن الرعي وأصاخت بسمعها مذعورة.

قلت لماريا نتونيتا: "لا تخافي، فالضباع لا تهاجم الناس. انها قمّامة تقتات بالجيف." ولم أكن مقتنعاً بما قلته، لان الاعتقاد الشائع أن الضباع لا تفترس الا الجيف ليس الا خرافة.

في تلك الليلة أيقظنا عويل ضبع في أجمة شائكة لا تبعد أكثر من خمسة أمتار. فسدّدت مشعلي اليه، واذا بعينيه الصفراوين الذهبيتين تلتمعان في الظلام. أمسكت بفأسنا الصغيرة وأمسكت ماريا نتونيتا بعصا وطفقنا نصيح ونضرب الصفائح والقدور

لابعاده. وأشعلت ناراً اضطرمت بسرعة، فتوارت عينا الوحش المتوهجتان في الظلام. لكننا أبقينا النار حتى بزوغ الفجر.

في اليوم التالي لم يغب عنا خوف الضباع. وبعد الغروب تناولنا طعام العشاء وذهبت لاجمع الجمال، ولدى عودتي رأيت ماريا نتونيتا ممسكة الفأس الصغيرة بيد والمشعل بالاخرى.

قالت لاهثة: "هناك! هناك شيء يتحرك في تلك الأجمة!"

فطمأنتها: "لا شيء هناك."

واذا بعويل مشؤوم يمزق السكون، وخرج حيوان ضخم من الاجمة تبعه صياح وشعاع شقّ حجاب الظلام.

وبرز صبيّان عربيان ومعهما مشعل كهربائي كان هو مصدر الشعاع، وقد تسلّحا بهراوة ورمح، وسألانا: "هل شاهدتما الضبع؟ هذا المكان خطر ترتاده الضباع الضخمة. وهو الاخطر في المنطقة."

سألتهما: "وحل تهاجم الضباع البشر؟"

فأجابا: "نعم، انها لا تخاف شيئاً الا النور والنار. لا تمكثا في العراء بل في مخيم أو قرية. الضباع تهاجم الجمال أيضاً."

في تلك الليلة أيضاً أبقينا النار موقدة حتى الصباح.

ولشدة العياء الذي أصابنا نتيجة إذكاء النار باستمرار الليلة السابقة، نصبنا مخيمنا باكراً مساء اليوم التالي، وأبقينا الجمال قريبة منا وأشعلنا النار. واذ أوشكت النار أن تنطفىء همست ماريا نتونيتا محذرة: "لقد توقفت الجمال عن الاجترار!"

كانت على حق، فقد هدأت الجمال وراحت تحدق عكس اتجاه الريح الى شيء في الظلام لا نراه. واذا بنا نسمع ولولة ارتعدت لها فرائصنا. فهتفت ماريا نتونيتا: "ما هذا؟"

قلت لها: "كأنها معزاة تُذبح."

صاحت ماريا نتونيتا: "انه ضبع، وهو يندفع نحونا!"

رأيت عينين تتوهجان على بعد رمية حجر من الجمال. وأطلق الوحش ولولة مرعبة وراح يطوف حولنا محاذراً. فرأينا بطنه المنتفخ ورأسه الضخم الاسود وسمعنا لهاثه ووقع أقدامه. كان أضخم ضبع وقع عليه نظرنا.

ثم اقترب وجبَهنا وجهاً لوجه وراح يستنشم الهواء. وحدّقت اليه فرأيت سعير الجحيم في عينيه وتصميما عنيدا على مهاجمتنا وافتراسنا. صرخت لزوجتي: "هاتي مسدس الشعلات!"

وبعد بحث محموم في الرحل ناولتني ماريا نتونيتا المسدس، فلقمته خرطوشة

وقدحت الزناد فخذلني مرتين ولم أسمع الا "كليك! كليك!" وفي المرة الثالثة دوى انفجار فاشتعل الليل بهالة من نار قرمزية لامعة. وما هي الا لحظة حتى توارى الضبع في ظلام الليل.

حضنتني ماريا نتونيتا وهي ترتعش وسألتني: "ماذا لو عاد؟ قد تهاجمنا ضباع أخرى."

قلت: "سنقيم سياجاً حولنا. أشعلي النار ولتبق مشتعلة!"

ثم تناولتُ الفأس وخرجت في العتمة أقطع ما تيسّر لي من الحطب حتى تقرّحت يداي. وعدت بأغصان صغيرة للوقود وأخرى كبيرة شائكة لتسييج موقعنا. وأخيراً جلسنا منهكين داخل حظيرتنا.

سألتني ماريا نتونيتا: "هل ستنام؟"

أجبت: "لا! سنتناوب الحراسة ساعتين لكل منا. دَوْري أولاً."

ولم تمر عشر دقائق حتى كنت مرتميا على الامتعة أشخر عالياً، فأيقظتني ماريا نتونيتا قائلة: "يا لجَلَدك وحراستك المجيدة! لو اتكلنا عليك لهلكنا."

بعد ستة أيام في ٢٧ فبراير (شباط) وصلنا الى احدى مجمّعات ماء المطر، فالتقينا عجوزاً محنية الظهر ذات وجه ودود، فسألناها: "هل نحن في التشاد أم في السودان؟"

فأشرق وجهها: "إيه؟ هنا السودان!"

تمتمت ماريا نتونيتا: "الحمد لله!"

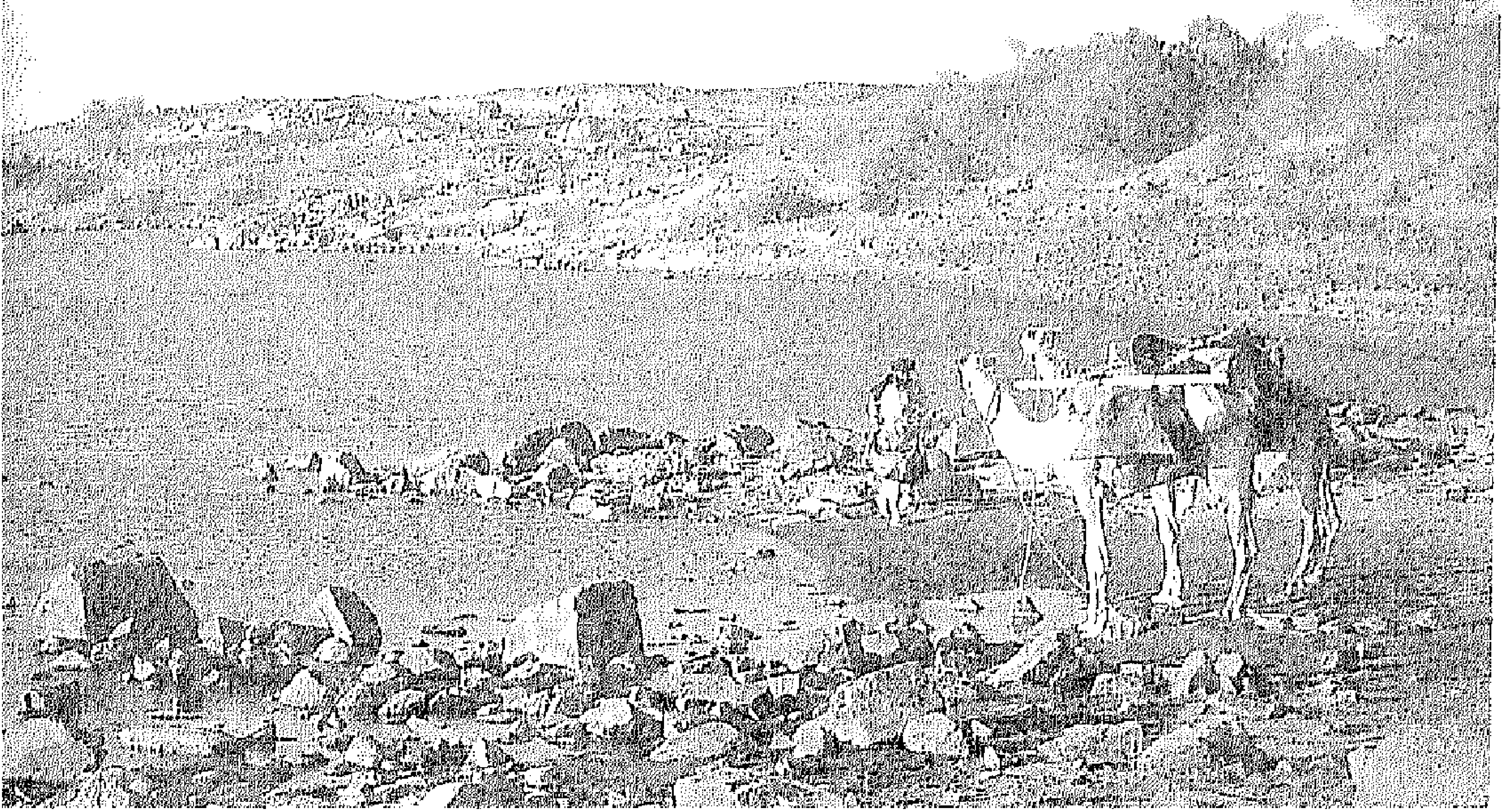
وطئنا أرض السودان مخلفين وراءنا خمسة آلاف كيلومتر من الصحراء والتحديات والمعاناة. لقد انتهى كابوسنا.

[illegible] الأخيرة

بعد شهر وصلنا الى مضارب عرب الكبابيش الذين عشت بينهم ثلاث سنوات. فأحاط بنا أصدقاء قدامى أنزلوا أمتعتنا وقيدوا قوائم جمالنا بالشكال وأطلقوها للمرعى.

ورحب بنا شيخ القبيلة التوم واد حسن باكرام ومحبة خالصة. وحضر معارف كثيرون للقائنا ولمشاهدة "زوجة عمر." وأمر الشيخ بذبح خروف تكريماً لنا. وجلسنا في خيمة الضيافة الكبيرة بعض الوقت ونحن نسمع في الخارج أصوات النساء وهن يهيئن الشواء. وساد الجو شعور بالرغد والطمأنينة وبدا كل شيء في مكانه السوي وفق التقاليد المكرسة منذ القدم.

وصفت لزوجتي التقاليد العربية المتبعة في الولائم: أول الطعام يقدم الى الضيوف



خاتمة الرحلة تعبئة القرب من نهر النيل على الحدود السودانية المصرية

وهو لحم نيء، فعليها تناول قطعة منه والا عدّ امتناعها اهانة كبرى. وبدأت الوليمة، فقدمت الينا مكعبات من اللحم النيء التي اعتبرها مضيفونا لذائذ شهية. فبدت مسحة من الاشمئزاز على محيا ماريا نتونيتا، فهمستُ لها بالانكليزية: "هيا، كلي. انهم ينتظروننا لكي يبدأوا الأكل."

فتمالكت نفسها وتناولت قطعة مترددة، ثم أخذت تمضغها بسرور ظاهر. قالت: "انها لذيذة حقا!"

ثم أحضرت لنا أطباق اللحم المشوي فأشبعنا نهمنا حتى الانتفاخ.

بقي أمامنا سهل صخري يتعين اجتيازه وليس فيه سوى بئر واحدة تسمى "أبو طبرى" محجوبة في منطقة واسعة من الصخور التي نحتتها يد الريح. فأخذنا معنا دليلا اسمه آدم ليساعدنا في الاهتداء الى البئر، علما أن نهر النيل كان لا يبعد الا مسيرة عشرة أيام.

في ١٢ ابريل (نيسان) شاهدنا صخراً ذا رأسين فهتف آدم: "هذه هي بئر أبو طبرى." ومرّت ساعة ففارق الابتهاج آدم ولاذ بالصمت. وبدا الصخر ذو الرأسين بعيداً جداً عن المعالم التي حددتها بوصلتي. لم يطل صمت آدم، واذا به يعلن فجأة: "لا أعتقد أن هذه هي البئر المنشودة."

حدقنا اليه مذعورين، وصحت به: "لا تعتقد ذلك؟ أتعني أنك لست متأكداً من موقع البئر؟"

أجاب: "نسيت الموقع يا عمر. فمنذ عشرين سنة لم تطأ قدماي هذا المكان."



مايكل وماريا نتونيتا على عتبة منزلهما في واحة تشينغيتي.

كظمت غيظي وقلت له: "لا أحد معصوما عن الخطأ. ولكن ان لم نعثر على البئر غداً فسنعود من حيث أتينا."

فردّ محتجاً: "ولكن يمكننا الوصول الى نهر النيل."

قلت له وأنا عالم تماماً أنه يخشى أن يفقد اعتباره إن نحن عدنا: "آدم، النيل يبعد عنا مسيرة ستة أيام أو سبعة، والماء لدينا يكفينا ليومين فقط، وأنت أيضاً في حاجة الى الشرب."

فجر اليوم التالي انطلق آدم باحثاً عن اثار جمال علّها تهدينا الى البئر. قالت ماريا نتونيتا متنهدة: "يا الله! أيحدث هذا ونحن على هذا القرب من نهر النيل؟"

فطوقتها بذراعي وسألتها: "هل أنت نادمة على القيام بهذه الرحلة؟"

أجابت: "لا، على الاطلاق، ولا اتمنى القيام بها مع أحد سواك."

في وقت لاحق وقف آدم على قمة برج من الصخر والرمل وأجال بصره عبر الصحراء ثم قال خائباً: "لا شيء."

كان ذلك قرابة الظهر وقد سرنا منذ الفجر من دون أن نشرب نقطة ماء. فشعرت بفمي جافاً كالحصى. قلت: "يكفينا ضياعاً، لنعد."

أدار آدم الجمال مكرهاً كالح الوجه. فجأة هتفت ماريا نتونيتا: "انظرا! هناك!" فاستدرت وشاهدت في البعد جملاً ورجلاً ينتشل ماء من بئر محجوبة عن الانظار.

هتفت: "أبو طبرى! لقد وجدناها!"

تقدمنا من الرجل فصافحنا ورفع لنا الدلو الجلدي لنشرب منه ونرتوي. فأخمدنا

عطشنا بالماء البارد المنعش الذي انسكب على صدورنا. والحقيقة أني لم أذق في حياتي ماء ألذّ أو أكثر انعاشاً من ذاك.

تابعنا السير، فعصفت بنا هبة ريح ساخنة منذرة بعاصفة رملية. فنزلنا عن الجمال وربطناها معاً.

كادت العاصفة تدفننا برمل رمادي. وكنا أثناء هبوبها نصرّ بأسناننا ثابتين في كفاحنا الأخير في وجه الصحراء.

عند شق الفجر هدأت العاصفة، فنهضنا من تحت ملاءات الرمل التي غطتنا. ومن فوق كتلة صخرية أشار آدم الى خط أخضر لم نتوقعه هناك والى ومض مياه مترقرقة أذهلتنا. وارتفعت خلف المياه الفضية تلال صفر على امتداد الأفق. قال آدم: "هناك تنتهي الصحراء."

انحدرنا عن الجرف ملهوفين نجرّ الجمال وراءنا. ودخلنا بلدة الدبّة الصغيرة على ضفة نهر النيل. أمسكت يد ماريا نتونيتا وسرنا بقافلتنا في شوارع البلدة حيث وقف الناس لمشاهدتنا.

لن تمحى من ذاكرتي صورة النيل العظيم الرمادي الصامت الازلي اذ شاهدته بعد اشهر السفر الطويلة.

مدت الجمال أعناقها الى صفحة المياه الجارية وراحت تعبّ الماء نهمة لارواء غلتها. ووقفت وماريا نتونيتا ويدانا متشابكتان ونحن نحدق غير مصدقين الى المياه المتدفقة رمز الحياة. فنزعت الصندل الذي كنت اشتريته في تشينغيتي قبل ٢٥٦ يوما مرّت كأنها حياة ثانية. لقد دخل هذا الصندل التاريخ لاني اجتزت به عظمى صحارى العالم.

أمسكته بيدي وحدقت اليه هنيهة ثم رميت به في المياه المدوّمة.

مايكل آشر ■

ترجمة الياس عقل

طرق الامهات

عادت رسالتنا الى العم سالم مختومة بالعبارة الآتية: "المرسل اليه غير معروف." مرة ثانية ينتقل عمي من دون أن يبلغ أحداً بعنوانه الجديد! لكن جدتي لم تهتم للامر، بل سارعت الى توجيه رسالة أخرى الى ابنها. ولشد ما كانت مفاجاتنا حين تلقت رداً بعد أسبوع.

عندما سألناها ماذا فعلت أجابت: "كتبت على الرسالة: أرجو تسليمها على عنوانه الجديد. ووقعتها: أمّ قلقة."

س.ر.

كتاب الشهر

مغامر في حياة ملكة

بقلم تشارلز و. سميث

مغامر في حياة ملكة

جني جوزف وايتسايد بويل ثروة لا يستهان بها ابان "حمّى الذهب" في منطقة كلوندايك بكندا. أما ما استهواه فعلا فكان حب المغامرة التي عاشها "مرتزقاً" يحلّ حيثما يلوح بارق ربح أو متعة أو إثارة. وهذا ما حمله عام ١٩١٧ الى روسيا التي عمّتها اضطرابات الثورة، ومن ثم الى رومانيا الغارقة في الحرب حيث وقع في غرام ملكة جميلة رومانسية اسمها ماري، كرس خدماته لها ولقضيتها باعثاً في الأذهان صورة الفرسان النبلاء في بلاطات ملوك بريطانيا. وهذه قصتهما وقصة الظروف العاصفة التي جمعتهما، وهي تستند الى سِيَر منشورة وتلقي بعض الضوء على حياة هذا الكندي الفاتن.

ILLUSTRATIONS: GREG RUHL



٧ مارس (آذار) ١٩١٨

عزيزي جورج،

قُطعت عنا الامدادات وتعرضنا للخيانة وأحاط بنا الاعداء من كل جانب، فاضطررنا الى الاستسلام على رغم الروح المعنوية العالية التي تحلى بها جنودنا. أما أنت فلسوف تحارب وتنتصر، ويوم تنتصر لا تنسَنا. وحتى حلول تلك الساعة المباركة، استودعك الله يا جورج. فأنا على وشك مواجهة مصير اكثر سوادا مما يسعني تصوره. وكم كنت افضل الموت مع جيشنا حتى الرجل الأخير على الاعتراف بهزيمتي. كيف لا وفي عروقي دم انكليزي.

ابنة عمك المحبة،

ميسي.

- رسالة الى جورج الخامس ملك بريطانيا من ماري ملكة رومانيا.

ليس عجباً أن تستسلم ماري، ملكة رومانيا الانكليزية المولد، لليأس والقنوط. فجيوش القوى المركزية – ألمانيا والنمسا وهنغاريا وتركيا وبلغاريا – زحفت الى عمق البلاد. وسقطت العاصمة بوخارست وأُخلي البلاط الملكي ومقر القيادة العسكرية ونقلا إلى بلدة ياشي المتاخمة لحدود مقاطعة بيسارابيا الروسية. وفي ٧ مارس (آذار) ١٩١٨، يوم كتبت ماري رسالتها، أُجبر زوجها الملك فرديناند على توقيع معاهدة سلام أولية جائرة.

ولم يكن ممكناً تلقي أي مساعدة من روسيا، حليفة رومانيا الأقرب في تلك الآونة، إذ تنازل القيصر نقولا الثاني – نسيب ماري – عن عرشه قبل سنة وسجنه البولشفيون هو وعائلته، وأجرت الحكومة الثورية مفاوضات في شأن معاهدة سلام مع ألمانيا وأعلنت الحرب على جيش رومانيا المنهك.

وسط هذه الأجواء الكئيبة، وصل ضابط كنديّ قوي البنية أزرق العينين الى بلاط رومانيا مساء ٩ مارس (آذار) ١٩١٨. خلع معطفه المبلل ومشى عبر قاعة الاستقبال وجزمته الموحلة تلطخ السجاد الفاخر.

تقدمت ماري (٤٣ عاماً) والعيون تتابعها، لتحية المقدَّم جوزف وايتساند بويل، وسألته بوجه جميل متعب: "هل جئت لمقابلتي؟"

أجاب بويل: "لا يا سيدتي. جئت لمساعدتك. لكم أنت في حاجة الى مساعدة!" ثم تناول يدها الممدودة بقبضة محكمة.

وقد صرَّحت ماري لاحقاً: "تفاهمنا لحظة تصافحنا، وكأننا لم نكن يوما غريبين." في تلك الأمسية جلستْ ماري مع جو بويل لساعات. وقد جاء في مذكراتها: "فتحت

له قلبي. وعندها همَّ بالذهاب قلتُ إن الجميع تخلوا عني، فرد بهدوء: أنا لن أفعل. وكانت قبضته حين صافحني قوية كالحديد."

لم يكن جو بويل فارساً شاباً يخطر بدرع برّاقة. فهو بلغ الحادية والخمسين من عمره وجنى ملايين الدولارات من ذهب كلونديك. لكنه أقسم أن ليس من قوة سترغمه على التخلي عن ماري ما دامت هي وبلادها في حاجة إليه، وأحسَّ عندئذ بالحب الحقيقي يتسرب الى قلبه للمرة الأولى في حياته.

العروس الطفلة

وُلدت ماري ألكسندرا فكتوريا، الملقبة ميسي تحبباً، يوم ٢٩ أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٧٥ في إيستويل هاوس، وهو قصر ريفي في مقاطعة كنت البريطانية من الضخامة بحيث لم يتسنَّ لها ولشقيقاتها الثلاث استكشاف جميع غرفه. وكان والدها ألفرد، دوق أدنبره وثاني أبناء الملكة فكتوريا، قائداً بحرياً وأرستقراطياً وسيماً نموذجياً ورياضياً صموتاً.

وكانت والدة ميسي، الروسية المولد وابنة القيصر ألكسندر الثاني، زوجة غير سعيدة كرَّست نفسها لأولادها. ذكرت ماري: "أحبَّتنا ماما بعاطفة قوية. كانت ماما هي التي نلوذ إليها، ماما هي التي تقبِّلنا قبل أن ننام، ماما هي التي توبخنا أو تثني علينا."

وفي العام ١٨٨٦، عندما بلغت ماري الحادية عشرة من عمرها، أُولي والدها قيادة الأسطول الملكي في البحر الابيض المتوسط. فانتقلت العائلة الى جزيرة مالطة حيث استقرت في قصر تحوطه حدائق عابقة برائحة الياسمين وزهر الليمون. وكان بين رواد القصر الدائمين ابن عمها جورج الذي عمل ضابطاً بحرياً بامرة الدوق. وقد دعت ميسي الأمير، الذي صار لاحقاً الملك جورج الخامس، صديقها المحبوب. وكانت هي بلا ريب ابنة عمه المفضلة.

تبادل الاثنان رسائل كثيرة أثناء غياب جورج في البحر. وهو كتب الى ماري من بريطانيا عام ١٨٨٨: "إني مشتاق إليك كثيراً يا حبيبتي ميسي." وكان واضحاً للعائلة البريطانية المالكة أنّ جورج ينتظر ميسي الصغيرة الحلوة لكي تكبر وتصبح زوجته. وباركت الملكة فكتوريا هذا "التدبير" وزكَّته.

بيد أن خططاً أخرى كانت تراود والدة ميسي، فالدوقة الكبيرة كانت تزدري المجتمع البريطاني وتكره عائلة زوجها، وقد صممت ألا تترك مستقبل ماري بين يدي حماتها.

وراحت تبحث سراً عن زوج مناسب لابنتها. فوقع اختيارها على ولي عهد رومانيا الأمير فرديناند ابن عم القيصر فلهلم الثاني ملك بروسيا وامبراطور المانيا، مما أفرح

ملك رومانيا كارول الذي فقد ابنه الوحيد وهو في السن الرابعة واختار ابن اخيه فرديناند وارثا له. فماري أميرة من نسل ملكي وتتمتع بجمال فتي وشعر ذهبي وعينين بلون الياقوت الأزرق. انها مثالية لانجاب أطفال ملكيين.

وكان فرديناند يكبر ماري بعشر سنين، شابا انطوائيا خجولا مترددا تركَّز اهتمامه على دراسة علم النبات.

وفي صيف ١٨٩٢ اصطحبت الدوقة الكبيرة ابنتها الى ميونخ لاتاحة فرصة لفرديناند كي يتودد اليها. تقول ماري: "جُمِعنا معاً في كل سانحة. كنا يافعين في جو من الحب، وكان الفصل ربيعا ووجه أمي بادي السعادة والترقب."

وفي مايو (أيار) عرض عليها فرديناند الزواج، فقالت نعم.

كتبتْ ماري لاحقا: "بتلك النَعم وقَّعتُ قدري." وسرعان ما أدركتْ أن أهواءهما غير متوافقة. فهي أحبت ركوب الخيل والخروج الى الطبيعة، فيما نزع فرديناند الى الاهتمامات الفكرية.

وتزوجا في ١٠ يناير (كانون الثاني) ١٨٩٣، وكانت العروس في السابعة عشرة من عمرها.

كان شهر العسل كابوسا. وبكلمات مرهفة شرحتْ ماري في مذكراتها أن فرديناند "كان مغرما على نحو رهيب يقارب القساوة. حاولتُ بأسلوبي غير الناضج التجاوب وعاطفته المشبوبة، لكني كنت جائعة وعطشى الى ما هو أعمق."

وبعد سنوات أخبرتْ جو بويل: "تزوجت صغيرة جداً، ولمَّا يستيقظ بي شيء."

أنجبتْ ماري في ١٥ أكتوبر (تشرين الأول) وارثاً لفرديناند سمي كارول. واذ تمددت في سريرها الكبير سمعت دوي مدافع الابتهاج خارج القصر.

"ذهبتُ الى البحر"

وُلد جو بويل في تورونتو بكندا عام ١٨٦٧، وكان والده مربِّي خيول مرموقاً من أصل إيرلندي. أحب الصبي صيد الأسماك والسباحة والملاكمة وركوب خيول والده في أرياف وودستوك في اقليم أونتاريو حيث ترعرع.

وفي العام ١٨٨٤ سافر وشقيقيه الى مدينة نيويورك للعمل في اسطبلات الوالد، ففتنته السفن السامقة الأشرعة في ميناء المدينة، وصادق قبطان سفينة كندية وافق على استخدامه نوتيا عاديا. وهو أمره: "اذهب أولا وأخبر عائلتك بما تنويه، ثم عد من فورك." وكانت السفينة تستعد للابحار بعد ساعتين.

ركض الفتى الى منزله فلم يجد أحداً هناك، فكتب رسالة موجزة الى أهله: "ذهبتُ إلى البحر. لا تقلقوا. جو." وكان ذلك آخر ما عرفته عنه العائلة لثلاث سنوات تالية.

وعلى متن السفينة، اكتشف بويل في نفسه قدرة على قيادة الرجال في الازمات. وحدث أن فقدت السفينة صاريها وسط عاصفة هوجاء ضربتها في المحيط الهندي، وبدأ الماء يتدفق اليها. وبعد أيام من النزح المضني بدأ البحارة المرهقون يتركون المضخات استسلاما، فلمَّ جو شعثهم ونصَّب نفسه آمراً على عمليات الضخ. وأخيراً وصلت السفينة الى أحد الموانيء مترنحة وبحارتها ما زالوا يضخون الماء وقد رفعوا فيها شراعا مرتجلا.

اكتشف بويل في نفسه أيضا مقدرة على كسب المال. وكان، إلى صوته الجهوري الجميل وذخيرته الواسعة من الأغاني الإيرلندية، يتقن العزف على آلة البانجو. فشرع يقيم حفلات موسيقية يؤمها البحارة أثناء فترات الانتظار الطويلة في الموانيء. كما كان ملاكما جيداً من الوزن الثقيل، فنظَّم حفلات ملاكمة استأجر لها قاعات محلية. وغالبا ما كان يراهن بكامل مردوده على الورقة الاقوى: هو.

وفي خريف ١٨٨٧ قام بويل، وقد بلغ العشرين من عمره وامتلأت جيوبه مالا، بزيارة غير متوقعة لاخيه ديفيد في نيويورك. وخلال حفلة استقبال أعدها أخوه لتكريمه التقى مطلقة شابة فاتنة اسمها ملدريد راينور كانت أما لطفل وذواقة للفرو الباهظ الثمن، حتى انها عُرفت بلقب "مِنْك".[1] وسرعان ما طلب بويل المتهوِّر يدها. ولم تمض ثلاثة أيام حتى تزوجا.

هجر بويل البحر. وفي السنوات اللاحقة أنشأ تجارة مزدهرة في قطاع عَلَف الحيوانات في نيويورك وتولى ادارة أحد نوادي الملاكمة. وهناك التقى فرانك سلافن "جلاد سيدني"، وكان بطل العالم في الملاكمة للوزن الثقيل ومنقبا سابقا عن الذهب في أوستراليا.

وفي العام ١٨٩٧ شاعت أخبار عن اكتشاف عظيم للذهب على امتداد نهر كلوندايك في اقليم يوكون بكندا. في ذلك الوقت كان بويل انفصل عن زوجته، فصفَّى موجوداته مانحاً ملدريد معظم ما يملك، على أن يتولَّى هو رعاية ولديه الأكبرين، جو الابن وفلورا، اللذين اصطحبهما الى دار والديه في وودستوك. ثم رحل مع "الجلاد" سلافن بهدف تنظيم سلسلة حفلات ملاكمة لتمويل انطلاقهما الى كلوندايك. بيد ان هذه الجولة أخفقت تماما. ولكن في فكتوريا، ميناء الانطلاق الى حقول الذهب، وافق ممولان على رعايتهما ضمن بعثة تستهدف وضع معالم لدرب سالكة الى يوكون عبر ممر "وايت باس" غير المستكشف.

كانت سكاغواي الواقعة في لسان الاسكا جنوبا مستوطنة هزيلة من الخيم والاكواخ عندما خوَّض بويل وشريكه في مياه شاطئها منتصف يوليو (تموز) ١٨٩٧. لكنها كانت

(١) المنك حيوان فرائي ثديي لاحم.

حية بأقاصيص عن ثروات تنبش من قيعان الجداول حول داوسون. وفي ٢٠ يوليو (تموز) قاد بويل ١٦ رجلا من سعاة التنقيب و ٢٥ جواداً محملة بالمؤن نحو ممر وايت باس المفترض ان يكون عُوينَ ومُسِح على الاقل. لكن الدرب لم تكن مرئية الا في ما ندر، مما اضطر الرتل الى شق طريقه صعوداً طوال ثلاثة أيام منهكة عبر منزلقات تكسوها الجلاميد الصخرية، فيما راحت الجياد تخبّ متعثرة في الوحول النازّة.

وفي أغسطس (آب) وصل بويل وسلافن الى داوسون وهما لا يحملان سوى ٢٢ دولاراً. وكانت عروق الذهب في جدولي بونانزا والدورادو في داوسون استنزفت كلها تقريبا، لكن اعمالا كثيرة كانت متوافرة لرجال المعاول والرفوش الاقوياء. وسرعان ما وجد الشريكان عملا في حقل "الدورادو ١٣" الذي يملكه بيل غايتس المتأنق صاحب "صالون مونتي كارلو."وهناك عثر بويل على أول كتلة ذهبية ملكها، وتعلم فنون الاستتبار، وهو استخلاص دقائق الذهب بغسل الرواسب الغرينية.

بيد ان البحث عن حثالة الذهب لم يكن غاية طموحات بويل. فالثروة الحقيقية، في نظره، كانت في التنقيب الهيدروليكي، وهذا يعني تشغيل آلات جرف كبيرة لرفع الرواسب من القاع، وتوظيف مال كثير، والحصول على امتيازات تنقيب واسعة النطاق. فكيف يتسنى له كل ذلك؟

جاب الشريكان تلال كلونديك. ولم يمض الخريف حتى استطلعا ما يزيد على عشرة آلاف هكتار على امتداد ١٣ كيلومتراً من النهر. ومع اقتراب صقيع الشتاء أخذ بويل قراراً خطيراً: أن يبقىَ سلافن في المنطقة لتسجيل حقوقهما التنقيبية، فيما ينطلق هو الى الساحل ومنه الى أوتاوا للحصول على عقد إيجار آلات هيدروليكية.

انطلق بويل في صحبة بيل غايتس "صعوداً" عبر نهر يوكون على متن قارب مطاطي سرعان ما حاق به الجليد الطافي وأعاق مساره. فشق الرجلان طريقهما بجهد والحرارة دون الصفر، حتى وصلا الى كارمكس بوست حيث التقيا جمعاً صغيراً من الرحالة التائهين. وهناك قرر الجميع تقاسم مؤنهم والانطلاق سيراً بقيادة بويل. فمضوا طوال ٢٥ يوماً يشقون طريقهم بصعوبة بأحذية الثلج وسط الثلج العميق ولا من خيمة او موقد يقيانهم برد الليالي. قادهم بويل كأنهم مساجين موثوقون بسلسلة. وفي مرحلة من الرحلة خاض بويل نهراً بعمق الخصر، ثم عاد وحمل رفاقه ورُزَمهم، كلا بدوره، عبر النهر. وبعد شهر من الترحال المضني وصل الجمع الى الساحل وركبوا باخرة متجهة الى سياتل في ولاية واشنطن الامريكية.

ومن هناك اتجه بويل الى اوتاوا حيث عرض مشروعه على وزير الداخلية الديناميكي كليفورد سيفتون الذي وعده بالدعم لاعتقاده الراسخ بوجوب انماء منطقة كلونديك بجهود كندية.

ولدى عودة بويل الى داوسون في السنة اللاحقة وجد تشتتا في الهجمة على الذهب. واذ ادرك ان الذهب ليس الطريق الوحيد الى الثروة، تحول الى استثمار الغابات الواقعة في نطاق حقوقه التنقيبية. وانشأ منشرة وراح يبيع الاخشاب للمنقبين لبناء الاكواخ والقنوات الاصطناعية. وازدهرت تجارته وجنى مالا وفيرا. ثم اقام مستودعا ورصيفا لتحميل السفن وتفريغها، واستحصل على ١٧ حق استثبار وعلى نصف منحة هيدروليكية، كما اشاد مبنى كبيراً عند مصبّ جدول بير كريك اعتمده مقراً عاما لعمليات تنقيب مستقبلية.

لكن عقد ايجار التجهيزات الهيدروليكية لم يُبتّ الا في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٠٠، في وقت غادر المنطقة معظم المنقبين العاملين هناك منذ العام ١٨٩٨، اذ ولّى زمان المنقب اليدوي.

وشهدت داوسون تحولا الى مجتمع عائلي مستقر له مستشفاه ومدارسه وطرقه المعبدة ومدرَّجه الرياضي وحفلاته الانيقة. وفي العام ١٩٠٢ أكثرت صحيفة البلدة من تغطية أخبار بويل: عن ركوبه جياداً في حلبات السباق، وعن حفلة ملاكمة بين بويل وسلافن اللذين حافظا على صداقتهما على رغم انحلال شراكتهما. في هذا الوقت كان بويل في الخامسة والثلاثين من عمره، رجلا طويلا أسمر وسيم القسمات. وجاء في الصحيفة أنه "سيظهر في الحلبة للمرة الاخيرة، وعلى الجنس اللطيف، إن شاء رؤيته، حضور المهرجان."

وفي العام ١٩٠٥ قبل بويل عرضا من شركة تعدين في ديترويت لتمويل مشروعه التنقيبي، على رغم ان ذلك عنى تجريده من السيطرة على شركة التعدين الخاصة به. ولمّا لم يكن من الصنف الذي يقبل دور "الرجل الثاني" فقد عاد الى وودستوك والى عائلته.

لكن تلك لم تكن نهاية العلاقة بين جو بويل وكلونديايك.

اختبار قوة

كانت وليَّة العهد ماري في التاسعة عشرة من عمرها عندما انجبت طفلتها اليزابيثا. وبدأت تثور على الحكم الجديد للملك كارول وعلى القيود التي فرضها على تنقلاتها. وامتلأت نفسها مقتاً للقصر الكئيب "حيث لا زهور ولا مكان مريحاً ولا كرسي صالحاً للاسترخاء."

ولم يكن يُسمح لها بتربية ابنها وابنتها، ذلك لان كارول وزوجته اليزابيث – الشاعرة الغريبة الاطوار الملقبة "كارمن سيلفا" – اعتبرا ورثة العرش ذخائر وطنية تنبغي تنشئتها وفق مفاهيمهما الخاصة وعلى ايدي أناس يختارانهم. وعندما انتقلت ماري

وفرديناند الى قصر كوتروسني عام ١٨٩٦، تولى الملك والملكة اختيار خدمهما وافراد حاشيتهما.

في ذلك العام دُعيت ماري وزوجها فرديناند الى بطرسبرج لحضور حفلة تتويج نسيبيها القيصر نقولا الثاني والكسندرا. وكانت زيارة البلاط الروسي، بالنسبة الى ماري، "كالانتقال من الظلام الى نور الشمس الباهر." كما كانت حفلة التتويج "حلماً اكثر منها حقيقة."

لم تعرف ماري قبل زواجها سوى نزر يسير عن حياة المجتمع الراقي. وها هي مدعوة الى جولة من الحفلات المترفة والرحلات ومآدب العشاء في ضوء القمر. كانت عيون المعجبين تلاحقها وهي ترقص الفالس فوق الرخام الابيض في "قاعة الفرسان" وأضواء ثريا الكريستال الضخمة تتلألأ منعكسة على جدائل شعرها الذهبي. وكان معظم هؤلاء المعجبين من الضباط "اللامعين، الحيويين، العاطفيين، الشجعان، المتّقدين حرارة روسية." وكان اكثرهم اتّقاداً نسيبها الضاحك ذو الصوت الأجش الدوق الكبير بوريس. تقول ماري: "الروس سريعو الالتهاب. وللمرة الأولى تكشّفت لي تلك القوة التي هي قوة المرأة. وقد سرني ذلك الاكتشاف."

وسرعان ما عادت ماري الى بوخارست حيث "لم أجد فرحاً حقيقياً الا في رؤية ولدي." بيد ان الملك كارول لم يلبث ان بدل موقفه وأرخى عطفه على تلك الفتاة الانكلو - ساكسونية التي يستطع تحطيم ارادتها، فعينها في خريف ١٨٩٧ رئيسة فخرية لفوج خيالة.

فرحت ماري كثيراً بهذا المنصب، وراحت تركب فرسها كل يوم في حقل التمرين خلف القصر، مرتدية بزة الفوج الزاهية الحمراء الذهبية الازرار، فيستقبلها الفرسان



بالهتافات. واذ غدت فارسة جسورة متمرسة، راحت تتدرب مع الفرسان على لحن فالس خاص بالفوج وتتقدمهم فخورة في العروض.

كان ركوب الخيل بالنسبة الى ماري ضروريا "كالطعام والنوم." وهذا، في الواقع، هو ما علّمها حب وطنها الثاني. كتبتْ: "استيقظ حب رومانيا في نفسي وانا على متون الخيل."

وكانت الاميرة الفتيّة كلما انتقل البلاط الى منتجع سينايا في اعالي جبال الكاربات، تركب فرسها في رحلات طويلة وسط المروج وغابات الصنوبر الكثيفة. واحتكّت خلال رحلاتها هذه بقرويين رومانيين وجماعات من الغجر الرُحَّل الذين غدوا مواضيع أساطير كثيرة كتبتها ونشرتها لاحقا.

في غضون ذلك، راح أعضاء البلاط يغمزون من قناة ماري ويتساءلون عما اذا كان ركوبها الخيل يتهدد واجباتها كمنجبة أطفال ملكيين. وهي نادرا ما كانت تركب الخيل جانبيا كما يليق بالسيدات. بيد ان ماري انجبت في مطلع القرن العشرين اربعة اطفال آخرين: بنتين هما مينيون واليانا وصبيين هما نقولا وميرسيا، وقد قضى هذا بداء التيفوئيد وهو في الثالثة من عمره.

وفي مارس (آذار) ١٩٠٧، وكانت ماري في الثلاثين من عمرها، ثار فلاحو رومانيا على الاقطاعيين مطالبين بقسمة اكثر عدلا للارض. وأدت هذه الثورة، التي مُحقت بقسوة، الى يقظة ماري سياسيا، فراحت تستطلع شؤون بلدها. وكان لها في ذلك حليف غير متوقع هو الملك كارول. فلقد أدرك الملك العجوز أن ماري امرأة ذكية وصاحبة شخصية قوية، فأولاها ثقته. وهكذا غدت ماري قوة وراء العرش يُحسب لها حساب.

ولم تمضِ سنوات حتى اغتيل الارشيدوق فرانز فرديناند ولي عهد النمسا في سارايفو في صربيا يوم ٢٨ يونيو (حزيران) ١٩١٤. وكانت هذه الجريمة هي الشرارة التي أغرقت العالم في حرب ضروس وغيرت حياة ملايين البشر، بمن فيهم ماري وليّة عهد رومانيا ومنقب ذهب مغامر في يوكون البعيدة عُرف آنذاك بلقب "ملك كلونديك."

ذهب كلونديك

اكتشف جو بويل خلال فترة ابتعاده الطوعي عن يوكون أن جزءا من الصفقة التي عقدها مع شركة التعدين في ديترويت لا يخلو من الاحتيال. فثار سخطا ورفع أمره الى القضاء. وبعد معركة قانونية دامت سنتين ربح القضية. وفي سبتمبر (أيلول) ١٩٠٩ عاد الى كلونديك مالكا غالبية الأسهم ومديرا لشركة كلونديك الكندية للتعدين.

وكان بويل خلال فترة ابتعاده عن يوكون يخطط لبناء "جرافة بارجة" هي الكبرى

في العالم من حيث احتواؤها على ٧١ مجرفة عملاقة قادرة على رفع ما يزيد على ١١ ألف متر مكعب من الرواسب يومياً. ومتى جُمعت هذه المجرفة وجب تثبيتها في موضعها بعمود فولاذي هو من الطول والثقل بحيث ان المشككين عقدوا رهانات على انه لن يُرفع أبداً. وقد كتبت فلورا، ابنة بويل، بعد سنوات: "بلغت نسبة الرهان ثمانية الى واحد على أن جو بويل لن يتمكن من ارساء هذا العمود الضخم في موضعه من دون رافعة. لكنه فعل. واستطاع، بواسطة أسلاك معدنية وبضعة جياد وفريق من الرجال، إرساء العمود البالغ وزنه ٣٠ طناً في موقعه بيسر ورشاقة كما لو كان عموداً أوسط يرفع في خيمة سيرك."

دارت الجرافة العملاقة مزبدة في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٠ معيدة بويل الى مهنة التنقيب عن الذهب. ثم اضيفت اليها جرافتان هائلتان، فازدهرت الاعمال وغدا بويل ثرياً.

ولكن بحلول العام ١٩١٣ ضرب النكد العائلة. ذلك لأنَّ بويل، بعد طلاقه من ملدريد عام ١٩٠٧، تزوج إلما لويز همفريز وهي مقلِّمة أظفار التقاها في أحد فنادق ديترويت. وكان ظهور زوجة الأب في حياة فلورا صدمة لها، زادها ما أعلنه بويل من وجوب تركها المدرسة في تورونتو والعودة الى يوكون والى منزل العائلة في بير كريك. إذذاك لم يكن بد من حلول الكراهية في نفس فلورا إزاء إلما.

ولما كان جو رجلا ودوداً كريم النفس، فقد حاول جهده أن يجعل الحياة سعيدة في بير كريك. فأقام حفلات ومآدب وغير ذلك من ضروب اللهو والتسلية. لكنه، مع تفاقم الشجار بين فلورا وإلما، راح ينشد الهدوء في السير وحيداً مسافات طويلة.

كتبت فلورا لاحقاً: "لربما كان أفضل لوالدي ألا يتزوج أبداً، هو المقاتل بالفطرة والسعيد أبداً في خضم الأحداث الخطيرة. لم يكن في هذا الرجل الضخم، الفائر الدم، المغامر، ما يحدوه على الاستقرار مع زوجة وعائلة."

كان بويل في السابعة والاربعين من عمره لدى اندلاع الحرب العالمية الاولى، فلم يلتحق بالخدمة الفعلية لتقدمه في السن. إلا أنه جمع نخبة من متطوعي يوكون ودربهم وجهزهم على حسابه، فألَّفوا وحدة من الجيش الكندي خدمت في فرنسا وحازت أوسمة كثيرة.

وبحلول العام ١٩١٦ عاد بويل يتلهف لخوض المعارك. فترك أعماله في عهدة ابنه وأخيه ديفيد ويمم شطر لندن حيث نال، بالحيلة، رتبة مقدَّم فخريّ في الميليشيا، وحاول اقناع كبار ضباط الجيش بارساله الى فرنسا. ولما يئس من المحاولة تناهى اليه من مهندس صديق اسمه هربرت هوفر (أصبح لاحقاً رئيساً للولايات المتحدة) أن "لجنة المهندسين الأمريكية" تبحث عن رجل يساعد الجيش الروسي في تشغيل

شبكة سكك حديد خفيفة خلف خطوط الجبهة الشرقية. فاستغلّ بويل الخبرة التي اكتسبها في مجال السكك الحديد الخفيفة في كلونديك، وتطوّع فرحا بالسانحة.

وذات صباح مشرق من يونيو (حزيران) ١٩١٧، خطا صياد الثروة جسوراً في شوارع بطرسبرج ولمّا تمضِ ثلاثة أشهر على سقوط القيصر نقولا الثاني. كان لافتاً للنظر ببزّة الضابط الجديدة وسيفه التقليدي وشاراته المقتطعة من ذهب كلونديك الخالص وبقامته المديدة ووجهه الصارم. كان المقدّم جوزف بويل وايتسايد على وشك خوض مغامرته الكبرى التي ستنيله وسام الخدمة المميزة ووسام الحرب وستة أوسمة أخرى ولقب دوقية وحب ملكة لا يموت.

تاج من خيوط

أحدثت الحرب انقساما مؤلما في العائلة الرومانية المالكة. فلقد مالت ماري ومعظم اتباعها الى بريطانيا وروسيا بفعل قرابة الدم التي تربطها بهذين البلدين. الا أن زوجها فرديناند وحماها الملك كارول، وهما من الأمراء الهوينزولرنيين،[٢] دانا بالولاء الى المانيا، وكذلك فعلت زوجة كارول الالمانية الاصل. وقد حضّت المانيا والنمسا الملك كارول على التعبئة العسكرية ضد روسيا، فلبى الملك الروماني النداء، وكان سبق أن تدرب في الجيش البروسي وآمن أن المانيا لا تُقهر.

ولكن في اجتماع عقده المجلس الملكي في ٣ أغسطس (آب) ١٩١٤، عارض الوزراء رأي الملك، فيما بقي فرديناند صامتاً خشية معاداة عمه أو زوجته. وأخيراً أعلن رئيس الوزراء يون براتيانو أنّ رومانيا ستقف على حياد، على أن تستعد للحرب، وربما لخوض الحرب الى جانب الحلفاء.

خرج كارول من الاجتماع مهيض الجناح. وبعد أسابيع قليلة، في ٥ أكتوبر (تشرين الاول)، مات أثناء نومه. وعندما أقسم فرديناند يمين الولاء للدولة أمام البرلمان في اليوم التالي، قوبل بعاصفة من التصفيق. وتتذكر ماري: "فجأة دوى اسمي في الملأ: ريجينا ماريا! ريجينا ماريا!" فأزاحت الملكة الجديدة حجاب الحداد عن وجهها، "وتواجهنا حينئذ، أنا وشعبي. وفي تلك الساعة علمت أن الفتاة التي جاءت من وراء البحار لم تعد غريبة. كنتُ لهم بكل قطرة من دمي!"

بقيت رومانيا على الحياد سنتين. وفي ١٧ أغسطس (آب) ١٩١٦ وقّعت معاهدة مع الحلفاء تعهدت بموجبها إعلان الحرب على المانيا والامبراطورية النمسوية - الهنغارية. ولم تمضِ عشرة أيام حتى زحفت الجيوش الرومانية على ترانسلفانيا. غير أن الحملة كانت قصيرة الامد إذ سقطت مدينة براسوف في أيدي الالمان في

(٢) هوينزولرن اسرة المانية حاكمة انتسب اليها ملوك بروسيا من ١٧٠١ الى ١٩١٨ واباطرة المانيا من ١٨٧١ الى ١٩١٨.

٩ أكتوبر (تشرين الاول) مما اضطر الجنود الرومانيين الى التراجع عبر ممرات جبلية وعرة ومعهم ألوف اللاجئين. وفي ٢٢ أكتوبر (تشرين الاول) استولى الالمان على كونستانتا، الميناء الرومانية الوحيدة الصالحة للامدادات. وكتب مراسل صحيفة "لندن تايمز": "لقد ضاعت رومانيا المسكينة."

في غضون ذلك جالت ماري على المستشفيات حاملة معونات للجرحى. وكانت تعاتب فرديناند بقسوة لملازمته مقر قيادة الجيش وعدم زيارته الجنود في الخطوط الامامية. كتبت: "أواه، ليتني أنا الملك! لكنتُ الآن بينهم حقيقة لا مجرد اسم!"

سقطت بوخارست في ٦ ديسمبر (كانون الاول)، وهربت الاسرة المالكة والحاشية والحكومة والقيادة العسكرية الى ياشي على حدود روسيا، ونقل الاحتياط الذهب ومجوهرات التاج ومحفوظات وزارة الخارجية الى روسيا لحفظها. ومع حلول رأس السنة ١٩١٧ كانت بقايا الجيش الروماني لا تزال صامدة بعناد في جبهة طولها ٥٠٠ كيلومتر جنوب شرق مولدافيا، محاصرة بين الجبال ونهر الدانوب "كجوزة بين فكي كماشة" بحسب تعبير رئيس الوزراء البريطاني الراحل ونستون تشرشل.

عمَّت الفوضى ظروف الحياة في ياشي، وهي مدينة ريفية كان يقطنها ٧٠ ألف نسمة فاضطرت فجأة الى استيعاب نحو ٢٥٠ الف لاجىء، الى جميع أجهزة الدولة الحكومية والعسكرية.

وفي فبراير (شباط) استشرى وباءا الجدري والتيفوئيد، ولم يمضِ فصل الشتاء حتى قضى ٣٠٠ الف شخص. وخدمت الملكة وأولادها في المستشفيات حيث حُشر كل ثلاثة جنود في سرير وكانت جروحهم تُضمَّد بالنشارة لعدم توافر مياه ساخنة لغسل الملاءات والضمادات. وفي أجنحة التيفوئيد مدت الملكة يديها لمصابين على فراش الموت. ولمَّا نُصحت بوضع قفازات واقية قالت بازدراء: "لا يسعني تركهم يقبِّلون مطاطاً." وكانت متى حل الليل تقف في دلو ماء وتخلع ثيابها وتبدلها تخلصاً من القمل.

وفي نوفمبر (تشرين الثاني) زارت جنودها في الخنادق. وكتبت لاحقا: "عندما جلستُ معهم في مخابئهم، أخبروني كم تمدهم رؤيتي بقوة وبرغبة في الصمود حتى الرجل الأخير. شعرت إذذاك بغصَّة تتنامى في حنجرتي."

كان واضحاً أن الجيش لن يصمد طويلا. وفي ٩ ديسمبر (كانون الاول) وقَّعت رومانيا هدنة مع "القوات المركزية" وبدأت المفاوضات على معاهدة سلام.

احتفل فرديناند وماري في يناير (كانون الثاني) ١٩١٨ بالذكرى السنوية الخامسة والعشرين لزواجهما. وللمناسبة، قدَّم وفد سيدات الى الملكة تاجا من خيط فضي جدلنه لتضعه على رأسها بدلا من مجوهرات التاج المحفوظة في موسكو (والتي صادرها البولشفيون ذلك الشهر مع احتياط رومانيا من الذهب).

وفي مارس (آذار) وقعت معاهدة سلام أولية أرغمت رومانيا بموجبها على التنازل عن مناطق واسعة من أرضها لهنغاريا (المجر) وبلغاريا، وتسليم نفطها الى شركات المانية لثمانين عاماً، وتسديد نفقات جيش الاحتلال فيها، وإجلاء جميع بعثات الحلفاء للحال. وقد نفذ كل ذلك، ولكن نُسي رجل اسمه جوزف بويل أقسم الاَّ يهجر الملكة وعقد العزم على البقاء في خدمتها حتى النهاية.

[illegible]

بعد أيام على وصول بويل الى بطرسبرج في يونيو (حزيران) ١٩١٧، حدد مبادىء عمل أساسية. وعندما طلب منه المسؤولون الروس إدارة شؤون سكة حديد مورمانسك وأرشنغل، كان جوابه فظاً اذ أعلن أنه لن يدير سكة حديد بُنيت على عظام رجال مسخَّرين، وقد حُددت مهمته بتنظيم السكك الحديد الخفيفة خلف الخطوط الأمامية، وهو لن يرضى مهمة سواها. وأصرّ على منحه صلاحية تامة.

كانت السكك الحديد وأنظمة النقل بواسطة الجياد في الخطوط الأمامية في حال مزرية. فأرسل بويل برقية الى لندن طالباً عُدد صيانة وقاطرات وحافلات ومنسقاً لحركة سير القطارات ووحدات من السكك الحديد التابعة للجيش الكندي وجرارات "كاتربيلر" تحل مكان جياد العربات التي كانت تنفق بمعدل ٧٠٠ في الشهر.

وفيما كان بويل ذات يوم يتفحص السكة الحديد في تارنوبول، اقتحمت قوات المانية مواقع الجيش الروسي وبددت الجنود ففروا في كل اتجاه. ولما اكتشف بويل فرار جميع العاملين في مقر القيادة الروسية، تولى هو القيادة. وأقام، بمساعدة ضابطين روسيين، نطاقاً من المراكز الدفاعية حول البلدة تجوبه دوريات بريطانية مؤلَّلة وتدافع عنه كتيبة مؤلفة من نساء روسيات أقسمن على القتال حتى الموت. وصمدت البلدة مدة أربعة أيام.

ولدى وصول تعزيزات غادر بويل البلدة الى رومانيا حيث كان الجيش مضعضعا والامدادات معدومة بسبب الحصار المضروب على السكك الحديد والفساد المستشري بين نُظّار المحطات. فلم يجد سبيلا الى فك الحصار سوى اعتماد النقل المائي، فحمَّل أسطولا صغيراً من قوارب الجرّ الخفيفة بالمؤن، وأرسله عبر بحيرة يالبوخ المستطيلة الى أحد خطوط السكك الحديد العابرة بيسارابيا الى الحدود الرومانية. ونجحت هذه الوسيلة في نقل مئات الاطنان من الامدادات يومياً.

ولدى عودة بويل الى مقر قيادة الجيش الروسي التقى النقيب جورج هيل، وهو عميل سرّي بريطانيّ يتكلم الروسية سبق أن عاش في كندا. فتصادق الرجلان وشهدا معاً ثورة ١٩١٧ التي أتاحت للبولشفيين انتزاع السلطة في بطرسبرج.

وفي العاصمة الروسية أوكلت "اللجنة الثورية" الى بويل مهمة عاجلة هي حل "عقدة موسكو." فقد حُشد نحو ١٠ آلاف مقطورة في باحات تجميع غصّت بها، مما حال دون دخول القطارات المدينة وخروجها منها محمَّلة أطعمة وإمدادات حربية، فحصلت مجاعة عاناها سكان موسكو وبتروغراد (كما باتت بطرسبرج تسمى آنئذ) والجنود المرابطون في الخطوط الأمامية. إذذاك عمد الآمر العسكريّ البولشفيّ في موسكو الى ايلاء بويل سلطة كاملة على طواقم السكك الحديد في المدينة آمراً جميع عناصرها باطاعته.

اعتمد بويل نهجاً لا يرحم. فأمر بقلب القطارات المحمَّلة بضائع غير أساسية فوق الأرصفة، وإزاحة المقطورات الفارغة عن الخطوط ودحرجتها الى الحقول. وإذ وجد بويل نفسه في محيطه الطبيعي، خلع رداءه الطويل وانخرط في العمل مع عمّال السكك المتصببين عرقاً. وراقبه المترجم الروسيّ مدهوشاً وهو يُطلق الأوامر ويشجع العمال بأغنيات مثيرة من أيام كلونديك. ولم تمضِ ٤٨ ساعة حتى عادت عجلات القطارات الى الدوران.

وانطلاقاً من مركزه الجديد مفوضاً للسكك الحديد، عمد بويل الى إرسال امدادات الى الجيش الروماني المُبتلى الذي كان في أمس الحاجة اليها. وبدأ، مع النقيب هيل، تنظيم شبكة من العملاء السريين تولت أعمال تخريب وجمع معلومات عن النشاطات الالمانية والبولشفية. ونمت هذه الشبكة المدعومة بأموال بريطانية وفرنسية، وظهرت أهميتها في الاشهر اللاحقة.

وابل من نار

ابّان الشغب الذي شهدته بتروغراد في ديسمبر (كانون الاول) وفد سفير رومانيّ مهتاج الى بويل ومعه طلب مروِّع: هل يستطيع استرجاع مجوهرات التاج والاحتياط النقدي ومحفوظات وزارة الخارجية الرومانية ونقلها الى ياشي؟

كانت تلك مهمة من النوع الذي يصعب على بويل وهيل مقاومته.

علم الاثنان أنَّ الذهب ومجوهرات التاج محفوظة بأمان داخل قصر الكرملين في موسكو، وأن البولشفيين لا يعتزمون إعادتها الى أصحابها. كما علما أنَّ المحفوظات والأوراق النقدية مودعة خزائنَ مصرف الدولة. فقصد الرجلان الحاكم العسكري البولشفيّ في موسكو، مورافييف، وطلبا منه ترخيصاً بنقل هذا الكنز، مذكِّرينه بأنه مدين لهما بحلّ "عقدة موسكو." فلم يكن من الحاكم، وقد أعجبته جسارتهما، إلَّا أن منحهما الترخيص المطلوب.

نظم بويل عملية النقل بالسكك الحديد، فيما تولى هيل اخراج الأوراق النقدية من

صناديقها الفولاذية وتوضيبها في سلال من أماليد مجدولة ونقلها في مزالج عبرت الشوارع المكسوة بالثلوج الى مستودع محطة السكك الحديد. وهناك صادر بويل "لأغراض عسكرية" أربع مقطورات صندوقية[٣] بينها اثنتان مليئتان بامدادات طبية، ووصلها بالعربة ٤٥١ المجهزة ببهو خاص ومطبخ وطاه وحجرات وجدران مقاومة للرصاص. ثم عمد الرجلان الى تكديس المال في العربة ٤٥١، والمحفوظات في المقطورات الفارغة، ووصلا العربات الخمس بقطار بطيء للبريد.

وفيما القطار يتحرك منطلقاً قفز اليه مترجم بويل الروسي، النقيب تولستوي، ليحذره من مكيدة تدبر لفصل العربات تلك الليلة لدى بلوغ القطار محطته الأولى. فتسلق بويل وهيل سطح العربة ٤٥١ وقبعا ينتظران في الظلام. ولدى توقف القطار تسلل رجل تحت العربة وفصلها عن القطار.

يذكر هيل: "نزلنا بهدوء الى الأرض وزحفنا كلٌّ من جانب. وفي الظلام سمعت قبضة الكولونيل تهشم وجه الرجل الذي انطرح أرضا كلوح خشبي." ثم وصل بويل العربة، فانطلق القطار زاحفا عبر الأرياف الملتفة بالثلوج.

ولدى وصول القطار الى مدينة بريانسك، كانت المعارك على أشدها بين جنود بولشفيين وجنود أوكرانيين يتنازعون السيطرة على محطة السكك الحديد. واندفع القطار عابراً المحطة بسرعة قصوى وسط وابل من رصاص البنادق والرشاشات. وعندما توقف خارج المدينة تبين أن ٤٠ من ركابه أصيبوا بجروح. وكانت العربة ٤٥١ سالمة وعلى جنباتها آثار رصاص كثير.

وعندما اقترب القطار من حدود بيسارابيا عجب بويل إذ رأى عرباته تُحوَّل الى مسار جانبي. وسرعان ما صعد اليه ضابط بولشفي قال لبويل إنه وصحبه في قيد التوقيف. ولضمان عدم إتيانهم أي حركة، طوّقهم الضابط الروسيّ بسرية مدافع ميدان ووضع مفرزة حرس في غرفة الانتظار.

هبت في تلك الليلة عاصفة عاتية، فأقام بويل في العربة ٤٥١ حفلة غناء صاخبة لابعاد الشبهات عن خطة للهرب. وأرسل الى الحرس ابريقاً من الشاي المنكّه بكمية كبيرة من الشراب الكحولي. وفي غضون ذلك، وجد هيل على المسار الجانبي قاطرة خاصة بتحويل مسار القطارات من خط الى آخر، وكانت دائرة تنفث البخار.

تسلل بويل وهيل الى الخارج، وأمرا طاقم التحويل، بقوة السلاح، بوصل القاطرة الى العربة ٤٥١ والمقطورات الصندوقية. ثم أمر بويل المهندس بتحويل القطار الصغير الى الخط الرئيسي. وبعد عشرين دقيقة ظهرت أنوار حمراء تومض في المدى المظلم أمامهم، ورأوا حواجز خشبية تقام على تقاطع، ورجالا مسلحين واقفين الى

(٣) المقطورة الصندوقية مسقوفة وذات ابواب جانبية منزلقة.

جانب السكة. وللحال غرز بويل مسدسه في ظهر السائق فيما صرخ هيل بالروسية: "اقتحم الحواجز!" وعندما رأى بويل أن الخوف شل الرجل دفعه جانباً، بينما فتح هيل صمام المخنق. فاندفع القطار الصغير مخترقاً الحواجز.

ولم تكن تلك آخر المشاكل، إذ فيما اقترب القطار من الحدود الرومانية لاحت أمامه عقبة ضخمة. فسارع بويل الى ضغط الكوابح ولكن بعد فوات الأوان. انجرف القطار وسط الأبخرة والشرارات وغيوم الأغبرة عبر كومة عملاقة من التراب حيث توقف مترجرجاً. وفيما راح الرجال ينهضون من سقطاتهم انهمر على جنبات القاطرة وابل من الطلقات النارية من مركز للجيش الروماني. فصرخ هيل وهو متكوِّم في قمرة القيادة: "نحن أصدقاء! نحن أصدقاء!" ولم تمضِ لحظات حتى توقف إطلاق النار.

وصل القطار الى ياشي ليلة عيد الميلاد. ووقف بويل يراقب الكنوز التي نقلها عبر ٢٤٠٠ كيلومتر من دون حامية في بلاد خلو من القانون، ينقلها ههنا ٢٥٠ رجلا من شرطة السكك الحديد وقوة من سلاح الفرسان الروماني.

وبعد انقضاء مهمته انصرف الى تمضية ليلة ميلاد هادئة على متن العربة ٤٥١. لقد كانت تلك سنة طويلة قاسية.

"العم جو"

زار رئيس الوزراء الروماني بويل في ياشي وأخبره أنَّ الجنود الروس يفرّون بالألوف ويعيشون في الريف الروماني، ولا بد من تجريدهم من السلاح وإعادتهم الى موطنهم. فهل يستطيع بويل، بما له من علاقات جيدة مع الروس، تعجيل هذه العملية؟

قرر بويل إجراء اتصال مع الدكتور كريستيان راكوفسكي عضو المجلس الأعلى للشؤون الروسية – الرومانية في أوديسا. لكنه حين بلغ تلك المدينة كان القتال اندلع بين رومانيا والبولشفيين، وكان راكوفسكي سجيناً سياسياً سابقاً في رومانيا، فلم يكن في مزاج يسمح بالبحث في وقف إطلاق النار.

بيد أن ذلك لم يردع بويل الذي لم ينفك، طوال خمسة أيام، عن محاولة إقناع راكوفسكي بمساعدته. وأخيراً رضخ هذا لطلبه. وتوصل الاثنان الى وضع مشروع معاهدة تتضمن تبادل أسرى بمن فيهم ٥٠ ضابطاً ووزيراً ومسؤولا رومانياً أودعوا أحد سجون أوديسا و٤٠٠ ثائر بولشفيّ سجنوا في رومانيا.

وعلى الأثر هرع بويل الى ياشي للحصول على توقيع الحكومة الرومانية على معاهدة الهدنة، ووصل اليها قبيل مغادرة بعثات الحلفاء. وكان يحق للمقدَّم الكندي مغادرة البلاد معهم، الا أنه آثر البقاء، إذ ليس من قوة كانت لترغمه على ترك ماري. وفي اليوم التالي، ١٠ مارس (آذار)، عاد الى أوديسا لتنظيم عملية تبادل الأسرى.

وكانت أوديسا في حال من الغليان مع اقتراب دخول الجيش الألماني اليها. وعلم بويل أن الاسرى الخمسين الذين جاء لانقاذهم باتوا رهائن لدى مجموعة بولشفية تدعى "سرية الموت" على متن السفينة "إمبيراتور ترايان."

علم بويل ذلك من ايثل بانتازي، زوجة احدى الرهائن، وهي مواطنة له من هاملتون في أونتاريو (كندا). فركض معها الى رصيف الميناء حيث نادى القائد البولشفي – وهي تترجم له – طالباً إنزال السجناء. فأُنزلوا، وعندما أصبحوا على الرصيف حاول بعضهم الهرب، فأومأ القائد الى رجاله بفتح النار.

وللحال بدأ الحراس يدفعون الرهائن الى السفينة، فهرع بويل الى المعبر الخشبي. نظر الى أعلى فرأى حارسين على متن السفينة يضربان رجلا عجوزاً بأعقاب البنادق. فصرخ مناديا إيثل: "لا يسعني احتمال ذلك. إني ذاهب معهم."

ارتقى بويل المعبر وثباً، وأمسك مهاجمي العجوز ضارباً رأسيهما معاً، ثم رماهما أرضاً والحراس يراقبون مذهولين. بعد ذلك نادى سائر الرهائن للصعود الى السفينة مصراً على الابحار معهم.

وبعد ثلاثة أيام رست السفينة في ميناء ثيودوسيا الروسي على البحر الأسود. وهناك علم بويل أن "سرية الموت" تعدّ لتسيير الرهائن الى سقيفة ذخيرة "تنفجر مصادفة." وبمساعدة من أحد المسؤولين السوفييت في البلدة، نقل بويل السجناء الى سفينة شحن قريبة. ثم رشا القبطان للابحار بهم الى رومانيا، بأموال قدمها نائب القنصل البريطاني.

ولدى عودة بويل الى ياشي ألفى نفسه بطلا قومياً. وأغدقت عليه الصحف لقب "منقذ رومانيا" ومنحه الملك فرديناند "الوسام الأعظم لتاج رومانيا." بيد ان الجائزة الحقيقية بالنسبة اليه كانت لقاءه ماري مجدداً.

لم تقبل ماري، في قرارتها، معاهدة السلام التي أُجبر فرديناند على توقيعها، ولا الحكومة المؤيدة لألمانيا. فاستأذنت زوجها في الاعتزال في مقرها الريفيّ في كوتوفانستي لتمريض الجرحى في مستشفى عسكري قريب. وسرعان ما لحق بها بطلها الكندي. وهناك قضيا فترة وجيزة ملؤها السعادة. كانت ماري تصطحبه في رحلات طويلة على متون الخيل وسط الأرياف المترامية. وكانت هي وأولادها يمضون الأمسيات مستمعين الى أغنيات بويل الايرلندية وقصصه المثيرة عن أيام الهجمة على الذهب، مما أتاح لماري الاطلال على عالم ساحر مجهول. وأحب الاولاد ذلك الكندي الكبير القلب الذي دعوه "العم جو."

في ذلك الربيع تعمقت العلاقة بين ماري وبويل الذي لم يترك مناسبة الا حاول فيها رفع معنويات ماري. وهي دوّنت في مذكراتها بتاريخ ٢٢ مايو (أيار) ١٩١٨: "كنت على



وشك الخروج لتناول طعام الغداء عندما سمعت هدير محرك، وأصواتاً، ووقع أقدام رجولية ثقيلة على سلمي الخشبيّ الطويل، و... بويل. أوه! كم سرتني رؤياه!" ولطالما تحدث الاثنان عن مستقبل رومانيا، ولطالما طرح بويل أفكاراً عن الاصلاح الاجتماعي. كان مستاء من قدر الفلاحين، فحضَّ الملكة على الضغط على فرديناند لتعجيل برنامجه المتعلق بالاصلاح الزراعي ومنح الشعب حق التصويت.

وتجاهل بويل القيود التي فرضتها عليه الحكومة الموالية لألمانيا. وعندما أمر الماريشال الالماني أوغست فون ماكنسن وزيرَ الحرب الروماني بأن يُعلِم بويل بوجوب خلع بزته الكندية "وإلا أمرتُ برميه بالرصاص"، جاء جواب بويل نموذجياً: "قل له أن ليس من ألمانيّ حيّ سيجبرني على خلع بزتي. فأنا أحمل مسدس كولت فردياً، وأعدك بحفر ثقوب في أول الماني يتعرض لي بالأذى، جنرالا كان أم نفراً."

كان هذا التحدي يناغم ما اعتمل في نفس ماري من ثورة. فهي أقامت في يونيو (حزيران) احتفالا لتكريم جنود رومانيا الذين سقطوا في الحرب، على رغم معارضة الحكومة لهذا الاحتفال. وأوردت في مذكراتها: "كان الضابط الأجنبي الوحيد في

القاعة هو المقدَّم بويل الذي دعوته قبل علمي بوجوب إقصاء الحلفاء." أما بويل فبدا فخوراً غير آبه لما راود الآخرين من أفكار حول سبب وجوده هناك.

جاشت عواطف ماري وهي واقفة أمام عرشها في ثياب الاسعاف وبيدها شمعة، وراحت تجيل نظرها في أرجاء القاعة المزينة بأعلام الافواج. وكتبت في مذكراتها لاحقاً: "انبجست الدموع من عينيّ وبكيت. ولكن حين نظرت الى أولئك الرجال الأقوياء الحزيني العيون الصابرين الذين حملوا الاعلام، قلت في نفسي: سوف يحيا هذا الشعب، يجب أن يحيا. ولسوف أعمل لذلك قلباً وروحاً."

"بعض حزن"

تابع بويل خدمة بلد ماري بعدما مُنح لقب "دوق ياشي." فأشرف على إعادة ١٠٠ ألف جندي روسي الى موطنهم بعد تجريدهم من السلاح. كما ذهب في عدة رحلات سرية الى بيسارابيا التي صوَّتت غالبية أهاليها في ابريل (نيسان) للعودة الى الوحدة مع رومانيا. وفي هذه الاثناء استكمل بويل اعداد شبكة استخبارات من ٥٠٠ عميل نفذ بعضهم أعمالا تخريبية في السكك الحديد بهدف انهاك قوات الاحتلال الالمانية والنمسوية والبولشفيين. وجمع آخرون معلومات عسكرية وسياسية نقلها بويل الى الحلفاء. وبفضل شبكته هذه، وبتمويل من الحلفاء، استطاع بويل منع وقوع كميات كبيرة من الذخائر والتجهيزات العسكرية التي تركها الجيش القيصري السابق في بيسارابيا، في أيدي الألمان. وحوَّلها الى "الجيش الأبيض" المناهض للبولشفيين.

عمل بويل سنة وبعض سنة بأقصى طاقته. وفي ١٨ يونيو (حزيران) ١٩١٨ بعد رحلة استطلاعية جواً الى كيشينيف عاصمة بيسارابيا، انهار على أثر سكتة دماغية (فالج) ونُقل الى مستشفى محلي حيث تمدد عاجزاً وقد شُلَّ نصفه الأيمن وتعثَّر نطقه.

صعقت ماري لدى سماعها النبأ. وقالت لاحقاً: "أحسست قلبي يموت داخلي. بويل! صديقي الكبير القوي الذي لا يُقهر!"

ولما تحسنت حال بويل قليلا راح يصارع إعاقته مستمداً قوة من مخزون طاقته. وذكر مترجم شاب يدعى بول شفشفادزي أنه "كان يمضي ساعات أمام مرآة يدوية وهو يقوِّم بأصابعه الجانب المصاب في وجهه حتى عاد الى طبيعته. ثم طلب مرآة طويلة راح يقف أمامها كل صباح ويمرن ذراعه وساقه الكسيحتين مجبراً اياهما على أداء حركتهما الطبيعية. ويوم استطاع حلق ذقنه ممسكا الموسى بيد ثابتة، تهلل فرحاً."

دعت ماري صديقها بويل الى قضاء فترة نقاهة في المقر الملكي الصيفي في بيكاز الواقعة في أعالي جبال الكاربات. ولما وصل الى هناك في ١ أغسطس (آب) بدا "كما

كان تقريباً، ومع ذلك لم يكن هو تماماً. كانت أحكامه واضحة وحججه دقيقة كما عهدتها ومواقفه متسمة بطابع المشاكسة اياه، لكن شيئاً ما غادره، شيئاً من ذلك الايمان الرائع بقوته. كما انسلّ بعض حزن الى كيانه."

عكفت ماري على زيارة بويل مرتين يومياً، تحادثه وتتناول معه طعام العشاء. وسرعان ما استرد ثقته بنفسه. ومع حلول الخريف واقتراب الحرب من نهايتها، عاد بويل الى ادارة شبكة الاستخبارات.

وعلى أثر توقيع الهدنة في ١ ديسمبر (كانون الاول) ١٩١٨ عاد الملك فرديناند والملكة ماري الى بوخارست مع جنودهم في موكب نصر مهيب تهادى في الشوارع المزينة بالأعلام وسط الجموع الهاتفة. لكنه كان نصراً فارغاً إذ كان جنود الاحتلال نهبوا المدينة والأرياف وشحنوا الى المانيا ما يزيد على مليوني طن من القمح ومليون طن من النفط و٩٠٠ قاطرة. ومع اقتراب فصل الشتاء واجهت رومانيا خطر مجاعة.

لم يألُ بويل جهداً في تنظيم أعمال الاغاثة. وفي ديسمبر (كانون الأول) يمم شطر بريطانيا مصطحباً الأمير نقولا لدخول مدرسة إتون. ولدى وصوله الى باريس زار صديقه هربرت هوفر، رئيس مجلس الأغذية التابع للحلفاء، وأقنعه بارسال ثلاث بواخر محملة امدادات اغاثة الى رومانيا بأقصى سرعة ممكنة.

وفي لندن أخذ بويل الأمير نقولا الى قصر باكنغهام لمقابلة نسيبه الملك جورج الخامس. وكتب العاهل البريطاني رسالة الى ماري جاء فيها عن بويل: "إنه رجل رائع، كأنه لا يعرف الخوف."

وفي مارس (آذار) وصلت ماري الى لندن لدعم قضية الاغاثة، وفي جعبتها قائمة طلبات عملية تضمنت ٢٤٠٠ عربة محملة بذور قمح، وتحديداً قمح مانيتوبا، وتشكيلة واسعة من الآلات الزراعية. وهي أوضحت أن الثورات تنبع من بطون جائعة.

مكثت ماري في قصر باكنغهام حيث أقامت حفلات فطور باكرة لأقطاب المال والسياسة والجيش وكل من قد يساعد في دعم قضية رومانيا. وهي خطة أعجبت ابن عمها، غير أن دهاءها السياسي الفاعل وتوددها الى الصحافة وخروجها على المألوف أمور فاجأت الملك البريطاني الذي اعتاد في بلاطه قواعد تشريفات صارمة.

ولدى عودة ماري الى بوخارست حضّت بويل على الرجوع لمساعدتها في معالجة المعضلات السياسية والاقتصادية المتنامية. فوصل الى رومانيا في يونيو (حزيران) ١٩١٩ ممثلا للبعثة التجارية الكندية وللصليب الأحمر الكندي.

لم يتصل بويل وهو في بريطانيا بشركة التعدين التي يملك معظم أسهمها والتي باتت متورطة في مشاكل قانونية. فهو كان في الماضي يحب خوض المعارك القانونية، لكنه غدا كأنه قرر صرف النظر عن حقول ذهب كلونديك الى الأبد. وهو كتب رسائل

الى والديه في وودستوك، إلا أنه لم يكتب الى زوجته، وذلك يخالف طبيعته النبيلة. فهو كان متورطاً في الأحداث المثيرة التي عمت أوروبا ما بعد الحرب، وصارفاً اهتمامه الى الذهب الأسود: النفط.

وقبيل عودته الى بوخارست طلبت منه مجموعة "رويال داتش/شل" التفاوض مع المسؤولين الرومانيين على مشتريات نفطية كبرى من حقول بلويستي الغنية. فراقته العملية لما تعد به من توفير نقد صعب لازم لاسترداد الاقتصاد الروماني عافيته.

ولكن بحلول العام ١٩٢٠ كان بويل جلب على نفسه عداوة كثيرين في الاوساط السياسية الرومانية، امتعضوا من أفكاره وغاروا من نفوذه لدى العائلة المالكة. وانتشرت أقاويل عن سمعته واتهامات باطلة عن جنيه أرباحا طائلة من صفقات النفط. وفجأة غدا "منقذ رومانيا" متطفلا أجنبيا انتهازيا.

وتطور الوضع الى أزمة، ولم يبقَ مفر من رحيل بويل، وتُرك أمر ابلاغ هذا القرار الأليم الى ماري التي كتبت لاحقا: "بعدما صنعوا منه بطلا، تحاملوا عليه محاولين تلطيخ شرفه. حاربتهم بقوة، لكني، في النهاية، اضطررت الى الاستسلام."

صعق الخبر بويل. وهو قبل القرار بلياقة، اذ كانت كبرياؤه تربأ عن الرد وشهامته تستنكف التسبب لماري في مزيد من الاحراج.

وبعد مغادرته رومانيا في صيف ١٩٢٠ واصل وماري تبادل الرسائل. وهي كتبت اليه رسائل طويلة حافلة بالهذر واللغو عنها وعن أولادها. وتابع هو أداء خدمات صغيرة للعائلة المالكة. وبعد مضي سنة كتب الى ماري: "لا تجعليني ظلا يخيم على حياتك، فلستِ مدينة لي بشيء. أنتِ من كانت دائمة العطاء. وأنا شاكر لك، ولك محبتي. تذكري هذا فقط."

قطار شاير

لم يستكن بويل طويلا. فعلى رغم تأميم السوفييت حقول نفطهم، وجدوا أنفسهم في حاجة ماسة الى تكنولوجيا وأموال رأسمالية لتشغيل هذه الحقول. ودعا لينين الغرب الى تقديم عروض أسعار لابرام عقود نفطية. وطلبت مجموعة "شل" في بريطانيا من بويل التفاوض نيابة عنها.

بدأ بويل منقبضا عندما ركب القطار ربيع ١٩٢٢ مع صديقه القديم جورج هيل في رحلة مرهقة امتدت مسافة ٩٦٠ كيلومترا عبر جبال القوقاز، انطلاقا من تيفليس ووصولا الى حقول النفط في باتوم. وكان القطار مثقلا بالحمولة ومعداته منهكة بفعل الحرب. وكانت خلف عربة بويل حافلة تقل عدداً من كبار المسؤولين السوفييت. ولاحظ هيل أن عدد الحراس كان مضاعفا.

ارتقى القطار قمة أحد المسالك، ودخل نفق "سورام" الطويل، وتابع نزولا بزاوية شديدة الانحدار. وما هي الا لحظات حتى زعقت صفارات الانذار الموزعة على مسافات داخل النفق، منبهة مهندس القطار الى ضرورة ضغط الكوابح.

جلس هيل على سريره وصفارات الانذار تدوّي في أذنيه، اذ شعر بأن القطار يزداد اندفاعاً بدلا من أن يتباطأ. ثم راحت الحافلة تترجح ودوت صفارة المحرك فيما اندفع القطار بسرعة خاطفة داخل النفق. لقد أفلت زمامه!

ولم تمضِ لحظات حتى خرج القطار الى النور متخبطاً مهتزاً. واخترق احدى المحطات وصفارة محركه تدوي بجنون، ثم هبط في منحدر "أمان" نحو وهدة ضيقة ثُبتت في نهايتها صادّات مقواة لتخفيف الصدمات.

خرج بويل وهيل عبر نافذة محطمة ليجدا في الوهدة محركاً محطماً وثلاث عربات مهشمة. وعلا صراخ الركاب المحتجزين في العربات، فنزل الرجلان الى الوهدة لمساعدة الناجين.

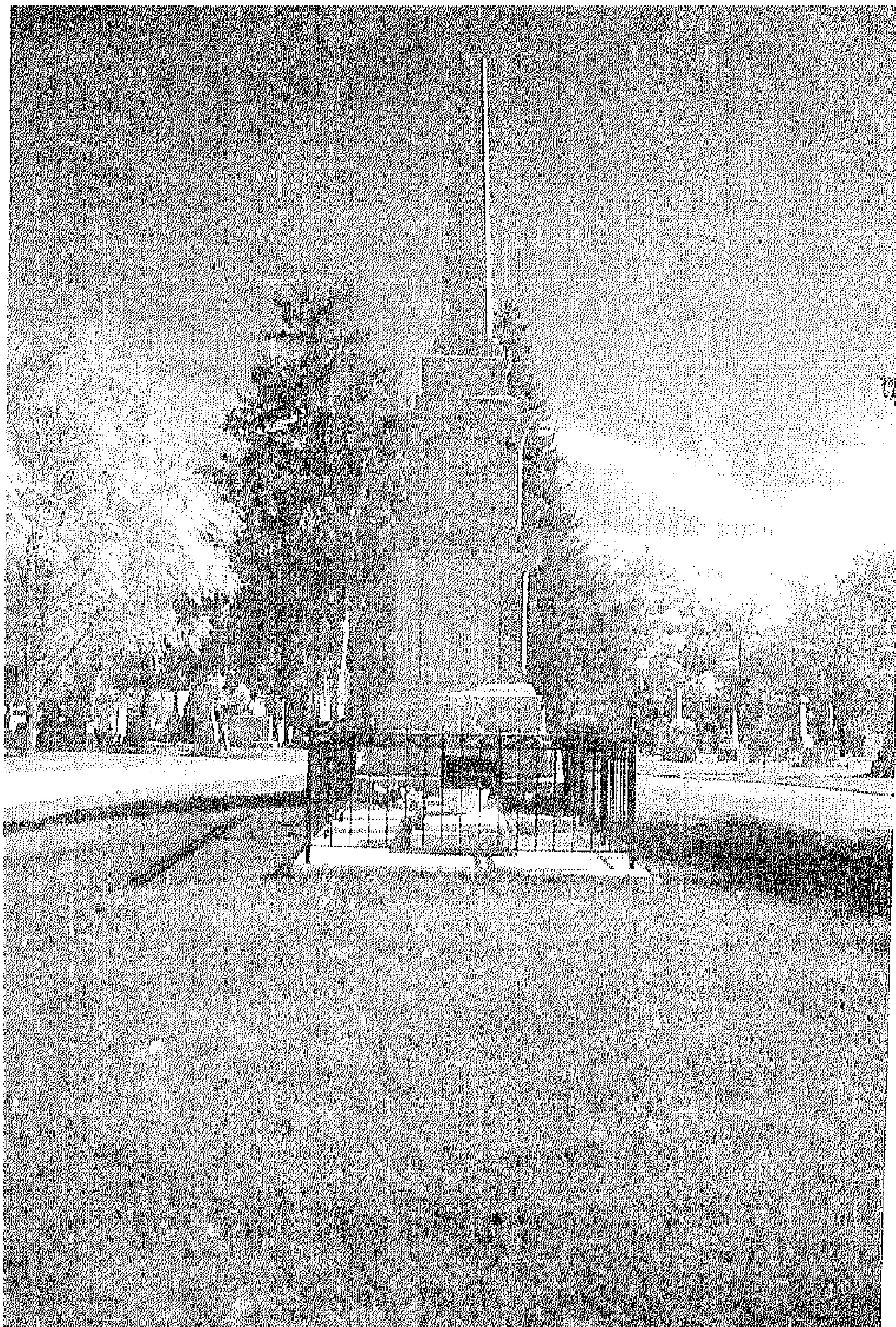
وخلص أحد التحقيقات لاحقاً الى أن ثمة من تلاعب بالكوابح في المحطة السابقة، قبل نفق سورام، في عمل تخريبي استهدف اغتيال المسؤولين السوفييت الذين نجوا جميعاً.

امتقع وجه بويل على نحو مروع، لكنه بدا كأنه لم يصب الا برضوض بالغة. وتابع وهيل رحلتهما الى باتوم براً، والى القسطنطينية بحراً. ثم ضاق تنفسه وتورمت ساقاه حتى اضطر الى شق سرواله.

استدعى بويل طبيباً في القسطنطينية، فأشار عليه بضرورة استشارة اختصاصي بالقلب. ولتخفيف ألمه، حزّ الطبيب في ظهره شقوقاً متقاطعة وضع فوقها أكواباً زجاجية ساخنة التصقت بجلده كعلق وراحت تسحب الدم. وفي اليوم التالي تقلص الورم. ولما عاد بويل الى لندن استشار طبيب قلب، فنصحه بأن يرتب شؤونه ويخلد الى الراحة في احدى دور العناية.

وفي فبراير (شباط) ١٩٢٣ انتقل بويل الى العيش في بيت صديق قديم من أيام كلوندايك يدعى تيدي بردنبرغ، في هامتون هيل قرب لندن. وهو لم يعد رجلا غنياً اذ أنفق معظم ثروته في رومانيا ولم يتلقَّ أي أجر من الجيش. وكان، الى ذلك، متورطاً في نزاع قانوني مع شركة "شل" حول أجوره. وتدهورت صحته وتقلص جسمه العريض وتهدلت ثيابه على جسده المنكمش.

حافظ بويل، ظاهرياً، على تفاؤله المعهود. لكنه، في قرارته، بات رجلا متوحداً. كان يحدوه الشوق الى ماري وبلادها، بيد أن كبرياءه استنكفت أن تراه ماري في مثل هذه الحال من الضعف والوهن. وهو كتب اليها رداً على دعوتها اياه لزيارة رومانيا: "أود أن



ضريح جو بويل في وودستوك، اونتاريو.

تتذكري الرجل الذي كنته. فأنا لم أعد جو بويل الذي تعرفين."

ومثل محارب قديم يتحسس أزوف ساعته، كتب بويل في ١٣ أبريل (نيسان) رسالتين وضعهما تحت وسادته. وعندما انبلج صبح اليوم التالي صافياً مشمساً قال: "أود النهوض،" ثم رفع رأسه وجلس على الفراش. وعندما التفتت ممرضته الواقفة قرب النافذة رأته يسقط على وسادته.

لقد مات جوزف بويل الشجاع وهو في السادسة والخمسين من عمره.

PHOTO: TED TOWN

تولى تيدي بردنبرغ أمر الرسالتين. كانت الأولى موجهة اليه وفيها شكر لرفقته وطلب لمراسم دفن بسيطة، والثانية كلمة وداع الى ماري.

كتب مترجم بويل ديمتري زفيغنتزوف رسالة الى ماري روى فيها تفاصيل أيام بويل الأخيرة. وبعد ستة أسابيع تلقى من ماري رسالة طويلة جاء في احدى فقراتها: "ما زال بويل حيا في نظري. أراه في الاشجار والسماء والبحر والشمس واندفاع الريح حول منزلي."

وفي أغسطس (آب) زارت ماري قبر بويل في باحة صغيرة خلف منزل بردنبرغ، فلم يعجبها. فأبلغت الى بردنبرغ أنه سيتلقى قريبا بضع صناديق كبيرة. وبعيد وصول الصناديق جاءت هي للاشراف على وضع بلاطة صوّان فوق القبر نُقش عليها شعار "وسام ماريا ريجينا" وسطران اقتبستهما الملكة من قصيدة للكاتب والشاعر الكندي روبرت سرفيس كان بويل يحبها كثيرا:

رجل له قلب فايكنغ[4]
وبساطة إيمان طفل.

لم تنسَ ماري بطلها الكندي، وظلت تزور ضريحه كلما زارت بريطانيا. وهي نشرت سيرتها الذاتية قبل سنوات من وفاتها في يوليو (تموز) ١٩٣٨، وضمّنتها مقطعا مؤثرا عن تلك الايام الكالحة من مارس (آذار) ١٩١٨ عندما أقسم بويل أن يقف الى جانبها. وقد اختصرت حياة بويل في أربع كلمات معبرة: "رجل إن قال فعل."[5]

(في أوائل الثمانينات رفعت مجموعة من المواطنين في وودستوك التماسا إلى السلطات لاعادة رفات بويل الى وطنه كندا. وفي ٢٩ يونيو (حزيران) ١٩٨٣ أقيم لبويل مأتم عسكري ووُوري رفاته في مقبرة في المدينة التي أمضى فيها أيام صباه.)

(٤) الفايكنغ محاربون اسكندينافيون غزوا شواطىء اوروبا بين القرنين الثامن والعاشر.
(٥) Ein Mann, ein Wort

تشارلز و. سميث ■

ترجمة فريد شديد

ACKNOWLEDGMENTS: «JOE BOYLE, KING OF THE KLONDIKE,» BY WILLIAM RODNEY, COPYRIGHT © 1974 BY McGRAW-HILL RYERSON LTD.; «THE SOURDOUGH AND THE QUEEN,» COPYRIGHT © 1963 BY LEONARD W. TAYLOR, STODDART PUBLISHING CO. LIMITED. USED BY PERMISSION; «WHO WAS JOE BOYLE?» BY FLORA ALEXANDER BOYLE, MACLEAN'S (JUNE 1, 15 AND JULY 1,'38); © 1938 BY MACLEAN HUNTER LTD.; «THE STORY OF MY LIFE,» COPYRIGHT © 1934 BY CHARLES SCRIBNER'S SONS, COPYRIGHT RENEWED © 1962 BY HER ROYAL HIGHNESS PRINCESS ILEANA. USED BY PERMISSION; «ORDEAL, THE STORY OF MY LIFE,» COPYRIGHT © 1935 BY CHARLES SCRIBNER'S SONS, COPYRIGHT RENEWED © 1963 BY HER ROYAL HIGHNESS PRINCESS ILEANA. USED BY PERMISSION; «THE LAST ROMANTIC,» COPYRIGHT © 1984 BY HANNAH PAKULA, TOUCHSTONE / SIMON & SCHUSTER, INC.; «GO SPY THE LAND: BEING THE ADVENTURES OF I.K.8 OF THE BRITISH SECRET SERVICE» AND «DREADED HOUR,» BY CAPT. GEORGE A. HILL, D.S.O., 1932 AND 1936 BY CASSELL AND COMPANY, LTD.; «ROUMANIA IN LIGHT AND SHADOW,» BY ETHEL GREENING PANTAZZI, COPYRIGHT © BY McGRAW-HILL LTD. USED BY PERMISSION.

كتاب الشهر

ثلاثة أيام هزت العالم

بقلم لورانس اليوت
وديفيد ساتر



ثلاثة أيّام هزت العالم

تحركت الدبابات تحت المطر في اتجاه موسكو وقد أصدرت اليها أوامر بالنزول الى الشوارع لسحق الديموقراطية الروسية الطرية العود. انه يوم الاثنين في ١٩ أغسطس (آب) ١٩٩١، والعالم مسمّر يراقب الصراع المستعر للحفاظ على وحدة بلد عرف يوماً باسم الاتحاد السوفييتي.

لا شيء أبعث على الدهشة مما حدث بعد ذلك! فقد تجمّع الموسكوبيون تحت المطر عاقدين العزم على حماية الزعيم المحاصر بوريس يلتسين، وحماية الحرية، بأرواحهم اذا لزم الامر.

وعلى امتداد اثنتين وسبعين ساعة لاحقة، أمّن مواطنون عُزّل حراسة الحواجز والمتاريس متحدّين قوة عسكرية طاغية ورعباً زرعته في قلوبهم ٧٤ سنة من القمع. من هؤلاء:

• إليا كرينتشفسكي، مهندس معماري شاب رفض قبل زمن اخضاع مهاراته لرغبات الدولة، وها هو يتحدى وجهها القاسي.

• الرائد سيرغي يفدوكيموف، قائد وحدة دبابات لم يتردد من قبل في تنفيذ أوامر رؤسائه، الى أن أرسل لاخضاع مواطنيه.

• ايما بروك، طبيبة قلب كانت تخشى انتقاد النظام القديم وها هي تختار البقاء في دائرة الخطر.

• يوري ايفانوف، موظف في البرلمان الروسي سُلِّم بندقية رشاشة وأُمر بالدفاع عن الموسيقي الاعظم في الاتحاد السوفييتي وإن اقتضى الامر التضحية بحياته.

هنا قصتهم المثيرة.

الاحد، ١٨ أغسطس (آب)، الرابعة بعد الظهر.

كان ميخائيل غورباتشيف رئيس الاتحاد السوفييتي، يمضي اجازته في دارته الريفية في شبه جزيرة القرم على بعد حوالى ١٥٠٠ كيلومتر جنوباً من موسكو. وكانت شعبيته في تدهور وزعامته موضع شك. وهو كان، بعد ظهر ذلك اليوم، يعد خطاباً لمناسبة توقيع معاهدة اتحاد جديدة مع الجمهوريات التي اختارت الانفصال، وهي معاهدة تقلّص أكثر سلطة الحكومة المركزية.

في الرابعة والنصف اتصل غورباتشيف بأحد مساعديه الذي كان يمضي اجازته في منزل قريب. فتحدثا باختصار عن الخطاب، وأكد غورباتشيف نيَّته العودة الى موسكو في اليوم التالي، ثم انصرف الى عمله.

في الخامسة الا عشر دقائق دخل عليه قائد حرسه معلناً: "ان مجموعة من الشخصيات المهمة تطلب مقابلتك."

فرد غورباتشيف: "أنني لا أنتظر أحداً، فلماذا سمح لهم بالدخول؟"

أجاب رئيس الحرس: "لان يوري بليخانوف معهم." وهذا قائد المديرية التاسعة في جهاز الاستخبارات السوفييتي "ك.ج.ب." وهو مكلف حماية كل الزعماء الحكوميين، مما يعني أن وحدة الحراسة في دارة الرئيس هي بإمرته.

انتاب غورباتشيف قلق. فرفع سماعة هاتف ليجد الخط مقطوعاً. كان في مكتبه أربعة خطوط هاتفية وخط داخلي. جربها كلها فوجدها مقطوعة.

أدرك غورباتشيف للحال سبب مجيء هؤلاء الرجال. فتوجه الى غرفة أخرى ودعا عائلته - زوجته رايسا وابنته ارينا وصهره أناتولي - وأخبرهم بأمر الضيوف الذين أتوا من غير دعوة وخطوط الهاتف المقطوعة. كان الوضع خطيراً، فقد يحاول هؤلاء الرجال اعتقاله أو ابتزازه لتغيير خطه السياسي. لكنه أعلن أنه لن يستسلم لضغوط "وإن حدث أسوأ ما نخشاه."

ذهل أفراد العائلة، الا أنهم لم يترددوا في اعلان دعمهم للرئيس وعزمهم على الوقوف بجانبه حتى النهاية.

وحين عاد غورباتشيف الى مكتبه وجد الرجال الخمسة الآتين من موسكو قد وصلوا اليه. وهاله ان يرى فاليري بولدين بينهم، وهو مدير جهاز مكتبه الخاص وصديق العائلة منذ ١٥ سنة، فسألهم: "من أرسلكم الى هنا؟"

أجاب أحدهم: "لجنة الطوارىء."

قال غورباتشيف: "أنا لم أشكل لجنة طوارىء، ولا مجلس السوفييت الاعلى فعل."

فكان رد المجموعة الالحاح عليه ليوقع مرسوما يعلن حال طوارىء، فالبلاد في أزمة والحل الوحيد لتهدئتها هو اعادة النظام الى مسار الحياة اليومية. وطمأنه أحدهم:

"سوف نتولى نحن الجزء القذر من المهمة."

ضحك غورباتشيف بمرارة، فهو يعرف كل شيء عن النظام الذي يعنونه وعن ملايين الضحايا التي خلّفها. فواجههم قائلاً: "أنتم، ومن أرسلكم، مغامرون متهورون. واذا شئتم أن تهلكوا أنفسكم فذلك شأنكم. يمكنكم الذهاب الى جهنم ان شئتم، ولكن انظروا أمامكم: غداً تعلنون حال طوارىء، وماذا بعد ذلك؟ سوف ترفضكم الأمة."

لكنهم لم يتزحزحوا. وطلبوا من غورباتشيف، اذا أصرّ على رفض توقيع المرسوم، أن يستقيل ويسلم السلطة الى نائبه جينادي ياناييف.

قال لهم غورباتشيف: "لن تعيشوا طويلاً. اذهبوا واخبروا لجنتكم أنني قلت هذا." ثم أدار لهم ظهره. وبعد دقائق سمع هدير سياراتهم وهي تغادر الدارة. كان وعائلته في أمان... حتى الآن.

وذهبت مع الوفد حقيبة غورباتشيف التي تحوي رموز اطلاق الصواريخ النووية السوفييتية، كما عُزل هو عن العالم. فقد قطعت وحدات عسكرية الطريق الى دارته، وسدّت طرّادات كل الممرات البحرية المؤدية الى المجمّع القائم على مساحة ٦٠ ألف متر مربع، ووضعت الطوافة الخاصة والطائرة الرئاسية من طراز Tu-134 تحت حراسة مشددة في المطار.

اختار كل أعضاء وحدة الحرس الشخصي البالغ عددهم ٣٢ البقاء للدفاع عن الرئيس. جال بعضهم في غرف المنزل محاولين تشغيل أجهزة التلفاز، فطالعتهم شاشات بيضاء فارغة، اذ قطعت أسلاك الهوائيات. وأمضى بعضهم الليل في محاولة تشغيل جهاز راديو قديم يعمل على الموجة القصيرة.

وفيما العائلة تتناول فطوراً كئيباً صباح الاثنين، أدخل أحد رجال الحرس جهاز الراديو الى غرفة الطعام ووصله بالتيار الكهربائي، فتحلق الجميع يستمعون الى همهمة الجهاز القديم وفرقعاته وهو يحمى. ثم سمعوا اذاعة غربية تبث بالروسية: "تفيد نشرة الوكالة السوفييتية للانباء (تاس) أن الرئيس ميخائيل غورباتشيف لم يعد قادراً على ممارسة مهماته الرئاسية بسبب مرضه. وقد انتقلت سلطاته الى لجنة الطوارىء الحكومية التي يرئسها جينادي ياناييف."

أفاق إليا كريتشفسكي في التاسعة والنصف من صباح الاثنين. وهو مهندس معماري في الثامنة والعشرين من عمره، اعتزم مذ ترك عمله قبل سنة أن ينام متأخراً ويستيقظ متأخراً. كان والداه غادرا باكرا الى عمليهما، أما شقيقته وصهره اللذان يشاركانهم في الشقة الصغيرة في موسكو، فكانا في اجازة. ارتدى إليا ثيابه وأعد قهوة وجلس يشربها.

كانت حياته انتكست بعد عودته من أداء خدمته العسكرية في العام ١٩٨٨، فلم يعد يجد رضى وقناعة في العمل على مخططات تحددها تعليمات بيروقراطية وتقيدها، وهي غالبا مخططات لمبان لن تشاد أبدا.

ترك إليا عمله لهذه الاسباب. ومع أنه جرب أعمالا عدة فهو لم يشعر الا أخيرا بأنه يستعيد السيطرة على حياته، اذ شرع في بناء بيت صغير على قطعة أرض مشجرة يملكها والده في الريف.

عمل إليا في بناء البيت وحيدا طوال فصلي الشتاء والربيع، قانعا بأن يراه يتشكل بين يديه ولا أحد من أجهزة الدولة يحصي عليه أنفاسه. وبدأت تحدوه آمال بمستقبل زاهر في بناء بيوت ريفية مماثلة.

في العاشرة صباحا اتصل إليا بصديقه سيرغي غولوكولنكو الذي سأله هل سمع الاخبار.

فاستفهم إليا: "أي أخبار؟"

– عن غورباتشيف. لقد أطيح.

ضحك إليا معلقا: "نكتة جيدة! ومن تسلم السلطة؟ ستالين ثانية؟"

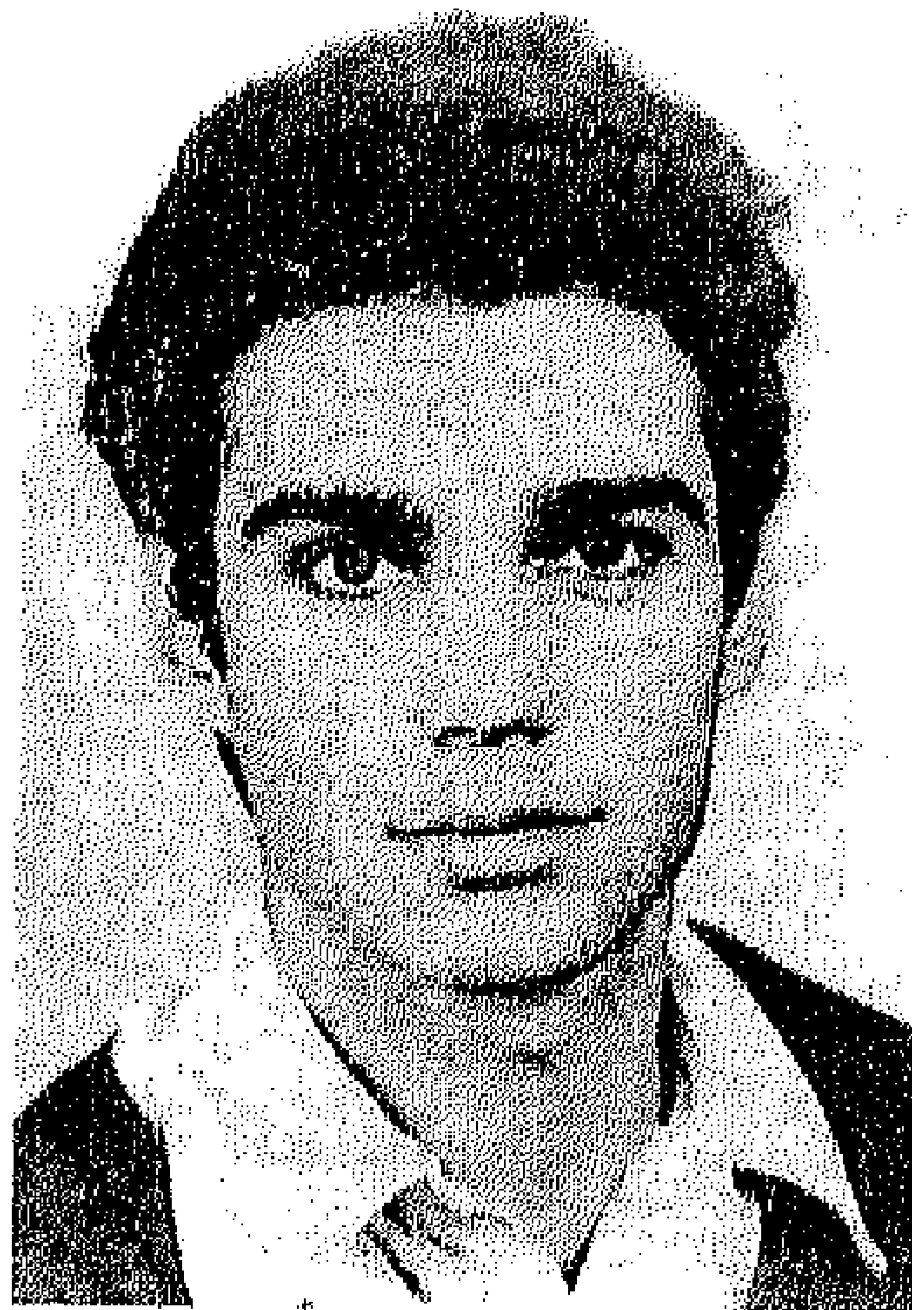
– اسمع، هذه ليست مزحة. غورباتشيف هو الآن خارج السلطة، وقد استولى الجيش والـ"ك.ج.ب." على الحكم.

فصمت إليا، ثم قال بصوت مرتعش: "كنت أظن أننا انتهينا من هذه التصرفات. ماذا يريدون منا؟"

– يقولون ان غورباتشيف مريض. وقد أعلنوا حال طوارىء في البلاد.

صمت إليا ثانية ثم قال لصديقه: "لا يمكن السماح بأمر كهذا. على الشعب أن يقول كلمته. عليه أن يقول لا."

كان عدد من مستشاري غورباتشيف وبعض الزعماء الغربيين، حذروه من محاولة انقلابية تقودها مجموعة من المتشددين الذين تكمن قوتهم في الحزب وفي الـ"ك.ج.ب." وفي البنية الصناعية – العسكرية الهائلة. وكانت الاصلاحات الاقتصادية خلال السنوات الست الاخيرة تأكلت سلطة هؤلاء، فصار الناس فجأة أحرارا في انتقادهم. كما عمد



إليا كريتشفسكي
مهندس معماري.

بوريس يلتسين، رئيس جمهورية روسيا الاتحادية، الى حظر الحزب الشيوعي في المصانع والمكاتب الروسية. وفيما تهاوى الاقتصاد المتعثر الذي خُطط على مبدأ المركزية القوية، خزن المزارعون الحبوب آملين ارتفاع الاسعار، وانخفض الانتاج الصناعي، وطبعت الدولة مليارات من الروبلات لتغطية العجز المتعاظم في الموازنة.

وفيما أكدت ليتوانيا وجمهوريات أخرى عزمها على الانفصال عن سلطة الكرملين، كشف فلاديمير كريوتشكوف، رئيس الـ"ك.ج.ب." مخاوف الجناح المحافظ في الدولة، في خطاب متلفز أثار قشعريرة، قال فيه: "اننا نواجه خطر تفكك الاتحاد السوفييتي." وأضاف بصرامة: "سوف تستخدم قوات الامن كل الوسائل المتاحة لمواجهة الموجة المعادية للشيوعية."

في أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٩٠ أجبر المتشددون غورباتشيف على التخلي عن برنامج اصلاح اقتصادي مدته ٥٠٠ يوم. فعيَّن بعد شهرين واحداً منهم هو البيروقراطي المحترف جينادي ياناييف نائباً لرئيس الجمهورية.

لم يكف ذلك لتهدئة المتشددين، فأمروا في يناير (كانون الثاني) ١٩٩١ بهجوم بالدبابات على جمهرة من المدنيين الليتوانيين العزل كانوا يحرسون مبنى محطة التلفزيون في العاصمة فيلنيوس، فقتل ١٣ مدنياً.

لكن خشية الاحتمالات التي تضمنتها معاهدة الاتحاد الجديدة هي التي حركت الانقلابيين. فهي تقضي، اذا ما وُقِّعت، بنقل السلطات الضريبية والسيطرة على الموارد الطبيعية وشؤون الامن الداخلي الى الجمهوريات المختلفة، مما يعني تقويض السلطة المطلقة لموسكو، كما يعني الغاء الامتيازات الخاصة.

خلال ذلك الصيف، قرر البعض داخل مجموعة المتشددين ألا يدعوا ذلك يحصل.

الانقلاب

الاحد ١٨ أغسطس (آب)، الثامنة مساء.

اجتمع المتآمرون مرتين خلال عطلة نهاية الاسبوع ليضعوا الخطوط الاولية لعملية الاستيلاء على السلطة. كان تعاون غورباتشيف، أو اذعانه على الاقل، شأناً حيوياً في خطتهم. فهم يحتاجون اليه لتوقيع مرسوم الطوارىء.

ثم وصلت الاخبار المقلقة عن رفض غورباتشيف كلا الامرين. فاجتمع المتآمرون المذهولون في أحد مكاتب الكرملين يتلمسون طريقة للتراجع. فأخبرهم بولدين أن أوان ذلك قد فات. فهم جعلوا من غورباتشيف سجيناً، وهو يعرفهم كلهم، وسوف يواجهون السجن أو ما هو أسوأ.

مضى الليل ولم ينقطع سيل القهوة. وتنامت جرأة المتآمرين بتأثير من

كريوتشكوف، فطلعوا أخيراً بخطة جديدة: سوف يعلنون للامة أن الرئيس غورباتشيف يعاني مرضاً خطيراً وأن لجنة الطوارىء الحكومية ستنقذ البلاد من الاخطار المحدقة بها. ومن سخرية القدر أن يكون كل عضو في تلك اللجنة ارتقى الى منصبه على يد غورباتشيف واعتبر زميلاً مقرباً من الرئيس أو صديقاً شخصياً له.

سُمّي نائب الرئيس ياناييف رئيساً بالوكالة. وصيغت قرارات وكتبت، ومنها حظر الاحزاب السياسية ومنع التظاهر، على أن تتلى عبر شبكة الاذاعة الحكومية.

عمل المتآمرون حتى منتصف الليل في إعداد أوامر للوحدات العسكرية وتحديد الصحف المنوي اغلاقها وتعيين الاشخاص الذين سيُحتجزون. كما أصدروا أمراً بتوريد ٢٥٠ ألف قيد (صفد) من مصنع في بسكوف و٣٠٠ ألف أمر اعتقال غفل.

لكنهم ارتكبوا في استعجالهم عدداً من الاخطاء الجسيمة، أفدحها اخفاقهم في تحييد الرجل الذي أصبح خصمهم الرئيسي.

مع بزوغ شمس الاثنين أوقظ بوريس يلتسين من نومه في دارته الريفية في غابة من شجر البتولا على مسافة حوالى ١٩ كيلومتراً من موسكو، وأبلغ نبأ الانقلاب. ويلتسين رجل ضخم الجثة وصاحب شخصية غريبة الاطوار، وصل الى مركزه رئيساً لكبرى جمهوريات الاتحاد السوفييتي بانتخابات حرة، خلافاً لغورباتشيف وزعماء الكرملين الآخرين. كان له ما افتقده هؤلاء: علاقة مباشرة مع الشعب.

وثق الناس بيلتسين، ليس بالضرورة لانه يمثل الحركة الديموقراطية – التي كان معظم الروس لا يفهمونها جيداً – وانما لانه قطع صلاته بالكرملين. كان غورباتشيف يتكلم دائماً ويشرح، أما يلتسين فكان يفعل.

ارتدى يلتسين ثيابه بسرعة واستدعى الاعضاء الرئيسيين في حكومة روسيا الى دارته. كان الغضب رد فعله الاول على الانباء، والمقاومة قراره الغريزي. بدأ رجاله يصلون في السادسة صباحاً، وباشروا اعداد نداء الى مواطني روسيا لمواجهة الانقلاب. دعا النداء الى اضراب عام وطالب بالسماح لغورباتشيف بالظهور أمام الشعب.

وافق يلتسين سريعاً على صيغة النداء، وتحول الاهتمام الى سؤال حاسم: هل تبقى المجموعة حيث هي أم تحاول الوصول الى مبنى البرلمان الروسي في وسط موسكو؟ كان عدد حراس يلتسين الشخصيين لا يتجاوز الستة، والعودة الى موسكو تعني اجتياز حواجز المظليين والدبابات التي بدأت تسيِّر دوريات في موسكو.

كان الموقف حرجاً والقرار خياراً بين الاستكانة وتصعيد حرب حقيقية على الانقلابيين.

تطلع يلتسين الى مساعديه وقال: "سوف نذهب."

فوزعت نسخ من النداء على مجموعة من المناصرين توجهوا الى موسكو عبر طرق مختلفة. وارتدى يلتسين سترته الواقية من الرصاص وودع زوجته وابنته. فقالت له هذه: "كل شيء يتوقف عليك الآن يا أبي."

في موسكو، كان بعض الانقلابيين بدأ يدرك جسامة الخطأ في عدم تحييد يلتسين، فأُصدر أمر باعتقاله وهرعت وحدات من الـ"ك.ج.ب." جنوباً. وفي نقطة ما على الطريق مر موكب يلتسين في محاذاة سيارات الـ"ك.ج.ب."، كل في اتجاه، ووصل هؤلاء الى دارته متأخرين ١٥ دقيقة.

اجتازت سيارة يلتسين والسيارات المواكبة خطوطاً من الآليات المدرعة. وبعيد العاشرة صباحاً دخل الزعماء الروس مبنى البرلمان. وكانت خطوة يلتسين الاولى الدعوة الى مؤتمر صحافي، اذ أدرك أن عليه تجنيد وسائل الاعلام لايصال الحقيقة الى الشعب.

متاريس وحواجز

ايما بروك طبيبة قلب في الخمسين من عمرها تقيم في جوار مبنى سفارة الولايات المتحدة في موسكو. وكانت منذ فترة تستيقظ باكراً على أصوات الحفارات ومطارق العمال وهم يصلحون الدمار الذي ألحقه حريق بالمبنى. لكن صمتاً تاماً أطبق هذا الصباح.

ثم أذيع البيان المقتضب على شاشة التلفاز: لقد قادت اصلاحات غورباتشيف الاتحاد السوفييتي الى كارثة قومية. ان أخطاراً مميتة معلقة كالسيف المسلط فوق الوطن الام، وقد انتقلت كل السلطات الى لجنة طوارئ من ثمانية أعضاء.

كانت ايما تشاهد التلفاز وقد شلّتها الصدمة. هل يمكن أن تعود بلادها الى الوراء، الى ما قبل البريسترويكا،[1] حين كانت تمضي الليالي في غرفتها تقرأ النشرات المحظورة ويرعبها أي صوت خشية أن تكون الشرطة في الطريق لاعتقالها؟

كانت إيما على صلة بأوساط المنشقين، لكنها لم تمارس هي نفسها أي نشاط. فقد خافت على ابنتها بعد وفاة زوجها في العام ١٩٧٥، فمن سيعنى بالطفلة إن هي أرسلت الى معسكرات العمل؟ ثم تزوجت ثانية، ولزوجها الثاني ابن وابنة يضيفان الى خشيتها خشية.

كان عهد غورباتشيف يمثل لها ولعائلتها ثورة فاشلة، فقد تسارع انهيار الاقتصاد، واستشرى الفساد، وظلت أقسام في المستشفيات مغلقة الا على نخبة نافذة. غير أن

(١) البريسترويكا هي سياسة الاصلاح التي اعتمدها الرئيس السوفييتي غورباتشيف.

إيما رأت معجزة في اطلاق سجناء سياسيين وتحرير أجهزة الاعلام من قبضة الرقابة الحكومية. كانت تسرع في السادسة من صباح كل أربعاء لشراء صحيفة "موسكو نيوز" التي دأبت على كشف الفساد المتفشي في أوساط علية القوم، والامتيازات التي يتمتعون بها، وعلى فضح زيف التاريخ المدوّن. وفي المساء كانت إيما تشاهد أشرطة تلفزيونية وثائقية تعالج قضايا المجتمع بصدق وصراحة. أخيراً بات في امكان الناس أن يفصحوا عن مشاعرهم في الاتحاد السوفييتي.

أما الآن...

خرجت إيما ذلك الصباح لتفعل ما يفعله الروس عادة عندما تواجههم ضائقة: يسرع من أودع مالا في مصرف الى سحب ماله قبل أن يجمّد حسابه، فيما يصطف آخرون في طوابير لشراء ما توافر من مؤن في المخازن قبل نفادها.

ساد جو من الجنون سوق البقالة حيث تتبضع إيما عادة. وكان الرجال والنساء يتدافعون بالمناكب للحصول على مكان في الطابور.

شقت إيما طريقها وسط الجمهرة وأخذت مكاناً في صف لشراء الزبدة. كانت مناقشات جارية حولها. قالت امرأة: "أخيراً سيستتب النظام."

فردت إيما وقد أعماها الغضب: "عن أي نظام تتحدثين؟ أن تكوني خلف أسلاك شائكة وغذاؤك طاسة حساء يومياً؟ هذا ما سيكونه النظام الذي تطلبين." ثم تذكرت كم كان خطراً التفوه بعبارات معادية للنظام في أماكن عامة. وأحست بالخوف يتصاعد داخلها فصمتت.

عادت إيما الى غرفتها ووقفت الى الشرفة تنظر ناحية مبنى البرلمان وتراقب الناس يتجمعون حوله. كان رجال ونساء يحملون قطعاً من الخشب وأنابيب معدنية وحجاراً. فأدركت ما ينوون: كانوا يقيمون متاريس وحواجز.

لم يسمع على الراديو صباح ذلك الاثنين الا موسيقى كئيبة، فيما عرضت محطة التلفزيون الخاضعة لامرة الكرملين باليه "بحيرة البجع" مرة تلو أخرى.

لقد وقع المستحيل والمحتوم في آن: شلّت ست سنوات من البريسترويكا مؤسسات نظام تسلّطي من دون أن تقدم بديلا. وفقدت الشيوعية صدقيتها، لكنها لم تمت. وها هم أرباب الحزب والمؤسسة العسكرية والـ"ك.ج.ب." المعرضون لخسارة كل شيء، يردون الضربة.

تحرك ضباط الـ"ك.ج.ب." الى المطابع في أنحاء المدينة وأوقفوا طبع الصحف. وأُصدرت تعليمات لمحطة تلفزيون روسيا المستقلة بالتوقف عن البث، كذلك "اذاعة روسيا" ومحطة "صدى موسكو" المحلية. وفي ردة الى أيام "الحرب الباردة،" حوّل

الموسكوبيون أجهزة الراديو لاستقبال محطات "اذاعة الحرية" والاذاعة البريطانية «BBC» و"صوت أمريكا."

رابطت الدبابات في هذه الاثناء حول محطة التلفزيون المركزية ومباني وكالات الانباء، فيما هدرت الآليات العسكرية في المدينة تهز النوافذ والابنية.

الى "البيت الابيض"

استيقظ يوري كرياكين ذلك الصباح على صوت زوجته: "يوري، لا تقلق، ولكن..." فمد يده غريزياً نحو حبوب الدواء. لقد عانى ثلاث نوبات قلبية خلال سنة، واذ سمع كلمات زوجته ظن أن والدته العجوز توفيت. ولم يلبث أن شعر بارتياح، رافقه شعور بالذنب، عندما أكملت زوجته كلامها وأخبرته أن الجيش اعتقل غورباتشيف واستولى على السلطة.

لكن ارتياحه لم يدم سوى لحظات. كان يوري كرياكين ناقداً أدبياً ونائباً في البرلمان السوفييتي وأحد المقربين من يلتسين. وهو تحدى الشيوعية منذ عهد بريجنيف. وأوقعه دفاعه عن الروائي ألكسندر سولجنتسين في الستينات في مشاكل مع السلطة. كما تضمن خطابه الاول بعد انتخابه عضواً في البرلمان اقتراحاً "وقحاً" بدفن جثمان لينين المعروض في ضريح فخم في الساحة الحمراء منذ ١٩٢٤.

جلس كرياكين برهة يقاوم شعوراً باليأس ويخطط لخطواته التالية في مواجهة هذا الانهيار المفاجىء للديموقراطية الفتية التي غامر من أجلها بكل شيء.

بدأ بيومياته، أغلى ممتلكاته. فأرسل في طلب ابن شقيقه، وسلّم الشاب المذهول توثيق أربعين عاماً من حياته، اذ كان متأكداً من أنه سيعتقل قريباً.

ناداه البستاني العامل في حديقة منزله: "يوري فيدوروفيتش! الفاشية لن تنتصر، قل لهم ذلك!" فأحس كرياكين بطمأنينة اذ تذكر أن أحداً لم يجرؤ على التفوه بكلمة عندما أطيح خروتشيف.

كان مطر خفيف ينهمر فيغسل الواجهات الهرمة ويملأ الحفر في الشوارع. وحين وصل كرياكين الى مبنى البرلمان أشار اليه حاجز بالتوقف. فأبرز بطاقة عضويته في البرلمان السوفييتي، فلم يفده ذلك. عندئذ أبرز بطاقة عضويته في مجلس يلتسين الرئاسي. فقال



يوري كرياكين
ناقد أدبي ونائب في البرلمان السوفييتي.

له الحارس: "لماذا لم تقل هذا منذ البداية؟" وسمح له بالمرور.

مقر برلمان روسيا الاتحادية مبنى ضخم من الرخام الابيض شاعت تسميته "البيت الابيض على ضفة نهر موسكو" رمزاً للديموقراطية الروسية المتبرعمة. وعندما ارتقى كرياكين السلم الى سطيحة المبنى، كان الناس بدأوا يتجمعون هناك طالبين أخباراً جديدة وباحثين في وجوه القادمين.

عرفه أحدهم فهتف: "ماذا يحدث؟"

فصرخ كرياكين مجيباً: "لن ينجوا بفعلتهم!"

هلل له بعض الموجودين. ودخل هو المبنى من دون أن يعترضه أحد. كان جو من الضياع يسود الداخل، والناس يهرعون عبر الممرات. وخطر ببال كرياكين أن مجموعة منظمة من الرجال يمكنها السيطرة على المبنى، وطمأن نفسه بأن يلتسين حي ويتابع عمله في مكتبه في الطبقة الخامسة.

انتبه كرياكين الى أنه نسي دواءه، فقفل الى المنزل، لكنه عرّج في الطريق على مكاتب صحيفة "موسكو نيوز." كانت السلطات أغلقت مطابع الصحيفة لكنها لم تصادر الآلات الناسخة. وكان جهاز الصحيفة يعمل على استنساخ منشورات تندد بالانقلاب وبمن وراءه. وكان من الضروري ايصال النسخ الى الناس في الشوارع واعادة نسخها وتعليقها على الجدران وتوزيعها على وكالات الانباء الاجنبية في المدينة، فانضم كرياكين الى العمل في الصحيفة بدلا من الذهاب الى بيته. وهو عاد لاحقاً الى "البيت الابيض" من دون دواء.

كان الجمهور خارج المبنى غفيراً على رغم رداءة الطقس. وقد عمد أحدهم الى ضبط الامن، فأقيم طوق من الرجال سد المدخل. وعرّف كرياكين عن نفسه كأحد مؤيدي يلتسين فسمح له بالدخول.

"ألست خائفاً؟"

انطلق ألس أداموفيتش، وهو روائي من جمهورية بيلوروسيا (روسيا البيضاء) وعضو في البرلمان السوفييتي، في اتجاه ساحة مانيزه تحت جدار الكرملين. والساحة ملتقى الموسكوبيين في الافراح والاتراح والشدائد. كانت الجماهير في هذا الوقت – قرابة ظهر الاثنين – تتجمع في الساحة تحت المطر. وكان حشد في زاوية هناك يطلق هتافات تشجيعاً لسائق رافعة حرك آليته الكبيرة جيئة وذهابا عبر تقاطع الطرق مناوراً بمهارة لوقف تقدم طابور من الآليات العسكرية.

تدفق الى موسكو نحو ١٠ آلاف جندي ومئات من الدبابات وناقلات الجند المدرعة. أقام بعضهم مواقع على الجسور والطرق الرئيسية حول المدينة وفي وسطها، فيما

تحرك آخرون الى مركزي تجمّع في الشمال جاهزين لضرب أي مقاومة.

ذعر الناس أول الأمر. لكن هؤلاء الجنود، خلافاً لتصرف جيش متوجه الى معركة، كانوا يلوحون للمارة. وكانت مدافع بعض الدبابات مغطاة بمشمعات، وكان كثير من الناقلات خالياً من مدافع رشاشة. وحين توقف الجنود لأخذ مواقعهم لم يترددوا في الاختلاط بالناس، حتى انهم كانوا يساعدون الصغار التائقين الى تسلق المدرعات.

وتحلقت جماعات في الساحة حول خطباء ندد معظمهم بالانقلاب. لكن خطيباً من المتشددين قال إن الانقلاب كان يجب أن يحصل قبل زمن طويل مضيفاً: "يجدر بهؤلاء الديموقراطيين أن يشدوا رحالهم ويتوجهوا الى المطار ما دام مفتوحاً."

فردّت الجموع بصراخ هازئ، فأسرع الرجل في الاختفاء.

انتشر مؤيدو يلتسين في الساحة حاملين مكبرات صوت وهم يشجعون الناس على التوجه الى "البيت الابيض" حيث سيتكلم فيهم بوريس يلتسين. وفيما أداموفيتش يتحرك في ذلك الاتجاه، لحقه مارك دايتش مراسل "اذاعة الحرية" وسأله: "ألست خائفاً؟"

فهز الروائي كتفيه بلامبالاة وأجابه: "لقد تعلمنا نحن الروس أن نعيش تحت شعار: لا يمكن أن تسوء الامور أكثر. أما أنا فقد تخطيت الستين ولم أعد أخاف شيئاً."

بدأ يلتسين مؤتمره الصحافي في الحادية عشرة صباحاً. واكتظت القاعة بالمراسلين والديبلوماسيين الاجانب. وهو وصف الانقلاب بـ"الجنون" معلناً: "لا أحد يزيحني من مركزي الا الشعب الروسي."

أصبح "البيت الابيض" بعد هذه الكلمات غير الهيابة مقر قيادة مقاومة الانقلاب. وكان مئات من المتظاهرين بدأوا يمورون حول المبنى، ومساعدو يلتسين يوزعون نداءه "الى مواطني روسيا." وخلال ٢٤ ساعة كانت نسخ النداء ألصقت على الجدران في أنحاء موسكو.

وكان الناس على المتاريس يتقاربون اتقاء للمطر. وارتفعت معنوياتهم بالقصص المتناقلة عن مواطنين لهم يواجهون قوى الانقلابيين: عن امرأة شابة تحمل طفلها بين ذراعيها وتتقدم غير هيابة لتقف في طريق رتل من الدبابات. وعن جمهرة على جسر كالينين تجبر عشر ناقلات جند على التراجع.



الس أداموفيتش

روائي ونائب في البرلمان السوفييتي.

كانت الجموع في أنحاء موسكو تحاوط الدبابات ما ان تبطيء أو تتوقف، وتناشد عناصرها ألا يطلقوا النار على مواطنيهم.

لا عنف

أنهى إليا كريتشفسكي حديثه الهاتفي مع صديقه سيرغي وأدار الراديو. فسمع موسيقى جنائزية. وهو كان يغلي غضباً بسبب أنباء الانقلاب، فراح يذرع شقته الصغيرة، ثم قرر أن يذهب لرؤية صديقه.

وتروي عنه شقيقته مارينا أنه ينزع الى مواجهة الاحداث بحماسة أكثر من سائر الناس، لان له روح فنان. كان يكتب الشعر، وكانت قصائده تؤثر في أخته عميقاً. لكن هذه القصائد لم تمنحه رضى أبداً. وكانت والدته مهندسة ووالده مهندساً معمارياً مثله ورساماً في الداخل. وقد غطت رسومه جدران المنزل وعرضت في صالات موسكو الفنية: صروح قديمة وقوارب صيادين ومناظر بحرية ساكنة، رسوم تحمل كآبة الحياة في روسيا.

كانت العائلة تعيش براحة على رغم أنها ضمت خمسة بالغين في شقة من غرفتين. وكان إليا ينام في غرفة الجلوس. وعندما سألته مارينا مازحة لماذا لا يتزوج، أجابها: "وأين نسكن؟"

أما الآن فقد ملأت الذكريات السود رأس إليا وهو في طريقه الى منزل صديقه. أي مستقبل يتوقعه المرء اذا عادت البلاد الى زمن بريجنيف؟ ستعود الخيارات التي كانت آنذاك: اعمل حيث يريدونك، وأفعل ما يطلب منك، والا فالسجن!

مع ذلك غمرته شعاعة من التفاؤل العنيد. أحس أن الحركة الديموقراطية ستنتصر وأن الانقلاب سيفشل لان الشعب تذوق طعم الحرية ولن يتخلى عنها. ووافقه سيرغي الرأي عندما التقيا، وقال ان كثيرين يبدون معارضين للانقلاب. لكن السلاح كان في يد لجنة الطوارىء، والشعب غير منظّم وسيتعرض لمجزرة اذا اختار المقاومة. وأنهى سيرغي كلامه بحزن: "انك تعرف تاريخ هذا البلد."

لكن إليا رفض الفكرة قائلاً: "لا، يجب ألا نلجأ الى العنف. فالعنف لم يحلّ مسألة قط." وهذه قناعة لازمته منذ زمن بعيد. كان إليا قبل سنوات يعمل في قرية ريفية عندما حدثت مشادة بين بعض أهل القرية دونما سبب مهم، تلاها وعيد وتهديد. فشهر أحد القرويين بندقية، وتحول ما كان نزاعاً كلامياً أزمة بشعة تنذر بسوء.

ران الصمت على المجموعتين المتخاصمتين، وسُمع صوت صلْي البندقية كأنه فرقعة رعد. تغلب إليا على خوفه وخطا نحو البندقية المصوّبة وقال لحاملها: "لن يحل اطلاق النار شيئاً. ما زال في امكاننا أن نغادر المكان وغداً نكون نسينا كل شيء. أما

اذا أطلقت النار فسنندم جميعنا، وأنت أكثر من الجميع."

خفض الرجل ماسورة بندقيته وهو يحدق متحدياً. ثم تباعدت المجموعتان. وعبرت الازمة، لكن أصدقاء إليا وعائلته سوف يكون لهم ما يذكرهم بتلك الحادثة.

يلتسين على دبابة

داخل مبنى البرلمان، جلس يلتسين وقرابة ٣٠ نائباً متجهمين يقوِّمون القوى المتوافرة لديهم لمقاومة أي هجوم: ٣٠٠ من قوات وزارة الداخلية بمن فيهم نحو ١٠٠ تلميذ شرطي، وأقل من ١٥٠ رشاشاً.

كان واضحاً أنهم ليسوا نداً لدبابات الكرملين وعسكره، لكن قوتهم كانت تكمن في الشعب، في تلك النفوس الشجاعة الواقفة تحت المطر المستعدة للتضحية بالروح في سبيل روسيا حرة.

قرابة الاولى بعد الظهر مشى يلتسين بخطوات واسعة خارج بوابة البرلمان. وسرعان ما تعرف الناس الى عفرة شعره الابيض فتدافعوا نحوه هاتفين "يلتـ...سين! يلتـ...سين!" فلوّح للناس، لكنه تابع سيره عبر سطيحة المبنى فيما حراسه الشخصيون يهرولون للحاق به. وهبط درجات السلم الطويلة الى الشارع. وهناك، وسط دهشة كل من رآه، تسلق الدبابة الرقم ١١٠ من فرقة "تامانسكي" المدرعة وصافح عناصرها.

تطلّع يلتسين، من فوق، الى الوجوه: مئات من الناس التائقين الى من يطمئنهم الى أنهم ليسوا على أبواب العودة الى الماضي. وتحدث اليهم مخاطباً، عبرهم، كل الروس واضعاً حياته في مواجهة الخطر باعلانه الصريح أن الانقلابيين يواجهون معارضته التي لا عودة فيها. وجدد دعوته الى الناس للمشاركة في اضراب عام ولمكافحة الانقلاب بكل الوسائل. وأنهى كلمته قائلاً: "لن ينتصر الرجعيون!"

استبد القلق بيوري ايفانوف، أحد مساعدي يلتسين الشباب، في غمرة الهتاف الذي تلا الخطاب، وهو يرى حرس رئيس الجمهورية يفتشون النوافذ وسطوح المباني خوفاً من وجود قناص. ولم يستطع أن يغالب التفكير في الرئيس الامريكي الراحل جون كينيدي الذي قتل في دالاس وسط جمهور من مؤيديه الهاتفين. ولم يعد اليه الارتياح الا عندما قفز رئيسه الى الارض ودخل مبنى البرلمان سالماً.

كان العالم، بحلول مساء ذلك اليوم، سمع بالاضطرابات في الاتحاد السوفييتي. وكانت غالبية ردود الفعل متشائمة كئيبة. وحل التشاؤم ذلك الاثنين على أسواق المال في أنحاء العالم، فيما هبطت أسعار الاسهم على نحو حاد. وعينت قيادة حلف شمال الاطلسي موعداً لاجتماع طارىء، وقطع الرئيس الامريكي جورج بوش اجازته في ماين

ليعود الى واشنطن. وهو وصف أنباء الاتحاد السوفييتي بأنها "تطورات مقلقة." وعلّق كل المساعدات الاقتصادية التي وعد بها الاتحاد السوفييتي. ثم خاطب الصحافيين قائلا: "الانقلابات قد تفشل، فربما تصطدم بارادة الجماهير."

وتقاعس بعض الزعماء عن تحديد موقف من الاحداث. فناقش الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران مسألة الانقلاب في مقابلة تلفزيونية عاصفة، الا أنه لم يطلب اطلاق غورباتشيف، وتقبّل ياناييف زعيماً موقتاً للاتحاد السوفييتي، وألمح الى أنه مستعد للتعامل مع النظام الجديد.

في هذه الاثناء، حقق اثنان من أعضاء لجنة الطوارىء طموح العمر: أن تكون لهما مكاتب في مبنى الزعماء، في الكرملين. وكان عمال فرغوا من نقل أثاثهما وبعض ممتلكاتهما الشخصية اليه.

قرار حاسم

مضى نهار الاثنين متباطئا، واختلطت بالجماهير فرق استطلاع من "مجموعة ألفا" وهي القوة الضاربة المكافحة للارهاب في الـ"ك.ج.ب." وعمدت الى تسجيل أفلام فيديو لمداخل "البيت الابيض" وللترتيبات الامنية.

كان عدد الجماهير بالالوف، وهم شكلوا طوقا بشريا التف حول المبنى. ودبت الحياة فجأة في مكبرات الصوت المثبتة في أعلى المبنى معلنة بدء البث من "اذاعة البيت الابيض." وتكلمت بيلا كوركوفا، وهي مذيعة تلفزيونية معروفة، من استوديو اذاعي مرتجل أقيم في الطبقة السفلى من مبنى البرلمان. قالت إن المحطة لن تتوقف عن البث حتى تنتهي الازمة، وستذيع أنباء أي تطور قد يحصل، وسيتحدث النواب عبرها الى الجماهير، وستكون هناك برامج ترفيهية أيضا.

تمكن يلتسين لاحقاً من اجراء اتصال بالرئيس "المسمى" الجديد جينادي ياناييف، قال له: "لا تنسَ أننا لا نقبل عصبتكم من قطاع الطرق!"

فرد ياناييف محذراً: "اننا لن ننسى شيئاً!"

ذلك المساء، في اجتماع سري في وزارة الدفاع، عهد الى الجنرال فيكتور كاربوخين من جهاز الـ"ك.ج.ب." في تنفيذ هجوم واسع النطاق على مبنى البرلمان الروسي تشكّل رأس الحربة فيه "مجموعة ألفا" الضاربة. تحرك كاربوخين من فوره برفقة ضابط آخر لاجراء معاينة شخصية للحواجز حول "البيت الابيض،" فاكتشف أنها، على رغم مظهرها المهيب، سهلة الاختراق.

كانت خطته تقضي باقتحام المدخل الرقم ٢٠ حيث تجمع أقل عدد من الناس، بواسطة خراطيم ماء وجنود مسلحين بالهراوات الخاصة بقمع التظاهرات يشقون ممرا

لمجموعة ألفا، فيما يطلق آخرون النار على النوافذ لتحويل الانتباه عن العملية الرئيسية. وكانت مهمة الفرقة الهجومية احتلال مكتب يلتسين. وتقرر استخدام طوافات وقنابل غاز في الهجوم الذي عين موعده في الثالثة من فجر الاربعاء.

وقّع يلتسين في الخامسة والدقيقة العاشرة من مساء الاثنين مرسوما يضع كل الوحدات العسكرية في جمهورية روسيا الاتحادية في امرته. وانتشر أعضاء برلمانيون في المدينة لنقل الرسالة الى الجنود واقناعهم بالقاء سلاحهم.

وفي التاسعة مساء ظهرت "لجنة الطوارىء" المعينة ذاتيا في مؤتمر صحافي متلفز، ليعلن قادتها بحزن أن غورباتشيف يمضي فترة راحة لأنه "تعب جداً بعد كل هذه السنوات" ولا يمكنه الاستمرار في أداء مهماته الرئاسية. لكن يانايف، الناطق باسمهم، هو الذي بدا مريضاً فعلا، يتصبب العرق منه ويداه ترتجفان. وهو أبلغ الى المشاهدين غير المصدقين أن القيادة الجديدة – التي بدا على أعضائها جميعا قلق يائس – ستنقذ البلاد على رغم أن الوضع أفلت من كل سيطرة.

كان للمؤتمر الصحافي تأثير معاكس لما سعى اليه الانقلابيون، فهو، بدلا من تهدئة الشعب، دفع ألوفاً جديدة من الروس الى الشوارع. وهم تدفقوا كالسيل من محطات المترو[٢] قرب "البيت الابيض" يحمل بعضهم أنابيب وحجار اسمنت التقطوها من ورشات بناء على الطريق.

سأل رجل امرأة مسنّة تجر قطعة من سياج خشبي: "الى أين أنت ذاهبة؟ سيبدأ اطلاق النار قريبا."

فأجابته المرأة من دون أن تتوقف: "ليطلقوا النار، فأنا لا أرغب في سماع مزيد من الاكاذيب."

وصل أعضاء من البرلمان ذلك المساء الى موقع الرائد سيرغي يفدوكيموف، قائد وحدة من عشر دبابات «T-72» و «T-80»الفضلى في ترسانة الجيش السوفييتي. كانت الدبابات مصطفة على الضفة الأخرى من نهر موسكو. وكغيره من الضباط الذين أرسلوا الى المنطقة، لم يكن الرائد يفدوكيموف يعي مهمته بوضوح، وأقلقه احتمال تلقي أوامر باطلاق النار على المواطنين. وهو أخذ قراراً فور قراءته مرسوم يلتسين، اذ استدار الى رجاله وأبلغهم أنهم سيعبرون النهر ويأخذون مواقع جديدة... للدفاع عن "البيت الابيض" وعن الناس الذين تجمعوا حوله.

أعلنت "اذاعة البيت الابيض" عبر مكبرات الصوت، فيما الدبابات تهدر عبر جسر كالينين وقد جلس نائب فوق كل واحدة، أن عشر دبابات هي في طريقها للمرابطة الى جانب الشعب، فطغى هتاف الجماهير على قرقعة سلاسل الدبابات ومحركاتها. وفتح لها

(٢) المترو هو القطار الجوفي (النفقي) في المدن الكبرى.

الناس طريقا وتحلقوا حولها لمصافحة الجنود، ثم أتوا بالزهور والطعام، ولفوا الدبابات بالاعلام الروسية ذات اللونين الابيض والازرق. وسرعان ما نقلت الاذاعات خبر تمرد الوحدة الى الداخل السوفييتي والى أنحاء العالم.

احتفظ الانقلابيون باليد الطولى على رغم أخطائهم الجسيمة.[3] فعشر دبابات ليست الجيش بكامله، وكل ما يحتاج اليه الانقلابيون لسحق المقاومة الشعبية وحدة عسكرية موثوق بها ومستعدة لاراقة دماء.

ناشدت بيلا كوركوفا الجماهير عبر "اذاعة البيت الابيض": "ابقوا حيث أنتم، رجاء، انكم خير وسيلة دفاع لدينا. لا تتركونا وحيدين خلال الليل."

"أمي هناك!"

في الدارة الرئاسية على البحر الاسود، سجّل غورباتشيف في ظلمة الليل شريط فيديو يثبت أنه ليس مريضاً ولا متعاوناً بارادته مع الانقلابيين. وهو أعد أربع نسخ من التسجيل عهد فيها الى أربعة من مساعديه الخلّص، آملا أن يتمكن أحدهم من ايصالها الى أيد صديقة في حال اغتياله. ثم خرج هو وزوجته الى الشاطىء حيث راحا يتمشيان جيئة وذهاباً. كانا يقصدان أن يراهما الناس أحياء وبصحة جيدة، ثم أنهما لم يكونا يجرؤان على الحديث بحرية الا خارج المنزل.

لكن رايسا غورباتشيف لم تعد تلك المرأة الواثقة بنفسها كما عرفها العالم. فقد جفاها النوم، وباتت تخاف أن تدع عائلتها تأكل ما يقدم اليها من طعام لئلا يكون مسموما. كما عانت رعباً دائماً من أن تعمد "لجنة الطوارىء،" وقد أعلنت أن زوجها مصاب بمرض خطير، الى أخذ "الخطوات اللازمة لتحويل هذه الكذبة حقيقة."

قبل أن تمضي هذه الايام الحالكة، ستصاب رايسا غورباتشيف بسكتة دماغية (فالج).

لم يذق فالنتين بيرفيلييف، كبير مستشاري نائب الرئيس الروسي ألكسندر روتسكوي، طعم النوم في الليلة الاولى. كان قلقاً على الدفاعات الداخلية في "البيت الابيض"، فلا أحد يعرف عدد الموجودين داخل المبنى ولا من هم. وخلال تفقده القاعات، رأى أن الحرس أخذوا مواقع عند النوافذ بدلا من المداخل والمصاعد، وأن الناس يدخلون عشوائيا من غير ضابط.

أبلغ بيرفيلييف الامر الى روتسكوي الذي دعا الى اجتماع في السادسة صباحا أعدت خلاله خطة متكاملة للدفاع عن المبنى: ركزت الحراسة على السلالم والمصاعد،

(٣) من الغريب انهم لم يقفلوا طرق النقل المشترك ولم يقطعوا وسائل الاتصال، خصوصا من "البيت الابيض" واليه.

وأغلقت كل المداخل وحصّنت، الا ثلاثة منع عبورها الا لمن يملك سبباً موجباً. فلم يكن سراً أن عملاء الـ"ك.ج.ب." اختلطوا بالجماهير. وأرسل رجال مسلحون ببنادق رشاشة الى سطح المبنى لاعاقة أي محاولة لهبوط الطوافات. كما أُقرت استراتيجية "القتال من طبقة الى طبقة" في حال اقتحام المبنى، لاجبار المهاجمين على شق طريقهم قتالا الى الطبقات العليا.

زحف الفجر رماديا ممطراً. واستقبل يلتسين اليوم الجديد بحلة نظيفة مكوية، اذ كان يحتفظ بخزانة ثياب في مكتبه. وصرح سكرتيره الصحافي بأن "الرئيس في خير حال. لقد عمل حتى الثالثة فجراً وأخلد الى النوم لفترة قصيرة ثم أفاق في الخامسة ليعود الى عمله."

جثم ألوف الناس في الخارج، حول البناء الابيض الذي بدا كشبح في رمادية الفجر، متقاربين تحت مظلات وخيم ارتجلت من أغطية وصفائح بلاستيك. وكانوا يصغون الى اشاعات سرت بينهم كالنار في الهشيم: "لقد سمعنا أن الرئيس غورباتشيف حي. ولا يزال محتجزاً في دارته في القرم على أيدي رجال الـ"ك.ج.ب." وهم يعلنون أنهم لا يضمنون حياته إن حصلت محاولة لتحريره بالقوة."

أطلّت الشمس من بين الغيوم. ولم ينقطع سيل الناس لا في المطر ولا في الصحو. كانت الجموع تخرج من محطة المترو وتأخذ مواقع حول مبنى البرلمان. وحملت مجموعة من النساء لافتة كتب عليها: "أيها الجنود! لا تطلقوا النار على أمهاتكم وأخواتكم!" وحملت لافتات أخرى كلمة واحدة: "حرية!"

زرعت الحواجز والمتاريس على كل التقاطعات المؤدية الى المبنى. وأغلق معبر "كالينين بروسبكت" بحافلات أوقفت في عرض الطريق. توقف سائق سيارة مذهولا وسأل سائقي الحافلات الواقفين قرب الحاجز: "هل فعلتم ذلك من تلقائكم أم أن أحداً أمركم؟"

فرد أحد السائقين: "نحن الشعب! فلا نحتاج الى أوامر."

واصل أعضاء البرلمان تحركهم عبر المدينة متصلين بالوحدات العسكرية. ومع أن بعض قادة الوحدات رفضوا لقاءهم، فان الجنود لم يخفوا مشاعر التأييد. وعندما سأل نائب جندياً عما اذا كان يعتزم اطلاق النار على الناس، أجابه هذا: "أمجنون أنت؟ أمي هناك!"

التقت مجموعة من النواب ظهر الثلثاء قافلة من الشاحنات العسكرية في طريق منسك الرئيسية. كانت الشاحنات متجهة الى وسط موسكو حاملة مصابيح كاشفة ضخمة تستخدم لاضاءة السماء ليلا أثناء عمليات انزال مظليين. ولم يكن قائد القافلة

يعرف سبب ارسالها، فقال له أحد النواب: "سأخبرك أنا السبب، إنها لدعم هجوم على برلمان روسيا الذي انتخب شرعياً. عد من حيث أتيت، وقل لمن أرسلك إنك خُيِّرت بين أمرين: فاما العودة واما تحطيم هذه الاضواء الفخمة وتحويلها شظايا."

وبعد ثلاث ساعات من المفاوضات والاتصالات الهاتفية، قفل بعض الشاحنات.

ذلك المساء ضاعفت تظاهرة ارتأها يلتسين أعداد الحشود حول البرلمان وفي الشوارع القريبة. وألقيت خلالها خطب في الجماهير. ثم ظهر ممثل كوميدي شهير على احدى الشرفات وأسعد الناس بنكاته اللاذعة عن "عصبة الثمانية." قال في احداها: "كنت أراقب يانابيف أثناء مؤتمره الصحافي. كيف يمكن أن يدار حكم نظيف بيدين قذرتين مرتجفتين؟"

ووزعت على الجماهير تقارير تفيد أن أعضاء في "لجنة الطوارىء" استقالوا لاصابتهم بأمراض لم تحدد.

بحر من الناس

جلست إيما بروك في بيتها مأخوذة بالمسرحية الجارية أمام عينيها قرب مبنى البرلمان. ثم سمعت ابن زوجها يقول انه سينضم الى الحشود هناك، فاستدارت نحوه. كان يوري في العشرين من عمره وطالبا في معهد موسكو، وهو قال لها: "ان مكاني هناك، بين الناس. أي حياة يمكن أن أتوقعها في هذه البلاد اذا انتصر الرجعيون؟"

وكانت إيما تعرف أن والده، المسافر في عمل، يريدها أن تثنيه عن المخاطرة، لكنها تأثرت بتصميمه على أخذ موقف. وفكرت في طُرُقها الاحتجاجية الواهية: قراءة الادب المحظور، والتفكير – من دون تنفيذ – في الانضمام الى حركة الانفصال. لقد أمضت حياتها مضطهدة من النظام الشيوعي، لكنها لم تفعل شيئاً لمحاربته.

كان يوري عند الباب عندما قررت إيما أن الوقت حان للاشتراك في النضال، فقالت له: "انتظر دقيقة، انني آتية معك."

عندما وصلت إيما بروك الى "البيت الابيض" ذلك المساء، بدا المنظر مثل لوحة تركيبية: عشرات من المشاهد الصغيرة الزاخرة بالحياة تثير كلها شعوراً انفعاليا مفرداً: أطفال يتسلقون دبابات متوقفة في الشارع المطل على النهر، فيما آباؤهم الفخورون يلتقطون لهم صوراً. أناس يقفون قرب نار مكشوفة يحتسون الشاي ويستدفئون وسط البرد والرطوبة. شاحنة تتوقف ويوزع سائقها شطائر همبرغر كبيرة من محلات "مكدونالد."

رأت إيما أناسا يتوجهون الى سائق دبابة ويسألونه: "لماذا لا تدير دبابتك وتدافع عن المبنى؟"

فأجاب الجندي: "انني أتلقى أوامري من وزير الدفاع."
فرد رجل قائلا: "لكن وزير الدفاع مجرم!" وحرّكت شجاعة الرجل مشاعر إيما.

أبلغت "لجنة الطوارىء" في الرابعة الا ربعاً مساء انذاراً آخر الى يلتسين عبر الهاتف: "اسحب الحواجز والمتاريس واستسلم، أو واجه هجوماً شاملا."
فأمر يلتسين بتوزيع الاسلحة والاقنعة الواقية من الغاز على الوزراء والنواب في مكتبه الخارجي.
وفي الرابعة والنصف خرج يلتسين لمصافحة الاشخاص الذين تجمعوا في المكتب، وكلهم من الذين عملوا معه لسنوات وهم الآن على استعداد للموت معه. واذ انتقل من واحد الى آخر بعزم وتصميم، كان يتوقف ليخاطب كل فرد منهم: "شكراً لكم لانكم قررتم البقاء. سوف نصمد مهما يكن الثمن."
وأتى المدد كذلك من بعيد، من لينينغراد، حيث ملأ بحر من الناس – ١٨٠ ألفا كما ذكر – ساحة القصر التي انطلقت منها شرارة ثورة ١٩١٧. وتحدى محافظ المدينة أناتولي سوبتشاك المتآمرين: "إننا لا نعترف بكم! نحن نريد حكم القانون!"
وحاول السفير السوفييتي في صوفيا عاصمة بلغاريا تأمين دعم لقادة الانقلاب، لكنه مس وتراً حساساً لدى الرئيس غير الشيوعي زيليو زيليف عندما حاول الضغط عليه، اذ تناول هذا سماعة الهاتف غاضباً واتصل بيلتسين معلناً دعمه اياه. فقال له الرئيس الروسي ممتناً: "انك أول زعيم أجنبي يتصل بي."
وتلقى يلتسين في السادسة والنصف مساء اتصالا من رئيس الوزراء البريطاني جون ميجور، وتباحثا في الضغوط التي يمكن أن يمارسها الغرب من أجل اطلاق غورباتشيف. وأخبر يلتسين رئيس الوزراء البريطاني أن الدبابات هي في طريقها الى مبنى البرلمان، وأضاف: "لا اظن أن لدي وقتاً كثيراً."
كان الجنرال كاربوخين أطلع ضباطه على خطة الاقتحام خلال اجتماعه واياهم ذلك المساء في القاعدة السرية لـ"مجموعة ألفا" في موسكو. كانت الخطة تقضي بالانتشار وأخذ المواقع في منتصف الليل، وبدء الهجوم في الثالثة صباحاً.
سأله الضابط ميخائيل غولوفاتوف عن مصدر الأمر، فأجاب كاربوخين: "إنه أمر من الحكومة."
سأله الضابط ثانية: "أي حكومة؟"
فاحمر وجه الجنرال غضباً، لكن غولوفاتوف عاند، ووقف الضباط الباقون معه.
كان رجال "مجموعة ألفا" نخبة صغيرة فخورة بمهنتها. وهم عملوا على إنقاذ أبرياء، كثيرين، بمن فيهم أطفال، من قبضة ارهابيين ومجرمين. لكنهم، في يناير

(كانون الثاني) ١٩٩١، أرسلوا الى فيلنيوس من دون ابلاغهم طبيعة المهمة هناك. وأمروا بالهجوم على مبنى محطة التلفزيون، فقتل واحد منهم اضافة الى الليتوانيين الثلاثة عشر. وها هم الآن يؤمرون ثانية بمهاجمة مدنيين. لم يكن أي منهم يشك في قدرة المجموعة على تنفيذ المهمة، فبصرف النظر عن عدد المدافعين عن "البيت الابيض"، لن يتمكنوا من الصمود طويلا أمام محترفين مدربين كهؤلاء. ولكن هل الاوامر شرعية؟ وماذا لو هاجمهم الجمهور واضطروا الى شق طريقهم قتالا؟ وكم من الاشخاص قد يقتلون؟

مرت الدقائق متباطئة والضباط يتداولون الامر. وأخيراً أخبر غولوفاتوف الجنرال المتقد غضباً أن الجواب هو لا. وبقيت الـ"لا" قاطعة على رغم التهديد بمحاكمات عسكرية واعدامات. للمرة الاولى في تاريخها ترفض "مجموعة ألفا" أمراً مباشراً.

كان واضحا داخل "البيت الابيض" أن يأس الانقلابيين، بفعل أخطائهم التكتيكية والتمرد في صفوفهم، يدفعهم الى توجيه ضربة واحدة حاسمة: الاستيلاء على "البيت الابيض" بؤرة المقاومة، وعندئذ يفوزون بكل شيء.

كانت دلائل استعدادهم لاستخدام قوات كبيرة بدأت تتضح خلال الساعات القليلة الماضية. فالسلاح الذي كان يتحرك عشوائيا بدأ يتجه للاطباق على "البيت الابيض." وكشفت المناظير المقرِّبة أن الاشخاص "الغامضين" الذين يراقبون مبنى البرلمان عن سطوح الابنية المجاورة لم يكونوا سوى قناصين مزودين بنادق متطورة.

استمر تدفق الجماهير، وأعلن نائب الرئيس روتسكوي أن هجوماً قد يشن تلك الليلة بالدبابات أو بالطائرات أو بالغازات. وناشد الناس ألا يغادروا، فالساعات العشر الآتية قد تكون حاسمة.

وأقيم مركز اسعاف أولي أمام "البيت الابيض" وعادت إيما الى منزلها لاحضار مناشف وشراشف يمكن استخدامها أقنعة واقية من الغاز بعد بلّها بالماء. ولاحظت لدى عودتها أن عدد الاطباء يفوق ما يستوعبه المركز، فتوجهت الى حافلة حيث كان بعض النسوة يعددن شطائر، وجلست تساعدهن. كان المطر ينقر سطح الحافلة بايقاع منتظم فيما إيما تقطع الخبز والنقانق وتضع الشطائر الجاهزة في سلال لتوزيعها على الناس. وكانت تغادر الحافلة بين فينة وأخرى للاستماع الى نشرات الاخبار تبثها مكبرات الصوت.

وتصاعد التوتر خارج "البيت الابيض" مع اقتراب الظلام. وبات المطر ينهمر كالسيل.

في الساعة ٨،٤٣ سمع المتحلقون حول أجهزة الراديو اعلانا لحظر التجول بدءا بالحادية عشرة. وكان كثيرون أحضروا قوارير "ترموس" عازلة للحرارة وبطانيات ومظلات، في نية واضحة للبقاء طوال الليل، سواء أحظر التجول أم لم يحظر.

وتكررت التقارير عن دبابات تقترب، ورافقت كل تقرير موجة من القلق سرت بين الجماهير. ثم أعلنت "اذاعة البيت الابيض" أن جنوداً مغاوير في لباس مدني قد يقودون الهجوم، لذلك أخلى المدافعون "حزاماً أمنياً" حول المبنى بعرض حوالى ٤٥ متراً، محذرين من أنهم سيطلقون النار على كل من يحاول عبوره. ثم سمع صوت روتسكوي وهو يحضّ الامهات والاطفال على العودة الى منازلهم قائلا: "لا تيأسوا اذا ما حدث أمر مأسوي هنا، فالنضال سيستمر."

التفتت إيما الى حيث وقف يوري، فلم تلمحه. فراحت تراقب شباناً آخرين وقفوا على مقربة منها، هادئين والعزم واضح في عيونهم، مستعدين للقتال من أجل مستقبلهم. أحست أن مستقبل الشعب الروسي كله معلق تلك الليلة على كف عفريت، فقررت البقاء وعادت الى مقعدها في الحافلة تقطّع الخبز والنقانق.

بعد قليل مد جندي رأسه داخل الحافلة وطلب من النسوة الرحيل.

فاحتجّت إيما: "لكننا نحضّر شطائر!"

فصرخ الجندي: "شطائر؟ اننا نتوقع هجوماً!"

مع مواطنيه

دعي يوري ايفانوف، ورشاش كلاشنيكوف معلق بكتفه، الى مكتب فالنتين بيرفيلييف. كان الشاب الحقوقي ابن التاسعة والعشرين والذي كلف الحراسة، على وشك أن يكلَّف مهمة خاصة. وحين دخل المكتب رأى بيرفيلييف واقفاً مع رجل أصلع محدودب قليلا بدت ملامحه مألوفة.

سأله بيرفيلييف: "هل تعرف هذا السيد؟"

فجمد ايفانوف وقد أخرسته المفاجأة، اذ أدرك أنه في حضرة مستيسلاف روستروبوفيتش أعظم عازف فيولونسيل[٤] في العالم وأشهر الموسيقيين الروس الاحياء.

صافحه روستروبوفيتش مبتسماً: "يوري، انني سعيد بلقائك."

وقال له بيرفيلييف: "لقد حضر المايسترو[٥] الى هذا المكان ليقف مع شعب روسيا. عليك أن تحمي حياته في كل الاحوال، وإن كلفتك حياتك. هل تعي ما أقول؟"

فأومأ ايفانوف ايجاباً.

(٤) الفيولونسيل (cello) كمان كبيرة.

(٥) المايسترو أستاذ في فن ما، وخصوصاً الموسيقى.

لكن روستروبوفيتش (٦٤ عاماً) طمأنه قائلاً: "لا تأخذ الامر بجدية كبرى، اننا رفقاء سلاح! تعال، خذني في جولة."

لا يمكن صديقين أن يكونا أقرب. مشى الرجلان جنباً الى جنب في جولة على المبنى، فاتقد الامل في كل رأى ابن روسيا الشهير بين مواطنيه. وذات مرة كانا جالسين في غرفة الاذاعة وروسترو بوفيتش ينتظر دوره لمخاطبة الجماهير، فأغفى ايفانوف المنهك على كتف المايسترو تاركاً اياه يحمل الرشاش.

سمع ايفانوف أثناء جولته قصة روستروبوفيتش المثيرة عن عودته الى موسكو. فقد سمع المايسترو نبأ الانقلاب وهو في باريس، فقرر أن موقعه هو بين مواطنيه.

صرف المايسترو يوماً في اعداد وصيته الاخيرة وتدبير شؤونه، ثم ركب طائرة متجهة الى موسكو من دون أن يحصل على تأشيرة دخول ومن دون أن ينبىء زوجته شفهياً، وإنما ترك لها رسالة كتب فيها ان ذلك فرض عليه أن يؤديه. وفي مطار موسكو احتال للمرور عبر دائرة الهجرة، زاعماً للمسؤولين أنه آت لحضور مؤتمر للروس "المغتربين." ثم ركب سيارة الى مبنى البرلمان.

عندما أعلنت "اذاعة البيت الابيض" أن مستيسلاف روستروبوفيتش عاد الى الوطن ليقف مع شعبه دفاعاً عن الحرية، ران على الجماهير صمت ذاهل للحظات، ثم تعالت الهتافات تشق عنان السماء. وفي الفجر سلطت أنوار كشافة على روستروبوفيتش وهو واقف تحت المطر على شرفة الطبقة الثانية، فشرع الناس يهتفون ويصفقون بايقاع واحد: "روس - ترو - بو - فيتش! روس - ترو - بو - فيتش!"

ردّ المايسترو بصوت عال: "شكراً يا أصدقائي، انني واقف معكم." كانت سلامته الشخصية آخر ما يفكر فيه. وعندما رافقه ايفانوف الى الطبقة السفلى، تحت الارض، باعتبارها أكثر أماناً، تحملها المايسترو عشر دقائق ثم طلب العودة الى الطبقات العليا ليكون مع شعبه. وعندما اقترح عليه ايفانوف الانتقال الى السفارة الامريكية القريبة، خرج روستروبوفيتش الى الجماهير وايفانوف يعدو محاولاً اللحاق به. وراح عازف الفيولونسيل يتنقل من نار الى أخرى وهو يتحدث الى الناس ويعانقهم. لقد عاد الى روسيا ليشاركهم في مصيرهم، ووقف تحت المطر، في أخطر موقع في البلاد، يمنح الناس شجاعة.

التقى إليا كريتشفسكي صديقاً وقررا أن يذهبا معاً الى "البيت الابيض." ولما كان إليا يعرف أن عائلته ستقلق عليه، أخبر أمه أنه خارج ليتمشى، فهذا ما اعتاد أن يفعله كل ليلة.

أعجب إليا بالحواجز المقامة. فإذا سار من محطة المترو رأى الشوارع مسدودة

بسيارات وشاحنات وحافلات، والناس يحاورون سائقي الدبابات ومعظمهم شبان بدوا فزعين قليلا. لم يكن أحد مهتما بقرار منع التجول.

تحركت مشاعر إليا أمام "البيت الابيض" لمشاهدته ألوف الناس وقد استعدوا للبقاء تحت المطر ومحاربة القامعين. وأراد أن يبقى معهم، اذ خامره أن هذه الليلة الثانية ستكون حاسمة. لكنه كان يعرف أن أهله سيقلقون إن لم يعد الى المنزل. وفي ساعة متقدمة من الليل مشى ورفيقه الى محطة المترو على الطريق الرئيسية. وسمعا في شارع جانبي صرير عربات مدرعة، فركضا بقية المسافة الى الطريق الرئيسية، وشاهدا ثماني ناقلات جند مدرعة كانت تتحرك في اتجاه "البيت الابيض" وقد علقت في معبر تحت الارض في نقطة "كالينين بروسبكت" التي سُد طرفاها بحافلات. كانت الناقلات اقتحمت الحاجز الاول لتفاجأ بالثاني، فاستدارت، لكن الجماهير أغلقت الحاجز خلفها وعززته.

لقد أصبح المسرح جاهزا لفصول مأساة.

سمعت الطلقات الاولى بعيد منتصف الليل، وهي أتت من معبر "كالينين بروسبكت" حيث بدأ الجنود اطلاق النار في الهواء - كما أقسموا لاحقا - بقصد ابعاد الجمهور الذي أطبق عليهم من كل الجوانب. ولكن لم تذهب كل الرصاصات في الهواء، فسقط عدد من الناس وقد أصيبوا، ربما، بشظايا مرتدة من جدران المعبر وسقفه.

هرع إليا الى أسفل منحدر الطريق لمساعدة رجل أمسك معدته بكلتا يديه، وبعدما ساعد في نقله الى سيارة اسعاف في الجانب الآخر من الحاجز، أسرع عائدا الى المنحدر حيث كانت الناقلات تصدم الحافلات المنقلبة محاولة شق طريق. ووقف مستندا الى حائط المعبر فيما تحركت احدى الناقلات خلفيا لتصدم حافلة.



يوري ايفانوف
نائما على كتف مستيلاف روسترو بوفيتش.

فجأة قفز ديمتري كومار الى الناقلة، فانتزع الفتحة الخلفية وصرخ في أفراد الطاقم. ويقول شهود انه كان يحاول اقناعهم بالتوقف لأن الناس سيفتحون الحاجز ويسمحون لهم بالمرور، لكن الناقلة اندفعت خلفيا ملقية كومار على ظهره، فتوفي حالما اصطدم رأسه بالارض، وبقيت رجلاه عالقتين داخل الناقلة وهذه تندفع جيئة وذهابا جارّة رأس كومار وكتفيه على الارض والدم يسيل على الطريق.

توقفت الناقلة كأنما استعداداً لهجوم جديد على الحاجز. فاندفع عدد من الرجال محاولين تخليص الجثة، لكن الناقلة عادت تروح وتغدو. فقفز الرجال بعيداً، الا واحداً أصابته رصاصة فسقط ميتا تحت سلاسل الناقلة التي مرت فوق جسده.

أشعل واحد من الجمهور الغاضب فتيلة في زجاجة ملأى بالوقود، وألقاها على الناقلة وارتفعت زجاجة ثانية في الهواء وانفجرت ملتهبة، وتبعتها ثالثة. فاشتعل جانب الناقلة وسرعان ما اضطرمت فيه النار.

ودب الذعر في المكان حيث علق جنود خائفون وسط جمهور معادٍ. فقفز أفراد الطاقم من الناقلة المشتعلة وركضوا في اتجاه ناقلة ثانية وهم يطلقون النار في الهواء.

تحرك إليا في اتجاه الناقلة الثانية، وسُمع يصرخ: "ماذا تفعلون أيها الاوغاد؟ لماذا تقتلون اخوانكم؟" وبعد لحظة أصابته رصاصة من رشاش فسقط ميتا.

ثورة الشيوخ

حذرت "اذاعة البيت الابيض" الناس من الوقوف في وجه الدبابات، ونصحتهم بأن يفسحوا لها المجال: "لا تصرخوا ولا تستثيروهم. اذا كنتم تحملون سلاحا، القوه بعيداً. أنتم تحموننا بمجرد وجودكم هنا."

لعلع صوت بيلا كوركوفا عبر الراديو في الثانية والنصف صباحا: "اخوتي وأخواتي! رتل من الدبابات يتحرك في اتجاه البيت الابيض. اننا نتوقع هجوما خلال الدقائق العشر الآتية."

وصمتت "اذاعة البيت الابيض."

أطفئت الانوار داخل مبنى البرلمان، وبث مراسل "اذاعة الحرية" ما سماه "تقريري الاخير"، ولم يعد لدى الناس ما يفعلونه خلال الدقائق الحرجة التالية... سوى الانتظار.

جلس بوريس يلتسين في مكتبه في الطبقة الخامسة يستمع الى تقارير مساعديه عن الاوضاع في الخارج. بدا منهكا، وجهه تعب وعيناه حمراوان، لكنه بقي على اناقة الملبس، وكان صوته حازماً وأوامره لا تعرف التردد. وقال أحد مساعديه إن نظراته كانت نظرات رجل لا يَملك شيئا يأسف عليه.

سار فالنتين بيرفيلييف عبر الاروقة المظلمة في الطبقة الرابعة. ورأى أضواء في بيوت كثيرة عبر النهر على رغم تلك الساعة المتقدمة من الليل. كان الموسكوبيون يشاركون المدافعين عن "البيت الابيض" في انتظارهم. فمن يستطيع النوم والدبابات تتحرك ومصير روسيا متوقف على ما يحصل في الساعات القليلة المقبلة؟

توقف بيرفيلييف في مكتب روتسكوي. كان الحراس المنهكون نائمين في كراسيهم وهم يحتضنون رشاشاتهم. فقرر بيرفيلييف ألا يوقظهم الا لدى سماع الطلقة الاولى.

كانت الستائر مسدلة داخل مكتب نائب الرئيس. فوضع بيرفيلييف المصباح الوحيد المضاء على الارض مالئاً الغرفة بالظلال. كان روتسكوي جالساً الى طاولته يكتب ومسدسه الى جانبه. فطلب منه بيرفيلييف سلاحاً، فالتفت اليه روتسكوي قائلاً: "سلاحك الافضل عقلك وقلمك."

تابع بيرفيلييف سيره الى مكتبه تائقاً الى محادثة زوجته، لكنه خشي أن يوقظ رنين الهاتف أبناءه. لذلك اتصل بشقيق زوجته وقال له: "اننا نتوقع هجوماً في أي لحظة، ولا أعتقد أن كثيرين سينجون." وبعد صمت قصير تابع: "عليك الاهتمام بعائلتي."

كان جهاز استخبارات يلتسين في الطبقة الثالثة يتابع تحركات الوحدات العسكرية، اذ كانت مجموعات من المدافعين تطوف المدينة وتمد الجهاز بالاخبار، كما تابع مواطنون متيقظون الاتصال هاتفياً بـ"البيت الابيض" والافادة عما يرونه في الشوارع.

تركز اهتمام المدافعين على لواء متحرك من الـ"ك.ج.ب." مقره في قطاع جنوب غرب موسكو، فهذه الوحدة تملك العديد والعتاد اللازمين لانقاذ الانقلاب المتعثر. وقد اتصل أحد ضباط اللواء بمكتب يلتسين ليكشف أن المجموعة تعد لهجوم شامل على "البيت الابيض."

توجه بعض أعضاء البرلمان الى ذلك القطاع لاقناع وحدة الـ"ك.ج.ب." بأن الانقلاب غير مشروع، ولكن لم تُعرف نتيجة مفاوضاتهم.

ولم يلبث المسؤولون في "البيت الابيض" أن علموا أن وحدة الـ"ك.ج.ب." أتمت انتشارها وبدأت تتحرك في خط مستقيم نحو مبنى البرلمان. فانتظر بيرفيلييف مصغياً لسماع الطلقات الاولى التي تؤذن ببدء الهجوم.

فجأة دخل عليه أحد مساعديه حاملا رسالة من جهاز الاستخبارات تفيد أن دبابات الـ"ك.ج.ب." قطعت نصف المسافة الى "البيت الابيض" ثم... توقفت. أيمكن أن تكون وحدات الـ"ك.ج.ب." استجابت لنداءات أعضاء البرلمان؟ أيمكن أن تقف الى جانب الشعب؟



متظاهرون يحملون علمهم الجديد.

تطايرت المكالمات بين مكتب بيرفيلييف وعناصر جهاز الاستخبارات. لقد أوقف اللواء هجومه حقاً، وبدأ مفاوضون عنه يتصلون هاتفياً ليبلغوا الى "البيت الابيض" أن الدبابات لن تتقدم.

وقف بيرفيلييف يستمع الى صليل الدبابات المتراجعة من وسط موسكو، فيما خيوط الفجر الوردية تلوّن السماء خارج نافذته.

عندما بثت "اذاعة البيت الابيض" أخبار هذه التطورات، بحثت إيما بروك عن إبن زوجها يوري، فنادته وقفلا عائدين الى المنزل. وهما شاهدا في الطريق رتلاً من الدبابات يزحف شمالاً، بعيداً عن وسط المدينة. فجأة هرع اليهما رجل صارخاً: "غادرا هذا المكان. هذه ليست لعباً، ويمكن أن تقتلا."

كانت إيما لتسمع هذه النصيحة من قبل. أما الآن فقد هزت رأسها مبتسمة: "لا أظن ذلك، لقد انتهى كل شيء."

الاربعاء. كان الامل الاخير للانقلابيين بكسب الشرعية تصديق مشروع قانون لدى اللجنة التنفيذية الدائمة في مجلس السوفييت الاعلى. وكانت الخلفية السياسية لأعضاء اللجنة تكاد لا تميز عن خلفية زعماء الانقلاب، لذا لم يكن أحد متأكداً من نتيجة اقتراع اللجنة. فألقى ألس أداموفيتش خطاباً رناناً أمام الجمعية خاتماً بقوله: "كونوا رجالاً مرة في حياتكم."

وسقط المشروع في النهاية.

عندما سمع يوري كرياكين النبأ قال لزملائه: "لقد ابتسم الحظ لروسيا للمرة الاولى في القرن العشرين."

وبعد الظهر ركب وفد، يرئسه روتسكوي، طائرة حملته الى القرم للقاء غورباتشيف والعودة به الى موسكو.

لكن الوقت لم يكن حان بعد للاحتفال بالنصر، فقد انتشرت تقارير في "البيت الابيض" تفيد أن عناصر من الـ"ك.ج.ب." تسللت داخل المبنى وهي تستعد لضربة يائسة أخيرة. فشدد المدافعون الاجراءات الامنية في المبنى تحسباً.

كان أداموفيتش نائماً على كراسيّ مصفوفة في أحد أروقة الطبقة الخامسة. فرنّ جرس الهاتف على مقربة منه. تناول السماعة، فأتاه صوت قال له: "انتبه، لقد كلفنا طلاب كلية الشرطة حراسة هذه الطبقة. اذا اضطررت الى التحرك من مكانك، فامش ببطء، ومهما فعلت فلا تضع يديك في جيوبك والا تعرضت لاطلاق النار."

استرجاع الكرملين

الخميس. وصلت الطائرة التي تقل غورباتشيف الى موسكو في الثانية صباحاً. لكن الرئيس عاد ناجيا، لا بطلا. وهو بدا على سلم الطائرة، بمعطفه الواقي المتغضن ووجهه المنهك، أبعد ما يكون عن الرجل القوي الذي غادر موسكو قبل أسبوعين.

انكشف المتآمرون الذين أوشكوا أن يجروا البلاد الى حرب أهلية تذهب بعشرات الالوف من الضحايا. وعندما استعاد الموالون لغورباتشيف قصر الكرملين، وجدوا ياناييف في مكتبه ثملا غير واعٍ ما حدث. وأرسل ١٤ متآمراً الى السجن في انتظار محاكمتهم بتهم عدة، منها الخيانة. وبعد أيام استعيدت الحقيبة التي تحتوي على الرموز الخاصة باطلاق الصواريخ النووية السوفييتية.

تحرك نحو "البيت الابيض" جمهور هائل ضم نحو ١٠٠ ألف مواطن للاحتفال بفشل الانقلاب. واقترح يلتسين، ملوحا لهم من شرفة الطبقة الثانية، تغيير اسم الساحة ليصبح "ساحة روسيا الحرة." فهدرت الجموع موافقة.

ثم ظهر المايسترو مستيسلاف روستروبوفيتش ليخاطبهم قائلا: "أيها الموسكوبيون، لقد منحتموني يومين من أسعد أيام حياتي." وفي الغد رافقه يوري ايفانوف الى المطار وسار معه نحو الطائرة المتجهة الى باريس. فشد المايسترو يد حارسه قائلا: "أخي يوري، عندما نمتَ حملتُ أنا بندقيتك. زرني في باريس، واذا نمتُ فاحمل أنت الفيولونسيل!"

الجمعة. علّق يلتسين نشاطات الحزب الشيوعي في روسيا.

السبت. ظلت السطيحة الفسيحة أمام "البيت الابيض" تحمل، مثل كل ساحة معركة، آثار متاريس وبقايا نار خبتْ. أما المشاعر المشتركة والشعور المفاجىء بالوحدة بين ألوف الروس فلا تزال متقدة باشراق.

١٠٠ ألف مواطن جاؤوا ليدفنوا ضحايا الانقلاب الثلاث: ديمتري كومار وإليا كريتشفسكي وفلاديمير أوزوف وهو محاسب في السابعة والثلاثين من عمره.

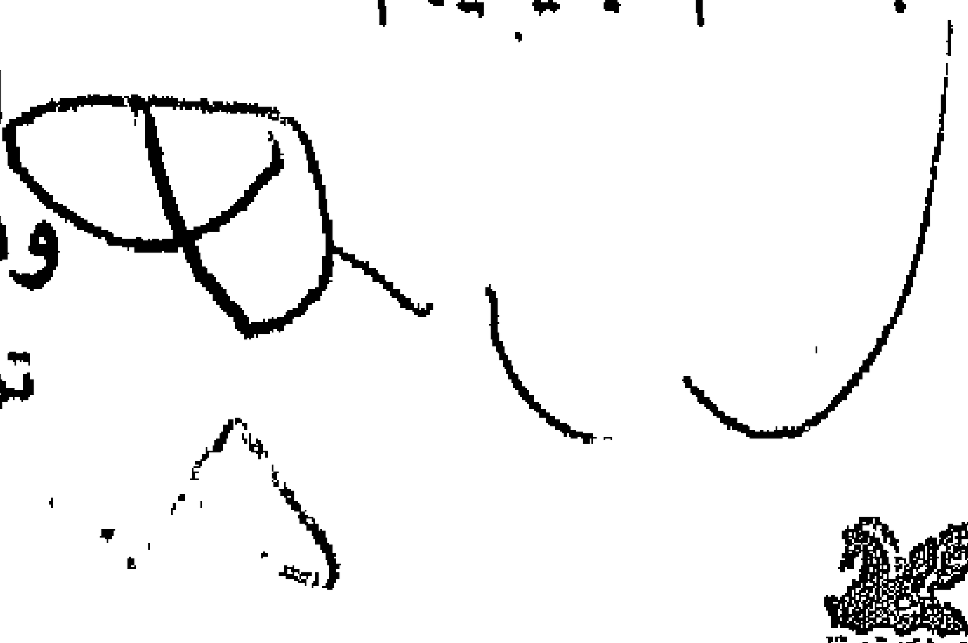
تجمع الناس خارج جدار الكرملين حول علم روسي يرمز الى ايمانهم العنيد بمستقبل أفضل. كانوا يلمسونه فيوحِّدهم أمل باشراقة فجر جديد.

ثم توجهوا الى "البيت الابيض" في مسيرة كئيبة رصينة تثير المشاعر. وعلى امتداد "كالينين بروسبكت" ترك التجار حوانيتهم وخرجوا لمشاهدة المسيرة. وراحت النسوة يدفعن الاطفال قُدُماً على جانبي الطريق، فهذه لحظات لا تثمن، وذكرى تختزن للغد.

أشاد يلتسين بالضحايا في كلمة عاطفية واصفاً اياهم بـ"أبطال الوطن" وطالبا الغفران من عائلاتهم، "لأنني أنا رئيس البلاد، لم أستطع انقاذهم."

خلال ثلاثة أيام هزت العالم تشبث الشعب الروسي بأحلامه الفتية ووقف المواطنون وقفة رجل واحد وهم يمسكون مستقبل بلادهم بأيديهم.

لورنس إليوت
وديفيد ساتر ■
ترجمة فواز خوري



زهرة غاردينيا

اعجبت احدى الصديقات بزهرة غاردينيا متفتحة في بيتنا. فابدت رغبتها في ان تزين بها فستانها خلال حفلة تخرّج تلميذاتها بعد اربعة أيام. ولما كانت زهرة الغاردينيا المتفتّحة لا تعيش سوى يوم أو يومين، فكّرت زوجتي في البرعم اليتيم الباقي في النبتة، ولكن لم يبدُ انه سيتفتّح في غضون الأيام الأربعة التالية. الا ان زوجتي صممت على اهدائه الى صديقتها في الموعد زهرة كاملة. فراحت ترويه بماء المطر الدافىء المشبع بالفيتامينات، وترشّ أوراقه، وتنقل النبتة من مكان الى آخر في الغرفة لكي يبقى البرعم معرضا لنور الشمس، وتحدّثها برقّة على انغام موسيقى ناعمة.

وفي نهاية اليوم الثالث كان البرعم لا يزال مغلقا.

صبيحة اليوم الرابع نظرتُ الى نبتة الغاردينيا مذهولا: لقد تحوّل البرعم، تحت مصباح كهربائي استمر مضاء فوقه طوال الليل، زهرة متفتحة ناصعة البياض جاهزة لحفلة تخرّج تلميذات صديقتنا.

ب.س.

كتاب الشهر

الحلقة الكبرى



بقلم ناثان أدامس

لم يتوقع إدوارد مادونا أن يتحول التحقيق الروتيني الذي بدأه في قضية ضبط كمية صغيرة من الهيروين عملية مطاردة اعتبرت من الاوسع في تاريخ مكافحة تجارة المخدرات، تصدى فيها فريق شباب من عملاء مكافحة المخدرات لمنظمة تهريب قاسية لا ترحم تدعى "عصابة الحلقة الكبرى."

واجه مادونا في بادىء الامر صعوبة في اقناع مديرية مكافحة المخدرات في الولايات المتحدة بالبعد الخطير لهذه القضية. وهو لم يكن في أي حال سوى محقق عادي في مدينة سياتل بولاية واشنطن، بينما كان زملاؤه في الساحل الشرقي للولايات المتحدة زمرة بائسة قليلة العدد تفتقر الى الخبرة وتُعرف بـ"المجموعة ٤١."

وكان لا بد لهم للنجاح في مهمتهم من الاقدام على ما لم يجرؤ أحد عليه في مكافحة المخدرات، ألا وهو اختراق العالم الخفي لـ"الكارتل" الصيني للمخدرات وكشف رئيسه الداهية جوني كون واقتياده الى المحاكمة. وتعمل لدى كون المحنك في إدارة امبراطوريته عصابة من أشد المجرمين بطشاً ووحشية. فهل يتمكن أولئك المحققون الأغرار من تحقيق هدفهم؟




IMMIGRATION
VISA CLASS
IMMIGRATION



كان ادوارد مادونا (٣٣ عاما) العميل الخاص في مكتب مديرية مكافحة المخدرات في مدينة سياتل، يتطلع الى قضاء يوم أحد هادىء ينصرف فيه الى العناية بحديقته. كان ذلك في ٢٣ يونيو (حزيران) ١٩٨٥. لكن جهاز الاتصال المثبت الى وسطه بدأ يرسل ذبذبة بعد دقائق من انتصاف النهار، فدخل مادونا منزله واتصل بمكتبه ثم أقفل الخط حانقا.

وقال لزوجته: "قبض رجال الجمارك على اثنين من مهربي المخدرات كانا في طائرة آتية من طوكيو. يبدو أن الامر لا يتعدى كمية صغيرة، ربما ٥٠ غراما."

بعد ساعة وقف مادونا يراقب مفتشي الجمارك في مطار سياتل وهم يثقبون ١٣٨ مستوعبا معدنيا عازلا لحفظ مكعبات الثلج كان الراكبان صرحا بها في وثيقة الشحن على أنها عينات انتاجية. وأفرغ المفتشون ٩٦ كيلوغراما من الهيرويين النقي، وهي أضخم شحنة من نوعها آتية من شرق آسيا تصادر في الولايات المتحدة.

ولكن رافق هذا الانجاز نبأ سيىء، فقبل وصول مادونا سمح لاحد المهربين، وهو صيني من هونغ كونغ ناحل ذو شاربين يدعى فانغ هان – شنغ، بدخول غرفة الحمام بمفرده لقضاء حاجته. وبعد دقائق تبعه مفتشون للتحقق من وجوده هناك فرأوا على

الارض شاربين مستعارين وشاهدوا نافذة الحمام الصغيرة مفتوحة. لقد توارى المهرب.

وكان المهرب الآخر محتجزاً في غرفة تحت مراقبة شديدة. وهو ادعى أنه مهندس كهرباء جاء في رحلة عمل. وقال بانكليزية متعثرة: "أنا لا أعرف شيئاً عن الهيروويين. أنا مكلف تسليم صديق مكعبات الثلج، ومن المفترض أن أنقلها الى شيكاغو حيث طلب مني أن أنتظر اتصالاً هاتفياً."

طلب العميل الخاص مادونا من مفتشي الجمارك السماح له بالاختلاء بالمتهم. كان الرجل صغير القامة ناحلها، وهو أطلع مادونا على جواز سفره، فسأله هذا: "هل أنت تشن تسونغ – منغ؟"

أجاب الصيني وقد بدأ جبينه يندى: "نعم أنا طومي تشن."

كان مادونا رقيباً سابقاً في الشرطة التحق بمديرية مكافحة المخدرات قبل ثمانية أشهر فقط، آملاً أن يعوض في حرب المخدرات ما فاته في وظيفته الروتينية السابقة. لكن القضايا التي أسندت اليه اقتصرت على تحقيقات في عمليات اتجار محلية بمادتي الكوكايين والماريوانا تُعتبر ثانوية في الأهمية.

ألقى مادونا نظرة فاحصة على المهرب، فبدا له جلياً أن الرجل مرتعب، ولكن ممن؟

قال له: استرخِ يا طومي. لا أحد يريد ايذاءك. ولكن لدينا مشكلة كبيرة تتمثل في مستوعبات مكعبات الثلج، ولا أرى الا مخرجا واحداً."

ثم عرض مادونا على تشن صفقة اشترط فيها عليه، إن هو أراد فرصة لينجو من عقوبة بالسجن مدتها عشرون سنة، أن يتابع سفره الى شيكاغو ويسلم البضاعة ويكشف للمحققين هوية أصحابها ويشهد ضدهم.

قال تشن هازاً رأسه برفض قاطع: "لا، لا، لا يمكنني أن أفعل ذلك."

حدق مادونا مشدوهاً الى الرجل موضحاً له تكراراً أن لا خيار أمامه. وتساءل: "كيف يعقل ألا يدرك هذا الرجل أن اللعبة انتهت؟"

رضخ تشن أخيراً للواقع مبدياً استعداده للذهاب الى شيكاغو وانتظار الاتصال الموعود. لكنه رفض الادلاء بشهادة، "والا قضوا علي وعلى جميع أفراد عائلتي."

سأله مادونا: "ومن سيقضي عليك؟"

لكنه لم يحظ بجواب.

بعد ساعتين اصطحب مادونا تشن في طائرة الى شيكاغو، ونزلا في فندق هيلتون قرب المطار وفقاً لتعليمات قال تشن انها أعطيت له. وتولى أحد عملاء مديرية مكافحة المخدرات حراسة تشن في غرفته، وتوزع ثلاثة عملاء في الممشى، وأقام مادونا في غرفة مجاورة. رن الهاتف في غرفة مادونا قبيل الحادية عشرة ليلاً. وطلب المتكلم

التحدث مع حارس تشن. طرق مادونا جدار الغرفة، فانسلّ الحارس الى الداخل للرد على المكالمة.

وما هي الا ثوان حتى سمع مادونا ضجة عالية في غرفة تشن، فهتف بالذين يتولون المراقبة وهو يخفّ الى الغرفة المجاورة: "أسرعوا الى هناك!"

لكن تشن كان قد توارى.

لقد تمكن المهرب من خلع النافذة المقفلة وخرج منها، فسقط من ارتفاع ست طبقات على مظلة صلبة، ثم تمكن من القفز طبقتين أخريين الى الشارع تحته. وما لا يسهل تصديقه أن تشن لم ينجُ من الهلاك فحسب، بل توارى تحت جنح الظلام.

اتصل مادونا لاسلكيا بالشرطة والمستشفيات ومحطات وسائل النقل وزودهم أوصاف الهارب. وتساءل وقد عرته قشعريرة: "ما هذا الرعب القاتل الذي يدفع بأحدهم الى القفز من نافذة في الطبقة الثامنة؟"

بعد نصف ساعة لمح شرطي في محطة للركاب رجلاً آسيوياً أشعث الشعر نازفاً كان على وشك ركوب حافلة متوجهة الى نيويورك.

كان الرجل مصاباً بكسر في كاحله وبجروح داخلية حادة، ومع ذلك تمكن من ايقاف سيارة أجرة قرب الفندق وكاد ينجح في الفرار.

صوت من الداخل

صباح اليوم التالي عاد مادونا المهربّ تشن في المستشفى حيث نقل للمعالجة، وجلس على جانب سريره وذكره بالعقوبة التي تنتظره: "عشرون سنة سجناً، هذه فترة طويلة يا طومي!"

لكن تشن الذي أدار وجهه الى الحائط محدقاً الى الفراغ كان قد أخذ قراره. فهو يفضل دخول السجن على البوح بما يعرف. وبدا واضحاً أنه كان يعيش رعباً قاتلاً لم يفقهه مادونا.

عاد مادونا الى مكتبه في سياتل ووضع تقريره مضمّناً اياه فرار تشن المذهل ورفضه التعاون. كانت الادلة المتوافرة ١٣٨ وعاء لمكعّبات الثلج و٩٦ كيلوغراماً من الهيروويين ومهرباً كسيحاً، وهي لم تقد الى أي نتيجة مفيدة. ولم تكن لدى مادونا فكرة عما اذا كانت الشحنة يتيمة أم هي واحدة من شحنات عدة. وزاد في احباطه عدم تمكنه من معرفة مرسلها.

شارف صيف ١٩٨٥ الانتهاء وظل طومي تشن صامتاً لا يستجيب لالحاح مادونا المتكرر. وبحث هذا في أوراق تشن الشخصية وبطاقات سفره وأرسل نسخاً عن

مفكرته المتضمنة أسماء وأرقام هواتف مبهمة الى مكاتب مديرية مكافحة المخدرات في أنحاء العالم.

لكن أحداً لم يتعرف الى صورة المهرب أو يسمع باسم طومي تشن أو فانغ هان – شنغ المهرب الآخر الذي نجح في الفرار.

لم يسعْ مادونا التخلي عن متابعة التحقيق. فعمد الى وثائق السفر المصادرة في المطار، وبعد التدقيق فيها رسم "مشهداً" للحادث: رجلان صينيان يسافران معاً من بانكوك أو طوكيو ومعهما مصنوعات معدنية وينزلان في فنادق هيلتون. ثم اتصل مادونا بـ"بنك المعلومات" لدى مصلحة الجمارك.

يُطلب من كل زائر للولايات المتحدة ملء قسيمتين لدائرتي الجمارك والهجرة يمكن ادخالهما كمبيوتر "الجهاز الوطني لمنع ادخال المخدرات عبر الحدود" (NNBIS) [١]. فهل يتمكن هذا الجهاز من تحديد الاشخاص الذين تطابق أوصافهم "الرسم" الذي ابتدعه؟

كان مادونا مدركاً أن ذلك عمل ضخم يتطلب التدقيق في مئات الالوف من البيانات العائدة الى دائرتي الجمارك والهجرة. لكن منسِّق المعلومات وعد بأن يجعل الجهاز يقوم بالعمل المطلوب.

بحلول آخر شهر أغسطس (آب) أُعلم مادونا بأن ثمة ١٩ زائراً تطابق أوصافهم رسمه. ونُبِّه الى أن هؤلاء هم من المشتبه فيهم "المحتملين" ويمكن أن يكونوا أبرياء.

أكبَّ مادونا في سياتل على جهاز الكمبيوتر لديه وأخذ يعرض على الشاشة المعلومات التي اختزنها من جهاز «NNBIS.» وكانت سجلات السفر كثيفة بحيث صرف زهاء ساعة لمراجعة تواريخ الوصول والاقلاع وأرقام الرحلات وبلدان المنشأ وعناوين الاقامة في الولايات المتحدة.

ولم يكد ينتهي من العرض حتى استوى في جلسته: لقد أصاب الهدف بحدسه.

اكتشف مادونا أوجه شبه عدة في كل من المشتبه فيهم. فكثيرون منهم قاموا بما لا يقل عن اثنتي عشرة رحلة منذ العام ١٩٨٣، وغالبا ما وصلوا مصحوبين بأوعية معدنية لمكعبات ثلج أو بزهريات معدنية يُصرح أنها "نماذج مبيعات." ونادراً ما تغيرت وجهتهم النهائية: أحد فنادق هيلتون، في مدينة نيويورك عادة.

كان فانغ هان – شنغ قام بأربع رحلات سابقة مماثلة. بينما أحضر طومي تشن ٩٨ مستوعباً لمكعبات الثلج قبل توقيفه بشهر واحد. وكان كلا المهربين مسافراً مع آخرين ظهرت أسماؤهم على شاشة الكمبيوتر. وبدا أنهم كانوا يحضرون من كل ناحية في الشرق الأقصى.

(١) National Narcotics Border Interdiction System

اعتدل مادونا في جلسته وقد أخذه الذهول. فالمعلومات المتوافرة من جهاز «NNBIS» تشير الى أنه رفع الغطاء عن شبكة مخدرات هائلة. وبات في امكانه أخيراً، بعد أشهر من المحاولات غير المجدية، التحرك واقتفاء "العقول المدبرة" المتوارية في خفايا عالم المخدرات.

طلب مادونا من دوائر الامن افادته عن دخول أي من المشتبه فيهم البلاد ثانية. وطلب أيضا تسجيلا لجميع المكالمات الخارجية التي تجرى من غرف المشتبه فيهم في الفنادق التي ينزلون فيها أثناء زياراتهم الولايات المتحدة. فسجلت مئات المكالمات التي شملت بلداناً بعيدة جداً مثل هونغ كونغ وتايوان.

وأرسل مادونا أيضا تقريراً الى مركز مديرية مكافحة المخدرات في العاصمة واشنطن تضمّن الادلة التي استخلصها والتي تشير الى أن المزوِّدين الصينيين قد يكونون هم المسيطرين على سوق الهيروييين في الولايات المتحدة. وأضاف أن ما يصل الى ٦٥ في المئة من الهيروييين يدخل البلاد عبر منظمة واحدة.

بعد ذلك اتصل مادونا بمديرية مكافحة المخدرات في نيويورك. وسرعان ما اتضح له أن أي تحقيق في شأن تجار المخدرات الشرقيين ليس من أولويات المسؤولين في المديرية. وهم أوكلوا الى عميل واحد مجهَد مساعدته فلم يستطع تقديم عون يذكر، وكان على مادونا أن يتكل على نفسه.

في ٣٠ أغسطس (آب) طبعت آلة التلكس في مكتب مادونا رسالة وجيزة ملحة مفادها أن عملاء مديرية مكافحة المخدرات في بانكوك اكتشفوا مكان وجود فانغ، المهرِّب الفار، وأنهم يعتقدون أنه ذهب ضحية عملية اغتيال محترفة برصاصة اخترقت قلبه.

درب الهيروييين

عرف مادونا أن قطع أحجيته كانت مبعثرة في المقلب الآخر من الكرة الارضية، وأن عليه للعثور عليها السفر الى هناك. فرتب لقاء مع فريق مديرية مكافحة المخدرات في تايلند وطلب من ادارة شرطة هونغ كونغ ايفاد محقق لاشتباهه بوجود حلقة لشبكة مخدرات في هونغ كونغ.

توصف بانكوك في كتب السياحة بأنها مدينة ساحرة، سكانها ٥,٥ ملايين، تلتمع في صفحة قنواتها المائية الهادئة انعكاسات هياكل الباغودة[٢] المذهبة. لكن بانكوك، على روعتها، تشكل المحطة الرئيسية التي تتفرع منها درب تجارة الهيروييين. ففيها أكثر من ١٠٠٠ كيلومتر من الطرق المعبدة والمسالك الوعرة والممرات الحرجية

(٢) الباغودة هيكل صيني او ياباني او هندي متعدد الادوار.

الشديدة الانحدار، تربط حقول الخشخاش المخفية في مينمار (بورما) بخليج تايلند وبحر الصين الجنوبي. وخلف مظاهر الجمال والرقة يقوم عالم خفي غامض يسود فيه الفساد والعنف والجشع والقتل.

كان الامر مثيراً بالنسبة الى ادوارد مادونا الذي لم تطأ قدماه أرضاً خارج أمريكا الشمالية. فصباح ١٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٥ دخل مكتب مديرية مكافحة المخدرات في بانكوك والتقى عدداً من العملاء والمحللين. وبادره المفتش السري البريطاني الآتي من هونغ كونغ ماداً يده: "أنا جون بريتشارد."

كانت تلك بداية صداقة بينهما.

أصغى مادونا بانتباه الى بريتشارد وهو يشرح له بنية مجموعات التهريب الصينية في هونغ كونغ. قال انه لم يكن في الامكان اقتفاء اتصال واحد من الاتصالات التي حددها مادونا الى أي منظمة اجرام معروفة. ولاحظ أن "من نلاحقه، أيا يكن، ذكي جداً."

وشرع بريتشارد ومادونا يتفحصان جوازات السفر الثمانية والوثائق الأخرى التي اكتشفتها السلطات التايلندية بعد مقتل فانغ. وكان أحدها صادراً من هونغ كونغ وآخر من سنغافورة وثالث من لاباز في بوليفيا.

قال بريتشارد: "صاحبنا فانغ متعدد الهويات. ولكن مهلاً، ما هذا؟"

تبين لبريتشارد، بينما كان يحدق الى الجواز الباهت البالي الصادر من هونغ كونغ، أن الصورة فيه لا تشبه فانغ. وقال لمادونا: "انني أعرف صاحب هذه الصورة. انه يدعى لي كوون ويلقب "النمر". وهو عضو سابق في حركة الشبيبة التي ساندت ماوتسي تونغ في الستينات. ونحن نراقبه منذ زمن."

قبل سنة، في ٢٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٤، اعترض زورق لجمارك هونغ كونغ سفينة صيدٍ تحمل ١٣٥ كيلوغراماً من الهيروين التايلندي معبأة في براميل للوقود، وشحنة صغيرة من الاسلحة تضم مسدسات أوتوماتيكية وكواتم صوت. وعلم ضباط مكافحة المخدرات من أحد بحارة السفينة، وهو الوحيد الذي أبدى استعداداً للتعاون، أن منظمي الشحنة هم من سكان هونغ كونغ. لكن هؤلاء تمكنوا جميعاً من الفرار قبل القبض عليهم. وكان "النمر" لي بينهم.

لقد وفّر جواز السفر لمادونا أخيراً دليلا على ارتباط مصرع فانغ بقضية المخدرات في سياتل وهونغ كونغ. كما وجد مادونا حليفاً.

كان بريتشارد، كما مادونا، بدأ العمل شرطياً يتولى أعمال الدورية في مسقط رأسه بدفورشاير ببريطانيا. والتحق عام ١٩٨١ بدائرة الشرطة في هونغ كونغ، لكنه لم يعيَّن في مكتب مكافحة المخدرات قبل سوى ثمانية أشهر. وباتت مهمته الآن كشف الارتباط

بين عصابات الهيروييين المحلية وقضية مادونا. وميزته أنه كان يتكلم اللغة الكانتونية (نسبة الى مدينة كانتون في الصين).

قال مادونا لزميله بريتشارد في مطار بانكوك، معلقا على مهمتهما: "نحن أعمى يقود أعمى."

فنبهه بريتشارد: "احترس يا إد." كانا كلاهما يعرفان أن عملاء مكافحة المخدرات هم دوما أهداف للعنف الذي يرافق تجارة المخدرات.

فرد مادونا: "ثق بأني لن أنسى ذلك." ثم حمل حقيبته وتوجه الى ردهة المسافرين.

الحلقة الكبرى

عاد جون بريتشارد الى مكتبه الضيق في هونغ كونغ الواقع في الطبقة العاشرة من مبنى دائرة الشرطة في شارع أرسينال والمطل على ميناء فيكتوريا حيث ترسو سفن شراعية وزوارق صينية ذوات مجذاف واحد. فطالعته كومة من تقارير الاستطلاع هي خلاصة مئات من ساعات العمل التي نفذتها وحدته منذ أعلمته مديرية مكافحة المخدرات بضبط مستوعبات مكعبات الثلج في يونيو (حزيران) والاشتباه في وجود صلة لها بهونغ كونغ.

وكان فريقه المؤلف من خمسة صينيين حدد وكالة السفر التي اشترى منها المهربان بطاقتي سفرهما الى سياتل. ولكن تبين أن ثمن البطاقتين دفع نقداً لئلا يترك المهربان أي أثر يكشف هويتهما. وكان على بريتشارد أن يواصل التدقيق في أرقام الاتصالات الهاتفية الواردة على أرقام في هونغ كونغ وتايوان مسجلة في دفتر عناوين طومي تشن.

ثم عكف على درس تسجيلات التحقيق في قضية سفينة الصيد واعادة التدقيق في المستندات حتى ساعة متقدمة من الليل. ولفت نظره تقرير فيه تحليل فائق السرِّية يصف نشاطات منظمة اجرامية جديدة في هونغ كونغ تدعى "عصابة الحلقة الكبرى"[٣] وهي "كارتل"[٤] لنحو ٣٥٠ مجرماً عتياً كان يتخذ من مدينة كانتون في جمهورية الصين الشعبية مقراً له، ثم نقل هؤلاء عملياتهم الى هونغ كونغ في أواخر السبعينات، لكن الدلائل أشارت الى أنهم ما زالوا على صلة وثيقة بمجموعات في البر الصيني يزودونهم الهيروييين من مينمار. و"النمر" لي هو أحد زعمائهم.

تابع بريتشارد بحثه، فعثر على مرجع سابق في ملف آخر يشير الى عصابة الحلقة الكبرى في قضية كندية بتاريخ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٣. فقد أوقف رجال

(٣) Big Circle Gang

(٤) الكارتل (cartel) اتحاد بين جماعات من اجل عمل مشترك.

الشرطة في تورنتو رجلين ينقلان ٣،٥ كيلوغرامات من الهيروويين مخبأة في حقيبة سفر ذات قعر مزدوج مرسلة الى نيويورك. وتبين من السجلات أن الرجلين توقفا في سنغافورة قبل أن يصلا الى كندا. وقد أجرى أحدهما اتصالاً من سنغافورة بتاجر فرو في هونغ كونغ يدعى كون يو – ليونغ.

قال بريتشارد لنفسه بصوت عال: "أنا أراهن يا سيد كون على أنك تتاجر بأكثر من الفراء." وتابع التدقيق في ملفه.

ادعى كون يو – ليونغ الملقب "جوني كون" أنه مصدِّر بسيط. ولد في شنغهاي، وهو يعيش مع زوجته في شقة فخمة في كولون الواقعة في الجهة الاخرى من الخليج قبالة وسط هونغ كونغ.

لم يصدّق رجال الشرطة رواية كون الزاعمة أن المكالمة من سنغافورة كانت من شخص أراد الاتصال بأحد الضيوف في منزله. ولكن لم يكن لديهم دليل ثابت على ضلوعه في صفقة المخدرات في تورنتو.

وضع بريتشارد الملف جانبا. لكن الاسمين، كون يو – لونغ وجوني كون، ظلا يترددان بالحاح في ذاكرته، وبات منزعجا كمن يحسّ حكاكاً في جلده تعجز يده عن مطاولته. وحين أعاد قراءة استجواب بحّار سفينة الصيد اتضح له السبب. كان جوني كون أحد الذين ساهموا في نفقات الرحلة، وقد هرب الى تايوان.

تناول بريتشارد الملف التالي، فوجد أن الشرطة حصلت على تفويض لتفتيش شقة كون حيث عثرت على صناديق ملأى بوثائق تكشف عمليات ست شركات في هونغ كونغ يديرها جوني كون.

وفي كشوف حساباته بانت قيود بألوف الدولارات المودعة مصارف مختلفة، وهي تفوق كثيراً مردود تجارة الفراء التي يدّعيها. وكانت ثمة جداول رواتب لستين موظفاً وردت أسماء كثيرين منهم في ملفات سابقة على أنهم أعضاء في عصابة الحلقة الكبرى. وكان بينهم "النمر" لي.

تكاملت هذه المعلومات كتركيبة فسيفساء معقدة. لقد اكتشف مادونا وبريتشارد عملية تهريب واسعة للهيروويين الى الولايات المتحدة، وباتا يتعقّبان زمرة من أخطر تجار المخدرات في العالم.

في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨٥ طار بريتشارد الى سياتل لتقديم ما لديه من أدلة في محاكمة طومي تشن والادلاء بشهادته في شأن بطاقتي السفر اللتين اشتراهما تشن وتوقفه في هونغ كونغ وهو في طريقه الى الولايات المتحدة مع فانغ هان – شنغ.

كان مادونا في الانتظار لدى وصول بريتشارد، وقال له مكتئبا: "جون، لم نحرز أي

تقدم في قضية تعقب كون وسائر أفراد العصابة. وهم ربما أدخلوا طناً من الهيروئيين منذ عملية مستوعبات مكعبات الثلج."

فرد بريتشارد: "بل أحرزنا تقدما، وقد يأتينا الجواب من طريق أرقام الهاتف في دفتر تشن التي لم نستنفدها بعد."

لفت نظر بريتشارد، أثناء المحاكمة، رجل صيني في نحو الاربعين يرتدي بذلة ثمينة ويجلس بين النظارة. وكان في احدى عينيه انحراف شديد فبدت كأنها تحدق الى السقف. وهو جلس هادئاً يدون ملاحظات ولا يتحدث الى أحد. لكن بريتشارد الذي كان يراقبه عن كثب لاحظ التفاتة تعارف بينه وبين تشن.

اقترب بريتشارد من الرجل تدريجا، فلمح ملفا الى جانبه طُبع عليه اسم وعنوان: "سو وكاربهاري، محاميان — كولون، هونغ كونغ."

تذكر بريتشارد أن هذين هما المحاميان نفسهما اللذان مثلا المهرب في قضية كندا والمتهمين في قضية سفينة الصيد. وها هما الآن يتابعان قضية طومي تشن. فهل هذه مجرد مصادفة؟

عصبة الاثني عشر

في ٢٣ ديسمبر (كانون الاول) دين تشن وحكم عليه بالسجن عشرين سنة. وبعد يومين عاد بريتشارد الى هونغ كونغ، والى التهام الشطائر الباردة والقهوة الفاترة في مقر الشرطة.

وكان كلما اطلع على تقارير التحريين العاملين في امرته ازداد اقتناعا بأنهم سائرون في الطريق الصحيح. كان كون أجنبيا دخل البلاد بطريقة غير مشروعة وزعم أنه لاجيء وأُعطي ترخيصا بالاقامة عام ١٩٦٢. وبعد خمس سنوات غادر هونغ كونغ الى فيتنام الجنوبية (آنذاك) وجعل من سايغون قاعدة لعملياته، حيث كان يبيع الجنود الامريكيين في اواخر الستينات مجوهرات ذهبية وفراء وساعات مهرّبة. وفي العام ١٩٧٤ بدأ يتجر بالهيروئيين في تايلند، وبعد ست سنوات بلغ عدد موظفي شركاته ٣٠٠ في هونغ كونغ وحدها، الى ١٥٠ آخرين في البر الصيني. وكان يمتلك أيضا شركتين في الحي الصيني تشايناتاون في نيويورك، تتعاطى احداهما تجارة الفرو والاخرى بيع العقارات والاراضي.

وبات جوني كون (٤٢ عاما) يلبس بذلات فاخرة من أجود أنواع الحرير ويغشى أفخم المطاعم، تلمع في معصمه ساعة مرصعة بالالماس ثمنها ٣٠ ألف دولار، وأظفاره مقلمة مصقولة.

ولكن على رغم فخامة مظهر كون كان بريتشارد يعرف أنه وعصابته مجرمون قساة

لا يعرفون الرحمة، وأن معاونيه هم من "الحرس الحمر" السابقين المتخصصين بتجارة الهيروييين والسطو والاغتيال. وقد اشتبه بريتشارد في أن يكون كون نفسه أعطى الأمر بتصفية فانغ.

أمضى بريتشارد ردحاً طويلا من شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٨٦ يعمل كل ليلة وحيداً في مكتبه. ومن بين مئات تسجيلات التنصت الهاتفية على الارقام المأخوذة من مفكرة العناوين الخاصة بتشن، كان يعيد التدقيق في كل اتصال أجراه كون أو معاونوه. وكان لا بد للتحقيق أن ينتهي عاجلا أو آجلا.

وقد حدث ذلك أخيراً، ذات ليلة في أواخر يناير (كانون الثاني). اذ تبين أن مكالمة واحدة سجلت عام ١٩٨٣ الى تايبه عاصمة تايوان من هاتف في هونغ كونغ عائد الى أحد معاوني كون الكبار. وقد ظهر الرقم نفسه في دفتر عناوين طومي تشن. وجدتُها!

اتصل بريتشارد بمادونا في مركز مكافحة المخدرات في سياتل وقال وهو يزف اليه الخبر: "ألم أقل لك أن تصبر؟"

أكبّ بريتشارد حتى الصباح على كتابة التقرير الرسمي، وكانت سلسلة الادلة واضحة تثبت أن الشبكة التي يديرها جوني كون هي المسؤولة عن شحنة الهيروييين القياسية الى سياتل في يونيو (حزيران)، وربما عن شحنات كثيرة بعدها الى الولايات المتحدة.

كانت اماطة اللثام عن حلقة كون انتصاراً على كل العوائق. لكنها بداية فقط، اذ لم يكن هناك سوى شاهد واحد هو بحار سفينة الصيد، وما لم يتوافر شهود آخر فسيكون توجيه الاتهامات والاعتقالات والادانة مجرد حلم.

ولكن على مسافة محيط وقارة كانت المساعدة في الطريق على نحو غير متوقع وعلى أيدي وحدة أغرار قليلي الخبرة تابعة لمديرية مكافحة المخدرات تدعى "المجموعة ٤١".

وقف العميل الخاص ريتشارد لامانيا (٣٧ عاما) في أحد المكاتب الحكومية في نيويورك وحدّق الى العملاء في "المجموعة ٤١" وخاطبهم بحدة قائلا: "لا يهمني ماذا كنتم قبل تسلمي المسؤولية هنا. ستكون المجموعة ٤١ أفضل مجموعة في مديرية مكافحة المخدرات!"

وكان لامانيا كلّف في وقت سابق من يناير (كانون الثاني) ذاك تولي مسؤولية المجموعة، وراعه ما كانت عليه. فقد أحدثت "المجموعة ٤١" لكشف مؤامرات تهريب المخدرات، لكنها لم تحقق شيئا يذكر. والاعتقالات التي قامت بها كانت قليلة جداً.

كانت المجموعة في الحقيقة مهملة بين مجموعات المكافحة، واقتصر نشاط أفرادها على الاعمال المكتبية بدل المهمات الميدانية، حتى أنها لم تكن تملك سيارة مراقبة.

كانت معنويات المجموعة في الحضيض، فثلاثة من عناصرها الخمسة طلبوا اعفاءهم، وكثيراً ما كان المدَّعون العامون في المبنى يجندونهم كحراس شخصيين بدل تشجيعهم على ملاحقة قضايا المخدرات التي انتدبوا لها.

كانت مديرية مكافحة المخدرات في الواقع لا تملك أي دفاع ضد خطر الهيروين المستورد من القارة الآسيوية. لكنها كانت اختارت على الاقل الشخص الملائم للمهمة، وهو لامانيا. وقد تميز هذا بكونه آسيويا متخصصا، وهو المحقق الابيض الوحيد الذي يتكلم اللغتين الكانتونية والماندرين.[٥] وكان أمضى ست سنوات ونصف سنة في الشرق الاقصى، في هونغ كونغ أولا ثم في بانكوك. لقد أعد نفسه لتحدي الصعاب، وصمّم على أن يحذو عملاؤه حذوه.

قال لهم: "أريدكم أن تخبروني لحظة يطلب منكم أحد المدَّعين القيام بمهمة حراسة. انكم تعملون لي وليس لهم. والآن، لنوجّه نشاطنا الى القبض على المهربين."

لم يكتف لامانيا بذلك، بل زاد عدد عناصره مجنداً عملاء آخرين من فروع لمديرية مكافحة المخدرات في ضواحي نيويورك. ولفت انتباهه بين هؤلاء شاب خبير بتحركات الشوارع يدعى كيفن دونلي (٢٩ عاما) فكلفه التحقيق في قضية كون. وبعد لقائه زملاءه الجدد وصفهم دونلي مازحا بـ"عصبة الاثني عشر."

ما خفي كان أعظم!

لم يكن مضى على عمل أعضاء الوحدة أسبوع حتى ورد عليهم أول انذار. ففي الثامنة مساء ١٩ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٦ أُبلغ الى لامانيا أن مفتشي الجمارك في مطار جون ف. كينيدي بنيويورك قبضوا على امرأة صينية معها ٢٠ كيلوغراما من الهيروين موضبة داخل اطارات صور معدنية كبيرة. وكان العملاء يحاولون مراقبة عملية تسليم البضاعة المفترض أن تتم في أحد فنادق مانهاتن. فانضم اليهم لامانيا واستجوب المرأة بلغة الماندرين. قالت له انها جاءت من طوكيو وقد طُلب منها احضار الاطارات الى صديق. وادعت أنها لم تكن تعلم باحتوائها على الهيروين. وأضافت أن شخصا سيتصل بها في الفندق لتسلمها.

قال لامانيا: "حسنا، سننتظر."

أظهر جواز سفر المرأة أنها في الثانية والخمسين ومن سكان تايوان. وهي بدت مثقفة وأنيقة، لكنها كانت قلقة أيضا.

(٥) الماندرين هي اللغة الصينية الرسمية المنطوقة في نحو اربعة اخماس الصين، وهي اساسا لغة الشمال.

بعد ساعتين رن الهاتف. فطلب لامانيا من المرأة أن ترد بلغة الماندرين، وبهدوء كأنما ليس في الامر شيء. الا أنها بدل ذلك انطلقت في سيل من الكلام بلهجة صينية عرفها لامانيا لكنه لم يفهمها. وبدا واضحاً أنها كانت تنذر المتكلم بأنها موقوفة وأن ثمة أناسا معها في الغرفة.

فانتزع لامانيا سماعة الهاتف من يدها وأقفل الخط.

لزمت المرأة الصمت المطبق ولم تدل بشيء آخر واقتيدت الى السجن. ولكن لازم لامانيا شعور غامض لم يفارقه بأن ثمة أمراً مألوفاً في اعتقالها.

وحين دخل مكتبه في اليوم التالي أكبَّ على مراجعة تقارير لمديرية مكافحة المخدرات تتضمن قضايا مشابهة لقضية المرأة الصينية. فوقع على قضية مصادرة أوعية المكعبات الثلجية في سياتل قبل سبعة أشهر. وتبين له أن ثمة تشابها مذهلا بين القضيتين. فقد استخدم في كلتيهما مهربون صينيون ومصنوعات معدنية مصممة بمهارة لاحتواء المخدرات. فهل ثمة صلة بين القضيتين؟

اتصل لامانيا هاتفياً بسياتل. وهناك دوّن مادونا التفاصيل وسأل عن رحلة المرأة والمحطات التي مرت بها قبل وصولها الى نيويورك.

فأخبره لامانيا: "جاءت مباشرة من طوكيو، لكن بطاقات السفر دلت على أن رحلتها بدأت في بانكوك."

عرف مادونا أن هذه هي الوجهة نفسها التي سلكها فانغ هان – شنغ وطومي تشن. ثم سأل لامانيا: "هل تعرف الفندق الذي نزلت فيه المرأة في تايلند؟"

أجاب لامانيا بعد تفحص افادة المرأة: "فندق مونتيان."

ضغط مادونا السماعة لدى سماعه هذه المعلومات المثيرة. فمونتيان كان الفندق نفسه في بانكوك الذي نزل فيه طومي تشن. قال: "هذه شحنة أخرى من كون!"

أطلع مادونا زميله على آخر ما توصل اليه التحقيق، فضلا عما تبلغه من جون بريتشارد في هونغ كونغ. وشدد على ضرورة أن يحصلا على بعض الدعم، والا فلن يستطيعا الذهاب أبعد في التحقيق.

أجاب لامانيا: "سأتكلم مع المقر الرئيسي في هذا الشأن."

بعد ثلاثة أيام من مصادرة المخدرات في مطار جون ف. كينيدي بنيويورك، توجه لامانيا لمقابلة كاثرين بالمر، وهي مساعدة للمدعي العام ملحقة بدائرة العدل في المنطقة الشرقية. كانت بالمر في الثلاثين من عمرها وتفتقر الى الخبرة في دعاوى المخدرات. وتردد أنها التحقت بالدائرة حديثا لتتخلص من رتابة العمل في مكتب محاماة في وسط مدينة نيويورك.

صدم لامانيا اذ دخل مكتب كاثرين بالمر، فهو لم يتوقع أن تكون مختلفة عن غرفة أي مدّع عرفه سابقا.

أجال نظره في مكتبها مندهشا، فقد غطت الجدران صور تذكارية من مباريات البايسبول (كرة القاعدة) وصفوف من الاعلام الرياضية المثلثة والقبعات وصور الفرق الرياضية. وفي احدى الزوايا استقر مضرب مائل، وعلقت على طرف الطاولة كرة موقّعة من كارل يسترزمسكي ضارب الكرة الاسطوري.

قال لها لامانيا: "أرى أنك هاوية."

أجابت: "أنا من أنصار فريق بوسطن ريد سوكس. هل من خدمة يا ريتش؟"

تناقشا في القضايا التي كان يعمل عليها. فأخبرها عن الطريق التي سلكها المهربون والوسائل المتشابهة التي استخدمت في عمليتي سياتل ومطار جون ف. كينيدي، وأعرب لها عن اعتقاده أن تجار المخدرات الآسيويين هم في طريقهم الى السيطرة على معظم سوق الهيروييين في مدينة نيويورك، وأن الكميات التي صودرت في مطار سياتل ومطار جون ف. كينيدي ليست سوى عينة، وما خفي كان أعظم.

وشدّد لامانيا على أن لا أمل في التصدي لهذه الشبكة الا بوضع استراتيجية موحدة. لذا فهو في حاجة الى مزيد من الدعم. فالمجموعة ٤١ تشبه فريقا من الدرجة الثالثة يلعب ضد فرق من الدرجة الاولى، وهو يحتاج الى "هداف خارق"،فهل في استطاعته الاعتماد على بالمر؟

أجابته مبتسمة: "هيا بنا الآن!"

أدرك لامانيا أنه كان يطلب من بالمر المجازفة في دعم القضية، لأنه لم يكن هو ولا مادونا قادرين على أن يعداها بشيء ملموس. ولكن، من جهة أخرى، لن يكون



في استطاعته تحقيق أي تقدم من دون تعاون مكتب المدعي العام، ومساعد المدعي العام هو الذي يضع يده على التحقيق ويصدر مذكرات التفتيش. وفي النهاية، فان كسب قضايا الاتهامات والمحاكمات أو خسارتها متوقفان على بالمر.

بعد أسبوعين طار مادونا الى نيويورك للمشاركة في "مجلس حرب." وأحضر معه العناوين وأرقام الهاتف وخلاصة تحريات بريتشارد عن منظمة جوني كون. بدا له واضحاً أن صفقة المخدرات المخبأة في اطارات الصور التي صودرت في مطار جون ف. كينيدي هي نموذج لطريقة عمل تشن وفانغ. وسرعان ما أخذ التحقيق المشترك بين لامانيا ومادونا يترجم نشاطا متناميا للمجموعة ٤١ الساعية الى تحويل النظرية حقيقة ادعائية.

"احتجزوه!"

تابعت المجموعة ٤١ خلال أشهر مارس (آذار) وابريل (نيسان) ومايو (أيار) ١٩٨٦ اقتفاء أرقام الهاتف بحثاً عن أدلة وشهود. ومرة أخرى لم يتحقق أي تقدم مهم. ثم، في ساعة متقدمة من ليل ١٨ يونيو (حزيران)، استيقظ مادونا من نوم عميق على رنين الهاتف بجانب سريره في سياتل. كان المتكلم بريتشارد من هونغ كونغ. قال: "لقد تمكنوا منه."

سأله مادونا مترنحاً: "من هو الذي تمكنوا منه؟"

أجاب: "شاهِدنا!"

فقد تعقّب قتلة محترفون بحار سفينة صيد السمك وأطلقوا عليه الرصاص من الخلف من مسدس عيار ٠،٤٥ أمام أفراد عائلته، ثم مال أحد المسلحين فوقه ببرودة وأطلق رصاصة "الامان" في رأسه قبل أن يلوذ وصحبه بالفرار. وهكذا، في لحظة قاتلة، انهارت الدعوى على جوني كون.

قال بريتشارد لمادونا: "آسف يا صديقي، لقد عدنا من حيث بدأنا."

ولم تكن الأمور في نيويورك أيضاً تسير كما أراد لامانيا والمجموعة ٤١. كان دونلي ورجاله يخرجون يومياً الى الشوارع ويكتسبون خبرة في حبائل العالم الآسيوي التحتي ويجندون مخبرين ويضيفون مزيداً من العملاء. لكنهم لم يحققوا أي تقدم في تحديد مكان الموزعين المحليين لبضاعة جوني كون.

كان مادونا يتعرض لضغط متزايد في سياتل لتخصيص وقت أكبر لقضايا أخرى. وكذلك الحال بالنسبة الى بريتشارد في هونغ كونغ. وكان مضى على بدء التحقيق ١٥ شهراً من غير أن يؤدي الى نتيجة. لكن فرصة لاحت لهما أخيراً في ٢٢ سبتمبر (أيلول) حين حققت "رسوم" مادونا بواسطة الكمبيوتر نجاحاً.

ففي مطار سياتل – تاكوما أوقف أحد مفتشي دائرة الهجرة رجلا تايوانيا حمل جواز سفره تأشيرة دخول بدت مزورة. ولكن ما لم تبدِ مديرية مكافحة المخدرات اهتماما بالقضية فكل ما سيكون في الامر أن الرجل سيرحَّل.

سأل مادونا: "ما اسمه؟" وبعد لحظات راح يجيل نظره في قائمة الاسماء التي وردت على جهازه. وتوقف عند أحدها هاتفا: "احتجزوه! أنا في طريقي اليكم!"

كان الرجل يدعى ين تشنغ – لينغ ويعرف أيضا باسم آه – لينغ، وهو أمريكي جنوبي تبناه والدان صينيان وتضمنت جوازات سفره تواريخ ولادة مختلفة وجنسيات عدة بحسب معطيات الكمبيوتر في "الجهاز الوطني لمنع ادخال المخدرات عبر الحدود." كما تبين أنه دخل الولايات المتحدة نحو ٢٠ مرة منذ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٤، وصرح مرتين في البيانات الجمركية عن شحن كميات كبيرة من الزهريات المعدنية. وقد رافقه فانغ هان – شنغ مرتين و"النمر" لي مرة واحدة.

كان آه – لينغ رجلا قصيرا نشيطا أنيقا في نحو الاربعين، صفف شعره في تقليعة غريبة، وصبغه بلون أزرق خفيف. وازدانت اصابعه بالجواهر، وبانت آثار التبرج على وجهه. لكنه بدا شديد الثقة بنفسه. وظل مصراً على أن ثمة خطأ في توقيفه. فهو آه – لينغ، رجل أعمال يتعاطى التصدير، وهذه بطاقته المهنية تثبت ذلك.

ألقى مادونا نظرة سريعة على عنوانه في تايبه ثم رمى البطاقة على الطاولة وقال له: "هذه مذكرة اتهام، وهذا اسمك عليها. فلنتكلم على مستوعبات مكعبات الثلج والزهريات التي سلمتها لحساب السيد كون."

قرأ مادونا تاريخ كل رحلة قام بها آه – لينغ الى نيويورك وشيكاغو والفنادق التي نزل فيها وتاريخ مغادرته، ثم قال له بحدة: "اننا نعرف كل شيء عنك. انظر بنفسك. هذه الاتهامات كفيلة بزجك في السجن مدى الحياة."

كانت تلك خدعة، لكنها جازت على آه – لينغ.

شرع آه – لينغ في قراءة قائمة مادونا، فازداد قلقه. واذ راح يمرر اصبعه على قائمة التواريخ بدأ ينهار بوضوح، وتهالك في كرسيه. واستغرقه الامر فترة ليتكلم. وأخيرا، تنفس عميقاً وقال: "أراني مرتاحا الى أن المسألة انتهت، ذلك لانني كنت مدركاً أن هذا سيحصل."

أقر آه – لينغ بأنه عمل مع جوني كون منذ العام ١٩٨٣، وأخبر عملاء مكافحة المخدرات أنه هو الذي عرّف كون الى فانغ، الرجل الذي وصفه بأنه كان بمثابة أخ له. وكان فانغ نفذ ثلاث عمليات تهريب، وحين أخفق في المرة الاخيرة "قتلوه."

عثر رجال المكافحة في حقيبة آه – لينغ اليدوية على ظرف صور، اخرجها مادونا ووضعها على الطاولة وسأل الموقوف: "من هم هؤلاء الأشخاص؟"

أدرك آه – لينغ أنه يواجه حكماً بالسجن مدة طويلة وأن لا خيار له الا التعاون، فوضع اصبعه على صورة وقال: "هذا كون،" دالا على رجل عريض الوجه يضع شعراً مستعاراً وشاربين زائفين. ثم أشار الى صورة "النمر" لي وأعضاء آخرين في مجلس "الحلقة الكبرى."

كان آه – لينغ حمل تلك الصور في حقيبته منذ مقتل فانغ متحينا الفرصة ليريها أحداً. وقال إن الصور ليست سوى البداية، فهو يعرف كيف تعمل "عصابة الحلقة الكبرى" ويعرف الشحنات التي هربتها مدى سنوات ويعرف أيضاً الذين أمدّوها بالمخدرات.

محاسب العصابة

استجوب مادونا ولامانيا آه – لينغ ما بين ٢٤ و٢٦ سبتمبر (أيلول) في غرفة فندق في ضواحي سياتل ووسط حراسة مشددة. فأفاد أن كون لجأ الى أربع طرق تهريب مختلفة الى الولايات المتحدة. وقد قام آه – لينغ نفسه برحلات كثيرة لهذه الغاية لم يعد يتذكر عددها. وكان بعد تسليمه المخدرات الى وسيط صيني أو زعيم مافيا محلية، يعود الى هونغ كونغ وحقائبه محشوة بالعملات النقدية التي بلغت مليون دولار وأكثر أحيانا. (كان المال يسلم الى ممثلي كون الذين يبيضونه[٦] عبر الجهاز المصرفي الصيني ويعيدون توظيفه في صفقات هيرويين تايلندية أخرى بأسعار الجملة أي ما يعادل ٨٠٠٠ دولار الكيلوغرام).

سأل مادونا ولامانيا آه – لينغ عما اذا كان يريد التعاون معهما. وبعد هنيهة صمت هز هذا رأسه ايجابا. فاقتربا منه أكثر وطلب منه لامانيا: "ماذا لو تقدم على خطوة أخرى يا آه – لينغ؟ هل أنت مستعد لأن تكون عميلا سريا لنا، فتبقى مع كون وتزودنا كل شيء: الكميات المصدرة وممولي المخدرات والطرق الجديدة التي تشحن عبرها؟ والأهم من كل ذلك أن تفيدنا عن جوني كون وتحركاته."

وهما تعهدا له في المقابل أن يعملا ما في وسعهما لتخفيف الحكم عليه. وحذراه من الا يخدع نفسه، فالخطر ماثل أبداً في لعبته المزدوجة، فاذا اكتشف أمره فلن يبقى حياً.

فهز آه – لينغ رأسه وقال بهدوء: "سأفعل ذلك."

عاد آه – لينغ الى هونغ كونغ حيث التقى بريتشارد وأكبّا معا على تفحص صور

(٦) تبييض النقود (laundering) يعني توظيف اموال من مصادر غير شرعية وتنقيلها بين مؤسسات مالية مختلفة لاخفاء مصادرها. واهم مصادر هذه الاموال المخدرات والعاب الميسر و"الرقيق الابيض" والتهرب من دفع الضرائب.

قديمة لدى الشرطة لافراد عصابة "الحلقة الكبرى." وبمقارنة الأسماء مع حصيلة عمليات التنصت الهاتفية المسجلة، استطاع بريتشارد ومحللون في الشرطة رسم صورة بيانية للمنظمة تدعى "جدول تحليل الارتباط." وهي شملت كل علاقة مشبوهة بين تجار المخدرات والشركات المقامة واجهة لنشاطاتهم ومزودي المخدرات التايلنديين. وعندما اكتمل الجدول بدا شبيها ببيت عنكبوت ضخم متشعّب بشكل قفّاز اليد.

كان البعد الكامل للبنية التحتية للمنظمة هائلا. فثمة عناوين مخابىء، ومناطق لتوزيع الهيروين في هولندا وألمانيا الغربية، ومستودعات في مانيلا وبناما، ومصنع تجميع ساعات في الباراغواي، وكازينو في تايوان، وحانة وناد ليلي في طوكيو، وشركات لتصدير الفراء في الصين. وكان كل منها، بحسب آه – لينغ، يبيِّض الارباح العائدة من المخدرات أو يتولى تمرير شحنات الهيرويين والكوكايين. ودفعت هذه المعلومات الاستخبارية تحقيقات مديرية مكافحة المخدرات بسرعة مذهلة في غضون أسابيع.

ظل آه – لينغ طوال خريف ١٩٨٦ يوافي بريتشارد ومادونا بتقاريره. وغالبا ما كان يجري اتصالاته بسياتل من عواصم آسيوية مختلفة في ساعات متقدمة من الليل. وكان يلتقي أيضا عملاء في هونغ كونغ في مداخل أبنية خالية.

ولكن بدا أن جوني كون أخذ يبقي مسافة بينه وبين آه – لينغ، فلم يعهد اليه في مهمات جديدة. وفي حين ظل هذا على اتصال مستمر مع أعضاء في المنظمة، فهو لم يلتقِ جوني كون منذ أشهر، الامر الذي أثار قلق مادونا فتساءل: "هل افتضح أمره؟ لكن هذا مستحيل، والا لكان آه – لينغ هلك."

وكانت كاثرين بالمر تتصل بمادونا أسبوعيا لتطلع منه على أحدث المستجدات، فكان مادونا يزودها كل شاردة وواردة. لكن القضية لم تشهد أي جديد. وفي هذه الاثناء كانت الساعات الطويلة من العمل غير المثمر قد نالت من مادونا، فبدا محياه الفتيّ متغضنا واسودَّ الجلد تحت عينيه.

في ١٤ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٧ لاحت لمادونا فرصة، اذ أيقظه رنين جرس الهاتف بجانب سريره في الحادية عشرة ليلا. وكان المتكلم أحد الموظفين في مكتب مديرية مكافحة المخدرات في أمريكا الجنوبية، الذي قال: "وردت الآن برقية الى واشنطن تفيد أن قنصل الولايات المتحدة في الباراغواي أبلغ الى الدوائر المعنية الامريكية أن الشرطة قبضت على أحد الصينيين بتهمة الاتجار بالكوكايين." ووفق الروتين المتبع، وزعت برقية التلكس على العملاء الذين يلاحقون قضية كون.

سأل مادونا: "ما اسمه؟"

فأجاب الموظف: "ريكي تشن."[٧]

كان بريتشارد وآه – لينغ عرفا أن تشن (٣٣ عاماً) من سكان هونغ كونغ هو محاسب "الحلقة الكبرى." وحين استجوبته الشرطة – والاستجواب قد يكون وحشياً في بلدان أمريكا الجنوبية – اعترف بأنه طار من هونغ كونغ الى الباراغواي عبر نيويورك ومعه مبلغ ٢٥ ألف دولار أعطاه اياها كون لشراء مخدرات.

أدرك مادونا للحال أن تشن، اذا ما وافق على التعاون، سيكون الشاهد الثاني الضروري لادانة "عصابة الحلقة الكبرى" وزعيمها. ولكن ثمة مشكلة: فهل يرضى المسؤولون الباراغوايانيون تسليمه؟ علماً أنه لم يكن هناك بعد أي أساس قانوني لترحيله.

تفتّق حل لكاثرين بالمر. فهي عرفت أن القانون القائم يفرض على كل شخص يُخرج معه من الولايات المتحدة أكثر من عشرة آلاف دولار أمريكي نقداً، وان كان توقفه في البلاد قصيراً، التصريح عن المبلغ للدوائر الجمركية. ويعتبر تجاهل ذلك انتهاكاً للقوانين الاتحادية.

وقالت بالمر لريتشارد لامانيا: "أراهنك على أنه لم يصرّح بشيء من ذلك."

أجاب لامانيا: "من السهل جداً التدقيق في الامر." واتصل بالمسؤولين فتأكد له أن تشن لم يعطِ أي تصريح.

قالت بالمر: "اذاً، علينا أخذ المبادرة. سنحاول سريعاً وضع أساس قانوني لتسليم تشن."

وفي أقل من أسبوع تمكنت بالمر من اقناع المسؤولين الامريكيين بعقد اتفاق يقضي بترحيل تشن من الباراغواي وتسليمه الى مديرية مكافحة المخدرات. وكان تشن مسروراً جداً للتخلص من عذاب السجن في أمريكا الجنوبية ومستعداً للادلاء بكل معلوماته.

من خلف الدخان

في ٩ مارس (آذار) ١٩٨٧ سُلّم تشن الى عملاء مكافحة المخدرات ونقل جواً الى نيويورك. واقتيد في اليوم التالي الى مكتب بالمر حيث كشف أبعاد امبراطورية كون المالية وممتلكاته في الولايات المتحدة.

وبتجنيد تشن للشهادة باتت كاثرين بالمر على قابي قوس من توجيه الاتهام. فجأة زالت كل العقبات التي كانت تحول دون نجاح مادونا ولامانيا والمجموعة ٤١ في مهمتهم.

(٧) الاسم مستعار لحماية الشاهد.

في ابريل (نيسان) علم مادونا ولامانيا أن آه – لينغ تلقى اتصالا من جوني كون للمرة الاولى منذ خمسة أشهر، طالبا منه التوجه الى سنغافورة.

قال مادونا لزميله: "ذكره بأن يكون متنبها."

وصل آه – لينغ الى سنغافورة في ١٤ ابريل (نيسان) وتوجه في سيارة أجرة الى أحد الفنادق الفخمة، حيث استقبله جوني كون عند باب جناحه وقاده الى كرسي خال. ولف الصمت عدداً من معاوني كون هناك. قُدم الى آه – لينغ فنجان من الشاي بينما راح كون يتفحصه ملياً من خلال ضباب دخان سيجارته.

ثم أعلن كون فجأة: "ثمة خائن بيننا، هل يمكنك أن تتصور من يكون؟"

أحس آه – لينغ كأن أصابع من الجليد تلتف حول عنقه، لكنه استطاع بعد بُرهة أن يقول: "هذا صحيح، ان سوء الحظ لاحقنا في الفترة الاخيرة، ولا بد من معرفة الخائن أيا يكن."

نفض كون سيجارته في منفضة. وبدا قلقا. فرجاله يُقبض عليهم، وقد ساءت سمعته لدى ممونيه بالمخدرات، وهم لن يبيعوه بطريقة "الامانة" بل عليه الآن أن يدفع ثمن كل شحنة سلفا ونقدا.

شاهد غال

لم يعد في وسع كون أن يجازف. فقد أعلمته مصادره أن تشن أوقف في الباراغواي وربما كان يتعاون مع المدعي العام في نيويورك. فاذا ثبت ذلك فلن يكون تشن في منأى عن انتقام زعماء العصابة. وسيعرفون من مخبرين مكان احتجازه، وسيقتل كما حل بالآخرين.

تساءل آه – لينغ عما اكتشفه كون أيضاً. أتراه يتلاعب به؟ هل يخرج حيا من هذا الجناح؟

ابتسم له كون بهدوء قائلا ان لا شيء من هذا القبيل هو الذي دفعه الى استدعائه الى سنغافورة. فاعتقال تشن اضطر الحلقة الى وقف عملياتها عبر بناما. ولا بد من ايجاد وسائل وطرق بديلة. وأسرّ كون الى آه – لينغ: "ستضطلع من الآن فصاعدا بدور أكثر فاعلية وأوسع نشاطا."

غرق آه – لينغ في كرسيه وقد غمره الارتياح. وأوضح له كون أن ثمة خططا لا تزال قائمة لشحن كميات كبيرة من الهيروبيين. تصل الى حدود طن، لكن عمليات الشراء ستتطلب كثيراً من الوقت والتحضير. وستشحن المخدرات من تايلند في سفن حاويات الى مانيلا أولا ثم الى الساحل الغربي لامريكا. وستكون مهمة آه – لينغ استئجار مستودعات في لوس انجلس بكاليفورنيا.

قال له كون: "إننا نعتمد عليك."

استمر آه – لينغ طوال شهر يوليو (تموز) في الابلاغ عن تحضيرات كون لشحن كميات من الهيروويين في حدود الطن. وفي ذلك الشهر طار مرتين الى نيويورك حيث أبلغ الى بالمر ولامانيا ومادونا أن كون ما زال يرسل الهيروويين الى نيويورك وميامي.

في ٢٩ أغسطس (آب) التقى آه – لينغ عملاء في هونغ كونغ وأفاد أن كون بدأ شراء كميات من الهيروويين وخزنها في تايلند في اطار أحدث شحنة له، وأنه سيتقاضى مليون دولار لاتمام الصفقة. وأضاف أن كون أكد له أيضاً أن الهيروويين يرسل بانتظام، مرة في الشهر، من جمهورية الصين الشعبية الى أوروبا والولايات المتحدة بكميات تراوح بين ٣٥ و٤٥ كيلوغراماً.

في غضون ذلك أصبحت تصفية تشن هاجس كون.

أدرك ريتشارد لامانيا وكاثرين بالمر الخطر الذي يتهدد تشن. وفي سبيل توفير أقصى ما يمكن من الحماية له وضعاه في رعاية أمنية اتحادية.

في أوائل سبتمبر (أيلول) وضعت بالمر اللمسات الاخيرة لقضيتها تمهيداً لتقديمها الى المحكمة العليا آملة أن تنال حق توجيه اتهامات ضد كون وما لا يقل عن عشرة من أفراد "عصابة الحلقة الكبرى."

في ٢٣ سبتمبر (أيلول) حظيت بالمر، من حيث لم تتوقع، بشاهد آخر هو لاو شو – مينغ أحد المساعدين النافذين لمجلس "الحلقة الكبرى." وكان قرر تهريب كمية من المخدرات لحسابه الخاص الى الولايات المتحدة، فقبض عليه في لوس انجلس وفي حوزته خمسة كيلوغرامات مخبأة في حقائبه.

طار مادونا من سياتل والتقى لاو في السجن الاتحادي. فتبين له أنه ذلك الرجل الغريب الأنيق الذي لفت انتباه بريتشارد أثناء محاكمة طومي تشن قبل نحو سنتين. وكانت احدى عينيه لا تزال مصوبة الى الاعالي والاخرى ترف بسرعة وعصبية.

بادره مادونا: "قيل لي إنك راغب في مساعدتنا، أهذا صحيح؟"

كان لاو راغباً فعلا في التعاون، اذ لم يكن في نيته دخول السجن. وكشف لمادونا كيف كان القتلة الذين يعملون للمنظمة يتعقبون الشهود بمعاونة ضباط شرطة فاسدين وبواسطة شبكة من التحريين الخاصين منتشرة في أنحاء العالم. وصمت لاو برهة ثم أضاف: "أنا نفسي بعثت برسالة الى طومي تشن بعد محاكمته، أهدده بقتل زوجته وأفراد عائلته اذا هو تكلم. وقد أكون أنا أيضاً رجلا هالكاً."

ثم تحدث عن جريمة قتل أخرى وقعت حديثاً، حين حاول أحد منافسي كون في الحلقة الكبرى الانفصال، فتعقبه رجال كون الى الباراغواي حيث سحقوا جمجمته بمطرقة ورمّدوا جثته.

سأله مادونا: "هل توافق على أن تكون شاهدا؟"
أجاب: "نعم."

فاتصل مادونا ببريتشارد في هونغ كونغ ثم بلامانيا في نيويورك وزف اليهما الخبر. وبعد يومين كان لاو جالسا في مكتب كاثرين بالمر يكرر أمامها روايته.

وفي ١٥ ديسمبر (كانون الاول) التأمت هيئة محلفين كبرى في نيويورك للنظر في قضية مسؤولية كون عن خمس شحنات مخدرات، بدءا بالكمية المصادرة من سفينة الصيد ومن مستوعبات مكعبات الثلج في سياتل. وفي ٢١ ديسمبر (كانون الاول) قدمت بالمر مرافعتها.

بعد يومين وافقت هيئة المحلفين على توجيه تهم ضد كون و١٤ من صحبه. وخُتمت ملفات الاتهامات وحفظت في سرية تامة لئلا يدري بها كون والآخرون قبل توقيفهم.

الرجل الحرباء

تكثفت مطاردة جوني كون، فاستُنفرت دوائر شرطة مكافحة المخدرات، بما فيها الانتربول، في ١٢ دولة على الاقل. لكن كون بقي طليقا متملّصا في تنقل زئبقي دائم. وظل آه – لينغ وحده على اتصال به عبر مكالمات هاتفية سرية كانت تجرى في وقت متقدم ليلا.

وكانت لقاءاته مع عملائه تتم في أماكن مختلفة. ففي ١٢ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٨ عقد اجتماعا في طوكيو، وفي أوائل فبراير (شباط) عقد آخر في أحد فنادق تايبه، ثم في ٢٥ فبراير (شباط) أمر آه – لينغ بالتوجه الى طوكيو. وكانت الترتيبات أنجزت لشحن دفعة أولى من الهيروين تبلغ نحو ٤٠٠ كيلوغرام من بانكوك الى مانيلا. لكن مشكلة واجهت كون تتعلق بتأمين أموال نقدية ثمنا للمخدرات، وتطلبت تدخل آه – لينغ.

كانت التكاليف الضخمة لمشتريات الهيروين استنزفت موارد كون، وتعين عليه أن يبيع بعض عقاراته في نيويورك وسان فرنسيسكو. وقدر أن يحصل بذلك على نحو ٢٠ مليون دولار، فكلف آه – لينغ التوجه الى الولايات المتحدة وايجاد مشترين.

قال لامانيا لبالمر: "معنى ذلك كميات ضخمة جدا من المخدرات!"

ثم رسم مع كيفن دونلي وادوارد مادونا في سياتل خطة يطلب وكلاء العقارات بموجبها من كون الحضور شخصيا لتوقيع عقود البيع. وحين يُستدرج كون الى الولايات المتحدة يقبض عليه عملاء مكافحة المخدرات. في غضون ذلك يشن رجال الشرطة بامرة بريتشارد في هونغ كونغ حملة اعتقالات تشمل أعضاء آخرين في "عصابة الحلقة الكبرى."

أطلع بريتشارد آه – لينغ على الخطة المدبّرة، وكان على هذا أن يسافر الى نيويورك ويعود منها ليشرح لكون أن الشاري أصر على حضور المالك شخصياً لانجاز المعاملات النهائية.

خامر كون شك وأوجس خديعة. وتساءل: هل صحيح أن لا بد من ذهابه؟ وما الفائدة من توكيل محامين ودفع بدلات أتعابهم؟ لكنه وافق أخيراً على الذهاب، فقد اجتذبه المال كمغنطيس. وفي مكالمة هاتفية مراقبة طلب من كون أن يلتقيه الثامنة مساء ١٣ مارس (آذار) في مقهى فندق هيلتون بنيويورك. والتزاماً منه الحذر المطلق لم يذكر كون كيف سيأتي ومتى ومن أين.

قبل يومين من الموعد المتوقع لوصول كون توجه مادونا من سياتل الى المقر الرئيسي لمديرية مكافحة المخدرات في نيويورك لحضور اجتماع أخير نوقشت فيه التعليمات النهائية تمهيداً لاعتقال كون. ولم يكن أحد من العملاء رأى قبلاً "الرجل الحرباء" الذي يتنكر بأشكال مختلفة. فوزع عليهم مادونا ولامانيا الصور القليلة التي كانت في حوزتهما وأمراهم: "احفظوا صورته في ذاكرتكم جيداً والتزموا الحذر. ان كون نادراً ما يسير الا ومعه من يحمي ظهره."

اتصل مادونا ببريتشارد في هونغ كونغ، مشدداً على ضرورة ألا يتعدى الفارق الزمني في توقيت تحركهما جزءاً من الثانية. فما ان يعتقل كون في نيويورك حتى تعطى الاشارة لمباشرة توقيف الاعضاء الآخرين.

فرد بريتشارد: "هذه المهمة غاية في السهولة."

الساعة الصفر

كان الطقس مساء الاحد ١٣ مارس (آذار) بارداً وعاصفاً. وضرب عملاء المجموعة ٤١ طوقاً حول فندق هيلتون وتوزعوا في الشارع مختبئين في مداخل الابنية المقابلة لردهة الاستقبال. وجلس مادونا الى طاولة في مقهى الفندق يراقب ساعته. كان ذلك قبل دقائق من "الساعة الصفر." وجلس لامانيا قبالته، وقريباً منهما جلس كيفن دونلي العميل الاول في المجموعة، وراح ينقر على الطاولة بعود شراب متظاهراً باللامبالاة فيما داخله يعتمل اثارة، اذ لم يغب عن باله تحذير لامانيا من ان كون يؤمن دائماً حماية قوية لظهره، وربما كان رجاله منتشرين مثلهم يترصدون ويراقبون.

وتجاوز الوقت الساعة الثامنة. وغصّت الردهة بالناس. لكن أحداً لم ينضمّ الى آه – لينغ الذي بقي منتحياً احدى الزوايا.

وتلاحقت صور مراحل التحقيق كشريط سينمائي في مخيلة مادونا: بداية القصة في مطار سياتل – تاكوما، ومعلومات الكمبيوتر، والبحث المستمر، وهاوية البايسبول

مساعدة المدعي العام القليلة الخبرة، والشرطي السابق في هونغ كونغ الذي أصبح أفضل صديق. باستثناء لامانيا، بدأ العملاء يلاحقون القضية أغراراً يتحدون شبكات تجارة المخدرات الاوسع انتشاراً والافضل تنظيماً. ومذذاك تحول كل واحد منهم محترفاً بامتياز، وازداد مادونا معهم قوة وثقة بالنجاح. وهو الآن يكاد لا يصدق أن القضية توشك على الانتهاء.

وما عتّم أن قطع حبل أفكاره مرور رجل صيني حسن الهندام مشى متمهلا متلفتا كمن يبحث عن شخص ما. كان الرجل قصير القامة مكتنزا، وفي معصمه ساعة لماعة مرصّعة بالحجار الكريمة، وعيناه قاتمتان تتحركان كالزئبق.

حبس مادونا أنفاسه. هل هذا رجل أعمال أم...؟ بدا له واضحاً ان لا حرس معه ولا كشافة كامنين قرب الباب لانذاره. أحسّ مادونا ضيقاً وحيرة. فهو يعلم أن كون لا يسافر بعيداً الا ومعه مسلحوه. أما دونلي فتطلع الى الرجل وتابع النقر على الطاولة.



عاد الرجل بعد لحظات، فنظر الى آه – لينغ وأشار اليه لينتقل الى قاعة الطعام.

جلس كون وآه – لينغ في المطعم، وتبعهما العملاء الثلاثة بعد لحظات وجلسوا قريباً من المدخل حيث يستطيعون مراقبة الأبواب بعيداً من الرجلين لئلا يثيروا الانتباه. وراقب مادونا، بطرف عينه، كون وآه – لينغ وهما يبحثان في قضية البيع. وبعد ساعة نهض كون وارتدى معطفه وخرج من الباب الخلفي المفضي مباشرة الى الشارع، وخفَّ مسرعاً متوجها جنوبا. فتبعه رجال المكافحة. وقال مادونا وقد أصبحوا قريبين منه: "الآن!" وما هي الا لحظات حتى أدركوه، فشهر دونلي مسدسه وهتف لامانيا: "سيّد كون! رجال المكافحة الاتحادية، أنت موقوف!"

استدار جوني كون ببطء وقد خلا وجهه من أي تعبير، وقال بهدوء: "انكم مخطئون، أنا السيد ونغ."

ثم حضرت سيارة للمكافحة فهتف لامانيا: "كبلوا يديه ولنذهب من هنا."

دُفع كون الى المقعد الخلفي للسيارة وهو ما زال يردد محتجا أنهم قبضوا على الرجل الخطأ. وفي الطريق الى مقر مديرية المكافحة تلا عليه لامانيا حقوقه.

وقرابة منتصف الليل اتصل لامانيا هاتفيا ببريتشارد وأنبأه باعتقال كون. وبعد ساعتين تلقى اتصالا أبلغ فيه أن شرطة هونغ كونغ اعتقلت معظم المطلوبين المحليين في العصابة.

المرأة التنّين

عكفت كاثرين بالمر في مكتبها على اعداد مذكرة استدعاء كون الى المحكمة في اليوم التالي، ثم وضعت المسودات النهائية لطلبات تسليم معاوني كون الذين قبضوا عليهم في هونغ كونغ. وما ان أنهت عملها حتى غلبها الانهاك فنامت على الأريكة.

اقتيد جوني كون في العاشرة قبل ظهر ١٤ مارس (آذار) ١٩٨٨ الى المحكمة الاتحادية في بروكلين. وبدا واثقاً ببراءته حتى سماعه تلاوة التهم الموجهة اليه وعلمه بالقبض على الآخرين وأنه لن يطلق بكفالة.

وفي الطريق الى زنزانته التفت الى كيفن دونلي وقد استدقت حدقتاه حتى أصبحتا كرأسي ابرتين وقال بصوت بارد خفيض: "سيموت الآخرون ثم تموت أنت!"

لم يكترث دونلي لكلام كون واعتبره تهديداً فارغا. لكن مديرية المكافحة علمت لاحقا أن ثمة خطة مدبّرة لخطف دونلي وحقنه جرعة قاتلة من الهيرويين. وكادت كاثرين بالمر أن تقضي ضحية انتقام تجار المخدرات الآسيويين الذين أرسلوا الى مكتبها حقيبة يد مفخخة داخلها بندقية مقصَّرة معدة للانطلاق لحظة فتحها. لكن رجال المكافحة تنبهوا الى الخطر ومنعوا بالمر من فتح الحقيبة.

بعد سجن القائد تفرقت "عصابة الحلقة الكبرى" وتبعثرت. وفي ١٨ مارس (آذار) قبض رجال بريتشارد على أحد كبار معاوني كون لدى عودته الى هونغ كونغ من مانيلا. وسُلِّم الى الولايات المتحدة في ٢٥ مارس (آذار) ثم انتحر شنقاً في زنزانته. في غضون ذلك قبض رجال المكافحة في الحي الصيني بنيويورك على موزع آخر لكون، وعُلم أن ثمة موزعا ثالثا في الصين.

وضاعفت مديرية مكافحة المخدرات حراستها للشاهدين تشن وآه - لينغ، فكانت تنقلهما باستمرار الى أماكن مختلفة. وصادر عملاؤها رسائل بعثها كون من السجن عارضا مبالغ طائلة لقتل أولئك الذين سيشهدون ضده. لكن الخوف الذي كان يثيره سابقا في قلوب أعضاء "عصابة الحلقة الكبرى" تلاشى. حتى ان طومي تشن، المهرب الذي اعتقل في مطار سياتل، قبل التعاون في مقابل أن ترأف به المحكمة.

وأخيرا، بعد مساومات تمهيدية استمرت أكثر من سنة، اعترف جوني كون بصحة كل الاتهامات التي وجهت اليه. وفي ٢٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٨٩ حكم عليه بالسجن ٢٧ سنة في سجن اتحادي.

لكن المجموعة ٤١ لم تنتظر نتيجة المحاكمة للاحتفال بما أنجزته. فبعد يومين من اعتقال كون حجز لامانيا ومادونا وعملاء المجموعة مقهى في شارع مانهاتن وأقاموا حفلة احتفاء بانتصارهم في معركة المخدرات الطويلة. وكانت كاثرين بالمر ضيفة الشرف. وقال لامانيا إنه لولا اخلاصها ومثابرتها لما استطاعوا بلوغ النجاح. وعرف الجميع قوة شكيمتها وفضلها في كسر حلقة المخدرات الجهنمية، وأطلق عليها سكان الحي الصيني لقب "المرأة التنين."

ونوَّه المدعي العام الامريكي ريتشارد ثورنبرغ لاحقا بخدماتها المميزة، وهذا هو الشرف الارفع الذي تمنحه الدائرة.

ومنح بريتشارد، الذي صار الآن كبير مفتشي دائرة التحري، شهادة استحقاق من حاكم هونغ كونغ وجائزة الخدمة العامة من دائرة العدل في الولايات المتحدة، وهذه واحدة من المناسبات القليلة تمنح فيها الجائزة لضابط أمن غير أمريكي.


وظل لامانيا وبالمر يقودان حملات اختراق لمعاقل تجار المخدرات في آسيا. وبفضل جهودهما كشف النقاب عن معظم شبكات تهريب الهيروييين الآسيوية.

ناثان ادامس ■

ترجمة الياس عقل

الكتب سند لنا في وحدتنا، وهي تجنبنا ان نصبح عبئا على انفسنا.

جيريمي كولبير، كاتب بريطاني


كتاب الشهر
البهلوانة
المعجزة
بقلم هنري هورت

★ ★ ★ ★ ★

البهلوانة المعجزة

بقلم هنري هورت



انجل والندا بهلوانة مارست تدريبات طويلة وقاسية لتنمي في جسدها القدرة والرشاقة اللازمتين للسير على أسلاك عالية. بيد أن مهارات اكتسبتها في مرحلة سابقة من حياتها هي التي مدتها بالقوة واللياقة والقدرة على الاحتمال. فكيف قدر لطفولة تاعسة أن تهيىء شابة لمثل هذه الشجاعة في تخطي صعاب الحياة؟

تلألأت الاضواء الساطعة على النثار المعدني فوق الرداء الفيروزي الناعم كاشفة للجمهور الجذل في الاسفل مشهد جمال وشجاعة. وتألق جسد انجل والندا المرن وسط الظلام الذي لف قاعة العرض وهي تتهادى برشاقة على السلك الرفيع.

ولم تكد تبلغ منتصف المسافة حتى ترنحت وبانت على محياها وسط الاضواء الكاشفة مسحة خوف وذعر. وترجّح قضيب التوازن بين يديها منذراً بخطر وشيك، فغارت قلوب مئات المشاهدين. كان واضحاً أن ثمة خطباً ألم بها. ولم تكن تحتها شبكة تتلقفها إن سقطت، فهذا تقليد كرسه آل والندا العظام.

فجأة سُمعت صرخة شقت السكون: "أبعدوا الاضواء الكاشفة عن عينيها!" كانت تلك صرخة زوجها ستيف الذي وقف يراقبها من المنصة المقابلة. وما ان أُطفئت الاضواء الكاشفة حتى استعادت انجل توازنها وواصلت سيرها. كان عامل مهمل من فنيي الاضاءة سلّط الاضواء عليها من تحت فعميت عن مراقبة قدمها اليمنى كلما وطأت السلك.

PHOTOS: © TERRY WILD

ومعروف أن السير على الاسلاك يتطلب من البهلوان الوقوف منتصب القامة مرفوع الرأس والاعتماد كليا على أحاسيس قدميه. فهذا فن لا يعتمد على العين بل على القدم التي ينبغي أن تنتقي مواطئها بدقة تحفّها الاخطار.

بيد أن انجل والندا تبز زملاءها جرأة. فهي لا تملك قدما يمنى، بل رجلٌ اصطناعية تبدأ تحت ركبتها. وبما أن الطرف الاصطناعي خلو من الاحاسيس، فهي تعوض هذا النقص بمراقبة موطىء قدمها اليمنى في كل خطوة.

انجل والندا هي البهلوانة الوحيدة في العالم التي تؤدي هذه العروض الجسورة بقدم اصطناعية.

لذلك حين استعادت توازنها ووقفت بثبات على السلك، دوت القاعة بالهتاف وشوهد وجه انجل يشع بالثقة مجدداً ويتألق ببسمة بهية حيَّت بها الجمهور. وما ان اجتازت المسافة الفاصلة ووطأت المنصة البعيدة، حتى تحول الهتاف تصفيقا راعداً. وللحال اجتاز ستيف السلك بسرعة وانضم اليها. وتعانق الزوجان ثم انحنيا للجمهور بأبهة طبعت حياتهما كحاملي أحد أشهر الاسماء في عالم السيرك.

لكن النجاح الباهر الذي لاقاه هذا العرض في مانسفيلد بولاية بنسلفانيا في شهر مارس (آذار) ١٩٩٠، حمل مسحة كآبة غمرت المشاهدين. فقد كانت انجل والندا، ابنة الحادية والعشرين، على وشك الخضوع لجراحة استئصال ورم سرطاني للمرة الرابعة خلال أقل من أربع سنوات. وكان الجمهور مدركا أن ما يشهده ربما كان عرضها الاخير.

اختلطت انجل وستيف بالجمهور بعد انتهاء العرض وراحا يوقعان دفاتر تذكارية ويشكران المعجبين ويتقبلان التهاني. واجتذبت انجل الناس كعادتها بمرحها الدافىء وروحها الطيبة. أما السؤال الذي أخذ يتردد في الاذهان، ضمنا أو شفاها، فكان: كيف تقدر هذه المرأة الشابة على مواجهة مصيرها الغامض بهذا المقدار العظيم من الهدوء والشجاعة؟

★ ومضات حب ★

قبل سنوات كثيرة من عرض مانسفيلد كانت انجل والندا شخصا آخر يعيش في عالم مختلف.

ولدت اليزابيث (ليزي) بنتيا في ٢٠ مارس (آذار) ١٩٦٨، وكانت الصغرى بين ستة أولاد ترعرعوا في كنف والدين هربا من المجر (هنغاريا) واستقرا في ضاحية شمال مدينة نيويورك.

وكان منزل آل بنتيا مليئا بالخوف والرعب. فقد كان الوالد رجلا فظا نزق الطباع لا

يحلو له الاكل الا وحيداً في غرفة تعزله عن بقية العائلة. كان يأكل أولاً، ونادراً ما يسمح لاولاده بالمثول في محضره. وبعد أن يفرغ من الاكل كانت العائلة تأكل ما تبقى في غرفة الطعام.

وغالباً ما كان يردد لأولاده أنه يريدهم أقوياء. ولدى عودته الى البيت كان يطلب منهم أن يصطفّوا ويمدوا أيديهم لتلقي العقاب، اذ لا بد من أنهم ارتكبوا خطأ ما في غيابه. وكان يتنقل بينهم منهالاً بحزامه على أيديهم حتى لا يبقى منهم واحد إلا وقد علا صوته ألماً وبكاء.

وتذكر ليزي أن والدها كان يطرحها أرضاً وينهال على وجهها ضرباً. وكانت الأم السقيمة تحاول الدفاع عن أولادها وتتوسل الى زوجها لكي يتساهل قليلاً في معاملتهم. لكنه كان يرد على ذلك بحجزها في غرفتها أثناء غيابه، فيضطر الاولاد الى تحضير الطعام وتنظيف المنزل بأنفسهم.

وكانت سلطات الولاية تأمر أحياناً باخراج الاولاد من البيت وتوزيعهم على بيوت رعاية حيث تعنى بهم عائلات كريمة. وهذا نمط رافق ليزي طوال فترة طفولتها، فلم تبق طويلاً في عهدة عائلة واحدة.

أبعدت ليزي عن والديها للمرة الاولى عندما كانت في شهرها الثامن عشر. وكانت أولى محطاتها في منزل لين سانداباك التي لا تنسى ساعة وصول الطفلة الى دارها. تقول: "كانت مرتاعة لابتعادها عن اخوتها وأخواتها فمزقت فؤادي. وكانت لا تكف عن البكاء ولا تدعني أنزع سترتها. فضممتها الى صدري وهدأت خاطرها نحو ساعة. وعندما سكنت أذهلني مقدار ما كان فيها من محبة."

وفي عامها الثالث كانت ليزي فتاة جميلة شقراء زرقاء العينين تزين محياها ابتسامة شبه دائمة. فانتقلت الى منزل جون وبات ولسون في بلدة كرمل بولاية نيويورك حيث لاقت معاملة زاخرة بالمحبة والعطف. وعلى رغم أن سياسة هيئة الرعاية الاجتماعية قضت بنقلها بعد ١٨ شهراً، فما زالت تذكر آل ولسون بعاطفة جمّة الى اليوم. تقول: "يصعب على أناس حظوا بالمحبة طوال حياتهم أن يفهموا الجميل الذي يمكن أن تصنعه عائلة واحدة مثل آل ولسون."

عززت كل ومضة محبة عاشتها ليزي في طفولتها روحَها المعنوية وقدرتها على خوض معترك الحياة وتصميمها على مقاومة كل ما يخضعها لمشيئة الآخرين. وتذكر شقيقتها آنا، التي تكبرها بأحد عشر شهراً، رفض ليزي اللجوء الى البكاء حين كان الوالد يوسعهم ضرباً، على رغم أن البكاء الفوري كان الوسيلة الاكيدة لوقف القصاص. وتضيف آنا: "كانت ليزي ترفض البكاء مهما بلغ القصاص، لذا كانت دائما تتلقى أقسى العقوبات."

ولا بد من معرفة هذا الواقع لفهم تلك الطفلة التي تبرعمت لتصبح انجل والندا.

خلال سنوات تنقل ليزي بين منازل الاوصياء، كانت تُرسل الى منزلها الوالدي لقضاء بعض عطلات نهاية الاسبوع ومعظم عطلات الاعياد. إلا أن والدها لم يكن ليولي الاعياد أي اهتمام، لأن مثل هذه الاحتفالات كانت توقظ في نفسه ذكريات كابوسية عن الحياة في المجر وتقتضي احتراما لتقاليد درج على مقتها.

كانت الاعياد مناسبات كئيبة بالنسبة الى أولاد آل بنتيا. ولا تذكر انجل أنها تلقت أي هدية في منزل والدها، "ومع ذلك كنت ألجأ الى سرد قصص وهمية عن عطلة العيد لدى عودتي الى المنزل الذي يرعاني. وكان الاولاد هناك يتباهون بما تلقوه من هدايا ويتحدثون عن الاوقات الجميلة التي أمضوها. طبعاً، لم ينلنا نحن أي من هذه الاشياء، لكنني كنت أتحدث دائما عن ديك الحبش الذي أكلناه والحلوى التي التهمناها. وأذكر ادعائي مرة الحصول على بيت دمية. وعندما سألني الاولاد لماذا لم آتِ به قلت لهم انه أكبر من أن تسعه السيارة."

★ زائرة غريبة ★

أدركت ليزي منذ سنواتها الأولى أن حرمانها تجاوز كثيرا مسألة هدايا الميلاد. ذات يوم، وكانت في الخامسة من عمرها، شرحت معلمة الحضانة للصف أن كثيراً من الاولاد يسرون بأن يكون لهم أصدقاء خياليون. وأضافت: "لكل طفل تخيلات يتراءى له فيها أصدقاء وهميون." لكن ليزي اعتبرت نفسها مستثناة، وقدَّرت أن التخيُّل – مهما عنى ذلك – هو من ضمن الاشياء التي يملكها الآخرون ولا تملكها هي.

ولم يمضِ زمن طويل حتى حدث لها ما كان بمثابة بلسم سحري لروحها المعنوية. اذ فيما كانت تقضي اجازة في منزل والديها، دخلت غرفة الحمام لكي تختلي بنفسها وتتصفح كتاباً مصوراً. فجأة تراءى لناظرها شكل امرأة جلست بجانبها وهي ترتدي ثوبا فضفاضا.

تقول انجل: "بدت لي كدخان أبيض ورمادي. فنظرت اليها من رأسها الى قدميها ثم أغمضت عينيّ باحكام." كان الشكل صامتا، لكن حضور المرأة أضفى على ليزي سلاما رهيفا لم تشعر بمثله من قبل. فهرعت لتخبر الآخرين ما شاهدت.

تعتبر انجل والندا تلك اللحظة نقطة تحول في طفولتها. وتقول: "علمت للمرة الاولى في حياتي أن في ذاتي شيئا خاصا، وأني لربما كنت أكثر من مجرد طفلة غير مرغوب فيها." واستمدت ليزي من هذه المعرفة قوة قادت خطاها الى اليوم. وهي تقول بسعادة: "تساءلت طويلا عما اذا كان ذاك الطيف هو الصديق الخيالي الذي تحدثت عنه المعلمة."

لكم كانت اليزابيث بنتيا تتمنى لو تستطيع تغيير بعض مناحي حياتها، لكنها ظلت تتمتع بكثير من الاستقلالية التي طالما انتزعتها من أولئك الذين تولوا العناية بها. كان واضحا لها أنها إن استكانت للنظم التي فرضتها عليها هيئات الرعاية الاجتماعية فسوف تتحطم حياتها شر تحطيم. لذلك بذلتْ قصارى جهدها لتفادي سيطرة الآخرين على حياتها، محققة ذلك بطيبة خلق ومرونة حيَّرتا العائلات التي تناوبت رعايتها. وكانت، الى ذلك، تنظر الى الحياة بتفاؤل ورضى على رغم كل ما تعرضت له من معاملة سيئة في منزلها الأبوي. وكثيراً ما كانت تهرب مع شقيقتها وبعض أشقائها، فيختفون أسابيع يمضونها مع بائع حلوى اسمه هارفي يجولون معه متظاهرين بأنهم أيتام يبيعون الحلوى في مواقف سيارات المراكز التجارية في نيويورك ونيوجرزي وكونتيكت. وتتذكر انجل: "طلب منا هارفي بيع الحلوى بدولارين ونصف دولار والاحتفاظ بنصف دولار لنا، لكننا كنا نبيعها بثلاث دولارات فنجني دولاراً ربحا صافيا."

ومن المغامرات الكبيرة التي عاشوها واحدة حدثت بعد بلوغ ليزي الثالثة عشرة، حين دبرت مع شقيقتها آنا واثنين من أشقائها مكيدة للهرب نهائياً من نظام الرعاية الاجتماعية ومنزل والديهم. حدث ذلك في أبريل (نيسان) ١٩٨١ حين تغيَّب الاخوة عن المدرسة اذ هربوا حاملين مقتنياتهم القليلة في أكياس نفايات، متنقلين في سيارات أقلتهم مجانا، الى أن انتهى بهم المطاف الى الطريق الرقم ٩٥ شمال شرق مدينة نيويورك، وهي احدى أكثر الطرق عبوراً في البلاد.

تذكر انجل: "كانت الطريق مناسبة لنا تماما، فالضوضاء أبعدت الناس عنها وجعلتنا بمنأى عن تدخلهم في شؤوننا." وأقام الاشقاء شبه خيمة في الغابة بنوها بما طاولته أيديهم من مواد، في مكان قريب من ميمنة الطريق قبيل اختراقها بلدة ماماورنك. وكانوا يطهون طعامهم على نار يوقدونها في العراء، ويجنون ما يكفي أودهم من بيع السكاكر التي جمعوها خلال عملهم مع هارفي. وكانوا يعملون في الصباح متجولين في الاسواق التجارية، ثم يقضون بعد الظهر في دور السينما.

أمضى الاولاد نحواً من شهر ذاقوا خلاله طعم سعادة لم يعرفوها قبلاً. وتحاشوا الوقوع في مشاكل، الى أن جاء يوم كذبت ليزي وآنا في شأن عمرهما عندما حاولتا الحصول على عمل في أحد المتاجر. وسرعان ما ساقهما شرطي الى التحقيق، ومن ثم أعيدتا مع شقيقيهما الى هيئة الرعاية الاجتماعية.

بدأت ليزي تتحول مشكلة كبرى بالنسبة الى القيمين على هيئة الرعاية الاجتماعية. وكانت وضعت مجدداً في عهدة والدها، فلجأت الى أساليب متنوعة لتخفيف وطأة الاجواء الخانقة التي سادت المنزل. وكانت تمضي الليالي، وبضعة أيام متتالية أحيانا،

في اسطبل قديم أو منزل مهجور. وكانت، إذْ دعت الحاجة، تنام في سيارة تجدها غير مقفلة.

في تلك الفترة بدأت ليزي تتعاطى الكحول والماريوانا.

وذات يوم التقت امرأة اسمها ماري ألن ميهالشك شكلت مرتكز استقرار في حياتها. تقول ماري: "عندما التقيت ليزي للمرة الاولى كانت كدمات زرقاء وسوداء تغطي وجهها. وهي دخلت منزلنا مع احدى بناتي ولم تكن تجاوزت الرابعة عشرة من عمرها. كانت ليزي فتاة غير عادية تتسم بود بالغ وطمأنينة لافتة، تحب التحدث مع البالغين وتتمتع بغنى روحي لافت. وهي أهدت الي تمثالا خزفيا اشترته بمال جنته من عملها، وما زلت احتفظ به."

وتضيف ماري: "لقد تعرضت ليزي يوم التقيتها لضرب مبرح. لكنها أصرت على أنها لم تصب بأذى، وأن لا داعي الى القلق. ما زلت أرى تينك العينين الزرقاوين ترمقانني من وجهها المتورم وهي تناشدني ألا أقلق. ضممتها الى صدري ورحت أنشج. لكن ليزي لم تبكِ، بل حاولت مؤاساتي."



ILLUSTRATIONS: DAN BROWN

ولم تمضِ فترة قصيرة حتى حزمت ليزي أمتعتها في كيس نفايات وغادرت منزل أبيها الى غير رجعة.

صحيح أن ليزي عاشت حياة بؤس وقنوط، إلا أنها بقيت خلواً من أي أثر للمرارة. وما زالت تذكر بولع مغامرات طفولتها. لكن ما يثير العجب حقاً هو أنها لا تذكر والدها بحقد أو استياء. تقول: "أعتقد أنه لم يعرف الحب أبداً، لذلك تعذر عليه الاحساس بالحب أو منحه أو تلقيه."

عندما توطدت العلاقة بين ليزي وماري ألن ميهالشك أدركتْ هذه أن عدم اكتراث الفتاة الظاهر لما تعرضت له من ظلم كان في الواقع نابعا من قرارها الصعب ألا تدع الآخرين يتحكمون بمصيرها، ومن تصميمها القوي على تحقيق ذاتها. وسارعت ماري ألن الى معالجة نزوع صديقتها الصغيرة الى تعاطي الكحول والماريوانا. تقول: "كنت قد زرت مستشفى يعالج فيه أطفال ولدتهم أمهات يتعاطين المخدرات. فصرفت مع ليزي وقتا طويلا نتباحث في هذا الموضوع."

★ الوالندا العظام ★

بلغت ليزي السادسة عشرة من عمرها، وكانت حياتها خلواً من أي علاقة عاطفية. لكنها مع ذلك كانت تحلم بأن تصبح زوجة وأما. ولم يمضِ وقت طويل على حديثها مع ماري ألن حتى تخلت نهائيا عن الكحول والمخدرات. وعندما دعتها عائلة ميهالشك الى الاقامة معها، حصلت على عمل في متجر للمثلجات في موهيغان لايك بنيويورك، وراحت تعمل ساعات طويلة وتدخر مالاً لمستقبلها.

لاحظت ليزي بنتيا مع الوقت رجلا غريبا يحوم حول متجر المثلجات في أوقات الصباح. وتذكر: "دأب الرجل على مراقبتي عن كثب. كان بادي الهدوء. وخلته للوهلة الاولى غريب الاطوار، اذ كان يأخذ مني فنجان القهوة ويطيل التحديق الي. وأخيراً قررتُ التكلم اليه."

تبادلت ليزي والرجل الغريب حديثا وديا قصيراً، لكنها ظلت ترى في تحديقه اليها أمرا غريبا.

في وقت لاحق من ذلك النهار سمعت ليزي صدح موسيقى ورأت جمهرة تحلقت في موقف سيارات المركز التجاري القريب. وكانت الانظار متجهة الى فوق حيث كان رجل يسير على سلك عال. فوقفت ليزي تراقب الرجل مفتونة وهو يسير على السلك برشاقة وثقة. ولما دنت أكثر تبين لها أنه ذاك الذي دأب على التردد الى متجر المثلجات.

فسألت امرأة وقفت الى جانبها: "من هذا الرجل؟"

فأجابت المرأة: "إنه من الوالندا."

فهتفت ليزي: "حقا؟ من هم الوالندا؟"

في تلك اللحظة ضج الجمهور هاتفاً للرجل الذي وصفه مذيع هناك بأنه "الوالندا العظيم صاحب الاداء الذي لا يصدق."

كان ستيف والندا سليل عائلة امتهنت الألعاب البهلوانية وفتنت العالم بعروضها الجريئة طوال قرنين. كان صاحب عضلات مفتولة وجسم مكتنز وعينين سوداوين ثاقبتين وابتسامة ودودة، وقد أدرج اسمه في "كتاب غينيس للارقام القياسية."[1] وكان من أعماله الفذة عبوره شلالات فيكتوريا على سلك رفيع، وسيره على الحبل الاعلى لجسر "باي بريدج" بين سان فرنسيسكو وأوكلاند الذي يعلو ٢٣٠ متراً فوق الماء. ولربما كان أعظم عروضه "سباق الموت" الذي سار فيه على سلك رُبط بين سيارتين انطلقتا بسرعة ١٠٠ كيلومتر في الساعة.

وعلى مر أجيال من الاعمال الاستعراضية، حطَّمت عائلة والندا أرقاما قياسية لا حصر لها. ولا شك في أن أشهر مآثر العائلة هو الهرم السباعي الذي ابتكره كارل والندا في الاربعينات. وكان عرض "الوالندا العظام" معلما أساسيا في سيرك الاخوة رنغلنغ وبارنوم وبايلي. وفي العام ١٩٧٨ قتل كارل اذ سقط عن سلك مشدود بين بناءين من عشر طبقات في سان خوان عاصمة بورتوريكو.

بدأ ستيف، حفيد شقيق كارل، تأدية عروض وهو في الثالثة من عمره. وكانت طفولته بهيجة أكسبتها المنافسة بين أفراد العائلة زخما خاصا، وهي زخرت بتجارب شملت احداها العيش مع مجموعة أسود مدربة في منزل واحد.

انحنى ستيف للجمهور بعد اكماله الجزء الاول من عرضه في بلدة موهيغان لايك. ثم طلب متطوعا يرافقه على السلك العالي في العرض اللاحق. وفيما هو يقلِّب النظر في الجمهور المتحلق حوله، التقت عيناه عيني الفتاة الجميلة التي التقاها في متجر المثلجات. ولما أومأ اليها أشرق وجهها ابتهاجا.

إلا أن ليزي لم تكن واثقة بنفسها على رغم ما شرحه لها الوالندا العظيم من مبادىء أساسية. تقول: "لم أكن عالمة بما أفعل. ولكن استهوتني فكرة السير على السلك." فما كان منها إلا أن خلعت حذاءها ووضعت يديها على كتفي ستيف وتبعته لا تلوي على شيء. وهي تذكر: "سرت خلفه لا أخشى السقوط ما دمت متشبثة به. ومدتني قوته البالغة بشعور من الأمان."

يقول ستيف: "علمتُ من حركتها أنها صاحبة موهبة فطرية. كانت تتمتع برشاقة وقدرة على التوازن وثقة بالنفس. وكانت ذكية بحيث خالجها الخوف قليلا. وهذه صفات أساسية يجب أن يتمتع بها كل من أراد السير على سلك عالٍ."

(١) The Guinness Book of World Records

أدرك ستيف والندا أن يومه ذاك كان الأهم في حياته. ويقول: "عندما دخلت متجر المثلجات ورأيتها، لم تكن في نظري مجرد فتاة جميلة تلفت الانظار. شعرتُ بأني رأيتها من قبل، وبأني أعرف منْ هي. ووجدتني أعرف شعرها الذهبي ووجهها ويديها وعينيها وكل ما فيها. لقد علمتُ، لحظة التقيتها، أنها ستكون لي زوجة."

لم يراود ليزي بنتيا أي من هذه الافكار، ولم تجل في ذهنها إلا الاثارة التي رافقت سيرها على السلك. تقول: "علمتُ أني اذا استطعت تعلم السير على السلك وأصبحت بهلوانة، فسأعيش أكثر المغامرات إثارة في حياتي."

★ ولادة نجمة ★

خلال الايام التالية لم يخفِ ستيف تعلقه الشديد بهذه الفتاة التي بات غير قادر على الابتعاد عنها. وبدأ القلق يساور مدير أعماله من جراء تدني قدرته على التركيز. يقول ستيف: "كنت كلما تحدثت اليها ازددت ثقة بشعوري نحوها. كانت ذكية وتتمتع بحس فكاهة رائع. لم ألتقِ يوما مكافحا مثلها."

حارت ليزي في أمر هذا المعجّب الولهان. غير أن ماري ألن حذرتها: "انه نجم سيرك، ولا يناسبك عمراً. أرجوك، لا تتورطي معه."

وبعد أيام قليلة على لقائهما الاول، وساعات قضياها يتحدثان خلال فواصل العروض وبعدها، تقدم ستيف بعرض مدهش اذ طلب من ليزي الذهاب معه الى جامايكا حيث اعتزم تقديم عرض خطر. ووعدها بأن يجعل منها بهلوانة قائلا إن تلك الرحلة ستعمق معرفتها بهذا الفن.

وتتساءل انجل اليوم: "أتراه ظنني مجنونة؟ لو طلب مني الذهاب الى نيوجرزي، مثلاً، لفكرت في الأمر. لكني رفضت حتى التفكير في الذهاب الى جامايكا."

مع ذلك أحست ليزي خيبة وهي تودع ستيف. فهي ظنت أن اختيارها هذه المهنة سيفتح لها مستقبلا غنياً بالاسفار والمغامرات والاثارة. كما سلمت بأنها باتت مفتونة بهذا الرجل الموهوب الذي أصغى باهتمام بالغ الى كل كلمة تفوهت بها. لذا ساورها القلق اذ بدا لها أنها قد لا تراه ثانية.

ما ان أنهى ستيف عرضه في جامايكا حتى عادالى نيويورك. وسمعت ليزي اعلانات دعائية عن عرض قريب له، فهرعت اليه قبل أن تتاح له فرصة للقدوم اليها.

أمضى الاثنان شهرين في لقاءات وجلسات قبالة منزل ماري ألن ميهالشك. وتقول انجل: "كان ستيف أول انسان فهم حقا كم كنت اروم النجاح في حياتي."

أما ستيف فآمن بأن ليزي هدية مَنَّ بها الله عليه. وهو أطلق عليها يوم لقائهما الاول لقب "انجل" (الملاك). يقول: "كانت الفوضى تكتنف حياتي. فقد خرجت من حرب

فيتنام ونفسي غضبى على العالم. فأدمنت المهدئات أمزجها بالكحول. وكانت انجل صغيرة السن، لكنها كانت دائمة التفاؤل. وقد أخذت حياتي منحى ايجابيا مذ التقيتها."

واليوم، حين يستعيد ستيف ذكرى تلك الايام، ينسب الى انجل كل الفضل في خلاصه من المخدرات والكحول.

كانت انجل درية بشؤون الحياة، فآثرت ألا تخبر ستيف أنها في السابعة عشرة من عمرها، وادعت أنها في الحادية والعشرين. فتقبَّل ستيف كلامها من دون أخذ ورد. ولم تطرح مسألة العمر ثانية إلا حين ركب الاثنان القطار المتجه الى نيويورك ليتزوجا.

يقول ستيف: "لم تفسح لي انجل أي مجال للقاء والديها. فتقبلت الامر، خصوصا أن ماري آلن كانت هي نفسها مستاءة مني فلم أشأ دخول متاهة جديدة من المشاكل مع والدي انجل."

لكن انجل عادت وأخبرت ستيف عن واقع عمرها في فورة صراحة مفاجئة وسط جلبة القطار المندفع. ولدى وصولهما الى نيويورك عمد ستيف، وقد صدمته فكرة الهرب مع قاصر، الى الاتصال بوالد الفتاة الذي لم يكن رأى ابنته أو تحدث اليها منذ سنتين. وشرح له على الهاتف أن انجل باتت لاعبة سيرك، وسأله عما اذا كان لديه أي اعتراض على ذلك.

ويذكر ستيف: "بدا والد انجل مرتكبا، وخلته يتساءل عن السبب الذي دعاني الى مكالمته. وحين أخبرته بصراحة ان ابنته هاربة مع نجم سيرك قال لي إن الامر لا يعنيه."

ضحكت انجل حين أخبرها ستيف عن تلك المكالمة. وكانت تلك المرة الاولى تسمع عن والدها مذ بلغت الخامسة عشرة. وهي تقول: "كنت سعيدة اذ وجدتني في بـدايـة طـريقي الى حيـاة جديدة."

عقدت حفلة القران في مـديـنـة نيـويـورك، وأصبحت اليزابيث بنتيا، وهي في السابعة



عشرة من عمرها، انجل والندا، وهو اسم سيرافقها طوال حياتها. ولم تمض ايام قليلة حتى أصبح ستيف نجماً في عرض رعته سلطات احدى مدن نيوجرزي. في هذا العرض مشى ستيف على سلك رفيع امتد من الارض بزاوية ٤٥ درجة الى قمة رافعة تعلو ٢٠ متراً. وكان كلما فرغ من دوره الفذ يعود ليصطحب انجل ربع المسافة.

وتذكر انجل: "ضج الجمهور اعجاباً بستيف. وكانت تلك المرة الاولى يقدمني الى الجمهور بصفتي زوجته وشريكته. أحببت الانحناء للجمهور والتلويح بيدي وسماع الهتافات. في تلك اللحظة أدركت كم ستكون حياتنا معاً رائعة."

كان شعورهما بالحب والثقة ذلك اليوم منطلقاً لاحلام شملت انجاب أولاد واستقراراً في منزل خاص وحياة على كفة الاخطار عالياً فوق جماهير هاتفة.

★ سعادة غامرة ★

لم يلبث الثنائي أن دعي الى غرب البلاد. فطوى الزوجان المسافة الى كاليفورنيا في سيارتهما. كانت انجل في مستهلّ حياة جديدة، ولكن لم يخامرها شك في أن خطاها مقودة بالروح اياها التي لازمتها على الدوام. ومع ذلك كان خلودها الى النوم في ساعة متقدمة من الليل في فنادق نظيفة قفزة نوعية لا سبيل الى مقارنتها بالعيش في خيمة رثة على جانب الطريق الرقم ٩٥.

أمضى الزوجان عشرة أيام في الطريق، وكانا يتوقفان بين حين وآخر ليشاهدا مناظر ومعالم لم تعرفها انجل الا سماعاً. رأيا النبتة الدوارة[٢] في تكساس وبقر الوحش في نيو مكسيكو وسد هوفر على نهر كولورادو. أما أكثر المشاهد إثارة للاحاسيس فكان الفقر المدقع في احدى محميات الهنود الحمر.

تقول انجل التي لم تكن رأت البحر من قبل: "كان المحيط الهادىء أروع مشاهداتي. وقد قفزنا الى مياهه وسبحنا ولعبنا. فشعرت اذذاك بحرية قصوى لمجرد قدرتي على الارتماء في الماء من دون أن أصاب بأذى."

بعد قضاء بضعة أشهر في لوس انجلس، انتقل الزوجان الى بيغ بيرسيتي الواقعة في الجبال على مسافة ساعتين ونصف ساعة في السيارة من الشاطىء. وكان هدفهما العمل على اتقان مجموعة من ضروب السير على الاسلاك كي تتمكن انجل من الانضمام الى عروض ستيف. وعلى مقربة من بيتهما الجديد هناك، وجد ستيف شجرتين عاليتين ربط بينهما سلكاً يعلو متراً واحداً عن الارض.

إن بعض مهارة البهلوان ايحاؤه أن المشي على الاسلاك أمر سهل. لكنه في الواقع ليس سهلاً. فلقد احتسب ستيف وزن انجل وطول قامتها، فقدّر أنها تحتاج الى قضيب

(٢) Tumbleweed

توازن يزن ١٥ كيلوغراما. فاذا أخذنا في الاعتبار ساعات التمرين الطويلة التي أمضتها انجل ماشية على السلك حاملة هذا القضيب الثقيل طوال الوقت، لادركنا مدى الجهد الذي بذلته. وتشرح انجل الامر: "من الخطأ حمل قضيب التوازن في وضع مريح، اذ من الضروري أن تحمله أمامك ويداك نصف ممدودتين."

ما إن أتقنت انجل السير على السلك بيسر حتى بدأت ممارسة تمارين تمكنها من الجثوم والجلوس على السلك براحة تامة. وكان هدفها الاول تعلُّم تتبع خطى ستيف وتسلُّق كتفيه برشاقة. وعلى رغم طولها البالغ ١٦٥ سنتيمتراً، أي ما يفوق قليلا الطول المثالي لهذه الحركة، فقد أتاح ستيف تحقيق هذه الغاية بما أوتي من قوة جسدية.

تقول انجل: "عندما أتقنت السير على علو متر واحد رفع ستيف السلك ثلاثة أمتار. فوجدت نفسي كمن يبدأ من جديد. إنه لأمر لا يصدق كيف ينظر المرء الى أسفل فينسى كل ما تعلمه."

وقد تعرضت انجل للانزلاق غير مرة، فكانت تتشبث بالسلك كي لا تسقط. وهي لم تسقط مرة.

وعلى رغم صعوبة تلك المهنة فقد عاشت انجل سعادة غامرة. تقول: "كنت أتعلم تقنيات جديدة كل يوم. فأحببت عملي وكل ما فيه."

إلا ان انجل بدأت تعاني مشكلة جانبية لازمتها أشهراً. كانت تشكو من انزعاج في صدرها رافقه احساس بأن رئتيها تمتلئان بمادة سائلة. وتحول قلقها ذعراً حين وجدت نفسها تبصق دماً كلما سعلت. اذذاك لم تجد بداً من استشارة طبيب. وبعد المعاينة واجراء فحوص مخبرية متنوعة شخَّص الطبيب أنها حامل.

قالت انجل للطبيب: "هذا رائع. ولكن أليس هناك أمر آخر؟ ماذا عن بصقي الدم؟"

فشرح لها الطبيب أن ذلك قد يكون ناتجا من تمزق شريان صغير في رئتيها، وطلب منها ألا تقلق. فعادت مع زوجها الى البيت لمواصلة التمارين والاستعداد لاستقبال المولود الجديد.

تقول انجل: "أثارتني فكرة انجاب طفل، لكنني شعرت بأن ثمة خطباً."

واصلت انجل ممارسة التمارين القاسية. ومع الوقت ساورها قلق حيال اصابة قديمة في كاحلها الأيمن عندما كانت في الحادية عشرة من عمرها. بدا الامر وقتئذ مجرد التواء أليم، لكن السيدة التي كانت وصية عليها آنذاك اتهمتها بالكذب ولم تأخذها الى طبيب. ومنذ ذلك الوقت وانجل تداري كاحلها الأيمن.

ولكن كان ثمة أمر غير عادي في اصابة انجل. فقد بقي الجلد سليما، ولكن تكونت في مقدَّم الكاحل – فوق حد الحذاء تماماً – كتلة مطاطة كانت كلما تعرضت لضربة، وإن طفيفة، تسبب لها ألما شديداً يدوم ساعات أحياناً.

وفيما انجل تعيش حياتها الجديدة ازدادت اصابتها القديمة سوءاً على نحو مقلق. كما أنها استمرت تبصق دماً. ولم تبين صور الاشعة السينية (إكس) أي خلل في كاحلها أو صدرها. فنصحها الاطباء باستشارة اختصاصي اذا ما استمرت حالها هكذا بعد الولادة.

إلا ان انجابها ستيفن والندا الثاني زادها قلقاً. تقول: "أخبرني الاصدقاء أن شغفي البالغ بابني سيخف سريعاً. لكن ذلك لم يحصل. وبلغ من ولوعي به أنني كنت أسجل صوته على أشرطة. لقد أكمل ستيفن حياتنا."

★ خبر فاجع ★

لم يمضِ وقت طويل على ولادة ستيفن حتى عاودت انجل التمارين. وكانت تصطحبه معها، فتضعه في مهد الى جانب السلك. وراح الزوجان يخططان لعروض جديدة. لكن برنامجهما القاسي لم يثنهما عن استشارة عشرات الأطباء الاختصاصيين. لكنهما لم يجدا جواباً شافياً.

أخيراً بلغ الغضب من انجل حداً جعلها تحمل سجلاتها الطبية وتقتحم غرفة الطوارىء في المركز الطبي لمقاطعة سان برناردينو. وهناك أعلنت أنها لن تغادر المبنى قبل أن يشخص الأطباء مرضها.

واذ لفت عنادها اهتمام الاطباء، أصغوا بعناية الى قصتها، ثم اقتطعوا من كاحلها عينة أرسلوها الى عيادة مايو لاجراء فحوص عليها. فما كان من القيمين على العيادة إلا أن طلبوا عينة أخرى من موضع أعمق استلزم استئصالها تخديراً عمومياً. وعندما صدرت النتيجة حملت خبراً أليماً مفاده أن انجل مصابة بنوع نادر من سرطان الخلايا المغزلية[٣] استدعى بتر ساقها تحت الركبة مباشرة، وذلك في أواخر أغسطس (آب) ١٩٨٧.

يقول ستيف ان زوجته لم يرفّ لها جفن وهما يتداولان أمور المستقبل. فقد أخبرها الاطباء أن عليها ألا تتوقع أبداً العودة الى مهنتها. كذلك كان رأي أقرباء ستيف، وهم الخبراء في فن السير على الاسلاك. وقال لها أحدهم: "لا فائدة من المحاولة يا انجل، فالامر مستحيل."

أجمعت الآراء على أن عودة انجل الى مهنتها أمر غير ممكن أبداً، لأن السير على سلك يتطلب احساساً مرهفاً في القدمين ومرونة تامة في الكاحلين.

وبعد فترة انتظار حصلت انجل على ساق اصطناعية. ثم أمضت أشهراً تخضع لعلاج فيزيائي مستعينة بعكازين أولا ثم بعصا. وأخيراً نجحت في السير على ساقها

(٣) Spindle cell cancer called leiomyosarcoma

الاصطناعية. وكانت طوال هذه الاشهر تفكر تكراراً في ما قد تحسه اذا ما جربت السير على سلك، وهي تعلم أن أحداً لم ينجح في ذلك من قبل. لكن معرفتها تلك لم تمنعها من تنفيذ الخطوات في ذهنها مئات المرات.

أما الناحية الايجابية التي رأتها انجل في كل ذلك فكانت أن جسدها - كما أخبرها الاطباء - بات خلواً من المرض العضال.

بعد أربعة أشهر من بتر ساق انجل وعودتها الى بيتها وجدت نفسها على أهبة لمحاولة المستحيل: السير على سلك بساقها الاصطناعية.

وقف ستيف تحت السلك يراقب محاولتها الاولى عن كثب. ووقفت انجل بتؤدة على السلك، ثم أخذت تتقدم ببطء مراقبة قدمها الاصطناعية في كل خطوة.

تقول: "تطلب مني الامر تركيزاً يفوق التصور، لأن السير على الاسلاك يتطلب أن يبقى المرء متوتراً ولكن مرتاحاً في آن، كما يحتاج الى رشاقة ولباقة مميزتين. وكنت أحاول أن أتذكر دائما أن عينيَّ، لا قدميَّ، هما المرتكز الذي يتحكم ببقائي متوازنة فوق السلك."

وما ان بلغت انجل الطرف الآخر من السلك حتى هتف ستيف جذلا. لكن انجل لم تخط الى المنصة، بل وقفت في مكانها ثم استدارت عائدة من دون أن تهمل التدقيق في كل خطوة بقدمها الاصطناعية. فلبث ستيف في مكانه صامتاً. وعندما بلغت انجل منتصف المسافة وقفت على قدم واحدة وهي تنظر الى زوجها القابع تحتها. وما ان تلاقت نظراتهما حتى فاض محياها بابتسامة رضى ومحبة وثقة.

عندما عاد الزوجان الى بيتهما ذلك المساء شعرت انجل بألم يخترق صدرها.



وثقل تنفسها حتى كاد يتوقف. فنقلها ستيف الى غرفة الطوارىء حيث شخَّص الاطباء أن احدى رئتيها توقفت عن العمل. فسألتهم انجل إنْ كان لذلك علاقة ببصق الدم. فنفوا هذا الاحتمال. ثم شرحوا لها أن انهيار رئتها هو في الواقع حادث عرضي قد يصيب أي انسان يمارس نشاطاً جسدياً مرهقاً. وسرعان ما نفخوا رئتها بالهواء وباشروا اجراء الفحوص اللازمة.

شاركت انجل في غرفتها في المستشفى مريضة اسمها دارلين وايت وعمرها ٣٣ عاماً. وعلى مدى يومين راحت المريضتان تتبادلان أطراف الحديث وتقارنان بين حياتيهما. وقد شُدهت وايت لشجاعة انجل ولباقتها، وكانت وقتئذ في التاسعة عشرة من عمرها. وأكثر ما أدهشها انفتاح الشابة وطيبتها ورغبتها الصادقة في الاصغاء الى قصة حياتها.

قبعت انجل تنتظر ظهور النتائج وهي في الواقع عالمة بحقيقة مرضها. تقول وايت: "لم تكن انجل خائفة من سرطان الرئة، بل بَرِمة من انتظار التشخيص وتواقة الى الشروع في ما يرتئيه الاطباء من علاج. وكانت ثمة قوة بحتة في اصرارها على أن السرطان لن يقوى على تحطيم حياتها التي أزمعت على ملئها بكل ما لديها من قوة. واني على ثقة بأنها عنت كل كلمة قالتها."

بعد ثلاثة أسابيع على عودة انجل الى بيتها تعطلت رئتها مجدداً. فأدرك أحد الاطباء أن العلة قد تكون ناتجة من سبب آخر. ونقلت انجل الى مركز "مدينة الامل" الطبي حيث أخضعت لفحوص جديدة.

وسرعان ما أعلن الاطباء أن انجل مصابة بالسرطان. وعمدوا الى اقتطاع نصف رئتها اليسرى. وبعد ثلاثة أشهر أُخضعت لجراحة جديدة اقتطع فيها جزء من رئتها اليمنى.

استعادت انجل عافيتها بعد أسابيع مضنية من العذاب اقترن فيها الألم الجسدي بالاحباط الناجم عن عجزها عن العناية بزوجها وابنها والغيظ من لامبالاة الاطباء الذين عاينوها من قبل. إلا أنها، كما قال ستيف، لم تظهر ما اعتمل داخلها من مرارة.

وما أن حل شهر أبريل (نيسان) ١٩٨٨ حتى رزحت العائلة تحت وطأة الفواتير الطبية الهائلة، خصوصاً لأن ستيف انقطع عن العمل بسبب مرض زوجته.

فكيف لشابة في هذا العمر اليانع أن تتغلب على عقبات ومصاعب كهذه؟

تقول انجل: "عدت بالذاكرة الى تلك الرؤيا التي طالعتني وأنا طفلة، ومدى ما منحَتْنيه من ثقة بالنفس. فارتاح قلبي وآمنت بأن السرطان الذي أصابني قد ولى. كنت متفائلة بصدق، فالتشاؤم مضيعة للوقت والطاقة. ووثقت بأني قادرة على تحقيق أقصى ما يمكن من نتائج ايجابية. ولم يخالجني أي شك في أني لا بد عائدة الى الاسلاك."

درج الزوجان على وضع "حظيرة" ابنهما ستيفن والندا الثاني الى جوار التجهيزات التي كانا يمارسان تمارينهما عليها. وكان الطفل، حتى قبل أن يقوى على المشي، يقلد حركات والديه ويصرخ جذلاً كلما ناداه أبوه من فوق السلك أو رفعته أمه لتضمه الى صدرها.

وعندما بلغ ستيفن شهره الحادي عشر بات قادراً على النهوض مستندا الى جوانب حظيرته النقالة، ثم يفلتها ليقف وحده في وسط الحظيرة. وسرعان ما بدأ المشي متجاوزاً مرحلة الدبيب كلياً، وصار يلعب على الارجوحة أمام الجمهور ليصبح "أصغر بهلوان في العالم."

كان ارتفاع سلك التدريب الاسفل لا يتجاوز متراً، فلم يمضِ وقت طويل حتى تمكن والندا الصغير من السير عليه ماداً احدى يديه جانباً وممسكاً بالاخرى يد والدته. تقول انجل: "ربما بدا ذلك ضرباً من الجنون، لكن ستيفن كان يسير على السلك براحة كادت تضاهي سيره على الارض."

★ في خضم المخاوف ★

في يوليو (تموز) ١٩٨٨ عادت العائلة الى نيويورك بعدما أنهكتها الصعوبات المادية، ومكثت مع أقارب. وسرعان ما عاد الزوجان الى التمارين المكثفة.

يتطلب السير على الاسلاك قدرات جسدية هائلة. فقضيب التوازن وحده — ٣٠ كيلوغراماً لستيف و١٥ كيلوغراماً لانجل — هو في ذاته عبء يسبب للعضلات ألما وتشنجا. أما التوازن فيتطلب تركيزاً فائقاً يتناول احتساب الريح وترجُّح السلك ومدى استقرار عمود المنصة. واذا ما سار على السلك شخصان أو أكثر، فعلى كل منهم أن يتآلف كلياً وأي حركة فردية يأتيها كل عارض آخر.

أما السؤال الصعب فهو الآتي: هل تستطيع انجل الاضطلاع بهذا الدور على رغم ضمور سعة رئتيها الى النصف؟

كان عليها، في الواقع، أن تحتسب مقدار ما تستهلكه من هواء ومدى قدرة جسدها على حملها قبل أن ينهار. وهذا أمر يماثل الاضطرار الى التمهل لالتقاط النفس في منتصف المسافة التي اعتاد المرء أن يجتازها راكضا بيسر. وكانت تلك مفاجأة خطرة بالنسبة الى انجل وهي تسير على الاسلاك العالية.

والى ذلك، كانت انجل كلما أرهقت نفسها بالتمارين تشعر كأن عضلات صدرها تتمزق. وشرح لها الاطباء أن هذا الاحساس ناجم عن ابتناء عضلات ظهرها وصدرها التي جُرِّحت واجتُزت خلال الجراحة. وكانت انجل ما زالت عاجزة عن رفع يديها فوق رأسها. وهي لم تعد تشعر بألم، ولكن أقلقها كثيراً احساسها كأن قفصها الصدري

فارغ. وهو شعور كان يرهبها ويذكرها على الدوام بانها فقدت جزءاً كبيراً من رئتيها.

كل ذلك، اضافة الى أنها تمشي على ساق اصطناعية، جعل هدفها معوقاً بتحديات فاقت التصور. إلا أن انجل وجدت أن الوقت حان لتسير منفردة بعد تمارين دامت مئات الساعات. وذات يوم وقفت على المنصة استعداداً للسير على سلك علا أربعة أمتار وامتد مسافة عشرة أمتار. ثم أخذت نفساً عميقاً فيما وقف ستيف تحتها ليرشدها الى المواقع الصحيحة التي ينبغي أن تطأها بقدمها اليمنى.

في تلك اللحظة أحست انجل للمرة الاولى في حياتها بخوف جمَّد أوصالها وشلَّها عن الحركة. وجالت بفكرها أفكار عن مدى ما لا تعرفه عن ضعفات جسدها وعن أناس يموتون أو يُشلّون لدى سقوطهم من ارتفاع أربعة أمتار.

وقفت انجل على المنصة ساعتين محاولة استجماع شجاعتها. ومرت برهة ظنت خلالها أن نوبة قلبية أصابتها. وزعمت لزوجها تكراراً أن الريح تهب بعنف وأنها تعاني تعباً بالغاً. وبلغ منها الخوف حداً جعلها تتذمر حتى من نباح كلب بعيد.

وعندما خطت على السلك أخيراً خالفت قاعدة رئيسية بتحركها على نحو متقطع وتوقفها تكراراً مما جعلها تنوء بثقل قضيب التوازن. وبعد لأي دام ٢٥ دقيقة نجحت في اجتياز السلك. ثم نزلت عن المنصة مجهدة يهدها الارهاق، وارتمت بين ذراعي ستيف تبكي وتضحك في آن.

★ نعمة الامل ★

عندما استعادت انجل قواها مع الوقت أحست بالثقة تتوهج مجدداً في كيانها. وهي تقول: "جنيت طوال حياتي ثمار تفاؤلي وتصميمي. وكنت في أعماقي مؤمنة بأني سأجتاز هذه المحنة بنجاح. ولكم كان رائعاً أن أرى ذلك يتحقق مجدداً."

بحلول أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٨، بعد ستة أشهر على الجراحة الاخيرة، بلغت مهارة انجل في السير على السلك حداً جعل احدى محطات التلفزة في كاليفورنيا تقدمها في برنامج خاص أدهش الحضور في الاستديو والمشاهدين قاطبة. وبدأت انجل عرضها بالسير على سلك في اتجاه ستيف الذي وقف ينتظرها على المنصة المقابلة. وما ان وصلت الى هناك حتى انكفأت عائدة وسارت على السلك متتبعة خطى ستيف. ثم تسلقت الى كتفيه. وقبل بلوغ الثنائي المنصة المقابلة نزلت انجل عن كتفي زوجها وعبرت المسافة الفاصلة ويداها على كتفيه، تماما كما فعلت في عرضهما الاول.

تجاوز نشاط ستيف وانجل عالم الاستعراض ليشمل مساعدة الآخرين عبر مؤسسات مثل "الجمعية الامريكية للسرطان" و"مركز مدينة الامل الطبي." وعادت

السعادة الى حياتهما، خصوصا بعدما وجدت انجل نفسها منهمكة في مهمة كبيرة جعلت من حياتها قدوة يحتذيها الآخرون.

تمكنت انجل بفضل التغطية التلفزيونية والصحافية من بلوغ ملايين المشاهدين وزرع الامل في قلوب الالوف ممن قهرتهم الحياة. فكتب اليها كثيرون رسائل وبطاقات شكر تحدثوا فيها عن تجاربهم متمنين لها الصحة والتوفيق في مساعيها. وهكذا باتت تلك الفتاة المشردة مرشدة للآخرين تقود خطاهم خارج وهدة اليأس والضياع.

ومن هؤلاء رينه رومل (١٧ عاما) التي كانت تعاني كآبة طاغية بعد بتر ساقها في حادث دراجة نارية. كانت رينه غارقة في حزنها وقنوطها، وذات يوم وضع أحد الاصدقاء في يدها مقالا نشرته احدى الصحف عن انجل والندا. فقرأته رينه وهي تكاد لا تصدق ما ورد فيه، حتى انها أعادت قراءته ست مرات. وهي تقول: "كانت حال انجل تفوق حالي سوءا، لكنها صممت بعزم ثابت على مواصلة حياتها غير عابئة بالصعوبات. ويوم قرأت عنها علمت أني سأكون بخير."

وفي يونيو (حزيران) ١٩٨٩، بعد سبعة أشهر على عودة انجل الى السير على الاسلاك، عاد الألم يحز في صدرها وعادت تبصق دما. وللحال قصدت أحد الاطباء في نيويورك وأخبرته خشيتها من أن تكون علة رئتيها عاودتها. ولكن صعقها قول الطبيب أن لا أهمية للاعراض التي أحستها.

انتقلت العائلة الى جبال بنسلفانيا الوسطى حيث التقت انجل، وقد نفرت من أطباء المدينة، طبيبا محليا أصغى باهتمام بالغ الى كل ما قالته وأجرى لها فحوصا جديدة، ثم أكب على دراسة ما توافر لديه من معلومات. وسرعان ما اتضح له أن الورم السرطاني عاد الى رئتيها.

ونتيجة مشاورات أجراها جراحون من بنسلفانيا مع الفريق الطبي الذي عالج انجل في مدينة الامل، قر الرأي على ضرورة اجراء جراحة جديدة يستحسن أن تتم في كاليفورنيا وعلى أيدي الاطباء الذين عالجوها سابقا. وقضت الخطة الاولية باقتطاع جزء كبير من رئتيها بحيث يتحتّم وصل انجل الى جهاز أوكسيجين على نحو دائم كيما تستطيع العيش.

تقول انجل: "كان الخبر الجيد في كل ذلك امكان انقاذ حياتي. وكنت واثقة، على رغم اقتطاع جزء من جسدي، من قدرتي على القيام بأعمال نافعة ما دمت حية."

ملأت هذه الروح الرائعة قاعة العرض في جامعة مانسفيلد في شهر مارس (آذار) ١٩٩٠. وكان الزوجان والندا عادا الى العمل من أجل جمع المال اللازم لرحلتهما الكئيبة الى كاليفورنيا.

وكانت انجل كعادتها تختلط بالجمهور بعد كل عرض وتتحدث الى كل من تلتقيه بمحبة وحنان. فكيف استطاعت هذه الشابة استمالة الناس بمثل هذا الدفء وهي تنوء تحت وطأة المرض العضال؟

حين سئلت انجل عن ذلك أطرقت للحظة في تفكير حالم، وهدأت عيناها الزرقاوان الكبيرتان واستكانت حركاتها ثم قالت: "عندما أقف عاليا وأسير على السلك بساقي الاصطناعية ينظر إليّ الناس باهتمام حقيقي ويرون أني أبذل قصارى جهدي لأعيش حياتي بأفضل ما أوتيت. وعندما يفكر الناس في ذلك يعمدون الى التفكير في أنفسهم، ويكتشف بعض منهم كيف يستطيعون العيش على نحو أفضل."

وما ان فرغت انجل من كلامها حتى دبت الحياة مجدداً في عينيها وعاد المرح والحماسة الى صوتها. ثم أضافت بصدق طفولي: "لهذا أفعل ما أفعل. ولربما كان ذلك الهدف الرئيسي من وجودي هنا."

★ "لن ابقى هنا" ★

انطلقت انجل في رحلتها الى كاليفورنيا مقودة بوعد خالج نفسها بأن الأطباء سيتمكنون أخيراً من القضاء على المرض القاتل الذي ألمَّ بها طويلا. وكان أطباء مركز مدينة الامل ينتظرون قدومها. وفي يوم الجمعة الموافق ١٦ مارس (آذار) التقت انجل أحد جراحيها، وأسعدها ما أبداه من تفاؤل فاق توقعاتها. ومع أن الجراح حدد لها برنامج فحوص شاملا، إلا أنه أضاف أن النتائج قد تكون أفضل مما تظن.

كان لهذه التوقعات المشجعة وقع رائع في نفس انجل وستيف وابنهما عندما خلدوا الى الراحة مساء في غرفتهما في الفندق. فلقد بات محتملا أن يُستأصل الورم السرطاني من دون اقتطاع جزء كبير من رئتي انجل بحيث لا تضطر الى الاعتماد على جهاز الاوكسيجين.

أمضت انجل ساعات خاضعة للفحوص. ثم رُفعت النتائج الى لجنة أطباء السرطان في المستشفى لاقرار ما يجب أخذه من اجراءات.

وفي اليوم التالي توجه أفراد العائلة الثلاثة الى عيادة الطبيب لتبلُّغ النتائج. فجلس الطبيب مرتدياً بزة الجراحة، ثم نظر بكآبة الى انجل وقال: "لا سبيل الى اجراء جراحة. فالسرطان انتشر في رئتيك، وليس هناك ما نستطيعه."

فران على الغرفة صمت ثقيل.

ثم سألته انجل: "ماذا ينبغي عليّ أن أفعل؟"

فشرح لها الطبيب ماهية العلاج الكيميائي قائلا إن في وسعه تحديد موعد لها لاستشارة مجموعة اختصاصيين. وأضاف أن احتمال ابطاء امتداد السرطان قد

يراوح بين ٣٠ و٤٠ في المئة. ثم حدثها عن حالات نجح فيها العلاج على رغم أنه قد يسبب أعراضاً جانبية و...

وكانت انجل ألفت مثل هذا الكلام.

فقالت: "لن أخضع لأي من هذه العلاجات." كان واضحاً لها أن الوقت حان لتتكل على نفسها مجدداً، مقودة بالروح القوية اياها التي أرشدتها في طفولتها. فشكرت الطبيب قائلة: "سأغادر المستشفى وأعود الى بيتي وأحيا حياتي."

عادت انجل وعائلتها الى الفندق حيث قبعت مصعوقة بالنبأ. لا أمل طبياً لها!

وسرعان ما عادت تستجمع قواها النفسية والعاطفية، فوقع نظرها على دزينة من الورود الحمراء متروكة على طاولة الزينة في الغرفة. فابتسمت وهي تراجع في فكرها أحداث الصباح. فقبيل مغادرتها الغرفة لملاقاة الطبيب في المستشفى، رن جرس الهاتف وتحدث اليها مدير الفندق يونغ كانك داعياً العائلة الى موافاته في البهو حيث قدم الى انجل ورداً أحمر وقالب حلوى مزداناً بشموع لمناسبة عيد ميلادها الثاني والعشرين.

ذات يوم من أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٩٠ وقفت انجل أمام منزل العائلة على احدى قمم جبال أليغني في بنسلفانيا تساعد ابنها على ارتقاء منصة سلك المشي. واذ جالت بنظرها في الغابات المجاورة تلألأت لها الاشجار بألوان الخريف الذهبية، وأطلت الشمس بنورها الدافىء مضيفة الى شعر الام والابن شقرة ذهبية. كان ستيفن والندا الثاني في عامه الرابع، وقد بدأ السير على السلك قبل سنة وأدى عروضاً مع والديه أمام ألوف المشاهدين مربوطاً بحبل نجاة. لكنه في ذلك اليوم الخريفي شاء أن يسير على السلك منفرداً من دون حبل يقيه السقوط أو شبكة تتلقفه. ولما كان علو السلك لا يزيد على ١٢٠ سنتيمتراً فقد وافق والداه على ذلك.

وقف ستيف الى الجانب الآخر من السلك الممتد مسافة تسعة أمتار يراقب ابنه ويرشده بلطف صارم الى أصول امساك قضيب التوازن البالغ وزنه سبعة كيلوغرامات. وكان ستيفن صبياً ذكياً مفعماً بالنشاط والحيوية. وفجأة شد عضلات وجهه وصرم شفتيه بغرابة يندر أن تنم عن وجه طفل ناعم. ثم سار منقِّلاً قدميه الصغيرتين على السلك بخطوات صحيحة فيما قضيب التوازن يتمايل بين يديه متناغماً مع حركاته.

لم يعتر تركيز ستيفن أي شائبة، غير أنه كان ممتعضاً من والدته التي كانت تسير وراءه احتِياطاً على نحو مسَّ كرامته. كانت حركات الصبي متناغمة تماماً وقوى الطبيعة، كمثل النسر الذي عبر قبة السماء الزرقاء فوقه وجناحاه يتمايلان بانسجام طبيعي مع هبوب الريح. كانت الميزات الوراثية الكائنة في حنايا هذا الصبي هي اياها التي قادت حركة أسلافه من أبناء والندا طوال قرون.

وعندما بلغ ستيفن نهاية السلك صفق له والداه استحساناً. فارتسمت على محياه ابتسامة كبيرة، وهرعت انجل تضمه وتقبله بسعادة قبل أن ينفلت منطلقاً لملاعبة كلب العائلة.

شرحت انجل لابنها انها مقبلة على الموت. وهي تقول: "كنت كلما تحدثت إليه في هذا الامر أراه يزداد فهماً للواقع. كنت أخبره عن كل شيء ببساطة، ثم أتيح له طرح الاسئلة. تحدثت إليه عن الله، عز وجل، وعن السماء، الى أن فهم الوضع تدريجاً."

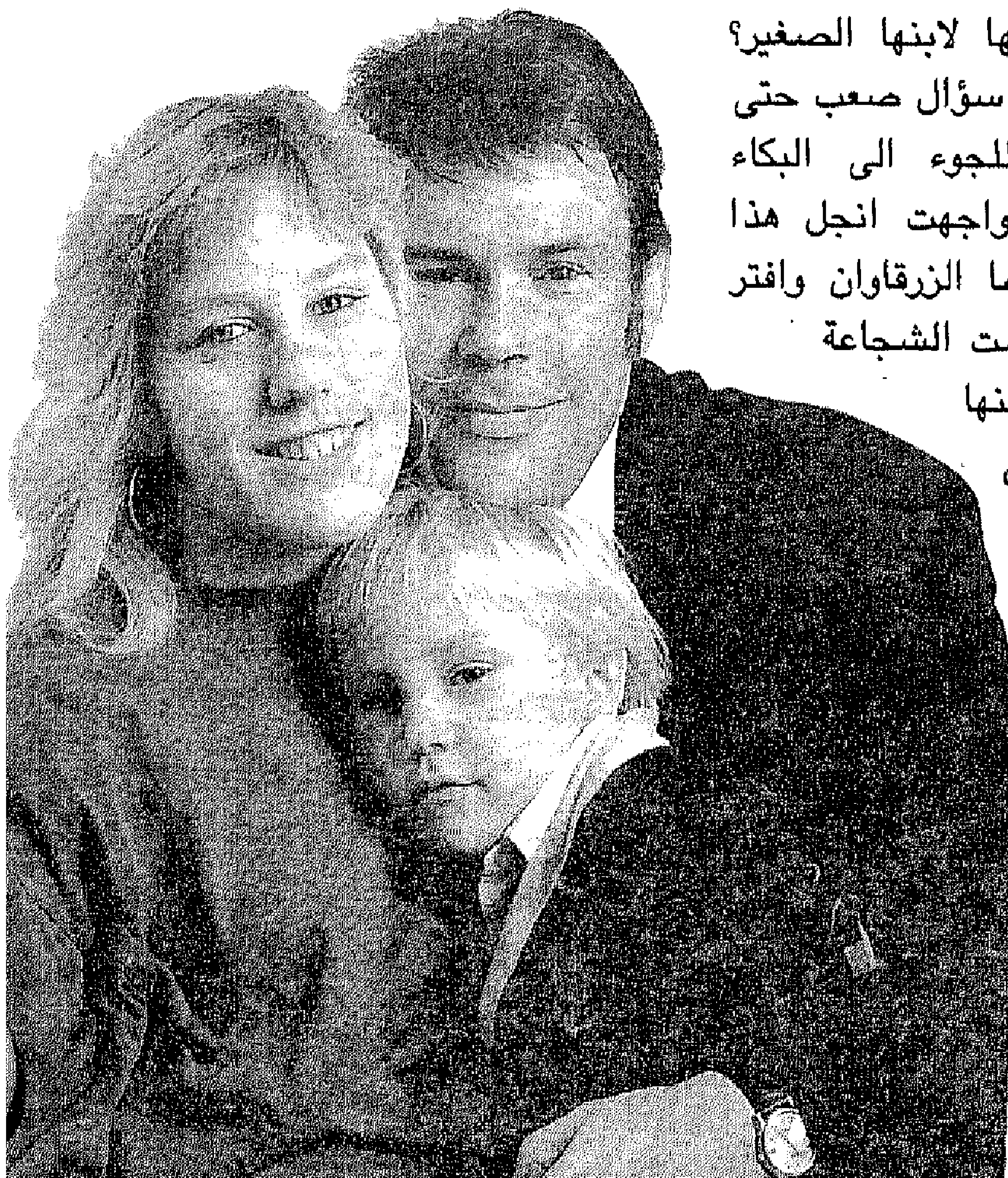
يدرك ستيفن أن والدته، وإن تكن لا تشكو من شيء، مصابة بعلة بالغة في جسدها. وهو يشرح أن السرطان يمتد من صدرها الى قدمها. ودفعته هذه الاعتبارات الى سؤالها مرة: "حين تموتين يا أمي، هل تحصلين على جسد جديد؟"

فأجابته انجل: "نوعاً ما. لكني لن أبقى هنا."

وكان ستيفن يشعر بحزن بالغ كلما فكر في هذه الامور.

لا شك في أن ليزي بنتيا الصغيرة التي اعتمدت في حياتها على ما حباها الله من قوة فطرية هي عميقة المعرفة بمسالك الطفولة. ولكن ماذا عن انجل والندا ابنة الرابعة والعشرين التي كتب لها أن تترك ابنها يتيماً؟ ما هي وصيتها لابنها الصغير؟

لا شك في أن هذا سؤال صعب حتى على فتاة رفضت اللجوء الى البكاء صغيرة. ولكن حين واجهت انجل هذا السؤال التمعت عيناها الزرقاوان وافتر ثغرها عن كلمات عكست الشجاعة اياها التي أبداها ابنها عندما سار على السلك: "هناك أشياء كثيرة، ولكن خلاصة القول اني أريد أن يتطلع ابني الى ما يملكه في ذاته، لا الى ما يفتقر إليه. فاذا فعل ذلك وفقه الله وغدا في أحسن حال."



وكم تبقى لها من العمر؟

لم تطرح انجل هذا السؤال قط. ولطالما منعت الاطباء من إخبارها بذلك. تقول: "لا يعلم الاطباء ما كتب لي من عمر. الله وحده هو العالم. وفي أي حال، لا أريد أن أعرف أبداً متى تأذن ساعتي. هل فكرتم يوماً في الفوضى التي ستعم العالم اذا علم كل انسان ما يخبئه له القدر؟ سأعيش حياتي كاملة ما دمت قادرة على ذلك."

وتضيف انجل: "لقد زادتني طفولتي المعذبة قوة. فلو عشت حياة هانئة في كنف أناس أحسنوا رعايتي، لما استطعت جبه ما جدَّ عليّ من مصاعب."

منذ القِدم والفلاسفة والعلماء حائرون في منابع الايمان والقوة الروحية المتمثلة في أشخاص مثل انجل والندا، تلك المرأة التي ذاقت من الحياة قساوة بالغة. فأين وجدت هذا الايمان الذي لا ينفك الناس العاديون يحاولون بلوغه في حياتهم اليومية؟

تجيب انجل ببساطة: "وهبني الله كل ما احتجت إليه. فأنا وُلدت هكذا. والله، عز جلاله، يمنح الجميع هذه النعمة، وما علينا سوى الافادة منها."

لم تنسَ انجل يوماً تلك التجربة التي عاشتها وهي في الخامسة من عمرها، فما زالت تذكر "زيارة" الطيف الذي مدها بالراحة والسلام وبشعور لذيذ بالتخصيص. تقول: "ما زلت أعجب لأني رأيت شيئاً لا يراه الا قليلون... شيئاً أبعد من مادة هذا العالم. وهذا ما زادني ايماناً بالله القادر على كل شيء، وبثقة بالنفس لازمتني الى اليوم.

"أنا أدرك أني لا أفهم كل شيء، لكني لم أشك يوماً في أن الامور تحدث وفق ما أراد الله عز وجل. واني آمل – وأصلي – أن يداخل قلب زوجي وقلب ابني مثل شعوري هذا."

فما رأي ستيف والندا في نظرة زوجته الى الحياة؟

يقول: "مذ التقيتها وأنا أفكر في هذه الامور. لقد امتلكت نفسها حقاً ذلك السلام المعطى الذي يفوق كل ادراك."

وكيف سيواجه فقدان انجل؟

أجاب وقد طغت الرقة على صوته الأجش الخفيض الممزوج بلكنة أجداده الالمان: "انجل دائمة العطاء، تمنح من ذاتها بلا حساب. تلك هي طبيعتها وسر جمالها. يقولون انها ستموت. ونحن على استعداد لتقبل هذا الواقع الذي هيأتنا انجل لتقبله بنفس رضية."

وصمت ستيف والندا برهة يفكر في ما قاله، ثم أضاف: "نعم، نحن على استعداد."

هنري هورت ■
ترجمة فريد شديد

كتاب الشهر

هنري الثامن



السفّاح

هنري الثامن السفّاح

مُلخّص من كتاب «هنري الثامن»
بقلم جون ادوارد باول



غالباً ما يُصوّر الملك الذي حكم بريطانيا ثمانية وثلاثين عاماً مثل طاغية أو، في فضلى الحالات، مثل صاحب "اللحية الزرقاء" في الرواية الكلاسيكية. ولا شك في أن هنري الثامن الذي ولد قبل ٥٠٠ سنة ونيف عاش حياة صاخبة وأصدر حكمه الرهيب باعدام اثنتين من زوجاته علناً، الا أن هذا الحاكم الذي أرعب رجال البلاط بنوبات غضبه وعواصف انتقامه كان عاشقاً سهل الانخداع، كما كان حاكماً داهية أقام دولة حديثة وأسس الاسطول الملكي.

تعمق البروفسور جون باول في سيرة هذا الرجل الاسطورة وفي الاحاديث المتناقلة عنه ليجمع هذه الصورة الساحرة والموثّقة للملك هنري الثامن على حقيقته: رجل مغرور عنيد مخادع، لكنه أيضاً راعٍ للعلوم وممثل رئيسي في مسرح السياسة الاوروبية. ملك عظيم كان عهده من أكثر العهود ثورية في تاريخ بريطانيا.

CONDENSED FROM «HENRY VIII,» © JOHN BOWLE 1964, 1973, PUBLISHED BY DAVID & CHARLES.
WITH ADDITIONAL MATERIAL FROM «THE MAKING OF HENRY VIII» BY MARIE LOUISE BRUCE, PUBLISHED BY COLLINS
ILLUSTRATIONS: THYSSEN — BORNEMISZA COLLECTION; REPRODUCED BY GRACIOUS PERMISSION OF HER MAJESTY THE QUEEN; BRITISH TOURIST AUTHORITY LONDON PUBLIC RECORDS OFFICE; BRIDGEMAN ART LIBRARY / KUNSTHISTORISCHES MUSEUMS, VIENNA

عشية يوم التتويج غصت شوارع لندن بأهاليها وبالقادمين من الارياف الذين تجمعوا متشوقين لرؤية ملكهم الجديد ومليكته متوجهين الى وستمنستر.

بدا هنري الثامن شاباً وسيماً متألقاً في وشاح من المخمل القرمزي مبطّن بفرو القاقم فوق سترة ذهبية تشع بحجار الياقوت والزمرد والالماس واللآلىء. كان يمتطي جواداً قوياً زُركش سرجه بالدمقس الذهبي تحت مظلة حملها بارونات "المرافىء الخمسة."[١]

أما الملكة كاثرين فحُملت في محفة على جوادين صغيرين أبيضين وقد ارتدت ثوباً من الحرير الابيض وشعرها الطويل الجميل منسدل على ظهرها من تحت تاجها.

نام الملكان تلك الليلة في قصر وستمنستر، وفي اليوم التالي، ٢٤ يونيو (حزيران) ١٥٠٩، أجريت مراسم التتويج المهيبة في كاتدرائية وستمنستر. ومشى هنري أخيراً تحت ظلة أرجوانية خارجاً من البوابة المقنطرة الى واحد من أكثر العهود ثورية في تاريخ بريطانيا.

كان الملك الجديد الابن الثالث للملك هنري السابع أول ملك من أسرة تيودور وقرينته اللايدي اليزابيت من يورك. ولد في ٢٨ يونيو (حزيران) ١٤٩١ في العزبة الملكية في غرينيتش حيث تعبر السفن نهر التيمز الى البحر ويهب الهواء منعشاً مع رائحة الغار ونداءات طيور النورس.

شب هنري مع شقيقه الاكبر آرثر وشقيقته الكبرى مارغريت والصغرى ماري في جو من الترف والامتيازات والطقوس المعقدة. حُمل وهو لم يتجاوز الثالثة من عمره ليمثل أمام رجال البلاط المجتمعين في قصر وستمنستر حيث يقوم البرلمان اليوم. فوقف الطفل يحدق مذهولا بمظاهر الابهة فيما أعلنه المنادون "دوق يورك." كان اللقب ذا دلالة اذ أكد نسبه اليوركي من جهة والدته. وجرت العادة منذ ذلك الوقت على أن يحمل الابن الثاني لملك بريطانيا هذا اللقب.

كان أولاد هنري السابع يأتون الى وستمنستر في المناسبات الرسمية فقط. فالقصر، وهو المنزل الملكي ومقر البرلمان في آن، كان فوضى من المباني يمر التيمز تحت نوافذها، غير صحي ومهدداً بفيضان النهر. أما القصور الريفية فكانت أسلم للصحة.

أمضى هنري معظم طفولته في بلدة إلثام قرب غرينيتش وتعلَّم على فريق متمكن من المدرسين. وهو اهتم بالرياضيات وكان طليقاً في الفرنسية واللاتينية وملماً بالاسبانية والايطالية.

زار إراسموس المفكرُ وعالمُ الانسانيات الهولندي بلدة إلثام، وكتب لاحقاً أن الامير

(١) المرافىء الخمسة (Cinque Ports) مجموعة مدن ساحلية في جنوب شرق انكلترا ضمت دوفر وساندويتش ورومني وهاستنغز وهايث، كانت تتمتع بامتيازات خاصة (الغيت في القرن التاسع عشر) في مقابل خدمات دفاعية على الساحل.

هنري كان وهو في الثامنة من عمره بدأ يبرز "بعضا من الملوكية في سلوكه." وتُظهر أقدم صورة رُسمت لهنري طفلا مبكر النضج يقظاً وشديد الملاحظة.

في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٥٠١ ضمن والد هنري تحالفاً مع اسبانيا بزواج ابنه آرثر، الصبي الوسيم الرقيق ابن الخمسة عشر ربيعاً، الاميرة كاثرين الاراغونية ابنة الملك فرديناند والملكة ايزابيلا. كانت كاثرين عالية الثقافة أنيقة رائعة الجمال في الخامسة عشرة من عمرها، ذات عينين رماديتين وشعر بني ضارب الى الذهبي. وقرعت أجراس لندن فيما هنري الصغير يقود عروس شقيقه الى كاتدرائية القديس بولس لاتمام مراسم الزواج.

دخل آرثر وكاثرين تلك الليلة فراش الزوجية علناً وسط احتفالات صاخبة كما كانت عادة ذلك الزمن. وكان لما حدث – أو ما لم يحدث – تلك الليلة في لندن، ولاحقاً في قلعة لودلو حيث أمضى الزوجان شتاءهما، نتائج خطيرة على مستقبل انكلترا.

توفي آرثر بداء السلّ بعد أقل من خمسة أشهر على زواجه. وبدا الحلف بين البلدين الى دمار. لكن فرديناند وايزابيلا، اللذين مارسا لعبة سياسة القوى، لم يرفّ لهما جفن حزناً، بل ركزا على تدبير أمر زواج الامير هنري، ولي العهد البيِّن الجديد، بابنتهما كاثرين.

عقدت خطبة هنري وكاثرين رسمياً، وهو في الحادية عشرة من عمره، بتدبير أقره مرسوم حِلٍّ بابوي. وفي ١١ يونيو (حزيران) ١٥٠٩، بعد وقت قصير على وفاة والده بداء السل هو أيضاً، عقد قران هنري ابن السابعة عشرة – وقد أصبح الملك هنري الثامن – على كاثرين في غرينيتش.

بدأ الزوجان على أثر تتويجهما بعد أسبوعين سلسلة صاخبة من الحفلات الصيفية والمباريات والصيد والرقص. وفي الامسيات كان هنري يقتحم مخدع الملكة متنكراً فتظهر هي مقداراً وافياً من الذعر والدهشة ثم... الارتياح.

أمضت كاثرين معظم أوائل حياتها الزوجية وهي تبدي اعجابها بهنري وتكرر على مسامعه كم هو رائع. وكتب أحد المراقبين أن "جلالة الملك لا يهتم الا بالصيد والنساء."

بلغ هنري في السن الثامنة عشرة أوج فتوته فتجاوز طوله ١٨٠ سنتيمتراً وبدا وجهه الابيض المورّد طفولياً فوق عنقه الثخينة. كان مرحاً جداً يهوى الالعاب وينهك الجميع بحيويته. فقد تحدّر من سلالة مغامرين ويلزيين أشداء متعطشين الى القوة. وغنم والده هنري تيودور العرش بالغلبة اذ هزم الملك ريتشارد (ريكاردوس) الثالث في معركة بوزورث فيلد في ليسترشاير ووضع على رأسه تاج الملك المقتول الذي وجده تحت شجيرة زعرور.

وكان هنري الثامن المراهق نهّاز فرص ماكراً يتفهم أحاسيس شعبه. وكان الشعب يحمِّل اثنين من المسؤولين الحكوميين – السر ريتشارد امبسون وادموند ددلي – ملامة الضرائب الباهظة التي فرضها هنري السابع. فأمر الملك الجديد بسجنهما في برج لندن بتهمة "الخيانة المفترضة." وفي أغسطس (آب) ١٥١٠ بينما كان البلاط محتفلاً في قلعة وندسور نفذ فيهما حكم الاعدام.

وأصبح نمط الاعتقال المفاجيء والتهم الملفقة والاعدام وسيلة هنري للتضحية ببعض الاغنياء كأكباش محرقة لسياساته ولتصفية من لم يعد وجودهم ملائماً.

قوة أوروبية جديدة

كانت انكلترا التي ورثها هنري الثامن غنية باقتصاد مكتف ذاتيا الى حد بعيد. ولم يكن الانكليز يعتمدون على الاستيراد وقتذاك، في ما عدا الحرير والافاويه ونحوها. وكانت كبرى صناعاتهم صناعة الملابس الصوفية، وحملت قطعان الاغنام الكبيرة وفرة من المواد الخام. كما كانت مجموعات الاجراس في الابراج المهيبة في كوتسوالدس وايست أنغليا رموزاً للثروة التي أتت بها الاثواب الصوفية.

بلغ تعداد قطعان الغنم نحو ثمانية ملايين رأس في مقابل تعداد سكاني دون الثلاثة الملايين. كانت لندن وبريستول ويورك ونورويتش هي المدن الرئيسية الوحيدة، حتى ان زائراً من البندقية أشار مستغربا الى قلة الاشخاص الذين رآهم أثناء انتقاله من دوفر الى أكسفورد عبر لندن.

وملَك هنري، وأكسبته فتوته وحيويته المتوثبة شعبية في أنحاء المملكة لم تبددها أبداً قسوته في زمن لاحق. وهو أهمل شؤون الحكم منصرفا الى الملذات، فكان البرلمان لا يجتمع الا عندما يدعوه هو، لاقرار ضريبة جديدة عادة. وكان مجلس بلاطه فريقاً من الرجال القادرين يتولى جميع الشؤون العادية. كان هنري، بمعايير الحاضر، مديراً عاماً يحب أن يرى الاوراق الواردة ملخصة والصادرة وقد أعدت نصوصها. وهذه خدمات أداها له عضو في مجلسه هو توماس ولسي ابن السابعة والثلاثين.

كان ولسي ابن جزار من ايبسويتش رأى في الكنيسة الكاثوليكية طريقاً الى السلطة، فكد وثابر ليصبح عميد لنكولن والقس الملحق بالملك. اتقن الصيد وتمتع بالحياة الى أقصى الحدود. كان متملقا حاذقا ففتن الملك الشاب الذي كان يعجب بالذكاء والحيوية والظرف.

عهد هنري الى ولسي في تجهيز جيش له عندما قرر دخول حلبة صراع القوى الاوروبية بمهاجمة فرنسا. وكانت انكلترا في ذلك الوقت قوة من الدرجة الثانية، وكانت سلالة تيودور تعتبر حديثة النعمة مقارنة بجلال سلالتي فالوا وهابسبرغ. لكن فرنسا

كانت في حلف مع الاسكوتلنديين المستعدين دائماً لاستغلال أي نقطة ضعف لدى انكلترا، كما كانت السفن الفرنسية تهدد طرق التجارة البريطانية. فقرر هنري وولسي الهجوم عبر مضائق دوفر في صيف ١٥١٣ وملاقاة الامبراطور الروماني مكسيميليان الذي كان في نزاع مع فرنسا.

قبل الابحار ارتكب هنري أولى جرائمه. فهو كان الى هذا الوقت من دون وارث، اذ ولدت كاثرين طفلتها الاولى ميتة، ثم ولدت صبياً سمّي هنري في احتفالات صاخبة لكنه توفي لاحقا. فماذا يحدث اذا قتل الملك في المعركة؟ كان هناك مُطالب بالعرش يدعى دوق سافوك، وكان أسيراً في برج لندن، لكن أصوله اليوركية من جهة والدته شقيقة الملكين ادوارد الرابع وريتشارد الثالث قد تمثل تحديا لسلطة كاثرين وترفع علم "الوردة البيضاء" من جديد. فأصدر هنري أمراً باعدام سافوك.

بحلول مايو (أيار) ١٥١٣ وصل ١٤ ألفا من جنود هنري الى كاليه حيث كانت تقيم حامية بريطانية منذ أكثر من ١٥٠ عاماً. ووصل هنري في يونيو (حزيران) مع ١١ ألف رجل بمن فيهم حاشية ضخمة من نافخي الابواق والسيّاس والخدم.

تحرك مكسيميليان وجيشه لملاقاة هنري قرب مخيمه. وكان هذا، وقد نمت لحيته حمراء، يمتطي جواده الكميت الضخم المزين بأجراس ذهبية ويعلو الجميع بقامته المديدة. "كان ملك انكلترا،" كما ذكر أحد المرتزقة الالمان، "رجلاً لائقاً يتحدث الى الناس بود ومعرفة."

استولى هنري بمساعدة مكسيميليان على تيروان التي تبعد حوالى ٤٨ كيلومتراً عن كاليه داخل فرنسا. ثم فرض حصاراً على تورنيه قرب مدينة ليل. وفي ٢٥ سبتمبر (أيلول) دخل الملك والامبراطور البلدة في موكب مشاعل وتسلّما مفاتيحها.

وتتويجاً لذلك أرسلت الملكة كاثرين، التي كانت تُركت في انكلترا وصيةً على العرش مكلّفة الدفاع عن المملكة، أخباراً رائعة: كان جايمس الرابع ملك اسكوتلندا (وزوج مارغريت شقيقة هنري الكبرى) عبر نهر التويد غازياً على رأس ٣٠ ألف رجل. فواجهت كاثرين الازمة بشجاعة ومني الاسكوتلنديون بهزيمة منكرة في فلودين قرب بيرويك على أيدي ٢٠ ألف مقاتل انكليزي بقيادة ايرل اوف صاري.

كتبت كاثرين الى زوجها: "سوف يرى جلالتكم كيف أحفظ وعودي. لذا أرسل اليكم هذا المعطف." وكان المعطف غنيمة خاصة اذ كان للملك الاسكوتلندي المقتول. فعرضه هنري على مكسيميليان مزهواً.

ترك الانكليز حامية في تورنيه وانسحبوا ذلك الخريف عبر بلدتين أصبح اسماهما مألوفين لدى شعبهم في الزمن الآتي: ايبر ودنكرك.

أثبتت انكلترا أنها عدو خطر، فسعى الفرنسيون الى حلف معها، ووافق ملكهم لويس

الثاني عشر، وكان أرمل في الثانية والخمسين من عمره، على الزواج بماري شقيقة هنري ابنة الثامنة عشرة. وبحلول نوفمبر (تشرين الثاني) ١٥١٤ أصبحت الاميرة الصغيرة، مرغمةً، ملكة على فرنسا. وهكذا خرج هنري منتصراً اذ حققت انكلترا مكانة متقدمة بعدما شدت قبضتها على القارة وأخضعت اسكوتلندا.

ولسي الطاووس

ساعد في تحقيق الانتصارات على الارض الفرنسية هجومٌ بحري انكليزي على شواطىء بريتاني عمل على إلهاء الفرنسيين وتحويل سفنهم عن مضائق دوفر. وأدرك هنري الثامن أن استمرار نجاحه في لعبة سياسة القوى الاوروبية هو رهن مشروع عزيز على قلبه: بناء أسطول بحري قوي.

كانت السفن تثير افتتانه. وهو أبدى اهتماما شخصيا وخبيراً بالاسطول طوال عهده، فشكل هيئة أركان بحرية فاعلة، وأنشأ مجلسا دائما للاسطول، وشجع تطوير المهارات الملاحية وتحسين دقة أجهزة الملاحة وتصاميم السفن. وبنى أحواضاً جديدة لاصلاح السفن في وولوتيش وديتفورد (باعتبار بورتماوث أكثر تعرضا لهجمات الفرنسيين). وأقر انشاء نقابة لملاحي مصب نهر التيمز تحولت في العام ١٥١٤ "هيئة ترينيتي هاوس" التي ما زالت الى اليوم مسؤولة عن المنارات في كل بريطانيا.

ورث هنري عن والده سبع سفن حربية رئيسية. وفي العام ١٥١٥ ملك سفينة شراعية ضخمة دعاها "فيرجين ماري" يحركها ١٢٠ مجذافا وتحمل ١٠٠٠ رجل وقد سُلِّحت بـ٢٠٧ مدافع صغيرة. وكان هنري نفسه يقود هذه السفينة مرتديا معطف قبطان وسراويل من القماش الموشى بخيوط ذهبية وسلسلة ثخينة من الذهب تدلّت منها صفارة ضخمة كان ينفخ فيها مصدراً، كما يروى، "صوتاً كأنه نفير بوق."

أما في البر فقد تابع هنري احتفالاته الصاخبة، وانغمس في رياضة المبارزة متجاهلا توسلات كاثرين اليه ليأخذ جانب الحذر. وكان يسقط منافسيه وخيولهم معهم. وخلال احدى المباريات في يناير (كانون الثاني) ١٥١٦ وضع على رأسه اكليلا من الحرير الاخضر موشى بأكواز رمان رمزاً للخصب. وفي الشهر التالي ولدت له كاثرين في غرينيتش ابنة سميت ماري، فعرضها هنري فرحا على السفراء ورجال البلاط قائلاً: "سيليها صبي بنعمة الله."

كانت الطفلة ورقة مهمة في لعبة سياسة القوى الاوروبية. اذ لم يدم زواج شقيقة هنري المراهقة ماري ولويس الثاني عشر الا أشهراً قليلة. فقد توفي الملك الفرنسي – منهكاً بأعبائه الملكية كما قيل – وتزوجت ماري سريعاً من جديد، كما فعلت شقيقتها مارغريت التي ترملت بعد مقتل جايمس الرابع ملك اسكوتلندا.





(فوق) كاثرين الاراغونية.
(الى اليمين) الاميرة ماري اولى اولاد هنري الثامن، خلفت اخاها ادوارد على العرش.

أعاد ولسي رباط التحالف الانكلو – فرنسي في أكتوبر (تشرين الاول) ١٥١٨ بعقد خطبة ابنة هنري الرضيعة الاميرة ماري، بخاتم متناه في الصغر، الى طفل الملك الفرنسي الجديد فرنسوا الاول. وبموجب المعاهدة المعقودة تخلت انكلترا عن تورنيه لفرنسا في مقابل ٦٠٠ ألف كراون (ما يعادل ٤٨ مليون جنيه استرليني اليوم) وحصل ولسي على مكافأة ضخمة من فرنسا، كما اتفق فرنسوا وهنري على الاجتماع قرب كاليه في موعد لاحق لاقرار مصالحة نهائية.

أدى انتصار ولسي الديبلوماسي، اضافة الى حلف آخر ترددت أصداؤه في أوروبا وجمع انكلترا وفرنسا والامبراطورية الرومانية والكرسي البابوي والدول الاسكندينافية والبرتغال، الى إبراز الرجل كأنه مهندس السلام الاوروبي. وكان هو عاقداً العزم على أن يتبوأ السدة البابوية، وقد أصبح في ذلك الوقت كبير أساقفة يورك وكاردينالاً ورئيساً لمجلس اللوردات ولمجلس القضاء الاعلى في انكلترا جامعاً، بعد الملك، السلطة العليا في الكنيسة والدولة. كان "هذا الرجل الوقح الشرير" – كما وصفه شكسبير – حاكم انكلترا الفعلي.

كانت عجرفته ممجوجة. واعتاد الناس سماع صرخة "أفسحوا الطريق للسيد" فيما

ولسي يعبر أروقة القصر يسبقه أربعة من المشاة بألبستهم السوداء والقرمزية وهم يحملون فؤوس القتال. وكان "ختم انكلترا الاعظم" وقبعة الكاردينالية يحملان أمامه.

استاء الناس من سيطرة ولسي الظاهرة على الملك. أما هو فأتقن طريقة التعامل مع سيده. فكان يهدي الى هنري جوهرة ثم يلمّح الى فكرة جديدة فيما الملك يتلهى بها.

فلماذا تحمَّل هنري الاشاعة المتسائلة: "أليس من ملك في انكلترا؟"

لقد نبع رضاه من قناعة قديمة تتعلق بتمايز السلالة الملكية.

كان حكام القرن السادس عشر يؤمنون بأن رعاياهم ليسوا بشراً تماماً وانما كائنات تُحكم وتُستغل وتُرمى. وكان هنري يرى في ولسي مجرد أداة، فاسترخى وتركه يعمل، عارفاً أن شدة حبل كانت كافية لانهاء الرجل، اذ لا أحد يمسك هنري الثامن في قبضته.

رمال متحركة

كان هنري يهوى الموسيقى، فركّب أراغن فخمة في قصوره و"اقتنى" فرقة موسيقية ملكية كان ستة من منشديها يسافرون مع الحاشية دائماً. كما كان يحب رؤية وجوه مستبشرة تحيط به، وحرص على أن يتقاضى أفراد حاشيته القريبون رواتب عالية. كان الوصيف يتقاضى نحو ١٠٠ جنيه في السنة (٣٠ ألف جنيه بمقاييس اليوم).

كان هناك رضى، ظاهرياً على الاقل، في "حقل قماش الذهب"[٢] حيث عقد الاجتماع الموعود بين فرنسوا الاول وهنري الثامن قرب كاليه. وكان الهدف المعلن للاجتماع تشريع قوانين لكنه تحول تظاهرة مثيرة مفرطة في التباهي.

تجاوز عدد أفراد الحاشية الملكية الانكليزية الخمسة الالاف، ومعهم أكثر من ٣٠٠٠ حصان وكميات ضخمة من التجهيزات. وانهمك ٨٠٠٠ عامل في اعداد الموقع، وشيد قصر موقت من الخشب وقماش القنب والزجاج على أسس من الآجر (القرميد). وارتدى فرنسوا الاول ثوباً من قماش الذهب تحت وشاح مزدان بالجواهر، فيما تضمنت بزة هنري وشاحاً مزدوجاً من قماش الذهب يشع بالحجار الكريمة.

أُعد كل شيء بتنظيم متناه في الدقة. وفي ٧ يونيو (حزيران) ١٥٢٠، بعد أيام من الاتصالات الديبلوماسية على مستوى مسؤولين أدنى رتبة في البلدين، وصل الموكبان الملكيان الى الساحة في تمام الساعة المتفق عليها. فعزفت الابواق وحث الملكان جواديهما قُدُماً للقاء. فتعانقا ثلاثاً وهما ممتطيان، ثم ترجلا وتعانقا مرة أخرى ودخلا السرادق الذهبي حيث عقد اجتماع القمة.

(٢) Field of Cloth of Gold

تلا الاجتماع أسبوعان من المبارزات والمآدب حطم خلالهما الملكان عشرات الحراب وبارزا خصوماً مختارين بسيوف ذات مقبضين (تستخدم باليدين) وبقسوة جعلت الشرر يتطاير من درعيهما. كانا بذلك يفتحان شهيتهما جيداً لمآدب عامرة من لحم الغزلان وسمك الكراكي والحفش والاوز العراقي (التم) وطيور التدرج والبلشون الابيض وثمار البرتقال وحلوى الكسترد وفطائر الخوخ، تساعد على ابتلاعها براميل من الشراب.

مرت لحظة واحدة من التوتر الحقيقي عندما ألقى هنري بيده الثقيلة على عنق الملك الفرنسي قائلاً: "تعال نتصارع!"

قبل فرنسوا التحدي، واشتبك العاهلان الفارعا الطول في صراع جسدي على طريقة ذلك الزمن. فأدّى الفرنسي، باحتراف، حركة دائرية سريعة وألقى بالانكليزي على الارض. وكرر هنري التحدي غاضباً، لكن مداخلات سريعة لرجال الحاشية أنهت هذا الشكل الغريب من الديبلوماسية.

كان مفترضاً أن تضع القمة حداً للعداء بين انكلترا وفرنسا، لكن عيني هنري كانتا على العرش الفرنسي. كما أن ولسي الطامح الى البابوية رغب في علاقة أوثق مع الامبراطور الروماني تشارلز الخامس القوة الثالثة في أوروبا وابن أخت الملكة كاثرين. كان تشارلز أبحر الى دوفر وعقد محادثات مع هنري قبيل مغادرة هذا الى قمة فرنسا. وهما اجتمعا ثانية خارج كاليه ووضعا خطة لحلف دفاعي ضد فرنسا.

عادت الافكار السود تراود هنري حول خلافته لدى عودته من فرنسا. كانت الاميرة ماري وارثته الشرعية الوحيدة، وهو "أثبت" أن عدم انجاب أمير ذكر ليس غلطته هو، ففي العام ١٥١٩ ولدت له عشيقته الجميلة اليزابيت بلاونت، ابنة أحد اقطاعيي شروبشاير، صبياً سمي هنري فيتزروي (أصبح في ما بعد دوقاً على ريتشموند وسومرست). كما أن كاثرين كانت ستبلغ الاربعين من عمرها بعد سنوات قليلة فينعدم امكان حملها ثانية.

أما بالنسبة الى خطبة ماري الى الابن البكر لملك فرنسا، فقد أدرك هنري صعوبة مشاركة أي أمير فرنسي في العرش الانكليزي وإن كزوج للملكة. فالشعب يكره الفرنسيين، وقد تنشب حرب أهلية لدى اعتلاء ماري العرش اذا كانت متزوجة بفرنسي.

قرر هنري ضرورة ازاحة المرشح الاقرب لخلافته، وهو صديقه الثري دوق بكنغهام المتحدر من صلب ادوارد الثالث.

دبّر ولسي "الطبخة"، فقد كان يكره ذلك الوارث المتعجرف. ووجدت محكمة في لندن أن الدوق مذنب بجريمة "تخيُّل وفاة الملك" في العام ١٥١٩. وكان التكهن بموت

الملك يعتبر آنذاك خيانة عظمى. فمثل بكنغهام في قاعة وستمنستر أمام هيئة من الاشراف كان كل أعضائها يرهبون الملك، فقرروا أنه مذنب. واقتيد الى برج لندن ونفذ فيه حكم الاعدام بالفأس.

المصيدة

احتاج هنري الى تمويل الحرب الجديدة التي قرر خوضها ضد فرنسا. وكان بدد ثروة والده على الحرب السابقة وعلى حياة البذخ التي اعتادها. فذهب ولسي الى مجلس العموم المنعقد في ابريل (نيسان) ١٥٢٣، وطلب ما كان وقتئذ مبلغاً هائلاً هو ٨٠٠ ألف جنيه تجمع بفرض ضريبة من ٤ شلنات على كل جنيه من قيمة كل الاراضي والبضائع.

استقبل أعضاء المجلس الكاردينال بصمت عنيد، فالحملات الخارجية لم تكن مقبولة شعبياً. وفي النهاية وافقوا على شلنين لكل جنيه. لكن المبلغ لم يكن كافياً، فتخطى ولسي البرلمان وطالب بـ"منحة حُبِّية" من العلمانيين والاكليريكيين استمد مبرراتها من نظام "مساعدات" اقطاعية قديمة كانت تدفع عندما يقوم الملك نفسه بحملة خارج انكلترا. فارتفعت أصوات معارضة عنيفة في كنت وإسكس.

تدخل هنري مدركاً اتجاهات الرأي الشعبي، فأعلن العودة عن الضريبة وعن الحرب، ونال كل الرصيد الشعبي الناتج من قراره فيما تحمل ولسي كل اللوم. وحاول الكاردينال اصلاح الامر وقد أدرك أن نجمه الى أفول وأن سيده المتطلب لم يجد لذة في هبوط شعبيته للمرة الاولى منذ اعتلائه العرش، فأهدى الى هنري قصر هامبتون كورت الفخم الذي أصبح واحداً من مساكن هنري الاثيرة.

نجح ولسي في تدبير خطبة الاميرة ماري الى تشارلز الخامس، لكن هذه العلاقة لم تعمر طويلاً، اذ وجد الامبراطور في العام ١٥٢٥ أن الحكمة السياسية تقضي بالتخلي عن ماري لمصلحة أميرة برتغالية. فتحول هنري وولسي، وقد اعتبرا الامر مهيناً، الى اقامة حلف مع فرنسا. وأقر السلام بين البلدين في أغسطس (آب) من العام نفسه.

حاولت الملكة كاثرين من دون جدوى اعادة العلاقات الطيبة مع ابن شقيقتها تشارلز. فقد كان ولسي يسعى الى الثأر من الامبراطور الذي لم يساعده ليصبح بابا، فيما كان هنري يفكر بالطلاق من كاثرين، وقضت خطة ولسي بأن يتزوج هنري أخت زوجة الملك الفرنسي الاميرة رينيه. لكن هنري كان يتوق الى الطلاق لسبب آخر، فقد كانت لعشيقته السابقة ماري بولين شقيقة اسمها آن في العشرين من عمرها ذات عينين سوداوين وثغر رائع وشعر أسود أملس.

وكان هنري في سكرة من الهوى.

بين صيف ١٥٢٧ وخريف ١٥٢٨ كتب هنري الى آن بولين ١٧ رسالة (هي محفوظة الآن في الفاتيكان) ملأى برغبة مشبوبة. وهو كشف لها مكنونات قلبه واعداً: "سوف أبزّك حباً ووفاء." ودعاها "المرأة التي هي عندي أغلى ما في العالم." وأرسل اليها مرة غزالا اصطاده بنفسه "آملا في أن تفكري في الصياد عندما تتذوقين الصيد."

في هذه الاثناء كان ولسي يحاول اقناع روما بالموافقة على اعتبار زواج هنري وكاثرين لاغيا. كانت النقطة الحرجة هي ما اذا كان زواجها بالامير آرثر ثم بدخوله عليها أم لا. فاذا ثبت تمامه يكون هنري يعيش "حياة خطيئة" مع أرملة شقيقه ويمكن اعتبار الزواج غير شرعي.

أرسل البابا كليمنت السابع الكاردينال لورنزو كامبيغيو الى انكلترا للتحقيق مع ولسي في دعوى الملك. وبدأت المحاكمة في ١٨ يونيو (حزيران) ١٥٢٩ في بلاكفرايارز. ركعت الملكة التي استثيرت مشاعرها أمام هنري لتعلن: "انني أشهد العالم كله على أنني كنت لك الزوجة الوفية المتواضعة المطيعة... وأنني كنت عندما دخلتَ عليّ فتاة عذراء لم يمسسني رجل." وأضافت مستهدفة النقطة الاكثر حساسية لدى هنري: "وانني أترك لضميرك أن يقرر ما اذا كان قولي صحيحا أم لا."

فحدق اليها هنري متملكاً عواطفه.

عُرضت الشهادات طويلا من دون حسم للموضوع. فقرر البابا في يوليو (تموز) تحت ضغط من تشارلز الخامس سحب القضية واعادتها الى روما.

لقد خيب ولسي أمل سيده ثانية. وأسوأ من ذلك أن القضية جعلت الملك يبدو أحمق، فهو اعتمد على كاردينالِه لانضاج الطبخة في انكلترا، لكنها الآن أفلتت من سيطرته.

صب الملك غضبه على ولسي فحطّ من مكانته وأمره باعادة الختم الاعظم. بكى ولسي واستعطف لكن هنري انتهره ورذله. فعاد مهانا الى يورك في الشمال آملا في تقاعد مشرّف. الا أنه لم يستطع التخلي عن لعبة سياسة القوة، وسرعان ما بدأ يراسل ملك فرنسا والامبراطور والبابا.

في أكتوبر (تشرين الاول) ١٥٣٠ نمي الى هنري أن البابا، بتأثير من ولسي، منع زواجه بآن ما دامت دعوى إبطال زواجه بكاثرين قائمة. فأمر الملك الغاضب باعتقال ولسي بتهمة الخيانة العظمى.

لم يصل الكاردينال الكهل الى لندن، اذ أصيب بالزحار (الديزنطاريا) في دونكاستر. وعندما وصل اليه آمر برج لندن مع ٢٤ من أفراد الحرس الملكي، أدرك ولسي ما يخبئه له هنري. وتفاقم مرضه ونقل الى لستر وقد بات عاجزا عن ركوب جواده. وعاش بعد ذلك يومين فقط. وهو قال: "لو خدمت الله كما خدمت الملك لما تخلى عني في آخر

أيام حياتي." وهكذا مات توماس ولسي آخر أسقف من القرون الوسطى ملكَ سلطة توجيه القرار في انكلترا.

شارف هنري الثامن السن الاربعين وبات في ذروة سلطته قادراً عندما يستثار على اخذ قرارات مستبدة. لقد اكتملت الشخصية التي صوَّرها رسام بلاطه هانس هولباين. كان، كما وصفه أحدهم، "جباراً مخيفا له جسم كجذع ثور قائم على ساقين مثل عمودين. رأسه شامخ مرتد الى أعلى في وقفة تحد ودعوة الى القتال. الذقن ثقيل ملتحٍ، الفم شهواني، الانف صغير ضار، والعينان مستويتان كعيني صقر."

لم يخطر في بال هنري أن قوة خارجً انكلترا يمكن أن تردعه عن عمل ما. وهو قال مرة: "لم يكن لملوك انكلترا أسياد في الارض."

الفضيحة

ماطل هنري في قضيته غير عابىء بسحب الدعوى الى روما. وظل يبحث عن طريق للالتفاف حول المأزق.

كان هنري متعمقا في علوم الدين. وأكسبه كتاب ألّفه في العام ١٥٢١ لقب "حامي الايمان" من البابا، وهو لقب لا يزال ملوك بريطانيا يحملونه منذ ذلك الوقت. لكن كنيسة القرون الوسطى كانت في هذه الاثناء تفقد وهجها، وانتشرت الدعوة الى الاصلاح في أوروبا الغربية وتسربت الى انكلترا.

قرر هنري أن الحل الوحيد لمشكلته يكون بالانفصال عن روما والسير على هواه. فتزوج آن بولين في أواخر يناير (كانون الثاني) ١٥٣٣ وكانت حاملًا. وأقر البرلمان اشتراعا خطيراً أعلن فيه الملك رأسا للكنيسة والدولة. وفي ١٣ مايو (أيار) أعلن توماس كرانمر، رئيس أساقفة كانتربري الجديد، إبطال زواج هنري وكاترين. ونفيت الملكة "الارملة" الى قصر كئيب يحوطه خندق مائي في عزبة كيمبولتون.

لكن هنري تزوج في آن امرأة تتارية. كانت مصابة بالعصاب وتظهر مشاعرها بوضوح مبالغ فيه. وسرعان ما صار هنري يخافها قليلا ويخشى فورات غضبها التي كانت تربكه. وفي أكتوبر (تشرين الاول) ١٥٣٣ ثارت ثائرتها غيرة لان هنري غازل امرأة أخرى، فأخبرها أن عليها أن تغمض عينيها وتتحمل الامر كما فعلت من هي أفضل منها.

كان الملك مقتنعا بأن آن ستحمل له صبيا. لكنها ولدت طفلة في ٧ سبتمبر (أيلول) في غرينيتش. كظم هنري خيبته وأمر باقامة حفلة صاخبة. وقد أصبحت الطفلة في ما بعد اليزابيت الاولى عظمى ملكات انكلترا، لكن الحدث في وقته كان طرف الغيمة التي حجبت آن بولين في النهاية.

بحلول نوفمبر (تشرين الثاني) ١٥٣٤ كان هنري قد مضى بعيداً في طريقه الانعزالي الجديد. وأقر البرلمان "قانون السيادة" الذي كرس الملك رأساً لكنيسة انكلترا مع كل السلطة الزمنية التي للبابا، واعتبر رفض الاعتراف بهذا القانون خيانة، الامر الذي أنهى حياة عدد من الرجال الفاضلين. فشنق جون هيوتون أسقف كنيسة لندن وجُرّ وقُطّع في تايبرن، كما أرسل عشرات آخرون الى برج لندن.

وفي الصيف التالي قضت شخصية أخرى ذات شهرة خاصة: السر توماس مور أحد الذين تولوا رئاسة مجلس اللوردات في بلاط هنري وصديقه منذ الطفولة. وقد عُرض عفو على مور، لكنه رفض قبول مبدأ أن يكون زعيم زمني رأساً للاكليروس. فأبدل هنري حكم الاعدام المذل في تايبرن الى حكم بقطع الرأس في البرج.

بعد أشهر في السجن انهار مور جسدياً لكنه بقي صامداً على رأيه. وهو أعطى الجلاد قطعة نقد ذهبية وأخبره أن له عنقاً قصيرة، ثم أزاح لحيته جانباً وهو يقول: "لم تسيء هذه الى الملك."

وكان الملك خرج بحاشية كبيرة الى الجنوب قبل تنفيذ حكم الاعدام بيوم واحد.

آن بولين (الى اليسار) وابنتها اليزابيت في عامها الثالث وهي خاتمة سلالة تيودور.





وكان يحلو له الظهور أمام الناس وبت أمورهم المحلية وتحسس اتجاه الرأي العام. كان مرهوب الجانب، مكروها ربما، لكن هيبته كانت هائلة ومنزلته رفيعة، وكان أعداؤه مدجّنين.

حل في مكان ولسي "يدا يمنى" لهنري سكرتير ولسي السابق توماس كرومويل، وهو ابن حداد من بوتني. فبات كرومويل أعظم نابغة اداري في عصره، أصلح الماكينة الحكومية جذريا بحيث دام تأثيره حتى حكم الملكة فكتوريا. وهو صمم على أن يجعل من هنري "أغنى ملك عرفته انكلترا."

سعى الرجلان الى مصادر جديدة للدخل. وكان تقويم أجري في وقت سابق من السنة أظهر أن دخل الكنيسة بلغ ٣٠٠ ألف جنيه سنويا. فقرر هنري، وهو سيد بيته، أن يصادر ثروات الاديرة. كانت هناك ٥٦٣ مؤسسة دينية، بعض أغناها وأقدمها مهابة قدّمها الى الكنيسة ملوك مشهورون، وكانت تشبه قصور النبلاء وتحوي سبائك من الذهب والفضة ومزارات فخمة تشع فيها المجوهرات.

خطط هنري وكرومويل بدهاء لكسب موافقة البرلمان على عملية المصادرة باثارة النقمة على لاأخلاقية رجال الاكليروس. فانطلق عملاء كرومويل في يوليو (تموز) ١٥٣٥ يبحثون عن أدلة على الفساد.

جمع هنري في أشهر قليلة كل الادلة التي احتاج اليها لاستصدار وثيقة برلمانية تقضي بحلّ كل المؤسسات الدينية.

وتوفيت الملكة "الارملة" كاثرين في كيمبولتون في ٧ يناير (كانون الثاني) ١٥٣٦ بعدما خطت رسالة تدل على سموّ تفكيرها: "من جهتي، أغفر لك كل شيء وأتمنى مخلصة أن يغفر لك الله كذلك. أخيرا، أقسم أن عينيَّ تطلبانك أكثر من كل شيء." لقد أحبت كاثرين هنري لذاته، خلافا لكل زوجاته اللاحقات، فهما عاشا شبابهما معا.

حملت الملكة آن ثانية، لكنها لم تجد في حملها مبعثا للسرور، فقد علق زوجها بحب فتاة جديدة. كان هنري التقى في سبتمبر (أيلول) السابق في ويلتشير فتاة تدعى جين هي الابنة الكبرى للسر جون سيمور الحارس التقليدي لغابة سافرنيك. كانت جين في السادسة والعشرين من عمرها، صغيرة الحجم جميلة تتميز بضبط النفس خلافا للعصبية المستبدة آن بولين. فافتتن هنري بجاذبيتها. ولتهدئة أفكاره وعواطفه انغمس في مباريات مبارزة في منتصف يناير (كانون الثاني). وعلى عادته، ركب مخاطر رهيبة وعاني سقطة قوية بقي بعدها غائبا عن الوعي ساعتين. وفي وقت لاحق قال اللورد مونتغيو أحد رجال بلاطه: "ان ساقه ستقتله." ولما كان التكهن بموت الملك خيانة عظمى (كما اكتشف دوق بكنغهام السيىء الطالع في العام ١٥٢١) فقد أعدم مونتغيو لتهوره.

عيَّن هنري جين وصيفة شرف للملكة. وفي أواخر يناير (كانون الثاني) ١٥٣٦ قبلت جين من هنري قلادة تحمل نموذجا مصغراً للشعار الملكي. واكتشفت آن الامر فثارت ثائرتها. فقال لها هنري: "اهدأي يا حبيبتي." ولم تكن هذه المرة الاولى يحاول تهدئتها، وكان يفكر في جنينها بلا شك، لكنها انتزعت القلادة من عنق جين بشبه جنون، فجرحت يدها. وفي ٢٧ يناير (كانون الثاني) وضعت صبياً ميتاً.

دخل هنري غرفتها مهتاجا واتهمها بأنها سبب الكارثة. فردت غاضبة أنها غلطته هو لانه اقام علاقة مع تلك الساقطة. فأجابها بقسوة: "لن تحملي مني أطفالا بعد اليوم."

انسحبت جين سيمور الى ويلتشير. وسرعان ما بدأ هنري يكتب اليها: "صديقتي العزيزة وعشيقتي، ان حامل هذه الاسطر القليلة من خادمك المخلص كليا سيضع في يدك عربون حبي الصادق." وهو أمل أن يستقبلها قريباً. ووقع الرسالة بـ"خادمك المحب ومليكك، هـ.ر."

الموت بالسيف

كانت جماعة آن بولين داخل القصر مؤيدة لفرنسا وتضع العراقيل في طريق تفاهم جديد مع تشارلز الخامس يخطط له كروموبل. ولم يكن هنري يسهل الامر على مساعده، فقد أصبح حاد الطباع على نحو متزايد كأنما ليحقق "نبوءة" أنه سيبدأ عهده بوداعة حمل وينهيه أشرس من أسد. وكان يوجه اهانات الى سفير الامبراطور في ثورات غضب متمادية. ولم يكن كروموبل عرف الملك متناقضا الى هذا الحد من قبل، فصمم على ازاحة الملكة آن.

كان كروموبل يتجسس على الملكة منذ زمن طويل. وفي ٢ مايو (أيار) ١٥٣٦ اقتيدت الى البرج بتهمتي الخيانة والزنى، كما اتهمت لاحقاً بأنها سخرت من هنري ومن الشعر الذي كان يكتبه.

مثلت آن في ١٥ مايو (أيار) أمام محكمة من الاشراف، وراحت تفنِّد الاتهامات بنداً بنداً بقدرة وعناد. وقيل إن هنري علق على ذلك قائلا: "ان لها قلبا شجاعا، لكنها ستدفع الثمن."

أُعدم عاشقو آن المزعومون. وفي ١٩ مايو (أيار) ارتقت هي منصة الاعدام في تاور غرين. فأعطتها احدى وصيفاتها الاربع قبعة من القطن ورفعت شعرها، فيما عصبت أخرى عينيها. وكان الملك منحها التماساً أخيراً، فأحضر سيّاف سانت اومير، أبرع جلادي العصر وأنقهم، بسيفه الكبير الدقيق التوازن.

أثار الاعدام ضجة في الخارج، لكنه لقي ترحيبا في انكلترا حيث كان الشعب ناقما على آن لعجرفتها وبذخها.

تزوج هنري جين سيمور في ٣٠ مايو (أيار). وفي نهاية يونيو (حزيران) أُعلنت جين ملكة، وأقرت وثيقة خلافة اعتبرت اليزابيت "غير شرعية" وأبقت ماري محرومة من اعتلاء العرش.

بدت الملكة الجديدة حيية تحب العزلة. لكن هنري كان شغوفا بها. وهو كان في هذا الوقت بلغ قمة جديدة من السلطة، وبدأ يبني القصور ببذخ، فتحول بلاط هامبتون الى ما هو الآن، وأضيفت أجنحة ومداخل جديدة الى مبنى البرج والى قصر وندسور. وبنى هنري كذلك دارة فخمة من الآجر الاسود في حي سانت جايمس في لندن ما زالت بوابتها العظيمة جزءاً من قصر سانت جايمس ولا يزال ينادى بملوك بريطانيا عن شرفتها.

مر صيف ١٥٣٦ على البلاط سلسلة من حفلات التنكر والمبارزات والاحتفالات الصاخبة تمحورت كلها على ملك صار ألين عريكة وأرق حاشية. وفي يوليو (تموز) من ذلك العام توفي ابنه غير الشرعي هنري فيتزروي بداء السل وهو في السابعة عشرة من عمره. ولكن بحلول ربيع ١٥٣٧ أصبحت جين حاملا. وفي ١٢ أكتوبر (تشرين الاول) وضعت صبياً سمي ادوارد. كان الابتهاج يفوق الوصف. فجنت لندن وتدفقت النوافير شراباً. وغمرت النشوة هنري وقد تقلص خطر النزاع على خلافته وبدا أن اللعنة انزاحت أخيراً، فحمل الامير الطفل وبكى فرحاً.

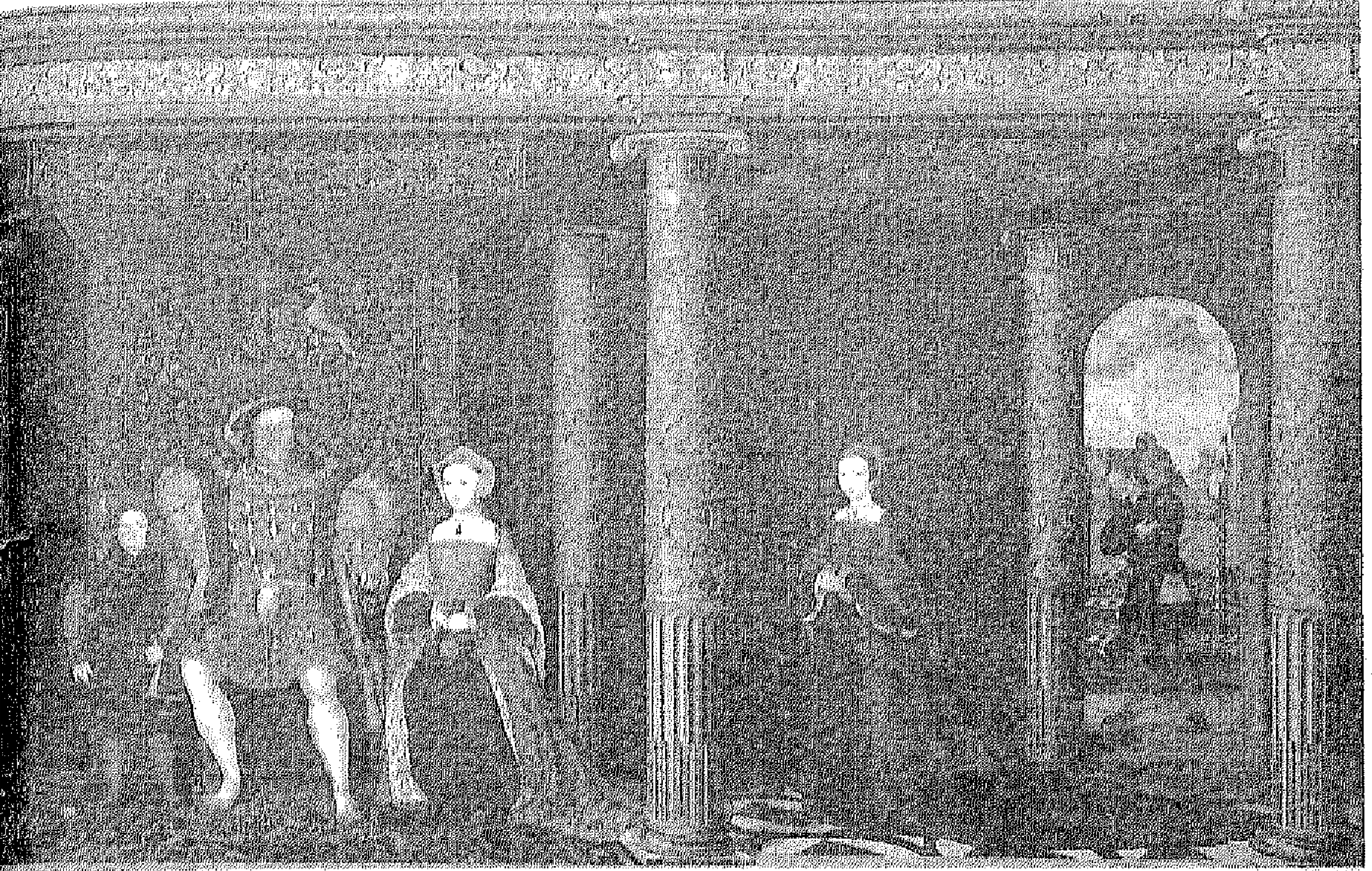
لكن الملكة أصيبت بحمى النفاس وراحت تهذي، فهي لم تستطع أن تتحمل مشاق استقبال الجماهير ووفود التهنئة، وكانت حضرت حفلة استقبال كاملة استمرت ست ساعات. وتوفيت في ٢٤ أكتوبر (تشرين الاول)، فغادر هنري قصره وحيداً الى وندسور ليخلو الى أحزانه. كانت جين سيمور الزوجة التي أحبها أكثر من الجميع، وهو أوصى بأن يدفن معها عند موته في المقبرة الملكية في وندسور.

استمر حل الاديرة وبيعت أملاكها الواسعة مما أدى الى بروز طبقة جديدة من أسياد الارض واتساع عقارات النبلاء. كما استمر تحطيم المزارات مما أكد نهائية الانفصال عن روما بطريقة تفهمها الشعب.

لكن هنري، عندما هاجم الكنيسة، كان يعتزم اعادة تنظيمها بطريقة مهيبة تنشّط سلطتها وتعيد نشر هذه السلطة. وهكذا تم تحويل المؤسسات القديمة في ونشستر ونورويتش وديرهام وإلاي ووستر بترقية رجال الدين المدعنين ليصبحوا أساقفة وعمداء. كما أنشأ هنري ست أبرشيات جديدة في تشستر وأكسفورد وبيتربورو وبريستول ووستمنستر. وفي ما عدا الاخيرة، لا تزال هذه الابرشيات قائمة الى اليوم.

أعمل هنري مكنسته في مجالات أخرى. فأحدث تغييرات جذرية في جامعتي أكسفورد وكامبريدج مهاجماً الاساتذة والطلاب، حتى انه ألغى احتفالاتهم التقليدية

لوحة رمزية تصوِّر عائلة هنري الثامن لو عاشت جين سيمور بعد وليدها الاول. ويظهر هنري وجين في الوسط مع وارثهما الامير ادوارد، وعلى الجانبين الاميرتان ماري واليزابيت.



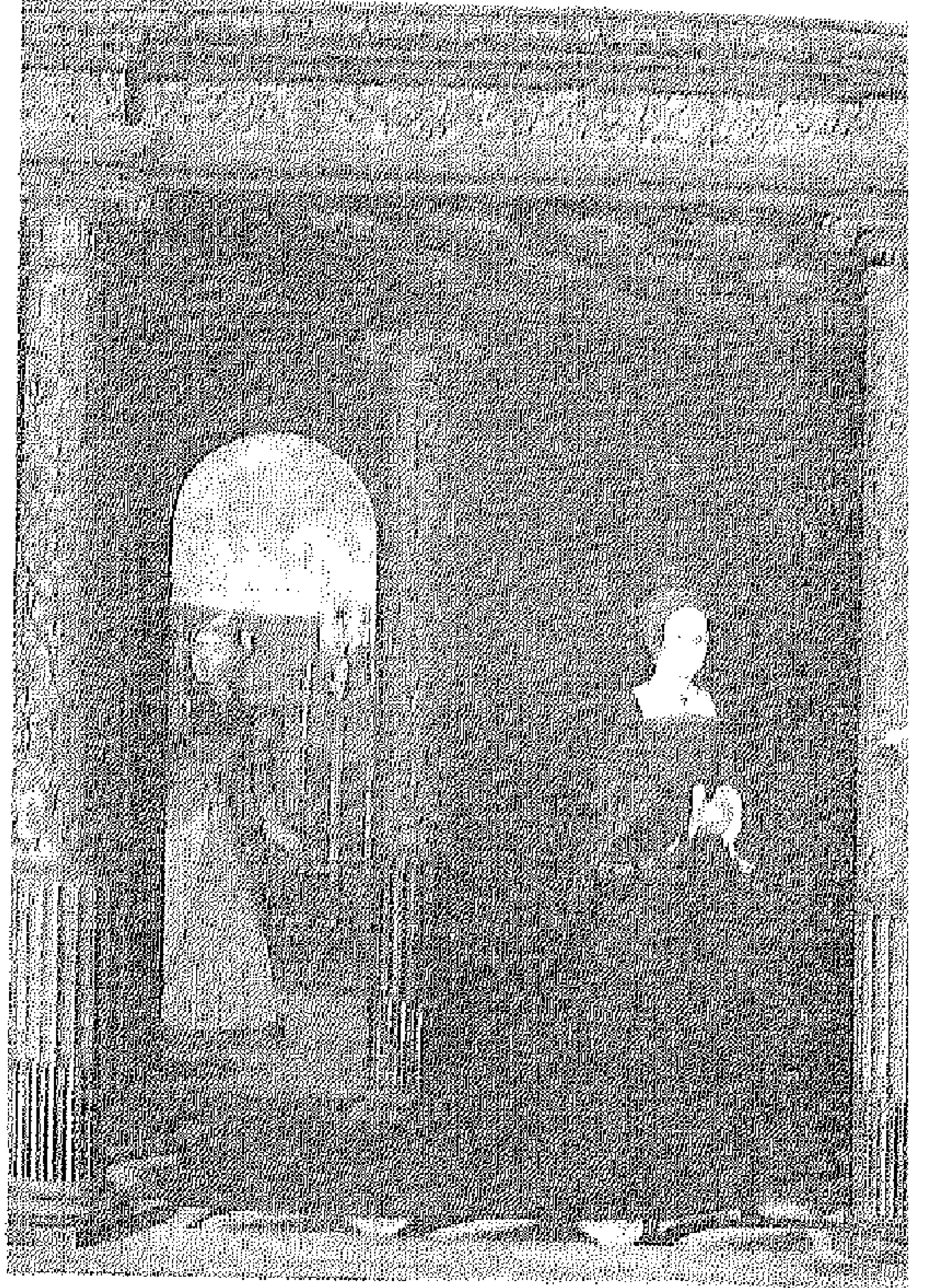
العزيزة وأنشأ منحة "أستاذ شرف" في اللاهوت والعبرية واللاتينية والطب والقانون المدني. وكان على كل طالب جامعة أن يحضر محاضرة في اليوم والا فقد حقه في الطعام. ولم يفتر تشجيعه للعلم أبداً، وهو أعاد في السنة الاخيرة من حكمه تأسيس كلية الكاردينال ولسي في جامعة أكسفورد كما أنشأ كلية ترينيتي في كامبريدج وهي أفخم الكليات في كلتا الجامعتين.

زوجتان أخريان

كان توماس كرومويل محتقراً من زملائه في المجلس اذ كان دخيلاً على طبقة النبلاء ومكروها من الشعب لتصميمه على إثراء الملك والدولة بأي طريقة. وها هو يرتكب الغلطة القاتلة ذاتها التي ارتكبها سلفه الكاردينال ولسي. لقد جعل سيده يبدو مغفلا.

بدأ هنري، بعد وفاة جين سيمور، البحث عن زوجة جديدة تكسبه حليفا من الخارج وتهبه صبياناً يضمنون خلافته. فمشط كرومويل البلاطات الاوروبية بحثا عن مرشحة. فاختار كريستينا دوقة ميلانو وابنة شقيق تشارلز الخامس، لكنها لم تقبل ذلك الشرف، وأشيع أنها قالت إنها كانت لترضى بالزواج من هنري لو كان لها رأسان.

وجاء رد الفعل في البلاط الفرنسي ساخطا، وأشار السفير الفرنسي الى أن سيدات بلاده لسن للعرض.



اختار كرومويل في النهاية فتاة تدعى آن من عائلة كليفز التي كانت تحكم دوقية على ضفتي الراين الادنى. كانت آن في الرابعة والعشرين من عمرها وفيها آثار جدري، ولم تكن تتكلم سوى الالمانية. لكن خلفيتها كانت مقبولة وملبية لطموح كرومويل الهادف الى اقامة توازن قوى في أوروبا. فقد كان شقيقها يسيطر على مناطق استراتيجية بين أراضي الامبراطور في ألمانيا والبلاد الواطئة (هولندا وبلجيكا واللوكسمبور).

أحس هنري أنه مدفوع الى عمل لا يريده، لكن كرومويل أكد له أن الجميع يمتدح جمال آن. وأرسل رسام البلاط لرسمها فعاد هذا بصورة نالت موافقة هنري.

لكن وصول آن الى انكلترا أكد أسوأ شكوك هنري. وذكر ايرل سوثامبتون أن "جلالة الملك لم يكن راضياً عندما رآها شخصياً."

عقد الزواج في ٦ يناير (كانون الثاني) عام ١٥٤٠ وسط مظاهر فخامة عظيمة، لكن هنري نفر من عروسه واشتكى من أنه لا يستطيع "التغلب على الاشمئزاز من رفقتها." وبعد ثمانية أيام قال كرومويل حزيناً: "لا تزال الملكة وصيفة عذراء لجلالة الملك."

انقض هنري على كرومويل بعد ظهر العاشر من يونيو (حزيران) ١٥٤٠ لهذه الاساءة الشخصية. كان المجلس منعقداً والنوافذ مفتوحة لهواء الصيف والبحث في جدول الاعمال جارياً الى الطاولة المستديرة المغطاة بالمخمل. فجأة دخل قائد حرس الملك واعتقل كرومويل بتهمة الخيانة والهرطقة.

وأقر البرلمان بسرعة مرسوما بفسخ زواج هنري (ذكرت في المبررات علاقة سابقة بين آن وماركيز لورين وشهادة بأن الزواج لم يتم) ومنحت آن معاش تقاعد سنوياً كبيراً. وهي قابلت الفراق بفرح واشترت كميات كبيرة من الثياب.

التمس المجلس من الملك "أن يدير قلبه الانبل بين قلوب الرجال ناحية الحب." وكانت بين وصيفات آن اوف كليفز واحدة تدعى كاثرين هوارد هي ابنة شقيقة دوق نورفوك. كانت جذابة المظهر في التاسعة عشرة من عمرها، قصيرة، ممتلئة، حيوية، ذات شعر كستنائي وعينين عسليتين. وكانت فارغة الرأس. فاستهوت هنري مذ رآها للمرة الاولى، وامتدحت عائلتها "طهارتها وصدقها."


آن كليفز في اللوحة التي لم تظهر آثار الجدري في وجهها.

تزوج هنري كاثرين في ٢٨ يوليو (تموز) ١٥٤٠، يوم قطع رأس كرومويل في تايبرن. وأحيا الزواج نشاط هنري وأصبح نمطه اليومي محموماً. كان ينهض مع الفجر فيحضر الصلاة ثم يركب باكراً للصيد ويعود الى وليمة هائلة. ولوحظ أن "افراطه في الاكل والشرب رائع."

كان هنري، وقد اقترب من الخمسين، سميناً أصلع منتفخ الخدين وعانى قروحا كبيرة مؤلمة على ساقيه أعاقت دورته الدموية وظلت تؤرقه الى نهاية حياته. لكنه بحلول الخريف وبعد رحلة ملكية الى الشمال زار خلالها لينكولن ويورك وهال، عاد الى بلاط هامبتون بصحة جيدة وصلى شاكراً الله "على الحياة الجيدة التي أمضاها والتي يأمل أن يمضيها" مع الملكة الجديدة.

لكن أعداء آل هوارد كانوا يعملون في هذه الاثناء. وكان أحدهم رئيس الاساقفة كرانمر، وهو لم يتجرأ على اخبار هنري مباشرة، فدس في يده رسالة تضمنت اتهامات بسوء مسلك كاثرين قبل الزواج.

وسرعان ما انكشف ماضي كاثرين وسيقت اليها اتهامات أخلاقية. وفي ٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ركب هنري سفينة الى لندن لحضور اجتماع المجلس، ولم ير كاثرين ثانية.

جلس الملك في الاجتماع صامتاً مستغرقاً في تفكيره وقد تهاوى آخر أوهام شبابه الرومانسية،

ثم شرع يبكي مربكاً أعضاء المجلس الصارمي الوجوه.

نقلت كاثرين الى برج لندن في أوائل فبراير (شباط) على متن بارجة مغلقة مرت تحت رؤوس عشاقها المعلقة على جسر لندن. وهي ربما كانت سخيفة وحمقاء ولا أهمية لحياتها، لكنها عرفت كيف تواجه الموت. ففي ١٢ فبراير (شباط)، ليلة ما قبل اعدامها، أرسلت في طلب خشبة الاعدام وتدربت على وضع رأسها كما يجب. وفي صباح اليوم التالي أنجز الفأس عمله سريعاً.

يروى أن اللايدي لاتيمر (المولودة كاثرين بار) عندما لاحظت أن هنري الثامن يتودد اليها قالت إنها تفضل أن تكون خليلة الملك على أن تكون زوجته. لكنها بحلول ابريل (نيسان) ١٥٤٣ جهزت بائنة[٣] من الاثواب الفرنسية والهولندية والفينيسية.

كانت اللايدي لاتيمر، خلافاً لكاثرين هوارد، مثقفة وذات مزاج ودود، وهي ابنة السر توماس بار اوف كندال من وستمورلند رئيس الحاشية الملكية في ما مضى. وكانت في الحادية والثلاثين من عمرها وقد خبرت الزواج مرتين.

في ١٢ يوليو (تموز) عقد قران هنري في بلاط هامبتون على زوجته السادسة والاخيرة. وعندما سأله أسقف وندسور هل يقبل بكاثرين زوجة له، أجاب فرحاً: "بالتأكيد!"

غزو فرنسا

أحس أهل البلاط بارتياح لتحسن مزاج مليكهم. وأثبتت اللايدي لاتيمر أنها عامل مهدىء و"خالة" متفهمة لاولاد هنري. كانت تشجع ماري ابنة السابعة والعشرين على ترجماتها اللاتينية. وكانت اليزابيت التي بلغت السن العاشرة تريها كتاباتها. وكان الامير ادوارد ابن السنوات الست يدعوها "ريجينا نوبيليسيما" (الملكة النبيلة) و"ماتر كاريسيما" (الام الحنون). وتمكنت كاثرين من "ترويض" هنري الذي لم يصبح أقل فجائية لكنه كان يخطو، في أوائل الخمسينات من عمره، الى ما سماه هو نفسه "شيخوختي."



رسم لسيدة مجهولة يُعتقد انها كاثرين هوارد بريشة الفنان الالماني هانس هولباين.

لم يحل أحد مكان كرومويل، فقد بات هناك نظام بيروقراطي متماسك مع مجالس منفصلة لمقاطعات ويلز والشمال وايرلندا، واحتفظ هنري بزمامها في قبضته.

قرر هنري أن يذهب الى الحرب، اذ كان الملوك في ذلك الزمن يخوضون الحروب لان ذلك ما يتوجب على الملوك أن يفعلوه. كان عازماً على مهاجمة بولونيا، لان كاليه كانت موطىء القدم الوحيد الباقي

(٣) البائنة جهاز العروس.



كاثرين بار، الزوجة التي عاشت بعد موت هنري الثامن.

لانكلترا على أرض القارة الاوروبية، واحتلال بولونيا عند رأس غري نيه سيقوي سيطرته على مضائق دوفر.

احتاج هنري أولا الى أموال كثيرة بعدما أهدر معظم الثروة التي جمعها له كروميل. وكان البرلمان صوّت في السنة السابقة على منح هنري تمويلا اضافيا، فاضطر الآن الى اعفائه من "الديون" الباهظة التي تراكمت عليه.

هذا الاذعان المتآمر لمطالب هنري أكسب البرلمان حظوة لديه.

وأحس أعضـــاء مجلس العمــوم خصوصا بازدياد أهميتهم، اذ منحوا عام ١٥٤٢ حرية الكلام وحرية الوصول الى الملك عبر وفود، كما حصلوا في العام ١٥٤٣ على حصانة من الاعتقال. ومع تعاظم حاجات الملك تعاظمت سلطة مجلس العموم.

أبحر هنري الثامن في ١٤ يوليو (تموز) ١٥٤٤ توّاقاً الى قيادة الهجوم على بولونيا بنفسه. كانت معنوياته عالية. وكثيراً ما كان يغط في النوم وتصعب عليه الحركة لثقل وزنه، لكنه ظل ذلك الجندي الذي يتمنى أن يحيا حملات شبابه من جديد. وكان الهدف الثاني للحملة احتلال مونتراي كقاعدة مفيدة في الدفاع عن بولونيا.

في منتصف أغسطس (آب) كان أهل مونتراي المحاصرة يأكلون لحم الخيول، لكن البلدة لم تسقط أبداً. وفي ١١ سبتمبر (أيلول) شهد هنري سقوط قلعة بولونيا. وكتب شاهد عيان: "لم أرَ الملك في حياتي بهذا الابتهاج وهذه المعنويات المرتفعة."

استسلم الفرنسيون حكماً في ١٣ سبتمبر (أيلول). وكان أفراد الحامية وأهالي المدينة منحوا الامان، لكن كثيرين منهم غادروا المدينة، رجالا ونساء وأطفالا وعربات وخيولا، ومرّوا مجهدين أمام الملك الضخم المهيب الذي جلس يراقب رحيلهم راضياً.

انسحب هنري تاركاً حامية للدفاع عن بولونيا وقفل الى انكلترا للمرة الاخيرة.

واجه هنري وقد بلغ الرابعة والخمسين أخطر تهديد بالغزو في عهده. فقد جمع الفرنسيون في يوليو (تموز) ١٥٤٥ أسطولا ضم أكثر من مئتي سفينة في مرفأ الهافر.

كان هدفهم مهاجمة بورتسموث وجزيرة وايت لاستعادة السيطرة على القناة الانكليزية.

وكان الانكليز مستعدين لهم بفضل حكمة هنري الثامن في تطوير البحرية الانكليزية. كانت سفنه الحديثة مجهزة بمدافع قوية، وعلقت آمال كبيرة على السفينة "ماري روز" الثقيلة التسليح.

"أصلحوا وإلا..."

كان يوم ١٨ يوليو (تموز) قائظاً في بورتسموث ولا نسمة هواء تحرك مياه الميناء الساكنة. وكان هنري يتناول عشاءه على متن سفينة القيادة عندما أبلغ اليه اقتراب السفن الفرنسية الغاصّة بالرّماحة وحملة البنادق. فهرع الملك الى الشاطىء. وجهد ربابنة الاسطول في توجيه سفنهم لملاقاة العدو، لكن الريح لم تساعدهم.

أخيراً، بعد ظهر اليوم التالي، هب نسيم مفاجىء حرك الهواء الرطب الحار فتحركت السفن الضخمة. ولم يرتح الاميرال الفرنسي دانبو الى منظر تلك السفن ولا الى التيارات المائية في الميناء واحتمال مواجهة عاصفة تهب من الجنوب الغربي. فجأة ضربت كارثة الاسطول الانكليزي، اذ مالت السفينة العظيمة "ماري روز" على جنبها وغرقت.

بكى هنري ألماً. وقضى في الحادث أكثر من ٤٠٠ رجل وأنقذ عشرون أو ثلاثون. وكتب تاجر فلمنكي: "أخبرني أحد الناجين أن سبب الكارثة هو عدم اغلاق فتحات المدافع في الصف الاسفل. وكانت السفينة تحاول الاستدارة عندما ضربت الرياح أشرعتها وأمالتها، فغطست فتحات المدافع تحت سطح الماء الذي تدفق داخل السفينة وأغرقها."

انسحب الاسطول الفرنسي. وفي الايام التالية نفذ عمليات انزال في بمبريدج وشانكلين على جزيرة وايت، وهدد سيفورد وغزا برايتون وأحرقها. لكن مواجهة "حامية" مع الانكليز خارج مياه شورهام حسمت المعركة. وفي الصباح كان الفرنسيون قد رحلوا، اذ تفشت الامراض بين بحارتهم ونقص الماء والطعام لديهم ولم يبق أمامهم الا الانسحاب الى مرفأ الهافر. وهكذا أرغمت أضخم قوة غزت انكلترا منذ العام ١٠٦٦ على الفرار مذعورة.

تحول هنري المنتصر الى معالجة الشؤون الداخلية ومواجهة النقمة المستمرة التي نشأت عن مهاجمته الكنيسة. لقد حان الوقت ليدين الملك النزاعات المذهبية ويدعو الى الوحدة في خطاب يلقيه في البرلمان.

عشية ميلاد ١٥٤٥ خاطب هنري الاساقفة والنبلاء فيما أعضاء مجلس العموم واقفون في الخلف احتراماً. بدأ هنري، وهو السياسي المعتق، متملقاً شاكراً اقرار

المساعدات في سبيل احتلال بولونيا. ثم تحول ليندد بالجميع بقسوة: "لقد انتفت المحبة والتفاهم بينكم." وحمّل الاكليريكيين معظم المسؤولية عن النزاع الذي مزق المملكة لانهم "يبشرون يومياً بعضهم ضد بعض."

قال: "أنصح لكم بأن تصلحوا هذه الاخطاء وتنشروا الكلمة والا،" – وهنا رشقت عيناه الجمع بغضب – "عملت بنفسي لاهماد هذه النزاعات."

ران على القاعة صمت. ربما كان معظم المستمعين يوافقون الملك رأيه بعقلهم الواعي، لكنهم في عقلهم اللاواعي كانوا يتساءلون عن قيمة النظام والحكومة عندما تصبح مسألة الخلاص في الآخرة على المحك.

استمرت الحرب بطيئة طوال ربيع ١٥٤٦ فيما الفرنسيون يحاولون استرجاع بولونيا. وفي ٧ يونيو (حزيران) وقعت معاهدة سلام تعاد بولونيا بموجبها الى فرنسا عام ١٥٥٤ في مقابل مليوني كراون. لكن هنري لم يكن ليعود الى فرنسا في حملة أخرى، ففي فبراير (شباط) أصيب بنوبة حمّى حادة.

تفاقمت القروح في ساقيه وارتفع ضغط دمه (كان يشكو دائماً من الصداع) وعانى مشاكل في الكليتين. وسرعان ما ستتحقق "نبوءة" اللورد مونتغيو المتهور الذي أعلن عام ١٥٣٧ أن ساق هنري ستقتله.

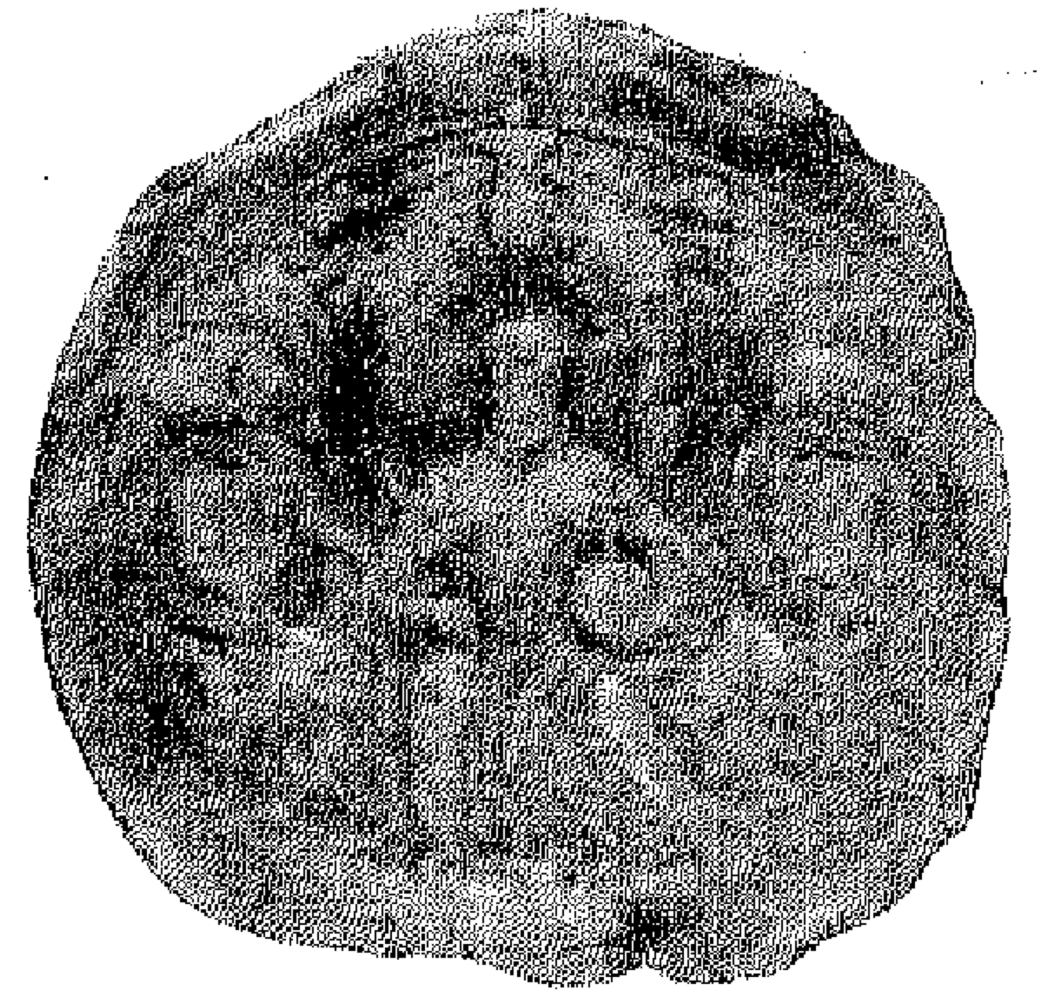
لقد بدأ مرض هنري الاخير.

غياب شمس

واجه الملك الكهل قدره بوعي كامل وقد بلغ الخامسة والخمسين. ومع أنه لم يكن مغرماً بأعباء الحكم حتى في شبابه ("لا، سأقرأ البقية في الليل") فقد استمر في توقيع المذكرات وقراءة البريد وابداء ملاحظاته.

واستمرت الحياة هانئة في القصور الملكية خلال أواخر صيف ١٥٤٦. كان البستانيون يقلمون الشجيرات في ممرات حدائق غرينيتش ويقتلعون الاعشاب الضارة من مساكب الفريز (الفراولة) ويزرعون شتول الورد. وتابع موسيقيو البلاط ومنشدوه تمارينهم وعروضهم. وفي نوفمبر (تشرين الثاني) قدم هنري الى قصره في وايتهول للمرة الاخيرة.

كان مرضه تفاقم كثيراً، لكنه اضطر الى معالجة شأن جديد مثير وخطر: كان دوق نورفوك وابنه ايرل اوف صاري



الخاتم الثالث الاعظم للملك هنري الثامن.

غارقين في الخيانة، أو هكذا بدوا. كان صاري شاعراً وفارساً ونبيلا مدافعا عن بولونيا، لكنه كسر بيديه شعار نبالة يخص الامير ادوارد ولي العهد. وأورد الادعاء أن اللورد نورفوك تواطأ مع ابنه لتنفيذ الجريمة.

لم يكن هناك دليل قاطع ضد الدوق، لكن هنري قرر أن يتخلص من الاثنين، فواجبه حماية ابنه وسلالة تيودور. وهكذا اعتقل نورفوك وصاري في ١٢ ديسمبر (كانون الاول) وأرسلا الى البرج.

خلال شتاء لندن الضبابي بذل الاطباء ما استطاعوا لاراحة الملك، مستخدمين ماء الورد وماء العشبة الخنزيرية وغسل الفم والكمادات ومراهم البواسير ولزقات المعدة والذرور (البودرة) الملطفة والقرفة المجففة المحلاة والزنجبيل الاخضر. كان الجراحون يفركون جسم الملك الضخم بالاسفنج المبلل على الدوام، وكان هواء الغرف الرطبة عابقا بروائح نار الحطب والمسك والعطور الغالية الثمن.

وهكذا مر الميلاد. وفي ٧ يناير (كانون الثاني) وجهت تهمة الخيانة العظمى رسمياً الى نورفوك وابنه. وحوكم صاري في ١٣ يناير (كانون الثاني) في غيلدهول، فتكشفت أمام المحكمة كل آثامه السابقة. كان أدخل السجن قبل أربع سنوات لتحطيمه نوافذ في لندن بمقلاع. وهو "أحب محادثة الاغراب وتقليد تصرفاتهم."

وبتَّت مذكرة من هنري رأي هيئة المحلفين على رغم الدفاع الرائع الذي قدمه صاري. فحُكم بقطع رأسه في تاور هيل خلال أسبوع، ونفذ الحكم في ١٩ يناير (كانون الثاني). أما نورفوك فقد استجوبه المجلس بقسوة حول تهمة التآمر للخيانة العظمى وجُرِّد من حقوقه المدنية. ومن حسن حظه أن الاجراءات طالت كثيراً.

في هذه الاثناء ساءت حال الملك فأرسل في طلب الملكة. قال لها: "مشيئة الله أن نفترق." فانهارت كاثرين، فأمرها هنري بالخروج. أما الامير ادوارد (٩ أعوام) الذي كان في أشريدج وسط غابات شجر الزان، والاميرة اليزابيت (١٣،٥ عاما) التي كانت في قصر انفيلد، فلم يريا والدهما في ساعاته الاخيرة.

في ٢٧ يناير (كانون الثاني)، يوم دين نورفوك بتهمة الخيانة العظمى بقرار من البرلمان، بدا أن هنري يحتضر. ولما سئل عما اذا كان يرغب في رؤية رجل دين أجاب: "كرانمر فقط، ولكن لم يحن الوقت بعد." ثم أضاف بعناده المعروف وقدرته على أخذ قراراته حتى النهاية: "سأنام قليلا ثم أرى حالي وأشير عليكم بما يجب فعله."

لكنه أخطأ الحساب هذه المرة. كان شبه عاجز عن النطق عندما أفاق. ولما وصل رئيس الاساقفة في منتصف الليل كان تخطى مرحلة الكلام، وكل ما استطاع عمله ضغط يد كرانمر دلالة الايمان والتوبة. وفي الثانية صباحاً توفي هنري الثامن بعدما هيمن على انكلترا قرابة ثمان وثلاثين سنة.

انطلق موكب الجنازة من قلعة وندسور في طقس معتدل مع هبوب ريح غربية حملت بشائر الربيع. وجرّت العربة التي حملت جثمان هنري سبعةُ أحصنة امتطاها أولاد نبلاء في ثياب سود. وكان الجثمان حُنِّط وأقفل عليه في صندوق من الرصاص داخل النعش.

في ١٦ فبراير (شباط) ١٥٤٧ فُتح المدفن الملكي تحت منصة المرتلين في كنيسة القديس جورج، وأنزل ١٦ عنصراً من الحرس الملكي النعش الكبير الى جانب نعش الملكة جين.

وهكذا انتهت حياة هنري الثامن أقسى ملوك انكلترا وأكثرهم مزاجية وإرعاباً.

انقذ موت هنري الدوق نورفوك من الاعدام. وتزوجت كاثرين بار السر توماس سيمور الذي كانت مخطوبة له قبل أن يطلبها الملك.

وخلف الامير ادوارد (ادوارد السادس) أباه، لكنه لم يعمّر طويلا اذ أصيب بداء السل وتوفي ولمّا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره. وهو وافق عند احتضاره (ربما لضمان خلافة بروتستانتية للعرش) على أن تصبح اللايدي جين غراي ابنة حفيد هنري السابع ملكة على انكلترا. لكن الشعب التف حول الاميرة ماري (ماري الاولى) ابنة هنري الوحيدة المتبقية من كاثرين الاراغونية وكانت كاثوليكية مخلصة. وقطع رأس اللايدي جين التي لم يدم حكمها سوى تسعة أيام. وأحرق كرانمر بتهمة الهرطقة. وتوفيت "ماري الدموية" (لقب الملكة ماري الاولى) في العام ١٥٥٨ فخلفتها على العرش ابنة هنري من أن بولين الاميرة اليزابيت (اليزابيت الاولى) آخر سلالة تيودور.

البروفسور جون باول ■

ترجمة فواز خوري



الذكاء يزعج!

بعدما انتهى مهندس الكمبيوتر من برمجة جهازنا الجديد في الشركة، طلب مني أن أساعده في تدريب الموظفين على استعماله. وقد قالت لي احدى الموظفات: "يسرني كثيراً أنكِ أنتِ تدربينني وليس المهندس."

فدهشتُ وأخبرتها أن للمهندس من المعلومات ما يفوق خبرتي أشواطاً.

فردت الموظفة: "أدركُ ذلك تماماً. لكنني أشعر بالراحة معك أكثر، فالاشخاص البالغو الذكاء يثيرون أعصابي."

ر.ب.

كتاب الشهر



ابنتي غيّرت حياتي

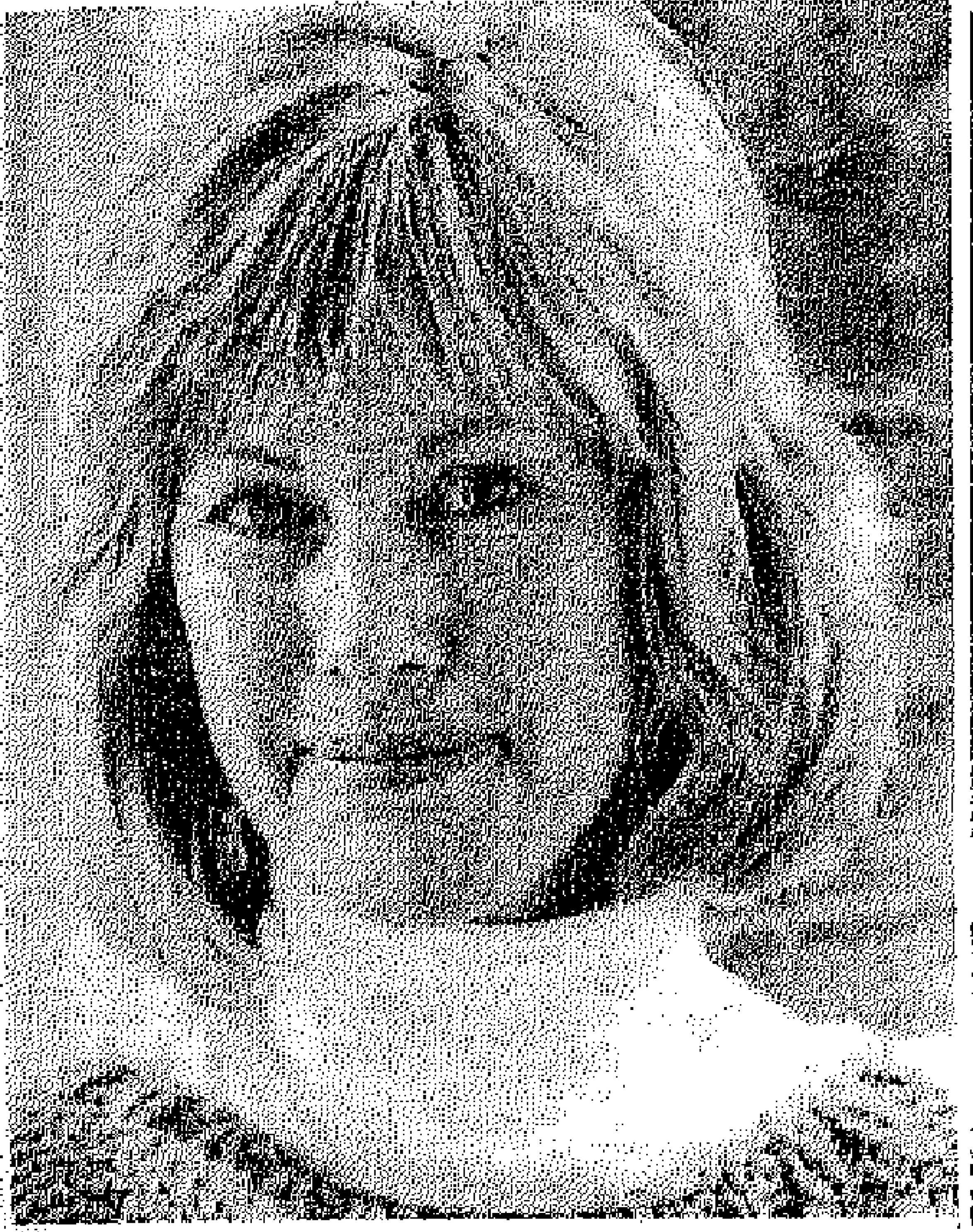
ملخص من كتاب "ولدتُ قبل الاوان: قصة ابنتنا اميلي"

بقلم اليزابيث مهرن بترفيلد

ابنتي غيّرت حياتي

كانت ولادة إميلي أعجوبة وعذاباً في آن. فهي ولدت قبل أوانها، وكان وزنها دون الكيلوغرام ورئتاها في حجم كيسَيْ شاي ولم يتجاوز حظها في الحياة ٥٠ في المئة.

وها هي أمها اليزابيث ترسم صورة مؤثرة عن حياة ابنتها وكفاحها من أجل البقاء، وعن العالم الغريب المرعب الذي ولجته مع زوجها بعد الولادة. وهما اختبرا خلال تلك الفترة أفراحاً كبيرة وأتراحاً عظيمة وعواطف عميقة ولّدتها المأساة والاحزان. لكنهما عايشا طفلة جميلة شجاعة غيرت حياتهما الى الابد.



أقلعت الطائرة في موعدها المحدد على غير عادة. وكنت أتطلع بشوق الى الرحلة الهادئة من لوس انجلس الى نيويورك اذ عَنَتْ لي الهرب من المكالمات الهاتفية وارجاء أخذ أي قرار سوى اختيار ما آكله أو أشربه. كنت في شهر حملي السادس، فاخترت الحليب شرابا.

شعرت بارتياح وأنا أشد حزام المقعد. وخيل الي أني أضم وليدتي المنتظرة بعد ١٥ أسبوعاً ونصف أسبوع. وكنت وزوجي فوكس عرفنا أنها أنثى، فسميناها اميلي. لذلك، حين أقفلت الحزام حول بطني المنتفخ سمعتُني أحدثها قائلة: "أنتِ في أمان يا صغيرتي اميلي. فنحن هنا مربوطتان معاً."

كنت مراسلة لصحيفة "لوس انجلس تايمز" في الساحل الشرقي للولايات المتحدة، أسافر عبر البلاد مرة في الشهر. وحين علم الاصدقاء أني حامل سألوني مازحين عما اذا كنت أدرجت اسم اميلي في قائمة المسافرين الدائمين لكي تحصل على تذاكر بأسعار مخفوضة. وكنت أنا عالمة باحصاءات الاسقاط خلال الاشهر الثلاثة الاولى من الحمل. كما أني أسقطت جنيناً قبل سنوات. لذلك، لم أجد بدأ من إبطاء نمط حياتي والاحجام عن رياضة العدو والايروبيك والانقطاع عن تناول الكافيين.

عندما التقيت فوكس كنت في التاسعة والثلاثين من عمري، وكان هو في السابعة والاربعين. وكان كلانا متزوجاً سابقاً. تعرفت اليه خلال احدى الحفلات، وعلمت أنه رجل مستقيم من بنسلفانيا. وهو لم يخطب ودي بوعود زائفة، بل قررنا الزواج بعد لقائنا الاول. وعلم فوكس برغبتي الطاغية في أن أنجب طفلاً، اذ حدثته عنها ربما خلال لقائنا الثاني.

لم يكن مستبعداً من رجل متعقل في السابعة والاربعين له ولدان من زواج سابق، أن يبتعد عني لدى سماعه قولاً كهذا. لكن فوكس أرادني فعلاً أن أنجب. كان كلانا يؤمن بأن الحب والزواج والانجاب أمور متلازمة، وهو تاق الى انجاب ثمرة حية لحبنا.

سارت الامور حسناً على جبهتي الحب والزواج. أما انجاب الاطفال فكان مسألة أخرى. وكانت دقات ساعتي البيولوجية تسرق النوم من عينيّ وأنا قابعة قلقة أتحسَّر على كل شهر ينصرم من حياتي. وأخيراً لجأت الى طبيبي طالبة المساعدة. ورحت أتناول حقناً من مركب هرموني يساعد في حفز الاباضة.[1]

الحقيقة أننا لم نؤمن بهذا العلاج. وكنا على علم بالاحصاءات التي لم تبشرنا بخير يرجى.

ثم تأخر طمثي.

... وأمضيت فترة حمل لم يتخللها أي حدث مقلق. وبينت الفحوص أن كروموزومات[2] الجنين طبيعية، وأننا سننجب طفلة.

أخلدت الى القراءة في رحلة العودة وفي أحشائي طفلة عمرها ٢٤ أسبوعا ونصف أسبوع. وقدَّرت أني سأصل الى نيويورك باكراً في المساء فأتناول طعام العشاء مع زوجي الذي اشتقت اليه كثيراً وإن كنت لم أفارقه سوى ثلاثة أيام.

ربَّتُّ اميلي مرة أخرى. وعندما أغمضت عينيّ رحت أتخيلها طفلة كاملة النمو لا جنيناً في أحشائي. رأيتها ممددة في المهد على بطنها غارقة في نوم هادىء على حرام مزدان برسوم أرانب صغيرة. فقلت في نفسي وأنا أتحسَّس بطني: "أحبك أيتها الارنبة الصغيرة الحلوة."

(١) Ovulation اي خروج البييضة من المبيض.
(٢) الكروموزوم او الصبغي خييط في نواة الخلية يحوي الجينات التي تحمل الخصائص الوراثية.

علمت أننا قطعنا أكثر من نصف المسافة اذ مضى أكثر من ثلاث ساعات على اقلاعنا. وبعدما أكلت الوجبة التي قدمت الي وقرأت نحو ثلثي كتابي، طويت الصفحة التي بلغتها ونهضت، ليطالعني ما غيَّر حياتي الى الابد.

كان مؤخر ثوبي مشبعاً بسائل انهمر مني غفلة وبلل غطاء المقعد من غير أن أشعر بألم أو انزعاج. كان السائل صافياً ودافئاً وبلا رائحة. وعلى رغم أني لم أقرأ كتاباً يحذرني من هذا الاحتمال، فقد علمت للحال أن تمزقاً حصل في غشائي النُخطي.[٣]

كنا على ارتفاع ١١ ألف متر عندما بلغ حملي الهانىء نهايته. فقلت لنفسي: "حافظي على هدوئك يا فتاة، ولا تهلعي."

كنت كمن يمازح نفسه، اذ تملكني الذعر ولم أستطع الحفاظ على رباطة جأشي.

* "هي ابنتنا" *

صُعقت المضيفة عندما أخبرتها بما حصل، خصوصاً لأنها لم تلاحظ أني حامل. لكنها تمالكت نفسها وطلبت مني أن أرفع قدميَّ عالياً. ثم سألتني إنْ كنت أشعر بألم. ولما أجبتها سلباً قالت لي: "هذا حسن." وعندما تحققت من أني لا أنزف طمأنتني قائلة إن الامر لا يبدو خطيراً. ثم اتصلت بمطار نيويورك طالبة تأمين كرسي نقال.

وما إن وصلت الى المطار حتى اتصلت بطبيبي هاتفياً. فطلب مني التوجه من فوري الى المستشفى. ثم كالمتُ فوكس، وحاولت ألا أنهار كلياً عندما أجابتني المسجِّلة. فتركت رسالة قلت فيها: "أنا في طريقي الى المستشفى. أرجو أن توافيني بالسرعة الممكنة."

ولدى وصولي الى المستشفى كشف عليَّ أحد الاطباء وأكد لي ما شخصته وأنا على ارتفاع ١١ كيلومتراً.

بعض النساء في مثل هذا الوضع يواصلن حملهن لعدة أسابيع، أما الاحتمال الاقوى فهو ولادة الطفل خلال يومين أو ثلاثة أيام.

جلست في سريري مساء الاربعاء أحتسب أني سأكمل بعد يومين، أي الجمعة، الاسبوع الخامس والعشرين من حملي، وهي مرحلة تتعادل فيها احتمالات نجاة الوليد وموته، ويستحيل التكهن بالنتيجة. لذلك وجدت أن كل ما أستطيعه هو الترقب والانتظار.

وصل فوكس الى المستشفى حاملاً باقة من الزنبق الارجواني. وكنت وقتئذ مستلقية وقدماي مرفوعتان في وضع تعين عليّ التزامه طوال فترة حملي مهما طالت.

حاولت أن أقنع نفسي بأني اذا حافظت على هذا الوضع مدة كافية فستولد اميلي

(٣) Amniotic sac . وهو غشاء يحيط بالجنين ويحوي سائلا يسبح فيه الجنين. ويدعى ايضا السَلى.

بصحة جيدة باكتمال فترة الحمل الطبيعية. وأخبرت زوجي بأني خائفة، بل خائفة جداً. فرد وعيناه لا تفارقان عدّاد النبض: "وأنا كذلك."

كانت الارقام الحُمْر المتواثبة محط انتباهنا ومثار هلعنا. لكنها أيضاً مدتنا بنوع من الطمأنينة، فهي وسيلة اتصالنا الوحيدة بابنتنا، وما دامت تتراقص صعوداً وهبوطاً فهي تعني أن اميلي ما زالت حية.

وكلما تخيلت اميلي رأيتها طفلة ممتلئة بالحياة، قابعة في مهدها هانئة فوق حرامها المزدان برسوم الارانب. ولم أكن أسمح لنفسي بأن أتخيلها ميتة، فكيف أعيش أنا إن هي ماتت؟

في الماضي، عندما كان الازواج ينجبون أطفالاً كثيرين، كان موت الاطفال حدثاً عادياً. لكني لا أصدق أن الامهات كن يجدن عزاء بعد فقدان أطفالهن. فالمعاناة الناجمة عن فقدان أم طفلها تبقى خارج كل المقاييس.

جاء الخميس وتلاه الجمعة، ولازمني فوكس معظم الوقت وكان يخبرني بالمكالمات الهاتفية التي يتلقاها من أفراد العائلة والاصدقاء. وعرفت أنه لا ينام. وحين غادرني في العاشرة ليلاً بدا مرهقاً على نحو لم أشهده قبلاً.

ولم تمضِ ساعة على انصرافه حتى بدأ مخاضي. بيد أن الطبيب المقيم عزا الألم الى الغازات المعوية. وفي الثانية صباحاً رحت أتلوّى ألماً. فنقلتني ممرضة الى غرفة التوليد. وعندما نظرت الى الوجوه المحيطة بي رأيت طبيبة في لباس معقّم، فأشرت اليها لكي تقترب مني. وكان ما أردت أن أسربه اليها أمراً غاية في الاهمية.

قلت: "أرجوكِ، أنا لا أطلب أعمالاً بطولية. فلئن كان مقدّراً ألا تُكتب الحياة لهذه الطفلة، فعلينا ألا نجبرها على ذلك."

حمَلتْ تلك اللحظة ذروة مخاوفي وقلقي المروِّع. فحياة طفلتي على المحك. وأنا مرتاعة من أن تكون من الصغر بحيث لا يمكنها العيش خارج جسدي، أو أن تكتب لها حياة تعسة. أردت أن تعيش اميلي بهجة الحياة لا عبئها. أردتها أن تكون تلك الطفلة التي تخيلتها تلعب وتثرثر هانئة في مهدها المزدان بالرسوم الملونة. أردتها أن تكون طفلة جذلة تطل عليَّ من كرسيّها العالي وتلهو بدلوها ومجرفتها على رمال الشاطىء.

ردَّت عليّ الطبيبة بصوت خلا من المشاعر: "لا تشغلي بالك بالبطولات. فالطفلة، في ظني، لن تبصر النور."

ثم دنت مني وفي يدها حقنة كبيرة، فقد ارتأى طبيب التوليد تغييبي عن الوعي ما أمكن تحسباً لولادة اميلي جهيضة. وكنت منشغلة كلياً بالتنفس والدفع فلم أشعر بالحقنة وهي تخترق جلدي.

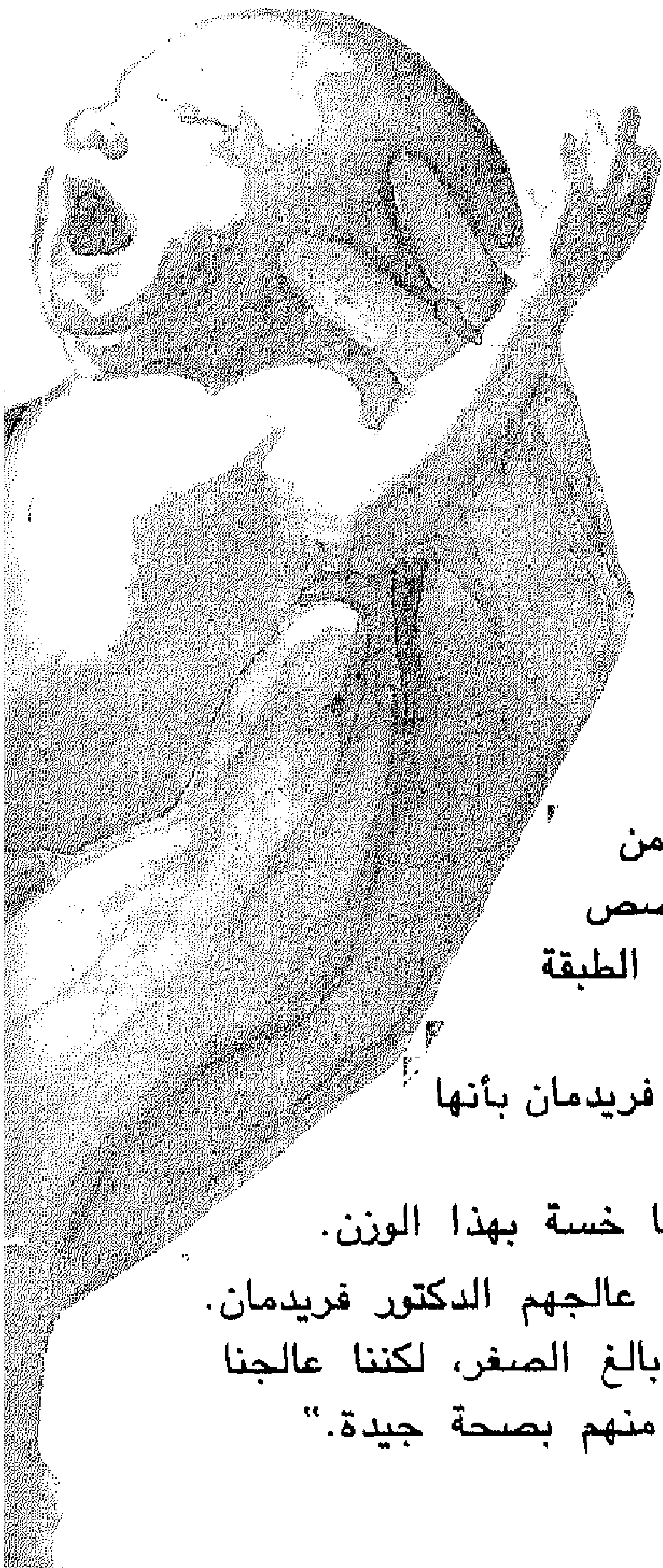
وُلدت اميلي في الخامسة والنصف صباحاً مندفعة بزخم هائل. وسمعت صرختها

على رغم تنامي الخدر في دماغي، صرخة مفعمة بالحيوية أطلقتها عالية كأنها تحتج على ولادتها المبكرة. وما هي الا لحظات حتى جرفني المخدر بعيداً عن عالم الحس.

استيقظت بعد ساعات لأجد فوكس جالساً الى جانبي. وما إن فتحت عينيّ حتى مال نحوي مقرباً وجهه من وجهي والهمّ باد عليه. فظننت أنه حائر كيف ينقل إليَّ النبأ المشؤوم.

وأخيراً قال: "جئت الآن من فوق، حيث رأيت فتاة صغيرة." ثم أخذ نفساً قصيراً وتابع: "والفتاة هي ابنتنا نحن."

فأخذت أنشج باكية. وبكى فوكس هو أيضاً. وبعد لحظات اقترب مني ولف ذراعيه حولي حتى تلامست وجنتانا وأخذت كلماته تتدفق مباشرة الى أذني.



قال: "هي حية. وهي جميلة. وهي لنا."

* اخبار غير مشجعة *

كان فرحنا قصير الأجل، اذ سرعان ما انبثق من وراء الستارة المحيطة بسريري رجل غريب بدا كأنه يتحين الوقت المناسب لأداء دور في المسرحية. كان صغير البنية ذا لحية قصيرة مشذبة تخللتها خصل من الشعر الابيض.

عرَّف عن نفسه، انه الدكتور جون فريدمان الاختصاصي بالمواليد الجدد. وكان هو من اصطحب فوكس الى جناح الحضانة «K9» المخصص للعناية بالاطفال المرضى والناقصي الوزن في الطبقة التاسعة من المستشفى.

بلغ وزن ابنتنا ٧٦٠ غراماً. ووصفها الدكتور فريدمان بأنها "صغيرة، بل صغيرة جداً."

فكرت في أني لا بد اشتريت في وقت ما خسة بهذا الوزن.

لكن اميلي لم تكن صغرى الاطفال الذين عالجهم الدكتور فريدمان. قال الطبيب: "صحيح أن ٢٥ أسبوعاً عمر بالغ الصغر، لكننا عالجنا سابقاً أطفالاً في هذا العمر، وعاش كثيرون منهم بصحة جيدة."



ومع ذلك، من الممكن أن يرتكس نمو الطفل الخديج[4] في أي لحظة أو في أي يوم. فللاطفال البالغي الصغر عادة سيئة هي أنهم ينسون أن يتنفسوا، فيتحول لونهم أزرق في لحظة. وتباطؤ عمل القلب لفترات وجيزة هو عامل خطر دائم. كما يصاب هؤلاء الاطفال بأمراض جرثومية في أوقات يندر توقعها. ومع أن التكنولوجيا الحديثة تستطيع انقاذ بعضهم، فانها قد تحكم عليهم بالعيش في كابوس عُصابي.

* مثل دمية *

بعد فحوص أولية بدت رئتا اميلي، اللتان لم تزيدا حجما على كيسي شاي، خلواً من المشاكل التنفسية. ومن أجل مدها بدفق ثابت من الاوكسيجين النقي، أولج الاطباء في قصبتها الهوائية (الرغامى) أنبوبا متصلاً بجهاز تنفس.

اعتبر الدكتور فريدمان تيقُّظ اميلي مؤشراً ايجابيا آخر. ومع أن عينيها ظلتا مغمضتين فهي استجابت للمس، مما أوحى أن جزءاً من جهازها العصبي كان يؤدي وظيفته على نحو مقبول. وكنا محظوظين لكون اميلي أنثى، لأن فرص نجاة المواليد الذكور في مثل عمرها هي، لسبب مجهول، أقل نسبيا، اذ انهم عرضة للاصابة بمشاكل رئوية خطيرة.

وقدَّر الدكتور فريدمان فرص نجاتها خلال الساعات الـ ٢٤ الاولى الحرجة بـ ٥٠ في المئة في أحسن تقدير. وذلك لعمري رقم غير مشجع. فلو قيل لي، مثلاً، إن احتمال سقوط طائرتي هو ٥٠ في المئة، فهل أقبل بركوبها؟

بيد أني كنت مقتنعة بالقول المأثور عن الكوب الذي ملىء نصفه، فاما أن يراه المرء نصف ملآن وإما أن يراه نصف فارغ. لذلك قررت تجاهل الـ ٥٠ في المئة المضادة وتقبُّل الـ ٥٠ في المئة التي كانت لمصلحة اميلي.

قال فوكس للدكتور فريدمان: "أخبرها عن حال اميلي العقلية."

فقال لي الطبيب: "انها لا تنفك تركل. أعتقد أنها غاضبة."

كان هذا أفضل خبر تلقيناه لدلالته على أن ابنتنا تكافح لتحيا.

بعد ظهر ذلك اليوم نهضت من فراشي لزيارة اميلي، وسرت جارَّة ورائي عمود المصل الوريدي. وقادني فوكس في ممر الجناح «K9» الى أن بلغ بنا المطاف وحدة العناية المركزة للمواليد الجدد في الغرفة الاخيرة الى اليمين. وهناك طالعتني المحاضن[5] وقد صُفَّت حول جدران الغرفة الصغيرة الساطعة الانارة. وكان في وسط الغرفة "جزيرة" مستطيلة من أربعة محاضن كانت ابنتنا في أقربها.

---

(٤) الخديج هو المولود قبل الاوان.

(٥) Incubators . والمحضن جهاز لحضانة المواليد الذين تضعهم امهاتهم قبل الاوان.

كل أم تنظر الى طفلها للمرة الاولى ترى فيه أعجوبة محققة ويساورها اعتقاد أنه الاجمل بين خلق الله قاطبة.

ولم أكن أنا مستثناة من هذه القاعدة. لقد كانت ابنتي أصغر من الدمية التي كنت ألهو بها في طفولتي. كانت جفونها ملتحمة، ويداها قابضتين باحكام، وقدماها لا تزيدان على خمسة سنتيمترات طولاً، وأذناها مثل صدفتين منمنمتين. ومع ذلك رأيت فيها أجمل طفلة وقعت عليها عيناي. فتسمرتُ قبالتها لا أستطيع رفع نظري عنها، وتملكتني عاطفة جديدة هي حب الأم الصادق الذي لا يقبل أي تردد أو نقاش.

ولو نظر امرؤ أقلّ محاباة الى صغيرتي لرأى فيها طفلة رقّ جلدها حتى بانت عروقها، عجفاء الى حد يحفر الألم في النفس. فالجنين المولود في أوانه يزداد وزناً خلال الشهر الأخير من الحمل بمعدل ٢٢٥ غراما في الاسبوع. أما الخديج فيولد بأصابع تبدو مفرطة في الطول كثيرة العظام، وبمرفقين كأنهما زاويتان حادتان، وبأنف مثلوم وذقن ناتىء لخلوه من طبقة دهنية تبطّنه.

فجأة سمعت الممرضة تقول لي: "تستطيعين لمسها إنْ أردتِ."

كنا مأخوذَيْن بمرأى اميلي فلم نرَ الممرضة وهي تقترب منا. حدّقتُ النظر الى المحضن، فرأيت في مؤخره ومقدمه زوجين من الكوى يمكن ادخال اليدين عبرهما. ولما شرحت لنا الممرضة كيف ننزع مشابك الكوى سألتها وأنا قلقة من أن يؤدي فتحها الى تغيير حرارة الاوكسيجين في المحضن: "أواثقة أنتِ من صواب هذا العمل؟"

فرمقتني الممرضة بنظرة ضاحكة وقالت: "يحتاج الاطفال البالغون الصغر الى اللمس، بل إنهم يحبون ذلك. وهذا أمر مهم لهم."

مددت يدي عبر كوة، وكانت اميلي مستلقية على ظهرها. فمرَّرت إصبعي على ذراع في نعومة الورد. وعندما لمست يدها أطبقت حول إصبعي باحكام.

بدت لي تلك الحركة الارتكاسية كضرب من السحر. أردت أن أبكي، لكني بدلاً من ذلك سمعت نفسي أقول: "هذه أنا يا صغيرتي. هذه ماما. أحبك يا اميلي."

تمنيت لو أترك اميلي متشبثة باصبعي الى الابد. لكن فوكس أراد هو أيضاً أن يلمسها. فمد يده عبر الكوة، وراح يربت رأسها بلطف وحنو هامساً: "هذا بابا يا اميلي. بابا يحبك."

كانت الغرفة صغيرة لا يتجاوز طولها سبعة أمتار وعرضها ٤،٥ أمتار. وكان في ستة من محاضنها العشرة أطفال من أحجام وأشكال وألوان مختلفة، ومنهم طفل رأيته مستلقيا تحت أضواء زرقاء ساطعة مثبتة في محضنه وعلى عينيه نظارتان، فبدا كراكب دراجة نارية منمنم.

قالت الممرضة: "هذه أضواء بيلي."[٦] ومعروف أن المواليد الجدد هم عرضة لتكوُّن مستويات عالية من البيليروبن، أو حمرة المرَّة، وهي مادة صبغية صفراء في الدم يمكن أن تكون سامة. والمعالجة الضوئية أو "أضواء بيلي" هي الطريقة المتبعة في هذه الحال. أضافت الممرضة: "قد تُعالج اميلي أيضاً بهذه الطريقة، وهي ليست خطيرة، فلا تقلقي."

كانت وحدة العناية المركزة للمواليد مكاناً مفعماً بالضجيج تقرقر فيه الماكينات وتهسهس وتهدر. وكانت جميع أجهزة المراقبة هناك موصولة بأجهزة انذار. فاذا أهمل الجهاز العصبي في جسم الطفل الخديج تذكيره بالتنفس، زعق مرقاب انقطاع التنفس كصفارة انذار. واذا أبطأ نبض الطفل فجأة، أطلق مرقاب نبضات القلب النفير.

كان صعباً عليَّ أن أتحاشى الشعور بأن كل لحظة أمضيها مع اميلي قد تكون الاخيرة. ولئن يكن كثير من مجريات الامور يعتمد على العلم والخبرات الطبية المتقدمة، فان كثيراً مما كان يحدث لي ولزوجي ولابنتي – ولجميع الوالدين والاطفال الذين قذفتهم الاقدار الى هذا المحيط الغريب – كان شأن إيمان.

كانت اميلي طفلة جميلة. راقبت صدرها الصغير وهو يعلو ويهبط مع كل نفَس. كانت كل نشقة تعبيراً عن تصميمها على الحياة. كانت جميلة، وكانت شجاعة جداً.

* الامل والصبر *

خسرت اميلي بعض وزنها في أيامها الاولى كما كان متوقعاً. ووُضعت تحت أضواء بيلي حيث بدت بنظارتيها الملتفتين حول رأسها الصغير كأنها تأخذ حماماً شمسياً. وكانت صباح يوم الاحد، ثاني أيام وجودها، قد فتحت عينها اليسرى التي بدا لونها أزرق فيروزياً براقاً. وفي اليوم التالي فتحت عينها اليمنى.

ما ان عرفت اميلي كيف تفتح عينيها حتى باتت غير راغبة في إغماضهما. ومع أن جميع الكتب الطبية تفيد أن نطاق الرؤية محدود لدى المواليد الجدد، وأنه أضيق لدى المواليد الخدَّج، فقد كانت اميلي تتابع الاشياء بعينيها وتفتحهما بسرعة البرق كلما سمعت صوتاً. وهي ظلت ترفس بقوة بحيث وصفتها الممرضات في البيانات اليومية بأنها "نشطة ويقظة."

بدت رئتا اميلي سليمتين من الاعتلالات التنفسية. وكانت عينات من الدم تؤخذ من عقب قدمها كل بضع ساعات لفحص مستويات الاوكسيجين وثاني أوكسيد الكربون، وأظهرت الفحوص أن مستويات الغازات في دمها مطمئنة.

لم تمضِ فترة قصيرة حتى تكيَّفنا وعالمنا المصغر الجديد، وحدة العناية المركزة

(٦) Bili lights

للمواليد. فلم أعد أرى الآلات حولنا، واعتدت منظر الالكترودات المتناثرة على صدر ابنتي، وأقلعت عن مراقبة مقياسي النبض والاوكسيجين الموضوعين الى جانبها، ولم أعد أعتبر الانبوب المولج في قصبتها الهوائية ملحقاً شنيع المنظر، بل بتُّ أراه جزءاً من اميلي، مثل أنفها أو اصبع قدمها.

كان التحدث الى اميلي يمدني بمتعة خالصة. وكنت لا أكف عن الثرثرة، سواء أكانت مستغرقة في النوم أم مستيقظة ترمقني بعينيها الزرقاوين الثاقبتين. تحدثت اليها وهي ممسكة باصبعي. وتحدثت اليها وأنا أربت بطنها. أخبرتها عن عائلتها وعن هذا المكان الغريب الذي هو منزلها الموقت. وكلما تلقيت زهوراً أو هدايا أخبرتها باسهاب عن مرسليها. لا بد من أن اميلي تساءلت مراراً عما اذا كنت سأكف يوماً عن الثرثرة.

التحدث الى اميلي أشعرني بأني أمها حقاً. وكلما نظرت اليها ولمستها تأكد لي أنها حقيقة لا تقبل جدلاً. لم أكن قادرة على التجوال بها في عربة عبر الشوارع، أو على جعل أصدقائي يرونها، لكني استمتعت بكل لحظة قضيتها معها.

عندما سُرِّحتُ من المستشفى بعد أسبوع من دخولي صَعُبَ عليَّ أن أخرج صفر اليدين. فوجدتني أعود الى المكان يومياً، يستقطبني مغنطيس اسمه اميلي. ألفيتني في حاجة ماسة الى أن أكون معها وإن عنى ذلك مجرد الوقوف الى جانب المحضن. أما فوكس فكان أقل الحاحاً مني لأن مرأى المحضن كان يزعجه. وقد شرحت لي ممرضة اسمها لسلي الامر: "هذا طبيعي. أنظري حولك. مَنْ يأتي الى هنا؟ الامهات طبعاً. أما الرجال فلا يسعهم مواجهة هذا الوضع. الامر صعب جداً عليهم."

كانت لسلي في عمري. وهي نالت اجازة ماجستير ومارست التدريس مدة خمس سنوات قبل أن تتحول الى التمريض. وأمضت في المستشفى نحو ١١ سنة معظمها في وحدة العناية المركزة للمواليد. قالت: "علمت منذ البداية أني أنتمي الى هذا المكان."

أخبرتني لسلي أن اميلي ستوضع في عهدتها طوال مدة بقائها في الجناح «K9». وكنا كلما عبرنا الممر الى غرفة الحضانة نجد لسلي هناك. فاطمأن بالي الى نوعية الخدمة واستمرارها.

كان كثير من الوالدين يبقون مع أطفالهم في المستشفى بضعة أيام وأحياناً بضع ساعات، لذلك لم يتسنَّ لنا التعرف اليهم. أما نحن، المواظبين على هذا المكان الغريب، فتعارفنا تدريجاً وما لبثت الايماءات والنظرات السريعة أن تحولت كلمات تشجيع ألفنا تبادلها.

لم يكن الامر سهلاً على أي منا. لاحظت أن والدي الطفل المجاور لابنتي نادراً ما

كانا يتحدثان الى أحد، حتى الى الممرضة التي تعنى بطفلهم. وتبين لي لاحقاً أنهما من الاكوادور ولا يتكلمان سوى الاسبانية.

كانت السيدة ديان، التي تصغرني ربما بعشر سنين، تضع نظارتين بنيتي الاطار، ولها شعر أسود مسترسل. وبعد أيام من تبادل الابتسامات المهذبة الصامتة استجمعتُ شجاعتي لأجرب معها ما تعلمته من لغة اسبانية خلال دراستي الثانوية.

سألتها منتقية كلماتي بحذر شديد: «Es su primer niño?» أي هل هذا ابنك الأول؟

فأشرق وجهها وأجابت بوابل من الاسبانية.

فقلت: «Despacio, por favar» أي على مهل أرجوك.

وهكذا صرنا نتبادل أحاديث يومية كانت تدور كلها حول صحة طفلينا.

كان حديثنا بدائياً في الواقع. لكننا مع ذلك كنا قادرتين على تبادل الابتسامات والتشارك في الارتباك والمخاوف الكثيرة التي كنا نحسها. فالقلق، أياً تكن اللغة، هو الشعور الذي يطغى على الوالدين في مثل هذا الوضع. لذلك اتفقنا على أمرين قررنا ألا نتنازل عنهما أبداً: «Esperanza y paciencia» أي الامل والصبر.

وهذا ما كنا نردده عند الوداع كل يوم.

* "اميلي فتاة وليست صبياً" *

حلَّت الازمة حوالى منتصف ليل ٥ أبريل (نيسان) اليوم العاشر من حياة اميلي. وكتب الدكتور فريدمان في سجلها اليومي: "قد تكون اميلي مصابة بالتهاب تنكرزي في المعي والقولون."[٧] وهذا أحد أسوأ الاخطار التي تترصد المواليد الخدّج، وهو، كما شرحت الممرضة، "يعني حرفياً موت جدار الامعاء."

وتحصل الاصابة بهذا المرض حين تهاجم الامعاء أنواع "صديقة" من الجراثيم (البكتيريا) التي تسبب انتفاخا وتعيق عملية الهضم من جراء ما تنتجه من فقاقيع غازية. فاذا تخرَّم جدار الامعاء، فقد تنتشر العدوى عبر التجويف البطني وتسبب الوفاة. وفي حالات أقل حدة، قد تتولى الامعاء اصلاح الخلل ذاتيا، وإلا أصبحت الجراحة ضرورية لاجتزاء الانسجة التالفة وإعادة وصل الاجزاء الحية. ولكن، بالنسبة الى اميلي، قد تكون الرحلة القصيرة الى غرفة العمليات كفيلة بموتها.

أُخضعت اميلي للعلاج بالمضادات الحيوية (أنتيبيوتيك) كما أخبرنا الدكتور فريدمان. ولاستبيان مدى الضرر الحاصل في امعائها، بات من الضروري تصويرها بالاشعة السينية (إكس) تكراراً. كما بات لزاماً وقف ارضاعها والاستعاضة عنه بتغذيتها وريدياً.

(٧) Necrotizing enterocolitis

تذكرتُ أن اميلي بدت في اليوم السابق نزاعة الى النوم على غير عادتها. لكني، اذ كنت جديدة على عالم الولادات المبكرة، لم أدرك أنه كان عليّ قرع جرس الانذار. وكان معروفا عني في وحدة العناية المركزة أني مثيرة متاعب وعُصابية تريد أن تعلم كل ما يحصل لطفلتها. ومع أن لسلي وبعض الممرضات الأخريات اعتبرن تصرفي منطقياً، فان بعض الاطباء الشباب المقيمين بدوا منزعجين من الاحتكاك بالآباء والامهات.

وكنت في ذلك الصباح التقيت الطبيب المقيم دانيال هوه الذي كُلف العناية بابنتي خلال الاسبوعين اللاحقين. وكان الدكتور هوه شاباً بارداً يتّسم بأسلوب كفي جازم حتى لتخاله يعمل في صيانة أجهزة كمبيوتر. وعندما كان وزملاءه يقومون بجولاتهم اليومية، كانوا يتنقلون من محضن الى آخر، مثل قطيع، ويشيرون الى كل طفل بلفظة "هو" من غير اعتبار لجنسه.

قال الدكتور هوه: "سأسحب منه مزيداً من الدم."

فصححت له: "منها." وأضفت بعدما رمقني بنظرة فارغة: "ستسحب منها مزيداً من الدم. إن اميلي فتاة، لا صبي."

رمقني الدكتور هوه بنظرة أخرى تنم عن انزعاج وقال: "اننا نطلق على جميع الاطفال لفظة هو. فذلك أقل تعقيداً."

أُخضعت اميلي خلال فترة مرضها لمزيد من فحوص الدم. فكنت كلما أدرت رأسي أرى ممرضة أو طبيباً يغرز في جسدها الصغير حقنة جديدة. وحتى في حال الضعف التي بلغتها واصلت اميلي الركل والرفس اعتراضاً. الا أن سحب عينات الدم، المتزامن ومرضها، أدى الى نقص تعداد خلايا دمها الحمراء.

اذذاك، قال الدكتور هوه: "سنضطر الى نقل الدم اليه."

فصححت له: "اليها. ستضطر الى نقل الدم اليها."

وكانت اميلي أُخضعت سابقاً لعملية نقل دم. وكنت أنا، بعدما كتبتُ عدة مقالات عن الايدز،[8] لا أثق بالمتبرعين المجهولين. لذلك كان الدم الذي تلقته اميلي وقتئذ منقولا اليها من وحدة تبرعت بها والدتي لدى قدومها من كاليفورنيا لزيارتنا. وكان الاطباء استعملوا نزراً يسيراً من وحدة الدم تلك، لذا اعتقدت أن ما تبقى منها لا بد كثير.

غير أن الدكتور هوه أنبأني بأن ليس في بنك الدم أي دم مُتبرع به لاميلي تحديداً. والسبب أنه كلما دعت الحاجة الى عملية نقل دم يُصار الى "إهدار" وحدة دم كاملة، كما يقولون. وتستغرق عملية فحص الدم الموهوب وتحضيره مدة تراوح بين ٢٤ و٣٦ ساعة، الا أن الدكتور هوه أخبرني أن اميلي تحتاج الى نقل دم قبل انصرام هذه المدة. وأضاف: "علينا اعطاؤه دماً مأخوذاً من متبرع مجهول."

(٨) Acquired Immune deficiency syndrome «Aids» ، وهو داء فقدان المناعة المكتسَب.

فأصابتني رعدة منعتني من تصحيح ضميره المذكر.

بعد لحظات من مغادرة الدكتور هوه وجدت كارول الى جانبي، وهي أم الطفل جون الذي كان في غرفة حضانة الاطفال الحسني الحال.

وكان جون أخضع سابقاً لعشرات من عمليات نقل الدم المأخوذ من متبرعين مجهولين، كما أخبرتني كارول. قالت: "عليك الوثوق بعملية فحص الدم. فهم حريصون حقاً. وما عليك سوى التسليم بأن الدم سليم."

مدني حضور كارول بالثقة الى حد أني لم أشكك في تأكيدها ذاك. الا أني حين رفعت نظري رأيت الممرضة روبن ترمقنا مبتسمة. وكانت، لدى سماعها الحديث الذي جرى بيني وبين الدكتور هوه، حضت كارول على محادثتي.

كانت لفتة روبن مثالا للاسلوب الذي تتبعه الممرضات للحفاظ على تماسك المكان. فالاطباء يصدرون الاوامر. والاداريون يهتمون بسير العمل. أما الممرضات فيحافظن على انسانية التعامل. وقد استطعن جعل الاطفال محطّ اهتمامهن... وعاطفتهن غالبا.

ذات صباح وصلتُ في تمام السابعة الى وحدة العناية المركزة، فوجدت أليَنور، وهي ممرضة أمضت ما يزيد على ٢٠ سنة من عمرها في هذه الوحدة، تضع تقريرها الليلي لممرضة المناوبة النهارية. وسمعتها تقول: "جميع أطفالي في حال جيدة."

وبعد دقائق التقيتها في المصعد، فقلت لها: "سمعتك تشيرين الى الاطفال على أنهم أطفالك. جميل منك أن تقولي ذلك."

أفادت اميلي من الادوية وعمليات نقل الدم بحيث لم يمضِ يومان حتى دب فيها النشاط وعاد لونها الى التورد. وعلى رغم استمرار الفقاقيع الغازية فقد أظهرت صور الاشعة السينية أن لا تمزق ولا تلف في امعائها. ومع ذلك بقي بطنها منتفخاً وطريّ الملمس.

وذلك أول أمر علّق عليه فوكس حين عاد اميلي بعد ثلاثة أيام من اكتشاف المرض. فهببت للدفاع عن ابنتي. قلت: "لكنها على الأقل نشطة ومتيقظة. ليتك رأيت حالها قبل يومين."

كان المغزى من كلامي، طبعاً، هو أنه في حين كنت أنا جالسة طوال الوقت الى جانب ابنتنا كان هو بعيداً لا يعبأ بشيء. وكان ذاك انعكاساً للهوة الكبيرة المتعاظمة بيننا. ومن الطبيعي، في مثل هذه الحال، أن تتطاير الاتهامات واللعنات، خصوصا لشعوري بأن فوكس لم يكن ايجابياً كفاية. أما هو فاتهمني بأني بت عرضة للهواجس. فصرخت في وجهه لائمة اياه على عودته الى العمل فور ولادة اميلي – مع أني أنا كنت مَنْ شجعه على ذلك – واتهمته بأنه يهتم لعمله أكثر مما يهتم لعائلته. فرد عليَّ قائلا إن انجاب طفل كان كل ما يهمني في هذا العالم.

كان كلانا يعلم في قرارة نفسه كم تسيء الأزمات الطويلة الى الزواج. وكنا نعلم أيضاً أن الاطفال قد يبرأون من مرضهم ويخرجون بعد مكوثهم مدداً طويلة في المستشفى، لكن زواج والديهم غالباً ما ينتهي الى الفشل.

وأكدت لي لسلي الامر لاحقاً: "إننا نشهد كثيراً من حالات الطلاق هنا." واذ أصغيتُ الى كلام الامهات المقيمات في وحدة العناية المركزة للمواليد الجدد اتضح لي أننا لم نكن الزوجين الوحيدين اللذين أخذا موقفين مختلفين من هذا الواقع.

ومثال على ذلك ما شعرت به كارول وهي تحضّر لنقل ابنها جون الى البيت. ففي تلك المرحلة فقط، بعدما بات شبه مؤكد أن الطفل سينجو، أحست كارول للمرة الاولى أن زوجها جازف بالارتباط عاطفياً بطفله، بعدما كان، مثل فوكس، لا يزور وحدة العناية المركزة إلا نادراً.

أخبرتني كارول: "لقد تشاجرنا كثيراً طوال هذه المرحلة."

* أنتِ شمسي *

أزهرت أشجار الفاكهة خارج المستشفى. وتناثرت الغيوم البيضاء ملطفة أجواء المدينة المكتظة بالابنية. ووسط ذلك كله بدا متنزّه "سنترال بارك" حديقة جذابة واعدة بالسكينة والسلوان. كنت في بعض الصباحات أعدو عبر المتنزه لأكون مع اميلي. وفي أيام أخرى أذهب الى هناك لأجد نفسي محوطة بمجموعة ضاجة من الاطفال وهم يلهون برفقة أمهاتهم أو حاضناتهم. وتصورت نفسي أقود خطى اميلي وهي تلهو عابثة في أرجاء الحديقة الوارفة.

بقيت اميلي على حالها، وهذا يعني أنها لم تكن في حال جيدة. ومن جهتي، توقفت عن طرح الاسئلة عن وزنها، لأن نظرة واحدة اليها كانت كافية لأعلم أن وزنها ما زال متدنياً. كانت أوردتها من الصغر بحيث وضعت حداً لكمية الغذاء التي يمكن إيصالها اليها وريدياً. فجرب الاطباء صيغاً غذائية مختلفة محاولين اضافة مواد دهنية تتحول الى ما تحتاج اليه اميلي من وحدات حرارية (كالوري) ضرورية. وأخيراً ارتأى الدكتور فريدمان إيلاج أنبوب في عنقها.

يُدخل هذا الانبوب، واسمه أنبوب بروفياك،[٩] عبر جرح صغير في الوريد الوداجي، ويسمح بضخ كميات اضافية من الغذاء. وقد طمأنتني لسلي قائلة: "سيزداد وزنها بسرعة أكبر. هذا أفضل ما يُعمل."

أدركت وأنا أتمشى في المتنزه أن لا خيار آخر. فاذا لم يقضِ التهاب المعى والقولون على اميلي، فان الجوع سيقضي عليها حتماً.

(٩) Broviac tube

وكنت أشتريت من متجر الهدايا في المستشفى صندوق موسيقى في شكل وسادة مطرزة بالزهر ومزركشة بشريط مخرم، مستوحية الفكرة من احدى الامهات. وما إن سمعت اميلي الانغام المنبعثة من الصندوق حتى مدت رأسها وتلفتت محاولة تحديد مصدر الصوت، وهو لحن أغنية عنوانها "أنتِ شمسي."

وفيما أنا أتمشى في المتنزه قفز خيالي الى المستقبل نافضاً كل هراء المستشفى. فتصورت اميلي عروساً وحولها أمي وزوجي وولداه إيثان وسارة. رأيت فوكس يشعّ تيهاً وهو يواكب ابنتنا الجميلة المتهادية فرحة بثوبها الناصع البياض فيما أغنية "أنتِ شمسي" تملأ الجو فرحاً وبهجة.

وعندما عدت الى الجناح «K9» بادرتُ لسلي: "عديني بأن تحضري حفلة الزفاف. عديني بأن ترقصي وترشي الرز. عديني بأن تكوني هناك."

فقالت لسلي من دون ان تتردد لحظة واحدة: "أعدكِ بأن أفعل." ثم غمرتني بضمة زاخرة بالمحبة والحنان خلتها دامت وقتاً طويلاً.

بعد انقضاء أسبوع على إيلاج أنبوب بروفياك استعادت اميلي وزنها السابق. فهتفت السيدة دياز تشاركني في فرحتي: «Mucho mas grande» أي ان اميلي باتت أكبر كثيراً.

فأجبت بالاسبانية مشيرة الى معدة ابنها: "انها أصغر." وكان انتفاخ بطنه تقلص على نحو مفاجىء، كما استعاد لونه وبات اكثر تيقظاً واستجابة للاصوات.

فردت السيدة دياز بصوت رقيق: «Recuerde» أي تذكري. ثم ضغطت ذراعي بلطف وأضافت: «Esperanza y paciencia» أي الأمل والصبر.

* القبلة الأولى *

أظهرت صور الاشعة اليومية أن الضرر الذي سببه التهاب المعى والقولون لم يتفاقم. وبشّرتنا عبارة "يمكن سماع حركة الامعاء وإن خافتة" بأن النشاط المعوي لم يتوقف من جراء الاصابة بهذا المرض الذي يشكل خطراً دائماً على عمل الامعاء.

تعرفت الى الدكتور روبرت وولف جراح الاطفال في المستشفى. كان رجلا طويل القامة يناهز الخمسين من عمره وله شعر كستنائي متضائل. وهو خلُص الى قرار مفاده أن اميلي تحتاج الى جراحة في البطن، على الاقل لاستكشاف ما قد حصل. فاذا تبين أن ثمة انسداداً، فسيتوجب عليه فتحه. إلا أن اميلي كانت من الصغر بحيث لا تستطيع تحمل الجراحة.

قال الدكتور وولف: "أريد أن يصل وزنها الى كيلوغرام على الاقل."

لكن وزن اميلي لم يكن في تلك المرحلة ليزيد على نصف كيلوغرام!

في تلك الاثناء حاولنا، أنا وفوكس، أن نعيد بعض الاتساق الى حياتنا الزوجية. وكنا ما زلنا نذهب الى السوق معاً ونقرأ الصحف ونشاهد نشرة أخبار الساعة الحادية عشرة على التلفزيون.

كان فوكس يذهب الى عمله كل يوم. وعلى رغم امتعاضي من غيابه عن المستشفى فقد كان جزء مني معجباً بقدرته على مواصلة العمل. أما أنا فعشت على هذا الصعيد فوضى مطبقة. ولكم حاولت لسلي وغيرها اقناعي بالعودة الى العمل. فحال اميلي حسنة، كما قالوا. وتقدمها سيستمر سواء أكنت في المستشفى أم خارجها.

لكني كرهت العودة الى مكتبي، وكرهت الرد على المكالمات الهاتفية وعلى التساؤلات التي يحمل بعضها مراءاة، وكرهت تكرار القصة مرة تلو أخرى. لذا قررت العمل بعد ساعات الدوام. وبهذه الطريقة وجدتني قادرة على العمل أربع ساعات متتالية أمضيتها في مراجعة بريدي والاستماع الى المكالمات الهاتفية المسجلة وتحضير الملفات اللازمة لمقالاتي. وقد اتسم أسلوب عملي هذا بطابع لاشخصي خالٍ من الاتصال البشري والأحاديث الفارغة.

بيد أن فوكس حذرني من مغبة هذا الأسلوب قائلا: "انك تخرجين الناس من حياتك فيصبحون عاجزين عن مد يد المساعدة اليك وإن حاولوا ذلك."

فأنكرت كلامه. لكنه كان على حق.

وذات ظهيرة، فيما كانت لسلي غائبة في يوم اجازتها الاسبوعية، اقتربت مني ممرضة اسمها بليندا وهي فيليبينية جذلة الصوت كنت أحب الاستماع اليها وهي تتكلم.

سألتني: "أتحبين أن تحملي اميلي؟"

يتخلل رسوم عصر النهضة شعاع نور غامر خيِّل الي في تلك اللحظة أنني أقف وسطه. أجبت: "طبعاً أحب أن أحمل اميلي."

فتوارت بليندا للحظات ثم عادت ومعها قميص أمامي أصغر من أن يُلبس الدمية التي كنت ألعب بها في طفولتي. ورفعت غطاء المحضن قليلا، ثم ألبست اميلي القميص من دون أن تفلت أياً من الانابيب أو الاجهزة أو تعبأ باهتياج اميلي واعتراضها. قالت ضاحكة: "أنها لا تريد أن تلبس ثياباً." كانت اميلي، كجميع الاطفال الضئيلي الحجم، ممددة فوق حفاض.

جلست في كرسيّ انتظر بليندا وهي تخرج اميلي بلطف وتؤدة من محضنها. ثم رأيتها تفصلها، للحظة، عن أنبوب التنفس كيما تعيد وصلها به خارج المحضن. كانت بليندا خبيرة بهذا الاجراء بحيث أتمته من دون صعوبة.

ثم ناولتني ابنتي.

كان الحرام الذي لفت به اميلي مزدانا برسوم أرانب، تماما كذاك الذي تخيلته. وكانت على رأسها قلنسوة صغيرة فيها خطوط زرقاء وزهرية.

وضعتُ اميلي على ذراعي اليسرى ورحت أحدق اليها بعجب وأهدهدها بلطف. كانت تلك حركة طبيعية وجدتني أؤديها من غير تفكير.

للمواليد الجدد شذا غير عادي هو أريج النضارة الخالصة، ولا يماثله أي عبير آخر في الارض. لقد أمضت اميلي كل حياتها في هذا الجو النسكي، فاحتفظت بذياك العبير السحري الذي تمنيت لو ينطبع في أنفي الى الأبد.

انحنيت لامنح اميلي قبلتها الاولى، طبعتها على جبينها، ثم قلت لها: "هذه اسمها قبلة. وهي من بابا ومني أنا."

ولما كانت اميلي غير معتادة اللمس فقد لوت قسمات وجهها اشمئزازاً. وهي لو استطاعت الكلام لصرخت ممتعضة: "قبلة! يا للقرف!"

تناهت الى مسمعي في تلك اللحظة ضحكات صدرت من بضعة أشخاص تحلقوا حولنا. الا أن ذلك لم يثنني. كانت تلك اللحظة خيالية بالنسبة الي. كنت ممسكة بابنتي أقبلها وأقول: "وهذه من إيثان وسارة وجدتك."

وأخيراً قبلتها مرة ثالثة قائلة: "وهذه من جميع مَنْ في عالمك، لأن عالمك يحبك كثيراً."

وهنا تقدمت مني بليندا وتلقفت اميلي بذراعيها ثم أعادتها برشاقة الى حاضنتها بعدما نزعت عنها القبعة والقميص والحرام وأعادت وصل الانابيب.

وفي المساء وجدت نفسي لا أكف عن وصف الشعور الذي غمرني وأنا أضم اميلي، والتحدث عن شذاها العذب وعن...

وعندما بلغت مرحلة وصف القبل قاطعني فوكس طابعاً على جبيني قبلة أنستنا كل ما تبادلناه من كلام غاضب.

قال: "وهذه القبلة هي من والد اميلي الى امها."

* وقع الصاعقة *

قبل يوم من عيد الأم[١٠] بلغ وزن اميلي ١٠٦٠ غراماً متجاوزاً الرقم الذي حدده الدكتور وولف لاجراء الجراحة. وكانت كميات صغيرة من الدم تخرج مع برازها من وقت الى آخر، لكن ذلك لم يعتبر مقلقاً. وواصل الدكتور فريدمان التزامه نظرية امكان تصحيح الضرر الناجم عن الالتهاب التنكرزي في المعى والقولون مهما بلغ. والواقع أن اميلي كانت مفعمة بالنشاط والتيقظ بحيث لم تبدُ مريضة.

(١٠) عيد الام في الغرب يصادف الاحد الثاني من شهر مايو (ايار).

هناك تعبير يقول: "وقع عليه الخبر كالصاعقة." وهذا تماماً ما حدث لي عندما دخل الدكتور فريدمان الغرفة فيما كنت واقفة الى جانب اميلي. ومن دون ان يحييني او يسألني "كيف حالك" فاتحني بالموضوع مباشرة. قال: "الآن وقد بات حجم اميلي يسمح باجراء الجراحة، هناك، كما تعرفين، احتمال أن نجد التلف كبيراً."

لم أجد مقعداً أتهاوى فيه. وفكرت في أن ظهيرة السبت تلك هناك لم تكن الزمان ولا المكان المناسبين لتداول مثل هذه المسألة، وخصوصا ان فوكس لم يكن حاضراً. فاقترحت أن نشركه في المناقشة. ووافق الدكتور فريدمان بعد تردد على الاجتماع بنا منتصف الاسبوع اللاحق.

جلست في منزلي صباح اليوم التالي واضعة على ثديي مضخة تستقطر الحليب اللازم لاطعام اميلي. ثم حضرت فنجاناً من الشاي وجلست أقرأ صحيفة الاحد. وحاولت، والمضخة تسحب مني الحليب بقوة، أن أقنع نفسي بأن أحداث العالم هي أهم كثيراً من دراما حياتنا اليومية.

فجأة سمعت فوكس يقول: "صباح الخير."

ثم تقدم مني حاملا خلف ظهره علبة وعلى محياه ابتسامة عريضة لعلمه أنه فاجأني حقا. قال: "هذه هدية مني ومن اميلي لمناسبة عيد الام. اعاده الله عليك سنين كثيرة.".

حَوَت العلبة ثوباً رائعاً من أحد المتاجر المفضلة لديّ. وكان الثوب أخضر بحرياً، لوني المفضل، ومطبَّعاً. وشرح لي فوكس أن "للثوب أزراراً أمامية تسهل عملية الارضاع." وهذا دليل على أنه بات يفكر بتفاؤل. أما الدليل الآخر على تفاؤله فكان قوله إني سأرتدي الثوب "عندما" نُحضر اميلي الى البيت، وليس "اذا" أحضرناها.

حاولتُ جهدي أن أرجيء البحث في حديث الامس الحزين. إلا أني لم ألبث أن قلت لزوجي: "فريدمان يود رؤيتنا معا صباح الاربعاء." فأصر فوكس على معرفة التفاصيل، لكني لم أقل له سوى أن الطبيب يريد البحث في مسألة الجراحة.

في وقت لاحق من ذلك النهار زرنا اميلي معا، وضمها فوكس بين ذراعيه للمرة الاولى. أمسكها كما كنت أفعل، بمزيج من الرهبة والحب والخوف. وقال لها بعدما قبلها على جبينها: "أحبك يا اميلي. بابا يحبك."

غمرتنا البهجة، لكننا مع ذلك كنا خائفين. قال فوكس للممرضة: "هناك دم في أنبوبها. وهذا ليس دليلا حسناً."

ذلك صحيح. فالاطباء لم يجدوا بداً من مد أنبوب عبر حلق اميلي لتصريف الافرازات الناجمة عن اصابتها الجرثومية. ومع أن هذه الافرازات كانت مخضرَّة اللون سابقاً فقد بدت اليوم ملطخة بالدم.

تحدثنا الى الطبيب المناوب فقال إن الامر يبعث على القلق. لكنه أضاف: "اعتقد أنه لو كان خطيراً حقاً لحدث باكراً."

كنت مستعدة للتشبث بأي احتمال ايجابي مهما يكن ضئيلا. كان علي التشبث بالامل.

وبعد يومين حدثت مضاعفة أخرى أنذرت بالسوء، لقد بدأت اميلي تخرج دماً عبر المستقيم (آخر الامعاء الغليظة). وأخبرنا الطبيب أن لا فكرة لديه عن سبب النزف، مضيفاً: "من المرجح أن يتوقف النزف تلقائيا. وما علينا سوى الانتظار والمراقبة."

كان ذلك طارئا جللا جعلني أرتعب من مجرد التفكير في ترك إميلي لحظة واحدة. كان عليَّ البقاء الى جانبها مع أني لم أدر ماذا يمكنني فعله لها. وفي الحادية عشرة ليلا، توقف النزف تلقائيا. فعدت الى ألبيت نزولا عند الحاح الطبيب.

في اليوم التالي قابلنا الدكتور فريدمان وعلمنا منه أن موعد الجراحة حدد في اليوم اللاحق، وأن الدكتور وولف سيُطلعنا على التفاصيل. ثم أخبرنا بأنه واثق، الى حد ما، بأن الامور ستسير حسنا. لكنه أضاف: "علينا مع ذلك ألا نُغفل إمكان اكتشافنا أمراً أكثر خطورة."

وهنا تقدم فوكس مني وضغط يدي محاولا تهدئة مخاوفي. لكني شعرت بتوتر في كل عضلة من جسمي.

قال الدكتور فريدمان: "لا أرجح هذا الاحتمال. فصور الاشعة السينية لم تشر الى ذلك. كما أن اميلي استجابت على نحو جيد جداً، وبثبات. ومع ذلك يبقى احتمال أن نجد المرض متفشياً حين نجري الجراحة."

فان صح ذلك فهو يعني أن الالتهاب التنكرزي في المعى والقولون قضى نهائيا على المسالك المعوية في اميلي.

أضاف الدكتور فريدمان: "في هذه الحال، قد لا يستطيع أي منا مساعدتها بشيء. ولسوف نحتاج اذذاك الى تعليمات منكما بصفتكما والديها."

وتابع الدكتور فريدمان: "من الممكن ابقاء اميلي حيَّة لفترة غير محددة من غير امعاء. ولكن عليكما أن تفهما أننا نتحدث عن أصعب أنماط الحياة اطلاقا." فقد لا تستطيع اميلي الخروج من عالم محضنها المعقم. كما أنها، وإن ازدادت حجماً، وهذا أمر مشكوك فيه، فقد لا تستطيع المشي ولا الكلام. ولئن أمكن أن تبقى اميلي حية، فممكن أيضاً أن تموت في أي لحظة.

قال الدكتور فريدمان: "الامعاء لا تتجدد. ولا يمكن زرعها."

لم أستطع النظر الى فوكس، ولا هو استطاع النظر الي. وبقيت عيوننا مسمَّرة الى الارض.

وتابع الدكتور فريدمان: "لذلك نريد أن نسألكما عن الاجراءات التي ترغبان في أن نأخذها. فاذا وجدنا الداء متفشيا، فعلينا أن نعلم الى أي حد تريدان أن نكافح لانقاذ اميلي."

في اللحظات العصيبة قبل ولادة اميلي وبعدها، كنت أنا وفوكس تحدثنا عن احتمال كهذا. واتفقنا على أننا لا نريد أن تكون ابنتنا نصراً علمياً فارغاً من الامل في حياة طبيعية منتجة. كان رأينا أن الاطفال بشر، وأن الموت حقّ لهم أيضاً.

أخيراً تكلم فوكس عن كلينا. قال: "إن صحَّ أسوأ التوقعات وتبين لكم فعلا أن الانسجة كلها ميتة، فاعتقد أنني وزوجتي سنوافق على ترك الامور تسير في مجراها الطبيعي. لا أعتقد أن علينا فرض ارادتنا العلمية أو الطبية على ما كتبه الله."

سرَّني أن يجد فوكس الشجاعة على الكلام. ومع أني وافقت كلياً على حديثه فقد صعب عليّ النطق بهذه الكلمات. أخيراً قلت للطبيب: "أرجوك أن تعدني بألا تعاني اميلي أي ألم أو عذاب مهما حصل."

فرد الدكتور فريدمان: "سنبذل قصارى جهدنا، ونأمل ألا نجد حاجة الى أي شيء من هذا."

* متى حصل ذلك؟ *

عندما وصلنا الى المستشفى صباح الخميس بدت اميلي كأنها مدركة ما يدور حولها. كانت تجيل النظر بعينين واسعتين في أرجاء عالمها الصغير وترمقنا أنا وفوكس بنظرات حادة. كانت منذ البداية طفلة متيقظة على رغم ما أثقلها من أنابيب. أما اليوم فراحت تدير رأسها متتبعة كل ما يدور حولها كأنها رادار.

قال فوكس: "كأنها عالمة بأن ثمة أمراً على وشك الحدوث، لذلك لا تشاء أن تفوتها شاردة ولا واردة."

بذلنا قصارى جهدنا لكي نهدىء من قلقنا. وساعدنا تشجيع الممرضات اللواتي كن عالمات بأن ذلك كان يوم جراحة اميلي. فأحيا هذا الحس الأخوي العارم في نفسي شعوراً لم أختبره قبلا.

علمنا من الدكتور وولف أن جراحة اميلي ستكون الأخيرة ذلك اليوم. وهو توقع اجراءها بعيد الظهر اذا ما سارت الامور وفق البرنامج المحدد في غرفة العمليات. لكننا علمنا ظهراً أن برنامج العمليات لم يسر بحسب مواقيته. وعندما خرج الدكتور فريدمان لابساً بزة الجراحة الخضراء كانت الساعة تجاوزت الرابعة عصراً. قال: "ستستغرق الجراحة نحو ساعتين، لذلك أرى أن تتمشيا خارجا بعض الوقت أو أن تذهبا الى البيت. وسنتصل بكما فور خروج اميلي من غرفة العمليات."

مددنا أيدينا، أنا وفوكس، عبر كوى المحضن متيحين لابنتنا الامساك بأصبع لكل منا. وقلت لها: "أحبك كثيراً يا طفلتي الصغيرة. أنتِ مثل في الشجاعة يقتدى. كم يصعب عليَّ النظر اليك وأنت في هذه الحال. ليتني كنت في مثل شجاعتك."

وعدْنا اميلي أن نكون في انتظارها لدى عودتها الى الجناح «K9» وتمنينا لها حظا سعيداً. ثم وقفنا ملهوفين نراقب الممرضات وهنَّ يدفعن محضنها عبر الممر الى أن دخلن بها المصعد.

خرجت وفوكس الى الحديقة العامة وأخذنا نهرول علَّنا نخفف من وطأة القلق الذي تملكنا. لم نكن قادرين على التركيز أو التحدث الى أي كان، ولا على تبادل الحديث معاً. كما لم نشعر برغبة في الطعام.

عدنا بعد ذلك الى بيتنا. ولم أكد أنتهي من الاغتسال حتى رن جرس الهاتف. فصرخت مبتعدة كأنما الهاتف أفعى سامة، وقلت لفوكس: "رد أنت."

سمعت فوكس يسأل: "ألا تستطيعين إخبارنا شيئا؟"

وما كاد ينتهي من جملته حتى أجهشت في بكاء تعذر علي ضبطه.

قال فوكس: "تلك روبن. يريدون منا الحضور فوراً."

عندما خرجنا من المصعد الى الطبقة التاسعة كانت عقارب الساعة تشير الى الثامنة مساء، وكان الطبيبان وولف وفريدمان متكئين على منصة الاستقبال ومعهما روبن التي بدا منظرها مروَّعا. كانت منهكة العينين وقد سال الكحل على وجنتيها.

قال الدكتور وولف: "أخشى أن الامر هو في منتهى السوء."

فقاطعه الدكتور فريدمان: "مهلا، لنجلس هناك." ثم قادنا الى غرفة استراحة الاطباء.

وهناك تابع الدكتور وولف: "لم نتوقع ابداً مثل هذا الامر. فالمسالك المعوية تالفة برمتها، بل مدمرة كليا. لم نجد أي نسيج حيّ نعمل عليه. حاولنا وصل الاجزاء المتقطعة، لكننا لم نجد أنسجة حية كافية لذلك."

أردتُ سماع كل كلمة قالها الطبيبان. لكني وجدت نفسي أنشج باكية مرتعدة.

قال فوكس: "متى حصل ذلك؟ متى حلّ كل هذا الضرر؟"

فأجاب الدكتور فريدمان: "لا نعرف لذلك جوابا. لقد أخضعنا اميلي للعلاج بالمضادات الحيوية فور ارتيابنا في اصابتها بالتهاب التنكرزي في المعى والقولون. وكان من شأن ذلك أن يوقف المرض في حينه، وربما فعل. كما أخذنا لها صوراً بالاشعة يوميا، فلم يتبين لنا شيء من هذا."

وتابع الدكتور وولف: "في هذا المدى من الضرر لم يكن معقولا أن تستجيب اميلي وتنمو وتزداد وزناً كما فعلت. كان مفترضا أن تبدو أكثر مرضا."

فسأله فوكس: "كم من العمر تبقى لها؟"

فأجاب الدكتور فريدمان: "لا يمكن التكهن بذلك. ولكن، في حال كهذه، يحدث الموت عادة خلال فترة تراوح بين ٢٤ و٤٨ ساعة."

لبست وفوكس رداء المستشفى المعقم ومشينا عبر الممر الى وحدة العناية المركزة للمواليد. وكان الطبيبان حذرانا من أن أميلي ستبدو مشلولة بفعل أحد العقاقير التي استعملت في الجراحة. وقد وجدتُها متصلبة الجسم جامدة لا تتحرك، فرحت أبكي لحظة وقع نظري عليها.

بكى فوكس أيضاً. ولم تنفع كل المحاولات التي بذلناها سابقاً لتحضير أنفسنا لهذا الاحتمال. والواقع أن لا شيء كان ليحضِّرنا لمرأى ابنتنا هكذا ولمعرفة أنها ستموت قريباً.

كانت اميلي خدرة وبدت عاجزة عن أي اتصال. لكني كنت قرأت في كتاب ما أن مرضى ما بعد الجراحة يسمعون.

ناديتها عبر كوة الحاضن: "اميلي، أنا ماما. ماما وبابا هنا. نحن نحبك كثيراً، ونحن فخوران بك. فخوران بشجاعتك، ومحظوظان بأن نكون والديك."

ثم خاطبها فوكس بصوت متهدج: "يا فتاتي، أنتِ مبعث شجاعتنا."

جلسنا مع اميلي ساعات نحدثها حيناً ونحدق اليها أحياناً. نسينا الانابيب وكيس الغائط المعلق ببطنها. فهي، بالنسبة الينا، ما زالت جميلة جداً، وشجاعة جداً جداً.

* حديث أب *

اجتازت اميلي عطلة نهاية الاسبوع على رغم توقعات الطبيب، وكأنها تلقننا درساً ألا نسلِّم جدلا بأي أمر، وألا نفوِّت شيئاً، لا لفتة ولا نشقة ولا شدَّة يد صغيرة.

عاملتني لسلي بلطف بالغ، وسمحت لي بأن أساعدها في تمريض اميلي. وكانت، في ما عدا اعطاء الدواء، تتيح لي مشاركتها في معظم الاجراءات الأخرى وتحضّني على لمس اميلي والتحدث اليها. كانت لا تجد أي غرابة في انصرافي الى التحدث مطولاً الى ابنتي على رغم كونها خدرة لا تعي شيئاً.

بدأت اميلي تنتفخ بفعل احتباس السوائل في جسمها. أخبرتُ لسلي بقلقي من أن ينكشط جلدها بفعل الملاءات الخشنة. فأومأت برأسها، ثم غابت لحظات عادت بعدها ومعها لفة من نسيج صوفي.

رفعنا طفلتنا الضعيفة بعناية فائقة ومددناها على الدثار الناعم. ولم أكد أنتهي من ذلك حتى انهمرت دموعي لمشهد اميلي التي بدت، أكثر من أي وقت مضى، مثل ملاك صغير يطفو فوق السحاب.

لم يجد الاصدقاء والاقرباء والاطباء والممرضات كلاماً يشدون به من أزري أو يخففون من عذابي. أما السيدة دياز، شريكتي القديمة في الأمل والصبر، فأمسكت يدي ببساطة من دون أن تنبس بكلمة. فالكلام لم يعد ضرورياً بعد ما عانيناه معاً.

أدركتْ لسلي مدى توقي الى ضم اميلي وتدليلها والتعبير لها عن مدى حبي وتقديري لشجاعتها. فعمدت صباح الاثنين الى رفع غطاء المحضن. وكانت الانابيب ما زالت موصولة الى اميلي التي تضاعف حجمها بسبب الاستقساء.

سحبت لسلي الدثار خارجاً لكي تسهل عليّ لمس ابنتي. واذ نظرت اليها رأيتها تحرك أصابع قدمها وتحاول جاهدة أن تفتح عينيها. ثم رأيت عينيها تجولان تحت بشرتها الشفافة كأنهما تحاولان اجبار الجفون على الانفتاح.

وبإذن من لسلي قبلت اميلي على جبينها مرة تلو مرة نيابة عن والدها وعن جدتها.

عندما دخل فوكس الغرفة ووجدنا في هذه الحال، تناول كرسياً جلس فيه ثم مد يده لكي تمسكها اميلي. وبقينا هكذا، دونما حراك، الى أن تنحنحت لسلي وراءنا وقالت: "سأخرج لبضع دقائق. لكن ثمة أمراً قد تريدان التفكير فيه. قد تريدان التحدث الى اميلي والسماح لها بالذهاب. فهي، وإن بدا الامر غريباً، قد تكون في انتظار ذلك. قد تكون في حاجة الى سماعه منكما."

في وقت لاحق من عصر ذلك اليوم مشيت وفوكس خارجاً. وبعد مداولة قصيرة قررنا الأخذ بنصيحة لسلي.

كانت وحدة العناية المركزة خالية لدى عودتنا، وهذا أمر نادر. فاقترب فوكس من حاضن اميلي وفتح الكوة، ثم بدأ التحدث اليها.

قال فوكس: "اميلي، يا صغيرتي، هذا بابا. أحبك كثيراً. وماما تحبك. انها تحبك الى حد لا يمكنك تصوره. فأنتِ دنياها يا اميلي. انها تحبك كثيراً، وكذلك أنا.

"اميلي، لم نرَ في حياتنا أحداً يبذل مثل جهدك أو يكافح مثلك. لقد جعلتنا فخورين بك. فأنت لم تقبلي الاستسلام أبداً. وأتحتِ لنا أن نعرفك كشخص وكابنة ستبقى دائماً في قلبينا. يا إلهي، كم نحن محظوظان بأن نكون والديك!

"ولكن، أرجو يا اميلي أن تصغي إليّ بانتباه. لقد آن لكِ أن ترفعي عنك هذا الحمل. فليس عليك بعد اليوم مواصلة الصراع والكفاح. فلئن أردت الذهاب يا اميلي، فهذا حسن، ولا مانع لدينا من عبورك الجسر."

كان يبكي وهو يحدثها. وقد أدخل كل منا يداً في محضنها فأمسكت هي بأصبع في كل يد وتشبثت، وتشبثت.

عاشت اميلي ٥٣ يوماً كان آخرها الثلثاء في ١٧ مايو (أيار)، وقد شعرت بذلك لحظة دخولي الجناح «K9» .

قالت لسلي: "كالمت السيد فوكس. انه قادم."

توفيت اميلي الساعة ١٠،٥٣ صباحاً. في تلك اللحظة كنت وفوكس نمسك يديها. أحسسناها تتلوى، ثم شعرنا بأن حركتها توقفت.

* سام *

وارينا اميلي الثرى يوم الاحد في بقعة قريبة من منزل آل بترفيلد في مساتشوستس. وقد اخترنا لها أيكة صغيرة تحت شجرة وارفة تتوسط مدفني والديْ فوكس. مشينا، أنا وفوكس وايثان وسارة ووالدتي، في موكب غريب وسط الغابة الكثيفة وصولاً الى البقعة المختارة. كان النهار بارداً والسماء ملبدة بالغيوم. وحين رأتني أمي ألفّ نعش اميلي بحرام قالت لي: "أنتِ لا تودين أن يصيبها برد."

وعندما بلغنا الفسحة حيث الشجرة المقصودة شرع فوكس وايثان (١١ عاما) وسارة (٨ أعوام) في الحفر بالمجارف. وبدا ايثان مهتماً بتحديد المسافات الفاصلة بين قبر اميلي وقبري جدَّيها. وقال لي: "هنا يرقد جدي وجدتي. والآن ترقد اميلي. ويوماً ما سترقدين أنتِ وأبي هنا، ثم سارة وأنا. ويوماً ما..." – وهنا أشرق وجهه للفكرة – "يوماً ما سيكتظ هذا المكان بآل بترفيلد."

تلَوْتُ صلاة قصيرة كانت في الحقيقة رسالة شكر الى اميلي لشجاعتها ونبلها ووعداً بأنها ستبقى في حياتنا الى الأبد. وقرأ فوكس قصيدة ادغار آلن بو "أنابل لي" بعدما بدل عنوانها ليصبح "اميلي لي." ثم أنشدنا معاً الاغنية التي وعدتُ اميلي بأن أعزفها في زفافها. وقفنا في الغابة نغني لاميلي وأيدينا متماسكة: "أنتِ شمسي، شمسي الوحيدة..."

بعد يومين عدت وأمي الى الغابة لنزرع الزهور على مثوى اميلي. كانت السماء صافية زرقاء، لكننا ما ان انحنينا للزرع حتى أعتمت فجأة. واذ تطلعنا الى أعلى رأينا السماء ما زالت صافية إلا من بقعة دائرية فوق الفسحة الصغيرة التي ضمت رفات اميلي. وما هي الا لحظات حتى شعرنا بقطرات مطر.

زرعنا الزهور بصمت، ولم يهدأ لنا بال حتى غطينا مثوى اميلي بدثار من أزهار "لا تَنْسَني" الزرقاء الفاتحة. ومشينا يداً بيد عبر الغابة الى البحر القريب. وعندما تطلعنا الى أعلى وجدنا أن الغيوم انقشعت، ورأينا في أعلى التلة الى جهة البيت قوس قزح. وتراءت لي فيه صورة اميلي مبتسمة.

استتبع موت اميلي فراغ لا يوصف. شعرت كأن جزءاً مني ذهب معها. بكيت في فراشي. بكيت في المطبخ. بكيت في الحديقة. بكيت في السيارة. وكنت أزورها كثيراً، وأبكي هناك أيضاً.

أردت الموت. وبدا لي أن ذلك هو أقل ما أفعله لطفلتي الصغيرة.

أما فوكس فكان قلبه ينفطر حزناً. فهو فقد ابنته، وها هو يفقد زوجته أيضاً.

أدركت أني لن أجد بديلا من اميلي. اشتقت اليها بكل ذرة من كياني. بيد أني، في الحقيقة، كنت أود إنجاب طفل آخر. وهذا ما حيَّر فوكس. فهو عرف رغبتي الجامحة في أن أصبح أماً، لكنه كان مرتاعاً. فماذا لو تكرر ما حدث؟ ماذا سيحل بنا اذذاك؟

ذات يوم جمع فوكس عزيمته وتصميمه وقال لي ونحن جالسان على الأريكة نقرأ صحيفة الاحد: "لماذا لا نتبنى طفلا؟"



اليزابيث وفوكس بترفيلد وابنهما سام.

كان على علم بأني عملت خلال دراستي الثانوية في مؤسسة للايتام، وبأني كنت أبتهج كلما تبنًّى أحدهم طفلا. وكنت أقول دائماً إن المرء اذا شاء أن يتبنى طفلا فلن يهمه أصله، فالمهم هو أن يحصل على الطفل ويحبه مقدار ما يستطيع.

لكنني عندما سمعت اقتراح فوكس صرخت فيه بغضب الأم التي تتملكها رغبة جامحة في أن يكون لها طفل من صلبها: "هكذا؟ لا يمكنني انجاب طفل، وتريدني أن أنال جائزة ترضية؟"

فلم يعد فوكس الى فتح الموضوع ثانية.

أجرينا تغييرات رئيسية في حياتنا. فانتقلنا الى نيو انغلند لكي نكون على مقربة من ايثان وسارة. واشترينا بيتاً، واقتنينا كلباً. ومضى الوقت. ولم يبرأ الألم الذي سببه لي موت اميلي، لكنه خف قليلاً.

حل عيد مولد اميلي الاول. كانت الارض ما زالت مكسوة ببعض الثلج والجليد لتلبُّث فصل الشتاء. فمشينا بحذر الى الغابة. وعندما بلغنا الضريح وقفت بإجلال استعرض ذكراها العزيزة على قلبي. ثم قلت: "هيا نصلِّ لاميلي، لطفلتنا الجميلة التي وُلدت قبل سنة وعاشت ٥٣ يوماً فقط."

بعد الصلاة ووضع الزهور وجدتني أقول: "فوكس، اعتقد أني بتُّ على استعداد لتبني طفل."

PHOTO: © GEORGE LORING

تداولنا الامر مطولا، وشعرت بالسكينة تغمر كياني. فتلك كانت المرة الاولى نتحدث بصراحة بعد أشهر المعاناة الطويلة.

وعلى رغم ذلك سمعت في أعماقي صوتا ما انفك يردد: "حاولي مرة أخرى. أنجبي طفلا من صلبك."

فاستشرنا طبيبا اختصاصيا خرجنا من عنده بمجموعة جديدة من التعليمات والعلاجات. وهو أخبرنا بأن لا أمل كبيراً، ومع ذلك تلاشى اليأس الذي لازمني طويلا، اذ تأكد لي أني لا بد حاصلة على طفل، بالتبني أو بالانجاب.

سألتُ الطبيب اجراء فحص الحمل مرتين. وعندما جاءت النتيجة ايجابية كدت لا أصدق حسن طالعي.

تملكني القلق خلال فترة الحمل، اذ كنت في كل لحظة أتوقع حصول الاسوأ. كان كل أسبوع يمر كمعلم فاصل في حياتي. وعندما اجتزت أسبوعي الـ٢٥ تنفسنا الصعداء، أنا وفوكس والطبيب. وقد فاجأ ابننا سام الجميع حين وُلد في أوانه.

يبتسم سام كثيراً ويضحك باعثا الفرح في قلوب من حوله. وهو صحيح الجسم قويُّه. ونشعر بأن نعمة كبرى حلت علينا. ولا نزال نستوحي من اميلي دروسا وعبراً. ونحاول ألا نضيِّع لحظة. كل يوم نقضيه مع سام يمدنا بفرح لا يوصف.

أُحب وسام أن نمشي معا مسافات طويلة نمتع النظر بمرأى الاشجار والطيور والزهور. وسيأتي يوم نتطلع فيه الى فوق فنرى قوس قزح، فأقول لسام: "هذه أختك، هذه اميلي يا سام."

اليزابيث مهرن بترفيلد ■

ترجمة فريد شديد



لكل امرىء خياره

نشأ الممثل المكسيكي الأمريكي ادوارد جايمس أولموس فقيراً في شرق مدينة لوس انجلس. وتألّفت عائلته من أحد عشر فرداً يتقاسمون ثلاث غرف بينها مطبخ بأرض ترابية. وكان لا يزال في السابعة من عمره حين انفصل والداه. وهو اليوم مهتمّ بزيارة الأحداث المساجين.

يقول: "أُخبرهم أن كلاّ منّا يحظى بخيار في الحياة. فيقول بعضهم إنهم لم يملكوا خياراً، فهم إما فقراء وإما سود البشرة وإما معاقون وإما بلا أهل. لا شك في أن أسباباً كهذه تعوق التقدّم في الحياة. ولكن ماذا لو قلتم في أنفسكم: حسناً، هذه حالي، لكني لن أدع حياتي تتعثّر بسببها، بل سأجعل منها حافزاً يقويني ويدفعني الى الأمام. وهذا ما فعلته أنا."

ت.س.

كتاب الشهر

ملخص من كتاب "حرب الملازم رمزي"
بقلم إدوين برايس رمزي وستيفن ج. ريفيل

سيرة قائد

قبل خمسين سنة اجتاح اليابانيون جزر الفيليبين. وأمر الرئيس الامريكي فرنكلين روزفلت جنراله دوغلاس ماك آرثر بترك جيشه المحاصر في شبه جزيرة باتان ومغادرة الفيليبين. وهكذا رحل ماك آرثر في ١٢ مارس (آذار) ١٩٤٢ بعدما أطلق تعهده المأثور: "سوف أعود."



ولم يلبث جيش الحلفاء أن اضطر الى الاستسلام. لكن قلة من الرجال أبوا القاء السلاح، فاخترقوا صفوف القوات اليابانية وأقاموا اتصالا مع الفيليبينيين وألفوا جيشاً من المقاتلين العتاة لمقاومة الاحتلال الياباني. وعلى رغم سوء الحال ونقص العتاد شن هؤلاء الرجال على مدى سنتين ونصف سنة حرب عصابات بطولية يائسة، وأبقوا أمل التحرر من الاحتلال حياً في صدر الشعب الفيليبيني.

هنا قصة إد رمزي، الرجل الذي قاد ذلك الجيش.

في أوائل يناير (كانون الثاني) ١٩٤٢ احتشد في شبه جزيرة باتان في الفيليبين نحو مئة ألف جندي من قوات الحلفاء المحاصرة. كان لدينا من الذخيرة والطعام ما يكفينا ستة أسابيع فقط، لكننا كنا نتلقى يومياً وعوداً بـ"قافلة" من السفن في طريقها لنجدتنا، فما علينا الا الصمود. وفي الواقع، لم يكن ثمة وجود - ولا إمكان وجود - لمثل تلك القافلة الحاملة المدد بسبب تدمير قاعدة بيرل هاربور البحرية في هاواي في ٧ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤١.

وفي مقر القيادة في جزيرة كوريغيدور كان الجنرال ماك آرثر يدير دفاعاً مستميتاً عن باتان ويغرق واشنطن بسيل من الرسائل طالباً نجدة سريعة. في هذه الاثناء انخفضت مؤونتنا من الغذاء والذخيرة وقلت حصصنا من الطعام وهزل الرجال والجياد.

كنت في فرقة الخيالة. وقد أتيت الى الفيليبين وأنا في الرابعة والعشرين من عمري ساعياً الى تحقيق حلمي بوظيفة مغرية خارج البلاد حيث أتمتع بلذائذ النبات الاستوائي وبلعبة البولو على متون الجياد وبالخدم الصاغرين والنساء السمر. لكنني فوجئت بالغزو الياباني وبقساوة الحرب وضراوتها.

في منتصف يناير (كانون الثاني) ذهبت مع فصيلتي في جولة استكشافية على مدى يومين سلكنا خلالهما ممرات في الغابة العابقة بالبخار. وكنا نتوقف فترات قصيرة لنتناول حفنة من الرز ولنرعى جيادنا المهزولة. وأكبرت في جوادي شجاعته في تحمل المشاق، لكنني كنت أرتاع وأكتئب حين أراه ذابلا حانيا رأسه.

غابت الاحداث عن جبهتنا، فقفلنا عائدين الى مقرنا حيث كان النقيب جون ويلر يخطط لمهمة استكشافية ثانية معفيا فصيلتنا. كنت في منتهى العياء، لكني سمعتني أقول بنبل وشهامة: "لقد خضت معارك كثيرة، لكني لم أنل أي وسام. فهلا أبقيتني هنا للمساعدة؟"

كلفني النقيب ويلر قيادة الفصيلة الاولى المؤلفة من ٢٧ كشافاً فيليبينيا.[١] فأمضيت الليلة في معسكرهم، وصباح اليوم التالي أشرفت على علف الجياد وسقيها. وعند الظهر وصلت الى المخيم سيارة قديمة أقلت الجنرال جوناثان وينرايت الذي كان حينذاك قائد الفيلق الاول.

بدا الجنرال غاضبا لان الفرقة الاولى في الجيش الفيليبيني النظامي كانت انسحبت من قرية مورونغ. وأعلن أن هذه القرية تشكل موقعاً دفاعياً حصيناً على ضفة النهر الفاصل بيننا وبين القوات اليابانية الزاحفة. وأراد استعادتها للحال.

---

(١) كانت الفيليبين في ذلك الوقت تحت سيطرة الولايات المتحدة. ولدى نشوب الحرب العالمية الثانية اصبح الجيش الفيليبيني جزءاً من القوات الاميركية المسلحة.

كنت واقفا الى جانب وينرايت، فرمقني بطرف عينه وصاح بي: "أنت رمزي، أليس كذلك؟"

أجبت: "نعم، سيدي."

قال: "تولَّ أنت قيادة فرقة الحرس الامامية. هيا، تحرك!"

كنت خالفت القاعدة الذهبية في الجندية وهي عدم التطوع. وها اني أدفع الثمن. أديت التحية على مضض وهممت بالانطلاق، واذا بويلر يتكلم: "سيدي الجنرال، لقد عاد رمزي لتوه من مهمة طويلة. فهل توافق إن أنا كلفت أحداً سواه المهمة؟"

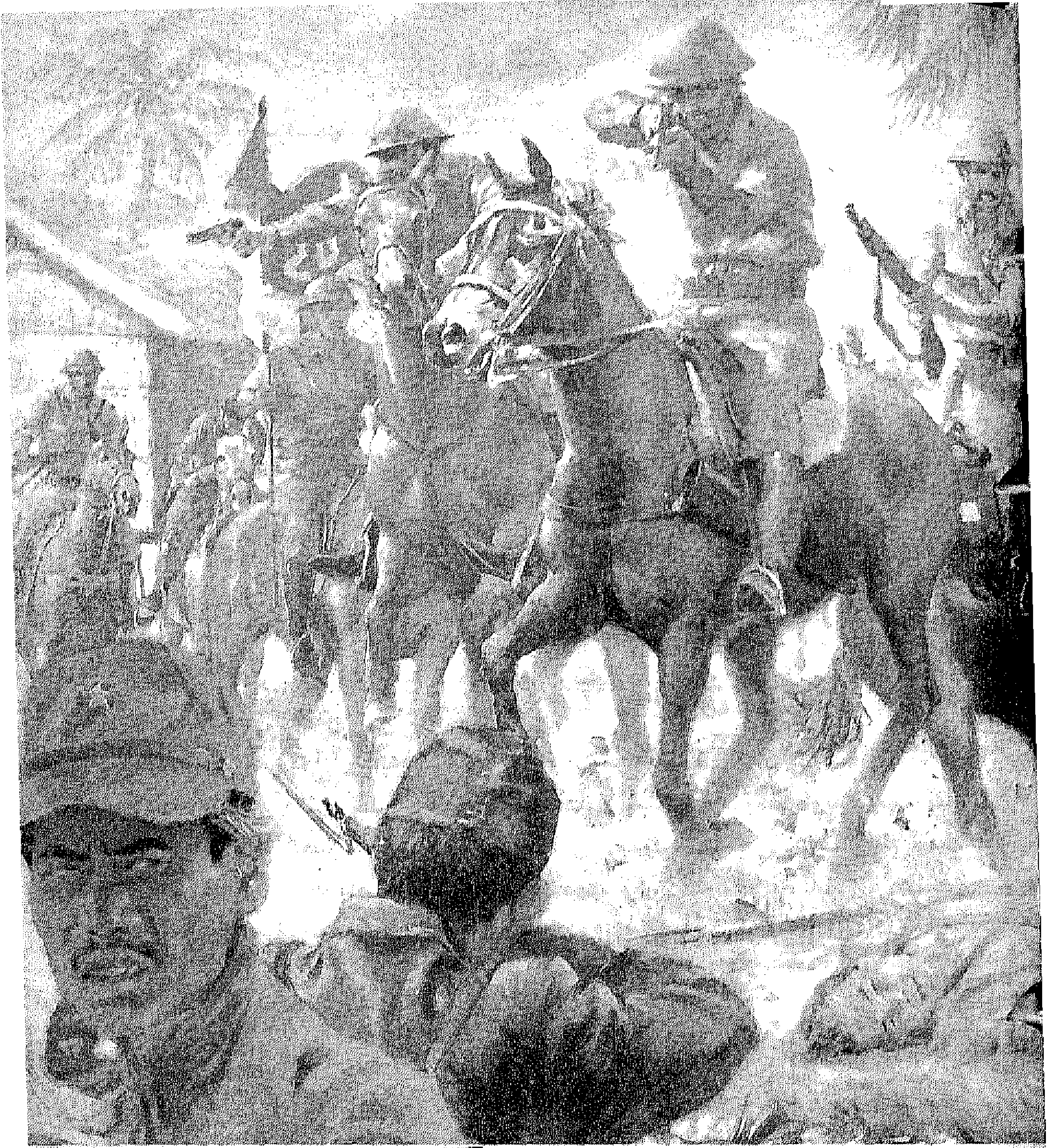
حدج وينرايت ويلر بنظرة غضب وقال لي: "هيا يا رمزي، تحرك!"

أمرت رجالي بالانتشار في الطريق لكي يشكلوا إفراديا هدفا أصعب للعدو. وبعد بضعة كيلومترات وصلنا الى طرف مورونغ الشرقي.

بدت القرية مهجورة، وأكواخها خالية وهي من القش المجدول منصوبة على قوائم من الخيزران. تحركنا بحذر في اتجــاه قلب القــريــة والجيـاد تتعـالى برؤوسها فوق الاكواخ. وكان الرجال في أقصى حالات الحذر والتأهب. فجأة دوّى انفجار وانهالت علينا طلقات نارية من أسلحة رشاشة روعت طيور الغابة التي علا زعيقها.

رأيت مئات من الجنود المشاة اليابانيين في بزات القتال البنية يطلقون النار من وسط القرية. وخلفهم مئات آخرون يخوضون في النهر للانضمام اليهم.

في غمرة فرقعة الرصاص شهرت مسدسي عاليا. كان الهجوم أملنا الوحيد في ضعضعة القوات اليابانية المتفوقة والنجاة بأنفسنا. فقد ثبت على مدى قرون أن



هجوم الخيالة صدمة كاسحة لا تقاوم. أشرت بيدي وبالمسدس معلنا: "هجوم!"

انحنينا على سروجنا حتى لامست أعناقنا أعناق الجياد، وانطلقنا كتلة متراصة من الفرسان الشجعان المدرعين بصدور الجياد المحمحمة. فاكتسحنا الخط الياباني الاول مطلقين الرصاص على وجوه الاعداء من جوانب سروجنا. فبادلنا بعضهم النار وفر آخرون مذعورين عبر النهر والى المستنقعات.

ولا بد من أن اليابانيين، وسط فرقعة الرصاص وهتافات الفرسان ووقع سنابك

الخيل وصهيلها وشراستها، رأوا فينا كائنات رهيبة انقضت عليهم فجأة من عالم آخر.
كان ذلك الهجوم على مورونغ في ١٦ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٢ خاتمة هجمات فرق الخيالة في تاريخ الولايات المتحدة.

"هاي، أيها الجبان!"

اخترقنا الوحدة الامامية للقوات اليابانية ووصلنا الى المستنقع. كانت لدينا قنابل يدوية، لكن استخدامها في نسف الاكواخ كان يشكل خطراً علينا. لذلك ترجلنا وشرعنا نتنقل من كوخ الى كوخ مطلقين الرصاص على الجدران فيما اليابانيون على الضفة المقابلة يمطرون القرية بقنابل الهاون.

وصلت فصيلة لتعزيز فصيلتنا على النهر فيما دخلت أخرى المعركة الدائرة بين الاكواخ. كان الجو مثقلا بأزيز الرصاص ودمدمة الشظايا المتطايرة، فيما احتدم القتال على ضفة النهر حتى كاد يتحول معركة كبيرة.

كنت أصدر الأوامر فيما الجنود والجياد يتساقطون حولي صرعى قنابل الهاون ورصاص القناصين. واذا بي أشاهد ضابطاً أمريكيا مختبئاً وراء كوخ، فنهرته: "هاي، أنت، أيها الجبان، تعال الى هنا وقاتل!"

صعق الضابط، وبدا ارتعابه مني أكبر من رعبه من القذائف. فتوارى للحال. وما ان هممت بالصياح في اثره حتى انفجرت قنبلة هاون أمامي. ثم وصل ويلر ومعه بقية الجنود ورحنا ندفع العدو المتقهقر عبر النهر. كان الجنود اليابانيون ينزلقون على ضفة النهر ويخوضون في المياه العميقة حتى أكتافهم. وكان بعضهم يصابون برصاصنا فيرفعون أيديهم فوق صفحة الماء ثم يغيبون في عمق المياه القذرة الدكناء المتدفقة.

وأخيراً، بفضل التعزيزات التي جاءتنا من فرقة المشاة الاولى، تمكنا من احتلال القرية.

جمعت رجالي وأحصيت الاصابات، فوجدت أن واحداً قتل وجرح ستة. أما اليابانيون فقتل منهم وجرح عدد كبير انتثرت أجسادهم في القرية وفي الحقل امتداداً حتى النهر.

هرع ويلر الي وكانت ملابسه ملطخة بالعرق والتراب، ولما بلغني هتف: "رمزي، ثمة دم على ساقك."

نظرت فشاهدت بقعة دكناء من الدم آخذة في الاتساع. كنت أنزف من جراء شظية أصابت ركبتي اليسرى. فضحكت وقلت له: "حري بك أن تهتم بنفسك، ألا ترى ما بك؟" فقد كان الدم ينزف من ثقب في ربلة ساقه.

كانت جروح كلينا طفيفة، فأشرفنا على اجلاء الجرحى. وبعد تضميد ركبتي عدت

الى المعسكر لأنال قسطاً من الراحة فيما نقل ويلر الى المستشفى.

لزمنا مخيمنا أياماً مترقبين شن اليابانيين هجومهم الثاني. وشعرت بأني أزداد ضعفاً، واصفرت بشرتي وعيناي. لقد أصبت بداء اليرقان (الصفيرة) بسبب جرح الشظية الذي ترافق ونظامنا الغذائي الفقير المقتصر على الرز.

نقلت الى مستشفى في جنوب باتان، كان كناية عن أسرة مزرية تعلوها "ناموسيات" مصفوفة تحت أشجار الماهوغاني. ولم تمض برهة على اقامتي هناك حتى جاءني زائر، انه جون ويلر الذي كان في اجازة نقاهة.

قال لي: "رأيت أن أعلمك أن ثمة توصية لمنحك وسام النجمة الفضية."

سألته: "وممن التوصية؟"

تبسم ويلر وقال: "أتذكر ذلك الضابط الذي كان مختبئاً ونعته بالجبان؟ انه رئيس أركان الجنرال جوناثان وينرايت. وهو لم يكن يتهرب، بل جاء لتقديم تقرير عن الحادث. وهو الذي قدم التوصية."

قلت: "أعتقد أني أول جندي ينال وساماً لشتمه ضابطاً كبيراً."

ثم سألني ويلر عما اذا كنت في حاجة الى أي خدمة، فأجبت: "اعتن بحصاني."

فتجهم وأشاح بوجهه قائلاً: "آه، لا أظنك سمعت أن أمين الامدادات صادر كل الاحصنة وذبحها لتأمين لحم للجنود."

صرخت: "جميعها؟"

فقال مهدئاً: "لم يكن بد من ذلك. وهي كانت ستنفق حتماً لان العلف نفد، وكان الرجال يتضورون جوعاً."

وافقت بايجاز: "طبعاً."

كان ويلر فارساً هو أيضاً، ولم تكن ثمة حاجة الى الاسهاب في التفجع على جواد عزيز فيما المكان حولنا يغص بالجنود الجرحى. ثم إن دور الخيالة كقوة في الجيش كان انتهى قبل عهد بعيد. وقد عرف الجيش هذا الواقع، لكننا نحن الفرسان أبينا أن نطأطىء مكابرة وضناً بافتخار فقد بريقه ومعناه.

وبفقد الجياد بتنا جميعنا متساوين في الجيش.

نظرت الى أطرافي الشاحبة، فوجدتني مصاباً باليرقان في جسدي وفي داخل نفسي.

لكني تكلفت عدم المبالاة.

كانت تلك بالنسبة الي مشكلة والدي القديمة. فهو كان يشعر بأنه مخدوع ويائس في معركة خاسرة، وتفكيره السوداوي الدائم أضناه ودمره. لكني صممت على ألا أقتفي خطاه.

كان والدي رجلا مأسويا، امتهن التنقيب عن حقول النفط وهو يفتقر الى الثقافة والعلم ولا آفاق له الا العمل الشاق. كان دائما محني الظهر متسخ اليدين. لكنه تميز بنزعة شاعرية توسمها في والدتي أيضاً. فغازلها وتودد اليها بمنتهى الكياسة وغمرها بالزهور والعواطف والأشعار وظفر بها من دون سواه من المنافسين المرموقين أبناء الاطباء وأصحاب المصارف. فكانت له نعمة توجت حياته وبلسماً لكدحه وكفاحه.

لكن والدي كان سوداوي التفكير نزاعاً الى التشكيك. كان يتمزق غيرة في حقول النفط في تكساس وأوكلاهوما، وحين يعود الى المنزل يأخذ في التفتيش عن أدلة على عدم اخلاص أمي له. وانتهى به الامر الى ضربها.

ذات ليلة استيقظتُ وشقيقتي نادين على صياح آت من غرفة نوم والدينا. فزحفنا الى الباب وأخذنا نسترق السمع. فسمعنا صوت والدي أشد غضبا مما عهدناه. وسمعنا أمي تتوسل اليه لكي يتوقف. ثم سمعنا كلمة "بندقية."

كان والدي يفتش عن البندقية التي خبأها وراء السرير. نادينا والدتي من الباب فصاحت بنا لكي نهرب. لكننا لم نفعل، بل اقتحمنا الباب واندفعنا معاً الى والدي وأبعدناه عن والدتي. كنت أنا في العاشرة من عمري وكانت نادين في الخامسة عشرة.

حدق والدي الينا مرتعبا قابضا على البندقية ويداه ترتجفان. ثم رمق البندقية وأطلق زفرة ألم ورماها جانبا وخرج من الغرفة. وكانت والدتي على السرير تشهق. ولما تمالكت نفسها اتصلنا بالشرطة، فحضر رجالها وقبضوا على والدي بالقرب من المنزل. وفي اليوم التالي وجدوه مشنوقاً في زنزانته.

كان ردي على الحادث تكلّف موقف تحدٍ ولامبالاة. انما، في الواقع، هزتني سنوات المعاناة الصامتة، الى أعماق من الاحاسيس لم أدركها من قبل.

وكانت وفاة والدي مستهلا للصعوبات. فهو لم يترك لنا معاشاً. فنزلنا نحن الثلاثة الى معترك العمل. التحقت والدتي بمعهد للتجميل، ولما تخرجت عملت في دار للتجميل واكتسبت زبائن كثيرات. كانت امرأة ذكية مقدامة، وما لبثت أن اشترت تلك الدار.

وكانت نادين طموحة الى تحقيق هدف آخر. فبعد تركها المدرسة انخرطت في العمل. لكنها كانت كل مساء تنسل الى مطار وتشيتا لتتلقى دروساً في الطيران. كان الطيران شغفها، ولأن تعلمها اياه كان خارجاً على التقاليد في تلك الايام، فقد استحلفتني كتم الامر عن أمي. ولما أنهت تدربها كانت هي المرأة الاولى في وتشيتا تنال رخصة لقيادة طائرات.

أما أنا فبلغت سن المراهقة وبت مصدر قلق لامي التي كانت تراقبني. وتعاطيت الشراب وعرفت فتيات كثيرات، لكني لم أجد لديهن دواء شافيا للوحدة التي كنت أعانيها في داخلي.

ذات ليلة بعد العشاء قالت لي أمي: "بادي،" وكان هذا لقبي المحبب، "اني قلقة على علاماتك في المدرسة وخائفة من الاخبار التي سمعتها عنك." وصمتت قليلا وتابعت: "هل ترغب في الالتحاق بمدرسة عسكرية؟ علمت أن أكاديمية أوكلاهوما هي لسلاح الخيالة."

كانت أمي تعرف أني أحب الجياد. فأجبتها: "سأفكر في الأمر." وفي منتصف الصيف أعلمتها أني سألتحق بالاكاديمية. فسرت وبان عليها الارتياح.

ومنذ ذلك الحين وأنا مأخوذ بعيش قصة رومنسية كلها فصول رائعة: مدرسة عسكرية وبزة رسمية وفروسية. كان ركوب الخيل مخاطرة طالما تمنيتها، ففي اعتلاء صهواتها مجد ونشوة واعتزاز وحرية تقت اليها بكل جوارحي. كانت تلك فرصة للهرب من واقعي.

حادث مروِّع

كانت أكاديمية أوكلاهوما العسكرية معقلا للجيش "القديم" تجلت فيها المحبة الصادقة للتقليد العسكري الامريكي المتجسد في الحصان.

في أوكلاهوما تعلمت ركوب الجياد وتقاليد الفروسية. وتعلمت كذلك كيف أدرب حصاني وأدرب ذاتي ثم أدرب كلينا للاندماج في وحدة كاملة. ودرست التاريخ العسكري والعلوم العسكرية وسياسة الأسلحة والرجال. وكان يتوقع من ضباط الخيالة أن يتولوا التوجيه والتخطيط. لم يكن لهم أنداد، بل أتباع، لان الفرسان دائما في الطليعة. هم حد السيف القاطع والروح المرهفة المتوثبة.

وتعرفت في أوكلاهوما الى لعبة البولو التي كانت موضع احتقاري في البداية اذ اعتبرتها تسلية الاثرياء الكسالى المتكبرين، لكني ما لبثت أن اكتشفت أنها هي لعبتي المفضلة.

كانت البولو مزيجا مثاليا لتهوري ولروح الانضباط التي كنت أكتسبها. فهي تنطوي على تنظيم وتحكُّم وعمل كفريق موحد، لكنها لا تخلو من المجازفة والخطر. لم أكن في أي وقت لاعبا بارزا، لكن اللعبة أصبحت هوايتي. وبلغ من ولعي بها أنني بعد تخرجي في الاكاديمية التحقت بكلية الحقوق في جامعة أوكلاهوما، لا حبا بدراسة القانون — الذي كان لي امرا عرضيا ثانويا — وانما لان في الجامعة فريقا للعبة البولو.

في شهر سبتمبر (أيلول) من سنتي الاخيرة في كلية الحقوق أعلنت نادين اعتزامها امتهان الطيران. وما عتمت أن أصبحت ربانة طائرة في كاليفورنيا والمرأة الاولى التي تنقل البريد الجوي. ثم عملت مندوبة مبيعات لشركة طائرات خاصة في سان دييغو. وذات صباح مشرق عام ١٩٤٠ حلقت بسيدة راغبة في شراء طائرة. فطلبت منها

الراكبة التحليق على علو منخفض فوق منزلها.

وجهت نادين مقدم الطائرة نزولا وانقضت فوق المنزل. وفي لحظة خاطفة هبت ريح مفاجئة تلقفت الطائرة الصغيرة وطوحتها فسقطت بين الاشجار. فتمزق الهيكل وتحطم الذيل وقتلت الراكبة للحال، أما نادين فانطرحت مهشمة بين الاغصان ولم يسمع لها صراخ.

اتصلت بي والدتي: "بادي، وقع حادث خطير."

استغرق وصولي الى كاليفورنيا أربعة أيام في السيارة. فوجدت نادين ما زالت في حال خطرة. كانت الرضوض والجروح تغطي وجهها بحيث يتعذر التعرف اليها. وكان ظهرها مكسوراً ومعظم ضلوعها كذلك. وهي أصيبت بارتجاجات في الدماغ. وكانت ساقها اليسرى في جبيرة من قدمها الى أعلى فخذها.

نظرت نادين الي بعينين غائمتين بفعل المخدر والمسكنات، وأنّت قائلة: "أنا أعرف أنني لن أستطيع الطيران ثانية. واذا لم أطر فاني لن أعيش."

لكننا، أنا وأختي، كنا محصنين ضد المصائب. وعدتها بأن أبقى معها حتى تستعيد قوتها وتقف على رجليها وتعود الى ممارسة الطيران.

تركت الكلية وانتقلت الى شقة نادين. وعادت هي من المستشفى لتبدأ مسيرة الابلال، كانت عاجزة كليا في البداية، وكان الوضع في منتهى الصعوبة لكلينا. ولكن بحلول أواخر ديسمبر (كانون الاول) غدت قادرة على المشي. وفي نهاية يناير (كانون الثاني) ١٩٤١ بات في امكانها تدبير شؤونها بنفسها. وعلى رغم الجبيرة المزعجة على ساقها شرعت ترسم خططا لمعاودة الطيران. وفي أصيل أحد أيام فبراير (شباط) نقلتها في سيارتي الى المطار حيث أقلعت بالطائرة، ولم تثنها الجبيرة التي كانت لا تزال تلف ساقها. لقد عادت اليها عافيتها.

أما أنا فكنت تأخرت في العودة الى كلية الحقوق. وكان يسعني، في الاحوال الطبيعية، انتظار الخريف فأعود وأكمل دراستي. لكن الاحوال تبدلت ولم تعد طبيعية. كانت الحرب مستعرة في أوروبا، وأيقنت أننا سننجر اليها، فالتحقت بفرقة الخيالة الحادية عشرة المرابطة على الحدود بين كاليفورنيا والمكسيك. وقبيل عيد ميلادي الرابع والعشرين في ابريل (نيسان) ١٩٤١ تطوعت للخدمة في "كشافة الفيليبين" فوج الخيالة السادس والعشرين. كان الكشافة مشهورين بالشدة والبأس وبأنهم مقاتلون رائعون. وأهم من ذلك، كان فوجهم يضم أفضل فريق للبولو في الجيش.

ومثل معظم الامريكيين، لم أكن أعرف تماما أين تقع جزر الفيليبين. ولما قابلت الضابط المعني بنقلي سألته عن موقعها مازحا، فأجاب بحدة: "انها قريبة من اليابان."

خلال فبراير (شباط) ١٩٤٢ تغيبت عن الخدمة الميدانية بسبب اصابتي في معركة مورونغ. وفي ١٢ مارس (آذار) هرب الجنرال ماك آرثر الى أوستراليا استجابة لاوامر الرئيس فرنكلين روزفلت، ليتسلم القيادة العليا لقوات الحلفاء في جنوب غرب المحيط الهادىء. وأعلن ماك آرثر أنه أمر بتنظيم الهجوم الأمريكي على اليابان، وأن الهدف الرئيسي الاول سيكون تحرير الفيليبين. وختم واعداً: "سوف أعود."

سلم ماك آرثر القيادة الى الجنرال وينرايت آمراً اياه بالصمود حتى عودته. ولكن لم يكن لدى معظمنا أي شك في ما ستؤول اليه الاحداث حين يشن اليابانيون هجومهم النهائي المرتقب. فقد كان أربعة أخماس رجالنا مصابين بالملاريا وثلاثة أرباعهم بالزحار (الديزنطاريا) وثلثهم بداء الـ"بري بري."[٢]

ومن بقي من جنودي الفرسان الذين جردوا من جيادهم ألحقوا بفرقة النقيب جوزف باركر الذي بدا هزيلاً مثلنا من جراء الحصص الضئيلة من الرز والسمك المعلب. كانت تلك أخوة في الضعف والهزال وسوء التغذية.

مسيرة الموت

بدأ الهجوم الياباني في أوائل ابريل (نيسان) معززاً بالمشاة والمدفعية والطيران. وتلته أيام اضطررنا خلالها الى التنقل باستمرار. ثم حصل الاستسلام في ٩ ابريل (نيسان)، ولم ترد على فرقتنا أي أوامر رسمية بهذا المعنى. لقد كنا، من الناحية التقنية، مفقودين خلف خطوط العدو.

كنت وجو باركر أخذنا قرارنا. فانطلقنا للحال ومع كل منا بعض طعام ومسدس أوتوماتيكي، وهدفنا الاول الخروج من باتان. مر يومان ونحن نسير ضاربين في الغابة ملتزمين كنف سلسلة الجبال، نتعثر ونقع ونزداد ضعفاً وهزالاً، حتى وصلنا الى ما كان خط المواجهة الرئيسي الذي شطر باتان. كان هدفنا اجتياز الطريق المحاذية للخط والممتدة من بحر الصين الجنوبي الى خليج مانيلا. لكننا كنا نعلم أنها تعج بالجنود اليابانيين.

قبل الغروب انحدرنا عن الجبل متسترين حتى بتنا نسمع هدير الآليات وجر أقدام الجنود. وأخيراً انكشفت لنا الطريق سيلاً لا ينقطع من المشاة والمدفعية. لبثنا ساعة نراقب هذا المشهد، ثم انكفأنا زحفاً على أيدينا وركبنا عائدين الى المنحدر.

قال باركر: "سننتظر هبوط الظلام، فلربما سنحت لنا فرصة مؤاتية."

حل الليل دامساً غير مقمر. وقرابة العاشرة زحفنا الى الطريق محاذرين نتلفت يمنة ويسرة حتى انتهينا الى مكان محجوب اختبأنا فيه. تمددنا منبطحين نوقّت الفترات

(٢) البري بري داء ينشأ من نقص الفيتامين "ب" في الغذاء ويصحبه ضعف وهزال.

الفاصلة بين عبور الفرق اليابانية فيما أحذية الجنود وعجلات الآليات الهادرة لا تبعد عن وجهينا الا بضعة أمتار.

همس باركر: "الشاحنات، ثم المشاة، ثم بضع ثوان من الهدوء قبل عبور المدفعية. ألا ترى يا إد أن العبور يجري على هذه الوتيرة؟"

هززت رأسي موافقا: "لننطلق بعد عبور طابور المشاة التالي."

مرت بضع شاحنات تبعها طابور من المشاة. فاذا صح توقيتنا فسيلي ذلك بضع ثوان من الهدوء. نهض باركر قائلا: "الآن!" وانسل الى وسط الطريق، فتبعته منحنياً، وبتنا مكشوفين لبضع ثوان رهيبة، ثم ارتمينا واحدنا فوق الآخر في الجانب المقابل من الطريق لاهثين رعباً وارتياحا.

عند الفجر اتجهنا شمالا حذرين. وبعد السير بضعة كيلومترات وصلنا الى الريف المكشوف حيث رأينا مزارعا يخوض في حقل رز.

احتفى بنا الرجل واصطحبنا الى قريته حيث قدم الينا دجاجته الاخيرة. وأثناء تناول الطعام راح يحدثنا عما يحصل مكرراً عباراته للتأكد من أننا نفهم كلامه. قال: "مرت أيام وألوف من الاسرى الامريكيين والفيليبينيين يساقون مشياً على طول طريق باتان الرئيسية. وكثيرون منهم هياكل متحركة تكاد لا تقوى على الوقوف. لكن اليابانيين كانوا يدفعونهم الى المشي ليلا ونهاراً ولا يسمحون لهم بالراحة. فمن انهار وسقط طعن بحربة للحال، ومن توقف للشرب من المياه القذرة الموحلة على جانب الطريق رمي بالرصاص. كذلك قتل المدنيون الذين أطعموا الأسرى وسقوهم."

كانت تلك مسيرة موت وإفناء وذروة في وحشية الجنود اليابانيين وعذاب الاسرى، أيقظت في السكان الفيليبينيين مشاعر الشفقة والحقد والتصميم على المقاومة. وأخبرنا المزارع أن ثمة مجموعات صغيرة في طور التشكل والتأهب لتنظيم المقاومة في الارياف. وعرض أن يصطحبنا الى احداها.

في اليوم التالي وصلنا الى قرية حيث استقبلنا أربعة رجال، أحدهم مجند أمريكي لم يذعن للاستسلام واعتزم مثلنا التخلي عن محاولة الهرب والبقاء لتنظيم نشاطات المقاومة. وهو أفادنا أن ثمة جيشا سرياً قيد الاعداد بقيادة الكولونيل كلود ثورب، وهو خيال أرسله الجنرال ماك آرثر خارج باتان لتنظيم حركة مقاومة.

كنت الى ذلك الحين أرى في الفيليبين مجرد فرصة عمل. أما الآن فقد بدأت أراها من منظار آخر: انها بلاد وشعب. وعلى امتداد الطريق أثناء هربنا كان السكان رائعين وفي منتهى اللطف والعناية. قاسمونا القليل مما عندهم من طعام وخاطروا بحياتهم لمساعدتنا. كان في امكاني الهرب، أما هم فكان عليهم القتال حتى النهاية، وذلك ما دفعني الى التساؤل: "هل أتطوع للانضمام اليهم؟"

شاركني باركر في شعوري، فتباحثنا في ما يتعين علينا عمله. وتركز تساؤلنا على وضعنا كضابطين في جيش استسلم للعدو.

قال باركر: "نحن لم نتلق أي أوامر بالاستسلام، لذا واجبنا الاستمرار في القتال."

فأشرت الى أن القانون ينص على الاعدام الفوري للجنود الذين يتابعون القتال بعد الاستسلام.

تكلمنا طويلا في القرار الذي يجدر بنا اتخاذه. لكننا في داخلنا كنا فارسين من سلاح الخيالة، ولم يكن التخاذل من شيمنا.

سألني باركر: "هل قر رأينا على القتال اذا؟"

أجبت: "هذا هو قرارنا حتما. سنتطوع لشن حرب عصابات."

جيش فلاحين

كانت في قدمي بثرة ملتهبة حالت دون مرافقتي باركر لدى ذهابه الى مخيم الكولونيل ثورب. وما عتم أن أفادنا الانصار أن اليابانيين يخططون لشن غارات في المنطقة، فانطلقت الى منحدرات الجبال البعيدة.

بعدما أقعدتني نوبة مديدة من الملاريا نزلت من الجبال في ٩ مايو (أيار) ١٩٤٢ اليوم الذي صادف عيد ميلادي الخامس والعشرين. فانتقيت موقعا وبدأت بناء مركز قيادة. كان البناء على وشك الاكتمال حين حضر الكولونيل ثورب الى المنطقة وشرح لنا أن أعمال المقاومة ستتوزع في أربعة قطاعات، أحدها سهل لوزون الأوسط ويشمل باتان ومدينة مانيلا، وسيكون بقيادة جو باركر وأنا نائبه.

باشرنا اتصالاتنا بالزعماء الوطنيين وكلفناهم تجنيد متطوعين لمجموعات المقاومة. كان السكان في غالبيتهم معادين لليابانيين ومتشوقين للتعاون معنا. وما لبثنا، أنا وباركر، أن انهمكنا في التنقل من قرية الى قرية نتكلم الى الزعماء المحليين ونجند وحدات جديدة من المقاومين ونحلفهم اليمين.

كانت مهمتنا التحضير لعودة الجنرال ماك آرثر، فبات لزاما علينا تنمية صدقيتنا وكسب الشعب الى جانبنا. تحاشينا في البداية الصدام مواجهة مع اليابانيين، وتركزت جهودنا على التنظيم وجمع المعلومات والقيام بأعمال التخريب. كانت الاسلحة والمعدات قليلة. ولم يرتد جنودنا بزات رسمية. كنا جيش فلاحين تتأجج فيهم الروح الوطنية وتعزز تصميمهم على مقاومة الاحتلال.

والى طبيعة الارض الوعرة كان الافتقار الى أجهزة الاتصال عائقنا الرئيسي. فكنا نتبادل الرسائل مع ثورب ومع كوادرنا بواسطة سعاة، وهي وسيلة بطيئة ومحفوفة بالمخاطر.

كنا نتنقل مشياً بعيدين ما أمكن عن الطرق والبلدات. وعزَّ علي وعلى باركر العيش مع الحشرات والحيات والحرارة الخانقة.

الا أن خطراً كبيراً آخر تمثل في رجال "الهوك" الجناح العسكري للحزب الشيوعي الفيليبيني. قصدنا اعتبارهم حلفاء والتعاون مع قيادتهم، واستعرنا منهم كتاب ماوتسي تونغ عن حرب العصابات. ولكن سرعان ما اشتد التوتر بين قواتنا وقواتهم.

ولتنظيم كوادر لنا في مانيلا، أرسلنا اليها اثنين من عملائنا. كانت تلك خطوة خطيرة، ولكن في غضون بضعة أسابيع أصبحت لنا شبكة شملت المدينة وضمت كثيرين من السكان المدنيين العاملين مع اليابانيين. وبدأ هؤلاء الرجال والنساء الشجعان يسربون الينا معلومات لا تثمن عن قوة اليابانيين وتنظيمهم وأهدافهم.

وفيما توسع نشاطنا بتنا أكثر تعرضاً للكشف وازدادت معرفة اليابانيين بنا. وأعلمنا مخبرونا أن اليابانيين نظموا قائمة بالمطلوبين في رأسها الكولونيل ثورب وضباط أمريكيون آخرون في المقاومة ذكرت لنا أسماؤهم، ومنهم جو باركر وأنا.

كان لباركر ولي حراس خصوصيون ائتمناهم على حياتنا. وكان حارساي بروسيسو كاديزون وكلارو كاماتشو، لا أتنقل الا برفقتهما ولا يستطيع أحد الاقتراب مني الا عبر مديتيهما الحادتين ورشاشيهما الجاهزين أبداً.

بعض جنود إد رمزي
وبينهم بروسيسو كاديزون واقفاً في الوسط.

ذات مساء توقفت وكاديزون في منزل أحد المزارعين بعد عودتنا من اجتماع مع رجال المقاومة. بدا المزارع مرتعباً، وأفادنا أن فرقة من الهوك دخلت القرية المجاورة قبل دقائق وأعلن أفرادها عزمهم على المبيت هناك.

في غمرة سذاجتي، رأيت في ذلك الحديث غير المتوقع فرصة لمقابلة قادة الهوك ومحاولة اقناعهم بالتوصل الى تسوية بيننا. لذا توجهت مع كاديزون الى كوخ حيث شاهدنا بعض ضباط الهوك قابعين حول قنديل. مددت رأسي الى الداخل، وحين رأوني تملكتهم الدهشة وخيم عليهم الصمت.

ابتسمت وطلبت التكلم مع الضابط المسؤول. فسألني ملازم التعريف عن نفسي. ولما أخبرهم كاديزون من أنا تحولت دهشتهم ارتباكا. وأمرني الملازم: "ابق مكانك، سأدعو قائدي."

وقفت صاغرا بين الرجال أصارع خدرا سرى في جسدي. لم يسعني ابداء ضعف أمام هؤلاء الرجال، لكن أسابيع المرض والسير والتنقل كانت برتني حتى الانهيار.

ناداني الملازم من خارج الكوخ. وحين خرجت رأيت اثني عشر رجلا ينبثقون من الظلام شاهرين بنادقهم في وجهي. حدقت اليهم غير مصدق ما أرى. وأغمي علي.

لما عدت الى وعيي كان كاديزون يحتضن رأسي. ففتحت عيني حذراً وقرصت ذراعه لاعلمه أني واع. داخل الكوخ وقف أحد رجال الهوك بسلاحه مديراً الينا ظهره. ثم دار في الخارج جدل حام أغرى الحارس بالخروج لاستطلاع الامر. فاسترق كاديزون السمع وهمس لي: "يقول الملازم إنك جاسوس الماني ولديه أمر باعدامك."

صممنا على الفرار. فجرني كاديزون الى مدخل خلفي للكوخ وساعدني للوصول الى حقل مزروع بقصب السكر توارينا فيها. كان القصب يرتفع أعلى من رأسينا ويسوطنا أثناء هربنا السريع. وكنت أركض بضعة أمتار ثم أتوقف وأتمسك بكاديزون كي لا أسقط مغمى علي. فجأة علا الصياح في القرية. لقد اكتشف هربنا.

كنت في حالة تراوح بين الغثيان والانهيار. واذا بكاديزون يهمس في أذني مشيراً الى جدول ماء: "انظر، هناك!" فأسرعنا الى الجدول وركعنا على ركبنا ثم انزلقنا في الماء. فحملنا التيار وتقاذفنا الى أن رمى بنا على الضفة الاخرى. فزحفنا الى الغابة حيث اختبأنا حتى تأكد لنا أننا أصبحنا في أمان.

"مبروك يا مايجور"

كان انهياري بين رجال الهوك نتيجة سكتة دماغية خفيفة (فالج). وفي فترة تعافيَّ ناب عني جو باركر في التنقل. ثم ضرب إعصار استوائي المنطقة فهطلت الامطار الموسمية وحولت المسالك وحولا والجداول المنحدرة من الجبال سيولا جارفة. وأصبح السير خطراً وإن لمسافات قصيرة. ومع ذلك، بحلول أكتوبر (تشرين الاول) زاد تعداد جيشنا على ٢٥٠٠ رجل.

أمضيت عدة أسابيع في أحد المخيمات أستعيد قوتي في رعاية طبيب أمريكي. وكان باركر في هذه الاثناء يحضر للسفر الى مانيلا. وارتحل اليها في نهاية الشهر.

لم يرد علي أي خبر منه حتى ديسمبر (كانون الاول)، فعلمت أنه في العاصمة ومقيم في حي فقير يعج باللاجئين واللصوص. وكان يجوب مانيلا في زي كاهن ويجند متطوعين ويجمع معلومات.

ولكن وردت أيضا أخبار سيئة، فقد علم باركر أن الكولونيل ثورب أسر وأنه يخضع لتعذيب رهيب. وكتب الي أنه سيتسلم مركز الكولونيل ثورب في قيادة قوات المقاومة، وسأكون أنا مكلفا قيادة المنطقة الشرقية الوسطى. وختم ثورب: "أرى من واجبي أن أهنئك لانك، بحسب معلومات مخبرينا، تأتي بعدي في المرتبة الثانية على لائحة الموت."

وعلى رغم ترسخ الاحتلال وتعاظم وحشيته ازداد حجم المعلومات التي كنا نرسلها الى أوستراليا. وبدأت كوادرنا تقوم بأعمال تخريب. وكلما تمكن رجال العصابات من عزل قافلة في التلال، كانوا يهاجمونها ثم يتوارون في الريف. وكانت مخازن المؤن والذخيرة أهدافا لهجمات متكررة، والآليات والطائرات تعطل في كل فرصة ممكنة.

في يناير (كانون الثاني) ١٩٤٣ شن الجنرال بابا، رئيس الشعبة اليابانية لمكافحة الاستخبارات، هجوما شاملا بهدف التمكن منا وابادتنا. وأصبحت قواعدنا عرضة لاقتحامات مستمرة. وكان الجنود اليابانيون يدخلون القرى فيحرقون كل شيء ويعتقلون كل من يرتابون فيه.

لكن الضغط المتنامي لم يرهب الشعب الفيليبيني ولم ينفره منا. فبعد استعادتي معظم قواي عدت الى التنقل في باتان وتجنيد كوادر وتعيين ضباط جدد. وفي مورونغ، حيث قدت هجوم فرقة الخيالة، استقبلنا رئيس البلدية والسكان استقبال الابطال. وخلال أسابيع تم تنظيم المقاومة على شاطىء باتان الغربي بكامله. وبدأت استخباراتنا ترصد كل السفن التي تدخل خليج مانيلا أو تغادره وترسل تقارير عنها الى الجنرال ماك آرثر في أوستراليا.

في اواخر شهر يناير (كانون الثاني) عدنا الى مخيمنا حيث وجدنا في انتظارنا ضابطاً من مانيلا علمت أنه يحمل الينا أنباء سيئة.

أخبرنا أنه في ٨ يناير (كانون الثاني) قبض على حارس باركر وعذب طوال ثلاثة أيام الى أن انهار وأفشى مكان أحد عملائنا الذي اعتقل بدوره مع معظم مساعديه.

وكان باركر فر ولجأ الى منزل أحد عملائنا حيث بات ليلته. ولكن عند الفجر طوقت المنزل فرقة من الجنود اليابانيين ثم اقتحمته وقبضت على باركر وهو ما زال نائماً.

وهكذا صرت أنا قائد قوات المقاومة وتصدرت قائمة الموت التي أعدها الجنرال بابا. وخُصصت مكافأة مقدارها مئة ألف دولار لمن يقبض علي.

نزلت بشبكة مخابراتنا في مانيلا ضربة قاسية. فأردت الذهاب الى هناك. ولان الرحلة كانت في غاية الخطورة فقد عدلت عنها وقررت التوجه شمالا. فكانت مسيرة على الاقدام اجتزنا معظمها ليلا متجنبين المعسكرات اليابانية.

أقمنا قاعدة جديدة في قرية بايامبونغ مسقط رأس حارسي كلارو كاماتشو. وأبلغت وصولي الى الملازم بوب لافام أحد قائدي المنطقة الامريكيين. كان لافام شاباً وسيما ذا ابتسامة عريضة وتصرف عفوي. وكان رجاله يدعونه "مايجور" أي الرائد. ولما ألمحت مازحاً الى لقبه أخبرني أننا كلينا في الواقع في رتبة رائد، اذ ان الجنرال ثورب كان أوصى قبل اعتقاله بترقيتنا رتبتين. وأضاف لافام: "لقد استغرق الاتصال بأوستراليا بضعة أشهر، لكن الجنرال ماك آرثر أقر الترقية. مبروك يا مايجور."

رحلة الرعب

خلال شهري ابريل (نيسان) ومايو (أيار) ١٩٤٣ جبت ولافام الاقاليم الشمالية نجند قادة آخرين وننشيء كوادر جديدة. وأنى توجهنا كان السكان يطرحون علينا السؤال ذاته: "متى يعود ماك آرثر؟" كان اسمه لديهم مثل ابتهال أو كلمة مقرونة بقوة خارقة. أجبنا عن أسئلتهم بصراحة: أن لا علم لنا متى يعود. كنا نفتقر الى أجهزة اتصال تطول مركز قيادته، وكانت رسائلنا اليه تجتاز طرقاً محفوفة بالأخطار يحملها سعاة متطوعون. لكننا كنا نؤكد للسكان أن الاجتياح لا بد آت.

ذات ليلة أخبرني لافام في المخيم أن جماعة من الفيليبينيين البارزين أنشأت شبكة سرية لمساعدة الاسرى والفارين، وأن إحدى أعضائها الناشطات شابة معروفة من مانيلا تدعى رامونا سنيدر. كانت رامونا أرملة أحد أسرى الحرب الامريكيين الذين ماتوا في الأسر، وهي اعتنت بلافام أثناء اصابته بالملاريا في السنة الفائتة. وأضاف لافام أنها وعدته بزيارة قريبة لحضور عيد ميلاده.

دخلت رامونا كوخنا فدخل معها ضياء بدد العتمة. كانت ترتدي ثوباً أبيض بسيطاً أبرز بشرتها السمراء الناعمة. وكان وجهها بيضويا صريحاً وعيناها البنيتان تشعان بهجة وحبوراً.

تسمرت عيناي فيها. وكانت صنوي، مقاتلة في صفوف العصابات، معرضة مثلي لانواع المخاطر. لكنها كانت أنيسة ودودة، تضحك وتحادث بمرح كأنها في رحلة ممتعة. وما إن حل المساء حتى كنت وقعت في هواها.

أمضت رامونا معنا يومين، فأخبرتنا عن أحدث المستجدات في مانيلا. وفيما هي تهم بالرحيل عرضت علي ارسال معلومات الي من المدينة. كانت تلك لعبة خطرة جداً، لان مجرد شائعة عن اتصال بي قد يكلفها حياتها. لكنها عادت الينا لاحقاً ذلك الصيف وأفادت أن الغارات اليابانية المتواصلة في يناير (كانون الثاني) أحدثت فراغاً كبيراً في المقاومة السرية في مانيلا وأن هذا الفراغ لم يسد بعد. لذلك صممت على زيارة المدينة.

أطلعت حارسي كلارو كاماتشو على خطتي. كانت الرحلة طويلة ولم أرغب في اجتيازها مشياً، فقلت مازحا: "إني في حاجة الى عربة صندوقية."[٣] وهذا ما كان. فبعد بضع ليال استجيب طلبي.

في منتصف ليل ٢٣ نوفمبر (تشرين الثاني) توجهنا الى سكة حديد جانبية في قرية مجاورة مزودين طعاماً يكفي ثلاثة أيام وثلاثة مدافع رشاشة. كانت العربة رابضة بين الأشواك. فتحنا الباب الجانبي فطالعتنا رائحة أوراق النخيل الخضراء التي تستخدم عادة لتغليف الحمولة. وبعد ادخال المدافع الرشاشة ومناصبها الثلاثية القوائم دخلت العربة مع رجلين موثوق بهما انتقاهما كاماتشو الذي سيقود القاطرة بنفسه.

كومنا بالات سعف النخيل عالياً على الباب، ثم أزلق كاماتشو الباب وأحكم اقفاله. فبتنا سجناء عاجزين عن الخروج من العربة ما لم تفتح من الخارج. فاذا فتحها اليابانيون كان لا بد لنا من الاشتباك معهم.

قرابة الظهيرة وصلنا الى نقطة التفتيش الاولى. وما هي الا بضع دقائق حتى أحاط اليابانيون بالعربة، وسمعنا أصواتهم فتجمدنا في الداخل. تبع ذلك ضرب على الجدران، ثم رأينا رؤوس حراب تخترق الشقوق وتمزق ورق النخيل المكدس.

فجأة برز نصل حربة اخترق الباب قربي وكاد يمزق ساقي. وتوالت اختراقات الحراب. ولما رأى اليابانيون أنها لم تصطدم بأي حمولة سمعناهم يتشاورون على عجل. ثم هرعوا الى مقدم القطار. فاتخذنا وضعاً قتالياً.

في تلك اللحظة ارتج القطار وتحرك. وما عتمنا أن تجاوزنا الجنود اليابانيين الذين تراكضوا ملوحين بأيديهم مهددين.

مرت ساعتان في غمرة من الانتظار والقلق ونحن على يقين من أن اليابانيين استبقوا وصولنا الى نقطة التفتيش التالية وأبلغوا أمرنا هاتفياً الى المسؤولين هناك. ولم نسمع شيئاً من كاماتشو، فجلسنا داخل العربة لا حول لنا ورشاشاتنا جاهزة للانطلاق. وأخيراً صرت العجلات ودمدمت وتوقفت العربة. فسمعنا وقع خطوات تقترب وما لبثت أن عبرت. وانتظرنا خمس دقائق، ثم عشراً، مترقبين تحطيم القفل في أي لحظة، فلم يحصل شيء من هذا.

ثم سمعنا صليلا وقعقعة وعاود القطار السير. لم يجر اليابانيون أي تفتيش!

في تلك الليلة أقمنا قاعدة موقتة في قرية خارج مانيلا. كانت مشكلتنا الملحة افتقارنا الى أوراق ثبوتية. وكنا فوضنا أمر تأمينها الى أحد رجالنا البارزين وهو سويسري يدعى ولتر رويدر يعمل مديراً تقنياً لشركة "غاز مانيلا." فاستخدم رويدر خبرته في المواد الكيميائية والصباغ وحوَّل جواز سفره لاستعمالي أنا.

(٣) العربة الصندوقية (boxcar) شاحنة سكة حديد مسقوفة ذات أبواب جانبية منزلقة.

مساء ٢٠ ديسمبر (كانون الاول) توقفت أمام القاعدة سيارة قديمة. فركبتها وجلست في المقعد الخلفي بين حارسين. وكنا كلنا مزودين مسدسات أوتوماتيكية.

انتشر الجنود اليابانيون على طول الطريق التي سلكناها. واذ توغلنا في المدينة تقلصت مخاوفي. كان عيد الميلاد وشيكا، وعلى رغم النقص في كل شيء كانت بعض المحال مزدانة والناس يجوبون الشوارع. فشعرت كأني انتقلت الى عالم آخر.

"يا، زو في زو!"

في الايام القليلة التي تلت تباحثت مع قادة المقاومة في مانيلا. وليلة عيد الميلاد قدمت رامونا سنيدر لتصطحبني. كانت هدية ميلادية لم أحلم بها. سألتني والابتسامة تشع من عينيها: "هل أنت بخير؟"

مددت ساعدي الهزيلين كفزاعة وقلت: "اني كما ترين."

ضحكت وقالت: "لا بأس، ستكون بخير. أما الان فنحن مدعوان الى العشاء في منزل أنسبائي. لقد حضروا وليمة الميلاد تكريما لك."

استقبلني أنسباؤها بالضم والعناق قبل أن يتم التعارف بيننا، وأشعروني للحال كأني في منزلي. غابت بيننا الرسميات، وكان الطعام لذيذا فتحادثنا طويلا الى أن أعلنت رامونا أن الوقت حان للانصراف. أحسست أن الساعات مرت سريعة، ولكن لم يسعنا أن نخاطر بعبور الشوارع ليلا بعد موعد حظر التجوال.

في الايام القليلة التالية تابعت لقاءاتي وقادة المقاومة. ثم جاءتني رامونا بخبر مقلق. قالت إن أمري كشف، وإن الجنرال بابا يعرف أني في مانيلا كما يعرف مكان اقامتي على وجه التقريب. وقد سدت جميع مخارج المدينة، لذلك علي تدبر مخبأ آخر للحال. فغادرنا البيت أنا ورامونا في عربة خيل واختبأنا في منزل نسيب آخر من أنسبائها.

ذلك المساء جاءنا ولتر رويدر قاطعا المسافة من شركة الغاز على دراجة هوائية. وكانت معه دراجة أخرى لي. فقد تفتقت له فكرة جريئة: أن أقيم معه في منزله ضيفا تحت أعين مئات الجنود اليابانيين المعسكرين في مجمع الشركة. ولما كان أكبر مني بعشرين سنة، ولما كان جوازا سفرنا يحملان اسم العائلة ذاتها، فسيعتبرني ابنه القادم من زوريخ لزيارته.

سألني رويدر هل أتكلم الالمانية، فأجبته نفيا قاطعا. قال: "حسنا، سأعلمك بضع كلمات." وطلب مني أن أردد العبارة الآتية: "يا، زو في زو" أي "نعم، هذا صحيح."

ثم قال: "والآن، هيا بنا. سأتكفل أنا بمعظم محادثاتنا، وأنت ستردد ما تعلمته."

كانت المسافة طويلة الى شركة الغاز. ولم ينقطع رويدر عن التحدث الي بالالمانية،

فكنت أرد على كل ما يقوله كببغاء: "يا، زو في زو." كانت تلك تمثيلية ذكية رائعة متهورة مضحكة، الا أنها على غرابتها كانت صمام أمان وحققت هدفها.

انقبضت نفسي رهبة لدى رؤيتي المجمع: أرض واسعة في قلب مانيلا انتثرت فيها آليات وخزانات ومبان. وبين المباني صفوف من الخيم تعج بالجنود اليابانيين.

دخلنا البوابة بدراجتينا فلوح لنا الحراس بالعبور. ولم يكف رويدر عن الثرثرة، ولم أكف أنا عن الرد عليه: "يا، يا، زو." عبرنا بين خيم الجنود وتوقفنا أمام منزل رويدر. فحملنا الدراجتين الى الرواق الامامي ودخلنا غرفة الجلوس حيث بتنا في أمان.

ظل اليابانيون يبحثون عني طوال الايام التسعة التي تلت. فسدوا جميع منافذ مانيلا وفتشوا كل سيارة غادرت المدينة. وكانت دورياتهم توقف المارة وتدقق في هوياتهم.

وفي الاسبوع الاول من يناير (كانون الثاني) أفادنا مخبرونا أن الجنرال بابا يئس من العثور علي واعتبر أني انسللت من المدينة فخفف اجراءات المراقبة الصارمة.

مساء ٧ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٤ ركبت ورويدر دراجتينا في اعادة لتمثيلية الأب والابن، وخرجنا من المجمع. وهربت الى الريف.

أنباء فاجعة

لقد طال افتقارنا الى مقر قيادة عام، وكنا في حاجة الى مقر على مقربة من مانيلا.

شمال شرق المدينة غابة مطر واقعة في سلسلة جبال سييرا مادري الشديدة الانحدار. كانت الغابة كثيفة لا سبيل الى اختراقها، وهي لا تبعد كثيراً عن العاصمة مانيلا. فذهبنا اليها لالقاء نظرة.

ارتفعت التلال بحدة عند سفح الجبل. وبعد جهد شاق بلغنا فسحة بين الاشجار الباسقة فوقفنا لنتبين معالم موقعنا. كانت مانيلا تحتنا في نهاية السهول والتلال المترامية. وشمخ وراءنا جبل منعزل يكسوه الشجر، فيه شلال يتفجر من شق في الصخر. وبالقرب من أعلى الشلال رف صخري وراءه واد حرجي.

سألت دليلنا: "ما اسم ذلك الجبل؟"

أجاب: "انه جبل بالاغباغ."

كان الموقع المثالي الذي نشدناه. فالرف الصخري يشكل مركزاً دفاعيا قويا. والوادي وراءه موقع لمخيمنا. والمرتفع فوق الوادي مركز مراقبة.

صرفنا بقية النهار في الاستكشاف. وأخيراً تسلقنا الصخر، فقلت: "سنركز مدافعنا الرشاشة هنا."

كنت علمت في مانيلا أن احدى الغواصات أحضرت الى جزيرة مندورو جهاز راديو

(لاسلكياً) لمجموعتنا. فتوجهت الى الجزيرة لتسلمه.

أمضيت أكثر من شهر في رحلة طويلة شاقة قطعت فيها خليج مانيلا في أحد المراكب، ثم اجتزت جنوب لوزون براً، ومنه عبرت مضيقاً الى مندورو.

وصلت الى مخيم المقاومة هناك. وبعد بضعة أيام برز من الغابة رجل يجر نفسه جراً. انه ضابط الصف ديفيد وايز. كان شعره متلبداً وسخاً، وكست جلده قشرة جافة من التراب والدم المتجمد. كان اليابانيون اكتشفوا الموقع الامامي للمقاومة ففتحوا النار وحصدوا غالبية الرجال. ونجا وايز ملتجئاً الى الغابة.

سألته: "وماذا عن الراديو؟"

قال: "فقدناه أثناء الغارة. لا بد أن اليابانيين استولوا عليه."

صباح اليوم التالي كنا نتأهب للرحيل. فتلقينا اتصالا يفيد أن غواصة ستتصل بعد أسبوعين الى طرف مندورو الجنوبي ناقلة اموالا ومعدات الى رجال المقاومة، وأن ثمة رسالة لي.

قال لي قائد المخيم: "الغواصة مستعدة لترحيلك. ولكن عليك المغادرة للحال."

كان العرض مغرياً. لكنني في قرارة نفسي عرفت أني لا أقوى على الرحيل. فأنا القائد، واعتماد شعبي علي. والحرب حربي أنا مثلما هي حربهم. وقد تطوعت لهذه المهمة ولن أتخلى عنها الآن.

أجبته: "قل لهم انني باق. شكراً."

ابتسم القائد وهز رأسه ثم ناولني ورقة مطوية وقال: "لا يجدر بي أن أسلمك هذه الورقة. فلدي تعليمات بألا أطلعك عليها الا في حال صممت على الرحيل."

فتحت الورقة وقرأت ما فيها. كانت رسالة من أوستراليا بدأت هكذا: "من ماك آرثر الى رمزي. عد الى لوزون لقيادة قواتك المقاومة." وكانت الرسالة موقعة من ماك آرثر.

لما عدت الى بالاغباغ طالعتني أنباء فاجعة. ففي ديسمبر (كانون الاول) نقل جو باركر وضباط آخرون من سجنهم الى مقبرة قديمة حيث أجبروا تحت المطر الغزير على حفر قبورهم والركوع فوقها. ثم قطعت رؤوسهم واحداً واحداً.

أنهى ذلك الحادث عذابا دام سنة، وكنت أنا الشاهد الحي على ثبات أولئك الرجال وجلدهم وشجاعتهم. فقد كان في امكان أي منهم افشاء معلومات وأسماء تقودني الى الهلاك. لقد تصرفوا كجنود وماتوا أبطالا.

مرت بي فترة عصيبة عشت خلالها رهبة واقعي وفاجعة رفقائي. في تلك الاثناء وصل كشاف من الجزر الجنوبية حاملا الي هدية: جهاز راديو (لاسلكيا). وكان الكشاف اجتاز حوالى ١٥٠٠ كيلومتر من أشد الاراضي وعورة في الفيليبين محاذراً الدوريات اليابانية. واستغرقت رحلته أربعة أشهر.

كانت تلك الهدية مستهل مرحلة جديدة في حربنا انتفت فيها الحاجة الى تبادل الرسائل والانتظار الطويل لسعاة كانت حياتهم معرضة للخطر في كل لحظة.

ضم مخيمنا في بالاغباغ ستة أكواخ من سعف النخيل وقاعة طليقة للطعام ومستشفى، وفوقها جميعا مظلات الاشجار الكثيفة الباسقة التي أخفت الاكواخ من الجو. وكان الوصول الى مخيمنا يحتم اختراق منحدرات في الغابة الكثيفة وأودية عمودية وعرة وتسلقاً شاهقاً الى أعلى الشلال حيث نصبنا مدفعين رشاشين انتشلناهما من حطام طائرة أمريكية أسقطتها مدافع العدو.

أصدرت أمراً ببناء كوخ للاتصالات على الجرف الصخري فوق مخيمنا سميناه "تلة الاشارة." وعلق الهوائي بين أغصان الاشجار، وركز ضابط الاشارة جهاز الراديو على طاولة من الخيزران والى جانبه المولد الكهربائي الذي يشغل يدويا. أجرينا تجربة فانبعث من الجهاز صفير حاد وظهرت على الشاشة نقط وقواطع، فعلمنا أننا أصبحنا جاهزين لتبادل الرسائل. ومنذ ذلك المساء شرعنا نبث معلوماتنا وتقاريرنا الى مقر قيادة الجنرال ماك آرثر.

حرصت قوات المقاومة على تنفيذ عمليات التخريب بحذر شديد. ولكن في منتصف صيف ١٩٤٤ رأيت أن الوقت حان لعرض عضلاتنا واظهار قوتنا. فأرسلت أوامر سرية الى مانيلا لتحضير هجوم، ورسالة الى ولتر رويدر أطلب منه ابتكار متفجرة. فحضر رويدر الى بالاغباغ لعرض "قنبلته"، وهي اسطوانتان من الرصاص داخل احداهما مواد متفجرة وفي الاخرى جهاز توقيت بدائي.

أشرف رويدر على تركيب القنابل وتدريب فرق للتخريب. وأصدرت أوامري بزرع القنابل في ١٥ يوليو (تموز) وتوقيتها بحيث تنفجر في منتصف الليل.

قرابة التاسعة مساء وصل رويدر الى المخيم وأفاد أن المتفجرات زرعت في أماكنها، لكنه كا قلقاً في شأن آليات التوقيت. قال: "هذه ليست ساعات سويسرية يا مايجور."

ربت ساعده مطمئنا: "يا، يا، زو في زو."

قرابة منتصف الليل تسلقت ورويدر تلة الاشارة ومعنا مقراب (تلسكوب). كان الليل دامساً ولا قمر في السماء. وحين حل منتصف الليل تطلعنا جهة المدينة مترقبين بلهفة. لم يحدث شيء. حلت الساعة الثانية عشرة والنصف، فالاولى بعد منتصف الليل، فالثانية، ولم يحدث شيء. فجزعت واستدرت نحو رويدر متسائلا: "ترى هل يمكن أن تتعطل آليات التفجير كلها فلا تنطلق أي قنبلة؟"

فجأة اندفع في الجو عمود لهب كأنه شهاب، ودوى انفجار عقبته انفجارات. وتناثرت الشعل والشظايا فوق المدينة. وترجَّع دوي الانفجارات في بالاغباغ.

انتزع رويدر المقراب وسدده الى اللهب هاتفاً: "تانكي!" واستدار نحوي وقد أشرق وجهه بابتسامة عريضة. كان "تانكي" مستودع الوقود الرئيسي لليابانيين، وكان يتفجر فتتسع دائرة سحب الدخان والنار المتأججة في سمائه. ثم ارتفع في طرف المدينة سياج من نار اشتعلت أوتاده واحداً بعد آخر، ثم اندمجت الشعل في صفوف طويلة ملتهبة. تلك كانت عربات الوقود المتوقفة في أفنية محطات السكك الحديد.

واندفع رويدر خلفي يرقص وينشد أغنية شعبية ألمانية. وتوالت الانفجارات طوال الليل.

وعند بزوغ الفجر دوى انفجار باهر في الخليج. فغمر الارصفة ضوء كهرماني أصفر ضارب الى الحمرة وتعالت النار في جو الصباح الباكر. وكان أن برميل نفط مشحوناً بالمتفجرات حمل على متن ناقلة نفط يابانية فانفجر واشتعلت حمولة الناقلة البالغة عشرة آلاف طن.

وصل دوي الانفجار الى مسامعنا كأنه قصف رعد. وفيما راحت الناقلة تغوص في البحر امتدت النار من حطامها المشتعل الى ناقلة خرى والى سفينة كانتا راسيتين قريباً منها، فاشتعلتا أيضاً.

بقينا في أعالي بالاغباغ الى الثامنة صباحاً، نحتفل مهللين منتشين بانتصارنا في اغراق مانيلا في ذلك الجحيم المتفجر. ثم نزلنا الى المخيم. وصغت رسالة مرمزة الى الجنرال ماك آرثر في أوستراليا فيما الحرائق تشتعل في أنحاء المدينة.

هجوم ياباني

في أعقاب هذا التخريب الهائل اشتد الضغط لكشفنا. واستجابة لالحاحي انضمت رامونا سنيدر الينا في الجبال، لكن موجة الاعتقالات طاولت كثيرين من رجالنا الذين انضموا الى مئات غيرهم من ضحايا التعذيب. ومع ذلك ارتفعت معنوياتنا بعد تفجيرات ١٥ يوليو (تموز) وزاد تصميمنا على المقاومة والانتصار.

في غضون صيف ١٩٤٤ ظلت بالاغباغ في مأمن. لكن صحتي تدهورت وأصبت في سبتمبر (أيلول) بالتهاب الزائدة الدودية. ولدى فحصي ضغط الطبيب بطني فأحسست كأن تياراً كهربائياً سرى داخلي. كنت أتلوى وأولول من الألم. فقال الطبيب: "تلزمك جراحة فورية."

ولافتقارنا الى البنج طلبت من كاديزون أن يحضر لي زجاجة رم كنت أحفظها في خيمتي. فعاد بها كاديزون وسكب بعض محتواها في حلقي.

لدى اجراء الجراحة ثبتني كاديزون ورامونا. وبضعني الطبيب في موضع فوق

فخذي. أجفلت لحدة الالم المفاجىء، ثم علا صراخي وأنيني عندما شرع يشق عضلات بطني. وعضضت ذراع رامونا.

أولج الطبيب يده المقفزة في بطني. وأحسست أصابعه تنزلق وتزيح أعضائي. صعقني الالم وطفقت أصرخ بأعلى صوتي وأشتم وألعن الى أن غلب علي خدر الالم والحمى والرم فغبت عن الوعي.

وبعد جهد أمسك الطبيب بالزائدة الدودية وقصها، ثم رش جوفي بالسلفا المطهرة ولقط جانبي الجرح وخاطهما.

لزمت الكوخ أسبوعاً كاملا وتولت رامونا رعايتي. كنت أستعيد قوتي ببطء. وزودني أحد الحراس عكازاً بدأت استعين به للمشي والتمرن خارج الكوخ. فقد كنت حريصاً على العودة الى الميدان بأسرع ما أمكن.

أخيراً في ٢ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٥ اكتشف اليابانيون موقعنا. فمن خلال الاعترافات التي انتزعت من عملائنا بالتعذيب، وعبر قياس موجات بث جهاز الراديو لدينا، توصل رئيس شعبة الاستخبارات اليابانية الجنرال بابا الى معرفة مكاننا. فأرسل دوريات لتمشيط المنطقة. ولما وصلت الدوريات الى الشلال فتحنا عليها النار.

تراجع اليابانيون ولبثنا في حال تأهب للارتحال واخلاء المخيم. وعاد العدو في اليوم الرابع بكتيبة كاملة معززة بمدافع هاون، فنشب قتال عنيف. وفي اليوم التالي تمكن اليابانيون من تثبيت أقدامهم على الصخور.

صباح اليوم الثالث شن اليابانيون هجوماً شاملا. فاحتدمت المعركة وبدأت القنابل تنفجر فوق ذرى الاشجار والرصاص يلعلع ويتطاير بين الاكواخ. وتولى الطبيب ورامونا وفريق من الرجال نقل الجرحى والمرضى الى قلب الغابة. وبعد الاجلاء لم يبقَ في المخيم الا الجنود المقاتلون، فأمرت بتفكيك جهاز الراديو وتوضيبه وانزاله من تلة الاشارة. ثم بدأنا التراجع.

سرت قابضاً على معدتي أكاد لا أقوى على التنفس من جراء الدوار والألم. لكني نجحت في الوصول الى الغابة وسط انفجار القنابل. والتحقت بأركان قيادتي، ثم شرعنا في نزول المنحدرات. لكني بلغت من الوهن حداً تعين معه حملي. وبعد بضعة كيلومترات ساءت حالي وبت عاجزاً عن الاستمرار وان محمولا. فأشرت الى الآخرين لكي يتابعوا السير ويتركوني أرتاح علني أتمكن من النزول لاحقاً مع طاقم المدافع الرشاشة.

تمددت في مكان مستتر من الغابة مصغياً الى دوي القتال. وكنت لم آكل شيئاً منذ يومين، ولا قدرة لي على القعود. وفكرت في أنني ربما أشرفت على نهايتي. اذا انسحب طاقم المدافع الرشاشة فجميع رجالي سيكونون في أمان، وسيتسنى لهم

انشاء قاعدة قيادة أخرى وسيتابعون النضال حتى موعد الاجتياح المرتقب. قلت لنفسي: "قد أتممت مهمتي." ثم استسلمت للنوم.

كنت عاجزاً عن متابعة الكفاح.

المعركة الاخيرة

استيقظت على وقع أقدام. فشهرت مسدسي وأصغيت، فاذا برجال المدافع الرشاشة قادمون. ناديتهم، وكان كاديزون حارسي الشخصي أول من وقع عليه نظري.

ركع الى جانبي وسألني: "هل أنت مصاب؟"

أكدت له أنني لست مصاباً لكنني منهك ولا أقوى على السير. فأصر على البقاء معي، وليتابع طاقم المدافع طريقه.

أسند كاديزون رأسي بيده وأطعمني بضع حفنات من الرز وقال: "لن يطول بنا الامر. سيكون الامريكيون هنا قريباً وينتهي كل شيء. غريب! لا أذكر كيف تكون الحياة الطبيعية في السلام، من دون نضال واختباء وقتال."

وفيما آذن النهار بالزوال تكلمنا عن أشخاص في المقاومة أصبحوا أصدقاء لنا وعن أصدقاء فقدناهم. ثم سألني كاديزون عن أمي وشقيقتي.

ذكرت له كيف انتصرتا كلتاهما في معركة الحياة. كيف كافحت أمي سنوات لتعيل عائلتها وكيف كافحت نادين بعد الحادث لتستعيد قوتها ولياقتها وتعود الى ممارسة الطيران.

قال كاديزون: "إنكم جميعاً مقاتلون. ووالدك؟ لا بد أنه كان مقاتلا هو أيضاً."

الواقع أنني لم أتكلم عن والدي قبلا، وهو لم يستحث ذاكرتي الا كتحذير ذاتي. ولم أفكر فيه إلا نادراً طوال فترة الحرب. لكني أدركت أن كاديزون كان على حق. فقد كان والدي مقاتلا خاض حرباً طويلة غير متكافئة لم تقل رهبة وعزلة عن الحرب التي كنت أخوضها. كانت حربه صراعاً مأسويا مع ذاته مزقته ودفعت به الى أحضان اليأس.

استعنت بكاديزون واستويت واقفاً على قدمي. كان ظلام الليل بدأ يخيم على الانحاء. فمشيت بضع خطوات وكاد يغمى علي. فتمسكت بكتفه وسرنا نزولا في بحر كثيف مائج من العشب. وغمرني شعور بالثقة. إني لم أنته بعد، ولست وحدي.

في ٨ يناير (كانون الثاني) رتبنا مقراً جديداً لقيادتنا وعاد جهاز الراديو الى العمل. بعد ظهر ذلك النهار تلقيت رسالة ملحة من ماك آرثر: "باشروا للحال تدمير مرافق العدو: شبكات الاتصال وخطوط السكك الحديد والشاحنات والطائرات ومخازن الذخيرة والوقود والمؤن."

صباح اليوم التالي بدأت بوارج الجنرال ماك آرثر تقصف الشاطىء. وباكراً في ١٠

يناير (كانون الثاني) باشر الجيش السادس عملية الانزال.

انسحب اليابانيون الى الجبال. وتدفق جنودنا الى الداخل فلم يصطدموا الا بمقاومة خفيفة. لكن القتال استمر في الجبال وفي مانيلا حيث خاض بعض الجنود اليابانيين قتالا يائساً.

بعد انتهاء المعارك دعيت لمقابلة الجنرال ماك آرثر. وفيما كنت داخلا مكتبه اذا بصوت يعلو عبر القاعة الفسيحة: "اذاً أنت رمزي."

كان ذلك صوت الجنرال بقامته الفارعة وعينيه الثاقبتين. فشعرت في حضرته براحة وطمأنينة. قلت: "لم يخامرنا شك في عودتك يا سيدي."

هز رأسه وأجاب: "إني آسف لان عودتي طالت الى هذا الحين."

تحادثنا أكثر من ساعة. فاستوضحني أوضاع قواتي والقادة العسكريين والمدنيين. كنت قلقا خصوصاً لجهة دمج قواتي بالقوات الامريكية النظامية، فقلت: "يهمني أن يعرف أولئك الذين قاتلوا معي أن خدماتهم ستقدر وأنهم سيعاملون على قدم المساواة مع قواتنا النظامية."

فأكد لي ماك آرثر أنه سيولي الامر عنايته.

تابعت: "ثمة أمر آخر يا سيدي الجنرال. لقد رفّعت ضباطاً كثيرين في غضون سنوات الحرب الثلاث، ومنهم بضعة كولونيلات."

ضحك ماك آرثر وسألني: "هل رفعت أحداً الى رتبة جنرال؟"

أجبت: "لا يا سيدي، لكني أرجو إقرار هذه الترفيعات."

سألني: "هل تكفل هؤلاء الأشخاص؟"

أجبت: "كل واحد منهم يا سيدي."

قال: "اذاً أتعهد لك اقرارها."

بدأت أعرب له عن شكري فقاطعني: "رمزي، أنت ساعدتني لأفي بوعدي لشعب الفيليبين. أنا المدين لك."

وفى ماك آرثر بجميع تعهداته. وعملت خلال شهري ابريل (نيسان) ومايو (أيار) لتدريب مقاتلي المقاومة وتأهيلهم، فنقص وزني الى ما دون ٤٠ كيلوغراماً. وكنت ما زلت واهنا أعاني داء الزحار.

في ٩ مايو (أيار) ١٩٤٥ يوم عيد ميلادي الثامن والعشرين استيقظت على أنغام موسيقى تصدح في الخارج. ورأيت أعلاما مثلثة ملونة تخفق على الاشجار خارج نافذتي. ووقفت رامونا تحتها مبتسمة ببزتها الكاكية الرسمية الجديدة وعلى كتفيها وصدرها شارة نقيب، رتبتها الجديدة. كانت هيئة أركاني مجتمعة في الخارج. وبدأ توافد الشخصيات الرفيعة. وظلت الموسيقى تصدح حتى الليل.

طلع الصباح فأخذتني رجفة. فاستويت على قدمي، لكني سرعان ما انهرت على الارض ارتجف بشدة. فحملني كاماتشو وكاديزون الى سيارتي ووضعاني على المقعد الخلفي وقد تدلى رأسي على صدري.

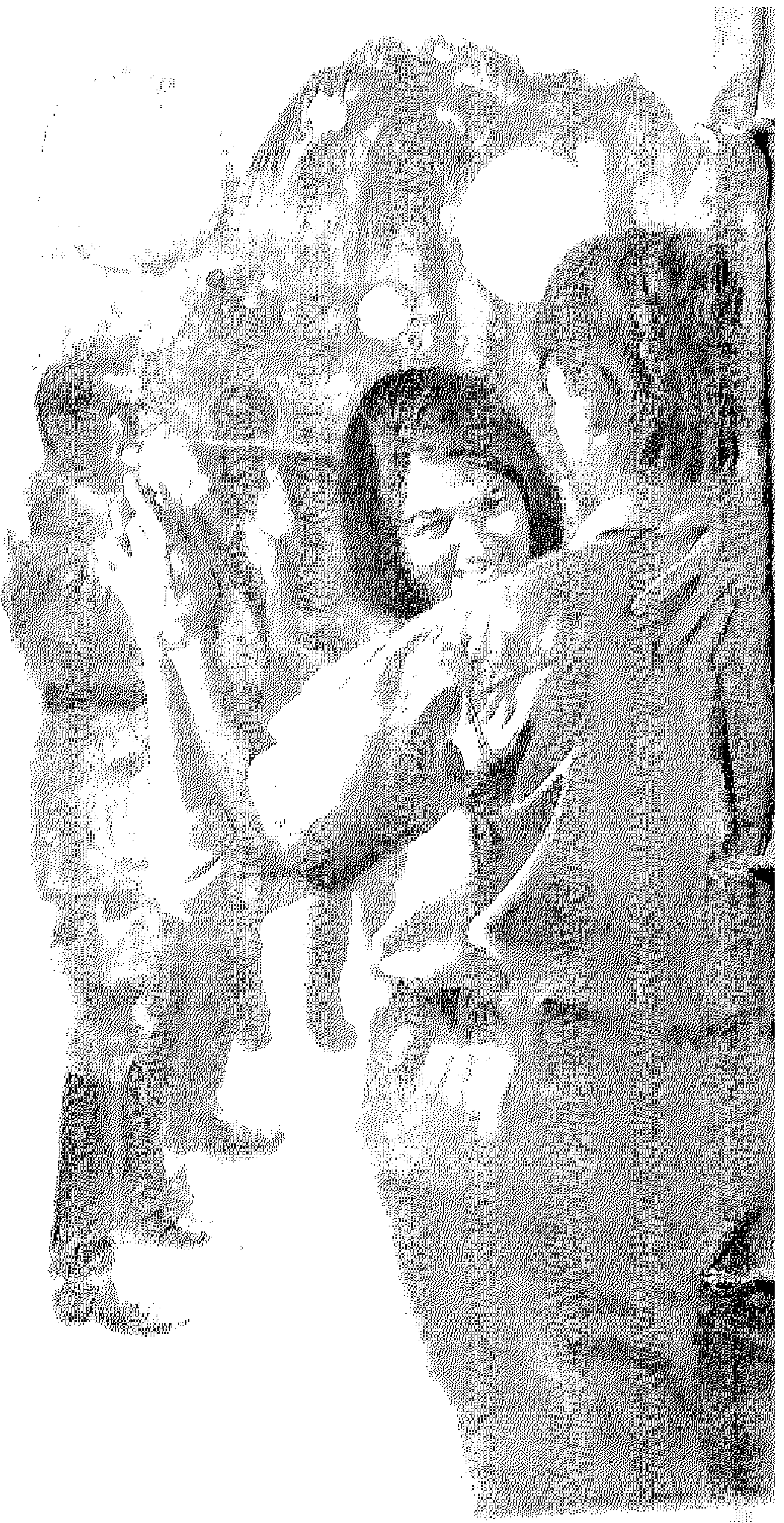
لزمت المستشفى عشرة أيام، تلتها عشرة أيام أخرى في مانيلا. ولدى عودتي الى عملي سعيت خلال أسبوع الى معاودة نشاطاتي العادية، فأسأت الأداء وأخطأت في كل شيء.

وأصبت بانهيار ثان أسوأ من سابقه. ففيما أنا جالس الى مكتبي اهتز القلم فجأة في يدي. فغار قلبي داخلي ورأيتني عاجزاً عن إتيان أي عمل ما عدا الانغلاق على ذاتي والانكفاء الى نقطة صغيرة نيرة من الوعي في دماغي راقبت منها جهازي العصبي وهو ينهار.

لزمت المستشفى أياماً كنت خلالها أستشعر في عمق أعماقي تلك النقطة الدقيقة النيرة التي هدتني الى واقعي. فناجيت نفسي: "لا أحد في خطر. الكل في أمان. لا غارات بعد الآن ولا هرب ولا اختباء ولا انذار. لم أستسلم في باتان، ولم ينل مني المرض ولا الجنرال بابا ولا المرارة القاسية التي خلفها موت أصدقائي الفاجع. ساعدت شعب الفيليبين على القتال والتحرر من الخوف والتعذيب والموت، وعلي الآن أن أكافح في سبيل خلاصي وسلامتي."

يوم تسريحي الثاني من المستشفى تلقيت أوامر بالعودة الى الولايات المتحدة مرفقة باعلامي أنني رفعت الى رتبة مقدم.

في ١٣ يونيو (حزيران) في مانيلا انحنى الجنرال ماك آرثر بقامته الفارعة ليعلق على صدري وسام الخدمة



المميزة وليكرر شكره لي. وبعد ثلاثة أيام ودعت أعضاء هيئة اركاني كلا بمفرده وشكرت لهم إخلاصهم وشجاعتهم. وغلب علي التأثر لدى وداعي كاماتشو وكاديزون فعجزت عن القول لهما "وداعا" واكتفينا بالمعانقة.

أقلتني رامونا في سيارتها الى المطار، فأغمضت عيني وألقيت رأسي الى الوراء.

قلت لها لدى وصولنا الى المطار: "تعالي لزيارتي."

قالت: "سأفعل. أرجو أن تتعافى بسرعة. وأتمنى لك السعادة والهناء."

أن تتعافى بسرعة. وأتمنى لك السعادة والهناء."

استقبلتني شقيقتي نادين في مطار سان فرنسيسكو، فبدت لي أكثر رزانة ونضجاً وقد تحولت خشونتها ثقة واتزاناً. قالت وهي تعانقني: "هالو بادي!" فيا لكلمة التحبب هذه التي غابت عن مسمعي سنوات قاسيت خلالها الأهوال. فأغرورقت عيناي.

سألتها: "هل علمت أمي بقدومي؟" فمنذ سقوط باتان وانا معتبر من المفقودين.

أجابت: "قبل بضعة أسابيع تلقت اتصالا من واشنطن."

سألتها: "وأنت، هل أنت بخير؟"

أجابت: "اني أقضي وقتا رائعا. أعمل في نقل الطائرات للجيش من قاعدة جوية الى أخرى، مقاتلات وقاذفات قنابل. وأدرب طواقم الطائرات أيضا."

ثم رمقتني بنظرة جانبية طويلة وسألتني: "وأنت، كيف حالك؟"

أجبت بصدق: "لست أدري."

قالت: "أنت الآن بطل. ولكن بربك، كيف أصبحت هزيلا الى هذا الحد؟"

ركبنا طائرتها. وفيما كنت أربط حزام الامان لاحظت نادين أن يديَّ ترتجفان، لكنها لم تقل شيئاً. فأقلعنا وتوجهنا شرقاً.

كانت والدتي في انتظارنا في مطار وتشيتا. نزلنا من الطائرة فبسطت لي ذراعيها وضمتني قائلة: "آه، بادي، بادي."

بعد يومين في البيت دخلت المستشفى في توبيكا لاجراء فحوص. وكان وزني ٤٢ كيلوغراماً. فأظهر التشخيص أني مصاب بالملاريا والزحار وفقر الدم وبسوء تغذية حاد وانهيار عصبي عمومي.

بقيت ١١ شهراً قيد المعالجة احتجت خلالها الى كل الايمان والحب اللذين تعلمتهما في لوزون. لكني صممت على الانتصار في هذه الحرب أيضاً.

ادوين برايس رمزي وستيفن ج. ريفيل ■

ترجمة الياس عقل

الى وسام الخدمة المميز، نال إد رمزي اوسمة "النجمة الفضية" و"النجمة البرونزية" و"القلب الارجواني" وميداليات وتكريمات كثيرة من حكومة الفيليبين. واصبح نائب رئيس شركة "هيوز للطائرات" مسؤولا عن منطقة الشرق الاقصى. وهو متقاعد حالياً ويعيش مع زوجته في لوس انجلس بكاليفورنيا

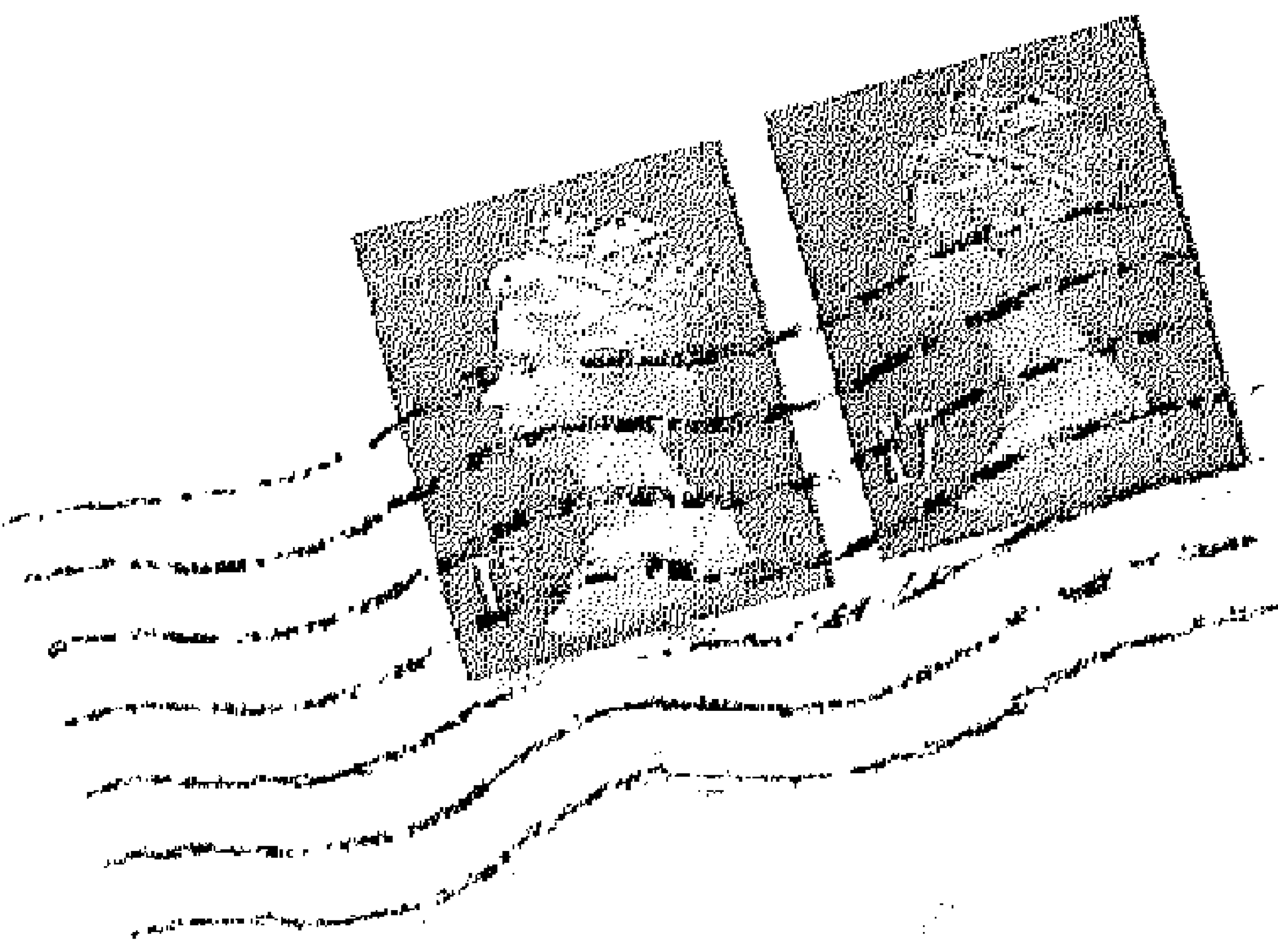

كتاب الشهر
الجريمة الكاملة
بقلم: ديفيد مولر

الجريمة الكاملة

بدأت الاحجية الرهيبة برسائل تهديد تطالب بدفع مبالغ نقدية. ثم ظهرت على رفوف المتاجر علب مسمَّمة من طعام الكلاب. وذات يوم كانت احدى الامهات تلقم ابنتها طعاماً معلباً للاطفال، فلمحت في فمها قطعاً معدنية براقة من شفرة حلاقة، فراحت تلتقطها هلعة من فم الطفلة.

لقد نجح المبتز على الدوام في استباق خطوات الشرطة وجني المال وفق مخطط يقارب "الجريمة الكاملة" على نحو لم تشهده دائرة اسكوتلنديارد[1] في تاريخها. وتوسعت التحقيقات لتشمل دوائر شرطة ومصارف واجهزة كمبيوتر، ووجد المحققون أنفسهم أمام أسئلة مربكة: من هو هذا المجنون؟ ومن اين له هذه القدرة الخارقة على استباق خطواتهم؟ وكم من الابرياء سيقعون في حبائله قبل أن يقع في قبضتهم... هذا إن وقع؟

هنا، استناداً الى سجلات اسكوتلنديارد، واحدة من أغرب جرائم التاريخ الحديث.



(١) اسكوتلنديارد هي دائرة المباحث في شرطة لندن.

أطل صباح ٣ أغسطس (آب) ١٩٨٨ مشمساً ودافئاً على بلدة ملتون موبري التي تبعد ١٥٠ كيلومتراً الى الشمال الغربي من مدينة لندن. واذ راح لزلي سيمنز، مدير شركة "بدغري بتفودز" لأطعمة الحيوانات، يتفحص الرزمة التي وضعتها سكرتيرته أمامه، شعر بقشعريرة تسري في بدنه.

فأمامه على المكتب علبة "بدغري تشام" من طعام الكلاب الذي تصنعه الشركة، والى جانبها رسالة تحذِّر من أن العلبة لُوِّثت بمواد كيميائية "عالية السميَّة لا لون لها ولا رائحة... ولا سبيل لصاحب الحيوان المدلل الى اكتشافها قبل اطعامه منها."

وطالبت الرسالة بمبلغ ١٠٠ ألف جنيه استرليني (نحو ١٨٠ ألف دولار) سنوياً وعلى مدى خمس سنوات. وهددت بأنه "ما لم يسدَّد هذا المبلغ بحسب البرنامج المحدد، فستظهر على رفوف المتاجر في أنحاء بريطانيا كميات كبيرة من العلب المسممة."

لقد ألِف كبار الصناعيين أعمال الابتزاز، لكن سيمنز شعر هذه المرة باختلاف الحال. ففي معظم مكائد الابتزاز حلقة ضعيفة تمثل في طريقة تسلم المال. إلا أن هذا المبتز طالب بإيداع المال حسابات مصرفية يحددها لاحقاً لكي يتمكن من سحبه بموجب بطاقات نقدية[٢] من ألوف ماكينات النقد الاوتوماتيكية[٣] المنتشرة في أنحاء البلاد.

واسترسل شارحا أنه فتح هذه الحسابات بأسماء مستعارة "قبل أمد بعيد" وأنه تلقى البطاقات النقدية وأرقام التعريف الشخصية[٤] بواسطة مكاتب تُعنى بتسلم بريد أشخاص لا عناوين دائمة لهم. وبما أن عدد الوافدين الى كل من هذه المكاتب يقارب الستين يومياً، فان تذكر الموظفين شخصاً زارهم قبل سنوات هو احتمال شبه معدوم.

فيا له من ذكي!

تابع المبتز في رسالته: "عندما توافق شركتكم على الدفع، ضعوا اعلانا في باب رسائل القراء في صحيفة "دايلي تلغراف" بالنص الآتي: "ساندرا، عيداً سعيداً يا حبيبتي. المحب، جون." وانشروا هذا الاعلان في تاريخ اقصاه ١ سبتمبر (أيلول)."

لقد تداركت الرسالة جميع الاحتمالات. فراح سيمنز يتفكر في مضامينها. انه أمضى ٣٠ عاماً في شركة "بدغري" عمل خلالها لتطوير منتجاتها وتجميل صورتها. وهو يدرك أن تهديداً واحداً بالتسميم كفيل باسقاط المبيعات والاستغناء عن خدمات مئات العمال.

لذلك استدعى للحال لجنة طوارىء ضمَّت مدير المبيعات جون دايل ورئيس قسم

---

(٢) Cash cards. وهي بطاقات بلاستيكية مرقمة يولجها صاحبها في ماكينة خاصة فتخرج له مبلغاً نقدياً معيناً.

(٣) Automatic teller machines «ATM»

(٤) Personal identification numbers «PIN»

الدعاية والاعلان وليم دونكان، ولفتهما الى ضرورة مراعاة السرية التامة في هذا الشأن. قال: "واضح أن علينا استدعاء رجال الشرطة. لكننا لا نستطيع لقياهم في مقر الشركة. فاذا علم الموظفون بالأمر وبدأوا الكلام، فسنجد أنفسنا هدفا لحملة مركزة من وسائل الاعلام."

في وقت لاحق من ذلك النهار قصد دايل ودونكان موقف سيارات أمام أحد المتاجر الكبرى لملاقاة المفوَّض ايان ليسي الذي يأتي ثانياً في تراتبية دائرة المباحث الجنائية في شرطة لسترشاير. وهو رجل رقيق البنية أشيب الشعر في الثانية والاربعين من عمره.

خلَّفت الرسالة أثراً عميقا في نفس ليسي، فتمتم معجباً: "انه لمحترف حقاً. فهو يبدو عالما بما سيجول في فكرنا. لا أجد في هذه الرسالة منطلقا نستند اليه. لربما بيَّنت التحليلات شيئاً ما."

with all our fondest love; Sally, Irene, Garth & the Grandchildren.

SANDRA, Happy birthday darling. Want to help, must talk, phone 0664 500065. Love John.

BALL nee ARMOUR MIRIAM BALL otherwise MARIE BAL[illegible] Nee

لكن فحص الرسالة وعلبة طعام الكلاب في مختبرات الشرطة لم يكشف شيئاً. فالمواد الكيميائية جاءت مطابقة تماما لتحديدات المبتز، وقاتلة أيضا. أما الرسالة فمطبوعة على آلة كاتبة من نوع واسع الانتشار ومستنسخة على نحو لم يترك أي بصمات.

ولم يدَع المبتزّ مجالا للعثور على أي "بصمات" جينية (وراثية)، وهذه تقنية حديثة تعتمد تحليل تركيبة الحمض النووي DNA[٥] الذي يتفرد به كل شخص والذي يمكن استخراجه من الدم واللعاب والعرق وسواها من أجزاء الجسم البشري وإفرازاته. فبدلاً من لعق الطابع البريدي الملصق على غلاف الرسالة عمد المبتز الى بلِّه بالماء.

وبعد يومين التقى دايل ودونكان المفوَّض ليسي مجدداً، ونقلا اليه قرار الشركة عدم الخضوع لهذا الابتزاز.

قال ليسي: "علينا أن نواجه الواقع. نحن لا نملك ما يرشدنا الى المبتز. واذا كتب ثانية، فقد يتوجب علينا ايداع المال حساباته وتركه يسحبه. فتلك قد تكون فرصتنا الوحيدة للاتصال به. وإن أطلنا أمد الايداع فلا بد من أن يقع في خطأ ما."

أومأ ممثلا شركة "بدغري" موافقين، وقررا قبول التحدي اذا ما اتصل المبتز ثانية.

(٥) Deoxyribonucleic acid

في هذا الوقت كان ليسي نبّه دائرة اسكوتلنديارد في لندن ليُصار الى الابلاغ عن جميع حوادث الابتزاز وتلوث الاطعمة التي تسجلها دوائر الشرطة في جميع المقاطعات. وعلى رغم أن التحقيق بقي بمجمله ضمن صلاحية دائرة لستر فقد زار ليسي مقر اسكوتلنديارد في لندن للتشاور والمفوّض باتريك فليمنغ، وهذا رجل فارع الطول في السابعة والاربعين من عمره ذو عينين رماديتين يقظتين، وهو مسؤول عن الفريق الجنائي في شرطة المدينة الذي يشكل جزءاً من شبكة مباحث وطنية تتولى قضايا جرائم تتخطى نطاق عمل الشرطة المحلية.

قرر الرجلان عدم استعجال الامور نظراً الى أن الرسالة حددت الاول من سبتمبر (أيلول) موعداً نهائياً. وقال فليمنغ: "لندع القلق يتملكه. أجبروه على شراء الصحيفة كل يوم."

وفي ٣١ أغسطس (آب) اليوم الأخير قبل الموعد المحدد، وضع المحققان الاعلان المطلوب في الـ"دايلي تلغراف" وأضافا اليه رقم هاتف آملين استدراج المبتز. فجاء كالآتي: "ساندرا، عيداً سعيداً. أود المساعدة. يجب أن نتكلم. الهاتف ٥٠٠٠٦٥ – ٠٦٦٤. المحب، جون."

مراقبة ليلية

مضت خمسة أسابيع من دون جواب. فساور ايان ليسي أمل أن تكون القضية في حكم المنتهية، ورتّب اجتماعاً مع ممثلي "بدغري" في مقهى خارج بلدة ملتون موبري في ٧ أكتوبر (تشرين الاول). ولكن ما إن انفضّ الاجتماع، حتى تلقى دونكان مكالمة تدعوه الى الاتصال بمكتبه. وأُخبر أن الشركة تلقت من المبتز رسالة جاء فيها: "اطلعنا على ردكم. لن نكلمكم هاتفيا، فليس هناك ما نبحث فيه."

وفصّلت الرسالة أن الحسابات مودعة باسم جون وساندرا نورمان في ثلاثة مصارف مختلفة، وعلى الشركة ايداع ما مجموعه ١٠٠ ألف جنيه استرليني في موعد أقصاه ١ نوفمبر (تشرين الثاني) "وإلا بدأ تنفيذ التهديد السابق."

حاول ليسي مرة أخرى الافادة من عامل الوقت منتظراً ٢٨ أكتوبر (تشرين الاول) قبل ايداع مبلغ ٥٠٠٠ جنيه (نحو ٩٠٠٠ دولار) من أموال "بدغري" في اثنين من الحسابات الثلاثة. وبذلك اكتشف أمراً صغيراً اعتبره ضرباً من حسن الحظ: وحده حساب مصرف هاليفكس ظل مفتوحاً، أما المصرفان الآخران فقد أقفلا حسابي المبتز بعدما ضاقا ذرعاً بمراسلاته المرتجعة.

وفي ما عدا هذا التقدم اليسير ظل المبتز ممسكاً بمعظم الاوراق الرابحة، اذ ما زال في وسعه أن يسحب من حسابه في هاليفكس مبالغ تصل الى ٣٠٠ جنيه (نحو ٥٤٠

دولارا) يوميا من ١٠٦٦ ماكينة نقد منتشرة في أنحاء البلاد بحيث يستحيل على الشرطة وضعها تحت مراقبة دائمة.

وفي الساعة ٩،٢٩ من مساء ٤ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٨ سحب المبتز أول ٣٠٠ جنيه من ماكينة نقد هاليفكس في بلدة ريدنغ البعيدة ٦٥ كيلومتراً من غرب لندن. وخلال الايام العشرة اللاحقة أجرى ثمانية سحوب أخرى من نقاط مختلفة في البلاد. واذ لم يكن لدى ليسي سبيل آخر لمواصلة الاتصال به، نصح شركة "بدغري" بايداع الحساب مبلغ ١١ الف جنيه استرليني (نحو ٢٠ ألف دولار) خلال الشهر اللاحق.

بعد فورة السحوب الاولية بدأ ثمة نمط يتشكل، اذ راح المبتز يستخدم مزيداً من ماكينات النقد في ناحية من بريطانيا تقع جنوب لندن وشرقها. فنظمت شرطة لسترشاير بالتعاون مع اسكوتلنديارد حملة مراقبة ليلية في مواقع منتقاة.

وتحدث ليسي الى مجموعة من رجال اسكوتلنديارد: "نحن واثقون بأن المبتز لن يستخدم بطاقته النقدية خلال ساعات العمل لأن الكمبيوتر سينذر موظفي هاليفكس على الفور. وهو، الى الآن، أجرى سحوبه في العشية. لذلك، اذا راقبنا ماكينات هاليفكس من ساعة اقفال المكاتب الى ساعة توقف الماكينات عن العمل في منتصف الليل، فسنحظى بفرصة جيدة للقبض على أحد ما."

ومتى وضع المبتز بطاقة السحب الرقمية في احدى ماكينات النقد، انكشف ذلك للحال لرجال الشرطة المرابطين في مصرف هاليفكس وأمكنهم الاتصال لاسلكيا بفرق المراقبة لضبط الساحب.

بدأ التنفيذ في ٢٨ نوفمبر (تشرين الثاني) بهمّة ١٥٠ شرطيا توزعوا مجموعات ثلاثية (ومجموعة احتياط) قبعت تراقب ٤٩ ماكينة نقد في شرق لندن. لكن المبتز، عن غير قصد منه، سحب المال تلك الليلة من دونكستر البعيدة ٢٦٢ كيلومتراً من شمال لندن حيث لم يرابط أي فريق مراقبة.

بعد أربع ليالٍ جلس ليسي في مقر اسكوتلنديارد يتابع العمليات هاتفيا كأنه صياد يتحين الفرص للأنقضاض على طريدة. فبوجود كل هذه الفخاخ المنصوبة لا بد من أن تقع الطريدة في أحدها عاجلا أم آجلا.

رن جرس الهاتف، فالتقط السماعة وقلبه يتوثب ترقبا. قال له مكلمه: "انه يسحب... من بلاكبول."

لكن ليسي لعن حظه لأن بلاكبول تقع على الساحل شمال غرب انكلترا حيث لا فريق مراقبة. وللحال اتصل بشرطة بلاكبول طالبا تسجيل أرقام السيارات المغادرة مداخل المدينة ليصار الى تتبع أصحابها عبر مصلحة تسجيل السيارات والتحقيق مع أولئك الذين يقطنون في الجنوب الشرقي حول ما كانوا يفعلونه في بلاكبول تلك الليلة. الا أن

التحقيق لم يكشف أي أسماء مريبة.

وكان المبتز سحب ما مجموعه ٧٨٠٠ جنيه استرليني (نحو ١٤ ألف دولار). لكن ذلك لم يكفه. فكتب في ٥ ديسمبر (كانون الاول) رسالة الى شركة "بدغري" يطلب تعويم حسابيه الآخرين. وكان مراده واضحاً وهو أن يتوافر له خيار أوسع من ماكينات النقد.

جاء في الرسالة: "زاد المبلغ المطلوب الآن الى ٥٠ ألف جنيه استرليني (نحو ٩٠ ألف دولار) تودّع كلاً من الحسابات الثلاثة سنويا ولمدة خمس سنوات. ادفعوا ما عليكم وإلا فلن نتردد في وضع معلبات مسممة من صنف "بدغري تشام" في خمسة مخازن كبرى في أنحاء مختلفة من البلاد."

وتأكيداً لهذا التهديد، ظهرت في اليوم التالي أول علبة مسممة. واتصل مجهول بالشرطة مستخدماً رمز "روميو وجولييت" المشار اليه في رسائل المبتز، ليدلها الى مخزن وُضعت فيه علبة "بدغري تشام" تضمنت المواد الكيميائية القاتلة اياها التي استخدمت في العلبة المرسلة الى "بدغري" في أغسطس (آب) الفائت.

لعبة شنيعة

لجأ ليسي في خطوته التالية الى تتبع طريقة المبتز في فتح حساباته المصرفية. وتولى بات فليمنغ هذه المهمة وأحالها على الفريق الجنائي الاقليمي التابع لشرطة العاصمة في ضاحية باركنغسايد.

وسرعان ما أكبَّ على القضية ٢٤ رجل مباحث من شرطة باركنغسايد بامرة المفوَّض غافن روبرتسون، وهو رجل مرح الطباع عريض المنكبين في الحادية والاربعين من عمره. ومعروف عن فليمنغ وروبرتسون أنهما يعملان معاً بتوافق وانسجام، وقد كان والداهما قبلهما ضابطي شرطة.

اعتاد فريق روبرتسون مراقبة أنشطة المجرمين المعروفين، لكن مهمته هذه المرة تناولت التحقيق في جريمة ارتبكها "أشخاص مجهولون." وحاول أعضاء الفريق، مستعينين بخريطة في غرفة العمليات، تحديد المكان الذي يفترض أن يعتمده المبتز في خطوته التالية. وبلغت بهم الحماسة حد الرهان على ذلك. ففي كل صباح، كان كل منهم يضع ٥٠ بنساً (نحو ٩٠ سنتا) في قبعة ويخمن موقعا محتملاً. وفي اليوم اللاحق يربح الاقرب في توقعه كامل المبلغ المتجمع. لكن الرقيب لن هيندز كان واحداً من كثيرين لم يستطيعوا مقاربة الربح ابداً. فقال: "أن تحديد الموقع الصحيح لشبيه باصابة نقطة وسط دائرة بسهم مريَّش وأنت مغمض العينين."

غير أن رسالة وردت في ١٥ ديسمبر (كانون الاول) أعادت الالحاحية الى عملهم.

ذلك لأن المبتز، وقد ضاره البطء الذي لازم ملء حساباته، طالب بزيادة المبلغ الى ٢٠٠ ألف جنيه استرليني (نحو ٣٦٠ ألف دولار) تدفع سنويا لمدة خمس سنوات لاحقة. قال: "كان عليكم التقيد بالموعد النهائي... نحن على استعداد لتلويث جميع أصنافكم تباعا."

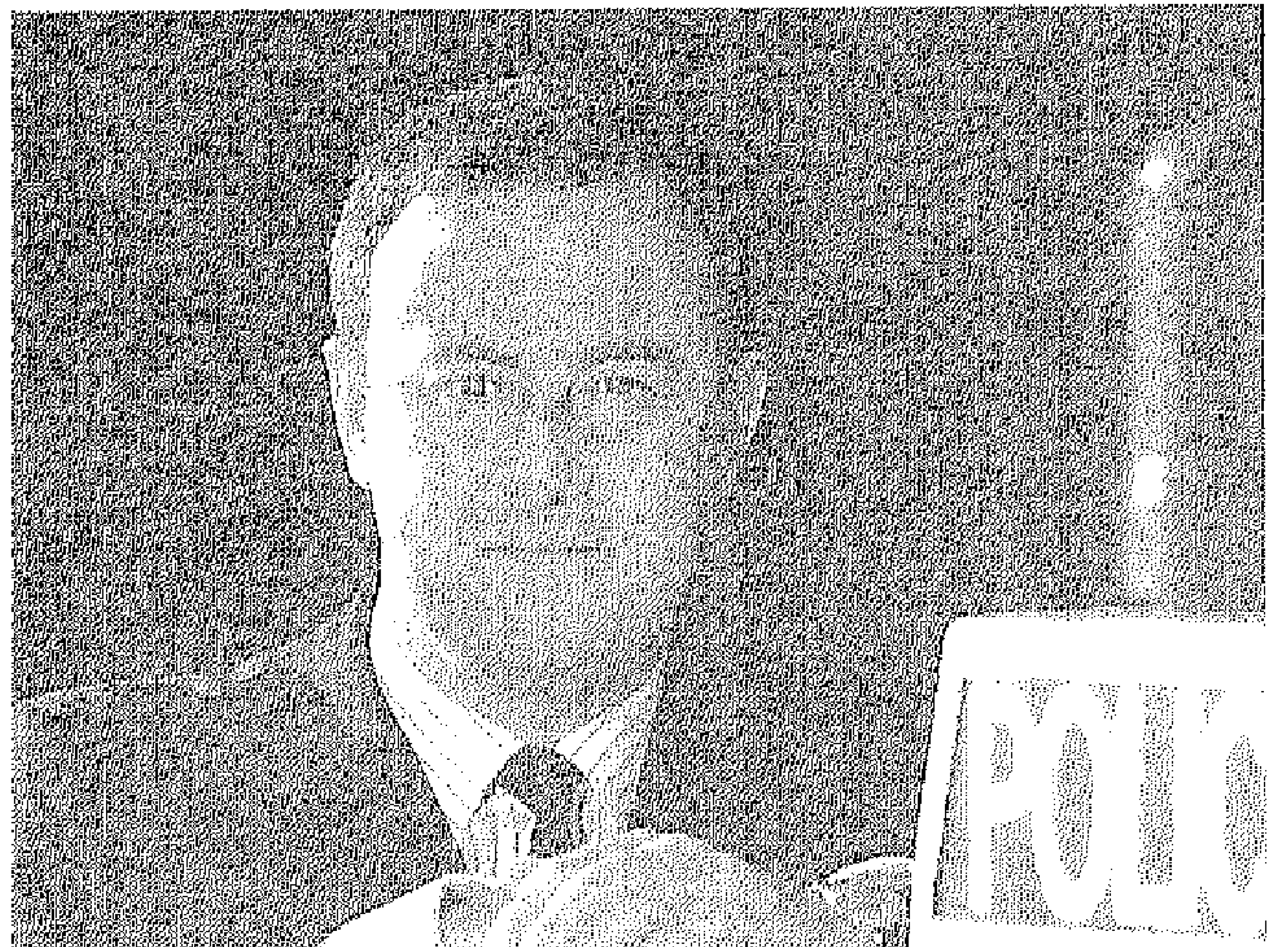
وفي اليومين اللاحقين تلقت الشرطة مكالمات هاتفية من مجهولين قادتها الى خمس علب أخرى من طعام الكلاب المسموم. وفي ١٩ ديسمبر (كانون الاول) أودعت "بدغري" حسابات المبتز ٨٠٠٠ جنيه استرليني (نحو ١٥ ألف دولار) نزولاً عند نصيحة الشرطة.

مرت بالمحققين لحظات شعروا فيها بأنهم على وشك الانقضاض على طريدتهم. فبمراجعة لوائح كمبيوتر هاليفكس بانت لهم أسماء وعناوين لأصحاب حسابات استخدموا ماكينات النقد قبل المبتز أو بعده مباشرة. فانتشر ١٢ شرطياً سرياً عبر البلاد محاولين استبيان أوصاف المبتز. وأخيراً حصلوا على بعض التفاصيل من شاهد عيان قال: "انه رجل يعتمر خوذة درّاج سوداء ويرتدي معطفا عسكرياً زيتي اللون يصل الى الردفين. وهو مربوع القامة طوله نحو ١٧٠ سنتيمتراً."



وكانت الشرطة ثبتت كاميرات فيديو قبالة عدة ماكينات نقد لتصوير كل من يسحب مالاً بعد ساعات الدوام. وسرعان ما ورد نبأ أحيا الامل في نفس ليسي، اذ جاءه شرطي يقول: "لقد التقطنا صورة الرجل على الفيديو." ولكن ما ان شاهد ليسي الصورة حتى تهاوت آماله. فوجه الرجل كان غير مرئي تحت مقدم الخوذة.

واذ خلت الساحة من دلائل أخرى، شرعت الشرطة في تنفيذ عملية مراقبة أوسع نطاقاً. وفي منتصف يناير (كانون الثاني) بدأ ٢٠٠٠ شرطي وفدوا من



المفوّض غافن روبرتسون.

PHOTOS: © IAN BRADSHWA

أنحاء بريطانيا مراقبة ٧٠٠ ماكينة نقد، أي نحو ثلاثة أرباع ماكينات هاليفكس الموزعة في أرجاء البلاد.

ولكن ما ان بدأت هذه العملية حتى عاد المبتز الى تغيير نمطه على نحو محيّر. وفي ١٨ يناير (كانون الثاني) سحب مبلغاً أخيراً لم يسحب غيره خلال الاسابيع الخمسة اللاحقة.

في تلك الاثناء واصل المبتز والشرطة لعبة "القط والفأر" الشنيعة. فانبرى رجال الشرطة وموظفو المخازن الكبرى لانزال علب مسمومة عن رفوف مخازن في خمس مدن بعد تلقي مكالمات من مجهول. وواصل المبتز تعديل مطالبه وقد أغضبه فشله في لفت الانظار. ونزولا عند نصيحة الشرطة، واصلت "بدغري" الدفع بمقدار يكفي لاستمرار اللعبة.

استحوذ الحديث عن القضية اهتمام محققي باركنغسايد حتى كاد يتحول موضوعاً للتندر. ومازح أحدهم الشرطي المتقاعد رودني ويتشلو قائلاً: "انها لا شك مهمة تحتاج الى دماغ الخارق." وكان ويتشلو ما زال يُطلب في المحاكم لعرض قرائن في قضايا عالقة من أيام عمله، وغالبا ما كان يزور دوائر الشرطة لجمع الوثائق والبينات.

وكان روبرتسون تواقاً للحصول على المساعدة من أي مصدر ممكن، فلجأ الى عقد جلسات متكررة مع فريقه ليتبين ما اذا توصل أحد العناصر الى أي دلائل أو قرائن جديدة. وبعد جلسة ليلية طويلة قال المفتش طوني درين برما: "انه مجرم عصري بكل معنى الكلمة. فهو لم يُقْدم على أي خطوة ناقصة."

طعام أطفال مسموم

أخذت القضية في ٢٠ مارس (آذار) ١٩٨٩ منحى يبعث على القشعريرة. ففي ذلك اليوم وصلت الى دائرة الشرطة في لستر رزمة داخلها علبة من طعام الاطفال الجاهز الذي تنتجه شركة "هاينز" ورسالة جاء فيها:

"بات جلياً أن ذيوع الامر يقتضي وقوع ضحية. لقد سممنا العينة المرفقة. ويتعذر شم الابخرة السامة وسط الرائحة الطبيعية لطعام الاطفال. إن تناول طفل ملعقة واحدة من هذا الطعام كفيل بارساله الى غرفة الطوارىء. وقد تطعم الأم طفلها معظم محتوى العلبة من دون أن تلاحظ شيئاً مريبا.

"سنترقب اعلانكم (الى ساندرا من بوب) في الزاوية المعتادة يوم ٢٧ مارس (آذار). فاذا لم يتضمن الاعلان ما مفاده أن مبلغ ١٠٠ ألف جنيه استرليني (نحو ١٨٠ ألف دولار) قيِّد في كل من الحسابات الثلاثة، فسوف نبدأ التنفيذ. ولن نتوقف حتى تسدد هاينز المبلغ المحدد."

جهز المدير العام في شركة "هاينز" فريقاً ادارياً من ثلاثة رجال لمواجهة التهديد، وكلف أحد أعضائه التنسيق مع الشرطة ومع موظفي "بدغري" الذين تابعوا القضية. لقد باتت شركة "هـ.ج. هاينز" هدف المبتز الرئيسي. ولما كان مقرها في غرب لندن، ونظراً الى اتساع نطاق التهديدات، قرّ الرأي على أن يتولى بات فليمنغ التحقيق في القضية بدلا من ايان ليسي وشرطة لستر.

جلس فليمنغ في مكتبه القائم في الطبقة الرابعة من مقر شرطة المدينة، وراجع مجمل التحقيقات مع غافن روبرتسون الذي انتقل من باركنغسايد ليساعده في القضية. كان في متناولهما بعض أفضل ما في العالم من أجهزة كمبيوتر ونظم معلومات ومعدات مراقبة وكل ما يلزم من دعم علمي وتحليل جنائي. ولكن هل يجدي كل ذلك؟

لم يصادف فليمنغ قضية كهذه طوال ٢٥ عاماً من عمله في دائرة المباحث الجنائية. كما لم يشهد في تحقيقاته، التي شملت نحو ٤٠ جريمة قتل وأعداداً لا تحصى من الجرائم الكبرى، قضية تماثلها صعوبة. فالمجرم لم يترك أي أثر أو دليل يمكن اقتفاؤه. رسائله مستنسخة، وانذاراته المحتواة في المعلّبات المسممة مخرَّمة على أشرطة بلاستيكية سوداء متوافرة بكثرة. وهو لم يترك بصمات ولا غير ذلك من الادلة الجنائية.

ازاء ذلك كله هتف فليمنغ غاضباً: "لقد نجح صديقنا حتى الآن في ابتزاز نحو ١٨ ألف جنيه استرليني (نحو ٣٢ ألف دولار) من الشركتين. ومع ذلك لم نتوصل الى أي أثر، وإن ضئيلاً، يدلنا على هويته، ولم نتقدم أي خطوة في مساعينا. علينا أن نحسِّن فرصنا بطريقة ما."

بُرمجت ماكينات هاليفكس بحيث تعلق فيها بطاقة المبتز عندما يسحب المال لاحقاً أملاً بالحصول على بصماته أو استفزازه للظهور على نحو ما. وفي الساعة ٩،٤٤ من ليل ٢٨ مارس (آذار) انزلقت البطاقة في احدى ماكينات النقد وعلقت. وحين فحصت تبين أن المبتز لم يترك عليها أي بصمات. ووجدت الشرطة نفسها مجدداً أمام طريق مسدود.

لم يمضِ أسبوع على ذلك حتى أعلن المبتز في رسالة الى مخفر شرطة لستر: "أجبرتمونا على وضع السموم على الرفوف... أنتم أوضحتم أنكم لا تودون الدفع. ونحن بدورنا نوضح لكم أن هاينز وبدغري ستخسران مبالغ تفوق كثيراً ما تتوخيان ادخاره."

كان روبرتسون يُعنى بحديقة منزله يوم السبت في ٨ ابريل (نيسان) عندما تلقى مكالمة هاتفية عاجلة من فليمنغ، قال له: "لدينا حالة تسميم طارئة أود أن تطّلع على تفاصيلها."

تحدثت السيدة جنيفر بوسون الى روبرتسون. فأخبرته أنها كانت تعدّ وجبة لكلابها،

فأفرغت في الوعاء علبة من طعام الاطفال الذي تنتجه "هاينز"، فاندلق بعضه على يدها وأحست كأنما شيء لسعها، وحتى بعد غسل يدها ظلت عليها بقعة حمراء ملتهبة.

كما اشتمت رائحة تشبه رائحة الامونيا (النشادر) وأحست وخزاً مؤلما في عينيها. واذ راحت تنقب في الوعاء بملعقة، وجدت دبوسين وشريطا بلاستيكياً أسود كتب عليه: "مواد مسمومة. في المتجر ثلاث علب أخرى من منتجات هاينز لا تحمل تحذيراً..."

سأل روبرتسون السيدة بوسون قبل انصرافه عن بقعة حمراء ظاهرة على خدها، فأخبرته أنها نجمت عن وضع يدها على خدها "بعد" غسلها من الطعام المسموم. وعندما التقى فليمنغ قال له: "تصور مدى تأثير هذه المواد في حنجرة طفل. اننا في صدد مهووس لا يرتدع عن أي أمر."

أكدت التحاليل الجنائية لاحقاً أن علبة الطعام الملوث احتوت على نحو ٣٠ غراماً من السم، أي ما يكفي قتل أكثر من ٢٠ طفلا.

أما الآتي فكان أعظم. ففي ١٦ أبريل (نيسان) جلست السيدة هيلين كوبوك تطعم طفلتها فكتوريا البالغة من العمر ١٨ شهراً. فلاحظت أن الطفلة تمضغ شيئا صلباً. فمدت يدها الى فمها وأخرجت منه قطعة من شفرة حلاقة. ثم لاحظت مرعوبة أن شظايا أخرى وقعت أرضاً عندما فتحت العلبة.

وللحال نقلت فكتوريا الى المستشفى حيث أظهرت الفحوص أنها لم تبتلع أيا من كسر الشفرة مع أن جرحاً ظهر في فمها. وبينت التحاليل المخبرية أن العلبة حوت ثماني شظايا ورسالة على شريط بلاستيكي جاء فيها: "في المتجر أيضاً منتجات مسممة من كتشاب وفاصولياء هاينز.".

من يقتل أطفالنا؟

بعد هذين الحادثين أصدرت الشرطة تحذيراً بثتهما الاذاعة والصحافة المحليتان. وواجه فليمنغ قراراً مؤلما: أيتوجب على الشرطة الآن بث انذار وطني شامل؟

إن فعلت فسوف تهبط مبيعات "هاينز" و"بدغري" وغيرهما من شركات المواد الغذائية على نحو مريع. وأخطر من ذلك ما قد يستتبع الاعلان من موجة تقليد تهدد بمزيد من الاذى وتغرق المحققين وتضعف فرص القبض على المبتز المراوغ.

بيد أن الاهتمام بالسلامة العامة ينبغي أن يأتي أولا.

عقد فليمنغ في ١٨ أبريل (نيسان) ١٩٨٩ مؤتمراً صحافيا في مقر اسكوتلنديارد أطلق فيه انذاراً بوجوب "التدقيق في المشتريات بعناية فائقة، فمن المحتمل أن تكون الملوِّثات مؤذية، الا أن كشفها ممكن بواسطة الشم والنظر."

ولم تمضِ أيام حتى سيطر الذعر على الناس. وتحدث أحد الوزراء في مجلس

العموم عن عزم الحكومة على مقاومة جميع المحاولات الرامية الى "ارهاب المستهلك." وراحت الصحف تنشر كل صباح صوراً لاطفال يُنقلون الى المستشفيات بعد تناولهم أطعمة لوثت بالزجاج والخشب والمعادن والدبابيس وشفرات الحلاقة بأيدي مجرمين شاؤوا تقليد المبتز. وتساءلت الصحافة بغضب: "مَنْ يحاول قتل أطفالنا؟"

خلال الاسابيع الثلاثة التي تلت المؤتمر الصحافي تحولت تحقيقات فليمنغ عن مجراها الاساسي نتيجة ١٣٠٠ حالة تسمم جديدة نُسِب معظمها الى مهووسين، كما نُسبت قلة منها الى انتهازيين أملوا ابتزاز شركات الاطعمة لكي تدفع لهم مبالغ فورية في مقابل سكوتهم عن "أضرار" ألحقوها بأنفسهم عمداً.

اشتد تذمر الناس والصحافيين والسياسيين وطالبوا باجراءات سريعة لمعالجة الوضع. فبلغ الضغط على فليمنغ أشده، فهو أب لأربعة أولاد، ويفهم حقاً قلق الآباء والامهات. لكن قلة من الرجال تستطيع ادارة التحقيقات بمثل ما له من مهارة ومؤهلات.

please call. A still ...

JULIET · Very worried about the babies. Must talk privately. H.

MARY I have been faithful for ...

كان فليمنغ أحد أبرع مفاوضي شرطة العاصمة في قضايا الرهائن. وهو خضع على مدى سنوات لتدريبات صارمة لدى مكتب التحقيقات الاتحادي «FBI»[٦] في كوانتيكو بولاية فرجينيا الامريكية، وشارك في بضع عشرة قضية كبرى شملت رهائن. وهو يفهم تماما عملية الاخذ والرد المستهلكة للوقت التي يتطلبها دفع المجرم الى ارتكاب أخطاء أو اغواؤه للتحاور والشرطة. لكنه في هذه القضية وجد نفسه مضطراً الى التعامل والمجرم من دون أي اتصال مباشر ومن خلال ماكينات النقد ورسائل التهديد والاعلانات.

في نهاية المطاف تدبر فليمنغ مع روبرتسون خطة ركزت على "هاينز." قال فليمنغ: "سنحاول اجراء اتصال مع المبتز مدَّعين أننا نمثل هاينز. من السهل أن تبدو هاينز قلقة لما لحقها من خسائر ومستعدة لعقد صفقة خِفْية عن الشرطة."

وضع الرجلان اعلاناً في زاوية رسائل القراء في صحيفة "دايلي تلغراف" مستخدمين أحد رموز المبتز: "جولييت، انا قلق على الاطفال. علينا أن نتحدث شخصياً. هـ."

نُشر الاعلان مرتين قبل أن تعضّ السمكة الطعم. وفي رسالة موجهة الى رئيس جهاز أمن "هاينز" في ١٧ أبريل (نيسان) أشار المبتز الى زاوية رسائل القراء

(٦) Federal Bureau of Investigation

مضيفا: "لا تعلموا الشرطة بأنكم تلقيتم هذه الرسالة... إنْ أردتم محادثتنا سراً، قيدوا المبالغ في الحسابات واجعلوها في متناولنا. عندئذ فقط نصبح على استعداد للدخول معكم (وليس مع الشرطة) في حوار خاص."

لكن الامل باتصال مباشر بددته رسالة أخرى تلقتها "هاينز" في ٢٥ مايو (أيار) وجاء فيها: "نحن على وشك العودة بروح ثأرية... فلئن كنا سنحاكم بجريمة قتل، فحري بنا أن نستحق المحاكمة. لكننا على ثقة بأننا لن نُمسَك أبداً. ان موت طفل آخر لن يغير الاحصاءات كثيراً، لكنه سيضمن أن أحداً لن يتجاهلنا بعد الآن."

أضافت الرسالة أن على شركة "هاينز"، تحاشياً لدمارها، فتح ثمانية حسابات مصرفية بأسماء حددها المبتز، وايداعها مبلغ ٥٠ ألف جنيه استرليني (نحو ٩٠ ألف دولار) وارسال البطاقات النقدية وأرقام التعريف الشخصية الى ثمانية مكاتب بريدية.

راعت "هاينز" أصول "السرية التامة" في تنفيذ طلبات المبتز مع ابقاء الشرطة مطلعة على كل تفصيل. وبعد فتح الحسابات المطلوبة وأيداع مبلغ ١٩ ألف جنيه استرليني (نحو ٣٤ ألف دولار) وارسال البطاقات النقدية، نشرت الشرطة اعلانا آخر جاء فيه: "ماريان، جعلنا المنزل جاهزاً لاستقبالك. أرجوك العودة. المحب، أرنولد."

اكثر من حظ

نظمت الشرطة في ١٩ يونيو (حزيران) حملة مراقبة معقدة ومكلفة في نطاق العناوين البريدية الثمانية التي حددها المبتز والتي توزع أربعة منها في لندن والبقية في أنحاء البلاد.

لكن شيئاً لم يحدث. وكان ذلك غريباً مما جعل فليمنغ يجهر بالشك الذي خامره طويلا وبات قناعة راسخة لديه. فسأل روبرتسون: "أتعتقد أن بيننا مخبراً؟ كيف تفسر ابتعاد المجرم كلما اقتربنا منه؟ لا أعتقد أن للحظ دوراً في كل ما يحصل."

فأسرَّ روبرتسون بما ساوره هو أيضاً: "وكيف نكشف المخبر بيننا؟ هناك ٢٩ ألف رجل في شرطة العاصمة و١٨٠٠ في شرطة لستر ونحو ٢٠ ألف مدني يعملون في قوّتي الشرطة هاتين. واذا ما أضفنا اليهم العاملين في بدغري وهاينز والمصارف ممن قد تتناهى اليهم معلومات عن عملياتنا، فسنغدو في صدد نحو ١٠٠ ألف شخص. فكيف نستطيع اخفاء الامر عن هذه الاعداد الهائلة؟"

في ذلك الوقت لم يتبقَّ لدى الرجلين خيار سوى المضي في العملية ومواصلة الضغط. ولو احتاجا الى ما يذكّرهما بقساوة ندّهما لما وجدا أفضل مما حدث في ٢٩ يونيو (حزيران). ففي ذلك اليوم، فيما كانت السيدة لين برادبري في مطبخها تحرك مرقة من منتجات "هاينز"، وجدت في المقلاة قطعا من شفرة حلاقة، ولاحظت أن

WN&LYVM.

GRATEFUL THANKS to SHJ and St Jude. Please continue. CG.

MARIAN - We have made the home ready for you. Please come back. Love Arnold.

MAUREEN - Congratulations on reaching the "Life Begins" stage. My

المرقة ترغي وتزيد على نحو لم تألفه. كان السم الذي حوته قويا بحيث ذوّب بطانة المقلاة.

فأضيف التقرير عن هذا الحادث الى سيل من التقارير التي أغرقت مكاتب اسكوتلنديارد حيث أكب ٢٥ موظفا على تلقيم أجهزة الكمبيوتر تفاصيل افادات الضحايا وشهود ماكينات النقد ورجال المباحث وموظفي المتاجر وتقنيي المختبرات. وفي نهاية التحقيق اختزن الكمبيوتر المسمى "هولمز" معطيات تضمنت نحو ٢٠ ألف اسم لشهود وضحايا ومشبوهين و٨٠٠٠ رقم للوحات سيارات.

واذ تفحّص روبرتسون خرائط سحوب المبتز لاحظ أنه في تاريخ ١٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٨ استخدم احدى ماكينات نقد هاليفكس في بلدة ابريستويث الواقعة على ساحل ويلز. وفي ما عدا ذلك كانت جميع سحوبه قريبة من الطرق الرئيسية. فتساءل: "ما سبب انعطافه مسافة تستغرق ساعتين ونصف ساعة الى تلال ويلز؟ هل يقطن هناك؟ أم إنه قصد هذا المكان لسبب معين؟"

أبرزت التحقيقات دليلين جديدين. ففي ليل ١٨ نوفمبر (تشرين الثاني) عُقد في ابريستويث مؤتمر لموظفي مصلحة الهاتف في بريطانيا تزامن ومجيء فريق تلفزيوني لتصوير مهرجان خيري. فهل من الجائز أن يكون أحد المشاركين في هذين الحدثين تسلل الى ماكينة النقد؟ لم يجد المحققان بدأ من التدقيق في أسماء عشرات الاشخاص للتحقق مما اذا كانت لهم سجلات اجرامية ومما اذا كانت تحركاتهم خلال الاسابيع المنصرمة مطابقة لتحركات المبتز.

ولم يمضِ وقت قصير حتى تلقى روبرتسون من الرقيب هيو ماكدويل مكالمة هاتفية خفق لها قلبه: "أعتقد أننا حققنا نجاحاً باهراً." واذ سأله عما حدث أخبره هذا أن مصادفة سعيدة حدثت. فقد كانت الشرطة تراقب مشبوهين في تعمُّد حرائق، فسجلت أرقام لوحات السيارات الداخلة ابريستويث والخارجة منها ليل ١٨ نوفمبر.

دقق المحققون في أرقام ألوف السيارات لدى مصلحة تسجيل السيارات لمعرفة أصحابها. ثم دققوا فيها ثانية لدى كمبيوتر الشرطة لمعرفة ما اذا كان أي من هذه السيارات مفقوداً أو مسروقاً. وأخيراً لجأوا الى تلقيم الكمبيوتر "هولمز" النتائج المتوافرة لتحديد أي تطابق بين أسماء الاشخاص وأرقام السيارات المسجلة وتلك المختزنة في ذاكرته.

ولكن لم يتضح أي تطابق.

وفيما التدقيق جار واجهت الشرطة عقدة أخرى محيرة. ففي الساعة ٥،٤٠ من عصر ١٨ يناير (كانونً الثاني) ١٩٨٩ سحب المبتز ٣٠٠ جنيه استرليني (نحو ٥٤٠ دولارا) من ماكينة نقد قرب دوفر، ولم يُقْدم بعد ذلك على سحب أي مبلغ حتى ٢٨ فبراير (شباط). فهل يكون ركب تلك الليلة معدِّية أقلته بحراً الى أوروبا حيث أمضى خمسة أسابيع؟

تكدست على طاولات اسكوتلنديارد في الايام اللاحقة أكوام من بيانات السفن تُظهر أرقام السيارات المنقولة بحراً بين ١٨ و١٩ يناير (كانون الثاني). وجاب رجال المباحث أنحاء بريطانيا لمقابلة أصحاب هذه السيارات. ولُقِّم الكمبيوتر أكداساً من الافادات. لكن "هولمز" لم يتمكن من مطابقة أي رقم بين تحقيقات دوفر وابريستويث.

شرطي فاسد

أصبح التحقيق في قضية الاطعمة المسممة في مصاف أكبر التحقيقات الاجرامية التي شهدتها بريطانيا. وغالباً ما كان روبرتسون وفليمنغ يقضيان فترة الغداء سائرين في حديقة سانت جايمس القريبة هرباً من أكوام الاوراق ومن المكالمات الهاتفية المتواصلة، ولكي يتسنى لهما التفكير عميقاً في تعقيدات القضية.

قال روبرتسون لزميله: "أنت تدرك أننا لم نتوصل الى أي جديد عن المجرم يزيد على ما بدأنا به قبل تسعة أشهر. حتى أننا لا نعلم ما اذا كنا نتعامل مع مجرم فرد أو مع عصابة."

فرد فليمنغ: "يخيل الي أنه مجرم فرد. فاصرار الرسائل على الاشارة الى عصابة ما يجعلك ترتاب في أن كاتبها قد يكون وحيداً. انه يبالغ في المحاولة."

وكان ثمة امر آخر دعم افتراض فليمنغ. ففي نهاية ابريل (نيسان) قر الرأي على تخصيص مكافأة مالية لمن يقدم معلومات تؤدي الى القبض على المبتز. وارتأى فليمنغ أن تكون المكافأة سخية "فلعلها تغري أحد أفراد العصابة الهامشيين."

بعد تداول الامر أعلن تخصيص مكافأة مقدارها ١٠٠ ألف جنيه استرليني (نحو ١٨٠ ألف دولار). لكن أحداً لم يستجب. فاستنتج فليمنغ أنه يطارد مجرماً منحرفاً يعمل وحيداً.

وفيما الرجلان يسيران يوماً في حديقة سانت جايمس طالعت روبرتسون رائحة الحشائش المجزوزة حديثا، فخالجته رغبة مفاجئة في اللعب بالكرة مع ولديه في حديقة منزله. فهل من وظيفة تستحق تفويت هذا المقدار من الحياة العائلية؟ بن في التاسعة من عمره، وستيفن في السابعة. ولكم تاق الى أن يكون معهما يشهد نموهما عن كثب ويعيش تطلعاتهما.

كان روبرتسون نزّاعاً الى الحياة الاجتماعية. وغالباً ما كان زملاؤه رجال الشرطة يزورونه في بيته. وقبل بضعة أسابيع زاره زميله المتقاعد رودني ويتشلو سائقاً سيارة "بيجو" حمراء جديدة وأهدى الى الصبيين مجموعة من ألعاب الكمبيوتر لم يعد يستعملها. فارتاح روبرتسون لأن ولديه لن يتذمرا من الضجر بعد الآن.

مر صيف ١٩٨٩ من دون أن تسفر التحقيقات عن جديد. وتواصلت عمليات التسميم، كما استمرت مراقبة المكاتب البريدية الثمانية من غير جدوى. فاشتدت الضغوط مجددا على فليمنغ، خصوصا لأن كلفة عمليات المراقبة بلغت نحو مليون جنيه استرليني (نحو ١،٨ مليون دولار).

بيد أن الخامس من سبتمبر (أيلول) حمل حدثاً حوّل مسار التحقيق. ففي ذلك اليوم اطّلع فليمنغ على رسالة جديدة تلقتها شركة "هاينز" كانت استجابة متأخرة لعرض مكافأة المئة ألف جنيه المعلنة في أبريل (نيسان). وتبيَّن أن الرسالة لم تكن مطبوعة على الآلة الكاتبة مباشرة، بل منسوخة على الـ"ستنسل" وفيها أخطاء املائية عدة، ولم تكن في مستوى الاسلوب الكتابي الذي اعتمده المبتز في رسائله.

ادّعى كاتبها أنه يعرف الاشخاص الذين يسربون المعلومات الى المبتز. إلا أنه لم يشأ الافصاح عن الاسماء لأن أصحابها هم "من رجال الشرطة الفاسدين."

الا أن ما أدهش فليمنغ كان معرفة كاتب الرسالة بما استخدمته الشرطة من عبارات مرمزة وتفاصيل لا سبيل الى الاطلاع عليها إلا لأعضاء فريق التحقيق أو أحد المقربين اليهم. وهذا بالتحديد ما جعل المبتز قادراً على سَبْق الشرطة خطوة واحدة.

وعندما تأكد فليمنغ من أن عدد موظفي "هاينز" المطلعين على الرسالة لا يتجاوز الثلاثة، كالم روبرتسون هاتفياً من مقر الشركة وقال له: "ينبغي أن نتحدث خارج المكتب."

التقى الرجلان في حدائق كنسنغتون وراحا يتداولان امر الرسالة. كان السؤال الاول الذي طالعهما: هل كاتب الرسالة رجل أم امرأة؟ وسرعان ما لاحظا تفاصيل كثيرة توحي أن الرسالة وردت من صديقة للمبتز لم يعجبها ما هو حاصل، خصوصا لأنها تضمنت: "لا أريد أن يموت أحد."

بيد أن الرسالة حملت مطالب مالية، مبيِّنة أن حسابين فتحا في مصرفين باسمي ايان ونينا فوكس وينبغي "ايداعهما بعض المال كيما أستطيع اخباركم المزيد... أنا لن ألتقيكم ولن ألتقي الشرطة... اتصلوا بي باستخدام عبارة: من تشارلي الى دون."

فجأة جمد فليمنغ في سيره وقال: "ماذا لو كان المبتز والمخبر شخصاً واحداً؟"

في اليوم التالي قال فليمنغ لمساعده روبرتسون: "علينا الاستمرار في نشاطنا العادي وإلا علم المبتز أن هاينز اتصلت بالشرطة. مهما حصل فيجب أن يبدو الامر

كأن هاينز تعقد صفقة من وراء ظهرنا."

اعتمد فليمنغ خطة لم يطلع عليها سوى روبرتسون ورئيسه المفوض المساعد سيمون كروشو. ثم قال لمساعده: "سنسحب الرسالة الاخيرة من التداول العادي. وسنتأكد من أنها لن تصل الى مقر اسكوتلنديارد." وقر الرأي على ايداع المال، كما هو محدد، حسابَي ووليتش والاقاليم المحلية، وتنفيذ عملية مراقبة مستقلة.

عملية أجينكور

للحفاظ على سرية الخطة الجديدة التي أُطلق عليها اسم "عملية أجينكور"[٧] كان لزاما تنفيذها بعيداً عن اسكوتلنديارد. فاختار فليمنغ لذلك مقر ووليتش في ضاحية بكسليهيث المتاخمة لمدينة لندن، وبرمج الكمبيوتر على نحو يتيح الحصول على معلومات فورية عن أي سحوب تتم من حسابي ايان ونينا فوكس. ولتجهيز العملية بالرجال، اختار فليمنغ وروبرتسون شرطيَّين من فريق المباحث كانا غائبين ولا يمكن أن يكونا مسؤولين عن تسريب معلومات حديثة العهد، هما الرقيبان هيو ماكدويل ولين هيندن.

ولتنفيذ عمليات المراقبة قرر فليمنغ استخدام رجال يعملون عادة في جمع معلومات عن المنظمات الارهابية، لعلمه أن السرية ستكون بالنسبة اليهم شأناً فطريا واستحواذيا.

ولضمان أمن "عملية أجينكور" كان من الضروري تزويدها نظام اتصال لاسلكيا مستقلا بذبذبات لا تستخدمها أي دائرة شرطة أخرى. وأمَّن فليمنغ لفرق المراقبة أجهزة اتصال راديو[٨] تصلهم مباشرة بمركز المراقبة في بكسليهيث وتنبههم لدى استعمال بطاقات ايان ونينا فوكس في أي من ماكينات النقد.

وفيما العمل جار لاعداد "عملية أجينكور" أودعت الشرطة حسابي ايان ونينا فوكس في ووليتش والمقاطعات المحلية مبلغ ٢٠٠٠ جنيه استرليني (نحو ٣٦٠٠ دولار) من شركة "هاينز." وفي ١٢ سبتمبر (أيلول) وضعت الشركة اعلانا في زاوية رسائل القراء في الـ"دايلي تلغراف" مستخدمة العبارة المرمزة التي اقترحها المبتز: "تشارلي، أنا موافق. سأمدك ببعض العون في أقرب فرصة. أرجو الآن أن تساعدني. دون." وهذا يعني: أخبرني الآن مَنْ هم المتورطون في المؤامرة.

ولم ينقضِ اليوم التالي حتى سحب المخبر مبلغ ٢٥٠ جنيها (نحو ٤٥٠ دولارا). لكنه بعث في ١٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٨٩ برسالة ثانية أفادت أنه سيكشف اسم رجل

(٧) نسبة الى النصر الذي حققته بريطانيا على فرنسا عام ١٤١٥.
(٨) Radio pagers

الشرطة الفاسد في الرسالة اللاحقة، وطالبت بمزيد من المال. واذ لم يكن هناك من خيار آخر فقد أودع مبلغ ١٧ ألف جنيه (نحو ٣١ ألف دولار) حسابي ايان ونينا فوكس.

لاحظ فليمنغ أن جميع السحوب تقريبا بقيت في نطاق الشرحة نفسها من جنوب انكلترا وشرقها على رغم وجود ٣٠٠٠ ماكينة نقد في أنحاء البلاد. كما تم معظمها في وقت متقدم من الليل. كان واضحاً أن المجرم لم يأخذ في الحسبان امكان حصول عملية توقع به.

Philip dau.ng. X.

CHARLIE. Agreed. Will provide some help soonest. Now help me. Dawn.

ARS Jer

واصل المحققون تتبع خطى المبتز. وقابلوا جميع الذين تزامنت سحوبهم وسحوبه. فزعم لهم أحد الشهود أن للرجل شعراً أسود يغطي ياقته، وأن طوله يقارب ١٧٠ سنتيمتراً، وأنه يعتمر خوذة درّاج. أما الجديد فهو أن لون الخوذة أصبح أبيض وسخا لا أسود.

وفي رسالة لاحقة سمّى المخبر "رجل شرطة فاسداً" هو مفتش سابق امضى سنوات كثيرة من خدمته في شرق لندن. وبعد تحقيقات مضنية استنتج فليمنغ أن لا علاقة للرجل بالقضية. وعزز هذا الزعم الكاذب قناعته بأن المبتز والمخبر شخص واحد.

في تلك الاثناء أخذت سحوب المتهم تضيق نطاقاً، وبقي أكثرها ضمن قطاع سهل البلوغ من حزام الطرق الذي يطوّق مدينة لندن. فعلق فليمنغ على ذلك قائلا: "اعتقد أنه ينحو الى التكاسل." وقرر ترك السحوب تتواصل خلال أكتوبر (تشرين الاول) كيما يتسنى له تبيّن نمطها بوضوح.

يوم عاد الرجلان الى تجوالهما في حديقة سانت جايمس سمع روبرتسون أوراق الشجر تتكسر تحت قدميه. لقد ولى الصيف ولمّا يتسنَّ له قضاء وقت يذكر مع ولديه.

بات فليمنغ على أهبة لنصب فخه. فاتصل روبرتسون بزميليه ماكدويل وهيندز في منزليهما وطلب منهما لقياه في أحد المقاهي من غير أن يخبرهما المزيد. ولما وصلا قال لهما: "لقد دأبنا على مراقبة المكاتب البريدية الثمانية منذ يونيو (حزيران)، إلا أن عمليتنا الاولى باءت بالفشل. علمنا ذلك من رسالة بعث بها مخبر يجوز أن يكون هو المبتز."

وطلب روبرتسون من الرجلين الالتحاق بمقر ووليتش في بكسليهيث من دون اثارة شبهات. فعمد ماكدويل في الصباح التالي الى طلب اجازة مرضية، فيما استأذن هيندز رؤساءه الغياب بحجة اصابة زوجته بمرض خطير.

أكب فليمنغ على دراسة نمط السحوب النقدية الاخيرة. وحدد ماكينات النقد الاكثر احتمالاً أن يلجأ اليها المبتز ليصار الى وضعها تحت المراقبة. فاختار ١٥ ماكينة توزعت في قوس امتد عبر شمال لندن وشرقها. وقدّر أن فرص الايقاع بالمجرم، الذي لم يستخدم أي ماكينة مرتين، ستزاد مع الوقت اذا استمرت مراقبة هذه الماكينات.

تطلبت مراقبة الماكينات الخمس عشرة ٣٠ شرطياً أُطلعوا في مقر اسكوتلنديارد على آخر المعلومات الواردة من الشهود. كما عُيِّن لكل ماكينة رمز ثلاثي الحروف، مثل «AAA» لمنطقة مسويل هيل و «BBB» لمنطقة ادمونتون. ورابط ماكدويل وهيندز في مركز مراقبة في بكسليهيث يتيح لهما تنبيه جميع فرق المراقبة في آن الى موقع المشتبه فيه.

جلس ماكدويل وهيندز قبالة شاشة مراقبة متصلة بكمبيوتر ووليتش المركزي. وتناوبا ضمن فترات من ٣٠ دقيقة على مراقبة الشاشة ومتابعة بيانات فرق المراقبة.

ما إن ألقم المشتبه فيه الرقم الرابع في بطاقة تعريفه ليل ١٣ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٩ حتى تراءى موقعه على الشاشة. فصاح ماكدويل: "بكسليهيث!"

فهتف هيندز: "لا فريق لنا هناك."

بكسليهيث؟ تبادل الرجلان النظرات. انهما في بكسليهيث! قفزا من مقعديهما وهبطا السلالم، ثم طويا شارع برودواي بكسليهيث راكضين مسافة ٣٠٠ متر الى ماكينة النقد وأنفاسهما تكاد تنقطع. لكن أحداً لم يكن هناك.

فعادا ذاهلين الى مركز المراقبة متحسرين لتفويتهما أهم فرصة في حياتهما المهنية، ألا وهي القبض على المجرم الذي طالت قضيته سنة كاملة. وبثّا الى فرق المراقبة التي كانت لا تزال قابعة في مواقعها رسالة بسيطة تضمنت «ZZZ» وهذا يعني أن المشتبه فيه أجرى سحبه تلك الليلة من ماكينة نقد غير مراقبة، وأنّ جميع الفرق تستطيع ترك مواقعها والعودة الى المنازل.

"هيا اخرج من السيارة"

مرت الليالي وعناصر فرق المراقبة يتلقون الرسالة اياها «ZZZ» فيعودون الى منازلهم خائبين.

ولم تكن بداية ليل ١٩ أكتوبر (تشرين الاول) أفضل حالاً. ففي الثامنة مساء، فيما كان ماكدويل وهيندز جالسين قبالة الكمبيوتر، انطفأت الشاشة. فحاولا اعادة تشغيلها مستخدمين جميع المفاتيح وأزرار التحويل. ولم يمضِ وقت قصير حتى تبين لهما أن عمالاً في ورشة بجانب مقر ووليتش قطعا سلك الكمبيوتر المركزي مما أدى الى توقف الاتصالات بجميع ماكينات النقد في أنحاء الجزر البريطانية.

على رغم ذلك لم تُسحب فرق المراقبة من مواقعها تحسباً لعودة الكمبيوتر الى العمل فجأة. ومرت الساعات. وما كاد الليل ينتصف حتى انصرف روبرتسون الى منزله بعد عمل مرهق دام ١٧ ساعة متواصلة.

في تلك الاثناء كان الشرطيان مارك كيرتون وستيف دونيلي أوقفا سيارتهما في جانب مظلم من موقف للسيارات في شمال لندن، وجلسا داخلها والريح تعصف بها وتهزها، منتظرين أن تطالعهما شاشتهما برسالة تنذرهما باقتراب المشتبه فيه من ماكينة النقد القائمة عند المنعطف.

بُعيد منتصف الليل أقبلت سيارة "بيجو" حمراء وتوقفت على بعد ٥٠ متراً منهما. فتمتم دونيلي: "من تراه يأتي الى هنا في مثل هذه الساعة؟"

اعتدل الشرطيان في جلستهما. كان الرجل يتناول شيئاً ما من المقعد بجانبه. خوذة درّاج بيضاء! خرج الرجل من سيارته وهو يعتمر الخوذة، فهمس كيرتون: "ما حاجة سائق سيارة الى خوذة دراج؟"

وللحال هرع الشرطيان خارجاً وتتبعا الرجل الى أن توقف عند ماكينة النقد القريبة وأخذ يضغط الازرار. لكنه ما لبث أن استدار مبتعداً خالي الوفاض، اذ كانت الماكينة ما زالت غير عاملة.

أكمل المحققان سيرهما متجاوزين الرجل وحاملين زجاجتين فارغتين كأنهما شابان خارجان من أحد المقاهي. ولم تمضِ لحظات حتى استدارا عائدين الى موقف السيارات ليجدا الرجل جالساً خلف مقود سيارته وقد خلع خوذته. فتقدم منه كيرتون فاتحاً باب السيارة، ثم ابرز له بطاقته آمراً: "لا تحرك يديك قيد أنملة عن المقود. قل لي ما حاجتك الى خوذة؟"

ارتسمت على وجه الرجل البدين الملتحي أمارات الدهشة والارتباك. وأجاب أخيراً: "إني استعمل الخوذة لدرء البلل."

فأمسك كيرتون بمعصميه وصاح فيه: "هيا اخرج من السيارة! سنفتشك."

ولدى تفتيش أولى جيوبه عثر دونيلي على بطاقة نقد. واذ تفحصها تحت ضوء الشارع تبين له أنها باسم ايان ونينا فوكس.

وبعدما استكمل البحث في جيوبه الاخرى قال له: "اني أقبض عليك بتهمة الابتزاز."

فرد الرجل متملقا: "رويداً، أنا أفهم ما تعنيه، لكني بريء." وفيما الشرطيان يكبلانه بالاصفاد انهار مغمى عليه.

سمع روبرتسون رنين الهاتف وهو يوقف سيارته أمام منزله قبيل الاولى بعد منتصف الليل. فهرع الى السماعة ليطالعه صوت ماكدويل: "أظنهم قبضوا على

مشبوه"، مضيفاً أنه تلقى مكالمة من دائرة الشرطة في شمال لندن أفادته أن ثمة موقوفاً نُقل الى المخفر المحلي.

اتصل روبرتسون بالمخفر فأخبره الرقيب المناوب: "لدينا رجل يدعي أنه شرطي سابق وأنه خدم في فريق الجنايات الاقليمي. اسمه رودني ويتشلو."

ويتشلو؟ الرجل الذي دعاه روبرتسون الى العشاء في منزله؟ الرجل الذي تعرف اليه ولداه وأحباه؟ أخيراً اكتملت الصورة وانجلى الالتباس. فالرجل هو من الزوار الدائمين لمقر فريق الجنايات في باركنفسايد، ولا يحتاج الى طرح أسئلة ليتبين مجريات الامور.

شعر روبرتسون بقشعريرة تسري في كيانه وتجمد أوصاله. فاتصل برئيسه فليمنغ وتواعدا على اللقاء في مخفر بادنغتون غرين حيث احتجز ويتشلو. وفي الساعة ٤،٢٠ صباحاً باشرا أغرب مقابلة أجرياها في حياتهما المهنية. وفيما تولى فليمنغ طرح معظم الاسئلة حملق روبرتسون في وجه زميله القديم كأنه يراه للمرة الأولى: اللحية السوداء التي وخطها الشيب، والعينان الزرقاوان الباردتان.

لماذا؟

[illegible]

تشبث ويتشلو بروايته خلال ثلاث ساعات من التحقيق المتواصل من دون أن يعترف بأي ذنب. ادعى أنه مجرد وسيط تلقى خمسة آلاف جنيه استرليني (نحو تسعة آلاف دولار) للحلول مكان المخبر. لكنه رفض تسمية المخبر مدعياً أنه قطع له وعداً بألا يفصح عن اسمه. وهو قَبِل القيام بهذا العمل بعد تردد آملاً كشف المبتز، تحدوه رغبة جامحة في مساعدة الشرطة لاماطة اللثام عن المجرم الشنيع.

تضمنت رواية ويتشلو تناقضات واضحة. وعندما أُعيد الى زنزانته هز روبرتسون رأسه قائلاً: "أكاد لا أصدق ما يجري، ولكن لا شك في أنه هو الفاعل."

وفي وقت لاحق من صباح ٢٠ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٩ مثل ويتشلو أمام القاضي الذي حكم بسجنه احتياطاً ريثما تجرى محاكمته.

ولدى تفتيش منزل ويتشلو اكتشفت الشرطة سموماً ومعدات لتلويث الاطعمة وكسراً من شفرات الحلاقة التي كادت تقضي على الطفلة فكتوريا كوبوك. وهم وجدوا أيضاً ايصالات ماكينات النقد العائدة الى حساب جون وساندرا نورمان.

وباستجواب صديقة سابقة اكتشفت الشرطة الآلة الكاتبة التي استخدمها ويتشلو لطبع بعض رسائل الابتزاز من دون علم صديقته.

وعثروا في منزل صديقة أخرى على آلة كاتبة مخرَّمة من النوع المستخدم في طبع أولى رسائل الابتزاز الموجهة الى شركة "بدغري."

وعندما علمت الشرطة أن ويتشلو استخدم هاتفا نقالاً، استطاعت جمع أدلة تدينه بعدما زودتها شركة الهاتف جميع الارقام الهاتفية التي طلبها ومواقع هذه المكالمات ومواقيتها. فجاءت جميعها مطابقة لسحوب المبتز في الامكنة والازمنة اياها.

لكن تباينا ظهر في دفاع ويتشلو إبان محاكمته التي بدأت في ٨ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٩٠، اذ لجأ الى اتهام غافن روبرتسون بأنه العقل المدبر للمؤامرة. كان ذلك دفاعاً يائساً خلط فيه ويتشلو الاكاذيب بواقع زيارته الاخيرة منزل روبرتسون حين أوصل ألعاب الكمبيوتر الى الصبيين. وفي نهاية المحاكمة التي استغرقت ١٠ أسابيع واختتمت في ١٥ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٩٠، وُجد ويتشلو مذنبا بـ١١ تهمة من أصل ١٦ تناولت الابتزاز وتسميم الاطعمة والتهديد بالقتل ومحاولة اقتناء المال بالاحتيال.



رودني ويتشلو في الطريق الى السجن.

وقدِّر أن أفعاله أدت بمصنعي المعلَّبات الى اتلاف نحو ١٠٠ مليون علبة طعام تبلغ قيمتها ببيع التجزئة (القطاعي) ٣٢ مليون جنيه استرليني (نحو ٥٨ مليون دولار). ومن أصل ٣،٧٥ ملايين جنيه (نحو ٦،٧ ملايين دولار) حاول ويتشلو ابتزازها من "هاينز" و"بدغري" بموجب ١٨ رسالة تهديد، حصل على ٣٢ ألف جنيه (نحو ٥٨ ألف دولار) لم يتم استردادها. وهو ينفذ حاليا حكماً بالسجن لمدة ١٧ عاماً. وهو منبوذ من بقية السجناء لكونه شرطيا سابقا، كما أنه يلقى منهم معاملة عدائية خصوصاً لأن جريمته استهدفت الاطفال. وأفادت تقارير أنه تعرض لأعمال عنف مما أوجب وضعه في جناح خاص بالسجناء المهدَّدين.

وكانت لهذه القضية التي شغلت اسكوتلنديارد مضاعفات واسعة النطاق أدت بشركتي "هاينز" و"بدغري" وغيرهما الى وضع خطط سريعة لانزال منتجات موضَّبة على نحو يسهل معه كشف أي تلاعب. كما أدت بالمصارف الى التشدد في اجراءات فتح الحسابات واشتراط الحضور شخصيا وتقديم بطاقة هوية أو جواز سفر.

PHOTO: © REX FEATURES

لماذا أقدم ويتشلو على فعلته؟ هذا سؤال لا تمكن الاجابة عليه تخمينا لأنه لم يعترف بذنبه قط.

تخرَّج ويتشلو بامتياز في كلية الشرطة. واعتبره غافن روبرتسون، الذي كان أحد آخر رؤسائه، محققاً كفياً ومتفوقاً ذهنياً على أترابه في نواح كثيرة. الا أنه بقي أعزب على رغم بلوغه الثانية والاربعين من عمره. وكان منطويا على نفسه فلم ينسجم وصفوة رجال المباحث الذين عمل معهم والذين تميزوا برجولة بينة. عاش مع أمه الارملة، ونادراً ما كان يشارك زملاءه في المرح واللهو بعد ساعات الدوام مفضلا مجالسة الكمبيوتر الذي استحوذ عليه.

عندما استذكر روبرتسون أحداث السنة التي عمل خلالها مع ويتشلو، تذكر خيبة كانت تتنامى في نفس الرجل تشبه الاحباط الذي يصيب المرء متى أحس أنه لا ينال ما يستحقه من تقدير. فأدرك روبرتسون متأخراً مصدر تلك العنجهية الفكرية التي كانت تبهج ويتشلو كلما بزَّ زملاءه السابقين حيلة ودهاء.

ويستعيد روبرتسون بمرارة ذكرى يوم تقاعد ويتشلو من الخدمة قبل الاوان لاصابته بالربو، أي يوم دعاه الى تناول طعام العشاء في منزله ليشكره على السنوات الثلاث عشرة التي أمضاها في الخدمة في شرطة العاصمة التابعة لدائرة اسكوتلنديارد. ففي ذلك اليوم بالذات، ٣ أغسطس (آب) ١٩٨٨، بعث ويتشلو بأولى رسائل الابتزاز الى "بدغري."

ويذكر روبرتسون أيضاً ما حدث في مارس (آذار) ١٩٨٧ بُعيد تبوُّئه مركز المسؤولية في باركنغسايد. كانت اسكوتلنديارد في تلك الآونة أصدرت قراراً بخفض ساعات العمل الاضافية على نحو لم يرضِ فريقه الجنائي. فاتصل به ويتشلو في ساعة متقدمة من الليل وأصر على مقابلته فوراً. فقال له روبرتسون: "اذا كان الامر خطيراً فتعال الى منزلي." وعندما وصل ويتشلو أخبر روبرتسون أن الفريق ذهب الى أحد المقاهي لتداول موضوع ساعات العمل الاضافية.

تناهى الحديث الى مسمع جيني زوجة روبرتسون، فقالت لزوجها لاحقا: "انه لأمر غريب. ما الذي يحمل أيا كان على المجيء الى هنا لمجرد سرد أقاويل عن زملائه؟ احترس من هذا الرجل."

فهز روبرتسون كتفيه وسرعان ما نسي الموضوع كليا.

لكن بذور جريمة ويتشلو كانت في الواقع منثورة قبل هذه الامسية بوقت طويل. ففي السنة السابقة، في يوليو (تموز) ١٩٨٦، التحق ويتشلو بدورة دراسية حول مراقبة المشبوهين اطلع خلالها على تفاصيل سرية لجريمة تلويث اطعمة لا تختلف عما أقدم عليه هو. وعلى رغم أن تلك القضية انتهت بالقبض على المجرم، فقد استبدت به فكرة

تنفيذ جريمة مماثلة لا تشوبها شائبة.

فعمد خلال الاشهر الثلاثة اللاحقة الى فتح الحسابات السرية التي يتعذر تتبعها باسم جون وساندرا نورمان. ولم يكتفِ بذلك، بل شرع، بمساعدة صديق صحافي، في وضع مسودة كتاب عن أساليب ارتكاب الجريمة الكاملة.

ولئن هو نفذ ما ورد في هذا الكتاب من نصائح، فلقد غدا، كما استنتج فليمنغ، "مبالغاً في الثقة بالنفس وكسولا لا يرعوي عن تنفيذ جريمته في موقع قريب من مكان اقامته. ومثل كثيرين سبقوه، وقع أخيراً في فخ عجرفته وخيلائه."

ديفيد مولر ■

ترجمة فريد شديد



مكالمة تاريخية

كان السناتور الامريكي هاريس ووفورد مساعداً في الحملة الانتخابيّة للرئيس الامريكي الراحل جون كينيدي عام ١٩٦٠. وبفضله اجريت عامذاك احدى اشهر المكالمات الهاتفيّة في تاريخ الولايات المتحدة، جامعة اسمين طَبَعا ذلك العقد الحافل بالاضطرابات هما جون كينيدي ومارتن لوثر كينغ.

حين أوقف كينغ لمحاولته إلغاء التمييز العنصري داخل مخزن في ولاية جورجيا، وغُلّت يداه بالاصفاد وسيق الى السجن، حضّ ووفورد صهرَ كينيدي سارجنت شرايفر على إقناع المرشح الرئاسي بالاتصال بزوجة كينغ كوريتا سكوت. وكان إظهار التعاطف مع كينغ يهدد بخسارة كثير من الاصوات الانتخابيّة في الجنوب، لكن كينيدي لم يتردّد، بل اتصل بزوجة كينغ المنادي بالحقوق المدنية وقال لها: "لا بد أنّ الأمر شاق عليكِ. اذا كان في مقدوري تقديم اي مساعدة، فلا تترددي في الاتصال بي."

وكالنار في الهشيم، سرى في اوساط السود أن كينيدي اظهر شجاعة في مساندة صراعهم. وأحدثت هذه المكالمة التي "هندسها" ووفورد اثراً عميقاً في حملة كينيدي الانتخابيّة وفي حركة كينغ الاصلاحية.

ك.م.

الممثل الحق

اعشق الافراط في الافلام كما في الحياة. احب المأساة كما الملهاة. احب الذهاب الى اقصى الحدود وإن بدا ذلك سخيفاً ومضحكاً، واذا كان سخيفاً ومضحكاً كان افضل. التمثيل الحق ليس القيام بحركات وتأدية حوار فحسب. انه الازعاج ايضاً والاثارة، وكذلك العودة الى التكيف. انا لا أؤمن بشيء اسمه "ناموس التمثيل." على المرء أن يرى الاحداث ويحسها ويحياها، ثم يروح يمثلها.

جيرار دوبارديو، ممثل فرنسي

قصة من واقع الحياة

علق الفرارج في دوامة هادرة

جذبته الى قاع أنبوب تصريف وكسّرت عظامه

فهل يستطيع الخروج وطلب النجدة؟

الدوّامة الزرقاء

كان نك لومانجينو يدندن لحناً وهو يضع سائلاً مقاوماً للجليد* في محرك شاحنته الصغيرة. بدا ذلك سخيفاً في يوم أحد دافىء من شهر نوفمبر (تشرين الثاني). لكن نشرة الأحوال الجوية توقعت موجة من الصقيع والثلج في منتصف الأسبوع التالي.

لومانجينو رجل في الخمسين من العمر دائم الانشغال. فهو يُعنى بمزرعة أهله في شينفيو شرق ولاية نيويورك التي تبلغ مساحتها ٨٠ هكتاراً، إلى اهتمامه بمنزله في ميلبروك على بعد حوالى ١٥٠ كيلومتراً جنوباً. كان نك في ما مضى أستاذاً للفنون في مدرسة ثانوية ومدرباً على المصارعة، وقد حافظ على لياقته البدنية وعضلاته القوية.

قرابة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر انتهى نك من تجهيز عربات المزرعة واعدادها لفصل الشتاء. وكان العرق يتصبب منه على رغم انه كان عاري الصدر ولا يرتدي سوى سروال قصير.

انطلق نك، ومعه كلبته ليدي، عبر الحقول لتفقّد البرك الثلاث المتصلة بعضها ببعض والتي تروي المزرعة. وكان راقب طوال فصل الصيف قندساً منهمكاً في جمع العيدان، وساوره قلق من أن يكون ذلك أدى إلى انسداد مصرف المياه الفائضة، وهو أنبوب يبلغ قطره ٧٥ سنتيمتراً يُستخدم لتقنية فائض المياه تحت سد ترابي الى مجرى في الاسفل.



(*) Antifreeze

ILLUSTRATION: DAN BURR

بدت البركتان الأوليان صافيتين، لكن المياه كانت تفيض من أعلى البركة الثالثة مما شكل ضغطاً كبيراً على السد. فتعين على نك أن ينظف أنبوب التصريف وإلا انهار السد.

عاد إلى مخزن المزرعة حيث حمّل شاحنته قارباً صغيراً ورجع إلى البركة. ترك كلبته على الضفة وانطلق يجذّف قاربه نحو كومة الاغصان حيث تفيض المياه. فوجد الكومة أكبر مما توقع.

دوّامة مرعبة. بدأ نك يدفع كومة الأغصان بقضيب حديد محاولا تخفيف الضغط عن السد. وحين تراءت له على سطح الماء فوهة أنبوب بشكل قمع، قفل عائداً الى الضفة مطمئناً. وما إن ابتعد حوالى عشرين متراً حتى سمع صوت امتصاص رهيبا، كأن مغسلة ضخمة تُفرغ مياهها. ورأى أوراق الشجر والاقذار الطافية تجتاز قاربه بسرعة منجرفة من خلفه. فالتفت وراءه، وإذا به يرى الأنبوب يبتلع كومة كبيرة من الأغصان. وخلال ثوان تحولت الفوهة الصغيرة دوّامة هادرة. ثم لاحظ كلبته ليدي تثب بعصبية على حافة البركة، فصرخ بها: "ابقي حيث أنتِ!" وبسرعة خاطفة سُحب قاربه إلى الوراء وراح يدور الى أن علق فوق الدوّامة حيث وجد نك أمامه فوهة سوداء هادرة.

استجمع قواه وحاول التمسك بحافة أنبوب التصريف مستعيناً بالمجذاف. فنجح في الافلات من التيار وحاول الابتعاد. ولكن على مسافة أقل من خمسة أمتار من الضفة شعر مجدداً بأن القارب يتراجع في اتجاه الدوامة.

سيطر الذعر على نك فقفز إلى الماء محاولا السباحة. لكن التيار جذبه نحو الفوهة مثل مغناطيس. وفي لحظة شعر بجسده يمر فوق الأنبوب مسحوباً بقدميه أولاً. ولكن، قبل أن تبتلعه الفوهة، مدّ يده في المياه المثلجة وأمسك بفوهة الأنبوب. وسحب رجليه الى أعلى ببطء، فأصبح معلّقاً فوق فوهة الدوّامة كسرطان، وجهه الى أسفل، ممسكاً الأنبوب بأصابع يديه وأصابع قدميه.

بقي نك متشبثاً بكل قوته يقاوم المياه التي حاولت جرّه من قدميه فيما التيار ينطلق تحت ذقنه بعنف كما تنطلق المياه من خرطوم إطفاء. وأخذ يحض نفسه على الثبات في مكانه آملاً أن يخفّ الضغط عليه اذا انخفض منسوب المياه في البركة.

فجأة انكسرت الحافة الاسمنتية، فغطس نك في الانبوب مرتطماً بجوانبه التي كانت من الفولاذ المموّج. كانت المياه المتدفقة داخل الأنبوب تسوط ذراعيه وساقيه. وفي لحظة خاطفة ارتطم بقاعدة الأنبوب. وصارع لكي يعوم، فنجح بأعجوبة قاذفاً الماء من فمه.

يد جبّارة. وقف نك على قعر الأنبوب العمودي البالغ طوله ثلاثة أمتار. وكان وراءه أنبوب أفقي طوله ثمانية أمتار يمتد تحت السد ويفرغ مياهه في المجرى

تحت. وفيما ارتفع مستوى المياه حوله استنتج أن الاقذار قد تكون سدّت الأنبوب الأفقي.

نظر نك إلى أعلى، فلمح وسط المياه المنهمرة عليه قرصاً أزرق من سماء صافية. واستغرب أن يكون النهار لمّا يزل جميلاً.

بدأ مستوى المياه ينخفض. فظنّ نك أن الانسداد انفرج مما سمح بالتصريف. ثم عادت المياه ترتفع وبلغت وسطه، فصدره، فكتفيه.

أسند نك ظهره إلى جدار الأنبوب وثبت قدميه على الجانب المقابل محاولاً، بقوته العضلية، التسلق في عكس تيار المياه الهادرة. ولشدة برودة المياه شعر كأن جلد ظهره يُسلخ عنه. وأفلتت قبضته، فوقع مجدداً وارتطم بقعر الأنبوب. فراودته رغبة طاغية في الصراخ.

فجأة شعر كأنما يد جبارة تسحبه نحو منفذ الأنبوب الأفقي. الانسداد ينفرج!

أسند قدميه بقوة إلى جانبي الأنبوب وأخذ يصارع بكل قواه مرتعباً من هاجس أن يبتلعه ذلك الأنبوب الطويل. وصلّى: "يا رب، ساعدني في اجتياز هذا الأنبوب، وأنا أتكفل بالبقية."

كان الضغط لا يُحتمل، وشعر نك بقدميه تنزلقان. فضغط بقوة أكبر على جانبي الأنبوب بينما تيار المياه المثلّجة يضرب رأسه وكتفيه بعنف.

أفلتت قدماه وراح جسمه يرتطم بجانبي الأنبوب حتى كادت رئتاه تنفجران. وبعد برهة وجد نفسه مستلقياً على أرض صخرية وسط سيل جارف من المياه بعمق ستين سنتيمتراً. لقد قُذف من الأنبوب مسافة عشرين متراً ووقع على حافة صخرية تعلو بضعة أمتار عن فوهة المجرى.

عظم مكسور. هتف نك في نفسه مندهشاً: "أنا حيّ! أنا حيّ!" لكنه كان لا يزال بعيداً جداً عن الأمان. فمشى متعثراً متمسكاً بالصخور شاقاً طريقه بحذر الى حافة المياه، وهناك التقط جذر شجرة بيده اليسرى.

عندئذ فقط أدرك أن خطباً ما حصل لذراعه اليمنى. لقد انفكت كتفه! مدّ ذراعه المصابة الى أعلى وتمسك بشجيرة. ثم خفض جسده محاولاً إعادة المفصل الى مكانه، فنجح جزئياً. وعلى رغم حدة الالم أصبح قادراً على فتح يده اليمنى وقبضها.

جلس نك ليرتاح قليلا. وفيما هو ينفض ما علق على صدره ورجليه ضربت يده شيئاً ما حين رآه ارتبك ارتباكاً شديداً. فقد كان عظم فخذه اليسرى ناتئاً من جلده فوق الركبة تماما. فحدّق اليه مذعوراً. كان لون العظم أبيض وطرفه مسنناً. ولم يكن نك شعر بالكسر، إذ لا بد أن تكون المياه المثلجة خدّرته. في تلك اللحظة أدرك أنه لن يتمكن من الخروج من الماء والعودة سيراً إلى المزرعة.

تطلع نك إلى أعلى فرأى غيوماً رمادية تمتدّ من الجنوب الغربي. وكانت درجة

الحرارة تهبط بسرعة. فصرخ بأعلى صوته مستغيثا، الاّ أن صوته تلاشى وسط هدير المياه. وفي أي حال، مَن كان هناك ليسمعه؟

استلقى على ظهره في الماء تعسا مرتجفاً. وراح يفكر في أن من المحتمل جداً أن ينزلق فيبتلعه المجرى. وضجّ صوت في رأسه: "لا! إن كنت رجلاً صلباً حقاً ففي استطاعتك الخروج من هذا المأزق!"

أستجمع نك شجاعته وحاول التمسّك بالغصن. فمزّقه ألم مبرِّح. لكنه صرّ بأسنانه وخرج من الماء مستعينا بيده اليسرى السليمة. مرت لحظة كاد يغمى عليه، لكنه لم يلبث أن أصبح في أمان على الأرض الجافة.

"لماذا تعذب نفسك؟" كان نك يقطع المسافة الى بيت المزرعة في ست دقائق مشياً. أما الآن، فقد بدت الامتار الاربعمئة أطول من الطريق الى القمر.

في البدء حاول أن يزحف متسلقاً التلة، لكن طرف العظم المسنن كان يعوقه ويصطدم بالصخور. فتوقف قليلا ليمسح التراب وأوراق الشجر عن جرحه.. ثم تجاهل الألم المبرح ودفع العظم الناتىء داخل اللحم بسبّابته اليسرى. فشعر بدوار. وقال في سرِّه: "اصمد يا رجل!" فإن أغميَ عليه مات في العراء.

التقط غصنا ساقطا طوله نحو متر. فحلّ شريط حذائه وربط الغصن إلى ساقه اليسرى كجبيرة. وراح يتسلّق التلة خلفياً، دافعاً برجله اليمنى ورافعا جسده بيده اليسرى.

كان تخطّي الأخاديد والحجار عملية شاقة. وكان نك يقيس تقدمه بالسنتيمترات. حاول مرارا ان يرتاح، لكن جلده بدأ يزرق بفعل البرد، وكلما أسند ظهره مزق الألم جانبه الأيسر. وسمع صوتاً هامساً في أذنه: "لماذا تعذّب نفسك؟ لماذا لا تستلقي وتستريح؟"

لكنه صاح: "لا! تابع سيرك يا رجل! فقد قطعت وعداً على نفسك بأنك إن أخرجك الله من الأنبوب فستتكفل بالبقية. الآن يجب أن تفي بوعدك!" وتابع تسلقه خلفيا على رغم ألمه.

سدت طريقه شجيرات علّيق. فلمس أحد أغصانها فوخزت الأشواك يده. وتساءل: هل يمكنه أن يتخطى هذا الشرك؟ ولكن، هل يكون وخز الأشواك أكثر إيلاماً من ساقه المحطّمة؟

تصلّب نك واقتحم أجمة العلّيق، فمزّقت أشواكها جسده العاري. وبعدما قطع مسافة خمسة عشر متراً وخرج منها، بدا كأنما زمرة من الهررة البرّية قد هاجمته.

رعب جديد. مضت ساعة من العذاب بلغ نك بعدها أعلى التلة قاطعاً حوالى خمسين متراً. وتساءل عن كمية الدم التي نزفها، وكم تبقى لديه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

كانت شاحنته متوقفة في المرج المنبسط أمامه على بعد ستين متراً. اذا

تمكن من الوصول إليها فسيقودها إلى المنزل ويطلب النجدة بالهاتف.

تابع نك تحركه البطيء خلفيا. وبعد عشرين دقيقة وصل إلى شاحنته، فشعر بغبطة لا توصف. ولما حاول التقاط مسكة الباب تذكر أن الشاحنة ليست أوتوماتيكية، مما يعني أنه لن يقدر أبداً على قيادتها بكتف مخلوعة وساق مكسورة!

حاول نك لجم رعبه المتنامي. وكان في الجهة الاخرى من المرج سور حجري وخلفه طريق حصباء. لم يبقَ أمامه سوى هذا الخيار.

اشتدّ هبوب الريح، فأخذت أسنانه تصطكّ وراح يرتجف من البرد، لكنه تابع تحركه. بلغ الحائط بعد نصف ساعة، وكان يعلو نحو متر.

"يا الهي، ألن ينتهي هذا الأمر أبداً؟"

راح نك يزحف في محاذاة الحائط إلى أن وجد فيه ثغرة، فخرج منها فيما الحجار والاشواك تمزّق جسده. وبعد دقائق كان على الطريق.

تابع كفاحه بعزيمة متجددة. وبعدما اجتاز منعطفاً لاح له بيت المزرعة على بعد حوالى ستين متراً. أخيراً!

توجه نك نحو العشب الندي في الساحة الأمامية قرب المشوى الحجري. فجلس هناك يغالبه دوار. ثم لمح شاحنة صغيرة على التلة التي انحدر عنها فلم يصدّق عينيه. لكنه لم يقوَ على الصراخ. وفكر: "يجب أن يروني!"

اتجهت الشاحنة نحوه ببطء وتوقّفت على بعد ستة أمتار منه وقفز منها رجلان. فقد كان باتريك فيتزباتريك وروبرت بلومر في رحلة لصيد الطيور صبيحة ذلك الأحد. وفي طريق عودتهما قرابة الثالثة بعد الظهر مرّا بشاحنة نك في الحقل فلاحظا أن بابها الخلفي مفتوح.

ثم رأى فيتزباتريك قارباً منقلباً عائماً قرب أنبوب التصريف. فعاد هو وبلومر عبر الطريق الحصباء، وبعد المنعطف شاهدا نك عاري الصدر يلوّح لهما بيد واحدة.

كانت الحرارة تدنت إلى خمس درجات مئوية، وكان نك ممتقعاً يرتجف من البرد وقد مزقت صدره وذراعيه وقدميه جروح حمر متقاطعة كأنه جُلدَ بالسياط. فخلع فيتزباتريك سترته ولفّه بها.

في المستشفى عالج الاطباء نك لومانجينو من الصدمة. واضطروا الى اعطائه ليتراً من الدم. وقوّموا كتفه وجبروا عظمة فخذه المحطمة وثبتوا فيها قضيباً معدنياً وبراغي. وقال له الدكتور بول كونيغ مدير قسم الطوارىء إن تجربته هي أغرب صراع للبقاء صادفه منذ عشر سنين. وأضاف: "كأنك ولدت من جديد."

وبعد ثلاثة عشر يوماً عاد نك إلى منزله. ولم يتعافَ كلياً إلّا بعد ستة أشهر.

يقول: "يدعونني الناس بطلا، لكنني لست سوى رجل حاول البقاء على قيد الحياة. الله منحني تلك الفرصة، والآن حان دوري لأُعطي شيئاً في المقابل."

وليم ديرفيلد ■

صور من الحياة

قوس قزح

■ تسرب بعض الزيت من سيارتي الى أرض الموقف أمام المنزل، ولمع تحت ضوء الشمس متلألئاً بعدة الوان. فهرع حفيدي الى الداخل صائحا: "تعال يا جدي وانظر الى قوس قزح ميت في طريق بيتنا."

ي.ج.

ميكانيك

■ كم أودّ سماع هذه العبارات من ميكانيكي:

"ثمن هذه القطعة أقل كثيراً مما توقعت."

"لم أرَ أحداً ينتبه لسيارته كما تفعل أنت."

"إن إصلاح هذا العطل يكلّف أقلّ في مرأب آخر."

"كل ما في الأمر أن برغياً كان مرتخياً. لن آخذ منكَ شيئاً."

د.غ.

بعض الشفاء في صوتها

■ اتصل ابني من الجامعة ذات مساء وقال لي بصوت مخنوق: "ماما، انا مصاب بزكام شديد، وأعتقد أن حرارتي مرتفعة، فماذا افعل؟"

أجبته: "اكثِر من شرب السوائل، واخلد الى الراحة."

ثم أضفت: "لكنك طالب في السنة الثالثة في كلية الطبّ، ويفترض بك معرفة هذه الأمور."

قال: "أعرف يا ماما، لكنني أردت سماعها منكِ أنتِ."

ج.ل.

سامي يعرف

■ احتجت مرة الى سيارتنا الجيب للذهاب الى السوق، اذ كان زوجي أخذ سيارتي الصغيرة. ولم اكن أجيد قيادة الجيب، فاتصلت بزوجي لأسأله عن بعض الامور. فقال لي: "خذي الجيب، لا بأس، لكن إحدى عجلاته فارغة، فانفخيها. وعلّمني طريقة استعمال المنفخ الكهربائي وأنهى حديثه قائلا: "اذا احتجتِ الى شيء، فدعي سامي يساعدكِ، فهو يعرف ماذا يفعل."

ثم اتصل العم عزيز، والد زوجي، فسألته عن المنفخ لمزيد من الفهم، ففسّر لي ما عليّ أن افعل وأضاف: "سيساعدكِ سامي اذا ما احتجتِ الى شيء."

سامي ابني، وعمره خمس سنوات.

ر.ب.

اقرأ لي يا بابا

■ كنت أقرأ قصة لابني قبل أن ينام. واذ لاحظت أن النعاس يغالبه وضعت الكتاب جانباً وهممتُ بالخروج، فسمعته يقول: "لا تتوقف عن القراءة يا بابا، فأذناي تسهران أكثر من عينيّ أحياناً."

ب.غ.

كتاب الشهر

امرأة خارقة

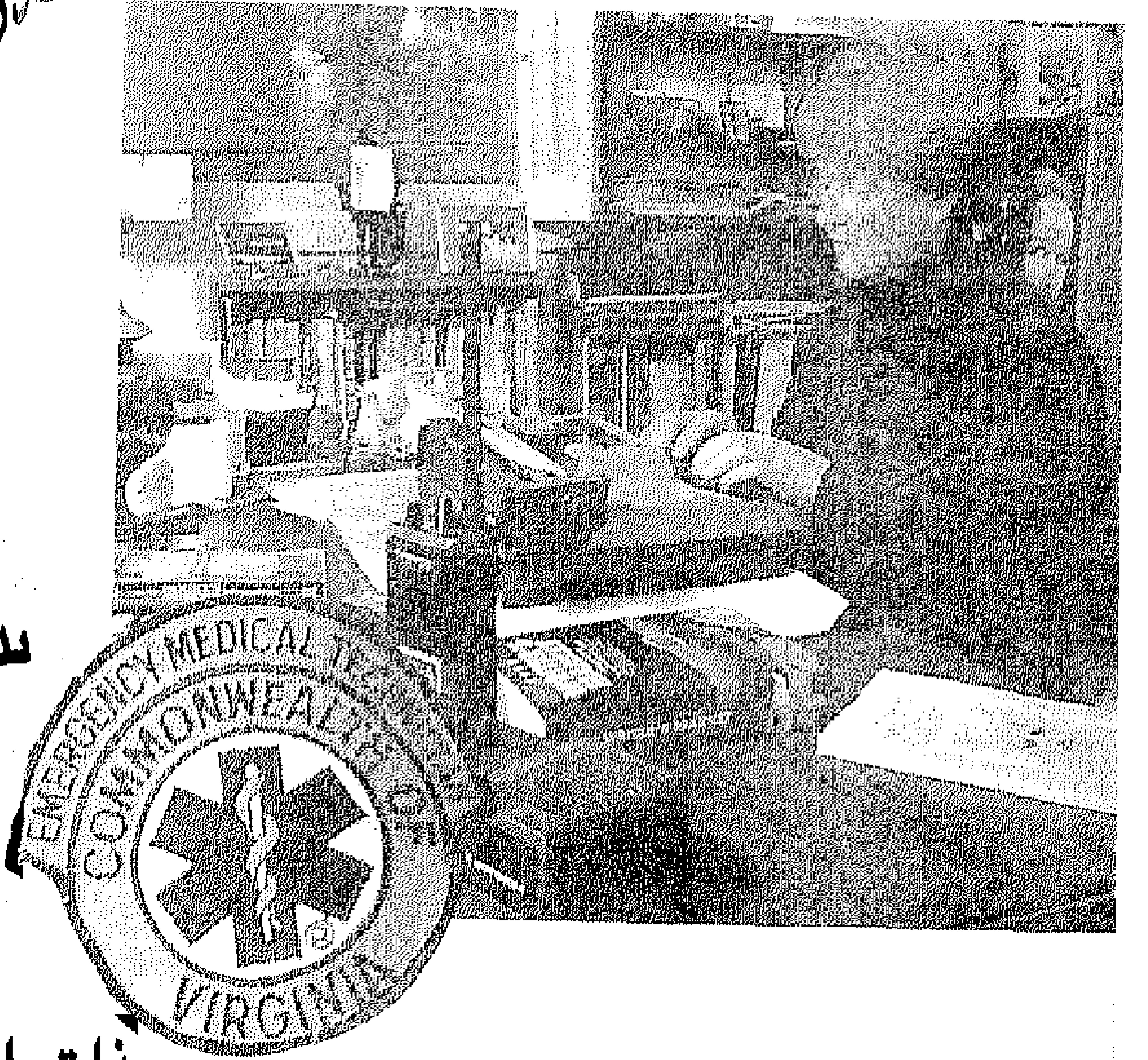
ملخص من كتاب "خلف الأضواء والصفارات"

بقلم بات أيفي

امرأة خارقة

كانت حياة بات أيفي غنية كأم وربة بيت، لكنها ظلت في داخلها تفتقد شيئاً ما. كانت تحس أنها تأخذ أكثر مما تعطي.

درست بات البدائل المتاحة: كانت في السابق مدرِّسة، لذا تستطيع العودة الى التدريس. ولكن في امكانها أيضاً أن تجرب شيئاً آخر. وقد أتى ذلك "الشيء" دعوة للانضمام الى فرقة الانقاذ المحلية.



بدا الخيار غير طبيعي بالنسبة الى امرأة لا تطيق مرأى الدم ولا صوت سيارة اسعاف. ومع ذلك وجدت بات نفسها ذات ليلة عضواً في فريق مساعدين طبيين للطوارىء يعملون بسرعة وخفة فيعالجون عظاماً مكسورة وأجساماً مدماة، باذلين وسعهم في سباق مرير مع الموت.

طارت السيارة حوالى ١٥ متراً في الهواء قبل أن تحط مهشمة في الغابة، جنبها الايسر متكىء على شجرة وأبوابها عالقة يتعذر فتحها. وكان السائق دُفع الى المقعد الخلفي بفعل الصدمة وبدأ يفقد وعيه.

قال ماركوس والاس أحد عناصر فريق الانقاذ: "يجب أن يدخل أحدنا السيارة. بات، هل يمكنك التسلق الى الداخل؟"

فأجبت: "سأحاول." واذ مشينا أنا وجو برودريك عبر الشجيرات والاعشاب الى

CONDENSED FROM «EMT: BEYOND THE LIGHTS AND SIRENS,» COPYRIGHT © 1989 BY PAT IVEY, IS PUBLISHED BY DIAMOND BOOKS, SUNBELT MEDIA, INC., TEXAS. PHOTOS: © MARIO MERCADO

الجانب الآخر من السيارة سألته: "لماذا لا يسألك أحد أن تقوم بهذا العمل؟"

رمق جو بنيتي النحيفة وقامتي التي لا تتجاوز ١٦٠ سنتيمترا وربت كتفي قائلا: "من النافع أحيانا أن يكون المرء طويلا."

أنارت الاضواء الكاشفة موقع الحادث. وتفحص جو الشجرة التي اتكأت السيارة عليها ثم ضغط الصندوق بقوة. وعندما تأكد له أن الحطام مستقر ساعدني في التسلق داخل السيارة.

عندما يعلق شخص في سيارة بعد حادث اصطدام، يدخل اليه أحد أعضاء الفريق لتضميد جروحه وجبر عظامه ومراقبة خفقان قلبه وتثبيت حقنة قطّارة للسوائل والادوية عبر الاوردة، ولتهدئته وتخفيف جزعه عندما تصخب حوله المعدات المستخدمة في إخراجه.

كان مجال الحركة داخل السيارة لا يتجاوز ٦٠ سنتيمترا، وكان من الصعب علي حفظ توازني، فرحت انزلق نحو السائق الذي بدا في أوائل العشرينات من عمره، وكان واضحا أنه تناول كحولا.

قلت له: "أنا بات، وأنا هنا لمساعدتك."

فرد دافعا اياي الى زاوية المقعد: "أخرجيني من هنا."

مد عنصر من فريق الاطفاء رأسه داخل السيارة وقال: "سنضطر الى اقتلاع هذا الباب." كان يعني أن الفريق سيستخدم آلة ذات فكّين[1] تنهش المعدن وتقطعه ويمدها بالطاقة مولّد خاص.

فقلت له: "أعرف ذلك."

سألني: "هل أنت بخير؟"

فأجبته: "نعم، حتى الآن."

أدخل الرجال قماشا مشمّعا لحمايتنا من الزجاج المتناثر والشظايا المعدنية، فسحبته حتى غطانا، وأحطت السائق بذراعي مسندة مؤخر رأسه الى وجهي. كنت أحس دمه الحار اللزج على خدّي وجبهتي. وهو حاول جاهدا التملص من قبضتي فيما حاولت أنا احكامها. لكنه كان أقوى مني. لم يكن لدي متسع للحركة، وكانت رجلاي المثنيتان تحت جسمي تتشنجان، واثقلت رائحة الكحول الممتزجة برائحة الدم وطأة الجو داخل السيارة.

أفلت الرجل فجأة وجلس منتصبا، ثم راح يتلفت حواليه يائسا وصرخ: "يجب أن أخرج من هنا!"

ناديت المنقذين وقد انتقلت الي عدوى رهاب الاحتجاج، لكن أحدا لم يسمعني وسط

(١) تعرف باسمها التجاري «Jaws of Life» اي "فكّي الحياة."

ضجيج المولّد. وأحسست دمي ينبض عنيفاً داخل أذني.

راح الشاب يئن عالياً ويضرب سقف السيارة بقبضتيه. فجلست أنا ساكنة وأغمضت عيني.

اقتلع الباب أخيراً وأطفىء المولد فتوقف السائق الجريح عن الحركة. فتحت عيني فطالعني وجه جو مكان الباب: "بات، هل تحتاجين الى شيء؟"

"الخروج من هنا!" كان ذلك كل ما استطعت قوله.

فور اخراج السائق من السيارة ووضعه في سيارة الاسعاف بدأت عنايتنا الطبية الحقيقية. كان مصاباً بنزف داخلي وقد انخفض ضغط دمه الى درجة خطرة. فغرزت في معصمه حقنة وريدية، ثم ألبسناه سروال Mast [٢] لدفع الدم من ساقيه صعوداً الى جسمه، فذلك يساعد في انقاذ حياة المرء اذا كان مصابا بنزف داخلي.

في منتصف الطريق الى المستشفى شرع المصاب يوجه الينا لكمات طائشة، فصرخت في السائق: "حاول أن تسرع أكثر." لم أخشَ أذية من لكماته الواهنة، لكنني خفت أن تفلت الانابيب المثبتة في أوردته. فربطنا يديه الى جانبي المحفة. لكن صراخه بلغ آذان العاملين في قسم الطوارىء في المستشفى لحظة وصولنا الى الموقف المخصص لسيارات الاسعاف.

دخلت غرفة حمّام في المستشفى لاحقاً ونظرت الى المرآة. رفعت يدي مذعورة الى الجانب الايمن من رأسي وتحسست الدم والوحل على شعري الاشقر. غسلت وجهي، لكن ذلك لم يحسن مظهري كثيرا. كانت عيناي الزرقاوان محمرتين ومنتفختين. وأبرز الضوء الفلوري الابيض كل الخطوط والتجاعيد في وجهي، فبدوت أكبر كثيراً من أعوامي الاربعين.

قلت لنفسي: "لا جدوى!" وعدت الى غرفة الممرضات. فهتفت ممرضة كانت تراقبني في زيها الابيض النظيف: "لن أستطيع أبداً العمل في فرقة انقاذ!"

ابتسمت، فقبل سبع سنوات قلت الكلام عينه.

ذعر في منتصف الليل

لم يخطر ببالي أبداً أن أصبح مساعدة طبية للطوارىء،[٣] فقد حدث الامر مصادفة.

يقع بيتنا في "لايك أوف ذا وودز" وهي بلدة نموذجية بنيت قرب فريدريكسبرغ في ولاية فرجينيا. وكنت وزوجي ديفيد قررنا الانتقال اليها كيما تتاح لاولادنا ديف ومات وجنيفر أشجار يتسلقونها وبحيرة يمارسون فيها صيد السمك والتزلج المائي وركوب

(٢) Military Anti — shock trousers . وهو سروال خاص بالحماية من الصدمة.
(٣) Emergency Medical Technician

القوارب الشراعية وحيث تتاح لهم فسحة أكبر للنمو. كنت قائدة فرقة "أشبال" في فوج كشافة البلدة. وفي أحد اجتماعاتنا ألقت لو بوتر، العضو في فرقة متطوعي الانقاذ، محاضرة عن السلامة في الرياضات المائية. وهي قالت لي بعد المحاضرة: "أنت تلازمين البيت خلال النهار. ونحن في حاجة ماسة الى متطوعين يعملون في الفرقة نهاراً: لماذا لا تفكرين في الموضوع؟"

أجبتها: "لو، هذا شيء لا أستطيعه."

فردت مذعنة: "حسناً، لكنني لن أيأس من اقناعك."

وهي لم تيأس فعلاً.

بعد مدة وجيزة دعينا الى حفلة شواء في العراء في مزرعة براين وليندا هول. بعد تناول العشاء انطلق ابني مات لاستكشاف المزرعة مع صديقه جوستين هول، وكلاهما في الثامنة. ونبهناهما أن يعودا قبل حلول الظلام.

في الثامنة والربع مساء انسدل حجاب من الغيوم محولا حمرة الشفق ظلمة. فعدنا الى بيت المزرعة فلم نجد مات وجوستين هناك. قال ديف: "ربما ذهبا الى مخزن الحبوب."

خرجت الى الظلمة ووقفت أصيخ السمع. كان الهدوء تاما. اتجهت ناحية المخزن وناديت: "مات! جوستين!" فلم يجبني أحد. سرت الى السياج حيث خرجا الى الغابة وناديت ثانية. صمت من جديد. فعدت الى المطبخ.

اقترح براين أنهما "ربما مختبئان." فردت زوجته: "أنت تعرف جيداً أنهما لن يفعلا ذلك." ونهضت عن الطاولة. فعدنا الى السياج ونادينا من جديد. وطاف زوجانا في المزرعة متوقفين للهتاف باسمي الصبيين. ثم ركبت أنا وليندا السيارة وانطلقنا في الطريق المحاذية للمزرعة، نتوقف بين حين وآخر لنخرج من السيارة ونادي الصبيين. لم نجد أثراً لهما، فعدنا بعد ساعة الى المنزل. لاقانا براين عند موقف السيارات قائلا: "لقد اتصلت بفرقة الانقاذ."

سألته: "ولماذا فرقة الانقاذ؟"

فرد: "بات، اننا في حاجة الى مساعدة." وطالعتني في صوته نبرة يأس، فانهمر الدمع من عينيّ. ونظرت الى الغابة المظلمة الممتدة حتى نهر رابيدان الذي تكثر في ضفافه العالية فجوات وصدوع تحجبها شجيرات عن المياه الصاخبة تحتها.

تناهى الى سمعي صوت صفارة انذار، فتلفتُّ ورأيت أضواء حمراء وامضة فيما سيارة الاسعاف تدور حول المنعطف. وسار ديفيد وبراين لملاقاة الاشخاص الذين خرجوا من السيارة.

اقتربت منهم مترددة، فرأيت بينهم جارنا جون بيري الذي رفع عينيه عن خريطة بين

يديه وحيّاني. ثم عرفت اثنين آخرين من أصدقائنا هرعا الي مبتسمين.

ووصلت امدادات اضافية من تجمعات سكنية قريبة. وبعدما تلقى العناصر تعليماتهم انقسموا مجموعات مع خرائط وأضواء كاشفة وأجهزة اتصال لاسلكية، وتحركوا نحو الغابة بحثاً عن الصبيين.

لم ينقطع سيل الوافدين الذين وصلوا حاملين الطعام والقهوة. وتحركت فرق أخرى الى الغابة بعد ساعات فيما بدأت الفرق الاولى تعود. وفي الاولى والنصف بعد منتصف الليل أرسلت كلاب مدرَّبة للتفتيش. وفي الثالثة اتصل جون بيري لاسلكياً طالباً طوافات[٤] انقاذ من ريتشموند. وأعلمنا مع مطلع الفجر أن الطوافات جاهزة للمشاركة في عملية البحث.

عُثر على مات وجوستين في الساعة ٥،٥٥ فجراً على مسافة ١٥٠٠ متر من المزرعة مختبئين بين جذعي شجرتين بعدما توغلا في الغابة وتاها في الظلمة المفاجئة. وكان الصبيان سمعا أفراد فرق الانقاذ ينادونهما، لكن هؤلاء لم يسمعوا صراخهما.

خرج الصبيان من الغابة وتوجها الى البيت، فمزقت الهتافات سكون الليل.

أخبرني صديقنا إد لو بعد أيام أن العثور على أي انسان في الظلام هو شبه مستحيل في محيط كهذا.

فسألته مستغربة: "ولماذا تابعتم كلكم البحث؟"

فرد بالاستغراب عينه: "وهل تعتقدين أنه كان في امكاننا أن نترككم؟"

لقد طلبنا العون، فاستجاب هؤلاء، وكثيرون منهم أغراب عنا.

كتبت وديفيد رسالة شكر وقدَّمنا هبة متواضعة الى فرقة الانقاذ في "لايك اوف ذا وودز." ولكن كيف لعبارة شكر أن تفي هؤلاء الطيبين حقهم؟

متطوعة، ولكن...

في سبتمبر (أيلول) من ذلك العام التحقت صغيرتنا جنيفر بروضة الأطفال، فبدأت أفكر في طرق لتمضية الوقت الاضافي المتوافر لدي.

في اليوم الثالث أنهيت تنظيف البيت وترتيبه وهيأت برنامج الاجتماع التالي لفرقة الاشبال. ووقفت في المطبخ أصغي الى قدر السباغيتي تهسُّ على الموقد، وسألت نفسي بصوت عال: "حسناً، ماذا بعد ذلك؟"

كان في استطاعتي العودة الى مهنة التعليم، فهذا ما تفعله غالبية المعلِّمات السابقات عندما يدخل أطفالهن المدارس. فهل يكفي ذلك؟ هل أنا أعطي بمقدار ما منحتنيه الحياة؟

(٤) الطوّافة طائرة مروحية (هليكوبتر).

"نحن في حاجة ماسة الى متطوعين." تذكرت ما قالته لي لو بوتر. كنت أجيد التعامل مع الناس... ما داموا لا ينزفون. وقد وصفني زوجي ديفيد بأنني "غير نافعة" في الطوارىء. وبدا تعبيره مسيئاً، لكنه كان على حق: فعندما عض كلب ديف الصغير وهو في الثانية من عمره، اكتفت الممرضة في غرفة الطوارىء بنظرة واحدة إلي قبل أن تطلب مني الخروج الى غرفة الانتظار فيما المسعفون يخيطون الجرح. وعندما كان مات في الخامسة ضربه صبي آخر بعصا، فغطى ديفيد الجرح بمنشفة قبل أن يهرع به الى قسم الطوارىء. وسألته في ما بعد: "لماذا غطيت الجرح؟ ألكي لا يرى مات الدم؟" فأجاب: "لا، بل لئلا تريه أنت!"

أجلت نظري في الغابة المحيطة بمنزلنا وفكرت في الاشخاص الذين أعطونا من أنفسهم ليلة أضعنا مات وجوستين.

ذهبت لاحضار جنيفر من روضة الاطفال. كانت ابتسامة عريضة تغطي وجهها عندما أوقفت السيارة أمام باب المبنى. سألتها: "هل ترغبين في تناول الآيس كريم؟"

فهتفت: "نعم! نعم!"

وفيما نحن نقترب من متجر المثلجات رأيت أضواء سيارة اسعاف متوقفة قرب سيارتين محطمتين. ولمحت لو منحنية على مصاب في محفة وهي تمسك بيديه وتحدثه.

قلت لطفلتي بصوت خافت: "جنيفر، انني أرغب في أن أقوم بعمل كهذا."

فردت: "رائع! هل أستطيع الآن أن أحصل على الآيس كريم؟"

عندما أخبرت ديفيد ذلك المساء بنيتي أن أصبح مساعدة طبية للطوارىء، سألني عما اذا كنت جادة في الامر. وأضاف مستغربا: "لكنك لا تطيقين مرأى الدم. ولا يمكنك تضميد جرح وأنت مغمضة العينين!"

أجبته: "لقد قبلت الخوف دائما على أنه جزء طبيعي مني لا أستطيع شيئا حياله. أعتقد أن في امكاني ان أعطي أكثر. أريد أن أكون شخصا أفضل وأن أنتقل الى مدى جديد في حياتي."

نظر ديفيد الي هنيهة ثم قال وقد رأى تصميمي: "عليك بها اذاً!"

باشرتُ وخمسة وعشرين شخصاً دورة "مساعد طبي للطوارىء." وبعد سبعة أشهر تخرَّج منا ١٦. كانت مضت علي ١٥ سنة لم أضطر خلالها الى حفظ معلومات أكثر تعقيداً من التعامل والاطفال. وفوق ذلك كنت أدرس الموضوع الذي طالما كرهته. ومع ذلك أثارت فيّ العودة الى مقاعد الدراسة احساساً لذيذاً، وكان من المثير حقاً أن أكتشف أن عقلي لا يزال قادراً على العمل.

دهشت لقلة ما أعرفه عن الجسم البشري. وكنت كلما ازددت معرفة رغبت في المزيد.

تلقينا تدريبا لثلاثة أسابيع في تقنية إنعاش القلب والرئتين.[٥] ثم خضعنا لامتحان قاس، ولآخر حول الاجراءات المعتمدة في حالات الاختناق أو انسداد المجاري الهوائية العليا. كان علينا، اذا ارتبنا في أن أحدهم يعاني حالة اختناق، أن نسأله: "هل تستطيع الكلام؟" فاذا أجاب فذلك يعني أن مجراه التنفسي مفتوح.

ذات مساء، بينما كنا نتسوق في أحد المجمعات التجارية، توقفت مع الاولاد لتناول الايس كريم. فسمعت رجلا الى طاولة مجاورة يسأل زوجته عما اذا كانت تعاني شيئا، وأحسست القلق في صوته. فقلت له: "اسألها هل تستطيع الكلام."

انتظرتُ مترقبة ريثما سألها. فسعلت المرأة ثم استدارت نحوي وهزت رأسها قائلة: "شكراً لك."

ابتسمتُ واستدرت الى أولادي، فرأيت ديف محمرّ الوجه محرجا لان أمه تصرفت هكذا في مكان عام.

في اليوم التالي قبل بداية الصف أخبرت المدرس بما حدث. وعندما بدأ الصف طلب مني أن أعيد روايتي. ولم أفهم لماذا اعتبر الامر مهماً.

حين انتهيت قال لنا المدرس: "الامر المهم هو أن بات لم تتردد في محاولة مساعدة تلك المرأة."

أعدت التفكير في ما قاله وأدركت أنه على حق. انني لم أتردد. للمرة الاولى في حياتي تتغلب معرفتي على خوفي.

كانت تلك الليلة نقطة البداية.

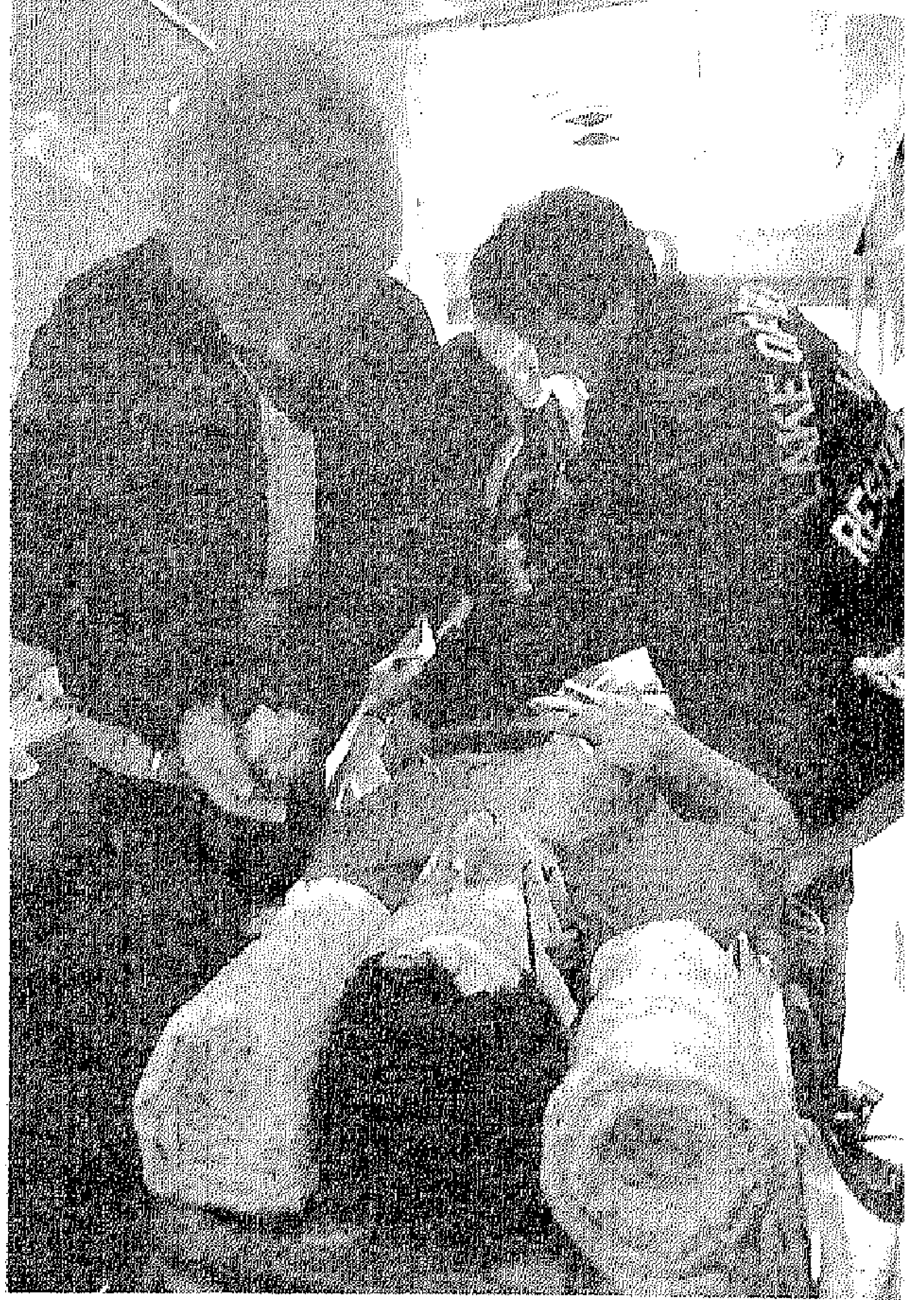
في أواخر مارس (آذار) أنهينا دراسة كل أجهزة الجسم. تعلمنا كيف نقيس الاشارات الحيوية للمصاب: النبض وضغط الدم والتنفس. وأحسست أنني مترعة بالمعلومات الطبية.

في ٢٧ مايو (أيار)، بعد تمضية نوبتين في قسم الطوارىء في أحد المستشفيات والمشاركة في بضع طلعات تدريبية مع فرقة الانقاذ واجتياز امتحان كتابي وآخر تطبيقي، أعلن مدربنا: "مبروك يا أصدقائي، انكم الآن مساعدون طبيون للطوارىء."

قبل نحو ٨٠ عاماً كان جوليان ستانلي وايز صبيا صغيراً عندما رأى قارباً ينقلب في نهر رونوكي في فرجينيا والرجلين اللذين كانا فيه يغرقان. كان هناك أناس على ضفة النهر، لكنهم عجزوا عن مد يد المساعدة اذ لم يكن لديهم قارب ولا حبال ولم يكن أي منهم سباحا قويا.

لم ينس وايز الاحساس بالعجز التام الذي غمره ذلك اليوم. وعندما شب قرر أن

(٥) Cardiopulmonary resuscitation



المطلوب هو فرقة من الرجال مدربة لانقاذ ضحايا حوادث مماثلة. فأسس في العام ١٩٢٨ أول فرقة من المتطوعين ضمت نشاطات الانقاذ والاغاثة والتدريب في جهاز منظّم واحد. وانتشرت الفكرة بسرعة، وأصبح هناك الآن نحو نصف مليون مساعد طبي للطوارىء حول العالم يتابعون ما بدأه جوليان وايز.

وتبدلت خدمات سيارات الاسعاف جذرياً عبر السنين. وباتت عمليات انقاذ حياة المصابين، التي كانت تتم في المستشفيات فقط، تجرى في موقع الحادث. وتضم فرق الانقاذ الآن خبراء في معالجة الصدمات العصبية وفي الحقن الوريدي، وفنيين مختصين بمعالجة المشاكل القلبية يمكنهم قراءة تخطيطات القلب ومعالجة ضحايا النوبات القلبية بالصدمات الكهربائية.

أحسست بالفخر عندما رأيت اسمي مدرجاً على لائحة فرقة "لايك اوف ذا وودز" كمساعدة طبية للطوارىء في سبتمبر (أيلول) ١٩٨١. وكانت الشكوك لا تزال تساورني حول مقدرتي، لكنني أيقنت أنني سوف أتحرك اذا ما سمعت النداء على جهاز الاتصال الذي أحمله.

كانت مهماتي القليلة الاولى بسيطة لحسن الحظ: صبي لسعته أفعى. شاب يعاني حساسية من لسعة نحلة. امرأة حطمت أسنانها الاصطناعية في حادث سيارة بسيط. ولم أواجه امتحاناً حقيقياً الا بعد أسبوعين. كنت أجلس مع ديفيد أمام التلفزيون عندما سمعت أزيز جهاز الاتصال.

كان النداء يتعلق بحالة طارئة ندعوها رمزا "١٠ - ٥٠": حادث سيارة. سمعت تحديد الموقع، وكان في الشارع المجاور. قفزت من مقعدي وقبلت ديفيد مودعة.

عندما وصلت الى موقع الحادث رأيت سيارة جارينا بوب وجويس غريم، وكلاهما مساعد طبي للطوارىء. لقد لبّيا النداء فورا. كما رأيت رجل شرطة يخرج من سيارة الدورية، فسألته: "أين الحادث؟"

أشار ناحية الاشجار. فسرت عبر الدغل، وهناك لمحت بوب وجويس. كانت جويس أدخلت ذراعها عبر النافذة الامامية لتسند امرأة في مقعد السائق، بينما سلّط زوجها ضوء مصباحه الكهربائي على المرأة.

أخبرتني جويس أن المرأة هي من سكان الحي، وأنها "كانت فاقدة الوعي عندما وصلنا، لكنها أفاقت قبل لحظات وقالت إن سائقاً أرعن أجبرها على الانحراف عن الطريق."

كانت جويس تضغط بيدها جرحاً عميقاً في رأس المرأة، فقالت لي: "بات، أمسكي برأسها، وسنحاول أنا وبوب فتح الباب."

مررت يدي برفق تحت يد جويس فأحسست رطوبة الدم اللزج الدافيء. ركعت لأتمكن من احكام قبضتي، فانغرزت شظايا زجاجية في ركبتيَّ. رأيت قدم المرأة اليسرى عالقة تحت دواسة الكابح، فقلت لها: "كلميني، كلميني."

كان واضحاً أن ساقها اليسرى مكسورة، فرحت أكلمها لئلا تتلاشى في اللاوعي من جديد.

لم يتمكن بوب غريم من فتح باب السيارة. وأخيراً وصلت فرقة الاطفاء وبدأ أفرادها العمل لاخراج المصابة، فيما تابعت أنا ترديد العبارة نفسها: "كلميني، كلميني."

"بات!" كان هذا كل ما قالته المرأة، لكنه كان كافياً. فجأة انخلع الباب وسقط بعيداً. ثم استخدم بوب عتلة واقتلع دواسة الكابح من أرض السيارة، فصرخت المرأة.

سرت قشعريرة في بدني، لكنني لم أتحرك بل تابعت الحديث بهدوء مع المرأة فيما أنا أراقب الآخرين يعملون بتأن وعناية وتصميم. كنت فخورة بهم، وبنفسي. كنا نعمل كفريق واحد.

ضمدنا رأس المرأة وثبتنا طوقاً طبياً حول عنقها، ثم جبرنا ساقها وقدمها وأنزلناها برفق الى محفة وحملناها الى النقالة. وانتهت بذلك مهمتي.

أحسست عندما وقفت ألماً في ظهري، وكانت يداي متصلبتين وقد غطاهما الدم. وفيما أنا أراقب سيارة الاسعاف تتحرك بالمصابة، اقتربت شاحنة القطر، فانكمشت لمرأى حطام السيارة مستغربة كيف أن المرأة لم تصب بما هو أسوأ.

تقدم مني آل بوتر زوج لو بوتر، وهو أيضاً مساعد طبي، وقال: "سمعت النبأ قبل لحظات. كيف حال المرأة؟"

أجبته: "لقد أصيبت بكسور في ساقها اليسرى ورسغ قدمها اليسرى وبجرح بالغ في رأسها."

وقف آل صامتاً للحظات ثم سألني: "هل هذا أول نداء ١٠ – ٥٠ تلبينه؟"

أجبته بعد تفكير: "أعتقد أنه أول نداء حقيقي."

سألني: "كيف تشعرين؟"

فهززت رأسي: "انني بخير." كنت أعتقد أنني سأصاب بحال ذعر أشد من هذه، لكن معرفتي أنني لست وحدي وأن زملائي يعملون الى جانبي مدتني بقوة لم أنتظرها.

الاصغاء

الحياة في الريف هادئة، وهي بالنسبة الى كثيرين حلم تحقق. لكنه لسوء الحظ حلم قد يتحول كابوساً اذا أصيب ساكن الريف بمرض أو بحادث. وعندما تكون الاصابة خطرة لا يتسنى وقت لنقل المصاب الى المستشفى. وهنا يأتي دور "بيغاسوس"[٦] الطوافة الطبية التابعة للمركز الطبي في جامعة فرجينيا.

استدعى فريقنا "بيغاسوس" للمرة الاولى لنقل مصاب في حادث زراعي. كان الرجل ينبش حفراً لتثبيت أعمدة عندما علق قميصه في تروس بريمة الحفر فجذبته الى المسننات الحادة في رأس البريمة الدائرة بسرعة فانغرزت في اللحم تحت ذراعه اليمنى ومزقته نتفاً.

كان الرجل واعياً لكن نبضه كان سريعاً جداً وضغطه منخفضاً جداً، وهذان مؤشرا صدمة. فطلبنا مساعدة "بيغاسوس." كانت أرض المزرعة المنبسطة مهبطاً مثالياً للطوافة، وسلّط رجال الاطفاء في الفريق أضواء على الارض ووقفوا جاهزين. توليت أنا مهمة الحقن الوريدي داخل سيارة الاسعاف فيما جلس جو برودريك وجين لودج يراقبان الاشارات الحيوية في المصاب وهما على اتصال لاسلكي بطاقم الطوافة.

صرخ جو: "ها هي!"

ما إن حطّت الطوافة حتى أسرع أفراد طاقمها الى سيارة الاسعاف. أعطيناهم تقريراً عن حال المصاب ثم نقلناه الى الطوافة.

كانت الطوافة آلة جميلة بيضاء عليها صورة حصان مجنح واسم "بيغاسوس" بأحرف كبيرة زرقاء. وأدركت وأنا أراقب أعضاء طاقم الطوافة يقلعون بالمصاب أنهم سيصلون الى المستشفى قبل أن ننهي نحن كتابة تقاريرنا، وأنهم سينقذون حياة المزارع.

كما أدركت أن العمل مع طاقم كهذا ليس لي، فقضاء ١٥ دقيقة فقط مع المصاب ليس كافياً.

لا يمكنني أن أعرف ما يحسه مرضانا تماما، لكنني أرى القلق والخوف في أعينهم، وأحسُّهما في أيديهم تمسك يديَّ بقوة، وأسمعهما في كلماتهم، وأدركهما في صمتهم.

أعتقد أن عملية الشفاء تبدأ في سيارة الاسعاف وبالعناية التي يقدمها مطبّبو

(٦) بيغاسوس فرس اسطوري مجنّح.

حالات الطوارىء. فاذا عُنينا بالانسان كله، وليس فقط بالمرض أو بالاصابة، فاننا نكون ساهمنا أكثر كثيراً من مجرد خطوة أولى نحو السلامة.

تلقينا مرة نداء من امرأة في الحادية والثلاثين من عمرها تعاني من رفة قلب. وعندما أدخلناها سيارة الاسعاف، وصلتّها بمرقاب قلبي. كان التخطيط الكهربائي لقلبها طبيعيا، وكانت المرأة هادئة على المحفة ونحن نتجه الى المستشفى.

سألتها: "هل أنت مرتاحة؟"

كانت عيناها عسليتين كبيرتين، ولاحظت عندما نظرت اليَّ أنها كانت تبكي. وهي ردت قائلة: "نعم، أنا بخير."

لكنها لم تكن كذلك، اذ راحت تحدق بعينين فارغتين عبر النافذة الخلفية وهي تفتل خاتم زواجها بحركات عصبية.

طمأنتها: "سيكون كل شيء على ما يرام."

حولت حدقتيها ناحيتي وسألتني: "أصحيح ذلك؟"

قلت: "نعم."

فالتفتت الى جين لودج كأنها تطلب تأكيداً، فهزت جين رأسها. عندئذ تحدثت الينا. أخبرتنا أن زوجها هجرها، وأنها في غمرة يأسها تناولت حفنة من الحبوب المنومة.

قالت: "كنت مذعورة. ولكن لدي طفلة صغيرة، ولا أريد أن أموت."

استمعنا اليها لبعض الوقت، وأخيراً سكنت يداها. وفي المستشفى أخبرتنا أنها جاهزة للعودة الى المنزل.

في النموذج المطلوب منا ملؤه عن كل مصاب، وجدنا تحت عبارة "المعالجة الاولية" فراغاً كافياً لنكتب: "الاصغاء." وفي فسحة بين "تثبيت العنق/العمود الفقري" و"الجبائر المستخدمة" أضفنا عبارة "إسعاف أولي نفسي."

أم ثكلى

لبينا ذات مساء نداء استغاثة من حريق منزلي. كانت التجربة مخيفة، حتى من بعد، فلا شيء في تدريبي حضّرني لما واجهت: الرائحة اللاذعة للدخان الكثيف الذي غطى لساني، والوقع المفاجىء للحرارة الخانقة، والمعرفة الرهيبة أن هناك طفلتين محتجزتين داخل المنزل.

كانتا شقيقتين في الثانية والخامسة من عمرهما، أفاقتا فجر ذلك الاحد الربيعي الرائع فأمضتا معظم النهار في الخارج. وقرابة السادسة مساء استعدتا للنوم، فتسلقتا السلم الى غرفتهما في الطبقة الثانية في منزلهما في المزرعة. غطتهما والدتهما وقبلتهما. وفي السادسة والربع كانتا تغطان في النوم.

كان لا يزال ثمة بعض من ضوء النهار، فخرج والد الطفلتين الى الحقل فيما راحت الوالدة تجمع الثياب عن حبل الغسيل. كان جورب صغرى الطفلتين في يدها عندما لمحت دخاناً يتسرب من نوافذ الرواق الخلفي. فصرخت تنادي زوجها.

وصل الزوج لحظة هشمت الحرارة زجاج نافذة المطبخ. غطت ألسنة اللهب الرواق الخلفي منتشرة بسرعة في الطبقة الارضية فسدت كل المداخل الى المنزل. وركض الزوجان الى بيت الجيران لطلب المساعدة.

في الطريق المؤدية الى المنزل المحترق رأينا الوهج الاحمر يضيء السماء.

"لا يمكن أن يكون هناك أطفال في المنزل." قلت ذلك بصوت عال لعل كلماتي تجعل ذلك حقيقة. اتصلت بسيارة الاطفاء أسأل أين نذهب. فجاء الرد: "اذهبا الى طرف الحقل، فالعائلة هناك."

انحرفنا يساراً وتوقفنا عندما رأينا رجل إطفاء، قال لنا: "الوالدان هناك، وقد ثكلا طفلتيهما. الام في حال سيئة ومن الافضل أن تهتما بها."

أخذ زميلي جون بيري عدته وانضم الى فريق الاطفاء وذهبت أنا الى حيث الام. كان أصدقاء نقلوها بعيداً عن الحريق لأنها حاولت مراراً الافلات ودخول المنزل لانقاذ طفلتيها.

كانت المرأة راكعة على حرام صوفي وقد جلس زوجها خلفها يربت ظهرها برقة فيما أمسكتها احدى صديقاتها من ذراعها. واذ أدارت وجهها ناحية المنزل رأيت انعكاس النار في عينيها.

أنّت المرأة: "طفلتاي! أريد طفلتيّ!" فشددت الصديقة قبضتها على ذراعها، لكن المرأة تملصت وحاولت الوقوف وهي تصرخ: "يجب أن أخرج طفلتيّ من المنزل."

التفت زوجها الى جار جلس قريباً، فهو لم يعد قادراً على استيعاب حزن زوجته إضافة الى ما يعانيه هو. فذهبت الى المرأة وأحطتها بذراعي.

ركعت بجانبها على الارض ويدي ثابتة على كتفها من دون أن أقول شيئاً. وأدرتها حتى أصبح ظهرها في مواجهة النار وضممتها الي.

أراحت المرأة رأسها على كتفي، وكنت أحس بكاءها قبل أن أسمعه. شعرت بقلبي يكاد ينفطر. ولا أدري كم من الوقت بقيت على تلك الحال. أخيراً حضرت زميلة لابلاغي أن فرقة الانقاذ ستنقل الوالدين الى المستشفى. وهي همست في أذني: "يجب أن نخرجهما من هنا قبل أن يعثر رجال الاطفاء على الجثتين."

لففت حراماً حول كتفي المرأة وساعدتها على النهوض، فسارت معي الى سيارة الاسعاف كأنها في منام. وما إن فتح الباب حتى حاولت الافلات صارخة: "لا! لا! لن أترك طفلتي!"

اضطررنا الى حملها الى سيارة الاسعاف. وسرت أنا عبر الحقل عائدة الى موقع الحريق. أخرجت قوارير أوكسيجين وماء شرب من السيارة وأعطيتها لرجال الاطفاء. وساعدت في تثبيت الانوار الكاشفة. لم يطل الامر بعد ذلك حتى انهار الجناح الايسر من المنزل. وكان رجال الاطفاء يتحركون كظلال موهنة تسير على غير هدى في دائرة الحرارة.

في الساعة ١١،٤٥ أبلغ جون الى فريق الانقاذ وجوب العودة الى المركز. وفي الساعة ١٢،٣٠ عُثر على جثتي الطفلتين، وعاد رجال الاطفاء التابعون لفرقة الانقاذ الى المركز في الساعة ١،١٤.

منذ ذلك الاحد البعيد قطعت ألوف الكيلومترات في سيارات اسعاف، وشهدت مآسي كثيرة، وتعرضت لآلام لا توصف، لكنني لم أشعر قط بعجز كالذي شعرت به تلك الليلة وأنا أحتضن تلك الأم الشابة بين ذراعي.

"من أنت يا هذا؟"

انني أهتم بكل مصاب. لكن الاهتمام لا يأتي سهلا عندما يتصل مريض في الثالثة صباحاً لألم في ظهره لازمه أسابيع، أو عندما يستغل أشخاص سيارة الاسعاف كسيارة أجرة.

هناك مثلا لاعبة الغولف التي أصابتها كرة في وجهها فسألتنا: "هل يمكن أن تعودوا لنقلي بعد أن أنهي المباراة؟ الاصابة مؤلمة لكنني لم أحصل من قبل على نتيجة جيدة كما في هذه المباراة!"

فيما نحن نتناول عشاءنا ذات ليلة بُثَّ عبر جهاز الاتصال نداء عن "فتى تناول كحولا ساماً يستخدم في التدليك." لم أكن في مناوبتي آنذاك، لكن الموقع كان قريبا، وأحسست أن علي أن أذهب.

عندما توقفت أمام المنزل قال لي شقيق الفتى: "لم أدرِ ماذا أفعل، فوالداي ليسا في المنزل."

قلت له: "لقد فعلت حسنا."

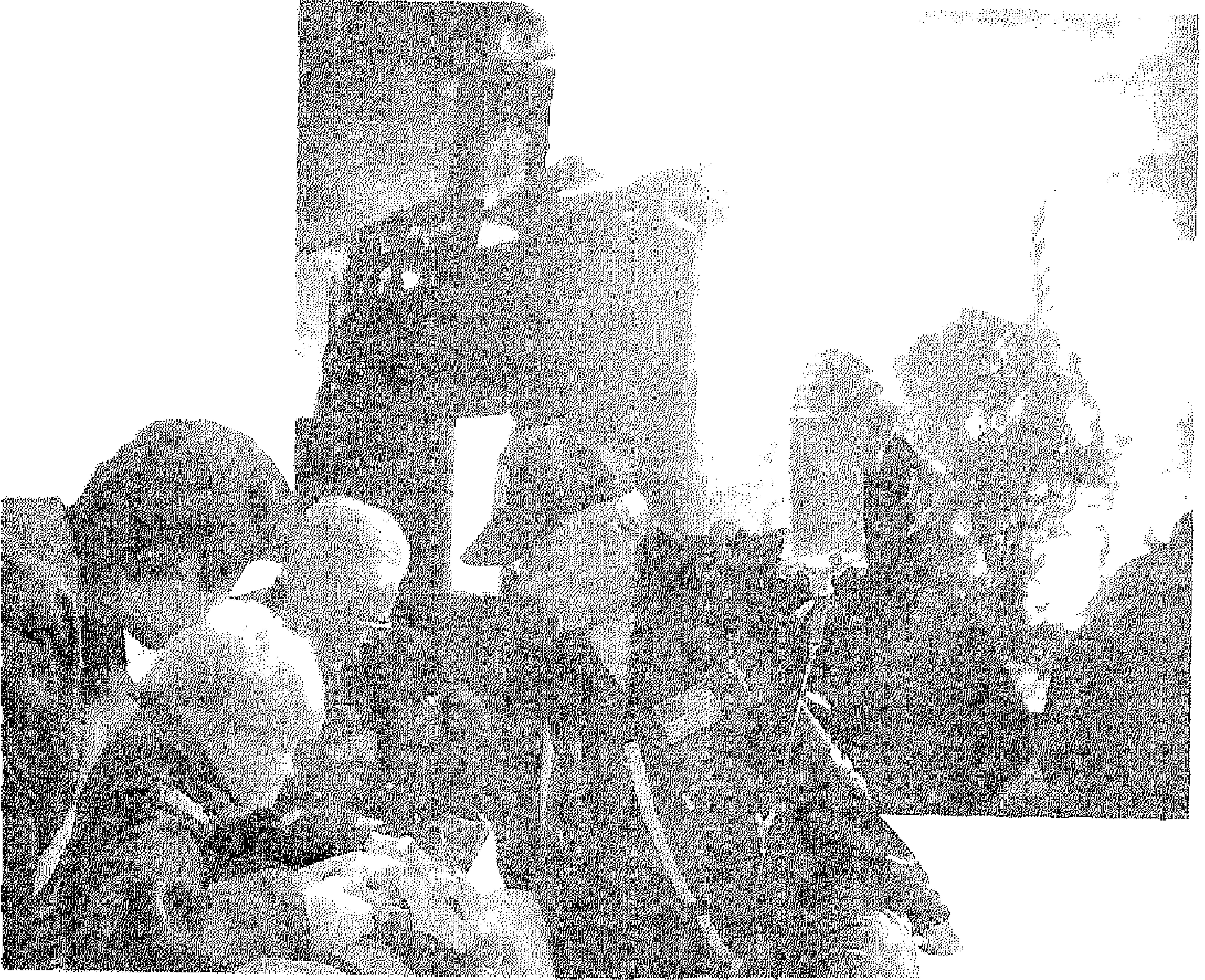
كان الفتى ممداً في الحمام ورأسه محشور بين كرسي المرحاض والمغطس، وكان تنفسه ضعيفاً وسريعاً.

استدرت الى شقيقه وسألته: "ما كمية كحول التدليك التي تناولها؟"

فرد: "نحو نصف زجاجة. ويمكن أن يكون ابتلع بعض الحبوب."

– أي نوع من الحبوب؟

"لست أدري."



أجلسنا الفتى في كرسي في غرفة الاستقبال وهززت ذراعه، فأنّ وركل محاولا الافلات. في هذه اللحظة وصلت سيارة اسعاف وفيها بوب وجويس غريم.

هززت ذراع الفتى ثانية وقلت له: "افتح عينيك." فركل هو من جديد محاولا الافلات صائحا: "كلا!"

أخرج بوب السماعة الطبية فيما أنا أخبره تفاصيل ما حدث، وتوجهت جويس الى الهاتف لطلب قسم معالجة التسمم في المستشفى.

أخبرت بوب: "يقول أخوه إنه ربما تناول بعض الحبوب. سوف أبحث لأرى ماذا عساه تناول."

بدأت البحث فيما خرج بوب لاحضار النموذج الخاص الذي نسيه في السيارة. لم أجد أي حبوب. وفجأة أتاني من غرفة الاستقبال صوت سقوط جسم على الارض، فركضت عائدة. كانت جويس واقفة قرب الهاتف وعيناها مثبتتان على الفتى الملقى على الارض بلا حراك.

دخل بوب في تلك اللحظة وسألها: "ماذا حدث؟"

فقالت: "كنت أدير له ظهري وأنا على الهاتف، ولم أسمعه يتحرك حتى هاجمني. لكنه أخطأني وسقط فاصطدم رأسه بالطاولة."

تفحص بوب رأس الفتى، فأنَّ هذا وفتح عينيه، ثم مد يده وأمسك بتلابيب بوب مهمهما: "من أنت يا هذا؟"

أمسكت بيده وانتزعت أصابعه عن سترة بوب، ثم مددت ذراعه ووضعت ركبتي بثبات على مرفقه. وفعل بوب مثلي بذراعه الاخرى.

ومثلما استيقظ الفتى فجأة، عاد فجأة الى حال اللاوعي، فقال بوب: "أعتقد أننا نحتاج الى مساعدة."

هرعت الى سيارة الاسعاف وناديت عبر الراديو: "من الفرقة ٢٩ الى لايك أوف ذا وودز. نحتاج الى مساعدة أمنية في موقع الحادث. الآن!"

ولم أتلقَّ جوابا.

عدت الى المنزل. كان الفتى عاد يئنُّ ويحرك ساقيه، فاستعدت وضعية "الركبة على المرفق." فتح الفتى عينيه ثم رفع رأسه وبصق في وجه بوب. كنت خائفة أن أتحرك وذراعه مشدودة تحت ركبتي.

سمعنا باب سيارة يغلق، وسرعان ما وصل دون تشيلز، رجل الامن التابع للفرقة، ووضع أصفاداً حول معصم الفتى. فاهتاج هذا وراح يركل ويبصق ويحاول تمزيق سترة بوب بأسنانه ونحن نقوده الى سيارة الاسعاف. رفعناه الى السيارة وجلس بوب على ساقيه وهو يراوح بين الوعي واللاوعي. وكان كلما استعاد وعيه يصبح عنيفا عدائيا يحاول التملص من قيوده.

سألت دون: "كيف علمت بالامر؟ فانت لم تجب عن ندائي."

قال: "أنا لم أسمعك. لكن كل أعضاء فريق الاطفاء وفرقة الانقاذ سمعوك. اذا لم أكن مخطئاً، فقد اتصل بيَ كل فرد منهم."

انه لشعور رائع!

قالت لي جويس معلِّقة: "تذكري الا تلبي نداء كهذا وتتحركي الى مسرح الحادث. وحيدة أبداً."

فقلت محتجَّة: "ولكنني أعرف الفتى شخصيا!"

فردت: "قد تظنين ذلك." وأشارت الى الفتى الفاقد الوعي وأضافت متسائلة: "هل هذا هو الفتى الذي تعرفين؟"

أجبت: "كلا."

فقالت: "اذا لا تغامري مرة أخرى."

ذات نهار سبت في أغسطس (آب) كنت أنا وجين لودج وبزي أوتول وودي فوكس في الخدمة عندما بث نداء "١٠ – ٥٠" معلنا سقوط ضحايا على الطريق الرقم ٢٠. انطلقنا من المركز والنهار مشمس صاف لا يوحي أبداً ما كان ينتظرنا.

انعطفنا الى الطريق الرقم ٢٠ وعبرنا التلة الاولى وبلغنا قمة الثانية. هناك طالعني الحادث، فتمتمت: "يا الهي!"

أفادت التقارير الاخبارية لاحقاً أن المرأة التي كانت تقود السيارة تجاوزت شاحنة "بيك أب" ثم تحولت عائدة الى المسار الايمن بحدة أفقدتها السيطرة على السيارة فانحرفت الى اليسار معترضة شاحنة صغيرة مقبلة في الاتجاه المعاكس.

كانت غيمة من البخار معلقة فوق الحطام. وأخبرني رجل شرطة عندما نزلت من سيارة الاسعاف: "إن المرأة في المقعد الامامي ميتة. وكان في الشاحنة ثلاثة أشخاص وفي السيارة راكبان آخران."

حملت جين عدة معالجة الصدمة واتجهت نحو الشاحنة فيما توجهت مع ودي الى السيارة.

كانت المرأة الشابة جالسة في المقعد الامامي وجبينها ملقى على غطاء المحرك الذي اخترق الزجاج الامامي. وكانت ذراعها اليسرى ممدودة. بحثت عن النبض. لا شيء. كان رأسها سليما لكن جسمها كان مسحوقا.

على الارض خارج السيارة تمدد فتى صغير، والى جانبه جلس أحد ركاب الشاحنة الثلاثة والدم يغطي وجهه وصدره. وكان رجل في المقعد الخلفي من السيارة عالقا في كومة من المعدن المحطم. انحنيت داخل السيارة. كان الرجل واعياً على رغم اصابته بجرح بالغ في رأسه وبأذى كبير في ساقه اليسرى.

ضمدت جرح رأسه ووضعت يدي على يده. تلفت حوله بذهول وارتباك فقلت له: "سنعمل على اخراجك من هنا." فهز رأسه.

تنقلت بسرعة من مصاب الى آخر أتفحص مجاري الهواء والتنفس والدورة الدموية. كان ذلك كل ما استطعته، اذ لم يكن هناك وقت لتقويم مؤشرات أخرى.

ضمدت جروح اثنين من ركاب الشاحنة، فيما وضعت جين وبزي الرجل الثالث برفق على محفة.

أسرعت الى الفتى، فأخبرني ودي: "الاشارات الحيوية جيدة، الا أنه يعاني آلاما حادة."

فقلت: "ابق معه."

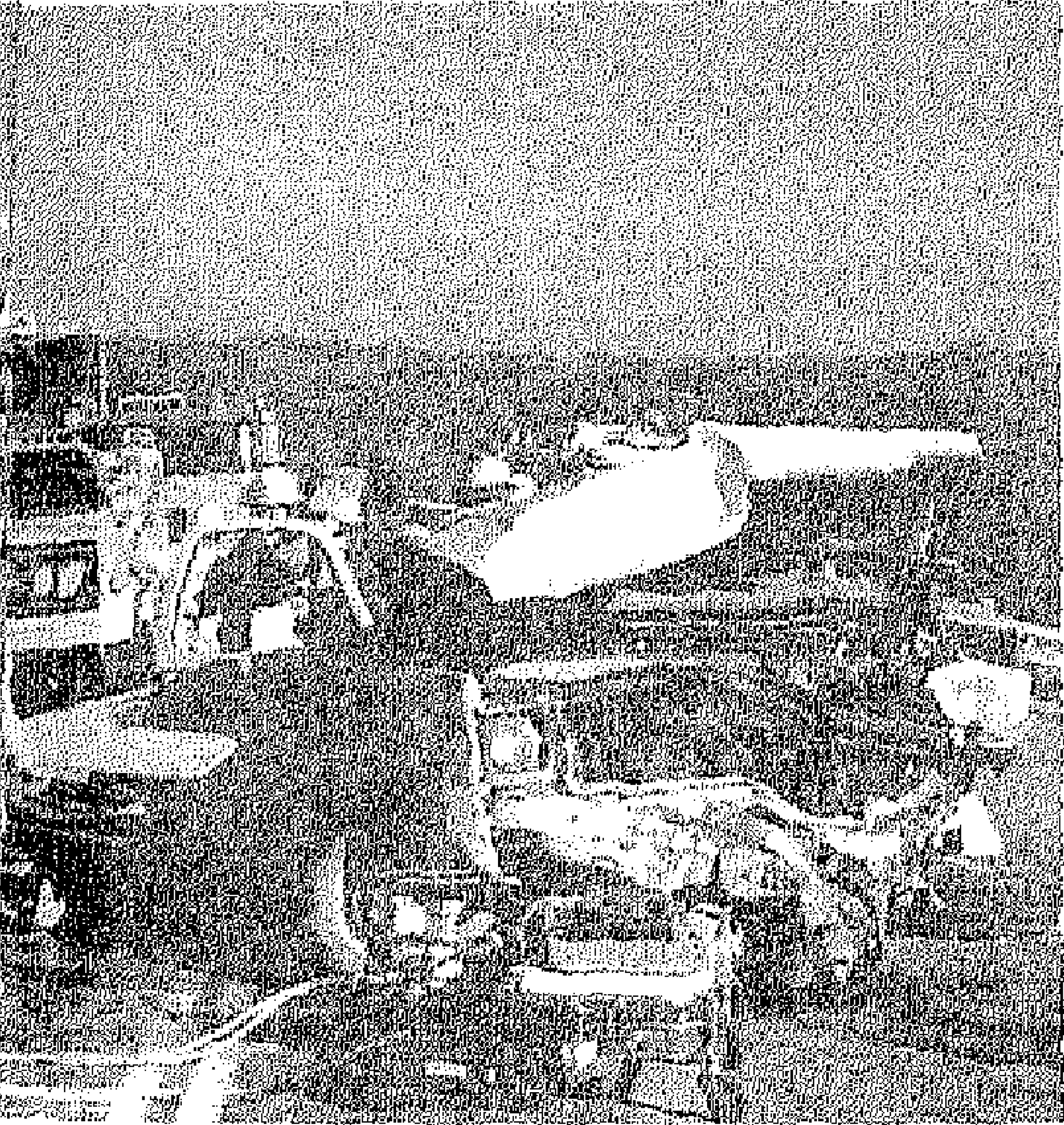
وصلت وحدة ثانية من فرقتنا، فأشرت الى المصابين الجاهزين للنقل الى المستشفى.

بعدما نقل ودي وبزي الفتى الى سيارة الاسعاف، عدت الى الوالد.
سألني: "ماذا حدث؟ لقد كنت نائما."
أجبته: "لا أدري ما سبب الحادث، لكننا سنخرجك من السيارة."
نظر الي وقد غشى الخوف والألم عينيه وسألني: "أين طفلي؟"
أحسست كأني تجمدت في الزمان والمكان. طفل؟ أي طفل؟ يا الهي، أرجو أن يكون يقصد الفتى!
ردد الرجل: "طفلي! كان مع زوجتي."
لم يكن يقصد الفتى. ترى هل كان في امكانه رؤية الواجهة الامامية وغطاء المحرك حيث كان المقعد الامامي؟ أخذت يده بكلتا يدي وقلت له: "سوف أذهب لأسأل عن الطفل."

خرجت من السيارة فرأيت جون هاركنس وديك فيرغسون يقتربان مع المعدات التي تستخدم في فتح الابواب وتحرير الركاب. قلت لهما: "أعتقد أن هناك طفلا في المقعد الامامي."

فرد جون متنهدا بهدوء: "حسنا، سوف نرى."

عدت الى سيارة الاسعاف لافحص الفتى. كان في الثالثة عشرة من عمره... في عمر ابني مات. تطلع الي وأنا ألف رباط آلة فحص ضغط الدم حول ذراعه وقال: "أريد أمي."



أخبرته نصف الحقيقة: "هناك شخص آخر معها.". وعندما سأل الوالد في وقت لاحق عن زوجته وطفله أعطيناه نصف الحقيقة إياه.

في هذا الوقت كان الباب قُصَّ عن بدن السيارة، فأخرجنا الوالد برفق الى محفة وألبسناه سروال Mast فيما تابع رجال الاطفاء تقطيع الجزء الامامي المسحوق من السيارة.

سمعت صوت معدن ينكسر، ورأيت قطعة من سروال قصير أخضر ومزقة من قميص مخطط. كانت الجثة الصغيرة متوارية في غمرة الحطام المعدني. لقد توفي الطفل ابن السنوات الخمس على الفور، مثل أمه.

كانت العائلة قريبة جدا من مقصدها: منزل جدَّين لا بد أنهما يقفان الآن قلقين

أمام النافذة. لقد انهار عالمهما، ولن تستطيع كل معارفنا الطبية وكل آلاتنا اللامعة تغيير هذه الحقيقة.

طعام محروق

كنا صامتين ونحن نقود السيارة عائدين. راقبني جون وأنا أترجل من سيارة الاسعاف شاعرة كأن اثقالا كبيرة تعلقت بجسمي. وبدا جون ايضا ينوء تحت وطأة الحزن.

دخلت المنزل وأبدلت ثيابي المدمّاة ووضعتها في حوض الغسيل وملأته ماءً بارداً. ثم خرجت الى بركة السباحة للقاء عائلتي. راقبتهم لدقائق من خارج السياج وهم يلعبون ويسبحون، وحمدت الله لانهم أحياء.

عبرت المسافة نحو ديفيد، فقال لي: "مرحبا، كان نهاراً سيئاً، اليس كذلك؟ لقد رأينا الحطام."

وأحاطتني جنيفر بذراعيها، فضممتها بشدة. قالت لي: "هل كنت هناك يا أمي؟"

هززت برأسي: "نعم."

قالت: "رجل كان هناك أخبر أبي أن صبياً قد قتل. صبي صغير وأمه. هل رأيت الحادث؟"



أجبتها: "لقد كانا ميتين عندما وصلنا، لكني ضمدت جروح الوالد واعتنينا جيداً بالصبي الآخر."

مسدت شعرها المبلل فقالت لي برقة: "ماما، هذا مخيف!"

قلت: "أعرف ذلك يا حبيبتي، فهو يخيفني أنا أيضاً."

وُضع الرجل وابنه في غرفة واحدة في المستشفى، وخرج الفتى بعد أسبوع.

كنت ذات يوم في المستشفى، فقصدت غرفة الوالد. قرعت الباب فسمعته يقول: "ادخل."

بدا مختلفاً جداً، حليقاً، عيناه لامعتان صافيتان. نظر الي فأدركت أنه لم يتذكرني.

بادرني: "صباح الخير."

– كيف حالك؟

"بخير." وهز رأسه.

– وابنك؟

"لقد عاد الى المدرسة. انه يقيم مع والديّ ريثما أعود الى المنزل."

– ومتى يكون ذلك؟

مسّد ساقه المعلقة بالاثقال وقال مبتسماً: "ما إن تخرجني هذه الساق من هنا."

بادلته الابتسامة قائلة: "من الافضل أن أعود الى عملي."

فمد الي يده مصافحاً: "شكراً لزيارتك. جميل رؤية وجه جديد."

عدت لزيارته غير مرة. كانت زياراتي قصيرة تحدثنا خلالها عن مواضيع عادية. لكن أحدنا لم يفتح موضوع الزوجة أو الطفل. وفي نهاية زيارة بعد أسبوعين نهضت لأنصرف قائلة: "علي أن أعود الى قسم الطوارىء".

فسألني: "هل تعملين هناك؟ هل كنت هناك يوم أحضرونا؟"

لم أكن راغبة في اخباره أنصاف حقائق أخرى. فاعترفت: "أنا أحضرتك الى المستشفى. لقد أحضرتك فرقة الانقاذ التي أنا عضو فيها."

همس: "أنت أحضرتني ذلك اليوم؟" كان صوته خفيضاً مكبوتاً. وبعد برهة صمت ثقيلة أضاف: "كنا سنأخذ السيارة الصغيرة ذلك اليوم. لو فعلنا لقتلنا جميعنا."

تحدث متردداً في البداية، ثم بحرّية. كان صوته يعلو وكلامه يتدفق كأنه كان في انتظار أمر يعيده الى ذلك اليوم. وهو روى لي قصصاً عن عائلته، عن زوجته، عن الابن الذي فقده والابن الذي ما زال حياً. بقيت معه حتى أنهكه الحديث. وعندما أراح رأسه على الوسادة أخيراً كان يبتسم.

لم أره بعد ذلك، فقد غادر المستشفى في اليوم التالي وكانت زيارتي تلك زيارة وداع.

في الخامسة ذات مساء، وكنت قاربت الساعة الحادية عشرة في نوبة مدتها ١٢ ساعة، كان ديف ومات يلعبان في قبو المنزل وحاضنة الاطفال تشاهد برنامجا تلفزيونيا مع جنيفر. وكانت الحاضنة تأتي من المدرسة مع جنيفر في الايام التي تصادف مناوبتي المسائية.

فجأة بُثَّ نداء عبر جهاز الاتصال.

وجدنا المرأة الشابة، وهي مريضة بالسكّري، فاقدة الوعي على أرض غرفة الاستقبال في منزلها. كانت في حال صدمة بفعل الانسولين. وعندما حاولنا غرز ابرة في وريد معصمها لاعطائها جرعة قوية من الدكستروز، اكتشفنا أن أوردتها نحيفة جداً، فنقلناها بسرعة الى المستشفى.

وتعافت المرأة لاحقا، لكن المهمة لم تكن سهلة.

عندما عدت الى البيت في السابعة والنصف قابلتني نظرات غاضبة ورائحة طعام محروق. كانت قطعة الشواء سوداء.

سألني ديفيد لحظة فتحت الباب: "لماذا لم تضبطي موقِّت الفرن؟ ربما كان أحدنا سمع طنّاته."

قلت له: "كنت أعتزم ذلك، لكن النداء أتاني حالما وضعت قطعة اللحم في الفرن."

– النداء؟ ربما كان علينا أن نضع جهازاً للنداء في المنزل، فلربما احتجنا الى شيء.

"لست منصفاً في هذا يا ديفيد. أنا أناوب كل أربعة أيام، أي أقل من مرتين في الاسبوع. ولا تنس، لقد أحرقتُ طبخات كثيرة وأنا واقفة أمام الفرن!"

– هذا صحيح، كان نهاري أنا شاقاً.

سألني ديف: "ماما، اذا كانت مناوبتك تبدأ في السادسة صباحاً، فلماذا عدت الآن الى المنزل؟"

قلت موجهة كلامي الى الاثنين: "تنتهي مناوبتي في السادسة مساء. وهذا يعني أنني مضطرة الى تلبية النداء وإن أتى قبل السادسة بدقائق. لكل منكما أمور يعتبرها مهمة. حسناً، هذا أمر مهم بالنسبة الي."

كنت أفهم شعورهما، فقد كنت، حتى انضمامي الى فرقة الانقاذ، زوجة وأماً فحسب. كان كل فرد في عائلتي يرى فيَّ امتداداً لنفسه.

عندما انضممت الى فرقة الانقاذ، لم يكن هدفي أن أثبت شخصيتي كفرد. ومع ذلك كنت أكسب استقلالية أكبر مع الوقت. وتلاشى استياء عائلتي تدريجا، وكنت ألاحظ لدى أفرادها احساسا متناميا بالفخر بي. مرة سمعت جنيفر تقول لصديقة لها: "أمي تنقذ الناس." وهي كتبت على ورقة بخط متعثر في صفها الابتدائي الاول: "أمي عضو

في فرقة الانقاذ. انها تساعد الناس الذين يصابون في حوادث سيارات. كما تساعد المرضى. أمي مساعدة طبية للطوارىء. وسوف أصبح أنا مثلها."

وفي عيد الام أهدى الي ديف قصيدة بعنوان "أمي" تضمنت هذه الكلمات:
انها تمتلك العزم.
لقد صبَرتْ طويلا، لكنها أعلنت اخيرا: "أنا الآن رسميا مساعدة طبية للطوارىء، ومساعدة جيدة جداً."
انني فخور بها. لكنني لست مندهشا.
لانني أعرف أنها تستطيع برقتها أن تفعل ذلك.

أما مات فرسم سيارة اسعاف لوَّنتها جنيفر. وأهدى الي ديفيد سماعة طبية.

خيارات خطرة

قيل لنا منذ البدء: "لا تصبحوا أرقاما احصائية." فكما في كل عمل يتضمن مخاطر أو مآسي، نحن ننزع الى الاعتقاد أن "ذلك لن يحدث لي." لكننا لسنا محصنين، نحن نخاطر أحيانا.

أتاني النداء ذات مساء أحد ممطر بارد في ابريل (نيسان): "هناك أشخاص عالقون على جسر تغمره المياه."

كانت وكيلة عقارات تعرض عقاراً على زوجين شابين، وكان الثلاثة يعبرون جسرا فوق قناة لتصريف مياه بحيرة ارتفع منسوبها حوالى ستة سنتيمترات بسبب المطر الذي انهمر في الليلة السابقة. استمرت المياه المضطربة في الارتفاع وهم يتقدمون على الجسر. وفي منتصف الطريق توقف محرك السيارة. فنزلت منها الوكيلة وتبعها الزوجان.

صرخت الوكيلة: "سأعبر الجسر مشياً وأطلب مساعدة." وما إن حطت بعيداً عن السيارة حتى قذفتها المياه عن الجسر وجرفتها حوالى ٢٥ متراً ثم ألقت بها على الضفة.

وصلنا في سيارة اسعاف ووراءنا شاحنة قطر تجر قارب انقاذ. طلب قائد المجموعة مساعدة من فريق الغطس، كما طلب شاحنة وسلَّم إطفاء ميكانيكية من بلدة مجاورة.

شكل ثمانية من أعضاء فرقتي الاطفاء والانقاذ "سلسلة بشرية" عبر جسر للمشاة يبعد ١٢ متراً عن جسر القناة لانقاذ الزوجين إن هما سقطا عن الجسر. وتطوع جون هاركنس، وهو رجل اطفاء محترف وعضو في فرقتنا، لمحاولة انقاذ فردية. فعبَرَ جسر المشاة وثبت حبلا عبر قناة التصريف.

وصل عمال حبل انقاذ بهذا الحبل وأوثقوه حول وسط جون الذي نزل الى الماء وبدأ

يتحرك ببطء ممسكاً الحبل باحكام. وهو كاد يسقط مرتين، لكنه تمكن أخيراً من الوصول الى الزوجين المحتجزين. تحدث اليهما ثم عاد وحيداً الى ضفة البحيرة. كانت العملية شديدة الخطورة، فالمياه القارسة البرودة أوهنت الزوجين مما سيضطر جون الى حملهما عبر الجسر.

وصلت شاحنة السلم الميكانيكية، فمد رجال الاطفاء السلم أفقيا حتى أصبح رأسها فوق السيارة.

بدأ جون، بوضعية القرفصاء، يتحرك ببطء على درجات السلم حاملا معه سترتي نجاة. وعندما بلغ السيارة نزل وساعد الزوجة على ارتداء السترة، ثم أصعدها برفق الى ظهر السيارة فالى السلم. واجتاز الاطفائي سكوت كليمنتس السلم وساعدها على عبورها ببطء في اتجاه منطقة الامان. واذ بلغا منتصف المسافة عبر السلم كادت أسوأ مخاوفنا تتحقق، اذ بدأت السيارة تتحرك. لم تكن السلم مهيأة لحمل وزن اضافي، وواجه جون والزوج الشاب خطر الانجراف.

هتف جون: "أسرعا!"

فأسرع سكوت. وما إن أوصل المرأة سليمة حتى عاد ليحضر زوجها. وتبعهما جون عندما وصلا الى اليابسة.

في شهر سبتمبر (أيلول) ذاك تلقت فرقة الاطفاء والانقاذ في "لايك اوف ذا وودز" ميدالية الولاية السنوية. وتلقى جون هاركنس ميدالية "أعظم عمل بطولي في انقاذ حياة."

مرة أخرى دعينا الى تلبية نداء حيث "طبيعة الحادث غير معروفة." كنت دائماً أتضايق من نداءات كهذه. رأيت في الطريق أمامنا امرأة تلوح بمصباح كهربائي. فأنزلت زجاج النافذة وسألتها: "هل تستطيعين اعطاءنا أي معلومات عن المصاب؟"

فردت قائلة: "اننا في الواقع لا ندري. فقد قرع بابنا وقال إنه يسكن في شارعنا وإن لديه مسدساً..."

قاطعها جو برودريك: "كان يحمل مسدسا؟"

أجابت: "كلا، لديه مسدس في البيت، وهو قال انه يعتزم قتل نفسه. زوجي معه في بيتنا الآن. لقد قرع بابنا وطلب منا أن ندعو من يساعده."

سألها جو: "هل أنت متأكدة من أنه لا يحمل المسدس معه؟"

فردت: "انني متأكدة."

تنهدتُ ارتياحاً وقلت: "حسنا، فلنذهب."

مشينا الى المطبخ، فرأيت الرجل المسن أولا، والى جانبه جلس رجل شاب، فجلست بقربه قائلة: "اننا هنا لمساعدتك."

استدار الشاب نحوي فجأة وأحاط عنقي بذراعه ثم شبك يديه وشدني نحوه، لكنه أرخى قبضته ما إن تقدم جو نحوه، وشرع يبكي ملقيا رأسه على كتفي: "لا تدعوني أقتل نفسي!"

فطمأنته: "لن ندعك تفعل."

قال منتحبا: "يا الهي، لقد حشوت المسدس." واستقام فجأة وحدق الي. كانت عيناه لا تطرفان وفيهما نظرة متوحشة. طوى أصابع يده اليمنى في شكل مسدس لامس جبهتي، ثم حرك يده ببطء ناقلا سبابته الى صدغه، وقال: "لقد اقتربت هذه المسافة من الموت."

تشبث الرجل بي اذ سرنا في اتجاه سيارة الاسعاف ونقلناه الى مكتب الشريف.[٧]

جلست في الاريكة. واستلقى هو ورأسه في حضني ويده ممسكة بمعصمي لامسا وجهي بيده الاخرى. قال: "لن تسمحي لهم بايذائي، أليس كذلك يا بات؟"

فطمأنته: "لا، لا تخف."

أغمض الشاب عينيه، وكنا ندرك جميعنا أنه سريع الاستثارة.

قال جو: "حسنا، سيصل معاون الشريف، فلنستعد للذهاب."

أمسك الشاب معصمي بكلتا يديه، وحدق الي هنيهة طويلة شاداً قبضته حتى المني. ثم سألني: "هل تذهبين معي يا بات؟"

التفتُّ الى جو متسائلة، فقال للشاب: "سأذهب أنا معك."

حوَّل الرجل نظره الى جو، فتوتر بدنه، ثم أرخى قبضته عن رسغي وانتصب جالسا وهو يقول: "شكراً لك يا بات، كنت غاية في اللطف."

ثم أخذوه بعيداً. نظرت الى جو واعترفت له: "لقد كنت مذعورة حقاً."

فرد قائلا: "أعرف ذلك. كان عليك ألا تسرعي في الدخول كما فعلت. كان عليك أن تتركيني أنا أجلس بجانبه."

قلت: "نحن نخاطر دائماً. في كل مرة ينطلق النداء أو نركب سيارة الاسعاف نكون في مواجهة خطر."

كان فريقي مناوباً يوم تلقينا النداء: "انتباه! استغاثة من منزل آل أورتيل."

كانت بيا أورتيل سيدة مفعمة بالحيوية دائمة الانشغال. وكانت محبة تعطي من وقتها وقدراتها للمؤسسات الخيرية ولفرقتنا. وهي مُنحت في العام ١٩٨١ ميدالية "لايك اوف ذا وودز" للخدمة العامة.

رافقتنا لو بوتر. وعندما وصلنا الى منزل آل أورتيل كانت غرفة بيا تعج بالاصدقاء

(٧) الشريف هو المسؤول الامني في بلدة امريكية.

وبأفراد آخرين من فرقة الانقاذ. كان تنفسها مجهداً وضغط دمها منخفضا قليلا. وضع بزي أوتول كمامة أوكسيجين على وجهها فيما أثبتت لو على صدرها أقطاب جهاز مراقبة القلب.

قالت بيا: "انني تعبة قليلا، هذا كل ما في الامر."

بدأت لو حقنها عبر الوريد، وكانت لطيفة هادئة مبتسمة، لكنني أحسست أن الامر لم يكن على ما يرام. وفي الطريق الى المستشفى كانت عيناي على لو. لم أعرف ماذا رأت على شاشة مرقاب القلب غير تلك الخطوط المتموجة.

تركنا بيا في غرفة الطوارىء في المستشفى. وهي أرسلت الي قبلة عبر الهواء، وتوفيت تلك الليلة.

لقد هببت لمساعدتها. لكنني أردت أن أفعل المزيد، أن أعرف ماذا قالت تلك الخطوط المتموجة. كان الوقت فات بالنسبة الى بيا أورتيل، ولكن سوف يكون هناك آخرون. واعتزمت الالتحاق بدورة "فنيّ قلب."

قالت لو: "أنا سعيدة لانك قررت ذلك."

فقلت: "انها الخطوة الاخيرة."

أروع إحساس

أخبرَنا الدكتور روبرت كرافتز في الليلة الاولى من الدورة: "سوف تساعدون في انقاذ الناس مستخدمين المهارات التي ستتعلمونها في هذا الصف. ستكونون أنتم الخيط الرفيع بين حياة المصاب وموته."

حضر ثلاثة وستون منا تلك الليلة، لكن سبعة وثلاثين فقط تقدموا الى الامتحان النهائي.

درسنا أجهزة الجسم كما فعلنا في دورة إعداد المساعدين الطبيين. ثم انتقلنا الى مراحل متقدمة في عملية الانقاذ: الحقن الوريدي، وخصائص الادوية وتأثيراتها، والاضطرابات القلبية. درست صفحات من التخطيطات القلبية حتى لم تعد بالنسبة الي مجرد خطوط متموجة.

بعد عشرة أشهر طويلة تقدمنا الى الامتحان النهائي. وأصبحت فنِّية قلب.

ولم يمض وقت طويل حتى بُث نداء يطلب فني قلب، فاستجبت. أوقفت سيارتي وقفزت الى مؤخر سيارة الاسعاف.

أفاد التقرير: "رجل في الثالثة والستين من عمره. ضعيف ومصاب بدوار."

كان مريضنا جالسا في أريكة في غرفة الاستقبال في منزله وقد بدا شاحبا، لكنه قال إنه يشعر بتحسن، وأضاف: "أعتقد أنكم تكبدتم عناء للاشيء."

كان ضغط دمه مرتفعا قليلا ونبضه ٧٢ في الدقيقة. وكانت تقلصات بطينية تظهر في غير أوانها [٨] من وقت الى آخر على شاشة المرقاب، وهذه التقلصات قد تتحول سكتة قلبية اذا ما تركت من دون علاج. فاتصلت بالمستشفى ناقلة المعلومات.

قالت الممرضة: "ابدأوا حقنه محلول دكستروز بتركيز ٥ في المئة. واذا واجهتم مشاكل عاودوا الاتصال بنا."

غادرنا المنزل بعد عشر دقائق وعيني ثابتة على المرقاب القلبي. لاحظت تقلصاً بطينياً في غير أوانه، ثم آخر، فسألت المريض: "كيف تشعر الآن يا سيدي؟"

فرك الرجل صدره وقال: "بعض الضيق فقط."

رأيت على الشاشة استجابة بطينية طبيعية، ثم تقلصا في غير أوانه، ثم تكرارا للاثنين. كان الرجل قريباً من حالة تعرف باسم "تاكيكارديا" [٩] وهي خفقان قلبي سريع جداً.

قلت: "كاثي، اضبطي تدفق الاوكسيجين على ستة ليترات." ثم رفعت سماعة الهاتف. كنا نواجه مأزقاً. اتصلت بالمستشفى ناقلة آخر المعلومات عن حال المريض وطلبت اذناً باستخدام العقار "ليدوكاين" لتنظيم نبضات القلب. وجاءني الجواب: "أعطيه ٧٥ مليغراماً من الليدوكاين، ثم محلولا بنسبة ١:٤ عبر الوريد."

فتحت صندوقة العقاقير، وأخذت كيساً من الليدوكاين وحقنته في الانبوب المثبت في وريد المريض. خلال دقائق أظهر المرقاب ايقاعا طبيعيا لخفقان القلب. وكان منظر المرقاب جميلا.

قال لي أستاذنا لاحقا: "هذا هو السر: العناية التي تسبق دخول المستشفى. هناك ننقذهم. هكذا ننقذهم."

كان نائب عمدة فريدريكسبرغ خطيب حفلة العشاء التي أقيمت لمناسبة تخرجنا. كان خطابه جيداً تخللته مقادير متناسبة من الوعظ والمزح. وفيما هو يقترب من نهاية كلمته، أزاح الاوراق من أمامه ونظر الينا.

قال بجدية: "أنتم تدركون أن القدرة على انقاذ حياة بشرية هي، بلا شك، أروع احساس يخالج الانسان."

وهي كذلك حقا.

انقشعت الغيوم للمرة الاولى منذ ستة أيام وبانت الشمس. كان نهاراً خريفياً رائعا، العصافير تغني والاطفال يلهون بأوراق الشجر المتساقطة.

---

(٨) Premature ventricular contractions (PVC)

(٩) Tachycardia

وفي طريق ضيقة كانت طفلة عمرها سنتان تلعب في فناء منزلها مع كلب صغير يركض أمامها وينحرف يمنة ويسرة. دخلت والدتها المنزل لبضع دقائق. واكتشف الكلب في هذه الاثناء أرنبا فطارده الى الغابة المحيطة بالمنزل. وتبعته الطفلة.

انطلقت النداءات من أجهزتنا في الاولى والنصف بعد الظهر: "انتباه! نداء الى أعضاء فرقة الاطفاء والانقاذ في لايك اوف ذا وودز. انتم مطلوبون للمساعدة في البحث عن طفلة صغيرة."

كانت بضع نساء واقفات في الفناء مع أطفالهن وقد تشبثن بهم على غير عادة. كن قد ساعدن في البحث الاولي.

سرت نحو المنزل، فناشدتني أم الطفلة: "أرجوكم، اعثروا عليها."

قلت لها: "سوف نفعل ذلك. لقد تاه ابني مرة..." والتقت عيوننا في لحظة تفهم متبادل فتابعتُ: "... وعثر عليه هؤلاء الناس." لم أقل لها إنه كان في الثامنة من عمره لا في الثانية، كما لم أخبرها أنه ظل تائهاً طوال الليل، فهي لم تكن تحتاج الى حقائق وانما الى رجاء. كانت تحتاج الى من يقول لها: "أنا أفهم ما تعانين،" ويعني ما يقول.

مشينا في الطريق الضيقة حتى انتهت في أخدود صغير غمرته أمطار أسبوع. أخبرنا أحد الجيران أنه فتش المنطقة خلف التلة، فعدنا لنفتش المنطقة بين المنزل ونهاية الطريق.

لم نجد شيئا، فعدنا الى المنزل وانقسمنا مجموعات تفصل بينها مسافات من أربعة أمتار. وقمنا بدورة كاملة في الغابة المحيطة بالمنزل. وبعد تمشيط المنطقة خرجنا من الغابة قرابة الرابعة عصراً. لم نجد أي أثر للطفلة.

لاحت الطوافات فوقنا، وراقبناها تنخفض محوّمة فوق منطقة ومنتقلة الى أخرى. تحلقنا في مجموعات نرتاح على مؤخرات الشاحنات، نتحدث ونصغي الى موجات راديو الشرطة.

لا أدري من قالها أولا، لكننا سمعنا أخيراً عبارة "لقد عثروا عليها!"

– هل هي بخير؟

"تبدو كذلك!"

بكاء الطفلة أرشد فرقة البحث اليها. وكانت مبللة من قدميها حتى خصرها.

وقف والدا الطفلة على مصطبة منزلهما. يا الهي، ما أجمل هذا النبأ! شاهدنا الرجل يحيط زوجته بذراعه وقد اتكأت هي عليه تبكي ورأسها مدفون في صدره. تبادلنا النظرات مبتسمين.

مسّدتُ شعر الطفلة الاشقر، ثم انزلقت يدي لتمسك يدها الصغيرة، فشدت عليها وابتسمت لي خجلة.

قالت لي الام وهي تحتضن طفلتها: "انني أدرك الآن ماذا شعرت عندما عثروا على ابنك."

تلك الليلة حضَّرتُ قالب حلوى بالكرز، كعكة مات المفضلة.

منذ ذلك اليوم المشهود قبل أكثر من عشر سنين، استجبت لاكثر من ٥٠٠ نداء، ٥٠٠ مريض ومصاب تلقوا عناية طارئة من فرقتي. وأنا أعمل اليوم مدربة لمساعدي الطوارىء الطبيين، فأدرسهم المهارات الضرورية للعناية الطبية الطارئة اضافة الى الاسعاف النفسي الاولي.

كانت سالي كيلي واحدة من طلابي، وهي لطيفة القول والمعشر. دخلت صفي في الليلة الاولى وأخبرتني أنها لا تريد شهادة مساعد طبي للطوارىء، "بل أريد الحصول على المعرفة فقط، فلا أظن انني قادرة على عمل ما تفعلون."

أجبتها: "أعتقد أنك تستطيعين."

جلست سالي في مؤخر الصف. وفيما كرَّت الأسابيع أخذت تنتقل تدريجا الى الامام. كنت أختبرها بين حين وآخر، وكانت تعرف الاجابات الصحيحة دائما. وهي حلَّت ثانية في الامتحان النهائي وانضمت الى فرقة الانقاذ في ابريل (نيسان) ١٩٨٩. وفي مايو (أيار) لبت نداءها الاول.

كان المريض يعاني سكتة دماغية (فالجا). قاست سالي نبضه وفحصت تنفسه وضغط دمه. وساعدت في حمل المحفة الى سيارة الاسعاف، كما أمسكت بيد المريض طوال الرحلة الى المستشفى. وجلست أنا في المقعد المقابل أراقبها. عندما نظرت الي ابتسمت، فرأيت في وجهها انعكاسا لذاتي قبل زمن طويل. كان الشك لا يزال باديا في عينيها، لكن ابتسامتها كانت توحي ثقة.

لم يكن لدى سالي أي فكرة عما كان ينتظرها ذلك اليوم، كما لم يكن لدي أنا أي فكرة عما انتظرني في يومي الاول كمساعدة طبية للطوارىء. ومع ذلك، فلو قدر لي أن أعرف ماذا ينتظرني لرحبت به بحماسة وبذراعين مفتوحتين.

بات أيفي ■

ترجمة فواز خوري

فيلسوف في قطار

كان أحد الفلاسفة ينتظر في محطة حين توقف قطار في غير موعده المقرّر، فقفز اليه الفيلسوف ليفاجأ بالموظف يقول له: "آسف يا سيدي. عليك أن تنزل، فهذا القطار لا يتوقف هنا."

فرد الفيلسوف على الفور: "في هذه الحال، لا تقلق، فأنا لست عليه."

ر.ف.


اليزابث الثانية
ملكة في عزها
بقلم تيم هيلد
كتاب الشهر



هي لا تنسى أنها الملكة. ومع كل ما تتسم به من دفء وود، تبقى هذه المرأة النحيفة الواقعية صاحبة الجلالة المكرسة.

يقول ادوارد ميرزوف مخرج الفيلم الوثائقي الجديد "إليزابث ر"[1] الذي أبرز الحياة العملية للملكة وعرضته شبكة «BBC» في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٩١ في الذكرى الاربعين لاعتلائها العرش: "تجد نفسك على الدوام مدركاً مَنْ هي تماماً. وتلمس فيها نأياً، فهي لا تقبل أبداً اجراء مقابلات معها، ولا تصويرها وهي تأكل أو تشرب. وخلال السنة التي أمضيناها في تصوير الفيلم، رأيت كيف تفرض هيبتها على جميع أنواع الناس."

وقد عانى ميرزوف نفسه هذه التجربة، وهو الذي نال جوائز تلفزيونية عدة وله دراية واسعة بشؤون العالم. فقبل مباشرة تصوير الفيلم استدعي الى قصر باكنغهام[2] حيث لم تنجح الاجتماعات التحضيرية مع اثنين من المسؤولين في تبديد قلقه وتوتره. فأحس، حين اقتيد لملاقاة الملكة للمرة الاولى، كأنه وقع في ورطة، خصوصاً حين قيل للملكة إنه جاء ليعرض تصوراته للفيلم.

يقول ميرزوف: "لم أكن وضعت بعد خطة محددة لتصوير الفيلم. لذا لم أجد ما أقوله. وشعرت كأني أهذر وألغط كلاماً لا طائل تحته. لكنها كانت فاتنة. فأدركتُ اذذاك هول الوزر الذي يفرضه عليها تأثيرها في الناس."

(١) Elizabeth R
(٢) قصر باكنغهام هو مقر الملكة في لندن



لكنها، في الواقع، قادرة على حمل هذا الوزر. فبالنسبة الى إليزابث ألكسندرا ماري، كونها ملكة يعني أكثر من مجرد وظيفة تؤديها. فحسبها بالواجب الذي أقسمت له يمين الولاء في مراسم تتويجها عام ١٩٥٣، أمر حاسم يتوجب اكتناهه لفهم إليزابث الثانية التي، على رغم كونها أكثر الناس تواضعاً في بعض النواحي، تحس أنها مستدعاة لانجاز مهمة سامية.

عندما اعتلت إليزابث الثانية العرش، كان مركز بريطانيا في العالم تغير كثيراً. فالمستعمرات السابقة باتت دولاً مستقلة تشارك في عضوية الكومنولث[٣] على قدم المساواة مع بريطانيا، سوى أن الملكة بقيت راسخة كرئيسة لمجموعة هذه الدول المتناثرة من اوستراليا الى زامبيا.

وحس الملكة بالتفاني في سبيل مبادئها بقي قوياً كما كان قبل ٤٥ سنة عندما أعلنت لرعاياها المستقبليين، وهي بعد أميرة في الحادية والعشرين من العمر: "سأكرس حياتي كلها، سواء أقصرت أم طالت، لخدمتكم وخدمة الكومنولث الامبراطوري الذي ننتمي اليه جميعاً."

يوم ملكي

تعيش الملكة حياة تختلف عن حياة سائر الناس. فهي تخرج من جناحها كل صباح على أنغام مزامير القِرَب تبعاً لتقليد أدرج في عهد جدة جدتها الملكة فيكتوريا. فلئن تسنى لكم يوماً أن تمشوا نزولاً على تلة "كونستتيوشن هيل" من "هايد بارك كورنر" بين التاسعة والتاسعة والربع صباحاً، فلا بد أن تسمعوا – اذا كانت الملكة في قصر باكنغهام – صدح مزامير القرب منبعثاً من خلف الاسوار العالية لحديقة القصر.

وهذا دليل على اسكوتلندية الملكة بمقدار ما هو مقياس لذوقها الموسيقي. فمن ناحية أبيها، كان الانتماء الاسكوتلندي الخيار البديل للملكة فيكتوريا التي وفدت الى اسكوتلندا غريبة فوقعت في حب الارض وغدت أكثر اسكوتلندية من الاسكوتلنديين. أما من ناحية والدتها، فالانتماء حقيقي جداً، لأن الملكة الام تنتمي الى عائلة باوس – ليون من قلعة غلاميس، أي إنها اسكوتلندية أصيلة.

تتناول الملكة طعام الفطور مع زوجها دوق ادنبره كلما سمحت الظروف بذلك. وضمن المجموعة الفنية الخاصة بالدوق لوحة زيتية رائعة رسمها بيده تظهر الملكة جالسة الى طاولة في غرفة طعامهما الخاصة في قلعة وندسور، وأمامها، على غطاء المائدة الابيض، جهاز راديو والى جانبه وعاء مربى.

(٣) الكومنولث مجموعة دول مستقلة كانت مستعمرات بريطانية في الماضي، تؤلف اتحاداً معنوياً برئاسة التاج البريطاني.

نادراً ما تمضي الملكة جلسة فطور صامتة. فعلى رغم أن مكتب الصحافة يحضِّر لها عرضاً يومياً يوجز أخبار الصحف ويتيح لها اطلاعاً سريعاً على ما يجري في العالم، تبقى الصحف اليومية والاخبار الاذاعية جزءاً لا يتجزأ من روتين الفطور. أما الدوق، وهو رجل كثير الكلام متشبث برأيه، فمعتاد قراءة النبذات الاخبارية بصوت عالٍ وإخضاعها لتعليقات بليغة.

بعد ٤٤ عاماً من زواج شهدت سنواته الاولى إشاعات حول "تصدعه"، بقي آل ادنبره – كما سموا يوماً – فريقاً متراصاً. وعلى رغم أنهما كثيراً ما يعيشان متباعدين وينامان في غرفتين منفصلتين، فان كل من يراهما عن كثب يقول إنهما أفضل صديقين، ولا يمكن تصور إقدام أي منهما على أخذ قرار مهم من دون استشارة الآخر. وقد قال لي أحد أفراد الحاشية السابقين: "انها مخلصة له تماماً، وهو مخلص لها."

وهناك كل صباح أوراق ومعاملات تستدعي الانجاز يرسلها مكتب أمانة السر الخاصة الى الملكة ضمن صندوق يحوي وثائق تراوح بين اقتراحات تتناول تعيين أساقفة أو سفراء وأخرى تلتمس زيارات أو خطباً أو تدشين مؤسسات. وتصل هذه الوثائق الى الملكة مصنفة ومدقق فيها مع موجز لها يتضمن ملاحظات وتوصيات. وفي الحادية عشرة صباحاً تقابل الملكة أحد أمناء سرها الخاصّين إن لم تكن مرتبطة بمواعيد رسمية.

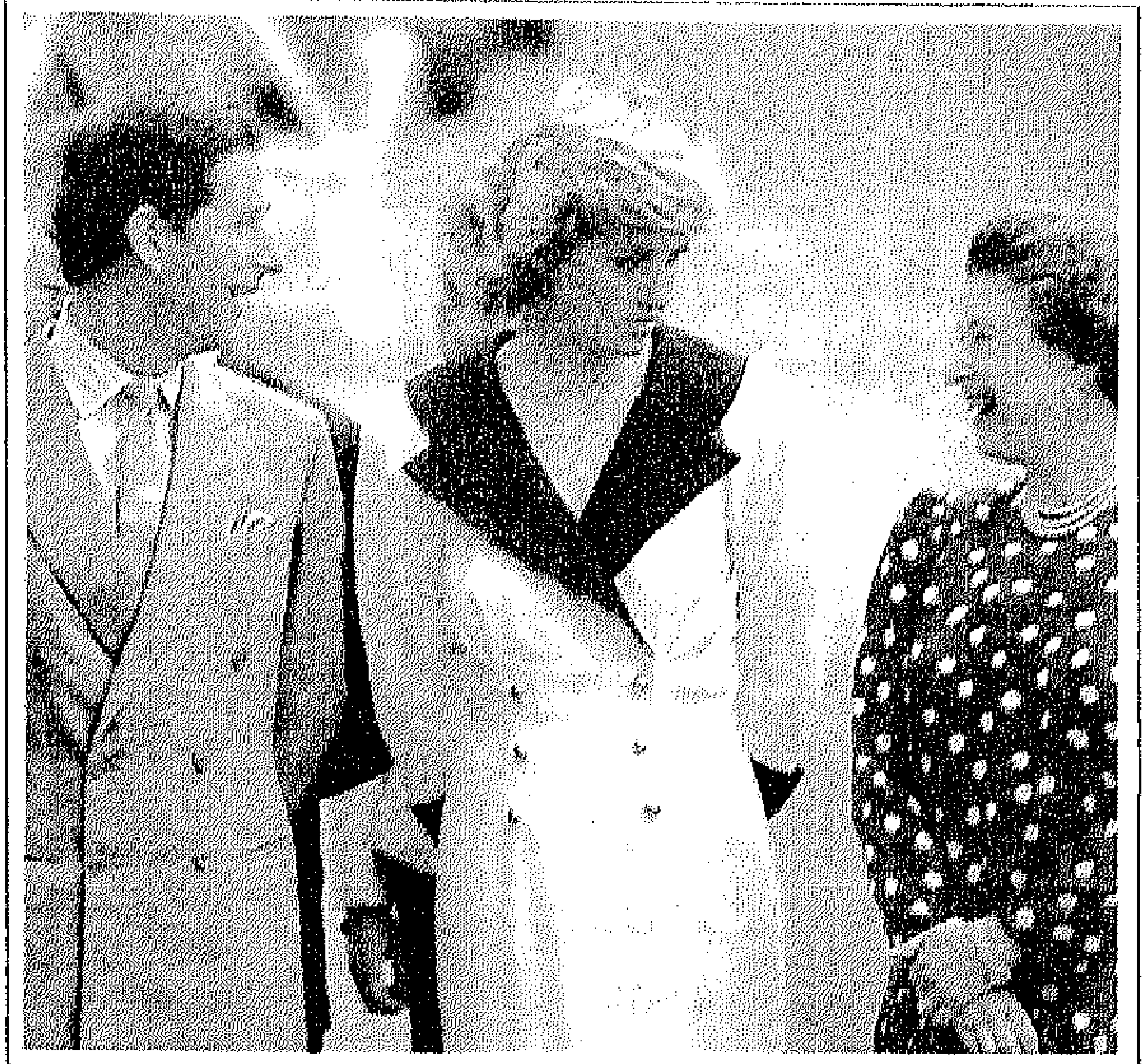
ويعتبر أمناء السر الخاصّون هؤلاء ضرورة حيوية للملكة بحيث يصبح أفضلهم أصدقاء ومستشارين تخصهم بالتقدير والاحترام. وطوال سنوات حكمها، لم توظف الملكة سوى ستة أمناء سر خاصين كان أول أربعة منهم أكبر منها سناً والأخيران أصغر سناً. وهذا ما أبقى الملكة على اتصال بأجيال تكبرها وتصغرها عمراً.

ومنذ العام ١٩٩٠ تولى منصب كبير أمناء السر الخاصين السر روبرت فلوز نجل أحد رجال الحاشية، وهو مصرفي سابق وزوج الليدي جين سبنسر شقيقة ديانا أميرة ويلز. ويعاونه السر كنيث سكوت الذي امتهن العمل الديبلوماسي وخدم سفيراً لبلاده في يوغوسلافيا، وروبن جانفرن نجل نائب الاميرال الذي سبق له أيضاً أن عمل في السلك الخارجي.

ويتسم هؤلاء الثلاثة بصفات ليس أقلها اللطف والكياسة والجاذبية والثقة بالنفس ويُسْر التصرف في الدوائر الملكية. وهم، الى ذلك، مهذبون من دون خنوع، وفاعلون من دون بيروقراطية. انهم بالضبط كما شاءتهم الملكة أن يكونوا. فهي تحب العمل مع رجال يريحونها وتعتمد عليهم في وضع توصيات حازمة. كما أنها تكره اللف والدوران والمواربة وتريد أن تعلم تماماً ما يدور في خلد الآخرين.

ويستعين زوجها وابنها البكر بمجموعة من العقول المفكرة لتلقي المشورة في حقول







البيئة وهندسة العمارة والفروسية والتكنولوجيا وغيرها من المواضيع التي يرغبان في طرقها. والملكة، كما يقول أحد مستشاريها السابقين، "قد تحاول استشارة بعض الاصدقاء والاقارب، ولكن ليس هناك ما يضاهي شبكة المفكرين الصغيرة ألتي يعتمدها الامير فيليب." أما من الناحية الرسمية، ففي وسع الملكة اللجوء الى وزرائها وأساقفتها وجنرالاتها وأي جهة تشاؤها لأخذ الرأي. واللجوء الى أي مفكر خارج نطاق القنوات المألوفة قد يعتبر مخالفا للقواعد والاصول، إن لم يكن للدستور.

ويتضمن يوم نموذجي من عمل الملكة كثيراً من "تقبيل الايدي" الذي يُذكِّر

بالسلوك البلاطي المهيب الذي ساد في الماضي وما زال متبعاً. ومثال على ذلك ما جرى بعيد ظهر ٤ يونيو (حزيران) ١٩٩١ عندما وفد روبرت كوركمان الذي عُيِّن سفيراً فوق العادة لبلاده في استوكهولم، و"مَثُل في حضرة الملكة وقبَّل يديها."

وعندما غادر السفير قصر باكنغهام الساعة ١٢،٤٠ ظهراً، وصل ملك سوازيلاند ومكث الى الاولى بعد الظهر. وبعده مباشرة استقبلت الملكة اللواء السر كريستوفر اري الذي كان في صدد "التخلي عن مركزه سكرتيراً خاصاً وأمين صندوق لدى أمير ويلز." ويتولى أحد أمناء السر الخاصين إطلاع الملكة بدقة على حيثيات أي اجتماع قبل انعقاده.

وفي وقت لاحق بعد ظهر ذلك اليوم ذهبت الملكة، يرافقها دوق ادنبره، الى مجلس التخطيط في لندن "هايماركت" للاطلاع على "مئة سنة من الاختراعات البريطانية" في معرض الذكرى المئوية لمعهد وكلاء براءات الاختراع المجازين.

وبحلول السادسة والنصف مساء، عادت الملكة الى القصر لاستقبال رئيس وزرائها جون ميجور.

درجت الملكة طوال عهدها على "الدردشة" أسبوعياً مع رئيس وزرائها، وإن لم يُكشف مرة عما يدور في هذه الاجتماعات. ففي زمنْ رئيس وزرائها الاول ونستون تشرشل، أي حين كان عمر رئيس الوزراء الحالي ثمانية أعوام، كان تشرشل قادراً على تقديم النصح الى الملكة المبتدئة لما كان له من خبرة طويلة. أما اليوم فقد انقلبت الادوار، اذ يصغرها ميجور بنحو ١٧ عاماً، وهو لم يصبح عضواً في البرلمان إلا عام ١٩٧٩.

واجتماعات الملكة برئيس الوزراء سرية لا يحضرها أي من أمناء السر أو العاملين في القصر أو حتى الامير تشارلز الذي يحق له الاطلاع على الاوراق الرسمية ومقابلة الوزراء ورئيسهم متى شاء.

أما علاقات الملكة برؤساء وزرائها التسعة فكانت طيبة جداً على الدوام، على رغم ما قيل من انها وجدت في السر أنطوني إيدي رجلاً صعب المراس. وهي فتنت رئيسي وزرائها العماليين هارولد ويلسون وجايمس كالاهان مما جعل أحد المساعدين في القصر يقول: "لقد وقع هارولد في هواها."

وأما الجليد القائم بينها وبين السيدة مارغريت تاتشر فكان موضوع تعليقات راجت في السر والعلن. ويقول مسؤول حسن الاطلاع: "كان ذاك نموذجاً في اللياقة تضمن من جانب السيدة تاتشر احتراماً لجميع الاعراف والمواثيق مع درجة من المراعاة تكاد تبلغ حد المبالغة، واعترافاً من جانب الملكة بحق الحكومة في الحكم وبدور الملكة القاضي بدعم الحكومة في السراء والضراء."

ولربما أخفى هذا الحرص المفرط على الشكليات بعض نقص متبادل في التعاطف. فالملكة تجد سهولة في التعامل المهني مع الرجال. وليس من باب المصادفة أنها لم تقدم أبداً على تعيين أمينة سر خاصة.

في بعض الامسيات تخرج الملكة والدوق معاً وإن يكن هو يحب السهر أكثر منها. لكنهما ينجزان معظم الواجبات الرسمية منفصلين. فذات يوم نموذجي من العام ١٩٩١ تناول الدوق طعام الغداء في ترينيتي هاوس وتعشّى لاحقاً مع أعضاء "مؤسسة القلب البريطانية" في قصر "سانت جايمس". ولم تكن الملكة مرتبطة بأي من هاتين المناسبتين مثلما لم يكن للدوق ارتباط بأي من مقابلاتها الرسمية.

وعندما يخرج الدوق لتناول طعام العشاء، تتناول الملكة طعامها منفردة في جناحها الخاص، وتشاهد أحياناً برامج التلفزيون حتى ساعة متقدمة من الليل. وهي تعتمد نظام حمية معتدلاً ودقيقاً.

والوجبات التي تتناولها الملكة وحيدة في جناحها لا تُخرق حرمتها. فحتى أفراد العائلة يحجمون عن التطفل ما لم يكالموها هاتفياً أولاً. يقول السر وليم هيزلتاين أمين سرها الخاص سابقاً: "يتمتع جميع أفراد العائلة المالكة باستقلالية لافتة." وذلك يربك العاملين في القصر. ولهم، الى ذلك، عادة محرجة قوامها أنهم لا يخبرون بعضهم بعضاً بما يعتزمونه. لذلك يتعين على العاملين في القصر مقارنة ملاحظاتهم على الدوام والا وجدوا أنفسهم وسط "فوضى مروعة."

ويحمل المساء الى الملكة مزيداً من الاعمال المكتبية. فالى الصندوق الذي يأتيها به أمناء سرها الخاصون بعد الظهر، هناك معاملات حكومية أخرى تستدعي الانجاز. فهي تتلقى، أثناء جلسات مجلس العموم، تقريراً يومياً عن أعماله من نائب كبير الامناء. كما تتلقى ألوف الرسائل سنويا (٤٩٠٢٣ رسالة عام ١٩٩٠) من أفراد الشعب، فتتولى الوصيفات وأمناء السر الخاصون الرد على كل منها. والقاعدة المتبعة في القصر هي أن "كل ما هو معنون للملكة يجب ان يصل الى مكتب الملكة."

وعمل الملكة ليس وظيفة تبدأ في التاسعة صباحاً وتنتهي في الخامسة مساء. الا أنها تتمتع بقدرة احتمال غير عادية، ولم يعرف عنها أنها برمت يوماً بالمواكب أو المآدب أو الاحتفالات الرسمية الطويلة المضجرة.

وتتشابك أوقات الراحة والعمل على نحو لا يقبل الانفصام. ففي الستينات مثلاً، عارض أمين السر الخاص آنذاك السر مايكل أدين تقديم مذكرة الى الملكة أعدها لها أحد رجال المجتمع البارزين، بحجة أنها تفتقر الى التفاصيل. وعندما علم كبير الامناء إرل سكاربورو بالامر، وكان أسلس طبعاً، طلب الاطلاع على المذكرة، ثم قال: "إنها لا تشكو من شيء، وسأعرضها بنفسي على صاحبة الجلالة."

وفي اليوم التالي استدعى كاتب المذكرة ليخبره أنه عرضها على الملكة فوافقت عليها. فسأله حائراً: "ولكن كيف استطعت ذلك ومتى؟"
كان الجواب بسيطاً. فذاك كان اليوم الاول من سباق "أسكوت" الملكي. ويقضي التقليد بأن تعبر الملكة مضمار السباق في مركبة رسمية مكشوفة يرافقها كبير الامناء. وكان هذا وضع المذكرة في جيب بذلته الصباحية واخرجها منها لدى انطلاق الموكب. وفيما هو والملكة يلوحان للجمهور مبتسمين، كانا يتناقشان في المذكرة التي أخفياها تحت جانب المركبة.

ملكية أبهة وظرف الملك

تتبع الملكة في حياتها الشخصية والخاصة أسلوباً غير متفاخر يكاد يبلغ درجة التقشف. إلا أنها، على الصعيد العام، تحرص على زخارف الجلالة المهيبة التي باتت في بعض نواحيها أقل شكلية مما كانت في أيامها الاولى.

وما زال الازدهار سائداً قصر باكنغهام وقلعة وندسور وعزبتي بالمورال وساندرنغهام، على رغم اجتزاء نحو ٩٠ غرفة من قصر ساندرنغهام لدى تجديده عام ١٩٧٤. وهناك أيضاً طيران الملكة الذي يشمل طوافات من طراز "وسكس" وطائرة نفاثة من "بريتيش ايروسبايس" وقطارات صممت خصوصاً للرحلات الملكية. وما زالت مجموعة الاصطبلات الملكية تعج بمركبات رسمية وسيارات "رولز رويس" وسيارات أخرى بينها واحدة لا تلوث البيئة تسير بالطاقة الكهربائية وتخص دوق ادنبره الذي أصبح منذ سنوات من المنادين بضرورة صون البيئة.

واهم من ذلك كله اليخت الملكي "بريطانيا" العابر المحيطات والذي تبلغ زنته ٥٧٦٩ طناً. وهو طوى مذ وضع في الخدمة الفعلية عام ١٩٥٤ حوالى مليون ونصف مليون كيلومتر حاملاً العلم البريطاني من أصقاع القطب الشمالي الى أقاصي الاراضي الجنوبية. كأنما هذا اليخت هو قصر باكنغهام عائم، فيه قاعة طعام تتسع لمأدبة كبرى، وعلى متنه فرقة موسيقية ملكية من ٢٦ عازفاً من البحارة مراعاة للمظاهر.

وفي ٢٦ يونيو (حزيران) ١٩٥٩ افتتح الرئيس الامريكي الاسبق دوايت أيزنهاور والملكة إليزابث الثانية، ومعهما رئيس الوزراء الكندي الاسبق جون ديفنبيكر، طريق سانت لورنس البحرية وهي قناة دولية تربط البحيرات الكبرى بالمحيط الاطلسي. وكان جايمس أور، أمين سر دوق ادنبره آنذاك، مع الوفد الامريكي الذي وقف يراقب "بريطانيا" ماخراً العباب بأبهة ملكية متجهاً من مونريال الى بحيرة أونتاريو. وبعد دقائق التفت أحد الحاضرين الى أور وقال له: "من حسن الحظ أنكم لم تشاهدوا يخت

الرئيس!" فذاك لم يكن سوى زورق متواضع لا يتعدى طوله ٢٠ متراً.

بعد اعادة تجهيز شاملة عام ١٩٨٧ حُوِّل "بريطانيا" مركزاً تجارياً جوالاً استقبل سلسلة "أيام بحرية" حققت صادرات بملايين الجنيهات. وخلال زيارة الملكة للولايات المتحدة عام ١٩٩١ استقبل اليخت أيضاً "ندوات بحرية" لاقطاب صناعة السيارات والصناعة الجوية والفضائية البريطانيين.

وما زال "بريطانيا" سيد الامواج ورمزاً لدور أفراد العائلة المالكة. ويقول السر هيو كاسون الذي ساهم في التصميم الداخلي لليخت وله علاقة طويلة العهد بالعائلة المالكة: "اعتقد أن العائلة تعلمت من تلك المرأة المدهشة، من الملكة الام، أن المرء اذا أقدم على أمر فعليه أن ينجزه بأناقة. فلها كل الفضل في انتهاج العائلة نهجاً ملكياً."

وتبقى نقاط محددة في الروزنامة الملكية مكرَّسة وغير قابلة للتغيير، ومنها: أحد الذكرى في نوفمبر (تشرين الثاني) حين تتقدم الملكة الأمة في تكريم محاربيها القدماء بوضع اكليل من زهر الخشخاش على نصب الجندي المجهول في وايتهول في لندن، وخدمة العهد الملكي في خميس ما قبل الفصح وهي احتفال تقليدي للصدقات تُوزع خلاله أكياس تحوي أوراقاً نقدية طُبعت خصوصاً لهذه المناسبة،[٤] وتقديم العلم في عرض الخيالة لمناسبة عيد ميلاد الملكة في يونيو (حزيران) عندما تتلقى التحية من حرسها الراجل وفرسان قصرها، والافتتاح الرسمي لجلسات البرلمان عندما تتلو الملكة خطاباً على أعضاء مجلسي الأمة مجتمعين يوجز ما اعتزمته حكومتها للدورة الجديدة.

هذه المناسبات الرسمية الكبيرة التي تجسد فيها الملكة روح الأمة كلاً هي فرصة لاظهارها جزءاً حيوياً من البلاد مكرساً لخدمة أتباعها بمقدار ما هو مكرس لحكمهم. وقد بقي هذا النهج على جوهره طوال عهدها. وتعليقاً على ذلك يقول السر وليم هيزلتاين: "إني لمتأكد من أن في ذهن الملكة على الدوام فكرة واضحة عن الاسلوب الملائم لتصرفها كرئيسة دولة. فهذا الدور هو بالنسبة اليها واضح الى حد بعيد."

إلا أن السنوات حملت بضع تغييرات طفيفة، منها أن خدمة العهد التي كانت تقام في وستمنستر باتت اليوم تقام في كاتدرائية مختلفة كل عام، وهذه فكرة اقترحتها الملكة لشعورها منذ البداية بأهمية أن يراها الناس خارج العاصمة وخارج منطقة جنوب شرق انكلترا المحظيَّة.

وكانت الملكة الى وقت قريب تمتطي جواداً خلال عرض عيد ميلادها، على سرج جانبي، مرتدية بزة قرمزية وزرقاء رائعة وقبعة ثلاثية الزوايا. وكانت بزة الفرسان هذه

(٤) Maundy Money

الوحيدة لديها، خلافا لأفراد عائلتها الذكور الذين يحتفظون ببزات مختلفة لكل المناسبات وجميع الافواج التي يتعاملون واياها. فعمدت الملكة، بكتمان، الى اجراء تعديل في البزة كل سنة بحيث تلائم أزرارُ السترة وريشةُ القبعة ألوانَ الفوج الذي يجري عرضه.

وهي لم تتحول الى "الثياب المدنية" والى ركوب عربات الخيل في عروض تحية العلم الا بعدما هرم جوادها المطهَّم "بورميز." ولم يكن لقرارها هذا، ظاهريا، أي علاقة بما حصل يوم ١٣ يونيو (حزيران) ١٩٨١ عندما أقدم شاب في السابعة عشرة من عمره على اطلاق عيارات نارية من بارود فقط على الملكة وهي ممتطية جوادها في موكب عبر متنزه المول.

ومن ضمن روتين الملكية تكريم رؤساء الدول الاجنبية، بمعدل مرتين في السنة. وكانت زيارة الرئيس المصري حسني مبارك لبريطانيا في يوليو (تموز) ١٩٩١ الزيارة الرسمية السادسة والستين في تاريخ العهد.

إلا أن رؤساء الدول يفدون الى بريطانيا ضمن زيارات أقل شكلية شملت عام ١٩٩١ زيارات لرؤساء بلغاريا وتشيلي والمجر (هنغاريا) ومالاوي والاتحاد السوفييتي الذي كان آنذاك في عزه. وتتطلب هذه الزيارات مقداراً أقل من الأبهة والظرف، ولا تستلزم رفع الاعلام في المول أو اقامة مآدب رسمية أو السير في مواكب فروسية، الا أنها تقتضي، بالنسبة الى الملكة، استكمال اجراءات ضرورية لوضعها "في الجو" كيما تتمكن من التحدث الى ضيفها باطِّلاع. أما النقاد الذين يزعمون أن الملكة لا تقرأ أي كتاب ولا تطالع حتى كتب العطلات التي تزودها اياها أمانة الكتب كل صيف، فيقصِّرون في تقدير الكمية الهائلة من الاوراق التي يتعين عليها مراجعتها كيما تترك انطباعاً راسخا بأنها شاملة الاطلاع.

والملكة، الى ذلك، رحالة لا تعرف التعب. فبعد تتويجها عام ١٩٥٣ قامت من فورها بجولة في دول الكومنولث شملت عشر دول من برمودا الى أوغندا. وفي ١٩٧٧، عام يوبيلها الفضي، طوت مع دوق ادنبره نحو ٩٠ ألف كيلومتر. وكانت زيارتها الرسمية الاولى للنروج عام ١٩٥٥، أما الاخيرة فالى زيمبابوي في ١٩٩١.

وهي حرصت دائما على دورها كرئيسة للكومنولث مثلما تحرص على مركزها ملكة لبريطانيا. وإن تكن، هي وزوجها، يعزّان روابطهما مع دول الكومنولث، الا أنهما يريان بوضوح أنهما سيستمران في المحافظة عليها ما دامت شعوبها تريد ذلك.

وقد أبدت مناطق معينة في أوستراليا وكندا سخطاً على النظام الذي يحكمهما من بعيد. وكانت مقاطعة كيبيك الكندية ذات الطابع الفرنكوفوني[٥] المكان الوحيد في

(٥) الفرنكوفوني يعني الناطق الفرنسية.

الكومنولث الذي لم يستقبل الملكة بحماسة شعبية. حتى إنها تلقت تهديدات بالاغتيال خلال زيارتها المنطقة عام ١٩٦٤.

والملكة حسنة الاطلاع على ما يجري في دول الكومنولث بمقدار ما هي مطلعة على أمور بريطانيا. ولا غرو، فمعرفتها بكثير من هذه الدول وثيقة منذ أكثر من ٤٠ سنة. فهي زارت كندا للمرة الاولى عام ١٩٥١، وفهمت فرادة وضعها بحيث قالت ذات مرة: "أن حصول المرء على الجنسية الكندية يتضمن التزاما من الوافد الجديد أن يشارك العائلة الكندية في ما يمتلكه من خصائص شخصية وحضارية." وإذا اعتُبر تواتر زياراتها دليلاً، فلا بد ان كندا هي أحد مقاصدها المفضّلة، اذ زارتها كملكة ١٧ مرة في مقابل ١١ زيارة لاوستراليا.

وخلال كل مؤتمر يعقده رؤساء حكومات الكومنولث، تستقبل الملكة مندوب كل دولة لمدة ٢٠ دقيقة. وهي تستطيب فرصة لقيا الاصدقاء القدامى وإرساء علاقات جديدة برؤساء الحكومات المنتخبين حديثاً. أما هم – كما يقول أحد رجال الحاشية – فيهيمون بها.

الثروة الملكية

إن ادارة مَلَكية أنيقة ليست بالامر الرخيص. فنفقات العام ١٩٩٠ قدرت بنحو ٢١٣٦٥٠ جنيها استرلينيًا (نحو ٤٠٥ آلاف دولار) لحفلات الحدائق، و٣٧٩٥٠ جنيها (نحو ٧٢ ألف دولار) للزهور و١٤٩٠٢٥ جنيها (نحو ٢٨٢ ألف دولار) لصيانة العربات والخيول. أما اليخت الملكي فيكلف أكثر من تسعة ملايين جنيه (نحو ١٧ مليون دولار) كما يكلف طيران الملكة نحو سبعة ملايين جنيه (نحو ١٣،٣ مليون دولار) والقطار الملكي نحو مليوني جنيه (نحو ٣،٨ ملايين دولار).

قد يكون ممكناً خفض هذه النفقات، ولكن إن تم ذلك – يقول المدافعون – تصبح تلك ملكية كما في أسوج (السويد) والدانمرك.

وما زال موضوع الموازنة الملكية مبعث إزعاج للملكة طوال عهدها. فالنقاد مستاؤون من كون الملكة، في زعمهم، أغنى امرأة في العالم، وهم يركزون على أنها لا تدفع ضرائب. وتعليقاً على هذا الامر كتب النائب العمالي ويلي هاملتون عام ١٩٦٩: "في خضم الملايين من أبناء شعبنا الذين يعتاشون بمداخيل تقل عن ١٠ جنيهات استرلينية (نحو ١٩ دولاراً) أسبوعياً، ونصف مليون طفل على الاقل يعانون أدقع الفقر، يبدو التاج لكثيرين تبذيراً مبتذلاً."

بعد أربعة عقود من مثل هذه الانتقادات تردّ العائلة المالكة ومستشاروها على ذلك بسأم متنام. فكثير من هذه الثروة المزعومة، بدءاً بالمجموعة الفنية العظيمة وانتهاء

بالقصور ومجوهرات التاج، ليس في متناول العائلة بل محفوظ في عهدة الامة. والحال، كما قالت لي الملكة يوماً: "ليست كأن المرء يستطيع شراء قبعة بقصر هامبتون كورت."

أما بالنسبة الى موضوع الضرائب، فيمكن تحديد ثلاث قضايا منفصلة أولاها أن الملكة، في بداية عهدها، سلمت مجوهرات التاج الى الحكومة في مقابل مخصصات ملكية لتغطية نفقات التاج التي تستنفد الرواتب والاجور نسبة ٧٠ في المئة منها. وقد حدُدت هذه المخصصات عام ١٩٩٠ بمبلغ سنوي مقداره ٧،٩ ملايين جنيه استرليني (نحو ١٥ مليون دولار) قابلة للتعديل وفق معدلات التضخم المالي ولفترة تمتد عشر سنين.

ويخضع الموظفون الملكيون للضرائب كغيرهم من الناس. واستناداً الى ذلك، يتحجج المدافعون بأن إخضاع المخصصات الملكية للضريبة يعني اخضاعها لضريبة مزدوجة تماثل إلزام الوزارات دفع ضرائب على موازناتها. والمخصصات الملكية، للمناسبة، هي أقل مما يخصص سنوياً لمكتب رئيس الوزراء.

أما مصدر الدخل الرئيسي الثاني فهو عائدات دوقية لانكستر. وقد بلغ مجمل دخل الدوقية في السنة المالية المنتهية في ٢٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٩٠ ٤٠٨٨٧٦٧ جنيها استرلينياً (نحو ٧،٧٦ ملايين دولار) أودع منها ثلاثة ملايين جنيه (نحو ٥،٧ ملايين دولار) في صندوق نفقات الملكة الخاصة.

وتستعمل هذه الاموال لتغطية "نفقات الملكة الخاصة" التي تشمل صيانة قصري بالمورال وسندرنغهام، وتسديد نفقات صغار أفراد العائلة المالكة لدى قيامهم بأي واجبات ملكية، وتعويض المخصصات الملكية المصروفة للاميرة ألكسندرا ودوق كنت ودوق غلوستر.

قد يكون من الجائز، نظريا، إخضاع هذه الاموال للضريبة، إلا أن نسبة كبيرة – قد تصل سنوياً الى مليون جنيه استرليني (نحو ١،٩ مليون دولار) – تذهب الى صيانة قصر بالمورال الذي قد تحول الضرائب دون بقائه في عهدة العائلة المالكة. وهذا، على ما يُظن، سيكون أمراً غير شعبي في اسكوتلندا.

وهناك، ثالثا، الدخل الشخصي للملكة الذي لا يُعرف مقداره ولا يخضع للضريبة. وقد ذُهل أهل قصر باكنغهام عندما ادَّعت مجلة "هاربرز أند كوين" في مارس (آذار) ١٩٩١ أن ثروة الملكة تبلغ ٦،٦ مليارات جنيه استرليني (نحو ١٢،٥ مليار دولار) بفائدة يومية مقدارها ١،٨ مليون جنيه (نحو ٣،٥ ملايين دولار). وسرعان ما انبرى اللورد ويات للدفاع عن صاحبة الجلالة مستشهداً بتصريح الحاكم السابق لـ"بنك اوف انغلاند" اللورد كوبولد الذي أعلن أمام إحدى لجان مجلس العموم بصفته كبير

الامناء: "إن صاحبة الجلالة قلقة للارقام الخيالية المتداولة... وتودني أن أؤكد للجنة أن هذه الايحاءات مضخمة جداً."

ويرجِّح ويات أن الرقم كان في حدود ٢٠ مليون جنيه استرليني (نحو ٣٨ مليون دولار)، ومهما بلغ حسن استثماره فلا يمكن اليوم أن يكون تعدى ١٢٠ مليون جنيه (نحو ٢٢٨ مليون دولار) لا تزيد فائدتها السنوية على ستة ملايين جنيه (نحو ١١،٤ مليون دولار).

وكانت المجلة ذكرت في المقال اياه أن للملكة عقارات في أوروبا وأمريكا الشمالية تقدر قيمتها بثلاثة مليارات جنيه استرليني (نحو ٥،٧ مليارات دولار). إلا أن مسؤولين في القصر يقولون بصراحة مطلقة إن الملكة لا تملك "سنتيمتراً واحداً" خارج بريطانيا.

ومعظم ثروة الملكة، بحسب مصادر القصر، لا يولِّد أي دخل. وباستثناء "غاليري الملكة" الذي تُحوَّل ايرادأته الى الصيانة، ليست ثمة ايرادات من المجوهرات أو اللوحات.

أخيراً، هناك الثروة التي ورثتها الملكة من والدها الملك جورج السادس الذي – حسبما تحتج ذريته – لم يكن ثرياً كما يُفترض، اذ تعين عليه شراء قصري بالمورال وسندرنغهام من أخيه إدوارد الثامن لحاجة هذا الى أموال نقدية تفي بمتطلبات منفاه المريح جداً بعد تنازله عن العرش. وقد صُرفت ثروة جورج السادس لاعالة أرملته الملكة الام وابنته الصغرى الاميرة مارغريت.

وتتعامل الملكة مصرفياً مع مؤسسة "كوتس." ويقال إنها لا تحمل مالا ابداً، مع أنها بدت في الفيلم الملكي الأخير كأنها تتسوَّق بنثرياتها الخاصة. ولكن في الواقع، اذا صادف ان احتاجت الملكة الى مال، فتتولى وصيفتها الدفع عادة.

وإن يكن ثمة مرتابون في أن الثروة الملكية أضخم مما يلزم، فعليهم أن يأخذوا في الاعتبار كيف تخفض الملكة من نفقات جياد السباق لديها. ففي أوائل ١٩٩١ كان لدى الملكة ٣٥ جواد سباق في التدريب. ومن المحتمل أن ينخفض هذا الرقم الى ٢٥ بحلول السنة ١٩٩٣. وكانت جياد الملكة ربحت عام ١٩٩٠ جوائز مادية بلغت ٢١٢ ألف جنيه استرليني (نحو ٤٠٠ ألف دولار) كما يفيد مدير سباقاتها إرل كارنرفون.

لكن اللورد ويات، وهو حسن الاطلاع بصفته رئيس هيئة رهانات سباق الخيل منذ العام ١٩٧٦، يقول: "مع اعتذاري الى الملكة، يخامرني شعور بأنها تتلقى خسائر جسيمة في السباق."

مع ذلك، من الممكن أن تدفع الملكة ضرائب على دخلها الشخصي. إلا أن ذلك قد يثير مشاكل متنوعة، لانه يعني اخضاع سندات الاستثمار الملكية لتدقيق قاس من

شأنه، اذا كشف مثلا أن للملكة أسهما في شركة أسلحة أو تبغ، أن يمنح مناوئيها نصراً مشهوداً.

وفي حين أن الملكة ليست عرضة للمحاسبة مثل أتباعها، يصر الملكيون على أن جوهر المؤسسة يكمن في الحفاظ على عنصر من الغموض فيها. فلئن بوشر التجريح في ذياك الغموض، فقد يعرِّض الملكية لأضرار لا تُجْبَر.

في البدء

عندما اعتلت إليزابث العرش في فبراير (شباط) ١٩٥٢، كان السفر جواً الى سيدني (أوستراليا) يستغرق ثلاثة أيام ونصف يوم. وكان ثمن سيارة "أوستن A 40 سومرست" ٤٦٧ جنيها استرلينيا اضافة الى ٢٦٠ جنيها ضريبة شراء. وكان "كوفاديس" الفيلم الجديد الرائج آنذاك. وكانت ثمة أعمال شغب مناهضة للانكليز في مصر، وببغاء اسمها "أولد بيل" احتُفل بالذكرى المئوية لميلادها في حديقة الحيوان بلندن، وممثل هزلي اسمه جيمي ادواردز انتُخب رئيساً لجامعة أبردين.

في عالم الامس شبه المنسي هذا، طارت الاميرة الشابة اليزابث يرافقها دوق ادنبره من مطار لندن في ٣١ يناير (كانون الثاني) للقيام بجولة في كينيا وسيلان (سري لانكا حاليا) و"الدومنيون الاوسترالي الكبير." وفي الصور الوداعية التي أُخذت في المطار بدا الملك جورج السادس ناحلا سقيماً. وكان، هو المدخن المفرط، خضع لجراحة في شهر سبتمبر (أيلول) العام السابق استؤصلت فيها احدى رئتيه لاصابته بالسرطان. إلا أن مايك باركر، الشاب الاوسترالي الذي كان وصيفاً لاصحاب السمو، يقول إن الملك بدا للحاضرين مرحاً معافى "وإلا لما سافرنا."

وبعد أسبوع توفي الملك. ومضى بعض الوقت قبل التمكن من الاتصال بمقر "ساغانا لودج" النائي في كينيا حيث كانت الملكة الجديدة وزوجها نائمين بعدما أمضيا هزيعاً من الليل في مراقبة الحيوانات البرية من فندق "تريتوبس" القريب. وحين أُبلغ باركر رسميا نبأ وفاة الملك، أيقظ الدوق ناقلا اليه الخبر، وترك له أمر إخبار زوجته. ويذكر باركر أن فيليب أصيب بصدمة بدا معها كأنما العالم هوى على كتفيه.

وبعد انقضاء بضع ساعات من يوم ٦ فبراير (شباط) المصيري ذاك، وبعد لغط حول تدبُّر طائرات مناسبة وسوى ذلك من الامور الطارئة، عادت الجماعة الملكية ميممة شطر لندن. وكانت الملكة شاحبة وهي تهبط سلم الطائرة حزينة العينين لتلاقي رئيس وزرائها ونستون تشرشل وزعيم المعارضة كليمنت آتلي اللذين اعتمرا قبعتين سوداوين عاليتين كما يقتضي العرف.

مات الملك! عاشت الملكة!

في اليوم التالي تلا المنادون في قصر سانت جايمس وفي وايتهول وفي تمبل بار وفي رويال إكستشينج البلاغ الجليل عن اعتلاء الاميرة العرش. وبذلك بدأ العهد الاليزابثي الثاني.

ومرت بضع سنوات كانت بمثابة شهر عسل مع الشعب. وأثارت حفلة التتويج في يونيو (حزيران) ١٩٥٣ مشاعر شعبية قوية. إلا أن السنوات الاولى لم تكن سهلة على الدوام.

فالزوجان الملكيان كانا يافعين وعديمي الخبرة، وهما يقرّان بذلك اليوم. وكانا أمضيا بعض الوقت في مالطا كزوجين شبه عاديين في البحرية الملكية حيث كان الامير فيليب قائداً للفرقاطة "ماغباي" التابعة للاسطول البريطاني في البحر الابيض المتوسط. ولو قيض للملك أن يعيش لكان فيليب، وهو الضابط البارع، استمر في عمله ولوصل الى القمة، كما يقول معاصره أميرال الاسطول اللورد ليوين. وتلك واحدة من الحسرات القليلة التي يعترف بها الامير فيليب اليوم.

ولم تكن الملكة آنذاك تعدت منتصف العشرينات من عمرها. وهي، حتى زواجها عام ١٩٤٧، أمضت كل حياتها مع عائلتها. الا أن المظاهر خدّاعة، اذ إن اليزابث "كانت على الدوام أكبر من عمرها وناضجة جداً وقوية،" كما يقول اللورد تشارتريس أمين سرها الخاص من ١٩٥٠ الى ١٩٧٧.

كما لم يبدُ عليها يوماً أنها ضاعت أو ضعفت أمام الدور الذي ورثته. فهي، كما يقول معجب غيور من رجال الحاشية السابقين، "كانت في البدء فتاة خجولة. إلا أنها سرعان ما نجحت في استخدام فتنتها، وأكاد أجرؤ على القول، جاذبيتها الانثوية، للفوز بقلوب أبغض الناس."

ولا شك في أنها استمدت قوة من والدتها "التي لا تقهر" ومن زوجها الذي يتمتع بشخصية قيادية جذابة وبتصميم ماض.

كان عمر ابنها تشارلز آنذاك ثلاث سنواتٍ ونصف سنة وعمر ابنتها آن ١٨ شهراً. وكانت إليزابث في تلك الآونة جهزت أول بيت حقيقي لها في قصر كليرانس هاوس الذي تشغله الملكة الام اليوم. فتلقت ضربة قاسية لاضطرارها الى ترك ذياك المحيط المريح المؤثث حديثاً والانتقال الى مجمّع المكاتب الكئيب هو قصر باكنغهام.

وبلغ الامر بدوق ادنبره حد تقديم اقتراح الى تشرشل بالبقاء في كليرانس هاوس واستخدام قصر باكنغهام مقراً للعمل، باعتبار أن المسافة الفاصلة بين المبنيين لا تتعدى بضع مئات من الامتار. إلا أن تشرشل رفض البحث في الموضوع.

ويتّفق الباقون من تلك الحقبة على أن تشرشل كان معجباً بالملكة الشابة، إلا أنه كان أقل ثقة بزوجها التقدمي الذي كان مصمماً، كما قال حرفياً، على "التكيف

والمواقف المتغيرة،" اذ كان يتعين على الملكية أن "تتحسس طريقها الى الظروف المناسبة." وليس أدل على ذلك من إبطال حفلات البلاط المخصصة لتقديم الناشئات اللواتي يظهرن في المجتمع للمرة الاولى، والتي كانت تعتبر جزءاً حاسماً من "موسم خروجهن."

وبدلا من ذلك، حولت الملكة وزوجها حفلات حديقة القصر بحيث أصبحت تقام في ثلاث مناسبات سنوية يضيفان فيها نحو ثمانية آلاف شخص يلتقون في المرجات الخلفية لقصر باكنغهام فيتناولون الشاي والقهوة والشطائر ويحظون بفرصة للقاء أحد أفراد العائلة المالكة أو مشاهدته على الاقل. إلا أن امتيازاً واحداً بقي من حفلات التقديم القديمة وهو السماح للمدعويين باصطحاب بناتهن غير المتزوجات اللواتي تجاوزن السن الثامنة عشرة.

ومن الصعب تحديد ما اذا كان تحديث الملكية هو نتيجة مبادرة مستقلة أم استجابة لضغوط خارجية. ففي العام ١٩٥٧، بعد وقت قصير من إبطال حفلات التقديم، توقف "شهر العسل" القائم بين التاج والشعب فجأة بعدما نشرت صحيفة واسعة الانتشار مقالا كتبه النبيل الايتوني اللورد ألترنشام مهاجماً عدة نواح من حياة العائلة المالكة.

وذكر ألترنشام الذي تخلى عن لقبه عام ١٩٦٣ ليصبح مواطناً عاديا اسمه جون غريغ، أن حفلة التتويج أثارت جواً نفسيا سطحيا وموقتاً. ووصف الاحتفال لاحقا بأنه "كان فصلا آخر من التصنُّع المهيب وطقوس التكلُّف والايهام تحالفت فيه وسائل الاعلام والقوى المحافظة العمياء في مجتمعنا."

أما ما أثار معظم الضجة وحجب نقاطاً أكثر خطورة فكان انتقاده خطب الملكة. وقد شرح ألترنشام لاحقاً أنه حين وصف أسلوب الملكة في الخطابة بأنه "مثير للازعاج" عنى أن عليها أن تجهد لتحقيق درجة أكبر من العفوية. وأضاف أن اشاراته الى "فتاة المدرسة المتزمتة" و"كابتن فريق الهوكي" وغير ذلك لم تعنِ أن جلالتها كانت أيا من تلك الصفات، بل هي بدت هكذا فحسب، لأن "شخصيتها الحقيقية كانت مخبأة وراء قناع من الملكية المصطنعة والابهة الكهنوتية."

وقد نال ألترنشام تقريعاً عنيفاً على أثر تلك التصريحات. وتلقى خلال الاسبوع التالي أكثر من ٢٠٠٠ رسالة احتجاج، كما صفعه أحد أعضاء "رابطة الموالين للامبراطورية" وتحداه أحد الملكيين الايطاليين للمبارزة.

ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى اتضح أن الغضبة لم تكن شاملة، اذ أفادت صحيفة "ديلي ميرور" أنّ بريدها حوى رسائل مؤيدة لانتقادات ألترنشام القاسية بنسبة أربع الى واحدة مناهضة. كما نشرت صحيفة "ديلي ميل" نتائج استطلاع وطني للرأي أظهرت أن ٣٥ في المئة من المستجوَبين كانوا مؤيدين لموقف ألترنشام فيما بلغت

نسبة المعارضين ٥٢ في المئة. ولوحظ أن هذه الارقام جاءت معكوسة في فئة معاصري الملكة والامير فيليب ممن راوحت أعمارهم بين ١٦ و٣٤ عاما، اذ بلغت نسبة المؤيدين لموقف ألترنشام ٤٧ في المئة فيما لم تتعدَّ نسبة معارضيه ٣٩ في المئة. واليوم يرى بعض المقربين من العائلة المالكة أن ألترنشام أدى، في الواقع، خدمة للملكية.

وكان شهر العسل الملكي انصرم على صعيد آخر أيضاً بعدما نُشرت عام ١٩٤٨ مقالة صحافية عن دوق ادنبره والممثلة بات كيركوود، صديقة الفنان بارون مصور المجتمع الراقي في تلك الآونة، على أثر مشاهدتهما معاً في أحد أندية لندن في ساعة متقدمة من الليل. وكان بارون حاضراً في تلك السهرة، كذلك ضابط بحري سويّ هو الكابتن "باشر" واتكن. ولم يحصل أي أمر غير لائق آنئذ، الا أن الرواية أطلقت عنان الألسن اللاذعة.

وفي العام ١٩٥٦ أبحر الدوق على متن اليخت الملكي في جولة مطولة حول العالم حمل خلالها العلم البريطاني الى أبعد أصقاع الكومنولث. وكان ذلك عملاً لائقا جداً، إلا أنه عنى أن الدوق كان بعيداً إبان الافتتاح الرسمي لدورة جلسات البرلمان، وان الزوجين الملكيين أمضيا الميلاد منفصلين. وبذلك تناقلت الصحافة الشعبية همسات عن "الصدع الملكي."

وفي فبراير (شباط) ١٩٥٧ اجتمع شمل الزوجين في لشبونة ضمن زيارة رسمية للبرتغال. وكان الدوق خلال جولته البحرية أرخى لحية بنية كانت محط اهتمام المصورين. وعندما دخل الطائرة التي أقلت زوجته الى لشبونة، فوجيء بجميع ركابها، من الملكة الى أصغر أفراد البيت، وقد ثبتوا على ذقونهم لحى زائفة. هذا الحس الفكاهي لدى الملكة، الذي شحذته سنوات من "التمثيليات" العائلية بعد العشاء، أبرز الزوجين جبهة متراصّة وضاحكة عندما خرجا لمواجهة المصورين، الامر الذي سدد طعنة نجلاء الى الاشاعات السارية آنذاك.

في تلك الآونة كانت "مؤسسة العائلة"، كما درج الملك جورج السادس على تسميتها، وحدة صغيرة جداً. فخلال السنوات الخمس عشرة الأولى من تاريخ العهد، كان الراشدون الوحيدون القادرون على تولي الواجبات الملكية هم الملكة والامير فيليب والملكة الأم والاميرة مارغريت والاميرة ماري ودوقة كنت الاميرة مارينا ودوق غلوستر ودوقة غلوستر. وكان لب العائلة المالكة ما سماه مايكل مان، عميد وندسور سابقاً، "الدائرة الداخلية" المكونة من الملكة الام وبناتها وكلهن قويات الارادة. وكما يقول مراقبو العائلة المالكة: "اذا التقى المرء احداهن فكأنه التقاهن جميعاً."

وهنَّ كنَّ، وما زلن، وثيقات الصلة بعضهن ببعض. وكما يقول أحد معارفهن: "إن

أكثر ما يثير المشاعر هو حرص الملكة الام على العناية بابنتها الملكة وايلائها رعايتها الكاملة حتى في أدق التفاصيل."

إلا أن حال العائلة المالكة تبدلت في أواخر الستينات عندما تفتحت في الملكة براعم أمومة متأخرة بولادة الامير أندرو عام ١٩٦٠ بعد عقد من ولادة أخته آن، والامير ادوارد عام ١٩٦٤. وعلى الطرف الابعد، كان دوق كنت والاميرة الكسندرا كبرا وباتا قادرين على تخفيف بعض الضغط عن كاهل كبارهما.

وأهم من ذلك كله كان بلوغ الامير تشارلز سن الرشد وتنصيبه في قلعة كايرنرفورن في مهرجان ملكي كان الاكثر أبهة وفخامة منذ احتفال التتويج.

ولم يكفِ بحر الصحافيين ووسائل الاعلام لتغطية مهرجان التنصيب، بل صوِّر شريط تلفزيوني خاص للمرة الاولى خلف أسوار قصري باكنغهام وبالمورال لاظهار أفراد العائلة المالكة أناسا عاديين يتمتعون معا بوجبة شواء (يتفاخر الامير فيليب بمهارته في إشعال الفحم) والتسوق في بالاتر ومكافأة الجياد باطعامها السكر والجزر.

كان مجرد التفكير في مثل هذه الايحاءات غير وارد قبل خمس سنوات. وقد رأى جون غريغ، الناقد العنيد والبنّاء في آن، أن تأثير الشريط كان قوياً في الملكة نفسها. وهو كتب عام ١٩٧٠: "لا بد أن التقدير العالمي الذي حظيت به شخصية الملكة الطبيعية، كما انقشعت أخيراً، برهن لها أن السحر في منصبها لا يعتمد على الإلغاز والتعمية، بل يبلغ أقصى فاعليته عندما يتضافر مع العفوية والحقيقة. وهناك اليوم دلائل على أنها باتت أكثر ثقة بالنفس... وأكثر قابلية للخروج من اطار أدوارها المنصوصة. فهي بدت في أوستراليا هذا العام (١٩٧٠) مرتاحة وسط الجماهير على نحو لا سابق له، وللمرة الاولى مشت بعفوية بين الناس." ومنذ ذلك الحين بات المشي الملكي وسط الحشود أمراً مألوفاً.

ويعود معظم الفضل في مبادرة اقتراح الفيلم الى السكرتير الصحافي الجديد آنذاك بيل هيزلتاين الاوسترالي المرح وأحد أكثر رجال البلاط نفوذاً. وينسب جون غريغ نجاحه الى أنه كان مختلفاً جداً عن المسؤولين التقليديين في القصر. "ولكن،" يضيف غريغ، "على المرء اعتباره استثنائيا لسوء الحظ، لأن هيئة العاملين في القصر لم تتطوَّر الى حد تمثيل الكومنولث ككل. وتحديداً، ليست هناك الى الآن وجوه سمر أو سود أو صفر بينهم، وهذا بالتأكيد خطأ فادح."

وراء القناع

يقول جايمس أور أمين السر الخاص السابق للامير فيليب: "إن سُئلت عن رأيي في الملكة، فسيكون ردي الفوري إنها امرأة انسانية طبيعية بكل ما في هذه العبارة من

معنى، تضع بلادها وعائلتها والعاملين معها قبل نفسها." ويشهد بيل هيزلتاين الذي تقاعد عام ١٩٩٠ ويعيش اليوم في أوستراليا: "ان رئيستي السابقة هي الشخص الاكثر استقامة بين الناس."

وخلف صورتها الشعبية القاسية وغير الباسمة غالباً، تكمن صورة خاصة مسلية ومرحة وعفوية. وقد أخبرني أحد المقربين من الدائرة الملكية كيف دخل أحد الحجّاب يوماً غرفة الجلوس في قصر وندسور ليقول إن هناك مكالمة هاتفية للملكة. فاستأذنت جلالتها وخرجت من الغرفة لتعود بعد لحظات وتقول مبتسمة: "آسفة، يطلبون ملكة أخرى!"

وهي، الى ذلك، تضحك من نفسها أحياناً، مع أنها لا تعتقد أن ذاك أمر لائق على الدوام بالنسبة الى ملكة. فخلال حفلة غداء أقيمت عام ١٩٧٢ في لندن غيلدهول لمناسبة اليوبيل الفضي لزواجها أضحكت الامة عندما بدأت خطابها بالقول: "أعتقد أن لا أحد سيجد ضيراً اليوم في أن أبدأ خطابي هذا، استثناءً، بعبارة: زوجي وأنا."

ويذكر روبن وودز كيف بدأ الجليد يذوب تدريجا بعد انتقاله عام ١٩٦٢ لتسلم منصب عميد وندسور. وكان لأفراد عائلته الذين قاربوا أولاد الملكة عمراً، الفضل في تحطيم العوائق. لكنه، مع ذلك، بقي طوال ثلاث سنوات يراعي ارتداء زي العميد كلما أذنت الملكة باستقباله. وفيما كان ذات يوم عطلة منهمكا في العناية بحديقته، اتصل به حاجب الملكة ليخبره أن جلالتها تطلب مقابلته في أسرع فرصة ممكنة. فرد العميد أن عليه تبديل ملابسه أولا. فكرر الحاجب الرسالة، لكن العميد أصر على موقفه. وأخيراً، ذهب الحاجب ليستشير سيدته، ثم عاد حاملا أمراً يقضي بحضور العميد من فوره وبأن لا أهمية لما يلبس من ثياب.

ولدى وصول العميد وجد أن الملكة ما زالت مرتدية سروال ركوب الخيل. ومنذ ذاك الحين صرف النظر نهائياً عن ارتداء اللباس الرسمي في مثل هذه اللقاءات. ومع أنهما لم يتداولا هذا الموضوع أبداً، فقد شعر العميد بأن الأمر شكل تحرراً من التحفظ القائم في العلاقة بينهما.

وفي وسع الملكة أن تكون متساهلة جداً في شأن ما ترتديه في مناسبات خاصة أو شبه خاصة. ففي احدى المناسبات، حين كانت تعرض الاسطول البريطاني من على متن اليخت "بريطانيا"، كانت ترتدي سترة احتفالية، الا أنها بقيت، على نحو غير مرئي الا لحاشيتها المباشرة، مرتدية سروالا دافئاً لاتقاء نسمات القناة الانكليزية الباردة.

ولكن نادراً ما يلمح الشعب مليكته عفوية هكذا. وقد عبر أحد خدامها السابقين المخلصين عن هذا الواقع متحسراً: "لقد أمضيت كثيراً من وقتي محاولا أن أدع

الشعب يرى الملكة التي أعرف وأحب. ولا أظنني نجحت في ذلك. إنها في الواقع أكثر طيبة ومرحاً مما يُظن غالباً. كما أنها تتصف بنزاهة قل نظيرها."

* ذات يوم كانت الملكة مع شلة من الاصدقاء يتناولون طعام الغداء في الهواء الطلق في بقعة منعزلة من عزبة بالمورال حيث لا اعتبار للملكية الخاصة في العرف الاسكوتلندي. وفيما قبعت الجماعة متخمة متكاسلة بعد وجبة دسمة، مرت بها مجموعة من المتنزهين.

فجأة استدار أشجعهم وبادر جلالتها: "يقولون إنك الملكة."

فأجابت: "نعم، هذا هو الواقع."

فسألها المتنزه: "إذاً، ماذا تفعلين هنا؟"

فأجابت الملكة ببساطة: "اني أسكن هنا."

وفي حين أُخذ صحب الملكة على حين غرة، بقيت هي محافظة على رباطة جأشها. وكان ردها، كما يقول أحد مرافقيها، "مقتضباً لا اصطناع فيه ولا مواربة. وتلك هي إحدى أبرز صفاتها: صدق باهر وتواضع لافت."

وعلى رغم ذلك درج ريتشارد كروسمان، عندما كان رئيساً لمجلس اللوردات، على انتقاد شكليات الحياة الملكية. إلا أنه، ككثيرين غيره، كان متأثراً بالملكة شخصياً. فكتب: "إنها تضحك بملء وجهها، ولا تستطيع تصنُّع ابتسامة لأنها عفوية حقاً."

ولسوء الحظ، كما يقول كروسمان، "عندما تستحوذ مشاعر قوية على الملكة فتحاول السيطرة عليها، تبدو مثل سحابة راعدة. لذلك تراها، حين تتأثر بتصفيق الجمهور، عكرة المزاج على نحو مريع."

ويذكر السر ادوارد بريدجز الذي كان سكرتير الخزانة خلال السنوات الاولى من عهد الملكة، ما جرى في أحد اجتماعات مجلس شورى الملكة عندما طغا الارتباك على أربعة من المستشارين فيما كانوا راكعين أمام مليكتهم، فراحوا يعدون على ركبهم هنا وهناك. ثم أوقعوا كتاباً عن طاولة، فسارعت الملكة الى التقاطه وقد بدت تتميز غيظاً. وبعد الحادث اعتذر السر ادوارد على ما حصل من فوضى. فردت الملكة: "أتعلم؟ كدت أنفجر ضاحكة."

المشكلة هي أن على الملكة أن تكون دائمة الاحتراس للحفاظ على مسافة فاصلة بينها وبين أتباعها مهما تكن علاقتها بهم حميمة. ويذكر هيو كاسون ما حصل في قلعة وندسور عندما استدعي لابداء رأيه في بعض أعمال التجديد. فقد دخلت الملكة مرتدية ثوباً بالغ الاناقة، فسارع هيو الى إطرائها، ثم تقدم منها من غير تفكير وأمسك طرف سترتها متفحصاً. وفي اللحظة نفسها أدرك أنه تخطى حدوده. ومع أن الملكة لم تقل شيئاً، كما يذكر السر هيو، فقد "شعرتُ برنة صقيع."

فبحسب الاسلوب الانكليزي البحت، لا شكليات تحدد مثل هذه الخطوط الفاصلة. وكما يقول أحد المساعدين القدامى: "لا أحد يخبرك شيئاً،" فعلى المرء أن يستوعب القواعد المتبعة في عملية امتصاص غامضة.

وقد أخبرني ضيف لقصر بالمورال كان هناك أثناء حفلة عائلية صغيرة، عما واجهه لدى فروغ الجمع من تناول الشاي وانتقال الملكة الى طاولة صغيرة للتبصير بالورق (الكوتشينة). فهو حار بين الجلوس بعيداً عنها حيث قد يبدو فاتراً، والجلوس قريبا منها حيث قد يبدو متواقحاً.

وبعد لأي، اختار كرسيا بدا له حلا وسَطا. وسرعان ما لاحظ أن الملكة كانت تنظر اليه. ولم تمضِ لحظات حتى دعته الى الاقتراب منها، وراحت تشرح له قواعد اللعبة.

وفي المساء، قبيل العشاء، تحدث أمين السر الخاص الى الضيف قائلا: "ذلك الكرسي الذي جلست فيه بعد الظهر هو كرسي الملكة فيكتوريا الذي لا يجلس فيه أحد سواها."

وأمناء السر الخاصون وغيرهم من الموظفين الملكيين مقربون من الملكة. حتى المربية ماريون كروفورد "كروفي" التي عملت ردحا مع العائلة المالكة وخانت الامانة باعتبارها أول مَنْ درج على نشر القيل والقال، كان لها تأثير في الاميرة الشابة.

وكان ثمة تأثير أعمق عرفت به الممرضة مارغريت "بوبو" ماكدونالد التي التحقت بخدمة العائلة المالكة عندما كانت إليزابث طفلة، ثم أصبحت "مُلبستها"، وما زالت، في سن تقاعدها، تعيش في شقة خاصة داخل قصر باكنغهام. ويدعي دوغلاس كي، أحدث كاتبي سيرة الملكة وأوسعهم اطلاعاً، أن بوبو تتمتع "بصداقة شخصية مع الملكة تعتبر أوثق عرى من سواها. ويتهيبها حتى أرفع الموظفين مقاما في القصر."

واللورد كارنرفون هو أيضا صديق قديم وموضع تقدير. كذلك الليدي سوزان هوسي، زوجة المرمدوق هوسي رئيس حاكمي هيئة الاذاعة البريطانية (BBO)، التي عملت في القصر منذ ١٩٦٠ بصفة "سيدة غرفة النوم" أي وصيفة للملكة عالية المقام. ولدى ولادة وليم أمير ويلز عام ١٩٨٢ طلب منها أن تكون عرابته، وهذا شرف كبير لوصيفة ملكة.

وكان امين سر دوق ادنبره اللورد روبرت نيفيل، الذي توفي عام ١٩٨٢ وهو في منصبه، صديقاً مقربا من الملكة والدوق معا، وما زالت أرملته صديقة حميمة لهما. وهناك أيضاً شخصيات غامضة لا يعرفها حتى أوثق المراقبين الذين لجأوا في التحدث عنها الى عبارات مثل: "... وكان هناك ذلك الرجل الذي يأتي دائماً الى وندسور في الميلاد."

ويحضر تلك اللقاءات العائلية أحفاد الملكة الستة الذين يراوحون عمراً بين بيتر

اهتمامها بالخيل. وفي مناسبات غير رسمية تتنزه برفقة كلابها الكورجي السبعة: فينيكس وفاروز وفيبل وميث وسبارك ودياموند وكلبي. وهي لا تحبها لولائها المطلق فحسب، بل لأنها وسيلة لكسر جليد التحفظ في بعض المناسبات الاجتماعية، يُلجأ اليها كموضوع للحديث في اللحظات الحرجة.

وفي مناسبة راج الحديث عنها كثيراً، تعرضت الملكة لعضة وهي تحاول تفريق مجموعة متناحرة من كلابها. كما ظهرت في بعض المناسبات ملطخة بالوحل بعد محاولتها تملق كلابها لكي لا تلعب بالتراب في الحدائق. واذا ما غاط كلب على سجادة، فتتولى الملكة تنظيفها بنفسها. فهناك أمور لا يمكن أن يطلبها المرء من الخدم.

نحو المستقبل

السؤال هو: هل الملكية في بريطانيا قادرة على البقاء؟

نورمان ستون، أستاذ التاريخ الحديث في جامعة أوكسفورد، ينحو الى اعتبار الملكية رمزاً للخلل في بريطانيا.

ولكن عندما يُطرح السؤال: ماذا بعد الملكية؟ نجد حتى الاستاذ نورمان ستون مضطراً الى تقطيب جبينه حيرة. فالرئيس المفترض سيكون حتماً شخصية أقل لمعاناً من ملك. كما أن ليس في الرئاسات الاجنبية، في الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا مثلاً، ما يوحي أن الرئيس سيكون أقل كلفة أو سيرئس بلداً أكثر ديموقراطية.

وفي استطلاع للرأي أجرته مؤسسة "غالوب" ونشرته صحيفة "ديلي تلغراف" في يوليو (تموز) ١٩٩١، تبين أن ٧٥ في المئة من جميع المستجوبين و٦٠ في المئة ممن لم يتجاوزوا الخامسة والعشرين من عمرهم يعتقدون أن البلد يحتاج الى عائلة مالكة. ١٢ في المئة فقط أرادوا إلغاء الملكية مع نهاية القرن العشرين.

ليست هذه الارقام مثيرة في تاريخ بريطانيا. وكما ذكر الكاتب والمؤرخ فيليب زيغلر، شهدت السنوات الخمسون الماضية، منذ بدء استطلاعات الرأي حول الملكية، نسبة ثابتة من المعبرين عن اتجاهات جمهورية بلغت نحو ١٠ في المئة. وفي العام ١٩٧١ الذي شهد فورة غضب على الموازنة الملكية، قفز هذا الرقم الى ١٩ في المئة. ومع ذلك، يقول زيغلر، "تلتمع أضواء الخطر."

واذا أخذنا في الاعتبار مزاج الملكة المحافظ، لوجدنا من غير المحتمل أن تتغير المؤسسة كثيراً ما دامت هي على رأس السلطة. فهي لم تكن يوماً عرضة للذعر، كما لم تنفك يوماً عن الأخذ بالمشورة الصالحة.

والملكة، بتعبير صديق قديم لها، "آمنة في حكمها ومنصبها الى حد أنها لا تربأ بالحملات السخيفة التي تشنها وسائل الاعلام."

ومع مرور السنين، وتحول أمير ويلز الى منتصف عمر قلق وغير مشبَع كما يبدو، تتضافر أصوات النقاد الاعلاميين مطالبة الملكة بالتنحي له، تماماً كما تنحت ملكة هولندا جوليانا لابنتها بياتريكس. ولكن، كما يقول اللورد تشارتريس، "التنحي كلمة بذيئة."

فالملكة الام لم تغفر أبداً لشقيق زوجها ادوارد الثامن تخليه عن العرش. وتعتبر الملكة أن تكريسها هو التزام واجب يقضي بعدم التخلي عن لقبها أو دورها أبداً. والتنحي موضوع بحثت فيه الملكة مع مستشاريها على نحو غير رسمي، لكن أي ذكر رسمي للموضوع في القصر يُرد عليه نفياً رسمياً مفاده أن الملكة لا تفكر في التنحي.

لقد عاشت الملكة والملكية ٤٠ عاماً من المتغيرات الدائمة في جميع المجالات، واستطاعتا التكيف والبقاء منارتي ثبات في عالم غير ثابت. ويقول اللورد تشارتريس: "لا أدعي أن الملكية حالت دون حدوث ثورة حمراء، لكنها ما انفكت تشكل تأثيراً مهدئاً في الامة. وهي استطاعت، على رغم كل شيء، الحفاظ على مقدار كاف من غموضها وجلالها."

أما العلاقة الخاصة بين الملكة وشعوبها وبقية العالم، فهي بلا ريب غامضة ومتعذرة التفسير جوهرياً. لكنها تبقى سليمة على رغم الصعوبات. ولا يمكن إنكار هذه المأثرة.

تيم هيلد ■

ترجمة فريد شديد



الحق على الهاتف

من عادة خالتي الاتصال بنا لتعلمنا بعزمها على زيارتنا، وفوجئنا بها ذات ليلة تصل من دون اتصال. وسرعان ما اكتشفت اننا لم نكن نتوقع زيارتها فسألتنا: "ألم تتلقوا اتصالي، لقد سجلتُ كلمة "سوف آتي الليلة لزيارتكم" على آلة الرد على المخابرات؟" فقالت لها امّي: "لكننا لا نملك آلة لتسجيل المخابرات!"

فاعترى خالتي القلق وقالت: "يا للأسف، كيف الوصول الآن الى من اتصلت به، لا بد انه ينتظرني."

ا.د.

الروح هي مركز الانسان العميق والحميم الذي لا يمكن اختراقه والذي يبقى اي طغيان عاجزاً عن تحطيمه.

جان - بول كوفمان - باريس

خاص - ١

طريق الحرير

على خطى ماركو بولو

بقلم فرغوس م . بوردفيتش

OTO: COMSTOCK

طَريق الحرير

رحلة زاخرة بالاثارة والغرابة
على عظمى الطرق التجارية في العالم القديم

بدأت رحلتي على طريق الصين ذات صباح خريفي في مدينة بشاور الباكستانية. كانت الاكشاك (الدكاكين) الركيكة التي أحاطت بي في بازار قيسا خواني[1] مثالاً للتناسق والعنف المتلازمين في هذه المنطقة الحدودية الآسيوية المرتجلة. كان حرفيون بلحى مسترسلة يطرقون ألواحا من الذهب الى زخارف عربية بسماكة الورق، فيما جيرانهم يخيطون أجربة لرشاشات الكلاشنيكوف من الفينيل الاصفر الليموني. وعلى مقربة منهم حلاقون أقاموا حوانيت في الزوايا يقصون فيها شعور مقاتلين أفغان عائدين من الجبهة التي تبعد عشرات الكيلومترات غربا.

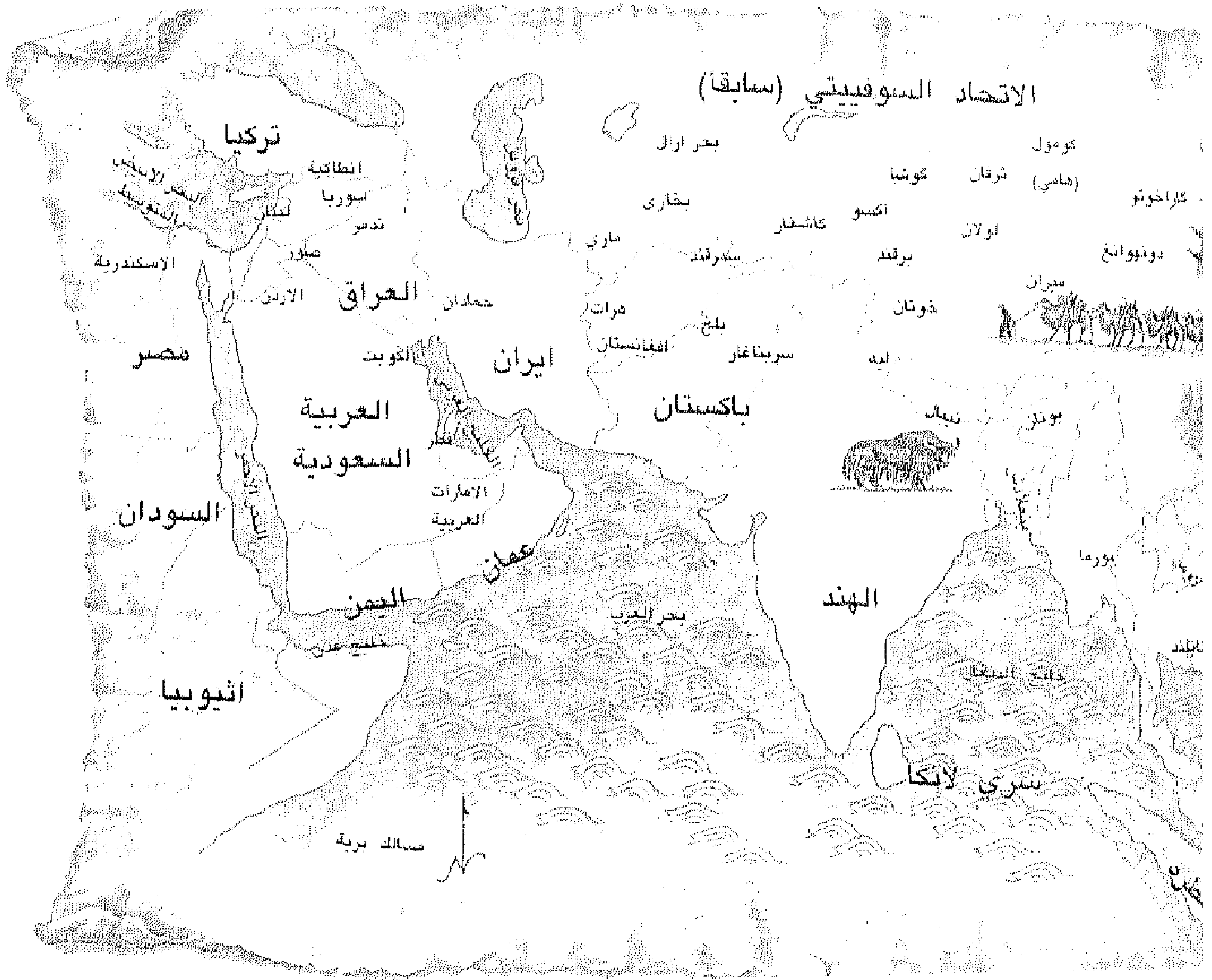
وسط الدكاكين هناك، حيث تباع الاواني النحاسية والعمامات وأحزمة الرصاص والمسابح والصنادل، طالعتني صورة عالم مختلف، وأذهلني أن أرى في متجر يبيع أدوات منزلية لوحة رائعة لقصر الامبراطورة الأم في بكين منسوجة من الحرير، أيقظت فيَّ صورة أرض كعالم أحلام بدت لي بعيدة جدا.

تلك الارض كانت مقصدي.

كنت أقف في تلك اللحظات على مفترق أعظم طريق تجارية في العالم القديم. انها "طريق الحرير" التي ربطت الصين وروما على امتداد قرون طويلة ببلاد فارس والسهوب الروسية وشبه القارة الهندية. وحين شقت طريق كاراكورام السريعة في العام ١٩٨٦ وفتحت الصين أبواب مقاطعتها الغربية القصية[2] للاجانب، بات ممكنا عبور الجزء الاكثر صعوبة واثارة للمرة الاولى منذ ٤٠ عاما.

سوف أمضي مسافرا على خطى ماركو بولو[3] أتبع طريق الحرير الممتدة مسافة ٦٥٠٠ كيلومتر على طول الضفة العليا لنهر الهندوس، عبر وادي هونزا الذي كان

(١) البازار سوق شرقية.
(٢) كانت تعرف باسم إقليم سينكيانغ - ويغور المتمتع بالحكم الذاتي.
(٣) ماركو بولو ١٢٥٤ - ١٣٢٤ رحّالة فينيسي قام برحلة الى الصين.



اختراقه شبه مستحيل في زمن ما، وذاك الممر في جبال كاراكورام (قره كورام) الذي يعلو ٥٠٠٠ متر، وصولا الى تركستان الصينية والتفافاً حول أطراف صحراء تكلاماكان الى واحة دونهوانغ المنسية منذ عصور، وأخيراً الى شيان عاصمة سلالة تانغ الصينية (٦١٨ - ٩٠٧ ميلادية) ومنتهى طريق الحرير في زمن مجدها.

حرير روما

شُقّت طريق كاراكورام الحديثة السريعة بفضل جهد مشترك بين الصين وباكستان. واستغرق بناؤها قرابة عشرين عاماً، كانت فرق العمال خلالها تحفر الاسس في الصخر كيلومتراً بعد كيلومتر. وكانت الدولتان خاضتا مناوشات حدودية قصيرة مع الهند في الستينات، وصممتا الطريق كممر استراتيجي يسمح للواحدة منهما بتعزيز حليفتها وتموينها في حال تجدد النزاع.

في القرون الخوالي، كان توق روما الى الحرير الصيني هو الذي أدى الى توسيع

الطريق العظيمة. كانت الثياب الحريرية آنذاك غالية الثمن الى حد أن الامبراطور تيباريوس حاول سنة ١٤ (ميلادية) منع الرجال من ارتدائها، لكن جهوده ضاعت بدليل أن الأديب الروماني بلينيوس الأصغر كتب بعد قرن شاكياً من أن استيراد الحرير ووسائل الترف الأخرى يستنزف ١٠٠ مليون سسترس[٤] من خزينة الدولة سنوياً، كما شاع في وقت لاحق أن الحرير كان يباع في روما في مقابل وزنه ذهباً.

وتنتج الحرير دودة القز التي تتغذى بورق التوت، فتطرى شرنقتها القاسية بالماء الغالي ثم تحل بجهد كبير الى خيوط يمكن نسجها أثواباً. وكان الحرير منذ أقدم الأزمنة احتكاراً رسمياً في الصين وعنصراً أساسياً في الاقتصاد، الى حد أن الضرائب والرواتب ومعاشات الجنود كانت تدفع أثواباً من الحرير. وقد حمى الصينيون سر انتاج الحرير قروناً، وكان الناس في البلاد الأخرى يظنون أنه ينمو على الاشجار... الى أن تمكن راهبان - كما تقول الأسطورة - من حمل بعض دود القز حياً الى القسطنطينية في عصيهما المجوفة في القرن السادس الميلادي، ومن ثم انتشرت صناعة الحرير في العالم.



راع وقطيعه على طريق كاراكورام في باكستان.

ولطالما نقلت منتجات أخرى على طريق الحرير. فقد صدرت الصين (أو آسيا الوسطى) الى الغرب الورق والطباعة والقوس والنشاب والبارود والنباتات المحلية مثل الورود والأقحوان والخوخ والاجاص، فيما حملت القوافل المتجهة الى الصين الذهب وحجر اليشب (الجاد) والصوف والكتان والمرجان والكهرمان والتين والزجاج. وعبرت الطريق ديانات عدة: المسيحية النسطورية من الغرب، والاسلام من الشرق الاوسط، والمانوية من بلاد فارس، والبوذية من الهند، وهذه حولت منحى الفكر الصيني الى الأبد.

استأجرتُ سيارة "فيات" هرمة وانطلقت من بشاور عبر بلدات بيوتها من طين،

(٤) السسترس عملة رومانية قديمة.

حيث تعرض في واجهات الاكشاك بنادق رشاشة للبيع، وحيث تحمي المتاريس منازل أنيقة يسكنها تجار السلاح والمهربون الذين اعتادوا منذ القدم التجول بحرية في مناطق الحدود الشمالية الغربية بعيداً عن رقابة السلطة. وعلى مسافة أقل من ساعة في السيارة الى الشمال من بشاور، طالعتنا الجبال بدءاً من ممر ملقند بتشكيل فوضوي من الحجار والصخور البركانية فرض على البنائين شق الطريق الضيقة عبر منحدرات شبه عمودية وحول منعطفات حادة خطرة وصولا الى معقل شاهق من البيوت ذات الأبراج وحقول صخرية ينمو فيها القمح أخضر ساطعا. فجأة، صار الهواء خفيفاً وشديد البرودة فيما غصت الحقول بالصبايا القرويات.

لمحت على جانب الطريق تمثالا مقطوع الرأس محفوراً في الصخر، فخطرت ببالي قصة هسوان تسانغ، رحالة القرن السابع، الذي شد رحاله من شيان الى الهند سعياً الى النصوص الأصلية للبوذية ليعود بها الى المملكة الوسطى. وفي الطريق نفق حصانه وتخلى عنه أدلاؤه فيما حذره أحد المسافرين من أن الدرب محفوفة بالعفاريت والرياح النارية. لكنه تابع سيره بعزم مدفوعاً بايمانه ووصل الى الهند حيث أمضى عشرة أعوام قبل أن يعود الى الصين بحمل من المخطوطات الثمينة مشدود الى ظهره، عابراً هذه الطريق ومارأ على مقربة من قلب مرتفعات كاراكورام الشاهقة.

جهد سائقي محاولا تجاوز شاحنات ضخمة هي وريثة قوافل الجمال من الأيام الخوالي. كل واحدة منها مزينة بصور انطباعية رسمت على جوانبها، من طيور منقضة ونمور واثبة الى مساجد وقباب ومآذن، وهي تنقل أكداسا من البضائع ورجالا معممين متمسكين بجوانبها أو بسقوفها متحدين قوانين الجاذبية عند كل منعطف. كانت طبيعة الارض تزداد وعورة، وكنا في كثير من الأحيان نضطر الى قيادة السيارة بحذر حول جلاميد ضخمة انهارت على الطريق. وأطلت علينا مجالد[٥] من فوق المنحدرات الصخرية، ورأينا أنهاراً زمردية تشق طريقها في صخور الأعالي لتتساقط عشرات الأمتار قبل أن تصبّ في مياه نهر الهندوس الرمادية.

معمّرون

وصلت الى هونزا في حلكة الظلام لاكتشف فوضى من الاكواخ تبعث على الكآبة بدلا من البلدة التي توقعت رؤيتها. فجأة برز وجه أسمر مرح قرب نافذة السيارة ليعلن بالانكليزية: "لا يمكن السيارة أن تتابع الطريق يا سيدي!" فنزلت متثاقلا واستأجرت سيارة جيب من طراز "ويليس" تصلح لمتحف بناء على اصرار الشاب الذي علمت لاحقاً أنه يدعى أمير خان.

(٥) المجلدة (glacier) نهر جليدي.

انطلقنا في درب محفرة على طرف هوة تكاد لا ترى ذات انحدار سحيق الى درجة أنني وجدتني مستلقياً على ظهري في مؤخر الجيب محدقاً الى النجوم عبر وجه السائق القرصاني المظهر. وتناهى الى مسمعي من الخلف صوت حسبته صوت مذياع، لكن أمير خان تطوع ليقول لي: "ليس هذا صوت راديو، إنه صوت صاحب السيارة!" كان ما سمعته صوت رجل تعلق بمؤخر الجيب على نحو لا يمكن تصوره، متمسكاً بطريقة لا يمكن فهمها. وسرعان ما اتضح سبب اتخاذه هذه الوضعية، اذ عندما واجهت السيارة مقطعاً من الطريق لولبياً وأشد انحداراً من ذي قبل، وثب صاحبنا الى الامام لينبطح على مقدم السيارة محاولا منعها من الانقلاب الى الخلف.

وبعد دقائق خلتها دهراً وصلت الى خان مريح دافىء حيث تناولت العشاء، وكان وليمة جبلية من الملفوف المسلوق ولحم الضأن.

تكشّف ضوء الفجر عن مدرج رحب من الطبقات الصخرية شديد الانحدار مكسو بالثلوج يحيط بواد ملتف كأفعى يحتضن بساتين من الفاكهة غنية بالمشمش والتفاح والدراقن والجوز والعنب الأبيض النضر. وكانت الجداول الجليدية تسيل من القمم البعيدة وتشق طريقها عبر غابات من شجر الحور.

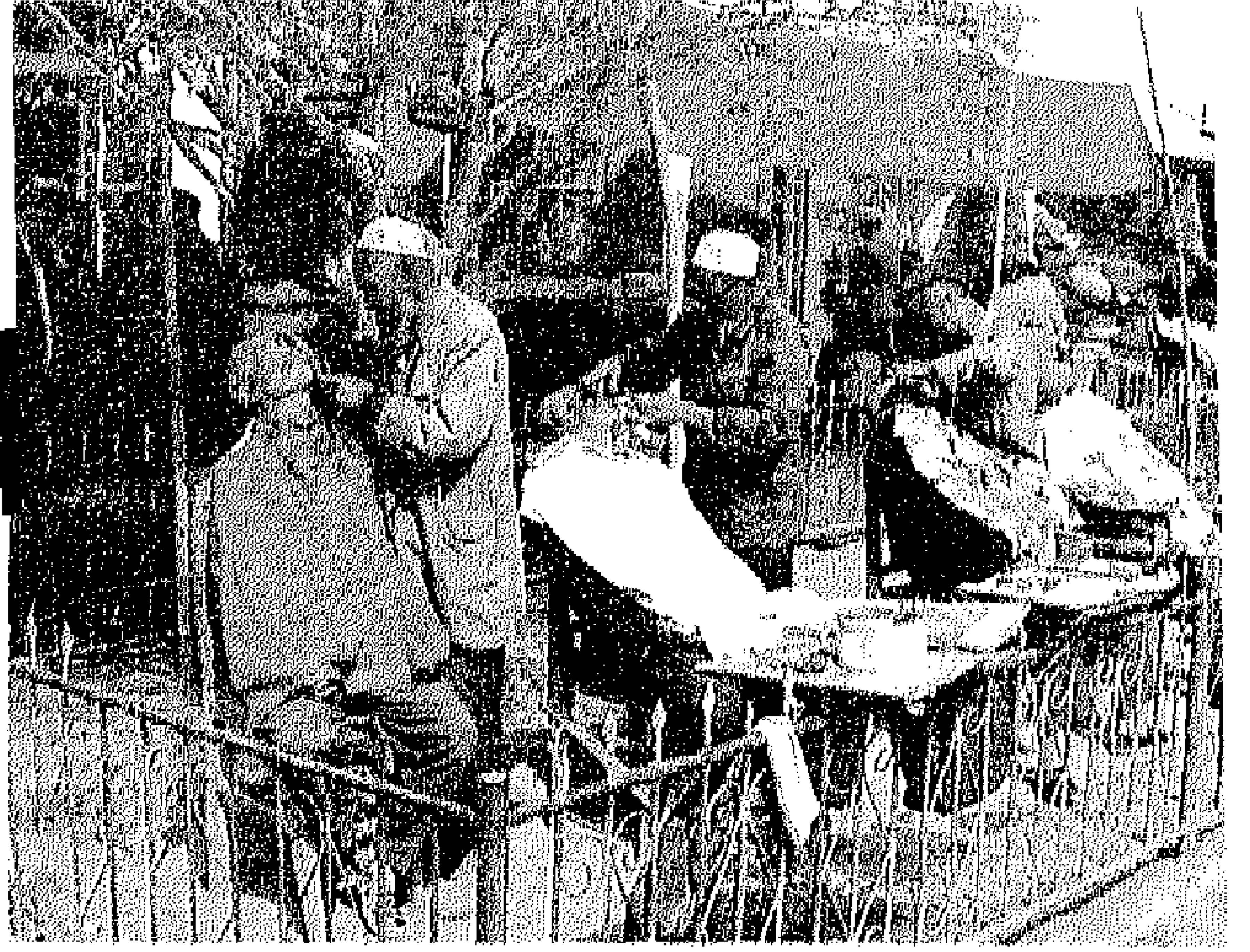
من حصن بالتيت على الحافة فوق الأكواخ الطينية حيث كانت بلدة كريم أباد عاصمة الهونزا، حكم أمراء الهونزا واديهم حتى السبعينات من هذا القرن عندما أحكمت باكستان سلطتها عليهم.

ويحيط الغموض بأصول الهونزوكوت، كما يسمي السكان المحليون أنفسهم. فبعضهم سود الشعر بارزو الحاجبين متحدرون من القبائل التركية التي اكتسحت معظم آسيا الوسطى قبل ألف عام. على أن الغالبية تبدو، في ما عدا ملبسها الذي يشبه البيجاما، أوروبية المظهر الى حد مذهل.

ووادي الهونزا نموذج مثالي لأرض "شانغريلا"[٦] الخيالية التي خلّدها جايمس هيلتون في الثلاثينات في روايته الكلاسيكية "الأفق المفقود" التي تروي قصة غربيين جيء بهم الى واد في التيبت يعمّر حكامه قروناً لأنهم لا يعرفون الطمع ولا الخوف ولا الغضب ولا التنافس. شانغريلا هي طبعاً تصور نقي لفكرة البراءة والخلود، لكن كثيرين من الهونزوكوت يعيشون فعلا الى أعمار غير مألوفة.

أعلن أمير خان ليلة وصولي: "لم تقع هنا جريمة قتل واحدة منذ مئة عام يا سيدي! لا أثر للجريمة اطلاقاً، فنحن شعب مسالم يا سيدي!" وأخبرني أن جده بلغ من العمر ١١٥ عاماً، "وهو لا يزال يعمل يا سيدي." ثم تبيّن لي أن أمير هذا، الذي لازمني طوال إقامتي في الهونزا، هو شاب طموح في الثانية والعشرين من العمر يدرس الانكليزية

(٦) Shangri — la





منظران في شوارع كاشغار الصينية حيث يتابع الويغوريون طرق حياتهم القديمة في عالم لم يتغير الا قليلا منذ زمن ماركو بولو.

ويكتب مقالات لصحف باكستانية حول شؤون "الاقتصاد والتجارة والانفتاح على العالم عبر طريقنا السريعة الحديثة يا سيدي!"

أخذني أمير ذات صباح لرؤية جده شايتام خان. وأخبرني، حين جمعنا مع جمهرة من الاقرباء في يكة صفصاف ممتدة من منزل شايتام الحجري حتى الشارع، أن جده "يحب الجلوس في العراء."

كان شايتام، الذي ما زال يفلح مصاطب حقوله يدوياً، ذا وجه لوحت الشمس والريح ملامحه القاسية، تعلو رأسه كتلة من الشعر الابيض القاسي نفرت خصل منه من تحت قلنسوة صوفية بيضاء كأنها قشرة عرنوس ذرة يابسة. سألت شايتام عن سبب طول أعمار الهونزوكوت، فأجابني من دون تردد: «نحن لا ندخن، ونأكل جيداً، ونحتسي شراب المشمش كل صباح. وهذا الشراب هو السبب الأهم."

سألته: "وما رأيك في الطريق السريعة الجديدة؟" ظاناً أنه سيبدي أسفه لتدنيسها حرمة الوادي وصفاءه. لكنه فاجأني بجوابه: "إننا نحبها! كان الواحد منا يمتطي حصانه لأسابيع اذا رغب في الذهاب الى أي مكان. أما الآن فإنه يركب حافلة ويزور من يشاء في غضون ساعتين. كما صار في امكاننا الآن أن نأتي بالرز والطحين والزبدة من المناطق الواطئة البعيدة، وهي مواد لم نكن نعرفها من قبل. وأفضل ما في الطريق أنها تأتي بالأجانب الذين يصرفون المال هنا ويجعلوننا أغنياء. من الحماقة ألا نحبها!" فوجدت من الصعب مناقشة منطق عنيد كهذا. وتذكرت أن شانغريلا ليست الا جنوح خيال انسان أجنبي.

PHOTOS: FERGUS M. BORDEWICH

عند الفجر، في جو رذاذي حجبت ضوءه السحب، حشرت نفسي في سيارة الجيب التي أقلتني مسافة ١٠٠ كيلومتر شمالا الى مركز الجمارك الباكستانية في سوسته. في الماضي، عندما مر الرحالة هسوان تسانغ بهذا المكان، كتب يصفه: "ليس فيه أثر لنبات، إنه مجرد كتلة صخرية تراكمت عشوائياً فوق صخور، وكيفما اتجهت بدت لك المسلات الحجرية الناحلة كأشجار غابة تعرت من أوراقها."

بدا لي هذا الوصف غريباً، الى أن تباعدت السحب لتكشف امتداداً جبلياً كأنما مزقته مخالب عمالقة. فرأيت حولي في كل الاتجاهات غابات من القمم الصخرية المستدقة كالمسلات، تشبه أرض أحلام من هياكل صينية متعددة الأدوار وكاتدرائيات قوطية وقصور أسطورية ذات أبراج شاهقة تعلقت بينها جليديات بيضاء بعيدة.

واكتشفت أن سوسته ما هي سوى نثار من مواقف للحافلات وثكن للشرطة وسقائف لرجال الجمارك، حيث ينتظر التجار الباكستانيون، مرتجفين من البرد، حافلات تقلهم عبر ممر خونجيراب الى الصين. إن هؤلاء الهونزوكوت الهزيلين الطوال القامة، والبنجابيين البدناء بشواربهم الطويلة المتباهية وسراويلهم الفاتحة اللون، هم الخلف الحقيقي للرحالة ماركو بولو والتجار الذين عبروا هذه الطريق قبل أكثر من ألفي عام. لكنهم يحملون الآن، بدلا من الحجار الكريمة والأفاويه، الملابس القطنية الرخيصة والمعاطف الصوفية والساعات لمقايضتها بالحرير في بازار كاشغار.

بازار فجائي

وقفت في سوسته على ملتقى حضارات ثلاث أضرب رجلي بالأرض اتقاء للبرد. وتصورت الشرق الاوسط الاسلامي الى الغرب، وشبه القارة الهندية جنوباً، والى الشرق صين الأباطرة وكونفوشيوس وماوتسي تونغ. فجأة قطع علي حلمي دوي بوق سيارة، وللحال دبت الحركة في زمر من التجار الباكستانيين راحت تدفعني وتشدني وتستحثني نحو حافلة غاصة بالركاب. ثم وجدت نفسي محشوراً مع ستة مسافرين أخرين على مقعد مصمم لأربعة. كانت ركبنا مشدودة الى صدورنا حين هدرت الحافلة متجهة الى خونجيراب التي أعاد اسمها الرهيب – ممر الدم – الى الذاكرة قصص قطاع الطرق الذين كانوا الى نصف قرن مضى يستوطنون منحدراتها.

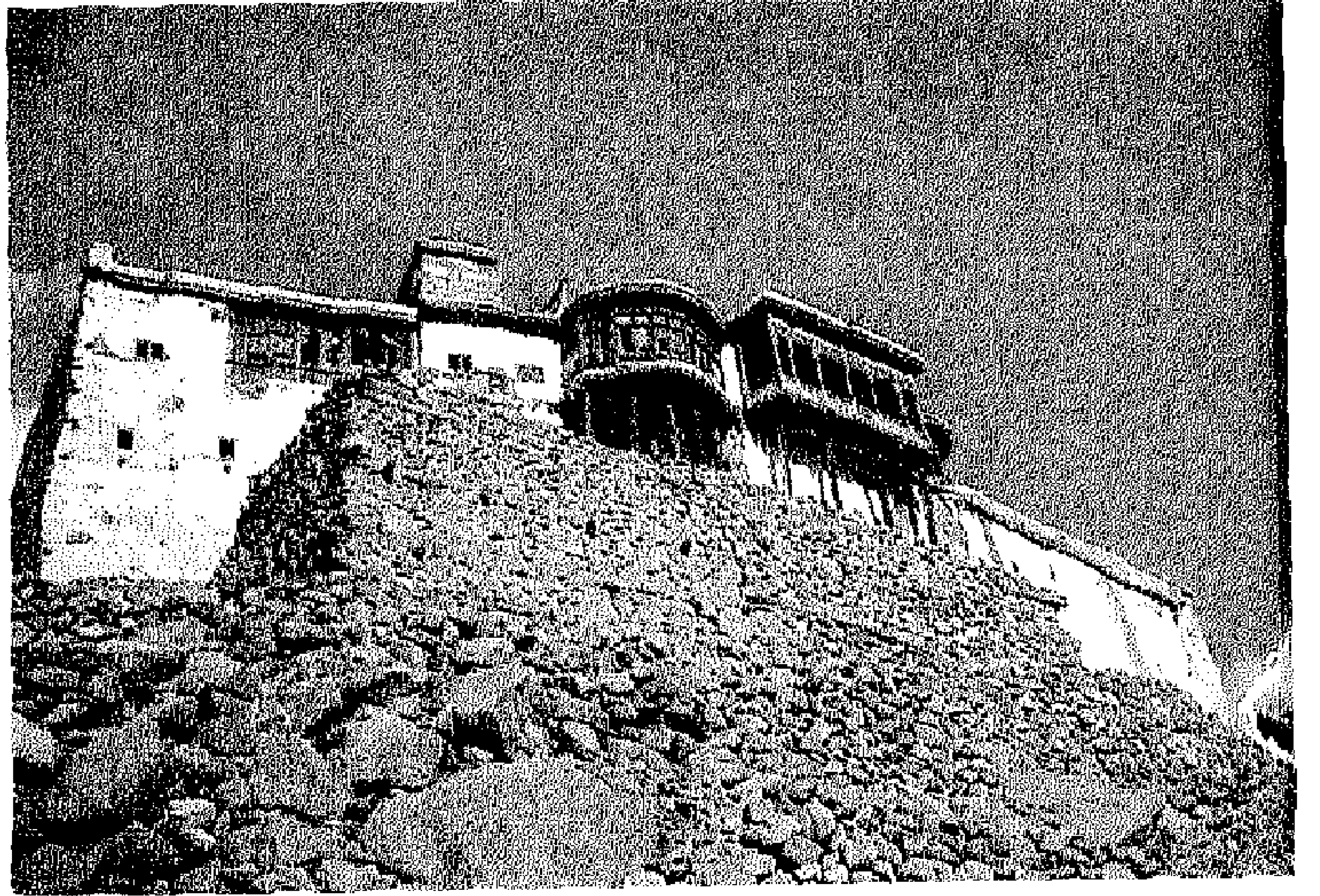
تعرجت بنا الحافلة صعوداً لأكثر من ساعتين متثاقلة وسط قفر من الصخور الحمراء المنهارة من قمم يصل ارتفاعها الى ٧٦٠٠ متر. وفي محاذاة الطريق كانت مياه نهر الهونزا تهدر عبر ممر ضيق مليء بالحجار. ولم يكن يميز الحدود، عندما وصلنا، سوى عمودين بسيطين من الاسمنت على قمة هضبة جرداء ذرتها الريح.

ها انذا، أخيراً، في الصين!

بعد ليلة استراحة في مدينة تكسكورغان انطلقنا مع الفجر في منحدر لولبي، ببطء هذه المرة، عبر مراع جبلية قارسة البرودة حيث كان قطيع من الياك، ثيران التيبت الضخمة، يرعى بين خيام بدو طاجخستان السوداء. ولم يستثر مرورنا لدى جمال باكتريا ذوات السنامين سوى نظرة ازدراء خاطفة.

توقفت الحافلة ظهراً وسط مجموعة متناثرة من الأكواخ المبنية بالطوب، لتتحول الطريق بازاراً مرتجلا، إذ ظهرت من حيث لا أدري جمهرات من الرجال الطاجخستانيين المفلطحي الوجوه الحمر الخدود، بقلنسواتهم الفرائية السوداء، مع زوجاتهم بطماقاتهن القرمزية وقبعاتهن المزينة بالخرز.

أخرج الباكستانيون من حزمهم كدساً من السترات والمعاطف القطنية، فيما راح رجال الهونزوكوت بوجوههم الصقرية الملامح يتراقصون وقد فتحوا معاطفهم وبسطوا أذرعهم لعرض السترات التي كان كل منهم يرتدي نصف دزينة منها لاخفائها عن عيون رجال الجمارك الصينيين. وكانوا يلوحون بتشكيلات من جوارب النيلون وحزم من ساعات اليد. ومع تصاعد حدة المساومات بثلاث لغات – الأوردية والصينية والتوركية المحلية – كان الناس، بائعين وشارين، في حالة هرج ومرج من الرأسمالية البدائية. أخيراً أعلن دوي بوق الحافلة نهاية مفاجئة للبازار، وخلفنا رجال طاجخستان وراءنا في صمت المراعي.



قصر أمراء الهونزا.

أقليات عرقية

"تبدو كاشغار لمعظم الناس مكاناً بربريا نائيا، فهي على مسيرة خمسة أسابيع أو ستة من أقرب سكة حديد في الهند، عبر ممرات جبلية يزيد علوها على ٤٥٠٠ متر. أما بالنسبة الينا، فقد كان اسمها الهمجي يعني الحضارة. كانت نشوة الوصول لا تضاهى. فقلة من الناس استمتعت بالاستحمام يوما أكثر منا، نحن الذين لم نستحم مرة طوال خمسة أشهر ونصف شهر." هذا ما كتبه الصحافي والمغامر البريطاني بيتر فليمنغ لدى وصوله الى الموقع في العام ١٩٣٥ قادماً من بكين، قاطعاً معظم الطريق على صهوة حصان. أما وصولي

فكان أقل بهرجة وإن تساوينا في الشعور بالارتياح حين بدأت الواحة تتبدى لنا كجزيرة خضراء في الصحراء، ثم ظهرت شجرات الحور الباسقة تحف بالطريق المعبدة في صفوف مهيبة، وامتدت خلفها حقول القطن والذرة. وشاهدنا عربات صغيرة تجرها حمير متبخترة تنقل أحمالا من البصل والخيار والعنب عبر أفنية مزارع مصونة بحيطان من الطين، تطل من خلفها بساتين كثيفة من أشجار التفاح والخوخ.

كاشغار صينية بالاسم فقط. فمقاطعة سينكيانغ فسيفساء من الأقليات العرقية، أكثرها عدداً الويغور، وهم شعب يبلغ تعداده سبعة ملايين أي ٤٥ في المئة من سكان المقاطعة، ويتكلمون التوركية. ويشكل العرق الصيني الآن ٣٨ في المئة. أما البقية فتضم أوزبكيين ناطقين بالتوركية وبدواً من الكازاخ والقرغيز وطاجخستانيين يتكلمون الفارسية ومسلمين صينيين يعرفون باسم "هوي."

حكم الصينيون مقاطعة سينكيانغ فترات متقطعة منذ عهد سلالة هان (٢١٠ ق.م. – ٢٢٠ م.) وأعاد المانشويّون[٧] توطيد سلطة الحكومة المركزية في القرن الثامن عشر، ليعود الصينيون ويخسروها مع انهيار حكم المانشو خلال ثورة ١٩١٢ عندما حاول الروس ملء الفراغ السلطوي. في أثناء ذلك كانت الثورة مستعرة. وفي العام ١٩٣٣ قتل الثوار كثيراً من سكان المدينة من العرق الصيني. وأخيراً تنازل ستالين عن المطالبة السوفييتية بمقاطعة سينكيانغ كمبادرة ديبلوماسية تجاه الحكومة الشيوعية الصينية الجديدة بقيادة ماوتسي تونغ.

ومنذ الخمسينات، عمل الصينيون لدمج هذه المنطقة النائية المتمردة في بقية الاراضي الصينية. وساعد انشاء خط حديد يصل العاصمة الاقليمية أورومتشي بالداخل الصيني في ربط اقتصاد المنطقة بالاقتصاد القومي على نحو أوثق. في أثناء ذلك جُنِّد أبناء الأقليات المحلية في مؤسسات الحزب الشيوعي حيث يشغلون الآن نحو ٤٥ في المئة من المراكز القيادية.

إلا أن ثمة توتراً عميق الجذور ما زال قائماً بين الويغوريين والصينيين. ويبقى الجيش في سينكيانغ بإمرة صينية. وخلال الثورة الثقافية في أواخر الستينات دمر الماويون عدداً كبيراً من الجوامع في المقاطعة ذات الغالبية المسلمة، وأحرقوا الكتب المقدسة ومنعوا إقامة شعائر العبادة واقتادوا الزعماء الدينيين الى معسكرات العمل. وحاولت السلطات الصينية خلال العقد الأخير تعويض المقاطعة بإعادة بناء نحو ٨٠٠٠ جامع وبرفع نظام الملكية الجماعية لقطعان الماشية عن البدو وباعادة فتح الاسواق الشعبية للمبادرات الخاصة. مع ذلك استمرت أعمال الشغب والتمرد ضد

(٧) المانشو شعب متشوريا المنغولي، غزا الصين وانشا فيها سلالة عام ١٦٤٤.

الحكم الصيني في السبعينات وأوائل الثمانينات واستؤنفت في العام ١٩٩٠. وفي العام ١٩٨٨ تظاهر الطلاب الويغوريون في أورومتشي ضد التجارب النووية الصينية في قاع بحيرة لوب نور الجافة في سينكيانغ. وكان وور كايكسي أبرز زعماء الثورة الطالبية التي عمت بكين في العام ١٩٨٩، وهو شاب ويغوري من سينكيانغ فتن الجماهير ويعيش الآن منفياً في الولايات المتحدة.

الداخل مفقود!

يشكل الويغوريون في كاشغار أكثر من ٨٠ في المئة من السكان. وهم يتجاهلون الصينيين ويتابعون طرق حياتهم القديمة. وعندما خطوت الى بازار المدينة المترامي الأطراف، دخلت عالماً يكاد لا يختلف عما كان في زمن ماركو بولو. كان ثمة حرفيون يمشطون الفرو ويعدون قوالب من اللباد ويقطعون أشرطة من جلد الغنم لصنع القبعات، مستخدمين قداديم قد تكون شهدت زيارة الرحالة الفينيسي. وكان آخرون ينحتون الخشب الطري مغازل وبكرات أو يطرقون حدوات خيل من الفولاذ المحمى أو يشحذون الخناجر أو يصبغون السروج الخشبية بأشكال زاهرة.

أما بازار الملابس فكان نفقاً من الألوان حيث جلس التجار بقبعاتهم المصنوعة من صوف خراف بخارى (القركول) وقد تشرنقوا وسط لفات الأنسجة المتنوعة، من مخمل قرمزي ودانتيلا خضراء وليمونية ولامية ذهبية ومطرزات مقصبة زرقاء، فيما راح عمال من القرغيز ذوي الصدور العارية يجرون عربات مثقلة بأحمال الحرائر المتعددة الألوان وسط بحر من الشاريات. وشقت جمهرة من التجار الباكستانيين الدهاة طريقها وسط الجموع ككاسحات ألغام بحثاً عن فضلى الصفقات. وفي كشك بائع حرير التقيت أحد الهونزوكوت وهو يتفحص لفة حرير أبيض لماع، فقال: "إننا نشتري المتر بمبلغ ١٢ روبية[٨] ونبيعه في منطقتنا بنحو ٣٦." كان الرجل يسافر برفقة ثمانية تجار باكستانيين آخرين يتوقع كل منهم، كما قال، أن يحقق ربحاً مقداره ٦٠ ألف روبية باستثمار مقداره ٨٠ ألفاً. أما نسبة الربح الصافي فتتوقف على ضباط الجمارك في سوسته. قال التاجر: "إذا صادف لدى عبورنا الى باكستان أن كان الضابط المسؤول نسيباً لأحد أعضاء المجموعة، فيكفي أن نمنحه هدية صغيرة من الحرير من دون أن ندفع أي رسوم جمركية على الاطلاق. أما اذا كان غريباً فعلينا أن ندفع بين ١٠ آلاف روبية و٢٠ ألفاً. إنها مصاريف العمل!" ثم تنهد مندفعاً من جديد ليضيع وسط الجمهور. وتصورت للحال أن التجارة كانت دائماً تمارس هكذا على طريق الحرير.

بعد مغادرتي كاشغار التففت حول الطرف الشمالي لصحراء تكلاماكان في سيارة

(٨) الروبية وحدة النقد في الهند وباكستان وسري لانكا. وهي تعادل في باكستان نحو ٥ سنتات.

سياحية قديمة من صنع روسي يقودها صيني قاسي القسمات. عبرنا شريطاً معبداً بالاسفلت مليئاً بالحفر حل مكان السبيل الذي طرقته أجيال من الجمال لا حصر لها. والاسم تكلاماكان يعني "الداخل هذا المكان لا يخرج منه أبداً." لقد وجد هسوان تسانغ طريقه عبر الصحراء مستهديا بعظام رجال القوافل الذين لم تكتب لهم النجاة. وهو كغيره من الرحالة عذبته السرابات والعواصف الرملية المرعبة – أو ما يسمى بوران – التي تصدر أصواتاً مقعقعة وصراخات أشباح لا ترى.

والى يساري كانت جبال تيان شان (سيليستيال) تواكب الطريق لأكثر من ٨٠٠ كيلومتر، فيما امتدت الصحراء عن يميني الى ما لا نهاية، قاحلة لولا واحات نادرة أخصبتها مسيلات المياه الجليدية الذائبة من الجبال جزراً منعشة من الأشجار الظليلة.

أذهلني في هذه المنطقة النائية من الصين انتشار الأعمال الصغيرة التي نتجت من تشجيع الحكومة للملكية الخاصة. ولاحظت، حتى في صغرى الواحات، قرويين أقاموا طاولات مخلعة وبضعة مقاعد يقدمون عليها البطيخ الأحمر اللذيذ والمعكرونة الصينية مع الفلفل الحار والفلفل الأخضر.

عند الغسق قاربنا منخفض ترفان الواطيء ١٥٠ متراً تحت سطح البحر والذي يعتبر أحد أدنى المواقع في العالم. انزلقت سيارتنا كأفعى منحدرة عبر عالم سفلي من الأودية الضيقة المكسوة بالغبار والصخور الشبيهة بوجوه حيوانات ضخمة وطيور متجمدة في الحجر، لتثبت أخيراً وسط متاهة من الهضاب الرملية التي بدت معلقة فاقدة الوزن تحت أشعة الغروب الوردية.

كانت هذه الواحات، خلال ذروة ازدهار طريق الحرير القديمة، السند الاقتصادي لدول مدينية جمعت ثروات أسطورية من تجارة القوافل، لكنها تهاوت كلها مع الزمن إما بسبب جفاف الانهار وإما أمام جحافل الغزاة، فاندثرت واحدة تلو أخرى في رمال الصحراء، ولم تكتشف من جديد الا في التسعينات من القرن الماضي وأوائل القرن العشرين، بمجيء مستكشفين شجعان مثل الاسوجي (السويدي) سفين هيدن والالماني ألبرت فون لوكوك والانكليزي المجري (الهنغاري) المولد أوريل ستاين. استكشف فون لوكوك الطريق الشمالية التي كنت أسافر عبرها، وعثر، برفقة عالم ألماني آخر هو البروفسور ألبرت غرونفيديل، على مئات الكهوف المنسية التي أوت في ما مضى مجموعات من النساك. كما حقق فون لوكوك وزميله تيودور بارتوس اكتشافات مهمة في موقع كاراخوجا في ترفان عاصمة مملكة الويغور الضائعة منذ زمن بعيد والتي كانت تمتد غابراً عبر معظم سينكيانغ الحالية.

كاراخوجا اليوم هي صورة مدينة سوريالية تحوطها أسوار من الطين حفظت شكل

أبراجها التي ذابت كلها كقطعة آيس كريم (جيلاتي) تحت عصف رياح أزلية. سرت بين أبراج تآكلت فغدت مسلات مترنحة، وحجرات محفورة في الصخر كهوفا، وجدران مصقولة كأكمات ناعمة. إنها مدينة أشباح تمتد كيلومترات عبر السهل حتى تختلط تدريجاً بالبيوت الواطئة المبنية بالطوب في الواحة التي نعرفها اليوم.

قائد شباب

كانت وجهتي التالية واحة دونهوانغ على مسافة ٦٥٠ كيلومتراً شرقاً في القطار، حيث كنت أتوقع أن أجد أعظم مجموعة من الفنون القديمة الباقية في الصين. كان القطار الى دونهوانغ يقدم ما يسميه الصينيون بلا مبالغة خدمات "المقاعد القاسية." ولجت مقصورة عابقة بالدخان تغص برجال ويغوريين ملتحين وصينيين وقورين في ثياب العمل الزرقاء وقد انحشروا كل أربعة أو خمسة في مقعد. نمت نوماً متقطعاً محاولا أن أوازن جسمي على طرف مقعد خشبي. لكنني غرقت أخيراً في نوم عميق طوال كيلومترات لا تنتهي من صحراء عديمة الملامح اجتازها القطار متثاقلا بسرعة لم تتجاوز ٢٥ كيلومتراً في الساعة.

أفقت مع الفجر لأجد نفسي جالساً بجوار رجل انفعالي المزاج عرفت أنه في الحادية والثلاثين من عمره وأفادت بطاقته أنه رئيس اتحاد الشبيبة الشيوعية في إحدى مدن جنوب الصين. وكان، كما أخبرني، يقوم بجولة استقصاء خاصة في المناطق الغربية. كان الاتحاد على الدوام حقل اختبار لقادة المستقبل الواعدين، وكانت مهمة الرجل أساساً كسب الدعم لسياسات الحزب. قال لي مفجوعاً: "ان مهمتي شاقة، فالشباب الصغار لا يحبون ما أفعله كثيراً. لا أحد يرغب في الانضمام الى الاتحاد هذه الأيام. الشباب يريدون التحول الى التجارة وتحصيل المال."

ثم راح يخبرني أنه حصل أخيراً على قبول من جامعة أمريكية حيث ينوي أن يدرس ادارة الاعمال. وعندما أشرت الى أن معظم الطلاب الصينيين في الولايات المتحدة يتعلقون بالحياة هناك فلا يعودون أبداً الى الصين، أجابني: "لن أكون مثلهم. إنني أريد العودة الى الصين لأساعد بلادي لتصبح دولة عظمى." كان بحسب تقديري يردد شعاراً رسمياً. وهو بدا مخلصاً، لكنني لم أستطع مغالبة التفكير في ما اذا كان سيثبت، حين يتعرف الى مجتمع أكثر تحرراً، أنه مختلف الى هذا الحد عن كل أولئك الشباب الصينيين الطموحين الذين اختاروا مستقبلهم بعيداً عن الحزب.

من الواضح أن الحزب الشيوعي الصيني يواجه أزمة. فالشعارات والدعوات العقائدية التي حركت الملايين في الخمسينات والستينات من هذا القرن لم تعد تستهوي شعباً خاب أمله في تفوق الاشتراكية خلال الفوضى الاجتماعية التي أسفرت

عنها الثورة الثقافية بين ١٩٦٦ و١٩٧٦، مما اضطر حتى قيادة الحزب العليا الى الانحراف عن الشيوعية الاصولية وإن لم تعلن ذلك صراحة. وأصبحت أفكار، مثل بورصة الأسهم وتوزيع ملكية الشركات الحكومية على القطاع الخاص، وتعابير كالافلاس والبطالة، الشغل الشاغل لكثير من الاقتصاديين الحكوميين. كما أن السياسات التي مكنت الصينيين خلال العقد الماضي من تحقيق أرباح مادية من أعمال خاصة، وسمحت لهم باستئجار الاراضي واستغلالها كما يشاؤون وبالبحث عن مهن من اختيارهم في سوق وظائف أكثر حرية، كانت نقيض ذلك الشكل من الشيوعية الذي تلقنه معظم الصينيين في عهد ماوتسي تونغ.

سوف يرث صينيون شباب، كرئيس اتحاد الشبيبة هذا، مواقع السلطة في الحزب، وسيكون مصير الصين حينئذ متوقفا الى حد كبير على الأفكار التي سيعود بها، هو وآخرون، من دراساتهم في الغرب، وعلى مدى تحليهم بالشجاعة اللازمة لمواجهة الاجابات عن تساؤلاتهم.

سألت جاري: "لماذا لم يعد الناس يرغبون في الانضمام الى اتحاد الشبيبة؟ وكيف تشعر تجاه الحزب؟ وكيف تنجح في تجنيد أعضاء جدد؟" غير أن الشاب كان يجفل كلما أتينا على ذكر الحزب، ويعود الى التقوقع داخل ذلك النوع من الاجابات الجاهزة المتفائلة التي كان المسؤولون يحتفظون بها للأغراب. فأدركت عندئذ أنني تخطيت الحدود، فالسرية ما زالت من طرق العيش المتبعة في هذه الجمهورية الشعبية. وعندما نزلت من القطار في ليويوان، راقبت الشاب يلوح لي بعصبية من نافذة القطار، ثم يختفي معه ببطء في اتجاه الداخل الصيني الى مصير مجهول.

السور العظيم

في اليوم التالي ركبت دراجة هوائية وقطعت مسافة ٢٧ كيلومتراً خارج دونهوانغ لمشاهدة الـ"١٠٠٠ كهف" القائمة في واحة صغيرة محشورة بين قمم سلسلة جبال بيماشان الوعرة الحمراء وبحر متموج من الهضاب الرملية المترامية. كانت هذه البقعة، لأكثر من ألف عام، آخر قفزة للقوافل العازمة على اختراق مجاهل تكلاماكان المهلكة. وتمثل المغاور الخمسمئة التي نجت من صروف الزمان نصبا أزلية للأمل والخوف، قدت من الصخر بأمر تجار إما التماساً للحماية في رحلة الذهاب الى الغرب وإما كفعل امتنان لدى عودتهم سالمين.

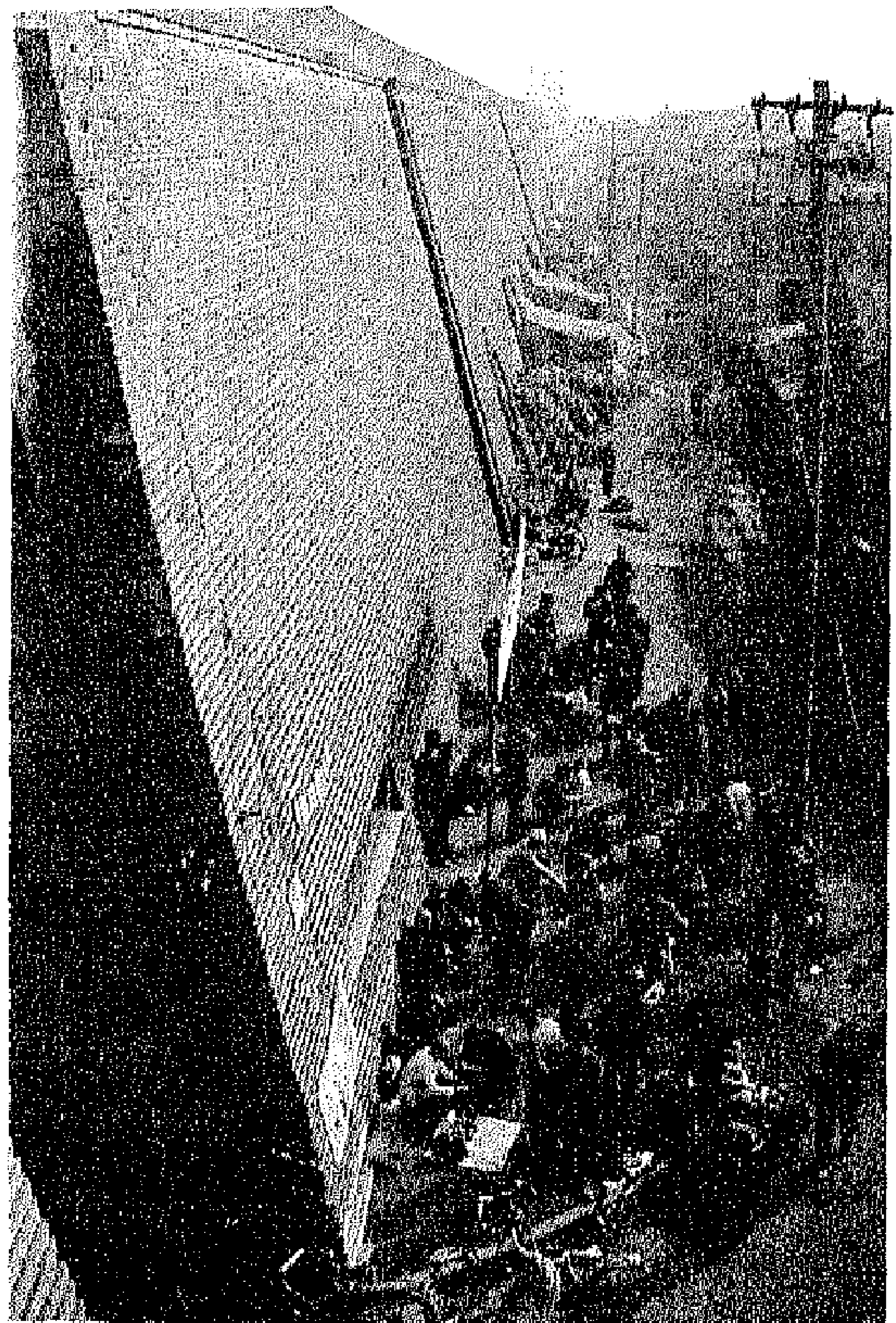
لقد أثبتت الكهوف أنها خدع بصرية فنية مشبعة من الارض الى السقف بلوحات من عالم الخيال. ولا تزال أصباغها مشرقة ربما كما كانت حين وضعت قبل مئات السنين. ألوف من التماثيل المتناهية في الصغر غارت زخرفياً في سقوف الكهوف،

وحولها تماثيل موسيقيين ينقضون هنا ويدورون هناك ثم يندفعون كالسهام وقد أحاطت برؤوسهم هالات خضر وزرق وبيض، ينقرون على القانون أو يعزفون على الناي. وفي فجوات صغيرة تماثيل متأملين يجلسون القرفصاء مبتسمين وعلى وجوههم تعابير منتشية بالرضى والمعرفة.

كانت دونهوانغ مجهولة تماما لدى الغرب حتى منقلب القرن العشرين، عندما تناهت الى عالم الآثار أوريل ستاين إشاعات بأن ثمة ناسكا اكتشف مخطوطات في غرفة سرية مقفلة منذ نحو ألف سنة. وقد سمح الناسك لأوريل، في مقابل ١٣٠ جنيها استرلينيا (تعادل الآن ٩٠٠٠ دولار)، أن يرحل آخذاً معه ألوف المخطوطات واللوحات المرسومة على لفيفات البردي والتي تشكل بمجموعها واحدة من أهم المكتشفات التاريخية. فلقد زودت العلماء الغربيين منذ ذلك الوقت - وهم ما زالوا يواصلون ترجمتها - فهما عميقاً لا يثمن للعقائد والفنون الصينية القديمة.

بعد ذلك قمت برحلة في الحافلة دامت ثماني ساعات ونقلتني شرقاً، على امتداد الطرف الأدنى لصحراء غوبي، الى قلعة جيايوغوان التي حرست مداخل الامبراطورية من جهة الغرب خلال عهد سلالة منغ (١٣٦٨ - ١٦٤٤ ميلادية). وهناك ركبت قطاراً

أفقت عند الفجر لاكتشف المجرى الجامح الضيق لنهر واي ملتمعاً عبر النافذة. بدت جبال كين لينغ المصطبة بانحدار شديد معلقة في الضباب الصباحي الخفيف كأنها قمم خيالية في لوحة صينية، ثم أخذت تنفتح تدريجاً كبوابات هائلة لتكشف السهول الخصبة حيث مهد الحضارة الصينية. كنا نجتاز بقعاً اكثر كثافة بالسكان، وقد مر بنا القطار سريعاً عبر مزارع صغيرة وقرى من بيوت قرميدية وأفنية فحم وأتن فخار ومصانع تطلق مداخنها سحباً سوداء. فجأة برزت من خلال الضباب السديمي شرفات مهيبة للسور العظيم. كانت شيان في ما مضى روما آسيا، وهي


FERGUS M. BORDEWICH

أسوار مدينة شيان نهاية طريق الحرير.

اليوم العاصمة الحديثة لمقاطعة شانسي، وما تبقى فيها من آثار ترقى الى ما قبل الثورة يعود بمعظمه الى سلالة تشينغ (١٦٤٤ – ١٩١١ ميلادية) آخر سلالات الصين.

عرفت شيان باسم تشانغان في عهد سلالة تانغ (٦١٨ – ٩٠٧ ميلادية) حين كانت طريق الحرير عظمى طرق التجارة العالمية وكانت سلطة الصين ممتدة الى منحدرات كاراكورام وما بعدها. وكانت شيان آنذاك حاضرة مدينية تضم أكثر من مليون نسمة وتنبسط على مساحة ٨٠ كيلومتراً مربعاً. تدفقت إليها ثروات العالم المعروف آنذاك. تجار وسفراء من الهند واليابان وفارس وجزر جنوب شرق آسيا، جثوا جميعهم أمام من كان يومذاك أقوى أباطرة العالم سلطاناً في قصور رائعة الجمال كأنها من عالم الاساطير.

في الأيام التالية، تنقلت بحذر وسط بحر من راكبي الدراجات ذهاباً واياباً على امتداد جادات شيان الواسعة، لأكتشف مدينة نابضة بالحياة تفشت فيها المصالح الخاصة: مئات من الأكشاك على جوانب الطرق تباع فيها ملابس براقة زاهية، لم تكن تُرى قبل خمس سنوات عندما كان الزي الماوي الباهت لا يزال اللباس الوطني. وتلعلع أجهزة الستيريو بموسيقى الديسكو التايوانية التي كانت محظورة لسنوات قليلة خلت باعتبارها من علامات "الانحطاط البورجوازي." وتعرض متاجر خاصة أجهزة التلفزيون الملون والفيديو وحتى أجهزة الكمبيوتر الشخصية. وصادفت فرقاً تؤدي عروضاً تمثيلية في الشوارع بملابس حريرية بالية، وتمتع المشاهدين بصيحات الاوبرا الصينية التقليدية العالية النغمات. وفتشت عبثاً عن بقايا عاصمة سلالة تانغ العظيمة التي اجتذبت قوافل الآسيويين الى أسواقها في ما مضى.

ذات مساء تجاوزت السور الى هيكل دايانتا المنتصب على هضبة خضراء في ضاحية المدينة. تراكمت طبقات الهيكل السبع واحدة فوق أخرى كطبقات كعكة عرس مستدقة الى أعلى. والمبنى مثير للاعجاب، أنشىء قبل ١٣٠٠ سنة بأمر من الامبراطور لايواء هسوان تسانغ الشجاع الذي أقام هنا في شيان حتى آخر أيامه عاكفاً على ترجمة المخطوطات التي حملها من الهند. وفي سرادق صغير قريب وجدت طبعة بالحبر من نقش حجري يظهر تسانغ سائراً بخطى ثابتة على طريق الحرير برأس حليق ووجه هو مثال البراءة والبساطة، وقد برزت المخطوطات الشهيرة من جراب على ظهره.

واذ وقفت عاليا أحدق الى البعيد، الى مصانع شيان وجاداتها والى مدى الريف الصيني المترامي خلفها، أحسست أني بلغت أخيراً نهاية طريق الحرير.

فرغوس م. بوردفيتش ■

ترجمة فواز الخوري

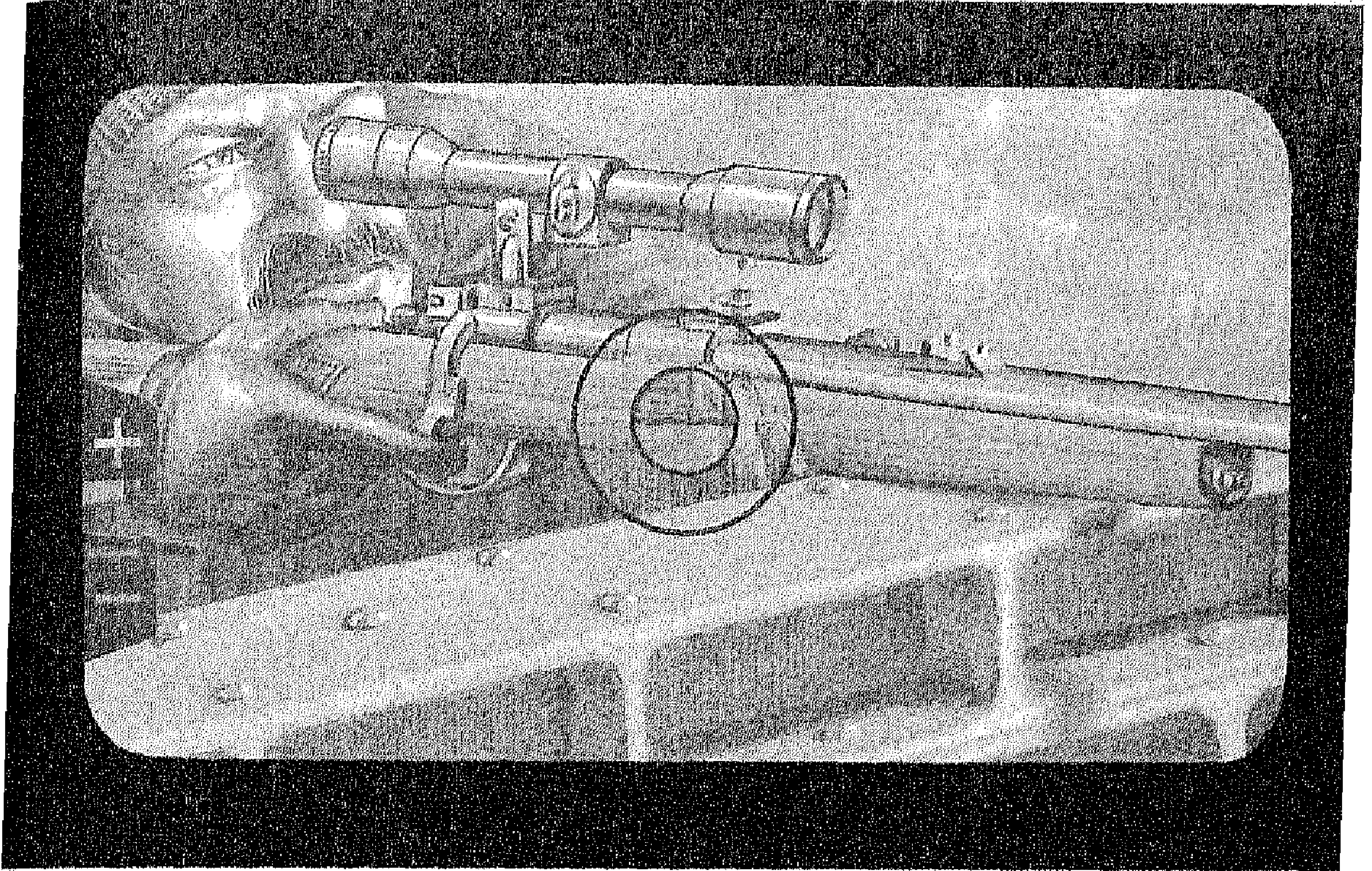
خاص - ٢

"عمليّة" مرسيليا

ملخص من كتاب "الصينيّ"

بقلم جورج نغوين فان لوك بالاشتراك مع جان - ماكس تيزييه

"عمليّة" مرسيليا



مع مرور الدقائق حاسمة، بات الرجل الذي تطلق عليه أوساط عالم الاجرام في مرسيليا لقب "الصيني" على يقين من أن الهلاك سيكون اما من نصيبه واما من نصيب الشقي الشاب الذي يحتجزه رهينة في مقابل فدية تبلغ ستة ملايين فرنك فرنسي (١٫٢ مليون دولار)، ذلك لأن النقيب في الشرطة جورج نغوين فان لوك ترعرع في الأزقة الوضيعة نفسها وأدرك جيداً الدافع الذي كان يحرك خصمه. عرف أن لا خيار في هذه المواجهة سوى الحياة أو الموت.

CONDENSED FROM «LEO CHINOIS» © 1989 BY PRESSES DE LA CITE, PARIS
ILLUSTRATIONS: SERGE HOCHAIN

كانت شانتال كولومبو منشغلة في عد رزمة من الاوراق النقدية. وهي منذ التحاقها بفرع مصرف "كريديه ليونيه" في مدينة نيس عملت أمينة صندوق على شباك العملات الاجنبية واضطلعت جيداً بمسؤوليات هذه الوظيفة الحساسة. ولم يعكر الطقس الممطر ذلك اليوم في سبتمبر (أيلول) ١٩٧٥ مزاجها المنشرح.

عند منتصف الصباح، تقدم من شباك منضدتها في المصرف رجل متأنق يضع نظارتين ذهبيتي الاطار، طويل القامة، أسمر البشرة، يرتدي سترة خفيفة وسروالا قاتم اللون. بدا في الثلاثين من عمره ذا وجه حليق لوحته الشمس. كان يحمل حقيبة جلدية بدت ثقيلة. ابتسم لشانتال وبادرها بلهجة جنوبية واضحة: "أود أن أصرف فرنكات سويسرية وأن أفتح حساباً بمبلغ كبير من المال، نحو أربعة ملايين فرنك سويسري (٢،٧ مليون دولار)." أجفلت السيدة كولومبو لدى سماعها هذا الرقم، ولم تكن سلطاتها المحدودة لتخولها بت عملية مالية بهذا الحجم. ابتسم لها الرجل ثانية كما لو انه تفهم ارتباكها، فقالت له: "هلا تفضلت بمرافقتي، لن يستغرق الامر طويلا." هز الرجل برأسه موافقاً وتبعها الى مكتب رئيس القسم المختص حيث عرّفت به. وبينما هي تشرح مطلبه للرئيس قاطعها بفظاظة فجأة: "هذه عملية سلب، لا تأتيا أي حركة ولا تصرخا، وسيسير كل شيء على ما يرام." وصوّب اليهما مسدسه ثم أمر شانتال المشدوهة: "اذهبي وبلّغي أمري الى مدير المصرف، وسأحتفظ بهذا السيد رهينة." امتثلت شانتال للأمر وهي تشعر بأن رجليها لا تقويان على حملها.

عندما وصل مساعد مدير المصرف كلود بريو ومدير شؤون الموظفين فرنسيس دولو الى المكتب، بادرهما المسلّح بأنه يريد فدية مقدارها ستة ملايين فرنك فرنسي. حدق اليه الموظفان مصعوقين وقد تكلم بسرعة وحزم، وأوحت لهجته أنه يدرك تماماً ما يفعله. لكن الاعتراض في تلك اللحظة، وإن تسجيلا لموقف ما، كان ليعتبر تصرفاً أحمق، كما ان أي مقاومة كانت مستحيلة وفوهة المسدس مصوبة نحوهما.

صرخ المسلح: "أريد رهينتين فقط." وأطلق شانتال ورئيس قسمها واحتفظ ببريو ودولو باعتبار أن للمديرين قيمة أعلى في المبادلة.

فجأة لوح بترموس[1] لفه بقطعة قماش، محذراً: "اذا لم تنفذا ما أمليه عليكما فسأفجر المكان كله." وأوضح أن الترموس مليء بالنيتروغليسرين، المادة ذات القوة التفجيرية الهائلة والسريعة التأثر اذ تنفجر لدى أدنى خضة. وتذكرت شانتال أنها شاهدت فيلماً قديما عنوانه "عاقبة الخوف"[2] قاد فيه البطلان شاحنة استحالت قنبلة منطلقة شديدة الانفجار. لكن شانتال تذكرت أنها ليست في صالة سينما، بل تعيش

(١) الترموس (thermos) وعاء يحفظ درجة حرارة السائل الذي يحويه.
(٢) The Wages of Fear

رعباً حقيقياً، فيه مسلح يتهدد حياة رجلين بريئين طمعاً بالمال. ولم يسبق أن انتظرت شانتال في السينما كلمة "النهاية" بمثل القلق الذي تملكها في تلك اللحظات.

● فرقة مرسيليا ●

كنت أوصد الابواب والنوافذ في بيتنا استعداداً للذهاب في اجازة. وما ان أدرت المفتاح في قفل الباب الخارجي حتى رن جرس الهاتف، ففتحت ودخلت ورفعت السماعة: "لقد احتجزت رهينتان في نيس يا سيدي النقيب، وطُلب منا التدخل."

فقلت: "حسناً اجمعوا فرقة الطوارىء وجهزوا السيارات ثم تعالوا لاصطحابي."

بصفتي رئيس "فرقة التدخل في الشرطة الوطنية" في مرسيليا، كنت مسؤولا عن مجموعة صغيرة من ١٥ شرطيا تلقوا تدريباً خاصاً وباتوا متأهبين لمواجهة أي نشاطات اجرامية غير عادية بما فيها عمليات السطو والارهاب. وعلى رغم أنني ترعرعت في أزقة مرسيليا حيث ولدت لأبوين فيتناميين، وألفت عالم الاجرام في المدينة منذ نعومتي، فقد سلكت سبيلا مغايرا. وأتساءل أحياناً ما الذي حولني عن عالم الاجرام ودفعني، عوض ذلك، الى الحصول على اجازة جامعية في المحاماة والتقدم الى امتحان لوظيفة مفوض في الشرطة بعد مشاركتي فترة في حرب الجزائر برتبة ضابط. لعل مرد ذلك الى أبي. أذكره مرة، وكان على فراش الموت، كيف شدني نحوه ممسكاً معصمي باحكام واستجمع قواه الاخيرة ونظر الي بعينين متقدتين وقال: "أبقِ رأسك مرفوعاً دائماً." كان ذلك ما أورثني اياه، وما زلت ضنيناً بإرثي.

بعد قتل ١١ رياضيا إسرائيليا أثناء دورة الالعاب الاولمبية التي أقيمت في ميونيخ عام ١٩٧٢، قررت الحكومة الفرنسية إعداد فريق خاص لمواجهة أوضاع مشابهة. وبدا أن مؤهلاتي، المتمثلة في إجازة الحقوق وخبرتي القيادية في الجيش وتقلبي في مراكز مختلفة في شرطة جزر المارتينيك ومرسيليا وضواحي باريس، جعلتني الشخص المناسب لتشكيل "فرقة مرسيليا."

أرسلت في طلب متطوعين من كل دوائر المدينة، وتلقيت نحو ٦٠ رداً سريعاً. تأنيت في حكمي على المتقدمين محدداً مدى مهاراتهم وقدراتهم على الاحتفاظ برباطة الجأش في المواقف الصعبة. واخترت لفريقي محترفين مدركين طبيعة عملهم تماماً، وليس أفظاظاً أو أفراداً يتصرفون كرعاة بقر غربيين. وأخضع هؤلاء لفترة تدريب شمل الرماية السريعة بالمسدس والبراعة في استخدام البندقية، الى قوة التحمل والقدرة القتالية. وحذرتهم منذ البداية من أن "لا مكان لمحبي الظهور في هذه المجموعة. فنحن لسنا في صدد انتاج أفلام سينمائية، بل سنتعرض فعلا للخطر. لذا أريد رجالا أستطيع الاعتماد عليهم."

فيما كنا نجتاز مسافة المئتي كيلومتر التي تفصل بين مرسيليا ونيس، اطّلعت عبر شبكة لاسلكي الشرطة على الخطوط العريضة لحادث السطو على المصرف.

كان الفاعل شقياً واحداً، ظلت هويته مجهولة، يحتجز رهينتين من موظفي المصرف في مكتب المدير في الطبقة الارضية. وهو مدجج بالسلاح ويعي ما يفعل. وبدا، من خلال حديثه مع شرطة نيس، مصمماً على المضي في مغامرته الى أبعد الحدود، اذ حذر رجال الشرطة قائلا: "اياكم أن تقدموا على أي عمل غبي، فأنا أحمل ترموساً مليئاً بمادة النيترو، ومستعد لتفجير المكان بأسره."

أثارت مادة النيتروغليسرين قلقي، فاستعدت التفاصيل في ذهني تكراراً. وحرص رجالي الذين اعتادوا أسلوبي في العمل، على عدم قطع صمتي مدركين أنني سأنقل اليهم المعلومات المفيدة فور ورودها علي، لأن العمل ميدانياً يقتضي الاهتمام بالامور الاساسية. وكلما قلّ الكلام سارت الامور على نحو أفضل.

واكبتنا الشرطة الدراجة وسط دوي الصفارات الى مكان الحادث. وكان كل شرطي في نيس وضع منذ العاشرة صباحا في حال تأهب. والآن وقد بلغت الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، بدأ الوقت يدهمنا.

وكان الرقيب رينه برنابو، وهو مغوار سابق في البحرية، أقلّني من منزلي. ثم تولى مساعدي التحري جان بيار غاليه قيادة السيارة فأطلق لها العنان لتجاري الدراجات سرعة. وكنت متأكداً من أنني أستطيع التعويل كلياً على رجالي بول كابارو ورينه برنابو وجان بيار غاليه وبيار رولاندو ودومينيك باتيستي، الذين ألفوا إحدى المجموعات الثلاث الضاربة في "فرقة مرسيليا."

يقع فرع مصرف "كريدي ليونيه" في قلب نيس، ويطل مدخله الرئيسي على جادة جان – ميدسان وتحوطه شوارع الماريشال جوفر وجوزف بري واميل نيغران وطريق غير نافذة تدعى "زقاق لونشان" وهي المكان الحصين حيث احتجزت الرهينتان. ومن سخرية القدر أن يقع "شارع الحرية" على مسافة أمتار من المكان.

كانت الشرطة طوقت المبنى وأحكمت سد المنافذ المؤدية اليه. وأخليت الابنية والمتاجر المجاورة وضرب طوق أمني في المكان للحؤول دون اقتراب المتهورين، خصوصاً أن هناك خطر انفجار النيتروغليسرين في أي لحظة. وسمح لبضعة ضباط بالبقاء في زقاق لونشان.

طالت فترة الحصار وانقضت ثلاث ساعات وبريو ودولو تحت رحمة المسلح. ترى كيف هما يتحملان هذا الضغط؟ وأفاد مراسل صحيفة "نيس ماتان" اليومية الذي تمركز في الجانب الآخر من زقاق لونشان أنه لمحهما عبر النافذة يقرآن صحفاً بهدوء ظاهر. ولم يرصد أي حركة حولهما. ولكن ما من أحد استطاع التكهن بما في ذهنهما،

فربما كان هذا السكون الثقيل الوطأة هو الهدوء الذي يسبق العاصفة.

ساد ردهة المصرف هرج ومرج: رجال شرطة ومراسلون صحافيون وموظفون يروحون ويجيئون، وكل يبدي وجهة نظره في الوقائع ويقترح الخطة التي يجب توسلها.

أذهلت خطورة الوضع المسؤولين في المدينة. وولّد نقص الاوامر الواضحة ارتباكاً مخيفاً. وعنَّ في بال أحدهم أن يوزع رماة الى يمين الردهة ويسارها بحيث تكون الطلقة الاولى كفيلة بأن يحصد بعضهم بعضاً. وعمت الفوضى على نحو جعل العملية كلها معرضة للانهيار في أي لحظة. وكان لا بد لشخص ما من أن يمسك سريعاً بزمام الامور.

● الشرك ●

عرَّفني مارك شيمول وهو مساعد في المقر الرئيسي لشرطة نيس، الى السلطات المحلية. واذ رحت أصافح موظفين حكوميين وقضائيين ومصرفيين، داخلني احساس غريب، ففي حين كنا نحن نتبادل عبارات المجاملة كانت حياة رجلين بريئين، في آخر الرواق، معلقة بخيط رفيع. كان ذلك احساس من هو في حضرة الموت.

صحت آمراً: "ليخرج من الردهة من ليس لديه عمل فيها!"

كان من الضروري توفير منطقة خالية من الناس بيني وبين المسلح. وتحقق رجالي من التدابير الامنية المتخذة في كل الاقسام ثم تمركزوا في غرفة منتظرين أوامري. كان عليهم ألا يطيعوا سواي. وشكلنا وسط هذه الفوضى العارمة القوة الوحيدة المنظمة والمستقلة.

استطلعت أنا وشيمول الوضع بدقة. كانت النافذة مدعمة بقضبان حديد وتعلو عن الارض مترين وتطل على زقاق لونشان. وتولت فرقة الاتصالات مد خط هاتفي على واجهة المبنى أتاح لنا التحدث مباشرة مع المسلح. واتصلنا بباريس حالما حدد هذا شروط الفدية.

أرسل المقر الرئيسي لمصرف "كريدي ليونيه" المبلغ المطلوب في حقيبة كبيرة وضعت في الردهة. ولكن، لسبب ما، رفض المسلح أخذها. لا بد انه شعر بأن ثمة فخاً ينصب له، فأمثاله يتمتعون عادة بحاسة سادسة قوية. كان يعرف ماذا يريد والثمن الذي عليه دفعه. لذلك هو لن يدع أحداً يخدعه.

تبين لنا أنه يستحيل النيل من المسلح من الداخل. فصعد القناصة في فريقي الى الطبقات العليا في المبنى المقابل محاولين احتساب الزاوية المناسبة لاطلاق النار. وسرعان ما عادوا محبطين، اذ تبين لهم أن القضبان الحديد للنافذة تؤمن للمسلح حماية تامة، كما أنهم لم يتمكنوا من رؤية شيء واضح داخل الغرفة، وقد قبع المسلح

على الأرض في زاوية غير مرئية من الخارج.

راجعت مراحل خطة التحرك التي وضعتها، ثم قدمتها الى مفوّض الشرطة والمدعي العام ليوافقا عليها. وكان ان انقاذ حياة الرهينتين في رأس الاولويات. وتقرر أن نحل أنا والرقيب برنابو محلهما قبل تسليم الفدية. ومتى تم ذلك يترك الامر لي.

ولتفادي أخطاء غير متوقعة، أخليت المصرف وطلبت من المسؤولين الرسميين أن يقبعا في احدى الغرف فلا يخرجا منها وإن هما سمعا اطلاق نار، لئلا يعوقا تحركنا. ثم وزعت رجالي بحيث لم يعد للمسلح سبيل للخروج من الشرك. وأمرت كابارو وهو أفضل مساعديّ وكان خارج المبنى، باطلاق النار على المسلح في حال نجاحي في حمله على الظهور. وتقرر تنفيذ العملية بعد هبوط الظلام واطفاء الانوار الخارجية لابراز الهدف جلياً عبر النافذة. وسينتظر التحريان باتيستي وورولاندو خلف عمودين في الردهة. وسيكون غاليه في مكتب صغير محاذ لذاك الذي احتجزت فيه الرهينتان، متأهبا للتحرك عند الطلقة الاولى. أما اذا أخطأ كابارو الهدف، لسبب ما، فسنصبح أنا وبرنابو تحت رحمة المسلح، وحيدين أعزلين، وأي عمل نأتي به سيندرج في اطار الدفاع عن النفس. واختصرت المسألة بمعادلة بسيطة: إما أن يقضي علينا المسلح واما أن نقضي نحن عليه.

● مجرم محترف ●

خطر لي أن المسلح قد يرغمنا على ركوب السيارة التي ستسلم اليه مع الفدية. وتحسباً لهذا الاحتمال امرت رجالي بالا تتعدى كمية الوقود في خزان السيارة أربعة ليترات، ما يكفي لاجتياز ٣٠ كيلومتراً فقط. وافترضت أن يجلس المسلح في المقعد الخلفي ويجلسنا نحن في المقعد الامامي ليتمكن من مراقبتنا فيما أتولى أنا أو برنابو القيادة. وكنا كلانا نعرف تماماً ما ينبغي القيام به إذذاك. فما ان نسلك طريقاً مستقيمة حتى يتحين السائق لحظة مناسبة فيضغط الكابح ويفقد المسلح توازنه، فنلوي ذراعه ونطبق على عنقه. عندئذ تكون وحدات من الشرطة أدركتنا فتتولى هي بقية الامر.

واتفقنا على شأن أخير: في اللحظة المناسبة لبدء العملية يتصل بي شيمول هاتفياً ويقول بنبرة طبيعية: "كل شيء جاهز للفدية." وسأفهم انا فحوى الرسالة.

فرغنا من الاستعداد للعملية قرابة السادسة مساء. وتولت شاحنتان قطر السيارات المتوقفة في الشارع لابقائه خالياً. وراح ضوء النهار يخبو بسرعة فيما أحاطت هالات نور بمصابيح الشارع ولمع الرصيف تحت الواجهات الشاحبة للابنية، وبدا زقاق لونشان مسرحاً لاحداث فيلم مثير.

انطفأت الانوار كلها لاحقاً، فأثقلت الظلمة جو التشاؤم الذي لف المكان.

طلب المسلح ابدال شرطيين بالرهينتين. وهو قد يكون تصور أنه سيؤمن بذلك غطاء أفضل لنفسه، لأن رجال الشرطة سيترددون في إطلاق النار اذا كانت حياة اثنين من زملائهم عرضة للخطر. في أي حال، أوحت بادرة حسنة منه أن حساباته انطوت على درجة من المسلك الاخلاقي كنا ننكرها عليه. فهو أطلق شانتال كولومبو ذلك الصباح بلا قيد ولا شرط، وكرر لاحقاً طلبه إخلاء المصرف من النساء. لقد بدا أنه يلعب وفقاً لاصول معينة. إذ أرضاه أن يحتجز اثنين من خيرة رجال الشرطة ويبقيهما تحت رحمته، وأن يتعامل مع رجال تلزمهم مهنتهم القضاء عليه.

تولى شيمول المفاوضات بديبلوماسية ناجحة. ووضع المسلح شرطاً واحداً قبل اتمام عملية ابدال الرهينتين، وهو أن يرتدي كل منا، نحن الاثنين، قميصاً رياضياً وسروالا قصيراً وحذاء خفيفاً ليتعذر علينا إخفاء السلاح تحت ثيابنا. لم يدع أي حيلة تفوته. ولم نكن نواجه مجرماً عنيفاً فحسب، وانما رجلا ذكيا يقظاً وحازماً.

في أي حال، كسبنا الجولة الاولى تكتيكيا، اذ انحصرت المواجهة بين المسلح وشرطيين. كنا ندرك أننا نقدم على مجازفة كبيرة، لكن انقاذ الرهينتين كان هدفنا الاسمي. وبعد ذلك، لكل حادث حديث.

● ابن حي فقير ●

تطوع برنابو للمشاركة في العملية. كان قويا ومخلصاً وقادراً على الصمود. وقد بدونا كمغفلين في سروالينا القصيرين واقفين وسط ردهة المصرف الفخمة. لكننا لم نشعر برغبة في الضحك. وبعدما تبادلنا نظرتين سريعتين، صحتُ: "هيا بنا."

سرنا في الرواق القصير وقد خيم على المبنى سكون لم يعكره وقع خطواتنا على الارض الرخامية. لم نكن خائفين، لكن تلك كانت مواجهة حاسمة نفوز فيها أو نقضي.

وكان بريو ودولو نهضا عن كرسييهما وأمارات القلق ونفاد الصبر بادية على وجهيهما الشاحبين. لقد احالت ساعات التوتر تلك ملامحهما قناعين مثيرين للشفقة. والآن لم يعد في مقدورهما الانتظار أكثر، والحرية خلف الباب، عند أسفل الرواق حيث وقفنا أنا وبرنابو.

خشي المسؤولان المصرفيان أن يغير المسلح رأيه، لكنه لم يلبث ان أومأ اليهما بالخروج بعدما فتش ثيابنا بعناية، فخرجا من دون أن ينبس أي منهما بكلمة مدركين أن هذه المبادلة وضعت حداً لمحنتهما وفتحت لنا باب الجحيم.

سدل ستار على النافذة الوحيدة التي تطل على الشارع. وبدأت حبال المطر تسوط الالواح الزجاج. وكان جو الغرفة مثقلا بالتوتر.

جلس المسلح في زاوية محجوبة على مقربة من النافذة بحيث استحالت رؤيته من

الخارج. وفصلت بيننا طاولة ضخمة وضعت منحرفة في الغرفة، وكان المسلح أزال عنها اللوازم المكتبية ووضع عليها حقيبته. جلسنا قبالته، قرب الباب، أنا الى اليسار وبرنابو الى يميني. وأبقى المسلح مسدسه ذا الطلقات السبع مصوباً نحونا وأمسك الترموس بيسراه.

ما ان حدقت اليه حتى أدركت أن قهره سيكون صعباً جداً. فهذا الرجل لم يكن يدَّعي صفات ليست فيه. انه محترف حقاً.

وهو بادرنا ببعض الرضا، كما لو أن وجودنا، انا وزميلي، أضاف توابل الى حسائه: "لستما شرطيين عاديين." لقد شعر أنه صار أكثر أهمية اذ قيس بمثلنا، ونحن أضفينا على عمله مشروعية.

نظر الي وقال: "أنت. أنت الأخطر. ستبقى هنا. وحين أخرج سآخذ مساعدك معي. وإن هو اتى حركة فسأقضي عليه."

كان ردي فوريا: "إن أنت قتلته فسأبحث عنك أينما كنت وأطلق رصاصة على رأسك. وفي امكانك قتلي أنا أيضاً، لكنك في هذه الحال لن تخرج حياً أبداً."

فقال بصوت بارد: "حاول أي خدعة وسترى انك ستموت."

وددت لو استطعت رؤية عينيه. لكنهما، ويا للأسف، كانتا متواريتين خلف نظارتين سوداوين. فالعينان في مواقف كهذه تفصحان عما يجول في الذهن. لكني تمكنت من احباطه اذ جعلته يدرك أن حياته رهن بحياتنا وبات واضحاً أنه لن يكسب شيئاً بقتلنا.

ومع ذلك تحداني رافعاً الترموس: "اذا وقع هذا الوعاء فستتمزقان ارباً."

فصححت عبارته: "مهلا، سنتطاير جميعاً."

وتابعنا محادثتنا الغريبة على هذا المنوال. فقلت له محاولا التقرب منه: "أنت مثلي لهجتك مرسيلية."

– أجل.

"اننا نتكلم اللغة نفسها باللهجة نفسها. لا شك في اننا من منطقة واحدة."

لم ينكر ذلك.

إني أتمتع بشهرة واسعة في مرسيليا تتعدى كوني آسيويا يلقبه عالم الجريمة في المدينة "الصيني." ولا شك في أن هذا الرجل عرف من أنا على رغم أننا لم نلتق قط. كان يلعب أخطر مقامرة، إذ عليه، ليكسب مبلغ ستة ملايين فرنك، أن يراهن بحياتي على حياته.

لو كنت أواجه مجرماً شهيراً معروفاً لسهلت القضية، لأن هذه الجماعة من الاشقياء ما أن تقع في الفخ حتى تستسلم من دون احداث اي اذى. وهي، تاليا، تعرف حدودها وتقف عندها ولها قوانينها الخاصة التي تحترمها. في حين أن القبض على مجرم

مجهول كهذا الرجل مسألة أخطر كثيراً. يريد أن يحقق لنفسه منزلة مهمة في عالمه، ويعدّ تصدر اسمه عناوين الصفحات الاولى للجرائد تأشيرة دخول الى سؤدد الاجرام.

كان المجرم الماثل أمامي ذئباً وحيداً مستعداً للاقدام على أي شيء من أجل تحقيق شهرة يتذكره بها أنداده المجرمون. لكنه لم يكن يائساً يسخر من الموت. لقد اختار فرع المصرف في نيس لانه رجل مجهول في هذه المدينة. وهو خطط لضربته جيداً، وسيمضي فيها حتى النهاية.

أحسست كل ذلك اذ بدا واضحا لي، على رغم السنوات العشرين أو نحوها التي تفصل بيني وبين المجرم، أننا تقاسمنا فتوة متشابهة وفي حي بانييه القذر نفسه، وهو حي سيىء السمعة في مرسيليا لا يتعدى عرض شوارعه المتشابكة عرض عربة اليد ويقطنه عمال فقراء ومجرمون صغار وتتدلى الملابس المغسولة بين أبنيته. لقد عبرت هذه الشوارع المعتمة مراراً، يعتريني شعور هو مزيج من المتعة والارتياب.

وأقام صبية الحي سلطة محلية هناك: يبيتون في الشوارع ويحتكمون الى قوانينهم الخاصة وينتظمون في عصابات متنافسة ويتلقون العلم في مدرسة العنف حيث لا مغفرة للضعيف ولا حماية.

● "لن أدخل السجن!" ●

لم تكن العصابات آنذاك تتورط في عمليات سرقة أو اتجار بالمخدرات، لكنها كانت تحارب من أجل مكانتها ضمن الحي. وكانت لدينا شعيرة نلجأ اليها لتسوية خلافاتنا. فكان الفرد منا الذي يساء اليه يضع قشة على كتفه ويتحدى خصمه: "تقدم وأسقطها اذا كنت رجلا." وكان الخصم ملزماً قبول التحدي والا فقد اعتباره. ومع أن هذه القشة الصغيرة لم تكن تعني الكثير، فان مجرد رؤيتها "متربعة" على كتف فتى أكبر منك وأقوى كان يكسبها معنى أكبر وهي لا تزال تمثل لي رمزاً أتمسك بمعناه. ففي الحياة لا نرى دائماً القشة الصغيرة على كتف عدونا، لكنها هناك، وعلينا التحلي بالقوة والشجاعة لاسقاطها أيا يكن الثمن.

وتتعاقب الوجوه في مخيلتي حين أستعيد ذكريات الايام الغابرة. وأعرف تحديداً مَن مِن هؤلاء الاولاد قضى قتلا ومن منهم أصبح زعيم عصابة أو علق في متاهات حياة كئيبة مجهولة. ومن غير وعي مني، اكسبتني هذه الوجوه وتلك الازقة الوضيعة خبرة واسعة خولتني أن أصبح اليوم شرطياً من القلائل المطلعين على الجذور النفسية والاجتماعية لرجال العصابات ودوافعهم وحلولهم الوبائي في مرسيليا.

كان المسلح يحمل في حقيبته جهاز راديو ويستمع بانتظام الى نشرات الاخبار حول العملية والتي كانت تبثها محطة "فرانس - انتير" المحلية. وهكذا تمكن من معرفة

هويتي. ولم يبدِ أي رد فعل لدى اذاعة نبأ ابدال الرهينتين. وكان بين حين وآخر يسكت المذياع بعد أن يكون سمع ما يريد.

وقال كأنه يفكر بصوت مرتفع: "أريد ستة ملايين، وسأحصل عليها." هذا ما أراده تماماً: المال وحياة البذخ والترف اللذين يتمتع بهما أسياد عالم الاجرام... أحلام تتلاشى في السجون أو في القبور.

واستدرجته لمزيد من المعلومات، ولكن تدريجاً لئلا أثير شكوكه. فحاولت أولاً تكوين فكرة أفضل عن شخصيته ودوافعه النفسية. كان علي التقيد بشروط اللعبة، فعرضت عليه مخرجاً: "إسمع يا بني، أنت ربما في الخامسة والعشرين أو في الثلاثين من عمرك. اذا استسلمت سلمت ورحمت والدتك."

فأجفل فجأة. وعرفت أنني أصبت منه موضعاً حساساً، فأضفت: "هل تقوم بهذا العمل كرمى لفتاة؟"

فأجفل ثانية واحتقن وجهه وارتجفت شفتاه ثم دمدم بغضب: "كف عن هذا الهراء!"

● رائحة الموت ●

لزم برنابو الصمت وهو جالس في كرسيه يراقب ما يجري بهدوء. وكانت الكرة في ملعبي. ترى هل ظن المجرم أنه سيربح في لعبة الحظ هذه؟ وما الذي جعله يفكر للحظة أنه قادر على الافلات من حصار الشرطة والفرار بغنيمته خارج البلاد ليعيش بهناء بعد ذلك؟

ظل المسلح على إصراره: "لن أذهب الى السجن، وسأتمكن من الخروج بالمال."

كانت هذه الفكرة المهيمنة عليه باعثاً على القلق. فرفضه العنيد للسجن يعني أنه ماض في عمليته حتى النهاية.

لم ترقني الفكرة، وحاولت إقناعه بأن لعبته خاسرة فليكف عن الاغراق في الخطأ. وأوضحت له أن السجن ليس أسوأ ما يمكن أن يحصل له، لكن كلامي ذهب هباء. قال، كأنه يخاطب نفسه: "لا. من المستحيل أن أدخل السجن."

توسلت أعذاراً مختلفة محاولاً الاقتراب من المسلح ما يتيح لي نزع سلاحه، ظناً مني أن تيقظه فتُر. لكنه كان في كل مرة يوقفني حيث أنا ويحذرني: "الزم مكانك، أفهمت؟" لم يكن يمازحني. فيده اليمنى التي أمسك بها المسدس ظلت ثابتة. وكان ليطلق النار لدى أدنى حركة تشعره بالخطر.

قبعنا أنا وبرنابو نراقبه متوقعين أن تصدر عنه أي علامة ضعف. أملت أن يتعب، وعوّلت على انهيار اعصابه. لكنه ظل صامداً، محكماً قبضته على المسدس، والترموس

في حضنه. وتأكد لي أخيراً أن هذا لا يحوي مادة النيتروغليسرين والا لكانت الطريقة التي راح صاحبنا ينقله بها تسببت في انفجار رهيب أطاحنا جميعاً قبل وقت طويل.

اكتسبت هذه المعلومات عن المتفجرات خلال حرب الجزائر، وكنت أستعيدها وأستعين بها عند الحاجة.

وأدركت أن المسلح حاول منذ البدء زرع الخوف في قلوبنا مستخدماً خطراً وهمياً. ولكن عليّ الآن ألا أدعه يعرف أنني كشفت خدعته.

خيم صمت ثقيل على الغرفة قرابة ساعتين. وتوقف المطر في الخارج، وهبط الظلام باكراً بسبب كثافة الغيوم التي حجبت سماء المدينة.

كان الطقس حاراً والهواء خانقاً، وأثار الجو الثقيل المكهرب أعصاب المسلح، لكنه لم ينل من أعصابنا نحن، لان الوقت كان حليفنا. كنت أتصرف وفق نهج اعتدته تماماً، ولم يألفه هو. وجلّ ما استطاعه انه راح يراجع حساباته ويترقب. تفرست في وجهه جيداً بحثاً عن تبدل ما، لكنه ظل محتفظاً برباطة جأشه.

وكنت ارتأيت الا نعرض أنفسنا للخطر قبل حلول الظلام. وقد خيم هذا الآن. فجأة انطفأ النور. لقد انقطع التيار الكهربائي! فنهضت تلقائياً وسرت نحو النافذة، فأنار الغرفة وميض برق ولمحت اصبع المسلح تلتصق أكثر بزناد المسدس وانطبعت صورته في شبكية عيني. ثم أطبق الظلام ثانية فاغتنمت الفرصة لأفتح ستار النافذة.

وعاد التيار مجدداً بعد انقطاع قصير، فأستراحت اصبعه. وزعق بصوت أجش: "عد الى مكانك واحذر." فعدت الى كرسيّ من دون اعتراض.

لم ينهض ليسدل الستار ثانية، ربما خوفاً من إظهار نفسه. لقد سجلت هدفاً آخر وبات عمل القناصة أسهل الآن.

ومض البرق ثانية فلمحت كابارو، وهو رامٍ بارع في فريقي، ينظر من تحت القضبان الحديد التي تسيج النافذة. ولم يكن في وسع المسلح رؤيته من زاويته. كانت الامور تسير وفقاً لخطتي.

● نهاية مفاجئة ●

الثامنة مساء شعرنا بالجوع والعطش، فأرسلت في طلب شطائر ومرطبات آملاً أن يفطن فريقي الى الصاق مسدس رقيق بأسفل الصينية مما يمكنني لاحقاً من نزعه وإطلاق النار من مسافة قريبة.

أُرسلت الصينية، فتحسست أسفلها فلم أجد شيئاً. فأكلنا وشربنا بصمت. وقرابة العاشرة ليلاً ضاق المسلح ذرعاً وزاد صوته حدة وفظاظة. لقد اقتربنا من نقطة اللارجوع.

فجأة انفجر قائلا: "ان رفاقكما يحاولون أن يهزأوا بي. أريد المال بسرعة، أريده الآن والا حولت المكان مقبرة." لقد أصبح اهتياجه عنيفاً، وكانت مضت ١٢ ساعة على بدء المواجهة، وهي فترة طويلة جداً يصعب تحملها.

أردت أن أكسب مزيداً من الوقت، فاتصلت هاتفياً بشيمول ثم أبلغت الى المسلح أن الفدية في طريقها من باريس الى نيس على متن طائرة. ترك هذا الامر ارتياحا لديه فعاد يمازحنا، قال: "أراهنك بمئتي فرنك على أنني سأخرج من هنا والملايين الستة في حوزتي." فرفعت حاجبا وأجبته: "حسنا، لكن أرني المبلغ أولا."

تصورت أن تكون حافظة نقوده داخل الجيب الايسر لسترته وسيتعين عليه، لاخراجها، نقل مسدسه من يده اليمنى الى اليسرى مما يتيح لنا فرصة للانقضاض عليه وتجريده من سلاحه. ولكن، لسوء الحظ، كانت حافظته في جيبه الأيمن.

ناولني الحافظة المصنوعة من جلد اصطناعي بني، ففتحتها وتحققت من محتوياتها: لا تكاد تغطي قيمة الرهان. وهو جاهد ليتمالك نفسه، لكني أحسست بمدى اثارته. قال بابتهاج: "عندما يصل المال ستعده."

فأظهرت ممانعة: "آسف، لست خادماً لأحد. أريد مليون فرنك في المقابل."

– ماذا؟ تريد مليون فرنك لتعد المال؟

وبدأ يضحك كأنه سمع طرفة .كنت أغالي حقا. لكن ابتهاجه لم يدم طويلا، فبعد مضي ثلاث ساعات أصبح الجو خانقا واجتاحت رائحة الموت الغرفة كما تنتشر بقعة صباغ ببطء. صحيح أن شيئاً لم يتبدل ظاهراً، لكنني كنت أستطيع تحسس "البقعة" كلما اتسعت دائرتها.

أدرك برنابو ذلك أيضاً. وعلى رغم أنه لم يأتِ حركة فقد شعرت بأنه توتر فجأة. لكنه تمالك نفسه راصداً الوضع استعداداً للانقضاض.

صرَّ المسلح بأسنانه ودمدم: "قسماً بالله! أحضروا المال بسرعة والا حصلت مجزرة."

وأيقنت من كلامه أن الاحباط بلغ منه أشده وأن من الحكمة العزوف عن محاولات أخرى معه. كان علينا قتله، وليس ثمة مخرج آخر، فاما هو واما نحن.

في العاشرة والدقيقة العاشرة اتصلت بشيمول ثانية فكان جوابه الاشارة التي اتفقنا عليها: "الفدية جاهزة." وتسارعت الاحداث اعتباراً من تلك اللحظة.

نهضنا أنا وبرنابو لانتظار شيمول الآتي بالفدية. وافتتن المسلح بسحر الملايين الستة التي أصبحت على قيد أنملة منه، فوقف مأخوذاً وخرج من زاويته في اتجاه النافذة. فجأة سمع طلق ناري من الخارج. كان كابارو هو الذي اطلق النار. تسمر المسلح أمامي ومسدسه لا يزال مصوباً نحوي، لكنه لم يطلق النار.

في اللحظة ذاتها رمى غاليه مسدساً من خلال الباب المفتوح، فتلقفه برنابو وأطلق النار فأصاب المسلح في رأسه. ثم وثب رولاندو داخل الغرفة وأطلق النار من مسافة قريبة. ودخل غاليه وباتيستي ووقفا خلفي.

لقد انتهت النائبة.

كان المسلح يدعى غي باتريك تشاليان وله من العمر ٢٤ عاماً. عاش في مرسيليا في منطقة المرفأ القديم التي عرفتها جيداً في ما مضى. وعثر في جيوبه على مشطي ذخيرة. كان ممكناً أن أكون أنا وبرنابو مطروحين هناك عوضاً منه وقد مزق الرصاص جسدينا. وتبين لاحقاً أن الرصاصة التي أطلقها كابارو من الخارج اخترقت إطار النافذة. ولو انها مالت سنتيمتراً واحداً الى اليمين أو الى اليسار لارتدت وأخطأت هدفها أو أصابت حائط الاسمنت، ولأطلق المسلح النار علي.

كان حدسي مصيباً في شأن النيتروغليسرين، اذ تبين في مختبر شرطة نيس أن السائل اللزج اللبني في الترموس كان شراب لوز.

نقل رجال الاسعاف الجثة الى المشرحة. واستكملت الاجراءات النهائية في اليوم التالي عندما حضر والد تشاليان للتعرف الى جثة ابنه.

شخصت العيون الينا منذ لحظة استدعائنا، وتتبع الرسميون تطور العملية وتحركوا بسرعة عندما انتهت. ففي الليلة ذاتها أرسل وزير الداخلية آنذاك ميشال بونياتوفسكي برقية تهنئة الى قيادة الشرطة بنجاح العملية ورسالة اطراء خاصة الي والى الرقيب برنابو، شاكراً كل عنصر في الشرطة الوطنية شارك في المهمة. وقدم يوم الاثنين التالي الى نيس ليقلدنا ميدالية للشجاعة والتفاني.

ان الرأي العام متعطش لقراءة أخبار الجرائم، لذا انتدبت الصحف الكبرى خيرة مراسليها لتغطية دقائق العملية. فاضطررت الى اجراء بعض المقابلات، لكني أحجمت عن أي تعليق شخصي. وتصدرت قضية تشاليان صحف اليوم التالي.

خالجتني مشاعر متضاربة وأنا أقرأ تلك الروايات. كنت أجدها دقيقة حيناً وبعيدة عن الواقع أحياناً. وأدركت كم تفقد الاحداث صدقيتها عندما تترجم عبارات مكتوبة. فقد أوردت الصحف رواية عادية مبتذلة لأحداث ساعات طوال من التوتر والترقب والخوف واراقة الدم.

ماذا تبقى من كل ذلك الآن؟ بعض الحبر الجاف على صفحات الجرائد، واتضاع أمام الموت لم يبارحني، وسعادة لأن الميدالية لم تعلَّق على نعشي.

جورج نغوين فان لوك

بالاشتراك مع جان - ماكس تيزييه ■

ترجمة مايا باسيل

كتاب الشهر

أعجوبة الأوقيانوس

بقلم فرانك بايت

تهاوت الانباء السيئة على القبطان كشلّال. فقد كانت سفينته قابعة وسط المياه بلا حراك، ثم أخذت الريح تدفعها جانبياً نحو الامواج المشرئبة الى ارتفاع تسعة أمتار. وما هي الا لحظات حتى أتاه كبير المهندسين مندفعاً من وسط العاصفة الهوجاء مترنحاً ملطخاً بالزيت مبللا بالماء وهول الصدمة بادٍ على محياه. كانت سفينة الركاب آخذة في الانشطار، وقد شرع البحارة في مغادرتها لاقتناعهم بأنها ستغرق في أي لحظة. ولم يبقَ أي فاصل بين مَنْ بقوا والبحر الهادر المدلهمّ.

خلال ليلة الرعب التي تلت تعاضدت مجموعة أبطال وحّدتهم المحنة، فيما الطوافات وسفن الانقاذ تكافح العاصفة لتصل اليهم. بيد أن الوقت لم يكن حليفهم، وكان عليهم أن يخلوا السفينة خلال ساعات أو... ينزلوا معها الى قاع البحر!

أعجوبة "الأوقيانوس"

بدت "الاوقيانوس" مهيبة وهي راسية في ميناء بفالو ريفر في ايست لندن بدولة جنوب أفريقيا. فطولها ١٥٠ متراً ووزنها ١٢ ألف طن وطبقاتها الست متسامقة من بدنها الوامض البياض الى مداخنها الملكية الزرقة. في ذلك السبت العاصف الغائم من ٣ أغسطس (آب) ١٩٩١، وقف البحارة على أهبة لفك الحبال تمهيداً للانطلاق في رحلة ليلية.

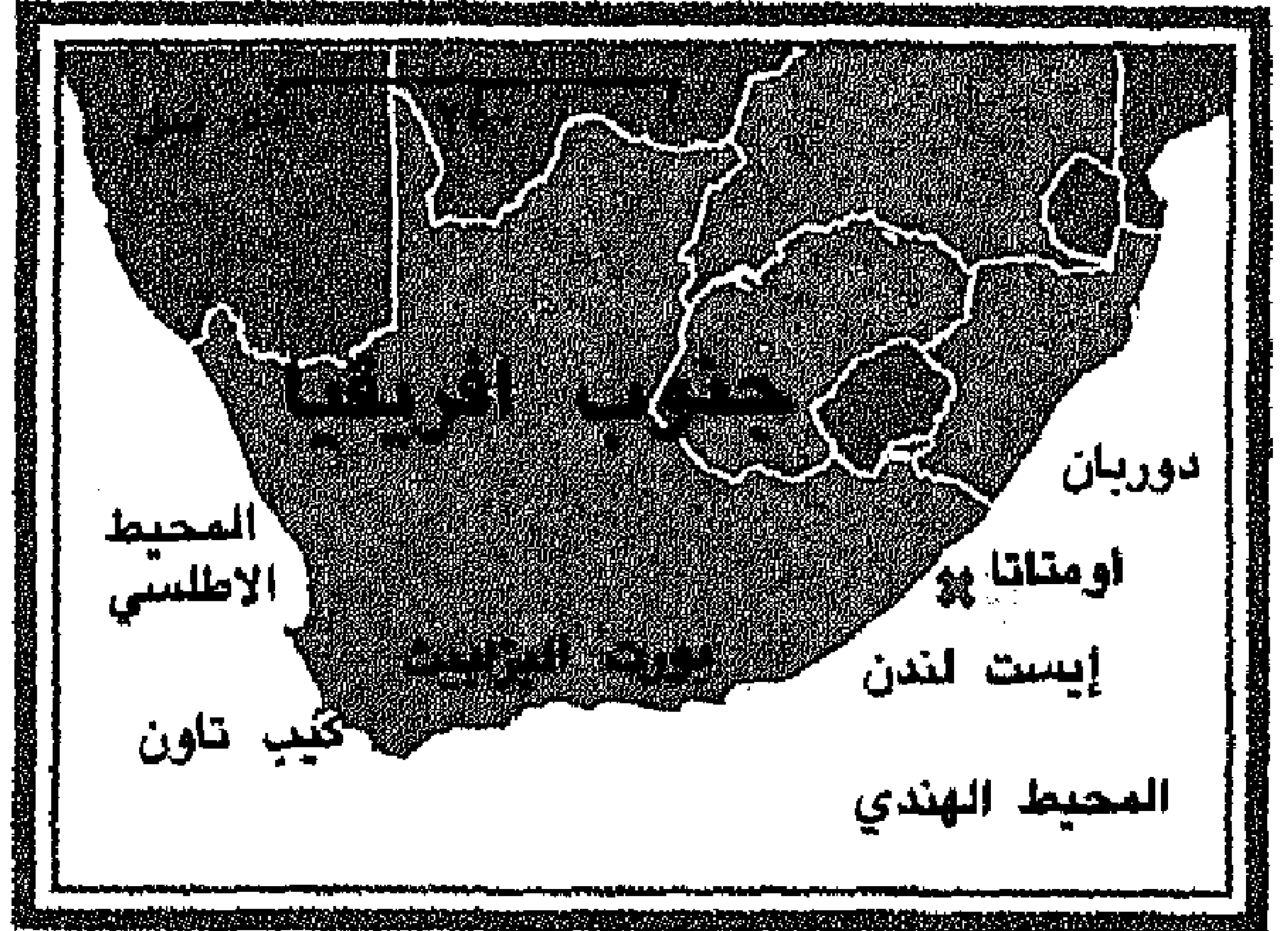
وعلى المنصة العالية فوق متن السفينة وقف القبطان يانيس أفراناس (٥١ عاماً) يراقب الامواج المتلاطمة على الحاجز المتاخم لثغر الميناء. فتناهى اليه هديرها كأنه قصف مدافع بعيدة. كان القبطان اليوناني، في زيه الأبيض الاستوائي، أنيقاً مفعماً بالحياة ورجل ثقة يجيد الامتزاج بالدوامة الاجتماعية في رحلات الاستجمام.

و"الاوقيانوس" باخرة يونانية عابرة للمحيطات استأجرتها شركة "ت. ف. س. تورز"[1] للسياحة في جوهانسبرغ لفترة ثمانية أشهر. وكان برنامجها ضاغطاً. فهي جاءت من كيب تاون قبل يومين وعليها في اليوم التالي بلوغ دوربان البعيدة نحو ٤٣٥ كيلومتراً على الشاطىء الشرقي العاصف لجنوب أفريقيا.

قضى البرنامج بأن تبحر الباخرة في تمام الرابعة بعد الظهر. إلا أن قبطان الميناء جاء قبل ٤٥ دقيقة من الموعد محذراً من عاصفة سوداء تهبّ على الشاطىء.

ومياه الشاطىء الجنوب الافريقي معروفة بعدائيتها، خصوصاً في أغسطس (آب) وهو من أشهر الشتاء في النصف الجنوبي من الكرة الارضية. وكان عمر الباخرة ٣٩ عاماً وكانت في بدايتها سفينة شحن، لكن "سجل لويد"[2] منحها درجة امتياز ولم يضع قيوداً على مواعيد إبحارها أو الامكنة التي تقصدها.

أقلقت حال الطقس القبطان، خصوصاً لأن سرعة الريح راوحت بين ٤٦ و٥٥ كيلومتراً في الساعة. لكنه ما لبث أن قرر الابحار.



كان على متن السفينة ٥٧١ شخصاً بينهم ٣٦١ راكباً وكلهم تقريباً من مواطني جنوب افريقيا. وكان طاقم السفينة، وتعداده ١٨٤ بحاراً، يونانياً بمعظمه. أما الفريق الدولي المؤلف من ممثلي "ت. ف. س. تورز" وشركة "ابيروتيكي" مالكة السفينة، فضم ٢٦ شخصاً من المغنين والموسيقيين والراقصين وبضعة موظفين اداريين.

عندما بلغت الباخرة حاجز الموج ودع قبطانُ الميناء القبطانَ أفراناس متمنياً له رحلة آمنة، ثم هبط الى زورقه الآلي على سلم مهتزّ وقفل الى الميناء.

كان هذا الشاطىء شهد إرساء احدى قواعد السلوك البحري يوم صدمت حاملة الجند البريطانية "بركنهيد" حيداً بحرياً عام ١٨٥٢، فطلب القبطان من رجاله البقاء

---

(١) TFC Tours of Johannesburg

(٢) "لويد" شركة بريطانية عالمية للتامين البحري.

على متنها والغرق معها مخافة أن يؤدي ركوبهم قوارب النجاة مع النساء والاطفال الى غرق القوارب بمن فيها. وأذعن الرجال للامر وبقوا في السفينة وغرقوا جميعاً. وكان عددهم ٤٤٥.

ومنذ ذلك الحين أصبحت "قاعدة بركنهيد" – أي النساء والاطفال أولا – تقليداً بحريا مكرساً وامتحاناً لشجاعة الرجال في وجه الموت.

ولكن في رحلة "الاوقيانوس" السيئة الطالع تلك لم يحترم أي من الضباط الكبار هذا التقليد.

حفلة الرحلة السعيدة

انطلقت "الاوقيانوس" جاهدة نحو الشمال، فشعر الميكانيكيون بالامواج تضرب بدنها بلا هوادة كأنها تختبر قدراتها. كانت المحركات والمولدات تطن بنعومة، ولم تبدُ "الغصَّة" الصادرة عن جهاز المجاري مسألة ذات بال.

وكان الماء الآسن تسرب في الاسبوع الفائت عبر المرشّات (الدوش) والمراحيض الى قمرات الطبقتين السفليين. فتتبع المهندسون الانسداد الى أن اكتشفوا صمامات معطلة في خزان مياه المجاري. لكنهم، في سياق اصلاح الخلل، نزعوا أنبوب تهوئة مما ترك ثقباً قطره ١٠ سنتيمترات في الحاجز القائم بين غرفة المحرك وخزان مياه المجاري، وهو حاجز ينبغي أن يكون مانعاً لتسرب الماء. فاعتزم كبير المهندسين اصلاح الخلل متى بلغت الباخرة بحراً هادئاً، كما أكد لضابط السلامة أن الامر لا يشكل أي خطر.


لورين بتس.

جمعت مديرة الرحلة لورين بتس مساعديها في الطبقة العليا. وكانت، مثل كثيرين من زميلاتها وزملائها في "ت. ف. س. تورز"، لم تذق طعم النوم إلا لماماً خلال الساعات الثماني والاربعين الماضية. وكان فريقها شارك في اقامة حفلة زفاف كبرى اليوم الفائت، وها قد صعد ركاب دوربان الى الباخرة وباتت أجواء الصخب على وشك البدء من جديد.

ولدت بتس في كينيا، ودرست في جزر سيشل. وهي اليوم في الخامسة والثلاثين من عمرها وتعيش في الولايات المتحدة، لكنها نادراً ما تبقى في منزلها هناك اذ إنها تمضي معظم أوقاتها على متون السفن في أنحاء العالم. وكانت جدتها بين ركاب هذه الرحلة الليلية وعمرها ٨٧ عاماً.

PHOTO: COURTESY SATV

تتمتع بتس بصفات قيادية طبيعية وبحس قوي بالواجب. لذا، حين جمعت مساعديها، خاطبتهم قائلة: "الركاب هنا في اجازة. أما أنتم فهنا للعمل." وكانت وجهت كلاما لاذعا الى كبير المهندسين بسبب تسرب مياه المجاري الى الطبقات السفلى.

عهدت بتس في شؤون التسلية الى "مشَعْوذ" يعمل ضمن فريقها اسمه روبن بولتمان. فذهب هذا للاشراف على "حفلة الابحار" في الردهة الرئيسية لوضع الركاب في مزاج احتفالي. ثم قادهم في غناء جماعي على وقع ألحان قديمة محببة عزفتها فرقة الباخرة.

أما الراكب ديريك غروف (٣٧ عاماً) وزوجته جيني ففضلا دخول المقهى. وكانت تلك رحلتهما الاولى على متن باخرة عابرة للمحيطات، وقد تركا ابنهما وابنتهما في المنزل مع أم جيني.

بلغت سرعة الريح ٧٤ كيلومتراً في الساعة، وكانت تسوط الامواج الهائلة مما جعل السفينة تترجح وتترنح. وفيما الزوجان جالسان في المقهى شعرت جيني بالأرض تتهاوى تحت قدميها. فتشبثت بأحد الاعمدة فيما راحت الصحون تتطاير عن الطاولة. وما هي الا لحظات حتى سمعت راكباً الى الطاولة المجاورة يصرخ محذراً فيما "قفز" بيانو كبير عن المسرح وانقضّ متدحرجاً على حلبة الرقص.

أحس ديريك بموجة ذعر تنتابه. فنظر الى ساعته التي أشارت الى الثامنة مساء، وهذا يعني أن أربع ساعات ونصف ساعة مضت على بدء الرحلة. فقال لزوجته: "أرى أوقاتاً عصيبة تنتظرنا."

"ماذا يجري؟"

جلس عازفا الغيتار موس وتريسي هيلز الى طاولة الموظفين في قاعة الطعام وأخذا يراقبان الركاب بابتسامات عطوفة فيما هؤلاء يحاولون تناول عشائهم. فجأة تناهت اليهما صرخة امرأة انزلق عشاؤها الى حضنها، ورأيا أكواب الماء تنقلب على الطاولات. وما لبثت الباخرة أن مالت بعنف فطار باب احدى الخزائن وسقطت كدسة من الاطباق وتحطمت على الارض.

غلب التعب على موس وتريسي إذ لم يتسنَّ لهما النوم إلا لساعات قليلة بعد انتهاء حفلة الزفاف. وما كادا يفرغان من العشاء حتى عادا الى قمرتهما. وعندما بلغاها قال موس لزوجته: "لا تنامي طويلا لأن علينا الظهور على المسرح في الحادية عشرة ليلا. سأذهب الآن الى الردهة لربط مكبرات الصوت لئلا تنفلت وتؤذي الركاب."

شعرت تريسي، وقد باتت وحدها، بقوة البحر الرهيبة. كانت الامواج تتكسر على كوّة القمرة. ثم أخذت المياه تتسرب من خلال السداد الى السرير الفارغ ومنه الى

أرض الغرفة حيث كوّنت بركة صغيرة. وكانت تريسي أثناء ذلك خالدة الى نوم متقطع.

فجأة استيقظت على وقع صدمة قوية اذ تدحرجت ثلاثة صناديق فولاذ ثقيلة عبر القمرة واصطدمت بالحائط. وكان البحر الزابد يهدر بضراوة عند الكوّة.

رأى موس هيلز وهو عائد الى قمرته ثلاثة من ضباط السلامة يعدون مشدوهين عبر الممر المحاذي لميسرة السفينة. فتبعهم، يحدوه الفضول، عبر السلالم نزولا الى الطبقة حيث قمرته. ولكن سرعان ما استوقفه هرج بحارة خارجين من غرفة المحرك متعثرين وقد لطخهم الزيت وبللهم الماء، فيما الضباط يصرخون مهتاجين باليونانية.


موس وتريسي هيلز.

فصاح موس سائلا: "ماذا يجري؟" لكن أحداً لم يجبه.

هرع موس الى قمرته حيث كانت تريسي تحاول ترتيب الفوضى التي نجمت عن تدحرج الصناديق. فصاح بها: "البسي ثيابك بسرعة. لا أدري ماذا يحصل، لكن الامر يبدو سيئا." ثم نظر الى ساعته فوجدها تشير الى التاسعة والثلث ليلا.

لم تمضِ لحظات حتى اقتحم جوليان رسل القمرة، وهو عضو في فريق التسلية، وقال: "لقد تطايرت مكبرات الصوت والآلات الموسيقية على المسرح."

فأخبره موس بما شاهده خارج غرفة المحرك، ثم تحول الى تريسي قائلا: "انتظري هنا، سنذهب لنرى ماذا يحصل."

فجأة تناهى من أعماق الباخرة انفجار مكتوم أغرقها في ظلام دامس. ولم تمضِ لحظات حتى دار محرك الطوارىء، فألقى ضوؤه الخافت ظلالا واهية في أرجاء السفينة. وأطلّت تريسي من باب قمرتها لترى كبير المهندسين ماراً بسرعة خاطفة الى قمرته. فسألته: "هاي! ماذا يحدث؟" لكنها لم تلقَ منه سوى الصمت.

وبعد دقائق مر بها الرجل عائداً مسرعاً. كان وجهه شاحباً وشعره مشعثاً، وكان يرتدي سترة نجاة وفي يده حقيبة. وإذ التقت عيونهما بادرته تريسي: "ماذا يحدث؟" لكنه تجاوزها مسرعاً الى أعلى.

تساقطت الانباء السيئة على القبطان كشلال عارم. كانت "الاوقيانوس" قابعة بلا حراك وسط المياه المكفهرة فيما الرياح ترخي ثقلها على طبقاتها السامقة مما جعلها

PHOTOS: © MOSS HILLS

تترنح جانبياً حتى كادت تلامس الامواج التي بلغ ارتفاعها تسعة أمتار. اذذاك أمر القبطان بانزال مرساتي الميمنة والميسرة اللتين توقفان جنوح السفينة نحو الشاطىء وتديران مقدمها في اتجاه الريح مما يخفف من تمايلها العنيف.

وما هي الا لحظات حتى أتاه كبير المهندسين مندفعاً من وسط العاصفة الهوجاء وهول الصدمة باد على محياه. قال لاهثاً: "لقد تمزقت ألواح الميمنة وطافت غرفة المحرك وليس ثمة ما نستطيعه. وعندما تعطلت الكهرباء توقفت المحركات."

فسأله القبطان ذاهلاً: "هل أقفلتم جميع الابواب المانعة لتسرب الماء؟"

فأجاب المهندس: "نعم."

أحس أفراناس ببعض ارتياح، فاذا كان الفريق المعني بالاضرار قد عزل المحرك، فستستقر الباخرة وإن في عمق أكبر، لكنها ستبقى عائمة الى أن تأتي زوارق القطر لسحبها الى الميناء.

تابع المهندس: "لكن الابواب لن توقف تدفق المياه. فهناك ثقب قطره عشرة سنتيمترات في الفاصل بين غرفة المحرك وخزان المياه، نجم عن ازالة أنبوب التهوئة."

فصاح أفراناس: "اذاً، أقفلوا صمامات الخزان."

فرد المهندس: "لن نستطيع ذلك يا سيدي! لقد سبق ونزعناها لاصلاحها."

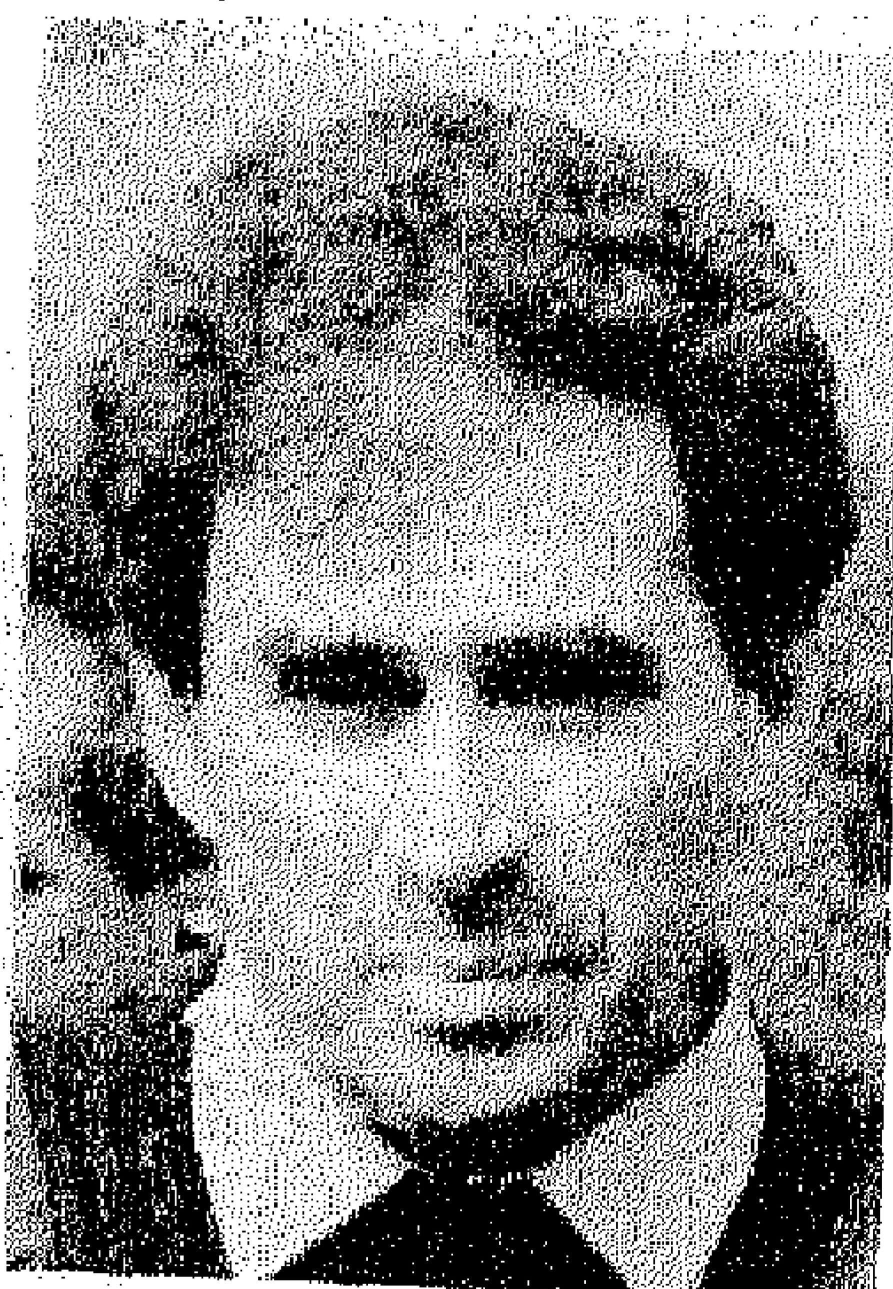
تراخى أفراناس وكأنما الخوف قلّصه. ثم غمغم: "أواه، يا إلهي." فمن دون صمامات سيتصاعد الماء من الخزان في مد مستديم، طبقة طبقة، عبر شبكة المراحيض ومرشّات الاغتسال (الدوش) وفتحات النفايات الموصولة بأنابيب التصريف الرئيسية. وستفيض المياه في المطبخ وقاعة الطعام والقمرات في مقدم السفينة مما سيؤول حتماً الى غرقها.

قبعت "الاوقيانوس" في موقعها على بعد حوالى ثلاثة كيلومترات من شاطىء ترانسكاي قرب مستوطنة كوفي باي، تنتظر مصيرها المشؤوم.

سأل القبطان المهندس: "ما سرعة تدفق المياه؟"

فهز هذا كتفيه وقال: "أمامنا بضع ساعات فقط."

فهرع أفراناس الى قمرته حيث زوجته انغريد وابنتهما البالغة من العمر ١١ عاماً وخاطبهما قائلاً: "ارتديا ملابسكما بسرعة ووافياني الى المنصة. نحن في ورطة."



القبطان يانيس افراناس.

ولدى عودته أفاده أحد الضباط أن الذعر عم الطبقات

PHOTO: © GARY HORLOR

السفلى، مضيفا: "يعلم أفراد الطاقم أننا غارقون، ولا يهمهم من أمر الركاب شيئاً. انهم يغادرون السفينة."

تطلّع أفراناس حوله وقد بدا مرهقاً وسط الظلال الغريبة التي ألقتها أضواء الطوارىء في أرجاء المنصة، فأدرك أن الضابط كان على حق، اذ إن جميع الضباط الذين كانوا معه قبل دقائق تسللوا خارجاً بهدوء.

عندما أعتمت الباخرة كانت لورين بتس في مكتبها تراجع برنامج العمل. وكانت الوحيدة بين موظفي "ت.ف.س. تورز" الحاضرين التي تلقت تدريباً على اجراءات السلامة والطوارىء. لذلك، ما إن أضيئت أنوار الطوارىء حتى سارعت الى منصة القبطان عابرة ظهر السفينة بجهد. هناك وجدت الضباط واقفين بصمت متوتر، فيما الضابط الركن يصيح عبر جهاز الراديو اليدوي: "النجدة! النجدة!"

فهرعت بتس الى الردهة الرئيسية حيث كان الركاب جالسين في الظلام ينتظرون عودة التيار الكهربائي. وتناولت مكبراً للصوت وخاطبتهم: "سيداتي، سادتي، لقد حصل انقطاع في التيار الكهربائي. ومن أجل سلامتكم، أرجو أن تمكثوا حيث أنتم ريثما أعود." ثم استدعت بعض موظفي "ت. ف. س. تورز" وقالت لهم: "احرسوا المخارج وأبقوا الجميع هنا."

ولدى عودتها الى منصة القبطان طالبت بمعرفة الوضع. فأخبرها القبطان أفراناس: "لقد تسرب بعض الماء الى غرفة المحرك. يجب أن يتجمع الركاب في الردهة الرئيسية. أطلبي من مساعديك أن يأتوا بسترات النجاة من الاسفل."

فسألته حائرة: "وما مدى خطورة الوضع."

فلم يجب أفراناس، اذ لم يكن قادراً على النظر الى عينيها. وكان القبطان بات كتلة من الاعصاب المتوترة. فتساءلت بتس في قرارتها: "هل سيستطيع أفراناس مواجهة الوضع، أم إنه سيتهاوى تحت وطأة الضغط؟" ثم هرعت لجمع مساعديها.

تحلق المغنون والراقصون والموسيقيون والمضيفات حول بتس في قاعة الرقص المحاذية لميسرة السفينة. فدعتهم الى الصمت ثم أعلنت: "يقول القبطان إن هناك عطلا في المحرك وبعضَ تسرب في الأسفل. الامر ليس خطيراً. اذهبوا الى كل قمرة واطلبوا من الركاب أن يتجمعوا للتدرب على ركوب قوارب النجاة. لا تسمحوا لأي منهم بالبقاء في الاسفل. واجلبوا كل سترات النجاة والملاءات التي تجدونها".

لم تردّ بتس على وابل أسئلتهم، بل قالت لهم بحزم: "افعلوا ما قلته فحسب!"

ثم خاطبت روبن بولتمان على انفراد: "لا أريد أي ذعر. اذهب الى الردهة وأخبر الجميع أن ما يحدث هو مجرد عطل بسيط وليس كارثة. ولكن كن مستعداً لمباشرة وضع الركاب في قوارب النجاة."

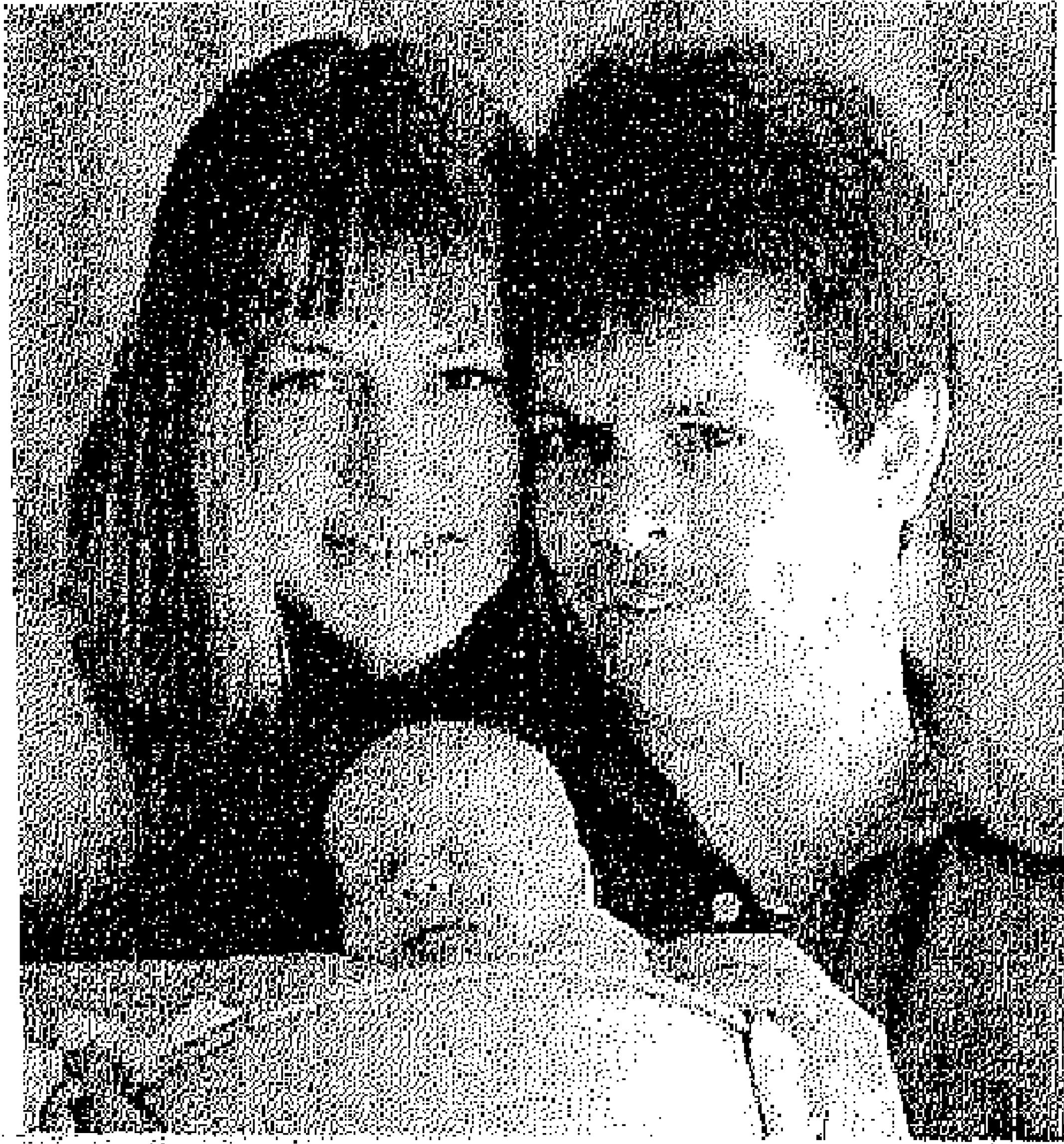
اختار جون أدمسون (٣٥ عاماً) وزوجته غيل الذهاب في رحلة بحرية للاحتفال بذكرى زواجهما الحادية عشرة. وكانت غيل ولدت قبل ١٧ يوماً فقط ابناً سمياه جون جونيور. فاصطحباه هو وشقيقتيه سامنثا (٨ أعوام) وكاري (عامان) في تلك الرحلة المشؤومة.

كان جون آدمسون في الردهة ينتظر بدء الحفلة عندما خيم الظلام فجأة. فأحس جميع الحاضرين بالقلق الى أن ومضت أضواء الاحتياط الظليلة. فهرع آدمسون متعثراً للبحث عن عائلته، فوجد موظفي الباخرة يقرعون أبواب القمرات. وما لبثت احدى المضيفات أن خاطبته: "أرجو أن تذهب الى الردهة الرئيسية للتدرب على ركوب قوارب النجاة."

وكانت غيل أرضعت الطفل وهمّت بوضع ابنتها الصغرى في السرير عندما دخل زوجها وقال لها: "علينا جميعاً الصعود الى متن السفينة. انهم يتحدثون عن تدريبات على ركوب قوارب النجاة."

مضت العائلة ممسكة بسترات النجاة وانضمت الى الركب الصاعد الى الطبقة العليا. وكان ديريك وجيني غروف ما زالا في الظلام، مع فئات الركاب، ينتظران عودة التيار الكهربائي وبدء العرض الفني.

كانت أجهزة التبريد متوقفة والهواء الفاسد الدَخِن يملأ القاعة. فأحس ديريك بتيار من القلق يتموج عبر الردهة المكتظة بالركاب، وسمع المقاعد تنزلق مع كل ترنح للسفينة.


غيل وجون أدمسون وطفلهما جون جونيور.

وفيما كان روبن بولتمن عائداً الى الردهة الرئيسية، مر به بحارة هلعون وتجاوزوه مهرولين نحو أحد مراكز قوارب النجاة. فتبعهم غير مصدق أن هدفهم هو الاستيلاء على أحد القوارب.

كان قارب النجاة الرقم ١ مجهزاً بغطاء لمواجهة الريح والبحر وبجهاز لاسلكي ومحرك، وهو أحد القاربين الاكثر صلاحية على متن الباخرة. وعند الباب البحري المفتوح كان عدد من الضباط والبحارة متدثرين في ثياب دافئة يتدافعون بالمناكب.

ففكر بولتمن: "انهم جرذان تهجر سفينة غارقة." ثم عاد راكضاً ليخبر رئيسته لورين بتس بالامر.

قالت له بتس بازدراء: "دعهم يذهبون. لا أريد حولي أناساً هلعين لا فائدة منهم."

لكن الامر كان ضربة قاسية. وكانت بتس، الى ذلك، تشك في القبطان بعدما لاحظت فيه قصوراً في العزيمة والتصميم. واذ رأت يديها آخذتين في الارتجاف فكرت: "تمالكي نفسك يا لورين، فالامر منوط بك الآن!" ثم هرعت الى أسفل لارتداء ملابس دافئة وجمع بعض أجهزة الارسال.

في أثناء ذلك عاد بولتمن الى الردهة والتقط أحد مكبرات الصوت واعتلى المسرح شاكراً الله على أن ليس ثمة من يعلم ان البحارة يغادرون السفينة على بعد بضع خطوات. ثم خاطب الركاب ممازحاً: "آسف على الانارة السيئة يا قوم. لقد نسينا تسديد الفاتورة. هل لي بانتباهكم، رجاء؟ ليس من داعٍ الى القلق. أرجو أن ترتدوا سترات النجاة كاجراء روتيني." ثم اختلط وبعض زملائه بالركاب وراحوا يروون النكات محاولين تهدئتهم.

جلست غيل وجون آدمسون على الارض وأخذا يربطان سترات نجاة أولادهما. ونظر آدمسون الى زوجته مفكراً: "انها هادئة، لا أظن الامر شديد السوء، فبواخر الركاب لا تغرق في هذا العصر."

وعلى المسرح، فيما كان جوليان رسل وموس هيلز يفكان جهاز الصوت، سأل جوليان: "ترى، ما مدى خطورة الوضع يا موس؟"

فأجابه موس: "هناك طريقة واحدة لتبين الامر." واقترح أن يذهبا معا لمعاينة الطبقات السفلى.

فرجته تريسي: "الزم الحذر يا موس. تذكر ابنتنا. أحبك."

كان موس وتريسي يعيشان زواجا سعيداً، وقد جمعهما حب السفر والموسيقى. وكانت ابنتهما آمبر (١٥ عاما) أمضت أسبوعين على متن الاوقيانوس وعادت الى مدرستها. إلا أن والديها كانا يعتزمان لقياها في دوربان اليوم التالي.

هبط موس وجوليان السلالم المؤدية الى "أحشاء" السفينة على وميض أنوار الاحتياط. فطالعهما دوي الابواب المنصفقة وأنين المعدن وهو ينسحن. وكادت رائحة المياه النتنة تخنقهما.

تسلق الرفيقان فجوة معزولة حيث تمر أعمدة مراوح ثنائية عبر مؤخر السفينة. ثم وقفا جامدين كمن رأى شبحا، وراحا يصغيان الى الاصوات المحيقة بهما. سمعا هديرا مكتوما وراء الابواب المحكمة الاقفال، كأنه فيضان نهر. فهمس جوليان مشيراً الى الابواب الثقيلة: "أتلك مياه تتدفق الى الداخل؟ هل نفتح الابواب لنلقي نظرة؟"

لكن موس هز رأسه ناهيا: "إياك أن تفعل. هلم نخرج من هنا."

تسلق الرجلان السلالم بسرعة لينقلا ما اكتشفاه الى بتس. لكن مديرة الرحلة بقيت حائرة تتساءل: "هل ستغرق الباخرة أم لا؟ وإن كانت ستغرق، فمتى؟" ثم طلبت من

الرجلين أن يبقيا على أهبة قائلة: "لقد بدأنا وضع النساء والأطفال في قوارب النجاة."

نظر موس الى ساعته فوجدها تشير الى العاشرة والنصف ليلا. فأحس كأن عمراً كاملا انقضى في ساعة.

أخلوا السفينة!

بدأ الحشد في الردهة يتناقص تدريجاً من دون أن يلاحظ ذلك أحد. وكانت بتس أمرت مساعديها: "جيئوا بالامهات والاطفال، ولا تعلنوا ذلك، بل اذهبوا اليهم فرداً فرداً."

وعندما طلبت احدى المضيفات من آل آدمسون الانتقال الى البهو، لفّت غيل صغيرها جون في دثار وضمته بقوة الى صدرها، فيما حمل زوجها ابنتهما كاري التي كانت في ثياب النوم، وانطلق الجميع مترنحين وسامنتا متشبثة بساقي أمها غيل.

تذكر جون آدمسون أنهم لم يأتوا بطعام للطفل، فهرع الى أسفل ليأتي بزجاجة حليب وبعض ملاءات، ولكن عندما عاد كانت العائلة اختفت.

انضمت غيل وأولادها الثلاثة الى الحشد المتدافع. ومضت، تساعدها مضيفة حملت الطفل جون، تكافح هبات الريح على ظهر السفينة المترنحة. ثم لمحت صفاً من الركاب المسنين على الحافة الداخلية للشرفة. والى الامام، عند أحد الابواب المفتوحة على البحر، وقفت لورين بتس وموس هيلز وجوليان رسل يوجهون عدداً من النساء والاطفال الى أحد القوارب المدلاة الى جانب الباخرة.

وكان أفراناس هناك أيضاً ليتيح لزوجته وابنته ركوبا سالما. لكن قبطان "الاوقيانوس" لم يصدر أي أمر، اذ كانت الباخرة كلياً في عهدة بتس.

راحت بتس، وشعرها الاسود يتطاير في الريح، تصدر أوامر الى من تبقى من البحارة وتساعد النساء الواقعات على النهوض وتهدّىء من روع الذين كانوا يهمّون بالقفز الى البحر.

وفيما كانت الامواج الهائلة تتكور تحت بدن الباخرة، اصطدم قارب النجاة بجانبها ثم ترجّح بعنف فاتحا هاوية متثائبة فوق البحر المزبد. فالتفت القبطان الى بتس شاحبا وصاح: "يجب أن أذهب وآتي بمساعدة." ثم دفع بعض النساء جانبا وحاول أن يركب القارب. إلا أن بحارين وموظفاً اداريا أمسكوه من سترة النجاة وجروه الى الوراء.

بلغت غيل آدمسون رأس الصف. فتناول البحارة طفلها أولا، ثم كاري، وأخيراً سامنتا، ووضعوهم في قارب النجاة. فألفت غيل نفسها تعيش كابوسها الاكثر اسوداداً موت أطفالها. فأخذت تصلي: "يا الله، اشملهم بعنايتك."

وعندما اصطدم القارب مجددا بجنب السفينة، قفزت غيل اليه وجمعت أطفالها وضمتهم اليها.

وهنا صاحت بتس آمرة: "أنزلوا القارب!" وكانت جدتها أيضا على متنه.

وفيما القارب يهبط الى الظلام المدلهم، اصطدم بجنب السفينة. فتعالت الصرخات اذ اقتلعت الصدمة الامهات والاطفال من مقاعدهم. ارتطم القارب بالمياه بعنف. وسرعان ما تلقت لورين صرخة مسعورة عبر جهاز الارسال: "لا أحد يعلم ماذا يفعل. رأس جدتك ينزف، والمياه تتدفق الى القارب. نرجوك أن تعيدينا الى السفينة."

فجأة دوى صوت المحرك، وانطلق قارب النجاة معتليا موجة سوداء هائلة، ثم انزلق مختفيا في الظلام. كان على متنه نحو ٥٠ امرأة وطفلا، فتملّك لورين بتس قلق شديد، لكنها أقنعت نفسها بأنها بذلت كل ما في وسعها.

وفي القارب عرضت فتاة على غيل آدمسون العناية بابنتها كاري، لكن الطفلة المرهقة ما لبثت أن غرقت في نوم عميق. وكان القارب يترجح مهدهداً مثل نوّاسة، فاندست سامنتا قرب أمها ونامت هي أيضاً. وكانت الامواج تتلاطم راشّة القارب بالماء. لكن الغطاء الواقي وفّر للركاب حماية من سياط الريح.


روبن بولتمن.

وكان في طليعة ما دار في ذهن غيل من أفكار مروعة إمكان انقلاب القارب وغرق جميع الاولاد. فأمسكت بابنتها سامنتا وقالت لها: "اذا سقطنا في الماء فتشبثي بي ولا تتركي يد كاري."

ثم عادت تصلي: "يا الله، اشمل زوجي بعنايتك وابعد الأذى عن أطفالنا."

ومن مكان ما في القارب المكتظ بالنساء والاطفال، سمعت غيل احدى الامهات تهدىء روع طفل نكد قائلة له: "لا تقلق يا حبيبي، فأمك هنا." فجأة انطلق من القارب صاروخ اخترق الليل وعلق في الفضاء ككتلة من الزجاج الذائب. واذ اعتلى القارب احدى الموجات، أزاحت الريح الغطاء الواقي، فرأت غيل كتلا ظليلة وأنوارا متحركة لسفن دانية.

راقب جون آدمسون الصاروخ وهو يتوخّط السواد وينفجر شلالا ناريا متقدا. فطمأنه روبن بولتمن: "هذا يعني أن زوجتك وأطفالك يرسلون إشارات الى السفن لكي تأتي اليهم وتنتشلهم."

وفيما آدمسون واقف في محاذاة ميمنة الباخرة، رأى أنوار السفن التجارية التي استجابت لنداء الاستغاثة. ثم سمع قعقعة قارب نجاة آخر يُدلّى الى البحر.

PHOTO: MOSS HILLS

وفي أرجاء الردهة الرئيسية قبع الاصدقاء والأقارب مجموعات، فيما أخذ بعض الشبان ينشدون ويغنون. وتماسك آخرون بالايدي وتجمعوا للصلاة في حلقات. ثم راحت امرأة تغني ذاهلة: "ابقَ معي"[٣] الى أن ردعها أحدهم قائلا: "لقد أنشدوا هذه الاغنية على متن التيتانيك." فكفت المرأة عن الغناء وراحت تنشج باكية: "إني لا أجيد السباحة."

أحسَّ روبن بولتمن، وهو يتنقل بين مجموعات الركاب، أن الاكتئاب بدأ يتسرب الى نفوسهم. كما شعر بهبوط في المعنويات وبأن الصدمة والخوف أخذا يتملكانهم. وكان ذاك تحدياً لا يقوى المرفهون على مقاومته. فتناول موس وتريسي هيلز غيتاريهما واعتليا المسرح. وسرعان ما انخرط الكل في غناء جماعي.

وكان الارهاق بلغ من جون آدمسون حداً جعله يتقاعس عن الانضمام الى المغنين. فأخذ يردد في قرارته: "ترى، هل سأرى غيل وأطفالي من جديد؟" وفيما هو على هذه الحال ربتت احدى المضيفات كتفه، فحدق اليها ذاهلا ليسمعها تقول: "نريد رجالا أقوياء لتجذيف قارب النجاة."

زحف آدمسون بجهد ممضّ على الشرفة التي مزقتها الرياح. وكان القبطان أفراناس هناك، لكن بتس كانت لا تزال هي الآمرة. صاحت: "تراجعوا الى مؤخر القارب وافسحوا في المجال للآخرين."

قفز آدمسون الى القارب قبل ارتطامه بالسفينة. ثم نظر حوله فلم يجد مجاذيف. وما هي إلا لحظات حتى انضم اليه طبيب الباخرة قائلا إن القبطان أمره بالذهاب. ومرة أخرى، حاول أفراناس اللحاق بالركاب، لكن إداريي الرحلة جروه ثانية الى الوراء.

نداء أحمر

تلقى مركز تنسيق عمليات الانقاذ في كيب تاون نداء الاستغاثة الأول الواهي من بعد حوالى ١٠٠٠ كيلومتر. فأطلق من فوره "نداء أحمر." وسرعان ما هبت فرق الانقاذ الى العمل. وقال النقيب تشاز كوتلي (٣٦ عاما) الذي أوقظ من نوم عميق: "آمل ألا تكون هذه مزحة ثقيلة."

بيد أن تلك لم تكن مزحة اطلاقاً. فهناك، قبالة شاطىء كوفي باي، باخرة تغرق وعلى متنها ٦٠٠ راكب. وكان فريق كوتلي على مسافة ساعتي طيران بالطوافات، وهو الخيار المنطقي لتولي المهمة.

ارتدى كوتلي ثيابه بسرعة وودع زوجته وهرع بسيارته الى المطار مقلبا الخيارات المتوافرة. وعندما وصل كان الطاقم الأرضي ناشطاً في التحضير لعملية الانقاذ.

(٣) Abide With Me وهي اغنية قديمة شائعة.

كان كوتلي أمضى ١٧ عاما في قيادة الطوافات. فأعطى تعليماته الى الطواقم الاربعة في غرفة العمليات. كان الخطر المحيق بذلك العدد الكبير من الركاب يغري باستجابة فورية. لكن كوتلي أدرك استحالة رفع الركاب من متن السفينة المترجحة وسط الرياح العاصفة أو انتشالهم من بين الامواج العاتية. وقد يكون الهبوط بطوافة عملا طائشا، لكن الارتطام بسفينة يؤدي حتما الى كارثة.

الى ذلك، لم يكن أحد على علم بتصميم الباخرة. كما لا بد من وجود عقبات تعوق شفرات مراوح الطوافات. لذلك أمر كوتلي طواقمه: "ستقلع أربع طوافات لتبلغ كوفي باي مع خيوط الفجر الأولى. وسيُرفع الركاب جواً. ومع الفجر ستتبعكم طوافتان أخريان للبحث عن ناجين."


النقيب تشاز كوتلي.

حدقت غيل آدمسون ذاهلة الى السفينة الضخمة السوداء الموشاة بالصدأ التي تعالت أمام ناظريها. وكان قبطان الناقلة البنامية "غريت نانسني"، أولى السفن الخمس التي ظهرت تلك الليلة، استدار بسفينته لاقامة حاجب للريح. فتحرك قارب النجاة في محاذاتها ولامسها، ثم ابتعد ليعود ويلامسها ثانية. لكن موجة جبارة ما لبثت أن انتزعت القارب وهوت به بعنف على جنب السفينة.

فأخذ ركاب القارب يصرخون وينتحبون وسط عويل الريح.

رأت غيل حبالا تتدلى من السفينة وبحارة يتجمعون لربط الحبال الى مقدمها ومؤخرها. وما لبث قارب النجاة أن وثب متمايلا وارتطم بالسفينة من جديد. كان القارب الصغير بدأ يتشقق ويمتلىء ماء. وما هي الا لحظات حتى أُدليت من السفينة سلم متلوية. ففكرت غيل: "لا أحد يمكنه أن يتسلق هذه ويبقى حياً."

لكن بحاراً يونانياً ما لبث أن أمسك بالسلم المتمايلة وأخذ يتسلقها جاهداً. وحين وصل الى متن السفينة أطلع القبطان على أن ثمة نساء وأطفالا في قارب النجاة وينبغي تدبُّر طريقة أفضل لانقاذهم.

أخيراً، أدلي بدلو مترنح عُلِّق بطرف الحبل. وصاح أحد البحارة: "ارفعوا الاطفال!" إلا أن الامهات تشبثن بأطفالهن وتراجعن خائفات وهن يسألن: "ماذا لو انقلب الدلو ووقع أحد الاطفال في الماء؟"

لكن الرد جاء فظاً: "إما أن يُرفع الاطفال الآن وإما أن يموتوا حيث هم."

ففكرت غيل آدمسون: "إنه على حق!" فقارب النجاة لم يعد قادراً على تحمل ضربات الموج العنيفة. ورفعت غيل ابنتها كاري الى الدلو بيدين أثقلهما الارهاق، وبعدما قبلتها استدارت مشيحة بوجهها.

PHOTO: COURTESY SATV

رفع البحارة كاري والدلو يتلوى ويرتطم بجنب السفينة. وعندما نظرت غيل الى تلك الناحية مجدداً كان الدلو عاد الى القارب... فارغاً!

تبع كاري أطفال آخرون. وكان ركوب الدلو بالنسبة الى الشجعان منهم مغامرة كبرى، الى أن جاء دور سامنتا التي كانت أطول من أن تجلس في الدلو.

شاهدت غيل الدلو يترجح مبتعداً عن جنب السفينة ثم يميل نحو البحر فيما خصل شعر أشقر تتطاير مع الريح. فصرخت وقلبها يكاد يتوقف هلعا: "اجلسي يا سامنتا!" فاختفى الشعر الاشقر وواصل الدلو صعوده الى أن بلغ متن السفينة.

وعندما حان دور الطفل صاح أحد البحارة: "هيا، ضعيه في الدلو."

فرجته غيل: "دعني آخذه بنفسي."

فرد البحار بحزم: "لا."

وكمن في حلم مروع، راقبت غيل البحار وهو يضع طفلها في الدلو. ثم سمعت بكاءه فيما الريح تتلاعب بالدلو مرجِّحة الحمولة النفيسة بعنف. وبينما هي على هذه الحال هبط قارب النجاة منخسفاً مع موجة ثم علا مرتطماً بالناقلة. فصاحت غيل: "احفظه يا الله!"

وبعد دقائق طويلة عاد الدلو الى قارب النجاة فارغاً.

وعندما رفع جميع الاطفال الى متن الناقلة جاء دور النساء. فتعاقبن صعوداً في محمل من الحبال بعدما ارتاح بالهن الى سلامة الاطفال.

وعلى متن "غريت نانسي" لف أحد البحارة سترته حول كتفي غيل وقادها الى قمرة دافئة حيث كان جون يصرخ ويبكي. وكانت ابنتاها خلدتا الى فراش في الحجرة المجاورة.

في سياق عملية الانقاذ، انكسرت ثلاث من أصابع غيل وراحت تنزف. وكانت يداها خدرتين من البرد بحيث لم تشعر إلا ببعض انزعاج. ولكن ومع تسرب الدفء الى أصابعها بدأ الألم يضيمها. وكانت معظم النساء الاخريات تعرضن لجروح ورضوض، لكن أياً منهن لم تصب بأذى بالغ، حتى جدة بتس.

وبعدما تولى أحد الاطباء العناية بجروحها وكسورها، لمحت غيل البحار الذي تسلق الحبل، فتقدمت منه وشكرته قائلة: "لولا مساعدتك لمتنا جميعاً."

قُدِّم الطعام والمنام الى الجميع، لكن النساء لم يستطعن النوم بفعل التوتر. وكان في طليعة الافكار التي أقضّت مضاجعهن سؤال واحد: ماذا حل بأحبائهن الذين تركنهم على متن "الاوقيانوس"؟

لم تمضِ ساعتان حتى ارتطم قارب النجاة الرقم ١ بجنب السفينة. فهرعت غيل الى الممر مع نساء أخريات آملة أن تجد زوجها في عداد الناجين. لكنها لم ترَ سوى بحارة

توافدوا من القارب تباعاً وكلهم يحملون أمتعة. فصدمتها الحقيقة المرة اذ تبينت أنه لم يكن بينهم راكب واحد.

لم توجِّه أي من النساء كلمة واحدة الى طاقم "الاوقيانوس." وكان صمتهن تعبيراً بيِّناً عن مدى الاحتقار الذي اعتمل في نفوسهن.

وبعد ساعات وصل قارب ثالث وعلى متنه ناجون خرجوا من العاصفة مبللين وهم يرتجفون برداً. وعندما لمحت غيل زوجها في الممر، وقد وقف مبللاً قلقاً، هرعت اليه وأحاطته بذراعيها باكية. ثم قالت له: "الاولاد في أمان."

"أنزلوا القارب"

كان ديريك غروف نائماً على أرض الردهة عندما سمع أحدهم يناديه: "هيا يا ديريك، لقد حان دورنا."

وكان أصدقاؤه بدأوا يزحفون الى البهو لينضموا الى الركاب المصطفين قبالة قارب النجاة. واذ نظر غروف الى ساعته وجدها تشير الى الثانية عشرة الا خمس دقائق ليلاً.

دفع ديريك زوجته بين الركاب المتعثرين الذين هرعوا نحو قارب النجاة يعاون واحدهم الآخر. وما لبث الزوجان أن مرَّا بباب قاعة الطعام التي تحولت خليطاً فوضوياً من الطاولات المحطمة وكِسَر الزجاج المتناثرة. وكانت لورين بتس ما زالت في مركز قوارب النجاة ومعها موس هيلز وجوليان روس، فيما تولى آخرون من إداريي الرحلة تهدئة الركاب الذين همّوا بالقفز الى البحر للنجاة بحياتهم. وعندما بلغ الزوجان القارب أمسك ديريك بذراعي زوجته وقال لها بحزم: "استعدي يا جيني، لقد حان دورك."

كان القارب مدلى على حوالى متر من الحافة، وكان يترجح مرتطماً بجنب السفينة تبعاً لتمايلها. وما إن ارتطم بالسفينة تالياً حتى صاح ديريك بزوجته: "هيا اقفزي!"

فوقفت جيني ممسكة حذاءها العالي بيد وحقيبة يدها بالاخرى، ثم رفعت أردان ثوبها وقفزت الى القارب وقلبها يكاد يثب خوفاً. وتبعها ديريك. ولم يلبث الآخرون، شباناً وشيباً، أن بدأوا يقفزون الى أن امتلأ القارب بنحو ٤٠ راكباً هلعاً.



جيني وديريك غروف.

عندذاك صاحت بتس آمرة: "أنزلوا القارب!" إلا أن القارب، بدلا من الهبوط، أخذ يتمايل مرتطماً بالسفينة تكراراً وسط صرخات الركاب المذعورين. لقد تعطل جهاز الانزال، وقبع القارب معلقاً في الهواء.

PHOTO: © GARY HORLOR

وسمع ديريك زوجته تصلي بصوت خافت: "يا الله، ساعدنا."

وما لبث قارب النجاة أن هوى الى الماء. وكانت كتل فولاذية ضخمة بدأت تنفلت من "الاوقيانوس" متحولة كُرات مدمرة ترجَّحت في حركات قوسية قاتلة فوق رؤوس الركاب الباقين الذين جثموا متشبثين بألواح السفينة. وكانت الكرات أيضاً تضرب وقاء قارب النجاة بلا هوادة.

فصاح أحدهم: "أديروا المحرك!"

فسأله ديريك غروف: "ولكن، أين هو المحرك؟"

فصرخ بحار مصعوقاً: "لا محرك في هذا القارب!"

اجتذبت قوة "الاوقيانوس" الماصّة القاربَ وجمدته. ثم هوت كتلة فولاذية أصابت رأس إحدى النساء وسببت فيه جرحاً نازفاً. وكان غروف والرجال الآخرون يحاولون جاهدين الابتعاد بالقارب، لكن المجاذيف أخذت تتقصم مثل عصيّ هشّة. ثم راح القارب ينجرف ببطء نحو مقدم السفينة حيث كانت الدفة العملاقة والمروحة المزدوجة آخذتين في التهشم مع كل موجة عابرة.

فلم يسع الركاب حيال ذلك سوى الجثوم في القارب الرقم ٥ ريثما تهوي المروحة العملاقة وتقضي عليهم. فجأة قفز القارب بمثل أعجوبة منفلتاً من عقاله كفلّينة، ثم انجرف مبتعداً وعلى متنه ٤٠ راكباً.

وجدت بتس أن الاوان آن لاجراء إحصاء. فخاطبت موظفيها قائلة: "ساعدوني في عدّ ركاب الردهة." وقد تبين أن ثمة ٢٦٠ راكباً ما زالوا على متن "الاوقيانوس."

كانت قوارب النجاة الثمانية كافية لاستيعاب الركاب الـ٥٧١ كلهم، لكن خمسة منها كانت أبحرت بعدد من الركاب أقل من سعتها. وكان قاربان آخران استُبعدا لعطل في المحرك، فيما علق آخر وأُفرغ من الركاب. اذذاك توجهت بتس الى روبن بولتمن قائلة: "عندما تبدأ السفينة الغرق، سنصطف جميعاً عند الحاجز ونقفز الى البحر."

في تمام الثالثة فجراً وجُهت باخرة الشحن الهولندية "ندلويد موريشوس" نداء لاسلكياً على موجة الطوارىء: "أوقيانوس، سنرسل قارب نجاة ونحاول الاقتراب. كم من الوقت تبقى لديكم؟"

فرد موس هيلز الذي تولى الاشراف على منصة القبطان: "ربما ساعتان." ثم أضاف: "لم يتبقَّ لدينا أي قارب نجاة، وما زال هنا أكثر من ٢٠٠ راكب."

في أثناء ذلك كانت "الاوقيانوس" كلما مالت بميمنتها ملامسة البحر تبدو كأنها على وشك الانغماس في الماء لأقل وكزة إضافية. فزحف هيلز الى أسفل السفينة مجدداً. وفي قاعة العشاء، حيث كان جالساً قبل ساعات قليلة، وجد المقاعد طافية فوق المد المتعالي، فيما تدافعت أطنان من المياه المالحة مع كل موجة ضاربة. فعاد الى فوق

ليخبر بتس أنه لم يتبقَّ ثمة ما يفصل بين الركاب والمياه الفائضة سوى طبقتين جافتين.

أدركت بتس أنه، اذا ما انحدب سطح السفينة، فسيعلق ركاب الردهة في شرك. فأمرت مساعديها: "انقلوا الركاب الى طبقة بركة السباحة."

في أثناء ذلك، لم يستطع قارب النجاة المرسَل من "ندلويد موريشوس" مقاربة "الاوقيانوس" بسبب تواصل الموج. فمكث في موقع قريب بغية انقاذ الركاب لدى غرق السفينة.

"تشبثوا جيداً!"

اندفع الركاب من الردهة متلاصقين متداعمين، وأخذوا يشقون طريقهم ببطء الى ظهر السفينة وهم يتساقطون ويكدمون أجسادهم بالجدران والحواجز. وكان بينهم بيت نيماند (٤٢ عاما) وخطيبته أنجيلا ستافرو وابنه بيتر.

تعذر الوقوف على ظهر السفينة المائل. وفيما الامواج المتعالية تتكور عاتية تحت بدن السفينة، سألت أنجيلا خطيبها بقلق: "هل تعيش أسماك القرش في هذه المياه؟"

فأجابها بيت والريح تسوط وجهه كالنصال: "لا يا حبيبتي." لكنه كان عالماً أن ذلك الشاطىء هو مرتع لأسماك القرش الابيض وغيرها من آكلات لحوم البشر.



بيت نيماند وانجيلا ستافرو.

راحت الأمواج تنقضّ على الحاجز الجانبي مبتلعة كل ما طاولته. وانزلقت مقاعد الردهة البلاستيكية عبر ظهر السفينة متهاوية الى البحر.

فقالت بتس للركاب: "قد يتعين عليكم القفز الى المياه، ولكن هناك قارب نجاة سينتشلكم."

فتناهى اليها صوت حاد: "لا أجيد السباحة."

فردت بتس: "عندما أقول لكم: اقفزوا! نفذوا الامر من فوركم."

ثم نادت بولتمن وكلمته على حدة: "أريدك على منصة القبطان منذ الآن."

فرد بولتمن: "لكني لا أجيد استعمال الجهاز اللاسلكي."

فقالت له بحزم: "آن لك أن تتعلم."

انجرف قارب النجاة الرقم ٥ جنوبا مترجحا بعنف بين متون الامواج الجبارة ووهادها. لكن المياه التي تجمعت فيه الى مستوى الرُكَب ما لبثت أن شكلت ثقلاً موازناً ساعد في استقراره. كما حالت الريح البحرية دون جنوحه الى الشاطىء الصخري. وكان في مقدمه بحار أخذ يومض نداء استغاثة واهيا بمصباح كهربائي.

PHOTO: © GARY HORLOR

ربض الركاب المبللون في الزوايا والثنايا وتحت المقاعد لاتقاء الرياح العاصفة. لكن ديريك غروف فضل البقاء في مقدم القارب لمراقبة الوضع. وكان قلقاً من أن ينقلب القارب المنجرف بلا دفة وهو يهبط من قمة احدى الموجات المتكسرة. ولم تكن جيني عابئة بما يدور حولها. فاندست بين ذراعي امرأة غريبة وكلتاهما متجمدتان ذاهلتان. ومضى ديريك ينقل الى الركاب المتأوهين مشاهداته من دون توقف: "حاذروا الآن! أمامنا موجة كبيرة. تشبثوا جيداً."

وفيما هو على هذه الحال، سمع صوتا غريباً تعالى فوق عويل الريح وارتطام الموج. واذ تطلع الى فوق لمح أنوار طائرة محلقة على ارتفاع منخفض. ففكر: "الحمد لله، لقد أتوا لانقاذنا."

ومن ركن قيادة طوافة الانقاذ ٤٠٦، تطلع النقيب كوتلي من علو ١٠٠ متر مراقباً بعين ثاقبة الزمرة الضاربة على غير هدى بين لجج شاطىء ترانسكاي. وكانت السماء مدلهمّة والقمر والنجوم متوارية خلف الغيوم الداكنة. وفي مؤخر طوافة كوتلي، جلس بين أكوام الاجهزة وخزانات الوقود رجلان قويا البنية في مطلع العشرينات من عمرهما هما الغواصان بول وايلي وغاري سكولار.

نقل جوي

اجتازت طوافتا الانقاذ ٤٠٦ و٤٠٧ مرتفعاً قرب كوفي باي تاركتين أضواء الهبوط منارة لهداية طوافتي الانقاذ ٤١٦ و٤١٤. وكانت الساعة السادسة الا ربعا صباحا.

شرح كوتلي الخطة لرجاله: "ستذهب الطوافتان ٤٠٦ و٤١٤ أولا لكشف المعوقات المحتملة على ظهر السفينة ولاستبيان سبل تنفيذ المهمة. في أثناء ذلك، ستعمد الطوافتان الاخريان الى تزود الوقود." ثم أضاف مشيراً الى الغواصين وايلي وسكولار: "وعندما نتحقق من خلو ظهر السفينة من المعوقات، سندليكما الى متنها لكي تشرحا للركاب إجراءات الاخلاء. ومن ثم ستنضم الينا الطوافتان ٤٠٧ و٤١٣."

وفيما كوتلي محلق في أجواء الفجر الرمادي، لمح بدن "الاوقيانوس" الابيض متمرغاً في أشداق الامواج الهادرة وقد تحطم سياج الميمنة والمقدم وبرزت الدفة والمروحة من الماء. وكانت السفن الاخرى متحلقة حولها كدجاجات راخمة، تحوم فوقها طائرة صغيرة من طراز «C-160».

تجمّع مئات الركاب على ظهر السفينة المتاخم لبركة السباحة لابسين سترات نجاة برتقالية. ولمح كوتلي على مقربة من السفينة الغارقة قارباً مكشوفاً محشواً بالركاب. وكان قارب "ندلويد موريشوس" ما زال قابعاً قبالة السفينة، فيما الحطام المتناثر ينجرف مسوقاً بالريح والتيار.

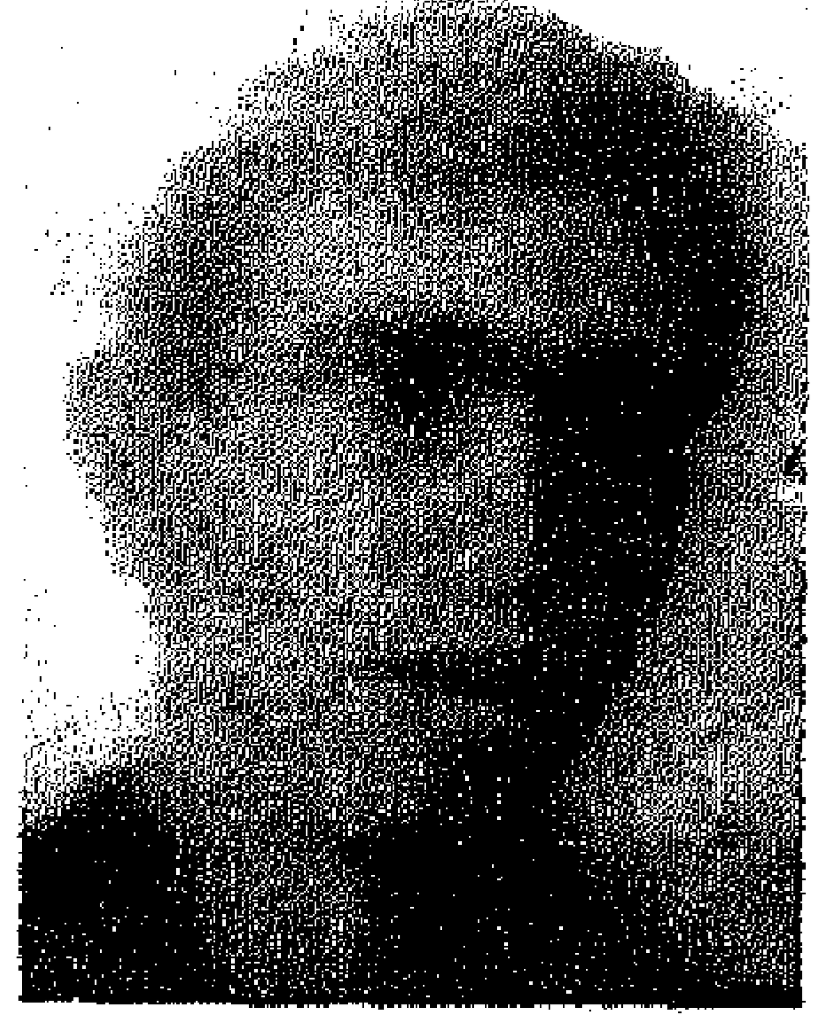
أجرت طوافة الانقاذ ٤١٤ كشفاً سريعاً على "الاوقيانوس"، فلمح طياروها سلكاً ثقيلا امتد عبر ظهر السفينة معلقاً بين المداخن والصاري الامامي. فقرر كوتلي اذذاك انزال الغواصين سكولار ووايلي لمعالجة هذا العائق وسواه. وعندما هبط الرجلان بواسطة محمل دلّته رافعة من بطن الطوافة، أخذ الركاب يهتفون فرحاً.

وما إن شرع سكولار في ترتيب الناحية الامامية حتى تقدم منه موس عابراً ظهر السفينة بجهد عارضاً المساعدة. وقال له وهما يتصافحان: "إني عازف الغيتار في الاوقيانوس."

فقال له سكولار: "يمكنك مساعدتي في وضع الركاب في المحمل. أين البحارة؟"

فأجاب موس ناثراً يديه: "لقد هربوا في قوارب النجاة."

فهتف سكولار: "هذا جميل!"



بول وايلي.

تولى وايلي إمرة مؤخر السفينة وأخذ يعدّ موقعاً لنقل الركاب جواً، فيما راحت الطوافات تحوم فوقه. أما بتس فكانت تركض جيئة وذهوباً على متن السفينة المترنحة مطلقة الاوامر عبر مكبر للصوت: "انتظموا في الصف، أرجوكم! وتشبثوا بالسياج." ثم أمسكت بسترة امرأة شابة تجاوزتها منزلقة على ظهر السفينة.

أخذ وايلي يشرح للركاب كيف يشدون محمل الرفع بالابزيم. ثم قال: "سنرفع شخصين كل مرة. ولكي لا تدوّموا في الهواء، أبعدوا أيديكم عن جوانبكم، ولا ترفعوها فوق رؤوسكم وإلا وقعتم من المحمل. حسناً، مَنْ يأتي أولاً؟"

فتقدمت وكيلة سياحية هزّتها المحنة الطويلة. ثم توقفت والدموع تنهمر من مقلتيها، فتناول وايلي يدها وقال لها: "تعالي!"

وفيما وايلي يعدّل ابزيم المرأة، هرع القبطان أفراناس وانزلق في المحمل الآخر. فهز وايلي كتفيه وتركه وشأنه.

وما إن عاد المحمل من الطوافة فارغاً حتى اندفع ضابط الاشارة الى الامام وطالب بالصعود. ولما لم يكن لدى وايلي وقت يضيعه في الجدل فقد تركه يصعد. ثم تبعه امين صندوق السفينة وأحد البحارة. فبلغ عدد الذين صعدوا الى الطوافة الاولى سبعة ناجين: القبطان وضابطان وبحار وثلاث نساء.

وعندما أخذت الطوافة التالية موقعها فوق السفينة، كان بيت نيماند وأنجيلا ستافرو التاليين. وكانا، كغيرهما من الركاب، حافظا على هدوئهما طوال الليل وبذلا كل ما في

PHOTO: COURTESY SATV

وسعهما للتخفيف من مشكلة كان حلها فوق طاقتهما. فعانق نيماند خطيبته مودعا، وبعدما اطمأن الى سلامتها تطلع حوله مخاطباً ابنه بيتر: "هناك كثيرون من الخائفين حولنا. هلم بنا لنرى ما نستطيعه لأجلهم."

جرّ نيماند نفسه على ظهر السفينة المترجح، وخاطب وايلي قائلا: "تبدو في حاجة الى مساعدة."

وكانت الطوافات الأربع بدأت تعمل مجتمعة. وأمسك نيماند بذراع وايلي الذي تمطّى ليمسك براكبين منزلقين، ثم سحبهما، كلاً على حدة، الى أعلى المنحدر. بعد ذلك راح نيماند يهدىء من روع الركاب فيما سعى وايلي الى التقاط محمل الرفع المترجِّح فوق ظهر السفينة.

تولى نيماند ووايلي مساعدة الركاب في وضع محمل الرفع تحت إبطهم وعقد الابزيم. وكلما فرغا من ذلك كانا يرفعان ابهاميهما اشارة الى الطوافة بمعنى "هيا!"

وكان طرف السلك اذذاك يهتز جاذباً الركاب بعنف فيما المهندس يسحبهم ببكرة الطوافة كالاسماك. ثم لا يلبث الربان أن ينطلق بهم فوق البحر مفسحاً في المجال للطوافة التالية لكي تأتي وتنتشل آخرين.

تأثر نيماند، المكبّ على العمل، لما أبداه المسنّون من شجاعة ورباطة جأش. فهم، على رغم الصدمة والارهاق اللذين زججا عيونهم ورمّدا وجوههم، وعلى رغم البرد والخوف اللذين أرجفا أجسادهم الواهنة، حافظوا على انضباطهم ووقارهم. وكان لعبارة "شكراً لك أيها الشاب" التي ما انفكت تنطلق من شفاههم المشققة أثرٌ لامس شغاف قلب نيماند وفجر عاطفته.

تأثر نيماند خصوصاً بزوجين عجوزين رفضا الذهاب قبل أن يريا ابنيهما الشابين المتزوجين يغادران السفينة بأمان. وكانت تلك، بالنسبة الى نيماند، أمور تؤكد بقاء الروح الانسانية التي لا تُقهر والخير المتأصل في نفوس الناس في مواجهة الظروف المروعة.

أول الناجين

مع بزوغ الفجر اقتربت سفينة الصيد النروجية "أنيك" من قارب النجاة الرقم ٥ في وقت بدأ ركابه الناعسون الخدرون يستسلمون لانخفاض درجات حرارة أجسادهم بعدما تعرضوا على مدى خمس ساعات لرياح جمدت أوصالهم.

راقب ديريك غروف "أنيك" وهي تدنو من القارب حتى كادت تلامسه. لكن القارب سرعان ما انقذف بفعل موجة جبارة الى علو ظهر السفينة، ثم هوى مرتطماً بها بقوة مروعة.


طوافة ترفع راكبين الى الامان.

رأى غروف رجلاً في القارب يلتقط سلّم حبال بكلتا يديه، لكنه سرعان ما اختفى مرتجّا بعنف فيما انزلق القارب هابطاً من ذروة الموجة. ثم راح الرجل يتخبط باحثاً عن موطىء لقدميه وهو معلّق يتلوى ويغزل مرتطماً بجنب السفينة. ولم تمضِ لحظات حتى انتشله الطاقم.

ثم قفز أحد بحارة "الاوقيانوس" ليلتقط حبلا متدليا. لكنه ارتطم بجنب السفينة وسقط في البحر الذي ابتلعه ثم لفظه. فألقى له البحارة حزام نجاة تشبث به بيأس ضار، وما لبثوا أن رفعوه الى متن السفينة.

وما كادوا يفعلون حتى صاحوا بالركاب: "لتصعد النساء!" لكن الجميع تراجعوا خائفين أمام رقصة الموت الماثلة أمامهم.

وكانت دوامة المياه عند مؤخر السفينة أخذت تجذب القارب ببطء نحو نصال المروحة الماخضة. فتعالى الصراخ منبهاً القبطان الذي سارع الى وقف المحرك في الوقت المناسب. وسرعان ما تحرر قارب النجاة الرقم ٥ من عقاله وكأن يداً خفية أطلقته، ومخرت "أنيك" مياه البحر مبتعدة.

مضت ساعتان قبل أن تقترب "ندلويد موريشوس" لمحاولة انقاذ الركاب. لكن المركبين ما لبثا أن اصطدما وسط الامواج الهادرة، فتطايرت قطع خشبية كبيرة من قارب النجاة، وأخذت المياه تتدفق اليه عبر الشقوق. وما هي الا لحظات حتى تدلت من "ندلويد" شبكة تسلق عَرشة. فسمع غروف صوت رجل يناشد زوجته: "أرجوك اذهبي ليبقى للاولاد واحد منّا على الاقل!" ثم حملها وكاد يلقي بها من القارب. فلمست السفينة منشبة أظافيرها في الشبكة الى أن تم سحبها.

ولم يمضِ وقت قصير حتى دنت من القارب سفينة الشحن البولونية "كازوبي ٢." فأشاح بحارتها بوجوههم فزعاً لمشهد قارب النجاة وهو يصطدم بجنب سفينتهم. فأمر القبطان بانزال صادّات لوقاية القارب من الصدمات المتواصلة. وفيما أفراد الطاقم

PHOTO: © MOSS HILLS



عمال إنقاذ يساعدون ناجين وصلوا الى فندق "ذي هايفن."

يحاولون تثبيت القارب بشد الحبال وارخائها، هبط اليه بحاران في شبكة لتحميل البضائع، وأخذا يشرفان على عملية الانقاذ.

تتالت عملية رفع الناجين في دفعات ثلاثية ورباعية صعوداً عبر جدار السفينة الاسود. فقبع ديريك غروف، بعدما رأى زوجته تبلغ متن السفينة بأمان، منتظراً دوره مع رجال آخرين. وعلى ظهر السفينة، وقف الناجون ينتظرون وصول أصدقائهم وأقاربهم، فيما راح البحارة يدثرونهم بحرامات وثياب دافئة. وكأن جميع الركاب يعانون آثار التعرض للعوامل الجوية القاسية، غير أن أحداً منهم لم يتأذَّ على نحو خطير.

وكانت "كازوبي ٢" انتشلت ٤٥ راكباً و٢٠ بحاراً من قارب نجاة آخر، فانصرف أحد موظفي شركة "ت.ف.س. تورز" الى تسجيل أسماء الناجين وأبلاغها الى الشاطىء لاسلكياً.

وكان عمال الانقاذ في أثناء ذلك اتخذوا مقراً في فندق محلي اسمه "ذي هايفن." وما إن سمعوا هدير طوافة الناجين الاولين فوق الكثبان الرملية حتى هبوا للمساعدة وقدموا القهوة والشاي الى ركابها السبعة، فيما تولى أطباء معاينتهم.

ولدى بلوغ الفندق دخل القبطان أفراناس الردهة والانبهار بادٍ على محيّاه، وجلس

PHOTO: © GARY HORLOR

منفرداً في احدى الزوايا من دون أن يقدم الى منقذيه أي معلومات عن حال السفينة أو يبدي أي اهتمام لمصير ٢٥٠ راكباً تركهم على متنها.

ثم أخذت الطوافات تتوافد تباعاً بحمولاتها النفيسة جالبة دموع الفرح الى البعض والاسى المتلبث الى البعض الآخر. وبازدياد عدد الناجين ازداد قلق مَنْ تركوا احباءهم على متن السفينة الغارقة. وراحت الشفاه تتحرك في صلوات صامتة. وجلست فتاة مراهقة تبكي ناشجة. واعتصرت امرأة عينيها ثم عادت الى البكاء بعدما حطت طوافة أخرى ولم يكن زوجها على متنها.

توافدت الطوافات جيئة وذهوباً والمنقذون يطابقون بين أسماء الناجين وجنسياتهم وقائمتي الطاقم والركاب اللتين جرى بثهما لاسلكياً من شركة "ت.ف.س. تورز" ووكلاء السفينة. إلا أن الناجين في فندق "ذي هايفن" لم يستطيعوا الاتصال بمنازلهم لأن العاصفة كانت أطاحت خطوط الهاتف.

اجراءات يائسة

فيما كان غاري سكولار يشد محمل الرفع رأى مهندس الطوافة ٤١٤ يشير بيده الى الركاب، فأدرك أن الوقت آخذ بالنفاد، وفكر في وسيلة أخرى لانقاذ الركاب قبل غرق السفينة.

تطلع حوله، فلمح قارب النجاة الذي أرسلته "ندلويد موريشوس" قابعاً على بعد ١٠٠ متر من "الاوقيانوس." وتذكر أنه رأى زوارق صغيرة مكدسة في مقدم الباخرة. فكلّف موس هيلز الاهتمام بمحمل الرفع محذراً: "تأكد من شد المحمل تحت ابط الركاب، ولا تغفل ذلك لأنك اذا شددته في موضع أدنى فقد تتسبب النخعة الرافعة في قصم ظهورهم." ثم هرع زاحفاً الى مقدم الباخرة.

حاول سكولار جرّ قارب عبر ظهر الباخرة المترجحة، لكنّ الريحَ قذفته بعيداً. ثم حاول ثانية، فتحطم قارب آخر. وأخيراً، بعد لأي، استطاع وضع قارب ثالث في الماء، وقفز اليه، لكن محركه أبى أن يدور. فجرفته الريح الى الوراء.

وفيما سكولار يحاول جاهداً تشغيل المحرك، تطلع فجأة الى فوق، فلاحت له المروحة الهائلة. وما لبث بدن الباخرة أن هوى منزلقاً فوق موجة جبارة جذبت دوامتها القارب الصغير عميقاً تحت العارضة. فهوى سكولار لافّاً ذراعيه حول المروحة الغائصة من دون أن يجد متسعاً من الوقت لتنشق الهواء.

ثم راح يغرق في السواد المزبد والدماء تدوي هادرة في أذنيه والضغط يعتصر صدره كحزام حديد. فتشبث بالمروحة ورئتاه تكادان تنفجران. ثم، ببطء خاله دهراً، انداحت موجة هائلة تحت بدن الباخرة رافعة المروحة فوق الماء.

فهب سكولار يغترف الهواء متلهفاً وقد مزق النصل بزة الغطس التي يرتديها. ثم ارتمى في البحر حيث اختفى قاربه، ووقف في الماء كيما يسترجع قواه ليعود الى مقدم الباخرة. ثم أخذ يسبح مع التيار الى أن لمح حبلاً تسلقه عائداً الى متن "الاوقيانوس."

حاول سكولار اطلاق قارب آخر، لكن قواه كانت خائرة. ومع ذلك تابع كفاحه وحيداً الى أن ظهر أمامه بحار فيليبيني. فتبادل الرجلان الابتسامات، ثم عملا معاً على وضع القارب الأخير في الماء. واذ تم لهما ذلك قفز سكولار من السفينة غائصاً في البحر، ثم تسلق القارب بجهد.

فانطلق المحرك. لكن البحر كان هائجاً مما حال دون الدنو بالقارب مسافة قريبة من السفينة. ومع ذلك أشار سكولار الى لورين بتس الواقفة على منصة الطوافات صائحاً: "إليّ بالركاب!"

فمد جوليان رسل حبلاً عبر ظهر السفينة فيما أخذت بتس تصدر أوامرها الى الشبان والقادرين جسدياً لكي يتبعوها الى مقدم السفينة. لكن شاباً رفض الاذعان للأمر قائلاً وهو يمسِّد يدي سيدة عجوز: "لا أستطيع تركها."

وفيما الامواج تضرب مقدم السفينة وبراميل الوقود تتدحرج على ظهرها، صاح سكولار حاضّاً الركاب: "هيا، اقفزوا الى البحر! فأنا هنا لانتشالكم." فتراجع رجل لا يجيد السباحة خائفاً. لكن رسل أمسكه من سترة النجاة وقفز به الى الماء.

واذ كانت العارضة تحطمت، طلب سكولار من رسل أن يعتلي القارب ويربض فوق مقدمه لتأمين ثقل موازن. ثم جاب الاثنان المسافة الفاصلة بين "الاوقيانوس" وقارب "ندلويد موريشوس" ناقلين نحو ٤٠ شخصاً في ست رحلات.

أخيراً صاح سكولار مخاطباً لورين بتس: "هيا انزلي!" فهرعت بتس الى منصة الربان لعد الركاب. وعندما عادت خاطبت موس: "لم يبقَ الا بضع عشرات على متن السفينة، والوضع الآن تحت سيطرة الطوافات، ولقد أُمرت الآن بالنزول الى القارب."

فتطلع اليها موس مبتسماً بعياء وقال لها: "حسناً يا لورين، لقد أجدتِ، والحق يقال، في ادارة العرض."

فقفزت بتس الى البحر، وتوقفت عقارب ساعتها مشيرة الى العاشرة والثلث صباحاً.

مكث روبن بولتمن على منصة القبطان حافظاً الاتصال لاسلكياً بفندق "ذي هايفن." وعلى رغم أنه كان بمنأى عن لسعات الريح العاصفة، فقد شعر بالبرد يجمد أوصاله. فخلع سترة النجاة وارتدى سترة أفراناس الواقية من الريح. وفيما الركاب يغادرون تباعاً، واصل بولتمن إحصاءهم على ساق سرواله بقلم حبر. ثم رفع ابهامه مشيراً الى موس هيلز بعلامة النصر. فرد هيلز بابتسامة عييَّة.

ألقى بولتمن الى القارب ببضع علب من عصير البرتقال كان أحضرها من مقهى السفينة. ثم شاهد زوجته تريسي تساعد في دفع الركاب على متن السفينة الى منصة الرفع الجوي. وكان هؤلاء يمضون، وشفاههم مشققة نازفة وأيديهم وأرجلهم مثقلة إرهاقا، الى حيث يتم رفعهم الى احدى الطوافات. وكانت مهمة سكولار عند المحمل انتهت بعدما تولاها مناوبةً عدد من الشبان الاقوياء.

أخيرا، تولى بيت نيماند وابنه بيتر الاشراف على المحمل. وعندما لم يتبقَّ في مقدم السفينة سوى بضعة أشخاص، أومأ نيماند الى ابنه الذي كان يساعد الركاب في الصعود الى منصة الرفع الجوي رافضاً مغادرة السفينة من دون والده، وطلب منه خدمة لم يستطع رفضها.

كانت بين ذراعي بيتر آنئذٍ عجوز تكاد لا تقوى على الوقوف بفعل الصدمة والارهاق. فقال له نيماند: "خذ يا بنيّ هذه السيدة معك. وعندما تصل الى الشاطىء بلِّغ الى أنجيلا أني بخير."

نظر بيتر مبتسما الى المرأة المرتجفة بين يديه، فقالت له: "أمسك بي بكل قوتك." ثم أحاطت عنقه بذراعيها وتقدما معاً الى المنصة.

انتهت عملية الرفع الجوي من مقدم السفينة. فقال بول وايلي مخاطباً نيماند: "هلم بنا يا بيت نتفقّد السفينة." وانطلق الاثنان متشبثين بالاسيجة نحو الردهة الرئيسية. وعندما بلغا الطبقة العليا لمحا روبن بولتمن نازلاً من منصة الربان.

فسأله وايلي: "هل ذهب الجميع؟"

لكن بولتمن هز رأسه قائلا: "بحسب تعدادي، ثمة ١٤ راكباً ما زالوا على متن السفينة." وفيما هما كذلك، مالت السفينة بميمنتها متثاقلة نحو البحر، وبقيت في ذلك الوضع والامواج تتكسر على أسيجتها بضراوة.

فتساءل بولتمن: "ترى، أين ذهبت الطوافات والسفينة توشك على الغرق؟"

فأجابه وايلي: "لربما ذهبت لتزود الوقود."

وكانت الطوافات فرغت من الوقود فعلا وفي وقت واحد، وقفلت لتملأ خزاناتها في بلدة أومتاتا على بعد ٤٠ كيلومترا.

وفيما نيماند ووايلي وموس هيلز متشبثون بسياج مهبط الطوافات، عاد بولتمن الى منصة الربان وبعث الى "ذي هايفن" رسالة لاسلكية أخيرة قال فيها: "الاوقيانوس على وشك الغرق. سأغادر المنصة من فوري."

ثم لوَّح بيديه محيياً غاري سكولار وجوليان رسل اللذين وقفا في القارب بعيداً عن السفينة مخافة أن تغرق فجأة. فرد رسل التحية وقد بلله الماء من رأسه حتى أخمص قدميه.

لقد احتوى عمال الانقاذ مخاوفهم ساعة إثر ساعة تحت الحاح العمليات. ولكن ما إن توقف العمل الدؤوب حتى ناء الجميع تحت وطأة التعب والافكار السود.

فكرت تريسي هيلز في ابنتها آمبر مبتهلة الى الله لكي ينجيها هي أو ينجي زوجها كيما يواصل أي منهما تنشئتها. وكانت تريسي المرأة الوحيدة الباقية على متن السفينة. فأحاطها زوجها موس بذراعه مغتبطاً لبقائها معه، وإنْ يكن في الواقع تمنى لو أنها ذهبت مع من ذهب. فقالت له مبتسمة بعياء وكأنها عالمة بما يدور في خلده: "لقد بقيت هنا للعناية بك."

وما لبث نيماند أن صاح: "لقد عادوا." فتطلع الآخرون الى حيث أشار ولمحوا طوافات مقبلة على علو منخفض.

رُفع الركاب الاربعة عشر أولاً. ثم تبعهم موس وتريسي هيلز. وبعدهما صعد بولتمن والبحار الفيليبيني. وما إن استقرت تريسي في الطوافة حتى شعرت بالاطمئنان يتسرب الى كيانها. فقريباً جداً ستنضم هي وزوجها الى ابنتهما آمبر.

لم يبق على متن السفينة سوى وايلي ونيماند. فتفقد الاثنان أرجاء السفينة في كشف أخير، وراح وايلي يصيح في الممرات: "هل من أحد هناك؟" لكنه لم يلقَ سوى صرير الخشب والمعدن جوابا.

وفي الردهة الرئيسية، وسط الحطام المتناثر، تناول الرجلان زجاجتي كولا، فقال نيماند: "لا عليك، إنها على حساب المحل."

وسرعان ما سمعا صوتاً مكتوما نجم عن تحويم شفرات الطوافة فوق ظهر السفينة مؤذنة بانتهاء المهمة ودنو الرحيل.

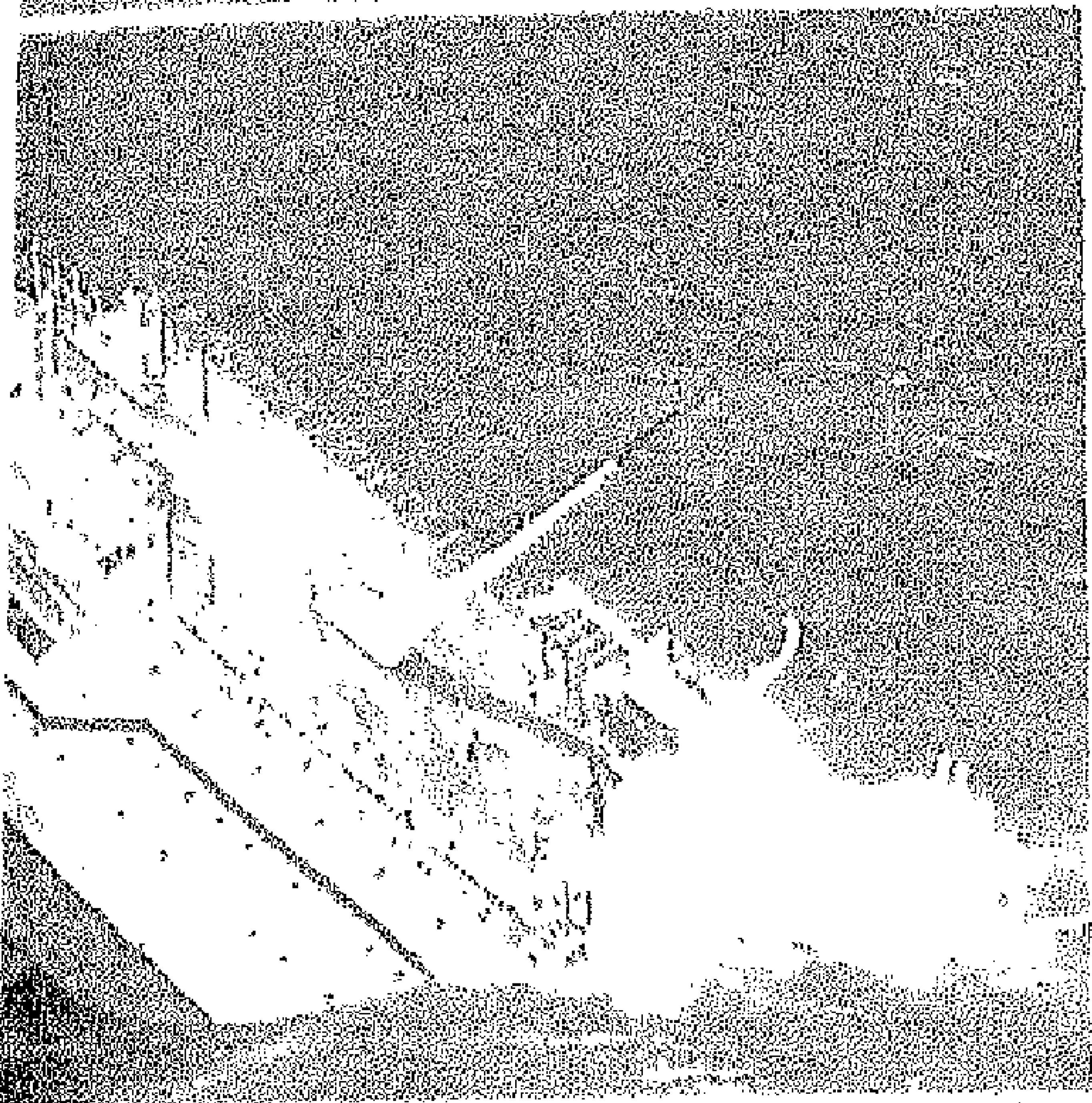
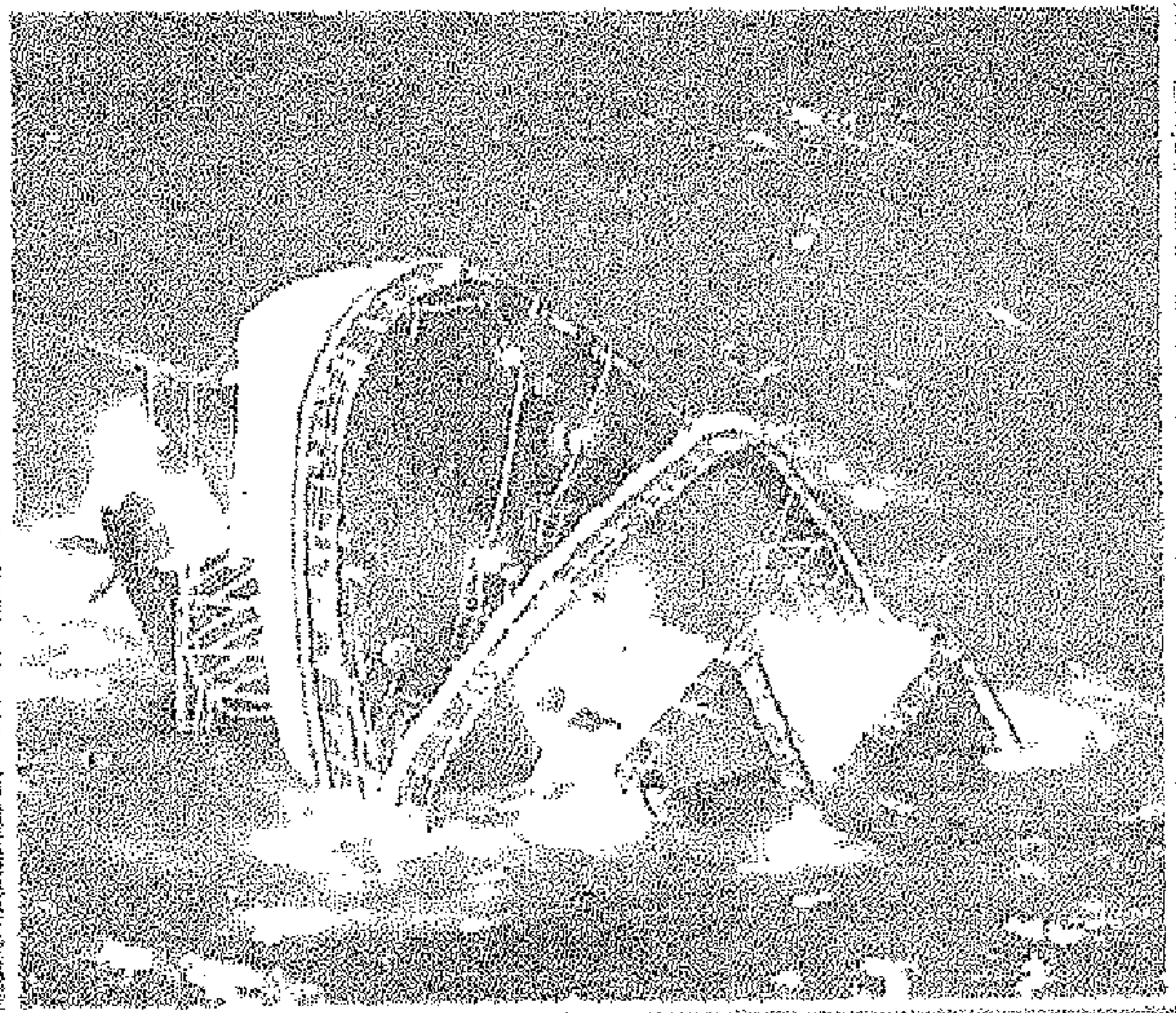
فصاح وايلي: "لنخرج من هنا!"

عودة الابطال

عندما خرج هيلز وبولتمن من طوافتهما الى فندق "ذي هايفن" هرع اليهما الركاب صائحين: "ها هما!" وتحلقوا حولهما ضاحكين مربتين ظهريهما استحسانا. ثم لفَّت احدى النساء حراماً حول موس هيلز وقالت له: "شكراً لك، لقد أنقذتني أيها الشاب."

فانفجر هيلز باكيا بعدما نال منه التوتر العاطفي والعمل الشاق طوال ١٥ ساعة. ثم هوت ساقاه، فرفعه المساعدون الطبيون على حمالة وهرعوا به الى الداخل. لكن هيلز لم يكن في حاجة الى سوى الهدوء والسكينة. لذا لم تمضِ ساعة حتى عاد الى الوقوف مستمداً الدفء من طاس حساء ساخن.

وفيما بولتمن يشق طريقه عبر الحشد المربِّت لمح أفراناس في طرف الزحمة. فخلع عنه سترة القبطان وأعادها اليه.

ولدى بلوغ الشاطىء تلقى نيماند ووايلي وسكولار ورسل استقبال أبطال آخر. وعانق نيماند خطيبته أنجيلا، ثم خاطبه ابنه بيتر: "إني فخور بك يا أبي."

فرد نيماند: "لقد مدنا الله بعونه."

وقف البحارة على منصات سفن الانقاذ يراقبون "الاوقيانوس" بصمت وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة مصعِّدة الابخرة من متونها كالدخان فيما ثقل الماء يجرها الى الاعماق. واذ تلبَّث مؤخرها متمهلاً فوق الموج، اصطدم مقدمها بالجرف القاري على عمق نحو ١٠٠ متر. توقفت الباخرة للحظة كأنها تتردد في الغوص الى مثواها الاخير، ثم انقلبت منسلَّة على مهل الى الاعماق. كانت الساعة آنئذ الاولى والدقيقة السادسة والاربعين من بعد ظهر ٤ أغسطس (آب) ١٩٩١.

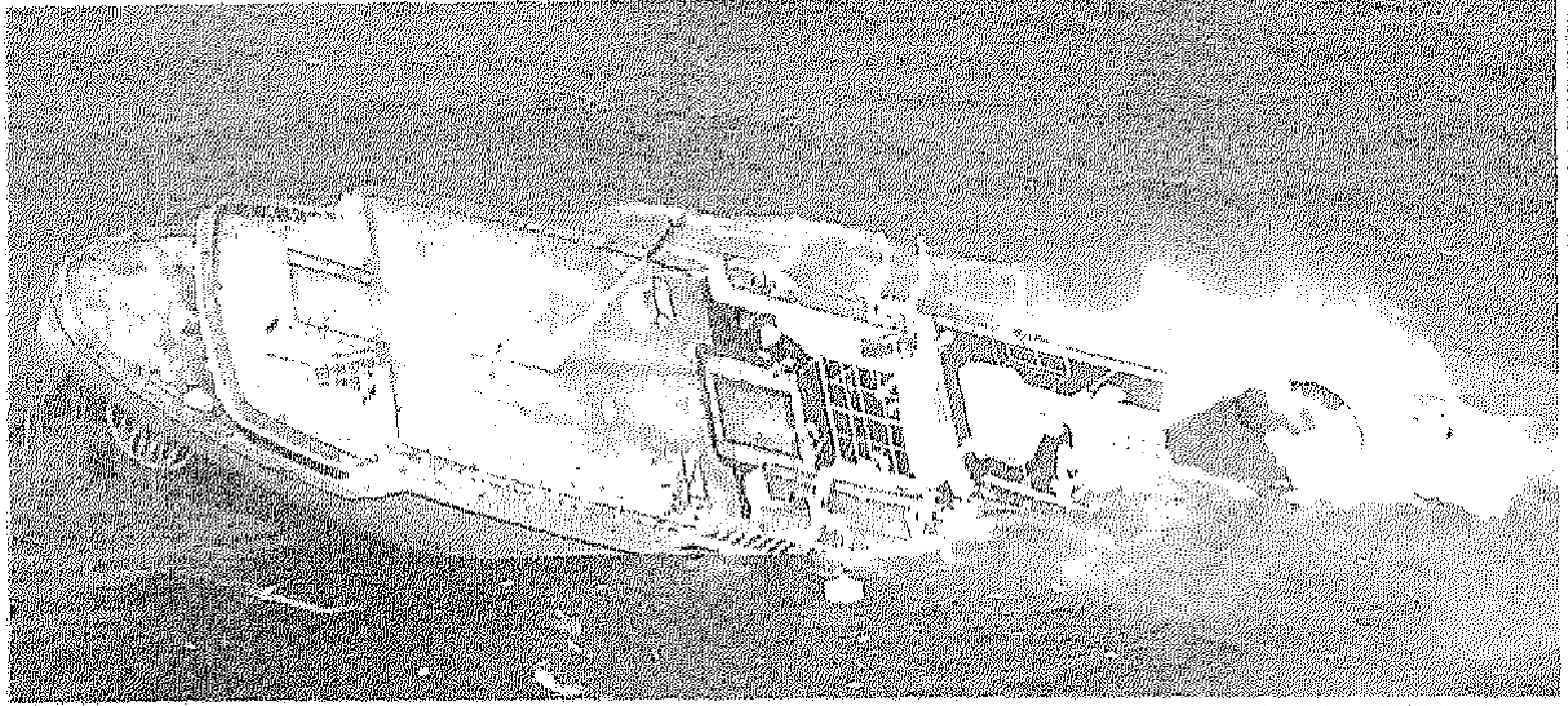
في أثناء ذلك كانت طائرة من طراز «DC-3» تحوم فوق المنطقة منذ ساعات. فأشار قائدها فجأة الى نقطة برتقالية طافية على بعد ١٠ كيلومترات جنوب موقع "الاوقيانوس." وكان البحارة رأوا نقاطا مشابهة تطفو فوق الماء، وهي مقاعد وسترات نجاة وغير ذلك من حطام، لكن تلك النقطة بدت مختلفة. فأمال القائد جناح طائرته ليتفحص ما رآه، ولم تمضِ لحظات حتى أدرك أن ما شاهده هو شخص عائم. فاتصل لاسلكيا باحدى الطوافات لتنتشله.

أمضى أفجرينوس تسيكيس (٤٦ عاما) نحو ١٠ ساعات تحت رحمة الرياح والتيارات قبل انتشاله من بين أشداق الموج. وكان قفز الى البحر مع الفجر محاولاً السباحة الى قارب "ندلويد موريشوس"، لكن تياراً جرفه. وحين انتُشل كان يعاني من الارهاق ومن انخفاض غير طبيعي في درجة حرارته، فنقل جواً الى أقرب مستشفى.

وفي اليوم التالي رست "غريت نانسي" في ميناء دوربان وعلى متنها ١٧٦ ناجياً.

PHOTOS: © LOUISE GUBB / JB PICTURES

JB PICTURES



ثم وصلت "كازوبي ٢" حاملة ١٠٦ ناجين. ولم تلبث "ندلويد موريشوس" أن جاءت حاملة ٥١ ناجياً. وتبعتها "أنيك" وعلى متنها ثلاثة ناجين. وأخيراً رست سفينة أخرى اسمها "ريفر داتشيس" حاملة ثمانية آخرين. فبلغ مجموع الناجين ٣٤٤ راكباً.

ومع بزوغ الفجر، كان مركز الانقاذ أصدر لوائح كمبيوتر حددت أن عدد الركاب الذين أنقذوا بواسطة السفن بلغ ٣٤٤، وأن عدد الناجين المنقولين جواً بلغ ٢٢٦، أي ما مجموعه ٥٧٠ راكباً. وبقي راكب واحد مفقوداً. وبعد مضي ٢٨ ساعة على غرق "الاوقيانوس" توقف البحث عن الراكب الاخير.

وفيما عمال الانقاذ يهمون بالانصراف، رن جرس الهاتف مبشراً بأن الراكب المفقود وُجد في مستشفى أومتاتا.

فتحول عمال الانقاذ والركاب وعائلاتهم الى الاحتفال بانقضاء المحنة.

لقد أحاقت الاخطار المروعة بـ٥٧١ راكبا جمعتهم الاقدار في البحر. فأنقذوا فرداً فرداً.

تلك كانت أعجوبة "الاوقيانوس."

فرانك بايت ■

ترجمة فريد شديد

في مايو (أيار) ١٩٩٢ اعتبرت محكمة بحرية يونانية القبطان افراناس وخمسة من كبار ضباطه مذنبين بتهمة الاهمال.

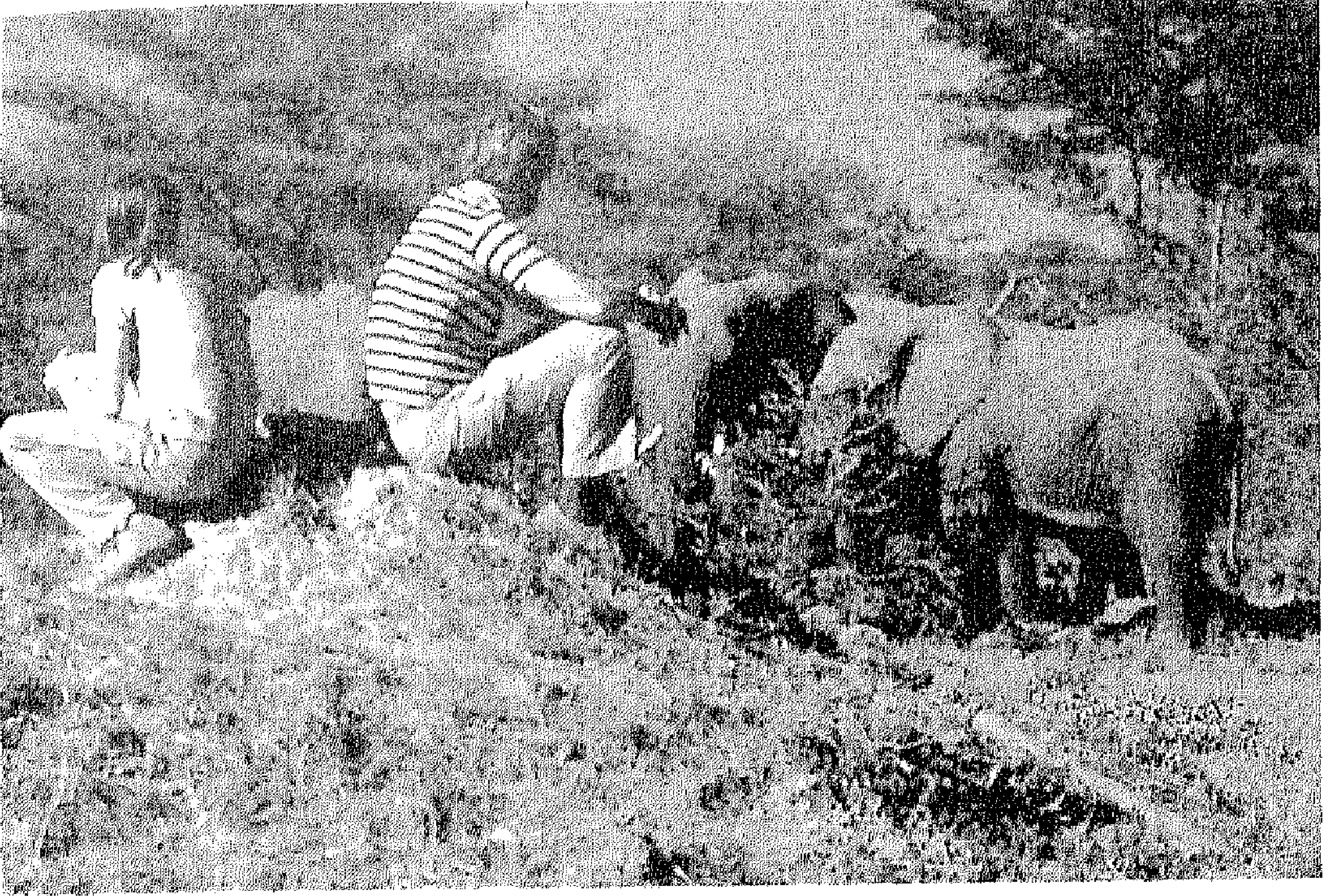
ومنح سلاح الجو في جنوب افريقيا أوسمة الى تشاز كوتلي وبول وايلي وغاري سكولار لدورهم في عمليات الانقاذ. أما لورين بتس وموس وتريسي هيلز وجوليان رسل وروبن بولتمن فمرشحون لنيل وسام "فولراد فولتميد" وهو أرفع وسام للشجاعة المدنية في جنوب افريقيا.

كتاب الشهر

عين الفيل

مُلخّص من كتاب "عين الفيل"
بقلم دليا ومارك أوين




PHOTO: © MARK OWENS

على مقربة من المخيّم النائي الذي أقامه مارك ودليا أونز سرحت خمسة أفيال ترعى. واحد منها له نابان طويلان وثقب صغير في أذنه اليسرى، فيل سماه مارك ودليا "سورفايفر."[1]

جلس الزوجان يراقبان الفيلة وهي تلف خراطيمها حول حزم من العشب وتقتلعها ثم تحشرها في أفواهها. كانت العصافير تتقافز بين أقدامهما، وعائلة من الخنازير الوحشية الافريقية تجول في أعلى النهر بحثاً عن طعام. انه صباح بارد هادىء في افريقيا الجنوبية.

"بم!" طلقة بندقية عبر النهر! تهرع دليا الى زوجها وقد غار اللون من وجهها.

"بم! بم! بم!"

وتصرخ دليا: "يا الهي! مارك، انهم يطلقون النار على سورفايفر!"

(١) Survivor تعني "الناجي."

مارك:

كنت ودليا متوجهين في سيارتنا عبر درب من الطين الاحمر علّها تقودنا الى متنزه لوانغوا الشمالية. تلوّت بنا الدرب وسط حقول الذرة، ثم درجنا ببطء عبر جسر من جذوع الشجر، وكانت الاغصان تطقطق وتتكسر تحت ثقل السيارة وهي من طراز "تويوتا لاند كروزر."

لم يكن أحد يعرف الى أين نتجه وإلامَ سيطول غيابنا. كانت السيارة في أواخر عمرها، ولم يكن لدينا جهاز راديو للاتصال ولا أسلحة نارية. وفي حال طوارىء، تستغرق الرحلة يومين الى أقرب مستشفى في لوساكا عاصمة زامبيا حيث قدمنا لاجراء أبحاث في الحياة البرية.

مررنا عبر قرية بيوتها من طين، وكانت الاعشاب في المنطقة أعلى من سطح السيارة. وفي وقت لاحق، فيما نحن نلتف حول نتوء صخري، اختفت الدرب فجأة وواجهنا منحدراً مليئا بالصخور المسنّنة والحفر العميقة. واندفعت السيارة في المنحدر، فحاولت تخفيف السرعة، لكن المقطورة الثقيلة قفزت الى الامام مما رفع العجلات الخلفية للتويوتا عن الارض. وتحركت براميل الوقود لتضرب مقدم المقطورة. فتمايلت السيارة مندفعة أسرع فأسرع فوق الصخور.

دستُ الكابح وصرخت في زوجتي: "استعدي للقفز!" فأمسكت دليا بمقبض الباب فيما السيارة تتواثب نزولا على المنحدر.

وفيما عجلات السيارة ترتطم بالحجار المسنّنة، راحت أطر العجلات تتمزق مصدرة قرقعة عالية. وكلما ضغطت الكابح كانت السيارة والمقطورة تنطويان على شكل ٧.

أخيراً، فيما أنا أحاول تخفيف اندفاع السيارة، استقرت عجلاتها على المنحدر وتوقفت. فأرخت دليا مسكتها عن لوحة أجهزة القياس، وأفلتُّ أنا قبضتي المحكمة عن المقود.

كنت ودليا أمضينا أربعة أشهر نعيش كالبدو الرحل مستكشفين مناطق الحياة البرية في جنوب افريقيا. ولاختبار إمكان إجراء بحث على حيوانات متنزه لوانغوا الشمالية، سلكنا الدرب الممتدة على ضفة نهر مواليشي والمؤدية الى نهر لوانغوا على الحدود الشرقية للمتنزه. وكانت رحلة استطلاع قمنا بها سابقاً في طائرتنا من طراز "سيسنا ١٨٠" أظهرت أن السهول المنخفضة على امتداد هذين النهرين قد تكون من أهم مواطن الحياة البرية في المتنزه.

بعد ساعة ونصف ساعة كنا انحدرنا حوالى ١٠٠٠ متر في وادي لوانغوا، وارتفعت الحرارة الى ٣٠ درجة مئوية. وامتلأت السيارة بذباب الـ"تسي تسي" الذي راح يقرص كل مساحة مكشوفة من جسمينا مخترقا قمصاننا وسراولينا القصيرة وجواربنا.

ولما كان الجو حاراً فقد تعذر علينا إقفال النوافذ، فرحنا نطرد الذباب بقبعتينا ونسحقه على الزجاج الامامي. ثم أشعلنا سجائر كنا جلبناها لمقايضتها مع السكان المحليين، وبدأنا ننفث دخانها مسعورين حتى تراجعت أسراب الذباب.

بعد ساعتين من مغادرة الجرف علقنا في متاهة من الشجيرات الشوكية التي ارتفعت كجدران الى علو أربعة أمتار. رحنا نلتف وندور في هذه المتاهة من العلّيق الكثيف لنجد أنفسنا مرة بعد أخرى أمام جدول عميق وعر سدّ علينا طريقنا. كانت الحيوانات قليلة والنباتات كلها بنّية أحرقتها الشمس. أخيراً اخترقنا دغلا كثيفاً من الشجيرات اليابسة فوصلنا الى نهر مواليشي.

بدا القعر الرملي الابيض جلياً من خلال المياه المتلألئة. ورأينا قطيعاً صغيراً من ظباء البوكو الافريقية على مسافة ٤٠ متراً، وهي بدت لنا بقعاً حمراء وبنّية وسط العشب الاخضر الندي. وجثمت نسور على أعالي الاشجار.

سرَّحنا عيوننا لتعبَّ من المنظر بعد كآبة أراضي العليق. وركضنا الى النهر نغرف الماء بأيدينا ونتراشق. ثم قفزنا الى الماء بكامل ثيابنا.

مع غروب الشمس فرشنا حشيتنا على ظهر المقطورة ثم أقمنا طاولتنا وكرسيينا وأشعلنا نار مخيم. سكبتُ بعض الشراب في كأسين من البلاستيك وتبادلنا نخب ليلتنا الاولى في الوادي، فيما قطعان من الظباء والحُمُر الوحشية تعبّ من النهر وطائر قاوند يغطس في الجب عند أقدامنا.

لقد بدأنا نقتنع برغبتنا في العيش والعمل في لوانغوا الشمالية. لكننا فوجئنا بعد بضعة أيام اذ خرجنا من أرض ملتفة الشجر لنجد أنفسنا في بقعة جرداء أحرقت الشمس ترابها فتحول كعكات مشققة مغبرة.

هتفت دليا: "مارك! انظر هناك!"

أوقفت السيارة وسرنا الى أجمة من الاشجار اليابسة. كانت جماجم خمسة أفيال متناثرة هنا وهناك وقد ابيضّ عظمها. ورأينا أيضاً عظام قوائم وأقفاص صدرية. كانت الهياكل العظمية تغطي المكان.

فحصنا الجماجم، فاكتشفنا ثقوباً صغيرة في كل منها. وكانت الوجوه قطعت واجتثت أنيابها. انتبهنا في هذه اللحظة الى أننا لم نرَ فيلا واحداً حيا منذ دخولنا أرض المتنزه، وأدركنا أننا نقف على مسرح مجزرة حيث قتل لصوص الصيد كل حيوان ضخم في الجوار.

رفست الارض بقدمي صارخاً: "أولاد الافاعي!"

اذا كنا سنبقى هنا للعمل فلن يمكننا تجاهل لصوص الصيد أو التهرّب من مواجهتهم. سيكون لزاماً علينا أن نفعل شيئاً لمنعهم.

جئنا الى افريقيا للمرة الاولى في العام ١٩٧٤ وقد مرّت على زواجنا سنة واحدة. كنا تخرجنا حديثاً في جامعة جورجيا في الولايات المتحدة وما زلنا زاخرين بمثالية الشباب. وصلنا وفي نيتنا بدء مشروع أبحاث حول الحياة البرية في صحراء كالاهاري في بوتسوانا. درسنا حياة الأسود والضباع على مدى سبع سنوات، ثم عدنا الى الولايات المتحدة لانهاء دراستنا الجامعية.

عندما رجعنا الى بوتسوانا في العام ١٩٨٥، أمرت حكومتها بترحيلنا من دون أن تعطي سبباً لذلك. لكن مسؤولا أسرّ الينا بأن مجموعة من السياسيين تنوي اقامة مزارع أبقار خاصة في كالاهاري وهي تعرف أننا سوف نعارض ذلك المشروع.

وبعد أربعة عشر شهرا كنا في لوساكا للقاء مسؤول عن الابحاث المتعلقة بمتنزهات زامبيا الطبيعية.

قال لنا المسؤول: "كدنا نيأس من جدوى أي عمل في متنزه لوانغوا الشمالية. انه ناء، والوصول اليه لحمايته شبه مستحيل. لا أحد يذهب الى تلك المنطقة، ولذا ليست لدينا فكرة عما يجري هناك. أنا لم أرَ المتنزه في حياتي، لكنني سمعت أنه جميل جداً."

سألته: "هل من سبب يمنعنا من الذهاب الى المتنزه وإلقاء نظرة؟"

أجابني: "أبداً، وافنا بتقرير عما تجده."

ليس المكان متنزهاً وطنياً بالمفهوم السائد في الغرب. فلا مرافق سياحية ولا طرق ولا أحد يعيش فيه. انه رقعة من البرية البكر تمتد على مساحة ٦٥٠٠ كيلومتر مربع، تجعلها فيضانات الانهار عصية على الوصول في فصل الامطار فيما تجعلها الرمال والوهاد العميقة وعرة في موسم الجفاف. هذا هو المكان المفضل لدينا. فهو ناء، وعر المسالك، والوصول اليه قريب من المستحيل.

يضم المتنزه تنوعا من الحياة البرية غنياً الى حد لا يصدق. ولم يعمد أحد، في علمنا، الى دراسة طبائع الحيوانات وسبل حمايتها في هذا المكان من قبل. لذا بدا لنا موقعا جيداً لاختبار نظريتنا التي تقول بأن القرويين الذين يعيشون على مقربة من المتنزه سوف يتحمسون للمساعدة في حمايته اذا كانت لهم فائدة مباشرة من الحياة البرية فيه، عبر السياحة مثلا.

أقمنا مخيما موقتاً على ضفة نهر مواليشي في الموقع الوحيد حيث تعرجات النهر متباعدة ما يكفي لاقامة مهبط طائرة صغيرة. لكن الشكوك بدأت تساورنا حول جدوى العمل هنا ولمّا تمضِ أيام قليلة. فالمكان وعر جداً، وكنّا مضطرين الى خوض ما يشبه

الحرب مع عناصر الطبيعة كلما أردنا التحرك في السيارة وإن لمسافة قصيرة. وقد انقلبت السيارة ذات صباح وانزلقت دليا منها على جدار واد، لكنها لم تصب بسوى كدمات وخدوش في ذراعها اليسرى. كذلك السيارة التي رفعناها بواسطة ونش، فهي سلمت الا من أضرار بسيطة للدعامة الامامية.

كان الحصول على المؤن الاساسية يتطلب رحلة شاقة تستغرق يوماً من المخيم الى مبيكا أقرب بلدة "حقيقية." وكنا نؤمِّن وقود طائرتنا من لوساكا. لكن تجاوز العقبات اللوجستية بدا مستحيلا بموازنتنا المحدودة، فضلا عن أن لصوص الصيد لن يسرّوا كثيراً بما نخطط له. قالت لي دليا: "ربما كان علينا أن نرحل من هنا!"

أفقت صباح اليوم التالي على صوت رشيش ماء في النهر. نهضت لأرى أسدين على مسافة عشرة أمتار ينثران الماء رذاذاً في لهو صاخب. كان جسداهما الذهبيان يعكسان أشعة شمس الصباح. فيا لذلك المشهد الرائع الذي أنسانا متاعب الرحلة!

التفتُّ الى دليا مبتسماً وسألتها: "كم مكاناً بقي في افريقيا حيث يمكننا مراقبة أسود ذهبية تلهو صاخبة في النهر على مقربة من خيمتنا؟"

قررنا تمضية ليلة أخرى هناك على رغم نفاد مؤونتنا. وانحسرت الحرارة عصراً فركبنا سيارتنا الـ"لاند كروزر."

"فيلة!" صرخت دليا. وخرجت من الغابة عصبة من ستة أفيال على مسافة حوالى ٤٥٠ متراً منا متجهة نحو الماء. وكان لكبرى الاناث فيها ناب واحد.

توقفت الفيلة ورفعت خراطيمها تشتّمّ الهواء تنسُّماً لرائحة خطر. ثم تقدمت خطوات قبل أن تتوقف ثانية: قائمة واحدة مرفوعة وخرطوم ملتف. وفيما الفيلة تقترب من حافة الماء استدار خرطوم في اتجاهنا فجأة وراح صاحبه يصفق أذنيه بهياج، ثم استدار بكتلته الضخمة وفرَّ عائداً الى الغابة، وتبعه رفقاؤه، وخلال ثوان كانت الفيلة اختفت.

لا بد من أن النهر حمل رائحتنا الى الفيلة التي أصبحت، لكثرة مضايقات لصوص الصيد، تخشى الانسان وتأبى الشرب حتى على تلك المسافة منه.

في تلك اللحظة من أغسطس (آب) ١٩٨٦ قطعنا على أنفسنا عهداً بالبقاء في لوانغوا الشمالية حتى تعود الفيلة تشرب بسلام من ماء النهر.

دليا:

انقضت أشهر قبل أن نحصل على كل الرخص المطلوبة لبدء العمل في لوانغوا الشمالية. وها نحن الآن نقف أخيراً على ضفة مرتفعة لنهر لوبونغا ندرس سهلاً فيضانياً[٢] يمتد نحو ألف متر في محاذاة النهر. وكنا أمضينا عشرة أيام باحثين عن

(٢) هو سهل ناشىء عن الاتربة التي تخلفها مياه الفيضانات كل موسم امطار.

موقع نقيم فيه مخيمنا الرئيسي.

قال مارك: "سوف نبتل عندما تمطر، لكنني مستعد للمغامرة، ماذا تقولين؟"

كانت مياه الشرب متوافرة مع كثير من الظلال. وكانت أشجار المارولا الباسقة تلوّح بأغصانها الضخمة في النسائم اللطيفة كأنها تدعونا الى الاحتماء بها. وعلى مقربة منا قطيع من ظباء البوكو يرعى. أومأت برأسي موافقة وتساءلت عما ترانا نسمي المخيم. فرد مارك: "ما رأيك في اسم مارولا – بوكو؟"

بدأنا اقامة المخيم بمساعدة خمسة عمال محليين من قبيلة بيمبا. نصبنا خيمة وركزنا طاولة الاكل والكراسي وبنينا كوخا من طين ثبتنا على سطحه حزما من العشب. ثم نظفنا، قبل بدء موسم الامطار، بقعة تبعد حوالى خمسة كيلومترات من المخيم، فاقتلعنا الاعشاب الطويلة وأقمنا مهبطا للطائرة.

أمضينا أشهراً في الطيران والسير والاستكشاف لنكوّن فكرة عن الحياة في لوانغوا الشمالية. لاحظنا أن الفيلة تعبر من الجبال في الغرب الى السهول المعشبة في بطن الوادي مع بداية موسم الامطار في منتصف نوفمبر (تشرين الثاني)، ثم تعود الى الجبال عندما يبدأ موسم الجفاف في ابريل (نيسان). وينشط لصوص الصيد عادة خلال موسم الامطار.

قارنّا تعدادنا الجوي للفيلة بتعداد أجرته الامم المتحدة في العام ١٩٧٣، فتبين لنا أن لصوص الصيد قتلوا ١٢ ألفاً من أصل ١٧ ألف فيل كانت تعيش في المتنزه، وأن ألف فيل يقتل كل عام. وهذا يعني أن معظم الفيلة في لوانغوا الشمالية سينقرض خلال خمس سنوات اذا استمرت عملية القتل هذه.

عدنا ذات أصيل الى مخيم مارولا – بوكو من احدى رحلاتنا الاستكشافية، وجلست أمزج عجيناً من طحين الذرة وأعده للخبز.

"بم! بم!" طلقات نارية عبر النهر! وصرخ سيمباي، أحد عمالنا من قبيلة البيمبا: "لصوص صيد!"

وتتابعت الطلقات، وكنت أحس ترداد أصدائها في صدري.

"اللعنة عليهم!" صرخ مارك، "انها رشيشات كلاشنيكوف!"

لم تكن لدينا سلطة لملاحقة اللصوص، وكان كل ما نستطيعه الذهاب في السيارة الى مخيَّم كشافة الصيد في مانو، وهي محطة صغيرة على مسافة ٣٠ كيلومتراً. كان المخيم هادئا عندما وصلنا. وكان ثمة خمسة مراكز مثل هذا المخيم على أطراف المتنزه، لكن هذا أكبرها ويضم ستة كشافة. قفز مارك من السيارة وأبلغ الى قائد الكشافة أصوات الطلقات النارية. اتكأ بضعة رجال على السيارة وتثاءب واحد ومشى آخر مبتعداً.


دليا ومارك اونز.

قال لنا القائد: "اننا لا نملك ذخائر لبنادقنا."

فسأله مارك: "وماذا حدث لذخائركم؟" فتبادل الرجال النظرات وأجمعوا على أنهم لم يتلقوا حصتهم.

"لدي طلقة واحدة!" أعلن غاستون فيري وهو أحد الكشافة الاكثر حماسة.

فقال له مارك:"سيد فيري، انني على استعداد لدفع ٢٠٠ كواشا (نحو دولارين) لكل رجل يأتي معنا، في مقابل كل لص تقبضون عليه."

وافق الرجال الستة على مرافقتنا، لكنهم أمضوا ساعتين في اعداد حقائبهم. وحل الليل قبل أن نصل الى مخيم مارولا - بوكو.

أفقنا أنا ومارك في الرابعة والنصف صباحا لاعداد النار، وحاولنا إصدار أكبر جلبة ممكنة لايقاظ الكشافة الغاطين في نومهم. وهم انضموا الينا أخيراً في الخامسة والربع وتناولوا طعام الفطور من لحم البقر المعلّب والشاي، ثم انطلقوا الى مهمتهم في السابعة الا ربعا.

رأيت سرباً من الصقور يحوّم جنوباً فوق المكان الذي سمعنا منه اطلاق الرصاص. وفي الحادية عشرة برز الكشافة الستة من بين الاعشاب الطويلة، وقال غاستون فيري بغبطة: "صباح الخير يا سيدتي. لقد عثرنا على فيلين مذبوحين اقتلعت أنيابهما! انهما على بعد كيلومتر واحد من هنا."

سألته: "وماذا عن لصوص الصيد؟"

فأجابني: "افترضنا أنك ترغبين في التقاط صورة لنا مع الفيلين الذبيحين!"

حدقت اليه غير مصدّقة أذنيّ وقلت له: "فيري، ما أرغب فيه هو صورتكم مع اللصوص! كان واجبكم أن تقبضوا عليهم."

تجهمت وجوه الكشافة وأشاحوا بنظرهم بعيداً، وتابع فيري: "لقد عثرنا على آثار اللصوص، ويمكننا أن نطاردهم فنخرجهم من المتنزه. لكننا جياع ونحتاج الى تناول الغداء أولا. هل تعطيننا بعض اللحم المعلّب؟"

PHOTO: © MARK OWENS

– حسناً، ولكن أرجوكم أن تحاولوا القبض على اللصوص.
"شكراً لك. ليتك تلتقطين لنا صورة قبل أن ننطلق في دوريتنا!"
– حسناً، حسناً. كان يجب أن نفعل ذلك في الصباح.

أحضرتُ الكاميرا من الخيمة وتجمهر الرجال أمامي رافعين بنادقهم: أربعة منهم يرتدون الزي الرسمي. سراويلهم ممزقة ومرقعة. أربعة ينتعلون أحذية وواحد ينتعل صندلا من مطاط عجلة سيارة وواحد حافي القدمين. انها صورة معبِّرة تنطق باليأس.

مخاطر غريبة

مارك:

نحن في وقت مبكر من موسم الجفاف عام ١٩٨٨. نجلس عاليين في شاحنة متينة أهدتها الينا جمعية فرنكفورت لعلوم الحيوان في ألمانيا. وكنا ندرس وضعية جسر قائم على أعمدة خشبية وقد تدلّى مرتخياً فوق قاع جدول عميق أمامنا.

كانت في صندوق السيارة دراجات وأكياس نوم وناموسيات وحَشيّات تخييم وأحذية وعدة اسعاف أولي وأطعمة ومواد أخرى لكشافة المتنزه. وكنا نأمل أن تستحث الحمولة هممهم.

تزن الشاحنة أكثر من ستة أطنان فارغة، وزادتها الحمولة أكثر من طن ونصف طن.

أرضية الجسر مبنية بجذوع أشجار ممدودة لا يتجاوز قطر الواحدة منها قطر ربلة ساقي، مع عدد قليل من العوارض الخشبية لتوزيع الوزن بين عمود وآخر. وكنت أرى قاع المجرى على عمق مترين ونصف متر تحتنا من خلال أرضية الجسر. وأدركت أننا سنحتاج الى معجزة لاخراج الشاحنة من الجدول اذا ما تكسرت الجذوع تحت ثقلها فسقطت. أما اذا هوت الشاحنة عن جانب الجسر فسوف تستقر في الجدول مقلوبة.

قست المسافة بين عجلتي المركبة الاماميتين وقارنتها بعرض الجسر. كانت المسافتان متساويتين تقريباً، وسوف يرتكز ثقل العجلتين اليمنيين على جذع واحد في جانب من المجرى. ومع ذلك كان علينا أن نحاول العبور اذ لم نعثر على معبر آخر.

ساعدتني دليا بالاشارات في تقويم خط سير الشاحنة، ثم خاضت المجرى لمراقبة جذوع أرضية الجسر.

راحت الجذوع تئن وتفرقع منحنية تحت وطأة الثقل. ضغطت دواسة الكابح ونظرت الى دليا، فأشارت لي بالتقدم وقد تصلب فكّاها.

ما إن بلغت منتصف الجسر حتى دوَّت فرقعة وتطايرت كسر جذع في الهواء. ترنحت الشاحنة يسرة وبدأت تترجح في كل الاتجاهات. فوضعت يدي على مقبض الباب استعداداً للقفز.

زعقت دليا وهي تلوّح بيديها: "توقف! توقف!"

كانت العجلة الامامية اليسرى حطمت جذعاً ودخلت بين اثنين آخرين. وكان الجسر يتمايل كما في المشي على الحبال، فجلست ساكناً حتى هدأ واستقر.

أدرت المقود يساراً ونقلت الحركة الى وضع ارتدادي. تراجعت العجلة ببطء الى الجذع الخلفي، لكن نصف العجلة الامامية اليمنى كان في الهواء خارج الجسر. عدت الى التقدم ببطء شديد كمن يقود سيارة على أرضية من المفرقعات.

أخيراً تمكنت العجلتان الاماميتان من أرض صلبة، فأطلقتُ العنان للمحرك مخلفاً الجسر الهش ورائي. سوف يتعين علينا أن نعيد بناءه قبل أن نعبره ثانية.

قوة الجوجو

دليا:

انتهت عملية بناء المخيم. أكواخ من الطين والحجار والقش رتبت على شكل نصف دائرة في محاذاة ضفة النهر: كوخ مكتب، وكوخ مطبخ، وكوخ نوم، و"نساكا" مفتوحة هي الديوان التقليدي لاجتماعات قبيلة البيمبا. واستخدمنا مجموعات من البطاريات الشمسية لتغذية جهازي كمبيوتر وبضعة مصابيح. وفي مؤخر المخيم أقمنا المشغل وملأناه بالادوات وقطع الغيار.

ذات يوم لدى وصولنا الى المخيم هرع الينا سيمباي صارخاً: "اتبعاني، يجب أن تريا هذا!" وتعلق بذراع مارك يجره، وقادنا الى رقعة معشوشبة بين كوخي المكتب والنوم.

"هل تريان آثاره؟ لقد كان هناك." وأشار الى الآثار الكبيرة لاقدام فيل على بعد ١٥ متراً من كوخ نومنا، ثم أضاف: "انه يأتي الى هنا كل ليلة ليأكل ثمار المارولا. انه واحد من ثمانية، لكنه الوحيد الذي يأتي الى هذه البقعة، أما الفيلة الاخرى فترعى في التلال."

سألته: "الا يخاف منك؟"

– إنه يأتي في الليل فقط، ويتحرك كشبح فلا أستطيع سماعه. لكنني انتظرت بين الاعشاب أمام كوخي ورأيته يأتي.

"هل أنت متأكد من أن الفيل ذاته يأتي كل ليلة؟"

– أنا أكيد من ذلك. فله نابان بطول ذراعك وثقب صغير في أذنه اليسرى.

بعد عشاء مبكّر من الفاصولياء وخبز الذرة اتخذت ومارك موقعاً لنا عند نافذة كوخ النوم، ورحنا نتناوب التحديق في ظلمة الليل. لكن الفيل لم يحضر. أخلدنا أخيراً الى النوم، ولم نعثر صباح اليوم التالي على آثار حديثة. لا بد أن الفيل عرف أننا داخل

الكوخ. ولا غرو، فقد أثبت من الذكاء ما نجّاه من رصاص لصوص الصيد سنوات كثيرة.

كنا ذاك الصباح نعتزم القيام بدورية في الطائرة لملاحقة اللصوص. فقدنا الشاحنة الى المهبط. فجأة أوقف مارك المحرك. كانت ثمانية أفيال واقفة على جانب التلة المشرفة على النهر على مسافة أقل من ٣٠٠ متر منا. وكانت تلف خراطيمها حول الاعشاب الطويلة فتقتلع حزماً كبيرة تلتهمها. وهي تجاهلتنا بدل أن تهرب مذعورة. أمسكت وجهي بين يدي وألقى مارك يده على كتفي.

بدأت الفيلة بعد ذات تظهر بانتظام. وكنا نراها عبر النهر تأكل ثمار الماروﻻ، كما رأيناها أصيل ذات يوم في الوادي خلف مهبط الطائرة.

أقلع مارك بالطائرة بعد أسبوع من رؤيتنا الفيلة للمرة الاولى، ليوصل رسالة الى كشافة الغابة في مانو يطلب فيها تكثيف الدوريات في محيط المخيم لحماية القطيع. لكنه ما إن صار في الجو حتى اخترق سرباً من الصقور، وعندما نظر الى أسفل رأى جيف ثلاثة من ذكور الفيلة مشوهة وغارقة في برك من الدم. حوّم بالطائرة فوق المنطقة بحثاً عن اللصوص، لكنه لم يعثر لهم على أثر. فانطلق ليستدعي الكشافة.

بعد أربع ساعات كنا نقف مع الكشافة حول الافيال النافقة. تخيلتها نصباً تذكارية رمادية هائلة لقارة محتضرة.

راح مارك يذرع المكان، ثم حدق الى فيري وقال له: "انهم يضحكون منا، وأنت تعرف ذلك. يعلمون أنهم يستطيعون ذبح الفيلة هنا والنجاة بفعلتهم."

فأعلن فيري: "اننا نعرف قاتلي هذه الفيلة، فآثار أحذيتهم في الرمل تدل عليهم. انه تشاندا سيفن وآخرون من قرية موامفوشي."

رد مارك: "حسناً، يمكننا اذاً الذهاب الى القرية واعتقالهم."

فقال فيري: "آه، لا، لا نستطيع ذلك. انهم يملكون قوة الجوجو!"

– يملكون ماذا؟

"جوجو! السحر! يمكنهم اخفاء أنفسهم فلا نراهم. يمكنهم الوقوف بيننا من غير أن نستطيع القبض عليهم."

– دعك من هذا الهراء يا فيري! انك لا تصدق ذلك حقاً. من المستحيل أن يخفوا أنفسهم.

ونظر مارك قلقاً الى الكشافة الآخرين آملاً أن ينصروه.

فلاحظ فيري ذلك وقال: "قد يكون الامر هراء بالنسبة اليك، لكنه ليس كذلك بالنسبة الى هؤلاء الرجال."

حاول مارك أن يضبط غضبه حائراً في ما يجب أن يفعل. ومشيت أنا مبتعدة متأملة

التلال الذهبية الوعرة. فجأة لفتت انتباهي خمسة أفيال تسير بصمت عبر الاشجار. لم أظهر اشارة الى أنني رأيتها، ولكن ما إن بلغَتْ قمة التلة حتى ميَّزتُ الفيل ذا النابين الطويلين والثقب الصغير في الاذن اليسرى. لقد نجا مرة أخرى. فتمتمت: "اذهب بأمان يا سورفايفر."

متورطون

مارك:

شارف العام ١٩٨٨ نهايته ولما ننجز شيئاً بعد. وكنت عثرت خلال رحلاتي الجوية في الشهر الفائت على عشرين فيلا مذبوحاً. كنا نخسر المعركة لانقاذ لوانغوا الشمالية. لقد بذلنا قُصارانا لترغيب الكشافة في العمل، لكن مكافآتنا لم تغيّر طبائعهم. كانوا لا يدخلون المتنزه الا عندما نعثر نحن على اللصوص وننقل الكشافة جواً ونحط بهم وسط اللصوص. حتى في تلك الحالات كانوا نادراً ما يقبضون على أحد.

وكانوا لا يطيقون فكرة الخروج في دوريات. وارتبنا في أنهم ينتفعون بتعاونهم مع لصوص الصيد أكثر مما ينتفعون منا.

أخبرَنا الاهالي أن جميع السكان الذين يعيشون في محيط المتنزه يأكلون لحوم الحيوانات البرية المذبوحة التي تباع على نحو غير مشروع في الاسواق وعلى امتداد الطريق الرئيسية، وأن كثيراً من الكشافة هم أصدقاء لأعتى لصوص الصيد يبيعونهم الذخائر ويدلونهم الى مواقع الفيلة والجواميس البرية. كما أن رجال شرطة وجنوداً وقضاة ومسؤولين حكوميين هم متورطون كذلك، وكثير منهم يأخذون العاج بدل اللحم.

قال لي أحد المخبرين: "انها عملية أكبر مما تتصور، ولن تستطيع وقفها."

فأصررت: "سوف نفعل، وسوف يتغير العالم بالنسبة الى هؤلاء اللصوص."

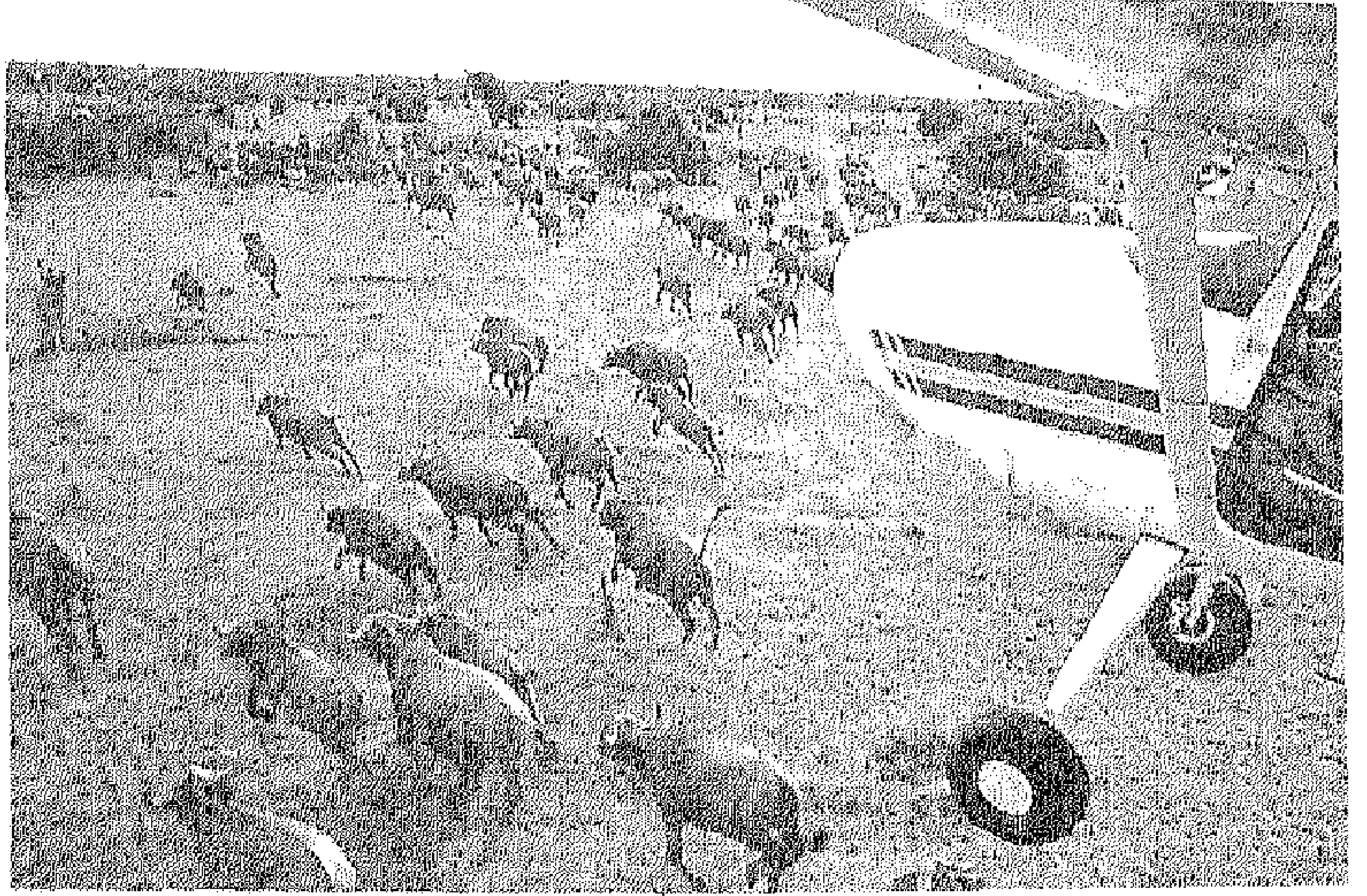
ان تنظيم حملة صيد الى المتنزه مكلفة جداً، فافترضت أنه اذا أصبحت عمليات الصيد في لوانغوا الشمالية غير مربحة فسوف يتخلى لصوص الصيد عنها.

بكلام آخر، اذا لم نستطع ادخال اللصوص السجن فلربما استطعنا إفلاسهم.

حلقتُ بالطائرة على ارتفاع منخفض لكي لا يسمع اللصوص في الوادي هديرها أو يروها. وكنت أميلها يمنة ويسرة باحثاً عن صقور أو دخان أو مناصب لحم. وفيما أنا أقترب من النهر لفت انتباهي شيء على الضفة الرملية العريضة. استويت بالطائرة، فرأيت رجلين يركضان وكل منهما يحمل ناباً على كتفه، وآخرين يركضون الى جانبهما حاملين سلال لحم.

صوَّبت مقدم الطائرة نحو الرجلين اللذين يحملان النابين، فوثبا للاحتماء

بالشجيرات الكثيفة قرب الشاطىء. ألقى الـرجلان بـالنابين واستدارا ثم انطلقا نحو بقعة تكسوها الاعشـاب العاليـة. فانحدرت بالطائـرة حتى كادت عجلاتها تلامس الرمل.



مارك يجري تعداداً للحيوانات البرية.

التفت اللصـان الى الطائرة وهما يـركضان والـرمـل يتطاير من بين أقدامهما. وعندما أصبحت عجلة الطائرة اليسرى خلف ظهر أحدهما، نظر هذا الي يائساً لا يدري في أي اتجاه يفر. رفعت ذراع التحكم في اللحظة الاخيرة، فأخطأتْه عجلات الطائرة بسنتيمترات قليلة. وفيما أنا أحلق محوِّماً رأيت الرجل يرتمي في أجمة من شجيرات شوكية على حافة النهر.

كان رفقاؤه في هذه الاثناء وصلوا الى بقعة تكسوها أعشاب عالية زيَّن لي خيالي أنها تحتاج الى حصاد، فراحت شفرات مروحة الطائرة تقطّع العشب نثرات صغيرة وتنفخها فوق اللصوص المنكبّين على وجوههم وأيديهم فوق رؤوسهم. رحت أطفىء محرك الطائرة وأشعله بسرعة مما سبب اشتعالات متفجرة في طرف أنبوب العادم. وعدت لامر فوق اللصوص وأحدث الانفجار ذاته مرة تلو أخرى.

بعد نصف ساعة على هذا المنوال نفذت ما يشبه مناورة هبوط، فلامست العجلات الشاطىء الرملي لاجعل اللصوص يظنون أنني سأوقف الطائرة وأعتقلهم. لكنني كنت أعرف أنني اذا أبطأت كثيراً في هذه الرمال اللينة فسوف أحط حقاً من دون أن أحظى بفرصة للاقلاع من جديد، وسوف أعلق، أعزل من السلاح، وسط مجموعة من لصوص الصيد الذين يكرهونني. لذا تخليت عن تظاهري باقرار النظام واتجهت عائداً الى المخيم.

تابعت الطيران يومياً لعدة أسابيع. وكنت أنقضّ على اللصوص على امتداد النهر حتى يفروا تاركين العاج واللحم للصقور والضباع.

وكثيراً ما كنت أبقى في الجو الى منتصف الليل، ثم أفيق في الثالثة صباحاً لاطير من جديد، مستعيناً بالقهوة الثقيلة لابقائي يقظاً. كان الكافايين يمنحني النشاط

PHOTO: © MARK OWENS

والشجاعة لافعل ما هو واجب علي، لكن علاقتي بزوجتي ساءت وأصبحت أعصابي سهلة الاستثارة.

قالت لي دليا مرة غاضبة: "اللعنة! اذا أصررت على عنادك في مواجهة هؤلاء اللصوص فلن يمضي وقت طويل حتى يبدأوا اطلاق النار عليك... وعليّ. اننا لا نستطيع محاربة هؤلاء الجزارين وحدنا."

ومرة أخرى، عندما تأخرت ساعتين عن موعد عودتي الى مخيم مارولا – بوكو، لاقتني دليا ووجهها شاحب قلقا: "أين كنت الى الآن؟ أوشكت على الاتصال بفريق بحث."

أجبتها: "أين تظنينني كنت؟ كنت أعد الفيلة النافقة."

ثم صفقت باب السيارة وابتعدت غاضباً أبتغي مزيداً من القهوة. وفكرت لبرهة: دليا على حق، لن نستطيع الاستمرار في هذه الحال طويلا.

لا يستحق الموت!

اكتشفت خلال طلعة أخرى فيلين مذبوحين ومجموعة من الرجال مختبئة في دغل ومعها كومة من اللحوم يبلغ ارتفاعها مترين على الاقل.

بدأ بعضهم يركض هاربا عندما رأى الطائرة. فرحت أحوّم فوقهم في دوائر على ارتفاع منخفض وأجبرهم على الالتصاق بالارض. وبعد عدد من الدورات طرت الى حيث يخيم الكشافة وألقيت لهم رسالة تفيد أنني عثرت على مجموعة من اللصوص وسوف أبقيهم مسمّرين في أماكنهم حتى وصول الكشافة.

وفيما أنا أعبر بطائرتي فوق فيل نافق آخر، خرج رجل من خلف شجرة متنكّباً بندقية كلاشنيكوف. رأيت كتفه تنتفض من قوة ارتداد البندقية ونفثة من دخان رمادي تنطلق من الفوهة. كان الرجل يسدد رصاصاته الى طائرتي الخفيفة المصنوعة من الالومنيوم، فسارعت في الابتعاد عن مرماه.

أمّلت الطائرة ثانية في اتجاه مخيم اللصوص ويداي تتصببان عرقاً على المقود. طرت وأنا أكاد ألامس رؤوس الشجر لكي لا يتسنى لمطلق النار سوى ثوان لرؤيتي واطلاق النار علي. ها هو الرجل ثانية يصوب بندقيته نحوي. فارتفعت لولبيا الى علو حوالى ٤٥٠ متراً، ثم تابعت التحليق الدائري في انتظار مجيء الكشافة، الى أن وصلت ابرة عداد الوقود الى نقطة "فارغ" فاتجهت عائداً الى مارولا – بوكو.

ذات يوم قبل بزوغ الفجر قدت الطائرة الى نهاية المهبط استعداداً للاقلاع. كانت عاصفة رعدية تطبق علينا من الغرب، وخشيت أن أقلع ولا أعود أرى الافق بوضوح. كانت المضخة الخوائية في الطائرة مكسورة مما عطل البوصلة الجيروسكوبية

(الدوّارة) والافق الاصطناعي.[٣] كما تعطل مقياس الارتفاع الراداري. كانت الظلمة حالكة، ولكن خيل الي أنني أرى ضوءاً يلتمع في سماء الشرق. فقررت الاقلاع.

ما إن ارتفعت عجلات الطائرة عن الارض حتى أدركت أنني ارتكبت خطأً. أدرت الطائرة معتزماً الهبوط بأسرع ما يمكن، لكن الغيوم الداكنة والمطر المنهمر ابتلعت الطرف الغربي من المدرّج وأغرقت ستة من الشعلات التسع التي تضيئه مما ترك الجانب الجنوبي من المدرج في ظلام تام.

"مارك، هل تسمعني؟" جاءني صوت دليا عبر جهاز الراديو. "العاصفة تشتد هنا على الارض، هل تسمعني؟"

– نعم. يبدو الوضع سيئا. انني عائد للحال.

"مارك، انني لا أسمعك. هل أنت بخير؟ أجبني، أرجوك. يا الهي!"

أصطدمت الطائرة كأنما بقبضة عملاقة قلبتها على جنبها. حاولت جاهداً العودة بها الى وضع مستوٍ وأنا مدرك أن دقيقتين أو ثلاث دقائق هي كل ما تبقى لي من الوقت للهبوط قبل أن يُغرق المدرّج كله في الظلمة والمطر. أشعلت أنوار الهبوط، لكن المطر عكس الضوء في وجهي وأعماني. أطفأت الانوار بسرعة وزدت درجة انحداري.

اختفت الشعلات الباقية، ورأيت العاصفة تشق طريقها على المدرّج في اتجاهي. كان المطر والبَرَد يطرقان بدن الطائرة كالرصاص. الزجاج الامامي مظلم. افترضت أنني لا بد قريب من الارض، فأشعلت أنوار الهبوط. شقت اشعتها الظلمة، ورأيت شجرة أمامي مباشرة.

أرخيت كابح السرعة ودفعت الخانق بقوة الى الامام: "هيا يا صغيرتي، لا تخذليني!"

زأر المحرك وارتفعت الطائرة ببطء وهي تواجه العاصفة بشجاعة. خدرت أسناني فيما الطائرة تمزق أغصان الشجرة. وأتاني صوت من داخلي: "تابع الصعود! ابتعد عن الارض!" وأصبح نقر المطر على بدن الطائرة زئيراً رتيبا. لم أكن أرى الا الظلام الدامس. وطرت لدقائق في سواد لم أر مثله في حياتي. وأخيراً خرجت من خضم العاصفة.

حلّقت دائرياً في جو رائق فيما العاصفة تغرق المدرج وتمضي في طريقها. استدرت عائداً وهبطت على المدرج المشبع بالماء، وانزلقت عن مقعدي أتنشق الهواء الحلو الرطب طويلا. لقد نلت كفايتي، ويمكن مطاردة اللصوص أن تنتظر أحوالا جوّية أفضل.

(٣) Artificial horizon . وهو اداة يستعين بها الطيارون لمعرفة زاوية الشمس او زاوية نجم ما حين تتعذر عليهم رؤية الافق الحقيقي.

كانت دليا جالسة على السرير تبكي. ودفعتني بعيداً عندما حاولت ضمّها ثم قالت: "مارك، ظننت أنك مت، ولم يكن في وسعي أن أفعل شيئاً. ان هذا يحدث كل ليلة. هل تدرك كيف أشعر؟ ألم تعد تهتم؟"

– انني آسف، لكنني لا أدري ماذا أفعل غير ذلك.

"اعرف ذلك ولكن لا شيء يستحق أن تموت من أجله. انني راغبة في وقف مذبحة الفيلة بمقدار ما أنت راغب. لكنني تخطيت حدود احتمالي، ولم أعد قادرة على الاستمرار على هذه الحال. لا يمكنني أن أجلس هنا يوماً بعد يوم أنتظر لأرى ما اذا كنت ستعود سالماً، مدركة أنك لن تعود يوما ما."

نظرت الى دليا. كانت عيناها مغمضتين بشدة وخداها متورمين من البكاء. لقد نما جدار بيننا، وأحسست أنها تفلت بعيداً عني.

تابعت دليا: "لذلك سوف أرحل من هنا!"

أحسست فجأة بخوف أشد من خوفي العاصفة.

أضافت دليا: "سوف أذهب الى نهر لوانغوا لابني كوخاً لي. أستطيع هناك دراسة الاسود واجراء أبحاث أخرى."

تطلعت الى وجهها، كان مضنيً ومشدوداً، ولم أستطع أن أذكر متى ضحكنا للمرة الاخيرة. كان علي أن أسمح لها بالذهاب والا خسرتها الى الابد. فقلت لها: "انني أفهم موقفك. افعلي ما ترغبين فيه اذا كان لا بد منه."

طرت صباح اليوم التالي فوق المتنزه. وعندما عدت الى المخيم كانت احدى الشاحنات قد اختفت. وفي تلك الليلة اكتشفت رسالة مثبتة بوسادتي جاء فيها:

"عزيزي مارك،

"أحبك! ربما استطعنا أن نبدأ من جديد اذا ما مرت هذه الازمة بسلام.

مع حبي، دليا."

نقطة اللاعودة

دليا:

تحوّل مخيم مارولا – بوكو مركزاً لقيادة عمليات مكافحة الصيد غير المشروع، عبرته مجموعات كبيرة من الكشافة الى مخيماتها النائية يزودها مارك المؤن جواً. لكنها نادراً ما عادت مصطحبة لصوص صيد.

تابع مارك طلعاته يوما بعد يوم معرضاً نفسه للخطر، ومع ذلك بدا واضحا أن الكشافة لن يؤدوا قسطهم من العمل. لكن مارك كان مقتنعا بأنهم هم سيتولون في النهاية حماية المتنزه، ولذلك وجب علينا أن نبذل جهدنا لجعلهم يفعلون.


دليا تفحص أسداً مخدراً.

عندما كان مارك يطير في مهمات ليلية خطرة بحثاً عن نيران مخيمات لصوص الصيد، كنت أنا مسؤولة عن تنظيم عملية للبحث عنه في حال لم يعد. وكنت اذا سألته متى يتوقع أن يعود يجيبني بنزق إنه لا يدري. وزاد الامر سوءاً أننا لم نكن نعتمد كثيراً على جهاز الراديو، وكثيراً ما انقطع الاتصال وسط مكالمة فلا أدري ما اذا كان مارك هوى متحطماً حتى أسمع هدير الطائرة. وربما تأخر ذلك ساعات.

كان حبنا قوياً، لكنني أعرف أن الحب يخبو ما لم يتسنَّ له أن ينمو. كان علينا تدبر وسيلة لمواجهة هذه الازمة معاً والا خرجنا منها منفصلين، هذا اذا خرجنا أبداً.

أقمت مخيماً جديداً من خيمة وكوخ قش على ضفة نهر لوانغوا. وكنت تواقة للعودة الى دراسة طبائع الحيوانات فأغرق في الطبيعة أتعلم طرقها واستكشف عجائبها... قبل أن تضمحل. في كالاهاري اكتشفت ومارك ثانية أكبر هجرة للحيوانات البرية في افريقيا، لكن ألوف الحيوانات قتلت في السنوات القليلة التالية. فهل يمكن إنقاذ الفيلة من هذا المصير؟

لم يزرني مارك في مخيمي الجديد. وكانت الفرصة الوحيدة لرؤيته عندما أتوجه الى مخيم ماروِلا – بوكو لتزوّد المؤن. كان الجو مشحوناً بيننا، وكنا نمارس أعمالنا مستقلَّين الى حد ما، كل في حقله، وعلاقتنا الشخصية في حال تعليق.

خلال رحلة الى مارولا – بوكو، سرت ومارك في محاذاة النهر نتبادل الحكايا. لكنه تخلف عني فجأة، وهذا أمر غير مألوف. كان يمشي ببطء ورأسه في الارض وبندقيته مدلاة من كتفه اليمنى.

سألته: "هل أنت بخير؟"

فأجاب: "انني تعب قليلا." والتمعت على جبهته قطرات عرق، وأضاف: "انني جائع، يجب أن أعود الى المخيم." ثم بدأ يترنح ويتعثّر في مشيته. فركضت اليه قائلة: "يجب أولا أن تجلس."

جلس مارك كأنه يسقط، ثم انهار الى الخلف، يده اليمنى ممدودة ورأسه يترنح. وراح في غيبوبة.

صرخت: "يا الهي، ما بك يا مارك؟" أمسكت معصمه البارد وتحسست نبضه. كانت شفتاه مزرقّتين.

عاني مارك على مدى سنوات ارتفاعا طفيفاً لمستوى السكر في دمه، وكان يتحكم به باتباع نظام حمية ملائم. لكنه أخيراً راح يشرب القهوة مع السكر بكميات كبيرة تساعده على البقاء يقظاً خلال طلعاته الليلية. وكنت رجوته استشارة طبيب لكنه رفض. وها هو الآن ممدد أمامي غائب عن الوعي، والرحلة الى أقرب مستوصف تستغرق ست ساعات في السيارة.

صديق في خطر

ركضت عائدة الى المخيم. كان علي أن أعطي مارك بعض السكر. في المطبخ، مزجت حليبا مجففاً مع ماء وعسل وأسرعت عائدة الى مارك.

كانت عشرون دقيقة مضت على فقدانه الوعي، ولو حاولت اعطاءه مزيج العسل لشرق به. لكنه لم يلبث أن بدأ يرمش جفونه، ثم حرك رأسه وفتح عينيه ونظر الي بخوف: "ماذا حدث؟ هل تحطمت الطائرة بي؟"

– انك فقدت وعيك. وقد حضّرت لك حليباً بالعسل. هل تستطيع شربه؟

لكنه غاب عن الوعي ثانية قبل أن يجرع نقطة. وظل نصف ساعة يراوح بين الغيبوبة واليقظة. وعندما استعاد وعيه كلّمته برقة: "هاك، اشرب هذا."

أخذ مارك خمس جرعات ثم استراح وعيناه مغمضتان وتمتم: "انني أشعر بتحسن." رفعتُ القارورة الى شفتيه برفق فشرب من جديد. واستطاع أن يجلس بعد عشر دقائق وراح يمازح العمال. لكنهم لم يضحكوا، فرؤية رجل قوي في هذه الحال أمر لا يضحك.

حملنا مارك الى فراشه. وعندما انصرف العمال همست له: "مارك، علينا أن نغير أسلوبنا. من الضروري أن نحصل على مساعدة."

– أنتِ على حق، وسوف نفعل ذلك. هذا وعد!

لكنه طار صباح اليوم التالي في طلعة لملاحقة لصوص الصيد ولمّا تمض ١٥ ساعة على تعرضه لاغماء. لم يعد في وسعي عبور الحاجز القائم بيننا. لذلك عدت الى مخيمي.

مارك:

قدمت دليا لتزوُّد المؤن ذات صباح من سبتمبر (أيلول) ١٩٩٠. سرنا معا في الممر المؤدي الى المطبخ وأشعة الشمس الذهبية تتسلل من خلال أغصان أشجار المارولا.

فجأة أشارت دليا: "مارك! انظر عبر النهر!"

كان قطيع من خمسة أفيال يرعى قرب مخيم العمال من قبيلة البيمبا، وبينها سورفايفر. رحنا نراقبه يقتلع حزماً ضخمة من العشب، فيطرق جذورها على قدمه ليتخلص من الاتربة العالقة قبل أن يحشرها في فمه. وكانت مجموعة من عصافير الدوري الحبّاك تتقافز عند أقدامنا، وعائلة من الخنازير الوحشية ترعى على الضفة بعيداً عنا. انه واحد من تلك الصباحات الباردة الهادئة التي تبدو فيها افريقيا كأنها تقف أمام مرآة وتتأمل جمالها الزائل.

"بم!" طلقة بندقية عبر النهر! استدارت دليا نحوي في نصف انحناءة وقد غار اللون من وجهها: "يا الهي! مارك، انهم يطلقون النار على سورفايفر!"

"بم! بم! بم!"

صرخت: "احتمي خلف شجرة!" وقفزت راكضاً الى المكتب حيث تناولت بندقية وقبضة من الخرطوش حشرتها في جيوبي.

"بم! بم! بم! بم! بم!" ست طلقات أخرى. حين وصلتُ الى السيارة لم تعد ركبتاي تحملانني. سألت دليا: "هل مسدسك معك؟"

فردت: "أجل! اذهب أنت!" وألقت الي بعلبتي خرطوش.

أسرعت في شاحنة صغيرة عبر النهر الى مخيم البيمبا، وكانت الاوحال والحجار تتطاير من تحت العجلات. ضغطت بوق السيارة من دون توقف وأنا أصفر منادياً الحراس، فركضوا الى الشاحنة قبل أن تتوقف. نظرت الى هؤلاء الشبان الصغار من قبيلة البيمبا. انهم عمال وليسوا مقاتلين! كان اثنان فقط مسلحين فيما الآخرون يحملون رفوشاً ومجارف.

قلت لهم: "لستم ملزمين بمرافقتي، فهؤلاء اللصوص يحملون بنادق رشاشة، وسوف تتعرضون للخطر. كما أن عملكم لا يشمل ملاحقة اللصوص."

لم يتحرك أحد منهم، فهتفت: "حسناً، هيا بنا!"

اتجهنا الى أعلى النهر نبحث عن آثار أقدام أو دماء. كنت آمل أن أمنع اللصوص من الاحتماء وأجبرهم على الخروج الى العراء على ضفة النهر. لكن الدغل الملتف جعل عملية البحث صعبة وخطرة. سنكون محظوظين إن لم يصب أحدنا في حال تبادل اطلاق النار أو لم نسحق تحت أقدام فيل جريح.

مضى نصف ساعة ولم نعثر على آثار سورفايفر أو اللصوص. فقررت استخدام الطائرة. وما إن صرت في الجو حتى رأيت فيلاً نافقاً ملقى في جدول عميق وقد أجتث ناباه وبدأت الصقور تحوّم فوقه. ولكن لا أثر للصوص.

عدت الى المخيم. فأخبرتني دليا أنها رأت سورفايفر يعدو في أثناء إطلاق النار

وأنها تعتقد أن الفيل النافق قد يكون فيلاً آخر. لكن سورفايفر كان محاصراً بنيران اللصوص، ولا بد أنه أصيب، وهو سوف ينفق متأثراً بجروحه إن لم يكن نفق للحال.

مشينا الى الجيفة وكانت بدأت بالانتفاخ وقد غطاها الذباب. كانت مشوّهة الى حد أننا لم نستطع الجزم في ما اذا كانت جيفة سورفايفر. لكنها كانت بالتأكيد لفيل ذكر في حجم سورفايفر.

قالت دليا: "لكننا لا نستطيع رؤية أذنه اليسرى. ولا نعرف بالتأكيد أنه هو!"

لم أستطع خداع نفسي بأن سورفايفر لا يزال حياً. وبدا أن كل آمالنا في انقاذ الوادي وبيئته البرية ماتت معه. لربما كان لنا في هذه الحادثة درس: أن ثمة وقتاً لالقاء السلاح، حين لا يبقى شيء في المستطاع.

لكنني ملزم أولاً بلعب الورقة الاخيرة في يدي!

أقلعت بالطائرة مع غروب شمس ذلك اليوم يرافقني كاسوكولا، أحد عمالنا من قبيلة البيمبا. وطرت منخفضا فوق النهر. كنت اقتلعت باب الطائرة من جهة كاسوكولا حيث جلس هو وفي حضنه بندقية حشيت بخرطوش من نوع المفرقعات النارية تنشر كل واحدة منها، على امتداد ١٠٠ متر، مفرقعات حمراء كروية بطيئة الاشتعال وذات دوي انفجاري هائل. وهي غير مؤذية، لكننا أملنا ألا يدرك اللصوص ذلك.

كان القمر قد بزغ. وما إن بدأنا طيراننا فوق التلال السفحية حتى مال كاسوكولا خارج الباب وهتف: "لصوص! هناك!" وأشار الى دائرة كبيرة من النار قرب النهر.

هبطت بالطائرة في انخفاض متدرج. وأمسك كاسوكولا بمصباح كشاف وجّهه نحو المخيم من خلال فتحة الباب، فرأى مناصب اللحم مما أكد أن ذلك هو مخيم لصوص صيد. خففت القبضة على الخانق مما أبطأ سرعة الطائرة الى حوالى ٩٠ كيلومتراً في الساعة. وعندما صرنا فوق المخيم اهتزت الطائرة بفعل الوهج الحراري المنبعث من النار. فهتفت: "كاسوكولا! الآن!"

ضغط كاسوكولا زر المصباح فأغرق المخيم في ضوء ٤٥٠ ألف شمعة. كانت المناصب عامرة بقطع من اللحم كبيرة جداً ولا شك في أنها من لحم فيل. وكانت نابان مسنودتين الى شجرة على مقربة من النار، نابان في حجم نابي سورفايفر!

التمع شعاع أبيض عبر جناح الطائرة الايمن تبعته فرقعة. انه رصاص خطاط!

صرخت في كاسوكولا: "انهم يطلقون النار علينا! أطلق مفرقعاتك من خلال الاشجار. دمّر خيمهم ولا توفر ذخيرتك!"

ترك كاسوكولا المصباح الكشاف وأمسك بالبندقية. التمعت رصاصة خطاطة مارة بنا كالبرق، ثم أخرى أقرب، ورد كاسوكولا بسيل من الشرر الاحمر والبرتقالي انبعث من كل قنبلة مفرقعات انطلقت من فوهة البندقية.

"بوم! بوم! بوم!" هزّت المخيم ومضات هائلة من الضوء والدوي. وانفجر كاسوكولا ضاحكاً. "بوم!" حطت القنبلة الاخيرة وسط نار المخيم ناشرة الشرر وقطع الخشب المحترق متطايرة نحو الاشجار، وبدأت خيمة تحترق.

طرت صباح اليوم التالي الى موقع المخيم. لم يكن باقياً هناك سوى نتف داخنة من خيمة محترقة وسرب من الصقور.

كشافة متفانون

دليا:

جلسنا الى طاولة في وزارة السياحة في لوساكا ومعنا تسعة مسؤولين من الحكومة الزامبية، أحدهم السكرتير الدائم للوزارة المسؤول عن كل وحدات الكشافة وعن ادارة المتنزهات الوطنية.

بدأ مارك الكلام، فأخبر المجتمعين أن الكشافة نادراً ما يقومون بدوريات في المتنزهات، وتحدث عن الفساد وعن مسؤولين حكوميين يتاجرون بالعاج والجلود واللحوم، وكيف تعرضنا لاطلاق النار.

وختم حديثه قائلاً: "ان متنزه لوانغوا الشمالية هو واحد من أجمل المتنزهات في افريقيا ويمكن أن يدرّ ملايين الدولارات السياحية، لكننا لا نستطيع الاستمرار في هذه الحال. يجب أن نعرف ما اذا كانت الحكومة تعتزم دعمنا، أو على الاقل أنها لن تقوض جهودنا."

كان كبير الجماعة جالساً طوال الوقت يحدق الى الطاولة ويتلاعب بقلم في يده. وهو أعلن في النهاية أن مشروعنا هو الامل الوحيد للمتنزه وأن الحكومة تعتزم دعم جهودنا الى النهاية.

أبلغنا المسؤولون أن لوانغوا الشمالية سوف توضع في رأس أولويات الحكومة، وسيوفد اليها عشرون كشافاً تلقوا تدريباً عسكرياً خاصاً. لكننا تركنا الاجتماع مفعمين بالترقب أكثر منا بالتفاؤل بعد أربع سنوات من الاحباط.

أوقف ثلاثة من مسؤولي المتنزه عن العمل في انتظار محاكمتهم بتهمة تهريب العاج. وعُيِّن كشافة جدد، وكنا على موعد للقاء قائدهم الجديد ذلك اليوم.

وصلت ومارك في وقت واحد الى مخيم مانو. وما إن ترجلنا من شاحنتينا حتى تقدمت منا سرية من الكشافة في زيها الرسمي الكامل وبخطى سريعة. توقفت السرية أمامنا واستدار أفرادها نحونا بنظامية وأدّوا لنا تحية عسكرية حازمة ثم عادوا الى مواقعهم. ومشى على رأس السرية رجل زامبي طويل ضامر على وجهه ابتسامة فخورة. وهو صرف الكشافة بعد دقائق وعاد الينا بخطى سريعة رشيقة. صافحنا بيد

ثابتة ثم نظر الي مباشرة وقال: "أنا طوم كوتيلا. لقد سمعت الكثير عنكما ولدينا أمور كثيرة للمناقشة."

كان كوتيلا رسم خططاً لبناء مكتب وسجن ومستودع سلاح. وسوف يعمل على تدريب الرجال يومياً واعدادهم للانطلاق في دوريات على مدار الساعة. وهو أذهلنا بكفايته وتصميمه.

مد مارك يده لمصافحة طوم قائلا: "فلنؤدِّ ما علينا!" وابتسم، وكانت تلك أول ابتسامة حقيقية أراها على ثغره منذ زمن طويل.

نظم كوتيلا وحدة الكشافة في سرايا، وحدد جدولا للدوريات، واستأجر وحدة من الحمالين (معظمهم عملوا مع اللصوص سابقا) لحمل المؤن والاعتدة. للمرة الاولى في تاريخه يشهد متنزه لوانغوا الشمالية فرقاً من الكشافة تقوم بمهماتها داخله طوال الوقت.

ذهبت ومارك بعد ظهر ذات يوم الى المخيم في مانو. كان رجال القرية ونساؤها وأطفالها واقفين في ساحة الاجتماعات. لقد عاد الكشافة من مهمتهم الاولى ومعهم ١٤ رجلا من لصوص الصيد وكومة من الاسلحة غير المرخصة.

تابع الكشافة عمليات دهم القرى ليلا على مدى الايام الاربعة التالية. وكانوا يقتحمون أكواخ اللصوص وهؤلاء نيام، ثم يعودون صباحاً الى المخيم وشاحنتهم ملأى بالمشبوهين وبالاسلحة غير المرخصة. ومع عودة النظام وانتظام عمل الدوريات صار الكشافة القدامى يمشون فخورين، ويؤدون التحية باعتزاز، ولم يعودوا يضجون بالتبريرات والشكاوى.

ولكن على رغم النجاح المميز الذي حققته وحدة كوتيلا في إمساك لصوص اللحوم فقد بقي كثير من لصوص العاج طليقين، ومعظمهم من سكان قرية موامفوشي.

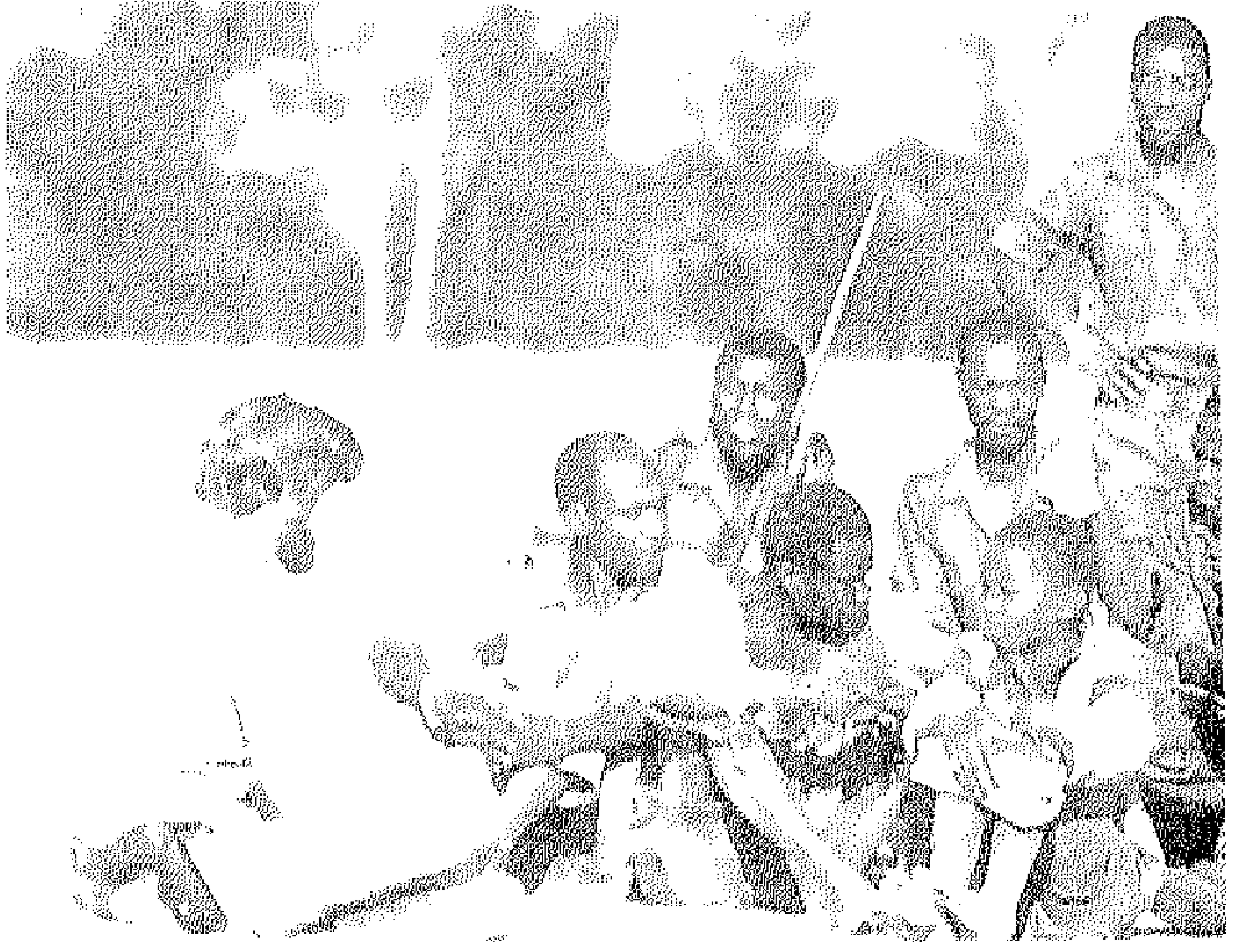
كنا تلقينا تحذيرات من دخول موامفوشي. حتى كوتيلا نفسه أخبرنا أن في ذلك خطورة كبيرة. لكننا أدركنا أننا اذا لم نوقف عمل لصوص العاج فلن يكون لنا أمل بانقاذ الفيلة.

فأرسلنا نبأ بأننا نرغب في لقاء القرويين في مبنى مدرسة القرية.

كان في انتظارنا حين دخلنا القاعة نحو ٣٠ شخصاً، أبلغنا اليهم أننا لم نأتِ لنوقف أحداً ولكننا على استعداد لتأمين وظائف للصوص العاج اذا وافقوا على تسليم أسلحتهم، وأننا ندرك أنهم يقتلون الحيوانات لانهم في حاجة الى العمل وتأمين طعام لعائلاتهم، ونحن هنا لايجاد بدائل.

سمعنا همسات موافقة، لكن عدداً من الشباب بدأوا نقاشاً حاداً في ما بينهم.

أضاف مارك: "تعرفون أنكم اذا تابعتم قتل الحيوانات فسوف تنقرض في وقت


مارك مع لصوص صيد وافراد من الكشافة.

قريب. ولذا عليكم أن تفكروا في طرق أخرى لكسب المال."

بعد نحو ثلاثة أرباع ساعة من الصراخ والجدل الحاد، وزعتُ على الحاضرين أوراقاً وأقلاماً وطلبت من الراغبين في العمل كتابة أسمائهم. فأعلن سبعة رجال أنهم نجارون، وقال واحد إنه خياط، وأخبرنا بضعة آخرون أنهم يتقنون بناء الطوب. وبدا أن القرية مليئة برجال يستطيعون كسب لقمة عيش شريفة اذا ما توافرت لهم الفرص.

شرحتُ لهم خطتنا: "في البداية، سنقرضكم المال الضروري لشراء المعدات والمواد الاخرى التي تحتاجون اليها. وسوف تسددون هذه القروض مرحلياً لكي نتمكن من مساعدة آخرين. ولكن عليكم أن تتوقفوا عن صيد الحيوانات وتطردوا لصوص الصيد من قريتكم. هل توافقون؟"

أومأ معظمهم موافقين.

فدعوناهم الى التقدم بطلبات قروض. وفي الخارج عقدتُ صفقة مع نساء القرية لانشاء مشغل حياكة.

عدنا الى موامفوشي بعد عدة أسابيع، وكانت قاعة المدرسة تغص بجمهرة من نحو ٨٠ رجلا وامرأة يتحدثون متحمسين. وصفق القرويون وغنوا حين قدمنا اليهم ماكينة حياكة ومعدات أخرى.

وفيما نحن نبحث في مهن أخرى تمكن مزاولتها، سلَّم شاب مارك ورقة قرأها فانفرجت أساريره. ثم أعطاني مارك الورقة فقرأت فيها جملتين مخربشتين بأحرف كبيرة وبلغة مليئة بالإخطاء: "أرغب في الانضمام اليكم. انني أسلّم سلاحي." وكانت الرسالة تحمل توقيع واحد من أكبر لصوص العاج.

تسليم من دون اطلاق رصاصة! اجتمعنا بالرجل خلف المدرسة وأعلنّا هدنة بيننا. وفي وقت لاحق عيّناه مشرفاً على مزرعة حيث يتقاضى راتباً جيداً من دون حاجة الى خرق القوانين وحيث يخدم كمثل مشرق للذين لم يرعووا بعد.

مرت ثمانية أشهر من دون أن نكتشف فيلا مذبوحاً. والفضل في ذلك لطلعات مارك الجوية ودوريات الكشافة على الارض.

ذات صباح، فيما أنا أخطو عبر الشجيرات قرب مخيمي على النهر، لمحتُ ظبي ماء كبيراً يقف وسط الاعشاب الطويلة. وهو أدار رأسه ناحيتي ورمقني برهة ثم تابع التهام العشب. وتابعت أنا سيري الى الضفة حيث استلقى قطيع من أفراس النهر على الرمال الندية.

سمعت فجأة هدير طائرتنا آتياً من جهة الجنوب، وافترضت أن مارك يقوم بدوريته كالعادة. شغّلت جهاز الراديو علّه يرغب في الاتصال بي. ولم يكن مارك قد زار مخيمي قط مع أنه كثيراً ما يعبر فوق المنطقة.

علا هدير الطائرة، وانبعث صوت مارك عبر جهاز الراديو: "براون هايينا، هنا ساند بانثر. هل تسمعينني؟"[٤]

رأيت الطائرة تنقضّ فوق الاشجار. "نعم، يا ساند بانثر. هات ما عندك."

– مرحبا! هل ترغبين في رفقة على العشاء الليلة؟

"أجل، هذا رائع. العشاء عندي يقتضي لباساً رسمياً. ولا تنسَ الشوكولاتة!"

ضحك مارك وأجاب: "بالطبع. سأعود عند العصر. لاقيني في مهبط الطائرة."

قلت: "حسناً. أراك لاحقاً."

عدت بسرعة الى المخيم. ماذا أعدّ من طعام؟

فتحت صناديق المؤونة في كوخي أبحث عن شيء خاص. بعثرت المعلبات. ثم قررت. أعددت طاولة الطعام تضيئها شموع ثبتت في أصداف نهرية، ووضعت عليها كؤوساً وصحوناً صفراء جديدة. وزينتها بزهور زرقاء صغيرة في قارورة فارغة.

تسلقت مجموعة من السعادين شجرة الابنوس التي تطل على الكوخ ومالت من الاغصان تراقبني كأنها أحست فرحتي.

طويت ورقة زينتها برسوم تماسيح وأفراس نهر وكتبت عليها قائمة الطعام لذلك المساء:

"المقبلات: محار مدخّن.

"الحساء: بصل من لوانغوا مع خبز محمص مغمس بالثوم.

"الطبق الرئيسي: باستا البحيرة مع الفطر والجبنة، ولوبياء لوبونغا.

"الحلوى: كعك قمريّ."

قررت الظهور جميلة، فارتديت تنورة (جونلة) وقميصاً أبيض وانتعلت صندلا ووضعت في أذنيّ قرطين أفريقيين أحبهما. وفي وقت متقدم من بعد ظهر ذلك اليوم

(٤) هذه أسماء رمزية للمكالمات عبر الراديو. Brown Hyena تعني "الضبع البنية" و Sand Panther تعني "نمر الرمل."

قدت شاحنتي الى مهبط الطائرة مارة في طريقي بقطعان من النو والزراف والجاموس البري. وما إن صرت على مسافة ١٥٠٠ متر من مهبط الطائرة حتى انحدر مارك بطائرته استعداداً للهبوط.

يا لهذا التوقيت الرائع!

توجهت الى المدرج الترابي، وكانت الطائرة توقفت. لكنني لم أستطع رؤية الطيار. وبدا غريباً أن تتوقف الطائرة خالية. أوقفت الشاحنة وتلفتُّ حولي، وفجأة ظهر مارك من خلف الطائرة يتبختر في مشيته. كان، كالعادة، يرتدي سروالا كاكياً قصيراً وجوربين طويلين يصلان الى ركبتيه وجزمة صحراوية. أما من وسطه وما فوق فقد ارتدى سترة زرقاء وقميصاً رسمياً وربطة عنق. وكانت باقة من الزهور البرية الغضة تخفي ضحكته الواسعة.

"مساء الخير سيدتي. ساند بانثر في خدمتك!" قالها بانحناءة مسرحية.

جلسنا على مرتفع يطل على الشاطىء نتناول المحار المدخّن ونحتسي الشراب ونرقب الغروب وأفراس النهر تغطس في النهر العريض. كان كوخي القشي الصغير يتوهج بأضواء الشموع ونحن نتهامس ونضحك بأصوات خافتة ونفتش في السماء عن نيازك.

وعندما خلدنا الى الفراش في وقت لاحق، رفعت وسادتي باحثة عن الشوكولاتة، فهذا هو المخبأ المفضل لمفاجآت مارك الصغيرة. لم أعثر على شيء تحت الوسادة، فأخفيت خيبتي. فجأة لمست قدمي شيئاً، فصحت: "مارك، أي حيلة حضّرت هذه المرة؟"

نزعت الملاءة لاكتشف ٢٥ قطعة شوكولاتة مصفوفة عند أصابع قدمي.

اجتماع مفاجىء

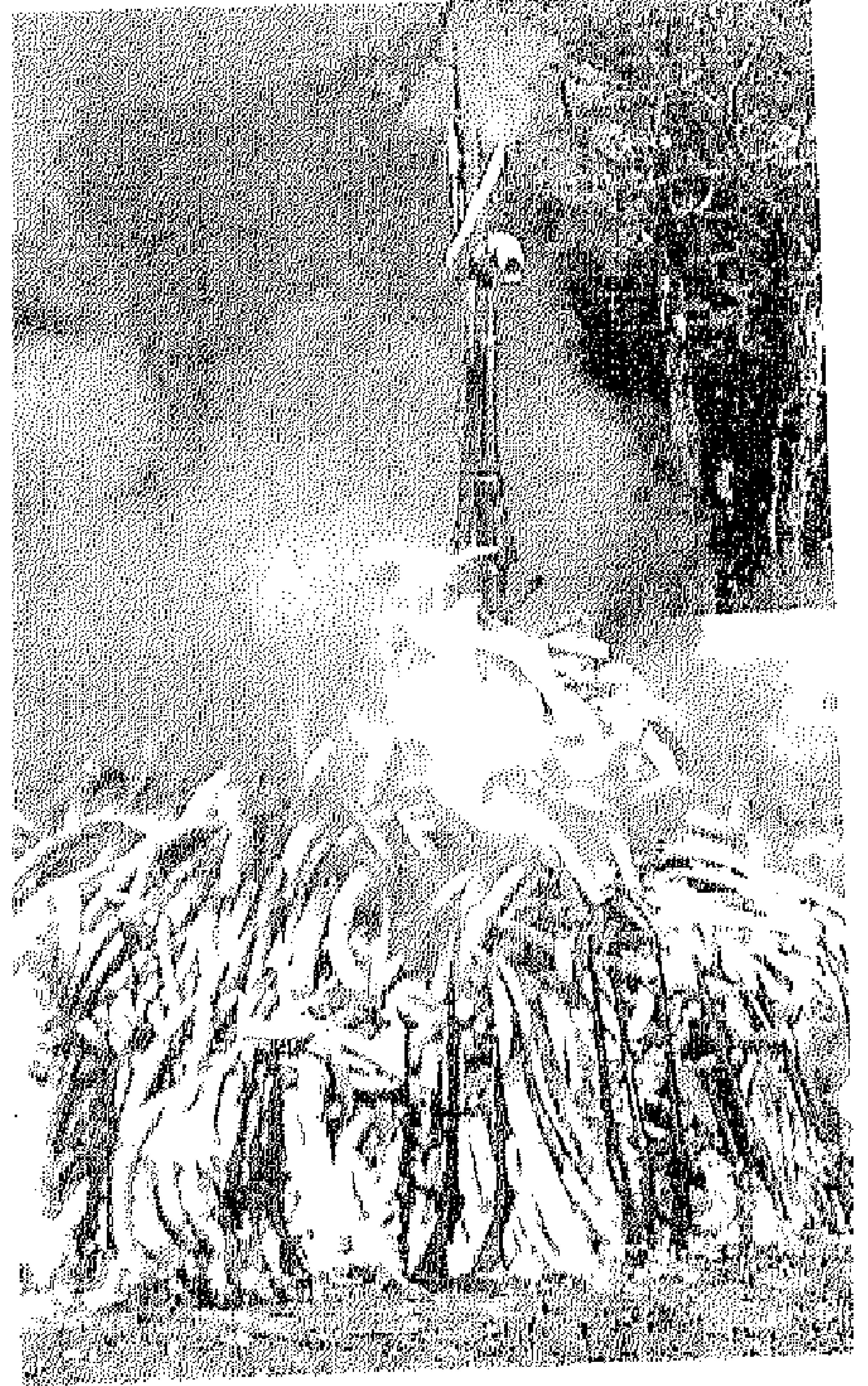
تابع أهالي قرية موامفوشي مراقبة لصوص الصيد وتجار العاج واللحوم، ودأبوا على مضايقتهم حتى أجبروهم على مغادرة القرية. وهكذا انكسرت شوكتهم.

انه موسم الجفاف من جديد. لكن العشب نما طويلا هذا العام، إذ أُوقف نشاط اللصوص قبل أن يبدأوا اشعال حرائقهم في البرية. وجالت في أرض الوادي صفوف متعرجة من الفيلة تقتات من أعشابه ونباتاته.

اعتادت الفيلة في ما مضى أن تفر الى حماية التلال ما إن يحل مارس (آذار) أو أبريل (نيسان)، تاركة وفرة النباتات في الوادي لتأكل لحاء الشجر في الغابات. لكنها أصبحت الآن ترعى في السهول الفيضانية على ضفاف النهر حيث تلعب النسائم بالعشب الطويل.

ذات مساء، فيما أنا ومارك نجلس هادئين قرب النهر، سمعنا جلبة على الضفة الاخرى. وخرج فيل متثاقلا من بين القصب وراح ينظر الى أشجار المارولا خلفنا. رفعت يديَّ الى وجهي وجمدت. كان للفيل نابان بطول ذراعي مارك وثقب صغير في أذنه اليسرى. انه سورفايفر! وهو راح يرقبنا بعينين رأتا الكثير، ثم رفع خرطومه عالياً في اتجاهنا. لم تكن هذه تحية لنا، بل لثمار المارولا. لم يكن يشكرنا لحضورنا أو يلومنا لاننا لم نعمل أكثر لحمايته، كان جل ما يريده التهام هذه الثمار والتجوال في هذه التلال والعيش بين عشيرته. أكثير هذا عليه ليطلب أو علينا لنعطي؟

إحراق اسلحة وأنياب مصادرة.



اتجه سورفايفر نحو النهر ومس الماء رقيقا بخرطومه ثم رفعه الى فمه. وبعد وقفة قصيرة نظر الينا وانسلّ بصمت عبر الضفة الرملية.

يقال إن الفيلة لا تنسى. ولكن ربما كان في إمكانها أن تغفر.

همس مارك في أذني: "ماذا نفعل الآن؟"

— ماذا تعني؟

"لقد قلتِ دائماً إننا سنعود الى ديارنا عندما تعود الفيلة قادرة على ورود النهر وشرب مائه بأمان."

تطلعت على امتداد النهر الجاري وسط الضفاف العالية والمجازات الصخرية الضحلة، الى حيث ربضت خمسة ظباء افريقية قرب زوجين من الاوز المصري. ثم أجبته: "ولكن هنا ديارنا!"

عندما بدأنا مشروعنا في العام ١٩٨٦ كانت فيلة لوانغوا الشمالية تذبح من أجل العاج واللحم بمعدل ١٠٠٠ فيل في السنة. وانخفض هذا العدد الى ١٢ فقط في العام ١٩٩١. ويدرس ١٢ ألف طالب في ٣٠ مدرسة برنامجا لحماية الحياة البرية. ويرعى برنامجُنا لحماية لوانغوا الشمالية طالبا من كل مدرسة.

كذلك أوجد برنامجنا أكثر من مئتي وظيفة موسمية لرجال ونساء من المنطقة كان كثير منهم متورطاً في عملية ذبح الحيوانات البرية. وفُتحت ملحمة لبيع لحم البقر بأسعار أقل من تلك التي يفرضها تجار "السوق السوداء" للحوم الحيوانات البرية.

PHOTO: © EDWIN MWANALEZA

وفي أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٩١ تولّت حكومة جديدة السلطة في زامبيا. وهي تعهدت حماية الموارد الطبيعية في البلاد بما فيها الحياة البرية. وأعلنت الحكومة في فبراير (شباط) ١٩٩٢ أنها سوف تنضم الى برنامج الحظر الدولي لتجارة العاج، وطلبت من دول افريقية أخرى لا تزال تتاجر بالعاج ان تحذو حذوها.

وتدعم الحكومة الآن نظام سوق حرّة مفتوحة للزائرين. وقد بدأت شركتان تنظيم رحلات "سافاري" سياحية سيراً على الاقدام الى المتنزه. وكل سائح يدخل مناطق افريقيا "الحقيقية" يساهم في انقاذ فيلتها من الانقراض، لانه يجعل حيواناتها البرية الحية أكثر قيمة بالنسبة الى السكان المحليين.

لا نستطيع الادعاء أن الحياة البرية في لوانغوا الشمالية أصبحت مضمونة الى الابد. فالفساد ما زال قائماً، والصيد غير المشروع مستمر وإن بمعدلات أقل كثيراً من ذي قبل، ولا يزال بعض كبار لصوص الصيد قادرين على التملص من قبضة الكشافة بما لهم من قوة "الجوجو." لكن اثنين منهما يعملان الآن معنا في مراكز قيادية. وقد اعتقل الكشافة ثالثاً فأخلت الشرطة سبيله، الا أنه قضى تحت أقدام فيل هائج!

دليا ومارك أونز ■

ترجمة فواز الخوري



سيارة مسروقة

شاهد أحدهم لصاً يسرق سيّارته، فاخذ يجري وراءه صائحاً: "لص! لص! اوقفوه!" واذا برجل في الشارع يقول له مهدئاً: "اطمئن، ليس هناك ما يدعو الى القلق."
فصاح به الرجل المنكوب: "كيف ذلك وسيّارتي تُسرق امامي؟"
اجابه: "لا تقلق، فقد دوّنت رقمها."

ب.ك.

لقطة تذكارية

شاءت ابنتي أن تلتقط بعض الصور التذكارية لاوراق الخريف لكي ترسلها الى صديقة مسافرة. فطلبت مني أن اجلس على احد المقاعد لتصويري. لكنني بدلا من ذلك رحت التقطُ أكواماً من اوراق الشجر وأرميها في الهواء معتقدة أن في تطايرها موضوعاً شائقاً للتصوير. وكم كانت خيبتي كبيرة حين اكتشفت ان ابنتي لم تصوّر ذلك، بل أخذت تصوّر الناس الذين تحلّقوا يتفرّجون على ما افعل.

أ.ف.